تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاتحة الكتاب

فاتحة الشيء : أوله وابتداؤه . ولمّا افتُتِح التنزيل الكريم بها ، إمّا بتوقيفٍ من النبيّ ﷺ ، أو باجتهادٍ من الصحابة ــ كما حكى القولَيْن القاضي الباقلانيُّ في ترتيب التنزيل ــ . سُمِّيت بذلك .

قال السيد الجرجانيّ : فاتحة الكتاب صارت علماً بالغلبة لسورة الحمد ، وقد يطلق عليها « الفاتحة » وحدها ، فإما أن يكون علماً آخر بالغلبة أيضاً ، لكون اللام لازمة ، وإما أن يكون اختصاراً ، واللام كالعوض عن الإضافة إلى الكتاب ، مع لمح الوصفية الأصلية .

وقال ابن جرير : سميت « فاتحة الكتاب » : لأنها يُفتتح بكتابتها المصاحف ، ويقرأ بها في الصلوات . فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة . وتسمّى « أم القرآن » : لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخُّر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة تقدُّمَ الأمّ والأصل؛ أو لاشتمالها على مافيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبّد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ؛ أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ، ومنازل الأشقياء . والعرب تسمى كلّ أمرٍ جامعٍ أموراً ، وكلّ مقدمٍ له توابع تتبعه « أمًّا » ــ فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ « أمّ الرأس » وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها « أمًا »

وتسمى « السبع المثاني » ــ جمع مثنى كمَفْعَل اسم مكان ، أو مثنّى بالتشديد من التثنية

على غير قياس ـ لأنها سبع آيات تثنى فى الصلاة أى تكرر فيها .

والأكثرون على أن الفاتحة مكية ، وأنها سبع آيات .

وأصل معنى « السورة » لغةً : المنزلة من منازل الارتفاع . ومن ذلك سور المدينة للحائط الذى يحويها ، وذلك لارتفاعه على ما يحويه . ومنه قول نابغة بنى ذبيان :

أَلم تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سُورةً   تَرَى كلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ[(١)]

أى منزلةً من منازل الشرف التى قصرت عنها منازل الملوك .

وأما « الآية » فإمَّا بمعنى : العلامة ـ لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها ، كالآية التى تكون دلالة على الشىء يستدلّ به عليه ـ وإمَّا بمعنى : القصَّة ـ كما قال كعب ابن زهير :

ألا أَبْلِغا هــذا المعرِّضَ آيةً :   أَيقظانَ قال القول ، إذ قال ، أم حَلَمْ

أى رسالة منى ، وخبراً عنى ـ فيكون معنى الآيات « القصص » قصة تتلو قصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام ابن جرير : إن الله ، تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيه محمداً ﷺ : بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدم إليه فى وصفه بها قبل جميع مهماته ، وجعل ـ ما أدَّبه به من ذلك ، وعلَّمه إياه ـ منه لجميع خلقه : سنّةً يستنّون بها ، وسبيلًا يتبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم ، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ماظهر، من قول القائل : بسم الله، على مابطن من مراده الذى هو محذوف.

(١) قال السيد محمود محمد شاكر فى التعليق على تفسير ابن جرير ما يأتى :

يتذبذب : يضطرب ويحار . والذبذبة: ترددالشىء المعلق فى الهواء يمنة ويسرة . يقول : أعطاك الله من المنزلة الرفيعة ، ما لو رامه ملك وتسامى إليه ، بقى معلقا دونها حائرا يضطرب ويتردد ، لا يطيق أن يبلغها .

وذلك أن الباء مقتضية فعلاً يكون لها جالباً ؛ فإذا كان محذوفاً يقدَّر بما جُملت التسمية مبدأً له . والاسم هنا بمعنى التسمية ـ كالكلام بمعنى التكليم ، والعطاء بمعنى الإعطاء ـ والمعنى : أقرأ بتسمية الله وذكره ، وأفتتح القراءة بتسمية الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى. و « الله » علم على ذاته ، تعالى وتقدس . قال ابن عباس : هو الذى يألهه كلّ شيء ويعبده وأصله « إلاه » بمعنى مألوه أى معبود ؛ فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته فى الكلام ؛ وبعد الإدغام فخّمت تعظيماً ـ هذا تحقيق اللغويين .

و « الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » قال الجوهرىّ : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما فى اللغة « نديم وندمان » وهما بمعنى . ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال : جادّ مجدّ إلاّ أن « الرحمن » اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ »[1] فعادل به الاسم الذى لايشركه فيه غيره . اهـ .

وقد ناقش فى كون « الرحمن الرحيم » بمعنى واحد ، العلاّمةُ الشيخ محمد عبده المصرىّ فى بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها ـ ثم قال : ـ وأنا لا أجيز لمسلمٍ أن يقول ، فى نفسه أو بلسانه : إن فى القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها فى نفسها ، بل ليس فى القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ؛ ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم باللغة مبنىّ على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . ولكن الزيادة تدل على الوصف مطلقاً ؛ فصيغة « الرحمن » تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه ، سواء كان جليلاً

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] ونصها : قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

أو دقيقاً . وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً ، فهو غير معنيّ ولا مراد ، وقد قارب من قال : إن معنى «الرحمن» المحسن بالإحسان العام . ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ؛ ولعل الذي حمل من قال : إن الثاني مؤكد للأول ـ على قوله هذا ـ هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة ، مع عدم التفطن لما هو أحسن منه . ثم قال : والذي أقول : إن لفظ « رحمن » وصفٌ فعليٌّ فيه معنى المبالغة ـ كفعّال ـ ويدل في استعمال اللغة على الصفات العارضة ـ كعطشان وغرثان وغضبان ـ وأما لفظ « رحيم » فإنه يدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس ـ كعليم وحكيم وحليم وجميل ـ والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين ؛ فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ « الرحيم » يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لا يستغني بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثاني مؤكّداً للأول . فإذا سمع العربيّ وصف الله جلّ ثناؤه بـ « الرحمن » ، وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ـ لأن الفعل قد ينقطع إذا كان عارضاً لم ينشأ عن صفة لازمة ثابتة ـ فعندما يسمع لفظ « الرحيم » يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أي الثناء بالجميل، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر مايعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه . واللام في « الحمد » للاستغراق أي استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتُها لله تعالى تعظيماً وتمجيداً ـ كما في الحديث: « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله »[1] .

(١) لم أعثر على هذا الحديث في شيء من أصول السُّنة .

قال الإمام ابن القيم فى « طريق الهجرتين » : الملك والحمد فى حقه تعالى متلازمان . فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده ، فهو محمود فى ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته . ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده . فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك ، « فتبارك الله » يشمل ذلك كله . ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح . والطرق إلى العلم به فى غاية الكثرة ، والسبيل إلى اعتباره فى ذرات العالم وجزئياته ، وتفاصيل الأمر والنهى واسعة جدا ، لأن جميع أسمائه ، تبارك وتعالى ، حمدٌ ، وصفاته حمدٌ ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله فى إحسانه إلى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الغاية هى حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله . فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، وسريان حمده فى الموجودات ، وظهورُ آثاره فيه أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر . ـ ثم قال ـ : وبالجملة فكل صفة علياء ، واسم حسن ، وثناء جميل ، وكل حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرامٍ فهو لله عزّ وجلّ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ؛ وجميع ما يوصف به ، ويذكر به ، ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسبحانه وبحمده لا يُحصى أحدٌ من خلقه ثناءً عليه اهـ .

« رَبِّ الْعَالَمِينَ » الرب يطلق على السيد المطاع وعلى المصلح وعلى المالك . ـ تقول : رَبَّهُ يَرُبُّهُ فهو ربّ كما تقول : نمّ عليه ينمّ فهو نمّ ـ فهو صفة مشبهة، ويجوز أن يكون

---

(١) [٧ / الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

مصدراً بمعنى التربية وهى : تبليغ الشىء إلى كماله شيئاً فشيئاً . وصف به الفاعل مبالغة كما وصف بالعدل . والرب ـ باللام ـ لايقال إلا لله عزّ وجلّ . وهو فى غيره على التقييد بالإضافة ـ كربّ الدار ـ ومنه قوله تعالى: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ»[١] «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ»[٢].

و « الْعَالَمِينَ » جمع عالم وهو : الخلق كلّه وكل صنف منه . وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس . والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

إيرادهما عقد وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذى هو أسلوب التنزيل الحكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

قرأ عاصم والكسائىّ بإثبات ألف « مالك » والباقون بحذفها . قال الزمخشرىّ : ورجحت قراءة « ملك » لأنه قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غضاً طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »[٣]

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٠] ونصها : وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] ونصها : وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد . وثمة مرجحات أخرى .

وقال بعضهم : إن قراءة « مالك » أبلغ ، لأن الملك هوالذى يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرّف له بشيء من شؤونهم الخاصة . وتظهر التفرقة في عبدمملوك في مملـكة لهاسلطان ، فلا ريب أن مالـكه هو الذى يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . ومن وجوه تفضيلها : إنها تزيد بحرف ، ولقارىء القرآن بكل[1] حرف عشر حسنات ـ كما رواه الترمذيّ عن ابن مسعود بإسناد صحيح ـ وكلاهما صحيح متواتر في السبع .

و « الدِّينِ » الحساب والمجازاة بالأعمال . ومنه : « كماتدين تدان » أى : مالك أمور العالمين كلها في يوم الدين . وتخصيصه بالإضافة إمّا لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر وفصل القضاء فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال الطبريّ : أى لك ، اللهم ، نخشع ونذلّ ونستـكين . إقراراً لك بالربوبية لا لغيرك ـ قال ـ والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمِّى الطريقَ المذلل الذى قد وطئته الأقدام، وذلّلته السابلة « معبّدًا » ومنه قيل للبعير المذلل بالركوب في الحوائج « معبّد » ومنه سمي العبد « عبدا » لذلّته لمولاه انتهى .

وفيه إعلام بما صدع به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده . أعنى : أن لا يشرك شيئاً ما معه ، لا في محبته كمحبته ، ولا في خوفه ، ولا في رجائه ، ولا

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٦ ـ باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر .

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول: الٓمٓ حرف ، ولـكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

فى التوكل عليه ، ولا فى العمل له ، ولا فى النذر له ، ولا فى الخضوع له ، ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب ، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده . وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذّل بكمال الحب . فلا بد أن يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال الحب ؛ ولا بد أن يكون ذليلاً له كمالَ الذل ، وهما لا يصلحان إلا لله وحده . فهو الإله المستحق للعبادة ، الذى لا يستحقها إلاَّ هو ، وهى كمال الحب والذل والإجلال والتوكل والدعاء بما لا يقدر عليه إلاَّ هو ، تعالى . وقد أشار لذلك تقديم المفعول ، فإن فيه تنبيهاً على ما يجب للعبد من تخصيصه ربَّه بالعبادة ، وإسلامه وجهه لله وحده ، لا كما كان عليه المشركون الذين ظهر النبيّ ﷺ عليهم ، فقد كانوا متفرقين فى عبادتهم ، متشاكسين فى وجهتهم : منهم من يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحبار والرهبان ، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ... إلى غير ذلك ، كما بينه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ »(١) الآية . وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »(٢) . وفى قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ »(٣) الآية . وقوله تعالى : « وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٤٠و٤١] ونصها: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ =

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا »(١) الآية . وفى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى »(٢) . وحديث(٣) أبى واقد الليثىّ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول ﷺ : « الله أكبر . إنها السنن ، قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ـ إلى قوله ـ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »(٤) رواه الترمذىّ وصححه.

= لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٠] ونصها : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) [٥٣ / النجم / ١٩و٢٠] ونصهما : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم . وهذا نصه :

عن أبى واقد الليثىّ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم . فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال النبىّ ﷺ « سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . والذى نفسى بيده لتركبن سنة من كان قبلكم » .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣٨ ـ ١٤٠] ونصها : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ =

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان ففى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »[١] فروى الإمام أحمد والترمذىّ[٢] عن عدىّ بن حاتم أنه سمع النبىّ ﷺ يقرأ هذه الآية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم ، قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقلت : بلى قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ » .

فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الإيمان إلاَّ بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة. أى ركنها المهم الأعظم. وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى »[٣] فسماه عبادة .

= ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال: «ياعدىّ، اطرح عنك هـذا الوثن » . وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وفى الخبر[١] : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » .

قال شمس الدين بن القيم : ولهذا كان العبد مأموراً فى كل صلاة أن يقول : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ، إما خوفا منه ، أو رجاء له ، فلا يزال العبد مفتقراً إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك ؛ ولذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره فى ثلاث مواضع من كتابه ؛ وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ، ويخافه ، ويرجوه ، يذل ويخضع له ، ويهرب من سخطه ، ويؤثر مرضاته ، والمؤثر لا يرضى بإيثاره انتهى .

(فائدة) قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » : فالأول تبرّؤ من الشرك ، والثانى تبرّؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عزّ وجلّ . وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى : « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ »[٢] ، « قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا »[٣] ، « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا »[٤] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ٤٠٣ (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « أيها الناس . اتقوا هـذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل » فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٦٧ / الملك / ٢٩] ونصها : قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٤) [٧٣ / المزمل / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

أى ألهمنا الطريق الهادى ، وأرشدنا إليه ، ووفقنا له .

قال الإمام الراغب فى تفسيره : « الهداية دلالة بلطف . ومنه الهدية ، وهوادى الوحش وهى متقدّماتها لكونها هادية لسائرها . وخص ما كان دلالة بفعلت نحو : هديته الطريق ، وما كان من الإعطاء بأفعلت نحو أهديت الهدية ، ولما يصور العروس على وجهين: قيل فيه : هديت وأهديت . فإن قيل : كيف جعلت الهدى دلالة بلطف وقد قال تعالى : «فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ»(١) وقال تعالى: « كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ »(٢) قيل : إن ذلك حسب استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال:

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لهَا بِخَيْلٍ   تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ !(٣)

والهداية هى الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً ، وهى من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض ، لا يصح حصول الثانى إلاّ بعد الأول ، ولا الثالث إلاّ بعد الثانى . فأول المنازل إعطاؤه العبد القوى التى بها يهتدى إلى مصالحه إما تسخيراً وإما طوعاً ـ كالمشاعر الخمسة والقوة الفكرية ، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعض خصّ به الإنسان ، وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : « أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »(٤) وقوله تعالى : « الَّذِى قَدَّرَ

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٣] ونصها: مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤] .

(٣) استشهد به الزمخشرىّ فى الكشاف. وقال شارح الشواهد :

أصل التحية أن يدعى للرجل بالحياة . وضرب وجيع أى موجع . أى رب جيش قد مشيت إليه بجيش . وتحية بينهم الضرب بالسيف لا القول باللسان . والعرب تقول : تحيتك الضرب وعقابك السيف . أى بدلا لك من التحية .

(٤) [٢٠ / طه / ٥٠] ونصها : قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .

فَهَدَىٰ »[١] وهذه الهداية إما تسخير وإما تعليم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »[٢] وقوله تعالى « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا »[٣] وقال فى الإنسان، بما أعطاه من العقل ، وعرفه من الرشد : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ »[٤] وقال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »[٥] وقال فى ثمود: « فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »[٦] وثانيهما الهداية بالدعاء وبعثة الأنبياء عليهم السلام . وإياها عنى بقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »[٧] . وبقوله : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »[٨] وهذه الهداية تنسب تارةً إلى الله تعالى عز وجل ، وتارة إلى النبيّ عليه السلام ، وتارة إلى القرآن . قال الله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »[٩]

(١) [٨٧ / الأعلى / ٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٨] ونصها : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ .

(٣) [٩٩ / الزلزلة / ٥] .

(٤) [٧٦ / الإنسان / ٣] ونصها : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا.

(٥) [٩٠ / البلد / ١٠] .

(٦) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(٧) [٣٢/ السجدة/ ٢٤] ونصها : وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

(٨) [١٣ / الرعد / ٧] ونصها: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

(٩) [١٧/ الإسراء/ ٩] ونصها : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .

وثالثها هداية يوليها صالحي عباده بما اكتسبوه من الخيرات ، وهي الهداية المذكورة في قوله عز وجل : « وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ »[1] . وقوله : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[2] وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »[3] . وهذه الهداية هي المعنيّة بقوله : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ »[4] . ويصح أن ننسب هذه الهداية إلى الله عز وجل فيقال : هو آثرهم بها من حيث أنه هو السبب في وصولهم إليها . ويصح أن يقال : اكتسبوها من حيث أنهم توصلوا إليها باجتهادهم . فمن قصد سلطاناً مسترفدا فأعطاه ، يصح أن يقال : إن السلطان خوّله . ويصح أن يقال : فلان اكتسب بسعيه ، ولانطواء ذلك على الأمرين ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »[5]وقال: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »[6] . فنبه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً .

وهذه الهداية يصح أن يقال : هي مباحة للعقلاء كلهم ، ويصح أن يقال : هي محظورة

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] ونصها : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٥٧/ الحديد/ ٢٨] ونصها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٤٧ / محمد / ١٧] .

(٦) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إلّا على أوليائه ، لما كان في إمكان جميع العقلاء أن يترشحوا لتناولها . ومن ذلك قيل : إنها لا يسهل تناولها قبل أن يتشكل الإنسان بشكل مخصوص ، بتقديم عبادات . وقد قال بعض المحققين : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلّا البصير ، ولا يعمل به إلّا اليسير . ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرها ولا يهتدي بها إلا العلماء . وقال بعض الأولياء : إن مثل هداية الله مع الناس كمثل سيل مرّ على قِلَات[١] وغدران[٢] ، فيتناول كلُّ قَلْتٍ منها بقدر سعته ـ ثم تلا قوله ـ « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا »[٣] وقال بعضهم : هي كمطرٍ أتى على أرضين فينتفع كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع به .

(والمنزلة الرابعة) من الهداية التمكين من مجاورته في دار الخلد ، وإياها عنى الله بقوله « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا »[٤] . فإذا ثبت ذلك فمن الهداية مالا ينفى عن أحد بوجه . ومنها ما ينفى

(١) في المصباح : القَلْت نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . والجمع قِلات ، مثل سهم وسهام .

(٢) الغدران جمع غدير ، وهو النهر .

(٣) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

عن بعض ويثبت لبعض ، ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيّه ﷺ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »[١] . وقال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »[٢] . وقال: « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ »[٣]. فإنَّه عنى الهداية ـ التى هى التوفيق وإدخال الجنة ـ دون التى هى الدعاء لقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[٤] . وقال فى الأنبياء : « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا »[٥] . فقوله : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فسّر على وجوه بحسب أنظار مختلفة إلى الوجوه المذكورة : (الأول) أنه عنى الهداية العامة ، وأمر أن ندعو بذلك ـ وإن كان هو قد فعله لا محالة ـ ليزيدنا ثواباً بالدعاء ، كما أمرنا أن نقول : اللهم صلِّ على محمد . (الثانى) قيل : وفقنا لطريقة الشرع . (الثالث) احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات ، واعصمنا من الشبهات .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٥٦] ونصها: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٣) [٣٠/ الروم/ ٥٣] ونصها : وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٥٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٧٣] ونصها : وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

(الرابع) زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(١) . وقولك : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زِدْنَاهُمْ هُدًى »(٢) . (الخامس) قيل : علمنا العلم الحقيق فذلك سبب الخلاص، وهو المعبّر عنه بالنور في قوله : « يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ »(٣) (السادس) قيل : هو سؤال الجنة ، لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ »(٤) . وقال : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ »(٥) الآية . فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها ، والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية ـ إذ لا تنافي بينها ـ

---

(١) [٦٤ / التغابن / ١١] ونصها : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٧ / محمد / ١٧] ونصها : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٥] ونصها : اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٧ / محمد / ٤ و ٥] ونصهما : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

(٥) [١٠ / يونس / ٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وبالله التوفيق » اهـ كلام الراغب . وبه يعلم تحقيق معنى الهداية فى سائر مواقعها فى التنزيل الكريم ، وأن الوجوه المأثورة فى آيةٍ ما ـ إذا لم تتناف ـ صح إرادتها كلها ؛ ومثل هذا يسمى : اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ .

كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى فى مبحث له مهم ، نأثره عنه هنا ، لما فيه من الفوائد الجليلة . قال رحمه الله :

ينبغى أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين : أحدها ليس فيه تضادّ وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقا ، وإنما هو اختلاف تنوّع أو اختلاف فى الصفات أو العبارات . وعامة الاختلاف الثابت عن مفسرى السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . فإن الله سبحانه إذا ذكر فى القرآن اسماً مثل قوله « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فكل من المفسرين يعبّر عن الصراط المستقيم بعبارة تدلّ بها على بعض صفاته ، وكل ذلك حق بمنزلة ما يُسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء ، كل اسم منها يدل على صفة من صفاته . فيقول بعضهم : الصراط المستقيم كتاب الله أو اتباع كتاب الله . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام . ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنّة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب ، وامتثال المأمور ، واجتناب المحظور ؛ أو متابعة الكتاب والسنّة ؛ أو العمل بطاعة الله ، أو نحو هذه الأسماء والعبارات . ومعلوم أن المسمى هو واحد ، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته ؛ وكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه . ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التمثيل لا على سبيل الحدّ والحصر ـ مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له إلى رغيف ـ وليس المقصود مجرد عينه ، وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص تمثيلاً . وهذا كما إذا سئلوا عن قوله « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ »(١). أو عن قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »(٢). أو عن الصالحين أو الظالمين ، ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتعسّر أو يتعذّر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه ، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه ، وقد يستدلّ به على نظائره : فإن الظالم لنفسه هو تارك المأمور فاعل المحظور . والمقتصد هو فاعل الواجب وتارك المحرّم . والسابق هو فاعل الواجب والمستحب وتارك المحرم والمكروه . فيقول المجيب بحسب حاجة السائل : الظالم الذي يفوّت الصلاة ، أو الذي لا يسبغ الوضوء ، أو الذي لا يتمّ الأركان ونحو ذلك . والمقتصد الذي يصلي في الوقت ــ كما أمر ــ والسابق بالخيرات الذي يصلي الصلاة بواجباتها ومستحبّاتها ويأتي بالنوافل المستحبة معها . وكذلك يقول مثل هذا في الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات . وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، فمن ادعى علمه فهو كاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه كما أخذوا عنه السنة . وإن كان من الناس من غيّر السنة ، فمن الناس من غير بعض معاني القرآن ــ إذ لم يتمكن من تغيير لفظه . وأيضاً فقد يخفى على بعض العلماء بعض معاني القرآن ، كما خفي عليه بعض السنة ، فيقع خطأ المجتهدين من هذا الباب والله أعلم .

وتقدم في مقدمة الكتاب بسط لهذا البحث فارجع إليه . (انظر : ج ١ ص ١٧)

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ونصها : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضاً فى تحقيق هذه الآية :

« كل عبدٍ مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء وهو هداية الصراط المستقيم . فإنه لا نجاة من العذاب إلّا بهذه الهداية ، ولا وصول إلى السعادة إلّا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو : إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين ؛ وهذا الاهتداء لا يحصل إلّا بهدى الله « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »[1] . فإن الصراط المستقيم : أن تفعل فى كل وقت ما أمرت به فى ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا تفعل ما نهيت عنه . وهذا يحتاج فى كل وقت إلى أن تعلم : ما أمر به فى ذلك الوقت ، وما نهى عنه ؛ وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور ؛ وكراهة لترك المحظور . والصراط المستقيم قد فسّر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته ؛ بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإن انقطع رزقه مات ـ والموت لا بدّ منه ـ فإن كان من أهل الهداية ، كان سعيداً بعد الموت ، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة فى حقه . وكذلك النصر ـ إذا قدّر أنه قُهر وغُلب حتى قتل ـ فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق والنصر ، بل لا نسبة بينهما ، فلهذا كان هذا الدعاء مفروضاً عليهم فى الصلوات ـ فرضها ونفلها ـ وأيضاً فإن هذا الدعاء يتضمن الرزق والنصر : لأنه إذا هدى الصراط المستقيم كان من المتقين « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »[2] وكان من المتوكلين «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) [١٨ / الكهف / ١٧] ونصها: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللهِ ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢، ٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ =

اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » (١) ، وكان ممن ينصره الله ورسوله ومن ينصر الله ينصره(٢) وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون(٣) . فالهدى التام يتضمن حصول أعظم ما يحصل به الرزق والنصر . فتبين أن هذا الدعاء هو الجامع لكل مطلوب تحصل به كل منفعة ، وتندفع به كل مضرة .

(فائدة) الصراط المستقيم أصله الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة . فالطريق الواضح للحس ، كالحق للعقل ، فى أنه : إذا سير بهما أبلغا السالك النهاية الحسنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

أى : بطاعتك وعبادتك، وهم المذكورون فى قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »(٤) .

= أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ...

(١) [٦٥/ الطلاق/ ٣] ونصها : وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٢) يشير إلى قوله تعالى [٤٧ / محمد / ٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى [٣٧ / الصافات / ١٧٣] وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

(٤) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا .

« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال الأصفهانيّ: وإنما ذكر تعالى هذه الجملة لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين فى إنعام كثير عليهم ، فبين بالوصف أن المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة ، بل ذلك نعمة خاصة . ثم إن المراد بالمغضوب عليهم والضالين : كلّ من حاد عن جادة الإسلام من أىّ فرقة ونحلة . وتعيين بعض المفسرين فرقة منهم من باب تمثيل العام بأوضح أفراده وأشهرها ، وهذا هو المراد بقول ابن أبى حاتم : لا أعلم بين المفسرين اختلافاً فى أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى .

(فوائد) الأولى : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: « آمين » ومعناه : اللهم استجب ، أو كذلك فليكن ، أو كذلك فافعل . وليس من القرآن . بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف . والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذيّ (١) عن وائل بن حُجر قال : سمعت النبيّ ﷺ قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال: «آمين» مدّ بها صوته » . ولأبى داود : رفع بها صوته . قال الترمذيّ : هذا حديث حسن ، وفى الباب عن علىّ وأبى هريرة ، وروى عن علىّ وابن مسعود وغيرهم .

وعن أبى هريرة قال(٢) : كان رسول الله ﷺ إذا تلا « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول » . رواه أبو داود .

وفى الصحيحين(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمّن

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٧٠ ـ باب ما جاء فى التأمين .
وأبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٨ ـ باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٢.
والإمام أحمد فى مسنده فى : ج ٤ ص ٣١٦ (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٨ ـ باب التأمين وراء الإمام ، حديث ٩٣٤ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١١١ ـ باب جهر الإمام بالتأمين.
ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٧٢ .

الإمام فأمِّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وفى صحيح مسلم[(١)] عن أبى موسى مرفوعا : « إذا قال ـ يعنى الإمام ـ ولا الضالين فقولوا : آمين ، يجبكم الله » .

الثانية : فى ذكر ما اشتملت عليه هذه السورة من العلوم :

اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت ـ وهى سبع آيات ـ على حمد الله تعالى ، وتمجيده ، والثناء عليه : بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرُّع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ـ وهو الدين القويم ـ وتثبيتهم عليه حتى يُفْضِيَ بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين .

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون .

قال العلامة الشيخ محمد عبده فى تفسيره :

الفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . ولست أعنى بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف كقولهم : إن أسرار

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٦٢ ونصه :

عن أبى موسى الأشعرى قال : إن رسول الله ﷺ خطبنا فبيّن لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا، فقال « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم . ثم ليؤمكم أحدكم . فإذا كبر فكبروا . وإذا قال : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقولوا : آمين . يجبكم الله . فإذا كبر وركع فكبروا واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم ويرفع قبلكم » .

القرآن فى الفاتحة ، وأسرار الفاتحة فى البسملة ، وأسرار البسملة فى الباء ، وأسرار الباء فى نقطتها ! فإن هذا لم يثبت عن النبيّ ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ، ولا هو معقول فى نفسه . وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلوّ إلى إعدام القرآن خاصته ، وهى البيان . ــ قال ــ : وبيان ماأريد : أن مانزل القرآن لأجله أمور :

أحدها التوحيد : لأن الناس كانوا كلهم وثنيين ــ وإن كان بعضهم يدّعى التوحيد ــ

ثانيها وعد من أخذ به ، وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به ، وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد ، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعيد ــ كذلك ــ يشمل نقمهما وشقاءها . فقد وعد الله المؤمنين : بالاستخلاف فى الأرض ، والعزّة ، والسلطان ، والسيادة . وأوعد المخالفين : بالخزى والشقاء فى الدنيا . كما وعد فى الآخرة بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم .

ثالثها العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس .

رابعها بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة .

خامسها قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار ، واختيار طريق المحسنين .

هــذه هى الأمور التى احتوى عليها القرآن ، وفيهــا حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية ، والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب .

فأما التوحيد ففى قوله « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لأنه ناطق بأن كل حمدٍ وثناء يصدر عن نعمةٍ ما فهو له تعــالى ، ولا يصح ذلك إلّا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة فى الكون تستوجب الحمد ، ومنها نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية . ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرّح به بقوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . ولفظ « رب » ليس معناه المالك والسيد فقط ، بل فيه معنى التربية والإنماء . وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان فى

نفسه وفى الآفاق منه عزّ وجلّ . فليس فى الكون متصرف بالإيجاد ، والإشقاء ، والإسعاد سواه . ثم إن التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين . ولذلك لم يكتف فى الفاتحة بمجرد الإشارة إليه ، بل استكمله بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التى كانت فاشية فى جميع الأمم ، وهى اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم السلطة الغيبية ، يُدعَون لذلك من دون الله ، ويستعان بهم على قضاء الحوائج فى الدنيا ، ويتقرب بهم إلى الله زلفى . وجميع ما فى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال .

« وأما الوعد والوعيد: فالأول منهما مطوىّ فى « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ »فذكرُ الرحمة فى أول الكتاب ، وهى التى وسعت كل شىء . وعدٌ بالإحسان ـ لا سيما وقد كررها مرة ثانية ـ تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا ، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » يتضمن الوعد والوعيد معاً ، لأن معنى الدين الخضوع ، أى : إن له تعالى فى ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التى لا نزاع فيها ، لاحقيقة ولا ادعاء ؛ وإن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ـ ظاهراً وباطناً ـ يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ؛ وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو : إما ثواب للمحسن ، وإما عقاب للمسىء ، وذلك وعدٌ ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وهو الذى من سلكه فاز ، ومن تنكبّه هلك . وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة ، فبعد أن ذكرت فى مقام التوحيد بقوله : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » أى : إنه قد وضع لنا صراطاً سيبيّنه ويحدده . ويكون مناطُ السعادة فى الاستقامة عليه ، والشقاء فى الانحراف عنه . وهذه الاستقامة عليه هى روح العبادة . ويشبه هذا قوله تعالى:

«وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »(١) . فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة فى المتدبر لها . وروح العبادة هى إشراب القلوب خشية الله ، وهيبته ، والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء . فقد ذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها ، والصيام وأيامه ؛ وكانت هذه الروح فى المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الأعمال البدنية ، وقبل نزول أحكامها التى فصلت فى القرآن تفصيلاًما ؛ وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة . ومخ العبادة الفكر والعبرة ؛ وأما الأخبار والقصص ففى قوله تعالى : «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم ، وصائح يصيح : ألا فانظروا فى الشؤون العامة التى كانوا عليها واعتبروا بها ، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(٢) حيث بيّن أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار . وفى قوله تعالى :« غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » تصريح بأن مَن دون المنعم عليهم فريقان : فريق ضل عن صراط الله ؛ وفريق جاحده ، وعاند من يدعو إليه ، فكان محفوفاً بالغضب الإلهى ، والخزى فى هذه الحياة الدنيا . وباقى القرآن يفصل لنا فى أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذى يفيد العبرة ، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم فى سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التى يفصلها

(١) [١٠٣ / العصر / ١ـ٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ .

القرآن تفصيلاً . فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى فى الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى « أم الكتاب » .

الثالثة : مما صح فى فضلها من الأخبار : ما رواه البخارىّ فى صحيحه عن أبى سعيد ابن المُعَلّى رضى الله عنه قال[١] :

كنت أصلى فى المسجد فدعانى النبىّ ﷺ فلم أجبه . فقلت: يارسول الله إنى كنت أصلى. فقال : ألم يقل الله « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ » ؟ ـ ثم قال لى : « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ » ثم أخذ بيدى ، فلما أراد أن نخرج ، قلت : يا رسول الله ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن . قال :

« الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وروى[٢] الامام أحمد والترمذىّ بإسناد حسن صحيح عن أبى هريرة، نحوه، غير أن القصة مع أبىّ بن كعب ، وفى آخره :

« والذى نفسى بيده ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، إنها السبع المثانى » .

واستدل بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض ، كما هو المحكىّ عن كثير من العلماء منهم: إسحق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربىّ وابن الحصار من المالكية، وذلك بيّن واضح .

وروى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال[٣] :

كنا فى مسير لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحىّ سليم، وإن نفرنا غَيَبٌ ،

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الكتاب .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده فى : ج ٥ ص ١١٤ (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١ ـ باب ماجاء فى فضل فاتحة الكتاب.
(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الكتاب .

فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبِنه برُقية . فرقاه ، فبَرَأ ، فأمر له بثلاثين شاةً ، وسقانا لبَناً ؛ فلما رجع قلنا له : أ كنتَ تُحسن رقيةً ، أو كنت ترقِي ؟ قال : لا ، مارقيت إلّا بأم الكتاب . قلنا : لا تُحْدِثوا شيئاً حتى نأتى ، أو نسأل ، النبيّ ﷺ . فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبيّ ﷺ فقال «وما كان يُدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم ».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود . وفى بعض روايات مسلم : أن أبا سعيد الخدرىّ هو الذى رقى ذلك السليم ـ يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاؤلا ـ .

وروى مسلم والنسائىّ عن ابن عباس قال[١] :

بينما جبريل قاعد عند النبىّ ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك . فقال : هـذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلّم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، لم يؤتَهُمَا نبىّ قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال[٢] « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج (ثلاثاً) غيرُ تمام » فقيل لأبى هريرة : إنا نـكون وراء الإمام. فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علىّ عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى ـ وقال مرّة فوّض إلىّ عبدى ـ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هـذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل .

ويكفى من شرح الفاتحة هذا المقدار الجليل ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٣٨ .

(سورة البقرة)

جميعها مدنىّ بلاخلاف. وآيها مائتان وست وثمانون. وقد صح فى فضلها عدة أخبار :

منها ما فى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذىّ والنسائىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال[1] :

«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» .

وقال الترمذىّ : حسن صحيح .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ . « إن لكل شىء سِناماً ، وإن سنام القرآن البقرة ، وإن من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ، ومن قرأها فى بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » .

وروى مسلم عن أبى أُمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول[2] : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ تحاجّان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » .

(وقوله الزهراوين : أى المنيرتين ـ فى الإعجاز أو فى وفرة الأحكام ـ والغياية : ما أظلك من فوقك . والفِرْق : القطعة من الشىء . والصواف : المصطفة . والبطلة : السحرة . ومعنى لا تستطيعها : لا تستطيع النفوذ فى قارئها ، أو لا يمكنهم حفظها . والله أعلم) .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٢ ـ باب ماجاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسىّ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ [١] (الٓمٓ)

اعلم أن للناس فى هذا وما يجرى مجراه من الفواتح مذهبان :

الأول أن هذا علم مستور ، وسرّ محجوب ، استأثر الله تبارك وتعالى به فهو من المتشابه . ولم يرتض هذا كثير من المحققين وقالوا : لا يجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق . واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية ، بسطها العلامة الفخر .

(المذهب الثانى) مذهب من فسرها ، وتكلم فيما يصح أن يكون مراداً منها ، وهو ما للجمهور . وفيه وجهان : (الأول) وعليه الأكثر : أنها أسماء للسور .

(الثانى) أن يكون ورود الأسماء هكذا مسرودةً على نمط التعديد : كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحُدِّيَ بالقرآن وبغرابة نظمه ؛ وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلوّ عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم تظهر مَعْجزتهم عن أن يأتوا بمثله ـ بعد المراجعات المتطاولة ـ وهم أمراء الكلام ، وزعماء الحوار ، وهم الحراص على التساجل فى اقتضاب الخطب ، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التى بزت بلاغة كلّ ناطق ، وشقت غبار كلّ سابق ، ولم يتجاوز الحدّ الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراءَ إلّا لأنه ليس بكلام البشر ، وإنه كلام خالق القوى والقُدَر . قاله الزمخشريّ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

أى : هذا القرآن لا شك أنه من عند الله تعالى كما قال تعالى فى السجدة « الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) . قال بعض المحققين : اختصاص ذلك

(١) [٣٢ / السجدة / ١ و٢] .

بالإشارة للبعيد حكم عرفيّ لا وضعيّ ؛ فإن العرب تعارض بين اسمي الإشارة . فيستعملون كلاً منهما مكان الآخر ، وهذا معروف في كلامهم . وفي التنزيل من ذلك آيات كثيرة . ومن جرى على أن ذلك إشارة للبعيد يقول : إنما صحت الإشارة بذلك ، هنا إلى ماليس ببعيد، لتعظيم المشار إليه ، ذهاباً إلى بُعد درجته وعلوّ مرتبته ومنزلته في الهداية والشرف .

والريب في الأصل : مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة . وحقيقتها : قلق النفس واضطرابها . ثم استعمل في معنى الشك مطلقاً ، أو مع تهمة . لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة .

وفي الحديث[1] : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبُك » .

ومعنى نفيه عن الكتاب : أنه في علوّ الشأن، وسطوع البرهان ، بحيث ليس فيه مظنة أن يُرتاب في حقيقته ، وكونه وحياً منزلاً من عند الله تعالى. والأمر كذلك ، لأن العرب، مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية ، عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن . وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة في الظهور إلى حيث لايجوز للعاقل أن يرتاب فيه ، لا أنه لايرتاب فيه أحد أصلا .

« هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » أي : هادٍ لهم ودالّ على الدين القويم المفضي إلى سعادتي الدارين .

قال الناصر في الانتصاف : الهدى يطلق في القرآن على معنيين (أحدهما) الإرشاد وإيضاح سبيل الحق . ومنه قوله تعالى « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ »[2] . وعلى هذا يكون الهدى للضالّ باعتبار أنه رشد إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أوْ لا . و (الآخر) خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد ، ومنه « أُولَٰئِكَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك ج ٣ ص ١٥٣ (طبعة الحلبيّ) .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٧] ونصها : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »(١) . فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو فى هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً . وعلى الأول ، فتخصيص الهدى بالمتقين للتنويه بمدحهم حتى يتبيّن أنهم هم الذين اهتدَوْا وانتفعوا به ، كما قال تعالى « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا »(٢) . وقال « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ »(٣) . وقد كان، صلى الله عليه وآله وسلم، منذراً لكل الناس ، فذكر هؤلاء لأجل أنهم هم الذين انتفعوا بإنذاره . وهذه الآية نظير آية « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ »(٤)، « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »(٥) . وكقوله تعالى « يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »(٦) . إلى غير ذلك ، مما دلّ على أن النفع به لاينالُه إلا الأبرار . والمراد بالمتقين ـ هنا ـ من نعتهم الله تعالى بقوله

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩٠] ونصها : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ .

(٢) [٧٩ / النازعات / ٤٥] .

(٣) [٣٦ / يس / ١١] ونصها : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .

(٤) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

(٦) [١٠ / يونس / ٥٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون « بِالْغَيْبِ » الغيب فى الأصل مصدر غاب . بمعنى استتر واحتجب وخفى . وهو بمعنى الفاعل ـ كالزور للزائر ـ أُطلق عليه مبالغة ، والمراد به ما لا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام . والمعنى يؤمنون بما لايتناوله حسّهم . كذاته تعالى ، وملائكته ، والجنة ، والنار ، والعرش والكرسىّ ، واللوح ونحوها .

« وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى يؤدّونها بحدودها وفروضها الظاهرة والباطنة . كالخشوع والمراقبة وتدبر المتلوّ والمقروء .

قال الراغب : إقامة الصلاة توفية حدودها ، وإدامتها . وتخصيص الإقامة تنبيه على أنه لم يُرِد إيقاعها فقط . ولهذا ، لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو « أَقِمِ الصَّلَاةَ »(١) ، وقوله « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ »(٢) ، و « الَّذِينَ

(١) [١١ / هود / ١١٤] ونصها : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .

و [١٧ / الإسراء / ٧٨] ونصها : أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا .

و [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى .

و [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] ونصها : اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٢] ونصها : لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ =

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ »[١] . ولم يقل : المصلى ، إلا فى المنافقين « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ »[٢] ، وذلك تنبيه على أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل ـ كما قال عمر رضى الله عنه : الحاجّ قليل والركب كثير ـ ولهذا قال عليه السلام[٣] « من صلى ركعتين مقبلًا بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه » . فذكر مع قوله « صلّى » الإقبال بقلبه على الله تنبيهاً على معنى الإقامة، وبذلك عظم ثوابه . وكثير من الأفعال التى حث تعالى على توفية حقه ، ذكره بلفظ الإقامة ، نحو « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ »[٤] ونحو « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ »[٥] تنبيهاً على المحافظة على تعديله . انتهى .

فالإقامة من أقام العود إذا قوّمه . و «الصلوة» فعلة من صلّى إذا دعا ، كـ«الزكوة» من زكى ـ وإنما كتبتا بالواو مراعاة للفظ المفخّم ـ وإنما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء .

« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى يؤتون مما رزقناهم من الأموال مَن شرع لهم إيتاؤه والإنفاق عليه من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى وأمثالهم، على ما بيّن فى آيات كثيرة.

= يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا .

(١) [٥ / المائدة/ ٥٥] ونصها : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .

(٢) [١٠٧ / الماعون / ٤و٥] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

(٤) [٥ / المائدة/ ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

(٥) [٥٥/ الرحمن/ ٩] ونصها : وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » والمراد « بما أنزل إليك » الكتاب المنزل كله ، وإنما عبر عنه بلفظ المضى ـ وإن كان بعضه مترقباً ـ تغليباً للموجود على مالم يوجد . كما أن المراد من قوله « وما أنزل من قبلك » الكتب الإلهية السالفة كلها. وهذا كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ »(١) الآية . والإنزال النقل من الأعلى إلى الأسفل . فنزول الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام بأن يتلقاها جبريل من جنابه عزّ وجلّ فينزل بها إلى الرسل عليهم السلام . ولهذا يقال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ .

قال الإمام أحمد وغيره : وإليه يعود أى هو المتكلم به . قال تعالى « وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »(٢) . وقال تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ »(١) . وقال تعالى : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »(٢) .

« وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » الآخرة في الأصل : تأنيث الآخِر الذي هو نقيض الأول وهي صفة الدار ، بدليل قوله تعالى « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ »(٣) . سميت بذلك لأنها متأخرة عن الدنيا . وقيل للدنيا : دنيا ، لأنها أدنى من الآخرة . وهما من الصفات الغالبة . ومع ذلك فقد جريا مجرى الأسماء ، إذ قد غلب ترك ذكر اسم موصوفهما معهما ، كأنهما ليسا من الصفات .

والإيقان إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه . وفي تقديم «الآخرة» وبناء «يوقنون» على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته . كزعمهم أن الجنة لايدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى(٤) ؛ وأن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة(٥) ؛ واختلافهم في أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أوْ لا ؟ وهل هو دائم أوْ لا ؟ فاعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل عن الصحة ، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين!

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ١] .

(٣) [٢٨/ القصص/ ٨٣] ونصها : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى في [٢/البقرة/٨٠] وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« أُولَٰئِكَ » أى : المتصفون بما تقدّم . « عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ » أى على نورٍ من ربّهم ، وبرهانٍ ، واستقامةٍ ، وسدادٍ ـ بتسديده إياهم وتوفيقه لهم ـ . « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون ، المدركون ماطلبوا عند الله ـ بإيمانهم ـ من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات ، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

لمّا بيّن تعالى نعوت المؤمنين قبلُ ، شَرَحَ أحوال مقابليهم وهم الكفرة المردة بأنهم : تناهَوْا فى الغواية والضلال إلى حيث لا يجديهم الإنذار والتذكير ، كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ❊ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ »(١) . وكقوله سبحانه فى المعاندين الكتابيين « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ »(٢) الآية .

و « سواء » اسم بمعنى : الاستواء ، وصف به ، كما يوصف بالمصادر ، مبالغةً ؛ ومنه

= وقوله تعالى فى [٣ / آل عمران / ٢٤] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(١) [١٠ / يونس / ٩٦،٩٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٥] ونصها : وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

قوله تعالى « تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » بمعنى : مستوية .

و (الإنذار) الإعلام مع تخويف . والمراد هنا : التخويف من عذابه تعالى، وانتقامه ، والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا أهلاً للبشارة ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب ؛ ومن لم يتأثر به فَلأَنْ لايرفع للبشارة رأساً ـ أَوْلَى .

وقوله « لايؤمنون » جملة مستقلة ، مؤكِّدة لما قبلها ، مبيِّنة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

استئناف معلّل لِمَا سبق من الحكم ، أو بيانٌ وتأكيدٌ له . والختم على الشيء : الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه . والمراد : إحداث حالة تجعلها ـ بسبب تماديهم في الغيّ ، وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح ـ بحيث لايؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلاً .

قال أبو السعود : وإسناد إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى ، لاستناد جميع الحوادث عندنا ـ من حيث الخلق ـ إليه سبحانه . وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوءَ صنيعهم ، ووخامة عاقبتهم ، لكون أفعالهم ـ من حيث الكسب ـ مستندةً إليهم . فإنّ خَلْقَها منه سبحانه ليس بطريق الجبر ، بل بطريق الترتيب ـ على ما اقترفوه من القبائح ـ كما يعرب عنه قوله تعالى « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »(٣) ونحو ذلك ،

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

يعنى كقوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » وقوله : « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[١] .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا فى ذلك عدةً من الأقاويل .

منها : أنّ القوم لما أعرضوا عن الحق ، وتمكّن ذلك فى قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم ، شبه بالوصف الخلْقىّ المجبول عليه .

ومنها : أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خاليةً عن الفطن ، أو بقلوب قدّر ختم الله تعالى عليها . كما فى : سال به الوادى ـ إذا هلك ـ وطارت به العنقاء ـ إذا طالت غيبته ـ .

ومنها : أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر ، واستحكمت ، بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ؛ ثم لم يفعل ذلك محافظةً على حكمة التكليف ، عبّر عن ذلك بالختم ، لأنه سدٌّ لطريق إيمانهم بالكلية. وفيه إشعار بترامى أمرهم فى الغىّ والعناد .

ومنها : أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه . مثل قولهم : قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه ، وفى ءاذاننا وَقْرٌ ، ومن بيننا وبينك حجاب[٢] . تهكّماً بهم .

ومنها : أن ذلك فى الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضى لِتَحقُّق وقوعه . ويعضده قوله تعالى « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً»[٣]. انتهى ملخصاً .

(فائدة) قال الراغب : المراد بالقلب فى كثيرٍ من الآيات : العقل والمعرفة اه .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] ونصها : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٧] ونصها : وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

أصل ناس أناس ، حذفت همزته تخفيفاً ، وحذفها مع لام التعريف كاللازم . ويشهد لأصله إنسان ، وأُناس ، وأناسىّ ، وإنس . وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون ـ كما سمى الجن لاجتنانهم ـ ولذلك سموا بشراً . وقيل : اشتقاقه من الأُنس ـ ضدّ الوحشة ـ لأن الإنسان مدنىٌّ بالطبع . والأوّل أظهر .

واعلم أن صفات المنافقين إنما نزلت فى السور المدنية . لأن مكّة لم يكن فيها نفاق ؛ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب . وبها اليهود ـ من أهل الكتاب ـ وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع ـ حلفاء الخزرج ـ وبنو النّضير وبنو قُرَيْظَة ـ حلفاء الأوس ـ فلما قدم رسول الله ﷺ المدنية ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج ، وقلّ مَنْ أسلم من اليهود ـ إلاّ عبد الله بن سلام رضى الله عنه ـ ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين ، بعدُ ، شوكة تُخاف ؛ بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادَعَ اليهودَ وقبائلَ كثيرةً ـ من أحياء العرب حوالى المدينة ـ . فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته ، وأعزّ الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبىٍّ ابنُ سلول ـ وكان رأسا فى المدينة ، وهو من الخزرج ، وكان ابنُ سيد الطائفتين فى الجاهلية ؛ وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم ، فجاءهم الخبر ، وأسلموا ، واشتغلوا عنه . فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعة بدر ، قال : هذا أمر قد توجّه . فأظهر الدخول فى الإسلام ، ودخل معه طوائف ـ ممن هو على طريقته ونِحْلَتِهِ ـ وآخرون من أهل الكتاب ؛ فمن ثَمّ وُجد النفاق فى أهل المدينة ، ومَنْ حولها من الأعراب .

= فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ ءامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

قال القاشانىّ : المخادعة استعمال الخدع من الجانبين ، وهو إظهار الخير ، واستبطان الشر . ومخادعة الله مخادعة رسوله ، لقوله « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »(١). فخداعهم لله وللمؤمنين إظهار الإيمان والمحبة ، واستبطان الكفر والعداوة . وخداع الله والمؤمنين إياهم مسالمتهم ، وإجراء أحكام الإسلام عليهم . بحقن الدماء وحصن الأموال وغير ذلك. وادّخار العذاب الأليم ، والمآل الوخيم ، وسوء المغبّة لهم ، وخزيهم فى الدنيا لافتضاحهم بإخباره تعالى وبالوحى عن حالهم . لكن الفرق بين الخداعين : أن خداعهم لا ينجح إلّا فى أنفسهم . بإهلاكها ، وتحسيرها ، وإيراثها الوبال والنكال ـ بازدياد الظلمة ، والكفر ، والنفاق ، واجتماع أسباب الهلكة ، والبعد والشقاء ، عليها ـ وخداع الله يؤثر فيهم أبلغ تأثير ، ويوبقهم أشدّ إيباق ، كقوله تعالى « وَمَكَرُوا ، وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »(٢) وهم ـ من غاية تمقّهم فى جهلهم ـ لا يحسون بذلك الأمر الظاهر .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « وَمَا يُخَادِعُونَ » بالألف .

قال ابن كثير : نبه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع بذلك فساد عريض ـ من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم ، وهم كفّار فى نفس الأمر ـ وهذا من المحذورات : أن يُظَنَّ بأهل الفجور خير . ثم إن قول من قال : كان عليه

(١) [٤ / النساء / ٨٠] ونصها : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً .

(٢) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين ـ إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان(١) فى تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً ـ فى غزوة تبوك ـ الذين همُّوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فى ظلماء الليل عندعقبة هناك، عزموا على أن ينفِّروا به الناقة، ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، فأطلع على ذلك حذيفة.

فأما غير هؤلاء، فقد قال الله تعالى « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ »(٢) الآية. وقال تعالى « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » ففيها دليل على أنه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم، وإنما كان تُذْكَرُ له صفاتهم، فيتوسمها فى بعضهم، كما قال تعالى « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ »(٣). وقد كان من أشهرهم بالنفاق، عبد الله بن أُبَيٍّ ابنُ سلول.

واستند ـ غير واحد من الأئمة ـ فى الحكمة عن كفِّه ﷺ عن قتل المنافقين، بما ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه(٤) « أكره أن يتحدَّث العرب أنَّ محمداً

---

(١) يشير إلى حديث حذيفة الذى أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٩ و ١٠ و ١١.

(٢) [٩ / التوبة / ١٠١] ونصها : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ.

(٣) [٤٧ / محمد / ٣٠].

(٤) يشير إلى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة، حديث ١٤٣ ونصه : =

يقتل أصحابه » . ومعناه خشية أن يقع بسبب ذلك تنفيرٌ لـكثيرٍ من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتلهم ـ بأنَّه لأجل كفرهم ـ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد مايظهر لهم ، فيقولون : إن محمداً يقتل أصحابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

المرض : السقم ، وهو نقيض الصحة ، بسبب ما يعرض للبدن ؛ فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويوجب الخلل في أفاعيله . استعير ههنا لعدم صحة يقينهم ، وضعف دينهم ـ وكذا توصف قلوب المؤمنين بالسلامة التي هي صحة اليقين ، وعدم ضعفه ، كما قال تعالى « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »(١) أي : غير مريض بما ذكرنا ـ أو استعير لشكّهم ، لأن الشك تردُّد بين الأمرين ، والمنافق متردّدٌ ، كما في الحديث(٢) « مثل المنافق كمثل الشاة

= عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة ، منصرفه من حنين ، وفي ثوب بلال فضة . ورسول الله ﷺ يقبض منها . يعطي الناس . فقال : يا محمد ، اعدل . قال « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبتَ وخسرتَ ، إن لم أكن أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني ، يا رسول الله ، فأقتل ، هـذا المنافق . فقال « معاذ الله ، أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي . إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم . يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميَّة » .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٩] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٧ ونصه : عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين . تعير إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة » .

العائرة[1] بين الغنمين » والمريض متردّد بين الحياة والموت .

« فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً » بأن طبع على قلوبهم ، لعلمه تعالى بأنّه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار .

وقال القاشانيّ : أى مرضاً آخر ـ حقداً وحسداً وغلًّا ـ بإعلاء كلمة الدين ، ونصرة الرسول والمؤمنين ـ ثم قال : والرذائل كلها أمراض القلوب ، لأنها أسباب ضعفها وآفتها فى أفعالها الخاصة ، وهلاكها فى العاقبة .

« وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مُؤْلِمٌ ـ بكسر اللام ـ فعيل بمعنى فاعل ـ كسميع وبصير ـ

قال فى المحكم : الأليم من العذاب الذى يبلغ إيجاعه غاية البلوغ . ومنه . يُعلم وجه إيثاره فى عذاب المنافقين ـ على « العظم » المتقدم فى وصف عذاب الكافرين ـ ويؤيده : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »[2] .

« بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » الباء للسببيّة أو للمقابلة ـ أى بسبب كذبهم أو بمقابلته ـ وهو قولهم : ءامنا بالله وباليوم الآخر ، وهم غير مؤمنين . وفيه رمز إلى قبح الكذب ، وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحقٌ بهم من أجل كذبهم ـ مع إحاطة علم السامع بأنّ لحوق العذاب بهم من جهات شتى ـ ونحوه قوله تعالى « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا »[3] ـ والقوم كفرة ـ وإنما خصّت الخطيئات استعظاماً لها ، وتنفيراً عن ارتكابها .

---

(١) العائرة : المترددة والحائرة لا تدرى أيهما تتبع . تَعير أى تتردد وتذهب .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٥] .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] ونصها: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

[١٢] (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)

شروع فى تعديد بعض مِن مَساوئهم المتفرّعة ـ على ما حكى عنهم من الكفر والنفاق ـ و « الفساد » خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به . ونقيضه « الصلاح » وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة . والفساد فى الأرض : تهييج الحروب والفتن ، لأن فى ذلك فسادَ مافى الأرض ، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس ، والزروع ، والمنافع الدينية والدنيوية . قال الله تعالى « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ »(١) . «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ »(٢) ـ ومنه قيل لحربٍ كانت بين طيء : حرب الفساد ـ .

وكان إفساد المنافقين فى الأرض أنهم كانوا يُمالِئُون الكفار على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم ، وإغرائهم عليهم ، واتخاذهم أولياء ، مع ما يدْعون فى السرّ إلى : تكذيب النبيّ ﷺ ، وجحد الإسلام ، وإلقاء الشبه ، وذلك مما يجرئُ الكفرة على إظهار عداوة النبيّ ﷺ ، ونصب الحرب له ، وطمعهم فى الغلبة . فلما كان ذلك من صنيعهم مُؤَدِّياً إلى الفساد ـ بتهييج الفتن بينهم ـ قيل لهم : لا تفسدوا ـ كما تقول للرجل : لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك فى النار ؛ إذا أقدم على ما هذه عاقبته ـ وقد قال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ »(٣)

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧٣] .

فأخبر أن موالاة الكافرين تؤدّى إلى الفتنة والفساد ، لما تقدّم .

وقولهم « إنّما نحن مصلحون » أى : بين المؤمنين وأهل الكتاب . نُدارى الفريقين ونريد الإصلاح بينهما كما حكى الله عنهم أنهم قالوا « إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا »(١). أو معناه : إنما نحن مصلحون فى الأرض بالطاعة والانقياد .

قال الراغب : تصوّروا إفسادهم بصورة الإصلاح ـ لما فى قلوبهم من المرض ـ كما قال « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا »(٢) وقوله « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٣) وقوله « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا »(٤) .

وقال القاشانىّ : كانوا يرَوْنَ الصلاح فى تحصيل المعاش ، وتيسير أسبابه ، وتنظيم أمور الدنيا ـ لأنفسهم خاصة ـ لتوغلهم فى محبّة الدنيا ، وانهماكهم فى اللذات البدنية ، واحتجابهم ـ بالمنافع الجزئية ، والملاذّ الحسية ـ عن المصالح العامّة الكلّيّة ، واللذات العقلية ؛ وبذلك يتيسر مرادهم ، ويتسهل مطلوبهم ، وهم لا يحسون بإفسادهم المدرك بالحسّ .

---

(١) [٤ / النساء / ٦٢] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٤٣] ونصها : فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٤) [١٨ / الكهف / ١٠٤] ونصها : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » بطريق الأمر بالمعروف ، إثر نهيهم عن المنكر ـ إتماماً للنُّصح ، وإكمالاً للإرشاد ـ « ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ » أى : الكاملون فى الإنسانية ، فإنّ المؤمنين هم الناس فى الحقيقة لِجَمْعِهِم ما يُعَدّ من خواصّ الإنسان وفضائله ـ « قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ » استفهام فى معنى الإنكار . و(السفه) خفّةٌ وسخافةُ رأى يورثهما : قصور العقل ، وقلّة المعرفة بمواضع المصالح والمضار ـ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا »(1) . ـ

وإنما سفّهوهم ـ مع أنهم العقلاء المراجيح ـ لأنهم : لجهلهم ، وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم ، اعتقدوا أنّ ماهم فيه هو الحقّ ، وأنّ ما عداه باطل ـ ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً ـ ولأنهم كانوا فى رياسةٍ فى قومهم ، ويسار ؛ وكان أكثر المؤمنين فقراء ، ومنهم موالٍ ـ كصُهَيْب ، وبلال ، وخبّاب ـ فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم ! « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَا يَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٤] (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » أى : أظهروا لهم الإيمان ، والموالاة ، والمصافاة ـ نفاقاً ، ومصانعةً ، وتقيّةً وليشركوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومغنم ـ .

---

(١) [٤ / النساء / ٥] .

واعلم أنّ مساق هذه الآية بخلاف ما سيقت له أوّل قصة المنافقين ، فليس بتكرير . لأنّ تلك فى بيان مذهبهم ، والترجمةِ عن نفاقهم ؛ وهذه لبيان تباينُ أحوالهم ، وتناقض أقوالهم ـ فى أثناء المعاملة والمخاطبة ـ حسب تباين المخاطبين !

« وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » يقال : خلوت بفلان وإليه أي : انفردت معه ؛ ويجوز أن يكون من خلا بمعنى : مضى ، ومنه : القرون الخالية . والمراد بـ « شَيَاطِينِهِمْ » : أصحابهم أولو التمرّد والعناد ؛ والشيطان يكون من الأنس والجنّ ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »(١) . وإضافتهم إليهم للمشاركة فى الكفر . واشتقاق شيطان مِن شطن ، إذا بعد ، لبعده من الصلاح والخير .

ومعنى « إِنَّا مَعَكُمْ » أى فى الاعتقاد على مثل ما أنتم عليه ، إنّما نحن فى إظهار الإيمان عند المؤمنين مستهزئون ساخرون بهم . والاستهزاء بالشيء السخرية منه . يقال : هزأت واستهزأت بمعنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » يسخر بهم للنقمة منهم ـ هكذا فسّره ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه الضحّاك ـ « وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » يزيدهم على وجه الإملاء ، والترك لهم فى عتوّهم وتمرّدهم ، كما قال تعالى « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »(٢) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٠] .

و (الطغيان) المراد به هُنا : الغلو فى الكفر ومجاوزة الحد فى العتوّ . وأصل المادة هو المجاوزة فى الشيء ، كما قال تعالى « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »(١) .

و (العمه) مثل العمى ـ إلّا أنّ العمى عامّ فى البصر والرأى ، والعمه فى الرأى خاصة ـ وهو التحيّر والتردّد ، لا يدرى أين يتوجه .

أى فى ضلالهم وكفرهم ـ الذى غَمَرَهُم دَنَسُهُ ، وعلاهم رِجْسُهُ ـ يترددّون حيارى ، ضُلّالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً .

والمشهور فتح الياء من « يمدّهم » ، وقرئ ـ شاذاً ـ بضمها ، وهما بمعنى واحد . يقال : مدّ الجيش وأمده ـ إذا زاده ، وألحق به ما يقوّيه ويكثره ـ وكذلك مدّ الدواة وأمدها زادها ما يصلحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميِّزة لهم عمّن عداهم أكمل تمييز ، بحيث صاروا كأنّهم حضّار مشاهدون على ماهم عليه . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشّرّ وسوء الحال، ومحلُّه الرفع على الابتداء ، خبره قوله تعالى « الَّذِينَ اشْتَرَوُا » الخ . والجملة مَسُوقَةٌ لتقرير ماقبلَها، وبيانٌ لكمال جهالتهم ـ فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال ـ بإظهار غاية سماجتها، وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز ـ فضلًا عن العقلاء ـ . و« الضلالة » الجور عن القصد ؛ و « الهُدَى » التوجّه إليه . وقد استعير الأول : للعدول عن الصواب فى الدين ، والثانى : للاستقامة عليه . و« الاشتراء » استبدال السلعة بالثمن ـ أى أخذها به ـ

(١) [٦٩ / الحاقة / ١١] .

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلًا منه أخذا منوطاً بالرغبة فيها والإعراض عنه.

فإن قيل : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وما كانوا على هدى ؟

قلت : جعلوا لتمكُّنهم منه ـ بتيسير أسبابه ـ كأنه فى أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطَّلوه ، واستبدلوها به ؛ فاستعير ثبوته لتمكُّنهم بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ، ولا مِرْيَةَ فى أنَّ هذه المرتبة ـ من التمكُّن ـ كانت حاصلة لهم بما شاهدوه ـ من الآيات الباهرة ، والمعجزات القاهرة ـ من جهة النبيّ ﷺ .

« فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » عطف على الصلة داخل فى حيزها . والفاء للدلالة على ترتُّب مضمونه عليها . والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدِّى للبيع والشراء ، لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال ، وإسناد عدمه ـ الذى هو عبارة عن الخسران ـ إليها ؛ وهو لأصحابها ، من الإسناد المجازىّ وهو : أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ـ كما تلبست التجارة بالمشترين ـ وفائدته : المبالغة فى تخسيرهم ، لِما فيه من الإشعار بكثرة الخسار ، وعمومه المستتبع ، لسرايته إلى ما يلابسهم .

فإن قلتَ : هب أنَّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح ، والتجارة كأنَّ ثَمَّ مبايعة على الحقيقة ؟

قلتُ : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تُساق كلمةٌ مساقَ المجاز ، ثم تقفَّى بأشكال لها ، وأخَوَاتٍ ـ إذا تلاحقن ـ لم تَرَ كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر ماءً ورونقاً ، وهو المجاز المرشَّح ؛ فإيرادها ـ إثْرَ الاشتراء ـ تصويرٌ لِمَا فاتَهُم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة ـ الذى يتحاشى عنه كل أحدٍ ـ للإشباع فى التخسير والتحسير . وهذا النوع قريب من التتميم الذى يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وإنَّ صخراً لتَأْتَمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ . . !

لَمَّا شبهَتْه ـ فى الاهتداء به ـ بالعَلَم المرتفع ، أتبعتْ ذلك ما يناسبه ويحقِّقه ، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر ، باشتعال النار فى رأسه .

وقوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أى : لزوال استعدادهم ، وتكدير قلوبهم بالرَّيْن الموجب للحجاب والحرمان الأبدىّ .

قال الزمخشرىّ : فإن قيل : لِمَ عطف بالواو عدم اهتدائهم على انتفاء ربح تجارتهم ، ورتّبا معاً بالفاء على اشتراء الضلالة بالهدى ؟ وما وَجْه الجمع بينهما ـ مع ذلك الترتيب ـ على أن عدم الاهتداء قد فُهم من استبدال الضلالة بالهدى ، فيكون تكراراً لِما مضى ؟

فالجواب : أن رأس مالهم هو الهدى ، فلمّا استبدلوا به مايضادُّه ـ ولا يجامعه أصلاً ـ انتفى رأس المال بالكلية ، وحين لم يبق فى أيديهم إلا ذلك الضد ـ أعنى الضلالة ـ وصفوا بانتفاء الربح والخسارة . لأنّ الضالّ فى دينه خاسرٌ هالكٌ ـ وإن أصاب فوائد دنيوية ـ ولأنّ مَنْ لم يسلم له رأس ماله لم يوصف بالربح ، بل بانتفائه ؛ فقد أضاعوا سلامة رأس المال بالاستبدال ، وترتّب على ذلك إضاعة الربح .

وأما قوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » فليس معناه عدم اهتدائهم فى الدين ـ فيكون تكراراً لما سبق ـ بل لَما وُصِفوا بالخسارة فى هذه التجارة أشير إلى عدم اهتدائهم لطرق التجارة ـ كما يهتدى إليه التجار البصراء بالأمور التى يربح فيها ويخسر ـ فهذا راجع إلى الترشيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)

ولما جاء بحقيقة صفتهم ، عقّبها بضرب المثل ـ زيادةً فى الكشف ، وتتميماً للبيان ـ فقال تعالى : « مَثَلُهُمْ » أى : مثالهم فى نِفاقهم ، وحالهم فيه « كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ » أى أوقد « نَارًا » فى ظلمة ـ والتنكير للتعظيم ـ « فَلَمَّا أَضَاءَتْ » أى : أنارت النار

« مَا حَوْلَهُ » فأبصَرَ ، واستدفَأ ، وأمن مما يخافه « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » أى : أطفأ الله نَارَهُم ـ التى هى مدار نورهم ـ فبقُوا فى ظُلْمَةٍ وخوف ـ وجمع الضمير مراعاة لمعنى الذى كقوله « وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا »(١) . « وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ » ما حولهم ـ متحيّرين عن الطريق ، خائفين ـ فكذلك هؤلاء استضاؤوا قليلًا بالانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ، حيث أَمِنوا على أنفسهم وما يتبعها . ثم وراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ـ ظلمة النفاق ـ التى ترمى بهم إلى ظلمة سخط الله ، وظلمة العقاب السرمد ؛ ومحصوله : أنهم انتفعوا بهذه الكلمة مدّة حياتهم القليلة ، ثم قطعه الله تعالى بالموت .

ونُقِلَ ـ عن كثيرٍ من السلف ـ تفسير آخر ، وهو : تمثيل لإيمانهم أوّلًا ، ثم كفرهم ثانياً . فيكون إذهاب النور فى الدنيا ، كما قال تعالى « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا »(٢) الآية ، فلمَّا آمنوا أضاء الإيمان فى قلوبهم ـ كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً ـ ثمّ لمّا كفروا ، ذهب الله بنورهم : انتزعه ـ كما ذهب بضوء هذه النار ـ وعلى هذا فالتمثيل مرتبط بما قبله . فإنهم ـ لمَّا وُصِفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ـ مثّل هداهم ـ الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ـ والضلالةَ ـ التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم ـ بذهاب الله بنورهم ، وتركه إيّاهم فى الظلمات .

قال الزمخشرىّ فى الكشاف : واضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثُل

(١) [٩ / التوبة / ٦٩] ونصها : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ٣] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

والنظائر شأنٌ ليس بالخفيّ في إبراز خبيّات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيَّل فيصورة المحقّق ، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن ، والغائب كأنَّه مشاهَد ـ وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ ، وقَمْعٌ لسورة الجامح الأبيّ .

ولأمرٍ ما ، أكثر الله ـ في كتابه المبين ، وفي سائر كتبه ـ أمثالَه ، وفشت في كلام رسول الله ﷺ ، وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »[١] .

و (المَثَل) في أصل كلامهم بمعنى : المِثْل وهو النظير . يقال : مِثْل ، ومَثَل ، ومثيل ـ كشِبه وشَبَه وشَبيه ـ ثم قيل للقول السائر الممثّل مضربه بمورده : مَثَل . ولم يضربوا مثلًا ، ولا رأوْه أهلًا للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول ، إلّا قولًا فيه غرابة من بعض الوجوه . ومن ثَمَّ حوفظ عليه ، وحُمِيَ من التغيير .

فإنه[٢] ـ لو غُيِّرَ ـ لربّما انتفى الدلالة على تلك الغرابة . وقيل: إنّ المحافظة على المثل إنَّما هي بسبب كونه استعارة . فوجب لذلك أن يكون هو بعينه لفظ المشبه به . فإن وقع تغيير ، لم يكن مَثَلًا ، بل مأخوذاً منه ، وإشارة إليه ـ كما في قولك : بالصيف ضيعتَ اللبن[٣] . بالتذكير .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] .

(٢) في حاشية الجرجانيّ على الكشاف .

(٣) قال في اللسان : ومن أمثالهم : الصيفَ ضَيّعتِ اللبنَ . إذا فرّط في أمره في وقته . معناه طلبتِ الشيء في غير وقته . وذلك أن الألبان تكثر في الصيف . فيضرب مثلا لترك الشيء وهو ممكن ، وطلبه وهو متعذر . قال ذلك ابن الأنباريّ .

وأول من قاله عمرو بن عمرو بن عُدَس لدَخْتَنُوسَ بنت لقيط : وكانت تحته ففركته . وكان موسرا . فتزوجها عمرو بن معبد ، وهو ابن عمها ، وكان شابا مقترا . فمرت به إبل عمرو فسألته اللبن فقال لها ذلك .

وقال بعضهم : قد استعير المثل للحال ، أو القصّة ، أو الصّفة ـ إذا كان لها شأن ، وفيها غرابة ـ كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً . وكذلك قوله « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ »(١) أى ـ فيما قصصنا عليك من العجائب ـ قصة الجنّة العجيبة الشأن ، ثمّ أخذ فى بيان عجائبها « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ »(٢) أى : الوصف الذى له شأنٌ من العظمة والجلالة . « مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ »(٣) أى : صفتهم وشأنهم المتعجّب منه .

ولِما فى المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثْلة فى الخير والشر ، فاشتقّوا منه صفةً للعجيب الشأن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ » الصمم : آفة مانعة من السماع ، سمّى به فقدان حاسّة السمع ، لما أنّ سببه اكتناز باطن الصّماخ ، وانسداد منافذه ، بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموّجه . والبكم : الخرس . والعمى : عدم البصر عمّا من شأنه أن يُبصر .

(١) [١٣ / الرعد / ٣٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ .

(٢) [١٦ / النحل / ٦٠] ونصها : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

وُصِفوا بذلك ـ مع سلامة حواسّهم المذكورة ـ لما أنّهم سدّوا عن الإصاخة إلى الحقّ مسامعَهم ، وأَبَوْا أن يُنْطِقوا به أَلْسِنَتَهم ، وأن ينظروا ويتبصّروا بعيونهم ، فجعلوا كأنما أصيب بآفةٍ مشاعرُهم ـ كقوله ـ :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ بِهِ   وإن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

وكقوله :

أصمُّ عن الشيءِ الذى لا أُرِيدُهُ   وأَسْمَعُ خلقِ اللهِ حينَ أُرِيدُ

« فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى ـ بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة ـ لا يعودون إلى الهدى ـ بعد أن باعوه . أو عن الضلالة ـ بعد أن اشترَوْها . فالآية الكريمة تتمّةٌ للتمثيل بأنّ ما أصابهم ، ليس مجرّدَ انطفاء نارهم ، وبقائهم فى ظلمات كثيفةٍ هائلة ـ مع بقاء حاسة البصر بحالها ـ بل اختلّت مشاعرهم جميعاً ، واتصفوا بتلك الصفات فبقُوا جامدين فى مكانهم لا يرجعون ، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخّرون ؟ وكيف يرجعون إلى ما ابتدأوا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » تمثيل لحالهم إثْرَ تمثيلٍ ، ليعمّ البيانُ منها كلّ دقيق وجليل ، ويوفى حقّها من التفظيع والتهويل . فإنّ تفنّنهم فى فنون الكفر والضلال حقيقٌ بأن يضرب فى شأنه الأمثال . وكما يجب على البليغ ـ فى مظانّ الإجمال والإيجاز ـ أن يجمل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه ـ فى موارد التفصيل والإشباع ـ أن يفصّل ويشبع .

و«الصيّب» السحاب ذو الصوْب. والصوْب المطر. والمراد بالسماء : السحاب، كما قال تعالى « ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ »(١) . وهى فى الأصل : كل ما علاك من سقف ونحوه .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٩] .

« فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » التنوين فى الكل للتفخيم والتهويل ـ كأنه قيل : فيه ظلماتٌ داجية ، ورعدٌ قاصف ، وبرقٌ خاطف ـ « يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ » الصاعقة : الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قطعة نارٍ تنقدح من السحاب ـ إذا اصطكت أجرامه ـ لاتأتى على شىء إلا أحرقته « حَذَرَ » ـ أى خوف ـ « الْمَوْتِ » ـ من سماعها ـ « وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » علماً وقدرةً فلا يفوتونه . والجملة اعتراضية منبهة على أنّ ما صنعوا ـ من سدّ الآذان بالأصابع ـ لا يغنى عنهم شيئاً ، فإنّ القدَر لا يدافعه الحذَر ، والحِيَل لا تردّ بأس الله عزّ وجلّ . وفائدة وَضْع الكافرين موضع الضمير ـ الراجع إلى أصحاب الصيّب ـ الإيذان بأنّ ما دهمهم ـ من الأمور الهائلة المَحْكِيّة ـ بسبب كفرهم ، فيُظهر استحقاقهم شدّة الأمر عليهم ، على طريقة قوله تعالى : « أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا »[1] فإن الإهلاك الناشىء عن السخط أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » استئناف آخر وقع جواباً عن سؤال مقدّر ـ كأنه قيل : فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل : يكاد يخطف أبصارهم ، أى : يأخذها بسرعة « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » أى : فى ضوئه « وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا » أى : وقفوا ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٧] ونصها : مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

وثبتوا فى مكانهم ـ ومنه : قامت السوق ، إذا ركدت وكسدت . وقام الماء ، جمد ـ وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين : بشدّته على أصحاب الصيّب ، وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل ـ بما يأتون وما يذرون ـ إذا صادفوا من البرق خفقةً ـ مع خوف أن يخطف أبصارهم ـ انتهزوا تلك الخفقة فرصةً ، فَخَطَوْا خطواتٍ يسيرةً ، فإذا خفى ، وفتر لمعانه ، بقوا واقفين متقيدين عن الحركة « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » أى : لزاد فى قصيف الرعد فأصمّهم ، أو فى ضوء البرق فأعماهم . ومفعول « شاء » محذوف ، لأنّ الجواب يدلّ عليه . والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها . ولقد تكاثر هذا الحذف فى « شاء » و « أراد » . لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشىء المستغرب ـ كنحو قوله : فلو شئت أن أبكى دماً لبكيته(١) ؛ وقوله تعالى « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا »(٢) . « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليلٌ للشرطيّة ، وتقريرٌ لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانىّ .

تنبيهات :

الأول : محصول التمثيلين ـ غِبَّ وصف أربابهما بوقوعهم فى ضلالتهم التى استبدلوها بالهدى ـ هو أنه شبّه ، فى الأول ، حيرتَهم وشدّةَ الأمر عليهم بما يكابد مَن طَفِئَت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل . وفى الثانى : شبّه حالهم بحال مَنْ أخذتهم السماء فى ليلة تكاثف ظلماتها ـ بتراكم السحب ، وانتساج قطراتها ، وتواتر فيها الرعود الهائلة ، والبروق المخيفة ، والصواعق المختلفة المهلكة ، وهم فى أثناء ذلك يزاولون غمرات الموت . وبذلك يعلم أنّ التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة ، وهو الذى تقتضيه جزالة المعانى ـ لأنه يحصل فى النفس من تشبيه الهيئات المركبة مالا يحصل من تشبيه مفرداتها . فإنك إذا تصورت حال مَنْ طفئت ناره بعد إيقادها ... الخ ، وحالَ من أخذتهم السماء .. الخ حصل فى نفسك

(١) استشهد به فى الكشاف . وعجزه : عليه ولكن ساحة الصبر أوسع .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .

هيئة عجيبة توصلك إلى معرفة حال المنافقين ، على وجهٍ يتقاصر عنه تشبيه المنافق ـ فى التمثيل الأول ـ بالمستوقد ناراً ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانتفاء النار ؛ وتشبيه دين الإسلام ـ فى الثانى ـ بالصيّب ، وما يتعلق به ـ من شُبَهِ الكفار ـ بالظلمات ، وما فيه ـ من الوعد والوعيد ـ بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة ـ من الإفزاع والبلايا والفتن ـ من جهه أهل الإسلام بالصواعق . وأيضاً فى تشبيه المفردات ، وطىّ ذكر المشبهات تكلّف ظاهر . وأيضاً فى لفظ (المثل) نوع إنباء عن التركيب ، إذ المتبادر منه القصة التى هى فى غرابتها كالمثل السائر ، وهى فى الهيئة المركبة دون كل واحد من مفرداتها . وأيضاً فى التمثيل المركب اشتمال على التشبيه فى المفردات إجمالاً ، مع أمر زائد : هو تشبيه الهيئة بالهيئة ، وإيذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئةٍ عجيبةٍ حقيقة بأن تكون مثلاً فى الغرابة .

التنبيه الثانى :

قال الإمام العلامة « ابن القيّم » فى كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)

« فى هذه الآية ، شَبَّه ، سبحانه ، أعداءه المنافقين : بقومٍ أوقدوا ناراً لتضىء لهم ، وينتفعوا بها ، فلمّا أضاءت لهم النار ، فأبصروا فى ضوئها ما ينفعهم ويضرهم ، وأبصروا الطريق ـ بعد أن كانوا حيارى تائهين ـ فهم كقوم سَفْرٍ ضلّوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضىء لهم الطريق ، فلما أضاءت لهم ـ فأبصروا وعرفوا ـ طَفِئت تلك الأنوار ، وبقوا فى الظلمات لا يبصرون ، قد سُدت عليهم أبواب الهدى الثلاث ـ فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : مما يسمعه بإذنه ، ويراه بعينه ، ويعقل بقلبه ـ وهؤلاء قد سُدَّت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئاً ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها . وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة مَن لا سمع له ، ولا بصر ، ولا عقل . والقولان متلازمان .

وقال فى صفتهم «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» لأنهم قد رأوْا فى ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلمّا طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوْا وأبصروا . وقال سبحانه وتعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل : ذهب نورهم ؛ وفيه سرّ بديع : وهو انقطاع سر تلك المعيّة الخاصة ـ التى هى للمؤمنين ـ من الله تعالى ، فإن الله تعالى مع المؤمنين(١) ، وإن الله مع الصابرين(٢)، وَ« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »(٣) . فذهاب الله بذلك النور : انقطاع المعيّة ـ التى خصّ بها أولياءه ـ فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يَبْقَ عندهم ـ بعد ذهاب نورهم ـ ولا معهم ، فليس لهم نصيب من قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »(٤)

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٩] ونصها : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٢/ البقرة/ ١٥٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

و [٨ الأنفال / ٤٦] ونصها: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ =

ولا مِن « كَلا ، إنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »(١) .

وتأمّل قوله تعالى « أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » كيف جعل ضوءها خارجاً عنه ، منفصلاً ، ولو اتصل ضَوْؤُها به ، ولا بسه ، لم يذهب ، ولـكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية ، فرجع الضوء إلى معدنه ، وبقيت الظلمة فى معدنها ، فرجع كلٌّ منهما إلى أصله اللائق به : حجة من الله قائمة ، وحكمة بالغة ، تعرَّفَ بها إلى أولى الألباب من عباده .

وتأمّل قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » ولم يقل بنارهم ، ليطابق أول الآية ، فإن النار فيها إشراق وإحراق : فذهب بما فيها من الإشراق ـ وهو النور ـ وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ـ وهو النارية ـ وتأمّل كيف قال « بِنُورِهِمْ » ولم يقل : بضوئهم ـ مع قوله « فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » ـ لأن الضوء هى زيادة فى النور ؛ فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأَوْهَمَ الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ؛ فلما كان النور أصلَ الضوء ، كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته ؛ وأيضاً فإنه أبلغ فى النفى عنهم ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم ؛ وأيضاً فإن الله تعالى سمّى كتابَه (نوراً) ، ورسوله ﷺ (نوراً) ، ودينه (نوراً) ، وهُداه (نوراً) ، ومن أسمائه (النور) ، والصلاة (نور) ؛ فذهابه سبحانه بهم : ذهابٌ بهذا كله . وتأمل مطابقة هذا المثل ـ لِمَا تقدمه من قوله « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »(٢) كيف

= الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٢] ونصها : قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

طابق هذه التجارة الخاسرة التى تضمّنت هول الضلالة والرضاء بها ، وبدّل الهدى فى مقابلتها ، وهول الظلمات ـ التى هى الضلالة والرضاء بها ـ بدلاً عن النور ـ الذى هو الهدى والنور ـ فبدّلوا الهدى والنور ، وتموّضوا عنه بالظلمة والضلالة . فيالها مِن تجارةٍ ما أخْسَرَها ، وصفقةٍ ما أشدّ غَبْنَها . وتأمّل كيف قال تعالى « ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ » فوحّده ثم قال « وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ » فجمعها . فإن الحقّ واحد : هو صراط الله المستقيم ـ الذى لا صراط يوصل إليه سواه ـ وهو عبادته وحده لا شريك له ، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، لا بالأهواء ، والبدع ، وطرق الخارجين عن مّا بعث الله به رسوله ﷺ ـ من الهدى ودين الحق ـ بخلاف طرق الباطل فإنها متعدّدة متشعّبة . ولهذا ، يُفْرِدُ ، سبحانه ، الحق ، ويجمع الباطل ، كقوله تعالى « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ »(١) وقال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »(٢) فجمع سُبُل الباطل ، ووحدّ سبيل الحق . ولا يناقض هذا قوله « يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ »(٣) فإنّ تلك هى طُرُق مرضاته التى يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم ، فإنّ طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحدٍ ، وسبيلٍ واحدٍ ، وهى سبيله التى لا سبيل إليه إلا منها . وقد صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه خط خطًّا مستقيماً ، وقال(٤) « هذا سبيل الله »

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

(٣) [٥ / المائدة / ١٦] .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى السنن فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، حديث ١١ : عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبىّ ﷺ . فخطّ خطًّا . وخطّ خطين =

ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال « هذه سُبُل ، على كلّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه » ثم قرأ قوله تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ » .

وقد قيل : إنّ هذا مَثَلٌ للمنافقين ، وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام ، ويكون بمنزلة قول الله تعالى « كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ »(١). ويكون قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » مطابقا لقوله تعالى « أَطْفَأَهَا اللَّهُ » ويكون تخييبهم ، وإبطال ما راموه ، هو : تركهم فى ظلمات الحيرة ، لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ، ولا يبصرون سبيلاً ؛ بل هم « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » . وهذا التقدير ـ وإن كان حقاً ـ ففى كونه مراداً بالآية نظر ، فإنّ السياق إنما قصد لغيره ، ويأباه قوله تعالى« فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ » وموقدُ نارِ الحرب لا يضيء ما حوله أبداً . ويأباه قوله تعالى « ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ » وموقد نار الحرب لا نور له . ويأباه قوله تعالى « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » وهذا يقتضى أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة ، إلى ظلمة الشك والكفر .

= عن يمينه . وخط خطين عن يساره. ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال «هذا سبيل الله» ثم تلا هذه الآية « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [٦ / الأنعام / ١٥٣]

(١) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

قال الحسن رحمه الله : هو المنافق أبْصَرَ ثم عمى ، وعرف ثم أنكر . ولهذا قال «فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» أى لا يرجعون إلى النور الذى فارقوه . وقال تعالى فى حقّ الكفار «صمٌّ بكمٌ عمىٌ فهم لا يعقلون» فسلب العقل عن الكفار ـ إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان ـ وسلب الرجوع عن المنافقين ـ لأنهم آمنوا ثمّ كفروا ـ فلم يرجعوا إلى الإيمان.

فصل

ثم ضرب الله ، سبحانه ، لهم مثلاً آخَرَ مائياً ، فقال تعالى «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» . فشبّه نصيبهم ـ مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ ـ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التى طَفِئت عنه أحوجَ ما كان إليها ، وذهب نوره ، وبقى فى الظلمات حائراً ، تائهاً ، لا يهتدى سبيلاً ، ولا يعرف طريقاً ؛ وبنصيب أصحاب الصيّب ـ وهو المطر الذى يصوّب (أى ينزل) من علوّ إلى أسفل ـ فشبّه الهدى ـ الذى هدى به عباده ـ بالصيّب ، لأن القلوب تحيي به حياة الأرض بالمطر . ونصيب المنافقين من هذا الهدى ، بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيّب إلاّ ظلمات ورعد وبرق . ولا نصيب له ـ فيما وراء ذلك ـ مما هو المقصود بالصيّب ـ من حياة البلاد ، والعباد ، والشجر ، والدوابّ ؛ وأن تلك الظلمات التى فيه ، وذلك الرعد ، والبرق ، مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيّب . فالجاهل ـ لفرط جهله ـ يقتصر على الإحساس بما فى الصيّب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من بردٍ شديد ، وتعطيل المسافر عن سفره ، وصانعٍ عن صنعته ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيّب من الحياة والنفع العام. وهكذا شأن كلّ قاصر النَظَر ، ضعيف العقل ، لا يجاوز نظره الأمرَ المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كلّ محبوب . وهذه حال أكثر الخلق ـ إلّا مَن صحت بصيرته ـ

فإذا رأى ضعيف البصيرة ما فى الجهاد من التعب ، والمشاقّ ، والتعرّض لإتلاف المهجة ، والجراحات الشديدة ، وملامة اللوّام، ومعاداة من يخاف معاداته ـ لم يقدم عليه . لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة ، والغايات التى إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون . وكذلك مَن عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام ، فلم يعلم ـ من سفره ذلك ـ إلّا مشقّة السفر ، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد ، وفراق المألوفات ؛ ولا يجاوز نظره وبصيرته آخرَ هذا السفر ، ومآله ، وعاقبته ـ فإنه لا يخرج إليه ، ولا يعزم عليه . وحال هؤلاء ، حال الضعيفِ البصيرةِ والإيمان ، الذى يرى ما فى القرآن من الوعد والوعيد ، والزواجر والنواهى ، والأوامر الشاقة على النفوس التى تفطمها عن رضاعها من ثدى المألوفات والشهوات ـ والفطام على الصبىّ أصعب شىء ، وأشقّه ـ والناس كلهم صبيان العقول ، إلّا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحقّ علماً ، وعملًا ، ومعرفةً ؛ فهو الذى ينظر إلى ماوراء الصيّب ، وما فيه ـ من الرعد والبرق والصواعق ـ ويعلم أنّه حياة الوجود.

التنبيه الثالث :

قال القاشانىّ: « إنّما بولغ فى ذكرِ فريقِ المنافقين ، وذمِّهم ، وتعييرهم ، وتقبيح صورة حالهم ، وتهديدِهم ، وإبعادهم ، وتهجين سيرهم وعاداتهم : لإمكان قبولهم للهداية ، وزوال مَرَضِهم العارض . عسى التقريع يكسر أعواد شكائمهم ، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم ، فتتزكّى بواطنُهم ، وتتنوّر قلوبهم ، فيسلكوا طريق الحقّ . ولعلّ موادعة المؤمنين ، وملاطفتهم إيّاهم ، ومجالستهم معهم ـ تستميل طباعهم ، فتهيج فيهم محبّةٌ ما ، وشوقاً تلين به قلوبهم إلى ذكر الله ، وتنقاد به نفوسهم لأمر الله ، فيتوبوا ويصلحوا ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا »(1) .

---

(١) [٤ / النساء / ١٤٥و١٤٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ » لمّا ذكَر الله علوّ طبقة كتابه الكريم ، وتحزّب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرقٍ : مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ؛ وما اختصت به كلّ فرقة مما يسعدها ويشقيها ، ويحظيها عنـد الله ويرديها ؛ أقبل عليهم بالخطاب ـ وهو من الالتفات المذكور عند قوله جلّ ذكره « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ـ وهو فنّ من الكلام جَزْلٌ ، فيه هزٌّ وتحريك من السامع ـ كما أنك إذا قلتَ لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما : إنّ فلاناً من قصته كيت وكيت ، فقصصتَ عليه ما فرط منه ، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث ، فقلت : يا فلان! مِن حقّك أن تلزم الطريقة الحميدة فى مجارى أمورك ، وتستوى على جادّة السّداد فى مصادرك ومواردك ـ نبهته بالتفاتك نحوه فضلَ تنبه ، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء ؛ وأوجدته ، بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازًّا من طبعه ، ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة . وهكذا الافتنان فى الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف ، يستفتح الآذان للاستماع ، ويستهش الأنفس للقبول . وإنما كثر النداء فى كتابه تعالى على طريقة (يا أيها الناس) لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد ، وأسبابٍ من المبالغة . كالإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه . ومعلوم أنّ كل ما نادى الله له عباده : من أوامره ، ونواهيه ، وعظاته ، وزواجره ، ووعده ، ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك . . . مما أنطق به كتابه ـ أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعانٍ علّمهم أن يتيقّظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن يُنادوا بالآكد الأبلغ ـ أفاده الزمخشرىّ ـ.

والمراد بالناس : كافّة المكلّفين ـ مؤمنهم وكافرهم ـ فطلبُ العبادة من المؤمنين طلبُ الزيادة فيها ، والثبات عليها ؛ ومن الكافرين ، ابتداؤها . « الَّذِى خَلَقَكُمْ » أنعم عليكم بإخراجكم من العدم إلى الوجود « وَ » ـ خلق ـ « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى كى تتقون ، كقوله تعالى « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) ، وقوله سبحانه « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »(٢) . وفى إيراد « لعلّ » تشبيه طلبه تعالى برجاء الراجى من المرجوّ منه أمراً هيّن الحصول . فإنّه تعالى لما وضع فى أيدى المكلفين زمامَ الاختيار ، وطلب منهم الطاعة ، ونصب لهم أدلّةً عقليّةً ونقليّةً داعية إليها ؛ ووعد ، وأوعد ، وألطف بما لا يحصى كثرة ـ لم يبق للمكلف عذر ، وصار حاله فى رجحان اختياره للطاعة مع تمكنه من المعصية كحال المترجى منه فى رجحان اختياره لما يرتجى منه ـ مع تمكّنه من خلافه ـ وصار طلب الله تعالى لعبادته واتّقائه بمنزلة الترجّى ـ فيما ذكرناه ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« الَّذِى جَعَلَ » ـ خلق ـ « لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا » بساطاً ومهاداً غير حزنة ، « وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » البناء ، فى الأصل ، مصدر سمى به المبنىّ ـ بيتاً كان ، أو قبّةً ، أو خباءً . قال بعض علماء الفلك فى معنى الآية : أى كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً . و « السماء » يُراد بها الجنس كالسموات ، والمعنىّ بها الكواكب السيارات ـ قال ـ : فجميع السموات

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [٦٧ / الملك / ٢] .

أو الكواكب كالبناء المرتبط بعضه ببعض من كلّ جهة ، المتماسك كأجزاء الجسم الواحد بالجاذبية التى تحفظ نظامها فى مداراتها ، وهو جذب الشمس لها .

« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى : السحاب « مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » النهى متفرع على مضمون ذلك الأمر، كأنَّه قيل: إذا أُمِرْتُم بعبادة مَنْ هذا شأنُه ـ من التفرّد بهذه الأفعال الجليلة ـ فلا تجعلوا له أنداداً شركاء فى العبادة، أى أمثالًا تعبدونهم كعبادته ـ جمع ندّ . وهو المثل ، ولا يقال إلّا للمثل المخالف المناوئ ـ فإن قيل : كيف صلح تسميتها أنداداً وهم ما كانوا يزعمون أنها تخالفه وتناوئه ، بل كانوا يجعلونها شفعاء عنده ؟ . أجيب : بأنَّهم لما تقرَّبوا إليها ، وعظموها ، وسمَّوْها آلهة ـ أشبهت حالهم حالَ من يعتقد أنَّها آلهة مثله قادرة على مخالفته ، ومضادّته ، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكُّم . وكما تهكَّم بهم بلفظ الندّ شنّع عليهم، واستفظع شأنهم ، بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصحُّ أن يكون له ندّ قط .

« وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ما بينه وبينها من التفاوت ، وأنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ»(١)؛ أو وأنتم من أهل العلم والمعرفة ـ والتوبيخ فيه آكد ـ أى أنتم العرافون المميزون ، ثمَّ ما أنتم عليه فى أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً ـ هو غاية الجهل ، ونهاية سخافة العقل .

ومما ينبغى التفطُّن له ـ فى الاعتبار بهذه الآية ـ ما قاله الزمخشرىّ : من أنَّه سبحانه وتعالى قدَّم من موجبات عبادته ، وملزمات حقِّ الشكر له : خَلْقَهُمْ أحياء قادرين أوَّلا ـ لأنه سابقة أصول النعم ، ومقدِّمتها ، والسبب فى التمكُّن من العبادة والشكر وغيرهما ـ ؛ ثمَّ خلق الأرض ـ التى هى مكانهم ، ومستقرُّهم الذى لابدَّ لهم منه ـ وهى بمنزلة عرصة المسكن ، ومتقلَّبه ، ومفترشه ؛ ثمَّ خلق السماء ـ التى هى كالقبَّة المضروبة ، والخيمة المطنَّبة ـ على هذا القرار ؛ ثمَّ ما سوَّاه عزَّ وجلَّ من شبه عقد النكاح بين المُقِلَّة والمُظِلَّة .

(١) [٣٠ / الروم/ ٤٠]

بإنزال الماء منها عليها ، والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان ـ من ألوان الثمار ـ رزقاً لبني آدم ، ليكون لهم ذلك معتبراً ، ومتسلقاً إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف . ونعمةً يتعرّفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكّرون فى خلق أنفسهم ؛ وخلق ما فوقهم وتحتهم ، وأنَّ شيئاً من هذه المخلوقات كُلِّها لا يقدر على إيجاد شيء منها ، فيتيقَّنوا ـ عند ذلك ـ أن لا بُدَّ لها من خالق ـ ليس كمثلها ـ حتى لا يجعلوا المخلوقات له أنداداً ، وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر .

ونظير هذه الآية قوله تعالى « اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) . فمضمونه أنَّه الخالق ، الرازق ، مالك الدار وساكنيها، ورازقهم . فبهذا يستحقّ أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره .

ولمّا احتج عليهم بمـا يثبت الوحدانية ، ويحققها . ويبطل الإشراك ، ويهدمه . وعلم الطريق إلى إثبات ذلك ، وتصحيحه . وعرّفهم أن مَن أشرك فقد كابر عقله ، وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه ـ عطف على ذلك ماهو الحجّة على إثبات نبوّة محمد ﷺ ، وما يدحض الشبهة فى كون القرآن معجزة ، وأراهم كيف يتعرّفون : أهو من عند الله ـ كما يدّعى ـ أم هو من عند نفسه ـ كما يدّعون ـ ؟ بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ، ويذوقوا طباعهم ، وهم أبناء جنسه ، وأهل جلدته . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا » ـ أى من القرآن الذى نزّلناه ـ « عَلَىٰ

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٤] .

عَبْدِنَا » محمّد ﷺ أنه من عند الله تعالى ، والتعبير عن اعتقادهم في حقّه بالريب ـ مع أنّهم جازمون بكونه من كلام البشر ـ كما يعرب عنه قوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » إمّا للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن صدوره عنهم ـ وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد ـ هو الارتياب في شأنه (وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال ، كما أنّ تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقّه أن يكون ضعيفاً مشكوكَ الوقوع) وإمّا للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ، ونهاية قوّتها . وإنّما لم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ... الخ ، لِمَا أشير إليه ـ فيما سلف ـ من المبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبه وقوع الريب فيه ـ حسبما نطق به قوله تعالى « لَا رَيْبَ فِيهِ » ـ والإشعار بأن ذلك ـ إنْ وقع ـ فمن جهتهم لا مِنْ جهته العالية . واعتبار استقرارهم فيه ، وإحاطته بهم ، لا ينافي اعتبار ضعفه وقلّته : لِمَا أنّ ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به ، لا قلّته ولا كثرته . وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية ، مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ـ من التشريف ، والتنويه ، والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ ، وانقياده لأوامره تعالى ـ ما لا يخفى . والأمر في قوله تعالى : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ » من باب التعجيز وإلقام الحجر، كما في قوله تعالى « فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ »[1]، أو مِن باب المجاراة معهم ـ بحسب حسبانهم ـ حيث كانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . و « السورة » الطائفة من القرآن العظيم المترجمة ، وأقلّها ثلاث آيات ، وواوها أصلية . منقولة من سور البلد ـ لأنها محيطةٌ بطائفةٍ من القرآن مفرزةٍ ، مُحوزَةٍ . أو محتويةٌ على فنونٍ رائقة من

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

العلوم ، احتواءَ سور المدينة على ما فيها . أو من السورة التي هي الرتبة . فإن سُوَرَ القرآن مع كونها في أنفسها رتباً ـ من حيث الفضل والشرف ، أو من حيث الطول والقصر ـ فهي من حيث انتظامها مع أخواتها في المصحف : مراتب يرتقي إليها القارىء شيئاً فشيئاً . و « من » في قوله تعالى « مِنْ مِثْلِهِ » بيانيّة متعلقة بمحذوف صفة لسورة ، والضمير « لما نزلنا » أي بسورةٍ كائنةٍ من مثله في علو الرتبة ، وسموّ الطبقة ، والنظم الرائق ، والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز . وقيل « من » زائدة ـ على ما هو رأي الأخفش ـ بدليل قوله تعالى « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »(١) « بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ »(٢) .

وقوله تعالى « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ » إرشادٌ لهم إلى إنهاض أمّةٍ جمّةٍ ، ليحتشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم ، ويتعاونوا على الإتيان بقدرٍ يسيرٍ مماثل في صفات الكمال لما أتى بجملته واحدٌ من أبناء جنسهم . وهذا كقوله تعالى في سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢) و « الشهداء » جمع شهيد ، بمعنى : الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر . و « من » لا بتداء الغاية متعلّقة بـ « ادعوا » والظرف مستقرّ . والمعنى : ادعوا ، متجاوزين الله تعالى للاستظهار ، مَنْ حضركم ـ كائناً من كان ـ أو الحاضرين في مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم ـ الذين تفزعون إليهم في الملمات ، وتعوّلون عليهم في المهمّات ـ أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم ـ من

(١) [١٠ / يونس / ٣٨] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [١١ / هود / ١٣] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أمنائكم المتولّين لاستخلاص الحقوق ، بتنفيذ القول عند الولاة ـ أو القائمين بنُصْرتكم ـ حقيقةً أو زعماً ـ من الإنس والجنّ ليعينوكم . وإخراجه ، سبحانه وتعالى ، من حكم الدعاء فى الأوّل ـ مع اندراجه فى الحضور ـ لتأكيد تناوله لجميع ما عداه ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه ؛ فإنّ ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه . وأمّا فى سائر الوجوه : فللتصريح من أوّل الأمر ببراءتهم منه تعالى ، وكونهم فى عدوة المحادّة والمشاقة له ، قاصرين استظهارهم على ما سواه ؛ والالتفات لإدخال الروعة ، وتربية المهابة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى زعمكم أنه من كلامه ﷺ ، واستلزام المقدّم للتالى من حيث أنّ صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله ، بقضية مشاركتهم له ﷺ فى البشرية والعربية ، مع ما بِهِم من طول الممارسة للخطب والأشعار ، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، لا سيما عند المظاهرة والتعاون ـ ولا ريب فى أن القدرة على الشيء مِن موجبات الإتيان به ، ودواعى الأمر به ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا » أى : ما أمرتم به من الإتيان بالمثل ، بعد ما بذلتم فى السعى غاية المجهود « وَلَنْ تَفْعَلُوا » اعتراض بين جزأى الشرطية ، مقررٌ لمضمون مقدمها ، ومؤكدٌ لإيجاب العمل بتاليها ، وهى معجزة باهرة : حيث أخبر بالغيب الخاص ـ علمه به عز وجل ـ وقد وقع الأمر كذلك « فَاتَّقُوا النَّارَ » جواب للشرط ، على أن اتقاء النار كنايةٌ عن الاحترازِ من العناد ، إذ ـ بذلك ـ يتحقّق تسبُّبه عنه ، وترتبه عليه ، كأنه قيل : فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله ـ كما هو المقرر ـ فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه ، فإنه مستوجب للعقاب بالنار ، لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنيّة على

تصوير العناد بصورة النار ، وجَعْلِ الاتصاف به عين الملابسة بها ، للمبالغة فى تهويل شأنه ، وتفظيع أمره ، وإظهار كمال العناية ـ بتحذير المخاطبين منه ، وتنفيرهم عنه ، وحثهم على الجد فى تحقيق المكنى به ـ وفيه من الإيجاز البديع مالا يخفى . حيث كان الأصل : فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم ، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد ، وتَرْكُكُم الإيمان به ، سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار ، فاحترزوا منه واتقوا النار «الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» صفة للنار مورثة لها زيادةَ هولٍ وفظاعة ـ أعاذنا الله منها برحمته الواسعة ـ و « الوقود » ماتوقد به النار ، وترفع من الحطب . وقُرِئَ بضم الواو ، وهو مصدرٌ سمّى به المفعول مبالغة ـ كما يقال : فلانٌ فَخْرُ قومه ، وزين بلده ـ فإن قيل: صلة الذى والتى يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب ، فكيف علم أولئك أنّ نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟

قلت : لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك سماع من آيات التنزيل المتقدّمة عليها ، أو من رسول الله ﷺ ، أو من أهل الكتاب . والمراد بالحجارة الأصنام، وبالناس أنفسهم ـ حسبما ورد فى قوله تعالى « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) فإنها مفسّرةٌ لِما نحن فيه ـ وحكمة اقترانهم مع الحجارة فى الوقود : أنهم لمّا اعتقدوا فى حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستنفعون بهم ، ويستدفعون المضارّ عن أنفسهم بمكانهم ، جعلها الله عذابهم ، فقرنهم بها مُحماةً فى نار جهنم ـ إبلاغاً فى إيلامهم ، وإغراقاً فى تحسيرهم . ونحوه ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضّتهم عدةً وذخيرة ، فشحّوا بها ، ومنعوها من الحقوق ، حيث يحمى عليها فى نار جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى جباههم وجنوبهم « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » هُيِّئت لهم ، وجعلت عدةً لعذابهم . والمراد : إما جنس الكفّار ـ والمخاطَبُون داخلون فيهم دخولًا أوّليًّا ـ وإمّا هم خاصة ، ووضع الكافرين موضع ضميرهم ـ لذمّهم ، وتعليل الحكم بكفرهم ـ والجملة مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، ومبيّنة لمن أريد بالناس ، دافعة لاحتمال العموم .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

(تنبيه) هـذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدِّى الـكافرين بالتنزيل الـكريم . وقد تحدَّاهم الله تعالى فى غير موضع منه ، فقال فى سورة القصص « قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١) . وقال فى سورة سبحان « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(٢). وقال فى سورة هود « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٣). وقال فىسورة يونس « وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْـكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٤) . وكل هذه الآيات مكيّة . ثمّ تحدَّاهم أيضاً فى المدينة بقوله « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ... إلى آخر هذه الآية »(٥) فعجزوا عن آخرهم: ـ وهم فرسان الـكلام ، وأرباب النظام ، وقد خُصوا من البلاغة والحِـكم ، ما لم يخص به غيرهم من الأمم . وأوتوا من ذرابة اللسان ، ما لم يؤت إنسان . ومن فصل الخطاب ، ما يقيّد الألباب . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقةً ، وفيهم غريزةً وقوَّةً . يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُدلون به إلى كل سبب. فيخطبون بديهاً فى المقامات وشديد الخَطْب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب . ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصَّلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون بالسحر

---

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٨] .
(٣) [١١ / هود / ١٣] .
(٤) [١٠ / يونس / ٣٧و٣٨] .
(٥) [٢ / البقرة / ٢٣] .

الحلال ، ويطوّقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب . ويذهبون الإحَن ، ويهيجون الدِّمَن . ويُجَرِّئون الجبان ، ويبسطون يدَ الجعد البَنَان . ويصيّرون الناقصَ كاملا ، ويتركون النبيه خاملًا . منهم البدويّ : ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهريّ ، والمنزع القويّ . ومنهم الحضريّ : ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرُّف في القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية . وكلا البابين فلهُما ـ في البلاغة ـ الحجّة البالغة ، والقوّة الدامغة ، والقِدْح الفالج ، والمهيع الناهج . لا يشكّون أنّ الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قَدَحُوا فنونها ، واستنبطوا عيونها ، ودخلوا من كلِّ بابٍ من أبوابها ، وَعَلَوْا صرحاً لبُلُوغ أسبابها ، فقالوا في الخطير والمهين ، وتفنّنوا في الغثّ والسمين ، وتقاولوا في القلّ والكثر ، وتساجلوا في النظم والنثر ـ ومع هذا ـ فلم يتصدَّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ، ولم ينهض ـ لمقدار أقصر سورة منه ـ ناهضٌ من بلغائهم ، على أنّهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عددًا من رمال الدهناء ، ولم ينبض منهم عرق العصبيّة مع اشتهارهم بالإفراط في المضادّة والمضارّة ، وإلقائهم الشراشر على المُعَازَّة والمُمَارَّة ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخُطط ، وركوبهم في كل مايرومونه الشطَط : إن أتاهم أحدٌ بمفخرةٍ أتَوْه بمفاخر ، وإنْ رماهم بمأثرةٍ رمَوْه بمآثر . وقد جرَّدَ لهم الحجّة أوّلا ، والسيف آخراً ، فلم يعارضوا إلا السيف وحده . فما أعرضوا عن معارضة الحجّة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب ؛ وبذلك يظهر أنّ في قوله تعالى « وَلَنْ تَفْعَلُوا » معجزةً أخرى ، فإنهم ما فعلوا ، وما قدروا ، ومَن تعاطى ذلك من سخفائهم ـ كمسيلمة ـ كشف عواره لجميعهم .

قال الحافظ ابن كثير : ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أُنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال له عمرو : لقد

أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال: وماهى؟ فقال «وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أُنزل علىَّ مثلها . قال : وما هو ؟ فقال : يا وَبْرُ يا وَبْرُ[1] ! إنما أنت أُذُنان وصدر . وسائرك حَفْر نَقْر ـ ثم قال ـ : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إنى أعلم أنك تـكذب ! . . .

وحيث عجز عرب ذلك العصر ، فما سواهم أعجز فى هذا الأمر . . ! وقد مضى ـ إلى الآن ـ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، ولم يوجد أحدٌ من معاديه البلغاء إلا وهو مسلم ، أو ذو استسلام ؛ فدلَّ على أنَّه ليس من كلام البشر ، بل كلام خالق القُوَى والقُدَر ، أنزله تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لمقوله . وهذا الوجه ـ أعنى بلوغه فى الفصاحة والبلاغة إلى حدٍّ خرج عن طوق البشر ـ كافٍ وحده فى الإعجاز ، وقد انضمَّ إليه أوجه :

(منها) : إخباره عن أمور مغيبة ظهرت كما أخبر . و (منها) كونه لا يملّه السمع مهما تكرر. و (منها) جمعه لعلوم لم تكن معهودة ، عند العرب والعجم. و (منها) إنباؤه عن الوقائع الخالية ، وأحوال الأمم . والحال أنَّ مَن أُنزِل عليه ، ﷺ ، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، لاستغنائه بالوحى ، وليكون وجه الإعجاز بالقبول أحرى . وبذلك يُعلم أنَّ القرآن أعظم المعجزات ، فإنَّه آية باقية مدى الدهر ، يشاهدها ـ كلَّ حين بعين الفكر ـ كلُّ ذى حِجْر . وسواه ـ من المعجزات ـ انقضت بانقضاء وقتها ، فلم يبق منها إلا الخبر.

وقد ذهب بعض علماء الشيعة ـ فى وجه إعجازه ـ إلى : كونه قاهراً لمن يقاومه ،

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (ج ٤ ص ٥٤٧) بعد أن ساق هذا ، مانصه : الوَبْر دويبة تشبه الهرّ ، أعظم شيء فيه أذناه وصدره ، وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركّب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يَرُجْ ذلك على عابد الأوثان ، فى ذلك الزمان .

وغالباً على من يغالبه ، ونافذاً فى إزهاق ما يخالفه . وكونه مؤثراً فى إيجاد الأمة ، وبقاء الشريعة ، ونفوذ الحكم ، وثبوت الكلمة ، لما جعل الله فيه من النور ، والهداية ، والرحمة . وعبارته : إنّ كلام الله تعالى يمتاز عن غيره بالنفوذ ، والغلبة فى هداية الخلق ، وإنشاء أمة مستقلّة ، وإبقاء شريعة جديدة . وهى علامة كافية فى معرفة الكلمات الالآهية، والآيات السماوية . ثم قال : وخلاصة تقرير الدليل أن الكلام ـ الذى يتحدّى الداعى به ، وينسبه إلى الله ـ إذا ظهر منه التأثير التام فى هداية النفوس المستعدة الطالبة ، وقهر الأمم المنكرة المانعة ، فأوجدأمةً مستقلةً نامية ، وشريعةً جديدة باقية ، فلا يبقى ثمّت شك أنه هو كلام الله النازل من السماء ، والقدرة الظاهرة منه هى القدرة التى منذ القديم ظهرت من المرسلين والأنبياء . وإلى هذه النكتة أشير فى قوله تعالى « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »[1] وقال تعالى « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ »[2] وهذه العلامة لاتوجد إلّا فى كتب الله تعالى. ويتمكن كل إنسان أن يدركها ويفهمها منها. سواء كان عالماً ، أو أمياً. عربياً ، أو عجمياً . شرقياً، أو غربياً ..! فمن الذى يشك أن بنى إسرائيل ما خرجوا عن ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، وعن ذلّة العبودية إلى عزّ الاستقلال إلا بسبب التوراة ..؟! ومن الذى يجهل أن الأمم الأوروبية ما وصلوا إلى عبادة الله تعالى ـ بعد عبادة الأوثان ـ إلّا بواسطة الإنجيل ..؟! ومن الذى لا يعرف أن الأمم الكبرى ـ من حدود الشرق الأقصى إلى أقاصى إفريقيّة ـ ما خرجوا عن ربقة الوثنيّة ،

---

(١) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها : وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٦] .

وعبادة النار إلى التوحيد وعبادة الله إلّا بهداية القرآن العظيم ؟ وما تحرروا عن أغلال العقائد الفاسدة ، والأعمال القبيحة ، وما وصلوا إلى الأخلاق الفاضلة ، والعقائد الصحيحة إلّا بنور هذا السِّفْرِ الكريم ..؟! ثم قال : والخلاصة إن هذه العلامة وهى هداية النفوس ، وإيجاد الديانة الجديدة ـ بقهر الأديان القديمة ، وتبديل العوائد العتيقة ـ هى العلامة الظاهرة المميِّزة بين الكلمات الالهية ! والمصنّفات البشرية . حتى أن أوّل نفس أذعنت بحقيقة رسالة رسول ، وصدق شريعته ، لو لم تعرف فى نفسها هذه الهداية ، ولم تشعر فى ذاتها بهذه المغلوبية لما كانت أوّل مَن صدّقه ولبّاه ، واتبعه وآساه ؛ فإن محبّة الدين القديم الموروث راسخةٌ فى جميع النفوس . والخوف من تبديل أركانه وآدابه متمكّنٌ فى أعماق القلوب . فالهِدَايَةُ أظهر علامة فى صدق النبوة والرسالة ، إذ هى صفة الفعل ، ومرتبطة بالدعوة ـ كالابراء للطب ، ومعرفة السطوح للهندسة ، والبيع والشراء للتجارة ، وصنع الأسرّة والأبواب وغيرها للنجارة ـ ثم قال : وإذا تصفّحت القرآن المجيد ، تجد أن الله تعالى استدلّ بها فى مواضع متعدّدة ، ووصف القرآن بأنه حجّة ـ بما أودع فيه من الهداية والرحمة ـ ولا ترى موضعاً واحداً وصفه بأنه أفصح الكتب وأبلغ الصحف ، فانظر فى قوله تعالى « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(١) . أترى أن الله تعالى ألحمهم بقوله : فأتوا بكتاب من عند الله هو أفصح منهما أو أبلغ منهما ؟ وكذلك لما انتقدوا على النبىّ ﷺ بعدم صدور معجزة منه كالمعجزات السالفة ، فقال تعالى « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨و٤٩] .

فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(٣) فبين الله تعالى مزية القرآن على سائر المعجزات ، وكفايته عن غيره بأن فيه الذكرى والرحمة . وقال تعالى فى أول هذه السورة « الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » وماقال فيه فصاحة وبلاغة يعجز عن مثلها جميع العالمين . وذلك لأن الفصاحة والبلاغة من الأوصاف الخفية الغامضة الدقيقة ـ التى تختلف فيها الأذواق ، وتتشعّب فيها الآراء والأنظار ـ ولكن ما ظهر من الرسول عليه السلام ـ بسبب نزول القرآن عليه ـ من العلم والقدرة على هداية الأمم ، وإزالة أسقام أهل العالم ، وتأسيس الشريعة الإلهامية ، وإيجاد الأمة الإسلامية رغماً للأمم الكبرى ، ومباينأ للديانات العظمى : أمر ظاهر محسوس ، تصعب فيه المناقشة ، ولا تفيد معه المغالطة . فمن الذى يمكنه أن ينكر أن الأمم العظيمة ـ كالعرب ، والفرس ، والخزر ، والترك ، والهنود ، والصينيين ، وأهالى إفريقيّة ـ خرجوا من ظلمات الشرك ، وعبادة النار والأوثان ، وإنكار الأنبياء ؛ ودخلوا فى نور التوحيد ، وعبادة الله وحده ، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه ، بنور الكتاب المبين ..!!

ـ كذا فى كتاب (الدرر البهية) لأبى الفضائل الإيرانىّ ـ ولا يخفى أن ما ذكره هو وجه متين ، ولكن لا يسوغ نفى ما عداه لأجله ، بل يجدر أن يضم إليها ، ويكون فى مقدمتها والله أعلم .

ثم إن من عادته تعالى ، فى كتابه ، أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار . وهذا معنى تسمية القرآن مثانى ـ على الأصح ـ وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر ـ أو عكسه ـ أو حال السعداء ثم الأشقياء ـ أو عكسه ـ وحاصله ذكر الشيء ومقابله . والحكمة فى ذلك : هى إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف ، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف . فلما ذكر الكفار وأعمالهم ، وأوعدهم بالعقاب ، قفّاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصى ـ فقال عز وجلّ :

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (البشارة) : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به . ومنه البَشَرَة : لظاهر الجلد . وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه . وأمّا « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء ـ الزائد في غيظ المستهزَأ به ، وتألّمه ، واغتمامه ـ ففيه استعارة أحد الضدّين للآخر تهكّماً وسخرية . و « الصالحات » ما استقام من الأعمال أي صلح لترتب الثواب عليه . وقد أجمع السلف على أنّ الإيمان : قولٌ وعملٌ ، يزيد وينقص . ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال ، لقول النبيّ ﷺ (١) :

« الإيمان بضع وستون شعبة ـ أو بضع وسبعون شعبة ـ أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبةٌ من الإيمان » .

وإذا عطف عليه ـ كما في هذه الآية ـ فهنا ، قد يقال : الأعمال دخلت فيه ، وعطفت عطف الخاص على العام . وقد يقال : لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف ـ كما في اسم الفقير

---

(١) أخرجه ابن ماجه في: المقدمة ، ٩ ـ باب في الإيمان ، حديث ٥٧ (طبعتنا) ونصه: عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا . أدناها إماطة الأذى عن الطريق . وأرفعها قول : لا إله إلا الله . والحياء شعبة من الإيمان » .

والمسكين. إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان ـ وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البرّ ، والتقوى ، والمعروف . وفي الإثم ، والعدوان ، والمنكر . تختلف دلالتها في الإفراد والاقتران لمن تدبّر القرآن .

وقد بيّن حديث جبريل أنّ الإيمان أصله في القلب ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ـ كما في المسند عن النبيّ ﷺ ـ أنه قال[1] :

« الإسلام علانية والإيمان في القلب » .

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح[2] :

« ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » .

فإذا كان الإيمان في القلب ، فقد صلح القلب . فيجب أن يصلح سائر الجسد ، فلذلك هو ثمرة ما في القلب . فلهذا قال بعضهم : الأعمال ثمرة الإيمان. وصحته، لما كانت لازمةً لصلاح

(١) أخرجه الإمام أحمد : ج ٣ ص ١٣٥ (طبعة الحلبيّ) ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يقول « الإسـلام علانية والإيمان في القلب » قال ، ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات . قال ، ثم يقول « التقوى ههنا . التقوى ههنا » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه .

ونصه :

عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بيّن والحرام بيّن . وبينهما مُشبّهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد القلب كله . ألا وهي القلب » .

القلب، دخلت فى الاسم . كما نطق بذلك الكتاب والسنة فى غير موضع ، هذا ما أفاده الإمام ابن تيميّة رحمه الله .

وقوله تعالى « أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ » جمع (جَنَّة) : وهى البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلّل بالتفاف أغصانه . وإنما سميت « دار الثواب » بها مع أنّ فيها مالا يوصف من الغرفات والقصور، لِما أنّها مناط نعيمها ، ومعظم ملاذّها . وجمعها مع التنكير : لاشتمالها على جِنانٍ كثيرةٍ فى كلٍّ منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها .
وقوله « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » صفة جنّات ، ثم إن أريد بها الأشجار، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ؛ وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها ، فلابدّ من تقدير مضاف ـ أى من تحت أشجارها ـ وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار ، فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحّح لإطلاق اسم الجَنّة على الكل ، وإنما جىء ذكر الجنات ـ مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية ـ لِما أنّ أنزهَ البساتين ، وأكرمَها منظراً ، ما كانت أشجاره مظلّلة ، والأنهار فى خلالها مطّردة ، وفى ذلك النعمة العظمى واللذة الكبرى . واللام فى الأنهار : للجنس ـ كما فى قولك : لفلان بستان فيه المـاء الجارى ـ أو للعهد . والإشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى « فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ... »(١) الآية .
« كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا » ـ أى : أُطعموا من تلك الجنات ـ « مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ » ـ أى: مثل الذى رزقناه من قبل هذا الذى أحضر إلينا ـ فالإشارة إلى المرزوق فى الجنّة لتشابه ثمارها. بقرينة قوله « وَأُتُوا بِهِ » ـ أى : أتتهم الملائكة والولدان

(١) [٤٧ / محمد / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

برزق الجنّة ـ « مُتَشَابِهاً » يشبه بعضه بعضاً لوناً ، ويختلف طعماً ، وذلك أجْلَبُ للسرور ، وأَزْيَدُ في التعجُّب ، وأَظْهَرُ للمزّية ، وأَبْيَنُ للفضل . وترديدهم هذا القول ، ونطقهم به ـ عند كلّ ثمرةٍ يُرزَقونها ـ دليل على تناهي الأمر في استحكام الشَّبَه ، وأنّه الذي يستملي تعجُّبهم ، ويستدعي استغرابهم ، ويفرط ابتهاجهم . فإن قيل: كيف موقع قوله « وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً » من نظم الكلام ؟ قلت : هو كقولك : فلان أحسن بفلان ، ونعم ما فعل . ورأى من الرأى كذا ، وكان صواباً . ومنه قوله تعالى « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ »(١) . وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير .

« وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » من الحيض والاستحاضة وما لا يختصّ بهنّ من الأقذار والأدناس ـ ويجوز ، لمجيئه مطلقاً ، أن يدخل تحته الطهر من دَنَس الطباع، وسوء الأخلاق وسائر مثالبهنّ وكيدهنّ .

وقوله تعالى « وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » هذا هو تمام السعادة ؛ فإنّهم ـ مع هذا النعيم ـ في مقامٍ أمينٍ من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل في نعيمٍ سرمديٍّ أبديٍّ على الدوام . والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم. إنّه البرّ الرحيم .

ولمّا ضرب تعالى ـ فيما تقدم ـ للمنافقين مَثَلَيْن : في قوله « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ... الخ » وقوله « أَوْ كَصَيِّبٍ ... الخ » إلى أمثالٍ أخرى تقدّمت على نزول هذه السورة ، من السُّوَر المكية ، ضربت للمشركين ـ نبّه تعالى إلى موضع العبرة بها ، والحكمة منها، وتضليل مَن لا يقدّرها قدرها ـ مِمَّن يتجاهل عن سرِّها ، ويتعامى عن نورها ، ويحول دون الاهتداء بها ، والأخذ بسببها ـ فقال سبحانه :

---

(١) [٢٧ / النمل / ٣٤] ونصها : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » أى : يذكر مثلًا ما . يقال : ضرب مثلًا ، ذكره ، فيتعدّى لمفعول واحد . أو صيّر ، فلمفعولين .

قال أبو إسحاق فى قوله تعالى « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا »(١) أى : اذكر لهم . وعبارة الجوهرىّ : ضرب الله مثلًا أى وَصَفَ وبَيَّن . وفى شرح نظم الفصيح : ضرب المثل: إيراده ليتمثل به ، ويتصوّر ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشىء مثلاً ، وضرب به ؛ وتمثّله ، وتمثّل به . ثم قال : وهذا معنى قول بعضهم : ضرب المثل اعتبار الشىء بغيره، وتمثيله به. و «ما» هذه اسميّة إبهاميّة ، وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً، وزادته شياعا وعموماً ـ كقولك : أعطنى كتاباً مّا ، تريد أىّ كتاب كان ـ كأنه قيل : مثلاً مّا من الأمثال أىّ مثل كان . فهى صفة لما قبلها . أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها ـ كما فى قوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) ـ كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقًّا ، أو البتّة .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٣٢] ونصها : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا .

و [٣٦ / يس / ١٣] ونصها: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ =

و « بعوضة » بدل من « مثلاً » . أو هما مفعولا « يضرب » لتضمّنه معنى الجعل والتصيير . ومعنى الآية : إنه تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ، تَرْكَ من يستحيي أن يتمثّل بها لحقارتها . أى لا يستصغرُ شيئاً يضرب به مثلاً ـ ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ـ كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله « يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »[1] وقال « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »[2] وغيرذلك من أمثال الكتاب العزيز . فما استنكره السُّفهاء وأهلُ العناد والمِراء ، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء ومضروباً بهاالمثل ـ ليس بموضعٍ للاستنكار والاستغراب . مِنْ قِبَلِ أن التمثيل إنما يصارإليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهَّم من المشاهَد . فإن كان المتمثّل له عظيماً ، كان المتمثّل به مثله . وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك . فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إذاً ، إلاّ أمراً تستدعيه حال المتمثَّل له وتستجرّه إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضيّة . ألا ترى إلى الحقّ لما كان واضحاً ، جلياً أبلج ، كيف تمثّل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضدّ صفته ، كيف تمثل له بالظلمة ؟ أفاده الزمخشريّ .

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] .

تحقيق حقية صدوره عنه تعالى ـ أى : فأمّا المؤمنون « فَيَعْلَمُونَ أَنَّه الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » ـ كسائر ما وَرَد منه تعالى ـ والحقّ هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره . وذلك لأن التمثل به مسوق على قضيّة مضربه ، ومحتذى على مثالِ ما يستدعيه ـ كما جعل بيت العنكبوت مثل الآلهة التى جعلها الكفّار أنداداً لله تعالى ـ وجعلت أقلّ من الذباب ، وأخسّ قدراً . وضربت لها البعوضة فما دونها مثلاً ، لأنه لاحال أحقر من تلك الأنداد وأقلّ ..! فالمؤمنون ـ الذين عادتهم الإنصافُ ، والعملُ على العدل والتسوية ، والنظرُ فى الأمور بناظر العقل ـ إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنّه الحقُّ الذى لا تمرّ الشبهة بساحته ، والصوابُ الذى لا يرتع الخطأ حوله « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » مِمَّن غلبهم الجهل على عقولهم ، وغشيهم على بصائرهم ـ فلا يتفطّنون ، ولا يلقون أذهانهم . أو عرفوا أنّه الحق ، إلّا أنّ حب الرياسة ، وهوى الإلف والعادة ، لا يخليهم أن يُنْصِفُوا « فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا » أى : فإذا سمعوه عاندوا ، وكابروا ، وقضَوْا عليه بالبطلان ، وقابلوه بالإنكار . وَلاَ خفاء فى أنّ التمثيل بالبعوضة وبأحقر منها ـ مما لا تغبى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة . ولكنّ ديدن المحجوج المبهوت الذى لا يبقى له متمسك بدليل ، ولا متشبّث بأمارة ولا إقناع ، أن يرمى لفرط الحيرة ، والعجز عن إعمالِ الحيلَةِ ، بدفع الواضح، وإنكار المستقيم ، والتعويل على المكابرة والمغالطة ـ إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً . « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » جوابٌ عن تلك المقالة الباطلة ، وردّ لها ببيان أنه مشتملٌ على حكمةٍ جليلة ، وغاية جميلة ، هى كونه ذريعة إلى هدايةِ المستعدّين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغواية . وقدّم الإضلال على الهداية ـ مع تقدّم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله، ليكون أول مايقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوؤهم ، ويفت فى أعضادهم، وهو السرّ فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر « وَمَا يُضِلُّ بِهِ » أى بالمثل أو بضربه « إِلَّا الْفَاسِقِينَ » تكملة للجواب والردّ ، وزيادة تعيين لمن أريد إضلالهم ، ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

« الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ » صفة للفاسقين، للذم . و « العهد » الذى وصفوا بنقضه : هو وصيّة الله إلى خلقه ، وأمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إيّاهم عمّا نهاهم عنه من معصيته ـ فى كتبه ، وعلى لسان رسله ـ ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » عامٌّ فى كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى : كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق ، وسائر مافيه رفض خيرٍ أو تعاطى شرّ ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كلّ وصل وفصل « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » بالمنع عن الإيمان ، والاستهزاء بالحقّ ، وقطع الوُصَل التى بها نظام العالم وصلاحه « أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لأنّهم استبدلوا النقضَ بالوفاء ، والقَطْعَ بالوصل ، والفساد بالصلاح ، وعقابها بثوابها . وهذه الصفات المسوقة فى الآية صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين ، كما قال تعالى فى سورة الرعد : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ »(١) الآيات ـ إلى أن قال ـ : « وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »(٢) .

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٩و٢٠و٢١] .

(٢) [١٣ / الرعد / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ » التفات إلى خطاب المذكورين، مبنىٌّ على إيراث ما عدّد من قبائحهم السابقة ، لتزايد السخط الموجب المشافهة بالتوبيخ والتقريع . والاستفهام إنكارىّ بمعنى إنكار الواقع ، واستبعاده ، والتعجيب منه ، لأن معهم مايصرف عن الكفر ، ويدعو إلى الإيمان « وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا » أجساماً لا حياةَ لها ـ عناصر ، وأغذية ، ونطفاً ، ومضغاً مخلّقةً وغير مخلّقة ـ وإطلاق الأموات على تلك الأجسام الجمادية ، إمّا حقيقة ـ بناء على أنّ الميت عادم الحياة مطلقاً ، كما فى قوله تعالى « بَلْدَةً مَيْتاً »(١) و « وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ »(٢) . أو استعارة ، جرياً على أنّ إطلاق الميت فيما تصح فيه الحياة ، لاجتماعهما فى أن لا روح ولا إحساس . « فَأَحْيَاكُمْ » بخلق الأرواح ، ونفخها فيكم . وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه ، غير متراخٍ عنه، بخلاف البواقى « ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » عند تقضى آجالكم « ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » بالنشور ، والبعث ، للحساب والجزاء « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ بعد الحشر ـ فيجازيكم بأعمالكم : إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ . فما أعجب كفركم مع علمكم بحالتكم هذه ..!

فإن قيل : إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم ، لم يعلموا أنّه يُحْيِيهم ثم إليه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤٩] ونصها : لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا .

و [٥٠ /ق / ١١] ونصها: رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا، كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ .

(٢) [٢٦ / يس / ٣٣] ونصها : وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ .

يرجعون ، فكيف نظم ما ينكرونه ، من الإحياء الأخير والرجع ، فى سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة ..؟

قلتُ : تمكّنهم من العلم بهما ــ لما نصب لهم من الدلائل ــ منزل منزلة علمهم فى إزاحة العذر . سيّما وفى الآية تنبيه على مايدلّ على صحتهما . وهو أنّه تعالى لما قدر على إحيائهم أولاً ، قدر على أن يحييهم ثانياً . فإنّ بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته ..! أو الخطاب ، مع أهل الكتابَيْن . وإنكار اجتماع الكفر ــ مع القصة التى ذكرها الله تعالى ــ إمّا لأنها مشتملة على آيات بيّنات تصرفهم عن الكفر، أو على نعمٍ جسامٍ حقّها أن تُشكر ولاتكفر. أو لإرادة الأمرين جميعاً . فإنّ ما عدّده آيات ، وهى ــ مع كونها آيات ــ من أعظم النعم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً » بيان نعمةٍ أخرى مرتبةٍ على الأولى ، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرّة بعد أخرى . وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ، ويتمّ به معاشهم . ومعنى « لكم » لأجلكم ، ولانتفاعكم . وفيه دليل على أنّ الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل . ولا فرق بين الحيوانات وغيرها ، مما ينتفع به من غير ضرر . وفى التأكيد بقوله « جميعاً » أقوى دلالة على هذا . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » قال أبو العالية الرياحى : استوى إلى السماء أى : ارتفع . نقله عنه البخارىّ فى صحيحه[١]، ورواه محمد بن جرير الطبرىّ[٢] فى تفسيره عن الربيع بن أنس.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ــ كتاب التوحيد ، ٢٢ ــ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

(٢) جزء أول ص ٤٢٩ (طبعة المعارف) .

وقال البغوىّ : قال ابن عباس وأكثر المفسّرين : ارتفع إلى السماء . وقال الخليل بن أحمد فى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ » : ارتفع . رواه أبو عمرو ابن عبد البر فى شرح الموطّأ ، نقله الذهبىّ فى كتاب العلوّ ـ . وقد استدل بقوله « ثُمَّ اسْتَوَىٰ » على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء ، وكذلك الآية التى فى (حم السجدة) . وقوله تعالى فى سورة (والنازعات) « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(١) إنما يفيد تأخّر دحوّها ، لا خلْق جرمها ؛ فإنّ خلق الأرض وتَهْيِئَتَهَا ـ لما يراد منها ـ قبل خلق السماء . ودحوّها بعد خلق السماء . والدحوّ هو البسط ، وإنبات العشب منها ، وغير ذلك . مما فسّره قوله تعالى « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »(٢) الآية ـ وكانت قبل ذلك خربة وخالية . على أنّ « بعد » تأتى بمعنى « مع » كقوله « عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ »(٣) أى : مع ذلك، فلا إشكال . وتقديم الأرض ـ هنا ـ لأنها أدل لشدّة الملابسة والمباشرة . « فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ » أى : صيّرهن ، كما فى آية أخرى « فَقَضَاهُنَّ »(٤) .

(تنبيه) قال بعض علماء الفلك : السموات السبع ـ المذكورة كثيراً فى القرآن ـ هى هذه السيارات السبع . وإنما خصّت بالذكر ـ مع أن السيارات أكثر من ذلك ـ لأنها أكبر السيارات وأعظمها ؛ على أنّ القرآن الكريم لم يذكرها فى موضع واحد ـ على سبيل الحصر ـ فلا ينافى ذلك أنها أكثر من سبع .

وقال بعض علماء اللغة : إن العرب تستعمل لفظ سبع ، وسبعين ، وسبعمائة للمبالغة

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٠] .
(٢) [٧٩ / النازعات / ٣١] .
(٣) [٦٨ / القلم / ١٣] .
(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

فى الكثرة . فالعدد إذن غير مراد . ومنه آية « سَبْعَ سَنَابِلَ »(١) وآية « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ »(٢) وآية « سَبْعِينَ مَرَّةً »(٣) والله أعلم .

وذهب بعض علماء الفلك إلى أن الحصر فى السبع حقيقىّ ، وأن المرادَ بهِ العالمُ الشمسىّ وحده دون غيره . وعبارته : إن قيل : إن كلّ ما يعلو الأرض ـ من الشمس والقمر والكواكب ـ هو سماء ، فلماذا خصّص تعالى عدداً هو سبع ؟ فالجواب : لا شكّ أنّه يشير إلى العالم الشمسىّ ـ الذى أحطنا الآن به علماً ـ وأنّ حصْر العدد لا يدل على احتمال وجود زيادة عن سبع ، لأن القول بذلك ، يخرج تطبيق القرآن على الفلك ، لأنّ العلم أثبتها سبعاً كالقرآن الذى لم يوجد فيه احتمال الزيادة ـ لأن الجمع يدخل فيه جميع العوالم التى لا نهاية لها ـ حتى يمكن أن يقال : إنّ سبعاً للمبالغة ـ كسبعين وسبعمائة ـ ولا يصحّ أن يكون العدد سبعة للمبالغة لأنه قليل جداً بالنسبة إلى العوالم التى تعد بالملايين ـ مثل العالم الشمسىّ ـ ويؤيد الحصرَ فى هذا العدد آيةُ « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا »(٤) فأخرج الشمس لأنها مركز،

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٧] ونصها : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٨٠] ونصها : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٥و١٦] .

وأخرج القمر لأنه تابع للأرض ، ولم يبق بعد ذلك إلا سبع ..!

قال : وبذلك تتجلى الآن معجزة واضحة جليّة . لأنه فى عصر التقدّم والمدنية العربية ، حينما كان العلم ساطعاً على الأرض بعلماء الإسلام ، كان علماء الفلك لا يعرفون من السيارات إلّا خمساً ـ بأسمائها العربية إلى اليوم ـ وهى : عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشترى ، زحل . وكانوا يفسّرونها بأنها هى السموات المذكورة فى القرآن . ولمّا لم يمكنهم التوفيق بين السبع والخمس ، أضافوا الشمس والقمر لتمام العدد . مع أنّ القرآن يصرّح بأنّ السموات السبع غير الشمس والقمر . وذلك فى قوله تعالى « اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى »(١) فلفظ « وسخّر » دليل يفصل تعداد الشمس والقمر عن السبع السموات . ولذلك كان المفسّرون ـ الذين لا يعرفون الهيئة ـ لا يرون أن تعدّ الشمس سماء ، ولا القمر ، لعلمهم أن السموات السبع مسكونة . وأمّا الشمس فنارٌ محرقة . فذهبوا ـ فى تفسير السموات ـ على تلك الظنون . ولمّا اكتشف بعد (بالتلسكوب) سيّارٌ لم يكن معلوماً ، دعوه « أورانوس » ثم سيّار آخر سمّوه «نبتون» ـ صارت مجاميع السيارات سبعاً . فهذا الاكتشاف ـ الذى ظهر بعد النبيّ ﷺ بألف ومائتى سنة ـ دلّ على معجزة القرآن ، ونبوّة المنزّل عليه ﷺ .

ثم قال : وأمّا كون السموات هى السيارات السبع بدون توابعها ، فلا يفهم من الآية ، لأن الأقمار التى نتبعها ، والنجوم الصغيرة التى مع المريخ ، يلزم أن تكون تابعة للسموات السبع ـ لأنها تعلونا ـ وهى فى العالم الشمسيّ . وحينئذٍ ، فالسموات السبع هى مجاميع السيارات السبع . بمعنى : أن مجموعة زحل ـ بما فيها هو نفسه أى مع أقماره الثمانية ـ تعد سماء ، لأن فلكها طبقة فوق طبقةِ فلكِ مجموعة المشترى . ويدل على هذا

(١) [١٣ / الرعد / ٢] .

التطبيق قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ »(١) يشير إلى أن السماء الدنيا ـ أى السماء التى تلى الأرض ـ فلك المرّيخ . فهو وما حوله من النجوم المديدة التى تسمى مصابيح ، وتعتبر كلها سماء ، وليس السيّار نفسه ..! انتهى .

وقوله تعالى « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ مقرر لما قبله ـ من خلق السموات والأرض وما فيها ـ على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة ، والمصالح اللائقة . فإن علمه عز وجل بجميع الأشياء يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق .

ولما ذكر تعالى الحياة والموت ـ المشاهدَيْن ـ تنبيهاً على القدرة على ما اتبعهما به من البعث ، ثم دل على ذلك أيضاً بخلق هذا الكون كلّه على هذا النظام البديع ، وختم ذلك بصفة العلم ـ ذكرَ ابتداء خلق هذا النوع البشرىّ ـ المودع من صفة العلم ـ ماظهر به فضله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرن . كما قال تعالى « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ »(٢) وقال

---

(١) [٦٧ / الملك / ٥] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٥] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ »(١) وقال « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ »(٢) وقال « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ »(٣) . ويجوز أن يراد : خليفة منكم ، لأنهم كانوا سكان الأرض ، فخلفهم فيها آدم وذريته ؛ وأن يراد : خليفة منى ، لأن آدم كان خليفة الله فى أرضه . وكذلك كل نبى « إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »(٤) والغرض من إخبار الملائكة بذلك ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ، ويجابوا بما أجيبوا به ، فيعرفوا حكمته فى استخلافهم قبل كونهم ، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهة فى وقت استخلافهم ؛ أو الحكمة : تعليم العباد المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم ـ وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيًّا عن المشاورة ـ أو تعظيم شأن المجعول ، وإظهار فضله ، بأن بشّر بوجود سكان ملكوته ، ونوّه بذكره فى الملأ الأعلى قبل إيجاده ، ولقّبه بالخليفة .

« قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » هذا تعجب من أن يستخلف ـ لعمارة الأرض وإصلاحها ـ من يفسد فيها ، واستعلامٌ عن الحكمة فى ذلك . أى : كيف تستخلف هؤلاء ، مع أنّ

(١) [٢٧ / النمل / ٦٢] ونصها : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٠] .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٩] ونصها : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبح بحمدك ونقدّس لك ـ أى ولا يصدر عنا شىء من ذلك ـ وهلّا وقع الاقتصار علينا ..؟ فقال تعالى مجيباً لهم « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : إنّ لى حكمة ـ فى خلق الخليقة ـ لا تعلمونها .

فإن قلتَ : من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجّبوا منه ، وإنما هو غيب ؟ أجيب : بأنهم عرفوه : إمّا بعلمٍ خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية . فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف «مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ»(١) أو فهموا من « الخليفة » أنه الذى يفصل بين الناس ، ما يقع بينهم من المظالم ، ويردعُهم عن المحارم والمآثم .

قال العلّامة برهان الدين البقاعىّ فى تفسيره : وما يقال من أنه كان قبل آدم ، عليه السلام ، فى الأرض خلقٌ يعصون ، قاس عليهم الملائكةُ حال آدم عليه السلام ـ كلامٌ لا أصل له . بل آدم أوّل ساكنيها بنفسه . انتهى .

وقوله تعالى « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » أى : ننزّهك عن كل ما لا يليق بشأنك ، ملتبسين بحمدك ـ على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة .

وقوله « نقدّس لك » أى : نصفك بما يليق بك ـ من العلوّ والعزّة ـ وننزّهك عمّا لا يليق بك . وقيل : المعنى نُطَهِّرُ نفوسنا عن الذنوب لأجلك . كأنهم قابلوا الفساد ، الذى أعظمه الإشراك ، بالتسبيح . وسفك الدماء ، الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم ، بتطهير النفس عن الآثام . لا تمدّحاً بذلك ، ولا إظهاراً للمنّة ، بل بياناً للواقع .

---

(١) [١٥/الحجر/٢٦] ونصها : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . و [١٥/الحجر/٢٨] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . و [١٥/الحجر/٣٣] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

تنبيهات

فى وجوه فوائد من الآية

الأول : دلت الآية على أن الله تعالى ـ فى عظمته وجلاله ـ يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه ، لاسيما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال ، والتوجّه إلى الله تعالى فى إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سنته تعالى بأن يفيض منها ـ كالبحث العلمىّ ، والاستدلال العقلىّ ، والإلهام الإلٰهىّ ـ .

الثانى : إذا كان من أسرار الله تعالى ، وحكمه ، ما يخفى على الملائكة ، فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للإنسان فى معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها ، لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلًا ..!

الثالث : إنّ الله تعالى هدى الملائكة فى حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل ـ بعد الإرشاد ـ إلى الخضوع والتسليم . وذلك أنه ـ بعد أن أخبرهم بأنه يعلم مالا يعلمون ـ علّم آدم الأسماء ، ثم عرضهم على الملائكة ، كما سيأتى بيانه .

الرابع : تسلية النبيّ ﷺ ، عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم فى النبوة بغير برهان ، على إنكار ما أنكروا ، وبطلان ما جحدوا . فإذا كان الملأ الأعلى قد مُثّلوا على أنهم يختصمون ، ويطلبون البيان والبرهان ، فيما لايعلمون ، فأجدرْ بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين . أى فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لايزال فى موضوع الكتاب ، وكونه لا ريب فيه ؛ والرسولِ ، وكونه يبلغ وحى الله تعالى ، ويهدى به عباده ، واختلاف الناس فيها .

ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها . مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد ، ـ كذا فى تفسير مفتى مصر ـ .

ولما بين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الإجمال والإبهام ، أن فى الخليفة فضائل غائبة عنهم ، ليستشرفوا إليها ، أبرز لهم طرَفاً منها ، ليعاينوه جهرة ، ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته ، وتنزاح شبهتهم بالكلية ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

« وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » إما بخلق علم ضرورىّ بها فيه ، أو إلقاء فى رُوعه . وآدم اسم عبرانىّ مشتق من أَدَمَه ، وهى لفظة عبرانية معناها التراب ، لأنه جُبل من تراب الأرض . كما أن حوّاء كلمة عبرانية معناها « حىّ » ، وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء . والمراد بالأسماء ، أسماء كل شىء . قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وفى التوراة مصداق الآية : وهو أنه تعالى صوّر من الأرض كل حيوانات البر ، وكل طيور السماء ، وأحضرها إلى آدم ، لينظر ما يسميها ، وكل ما سماه آدم من نفس حية ، فهو اسمه . وسمى آدم جميع الحيوانات بأساميها وجميع طيور السماء ، وجميع وحوش الأرض .

قال ابن جرير: وفى هذه الآيات العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن ادّكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله عز وجل فى هذا القرآن، من لطائف الحكم التى تعجز عن أوصافها الألسن . وذلك أن الله جل ثناؤه ، احتج فيها لنبيّه ﷺ ، على من كان بين ظهرانيّه ، من يهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب ، التى لم يكن تعالى

أطلع عليها من خلقه إلّا خاصًّا ، ولم يكن مدركاً علمه إلا بالأنباء والأخبار ، لتتقرر عندهم صحة نبوته ، ويعلموا أن ما آتاهم به فمن عنده .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنمـا قدم هذا الفصل على ذاك ، لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة ، حين سألوا عن ذلك . فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام ، عقيب هذا ، ليبين لهم شرف آدم بما فضل عليهم في العلم « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ » أي عرض أهل الأسماء ، فالضمير للمسميات المدلول عليها ضمناً « فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » أي التي علمتها آدم . وإنما استنبأهم ، وقد علم عجزهم عن الإنباء ، تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة . فإن التصرف والتدبير ، وإقامة المعدلة ، بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ، ومقادير الحقوق ، مما لا يكاد يمكن « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أي في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته ، كما ينبيء عنه مقالكم . والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه ، قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الأخبار . فإن أدنى مراتب الاستحقاق ، هو الوقوف على أسماء ما في الأرض . ولما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم ، وبدت لهم هفوة زلتهم ، أنابوا إلى الله تعالى بالتوبة ، وذلك ما أفاده قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه ، إلا بما شاء . وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى . واعتراف منهم بالعجز والقصور عما كلفوه . وأنه العالم بكل المعلومات التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام ، لما نحن بمعزل من الاستعداد له ، من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذي لا يفعل

إلا ما تقتضيه الحكمة . ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية ، والمعارف الجزئية ، المتعلقة بالأحكام الواردة على ما فى الأرض ، وبناء أمر الخلافة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)

« قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم » أى أعلمهم « بِأَسْمَائِهِمْ » التى عجزوا عن علمها « فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ » عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الإجمالىّ واستحضاراً له « أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » إيراد ما لا تعلمون بعنوان الغيب مضافاً إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط ، وغاية سعته . مع الإيذان بأن ما ظهر من عجزهم ، وعلم آدم عليه السلام، من الأمور المتعلقة بأهل السموات والأرض . وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون ، فيما سبق ، ما أشير إليه هناك ، كأنه قيل : ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة ما لا تعلمونه فيه ، هو هذا الذى عاينتموه . وفى الآية تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى ، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم « وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ » عطف على جملة « ألم أقل لكم » لا على « أعلم » ، إذ هو غير داخل تحت القول . أى ما تظهرونه بألسنتكم ، وما كنتم تخفون فى أنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ » لما أنبأهم بأسماء ، وعلمهم ما لم يعلموا ، أمرهم بالسجود له ، على وجه التحية والتكرمة تعظيماً له ، واعترافاً بفضله ، واعتذاراً عما قالوا فيه . وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ» أى امتنع عن السجود « وَاسْتَكْبَرَ » أى تكبر وقال : أنا خير منه ، فالسين للمبالغة « وَكَانَ » فى سابق علم الله أو صار « مِنَ الْكَافِرِينَ » .

« تنبيهات »

الأول : للناس فى هذا السجود أقوال : أحدها أنه تكريم لآدم ، وطاعة لله ، ولم يكن عبادةً لآدم . وقيل : السجود لله ، وآدم قِبْلة ، أو السجود لآدم تحية ، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله ، وفرضِهِ عليهم . ذكر ابن الأنبارىّ عن الفرّاء وجماعة من الأئمة ؛ أن سجود الملائكة لآدم ، كان تحية ، ولم يكن عبادة . وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية ، لاسجود صلاة وعبادة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال أهل العلم : السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه . وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله . فإن الله تعالى قال «اسْجُدُوا لِآدَمَ» ولم يقل: إلى آدم . وكل حرف له معنى . وفرق بين « سجدت له » وبين « سجدت إليه » قال تعالى «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ»(١) «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

(٤) [٤١ / فصلت / ٣٧] ونصها : وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(١) أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرّم . وأما الكعبة ، فيقال : كان النبيّ ﷺ يصلى إلى بيت المقدس ، ثم صلى إلى الكعبة ، ولا يقال صلى لبيت المقدس ، ولا للكعبة . والصواب أن الخضوع بالقلوب ، والاعتراف بالعبودية ، لا يصلى على الإطلاق إلا لله سبحانه . وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبع الأمر . فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه ، لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره . فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه . وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم . وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام . ولم يأت أن آدم سجد للملائكة . بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين . وبالجملة ، أهل السنة قالوا: إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له . وقالت المعتزلة : كان آدم كالقبلة يسجد إليه ، ولم يسجدوا له . قالوا ذلك هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم . فإن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة ، وصالح البشر أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم . وخالفت المعتزلة فى ذلك وقالت : الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة ، ويبطله ما حكى الله سبحانه عن إبليس « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »(٢) .

الثانى : اختلفوا فى الملائكة الذين أمروا بالسجود ، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس فى الأرض . قال تقى الدين بن تيمية : هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى . وقيل : هم جميع الملائكة ، حتى جبريل وميكائيل . وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة . قال ابن تيمية : ومن قال خلافه فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان ،

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٢] .

لأنه سبحانه قال « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ »(١) وهذا تأكيد للعموم .

الثالث : للعلماء فى إبليس ، هل كان من الملائكة أم لا ؟ قولان : أحدهما أنه كان من الملائكة . قاله ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن المسيّب ، واختاره الشيخ موفق الدين والشيخ أبو الحسن الأشعرىّ وأئمة المالكية وابن جرير الطبرىّ . قال البغوىّ : هذا قول أكثر المفسرين ، لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم . قال تعالى « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » فلولا أنه من الملائكة ، لما توجه الأمر إليه بالسجود ، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزى والنكال . والقول الثانى أنه كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة . قاله ابن عباس ، فى رواية ، والحسن وقتادة ، واختاره الزمخشرىّ وأبو البقاء العكبرىّ والكواشىّ فى تفسيره . لقوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ »(٢) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ، ولا ذرية للملائكة .

قال فى الكشاف : إنما تناوله الأمر ، وهو للملائكة خاصة ، لأن إبليس كان فى صحبتهم ، وكان يعبد الله عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنىّ الذى معهم أجدر بأن يتواضع . والقول الأول هو الصحيح الذى عليه جمهور العلماء . وصححه البغوىّ . وأجابوا عن قوله تعالى « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ » أى من الملائكة الذين هم خزنة الجنة .

(١) [١٥ / الحجر / ٣٠] و [٣٨ / ص / ٧٣] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال ابن القيم : الصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . كان أصله من نار ، وأصل الملائكة من نور . فالنافى كونه من الملائكة، والمثبت، لم يتواردا على محل واحد . وكذلك قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية فى الفتاوى المصرية : وقيل إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار . سموا « جنًّا » ، لاستتارهم عن الأعين ، فإبليس كان منهم . الدليل على ذلك قوله تعالى « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(١) وهو قولهم: الملائكة بنات الله. ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية .

سئل الشعبى : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرس لم أشهده ! قال : ثم قرأت هذه الآية ، فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة . فقلت : نعم . وقال قوم : ليس له ذرية ولا أولاد ، وذريته أعوانه من الشياطين .

الرابع : فى قوله تعالى « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » قولان : أحدهما أنه وقت العبادة كان منافقاً ، والثانى أنه كان مؤمنا ثم كفر ، وهذا قول الأكثرين . فقيل فى معنى الآية « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » فى علم الله ، أى كان عالماً فى الأزل أنه سيكفر . والذى عليه الأكثرون أن إبليس أول كافر بالله . أو يقال: معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه فى الكفر بعد ذلك . واختلف الناس بأى سبب كفر إبليس، لعنه الله . فقالت الخوارج : إنما كفر بمعصية الله ، وكل معصية كفر ، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة . وقال آخرون : كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله . وقال آخرون : كفر لأنه خالف الأمر الشفاهى من الله ، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود . ومخالفةُ الأمر الشفاهى أشد قبحاً . وقال جمهور الناس : كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] ونصها : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

واعتقد أنه محق فى تمرده ، واستدل بـ « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »(١) كما يأتى . فكأنه ترك السجود لآدم ، تسفيهاً لأمر الله وحكمته . وهذا الكبر عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله(٢) « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » كذا فى كتاب الاستعاذة للإمام مفلح الحنبلى رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

« وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وخلق له زوجه وأقرهما فى الجنة ، أباحهما الأكل منها بقوله « وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا » أى أكلاً واسعاً. و « حيث » للمكان المبهم ، أىْ أىّ مكان من الجنة شئتما . أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة. حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة . حتى لا يبقى لهما عذر فى التناول مما منعا منه بقوله تعالى « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » أى هذه الحاضرة من الشجر ، أى لا تأكلا منها ، وإنما علق النهى بالقربان منها ، مبالغة فى تحريم الأكل ، ووجوب الاجتناب عنه . لأن القرب من الشىء مقتضى الألفة . والألفة داعية للمحبة . ومحبة الشىء تعمى وتصم . فلا يرى قبيحاً ، ولا

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٧ عن عبد الله بن مسعود (طبعتنا) .

يسمع نهياً ، فيقع . والسبب الداعي إلى الشرّ منهيّ عنه . كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به . وعلى ذلك قوله ﷺ[١] « العينان تزنيان » لما كان النظر داعياً إلى الأُلفة ، والأُلفة إلى المحبة ، وذلك مفضٍ لارتكابه ، فصار النظر مبدأ الزنا . وعلى هذا قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى »[٢] ، « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[٣] .

قال ابن العربيّ : سمعت الشاشي في مجلس النظر يقول : إذا قيل : لا تقرَب ، بفتح الراء ، كان معناه لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، معناه لا تدْنُ ، نقله ابن مفلح في كتاب الاستعاذة . ونقل الفرق المذكور بينهما أيضاً السيد مرتضى في شرح القاموس عن شيخه العلامة الفاسي . قال : إن أرباب الأفعال نصّوا عليه ، وظاهر القاموس أنهما مترادفان ، فإنه قال : قرب منه ، ككرم ، وقرِبه كسمع قرباً وقرباناً وقِرباناً دنا ، فهو قريب . للواحد والجمع . انتهى .

---

(١) أخرجه الأمام أحمد في المسند . جزء ثان ص ٣٤٣ (طبعة الحلبيّ) . ونصه :
عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لكل بني آدم حظ من الزنى . فالعينان تزنيان وزناهما النظر . واليدان تزنيان وزناهما البطش . والرِّجلان تزنيان وزناهما المشي . والفم يزني وزناه القبل . والقلب يهوى ويتمنى . والفرْج يصدّق ذلك أو يكذبه » .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و [١٧ / الإسراء / ٣٤] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا .

لطيفة :

جاء فى آية الأعراف « فَكُلَا »(١) وهنا بالواو ، لأن كل فعل عطف عليه شىء ، وكان ذلك الفعل كالشرط ، وذكر الشىء كالجزاء ، عطف بالفاء دون الواو ، كقوله تعالى « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا »(٢) لما كان وجود الأكل منها متعلقًا بدخولها ذكر بالفاء ، كأنه قال : إن دخلتموها أكلتم منها ، فالأكل يتعلق وجوده بوجود الدخول . وقوله فى الأعراف « وَاسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا »(٣) بالواو دون الفاء ، لأنه من السكنى ، وهو فى المقام مع اللبث الطويل ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من دخل بستانًا قد يأكل منه ، وإن كان مجتازاً . فلما لم يتعلق الثانى بالأول تعلق الجزاء بالشرط ، عطف بالواو . وإذا ثبت هذا فنقول : قد يراد بـ « اسكن » الزم مكاناً دخلته ، ولا تنتقل عنه ، وقد يراد ادخله واسكن فيه . ففى البقرة ، ورد الأمر ، بعد أن كان آدم فى الجنة ، فكان المراد المكث . والأكل لا يتعلق به ، فجىء بالواو . وفى الأعراف ورد قبل أن دخل الجنة . والمراد الدخول والأكل متعلق به ، فورد بالفاء .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٩] ونصها : وَيَاءَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٥٨] ونصها : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٧ / الأعراف/ ١٦١] ونصها : وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

تنبيه :

لم يرد فى القرآن المجيد ، ولا فى السنة الصحيحة تعيين هذه الشجرة ، إذ لا حاجة إليه ، لأنه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة . ومالا يكون مقصودا ، لا يجب بيانه . وقوله « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله تعالى .

قال ابن مفلح الحنبلىّ فى كتاب الاستعاذة : قال ابن حزم : حملُ الأمرِ على الندب ، والنَّهْىِ على الكراهة ، يقع فيه الفقهاء والأفاضل كثيرا ، وهو الذى يقع من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يؤاخذون به ، وعلى السبيل أكل آدم من الشجرة . ومعنى قوله « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى ظالمين لأنفسكما ، والظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه ، فمن وضع الأمر والنهى فى موضع الندب والكراهة ، فقد وضع الشىء فى غير موضعه . انتهى .

ثم قال : وقال أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل : لا براءة من المعصية أعظم من حال من ظن أن أحدا لا يحلف حانثا . وهكذا فعل آدم عليه السلام ، فإنه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ناسياً لنص القرآن ، ومتأولاً وقاصدا إلى الخير ، لأنه قدّر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملَكاً مقرباً أو خالدا فيما هو فيه أبدا . فأداه ذلك إلى خلاف ماأمره الله به ، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره ، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه . ولو فعل هذا عالم من علماء المسلمين لكان مأجورا ، ولكن آدم لما فعل وأخرج عن الجنة إلى الدنيا ، كان بذلك ظالماً لنفسه . وقد سمى الله تعالى قاتل الخطأ قاتلاً ، كما سمى العامد . والمخطىء لم يعمد معصية . وجعل فى مثل الخطأ عتق رقبة ، وهو لم يعمد ذنباً . انتهى .

وقال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية وجماعة من المتأخرين : الصواب أن آدم عليه السلام ، لما قاسمه عدوّ الله أنه ناصح ، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات : أحدها القسم . والثانى الإتيان بجملة اسمية لا فعلية . والثالث تصديرها بأداة التأكيد . الرابع الإتيان بلام التأكيد فى الخبر . الخامس الإتيان به اسم فاعل لا فعلاً دالّا على الحدث . السادس

تقديم المعمول على القليل فيه . ولم يظن آدم أن أحدا يحلف بالله كاذباً يمين غموس ، فظن صدقه ، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة ، ورأى أن الأكل ، وإن كان فيه مفسدة، فمصلحة الخلود أرجح ، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين فى أثناء ذلك باعتذار أو توبة ، كما تجد هذا التأويل فى نفس كل مؤمن أقدم على معصية . اه

قال ابن مفلح : فآدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل ، فالتأويل لنص الله أخرجه ، وإلا فهو لم يقصد المعصية ، والمخالفة ، وأن يكون ظالما مستحقا للشقاء . انتهى

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا » أى أذهبهما عن الجنة ، وأبعدهما . يقال : زلّ عن مرتبته ، وزل عنى ذاك ، إذا ذهب عنك ؛ وزلّ من الشهر كذا . وقال ابن جرير : فأزلهما ، بتشديد اللام ، بمعنى استزلهما ، من قولك زل الرجل فى دينه ، إذا هفا فيه وأخطأ ، فأتى ما ليس له إتيان فيه ، وأزله غيره إذا سبب له ما يزل من أجله فى دينه أو دنياه . وقرئ « فأزالهما » بالألف ، من التنحية « فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » من الرغد والنعيم والكرامة « وَقُلْنَا اهْبِطُوا » أى انزلوا إلى الأرض، خطاب لآدم وحواء والشيطان . أو خطاب لآدم وحواء خاصة ، لقوله فى الآية الأخرى « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً » وجمع الضمير لأنهما أصلا الإنس ، فكأنهما الإنس كلهم «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » متعادين يبغى بعضكم على بعض «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » منزل وموضع استقرار « وَمَتَاعٌ » تمتع بالعيش« إِلَى حِينٍ » أى إلى الموت .

---

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » استقبلها بالأخذ والقبول ، والعمل بها حين علمها . قال ابن جرير : وهى الكلمات التى أخبر عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه ، معترفاً بذنبه ، وهو قوله « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا »(١) الآية ، فدعا بها لكى تكون عنواناً له ولأولاده على التوبة « فَتَابَ عَلَيْهِ » فرجع عليه بالرحمة والقبول ، وتجاوز عنه ، وقوله تعالى « إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » فى الجمع بين الاسمين وعد للتائب بالإحسان مع العفو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« قُلْنَا » لآدم وحواء «اهْبِطُوا مِنْهَا» من الجنة « جَمِيعاً » ثم ذكر ذرية آدم فقال « فَإِمَّا » بإدغام نون « إن » الشرطية فى « ما » الزائدة « يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى » كتاب أنزله عليكم ، ورسول أبعثه إليكم « فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ » أقبل على الهدى وقبل « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » فى الآخرة بأن يدخلوا الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بالكتاب والرسول « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لا يموتون ولا يخرجون .

(١) [٧ / الأعراف / ٢٣] ونصها : قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

تنبيه :

إنما كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والإيذان بتحتم مقتضاه . وتحققه لا محالة . أو لاختلاف المقصود . فإن الأول دل على أن هبوطهم الى دار بلية يتمادون فيها ولا يخلدون . والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف . فمن اتبع الهدى نجا ، ومن ضله هلك .

« فوائد »

الأولى :

ذهب كثيرون إلى أن الجنة التى أهبط منها آدم عليه السلام ، كانت فى الأرض . قال بعضهم : هى على رأس جبل بالمشرق تحت خط الاستواء . وحملوا الهبوط على الانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما فى قوله تعالى : « اهْبِطُوا مِصْرًا »(١) ، واحتجوا عليه بوجوه :

أحدها : أن هذه الجنة ، لو كانت هى دار الثواب ، لكانت جنة الخلد ، ولو كان آدم فى جنة الخلد ، لما لحقه الغرور من الشيطان بقوله « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ »(٢) ولما صح قوله « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »(٣) .

وثانيها : أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ»(٤).

---

(١) [٢ / البقرة / ٦١] ونصها : . . . اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ . . .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٤٨] ونصها : لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

وثالثها : لا نزاع فى أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام فى الأرض ، ولم يذكر فى هذه القصة أنه نقله إلى السماء ، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء ، لكان ذلك أولى بالذكر ، لأن نقله من الأرض إلى السماء ، من أعظم النعم . فدل ذلك على أنه لم يحصل . وذلك يوجب أن المراد من الجنة غير جنة الخلد .

ورابعها : روى مسلم(١) فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل ، كل من أنهار الجنة » .

قال ابن مفلح: أكثر الناس على أن المراد بالجنة التى أسكنها آدم جنة الخلد، دار الثواب. ثم قال : قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية : وهذا قول أهل السنة والجماعة ، ومن قال إنها جنة فى الأرض بالهند أو جدّة ، أو غير ذلك ، فهو من الملحدة المبتدعين . والكتاب والسنة يرد هذا القول . وقد استوفى الكلام فيها فى « مفتاح دار السعادة » وكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

الفائدة الثانية :

انفق الناس أن الشيطان كان متولياً إغواء آدم . واختلف فى الكيفية . فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة ، ودليل ذلك قوله « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ »(٢) ، وقوله « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ »(٣) ومقاسمته لهما

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ .

(٣) [٧/الأعراف/٢٠] ونصها: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ =

« إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ »(١) . والمقاسمة ظاهرها المشافهة ، ومنهم من قال : كان ذلك بالوسوسة ، كما قال « فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ »(٢) فإغواؤه إغراؤه بوسواسه وسلطانه الذى جعل له ، كما قال ﷺ(٣) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وزعموا أن الشيطان لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها . والوسوسة ، لغةً ، حديث النفس والأفكار . وحديث الشيطان بما لا نفع فيه ولا خير ، والكلام الخفيّ . وظاهر الآيات يؤيد القول الأول .

الفائدة الثالثة :

لم يسمَّ الشيطان فى الآية ، إذ لا حاجة ماسة إلى اسمه ، كما تقدم فى الشجرة .

ولما قدم الله تعالى دعوة الناس عموماً ، وذكر مبدأهم ـ دعا بنى إسرائيل خصوصاً ، وهم اليهود ، لأنهم كانوا أولى الناس بالإيمان بالنبيّ ﷺ ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة ، وقد جرى الكلام معهم (من هنا إلى الآية رقم ١٤٢) فتارة دعاهم بالملاطفة ، وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم . وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم ، وذكر عقوباتهم التى عاقبهم بها ، كما سيأتى تفصيله ، فقال تعالى :

= عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٢١] ونصها : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٣ ص ١١٢ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم . ونصه : عن عليّ بن الحسين أن النبيّ ﷺ أتته صفية بنت حييّ . فلما رجعت انطلق معها . فمر به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » أي أولاد يعقوب . وقد هيجهم تعالى بذكر أبيهم إسرائيل ، كأنه قيل : يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم ، كما تقول : يا ابن الكريم ، افعل كذا، ويا ابن العالم، اطلب العلم «اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» قال ابن جرير: نعمه التي أنعم بها على بني إسرائيل : اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المنّ والسلوى . فأمر ، جل ثناؤه ، أعقابهم أن يكون ماسلف منه إلى آبائهم على ذُكْرٍ ، وأن لاينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم ، فيحل بهم من النقم ، ماأحل بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها ، وجحد صنائعه عنده. « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » العهد هو الميثاق ، وقد أشير إليه في قوله تعالى « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »(١) الآية . فعهد الله هو وصيته لهم ، بما ذكر في الآية . ومنها : الإيمان برسله المتناول لخاتمهم

---

(١) [٥ / المائدة/ ١٢] ونصها : وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

عليه السلام ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة . وعهده تعالى إياهم ، هو أنهم إذا فعلوا ذلك أدْخلهم الجنة . وقوله تعالى « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » قال ابن جرير: أى اخشونى واتقوا، أيها المضيعون عهدى من بنى إسرائيل، والمكذبون رسولى الذى أخذت ميثاقكم فيما أنزلت على أنبيائى أن تؤمنوا به وتتبعوه، أن أحل بكم من عقوبتى إن لم تتوبوا إلىّ باتباعه والإقرار بما أنزلت إليه ، ما أحللت بمن خالف أمرى ، وكذب رسلى من أسلافكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

« وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ » أى من القرآن « مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ » أى موافقاً بالتوحيد ، وصفة محمد ﷺ ونعته، وبعض الشرائع، لما معكم من الكتاب ـ كما فى التنوير ـ قال ابن جرير: أمرهم بالتصديق بالقرآن ، وأخبرهم أن فى تصديقهم بالقرآن تصديقاً منهم للتوراة ، لأن الذى فى القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه ، نظير الذى من ذلك فى الإنجيل والتوراة . ففى تصديقهم بما أنزل على محمد ، تصديق منهم لما معهم من التوراة . وفى تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة . انتهى .

وتقييد المنزل بكونه مصدقاً لما معهم، لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم مما يقتضى الإيمان بما يصدقه قطعاً .

تنبيه :

كثيراً ما يستدل مجادلة أهل الكتاب على عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثالها ، كآية « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ »(١) ، وآية « وَلَكِنْ

(١) [٢ / البقرة / ٨٩] ونصها : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا =

تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ »(١) وغيرها . مع أنه ثبت بالبراهين القاطعة ذهاب قدر كبير من كتبهم ، واختلاط حقها بباطلها فيما بقى ، كما صنفت فى ذلك مصنفات عدة . وقد رُدَّ استدلالهم بهذه الآية وأمثالها على ماادعوه، بأن معنى كون القرآن مصدقاً لما معهم ، ماذكرناه قبل فى تأويلها . وحاصله أن ما أنزل عليه ﷺ هو طبق ما عندهم من حقية نبوته ، وصحة البشائر عنه ، كما قال تعالى « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ » أى أنه عليه السلام جاء طبق ماعندهم عنه فى التوراة والإنجيل، بمعنى أن أحواله جميعاً توافق البشائر « وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ » يعنى من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم ببعثه . فالأولية نسبية ، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، أو هو تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته ، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه ، والمستفتحين على الذين كفروا به ، وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم، فلما بعث كان أمرهم على العكس ، لقوله « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » .

« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلًا » أى لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى، بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، فالاشتراء استعارة للاستبدال . « وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ » بالإيمان واتباع الحق ، والإعراض عن حطام الدنيا .

مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] ونصها : وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

و [١٢ / يوسف / ١١١] ونصها : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٤٣] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

اللبس الخلط ، وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين . والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى يخترعونه أو يذكرونه فى تأويله حتى يشتبه أحدهما بالآخر ، وقوله « وَتَكْتُمُوا » مجزوم داخل تحت حكم النهى . وتكرير الحق ، لزيادة تقبيح المنهىّ عنه ، إذ فى التصريح باسم الحق ، ما ليس فى ضميره ، والتقييد بقوله « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لزيادة تقبيح حالهم ، إذ الجاهل عسى يعذر . وقوله « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » الآية ، أمر بلزوم الشرائع عليهم بعد الإيمان . وذلك إقامة الصلاة بأدائها بفروضها ، والمحافظة عليها . وإعطاء الصدقة المفروضة ، والركوع لله ، أى الخضوع لأوامره بإطاعتها .

قال ابن جرير : هذا أمر من الله، جل ثناؤه، لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه ، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين فى الإسلام والخضوع له بالطاعة . ونهىٌ منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد ﷺ ، بعد تظاهر حججه عليهم، وبعد الإعذار لهم والإنذار . وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفاً منه بذلك عليهم ، وإبلاغاً إليهم فى القدرة اهـ .

وقد قيل فى قوله « وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ » حث على إقامة الصلاة فى الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » أى بما فيه لله رضا من القول أو الفعل . وجماع البر كل مافيه طاعة لله تعالى . والهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم «وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ» أى تتركونها من البر كالمنسيات . والمعنى تخالفون ما تأمرون به من ذلك إلى غيره . وقوله « وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ » تبكيت مثل قوله « وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » يعنى تتلون التوراة وفيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العملَ . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم فى ذلك مسلوبوا العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه .

روى الحافظ ابن كثير الدمشقىّ فى تفسيره عن إبراهيم النخعىّ قال : إنى لأكره القصص لثلاث آيات : قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ »(١) وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ »(٢) وقوله إخباراً عن شعيب « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »(٣) .

---

(٣) [٢ / البقرة / ٤٤] ونصها : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٤) [٦١ / الصف / ٢و٣] .

(٥) [١١ / هود / ٨٨] ونصها : قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ » أى على الوفاء بالعهد « وَالصَّلَاةِ » أى التى سرها خشوع القلب للرب . فإنها من أكبر العون على الثبات فى الأمر . قال ابن جرير : أى استعينوا على الوفاء بعهدى الذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتباع أمرى وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى واتباع رسولى محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة . فالآية متصلة بما قبلها . كأنهم لما أمروا بما شق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك . « وَإِنَّهَا » الضمير للصلاة. وتخصيصها برد الضمير إليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر ؛ وجوّز عود الضمير على الاستعانة بهما « لَكَبِيرَةٌ » لشاقة ثقيلة، كقوله تعالى « كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »(١) « إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

« الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى محشورون إليه يوم القيامة للجزاء. والظن

= مِنْ رَبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

هنا بمعنى اليقين ومثله « إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[1] .

قال ابن جرير : العرب قد تسمى اليقين ظنا نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشىء وضده . والشواهد على ذلك من أشعار العرب أكثر من أن تحصر « وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » أى بعد الموت فيجازيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به « وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ » عطف على نعمتى ، عطف الخاص على العام لكماله . أى فضلت آباءكم « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى عالمى زمانهم بإنزال الكتاب عليهم وإرسال الرسل فيهم وجعلهم ملوكا، وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا . وتفضيل الآباء شرف الأبناء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« وَاتَّقُوا يَوْمًا » يريد يوم القيامة أى حسابه أو عذابه « لَا تَجْزِى » فيه « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » أى لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق. فانتصاب «شيئاً» على المفعولية. أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية. وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢٠] .

« وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ » لا يقبل « مِنْهَا عَدْلٌ » أى فدية « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » يمنعون من عذاب الله . وجُمِع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة . وذكر لمعنى العباد أو الأناسيّ .

(تنبيه) تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقا أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع . فعلم أنها لا تقبل للعصاة . والجواب : أنها خاصة بالكفار . ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »[1] ، وكما قال عن أهل النار « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »[2] فمعنى الآية أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا يُنقذ أحداً من عذابه منقذٌ ولا يخلص منه أحد .

وفى الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم . وليس فى الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله « يوما » أخرجه منكرا . ولاشك أن فى القيامة مواطن . ويومها معدود بخمسين ألف سنة. فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة. وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد وردت آى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها. منها قوله تعالى « فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »[3] مع قوله « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[4]

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٤٨] .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١٠٠و١٠١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] ونصها : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٧] . و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتين متغايرين : أحدهما محل للتناول والآخر ليس محلاله ، وكذلك الشفاعة . وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة . رزقنا الله الشفاعة . وحشرنا فى زمرة أهل السنة والجماعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ » تذكير لتفاصيل ماأجمل فى قوله تعالى « نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ » من فنون النعماء. أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم ، أى آباءكم . فإن تنجيتهم تنجية لأعقابهم . والمراد بالآل، فرعون وأتباعه ، فإن الآل يطلق على الشخص نفسه وعلى أهله وأتباعه وأوليائه (قاله فى القاموس) .

ثم بين ما أنجاهم منه بقوله « يَسُومُونَكُمْ » أى يبغونكم « سُوءَ الْعَذَابِ » أى أفظعه وأشده « يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ » أى يتركونهم أحياء « وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » البلاء إما المحنة ، إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون ؛ أو النعمة ، إن أشير به إلى الإنجاء . قال ابن جرير : العرب تسمى الخير بلاء والشر بلاء .

فائدة : فرعون لقب لمن ملك مصر كافراً . ككسرى لملك الفرس . وقيصر لملك الروم. وتبّع لمن ملك اليمن كافرا . والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وخاقان لملك الترك . ولعتوّه اشتق منه : تفرعن الرجل ، إذا عتا وتمرد .

وسبب سَوْمِهِ بنى إسرائيل سوء العذاب من تذبيح أبنائهم (على ما روى فى التوراة) خوفُه من نموّهم وكثرة توالدهم . وكانت أرض مصر امتلأت منهم . فإن يوسف ، عليه

السلام، لما استقدم أباه وإخوته وأهلهم من أرض كنعان إلى مصر ، أعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض كما أمره ملك مصر . وكان لهم فى مصر مقام عظيم بسبب يوسف عليه السلام . فتكاثروا وتناسلوا . ولما توفى يوسف عليه السلام والملك الذى اتخذه وزيرا عنده ، انقطع ذلك الاحترام عن بنى إسرائيل . إلى أن قام على مصر أحد ملوكها الفراعنة . فرأى غوّ الإسرائيليين . فقال لقومه : أضحى بنو إسرائيل شعباً أكثر منا وأعظم . فهلمّ نحتال لهم لئلا ينموا . فيكون ، إذا حدثت حرب ، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا . ويخرجون من أرضنا . فسلط عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم . وكانوا كلما اشتد تعبدهم إزدادوا كثرة وشدة . فشق على المصريين كثرتهم واختشوا منهم . فجعل أهل مصر يستعبدونهم جورا ويمرّرون عليهم حياتهم بالعمل الشديد بالطين واللبن ، وكل فلاحة الأرض، وكل الأعمال التى استعبدوهم بها بالمشقّة .

وأمر فرعون بذبح أبنائهم كما قصه الله تعالى . ولم يزل الأمر فى هذه الشدة عليهم حتى نجاهم سبحانه بإرسال موسى عليه السلام. وقوله جل ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

« وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » بيان لسبب التنجية ، وتصوير لكيفيتها ، إثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها . وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الإنجاء من الغرق . أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم أو ملتبساً بكم أو بسبب إنجائكم . وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك . فالباء على الأول استعانة . مثلها فى : كتبت بالقلم . وعلى الثانى للمصاحبة . مثلها فى : أسندت ظهرى بالحائط . وعلى الثالث للسببية . والوجه الأول

ضعيف من حيث إن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببنى إسرائيل والمنصوص عليه فى التنزيل أن البحر إنما انفرق بعصا موسى . قال تعالى « أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ »(١) فآلة التفريق العصا لا بنو إسرائيل « فَأَنْجَيْنَاكُمْ » أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل « وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ » أريد فرعون وقومه . وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » أى إلى ذلك وتشاهدونه لاتشكون فيه. ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم .

وكانت قصة إغراق آل فرعون المشار لها فى هـذه الآية ، على ما روى ، أن الحق تعالى لما شاء إخراج بنى إسرائيل من مصر من بيت العبودية ، أوقع فى نفس فرعون أن يطلقهم من مصر. بعد إباء شديد منه ورؤية آيات إلهية كادت تحل به وبقومه البوارَ . فدعا موسى وهارون وقال : اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعا . و اذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم . فلما ارتحلوا وأخبر فرعون أن الشعب قد هرب ، تغير قلبه عليهم وقال : ماذا فعلنا حتى أطلقناهم من خدمتنا ؟ فشد مركبته وأخذ قومه معه وسعى وراءهم وأدركهم وهم نازلون عند بحر القلزم . وهو المشهور ببحر السويس . فلما رأت بنو إسرائيل عسكر فرعون وراءهم قالوا : يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر ؟ فلو بقينا على خدمة المصريين لكان خيراً لنا من أن نهلك فى هذه البرية « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »(٢) وقال « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »(٣) . وأوحى

---

(٢) [٢٦/ الشعراء / ٦٣] ونصها : فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٢٩] ونصها : قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ =

الله إلى موسى عليـه السلام أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق وأيبس قعره . فدخل بنو إسرائيل فيه . فتبعهم فرعون وجنوده . فخرج موسى وقومه من الجهة الثانية . وانطبق البحر على فرعون ومن معه فغرقوا كلهم . وسيأتى الإشارة إلى هذه القصة فى مواضع من التنزيل . ومن أبسطها فيه سورة الشعراء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ » أى بعد فراغه من مقاومة آل فرعون وإهلاكهم « أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » أى لنعطيه عنـد انقضائها التوراة لتعملوا بها . وقد روى فى ترجمة التوراة أنه تعالى قال لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك ألواحا من حجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلمهم . فصعد موسى إلى الجبل وبقى هناك أربعين يوماً وأربعين ليلة . وموسى كلمة عبرانية معناها منشول من المـاء « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » أى إلهاً ومعبوداً « مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد مضيّه للميقات « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » أى بوضع العبادة فى غير موضعها. وهو حال من ضمير اتخذتم . أو اعتراض تذييلىّ . أى وأنتم قوم عادتـكم الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ » أى محونا ذنوبكم « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى الاتخاذ والظلم القبيح « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لـكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة .

= بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

« وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل . يعنى التوراة . كقولك : رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة. ونحوه قوله تعالى « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »(١) يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياء وذكراً . أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات . أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام . وقيل : الفرقان انفراق البحر . وقيل : النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »(٢) يريد به يوم بدر « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى لكى تهتدوا بالعمل فيه من الضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٨] .

(٢) [٨ / الأنفال / ٤١] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذه الآية بيان لـكيفية وقوع العفو المذكور فى الآية قبـلُ . روى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ماصنع قومه بعده من عبادة العجل، غضب ورمى باللوحين من يده . فـكسرها فى أسفل الجبل . ثم أحرق العجل الذى صنعوه . ثم قال: من كان من حزب الرب فليُقْبِل إلىّ . فاجتمع إليه جميع بنى لاوى . وقال لهم : هذا مايقول الرب إله إسرائيل : ليتقلد كل رجل منكم سيفه . فجوزوا فى وسط المحلة من باب إلى باب. وارجعوا . وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه . فصنع بنو لاوى كما أمرهم موسى فقتلوا فى ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل (وفى رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) وفى غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم : أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . وإنى الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتـكم . فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه اهـ .

ولاوى ، ثالث مولود ليعقوب عليه السلام من أولاده الاثنى عشر ، معناه فى العربيـة ملتصق أو متصل .

والأحبار اللاويّون ينسبون إليه . وقد اختارهم تعالى من بنى إسرائيل على لسان موسى عليه السلام للخدمة المقدسة . وجعلهم من المقربين لديه . وبمـا سقناه يعلم أن قوله تعالى «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَـكُمْ» أمرٌ لمن لم يعبد العجل ، أعنى اللاويين ، أن يقتلوا العَبَدَة. لا كما فهمه بعضهم من قتل بعضهم بعضاً مطلقاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْـكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

[٥٦] (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّـكُمْ تَشْـكُرُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْـكُمُ

الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »
أى واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق . إذ سألتم رؤيتى عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم فى دار الدنيا . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن القائلين لموسى ذلك هم السبعون المختارون . ويؤيده آية الأعراف . « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ ـ الآية .

وقد غلط أهل الكتاب فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك . فمنع منه . فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟ أفاده ابن كثير . وقد رأيت دعواهم المذكورة فى الفصل الرابع والعشرين فى سفر الخروج . وهذا من المواضع المحقق تحريفها . ويدل عليه ما فى الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال لموسى : لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش اه .

وجهرة ، فى الأصل ، مصدر قولك جهرت بالقراءة . استعيرت للمعاينة ، لما بينهما من الاتحاد . فى الوضوح والانكشاف . إلا أن الأول فى المسموعات ، والثانى فى المبصرات . ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية ، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس . أو على الحال من الفاعل أو المفعول .

قال ابن جرير : وأصل الصاعقة كل أمر هائل رآه أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هَوْلِهِ وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وإلى ذهاب عقل وغمور فهم ، أو فقد بعض آلات الجسم . صوتا كان ذلك أو نارا . أو زلزلة أو رجفا (قال) ومما يدل على أنه قد يكون مصعوقا وهو

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] ونصها : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

حيّ غير ميت قول الله عز وجل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ يعني مغشيا عليه. ومنه قول جرير:

وَهَلْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ غَيْرَ قِرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَا(١)

فقد علم أن موسى لم يكن ، حين غشي عليه وصعق ، ميتا . لأن الله، جل وعز، أخبر عنه أنه لما أفاق قال : تبت إليك . ولا شبّه جريرٌ الفرزدقَ، وهو حيّ ، بالقرد ميتا ، ولكن معنى ذلك ما وصفناه .

وقوله تعالى «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » أي إلى تلك الصاعقة . وقوله تعالى « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » قال الراغب الأصبهانيّ في تفسيره : البعث إرسال المبعوث من المكان الذي فيه . لكن فرق بين تفاسيره بحسب اختلاف المعلق به ، فقيل : بعثت البعير من مبركه أي أثرته . وبعثته في السير أي هيجته ، وبعث الله الميت أحياه . وضرب البعث على الجند إذا أمروا بالارتحال . وكل ذلك واحد في الحقيقة ، وإنما اختلف لاختلاف صور المبعوثات (ثم قال) والموت حُمل على المعروف، وحُمِل أيضا على الأحوال الشاقة الجارية مجرى

---

(١) قال السيد محمود محمد شاكر، في تعليقه على هذا البيت، في تفسير ابن جرير ، مانصه : ديوانه : ٢٨١ ، والنقائض : ٢٥١ وبعده في هجاء الفرزدق ، وهو من أشده :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وما أشد ما قال ! وقال في النقائض في شرح البيت: « ولفته ـ يعني جريرا ـ الصواقع . فاستدار : أي استدار إنسانا بعد أن كان قرداً .

وكأنه أخطأ المعنى ، فإنه أراد أنه مسخ قرداً على هيئته التي كان عليها قبل أن يكون إنسانا . فقوله « استدار » عاد إلى الموضع الذي ابتدأ منه . ومن ذلك قوله ﷺ في حجة الوداع « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي عاد كما بدأ . فهو يقول : كان الفرزدق في أصل نشأته قرداً . ثم تحول إنساناً . فلما أصابته صواعق شعري عاد كما كان في أصل نشأته قردا صريحا اه . وهو كما قال .

الموت ، وليس يقتضى قوله « فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » أنهم ماتوا . ألا ترى إلى قوله : « فَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا » لكن الآية تحتمل الأمرين ، وحقيقة ما كان إنما يعتمد فيها على السمع المتعدى عن الاحتمالات . انتهى . وقد يؤيد الثانى آية الأعراف المذكورة وهى « وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ »(١) فالرجفة هى المسماة بالصاعقة هنا ، والتنزيل يفسر بعضه بعضا، والأصل توافق الآى . وقد ذكر ابن إسحق والسدّىّ أن الذين أخذتهم الرجفة هم الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة ، وسيأتى فى الأعراف بسط ذلك إن شاء الله .

دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى فى الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر، سبحانه وتعالى، سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك فى آيات. منها هذه . ومنها قوله تعالى « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ »(٢) ومنها قوله تعالى « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا »(٣) فدلت هذه التهويلات الفظيمة الواردة لطالبيها فى الدنيا على امتناعها فيها . وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى فى الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته فى الدار الآخرة فى آيات عديدة ، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وهى قطعية الدلالة . لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها .

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٢٨ .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٣] وباقى الآية : ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم ، فمنها تظليل الغمام عليهم. وذلك أنهم كانت تظلهم سحابة إذا ارتحلوا . لئلا تؤذيهم حرارة الشمس. وقد ذكر تفصيل شأنها فى توراتهم فى الفصل التاسع من سفر العدد . ومنها إنزال المنّ. وقد روى فى التوراة أنهم لما ارتحلوا من إيليم وأتوا إلى بريّة سين، التى بين إيليم وسيناء ، فى منتصف الشهر الثانى بعد خروجهم من مصر ، تذمروا على موسى وهرون فى البرية ، وقالوا لهما: ليتنا متنا فى أرض مصر إذ كنا نأكل خبزا ولحما . فأخرجتمانا إلى هذه البرية لتهلكا هذا الجمع بالجوع. فأوحى تعالى لموسى عليه السلام إنى أمطر عليكم خبزاً من السماء . فليخرج الشعب، ويلتقطون حاجة اليوم بيومها طعامهم من أجل أنى أمتحنهم ، هل يمشون فى شريعتى أم لا ، وليكونوا فى اليوم السادس أنهم يهيئون ضعف مايلتقطونه يوماً فيوماً. لأن اليوم السابع يوم عيد لايُشخص فيه لأمر المعيشة ولا لطلبة شىء . فقال لهم موسى : إن الرب تعالى يعطيكم عند المساء لحما تأكلون . وبالغداة تشبعون خبزاً . فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وبالغداة أيضاً وقع الندى حول المحلة . ولما غطى وجه الأرض تباين فى البرية شىء رقيق كأنه مدقوق بالمدقة . يشبه الجليد على الأرض . فلما نظر إليه بنو إسرائيل قالوا : ما هذا ؟ لأنهم لم يعرفوه . فقال لهم موسى : هذا هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا. وقد أمركم أن يلقط كل واحد على قدر ما فى بيته ، وقدر ما يأكله . ففعل بنو إسرائيل كذلك ولقطوا ما بين مكثّر ومقلّل ، وقال لهم موسى : لا تبقُوا منه شيئاً إلى الغد . فلم يطيعوا

موسى . واستفضل منه رجال إلى الغد ؛ فضرب فيه الدود ونتن . فغضب عليهم موسى . وكانوا يلقطون غدوة. كل إنسان يلقط على قدر ما يأكل . فإذا أصابه حر الشمس ذاب . وقد أعطوا فى اليوم السادس خبز يومين ليجلس كل رجل منهم فى مكانه فى اليوم السابع . راحةً وتقديسا له . وكان إذا خرج بعض الشعب ليلتقط ، يوم السابع ، لا يجد فى الأرض منه شيئاً . ودعا آل إسرائيل اسمه المنّ . وكان مثل حب الكزبرة أبيض ، وطعمه كرقاق بعسل ، وأكل بنو إسرائيل المنّ أربعين سنة حتى أتوا إلى الأرض العامرة ودنوا من تخوم أرض كنعان . وروى فى ترجمة التوراة أيضاً أن المنّ كان يشبه لون اللؤلؤ . وكان يطوف الشعب ويلتقطونه ويطحنونه بالرحى . ويدقونه فى الهاون ويطبخونه فى القدور . ويعملون منه رغفاً طعمها كالخبز المعجون بالدهن. ومتى نزل الندى على المحلّة ليلاً كان ينزل المن معه اه .

هذا ما كان من أمر المن . وأما السلوى فروى أيضا : أن جماعة ممن صعد مع بنى إسرائيل من مصر تاقت أنفسهم للحم وجلسوا يبكون ، ووافقهم بنو إسرائيل على اشتهائه أيضا . وقالوا : من يطعمنا لحما لنأكل؟ قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله بمصر من غير ثمن . والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم . والآن قد يبست نفوسنا ولا تنظر عيوننا إلا المنّ . فلما سمع موسى الشعب يبكون بمشائرهم، وعلم غضب الرب عليهم ؛ لذلك ، ابتهل إلى ربه وقال : من أين لى لحم أطعم منه هذا الجمع وهم يبكون علىّ ويقولون أعطنا لحما لنأكل ؟ فأوحى إليه ربه أن يجمع سبعين رجلا من شيوخ شعبه وعرفائه . ويقبل بهم إلى خيمة الاجتماع فيكونوا معه . ثم كلمه ربه ووعده أن يعطيه لحما يأكلون منه شهراً حتى يأنفوا منه. فأخبر موسى الشعب بذلك . ثم انحاز إلى المحلة هو وشيوخ قومه . فخرجت ريح وحملت السلوى من البحر وألقتها على المحلة مسيرة يوم حول المحلة من كل جانب ، وكانت تطير بالجوّ ذراعين على الأرض وقام الشعب يومهم ذلك كله ، والليل . وفى غد اليوم الثانى . فجمعوا السلوى أقل من جمع عشرة أكرار . سطحوه سطيحاً ويبسوه حول المحلة .

وقبل أن ينقطع اللحم من عندهم غضب الرب تعالى على الشعب . فضربه ضربة عظيمة جدا . ودعى اسم ذلك الموضع قبور الشهوة . لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا . ثم خرجوا من قبور الشهوة وارتحلوا لغيره . انتهى .

وقوله تعالى « كلوا » على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا . وقوله « وما ظلمونا » كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للإيذان باقتضاء جنايات المخاطبين للإعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة . معطوف على مضمر قد حذف للإيجاز ، والإشعار بأنه أمر محقق غنيّ عن التصريح به . أى فظلموا بأن أكثروا من التضجر والتذمر على ربهم وشكوى سكناهم فى البرية وفراقهم مصر . وما ظلمونا بذلك ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، بالعصيان . إذ لا يتخطاهم ضرره وبذلك حق عليهم العذاب الذى ضربوا به كما ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

[٥٩] (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .

هذا إشارة إلى ما حلّ ببنى إسرائيل ـ لما نكلوا عن الجهاد ـ ودخولهم الأرض

المقدسة ـ أرض كنعان ـ لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام . وإنما أطلق على الأرض المذكورة قرية ، لأنّ القرية : كل مكان اتصلت به الأبنية واتُّخِذ قراراً . وتقع على المدن وغيرها ـ كذا فى كفاية المتحفّظ ـ ثمّ إنّ ما قصّ ـ هنا ـ ذكر فى سورة المائدة فى قوله تعالى « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ »(١) الآيات .

وقوله تعالى « ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » فى التأويلات : يحتمل المراد من الباب حقيقة الباب ، وهو باب القرية التى أمروا بالدخول فيها . ويحتمل من الباب القرية نفسها ، لا حقيقة الباب ـ كقوله « وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ » ذكر القرية ولم يذكر الباب ـ وذلك فى اللغة جائز . (ويقال : فلان دخل فى باب كذا ـ لا يعنون حقيقة الباب ، ولكن كونه فى أمر هو فيه) .

وقوله « سُجَّدًا » يحتمل المراد من السجود : حقيقة السجود . فيخرّج على وجوه : على التحية لذلك المكان ؛ ويحتمل على الشكر له لما أهلك أعداءهم الجبارين ؛ ويحتمل الكناية عن الصلاة ـ إذ العرب قد تسمِّى السجود (صلاةً) ـ كأنّهم أُمِروا بالصلاة فيها ؛ ويحتمل أن الأمر بالسجود ـ لا على حقيقة السجود والصلاة ـ ولكن أمر بالخضوع له والطاعة والشكر على أياديه . والله أعلم .

وقوله تعالى « وَقُولُوا حِطَّةٌ » خبر محذوف ، أى مسألتنا حطة ـ والأصل النصب ـ بمعنى : حطَّ عنّا ذنوبَنا حِطّةً ، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات .

---

(١) [٥ / المائدة / ٢٠] .

وقوله سبحانه « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » أى : بدّلوا أمره تعالى لهم ـ بدخول الأرض مجاهدين ـ بالإحجام عنه ، وتثبيط الناس . ولذا قال أبو مسلم «قوله تعالى « فَبَدَّلَ » يدلّ على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به ، لا على أنهم أتوا له ببدل . والدليل عليه : أن تبديل القول قد يستعمل فى المخالفة . قال تعالى « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ ـ إلى قوله ـ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ »(١) ولم يكن تبديلهم إلّا الخلاف فى الفعل لا فى القول . فكذا هنا ، فيكون المعنى : إنهم لما أمروا بدخول الأرض ـ وما ذكر معه ـ لم يمتثلوا أمر الله ، ولم يلتفتوا إليه » .

وفى تكرير « الَّذِينَ ظَلَمُوا » زيادةٌ فى تقبيح أمرهم ، وإيذانٌ بأنَّ إنزال الرجز عليهم لظلمهم . و (الرجز) : هو الموت بغتة ، كما تقدّم .

قال الراغب : وتخصيص قوله « رجزاً من السماء » هو أنّ العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن ـ على بعض الوجوه ـ دفاعه ، أو يظنّ أنه يمكن فيه ذلك ، وهو كلّ عذاب على يد آدمىّ ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق . وضربٌ لا يمكن ـ ولا يظنّ ـ دفاعه بقوّة آدمىّ ـ كالطاعون ، والصاعقة ، والموت ـ وهو المعنىّ بقوله « رجزاً من السماء » اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

هذا تذكير لنعمة أخرى كفروها. روى فى توراتهم أنه ارتحلت كل جماعة بنى إسرائيل

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٥] ونصها : سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

من برية سينا بأمره تعالى ، وحلوا فى رفادين، ولم يكن هناك ماء ليشربوا ، نخاصموا موسى، وقالوا له أعطنا ماء لنشرب ، أخرجتنا من مصر لتقتلنا نحن وأولادنا ودوابنا بالعطش ؟ فابتهل موسى إلى ربه فى السقيا ، فأوحى إليه أن امض أمام الشعب ، وخذ معك من شيوخ إسرائيل. والعصا التى ضربت بها النهر خذها بيدك . واذهب إلى صخرة حوريب ، فاضربها فيخرج منها ماء ليشرب الشعب . ففعل موسى كذلك أمام شيوخ إسرائيل . انتهى .

وقوله تعالى « اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً » أى عدد أسباط يعقوب الاثنى عشر ، لكل سبط منهم عين قد عرفوها . قال الراغب : وأنكر ذلك بعض الطبيعيين واستبعده، وهذا المنكر، مع أنه لم يتصور قدرة الله تعالى فى تغيير الطبائع والاستحالات الخارجة عن العادات ، فقد ترك النظر على طريقته . إذ قد تقرر عندهم أن حجر المغناطيس يجر الحديد ، وأن الحجر المنفر للنحل ينفره ، والحجر الحلاق يحلق الشعر ، وذلك كله عندهم من أسرار الطبيعة . وإذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم ، فغير ممتنع أن يخلق الله حجرًا يسخره لجذب الماء من تحت الأرض . اه .

وقوله « وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تمشوا فى الأرض بالفساد ، وخلاف أمر موسى . قال الراغب : فإن قيل : فما فائدة قوله «مُفْسِدِينَ» والعثوّ ضرب من الإفساد؟ قيل : قد قال بعض النحويين : إن ذلك حال مؤكدة ، وذكر ألفاظاً مما يشبه . وقال بعض المحققين : إن العثو ، وإن اقتضى الفساد ، فليس بموضوع له ، بل هو كالاعتداء ، وقد يوجد فى الاعتداء ما ليس بفساد ، وهو مقابلة المعتدى بفعله نحو « فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ »[1] وهذا الاعتداء ليس بإفساد ، بل هو ، بالإضافة إلى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ما قوبل به ، عدل . ولولا كونه جزاء لكان إفسادًا . فبين تعالى أن العثو المنهى عنه ، هو المقصود به الإفساد . فالإفساد مكروه على الإطلاق، ولهذا قال « لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا »(١) وقد يكون فى صورة العثو والتعدى ماهو صلاح وعدل ، كما تقدم. وهذا ظاهر اه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاسَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » قال قتادة : لما ملّوا طعامهم وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه قبل ذلك ، قالوا ذلك . قال الراغب : إن قيل : كيف قال « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » وكان لهم المن والسلوى ، قيل : إن ذلك إشارة إلى مساواته فى الأزمنة المختلفة ، كقولك : فلان يفعل فعلاً واحداً فى كل يوم ، وإن كثرت أفعاله ، إذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها اه . وهذا المعنى فى إنكار الطعام أبلغ. لأنهم لم يكتفوا فى إنكاره بقولهم « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ » ، حتى أكدوا بقولهم « واحد » أو

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٦] ونصها : وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أرادوا بالواحد مالا يختلف ولا يتبدل « فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا » هو الثوم لقراءة ابن مسعود « وثومها » وللتصريح به فى التوراة فى هذه القصة . وقد ذكر ابن جرير شواهد لإبدال الثاء فاء لتقارب مخرجيهما كقولهم للأثا فى «أثاثى» ، وقولهم وقعوا فى عاثور شر وعافور شر ، وللمغافير « مغاثير » « وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ » أى أدون قدراً ، وأصل الدنوّ القرب فى المكان ، فاستعير للخسة ، كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل : بعيد الهمة. « بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » أى بمقابلة ما هو خير ، أى أرفع وأجل ، وهو المنّ الذى فيه الحلاوة التى تألفها أغلب الطباع البشرية ، والسلوى من أطيب لحوم الطير ، وفى مجموعهما غذاء تقوم به البنية. وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة ولا تغذية«اهْبِطُوا مِصْرًا» هكذاهو منوّن مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور ، بالصرف .

قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ، لإجماع المصاحف على ذلك ؛ أى من الأمصار ، أى انحدروا إليه « فَإِنَّ لَكُمْ » فيها « مَا سَأَلْتُمْ » أى فإن الذى سألتم يكون فى الأمصار لا فى القفار ، والمعنى أن هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير، فى أى بلد دخلتموها وجدتموه. فليس يساوى مع دناءته ، وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه .
ولما حكى الله تعالى إنكار موسى عليه السلام على اليهود استبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير، بعد تعداد النعم ، جاء بحكاية سوء صنيعهم بالأنبياء ، وكفرهم ، واعتدائهم ، وضرب الذلة عليهم لذلك، استطراداً فقال « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ » فمن هنا إلى قوله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » معترض فى خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بنى إسرائيل الذين كانوا فى عهد موسى ، يدل على هذا قوله «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ » فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم . والذلة بالكسر الصغار والهوان والحقارة ، والذل بالضم ضد العز . والمسكنة مَفعلة من السكون ، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض، لما به من الفقر . والمسكين مفعيل منه ـ كذا فى السمين ـ

وفى الذلة استعارة بالكناية حيث شبهت بالقبة فى الشمول والإحاطة ، أو شبهت الذلة بهم بلصوق الطين بالحائط فى عدم الانفكاك . وهذا الخبر الذى أخبر الله تعالى به هو معلوم فى جميع الأزمنة، فإن اليهود أذلّ الفرق ، وأشدهم مسكنة ، وأكثرهم تصاغراً ، لم ينتظم لهم جمع ، ولا خفقت على رؤوسهم راية ، ولا ثبتت لهم ولاية ، بل ما زالوا عبيد العصى فى كل زمن ، وطروقة كل فحل فى كل عصر ، ومن تمسك منهم بنصيب من المال ، وإن بلغ فى الكثرة أى مبلغ ، فهو مرتدٍ بأثواب المسكنة. « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » أى رجعوا به ، أى صار عليهم ، أو صاروا أحقاء به . من قولهم : باء فلان بفلان ، أى صار حقيقاً أن يقتل بمقابلته . فالباء على التقديرين صلة باؤوا ، لا للملابسة . وإلا لاحتيج اعتبار المرجوع إليه ، ولا دلالة فى الكلام عليه « ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم « بِأَنَّهُمْ » بسبب أنهم « كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » الباهرة التى ظهرت على يدى عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » كزكريا ويحيى عليهما السلام . وقتل الأنبياء فى بنى إسرائيل كان ظاهراً ، ولم يذكر قتل رسول من الرسل . وذلك ـ والله أعلم ـ لقوله « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا »(١) وقوله « إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ »(٢) وقال قوم : لم يقتل أحد من الرسل ، وإنما قتل الأنبياء ، أو رسل الرسل ، والله أعلم . كذا فى التأويلات .

وقوله « بغير الحق » لم يخرج مخرج التقييد ، حتى يقال إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق فى حال من الأحوال ، لمكان العصمة . بل المراد نعى هذا الأمر عليهم ، وتعظيمه ، وأنه ظلم بحت فى نفس الأمر ، حملهم عليه اتباع الهوى ، وحب الدنيا ، والغلوّ فى العصيان ،

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] ونصها: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧٢] .

والاعتداء ، كما يفصح عنه قوله تعالى « ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى جرّهم العصيان والتمادى فى العدوان إلى ما ذكر من الكفر ، وقتل الأنبياء عليهم السلام . وقيل : كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم، كما أنه بسبب الكفر والقتل ، فهو بسبب ارتكابهم المعاصى ، واعتدائهم حدود الله تعالى . وعليه فيكون ذكر علل إنزال العقوبة بهم فى نهاية حسن الترتيب . إذ بدئ أولًا بما فعلوه فى حق الله تعالى وهو كفرهم بآياته . ثم ثُنِّى بما يتلوه فى العظم ، وهو قتل الأنبياء . ثم بما يكون منهم من المعاصى التى تخصهم . ثم بما يكون منهم من المعاصى المتعدية إلى الغير ، مثل الاعتداء . وهذا من لطائف أسلوب التنزيل .

ثم أعلم تعالى بأن باب التوبة مفتوح على الوجه العامّ لليهود وغيرهم . وأن من ارتكب كبائر الذنوب التى تستوجب الغضب الإلٰهىّ ، وضربَ الذلة والمسكنة ، كما حل باليهود ، إذا آمن وتاب فله فى الدنيا والآخرة ما للمؤمنين . وعادة التنزيل جارية بأنه متى ذكر وعد أو وعيد ، عقب بضده ليكون الكلام تاماً فقيل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أى إن الذين آمنوا بما دعا إليه محمد ﷺ ، وصاروا من جملة أتباعه . قال فى فتح البيان: كأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية ، وحال من قبلها من سائر الملل ، يرجع إلى شىء واحد ، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ماذكره الله من الأجر . ومن فاته ذلك فاته الخير كله ، والأجر دقه وجله . والمراد بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان

فقال[١] « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » .

ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل فى الملة الإسلامية . فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن ، فليس بمؤمن . ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ، ولم يبق يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مجوسيًّا . انتهى .

قال الراغب فى تفسيره : تقدم أن الإيمان يستعمل على وجهين : أحدهما الإقرار بالشهادتين ، الذى يؤمن نفسَ الإنسان ، وماله عن الإباحة إلا بحق ، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام . والثانى تحرى اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه . فقوله

(١) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ٩ ـ باب فى الإيمان ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) ، ونصه : عن عمر قال : كنا جلوساً عند النبىّ ﷺ . فجاء رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد شعر الرأس ، لا يُرَى عليه أثر سفر ، ولا يعرفه منا أحد .

قال : فجلس إلى النبىّ ﷺ ، فأسند ركبته إلى ركبته ووضع يده على فخذيه ، ثم قال : يا محمد ! ما الإسلام ؟ قال « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » قال : صدقتَ . فعجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد ! ما الإيمان ؟ قال « أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقَدَر ، خيره وشره » قال : صدقت . فعجبنا منه . يسأله ويصدقه . ثم قال : يا محمد ! ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإنك إن لا تراه فإنه يراك » قال : فمتى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال : فما أمارتها ؟ قال « أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَهَا (قال وكيع : يعنى تلد العجمُ العربَ) وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون فى البناء » .

قال ثم قال : فلقينى النبىّ بعد ثلاث فقال « أتدرى من الرجل » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال « ذاك جبريل ، أتاكم يعلمكم معالم دينكم » .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » عنى به المتدين بدين محمد ﷺ ، وقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ » عنى به المتحرى للاعتقاد اليقينيّ ، فهو غير الأول . ولما كانت مشاهير الأديان هذه الأربع ، بيّن تعالى أن كل من تعاطى ديناً من هذه الأديان فى وقت شرعه ، وقبل أن ينسخ ، فتحرى فى ذلك الاعتقاد اليقينيّ ، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم قال : وقول ابن عباس : إن هـذا منسوخ بقوله « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »(١) يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام ، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبيّ عليه السلام. فأما فى وقته ، فالأديان كلها منسوخة بدينه. اهـ. أى فليس مراد ابن عباس ، ومن وافقه ، أنه تعالى كان وعد من عمل صالحاً من اليهود ، ومن ذكر معهم ، على عمله ، فى الآخرة، الجنةَ ، ثم نسخه بآية « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » بل مراده ما ذكر الراغب . وهذا ما لا شبهة فيه . ولذا قال ابن جرير : ظاهر التنزيل يدل على أنه تعالى لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان ، بعض خلقه دون بعض منهم ، والخبر بقوله « مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » عن جميع ما ذكر فى أول الآية .

تنبيـه :

ظاهر هـذه الآية ، مع تفسير الراغب « مَنْ ءَامَنَ » بالمتحرى للاعتقاد اليقينيّ ، مما قد يستدل به العنبريّ لمذهبه . فقد نقل الأصوليون فى باب الاجتهاد والتقليد أن العنبريّ ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب ، حتى فى الأصول ، ووافقه الجاحظ . قال الغزاليّ فى المستصفى : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسـلام من اليهود والنصارى والدهرية ، إن كان معانداً على خلاف اعتقاده ، فهو آثم . وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور

(١) [٣/ آل عمران/ ٨٥] ونصها : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

غير آثم . وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر ، فهو أيضاً معذور . وإنما الآثم المعذب ، المعاندُ فقط . لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها . وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى ، إذ استد عليهم طريق المعرفة . ثم ردّه الغزالىّ بأدلة سمعية ضرورية ، وذلك مثل معرفتنا ضرورة أمره عليه السلام اليهودَ والنصارى بالإيمان به ، وذمهم على إصرارهم على عقائدهم ، وذلك لا ينحصر فى الكتاب والسنة .

ثم قال الغزالىّ : وأما قوله ـ أى الجاحظ ـ : كيف يكلفهم ما لا يطيقون ؟ قلنا : نعلم ضرورة أنه كلفهم ، أما أنهم يطيقون أو لا يطيقون ، فلننظر فيه ، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بما رزقهم من العقل ، ونصب من الأدلة ، وبعث من الرسل المؤيدين بالمعجزات ، الذين نبهوا العقول ، وحركوا دواعى النظر ، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل اهـ.

وقوله « وَالَّذِينَ هَادُوا » أى تهودوا . يقال : هاد يهود ، وتهوّد ، إذا دخل فى اليهودية . وهو هائد ، والجمع هود . وهم أمة موسى عليه السلام ، وإنما لزمهم هذا الاسم ، لأن الإسرائيليين الذين رجعوا من جلاء سبعين سنة ، ومن سبْى بابل إلى وطنهم القديم ، كان أكثرهم من نسل يهوذا بن يعقوب (بالذال المعجمة ـ فقلبتها العرب دالاً مهملة) .

وقوله تعالى : « وَالنَّصَارَى » جمع نصران ، كندامى جمع ندمان ، يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانة ، والياء فى نصرانىّ للمبالغة ، كما فى أحمرىّ ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ـ كذا فى الكشاف ـ أو هو جمع نصرانىّ ، مغيّر عن ناصرىّ ، نسبة إلى ناصرة ـ القرية المعروفة ـ وقد نسب إليها المسيح عليه السلام ، لأنه رُبِّى بها . وجاء فى الإنجيل « يسوع الناصرىّ » . وقوله تعالى « والصَّابِئِين » جمع صابىء ، ويقال لهم الصابئة . قال ابن جرير : الصابىء هو المستحدث ، سوى دينه ، ديناً ، كالمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه . وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب « صابئاً » يقال منه : صبا فلان يصبو صباء ، ويقال : صبأت النجوم إذا طلعت . وقد اختلف أهل

التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم ، من أهـل الملل . فقال بعضهم : يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين . وقالوا : الذى عنى الله بهذا الاسم قوماً لا دين لهم . فمن مجاهد : الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ، ولا دين لهم . وعن ابن زيد : الصابئون دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبىّ . وعن قتادة : أنهم قوم يعبدون الملائـكة . اه .

وقال الإمام الشهرستانىّ ، فى الـكلام عن الصابئة ما مثاله : والصبوة فى مقابلة الحنيفية . وفى اللغة : صبا الرجل إذا مال وزاغ . فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم : الصابئة . وهم يقولون : الصبوة هو الانحلال عن قيد الرجال . وإنما مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين . والصابئة تدعى أن مذهبها هو الاكتساب ، والحنفاء تدعى أن مذهبها هو الفطرة . فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة . فالصائبة قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية ، ولا يقولون بالشريعة والإسلام . فيقابلون أرباب الديانات تقابل التضاد . والصابئة الأولى الذين قالوا بعاذ يمون وهرمس ، وهما شيث وإدريس ، ولم يقولوا بغيرها من الأنبياء . وهم أصحاب الروحانيات . فيعتقدون أن للعالم صانعاً حكيماً مقدّساً عن سمات الحدثان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يُتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلاً وحالة . أما الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية ، الذين جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . قالوا فنحن نتقرب إليهم ونتوكلّ عليهم ، منهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند الله ، وهو رب الأرباب . وأما الفعل ، فقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع وتصريف الأمور من حال إلى حال ، يستمدون القوة من الحضرة الإلهية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية ،

فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها وهى هياكلها . ولكل روحانيٍّ هيكلٌ ، ولكل هيكلٍ فلكٌ ، ونسبة الروحانيّ إلى ذلك الهيكل الذى اختصّ به نسبة الروح إلى الجسد ؛ فهو ربه ومدبره . وكانوا يسمون الهياكل أربابا ، وربما يسمونها آباء ، والعناصر أمهات . ففعل الروحانيات : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات فى المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية : مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كليّةً صادرة عن روحانيٍّ كليٍّ ، وقد تكون جزئيةً صادرة عن روحانيٍّ جزئيٍّ . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك . ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل ، مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، وما ينزل من السماء : مثل الصواعق والشهب ؛ وما يحدث فى الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ؛ وما يحدث فى الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة ، إلى غير ذلك . قالوا: وأما الحالة ، فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والسرور فى جوار رب الأرباب كيف يخفى؟ هذا ملخص ما أفاده العلامة الشهرستانيّ فى كتاب ـ الملل والنحل ـ ثم ساق مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء جرت فى المفاضلة بين الروحانيّ المحض والبشرية النبوية ، وأوردها على شكل سؤال وجواب ، فلتنظر ثمّ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه ـ فى الرد على المنطقيين ـ إن حرّان كانت دار هؤلاء الصابئة ، وفيها ولد إبراهيم عليه السلام (أو انتقل إليها من العراق. على اختلاف القولين) وكان بها هيكل العلّة الأولى . هيكل العقل الأول ، هيكل النفس الكلية ، هيكل زحل . هيكل المشترى . هيكل المريخ ، هيكل الشمس . وكذلك الزهرة وعطارد والقمر . وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم . ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة

المشركين ، حتى جاء الإسلام . ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة في دولة الإسلام إلى آخر وقت . ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها ، أطباء وكتاباً ، وبعضهم لم يُسلم . وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور النصرانية . وكانوا يصلّون إلى القطب الشمالىّ. وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة إلى القطب الشمالىّ كان لهؤلاء . فإن الصابئة نوعان : صابئة حنفاء موحّدون ، وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية . فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا . من هذه الملل الأربع : المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين . فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل . والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين ملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل . وهذا بخلاف المجوس والمشركين ، فإنه ليس فيهم مؤمن . فلهذا قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »[1] فذكر الملل الست هؤلاء ، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة . لم يذكر في الست من كان مؤمنا ، وإنما ذكر ذلك في الأربعة فقط . ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين . والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين . وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لايشركون به شيئا ، ويؤمنون بأن الله محدِثٌ لهذا العالَم ، ويقرون بمعاد الأبدان ، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم . ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرّون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه . وكذلك المشركون من الهند. وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين ، هو أرسطو . انتهى .

وما قرره الإمام ابن تيمية ، يؤيد ماذهب إليه كثير من المفسرين ، من أن معنى

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .

قوله تعالى « مَنْ ءَامَنَ » من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ ، مصدقاً بقلبه بالمبدإ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه ، وذلك كأهل الكتابين أو كان من الصابئة الموحدين . وذهب آخرون إلى أن معنى قوله « مَنْ ءَامَنَ » من أحدث من هذه الطوائف ، إيمانا خالصا بما ذكر . قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام . وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه ، فلا ملابسة له بالمقام ، والصابئون ليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات . فليتأمل .

وقوله تعالى « فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ » أى : الذى وعدوه على تلك الأعمال المشروطة بالإيمان، وهو فى الأصل جُعل العامل على عمله . وفى قوله « عِنْدَ رَبِّهِمْ » مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت ، مأمون من الفوات . وقوله تعالى « وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى حين يخاف الكفار العقابَ ويحزنون على تفويت الثواب .

(تنبيه) قال العلامة البقاعىّ فى تفسيره : وحسَّنَ وضعَ هذه الآية، فى أثناء قصصهم، أنهم كانوا مأمورين بقتل كل ذَكَر ممن عداهم . وربما أمروا بقتل النساء أيضاً . فربما ظن من ذلك أن من آمن من غيرهم لا يقبل . وقد ذكر منه فى سورة المائدة ، وفى وضعها أيضاً فى أثناء قصصهم ، إشارة إلى تكذيبهم فى قولهم « لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ »(١) وأن المدار فى عصمة الدم والمال إنما هو الإيمان والاستقامة . وذلك موجود فى نص التوراة فى غير موضع . وفيها تهديدهم على المخالفة فى ذلك بالذل والمسكنة . وسيأتى بعض ذلك عند قوله « لاَ تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ »(٢) الآية . بل وفيها مايقتضى المنع من مال المخالف

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

(٢) [٢ / البقرة / ٨٣] ونصها: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ =

فى الدين ، فإنه قال فى وسط السفر الثانى : وإذا لقيت ثور عدوّك أو حماره وعليه حمولة فارددها إليه. وإذا رأيت حمار عدوك جاثماً تحت حمله فهممت أن لاتوازره فوازرْهُ وساعِدْهُ.
ثم رجع إلى قصصهم على أحسن وجه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » تذكيراً لجناية أخرى لأسلافهم ، أى واذكروا وقت أخذنا لميثاقكم بالمحافظة على مافى التوراة ، « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » ترهيباً لكم لتقبلوا الميثاق . وذلك أن الطور اقتلع من أصله ، ورفع وظلّل فوقهم . والطور هو الجبل . وقيل لهم وهو مطلٌّ فوقهم « خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ » من الكتاب « بِقُوَّةٍ » أى بجد واجتهاد ، « وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ » واحفظوا ما فى الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » لكى تتقوا المعاصى ، أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين ، أو طلباً لذلك . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الأعراف « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١) .

قال الراغب : إن قيل إن هذا يكون إلجاء ولا يستحق به الثواب ، قيل : لم يستحقوا الثواب بالالتزام وإنما استحقوه بالعمل بها من بعد . فأما فى التزامها فمضطرون ، وقال بعض

= إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ .

(١) [٧ / الأعراف / ١٧١] .

الناس: عنى بالطور تشديد الأمر عليهم، وجعل ذلك مثلًا . وذلك بعيد . ومثله قول القاشانى: طور الدماغ للتمكن من فهم المعانى وقبولها . فإنه بعيد يأباه ظاهر الآية الأخرى . وإن كان الإطلاق فى اللغة لا ينحصر فى الحقيقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

« ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد « فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » أى لكم بتوفيقكم للتوبة، أو تأخير العذاب ، « لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الهالكين بالعقوبة .

قال الراغب : الخاسر المطلق ، فى القرآن ، هو الذى خسر أعظم ما يقتنى ، وذلك نعيم الأبد ، وهو المذكور فى قوله « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] .

وقال القفال : قد يعلم فى الجملة أنهم بعد قبول التوراة ورفع الطور ، تولوا عن التوراة بأمور كثيرة . فحرفوا كلها عن مواضعه ، وتركوا العمل بها ، وقتلوا الأنبياء ، وكفروا بهم ، وعصوا أمرهم . ومنها ما عمله أوائلهم ، ومنها ما فعله متأخروهم ، ولم يزالوا فى التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلًا ونهاراً يخالفون موسى ويعترضون عليه ، ويلقونه بكل أذى ويجاهرون بالمعاصى فى معسكرهم ذلك . حتى لقد خسف ببعضهم ، وأحرقت النار بعضهم ، وعوقبوا بالطاعون . وكل هذا مذكور فى تراجم التوراة التى يقرون بها ، ثم فعل متأخروهم ما لا خفاء به ، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح ، وهموا بقتله .

والقرآن ، وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة ، فالجملة معروفة ، وذلك إخبار من الله تعالى عن عناد أسلافهم . فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

---

(١) [٣٩ / الزمر / ١٥] .

من الكتاب ، وجحودهم لحقه . وحالهم فى كتابهم ونبيهم ما ذكر . والله أعلم .
ثم ذكّرهم تعالى بالإيقاع بمن نقض ميثاقه وفيما أخذه عليهم من تعظيم السبت بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا » أى تعمدوا العدوان « مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ » بأن استحلوه وتحيّلوا على اصطياد الحيتان فيه . وذلك أن الله ابتلاهم ، فما كان يبقى حوت فى البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت ، فإذا مضى تفرقت كما قال « تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ »[1] فحفروا حياضا عند البحر ، وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد . فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم . فتسبب عن اعتدائهم المذكور ما ذكره تعالى بقوله « فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » أى صاغرين مطرودين مبعدين من الخير ، أذلاء . وقد روى عن الضحاك وقتادة : أنهم مسخوا قردة ، لها أذناب تعاوى ، بعد ما كانوا رجالا ونساء . وأما مجاهد فقال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا . رواه ابن جرير . وهكذا قال القاشانىّ « كُونُوا قِرَدَةً » أى مشابهين الناس فى الصورة وليسوا بهم . ثم قال : والمسخ بالحقيقة حق غير منكر فى الدنيا والآخرة. وردت به الآيات والأحاديث . وفى أثر : عدّ الممسوخ ثلاثة عشر ، وبيان أعمالهم ومعاصيهم وموجبات

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] ونصها : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

مسخهم . والحاصل أن من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات، ورسخ فيه بحيث زال استمداده ، وتمكن فى طبعه ، وصار صورة ذاتية له ، صار طبعه طبع ذلك الحيوان ، ونفسه نفسه ، فصارت صفته صورته .

وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

« فَجَعَلْنَاهَا » أى المسخة والعقوبة « نَكَالًا » عبرة تنكل المعتبر بها ، أى تمنعه وتردعه . ومنه النكل للقيد « لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا » من المعاصى من أهل عالمها الشاهدين لها « وَمَا خَلْفَهَا » ممن جاء بعدهم، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها « وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » من قومهم ، أو لكل متق سمعها . وأشعر هذا أن التقوى عصمة من كل محذور ، وأن النقم تقع فى غيرهم ، وعظاً لهم .

(تنبيه) : أفادت هذه الآية التنويه بشأن يوم السبت عند الإسرائيليين ، إذ مستحلوه منهم مسخوا قردة. وفى ترجمة التوراة ما نصه : وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل ، يحفظون السبت لأنه مقدس لكم ، من دنّسه يقتل ، ومن صنع فيه عملا يقطع من بين شعبه . فى ستة أيام تصنع الأعمال ، وأما اليوم السابع ففيه سبت راحة ، وليحفظ بنو إسرائيل السبت ، وليتخذوه عيداً بأجيالهم . لأن الرب خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وفرغ يوم السابع . وفيها أيضاً ما نصه : فى ستة أيام تعمل عملك ، وأما اليوم السابع ففيه تستريح ، لكى يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب . انتهى

وقد حرم على اليهود فيه أن يُعدّوا طعامهم . بل حرم عليهم أن يوقدوا نارا . وفى

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٣] .

سفر نحميا ـ فى الفصل الثالث عشر ـ ما نصه : وفى تلك الأيام رأيت فى يهوذا قوماً يدوسون فى المعاصر فى السبت ويأتون بأكداسها يحملونها على الحمير ، وبخمر أيضا ، وعنب وتين ، وكل حمل مما كانوا يأتون به إلى أورشليم فى يوم السبت . فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام . وكان الصوريون المقيمون بها يأتون بالسمك . وكل نوع من المبيعات ، ويبيعون فى يوم السبت لبنى يهوذا وفى أورشليم . فخاصمتُ عظماء يهوذا ، وقلت لهم : ما هذا الشرّ الذى تفعلونه وتدنّسون يوم السبت ؟ ألم تفعل آباؤكم هكذا ؟ فجلب إلهنا كل هذا الشر علينا وعلى هذه المدينة ، وأنتم تزيدون الغضب على بنى إسرائيل بتدنيسكم السبت ، إلى آخره .

ولما بيّن تعالى قساوتهم فى حقوقه العلية ، أتبعه ببيان قساوتهم فى مصالح أنفسهم توبيخاً لأخلافهم . مع الإشارة إلى نعمته عليهم فى خرق العادة فى شأن البقرة ، وبيان من هو القاتل بسببها ، وإحياء الله تعالى المقتول ، ونصه على من قتله منهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ » بنى إسرائيل « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنه وجد قتيل فيهم، وكانوا يطالبون بدمه ، فأمرهم الله بذبح بقرة وأن يضربوه ببعضها ليحيي ويخبر بقاتله « قَالُوا » استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا صنعوا ؟ هل سارعوا إلى الامتثال أوْ لا . فقيل « قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً » بضم الزاى وقلب الهمزة واوا ، وقرئ بالهمزة مع الضم والسكون . أى أتجعلنا مكان هُزُوٍ ، أو أهل هُزُوٍ ، أو مهزوًّا بنا ، أو نفس الهزو ، للمبالغة . وأشعر جوابهم ما ثبت من فظاظتهم ، إذ فيه سوء الأدب على من ثبتت رسالته وقدعلموها. «قَالَ» استئناف كما سبق « أَعُوذُ بِاللَّهِ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله، سبحانه، جهل وسفه. نفى عنه، عليـه السلام ، ما توهموه من قِبَلِهِ على أبلغ وجه ، وآكده ، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه ، استفظاعاً له ، واستعظاماً لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه ، عليه السلام، بها . والعَوْذ : اللّجأ من متخوَّف لكاف يكفيه . والجهل : التقدم فى الأمور بغير علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ)

« قَالُوا » تمادياً فى الغلظة « ادْعُ لَنَا » أى لأجلنا « رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ » ماحالها، وصفتها . وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيى . فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن ، الخارجة عما عليـه البقر ، و « ما » وإن شاعت فى طلب مفهوم الحقيقة ، لكنها قد يطلب بها الصفة والحال . تقول : ما زيد ؟ فيقال : طبيب أو عالم . « قَالَ » أى موسى عليه السلام ، بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان ، وأتاه الوحى . « إِنَّهُ » تعالى « يَقُولُ إِنَّهَا » أى البقرة المأمور بذبحها « بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ » أى لا مسنّة . وقد فرضت فروضا ، فهى فارض ، أى أسنّت . من الفرض بمعنى القطع . كأنها قطعت سنّها وبلغت آخرها . « وَلَا بِكْرٌ » أى لا فتيّة صغيرة لم يُلَقِّحْها الفحل . « عَوَانٌ » أى نصف « بَيْنَ ذَٰلِكَ » أى سِنَّيِ الفارض والبكر « فَافْعَلُوا مَاتُؤْمَرُونَ » هذا أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ما قبله من بيان صفة المأمور به . وفيه حثّ على الامتثال ، وزجر عن المراجعة . ومع ذلك لم يفعلوا ، بل سألوا بيان اللون بعد بيان السنّ بأن :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » شديد الصفرة ، يقال فى التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال : أسود حالك ، وأبيض يقق ، وأحمر قانئ ، وأخضر ناضر ومدهامّ . وفى إسناد الفقوع إلى اللون ـ مع كونه من أحوال الملوّن لملابسته به ـ مالا يخفى من فضل تأكيد . كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى : جدّ جدّه . « تَسُرُّ النَّاظِرِينَ » أى تبهج نفوسهم .

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشُدد عليهم . وقد رواه غير واحد عن ابن عباس ، ورفعه ابن جريج والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ)

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ » زيادة استكشاف عن حالها لتمتاز عما يشاركها فى التعوين والصفرة . ولذلك عللوا تكرير سؤالهم بقولهم « إِنَّ الْبَقَرَ » الموصوف بما تقدم « تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لكثرته ، أى اشتبه علينا أيّها نذبح . قال البقاعىّ : وذكّر الفعل ، لأن كل جمع حروفه أقل من حروف واحده ، فإن العرب تذكره . نقل عن سيبويه . « وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ » إلى البقرة المراد ذبحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)

« قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ » . أى لم تذلل لإثارة الأرض وسقى الحرث. و«لا ذلول» صفة لبقرة . بمعنى غير ذلول. و «لا» الأولى للنفى ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى . لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى ، على أن الفعلين صفتان لذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية ، والمقصود : إنهـا مكرمة ليست مذللة بالحراثة ، ولا مُعَدة للسقى فى السانية . « مُسَلَّمَةٌ » ، سلمها الله من العيوب ، أو معفاة من العمل ، سلمها أهلها منه ، أو مخلصة اللون لم يشب صفرتها شىء من الألوان . من : سلم له كذا، إذا خلص له « لَا شِيَةَ فِيهَا » ، أى لا لون فيها يخالف لون جلدها من بياض وسواد وحمرة ، فهى صفراء كلها ، وهى فى الأصل مصدر : وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لوناً آخر . فى الصحاح : الشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره . والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله . والجمع : شيات . يقال : ثور أَشْيَه ، كما يقال : فرس أبلق . « قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ » أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ، ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا . بخلاف المرتين الأوليين ، فإن ما جئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة « فَذَبَحُوهَا » ، الفاء فصيحة ، كما فى « فانفجرت » ، أى فحصلوا البقرة فذبحوها «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» كاد من أفعال المقاربة، وضع لدنوّ الخبر من الحصول، والجملة حال من ضمير ذبحوا ، أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه . اعتراض تذييلىّ . ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم، وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط إسهابهم فيها .

(تنبيه) قال الراغب : قال بعض الناس : فى هذه الآية دلالة على نسخ الشىء قبل

فعله . فإن فى الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة ، وكان لهم أن يذبحوا أى بقرة شاؤا . وفى الثانى والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة . فكأنهم نهوا عما كانو أمروا به من قبل . وليس كذلك ، فإن الأول أمر مطلق ، والثانى والثالث كالبيان له ، لمّا راجعوا . ولم يسقط عنهم ذبح البقرة . بل زيد فى أوصافها وكشف عن المراد بالأمرالأول . وفى الآية دلالة على جوازتأخير البيان إلى وقت الحاجة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا » أى اختلفتم واختصمتم فى شأنها ، إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» مُظهِر ، لا محالة ، ما كتمتم من أمر القتيل ، لا يتركه مكتوما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

« فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ » أى المقتول « بِبَعْضِهَا » أى البقرة . يعنى فضربوه فحيي وأخبر بقاتله . كما دل عليه قوله « كَذَٰلِكَ » أى مثل هذا الإحياء العظيم على هذه الهيئة الغريبة « يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ » يوم القيامة « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ » أى دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير . ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء . والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت ، وإخباره بقاتله ، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل ، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره ، مما تخبر به الرسل عن الله تعالى .

قال الراغب: وقوله « كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ » قيل هو حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه ، وقيل بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الأمة ، تنبيهاً على الاعتبار بإحيائه الموتى .

تنبيهات :

(الأول) قال الزمخشري : (فإن قلت) فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ؟ فيقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟

(أجيب) بأن كل ما قص من قصص بني إسرائيل ، إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعاً لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين . فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء ، وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع . ولقد روعيت نكتة، بعد ما استؤنفت الثانية، استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : اضربوه ببعضها ، حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ، وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها . وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة . اهـ

وقال الحرالي : قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر ندائهم في القتيل ، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة. والله أعلم .

(التنبيه الثاني) قال الراغب : قد استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه ، وأنكر

حصول ذلك الفعل على الحقيقة وقال : ذلك ممتنع من حيث الطبيعة ، وأيضاً فإن ذلك لا يعرف فيه حكمة إلهية . فأما استبعاده ذلك من حيث الطبيعة فإنما هو استبعاد للإحياء والنشور ، ولذلك موضع لا يختص بالتفسير . ومن كان ذلك طريقته فلا خوض معه فى تفسير القرآن . وأما الحكمة فيه فظاهرة إذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للعقول . وأما تخصيص البقرة ، فإن كثيراً من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه . ولو لم يكن فى تخصيص بقرة على وصف مخصوص إلا توافر المأمورين بذلك على طلبها ، واستيجاب الثواب فى بذل ثمنها، وجاب نفع توفر إلى صاحبها ـ لكان فى ذلك حكمة عظيمة . وفى الآية تنبيه على أن الجماعة التى حكمهم واحد يجوز أن ينسب الفعل إليهم وإن كان واقعاً من بعضهم ، ولا يكون ذلك كذبا . كأن الجملة المركبة من شخص واحد يصح أن ينسب إليها ما وقع من عضو منها .

وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبى ﷺ ، ولا يتعلق به كبير فائدة . كما أن البعض من البقرة لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانُه . فنحن نبهمه كما أبهمه الله تعالى ، إذ ليس فى تعيينه لنا فائدة دينية ولا دنيوية . وإن كان معيّنا فى نفس الأمر ، وأيًّا كان فالمعجزة حاصلة به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » المخاطبون إما أهل الكتاب الذين كانوا فى زمنه ﷺ ، أى اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التى جاءت أوائلكم ، والأمور التى جرت عليهم ، والعقاب الذى نزل بمن أصرّ على المعصية منهم ، والآيات التى

جاءهم بها أنبياؤهم ، والمواثيق التى أخذوها على أنفسهم ، وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم . فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التى تلين عندها القلوب . وهذا أولى . لأن قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ » ، خطاب مشافهة . فحمله على الحاضرين أولى . وإما أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام خصوصًا ، أو من قبل المخاطبين من سلفهم. والله أعلم . « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » فى القساوة « أَوْ أَشَدُّ » منها « قَسْوَةً » أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها . و «أو» للتخيير أو للترديد . بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد . أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة ، وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ » أى يتفتح بالسعة والكثرة « مِنْهُ الْأَنْهَارُ » بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور ، يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ » أى يتشقق « فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ » أى العيون التى هى دون الأنهار « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » أى يتردى من رأس الجبل من خشية الله، انقياداً لما سخره له من الميل إلى المركز بالسلاسة ، قاله القاشانى .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى الاستدلال بظاهر الآية على خلق التمييز فى الجماد حتى يخشى ويسبح . والمحققون على أن هذه الآية وأمثالها من المجاز البليغ . وأن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . لا سيما وأن المجاز أكثر فى اللسان منها ، كما بسط فى مطولات البيان .

وقد رد الإمام ابن حزم، فى أول كتابه «الفصل» على من زعم أن للحيوان والجماد تمييزاً، رداً مسهباً . وقال : من ادعى ذلك أكذبه العيان . ثم استثنى ما كان معجزة للأنبياء عليهم السلام .

(قال) ولعل معترضاً يعترض بقوله تعالى يصف الحجارة « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ

خَشْيَةِ اللهِ » ، فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمر بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبيّ . فإذْ لا شك فى هذا ، فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون الضمير فى قوله تعالى « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ » راجع إلى القلوب المذكورة فى أول الآية فى قوله تعالى « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوماً ما ، فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشية الله تعالى ، وهذا أمر يشاهد بالعيان ، فقد تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالى ، ويخشى العاصى . وقد أخبر عز وجلّ : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ »[1] ، وكما أخبر تعالى أن من الأعراب من يؤمن بالله[2] من بعد أن أخبر أن «الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا»[3] . (قال) فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة . والوجه الثانى أن الخشية المذكورة فى الآية إنما هى التصرف بحكم الله تعالى وجرى أقداره ، كما قلنا فى قوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »[4] .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٩ / التوبة / ٩٩] ونصها : وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ٩٧] ونصها : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

والوجه الثالث أن يكون الله تعالى عنى بقوله « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » الجبلَ الذى صار دكًّا، إذ تجلى الله تعالى له يوم سأله كليمه عليه السلام الرؤية ، فذلك الجبل بلاشك من جملة الحجارة ، وقد هبط عن مكانه من خشية الله تعالى ، وهذه معجزة وآية وإحالة طبيعةٍ فى ذلك الجبل خاصة . ويكون « يهبط » بمعنى « هبط » كقوله تعالى « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا »[1] معناه : وإذ مكر ، وبين قوله تعالى، مصدقاً إبراهيم خليله ﷺ فى إنكاره على أبيه عبادة الحجارة « لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ »[2] وقوله تعالى « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ »[3] فصح بهذا، صحةً لا مجال للشك فيها ، أن الحجارة لاتعقل . وإذ تيقن ذلك بالنص وبالضرورة والمشاهدة فقد انتفى عنها النطق والتمييز والخشية ، المعهود كل ذلك عندنا . وأما الأحاديث المأثورة فى أن الحجر له لسان وشفتان، والكعبة كذلك ، وأن الجبال تطاولت ، وخشع جبل كذا، فخرافات موضوعة نقلها كل كذاب وضعيف ، لايصح منها شىء من طريق الإسناد أصلا . ويكفى من التطويل فى ذلك أنه لم يُدخِل شيئاً منها من انتدب من الأئمة لتصنيف الصحيح من الحديث ، أو ما يستجاز روايته ، مما يقارب الصحة (انتهى كلام ابن حزم) .

وقال ابن جرير : اختلف أهل النحو فى معنى الهبوط ـ ما هبط من الأحجار من خشية الله ـ فقال بعضهم : إن هبوط ماهبط منها من خشية الله تفيّؤ ظلاله . وقال آخرون: ذلك الجبل الذى صار دكا إذ تجلى له ربه . وقال آخرون : قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠] ونصها : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٣] .

كقوله « جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ »(١) ولا إرادة له . قالوا : وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله يُرَى كأنه هابط خاشع من ذلّ خشية الله . قال زيد الخيل :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ منه سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ(٢)

وكما قال سويد بن أبى كاهل، يصف عدوًّا له :

ساجِـدَ المَنْخِرِ لَا يَرْفَعُهُ ... خَاشِعَ الطَّرْفِ أَصَمَّ المُسْتَمَعْ(٣)

يريد أنه ذليل .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٧٧] ونصها : فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

(٢) قال السيد محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت فى تفسير ابن جرير (٢/١٠٤) ما يأتى :

البلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين . والحجرات جمع حَجْرة : الناحية . والأُكْم (وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهى تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة .

قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير « يقول إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر . والباء فى (بجمع) متعلقة ببيت سالف هو :

بنى عامر ، هل تعرفون إذا غدا ... أبو مِكْنَفٍ قد شدّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ

(٣) وقال أيضاً (٢/٢٤٢) ما يأتى :

يقول : أذلّه فطأطأ رأسه خزيا ، وألزم الأرض بصره ، وصار كأنه أصمّ لا يسمع مايقال له ، فهو لا حراك به ، مات وهو حىّ قائم ، لا يحير جوابا . ولذلك قال بعده :

فَرَّ منى هاربا شيطانُهُ ... حيث لا يُعْطِى، ولا شيئًا مَنَعْ

وكما قال جرير بن عطية :

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَّعُ(١)

وقال آخرون : معنى قوله « يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » أى يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه . كما قيل: ناقة تاجرة إذا كانت، من نجابتها وفراهتها، تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

وَأَعْوَرُ مِنْ نَبْهَانَ ، أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ(٢)

فجعل الصفة لليل والنهار ، وهو يريد بذلك صاحبه النبهانىّ الذى يهجوه . من أجل أنه فيهما كان ما وصفه به . ثم اختار ابن جرير ما يقتضيه ظاهر الآية . وتقدم رد ابن حزم له مبرهنا عليه .

---

(١) وقال أيضاً (٢/١٧) ما يأتى :

استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل لما أضاف (سور) إلى مؤنث وهو (المدينة) وهو بعض منها .

قال سيبويه : وربما قالوا فى بعض الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال « ذهبت عبد أمك » لم يحسن .

وهذا البيت يعيّر به الفرزدقَ بالغدر ويهجوه . فإن الزبير بن العوام رضى الله عنه ، حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بنى مجاشع (رهط الفرزدق) فرماه فقتله غيلة . ووصف الجبال بأنها « خشع » يريد : عند موته خشعت وطأطأت من هول المصيبة فى حوارىّ رسول الله ﷺ ، ومن قبح مالقى من غدر بنى مجاشع .

(٢) وقال أيضاً (١/٣١٧) ما يأتى :

كان الأعور النبهانىّ هجا جريرا . فأكله جرير . قال أبو عبيدة « أى هو أعور النهار عن الخيرات ، بصير الليل بالسوءات ، يسرق ويزنى » .

ثم رأيت الإمام الراغب حاول هنا تقريب ما نقل من الوقوف على ظاهرها بتأويله . وعبارته : قال مجاهد وابن جريج : كل حجر تردى من رأس جبل لخشية الله نزلت به ، وقال الزجاج : الهابط منها قد جعل له معرفة ، قال ويدل على ذلك قوله « لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »[1] وقال « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »[2] إلى قوله « وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ »[2] وقد روى مثل هذا عن السلف ، ولا بد فى معرفة ذلك من مقدمة تكشف عن وجه هذا القول ، وحقيقته . فإن قوماً استسلموا لما حكى لهم من هذا النحو ، فانطووا على شبهة . وقوما استبعدوا ذلك واستخفوا عقل رواته وقائليه ، فيقال وبالله التوفيق : إن قوما من المتقدمين ذكروا أن جميع المعارف على أضرب : الأول المعرفة التامة التى هى العلم التام . وذلك لعلاّم الغيوب الذى أحاط بكل شىء علما . والثانى معرفة متزايدة ، وهى للإنسان . وذاك أن الله تعالى جعل له معرفة غريزية . وجعل له بذلك سبيلا إلى تعرف كثير مما لم يعرفه . وليس ذلك إلا للإنسان . والثالث معرفة دون ذلك ، وهى معرفة الحيوانات التى سخرها لإيثار أشياء نافعة لها والسعى إليها . واسترذال أشياء هى ضارة لها وتجنبها ، ودفع مضار عن أنفسها . والرابع : معرفة الناميات من الأشجار والنبات ، وهى دون ما للحيوانات ، وليس ذلك إلا فى استجلاب المنافع وما ينميها . والخامس: معرفة العناصر. فإن كل واحد منها مسخر لأن يشغل المكان المختص به كالحجر فى طلب السفل ، والنار فى

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢١] .

(٢) [٢٢ / الحج / ١٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

طلب العلو ، وذلك بتسخيرالله تعالى، بلا اختيار منه . قالوا: والدلالة على ذلك أن كل واحد من هذه العناصر إذا نقل من مركزه قهراً ، أبى إلا العود إليه طوعا . قالوا ويوضح ذلك أن السراج يجتذب الأدهان التى تبقيه . ويأبى المـاءالذى يطفيه . وأن المغناطيس يجرالحديد ولا يجر غيره . هذا ما حكوه .

فعلى هذا إذا قيل : لهذه الأشياء معرفة ، فليس ببعيد ، متى سلم لهم أن هذه القوى تسمى معرفة . فأما إذا قيل إن للجمادات معارف الإنسان فى أنها تميز وتختار وتريد ، فهذا مما تعافه العقول . (انتهى قول الراغب) .

وهو تأويل حسن ، ومبناه على أن اصطلاح السلف فى كثير من الإطلاقات غير اصطلاحات الخلف . وهو مسلم فى كثير من الإطلاقات .

وقوله تعالى « وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى . فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه ، مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد . ولما بيّن سبحانه وتعالى قساوة قلوبهم، تسبب عن ذلك بعدهم عن الإيمان ، فالتفت إلى المؤمنين يُؤَيسهم من فلاحهم تسلية للنبيّ ﷺ عما كان يشتد حرصه عليه من طلب إيمانهم فى معرض التنكيت عليهم ، والتبكيت لهم ، منكراً للطمع فى إيمانهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« أَفَتَطْمَعُونَ » أيها المؤمنون بعد أن علمتم تفاصيل شؤون أسلافهم المؤيسة عنهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى هؤلاء اليهود الذين بين أظهركم وهم متماثلون فى الأخلاق الذميمة ، لا يأتى من أخلافهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم ، (واللام فى قوله) « لَكُمْ » لتضمين

معنى الاستجابة . كما فى قوله عز وجل « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »(١) أى فى إيمانهم مستجيبين لكم . أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » أى طائفة فيمن سلف منهم « يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ » وهو ما يتلونه من التوراة « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » قال ابن كثير : أى يتأولونه على غير تأويله . وقال ابن جرير : يعنى بقوله « يُحَرِّفُونَهُ » يبدلون معناه وتأويله ويغيّرونه ، وأصله من انحراف الشيء عن جهته وهو ميله عنها إلى غيرها . فكذلك قوله « يُحَرِّفُونَهُ » أى يميلونه عن وجهه ، ومعناه الذى هو معناه، إلى غيره . « مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ » أى فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

قال ابن جرير : هذا إخبار عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم المداوة له ولرسوله موسى عليه السلام . وأن بقاياهم فى العصر المحمدىّ على مثل ما كان عليه أوائلهم فى العصر الموسوىّ بغياً وحسداً . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »(٢) والظاهر أن المراد، بالفريق منهم، أحبارهم ، وإنما فعلوا ذلك لضرب من الأغراض على ما بينه الله تعالى ، من بعدُ ، فى قوله تعالى « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا »(٣) وقال « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »(٤) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٦] ونصها : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٣/ آل عمران/١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة/ ١٤٦] ونصها : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ =

ولقائلٍ أن يقول ، كيف يلزم من إقدام البعض على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقين ، فإن عناد البعض لا ينافى إقرار الباقين . وأجاب القفال عنه فقال : يحتمل أن يكون المعنى : كيف يؤمن هؤلاء ، وهم إنما يأخذون دينهم ، ويتعلمونه من قوم هم يتعمدون التحريف عناداً ، فأُولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيّروه عن وجهه ، والمقلدة لا يقبلون إلا ذلك ، ولا يلتفتون إلى أقوال أهل الحق ، وهو قولك للرجل كيف تفلح ، وأستاذك فلان ؟ أى وأنت عنه تأخذ ، ولا تأخذ عن غيره .

ونحوه قول الراغب : لما كان الإيمان هو العلم الحقيقىّ مع العمل بمقتضاه ، فمتى لم يتحر ذلك من حصل له بعض العلوم ، فحقيق أن لا يحصل لمن غَبِيَ عن كل العلوم . فذكر ذلك تبعيدا لإيمانهم لا يأساً للحكم بذلك ، إذ ليس كل ما لا يطمع فيه كان مأيوسا (ثم قال الراغب) وفى الآية تنبيه أنْ ليس المانع للإنسان من تحرى الإيمان الجهل به فقط ، بل يكون عناداً وَغلبة شهوة .

(تنبيه) ما نقلناه عن ابن جرير وابن كثير فى تفسير « ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ » هو الأنسب باعتبار سوق الآية الكريمة ، ولا يتوهم من ذلك دفع تحريفهم اللفظىّ عن التوارة ، فإنه واقع بلا ريب ، فقد بدلوا بعضاً منها وحرفوا لفظه ، وأوّلوا بعضا منها بغير المراد منه ، وكذا يقال فى الإنجيل . ويشهد لذلك كلام أحبارهم ، فقد نقل العلامة الجليل الشيخ رحمة الله الهندىّ فى كتابه (إظهار الحق) : أن أهل الكتاب سلفا وخلفا ، عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الأسماء فى تراجمهم ، ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير فى الكلام ، الذى هو كلام الله فى زعمهم،

=أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بألسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . ثم ساق بعضاً منها فانظره .

وفي ذخيرة الألباب ، لأحد علماء النصارى ، ما مثاله : إن بعضهم ذهب إلى أن الروح القدس لم يق الكتبة عثرة الخطإ الطفيف، ولا كفاهم زلة القدم حتى لم يستحل أنهم خلطوا البشريات بالإلهيات . وفيه أيضاً : إن بين النسخة العبرانية والسامرية واليونانية من الأسفار الخمسة خلافاً عظيما في أمر التاريخ . فإذًا تحريف الأسفار الخمسة أمر بيّن . وفيه أيضاً في الفصل (٣١) : أن بعض علمائهم زعم أنه وجد في الترجمة اللاتينية العامية للعهدين العتيق والجديد نيفاً وأربعة آلاف غلطة ، ورأى آخر فيها ما يزيد على الثمانية آلاف خطأ . انتهى. فثبت من شهادتهم وقوع التحريف اللفظيّ فيها. وهو المقصود .

وأما القول بتحريف الأسفار كلها أو جلها ، فهو إفراط . قال الحافظ ابن حجر في أواخر شرح الصحيح في باب قول الله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ »[1] : إن القول بأنها بدلت كلها مكابرة . والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل . من ذلك قوله تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ »[2] الآية . ومن ذلك

---

(١) [٨٥ / البروج / ٢١] .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

قصة رجم اليهوديين (١) وفيه وجود آية الرجم ويؤيده قوله تعالى « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٢). وقد أسلفنا تتمة هذا البحث فى مقدمة التفسير فى الكلام على الإسرائيليات . فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى، عن تخلق أولئك المأيوس من إيمانهم من اليهود بأخلاق المنافقين وسلوكهم مناهجهم، بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٦ ـ باب قول الله تعالى: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون . فقال عبد الله بن سَلَام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأَتَوْا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم . فقرأ ما قبلها وما بعدها .

فقال له عبد الله بن سلَام : ارفع يدك .

فرفع يده فإذا فيها آية الرجم .

فقالوا : صَدَقَ ، يا محمد ، فيها آية الرجم .

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما .

قال عبد الله : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] ونصها : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بالله ورسوله من أصحاب النبىّ ﷺ « قَالُوا ءَامَنَّا » أى بأنكم على الحق، وأن محمداً هو الرسول المبشر به ، وكأنهم يقولون ذلك إرضاء لحلفائهم من الأوس والخزرج ، أو جهراً بحقيقةٍ لا يسعهم ، أمام حلفائهم ، السكوت عنها . « وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ » يعنى الذين لم ينافقوا « إِلَىٰ بَعْضٍ » أى الذين نافقوا « قَالُوا » أى عاتبين عليهم « أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » أى بما بيّن لكم فى التوراة من البشارة بالنبىّ ﷺ ، والإيمان بالنبىّ الذى يجيئكم مصدقاً لما معكم، ونصره.

قال ابن إسحق : أى أتقرّون بأنه نبىّ ، وقد علمتم أنه أُخِذَ له الميثاق عليكم باتّباعه ، وهو يخبرهم أنه النبىّ الذى نجده فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقرّوا به .

قال ابن جرير : أصل الفتح فى كلام العرب القضاء والحكم . والمعنى : أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ ومن حكمه تعالى وقضائه فيهم ، ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به فى التوراة . اهـ .

« لِيُحَاجُّوكُمْ » متعلقة بالتحديث ، دون الفتح ، أى ليقيم المؤمنون به عليكم الحجة « بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ » أى لتكون الحجة للمؤمنين عليكم فى الآخرة ، فيقولون : ألم تحدثونا بما فى كتابكم ، فى الدنيا، من حقيّة ديننا ، وصدق نبينا ؟ فيكون ذلك زائداً فى ظهور فضيحتكم ، وتوبيخكم على رؤوس الخلائق ، فى الموقف . لأنه ليس من اعترف بالحق ، ثم كتم ، كمن ثبت على الإنكار .

وتأول الراغب الأصفهانىّ قوله تعالى « عِندَ رَبِّكُمْ » أى فى حكمه وكتابه ، كما هو وجهٌ فى آية « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ، فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »[1] أى فى

(١) [٢٤ / النور / ١٣] وأولها : لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ،

حكم الله وقضائه ، وهو وجه جيد . وقوله « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » من تمام التوبيخ والعتاب ، فهو من جملة الحكاية عنهم على سبيل إنكار بعضهم على بعض . قال الراغب : ويصح أن تكون استئناف إنكار من الله عز وجل ، على سبيل ما يسمى فى البلاغة « الالتفات » . ويصح أن يكون ذلك خطاباً للمؤمنين ، تنبيهاً على ما يفعله الكفار والمنافقون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

« أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى يخفون من قولهم لأصحابهم ، ومن غيره « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يظهرون من ذلك ، فيخبر به أولياءه . قال الراغب : هذا تبكيت لهم ، وإنكار لما يتعاطونه ، مع علمهم بأن الله لا يخفى عليه خافية .

ولما ذكر العلماء من اليهود الذين عاندوا بالتحريف، مع العلم والاستيقان ، ذكر العوامّ الذين قلدوهم ، ونبَّه على أنهم فى الضلال سواء . لأن العالِمَ عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العامّىّ أن لا يرضى بالتقليد والظن ، وهو متمكن من العلم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ » أى لا يحسنون الكَتْبَ فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها من دلائل النبوة ، فيؤمنوا . « لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ » أى التوارة ، أى لا يدرون ما فيها من حدودٍ وأحكامٍ ومواثيق «إِلَّا أَمَانِيَّ» بالتشديد جمع أمنية ، أصلها أُمْنُويَة « أفْعُولَة » فأُعِلَّتْ إعلالَ سيّد ، وميّت . مأخوذة من تمنى الشىء : قدَّره وأحب أن يصير إليه . أو من تمنّىّ: كذب . أو من تمنّى الكتابَ : قرأه . وعلى كلٍّ فالاستثناء منقطع ، إذ ليس ما يُتمنى ، وما يُختلق وما يتلى ، من جنس علم الكتاب . أى لا يعلمون الكتاب . لكن يتمنون

أمانىّ حسبما منتّهم أحبارُهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم . وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . وغير ذلك من أمانيّهم الفارغة . المستندة إلى الكتاب ، على زعم رؤسائهم . أو لا يعلمون الكتاب ، لكن أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم . فتقبلوها على التقليد . أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم . فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر والتأمل فيه .

قال ابن جرير : وأوْلى ما روينا فى تأويل قوله « إلا أمانىّ » أن هؤلاء الأميين لا يفقهون ، من الكتاب الذى أنزله الله ، شيئا . ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذبا وزورا . والتمنى فى هذا الموضع هو تخلّقُ الكذب وتخرّصه وافتعاله . بدليل قوله تعالى بعدُ «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنا منهم ، لا يقينا .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : حَمْلُهُ على تمنى القلب أولى . بدليل قوله تعالى «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ »[1] أى تمنيهم. وقال الله تعالى « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »[2] وقال « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ »[1] ، « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »[3] بمعنى يقدّرون ويخرصون . ورجح كثيرون حمله على القراءة ، كقوله تعالى

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٣] ونصها : لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .

« إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ »[(١)] إذ فى الاستثناء ، حينئذ، نوع تعلق بما قبله . فيكون أليقَ فى طريقة الاستثناء . و« إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » ما هم إلاّ قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم . فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين ؟

(تنبيه) قال الراغب : قد أنبأ الله عن جهل الأميين وذمهم والمبالغة فى ذم علمائهم وأحبارهم . فإن الأميين لم يعرفوا إلا مجرد التلاوة . واعتمدوا على زعمائهم وأحبارهم . وهم قد ضلوا وأضلوا . ونبهنا الله تعالى بذم الأميين ، على اكتساب المعارف لئلا يحتاج إلى التقليد والاعتماد على من لا يؤمن كذبه. وبذم زعمائهم ، على تحرّى الصدق وتجنب الإضلال . إذ هو أعظم من الضلال اهـ

ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانىّ واتباع الظن ، عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . فقيل على وجه الدعاء عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)

« فَوَيْلٌ » فإن أضيف ، نُصِبَ . نحو : ويلكَ وويحَك ـ وإذا فُصِل عن الإضافة ،

---

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

رفع . نحو : ويلٌ له . الويل : الهلاك وشدة العذاب « لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ » أى المحرّف . أو ما كتبوه من التأويلات الزائفة « بِأَيْدِيهِم » تأكيد لدفع توهم المجاز . كقولك: كتبته بيميني. وقد يقال فى مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة فى النفس كما وقعت حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة « ثُمَّ يَقُولُونَ » لما كتبوه ، كذباً وبهتاناً « هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ » أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته «ثَمَنًا قَلِيلًا» أى عَرَضاً يسيرا. ويجوز فى الآية معنى آخر . أى : فويلٌ للذين يكتبون كتاب التوراة بأيديهم ثم يقولون : هذا من عنـد الله ، فيشهدون بذلك . وكان من مقتضى كتابتهم بأيديهم التى تقفهم من الكتاب على مالا يقفون عليه ، لو كان كتابةَ غيرهم ، ومقتضى قولهم وإقرارهم بأنه من عندالله ـ الوقوفُ معءهوده ومواثيقه ، إجلالا لمُنْزِلِهِ ومُوحيه ، ودعوى الناس إلىظواهره وخوافيه . ولـكن لم يكن ذلك منهم . بل كان أن حرّفوا كلمه عن مواضعه ليشتروا به ثمناً قليلا . وحاصل هذا الوجه إبقاء الـكتاب المـكتوب على أصله ، وصدقهم فى قولهم: هذا من عند الله . ثم مخالفتهم لذلك . فيكون قوله تعالى « لِيَشْتَرُوا بِهِ » تعليلا لمحذوف دل عليـه السياق . أى ثم بعد ذلك يحرفونه ليشتروا به . وهو وجه جيـد يوافق آية « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » وربما يشير إلى هـذا الوجه قول مجاهد فيما رواه ابن جرير : هؤلاء الذين عرفوا أنه من عنـد الله يحرفونه « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » أى : فشدة العذاب لهم مما غيرتأيديهم « وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » يصيبون من الحرام والسحت.

قال الراغب : إن قيـل : لم ذكر « يَكْسِبُونَ » بلفظ المستقبل و « كَتَبَتْ » بلفظ الماضى ؟ قيل : تنبيهاً على ما قال النبيّ ﷺ[1] « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها

(١) أخرجه مسلم عن جرير فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٥ ونصه : « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة ، فعُمِل بها بعده ، كُتِب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقُصُ من أجورهم شيءٌ . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، فعُمِل بها بعده ، كُتِب عليـه وزر من عمل بها ، ولا ينقُصُ من أوزارهم شيء » .

ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فنبه بالآية أن ما أصّلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة ، التى يعتمدها الجهلة ، هو اكتساب وزر يكتسبونه حالّا فحالًا (إن قيل) لم ذكر الكتابة دون القول (قيل) لمّا كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه ، إذهو كذب باللسان واليد ، صار أبلغ . لأن كلام اليد يبقى رسمه والقول يضمحل أثره . (إن قيل) : ما الذى كانوا يكتبونه ؟ (قيل) : روى عن بعض السلف أن رؤساء اليهود كانوا يغيرون من التوراة نعت النبيّ ﷺ . ثم يقولون هذا من عند الله . وهذا فصلٌ يحتاج إلى فضل شرح . وهو أنه يجب أن يتصور أن كل نبيٍّ أتى بوصفٍ لنبيٍّ بعده ، فإنه أتى بلفظة معرّضة وإشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون فى العلم . وقد قال العلماء : ماانفك كتابٌ منزّل من السماء مِنْ تضمن ذكر النبيّ ﷺ . لكن بإشارات . ولو كان ذلك متجلياً للعوامّ لما عوتب علماؤهم فى كتمانه . ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان : من العبرانىّ إلى السريانىّ إلى العربىّ . وقدذكر المحصلةُ ألفاظًا من التوراة والإنجيل، إذا اعتُبِرت وجدت دالة على صحة نبوة محمد ﷺ بتعريضٍ . هو عند الراسخين فى العلم جلىّ وعند العامة خفىّ . فبان بهذه الجملة أن ما كَتبَتْ أيديهم كانت تأويلات محرّفة . وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير أحكامه ، وتبديل آياته ، وكتمان الحق عن أهله ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، طمعا فى عَرَضِ الدنيا . وقد تقدم أنه عنى بالثمن القليل ، أعَراضَ الدنيا وإن كثرت . لقوله تعالى « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ »(١) اهـ كلام الراغب رحمه الله .

---

(١) [٤ / النساء / ٧٧] ونصها : . . . . قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَة » بيان لبعض آخر من جناياتهم فيما ادّعوا لأنفسهم من أنهم لا تمسهم النار فى الآخرة إلّا مدة يسيرة . ومرادهم بذلك أنهم لايخلدون فيها . لأن كل معدود منقض . قال مجاهد : كانت اليهود تقول : إنما الدنيا سبعة آلاف سنة . فإنما نعذّب ، مكان كل ألف سنة ، يوماً . ثم ينقطع العذاب . وروى ذلك عن ابن‌عباس . وعنه أن اليهود قالوا : لن ندخل النار إلا الأيام التى عبدنا فيهاالعجل، أربعين ، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب . ثم بين تعالى إفكهم . لأن العقل لا طريق له إلى معرفة ذلك ، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى، وهو منتف . فقال سبحانه « قُلْ » منكراً لقولهم وموبّخاً لهم « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا » أى عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار « فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ » أى فتقولوا لن يخلف الله عهده . وجعل بعضهم الفاء فصيحة مُعرِبة عن شرط مقدر . أى: إن كان الأمر كذلك فلن يخلفه « أَمْ تَقُولُونَ » أى : أم لم يكن ذلك فأنتم تقولون مفترين « عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى وقوعه جهلا وجراءة . وقولهم المحكىّ ، وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه ، لكنه مستلزم له . لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« بَلَى » إثبات لما بعد حرف النفى وهو قوله « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ » أى بلى تمسكم أبدا . بدليل قوله « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »، « مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » أى عملها وهى والسىء

عملان قبيحان. أصلها سيوءة. من : ساءه يسوءه. فأُعِلّتَ إعلال سيد . ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود فى النار ، بل لا بد أن يكون سببه محيطا به فقال « وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ » أى غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة . وسدت عليه مسالك النجاة . بأن عمل مثل عملكم أيها اليهود . وكفر بما كفرتم به حتى يحيط كفره بماله من حسنة « فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(تنبيه) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود فى النار إنما هو للكفار والمشركين . لما ثبت فى السنة ، تواتراً ، من خروج عصاة الموحدين من النار . فيتعين تفسير السيئة والخطيئة ، فى هذه الآية ، بالكفر والشرك . ويؤيد ذلك كونها نازلة فى اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » من عادة التنزيل العزيز أنه لا يذكر فيه آية فى الوعيد إلا ويتلوها آية فى الوعد . وذلك لفوائد : منها ، ليظهر بذلك عدله سبحانه . لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرّين على الكفر ، وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرّين على الإيمان . ومنها ، أن المؤمن لابد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه . وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق . ومنها ، أنه يظهر بوعده كمال رحمته ، وبوعيده كمال حكمته ، فيصير ذلك سبباً للعرفان .

وقد قدمنا عند قوله تعالى « وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »(١) أن السلف أجمعوا على أن الإيمان قول وعمل . فإذا عطف عليه العمل ، فإما أن يكون من عطف الخاص على العام . أو يقال : لَمْ يدخل فيه ولكن مع العطف . كما فى اسم الفقير والمسكين . فتذكر.

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] .

قال الراغب : فى هذه الآية دليل على أن قوله تعالى من قبلُ « بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » هو الكفر . وإحاطةُ الخطيئة به ، الأعمالُ السيئةُ ، وذلك لما قابله به من الإيمان والأعمال الصالحة .

ثم شرع ، سبحانه ، يقيم الدليل على أنهم ممن أحاطت به خطيئته فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» ثم بيّن الميثاق بقوله تعالى «لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» وهو إخبار فى معنى النهى ، كقوله تعالى « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ »(١) وكما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى . وقد بدئ بأعلى الحقوق وأعظمها . وهو حق الله تبارك وتعالى ، أن يُعْبَدَ وحدَه ولا يشرك بها شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه . ولذلك خلقهم . كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »(٢) . وقال تعالى « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »(٣) . « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » والإحسان نهاية البر ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : ... وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) [١٦/ النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين . حتى قرن تعالى الأمرَ بالإحسان إليهما، بعبادته التى هى توحيده ، والبراءة عن الشرك ، اهتماماً به وتعظيماً له .

قال حكيم مصر فى تفسيره : العلة الصحيحة فى وجوب هذا الإحسان على الولد ، هى العناية الصادقة التى بذلاها فى تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلًا . لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرراً . وكانا يحوطانه بالعناية والرعاية . ويكفلانه ، حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه . فهذا هو الإحسان الذى يكون منهما، عن علمٍ واختيارٍ ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان . وإذا وجب على الإنسان أن يشكر ، لكل من يساعده على أمر عسير ، فضلَه ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال فى المساعد ؛ وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى، وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شىء ، أيام كان يتعذر عليه كل شىء اهـ.

« وَذِي الْقُرْبَىٰ » أى القرابة .

قال الأستاذ الحكيم « الإحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ، ويوثق الروابط الطبيعية، حتى تبلغ البيوت ، فى وحدة المصلحة ، درجةَ الكمال . والأمة تتألف من البيوت ، أى العائلات . فصلاحها صلاحها . ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة . وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدّها وأكملهما فى الفطرة بين الوالديْن والأولاد . ثم بين سائر الأقربين . فمن فسدت فطرته حتى لا خير فيه لأهله ، فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءًا من بنية أمته . لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التى هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس . فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءًا منهم ، يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرتهم عين مضرته ؟ قضى نظام الفطرة بأن تكون لحمة القرابة أقوى من كل لحمة ، وصلتها أمتن من كل صلة . فجاء الدين يقدّم حقوق الأقربين على سائر الحقوق .

وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . ثم ذكر تعالى حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال سبحانه « وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ » . اليتامى جمع يتيم . وهو من مات أبوه وهو صغير . قدم تعالى الوصية به على الوصية بالمسكين ، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة. فَعُلِمَ أنها مقصودة لذاتها . وقد أكد تعالى فى الوحى الوصية باليتيم . وفى القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا . وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل ماله تشديداً خاصاً . والسرّ فى ذلك هو كون اليتيم لا يجد ، فى الغالب ، من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه والعناية بأموره الدينية والدنيوية . فإن الأم ، إن وجدت ، تكون فى الأغلب عاجزة . لا سيما إذا تزوجت بعد أبيه . فأراد الله تعالى ، وهو أرحم الراحمين ، بما أكد من الوصية بالأيتام ، أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم . يربونهم تربية دينية دنيوية ، لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم ؛ فينتشر الفساد فى الأمة فتنحل انحلالاً . فالعناية بتربية اليتامى هى الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد. والتربية لا تتيسر مع وجود هذه القدوة . فإهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة . وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون المُلْحِفون الذين يقدرون على كسب ما يفى بحاجاتهم ، أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا . إلا أنهم قد اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروه من حيث لا يعملون عملاً ينفع الناس . ولكن المسكين من يعجز عن كسب ما يكفيه اه .

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » أى قولاً حسناً . أى : كلموهم طيبا ولينوا لهم جانباً . وفيه من التأكيد والتحضيض على إحسان مقاولة الناس ، أنه وضع للمصدر فيه موضع الاسم ، وهذا إنما يستعمل للمبالغة فى تأكيد الوصف ، كرجل عدل وصوم وفطر . « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ » خطاب لبنى إسرائيل . فالمراد الصلاة التى كانوا يصلونها والزكاة التى كانوا يخرجونها . « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن المضىّ على مقتضى الميثاق الذى فيه سعادتكم ورفضتموه . وقوله « إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ » استثناء لبعض من كانوا فى زمن سيدنا موسى عليه السلام ، أو فى كل زمن . فإنه لا تخلو أمة من الأمم ، من المخلصين الذين

يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم ، وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر ، وقلّ المعروف . « وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ » عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق . ثم نعى عليهم أيضاً إخلالهم بواجب الميثاق المأخوذ عليهم في حقوق العباد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ » إخبار في معنى النهي . والمراد به النهي الشديد عن تعرض بعض بني إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء . أي لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله « ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ » أي أظهرتم الالتزام بموجب المحافظة على الميثاق المذكور « وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ » بلزومه . فهو توكيد للإقرار ، كقولك : أقر فلان ، شاهداً على نفسه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ » خطاب خاص للحاضرين، فيه توبيخ شديد « تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ » من غير التفات إلى هذا العهد الوثيق « تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ » أى تتعاونون عليهم « بِالْإِثْمِ » وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم « وَالْعُدْوَانِ » وهو التجاوز فى الظلم « وَإِنْ يَأْتُوكُمْ » أى هؤلاء الذين تعاونتم أو عاونتم عليهم « أُسَارَىٰ » بضم الهمزة ، وفتح السين، والألف بعدها . وقرأ حمزة « أَسْرَى » بفتح الهمزة ، وسكون السين كقتلى ، جمع أسير ، وأصله المشدود بالأسْر ، وهو القِدّ ، وهو ما يُقَدّ أى يقطع من السير « تُفَادُوهُمْ » بضم التاء وفتح الفاء . وقرئ تَفْدوهم بفتح التاء وسكون الفاء ، أى تخلصوهم بالمال من الفداء . وهو الفكاك بعِوَض « وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ » الجملة حال من الضمير فى « تخرجون » أو من « فريقاً » أو منهما . وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالإخراج ، مع كونه قريناً للقتل عند أخذ الميثاق ، لكونه مظنة للمساهلة فى أمره ، بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل . ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معاً . وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشىء من دية أو قصاص . وهو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق . ثم أنكر عليهم التفرقة بين الأحكام فقال « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » أى : التوراة وهو الموجب للمفاداة « وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » وهو المحرّم للقتل والإخراج . ثم اعلم أن ماذكرناه فى قوله تعالى « تُفَادُوهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ » هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين . من أن ذلك وصف لهم بما هو طاعة ، وهو التخليص من الأسر ببذل مال أو غيره ، والإيمان بذلك. وذكر أبومسلم أنه ضد ذلك . والمراد أنكم، مع القتل والإخراج، إذا وقع أسير فى أيديكم لم ترضوا منه إلا بأخذ مال وإن كان ذلك محرماً عليكم ؛ ثم عنده تخرجونه من الأسر .

قال أبو مسلم: والمفسرون، إنما أُتُوا من جهة قوله تعالى « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » وهذا ضعيف لأن هذا القول راجع إلى ما تقدم من ذكر النبى ﷺ وما أنزل عليهم . والمراد أنه إذا كان فى الكتاب الذى معكم نبأ محمد فجحدتموه فقد آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض .

وكلا القولين يحتمله لفظ المفاداة ، لأن الباذل عن الأسير يوصف بأنه فاداه . والآخذ منه للتخليص يوصف أيضاً بذلك. إلا أن الذى أجمع المفسرون عليه أقرب. لأن عود قوله « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » إلى ما تقدم ذكره فى هذه الآية ، أَوْلَى من عوده إلى أمورٍ تقدم ذكرها بعد آياتٍ . أفاده الرازىّ . « فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ » إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض . أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى « إِلَّا خِزْيٌ » ذلّ وهوان مع الفضيحة . والتنكير للتفخيم . « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقد فعل سبحانه ذلك، فقُتِلَتْ بنوقريظة وأُجْلِيَتْ بنوالنضير إلى أَذْرِعَاتٍ[1] وأَرِيحَا[1] من الشام . « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ » يعنى النار « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا » أى آثروا « الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » على خساستها . واستبدلوها « بِالْآخِرَةِ » مع نفاستها . « فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ » فى واحدة من الدارين . « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : أنكر تعالى على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ ، فى المدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عبّاد أصنام ، وكانت

(١) قال ياقوت :

أذرِعات : كأنه جمع أذرعة ، جمع ذراع جمع قلة . وهو بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وغسّان .

أريحا : هى مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأُردنّ بالشام .

بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنوقَيْنُقَاع، حُلفاء الخزرج. وبنو نضير وبنو قُرَيْظة حلفاء الأوس. فكانوا ، إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب ، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه . فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، ويسفكون دماءهم ، وبأيديهم التوراة . يعرفون فيها ما عليهم وما لهم . والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولا حلالا ولا حراماً ؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها وأسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه ، فتفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس ، وتفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم . فإذا عيرتهم العرب بذلك وقالوا : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا . إنا أمرنا أن نفديهم وحُرِّم علينا قتالهم . فيقال : لم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تُسْتَذَلَّ حلفاؤنا . فلذلك حين عيرهم عز وجل فقال « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » أى تفادوهم بحكم التوراة وتقتلونهم . وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ؛ ابتغاء عرض الدنيا . هذا ملخص ما ساقه ابن كثير عن محمد بن إسحاق بسنده إلى ابن عباس. ورواه أيضاً عن السدّىّ. فليحقق تصحيح هذه القصة .

وفى الآية تفسير آخر . أى لا تقتلوا أنفسكم لشدة تصيبكم بسكّين أو خنق أو بارتكاب ما يوجب ذلك . كالارتداد والزنى بعد الإحْصان . وقتل النفس بغير الحق ونحو ذلك . ولا تسيئوا جوار من جاوركم فيضطرون إلى الخروج من دياركم . أَوْ : لا تفسدوا فتكونوا سبباً لإخراجكم أنفسكم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم . وتصديرُه بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب التوراة . « وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » يقال : قفَّاه به أتبعه إياه ، من التقفية وهى متابعة شيء شيئاً . كأنه يتلو قفاه ، وقفا الصورة منها ، خلفها المقابل للوجه . والمعنى لم نقتصر على الضبط بالكتاب الذى تركه فيكم موسى ، بل أرسلنا من بعده الرسل تترى ، ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم العهود . «وَءَاتَيْنَا عِيسَى» اسم معرّب أصله يسوع. لفظة يونانية بمعنى مخلص. ومثله يشوع، بالمعجمة، فى اللغة العبرانية « ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » المعجزات الواضحات التى لا مرية فيها لذى عقل . كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص « وَأَيَّدْنَاهُ » أى قويناه على ذلك كله « بِرُوحِ الْقُدُسِ » بالروح المقدسة كما تقول : حاتم الجودِ ورجلُ صدقٍ . وهى الروح الطاهرة التى نفخها الله فيه وميزه بها عن غيره ممن خلق . قال تعالى « وَرُوحٌ مِنْهُ »(١) . ولذا كان له ، عليه الصلاة والسلام ، بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيي من الموتى . وعن الحسن البصريّ : القدس هو الله . وروحه جبريل . والإضافة للتشريف . والمعنى :

(١) [٤ / النساء/ ١٧١] ونصها : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ . . .

أعنّاه بجبريل . قال الرازيّ : والذى يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ »(١) والله أعلم .

وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ، ببيان حقيته وإظهار نهاية قبح ما فعلوا به عليه السلام « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ » من الحق، أى لا تحبه . من هَوِى كفرح ، إذا أحب « اسْتَكْبَرْتُمْ » عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عندالله تعالى « فَفَرِيقًا » منهم « كَذَّبْتُمْ » إذ لم تنل أيديكم مضرّته « وَفَرِيقًا » آخر منهم « تَقْتُلُونَ » غير مكتفين بتكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ)

«وَقَالُوا» بيان لنوع آخر من مخازيهم. والقائلون المعاصرون للنبيّ عليه الصلاةوالسلام « قُلُوبُنَا غُلْفٌ » هذا كقوله تعالى «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ»(٢) أى هى مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها . فلا تفقهه . مستعار من الأغلف الذى لم يختن « بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » رد الله أن تكون قلوبهم كذلك لأنها متمكنة من قبول الحق. وإنما طردهم عن رحمته بسبب كفرهم وزيغهم. وهذا كما قال فى سورة النساء « وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »(٣). وقوله « فَقَلِيلًا

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٢] ونصها : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٥] ونصها : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٥٥] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ =

مَايُؤْمِنُونَ » « ما » مزيدة للمبالغة أى فإيماناً قليلا يؤمنون . وهو إيمانهم ببعض الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ » هو القرآن الكريم الذى مقصود هذه السورة . وصفه بالهدى . وتنكيره للتفخيم . ونعته بقوله « مِنْ عِنْدِ اللهِ » للتشريف «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» من التوراة . وجواب « لما » محذوف دل عليه جواب « لما » الثانية . وعليه ، فقوله تعالى : وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية ، عطف القصة على القصة . وقيل : جوابها كفروا . ولمّا الثانية تكرار للأولى ، فلا تحتاج إلى جواب . وقيل : كفروا جواب للأولى والثانية لأن مقتضاهما واحد . وعلى الوجهين فجملةقوله « وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئه « يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا » جملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم . والاستفتاح : الاستنصار أى طلب النصر ، أى يطلبون من الله النصر على المشركين لما أنهم كانوا مستذلين فى جزيرة العرب ، ولذا كانوا يحالفون بعض القبائل تعزّزاً بهم على ما تقدم « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا » صحته وصدقه . كان من حقهم أن يسارعوا إلى الإيمان به لظفرهم بأمنيتهم حينئذ ، وهو انتصارهم على المشركين وحصول العزة لهم مع المؤمنين . ولكن « كَفَرُوا بِهِ » أى امتنعوا من الإيمان به خوفاً من زوال رياستهم وأموالهم . وأصرّوا على الإنكار مع علمهم بحقيقة نبوته . ولذا قال عبد الله بن سلاَم فى

= وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

قصة إسلامه : يا معشر اليهود[1] اتقوا الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق . رواه البخارىّ فى الهجرة . وروى أيضاً أن عبد الله بن سلام لما بلغه مقدم[1] النبىّ صلى الله عليه وسلم أتاه فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ . فلما أجابه عنها قال : أشهد أنك رسول الله . وسنذكر الحديث بتمامه عند قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ »[2] الآية إن شاء الله تعالى . وقوله « فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » اللام فيه للعهد أى عليهم ، ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم ؛ كما أن الفاء للإيذان بترتبها عليه . أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولاً أولياً . إذ الكلام فيهم . وأياً ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى « بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » «ما» نكرة موصوفة بما بعدها ، منصوبة على التميز ، مفسرة لفاعل بئس . أى بئس شيئاً باعوا به أنفسهم واعتاضوا لها ، فرضوا به وعدلوا إليه . والمخصوص بالذم قوله تعالى « أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى كفرهم بالكتاب المصدق

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢ ـ سورة البقرة ، ٦ ـ باب قوله: من كان عدوًّا لجبريل .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

لما معهم بعد الوقوف على حقيقته « بَغْياً » حسداً « أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ » لِأَنْ ينزل ، أو على أن ينزل . أى حسدوه على أن ينزل الله « مِنْ فَضْلِهِ » الذى هو الوحى « عَلَى مَنْ يشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى يشاؤه ويصطفيه للرسالة « فَبَاءُوا بِغَضَبٍ » أى رجعوا لأجل ذلك بغضب ، فى حسدهم لهذا النبىّ ﷺ حتى كفروا به « عَلَى غَضَبٍ » كانوا استحقوه قبل بعثته ﷺ من أجل تحريفهم الكلم ، وتضييعهم بعض أحكام التوراة ، وكفرهم بعيسى عليه السلام .

قال الرازىّ : إن غضبه تعالى يتزايد ويكثر ويصح فيه ذلك كصحته فى العذاب ، فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة ، كغضبه على من كفر بخصال كثيرة .

قلت : وفى الصحيحين عن أبى هريرة[1] : اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله . والروايات فى توصيف غضبه تعالى بالشدة على بعض المنكرات متوافرة . انظر الجامع الصغير .

ويحتمل المعنى . فصاروا أحقاء بغضب مترادف ، فلا يكون القصد إثبات غضبين

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٨ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله ، ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنى (أخنع) الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملك الأملاك » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الأدب ، حديث ٢٠ ونصه :

عن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال «إن أخنع اسم عندالله رجل تسمى ملك الأملاك».

زاد ابن أبى شيبة فى رواية « لا مالك إلا الله عز وجل » .

وحديث ٢١ ونصه : عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « أغيظ رجل على الله يوم القيامة ، وأخبثه وأغيظه عليه ، رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » .

لأمرين متنوعين أو أمور ، بل المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر ، وإن كان واحدا ، إلا أنه عظيم . والله أعلم .

وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » أن الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها . وليس غضبه كغضبنا . كما أن ذاته ليست مثل ذواتنا ، فليس هو مماثلا لأبداننا ولا لأرواحنا ، وصفاته كذاته . وما قيل : إن الغضب من الانفعالات النفسانية فيقال نحن وذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفعلاً بها . كما أن نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين . فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين ، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه . وليس المنسوب كالمنسوب والمنسوب إليه كالمنسوب إليه . كما قال صلى الله عليه وسلم : « ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر »[1] فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئيّ بالمرئيّ . وهذا يتبيّن بقاعدة : وهي أن كثيراً من الناس يتوهم ، في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها ، أنها تماثل صفات المخلوقين . ثم يريد نفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير : أحدها كونه مثّل مافهمه من النصوص لصفات المخلوقين . وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل . الثاني إنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله فبقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله فيبقى مع جنايةٍ على النصوص ، وظنه السّيء الذي ظنه بالله ورسوله ، حيث خلاف الذي يفهم من كلامهما ، من إثبات صفات الله والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى . الثالث : أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير دليل . فيكون معطِّلاً عما يستحقه الرب تبارك وتعالى . الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات وصفات المعدومات. فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب . ومثّله بالمنقوصات والمعدومات . وعطّل النصوص عما دلت عليه من الصفات . وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات. فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل. سبحانه وتعالى عما يقول الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . أفاده الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، في القاعدة التدمرية .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر.

« وَلِلْكَافِرِينَ » أي لهم . والإظهار في موضع الإضمار للإشعار بعلّية كفرهم لما حاق بهم « عَذَابٌ مُهِينٌ » يراد به إهانتهم . أي إذلالهم . فإن كفرهم ، لما كان سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الآخرة كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »(١) أي صاغرين حقيرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» أي لليهود« ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» على محمد ﷺ وصدّقوه واتبعوه «قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» من التوراة، ولا نقرّ إلا بها « وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ»حال من ضمير «قالوا» بتقدير مبتدأ. أي قالوا ماقالوا وهم يكفرون بما بعده «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ » منها غير مخالف له . وفيه ردّ لمقالتهم . لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها «قُلْ» تبكيتاً لهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم وأنتم تعلمون صدقهم . قتلتموهم بغياً وعنادا ، واستكبارا على رسل الله . فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي كما قال تعالى « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ »(٢) والخطاب للحاضرين من اليهود والماضين ، على

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٧] .

طريق التغليب ، وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل ، كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضاً على أخلافهم . ودلت الآية على أن المجادلة فى الدين من عرف الأنبياء عليهم السلام، وإن إيراد المناقضة على الخصم جائز

ولما دل على كذبهم فى دعوى الإيمان بما فعلوا بعد موسى ، أقام دليلا آخر أقوى مما تقدمه . فإنه لم يعهد إليهم فى التوراة ماعهد إليهم فى التوحيد والبعدعن الإشراك . وهو فى النُّسَخ الموجودة بين أظهرهم الآن . وقد نقضوا جميع ذلك باتخاذ العجل فى أيام موسى ، وبحضرة هارون عليهما السلام . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ » من الآيات كفلق البحر وإنزال المَنّ والسلوى وغير ذلك من الدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله « ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ » معبوداً من دون الله « مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد ماذهب موسى عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل . كما قال تعالى « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ »(١) وقوله تعالى « وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » أى بعبادته . واضعين لها فى غير موضعها. أو بالإخلال بحقوق آيات الله تعالى . أو هو اعتراض . أى وأنتم قوم عادتكم الظلم .

ثم ذكر أمراً آخر هو أبين فى عنادهم وأنهم مع الهوى فقال :

---

(١) [٧/ الأعراف/ ١٤٨] ونصها : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا. اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ » على الإيمان والطاعة . « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » قائلين « خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ » أي ما أمرتم به في التوراة « بِقُوَّةٍ » بجد « وَاسْمَعُوا » أطيعوا « قَالُوا سَمِعْنَا » قولك « وَعَصَيْنَا » أمرك . وظاهر السوق يقتضي أنهم قالوا ذلك حقيقة .

قال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى: سمعوه فتلقوه بالعصيان . فعبّر عن ذلك بالقول وإن لم يقولوه . كقوله تعالى « أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١). « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ » أي حبّه على حذف المضاف . وإقامة المضاف إليه مقامه للمبالغة . أو العجل مجاز عن صورته . فلا يحتاج إلى حذف المضاف . وعلى كلٍّ ، فأشربوا استعارة تبعية . إما من إشراب الثوب الصبغ ـ أي تداخله فيه ـ أو من إشراب الماء ـ أي تداخله أعماق البدن ـ والجامع السراية في كل جزء . وإسناد الفعل إليهم إيهام لمكان الإشراب . ثم بيّن بقوله « فِي قُلُوبِهِمُ » للمبالغة ، فظهر وجه العدول عن مقتضى الظاهر وهو : وأشرب قلوبهم العجل. « بِكُفْرِهِمْ » بسبب كفرهم « قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أي كما زعمتم، بالتوراة. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم كما في قصة شعيب « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ »(٢)

---

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

(٢) [١١ / هود / ٨٧] ونصها : قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ .

وكذا إضافة الإيمان إليهم. وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » قدح فى صحة دعواهم. فإن الإيمان إنما يأمر بعبادة الله وحده لا بشركة العباد لما هو فى غاية البلادة . فهو غاية الاستهزاء . وحاصل الكلام : إن كنتم مؤمنين بها عاملين ، فيما ذكر من القول والعمل ، بما فيها ، فبئسما يأمركم به إيمانكم بها . وإذ لا يسوّغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعاً . فجواب الشرط محذوف ، كما ترى ، لدلالة ما سبق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

«قُلْ» كرر الأمر بتبكيتهم لإظهار نوع آخر من أباطيلهم . وهو ادعاؤهم أن الدارالآخرة خالصة لهم من دون الناس . لكنه لم يُحْكَ عنهم قبل الأمر بإبطاله ، بل اكتفى بالإشارة إليه فى تضاعيف الكلام بقوله « إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً » نصب على الحال من الدار الآخرة . والمراد الجنة . أى سالمة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق كما تقولون « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا »[1] . « مِنْ دُونِ النَّاسِ » اللام للجنس أو للعهد وهم المسلمون «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ» فسلوا الموت « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الأكدار ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالموت . والذى يتوقف عليه المطلوب لابد وأن يكون مطلوبا ، نظراً إلى كونه وسيلة إلى ذلك المطلوب . والمراد بالتمنى هنا هو التلفظ بما يدل عليه كما أشرنا إليه ، لا بمجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه ، فإن ذلك لا يراد فى مقام المحاجّة ومواطن الخصومة ومواقف التحدى لأنه من ضمائر القلوب . وثَمّ تفسير آخر للتمنى

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

بأن يُدْعَوْا إلى المباهلة والدعاء بالموت . وإليـه ذهب ابن جرير . والأول أقرب إلى موافقة اللفظ . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

« وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا » من المعجزات لأنه إخبارٌ بالغيب . وكان كما أخبر به . كقوله « وَلَنْ تَفْعَلُوا »[١] . « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » بما أسلفوا من أنواع العصيان . واليد مجاز عن النفس . عبّر بها عنها ، لأنها من بين جوارح الإنسان ، مناط عامة صنائعه . ولذا كانت الجنايات بها أكثر من غيرها . ولم يجعل المجاز فى الإسناد، فيكون المعنى بما قدموا بأيديهم، ليشمل ما قدموا بسائر الأعضاء « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » أى بهم . تذييل للتهديد . والتنبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ما ليس لهم ، ونفيِه عمن سواهم . ونظير هـذه الآية فى سورة الجمعة قوله تعالى « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ »[٢] .

وقد تلطف الغزالىّ فى توجيه الإتيان بـ «لن» هنا و «لا» فى سورة الجمعة بأن الدعوى هنا أعظم من الثانية ، إذ السعادة القصوى هى الحصول فى دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهى ، وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة . فلما كانت الدعوى الأولى أعظم ، لاجَرَمَ بيّن تعالى فساد قولهم بلفظ «لن» لأنها أقوى الألفاظ النافية. ولما كانت

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٤] ونصها : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

(٢) [٦٢ / الجمعة / ٦و٧] .

الدعوى الثانية ليست فى غاية العظمة اكتفى فى إبطالها بلفظ «لا» لأنه ليس فى نهاية القوة، فى إفادة معنى النفى . والله أعلم .

ولما أخبر تعالى عنهم أنهم لايتمنون الموت، أتبعه بأنهم فىغاية الحرص علىالحياة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ» التنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة ، ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبىّ : على الحياة. «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» عطف على ماقبله بحسب المعنى ؛ كأنه قيل : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا . وإفرادهم بالذكر ، مع دخولهم فى الناس ، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص . للمبالغة فى توبيخ اليهود . فإن حرصهم ، وهم معترفون بالجزاء ، لمّا كان أشد من حرص المشركين المنكرين له ، دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار . ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقةً بإنباء المعطوف عليه ، عنه ؛ أى وأحرص من الذين أشركوا .

وأما تجويز كون الواو للاستئناف وقد تم الكلام عند قوله : « عَلَىٰ حَيَاةٍ » تقديره « وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » ناسٌ يود أحدهم ، على حذف الموصوف ، وقولُ أبو مسلم : إن فى الكلام تقديماً وتأخيرا ، وتقديره : ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة ، ثم فسر هذه المحبة بقوله : يود أحدكم لو يعمر ألف سنة ـ فلا يخفى بُعده . لأنه إذا كانت القصة فى شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر ، أن يكون المراد :

ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس ومن الذين أشركوا ، ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم : إن الدار الآخرة لنا ، لا لغيرنا والله أعلم .

« يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » بيان لزيادة حرصهم ، على طريق الاستئناف . و« لَوْ » مصدرية ، بمعنى «أنْ» مؤوّل مابعدها بمصدر ، مفعول يود . أي يود أحدهم تعمير ألف سنة « وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » «ما» حجازية ، والضمير العائد على أحدهم اسمها ، وبمزحزحه خبرها ، والباء زائدة ، وأن يعمر فاعل مزحزحه ، أي وما أحدهم المتمنى بمن يزحزحه ، أي يبعده وينجيه ، من العذاب ، تعميره . قال القاضي : والمراد أنه لا يؤثر في إزالة العذاب أقل تأثير ، ولو قال تعالى : وما هو بمبعده وبمنجيه لم يدل على قلة التأثير كدلالة هذا القول « وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » فسوف يجازيهم عليه .

وما ذكره بعض المفسرين من أن البصير في اللغة بمعنى العليم لايخفى فساده ، فإن العليم والبصير اسمان متباينا المعنى لغة . نعم ! لو حمل أحدهما على الآخر مجازا لم يبعد ، ولا ضرورة إليه هنا . ودعوى أن بعض الأعمال مما لايصح أن يرى ، فلذا حمل هذا البصر على العلم ـ هو من باب قياس الغائب على الشاهد ، وهو بديهيّ البطلان . قال شمس الدين ابن القيم الدمشقيّ في كتاب الكافية الشافية :

وهو البصير يرى دبيب النملة السّـــوْداء تحت الصخر والصوّان
ويرى مجاري القُوتِ في أعضائها ويرى عُروق بياضها بعِيَان
ويرى خِيانات العيونِ بلحظها ويرى ، كذاك ، تقلُّبَ الأجفان

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٩٨] (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » .

روى البخارىّ فى صحيحه فى كتاب التفسير عن أنس قال[(١)] : سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ . وهو فى أرض يخترف ، فأتى النبىّ ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث ، لايعلمهن إلا نبىّ . فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أخبرنى بهن جبريل آنفا » ، قال : جبريل ؟ قال « نعم » قال : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ » . « أما أول أشراط الساعة ، فنار تَحْشُر الناسَ من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام أهل الجنة ، فزيادة كبد حوت . وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت » قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . يارسول الله ! إن اليهود قوم بُهُتٌ وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يَبْهَتُونى . فجاءت اليهودُ ، فقال النبىُّ ﷺ « أىُّ رجل عبد الله فيكم » ؟ قالوا :

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٦ ـ باب قوله من كان عدوا لجبريل .

خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام »؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك ! فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فقالوا : شرُّنا وابن شرنا . وانتقصوه .

قال : فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية قال[1] : حضرت عصابة من اليهود رسولَ الله ﷺ فقالوا: ياأبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبىّ . وساق نحواً مما تقدم . وتتمته قالوا : أنت الآن ، فحدثنا من وليّك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال: فإن ولىي جبريل، ولم يبعث الله نبيًّا قط ، إلا وهو وليه. قالوا : فعندها نفارقك . ولو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : فما منعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدوّنا ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ » إلى قوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » فعندها باؤوا بغضب على غضب . وفى رواية للإمام أحمد والترمذىّ والنسائىّ فىالقصة : فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليهالسلام. قالوا : جبريل ! ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب ، عدونا . لو قلت « ميكائيل » الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان! فأنزل الله تعالى «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» إلى آخر الآية . ويؤخذ من روايات أخر أن سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب فى أمر النبىّ ﷺ . فقد روى ابن جرير عن الشعبىّ قال : نزل عمرُ الرَّوْحاءَ ، فرأى رجالًا يبتدرون أحجاراً يصلّون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا . قال فكره ذلك ، وقال : أيْما ؟ رسولُ الله ﷺ أدركته الصلاة بوادٍ فصلى ، ثم ارتحل فتركه . ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهدُ اليهود يوم مِدْرَاسِهم ، فأعجبُ من التوراة كيف تصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند جزء أول صفحة ٢٧٨ (طبعة الحلبىّ) ، وحديث رقم ٢٥١٤ (طبعة المعارف) .

التوراة ! فبينما أنا عندهم ذات يوم ، قالوا : يا ابن الخطاب ! ما من أصحابك أحد أحبّ إلينا منك . [قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا . قال قلت : إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال ، ومرّ رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ! ذاك صاحبكم فالحق به . قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . قال : فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد عَظَّم عليكم فأجيبوه . قالوا : أنت عالمنا وسيدنا ، فأجبه أنت . قال : أمَّا إذْ نشدتنا به . فإنا نعلم أنه رسول الله . قال : قلت ويحكم ، إذاً هلكتم . قالوا : إنا لم نُهلك . قال : قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة ، وسِلْماً من الملائكة . وإنه قُرِنَ به عدونا من الملائكة . قال : قلت : ومن عدوكم ، ومن سلمكم . قالوا : عدونا جبريل ، وسِلمنا ميكائيل . قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار ، والتشديد والعذاب ، ونحو هذا . وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ، ونحو هذا . قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : قلت : فوالله الذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدوّ لمن عاداهما وسِلم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل . قال : ثم قمت فاتبعت النبيّ ﷺ فلحقته وهو خارج من مخرفة لبنى فلان . فقال لى : يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن ؟ فقرأ علىّ « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ » حتى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبى وأمى أنت يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد جئتُ وأنا أريد أن أخبرك الخبر ، فأسمعُ اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر .

ورواه مختصراً ابن أبى حاتم أيضاً ، وفيه انقطاع ، فإن الشعبىّ لم يدرك زمان عمر رضى

الله عنه . كذا قاله الحافظ ابن كثير . وساقه أيضاً الواحدىّ ، وزاد فى آخره : قال عمر : فلقد رأيتنى فى دين الله أشد من حجر .

قال العلامة البقاعىّ : وقد روى هذا الحديث أيضاً إسحق بن راهويه فى مسنده عن الشعبىّ ، عن عمر رضى الله عنه . قال شيخنا البوصيرىّ : وهو مرسل صحيح الإسناد ، انتهى . وثمّ روايات متنوعات ساقها ابن كثير فى تفسيره ، لا نطوّل كتابنا بسردها ، ومرجعها واحد . فإن قيل : بين رواية البخارىّ الأولى وما بعدها تنافٍ . فالجواب : لا منافاة ، لأن قراءته ﷺ لها فى محاورة عبد الله بن سلاَم ، ردًّا لقول اليهود ، لا يستلزم نزولها حينئذ . فإن المعتمد فى سبب نزولها غير قصة عبدالله بن سلام مما سلف من الروايات. فإن طرقها يقوى بعضها بعضاً ، وكأن النبىّ ﷺ لما قال له عبد الله بن سلام : إن جبريل عدو لليهود ، تلا عليه الآية ، مذكّراً له سبب نزولها ـ كذا قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح .

وقد أشار إلى ذلك السيوطىّ فى « الإتقان » حيث قال (تنبيه) قد يكون فى إحدى القصتين ، (فتلا) فَيَهِمُ الراوى ، فيقول (فينزل) . وقال العلامة ولى الله الدهلوىّ قدس سره فى كتابه « أصول التفسير » وقد تحقق عند الفقير أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون : نزلت الآية فى كذا وكذا ، وكأن غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية وذكرُ بعض الحوادث التى تشملها الآية بعمومها . سواء تقدمت القصة أو تأخرت . إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً . استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها ، والله أعلم .

فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد فى هـذا القسم مدخلا . وللقصص المتعددة هنالك سعة . فمن استحضر هذه النـكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية . انتهى .

وقوله تعالى « لجبريل » قرىء فى السبع بكسر الجيم والراء بلا همز ، وبفتح الجيم بدونها أيضاً ، وبفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة ثم ياء وبدونها . قال ابن جنىّ : العرب إذا نطقت بالأعجمىّ خلطت فيه .

وقوله «فإنه نزله» تعليل لجواب الشرط قائم مقامه ، والبارز الأول لجبريل عليه السلام ، والثاني للقرآن ، أضمر من غير سبق ذكرٍ ، إيذاناً بفخامة شأنه ، واستغنائه عن الذكر ، لكمال شهرته ونباهته ، لاسيما عند ذكر شئ من صفاته . وقوله « على قلبك » زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحى ، فإنه القابل الأول له ، إن أريد به الروح . ومدار الفهم والحفظ إن أريد به العضو ، وهذا كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ »(١) وكان حق الكلام أن يقال « على قلبي » لأنه المطابق لقُلْ ، ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به تحقيقاً لكونه كلام الله . وأنه أمر بإبلاغه . وقوله « بِإِذْنِ اللهِ » أى بأمره . وقوله « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من التوراة وبقية الصحف المنزلة . وقوله « وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يهدى للرشد وبشرى لهم بالجنة ، كما قال تعالى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ »(٢) الآية . وقال تعالى « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »(٣) وفيه رد على اليهود ، حيث قالوا : إن جبريل ينزل بالحرب والشدة كما تقدم ، فقيل : فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً . فإن قيل : من شأن الشرط والجزاء الاتصال بالسببية والترتب ، فكيف استقام قوله «فإنه نزله» جزاء للشرط ؟ أجيب بأن قوله « فإنه نزله » تعليل لجواب الشرط ، كما أسلفنا . والمعنى : مَنْ عادى جبريل من أهل الكتاب ، فلا وجه لمعاداته ، بل يجب عليه محبته ، فإنه نزل عليك كتاباً

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣و١٩٤] ونصها: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ .

(٢) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٢] ونصها : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

مصدقاً لـكتبهم . فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه ، فى إنزاله ما ينفعهم ، ويصحح المنزل عليهم . وقيل : الجواب محذوف تقديره « فليمت غيظاً » . وعليه فلا يكون « فإنه نزله » نائباً عنه . ووجهه أن يقدر الجواب مؤخراً عن قوله « فإنه نزله » ويكون هو تعليلاً وبياناً لسبب العداوة ، كأنه قيل : من عاداه، لأنه نزل على قلبك فليمت غيظاً .

قال الرضى : كثيراً ما يدخل الفاء على السبب ويكون بمعنى اللام ، قال الله تعالى «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ »[١] ، وقيل تقديره: فهو عدو لى وأناعدوه، بقرينة الجملة المعترضة المذكورة بعده فى وعيدهم ، وهى قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ » أى من كان عدواً لله لإنزاله فضله على من يشاء أو لأمر آخر . وأفادت الآية غضبَ الله تعالى لجبريل على من عاداه . وقد[٢] روى البخارىّ فى صحيحه ، عن أبى هريرة حديثاً قدسياً « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » .

وصدَّر الكلام بذكره الجليل تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأن عداوتهم عداوته عز وعلا .

وقدم الملائكة على الرسل ، كما قدم الله على الجميع ؛ لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحى ، ونزوله بتنزيل الملائكة ، وتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب ،

(١) [١٥ / الحجر / ٣٤] ونصها : قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .
و [٣٨ / ص / ٧٧] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ونصه :
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قال : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىّ مما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطينه . ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما ، والدلالة على فضلهما ، وإنهما ، وإن كانا من الملائكة ، فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة ، تنزيلاً للتغاير الوصفيّ ، منزلة التغاير الذاتيّ ، وللتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر ، واستجلاب المداوة من الله تعالى ، وإن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع ، إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد ، ولأن المحاجة كانت فيهما . ووضع « الكافرين » موضع « لهم » ، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وان عداوة الملائكة كفر. وقدقرىء فى السبع «ميكال» كميزان، و«ميكائل» بهمزة مكسورة بعد الألف بدون ياء و«ميكائيل» بالهمزة والياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أى أنزلنا إليك علامات واضحات دالات على نبوتك . وتلك الآيات هى ما حواه القرآن من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة ، فأطلعها اللهُ فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يَدْعه إلى إهلاكها الحسدُ والبغيُ . إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة، تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصفتُ ، من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شىء منه عن آدميّ . وحمل الآيات على ما ذكرناه من آيات القرآن المجيد أولى من حملها على سائر المعجزات المأثورة . لأن الآيات إذا قرنت إلى التنزيل ، كانت أخص بالقرآن . وقوله « وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ » أى المتمردون من الكفرة ، واللام للعهد ، أى الفاسقون المعهودون ، وهم اليهود . أو للجنس ، وهم داخلون فيه دخولاً أوليًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف يقتضيه المقام ، أى كفروا بالآيات البينات ، « وَكُلَّمَا عَاهَدُوا » الخ. أو أينكرون فسقهم وكلما الخ ، وقيل : الواو زائدة ، وقيل هى « أو » التى لأحد الشيئين . حركت بالفتح . وقد قرىء شاذاً بسكونها . فتكون بمعنى بل . دلت عليه القرينة . أعنى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » ترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ . قال ابن جنىّ : «أو» هذه هى التى بمعنى «أم» المنقطعة ، وكلتاهما بمعنى « بل » ـ موجود فى الكلام كثيراً . أنشد الفراء لذى الرمة :

بَدَتْ مثلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِى رَوْنَقِ الضُّحَى ... وَصُورَتِهَا . أَوْ أَنْتِ فِى العَيْنِ أَمْلَحُ

وكذا قال فى قوله تعالى « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » وعلى الوجه الأول ، فالمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه ، لأن مثل ذلك ، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التنكير والتبكيت . ودل بقوله « أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا » على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه . بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم . فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات ، بأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم. على ما بينه فى الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالاً بعد حال . لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته ، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك .

قال العلامة : واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ، ومن آبائهم ، فنقضوا ، وكم عاهدهم رسول الله ﷺ فلم يفوا « الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ »(١) . والنبذ الرمى بالذمام، ورفضه. وإسناده إلى فريق منهم، لأن منهم من لم ينبذه . وفى قوله « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون . قوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٥٦] وتمام الآية : وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » تصريح بما طوى قبلُ . فإن نبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ، أعقبهم التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى فى كتبهم نعته ، كما قال تعالى « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[1] الآية ، فتنكير « رسول » للتفخيم . والجار بعده متعلق بجاء ، أو بمحذوف وقع صفة لرسول ، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ماأفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، وقوله « كِتَابَ اللَّهِ » يعنى التوراة ، لأنهم بكفرهم برسول الله ، المصدق لما معهم ، كافرون بها، نابذون لها . وقيل « كِتَابَ اللَّهِ » القرآن نبذوه بعد مالزمهم تلقيه بالقبول . وقوله « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثّل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه ، وقلة التفات إليه . وقوله « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » جملة حالية ، أى نبذوه وراء ظهورهم ، مشبّهين بمن لايعلمه . فإن أريد بهم أحبارهم، فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الإيقان ، ولا يعرفون مافيه من دلائل نبوته ﷺ . ففيه إيذان بأن علمهم به رصين، لكنهم يتجاهلون . أو كأنهم

(١) [٧/ الأعراف/ ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

لايعلمون أنه كتاب الله ، أو لا يعلمونه أصلا ، كما إذا أريد بهم الكل. وفى هذين الوجهين، زيادة مبالغة فى إعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة . وهـذا ، وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن ، فالمراد بالعلم المنفىّ فى « كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » هو العلم بأنه كتاب الله ، ففيه مافى الوجه الأول من الإشعار بأنهم متيقنون فى ذلك، وإنما يكفرون به مكابرة وعناداً، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » هو حكاية لفن آخر من زيغهم وضلالهم ، إثر نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم . وهو اتباعهم لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والكفر ، وانه إنما نال ذلك الملك بسبب معرفته السحر . وزادوا على ذلك فنسبوه إلى الردة والكفر لأسباب افتروها عليه ، فبرأه الله تعالى من هذا الافتراء والاختلاق ، وألصق الكفر بأولئك الشياطين الذين يضللون العقول والأفهام بتعليم السحر والشعبذة ، وإسناد التأثير إلى غير الخالق ، سبحانه ، والصد عن سبيل الحق ، وابتغائهم إياها عوجا

و « تَتْلُو » بمعنى تقص وتحدث. من التلاوة ، وهى القراءة . أو بمعنى تكذب وتختلق ، وهو قول أبى مسلم ، قال : يقال تلا عليه ، إذا كذب ، وتلا عنه إذا صدق . وهكذا قال الراغب فى تفسيره : تلا عليه كذب ، نحو روى عليه ، وقال عليه « وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ »[1]. وقال : الآية معطوفة على ماتقدم من ذكر اليهود ، وهى منطوية على أمرين: ذم اليهود فى تحرى السحر وإيثاره ، وتبرئة لسليمان عليه السلام مما نسبوه إليه ، وتخرصوه عليه اه . وذلك أنهم زعموا أن سليمان عليه السلام ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام ، وبنى لها المعابد ، كما تراه فى الفصل الحادى عشر من سفر الملوك الثالث . فانظر إلى هذه الجرأة العظيمة والقحة الكبيرة . ولما تنبه عقلاء أهل الكتاب المتأخرون لمثل هذه الفرى ، اعترفوا بأنه ليس كل قول من الأقوال المندرجة فى كتبهم المقدسة إلهاميا ، بل بعضها كتب على طريقة المؤرخين ، يعنى بلا إلهام ، كما فى « إظهار الحق » . والمراد بالشياطين شياطين الإنس ، وهم المتمردة العصاة الأشرار الأفوياء ، الدعاة إلى الباطل . وقوله « عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ » أى على عهد ملكه من تلك الأقاصيص المختلقة عليه . وقوله تعالى « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ » تنزيه لساحته عليه السلام من الردة والشرك وعبادة الأوثان التى نسبوها إليه ، وتكذيب لمن تقولها . وقال كثيرون : هذا تبرئه من السحر ، وأنه تعالى كنى عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبيا كان معصوماً عنه . وإنما كان كفراً لكونه يكون بالتوجه إلى الأفلاك والشياطين وعبادتها ، وزعم أنها مؤثرة دونه تعالى .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.
و [٣ / آل عمران / ٧٨] ونصها : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

والمعنى الأول أصرح وأوضح . وقوله تعالى « وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » عنى بالشياطين من ذكرناهم قبلُ وهم خبثاء الإنس وأشرارهم . كما في قوله تعالى « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ »(١) وقوله « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ »(٢) والذي يعيّن هذا المعنى قولُه « تَتْلُو » لأن تلاوة شياطين الجن ، لايسمعها أحد . ومعنى « تتلو » تقص كما تقدم. وقوله : «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» يعيّن هذا المعنى أيضاً ، إذ لايتعلم أحد السحر إلا من شياطين الإنس . والمراد بقوله « كَفَرُوا » كفرهم بآيات الله المنزلة ، أو عبادتهم غيره تعالى ، أو كفرهم باستعمال السحر والشعوذة ، تعمية على الحق ، وتغشيةً للبصائر . وجملة قوله « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » حالية من ضمير « كَفَرُوا » ، أو خبر ثان لِـ« لَـٰكِنَّ » ، أو مستأنفة . هذا على تقدير كون الضمير للشياطين . وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل « اتَّبَعُوا » فهي إما حال منه أو استئنافية . وقوله تعالى « وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » . اعلم أن للعلماء في هذه الآية وجوها كثيرة ، وأقوالا عديدة ، فمنهم من ذهب فيها مذهب الأخباريين نقلة الغث والسمين ، ومنهم من وقف مع

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٢] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

ظاهرها البحث وتمحّل لما اعترضه ، بما المعنى الصحيح فى غنى عنه . ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير وردّ آخرها على أولها ، بما جعلها أشبه بالألغاز والمعميات، التى يتنزه عنها بيان أبلغ كلام. إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها .

والذى ذهب إليه المحققون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرَيْن بالصلاح والتقوى فى بابل ــ وَهى مدينة بالعراق على نهر الفرات ــ وَكانا يعلمان الناس السحر . وَبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء ، وَما يعلمانه للناس هو بوحى من الله . وبلغ مكر هذين الرجلين ، ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما « إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ » ، أى إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك ، أتشكر أم تكفر ، وننصح لك أن لاتكفر . يقولان ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلٰهية ، وصناعتهما روحانية ، وأنهما لايقصدان إلا الخير . كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان ، قائلين لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم : نوصيك بأن لا تكتب لجلب امرأة متزوجة إلى رجل غير زوجها ، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء . ولليهود فى ذلك خرافات كثيرة . حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله . وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس. فجاء القرآن مكذباً لهم فى دعواهم نزوله من السماء، وفى ذم السحر، ومن يتعلمه أو يعلمه ، فقال « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ » الآية ، فـ « ما » هنا نافية ، على أصح الأقوال ، ولفظ « الملكين » هنا وارد حسب العرف الجارى بين الناس فى ذلك الوقت ، كما يرد ذكرُ آلهـةِ الخير والشر فى كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم ، وكما يرد فى كلام المسلم، فى الرد على المسيحيين، ذكرُ تجسد الإلٰه وصلبه ، وإن كان لايعتقد ذلك . وقوله تعالى « فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ » من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر فى أقبح صورة ، أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل ، وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع : كالمرء وزوجه . والخلاصة : أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا : أن اليهود كذبوا القرآن

ونبذوه وراء ظهورهم ، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التى يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه . وزعموا أنه كَفَرَ ، وهو لم يكفر . ولكن شياطينهم هم الذين كفروا ، وصاروا يعلمون الناس السحر ، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت ، اللذين سَمَّوْهما ملكين ، ولم ينزل عليهما شيء ، وإنما كانا رجلين يدَّعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لايقصدان إلا الخير ، ويحذرانهم من الكفر . وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقونَ به بين المجتمعين ، ويحلون به عقد المتحدين . فأنت ترى من هذا أن المقام كله للذم ، فلا يصح أن يرد فيه مدح هاروت وماروت . والذى يدل على صحة ما قلناه فيهما أن القرآن أنكر نزول أى ملَك إلى الأرض ليعلم الناس شيئاً من عندالله، غير الوحى إلىالأنبياء ، ونص نصًّا صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بنى نوعهم فقال « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] ، وقال منكراً على من طلب إنزال الملك « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ »[2] ، وقال فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَالِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ـ إلى قوله ـ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا »[3] .

وللقصاص فى هاروت وماروت أحاديث عجيبة . فزعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة ، وأنهما لما نظرا إلى مايصنع أهل الأرض من المعاصى ، أنكرا ذلك وأكبراه ودعوا على أهل الأرض . فأوحى الله تعالى إليهما : إنى لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم من الشهوات لعصيتمانى ، فقالا : يا رب ، لو ابتليتنا لم نفعل ، فجرِّبنا . فأهبطهما إلى الأرض ، وابتلاهما الله بشهوات

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧] .
(٢) [٦ / الأنعام / ٨] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧ـ٩] .

بنى آدم، فمكثا فى بلدة كانت فيها فاجرة تسمى « الزهرة » فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس وسجدا للصنم. وعلماها الاسم الأعظم، الذى كانا به يعرجان إلى السماء ، فتكلمت المرأة بذلك الاسم ، وعرجت إلى السماء ، فمسخها الله تعالى ، وصيّرها هذا الكوكب المسمى بالزهرة . ثم إن الله تعالى عرّف هاروت وماروت قبيح ما فيه وقعا ، ثم خيّرهما بين عذاب الآخرة آجلًا ، وبين عذاب الدنيا عاجلًا ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلهما ببابل منكوسيْن فى بئر إلى يوم القيامة ، وهما يعلّمان الناس السحر، ويدعوان إليه ، ولا يراهما أحد إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلم السحر خاصة . وهذه القصة من اختلاق اليهود وتقولاتهم . ولم يقل بها القرآن قط ، وإنما ذكرها التلمود ، كما يعلم من مراجعة « مدراس يدكوت » فى الإصحاح الثالث والثلاثين ، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين ، فأخذوها منه .

قال الرازىّ فى تفسيره : إن القصة التى ذكروها باطلة من وجوه :

أحدها : أنهم ذكروا فى القصة أن الله تعالى قال لهما (أى لهاروت وماروت) : لو ابتليتكما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتمانى ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيناك ، وهذا منهم تكذيب لله تعالى ، وتجهيل له ، وذلك من صريح الكفر .

وثانيها : أنهما خيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة وبين العذاب ، والله تعالى خيّر بينهما مَنْ أشرك به طول عمره ، وبالغ فى إيذاء أنبيائه .

وثالثها : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر ، فى حال كونهما معذبين ويدعوان إليه ، وهما يُعَاقبَان .

وهكذا ، الإمام أبو مسلم احتج على بطلان نزول السحر عليهما أيضاً بوجوه :

الأول : أن السحر لو كان نازلًا عليهما لكان منزّله هو الله ، وذلك غير جائز ، لأن السحر كفر وعبث لايليق بالله تعالى إنزال ذلك .

الثانى : ان قوله « وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يدل على أن تعليم السحر كفر . فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر. وذلك باطل.

الثالث : كما لا يجوز فى الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر ، فكذلك فى الملائكة بطريق الأولى .

الرابع : إن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموه ؟ وقد جرت عادة الله بإبطاله ، كما قال فى قصة موسى عليه السلام « مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ »(١) انتهى .

وقد ساق الرازىّ ما ارتآره أبو مسلم فى تفسير هذه الآية . ولم نشأ نقله لبعده عن الصواب . وهكذا ما ذكره الإمام ابن حزم فى كتابه « الفصل » فى بحث « عصمة الملائكة » ففيه تكلف وتمحل غريب ، كما يعلم بمراجعتهما .

وللراغب الأصفهانىّ احتمالات فى تصحيح القصة ، وتجويزات عجيبة تنبو عن الحق الصراح الذى آثرنا نقله أولاً عن بعض المحققين . والله أعلم .

واعلم أن لفظ السحر ، فى عرف الشرع ، مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد ، أفاد ذم فاعله ، قال تعالى « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ »(٢) يعنى موّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيّهم تسعى . وقد

---

(١) [١٠ / يونس / ٨١] ونصها : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١١٦] ونصها : قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

يستعمل مقيداً : فيما يمدح ويحمد ، كما قال رسول الله ﷺ لعمرو بن أهتم : « إن من البيان لسحرا »(١) ، لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ، وبليغ عبارته . وبالجملة، فالسحر المطلق إنما هو تخييل بشعوذة صارفة للأبصار ، أو تمتمة مزخرفة عائقة للأسماع ، فلا يغير حقائق الأشياء ، ولا ينقل الصور . وقوله تعالى « وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » قال الراغب : الإذن قد يقال فى الإعلام بالرخصة ، ويقال للعلم ، ومنه آذنته بكذا ، ويقال للأمر الحتم . وينبغى أن يعلم أن الإذن فى الشيء من الله تعالى ضربان :

أحدهما : الإذن لقاصد الفعل فى مباشرته . نحو قولك : أذن الله لك أن تصل الرحم .

والثانى : الإذن فى تسخير الشيء على وجه تسخير السم فى قتله من يتناوله، والترياق فى تخليصه من أذيته . فإذن الله تعالى فى وقوع التسخير وتأثيره من القبيل الثانى ، وذلك هو المشار إليه بالقضاء، وعلى هذا يقال: «الأشياء كلها بإذن الله وقضائه» ولا يقال : الأشياء كلها بأمره ورضاه . وقوله تعالى «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ» إرشاد إلى أن ليس فى تعلم السحر إلا المضرة ، لما فيه من التلبيس والتمويه ، وإيهام الباطل حقاً ، والتوصل به إلى المفاسد والشرور . وقوله سبحانه «وَلَا يَنفَعُهُمْ» صرح به إيذاناً بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شر بحت ، وضرر محض . وقوله تعالى « وَلَقَدْ عَلِمُوا » أى اليهود الذى حكيت ضلالاتهم . وقوله «لَمَنِ اشْتَرَاهُ » أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ، والحق الذى أنزله . وقوله « مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ » أى نصيب ، لإقباله على التمويه والكذب ، واستعمال

(١) فى سنن أبي داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٨٦ ـ باب ما جاء فى التشدق فى الكلام ، حديث ٥٠٠٧ .

عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من المشرق . فخطبا . فعجب الناس ـ يعنى لبيانهما ـ فقال رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحرا » .

ذلك فى اكتساب حطام الدنيا وتمتعاتها . وفيه إشارة إلى أن اختيارهم للسحر ، ليس من جهلهم بضرره ، بل أتوا ما أتوا عن علم بعاقبته السوأى . وقوله تعالى « وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » أى ما باعوا به حظهم الأخروىّ ، حتى كأنهم أتلفوا أنفسهم ، وإنما نفى عنهم العلم بقوله « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » مع إثباته لهم على سبيل التوكيد القسمىّ بقوله «وَلَقَدْ عَلِمُوا»ـ لأن معناه لو كانوا يعملون بعلمهم . فجعلهم غير عالمين ، لعدم عملهم بموجب علمهم . ولما بين سبحانه ما عليهم فيما ارتكبوا من المضار أتبعه ما فى الإعراض عنه من المنافع فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى بما دعوا إليه من القرآن الحكيم « وَاتَّقَوْا » أى ما يؤثمهم، ومنه السحر والتمويه وقوله « لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ » جواب « لو » وأصله : لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم . فحذف الفعل وغيّر السبك إلى ما عليه النظم الكريم ، دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها ، وحذف المفضل عليه إجلالًا للمفضل من أن ينسب إليه ، وقوله تعالى « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى أن ثواب الله خير . وإنما نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا » للنبيّ ﷺ « رَاعِنَا » التى تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون

بها ألسنتهم ، ويقصدون بها الرعونة ، وهى إفراط الجهالة ، فنهاهم عن موافقتهم فى القول ، منعاً للصحيح الموافق فى الصورة لشبهه من القبيح ، وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال « وَقُولُوا انْظُرْنَا » فأبقى المعنى وصرف اللفظ . أى انظر إلينا . بالحذف والإيصال . أو انتظرنا . على أنه من نظره إذا انتظره ، وقرئ أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ. وقرئ راعونا على صيغة الجمع للتوقير . وراعناً على صيغة الفاعل أى قولا ذا رعن ، كدارع ولابن ، لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سبباً للسب بالرعن اتصف به «وَاسْمَعُوا» أى قولوا ما أمرتكم به ، وامتثلوا جميع أوامرى ، ولا تكونوا كاليهود ، حيث قالوا سمعنا وعصينا «وَلِلْكَافِرِينَ» أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى التهاون بمقام رسول الله ﷺ « عَذَابٌ أَلِيمٌ » لما اجترؤوا عليه من العظيمة ، وهو تذييل لما سبق ، فيه وعيد شديد لهم ، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه . وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة النساء « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا »(١) ومن ليهم ما جاء فى الحديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون « السام عليكم »(٢) والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ « وعليكم » ، وإنما يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٥ ـ باب الرفق فى الأمر كله .

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها، زوج النبى ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة : ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة.

قالت فقال رسول الله ﷺ « مهلا يا عائشة . إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » .

فقلت : يا رسول الله ! ولم تسمع ماقالوا ؟ قال رسول الله ﷺ « قد قلت : وعليكم ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » بيان لشدة عداوة الكافرين من القبيلين للمؤمنين ، حسداً وبغياً . ليقطع التشبه بهم . فإن مخالفة الأعداء من الأغراض العظيمة للمتمكنين فى الأخلاق الفاضلة .
ثم بين أن الحسد لا يؤثر فى زوال ذلك بقوله « وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » و (الاختصاص) عناية تميّز المختص لمرتبة ينفرد بها دون غيره ، وفيه تنبيه على ما أنعم به على المؤمنين ، من الشرع التام الكامل الذى شرعه لهم .

ولمّا أنكرت اليهود أن يقع شىء من النسخ لآيات الله ، توصلًا بذلك إلى إنكار آيات القرآن ، وتأييدِ تأبيد التوراة ، ردّ عليهم سبحانه ـ بعد تحقيق حقية الوحى ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » أى : ما نبدّل من آية بغيرها ـ كنَسْخِنا آيات التوراة بآيات القرآن ـ « أَوْ نُنْسِهَا » أى : نذهبها من القلوب ـ كما أخبر بقوله « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ »(١) ـ وقرئ « أو ننسأها » أى نؤخرها ونتركها بلا نسخ ، كما أبقى كثيراً

---

(١) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

من أحكام التوراة فى القرآن . وعلى هذه القراءة ، فقد نشر على ترتيب هذا اللف قوله « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أى : من المنسوخة المبدلة ـ كما فعل فى الآيات التى شرعت فى الملّة الحنيفيـة ما فيه اليسر ، ورفع الحرج ، والعنت ـ فـكانت خيراً من تلك الآصار والأغلال . وقوله « أَوْ مِثْلِهَا » أى : مثل تلك الآيات الموحاة قبـل ، كما يُرى فى كثيرٍ من الآيات فى القرآن الموافقة لِمَا بين يديها مما اقتضت الحـكمة بقاءه واستمراره .

قال الراغب : فإن قيـل : إن الذى تُرِكَ ولم يُنْسَخ ليس هو مثله بل هو هو ، فـكيف قال « بمثلها » ؟ قيـل : الحـكم الذى أنزل فى القرآن ـ وكان ثابتاً فى الشرع الذى قبلنا ـ يصحّ أن يقال هو هو ، إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته ـ التى هى اللفظ . ويصح أن يقال هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ . ونحو ذلك أن يقال : ماء البئر هو ماء النهر ـ إذا اعتبر جنس الماء ، وتارة يقال : مثل ماء النهر ـ إذا اعتبر قرار الماء . اه . على أنّ إرادة العين بالمثل شائعة ـ كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ـ « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منـه ، وعلى مثله فى الخير . قال الراغب : أى لا تحسبنّ أنّ تغييرى لحـكمٍ ، حالًا فحالًا ، وأنى لم آت بالثانى فى الابتداء ـ هو العجز ؛ فإنّ من علم قدرته على كل شىء لا يظنّ ذلك . وإنما تغيُّر ذلك يرجع إلى مصلحة العباد ، وأنّ الأليق بهم ، فى الوقت المتقدّم ، الحـكم المتقدّم . وفى الوقت المتأخّر ، الحـكم المتأخّر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا لَـكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » فهو يملك أموركم ويدبّرها ، وهو أعلم بما يتعبّدكم به من ناسخٍ أو منسوخ . « وَمَا لَـكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أموركم

« وَلَا نَصِيرٍ » ناصر يمنعكم من العذاب .

وقضيّة العلم بمـا ذكر من الأمور الثلاثة ، هو الجزم والإيقان بأنّه تعالى لا يفعل بهم ـ فى أمرٍ من أمور دينهم أو دنياهم ـ إلّا ماهو خيرٌ لهم، والعمل بِمُوجبه ـ من الثقة به ، والتوكّل عليه ، وتفويض الأمر إليه . من غير إصغاء إلى أقاويل اليهود ، وتشكيكاتها التى من جملتها ماقالوا فى أمر النسخ ، حيث أنـكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوّة عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له مُلك السمٰوات والأرض وسلطانهما ، وأنّ الخلق أهل مملـكته وطاعته . عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأنّ له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عمّا يشاء ، ونسخ مايشاء ، وإقرار مايشاء . والذى حمل اليهود على منع النسخ إنما هو الـكفر والعناد ؛ وإلا فقد وُجد فى شريعتهم النسخ بكثرة .

وقد ذكر العلامة الشيخ رحمة الله الهندىّ فى (إظهار الحقّ) أمثلةً وافرةً مما وقع من ذلك فى التوراة والإنجيل . فارجع إليها فى الباب الثالث منه .

تنبيهان

الأول : قال بعض الفضلاء : نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون أو اليهود : إنّ محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه . وفى الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحـكم السابق : تهيُّؤ النفوس لأرقى منه . وهو معنى قوله تعـالى « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » لأنّ الخالق تعالى رَبَّى الأمّة العربية فى ثلاث وعشرين سنة تربيةً تدريجية لا تتم لغيرها ـ بواسطه الفواعل الاجتماعية ـ إلّا فى قرونٍ عديدة . لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليّتها ، ومتى ارتقت قابليّتها بدّل الله لهاذلك الحـكم بغيره . وهذه سنّة الخالق فى الأفراد والأمم على حدٍّ سواء . فإنّك لو نظرت فى الـكائنات الحية ـ من أوّل الخلية النباتية إلى أرقى شكلٍ من أشكال الأشجار ، ومِن أوّلِ رتبةٍ من رتب الحيوانات إلى الإنسان ـ لرأيت

أن النسخ ناموس طبيعىّ محسوس فى الأمور المادّية والأدبية معاً .. ! فإنّ انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين ، ثم إلى طفل ، فيافعٍ ، فشابّ ، فكهلٍ فشيخٍ ، وما يتبع كل دورٍ من هذه الأدوار ـ من الأحوال الناسخة للأحوال التى قبلها ـ يريك بأجلى دليل : أنّ التبدّل فى الكائنات ناموس طبيعىّ محقق . وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكرٍ فى الكائنات ، فكيف يستنكر نسخ حكمٍ وإبداله بحكم آخر فى الأمة ، وهى فى حالة نموٍّ وتدرج من أدنى إلى أرقى ؟ هل يرى إنسانٌ له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب ـ وهم فى مبدإ أمرهم ـ بما يلزم أن يتصفوا به وهم فى نهاية الرقّ الإنسانىّ ، وغاية الكمال البشرىّ .. ؟! وإذا كان هذا يصح ، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال ، وهذا لم يقل به عاقل فى الوجود ..! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل فى الوجود ، فكيف يجوز على الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ بأن يكلف الأمة ـ وهى فى دور طفوليتها ـ بما لا تتحمله إلّا فى دور شبوبيتها وكهولتها ..؟ وأى الأمرين أفضل : أشَرْعُنا الذى سَنَّ الله لنا حدوده بنفسه ، ونسخ منه ما أراد بعلمه ، وأتمه ـ بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفاً منه ـ لانطباقه على كل زمان ومكان ، وعدم مجافاته لأى حالةٍ من حالات الإنسان ..؟! أم شرائع دينية أخرى ، حرّفها كهانها ، ونسخ الوجودُ أحكامها ـ بحيث يستحيل العمل بها ـ لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه ..؟!

الثانى : أسلفنا ـ فى مقدمة التفسير ـ إلى أن النسخ باصطلاح السلف أعم منه فى اصطلاح الخلف ، بما ينبغى مراجعته ..

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ » (أم) هنا ، إما

متصلة معادلة للهمزة فى (ألم تعلم) أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور ، قادرٌ على الأشياء كلها، يأمر وينهى كما أراد ... أم تعلموا وتقترحون بالسؤال ـ كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام ؟ وإما منقطعة ـ بمعنى بل ـ للإضراب والانتقال عن حملهم على العمل بموجب عِلْمِهِم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك ، وأمارات التأثّر من أقاويل الكفرة ، إلى التحذيرمن ذلك . ومعنى (الهمزة) إنكار وقوع الإرادةمنهم ، واستبعاده . لما أن قضيّة الإيمان وازعة عنها . وتوجيهالإنكار إلىالإرادة ـ دون متعلّقها ـ للمبالغة فى إنكاره واستبعاده ، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته . فضلا عن صدور نفسه . وقوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ » أى : يختره ، ويأخذه لنفسه « بِالْإِيمَانِ » . بمقابلته بَدَلًا منه « فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى عدل عن الصراط المستقيم . جملةٌ مستقلة مشتملة على حكم كلىّ أخرجت مخرج المثل جىء بها لتأكيد النهى عن الاقتراح المفهوممن قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ ، معطوفة عليه . ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ويؤدى بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان . فظهر وجه ذكر قوله « أَمْ تُرِيدُونَ » الخ بعد قوله تعالى « مَانَنْسَخْ » . فإن المقصود من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها .

قال الراغب : فإن قيل ما فائدة قوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ » الخ ومعلوم أنه بدون الكفر يضلالإنسان سواء السبيل فكيف بالكفر؟ قيل معنىذلك من يتبدل الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل، قبلُ، سواء السبيل ؛ وفى ذلك تنبيه أنضلاله سواء السبيل قاده إلى الكفر بعد الإيمان. ومعناه لاتسألوا رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدى بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان. فمبدأ ذلك، الضلالُ عنسواء السبيل. ووجه آخر وهو أنهسمى معاندة الأنبياء عليهم السلام ، بعد حصول ما تسكن النفس إليه ، كفراً . إذ هى مؤدية إليه . كتسمية العصير خمراً. فقال «وَمَنْ يَتَبَدَّلِ» أى يطلب تبديل الكفر، أى المعاندة التى هى مبدأ الكفر، بالإيمان أى بماحصلله من الدلالة المقتضية لسكونالنفس، فقد ضل سواءالسبيل.

ووجه ثالث وهو أن ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل . وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه . ووجه رابع وهو أن « سَوَاءَ السَّبِيلِ » إشارة إلى الفطرة التي فطر الناس عليها . والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع فقال « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » أي بالإيمان المكتسب فقد أبطله ، وضيّع الفطرة التي فطر الناس عليها فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك .

هذا. وما قررناه في الآية من أن الخطاب للمسلمين هو ما يترجح ويكون كقوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ »(١) . ويرشحه قوله « وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ » فإن موقع خطابه إنما يتضح مع المؤمنين . ورجّح الرازيّ كون الخطاب مع اليهود قال : لأن هذه السورة من أول قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأنه لم يجر ذكر غيرهم في السياق، وقد قص تعالى عنهم سؤال النبيّ ﷺ بقوله « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا » الآية ، وحينئذ فمعنى تبدل الكفر بالإيمان ، وهم بمعزل من الإيمان ، إعراضهم عنه ، مع تمكنهم منه ، وإيثارهم للكفر عليه . كما أن إضافة الرسول إليهم باعتبار أنهم من أمة الدعوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا »

---

(١) [٥ / المائدة / ١٠١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

علة ودّ « مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » من صحة رسالة محمد ﷺ بشهادة ما طابقه من التوراة « فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا » أى أعرضوا عما يكون منهم من الجهل والعداوة فلا تجازوهم « حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » وهو الإذن فى قتالهم وإجلائهم « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فينتقم منهم إذا آن أوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ» أى ثوابه « عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » فلا يضيع عنده عمل عامل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَقَالُوا » أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » نشرٌ لما لفّته الواو فى « وَقَالُوا » ، واليهود جمع هائد ، كعوذ جمع عائذ . وقرىء «إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » . « تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ » جملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا. والأمانىّ جمع أمنية وهى مايتمنى. كالأعجوبة والأضحوكة . فإن قيل : قولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » أمنية واحدة ، فلِمَ قال : أمانيهم ؟ أجيب : بأن الجمع باعتبار صدوره عن الجميع . وأجاب صاحب الانتصاف بأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها فى نفوسهم، جمعت . ليفيد جمعها أنها متأكدة فى قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدا . ونظيره قولهم: معًى جياعٌ. فجمعوا الصفة. ومؤداها

واحد ، لأن موصوفها واحد ، تأكيدا لثبوتها وتمكنها . وهذا المعنى أحد ماروى فى قوله تعالى « إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ »(١) فإنه جمع (قليلا) وقد كان الأصل إفراده فيقال « لشرذمة قليلة » كقوله تعالى « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ »(٢) لولا ماقصد إليه من تأكيدمعنى القلة بجمعها . ووجه إفادة الجمع فى مثل هذا للتأكيد ، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة فى الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانة زيادته على نظرائه ، نقلاً مجازياً بديعاً . فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان . والله الموفق « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى دعواكم . قال الرازىّ : دلت الآية على أن المدعى سواء ادعى نفياً أو إثباتاً ، فلا بد له من الدليل والبرهان ، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد ، قال الشاعر :

من ادّعى شيئاً بلاشاهدٍ لابد أن تبطُلَ دعواهُ

انتهى كلام الرازىّ . وسبقه إلى ذلك الزمخشرىّ حيث قال : وهذا أهدم شىء لمذهب المقلدين ، وإن كل قول لا دليل عليه ، فهو باطل غير ثابت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« بَلَىٰ » إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة « مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره . وإنما عبر عن النفس بالوجه ، لأنه أشرف الأعضاء ، ومجمع المشاعر، وموضع السجود ، ومظهر آثار الخضوع. أو المعنى: من أخلص توجهه وقصده، بحيث لايلوى

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٩] ونصها : . . . قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

عزيمته إلى شيء غيره « وَهُوَ مُحْسِنٌ » في عمله ، موافق لهديه ﷺ ، وإلا لم يقبل ، ولذا قال ﷺ(١) « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » رواه مسلم « فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » وهو عبارة عن دخول الجنة . وتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل. « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » من فوات مطلوب . والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى «مَنْ» كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ» بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه ، إثر بيان تضليله كلّ من عداه على وجه العموم . ومعنى « عَلَىٰ شَيْءٍ » أيّ أمر يعتد به من الدين « وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ » الواو للحال . والكتاب للجنس . أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب . وحق من حمل التوراة أو الإنجيل ، أو غيرهما من كتب الله ، وآمن به، أن لا يكفر بالباقي . لأن كل واحد من الكتابين مصدقٌ للثاني ، شاهدٌ بصحته . وكذلك كتُب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً « كَذَٰلِكَ » أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج « قَالَ » الجهلة « الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » لا علم عندهم ولا كتاب . كعبدة الأصنام. قالوا لأهل كل دين « مِثْلَ قَوْلِهِمْ » ليسوا على شيء . وهذا توبيخ عظيم ، حيث نظموا أنفسهم ، مع علمهم ،

---

(١) أخرجه مسلم في : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، ح ١٨ عن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ قال . . . (طبعتنا).

فى سلك من لا يعلم « فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى يفصل بينهم بقضائه العدل ، فيحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »(١) وكما قال تعالى « قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ »(٢) .

قال الرازىّ : واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت فى أمة محمد ﷺ ، فإن كل طائفة تكفّر الأخرى . مع اتفاقهم على تلاوة القرآن . انتهى .

فهاهنا تسكب العبرات بما جناه التعصب فى الدين على غالب المسلمين من الترامى بالكفر، لا بسنّةٍ ولا قرآنٍ، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لمّا غلت مراجل العصبية فى الدين ، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين ،

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضحُ

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف . ونهى عن الفرقة والاختلاف . فقال تعالى « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا »(٣) . وقال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ »(٤) . وقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] .
(٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .
(٣) [٣/ آل عمران/١٠٣] ونصها: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا،وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .
(٤) [٦ / الأنعام / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ »(١) . وقال تعالى « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ »(٢) . وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة، بالسنة والجماعة ، عن أهل البـاطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الـكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا » إنـكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك . ولما وجّه تعالى الذم فيما سبق فى حق اليهود والنصارى ، ذيّله بذم المشركين فى قوله « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » . ثم وجهه بهذه الآية أيضاً المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام ، وصدوهم أيضا عنه ، حين(٣) ذهب إليه النبيّ ﷺ

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٥] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) هذا حديث جم الفائدة عظيم القدر يعتبر من أهم الوثائق التاريخية فى سيرة الرسول الأعظم ﷺ . وقد عنى الإمام البخاريّ به عنايته بكل عظيم . فأخرجه

فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٠٦ ـ باب من أشعر وقلّد بذى الحُلَيْفة ثم أحرم . =

وأصحابه من المدينة عام الحديبية. وكل هذا تخريب للمسجد الحرام ، لأن منع الناس من إقامة شعار العبادة فيه ، سعيٌ فى تخريبه . وأىّ خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنه رسول الله ﷺ وأصحابه . واستحوذوا عليه بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال تعالى « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »[1] وقال تعالى « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ »[2] وقال تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ »[3] فإذا كان من آمن بالله واليوم الآخر الخ مصدوداً عنه ، مطرودا منه ،

= وفى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١ ـ باب ما يجوز من الشروط فى الإسلام .

١٥ ـ باب ما يجوز من الشروط فى الجهاد .

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى فى ثلاثة مواضع : عن علىّ بن عبد الله .

وعن عبد الله بن محمد .

وعن إسحاق .

وإن أطول طريق له هو الذى أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب ما يجوز من الشروط فى الجهاد ، وقد استغرق سرده ست صفحات من الصحيح .

فلا يفوتنك أيها القارئ البصير مطالعته والتفقه فيه فإن فيه علماً .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٤]

(٢) [٩ / التوبة / ١٧و١٨] .

(٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ =

فأىّ خراب له أعظم من ذلك . والعمارة إحياء المكان وشغله بما وضع له . وليس المراد بعمارته ، زخرفته وإقامة صورته فقط ، إنما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعه عن الدنس والشرك . وإنما أوقع المنع على المساجد ، وإن كان الممنوع هو الناس لما أن المآل عائد لها . ولا يقال : كيف قيل مساجد والمراد المسجد الحرام فقط ؟ لأنه لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصًا ، كما تقول ، لمن آذى صالحا واحدا : ومن أظلم ممن آذى الصالحين ؟ وكما قال تعالى « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ »(١) والنزول فيه واحد . وقوله « أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، ويذلّ لهم المشركين ، حتى لايدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفا . يخاف أن يؤخذ فيعاقب . أو يقتل إن لم يُسلم . وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فنمنعهم من دخول المسجد الحرام . ونادى فيهم عامَ حجّ أبو بكر رضى الله عنه « ألا لايحجن بعد العام مشرك » . فحج النبيّ ﷺ من العام الثانى ظاهرا على المسجد الحرام ، لايجترئ أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام . وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا، المشار إليه بقوله تعالى « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » لأن الجزاء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين صُدُّوا عنه « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار لما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله ، والطواف به عريا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله . وفى الآية وجه آخر وهو أن الآية فى ذم اليهود ، تبعا للسابق واللاحق ، وما جنوه بكفرهم على بيت المقدس من خرابه وتسليط عدوّهم عليهم حتى خربه ودمر مدينتهم ، وقتل وسبى منهم وأسرهم

= لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

وبقوا فى الأسر البابلىّ سبعين سنة ؛ كل ذلك كان برفضهم كتاب الله والعمل بشريعته .
وفى قوله تعالى «أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ » إشارة إلى رجوعهم إليه بعدالأسر على تخوف من العدوّ ومذلة لصقت بهم. وهو وجه وجيه. لأن لفظ«سعى» يرشد إلى ذلك . كما أن مفهومها يشعر بذم القائمين على الخراب بالأَوْلى وهم النصارى ، حينما تمكنت سلطتهم انتقاما من أعدائهم اليهود .

روى ابن جرير عن مجاهد، قال فى الآية : هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى . ويمنعون الناس أن يصلوا فيه . وقال قتادة : حَمَلَهم بغضُ اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلىّ المجوسىّ على تخريب بيت المقدس . وتدل على أن أماكن العبادة تصان وتحترم ، لأنها المدرسة العامة التى تتلى فيها الحكم والأحكام والإرشاد إلى سبل السلام .

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، فيما رواه الإمام أحمد عن بُسْر بن أرطاة قال كان رسول الله ﷺ يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وَأَجِرْنا من خزى الدنيا وَعذاب الآخرة .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث حسن وليس فى شىء من الكتب الستة ، وليس لصحابيّه ، وهو بُسْر بن أرطاة (ويقال ابن أبى أرطاة) حديث سواه ، وسوى حديث : لا تقطع الأيدى فى الغزو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » بيان لشمول ملكوته لجميع الآفاق ، المتسبب عنه سعة علمه . وفى ذلك تحذير من المعاصى وزجر

عن ارتكابها . وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » نظير قوله « إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »(١) وكقوله تعالى «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ »(٢) وقوله «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ»(٣) وقوله « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا »(٤) أى عمَّ كل شيء بعلمه وتدبيره وإحاطته به وعلوّه عليه .

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٣٣] ونصها : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ، لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .

(٢) [٥٧/ الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » يريد الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وعزيرٌ ابن الله ، والملائكة بنات الله . فأكذب الله تعالى جميعهم فى دعواهم وقولهم : إن لله ولداً . فقال « سُبْحَانَهُ » أى تقدس وتنزه عما زعموا وتنزها بليغا. وكلمة « بَلْ » للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات . أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ، والتنوين فى « كُلٌّ » عوضٌ عن المضاف إليه . أى كل ما فيهما ، كائناً ما كان من أولى العلم وغيرهم « لَهُ قَانِتُونَ » منقادون ، لا يستعصى شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ، ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء . ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد .

قال الراغب فى تفسيره : نبه على أقوى حجة على نفى ذلك . وبيانها : هو أن لكل موجود فى العالم ، مخلوقاً طبيعياً ، أو معمولاً صناعياً ، غرضاً وكمالا أوجد لأجله . وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض ، كاليد للبطش ، والرجل للمشى ، والسكين لقطع مخصوص ، والمنشار للنشر ، وإن كانت اليد قد تصلح للمشى فى حالٍ ، والرِّجل للتناول ، لكن ليس على التمام . والغرض فى الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه ، وجزء منه ، لمَّا لم يجعل الله له سبيلا إلى بقائه بشخصه ، فجعل له بذراً لحفظ نوعه . ويقوى ذلك ، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً ، لمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان . ولما كان الله تعالى هو الباقى الدائم ، بلا ابتداء ولا انتهاء ، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى . ولهذا قال « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » أى هو منزه عن السبب المقتضى للولد .

ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما ، وذلك لما تقدم ، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه ـ بيّن تعالى بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ » أنه لا يتوهم له فقر ، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سدٌّ لفقره ، فصار في قوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ » دلالة ثانية . ثم زاد حجة بقوله « قَانِتُونَ » وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »(١) بيّن أن كل ما في السموات والأرض ، مع كونه ملكاً له ، قانت أيضاً ، إما طائعاً ، وإما كارهاً ، وإما مسخراً . كقوله « يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً »(٢) وقوله « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة .

ثم قال الراغب : إن قيل من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى ؟ قيل قد ذكر في الشرائع المتقدمة: كانوا يطلقون على البارىء تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله ، حتى إنهم قالوا : إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر ، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان ، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجهٍ أي مخدومه . وكانوا يقولون للملائكة: آلهة.

(١) [١٦ / النحل / ٧٢] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٣ / الرعد / ١٥] ونصها : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

كما قالت العرب للشمس: إلاهة. وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماؤنا بقولهم : الله محب ومحبوب ، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ . كما يقال للسلطان : الملك. وقولُ الناس: رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف . ويقوى ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله ، وأن عيسى كان يقول : أنا ذاهب إلى أبي. ونحو ذلك من الألفاظ . ثم تصور الجهلة منهم، بأخرة ، معنى الولادة الطبيعية . فصار ذلك منهيا عن التفوه به في شرعنا ، تنزهاً عن هذا الاعتقاد ، حتى صار إطلاقه ، وإن قصد به ما قصده هؤلاء ، قرين الكفر ، اهـ كلام الراغب رحمه الله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق . وكل من فعل مالم يسبق إليه يقال له : أبدعت . ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة : مبتدع ، لأنه يأتي في دين الإسلام ، مالم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم. وهذه الجملة حجة أخرى لدفع تشبثهم في ولادة عيسى بلا أب . وعلم عزيْر بالتوراة بلا تعلم . وتقرير الحجة : إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها . فلا يبعد أن يوجد أحداً بلا أب، أو يعلم بلا واسطة بشر . وقال الراغب : ذكر تعالى في هذه الآية حجة رابعة. شرحها : إن الأب هو عنصر للابن . منه تكوّن . والله مبدع الأشياء كلها ، فلا يكون عنصراً للولد ، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلاً . وقوله تعالى : « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أي إذا أراد أمراً . والقضاء إنفاذ المقدّر . والمقدر ما حدّ من مطلق المعلوم . قال الراغب : القضاء إتمام الشيء قولًا أوفعلاً ، فمن القول آية « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ »(١)

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ =

« وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ »(١) ومن الفعل قوله « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »(٢) وقضى فلان دينه، وقضى نحبه، وانقضى الأمر . (ثم قال) ونبه بقوله « وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » على حجة خامسة وهو أن الولد يكون بنشوء وتركيب . حالًا بعد حال . وهو إذا أراد شيئاً ، فقد فعل بلا مهلة . ولم يرد بـ « إذا » حقيقة الزمان ، إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزمان . ولم يرد أيضا بـ « كن » حقيقة اللفظ ، ولا بالفاء التعقيب الزمانيّ . بل استعير كل ذلك لأنه أقرب ما يتراءى لنا به سرعة الفعل وتمامه . وذكر لفظ القضاء إذ هو لإتمام الفعل ، والأمر لكونه منطوياً على اللفظ والفعل ، والقول إذ هو أخف موجد منا وأسرعه إيجادا، ولفظ « كُنْ » لعموم معناه واختصار لفظه ، ثم قال « فَيَكُونُ » تنبيهاً لأنه لا يمتنع عليه شيء يريد إيجاده ، و « كُنْ فَيَكُونُ » وإن كان مخرجها مخرج شيئين ، أحدهما مبنى على الآخر، فهو فى الحقيقة شيء واحد . انتهى .

والذين ذهبوا إلى أن المراد بـ « كُنْ » حقيقة اللفظ ، ورد عليهم سؤال مشهور . وهو : إن « كُنْ» لفظ أمر ، والأمر لا يكون إلا لموجود . فبعضٌ أجاب بأنه أمر للشيء فى حال تكونه لا قبله ولا بعده . وبعضٌ قال : هو أمر لمعلوم له ، وذلك فى حكم الموجود وإن كان معدوم الذات . وبعضٌ قال : هو أمر للمعدوم . قال ويصح أمر المعدوم كما يصح أمر الموجود . ولهم أجوبة أخرى أكثر تكلفاً وتمحلا .

= وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(١) [١٧/ الإسراء/ ٤] ونصها : وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وقد سئل شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذا بأنه إن كان المخاطب بـ « كُنْ » موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . وإن كان معدوماً ، فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ فأجاب بقوله : هذه المسأله مبنية على أصلين : أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذى لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب ، بل هو الذى يكوّن المخاطب به ، ويخلقه بدون فعل من المخاطب ، أو قدرة أو إرادة أو وجود له . وبين خطاب التكليف الذى يطلب به من المأمور فعلاً أو تركاً يفعله بقدرة وإرادة . وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته . إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس . هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده ؟ لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده . وكذلك تنازعوا فى الأول هل هو خطاب حقيقيّ ؟ أم هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة ؟ . والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة . والأصل الثانى أن المعدوم فى حال عدمه ، هل هو شىء أم لا ؟ فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة إلى أنه شىء فى الخارج وذات وعيْن ، وزعموا أن الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة ، وأن وجودها زائد على حقيقتها . وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة . والذى عليه جماهير الناس ، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة ؛ إنه فى الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشىء أصلاً ولا ذات ولا عين . وإنه ليس فى الخارج شيئان أحدهما حقيقة، والآخر وجوده الزائد على حقيقته . فإن الله أبدع الذوات التى هى الماهيات . فكل ما سواه سبحانه مخلوق ومجعول ومبدَع ومبدوء له سبحانه وتعالى . لكن فى هؤلاء من يقول : المعدوم ليس بشىء أصلاً ، وإن سمى شيئاً باعتبار ثبوته فى العلم ، كان مجازاً . ومنهم من يقول: لا ريب أن له ثبوتا فى العلم ووجودا فيه ، فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شىء وذات . وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت . كما فرق من قال : المعدوم شىء. ولا يفرقون فى كون المعدوم ليس بشىء بين الممكن والممتنع ، كما فرق أولئك . إذ قد

اتفقوا على أن الممتنع ليس بشىء وإنما النزاع فى الممكن . وعمدة مَنْ جمله شيئاً ، إنما هو لأنه ثابت فى العلم، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهى عنه ، وغير ذلك . قالوا : وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض. فإن خُصَّ الفرق بين الوجود الذى هو الثبوت العينىّ ، وبين الوجود الذى هو الثبوت العلمىّ، زالت الشبهة فى هذا الباب .

وقوله تعالى «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) ذلك الشىء هو معلوم قبل إبداعه وقبل توجيه هذا الخطاب إليه . وبذلك كان مقدرا مقضيا . فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما يعلمه ماشاء . كما قال النبىّ ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه(٢) عن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء . وفى صحيح البخارىّ(٣) عن عمران

(١) [١٦ / النحل / ٤٠] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ماجاء فى قول الله تعالى: وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده. ونصه : عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : دخلت على النبىّ ﷺ . وعقلت ناقتى بالباب . فأتاه ناس من بنى تميم . فقال « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . مرتين . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن . فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله . قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر ؟ قال « كان الله ولم يكن شىء غيره . وكان عرشه على الماء . وكتب فى الذكر كل شىء . وخلق السموات والأرض » .

فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقتُ فإذا هى يقطع دونها السراب . فوالله ! لوددت أنى كنت تركتها .

ابن حصين عن النبيّ ﷺ أنه قال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض. وفي سنن أبي داود[1] وغيره عن النبيّ ﷺ أنه قال : إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال : ربّ ، وما ذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوماً مخبَرا عنه ، مكتوبا. فهو شيء باعتبار وجوده العلميّ الكلاميّ الكتابيّ ، وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العينيّ ليس ثابتاً في الخارج. بل هو عدم محض ونفيٌ صرف . وهذه المراتب الأربعة المشهورة موجودات . وقد ذكرها الله سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيّه في قوله « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ »[2] وقد بسطنا الكلام في ذلك في غير هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجهاً إلى من توجهت إليه الإرادة ، وتعلقت به القدرة ، وخلق وكوّن كما قال « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »[3] فالذي يقال له « كُنْ » هو الذي يراد ، وهو ، حين يراد قبل أن يخلق، له ثبوت وتميز في العلم والتقدير . ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره ، وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم . فإن قول السائل: إن كان المخاطب موجوداً ، فتحصيل الحاصل محال . يقال له هذا إذا كان موجودا في الخارج وجودَه الذي هو وجوده . ولا ريب أن المعدوم ليس موجوداً ، ولا هو في نفسه ثابت . وأما ماعلم وأريد وكان شيئاً في العلم والإرادة والتقدير فليس وجوده في الخارج محالاً ، بل

(١) أخرجه أبو داود في سننه في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٦ ـ باب في القدر ، حديث ٤٧٠٠

(٢) [٩٦ / العلق / ١ـ٤] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٠] .

جميع المخلوقات لاتوجد إلا بعد وجودها فى العلم والإرادة . وقول السائل: إن كان معدوماً فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟ يقال له : أما إذا قصد أن يخاطب المعدوم بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال ، إذ من شرط المخاطَب أن يتمكن من الفهم والفعل . والمعدوم لايتصور أن يفهم ويفعل . فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه مطلوب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل ، ولذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم فى الخارج خطاب تكوين. بمعنى أن يعتقد أنه شىء ثابت فى الخارج وأنه يخاطب بأن يكون . وأما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه ، فليس ذلك محالا. بل هو أمر ممكن. بل مثل ذلك يجده الإنسان فى نفسه ؛ فيقدر أمراً فى نفسه يريد أن يفعله ويوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب ، الذى قدره فى نفسه ، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته . فإن كان قادراً على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم . وإن كان عاجزاً ، لم يحصل . وقد يقول الإنسان : ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب . فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه . والله سبحانه على كل شىء قدير . وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ » من المشركين أو من أهل الكتاب وهو الأظهر. لأن ما تقدم ، كله فى حوارهم وردّ أضاليلهم . ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به « لَوْلَا

يُكَلِّمُنَا اللَّهُ » هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى ؟ استكباراً منهم وعتوا « أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ » جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله ، آيات ، واستهانةً بها « كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ » أى هذا الباطل الشنيع فقالوا : أرنا الله جهرة . وفى ذلك تسلية للنبيّ ﷺ بأنه كما تُعُنِّتَ عليه تُعُنِّتَ على من قبله « تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ » أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى والعناد والتحكم على الأنبياء « قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى بالحق . لاتعتريهم شبهة ولا ريبة . وهذا رد لطلبهم الآية . وفى تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح ، مكان الإتيان الذى طلبوه ، ما لا يخفى من الجزالة . والمعنى أنهم اقترحوا آية فذة ، ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين . وإنما لم يتعرض لرد قولهم « لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ » إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً » بالثواب للمؤمنين « وَنَذِيراً » بالعقاب للكافرين « وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » ولا نسألك عنهم : ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغْتَ وبلغتَ جهدك فى دعوتهم؟ كقوله « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »(١) وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم ، دون الكفر والتكذيب ونحوها ، وعيد شديد لهم ، وإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم ، لا يرجى منهم الإيمان . والجحيم ، من أسماء النار وتطلق على النار الشديدة التأجج ، وعلى كل نار بعضها فوق بعض ، وعلى كل نار عظيمة فى مهواة ، وعلى المكان الشديد الحر .

---

(١) [١٣/ الرعد/ ٤٠] ونصها: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

« وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ » أى لأنهم يريدون أن يكونوا متبوعين على الإطلاق . وفيه مبالغة فى الإقناط من إسلامهم ، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه، عليه السلام «قُلْ» لا يتبع رسولٌ إلا الهدى و« إِنَّ هُدَى اللَّهِ » أى الذى هو الإسلام « هُوَ الْهُدَىٰ » أى فليس وراءه هدى . وما تدعون إليه ليس بهدى ، بل هو هوى . كما يعرب عنه قوله « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ » أى آراءهم الزائفة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم « بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بأن دين الله هو الإسلام ، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة « مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ » يلى أمرك « وَلَا نَصِيرٍ » يدفع عنك عقابه . وإنما أوثر خطابه ﷺ ليدخل دخولا أوليًا مَن اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكا بولايتهم، طمعا فى نصرتهم.

قال الإمام الرازىّ : فى الآية دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا . فمن هذا الوجه تدل على بطلان التقليد. انتهى .

وفى فتح البيان ما نصه : وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة ، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه ، والقائمين ببيان شرائعه ـ ترك الدهان لتاركى العمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأى عليهما. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (الَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْـكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَـكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« الَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْـكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَـكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » لما ذكر تعالى ، فيما تقدم ، عدم رضاء اليهود والنصارى إلّا باتباع ملتهم ، لدعواهم أنهم على حق وأنهم مؤمنون بما لديهم ـ فند تعالى دعواهم الإيمانَ به بأن من أوتى الـكتاب فتلاه حق تلاوته فذاك المؤمن به . والمذكورون ممن لم يتله حق تلاوته ، لِمَا عدّد من مساوئ اليهود أولًا ، وشَفَعَهُ بدعوى النصارى اتخاذ الولد . ومن كان يمتقد ذلك فأنّى له الإيمان ؟ وهل هو ممن يتلو الـكتاب حق تلاوته ؟ وكتابه يأمر بتوحيد ربه والمشى مع شريعته وتصديق كل نبيّ يصدق مامعهم ، وقد كفروا بكل ذلك . فجملة « يتلونه » حال مقدرة من « هم » أو من « الـكتاب » . وجوّز أن تـكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الـكتاب بالقرآن . فالضمير فى « يتلونه » للقرآن . فتـكون كآية « الَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْـكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »(١) وكآية « قُلْ ءامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا »(٢) .

ومن تلاوته حق تلاوته الإيمانُ بأنه حق من ربهم ، وصبرُهم ودرؤهم بالحسنة السيئة ، وإنفاقهم وسجودُهم له تعالى : فالآيتان مفسرتان لتلاوتهم حق تلاوته .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٢ـ٥٤] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٧] .

وعن ابن مسعود : والذى نفسى بيده ! إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله . ومثله عن ابن عباس .

وقوله تعالى « أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه « يُؤْمِنُونَ بِهِ » محط الفائدة مايلزم الإيمان به من الربح. بقرينة قوله « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » حيث اشتروا الضلالة بالهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[١٢٣] (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا » أى خافوا « يَوْمًا لَا تَجْزِي » أى لا تغنى « نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ » فيه « شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ » أى فداء « وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » أى يمنعون من عذاب الله . وقد مر نظير الآيتين فى صدر السورة .

قال القاضى : ولما صدّر قصتهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها، والحذر عن إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها ـ كرر ذلك وختم به الكلام معهم ، مبالغةً فى النصح وإيذانا بأنه فذلكة القضية والمقصود من القصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ)

« وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » لما عاب سبحانه أهل الضلال، وكان جلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وجميع طوائف الملل تعظمه ومنهم العرب ، وبيته الذى بناه أكبر مفاخرهم وأعظم مآثرهم ـ ذكّر الجميع ما أنعم به عليه تذكيرا يؤدى إلى ثبوت هذا الدين باطلاع هذا النبيّ الأمىّ، الذى لم يخالط عالماً قط، على مالا يعلمه إلّا خواص العلماء . وذكر البيت الذى بناه فجعله عماد صلاحهم، وأمر بأن يتخذ بعض ماهناك مصلّى، تعظيما لأمره وتفخيما لعلىّ قدره . وفى التذكير بوفائه بعد ذكر الذين وفوا بحق التلاوة ، وبعد دعوة بنى إسرائيل عامة إلى الوفاء بالشكر ـ حثّ على الاقتداء به . وكذا فى ذكر الإسلام والتوحيد، هزّ لجميع من يعظمه إلى اتباعه فى ذلك . ذكره البقاعىّ .

و« إِذ » منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبيّ ﷺ بطريق التلوين. أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ، ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد ، الوازعة عن الشرك ، فيقبلوا الحق ويتركوا ماهم فيه من الباطل . ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على «اذكروا» خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى، عمن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وبنيه عليهم السلام ، من الأفعال والأقوال ، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم . أى واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم، فأتم ما ابتلاه به. فمالكم أنتم لاتقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله، فى إيفاء العهد والثبات على الوعد ، لأجازيكم على ذلك جزاء المحسنين ؟ والابتلاء ، فى الأصل ، الاختبار . أى تطلّب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه، غالبا، فعله أو تركه . والاختبار مِنّا لظهور مالم نعلم. ومن الله لإظهار ماقد علم . وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفىّ فى الشاهد والغائب جميعا ، فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى. وقوله تعالى « بِكَلِمَاتٍ » أى بشرائع : أوامر ونواه . وللمفسرين أقاويل فيها وفى

تمدادها . قال ابن جرير : ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين ، إلا بحديث أو إجماع . قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له . انتهى .

وعندى أن الأقرب فى معنى الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام ، فأسلم لرب العالمين . وابتلاؤه بالهجرة ، فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا إلى الله . وابتلاؤه بالنار فصبر عليها . ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه . ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلم واحتسب . كما يؤخذ ذلك من تتبع سيرته فى التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة . ففيهما بيان ماذكرنا فى شأنه عليه الصلاة والسلام. من قيامه بتلك الكلمات حق القيام، وتوفيتهن أحسن الوفاء . وهذا معنى قوله تعالى « فَأَتَمَّهُنَّ » كقوله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ »[1] والإتمام التوفية .

« قَالَ » جملة مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الكلام . فكأنه قيل : فما جوزى على شكره ؟ قيل : قال له ربه « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » أى قدوة لمن بعدك. والإمام اسم لمن يؤتم به . ولم يبعث بعده نبيّ إلا كان مأمورا باتباع ملته ، وكان من ذريته. كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »[2] « قَالَ » أى إبراهيم « وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » أى واجعل من ذريتى أئمة « قَالَ لَا يَنَالُ » أى قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك . لكن لاينال « عَهْدِي » أى الذى عهدته إليك بالإمامة «الظَّالِمِينَ» أى منهم . لأنهم نفوا أنفسهم عنك فى أبوة الدين . ففى قوله « لَا يَنَالُ...الخ » إجابة خفية لدعوته عليه السلام. وَعِدَةٌ إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة . كما قال تعالى « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »[2] وفى ذلك أتم ترغيب فى التخلق بوفائه ،

---

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

لاسيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد . وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته ، فضربت عليهم الذلة وما معها، ولا يجزى أحد عنهم شيئاً ولا هم ينصرون . وقرئ «الظالمون» على أن «عهدى» مفعول مقدم اهتماما ورعاية للفواصل.

وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الظالم ليس بأهل للإمامة . والكشاف أوسع المقال ، فى ذلك ، هنا ، وأبدع فى إيراد الشواهد . كما أن الشيعة استدلت بها على صحة قولهم فى وجوب العصمة فى الأئمة ، ظاهراً وباطناً . على ما نقله الرازىّ عنهم وحاورهم .

أقول : إن استدلال الفرقتين على مدعاهما وقوف مع عموم اللفظ . إلا أن الآية الكريمة بمعزل عن إرادة خلافة السلطنة والملك .

المراد بالعهد ، تلك الإمامة المسؤول عنها . وهل كانت إلا الإمامة فى الدين وهى النبوّة التى حرمها الظالمون من ذريته ؟ كما قال تعالى « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » ولو دلت الآية على ما ادّعوا لخالفه الواقع . . . فقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين . فظهر أن المراد من العهد إنما هو الإمامة فى الدين خاصّة. والاحتجاج بها على عدم صلاحية الظالم للولاية تمحل . لأنه اعتبار لعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق ؛ أو ذهابٌ إلى أن الخبر فى معنى الأمر بعدم تولية الظالم . كما قاله بعضهم. وهو أشد تمحلا . ومعلوم أن الإمام لابد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع، كما ورد . ومتى زاغ عن ذلك كان ظالماً ، والبحث فى ذلك له غير هذا المقام. وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ » أى الذى بناه إبراهيم بأم القرى. وهو اسم غالب للكعبة . كالنجم

للثريا « مَثَابَةً لِلنَّاسِ » مباءة ومرجعًا للحجاج والعمّار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه . ومثابة مفعلة. من «الثوب» وهو الرجوع ترامياً إليه بالكلية . وسر هذا التفضيل ظاهر فى انجذاب الأفئدة وهَوَى القلوب وانعطافها ومحبتها له . فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد. فهو الأولى بقول القائل :

محاسنه هيولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال

فهم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار . ولا يقضون منه وطرا . بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا .

لايرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليهـا الطرف مشتاقاً

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ! وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ! ورضى المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان، مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق ، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه !

ذكر هذه الشذرة (الإمام ابن القيم فى أوائل زاد المعاد) .

« وَأَمْناً » موضع أمن . كقوله « حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »(١) وكقوله « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا »(٢) وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف النـاس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْن . وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له . وفى هـذا بيان شرف البيت من كونه محلا تشتاق إليه الأرواح ولا تقضى منه وطرا ، ولو ترددت إليه كل

(١) [٢٩/ العنكبوت/ ٦٧] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله في قوله « فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ »(١) إلى أن قال « رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ »(٢) ومن كونه مأمناً لمن دخله . كما بيّنّا .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال(٣) يوم فتح مكة : «إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض. وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي . ولم يحل لي إلا ساعةً من نهار » الحديث . وقوله تعالى « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » قرئ بكسر الخاء ، أمراً معترضاً بين الجملتين الخبريّتين . أو بتقدير : وقلنا اتخذوا . وقرئ بفتح الخاء ماضياً معطوفاً على جملنا . أي واتخذوه مصلى ، ومقام إبراهيم هو الحرم كله . عن مجاهد . وعنه : هو جمع ومزدلفة ومنى ومكة . ويقال : هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام . فقد قال قتادة : إنما أمروا أن يصلّوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . ولقد تكلفت الأمم شيئاً مما تكلفته الأمم قبلها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٠]

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٠ ـ باب لا يحل القتال بمكة ونصه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبيّ ﷺ ، يوم افتتح مكة « لا هجرة . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا . فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي. ولم يحل لي إلا ساعة من نهار . فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . لا يُعضد شوكُه، ولا ينفّر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتَهُ إلا من عرّفها . ولا يختلى خلاها » .

قال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم . قال « إلا الإذخر » .

قال الراغب الأصفهانىّ : والأولى أنه الحرم كله . فما من موضع ذكروه إلا وهو مصلى أو مدّعى أو موضع صلاة .

أقول : كأنّ الأصل فى الآية : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ومصلى . إلا أنه عدل إلى هذا الأسلوب الحكيم دون ذاك ، ودون أن يقال مثلا : واتخذوا منه مصلى ـ لوجوه :
(أحدها) التنويه بأمر الصلاة فيه والتعظيم لشأنها حيث أفرد، للعناية بها، جملة على حدة .
(وثانيها) التذكير بأنه مقام الأب الأكبر للأنبياء كافة. وما كان مقامه لجدير أن يحترم ويعظم.
(وثالثها) التنصيص على أن هذا الاتخاذ بأمر ربانىّ لا بتشريع بشر ، تمهيداً للأمر باستقباله، وإلزاماً لمن جادل فيه، وهم اليهود . وقد روى الشيخان وغيرهما أن عمر رضى الله عنه قال[1] : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» قال ابن كثير: ومقام إبراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده الأئمة . وذلك الحجر هو الذى قام إبراهيم عليه عند بناء البيت ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار . وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها . وهكذا حتى تم جدران الكعبة. كما جاء بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارىّ[2] .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٢ ـ باب ماجاء فى القبلة . ونصه : عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى . فنزلت : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وآية الحجاب ، قلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر . فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبىّ ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن . فنزلت هذه الآية .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون .
وهو حديث طويل عن ابن عباس يبتدئ فيه بذكر أن أول ما اتخذ النساء المنطق =

قال ابن كثير : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديما . ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك ، وكأن الخليل عليه السلام ، لما فرغ من بناء البيت ، وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء ، فتركه هناك . ولهذا ، والله أعلم ، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف . وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . كما فعل رسول الله ﷺ . فإنه لما قدم مكة طاف بالبيت سبعاً ، وجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين .

قال ابن كثير : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر رضى الله عنه . ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة . وقد روى البيهقىّ بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : إن المقام كان فى زمان رسول الله ﷺ وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقاً بالبيت . ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقال سفيان بن عيينة ، وهو إمام المكيين فى زمانه : كان المقام من سُقع[1] البيت على عهد رسول الله ﷺ ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبىّ ﷺ . قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فردّه عمر إليه . وقال سفيان : لاأدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله . وقال أيضا : لا أدرى أكان لاصقاً بها أم لا . وأثر عائشة المتقدم يدل على أنه كان لاصقاً بها . والله أعلم . وقال الحافظ الشيخ عمر بن الحافظ التقىّ محمد بن فهد المكىّ الهاشمىّ ، فى كتاب « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » فى حوادث سنة سبع عشرة : فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل أم نهشل من أعلى مكة من طريق الردم . فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام

= من قِبَل أم إسماعيل. ثم مجىء إبراهيم بها وبابنها إسماعيل وهى ترضعه إلى مكة ، وبحث الملَك بعقبه عند موضع زمزم حتى ظهر الماء . ومرت بهم رفقة من جرهم فنزلوا فى أسفل مكة . ثم شبّ الغلام وتعلّم العربية ، ثم تزوج منهم . ثم مطالعة إبراهيم تركته ، فى غيبة إسماعيل ، مرتين . ثم رفعهما القواعد من البيت . الخ . وهو حديث جليل جدا .

(١) السقْع ، بالضم : ناحية من الأرض والبيت .

إبراهيم من موضعه ، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة . وعيّن مكانه الذى كان فيه لما عفاه السيل . فأتى به وربط بلصق الكعبة فى وجهها. وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعد ابن العاص بن أمية. فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة ، وكان سيلا هائلاً . فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو بالمدينة الشريفة . فهاله ذلك . وركب فزعا إلى مكة . فدخلها بعمرة فى شهر رمضان . فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف . ثم قال : أنشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام . فقال المطلب ابن أبى وداعة السهمىّ رضى الله عنه : أنا يا أمير المؤمنين عندى علم ذلك . فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر ، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر . ومن موضعه إلى زمزم بمقاط[1] . وهى عندى فى البيت . فقال له عمر : اجلس عندى وأرسلْ إليها من يأتى بها. فجلس عنده وأرسل إليها فأتى بها . فقيس ، ووضع حجر المقام فى هذا المحل الذى هو فيه الآن . وأحكم ذلك واستمر إلى الآن . انتهى « وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ » أى أمرناهما . وتعديته بـ « إلى » لأنه فى معنى: تقدمنا وأوحينا « أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » أى عن كل رجس حسىّ ومعنوىّ : فلا يفعل بحضرته شىء لا يليق فى الشرع . أو ابنياه على طهر من الشرك بى . كما قال تعالى « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »[2] أو أخلصاه للطائفين وما بعده، لئلا يغشاه غيرهم . فاللام صلة « طهرا » على هذا . وعلى ما قبله ، لام العلة . أى طهراه لأجلهم . وقوله تعالى « لِلطَّائِفِينَ » أى حوله . وعن سعيد بن جبير : يعنى من أتاه من غربة « وَالْعَاكِفِينَ » يعنى أهله المقيمين فيه أو المعتكفين . كما روى ابن أبى حاتم بسنده إلى ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أُرانى إلا مكلّم الأمير : أنِ امْنَعِ الذين ينامون فى المسجد الحرام . فإنهم يُجنبون ويُحدثون . قال : لا تفعل فإن ابن عمر سئل

(١) المِقَاط : الحَبْل الصغير الشديد الفتل ، يكاد يقوم من شدة فتله . وجمعه مُقُط .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٦] .

عنهم فقال : هم العاكفون . ورواه عبد بن حُمَيْد فى مسنده . وقد ثبت فى الصحيح(١) أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عزب .

وفى الكشاف : يجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين . يعنى القائمين فى الصلاة . كما قال للطائفين والقائمين « والرُّكَّعِ السُّجُودِ » جمع راكع وساجد والمعنى للطائفين والمصلين . لأن القيام والركوع والسجود هيآت المصلى . ولتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما . وجمع صفتين جمع سلامة ، وأخريين جمع تكسير لأجل المقابلة . وهو نوع من الفصاحة . وأخّر صيغة «فُعُول» على « فُعَّل » لأنها فاصلة. والمراد من الآية الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له . ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » فنى ذلك تبكيت لهم وتنبيه على توبيخهم بترك دينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا » أى الموضع الذى جعلت فيه بيتك وأمرتنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٣٥ ـ باب الأمن وذهاب الروع فى المنام .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

بأن أسكنته من ذريتي « بَلَداً » أي يأنس من يحل به « ءَامِناً » أي من الخوف . أي لا يُرْعَبُ أهلُه . وقد أجاب الله دعاءه. كقوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ ءَامِناً »(١) وقوله « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ »(٢) إلى غير ذلك من الآيات . وصحت أحاديث متعددة بتحريم القتال فيه . وفي صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول(٣) : « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » فهو آمن من الآفات ، لم يصل إليه جبار إلا قصمه الله . كما فعل بأصحاب الفيل . وقوله تعالى في سورة إبراهيم « هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً »(٤) بتعريف البلد مع جعله صفة لهذا ، خلاف ماهنا ، إمّا أن يحمل على تعدد السؤال بأن تكون الدعوة الأولى المذكورة هنا ، وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا . كأنه قال : اجعل هذا الوادي بلداً آمنا . لأنه تعالى حكى عنه أنه قال «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ »(٥) فقال ، ههنا ، اجعل هذا الوادي بلدا آمنا . والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا. فكأنه قال : اجعل هذا

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧]

(٣) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٩ (طبعتنا) .

(٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٣٧] ونصها : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

المكان الذى صيرته بلدا ذا أمن وسلامة. وإمّا أن يحمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر . فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين . وقد حكى ذلك هنا . واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن، اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال اجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، هذا خلاصة ما حققوه .

وعندى أن السؤال والمسؤول واحد . إلا أنه تفنن فى الموضعين. فحذف من كلٍّ ما أثبته فى الآخر احتباكا . والأصل: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا . وبه تتطابق الدعوتان على أبدع وجه وأخلصه من التكلف . على ما فيه من إفادة المبالغة . أى بلدًا كاملًا فى الأمن : كأنه قيل: اجعله بلدًا معلوم الاتصاف بالأمن مشهورا به كقولك : كان هذا اليوم يوما حارًّا . وفى القاموس وشرحه التاج : البلد والبلدة علم على مكة، شرفها الله تعالى، تفخيماً لها . كالنجم للثريا . وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة خالية أو مسكونة . وفى النهاية : البلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ» إنما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك، لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر ، فاستجاب الله تعالى له ، فصارت يجبى إليها ثمرات كل شىء « مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بدل « من أهله » ، بدل البعض ، يعنى : ارزق المؤمنين من أهله خاصة . وإنما خصّهم بالدعاء إظهارًا لشرف الإيمان ، واهتمامًا بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب فى المسألة . حيث ميّز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين ، فى باب الإمامة ، فى قوله « لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » بعد أن سأل، عليه السلام، جَعْلَهَا فى ذريته ، فلا جرم خصص المؤمنين بهذا الدعاء، وفيه ترغيب لقومه فى الإيمان ، وزجر عن الكفر « قَالَ » الله تعالى مُعْلما أن شمول الرحمانية بأمن الدنيا ورزقها لجميع عمرة الأرض « وَمَنْ كَفَرَ » أى أنيله أيضاً ما الهمتك من الدعاء بالأمن والرزق ، فهو عطف على مفعول فعل محذوف ، دلّ الكلام عليه . ويجوز أن تكون « مَنْ » مبتدأ موصولة أو شرطية . وقوله « فَأُمَتِّعُهُ » خبره أو جوابه . وعبر عن رزقه

بالمتعة التي هي الزاد القليل والبلغة، تخسيساً له ، وأكد ذلك بقوله « قَلِيلًا » تمتيعًا قليلًا ، أو زمانًا قليلًا « ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ » أي ألجئه إليه كما قال تعالى « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا »(١) و « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ »(٢) وقرئ فأمتعه قليلًا ثم اضطره ، بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء إبراهيم عليه السلام ، وفي « قال » ضميره « وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » النار أو عذابها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » أي اذكر بناءهما البيت ورفعهما القواعدمنه . وصيغةالاستقبال لحكاية الحال الماضية ، لاستحضار صورتها العجيبة. والقواعد : جمع قاعدة ، وهي الأساس والأصل لما فوقه ، وقال الزجاج : القواعد : أساطين البناء التي تعمده « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا » على إرادة القول أي يقولان ، وترك مفعول « تقبل » ليعم الدعاء وغيره من القُرَبِ والطاعات ، التي من جملتها ما هما بصدده من البناء . كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ » لدعائنا « الْعَلِيمُ » بضمائرنا ونياتنا . وفي صحيح البخاري(٣) عن ابن عباس في حديث مجيء إبراهيم لتفقد إسماعيل عليهما السلام، ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله قد أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ؟

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٣] .

(٢) [٥٤ / القمر / ٤٨] ونصها : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٤٩ .

قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فمند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ » مخلصين لك أوجهنا . من قوله : أسلم وجهه لله . أو مستسلمين ، يقال: أسلم له وسلم ، واستسلم ، إذا خضع وأذعن. والمعنى : زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك « وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا » واجعل من ذريتنا « أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » و « من » للتبعيض ، أو للتبيين ، كقوله « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ »(1) وإنما خصّا الذرية بالدعاء ، لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» أى عرفنا متعبداتنا ، جمع منسك بفتح السين وكسرها ، وهو المتعبد ، وشرعة العبادة . يقع على المصدر والزمان والمكان ، من النسك مثلثة وبضمتين وهو العبادة والطاعة ، وكل ما تُقُرِّب به إلى الله تعالى. ومن المفسرين من حمل المناسك على مناسك الحج لشيوعها فى أعماله ومواضعه . فالإراءة حينئذ لتعريف تلك الأعمال والبقاع . وقد رويت آثار عن بعض الصحابة والتابعين تتضمن أن

(١) [٢٤/ النور/ ٥٥] ونصها: وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

جبريل أَرَى إبراهيمَ المناسك وأن الشيطان تعرض له ، فرماه عليه السلام . قالوا : وفى ذلك ظهور لشرف عمل الحج ، حيث كان متلقًّى عن الله بلا واسطة ، لكونه علَماً على آتى يوم الدين ، حيث لا واسطة هناك بين الرب والعباد . والذى عول عليه أئمة اللغة ماذكرناه أولًا من حمل المناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى ، واللزوم لما يرضيه ، وجعل ذلك عامًّا لكل ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام. أى علمنا كيف نعبدك وأين نعبدك ، وبماذا نتقرب إليك ، حتى نخدمك كما يخدم العبد مولاه ؟ « وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا الدعاء استتابة لما فرط من التقصير . فإن العبد، وإن اجتهد فى طاعة ربه ، فإنه لا ينفك عن التقصير من بعض الوجوه ، إما على سبيل السهو والنسيان ، أو على سبيل ترك الأَوْلى . فالدعاء منهما ، عليهما السلام، لأجل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » هذا إخبار عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولًا منهم ، أى من ذرية إبراهيم ، وهم العرب من ولد إسماعيل . وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث فى ذريته رسولًا منهم ، وهو محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، إلى الناس كافة .وقد أخبر ﷺ عن نفسه أنه دعوة إبراهيم. ومراده هذه الدعوة . وذلك فيما خرجه الإمام أحمد(١) عن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : إنى ، عند الله ، لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده . بالجزء الرابع بالصفحة رقم ١٢٧ (طبعة الحلبى) .

وسأنبئكم بأول ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين. وأخرج أيضاً نحوه عن أبى أمامة(١) ، قال: قلت: يانبىّ الله ! ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره فى الناس مشهوراً حتى أفصح باسمه عيسى ابن مريم ، عليهما السلام ، حيث قال « إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ »(٢) وهذا معنى قوله فى الحديث : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ابن مريم . وقوله فيه : ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منها قصور الشام . قيل : كان منها ما رأته حين حملت به ، وقصته على قومها ، فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وإرهاصاً . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا يكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ـ إذا نزل بدمشق ـ بالمنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء فى الصحيحين(٣) « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك » وفى صحيح البخارىّ « وهم بالشام »(٣) وقوله تعالى « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ » هى إما الفرقان الذى أنزل على

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده . بالجزء الخامس بالصفحة رقم ٢٦٢ (طبعة الحلبىّ).

(٢) [٦١ / الصف / ٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٣) يشير إلى حديث المغيرة بن شعبة . وهذه طرقه :

أخرج البخارىّ فى: ٦١ ـ كتاب المناقب، ٣ ـ باب حدثنى محمد بن المثنى عن المغيرة =

النبيّ ﷺ ، المتلوّ عليهم ، وإما الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته تعالى . ومعنى تلاوته إياها عليهم أنه كان يذكرهم بها ، ويدعوهم إليها ، ويحملهم على الإيمان بها . وقوله تعالى « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى الكامل الشامل لكل كتاب وهو القرآن و« الْحِكْمَةَ » هى السنة ، فسرها بها كثيرون . وعن مالك : هى معرفة الدين ، والفقه فيه ، والاتباع له. وقوله تعالى « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الشرك ، وسائر الأرجاس ، كقوله « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ »(١) .

= ابن شعبة عن النبيّ ﷺ قال « لا يزال ناس من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٠ ـ باب قول النبيّ ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى ... الخ ونصه : عن المغيرة بن شعبة عن النبيّ ﷺ قال « لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

ورواه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٩ ـ باب قول الله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ .

ونصه : عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول « لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله » .

ورواه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧١. (طبعتنا)

ونصه : عن المغيرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يزال قوم من أمتى ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله ، وهم ظاهرون » .

أما نص المؤلف فهو مطابق لنص حديث ثوبان الذى انفرد به مسلم وأخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة، حديث ١٧٠ . (طبعتنا)

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ =

ولما ذكر عليه السلام هذه الدعوات، ختمها بالثناء على الله تعالى فقال « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ، والعزيز ذو العزة وهى القوة ، والشدة ، والغلبة ، والرفعة . و « الحكيم » بمعنى الحاكم ، أو بمعنى الذى يحكم الأشياء ويتقنها ، وكلاهما من أوصافه تعالى .

قال الراغب : إن قيل ما وجه الترتيب فى الآية ؟ قيل : أما الآيات فهى الآيات الدالة على معجز النبيّ ﷺ . وذكر التلاوة لما كان أعظم دلالة نبوته متعلقاً بالقرآن. وأما الترتيب، فلأن أول منزلة النبيّ ﷺ بعد ادعاء النبوة، الإتيان بالآيات الدالة على نبوته ، ثم بعده تعليمهم الكتاب ، أى تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط ، ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم إلى إفادة الحكمة ، وهى أشرف منزلة العلم ، ولهذا قال « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »(١) ثم بالتدرج فى الحكمة يصير الإنسان مزكى أى مطهّرًا مستصلحاً لمجاورة الله عز وجل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » هذا إنكار واستبعاد لأن يكون فى العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذى هو ملة إبراهيم ، وهو ما جاء به محمد

= الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] ونصها : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .

صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى ذلك تعريض بمعاندى أهل الكتاب والمشركين ، أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغرّاء إلا من سفه نفسه ، أى حملها على السفه وهو الجهل .

قال الراغب : وسفه نفسه أبلغ من جهلها ، وذاك أن الجهل ضربان : جهل بسيط ، وهو أن لا يكون للإنسان اعتقاد فى الشىء . وجهل مركب وهو أن يعتقد فى الحق أنه باطل ، وفى الباطل أنه حق . والسفه أن يعتقد ذلك ويتحرى بالفعل مقتضى ما اعتقده . فبيّن تعالى أن من رغب عن ملة إبراهيم ، فإن ذلك لِسَفَهِ نفسه ، وذلك أعظم مذمة ، فهو مبدأ كل نقيصة . وذاك أن من جهل نفسه ، جهل أنه مصنوع ، وإذا جهل كونه مصنوعاً جهل صانعه ، وإذا لم يعلم أن له صانعاً ، فكيف يعرف أمره ونهيه ، وما حسّنه وقبّحه ؟ ولكون معرفتها ذريعة إلى معرفة الخالق جل ثناؤه ، قال « وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(١) وقال « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ »(٢) .

وقوله تعالى « وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا » أى اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ، وتكثير الأنبياء من نسله ، وإعطاء الخلة ، وإظهار المناسك عليه ، وجعل بيته آمنا ، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة . « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » الذين لهم الدرجات العلى ، وفى هذا أكبر تفخيم لرتبة الصلاح ، حيث جعله من المتصفين بها ، فهو حقيق بالإمامة ، لعلو رتبته عند الله تعالى فى الدارين ، ففى ذلك أعظم ترغيب فى اتباع دينه ، والاهتداء بهديه . وأشدّ ذم لمن خالفه .

قال الراغب : إن قيل كيف وصفه بالاصطفاء فى الدنيا ، وبالصلاح فى الآخرة ، والنظر يقتضى عكس ذلك. فإن الصلاح وصف يرجع إلى الفعل ، وذلك يكون فى الدنيا . والاصطفاء

(١) [٥١ / الذاريات / ٢١] .

(٢) [٥٩ / الحشر / ١٩] ونصها : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

حال يستحقه العبد بكونه صالحا ، فحقه أن يكون فى الآخرة ؟ قيل : الاصطفاء ضربان ، أحدهما كما قلت ، والآخر فى الدنيا ، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه ، وهو المعنىّ بقوله « شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ »(١) ، والصلاح ، وإن اعتبر بأحوال الدنيا ، فمجازًى به فى الآخرة ، فبيّن تعالى أنه مجتبى فى الدنيا لما علم الله من حكمته فيه ، ومحكوم له فى الآخرة ، بصلاحه فى الدنيا ، تنبيهاً أن الثواب فى الآخرة لم يستحقه باصطفائه فى الدنيا ، وإنما استحقه بصلاحه فيها . ويجوز أن يكون قوله « فى الآخرة » أى فى أعمال الآخرة لمن الصالحين . ويجوز أنه عنى بقوله «فى الدنيا» حال بقائه، و «فى الآخرة» أى حال وفاته ، ويكون الإشارة بصلاحه إلى الثناء الحسن عليه ، الذى رغب إلى الله تعالى فيه بقوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »(٢) ويجوز أنه لما كان الناس ثلاثة أضرب : ظالم ، ومقتصد ، وسابق ، عبر عن السابق بالصالح ، فكل سابق إلى طاعة الله ورحمته صالح . انتهى .

وكل ذلك تذكير لأهل الكتاب بما عندهم من العلم بأمر هذا النبىّ الكريم ، وإقامة للحجة عليهم ، لأن أكثر ذلك معطوف على « اذكروا » فى قوله « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ »(٣) .

(١) [١٦ / النحل / ١٢١] ونصها : شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٠] ونصها : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ .

و [٢ / البقرة / ٤٧] و [٢ / البقرة / ١٢٢] ونصهما : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

ولما ذكر إمامته عليه السلام ، ذكر ما يؤتم به فيه ، وهو سبب اصطفائه وصلاحه ، وذلك دينه ، وما أوصى به بنيه ، وما أوصى به بنوه بنيهم سلفاً عن خلف ، ولاسيما يعقوب عليه السلام المنوه بنسبة أهل الكتاب إليه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِذْ » أى اصطفيناه لأنه « قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ » أى لربك ، أى انقدْ له ، وأخلص نفسك له . أواستقم على الإسلام ، واثبت على التوحيد « قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وظاهر النظم الكريم أن القول حقيقىّ ، وليس فى ذلك مانع ، ولا ما جاء ما يوجب تأويله. وقول بعضهم : هو تمثيل ، والمعنى : أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام ـ ليس بشىء . ولا معنى لحمل شىء من الكلام على المجاز ، إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ » شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره ، إثْرَ بيان كماله فى نفسه . والتوصية التقدم إلى الغير فى الشىء النافع المحمود عاقبته . والضمير فى « بها » إما عائد لقوله « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » على تأويل الكلمة والجملة . ونحوه رجوع الضمير فى قوله « وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً »[١] إلى قوله « إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ∗

(١) [٤٣/ الزخرف / ٢٨] ونصها : وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي »[١] وقوله « كلمة » دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة . وإما عائد إلى الملة فى قوله « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ » ، وأيد الأول بكون الموصى به مطابقاً فى اللفظ لأسلمت ، وقرب المعطوف عليه . ورجح القاضى الثانى لكون المرجع مذكوراً صريحاً . وردّ الإضمار إلى المصرح بذكره ، إذا أمكن ، أولى من رده إلى المدلول والمفهوم . ولكون الملة أجمع من تلك الكلمة . والكل حسن . وقوله تعالى« بَنِيهِ » تفيد صيغة الجمع أن لإبراهيم عليه السلام من الولد غير إسماعيل وإسحق. وقرأت فى سفرالتكوين من التوراة[٢] أن إبراهيم عليه السلام تزوج ، بعد وفاة سارة أم إسحق ، امرأة أخرى اسمها قَطُورَةُ ، فولدت له : زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا ، فعلى هذا تكون بنوه عليه السلام ثمانية « وَيَعْقُوبُ » معطوف على إبراهيم ، ومفعوله محذوف تقديره : ووصى يعقوب بنيه . لأن يعقوب أوصى بنيه أيضا كما أوصى إبراهيم بنيه . ودليل ذلك قوله تعالى «إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي»[٣] كما سيأتى. وقرىء « ويعقوب » بالنصب عطفاً على بنيه ، ومعناه : ووصى بها إبراهيم بنيه ، ونافلته يعقوب . وقد ولد يعقوب فى حياة جده إبراهيم ، وأدرك من حياته خمس عشرة سنة ، كما يستفاد من سفر التكوين من التوراة ، فإن فيها أن إبراهيم عليه السلام ، ولد له اسحق ،

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٦و٢٧] ونصهما : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، ١و٢ ونصهما : وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قَطورَةُ . فولدت له زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وهو ابن مائة سنة(١) ، ومات وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، وكان لإسحق، حين ولدله يعقوب وعيسو ، ستون سنة ، فاستفيد من ذلك ما ذكرناه . ولوجود يعقوب فى حياة جده يفهم سر ذكره فى قوله تعالى «وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ»(٢) وفى آية أخرى « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً »(٣). « يَا بَنِيَّ » أى قال كل من إبراهيم ويعقوب ، على القراءة الأولى . وعلى الثانية: قال إبراهيم: يا بَنِيَّ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ» أعطاكم الدين الذى هو صفوة الأديان ، وهودين الإسلام ، الذى لادين غيره عند الله تعالى « فَلَا » أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم: لا « تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » وفى هذه الجملة إيجاز بليغ. والمراد : الزموا الإسلام ، ولاتفارقوه حتى تموتوا . وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال، أى لا تموتوا على حالة إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام . فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، لأنه هو المقدور . فلا يقال : صيغة النهى موضوعة لطلب الكف عما هو مدلولها ، فيكون المفهوم منه النهى عن الموت على خلاف حال الإسلام ، وذا ليس بمقصود ، لأنه غير مقدور . وإنما المقدور فيه هو الكون على خلاف حال الإسلام ، فيعود النهى إليه ، ويكون المقصود النهى عن الاتصاف بخلاف

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

و [٢٩ / العنكبوت/ ٢٧] ونصها: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٢] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ .

حال الإسلام وقت الموت ، لما أن الامتناع عن الاتصاف بتلك الحال يتبع الامتناع عن الموت فى تلك الحال. فإما أن يقال : استعمل اللفظ الموضوع للأول فى الثانى ، فيكون مجازاً . أو يقال : استعمل اللفظ فى معناه لينتقل منه إلى ملزومه ، فيكون كناية .

قال الزمخشرىّ : ونظير ذلك قولك : لا تصلّ إلا وأنت خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته . والنكتة فى إدخال حرف النهى عما ليس بمنهىّ عنه ، هو إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام ، موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم . كما تقول فى الأمر : مت وأنت شهيد . فليس مرادك الأمر بالموت ، ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات . وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وإنها حقيقة بأن يُحَثّ عليها . هذا . وقد قرر سبحانه بهذه الآيات بطلان ما عليه المتعنتون من اليهودية والنصرانية ، وبرأ خليله والأنبياء من ذلك . ولما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه بالغ فى وصية بنيه بالدين والإسلام ، ذكر عقيبه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة فى البيان بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

«أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ» أى ما كنتم حاضرين حينئذ ، فـ « أم » منقطعة مقدّرة بـ « بل » والهمزة ، وفى الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ . والشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر ، وحضور الموت حضور مقدماته « إِذْ قَالَ » أى يعقوب

« لِبَنِيهِ » وهم[١] : رَأُوبَيْن ، وشِمْعُون ، ولَاوِى ، ويَهُوذَا ، ويَسَّاكَر ، وزَبُولُون ، ويُوسُف ، وبَنْيَامِينُ ، ودَانُ ، ونفتَالِى ، وجَادُ ، وأَشِيرُ ، وهم الأسباط الآتى ذكرهم « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى » أى أىّ شىء تعبدونه بعد موتى ، وأراد بسؤاله تقريرهم على التوحيد والإسلام ، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ » عطف بيان لآبائك . وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه. لأن العم أب والخالة أم ، لانخراطهما فى سلك واحد ، وهو الأخوّة ، لا تفاوت بينهما . ومنه حديث الترمذىّ عن علىّ كرم الله وجهه ، رفعه[٢] « عم الرجل صنو أبيه » أى لا تفاوت بينهما ، كما لا تفاوت بين صنوى النخلة . وفى الصحيحين عن البراء ، رفعه[٣] « الخالة بمنزلة الأم » ؛ وروى ابن سعد عن محمد بن علىّ مرسلًا « الخالة والدة » .

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح الخامس والثلاثون ، ٢٣ـ٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٢٨ ـ باب مناقب العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . ونصه : عن علىّ ؛ أن النبىّ ﷺ قال لعمر ، فى العباس « إن عم الرجل صنو أبيه » وكان عمر تكلم فى صدقته .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٦ ـ باب كيف يكتب : هذا ماصالح فلان بن فلان وفلان بن فلان .

ونصه : . . . . فخرج النبىّ ﷺ (من مكة) فتبعتهم ابنة حمزة : يا عم ! يا عم ! فتناولها علىّ فأخذ بيدها . وقال لفاطمة عليها السلام : دونك ابنة عمك ، احمليها . فاختصم فيها علىّ وزيد وجعفر . فقال علىّ : أنا أحق بها وهى ابنة عمى . وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى . وقال زيد : ابنة أخى . فقضى بها النبىّ ﷺ لخالتها ، وقال « الخالة بمنزلة الأم » . . . .

ولم أجده فى صحيح مسلم .

« إِلَٰهًا وَاحِدًا » بدل من إله آبائك ، كقوله تعالى « بِالنَّاصِيَةِ *نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »(١) أو على الاختصاص ، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ، وفى ذلك تحقيق للبراءة من الشرك، للتصريح بالتوحيد . ثم أخبروا بعد توحيدهم بإخلاصهم فى عبادتهم ، بقولهم « وَنَحْنُ لَهُ » أى وحده لا لأب ولا غيره « مُسْلِمُونَ » أى مطيعون خاضعون ، كما قال تعالى « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »(٢) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ »(٣) والآيات فى هذا كثيرة، والأحاديث . ومنها قوله ﷺ(٤) « نحن معاشر الأنبياء أولاد علاتٍ ، ديننا واحد » وقد اشتمل نبأ وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لبنيهما على دقائق مرغبة فى الدين . منها أنه تعالى لم يقل « وأمر إبراهيم بنيه » بل قال « وصاهم » ، ولفظ الوصية أوكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفى ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم ، فدل على الاهتمام بالوصى به ، والتمسك به . ومنها تخصيص بنيهما بذلك ، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، فلما خصَّاهُم بذلك فى آخر عمرهما علمنا أن اهتمامهما

(١) [٩٦ / العلق / ١٥و١٦] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب واذكر فى الكتاب مريم ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لِعَلَّات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣و١٤٤و١٤٥ (طبعتنا)

بذلك كان أشد من اهتمامهما بغيره . ومنها أنهما ، عليهما السلام ، مامزجا بهذه الوصية وصية أخرى . وهذا يدل على شدة الاهتمام أيضاً . إلى دقائق أخرى أشار إليها الفخر ، عليه الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى إبراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين « أُمَّةٌ » أى جيل وجماعة « قَدْ خَلَتْ » أى سلفت ومضت « لَهَا مَا كَسَبَتْ » فى إسلامها من الاعتقادات والأعمال والأخلاق « وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » أى مما أنتم عليه من الهوى خاص بكم ، لا يسألون هم عن أعمالكم « وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » والمعنى أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً . فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم . فما اقتص عليكم أخبارهم ، وما كانوا عليه من الإسلام والدعوة إليه ، إلا لتفعلوا ما فعلوه ، فتنتفعوا . وإن أبيتم ، لم تنتفعوا بأعمالهم .

قال الرازىّ : الآية دالة على بطلان التقليد ، لأن قوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ » يدل على أن كسب كل أحد يختص به ، ولا ينتفع به غيره ، ولو كان التقليد جائزاً ، لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع ، فكأنه قال : إنى ماذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم ، ولكن لِتَنَبَّهُوا على مايلزمكم ، فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق . انتهى .

ومعلوم أن اتباع الأنبياء عليهم السلام ، والإيمان بهم ، لا يسمى تقليداً ، لخروجه عن حده المقرر فى كتب الأصول .

ثم أخبر تعالى أنهم اعتاضوا عن الاهتداء بالأصفياء من أسلافهم ، بأن صاروا دعاة إلى الكفر ، مع بيان بطلان ماهم عليه من كل وجه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

« وَقَالُوا » أى الفريقان من أهل الكتاب « كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ » نتبع « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » ونستن بسنته لا نحول عنها كما تحولتم « حَنِيفاً » أى مستقيماً أو مائلاً عن الباطل إلى الحق ، لأن الحنف ، محركة ، يطلق على الاستقامة ، ومنه قيل للمائل الرِّجل : أحنف . تفاؤلًا بالاستقامة كما قالوا للديغ : سليم . وللمهلكة : مفازة . ويطلق على ميل فى صدر القدم ، واعوجاج فى الرجل ، فالحنيف المستقيم على إسلامه لله تعالى ، المائل عن الشرك إلى دين الله سبحانه .

ولما أثبت إسلامه بالحنيفية نفى عنه غيره بقوله « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وفيه تعريض بأهل الكتاب ، وإيذان ببطلان دعواهم اتباعَه عليه السلام ، مع إشراكهم بقولهم: عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله . وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن ما عليه الفريقان محض ضلال وارتكاب بطلان ، وأن الدين المرضيّ عندالله الإسلام ، وهو دعوةالخلق إلى توحيده تعالى ، وعبادته وحده ، لاشريك له .

ولما خالف المشركون هذا الأصل العظيم بعث الله نبيه محمدا خاتم النبيين لدعوة الناس جميعاً إلى هذا الأصل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

« قُولُوا » أى يا أيها الذين آمنوا . وفيه إظهار لمزية فضل الله عليهم حيث يلقنهم ولا يستنطقهم فيقصروا فى مقالهم « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » أى من الكتاب الذى تقدم إنه الهدى « وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » من الأحكام التى كانوا متعبدين بها، مما اشتملت عليه صحف أبيهم إبراهيم عليه السلام ومن الوحى إليهم خاصة. والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر المتقدم ذكرهم. جمع سِبط وهو الحافد. سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق . « وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ » من التوراة والإنجيل « وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ » مما ذكر ، وغيرُهُم . « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » فى الإيمان فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » منقادون .

وقد روى البخارىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال[(١)] : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا » .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١١ ـ باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَإِنْ ءَامَنُوا » أى أهل الكتاب الذين أرادوا أن يستتبعوكم « بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ » أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصّل . على أن المثل مقحم . وقد قرأ ابن عباس وابن مسعود بما آمنتم به . وقرأ أُبَىّ : بالذى آمنتم به « فَقَدِ اهْتَدَوْا » إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم. عكس ما قالوا : كونوا مثلنا تهتدوا « وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بما آمنتم به . « فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » أى فما هم إلا فى خلاف وعداوة وليسوا من طلب الحق فى شىء .

قال القاضى : ولا يكاد يقال فى المعاداة على وجه الحق أو المخالفة التى لا تكون معصية إنه شقاق . وإنما يقال ذلك فى مخالفة عظيمة توقع صاحبها فى عداوة الله وغضبه ولعنه ، وفى استحقاق النار. فصار هذا القول وعيداً منه تعالى لهم ، وصار وصفهم بذلك دليلًا على أن القوم معادون للرسول ، مضمرون له السوء ، مترصدون لإيقاعه فى المحن ، فعند هذا أمنه الله تعالى من كيدهم وأمن المؤمنين من شرهم ومكرهم فقال « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » تقوية لقلبه وقلب المؤمنين لأنه تعالى إذا تكفل بالكفاية فى أمر حصلت الثقة به . وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم (١)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومقاتلته إياهم .

عن أبى أمامة قال : سمعت أبا سعيد الخدرىّ رضى الله عنه يقول : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ . فأرسل النبىّ ﷺ إلى سعد . فأتى على حمار . فلما دنا من المسجد قال للأنصار « قوموا إلى سيدكم » أو « خيركم » فقال « هؤلاء نزلوا على حكمك » فقال : تَقْتُلُ مقاتلتهم وتَسْبِى ذراريّهم . قال « قضيتَ بحكم الله » وربما قال « بحكم الملك » .

وإجلاء بنى النضير[1] « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أتبع وعده بالنصر والكفاية ، بما يدل على أن ما يسرون وما يعلنون من أمرهم لا يخفى عليه تعالى . فهو يسبب لكل قول وضمير منهم ما يردّ ضرره عليهم . فهو وعيد لهم، أو وعدٌ لرسول الله ﷺ . أى يسمع ما تدعو به ، ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق . وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

« صِبْغَةَ اللهِ » مصدر مؤكد منتصب عن قوله « آمنا بالله » كذا قاله سيبويه . فهو بمثابة فعله . كأنه قيل صبغنا الله صبغة . أى صبغ قلوبنا بالهداية والبيان صبغة كاملة لا ترتفع بماء الشبه ، ولا تغلب صبغةُ غيره عليها . والصبغة كالصبغ (بالكسر فيهما لغة) مايصبَغ به وتلون به الثياب . ووصف الإيمان بذلك لكونه تطهيرًا للمؤمنين من أوضار الكفر ، وحلية تزينهم بآثاره الجميلة، ومتداخلًا فى قلوبهم. كما أن شأن الصبغ بالنسبة إلى الثوب كذلك. ويقال : صبغ يده بالماء غمسها فيه. وأنشد ثعلب :

دع الشر وانزل بالنجاة تحرزا إذا أنت لم يصبغك فى الشر صابغ

وقال الراغب : الصبغة إشارة من الله عز وجل إلى ما أوجده فى الناس من بداية العقول

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٤ ـ حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: حاربت النضير وقريظة . فأجلى بنى النضير وأقرّ قريظة ومنّ عليهم. حتى حاربت قريظة . فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين. إلا بعضهم لحقوا بالنبيّ ﷺ فآمنهم وأسلموا . وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكلّ يهود المدينة .

التى ميزنا بها من البهائم، ووشحنا بها لمعرفته ومعرفة حسن العدالة وطلب الحق ، وهو المشار إليه بالفطرة فى قوله « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ »[١] الآية والمعنى بقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة[٢] ... الخبر . وتسمية ذلك بالصبغة من حيث إن قوى الإنسان التى ركب عليها، إذا اعتبرت بذاته ، تجرى مجرى الصبغة التى هى زينة المصبوغ . ولما كانت اليهود والنصارى، إذا لقنوا أولادهم اليهودية والنصرانية، يقولون: قد صبغناه ـ بيّن تعالى أن الإيمان بمثل ما آمنتم به هو صبغة الله وفطرته التى ركزها فى الخلق. ولا أحد أحسن صبغة منه .

(ثم قال) وقول الحسن وقتادة ومجاهد : إن الصبغة هى الدين ، وقول غيرهم : إنها الشريعة ، وقول من قال : هو الختان ـ إشارة إلى مغزى واحد . « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً » الاستفهام للإنكار والنفى . أى لا صبغة أحسن من صبغته تعالى. لأنها صبغة قلب لا تزول . لثباتها بما تولاها الحفيظ العليم ، فلا يرتد أحد عن دينه سخطة له بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلبه . والجملة اعتراضية مقررة لما فى « صبغة الله » من معنى الابتهاج « وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » شكرًا لتلك النعمة ولسائر نعمه . فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نوكدها بالعبادة ، وهى تزيل رَيْن القلب فينطبع فيه صورة الهداية . وهو عطف على آمنا ، داخل معه تحت الأمر .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى:٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٩٣ ـ باب ماقيل فى أولاد المشركين. ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء؟ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)

« قُلْ » منكرا لمحاجتهم وموبِّخًا لهم عليها « أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ » أى أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له واتباع الهدى وترك الهوى « وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » المستحق لإخلاص العبودية له وحده لا شريك له ، ونحن وأنتم فى العبودية له سواء « وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » أى نحن برءاء منكم ومما تعبدون ، وأنتم برءاء منا . كما قال فى الآية الأخرى« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »(١) . وقال تعالى « فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ »(٢) الآية . « وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » فى العبادة والتوجه ، لا نشرك به شيئًا وأنتم تشركون به عُزَيْرًا والمسيح والأحبارَ والرهبانَ. ولمَّا بقى من مباهتاتهم ادعاؤهم أن أسلافهم كانوا على دينهم ، أبطلها سبحانه بقوله :

---

(١) [١٠ / يونس / ٤١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ » خليل الله « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » ابنيه « وَيَعْقُوبَ » ابن إسحق « وَالْأَسْبَاطَ » أولاد يعقوب « كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ » أى على ملتهم . إما اليهودية وإما النصرانية « قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ » أى الذى له الإحاطة كلها أعلم . فلا يمكنهم أن يقولوا : نحن . وإن قالوا : الله ، فقد برأ الله إبراهيم ومن معه من ذلك . فبطل ما ادعوا . وثبت أنهم ، عليهم السلام ، كانوا على الحنيفية مسلمين مبرّئين عن اليهودية والنصرانية . هذا مع أن ردّ قولهم هذا أظهرُ ظاهرٍ من حيث إنه لايعقل أن يكون السابقُ على نسبةٍ للاحق ، ما حدثت إلا بعده بمدد متطاولة . وسيأتى النص الصريح بإبطال ذلك فى آل عمران . ولما كان العلم عندهم عن الله بأن الخليل ومن ذكر معه ، عليهم السلام ، على دين الإسلام وكانوا يكتمون ماعندهم من ذلك . مع تقرير الله لهم به واستخبارهم عنه ونهيه لهم عن كتمانه وما يقاربه بقوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ »[1] الآية ـ أشار إلى أشد الوعيد فى كتمان ذلك بقوله « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً » موجودة ومودعة « عِندَهُ مِنَ اللَّهِ » وهو كتمان العلم الذى هو الإخبار بما أنزل الله . والاستفهام إنكار لأن يكون أحدٌ أظلَمَ من أهل الكتاب حيث كتموا شهادته تعالى لهم ، عليهم السلام ، بالحنيفية والبراءة من الفريقين .

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] ونصها : وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

قال التقيّ ابن تيمية : سمى تعالى ماعندهم من العلم شهادة كما قال « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ »[1] الآية كأنه قال : خبرًا عنده ، ديناً عنده من الله ، وبياناً عنده من الله ، وعلماً عنده من الله ، فإن كان قوله «من الله» متعلقاً بـ« كتم » فإنه يعم كل الشهادات . وإن كان متعلقاً بـ « عنده » ، وهو الأوجه ، أو بشهادة ، أو بهما ، فإن الأمر فى ذلك واحد. أى شهادة استقرت عنده من جهة الله . فهو كتمان شهادات العلم الموروث عن الأنبياء . فسمى الإخبار به شهادة .

ثم قال : وكذلك الأخبار النبوية إنما يراد بالشهادة فيها الإخبار . « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد شديد. أى أن علمه محيط بكم وسيجزيكم عليه .

قال الرازيّ : هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد . ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ، ولا يخفى عليه خافية ، وأنه من وراء مجازاته ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ـ لا يمضى عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف . ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعدّ عليه الأنفاس ، لكان دائم الحذر والوجل ، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر ، فكيف بالرب الرقيب الذى يعلم السر وأخفى ، إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ » فلا يسألون عن أعمالكم

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٩] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .

«وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» لما ذكر تعالى حسن طريقة الأنبياء المتقدمين، ولم يدع لهم متمسكاً من جهتهم ، أتبع ذلك الإشارة إلى أن الدين دائر مع أمره فى كل زمان . وأنه لاينفعهم إلا ما يستجدّونه بحكم ما تجدد من المُنْزَل المعجز لكافة أهل الأرض ، أحمرهم وأسودهم .. أى فعليكم بترك الكلام فى تلك الأمة . فلها ما كسبت . وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد ﷺ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم. ولا تُسألون إلا عن عملكم.

قال الراغب : إعادة هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمة فى الناس ، صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم فى متحرياتهم . سيما فى أمور دينهم. ولهذا حكى عن الكفار قولهم « إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ »(١) . فأكد الله تعالى القول فى إنزالهم عن هذه الطريقة . وذكر فى أثر ما حكى من وصية إبراهيم ويعقوب بنيه بذلك ، تنبيهاً أن الأمر سواء على ماقلت أو لم يكن. فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه. وفى الثانى لما ذكر ادعاءهم اليهودية والنصرانية لآبائهم أعاد أيضاً تأكيداً عليهم تنبيها على نحو ما قال « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ »(٢) ، وقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »(٣) ، وقوله « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ »(٤) ولما جرت به عادتهم وتفردت به معرفتهم : كل شاة تناط برجليها .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٢] ونصها : بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ .

(٢) [١٧/الإسراء/ ١٣] ونصها: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .

(٤) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » روى البخارىّ فى صحيحه[1] عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا . وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها ، صلاة العصر وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبىّ ﷺ قِبَلَ مكة . فداروا ، كما هم ، قِبَلَ البيت .

وروى مسلم[2] عن البراء رضى الله عنه نحو ما تقدم ولفظه : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، ثم صرفنا نحو الكعبة .

وروى الشيخان[3] عن ابن عمر قال : بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن. وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . (اللفظ لمسلم)

والأحاديث فى تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة متوافرة . وفيما ذكرنا كفاية .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٢ ـ باب سيقول السفهاء من الناس. . .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٢ . (طبعتنا)

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٢ ـ باب ما جاء فى القبلة .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٣ . (طبعتنا)

وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن فريقاً من النـاس سينكرون تغيير القبلة وسماهم سفهاء ، جمع سفيه. وهو الخفيف الحلم والأحمق والجاهل . قال أبوالسعود : أى الذين خفّت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن التدبر والنظر. انتهى . ومعنى قوله «ماولاهم» أى أىّ شىء صرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، أى ثابتين على التوجه إليها، وهى بيت المقدس. ومدار الإنكار ، إن كان القائلون هم اليهود ، كراهتهم للتحويل عنها لأنها قبلتهم . وإن كان غيرهم ، فمجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه . وقد روى عن ابن عبـاس : أن القائلين هم اليهود ، وعن الحسن أنهم مشركو العرب . وعن السدّىّ أنهم المنافقون .

قال الراغب : ولا تنافى بين أقوالهم فـكلٌّ قد عابوا ، وكلٌّ سفهاء .

(تنبيه) ظاهر قوله تعالى « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ » الخ أنه إخبار بقولهم المذكور . ثم إن الإخبار قبل وقوعه . وفائدته توطين النفس وإعداد ما يبكتهم ، فإن مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد . والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردّ ، مع مافيه من دلائل النبوة حيث يكون إخباراً عن غيب ، فيكون معجزا « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » جواب عن شبهتهم . وتقريره أن الجهات كلها لله ملكاً . فلا يستحق شىء منها لذاته أن يكون قبلة . بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة . فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى أخرى . وما أَمَرَ به فهو الحق . « يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فيه تعظيم أهل الإسلام وإظهار عنايته تعالى بهم وتفخيم شأن الكعبة . كما فخمه بإضافته إليه فى قوله تعالى « وَطَهِّرْ بَيْتِىَ »(١) .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٦] ونصها : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى كما هديناكم إلى قبلة هى أوسط القبل وأفضلها « جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدولا ، خياراً. وقوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » تعليل للجَعْل المنوه به الذى تَمَّتْ المنة به عليهم . واعلم أن أصل الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة . إما بالبصر أو بالبصيرة . قال الرازىّ : الشهادة والمشاهدة والشهود هو الرؤية ، يقال شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته ، ولما كان بين الإبصار بالعين وبين المعرفة بالقلب مناسبة شديدة ، لاجرم قد تسمى المعرفة التى فى القلب مشاهدة وشهوداً ، والعارف بالشىء شاهدا ومشاهداً . ثم سميت الدلالة على الشىء شاهداً على الشىء لأنها هى التى بها صار الشاهد شاهدا . ولما كان المخبر عن الشىء والمبيّن لحاله جارياً مجرى الدليل على ذلك ، سمى ذلك المخبر أيضاً شاهداً . وبالجملة ، فكل من عرف حال شىء وكشف عنه كان شاهدا عليه . انتهى .

والشهيد أصله الشاهد والمشاهد للشىء والمخبر عن علم حصل بمشاهدة بصرٍ أو بصيرة . وهو ، بالمعنى الثالث ، من النعوت الجليلة . ولذلك وصف به النبيون والسادة والأئمة . كما ترى فى هذه الآية وفى آية « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »(١) وآية « وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ »(٢) « وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »(٣) ثم إن فى اللام فى قوله تعالى « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وجهين (الأول) إنها لام الصيرورة والعاقبة . أى فآل الأمر بهدايتكم وجعلكم وسطا أن كنتم شهداء على الناس. وهم أهل الأديان الأخر . أى بصراء على كفرهم بآيات الله وما غيروا وبدلوا وأشركوا وألحدوا. مما قص عليكم فى الآيات قبل ، حتى أحطتم به خبرا . فعرفتم حق دينهم من باطله، ووحيه من مخترعه . يعنى : وإذا شهدتم ذلك منهم وأبصرتم فاشكروا مولاكم على ما أولاكم ، وعافاكم مما ابتلى به سواكم، حيث وفقكم للمنهج السوىّ وهداكم للمهيع الرضىّ . وكذلك صار الرسول عليكم شهيدا بأنكم عرفتم الحق من الباطل والهدى من الضلال والنور من الظلمات ، بما بلغكم من وحيه وأراكم من آياته . فعظمت المنة لله عليكم إذ أصبحتم مهتدين بعد الضلالة ، علماء بعد الجهالة . ففيه إشارة إلى تحذير المؤمنين من أن يزيغوا بعد الهدى ، كما زاغ أولئك الذين نعى عليهم ضلالتهم ، فتقوم عليهم الحجة كما قامت على أولئك. (الوجه الثانى) أن تكون اللام للتعليل ، على أصلها . والمعنى: جعلناكم أمة خيارا لتكونوا شهداء على الناس، أى رقباء قوّاما عليهم بدعائهم إلى الحق وإرشادهم إلى الهدى وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال . كما كان الرسول شهيدا عليكم بقيامه عليكم بما بلغكم وأمركم ونهاكم وحذركم وأنذركم . فتكون الآية نظير آية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

(٢) [٢ / البقرة/ ٢٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(١) وربما آثرهذا المعنى من قال: خير مافسِّرالقرآن بالقرآن. لتماثل الآيتين بادىء بدء . فإن الوسط بمعنى الخيار. وقد صرح به فى قوله « خَيْرَ أُمَّةٍ » وإلى هذا المعنى يشيرقول مجاهد فى الآية : لتكونوا شهداء لمحمد عليه السلام على الأمم اليهود والنصارى والمجوس : أى شهداء على حقية رسالته . وذلك بالدعوة إليها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو قطب الدعوة وروحها .

وبعد كتابة هذا رأيت السمرقنديّ فى تفسيره نقل خلاصة ما قلناه . وعبارته : وللآية تأويل آخر « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً » أى عدولا « لتكونوا شهداء على الناس» الخ يقول : إنكم حجة على جميع من خالفكم . ورسول الله عليه السلام حجة عليكم . والشهادة فى اللغة هو البيان . ولهذا سمى الشاهد بينة لأنه يبيّن حق المدعى . يعنى إنكم تبينون لمن بعدكم ، والنبيّ ، عليه السلام ، يبين لكم . انتهى .

وأوضح ذلك الراغب الأصفهانيّ بأسلوب آخر فقال : إن قيل : على أى وجه شهادة النبيّ ﷺ على الأمة وشهادة الأمة على الناس ؟ قيل: الشاهد هو العالم بالشىء المخبر عنه مثبتا حكمه . وأعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة . ولما خص الله تعالى الإنسان بالعقل والتمييز بين الخير والشر ، وكمّله ببعثة الأنبياء ، وخصّ هذه الأمة بأتم كتاب ، كما وصفه بقوله «مَّافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ»(٢) وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ»(٣)

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٦/الأنعام/٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ =

فأفادناه عليه السلام وبينه لنا ـ صار حجة وشاهدا أن يقولوا «مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ »(١).
وجعل أمته ، المتخصصة بمعرفته ، شهودا على سائر النـاس . (إن قيل) هل أمته شهود كلهم أم بعضهم ؟ (قيل) كلهم ممكن من أن يكونوا شهداء . وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهدا ومقبولا . ولذلك قال تعـالى « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا »(٢) وعلى هذا قال « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ »(٣) فالقيام بالقسط مراعاة العدالة . وهى ، بالقول المجمل ، ثلاث : عدالة بين الإنسان ونفسه ـ وعدالة بينه وبين الناس ـ وعدالة بينه وبين الله عز وجل . فمن رعى ذلك فقد صار عدلًا شاهدا لله عز وجل. (إن قيل) فهل هم شهود على بعض الأمة أم على الناس كافة؟ (قيل) بل كلٌّ شاهد على نفسه وعلى أمته وعلى الناس كافة. فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده وعدله ورأفته ، علم أنه لم يغفل تعالى عنه ولا عن أحد من الناس ، ولا بخل عليهم ولا ظلمهم ، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على مَن فى زمانه وعلى

= مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(١) [٥ / المائدة / ١٩] ونصها : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٩١ / الشمس / ٩] .

(٣) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

مَن قبله ومَن بعده . وعلى هذا الوجه ماروى فى الخبر أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم. انتهى كلام الراغب . والخبر الذى أشار إليه رواه البخارىّ[(١)] عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب . فيقول : هل بلغتَ ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا. فذلك قوله جل ذكره « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » وقد روى مرفوعا عن جابر . أخرجه الطبرىّ[(٢)] . وعن ثلة من التابعين من قولهم .

وأقول: قد بينا مرارا ، أن مثل هذا الخبر وكل مايروى مرفوعا أو غير مرفوع فى تأويل هذه الآية ، فكله يفيد أن للآية عموماً يشمل ماذكر . لا أنها خاصة به لايستفاد منها غيره . كما أوضحناه فى المقدمة فى قولهم : نزلت الآية فى كذا . وعليه ، فلا تنافى بين ما يفهم من سياق الآية أو ما يتقاضاه معناها لغة ، من حيث عمومها ، أو ما يحمل عليها من نظائرها فى التنزيل الكريم ، وبين ما يروى فى تفسيرها . فمآل ما يتعدد من سبب النزول فى آية ما ، أو ما يكثر من الآثار فى وجوهها ، كله من باب تفسير العامّ ببعض ما يتناوله لفظه . ولذلك يكثر فى بعض طرق الروايات : ثم تلا النبىّ ﷺ قوله تعالى . أو ثم قرأ . أو اقرؤا إن شئتم . مما يدل على أنه ذكرت الآية حجة لما أخبر به ، لأنه مما يندرج فيها . فاحرص على ذلك .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٣ ـ باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا .

(٢) تفسير الطبرىّ ، حديث رقم (٢١٨٢) طبعة المعارف .

(تنبيهات)

(الأول) . استدل بالآية على أن الإجماع حجة . لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة . والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها . فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله ، فإجماع الأمة حق . لا تجتمع الأمة ، والحمد لله، على ضلالة . كما وصفها الله بذلك في الكتاب فقال تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »[١] وهذا وصفهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . كما وصف نبيهم صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله « الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ »[٢] وبذلك وصف المؤمنين في قوله « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »[٣] فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال، لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك، ولم تنه عن المنكر فيه . وقد جعلهم الله شهداء على الناس . وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت في الصحيح[٤] عن عبد العزيز بن صهيب قال . سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول : مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال « وجبت » .

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٣ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٩ .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] ونصها : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٦ ـ باب ثناء الناس على الميت .

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض .

وعند الحاكم أنه قرأ هذه الآية : وكذلك جعلناكم ... إلى آخرها .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء، لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشىء ، فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطإ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض . بل زكاهم الله فى شهادتهم ، كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا الحق .

هذه نبذة من كلام الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى الإجماع ، من بعض رسائله .

(الثانى) مما يتعلق أيضاً بهذا المقام ، ما قاله أيضا هذا الإمام فى رسالته إلى جماعة عدىّ ابن مسافر . ونصه : فعصم الله هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة . ولهذا كان إجماعهم حجة ، كما كان الكتاب والسنة حجة . ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة بالسنة والجماعة ، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويعرضون عن سنة رسول الله ﷺ ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين ؛ وقد روى عن النبىّ ﷺ من وجوه متعددة ، رواها عنه أهل السنن والمسانيد ، كالإمام أحمد[1] ،

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده . الجزء الثانى ص ٣٣٢ (طبعة الحلبىّ) .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة . وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

وفى الجزء الثالث ص ١٢٠ : (طبعة الحلبىّ) .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن بنى إسرائيل قد افترقت على ثنتين وسبعين فرقة . وأنتم تفترقون على مثلها . كلها فى النار إلا فرقة » .

وأبي داود[١] ، والترمذي[٢] وغيرهم ، أنه قال : ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار ، إلا واحدة ، وهي الجماعة . وفي رواية : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم ، وأصحابي . وهذه الفرقة الناجية أهل السنة . وهم وسط في النِّحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل . فالمسلمون وسط في أنبياء الله ، ورسله ، وعباده الصالحين ، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى فـ« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ،

(١) سنن أبي داود في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١ ـ باب شرح السنة ، حديث ٤٥٩٦.

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة . وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

وحديث ٤٥٩٧ :

عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون في النار . وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » .

(٢) جامع الترمذيّ في : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ماجاء في افتراق هذه الأمة

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى على مثل ذلك . وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية ، لكان في أمتي من يصنع ذلك . وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »(١) ولا جَفَوْا عنهم ، كما جفت اليهود ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس(٢)، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً، وقتلوا فريقاً(٣) .
بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ، ولم يتخذوهم أرباباً . كما قال تعالى « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »(٤).

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا في المسيح ، فلم يقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة . كما تقوله النصارى . ولا كفروا به ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، حتى جعلوه، ولد غيّة ، كما زعمت اليهود . بل قالوا : هذا عبدالله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، وروح منه . وكذلك المؤمنون وسط في شرائع دين الله ، فلم يحرّموا على الله أن ينسخ ما شاء ، ويمحو ما شاء ويثبت . كما قالته اليهود . كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا »(٥) وبقوله

(١) [٩ / التوبة / ٣١] .
(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
(٣) [٥ / المائدة / ٧٠] ونصها : لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ .
(٤) [٣ / آل عمران / ٧٩و٨٠] .
(٥) [٢ / البقرة / ١٤٢] ونصها : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ =

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ»(١) ولا جوّزوا لأكابر علمائهم وعبّادهم أن يغيروا دين الله، فيأمروا بما شاؤوا وينهَوْا عما شاؤوا . كما يفعله النصارى . كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »(٢) .

قال عدىّ بن حاتم رضي الله عنه(٣) : قلت : يارسول الله ماعبدوهم ؟ قال : ما عبدوهم ، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم . والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر(٤) ، فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأطاعوا

= قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(١) [٢ / البقرة / ٩١] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٨٩ .

(٣) جامع الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال « ياعدىّ ، اطرح عنك هذا الوثن » وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم. ولكنهم كانوا إذا أحلوا شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه » .

(٤) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد(١) . وأما المخلوق ، فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ، ولو كان عظيماً . وكذلك فى صفات الله تعالى ، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة ، فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء(٢) . وقالوا يَدُ اللهِ مَغلُولَةٌ(٣) . وقالوا : إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت(٤) . إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به . فقالوا : إنه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ، ويثيب ويعاقب . والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى . ليس له سمىٌّ ولا ندٌّ . «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٥)» و«وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ»(٦) فإنه رب العالمين، وخالق كل شىء . وكل ما سواه عباد له ، فقراء إليه .

---

(١) [٥ / المائدة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . . .

(٤) سفر التكوين ، الأصحاح الثانى ، ٢و٣

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٤] .

(٦) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

« إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »(١) ومن ذلك : أمر الحلال والحرام . فإن اليهود كما قال الله تعالى « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »(٢) فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط . ولا شحم الثرب (الثَّرْب : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء . وجمعه ثروب) والكليتين . ولا الجدى فى ابن أمه . إلى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرها . حتى قيل : إن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا . والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمراً . وكذلك شدد عليهم فى النجاسات حتى لا يؤاكلوا الحائض ، ولا يجامعوها فى البيوت . وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات ، وباشروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح «وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »(٣). ولهذا قال تعالى «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »(٤). وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به فى قوله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

---

(١) [١٩ / مريم / ٩٣ـ٩٥] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٠] ونصها : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٠] ونصها : وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ .

(٤) [٩ / التوبة / ٢٩] .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(1).

وهذا باب يطول وصفه . وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق . فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته، وسط بين أهل التعطيل ، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات . وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات . فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم . من غير تحريف ولا تعطيل . ومن غير تكييف وتمثيل . وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله ، الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء . وبين المفسدين لدين الله . الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولاقدرة ولاعمل فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب . فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ »(2) فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير . فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم . وإنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فلا يكون في ملكه مالا يريد . ولا يعجز عن إنفاذ مراده . وإنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات . ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل . وأنه مختار . ولا يسمونه مجبورا . إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره . والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله . فهو مختار مريد . والله خالقه وخالق اختياره . وهذا ليس له نظير .

(1) [٧ / الأعراف / ١٥٦و١٥٧] وأول الآية الأولى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ . . .

(2) [٦ / الأنعام/ ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

فإن الله ليس كمثله شيء لافى ذاته ولا فى صفاته ولافى أفعاله . وهم فى باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين فى النار ، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية . ويكذبون بشفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وبين المرجئة الذين يقولون : إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء . والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان . ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية . فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فسّاق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله . وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة . وأنهم لا يخلدون فى النار بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان ، أو مثقال خردلة من إيمان . وأن النبيّ ﷺ ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته . وهم أيضا فى أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون فى علىّ رضى الله عنه فيفضلونه على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما ، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا ، وكفروا الأمة بعدهم كذلك ، وربما جعلوه نبياً أو إلهاً . وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضى الله عنهما ، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما . ويستحبون سب علىّ وعثمان ونحوهما . ويقدحون فى خلافة علىّ رضى الله عنه وإمامته . وكذلك فى سائر أبواب السنة هم وسط . لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . انتهى .

« وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا » أى ما شرعنا القبلة ، كقوله تعالى « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »(١) أى ما شرعها . و« الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا » ليس بصفة للقبلة إنما هو ثانى مفعولىْ « جعل » أى وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها أى فى مكة تستقبلها قبل

(١) [٥ / المائدة / ١٠٣] ونصها : مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

الهجرة وهى الكعبة . يعنى : وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء . أو « كُنْتَ عَلَيْهَا » بمعنى صرت عليها الآن . كقوله تعالى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ »(١) . أو بمعنى كنت على تطلّبها ، أى حريصا عليه . وراغبا فيه . كما يفصح عنه قوله تعالى بعدُ « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ »(٢) الآية .

وعلى هذه الأوجه، فتكون الآية بيانا للحكمة فى جعل الكعبة قبلة . أو معنى التى « كنت عليها » : قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس . أى إنما شرعنا لك التوجه أولا إليه ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ، حيثما توجهت ، من غيره . فتكون الآية بيانا للحكمة فى جعل بيت المقدس قبلة أوّلا .

ثم اعلم أن الحكمة هو التميز بين الناس بقوله « إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ » فى كل ما يؤمر به، فيثبت عند تقلب الأحكام بما فى قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيَّانَ مَا وجهه « مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ » أى يرتد عن دينه فينافق أو يكفر ممن كان يظهر الاتّباع . وأصل المنقلب على عقبيه : الراجع مستدبرا فى الطريق الذى قد كان قطعه منصرفاً عنه . استعير لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير . قال ابن جرير : قد ارتد ، فى محنة الله أصحابَ رسوله فى القبلة ، رجالٌ ممن كان قد أسلم . وأظهر كثير من المنافقين من

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٠] ونصها : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أجل ذلك نفاقهم . وقالوا : ما بال محمد يحوّلنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟ وقال المسلمون فيمن مضى من إخوانهم المسلمين وهم يصلون نحو بيت المقدس: بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت. وقال المشركون : تحيّر محمد فى دينه . فكان ذلك فتنة للمؤمنين وتمحيصاً للمؤمنين. انتهى .

(لطيفة) العقبين تثنية عقب وهو مؤخر القدم . والانقلاب عليهما استعارة تمثيلية . وهذه الاستعارة نظير قوله تعالى «ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ»(١) وكقوله « كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ»(٢).

(تنبيه) قال الراغب رحمه الله : ما وجه قوله « إلا لنعلم » وذلك يقتضى استفادة علم . ولم يزل ، تعالى ، عالماً بما كان وبما يكون ؟ (قيل) : إن ذلك من الألفاظ التى لولا السمع لما تجاسرنا على إطلاقها عليه تعالى . ومجاز ذلك على أوجه : (الأول) أن اللام فى مثل ذلك تقتضى شيئين: حدوث الفعل فى نفسه وحدوث العلم به . ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال ، صار اللام فيه مقتضياً حدوث الفعل لا حدوث العلم . (والثانى) أن العلم يتعلق بالشىء على ما هو به . والله تعالى عَلِمَهُمْ ، قبل أن يتبعوه ، غير تابعين . وبعد أن تبعوه عَلِمَهُمْ تابعين. وهذا الجواب هو فى الحقيقة الأول . لأن التغيير داخل فى المعلوم لا فى العلم. (والثالث) معناه ليعلم غيرنا بنا . فنسب ذلك إلى نفسه . كقوله تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»(٣)

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٢٣] .

(٢) [٢٠/طه/٤٨] ونصها:إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ.
و [٧٥ / القيامة / ٣٢] ونصها : وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .
و [٩٢ / الليل / ١٦] ونصها : الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .
و [٩٦ / العلق / ١٣] ونصها : أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وفى موضع آخر « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ »[١] وقال تعالى « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ »[٢] وإنما علمه بملائكته . (والرابع) معناه لنجازى . وذلك متعارف . نحو قولك : سأعلم حسن بلائك . أى سأجزيك على حسب مقتضى علمى قبل . فعبّر عن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه . (والخامس) أن عادة الحليم إذا أفاد غيره علما أن يقول : تعالَ حتى نعلم كذا . وإنما يريد إعلام المخاطب . لكن يُحلّ نفسه محل المشارِك للمتعلم على سبيل اللطف . انتهى .

والوجه الثالث هو الذى اختاره الإمام ابن جرير قال : أما معناه عندنا : وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا ليعلم رسولى وحزبى وأوليائى : من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (قال) وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس، إلى الرئيس . ومافعل بهم، إليه . نحو قولهم : فتح عمر بن الخطاب سواد العراق وجبى خراجها ، وإنما فعل ذلك أصحابه ، عن سببٍ كان منه فى ذلك . وكالذى رُوِىَ فى نظيره عن النبىّ ﷺ أنه قال[٣] « يقول الله

---

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١١٣] ونصها : وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَىْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة: يا ابن آدم ! مرضتُ فلم تعدنى . قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمنى . قال: يارب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ =

جل ثناؤه : مرضت فلم يعدنى عبدى . واستقرضته فلم يقرضنى » فأضاف ، تعالى ذكره ، الاستقراض والعيادة إلى نفسه ، وقد كان ذلك بغيره ، إذ كان ذلك عن سببه .

قد حكى عن العرب سماعا : أجوع فى غير بطنى ، وأعرى فى غير ظهرى . بمعنى جوع أهله وعيـاله وعُرْى ظهورهم . فـكذلك قوله « إلا لنعلم » بمعنى : يعلم أوليائى وحزبى اه . « وَإِنْ كَانَتْ » أى التولية إليهـا أو الجملة أو التحويلة « لَكَبِيرَةً » أى ثقيلة شاقة ، لأن مفارقة الإلف، بعد طمأنينة النفس إليه ، أمر شاق جدا. «إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ» قلوبهم . فأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيـه . وأن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد . فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ مايشاء . وله الحـكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر، أحدث لهم شكا. كما يحصل، للذين آمنوا، إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ »(١) وقال تعالى « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا »(٢) . وقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » هذا تطمين لمن صلى إلى بيت المقدس من المسلمين ومن أهل الـكتاب قبل النسخ .

= قال : أما علمتَ أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عنـدى ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدتَ ذلك عندى » .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٤و١٢٥] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وبيان أنهم يثابون على ذلك. وقد روى البخاري[(١)] من حديث أبي إسحق المتقدم عن البراء : وكان الذى مات على القبلة ، قبل أن تحوّل قِبَل البيت ، رجال قتلوا . لم ندر ما نقول فيهم . فأنزل الله «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ»[(٢)] أى صلاتكم . وإنما عدل إلى لفظ الإيمان، الذى هو عام فى الصلاة وغيرها ، ليفيدهم أنه لم يضع شىء مما عملوه ، ثم يصح عنهم ، فيندرج المسئول عنه اندراجا أوليا، ويكون الحكم كليا . وذكر بلفظ الخطاب دون الغائب ، ليتناول الماضين والباقين ، تغليباً لحكم المخاطب على الغائب فى اللفظ ، وفى تتمة الآية إشارة إلى تعليل عدم الإضاعة ، بما اتصف به من الرأفة النافية لما هجس فى نفوسهم من الإضاعة .

ولما انطوى ضمير النبيّ ﷺ على إرادة التوجه إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ومفخرة العرب ومزارهم ومطافهم ، ولمخالفة اليهود ـ أجابه الحق إلى ذلك بقوله :

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٢ ـ سيقول السفهاء من الناس . . . ونصه :

عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا . وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت . وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر . وصلى معه قوم . فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون . قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبيّ ﷺ قِبَل مكة . فداروا كما هم قبل البيت . وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحوّل قِبَل البيت رجال قُتلوا ، لم ندر ما نقول فيهم. فأنزل الله : وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » أى تردد وجهك وتصرّف نظرك فى جهة السماء تشوفا لنزول الوحى بالتحويل .

قالوا : وفى ذلك تنبيه على حسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل . وهذا ألطف مما قيل : إن تقلب وجهه كناية عن دعائه ، ولا مانع أن يراد بتقلب وجهه صلى الله عليه وسلم بالتحويل ، ففيه إعلام بما جمله تعالى من اختصاص السماء بوجه الداعى . وهذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة ، فهى متقدمة فى المعنى . فإنها رأس القصة . « فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » أى لنمطينك أو لنوجهنك إلى قبلة تحبها وتميل إليها . ودل على أن مرضيَّه الكعبة ، بفاء السبب فى قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى نحوه وجهته . والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » أى حيثما كنتم فى بر أو بحر فولوا وجوهكم فى الصلاة تلقاء المسجد . وأما سرّ الأمر بالتولية خاصا وعاما ، فقال الراغب : أما خطابه الخاص فتشريفاً له وإيجاباً لرغبته . وأما خطابه العام بعده ، فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خص ، عليه السلام ، به . كما خص فى قوله « قُمِ اللَّيْلَ »(١) ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطر ، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أبلغ وليكون لهم فى ذلك تشريف . ولأن فى الخطاب العام

(١) [٧٣ / المزمل / ٢] ونصها : قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .

تعليق حكم آخر به . وهو أنه لا فرق بين القرب والبعد فى وجوب التوجه إلى الكعبة .

« وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الفخر : الضمير فى قوله « أنه الحق » راجع إلى مذكور سابق. وقد تقدم ذكر الرسول، كما تقدم ذكر القبلة . فجاز أن يكون المراد أن القوم يعلمون أن الرسول مع شرعه ونبوته حق . فيشتمل ذلك على أمر القبلة وغيرها . ويحتمل أن يرجع إلى هذا التكليف الخاص بالقبلة ، وأنهم يعلمون أنه الحق . وهذا الاحتمال الأخير أقرب ، لأنه أليق بالمساق . ثم ذكر من وجوه علمهم لذلك: أنهم كانوا يعلمون أن الكعبة هى البيت العتيق الذى جعله الله تعالى قبلةً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وأنهم كانوا يعلمون نبوة محمد ﷺ لما ظهر عليه من المعجزات . ومتى علموا نبوته فقد علموا لا محالة أن كل ما أتى به فهو حق . فكان هذا التحويل حقا .

قلت : وثم وجه آخر أدق مما ذكره الفخر فى علمهم حقّيّة ذلك التحويل وأنه من أعلام نبوته ﷺ . وبيانه أن أمره تعالى للنبيّ ﷺ ، ولكافة من اتبعه ، باستقبال الكعبة، من جملة الاستعلان فى فاران المذكور فى التوراة إشارةً لخاتم النبيين وبشارة به . فقد جاء فى الأصحاح الثالث والثلاثين[1] من سفر التثنية (ويقال الاستثناء) هكذا: وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجلُ الله بنى إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناءَ وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فارانَ .

وهذه البشارة تنبه على موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . لأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى فى طور سيناء والإنجيل على عيسى فى جبل سعير . لأنه عليه السلام كان يسكن أرض الخليل من سعير بقرية تدعى الناصرة . وتلألؤه من جبل فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى جبل فاران . وفاران هى مكة . لا يخالفنا فى ذلك أهل الكتاب . ففى الأصحاح[2] الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل

(١) سفر التثنية ، الأصحاح الثالث والثلاثون ، ١و٢ .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح الحادى والعشرون ، ٢٠و٢١ .

عليه السلام هكذا : وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرّية وكان ينمو رامىَ قوس. وسكن فى برِّية فَارَانَ .

ولا شك أن إسماعيل، عليه السلام، كان سكناه فى مكة وفيها مات وبها دفن .

وقال ابن الأثير : وفى الحديث ذكر جبل فاران اسم لجبال مكة بالعبرانىّ . له ذكر فى أعلام النبوة . وألفه الأولى ليست بهمزة. « وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » قرىء بالياء والتاء . فيه إنباء بتماديهم على سوء أحوالهم . ولما بين تعالى أنهم يعلمون أن هذه القبلة حق، أعلم أن صفتهم لا تتغير فى الاستمرار على المعاندة بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى من اليهود والنصارى « بِكُلِّ ءَايَةٍ » أى برهان قاطع أنّ التوجه إلى الكعبة هو الحق « مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ » أى هذه التى حوّلت إليها . لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة . إنما هو عن مكابرة وعناد . مع علمهم بما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق. وقوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » هذا حسم لأطماعهم فى العود إليها . أو للمقابلة . يعنى ماهم بتاركى باطلهم وما أنت بتارك حقك. « وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » فلا اتفاق بين فريقيهم، مع كون الكل من بنى إسرائيل. قال الزمخشرىّ : أخبر تعالى عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه . فالمحق منهم لا يزلّ عن مذهبه لتمسكه بالبرهان . والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته فى عناده . وفيه إراحة للنبىّ ﷺ من التطلع إلى هدى بعضهم .

(فوائد)

الأولى : قال الراغب : إن قيل كيف أعلم بأنهم لا يتبعون قبلته وقد آمن منهم فريق ؟ قيل : قال بعضهم : إن هذا حكم على الكل دون الأبعاض . وهذا صحيح . بدلالة أنك لو قلت : ما آمنوا ولكن آمن بعضهم ، لم يكن منافياً . وقيل : عنى به أقوام مخصوصون .

الثانية : قال الراغب : فى قوله تعالى « وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » إشارة إلى أن من عرف الله حق معرفته ، فمن المحال أن يرتد . ولذا قيل : ما رجع من رجع إلا من الطريق : أى ما أخل بالإيمان إلا من لم يصل إليه حق الوصول .

إن قيل : فقد يوجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتدّ (قيل) إن الذى يقدرّ أنه معرفة، هوظن متصور بصورة العلم . فأما أن يحصل له العلم الحقيقيّ ثم يعقبه الارتداد ـ فبعيد . ولم يعن بهذه المعرفة ما جعله الله تعالى للإنسان بالفطنة . فإن تلك كشررة تخمد إذا لم تتوقد .

الثالثة : قال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى ، فى بدائع الفوائد : قبلة أهل الكتاب ليست بوحى وتوقيف من الله . بل بمشورة واجتهاد منهم . أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم فى الإنجيل ولا فى غيره باستقبال المشرق . وهم يقرّون بأن قبلة المسيح قبلة بنى إسرائيل . وهى الصخرة . وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة . فهم مع اليهود ، متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبدا . والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر . وأما اليهود فليس فى التوراة الأمر باستقبال الصخرة ، البتة . وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلّون إليه من حيث خرجوا . فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلّوا إليه . فلما رفع صلوا إلى موضعه وهوالصخرة . وقوله « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده فى قوله «وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ » كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير . بمعنى : ولئن اتبعتهم، مثلا، بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر « إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى المرتكبين الظلم الفاحش .

وفى ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ، ويتبع الهوى . وتهييجٌ وإلهاب للثبات على الحق . أفاده الزمخشريّ .

(تنبيهات)

الأول : قال الراغب : حذر تعالى نبيه عن اتباع أهوائهم . ونبه أن اتباع الهوى بعد التحقق بالعلم يدخل متحريه فى جملة الظلمة . وقد أكثر الله تحذيره من الجنوح إلى الهوى حتى كرر ذلك فى عدة مواضع . وقول من قال : الخطاب للنبيّ ﷺ ، والمعنيّ به الأمة ، فلا معنى لتخصصه . فإن الله تعالى يحذر نبيه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره . فذو المنزلة الرفيعة إلى تحذير الإنذار عليه أحوج ، حفظاً لمنزلته وصيانة لمكانته اهـ. وهو كلام نفيس جدا .

(الثانى) فى الآية تنويه بشأن العلم . حيث سمى أمر النبوات والدلائل والمعجزات باسم العلم . فذلك ينبّه على أن العلم أعظم المخلوقات شرفا ومرتبة .

(الثالث) دلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم . لأن قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » يدل على ذلك . ذكره الرازيّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

« الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » أى يعرفون رسول الله ﷺ معرفة لامتراء فيها ، كما لا يمترون فى معرفة أولادهم من بين أولاد الناس . وهذه المعرفة مستفادة من الكتاب . كما أخبر تعالى عن نعته فيه بقوله « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[١] يعنى يعرفونه بالأوصاف المذكورة فى التوراة والإنجيل بأنه هو النبيّ الموعود بحيث لا يلتبس عليهم . كما يعرفون أبناءهم ، ولا تلتبس أشخاصهم بغيرهم . فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ، بالمعرفة الحسيّة فى أن كلا منهما يقينيّ ، لا اشتباه فيه.

وقد روى عن عمر[٢] أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته . وإنى لا أدرى ما كان من أمه . فقبّل عمر رأسه . « وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ » أى أهل الكتاب ، مع ذلك التحقق والإيقان العلميّ « لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى يخفونه ولا يعلنونه « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى الحق ، أو عقاب الكتمان ، أوأنهم يكتمون . قال الراغب : لم يقل يكتمونه . لأن فى كتمان أمره كتمان الحق جملةً . وزاد فى ذمهم بقوله « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهل ، كمن يرتكبه عن علم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » أى الحق من الله ، لا من غيره . يعنى أن الحق ماثبت أنه من الله ، كالذى أنت عليه . وما لم يثبت أنه من الله ، كالذى عليه أهل الكتاب ، فهو الباطل . أى

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) هذا النص نقله ابن كثير فى تفسيره عن القرطبيّ . ج أول ص ١٩٤ .

هذا الذى يكتمونه هو الحق من ربك . وقرأ علىّ رضى الله عنه «الحقَّ» بالنصب على الإبدال من الأول ، كما فى الكشاف . أو المفعولية لـ « يعلمون » ، كما قاله أبو البقاء . « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » الشاكّين فى كتمانهم الحق مع علمهم . أو فى الحق الذى جاءك من ربك ، وهو ما أنت عليه . ومعلوم أن الشك غير متوقع منه . ففيه تعريض للأمة . وقال الراغب : ليس هذا بنهى عن الشك لأنه لايكون بقصد من الشاكّ ، بل هو حث على اكتساب المعارف المزيلة للشك واستعمالها . وعلى ذلك قوله « إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »[1] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ » أى لكل أمة أو لكل نبىّ قبلة أو شرعة ومنهاج «هُوَ مُوَلِّيهَا» وجهَه . أى مائل إليها بوجهه ، تابع لها . لأنها حُبِّبت إليه وزُيِّنت له . وقال أبو معاذ : موليها بمعنى متوليها . أى تولاها ورضيها واتبعها « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أى ابتدروها بالمسابقة إليها . وهذا أبلغ من الأمر بالمسارعة ، لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق . والمراد بالخيرات جميع أنواعها مما ينال به سعادة الدارين « أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » قال الراغب : أى أىّ شغل تحريتم ، وحيثما تصرفتم ، وأى معبود اتخذتم ، فإنكم مجموعون ومحاسبون عليها « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليل لما قبله. أى هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(تنبيه) تشير الآية إلى أن الناس على مذاهب عديدة وأديان متنوعة . وأن على العاقل أن يستبق إلى ما كان خيرها وأرقاها . وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة أن دين الإسلام أرقى الأديان كلها لما حوَى من حاجيات الكمال البشرىّ ، ووفى بشؤون الاجتماع ، وأسباب

---

(١) [١١ / هود/ ٤٦] ونصها : قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...

العمران وذرائع الرقيّ وطرق السعادتين . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ »(١) وقوله « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٢) .

ثم إنه تعالى أكد حكم التحويل وبيّن عدم تفاوت أمر الاستقبال فى حالتى السفر والحضر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ » أى ومن أىّ بلد خرجت للسفر « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » إذا صليت «وَإِنَّهُ» أى هذا الأمر « لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » قرئ بالياء فهو وعيد للكافرين، وبالتاء فهو وعد للمؤمنين. ولما عَظُم فى شأن القبلة انتشارُ أقوال السفهاء وتنوع شغبهم وجدالهم، كان الحال مقتضياً لمزيد تأكيدٍ لأمرها، تعظيما لشأنها وتوهية لشبههم ، فقال تعالى :

---

(١) [٢٢ / الحج / ٦٧] ونصها : لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٨] ونصها : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » وقوله تعالى « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » أى لئلا يحتج عليكم أحد فى التولى إلى غيره . ولتنتفى مجادلتهم لكم . كقول اليهود مثلا : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا ! وقول غيرهم : يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته ! فإذا صليتم إليه لا تكون لهم عليكم حجة .

قال الراغب : وأشار بقوله « وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » إلى تحقيق ما قدمه . فبيّن أنه إذا كانت الحكمة تقتضى أن يكون لكل صاحب شرع قبلة يختص بها ، وأنت صاحب شرع ، فتغيير القبلة لك حق من ربك . (ثم قال) إن قيل : لِمَ كرّر قوله « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » ؟ قيل : حثّ بإحداهما على التوجه نحو القبلة بالقلب والبدن فى أى مكان حصل للإنسان ، نائياً كان عنها أو دانياً منها . وذلك مآل الاختيار والتمكن . وحثّ بالآخر على التمكن بالقلب وحده عند اشتباه القبلة . وفى النافلة فى حال اليسر على الراحلة والسفر . « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » فإنهم يظهرون فجورًا ولددًا فى ذلك ، بالعناد . وهم : إما اليهود المعبرعنهم بأهل الكتاب قبلُ ، أو المنافقون أو المشركون ، كما حكى قبل فى « السفهاء » . وكان من قول اليهود ، فيما حكاه قتادة : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . ومن قول المشركين ، فيما حكاه مجاهد : قد رجع إلى قبلتكم فيوشك

أن يرجع إلى دينكم. وتقدم قول المنافقين . وبالجملة فالكل عابوا وخاضوا « فَلَا تَخْشَوْهُمْ » تخافوا جدالهم « وَاخْشَوْنِي » فلا تخالفوا أمرى « وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ » بالتوجه إلى أكمل الجهات المتضمنة للآيات البينات والأمن « وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » للصراط المستقيم بالتوجه إليها، فتهتدون بهذه القبلة هداية كاملة.

قال الحرالىّ : وفى طيه بشرى بفتح مكة ، واستيلائه على جزيرة العرب كلها ، وتمكينه بذلك من سائر أهل الأرض ، لاستغراق الإسلام لكافة العرب الذين فتح الله بهم له مشارق الأرض ومغاربها، التى انتهى إليها ملك أمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ » وقوله تعالى « فِيكُمْ » المراد به العرب . وكذلك قوله « مِنْكُمْ » .

وفى إرساله فيهم ومنهم نعم عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف . ولأن المشهور من حال العرب الأَنفة الشديدة من الانقياد للغير . فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب « يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا » يقرأ عليكم القرآن الذى هو من أعظم النعم . لأنه معجزة باقية . ولأنه يتلى فتتأدى به العبادات ويستفاد منه جميع العلوم ، ومجامع الأخلاق الحميدة ، فتحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة « وَيُزَكِّيكُمْ » أى يطهركم من الشرك وأفعال الجاهلية وسفاسف الأخلاق « وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ » وهو القرآن . وهذا ليس بتكرار . لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم « وَالْحِكْمَةَ » وهى العلم بسائر الشريعة التى يشتمل القرآن على تفصيلها . ولذلك قال الشافعىّ رضى الله عنه : الحكمة هى

سنة الرسول . وقوله « وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » تنبيه على أنه تعالى أرسل رسوله على حين فترة من الرسل ، وجهالةٍ من الأمم ، فالخلق كانوا متحيرين ضالين فى أمر أديانهم . فبعث الله تعالى النبيّ بالحق . حتى علمهم ما احتاجوا إليه فى دينهم . فصاروا أعمق الناس علماً وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً وأصدقهم لهجة . وذلك من أعظم أنواع النعم . قال تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ »(١) الآية . وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ »(٢) قال ابن عباس يعنى ، بنعمة الله، محمدا ﷺ . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . وقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

« فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » قال ابن جرير : أى اذكرونى أيها المؤمنون بطاعتكم إياى فيما آمركم به وفيما أنهاكم عنه ، أذكركم برحمتى إياكم ومغفرتى لكم . وقد كان بعضهم يتأول ذلك أنه من الذكر بالثناء والمدح . وقال القاشانىّ : اذكرونى بالإجابة والطاعة ، أذكركم بالمزيد والتوالى . وهى بمعنى ما قبله . وقوله « واشكروا لى » قال ابن جرير : أى اشكروا لى فيما أنعمت عليكم من الإسلام والهداية للدين الذى شرعته . وقوله « وَلَا تَكْفُرُونِ » أى لا تجحدوا إحسانى إليكم فأسلبكم نعمتى التى أنعمت عليكم .

قال السمرقندىّ : أى اشكروا نعمتى: أن أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة . ولا تجحدوا هذه النعمة ، ويقال : النعمة، فى الحقيقة . هى العلم . وماسواه فهو تحول من راحة إلى راحة . وليس بنعمة . والعلم

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

لا يملّ منه صاحبه . بل يطلب منه الزيادة . فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة ، وهى نعمة بعثه رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة . كما قصه الحرالىّ . ولما كان للعرب ولع بالذكر لآبائهم ولوقائعهم ، جعل ، تعالى ذكره ، لهم عوض ما كانوا يذكرون . كما جعل كتابه عوضا من أشعارهم . وهزّ عزائمهم لذلك بما يسرهم به من ذكره لهم .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ[1] « يقول الله عز وجل : أنا مع عبدى حين يذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ هم خير منهم . وإن اقترب إلىّ شبرا اقتربت إليه ذراعا . وإن اقترب إلىّ ذراعا اقتربت إليه باعا . فإن أتانى يمشى أتيته هرولة . صحيح الإسناد أخرجه[2] البخارىّ أيضا .

وروى[3] مسلم عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة : أنهما شهدا على النبىّ ﷺ أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

والآثار فى فضل الذكر متوافرة ، ويكفى فيه هذه الآية الكريمة .

(تنبيه) قال النووىّ رحمه الله تعالى : اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة فى التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها . بل كل عامل لله تعالى بطاعة ، فهو ذاكر لله تعالى .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جزء ثان ص ٢٥١ (طبعة الحلبىّ) ورقم ٧٤١٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه ، حديث رقم ٢٥٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٣٩ (طبعتنا) .

كذا قاله سعيد بن جبير رضى الله عنه ، وغيره من العلماء . وقال عطاء رحمه الله : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام . كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق . وأشباه هذا . وقال النووىّ أيضاً : إن الأذكار المشروعة فى الصلاة وغيرها ، واجبةً كانت أومستحبة، لايحسب شىء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ، لا عارض . وقد صنف ، فى عمل اليوم والليلة ، جماعة من الأئمة كتباً نفيسة . ومن أجمعها للمتأخرين (كتاب الأذكار للنووىّ) وممن جمع زبدة ما روى فيها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى (زاد المعاد) . وقال فى طليعة ذلك : كان النبىّ ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل . بل كان كلامه كله فى ذكر الله وما والاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله . وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتسبيحه ذكرا منه له . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذكر الله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائماً وقاعدا ، وعلى جنبه ، وفى مشيه وركوبه ومسيره ، ونزوله وظعنه وإقامته . انتهى .

وأما الأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة ، سماع الكف والدف ، فلم يكن الصحابة ، والتابعون لهم بإحسان ، وسائر الأكابر من أئمة الدين ، يجعلون هذا طريقا إلى الله تبارك وتعالى . ولايعدّونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة . حتى قال الشافعىّ : خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) يصدّون به الناس عن القرآن . وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك . ويعلمون أن للشيطان فيه نصيبا وافراً . ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم . ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر . فسماع الغناء والملاهى من أعظم ما يقوى الأحوال الشيطانية . وهو

سماع المشركين . قال الله تعالى « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً »(١) قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، وغيرهما من السلف : التصدية ، التصفيق باليد . والمكاء مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة . وأما النبيّ ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية . ولم يجتمع النبيّ ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط . لا بكف ولا بدف ولا تواجد. وكان أصحاب النبيّ ﷺ ، إذا اجتمعوا ، أمروا واحداً منهم أن يقرأ . والباقون يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى الأشعرىّ : ذكرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون . ومر النبيّ ﷺ بأبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال له(٢) : مررت بك البارحة

(١) [٨ / الأنفال / ٣٥] ونصها : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٣٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ لأبى موسى « لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » .

وقال الحافظ فى الفتح عند الكلام على الحديث ٢٠٩٧ ما نصه :

كذا وقع عنده مختصرا من طريق بريد . وأخرجه مسلم من طريق طلحة بن يحيى عن أبى بردة بلفظ (وساق نصه ، كما مر) ثم قال :

وأخرجه أبو يعلى من طريق سعيد بن أبى بردة عن أبيه ، بزيادة فيه : أن النبيّ ﷺ وعائشة مرّا بأبى موسى وهو يقرأ فى بيته . فقاما يستمعان لقراءته . ثم إنهما مضيا . فلما أصبح لقى أبو موسى رسولَ الله ﷺ فقال : يا أبا موسى ! مررت بك ، فذكر الحديث . فقال : أما أنى لو علمت بمكانك لحبّرته لك تحبيرا .

وأنت تقرأ فجملت أستمع لقراءتك. فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا. أى لحسنته لك تحسينا . كما قال النبىّ ﷺ[١] : زينوا القرآن بأصواتكم . وقال ﷺ[٢] : لله أشد أذنا (أى استماعا) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به، من صاحب القينة إلى قينته. وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لى النبىّ ﷺ[٣] « اقرأ علىّ » قلت : يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « نعم » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا»[٤] قال: حسبك الآن . فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه فقال « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا »[٥] وقال تعالى فى أهل المعرفة « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبىّ ﷺ « الماهر بالقرآن مع البررة الكرام وزينوا القرآن بأصواتكم » .

وقال الحافظ فى الفتح : هذا الحديث من الأحاديث التى علقها البخارىّ ولم يصلها فى موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه فى كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبد الرحمن ابن عوسجة عن البراء بهذا . وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائىّ وابن ماجه والدارمىّ ، وابن خزيمة وابن حبان ، فى صحيحيهما من هذا الوجه .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ١٧٦ ـ باب فى حسن الصوت بالقرآن ، حديث ١٣٤٠ (طبعتنا) ، عن فضالة بن عُبَيْد .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٣٣ ـ باب قول المقرئ للقارئ : حسبك . حديث رقم ١٩٩٠

(٤) [٤ / النساء / ٤١] .

(٥) [١٩ / مريم / ٥٨] .

تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »[(١)] ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ »[(٢)] وقال تعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا »[(٣)] بخلاف هذا السماع، من الباطل الذى نهى عنه . ولذلك لم يفعله القرون الثلاثة التى أثنى عليها النبى ﷺ ، ولا فعله أكابر المشايخ. فليُفِقْ من كان من الفريق الأدنى فى سلوك فقره . وليصحب من هو من الرفيق الأعلى إلى حلول قبره ، وليُدَاوِ جراحات اجتراح بدعته ، باتباع هدى النبى ﷺ ولزوم سنته . واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته ، فيتولد منه الهيبة والإجلال . وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن . وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العِبَر . فحق المؤمن أن لا ينفك أبدا عن ذكره تعالى على أحد هذه الأوجه . وقوله تعالى «وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» فيه أمر بشكره على نعمه وعدم جحدها (فالكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب) . وقد وعد تعالى على شكره بمزيد الخير فقال « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »[(٤)] قال ابن عطية : اشكروا لى واشكرونى بمعنى واحد . و« لى » أفصح وأشهر مع الشكر .

---

(١) [٥ / المائدة / ٨٣] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .
(٣) [٨ / الأنفال / ٢] .
(٤) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة . لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها . أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث[١] : عجبا للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له . وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على تحمل المصائب فى سبيل الله ، الصبر والصلاة . كما تقدم فى قوله « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »[٢] وفى الحديث[٣] : أن رسول الله ﷺ كان إذا حَزَبَهُ أمر صلّى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثانى أكثر ثوابا . لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضا واجب . كالاستغفار من المعائب .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) ما نصه : عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده جزء خامس ص ٢٤ (طبعة الحلبىّ) مانصه : عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيرا له » .

(٢) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بالجزء الخامس بالصفحة ٣٨٨ (طبعة الحلبى) عن حذيفة .

وقال الإمام ابن تيمية فى كتابه (السياسة الشرعية) وأعظم عون لولىّ الأمر خاصةً ، ولغيره عامةً ثلاثة أمور : أحدها الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن . والثانى الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذى هو الزكاة . والثالث الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب . ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ »(١) وكقوله تعالى «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »(٢) وقوله « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا »(٣) وأما قرانه بين الصلاة والزكاة فى القرآن فكثير جدا . فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية . إذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة ، يدخل فى الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع: من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر. انتهى .

« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » قال الإمام ابن تيمية (فى شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى كتاب الله جاء عامّا كما فى قوله تعالى « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »(٤) وفى قوله

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

(٢) [١١ / هود / ١١٤و١١٥] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] ونصها : فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

(٤) [٥٧/الحديد/٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ =

« مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »(١) إلى قوله « وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا » وجاء خاصا كما فى قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »(٢) وقوله « إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ »(٣) وقوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »(٤) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء لـكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد علم أن قوله « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أراد به تخصيص نفسه وأبا بكر دون عدوّهم من الـكفار ، وكذلك قوله « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ليست فى لغة العرب ولا فى شىء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى

= ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الذاتين بالأخرى . كما فى قوله « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ »(١) وقوله « فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ »(٢) وقوله « اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »(٣) وقوله « وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ »(٤) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله «وَهُوَ مَعَكُمْ» يدل على أن تكون ذاته مختلطة بذوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه فى موضع آخر وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو ، إذا كان مع العباد، لم يناف ذلك علوّه على عرشه . ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان . ويخص بعضهم بالإعانة والنصرة والتأييد . انتهى مختصرا .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٦] ونصها : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً .

(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .

(٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » ينهى تعالى عباده المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتا . بمعنى الذين تلفت نفوسهم وعدموا الحياة . وتصرمت عنهم اللذات . وأضحوا كالجمادات . كما يتبادر من معنى الميت . ويأمرهم سبحانه بأن يقولوا لهم: الأحياء . لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. كما قال تعالى فى آل عمران « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ »(١) فقوله فى هذه الآية « عِنْدَ رَبِّهِمْ » يفسر المراد من حياتهم . أى إنها لأرواحهم عنده تعالى. وقوله « وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » أى بحياتهم الروحية بعد موتهم . إذ لم يظهر منها شىء فى أبدانهم، وإن حفظ بعضها عن التلف . كما ترون النيام همودا لا يتحركون . فلا نخر أعظم من ذلك فى الدنيا، ولا عيش أرغد منه فى الآخرة .

قال الحرالى : فكأنه تعالى ينفى عن المجاهد منال المكروه من كل وجه . حتى فى أن يقال عنه: ميت. فحماه من القول الذى هو عندهم من أشد غرض أنفسهم، لاعتلاق أنفسهم بجميل الذكر. انتهى. ولذا قال الأصم: يعنى لاتسموهم بالموتى، وقولوا لهم الشهداء الأحياء. وقال الراغب الأصفهانى : الحياة على أوجه . وكل واحد منها يقابله موت (الأولى) هى القوة النامية التى

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩ـ١٧١] .

بها الغذاء ، والشهوة إليه . وذلك موجود فى النبات والحيوان والإنسان . ولذلك يقال : نبات حىّ . (والثانية) فى القوة الحاسة التى بها الحركة المكانية . وهى فى الحيوان دون النبات (والثالثة) القوة العاملة العاقلة . وهى فى الإنسان دون الحيوان والنبات . وبها يتعلق التكليف . وقد يقال للعلم المستفاد والعمل الصالح : حياة . وعلى ذلك قوله تعالى « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »[١] وقيل: المحسن حىّ وإن كان فى دار الأموات . والمسىء ميت وإن كان فى دار الأحياء (قال) ونعود إلى معنى الآية فنقول : قد أجمعوا على أنه لا يثبت لهم الحياة التى بها النموّ والغذاء ، ولا الحياة التى بها الحس. فإن فقدانهما عن الميت محسوس ومعقول . فبعض المفسرين اعتبر الحياة المختصة بالإنسان . وقال : إن هذه الحياة مخصصة بالقوة المسماة تارة الروح وتارة النفس . قال : والموت المشاهد هو مفارقة هذه القوة ، التى هى الروح ، البدنَ . فمتى كان الإنسان محسنا كان منعّما بروحه مسروراً لمكانه إلى يوم القيامة . وإن كان مسيئاً كان به معذبا . وإلى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين والأدلة . وهو مذهب أصحاب الحديث . ويدل على صحته الأخبار والآيات المروية عن النبىّ ﷺ . بل إليه ذهب أصحاب الملل كلها . ومما دل على صحته خبر[٢] « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وما روى عن أمير المؤمنين رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال[٣] « إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبىّ ﷺ يقول . . . حديث ١٥٧٦

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث .

بألفى عام » وروى(١) أنه لماقتل من قتل من صناديد قريش ـ يوم بدر ـ وجمعوا فى قَلِيبٍ ، أقبل النبىّ ﷺ فخاطبهم بقوله : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » قيل : يا رسول الله ! أتخاطب جيفاً ؟ فقال « ما أنتم بأسمع منهم ، ولو قدروا لأجابوا » إلى غير ذلك من الأخبار . وقال تعالى فى آل فرعون « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » وهذا يعنى به قبل يوم القيامة ، لأنه قال فى آخر الآية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(٢) انتهى .

وفى البيضاوىّ وحواشيه : «إن إثبات الحياة للشهداء فى زمان بطلان الجسد ، وفساد البنية ؛ ونفىَ الشعور بها ـ دليل على أنّ حياتهم ليست الجسد ، ولا من جنس حياة الحيوان، لأنها بصحة البنية ، واعتدال المزاج. وإنما هى أمر يُدرك بالوحى لا بالعقل » انتهى .

وقد جاء الوحى ببيان حيـاتهم ـ كما أسلفنا ـ قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعـالى فى كتاب (الروح) : وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ، ورزقها دارٌّ ، وإلّا فالأبدان قد تمزّقت . وقد فسّر رسول الله ﷺ هذه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٧٧ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا . ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال « يا أبا جهل بن هشام ! يا أمية بن خلف ! يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبة بن ربيعة ! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » .

فسمع عمر قول النبىّ ﷺ فقال: يارسول الله ! كيف يسمعوا وأنّى يجيبوا وقد جيّفوا؟ قال « والذى نفسى بيده ! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولـكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » .

ثم أمر بهم فسحبوا . فألقوا فى قليب بدر .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] .

الحياة : بأنّ أرواحهم(١) فى جوف طير خضر لها قناديل معلّقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربّهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أىّ شىء نشتهى ؟ ونحن نسرح من الجنـة حيث شئنا ..! ففعـل بهم ذلك ثلاث مرات. فلما رأوا أنهم لن يُتركوا مِن أنْ يُسألوا ـ قالوا: ياربِّ! نريد أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرةً أخرى ..! فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا. وصحّ عنه ﷺ(٢) « إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلُق من ثمر الجنـة » (وتعلق بضم اللام ـ أى : تأكل العلقة) وهذا صريح فى أكلها ، وشربها ، وحركتها ، وانتقالها ، وكلامها ..! انتهى .

قال الطيبىّ : قوله ﷺ «أرواحهم فى جوف طير خضر » أى : يخلق لأرواحهم، بعد مافارقت أبدانهم، هيا كل على تلك الهيئة ، تتعلق بها وتكون خلفاً عن أبدانهم ، فيتوسلون بها إلى نيل مايشتهون من اللذات الحسـية . وقال ابن القيم فى كتاب (الروح) : « إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وجعل لـكل دار أحكاماً تختص بها. وركب هذا الإنسان من بدن ونفس. وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبـة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدانُ

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .
عن مسروق قال : سألنا عبد الله (هو ابن مسعود) عن هـذه الآية : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . قال : أما إنّا قد سألنا عن ذلك . فقال . . . الخ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى جامعه فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١٣ ـ باب ماجاء فى ثواب الشهداء . عن ابن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال . . . الخ

تبع لها . فكما تبعتِ الأرواح الأبدانَ فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذّت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب ـ تبعت الأبدانُ الأرواح فى نعيمها وعذابها. والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة ، والأرواح خفية . والأبدان كالقبور لها . والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها . فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح . فترى إلى أبدانها نعيمًا وعذاباً . كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان فترى إلى أرواحها نعيمًا وعذاباً . فَأَحِطْ بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغى ، يَزُلْ عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج. وقد أرانا الله سبحانه، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك، أنموذجاً فى الدنيا من حال النائم . فإن ماينعم به ، أو يعذب فى نومه ، يجرى على روحه أصلًا، والبدن تبع له . وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرًا مشاهدًا ، فيرى النائم أنه فى نومه ضُرِبَ ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه . ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه . ويذهب عنه الجوع والظمأ . وأعجب من ذلك أنك ترى النائم، ثم يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع ، كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك . لأن الحكم ، لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه . ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحسّ . فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهى متعلقة ببدنها ، لم تنقطع عنه كل الانقطاع . فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً . ومتى أعطيتَ هذا الموضع حقه تبيّن لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته ، وضمه ، وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ـ مطابق للعقل . وأنه حق لا مرية فيه . وأن من أشكل عليه ذلك ، فمن سوء فهمه ، وقلة علمه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[١٥٦] (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وقوله تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ » خطاب لمن آمن مع النبيّ ﷺ ، خصّوا به ، وإن شمل من ماثلهم ، لأنهم المباشرون للدعوة والجهاد ، ومكافحة الفجّار . وكل قائم بحق ، وداع إليه ، معرّض للابتلاء بما ذكر ، كله أو بعضه . والتنوين للتقليل . أى : بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطَرَف منه . وإنما قلّل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان ، وإن جل ، ففوقه ما يقل إليه . وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزايلهم . وإنما أخبر به قبل الوقوع ، ليوطّنوا عليه نفوسهم ، ويزداد يقينهم ، عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به . وليعلموا أنه شيء يسير ، له عاقبة حميدة « مِنَ الْخَوْفِ » أى خوف العدو والإرجاف به « وَالْجُوعِ » أى الفقر ، للشغل بالجهاد ، أو فقد الزاد ، إذا كنتم فى سرية تجاهدون فى سبيل الله . وقد كان يتفق لهم ذلك أياماً يتبلغون فيها بتمرة « وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ » أى لانقطاعهم بالجهاد عن عمارة بساتينهم ، أو لافتقاد بعضها بسبب الهجرة ، وترك شيء منه فى البلدة المهاجَر منها « وَالْأَنْفُسِ » بقتلها شهيدة فى سبيل الله ، أو ذهاب أطرافها فيه «وَالثَّمَرَاتِ» أى بأن لا تغلّ الحدائق كعادتها، للغيبة عنها فى سبيل الله ، وفقد من يتعاهدها، وخصت بالذكر لأنها أعظم أموال الأنصار الذين هم أخص الناس بهذا الذكر، لاسيما فى وقت نزول هذه الآيات. وهو أول زمان الهجرة . فكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده كما قال

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ»(١) . قال الراغب : هذه الآية مشتملة على محن الدنيا كلها : أى إذا نظر إلى عموم كل فرد مما ذكر فيها ، وقطع النظر عن خصوص حال المخاطبين فيها ، بما يدل عليه سابقه .

ثم بيّن تعالى ما للصابرين عنده بقوله « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ » مكروه ، اسم فاعل من أصابته شدة : لحقته . أى كهذه البلايا « قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ » أى ملكا وخلقا ، فلا ينبغى أن نخاف غيره ، لأنه غالب على الكل . أو نبالى بالجوع ، لأن رزق العبد على سيده ، فإن منع وقتاً ، فلابد أن يعود إليه . وأموالنا وأنفسنا وثمراتنا ملك له ، فله أن يتصرف فيها بما يشاء « وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فى الدار الآخرة . فيحصل لنا عنده ما فوّته علينا . لأنه لا يضيع أجر المحسنين . فالمصاب يهون عليه خطبه ، إذا تسلّى بقوله هذا ، وتصور ما خلق له ، وأنه راجع إلى ربه ، وتذكر نعم الله عليه ، ورأى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه . قال الراغب : وليس يريد بالقول اللفظ فقط ، فإن التلفظ بذلك مع الجزع القبيح وتسخط القضاء ، ليس يغنى شيا . وإنما يريد تصور ما خلق الإنسان لأجله والقصد له ، والاستهانة بما يعرض فى طريق الوصول إليه . فأمر تعالى ببشارة من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه .

(ثم قال) إن قيل : ولِمَ قلتَ : إن الأمر بالصبر يقتضى العلم ؟ قيل : الصبر فى الحقيقة إنما يكون لمن عرف فضيلة مطلوبه .

---

(١) [٤٧ / محمد / ٣١] ونصها : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت « عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ » قال الراغب : الصلاة ، وإن كانت فى الأصل الدعاء ، فهى من الله البركة على وجهٍ ، والمغفرة على وجهٍ . وقال الرازىّ : الصلاة من الله هى الثناء والمدح والتعظيم . قال الراغب : وإنما قال « صلوات » على الجمع ، تنبيها على كثرتها منه وأنها حاصلة فى الدنيا توفيقا وإرشاداً ، وفى الآخرة ثوابا ومغفرة « وَرَحْمَةٌ » عظيمة فى الدنيا عوض مصيبتهم « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » أى إلى الوفاء بحق الربوبية والعبودية ، فلابد أن يوفى الله عليهم صلواته ورحمته .

(تنبيه) ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند المصائب ، وفى أجر الصابرين ، أحاديث كثيرة . منها ما فى صحيح مسلم(١) عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أْجُرْنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيرا منها ، إلا أَجَرَهُ الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها .

قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خيرٌ من أبى سلمة : صاحب رسول الله ؟ ثم عزم الله لى فقلتها . قالت : فتزوجت رسول الله ﷺ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن الحسين بن علىّ عليهما السلام عن النبىّ ﷺ قال : ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها ، وإن طال عهدها ، فيحدث لذلك استرجاعا ، إلا جدد الله له عند ذلك ، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٤و٥ (طبعتنا) .

(٢) مسند الإمام أحمد جزء أول صفحة ٢٠١ (طبعة الحلبىّ) حديث رقم ١٧٣٤ (طبعة المعارف) .

وروى الإمام أحمد[١] بسنده عن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي . وإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة (يعني الخولانيّ) فأخرجني وقال : ألا أبشرك ؟ قال قلت : بلى . قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى الأشعريّ قال : قال رسول ﷺ : قال الله تعالى: يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدي ، قبضتَ قرة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع . قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد .

ورواه الترمذيّ وقال : حسن غريب .

وروى البخـاريّ[٢] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: من يرد الله به خيرا يصب منه .

وروى الشيخان[٣] عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفرالله بها من خطاياه .

ورويا أيضا[٤] عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : مامن مسلم يصيبه أذى من مرض

---

(١) المسند جزء رابع صفحة ٤١٥ والترمذيّ في : ٨ ـ كتاب الجنائز ، ٣٦ ـ باب حدثنا سويد بن مضر .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١ ـ باب ماجاء في كفارة المرض.

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١ ـ باب ماجاء في كفارة المرض .

ومسلم في : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول (ثم الأمثل فالأمثل) ونصه : حديث ٢٢٤١

عن عبـد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك . فقلت : يا رسول الله ! إنك توعك وعكا شديدا . قال « أجل . إني أوعك كما يوعك رجلان =

فما سواه إلا حطّ الله به عنه من سيئاته . كما تحط الشجرة ورقها .

والأحاديث فى ذلك متوافرة معروفة فى كتب السنة .

وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام، رحمه الله تعالى، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا. قال عليه الرحمة: للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس.

أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثانى : معرفة ذلة العبودية وكسرها . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[1] اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع فى رفع الشدائد إلا إليه . ولا معتمد فى كشفها إلا عليه « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ »[2] « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »[3] .

= منكم » قلت : ذلك أن لك أجرين . قال « أجل . ذلك كذلك . ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٤٥ (طبعتنا) .

(١) [٢ / البقرة / ١٥٦] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٠ / يونس / ١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] ونصها : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

الرابعة : الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ »[1] .

الخامسة: التضرع والدعاء «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا»[2]. «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ»[3]. « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ، وَتَنْسَوْنَ مَاتُشْرِكُونَ »[4]. «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[5] » .

السادسة : الحلم ممن صدرت عنه المصيبة « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[6] « إِنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٨] ونصها : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٢] ونصها: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٦٧] ونصها: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا .

(٤) [٦ / الأنعام / ٤١] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٦٣] .

(٦) [٩ / التوبة / ١١٤] ونصها : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ »[١]. إن فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة[٢] . وتختلف مراتب الحلم باختلاف المصائب فى صغرها وكبرها، فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حلم.

السابعة : العفو عن جانيها «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ»[٣]. «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »[٤] والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو .

الثامنة: الصبر عليها. وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»[٥] «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٦]» وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر[٧] .

---

(١) [١٥ / الحجر / ٥٣] ونصها : قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٥و٢٦ (طبعتنا) من حديث طويل لما قدم أناس من عبد القيس على رسول الله ﷺ ، قاله للأشج ، أشج عبد القيس .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٣٤] ونصها : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

(٦) [٣٩ / الزمر / ١٠] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٧) أخرجه البخاريّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٠ ـ باب الاستعفاف عن المسألة =

التاسعة : الفرح بها لأجل فوائدها . قال عليه الصلاة السلام[1] : والذى نفسى بيده ! إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : حبذا المكروهان الموت والفقر . وإنما فرحوا بها إذ لا وقع لشدتها ومرارتها بالنسبة إلى ثمرتها وفائدتها ، كما يفرح من عظمت أدواؤه بشرب الأدوية الحاسمة لها ، مع تجرعه لمرارتها .

العاشرة : الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها . كما يشكر المريض الطبيب القاطع لأطرافه ، المانع من شهواته ، لما يتوقع فى ذلك من البرء والشفاء .

الحادية عشرة : تمحيصها للذنوب والخطايا « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[2] ولا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الهم يهمه

= ونصه : عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده . فقال : ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم . ومن يستعفف يعفه الله . ومن يستغن يغنه الله . ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر . حديث رقم ٧٨١

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢٣ ـ باب الصبر على البلاء ، حديث ٤٠٢٤ (طبعتنا) ونصه : عن أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك . فوضعت يدى عليه . فوجدت حره بين يدى ، فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ! ما أشدها عليك ! قال : إنا كذلك . يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر . قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : يا رسول الله ! ثم من ؟ قال : ثم الصالحون . إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر ، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها . وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء .

فى الزوائد إسناده صحيح . رجاله ثقات .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

والشوكة يشاكها إلّا كفر به من سيئاته(١) .

الثانية عشرة : رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم . فالناس معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله تعالى على العافية(١) . وإنما يرحم المشاق من عشق .

الثالثة عشرة : معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها . فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

الرابعة عشرة : ما أعده الله تعالى على هـذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

الخامسة عشرة : ما في طيّها من الفوائد الخفية « فَعَسَىٰٓ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »(٣) . «وَعَسَىٰٓ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(٤) .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .
(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٥٦ ـ كتاب الكلام، حديث رقم ٨ (طبعتنا).
إنه بلغه أن عيسى ابن مريم كان يقول: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم. فإن القلب القاسي بعيـد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب . وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد . فإنما الناس مبتلًى ومعافًى . فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

(٣) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰٓ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰٓ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(١) .

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم(٢) كان فى طىّ تلك البلية أن أخدمها هاجر ، فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فكان من ذرية إسماعيل خاتمُ النبيين . فأعْظِمْ بذلك من خير كان فى طىّ تلك البلية ، وقد قيل :

كم نعمة مطوية لك بين أثناء المصائب

(١) [٢٤ / النور / ١١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا . حديث ١١١٣

ونصه : عن أبى هريرة قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كَذَبات . ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل . قوله : إنى سقيم . وقوله : بل فعله كبيرهم هذا .

وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة . فقيل له : إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها فقال : مَن هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة قال: ياسارة ! ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك . وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذّبينى .

فأرسل إليها. فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأُخذ ، فقال: ادعى الله ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق . ثم تناولها الثانية . فأُخذ مثلها أو أشدّ . فقال: ادعى الله لى ولا أضرك. فدعت فأُطلق .

فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتونى بإنسان، إنما أتيتمونى بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلى. فأومأ بيده: مهيا. قالت: رد الله كيد الكافر (أو الفاجر) وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى ماء السماء !

وقال آخر :

رب مبغوض كريه فيه لله لطائف

السادسة عشرة : إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر ، فإن نمرود ، لو كان فقيرا سقيما ، فاقد السمع والبصر ، لما حاجّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك . وقد علل الله سبحانه وتعالى محاجته بإتيانه الملك ، ولو ابتلي فرعون بمثل ذلك لما قال «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ»[١]. «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ»[٢] «إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ»[٣]. «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»[٤] «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ»[٥]. «لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»[٦]. «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٤] .

(٢) [٩ / التوبة / ٧٤] ونصها : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ، فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

(٣) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

(٤) [٤٢/ الشورى/ ٢٧] ونصها: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(٥) [١١ / هود / ١١٦] ونصها : فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

(٦) [٧٢/الجن/١٦] ونصها : وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا.

مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ»[١].

والفقراء والضعفاء هم الأوليا وأتباع الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء[٢] الأنبياء. ثم الأمثل فالأمثل. نسبوا إلى الجنون[٣] والسحر[٤] والكهانة[٥] واستهزىء بهم[٦] وسخر منهم[٧] «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا»[٨]. وقيل لنا «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ»[٩].

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٤] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

(٣) [١٥ / الحجر / ٦] ونصها : وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٤) [٥١ / الذاريات / ٥٢] ونصها : كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

(٥) [٥٢ / الطور / ٢٩] ونصها : فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ .

(٦) [١٥ / الحجر / ١١] ونصها : وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

(٧) [٦ / الأنعام / ١٠] ونصها : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

(٨) [٦ / الانعام / ٣٤] ونصها : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ .

(٩) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[١] « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا »[٢]. كَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وتغربوا عن أوطانهم وكثر عنَاهم . واشتدّ بلاهم وتكاثر أعداهم . فغلبوا فى بعض المواطن ، وقتل منهم بأُحُد[٣] و بئر مَعُونَةَ[٤] من قتل . وشُجَّ[٣] وجه رسول الله ﷺ . وكسرت[٣] رباعيته . وهشمت[٣] البيضة على رأسه . وقُتِل أعزاؤه ومُثِّل بهم . فشمتت أعداؤه واغتم أولياؤه . وابتلوا يوم الخندق[٥] . وزلزلوا زلزالا شديدا. وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . وكانوا فى خوف دائم وعرى لازم . وفقر مدقع . حتى شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع . ولم يشبع سيد الأولين والآخرين من خبز بُرّ فى يوم مرتين . وأوذى بأنواع الأذية حتى قذفوا أحب[٦] أهله إليه . ثم ابتلى فى آخر الأمر

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

(٣) اقرأ عن غزوة أُحُد وما تم فيها، فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٧ ـ باب غزوة أحد ، إلى ٢٦ ـ باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٤) اقرأ عن بئر معونة فى صحيح البخارىّ فى: ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٢٨ ـ باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة ... الخ

(٥) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق، وهى الأحزاب .

(٦) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك .

بمسيلمة[١] وطُلَيْحة[٢] والعَنْسى[٣] . ولقى هو وأصحابه فى جيش العسرة[٤] ما لقوه. ومات ودرعه[٥] عنـد يهودىّ على آصع من شعير . ولم تزل الأنبياء والصالحون يتمهدون بالبلاء الوقت بالوقت (يبتلى الرجل[٦] على قدر دينه فإن كان صلبا فى دينه شدد فى بلائه . ولقد كان أحدهم يوضع[٧] المنشار على مفرقه فلا يصده ذلك عن دينه) . وقال عليـه الصلاة والسلام:

(١) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغـازى ، ٧٠ ـ باب وفد بنى حنيفة وحديث ثمامة بن أثال ، وفيه قدوم مسيلمة الكذاب و ٧١ ـ باب قصة الأسود العنسىّ .

(٢) انظر : الإصابة رقم ٤٢٨٣

(٣) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧١ ـ باب قصـة الأسود العنسىّ .

(٤) اقرأ فى صحيح البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٨ ـ باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة .

(٥) صحيح البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٩ ـ باب ما قيل فى درع النبىّ ﷺ :
عن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عنـد يهودىّ بثلاثين صاعا من شعير .

(٦) الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٧ ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء .
عن مصعب بن سعد عن أبيـه قال : قلت يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه . وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض، ما عليه من خطيئه .

(٧) اقرأ فى صحيح مسلم قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام .
فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .

(مثل المؤمن[١] مثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء) . وقال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمن[٢] كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرعها مرة وتعدلها مرة حتى تهيج) فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عز وجل . وحال العافية والنعماء صارفة للعبد عن الله تعالى « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ »[٣] فلأجل ذلك تقللوا فى المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك . ليكونوا على حالةٍ توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى عز وجل والإقبال عليه .

السابعة عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى . فإن المصائب تنزل بالبرِّ والفاجر . فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا . والرضا أفضل من الجنة وما فيها . لقوله تعالى « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ »[٤] أى من جنات عدن ومساكنها الطيبة .

---

(١) جامع الترمذىّ فى: ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٧٩ ـ باب ماجاء فى مثل المؤمن القارئ للقرآن، وغير القارئ :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيئه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء . ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣١ ـ باب فى المشيئة والإرادة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : مثل المؤمن كمثل خامة الزرع ، يفىء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها . فإذا سكنت اعتدلت . وكذلك المؤمن يُكفَّأ بالبلاء . ومثل الكافر كمثل الأرزة . صمَّاءُ معتدلةٌ ، حتى يقصمها الله، إذا شاء .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] .

(٤) [٩/ التوبة/ ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى =

فهذه نبذة مما حضرنا من فوائد البلوى ، ونحن نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فلسنا من رجال البلوى .

وفقنا الله تعالى لما يحب ويرضى وعافانا من المحن والرزايا بمنّه وكرمه . آمين .

تمّ الجزء الثاني من محاسن التأويل . ويليه المجلّد الثالث وأوّله في الكلام على آية « إن الصفا والمروة » .

وافق الفراغ من تحريره في العشر الأول من شوال سنة ١٣١٧ في دارنا ، على يد جامعه جمال الدين القاسميّ غفر الله له .

* * *

بحمده تعالى أعدت النظر على هذا الجزء . وضممت إليه ماجدّ العثور عليه من الفوائد ، في أوقات متفرّقة ، كان آخرها في ٣ ربيع الأول سنة (١٣٢٩) وكتبه جامعه الفقير جمال الدين القاسميّ عفي عنه .

= مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثالث

ويبتدئ بتفسير الآية ١٥٨ من سورة البقرة
وينتهي بتفسير آخر آية منها

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

قولهتعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » (الصفا والمروة) : علمان لجبلين بمكة . ومعنى كونهما من شعائر الله : من أعلام مناسكه ومتعبّداته .

قال الرازىّ : كل شىء جعل علماً من أعلام طاعة الله ، فهو من شعائر الله . قال الله تعالى « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ »(١) أى : علامة للقربة .. وقال « ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ »(٢) ، وشعائر الحج معالم نسكه . ومنه المشعر الحرام . ومنه إشعار السنام ـ وهو أن يعلم بالمدية ـ فيكون ذلك علماً على إحرام صاحبها ، وعلى أنه قد جعله هدياً لبيت الله. و (الشعائر) جمع شعيرة وهى العلامة ، مأخوذ من الإشعار الذى هو الإعلام ، ومنه قولك : شعرت بكذا أى علمت انتهى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٣٦] ونصها : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٣٢] ونصها : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

و (الحجّ) فى اللغة : القصد . و (الاعتمار) : الزيارة . غُلِباَ فى الشريعة على قصد البيت وزيارته ، على الوجهين المعروفين فى النسك . و (الجُناح) بالضم : الإثم والتضييق والمؤاخذة. وأصل (الطواف) : المشى حول الشيء . والمراد : السعى بينهما .

وقد روى فى سبب نزول الآية عدّة روايات :

ولفظ البخاريّ عن عروة قال(١) : سألت عائشة رضى الله عنها فقلت لها: أرأيتِ قول الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » فوالله ! ما على أحـدٍ جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ! قالت : بئسما قلت يا ابن أختى ! إنّ هذه لو كانت كما أوّلتَها عليه ، كانت : لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولـكنها أنزلت فى الأنصار . كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية ، التى كانوا يعبدونها عند المشلَّل . فـكان مَن أهلّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة . فلمّا أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن ذلك ؟ قالوا : يا رسول الله ! إنّا كنّا نتحرّج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ . . . » الآية .

قالت عائشة رضى الله عنها : وقد سنّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم الطواف بينهما . فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما .

ثم أخبرتُ أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إنّ هذا لَعِلْمٌ ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالًا من أهل العلم يذكرون أنّ الناس ـ إلّا من ذكرتْ عائشة ممن كان يهلّ بمناة ـ كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن، قالوا : يا رسول الله ! كنا نطوف بالصفا والمروة . وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا . فهل علينا من حرج أن نطوّف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ . . . » الآية .

---

(١) أخرجه البخاريّ بنصه فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٧٩ ـ باب حدثنا أبو اليمان .

قال أبو بكر : فأسمعُ هذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما : فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثمّ تحرّجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام . من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا ، حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت .

وفى رواية معمر عن الزهرىّ : إنا كنا لانطوف بين الصفا والمروة تعظيما لمناة ، أخرجه البخارىّ تعليقاً ، ووصله أحمد وغيره .

وأخرج مسلم[1] فى رواية يونس عن الزهرىّ عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا ، هم وغَسَّانُ ، يهلّون لمناة . فتحرّجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، وكان ذلك سنّةً فى آبائهم : من أحرم لمناةَ لم يطف بين الصفا والمروة . وإنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حين أسلموا . فأنزل الله عز وجل فى ذلك : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

وروى الفاكهىّ عن الزهرىّ : أن عمرو بن لحىّ نصب مناة على ساحل البحر مما يلى قُدَيْد . فكانت الأزد وغسان يحجونها ويعظمونها ، إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى أتوا مناة فأهلّوا لها . فمن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة . قال : وكانت مناة للأوس والخزرج والأزد من غسان ومن دان دينهم من أهل يثرب .

وروى النسائىّ بإسناد قوىّ عن زيد بن حارثة[2] قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما « إساف ونائلة » كان المشركون إذا طافوا تمسّحوا بهما . . . الحديث .

وروى الطبرانىّ وابن أبى حاتم فى التفسير بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال :

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٦٣ (طبعتنا) .

(٢) زيد بن حارثة ، قال عنه فى ذخائر المواريث : ليس له إلا حديث واحد . أخرجه ابن ماجة فى الطهارة .

قالت الأنصار : إن السعى بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية. فأنزل الله عزّ وجلّ « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ . . . » الآية .

وروى الفاكهىّ وإسماعيل القاضى فى « الأحكام » بإسناد صحيح عن الشعبىّ قال : كان صنم بالصفا يدعى « إساف » ، ووثن بالمروة يدعى « نائلة » ، فكان أهل الجاهلية يسعون بينهما . فلما جاء الإسلام رمى بهما ؛ وقالوا : إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم ، فأمسكوا عن السعى بينهما ، قال: فأنزل الله تعالى « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ... » الآية.

وقد استفيد من مجموع هذه الروايات أنه تحرّجَ طوائف من السعى بين الصفا والمروة لأسباب متعددة فنزلت فى الكلّ . والله أعلم .

وجواب عائشة، رضى الله عنها، لعروة هو من دقيق علمها وفهمها الثاقب وكبير معرفتها بدقائق الألفاظ . لأنّ الآية الكريمة إنما دلّ لفظها على رفع الجناح عمّن يطوف بهما ، وليس فيه دلالة على عدم وجوب السعى ولا على وجوبه . « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » أى : من فعل خيراً فإنّ الله يشكره عليه ويثيبه به . ومعنى (تطوّع) أتى بما فى طوعه أو بالطاعة ، وإطلاقه على ما لا يجب عرفٌ فقهىّ لا لغوىّ . و (الشكر) من الله تعالى المجازاة والثناء الجميل .

قال الراغب : الشكر ، كما يكون بالقول ، يكون بالفعل ، وعلى ذلك قوله تعالى « اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا »(١) ؛ قال : وليس شكر الرفيع للوضيع إلّا الإفضال عليه وقبول حمدٍ منه .

---

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] ونصها : يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .

تنبيهات :

الأول : تمسّك بعضهم بقوله تعالى « ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ » على أنّ السعى سنّة ، وأن من تركه لا شىء عليه . فإن كان مأخذه منها : إنّ التطوع التبرّع بما لا يلزم فَقَدْ قدّمنا أنه عرفٌ فقهىّ لا لغوىّ ، فلا حجّة فيه . وإن كان نفى الجناح ، فقد علمت المراد منه .

وممن ذهب إلى أنه سنّة، لا يجبر بتركه شىء، أَنَسٌ فيما نقله ابن المنذر وعطاء. نقله ابن حجر فى (الفتح) .

وقال الرازىّ : روى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء ، أنّ من تركه فلا شىء عليه .
وأما حديث[1] : اسعوا فإنّ الله كتب عليكم السعى رواه أحمد وغيره ، ففى إسناده عبدالله بن المؤمل ، وفيه ضعف .

ومِنْ ثَمّ قال ابن المنذر : إنْ ثبت فهو حجّة فى الوجوب . ذكره الحافظ ابن حجر فى (الفتح) .

الثانى : صحّ أنه[2] صلى الله عليه وسلم طاف بين الصفا والمروة سبعاً ، رواه الشيخان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، جزء سادس صفحة ٤٢١ (طبعة الحلبىّ) ونصه:
عن حبيبة بنت أبى تجزئة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه . وهو وراءهم وهو يسعى . حتى أرى ركبتيه من شدة السعى ، يدور به إزاره ، وهو يقول « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٣٠ ـ باب قول الله : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . ونصه :

عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرةَ، ولم يطف بين الصفا والمروة ، أيأتى امرأته ؟ فقال : قدم النبىّ صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة . وقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .
وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٨٩ (طبعتنا) .

وغيرهما عن ابن عمر . وأخرج مسلم وغيره[١] من حديث أبي هريرة : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا فرغ من طوافه أتى الصفا فعَلَا عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه ، فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو . وأخرج أيضاً[٢] من حديث جابر : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا دنا من الصفا قرأ : إنّ الصفا والمروة من شعائر الله . أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحّد الله وكبّره قال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلاّ الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثمّ دعا بين ذلك ، فقال مثلَ هذا ثلاث مرات ، ثمّ نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادى ، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا اه. وظاهر هذا أنه كان ماشياً .

وقد روى مسلم[٣] في صحيحه عن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : طاف النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع على راحلته بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ليراه الناس ، وليشرف وليسألوه ، فإن الناس غشُوه .

ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلاّ طوافاً واحداً .

قال ابن حزم : لا تعارض بينهما ، لأن الراكب إذا انصبّ به بعيره فقد انصبّ كلّه وانصبّت قدماه أيضاً مع سائر جسده .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٤ (طبعتنا) .
وهذه الجملة آخر حديث طويل ، وفيه ذكر فتح مكة ، يجب الاطلاع عليه والتفقه فيه .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .
هو قطعة من أصح وأطول حديثٍ ، وأتم وصف لحجة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٥٥ (طبعتنا) .

وعندى ـ فى الجمع بينهما ـ وجه آخر أحسن من هذا وهو : أنه سعى ماشياً أوّلاً ، ثمّ أتمّ سعيه راكباً ، وقد جاء ذلك مصرّحاً به .

ففى صحيح مسلم[1] عن أبى الطفيل قال : قلت لابن عباس : أخبرنى عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً ، أسنّة هو ؟ فإن قومك يزعمون أنه سنّة ! قال : صدقوا وكذبوا ..! ـ قال ـ قلت : ما قولك صدقوا وكذبوا ..؟ قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كثر عليه الناس. يقولون : هذا محمد ..! حتى خرج عليه العواتق من البيوت ـ قال ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُضْرَبُ الناس بين يديه ـ فلمّا كثر عليه ركب. والمشى والسعى أفضل .

وفى الصحيحين[2] عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت وبين الصفا والمروة ليُرِىَ المشركين قوّته ...!

وعن كريب مولى ابن عباس: أنّ ابن عباس قال[3]: ليس السعى ببطن الوادى بين الصفا والمروة بسنّة ، إنما كان أهل الجاهلية يسعونها ويقولون : لا نُجيزُ البطحاء إلّا شَدًّا ..! رواه البخاريّ تعليقاً ، ووصله أبو نعيم فى مستخرجه . قال شرّاح الصحيح : المراد بالسعى المنفىّ هو شدّة المشى والعَدْو . فهو ، رضى الله عنه ، لم ينف سنية السعى المجرد ، بل مجاوزة الوادى بقوّةٍ وعَدْوٍ شديد ، إذ أصل السعى هديه صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٣٧ (طبعتنا) وهو الشطر الثانى من الحديث .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤٣ ـ باب عمرة القضاء ، حديث ٨٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٢٧ ـ باب القسامة فى الجاهلية ، حديث ١٨٠٤ .

الثالث : فى البخارىّ[١] عن ابن عباس فى قصّة هاجر أم إسمعيل : إنّ الطواف بينهما مأخوذ من طوافها وترددها فى طلب الماء . ولفظه : وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى (أو قال ، يتلبط) فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . ففعلت ذلك سبع مرّات .

قال ابن عباس : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : فذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً . . . الحديث .

قال ابن كثير : لما ترددت هاجر فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة ، تطلب الغوث من الله تعالى متذللةً ، خائفةً ، مضطرةً ، فقيرة إلى الله عزّ وجلّ ، كشف تعالى كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدّتها ، وأنبع لها زمزم التى طعامها طعام طعم ، وشفاء سقم . فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذلّه وحاجته إلى الله فى هداية قلبه ، وصلاح حاله ، وغفران ذنبه ، وأنّه يلتجئ إلى الله عزّ وجلّ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأنْ يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه ـ من الذنوب والمعاصى ـ إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٩ ـ باب يزفون . النسلان فى المشى . حديث ١١٨٣ . وهو حديث طويل جدا فيه فوائد تاريخية وفقهية يجدر بالمسلم حق المسلم أن لا يفوته ما فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » .

لما تقدم أنّ بعض أهل الكتاب يكتمون ما يعلمون من هذا الحقّ ، وختم ما أتبعه له بصفتى الشكر والعلم ـ ترغيباً وترهيباً ـ بأنه يشكر من فَعَل ما شرعه له ، ويعلم من أخفاه وإنْ دقّ فعله وبالَغ فى كتمانه ، انعطف الكلام إلى تبكيت المنافقين منهم . ولعنهم على كتمانهم ما يعلمون من الحق . إذ كانت هذه كلّها فى الحقيقة قِصَصهم . والخروجُ إلى غيرها إنّما هو استطراد على الأسلوب الحكيم المبين ، لأنّ هذا الكتاب هدى ؛ وكان السياق مرشداً إلى أنّ التقدير بعد « شاكر عليم » : ومن أحدث شراً فإنّ الله عليم قدير ، فوصل به استئنافاً قوله ـ على وجه يعمهم وغيرهم ـ « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا ... » الآية ، بياناً لجزائهم . فانتظمت هذه الآية فى ختمها لهذا الخطاب بما مضى فى أوّله من قوله « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(١) فكانت البداية خاصة ، وكان الختم عاماً ، ليكون ما فى كتاب الله أمراً منطبقاً ـ على نحو ما كان أمر محمد صلّى الله عليه وسلم وَمَنَ تقدّمه من الرسل خلقاً ـ لينطبق الأمر على الخلق بدءاً وختماً انطباقاً واحداً ، فعمّ كلّ كاتم من الأولين والآخرين . نقله البقاعىّ .

و (اللعن) الطرد والإبعاد عن الخير ، هذا من الله تعالى ؛ ومن الخلق : السبّ ، والشتم ، والدعاء على الملعون ، ومشاقّته ، ومخالفته ، مع السخط عليه ، والبراءة منه . والمراد بقوله « اللَّاعِنُونَ » كلّ من يصح منه لعن ، وقد بيّنه بَعْدُ قوله تعالى « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِم

(١) [٢ / البقرة / ٤٢] .

لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (١) وقد دلّت الآية على أنّ هذا الكتمان من الكبائر ، لأنه تعالى أوجب فيه اللعن ، لأنّ ما يتصل بالدين ويحتاج إليه المكلّف لا يجوز أن يُكتمَ ، ومن كَتَمَه فقد عظمت خطيئته ، وبلغ لِلعَنْهِ من الشقاوة والخسران الغايةَ التى لا يدرك كنهها .. ! وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن كتمان العلم . وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال(٢) : لولا آيتان أنزلهما الله فى كتابه ما حدّثت شيئاً أبداً « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ... »(٣) الآية، وقوله « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ... »(٤) الآية .

ثم استثنى تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال :

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٢] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث ١٠٢ ونصه :

عن أبى هريرة قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة . ولولا آيتان فى كتاب الله ماحدثت حديثا . ثم يتلو : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، إلى قوله : الرَّحِيمُ .

إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق . وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فىأموالهم . وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون .

(٣) [٢ / البقرة / ١٥٩] .

(٤) [٣ / آل عمران / ١٨٧] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » ـ أى عن الكتمان ـ « وَأَصْلَحُوا » ـ أى عملوا صالحاً ـ « وَبَيَّنُوا » ـ ما كانوا كتموه فظهرت توبتهم بالإقلاع ـ « فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ » ـ أى أقبل توبتهم بإفاضة المغفرة والرحمة عليهم ـ « وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عمن كَفَرَ به واستمرّ به الحال إلى كفره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٦٢] (خَالِدِينَ فِيهَا ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا » ـ أى فى اللعنة ، أو فى النار ، على أنها أضمرت من غير ذكرٍ تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها ـ « لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » ـ إما من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال . أى : لا يمهلون عن العذاب ولا يؤخر عنهم ساعة بل هو متواصل دائم ؛ أو من النظر بمعنى الرؤية أى : لا ينظر إليهم نظر رحمة كقوله « وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(١) ـ .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ » يخبر تعالى بخطابه كافة الناس عن تفرّده بالإلٰهية . وأنه لا شريك له ولا عديل .

قال الراغب : يجوز أن يكون قوله « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » خطابا عاماً ، أى المستحق منكم العبادة هو إله واحد لا أكثر ؛ ويجوز أن يكون خطاباً للمؤمنين . والمعنى . الذى تعبدونه إله واحد ، تنبيها أنكم لستم كالكفار الذين يعبدون أصناماً آلهة والشيطان والهوى وغير ذلك . إن قيل : مافائدة الجمع بين « إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » وبين « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » وأحدهما يبنى على الآخر ؟ قيل : لما بين بقوله « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها ـ وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إله غيره ولكن لايعبد ولا يستحق العبادة ـ أكده بقوله « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » وحقّ لهذا المعنى أن يكون مؤكداً وتكرر عليه الألفاظ، إذْ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه . انتهى .

وقال الرازىّ : إنما خص سبحانه وتعالى هـذا الموضع بذكر هاتين الصفتين لأن ذكر الإلٰهية والفردانية يفيد القهر والعلو ، فعقبهما بذكر هذه المبالغة فى الرحمة ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلٰهية وعزة الفردانية ، وإشعاراً بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ماخلق الخلق إلّا للرحمة والإحسان . انتهى .

ولما كان مقام الوحدانية لا يصحّ إلّا بتمام العلم وكمال القدرة ، نصب تعالى الأدلة ، من العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ، على ذلك تبصيراً للجهّال وتذكيراً للعلماء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » ـ فى ارتفاع الأولى ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وفى انخفاض الثانية وكثافتها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ـ « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى : اعتقابهما وكون كل منهما خلفاً للآخر ، فيجئ أحدهما ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كقوله تعالى « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً »(١) أو اختلاف كلٍّ منهما فى أنفسهما ازدياداً وانتقاصاً كما قال « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ »(٢) أى : يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى ذاك . « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » أى : فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى آخر لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل إقليم لغيره .

قال الراغب : ولما لم يكن فرق بين أن يقال « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ » وبين أن يقال : والبحر الذى يجرى فيه الفلك ، فى أن القصد الأول بالآية أن يعرف منفعة البحر

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٢] ونصها : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

وإنْ أخر فى اللفظ، قدم ذكر الفلك الذى هو من صنعتنا . ولما كان سبيلنا إلى معرفتها أقرب منه إلى معرفة صنعه ـ قدم ذكر الفلك لينظر منها إلى آثار خلق الله تعالى . اه .

« وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ » بأنواع النبات والأزهار وما عليها من الأشجار « بَعْدَ مَوْتِهَا » باستيلاء اليبوسة عليها « وَبَثَّ فِيهَا » أى نشر وفرق « مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » من العقلاء وغيرهم « وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ » أى : تقليبها فى مهابها : قبولًا ودبوراً وجنوباً وشمالًا ، وفى أحوالها: حارةً وباردةً وعاصفةً ولينة ، فتارةً مبشرة بين يدى السحاب ، وطوراً تسوقه ، وآونةً تجمعه ، ووقتاً تفرقه ، وحيناً تصرفه .

قال الثعالبىّ : إذا جاءت الريح بنَفَس ضعيف ورَوْح فهى النسيم ، فإذا كانت شديدة فهى العاصف، فإذا حركت الأغصان تحريكاً شديداً وقلعت الأشجار فهى الزعزَعان والزعزع. فإذا جاءت بالحصباء فهى الحاصبة ، فإذا هبت من الأرض نحو السماء كالعمود فهى الإعصار ويقال لها زوبعة أيضاً ، فإذا هبت بالغبرة فهى الهَبْوة ، فإذا كانت باردة فهى الصرصر ، فإذا كان مع بردها ندى فهى البليل ، فإذا كانت حارة فهى الحَرُور والسّموم ، فإذا لم تُلقح شجراً ولم تحمل مطراً فهى العقيم . ومما يذكر منها بلفظ الجمع : الأعاصير وهى التى تهيج بالغبار ، واللواقح التى تلقح الأشجار ، والمعصرات التى تأتى بالأمطار ، والمبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

« وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى : فلا يهوى إلى جهة السفل مع ثقله بحمله بخار الماء ـ كما تهوى بقية الأجرام العالية ـ حيث لم يكن لها ممسك محسوس ، ولا يعلو ، ولا ينقشع ؛ مع أن الطبع يقتضى أحد الثلاثة : فالكثيف يقتضى النزول ، واللطيف يقتضى العلو ، والمتوسط يقتضى الانقشاع . ذكره البقاعىّ .

لطيفتان :

الأولى : قال الثعالبىّ : أول ما ينشأ السحاب فهو النَّشْء ، فإذا انسحب فى الهواء

فهو السحاب ، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام ، فإذا أظلّ فهو العارض ، فإذا ارتفع وحمل الماء وكثُف وأطبق فهو العماء ، فإذا عنّ فهو العَنان ، فإذا كان أبيض فهو المزن .

الثانية : قال الراغب : التسخير القهر على الفعل. وهو أبلغ من الإكراه. فإنه حمل الغير على الفعل بلا إرادة منه على وجهٍ، كحمل الرحى على الطحن اهـ . وقوله تعالى « لَآيَاتٍ » : أي عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كمًّا وكيفاً «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أي يتفكرون فيها وينظرون إليها بعين العقول ، فيستدلون على قدرته ، سبحانه ، القاهرة ، وحكمته الباهرة ، ورحمته الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به جلّ شأنه .

قال البقاعيّ : وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة . فجعل سبحانه العالَم ـ وهو الممكنات الموجودة ، وهي جملة ما سواه ، الدالّة على وجوده وفعله بالاختيار ـ على قسمين : قسم من شأنه أن يدرك بالحواس الظاهرة ، ويسمى في عرف أهل الشرع : الشهادة والخلق والملك . وقسم لا يدرك بالحواس الظاهرة ويسمى : الغيب والأمر والملكوت . والأول يدركه عامة الناس ، والثاني يدركه أولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس . فالله تعالى ـ بكمال عنايته ورأفته ورحمته ـ جعل العالم بقسميه محتوياً على جمل وتفاصيل من وجوهٍ متعدّدة ، وطرقٍ متكثرة ، تعجز القوى البشرية عن ضبطها ، يستدلّ بها على وحدانيته ، بعضها أوضح من بعض ، ليشترك الكل في المعرفة ، فيحصل لكلٍّ بقدر ما هُيِّئَ له ، اللهم إلا أن يكون ممن طُبع على قلبه ، فذلك ـ والعياذ بالله ـ هو الشقيّ انتهى .

قال المهايميّ : وكيف ينكرون وجود الله ، وتوحيده ، ورحمانيته ، ورحيميته ، وقد دلّ عليها دلائل العلويات والسفليات وعوارضهما والمتوسطات ؟ ثم قال : أما دلالة السماء والأرض على وجود الإله فلأنهما حادثان. لأن لهما أجزاء يفتقران إليها، فلابدّ لهما من محدِث ليس بعضَ أجزائهما، لأنه دخله التركيب الحادث، والقديم لا يكون محلاً للحوادث، والمحدِث لابدّ أن يكون

قديماً قطعاً للتسلسل . وعلى التوحيد ، فلأن إله السموات لو كان غير إله الأرض لم يرتبط منافع أحدهما بالآخر . وعلى الرحمتين لأنه عزّ وجل جعل فى الأرض موادّ قابلة للصور المختلفة وأفاضها واحدة بعد أخرى بتحريك السموات . وأما دلالة اختلاف الليل والنهار على وجود الإله فلحدوثهما من حركات السموات ولا بدّ لها من محرك ، فإن كان حادثاً فلا بدّ له من محدث. وعلى التوحيد ، فلأن إله الليل لو كان غير إله النهار لأمكن كل واحد أن يأتى بما هو له فى وقت إتيان الآخر بما هو له ، فيلزم اجتماعهما وهو محال . فإن امتنع لزم عجز أحدهما أو كليهما. وعلى الرحمتين ، فلأنّ الاعتدال الذى به انتظام أمر الحيوانات إنما يكون من تعاقبهما ، إذْ دوام الليل مبرِّد للعالم فى الغاية ، ودوام النهـار مسخِّن له فى الغـاية . وأما دلالة الفُلْك على وجود الإله ، فلأنها أثقل من الماء فحقها الرسوب فيها ، فإمساكها فوق الماء من الله. ودخول الهواء فيها ـ وإنْ كان من الأسباب ـ فلا يتم عند امتلاء الفلك بالأمتعة الكثيرة ، إذ يقلّ الهواء جداً فيضعف أثره فى إمساك هذا الثقيل جداً ، فلا ينبغى أن ينسب إلّا إلى الله تعالى من أوَّلِ الأمر ؛ وعلى التوحيد ، فلأن إله الفُلْك لو كان غير إله البحر لربما منع أحدهما الآخر من التصرف فى ملكه ، وهو يفضى إلى اختلال نظام العالم لاختلاف المنافع المنوطة بالفلك ؛ وعلى الرحمتين فلأنه رحم المسافرين بالتجارات ، والمسافَر إليهم بالأمتعة التى يحتاجون إليها . وأما دلالة إنزال الماء على وجود الإله ، فلأنه أثقل من الهواء ، فوجوده فى مركزه لا يكون إلّا من الله . وعلى التوحيد ، فلأنّ إله الماء لو كان غير إله الهواء ، لمنع من التصرف فى ملكه . وعلى الرحمتين ، فلأنّه أَحْيَى به الأرض معاشاً للحيوانات ، وبثّ به الدواب تكميلًا لمنافع الإنسان . وأما دلالة تصريف الرياح على وجود الإله ، فلأنها حادثة تحدث هذه مرّةً وهذه أخرى ، وقد يعدم الكلّ ، فلا بدّ من محدث ، فإنْ كان حادثاً افتقر إلى قديم . وعلى التوحيد ، فلأنّه لو كان لكلّ ريح إله لأمكن للكلّ أن يأتى بما له ، فيلزم اجتماع الرياح المختلفة وهو مخلّ بالنظام . وعلى الرحمتين ، فلأنها تحرك الفلك والسحب وتنمى

الأشجار والثمار . وأما دلالة السحاب على وجود الإله ، فلأنه لو كان ثقيلًا لنزل ، أو كان خفيفاً لصعد ، لـكنه يصعد تارةً وينزل أخرى فهو من الله تعالى ؛ وأما على التوحيد فلأن إله السحاب لو كان غير إله السحاب الآخر ، لأمكن لـكلّ واحدٍ أن يجعل سحابه فى مكان سحاب الآخر ، فيلزم تداخل الأجسام أو العجز . وعلى الرحمتين فلأنّ منها الأمطار . وله وجوه أخر من الدلالات وفوائد غير محصورة ، قنعنا بما ذكرنا .

قال القاضي عبد الجبار : الآية تدلّ على أمورٍ : (أحدها) لو كان الحقّ يدرك بالتقليد ، واتباع الآباء ، والجرى على الإلف والعادة ، لـما صحّ ذلك . و (ثانيها) لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام لما صحّ وصف هذه الأمور بأنها آيات، لأن المعلوم بالضرورة لايحتاج فى معرفته إلى الآيات . و (ثالثها) أنّ سائر الأجسام والأعراض ، وإن كانت تدلّ على الصانع ، فهو تعالى خصّ هذه الثمانية بالذكر لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعماً على المـكلفين على أوفر حظّ ونصيبٍ ، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع فى القلوب وأشدّ تأثيراً فى الخواطر . نقله الرازيّ .

ثم إنّ الله تعالى إنما أظهر هذه الآيات الدالة على وجوده ، وتوحيده ، ورحمته ، ليخصّه الخلق بالمحبة والعبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

« وَ » لـكن « مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا » أى : أمثالًا . مع أنّ الآيات منعت من أن يكون له ندّ واحد فضـلًا عن جماعتها يسوّون بينهم وبين الله إذْ

« يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ » أى : يعظمونهم ويخضعون لهم كتعظيم الله والخضوع له . و (الأنداد) هى : إمّا الأوثان التى اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى ، ورجوا منها النفع والضرّ ، وقصدوها بالمسائل ، ونذروا لها النذور وقرّبوا لها القرابين . وإمّا الرؤساء الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون ، لاسيما فى الأوامر والنواهى . ورجح هذا ، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا »(١) وذلك لايليق إلّا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالًا لله تعالى يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » من المشركين لأندادهم ، لأنّ أولئك أشركوا فى المحبة ، والمؤمنون أخلصوها كلّها لله ، ولأنهم يعلمون أن جميع الكمالات له ومنه ، ولأنهم لايعدلون عنه إلى غيره ، بخلاف المشركين فكانوا يعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره أو يأكلونه ، كما أكلت باهلة إلٰهها من حيسٍ ، عامَ المجاعة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى (شرح المنازل) فى باب التوبة :

أما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر . فالأكبر لا يغفره الله إلّا بالتوبة ، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله تعالى ، وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ، ولذا قالوا لآلهتهم فى النار « تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) مع إقرارهم بأن الله تعالى وحده خالق كلّ شىء ، وربّه ، ومليكه ، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي ، وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة ، والتعظيم ، والعبادة ، كما هو حال أكثر مشركى العالم . . ! بل كلّهم يحبون معبوديهم ، ويعظمونها ، ويوادّونها من دون الله تعالى . . ! وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم

(١) [٢ / البقرة / ١٦٦] ونصها : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨] .

أعظم من محبة الله تعالى ..! ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله تعالى ..! ويغضبون بتنقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مايغضبون إذا انتقص أحدٌ ربّ العالمين..! وإذا انتقصت حرمات آلهتهم ومعبوديهم غضبوا غضب الليث أو الكلب . . ! وإذا انتهكت حرمات الله تعالى لم يغضبوا لها . بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه ولم تنكر له قلوبهم ..! قد شاهدنا نحن وغيرنا هذا منهم ... انتهى .

وقال الإمام تقى الدين أحمد بن علىّ المقريزىّ رحمه الله :

ومن أجلّ الشرك، وأصله الشرك فى محبة الله ، قال تعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ . . . »(١) الآية ، فأخبر سبحانه أنّ من أحبّ مع الله شيئاً غيره ، كما يحبه ، فقد اتخذ نداًّ من دونه ! وهذا على أصح القولين فى الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله ، وهذا هو العدل المذكور فى قوله تعالى « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ »(٢) والمعنى على أصحّ القولين : أنهم يعدلون به غيره فى العبادة فيسوون بينه وبين غيره فى الحب والعبادة . وكذلك قول المشركين فى النار لأصنامهم « تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٣) ؛ ومعلوم قطعاً أنّ هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله فى كونهم خالقيهم ، فإنهم كانوا ـ كما أخبر الله عنهم ـ مقرّين بأنّ الله تعالى وحده هو ربُّهم وخالقهم ، وأنّ الأرض ومن فيها لله وحده ، وأنه ربّ السموات وربّ

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١] ونصها : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨] .

العرش العظيم ، وأنّه هو الذى بيده ملكوت كلّ شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ... وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى فى المحبّة والعبادة ؛ فمن أحبّ غير الله تعالى، وخافه ، ورجاه ، وذلّ له ـ كما يحبّ الله ويخافه ويرجوه ـ فهذا هو الشرك الذى لايغفره الله تعالى..! فعياذاً بالله ! مِنْ أنْ ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام ، كانسلاخ الحيّة من قِشرها ، وهو يظنّ أنّه مسلم موحّدٌ ..!

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة فى بعض فتاويه :

والمتّخذ إلٰهه هواه، لهمحبّة كمحبّة المشركين لآلهتهم، ومحبّةِ عبّاد العجل له ، وهذهمحبّة مع الله لامحبّة لله ! وهذه محبّة أهل الشرك ..! والنفوس قد تدّعى محبة الله ، وتكون فى نفس الأمر محبة شرك تحبّ ماتهواه وقد أشركته فى الحب مع الله ! وقد يخفى الهوى على النفس ، فإنّ حبّك الشىء يعمى ويصمّ ..! وهكذا الأعمال التى يظنّ الإنسان أنه يعملها لله وفى نفسه شرك قد خفى عليه وهو يعلمه : إمّا لحبّ رياسة ، وإمّا لحبّ مال، وإمّا لحبّ صورة ..! ولهذا قالوا[1]: يارسول الله ! الرجل يقاتل شجاعةً وحميّةً ورياءً ، فأىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . . ! فلمّا صار كثير من الصوفية النسّاك المتأخّرين يدّعون المحبّة ـ ولم يزنوها بميزان العلم والكتاب والسُّنّة ـ دخل فيها نوعٌ من الشرك واتّباع الأهواء . والله تعالى قد جعل محبّته موجبة لاتباع رسوله فقال« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٥ ـ باب من سأل ، وهو قائم ، عالما جالسا . حديث ١٠٥ . ونصه :

عن أبى موسى قال: جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله! ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية . فرفع إليه رأسه (قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً) فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله عز وجل .

اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ »[1] وهذا ، لأن الرسول هو الذى يدعو إلى ما يحبّه الله ، وليس شىءٌ يحبه الله إلّا والرسول يدعو إليــه . . ! وليس شىءٌ يدعو إليه الرسول إلّا والله يحبّه . . ! فصار محبوب الربّ ومدعوّ الرسول متلازمَيْن ، بل هذا هو هذا فى ذاته ، وإنْ تنوّعت الصفات ..! انتهى .

« وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى : باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبــود « إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ » المعدّ لهم يوم القيامة « أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً » أى : القدرة كلّها لله، على كل شىء، من العقاب والثواب ، دون أندادهم « وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » أى : العقاب للظالمين . وفائدة عطفها على ما قبلها : المبالغة فى تهويل الخطب ، وتفظيع الأمر . فإنّ اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدّة العذاب ، لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه . وجواب (لو) محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان : إمّا لعدم الإحاطة بكنهه ، وإمّا لضيق العبــارة عنه ، وإمّا لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبّر أو المستمع من الضجر والتفجّع عليه . أى : لكان منهم مالا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم . ونظيره ـ فى حذف الجواب ـ قوله تعالى « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا »[2] وقولهم: لو رأيت فلاناً والسياط تأخذه . وقرىء « وَلَوْ تَرَى » بالتاء ـ على خطاب الرسول أو كلّ مخاطَب ـ أى : ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً فى الفظاعة والهول .

---

(١) [٣/ آل عمران/ ٣١] ونصها: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها: وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و [٦ / الأنعام / ٣٠] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا » بدل من « إِذْ يَرَوْنَ » أى : تبرّأ المتبوعون وهم الرؤساء الآمرون باتخاذ الأنداد وكلّ ما عبد من دونه تعالى « مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » من الأتباع، بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا لهم ـ أو يدعونهم إليه ـ من فنون الكفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطتهم، وقابلوهم باللعن. وقرىء الأول على البناء للفاعل، والثانى على البناء للمفعول، أى تبرّأ الأتباع من الرؤساء « وَرَأَوُا الْعَذَابَ » الواو للحال، أى : تبرّأوا فى حال رؤيتهم العذاب « وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » أى : الوُصَل التى كانت بينهم : من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحابّ، والاتباع، والاستتباع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

« وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا » حين عاينوا تبرّؤ الرؤساء منهم، وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا « لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى : ليت لنا رجعة إلى الدنيا « فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ » هناك، ومن عبادتهم، ونعبده تعالى وحده « كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا » اليوم. وهم كاذبون فى هذا، بل لو رُدّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، كما أخبر تعالى عنهم بذلك « كَذَٰلِكَ » أى : مثل تلك الإراءة الفظيعة « يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ » ندمات شديدة « عَلَيْهِمْ » أى : تذهب وتضمحلّ، كما قال تعالى « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ

فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا »(١) وقال تعالى « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ... »(٢) الآية ، وقال تعالى « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ... »(٣) الآية « وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » ونظير هذه الآية قوله تعالى « ...وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٤) . . ؟ وقال تعالى « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »(٥) .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ١٨] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

(٣) [٢٤ / النور / ٣٩] ونصها : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٤) [٣٤ / سبأ / ٣١ـ٣٣] وأول الآية الأولى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ،

(٥) [١٩ / مريم / ٨١و٨٢] .

وقال الخليل لقومه « إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ »(١). وقالت الملائكة « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »(٢) ويقولون « سُبْحَانَكَ ! أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »(٣) . وقال تعالى « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »(٤) . وقال تعالى « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٥).

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٦٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٥، ٦] .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا » ـ حال أو مفعول ، وهو ما انتفى عنه حكم التحريم « طَيِّبًا » أى : مستطاباً فى نفسه ، غير ضارٍ للأبدان ولا للعقول .

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبىّ صلى الله عليه وسلم « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ! ادعُ اللهَ أن يجعلنى مستجاب الدعوة ! فقال : يا سعد ! أَطِبْ مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذى نفس محمد بيده ! إنّ الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيّما عبد نبت لحمه من السحت والرِّبا فالنار أولى به .. ! « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » وهى طرائقه ومسالكه فيما أضلّ أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ... مما زينه لهم فى جاهليتهم ، كما فى حديث عياض بن حمار الذى فى صحيح مسلم(١) عن رسول الله صلى الله وسلم أنه قال : يقول الله تعالى : إنّ كلّ مالٍ منحته عبادى فهو لهم حلال . وفيه : وإنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمتْ عليهم ما أحللت لهم .

(١) أخرجه مسلم فى: ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٦٣ (طبعتنا).
وها كموه بنصه الكامل :

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ، ذَاتَ يَوْمٍ فِى خُطْبَتِهِ « أَلَا إِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِى ، يَوْمِى هَذَا . كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا ، حَلَالٌ . وَإِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ . وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ . وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ . وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ =

ومما يدخل فى خطوات الشيطان : كلّ معصيةٍ لله ، ومنها : النذور فى المعاصى ، كما قاله بعض السلف فى الآية .

قال الشعبىّ : نذر رجل أن ينحر ابنه ، فأفتاه مسروق بذبح كبش ، وقال : هذا من خطوات الشيطان !

وقال أبو الضحى عن مسروق : أتى عبد الله بن مسعود بضرعٍ وملحٍ ، فجعل يأكل ، فاعتزل رجلٌ من القوم ، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم ؛ فقال : لا أريده ؛ فقال: أصائم أنت ؟ قال : لا ..! قال : فما شأنك ؟ قال : حرّمت أن آكل ضرعاً أبداً ..! فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فاطْعَمْ وكفِّرْ عن يمينك .. ! رواه ابن أبى حاتم .

وروى أيضا عن أبى رافع قال : غضبت يوماً على امرأتى ، فقالت : هى يوماً يهودية

= يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا . وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » .

وَقَالَ « إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ . وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ . تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ . وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِى أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا . فَقُلْتُ : رَبِّ ! إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِى فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً . قَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ . وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ . وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقُ عَلَيْكَ . وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ . وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ .

قَالَ : وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ . وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُرْبَى ، وَمُسْلِمٍ . وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ .

قَالَ : وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِى لَا زَبْرَ لَهُ ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتْبَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا . وَالْخَائِنُ الَّذِى لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ . وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِى إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » .

ويوماً نصرانية ، وكلّ مملوك لها حرٌّ إن لم تطلق امرأتك ..! فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان .. ! وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ـ وهى يومئذٍ أفقه امرأة فى المدينة ـ وأتيت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك .

وروى عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما كان من يمينٍ أو نذرٍ فى غضب ، فهو من خطوات الشيطان ، وكفّارته كفارة يمين ! نقله الإمام ابن كثير الدمشقىّ .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » تعليل للنهى ، للتنفير عنه والتحذير منه كما قال « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »(١) وقال تعالى « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا »(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ » استئنافٌ لبيان كيفية عداوته ، وتفصيلٌ لفنون شرّه وإفساده . و (السوء) يشمل جميع المعاصى ، سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب . و (الفحشاء) ما تجاوز الحدّ فى القبح من العظائم . « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : بأن تفتروا عليه تعالى بأنّه حرّم هذا وذاك بغير علمٍ . فمعنى « ما لا تعلمون » ما لا تعلمون أن الله تعالى أمَرَ به .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٦] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

قال البقاعيّ : ولقد أبلغ سبحانه فى هذه الآية فى حسن الدعاء لعباده إليه ، لطفاً بهم ورحمة لهم ، بتذكيرهم فى سياق الاستدلال على وحدانيته ، بما أنعم عليهم : بخلقه لهم أولا، وبجعله ملائما لهم ثانيا ، وإباحته لهم ثالثا ، وتحذيره لهم من العدوّ رابعا ... إلى غير ذلك من دقائق الألطاف وجلائل المنن ..! اه .

قال الرازىّ : قوله تعالى « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » يتناول جميع المذاهب الفاسدة ، بل يتناول مقلد الحق ..! لأنه ـ وإن كان مقلدا للحق ـ لكنه قال ما لا يعلمه ، فصار مستحقا للذمّ لاندراجه تحت الذم فى هذه الآية .! انتهى .

وقال الإمام ابن القيم فى (أعلام الموقعين) : القول على الله بلا علم يعمّ القول عليه سبحانه فى أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وفى دينه وشرعه . وقد جعله الله تعالى من أعظم المحرمات ، بل جعله فى المرتبة العليا منها ، فقال تعالى « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(١) . وقال تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) ! فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه . وقولهم لما لم يحرّمه : هذا حرام. ولما لم يحلّه : هذا حلال . وهذا بيانٌ منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلالٌ وهذا حرام ، إلا بما علم أن الله سبحانه أحلّه وحرّمه .

وقال بعض السلف : ليتّقِ أحدُكم أن يقول لما لا يعلم ولا ورد الوحى المبين بتحليله وتحريمه : أحله الله وحرّمه ، لمجرد التقليد أو بالتأويل .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٦و١١٧] .

وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح، أميره بريدة[١] أن ينزل عدوّه، إذا حاصرهم، على حكم الله ، وقال : فإنك لا تدرى أتصيب حُكْمَ اللهِ فيهم أم لا .. ؟ ولكن

(١) هذا حديث جليل يتضمن سياسة رشيدة أوحت بها أنوار النبوة التى لاتنطق عن الهوى . فهو جدير بأن يدرسه كبار الساسة وأن يسترشدوا به فى أمورهم كلها . ولنفاسته رأيت من الواجب نشره حرفيًّا منقولا عن صحيح مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، ح ٣ (طبعتنا) وقد أخرجه كذلك أصحاب السنن الأربعة والإمام أحمد فى مسنده . وها كموه كما أخرجه الإمام مسلم رضى الله عنه :

عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصته ، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً . ثم قال « اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمْثُلُوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم ، إن فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين . يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فإنكم ، أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله . ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » .

أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك... فتأمّل، كيف فرّق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد ، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين حكم الله . ومن هذا ، لما كتب الكاتب ـ بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ حكماً حكم به فقال : هذا ما أرى اللهُ أميرَ المؤمنين عمر ، فقال : لا تقل هكذا . ولكن قل : هذا ما رأى أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب . وقال مالك : لم يكن مِنْ أمرِ الناس ، ولا مَنْ مضى مِن سلفنا ، ولا أدركتُ أحداً أَقتدى به، يقول فى شيء : هذا حلال وهذا حرام . وما كانوا يجترئون على ذلك . وإنّما كانوا يقولون : نكره كذا ونرى هذا حسناً .

ولمّا نهاهم سبحانه عن متابعة العدوّ ، ذمّهم بمتابعته ، مع أنه عدوٌّ ، من غير حجة ، بل بمجرد التقليد للجهلة ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على رسوله واجتهدوا فى تكليف أنفسكم الردّ عن الهوى الذى نفخه فيها الشيطان « قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا » أى : وجدنا « عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا » أى : مِنْ عبادة الأصنام والأنداد .

فقال مبكّتاً لهم « أَوَلَوْ » أى : أيَتّبِعون آباءَهم وَلَوْ « كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً » أى: من الدين « وَلَا يَهْتَدُونَ » للصواب إذ جهلوه ؟

قال الحرالىّ : فيه إشعار بأنّ عوائد الآباء منهيّة حتى يشهد لها شاهد أبوّة الدين . ففيه التحذير فى رتب ما بين حال الكفر إلى أدنى الفتنة التى شأن الناس أن يتبعوا فيها عوائد آبائهم .

قال الرازيّ : معنى الآية : إن الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ماأنزل الله من الدلائل الباهرة. فهم قالوا : لا نتبع ذلك وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا . فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد . وأجاب الله تعالى عنهم بقوله « أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ ... إلى آخره » .

ثم قال : تقرير هذا الجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال للمقلّد : هل تعترف بأنّ شرط جواز تقليد الإنسان أنْ يعلم كونه محقًّا أم لا ؟ فإن اعترفتَ بذلك ، لم تعلم جواز تقليده إلّا بعد أن تعرف كونه محقًّا ، فكيف عرفت أنه محقّ ؟ وإن عرفته بتقليد آخر ، لزم التسلسل ؛ وإن عرفته بالعقل ، فذاك كافٍ، فلا حاجة إلى التقليد . . ! وإن قلتَ : ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقًّا . . . فإذن قد جوّزت تقليده وإن كان مبطلًا . . ! فإذن أنت ـ على تقليدك ـ لا تعلم أنّك محقّ أو مبطل . . !

وثانيها : هَبْ أنّ ذلك المتقدم كان عالمًا بهذا الشيء ؛ إلّا أنّا لو قدرنا أنّ ذلك المتقدم ما كان عالمًا بذلك الشيء قط ، وما اختار فيه البتة مذهبًا ؛ فأنت ماذا كنت تعمل ؟ فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه ، كان لابدّ من العدول إلى النظر ، فكذا ههنا .

وثالثها : أنّك إذا قلّدت من قبلك ، فذلك المتقدم كيف عرفته ؟ أَعَرَفْته بتقليد أم لا بتقليد ؟ فإن عرفته بتقليد ، لزم إمّا الدور وإمّا التسلسل . وإن عرفته لا بتقليد ، بل بدليل ، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدّم ، وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد ، لأنّك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل ـ مع أنّ ذلك المتقدّم طلبه بالدليل لا بالتقليد ـ كنتَ مخالفًا له . فثبت أنّ القول بالتقليد يُفضي ثبوته إلى نفيه ، فيكون باطلًا .

ثم قال الرازيّ عليه الرحمة : إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان ، تنبيهًا على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد ، وفيه

أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال وترك التعويل على مايقع فى الخاطر من غير دليل ، أو على ما يقوله الغير من غير دليل .

وقال الإمام الراغب : ذمّهم الله بأنهم أبطلوا ماخصّ الله به الإنسان من الفكر والرويّة ، وركّب فيه من المعارف . وذلك أنّ الله تعالى ميّز الإنسان بالفكر ليعرف به الحقّ من الباطل فى الاعتقاد . والصدق من الكذب فى الأقوال . والجميل من القبيح فى الفعل . ليتحرى الحقّ والصدق والجميل . ويتجنب أضدادها . وجعل له من نور العقل ما يستغنى به . فيدله على معرفة مطلوبه . فلما حثّ الناس على تناول الحلال الطيب ، ونهاهم عن متابعة الشيطان ، بيّن حال الكفّار ـ فى تركهم الرشاد ، واتباعهم الآباء والأجداد ـ ليحذّر الاقتداء بهم ، تاركين استعمال الفكر الذى هو صورة الإنسان وحقيقته . ثمّ قال « أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا » أى : أيتبعونهم وإن كانوا جهلة ؟ تنبيهاً على أنه محال اتباع من لا عقل له ولا اهتداء . إن قيل : ما فائدة الجمع بين قوله « يعقلون » و « يهتدون » وأحدهما يغنى عن الآخر ؟ قيل : قد تقدم أنّ (العاقل) يقال على ضربين : أحدهما لمن يحصل له القوة التى بها يصح التكليف ، والثانى لمن يحصل العلوم المكتسبة وهو المقصود ههنا . و (المهتدى) قد يقال لمن اقتدى فى أفعاله بالعالِم وإن لم يكن مثلَه فى العلم ؛ فبيّن أنهم لايعقلون ولايهتدون. ووجه آخر : وهو أن يعقل ويهتدى ، وإنْ كان كثيراً ما يتلازمان ، فإنّ العقل يقال بالإضافة إلى المعرفة ، والاهتداء بالإضافة إلى العمل ، فكأنّه قيل : لا علم لهم صحيح ولا مستقيم .

ثمّ ضرب تعالى للكافرين مثلًا فظيعاً ـ كما قال سبحانه « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ »(١) ـ فقال :

---

(١) [١٦ / النحل / ٦٠] ... وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

« وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ » أى : يصيح ، يقال : نعق الراعى بغنمه : صاح بها وزجرها . وقوله تعالى « بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً » أى : بالبهائم التى لاتسمع إلّا دعاء الناعق ونداءه ـ الذى هو تصويتٌ بها ، وزجرٌ لها ـ ولاتفقه شيئاً آخر ، ولا تعى كما يفهم العقلاء ويعون . وقد أفهم هذا الإيجاز البليغ تمثيلين فى مثلٍ واحد . فكأنّ وفاء اللفظ : مثل الذين كفروا ومثل داعيهم كَمَثَلِ الراعى ومثل ما يرعى من البهائم . وهو من أعلى خطاب فصحاء العرب . ومن لا يصل فهمه إلى جمع المثلين ، يقتصر على تأويله بمثل واحد ، فيقدر فى الكلام : ومثل داعى الذين كفروا . أشار لذلك الحرالىّ فيما نقله البقاعىّ عنه .

وقال الفراء(١) : أضاف تعالى المثل إلى الذين كفروا، ثمّ شبّههم بالراعى ولم يقل كالغنم. والمعنى ـ والله أعلم ـ مثل الذين كفروا كالبهائم التى لا تفقه ما يقول الراعى أكثر من الصوت ، فأضاف التشبيه إلى الراعى والمعنى فى المرعىّ . قال : ومثله فى الكلام (فلان يخافك كخوف الأسد) المعنى : كخوفه الأسد ، لأنّ الأسد معروف أنه المَخُوف .

وقيل : أريدَ تشبيه حال الكافر ـ فى دعائه الصنم ـ بحال من ينعق بما لا يسمعه . والمعنى : مثل هؤلاء فى دعائهم آلهتهم ـ التى لا تفقه دعاءهم ـ كمثل الناعق بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشىء ، غير أنّه هُوَ فى دعاء ونداء . وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلّا العناء .

(١) انظر كتاب معانى القرآن للإمام أبى زكرياء يحيى بن زياد الفرّاء . الجزء الأول صفحة ٩٩ .

وقال ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) : ولك أن تجعل هـذا من التشبيه المركّب ، وأنْ تجعله من التشبيه المفرّق . فإنْ جعلته من المركّب : كان تشبيهاً للكفّار ـ فى عدم فقههم وانتفاعهم ـ بالغنم التى ينعق بها الراعى فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرّد الذى هو الدعاء والنداء . وإن جعلته من التشبيه المفرّق : فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذى ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرّد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرّد صوت الناعق. واللهأعلم .

قال الرازىّ: اعلم أنّه تعالى ـ لمّا حكى عن الكفار أنهم عند الدعاء إلى اتّباع ماأنزل الله : تركوا النظر والتدبّر ، وأخلدوا إلى التقليد ، وقالوا : بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ـ ضَرَبَ لهم هذا المثل ـ تنبيهاً للسامعين لهم ـ إنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه : بسبب ترك الإصغاء ، وقلّة الاهتمام بالدين ، فصيّرهم ـ من هذا الوجه ـ بمنزلة الأنعام . . ! ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفةً بأحوال الكفّار، ويحقّر إلى الكافر نفسَه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره ـ حيث صيّره كالبهيمة ـ فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد . ثمّ زاد فى تبكيتهم فقال « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » فهم بمنزلة الصمّ : فى أنّ الذى سمعوه كأنهم لم يسمعوه ، وبمنزلة البُكْم : فى أنهم لم يستجيبوا لما دُعوا إليه ، وبمنزلة العُمْىِ : من حيث أنهم أعرضوا عن الدلائل فصاروا كأنهم لم يشاهدوها . ولمّا كان طريق اكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاثة ، فلمّا أعرضوا عنها، فقدوا العقل المكتسب . ولهذا قيل : مَنْ فقد حسًّا فقد علماً ..!

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى : ما أخلصناه لكم من الشُّبَه ، ولا تعرضوا لما فيه دنس ـ كما أحلّه المشركون من المحرّمات ـ ولا تحرّموا ما أحلّوا منها من السائبة وما معها « وَاشْكُرُوا لِلَّهِ » ـ الذى رزقكم هذه النعم ـ « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ » ـ أى : وحده ـ « تَعْبُدُونَ » أى : إن صَحَّ أنكم تخصّونه بالعبادة ، وتقرّون أنه سبحانه هو المنعم لا غير .

قال الإمام ابن تيمية فى (جواب أهل الإيمان) : الطيبات التى أباحها هى المطاعم النافعة للعقول والأخلاق . والخبائث هى الضارة فى العقول والأخلاق . كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول والأخلاق . فأباح الله الطيبات للمتّقين التى يستعينون بها على عبادة ربهم التى خلقوا لها . وحرّم عليهم الخبائث التى تضرّهم فى المقصود الذى خلقوا له . وأمرهم ـ مع أكلها ـ بالشكر ، ونهاهم عن تحريمها . فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به واستحقّ العقوبة . ومن حرّمها ـ كالرهبان ـ فقد تعدّى حدود الله فاستحقّ العقوبة .

وفى الحديث الصحيح عن النبىّ ﷺ أنّه قال[١] :

إن الله ليرضى عن العبد أنْ يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها.
وفى حديث آخر[٢] : الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٨٩ (طبعتنا) عن أنس بن مالك .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة ، ٥٦ ـ باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر (ترجمة الباب) .

وقال تعالى « لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »(١) أى : عن شكره ، فإنّه لا يبيح شيئاً ويعاقب مَنْ فعله ، ولكن يسأله عن الواجب الذى أوجبه معه . وعمّا حرّمه عليه ، هل فرّط بترك مأمور أو فعل محظور ؟ كما قال تعالى « يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »(٢) .

ولمّا قيّد تعالى الإذن لهم بالطيّب من الرزق، افتقر الأمر إلى بيان الخبيث منه ليجتنب، فبيّن صريحاً ما حرّم عليهم ـ مما كان المشركون يستحلّونه ويحرّمون غيره ـ وأفهم حلّ ماعداه ، وأنّه كثيرٌ جداً ليزداد المخاطَب شكراً ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ » وهى فى عرف الشرع : مامات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة ـ إمّا فى الفاعل أو فى المفعول ـ فدخل فيها : المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردّية ، والنطيحة ، وما عدا عليها السبُع .

قال ابن كثير : وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر ، لقوله تعالى « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ »(٣) على ما سيأتى إن شاء الله تعالى ، وحديث العنبر فى الصحيح . وفى المسند ، والموطّأ ، والسنن : قوله ﷺ فى البحر(٤) : هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته .

---

(١) [١٠٢ / التكاثر / ٨] .
(٢) [٥ / المائدة / ٨٧] .
(٣) [٥ / المائدة / ٩٦] .
(٤) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ .

وروى الشافعيّ وأحمد وابن ماجه والدارقطنيّ حديث ابن عمر(١) : أحلت لنا مَيتتان ودمان . فأما الميتتان فالحوت والجراد . وأما الدمان فالكبد والطحال . « وَالدَّمَ » وهو المسفوح أى : الجارى ، كما صرّح بذلك فى الآية الأخرى ـ والمفسّر قاضٍ على المبهَم ـ وكان بعض العرب يجعل الدم فى المصارين ثم يشويها ويأكلها ويسمّونه الفصيد . وفى القاموس وشرحه : والفصيد دمٌ كان يوضع فى الجاهلية فى مِعًى مِنْ فَصْدِ عرق البعير ، ويشوى ، وكان أهل الجاهلية يأكلونه ويطعمونه الضيف فى الأزمة . ويحكى : أنه بات رجلان عند أعرابىٍّ فالتقيا صباحاً ، فسأل أحدهما صاحبه عن القرى فقال : ما قريت وإنما فُصِدَ لى . فقال : لم يُحْرَمْ من فُصْد له ـ بسكون الصاد ـ فجرى ذلك مثلًا لمن نال بعض المقصد ، وسكّن الصاد تخفيفاً ، أى : لم يحرم القرى مَنْ فصدت له الراحلة فحظى بدمها . ويروى : من فزْد له ـ بالزاى بدل الصاد ـ وبعضهم يقول : من قصد له ـ بالقاف ـ أى : من أعطى قصداً أى قليلًا . وكلام العرب بالفاء . وقال يعقوب : تأويل هذا أنّ الرجل كان يضيف الرجل فى شدّة الزمان ، فلا يكون عنده ما يقريه ، ويشحّ أنْ ينحر راحلته ، فيفصدها ، فإذا خرج الدم سخّنه للضيف إلى أنْ يجمد ويقوى فيطعمه إيّاه . « وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ » ويدخل شحمه وبقية أجزائه فى حكم لحمه : إمّا تغليباً ؛ أو لأنّ اللحم يشمل ذلك لغةً ، لأنه ما لَحم بين أخفى ما فى الحيوان من وسط عظمه ، وما انتهى إليه ظاهره من سطح جلده . وعرف غلبة استعماله على رطبه الأحمر . وهو هنا على أصله فى اللغة . وإمّا بطريق القياس على رأىٍ ، لأنّه إذا حرّم لحمه الذى هو المقصود بالأكل ـ وهو أطيب ما فيه ـ كان غيره من أجزائه أولى بالتحريم . ولمّا حرّم ما يضرّ الجسم ويؤذى النفس ، حرّم ما يرين على القلب ، فقال «وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ» أى : ذُبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد ونحو ذلك

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٢٩ ـ كتاب الأطعمة ، ٣١ ـ باب الكبد والطحال ، حديث ٣٣١٤ (طبعتنا) .

مما كانت الجاهلية ينحرون له . وأصل (الإهلال) رفع الصوت أى: رفع به الصوت للصنم ونحوه ، وذلك كقول أهل الجاهلية : باسم اللات والعزّى .

وذكر القرطبيّ عن ابن عطيّة أنه نقل عن الحسن البصريّ أنّه سئل عن امرأة عملت عرساً لِلعَبِها ، فنحرتْ فيه جزوراً ، فقال : لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم . وذكَر أيضاً عن عائشة رضى الله عنها: أنها سئلت عمّا يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذُبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه ، وكلوا من أشجارهم . والقَصْدُ سَدُّ ما كان مظنّةً للشرك .

قال النوويّ فى (شرح مسلم) : فإنْ قصد الذابح ـ مع ذلك ـ تعظيمَ المذبوح له ، وكان غير الله تعالى ـ والعبادةَ له ، كان ذلك كفراً . فإن كان الذابح مسلماً ، قبل ذلك ، صار بالذبح مرتدًّا. ذكره فى الكلام على حديث[1] عليٍّ رضى الله عنه : لعن الله من ذبح لغير الله.

قال الحرالىّ : وَذِكْرُ الإهلال إعلامٌ بأنّ ما أعلن عليه بغير اسم الله هو أشدّ المحرم ، ففى إفهامه تخفيف الخطاب عما لا يُعلم من خفىّ الذكر . وقد روى البخاريّ[2] عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن قوما قالوا للنبىّ ﷺ : إن قوما يأتوننا باللحم ، لا ندرى أذكر

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ٤٣ (طبعتنا) ونصه :
عن أبى الطفيل ، عامر بن واثلة قال : كنت عند علىّ بن أبى طالب ، فأتاه رجل فقال : ما كان النبىّ ﷺ يُسرّ إليك ؟ قال فغضب وقال : ما كان النبىّ ﷺ يسرّ إلىّ شيئاً يكتمه الناس . غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع . قال فقال : ماهن ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال « لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا . ولعن الله من غيّر منار الأرض » .

(٢) أخرجه البخاريّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم .

اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثى عهد بكفر . فكأنّ المحرّم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه ؛ بل الذى علم أنّ غير اسم الله قد أعلن به عليه .

وروى عن علىٍّ رضى الله عنه قال : إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلّون لغير الله فلا تأكلوا ، وإذا لم تسمعوهم فكلوا ، فإن الله قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون .

فصل

« فيما لتحريم هذه المذكورات من الحكم والأسرار الباهرات »

فأما الميتة : فقال الحرالىّ : هى ما أدركه الموت من الحيوان ـ عن ذبول القوّة وفناء الحياة ـ وهى أشدّ مفسد للجسم ، لفساد تركيبها بالموت ، وذهاب تلزز أجزائها ، وعفنها ، وذهاب روح الحياة والطهارة منها .

وقال المهايمىّ فى تفسيره : ثم أشار تعالى إلى أنه إنما يقطع محبته أكل ما حرّم وهو الميتة وما ذكر معها . فأمّا الميتة فلأنها خبثت بنزع الروح منها بلا مطهّر من الذبح باسم الله ـ تحقيقاً أو تقديراً ـ فتتعلّق أرواحكم بالخبيث فتخبث ، فينقطع عنها محبة الله . وإنما أبيح ميتة السمك لأنّ أصله الماء المطهر ، فكما لا يؤثر فيه النجاسة ، لا يؤثر نزع الروح فيما حصل منه ؛ والجراد لأنّه حصل من غير تولد ولا خبث فى ذاته كسائر الحشرات .

وأمّا خبث الدّم : فلأنّه جوهر مرتكس عن حال الطعام ، ولم يبلغ بعد إلى حال الأعضاء ، فهو ميتة .

وقال الإمام ابن تيمية : حرّم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية ،

وزيادته توجب طغيان هذه القوى ، وهو مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبيّ ﷺ[(١)] :
إنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .

وأمّا خبث لحم الخنزير : فَلِأَذاه للنفس ـ كما حرّم ما قبله لمضرّتها في الجسم ـ لأنّ من حكمة الله في خلقه : أنّ من اغتذى جسمه بجسمانية شيء اغتذت نفسانيته بنفسانية ذلك الشيء : [(٢)] الكبر والخيلاء في الفدّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم . فلما جعل في الخنزير من الأوصاف الذميمة ، حرّم على من حوفظ على نفسه من ذميم الأخلاق . نقله البقاعيّ .

وقد كُشف لِأَطباء هذا العصر من مضار لحم الخنزير ـ المبنية على التجارب الحسّية ـ غير ماقالوه القدماء . فمن مضارّه : أنه يورث الدودة الوحيدة المتسبب من وجودها في الأمعاء أعراض كثيرة : كالمغص ، والإسهال ، والقيء ، وفقد شهوة الطعام أو النهم الشديد ، وآلام الرأس ، والإغماء ، والدوار ، واضطراب الفكر ، وعروض نوبات صرعية ، وتشنّجات عصبية ، وإصابة مرض دودة الشعر الحلزونية الذى يفوق الحمّى ، ويودى بحياة المصاب ... إلى غير ذلك من التعب ، وعسر الهضم ، ومضار سواها .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم ، حديث ١٠٦٣ ونصه : عن عليّ بن حسين أن النبيّ ﷺ أتته صفية بنت حيّ . فلما رجعت انطلق معها . فمرّ به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله ! قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٥ ـ باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « رأس الكفر نحو المشرق . والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدّادين أهل الوبر . والسكينة في أهل الغنم » .

قال حكيم : فالإسلام لم يأت لإصلاح الروح فقط ، بل لإصلاح الروح والجسم معاً ..! فلم يترك ضارًّا لأحدهما إلّا ونبّه عليه تصريحاً أو تلويحا ... وقد بسط الحكماء المتأخرون الكلام على مضرات لحم الخنزير فى مقالات عديدة .

وأما خبث المهلّ به لغير الله : فلأنه يَرين على القلب ، لأنه تقرّب به لغير موجده وخالقه تقرُّبَ عبادة ، وذلك من صريح الإشراك والاعتماد على غيره تعالى ؛ فكان خبثه معنويا لتأثيره على النفوس والأخلاق كتأثير المضر بالجسم والبدن ؛ والشرع جاء للحفظ عما يضرّ مطلقا ، ولصيانة مقام التوحيد .

ولما كان هذا الدين يُسْرًا لا عُسْرَ فيه ولا حَرَج ، رفع حكم هذا التحريم عن المضطر . فقال «فَمَنِ اضْطُرَّ» أى ألجاه ملجئ بأى ضرورة كانت إلى أكل شىء مما حرم بأنْ أشرف على التلف ، فأكل من شىء منه حال كونه « غَيْرَ بَاغٍ » أى غير طالبٍ له راغب فيه لذاته. من (بغى الشىء وابتغاه : طلبه وحرص عليه) « وَلَا عَادٍ » أى : مجاوزٍ لسدّ الرمق وإزالة الضرورة « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » وإن بقيت حرمته ، لأنّه إذا تناوله حال الاضطرار لا يؤثّر فيه الخبث لأنّه كارهٌ بالطبع .

وقال الراغب : واختلف إذا اضطر إلى ذلك فى دواءٍ لا يسدّ غيره مسدّه . والصحيح أنه يجوز له تناوله للعلّة المذكورة ، يعنى : إبقاء روحه بجهة مارآه أقرب إلى إبقائه ، وهى التى أجيز تناول ماذكر له للجوع .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لما أكله حال الضرورة « رَحِيمٌ » حيث رخّص لعباده فى ذلك إبقاءً عليهم .

ثمّ أعاد تعالى وعيد كاتمى أحكامه ـ إثْر ما ذكره من الأحكام ـ تحذيراً لهذه الأمة أن يسلكوا سبيل من عنوا به ، وهم أهل الكتاب، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قول تعالى :

[١٧٤] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ » أى : من حدوده وأحكامه وغير ذلك مما أشارت إليه الآية الأولى بالبيّنات والهدى « وَيَشْتَرُونَ بِهِ » أى : يأخذون بدله « ثَمَناً قَلِيلاً » أى : مما يتمتعون به من لذات العاجلة . وقلّله لحقارته فى نفسه . ففيه إشعار بدناءة نفوسهم حيث رضيت بالقليل ، أو بالنسبة لما فوّتوه على أنفسهم من نعيم الآخرة الذى لا يُحاط بوصفه « أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ » أى مايَسْتَتْبِعُ النارَ ويستلزمها ، فكأنه عينُ النار ، وأكلُهُ أَكْلُهَا ، و « فى بطونهم » متعلّق بـ « يأكلون » وفائدته : تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقرّ المأكول .

قال الراغب : أكل النار : تناول ما يؤدى إليها . وذكر الأكل لكونه المقصود الأول بتحصيل المال . وذكر « فى بطونهم » تنبيهاً على شرههم وتقبيحاً لتضييع أعظم النعم لأجل الطعم الذى هو أخسّ متناولٍ من الدنيا ..!

« وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال الراغب : لم يعن نفى الكلام رأساً ، فقد قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ »(١) ، وقال : « وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ »(٢) . وإنما أراد كلاماً يقتضى جدوى ؛ ولهذا قال الحسن : معناه يغضب عليهم تنبيهاً

(١) [٧ / الأعراف / ٦] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٢] ونصها : وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً .

أنهم بخلاف من قال فيهم « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ». وقيل : حقيقة (كلَّمتُهُ) حملتُه على الكلام ، نحو حركته ، لأنّ مَنْ كلّمتَه فقد استدعيت كلامه ؛ فكأنه قيل: لا يستدعى كلامهم نحو قوله[1] « لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ».

«وَلَا يُزَكِّيهِمْ» أى: يطهّرهم من دنس الذنوب لغضبه عليهم لأنهم كتموا، وقد علموا، فاستحقّوا الغضب « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : مؤلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ » أى : استبدلوا إضلال أنفسهم وغيرهم ـ من الكتمان والتحريف ـ بالاهتداء « وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ » أى : أسبابه بأسبابها . ولما جعل سبحانه أول مأكلهم ناراً ، وآخر أمرهم عذاباً ، وترجمة حالهم عدم المغفرة ، فكان بذلك أيضاً أوسط حالهم ناراً ـ سبب عنه التعجيب من أمرهم : بحبسهم أنفسهم فى ذلك الذى هو معنى الصبر، لالتباسهم بالنار حقيقةً أو بموجباتها من غير مبالاة ، فقال « فَمَا أَصْبَرَهُمْ » ـ أى : ما أشدّ حبسهم أنفسهم ، أو ما أجرأهم ـ « عَلَى النَّارِ » التى أكلوها فى الدنيا فأحسوا بها فى الأخرى ـ نقله البقاعىّ ـ .

ثم قال : وإذا جعلته مجازاً ، كان مثل قولك لمن عاند السلطان : ما أصبرك على السجن الطويل والقيد الثقيل ؟ تهديداً له . تريد أنّه لا يتعرض لذلك إلّا من هو شديد الصبر على العذاب .

وقد روى عن الكسائىّ أنه قال : قال لى قاضى اليمن بمكة : اختصم إلىّ رجلان من العرب ، فحلف أحدهما على حقّ صاحبه فقال له : ما أصبرك على الله ! أى : ما أصبرك على عذاب الله . نقله الزمخشرىّ .

(١) [٧٧ / المرسلات / ٣٦] .

قال الراغب : وقد يوصف بالصبر من لاصَبْرَ له اعتباراً بالناظر إليه ، وتَصَوُّرَ أنّه صابر، واستعمال لفظ التعجّب فى ذلك اعتباراً بالخلق لا بالخالق .

ثم ذكر تعالى السبب الموجب لهذا الإبعاد العظيم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ » إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ، لأنّ الله تعالى أنزل الكتاب الجامع لأنواع الهدى . وهو صالح لإرادة القرآن والتوراة . بالحقّ ، أى : متلبّساً به . فلا جرم يكون ـ مَنْ يختلف فيه ويرفضه بالتحريف والكتمان ـ مبتلًى بمثل هذا من أفانين العذاب ، لأنّه حاول نفى ما أثبت الله ، فقد ضادَّ الله فى شرعه ، عياذاً به سبحانه . « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ » أى : فى جنس الكتاب الإلٰهىّ . بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها ؛ أو فى التوراة . بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض . أو الاختلاف فى تأويلها . فاجترأوا لأجله على تحريفها . أو فى القرآن . بأن قال بعضهم : إنّه سحرٌ ، وبعضهم : إنّه شعر ، وبعضهم : أساطير الأولين .

قال الراغب : وأصل الاختلاف : التخلف عن المنهج . وقيل : اختلفوا : أتوا بخلاف ما أنزل الله . وقيل : اختلفوا : بمعنى خلفوا ـ نحو اكتسبوا وكسبوا ، وعملوا واعتملوا ـ أى : صاروا خلفاء فيه ، نحو « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ »(١) اهـ .

« لَفِي شِقَاقٍ » أى : خلافٍ ومنازعة « بَعِيدٍ » عن الحقّ والصواب ، مستوجب لأشدّ العذاب . وقوله تعالى :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٦٩] و [١٩ / مريم / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ » (البرّ) : اسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقرّبة إلى الله تعالى، ومن هذا : برّ الوالدين ، قال تعالى « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ »[١] فجعل البرّ ضدّ الفجور. وقال « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[٢] فجعل البرّ ضدّ الإثم، فدلّ على أنه اسم عام لجميع ما يؤجر عليه الإنسان . أى : ليس الصلاح والطاعة والفعل المرضىّ فى تزكية النفس ـ الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ ـ هو أمر القبلة ، ولكن البرّ ـ الذى يجب الاهتمام به ـ هو هذه الخصال التى عدّها جلّ شأنه .

ولا يبعد أن يكون بعض المؤمنين ـ عند نسخ القبلة وتحويلها ـ حصل منهم الاغتباط بهذه القبلة ، وحصل منهم التشدّد فى شأنها ، حتى ظنوا أنّه الغرض الأكبر فى الدين . فبعثهم تعالى بهذا الخطاب على استيفاء جميع العبادات والطاعات . أشار لهذا الرازىّ .

وقال الراغب : الخطاب فى هذه الآية للكفّار والمنافقين الذين أنكروا تغيير القبلة . وقيل : بل لهم وللمؤمنين حيث قد يرون أنهم نالوا البرّ كلّه بالتوجّه إليها .

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ » أى : إيمان من آمن بالله ـ الذى دعت إليه آية

(١) [٨٢ / الانفطار / ١٣و١٤] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] .

الوحدانية ـ فأثبت له صفات الكمال ، ونزهه عن سمات النقصان . « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذي كذب به المشركون ، فاختلّ نظامهم ببغي بعضهم على بعض « وَالْمَلَائِكَةِ » أي : وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين رسله بإلقاء الوحي وإنزال الكتب « وَالْكِتَابِ »أي : بجنس الكتاب . فيشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، التي من أفرادها : أشرفها وهو القرآن ـ المهيمن على ما قبله من الكتب ـ الذي انتهى إليه كلّ خيرٍ واشتمل على كلّ سعادةٍ في الدنيا والآخرة . « وَالنَّبِيِّينَ » جميعاً من غير تفرقةٍ بين أحدٍ منهم ، كما فعل أهل الكتابين .

قال الحرالّي : ففيه ـ أي الإيمان بهم وبما قبلهم ـ قهرُ النفس للإذعان لمن هو من جنسها ، والإيمانُ بغيبٍ من ليس من جنسها ، ليكون في ذلك ما يزع النفس عن هواها .

« وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ » أي : أخرجه وهو محبٌّ له راغبٌ فيه ، نصّ على ذلك : ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة(١) مرفوعا: أفضل الصدقة أنْ تصدّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر . وقوله « ذَوِي الْقُرْبَىٰ » هم : قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى من الصدقة . وقد روى الإمام أحمد ، والترمذيّ ، والنسائيّ وغيرهم عن سليمان بن عامر قال: قال(٢) رسول الله ﷺ : إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذي الرحم اثنتان : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ . وفي

(١) أخرجه البخاريّ في: ٢٤ ـ كتاب الزكاة، ١١ ـ باب أي الصدقة أفضل؟ ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال « أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهلُ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا، وقد كان لفلان » .

(٢) أخرجه النسائيّ في : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٨٢ ـ باب الصدقة على الأقارب .

الصحيحين من حديث زينب ، امرأة عبد الله بن مسعود(١) ، أنها وامرأة أخرى سألتا رسول الله ﷺ : أيجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما..؟ فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران : أجرُ القرابة وأجر الصدقة . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى القرابة

(١) أخرجه البخاريّ في: ٢٤ ـ كتاب الزكاة، ٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب . ونصه:

عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى . ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة . فقال « أيها الناس ! تصدقوا » فمرّ على النساء فقال « يامعشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقلن: وبِمَ ذلك يارسول الله ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير . ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن ، يا معشر النساء » .

ثم انصرف . فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه . فقيل : يا رسول الله ! هذه زينب . فقال « أيّ الزيانب ؟ » فقيل : امرأة ابن مسعود . قال « نعم . ائذنوا لها » فأُذن لها . قالت: يانبيّ الله ! إنك أمرت اليوم بالصدقة . وكان عندي حليّ لي . فأردت أن أتصدق به . فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم . فقال النبيّ ﷺ « صدق ابن مسعود . زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم » .

أما حديثها والمرأة الأخرى فقد أخرجه البخاريّ في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤٨ ـ باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر . حديث ٧٧٨ .

عن زينب امرأة عبد الله رضي الله عنهما قالت : كنت في المسجد فرأيت النبيّ ﷺ فقال « تصدقن ولو من حليّكن » .

وكانت زينب تنفق على عبدالله وأيتام في حَجْرها . قال: فقالت لعبد الله : سل رسول الله ﷺ : أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجري من الصدقة ؟ فقال : سلي أنتِ رسول الله ﷺ .

=

فى غير موضع من كتابه العزيز . « وَالْيَتَامَىٰ » وهم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ. «وَالْمَسَاكِينَ» وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيُعْطَوْنَ ما يسدّ به حاجتهم وخلتهم . وفى الصحيحين عن أبى هريرة(١) أن رسول الله ﷺ قال: ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان. ولكنّ المسكين الذى لا يجد غنًى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه . « وَابْنَ السَّبِيلِ » وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته . فيُعْطَى ما يوصله إلى بلده لعجزه بالغربة . وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة . فيُعطَى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه . ويدخل فى ذلك الضيف ، كما قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين .

= فانطلقتُ إلى النبىّ ﷺ ، فوجدت امرأة من الأنصار على الباب ، حاجتها مثل حاجتى . فمرّ علينا بلال . فقلنا : سل النبىّ ﷺ : أيجزى عنى أن أنفق على زوجى وأيتام لى فى حجرى ؟ وقلنا : لا تُخبر بنا .

فدخل فسأله . فقال « من هما » قال : زينب . قال « أىّ الزيانب؟ » قال: امرأة عبدالله. قال « نعم . لها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٣ ـ باب قول الله تعالى : لا يسألون الناس إلحافا .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠١ (طبعتنا) .

وها كمو سياق نص مسلم :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان » .

قالوا : فما المسكين ، يا رسول الله ؟

قال « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً ».

وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو جعفر الباقر ، والحسن وقتادة ، والضحّاك ، والزهريّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيّان . و (السبيل) اسم للطريق ، وجعل المسافر ابناً لها لملازمته إياها ـ كما يقال لطير الماء : ابن الماء ، ويقال للرجل الذى أتت عليه السنون : ابن الأيام ، وللشجعان : بنو الحرب ، وللناس : بنو الزمان.

« وَالسَّائِلِينَ » وهم الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات . كما روى الإمام أحمد عن حسين بن علىّ عليهما السلام قال : قال رسول الله ﷺ[1] : للسائل حقٌّ وإنْ جاء على فرس . ورواه أبو داود . « وَفِي الرِّقَابِ » معطوف على المفعول الأول ـ وهو ذوى ـ أى : وآتى المال فى الرقاب ، أى : دفعه فى فكّها ، أى : لأجله وبسببه .

قال الراغب : الرقاب جمع رقبة . وأصل الرقبة : العنق . ويعبّر بها عن الجملة ، كما يعبّر عنها بالرأس .

وقال الحرالىّ : الرقاب جمع رقبة وهو ماناله الرقّ من بنى آدم . فالمراد : الرقاب المسترقّة التى يرام فكّها بالكتابة ـ وفكّ الأسرى منه ـ وقدّم عليهم أولئك لأنّ حاجتهم لإقامة البنية .

قيل : نكتة إيراد (فى) هُوَأَنَّ ما يعطى لهم : مصروف فى تخليص رقابهم ، فلا يملكونه كالمصارف الأخر . والله أعلم .

لطيفة :

قال الراغب : إن قيل : كيف اعتبر الترتيب المذكور فى قوله تعالى « وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ... » الآية ؟ قيل : لما كان أولىمن يتفقدّه الإنسان بمعروفهأقاربه ، كان تقديمها أولى. ثمّ عقبه باليتامى لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى . ثمّ ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً . ثمّ ذكر ابن السبيل الذى قد يكون له مال غائب . ثم ذكر السائلين

(١) أخرجه أبوداود فى: ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٣ ـ باب حق السائل ، حديث ١٦٦٥.

الذين منهم صادق وكاذب . ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم . فكلّ واحد ممن أخّر ذكره أقل فقراً ممن قدّم ذكره ..!

«وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أي: أتمّ أفعالها في أوقاتها ـ بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها ـ على الوجه الشرعيّ المرضيّ. «وَءَاتَى الزَّكَاةَ» أي: زكاة المال المفروضة ؛ على أن المراد بما مرّ من إيتاء المال ، التنفّل بالصدقات والبرّ والصلة . قدّم على الفريضة مبالغةً في الحث عليه ، أو المراد بهما المفروضة ، والأول لبيان المصارف ، والثاني لبيان وجوب الأداء . وقد أبعد من حمل الزكاة ـ هنا ـ على زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة ، كقوله « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » وقوله « هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ » ، ووجه البعد : أن الزكاة المقرونة بالصلاة في التنزيل لا يُراد بها إلا زكاة المال ، وأما مع الانفراد فعلى حسب المقام « وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » عطف على من آمن ، فإنه في قوة أن يقال : ومن أوفوا بعهدهم . وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء .

قال الرازيّ : اعلم أن هذا العهد إمّا أن يكون بين العبد وبين الله ، أو بينه وبين رسول الله أو بينه وبين سائر الناس . فالأول : ما يلزمه بالنذور والأيمان . والثاني : فهو ما عاهد الرسول عليه عند البيعة : من القيام بالنصرة ، والمظاهرة ، والمجاهدة ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه . والثالث : قد يكون من الواجبات : مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسلم . وكذا الشرائط التي يلتزمها في السلم والرهن . وقد يكون من المندوبات: مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة . فالآية تتناول كلّ هذه الأقسام .

قال ابن كثير: وعكس هذه الصفة النفاق . كما صحّ في الحديث[1] : آية المنافق ثلاث :

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ونصه :
عن أبي هريرة : عن النبيّ ﷺ قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » .

=

إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . وفى رواية : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر . « وَالصَّابِرِينَ » نصب على الاختصاص . غيّر سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيّته . وهو فى الحقيقة معطوف على ما قبله . قال أبو علىّ : إذا ذكرت صفات للمدح أو للذم فخولف فى بعضها الإعراب ، فقد خولف للافْتِنَانِ . ويسمى ذلك قطعاً . لأن تغيير المألوف يدلّ على زيادة ترغيبٍ فى استماع المذكور ، ومزيدِ اهتمامٍ بشأنه ! وقد قرئ « والصابرون » كما قرئ «والموفين» .

قال الراغب : لما كان الصبر : من وجهٍ مبدأً للفضائل ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائل ، إذ لا فضيلة إلّا وللصبر فيها أثر بليغ ، غيّر إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد ..!

« فِى الْبَأْسَاءِ » أى : الشدّة ، أى عند حلولها بهم « وَالضَّرَّاءِ » بمعنى البأساء وهى الشدة أيضاً ، كما فسرها بها فى القاموس . وقال ابن الأثير : الضرّاء : الحالة التى تضرّ وهى نقيض السرّاء ، وهما بناءان للمؤنث ولا مذكّر لهما « وَحِينَ الْبَأْسِ » أى : وقت مجاهدة العدوّ فى مواطن الحرب ، وزيادة (الحين) للإشعار بوقوعه أحياناً ، وسرعة انقضائه . ومعنى (البأس) فى اللغة : الشدّة ، يقال : لا بأس عليك فى هذا ، أى : لا شدّة . وعذاب بئيس : شديد . وسميت الحرب بأساً لما فيها من الشدّة . والعذابُ يسمى بأساً لشدته . قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[1] . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا[2] . فَمَنْ يَنْصُرُنَا

= وعن عبد الله بن عمرو أن النبىّ ﷺ قال « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

(١) [٤٠ / غافر / ٨٤] ونصها : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ١٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ .

مِنْ بَأْسِ اللهِ(١) . وقال ابن سيده : البأس الحرب ، ثمّ كثر حتى قيل : لا بأس عليك ، أى : لا خوف .

وقال الراغب : استوعبت هذه الجملة أنواع الضرّ . لإنّه إمّا أن يحتاج إلى الصبر فى شىء يعوز الإنسان ، أو يريده فلا يناله، وهو البأساء . أو فيما نال جسمه من ألم، وهو الضرّاء . أو فى مدافعة مؤذيه، وهو البأس .

« أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا » فى إيمانهم ، لأنهم حققوا الإيمان القلبىّ بالأقوال والأفعال ، فلم تغيرهم الأحوال ، ولم تزلزلهم الأهوال . وفيه إشعار بأنّ من لم يفعل أفعالهم لم يصدق فى دعواه الإيمان ..! « وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » عن الكفر وسائر الرذائل . وتكرير الإشارة لزيادة تنويهٍ بشأنهم . وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم .

قال الواحدىّ : هذه الواوات فى الأوصاف فى هذه الآية للجمع . فمَنْ شرائط البرّ ، وتمام شرط البارّ ، أن تجتمع فيه هذه الأوصاف . ومن قام به واحدٌ منها لم يستحق الوصف بالبر .

---

(١) [٤٠ / غافر / ٢٩] ونصها : يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى » هذا شروع فى بيان الحدود والحقوق التى لآدمىّ معيّن ، وهى النفوس . و « كتب » بمعنى فرض وأوجب .

قال الراغب : الكتابة يعبر بها عن الإيجاب . وأصل ذلك أنّ الشىء يراد ثم يقال ثم يكتب . فيعبر عن المراد الذى هو المبدأ ، بالكتابة التى هى المنتهى .

« الْحُرُّ » يقتل « بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ » من القاتلين « مِنْ أَخِيهِ » أى دم أخيه المقتول « شَىْءٌ » بأن ترك وليّه القوَد منه ، ونزل عن طلب الدم إلى الديَة . وفى ذكر الأخوة : تعطّف داعٍ إلى العفو ، وإيذانٌ بأنّ القتل لا يقطع أخوة الإيمان « فَاتِّبَاعٌ » أى : فعلى العافى اتباع للقاتل « بِالْمَعْرُوفِ » بأن يطالبه بالديَة بلا عنف « وَ » على القاتل « أَدَاءٌ » للدّية « إِلَيْهِ » أى : العافى وهو الوارث « بِإِحْسَانٍ » بلا مطل ولا بخس « ذَٰلِكَ » أى : ما ذكر من الحكم وهو جواز القصاص والعفو عنه على الدية « تَخْفِيفٌ » تسهيل « مِنْ رَبِّكُمْ » عليكم « وَرَحْمَةٌ » بكم حيث وسّع فى ذلك ولم يحتّم واحداً منهما « فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ » بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية « فَلَهُ » باعتدائه « عَذَابٌ أَلِيمٌ » أمّا فى الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حقّ ، وأمّا فى الآخرة فبالنار .

تنبيهات

الأول : قال الراغب : إن قيل : على من يتوجه هذا الوجوب فى قوله تعالى: كتب عليكم ؟ أجيب : على الناس كافة . فمنهم من يلزمه استقادته ـ وهو الإمام ـ إذا طلبه الولىّ . ومنهم من يلزمه تسليم النفس وهو القاتل . ومنهم من يلزمه المعاونة والرضا به . ومنهم من يلزمه أن لا يتعدى بل يقتص أو يأخذ الدية . والقصد بالآية : منع التعدّى الجاهلىّ .

الثانى : القصاص مصدر قاصّه، المزيد . وأصل القصّ : قطع الشىء على سبيل الاجتذاذ ، ومنه : قصّ شعره ؛ وقصّ الحديث : اقتطع كلاماً حادثاً جدًّا وغيره ، والقصة اسم منه . وحقيقة القصاص : أن يفعل بالقاتل والجارح مثل ما فعلا . أفاده الراغب .

الثالث : ذكر تقىّ الدين ابن تيمية فى (السياسة الشرعية) جملة من أحكام القتل نأثرها عنه هنا . قال رحمه الله :

« القتل ثلاثة أنواع :

أحدها العمد المحض : وهو أن يقصد من يعلمه معصوماً بما يقتل غالباً . سواء كان يقتل بحدّه ، كالسيف ونحوه . أو بثقله ، كالسندان وكودس القصار . أو بغير ذلك : كالتحريق ، والتغريق ، وإلقاء من مكان شاهق ، والخنق ، وإمساك الخصيتين حتى يخرج الروح ، وغم الوجه حتى يموت ، وسقى السموم ... ونحو ذلك من الأفعال . فهذا إذا فعله وجب فيه القوَد . وهو أن يمكن أولياء المقتول من القاتل . فإن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا عَفَوْا ، وإن أحبوا أخذوا الدية ؛ وليس لهم أن يقتلوا غير قاتله . قال الله تعالى : . . . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً[1] . وقيل فى التفسير: لا يقتل

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٣] وأول الآية : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .

غير قاتله . وعن أبي شريح الخزاعيّ قال : قال رسول الله ﷺ(١) : من أصيب بدم أو خبْل ـ والخبل الجرح ـ فهو بالخيار بين إحدى ثلاث . فإنْ أراد الرابعة ، فخذوا على يديه : أن يقتل ، أو يعفو ، أو يأخذ الدية . فمن فعل شيئاً من ذلك فعاد، فإنه له نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً . فمن قتل بعد العفو وأخذ الدية فهو أعظم جرماً ممّن قتل ابتداءً . حتى قال بعض العلماء : إنه يجب قتله حدًّا ولا يكون أمره إلى أولياء المقتول . فإنّ الله تعالى كتب عليكم القصاص في القتلى : الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفي له من أخيه شيء : فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم . ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتّقون . قال العلماء : إن أولياء المقتول تغلي قلوبهم بالغيظ ، حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه . وربما لم يرضوا بقتل القاتل ، بل يقتلون كثيراً من أصحاب القاتل . ـ كسيِّد القبيلة ومقدّم الطائفة ـ . فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء ، ويعتدى هؤلاء في الاستيفاء . كما كان يفعله أهل الجاهلية ، وكما يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة في هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم. وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيماً ، أشرف من المقتول . فيفضي ذلك إلى أنّ أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل . وربما حالف هؤلاء قوماً واستعانوا بهم . وهؤلاء ، قوماً . فيفضي إلى الفتن والعدواة العظيمة . وسبب ذلك : خروجهم عن سنن العدل الذي هو القصاص في القتلى . فكتب الله علينا (القصاص) وهو المساواة والمعادلة في القتل . وأخبر أنّ فيه (حياة) فإنه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين . وأيضاً إذا علم من يريد القتل : أنه يقتل ، كفّ عن القتل ..!

(١) أخرجه ابن ماجة في : ٢١ ـ كتاب الديات ، ٣ ـ باب من قتل له قتيل فهو بالخيار بين إحدى ثلاث ، حديث ٢٦٢٣ (طبعتنا) .

وقد روى عن علىّ بن أبى طالب(١) وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ أنه قال : المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمّتهم أدناهم . ألا لايقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهدٍ فى عهده ..! رواه أحمد وأبوداود وغيرهما من أهل السنن. فقضى رسول الله ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ــ أى تتساوى أو تتعادل ــ فلا يفضل عربىّ على عجمىّ ولا قرشىّ أو هاشمىّ على غيره من المسلمين . ولا حرّ أصلىّ على مولى عتيق. ولا عالم أو أمير على أمىّ أو مأمور . وهذا متفق عليه بين المسلمين . بخلاف ما عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود . فإنه كان يقرب مدينة النبىّ ﷺ صنفان من اليهود : قريظة والنضير. وكانت النضير تفضل على قريظة فى الدماء . فتحاكموا إلى النبىّ ﷺ فى ذلك وفى حدّ الزانى. فإنهم كانوا قد غيّروه من الرجْمِ إلى التحميم(٢) ، وقالوا : إنْ حكم بينكم بذلك كان لكم

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ــ كتاب الديات ، ١١ ــ باب أيقاد المسلم بالكافر ؟ ، حديث ٤٥٣٠ ونصه :

عن قيس بن عباد قال : انطلقت أنا والأشتر إلى علىّ عليه السلام . فقلنا : هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا . إلا ما فى كتابى هذا . قال فأخرج كتاباً من جراب سيفه ، فإذا فيه « المؤمنون تَكَافَؤُ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . ألا ، لايقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده . من أحدث حدثاً فعلى نفسه . ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ــ كتاب الحدود ، حديث ٢٨ (طبعتنا) ونصه :

عن البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبىّ ﷺ بيهودىّ محمَّما مجلودًا. فدعاهم فقال « هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال « أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » قال : لا . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك . نجده الرجم . ولكنه كثر فى أشرافنا . قلنا: إذا أخذنا =

حجّة ، وإلّا فأنتم قد تركتم حكم التوراة . فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ . . . ـ إلى قوله ـ . . . . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . . .(١) ـ إلى قوله ـ . . . . فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ(٢) . . .

فبيّن سبحانه أنّه سوى بين نفوسهم ، ولم يفضل منهم نفساً على أخرى ، كما كانوا يفعلونه إلى قوله : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ

= الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع . فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم .

فقال رسول الله ﷺ « اللهم ! إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرجم . فأنزل الله عز وجل : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . إلى قوله : إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ [٥ / المائدة / ٤١] .

يقول : ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [٥/ المائدة / ٤٤] وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٥ / المائدة / ٤٥] وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٥/ المائدة/ ٤٧] فى الكفار كلها.

(١) [٥ / المائدة / ٤١و٤٢] .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٤و٤٥] .

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . . ـ إلى قوله ـ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١) .

فحكم الله سبحانه وتعالى فى دماء المسلمين أنها كلها سواء. خلاف ما عليه أهل الجاهلية . وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس ـ فى البوادى والحواضر ـ إنما هى البغيُ وتركُ العدل . فإن إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها دماً من الأخرى . أو مالاً . أو يعلو عليها بالباطل ، فلا ينصفها . ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق ! فالواجب فى كتاب الله الحكم بين الناس فى الدماء ، والأموال ، وغيرها ... بالقسط الذى أمر الله به ، ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية ..! وإذا أصلح مصلح بينهم فليصلح بالعدل ، كما قال تعالى : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢) . وينبغى أن يطلب العفو من أولياء المقتول ، فإنه أفضل لهم كما قال تعالى : وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ(٣) . قال أنس(٤) : ما رأيت نبىّ الله ﷺ رفع إليه شىء فيه قصاص إلّا أمر فيه بالعفو ..! رواه أبو داود وغيره . وروى مسلم فى صحيحه(٥) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) [٥ / المائدة / ٤٨ ـ ٥٠] .

(٢) [٤٩ / الحجرات / ٩ و ١٠] .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٥] .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ٣ ـ باب الإمام يأمر بالعفو فى الدم ، حديث ٤٤٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٩ (طبعتنا) .

مانقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلّا رفعه الله .
وهـذا الذى ذكرناه من التكافؤ ، هو فى المسلم الحرّ مع المسلم الحرّ ، فأما الذّمىّ ، فجمهور العلماء على أنه ليس بكُفْءٍ للمسلم . كما أنّ المستأمن الذى يقدم من بلاد الكفار ـ رسولًا أوتاجراً أو نحو ذلك ـ ليس بكُفْءٍ له، وفاقاً . ومنهم من يقول : بل هو كفءٌ له . وكذلك النزاع فى قتل الحرّ بالعبد .

النوع الثانى : الخطأ الذى يشبه العمد : قال النبىّ ﷺ[1] : ألا إنّ قتيل العمد الخطأ بالسوط والعصا شبه العمد فيه مائة من الإبل مغلّظة منها أربعون خَلِفَةٌ فى بطونها أولادُها . سمّاه شبه العمد لأنه قصد العدوان عليه بالخيانة ، لكنّه بفعلٍ لا يقتل غالباً ، فقد تعمّد العدوان ولم يتعمد ما يقتل .

الثالث : الخطأ المحض وما يجرى مجراه : مثل أن يكون يرمى صيداً أو هدفاً فيصيب إنساناً بغير علمه ولا قصده ، فهذا ليس فيه قود ، وإنما فيه الدية والكفارة . وهنا مسائل كثيرة معروفة فى كتب أهل العلم وبينهم .

التنبيه الرابع : قال الراغب : إن قيل : لم قال فمن عفى له من أخيه شىء ولم يقل : فمن عفا له أخوه شيئاً ..؟ قيل : العدول إلى ذلك للطيفةٍ . وهى أنه لافرق بين أن يكون صاحب الدم قد عفا أو جماعة، فعفا أحدهم . إذ القصاص يبطل ويعدل حينئذٍ إلى الدية ، فقال : فمن عفى له من أخيه شىء ليدل على هذا المعنى ، و(الهاء) فى قوله:أخيه يجوزأن تكون للمقتول ولوليّه . وجعله أخاً لولىّ الدم لا للنسب ولا لموالاة دينية ، ولكنْ للإحسان الذى أسداه فى الرضا منه بالدية اه .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٤٥ ـ كتاب القسامة ، حديث ٣٣ و ٣٤ ـ باب كم دية شبه العمْد .

الخامس :هذه الآية مفسرة لما أبهم فى آية المائدة وهى قوله تعالى : النفس بالنفس(١) . كما أنها مقيدة وتلك مطلقة ، والمطلق يحمل على المقيّد ، وكذا ما ورد فى السنة وصحّ عن النبىّ ﷺ فى هذا الباب فإنه يبيّن ما يراد فى هذه الآية وآية المائدة . وقد رويت أحاديث من طُرُقٍ متعددة بأنه : لايقتل حرٌّ بعبد . كالأحاديث والآثار القاضية بأنه يقتل الذكر بالأنثى. فالتعويل على ذلك . وبالجملة : فقوله تعالى : الْحُرُّ بِالْحُرِّ ... الخ . لا يفيد الحصر البتة ، بل يفيد شرع القصاص بين المذكورين من غير أن يكون فيه دلالة على سائر الأقسام . هذا ما اعتمدوه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقوله تعالى :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » كلام فى غاية الفصاحة والبلاغة لما فيه من الغرابة ، حيث جعل الشىء محل ضدّه ، فإن القصاص قتل وتفويت للحياة . وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة ، وعرّف القصاص ونكر الحياة ، ليدل على أن فى هذا الجنس من الحكم ـ الذى هو القصاص ـ حياة عظيمة . وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة . وكم قتل مهلهل(٢) بأخيه حتى كاد يفنى بكر بن وائل ! وكان يقتل بالمقتول غير قاتله ، فتثور الفتنة ، ويقع بينهم التناحر ..! فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة ..! أو نوع من الحياة ، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا همّ بالقتل ، فعَلِم أنه يقتص منه فارتدع ، سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود . فكان

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٥] .

(٢) انظر تاريخ ابن الأثير . الجزء الأول صفحة ٢١٤ (طبعة بولاق) ذكر مقتل كليب، والأيام بين بكر وتغلب .

القصاص سبب حياة نفسين ..! هذا ما يستفاد من (الكشاف) .

لطيفة :

اتفق علماء البيان على أنّ هذه الآية ـ فى الإيجاز مع جمع المعانى ـ بالغة إلى أعلى الدرجات..! وذلك لأنّ العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة ، كقولهم : قَتْل البعض إحياء للجميع، وقول آخرين : أكثروا القتل ليقلّ القتل . وأجود الألفاظ المنقولة عنهم فى هذا الباب قولهم(١) القتل أنفى للقتل ؛ وقد كانوا مطبقين على استجادة معنى كلمتهم واسترشاق لفظها..! ومن المعلوم لكلّ ذى لبٍّ أنّ بينها وبين ما فى القرآن كما بين الله وخلقه ! وأنّى لها الوصول إلى رشاقة القرآن وعذوبته ..!

قال فى (الإتقان) وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب فى هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) بعشرين وجهاً أو أكثر . وقد أشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال : لاتشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق ..! وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك ..!

الأول : أنّ ما يناظره من كلامهم وهو «القصاص حياة » أقلّ حروفاً ، فإنّ حروفه عشرة وحروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر ..!

الثانى : أنّ نفى القتل لايستلزم الحياة ، والحياة ناصّة على ثبوتها التى هى الغرض المطلوب منه !

الثالث : أنّ تنكير «حياة » يفيد تعظيما ، فيدلّ على أن فى القصاص حياة متطاولة ، كقوله تعالى : وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ(٢) . ولا كذلك المثل ، فإنّ اللام فيه للجنس ، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء !

---

(١) انظر (وحى القلم) للأستاذ مصطفى صادق الرافعىّ . الجزء الثالث صفحة ٤٦٣ ففيه شفاء الغليل، وتحقيق عدم جاهلية هذه الكلمة .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٦] .

الرابع : أنّ الآية فيه مطّردة ، بخلاف المثل ، فإنه ليس كلّ قتلٍ أنفى للقتل ، بل قد يكون أدعى له، وهو القتل ظلماً .! وإنما ينفيه قتل خاصّ، وهو القصاص، ففيه حياة أبداً..!

الخامس : أنّ الآية خالية من تكرار لفظ القتل الواقع فى المثل . والخالى من التكرار أفضل من المشتمل عليه وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة ..!

السادس : أنّ الآية مستغنية عن تقدير محذوف. بخلاف قولهم . فإنّ فيه حذف(من) التى بعد أفْعَل التفضيل وما بعدها ، وحذف (قصاصاً) مع القتل الأول ، (وظلماً) مع القتل الثانى ، والتقدير : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه .

السابع : أنّ فى الآية طباقاً ، لأنّ القصاص يشعر بضدّ الحياة بخلاف المثل ..!

الثامن : أن الآية اشتملت على فنٍّ بديع ، وهو جعل أحد الضدّين ـ الذى هو الفناء والموت ـ محلًّا ومكاناً لضدّه ـ الذى هو الحياة . واستقرار الحياة فى الموت مبالغة عظيمة ..! ذكره فى (الكشاف) ، وعبّر عنه صاحب (الإيضاح) بأنه جعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال « فى » عليه .

التاسع : أنّ فى المثل توالىَ أسباب كثيرة خفيفة ـ وهو السكون بعد الحركة ـ وذلك مستكره . فإن اللفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكّن اللسان من النطق به وظهرت بذلك فصاحته ! بخلاف ما إذا تعقّبَ كلَّ حركة سكونٌ ، فالحركات تنقطع بالسكنات . نظيره : إذا تحركت الدابة أدنى حركة ، فحبست، ثمّ تحرّكت فحبست ، لاتطيق إطلاقها، ولا تتمكّن من حركتها على ما تختاره ، فهى كالمقيدة !

العاشر : أنّ المثل كالتناقض من حيث الظاهر . لأن الشىء لاينفى نفسه !

الحادى عشر : سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدّة ، وبُعدها عن غنة النون .

الثاني عشر : اشتمالها على حروف متلائمة ، لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد . ـ إذ القاف من حروف الاستعلاء ، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق . بخلاف الخروج من القاف إلى التاء ـ التي هي حرف منخفض ـ فهو غير ملائم للقاف . وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة ، لبُعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق .

الثالث عشر : في النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ، ولا كذلك تكرير القاف والتاء .

الرابع عشر : سلامتها من لفظ (القتل) المشعر بالوحشة ، بخلاف لفظ (الحياة) فإنّ الطباع أقبل له من لفظ (القتل) .

الخامس عشر : أنّ لفظ القصاص مشعر بالمساواة ، فهو منبئ عن العدل ، بخلاف مطلق القتل .

السادس عشر : الآية مبنية على الإثبات ، والمثل على النفي ، والإثبات أشرف لأنه أول ، والنفي ثانٍ عنه .

السابع عشر : أنّ المثل لا يكاد يفهم إلّا بعد فهم أنّ القصاص هو الحياة . وقوله « فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » مفهوم من أول وهلة ..!

الثامن عشر : أنّ في المثل بناء (أفعل التفضيل) من فعل متعدٍّ ، والآية سالمة منه ..!

التاسع عشر : أنّ (أفعل) في الغالب يقتضي الاشتراك ، فيكون ترك القصاص نافياً للقتل ، ولكنّ القصاص أكثر نفياً ..! وليس الأمر كذلك ، والآية سالمة من ذلك .

العشرون : أنّ الآية رادعة عن القتل والجرح معاً ، لشمول القصاص لهما . والحياةُ أيضاً في قصاص الأعضاء . لأنّ قطع العضو ينقص أو ينغّص مصلحة الحياة ، وقد يسرى إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثل ..!

فى أول الآية « ولـكم » وفيها لطيفة : وهى بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم ، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم ..!(١) انتهى .

وقوله تعـالى « يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » المراد به : العقلاء الذين يعرفون العواقب ويعلمون جهات الخوف . فإذا أرادوا الإقدام على قتل أعدائهم ، وعلموا أنهم يطالبون بالقود ، صار ذلك رادعاً لهم . لأنّ العاقل لا يريد إتلاف غيره بإتلاف نفسه . فإذا خاف ذلك كان خوفه سبباً للـكفّ والامتناع ..! إلّا أنّ هذا الخوف إنما يتولّد من الفكر الذى ذكرناه ، ممّن له عقل يهديه إلى هذا الفكر. فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر ، لا يحصل له هذا الخوف..! فلهذا السبب خصّ الله سبحانه بهذا الخطاب أولى الألباب ، ثمّ علّل ذلك بقوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى : اللهَ تعالى بالانقياد لما شرع ، فتتحامون القتل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ » أى: فرض، كما استفاض فى الشرع « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى أمارته وهو المرض المخوف « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » أى مالًا ينبغى أن يوصى فيه ، وقد أُطلق فى القرآن « الخير » وأُريد به المال فى آيات كثيرة: منها هذه، ومنها قوله: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ(٢) ،

---

(١) الإتقان ، الجزء الثانى صفحة ٥٥ (المطبعة الأزهرية عام ١٣١٨ هـ) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . =

ومنها : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ(١) ، ومنها: رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢) إلى غيرها . وإنما سمّى المال خيراً تنبيهاً على معنى لطيف : وهو أنّ المال الذى يحسن الوصية به ما كان مجموعاً من وجهٍ محمودٍ ..! كما أنّ فى التسمية إشارة إلى كثرته ، كما قال بعضهم : لايقال للمال خيرٌ حتى يكون كثيراً ومن مكانٍ طيّب ..! وقد روى ابن أبى حاتم عن هشام ابن عروة عن أبيه : أنّ علياً رضى الله عنه دخل على رجل من قومه يعوده ، فقال له : أُوصى؟ فقال له علىّ : إنما قال الله : إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ . إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك .! وروى الحاكم عن ابن عباس : من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً ! وقال طاوس : لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً . وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فما فوقها .

ومنه يعلم أن لا تحديد للكثرة المفهومة ، وأنّ مردّها للعرف لاختلاف أحوال الزمان والمكان .

ثم ذكر نائب فاعل(كُتب) بعد أن اشتدّ التشوّف إليه ، فقال « الْوَصِيَّةُ » وتذكير الفعل الرافع لها : إمّا لأنه أريد بالوصية الإيصاء ، ولذلك ذكّر الضمير فى قوله « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » وإمّا للفصل بين الفعل ونائبه ، لأنّ الكلام لماطال ، كان الفاصل بين المؤنث والفعل كالعوض من تاء التأنيث . وقوله « لِلْوَالِدَيْنِ » بدأ بهما لشرفهما وعظم حقّهما « وَالْأَقْرَبِينَ » مَن عداهما من جميع القرابات« بِالْمَعْرُوفِ » وهو ما تتقبله الأنفس ولاتجد منه تكرّها .

= و [٢ / البقرة / ٢٧٣] ونصها: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ .

(١) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٢٤] ونصها : فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

وفى الصحيحين[١] : أنّ سعداً قال : يا رسول الله ، إنّ لى مالًا ولا يرثنى إلّا ابنة لى. أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال : لا..! قال : فبالشطر ؟ قال : لا ..! قال : فالثلث ؟ قال الثلث ، والثلث كثيرٌ ، إنّك أنْ تذر ورثتك أغنيـاء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس !

وفى صحيح البخارىّ[٢] أنّ ابن عباس قال : لوأنّ الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإنّ رسول الله ﷺ قال : الثلث والثلث كثير ..!

وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى سعيد مولى بنى هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة : سمعت

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٦ ـ باب رثى النبىّ ﷺ سعد بن خولة . ونصه :

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى . فقلت : إنى قد بلغ بى من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة . أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال « لا » فقلت : بالشطر ؟ فقال « لا » ثم قال « الثلث ، والثلث كبير (أو كثير) إنك أن تذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجرتَ بها ، حتى ما تجعل فى فى امرأتك » فقلت : يا رسول الله ! أخلَّف بعد أصحابى؟ قال « إنك لن تخلف فتعمل عملا صالحا إلا ازددت به درجة ورفعة . ثم لعلك أن تخلَّف حتى ينتفع بك أقوام ويُضرَّ بك آخرون . اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم » .

لـكن البائس سعد بن خولة يرثى له رسول الله ﷺ ، أن مات بمكة .

وأخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٣ ـ باب الوصية بالثلث .

ومسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بالجزء الخامس صفحة ٦٧ (طبعة الحلبىّ)=

حنظلة بن جذيم بن حنيفة أنّ جدّه حنيفة أوصى ليتيمٍ فى حجره بمائة من الإبل ، فشقّ ذلك على بنيه ، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ ، فقال حنيفة : إنّى أوصيت ليتيم لى بمائة من

= وها كم الحديث بطوله، بنصه:

عن ذيال بن عتبة بن حنظلة قال : سمعت حنظلة بن جذيم ، جدى ، أن جده حنيفة قال لجذيم : اجمع لى بَنِىّ فإنى أريد أن أوصى . فجمعهم فقال : إن أول ما أُوصى أن ليتيمى هذا الذى فى حجرى مائة من الإبل ، التى كنا نسميها فى الجاهلية المطيبة . فقال جذيم : ياأبت! إنى سمعت بنيك يقولون : إنما نقرّ بهذا عند أبينا . فإذا مات رجعنا فيه . قال : فبينى وبينكم رسول الله ﷺ . فقال جذيم : رضينا . فارتفع جذيم وحنيفة ، وحنظلة معهم غلام وهو رديف لجذيم. فلما أتوا النبىّ ﷺ سلموا عليه . فقال النبىّ ﷺ « وما رفعك؟ ياأبا جذيم! » قال : هذا . وضرب بيده على فخذ جذيم . فقال : إنى خشيت أن يفجأنى الكبر أو الموت ، فأردت أن أوصى . وإنى قلت : إن أول ما أوصى أن ليتيمى هذا ، الذى فى حجرى ، مائة من الإبل ، كنا نسميها فى الجاهلية المطيبة . فغضب رسول الله ﷺ حتى رأينا الغضب فى وجهه . وكان قاعداً فجثا على ركبتيه . وقال « لا . لا . لا . الصدقة خمس ، وإلا فعشر ، وإلا فخمس عشرة ، وإلا فعشرون ، وإلا فخمس وعشرون ، وإلا فثلاثون ، وإلا فخمس وثلاثون . فإن كثرت فأربعون » .

قال فودعوه ، ومع اليتيم عصا وهو يضرب جملا . فقال النبىّ ﷺ « عظمت هذه هراوة يتيم » .

قال حنظلة : فدنا بى إلى النبىّ ﷺ فقال : إن لى بنين ذوى لحى ودون ذلك ، وإن ذا أصغرهم فادع الله له . فمسح رأسه وقال « بارك الله فيك ، أو بورك فيه » .

قال ذيال : فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم وجهه ، أو البهيمة الوارمة الضرع فيتفل على يديه ويقول : بسم الله . ويضع يده على رأسه ويقول : على موضع كف رسول الله ﷺ ، فيمسحه عليه . وقال ذيال : فيذهب الورم .

الإبل كنا نسميها المطبية ، فقال النبيّ ﷺ : لا لا لا ..! الصدقة خمس ، وإلّا فعشر ، وإلّا فخمس عشرة ، وإلّا فعشرون ، وإلّا فخمس وعشرون ، وإلّا فثلاثون ، وإلّا فخمس وثلاثون ، فإن كثرتْ فأربعون ! وذكر الحديث بطوله .

ثمّ أكد تعالى الوجوب بقوله « حَقًّا » ـ وكذا قوله ـ « عَلَى الْمُتَّقِينَ » فهو إلهابٌ وتهييجٌ وتذكير بما أمامه من القدوم على من يسأله عن النقير والقطمير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨١] ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

« فَمَنْ بَدَّلَهُ » أي : فمن غيّر الإيصاء عن وجهه ، إن كان موافقاً للشرع ، من الأوصياء والشهود « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أي : بعد ما وصل إليه وتحقّق لديه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ » ـ أي التبديل ـ « عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ، فلا يلحق الموصى منه شيء وقد وقع أجره على الله « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وعيد شديد للمبدّلين .

هذا ، وما ذكرناه من أنّ المنهيّ عن التبديل إمّا الأوصياء أو الشهود هو المشهور . وهناك وجه آخر ـ أراه أقرب ـ وهو أن يكون المنهيّ عن التغيير هو الموصى . نُهِى عن تغيير الوصية عن المواضع التي بيّن تعالى الوصية إليها . وذلك لأنهم كانوا في الجاهلية يوصون للأبعدين الأجانب ، طلباً للفخر والشرف . ويتركون الأقارب في الفقر والمسكنة والضرّ ، فأوجب الله تعالى الوصية لهؤلاء منعاً للقوم عمّا اعتادوه ـ كذا قاله الأصم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَمَنْ خَافَ » أى توقّع وعلم ، وهذا فى كلامهم شائع ، يقولون : أخاف أن ترسل السماء ، يريدون التوقّع والظنّ الغالب، الجارى مجرى العلم « مِنْ مُوصٍ جَنَفًا » ميلاً عن الحقّ ، بالخطأ فى الوصية ، والتصرّف فيما ليس له « أَوْإِثْماً » أى : ميلا فيهاعمداً « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » أى : بينه وبين الموصَى لهم ـ وهم الوالدان والأقربون ـ بإجرائهم على طريق الشرع.

قال ابن جرير : بأن يأمره بالعدل فى وصيته ، وأن ينهاهم عن منعه فيما أذن له فيه وأبيح له . « فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : بهذا التبديل ، لأن تبديله تبديلُ باطل إلى حقّ ! ـ « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » قال ابن جرير : أى غفورٌ للموصِى ـ فيما كان حدّث به نفسه من الجنف والإثم إذا ترك أن يأثم ويجنف فى وصيته ـ فتجاوز له عما كان حدّث به نفسه من الجور إذْ لم يمض ذلك ، «رحيمٌ» بالمصلح بين الوصىّ وبين من أراد أن يحيف عليه لغيره أو يأثم فيه له..!

تنبيـــــه

(ما أفادته الآية من فرضية الوصية للوالدين والأقربين)

ذكر بعضهم : أنه كان واجباً قبل نزول آية المواريث . فلمّا نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدّرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمّل منّة الموصِى. ولهذا جاء فى الحديث (١) ـ الذى فى السنن وغيرها ـ عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : إنّ الله قد أعطى كلّ ذى حقٍّ حقّه ، فلا وصيّة لوارث ..!

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٨ ـ كتاب الوصايا ، ٥ ـ باب ما جاء لا وصية لوارث .

ونصّ الإمام الشافعى[١] على أنّ هذا المتن متواتر، فقال: وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنهم من أهل العلم بالمغازى من قريش وغيرهم لا يختلفون فى أنّ النبىّ ﷺ قال عام الفتح : لا وصيّةَ لوارث . ويأثرونه عمّن حفظوه عنه ممّن لقوه من أهل العلم ، فكانَ نقلَ كافة عن كافة . فهو أقوى من نقل واحد .

قال الإمام مالك فى «الموطأ»[٢] : السنّة الثابتة عندنا التى لا اختلاف فيها أنّه : لا تجوز وصيّة لوارث إلّا أن يجيز له ذلك ورثة الميّت .

وذهبت طائفة إلى أنّ الآية محكمة لا تخالف آية المواريث . والمعنى : كتب عليكم ما أوصاكم به من توريث الوالدين والأقربين من قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » أو كتب على المحتضر : أن يوصِي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم ، وأن لا ينقص من أنصبائهم ! فلا منافاة بين ثبوت الميراث للأقرباء ، مع ثبوت الوصية بالميراث عطيّة من الله تعالى ، والوصية عطيّة ممن حضره الموت . فالوارث جُمِع له بين الوصيّة والميراث بحكم الآيتين . ولو فرض المنافاة ، لأمكن جعل آية الميراث مخصّصة لهذه الآية. بإبقاء القريب الذى لا يكون وارثاً لأجل صلة الرحم . فقد أكد تعالى الإحسان إلى الأرحام وذوى القربى فى غير ما آيةٍ ، فتكون الوصية للأقارب الذين لا يرثون عَصَبة ، أو ذوى رحم مفروضة ..! قالوا : ونسخ وجوبها للوالدين والأقربين الوارثين لا يستلزم نسخ وجوبها فى غيرهم ..!

ومما استدلّ به على وجوب الوصيّة، من السنّة : خبر الصحيحين[٣] عن ابن عمر قال :

---

(١) الرسالة ـ بتحقيق أحمد محمد شاكر ، الفقرة رقم ٣٩٨و٣٩٩ .

(٢) الموطأ فى : ٣٧ ـ كتاب الوصية ، ٥ ـ باب الوصية للوارث والحيازة (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ١ ـ باب الوصايا وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم « وصية الرجل مكتوبة عنده » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

قال رسول الله ﷺ (١) : ما حق امرىء مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلّا ووصيّته مكتوبة عنـده . قال ابن عمر : ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلّا وعنـدى وصيّتى . . ! والآيات والأحاديث ـ بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم ـ كثيرة جدًّا . .!

ظهر لى(*) فى آية « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . . . الخ » ـ وكان درسنا صباحاً من البخارىّ فى (كتاب الوصايا) ـ أنّ هذه الآية ليست منسوخة ـ كما قيل ـ بل هى محكَمَة بطريقةٍ لا أدرى هل أحد سبقنى بها أم لا ؟ فإنى ـ فى تفسيرى المسمّى بمحاسن التأويل ـ نقلت هناك مذاهب العلماء ، ولا يحضرنى الآن أن ما سأذكره مأثور أم لا ؟ وهو أنّ هذه الآية مع آية : يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، متلاقيتان فى المعنى ، من حيث أن المراد بالوصيّة : وصية الله فى إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم ، وعدم الغض منها ، والحذر من تبديلها ، لما يلحق المبدّل من الوعيد الشديد ..! وخلاصة المعنى على ما ظهر :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ » أى : فرض عليكم فرضاً مؤكّداً بمثابة المكتوب الذى لا يُمحى ولا يعتوره تغيير « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى: قرب نزوله به بأن قرب مفارقته الحياة « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » أى : مالًا يورث « الْوَصِيَّةُ » أى : المعهودة ، وهى وصيّة الله سبحانه وتعالى فى إيتاء كلّ ذى حقٍّ حقّه ، على ما بينته تلك الآية « لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » أى : فى إبلاغهم فرضهم المبين فى آية « يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » فإنه أجمع آية « حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» تأكيد للكتابة بأنها أمر ثابت لايسوغ التسامح فيه بوجهٍ ما «فَمَنْ بَدَّلَهُ»

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ٤ (طبعتنا) .

(*) نُقِلَتْ هذه العبارة من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله وقد كتبها الجمعة ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٢٤ .

أى : هذا المكتوب الحقّ « بَعْدَ مَا سَمِعَهُ » أى : فعلم الحقّ المفروض فيه « فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى: فلا يخفى عليه شىء من حال المتثل والمبدّل، وقوله تعالى « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً » أى : ميلًا عمّا فرضه تعالى « أَوْ إِثْماً » أى : بقطع من يستحقّ عن حقّه، لما لا تخلو عنه كثير من الأنفس التى لم يدركها نور التهذيب « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » أى : بأمرٍ رضى به الكلّ « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : لأنّ الصلح جائز إلّا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالًا، والله أعلم . اهـ المنقول من الدفتر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ » ـ أى : فرض ـ « عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

واعلم أنّ مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمةً لهم، وإحساناً إليهم، وحميّةً، وجُنّةً ..! فإنّ المقصود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات، وفطمها عن المألوفات، وتعديل قوّتها الشهوانية، لتسعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به ممّا فيه حياتها الأبدية ..! ويكسر الجوعُ والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ..! وتضيق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب، وحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها، ويسكن كلّ عضو منها وكلّ قوّة عن جماحها، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنّة المجاهدين، ورياضة الأبرار والمقرّبين ..! وهو لربّ العالمين من بين سائر الأعمال، فإنّ الصائم لايفعل شيئا، إنما ترك شهوته وطعامه

وشرابه مِنْ أجل معبوده . فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته . وهو سرٌّ بين العبد وربّه ، ولا يطلع عليه سواه ..!

والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة . وأمّا كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده ، فهو أمرٌ لا يطلع عليه بشر . وذلك حقيقة الصوم ..! وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة . وحميتها عن التخليط الجالب لها الموادّ الفاسدة ، التى إذا استولت عليها أفسدتها . واستفراغ الموادّ الردية المانعة له من صحتها . فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها . ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات . فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى فى تتمة الآية : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ، وقال النبىّ ﷺ (١) : الصوم جُنّة . وَأَمَرَ (٢) من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه ، بالصيام . وجعله وجاء هذه الشهوة . وكان هدى رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدى ، وأعظم

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم، ٢ ـ باب فضل الصوم ، حديث ٩٦١ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الصيام جُنة . فلا يرفث ولا يجهل . وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم (مرتين) والذى نفسى بيده ! لخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك . يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى . الصيام لى وأنا أجزى به . والحسنة بعشر أمثالها ».

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب من لم يستطع الباءة فليصم، حديث ٩٦٧ ونصه :

قال عبد الله (بن مسعود) كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم شباباً لا نجد شيئاً . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب ! من استطاع الباءة فليتزوج . فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

تحصيلاً للمقصود ، وأسهله على النفوس ..! ولما كان فطم النفس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها ، تأخّر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة . لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة . وألفت أوامر القرآن . فنقلت إليه بالتدريج . وكان فرضه السنة الثانية من الهجرة . فتوفى رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات . وفرض أوّلًا على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كلّ يوم مسكيناً . ثمّ نقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة ـ إذا لم يطيقا الصيام ـ فإنهما يفطران ويطعمان عن كلّ يوم مسكيناً ـ كما سيأتى بيانه ـ وكان للصوم رتب ثلاث : أحدها : إيجابه بوصف التخيير . والثانية : تحتمه ، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة ، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة : وهى التى استقرّ عليها الشرع إلى يوم القيامة..! كذا أفاده ابن القيم فى زاد المعاد .

وقوله تعالى : « كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » تأكيد للحكم ، وترغيب فيه ، وتطييب لأنفس المخاطبين به ؛ فإنّ الشاقّ إذا عمّ سهل عمله ! والمماثلة إنّما هى فى أصل الوجوب لا فى الوقت والمقدار ، وفيه دليل على أنّ الصوم عبادة قديمة .

وفى التوراة ، سفر عَزْرا ، الأصحاح الثانى ، ص ٧٥٠ :

(٢١) « ونادَيتُ هناك بصوم على نهر أَهْوَا لكى نتذلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقا مستقيمة لنا ولأطفالنا ولكل مالِنا » .

وفى سفر إشَعْياء ، الأصحاح الثامن والخمسون ص ١٠٦٢ :

(٣) « يقولون لماذا صمنا ولم ننظر . ذلّلنا أنفسنا ولم نلاحظ . ها إنكم فى يوم صومكم توجدون مسرّةً وبكل أشغالكم تُسَخِّرُون . (٤) ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون ولِتَضربوا بِلَكْمَةِ الشرّ . لستم تصومون كما اليومَ لتسميع صوتكم فى العلاء . (٥) أمثل هذا يكون صومٌ أختارُهُ . يوما يذلّل الإنسان فيه نفسه يُحنى كالأَسَلَةِ رأسه ويفرُش تحته مِسْحاً ورمادا . هل تسمى هذا صوما ويوما مقبولا للرب ؟ ... الخ .

وفى سفر يوئيل ، الأصحاح الأول ، ص ١٢٩٩ :

(١٤) قدّسوا صوما .

وفى الأصحاح الثانى ، ص ١٣٠٠ :

(١٢) ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إلىّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح (١٣) ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطىء الغضب وكثير الرأفة .. (١٥) ... قدّسوا صوما نادوا باعتكاف (١٦) اجمعوا الشعب قدسوا الجماعة .

وفى سفر زكريا ، الأصحاح الثامن ، ص ١٣٤٧ :

(١٩) هكذا قال رب الجنود . إن صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت يهوذا ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة . فأحبوا الحق والسلام .

وفى إنجيل متّى ، الأصحاح السادس ص ١١ :

(١٧) وأما أنت فمتى صمت فادهُنْ رأسك واغسل وجهك (١٨) لكى لا تَظهر للناس صائما بل لأبيك الذى فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية .

الأصحاح السابع عشر ص ٣٢ :

لما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه (٢١) وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم .

وفى الأصحاح الرابع ص ٦ :

(٢) فبعد ما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيراً (أى المسيح عليه السلام) .

وفى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوسَ ، الأصحاح السادس ص ٢٩٥ :

(٤) بل فى كل شىء نُظهر أنفسنا كخُدَّام الله فى صبر كثير فى شدائد فى ضرورات فى ضِيقات (٥) فى ضَرَبات فى سجون فى اضطرابات فى أتعاب فى أسهار فى أصوام .

وفى الأصحاح الحادى عشر ص ٣٠١ :

(٢٧) فى تعب وكدّ . فى أسهار مرارا كثيرة . فى جوع وعطش . فى أصوام مرارا كثيرة . فى برد وعُرْى .

هذا ، ومتى أطلق الصوم فى كل شريعة ، فلا يُقصد به إلّا الامتناع عن الأكل كلّ النهارِ إلى المساء ، لا مجرّد إبدال طعامٍ بطعام .

وقوله تعالى : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى : تجعلون بينكم وبين سخطه تعالى وقاية بالمسارعة إليه ، والمواظبة عليه ، رجاءً لرضاه تعالى ؛ فإنّ الصوم يكسر الشهوة ، فيقمع الهوى ، فيردع عن مواقعة السوء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ » نصب على الظرف ، أى : كتب عليكم الصيام فى أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان ، كما بينها تعالى فيما بعد بقوله « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ » . « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً » أى : مرضاً يضرّه الصوم ، أو يعسر معه .

و (المرض) : السقم وهو نقيض الصحة واضطراب الطبيعة بعد صفائها واعتدالها « أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ » أى : فأفطر « فَعِدَّةٌ » أى : فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر « مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » غير المعدودات المذكورة ، وإنما رخّص الفطر فى حال المرض والسفر لما فى ذلك من المشقة . وقد سافر رسول الله ﷺ فى رمضان فى أعظم الغزوات وأجلها: فى غزوة بدر

وغزوة الفتح . قال عمر بن الخطاب[١] : غزونا مع رسـول الله ﷺ فى رمضان غزوتين : يوم بدر والفتح ، فأفطرنا فيهما .

تنبيهات

الأول : ثبت أنه ﷺ صام فى السفر وأفطر ، كما خيّر بعض الصحابة بين الصوم والفطر. ففى الصحيحين[٢] : عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: خرجنا مع النبىّ ﷺ فى بعض أسفاره فى يومٍ حارٍّ ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ ، وما فينا صائم إلّا ما كان من النبى ﷺ وابن رواحة . وقوله (فى بعض أسفاره) وقع فى إحدى روايتى مسلم ، بدله (فى شهر رمضان) . وعن عبـد الله بن أبى أوفى رضى الله قال[٣] : سرنا مع رسول الله ﷺ وهو صائم . وفى رواية : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فلما غابت الشمس قال لرجل : انزل فاجدح لنا ..! فقال : يا رسول الله ! لو أمسيت . قال : انزل فاجدح لنا قال : إن عليك نهاراً . فنزل ، فجدح له ، فشرب ، ثمّ قال : إذا رأيتم الليل قد أقبل من ههنا ـ وأشار بيده نحو المشرق ـ فقد أفطر الصائم. رواه الشيخان. واللفظ لمسلم .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٢٠ ـ باب ماجاء فى الرخصة للمحارب فى الإفطار .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٥ ـ باب حدثنا عبدالله بن يوسف، حديث ٩٨٩ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٠٨و١٠٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم، ٣٣ ـ باب الصوم فى السفر والإفطار، حديث ٩٨٦ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٥٢و٥٣ (طبعتنا)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال(١) : خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفان ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليُرِيَه الناسَ. فأفطر حتى قدم مكة ، وذلك فى رمضان .

فكان ابن عباس يقول : قد صام رسول صلى الله عليه وسلم وأفطر ، فمن شاء صام ، ومن شاء أفطر . رواه الشيخان. واللفظ للبخارىّ .

وعن قزعة قال(٢) : أتيت أبا سعيد الخدرىّ فسألته عن الصوم فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكّة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم قد دنوتم من عدوّكم ، والفطر أقوى لكم ! فكانت رخصةً ، فمنا من صام ومنا من أفطر ...

ثمّ نزلنامنزلًا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوّكم والفطر أقوى لكم فأفطروا. وكانت عزمةً فأفطرنا. ثم قال: لقد رأيتنا نصوم معرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فى السفر، رواه مسلم . وعن عائشة(٣) : أن حمزة بن عمرو الأسلمىّ قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أأَصوم فى السفر ؟ ـ وكان كثير الصيام ـ فقال : إنْ شئت فصم وإن شئت فأفطر . رواه البخارىّ .

ورواه مسلم من طريق آخر، أنه قال : يا رسول الله ! أَجِدُ بى قوّةً على الصيام فى السفر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٨ ـ باب من أفطر فى السفر ليراه الناس ، حديث ٩٨٨ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٨٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٠٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصيام، ٣٣ ـ باب الصوم فى السفر والإفطار، حديث ٩٨٧ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٠٣و١٠٤و١٠٧ (طبعتنا) .

فهل عليّ جناح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي رخصة من الله . فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه .

وعن أنس بن مالك قال[١] : كنا نسافر مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلم يَعِبِ الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . رواه الشيخان .

الثاني : لا يخفى أنّ جواز الصوم للمسافر ، إذا أطاقه بلاضرر . وأمّا إذا شقّ عليه الصوم ، فلا ريب في كراهته ، لما في الصحيحين[٢] : عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه في سفر ، فرأى زحاماً ، ورجل قد ظلل عليه ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : صائم ، فقال : ليس من البرِّ الصومُ في السفر . فلا ينافي هذا ما تقدم ، كما لا يرد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لأن السياق والقرائن تدل على تخصيصه بمن شقّ عليه الصوم . وما تقدم ، في غيره .

قال ابن دقيق العيد : وينبغي أن يتنبه للفرق بين دلالة السبب والسياق والقرائن على تخصيص العام ، وعلى مراد المتكلم ؛ وبين مجرد العام على سبب . فإن بين المقامين فرقاً واضحاً . ومن أجراهما مجرى واحداً لم يصب . فإنّ مجرد ورود العام على سبب لا يقتضي التخصيص به . كنزول آية السرقة في قصة رداء صفوان[٣] . وأمّا السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلم فهي المرشدة إلى بيان المجملات كما في هذا الحديث . انتهى . وهو استنباط جيد . وبالجملة : فالمريض والمسافر يباح لهما الفطر . فإن صاما ، صحّ . فإن تضرّرا ، كره ..!

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٧ ـ باب لم يعب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بعضهم بعضاً في الصوم والإفطار ، حديث ٩٩١ .
ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٩٨ و ٩٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٦ ـ باب قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن ظُلِّل عليه واشتد الحر « ليس من البر الصوم في السفر » ، حديث ٩٩٠ .
ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٩٢ (طبعتنا) .

(٣) انظر : المنتقى لابن تيمية ، حديث رقم (٤٠٨١) .

الثالث : لم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تقدير المسافة التي يفطر فيها الصائم بحدّ ، ولا صحّ عنه في ذلك شيء . وقد أفطر دحية بن خليفة الكلبيّ في سفر ثلاثة أميال ، وقال لمن صام : قد رغبوا عن هدى محمدٍ صلى الله عليه وسلم ..! وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت ، ويخبرون أنّ ذلك سنته وهديه صلى الله عليه وسلم. كما قال عبيد بن جبر[١] : ركبت مع أبي بَصْرة الغفاريّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفينة من الفسطاط في رمضان. فلم نجاوز البيوت حتى دعا بالسفرة . قال : اقترب. قلت : ألستَ ترى البيوت ؟ قال أبو بَصْرة : أترغب عن سنة رسول الله ﷺ ؟ رواه أبو داود وأحمد . ولفظ أحمد : ركبت مع أبي بصرة من الفسطاط إلى الاسكندرية في سفينة ، فلما دفعنا من مرسانا أمر بسفرته فقربت ، ثم دعاني إلى الغداء . وذلك في رمضان ، فقلت يا أبا بصرة ! والله ماتغيبت عنا منازلنا بعدُ. فقال : أترغب عن سنّة رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا! قال : فلم نزل مفطرين حتى بلغنا مَاحُوزَنا (قيل : أي موضعهم الذى أرادوه) وقال[٢] محمد بن كعب : أتيت أنس بن مالك في رمضان ـ وهو يريد السفر ـ وقد رُحِلت راحلته ، وقد لبس ثياب السفر ، فدعا بطعامٍ فأكل ، فقلت له : سنة ؟ قال : سنّة . ثم ركب . قال الترمذيّ : حديث حسن . وقال الدارقطنيّ فيه : فأكل وقد تقارب غروب الشمس ..! وهذه الآثار صريحة أنّ من أنشأ السفر في أثناء يومٍ من رمضان فله الفطر فيه . قاله في (زاد المعاد) .

« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ » أي الصوم ، إن أفطروا « فِدْيَةٌ » أي إعطاء فدية وهي « طَعَامُ مِسْكِينٍ » و (الفدية) ما يقي الإنسانُ به نفسَه من مالٍ يبذله في عبادةٍ يقصّر فيها ، و (الطعام) ما يؤكل وما به قوام البدن « فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا » بأن أطعم أكثر

(١) رواه أبو داود في : ١٤ ـ كتاب الصوم ، ٤٦ ـ باب متى يفطر المسافر إذا خرج ، حديث ٢٤١٢ . وأحمد في ص ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٧٦ ـ باب من أكل ثم خرج سفرا.

من مسكين « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ » لأنه فعل ما يدل على مزيد حبّه لربه « وَأَنْ تَصُومُوا » أيها المطيقون « خَيْرٌ لَكُمْ » من الفدية وإن زادت « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى فضيلة الصوم وفوائده ، أو إن كنتم من أهل العلم .

وقد ذهب الأكثرون إلى أن هذه الآية منسوخة بما بعدها . فإنه كان فى بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخّص لهم فى الإفطار والفدية . كما روى مسلم[1] عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » كان من أراد أن يفطر ويفتدى ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها . وأسند من طريق آخر عن سلمة أيضا قال : كنا فى رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء صام،ومن شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين ، حتى أنزلت هذه الآية « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » . وفى البخارىّ[2] : قال ابن عمر وسلمة بن الأكوع : نسختها « شَهْرُ رَمَضَانَ . . . » الآية . ثم روى عن ابن أبى ليلى : حدثنا أصحاب محمد ﷺ : نزل رمضان فشقّ عليهم ، فكان من أطعم كلّ يومٍ مسكيناً ترك الصوم ممن يطيقه ، ورخص لهم فى ذلك ، فنسخت وأمروا بالصوم . ثم أسند أيضا عن ابن عمر أنه قال : هى منسوخة .

هذا وقد روى البخارىّ[3] فى (التفسير) : عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقول فى هذه الآية : ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لايستطيعان أن يصوما فليطعمان مكان كلّ يومٍ مسكيناً .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٦ ـ باب فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، حديث ١٩٧١ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٤٩و١٥٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٣٩ ـ باب وعلى الذين يطيقونه .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٥ ـ باب قوله أياماً معدودات ، حديث ١٩٧٠ .

هذا ، وقد ذكر البخاري[(١)] في «التفسير» : أنّ أنس بن مالك أطعم ـ بعدما كبر ـ عاماً أو عامين ، كلّ يومٍ مسكيناً،خبزاً ولحماً،وأفطر ، رواه تعليقاً . ووصله أبو يعلى الموصليّ في « مسنده » . ورواه عَبْدُ بن حُمَيْد في « مسنده » من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه . وروى محمد بن هشام في « فوائده » عن حميد قال : ضعف أنس عن الصوم عام توفي فسألت ابنه عمر بن أنس : أطاق الصوم ؟ قال : لا . . ! فلما عرف أنه لايطيق القضاء أمر بجفانٍ من خبز ولحم فأطعم العدة أو أكثر ..!

ولما أبهم الأمر في الأيام عُيِّنت هنا بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« شَهْرُ رَمَضَانَ » لأنّ ذلك أفخم وآكد من تعيينه من أوّل الأمر .

وقال الراغب : جعل معالم فرضه على الأهلة ليبادر الإنسان به في كلّ وقتٍ من أوقات السنة ، كما يدور الشهر فيه من الصيف والشتاء والربيعين .

وفي رفع « شهرُ » وجهان : (أحدهما) أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي شهر ، يعني الأيام المعدودات . فعلى هذا يكون قوله « الَّذِى أُنْزِلَ » نعتاً للشهر أو لرمضان . و (الثاني)

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٥ ـ باب قوله أياماً معدودات .

هو مبتدأ . ثم فى الخبر وجهان : (أحدها) « الذى أنزل » ؛ و (الثانى) إنّ « الذىأنزل » صفة، والخبر هو الجملة التى هى قوله « فَمَنْ شَهِدَ » .

فإن قيل : لو كان خبراً لم يكن فيه الفاء لأنّ شهر رمضان لايشبه الشرط !

قيل : الفاء ـ على قول الأخفش ـ زائدة . وعلى قول غيره ليست زائدة ، وإنما دخلت لأنك وصفت الشهر بـ (الذى) ، فدخلت الفاء كما تدخل فى خبر نفس (الذى) . ومثله « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ »(١) . فإن قيل : فأين الضمير العائد على المبتدأ من الجملة ؟ قيل : وضع الظاهر موضعه تفخيماً أى : فمن شهده منكم . كذا فى العكبرىّ .

« الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ » أى : ابتدأ فيه إنزاله ، وكان ذلك فى ليلة القدر .

قال الرازىّ : لأن مبادى الملل والدول هى التى يؤرخ بها ، لكونها أشرف الأوقات ، ولأنها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة .

وقال سفيان بن عيينة : معناه : أنزل فى فضله القرآن. وهذا اختيار الحسين بن الفضل ، قال : ومثله أن يقال : أنزل الله فى الصديق كذا آية ، يريدون فى فضله .

وقال ابن الأنبارىّ : أنزل ـ فى إيجاب صومه على الخلق ـ القرآنُ ، كما يقال : أنزل الله فى الزكاة كذا وكذا ، يريد فى إيجابها ، وأنزل فى الخمر كذا يريد فى تحريمها ، والله أعلم .

قال الحرالىّ : أَشْعرت الآيةُ أنّ فى الصوم حسنَ تلقٍّ لمعناه ، ويسرًا لتلاوته ، ولذلك جمع فيه بين صوم النهار وتهجّد الليل ، وهو صيغة مبالغة من (القرء) وهو ما جمع الكتب والصحف والألواح . انتهى .

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ٨] . . . ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وفى مدحه ـ بإزاله فيه ـ مدح للقرآن به ، من حيث أشعر أنّ من أعظم المقاصد بمشروعيته تصفية الفكر لأجل فهم القرآن ، ليوقف على حقيقة ما اتبع هذا به من أوصافه التى قررتماافتتحت به السورة ، من أنّه لا ريب فيه ، وأنه هدًى، على وجهٍ أعمّ من ذلك الأول . فقال تعالى « هُدًى لِلنَّاسِ » نصب على الحال . « وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ » عطف على الحال قبله . فهى حال أيضاً . والظرف صفة . أى : أنزل حال كونه هداية للناس ، وآيات واضحة مرشدة إلى الحقّ ، فارقة بينه وبين الباطل . ولدفع سؤال التكرار فى قوله « وَبَيِّنَاتٍ . . . الخ » بعد قوله « هُدًى لِلنَّاسِ » حمل بعض المفسرين « الهدى » الأول بواسطة النكرة على الهدى الذى لايقدر قدره المختص بالقرآن أعنى هدايته بإعجازه . والثانى على الهدى الحاصل باشتماله على الواضحات من أمر الدين، والفرقان بين الحلال والحرام والأحكام والحدود والخروج من الشبهات .

وثمَّتَ وجه آخر نقله الرازىّ : وهو أن (الهدى) الثانى المراد به التوراة والإنجيل . قال تعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ [(١)] . فبين تعالى أن القرآن ـ مع كونه هدى فى نفسه ـ ففيه أيضاً هدى من الكتب المتقدمة التى هى هدى وفرقان ، والله أعلم .

« فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » هذا إيجاب حتمٌ على من شهد استهلال الشهر ـ أى : حضر فيه بأن كان مقيماً فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه ـ أن يصوم لا محالة . ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان . ثم أعيد ذكر الرخصة بقوله تعالى « وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » لئلاّ يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنّه خير ، أن الصوم حتم لا تتناوله الرخصة بوجهٍ ، أو

(١) [٣ / آل عمران / ٣و٤] ... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

تناوله ، ولـكنها مفضولة . وفيه عناية بأمر الرخصة ، وأنها محبوبة له تعالى كما ورد . وفى إطلاقه ، إشعار بصحة وقوع القضاء متتابعاً وغير متتابع « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ » أى تشريع السهولة بالترخيص للمريض والمسافر، وبقصر الصوم على شهر « وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » فى جعله عزيمة على الـكلّ ، وزيادته على شهر .

قال الحرالىّ : اليُسْر عَمَلٌ لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم . والعسر ما يجهد النفس ويضرّ الجسم .

قال الشعبىّ : إذا اختلف عليك أمران ، فإنّ أيسرهما أقربهما إلى الحقّ ، لهذه الآية .

وروى الإمام أحمد مرفوعاً[١] : إنّ خيردينـكم أيسره ، إن خيردينـكم أيسره. وروى أيضاً[٢] : إنّ دين الله فى يسرٍ (ثلاثاً) .

وفى الصحيحين[٣] : أنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما إلى اليمن : يسِّرا ولا تعسِّرا ، وبَشِّرا ولا تنفّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا .

وفى السنن والمسانيد[٤] : أنّ رسول الله ﷺ قال : بعثت بالحنيفيّة السمحة . أى التى

---

(١) مسند الإمام أحمد ، الجزء الثالث صفحة ٤٧٩ (طبعة الحلبىّ) عن أعرابىّ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، الجزء الخامس صفحة ٦٩ (طبعة الحلبىّ) عن عروة الفقيمىّ ونصه : كنا ننتظر النبىّ ﷺ ، فخرج رجِلًا يقطر رأسه من وضوء أو غسل ، فصلى . فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه : يا رسول الله ! أعلينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ « لا . أيها الناس ! إن دين الله عز وجل فى يسر » (ثلاثا يقولها) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٦٤ ـ باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب ، حديث ١١٢٩ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٤) مسند الإمام أحمد ، الجزء الخامس ، صفحة ٢٦٦ (طبعة الحلبىّ) ونصه : =

لا إصْرَ فيها ولا حرج . كما قال تعالى : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (١) .

« وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . علل لفعلٍ محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره . ولهذه الأمور شرع ذلك . يعنى جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر ، وأمر المرخّص له بمراعاة عدّة ما أفطر فيه ، ومن الترخيص فى إباحة الفطر . فقوله « لِتُكْمِلُوا » علّة الأمر بمراعاة العدّة . « ولِتُكَبِّرُوا » . علّة ما علّم من كيفية القضاء ، والخروج عن عهدة الفطر « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » علّة الترخيص والتيسير . وهذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبيّنه إلّا النقّاب المحدث من علماء البيان! وإنما عدّى (فعل التكبير) بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد . كأنه قيل :

= عن أبى أمامة قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سرية من سراياه . قال فمرّ رجل بغار فيه شىء من ماء . قال فحدّث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء . ويصيب ما حوله من بقل ويتخلى من الدنيا . ثم قال : لو أنى أتيت نبىّ الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فإن أذن لى فعلت . وإلا ، لم أفعل . فأتاه فقال : يا نبىّ الله ! إنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل . فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية . لكن بعثت بالحنيفية السمحة . والذى نفس محمد بيده ! لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها . ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة » .

(١) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

ولتكبّروا الله حامدين على ماهداكم . ومعنى «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» وإرادة أن تشكروا. ويجوز عطفها على اليسر أى : يريد بكم لتكملوا ... الخ ، كقوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا...الخ(١) . والمراد بالتكبير تعظيمه تعالى والثناء عليه ـ كذا أفاده الزمخشرىّ .

قال الحرالىّ : وفى لفظ : وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ ، إشعار لما أظهرته السنّة من صلاة العيد ، وأعلن فيها بالتكبير . وكرر مع الجهر فيها لمقصد موافقة معنى التكبير الذى إنّما يكون علناً . وجعلت فى براحٍ من متسع الأرض لمقصد التكبير . لأنّ تكبير الله إنما هو بما جلّ من مخلوقاته . انتهى ملخصاً .

وقال ابن كثير: وقوله تعالى «وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ». أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال« فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا »(٢) وقال « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٣) وقال « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ »(٤) ولهذا جاءت السنّة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات .

---

(١) [٦١ / الصف / ٨] ونصها : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٢/ البقرة/٢٠٠] ونصها: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ .

(٣) [٦٢/ الجمعة/ ١٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٤) [٥٠ / قٓ / ٣٩و٤٠] وأول الآيتين : فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ . . .

وقال ابن عباس(١) : ما كنّا نعرف انقضاء صلاة رسول ﷺ إلّا بالتكبير .

ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعيّة التكبير فى عيد الفطر من هذه الآية . حتى ذهب داود بن علىّ الأصبهانىّ الظاهرىّ إلى وجوبه فى عيد الفطر ، لظاهر الأمر فى قوله «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ » وفى مقابلته مذهب أبى حنيفة رحمه الله : أنه لا يشرع التكبير فى عيد الفطر . والباقون على استحبابه. انتهى .

وفى (زوائد المشكاة) عن عبد الله بن عمر أنّه كان إذا غدا يوم الأضحى ويوم الفطر يجهر بالتكبير حتى يأتى المصلّى . ثم يكبّر حتى يأتى الإمام . وفى روايةٍ : رفعه إلى النبىّ ﷺ ؛ رواه الدارقطنىّ . وعن نافع أنّ ابن عمر كان يغدو إلى المصلّى يوم الفطر إذا طلعت الشمس فيكبّر حتى يأتى المصلّى ، ثم يكبّر بالمصلّى حتى إذا جلس الإمام ترك التكبير. رواه الشافعىّ .

قال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعىّ : حديث أنه ﷺ كان يخرج يوم الفطر والأضحى رافعاً صوته بالتهليل والتكبير حتى يأتى المصلى ، رواه الحاكم والبيهقىّ من حديث ابن عمر من طرقٍ مرفوعاً وموقوفاً ، وصَحَّح وقفه . ورواه الشافعىّ موقوفاً أيضاً .

وفى الأوسط عن أبى هريرة مرفوعاً : زينوا أعيادكم بالتكبير . إسناده غريب . انتهى .

وفائدة طلب الشكر فى هذا الموضع ، هو أنّه تعالى ، لما أمر بالتكبير ، وهو لا يتم إلّا بأن يعلم العبد جلال الله وكبرياءه وعزّته وعظمته ، وكونه أكبر من أن تصل إليه عقول العقلاء ، وأوصاف الواصفين ، وذكر الذاكرين . ثمّ يعلم أنه سبحانه ـ مع جلاله وعزّته واستغنائه عن جميع المخلوقات ، فضلاً عن هذا المسكين ـ خصه الله بهذه الهداية العظيمة ـ لابدّ وأن يصير ذلك داعياً للعبد إلى الاشتغال بشكره ، والمواظبة على الثناء عليه بمقدار قدرته وطاقته ، فلهذا قال « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أفاده الرازىّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة . حديث ٤٩٨ ونصه : قال ابن عباس : كنت أعرف انقضاء صلاة النبىّ ﷺ بالتكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ » قال الراغب : هـذه الآية من تمام الآية الأولى . لأنّه لما حثّ على تكبيره وشكره على ما قيّضه لهم من تمام الصوم ، بيّن أنّ الذى يذكرونه ويشكرونه قريب منهم ، ومجيب لهم إذا دعوه ، ثم تمم ما بقى من أحكام الصوم .

قال الرازىّ : إنّ السؤال متى كان مبهماً ، والجواب مفصّلا ، دلّ الجواب على أنّ المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعيّن . فلما قال فى الجواب « فَإِنِّى قَرِيبٌ » علمنا أنّ السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات ، أى كما صرّحت به الرواية السابقة . و (القريب) من أسمائه تعالى الحسنى . ومعناه القريب من عبده بسماعه دعاءه ، ورؤيته تضرّعه ، وعلمه به ، كما قال «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»(١) وقال « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ »(٢) وقال « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »(٣) .

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٦] ونصها: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

قال الإمام تقيّ الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، فى عقيدته الواسطية :

ودخل ـ فيما ذكرناه من الإيمان بالله ـ الإيمان بما أخبر الله به فى كتابه ، وتواتر عن رسوله ﷺ ، وأجمع عليه سلف الأمة . من أنّه سبحانه فوق سماواته على عرشه ، عليّ على خلقه . وهو معهم سبحانه أينما كانوا . يعلم ما هم عاملون . كما جمع بين ذلك فى قوله « هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(١) . وليس معنى قوله « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » أنّه مختلط بالخلق ، فإنّ هذا لاتوجبه اللغة . وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة . وخلاف ما فطر الله عليه الخلق . بل القمر ـ آية من آيات الله ـ من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع فى السماء ، وهو مع المسافر أينما كان . وهو سبحانه فوق العرش رقيبٌ على خلقه . مهيمنٌ عليهم . مطلعٌ إليهم . إلى غير ذلك من معانى ربوبيته . وكلّ هذا الكلام الذى ذكره الله من أنّه فوق العرش ، وأنّه معنا ـ حقٌّ على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة . ودخل فى ذلك : الإيمانُ بأنه قريب من خلقه ، كما قال تعالى « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ... الآية » . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم(٢) : إنّ الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . وما ذكر فى الكتاب والسنة ـ من قربه ومعيته ـ لا ينافى ما ذكر من علوّه وفوقيته . . ! فإنه سبحانه ليس كمثله شيء(٣)

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٤٣١ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٦ (طبعتنا) عن أبى موسى الأشعريّ .

(٣) [٤٢/الشورى/١١] ونصها: فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

فى جميع نعوته . وهو علىٌّ فى دنوّه ، قريبٌ فى علوّه . . ! انتهى كلامه ، رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » تقريرٌ للقرب وتحقيق له . ووعد للداعى بالإجابة . وقد قرئ فى السبع بإثبات الياء فى (الداع) و (دعان) فى الوصل دون الوقف ، وبالحذف مطلقاً .

تنبيهات

الأول : فى معنى الدعاء :

قال فى القاموس وشرحه : الدعاء : الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتهال إليه بالسؤال . ويطلق على العبادة والاستغاثة .

الثانى : فيما فسرّ به قوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ » :

قال ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى هديه ﷺ فى سجوده ما نصه : وأمر ـ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ بالدعاء فى السجود ، وقال[1] : إنه قمن أن يستجاب لكم. وهل هذا أمر بأن يكثر الدعاء فى السجود ؟ أو أمر بأنّ الداعى إذا دعا فى محلّ فليكن فى السجود ؟ وفرق بين الأمرين ..! وأحسن ما يحمل عليه الحديث ، أنّ الدعاء نوعان : دعاء ثناء ، ودعاء مسألة . والنبىّ ﷺ كان يكثر فى سجوده من النوعين . والدعاء الذى أمر به فى السجود يتناول النوعين . والاستجابة ـ أيضاً ـ نوعان : استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) ونصه :

عن ابن عباس قال : كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة ، والناس صفوف خلف أبى بكر . فقال « أيها الناس ! إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترُى له . ألا وإنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل . وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء . فقمن أن يستجاب لكم » .

واستجابة دعاء المثنى بالثواب . وبكلّ واحدٍ من النوعين فسّر قوله تعالى « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » . والصحيح أنّه يعمّ النوعين . انتهى .

الثالث : فيمن هو الداعى المجاب :

قال الراغب : بيّن تعالى ـ فى هذه الآية ـ إفضاله على عباده ، وضمن أنهم إذا دعوه أجابهم ، وعليه نبّه بقوله تعالى « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(١) . إن قيل : قد ضمن فى الآيتين أنّ من دعاه أجابه ، وكم رأينا من داعٍ له لم يجبه ! قيل : إنّه ضمن الإجابة لعباده ، ولم يرد بالعباد مَنْ ذكرهم بقوله « إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا »(٢) ؛ وإنّما عنى به الموصوفين بقوله « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »(٣) وقوله « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ »(٤) الآيات ؛ وللدعاء المجاب شرائط وهى : أن يدعو بأحسن الأسماء ، كما قال تعالى « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا »(٥) ، ويخلص النيّة ، ويظهر الافتقار ، ولا يدعو بإثم ، ولا بما يستعين به على معاداته . وأن يعلم أنّ نعمته فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما خوّله وأعطاه . ومعلوم أنّ من هذا حاله فمجاب الدعوة ..! اهـ.

وقال ابن القيّم ، عليه الرحمة ، أيضاً فى أول كتابه (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء

---

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] ونصها: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٩٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٤٢] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] ونصها : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

الشافى) ما نصّه ، بعد جمل : وكذلك الدعاء . فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب . ولكن قد يتخلف عنه أثره . إمّا لضعفه فى نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان . وإمّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء . فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً . فإنّ السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً . وإمّا لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورَيْن الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها . كما فى صحيح الحاكم من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ ! . فهذا دواء نافع مزيل الداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته . وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها . كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : أيها الناس ! إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيباً . وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » [٢٣/ المؤمنون / ٥١] وقال ، « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ » [٢ / البقرة / ١٧٢] ثم ذكر : الرجلُ يطيل السفر أشعثَ أغبر يمدّ يده إلى السماء : ياربّ ياربّ ! ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام . فأنَّى يستجاب لذلك ..؟ . وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب (الزهد) لأبيه : أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلىّ أكفّاً قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام . الآن حين اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلّا بعداً ..!

ثم قال ابن القيم رحمه الله : والدعاء من أنفع الأدوية . وهو عدوّ البلاء ، يدافعه ، ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه أو يخففه إذا نزل . وهو سلاح المؤمن . كما روى الحاكم فى

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

(صحيحه) من حديث عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ! وله مع البلاء ثلاث مقامات : أحدها ، أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه . الثانى ، أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً . الثالث ، أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه ..!

وقد روى الحاكم فى (صحيحه) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغنى حذر من قدر . والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . وإنّ البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة ! . وفيه أيضاً ، من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . فعليكم ، عباد الله ، بالدعاء ! . وفيه أيضاً : من حديث ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا يردّ القدرَ إلّا الدعاء . ولا يزيد فى العمر إلّا البرُّ . وإنّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ..!

ثم قال ابن القيم رضى الله عنه : ومن أنفع الأدوية الإلحاح فى الدعاء . وقد روى ابن ماجة فى (سننه)[1] من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم يسأل الله يغضب عليه ! وفى (صحيح الحاكم) من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد . وذكر الأوزاعيّ عن الزهريّ عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الله يحبّ الملحّين فى الدعاء ! وفى كتاب (الزهد) للإمام أحمد عن قتادة قال : قال مورّق : ما وجدت للمؤمن مثلًا إلا رجل فى البحر على خشبة . فهو يدعو : يا ربّ يارب ! لعلّ الله عزّ وجلّ أن ينجيه ..!

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى: ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١ ـ باب فضل الدعاء ، حديث٣٨٢٧ (طبعتنا) ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله ، سبحانه ، غضب عليه » .

ثم قال ابن القيّم، نوّر الله ضريحه : ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه ، أن يستعجل العبد ويستبطىء الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه . فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله ..! وفي البخاريّ[١] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يستجاب لأحدكم مالم يعجل . يقول: دعوت فلم يستجب لي ! . وفي صحيح مسلم[٢] عنه : لا يزال يستجاب للعبد مالم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل ! قيل : يا رسول الله ! ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لي . فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء . وفي (مسند أحمد)[٣] من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . قالوا : يا رسول الله ! كيف يستعجل ؟ قال : يقول : قد دعوت لربي فلم يستجب لي .

ثم قال :

فصل

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة ، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم ، وصادف خشوعا في القلب ، وانكسارا بين يدي

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٢٢ ـ باب يستجاب للعبد مالم يعجل ، حديث ٢٣٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه أحمد في الجزء الثالث صفحة ١٩٣ (طبعة الحلبيّ) .

الرب ، وذلًّا له وتضرّعا ورقّة ، واستقبل الداعى القِبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ، ثم قدّم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دخل على الله وألحّ عليه فى المسألة وتملّقهُ ودعاه رغبةً ورهبة ، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدّم بين يدى دعائه صدقة ـ فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبدا . ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . فمنها ما فى السنن وفى (صحيح ابن حبان)(١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ..! فقال : لقد سألت الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دُعى به أجاب ! وفى لفظ : لقد سألت الله باسمه الأعظم .! وفى السنن(٢) و(صحيح ابن حبان) أيضا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ثم دعا : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنّان بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حى ياقيوم ! فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعىَ به أجاب وإذا سئل به أعطى ! وأخرج الحديثين أحمد فى (مسنده) . وفى (جامع الترمذىّ)(٣) من حديث أسماء بنت يزيد : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اسم

---

(١) أخرجه أبوداود بهذا النص فى: ٨ـ كتاب الوتر، ٢٣ـ باب الدعاء، حديث ١٤٩٣. وأخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٦٣ـ باب جامع الدعوات عن النبىّ ﷺ. وفيه : فقال « والذى نفسى بيده ! لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث ١٤٩٥ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٦٤ ـ باب حدثنا قتيبة .

الله الأعظم فى هاتين الآيتين « وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ » [٢ / البقرة / ١٦٣] وفاتحة آل عمران « الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » ، قال الترمذىّ : هذا حديث حسن صحيح. وفى (مسند أحمد)[1] و (صحيح الحاكم) من حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام . يعنى : تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها . وفى (جامع الترمذىّ)[2] من حديث أبى هريرة أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الله العظيم . وإذا اجتهد فى الدعاء قال : يا حى ياقيوم . . ! وفيه أيضا من حديث أنس بن مالك قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال : ياحى ياقيوم ! برحمتك أستغيث .

وفى (صحيح الحاكم)[3] من حديث أبى أُمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الأعظم فى ثلاث سور من القرآن : البقرة وآل عمران وطه .

قال القاسم : فالتمستها فإذا هى آية الحىّ القيوم . وفى (جامع الترمذىّ)[4] و (صحيح الحاكم) من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لاإله إلاأنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فإنه لم يدع بها رجل مسلم، فى شىء قط، إلااستجاب الله له قال الترمذىّ: حديث صحيح. وفى (صحيح الحاكم) أيضا من حديث سعد عن النبىّ ﷺ : ألا أخبركم بشىء إذا نزل برجل منكم أمرٌ مهمٌّ فدعا به يفرج الله عنه : دعاء ذى النون . وفى (صحيحه) أيضا عنه أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه فى المسند فى الجزء الرابع، صفحة١٧٧ (طبعة الحلبىّ) عن ربيعة بن عامر.
(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ـ كتاب الدعوات، ٣٩ـ باب ماجاء مايقول عند الكرب.
(٣) أخرجه الترمذىّ فى:٤٥ـ كتاب الدعوات، ٩١ـ باب حدثنا محمد بن حاتم المكتب.
(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨١ ـ باب حدثنا محمد بن يحيى .

وهو يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دعاء يونس . فقال رجل : يارسول الله ! هل كان ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ »(١) فأيّما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك، أُعطى أجر شهيد. وإن برأ، برأ مغفوراً له ! وفى (الصحيحين)(٢) من حديث ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات وربّ الأرض رب العرش الكريم . ! وفى (مسند الإمام أحمد)(٣) من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل بى كرب أن أقول : لا إله إلّا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله ربّ العرش العظيم، والحمد لله ربّ العالمين . وفى (مسنده) أيضاً(٤)، من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصاب أحداً قطّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهمّ! إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك . ماضٍ فىَّ حكمك. عدْلٌ فىَّ قضاؤك . أسألك اللهمّ بكلّ اسمٍ هوَ لك سمّيت به نفسك , أو علّمته أحداً من خلقك . أو أنزلته فى كتابك . أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . أن تجعل القرآنَ العظيم

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٨٨] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٢٧ ـ باب الدعاء عند الكرب ، حديث ٢٤٠٠ .

وأخرجه مسلم فى: ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث٨٣(طبعتنا).

(٣) أخرجه فى المسند فى الجزء الأول، صفحة ٩١ (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم٧٠١ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه فى المسند فى الجزء الأول ، صفحة ٣٩١ (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

ربيع قلبي ، ونورَ بصري، وجلاء حزني ، وذهاب همّي .! إلّا أذهب الله همّه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً . فقيل : يا رسول الله ! ألا نتعلّمها ؟ قال : بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها .

وقال ابن مسعود : ما كرب نبيّ من الأنبياء إلّا استغاث بالتسبيح .

ثم قال ابن القيّم : وكثيراً ما نجد أدعيةً دعا بها قوم فاستجيب لهم ، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته . فيظنّ الظانّ أنّ السرّ في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجرّداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فانتفع به. فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرّده كافٍ في حصول المطلوب كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا، قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبرٍ فيجاب. فيظنّ الجاهل أنّ السرّ للقبر . ولم يعلم أنّ السرّ للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك في بيتٍ من بيوت الله كان أفضل وأحبّ إلى الله ..!

ثمّ قال ابن القيّم : والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه لا بحدّه فقط ! فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به ، والساعد ساعدٌ قويّ ، والمانع مفقود ، حصلت به النكاية في العدوّ ..! ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة ، تخلّف التأثيرُ ..! فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثمّ مانع من الإجابة ـ لم يحصل التأثير ..!

ثم قال ابن القيّم : وهنا سؤال مشهور وهو : أنّ المدْعو بهِ إنْ كان قد قدّر لم يكن بدّ من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدعُ . وإن لم يكن قد قدر لم يقع ، سواء سأله العبد أو لم يسأله . فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء وقالت : لا فائدة فيه ! وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ يتناقضون . فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب .

فيقال لأحدهم إن كان الشبع والرىّ قد قدر لك فلابد من وقوعهما. أكلتَ أو لم تأكل . وإنْ لم يقدرا لم يقعا. أكلتَ أولم تأكل . وإنْ كان الولد قدّر لك، فلا بدّ منه ، وطأتَ الزوجة والأَمَة أو لم تطأها . وإن لم يقدّر لم يكن. فلا حاجة إلى التزويج والتسرّى. وهلمّ جرّا ... فهل يقال : هذا عاقل أو آدمىّ ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته . فالحيوانات أَعقل وأَفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلًا ..!

وتكايس بعضهم . وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبّد المحض . يثيب الله عليه الداعى من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجهٍ ما ..! ولا فرق ـ عند هذا الكيّس ـ بين الدعاء والإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ، ولا فرق ..! وقالت طائفة أخرى أَكْيَسُ من هؤلاء : بل الدعاء علامة مجرّدة نصبها الله سبحانه أمارةً على قضاء الحاجة . فمتى وفّق العبد للدعاء كان ذلك علامة له ، وأمارة على أنّ حاجته قد قضيت ..! وهذا كمَا إذا رأيت غيماً أسودبارداً فى زمن الشتاء . فإنّ ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر ..! قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر والمعاصى مع العقاب ، هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لأنها أسباب له ..! وهكذا ـ عندهم ـ الكسر مع الانكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل ، ليس شىء من ذلك سبباً البتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلّا بمجرّد الاقتران العادىّ لاالتأثير السببىّ . وخالفوا ، بذلك ، الحسّ والعقلَ والشرعَ وسائرَ طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء ..! والصواب أنّ هٰهُنا قسماً ثالثاً غير ماذكره السائل ، وهو : إنّ هذا المقدور قدّر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدر مجرّداً عن سببه ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور . وهذا كمَا قدر الشبع والرىّ بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطء ، وقدر حصول الزرع بالبذر ،

وقدر خروج نفَس الحيوان بذبحه . وكذلك قدّر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال. وهذا القسم هو الحقّ ، وهذا الذى حُرِمَهُ السائل ولم يوفق له . وحينئذٍ ، فالدعاء ، من أقوى الأسباب . فإذا قدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء ، لم يصح أن يقال : لا فائدة فى الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال ؛ وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ فى حصول المطلوب ! ولمّا كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الأمّة بالله ورسوله وأفقههم فى دينه ، كانوا أقومَ بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر رضى الله عنه يستنصر به على عدوّه . وكان أعظمَ جنده ، وكان يقول للصحابة : لستم تُنصرون بكثرةٍ وإنما تُنصرون من السماء ! وكان يقول : إنى لا أحمل همّ الإجابة ولكن همّ الدعاء ، فإذا أُلهمت الدعاء فإنّ الإجابة معه ..!

فمن أُلهم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإنّ الله سبحانه يقول «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ»(١)، « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »(٢) . وفى (سُنن ابن ماجة)(٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يسأل الله يغضب عليه. وهذا يدلّ على أن رضاه فى سؤاله وطاعتِهِ ، وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكلّ خيرٍ فى رضاه ، كما أنّ كلّ بلاء ومصيبةٍ فى غضبه..! وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب (الزهد) أثراً : أنا الله لا إله إلّا أنا ، إذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى . وإذا غضبت لعنت ولعنتى تبلغ السابع من الولد ! وقد دلّ العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونِحَلِها ـ على أنّ التقرّب إلى ربّ العالمين ، وطلب مرضاته ، والبرّ والإحسان إلى خلقه ، من أعظم الأسباب الجالبة لكلّ خير ؛ وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ٤٣٦ .

لكل شرّ . . ! فما استجلبت نِعَمُ الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرّب إليه والإحسان إلى خلقه ! وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة ، وحصول السرور فى الدنيا والآخرة ـ فى كتابه ـ على الأعمال ، ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلّة ، والمسبب على السبب . وهـذا فى القرآن يزيد على ألف موضع : فتارةً يرتب الحكم الخبرىّ الكونىّ والأمر الشرعىّ على الوصف المناسب له ، كقوله تعالى « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »(١) ، وقوله « فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »(٢) ، وقوله « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا »(٣) وقوله « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ـ إلى قوله ـ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا »(٤) . وهذا كثير جداً ..!

وتارة ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء : كقوله تعالى « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ »(٥) وقوله « وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٣) [٥ / المائدة / ٣٨] ونصها : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٥] ونصها : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

(٥) [٨ / الأنفال / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا »[١] وقوله « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ »[٢] ونظائره ...

وتارة يأتي بـ(لام التعليل) : كقوله « لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ »[٣] وقوله « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »[٤] .

وتارة يأتي بأداة (كي) التي للتعليل ، كقوله « كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »[٥] ...

وتارة يأتي بـ(باء السببية) كقوله تعالى « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ »[٦] وقوله « بِمَا

(١) [٧٢ / الجن / ١٦] .

(٢) [٩ / التوبة / ١١] .

(٣) [٣٨ / صٓ / ٢٩] ونصها : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٥) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٦) [٣ / آل عمران / ١٨٢] ونصها : ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[١] و « بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ »[٢] وقوله « ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا »[٣] ...

وتارة يأتى بـ (المفعول لأجله) ظاهراً أو محذوفا ، كقوله « فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ »[٤] وكقوله تعالى « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ »[٥] وقوله « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا »[٦] أى كراهة أن تقولوا ...

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤٣] ونصها : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٩] ونصها : وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ٩٨] ونصها : ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ونصها : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٥٦] ونصها : أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

وتارة بـ (فاء السببية) ، كقوله « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ »(١) وقوله « فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً »(٢) ، وقوله « فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ »(٣) ونظائره ...

وتارة يأتي بأداة (لمّا) الدالة على الجزاء ، كقوله « فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »(٤) ونظائره ...

وتارة يأتي بـ (إنّ) وماعملت فيه ، كقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ »(٥) وقوله في ضدّ هؤلاء « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ »(٦) ...

وتارة يأتي بأداة (لولا) الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها ، كقوله « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »(٧) ...

وتارة يأتي بـ (لو) الدالة على الشرط ، كقوله « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ »(٨) ...

---

(١) [٩١/الشمس/١٤] ونصها : فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ١٠] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٤٨] .

(٤) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٥) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

(٦) [٢١ / الأنبياء / ٧٧] ونصها : وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

(٧) [٣٧ / الصافات / ١١٣و١١٤] .

(٨) [٤ / النساء / ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ =

وبالجملة : فالقرآن ـ من أوله إلى آخره ـ صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب ، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال . ومن تفقّه فى هذه المسألة ، وتأملها حقّ التأمل ، انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة ؛ فيكون توكله عجزاً ، وعجزه توكّلاً ..! بل الفقيه ـ كلّ الفقيه ـ الذى يردّ القدرَ بالقدرِ ، ويدفع القدَر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر . لا يمكن للإنسان أن يعيش إلّا بذلك ..! فإنّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هى من القدر . والخلق كلهم ساعون فى دفع هذا القدر ..! وهكذا من وفّقه الله وألهمه رشده يدفع قَدَرَ العقوبة الأخروية بقَدَرِ التوبة والإيمان والأعمال الصالحة..! فهذا وزن القدر المخوف فى الدنيا ومايضادّه ، فربّ الدارين واحدٌ ، وحكمته واحدة لا يناقض بعضها بعضاً . ولا يبطل بعضها بعضاً ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حقّ رعايتها ..! والله المستعان .

ولكن يبقى عليه أمران بهما تتمّ سعادته وفلاحه :

أحدهما : أن يعرف تفاصيل أسباب الشرّ والخير ويكون له بصيرة فى ذلك بماشهده فى العالم ، وما جرّبه فى نفسه وغيره ، وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً .

ومن أنفع مافى ذلك : تدبّر القرآن ، فإنّه كفيل بذلك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الخير والشرّ جميعاً مفصّلة مبينة ؛ ثمّ السنة فإنها شقيقة القرآن وهى الوحى الثانى . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما ، وهما يريانك الخير والشرّ وأسبابهما ، حتى كأنك تعاين ذلك عياناً ..! وبعد ذلك ، فإذا تأملت أخبار الأمم ، وأيام الله فى أهل طاعته وأهل

= أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً .

معصيته ، طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنّة ، ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به . وعلمت من آياته فى الآفاق ما يدلك على أنّ القرآن حقٌّ ، وأنّ الرسول حقٌّ ، وأنّ الله ينجز وعده لامحالة ..! فالتاريخ تفصيلٌ لجزئيات ماعرّفنا الله ورسوله من الأسباب الكليّة للخير والشرّ ..! انتهى .

وقوله تعالى « فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي » أى: إذا دعوتهم للإيمان والطاعة. كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم « وَلْيُؤْمِنُوا بِي » أمر بالثبات على ماهم عليه « لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » أى : راجين إصابة الرشد وهو الحقّ .

تنبيهان

الأول : قال الراغب : أوثر (فليستجيبوا) على (فليجيبوا) لِلَطيفةٍ وهى : أن حقيقة الاستجابة طلب الإجابة وإن كان قد يستعمل فى معنى الإجابة . فبين أن العباد متى تحروا إجابته بقدر وسعهم فإنه يرضى عنهم . إن قيل : كيف جمع بين الاستجابة والإيمان ، وأحدهما يغنى عن الآخر ، فإنه لا يكون مستجيباً لله من لا يكون مؤمناً ؟ قُلْنا : استجابته ارتسام أوامره ونواهيه التى تتولاه الجوارح ، والإيمان هو الذى تقتضيه القلوب . وأيضاً فإنّ الإيمان المعنىّ ههنا هو الإيمان المذكور فى قوله « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ... »(١) الآية ! » .

الثانى : قدمنا عن الراغب سرّ وصل هذه الآية بما قبلها ووجه التناسب ؛ وثَمَّتَ سرّ آخر قاله الحافظ ابن كثير . وعبارته :

وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللةً بين أحكام الصيام، إرشادٌ إلى الاجتهاد

(١) [٨ / الأنفال / ٢] ونصها : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

فى الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر. كما روى أبو داود الطيالسىّ فى «مسنده»(١) عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة ! . فكان عبد الله ابن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجة(٢) عن عبد الله ابن عمرو قال : قال النبىّ ﷺ : إنّ للصائم عند فطره دعوة ما تردّ . . ! وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهمّ إنّى أسألك برحمتك التى وسعت كلّ شىء أن تغفر لى ..! وروى الإمام أحمد ، والترمذىّ ، والنسائىّ ، وابن ماجة(٣) : عن أبى هريرة قال : قال رسول ﷺ : ثلاثة لا تردّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزّتى لأنصرنّك ولو بعد حين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

---

(١) حديث رقم ٢٢٦٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٧ ـ كتاب الصيام ، ٤٨ ـ باب الصائم لا ترد دعوته ، حديث ١٧٥٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٧ ـ كتاب الصيام ، ٤٨ ـ باب فى الصائم لا ترد دعوته ، حديث ١٧٥٢ (طبعتنا) .

وقوله تعالى :

« أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ » إرشاد إلى ما شرعه فى الصوم ـ بعد بيان إيجابه على من وجب عليه ، وحاله معه حضراً أو سفراً ، وعدّته ـ من إحلال غشيان الزوج ليلًا . وكأنّ الصحابة تحرّجوا عن ذلك ظناً أنّه من تتمّة الصوم ، ورأوا أن لا صَبْرَ لأنفسهم عنه ، فبيّن لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه .

وقد روى البخاريّ(١) عن البراء رضى الله عنه قال : لمّا نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضانَ كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله : عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ .

إيذاناً بأنه أحلّه ولم يحرّمه ، إذْ لم يشرع من فضله ما فيه إعنات وحرج .

و (الرفث) أصله قول الفحش . وكُنى به هنا عن الجماع وما يتبعه . كما كُنى عنه فى قوله « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا »(٢) وقوله « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ »(٣) . فالله تعالى كريم يكنى ، وإيثار الكناية عنه ـ هنا ـ بلفظ الرفث الدال على معنى القبح ـ عدا بقية الآيات ـ استهجاناً لما

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٧ ـ باب أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٩] ونصها: هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ؛ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٣] ونصها : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم . والكناية عما يستقبح ذكره بما يستحسن لفظه من سنن العرب . وللثعالبيّ فى آخر كتابه (فقه اللغة) فصل فى ذلك بديع .

ثم إنّ المستعمل الشائع : رفث بالمرأة ـ بالباء ـ وإنما عدى هنا بـ (إلى) لتضمنه معنى الإفضاء ، كما فى قوله « وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ »[1].

« هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه ستراً لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما سوء ، كما أن اللباس ستر يمنع أن يبدو منه السَّوْأَة . وعلى ذلك كنى عن المرأة بالإزار ، وسمّى النكاح حصناً لكونه حصناً لذويه عن تعاطى القبيح .

وهذا ألطف من قول بعضهم : شبّه كل واحد من الزوجين ـ لاشتماله على صاحبه فى العناق والضمّ ـ باللباس المشتمل على لابسه ، وفيه قال الجعدىّ[2] :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها   تثنّت فكانت عليه لباساً

وقال الزمخشرىّ : فإن قلتَ : ما موقع قوله « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ؟ قلتُ : هو استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة ، قلّ صبركم عنهن ، وصعب عليكم اجتنابهنّ ؛ فلذلك رخّص لكم فى مباشرتهنّ .

« عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ » استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب وهو (اختيان النفس) ، أى : قلة تصبيرها من نزوعها إلى رغبتها . ومنه : خانَتْهُ رِجلاه إذا لم يقدر على المشى . أى : علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم لو لم يحلّ لكم ذلك

---

(١) [٤ / النساء / ٢١] ونصها : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً .

(٢) قائله النابغة الجعدىّ . قال فى اللسان : يقال : لبستُ امرأة أى تمتعت بها زمنا . ولبستُ قوماً أى تمليت بهم دهرا . والعرب تسمى المرأة لباسا وإزارا .

فأحلّه رحمةً بكم ولطفاً . وفى (الاختيان) وجه آخر وهو : أنّه عنى به مخالفة الحقّ بنقض العهد ، أى : كنتم تظلمونها بذلك ـ بتعريضها للعقاب ـ لو لم يحلّ ذلك لكم . قالوا : والاختيان أبلغ من الخيانه ـ كالاكتساب من الكسب ـ ففيه زيادةٌ وشدّة .

ثمّ أشار تعالى إلى لطفه بالمؤمنين بتخفيفه ما كان يغلّهم ويثقلهم ويخونهم لولا رحمته، بقوله: « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى : عاد بفضله وتيسيره عليكم برفع الحرج فى الرفث ليلًا « وَعَفَا عَنْكُمْ » أى : جاوز عنكم تحريمه ، و (العفو) بمعنى التوسعة والتخفيف . « فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » قال أبو البقاء : حقيقة (الآن) الوقت الذى أنت فيه ؛ وقد يقع على الماضى القريب منك ، وعلى المستقبل القريب وقوعه . تنزيلًا للقريب منزلة الحاضر وهو المراد ـ هنا ـ لأنّ قوله « فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ » أى : فالوقت الذى كان يحرم عليكم الجماع فيه من الليل قد أبحناه لكم فيه ؛ فعلى هذا (الآن) ظرف لـ (باشروهنّ) . وقيل : الكلام محمول على المعنى ، والتقدير : فالآن قد أبحنا لكم أن تباشروهنّ . ودلّ على المحذوف لفظ الأمر الذى يراد به الإباحة . فعلى هذا ، (الآن) على حقيقته .

وأصل (المباشرة) إلصاق البشرة بالبشرة . كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها « وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » تأكيد لما قبله ، أى : ابتغوا هذه الرخصة التى أحلّها لكم . و (كتب) هنا ، إمّا بمعنى جعل كقوله « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ » (١)

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : جعل ، وقوله « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »(١) « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »(٢) أى : أجعلها . أو بمعنى قضى ، كقوله « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا »(٣) أى : قضاه ، وقوله « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ »(٤) وقوله « لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ »(٥) أى : قضى .

قال الراغب : فى الآية إشارة فى تحرّى النكاح إلى لطيفة . وهى : أن الله تعالى جعل لنا شهوة النكاح لبقاء نوع الإنسان إلى غاية ! كما جعل لنا شهوة الطعام لبقاء أشخاصنا إلى غاية! فحقّ الإنسان أن يتحرّى بالنكاح ما جعل الله له على حسب ما يقتضيه العقل والديانة . فمتى تحرّى به حفظ النفس وحصن النفس على الوجه المشروع ، فقد ابتغى ما كتب الله له . وإلى هذا أشار من قال : عنى الولد .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٣] ونصها : رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٩ / التوبة / ٥١] ونصها : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(٤) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٥) [٣ / آل عمران / ١٥٤] ونصها : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » أباح تعالى الأكل والشرب ـ مع ماتقدّم من إباحة الجماع ـ فى أيّ الليل شاء الصائم إلى أنْ يتبيّن ضياء الصباح من سواد الليل . وشُبِّهَا بخيطين : أبيض وأسود ، لأنّ أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتدّ معه من غبش الليل ، كالخيط الممدود . قال أبو دُؤاد الإيادىّ[1] :

فلما أضاءت لنا سدفةٌ ولاح من الصبح خيطٌ أنارا ..!

وقوله « مِنَ الْفَجْرِ » بيان للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ، لأن بيان أحدهما بيان للثانى . وقد رفع بهذا البيان الالتباسَ الذى وقع أول أمر الصيام . كما روى الشيخان[2] وغيرهما عن سهل بن سعد قال : أنزلت « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ » ولم ينزل « مِنَ الْفَجْرِ »

---

(١) قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت فى تفسير الطبرىّ ، بالصفحة رقم ٥٢٩ من الجزء الثالث ، ما نصه :

يصف فرساً . والسدفة ظلمة الليل فى لغة نجد ، والضوء فى لغة قيس . وهى أيضاً اختلاط الضوء والظلمة جميعاً ، كوقت ما بين صلاة الفجر إلى أول الإسفار .

وأراد أبو دؤاد اختلاط الظلمة والضوء . ولاح : بدا وظهر من بعيد . والخيط : اللون هنا يكون ممتداً كالخيط .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٨ ـ باب قوله : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ـ إلى قوله ـ : تَتَّقُونَ ، حديث ٩٧٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٣٥ (طبعتنا) .

وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل حتى يتبيّن له رؤيتهما ، فأنزل الله بعده « مِنَ الْفَجْرِ » فعلموا إنما يعنى الليل والنهار. ورويا أيضاً[١] ـ واللفظ لمسلم ـ عن عدىّ بن حاتم قال : لما نزلت « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » قال له عدىّ : يا رسول الله ! إنّى أجعل تحت وسادتى عقالين : عقالًا أبيض وعقالًا أسود، أعرف الليل من النهار . فقال رسول الله ﷺ : إن وسادك لعريض. إنما هو سواد الليل وبياض النهار ..!

قال ابن كثير : ومعنى قوله : إن وسادك لعريض أى : إن كان يسع تحته الخيطين المرادين من هذه الآية ؛ فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب ..! وجاء فى بعض هذه الألفاظ : إنك لعريض القفا . ففسرّه بعضهم بالبلادة ـ وهو ضعيف ـ بل يرجع إلى هذا ؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض ، والله أعلم . انتهى .

وفى الإتيان بلفظ التفعّل فى قوله تعالى « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ... » إشعار بأنه لا يكفى إلّا التبيّن الواضح لا تباشير الضوء . وقد روى مسلم[٢] عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرّنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا . وحكاه حماد بيديه ، قال: يعنى معترضاً . وفى لفظ آخر عنه : لا يغرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر ـ أو قال : ـ حتى ينفجر الفجر . وروى الإمام أحمد[٣] عن قيس بن طلق عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال ليس الفجر المستطيل

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٨ ـ باب قوله: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ... الخ ، حديث ٩٧٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٤١ـ٤٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالجزء الرابع ، صفحة ٢٣ (طبعة الحلبىّ) .

في الأفق. ولكنه المعترض الأحمر . ورواه الترمذي[1] بلفظ : كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد ، وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر . قال : وفي الباب عن عديّ بن حاتم وأبي ذرّ وسمرة . ثم قال : حديث طلق بن عليّ حديثٌ حسن غريبٌ من هذا الوجه ، والعمل على هذا ـ عند أهل العلم ـ أنّه لا يحرم على الصائم الأكل والشرب حتى يكون الفجر الأحمر المعترض ، وبه يقول أهل العلم . انتهى .

قال بعضهم: المراد بالأحمر الأبيض ، كما فسّر به حديث[2] «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقال شمر : سموا الأبيض أَحْمَرَ تطيّرًا بالأبرص ، حكاه عن أبي عمرو بن العلاء . ويظهر أنّه لا حاجة إلى هذا ، فإنّ طلوع الفجر يصحبه حمرة . وفي (القاموس) الفجر ضوء الصباح ، وهو حمرة الشمس في سواد الليل . فافهم .

وقال الحافظ عبد الرزاق في (مصنّفه) : أخبرنا ابن جريج عن عطاء : سمعت ابن عباس يقول : هما فجران ، فأمّا الذي يسطع في السماء فليس يحلّ ولا يحرّم شيئاً ، ولكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب!. وقال عطاء : فأمّا إذا سطع سطوعاً في السماء ـ وسطوعه أن يذهب في السماء طولًا ـ فإنه لا يحرم به شرابٌ للصائم ، ولا صلاةٌ ، ولا يفوت به الحجّ. ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال حرم الشراب للصيام ، وفات الحجّ .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء . وهكذا روى عن غير واحدٍ من السلف. رحمهم الله ..! انتهى .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٦ ـ كتاب الصوم ، ١٥ ـ باب ما جاء في بيان الفجر .

(٢) أخرجه الداريّ في : ١٧ ـ كتاب السير ، ٢٨ ـ باب الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا . ونصه : عن أبي ذرّ أن النبيّ ﷺ قال : أعطيت خمساً لم يعطهن نبيّ قبلي : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلّت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، ونصرت بالرعب شهراً ، يرعب مني العدوّ مسيرة شهر ، وقيل لي : سل تُعْطَهْ ، فاختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة منكم ، إن شاء الله تعالى ، من لا يشرك بالله شيئاً .

« ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ » أى : صوم كلّ يوم « إِلَى اللَّيْلِ » أى : إلى ظهور الظلمة من قبل المشرق وذلك بغروب الشمس . وكلمة (إلى) تفيد أنّ الإفطار عند غروب الشمس . كما جاء فى (الصحيحين)[١] عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم .

قال ابن القيّم : أى أفطر حكماً وإن لم ينوه . أو دخل فى وقت فطره ، كما فى : أصبح وأمسى .

وقد كان ﷺ يعجل الفطر ويحضّ عليه ، كما فى (الصحيحين)[٢] : لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر . وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ : يقول الله عزّ وجلّ : إنّ أحبّ عبادى إلىّ أعجلهم فطرا . ورواه الترمذىّ وقال : حديث حسن غريب . وعن أنس بن مالك[٤] قال : كان رسول الله ﷺ يفطر ، قبل أن يصلّى ، على رطبات ، فإن لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء . رواه الترمذىّ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٣ ـ باب متى يحلّ فطر الصائم .
ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٥١ (طبعتنا) ونصه : إذا أقبل الليل ، وأدبر النهار ، وغابت الشمس ، فقد أفطر الصائم .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٥ ـ باب تعجيل الإفطار ، عن سهل بن سعد .
ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٤٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، بالصفحة ٢٣٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصيام ، ١٣ ـ باب ماجاء فى تعجيل الإفطار .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٦ ـ كتاب الصيام ، ١٠ ـ باب ما جاء فيما يستحب عليه الإفطار .

وقال : حسن غريب . وروى الإمام أحمد[١] عن ليلى ، امرأة بشير بن الخصاصية ، قالت : أردت أن أصوم يومين مواصلةً فمنعني بشير وقال : إنّ رسول الله ﷺ نهى عنه وقال : يفعل ذلك النصارى ، ولكن صوموا كما أمركم الله ثمّ أتمّوا الصيام إلى الليل ، فإذا كان الليل فأفطروا .

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة ، النهي عن الوصال . وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئاً . ففي (الصحيحين)[٢] عن أنس رضي الله عنه ، عن النبيّ ﷺ قال: لا تواصلوا ..! قالوا : إنك تواصل ، قال : لستُ كأحدٍ منكم ، إنّي أطعم وأسقى ـ أو ـ إنّي أبيت أطعم وأسقى . قال الترمذيّ : وفي الباب عن عليّ ، وأبي هريرة ، وعائشة ، وابن عمر ، وجابر ، وأبي سعيد ، وبشير بن الخصاصية . أي: فالنهي عنه قد ثبت من غير وجهٍ. نَعَمْ! من أحبّ أنْ يواصل إلى السحر فله ذلك ، كما في حديث[٣] أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تواصلوا . فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده صفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٨ ـ باب الوصال .

ومسلم في : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٦٠ (طبعتنا) ونصه : عن أنس قال : واصل رسول الله ﷺ في أول شهر رمضان . فواصل ناس من المسلمين . فبلغه ذلك . فقال « لو مُدّ الشهر لواصلنا وصالا . يدع المتعمقون تعمقهم . إنكم لستم مثلي . (أو قال : إني لست مثلكم) إني أظل يطعمني ربي ويسقيني .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٨ ـ باب الوصال ونصه : إنه سمع النبيّ ﷺ يقول « لا تواصلوا . فأيكم إذا أراد أن يواصل ، فليواصل حتى السحر » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال « إني لست كهيئتكم . إني أبيت لي مُطعِم يطعمني وساق يسقينِ » .

قالوا : فإنّك تواصل يا رسول الله . قال: لست كهيئتكم . إنّي أبيت لي مُطعم يطعمني وساقٍ يسقيني . أخرجاه في (الصحيحين) . والمراد بهذا الطعام والشراب ، ما يغذّيه الله به من المعارف ، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته ، وقرة عينه بقربه ، وتنعّمه بحبّه ، والشوق إليه ؛ وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلب ، ونعيم الأرواح ، وقرّة العين ، وبهجة النفوس والروح والقلب . بما هو أعظم غذاء ، وأجوده ، وأنفعه . وقد يقوى هذا الغذاء حتى يغني عن غذاء الأجسام مدّة من الزمان .

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثيرٍ من الغذاء الحيوانيّ. ولاسيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد قرّت عينه بمحبوبه . وتنعّم بقربه والرضاء عنه . وألطافُ محبوبه وهداياه وتحفه تصل إليه كلّ وقت . ومحبوبه حفيّ به ، معتزّ بأمره ، مكرمله غاية الإكرام مع المحبة التامة له . أَفَليسَ في هذا أعظم غذاء لهذا المحبّ؟ فكيف بالحبيب الذي لا شيء أجلّ منه ، ولا أعظم ، ولا أجمل ، ولا أكمل ، ولا أعظم إحساناً ، إذا امتلأ قلب المحبّ بحبّه ، وملك حبّه جميع أجزاء قلبه وجوارحه ، وتمكّن حبّه منه أعظم تمكّن ؟ وهذا حاله مع حبيبه . أفليس هذا المحبّ عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً ؟ ولهذا قال: إنّي أظلّ عند ربي يطعمني ويسقيني . ولو كان ذلك طعاماً وشراباً للفم ـ كما قيل ـ لما كان صائماً . فضلاً عن كونه مواصلاً . كذا في (زاد المعاد) .

وقد روى ابن جرير عن عبدالله بن الزبير وغيره من السلف ، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة . وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضةً لأنفسهم . لاأنهم كانوا يفعلونه عبادةً . والله أعلم .

قال ابن كثير : ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاديّ مِنْ باب الشفقة . كما جاء في حديث عائشة[1] : رحمةً لهم . فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشّمون ذلك ويفعلونه . لأنهم كانوا يجدون قوةً عليه .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤٨ ـ باب الوصال ، عن عائشة =

« وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ » قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غيره . فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلًا أو نهاراً حتى يقضى اعتكافه . وقال الضحاك : كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحدٍ : أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية . قال ابن أبى حاتم : روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدّىّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل قالوا : لا يقربها وهو معتكف .

قال ابن كثير : وهذا الذى حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء : أنّ المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفاً فى مسجده . ولو ذهب إلى منزله لحاجةٍ لابدّ له منها ، فلا يحلّ له أن يثبت فيه إلّا بمقدار مايفرغ من حاجته تلك ـ من قضاء الغائط أو الأكل ـ وليس له أن يقبّل امرأته ، ولا أن يضمّها إليه ، ولا أن يشتغل بشىء سوى اعتكافه .

ثم قال ابن كثير : المراد بالمباشرة ، الجماع ودواعيه من تقبيلٍ ومعانقةٍ ونحو ذلك . فأمّا معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به . فقد ثبت فى (الصحيحين)[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يدنى إلىّ رأسه فأرجله وأنا حائض . وكان لايدخل البيت إلّا لحاجة الإنسان . وفى (الصحيحين)[2] أيضاً : أنّ صفية أم المؤمنين كانت تزور

= قالت : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال ، رحمة لهم . فقالوا : إنك تواصل ؟ قال « إنى لست كهيئتكم . إنى يطعمنى ربى ويسقين » .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٣ـ كتاب الاعتكاف،٣ـ باب لايدخل البيت إلا لحاجة. ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٦و٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٨ـ باب هل يخرج المعتكف =

النبيّ ﷺ وهو معتكف فى المسجد . فتتحدّث عنده ساعةً ثمّ ترجع إلى منزلها . فيقوم النبيّ ﷺ ليمشى معها حتى يبلغها دارها ، وذلك فى الليل .

تنبيهان

الأول : قال الراغب : ظاهر ذكر المساجد يقتضى جواز الاعتكاف فى كلّ مسجدٍ .

الثانى : فى ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشادٌ وتنبيهٌ على الاعتكاف فى الصيام أو فى آخر شهر الصيام . كما ثبت فى السنّة عن رسول الله ﷺ(١) أنّه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . ثم إنّ حقيقة الاعتكاف هو المكث فى بيت الله تقرباً إليه . وهو من الشرائع القديمة .

وقال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) فى هديه ﷺ فى الاعتكاف : لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً وعلى جمعيته على الله . ولمّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى . فإنّ شعث القلب لا يلمّه إلّا الإقبال على الله تعالى . وكان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة الأنام ، وفضول الكلام ، وفضول المنام ، مما يزيده شعثاً ، ويشتّته فى كلّ وادٍ . ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أو يضعفه ، أو يعوقه ويوقفه ـ اقتضت رحمة العزيز الرحيم لعباده أنْ شرع لهم من الصوم مايذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوّقة له عن سيره إلى الله تعالى . وشرعه بقدر

= لحوائجه إلى باب المسجد .

ومسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ٢٤و٢٥ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ١ ـ باب الاعتكاف فى العشر الأواخر ، عن عائشة .

ومسلم فى : ١٤ ـ كتاب الاعتكاف ، حديث ٣و٤و٥ (طبعتنا) .

المصلحة بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأخراه . ولا يضرّه ولا يقطعه من مصالحه العاجلة والآجلة . وشرع لهم الاعتكاف الذى مقصوده وروحه ، عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به ، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغال به وحده سبحانه . بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه فى محلّ هموم القلب وخطراته . فيستولى عليه بدلها ، ويصير الهمّ به كلّه ، والخطرات كلّها بذكره . والفكرة فى تحصيل مراضيه ومايقرب منه. فيكون أنسه بالله بدلًا عن أنسه بالخلق . فيعدّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة فى القبور حين لا أنيس له ولامايفرح به سواه . فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم . ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم شرع الاعتكاف فى أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان . ولم ينقل عن النبىّ ﷺ أنه اعتكف مفطراً فقط . بل قد قالت عائشة : لا اعتكاف إلّا بصوم . ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلّا مع الصوم . ولا فعله رسول الله ﷺ إلّا مع الصوم . فالقول الراجح فى الدليل الذى عليه جمهور السلف ، أنّ الصوم شرطٌ فى الاعتكاف. وهو الذى كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيميّة . وأمّا الكلام ، فإنّه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لاينفع فى الآخرة . وأمّا فضول المنام ، فإنّه شرع لهم من قيام الليل ما هو أفضل من السهر وأحمد عاقبة . وهو السهر المتوسط الذى ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد . ومدارُ أرباب الرياضات والسلوك على هذه الأركان الأربعة . وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج النبوىّ المحمدىّ . ولم ينحرف انحراف الغالين ولا قصر تقصير المفرطين . ثم قال:

كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ . وتركه مرةً فقضاه فى شوال . واعتكف مرةً ـ فى العشر الأول ، ثمّ الأوسط ، ثمّ العشر الأخير ـ يلتمس ليلة القدر ، ثمّ تبيّن له أنها فى العشر الأخير ، فداوم على اعتكافه حتى

لحق بربه عزّ وجلّ. وكان يأمر بخباء[1] فيضرب له فى المسجد يخلوفيه بربّه عزوجلّ . وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله . فأمر به مرّةً فضرب . فأمر أزواجُه بأخبيتهنّ فضربت . فلمّا صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية . فأمر بخبائه فقوّض . وترك الاعتكاف فى شهر رمضان حتى اعتكف فى العشر الأول من شوال . وكان يعتكف كلّ سنة عشرة أيام . فلمّا كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً . وكان يعارضه جبريل[2] بالقرآن كلّ سنة مرةً . فلمّا كان ذلك العام عارضه به مرّتين . ولم يباشر امرأةً من نسائه ـ وهو معتكف ـ لا بقبلةٍ ولا بغيرها . وكان ـ إذا اعتكف ـ طرح له فراشه ، ووضع له سريره فى معتكفه . وكان إذا خرج لحاجته مرّ بالمريض ، وهو على طريقه ، فلا يعرج له إلّا سأل عنه . واعتكف مرّةً فى قبة تركية ، وجعل على سدّتها حصيراً . كلّ هذا تحصيلًا لمقصود الاعتكاف وروحه.

« تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا » يعنى : تلك الأحكام التى ذكرت فى الصيام والاعتكاف من تحريم الأكل والشرب والجماع . وشبّه تلك الأحكام بالحدود الحاجزة بين الأشياء لكونها حاجزةً بين الحق والباطل . فإن من عمل بها كان فى حيز الحق ، ومن خالفها وقع فى الباطل . ونهى عن قربها كيلا يدانى الباطل فضلاً أن يتخطى إليه . فالنهى عن مكان القرب من الحدود التى هى الأحكام ، كناية عن النهى عن قرب الباطل . لكون الأول لازماً للثانى . وبذلك يحصل الجمع بين هذه الآية وآية « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٧ ـ باب الأخبية فى المسجد .
ومسلم فى : ١٤ ـ كتاب الاعتكاف ، حديث ٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٧ ـ باب كان جبريل يعرض القرآن على النبىّ ﷺ ، عن أبى هريرة .

فَلَا تَعْتَدُوهَا »[١] ويندفع التنافى . وقوله « فَلَا تَقْرَبُوهَا » أبلغ من « لَا تَعْتَدُوهَا » لأنه نهىٌ عن قرب الباطل بطريق الكناية التى هى أبلغ من التصريح . وذلك نهىٌ عن الوقوع فى الباطل بطريق التصريح « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ » أى : كما بيّن ما أمركم به ونهاكم عنه ـ فى هذا الموضع ـ يبين للناس ماشرعه لهم على لسان نبيّه ﷺ « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » المحارم فيعرفون كيف يطيعون ويهتدون . كما قال تعالى « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »[٢] .

قال الرازىّ : والغرض من قوله تعالى « كَذَٰلِكَ ... الخ » تعظيم حال البيان ، وتعظيم رحمته على الخلق فى ذكره مثل هذا البيان .

وفيه أيضاً تقريرٌ للأحكام السابقة ، والترغيب إلى امتثالها بأنها شرعت لأجل التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُو أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » قال ابن جرير : يعنى تعالى ذكره بذلك : ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل . فجعل بذلك آكل مال أخيه بالباطل

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٩] .

كالآ كل مال نفسه بالباطل، ونظير ذلك قوله تعالى: « وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ »[١]. وقوله « وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ »[٢] بمعنى : لايلمز بعضكم بعضاً ولا يقتل بعضكم بعضاً . لأنه تعالى جعل المؤمنين إخوة . وكذلك تفعل العرب . تكنى عن أنفسها بأخواتها ، وعن أخواتها بأنفسها لأن أخا الرجل عندها كنفسه ؛ فتأويل الكلام : ولا يأ كل بعضكم أموال بعض فيما بينكم بالباطل ، وأكله بالباطل أ كله من غير الوجه الذى أباحه الله لآ كليه . اه .

و (بينكم) : إما ظرف لـ(تأ كلوا) بمعنى : لاتتناولوها فيما بينكم بالأ كل، أو حال من (الأموال) أى : لا تأ كلوها كائنة بينكم ودائرة بينكم . و (بالباطل) فى موضع نصب بـ(تأ كلوا) أى : لاتأخذوها بالسبب الباطل ـ أى الوجه الذى لم يبحه الله تعالى ـ ويجوز أن يكون حالاً من (الأموال) أى : لاتأ كلوها متلبسة بالباطل . أو من الفاعل فى (تأ كلوا) أى : لا تأ كلوها مبطلين أى متلبسين بالباطل « وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ » أى : تخاصموا بها ـ أى : بأموالهم ـ إلى الحكام ؛ مجزوم عطفاً على النهى ، ويؤيده قراءة أُبىّ « وَلَا تُدْلُوا » بإعادة (لا الناهية) والإدلاء : مأخوذ من إدلاء الدلو وهو إرسالها فى البئر للاستقاء ثم استعير لكلّ إلقاء قول أو فعل توصّلاً إلى شىء ؛ ومنه يقال للمحتجّ :

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١١] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .

أدلى بحجّته . كأنه يرسلها ليصير إلى مراده ، كإدلاء المستقى الدلو ليصل إلى مطلوبه من الماء. وفلان يدلى إلى الميت بقرابة أو رحم ، إذا كان منتسباً إليه . فيطلب الميراث بتلك النسبة . فـ (الباء) صلة الإدلاء تجوزاً به عن الإلقاء كما ذكرنا . والمعنى: لاتلقوا أمرها ـ والحكومة فيها ـ إلى الحكام . أولا تلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة ليمينوكم على اقتطاع أموال الناس . وقد لعن رسول الله ﷺ [1] الراشي والمرتشي والرائش ـ وهو الواسطة الذى يمشى بينهما ـ رواه أهل السنن . وذلك لأن ولىّ الأمر إذا أكل هذا السحت ـ أعنى الرشوة المسماة بالبرطيل ، وتسمى أحياناً بالهدية وغيرها ـ احتاج أن يسمع الكذب من الشهادة الزور وغيرها مما فيه إعانة على الإثم والعدوان ؛ وولىّ الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، هذا مقصود الولاية . وإذا كان الوالى يمكّن من المنكر بمال يأخذه كان قد أتى بضدّ المقصود، مثل من نصبته ليعينك على عدوّك فأعان عدوّك عليك . وبمنزلة من أخذ مالاً ليجاهد به فى سبيل الله فقاتل المسلمين. و (الحكّام) : جمع حاكم وهو منفذ الحكم بين الناس كالحَكَم ، محرّكة. « لِتَأْكُلُوا » ـ أى : بواسطة حكمهم الفاسد، وبالتحاكم إليهم ـ « فَرِيقًا » ـ أى : طائفة وقطعة ـ « مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ » بما يوجب إثماً ـ كشهادة الزور واليمين الفاجرة وحكمهم الفاسد ـ فإنه لايفيد الحلّ والظلم . فـ (الباء) للسببية. متعلّقها (لتأكلوا) . وجوز كونها للمصاحبة . فالمجرور حال من فاعل (لتأكلوا) أى : متلبسين بالإثم « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : أنكم على الباطل. وارتكابُ المعصية ـ مع العلم بقبحها ـ أقبح ، وصاحبه أحقّ بالتوبيخ ، فالتقييد لكمال تقبيح حالهم .

قال الراغب : أى : إن خفى ظلمكم على الناس فإنه لا يخفى عليكم، تنبيهاً على أنّ الاعتبار بما عليه الأمر فى نفسه ، وما علمتم منه لا بما يظهر .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام، ٩ ـ باب ماجاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم ، عن أبى هريرة . وقال الترمذىّ : حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح .

وقال ابن كثير فى (تفسيره) : قال عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : هـذه الآية فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيـه بيّنة ، فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحـكام . وهو يعرف أنّ الحقّ عليه . وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام . وكذا روى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدّىّ ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن ابن زيد أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد فى (الصحيحين)[1] عن أم سلمة : أنّ رسول الله ﷺ قال : ألا إنما أنا بشر . وإنمـا يأتينى الخصم . فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضى له . فمن قضيت له بحقّ مسلم فإنما هى قطعة من نار. فليحملها أو ليذرها . فدلّت هذه الآية الـكريمة وهذا الحديث على أنّ حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر . فلا يُحل فى نفس الأمر حراماً هو حلال ، ولا يحرم باطلًا هو حلال . وإنما هو ملزم فى الظاهر . فإن طابق فى نفس الأمر فذاك . وإلّا فللحاكم أجره . وعلى المحتال وزره . ولهذا قال تعالى فى آخر الآية « وَأَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ » أى : تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه فى كلامكم . قال قتادة: اعلم يا بُنىّ آدم ..! أنّ قضاء القاضى لا يحل لك حراماً ، ولا يحقّ لك باطلًا . وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى وتشهد به الشهود ، والقاضى بشرٌ يخطئُ ويصيب . واعلموا أنّ من قضى له بباطلٍ أنّ خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة . فيقضى على المبطل للمحقّ بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ١٦ ـ باب إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه . ونصه : عن أم سلمة رضى الله عنها ، زوج النبىّ ﷺ ، عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال « إنما أنا بشر . وإنه يأتينى الخصم. فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صَدَق ، فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها ».

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ٥ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية : بلغنا أنهم قالوا : يا رسول الله ! لِمَ خلقت الأهلّة ؟ فنزلت . وروى أبونعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال: نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غَنْم. قالا : يارسول الله ! ما بال الهلال يبدو ـ أو يطلع ـ دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستدير ، ثم لايزال ينقص ويدقّ حتى يعود كما كان ، لا يكون على حالٍ واحد ؟ فنزلت .

ومعنى كونها « مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ » معالم لهم فى حَلِّ دَيْنِهِم ، ولصومهم ، ولفطرهم ، وأوقات حجهم ، وأجارهم ، وأوقات الحيض وعِدَدِ نسائهم ، والشروط التى إلى أجل . فكلّ هذا مما لايسهل ضبط أوقاتها إلّا عند وقوع الاختلاف فى شكل القمر زيادةً ونقصاً. ولهذا خالف بينه وبين الشمس التى هى دائمة على حالةٍ واحدة .

قال بعض المفسّرين : ثمرة الآية أنّ الأحكام الشرعية ـ كالزكاة والعِدَد للنساء والحمل ـ تتعلق بشهور الأهلّة لا بشهور الفرس . أمّا ما تعلّق بالعقود والأفعال المتعلقة بفعل بنى آدم فيتبع فيه العرف من حسابهم . بالأهلة أو بشهور الفرس. فهذا حكم ، وذاك حكم آخر .

وقد ذكر تعالى هـذا المعنى فى آيات . كقوله سبحانه : وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ(١) . وقوله : فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا

---

(١) [١٠/ يونس/ ٥] ونصها : هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَاخَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ(١) . أى : من غير افتقارٍ إلى مراجعة المنجِّم وحساب الحاسب، رحمةً منه تعالى وفضلًا . وإفراد «الحجّ» بالذكر هنا تنويهاً بشأنه .

وقال القفال : نكتة إفراده بيان أنّ الحج مقصور على الأشهر التى عينها الله تعالى لفرضه ، وأنَّه لا يجوز نقل الحجّ من تلك الأشهر إلى أشهر ، كما كانت العرب تفعل ذلك فى النسىء . والله أعلم .

والجمهور على فتح حاء (الحَجّ) ؛ والحسن على كسرها فى جميع القرآن . قال سيبويه: هما مصدران كالردّ والذكر ؛ وقيل : بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . و (الأهلّة) جمع هلال . وجمعه باختلاف زمانه . وهو : غرّة القمر إلى ثلاث ليال أوسبع ، ثمّ يسمّى قمراً ، وليلة البدر لأربع عشرة .

قال أبو العباس : سمى الهلال هلالًا لأنّ الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه ، وسمى بدراً لمبادرته الشمس بالطلوع كأنّه يعجلها المغيب . ويقال : سمى بدراً لتمامه وامتلائه . وكلّ شىء تمّ فهو بدر .

تنبيه :

الجواب على الرواية الثانية فى سبب نزول الآية من الأسلوب الحكيم . وهو تلقّى السائل بغير ما يتطلب ـ بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً للسائل على أن ذلك الغير هو الأوْلى بحاله أو المهم له . فلمّا سألوا عن السبب الفاعلىّ للتشكلات النورية فى الهلال ، أجيبوا بما ترى من السبب الغائىّ. تنبيهاً على أنّ السؤال عن الغاية والفائدة هو أليق بحالهم . لأنّ درك الأسباب الفاعلية لتلك التشكلات مبنىّ على أمور من علم الهيئة لا عناية للشرع بها . فلو

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] ونصها : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا .

أجيبوا : بأنّ اختلاف تشكلات الهلال . بقدر محاذاته للشمس ، فإذا حاذاها طرف منه استنار ذلك الطرف . ثم تزداد المحاذاة والاستنارة حتى إذا تمت بالمقابلة امتلأ . ثمّ تنقص المحاذاة والاستنارة حتى إذا حصل الاجتماع أظلم بالكلية ـ لكان هذا الجواب اشتغالًا بعلم الهيئة الذى لا ينتفع به فى الدين ، ولا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم . والنبىّ ﷺ إنما بعث لبيان ذلك . وقد روى أنّ النبىّ ﷺ قال : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس باباً من السحر. زادمازاد . أخرجه الإمام أحمد[١] وأبوداود[٢] وابن ماجة[٣] عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال علىّ رضى الله عنه : من طلب علم النجوم تكهّن. وهو من العلم الذى قال فيه رسول الله ﷺ : علم لا ينفع ، وجهل لايضرّ ! والمقصود أنّ الجواب، على الرواية الثانية، من الأسلوب الحكيم. إشعارا بأنّ الأَوْلى السؤال عن الحكمة فيه .

قال السكاكىّ فى (المفتاح) : ولهذا النوع ـ أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر ـ أساليب متفننّة ، إذ مامن مقتضى كلام ظاهرىّ إلّا ولهذا النوع مدخل فيه بجهةٍ من جهات البلاغة . ترشدإليه تارةً بالتصريح ، وتارةًبالفحوى . ولكلٍّ من تلك الأساليب عرق فى البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ، ولا كأسلوب الحكيم فيها . وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب كما قال :

---

(١) أخرجة الإمام أحمد فى : صفحة ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٢٠٠٠ (طبعة المعارف) . ونصه : ما اقتبس رجل علماً من النجوم إلا اقتبس بها شعبة من السحر . ما زاد زاد .

(٢) أخرجه أبوداود فى: ٢٧ـ كتاب الطب ، ٢٢ ـ باب فى النجوم ونصه : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٢٨ ـ باب تعلّم النجوم ، حديث ٣٧٢٦ (طبعتنا) .

أتت تشتكى عندى مزاولة القرى ، وقد رأت الضيفان ينحون منزلى
فقلت ، كأنى ما سمعت كلامها : هُمُ الضيف . جِدِّى فى قراهم وعجّلى..!

أو السائل بغير ما يتطلب كما قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ..الآية قالوا فى السؤال : ما بال الهلال يبدو دقيقاً ..! الخ ؟ فأجيبوا بما ترى . وكما قال : يسألونك ماذا ينفقون؟(١) قل : ما انفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل. سألوا عن بيان ماينفقون ، فأجيبوا ببيان المصرف . ينزل سؤال السائل منزلة سؤالٍ غير سؤاله ، لتوخّى التنبيه له بألْطَفِ وجهٍ على تعديه عن موضع سؤالٍ هو أَليقُ بحاله أن يسأل عنه ، أو أَهمّ له إذا تأمل . وأنّ هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه فى معرض المسحور ؛ وهل أَلانَ شكيمة الحجاج لذلك الخارجىّ ، وسلّ سخيمته ، حتى آثر أن يحسن ، على أن يسىء ؛ غير أنْ سَحَرَهُ بهذا الأسلوب ؟ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله « لأحملنك على الأدهم ! » فقال متغابياً : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ! مبرزاً وعيده فى معرض الوعد ، متوصلاً أن يريه بألطف وجه : أنّ امرءاً مثله ـ فى مسند الإمرة المطاعة ـ خليقٌ بأن يُصْفِد لا أن يَصْفِد ، وأنْ يعد لا أن يُوعِد .

« وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

قال الراغب فى (تفسيره) : الباب معروف . وعنه استعير لمدخل الأمور المتوصل به إليها . وقيل فى العلم باب كذا . وقد كان سئل عليه السلام عن زيادة القمر ونقصانه . فأنزل الله هذه الآية تنبيهاً على أظهر فائدته للحسّ ، وأبينها له . ثمّ قال : وليس البرّ بأن تأتوا

(١) [٢ / البقرة / ٢١٥] ونصها : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ .

البيوت من ظهورها أى : بأن تطلبوا الأمر من غير وجهه . وذلك أنّه يقال : أتى فلان البيت من بابه ـ إذا طلب الشيء من وجهه . وقال الشاعر * أتيت المروءةَ من بابها * وأتى البيت من ظهره : إذا طلب الأمر من غير وجهه . وجعل ذلك مثلًا لسؤالهم النبىّ ﷺ عمّا هو ليس من العلم المختصّ بالنبوّة . وإنّ ذلك عدولٌ عن المنهج . وذلك أنّ العلوم ضربان :

دنيوىّ ، يتعلق بأمر المعاش ـ كمعرفة الصنائع ، ومعرفة حركات النجوم ، ومعرفة المعادن ، والنبات ، وطبائع الحيوانات . وقد جعل لنا سبيلًا إلى معرفته على غير لسان نبيّه عليه السلام .

وشريعة : وهو البرّ . ولا سبيل إلى أخذه إلّا من جهته . وهو أحكام التقوى ..!

فلمّا جاؤا يسألون النبىّ ﷺ ، عمّا أمكنهم معرفته من غير جهته ، أجابهم . ثمّ بيّن لهم أنّه ليس البرّ تركَ المنهج فى السؤال من النبىّ ماليس مختصاً بعلم نبوّته . ولكنّ البرّ هو مجرّد التقوى : وذلك يكون بالعلم والعمل المختصّ بالدين .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : المراد من هذه الآية ، ما كانوا يعملونه من النسىء . فإنهم كانوا يخرجون الحجّ عن وقته الذى عينه الله له . فيحرمون الحلال ويحللون الحرام . فذِكْرُ إتيان البيوت من ظهورها مَثَلٌ لمخالفة الواجب فى الحجّ وشهوره .

وأمّا مارواه البخارىّ(١) وغيره عن أبى إسحق قال: سمعت البراء رضى الله عنه يقول: نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجّوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها . فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل من قبل بابه . فكأنه عُيّر بذلك ، فنزلت « وليس البرّ ... » الآية . فالمراد ، من نزولها فى ذلك ، صدقها عليه حسبما رآه . لا أنّ ذلك كان سبب نزولها . كما بينّا مراراً معنى قولهم : نزلت الآية فى كذا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٦ ـ كتاب العمرة ، ١٨ ـ باب قول الله تعالى : وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .

وقد أشار، لهذا، الراغبُ ـ بعد حكايته هذه الرواية وما قاله أبومسلم ـ بقوله: وكلّ ذلك لا يُدفع أن تتناوله الآية . لـكنّ الأليق أنتؤول الآية بما تقدم ذكره من أنّ معنى « وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا » أي : تحروا في كلّ عملٍ إتيان الشيء من وجهه ، تنبيهاً على أن مايطلب من غير وجهه صعب تناوله . ثمّ قال « وَاتَّقُوا اللَّهَ » حثًّا لنا أنْ نجعل تقوى الله شعارَنا في كلّ ما نتحراه . وبيّن أنّ ذلك ذريعة إلى تحصيل الفلاح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » المقاتلة في سبيل الله هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين . وفي قوله « الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ » تهييجٌ وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله . أي : كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم . كما قال : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً(١) « وَلَا تَعْتَدُوا » أي : بابتداء القتال . أو بقتال من نُهيتم عن قتاله ، من النساء ، والشيوخ ، والصبيان ، وأصحاب الصوامع ، والذين بينكم وبينهم عهدٌ . أو بالمثلة ، أو بالمفاجأة من غير دعوة . «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» أي : المتجاوزين حكمه في هذا وغيره .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« وَاقْتُلُوهُمْ » أى : الذين يقاتلونكم « حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » أى : وجدتموهم . « وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ » أى : من مكة . فإنّ قريشاً أخرجوا المسلمين منها . والمسلمون أخرجوا المشركين يوم الفتح . « وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » أى : المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان ، يتعذب به ، أشدّ عليه من القتل . أى : إنّ فتنتهم إيّاكم فى الحرم عن دينكم ـ بالتعذيب ، والإخراج من الوطن ، والمصادرة فى المال ـ أشدُّ قبحاً من القتل فيه . إذْ لابلاءَ على الإنسان أشدّ من إيذائه على اعتقاده الذى تمكّن من عقله ونفسه . ورآه سعادة له فى عاقبة أمره . فالجملة دفع لما قد يقع من استعظام قتلهم فى مثل الحرم ، وإعلامٌ بأنّ القصاص منهم بالقتل دون جرمهم بفتنة المؤمنين . لأن الفتنة أشدّ من القتل . « وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ » لأنَّ حرمته لذاته . وحرمة سائر الحرم من أجله . وهذا بمثابة الاستثناء من قوله تعالى «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» « فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ» أى : فيه فلا تفتقرون إلى الفرار عن الحرم «فَاقْتُلُوهُمْ» فيه إذْ لا حرمة لهم لهتكهم حرمة المسجد الحرام « كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لا يترك لهم حرمة كما لم يتركوا حرمة الله فى آياته .

تنبيـه :

دلّت الآية على الأمر بقتال المشركين فى الحرم ، إذا بدأوا بالقتال فيه ، دفعاً لصولتهم.

كما بايع النبيّ ﷺ أصحابه يوم الحديبية[١] تحت الشجرة على القتال . لمّا تألب عليه بطون قريش ومَنْ والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذٍ . ثم كفّ الله القتال بينهم فقال : « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ »[٢] . وقال ﷺ لخالد ومن معه يوم الفتح[٣] : إن عرض لكم أحدٌ من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافونى على الصفا ... فما عرض لهم أحدٌ إلّا أناموه ، وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلًا . كما فى السيرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِنِ انْتَهَوْا » أى : عن القتال « فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : فكفّوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم تخلقاً بصفتى الحقّ تعالى المذكورتين وهما : المغفرة والرحمة ، هذا ظاهر المساق .

وقال بعضهم : « فَإِنِ انْتَهَوْا » أى : عن الشرك والقتال « فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ » لما سلف من طغيانهم « رَحِيمٌ » بقبول توبتهم وإيمانهم .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى : لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ .

(٢) [٤٨ / الفتح / ٢٤] ونصها : وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٨٥و٨٦ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

« وَقَاتِلُوهُمْ » أى : هؤلاء الذين نسبناهم إلى قتالكم وإخراجكم وفتنكم «حَتَّىٰ لَا تَكُونَ » ـ أى : لا توجد فى الحرم ـ « فِتْنَةٌ » أى تقوٍّ بسببه يفتنون الناس عن دينهم ، ويمنعونهم من إظهاره والدعوة إليه « وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » خالصاً أى : لا يُعبد دونه شىء فى الحرم . ولا يُخشى فيه غيره ، فلا يفتن أحد فى دينه . ولا يؤذى لأجله .

وفى (الصحيحين)(١) عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : أمرت أنْ أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا منىّ دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام ، وحسابهم على الله .

« فَإِنِ انتَهَوْا » عن قتالكم فى الحرم « فَلَا عُدْوَانَ » فلا سبيل لكم بالقتل « إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » المبتدئين بالقتل .

وروى البخارىّ فى (صحيحه)(٢) عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : إنّ الناس قد ضُيِّعوا ، وأنتَ ابن عمر وصاحب النبىّ ﷺ ، فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعنى أن الله حرم دم أخى ..! قالا : ألم يقل الله « وَقَاتِلُوهُمْ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ـ كتاب الإيمان، ١٧ ـ باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث ٢٤ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٠ ـ باب وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ .

حَتَّى لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ » ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

ثمّ ساق البخاريّ رواية أخرى وفيها : قال ابن عمر : فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الرجل يفتن فى دينه إمّا قتلوه وإمّا يعذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

وقوله تعالى :

« الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ » إيذان بأنّ مراعاة حرمة الشهر واجبةٌ لمن راعى حرمته ، وإنّ مَن هتكها اقتصّ منه ؛ فهتك حرمته بهتكهم حرمته . فكما يقاتلون عند المسجد الحرام ـ إذا قاتلوا فيه ـ يقاتلون فى الشهر الحرام إذا قاتلوا فيه .

وقد روى الإمام أحمد(١) بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلّا أن يُغزَى ـ أو يُغزَوا ـ فإذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ . ولهذا ، لمّا سار ﷺ فى ذى القعدة، سنة ست معتمرا، وخيّم بالحديبية، وبلغه أنّ عثمان قُتل ـ وكان بعثه فى رسالة إلى المشركين ـ بايع أصحابه ـ وكانوا ألفاً وأربعمائة ـ تحت الشجرة على قتال المشركين . فلما بلغه أنّ عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك ، وجنح إلى المسالمة والمصالحة ، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصّن فَلُّهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصرٌ لها بالمنجنيق . واستمرّ عليها إلى كمال أربعين يوماً . كما ثبت فى (الصحيحين) عن أنس . فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٣٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

ولم تفتح . ثم كرّ راجعاً إلى مكة . واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضاً عام ثمان .

« وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ » أى : متساوية ، فلا يفضل شهر حرام على آخر . بحيث يمتنع هتك حرمته لهتكهم حرمة مادونه ، على أنا لانهتك حرمة الشهر والمسجدالحرام والحرم ، بل نهتك حرمة من هتك حرمة أحدها ـ قاله المهايمىّ .

و (الحرمات) جمع حرمة . وهى ما يحفظ ويرعى ولا ينتهك . و (القصاص) : المساواة . والكلام على حذف المضاف . أى : ذوات قصاص . أو المصدر بمعنى المفعول أى : مقاصة ، أو الحمل بطريق المبالغة . « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » أمر بالعدل حتى فى المشركين ، كما قال : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ[1] وقال : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا[2] . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فى هتك حرمة الشهر والمسجد والحرم بدون هتكهم ، وفى زيادة الاعتداء « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى : بالمعونة والنصر والحفظ والتأييد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أمرٌ بالإنفاق فى سائر وجوه القربات والطاعات . ومن أهمها : صرف الأموال فى قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوّهم .

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] ونصها : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .

(٢) [٤٢/ الشورى/ ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

وقوله تعالى « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » أى : ما يؤدى إلى الهلاك أى : لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك ، وذلك بالتعرض لما تستوخم عاقبته ، جهلاً به .

قال الراغب : وللآية تأويلان بنظرين أحدهما : إنه نهى عن الإسراف فى الإنفاق ، وعن التهوّر فى الإقدام ، والثانى : إنه نهى عن البخل بالمال ، وعن القعود عن الجهاد . وكلا المعنيين يراد بها . فالإنسان ، كما أنه منهىٌّ عن الإسراف فى الإنفاق ، والتهور فى الإقدام ، فهو منهى عن البخل والإحجام عن الجهاد ، ولهذا قال تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا »[١] الآية ، وقال : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ »[٢] الآية .

ولمّا كان أمر الإنفاق أخصّ بالأنصار الذين كانوا أهل الأموال ، لتجرد المهاجرين عنها ، وقد اشتهر فى هذه الآية حديث أبى أيوب الأنصارىّ ، رواه أبو داود ، والترمذىّ ، والنسائىّ وابن حبان فى (صحيحه) ، والحاكم فى (مستدركه) وغيرهم . . . ولفظ الترمذىّ[٣] : عن أسلم أبى عمران قال : كنا بمدينة الروم . فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر . وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة ابن عبيد . فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل عليهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ! يلقى بيديه إلى التهلكة . . ! فقام أبو أيوب الأنصارىّ فقال : يا أيها الناس ! إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما أعزّ الله

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٧] ونصها : وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٢٩] ونصها : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٩ ـ حدثنا عبد بن حُمَيْد .

الإسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرًّا ـ دون رسول الله ﷺ ـ إنّ أموالنا قدْ ضاعت ، وإنّ الله قد أعزّ الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحناماضاع منها ! فأنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ يردّ علينا ماقلنا « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » فكانت التهلكة الإقامةَ على الأموال ، وإصلاحها ، وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصاً فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم . هذا حديث حسن غريب صحيح .

أقول : إنكار أبى أيوب رضى الله عنه إمّا لكونه لايقول بعموم اللفظ بل بخصوص السبب ، وإمّا لردّ زعم أنها نزلت فى القتال . أى : فى حمل الواحد على جماعة العدوّ كما تأولوها. وهذا هو الظاهر . وإلّا فاللفظ يقتضى العموم ، ووروده على السبب لايصلح قرينة لقصره على ذلك . ولا شبهة أنّ التعبد إنما هو باللفظ الوارد وهو عام .

وقد استشهد بعموم الآية عمرو بن العاص فيما رواه ابن أبى حاتم بسنده : أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث أخبر أنهم حاصروا دمشق . فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدوّ وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فردّه . وقال عمرو : قال الله « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » !

وقد روى فى سبب نزولها آثار ضعيفة ساقها ابن كثير وهى ـ والله أعلم ـ من باب صدق عمومها على مارووه .

تنبيه :

قال الحاكم : تدلّ الآية على جواز الهزيمة فى الجهاد إذا خاف على النفس . وتدلّ على جواز ترك الأمر بالمعروف إذا خاف ، لأنّ كل ذلك إلقاء النفس إلى التهلكة . وتدلّ على جواز مصالحة الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه أو على المسلمين . كما فعله رسول الله ﷺ عام الحديبية . وكما فعله أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بصفين. وكما فعله الحسن عليه السلام من مصالحة معاوية. وتدل أيضاً على جواز مصالحة الإمام بشىء من أموال الناس إذا

خشى التهلكة. ويؤيده أنه ﷺ أراد أن يصالح يوم الأحزاب بثلث ثمار المدينة حتى شاور سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأشارا بترك ذلك[١] . وهو لايعزم إلا على مايجوز .

لطيفة : (الإلقاء) لغةً ، طرح الشيء ، عُدّى بإلى لتضمن معنى الانتهاء ، والباء مزيدة فى المفعول لتأكيد معنى النهى . والمراد بالأيدى : الأنفس ، فذِكْرُ الجزْء وإرادةُ الكلّ لمزيد اختصاص لها باليد . بناءً على أنّ أكثر ظهور أفعال النفس بها . والتهلكة والهلاك والهلك واحد . فهى مصدر . أى : لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك .

والتهلكة بضمّ اللام . قال الخارزنجى : لا أعلم فى كلام العرب مصدراً على تفعلة ـ بضمّ العين ـ إلّا هذا .

وقال اليزيدىّ هو من نوادر المصادر . ولا يجرى على القياس !

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يقال : أصلها التهلِكة كالتجربة والتبصرة ونحوها . على أنها مصدر من هلك . فأبدلت من الكسرة ضمّة . كما جاء الجُوار فى الجِوار. هذا ماذكروه.

قال الفخر الرازىّ ـ ولله دره ـ بعد نقله نحو ما سبق : وإنى لأتعجب كثيرا من تكلفات هؤلاء النحويين فى أمثال هذه المواضع ، وذلك أنهم لو وجدوا شعراً مجهولًا يشهد لما أرادوه فرحوا به واتخذوه حجّة قوية . فورود هذا اللفظ فى كلام الله تعالى . المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة ـ أولى بأن يدلّ على صحّة هذه اللفظة واستقامتها .

« وَأَحْسِنُوا » أى : تحرّوا فعل الإحسان ، أى : الإتيان بكلّ ما هو حسن ، ومن أجلّه الإنفاق ، وقوله « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . قال الراغب : نبه بإظهار المحبة للمحسنين على شرف منزلتهم وفضيلة أفعالهم .

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٦٧٦ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » أى : أدّوهما تامّين بمناسكهما المشروعة لوجه الله تعالى .

قال الراغب : قيل : « أتمّوا » خطاب لمن خرج حاجاً أو معتمراً ، فأمر أن لا يصرف وجهه حتى يتمهما . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله . واحتجّ به فى وجوب إتمام كلّ عبادة دخل فيها الإنسان متنفلاً . وأنه متى أفسدها وجب قضاؤها . وقيل : إنه خطاب لهم ولمن لم يتلبس بالعبادة . وذكر لفظ الإتمام تنبيه على توفية حقها وإكمال شرائطها . وعلى هذا قوله تعالى « ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ »(١) وإلى هذا ذهب الشافعىّ رحمه الله واحتجّ به فى وجوب العمرة . وإنما قال فى الحجّ والعمرة « لله » ولم يقل ذلك فى الصلاة والزكاة ، من أجل أنهم كانوا يتقربون ببعض أفعال الحجّ والعمرة إلى أصنامهم : فخصهما بالذكر لله تعالى حثاً على الإخلاص فيهما ، ومجانبة ذلك الاعتقاد المحظور .

« فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ » أى : حبسكم عدوّ عن تمام الحج أو العمرة وأردتم التحلل « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » أى فعليكم ، أو فالواجب ، أو فأهدوا ما استيسر ؛ يقال : يسُر الأمر

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

واستيسر كما يقال : صَعُبَ واستصعب ؛ و (الهدى) بتخفيف الياء وتشديدها جمع هَدْية وهَدِيّة. وهوما أهدى إلى مكة من النعم لينحر تقربًا به إلى الله . قال ثعلب: الهدى، بالتخفيف، لغة أهل الحجاز . وبالتثقيل ، على فعيل ، لغة بنى تميم وسفلى قيس. وقد قرئ بالوجهين جميعاً فى الآية . وشاهد الهدىّ مثقلًا من كلامهم قول الفرزدق :

حَلَفْتُ بربّ مكة والمصلَّى وأعناقِ الهدىِّ مقلَّدَاتِ

وشاهد الهدية كذلك قول ساعدة بن جُؤَيَّة :

إنى وأيديهم وكل هدية مما تثج له ترائب تثعب

وأعلى الهدى بدنة . وأدناه شاة . والمعنى : أن المحرم إذا أُحْصر وأراد أن يتحلل، تحلل بذبح هدى تيسر عليه : من بدنة أو بقرة أو شاة .

تنبيه :

قال الراغب : ظاهر قوله تعالى « أُحْصِرْتُمْ » أنه لا فرق فيه بين أن يحصر بمكة أو بغيرها . وبعد عرفة أو قبلها. وكذلك لافرق فى الظاهر بين أن يحصره عدوّ مسلم أوغيره. وظاهره يقتضى أنه لافصل بين إحصار العدوّ وإحصار المرض . لولا أن الآية نزلت فى سبب العدوّ فلا يجوز أن تتعدى إلّا بدلالة . ولأنّ قوله « فَإِذَا أَمِنْتُمْ » يدلّ على أن المراد بالإحصار هو بالعدوّ .

وقد يقال: العبرة فى أمثاله بعمومه كما ذهب إليه ثلّة من السلف . فقد روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود ، وابن الزبير ، وعلقمة ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، ومجاهد ، والنخعى، وعطاء ، ومقاتل أنهم قالوا : الإحصار من عدوّ أو مرض أو كسر . وقال الثورىّ: الإحصار من كل شىء آذاه .

وثبت فى (الصحيحين)(١) عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٥ ـ باب الأكفاء فى الدين .
ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٠٤و١٠٥ (طبعتنا) .

ابن عبد المطلب فقالت : يا رسول الله ! إني أريد الحجّ وأنا شاكية . فقال : حجّي واشترطي أن محلي حيث حبستني . ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله .

ومن دلالة الآية ما قاله الراغب : إن ظاهرها يقتضي أن لا قضاء على المحصَر لأنه قال « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » واقتصر عليه .

« وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ » أي : الموضع الذي يحلّ فيه نحره ، وهو مكانه الذي يستقرّ فيه . يعني موضع الإحصار . وبلوغه إياه كناية عن ذبحه فيه . واستعمال بلوغ الشيء محله في وصوله إلى مايقصد منه ـ شائع . ولمّا اعتمر النبيّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية ، وحصرهم كفّار قريش عن الدخول إلى الحرم ، حلقوا وذبحوا هديهم بها ولم يبعثوا به إلى الحرم .

وقد ساق الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) بعض مافي قصة الحديبية من القواعد الفقهية في فصلٍ قال فيه : ومنها أنّ المحصَر ينحر هديه حيث أُحصر من الحل أو الحرم ، وأنّه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره في الحرم إذا لم يصل إليه ، وأنّه لا يتحلل حتى يصل إلى محله. بدليل قوله تعالى « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ »(١) . ومنها أنّ الموضع الذي نحر فيه الهدى كان من الحلّ لا من الحرم ، لأنّ الحرم كله محل الهدى .

وقال الإمام مالك في « الموطأ »(٢) : من حُبس بعدوٍّ فحال بينه وبين البيت ، فإنه يحل

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٩٨ (طبعتنا) .

من كل شيء ، وينحر هديه ، ويحلق رأسه حيث حبس ، وليس عليه قضاء .

قال(١) : فهذا الأمر عندنا فيمن أحصر بعدوٍّ كما أحصر النبيّ ﷺ وأصحابه .

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ » أي: فمن كان منكم ـ معشرَ المحرمين ـ مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشَّعْر ويحوجه إلى الحلق ، أو كان به أذًى من رأسه ـ كجراحةٍ وقملٍ ـ فعليه ، إنْ حلق ، فدية من صيام أو صدقة أو نسك . وقد نزلت هذه الآية في كعب بن عُجْرة الأنصاريّ رضي الله عنه قال(٢) : حُملت إلى النبيّ ﷺ والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : ما كنت أُرى أنّ الجهد قد بلغ بك هذا ..! أما تجد شاةً؟ قلت : لا ! قال: صم ثلاثة أيامٍ أو أطعم ستة مساكين لكلّ مسكين نصف صاع من طعامٍ واحلق رأسك . فنزلت فيّ خاصةً وهي لكم عامّة ، رواه الشيخان وغيرهما . واللفظ للبخاريّ . وروى الإمام أحمد(٣) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن كعب ابن عجرة قال : كنّا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون ، وقد حصَرَنا المشركون ، وكانت لي وفرة ، فجعلت الهوامّ تساقط على وجهي ، فمرّ عليّ النبيّ ﷺ فقال : أيؤذيك هوامّ رأسك ؟ قلت : نعم . فأمره أنْ يحلق . قال : ونزلت هذه الآية . قال ابن عباس : إذا كان (أَوْ أَوْ) فأيّةً أخذت أجزأ عنك ! وعامة العلماء : إنه يخيّر في هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدّق بفرق ـ وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدّان ـ وإن شاء ذبح شاة وتصدّق بها على الفقراء ، أيّ ذلك فعل أجزأه . ولمّا كان لفظ القرآن في بيان

(١) أخرجه في الموطأ في : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٩٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٢ ـ باب فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، حديث ٩٢١ .

ومسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة ٢٤١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

الرخصة ، جاء بالأسهل فالأسهل . ولمّا أمر النبيّ ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده أولًا إلى الأفضل فقال : أما تجد شاة ؟ فكلٌّ حسن فى مقامه ، ولله الحمد والمنّة ـ أفاده ابن كثير .

تنبيـــه :

استفيد من الآية أحكام :

الأول : جواز الحلق من المحرم ، واللبس للمخيط للضرورة، ووجوب الفدية عليه ، وذلك لبيان سبب النزول .

الثـاني : تحريم الحلق ولبس المخيط لغير عُذر ، وهذا مأخوذ من المفهوم لأنه مصرّح به، وذلك إجماع .

الثالث : أنّ الفدية الواجبة تـكون من أجناس الثلاثة وهى : الصيـام ، أو الصدقة ، أو النسك ، وقد ورد بيانها فى حديث كعب .

الرابع : أنّ الفدية واجبة على التخيير كما بينّا .

قال الراغب : وظاهر الآية يقتضى أنه لا فرق بين قليل الشعر وكثيره ، بخلاف ما قال أبو حنيفة رحمه الله، حيث لم يلزم إلّا بحلق الثلث . وغيره لم يلزم إلّا بحلق الربع .

لطيفـة :

أصل النسك العبادة ، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التى يتقرب بها إلى الله تعالى .

قال أبو البقاء : والنسك ـ فى الأصل ـ مصدر بمعنى المفعول لأنه من : نَسَك ينسك ، والمراد به ههنا المنسوك ، ويجوز أن يكون اسماً لا مصدراً ، ويجوز تسكين السين . انتهى .

« فَإِذَا أَمِنْتُمْ » أى : كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعـد الإحصار آمنين « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ » أى : بإحرامه بها فى أشهر الحجّ . ليستفيد الحلّ حين وصوله إلى البيت ، ويستمرّ حلالًا فى سفره ذلك « إِلَى الْحَجِّ » أى: إلى وقت الإحرام بالحجّ « فَمَا »

أى: فعليه ما « اسْتَيْسَرَ » أى: تيسّر « مِنَ الْهَدْيِ » من النعم ، يكون هذا الهدى لأجل ما تمتع به بين النسكين من الحلّ .

وفى (النهاية) : صورة التمتع أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحجّ ، فإذا أحرم بالعمرة بعد إهلاله شوالًا فقد صار متمتعاً بالعمرة إلى الحجّ ، وسمّى به . لأنه : إذا قدم مكة ، وطاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، حلّ من عمرته ، وحلق رأسه ، وذبح نسكه الواجب عليه لتمتعه ، وحلّ له كلّ شىء كان حرم عليه فى إحرامه من النساء والطيب، ثمّ ينشىء بعد ذلك إحراماً جديداً للحجّ وقت نهوضه إلى منى ، أو قبل ذلك ، من غير أن يجب عليه الرجوع إلى الميقات الذى أنشأ منه عمرته ، فذلك تمتعه بالعمرة إلى الحجّ ، أى انتفاعه وتبلغه بما انتفع به من حلقٍ وطيبٍ وتنظف وقضاء تفث وإلمام بأهله ، إن كانت معه .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وكان من هديه ﷺ ذبح هدى العمرة عند المروة، وهدى القِران بمنى . وكذلك كان ابن عمر يفعل . ولم ينحر ﷺ قط إلّا بعد أن حلّ ، ولم ينحره قبل يوم النحر ولا أحد من الصحابة، البتة .

« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » الهدى « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ » أى : بعد الإحرام وقبل الفراغ من أعماله ، والأَوْلى سادس ذى الحجّة وسابعه وثامنه .

قال الراغب : إن قيل : كيف قال « فِي الْحَجِّ » ؟ ومتى أحرم يوم عرفة لا يمكنه صيام ثلاثة أيام فى الحج لأنه منهىّ عنه فى يوم النحر وأيام التشريق؟ قيل : الواجب على المتمتع أن يحرم بالحجّ على وجهٍ يمكنه الإتيان بالصيام لثلاثة أيام ، وذلك بتقديم الإحرام قبل يوم عرفة . وقد قال ابن عمر وعائشة : يصوم أيام التشريق . ويحملان النهى على صوم أيام منى على غير المتمتع.

« وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى : إلى أهليكم ، أو إذا أخذتم فى الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحجّ .

قال الراغب : وإطلاق اللفظ يحتمل الأمرين جميعاً ، فيصحّ حمله عليهما .

إلّا أنّ الذى يرجح الوجه الأول ماروى فى (الصحيحين)[1] من حديث ابن عمر الطويل وفيه : فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيامٍ فى الحجّ وسبعة إذا رجع إلى أهله .

« تِلْكَ عَشَرَةٌ » فذلكة حساب ، أى : إجمال بعد تفصيل ، وفائدتها : أن لا يتوهم أنّ الواو بمعنى (أو) وأنّ الكلام على التخيير ، بل المجموع بدل المدى ..! وأن يعلم العدد جملةً كما علم تفصيلًا ، فيحاط به من وجهين فيتأكد العلم . وفى المثل : علمان خير من علم، فإنّ أكثر العرب لا يعرف الحساب . فاللائق الخطاب الذى يفهمه الخاص والعامّ . وهو ما يكون بتكرار الكلام وزيادة الإفهام ..!

وفائدة ثالثة : وهو أنّ المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لها ..!

وفائدة رابعة : أشار لها الراغب وهو :

إنّ قوله « تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ » استطراد فى الكلام ، وتنبيه على فضيلة علم العدد ، ولذا قيل : العدد أول العلوم وأشرفها . أما أنه أولُ، فلأن ما عداه معدول منه ، وبه يفصل ويميز . وأمّا كونه أشرف ، فلأنه لا اختلافَ فيه ولا تغيّر ، بل هو لازم طريقة واحدة . فذكر العشرة ووصفها بالكاملة . إذ هى عدد كمل فيه خواص الأعداد ، فإنّ الواحد مبدأ العدد ، والاثنين أول العدد ، والثلاثة أول عدد فرد ، والأربعة أول عدد زوج محدود ـ أى مجتمع من ضرب عدد فى نفسه ـ والخمسة أول عـدد دائر ، والستة أول عدد تام ـ أى إذا أخذ جميع أجزائه لم يزد عليه ولم ينقص منه ـ والسبعة أول عدد أوّل ـ أى لا يتقدمه عدد بعده ـ والثمانية أول عدد زوج الزوج ، والتسعة أول عدد مثاث ، والعشرة أول عدد ينتهى إليه العـدد . لأن ما بعده يكون مكرراً مما قبله ، فإذن العشرة هى العدد الكامل ..!

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحجّ ، ١٠٤ ـ باب من ساق البدن معه ، حديث ٨٧٩ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٧٤ (طبعتنا) .

« كَامِلَةٌ » صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد ، ففيه زيادة توصية لصيامها ، وأن لا يتهاون بها ، ولا ينقص من عددها ، كأنّه قيل : تلك عشرة كاملة، فراعوا كمالها ولا تنقصوها . « ذَٰلِكَ » أى : وجوب دم التمتع أو بدله لمن لم يجد « لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى : بل كان أهله على مسافة الغيبة منه، وأمّا من كان أهله حاضريه ـ بأن يكون ساكناً فى مكة ـ فهو فى حكم القرب من الله، فالله تعالى يجبره بفضله.

هذا ، وقال بعض المجتهدين : إنّ ذلك إشارة إلى التمتع المفهوم من قوله « فَمَنْ تَمَتَّعَ » وليست للهدى والصوم ، فلا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام، عنده .

وروى ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا إنّ ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة ! لا متعة لكم . أحلّت لأهل الآفاق وحرّمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم وادياً ـ أو قال : يجعل بينه وبين الحرم وادياً ـ ثمّ يهلّ بعمرة ..!

وروى عبد الرزاق عن طاووس قال : المتعة للناس لا لأهل مكّة . ثمّ قال : وبلغنى عن ابن عباس مثل قول طاووس ، والله أعلم .

و (الأهل) : سكن المرء من زوجٍ ومستوطن . و (الحضور) : ملازمة الموطن .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » ـ فى الجناية على إحرامه ـ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » لمن جنى على إحرامه أكثر من شدّة الملوك على من أساء الأدب بحضرته . وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

تنبيهات

الأول : فى قوله تعالى « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ..الآية» دليل على مشروعية التمتع . كما جاء فى (الصحيحين)[1] عن عمران بن حصين قال : أُنزلت آية المتعة فى كتاب الله ففعلناها مع =

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٣ ـ باب فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ، حديث ٨٣٢ .

رسول الله ﷺ ، ولم يُنْزَلْ قرآن يحرّمه، ولم ينْهَ عنها حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء .

وروى مالك فى « الموطأ »(١) عن عبد الله بن عمر أنه قال : والله ! لأنْ أعتمر قبل الحجّ وأُهدى أحبّ إلىّ من أن أعتمر بعد الحجّ فى ذى الحجّة ..!

وفى (الصحيحين)(٢) : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ولجعلتها عمرة . يعنى كما فعل أصحابه ﷺ عن أمره .

الثانى : قال ابن القيّم فى (زاد المعاد) : قد ثبت أنّ التمتع أفضل من الإفراد لوجوه كثيرة : منها : أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بفسخ الحجّ إليه ، ومحالٌ أن ينقلهم من الفاضل إلى المفضول الذى هو دونه . ومنها : أنه تأسف على كونه لم يفعله بقوله : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها متعة . ومنها : أنه أمر به كلّ من لم يسق الهدى . ومنها : أنّ الحجّ ، الذى استقرّ عليه فعله وفعل أصحابه ، القِرَانُ ممن ساق الهدى ، والتمتع لمن يسق الهدى ، ولوجوهٍ كثيرة غير هذه ..!

الثالث : قال الراغب : لا يجب الدم أو بدله فى التمتع إلّا بأربع شرائط : إيقاع العمرة فى أشهر الحجّ والتحلّل منها فيه ، والثانى : أن يثنى الحجّ من سنته ، والثالث : أن لا يرجع إلى الميقات لإنشاء الحجّ ، الرابع : أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام .

= ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٧٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٨١ ـ باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

« الْحَجُّ » أى : أوقات أعماله . « أَشْهُرٌ » وهى : شوال وذو القعدة وذو الحجّة . أى عشره الأول . نزل منزلة الكلّ لغاية فضله .

قال الثعلبىّ : وقد جاء فى تفسير أشهر الحجّ وعشر ذى الحجّة ـ وفى بعضها تسع ـ فمن عبر بالتسع أراد الأيام ، ومن عبر بالعشر أراد الليالى ؛ ولقوله ﷺ : الحجّ عرفة . وقد تبينت أنه يفوت الوقوف بطلوع الفجر .

وقوله « مَعْلُومَاتٌ » أى : قبل نزول الشرع عندالناس ، لا يشكان عليهم . وآذن هذا أنّ الأمر بعد الشرع على ما كان عليه «فَمَنْ فَرَضَ» أى : أوجب على نفسه « فِيهِنَّ الْحَجَّ » بإحرامه « فَلَا رَفَثَ » أى : فمقتضى إحرامه أنْ لا يوجد جماع ولا مقدماته ولا فحش من القول « وَلَا فُسُوقَ » أى: خروج عن حدود الشريعة بارتكاب محظورات الإحرام وغيرها كالسباب والتنابز بالألقاب ، « وَلَا جِدَالَ » أى: مماراة أحد من الرفقة والخدم والمكارين « فِي الْحَجِّ » أى: فى أيامه ، بل ينبغى أن يوجد فيها كلّ خيرٍ من خيرات الحجّ . والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه ، والإشعار بعلة الحكم ؛ فإنّ زيارة البيت المعظم ، والتقرب بها إلى الله عزّ وجلّ ، من موجبات ترك الأمور المذكورة ، وإيثار النفى للمبالغة فى النهى ؛ والدلالة على أنّ ذلك حقيق بأن لا يكون، فإنّ ما كان منكراً مستقبحاً فى نفسه، ففى تضاعيف الحجّ أقبح ، كلبس الحرير فى الصلاة .

لطيفة :

قال بعضهم : النكتة فى منع هذه الأشياء على أنها آداب لسانية : تعظيم شأن الحرم ،

وتغليظ أمر الإثم فيه ، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فللملأ آداب غير آداب الخلوة مع الأهل . ويقال فى مجلس الإخوان مالا يقال فى مجلس السلطان . ويجب أن يكون المرء فى أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب ، وأفضل الأحوال . وناهيك بالحضور فى البيت الذى نسبه الله سبحانه إليه ..! وأما السرّ فيها على أنها محرمات الإحرام، فهو أن يتمثل الحاج أنّه بزيارته لبيت الله تعالى مقبلٌ على الله تعالى ، قاصدٌ له . فيتجرّد عن عاداته ونعيمه ، وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره ، بحيث يساوى الغنىّ الفقير ، ويماثل الصعلوك الأمير ، فيكون الناس من جميع الطبقات فى زىٍّ كزىّ الأموات ، وفى ذلك ـ من تصفية النفس ، وتهذيبها ، وإشعارها بحقيقة العبودية لله ، والأخوّة للناس ـ ما لا يقدر قدره ، وإن كان لا يخفى أمره ..!

« وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ » حثّ على الخير عقيب النهى عن الشرّ ، وأنْ يستعملوا مكان القبيحِ من الكلامِ الحسنَ ، ومكانَ الفسوقِ البرَّ والتقوى ، ومكانَ الجدالِ الوفاقَ والأخلاقَ الجميلة ..! وقد رُوى[1] فيمن حجّ ولم يرفث ولم يفسق أنّه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه ! وذلك ، لأنّ الإقبال على الله تعالى بتلك الهيئة ، والتقلب فى تلك المناسك على الوجه المشروع ، يمحو من النفوس آثارَ الذنوب وظلمتها ، ويدخلها فى حياةٍ جديدةٍ : لها فيها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت . . ! « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ »

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٧ ـ كتاب المحصر ، ٩ ـ باب قول الله تعالى: **فَلَا رَفَثَ** حديث ٨١٠

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٣٨ (طبعتنا) .

ولفظ البخارىّ : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » .

روى البخارى[(١)] عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان أهل اليمن يحُجون ولا يتزوّدون ويقولون : نحن المتوكلون ! فإذا قدموا مكّة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ .

أى : وتزوّدوا ما تتبلغون به وتكفّون به وجوهكم عن الناس ، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم . فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، أى : الاتقاء عن الإبرام والتثقيل عليهم ..!

وقال ابن عمر : إنّ من كرم الرجل طيب زاده فى السفر . وكان يشترط على من صحبه الجودة .. نقله ابن كثير .

ويقال فى معنى الآية : وتزودوا من التقوى للمعاد ، فإنّ الإنسان لابدّ له من سفرٍ فى الدنيا ، ولابدّ فيه من زادٍ ، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب ؛ وسفر من الدنيا إلى الآخرة ، ولابدّ فيه من زادٍ أيضاً وهو تقوى الله ، والعمل بطاعته ، واتقاء المحظورات ..! وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول ، فإنّ زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة ..! وفى هذا المعنى قال الأعشى[(٢)] :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولاقيت بعد الموت مَنْ قد تزوّدا
ندمتَ على أنْ لا تكون كمثله وأنّك لم تُرْصِدْ لِمَا كان أرصدا ..!

وثَمَّتْ وجه آخر : وهو أنّ قوله تعالى « وَتَزَوَّدُوا » أمر باتخاذ الزاد هو طعام السفر ، وقوله « فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ » إرشاد إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها بعد

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٦ ـ باب قول الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، حديث ٨١١ .

(٢) من قصيدة قالها الأعشى يمدح النبىّ ﷺ . ومطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أَرْمَدَا وعَادَكَ ما عاد السليمَ المُسَهَّدَا

الأمر بالزاد للسفر في الدنيا ، كما قال تعالى « وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »(١) لما ذكر اللباس الحسيّ نبّه مرشداً إلى اللباس المعنويّ وهو الخشوع والطاعة ، وذكر أنّه خيرٌ من هذا وأنفع .

« وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » أي : اتقوا عقابي وعذابي في مخالفتي وعصياني يا ذوي العقول والأفهام ! فإنّ قضية اللبّ تقوى الله ، ومَنْ لم يتقه من الألباء فكأنه لا لبّ له ..! كما قال تعالى « أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »(٢) !

وقد قرئ بإثبات الياء في « اتقون » على الأصل ، وبحذفها للتخفيف ودلالة الكسرة عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » قال الراغب : كانت العرب تتحاشى من التجارة في الحجّ ، حتى إنّهم كانوا يتجنبون المبايعة إذا دخل العشر ، وحتى سمّوا مَن تولّى متجراً في الحجّ : الداج دون الحاج ؛ فأباح الله ذلك ؛ وعلى إباحة ذلك ، دلّ

(١) [٧ / الأعراف / ٢٦] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] ونصها : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

قوله «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ... ـإلىقوله ـ ليشهدوامنافعلهم»[١] وقوله : « وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ »[٢] .

وقد روى البخارىّ[٣] عن ابن عباس قال: كان ذوالمجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » فى مواسم الحجّ .

ففى الآية الترخيص لمن حجّ فى التجارة ونحوها من الأعمال التى يحصل بها شىء من الرزق ـ وهو المراد بالفضل هنا ـ ومنه قوله تعالى : فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ[٤] . أى : لا إثم عليكم فى أن تبتغوا فى مواسم الحجّ رزقاً ونفعاً وهو الربح فى التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحجّ ..! « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » ـ أى : دفعتم منها ـ « فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ » أى : بالتلبية ، والتهليل ، والتكبير ، والثناء ، والدعوات . و (المشعر الحرام) : موضع بالمزدلفة ، ميمه مفتوحة وقد تكسر ، وقد وَهِمَ من ظنه جبيلًا بها . سمّى به لأنه معلم للعبادة وموضع لها ـ كذا فى « القاموس وشرحه » .

ونقل الفخر عن الواحدىّ فى (البسيط) : إنّ (المشعر الحرام) هو المزدلفة . سمّاها الله تعالى بذلك ، لأنّ الصلاة والمقام والمبيت به ، والدعاء عنده . واستقربه الفخر قال : لأن الفاء فى قوله « فَاذْكُرُوا اللهَ ... الخ » تدلّ على أنّ الذكر عند المشعر الحرام يحصل عقيب الإفاضة من عرفات ، وما ذاك إلّا بالبيتوتة بالمزدلفة . انتهى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٧] . (٢) [٧٣ / المزمل / ٢٠] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٥٠ ـ باب التجارة أيام الموسم والبيع فى أسواق الجاهلية ، حديث ٩٠٤ .

(٤) [٦٢ / الجمعة / ١٠] ونصها : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

قال البيضاويّ : ويؤيد الأول ما روى جابر(١) : أنه صلى الله عليه وسلم لما صلّى الفجر ـ يعني بالمزدلفة بغلس ـ ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام. أي : فإنه يدلّ على تغاير المزدلفة والمشعر الحرام لمكان مسيره صلى الله عليه وسلم منها إلى المشعر الحرام . ! وإنما قال (يؤيد) لأنه يجوز أنْ يؤول المشعر الحرام في الحديث بالجبل ، إمّا بحذف المضاف ، أو بتسمية الجزء باسم الكلّ ـ أفاده السيلكوتي .

قال ابن القيّم في (زاد المعاد) في سياق حجته صلى الله عليه وسلم : فلمّا غربت الشمس واستحكم غروبها أفاض من عرفة بالسكينة من طريق المأزمين ، ثمّ جعل يسير العنق ـ وهو ضرب من السير ليس بالسريع ولا البطيء ـ فإذا وجد فجوةً ـ وهو المتسع ـ نصّ سيره ـ أي : رفعه فوق ذلك ـ وكان يلبي في مسيره ذلك لا يقطع التلبية ، حتى أتى المزدلفة فتوضأ ، ثم أمر المؤذن بالأذان فأذّن ، ثمّ أقام فصلّى المغرب قبل حطّ الرحال وتبريك الجمال؛ فلمّا حطّوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء الآخرة بإقامة بلا أذان ، ولم يصلّ بينهما شيئاً ؛ فلمّا طلع الفجر صلاها في أول الوقت ، ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرّع والتكبير والتهليل والذكر حتى أسفر جدا ، وذلك قبل طلوع الشمس . انتهى المقصود منه .

قال بعض الأئمة : ما أحقّ الذكر عند المشعر الحرام بأن يكون واجباً أو نسكاً ، لأنّه مع كونه مفعولًا له ﷺ ، ومندرجاً تحت قوله : خذوا عني مناسككم ، فيه أيضاً النصّ القرآنيّ بصيغة الأمر : فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ .

« وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ » بدلائل الكتاب ، أي: اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هدايةً حسنة ! فمفاد التشبيه التسوية في الحسن والكمال ، كما تقول : اخدمْه كما أكرمك ،

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .
وهذا الحديث ، ينبغي لمن ينوي الحج ، أن يجعل دراسته هِجِّيرَاهُ .

يعنى : لا تتقاصر خدمتك عن إكرامه . وفيه تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحجّ ! « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ » أى : من قبل الهدى « لَمِنَ الضَّالِّينَ » الجاهلين بالإيمان والطاعة . و (إن) هى المخففة ، و(اللام) هى الفارقة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » أى : من عرفة لا مِن المزدلفة . وفى الخطاب وجهان :

أحدها : أنّه لقريش . وذلك لما كانوا عليه من الترفّع على الناس والتعالى عليهم ، وتعظّمهم عن أن يساووهم فى الموقف ، وقولهم: نحن أهل الله ، وقطّان حرمه ، فلا نخرج منه فيقفون بجمع ، وسائر الناس بعرفات .

وقد روى البخارىّ[1] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ؛ فلمّا جاء الإسلام أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يأتى عرفات ، ثمّ يقف بها ، ثمّ يُفيض منها ، فذلك قوله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » .

وثانيهما : أنّه أمرٌ لجميع الناس أن يفيضوا من حيث أفاض الناس يعنى : إبراهيم عليه السلام .

قال الراغب : وسمّاه الناس لأنّ (الناس) يستعمل على ضربين : أحدها للنوع من غير

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٥ ـ باب ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، حديث ٨٦٧

اعتبار مدحٍ وذم ، والثانى المدح اعتباراً بوجود تمام الصورة المختصة بالإنسانية ، وليس ذلك فى هذه اللفظة ، بل فى اسم كلّ جنس ونوع ـ نحو : هذه فرس وفلان رجل ، وليس هذا بفرس ولا فلان برجل ـ أى : ليس فيه معناه المختصّ بنوعه . وبهذا النظر نفى السمع والبصر عن الكفار ؛ فعلى هذا سُمّى إبراهيم (الناس) على سبيل المدح ـ وهو أن الواحد يسمّى باسم الجماعة تنبيهاً على أنه يقوم مقامهم فى الحكم ـ وعلى هذا قول الشاعر :

وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم فى واحد ..!

وعلى هذا قال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً »[1] اهـ .

فإن قيل : ما معنى كلمة « ثمّ » فإنّها تستلزم تراخى الشىء عن نفسه ، سواء عطف على مجموع الشرط والجزاء ، أو الجزاء فقط ..؟

فالجواب : إن كلمة « ثمّ » ليست للتراخى ، بل مستعارة للتفاوت بين الإفاضتين ـ أى : الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة ـ والبعد بينهما بأنّ أحدهما صواب والآخر خطأ.

قال التفتازانى : لما كان المقصود من قوله تعالى « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ » المعنى التعريضىّ ، كان معناه : ثمّ لا تفيضوا من مزدلفة . والمقصود من إيراد كلمة «ثمّ» التفاوت بين الإفاضتين فى الرتبة بأنّ إحداهما صواب والأخرى خطأ .

وأجاب بعضهم بأنّ « ثمّ » بمعنى الواو .

« وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ » عما سلف من المعاصى « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال ابن كثير عليه الرحمة : كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات. ولهذا ثبت فى (صحيح مسلم)[2]: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠] ونصها : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث ١٣٥ (طبعتنا) =

وثلاثين . وفى (الصحيحين)(١) : أنه ندب إلى التسبيح والتحميدوالتكبير ثلاثاً وثلاثين. وقد روى ابن جرير ههنا حديث(٢) عباس بن مرداس السلمى فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته عشية عرفة .

= ونصه : عن ثوبان قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا انصرف من صلاته ، استغفر الله ثلاثاً وقال « اللهم ! أنت السلام ومنك السلام . تباركت ياذا الجلال والإكرام » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة ، حديث ٤٩٩ . ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبىّ ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم . يصلون كما نصلى . ويصومون كما نصوم . ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون .

قال « ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد بعدكم . وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه ، إلا من عمل مثله : تسبّحون وتحمدون وتكبّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » .

فاختلفنا بيننا . فقال بعضنا : نسبّح ثلاثاً وثلاثين ونحمد ثلاثاً وثلاثين ونكبّر أربعاً وثلاثين .

فرجعت إليه فقال « تقول : سبحان الله والحمد لله والله أكبر . حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٤٢ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة ١٩٢ من الجزء الرابع من تفسير ابن جرير ، حديث رقم ٣٨٤٣ (طبعة المعارف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

« فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ » أى : فرغتم من أعمال الحجّ ونفرتم « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » أى : فأكثروا ذكر الله ، وابذلوا جهدكم فى الثناء عليه وشرح آلائه ونعمائه ، كما تفعلون فى ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم بعد قضاء مناسككم . وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات .. ! ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . وفيها إشعارٌ بتحويل القوم عما اعتادوه ، وحثٌّ على إفراد ذكره جلّ شأنه .

ثمّ أرشد تعالى إلى دعائه ــ بعد كثرة ذكره ــ فإنه مظنة الإجابة . وذمَّ مَن لا يسأله إلّا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه ، فقال « فَمِنَ النَّاسِ » أى : الذين نسوا قدر الآخرة وكانت الدنيا أكبر همّهم «مَن يَقُولُ» أى : فى ذكره «رَبَّنَا ءَاتِنَا» أى : مرغوباتنا « فِى الدُّنْيَا » لا نطلب غيرها « وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ » أى : نصيب وحظ لأنه استوفى نصيبه فى الدنيا بتخصيص دعائه به . فالجملة إخبار منه تعالى ببيان حاله فى الآخرة ؛ أو المعنى : ماله فى الآخرة من طلب خلاق . فهو بيان لحاله فى الدنيا وتصريح بما علم ضمناً من قوله « ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا » ؛ أو تأكيد لكون همه مقصوراً على الدنيا . وقوله «فِى الْآخِرَةِ» حينئذٍ متعلّق « بخلاق » حال منه ؛ وتضمن هذا الذمّ والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهمّ! اجعله عامَ غيثٍ وعامَ خِصب وعام ولاد حسن .! لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً . فنزل فيهم ذلك .

وهؤلاء الذين حكى الله عنهم ـ أنهم يقتصرون فى الدعاء على طلب الدنيا ـ قال قوم : هومشركو العرب . وكونهم لا خلاق لهم فى الآخرة ظاهر. إذْ لا نصيب لهم فيها من كرامةٍ ونعيم وثواب . وقال قوم: هؤلاء قد يكونون مؤمنين ولـكنهم يسألون الله لدنياهم لا لأخراهم، ويكون سؤالهم هـذا من جملة الذنوب ، حيث سألوا الله تعالى ـ فى أعظم المواقف وأشرف المشاهد ـ حطامَ الدنيـا وعرضَها الفانى ، معرضين عن سؤال النعيم الدائم فى الآخرة . . ! ومعنى كونهم لا خلاق لهم فى الآخرة ، أى : إلّا أن يتوبوا ، أوْ إلّا أن يعفو الله عنـه ، أو لا خلاق له فى الآخرة كخلاق من سأل المولى لآخرته ، والله أعلم . كذا يستفاد من الرازىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» جمعت هـذه الدعوة كلّ خيرٍ فى الدنيا والآخرة ، وصرفت كلّ شرّ ، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوىّ ـ من عافيةٍ ، ودارٍ رحبةٍ ، وزوجةٍ حسنة ، ورزقٍ واسع ، وعلمٍ نافع ، وعملٍ صالح ، ومركبٍ هيّن ، وثناء جميل ... إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ـ ولا منافاة بينها ـ فإنها كلّها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا. وأمّا الحسنة فى الآخرة: فأعلى ذلك رضوان الله تعالى ودخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات ، وتيسير الحساب ... وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة . وأمّا النجاة من النار: فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام .

وقد ورد فى السنة الترغيب فى هـذا الدعاء ، فقد كان يقول صلى الله عليه وسلم كما رواه البخارىّ(١) عن أنس .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٥٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، حديث ١٩٧٤ .

=

وروى الإمام أحمد(١) : سأل قتادة أنساً : أىّ دعوة كان يدعو بها النبىّ صلى الله عليه وسلم أكثر ؟ قال : كان أكثر دعوةٍ يدعو بها يقول « اللهمّ ربّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وكان أَنَس إذا أراد أن يدعو بدعوةٍ دعا بها ، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ! ورواه مسلم(٢) . وهذا لفظه .

وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب : أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فيما بين ركن بنى جمح والركن الأسود : « ربّنا آتنا فى الدنيا حسنة ... الآية».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلىالفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة ، وما فيه من معنى البعد لما مرّ مراراً من الإشارة إلى علو درجتهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل « لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا » أى : من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذى هو المنافع الحسنة . أو من أجل ما كسبوا ، كقوله : مما خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا(٣) . أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيهم منه فى الدنيا والآخرة . وسمّى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال وهى موصوفة بالكسب « وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » إمّا بمعنى سريع فى الحساب كسريع فى السير ، فالجملة تذييل لقوله « أُولَٰئِكَ ...» الخ يعنى : أنه يجازيهم على قدر أعمالهم وكسبهم ولا يشغله شأن عن شأن لأنه سريع فى المحاسبة ؛ أو بمعنى : سريع حسابه كحسن الوجه . فالجملة

= ونصه : عن أنس قال : كان أكثر دعاء النبىّ ﷺ : اللهم ! ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٦ (طبعتنا) .

(٣) [٧١ / نوح / ٢٥] .

تذييل لقوله « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ...» الخ يعنى : يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد . فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة باكتساب الطاعات والحسنات .

وقال الراغب : لما كان الحساب يكشف عن جمل الشيء وتفصيله ، نبّه بذلك على إحاطته بأفعال عباده ووقوفه على حقائقها . وذكر السريع تنبيهاً أن ذلك منه لا فى زمان ولا بفكرة ، وذلك أبلغ ما يمكن أن يتصور به الكافةُ سرعةَ فعل الله .

تنبيـه :

قال الرازىّ : اعلم أنّ الله تعالى بيّن أوّلًا تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال « فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ . . . الخ » ، ثمّ بيّن أنّ الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره فقال « فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ...الخ »، ثمّ بيّن بعد ذلك الذكر كيفيّة الدعاء فقال « فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ...الخ» وما أحسن هذا الترتيب ! فإنه لابدّ من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ، ثم بعد العبادة لابدّ من الاشتغال بذكر الله تعالى لتنوير القلب وتجلى نور جلاله ، ثم بعد ذلك الذكر، يشتغل الرجل بالدعاء ، فإنّ الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقاً بالذكر ..!

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ، فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، لِمَنِ اتَّقَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ » هى أيام التشريق، قاله ابن عباس رضى الله عنه. وروى الإمام مسلم[١] عن نبيشة الهذلىّ قال : قال رسول الله ﷺ : أيام التشريق أيام

(١) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٤٤ (طبعتنا) .

أكل وشرب وذكر الله . وقال عكرمة : معنى هـذه الآية : التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر ! الله أكبر ! .

وروى البخارىّ[١] عن ابن عمر : أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام ، وخلف الصلوات ، وعلى فراشه ، وفى فسطاطه ، وفى مجلسه ، وفى ممشاه فى تلك الأيام جميعاً . وفى رواية : أنه كان يكبر فى قبته فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى ـ أخرجه البخارىّ تعليقاً .

ومن الذكر فى هـذه الأيام التكبير مع كلّ حصاة من حصى الجمار كلّ يومٍ من أيام التشريق . فقد ورد فى (الصحيح)[٢] : أنّ النبى ﷺ كبّر مع كلّ حصاة .

وقد جاء فى الحديث[٣] الذى رواه أبو داود وغيره : إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عزّ وجلّ .

وروى مالك[٤] فى (موطأه) عن يحيى بن سعيد أنّه بلغـه أنّ عمر بن الخطاب خرج الغدَ من يوم النحر حين ارتفاع النهار شيئاً . فكبّر ، فكبّر الناس بتكبيره . ثم خرج الثانية من يومه ذلك بعد ارتفاع النهار فكبّر ، فكبّر الناس بتكبيره . ثم خرج الثالثة حين زاغت الشمس فكبّر ، فكبّر النـاس بتكبيره حتى يتصل التكبير ويبلغ البيت فيُعلَم أنّ عمر قد خرج يرمى .

ثم قال مالك: والتكبير فى أيام التشريق على الرجال والنساء ـ من كان فى جماعة أو وحده ـ بمنى أو بالآفاق كلّها واجب .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٣ ـ كتاب العيدين ، ١٢ ـ باب التكبير أيام منى .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٣٨ ـ باب يكبر مع كل حصاة ، حديث ٨٩٦ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٦٤ ـ باب ماجاء كيف ترمى الجمار .

(٤) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

ثمّ قال : الأيام المعدودات أيام التشريق .

وفى (القاموس وشرحه) : (التشريق) تقديد اللحم ، ومنه سميت أيام التشريق وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأنّ لحوم الأضاحى تشرق فيها أى : تشرّر فى الشمس ـ حكاه يعقوب . وقيل : سميت بذلك لقولهم : أشرق ثبير كيما نغير ؛ أو لأن الهدى لاينحر حتى تشرق الشمس ـ قاله ابن الأعرابىّ . قال أبو عبيد : وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير، ولم يذهب إليه غيره .

« فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى : فمن تعجل النفر الأول من هذه الأيام الثلاثة، فلم يمكث حتى يرمى فى اليوم الثالث، واكتفى برمى الجمار فى يومين من هذه الأيام الثلاثة، فلا يأثم بهذا التعجيل . وإيضاحه : أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق. ليرمى كلّ يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة. يرمى عند كلّ جمرة سبع حصيات . ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها ، فذلك واسع له « وَمَنْ تَأَخَّرَ » أى : حتى رمى فى اليوم الثالث وهو النفر الثانى « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » فى تأخّره ، واعلم: السنة هو التأخر . فإنه ﷺ لم يتعجل فى يومين بل تأخّر حتى أكمل رمى أيام التشريق الثلاثة . ولا يقال هذا اللفظ ـ أعنى « فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» ـ إنما يقال فى حقّ المقصّر لا فى حقّ من أتى بتمام العمل ، لأنّا نقول : أتى به لمشاكلة اللفظ الأول كقوله : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا(١) ، وقوله : فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ (٢) ، ونحن نعلم أنّ جزاء السيئة والعدوان ليس بسيئة

(١) [٤٢/ الشورى/ ٤٠] ونصها : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] ونصها : الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

ولا عدوان . فإذا حمل على موافقة اللفظ مالا يصح فى المعنى ـ فَلَأَنْ يحمل على موافقة اللفظ مايصح فى المعنى أولى . لأنّ المبرور المأجور يصح فى المعنى نفى الإثم عنه ـ قاله الواحدىّ .

وقال الراغب : رفع الإثم عن المتعجل والمتأخر على وجه الإباحة ـ أى كناية عنها ـ وقيل : رفع الإثم أنه حط ذنوبهما بإقامتهما الحجّ ـ تعجلّ أو تأخّر ـ بشرط أن يكون مقياسهما الاعتبار بالتقوى ، وعلى ذلك دلّ حديث(١) : مَنْ حَجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمّه !

وقوله تعالى : « لِمَنِ اتَّقَى » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الذى ذكر ـ من التخيير ونفى الإثم عن التعجل والتأخر ، أو من الأحكام ـ لمن اتقى ، لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به. على حد : ذلك خير للذين يريدون وجه الله(٢) وقوله : هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(٣) . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » ـ فى مجامع أموركم ـ « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء على أعمالكم، وهو تأكيدٌ للأمر بالتقوى وبعثٌ على التشدد فيه ، لأنّ من تصور أنه لابدّ من حشرٍ ومحاسبةٍ ومساءلةٍ ، وأنّ بعد الموت لادارَ إلّا الجنة أو النار ـ صار ذلك من أقوى الدواعى له إلى التقوى . و (الحشر) اسم يقع على ابتداء خروجهم من الأجداث إلى انتهاء الموقف .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٢٧ ـ كتاب المحصَر ، ٩ ـ باب قول الله تعالى : فَلَا رَفَثَ حديث ٨١٥ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٣٨ (طبعتنا) .

(٢) [٣٠/ الروم/ ٣٨] ونصها : فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢] ونصها : ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى : يعظم فى نفسك حلاوة حديثه وفصاحته فى أمر الحياة الدنيا التى هى مبلغ علمه «وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ» أى : يحلف بالله على الإيمان بك والمحبة لك وأنّ الذى فى قلبه موافق للسانه لئلا يتفرس فيه الكفر والعداوة ؛ أو معناه : يظهر لك الإسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق ـ على نحو ما وصف به أهل النفاق حيث قالوا : نشهد إنّك لرسول الله (١) . ـ كقوله تعالى: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ...(٢) الآية «وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» شديد الخصومة، جدل بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٥] ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾

«وَإِذَا تَوَلَّىٰ» ـ انصرف عمّن خدعه بكلامه ـ «سَعَىٰ» ـ مشى ـ «فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا» بإدخال الشبه فى قلوب المسلمين ، وباستخراج الحيل فى تقوية الكفر ، وهذا

---

(١) [٦٣/ المنافقون/١] ونصها: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٠٨] ونصها : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا .

المعنى يسمّى فساداً، كقوله تعالى ـ حكايةً عن قوم فرعون : أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (١). أى: يردّوا قومك عن دينهم ويفسدوا عليهم شرعتهم ؛ وسمّى هذا المعنى فساداً لأنه يوقع الاختلاف بين الناس ، ويفرق كلمتهم ، ويؤدى إلى أن يتبرأ بعضهم من بعض ، فتنقطع الأرحام ، وتنسفك الدماء . وهذا كثير فى القرآن المجيد . « وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ » أى : الزرع . « وَالنَّسْلَ » أى : المواشى الناتجة .

قال بعض المحققين: إنّ إهلاك الحرث والنسل كناية عن الإيذاء الشديد ، وأن التعبير به عن ذلك صار من قبيل المثل ؛ فالمعنى : يؤذى مسترسلًا فى إفساده ولو أدّى إلى إهلاك الحرث والنسل .

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ » أى : لا يرضى فعله .

قال الراغب : إن قيل : كيف حكم تعالى بأنه لا يحب الفساد وهو مفسد للأشياء ؟ قيل : الإفساد فى الحقيقة : إخراج الشىء عن حالةٍ محمودة لا لغرضٍ صحيح، وذلك غير موجود فى فعل الله تعالى ، ولا هو آمرٌ به ، ولا محبٌّ له ، وما يُرَى من فعله ويظهر بظاهره فساداً فهو بالإضافة إلينا واعتبارنا له كذلك . فأمّا بالنظر الإلهىّ فكله صلاح ، ولهذا قال بعض الحكماء : يا من إفساده إصلاح ! أى : ما نظنه إفساداً ـ لقصور نظرنا ومعرفتنا ـ فهو فى الحقيقة إصلاح ؛ وجملة الأمر : إنّ الإنسان هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق لأجله ، ولهذا قال تعالى : هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ (٢). والمقصد من الإنسان سوقه إلى كماله

(١) [٧ / الأعراف / ١٢٧] ونصها : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الذى رسخ له ، فإذن : إهلاك ما أمر بإهلاكه ، لإصلاح الإنسان وما منه أسباب حياته الأبدية . ولشرح هذه الجملة موضع آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ، وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُ » على نهج العظة « اتَّقِ اللهَ » فى النفاق، واحذر سوء عاقبته. أوفى الإفساد والإهلاك وفى اللجاج بالباطل « أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » أى : حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم وهو التكبّر ؛ أو المعنى : أخذته الحميّة للإثم الذى فى قلبه فمنعته عن قبول قول الناصح « فَحَسْبُهُ » أى : كافيه « جَهَنَّمُ » إذا صارَ إليها واستقرّ فيها جزاء وعذاباً « وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى : الفراش الذى يستقر عليه بدل فرش عزّته .

قال الراغب : المهد معروف ، وتصور منه التوطئة ، فقيل لكلّ وطىءٍ مهد . والمهاد يجعل تارةً جمعاً للمهد ، وتارةً للآلة نحو فراش. وجعل جهنم مهاداً لهم كما جعل العذاب مبشّراً به فى قوله : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (١) .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ ـ ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

وقال الحاكم : هذه الآية تدلّ على أنّ من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد : اتّق الله ! فيقول : عليك نفسك . .

قال الزمخشريّ : ومنه ردّ قول الواعظ .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١) .

ولما أتمّ تعالى الإخبار عن هذا الفريق من الناس الضالّ ، أتبعه بقسيمه المهتدى. ليبعث العباد على تجنّب صفات الفريق الأول، والتخلق بنُعوت الثانى فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٧] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ » أى : يبيعها ببذلها فى طاعة الله « ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ » أى : طلب رضاه « وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » حيث أرشدهم لما فيه رضاه ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، مع كفرهم به ، وتقصيرهم فى أمره .

لطيفة :

قال بعضهم : كان مقتضى المقابلة للفريق الأول أن يوصف هذا الفريق بالعمل الصالح مع عدم الدعوى والتبَجُّحِ بالقول ، أو مع مطابقة قوله لعمله ، وموافقة لسانه لما فى جنانه ! والآية تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به. فإنّ من يبيع نفسه لله ، لايبغى ثمناً لها غيرَ مرضاته، لايتحرّى إلّا العملَ الصالح وقولَ الحقّ والإخلاصَ فى القلب فلا يتكلم بلسانين،

(١) [٢٢ / الحج / ٧٢] .

ولا يقابل الناس بوجهين ، ولا يؤثر على ماعند الله عرض الحياة الدنيا ... وهذا هو المؤمن الذى يعتد القرآن بإيمانه ...

وقد أخرج الحارث بن أبى أسامة فى (مسنده) ، وابن أبى حاتم ورزين عن سعيد ابن المسيّب قال : أقبل صهيب مهاجراً إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته ، وانتثل مافى كنانته ثم قال : يامعشر قريش ! لقد علمتم أنى من أرماكم رجلاً ، وايم الله ! لاتصلون إلىّ حتى أرمى كلّ سهم معى فى كنانتى ثمّ أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شيء ، ثم افعلوا ماشئتم. وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى؟ قالوا : نعم! فلما قدم على النبىّ ﷺ المدينة قال : ربح البيع، أبايحيى! ربح، أبايحيى..! ونزلت « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ... الآية » .

وأخرج الحاكم فى (المستدرك) نحوه من طريق ابن المسيب عن صهيب موصولاً . وأخرجه أيضاً من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت عن أنس. وفيه التصريح بنزول الآية ، وقال : صحيح على شرط مسلم؛ وروى أنها نزلت فى صهيب وغيره. كما روى فى نزول الأولى روايات ساقها بعض المفسّرين .

ولا تنافى فى ذلك . لأنّ قولهم نزلت فى كذا ، تارةً يراد به أنّ حالاً مّا كان سبباً لنزولها ، بمعنى أنها مانزلت إلّا لأجله ! وهذا يعلم إمّا من إشعار الآية بذلك ، أو من رواية صحّ سندها صحّةً لامطعن فيه . وتارةً يراد به أنها نزلت بعد وقوع شأن ماتشمله بعمومها . فيقول الراوى عقيب حدوث ذلك الشأن : نزلت فى كذا ، والمراد أنها تصدق عليه لا أنّ ذلك الشأن كان سبباً للنزول ... وما روى فى هذه الآية من هذا القبيل .

وإلى هذا النوع أشار الزركشىّ فى (البرهان) بقوله : قد[1] عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية فى كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم. لاأن هذا كان السبب فى نزولها. فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع ...

---

(١) بالصفحة رقم ٣١ من الجزء الأول (طبعتنا) .

وقد قدّمنا أنّ سبب النزول مما يدخله الاجتهاد . وأنّه لايعول منه إلّا على ماصحّ سنده . وما نزل عنه وارتقى عن درجة الضعف يتفقّه فيه .. فاحرص على هذا التحقيق ، وقد أسلفنا فى (المقدّمة) البحث فيه مستوفى . وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ » ـ بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام فيهما. قراءتان سبعيتان ـ أى : فى الإسلام . قال امرؤ القيس بن عابس :

فلستُ مبدّلًا بالله ربًّا ... ولا مستبدلًا بالسِّلم دينا .. !

ومثله قول أخى كَنْدَةَ :

دعوت عشيرتى للسِّلم لمّا ... رأيتهمُ تولّوا مدبرينا .. !

قال الرازىّ : أصل هذه الكلمة من الانقياد . قال الله تعالى : إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1] . والإسلام إنما سمّى إسلاماً لهذا المعنى . وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب . وهذا أيضاً راجع إلى هذا المعنى . لأن عند الصلح ينقاد كل واحدٍ لصاحبه ولا ينازعه فيه .

ومعنى الآية : ادخلوا فى الاستسلام والطاعة . أى : استسلموا لله وأطيعوه ولا تخرجوا عن شىءٍ من شرائعه « كَافَّةً » حال من الضمير فى (ادخلوا) « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى : طرقه التى يأمركم بها . فَإِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣١] .

عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) وَإِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٢) وضمّ الطاء من (خطوات) واسكانها لغتان : حجازية وتميمية . وقدقرىء بهما فى السبع. « إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » . ظاهر العداوة أو مُظهِر لها . أى : بما أخبرنا كم به فى أمر أبيكم آدم عليه السلام وغيره ، مما شواهده ظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٩] (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« فَإِنْ زَلَلْتُمْ » أى : عن الدخول فى السلم « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ » أى : الآيات الظاهرة على أنّ ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ » غالبٌ لا يعجزه الانتقام ممّن زلّ ولا يفوته من ضل « حَكِيمٌ » لا ينتقم إلّا بحقّ . وقوله « فَاعْلَمُوا ... »الخ نهاية فى الوعيد . لأنه يجمع من ضروب الخوف مالايجمعه الوعيد بذكر العقاب . وربّما قال الوالد لولده : إن عصيتنى فأنت عارف بى وأنت تعلم قدرتى عليك وشدة سطوتى . فيكون هذا الكلام ـ فى الزجر ـ أبلغ من ذكر الضرب وغيره . فظهر تسبب الجزاء فى الآية بما أشعر به من الزجر والتهديد على الشرط المشير إلى ذنبهم وجرمهم .

هذا ، ومن الوجوه المحتملة فى الآية ، أن يكون (السلم) المذكور فيها معناه الصلح والمسالمة وترك المنازعة والاختلاف . فمعنى « ادخلوا فى السلم » : كونوا متوافقين ومجتمعين فى نصرة الدين ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بأن يحملكم على طلب الدنيا والمنازعة مع الناس . فتكون الآية حينئذٍ كقوله تعالى : وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٣) .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٩] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٦] وأول الآية : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ،

(٣) [٨ / الأنفال / ٤٦] ونصها : وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وقوله : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا [(١)] وقوله : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [(٢)] . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

«هَلْ يَنظُرُونَ» أى ينتظرون ، فـ(نظر) كـ(انتظر) ، يقال : نظرته وانتظرته إذا ارتقبت حضوره . وهذا الاستفهام إنكارىٌّ فى معنى النفى ؛ أى : ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة ـ فى الامتثال بما أمروا به ، والانتهاء عما نهوا عنه ـ بعد طول الحلم عنهم « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ » جمع ظلّة ـ كقلل فى جمع قلّة ـ أى : فى ظلّةٍ داخل ظلّة ـ ، وهى ما يستر من الشمس ، فهى فى غاية الإظلام والهول والمهابة لما لها من الكثافة التى تغمّ على الرأى ما فيها « وَالْمَلَآئِكَةُ » ـ عطف على الاسم الجليل ـ أى : ويأتى جنده الذين لا يعلم كثرتهم إلّا هو . هذا ، على قراءة الجماعة . وعلى قراءة أبى جعفر ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٣] ونصها : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ١٣] ونصها : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

بالخفض . فهو عطف على ظلل أو الغمام « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » أى : أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه . قال الراغب : نبّه به على أنه لا يمكن تلافى الفـارط ..! وهو عطف على « يأتيهم » داخـل فى حيز الانتظار . وإنما عدل إلى صيغة المـاضى دلالة على تحقّقه ، فكأنّه قد كان . أو جملة مستأنفه جيء بها إنباءً عن وقوع مضمونها . « وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » . أى : فمن كانوا نافذى المـلك والتصرف فى الدنيا ، فإنّ ملـكهم وتصرّفهم مستردّ منهم يوم القيامة وراجع إليه تعالى . يقال : رجع الأمر إلى الأمير ، أى استردّ ما كان فوضه إليهم . أوعنى بـ « الأمور » الأرواح والأنفس دون الأجسام ، وسمّاها أموراً من حيث إنها إبداعات مشار إليها بقوله : أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ[1] . فهى من الإبداع الذى لا يمكن من البشر تصوره ؛ فنبّه أن الأرواح كلها مرجوعة إليه وراجعة ؛ وعلى نحو ذلك قال : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ[2] . ويكون رجوعها إمّا بربح وغبطة ، وإمّا بندامة وحسرة . قاله الإمام الراغب .

قال أبو مسلم : إنه تعـالى قد ملّك كلّ أحد فى دار الاختبار والبلوى أموراً ، امتحاناً . فإذا انقضى أمر هذه الدار ووصلنا إلى دار الثواب والعقاب كان الأمر كلّه لله وحده . وإذا كان كذلك فهو أهل أن يُتقى ويطاع ويدخل فى السلم ـ كما أمر ـ ويحـترز عن خطوات الشيطان كما نهى .

وقد قرئ فى السبع (تُرجع) بضمّ التاء بمعنى تُردّ ، وبفتحها بمعنى تصير ، كقوله تعالى

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٩] ونصها : قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(١) .

قال القفال : والمعنى فى القراءتين متقارب . لأنها ترجع إليه تعالى ، وهو سبحانه يرجعها إلى نفسه بإفناء الدنيا وإقامة القيامة .

تنبيهان

الأول :

لهذه الآية أشباه ونظائر تدلّ على أنّ هذا الوعيد أخرويّ .

ولذا قال ابن كثير فى معنى الآية : يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ » يعنى : يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كلّ عامل بعمله : إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرٌّ . . ! ولهذا قال تعالى « وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » كما قال الله تعالى: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(٢) . وقال : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ...(٣) الآية.

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٣] ونصها : صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٢١ـ٢٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٨] وباقى الآية : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

الثانى :

وصفُه تعالى نفسَه بالإتيان فى ظلل من الغمام كوصفه بالمجىء فى آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه فى كتابه أو صحّ عن رسوله ﷺ . والقول فى جميع ذلك من جنس واحد. وهو مذهب سلف الأمّة وأئمّتها: إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. والقول فى صفاته كالقول فى ذاته . والله تعالى ليس كمثله شئ لا فى ذاته ، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله . فلو سأل سائل: كيف يجىء سبحانه أو كيف يأتى ..؟ فليقل له : كيف هو فى نفسه ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفية ذاته ! فليقل له : وكذلك لاتعلم كيفية صفاته ..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف.

وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابىّ: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجرى على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها . وبعض الناس يقول: مذهب السلف إن الظاهر غير مراد . ويقول أجمعنا على أن الظاهر غير مراد . وهذه العبارة خطأ إمّا لفظاً ومعنىً ، أو لفظاً لا معنى . لأن لفظ (الظاهر) فيه إجمال واشتراك . فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ماهو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد ؛ ولكنّ السلف والأئمة لم يكونوا يسمّون هذا ظاهرها ؛ فهذا القائل أخطأ حيث ظنّ أن هذا المعنى الفاسد ظاهر اللفظ حتى جعله محتاجاً إلى تأويل ، وحيث حكى عن السلف مالم يريدوه . وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتّفق على معناها ، والظاهر هو المراد فى الجميع ، فإنّ الله لما أخبر أنّه بكلّ شئ عليم ، وأنّه على كل شئ قدير ، واتفق أهل السنّة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره، أن ظاهر ذلك مراد ـ كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا. وكذلك لما اتفقوا على أنه حىّ عالم حقيقةً ،قادر حقيقة، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذى هو حىّ عليم قدير. فإن كان المستمع يظنّ أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه أن لا يكون

شيءٌ من ظاهر ذلك مراداً . وإن كان يعتقد أن ظاهرها ما يليق بالخالق ويختص به لم يكن لهنفي هذا الظاهر، ونفي أن يكون مراداً إلّا بدليل يدلعلى النفي . وليس في العقل ولا السمع ما ينفي هذا إلّا من جنس ما ينفي به سائر الصفات ، فيكون الـكلام في الجميع واحـداً . وحينئذٍ فلا يجوز أن يقال : إنّ الظاهر غير مراد بهذا التفسير . وبالجملة ، فمن قال : إن الظاهر غير مراد ـ بمعنى أن صفات المخلوقين غير مرادة ـ قلنا له : أصبت في المعنى ولـكنْ أخطأت في اللفظ ، وأوهمت البدعة ، وجعلت للجهميّة طريقاً إلى غرضهم ، وكان يمكنك أن تقول : تُمَرُّ كما جاءت على ظاهرها مع العـلم بأنّ صفات الله ليست كصفات المخلوقين ، وأنّه منزّه مقدّس عن كلّ مايلزم منه حدوثه أو نقصه . ومن قال : الظاهر غير مراد بالتفسير الثاني ـ وهو مراد الجهمية ومن تبعهم ـ فقد أخطأ . وإنمـا أُتِيَ من أخطأ من قِبَلِ أنه يتوهم ـ في بعض الصفات أو في كثيرٍ منها أو أكثرها أو كلّها ـ أنها تمـاثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير :

أحدها : كونه مثّل مافهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظنّ أنّ مدلول النصوص هو التمثيل .

الثاني : أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله ، بقيت النصوص معطلة عما دلّت عليـه من إثبات الصفات اللائقة بالله . فيبقى مع جنايته على النصوص وظنّه السيء الذي ظنه بالله ورسوله ـ حيث ظنّ أنَّ الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل ـ قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله والمعاني الإلٰهية اللائقة بجلال الله تعالى .

الثالث : أنَّه ينفي تلك الصفات عن الله عزّ وجلّ بغير علمٍ ، فيكون معطّلًا لما يستحقه الرب .

الرابع : أنَّه يصف الرب بنقيض تلك الصفات ـ من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات ـ فيكون قد عطّل به صفات الـكمال التي يستحقّها الرب ، ومثّله

بالمنقوصات والمعدومات ، وعطّل النصوص عما دلّت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات ، فيجمع فى كلام الله وفى الله بين التعطيل والتمثيل فيكون ملحداً فى أسماء الله وآياته .

وحاصل الكلام : أنّ هذه الصفات إنما هى صفات الله سبحانه على ما يليق بجلاله . نِسْبَتُهَا إلى ذاته المقدسة كنسبة صفات كلّ شىء إلى ذاته .

هذا ملخّص ما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه فى رسالتيه (التدمرية) و (المدنية) .

قال الحافظ ابن عبدالبرّ : أهل السنّة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلّها فى القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ؛ إلّا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة . وأمّا أهل البدع الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلّهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعم أنّ من أقرّ بها شَبَّه . وهم ، عند من أقرّ بها ، نافون للمعبود . والحقّ فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنّة رسوله ، وهم أئمة الجماعة .

وقال القاضى أبو يعلى فى كتاب (إبطال التأويل) : لا يجوز ردّ هذه الأخبار ، ولا التشاغل بتأويلها ؛ والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله لا تشبه بسائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها .

وقال عبد الله بن المبارك : إذا نطق الكتاب بشىء قلنا به ، وإذا جاءت الآثار بشىء جسرنا عليه . واعلم أنه ليس فى العقل الصحيح ولا فى النقل الصريح مايوجب مخالفة الطريقة السلفية . والمخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة ، من المتأولين لهذا الباب ، فى أمرٍ مريج . وسبحان الله ! بأىّ عقلٍ يوزن الكتاب والسنّة ..؟

ورضى الله عن الإمام مالك حيث قال : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ماجاء به جبريل إلى محمدٍ ﷺ ، لجدل هذا ؟ وكلٌّ من هؤلاء مخصوم بمثل ما خصم به الآخر . وهو من وجوه :

أحدها : بيان أنّ العقل لا يحيل ذلك .

والثانى : أنّ النصوص الواردة لا تحتمل التأويل .

الثالث : أنّ عامة هذه الأمور قدعلم أنّالرسول جاء بها بالاضطرار. كما أنه جاءبالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان . فالتأويل الذى يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية فى الحجّ والصوم والصلاة وسائر ماجاءت به النبوات ؛ على أنّ الأساطين من هؤلاءالفحول معترفون بأنّ العقل لاسبيل له إلى اليقين فى عامة المطالب الإلٰهية . فإذا كان هكذا ، فالواجب تلقِّى علم ذلك من النبوات على ماهو عليه ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل .

قال البقاعىّ : وتجلى الملائكة فى ظلل من الغمام أمر مألوف. منه ما فى الصحيح عن البراء رضى الله عنه قال[1] : كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين ، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفِر ، فلما أصبح أتى النبىّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال : تلك السكينة تنزلت بالقرآن !

وعن أسَيد بن حُضَير قال[2]: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس . فسكت فسكتت . فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكتت الفرس. ثم قرأ فجالت الفرس . فانصرف . وكان ابنه يحيى قريبا منها . فأشفق أن تصيبه . فلما اجترّه رفع رأسه إلى السماء حتى مايراها . فلما أصبح حدّث النبىّ ﷺ . فقال : اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير . قال : فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا . فرفعت رأسى فانصرفت إليه . فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح . فخرجت حتى لا أراها .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٦ـ كتاب فضائل القرآن، ١١ ـ باب فضل سورة الكهف.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٥ ـ باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن .

قال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك . ولو قرأت لأصبحتْ ينظر الناس إليها ، لاتتوارى منهم .

وقال البقاعىّ أيضاً : لمّا كان بنو إسرائيل أعلم الناس بظهور مجد الله فى الغمام لما رأى أسلافهم منه عند خروجهم من مصر وفى جبل الطور وقبة الزمان ومافى ذلك ـ على مانقل إليهم ـ من وفور الهيئة وتعاظم الجلال . قال تعالى ـ جوابا لمن كان قال : كيف يكون هذا ؟ ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١١] (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ، وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ » المراد بهذا السؤال : تقريع بنى إسرائيل وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحقّ بعد وضوح الآيات ، لا أنْ يجيبوا فيعلم من جوابهم أمر. كما إذا أراد واحدنا توبيخ أحد، يقول لمن حضره : سلْهُ كم أنعمت عليه ؟ ـ أى : كم شاهدوا المعجزات الظاهرة على أيدى أنبيائهم ، القاطعة بصدقهم عليهم السلام فيما جاءوهم به : كعصا موسى ، وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحرّ ، ومن إنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وصدق من جرت على يديه هذه الخوارق . ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله عليهم بها كفراً كما أشعر بذلك قوله تعالى : « وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » فالمراد بنعمة الله آياته ، فهو من وضع الظاهر موضع المضمر بغير اللفظ السابق ، لتعظيم الآيات ؛ ولا يخفى أنها من أجلّ أقسام نعم الله تعالى لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة . وتبديلهم إياها : استبدالهم

بالإيمان بها، الكفرَ بها والإعراض عنها . كما قال تعالى ـ إخباراً عن كفار قريش ـ : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (١) وقوله « مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُ » أي : وصلت إليه وتمكن من معرفتها أو عرفها ، والتصريح بذلك ـ مع أن التبديل لايتصور قبل المجيء ـ للإشعار بأنهم قد بدلوها بعد ماوقفوا على تفاصيلها ، وفيه تقبيح عظيم بهم ، ونعى على شناعة حالهم ، واستدلالٌ على استحقاقهم العذاب الشديد حيث بدّلوا ، بعد المعرفة .. !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٢] (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا . وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » حتى بدّلوا النعمة « الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا » لحضورها ، فألهتهم عن غائب الآخرة .

قال الحرالىّ : فى ضمنه إشعار بأنّ استحسان بهجة الدنيا كفرٌ مّا ، من حيث أن نظر العقل والإيمان يُبصِّرُ طيّتها ، ويشهد جيفتها ، فلا يغترّ بزينتها ، وهى آفة الخلق فى انقطاعهم عن الحقّ ؛ فأبهم تعالى المزيّن فى هذه الآية ليشمل أدنى التزيين الواقع على لسان الشيطان ، وأخفى التزيين الذى يكون من استدراج الله كما فى قوله تعالى : كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ (٢) .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وفى كلامه إشعار بما يجاب عن ورود التزيين ، مسنداً إلى الله تعالى تارةً وإلى غيره أخرى، فى عدّة آيات من التنزيل الكريم .

وللراغب كلام بديع ينحلّ به مثل هذا الإشكال وهو قوله :

إنّ الفعل كما ينسب إلى المباشر له ، ينسب إلى ماهو سببه ومسهّله ، وعلى هـذا يصحّ أن ينسب فعلٌ واحـدٌ تارةً إلى الله تعالى وتارةً إلى غيره ، نحو قوله : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ(١) ، وفى موضع آخر: اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ(٢). فأسند الفعل فى الأول إلى المباشر له ، وفى الثانى إلى الآمر به ؛ وهكذا ، بتصوّرِ ما ذكر ، تزول الشبهة فيما يرى من الأفعال منسوباً إلى الله تعالى، منفياً عن الله تعالى . نحو قوله : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ(٣). وقوله : وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى(٣)، وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ(٤) .

« وَيَسْخَرُونَ » ـ أى : يهزأون ـ « مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » وهذا كما قال تعـالى:

(١) [٣٢ / السجدة/ ١١] ونصها : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٣) [٨ / الأنفال / ١٧] ونصها : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٤) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ...(١) الآيات « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا » وهم المؤمنون ، وإنما ذكروا بعنوان التقوى لحضهم عليها وإيذاناً بترتب الحكم عليها « فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأنهم فى عليين وهم فى أسفل سافلين ، أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا ، كما قال تعالى : فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (١) .

ولذا قال الراغب : يحتمل قوله تعالى « فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وجهين :

أحدها : أنّ حال المؤمنين فى الآخرة أعلى من حال الكفار فى الدنيا .

والثانى : أنّ المؤمنين فى الآخرة هم فى الغرفات ، والكفار فى الدرك الأسفل من النار . انتهى .

لطائف : قال السيلكوتى : اعلم أن قوله تعالى « زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ...» الخ جملة معللة لما سبق من أحوال الكفار من المنافقين وأهل الكتاب ؛ يعنى أنّ جميع ما ذكر من صفاتهم الذميمة، لأجل تهالكهم فى محبة الحياة الدنيا وإعراضهم عن غيرها ؛ وأورد التزيين بصيغة الماضى لكونه مفروغاً منه ، مركوزاً فى طبيعتهم . وعطف عليه بالفعل المضارع ـ أعنى « يَسْخَرُونَ » ـ لإفادة الاستمرار . وعطف قوله« وَالَّذِينَ اتَّقَوْا »لتسلية المؤمنين .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » يعنى : ما يعطى الله هؤلاء

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٩ ـ ٣٦] وباقى الآيات : وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

المتقين من الثواب بغير حساب ، أي: رزقا واسعاً رغداً لا فناء له ولا انقطاع ، كقوله سبحانه: فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ[1] ؛ فإنّ كلّ ما دخل تحت الحساب والحصر والتقدير فهو متناهٍ ، فما لا يكون متناهياً كان لا محالة خارجاً عن الحساب .

وقد استقصى الراغب ما تحتمله الآية من وجوهها ـ وتلك سعة ـ وعبارته : أعطاه بغير حساب : إذا أعطاه أكثر مما يستحق ، أو أقلّ مما يستحق ؛ والأول هو المقصود وهو المشار إليه بالإحسان ؛ وقد فسّر ذلك على أوجهٍ لإجمال اللفظ وإبهامه :

الأول : يعطيه عطاءً لا يحويه حصر العباد . كقول الشاعر :

* عطاياه، يُحصَى قبل إحصائها القطرُ *

الثاني : يعطيه أكثر مما يستحقه .

الثالث : يعطيه ولا منّة .

الرابع : يعطيه بلا مضايقة. من قولهم: حاسبه .

الخامس : يعطيه أكثر مما يحسبه أن يكفيه ـ وكلّ هذه الوجوه يحتمل أن يكون في الدنيا ، ويحتمل أن يكون في الآخرة .

السادس : أنّ ذلك إشارة إلى توسيعه على الكفّار والفسّاق الذين قال فيهم : وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... الآية[2] ، تنبيهاً أن لا فضيلة في المال لمن يوسع عليه ،

(١) [٤٠ / غافر / ٤٠] ونصها : مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] ونصها : وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ .

مالم يستعن عليه في الوصول إلى المطلوب منه؛ ولهذا قال تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ ...الآية(١).

السابع : يعطى أولياءه بلا تبعة ولا حساب عليهم فيما يعطون ، وذلك لأنّ المؤمن لا يأخذ من عرض الدنيا إلّا ما يجب من حيث يجب على الوجه الذى يجب ولا ينفقه إلّا على ذلك ، فهو يحاسب نفسه فلا يحاسب ، ولهذا روى : من حاسب نفسه فى الدنيا أمن الحساب فى الآخرة ! وعلى هذا قال تعالى لسليمان : هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢) .

الثامن : أنّ الله عزّ وجلّ يعامل فى القيامة المؤمنين لا بقدر استحقاقهم بل بأكثر منه ، كما قال : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً...(٣) الآية .

التاسع : وهو يقارب ذلك : أنّ ذلك إشارة إلى ماروى أن أهل الجنة لا حظر عليهم ، وعلى ذلك قوله تعالى: فِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ...(٤) الآية وقوله : يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ...الآية .

وأما تعلقه بما تقدم ، فعلى بعض هذه التفاسير ، يتعلق بالذين كفروا ، وعلى بعضه يتعلق بالذين آمنوا .

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥ و ٥٦] ونصهما : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

(٤) [٤٣ /الزخرف/ ٧١] ونصها : يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٣] (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً »أى :وجدواأمة واحدة تتحدمقاصدها ومطالبها ووجهتها لتصلح ولا تفسد ، وتحسن ولا تسىء ، وتعدل ولا تظلم ؛ أى : ما وجدوا إلّا ليكونوا كذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (١) أى : انحرفوا عن الاتحاد والاتفاق ، الذى يثمر كلّ خـير لهم وسعادة ، إلى الاختلاف والشقاق المستتبع الفساد وهلاك الحرث والنسل . ولما كانوا لم يخلقوا سدًى منّ الله عليهم بما يبصّرهم سبيل الرشاد فى الاتحاد على الحق من بعثة الأنبياء ، وما نزل معهم من الكتاب الفصل ، كما أشارت تتمة الآية « فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ » الذين رفعهم على بقية خلقه فأنبأهم بما يريد من أمره ، وأرسلهم إلى خلقه « مُبَشِّرِينَ » لمن آمن وأطاع «وَمُنْذِرِينَ» لمن كفر وعصى « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ » أى : كلامه الجامع لما يحتاجون إليه فى باب الدين على الاستقامة والهداية التامة لكونه متلبساً « بِالْحَقِّ » من جميع الوجوه «لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » من الاعتقادات والأعمال التى كانوا عليها قبـل ذلك أمة واحدة ، فسلكوا بهم ، بعد جهدٍ ، السبيلَ الأقومَ ، ثم ضلوا على علمٍ بعد موت الرسـل ، فاختلفوا فى الدين لاختلافهم فى الكتاب « وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ » أى : الكتاب الهادى الذى

---

(١) [١٠ / يونس / ١٩] ونصها : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف « إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ » أي : علموه ، فبدّلوا نعمة الله بأن أوقعوا الخلاف فيما أنزل لرفع الخلاف . ولم يكن اختلافهم لالتباسٍ عليهم من جهته بل « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ » ـ أي : الدلائل الواضحة ـ « بَغْيًا بَيْنَهُمْ » أي : حسداً وقع بينهم « فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالكتاب « لِمَا اخْتَلَفُوا » أي : أهل الضلالة « فِيهِ مِنَ الْحَقِّ » أي : للحق الذي اختلفوا فيه . وفي إبهامه أولا ، وتفسيره ثانيا ، ما لا يخفى من التفخيم ، « بِإِذْنِهِ » أي : بتيسيره ولطفه ، « وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . تقرير لما سبق . وفي (صحيح مسلم)(١) عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ـ إذا قام من الليل يصلّي ـ يقول : اللهمّ ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ! فاطرَ السموات والأرض ! عالمَ الغيب والشهادة ! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك إنّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم ..! .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ » أي : من الأنبياء ومَن معهم مِن المؤمنين ، أي : والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ، ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة ، سنة الله التي لا تتبدّل « مَسَّتْهُمُ » استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : كيف كان مثلهم ؟

---

(١) أخرجه في : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

فقيل : مسّتهم « الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ » أى : الشدائد والآلام « وَزُلْزِلُوا » أى : أزعجوا، ممّا دهمهم من الأهوال والإفزاع، إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة التى تكاد تهدّ الأرض وتدكّ الجبال « حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ » أى : انتهى أمرهم من الشدة إلى حيث اضطرهم الضجر إلى أن يقول الرسول ـ وهو أعلم الناس بشئون الله تعالى ، وأوثقهم بنصره ، وداعيهم إلى الصبر ـ « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ » ـ وهم الأثبت بعده ، العازمون على الصبر ، الموقنون بوعد النصر ـ « مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ »ـ استبطاءً له ، واستطالةً لمدّة الشدة والعناء ـ فيقال لهم : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . كما قال تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (١) أى: فاصبروا كما صبروا تظفروا ..! وقد حصل من هذا الابتلاء جانب عظيم للصحابة رضى الله عنهم يوم الأحزاب ، كما قال الله تعالى : إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ... الآيات (٢) .

وروى البخارىّ (٣) عن خبّاب بن الأرتّ رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً له فى ظلّ الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصدّه ذلك عن دينه . والله! ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله ، والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون ..!

(١) [٩٤ / الشرح / ٥ و٦] .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ١٠ـ١٢] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٨٩ ـ كتاب الإكراه ، ١ ـ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، حديث ١٦٩٦ .

وفى رواية : . . . وهو متوسد بُردةً، وقد لقينا من المشركين شدة . . .

ولما سأل هرقل أبا سفيان : هل قاتلتموه ؟ قال: نعم! قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال : سِجالًا ، يدال علينا ونُدال عليه . قال : كذلك الرسل تبتلى ثمّ تكون لها العاقبة !

وهذه الآية كآية : الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٥] (يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَاأَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » أى : أىّ شىء ينفقونه من أصناف الأموال ؟ « قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ » قبل غيرهما ليكون أداءً لحقّ تربيتهما مع كونه صلة وصدقة « وَالْأَقْرَبِينَ » بعدهما ليكون صلة وصدقة « وَالْيَتَامَىٰ » بعدهم لأنّ فيهم الفقر مع العجز « وَالْمَسَاكِينِ » بعدهم لاحتياجهم « وَابْنِ السَّبِيلِ » بعدهم لأنه كالفقير لغيبة ماله .

فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال ، فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأُجيبوا ببيان المصرف ؟ فالجواب : أنّ قوله « مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ » قد تضمّن بيان ما ينفقونه ـ وهو كلّ مالٍ عدّوه خيراً ـ وبنى الكلام على ما هو أهمّ وهو بيان المصرف ، لأن النفقة لا يعتد بها إلّا أن تقع موقعها . قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً ... حتى يصاب بها طريق المصنع !

فإذا صنعت صنيعةً فاعمد بهـا ... لله أو لذوى القرابة أو دَعِ . . !

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣] .

فيكون الكلام من الأسلوب الحكيم كقوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ (١) . فيما تقدم هذا .

وقال القفال : إنّه وإن كان السؤال وارداً بلفظ (ما) ، إلّا أنّ المقصود السؤال عن الكيفية ، لأنهم كانوا عالمين أنّ الذى أمروا به إنفاق مال يخرج قربة إلى الله تعالى ؛ وإذا كان هذا معلوماً لم ينصرف الوهم إلى أنّ ذلك المال أى شئ هو ؟ وإذا خرج هذا عن أن يكون مراداً تعين أنّ المطلوب بالسؤال : أنّ مصرفه أىّ شئ هو ؟ وحينئذٍ يكون الجواب مطابقاً للسؤال . ونظيره قوله تعالى: قالوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ... (٢) وإنما كان هذا الجواب موافقاً لذلك السؤال ، لأنه كان من المعلوم أنّ البقرة هى البهيمة التى شأنها وصفتها كذا ؛ فقوله (ماهى ؟) لا يمكن حمله على طلب الماهية ، فتعين أن يكون المراد منه طلب الصفة التى بها تتميز تلك البقرة عن غيرها . فبهذا الطريق قلنا : إنّ ذلك الجواب مطابق لذلك السؤال . فكذا ههنا ، لما علمنا أنهم كانوا عالمين بأن الذى أمروا بإنفاقه ما هو ـ وجب أن يقطع بأنّ مرادهم من قولهم « مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ » ليس هو طلب الماهية ، بل طلب المصرف ، فلهذا حسن هذا الجواب ..! .

وأجاب الراغب بجوابين :

أحدهما : أنهم سألوا عنهما وقالوا : ما ننفق ؟ وعلى من ننفق ؟ ولكن حذف

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٧٠ و ٧١] وباقيهما : . . . تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

فى حكاية السؤال أحدهما إيجازاً ، ودلّ عليه بالجواب بقوله « مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ » كأنه قيل : المنفَق الخيرُ ، والمنفق عليهم هؤلاء ؛ فلفف أحد الجوابين فى الآخر ، وهذا طريق معروف فى البلاغة .

الجواب الثانى : إنّ السؤال ضربان : سؤال جدل ، وحقه أن يطابقه جوابه. لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه. وسؤال تعلّم وحق المعلّم أن يكون كالطبيب يتحرى شفاء سقيم فيطلب ما يشفيه ـ طلبه المريض أو لم يطلب . فلمّا كان حاجتهم إلى من ينفق المال عليهم كحاجتهم إلى ما يُنْفَق من المال ، بيّن لهم الأمرين جميعاً . إن قِيل : كيف خصّ هؤلاء النفر دون غيرهم ..؟ قيل : إنما ذكر من ذكر على سبيل المثال لمن ينفق عليهم ، لا على سبيل الحصر والاستيعاب ، إذ أصناف المنفق عليهم على ما قد ذكر فى غير هذا الموضع .

ولما بيّن تعالى وجه المصرف وفصَّله هذا التفصيل الحسن الكامل ، أردفه بالإجمال فقال « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى : وكلّ ما فعلتموه من خيرٍ ـ إمّا مع هؤلاء المذكورين وإمّا مع غيرهم ـ حسبةً لله ، وطلباً لجزيل ثوابه ، وهرباً من أليم عقابه ، فإن الله به عليم . والعليم مبالغة فى كونه عالماً ، يعنى : لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فيجازيكم أحسن الجزاء عليه ، كما قال : إِنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ (١) وقال : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٢) .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٥] ونصها : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

(٢) [٩٩ / الزلزلة / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٦] (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« كُتِبَ » أى : فرض « عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ » أى : قتال المتعرّضين لقتالكم ، كما قال : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا[١] ، المراد بقتالهم الجهاد فيهم بما يبيدهم أو يقهرهم ويخذلهم ويضعف قوّتهم .

قال بعض الحكماء : سيف الجهاد والقتال هو آية العزّ ، وبه مصّرت الأمصار، ومدّنت المدن ، وانتشرت المبادئ والمذاهب ، وأيّدت الشرائع والقوانين ؛ وبه حُمِي الإسلام من أن تعبث به أيدى العابثين فى الغابر ، وهو الذى يحميه من طمع الطامعين فى الحاضر ؛ وبه امتدت سيطرة الإسلام إلى ما وراء جبال الأورال شمالًا ، وخط الاستواء جنوبًا ، وجدران الصين شرقًا ، وجبال البيرنه غربًا ..!

قال : فيجب على المسلمين أن لايتملّصوا من قول بعض الأوروبيين : إنّ الدين الإسلامىّ قد انتشر بالسيف ! فإن هذا القول لا يضرّ جوهر الدين شيئًا ؛ فإن المنصفين من الأوروبيين يعلمون أنه قام بالدعوة والإقناع ، وأن السيف لم يجرد إلّا لحماية الدعوة ، وإنما التملص منه يضر المسلمين لأنه يقعدهم عن نصرة الدين بالسيف ، ويقودهم إلى التخاذل والتواكل ، ويحملهم على الاعتقاد بترك الوسائل فيستخذون إلى الضعف كما هى حالتهم اليوم ، وتبتلعهم الأمم القوية التى جعلت شعار تمدّنها السيف أو القوة ..!

قال: يجب على المسلمين أن يدرسوا آيات الجهاد صباحَ مساءَ ، ويطيلوا النظر فى قوله تعالى :

(١) [٢ / البقرة / ١٩٠] . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ(١) ، لعلّهم يتحفّزون إلى مجاراة الأمم القوية المجاهدة فى الأمم الضعيفة ..!

وقوله تعالى « وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » من الكراهة ، فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة. كقول الخنساء(٢) : * فإنما هى إقبالٌ وإدبار * كأنه فى نفسه كراهة لفرط كراهتهم له ، أو هو فُعل بمعنى مفعول ـ كالخبز بمعنى المخبوز ـ أى: وهو مكروه لكم، وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال ـ لما فيه من مؤنة المال ، ومشقة النفس ، وخطر الروح ، والخوف ـ فلا ينافى الإيمان. لأنّ كراهة الطبع جبلية لا تنافى الرضاء بما كلف به. كالمريض الشارب للدواء البشع.

وفى القاموس وشرحه : (الكره) بالفتح ويضمّ : لغتان جيدتان بمعنى الإباء والمشقة.

---

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) البيت بتمامه :

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتى إذا ادَّكرتْ فإنما هى إقبال وإدبار

أخبرت أنها قلقة تقبل وتدبر من شدة ما بها من العَلَزِ (والعلز الرعدة والاضطراب والقلق الشديد) على ولدها .

تقول : كأننى وحشية إذا غفلتْ رعت ، وإذا ذكرت فَقْدَ ولدِها لم يُقرّها قرار . والبيت للخنساء من قصيدة فى صخر . مطلعها :

ماهاج حزنَكِ ؟ أم بالعين عُوّارُ أم ذرّفَتْ أم خَلَتْ من أهلها الدارُ

العوّار : وجع فى العين كالقذى . ذرفت : قطرت قطراً متتابعاً لا يبلغ أن يكون سيلا .
والمعنى : أى شىء هاج حزنك ؟ عُوّارٌ بعينيك ؟ أم سالت الدموع لخلاء هذه الدار ؟

قال ثعلب : قرأ نافع وأهل المدينة فى سورة البقرة « وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » بالضم فى هذا الحرف خاصة ، وسائر القرآن بالفتح . وكان عاصم يضم هذا الحرف والذى فى الأحقاف : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً[١] ، ويقرأ سائرهن بالفتح . وكان الأعمش وحمزة والكسائىّ يضمون هذه الحروف الثلاثة والذى فى النساء : لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهاً[٢] ، ثم قرأوا كل شىء سواها بالفتح . قال الأزهرىّ : ونختار ماعليه أهل الحجاز : أنّ جميع ما فى القرآن بالفتح إلا الذى فى البقرة خاصة ، فإنّ القراء أجمعوا عليه ! . قال ثعلب : ولا أعلم بين الأحرف التى ضمّها هؤلاء وبين التى فتحوها فرقاً فى العربية ، ولا فى سنة تتبع ، ولا أرى الناس اتفقوا على الحرف الذى فى سورة البقرة خاصة ، إلا أنه اسم وبقية القرآن مصادر . قال الأزهرىّ : وقد أجمع كثير من أهل اللغة : أنّ (الكَرْه والكُرْه) لغتان ، فبأىّ لغةٍ وقع فجائز . إلا الفراء فإنه فرق بينهما بأنّ (الكُره) بالضمّ ما أكرهت نفسك عليه ، وبالفتح : ما أكرهك غيرك عليه . تقول : جئتك كُرها ، وأدخلتنى كَرها . وقال ابن سيده : الكَره : الإباء والمشقة تتكلفها فتحتملها ، وبالضمّ : المشقة تحتملها من غير أن تكلفها . يقال : فعل ذلك كرها وعلى كره . قال ابن برّى :

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا .

ويدل لصحة قول الفراء قول الله عزّ وجلّ : وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا[١] ، ولم يقرأ أحد بضم الكاف . وقال سبحانه : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ[٢]، ولم يقرأ أحد بفتح الكاف . فيصير (الكَرْه) بالفتح . فعل المضطر، و(الكُرْه) بالضمّ : فعل المختار.

« وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا » ـ كالجهاد فى سبيل الله تعالى ـ « وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » إذ فيه إحدى الحسنيين : إمّا الظفر والغنيمة ، وإمّا الشهادة والجنة « وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا » ـ كالقعود عن الغزو ـ « وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ » لما فيه من الذل والفقر وحرمان الغنيمة والأجر « وَاللهُ يَعْلَمُ » ـ ماهو خير لكم « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ذلك . فبادروا إلى مايأمركم به وإن شقّ عليكم فهو رؤوف بالعباد لا يأمرهم إلا بخير .

قال الحرالىّ : فنفى العلم عنهم بكلمة (لا) أى : التى هى للاستقبال حتى تفيد دوام الاستصحاب. ومأأوتيتم من العلم إلّا قليلًا . قال : من حيث رتبة هذا الصنف من الناس من الأعراب وغيرهم ، وأما المؤمنون ـ أى : الراسخون ـ فقد علّمهم الله من علمه ما علموا أنّ القتال خيرٌ لهم وأنّ التخلف شرٌّ لهم .

حتى إنّ علمهم ذلك أفاض على ألسنتهم مايفيض الدموع وينير القلوب ، حتى شاورهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى التوجه إلى غزوة بدر[٣]، فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال وأحسن

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] ونصها : أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٦] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

ثم قام عمر رضى اللهعنه فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضى الله عنه فقال: يارسولالله امض لماأمركالله ، فنحن معك، والله! لانقول لك كما قالت بنو إسرائيللموسى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ(١) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! فوالذى بعثك بالحقّ لو سرت إلى بَرْكِ الغِمَاد(٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . .! فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ أيها الناس ! فقال له سعد بن معاذ الأنصارىّ رضى الله عنه : والله ! لكأنّك تريدنا يارسولالله ! قال : أجل . قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ماجئت به هوالحقّ، وأعطيناك علىذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحقّ! لو استعرضتَ بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . ماتخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنّا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، لعلّ الله يريك منا ماتقرّ به عينك ، فسرْ بنا على بركة الله .

القول فى تأويل قول تعالى :

[٢١٧] ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(١) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ .

(٢) هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر . وقيل : بلد باليمن .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ » قال الراغب : السائل عن ذلك ، قيل: أهل الشرك قصداً إلى تعيير المسلمين لما تجاوزوه من القتل فى الشهر الحرام ، وقيل : هم أهل الإسلام .

وقد أخرج الطبرانىّ فى (الكبير) ، والبيهقىّ فى (سننه) ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم عن جندب بن عبد الله : أنّ رسول الله ﷺ بعث رهطاً ، وبعث عليهم عبد الله بن جحش، فلقوا ابن الحضرمىّ فقتلوه ولم يدروا أنّ ذلك اليوم من رجب أو من جمادى . فقال المشركون للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام . فأنزل الله هذه الآية . فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر ، فأنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ... الآية »(١) .

وأخرجه ابن منده فى الصحابة عن ابن عباس .

وملخّص ما ذكره الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) وابن هشام فى (السيرة) فى الكلام على هذه السرية ونزول هذه الآية : أنّ النبىّ ﷺ(٢) بعث عبد الله بن جحش الأسدىّ إلى نخلة فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة فى اثنى عشر رجلًا من المهاجرين ، كلّ اثنين يعتقبان على بعير ، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش ، وفى هذه السرية سُمّى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين . وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثمّ ينظر فيه . فلما سار يومين فتح الكتاب فوجد فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة ـ بين مكة والطائف ـ فترصد بها عيراً لقريش، وتعلم لنا من أخبارهم ، فقال : سمعاً وطاعةً ! وأخبر أصحابه بذلك وبأنّه لا يستكرههم ، فمن

(١) [٢ / البقرة / ٢١٨] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٤٢٣و٤٢٤ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

أحبّ الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، فأمّا أنا فناهض ! فنهضوا كلّهم . فلما كان فى أثناء الطريق أضلّ سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه. فتخلفا فى طلبه . فبَعُد عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة . فيها عمرو بن الحضرمىّ ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة . فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلُنّ الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام ! فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على مقاتلتهم ، فرمى أحدهم عمرو ابن الحضرمىّ فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل فأعجزهم ، ثم أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ وقد عزلوا من ذلك الخمس ـ وهو أول خُمسٍ كان فى الإسلام ، وأول قتيل فى الإسلام ، وأول أسيرين فى الإسلام ـ فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه واشتد تعييب قريش وإنكارهم ذلك . وزعموا أنهم قد وجدوا مقالًا فقالوا : قد أحلّ محمد الشهر الحرام ! ، واشتد ذلك على المسلمين حتى أنزل الله تعالى « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ... الآية » .

وقوله تعالى « قِتَالٍ فِيهِ » بدل من الشهر ، بدل الاشتمال ، لأنّ القتال يقع فى الشهر . وقال الكسائىّ : هو مخفوض على التكرير . يريد أن التقدير : عن قتالٍ فيه . وهو معنى قول الفراء : مخفوض بـ (عن) مضمرة . وهذا ضعيف جداً لأن حرف الجرّ لا يبقى عمله بعد حذفه فى الاختيار ..! وقال أبو عبيدة : هو مجرور على الجوار . وهو أبعد من قولهما ، لأنّ الجوار من مواضع الضرورة والشذوذ ولا يحمل عليه ما وجدت عنه مندوحة . وفيه يجوز أن يكون نعتاً لـ (قتال) ، ويجوز أن يكون متعلقاً به كما يتعلق بـ (قاتل) .

وقد قرئ بالرفع فى الشاذ ، ووجهه على أن يكون خبر مبتدأ محذوف معه همزة الاستفهام تقديره : أجائزٌ قتالٌ فيه ؟

« قُلْ » في جوابهم « قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ » أي : أمر كبير مستنكر ؛ وقد كانت العرب لاتسفك دماً ولا تغير على عدوّ فىالأشهر الحرم وهى: ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ورجب. وسنذكر ، فى تنبيه يأتى ، التحقيقَ فى كون تحريم القتال فيها محكماً أو منسوخاً .

قال الراغب : إن قيل : لِمَ لَمْ يقل : القتال فيـه كبير ، وشرط النكرة المذكورة إذا أعيد ذكرها أن يعاد معرّفاً نحو : سألتنى عن رجلٍ والرجل كذا وكذا ؟ قيل : فى ذكره منكراً تنبيهٌ على أن ليس كل القتال فى الشهر الحرام هـذا حكمه ، فإنّ قتال النبىّ ﷺ لأهل مكة لم يكن هذا حكمه ، فقد قال: أحلّت لى ساعة من نهارٍ ولم تكن تحلّ لأحدٍ قبلى (١).

« وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى : عن دينه الموصل إلى رضوانه ، أو عن البيت الحرام ، فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم : سمّى الحجّ (سبيل الله) .

قال الحرالىّ : و (الصـدّ) : صرفٌ إلى ناحية بإعراض وتـكرّه ، و (السبيل) : طريق الجادة السابلة عليه الظاهر لـكلّ سالك منهجه . وصدٌّ مبتدأ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم . ونصه :

عن أبى هريرة أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة ، بقتيـل منهم قتلوه . فأُخبِر بذلك النبىّ ﷺ. فركب راحلته فخطب فقال « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين . أَلَا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى . ألا وإنها حلّت لى ساعة من نهار . ألا وإنها ساعتى هـذه ، حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد . فمن قُتِل فهو بخير النظرين . إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل » .

فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى يا رسول الله . فقال « اكتبوا لأبى فلان » فقال رجل من قريش : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنا نجعله فى بيوتنا وقبورنا . فقال النبىّ ﷺ « إلا الإذخر ، إلا الإذخر » .

« وَكُفْرٌ بِهِ » أى : بالسبيل ـ أعنى الدين ـ أو بالله ، عطف عليه . « وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » عطف على « سبيل الله » أى : وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام . وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى « به » أى : كفرٌ بهوبالمسجد الحرام . « وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ » أى : أهـل المسجد الحرام ـ وهم : رسول الله صلى الله عليـه وسلم والمؤمنون الذين هم أولياؤه ـ وهو عطف على « صدّ » أيضاً « مِنْهُ » من المسجدالحرام ؛ وخبر الأسماءالثلاثة « أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ » جرماً مما فعلته السرية من قتلهم إياهم فى الشهر الحرام . لأنّ الإخراج فتنة « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » فى الشهر الحرام ، أى : فقـد فعلوا بكم فى المسجد الحرام ما هو أكبر من القتل فيه ، وحرمة المسجد كحرمة الشهر ..! هذا ، وقيل : خبر « صدٌّ » و « كفر » محذوف لدلالة ما تقدم عليه .

وأشار الرازىّ إلى إعراب آخر وهو : إنّ « صدٌّ » و « وكفرٌ » معطوفان على « كبيرٌ » أى : قتال فيه ، موصوف بهذه الصفات . وعليه ، فـ(أكبر) خبر (إخراج) فقط .

وقد جنح لهذا المهايمىّ حيث قال فى(تفسيره) :

(قل قتال فيه كبير) من المعاصى الـكبائر كيف (و) هو (صدٌّ عن سبيل الله) أى عن التجارة التى جعلها الله سبيل الرزق لعباده (و) لو استبيـح هذا القتل فهو (كفرٌ بهو) صدٌّ عن (المسجد الحرام) إذا قتل الحجاج الخارجون فى الشهر الحرام ، فهذا وجه تحريم القتال فى هذا الشهر (و) لـكن (إخراجُ أهله) أى إخراجهم أهلَ المسجد الحرام وهم النبيّ والمؤمنون (منه أكبر عند الله) ... إلى آخره . وهذا الوجه من الإعراب بديع ، والأكثرون على الأول .

قال ابن القـيم فى (زاد المعاد) فى تأويل هذه الآية : يقول سبحانه: هذا الذى أنـكرتموه عليهم ـ وإن كان كبيراً ـ فـا ارتـكبتموه أنتم من الـكفر بالله ، والصدّ عن سبيله وعن بيته ، وإخراج المسلمين ـ الذين همأهله ـ منه ، والشرك الذى أنتم عليه ، والفتنة التى حصلت

منكم به ـ أكبر عند الله من قتالهم فى الشهر الحرام . ومما نسب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى هذا المعنى هذه الأبيات ، ويقال هى لعبد الله بن جحش :

تعدّون قتلًا فى الحرام عظيمةً ! وأعظمُ منه لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودُكم عما يقول محمّدٌ وكفرٌ به ، والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد الله أهلَه لئلا يُرَى لله فى البيت ساجدُ
فإنا ـ وإنْ عيّرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنَا من ابن الحضرمىّ رماحنا بنخلةَ لمّا أوقد الحربَ واقدُ
دماً ، وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غُلٌّ من القِدِّ عاندُ

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وأكثر السلف فسروا «الفتنة» هنا بالشرك ، كقوله تعالى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ[١] ويدلّ عليه قوله : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[٢] أى لم يكن مآل شركهم وعاقبته وآخر أمرهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه . وحقيقتها أنها الشرك الذى يدعو صاحبه إليه ، ويقاتل عليه ، ويعاقب من لم يفتتن به . ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ . قال ابن عباس : تكذيبكم . وحقيقته : ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها ومصير أمرها ، كقوله : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[٣] . وكما فتنوا عباده على الشرك، فتنوا على النار وقيل لهم :

(١) [٨ / الأنفال / ٣٩] ونصها : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٢٤] ونصها : أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ[١] . ومنه قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ...[٢] فسّرت الفتنة ـ هنا ـ بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار ، واللفظ أعمّ من ذلك . وحقيقته : عذّبوا المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم . فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين. وأمّا الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه ويضيفها رسوله إليه كقوله : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ[٣] وقول موسى : إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ[٤] فتلك بمعنى آخر ، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله لعباده بالخير والشرّ ، بالنعم والمصائب . فهذه لون ، وفتنة المشركين لون . وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر . والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب عليٍّ ومعاوية ، وبين أهل الجمل وصفّين ، وبين المسلمين حتى يتقاتلوا ويتهاجروا ـ لونٌ آخر . وهي الفتنة التي قال فيها محمد ﷺ[٥] : ستكون فتنة، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير

---

(١) [٥١ / الذاريات / ١٤] ونصها : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

(٢) [٨٥/ البروج / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

(٤) [٧ / الأعراف/ ١٥٥] ونصها : وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

(٥) أخرجه البخاريّ في : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٩ ـ باب تكون فتنة القاعد فيها =

من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . . . وأحاديث الفتنة ـ التى أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين ـ هى هذه الفتنة(١) . وقد تأتى الفتنة مراداً بها المعصية ، كقوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّى (٢) . يقوله الجدّ بن قيس لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك(٣) ، يقول : ائذن لى فى القعود ولا تفتنى بتعرضى لبنات الأصفر فإنى لا أصبر

= خير من القائم . ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . من تشرّف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فليعذ به » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ١١ ـ باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ونصه : عن حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ؟ وكنت أسأله عن الشر ؟ مخافة أن يدركنى . فقلت : يا رسول الله ! إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال « نعم » قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال « نعم . وفيه دَخَن » قلت : وما دَخَنه ؟ قال « قوم يهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال « نعم . دعاة على أبواب جهنم . من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ! صفهم لنا . قال « هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » قلت : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال « فاعتزل تلك الفرق كلها . ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

(٢) [٩ / التوبة / ٤٩] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّى ، أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الجزء الرابع صفحة ١٥٩ (طبعة الحلبىّ) وصفحة ٨٩٣ (طبعة جوتنجن بألمانيا) .

عنهنّ ..! قال تعـالى : أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، أى : وقعوا فى فتنة النفاق وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر .

والمقصود : أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ، ولم يبرئ أولياءه من ارتـكاب الإثم بالقتال فى الشهر الحرام ، بل أخبر الله أنه كبير وأنّ ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرّد القتال فى الشهر الحرام ، فهم أحقّ بالذم ، والعيب والعقوبة ، لاسيما أولياؤه . كانوا متأولين فى قتالهم ذلك ، أو مقصرين نوع تقصير يغفره الله لهم . فى جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وإيثار ماعند الله ، فهم كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحـدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع .. !

فـكيف يقاس ببغيض عدوٍّ جاءَ بكلّ قبيحٍ ولم يأت بشفيع واحدٍ من المحاسن ؟..

تنبيه : اتفق الجمهور على أنّ حكم هذه الآية : حرمة القتال فى الشهر الحرام . ثم اختلفوا أنّ ذلك الحـكم هل بقى أم نسخ ؟

قال ابن القيّم فى (زادالمعاد) فى الفصل الذى عقده لِمَا كان فى غزوة خيبر من الأحكام الفقهية . ما نصّه : منها محاربة الـكفار ومقاتلتهم فى الأشهر الحرم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية فى الحجة . فمـكث بها ثم سار إلى خيبر فى المحرم كذلك . قال الزهرىّ عن عروة عن مروان والمسوَر ، وكذلك قال الواقدىّ : خرج فى أوّل سنة سبع من الهجرة . ولـكن فى الاستدلال بذلك نظر . فإنّ خروجه كان فى أواخر المحرم لا فى أوله ، وفتحها إنمـا كان فى صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبىّ صلى الله عليه وسلم أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان على القتال وأن لايفروا . وكانت فى ذى القعدة . ولـكن لا دليل فى ذلك . لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قد قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فحينئذٍ بايع الصحابة . ولا خلاف فى جواز القتال فى الشهر الحرام دفعاً ، وإنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداءً . فالجمهور جوّزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ ، وهو مذهب الأئمة

الأربعة رحمهم الله . وذهب عطاء وغيره إلى أنّه ثابت غير منسوخ ؛ وكان عطاء يحلف بالله ما يحل القتال فى الشهر الحرام ولا نسخ من تحريمه شيء ..! وأقوى من هذين الاستدلالين، الاستدلالُ بحصار النبيّ صلى الله عليه وسلم للطائف . فإنه خرج إليها فى أواخر شوال فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة . فبعضها كان فى ذى العقدة . فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان ، وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة . فخرج إلى هوازن وقد بقى من شوال عشرون يوماً ففتح الله عليه هوازن وقسم غنائمها . ثم ذهب منها إلى الطائف فحاصروه عشرين ليلة . وهذا يقتضى أن بعضها فى ذى القعدة بلاشك . وقد قيل إنما حاصرهم بضع عشرة ليلة . (قال ابن حزم : وهو الصحيح بلاشك) وهذا عجيب منه . فمن أين له هذا التصحيح والجزم به ..؟ وفى (الصحيحين)(١) عن أنس بن مالك فى قصة الطائف قال: فحاصرناهم أربعين يوماً فاستعصوا وتمنّعوا ، وذكر الحديث . فهذا الحصار وقع فى ذى القعدة بلا ريب . ومع هذا ، فلا دليل فى القصة لأنّ غزو الطائف كان من تمام غزوة هوازن . وهم بدأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال . ولما انهزموا دخل ملكهم ـ وهو مالك بن عوف النضرىّ ـ مع ثقيف فى حصن الطائف . فحاربت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان غزوهم من تمام الغزو التى شرع فيها ، والله أعلم .

وقال الله تعالى فى سورة المائدة وهى من آخر القرآن نزولًا وليس فيها منسوخ :

---

(١) ذكر المؤلف أن حديث أنس أخرجه صاحبا الصحيحين . وبحثت عنه فيهما فلم أهتد إليه . لكنى أرجح أنه فى صحيح مسلم فقط. بدليل أن الحافظ ابن حجر، عند قول البخارىّ (فى الحديث ١٩٢٨ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف) لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ، قال : وذكر أنس فى حديثه، عند مسلم، أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً . فقوله (عند مسلم) دليل على أن البخارىّ لم يخرجه . فمن وقف عليه عند مسلم فليذكره هنا . وأجره على الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ(١) وقال فى سورة البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ(٢) . فهاتان آيتان مدنيتان . بينهما فى النزول نحو ثمانية أعوام . وليس فى كتاب الله ولا سنّة رسوله ناسخٌ لحكمها . ولا اجتمعت الأمة على نسخه . ومن استدلّ على النسخ بقوله تعالى : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً(٣) ونحوها من العمومات ، فقد استدلّ على النسخ بما لا يدلّ . ومن استدل عليه بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث أباعامر فى سرية إلى أوطاس فى ذى القعدة ، فقد استدلّ بغير دليل . لأنّ ذلك كان من تمام الغزوة التى بدأ فيها المشركون بالقتال ولم يكن ابتداءً منه لقتالهم فى الشهر الحرام .

« وَلَا يَزَالُونَ » ـ يعنى أهل مكة ـ « يُقَاتِلُونَكُمْ » ـ أيها المؤمنون ـ « حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ » أى : يرجعوكم عن دينكم الإسلام إلى الكفر « إِنِ اسْتَطَاعُوا » أى : قدروا على ردّكم . وفيه استبعاد لاستطاعتهم . فهو كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرت بى

(١) [٥ / المائدة / ٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

(٣) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فلا تُبْقِ عليّ . وهو واثق أنه لا يظفر به . وجملة « وَلَا يَزَالُونَ » إما معطوفة على « يَسْأَلُونَكَ » أو معترضة . والمقصود : تحذير المؤمنين منهم وعدم المبالاة بموافقتهم فى بعض الأمور، لاستحكام عداوتهم وإصرارهم على الفتنة فى الدين . وفى الآية إشعار بأنكم أحقّ بأن لاتزالوا تقاتلونهم . لأنهم قاطعون بأنكم على الحق وأنكم منصورون ، وأنهم على الباطل وهم مخذولون ، ولابدّ، وإن طال المدى . لاعتمادكم على الله واعتمادهم على قوتهم . ومن وُكِلَ إلى نفسه ضاع . فالأمر الذى بينكم وبينهم أشدّ من الكلام . فينبغى الاستعداد له بعدّته، والتأهّب له بأهبته ، فضلًا عن أن يلتفت إلى التأثر بكلامهم الذى توحيه إليهم الشياطين طعناً فى الدين ، وصدّاً عن السبيل . أشار لذلك البقاعىّ . ثم حذّر تعالى عن الارتداد بقوله : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ » وهو الإسلام . وبناء صيغة الافتعال من الردّة المؤذنة بالتكلف ، إشارة إلى أنّ من باشر دين الحقّ يبعد أن يرجع عنه ، فهو متكلف فى ذلك « فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » أى : بطلت جميع مساعيهم النافعة لهم، وردّت « فِي الدُّنْيَا » ـ إذ يرفع الأمان عن أموالهم وأهلهم ـ « وَالْآخِرَةِ » ـ إذْ يسقط ثوابهم فلا يجزون ثمّت بحسناتهم « وَ » لا يقتصر عليه بل « أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ » أى : أهل النار « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » مقيمون لا يموتون ولا يخرجون كسائر الكفّار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٨] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بحرمة الشهر فى نفسه وجواز قتال المخرجين أهلَ المسجد الحرام منه « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا » تركوا مكة وعشائرهم إذْ أُخرجوا من المسجد الحرام « وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ولو فى الشهر الحرام للدفع عن أنفسهم « أُولَـٰئِكَ » وإن باشروا القتال

فى الشهر الحرام « يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ » أى جنّته على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم . وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجوّ للإيذان بأنهم عالمون بأنّ العمل غير موجب للأجر، وإنما هو على طريق التفضّل منه سبحانه ، لا لِأَنّ فى فوزهم اشتباهاً « وَاللهُ غَفُورٌ » لهتكهم حرمة الشهر « رَحِيمٌ » بما تجاوز عن قتالهم، مع قيام دليل الحرمة فلم يعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٩] (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » هذه الآية أول آية نزلت فى الخمر ، على ما قاله ابن عمر والشعبيّ ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء ثم نزلت الآية التى فى المائدة .

وروى الإمام أحمد(١) وأبو داود(٢) والترمذيّ(٣) عن عمر أنّه قال ـ لمّا نزل تحريم الخمر ـ قال : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافيا ! فنزلت هذه الآية التى فى البقرة : يسألونك عن الخمر والميسر . . . الآية. فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافيا . فنزلت

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند . الصفحة ٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) حديث ٣٧٨ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

(٣) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٨ ـ باب حدثنا عبد بن حميد .

الآية التي في النساء « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فكان منادي رسول الله ﷺ ـ إذا أقام الصلاة ـ نادى أن : لايقربنّ الصلاة سكران . فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافيا. فنزلت الآية التي في المائدة ، فدُعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » قال عمر : انتهينا انتهينا.

وحقيقة الخمر ما أسكر من كلّ شيء روى (الشيخان) عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال[1] : كلّ مسكر خمر ، وكلّ مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يُدمنها لم يتب منها ، لم يشربها في الآخرة .

وأما الميسر فهو القِمار ـ بكسر القاف ـ مصدر من يَسَرَ ـ كالموعد والمرجع من فعلهما ـ يقال : يَسَرْته إذا قمرته ، واشتقاقه من (اليُسْر) لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدٍّ ولا تعب ، أو من (اليسار) لأنه سلب يساره .

وصفتهُ: أنه كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام وهي:

(الفذّ، والتوأم ، والرقيب ، والحِلْس ـ بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وككَتِف ـ والنافس ، والمُسْبِل ـ كمُحْسِن ـ والمُعَلَّى ـ كمُعظّم ـ ، والمنيح ـ كأمير ، والسّفيح ـ بوزن ماقبله ـ ، والوغد) لكلّ واحدٍ منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزّئونها عشرة أجزاء (كما قاله أبو عمرو) أو ثمانية وعشرين جزءاً (كما قاله الأصمعيّ) وهو الأكثر ، إلا ثلاثة منها وهي (المنيح والسفيح والوغد) فلا أنصباء لها . وإنما يكثر بها القداح كراهة التهمة . ولبعضهم :

لِيَ في الدنيا سهام ليس فيهن ربيح
وأساميهن : وغد وسفيح ومنيح

(١) أخرجه مسلم في : ٣٦ ـ كتاب الأشربة ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .
ولم يخرجه البخاريّ عن ابن عمر .

فللفذّ سهم ـ أى : فرض واحد ـ وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحِلْس أربعة وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلّى سبعة يجعلونها فى الرِّبابة (وهى خريطة) ويضعونها على يدىْ عدل ثم يجلجلها ويدخل يده فيُخرج، باسم رجل ٍرجل ٍ، قدحاً منها . فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأ كلون منها ، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البَرَم (بفتحتين). كذا فى (الكشاف) بزيادة .

وفى (القاموس وشرحه) : (الميسر) اللعب بالقداح، أو هو الجزور التى كانوا يتقامرون عليها . كانوا إذا أرادوا أن ييسروا اشتروا جزوراً نسيئة ونحروه وقسموه ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام فإذا خرج واحدٌ واحدٌ باسم رجل ٍرجل ٍظهر فوز من خرج لهم ذوات الأنصباء وغرم من خرج له الغفل . وإنما سمى الجزور ميسراً لأنه يجزّأ أجزاء . وكلّ شىء جزأته فقد يَسَرْته ؛ ويسرت الناقة جزأت لحمها ، ويسر القوم الجزور أى : اجتزروها واقتسموا أجزاءها . قال سُحَيْم بن وُثَيْل ٍالْيَربوعىّ :

أقول لهم بالشِّعب إذ يَيْسِرُوننى ألم تعلموا أنّى ابنُ فارس ِزَهْدَم ِ ؟

كان وقع عليه سباء فضرب عليه بالسهام . وقوله (ييسروننى) هو من الميسر ، أى : يجزوننى ويقتسموننى . وقال لبيد :

واعفف عن الجارات وامْنَحْـــهُنّ مَيْسِرَكَ السمينا !

فجعل الجزور نفسه ميسراً . ونقل الصاغانى ، أن الميسر النرد . وقال مجاهد : كلّ شىء فيه قمار فهو من الميسر . حتى لعب الصبيان بالجوز .

« قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ » أى : عظيم ـ وقرئ بالمثلثة ـ وذلك لما فيهما من المساوى المنابذة لمحاسن الشرع . من الكذب والشتم وزوال العقل واستحلال مال الغير « وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ » دنيوية من اللذة والطرب والتجارة فى الخمر ، وإصابة المال بلا كدّ فى الميسر . وفى تقديم بيان إثمه ، ووصفه بالكِبَر ، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس، من الدلالة على غلبة الأول ــ ما لا يخفى على ما نطق به قوله تعالى « وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » أى : المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه ، أى : لا توازى مضرّته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين . وفى هذا من التنفير عنها مالا يخفى . ولهذا ، كانت هذه الآية ممهّدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرحة بل معرّضة ؛ ولهذا ، قال عمر لمّا قرئت عليه : اللهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ! حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[١] .

تنبيه :

أَلّف كثير من أعلام الأطباء والفلاسفة مؤلفاتٍ خاصةً فى مضرّات المسكرات . ولم تزل تعقد فى بعض ممالك النصارى مؤتمرات دولية ، تدعى إليه نواب من جميع دول العالم الكبيرة لمحاربة المسكرات ، وعيافها ، وإعلان تأثيرها فى الأجساد والعقول والأرواح ، وما ينشأ عنها من الخسران المالىّ . ومما قرره خمسون طبيباً منهم هذه الجمل :

١ ــ إنّ المسكرات لا تروى الظمأ بل تزيده .

٢ ــ إنها لا تفيد شيئاً فى قضاء الأعمال .

٣ ــ إنها توقف النموّ العقلىّ والجسدىّ فى الأولاد .

٤ ــ إنها تضعف قوة الإرادة فتفضى إلى ارتكاب الموبقات ، وتجرّ إلى الفقر والشقاء .

٥ ــ هى من المسكنات كالبنج والإيثر .

---

(١) [٥ / المائدة / ٩٠و٩١] .

٦ ـ إنها تعدّ للأمراض المعدية .

٧ ـ إنها تعدّ بنوع خاص للتدرّن والسلّ .

٨ ـ إنها تضرّ فى ذات الرئة والحمّى التيفودية أكثر مما تنفع .

٩ ـ إنها تقرّب النهاية المحزنة فى الأمراض التى تنتهى بالموت . وتطيل مدّة الشفاء فى الأمراض التى تنتهى بالصحة .

١٠ ـ إنها تعدّ لضربة الشمس والرعْن فى أيام الحرّ .

١١ ـ إنها تسرع بإنفاق الحرارة فى أيام البرد . .

١٢ ـ إنها تغير مادة القلب والأوعية الدموية .

١٣ ـ إنها كثيراً ما تسبب التهاب الأعصاب ، والآلام المبرّحة .

١٤ ـ إنها تسرع بحويصلات الجسم إلى الهدم .

١٥ ـ إنّ المقدار العظيم الذى يتناوله أصحاب الأعمال الجسدية من أشربتها هو سبب شقائهم وفقرهم وذهاب صحّتهم .

١٦ ـ إنّ الامتناع عنها مما يفضى إلى صحة وسعادة الجنس البشرىّ .

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » أى : يتصدقون به من أموالهم « قُلِ الْعَفْوَ » وهو ما يفضل عن النفقة ، أى : الفاضل الذى يمكن التجاوز عنه لعدم الاحتياج إليه .

وفى (الصحيحين)(١) عن النبىّ ﷺ قال : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول .

وأخرج مسلم(٢) عن جابر : أن النبىّ ﷺ قال : ابدأ بنفسك فتصدّق عليها ، فإن فضل

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٩ ـ كتاب النفقات ، ٢ ـ باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، حديث ٧٦٢ . ولم يخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤١ (طبعتنا) ونصه : =

شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا .

وروى أبو داود[(١)] والنسائى[(٢)] عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : عندى دينار، قال : أنفقه على نفسك . قال عندى آخر ، قال : أنفقه على ولدك . قال : عندى آخر ، قال : أنفقه على أهلك . قال: عندى آخر ، قال : أنفقه على خادمك . قال : عندى آخر ، قال: أنت أعلم .

« كَذَٰلِكَ » ـ أى : كما بيّن لكم ما ذكر ـ « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ » أى : الأمر والنهى وهوانَ الدنيا « لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ، فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« فِي الدُّنْيَا » أنها فانية ـ والآخرة ـ أنها باقية ، وفى أمورهما لتصلحوها ولا تتحملوا مفسداتهما ، فلا تتركوا اللذائذ الباقية للذائذ الفانية .

= عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « ألك مال غيره ؟ » فقال : لا . فقال « من يشتريه منى ؟ » فاشتراه نُعَيْم بن عبد الله العدوى بثمانمائة درهم . فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك ... » الخ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٤٥ ـ باب صلة الرحم ، حديث ١٦٩١

(٢) أخرجه النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٥٤ ـ باب تفسير ذلك (أى الصدقة عن ظهر غنى) وهو ترجمة الباب السابق .

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ » أخرج أبو داود[(١)] والنسائىّ[(٢)] والحاكم وغيرهم ، عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[(٣)] . وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [٤ / النساء / ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامَه من طعامه وشرابَه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه ، فيُحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتدّ ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول ﷺ ، فأنزل الله تعالى « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ...الآية» فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وقوله تعالى «قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ » أى : مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خيرٌ من مجانبتهم . وإنما أقيم غاية المداخلة ـ أعنى الإصلاح ـ مقامها ، تنبيهاً على أنّ المأمور به مداخلة يكون ترتب الإصلاح عليها ظاهراً . كأنها عين الإصلاح «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ» تعاشروهم ولم تجانبوهم « فَإِخْوَانُكُمْ» فهم إخوانكم فى الدين ـ الذى هو أقوى من العلاقة النسبية . ومن حقوق الإخوة : المخالطة بالإصلاح والنفع.

قال الأصبهانىّ : وإذا كان هذا فى أموال اليتامى واسعاً ، كان فى غيرهم أوسع. وهو أصل شاهد لما يفعله الرفاق فى الأسفار . يخرجون النفقات بالسوية ، ويتباينون فى قلة المطعم وكثرته.

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم فى طعامه ، حديث ٢٨٧١ .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الوصايا ، ١١ ـ باب ما للوصىّ من مال اليتيم إذا قام عليه .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ » لأموالهم « مِنَ الْمُصْلِحِ » لها، فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحرَّوْا غير الإصلاح « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ » لحمَلكم على العنت ـ وهو المشقة ـ وأحرجكم ، فلم يطلق لكم مداخلتهم ، ولا يمنعه من ذلك شيء . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ » أى : غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » أى : فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكاليف على أساس الطاقة .

هذا، وقد حمل القاضى قوله تعالى « قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ » على جهات المصالح والخيرات العائدة إلى الولىّ واليتيم . قال رحمه الله : هذا الكلام يجمع النظر فى صلاح مصالح اليتيم بالتقويم والتأديب وغيرها لكى ينشأ على علمٍ وأدب وفضل ، لأنّ هذا الصنع أعظم تأثيراً فيه من إصلاح حاله بالتجارة . ويدخل فيه أيضاً إصلاح ماله كى لا تأكله النفقة من جهة التجارة . ويدخل فيه أيضاً معنى قوله تعالى: وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ[1]. ومعنى قوله « خَيْرٌ » يتناول حال المتكفّل . أى : هذا العمل خير له من أن يكون مقصراً فى حق اليتيم . ويتناول حال اليتيم أيضاً . أى : هذا العمل خير لليتيم من حيث أنّه يتضمّن صلاح نفسه وصلاح ماله . فهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والولىّ .

وقد روى البخارىّ[2] عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا وكافل اليتيم فى الجنّة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما . وروى نحوه مسلم أيضاً فى (صحيحه)[3] .

---

(١) [٤ / النساء / ٢].

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢٤ ـ باب فضل من يعود يتيما .

(٣) مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٢ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢١] (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

«وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ» أى: لاتتزوجوا الوثنيات حتى يؤمنّ بالله تعالى.

قال ابن كثير: هذا تحريم من الله عزّ وجلّ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان. ثم إن كان عمومها مراداً ، وأنّه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خصّ من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (١).

وقد بسط العلّامة الرازىّ ههنا الكلام على أنّ لفظ (المشرك) هل يتناول الكفار من أهل الكتاب ؟ فانظره .

والتحقيق : أن المشرك لايتناول الكتابىّ ، لأن آيات القرآن صريحة فى التفرقة بينهما. وعطف أحدهما على الآخر فى مثل: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ (٢).

وسرّ ذلك، أن المشرك هو من يتدين بالشرك. أى : يكون أصل دينه الإشراك ؛ والكتابىّ ـ وإن طرأ فى دينه الشرك ـ فلم يكن من أصله وجوهره .

وقوله تعالى « وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ » تعليلٌ للنهى عن مواصلتهنّ ، وترغيبٌ فى مواصلة المؤمنات ؛ أى : ولأمةٌ مؤمنةٌ مع مابها من خساسة الرقّ وقلة الخطر خيرٌ من مشركة مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشأن . فإن نقصان الرِّقِّيَّة فيها مجبور بالإيمان الذى هو أجلّ كمالات الإنسان « وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ » أى : المشركة بحسنها ونسبها

(١) [٥ / المائدة / ٥] . (٢) [٩٨ / البينة / ٦] .

وغيرهما . فإن نقصان الكفر لا يجبر بها « وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ » ـ بضمّ التاء ـ من الإنكاح وهو التزويج أى : لاتزوّجوا الكفار ـ بأىّ كفر كان ـ من المسلمات «حَتَّى يُؤْمِنُوا » ويتركوا ماهم فيه من الكفر « وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ » مع مابه من ذلّ الرّقّيّة « خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ » بداعى الرغبة فيه الدنيوية ، فإن ذهاب الكفاءة بالكفر غير مجبور بشىء منها . وأفْهَمَ هذا خيريةَ الحرّة والحرّ المؤمنين من باب الأوْلى ، مع التشريف العظيم لهما بترك ذكرهما ، إعلاماً بأن خيرّيتهما أمرٌ مقطوع به ، وأن المفاضلة إنماهى بين من كانوا يعدّونه دنيّا فشرّفه الإيمان ، ومَنْ يعدّونه شريفاً فحقّره الكفران. ولذلك ذكر الموصوف بالإيمان فى الموضعين ليدلّ على أنه ـ وإن كان دنيّا ـ موضع التفضيل لعلوّ وصفه . وأثبت الوصف بالشرك فى الموضعين مقتصراً عليه لأنه موضع التحقير وإن علا فى العرف موصوفه ـ أفاده البقاعىّ .

ثم أشار إلى وجه الحظر بقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى : المذكورون من المشركات والمشركين « يَدْعُونَ » من يقارنهم ويعاشرهم « إِلَى النَّارِ » أى : إلى مايؤدى إليها من الكفر والفسوق ؛ فإنّ الزوجية مظنة الألفة والمحبة والمودة ، وكلّ ذلك يوجب الموافقة فى المطالب والأغراض ، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ..! « وَاللهُ يَدْعُو » أى : بما يأمر به على ألسنة رسله « إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ » أى : العمل المؤدّى إليهما . وتقديم الجنة هنا على المغفرة مع سبقها عليها ، لرعاية مقابلة النار ابتداءً « بِإِذْنِهِ » بأمره « وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ » أمره ونهيه فى التزويج « لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » لكى يتعظوا وينتهوا عن تزويج الحرام ، ويوالوا أولياء الله ـ وهم المؤمنون ـ بالمعاشرة والمصاهرة فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران .

هذا ، وقد قيل : معنى « وَاللهُ يَدْعُو » وأولياء الله يدعون ، وهم المؤمنون . على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . تشريفاً لهم ، وتفخيما لشأنهم ، حيث جعل فعلهم فعل نفسه صورة . وملحظه رعاية المقابلة ، كأنه قيل : أعداء الله يدعون إلى النار ، وأولياء الله

يدعون إلى الجنة والمغفرة. إلا أنّ فيه فوات رعاية تناسب الضمائر ، فإن الضمير فى المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى » وَيُبَيِّن » لله تعالى، فيلزم التفكيك .

تنبيه :

قال الراغب : حقيقة التذكّر ، الاستدراك عن نسيان أو غفلة لما اشتبه القلب . قال : إن قيل : إلى أىّ شيء أشار بهذا التذكر ؟ قيل: إن الله عزّ وجل ركّب فينا بالفطرة معرفته ومعرفة آلائه. والإنسان ـباستفادةالعلمـ يتذكّر ماذُكر فيه ، فهذا معنى التذكر. ثم قال : وقد قيل : الرجاء من الله واجب . بمعنى أنه إذا رجانا حقّق رجانا. قال: وهذه مسألة لا يمكن تصوّرها إن لم نبلغها بتعاطى هذه الأفعال التى شرطها الله تعالى . فلذلك صعب إدراكها لنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٢] (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ » وهو الدم الخارج من الرحم على وجه مخصوص فى وقت مخصوص . ويسمّى الحيض أيضاً . أى : هل يسبب ويقتضى مجانبة مسّ من رأته ؟ « قُلْ هُوَ أَذًى » أى : الحيض شيء يستقذر ويؤذى من يقربه ، نفرةً منه وكراهةً له . « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ » أى : فاجتنبوا مجامعتهنّ فى زمنه .

قال الراغب : فى قوله تعالى « هُوَ أَذًى » تنبيه على أنّ العقل يقتضى تجنبه ، كأنّه قيل: الحيض أذى وكلّ أذى متحاشى منه . ولمّا كان الإنسان قد يتحمل الأذى ولا يراه محرّما ، صرّح بتحريمه بقوله « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ » .

روى الإمام أحمد ومسلم[١] عن ثابت عن أنس رضى الله عنه : أن اليهود كانوا إذا حاضت

(١) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن فى البيوت . فسأل أصحابُ النبىّ ﷺ النبىَّ ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ... إلى آخر الآية» . فقال رسول الله ﷺ : اصنعوا كلَّ شىء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يارسول ! إن اليهود تقول كذا وكذا ، فلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أنْ قد وجد عليهما . فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبىّ ﷺ ، فأرسل فى آثارهما ، فسقاهما ، فعرفا أنْ لم يجد عليهما .

« وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ » تأكيدٌ لحكم الاعتزال ، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهنّ، لا عَدَم القرب منهنّ، وكنى بقربانهنّ، المنهىّ عنه، عن مباضعتهنّ . فدلّ على جواز التمتع بهنّ حينئذ فيما دون الفرج .

فى (الصحيحين)[1] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أرجّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض .

وفيهما[2] عنها أيضا قالت : كان رسول الله ﷺ يتّكئُ فى حجرى وأنا حائض ، ثم يقرأ القرآن .

وروى مسلم[3] عنها أيضا قالت : كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبىّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض ، ٢ ـ باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله ، حديث ٢١٠ .

ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض، ٣ ـ باب قراءة الرجل فى حجر امرأته وهى حائض ، حديث ٢١١ .

ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض حديث ١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٤ (طبعتنا) .

فيضع فاه على موضع فىّ فيشرب . وأتعرّق العَرْق وأنا حائض ، ثم أناوله النبىّ ﷺ فيضع فاه على موضع فىّ .

وفى (الصحيحين)[1] ـ واللفظ لمسلم ـ عن ميمونة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر نساءه فوق الإزار وهنّ حيّض .

وفى لفظ له : كان يضطجع معى وأنا حائض وبينى وبينه ثوب .

وقوله « حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ » بيان لغاية الاعتزال . وقد قرئ فى السبع : بفتح الطاء والهاء مع التشديد ، وبسكون الطاء وضمّ الهاء مخففة . والقراءة الأولى تدلّ صريحاً على أنّ غاية حرمة القربان هو الاغتسال ، كما ينبىء عنه قوله تعالى « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ . . . الخ » . والقراءة الثانية وإن دلّت على أنّ الغاية هو انقطاع الدم ـ بناء على ما قيل : إنّ الطهر انقطاع الدم ، والتطهر الاغتسال ـ إلّا أنه لما ضمّ إليها قوله تعالى « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ » صار المجموع هو الغاية؛ وذلك بمنزلة أنْ يقول الرجل : لا تكلم فلاناً حتى يدخل الدار، فإذا طابت نفسه بعد الدخول فكلّمْهُ ! فإنه يجب أن يتعلق إباحة كلامه بالأمرين جميعاً . وكذلك الآية ـ لمّا دلت على وجوب الأمرين ـ وجب أن لا تنتهى هذه الحرمة إلّا عند حصول الأمرين ، فرجع القراءتين واحدةً، كما بينّا .

وقد روى مسلم[2] عن عائشة : أنّ أسماء سألت النبىّ ﷺ عن غسل المحيض ؟ فقال :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض، ٥ ـ باب مباشرة الحائض،حديث٢١٤ ومسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

وتمام الحديث : فقالت أسماء : وكيف نطهّر بهـا ؟ فقال « سبحان الله ! تطهّرين بها » فقالت عائشة (كأنها تخفى ذلك) : تتبعين أثر الدم .

وسألته عن غسل الجنابة ؟ فقال « تأخذ ماء فتَطَّهَّرُ ، فتحسن الطهور . أو تُبلغ =

تأخذ إحدا كنّ ماءها وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور ، ثمّ تصبّ على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتى تبلغ شؤون رأسها ، ثم تصبّ عليها الماء ، ثم تأخذ فِرصة ممسكة فتطهر بها ـ والفِرصة بالكسر : قطعة من صوف أو قطن أو غيره ـ تتبع بها أثر الدم .

ثم آذن تعالى أنّ التطهر شرط في إباحة قربانهنّ ، لا يصحّ بدونه ، بقوله سبحانه « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » أى : فجامعوهنّ من المكان الذى أمركم الله بتجنّبه فى الحيض وهو القُبُل ولا تتعدّوه إلى غيره . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » من الذنوب « وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أى : المتنزّهين عن الفواحش والأقذار . كمجامعة الحائض والإتيان فى غير المأتى . وفى ذكر التوبة إشعارٌ بمساس الحاجة إليها ـ بارتكاب بعض الناس لما نُهوا عنه ـ وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهّر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » روى الشيخان(١) عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتيت المرأة من دبرها فى قبلها ثمّ حملت كان ولدها أحول . قال : فأنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » .

= الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه . حتى تبلغ شؤون رأسها . ثم تفيض عليها الماء » .

فقالت عائشة : نعم النساء نساء الأنصار ! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٩ ـ باب نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ... الآية، حديث ١٩٧٧ ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١١٧ (طبعتنا) .

وعندمسلم عن الزهرىّ: إن شاء مجبِّية، وإن شاء غير مجبية، غير أنّ ذلك فى صمام واحد.

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : هذه الزيادة يشبه أن تكون من تفسير الزهرىّ ، لخلوّها من رواية غيره من أصحاب ابن المنكدر ، مع كثرتهم .

و (المجبِّية) كملبّية : المنكبّة على وجهها . و (الصمام الواحد) : الفرج . وقوله تعالى « حَرْثٌ لَكُمْ » الحرث : إلقاء البذر فى الأرض ، هذا أصله ؛ والكلام إما بحذف المضافِ ، أى مواضع حرث ، أو المصدر بمعنى المفعول أى : محروثات . وإنما شُبِّهْنَ بذلك لما بين ما يلقى فى أرحامهن وبين البذور من المشابهة . من حيث إنّ كلًّا منهما مادة لما يحصل منه . ولمّا عبّر تعالى عنهنّ بالحرثِ عبّر عن مجامعتهنّ بالإتيان كما تقدّم، فقال« فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » أى : فَأْتُوهُنّ كما تأتون أراضيكم التى تريدون أن تحرثوها من أىّ جهةٍ شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة . والمعنى : جامعوهن من أىّ جهةٍ شئتم ولا تبالوا بقول اليهود . وفى تخصيص (الحرث) بالذكر تعميم جميع الكيفيات الموصلة إليه .

قال الزمخشرىّ: وقوله تعالى: هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ـ من حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ـ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ . من الكنايات اللطيفة ، والتعريضات المستحسنة . وهذه وأشباهها فى كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ، ويتأدّبوا بها ، ويتكلّفوا مثلها فى محاورتهم ومكاتبتهم .

وقد ورد ـ فى سبب نزول هذه الآية ـ رواية أخرى أخرجها أبو داود[(١)] والحاكم عن ابن عباس قال : كان هذا الحىّ من الأنصار (وهم أهل وثن) مع هذا الحىّ من يهود (وهم أهل كتاب) كانوا يرون لهم فضلًا عليهم فى العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم . وكان من أمر أهل الكتاب أنهم لا يأتون النساء إلّا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة . فكان هذا الحىّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم . وكان هذا الحىّ من قريش

(١) أخرجه أبوداود فى: ١٢ـ كتاب النكاح، ٤٥ ـ باب فى جامع النكاح، حديث ٢١٦٤

يشرحون النساء شرحاً منكراً ويتلذذون منهن مُقْبِلات ومُدْبِرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأةً من الأنصار . فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت : إنما كنّا نؤتى على حرف . فاصنع ذلك ، وإلّا فاجتنبني . حتى سرى أمرها . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فأنزل الله عزّ وجلّ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » أى : مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعنى بذلك موضع الولد .

تنبيـــه :

ما ذكرناه من الروايات هو المعوّل عليه عند المحققين .

وثمت روايات أخَرُ تدلّ على أنّ هذه الآية إنّما أُنزلت رخصةً فى إتيان النساء فى أدبارهنّ.

قال الطحاوىّ : روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحداً أقتدى به فى دينى يشك أنه حلال (يعنى وطء المرأة فى دبرها) ثم قرأ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ثم قال : فأىّ شىء أبين من هذا ؟ هذه حكاية الطحاوىّ نقلها ابن كثير .

وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعىّ : قال ابن القاسم : ولم أدرك أحداً أقتدى به فى دينى يشك فيه . والمدنيوّن يروون فيه الرخصة عن النبىّ ﷺ . يشير بذلك إلى ماروى عن ابن عمر وأبى سعيد .

أما حديث ابن عمر فله طرق . رواه عنه نافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وزيد ابن أسلم . وسعيد بن يسار . وغيرهم .

أمّا نافع فاشتهر عنه من طرقٍ كثيرة جدّاً . منها رواية مالك ، وأيوب ، وعبيد الله بن عمر العمرىّ ، وابن أبى ذئب ، وعبد الله بن عون ، وهشام بن سعد ، وعمر بن محمد بن زيد ، وعبد الله بن نافع ، وأبان بن صالح ، وإسحق بن عبد الله بن أبى فروة .

قال الدارقطنىّ ، فى أحاديث مالك التى رواها خارج (المُوَطَّأ) : نا أبو جعفر الأسوانىّ المالكىّ بمصر . ثنا محمد بن أحمد بن حماد . نا أبو الحرث أحمد بن سعيد الفهرىّ . نا أبو ثابت

محمد بن عبيد الله . حدّثنا الدراوردىّ عن عبيد الله بن عمر بن حفص عن نافع قال : قال لى ابن عمر : أمسك علىّ المصحف يانافع . فقرأ حتى أتى على هذه الآية « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... » فقال : تدرى يانافع فيمن أنزلت هذه الآية ؟ قال قلت : لا ؟ قال ، فقال لى : فى رجلٍ من الأنصار أصاب امرأته فى دبرها ، فأعظم الناس ذلك ، فأنزل الله تعالى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... » الآية قال نافع : فقلت لابن عمر : من دبرها فى قبلها ؟ قال : لا . إلّا فى دبرها .

قال أبو ثابت : وحدثنى به الدراوردىّ عن مالك وابن أبى ذئب . وفيهما عن نافع مثله.

وفى تفسير البقرة من صحيح البخارىّ : نا إسحق . أنا النضر . أنا ابن عون عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه . فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكانٍ . فقال : تدرى فيم أنزلت ؟ فقلت : لا ! قال : نزلت فى كذا وكذا . ثم مضى .

وعن عبد الصمد : حدثنى أبى ـ يعنى عبد الوارث ـ حدثنى أيوب عن نافع عن ابن عمر فى قوله تعالى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » قال : يأتيها فى ... قال : ورواه محمد بن يحيى بن سعيد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر . هكذا وقع عنده .

والرواية الأولى ـ فى تفسير إسحق بن راهويه ـ مثل ما ساق ، لكن عيّن الآية وهى « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » وعيّن قوله كذا وكذا . فقال : نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن . وكذا رواه الطبرىّ من طريق ابن علية عن ابن عون . وأما رواية عبد الصمد فهى فى تفسير إسحق أيضاً عنه ، وقال فيه : يأتيها فى الدبر .

وأمّا رواية محمد : فأخرجها الطبرانىّ فى (الأوسط) عن علىّ بن سعيد ، عن أبى بكر الأعين ، عن محمد بن يحيى بن سعيد بلفظ : إنما أنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » رخصة فى إتيان الدبر . وأخرجه الحاكم فى (تاريخه) من طريق عيسى بن مثرود عن

عبد الرحمن بن القاسم . ومن طريق سهل بن عمار عن عبد الله بن نافع . ورواه الدارقطنيّ في (غرائب مالك) من طريق زكريا الساجي عن محمد بن الحرث المدنيّ عن أبي مصعب . ورواه الخطيب في (الرواة) عن مالك من طريق أحمد بن الحكم العبديّ . ورواه أبو إسحق الثعلبيّ في (تفسيره) والدارقطنيّ ـ أيضاً ـ من طريق إسحق بن محمد الفرويّ . ورواه أبونعيم في (تاريخ أصبهان) من طريق محمد بن صدقة الفدكيّ، كلّهم عن مالك . قال الدارقطنيّ: هذا ثابت عن مالك .

وأمّا زيد بن أسلم : فروى النسائيّ والطبريّ من طريق أبي بكر بن أبي أويس ، عن سليمان بن بلال، عنه ، عن ابن عمر : أنّ رجلًا أتى امرأته في دبرها على عهد رسول الله ﷺ ، فوجد من ذلك وجداً شديداً ، فأنزل الله عزّ وجلّ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... » الآية .

وأمّا عبيد الله بن عبد الله بن عمر : فروى النسائيّ من طريق يزيد بن رومان عنه : أنّ ابن عمر كان لا يرى به بأساً . موقوف .

وأمّا سعيد بن يسار : فروى النسائيّ والطحاويّ والطبريّ من طريق عبد الرحمن بن القاسم قال : قلت لمالك : إنّ عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحرث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال : قلت لابن عمر : إنا نشترى الجواري فنحمض لهن (والتحميض : الإتيان في الدبر) فقال : أفٍّ ! أوَ يفعل هذا مسلم ؟ قال ابن القاسم : فقال لي مالك : أشهد على ربيعة لحدثني عن سعيد بن يسار أنّه سأل ابن عمر عنه فقال : لا بأس به .

وأمّا حديث أبي سعيد : فروى أبويعلى وابن مردويه في (تفسيره) والطبريّ والطحاويّ من طرق : عن عبدالله بن نافع ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدريّ : أنّ رجلًا أصاب امرأة في دبرها فأنكر الناس ذلك عليه وقالوا : أثفرها ! فأنزل الله عزّ وجلّ « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » . ورواه أسامة بن أحمد التجيبيّ من طريق يحيى بن أيوب عن هشام بن سعد ، ولفظه : كنّا

نأتى النساء فى أدبارهن ويسمّى ذلك الإثفار، فأنزل الله الآية . ورواه من طريق معن بن عيسى عن هشام ـ ولم يسمّ أبا سعيد ـ قال : كان رجال من الأنصار ...

هـذا ، وقد روى فى تحريم ذلك آثار كثيرة نقلها الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) ، وابن حجر فى تخريج أحاديث الرافعىّ . وكلّها معلولة .

ولذا قال البزار : لا أعلم فى هـذا الباب حديثاً صحيحاً ، لا فى الحظر ولا فى الإطلاق . وكلّ ما روى فيه عن خزيمة بن ثابت من طريق فيه ، فغير صحيح .

وكذا روى الحاكم عن الحافظ أبى علىّ النيسابورىّ ، ومثله عن النسائىّ ، وقاله قبلهما البخارىّ .

وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعىّ أنّه قال : لم يصح عن رسول الله ﷺ فى تحريمه ولا فى تحليله شئ . والقياس أنّه حلال .

وروى أحمد بن أسامة التجيبىّ من طريق معن بن عيسى قال : سألت مالكاً عنه ، فقال : ما أعلم فيه تحريماً .

وقال ابن رشد فى كتاب (البيان والتحصيل فى شرح العتبية) روى العتبىّ عن ابن القاسم عن مالك أنّه قال له ـ وقد سأله عن ذلك مخلياً بِهِ ـ فقال : حلال ليس به بأس .

وأخرج الحاكم عن محمد بن عبد الحكم قال : قال الشافعىّ كلاماً كلّم به محمد بن الحسن فى مَسْأَلَة إتيان المرأة فى دبرها ، قال : سألنى محمد بن الحسن فقلت له : إنْ كنت تريد المكابرة وتصحيح الروايات ـ وإن لم تصح ـ فأنت أعلم ، وإن تكلمت بالمناصفة كلّمتك . قال : على المناصفة . قلت : فبأىّ شئ حرّمته ؟ قال : بقول الله عزّ وجلّ « فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ » وقال « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » ، والحرث لايكون إلّا فى الفرج قلت : أفيكون ذلك محرّماً لما سواه ؟ قال : نعم . قلت : فما تقول لو وطئها بين ساقيها ، أو فى أعكانها ، أو تحت إبطها ، أو أخذت ذكره بيدها ، أَوَ فى ذلك حرث ..؟ قال : لا !

قلت : أفيحرم ذلك ؟ قال : لا ! قلت : فلِمَ تحتج بما لا حجّة فيه ؟ قال : فإن الله قال « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ...» الآية . قال : فقلت له : إنّ هذا مما يحتجّون به للجواز أن الله أثنى على من حفظ فرجه من غير زوجته وما ملكت يمينه ، فقلت: أنت تتحفظ من زوجته وما ملكت يمينه . قال الحاكم : لعلّ الشافعيّ كان يقول بذلك فى القديم . فأمّا فى الجديد ، فالمشهور أنه حرّمه . فقد روى الأصمّ عن الربيع : أنّ الشافعيّ نصّ على تحريمه فى ستة كتبٍ من كتبه . . وأخرج الحاكم عن الأصم عن الربيع قال: قال الشافعيّ قال الله « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » احتملت الآية معنيين : أحدهما أن تُؤْتَى المرأة من حيث شاء زوجها . لأنّ « أنَّى شِئْتُم » يأتى بمعنى أين شئتم . ثانيهما أنّ (الحرث) إنما يراد به النبات فى موضعه دون ما سواه . فاختلف أصحابنا فى ذلك . فأحسب كلًّا من الفريقين تأولوا ما وصفت من احتمال الآية . قال : فطلبنا الدلالة من السنة، فوجدنا حديثين مختلفين : أحدهما ثابت ؛ وهو حديث خزيمة فى التحريم . قال : فأخذنا به.

وعليه ، فيكون الشافعيّ رجع عن القديم . وحديث خزيمة رواه الشافعيّ وأحمد والنسائيّ وابن ماجه(١) وابن حبان وأبو نعيم بالسند إلى خزيمة بن ثابت : أنّ رجلًا سأل النبيّ ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهنّ فقال : حلال . فلمّا ولّى الرجل دعاه ـ أو أمر به فدُعى ـ فقال : كيف قلت ؟ فى أىّ الخرزتين ؟ أمن دبرها فى قبلها ؟ فنعم ! أمْ من دبرها فى دبرها فلا ! إنّ الله لايستحيي من الحقّ. لا تأتوا النساء فى أدبارهنّ .

قال الحافظ ابن حجر فى (التلخيص الحبير) : وفى إسناده عمرو بن أحيحة . وهو مجهول الحال . واختلف فى إسناده اختلافاً كثيراً . ثم قال الحافظ : وقد قال الشافعيّ :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة ٢١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٩ ـ باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهن ، حديث ١٩٢٤ (طبعتنا) .

غلط ابن عيينة فى إسناد حديث خزيمة ـ يعنى حيث رواه . وتقدم قول البزار : وكل ماروى فيه عن خزيمة بن ثابت ، من طريق فيه ، فغير صحيح .

وقال الرازىّ فى (تفسيره) : ذهب أكثر العلماء إلى أنّ المراد من الآية : أنّ الرجل مخيّرٌ بين أن يأتيها من قبلها فى قبلها ، وبين أن يأتيها من دبرها فى قبلها . فقوله « أَنَّىٰ شِئْتُمْ » محمول على ذلك . ونقل نافع عن ابن عمر أنه كان يقول : المراد من الآية تجويز إتيان النساء فى أدبارهنّ . وهذا قول مالك . واختيار السيد المرتضى من الشيعة . والمرتضى رواه عن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه .

وبالجملة : فهذا المقام من معارك الرجال ، ومجاول الأبطال . وقد استُفيد مما أسلفناه : أنّ من جوّز ذلك وقف مع لفظ الآية . فإنه تعالى جعل الحرث اسماً للمرأة . قال بعض المفسرين : إنّ العرب تسمّى النساء حرثاً . قال الشاعر :

إذا أكل الجراد حروث قوم ... فحرثى همّه أكل الجراد

يريد : امرأتى . وقال آخر :

إنما الأرحام أرضٌ ... ولنا محترثات

فقلبنا الزرع فيها ، ... وعلى الله النبات ..!

وحينئذٍ ، فى قوله « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » إطلاق فى إتيانهنّ على جميع الوجوه. فيدخل فيه محل النزاع . واعتمد أيضاً من سبب النزول مارواه البخارىّ عن ابن عمر كما تقدّم. وقال فى رواية جابر المرويّة فى (الصحيح) المتقدّمة : إنّ ورود العام على سبب لايقصره عليه. وأجاب عن توهيم ابن عباس لابن عمر، رضى الله عنهم ، المرويّ فى (سنن أبى داود) بأنّ سنده ليس على شرط البخارىّ فلا يعارضه . فيقدّم الأصحّ سنداً . ونظر إلى أنه لم يصح عن النبىّ ﷺ فى هذا الباب حديث .

قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : ذهب جماعة من أئمة الحديث ـ كالبخارىّ والذهلىّ والبزّار والنسائىّ وأبى علىّ النيسابورىّ ـ إلى أنّه لايثبت فيه شىء .

وأمّا من منع ذلك : فتأوّل الآيات المتقدّمة على صمام واحد . ونظر إلى أن الأحاديث المرويّة ــ من طرق متعدّدة ــ بالزجر عن تعاطيه ، وإنْ لم تكن على شرط الشيخين فى الصحة، إلّا أنّ مجموعها صالحٌ للاحتجاج به .

وقد استقصى الأحاديث الواردة فى ذلك ، الحافظ الذهبيّ فى جزء جمعه فى ذلك . وساق جملةً منها الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) وكذا الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) وقد هوّل ــ عليه الرحمة ــ فى شأنه تهويلاً عظيماً . فقال فى كتابه المذكور ، فى الكلام على هديه ﷺ فى الجماع ، ما نصّه :

وأمّا الدبر ، فلم يبَح قط على لسان نبيٍّ من الأنبياء . ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة فى دبرها فقد غلط عليه . ثمّ ساق أخبار النهى عنه ــ وقال بعدُ : وقد دلّت الآية على تحريم الوطء فى دبرها من وجهين : أحدهما : أنه إنما أباح إتيانها فى الحرث وهو موضع الولد ، لا فى الحشّ الذى هو موضع الأذى . وموضع الحرث هو المراد من قوله « مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ... » الآية ــ « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ » وإتيانها فى قبلها من دبرها مستفاد من الآية أيضاً لأنه قال « أَنَّىٰ شِئْتُمْ » أى : من أين شئتم : من أمام أو من خلف : قال ابن عباس : « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ » يعنى الفرج ؛ وإذا كان الله حرّم الوطء فى الفرج لأجل الأذى العارض ، فما الظن بالحشّ الذى هو محل الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان . وأيضاً ، فللمرأة حقّ على الرجل فى الوطء ، ووطؤها فى دبرها يفوت حقها ، ولا يقضى وطرها ، ولا يحصل مقصودها . وأيضاً فإنّ الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ولم يخلق له ، وإنما الذى هيّئ له الفرج ؛ فالعادلون عنه إلى الدبر خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً . وأيضاً فإنّ ذلك مضرٌّ بالرجل ، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم ، لأن للفرج خاصية فى اجتذاب الماء المحتقن ، وراحة الرجل منه ، والوطء فى الدبر لايعين على اجتذاب

جميع الماء ولا يخرج كلّ المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعيّ . . . وأيضاً يضرّ من وجه آخر وهو إحواجه إلى حركات متعبة جداً لمخالفته للطبيعة . وأيضاً فإنه محلّ القذر والنَّجْو فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه . وأيضاً فإنه يضرّ بالمرأة جداً ، لأنه وارد غريب بعيد عن الطباع منافر لها غاية المنافرة . وأيضاً فإنه يحدث الهم والغم والنفرة عن الفاعل والمفعول . وأيضا فإنه يسوّد الوجه ، ويظلم الصدر ، ويطمس نور القلب ، ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسيماء ، يعرفها من له أدنى فراسة . وأيضاً ، فإنه يوجب النفرة والتباغض الشديد والتقاطع بين الفاعل والمفعول ، ولا بدّ . وأيضاً فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فساداً لا يكاد يرجى بعده صلاح . إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح . وأيضاً فإنه يذهب بالمحاسن منهما ويكسوهما ضدّهما . كما يذهب بالمودة بينهما ويبدلها بهما تباغضاً وتلاعناً . وأيضاً فإنه من أكبر أسباب زوال النعم وحلول النقم ، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله ، وإعراضَه عن فاعله ، وعدَم نظره إليه فأىّ خير يرجوه بعد هذا ؟ وأىّ شرٍّ يأمنه ؟ وكيف حياة عبدٍ قد حلّت عليه لعنة الله ومقته ، وأعرض عنه بوجهه ولم ينظر إليه ؟

أقول : أخذ هذا ابن القيم من أحاديث وردت فى لعن فاعل ذلك ، وعدم نظر الحقّ إليه. بيد أنها ضعيفة[1] .

---

(١) أقول أنا : ليس الأمر كذلك .

فقد أخرج ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٩ ـ باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهنّ ، حديث ١٩٢٣ (طبعتنا) هذا الحديث ونصه :

عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال « لاينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » .

فى الزوائد : إسناده صحيح . لأن الحارث بن مخلد (أحد رجال السند) ذكره ابن حبان فى الثقات . وباقى رجال الإسناد ثقات .

قال السندىّ : والحديث قد رواه أبو داود والترمذىّ بلفظ قريب من هذا .

ورواه أيضاً الدارمىّ فى سننه فى : ١ ـ كتاب الوضوء ، ١١٤ ـ باب من أتى امرأته فى دبرها =

ثم قال ابن القيّم : وأيضاً فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب ، فإذا فقدها القلب استحسن القبيح واستقبح الحسن ، وحينئذ فقد استحكم فساده . وأيضاً فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله،ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئاً من الحيوان بل هو طبع منكوس ، وإذا نُكِسَ الطبع انتكس القلب والعمل والهدى ، فيستطيب حينئذالخبيث من الأعمال والأفعال والهيئات ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره . وأيضاً فإنه يورث من الوقاحة والجراءة مالا يورثه سواه . وأيضاً فإنه يورث من المهانة والسّفال والحقارة مالا يورثه غيره . وأيضاً فإنه يكسو العبد من حلّة المقت والبغضاء وازدراء الناس له ، واحتقارهم إياه ، واستصغارهم له ماهو مشاهد بالحسّ. فصلوات الله وسلامه على مَنْ سعادةُ الدنيا والآخرة فى هديه واتباع ماجاء به . وهلاكُ الدنيا والآخرة فى مخالفة هديه وما جاء به . اهـ .

ولما اشتملت هذه الآية على الإذن فى قضاء الشهوة ، نبّه على أن لا يكون المرءفىقيدها بل فى قيد الطاعة ، فقال تعالى « وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ » أى : مايجب تقديمه من الأعمال الصالحة لتنالوا به الجنة والكرامة ، كقوله « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » وَاتَّقُوا اللَّهَ فلا تجترئوا على المعاصى « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ » صائرون إليه فاستعدّوا

= وأخرج الترمذىّ فى جامعه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٧ ـ باب حدثنا عبد بن حميد، هذا الحديث ونصه :

عن ابن عباس قال : جاء أعرابىّ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! هلكتُ . قال « وما أهلكك ؟ » قال : حولت رحلى الليلة . قال فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً . قال فأوحى إلى رسول الله ﷺ هذه الآية : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . أقبلْ وأدبرْ . واتق الدبر والحيضة .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

للقائه « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » بالثواب. وإنما حذف لكونه كالمعلوم ، فصار كقوله : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٤] (وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (العُرضة) بضم العين فعلة بمعنى مفعول ـ كالقبضة والغرفة ـ وهي اسم ماتعرضه دون الشيء . من عرض العود على الإناء . فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول : فلان عرضة دون الخير . وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات ـ مِنْ صِلَةِ رحم ، أو إصلاح ذاتِ بينٍ ، أو إحسان إلى أحد ـ ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني . فيترك البرّ إرادةَ البرّ في يمينه . فقيل لهم « وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » أي : حاجزاً لما حلفتم عليه . وسمّى المحلوف عليه يميناً لتلبّسه باليمين . كحديث : من حلف على يمين . الآتي ذكره . أي: على شيء مما يحلف عليه. وقوله «أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا» عطف بيان لِـ«أَيْمَانِكُمْ» أي : للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس ـ أفاده الزمخشريّ .

وعلى هذا التأويل : الآية . كقوله تعالى : وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ(٢) . والمعنى المتقدم في الآية اتفق عليه جمهور السلف . ورواه

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٧] .

(٢) [٢٤/ النور/ ٢٢] ونصها : وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا تجعلن الله عرضة ليمينك أنْ لا تصنع الخير . ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير . وقد ثبت فى (الصحيحين)[١] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنى ، والله ! إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلّا أتيت الذى هو خير وتحلّلتها . وروى مسلم[٢] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفّر عن يمينه وليفعل الذى هو خير .

وفى الآية وجه آخر ذكره كثير من المفسرين . وهو النهى عن الجراءة على الله تعالى بكثرة الحلف به . وذلك لأنّ مَن أَكثَرَ ذكر شىء فى معنى من المعانى فقد جعله عرضةً له. يقول الرجل : قد جعلتنى عرضةً لِلَوْمك . وقال الشاعر : * ولا تجعلينى عرضةً للوائم *

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ١٥ ـ باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين ، حديث ١٤٧١ ونصه :

عن زهدم قال : كنا عند أبى موسى . فأتى ذكرُ دجاجة . وعنده رجل من بنى تيم الله أحمر كأنه من الموالى . فدعاه للطعام . فقال : إنى رأيته يأكل شيئاً فقذرته فحلفت لا آكل . فقال : هلم فلأحدثكم عن ذاك : إنى أتيت النبىّ ﷺ فى نفر الأشعريين نستحمله . فقال « والله ! لا أحملكم. وما عندى ما أحملكم » وأتى رسول‌الله ﷺ بنهب إبل . فسأل‌عنا . فقال « أين‌النفر الأشعريون ؟ » فأمر لنا بخمس ذودٍ غرّ الذرى. فلما انطلقنا قلنا : ماصنعنا؟ لا يبارك لنا . فرجعنا إليه فقلنا : إنا سألناك أن تحملنا فحلفت أن لا تحملنا . أفنسيت ؟ قال « لست أنا حملتكم . ولكن الله حملكم . وإنى ، والله ! إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير ، وتحللتها » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ١٢و١٣و١٤ (طبعتنا) .

وقد ذم اللهُ تعالى مَن أكثر الحلف بقوله : وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ[(١)]. وقال تعالى : وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ[(٢)] . والعرب كانوا يمدحون المرء بالإقلال من الحلف كما قال كثيّر :

قليلُ الألايا[(٣)] حافظٌ ليمينه   وإنْ سبقت منه الألية بَرَّتِ

والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان : أنّ من حلف فى كل قليل وكثير بالله ، انطلق لسانه بذلك . ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع . فلا يؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة . فيختل ماهو الغرض الأصليّ فى اليمين . وأيضاً ، كلّما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكمل فى العبودية . ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلّ وأعلى عنده من أن يستشهد به فى غرضٍ من الأغراض الدنيوية . وأمّا قوله تعالى بعد ذلك « أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا » فهو علّة للنهى . أى : إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا . لأن الحلّاف مجترئٌ على الله ، غيرُ معظم له ، فلا يكون براً متقياً ، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه فى وساطتهم وإصلاحِ ذات بينهم ، والله أعلم .

---

(١) [٦٨ / القلم / ١٠] .

(٢) [٥ / المائدة / ٨٩] ونصها : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٣) الألايا ، مفردها : أَلِيّة . والألية : اليمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٥] ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » أى : لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ـ إذْ لم تقصدوا هتك حرمته ـ وهى التى لا يقصدها الحالف ، بل تجرى على لسانه عادةً من غير تعقيدٍ ولا قصدٍ إليها . كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى : وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ(١) وهو المعنىّ بقوله عزّ وجلّ « وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » أى : تعمدته قلوبكم فاجتمع فيه ، مع اللفظ ، النيّة . يعنى : ربط القلب به لفوات تعظيم أمره ، ولهتك حرمته بنقض اليمين المقصودة .

روى عن عائشة أنها قالت : أنزلت هـذه الآية فى قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ! أخرجه البخارىّ ومالك وأبو داود(٢) ، وهذا لفظ البخارىّ .

وقد نقل ابن المنذر نحو هذا عن ابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهما من الصحابة والتابعين. ولفظ روايه ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إنما اللغو فى المزاحة والهزل وهوقول الرجل: لا والله ! وبلى والله ! فذاك لا كفّارة فيه ، إنمـا الـكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥٧٦

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٤ ـ باب لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، حديث ١٩٩٦ .

وأخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢٢ ـ كتاب النذور والأيمان ، حديث ٩ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٦ ـ باب لغو اليمين ، حديث ٣٢٥٤ .

ويروى في تفسير لغو اليمين: هو أن يحلف على الشيء يظنّه ، ثم يظهر خلافه . ويروى: أن يحلف وهو غضبان : ويروى غير ذلك ، كما ساقها ابن كثير ، مسندةً .

وقد ظهر ـ للفقير ـ أن لا تنافى بين هذه الروايات . لأنّ كل ما لا عقد للقلب معه من الأيمان فهو لغو بأى صورة كانت وحالة وقعت . فكل ما روى في تفسير الآية فهو ممايشمله اللغو . والله أعلم .

والمراد من المؤاخذة : إيجاب الكفّارة . كما بيّن ذلك في آية المائدة : وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ . « وَاللَّهُ غَفُورٌ » يعني : لعباده فيما لغوا من أيمانهم فلم يؤاخذهم به « حَلِيمٌ » يعني في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة تربّصا بالتوبة . والجملة تذييل للحكمين السابقين . فائدته الامتنان على المؤمنين ، وشمول مغفرته وإحسانه لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٦] (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[٢٢٧] (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » اشتملت هذه الآية على حكم الإيلاء ، وهو لغةً ، الامتناع باليمين . وخصّ في عرف الشرع : بالامتناع باليمين من وطء الزوجة . ولهذا عدى فعله بأداة (من) تضميناً له معنى : يمتنعون من نسائهم . وهو أحسن من إقامة (من) مقام (على). وجعل سبحانه للأزواج مدّة أربعة أشهر يمتنعون فيها من نسائهم بالإيلاء ، فإذا مضت فإمّا أن يفيء وإما أن يطلق .

وقد اشتهر عن عليّ وابن عباس رضى الله عنهم أنّ الإيلاء إنما يكون فى حال الغضب دون الرضا ، كما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1] مع نسائه . وظاهر القرآن مع الجمهور. وقد تناظر فى هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر . فاحتجّ عَلَى محمدٍ بقول عليّ كرّم اللهوجهه ، فاحتجّ عليه محمد بالآية فسكت . وقد اتفق الأئمة على أن المُولى إذا فاء إلى المواصلة لزمته كفارة يمين ، وإنما ترك ذكرها هنا لأنها معلومة من موضع آخر فى التنزيل العزيز . فعموم وجوب التفكير ثابت على حالف .

قال العلّامة صديق خان فى (تفسيره) : اعلم أن أهل كل مذهب قد فسّروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم ، وتكلفوا بما لا يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر . ومعناها ظاهر واضح وهو أنّ الله جعل الأجل لمن يولى (أى : يحلف من امرأته) أربعةَ أشهر ؛ ثم قال مخبراً لعباده بحكم هذا المولى بعد هذه المدّة « فَإِنْ فَاءُوا » أى : رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح « فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : لا يؤاخذهم بتلك اليمين ، بل يغفر لهم ويرحمهم ؛ « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ » أى : وقع العزم منهم عليه والقصد له « فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ » لذلك منهم « عَلِيمٌ » به . فهذا معنى الآية الذى لا شكّ فيه ولا شبهة . فمن حلف أن لا يطأ امرأته ـ ولم يقيد بمدة ، أو قيّد بزيادة على أربعة أشهر ـ كان علينا إمهاله أربعة أشهر . فإذا مضت فهو بالخيار : إما رجع إلى نكاح امرأته ، وكانت زوجته بعد مضى المدة كما كانت زوجتَه قبلها . أو طلقها ، وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء . وأمّا إذا وقّت بدون أربعة أشهر : فإن أراد

(١) أخرج البخاريّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ١١ ـ باب قول النبيّ ﷺ « إذا رأيتم الهلال فصوموا » .

عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبيّ ﷺ آلى من نسائه شهراً . فلما مضى تسعة وعشرون يوماً غدا أو راح . فقيل له : إنك حلفت أن لا تدخل شهراً . فقال « إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوما » .

أن يبر فى يمينه اعتزل امرأته التى حلف منها حتى تنقضى المدة . كما فعل رسول الله ﷺ حين آلى من نسائه شهراً . فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر . وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضىّ تلك المدة التى هى دون أربعة أشهر حنث فى يمينه ولزمته الكفارة . وكان ممتثلًا لما صح عنه ﷺ من قوله : من حلف على يمين فرأى غيره خيراً منه فليأت الذى هو خير وليكفّر عن يمينه .

قال الحرالىّ : وفى قوله تعالى « فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » تهديد بما يقع فى الأنفس والبواطن من المضارة والمضاجرة بين الأزواج فى أمورٍ لا تأخذها الأحكام ، ولا يمكن أن يصل إلى علمها الحكام ، فجعلهم أمناء على أنفسهم فيما بطن وظهر . ولذلك رأى العلماء أنّ الطلاق أمانة فى أيدى الرجال ، كما أنّ العِدَد والاستبراء أمانة فى أيدى النساء . فلذلك انتظمت آية تربّص المرأة فى عدتها بآية تربّص الزوج فى إيلائه .

قال الإمام ابن كثير : وقد ذكر الفقهاء وغيرهم ـ فى مناسبة تأجيل المُولِى بأربعة أشهر ـ الأثر الذى رواه مالك عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبُهْ وأرّقنى إلّا خليلَ ألاعبُهْ
فوالله ! لولا الله ، أنى أراقبُهْ لحُرِّكَ من هذا السرير جوانبُهْ ..!

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنهما : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر . فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك . وقال محمد بن إسحق عن السائب بن جبير مولى ابن عباس ـ وكان قد أدرك أصحاب النبىّ ﷺ ـ قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة ـ وكان يفعل ذلك كثيراً ـ إذْ مرّ بامرأة من نساء العرب مُغْلِقَةً بابها تقول :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبُهْ ... وأرّقنى إلّا ضجيعَ ألاعبُهْ
ألاعبه طورًا وطورًا كأنما ... بدا قمرًا فى ظلمة الليل حاجبُه
يُسَرُّ به من كان يلهو بقربه ... لطيف الحشا لا يحتويه أقاربُه
فوالله ! لولا الله ، لا شىء غيره ، ... لنُقِّض من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيباً موكّلًا ... بأنفاسنا ، لايفتر ، الدهرَ ، كاتبُهْ
مخافةَ ربى ، والحياء يصدّنى ، ... وإكرامَ بعلى ، أن تنال مراكبه .!

ثم ذكر بقية ذلك ـ كما تقدم أو نحوه ـ وقد روى هذا من طرق ، وهو من المشهورات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٨] (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » هذا أمر للمطلقات بأن يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء أى بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت . وأريد بالمطلقات : المدخول بهن من ذوات الأقراء ، لما دلت الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر . أما غير المدخولة فلا عدّة عليها لقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ(١) ؛ وأما التى لم تحض فعدتها ثلاثة أشهر لقوله تعالى:

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا . فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ (١) ؛ وأما الحامل فعدتها وضع الحمل لقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ (٢) . فهذه الآية من العام المخصوص .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربّص ؟ قلت : هو خبر فى معنى الأمر ، وأصل الكلام (وليتربص المطلقات) ، وإخراجُ الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله . فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص. فهو يخبر عنه موجوداً . ونحوه قولهم فى الدعاء : (رحمك الله) أُخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة . كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها . وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل توكيد . ولو قيل (ويتربص المطلقات) لم يكن بتلك الوكادة .. فإن قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء كما قيل تربص أربعة أشهر ، وما معنى ذكر الأنفس ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهييج لهنّ على التربص وزيادة بعث . لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن . وذلك أنّ أنفُس النساء طوامح إلى الرجال . فأمرن إن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص .

و (القرء) : من الأضداد. يطلق على الحيض والطهر . نص عليه من أئمة اللغة:أبوعبيد والزجاج وعمرو بن العلاء وغيرهم . والبحث فى ترجيح أحدها طويل الذيل ، استوفاه الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فانظره . ولمن نظر إلى موضوعه اللغوىّ أن يقول : تنقضى العدة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض . فأيهما اعتبرتْهُ المعتدة خرجت عن عهدة التكليف به.والله أعلم . « وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ » ـ أى : المطلقات ـ« أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ »

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] . . . وباقى الآية : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٤] .

من الحيض أو الولد ، استعجالا فى العدة أو إبطالًا لحقّ الزوج فى الرجعة « إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ » أى : إن جرين على مقتضى الإيمان به، المخوف من ذاته « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » المخوف من جزائه . ودلّ هذا على أن المرجع فى هذا إليهنّ . لأنه أمر لا يعلم إلّا من جهتهن. ويتعذر إقامة البينة على ذلك . فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحقّ . وهذه الآية دالة على أنّ كل من جعل أميناً فى شىء نخان فيه ، فأمره عند الله شديد «وَبُعُولَتُهُنَّ»ـ أى : أزواجهن ـ « أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ » أى : برجعتهنّ ، والكلام فى الرجعية بدليل الآية التى بعدها « فِي ذَٰلِكَ » أى : فى زمان التربص . وهى أيام الأقراء . أما إذا انقضت مدة التربص فهى أحقّ بنفسها ولا تحلّ له إلّا بنكاح مستأنف بولىّ وشهودٍ ومهرٍ جديد . ولا خلاف فى ذلك « إِنْ أَرَادُوا » أى : بالرجعة « إِصْلَاحاً » لما بينهم وبينهن ، وإحساناً إليهن ، ولم يريدوا مضارتهن . وإلّا فالرجعة محرمة لقوله تعالى : وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا[1]، « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » أى: ولهن على الرجال مثل ما للرجال عليهن . فليؤدّ كلّ واحدٍ منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف . كما ثبت فى (صحيح مسلم)[2] : عن جابر أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته فى حجّة الوداع: فاتقوا الله فى النساء. فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣١] ونصها : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب حجة النبىّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

وعن معاوية بن حيدة قال : قلت : يا رسول الله ! ما حقّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طَعِمْتَ . وتكسوها إذا اكتسيتَ . ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلّا في البيت . رواه أبو داود[١] وقال : معنى (لا تقبح) : لا تقل قبحك الله .

وعن أبي هريرة[٢] : أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لامرأةٍ أن تصوم وزوجها شاهد إلّا بإذنه . ولا تأذن في بيته إلّا بإذنه . متفق عليه .

وعن ابن عمر[٣] : أن النبيّ ﷺ قال : كلّكم راعٍ وكلّكم مَسْؤُول عن رعيته . والأمير راع . والرجل راع على أهل بيته . والمرأة راعية على بيت زوجها وولده . فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . متفق عليه .

وعن طلق بن عليّ : أن رسول الله ﷺ قال : إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته ، وإن كانت على التنور . رواه الترمذيّ[٤] والنسائيّ .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤١ ـ باب حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٨٦ ـ باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه ، حديث ١٠٤٣ .

ومسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٨٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ١١ ـ باب الجمعة في القرى والمدن ، حديث ٥٢٤ .

ومسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الترمذيّ في جامعه في : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١٠ ـ باب ماجاء في حق الزوج على المرأة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه[١] قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فلم تأته ، فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح . متفق عليه .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إني لأحبّ أن أتزيّن للمرأة كما أحب أن تتزيّن لي . لأنّ الله يقول : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

تنبيه :

(المعروف) ماعرفته الطباع السليمة ولم تنكره ، مما قبله العقل ، ووافق كرم النفس ، وأقره الشرع . وقد قال بعض الفقهاء : لايجب عليها خدمة زوجها في عجن وخبز وطبخ ونحوه ، لأنّ المعقود عليه منفعة البُضْع ، فلا يملك غيرها من منافعها ..! ولكن مفاد الآية يردّ هذا ويدلّ على وجوب المعروف من مثلها لمثله؛ وبه أفتى الإمام ابن تيمية وفاقاً للمالكية. وإليه ذهب أبوبكر أبن شيبة وأبوإسحق الجوزجانيّ واحتجّا بما روى: أن النبيّ ﷺ قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت وعلى ما كان خارجاً من البيت من عمل. رواه الجوزجانيّ من طرق.

واستدلّ بالآية أيضاً على وجوب إخدامها، إذا كان مثلها لايخدم نفسها .

« وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » أي : زيادة في الحقّ وفضيلة . كما قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ[٢] .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء ، حديث ١٥٢٩ .

ومسلم في : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٣٤] ونصها : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال : لو كنت آمرًا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . رواه الترمذيّ[1] وقال : حديث حسن صحيح . « وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » أي : غالبٌ في انتقامه ممن عصاه ، حكيمٌ في أمره وشرعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٩] (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ،وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » الطلاق بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم ، وهو مبتدأ بتقدير مضاف، خبره مابعده . أي : عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الردّ والرجعة مرتان أي : اثنتان . وإيثار ماورد به النظم الكريم عليه للإيذان بأنّ حقهما أن يقعا مرّة بعد مرّة لادفعة واحدة ، وإن كان حكم الردّ ثابتاً حينئذ أيضاً .

قال ابن كثير : هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام : من أنّ الرجل كان أحقّ برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة مادامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله تعالى على ثلاث طلقات : وأباح الرجعة في المرة وثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة ، فقال : الطلاق مرتان ... الآية .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١٠ ـ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة .

قال الإمام أبوداود فى (سننه)[١] : باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث . ثم أسند عن ابن عباس فى هذه الآية قال : إن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحقّ برجعتها وإن طلقها ثلاثاً. فنسخ ذلك ، فقال « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ..» الآية. ورواه النسائىّ وغيره . وروى الترمذىّ[٢] عن عائشة قالت: كان الناس والرجل يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها وهى امرأته إذا ارتجعها وهى فى العدّة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر ؛ حتى قال رجل لامرأته : والله لاأطلقك تبينين منى ولاأوويك أبدا ..! قالت: وكيف ذاك؟ قال : أطلقك. فكلما همت عدتك أن تنقضى راجعتك . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فسكتت عائشة حتى جاء النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فسكت النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ.. » الآية. قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً . من كان طلق ومن لم يكن طلق. ثم أسنده عن عروة ولم يذكر عائشة ، وقال :هو أصح !

وقوله تعالى « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » أى فالحكم بعد تطليق الرجل امرأته تطليقتين : أنْ يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها ؛ أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً ، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ، ولا ينفر الناس عنها .

قال الرازىّ : الحكمة فى إثبات حق الرجعة : أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدرى أنه هل تشقّ عليه مفارقته أوْلا ؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر . فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لايحصل بالمرة الواحدة ، فلا جرم أثبت تعالى حقّ المراجعة بعد المفارقة مرتين ، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه فى تلك المفارقة وعرف حال قلبه فى ذلك

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث ٢١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١١ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب حدثنا قتيبة .

الباب . فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف . وإن كان الأصلح له تسريحها سرّحها على أحسن الوجوه . وهـذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده .

«وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ» ـ أى : أيها المطلّقون ـ «أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» ـ من المهر وغيره ـ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» أى : فيما يلزمهما من حقوق الزوجية ـ «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ» أى: نفسها عن ضرره ؛ أى : لا إثم على الزوج فى أخذما افتدت به ، ولا عليها فى إعطائه. وهـذه الآية أصل فى الخلع .

وقد ذكر ابن جرير : أنّ هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس وكانت زوجته لا تطيقه بغضاً . ففى (صحيح البخارىّ)[١] عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! ما أعيب عليه فى خلق ولا دين . ولـكن أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة . وقد بسط طرق هذا الحديث مع أحكام الخلع الإمام ابن كثير فى (تفسيره) ، وكذا شمس الدين ابن القيّم فى (زاد المعاد) فلتنظر ثَمَّةَ .

« تِلْكَ » ـ أى : الأحكام العظيمة المتقدمة للطلاق والرجعة والخلع وغيرها ... ـ « حُدُودُ اللَّهِ » ـ شرائعه ـ « فَلَا تَعْتَدُوهَا » ـ بالمخالفة والرفض ـ « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى : لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه . وتعقيبُ النهى بالوعيد للمبالغة فى التهديد .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٨ ـ كتاب الطلاق، ١٢ ـ باب الخلع وكيف الطلاق فيه، حديث ٢١٥٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٠] (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ طَلَّقَهَا » ـ أى : بعد التطليقتين ـ « فَلَا تَحِلُّ لَهُ » ـ برجعة ولا بنكاح جديد ـ « مِنْ بَعْدُ » ـ أى : من بعد هذا الطلاق ـ « حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » أى : حتى تذوق وطء زوج آخر ، وهى العسيلة التى صرح بها النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نكاحٍ صحيح . وفى جعل هذا غايةً للحلّ ، زجرٌ لمن لهغرض مّا فى امرأته عن طلاقها ثلاثاً ، لأنّ كلّ ذى مروءةٍ يكره أن يفترش امرأته آخر .

فروع مهمة تتعلق بهذه الآية

الأول :

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المطلقة ثلاثاً لاتحل للأول حتى يطأها الزوج الثانى . ثبت فى (الصحيحين)(١) عن عائشة رضى الله عنها : أن امرأة رفاعة القرظىّ جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! إنّ رفاعة طلقنى فبتّ طلاقى . وإنى نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظىّ وإن ما معه مثلُ الهدبة ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٤ ـ باب من أجاز طلاق الثلاث ، حديث ١٢٨١ .

ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

لا . حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك . وفى (سنن النسائىّ)[١] : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العسيلة الجماع ولو لم ينزل . وفيها[٢] عن ابن عمر قال : سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلّق امرأته ثلاثاً فيتزوجها الرجل فيغلق الباب ويرخى الستر ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ؟ قال : لا تحلّ للأول حتى يجامعها الآخر . فتضمن هذا الحكم أموراً .

أحدها : أنه لا يقبل قول المرأة على الرجل : أنه لا يقدر على جماعها .

الثانى : أن إصابة الزوج الثانى شرط فى حلها للأول ، خلافاً لمن اكتفى بمجرد العقد ، فإنّ قوله مردود بالسنة التى لا مردّ لها .

الثالث : أنه لا يشترط الإنزال بل يكفى مجرد الجماع الذى هو ذوق العسيلة .

الرابع : أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل مجرد العقد المقصود ــ الذى هو نكاح رغبة ــ كافياً ، ولا اتصال الخلوة به وإغلاق الأبواب وإرخاء الستور حتى يتصل به الوطء ..! وهذا يدلّ على أنه لا يكفى مجرد عقد التحليل الذى لا غرض للزوج والزوجة فيه سوى صورة العقد وإحلالها للأول بطريق الأَوْلى . فإنه إذا كان عقد الرغبة المقصود للدوام

---

(١) لم أجد هذا النص فى السنن التى تحت يدى وإنما الذى وجدته وفيه ذكر العسيلة هو هذا الحديث :

عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته فتزوجت زوجاً غيره . فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها ، أتحلّ للأول ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا . حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته » .

وهو فى : ٢٧ ــ كتاب الطلاق ، ٩ ــ باب الطلاق للتى تنكح زوجاً ثم لا يدخل بها .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٢٧ ــ كتاب الطلاق ، ١٢ ــ باب إحلال المطلقة ثلاثا ، والنكاح الذى يحلها به .

غير كافٍ حتى يوجد فيه الوطء ، فكيف يكفى عقد تيس مستعار ليحلها ، لا رغبة له فى إمساكها وإنما هو عارية كحمار الفرس المستعار للضراب ؟

وقال ـ عليه الرحمة ـ قبل ذلك : وأما نكاح المحلل ، ففى (الترمذىّ)(١) و(المسند)(٢) من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له ، قال الترمذىّ : هذا حديث حسن صحيح . وفى (المسند)(٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : لعن الله المحلل والمحلل له ، وإسناده حسن . وفيه عن علىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم مثله . وفى (سنن ابن ماجة)(٤) من حديث عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا: بلى يا رسول الله ! قال : هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له . فهؤلاء الأربعة من سادات الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شهدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلعنه أصحابَ التحليل ، وهم المحلل والمحلل له . وهذا : إمّا خبر عن الله فهو خبر صدق . وإمّا دعاء مستجاب قطعاً . وهذا يفيد أنه من الكبائر الملعون فاعلها . ولا فرق عند أهل المدينة وأهل الحديث وفقهائهم بين اشتراط ذلك بالقول أو بالتواطؤ والقصد . فإنَّ القصود فى العقود عندهم معتبرة . والأعمال بالنيات . والشرط المتواطَأ عليه الذى دخل عليه المتعاقدان كالملفوظ عندهم. والألفاظ لا تراد لعينها بل للدلالة على المعانى ، فإذا ظهرت المعانى والمقاصد فلا عبرة بالألفاظ لأنها وسائل قد تحققت غاياتها فترتب عليها أحكامها .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٨ ـ باب ماجاء فى المحلل والمحلل له .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٤٨ بالجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٢٣ بالجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٣٣ ـ باب المحلل والمحلل له ، حديث ١٩٣٦ (طبعتنا) .

وقد ساق ابن كثير الأحاديث الواردة فى ذلك : منها ما قدمناه ، ومنها ما رواه الحاكم فى (مستدركه) : عن نافع قال : جاء رجل إلى ابن عمر . فسأله عن رجل طلّق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له ، من غير مؤامرة منه ، ليحلّها لأخيه : هل تحل للأول ؟ فقال : لا . إلّا نكاح رغبة . كنا نعدّ هذا سفاحاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن عمر أنه قال : لا أُوتَى بمحلل ولا محلل له إلّا رجمتهما . وروى البيهقىّ : أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها . ففرق بينهما . وكذا روى عن علىّ وابن عباس وغير واحدٍ من الصحابة رضى الله عنهم .

وبالجملة : فالتحليل غير جائز فى الشرع . ولو كان جائزاً لم يلعن فاعله والراضى به . وإذا كان لعن الفاعل لا يدلّ على تحريم فعله لم تبق صيغة تدلّ على التحريم قط ؛ وإذا كان هذا الفعل حراماً غير جائزٍ فى الشريعة فليس هو النكاح الذى ذكره الله تعالى فى قوله : حتى تنكح زوجاً غيره . كما أنه لو قال : (لعن الله بائع الخمر) لم يلزم من لفظ بائع أنه قد جاز بيعه وصار من البيع الذى أذن فيه بقوله : وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ. والأمر ظاهر .

فصل

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) :

إلزام الحالف بالطلاق والعتاق ، إذا حنث ، بطلاق زوجته وعتق عبده ـ مما حدث الإفتاء به بعد انقراض عصر الصحابة ـ فلا يحفظ عن صحابىّ فى صيغة القسم إلزام الطلاق به أبداً . وإنما المحفوظ إلزام الطلاق بصيغة الشرط والجزاء ـ الذى قصد به الطلاق عند وجود الشرط ـ كما فى (صحيح البخارىّ)[1] عن نافع قال : طلق رجل امرأته البتة إن خرجتْ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١١ ـ باب الطلاق فى الإغلاق والكره .

فقال ابن عمر : إن خرجتْ فقد بانت منه ، وإن لم تخرج فليس بشيء . فهذا لا ينازِعُ فيه إلّا من يمنع وقوع الطلاق المعلق بالشرط مطلقاً . وأمامن يفصل بين القسم المحض والتعليق الذى يقصد به الوقوع ، فإنه يقول بالآثار المروية عن الصحابة كلّها فى هذا الباب . فإنه صحّ عنهم الإفتاء بالوقوع فى صور . وصح عنهم عدم الوقوع فى صور . والصواب : ما أفتوا به فى النوعين . ولا يؤخذ ببعض فتاويهم ويترك بعضها . فأما الوقوع : فالمحفوظ عنهم ما ذكره البخاريّ عن ابن عمر ، وما رواه الثوريّ عن ابن مسعود فى رجل قال لامرأته : إن فعلت كذا وكذا فهى طالق، ففعلتْه . قال: هى واحدة وهو أحق بها . على أنه منقطع . وكذلك ماذكره البيهقىّ وغيره عن ابن عباس فى رجل قال لامرأته: هى طالق إلى سنة ، قال : يتمتع بها إلى سنة . ومن هـذا قول أبى ذَرّ لامرأته ـ وقد ألحت عليه فى سؤاله عن ليلة القدر ـ فقال : إن عدتِ سألتينى فأنت طالق . فهذه جميع الآثار المحفوظة عن الصحابة فى وقوع الطلاق المعلق . وأما الآثار عنهم فى خلافه : فصح عن عائشة وابن عباس وحفصة وأم سلمة ـ رضى الله عنهم ـ فيمن حلفت بأنّ كلّ مملوك لها حرّ إن لم تفرّق بين عبدها وبين امرأته أنها تكفّر عن يمينها ولا تفرق بينهما . رواه الأثرم فى (سننه) والجوزجانىّ فى (المترجم) والدارقطنىّ والبيهقىّ .

وقاعدة الإمام أحمد : أن ما أفتى به الصحابة لا يخرج عنه ، إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه . فعلى أصله الذى بنى مذهبه عليــه ، يلزمه القول بهذا الأثر لصحته وانتفاء علته . قال أبو محمد بن حزم : وصحّ عن ابن عمر وعائشة وأمّ سلمة ـ أمَّىِ المؤمنين ـ أنهم جعلوا فى قول ليلى بنت العجماء (كل مملوك لها حرّ وكل مال لهـا هَدْىٌ وهى يهودية ونصرانية إنْ لم تطلق امرأتك) كفارةَ يمين واحدةً . وإذا صحّ هذا عن الصحابة ولم يعلم لهم مخالف فى قول الحالف : عبده حرّ إنْ فعل، أنه يجزيه كفارة يمين ولم يلزموه بالعتق المحبوب إلى الله، فأنْ لايلزموه بالطلاق البغيض إلى الله أولى وأحرى . كيف وقد أفتى علىّ بن أبى طالب

رضى الله عنه : الحالف بالطلاق ، أنه لا شيء عليه . ولم يعرف له فى الصحابة مخالف ؟ قال عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد بن علىّ التيمىّ المعروف بابن بريرة الأندلسىّ فى (شرحه لأحكام عبد الحقّ) الباب الثالث فى حكم اليمين بالطلاق أو الشك منه : وقد قدمنا فى (كتاب الأيمان) اختلاف العلماء فى اليمين بالطلاق والعتق والمشى وغير ذلك ، هل يلزم أم لا ؟ فقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وشريح وطاوس : لا يلزم من ذلك شيء ، ولا يقضى بالطلاق على من حلف به فحنث . ولا يعرف فى ذلك مخالف من الصحابة ـ هذا لفظه بعينه ـ فهذه فتوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحلف بالعتق والطلاق . وقد قدمنا فتاويهم فى وقوع الطلاق المعلق بالشرط ـ ولا تعارض بين ذلك ـ فإن الحالف لم يقصد وقوع الطلاق وإنما قصد منع نفسه بالحلف عما لا يريد وقوعه ... ـ إلى أن قال ـ وإذا دخلت اليمين بالطلاق فى قول الحالف : أيمان البيعة تلزمنى ـ وهى الأيمان التى رتّبها الحجاج ـ فلم لا تكون أولى بالدخول فى لفظ الأيمان فى كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فإن كانت يمينُ الطلاق يميناً شرعية ـ بمعنى أنّ الشرع اعتبرها ـ وجب أن تعطى حكم الأيمان . وإن لم تكن يميناً شرعية كانت باطلة فى الشرع فلا يلزم الحالف بها شيء. كما صح عن طاوس من رواية عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عنه : ليس الحلف بالطلاق شيئاً . وصح عن عكرمة من رواية سنيد بن داود فى (تفسيره) عنه : إنها من خطوات الشيطان لا يلزم بها شيء ؛ وصحّ عن شريح ـ قاضى علىّ ـ وابن مسعود : إنها لا يلزم بها الطلاق . وهو مذهب داود بن علىّ وجميع أصحابه . فهذه أقوال أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . اهـ .

فصل

وقال الإمام ابن القيّم ـ أيضاً ـ فى (أعلام الموقعين) :

إن المطلّق فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وزمن أبى بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، كان إذا جمع الطلقات الثلاث بفمٍ واحد جعلت واحدة . كما ثبت ذلك فى (الصحيح)(١) عن ابن عباس . فروى مسلم فى (صحيحه) عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر : طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر بن الخطاب : إنّ الناس قد استعجلوا فى أمرٍ كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؛ فأمضاه عليهم . وروى الإمام(٢) أحمد عن ابن عباس قال : طلق ركانة ابن عبد يزيد أخو بنى مُطَّلب امرأتَه ثلاثاً فى مجلس واحد ، فحزن عليها حزناً شديداً ؛ قال : فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف طلقها ؟ قال : طلقها ثلاثاً ، قال : فقال فى مجلس واحد ؟ قال : نعم ! قال : فإنما تلك واحدة فارجعها إن شئت ، قال : فرجعها . فكان ابن عباس يرى : إنما الطلاق عند كلّ طهر . وقد صحح الإمام أحمد هذا الإسناد وحسنه . ثم إن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لم يَخْفَ عليه أن هذا هو السنة ، وأنه توسعة من الله لعباده إذ جعل الطلاق مرة بعد مرة . وما كان مرة بعد مرة لم يملك المكلف إيقاع كلّه جملة واحدة . كاللعان فإنه لو قال : أشهد بالله أربع شهادات إنى لمن الصادقين ، كان مرة واحدة . ولو حلف فى القسامة وقال : أقسم بالله خمسين يميناً إن هذا قاتله ، كان يميناً واحدة . ولو قال المقرّ بالزنا : أنا أُقرّ أربع مرات أنى زنيت ، كان مرة واحدة . فمن يعتبر الأربع لا يجعل ذلك

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٦٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) حديث ٢٣٨٧ (طبعة المعارف) .

الإقرار إلّا واحدا . وقال النبيّ صلى اللهعليهوسلم(١) : من قالفي يومٍ (سبحانالله وبحمده) مائة مرة حطّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر . فلو قال : (سبحان الله وبحمدهمائة مرة) لم يحصل له هذا الثواب حتى يقولها مرةً بعد مرة . وكذلك قوله(٢) : من سبح الله دبر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمده ثلاثاً وثلاثين وكبّره ثلاثاً وثلاثين ... الحديث ، لا يكون عاملًا به حتى يقول ذلك مرة بعد مرة ، لا يجمع الكلّ بلفظ واحد . وكذلك قوله(٣) : من قال في يومٍ : (لا إله إلّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير) مائة مرّة كانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . لا يحصل هذا إلّا بقولها مرة بعد مرة . وهذا كما أنه فى الأقوال والألفاظ فكذلك هو فى الأفعال سواء. كقوله تعالى : سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ (٤) إنما هو مرة بعد مرة . وكذا قول ابن عباس(٥) : رأى محمد ربّه بفؤاده مرتين إنما هو مرةبعد مرة . وكذا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم(٦) :

(١) أخرجهالبخاريّ فى:٨٠ ـ كتابالدعوات،٦٥ ـ بابفضلالتسبيح،حديث٢٤٠٦.

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٤٦ (طبعتنا).

(٣) أخرجه البخاريّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق، ١١ ـ باب صفة إبليس وجنوده، حديث ١٥٥٥ .

ومسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

(٤) [٩ / التوبة / ١٠١] ونصها : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

(٥) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٥ (طبعتنا) .

(٦) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٨٣ ـ باب لايلدغ المؤمن منجحر مرتين ، حديث ٢٣٥١

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٦٣ (طبعتنا) .

لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين. فهذا هو المعقول من اللغة والعرف. فالأحاديث المذكورة ، وهذه النصوص المذكورة، وقوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ، كلها من باب واحد ومشكاةٍ واحدة. والأحاديث المذكورة تفسّر المراد من قوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ . فهذا كتاب الله ، وهذه سنة رسوله ، وهذه لغة العرب ، وهذا عرف التخاطب ، وهذا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة كلّهم معه في عصره ، وثلاث سنين من عصر عمر رضى الله عنه، على هذا المذهب ، فلو عدهم العادّ لزادوا على الألف قطعاً . ولهذا ادّعى بعض أهل العلم أن هذا إجماع قديم ، ولم تجمع الأمة ـ ولله الحمد ـ على خلافه . بل لم يزل فيهم من يفتى به قرناً بعد قرن، وإلى يومنا هذا . فأفتى به من الصحابة ابن عباس والزبير وابن عوف . وعن علىّ وابن مسعود روايتان ، ومن التابعين عكرمة وطاوس . ومن تابعيهم محمد بن إسحق وغيره . وممن بعدهم داود إمام أهل الظاهر ، وبعض أصحاب مالك ، وبعض الحنفية ، وأفتى بعض أصحاب أحمد ـ حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عنه ـ قال : وكان الجدّ يفتى به أحياناً .

والمقصود أنّ هـذا القول قد دلّ عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم . ولم يأت بعده إجماع يبطله . ولكنْ رَأَى أمير المؤمنين عمر، رضى الله عنه، أنّ الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم ، ليعلموا أنّ أحدهم، إذا أوقعه جملةً ، بانت منه المرأة وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، نكاحَ رغبةٍ يراد للدوام لا نكاحَ تحليلٍ ، فإنه كان من أشدّ الناس فيه . فإذا علموا ذلك كفّوا عن الطلاق. فرأى عمر هذا مصلحة لهم في زمانه . ورأى أن ما كانوا عليه في عهد النبيّ ﷺ وعهد الصدّيق وصدراً من خلافته ـ كان اللائق بهم. لأنهم لم يتتابعوا فيه . وكانوا يتقون الله في الطلاق . وقد جعل الله لكلّ من اتقاه مخرجاً . فلما تركوا تقوى الله وتلاعبوا بكتاب الله وطلقوا على غير ما شرعه الله ألزمهم بما التزموه عقوبةً لهم . فإنّ الله سبحانه إنما شرع الطلاق مرة بعد مرة . ولم يشرعه كلّه مرة واحدة . فمن جمع الثلاث في مرة واحدة فقد تعدى

حدود الله ، وظلم نفسه ، ولعب بكتاب الله . فهو حقيق أن يعاقب ويُلزم بما التزمه ، ولا يقر على رخصة الله وسعته ، وقد ضيعها على نفسه ، ولم يتق الله ويطلّق كما أمره الله وشرعه له . بل استعجل فيما جعل الله له الأناة فيـه ، رحمة وإحساناً . واختار الأغلظ والأشدّ . فهذا ما تغيرت به الفتاوى لتغير الزمان . وعَلِمَ الصحابةُ ـ رضى الله عنهم ـ حسنَ سياسة عمر وتأديبه لرعيته فى ذلك فوافقوه على ما أَلْزَمَ به . ثم قال : فلما تغير الزمان ، وبعد العهد بالسنة وآثارِ القوم ، وقامت سوق التحليل ونفقت فى الناس ، فالواجب أن يُرَدَّ الأمر إلى ما كان عليه فى زمن النبىّ ﷺ وخليفته من الإفتاء بما يعطل سوق التحليل ويقللها ويخفف شرها. وإذا عُرِضَ، على من وفقه الله وبصره بالهدى وفقهه فى دينه، مَسْأَلة كون الثلاث واحدة ومسألة التحليل، ووازن بينهما ـ تبين له التفاوت ، وعلم أىّ المسألتين أولى بالدين وأصلح للمسلمين.

ثم قال عليه الرحمة : ويمتنع فى هذه الأزمنة معاقبة الناس بما عاقبهم به عمر رضى الله عنه من وجهين :

أحدها : أن أكثرهم لا يعلم أن جمع الثلاث حرام ، لاسيما وكثير من الفقهاء لا يرى تحريمه ، فكيف يعاقب من لم يرتكب محرماً عند نفسه ؟

الثانى : أنّ عقوبتهم بذلك تفتح عليهم باب التحليل الذى كان مسدوداً على عهدالصحابة رضى الله عنهم . والعقوبة ـ إذا تضمنت مفسدة أكثر من الفعل المعاقب عليه ـ كان تركها أحبّ إلى الله ورسوله . ولا يستريب أحد فى أنّ الرجوع إلى ما كان عليه الصحابة فى عهد النبىّ ﷺ وأبى بكر الصدِّيق وصدر من خلافة عمر أولى من الرجوع إلى التحليل ، والله الموفق .

فصل

وأما طلاق الغضبان ففى (أعلام الموقعين) ما نصه :

إنّ اللفظ إنما يوجب معناه لقصد المتكلم به . والله سبحانه رفع المؤاخذة عمن حدث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل . كما رفعها عمن تلفظ من غير قصد لمعناه ولا إرادة . ولهذا لم يكفر من جرى على لسانه لفظ الكفر سبقاً من غير قصد ، لفرح أو دهش أو غير ذلك . كما فى حديث الفرح الإلٰهىّ بتوبة العبد(١) ، وَضَرَبَ مَثَلَ ذلك : من فقد راحلته عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة فأيس منها ثم وجدها فقال : اللهم ! أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح. ولم يؤاخذ بذلك. وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ . ومن هذا قوله تعالى: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ(٢) قال السلف : هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله فى حال الغضب، لو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه . ولكنه لا يستجيبه لعلمه أن الداعى لم يقصده . ومن هذا رَفْعُهُ ﷺ حكم الطلاق عمن طلق فى إغلاق . قال الإمام أحمد رضى الله عنه فى رواية حنبل : هو الغضب .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٧ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « لله أشد فرحًا بتوبة عبده ، حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها . قد أيس من راحلته . فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها . ثم قال من شدة الفرح : اللهم ! أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) [١٠/ يونس/ ١١] وباقى الآية : ... فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

وبذلك فسره أبو داود . وهو قول القاضي إسمعيل بن إسحق ـ أحد أئمة المالكية ومقدم فقهاء أهل العراق منهم ـ وهي عنده من لغو اليمين أيضاً . فأدخل يمين الغضبان في لغو اليمين وفي يمين الإغلاق . وحكاه شارح أحكام عبد الحق عنه ـ وهو ابن بريرة الأندلسيّ ـ قال : وهذا قول عليّ وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهما من الصحابة : أن الأيمان المنعقدة كلها في حال الغضب لاتلزم . وفي « سنن الدارقطنيّ » بإسنادٍ فيه لِين من حديث ابن عباس يرفعه: لا يمين في غضب، ولا عتاق فيما لا يملك. وهو، إن لم يثبت رفعه، فهو قول ابن عباس . وقد فسّر الشافعيّ (لا طلاق في إغلاق) بالغضب . وفسره مسروق به . فهذا مسروق والشافعيّ وأحمد وأبو داود والقاضي إسمعيل كلهم فسروا الإغلاق بالغضب . وهو من أحسن التفسير . لأن الغضبان قد أُغلق عليه باب القصد لشدة غضبه . وهو كالمكره . بل الغضبان أولى بالإغلاق من المكره . لأن المكره قد قصد رفع الشر الكثير بالشر الذي هو دونه، فهو قاصد حقيقة . ومن ههنا أُوقع عليه الطلاقَ من أوقعه . وأما الغضبان فإن انغلاق باب القصد والعلم عنه كانغلاقه عن السكران والمجنون . فإن غُولَ العقل يغتاله كما يغتاله الخمر بل أشدّ . وهو شعبة من الجنون ، ولا يشك فقيه النفس في أن هذا لا يقع طلاقه . ولهذا قال حبر الأمة ـ الذي دعا له النبيّ ﷺ بالفقه في الدين : إنما الطلاق من وطرٍ . ذكره البخاريّ في (صحيحه)(١) أي: عن غرض من المطلِّق في وقوعه . وهذا من كمال فقهه رضي الله عنه ، وإجابةِ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، إذ الألفاظ إنما تترتب عليها موجباتها لقصد اللافظ بها . والله لم يؤاخذنا باللغو في أيماننا . ومن اللغو ماقالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها(٢) وجمهور السلف: إنه قول الحالف : (لا ، والله . وبلى ، والله .) في عرض كلامه من غير عقد لليمين ، كذلك لا يؤاخذ الله باللغو في أيمان الطلاق كقول الحالف في عرض كلامه : (عليّ الطلاق لاأفعل)

(١) أخرجه في : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١١ ـ باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران .. الخ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٤ ـ باب لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، حديث ١٩٩٦ .

و(الطلاق يلزمنى لأفعل) من غير قصد لعقد اليمين . بل إذا كان اسم الرب جلّ جلاله لا ينعقد به يمين اللغو ، فيمين الطلاق أولى أن لا تنعقد ، ولا تكون أعظم حرمةً من الحلف بالله . وهذا أحد القولين فى مذهب أحمد وهو الصواب . فإيّاك أن تهمل قصد المتكلّم ونيته وعرفه فتجنى عليه وعلى الشريعة ، وتنسب إليها ماهى بريئة منه، وتلزم الحالف والمقرّ والناذر والعاقد ما لم يلزمه الله ورسوله به . فاللغو فى الأقوال نظير الخطأ والنسيان فى الأفعال . وقد رفع الله المؤاخذة بهذا . وهكذا كما قال المؤمنون :رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ![1] فقال ربهم تبارك وتعالى : قد فعلت .

وفى (زاد المعاد) قال شيخنا : حقيقة الإغلاق أن يغلق على الرجل قلبُهُ فلا يقصد الكلام أو لا يعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته.

قال أبو العباس المبرّد : الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لا يجد له مخلصاً .

قال شيخنا : ويدخل فى ذلك طلاق المكره والمجنون ومن زال عقله بسكر أو غضب وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال .

والغضب على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يزيل العقل فلا يشعر صاحبه بما قال . وهذا لا يقع طلاقه بلا نزاع .

الثانى : ما يكون فى مباديه بحيث لا يمنع صاحبه من تصوّر ما يقول وقصدِهِ ، فهذا يقع طلاقه .

الثالث : أن يستحكم ويشتد به فلا يزيل عقله بالكلية ، ولكن يحول بينه وبين نيّته بحيث يندم على مافرط منه إذا زال . فهذا محل نظر . وعدمُ الوقوع فى هذه الحالة قوىّ متجه .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] .

فصل

وأما طلاق الحائض والنفساء والموطوءة فى طهرها ، فنى (الصحيحين)[١] أن ابن عمر طلق امرأته وهى حائض ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ فسأل عمرُ بن الخطاب ، عن ذلك ، رسولَ الله ﷺ ؟ فقال: مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر. ثم إن شاء أمسكها بعد ذلك وإن شاء طلقها قبل أن يمس، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلّق لها النساء.

ولمسلم[١] : مره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت أو وهى حامل . وفى لفظ : إن شاء طلقها طاهراً قبل أن يمس . فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله تعالى . وفى لفظ للبخارىّ : مره فليراجعها ثم ليطلقها فى قبُل عدتها . وفى لفظ لأحمد[١] وأبى داود[١] والنسائىّ[١] ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : طلق عبد الله بن عمر امرأته وهى حائض فردها عليه

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١ـباب قول الله تعالى : يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، حديث ٢٠٦٠ ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمرُ بن الخطاب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلق ، قبل أن يمس . فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١ وما بعده (طبعتنا) .

وأخرجه أحمد فى الصفحة ٨٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

وأبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٤ ـ باب فى طلاق السنّة ، حديث ٢١٧٩ .

والنسائىّ فى : ٢٧ ـ كتاب الطلاق، ١ ـ باب وقت الطلاق للعدة التى أمر الله عز وجل أن تطلق لها النساء .

رسول الله ﷺ ولم يرها شيئاً وقال : إذا طهرت فليطلق أو ليمسك . وقال ابن عمر رضى الله عنه: قرأ رسول الله ﷺ : يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، فى قُبُل عدتهن. فتضمن هذا الحكم أن الطلاق على أربعة أوجه : وجهان حلالان ووجهان حرامان . فالحلال: أن يطلق امرأته طاهراً من جماع . أو يطلقها حاملًا مستبيناً حملها . والحرام : أن يطلقها وهى حائض . أو يطلقها فى طهر جامعها فيه . هذا فى طلاق المدخول بها . وأما من لم يدخل بها فيجوز طلاقها حائضاً وطاهراً .

ثم إن الخلاف فى وقوع الطلاق المحرم لم يزل ثابتاً بين السلف والخلف . وقد وهم من ادعى الإجماع على وقوعه وقال بمبلغ عامه وخفى عليه من الخلاف ما اطلع عليه غيره . وقد قال الإمام أحمد : من ادعى الإجماع فهو كاذب . وما يدريه لعلّ الناس اختلفوا ؟ كيف والخلاف بين الناس فى هذه المسألة معلوم الثبوت عن المتقدمين والمتأخرين ..؟

قال محمد بن عبدالسلام الخشنىّ : ثنا محمد بن بشار . ثنا عبدالوهاب بن عبد الحميد الثقفىّ. ثنا عبيد الله بن عمر عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال، فى رجل يطلق امرأته وهى حائض ، قال ابن عمر : لايعتد بذلك . ذكره أبو محمد بن حزم فى (المحلّى) بإسناده إليه .

وقال عبد الرزاق فى (مصنفه) عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه : أنّه كان لايرى طلاق ما خالف وجه الطلاق ووجه العدّة . وكان يقول : وجه الطلاق أن يطلقها طاهراً من غير جماع أو إذا استبان حملها .

قال أبو محمد بن حزم : العجب من جراءة من ادعى الإجماع على خلاف هذا وهو لايجد فيما يوافق قوله ـ فى إمضاء الطلاق فى الحيض أو فى الطهر الذى جامعها فيه ـ كلمة عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، غير رواية عن ابن عمر . وقد عارضها ما هو أحسن منها عن ابن عمر .

وقال أبو محمد : بل نحن أسعد بدعوى الإجماع ههنا لو استجزنا مايستجيزون ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ وذلك أنه لا خلاف بين أحد من أهل العلم قاطبة ومن جملتهم جميع المخالفين لنا فى ذلك ، أنّ الطلاق فى الحيض أو فى طهرٍ جامعها فيه ـ بدعة . فإذ لاشك فى هـذا عندهم ، فكيف يستجيزون الحكم بتجويز البدعة التى يقرّون أنهـا بدعة وضلالة ؟ أليس ، بحكم المشاهدة، مجيزُ البدعة مخالفاً لإجماع القائلين بأنها بدعة..؟

قال أبو محمد : وحتى لو لم يبلغنا الخلاف لكان القاطع على جميع أهل الإسلام بما لا يقين عنده ، ولا بلغه عن جميعهم ـ كاذباً على جميعهم .

هـذا ما أفاده الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) . ثم ذكر حجج المانعين من وقوعه ، وحجج من أوقعه ، والمناقشة فيها ، فراجِعْه إنْ شئت .

وذكر فى خلال البحث : أنه لا دليل فى قوله : مره فليراجعها ، على وقوع الطلاق . لأن المراجعة قد وقعت فى كلام الله ورسوله على ثلاث معان : منها ابتداء النكاح كقوله تعالى « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَاجُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ » ولا خلاف بين أحد من أهل العلم بالقرآن أنّ المطلق ـ ههنا ـ هو الزوج الثانى. وأن التراجع بينها وبين الزوج الأول. وذلك نكاح مبتدأ. ومنها الردّ الحسى إلى الحالة التى كان عليها أولًا كقوله[1] لأبى النعمان بن بشير لما نحل ابنه غلاماً خصه به دون ولده : رُدَّه . فهذا ردّ مالم تصح فيه الهبة الجائرة التى سماها رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٥١ ـ كتاب الهبة، ١٢ ـ باب الهبة للولد ، حديث ١٢٦٣ ونصه : عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى نحلت ابنى هـذا غلاماً . فقال « أكلَّ ولدك نحلتَ مثله ؟ » قال : لا . قال « فارجعه » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٤ ـ كتاب الهبات ، حديث ٩ (طبعتنا) .

جوراً . وأخبر أنها لا تصح ، وأنها خلاف العدل . ومن هـذا قوله[١] لمن فرق بين جارية وولدها فى البيع فنهاه عن ذلك وردّ البيع ؛ وليس هـذا الردّ مستلزماً لصحة البيع ، فإنه بيع باطل ، بل هو ردّ شيئين إلى حالة اجتماعهما كما كانا . وهكذا الأمر ، بمراجعة ابن عمر امرأته، ارتجاع وردّ إلى حالة الاجتماع كما كانا قبل الطلاق ، وليس فى ذلك ما يقتضى وقوع الطلاق فى الحيض البتة ، وثمت وجوه أخرى ، والله أعلم .

فصل

وأما الخلع : فالتحقيق أنه فسخ لا طلاق . وأن العدّة فيه حيضة . روى أبو داود[٢] فى (سننه) عن ابن عباس ؛ أنّ امرأة ثابت بن قيس بن شماس اختلعت من زوجها ، فأمرها النبىّ ﷺ أن تعتدّ حيضة . ففى ذلك دليل على حكمين : أحدهما أنه لا يجب عليها ثلاث حيض بل تكفيها حيضة . وهذا كما أنه صريح السنة فهو مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، والربيع بنت معوذ وعمها رضى الله عنهم ـ وهو من كبار الصحابة ـ فهؤلاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم . وذهب إلى هذا المذهب إسحق بن رهوايه والإمام أحمد ، فى رواية عنه اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية . قال : هذا القول هو مقتضى قواعد الشريعة . فإنّ العدّة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة فى مدة العدة . فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود مجرد براءة رحمها من الحمل . وذلك يكفى فيه حيضة كالاستبراء . ولا ينتقض هذا بالمطلقة ثلاثاً. فإنّ باب الطلاق جعل حكم العدة فيه واحداً بائنة ورجعية . قالوا : وهذا دليل على أن الخلع فسخٌ ، وليس بطلاق . وهو مذهب ابن عباس وعثمان وابن عمر والربيع وعمها . ولا يصح

(١) انظر الحديث رقم ٢٨٣٢ من المنتقى .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٨ ـ باب فى الخلع ، حديث ٢٢٢٩.

عن صحابىّ أنه طلاق البتة . فروى الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد عن سفيان عن عمرٍو ، عن طاوس عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ أنه قال : الخلع تفريق وليس بطلاق . وذكر عبد الرزاق عن سفيان عن عمرٍو ، عن طاوس : أن إبراهيم بن سعد سأله عن رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أينكحها ؟ قال ابن عباس رضى الله عنه : نعم ! ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها ، والخلع بين ذلك . والذى يدل على أنه ليس بطلاق ، أن الله سبحانه وتعالى رتب على الطلاق بعد الدخول الذى لم يستوف عدده، ثلاثة أحكام كلها منتفية عن الخلع: أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه . الثانى : أنه محسوب من الثلاث فلا يحل بعد استيفاء العدد إلّا بعد زوج وإصابة . الثالث : أن العدة فيه ثلاث قروء . وقد ثبت بالنصّ والإجماع أنه لا رجعة فى الخلع . وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أنّ العدّة فيه حيضة واحدة . وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعده . وهذا ظاهر جداً فى كونه ليس بطلاق ؛ فإنه سبحانه قال «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ»(١) وهذا ـ وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين ـ فإنه يتناولها وغيرها . ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويخلى عنه المذكور . بل إما أن يختص بالسابق ، أو يتناوله وغيره . ثم قال : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ(٢) وهذا يتناول من طلقت بعد فدية تطلقتين قطعاً لأنها هى المذكورة . فلا بدّ من دخولها تحت اللفظ . فهذا فهم ترجمان القرآن الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهى دعوة مستجابة بلاشك . وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق، دلّ على أنها غير جنسه . فهذا مقتضى النصّ والقياس وأقوال الصحابة. انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٠] .

هذه خلاصة الحجج فى هذه الفروع المهمة معرفتها . ولا يعرف قدرها إلّا من صفى فهمه عن التعصبات . ومن نظر إلى ما عمت به البلوى ـ من التفرقة بين المرء وزوجه بمجرّد الانتحال للقيل والقال ، وترك ما حققه بالدلائل الأئمة الأبطال ـ قضى العجب ، وبالله التوفيق.

« فَإِنْ طَلَّقَهَا » ـ أى : الزوج الثانى ـ « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » ـ أى : على المرأة ومطلّقها الأول ـ « أَنْ يَتَرَاجَعَا » أى : إلى ما كانا فيه من النكاح بعقد جديد بعد عدّة طلاق الثانى ـ المعلومة مما تقدم من قوله : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ... الآية ـ « إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ » أى : التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق « وَتِلْكَ » أى: الأحكام المذكورة « حُدُودُ اللهِ » أى : أحكامه المحميّة من التغيير والمخالفة « يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : يكشف اللبس عنها لقوم فيهم نهضة وجدّ فى الاجتهاد فيجددون النظر والتأمل بغاية الاجتهاد فى كل وقت ، فبذلك يعطيهم الله ملكة يميزون بها مايلبس على غيرهم (إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)(١) ، (وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ)(٢) ـ أفاده البقاعىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣١] (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٢] وباقى الآية : . . . وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » أي : طلاقاً رجعياً « فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أي : قاربن انقضاء العدة« فَأَمْسِكُوهُنَّ » أي: بالمراجعة إن أردتم « بِمَعْرُوفٍ » من غير ضرار « أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أي : بأن تتركوهن حتى تنقضي العدة فيملكن أنفسهن « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ » أي : بالرجعة « ضِرَارًا » أي : مضارة بإزالة الألفة وإيقاع الوحشة وموجبات النفرة « لِتَعْتَدُوا » اللام للعاقبة ، أي : لتكون عاقبة أمركم الاعتداء؛ أوللتعليل (متعلقةبالضرار) فيكون علة للعلّة ، أي : لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » أي : بتعريضها لسخط الله عليه ونفرة الناس منه « وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللهِ » أي : أوامره ونواهيه « هُزُوًا » أي : مهزوًّا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة عليها « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أي : فى إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم « وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ » أي : السنة « يَعِظُكُمْ بِهِ » أي : بما أنزل . أي : يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على المخالفة «وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » تأكيد وتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٢] (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أي : انقضت عدتهن . وقد دلّ سياق الكلامين على اختلاف البلوغين ، إذ الأول دلّ على المشارفة للأمر بالإمساك ، وهذا على الحقيقة للنهى عن العضل « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ » أي : لا تمنعوهن « أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ »

الذين طلّقوهن والآن يرغبن فيهم « إِذَا تَرَاضَوْا » أى : النساء والأزواج « بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ » أى : بما يحسن فى الدين من الشرائط « ذَٰلِكَ » أى : النهى عن العضْل « يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكُمْ » أى : الاتعاظ بترك العضْل والضرار « أَزْكَىٰ لَكُمْ » أى أصلح لكم « وَأَطْهَرُ » لقلوبكم وقلوبهن من الريبة والعداوة « وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ » أى : يعلم مافيه صلاح أموركم فيما يأمر وينهى (ومنه مابينه هنا) وأنتم لاتعلمونه ، فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه فى كلّ ماتأتون وما تذرون . وقد روى : أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنىّ وأخته .

أخرج البخارىّ وأبو داود والترمذىّ(١) وغيرهم عن معقل بن يسار : أنه زوّج أخته رجلاً من المسلمين . فكانت عنده ثم طلّقها تطليقة ولم يراجعها . حتى انقضت العدّة فهويها وهويته . فخطبها مع الخطاب. فقال له : يالكع ! أكرمتك بها وزوجتكها فطلّقتها ، والله لاترجع إليك أبداً . فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه ، فأنزل الله الآية . فلما سمعها معقل قال : سمعٌ لربى وطاعة ! ثم دعاه وقال : أزوّجك وأكرمك . زاد ابن مردويه : وكفّرت عن يمينى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٣] (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ٤٤ ـ باب وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ، حديث ١٩٧٨ .

والترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٢٨ ـ حدثنا عبد بن حميد.

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَالْوَالِدَاتُ » أى : من المطلقات « يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » أى : سنتين كاملتين « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » أى : هذا الحكم لمن أراد أن يتم رضاع الولد، فَأَفْهَمَ أنه يجوز الفطام للمصلحة قبل ذلك ، وأنه لارضاع بعد التمام .

قال الحَرّالىّ : وهو ـ أى الذى يكتفى به دون التمام ـ هو ماجمعه قوله تعالى : وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (١) فإذا كان الحمل تسعاً كان الرضاع أحداً وعشرين شهراً . وإذا كان حولين كان المجموع ثلاثاً وثلاثين شهراً ، فيكون ثلاثة آحاد وثلاثة عقود ، فيكون ذلك تمام الحمل والرضاع .

« وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ » ـ أى : الأب ـ وعبّر عنه بهذه العبارة إشارة إلى جهة وجوب المؤن عليه ، لأن الوالدات إنما وَلَدْنَ للآباء ، ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم ؛ قال بعضهم :

وإنما أمهات الناس أوعيةٌ مستودَعاتٌ وللآباء أبناء

« رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ » أى : على والد الطفل نفقة أمّه المطلقة مدّة الإرضاع ، أى طعامهنّ ولباسهنّ « بِالْمَعْرُوفِ » وهو قدر الميسرة كما فسّره قوله تعالى : « لَا تُكَلَّفُ

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا » يعنى طاقتها ؛ والمعنى : أنّ أبا الولد لايكلّف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدرماتتسع به مقدرته، ولا يبلغ إسراف القدرة « لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا » أى : بأخذ ولدها منها بعد رضاها بإرضاعه ورغبتها فى إمساكه وشدة محبتها له « وَلَا مَوْلُودٌ » يعنى الأب« بِوَلَدِهِ » بطرح الولد عليه ؛ يعنى : لاتلقى المرأة الولدإلى أبيه وقد ألفها ، تضاره بذلك . وهذا التأويل على تقدير كون (تضارّ) مبنياً للمفعول ، وأما على بنائه للفاعل ، فالمفعول محذوف والتقدير . لاتضارِر ـ بكسر الراء الأولى ـ والدةٌ زوجها بسبب ولدها ، وهو أن تعنف به وتطلب منه ماليس بعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد ، وأن تقول (بعد أن ألفها الصبىّ) : اطلب له ظئراً ، وما أشبه ذلك ؛ ولا يضارِر مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها ، أو يأخذه منها وهى تريد إرضاعه . والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو أن يغيظ أحدهما صاحبه « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » أى : على وارث الأب أو وارث الصبىّ مثل ماعلى الأب من النفقة وترك الضرار إذا لم يكن الأب « فَإِنْ أَرَادَا » يعنى الزوج والمرأة « فِصَالًا » أى : فصال الصبىّ عن اللبن قبل الحولين ـ يعنى: فطاماً « عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا » بتراضى الأب والأم « وَتَشَاوُرٍ » بمشاورتهما « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » أى : على الأب والأم إن لم يرضعا ولدهما سنتين «وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ» يعنى غير الأم عند إبائها أو عجزها أو إرادتها أن تتزوج « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ » ـ يعنى إلى المراضع ـ « مَاءَاتَيْتُمْ » أى : ما أردتم إيتاءه إليهنّ من الأجرة « بِالْمَعْرُوفِ » متعلق بـ (سلمتم) أى : سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور . والمقصود ندبهم أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشرى الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل ، مطيبين لأنفس المراضع حتى يُؤْمَنَ من تفريطهنّ بمصالح الرضيع « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » فيه من الوعيد والتحذير عن مخالفة أحكامه ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٤] (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » أى : يموتون من رجالكم « وَيَذَرُونَ » أى : يتركون « أَزْوَاجاً » بعد الموت « يَتَرَبَّصْنَ » أى ينتظرن « بِأَنْفُسِهِنَّ » فى العدّة « أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » يعني عشرة أيام « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ » أى : انقضت عدّتهنّ « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى : على الأولياء فى تركهنّ « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » من التعرّض للخطّاب والتزيّن « بِالْمَعْرُوفِ » أى : بوجه لاينكره الشرع . وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ماينكره الشرع ، فعليهم أن يكفّوهنّ عن ذلك . وإلّا فعليهم الجناح « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

اعلم أنّ فى هذه الآية مسائل :

الأولى : خص ، من عموم الآية ، الحامل المتوفى عنها زوجها ، فإن عدّتها بوضع الحمل لقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ(١) ؛ ولما فى (الصحيحين)(٢) عن سبيعة الأسلمية : أنها كانت تحت سعد بن خولة ـ وهو من بنى عامر بن لؤىّ وكان ممن

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ونصها : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٩ ـ باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٥٧ (طبعتنا) .

شهد بدراً ـ فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل . فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلماتعلّت من نفاسها تجمّلت للخطّاب. فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ـ رجل من بنى عبد الدار ـ فقال : مالى أراكِ تجمّلت للخطّاب، لعلك ترجين النكاح ؟ وإنّكِ واللهِ ما أنتِ بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت علىّ ثيابى حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ؟ فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى . وأمرنى بالتزويج إن بدا لى . وفيه قال ابن شهاب : ولا أرى بأساً أن تتزوج حين وضعت ، وإن كانت فى دمها ، غير أنه لايقربها حتى تطهر .

الثانية : المراد من تربّصها بنفسها : الامتناع عن النكاح ، والامتناع عن التزيّن ، والامتناع عن الخروج من المنزل الذى توفى زوجها فيه . فالأول مجمع عليه . والثانى : روى فيه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش وعائشة ـ أمهات المؤمنين ـ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم[1] قال : لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميتٍ فوق ثلاث. إلّا على زوجٍ أربعة أشهر وعشرا . متفق عليه . وعن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله ! إنّ ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ قال : لا . كل ذلك يقول : لا . مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال: إنما هى أربعة أشهر وعشر. وقد كانت إحداكنّ فى الجاهلية تمكث سنة. متفق عليه .

وعن نافع : أن صفية بنت عبد الله اشتكت عينها ـ وهى حادّ على زوجها ابن عمر ـ فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمصان ، أخرجه مالك فى (الموطأ)[2] .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٣١ ـ باب حد المرأة على غير زوجها، حديث ٦٨٠و٦٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٥٨و٥٩و٦٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢٩ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١٠٧ (طبعتنا) .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : لا تلبس المتوفى عنها زوجها، المعصفرة من الثياب ولا الممشقة ولا الحلىّ ولا تختضب ولا تكتحل ولا تطيب أخرجه أبو داود[1] (والممشقة : المصبوغة بالمشق وهى المغرة) .

وقد استنبط بعضهم وجوب الإحداد من قوله تعالى « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » أى : من زينة وتطيب ـ كما قدمنا ـ فيفيد تحريم ذلك فى العدة وهو الإحداد .

وأما الامتناع عن الخروج من المنزل الذى توفّى فيه زوجها : فروى فيه أحمد وأهل السنن[2] حديثَ فريعة بنت مالك قالت : خرج زوجى فى طلب أعلاج له فأدركهم فى طريق القدوم فقتلوه ، فأتى نعيه وأنا فى دار شاسعة عن دار أهلى ، فأتيت النبىّ ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: إن نعى زوجى أتانى فى دار شاسعة عن أهلى ولم يدع نفقة ولا مالًا ورثته وليس المسكن له ، فلو تحولت إلى أهلى وإخوتى لكان أرفق بى فى بعض شأنى ؟ قال : تحولى. فلما خرجتُ إلى المسجد أو إلى الحجرة دعانى ـ أو أمر بى فدعيت ـ فقال : امكثى فى بيتك الذى أتاك فيه نعى زوجك حتى يبلغ الكتاب أجله . قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا . وفى بعض ألفاظه : أنه أرسل إليها عثمان بعد ذلك فأخبرته ، فأخذ به . وقد أُعِلّ هذا الحديث بما لا يقدح فى الاحتجاج به .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٤٦ ـ باب فيما تجتنبه المعتدة فى عدتها حديث ٢٣٠٤ .

(٢) أخرجه أحمد فى الصفحة ٣٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

والنسائىّ فى : ٢٧ ـ كتاب الطلاق ، ٦٢ ـ باب عدة المتوفى عنها زوجها من يوم يأتيها الخبر .

وابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ٨ ـ باب أين تعتد المتوفى عنها زوجها ، حديث ٢٠٣١ (طبعتنا) .

الثالثة : أكثر الفقهاء على أنّ هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وإن كانت متقدمة فى التلاوة ، فإن ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول بل هو توقيفيّ . وذهب مجاهد وغيره إلى أنهما محكمتان . كما سيأتى بيانه .

الرابعة : أبدى المهايميّ الحكمة فى تحديد عدة المتوفى عنها بهذا القدر ، فقال : لئلا يتعارض فى قلبها حب المتوفَّى وحب الجديد ، فأخذت مدّة صبرها ـ وهو أربعة أشهر ـ وزيد عليه العشر ، إذ بذلك ينقطع صبرها فتميل إلى الجديد ميلًا كلياً ، فينقطع عن قلبها حب المتوفى . على أنه يظهر فى حق المدخول بها حركة الحمل إذ تكون بعد أربعة أشهر، لكنها تبتدىء ضعيفة وتتقوى بمضىّ عشر آخر . ثم قال : ولم يكتف بالأقراء الدالة على عدمه ههنا، بخلاف الفراق حال الحياة ، لأن الفراق الاختيارىّ شاهد عدمه مع شهادة الأقراء ، فثمَّ شاهدان وههنا واحد ، وعدم الحركة بعد هذه المدة يقوى شهادة الأول فيكون كالشاهد مع اليمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٥] (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ،عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ »أى : لاحرج عليكم أيها الخاطبون فى التعريض بخطبتكم النساء المتوفى عنهن أزواجهن قبل انقضاء العدة لتتزوجوهن بعد انقضائها . والتعريض : إفهام المقصود بما لم يوضع له ، حقيقةً ولا مجازاً . كأن يقال لها : إنك جميلة أو صالحة ، أو ربّ راغب فيك ، أومن يجد مثلك . والخطبة ـ بالكسر ـ طلب المرأة . « أَوْ » ـ فيما ـ « أَكْنَنْتُمْ » أى : أضمرتم من نكاحهنّ « فِي أَنْفُسِكُمْ » أى :

قلوبكم وإن كان حقه التحريم فضلًا عن التعريض باللسان ، لـكن أباحه الله لـكم إذْ « عَلِمَ اللهُ أَنَّـكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ » أي : لا تصبرون عن النطق برغبتـكم فيهن فرخص لـكم فى التعريض دون التصريح ، وفيـه طرف من التوبيخ على قلة التثبت كقوله تعالى : عَلِمَ اللهُ أَنَّـكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَـكُمْ (١) . « وَلَـكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنّ سِرًّا » هذا الاستدراك من قوله «فيماَ عَرَّضْتُمْ بِهِ». و « سِرًّا » مفعول به لأنه بمعنى النـكاح . أى : لاتواعدوهن نـكاحاً . أو هو بمعنى ضدالجهر والإعلان فيـكون مصدراً فى موضع الحال تقديره (مستخفين بذلك) والمفعول محذوف تقديره (لاتواعدوهن النـكاح سراً) ، أوصفة لمصدر محذوف أى: مواعدة سراً ، أو التقدير (فى سر) فيـكون ظرفاً . وإنما نهى عن ذلك لأن المواعدة بذكر الجماع والرفَث بين الأجنبىّ والأجنبية غير جائز إجماعاً . كالمواعدة بينهما على وجه السرّ . إذْ لا تنفك ظاهراً عن أن تـكون مواعدة بشىء من المنكرات .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الـكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكرِ جماعٍ أو تحريض عليه لا يجوز . وقال أيضاً : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدة للمرأة فى نفسها ، وللأب فى ابنته البـكر ، وللسيد فى أَمَتِهِ .

وقوله تعالى « إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً » أى : لايستحيي منه عند أحدٍ من الناس. فآل الأمر إلى أن المعنى : لا تواعدوهن إلا ما لا يستحيي من ذكره فيُسر وهو التعريض ؛ فَنَصَّتْ هذه الآية على تحريم التصريح. بعد إفهام الآية الأولى لذلك ، اهتماماً به لما للنفس من الداعية إليه ـ أفاده البقاعىّ .

وقال الرازىّ : لما أَذِنَ تعالى فى أول الآية بالتعريض ثم نهى عن المسارّة معها دفعاً للريبة والغيبة ، استثنى عنه أن يساررها بالقول المعروف . وذلك أن يعدها فى السرّ بالإحسان إليها، والاهتمام بشأنها ، والتـكفّل بمصالحها حتى يصير ذكر هـذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض ، والله أعلم .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

تنبيــه :

ما قدمناه من أنّ قوله تعالى « وَلَـٰكِنْ ... » الخ استدراك من قوله « فِيمَا عَرَّضْتُمْ » قاله أبو البقاء .

وجعل الزمخشريّ المستدرك محذوفاً دلّ عليــه « سَتَذْكُرُونَهُنَّ » أى : فاذكروهنّ ولـكن لا تواعدوهن سراً .

قال الناصر : وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف . لأن المعتاد فى مثل هذه الصيغة ورود الإباحة عقيبها . ونظير هــذا النظم قوله تعالى : عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ...(١) الآية . ولهذا الحذف سرّ ـ والله أعلم ـ وهو أنّه اجتنب لأن الإباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً . بل اختصت بوجهٍ واحـدٍ من وجوهه . وذلك الوجه المباح عسر التميز عمّا لم يبح . فذكرت مستثناة بقوله « إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً » تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر ، والأصل فيــه الحظر . ولا كذلك الوطء فى زمن ليل الصوم . فإنه أبيح مطلقاً غير مقيد ؛ فلذلك صَدَرَ الـكلام بالإباحة والتوسعة . وجاء النهى عن مباشرة المعتكفة فى المسجد تِلْوًا للإباحة وتبعاً فى الذكر . لأنها حالة فاذّة . والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم ولـكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب ، وهو الاعتكاف . فتفطّن لهذا السرّ فإنه من غرائب النكت .

« وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ » (العُقدة) بالضم من النكاح وكل شيء من البيع ونحوه ، وجوبُه . قال الفارسيّ : هو من الشدّ والربط . وقال الرازىّ : أصل العقد الشدّ . وسميت العهود والأنكحة عقوداً لأنها تعقد كما يعقد الحبل . وذكر العزم مبالغة فى النهى عن عقد النكاح . لأن العزم على الفعل يتقدمه . فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى . ومعناه : ولا تعزموا وجوب النكاح لأن القصد إليه حال العدة يفيد مزيد تحريك

(١) [٢ / البقرة / ١٨٧] .

من الجانبين بحيث لايطاق معه الصبر إلى انقضاء العدّة . وقوله «حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» أى : العدّة المكتوبة المفروضة آخرها . «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» من الميل إليهنّ قبل الأجل «فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» يغفر ذلك الميل إذْ لم يتعدّ العزم عقدة النكاح «حَلِيمٌ» لا يعاجل بالعقوبة ، فلا تستدلّوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة ..!

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٦] (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)

«لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً» (ما) شرطية ، أى : إن لم تمسوهن ولم تفرضوا لهنّ فريضة . يعنى : ولم تعينوا لهنّ صداقاً ـ فـ (أو) بمعنى الواو ـ وحينئذٍ فلا مهر لهنّ ولكن المتعة بالمعروف كما قال تعالى «وَمَتِّعُوهُنَّ» أى : من مالكم جبراً لوحشة الفراق «عَلَى الْمُوسِعِ» أى : الغنيّ الذى يكون فى سعة من غناه «قَدَرُهُ» ـ بسكون الدال وبفتحها قراءتان سبعيتان ـ أى : يجب على الموسر قدر ما يليق بيساره «وَعَلَى الْمُقْتِرِ» أى : المعسر الذى فى ضيقٍ من فقره ، وهو المقلّ الفقير ، يقال : أقتر إذا افتقر «قَدَرُهُ» أى : قدر ما يليق بإعساره «مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ» تأكيد لـ «مَتِّعُوهُنَّ» يعنى: متعوهنّ تمتيعاً بالمعروف ـ أى : بالوجه المستحسن فلا يزاد إلى نصف مهر المثل ولا ينقص إلى ما لا يعتد به ـ «حَقًّا» أى : ثبت ذلك ثبوتاً مستقراً «عَلَى الْمُحْسِنِينَ» أى : المؤمنين لأنه بدل المهر ؛ وذكرهم بهذا العنوان ترغيب وتحريض لهم على الإحسان إليهنّ بالمتعة . وإنما كانت إحساناً لأن ملاك القصد فيها ما تطيب به نفس المرأة

ويبقى باطنها وباطن أهلها سلماً ذا مودّة . لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ـ أفاده الحرالّى .

وروى الثورىّ عن ابن عباس قال : متعة الطلاق أعلاها الخادم ، ودون ذلك الورِق ، ودون ذلك الكسوة . وعنه : إن كان موسراً متعها بخادمٍ ونحوه ، وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب .

وروى عبدالرزاق أن الحسن بن علىّ ـ عليهما السلام ـ متع بعشرة آلاف. فقالت المرأة: متاع قليل من حبيبٍ مفارق .

تنبيـه :

أخذ بعض المفسرين يحاول البحث بأن عنوان نفى الجناح ـ عمّا ذكر هنا ـ يفيد ثبوته فيما عداه ، مع أنه لا جناح أيضاً فيه . وتكلف للجواب ـ سامحه الله ـ ولا يخفاك أنّ مثل هذا العنوان كثيراً ما يراد به فى التنزيل الترخيص والتسهيل . كما تكلف بعضٌ بجعل (أو) بمعنى (إلّا) أو (حتى) ؛ وجعل الحرج بمعنى المهر مع أنّ الآية بيّنة بنفسها لا حاجة إلى أن تتجاذ بها أطراف هذه الأبحاث . وعدولُهم عن أقرب مما سلكوه ـ أعنى كون (أو) بمعنى الواو ـ مع شيوعها فى آيات كثيرة ـ عجيبٌ . وأعجب منه تخطئة من جنح لهذا الأقرب ، مع أنّ مما يرشحه مساق الآية بعدها .

وما روى فى سبب نزول هذه الآية : قال الخازن : نزلت فى رجلٍ من الأنصار تزوج امرأة من بنى حنيفة ولم يسمّ لها صداقاً ثم طلقها قبل أن يمسها ، فنزلت « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ... » الآية فقال له رسول الله ﷺ : أمتعها ولو بقلنسوتك. وهذه الرواية ـ إن ثبتت ـ كانت شاهدة لما اعتمدناه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٧] (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ إِلَّاأَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » ـ أى: الزوجات ـ « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ » أى : تجامعوهنّ. قال أبو مسلم : وإنما كنى تعالى بقوله « تَمَسُّوهُنَّ » عن المجامعة ، تأديباً للعباد فى اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به . « وَقَدْ فَرَضْتُمْ » أى : سميتم « لَهُنَّ فَرِيضَةً » أى : مهراً مقدّراً « فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » أى : فلهنّ نصف ماسميتم لهنّ من المهر ، أو فالواجب عليكم ذلك « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ » أى : المطلقات عن أزواجهن فلايطالبنهم بنصف المهر . وتقول المرأة : مارآنى ولا خدمته ولا استمتع بى فكيف آخذ منه شيئاً ..؟ « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » وهو الزوج فيسوق إليها المهر كاملاً ، أو الولىّ ، يعنى : إذا كانت صغيرة ـ أو غير جائزة التصرف ـ فيترك نصيبها للزوج .

قال مالك فى (موطأه) فى هذه الآية : هو الأب فى ابنته البكر . والسيّد فى أمته . وكلا التأويلين مروىّ عن عدّة من الصحابة والتابعين .

قال الحرالىّ : إذا قرن هذا الإيراد بقوله « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » خطاباً للأزواج قوى فَسْرُ من جعل « الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » هو الزوج معادلة للزوجات ، ومن خصّ عفوهن بالمالكات ـ أى الرشيدات ـ خصّ هذا بالأولياء .

ونقل ابن جرير : أن الشعبىّ رجع إلى أنه الزوج ، وكان يباهل عليه .

وقال الزمخشرىّ : القول بأنه الولىّ ظاهر الصحة .

قال الناصر فى (حواشيه) : وصدق الزمخشرىّ أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحقّ وطلاوة الصواب لوجوهٍ ستة . ساقها بألطف بيان . فانظرها ، والله أعلم .

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » هذا خطاب للرجال والنساء جميعاً ، وغلب التذكير نظراً للأشرف . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : أقربهما للتقوى الذى يعفو ، وذلك لأنّ من سمح بترك حقه كان محسناً وذلك عنوان التقوى « وَلَا تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ » أى : التفضل بالإحسان لما فيه من الألفة وطيب الخاطر . فهو حثّ على العفو ، فمن عفا منهما فله الفضل على الآخر . ومعلوم أن النسيان ليس فى الوسع حتى ينهى عنه . فالمراد منه الترك . أى : لا تتركوه تركَ المنسىّ . فالتعبير بالنسيان آكد فى النهى . والخطاب هنا أيضاً للقبيلين بالتغليب ، كالذى قبله ، وخصّه الحرالىّ بالرجال ، قال :

فمن حقّ الزوج ــ الذى له فضل الرجولة ــ أن يكون هو العافى . وأن لا يؤخذ النساء بالعفو ، ولذلك لم يأت فى الخطاب أمرٌ لهن ولا تحريض. فمن أقبح ما يكون حمل الرجل على المرأة فى استرجاع ما آتاها بما يصرح به قوله: وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا[1]. فينبغى أن لا تنسوا ذلك الفضل فتجرون عليه حيث لم تلزموا به .

وقد حكى الزمخشرىّ عن جبير بن مطعم ، أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو ..! وعنه : أنه دخل على سعد بن أبى وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها . فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملًا ، فقيل له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرضها علىّ فكرهت ردّه . قيل : فلم بعثت بالصداق ؟ قال : فأين الفضل ؟

وقوله تعالى « إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى : فلا يضيع تفضّلكم وإحسانكم . ولما كانت الحقوق المشروعة قبل ، مما قد يشق القيام بها على بعض الناس ، أمروا بما يخفف عنهم عبئها ويحبب إليهم أداءها . وذلك بالمحافظة على الصلوات فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذا أمر بها تعالى ــ إثر ما تقدم ــ بقوله سبحانه :

---

(١) [٤ / النساء / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٨] (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ » أى : داوموا على أدائها لأوقاتها مع رعاية فرائضها وسننها من غير إخلالٍ بشىء منها « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » أى: الوسطى بين الصلوات بمعنى المتوسطة أو الفضلى منها ، من قولهم للأفضل : الأوسط . فعلى الأول : يكون الأمر لصلاة متوسطة بين صلاتين . وهل هى الصبح أو الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، أقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين . وعلى الثانى : فهى صلاة الفطر أو الأضحى أو الجماعة أو صلاة الخوف أو الجمعة أو المتوسطة بين الطول والقصر . أقوال أيضاً عن كثيرٍ من الأعلام . والقول الأخير جيد جدًّا كما لو قيل بأنها ذات الخشوع لآية : وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .

وأما علماء الأثر فقد ذهبوا إلى أن المعنىّ بالآية صلاة العصر لما فى (الصحيحين)(١) عن علىّ رضى الله عنه ؛ أن النبىّ ﷺ قال يوم الأحزاب (وفى روايةٍ يوم الخندق) : ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . وفى رواية : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر . وذكر نحوه وزاد فى أخرى : ثم صلّاها بين المغرب والعشاء . أخرجاه فى (الصحيحين) ورواه أصحاب السنن والمسانيد والصحاح من طرق يطول ذكرها .

وأجاب عن هـذا الاستدلال من ذهب إلى غيره بأنه لم يرد الحديث مورد تفسير الآية حتى يعيّنها . وإنما فيـه الإخبار عن كونها وسطى ، وهو كذلك لأنها متوسطة وفضلى من الصلوات .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٩٨ ـ باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٢ (طبعتنا) .

وما رواه مسلم(١) عن أبي يونس ـ مولى عائشة ـ قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت : إذا بلغت هذه الآية فآذنّي « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ». قال : فلما بلغتها آذنتها ، فأملت عليّ : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين . قالت عائشة : سمعتها من رسول الله ﷺ . وروى ابن جرير عن حفصة نحو ذلك . قال نافع : فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو . وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير ، أنهما قرآ كذلك .

فهذا من عائشة رضى الله عنها إعلام بالمراد من (الوسطى) عندها . ضمّت التأويلَ إلى أصل التنزيل لِأَمْن اللبس فيه . لأن القرآن متواتر مأمون أن يزاد فيه أو ينقص . وكان فى أول العهد بنسخه ربما ضمّ بعض الصحابة تفسيراً إليه ، أو حرفاً يَقرؤه . ولذا لمّا خشى عثمان رضى الله عنه أن يرتاب فى كونه من التنزيل ـ مع أنه ليس منه ـ أمر بأن تجرد المصاحف فى عهده مما زيد فيها من التأويل وحروف القراءات التى انفرد بها بعض الصحب، وأن يقتصر على المتواتر تنزيله وتلقّيه من النبىّ ﷺ .

قال القاضى أبو بكر فى (الانتصار) : لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين . وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبىّ ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثْبِتَ مع تنزيل ، ولامنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشيةَ دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد ...

هذا وقد أيّد علماء الأثر ماذهبوا إليه من أنها صلاة العصر بأنها خصت بمزيد التأكيد والأمر بالمحافظة عليها ، والتغليظ لمن ضيّعها . فقد قال أبو المليح : كنا مع بريدة فى غزوة. فقال فى يومٍ ذى غيم : بكّروا بصلاة العصر فإنّ النبىّ ﷺ قال : من ترك صلاة العصر فقد

(١) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا).

حبط عمله . أخرجه البخاريّ[١] . وقوله : بكروا بصلاة العصر ، أى قدّموها فى أوّل وقتها .

وروى الشيخان[٢] عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله ..! أى : نقص وسلب أهله وماله فبقى فرداً ، فاقدَهما . والمعنى : ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله .

وقد ساق الحافظ عبد المؤمن الدمياطىّ فى كتابه (كشف المغطى فى تبيين الصلاة الوسطى) ما امتازت به صلاة العصر من الخصائص والفضائل ، قال عليه الرحمة :

فمنها ؛ أن رسول الله ﷺ غلّظ المصيبة فى فواتها بذهاب الأهل والمال فى الحديث المتقدم.

ومنها ؛ حبوط عمل تاركها المضيّع لها فى الحديث السالف أيضا .

ومنها ؛ أنها كانت أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وأهليهم وأموالهم !

ومنها ؛ قوله ﷺ : من حافظ عليها كان له أجرها مرتين . رواه مسلم .

ومنها ؛ أنّ انتظارها بعد الجمعة كعمرة ـ رواه أبو يعلى . وروى الحاكم : كمن أتى بحجّة وعمرة .

ومنها ؛ قوله ﷺ[٣] : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب المواقيت ، ١٥ ـ باب من ترك العصر ، حديث ٣٥٧ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٤ ـ باب إثم من فاتته العصر ، حديث ٣٥٦ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٠٠و٢٠١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٤٢ ـ كتاب الشرب والمساقاة ، ٥ ـ باب إثم من منع ابن السبيل من الماء ، حديث ١١٧٨ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٣و١٧٤ (طبعتنا) .

ولهم عذاب أليم ... ـ إلى أن قال ـ ورجل أقام سلعة بعد العصر فحلف بالله أنه أخذها بكذا وكذا . فجاء رجل فصدقه فاشتراها . متفق عليه . ثم قال : قلت وقد عظم الله الأيمان التي يحلف بها العباد فيما شجر بينهم بعدها فقال : تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله(١) . قال عامة المفسرين : بعد صلاة العصر . ولذلك غلّظ العلماء اللعان وسائر الأيمان المغلظة بوقت صلاة العصر لشرفه ومزيته .

ومنها ؛ أن سليمان ـ عليه السلام ـ أتلف مالاً عظيما من الخيل لما شغله عرضها عن صلاة العصر إلى أن غابت الشمس . فمدحه الله تعالى بذلك وأثنى عليه بقوله تعالى : نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ...(٢) الآية .

ومنها ؛ أن(٣) الساعة التي في يوم الجمعة قد قيل : إنها بعد العصر .

ومنها ؛ أن وقتها وقت ارتفاع الأعمال .

(١) [٥ / المائدة / ١٠٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٣٠ ـ ٣٤] ونصها : وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ٣٧ ـ باب الساعة التي في يوم الجمعة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه » وأشار بيده ، يقللها .

ومنها ؛ الحديث المرفوع : إنّ الله تعالى يوحى إلى الملكين : لا تكتبا على عبدى الصائم بعد العصر سيئة .

ومنها ؛ ما جاء فى قوله تعالى : وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ .(١) قال مقاتل : العصر هى الصلاة الوسطى أقسم بها ـ حكاه ابن عطية .

ومنها ؛ ما روى فى الحديث ، أن الملائكة تصفّ كل يوم بعد العصر بكتبها فى السماء الدنيا فينادى الملَك : ألق تلك الصحيفة . فيقول : وعزّتك ما كتبت إلّا ما عمل . فيقول الله عزّ وجل : لم يرد به وجهى . وينادى الملَك الآخر : اكتب لفلان كذا وكذا ، فيقول الملك: وعزّتك إنه لم يعمل ذلك . فيقول الله عزّ وجل : إنه نواه .

ومنها ؛ أنّ وقتها وقت اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم فى الغالب .

وقد أفرد الكلام على تفسير هذه الآية بمؤلفات . وذكر العلّامة الفاسى ـ شارح (القاموس) ـ فيما نقله عنه الزبيدىّ ، أن الأقوال فيها أنافت على الأربعين . فرضى الله عن العلماء المجتهدين وأرضاهم .

سنح لى(*) وقوى بعد تمعّن ـ فى أواخر رمضان سنة ١٣٢٣ ـ احتمال قوله تعالى « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » بعد قوله «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ» لأن يكون إرشاداً وأمراً بالمحافظة على أداء الصلاة أداءً متوسطاً . لا طويلًا مملًّا ولا قصيراً مخلًّا . أى : والصلاة المتوسطة بين الطول والقصر . ويؤيده الأحاديث المروية عنه ﷺ فى ذلك ، قولًا وفعلًا .

ثم مرّ بى فى القاموس ـ فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ ـ حكاية هذا قولًا . حيث ساق فى مادة (و س ط) الأقوال فى الآية ، ومنها قوله (أو المتوسطة بين الطول والقصر) ؛ قال شارحه الزبيدىّ : وهذا القول ردّه أبو حيّان فى (البحر) .

---

(١) [١٠٣ / العصر / ١] .

(*) نقلت هذه السانحة من دفترٍ للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله تعالى .

ثم سنح لى(*) احتمال وجه آخر : وهو أن يكون قوله « وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ » أريد به توصيف الصلاة المأمور بالمحافظة عليها بأنها فضلى ، أى: ذات فضل عظيم عند الله . فالوسطى بمعنى الفضلى من قولهم للأفضل : الأوسط . وتوسيط (الواو) بين الصفة والموصوف مما حققه الزمخشرىّ واستدلّ له بكثير من الآيات . وفى سوق الصفة بهذا الأسلوب، من الاعتناء بالموصوف ما لا يخفى . وأسلوب القرآن أسلوب خاص انفرد به فى باب البلاغة ، لم ينفتح من أبواب عجائبه إلّا قطرة من بحر . ولعلّ هذا الوجه هو ملحظ من قال : هى الصلوات الخمس، وهومعاذ بن جبل رضى الله عنه ، فكأنه أشار إلى أنّ المعطوف عَيْنُ المعطوف عليه . إلا أنه أتى بجملةٍ تفيد التوصيف .

وقوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ » ـ فى الصلاة ـ « قَانِتِينَ » خاشعين ساكتين . روى الشيخان(١) عن زيد بن أرقم : إن كنا لنتكلم فى الصلاة على عهد النبىّ ﷺ. يكلم أحدنا صاحبه بحاجته. حتى نزلت « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأمرنا بالسكوت . هذا لفظ البخارىّ . ولفظ مسلم : عن زيد بن أرقم قال(٢) : كنا نتكلم فى الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام .

وروى أبو يعلى عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة ، فمررت برسول الله ﷺ فسلّمت عليه ، فلم يرد علىّ ، فوقع فى نفسى إنه نزل فىّ شىء ، فلما قضى النبىّ ﷺ صلاته قال : وعليك السلام ـ أيها المسلّم ـ ورحمة الله ، إنّ الله يحدث فى أمره مايشاء، فإذا كنتم فى الصلاة فاقنتوا ولا تتكلّموا .

(*) نقلت هذه السانحة من دفترٍ للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢١ ـ كتاب العمل فى الصلاة ، ٢ ـ باب ما ينهى عنه من الكلام فى الصلاة ، حديث ٦٥١ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٥ (طبعتنا) .

وروى الطبرانّى فى (الأوسط) والإمام أحمـد[١] وأبو يعلى الموصلى فى (مسنديهما) وابن حبان فى (صحيحه) عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل حرفٍ ذ كر من (القنوت) فى القرآن فهو الطاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣٩] (فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ خِفْتُمْ » أى : فإن كان بكم خوف من عدوٍّ أوغيره « فَرِجَالًا » أى : فصلّوا راجلين ، أى : ماشين على الأقدام ـ يقال : رَجِلَ ـ كَفَرِح ـ فهوراجل ، ورَجُل ـ بضمّ الجيم ـ ورَجِل ـ بكسرها ـ ورَجَل ـ بفتحها ـ ورَجيل ورَجْلان إذا لم يكن له ظهر فى سفر يركبه فمشى على قدميه ، والجمع رجال ورَجَّالةورُجّال ـ كرمّان ـ « أَوْ رُكْبَانًا »أى : راكبين ، فيعفى عن كثرةالأفعال وإتمام الركوع والسجود واستقبال القبلة . وهذا من رخص الله تعالى التى رخّص لعباده ، وَوَضْعِهِ الآصار والأغلال عنهم . وقد رويت صلاة الخوف عن رسول الله ﷺ على صفات مختلفة مفصّلة فى كتب السنة ، وذلك لأنه ﷺ كان يتحرى فى كل موطن ماهو أحوط للصلاة وأبلغ فى الحراسة .

قال الرازىّ : صلاة الخوف قسمان : أحدهما أن تكون فى حال القتال ـ وهو المراد بهذه الآية ؛ والثانى : فى غيرحال القتال وهوالمذكور فى سورةالنساء فى قوله تعالى : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ »[٢] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٧٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤/ النساء / ١٠٢] ونصها : وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ =

وقد روى مالك[١] عن نافع : أنّ ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف ، وصفها ثم قال : فإن كان خوف أشدّ من ذلك صلّوا رجالًا على أقدامهم أو ركبانا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها .

قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلّا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ورواه الشيخان.

ولمسلم[٢] أيضاً عن ابن عمر قال : فإن كان خوف أشدّ من ذلك فصلّ راكباً أو قائماً تومئ إيماء .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود[٣] ، بإسنادٍ جيد ، عن عبدالله بن أنيس الجهنيّ قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن سفيان الهذليّ ـ وكان نحو عُرَنَةَ وعرفات ـ فقال: اذهب فاقتله ، قال ، فرأيته ـ وحضرت صلاة العصر ـ فقلت : إني لأخاف أن يكون بيني وبينه ما إنْ أؤخر الصلاة ، فانطلقت أمشي وأنا أصلي أومئ إيماءً نحوه ، فلما دنوت منه قال لي: من أنت ؟ قلت : رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل فجئتك في ذلك ، قال :

= وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في: ١١ ـ كتاب صلاة الخوف ، حديث ٣ (طبعتنا).
وأخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٤ ـ باب قوله عز وجل : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، حديث ٥٤٧ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣٠٦ (طبعتنا).

(٣) أخرجه أبو داود في: ٤ ـ كتاب الصلاة ، ٢٠ ـ باب صلاة الطالب ، حديث ١٢٤٩.
وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

إني لفي ذلك . فمشيت معه ساعة. حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد (وهذا نص أبي داود).

وأخرج الطيالسيّ وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائيّ[١] وأبو يعلى والبيهقيّ عن أبي سعيد الخدريّ قال : كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فشغلنا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كفينا ذلك . وذلك قوله : وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ[٢] . فأمر رسول الله ﷺ بلالًا فأقام لكلّ صلاةٍ إقامة ، وذلك قبل أن ينزل عليه « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا »[٣] .

تنبيـه :

هذه الآية قد أطلقت الخوف. فيدخل فيـه أيّ مخافة من عدوّ أو سبع أو جمل صائل ، وهذا قول الأكثر . وشذّ قول الوافي وبعض الظاهرية : إنّ الخوف مختص بأن يكون من آدميّ . وقد أفادت هذه الآية أن فعلها بالإيماء هو فرضهم، فلا قضاء عليهم بعد الأمن . قال في (التهذيب) خلاف ما يقوله بعضهم . ولـكن هذا إذا أتوا بما يسمى صلاة فإن لم يمكنهم شيء من الأفعال ، وإنما أتوا بالذكر فقط . فقال الناصر زيد وابن أبي الفوارس وأبو جعفر : هذا لا يسمى صلاةً فيجب القضاء . وقال الراضي بالله والأمير الحسين : هو بعض الصلاة ، فلا قضاء ، لقوله ﷺ[٤] : إذا أمرتـكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم . وإذا ثبت الترخيص

---

(١) أخرجه النسائيّ في : ٧ ـ كتاب الأذان، ٢١ ـ باب الأذان للفائت من الصلوات.

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢٥] ونصها : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٩] ونصها : فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

(٤) أخرجه البخاريّ في: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، حديث ٢٥٨٥ ونصه : عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال « دعوني ما تركتكم. =

فى هذه الصلاة ـ بترك كمال الفروض ـ رخص فيها بفعل ما تحتاج إليه ، وبلباس ما فيه نجس إذا احتيج إليه ـ كذا فى تفسير بعض علماء الزيدية .

« فَإِذَا أَمِنْتُمْ » أى : زال خوفكم « فَاذْكُرُوا اللّهَ » أى : فصلّوا صلاة الأمن . عبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها . وقوله « كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » أى : مثل ما علمكم من صلاة الأمن ، أو لأجل إنعامه عليكم ، فالكاف للتعليل . وهذه الآية كقوله تعالى : فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(١) . والفائدة فى ذكر المفعول فيه ، وإن كان الإنسان لا يعلم إلّا ما لم يعلم ، التصريحُ بذكر حالة الجهل التى انتقلوا عنها ، فإنه أوضح فى الامتنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٠] (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ، وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » أى : يُقبَضُون من رجالكم «وَيَذَرُونَ» أى: يتركون « أَزْوَاجاً » بعد الموت « وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ » خبر (الذين) أى : يوصون ، أو ليوصوا ،

= إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٣٨ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] ونصها : فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً .

أو كتب الله عليهم وصيةً . وفى قراءةٍ ، بالرفع . أى : عليهم وصيّةٌ لأزواجهم فى أموالهم « مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ » بدل من وصية، على قراءة من نصبها . وعلى قراءة الرفع فمنصوب بوصية أو بفعله « غَيْرَ إِخْرَاجٍ » حال من أزواجهم ، أى : غير مخرجات . والمعنى : يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولًا بالنفقة والسكنى من غير أن يخرجن من مسكن زوجهنّ « فَإِنْ خَرَجْنَ » عن منزل الأزواج من قِبَل أنفسهن « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » على أولياء الميت « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ » لا ينكره الشرع ـ كالتزيّن والتطيّب وترك الحداد والتعرّض للخطّاب ـ وفيه دلالة على أنّ المحظور إخراجها عند إرادتها القرار، وملازمة مسكن الزوج ، والحداد من غير أن يجب عليها ذلك ، وأنها مخيّرة بين الملازمة مع أخذ النفقة ، وبين الخروج مع تركها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ».

ثم ليعلم أنّ اختيار جمهور المفسرين أنّ هذه الآية منسوخة بالتى قبلها وهى قوله تعالى : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا(١) . قالوا : كان الحكم فى ابتداء الإسلام أنه إذا مات الرجل اعتدّت زوجته حولًا ، وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول، وكانت نفقتها وسكناها واجبتين فى مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شىء ، ولكنها تكون مخيرة . فإن شاءت اعتدّت فى بيت زوجها ولها النفقة والسكنى ، وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى ؛ وكان يجب على الرجل أن يوصى بذلك . فدلّت هذه الآية على مجموع أمرين . أحدهما : أنّ لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة ، والثانى : أنّ عليها عدّة سنة ؛ ثم نسخ هذان الحكمان .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٤] ونصها : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخت بآية الميراث. فجعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى . ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر .

وقد روى البخاريّ عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً » قد نسختها الآية الأخرى فلِمَ تكتبها أو تدعها ..؟ قال : ياابن أخى ! لا أغيّر شيئاً[1] منه من مكانه .

وأخرج أبوداود[2] والنسائيّ عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : نسخت بآية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن ، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهرٍ وعشراً .

هــذا ، وقد ذهب مجاهد إلى أنّ هذه الآية محكمة كالأولى . أخرجه عنه البخاريّ[3] قال مجاهد : دلت الآية الأولى وهى « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » على أنّ هذه عدتها المفروضة تعتدّها عند أهل زوجها . ودلت هذه الآية، بزيادة سبعة أشهرٍ وعشرين ليلة على العدّة السابقة تمام الحول ، أنّ ذلك من باب الوصية بالزوجات أنْ يُمَكَّنَّ من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا ، ولا يمنعن من ذلك ، لقوله « غَيْرَ إِخْرَاجٍ » فإذا انقضت عدتهنّ بالأربعة أشهر والعشر ـ أو بوضع الحمل ـ واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فإنهنّ لا يمنعن من ذلك لقوله « فَإِنْ خَرَجْنَ ... » الخ . قال الإمام ابن كثير : وهــذا القول له اتجاه ، وفى اللفظ مساعدة له ؛ وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية .

ومنهم أبو مسلم الأصفهانيّ قال : معنى الآية : من يتوفى منكم ويذرون أزواجاً ،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤١ ـ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٤٢ ـ باب نسخ متاع المتوفّى عنها بما فرض لها من الميراث ، حديث ٢٢٩٨ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤١ ـ باب وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً .

وقد وصوا وصـية لأزواجهم بنفقة الحول وسكنى الحول ، فإن خرجن قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التى ضربها الله تعالى لهنّ فلا حرج « فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ » أى : نـكاح صحيح . لأن إقامتهنّ بهذه الوصية غير لازمة . قال : والسبب أنهم كانوا فى زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولًا كاملًا . وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول . فبيّن الله تعالى فى هذهالآية أنّ ذلك غير واجب . واحتجّ علىقوله بوجوه ساقها الفخر الرازىّ عنه ـ إلى أن قال : فـكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل . ثم قال : وإذا عرفت هذا فنقول: هذهالآيةمنأوّلها إلىآخرهاتـكون جملة واحدة شرطية ؛ فالشرط هوقوله «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْـكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » فهذا كلّه شرط ، والجزاء هو قوله . « فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـكُمْ ... »الخ فهذا تقرير قول أبى مسلم . قال الرازىّ : وهو فى غاية الصحة ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤١] (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

« وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ » أى : للمطلقات متعة من جهة الزوج بقدر الإمكان ، جبراً لوحشة الفراق . وأما المهر فهو حقّ البضع .

قال ابن كثير : وقد استدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لـكلّ مطلقة . سواء كانت مفوضةً ، أو مفروضاً لها ، أو مطلّقة قبل المسيس ، أو مدخولًا بها . وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف . واختاره ابن جرير .

وقد أخرج ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال : لـكلّ مؤمنةٍ طلقت ، حرة أو أمة ، متعة . وقرأ الآية .

وأخرج البيهقىّ عن جابر بن عبد الله قال : لمـا طلّق حفص بن المغيرةامرأته فاطمة، أتت

النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال لزوجها : متعها . قال : لا أجد ما أُمتعها قال : فإنه لابدّ من المتاع ، متّعها ولو نصف صاع من التمر .

وأخرج البيهقيّ عن قتادة قال : طلق رجل امرأته عند شريح ، فقال له شريح : متعها ! فقالت المرأة : إنه ليس لى عليه متعة . إنما قال الله تعالى: وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ : وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وليس من أولئك !!

وأخرج البيهقيّ عن شريح أنه قال لرجل فارق امرأته : لا تأبى أن تكون من المتقين . لا تأبى أن تكون من المحسنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٢] (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« كَذَٰلِكَ » أى : مثل ذلك البيان الشافى « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ » فى جميع المواضع « ءَايَاتِهِ » الدالة على أحكامه « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » لكى تفهموا مافيها وتعملوا بموجبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا » أى : ممن تقدمكم من الأمم « مِنْ دِيَارِهِمْ » أى : التى ألفوها لما وقع فيها مما لاطاقة لهم به من الموت . ولفظة « أَلَمْ تَرَ » قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجيب والتقرير والتذكير ـ كالأحبار وأهل التاريخ ـ وقد تذكر لمن لا يكون كذلك . فتكون لتعريفه وتعجيبه .

قال الراغب : (رأيت) يتعدى بنفسه دون الجار . لكن لما استعير (ألم تر) لمعنى (ألم تنظر) عدى تعديته بـ(إلى) ، وفائدة استعارته : أن النظر قد يتعدى عن الرؤية، فإذا أريد الحث على نظر ناتج لامحالة للرؤية استعيرت له ، وقلما استعمل ذلك فى غير التقرير فلا يقال : رأيت إلى كذا .

« وَهُمْ أُلُوفٌ » أى : فى العدد جمع ألف ، أو وهم مؤتلفون ومجتمعون جمع آلف ، بالمدّ ـ كشاهد وشهود ـ أى : إن خروجهم لم يكن عن افتراق كان منهم ولا تباغض ولكن « حَذَرَ الْمَوْتِ » مفعول له ـ أى : فرارا منه وقوله « فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا » معناه : فأماتهم ، وإنما جئ به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك مشيئة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشىء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولاتوقف. كقوله تعالى « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(١) « ثُمَّ أَحْيَاهُمْ » عطف . إما على مقدر يستدعيه المقام أى : فماتوا ثم أحياهم ـ وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته . وإما على (قال) لما أنه عبارة عن الإماتة « إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » قاطبة. أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة ، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ، فقد تفضّل على الجميع ليشكروه « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » أى : فضله كما ينبغى .

تنبيه :

روى عن ابن عباس : أنّ الآية عُنِىَ بها قوم كثيرو العدد خرجوا من ديارهم فرارا من الجهاد فى سبيل الله فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا عدوّهم . فكأنها ذكرت ممهدة للأمر بالقتال بعدها فى قوله تعالى « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ».

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

ومعلوم أن سورة البقرة مما نزل فى المدينة إثْر الهجرة قبل فتح مكة . وكان العدوّ فى مكة وماحولها فى كثرة وقوة ومنعة، فأمِر المسلمون المهاجرون ومن آواهم أن يقاتلوا فى سبيل الله. وقصّ لهم من الأنباء ما فيه بعث لهم على الجهاد وتبشير لهم بالفوز والعاقبة ، وإن يكونوا فى قلة وضعف، ماداموا مستمسكين بحبل الوفاق والصبر والمصابرة . وقد ذهب بعض الرواة إلى أن هذه الآية عنى بها ماقص فى التوراة عن (حزقيل) ـ أحد أنبياء بنى إسرائيل ـ أنه أوحى إليه أن يخرج إلى فلاة واسعة قد ملئت عظاماً يابسة من موتى بنى إسرائيل . وأن يناديها باسمه تعالى. فجعلت تتقارب ثم كسيت لحما. ثم نادى أرواحها فعادت إلى أجسامها واستووا أحياء على أقدامهم بأمره تعالى . وهم جيش كثير جداً. وأوحى إلى (حزقيل) أنهم سيعودون إلى وطنهم بعد أن أجلوا عنه ، وهذه القصة مبسوطة فى توراتهم فى الفصل السابع والثلاثين من نبوة (حزقيل) .

وممن روى عنه أنه عنى بهذه الآية نبأ (حزقيل) ، وهب بن منبه وأشعث بن أسلم البصرىّ والحجاج بن أرطاة والسدّىّ وهلال بن يساف وغيرهم . أخرجه عنهم ابن جرير . فإن صحت هذه الرواية يكون ذلك من معجزات (حزقيل) فى إحياء الموتى له كما أحيي لعيسى عليه السلام . فيرى قومه مالا ييأسون معه من جهاد عدوّهم ليسترجعوا وطنهم الذى أجلاهم عنه عدوهم . لأن (حزقيل) كان فيمن أُجْلى إلى بابل . قالوا ونبوته تتضمن القضاء المنزل على بنى إسرائيل وبشرى السلام الذى يعقب ذلك القضاء . وقد نقل ابن كثير عن عطاء أنه قال فى هذه الآية : إنها مَثَلٌ . ولعل مراده أنها مثل فى تكوينه تعالى أمة قوية تقهر وتغلب وتسوس غيرها بعد بلوغها غاية الضعف والخمول . فكان حياتها وموتها تمثيلا لحالتيها قبلُ وبعدُ . فيكون إشعاراً بما ستصير إليه العرب من القوة العظيمة والمدنية الفخيمة . وتنبيها على أن الوصول إلى ذلك إنما يكون بجهاد الظالمين واتفاق المتقين على دحر المتغلبين الباغين . والله أعلم .

ثم إنه لاخفاء فى أن ما قصّ من حوادث الإسرائيليين كان معروفاً فى الجملة لمخالطة اليهود للعرب فى قرون كثيرة .

قال ولىّ الله الدهلوىّ فى (الفوز الكبير) : واختار سبحانه فى تنزيله من أيام الله ، يعنى الوقائع التى أحدثها الله سبحانه وتعالى ، كإنعام المطيعين وتعذيب العصاة ، ما قرع سمعهم - وذكر لهم إجمالا مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود . وكانت العرب تتلقاها أباً عن جد ، ومثل قصص سيدنا إبراهيم وأنبياء بنى إسرائيل فإنها كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطة اليهود العرب فى قرون كثيرة ، وانتزع من القصص المشهورة جُملا تنفع فى تذكيرهم. ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها . والحكمة فى ذلك أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة ، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات ، يميلون إلى القصص نفسها ويفوتهم التذكر الذى هو الغرض الأصلىّ فيها . ونظير هذا الكلام ما قاله بعض العارفين : إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع فى التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٤] (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

قال المفسرون : فى إتباع القصة المتقدمة الأمرَ بالقتال ، دليل على أنها سيقت بعثاً على الجهاد. فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغنى ، كما قال تعالى : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١) . وأصل السبيل هو الطريق . وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله تعالى من حيث إن الإنسان يسلكها ويتوصل إلى الله بها ليتمكن من إظهار عبادته تعالى ، ونشر الدعوة إلى توحيده وحماية أهلها والمدافعة عن الحق وأهله . فالقتال دفاع فى سبيل الله لإزالة الضرر العام.

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] .

وهو منع الحق وتأييد الشرك . وذلك بتربية الذين يفتنون الناس عن دينهم وينكثون عهودهم، لا لحظوظ النفس وأهوائها ، والضراوة بحب التسافك وإزهاق الأرواح ، ولا لأجل الطمع فى الكسب . وفى قوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » بعث على صدق النية والإخلاص . كما فى الصحيحين(١) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أىّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٥] (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً » ـ هذا حث من الله تعالى لعباده على الصدقة ، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع .

قال القرطبىّ : طلب القرض فى هذه الآية لما هو تأنيب وتقريب للناس بما يفهمون . والله هو الغنى الحميد . لكنه تعالى شبه إعطاءه المؤمنين ، وإنفاقهم فى الدنيا الذى يرجون ثوابه فى الآخرة ، بالقرض . كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة، بالبيع والشراء . حسبما يأتى بيانه فى سورة براءة ، وكنى الله سبحانه وتعالى عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٥ ـ باب من سأل وهو قائم عالما جالسا ، حديث ١٠٥ ونصه : عن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية . فرفع إليه رأسه (وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما) فقال «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل» .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) .

الحاجات ترغيبا فى الصدقة . كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة . فنى[١] صحيح الحديث إخباراً عن الله تعالى : ياابن آدم ! مرضتُ فلم تعدنى. استطعمتك فلم تطعمنى، استسقيتك فلم تَسْقِنِى . قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أمَا أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؛ وكذا فيما قبله . أخرجه الشيخان . وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه ترغيباً لمن خوطب به . وقد أخرج سعيد بن منصور والبزار والطبرانىّ وغيرهم عن ابن مسعود قال[٢] : لما نزلت هذه الآية ، قال أبو الدحداح الأنصارىّ : يا رسول الله ! وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم. ياأبا الدحداح ! قال : أرنى يدك ، يارسول الله ! فناوله يده . قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى (وحائطه، فيه ستمائه نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها) فجاء أبو الدحداح فناداها: ياأم الدحداح! قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : قد

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يقول ، يوم القيامة: يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب ! كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلان مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ ياابن آدم! استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يا رب ! وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا رب ! كيف أسقيك ؟ وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندى » .

ولم يخرجه البخارىّ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة ٢٩٩ من الجزء الأول .

قبلهمنك . فأعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم اليتامى الذين في حجره. فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : رب عِذْق لأبي الدحداح مدلّى في الجنة، وفي رواية كم من عذق الخ . وقوله تعالى « حَسَناً » أي طيبة به نفسه من دون منّ ولا أذى . وقوله سبحانه « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً » كما قال سبحانه : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١) . ولما رغب سبحانه في إقراضه أتبعه جمله مرهبة مرغبة فقال « وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » أي يضيقّ على من يشاء من عباده في الرزق ويوسعه على آخرين . أي فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم ، لئلا يُبدِّل السعة الحاصلة لكم بالضيق .

« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أي يوم القيامة فيجازيكم .

قال المهايميّ : وكيف ينكر بسط الله وقبضه وهو الذي يعطي الفقير الملك ويسلبه من أهله ، ويقوي الضعفاء من الجمع القليل ويضعف الأقوياء من الجمع الكثير ؟ يعني كما قصه تعالى في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤٦] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ » وهم القوم ذو الشارة والتجمع « مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ » إنما نكر لعدم مقتض لتعريفه ، وزعم الكتابيون أنه صموئيل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦١] .

« ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا » أى أقم لنا أميراً « نُقَاتِلْ » أى معه عن أمره « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وذلك حين ظهرت العمالقة، قوم جالوت على كثير من أرضهم « قَالَ » لهم نبيهم « هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا » .

قال الزمخشرىّ : خبر (عسيتم) ألا تقاتلوا . والشرط فاصل بينهما . والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا. يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون . أراد أن يقول عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال، فأدخل (هل) مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب فى توقعه كقوله تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ(١) معناه التقرير . وقرئ عسيتم بكسر السين، وهى ضعيفة .

« قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ » أى وأىّ سبب لنا فى ترك قتال عدونا « فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا » أى والحال أنه قد عرض ما يوجب القتال إيجاباً قويًّا من أخذ بلادنا وسبى أولادنا « فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ » بعد إلحاحهم فى طلبه «تَوَلَّوْا» أى أعرضوا عن قتال عدوهم جبناً « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وَعِيدٌ لهم على ظلمهم بالتولّى عن القتال وترك الجهاد وعصياناً لأمره تعالى .

قال بعض مفسرى الزيدية: ثمرة هذه الآية الكريمة أنها دلت على أحكام: الأول وجوب الجهاد لأن الله تعالى إنما ذكر هذه القصة المشهورة فى بنى إسرائيل وما نالهم تحذيرا من سلوك طريقهم. وأيضاً : شرائع من قبلنا تلزمنا . الثانى أن الأمير يُحتاج إليه فى أمر الجهاد لتدبير أمورهم . وقد(٢) كان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية أمّر عليها أميراً . قال فى الكشاف :

(١) [٧٦/الإنسان / ١] ونصها : هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨٢ ـ باب فى دعاء المشركين ، حديث ٢١٦٢ .

وفى هذا الحديث وصيته ﷺ القيّمة لأمير الجيش .

وروى[١] أنه أَمرَ الناس إذا سافروا، أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم . الثالث : وجوب طاعة الأمير فى أمر السياسة وتدبير الحرب . لأن سياق الآية يقضى بذلك، وفى الحديث عنه ﷺ: أطيعوا الأمير ولو كان عبداً حبشياً[٢] . وقد ذكر أهل علم المعاملة أنه ينبغى فى الأسفار أن يجعل أهلُ السفر لهم أميراً ودليلًا وإماماً . وهذا محمود . إذ بذلك ينقطع الجدال وينتظم أمورهم . ويلزم مثل هذا فى كل أمر يحتاج فيه إلى ترداد فى الآراء. نحو أمور الأوقاف والمساجد والإمامة لكل مسجد ونحو هذا . قال الحاكم : وفيه دلالة على أن للأنبياء تشديد العهود والمواثيق فيما يلزمهم ، ووجه ذلك أنه قال (هل عسيتم) وهذا نوع من التأكيد عليهم. وكذا يأتى فى الإمام قياس ما ذكر الحاكم فى النبىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٧] (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨٠ ـ باب القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ، حديث ٢٦٠٨و٢٦٠٩ .

الأول عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله ﷺ قال « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

والثانى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال« إذا كان ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم».

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، حديث ٤٣٤ ونصه : عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اسمعوا وأَطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشىّ كأن رأسه زبيبة » .

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » هذا شروع فى تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال ، إثر الإشارة الإجمالية إلى مصير حالهم . أى قال لهم (بعد ما أوحى إليه ما أوحى) إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً أى ملّكه عليكم. فانتهوا فى تدبير الحرب إلى أمره . وكان طالوت من سبطٍ لم يكن الملك فيهم. وطالوت اسم أعجمىّ كجالوت وداود. ولذلك لم ينصرف . وزعم قوم أنه عربىّ (من الطول) لما وصف به من البسطة فى الجسم . ولكنه ليس من أبنية العرب فمنع صرفه للعلمية وشبه العجمة . وقد زعم الكتابيون أن طالوت هو المعروف عندهم بشاول . « قَالُوا » معترضين على نبيهم بل على الله تعالى « أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا » أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك « وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ » أى لأن فينا من هو سبط الملوك دونه .

قال الحرالىّ : فثنّوا اعتراضهم بما هو أشد وهو الفخر بما ادعوه من استحقاق الملك على من ملّكه الله عليهم. فكان فيه حظ من فخر إبليس حيث قال حين أُمر بالسجود لآدم: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ(١) .

« وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ » أى فصار له مانعان : أحدهما أنه ليس من بيت الملك . والثانى أنه مملق . والملك لابد له من مال يعتضد به .

قال الحرالىّ : فكان فى هذه الثالثة فتنة استصنام المال وأنه مما يقام به ملك . وإنما الملك بإيتاء الله . فكان فى هذه الفتنة الثالثة جهل وشرك ، فتزايدت صنوف فتنتهم فيما انبعثوا إلى طلبه من أنفسهم .

« قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » لما استبعدوا

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

تملكه بسقوط نسبه وبفقره ، رد عليهم ذلك أوّلا : بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى . وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم . وثانياً : بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة . وجسامة البدن ليعظم خطره فى القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب . وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر . قاله أبو السعود .

« وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ » فى الدنيا من غير إرث أو مال . إذ لايشترط فى حقه تعالى شىء، فهو الفعال لما يريد « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » يوسع على الفقير ويغنيه « عَلِيمٌ » بمن يليق بالملك ممن لايليق به. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة .

قال بعض مفسرى الزيدية: ثمرة الآية أن النبوة والإمامة لاتستحق بالإرث وأن الغنى، والصيانة من الحرف الدنيئة ، لاتشترط فى أمير ولا إمام ولا قاض. أى لما روى أن طالوت كان دباغاً أو سقاء مع فقره . قال الحاكم : فيبطل قول الإمامية أنها وراثة ، والمعروف من قولهم : أن الإمامة طريقها النص ، وتدل الآية أيضاً على أنه يشترط فى الأمير ونحوه القوة على ماتولاه. فيكون سليما من الآفات عالماً بما يحتاج إليه ، لأن الله تعالى ذكر البسطة فى العلم والجسم ردًّا على ما اعتبروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٨] (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ » أى علامة «مُلْكِهِ » أنه من الله تعالى «أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ» أى يرد الله إليكم التابوت الذى أخذ منكم وهو صندوق التوراة. على ماسنذكره « فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أى وقار وجلال وهيبة . أو فيه سكون نفوس بنى إسرائيل يتقوون به على

الحرب « وَبَقِيَّةٌ » أى فضلة جملة، ذهب جلُّها « مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هٰرُونَ » أى من آثارهم الفاضلة « تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ » أى فى رد التابوت إليكم « لَآيَةً لَكُمْ » أن ملكه من الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » بآيات الله وأنبيائه .

قال العلامة البقاعىّ عليه الرحمة : التابوت، والله أعلم، الصندوق الذى وضع فيه اللوحان اللذان كتب فيهما العشر الآيات، ويسمى تابوت الشهادة، وكانوا إذا حاربوا حَمَلَهُ جماعة منهم، موظفون لحمله ، ويتقدمون به أمام الجيش فيكون ذلك سبب نصرهم . وكان العمالقة أصحاب جالوت لما ظهروا عليهم أخذوه فى جملة ما أخذوا من نفائسهم . وكان عهدهم به قد طال . فذكّرهم بمآثره ترغيباً فيه وحملاً على الانقياد لطالوت . فقال « فِيهِ سَكِينَةٌ ...» الآية .

وفى الأصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج مانصه :

(١) وكلّم الرب موسى قائلا . (٢) كلِّمْ بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة . من كل مَن يَحُثُّه قلبه تأخذون تقدمتى . (٣) وهذه هى التقدمة التى تأخذونها منهم . ذهب وفضة ونحاس . (٤) وأسما نُجُونِىٌّ وأُرجُوَانٌ وقِرْمِزٌ وبُوصٌ وشَعْرُ مِعْزَى . (٥) وجلودُ كباش محمَّرةٌ وجلودُ تُخَسٍ وخَشَبُ سَنْطٍ . (٦) وزيت للمنارة وأطيابٌ لدُهن المَسْحَةِ وللبخور العَطِر . (٧) وحجارةُ جَزْعٍ وحجارة ترصيع للرداء والصُّدْرة . (٨) فيصنعون لى مَقْدِساً لأسكن فى وسْطهم . (٩) بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون :

(١٠) فتصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف . وارتفاعه ذراع ونصف (١١) وتُغَشِّيه بذهب نقىٍّ من داخل ومن خارج تغشيه. وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه. (١٢) وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع. على جانبه الواحد حلقتان . وعلى جانبه الثانى حلقتان. (١٣) وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب . (١٤) وتدخل العصوين فى الحلقات على جانب التابوت ليُحمل التابوت

بهما . (١٥) تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لاتنزعان منها . (١٦) وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك .

وفى الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر الخروج :

(١٨) ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء لَوْحَى الشهادة لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله .

وفى الأصحاح الرابع والثلاثين منه : أن موسى لما كسر اللوحين أمره الله أن ينحت لوحين مثل الأولين ، وأمره أن يكتب عليهما كلمات العهد الكلمات العشر . ونصه :
(١) ثم قال الرب لموسى : انْحَتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين . فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتَهما .

وفى حواشى التوراة : أن تابوت الشهادة هو التابوت الذى كان فيه لوحا الشريعة الإلٰهية المسماة شهادة .

وزعموا أن السكينة معربة عن (شكينا) فى اللغة العبرانية . وفى سفر صموئيل من سفر الملوك الأول فى الأصحاح الرابع وما بعده نبأ انكسار الإسرائيليين أمام الفلسطينيين وأخذ التابوت من الإسرائيليين وأنه بقى التابوت فى بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر . فى قصص مسهبة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤٩] (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

وقوله تعالى :

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ» أى خرج بالجيش، لمّا رد إليهم التابوت وقبلوا ملكه ، وخرجوا معه . وكان طالوت أخذ بهم فى أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد « قَالَ » لهم طالوت « إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي » أى من أشياعى الذين يقاتلون معى عدوى ، ولا يجاوزه « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أى لم يذقه . من (طَعِمَ كَعَلِمَ الشيء ، إذا ذاقه مأكولًا كان أو مشروبًا) وفى إيثاره على (لم يشربه) إشعار بأنه محظور تناوله ولو مع الطعام . ذكره الراغب . « إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ » الواحدة . فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى . لأنه فى معنى من لم يذقه .

قال الحرالىّ فى قراءة فتح الغين إعراب عن معنى إفرادها ، آخذة ما أخذت من قليل أو كثير . وفى الضم ، إعلام بملئها .

« فَشَرِبُوا مِنْهُ » أى إلى حد الارتواء « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » لم يشربوا إلا كما أذن الله تعالى « فَلَمَّا جَاوَزَهُ » أى النهر « هُوَ » أى طالوت « وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا » أى المفرطون فى الشرب « لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » لأنه سلبت شجاعتهم (وجاء فى التوراة تسميته بجُليات. على ما سنذكره) « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ » أى يعلمون « أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ » يرجعون إليه بعد الموت « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٠] (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَلَمَّا بَرَزُوا » ظهروا « لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » إذ دنوا منه « قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أفضه علينا وأكرمنا به لقتالهم فلا نجزع للجراحات ، وإنما طلبوه أولًا لأنه

ملاك الأمر «وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا» فى ميدان الحرب فلا نهرب منه «وَانصُرْنَا» لأنا مؤمنون بك « عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » بك . وهم جالوت وجنوده ، وهذه الآية تدل على أن من حزبه أمر فإنه ينبغى له سؤال المعونة من الله ، والتوفيق ، والانقطاع إليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥١] فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« فَهَزَمُوهُمْ » أى هؤلاء القليلون ، أولئك الكثيرين « بِإِذْنِ اللَّهِ » بنصره إذ شجع القليلين وجبّن الكثيرين « وَقَتَلَ دَاوُدُ » وكان فى جيش طالوت « جَالُوتَ » الذى هو رأس الأقوياء « وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » أى أعطى الله داود ملك بنى إسرائيل « وَالْحِكْمَةَ » أى الفهم والنبوة « وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ » من صنعة الدروع وغيرها « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ » من أهل الشر « بِبَعْضٍ » من أهل الخير « لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » أى بغلبة الكفار وظهور الشرك والمعاصى كما قال تعالى : وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا(١) الآية .

«وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى منّ عليهم بالدفع. ولذلك قوّى سبحانه هؤلاء الضعفاء وأعطى بعضهم الملك والحكمة ومن سائر العلوم ، ليدفع فساد الأقوياء بالسيف .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٤٠] ونصها : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٢] (تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« تِلْكَ » أى المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام جالوت وقتل داود إياه وتملكه « آيَاتُ اللهِ » إذ هى أخبار غيوب تدل على كمال قدرته سبحانه وحكمته ولطفه « نَتْلُوها عَلَيْكَ » أى نُنزل عليك جبريل بها « بِالْحَقِّ » أى اليقين الذى لا يرتاب فيه « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » بما دلت عليه هذه الآيات من علمك بها من غير معلم من البشر ، ثم بإعجازها الباقى على مدى الدهر . وفى هذه القصص معتبر لهذه الأمة فى احتمال الشدائد فى الجهاد كما احتملها المؤمنون فى الأمم المتقدمة . كما أن فيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم من الكفار والمنافقين . فكأنه قيل : قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام فى بنى إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم. فلا يعظمن عليك كُفر من كفر بك وخِلاف من خالف عليك لأنك مثلهم . وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والطوع، لا على سبيل الإكراه. فلا عتب عليك فى خلافهم وكفرهم . والوبال فى ذلك يرجع عليهم ؛ وقوله « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » كالتنبيه على ذلك. أشار له الرازىّ .

قال البقاعىّ : ولعل ختام قصص بنى إسرائيل بهذه القصة، لما فيها للنبىّ صلى الله عليه وسلم من واضح الدلالة على صحة رسالته . لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بنى إسرائيل .

قلت : يرحم الله البقاعىّ فإنه لم يطلع على هذه القصة من التوراة مع أنها مسوقة فى الأصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول ونصه :

(١) وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب فاجتمعوا فى سُوكُوهَ التى ليهوذا ونزلوا بين سُوكُوهَ وعزيقة فى أَفَسِ دَمِّيمَ . (٢) واجتمع شاوُلُ ورجال إسرائيل ونزلوا فى وادى

البُطْم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين . (٣) وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا وإسرائيل وقوفاً على جبـل من هناك والوادى بينهم . (٤) فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جُلْيات من جَتّ طوله ست أذرع وشبر. (٥) وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابساً درعاً حَرْشفيًّا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس . (٦) وجُرْموقا نحـاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه . (٧) وقناة رمحه كنول النسّاجين وسنان رمحه ست مائة شاقل حديد وحامل الترس كان يمشي قدامه. (٨) فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم: لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب . أَمَا أنا الفلسطينيُّ وأنتم عبيد لشاولَ . اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلىّ. (٩) فإن قدر أن يحاربني ويقتلني نصير لـكم عبيداً. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا . (١٠) وقال الفلسطينيّ أنا عيّرت صفوف إسرائيل هذا اليوم . أعطوني رجلا فنتحارب معاً. (١١) ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينيّ هـذا ارتاعوا وخافوا جدا . (١٢) وداود هو ابن ذلك الرجل الأفراتيّ من بيت لحم يهوذا الذي اسمه يسَّى وله ثمانية بنين . وكان الرجل في أيام شاول قد شاخ وكبر بين الناس . (١٣) وذهب بنو يسّى الثلاثة الـكبار وتبعوا شاول إلى الحرب . وأسماء بنيـه الثلاثة الذين ذهبوا إلى الحرب أَلِيآبُ البكر وأبيناداب ثانيه وشَمَّـةُ ثالثهما . (١٤) وداود هو الصغير والثلاثة الـكبار ذهبوا وراء شاوُلَ . (١٥) وأما داود فـكان يذهب ويرجع من عند شاول ليرعى غنم أبيه في بيت لحم .

وكان الفلسطينيّ يتقدم ويقف صباحا ومساء أربعين يوماً . (١٧) فقال يَسَّى لداود ابنه خذ لإخوتك إيفَةً من هذا الفريك وهذه العشر الخُبْزَات واركض إلى المحلة إلى إخوتك . (١٨) وهذه العشر القطعات من الجبن قدمها لرئيس الألف وافتقد سلامة إخوتك وخذ منهم عُربونا . (١٩) وكان شاوُلُ وهم وجميع رجال إسرائيل في وادى البُطم يحاربون الفلسطينيين. (٢٠) فبكّر داود صباحا وترك الغنم مع حارس وحمّل وذهب كما أمره يسّى وأتى إلى المتراس

والجيش خارج إلى الاصطياف وهتفوا للحرب . (٢١) واصطف إسرائيل والفلسطينيون صفًّا مقابل صف . (٢٢) فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . (٢٣) وفيما هو يكلمهم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلسطيني من جَتَّ صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . (٢٤) وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا . (٢٥) فقال رجال إسرائيل أرأيتم هذا الرجل الصاعد . ليُعَيِّرَ إسرائيل هو صاعد . فيكون أن الرجل الذى يقتله يغنيه الملك غنى جزيلا ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرًّا فى إسرائيل .

(٢٦) فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلا ماذا يُفعل للرجل الذى يقتل ذلك الفلسطينيّ ويزيل العار عن إسرائيل . لأنه من هو هذا الفلسطينيّ الأغلف حتى يعيّر صفوف الله الحيّ . (٢٧) فكلمه الشعب بمثل هذا الكلام قائلين كذا يُفعل بالرجل الذى يقتله . (٢٨) وسمع أخوه الأكبر أَلِيآبُ كلامه مع الرجال فحمى غضب أَلِيآبُ على داود وقال لماذا نزلتَ وعلى من تركت تلك الغنيمات القليلة فى البرّية . أنا علمتُ كبرياءك وشر قلبك لأنك نزلت لكى ترى الحرب . (٢٩) فقال داود ماذا عملتُ الآن . أمَا هو كلام . (٣٠) وتحول من عنده نحو آخر وتكلم بمثل هذا الكلام فردّ له الشعب جوابا كالجواب الأول . (٣١) وسُمع الكلام الذى تكلم به داود وأخبروا به أمام شاول . فاستحضره . (٣٢) فقال داود لشاول: لا يسقط قلب أحد بسببه . عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطينيّ . (٣٣) فقال شاول لداود لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطينيّ لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه . (٣٤) فقال داود لشاول كان عبدك يرعى لأبيه غنما فجاء أسد مع دبّ وأخذ شَاة من القطيع . (٣٥) فخرجت وراءه وقتلته وأنقذتها من فيه ولما قام عليّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته. (٣٦) قتل عبدك الأسد والدب جميعا . وهذا الفلسطينيّ الأغلف يكون كواحد منهما لأنه قد عيّر صفوف الله الحيّ . (٣٧) وقال داود الربّ الذى أنقذنى من يد الأسد ومن يد الدب

هو ينقذنى من يد هذا الفلسطينىّ . فقال شاول لداود : اذهب وليكن الرب معك . (٣٨) وألبس شاول داودثيابه وجعل خوذة من نحاس على رأسه وألبسه درعا . (٣٩) فتقلد داود بسيفه فوق ثيابه وعزم أن يمشى لأنه لم يكن قد جرّب . فقال داود لشاول لا أقدر أن أمشى بهذه لأنى لم أجربها . ونزعها داود عنه . (٤٠) وأخذ عصاه بيده وانتخب له خمسة حجارة مُلْس ٍمن الوادى وجعلها فى كِنفِ الرعاة الذى له أى فى الجراب ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطينىّ . (٤١) وذهب الفلسطينىّ ذاهبا واقترب إلى داود والرجل حامل الترس أمامه . ولما نظر الفلسطينىّ ورأى داود استحقره لأنه كان غلاما وأشقر جميل المنظر . (٤٣) فقال الفلسطينىّ لداود ألعلّى أنا كلب حتى أنك تأتى إلىّ بعِصِىّ ٍ. ولعن الفلسطينىّ داود بآلهته . (٤٤) وقال الفلسطينىّ لداود تعال إلىّ فأعطى لحمك لطيور السماء ووحوش البريّة . (٤٥) فقال داود للفلسطينىّ أنت تأتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس . وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيّرتهم . (٤٦) هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك وأقطع رأسك . وأعطى جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل. (٤٧) وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يُخَلِّصُ الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا . (٤٨) وكان لما قام الفلسطينىّ وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف للقاء الفلسطينىّ . (٤٩) ومدّ داود يده إلى الكِنْف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطينىّ فى جبهته فارتزّ الحجر فى جبهته وسقط على وجهه إلى الأرض . (٥٠) فتمكن داود من الفلسطينىّ بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطينىّ وقتله. ولم يكن سيف بيد داود . (٥١) فركض داود ووقف على الفلسطينىّ وأخذ سيفه واخترطه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا. (٥٢) فقام رجال إسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا الفلسطينيين حتى مجيئك إلى الوادى وحتى أبواب عَقْرُونَ . . . الخ .

وتتمة شأن داود بعد ذلك إلى أن آتاه الله الملك مذكور فى الفصول بعد هذا الفصل من التوراة . فانظره إن شئت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٣] (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

« تِلْكَ الرُّسُلُ » إشارة إلى من ذكر منهم فى هذه السورة أو المعلومة للنبىّ ﷺ «فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » بأن خص بمنقبة ليست لغيره «مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ » تفصيل التفضيل أى منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » كإبراهيم اتخذه الله خليلا . وداود آتاه الله النبوّة والخلافة والملك .

قال الزمخشرىّ : أى ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة .

والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ لأنه هو المفضل عليهم حيث أُوتى ما لم يؤتَه أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر . ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء . لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى . لما فيه من الشهادة على أنه العلَم الذى لا يشتبه والمتميز الذى لا يلتبس ؛ ويقال للرجل: من فعل هذا؟ فيقول: أحدكم أو بعضكم. تريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال . فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه .

وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والنابغة ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث. أرادنفسه . ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسى، لم يفخم أمره .

ثم قال: ويجوز أن يريد إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولى العزم .

« وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى « وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » سبق الكلام فيه .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت فلِم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة . ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات . فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات ، خُصَّا بالذكر فى باب التفضيل . وهذا دليل بيّن أن من زيد تفضيلًا بالآيات منهم فقد فضل على غيره . ولما كان نبينا ﷺ هو الذى أوتى منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها ، كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد الرسل لاختلافهم فى الدين وتشعب مذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ».

قال الزمخشرىّ : كرره للتأكيد . قال الناصر فى حواشيه : ووراء التأكيد سر أخص منه. وهو أن العرب متى ثبت أول كلامهم على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول ، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها. وذلك عندهم مهيع من الفصاحه مسلوك . وفى كتاب الله تعالى مواضع فى هذا المعنى. منها قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَـٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا (١) ،

(١) [١٦ / النحل/ ١٠٦] ونصها : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَـٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

ومنها قوله تعالى: ـ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ـ إلى قوله ـ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ(١). وهذه الآية من هذا النمط . لما صدر الكلام بأن اقتتالهم كان على وفق المشيئة، ثم طال الكلام وأريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت فى هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء ، فهى نافذة فى كل فعل واقع . وهو المعنى المعبر عنه فى قوله «وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» طرأ ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال لتلوه عموم تعلق المشيئة. لتناسب الكلام ويعرف كل بشكله . فهذا سر ينشرح له الصدر، ويرتاح له السر. والله الموفق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٤] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ » هذا أمر بالإنفاق لبعض من المال .قيل هو أمر إيجاب وأنه أراد، بذلك، الإنفاقَ الواجب وهو الزكاة . لأنه تعالى عقبه بالوعيد بقوله « وَالْكَافِرُونَ » الخ، حيث عنى بهم مانعوها كما يأتى . وقال الأصمّ وأبو علىّ: أراد النفقة فى الجهاد . وقال أبو مسلم وابن جريج : أراد الفرض والنفل . وهو المتّجه . وقوله تعالى « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ » هو يوم القيامة « لَا بَيْعٌ فِيهِ » أى فتحصلون ماتنفقونه

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٥] ونصها : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

أو تفتدون به من العذاب « وَلَا خُلَّةٌ » حتى يعينكم الأخلاء . الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[١] «وَلَا شَفَاعَةٌ »حتى تتكلوا على شفعاء: إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا [٢]. « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد . كما فى قوله تعالى فى آخر آية الحج (وَمَنْ كَفَرَ)[٣] مكان (ومن لم يحج) وللإيذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار. قال تعالى: وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ[٤] . ذكره الزمخشرى .

ويحتمل أن يكون المعنى: والكافرون هم الظالمون لأنفسهم بوضع الأموال فى غير مواضعها. فلا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم فى أن لا تنفقوا فتضعوا أموالكم فى غير مواضعها . وفى هذه الآية دلالة على حسن المسارعة إلى الخيرات، قبل فواتها بهجوم ما يخشى معه الفوت، من موت أو غيره .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

(٢) [٢٠/ طه/ ١٠٩] ونصها : يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٤) [٤١ / فصلت / ٦و٧] ونصهما : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٥] (اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

« اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ » أى الباقى الذى لاسبيل عليه للفناء « الْقَيُّومُ » الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، وقرئ القيام والقيم .

« لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » تأكيد للقيوم . أى لايغفل عن تدبير أمر الخلق تعالى وتقدس . والسنة (كعِدَة) والوسَن (محركةوبهاء) والوسْنة شدة النوم أوأوله، أوالنعاس. كذا فى القاموس .

قال المهايمي : السنة فتور يتقدم النوم. والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء دماغه من رطوبات أبخرة متصاعدة تمنع الحواس الظاهرة عن الإحساس . فهما منقصان للحياة منافيان للقيومية ، لأنهما من التغيرات المنافية لوجوب الوجود الذى للقيوم . ونفى النوم أوّلا التزاماً، ثم تصريحا، ليدل كمال نفيه على ثبوت كمال ماينافيه. ومن كمال قيوميته اختصاصه بملك العلويات والسفليات المشار إليه بقوله « لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ » من الملائكة والشمس والقمر والكواكب « وَمَا فِي الْأَرْضِ » من العوالم المشاهدات . وهذا إخبار بأن الجميع فى ملكه وتحت قهره وسلطانه . كقوله : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(١) .«مَنْ ذَا»من الأنبياء والملائكة ، فضلاً عما ادعى الكفار شفاعته من الأصنام «الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ» فضلا عن أن يقاومه أو يناصبه

(١) [١٩ / مريم / ٩٣و٩٤] .

« إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بتمكينه تحقيقاً للعبودية، كما قال تعالى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ[1] . وكقوله : وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ[2] .وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عزوجل، أنه لايتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة. كما في حديث الشفاعة[3] :آتى تحت العرش فأخر ساجداً فيدعني ماشاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع . قال : فيحدّ لى حدًّا فأدخلهم الجنة .

قال أبو العباس بن تيمية: نفى الله عماسواه كل مايتعلق به المشركون. فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة. فبيّن أنها لاتنفع إلا لمن أذن له الرب. فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن. وأخبر النبيّ ﷺ أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده. لا يبدأ بالشفاعة أولًا. ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع . وقال[4] له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال :

(١) [٥٣ / النجم / ٢٦] .

(٢) [٢١/ الأنبياء/ ٢٨] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى:٩٧ـ كتاب التوحيد ، ١٩ـ باب قوله تعالى: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ. ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٢ ـ ٣٢٦ (طبعتنا) .

وهو حديث طويل وجليل وعظيم الشأن ، والسعيد من ظفر به وأحاط علماً بما فيه .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٣ ـ باب الحرص على الحديث ونصه :

عن أبى هريرة أنه قال : يا رسول الله ! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ « لقد ظننتُ يا أبا هريرة ، أن لايسألنى عن هذا الحديث أحد أولُ منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه» .

لا إله إلا الله خالصاً من قلبه . فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله . ولا تكون لمن أشرك بالله . وحقيقته أن الله سبحانه هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك . ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع . وقد بين النبىّ صلىّ الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » أى ما أتاهم علمه من أمر أنفسهم وغيرهم . لأن ما بين يدى المرء يحيط به حسُّه . وما علمه أيضاً . فكأنه بين يدى قلبه يحيط به علمه « وَمَا خَلْفَهُمْ » وهو مالم ينله علمهم . لأن الخلف هو مالا يناله الحسّ . فأنبأ أن علمه من وراء علمهم محيط بعلمهم فيما علموا وما لم يعلموا . أفاده الحَرَّالىّ . فهذه الجملة كقوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[(١)] « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » أى لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أراد أن يعلمهم به منها على ألسنة الرسل . كما قال تعالى : فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ[(٢)] . أى ليكون ما يطلعه عليه من علم غيبه دليلًا على نبوته . «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المعنىّ بالكرسىّ العلم. وذلك لدلالة قوله تعالى« وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا» أى لا يؤوده حفظ ما علم وأحاط به مما فى السموات والأرض . وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا فى دعائهم: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً[(٣)] فأخبر أن علمه وسع كل شىء، فكذلك

---

(١) [٦ / الأنعام / ٧٣] ونصها : وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

(٢) [٧٢ / الجن / ٢٦و٢٧] ونصهما: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

(٣) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ =

قوله « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » قال ابن جرير : وقول ابن عباس هذا يدل على صحة ظاهر القرآن لماذكر . ولأن أصل الكرسيّ العلم . ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب : كراسة . ومنه قول الراجز في صفة قانص *حتى إذا مااحْتازهاتكرّسا* يعني علم ، ومنه يقال للعلماء: الكراسيّ . لأنهم المعتمد عليهم . كما يقال: أوتاد الأرض. يعني أنهم الذين تصلح بهم الأرض . ومنه قول الشاعر :

يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسيّ بالأحداث حين تنوب

يعني بذلك علمه بحوادث الأمور ونوازلها . وروى ابن جرير أيضاً عن الحسن: أن الكرسيّ في الآية هو العرش . اهـ. وأيده بعضهم بأن لفظ عرش الملكة وكرسيّها مترادفان . ولذلك قال تعالى على لسان سليمان : أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(١) فالعرش والكرسيّ هما شيء واحد وإنما سماه هنا . كرسيًّا، إعلاماً باسمٍ له آخر(٢) . « وَلَا

= بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

(١) [٢٧ / النمل / ٣٨] ونصها : قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .

(٢) كان المؤلف ، رضى الله عنه فسّر الكرسيّ بما يأتي :

الكرسيّ ، بالضم وبالكسر ، السرير والعِلْم ، كما في القاموس .

قال الأزهريّ : والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الذهبيّ عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الكرسيّ، موضع القدمين . وأما العرش فإنه لايقدر قدره . قال : وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها .

قال : ومن روى عنه في الكرسيّ أنه العلم فقد أبطل . انتهى . =

يَؤُودُهُ » أى لا يثقله ولا يشق عليه. يقال: آده الأمر أوداً وأُوُوداً (كقعود) بلغ منه المجهود والمشقة « حِفْظُهُمَا » أى السموات والأرض فلا يفتقر إلى شريك ولا ولد . وكيف يشق عليه « وَهُوَ الْعَلِيُّ » قال ابن جرير . قال بعضهم : يعنى بذلك عُلوّه عن النظير والأشباه . وقال آخرون : معناه العلىّ على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . لأنه تعالى ذكره فوق جميع خلقه . وخلقه دونه . كما وصف به نفسه أنه على العرش . فهو عالٍ بذلك عليهم . « الْعَظِيمُ » أى أعظم كل شىء بالجلال والكبرياء والقهر والقدرة والسلطان .

تنبيه :

آية الكرسىّ هذه لها شأن عظيم وفضل كبير. وقد صح الحديث[1] عن رسول الله ﷺ بأنها أعظم آية فى كتاب الله وأنها مشتملة على اسم الله الأعظم ، وقد ساق ما ورد فى فضلها الإمام ابن كثير فى (تفسيره) والجلال السيوطىّ فى (الدر المنثور) فانظرهما .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم فضلت هذه الآية حتى ورد فى فضلها ما ورد. قلت : لِما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى. ولا مذكور أعظم من رب العزة . فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار .

= وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الكرسىّ الذى يوضع تحت العرش ، الذى تجعل الملوك عليه أقدامهم .

وفى الفتح : الكرسىّ هنا ، الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته .

ثم إن المؤلف عدل عن ذلك إلى ما تراه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هذين الآيتين : اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ . والٓمٓ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ، أن فيهما اسم الله الأعظم.

وقد حكى السيوطىّ فى (الإتقان) عن الأشعرىّ والباقلانىّ وابن حبان المنع من أن يقال فى القرآن فاضل وأفضل . قالوا: وما ورد ممـا يفيد ذلك محمول على الأعظمية فى الأجر. لا أن بعض القرآن أفضل من بعض . وقد ردّ ذلك غير واحد ، حتى قال ابن الحصار : العجب ممن يذكر الاختلاف فى ذلك مع النصوص الواردة فى التفضيل . وقال الغزالىّ فى (جواهر القرآن): لعلك أن تقول : قد أشرت إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض ، والكلام كلام الله، فكيف يتفاوت بعضها بعضاً، وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟ فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسىّ وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت ، وترتاع على اعتقاد نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد، فقلد صاحب الرسالة ﷺ فهو الذى أنزل عليه القرآن وقال : يس قلب القرآن(١) . وفاتحة الكتاب أفضل سور القرآن(٢) .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٧ ـ باب ماجاء فى فضل يس . ونصه : عن أنس قال : قال النبىّ ﷺ « إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١ ـ سورة الفاتحة، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الكتاب . ونصه : عن أبى سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد . فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه . فقلت : يا رسول الله ! إنى كنت أصلى . فقال « ألم يقل الله : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ؟ » ثم قال لى « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد » ثم أخذ بيدى. فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال « الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » .

وآية الكرسيّ سيدة آى القرآن(١) . وقلهو الله أحد تعدلثلث القرآن(٢) .والأخبار الواردة فى فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل وكثرة الثواب فى تلاوتها ـ لا تحصى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٦] (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » قال ابن كثير : أى لاتكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام فإنه بيّن واضح جلىّ دلائله وبراهينه . لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه . بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بيّنة . ومن عمى قلبه فإنه لايفيده الدخول فيه مكرهاً مقسوراً : فالنفى بمعنى النهى .

---

(١) قال الإمام ابن كثير فى تفسيره بالصفحة ٣٠٧ من الجزء الأول :

قال الحاكم أبو عبد الله فى مستدركه : حدثنا علىّ بن حشاد . حدثنا بشر بن موسى . حدثنا الحميدىّ . حدثنا سفيان. حدثنى حكيم بن جبير الأسدىّ عن أبى صالح عن أبىهريرة أن رسولالله ﷺ قال « سورة البقرة فيها آية سيد آى القرآن . لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه . آية الكرسىّ » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٣ ـ باب فضل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ أن رجلا سمع رجلا يقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، يرددها . فلما أصبح جاء إلى رسولالله ﷺ فذكر ذلك له . وكأنالرجل يتقالّها . فقال رسولالله ﷺ « والذى نفسى بيده ! إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وهو ما ذهب إليه فى تأويل الآية كثير . وذهب آخرون إلى أنه خبر محض . أى أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنما بناه على التمكين والاختيار . قال القفال ـ موضحاً له ـ لما بيّن تعالى دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعذر ، أخبر بعد ذلك أنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر فى الإقامة على الكفر . إلا أن يُقسر على الإيمان ويجبر عليه . وذلك مما لا يجوز فى دار الدنيا التى هى دار الابتلاء . إذ فى القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان . ونظير هذه الآية قوله تعالى : فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (١) . وقوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) . وقوله تعالى : لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٣) .

تنبيـه :

علم من هذه الآية أن سيف الجهاد المشروع فى الإسلام والذى لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر لم يستعمل للإكراه على الدخول فى الدين . ولكن لحماية الدعوة إلى الدين والإذعان لسلطانه وحكمه العدل .

« فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ » أى بالشيطان . أى بما يدعو إليه من عبادة الأوثان « وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا » أى فقد تمسك من الدين بأقوى سبب. وشبه ذلك بالعروه القوية التى لا تنفصم . هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية . وربطها قوىّ

(١) [١٨ / الكهف / ٢٩] ونصها : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٩] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٣و٤] .

شديد . وجملة (لا انفصام لها) إما استئناف مقرر لما قبلها، وإما حال من (العروة) والعامل (استمسك) أومن الضمير المستترفى (الوثقى) وإماصلة لموصول محذوف أى (التى). نقله الرازىّ.

وقد روى الشيخان عن عبد الله بن سلام قال : رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ . رأيت كأنى فى روضة خضراء وسطها عمودحديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء . فى أعلاه عروة. فقيل لى : اصعد عليه . فقلت: لاأستطيع . فجاءنى منصف (أى وصيف) فرفع ثيابى من خلفى ، فقال : اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة . فقال : استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفى يدى . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه . فقال : أما الروضة فروضة الإسلام . وأما العمود فعمود الإسلام . وأما العروة فهى العروة الوثقى . أنت على الإسلام حتى تموت « وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ حامل على الإيمان ، رادع عن الكفر والنفاق ، بما فيه من الوعد والوعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٧] (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى حافظهم وناصرهم « يُخْرِجُهُمْ » تفسير للولاية أوخبر ثان « مِنَ الظُّلُمَاتِ » أى ظلمات الكفر والمعاصى «إِلَى النُّورِ » أى نور الإيمان الحق الواضح. وإفراد النور لوحدة الحق . كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال . كما قال تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ » أى

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق « يُخْرِجُونَهُمْ » بالوساوس وغيرها من طرق الإضلال والإغواء « مِنَ النُّورِ » أي الإيمان الفطريّ الذي جبل عليه الناس كافة ، أو من نور البينات التي يشاهدونها من جهة النبيّ صلى الله عليه وسلم « إِلَى الظُّلُمَاتِ » أي ظلمات الكفر والغيّ « أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ».

ثم استشهد تعالى على ما ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ » أي جادل « إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ » أي كيف أخرجه الطاغوت من نور نسبة الإحياء والإماتة إلى ربه، إلى ظلمات نسبتهما إلى نفسه « أَنْ ءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ » أي : لأن آتاه الله . يعني أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر . فحاج لذلك. أو حاجه لأجله . وضعاً للمحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر . كما يقال: عاداني فلان لأني أحسنت إليه . تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ(١) .

قال الحراليّ : وفي إشعاره أن الملك بلاء وفتنة على من أوتيه .

« إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ » حين سأله من ربك الذي تدعونا إليه « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ » أي بنفخ الروح في الجسم وإخراجها منه « قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ » أي بالقتل

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٢] .

والعفو عنه . ولما سلك الطاغية مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء والظهور بحيث لايخفى على أحد ، والتصدى لإبطاله من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل، انتقل إبراهيم عليه السلام ، إرسالًا لعنان المناظرة معه ، إلى حجة أخرى لاتجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمخرج مكابرة أو مشاغبة أو تلبيس على العوام . وهو ماقصه تعالى بقوله « قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ » أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيي وتميت فالذى يحيي ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود، فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته . فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلٰهاً كما ادعيت فأت بها من المغرب « فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ » تحيّر ودهش وغُلب بالحجة ، لما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى لا يلهمهم حجة ولا برهانا . بل حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥٩] (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

---

(١) [٤٢/ الشورى/ ١٦] ونصها: وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

«أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ» استشهاد على ماذكر تعالى من ولايته للمؤمنين وتقرير له، معطوف على الموصول السابق . وإيثار (أو) الفارقة على (الواو) الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الأمر . والكاف إما اسمية جيء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر ، وإما زائدة . والمعنى : أو لم تر إلى مثل الذى . أو إلى الذى مرّ على قرية . كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود « وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا » خالية ساقطة حيطانها على سقوفها « قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا » أى كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها. فكان منه كالوقوع فى الظلمات . فأراه الدليل على الإحياء الحقيقىّ فى نفسه مبالغة فى قلع الشبهة ، إخراجاً له منها إلى النور « فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ » ليندرس بالكلية « ثُمَّ بَعَثَهُ » أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه وبعض أجزائه إلى بعض بعد تفرقها « قَالَ » الله له « كَمْ لَبِثْتَ » أى مكثت ميتاً « قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » قاله بناء على التقريب والتخمين . أو استقصاراً لمدة لبثه « قَالَ » الله « بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ » وإنما سأله تعالى ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه . وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ، ربما يتوهم أنه هيّن فى الجملة ، بل بعد مدة طويلة . وينحسم به مادة استبعاده بالمرة . ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى. وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع، على ما كان عليه دهراً طويلاً، من غير تغيّر مّا . كما قال سبحانه « فَانْظُرْ » لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا « إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ » أى لم يتغيّر فى هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد . والهاء يجوز أن تكون هاء سكت زيدت فى الوقف . وأصل الفعل على هذا فيه وجهان : أحدهما يتسنن من قوله : حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فلما اجتمعت ثلاث نونات قلبت الأخيرة ياء كما قلبت فى تظنيت ثم أبدلت الياء ألفاً ثم حذفت للجزم . والثانى أن يكون أصل الألف واواً من قولهم : أسنى يسنى إذا مضت عليه السنون. وأصل سنة سنوة لقولهم: سنوات أى لم تمر عليه السنون . والمعنى على التشبيه . أى كأنه لم تمر

عليـه المائة سنة لبقائه على حاله وعدم تغيره . ويجوز أن تـكون الهاء أصلًا ويكون اشتقاقه من السنة بناء على أن لام السنة هاء وأصلها سنهة . لقولهم سنهاء وعاملته مسانهة . فعلى هذا تثبت الهاء وصلًا ووقفاً . إذ الفعل مجزوم بسكونها. وعلى الأول تثبت في الوقف دون الوصل. ومن أثبتها في الوصل أجراه مجرى الوقف . وقد قرأ حمزة والـكسائىّ بحذف الهاء وصلًا وإثباتها وقفاً والباقون بإثباتها وصلًا ووقفاً . فإن قيـل : ما فاعل يتسنى ؟ قيل : يحتمل أن يكون ضمير الطعام والشراب لاحتياج كل واحد منهما إلى الآخر، فـكانا بمنزلة شيء واحد . فلذلك أفرد الضمير في الفعل . ويحتمل أن يكون جعل الضمير لـ (ذلك). و (ذلك) يكنى به عن الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد . ويحتمل أن يكون الضمير للشراب فقط لأنه أقرب. وثَمَّ جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها. والتقدير: وانظر إلى طعامك لم يتسنه ، وإلى شرابك لم يتسنه . ويجوز أن يكون أفرد في موضع التثنية كما قال الشاعر :

فَـكَأَنَّ في العينين حبَّ قرَنْفُلٍ ... أو سنبلا كُحِلَتْ به فَانْهَلَّتِ

أشار لذلك أبو البقاء «وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ» كيف هو. فرآه صار عظاماً نخرة «وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ» عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق. أي فعلنا ما فعلنا ، من إحيائك بعد ما ذكر، لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل. ولنجعلك آية للناس على البعث. أو متعلق بفعل مقدر بعده . أي : ولنجعلك آية للناس فعلنا ما فعلنا « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ » أي عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء « كَيْفَ نُنْشِزُهَا » قرىء بالزاي أي نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه. من (النشز) وهو المرتفع من الأرض. وفيها على هذا وجهان : ضم النون وكسر الشين من (أنشزته) وفتح النون وضم الشين من (نشزته) وهما لغتان . وقرىء بالراء وفيها وجهان : الأول فتح النون وضم الشين وماضيه (نشر) فيـكون إما مطاوع أنشر الله الميت فنشر، وحينئذ نشر بمعنى أنشر . فاللازم والمتعدى بلفظ واحد . وإما من النشر الذي هو ضد الطيّ أي يبسطها بالإحياء . والثاني ضم النون

وكسر الشين أي نحييها كقوله: ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ[١]. قاله أبو البقاء . «ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً» أي نسترها به «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ» أي اتضح له إعادته مع طعامه وشرابه وحماره ، بعد التلف الكليّ ، وظهر له كيفية الإحياء «قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فخرج من الظلمات إلى النور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٠] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ» قال المهايميّ : واذكر لتمثيل قصة المار على القرية، في الإخراج من الظلمات إلى النور، بالإحياء ، قصة إبراهيم .

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ» إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً «قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» أي بلى آمنت ولكن سألت لأزداد بصيرة وسكون قلب برؤية الإحياء ، فوق سكونه بالوحي . فإنّ تظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين . وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن شاكّاً في إحياء الموتى قط . وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أُخْبِرَتْ عَنْهُ . ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم[٢] : ليس الخبر كالمعاينة . وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك في قدرة الله . واستدلوا بما صح عنه ﷺ

---

(١) [٨٠ / عبس / ٢٢] .

(٢) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٢١٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

فى الصحيحين وغيرهما من قوله[١] : نحن أحق بالشك من إبراهيم . وبما روى عن ابن عباس أنه قال[٢] : ما فى القرآن عندى آية أرجى منها . إذ رضى الله من إبراهيم قوله « بَلَىٰ » . قال فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان . أخرجه عنه الحاكم فى المستدرك وصححه . ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له .

قال ابن عطية : وهو عندى مردود . يعنى قول هذه الطائفة . ثم قال : وأما قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من إبراهيم ، فمعناه أنه لو كان شاكًّا لكنا نحن أحق به . ونحن لا نشك فإبراهيم أحرى أن لا يشك . فالحديث مبنىّ على نفى الشك عن إبراهيم . وأطال ابن عطية البحث فى هذا . وأطاب .

قال القرطبىّ : ولا يجوز على الأنبياء عليهم السلام مثل هذا الشك . وقد أخبر الله سبحانه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٦ ـ باب وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » .

(٢) انظر الأثر ٥٩٧١ من تفسير الطبرىّ (طبعة المعارف) ونصه :

عن سعيد بن المسيّب قال : اتّعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا . قال : ونحن يومئذ شَبَبَة . فقال أحدهما لصاحبه : أى آية فى كتاب الله أرجى لهذه الأمة ؟ فقال عبد الله بن عمرو : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ [٣٩ / الزمر / ٥٣] حتى ختم الآية . فقال ابن عباس : أمَّا إن كنت تقول : إنها ، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم ﷺ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .

أن أصفياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ(١) .وقال اللعين : إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٢) .وإذا لم تكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم! وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفرقها ، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزقها. فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : الأولى فى هذه الآية أن يذكر فيها المختار فى تفسيرها من المباحث المتحنة بالفكر المحرر ، والنكت المفصحة بالرأى المخمّر . فنقول : أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له : كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . فليس عن شك ، والعياذ بالله ، فى قدرة الله على الإحياء . ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء . ولا يشترط فى الإيمان الإحاطة بصورتها . فإنما هى طلب علم مالا يتوقف الإيمان على علمه . ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة (كيف) وموضوعها السؤال عن الحال . ونظير هذا السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد فى الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه ، لاثبوته . ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيُطَرِّق إلى إبراهيم شكا من هذه الآية . وقد قطع النبىّ عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله: نحن أحق بالشك من إبراهيم أى : ونحن لم نشك. فَلَأَنْ لايشك إبراهيم أحرى وأولى . (فإن قلت) إذا كان السؤال مصروفاً إلى الكيفية التى لا يضرّ عدم تصورها ومشاهدتها بالإيمان ولا تخلّ به ، فما موقع قوله تعالى « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » ؟ قلت: قد وَقَعْتُ لبعض الحذاق فيه على لطيفة، وهى أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً فى السؤال عن الكيفية كما مرّ . وقد تستعمل فى الاستعجاز . مثاله أن يدعى مدع أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله فتقول له : أرنى كيف تحمل هذا ؟ فلما كانت هذه الصيغة

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٥] ونصها : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٨٣] .

قد يعرض لها هذا الاستعمال الذى أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم مبرأ منه ـ أراد بقوله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ أن ينطق إبراهيم بقوله : بَلَىٰ آمنت. ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظىّ فى العبارة الأولى. ليكون إيمانه مخلصاً ، نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يلحقه فيه شك .

(فإن قلت) قد تبيّن لى وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين . فما موقع قول إبراهيم : وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ؟ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة . قلت : معناه: ولكن ليزول عن قلبى الفكر فى كيفية الحياة. لأنى إذا شاهدتها سكن قلبى عن الجولان فى كيفياتها المتخيلة وتعينت عندى بالتصوير المشاهد . فهذا أحسن ما يجرى لى فى تفسير هذه الآية. وربك الفتاح العليم . انتهى .

« قَالَ » أى إذ أردت الطمأنينة « فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ » بضم الصاد وكسرها بمعنى فأَمِلْهنّ واضممهن إليك. يقال : صاره يصوره ويصيره إذا أماله لغتان .

قال الزمخشرىّ : وقرأ ابن عباس رضى الله عنه فِصُرّهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من: صره يصِرّه ويَصُرّه إذا جمعه ، وعنه: فصَرِّهن (من التصرية) وهى الجمع أيضاً: وقال اللحيانىّ قال بعضهم : معنى صُرهن وَجِّهْهُنَّ . ومعنى صِرهن قطعهن وشققهن . والمعروف أنهما لغتان بمعنى واحد. وكلهم فسروا فصرهن أملهن، والكسر فُسِّر بمعنى قطعهن . وقال الفيروزابادى فى (البصائر) : قال بعضهم: صرهن بضم الصاد وتشديد الراء وفتحها من الصرّ أى الشد . قال وقرئ فصرهن بكسر الصاد وفتح الراء المشددة (من الصرير) أى الصوت أى صح بهن . وقال أبو البقاء : ويقرأ بضم الصاد وتشديد الراء ثم منهم من يضمها اتباعاً ومنهم من يفتحها تخفيفاً ومنهم من يكسرها على أصل التقاء الساكنين .

أقول: قد تقرر فى العربية أن المضاعف إذا لحقته هاء الضمير يلزم وجهٌ واحد فى المؤنث وهو فتح ماقبلها نحو ردّها مراعاة للألف اتفاقاً، وفى المذكر ثلاثة أوجه : أفصحها الضم ويليه الكسر وهو ضعيف ، ويليه الفتح وهو أضعفها . وممن ذكره ثعلب فى (الفصيح)

لكن غلطوه لكونه أوهم فصاحته ولم ينبه على ضعفه « ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا » أي ثم اذبحهن وجزئهن وضع على كل جبل منهن بعضاً « ثُمَّ ادْعُهُنَّ » أي بأسمائهن « يَأْتِينَكَ سَعْيًا » أي مسرعات « وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

قال الزمخشري: فإن قلت: مامعنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها؟ قلت : ليتأملها ويعرف أشكالها وهيآتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك . ولذلك قال « يَأْتِينَكَ سَعْيًا » أي ولم يقل طيراناً لأنه إذا كانت ساعية كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦١] (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي في طاعته « كَمَثَلِ حَبَّةٍ » أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة. فالحذف إما من جانب المشبه أو المشبه به لتحصيل المناسبة . أي وتلك الحبة ألقيت في الأرض ثم « أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » أي : أنبتت ساقاً انشعب سبع شعب ، خرج من كل شعبة سنبلة فيها مائة حبة ، فصارت الحبة سبعمائة حبة بمضاعفة الله لها . قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة. فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة. انتهى .

أقول : مصداق هذا ما في الصحيحين(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : من

---

(١) أخرجه البخاري في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٣ ـ باب قول الله تعالى : تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ .

ومسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٦٣ (طبعتنا) .

تصدق بعَدْل تمرة من كسب طيّب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيّب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل .

« وَاللهُ يُضَاعِفُ » أى هذا التضعيف أو أكثر منه « لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. ففي الصحيحين[1] وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . وأخرج أحمد ومسلم[2] والنسائىّ والحاكم عن ابن مسعود قال : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه فى سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة . وأخرج أحمد[3] والطبرانىّ والبيهقىّ عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله . الدرهم بسبعمائة ضعف . وثمت آثار أخرى فى (ابن كثير) و(الدر المنثور). ثم مدح تعالى من حفظ نفسه من المنّ والأذى فيما أنفق بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٢] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ » أى لا يعقبون « مَا أَنْفَقُوا مَنًّا » وهو ذكره لمن أنفق عليه ليريه أنه أوجب بذلك عليه حقا « وَلَا أَذًى » وهو

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث ١٦٤ (طبعتنا) ونصه :

. . . . يدع شهوته وطعامه من أجلى . للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه . ولخُلُوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٣٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٥٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ).

ذكره لغيره فيؤذيه بذلك أو التطاول عليه بسببه « لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الموعود به قبلُ « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» على فائتٍ من زهرة الدنيا ، لصيرورتهم إلى ما هو خير من ذلك .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشريّ معنى (ثم) إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى . وفى حواشيه للناصر مانصه : (ثم) فى أصل وضعها تشعر بتراخى المعطوف بها عن المعطوف عليه فى الزمان وبُعد ما بينهما ، والزمخشريّ يحملها على التفاوت فى المراتب والتباعد بينهما . حيث لا يمكنه حملها على التراخى فى الزمان لسياقٍ يأبى ذلك . كهذه الآية . وحاصله أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة. وعندى فيها وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها. وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه . فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن. ولكن معناها الأصليّ تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه . ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه . وعليه حمل قوله تعالى : ثُمَّ اسْتَقَامُوا[1] أى داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد. وتلك الاستقامة هى المعتبرة ، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحَيْد إلى الهوى والشهوات ، وكذلك قوله « ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى » أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ، ليسوا بتاركيه فى أزمنة إلى الأذية وتقليد المنن بسببه ، ثم يتوبون . والله أعلم . وقريب من هذا أو مثله ، أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه . ثم ورد قوله تعالى حكاية

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

و [٤٦/ الأحقاف/ ١٣] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

عن الخليل عليه السلام: إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ (١) . وقد حكى الله تعالى فى مثل هذ الآية : الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٢) . فليس إلى حمل السين على تراخى زمان وقوع الهداية له من سبيل . فيتعين المصير إلى حملها على الدلالة على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخى بقائها وتمادى أمدها . انتهى .

الثانية : قال الزمخشرىّ : (فإن قلت) أى فرق بين قوله : لَهُمْ أَجْرُهُمْ ، وقوله فيما بعد : فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ؟ (قلت) الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط ، وضمنه ثَمَّهْ . والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر ، وطرحها عارٍ عن تلك الدلالة .

وقال أبو السعود : وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها ، للإيذان بأن ترتيب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك اتباع المنّ والأذى ـ أمرٌ بيّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٣] (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ » أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم « وَمَغْفِرَةٌ » أى غفرٌ عن ظلم قولىّ أو فعلىّ « خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى » إذ لا يحصل للصدقة ثواب ويحصل إثم الأذى . وقد دخل فى قوله (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ) الرد الجميل للسائل و (مَغْفِرَةٌ) العفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول . « وَاللهُ غَنِيٌّ » عن طلب صدقة لعبيده مع الأذى لهم أو المنّ عليهم « حَلِيمٌ » عن معاجلة من يمنّ ويؤذى بالعقوبة .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٩] .
(٢) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ » أي لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما . فإنهما إساءتان ينافيان الإحسان المعتبر في الصدقة . والمنافي مبطل كالرياء. فيصير المانّ والمؤذي « كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » في بطلان صدقته . و (رئاء) إما مفعول له أو حال . أي مرائياً . والهمزة الأولى في (رئاء) عين الكلمة لأنه من راءى . والأخيرة بدل من الياء لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة كالقضاء . ويجوز تخفيف الهمزة الأولى بأن تقلب ياء فراراً من ثقل الهمزة بعد الكسرة . وقد قرىء به . قاله أبو البقاء .

« فَمَثَلُهُ » أي هذا المنفق رياء ، في إنفاقه مقارناً لما يفسده . ومثل نفقته « كَمَثَلِ صَفْوَانٍ » وهو حجر أملس « عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ » أي مطر كثير « فَتَرَكَهُ صَلْدًا » أي أجرد لا شيء عليه « لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا » أي المرائي والمانّ والمؤذي، لا يقدرون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا لبطلانه. كقوله: فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا(١). فلا يجدون ثواب صدقاتهم كما لا يوجد على الصفا التراب بعد ما أصابه الوابل « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » إلى الخير والرشاد . وفيه تعريض بأن الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار . ولابد للمؤمن أن يتجنب عنها . وقد ورد في وعيد المنّ بالصدقة أحاديث متوافرة . ففي صحيح مسلم(٢) عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة

(١) [٢٥/الفرقان/ ٢٣] ونصها : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...

(٢) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧١ (طبعتنا) ونصه : =

لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفّق سلعته بالحلف الكاذب . وفى سنن النسائىّ[1] عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاقّ لوالديه ولا منان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٥] (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ » مفعول له « وَتَثْبِيتاً » معطوف عليه. ويجوز أن يكونا حالين . أى مبتغين ومتثبتين « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » قال أبو البقاء: يجوز أن يكون (من) بمعنى اللام أى تثبيتاً لأنفسهم. كما تقول : فعلت ذلك كسرا من شهوتى . ويجوز أن تكون على أصلها أى تثبيتاً صادراً من أنفسهم . والتثبيت مصدر فعل متعد . فعلى الوجه الأول يكون « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » مفعول المصدر . وعلى الثانى ، يكون المفعول محذوفا . تقديره:

= عن أبى ذر عن النبىّ ﷺ قال « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار .

قال أبو ذر : خابوا وخسروا . من هم يا رسول الله ؟ قال « المُسبل والمنّان والمنفّق سلعته بالحلف الكاذب » .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٩ ـ باب المنان بما أعطى: ونصه :

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاقّ لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديّوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن على الخمر ، والمنان بما أعطى » .

ويثبتون أعمالهم بإخلاص النية . ويجوز أن يكون تثبيتا بمعنى (تثبُّت) فيكون لازما . والمصادر قد تختلف ويقع بعضها موقع بعض . ومثله قوله تعالى : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا[1] . أى تبتلا. انتهى. وعن الشعبىّ : تثبيتا تصديقا ويقينا « كَمَثَلِ جَنَّةٍ » أى بستان « بِرَبْوَةٍ » أى موضع مرتفع « أَصَابَهَا وَابِلٌ » مطر كثير « فَآتَتْ أُكُلَهَا » أى أخرجت ثمرها « ضِعْفَيْنِ » أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان « فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ » وهو المطر الضعيف ، أو أخف المطر ، أو أضعفه أو الندى . ولابد من تقدير مضاف هنا كما تقدم : إما من جانب المشبه أو المشبه به . أى ومثل نفقة الذين الخ . أو كمثل غارس جنة الخ . رعاية للتناسب .

قال الشهاب : وفى التشبيه وجهان: أحدهما أنه مركب ، والتشبيه لحال النفقة بحال الجنة بالربوة فى كونها زاكية متكثرة المنافع عند الله كيفما كانت الحال . والثانى أن تشبيه حالهم بحال الجنة على الربوة فى أن نفقتهم ، كثرت أو قلت ، زاكية زائدة فى حسن حالهم . كما أن الجنة يُضَعِّفُ أُكُلَهَا قوىُّ المطر وضعيفُه. وهذا أيضا تشبيه مركب . إلا أنه لوحظ الشبه فيما بين المفردات. وحاصله : أن حالهم فى اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر . كحال الجنة فى إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها . ويحتمل وجها ثالثا وهو أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد بأن تشبه حالهم بجنة مرتفعة فى الحسن والبهجة . والنفقة الكثيرة والقليلة بالطل والوابل ، والأجر والثواب بالثمرات . والربوة مثلثة الراء . وأُكُل بضمتين ، وتسكن للتخفيف ، وبه قرىء « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » تحذير عن الرياء وترغيب فى الإخلاص .

---

(١) [٧٣ / المزمل / ٨] ونصها : وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٦] (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ » أى كبر السن . فإن الفاقة والعالة فى الشيخوخة أصعب « وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ » صغار لا قدرة لهم على الكسب « فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ » أى ريح شديدة « فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ » تلك الجنة وبقى صاحبها بضيعة مع ضعفه وثقل ظهره بالعيال وقلة المال . والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ، ويضم إليها ما يحبطها ، كرياء وإيذاء ، فى الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة ، واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال مَنْ هذا شأنه « كَذَٰلِكَ » أى مثل هذا البيان « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » أى فيها . فتعتبرون بها . وروى البخارىّ(١) فى التفسير عن عُبَيْد ابن عمير قال : قال عمر رضى الله تعالى عنه يوماً لأصحاب النبىّ ﷺ : فيمَ ترون هذه الآية نزلت : أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . قال عمر : يا ابن أخى قل ولا تَحْقِر نفسك . قال ابن عباس ضربت مثلاً لعملٍ . قال عمر : أىّ عمل ؟ قال ابن عباس لعملٍ . قال عمر لرجل غنىّ يعمل بطاعة الله عزوجل . ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٧ ـ باب قوله أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ... إلى قوله: تَتَفَكَّرُونَ .

حتى أغرق أعماله . (قال ابن كثير وهو من أفراد البخاريّ .) ولا بن جرير من طريق عطاء عن ابن عباس معناه : أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل الخير حتى إذا كان حين فنى عمره ختم ذلك بعمل أهل الشقاء فأفسد ذلك فأحرقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » هذا بيان لحال ما ينفق منه ، إثْرَ بيان أصل الإنفاق وكيفيته . أى أنفقوا من جياد ما كسبتم لقوله تعالى : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ[1] . فمقتضى الإيمان الإنفاقُ من الجيد . سيما ما يطلب به رضا الله وتثبيت النفس . وفى الأمر إشعار بأنه إنما يمثل بالزرع المنبت سبع سنابل ، أو بالجنة بربوة ، ما أنفق من الجيد « وَمِمَّا » أى ومن طيبات ما « أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » من الحبوب والثمار « وَلَا تَيَمَّمُوا » أى لا تقصدوا « الْخَبِيثَ » أى الردىء من أموالكم ، « مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ » أى بقابليه (يعنى الردىء) إذا أهدى إليكم « إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ » أى : إلا بأن تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه . من قولك : أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره . ويقال للبائع : أغمضْ . أى : لاتستقص كأنك لا تبصر . كذا فى الكشاف .

قال الرازىّ : الإغماض فى اللغة غض البصر وإطباق جفن على جفن . والمراد ههنا المساهلة ، وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك . ثم

(١) [٣ / آل عمران / ٩٢] ونصها : لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة فى البيع وغيره إغماضا . فقوله: وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ. يعنى لو أهدى إليكم مثل هذه الأشياء ، لَمَا أخذتموها إلا على استحياء وإغماض . فكيف ترضون لى مالا ترضونه لأنفسكم ؟ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ » عن إنفاقكم وإنما يأمركم به لمنفعتكم « حَمِيدٌ » يجازى المحسن أفضل الجزاء . وفى الأمر بأن يعلموا ذلك، مع ظهور علمهم به ، توبيخٌ على إعطاء الخبيث وإيذانٌ بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى . ولما رغّب تعالى فى إنفاق الجيد حذّر من وسوسة الشيطان فى ذلك فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٨] (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ » فى الإنفاق « وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » أى يغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور . والفاحش ، عند العرب ، البخيل . قال طَرَفَةُ :

أَرَى الموتَ يَعْتَامُ الكرامَ ويَصْطَفِى عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ المتشدِّدِ

قال الحرالىّ : الفحشاء كل ما اجتمعت عليه استقباحات الشرع . وأعظم مراد بها هنا البخل الذى هو أدوأ داء . لمناسبة ذكر الفقر . وعليه ينبنى شر الدنيا والآخرة . ويلازمه الحرص ويتابعه الحسد ويتلاحق به الشر كله .

« وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ » بالإنفاق، سيما من الجيد « مَغْفِرَةً مِنْهُ » للذنوب « وَفَضْلًا » خَلَفًا وثوابًا فى الآخرة « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقونه « عَلِيمٌ » بصدقاتكم . فلا يضيع أجركم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦٩] (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

« يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ » قال كثيرون: الحكمة إتقان العلم والعمل. وبعبارةأخرى معرفة الحق والعمل به . قال أبو مسلم : الحكمة فِعلة من الحكم وهى كالنحلة من النحل ، ورجل حكيم إذا كان ذا حجًا ولبٍّ وإصابة رأى . وهو فى هذا الموضع فى معنى الفاعل . ويقال : أمر حكيم ، أى محكم، وهو فعيل بمعنى مفعول، قال تعالى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (١) .

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » إذ بها انتظام أمر الدارين . والإظهار فى مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها . وفى إيلاء هذه الآية لما قبلها إشعار بأن الذى لايغتر بوعد الشيطان ويوقن بوعد الله هو من آتاه الله الحكمة « وَمَا يَذَّكَّرُ » أى يتعظ بأمثال القرآن والحكمة « إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » أى ذوو العقول من الناس ، الخالصة من شوائب الهوى . وهم الحكماء . والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآى فى معنى الإنفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٠] (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

« وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ » أى يؤول إلى الإنفاق « فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ » لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه « وَمَا لِلظَّالِمِينَ » أى الذين ينفقون رئاء الناس، أو يضعون الإنفاق فى غير موضعه ، أو بضم المنّ والأذى إليـه ، أو بالإنفاق من الخبيث ،

(١) [٤٤ / الدخان / ٤] .

أو يمنعون الصدقات ، أو ينفقون أموالهم فى المعاصى ، أو لا يفون بالنـذور « مِنْ أَنْصَارٍ » أى من أعوان ينصرونهم من عقاب الله .

قال الحرالىّ : ففى إفهامه أن الله آخذ بيد السخىّ وبيد الكريم كلما عثر فيجد له نصيراً ولا يجد الظالم ، بوضع القهر موضع البر ، ناصراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧١] (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ » نوع تفصيل لبعض ماأجمل فى الشرطية . وبيان له. ولذلك ترك العطف بينهما. أى إن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً إبداؤها. لأنه يرفع التهمة ويدعو له كل من يسمع من محتاج وغيره ويفيد اتباع الناس إياه « وَإِنْ تُخْفُوهَا » أى تسرّوها مخافة الرياء ، وستراً لعار الفقراء « وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى من العلانية. لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص الذى هو روح العبادات « وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ » ذنوبكم بقدر صدقاتكم « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » ترغيب فى الإسرار . وفى الصحيحين[(١)] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل. وشاب نشأ فى عبادة ربه. ورجل قلبه معلق فى المساجد. ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين. ورجل تصدق أخفى حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه. ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه . وروى الإمام أحمد[(٢)] وابن أبى حاتم عن أبى ذر قال: قلت يارسول الله

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٦ ـ باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ).

أيّ الصدقة أفضل؟ قال: سرٌّ إلى فقير، أو جهد من مقلّ .

لطائف : قال : أبوالبقاء فى قوله تعالى (فنعماهى) : نِعْمَ فعل جامد لا يكون فيه مستقبل. وأصله نَعِمَ كعلم. وقدجاء على ذلك فى الشعر. إلا أنهم سكّنوا العين ونقلوا حركتها إلى النون ليكون دليلاً على الأصل. ومنهم من يترك النون مفتوحة على الأصل. ومنهم من يكسر النون والعين اتّباعاً. وبكلٍّ قدقرئ. وفاعل (نعم) مضمر و (ما) بمعنى شيء. ثم قال: (ونكفر عنكم) يقرأ بالنون على إسناد الفعل إلى الله عز وجل ويقرأ بالياء على هذا التقدير أيضاً وعلى تقدير آخر وهو أن يكون الفاعل ضمير الإخفاء. ويقرأ (وتكفر) بالتاء على أن الفعل مسند إلى ضمير الصدقة. ويقرأ بجزم الراء عطفاً على موضع « فَهُوَ خَيْرٌ » وبالرفع على إضمار مبتدأ أى ونحن أو وهى. و (من) هنا زائدة عند الأخفش فيكون (سيئاتكم) المفعول. وعند سيبويه المفعول محذوف أى شيئاً من سيئاتكم. والسيئة فيْعِلة . وعينها واو لأنها من ساء يسوء فأصلها سيوئة فأبدلت الواو ياء وأدغمت الأولى فيها. انتهى .

وفى (غيث النفع): قرأ (فنعما) الشامى. والإخوان بفتح النون . والباقون بالكسر . وقرأ قالون والبصرىّ وشعبة بإسكان العين واختار كثير لهم إخفاء كسرة العين يريدون الاختلاس فراراً من الجمع بين الساكنين، والباقون بكسر العين ، واتفقوا على تشديد الميم. ثم ناقش الشاطبىّ فى كونه لم يذكر لقالون ومن عطف عليه إلا الإخفاء، مع أنه روى عنهم الإسكان المحض أيضاً . ثم قال : وقدصرح المحقق فى نشره أن الدانى روى الوجهين جميعاً . ثم قال : والإسكان آثر والإخفاء أقيس وهو قراءة أبى جعفر والحسن . وغاية مافيه الجمع بين الساكنين وليس أولهما حرف مد ولين وهو جائز قراءةً ولغةً. ولا عبرة بمن أنكره ولو كان إمام البصرة. والمنكر له هنا يقرأ به لحمزة فى قوله تعالى: فَمَا اسْتَطَاعُوا[1] . بالكهف إذ فيه الجمع بين الساكنين وصلاً بلا شك إذ السين ساكن والطاء مشدد وهذا مثله .

(١) [١٨/الكهف/٩٧] ونصها: فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا.

والله أعلم . وبه يعلم ردّ ماقيل إن راوى التسكين لم يضبط القراءة لأن القارئ اختلس كسرة العين فظنه إسكاناً فإنه غفلة عن جوازه لغة . كما حكاه أبو عبيد. وعن القراءة بنظيره فى (استطاعوا) وبالله التوفيق .

---

[٢٧٢] (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » أى لايجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الإتيان بما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من المساوئ المعدودة كالمن والأذى والإنفاق من الخبيث والبخل « وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » بخلق الهداية فى قلبه عقيب بيانك لجريان سنته بخلق الأشياء عقيب أسبابها ، لاعلى سبيل الوجوب . بل على سبيل الاختيار . أفاده المهايمىّ .

قال أبو السعود : والجملة معترضة جئ بهـا على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ، مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين ، مبالغة فى حملهم على الامتثال . فإن الإخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبىّ ﷺ مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به مابعده من الشرطية « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ » أى بالحقيقة لأن المنفَق عليه إنما يقضى بها حاجته الفانية ويحصل لكم بها الثواب الأبدىّ ، فلم تمنون به على الناس وتؤذونهم ؟ ونظائر هذا فى القرآن كثيرة كقوله : من عمل صالحاً فلنفسه[1] . « وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ » نفى فى معنى النهى . أى فلا تستطيلوا به على النـاس

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] ونصها : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

ولا تراؤا به . « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ » ثوابه أضعافاً مضاعفة « وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » أى لا تنقصون من حسناتكم ، كما لا يزاد على سيئاتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٣] (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« لِلْفُقَرَاءِ » متعلق بمحذوف ينساق إليه الكلام . أى اجعلوا ما تنفقونه للفقراء . أو صدقاتكم للفقراء . أى المحتاجين إلى النفقة « الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ » أى حبسوا أنفسهم فى طاعته تعالى من جهاد أو غيره « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً » أى ذهاباً « فِي الْأَرْضِ » لاكتساب أو تجارة « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ » بحالهم « أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » أى من أجل تعففهم عن السؤال . والتلويح به قناعة بما أعطاهم مولاهم ، ورضا عنه ، وشرف نفس. « تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ » بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى : سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ[١] . وقال : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[٢] . وفى الحديث الذى فى السنن[٣] :

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٠] ونصها : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ حدثنا محمد بن إسماعيل .

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنـور الله ، ثم قرأ : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ(١) . قاله ابن كثير .

قال الغزالى : ينبغى أن يطلب بالفحص عن أهل الدين فى كل محلة ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، ممن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى. أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته . فهو يتعيش فى جلباب التجمل . فثوابُ صرفِ المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال . كما ينبغى أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة كأن يكون أهل علم. فإن ذلك إعانة له على العلم. والعلم أشرف العبادات مهما صحّت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم . فقيل له : لو عممت ! فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء . فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم. فتفريغهم للعلم أفضل .

لطيفة :

السيما مقصور، كالسيمة ، والسيماء والسيمياء (ممدودين بكسرهن) والسومة (بالضم): العلامة . قال أبو بكر بن دريد: قولهم: عليه سيما حسنة، معناه علامة . وهى مأخوذة من وسمت أَسِمُ . والأصل فى (سيما) وسمى . فحولت الواو من موضع الفاء فوضعت فى موضع العين، كما قالوا: ماأطيبه وأيطبه، فصار سومى. وجعلت الواو ياء لسكونها وانكسار ماقبلها ، قال السمين: فوزن سيما عفلا . وإذا مدت فالهمزة فيها منقلبة عن حرف زائد للإلحاق . إما واو أو ياء . فهى كعلباء ملحقة بسرداح . فالهمزة للإلحاق لا للتأنيث وهى منصرفة لذلك . انتهى .

« لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » مصدر فى موضع الحال . أى ملحفين. يقال : ألحف عليه الخ قال الزمخشرى : الإلحاف الإلحاح . وهو اللزوم . وأن لا يفارق إلا بشىء يعطاه . من قولهم: لحفنى من فضل لحافه . أى أعطانى من فضل ما عنده . قيل معنى الآية : إن سألوا سألوا

(١) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

بتلطف ولم يلحوا. فيكون النفى متوجهاً إلى القيد وحده. والصحيح أنه نفى للسؤال والإلحاف جميعاً . فمرجع النفى إلى القيد ومقيده كقوله : وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ[١] وفيه تنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً . واستيجاب المدح والتعظيم للمتعفف عن ذلك. وفى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف . اقرؤا إن شئتم : « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً »[٣] وأخرج ابن أبى شيبة والبخارىّ ومسلم[٤] والنسائىّ عن ابن عمر أن النبىّ ﷺ قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود[٥] والترمذىّ وصححه، والنسائىّ وابن حبان عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : إن المَسَائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه . فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك . إلا أن يسأل ذا سلطان، أو فى أمر لا يجد منه بداً . وأخرج أحمد[٦] عن ابن عمر :

---

(١) [٤٠ / غافر / ١٨] ونصها : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٨ ـ باب: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً .

(٣) [٢/البقرة/٢٧٣] ونصها : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠٣ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٢٦ ـ باب كم يعطى الرجل الواحد من الزكاة ، حديث ١٦٣٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٩٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المسألة كدوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . فمن شاء استبقى على وجهه . وأخرج ابن أبى شيبة ومسلم[١] وابن ماجة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر . وأخرج أحمد وأبو داود[٢] وابن خزيمة عن سهل بن الحنظلية قال : قال رسول الله ﷺ: من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم . قالوا : يا رسول الله ومايغنيه؟ قال: ما يغديه أويعشيه. وأخرج مسلم[٣] والترمذىّ والنسائىّ عن عوف بن مالك الأشجعىّ قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ فقلنا علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً . والصلوات الخمس . وتطيعوا ولا تسألوا الناس . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه .

وأخرج مالك وابن أبى شيبة والبخارىّ[٤] ومسلم والترمذىّ والنسائىّ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه. وأخرج الطبرانىّ والبيهقىّ عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : الله يحب المؤمن المحترف . وأخرج أحمد والطبرانىّ وأبو داود والنسائىّ[٥] عن أبى سعيد الخدرى أن النبىّ ﷺ قال: من استغنى

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠٥ (طبعتنا) .
(٢) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٢٤ ـ باب من يعطى من الصدقة وحدّ الغنى ، حديث ١٦٢٩ .
(٣) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٠٨ (طبعتنا) .
(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٥٠ ـ باب الاستعفاف عن المسئلة ، حديث ٧٨٢ .
(٥) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٨٩ ـ باب فى الملحف .

أغناه الله . ومن استعف أعفه الله . ومن استكفى كفاه الله . ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف . وأخرج البخاري[1] ومسلم والنسائي عن ابن عمر أن عمر قال : كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول : أعطه من هو أفقر إليه مني . فقال : خذه . إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله . فإن شئت كله وإن شئت تصدق به . وما لا ، فلا تتبعه نفسك .

قال سالم بن عبد الله فلأجل ذلك كان عبد الله لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أُعْطِيَهُ .

« وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ » أي ولو على الملحين وعلى من لم يتحقق فقرهم أولم تشتد حاجتهم « فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أي بأن ذلك الإنفاق له أولغيره ، فيجازي بحسبه . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يختص الإنفاق بوقتٍ أو حالٍ بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧٤] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وفي تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيذان بمزية الإخفاء على الإظهار .

قال الحرالي : فأفضلهم المنفق ليلاً سرًّا . وأنزلهم المنفق نهاراً علانية . فهم بذلك أربعة أصناف .

لطائف : لا يخفى أن في حضه تعالى على الإنفاق في هذه الآية الوافرة ، وضربه الأمثال في الإحسان إلى خلقه ترغيباً وترهيباً ، ما يدعو كل مؤمن إلى أن يتزكى بفضل ماله .

---

(١) أخرجه البخاري في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٧ ـ باب رزق الحكام والعاملين عليها .

قال الإمام الغزالىّ عليه الرحمة فى (الإحياء) ما نصه : فى وجه الامتحان بالصدقات ثلاث معانى : الأول أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود . وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد . فإن المحبة لا تقبل الشركة . والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب . والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا . وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت . مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم . ولذلك قال الله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ[1] . وذلك بالجهاد . وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل . والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم . فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً . وقسم درجتهم دون من قبلهم ، وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات . فيكون قصدهم فى الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم . وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها . وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقاً سوى الزكاة . كالنخعىّ والشعبىّ وعطاء ومجاهد . قال الشعبىّ (بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟) قال : نعم . أما سمعت قوله عز وجل : وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ ... الآية[2] واستدلوا بقوله

(١) [٩/التوبة/١١١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) [٢/ البقرة/ ١٧٧] ونصها : لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ =

عز وجل : وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(١) . وبقوله تعالى : وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ(٢) . وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم . ومعناه أنه يجب على الموسر ، مهما وجد محتاجاً ، أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة . وقسم يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه . وهى أقل الرتب . وقد اقتصر جميع العوام عليه . لبخلهم بالمال وميلهم إليه ، وضعف حبهم للآخرة . قال الله تعالى : إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ(٣) . يحفكم أى : يستقص عليكم . فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لا يستقصى عليه لبخله . فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال. المعنى الثانى التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات. قال ﷺ(٤): ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وقال تعالى : وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) . وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود

= وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؛ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٣] ونصها : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

(٢) [٦٣ / المنافقون / ١٠] ونصها : وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ .

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٧] .

(٤) ١٠٣٥ (كشف الخفاء) : البزار والطبرانى وأبو نعيم ، عن أنس بسند ضعيف .

(٥) [٥٩ / الحشر / ٩] ونصها : وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ =

بذل المال . فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتياداً . والزكاة ، بهذا المعنى ، طهرة . أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك . وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه لله تعالى. المعنى الثالث شكر النعمة. فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله . فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن . والمالية شكر لنعمة المال . وما أخسّ من ينظر إلى الفقير ، وقد ضيِّق عليه الرزق ، وأحوج إليه ، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه .

فصل

وللغزاليّ رحمه الله أيضاً بحث في المنّ والأذى المتقدم ذكرها . يجدر ذكره هنا ، لما فيه من الفوائد لطالب الآخرة .

قال رحمه الله : الوظيفة الخامسة (يعني من وظائف مريد طريق الآخرة بصدقته) أن لا يفسد صدقته بالمنّ والأذى. قال الله تعالى : ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[1] . واختلفوا في حقيقة المنّ والأذى . فقيل : المنّ أن يذكرها . والأذى أن يظهرها . وقال

= يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

و [٦٤ / التغابن / ١٦] ونصها : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

سفيان : من منّ فسدت صدقته . فقيل له : كيف المنّ ؟ فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المنّ أن يستخدمه بالعطاء . والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المنّ أن يتكبر عليه لأجل عطائه . والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال ﷺ[١] : لا يقبل الله صدقة منان . وعندى أن المنّ له أصل ومغرس . وهو من أحوال القلب وصفاته . ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح . فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه . وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عز وجل منه ، الذى هو طهرته ونجاته من النار . وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهناً به . فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله ﷺ[٢] : إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل . فليتحقق أنه مسلِّم إلى الله عز وجل حقه . والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل. ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كونَ القابض تحت منته سفهاً وجهلا. فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه . أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ماأحبه. فهو ساع فى حق نفسه. فلِمَ يمن به على غيره؟ ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناهاقبل، أو أحدها لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه . إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل،أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد. وكيفما كان فلامعاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه. ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرع منه على ظاهره ، ماذكر فى معنى المنّ . وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة

(١) قال الحافظ العراقىّ فى (تخريج أحاديث الإحياء) : لم أجده .

(٢) قال الحافظ العراقىّ فى (تخريج أحاديث الإحياء) : الدارقطنىّ فى (الإفراد) من حديث ابن عباس . وقال: غريب من حديث عكرمة عنه . ورواه البيهقىّ فى (شعب الإيمان) بسند ضعيف .

منه بالشكر والدعاء ، والخدمة والتوقير والتعظيم ، والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس ، والمتابعة فى الأمور . فهذه كلها ثمرات المنّة . ومعنى المنة فى الباطن ماذكرناه. وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار ، وفنون الاستخفاف وباطنه وهو منبعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، فإن ذلك يضيق الخلق لامحالة . والثانى رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخسّ منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حمق . لأن من كره بذل درهم فى مقابلة مايسوى ألفاً فهو شديد الحمق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل ، والثواب فى الدار الآخرة . وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل ، أو شكره لطلب المزيد . وكيفما فرض فالكراهة لاوجه لها . وأما الثانى فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام .

وقد أطال الغزالىّ رحمه الله من هذا النفس العالى. فليراجع .

فصل

فى هديه ﷺ فى الزكاة والصدقة

قال شمس الدين ابن القيّم الدمشقىّ فى (زاد المعاد) : هديه ﷺ فى الزكاة أكمل هدى فى وقتها ، وقدرها ونصابها ، ومن تجب عليه ، ومصرفها . وراعى فيها مصلحة أرباب الأموال ومصلحة المساكين وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرة للمال ولصاحبه. وقيد النعمة به على الأغنياء . فما أزال النعمة بالمال على من أدى زكاته . بل يحفظه عليه وينميه له ويدفع عنه بها الآفات ، ويجعلها سوراً عليه وحصناً له وحارساً له .

ثم قال فى (هديه ﷺ فى صدقة التطوع) : كان ﷺ أعظم الناس صدقة مما ملكت يده. وكان لايستكثر شيئاً أعطاه لله تعالى ولا يستقله. ولا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه قليلا أو كثيراً . وكان عطاؤه عطاء من لايخاف الفقر . وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه . وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه . وكان أجود الناس بالخير ، يمينه كالريح المرسلة . وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه وتارة بلباسه . وكان يتنوع فى أصناف عطائه وصدقته . فتارة بالهبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية وتارة بشراء شيء ثم يعطى البائع الثمن والسلعة جميعاً كما فعل بجابر[1]. وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه ، وأفضل وأكبر، ويشترى الشيء فيعطى أكثر من ثمنه . ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها تلطفاً وتنوعاً فى ضروب الصدقة والإحسان

(١) أخرج البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٣٤ ـ باب شراء الدواب والحمير ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنت مع النبىّ ﷺ فى غزاة فأبطأ بى جملى وأعيا . فأتى علىّ النبىّ ﷺ فقال « جابر ! » فقلت : نعم . قال : « ما شأنك ؟ » قلت : أبطأ علىّ جملى وأعيا فتخلفت . فنزل يحجُنُه بمحجنه . ثم قال « اركب » فركبت . فلقد رأيته أكفه عن رسول الله ﷺ . قال « تزوجت ؟ » قلت: نعم . قال « بكراً أم ثيباً ؟ » قلت: بل ثيباً. قال « أفلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : إن لى أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن. قال « أمَا إنك قادم . فإذا قدمت فالكيسَ ! الكيس! » ثم قال « أتبيع جملك ؟ » قلت : نعم . فاشتراه بأوقية . ثم قدم رسول الله ﷺ قبلى وقدمتُ بالغداة . فجئنا إلى المسجد . فوجدته على باب المسجد . قال « الآن قدمت ؟ » قلت : نعم . قال « فدع جملك فادخل فصل ركعتين » فدخلت فصليت . فأمر بلالا أن يزن لى أوقية . فوزن لى بلال فأرجح فى الميزان . فانطلقت حتى وليت . فقال « ادع لى جابراً » قلت : الآن يردّ علىّ الجمل . ولم يكن شيء أبغض إلىّ منه . قال : « خذ جملك ولك ثمنه » .

بكل ممكن . وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله فيخرج ماعنده ويأمر بالصدقة ويحض عليها ويدعو إليها وبحاله وقوله . فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء. وكان من خلاطه وصحبه ورأى هديه لايملك نفسه من السماحة والندى . وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً . فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً فى شرح الصدور وانضاف ذلك إلى ماخصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها. وشرح صدره حساً وإخراج حظ الشيطان منه .

ولما ذكر تعالى الأبرار المؤدّين النفقات من الزكوات والصدقات فى جميع الأحوال والأوقات ، شرع فى ذكر أَكَلَةِ الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات . فأخبر عن حالهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٥] (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« الذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰوا » وهو فضل مال خال عن العوض فى معاوضة مال بمال . وكتب الربَوا بالواو على لغة من يفخم . كما كتبت الصلوة والزكوة. وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع « لَا يَقُومُونَ » أى يوم القيامة كما قاله بعض الصحابة والتابعين « إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » فى القاموس خبطه ضربه شديداً ، كتخبطه واختبطه . وفى (العباب) كل من ضربه بيده فصرعه فقد خبطه وتخبطه . وأصل المسّ

باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه . والجار يتعلق إما بـ (لا يقومون) أى لا يقومون من المس الذى بهم إلا كما يقوم المصروع من جنونه أو بـ (يقوم) أى : كما يقوم المصروع من جنونه . أو بـ (يتخبطه) أى من جهة الجنون . والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين . تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة .

قال الحرالىّ : فى إطلاقه إشعار بحالهم فى الدنيا والبرزخ والآخرة . ففى إعلامه إيذان بأن آكله يسلب عقله ويكون بقاؤه فى الدنيا بخُرْقٍ لا بعقل . يقبل فى محل الإدبار ، ويدبر فى محل الإقبال .

قال البقاعىّ : وهو مؤيد بالمشاهدة . فإنا لم نر ولم نسمع قط بآكل ربا ينطق بالحكمة ولا يشهر بفضيلة بل هم أدنى الناس وأدنسهم .

تنبيه :

قال فى الكشاف : وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والمس الجنون . ورجل ممسوس . وهذا أيضا من زعماتهم . وأن الجنىّ يمسه فيختلط عقله . وكذلك : جُنَّ الرجل معناه ضربته الجن .

وتبعه البيضاوىّ فى قوله وهو : أى التخبط والمس ، وارد على ما يزعمون الخ .

قال الناصر فى (الانتصار) : معنى قول الكشاف من زعمات العرب أى كذباتهم وزخارفهم التى لاحقيقة لها . وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية من زعماتهم المردودة بقواطع الشرع . ثم ساق ما ورد فى ذلك من الأحاديث والآثار : وقال بعده: واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها . وإنما القدرية خصماء العلانية . فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم . من ذلك : السحر ، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن . وإن اعترفوا بشىء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبىء عنه ظاهر الشرع . فى خبط طويل لهم .

وقال الشيخ سعد الدين التفتازانىّ فى (شرح المقاصد) : وبالجملة فالقول بوجود الملائكة والجن والشياطين مما انعقد عليه إجماع الآراء . ونطق به كلام الله وكلام الأنبياء .

وقال : الجن أجسام لطيفة هوائية تتشكل بأشكال مختلفة ويظهر منها أحوال عجيبة . والشياطين أجسام نارية شأنها إلقاء الناس فى الفساد والغواية . ولكون الهواء والنار فى غاية اللطافة والتشفيف ، كانت الملائكة والجن والشياطين يدخلون المنافذ الضيقة حتى أجواف الإنسان ولا يُرَوْن بحسن البصر إلا إذا اكتسبوا من الممتزجات .

قال العلامة البقاعىّ ، بعد نقله ماذكرنا : وقد ورد فى كثير من الأحاديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم[1] أن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم . وورد أنه ﷺ أخرج الصارع من الجن من جوف المصروع فى صورة كلب ، ونحو ذلك. وفى كتب الله سبحانه وتعالى المتقدمة مالا يحصى من مثل ذلك . وأما مشاهدة المصروع يخبر بالمغيبات وهو مصروع غائب الحس ، وربما كان ملقى فى النار وهو لا يحترق ، وربما ارتفع فى الهوء من غير رافع ـ فكثير جداً . لا يحصى مشاهدوه . إلى غير ذلك من الأمور الموجبه للقطع أن ذلك من الجن أو الشياطين . وها أنا أذكر لك فى ذلك من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم مافيه مقنع لمن تدبره والله الموفق .

روى الدارمىّ[2] فى أوائل مسنده بسند حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولايته القضاء . ونصه : عن علىّ بن الحسن أن النبىّ ﷺ أتته صفية بنت حُيَىّ . فلما رجعت انطلق معها . فمرّ به رجلان من الأنصار . فدعاهما فقال « إنما هى صفية » قالا : سبحان الله . قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

(٢) أخرجه الدارمىّ فى المقدمة ، ٤ ـ باب ما أكرم الله به نبيّه من إيمان الشجر به والبهائم والجن .

جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله : إن ابنى به جنون . وأنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا . فيُخَبِّث علينا. فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا . فَثَعَّ ثَعَّةً . وخرج من صدره مثل الجرو الأسود فسعى . (وقوله ثع بمثلثة ومهملة أى قاء) .

وللدارمىّ أيضاً وعبد بن حميد بسند حسن أيضا عن جابر رضى الله عنه قال: خرجت مع النبىّ ﷺ فى سفر . فركبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ بيننا كأنما على رؤسنا الطير ، تظلنا . فعرضت له امرأة معها صبىّ لها . فقالت : يارسول الله ! إن ابنى هذا يأخذه الشيطان كل يوم ثلاث مرار . فتناول الصبىّ فجعله بينه وبين مقدم الرحل . ثم قال: اخسأ ، عدو الله ! أنا رسول الله (ثلاثاً) ثم دفعه إليها .

وأخرجه الطبرانىّ من وجه آخر . وبيّن أن السفر غزوة ذات الرقاع وأن ذلك كان فى حرّة واقم . قال جابر : فلما قضينا سفرنا مررنا بذلك المكان . فعرضت لنا المرأة ومعها صبيها ومعها كبشان تسوقهما . فقالت : يا رسول الله ! اقبل منى هديتى . فوالذى بعثك بالحق ! ما عاد إليه بعد . فقال : خذوا منها واحداً ، وردوا عليها الآخر .

ورواه البغوىّ فى (شرح السنة) عن يعلى بن مرة رضى الله عنه .

ثم ساق البقاعىّ ما جاء فى الإنجيل . قال : وذلك كثير جداً . يعنى ما وقع للمسيح عليه السلام من إخراج الشياطين والأرواح الخبيثة من المبتلين بذلك . وبعد أن ساق ذلك قال : وإنما كتبت هذا مع كون مانقل عن نبيّنا ﷺ كافياً ، لأنه لايُدفع أن يكون فيه إيناس له ومصادقة تزيد فى الإيمان .

وقد أجاد بيان تسلط الأرواح الخبيثة الإمام شمس الدين ابن القيّم فى (زاد المعاد) وذكر علاج دفعها فقال عليه الرحمة :

فصل

فى هديه ﷺ فى علاج الصرع

أخرجا فى الصحيحين(١) من حديث عطاء بن أبى رباح قال: قال لى ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هـذه المرأة السوداء . أتت النبىّ ﷺ فقالت : إنى أصرع . وإنى أتـكشف . فادع الله لى . فقال : إن شئت صبرتِ ولك الجنة . وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك . فقالت : أصبر . قالت : إنى أتـكشف فادع الله أن لا أتـكشف. فدعا لها .

قلت : الصرع صرعان : صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية وصرع من الأخلاط الردية . والثانى هو الذى يتكلم فيه الأطباء فى سببه وعلاجه . وأما صرع الأرواح، فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به ولا يدفعونه . ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة . فتدافع آثارها وتعارض أفعالها وتبطلها . وقد نص على ذلك بقراط فى بعض كتبه . فذكر بعض علاج الصرع وقال : هذا إنما ينفع من الصرع الذى سببه الأخلاط والمـادة . أما الصرع الذى يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج . وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ومن يعتقد بالزندقة فضيلة ، فأولئك ينـكرون صرع الأرواح ولا يقرون بأنها تؤثر فى بدن المصروع . وليس معهم إلا الجهل . وإلا فليس فى الصناعة الطبية ما يدفع ذلك . والحس والوجود شاهدٌ به . وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط هو صادق فى بعض أقسامه لا فى كلها . وقدماء الأطباء كانوا يسمون هذا الصرع المرض الإلهىّ . وقالوا : إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيره ، فتأولوا عليهم هذه التسمية وقالوا: إنمـا سموها بالمرض الإلهى لـكون هذه العلة تحدث فى الرأس فتضرّ بالجزء الإلهىّ الطاهر الذى مسكنه الدماغ . وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها وتأثيراتها .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى، ٦ ـ باب فضل من يصرع من الريح.

وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده . ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء الأطباء وضعف عقولهم . وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع وأمر من جهة المعالج . فالذى من جهة المصروع يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وباريها . والتعوذ الصحيح الذى قد تواطأ عليه القلب واللسان . فإن هذا نوع محاربة . والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً فى نفسه جيداً ، وأن يكون الساعد قوياً . فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل . فكيف إذا عدم الأمران جميعاً ، بكون القلب خراباً من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له. والثانى من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً . حتى إن من المعالجين من يكتفى بقوله : اخرج منه . أو بقول : بسم الله . أو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله . والنبى ﷺ كان يقول: اخرج عدوّ الله ! أنا رسول الله . وشاهدت شيخنا (يعنى الإمام ابن تيمية رضى الله عنه) يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التى فيه ويقول : قال لك الشيخ اخرجى . فإن هـذا لا يحل لك . فيفيق المصروع . وربما خاطبها بنفسه . وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب. فيفيق المصروع ولا يحس بألم . وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً . وكان كثيراً ما يقرأ فى أذن المصروع : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(١) . وحدثنى أنه قرأها مرة فى أذن المصروع فقالت الروح : نعم . ومدّ بها صوته . قال : فأخذت له عصا وضربته بها فى عروق عنقه حتى مجلت يداى من الضرب . ولم يشكّ الحاضرون بأنه يموت لذلك الضرب . ففى أثناء الضرب قالت: أنا أحبّه . فقلت لها : هو لا يحبك . قالت : أنا أريد أن أحج به . فقلت لها: هو لا يريد أن يحج معك . فقالت : أنا أدعه كرامة لك . قال قلت : لا . ولكن طاعةً لله ولرسوله . قالت : فأنا أخرج منه .

قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالاً . وقال: ماجاء بى إلى حضرة الشيخ؟ قالوا له: وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أى شىء يضربنى الشيخ ولم أذنب؟ ولم يشعر بأنه وقع ضربٌ البتة.

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١١٥] .

وكان يعالج بآية الكرسي . وكان يأمر بكثرة قراءة المصروع ومن يعالجه بها . وبقراءة المعوذتين . وبالجملة ، فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة . وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله يكون من جهة قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم، من حقائق الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية . فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه ، وربما كان عريانًا فيؤثر فيه هذا . ولو كشف الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى مع هذه الأرواح الخبيثة . وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت . ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها . وبها الصرع الأعظم الذي لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة . فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة . وبالله المستعان .

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل . وأن تكون الجنة والنار نصب عينه وقبلة قلبه . ويستحضر أهل الدنيا وحلول المثلات والآفات بهم . ووقوعها خلال ديارهم . كمواقع القطر . وهم صرعى لا يفيقون . وما أشد أعداء هذا الصرع ! ولكن لما عمت البلية بحيث لا يرى إلا مصروعاً لم يصر مستغرباً ولا مستنكراً . بل صار، لكثرة المصروعين ، عين المستنكر المستغرب خلافه . فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً أفاق من هذه الصرعة ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالًا على اختلاف طبقاتهم . فمنهم من أطبق به الجنون . ومنهم من يفيق أحيانًا قليلة ويعود إلى جنونه . ومنهم من يفيق مرة ويجن أخرى . فإذا أفاق عَمِل عَمَل أهل الإفاقة والعقل . ثم يعاوده الصرع فيقع التخبط .

ثم قال: وأما صرع الأخلاط فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعاً غير تام : وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة . فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذًا ما، من غير انقطاع بالكلية . وقد يكون لأسباب أخر. كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح . أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء . أو كيفية لاذعة فينقبض الدماغ لدفع المؤذي فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء . ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً بل يسقط ويظهر في فيه الزبد غالباً . وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار

وقت وجود المؤلم خاصة . وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها وعسر برئها. لاسيما إن جاوز فى السن خمساً وعشرين سنة . وهذه العلة فى دماغه وخاصة فى جوهره . فإن صرع هؤلاء يكون لازماً . قال بقراط : إن الصرع يبقى فى هؤلاء حتى يموتوا .

إذا عرف هذا، فهذه المرأة التى جاء الحديث أنها كانت تصرع وتنكشف، يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع . فوعدها النبى ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض . ودعا لها أن لا تنكشف . وخيّرها بين الصبر والجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان . فاختارت الصبر والجنة . وفى ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوى. وإن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل مالا يناله علاج الأطباء . وإن تأثيره وفعله وتأثير الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية وانفعال الطبيعة عنها . وقد جربنا هذا مراراً نحن وغيرنا . وعقلاء الأطباء معترفون بأن فى فعل القوى النفسية وانفعالاتها فى شفاء الأمراض عجائب . وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم وسفلتهم وجهالهم . والظاهر أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع . ويجوز أن يكون من جهة الأرواح . ويكون رسول الله ﷺ قد خيّرها بين الصبر على ذلك مع الجنة . وبين الدعاء لها بالشفاء . فاختارت الصبر والستر . والله أعلم .

« ذَٰلِكَ » أى القيام المخبط « بِأَنَّهُمْ قَالُوا » أى بسبب قولهم «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» أى نظيره فى أن كلًّا منهما معاوضة . فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع . وحل البيع متفق عليه . فيقاس عليه الربا . وحق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق؟ أجيب بأنه جىء به على طريق المبالغة. وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلًا وقانوناً فى الحل . حتى شبهوا به البيع . كذا أجاب الزمخشرىّ .

قال الناصر فى (حواشيه) : وعندى وجه فى الجواب غير ما ذكر . وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين فى ثبوت الحكم ، فللقائل أن يسوى بينهما طرداً . فيقول مثلًا : الربا مثل البيع . وغرضه من ذلك أن يقول والبيع حلال فالربا حلال . وله أن يسوى بينهما

فى العكس فيقول : البيع مثل الربا . فلو كان الربا حراماً كان البيع حراماً . ضرورة المماثلة . ونتيجته التى دلت قوة الكلام عليها أن يقول: ولما كان البيع حلالًا اتفاقاً غير حرام ، وجب أن يكون الربا مثله . والأول على طريقة قياس الطرد . والثانى على طريقة قياس العكس . ومآلهما إلى مقصد واحد . فلا حاجة ، على هذا التقرير ، إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره . وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذى تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح. وإن كان قياساً فاسد الوضع ، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً فى تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما. ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالًا صحيحاً فقل فى الأولى : النبيذ مثل الخمر فى علة التحريم . وهو الإسكار. والخمر حرام . فالنبيذ حرام. وقل فى الثانية : إنما الخمر مثل النبيذ . فلو كان النبيذ حلالًا لكان الخمر حلالًا . وليست حلالًا اتفاقاً. فالنبيذ كذلك. ضرورة المماثلة المذكورة. فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه. والله أعلم . وقوله « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » إنكار لتسويتهم بينهما . إذ الحل مع الحرمة ضدان . فأنّى يتماثلان ؟ ودلالة على أن القياس يهدمه النص . لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه .

قال الرازىّ : إن نفاة القياس يتمسكون بهذا الحرف . قالوا: لو كان الدين بالقياس لكانت هذه الشبهة لازمة . فلما كانت مدفوعة علمنا أن الدين بالنص لا بالقياس . وذكر القفال رحمه الله الفرق بين البابين فقال: من باع ثوباً يساوى عشرة بعشرين ، فقد جعل ذات الثوب مقابلا بالعشرين . فلما حصل التراضى على هذا التقابل ، صار كل واحد منهما مقابلا للآخر فى المالية عندهما . فلم يكن أخذ من صاحبه شيئاً بغير عوض. أما إذا باع العشرة بالعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة من غير عوض، ولا يمكن أن يقال : إن عوضه هو الإمهال فى مدة الأجل. لأن الإمهال ليس مالًا أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً عن العشرة الزائدة . فظهر الفرق بين الصورتين . وقد أخرج أبو نعيم فى (الحلية) عن جعفر بن محمد أنه سئل : لم حرم الله

الربا ؟ قال لئلا يتمانع الناس المعروف . أى الإحسان الذى فى القرض إذ لَوْ حَلَّ درهم بدرهمين ماسمح أحد بإعطاء درهم بمثله .

« فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ » أى بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا « مِنْ رَبِّهِ » متعلق بـ(جاءه) أو بمحذوف وقع صفة لـ(موعظة). والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجىء الموعظة للتربية « فَانْتَهَىٰ » عطف على (جاءه) أى فاتعظ بلا تراخ،وتبع النهى « فَلَهُ مَا سَلَفَ » أى ما تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه « وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ »إن شاء أخذه لظهور الفرق وإن شاء عفا عنه. لأن الفرق ، وإن ظهر لأرباب النظر ، يجوز أن يخفى على العوام « وَمَنْ عَادَ » أى إلى تحليل الربا بعد النص « فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » لكفرهم بالنص، وردهم إياه بقياسهم الفاسد، بعد ظهور فساده. ومن أحل ماحرم الله عز وجل فهو كافر. فلذا استحق الخلود. وبهذا تبين أنه لاتعلق للمعتزلة بهذه الآية فى تخليد الفساق . حيث بنوا على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة . ولا يخفى أنه لا يساعدهم على ذلك الظاهر الذى استدلوا به . فإن الذى وقع العود إليه محمول على ما تقدم . كأنه قال : ومن عاد إلى ما سلف ذكره ، وهو فعل الربا واعتقاد جوازه والاحتجاج عليه بقياسه على البيع . ولاشك أن من تعاطى معاملة الربا مستحلاً لها مكابراً فى تحريمها،مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات ، بما يتوهمه من الخيالات ـ فقد كفر ثم ازداد كفراً. وإذ ذاك يكون الموعود بالخلود فى الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن. وهذا لا خلاف فيه، فلا دليل إذاً للمعتزلة على اعتزالهم فى هذه الآية . والله الموفق . أشار لذلك فى الانتصاف.

قال فى فتح البيان : والمصير إلى هذا التأويل واجب ، للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٦] ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

« يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا » أى يذهب ريعه ويمحو خيره ، وإن كان زيادة فى الظاهر فلا ينتفع به فى الآخرة كما قال تعالى : وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِىٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ[1] وقال تعالى : وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ[2] .
« وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ » أى يكثرها وينميها وإن كانت نقصاناً فى الشاهد .

فوائد :

الأولى قال القاشانىّ : لأن الزيادة والنقصان إنما يكونان باعتبار العاقبة والنفع فى الدارين . والمال الحاصل من الربا لا بركة له لأنه حصل من مخالفة الحق . فتكون عاقبته وخيمة وصاحبه يرتكب سائر المعاصى . إذ كل طعام يولّد فى آكله دواعى وأفعالاً من جنسه . فإن كان حراماً يدعوه إلى أفعال محرمة ، وإن كان مكروهاً فإلى أفعال مكروهة . وإن كان مباحاً فإلى مباحة . وإن كان من طعام فضل فإلى مندوبات ، وكان فى أفعاله متبرعاً متفضلاً . وإن كان بقدر الواجب من الحقوق فأفعاله تكون واجبة ضرورية . وإن كان من الفضول والحظوظ فأفعاله تكون كذلك . فعليه إثم الربا وآثار أفعاله المحرمة المتولدة من أكله . فتزداد عقوباته وآثامه أبداً . ويتلف الله ماله فى الدنيا فلا ينتفع به أعقابه وأولاده . فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو المحق الكلىّ . وأما المتصدق فلكون ماله مزكّى يبارك الله فى تثميره مع حفظ الأصل . وآكله لا يكون إلا مطيعاً فى أفعاله . ويبقى ماله فى أعقابه وأولاده منتفعاً به . وذلك

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] وباقى الآية : . . . وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٣٧] ونصها : لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ ، أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

هو الزيادة فى الحقيقة . ولو لم تكن زيادته إلا ما صرف فى طاعة الله لكفى به زيادة . وأى زيادة أفضل مما تبقى عند الله ؟ ولو لم يكن نقصان الربا إلا حصوله من مخالفة الله وارتكاب نهيه لكفى به نقصاناً. وأى نقصان أفحش مما يكون سبب حجاب صاحبه وعذابه ونقصان حظه عند الله ؟

الثانية : قال القاشانىّ : عليه الرحمة ، قبل ذلك : آكل الربا أسوأ حالًا من جميع مرتكبى الكبائر . فإن كل مكتسب له توكلٌ مّا فى كسبه، قليلًا كان أو كثيرًا . كالتاجر والزارع والمحترف . إذ لم يعينوا أرزاقهم بعقولهم ولم تتعين لهم قبل الاكتساب. فهم على غير معلوم فى الحقيقة . كما قال رسول الله ﷺ : أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يعلم(١) .وأما آكل الربا فقد عين على آخذه مكسبه ورزقه . سواء ربح الآخذ أو خسر . فهو محجوب عن ربه بنفسه ، وعن رزقه بتعيينه . لا توكّل له أصلًا . فوكله الله تعالى إلى نفسه وعقله . وأخرجه من حفظه وكلاءته . فاختطفه الجن وخبلته . فيقوم يوم القيامة ولا رابطة بينه وبين الله ، كسائر الناس المرتبطين به بالتوكل . فيكون كالمصروع الذى مسه الشيطان فتخبطه ، لا يهتدى إلى مقصد .

الثالثة : قال بعض العلماء العمرانيين : يشترط لجواز التمول أن يكون من وجه مشروع. كما فى مقابلة عمل أو معاوضة . وأن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . ولذا حرمت الشرائع السماوية كلها ، وكذلك الحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية، أكلَ الربا ، قصداً لحفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية . لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادىّ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق. وبدون تعرض لخسائر طبيعية ، كالتجارة والزراعة والأملاك . ومن المشاهد أن بالربا تربو الثروات فيختل التساوى بين الناس .

ثم قال : وقد نظر الماليون والاقتصاديون فى أمر الربا فقالوا : إن المعتدل منه نافع

(١) كشف الخفاء رقم ٥٨ . قال فى التمييز تبعاً للأصل : أخرجه الديلمىّ من حديث أبى هريرة ، من رواية عمر بن راشد ، وهو ضعيف جدا .

بل لابد منه . أولاً لأجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانياً لأجل أن النقود الموجودة لا تفى للتداول، فكيف إذاأمسك المكتنزون قسماً منها أيضاً؟ وثالثاً لأجل أن الكثيرين من المتمولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها . كما أن كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عنان .

فهذا النظر صحيح من وجه إنماء ثروات الأفراد والأمم . أما السياسيون والأخلاقيون فينظرون إلى أن ضرر ذلك فى جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأن هذه الثروات الأفرادية تمكن الاستبداد الداخلىّ. فتجعل الناس صنفين عبيداً وأسياداً . وتقوى الاستبداد الخارجىّ فتسهل التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة مالاً وعُدّة . وهذه مقاصد فاسدة فى نظر الحكمة والعدالة . ولذلك حرمت الأديان الربا تحريماً مغلظاً. انتهى .

الرابعة : قال الرازىّ : لما بالغ تعالى فى الزجر عن الربا، وكان قد بالغ فى الآيات المتقدمة فى الأمر بالصدقات ، ذكر ههنا ما يجرى مجرى الداعى إلى ترك الصدقات وفعل الربا ، وكشف عن فساده . وذلك لأن الداعى إلى فعل الربا تحصيل المزيد فى الخيرات . والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان الخيرات . فبيّن تعالى أن الربا وإن كان زيادة فى المال إلا أنه نقصان فى الحقيقة . وإن الصدقة وإن كانت نقصاناً فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى . ولما كان الأمر كذلك كان اللائق بالعاقل أن لا يلتفت إلى مايقضى به الطبع والحس من الدواعى والصوارف . بل يعول على ما ندبه الشرع إليه منهما .

وقال القفال : ونظير قوله : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ، المثلُ الذى ضربه فيما تقدم بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً . ونظير قوله : وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ، المثلُ الذى ضربه بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة .

« وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » صيغتا مبالغة من الكفر والإثم ، لاستمرار مستحلّ الربا وآكله عليهما وتماديه فى ذلك . وفى الآية تغليظ فى أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار ، لا من فعل المسلمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالله ورسوله وكتبه وبتحريم الربا ، ورجح إيمانهم أمر الله بالإنفاق ، على جمعهم للمال « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فيما بينهم وبين ربهم التى من جملتها الجود وترك الربا «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» التى تنهى عن الفحشاء والمنكر كالشح والربا «وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ» أعطوا زكاة أموالهم التى هى أجل أسباب فضيلة الجود « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » ثوابهم الكامل « عِندَ رَبِّهِمْ » فى الجنة « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » يوم الفزع الأكبر «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» لأنهم فرحون بما آتاهم ربهم ووقاهم عذاب الجحيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى اخشوا الله فى الربا لأن فيه إبطال حكمته تعالى فى خلق الأموال « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا » أى اتركوا مابقى لكم من الربا على الغرماء « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » على الحقيقة . فإن ذلك مستلزم لما أمرتم به البتة .

قال الحرالىّ : فبيّن أن الربا والإيمان لايجتمعان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧٩] ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

« فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا » أى لم تتركوا مابقى « فَأْذَنُوا » أى اعلموا « بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ » قال المهايمىّ : أى إن لم تفعلوا ترك مابقى كنتم متهاونين بأمره. ومن تهاون بأمر ملك حاربه .

والحرب نقيض السلم . ومن حاربه الله ورسوله لايفلح أبداً . وفيه إيماء إلى سوء الخاتمة إن دام على أكله . « وَإِنْ تُبْتُمْ » من الربا « فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » أى أصولها « لَاتَظْلِمُونَ » بطلب الزيادة « وَلَاتُظْلَمُونَ » بالنقص والمطل . بل لكم مابذلتم من غير زيادة عليه ولانقص فيه . ثم أمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لايجد وفاء، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٠] (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » أى بالكل أو البعض « فَنَظِرَةٌ » أى فالواجب إمهال بقدر ما أعسر « إِلَى مَيْسَرَةٍ » أى بذلك القدر . لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه، إذا حل عليه الدين : إما أن تقضى وإما أن تربى. ثم ندب تعالى إلى الوضع من المعسر ووعد عليه الخير والثواب الجزيل فقال « وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى وأن تتركوا للمعسر قدر ما أعسر بإبرائه منه، لأنه ربما لايحصل البدل فى الحال، فيأخذ مايساويه فى الآخرة. والصدقة تتضاعف الأضعاف المذكورة .

وقد أخرج البخارىّ[١] ومسلم والنسائىّ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه . وأخرج مسلم والترمذىّ نحوه عن أبى مسعود البدرىّ رضى الله عنه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان .

ومسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

وعن أبي قتادة[(١)] الحارث بن ربعيّ الأنصاريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من نفّس عن غريمه أو محا عنـه، كان في ظل العرش يوم القيامة. رواه الإمام أحمد ومسلم.

وعن بريدة[(٢)] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة. قال: ثم سمعته يقول: من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة. فسألته عن ذلك فقال ﷺ: له بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين. فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة. وعن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم[(٣)]: من أنظر معسراً أو وضع عنه، وقاه الله من فيح جهنم. رواهما الإمام أحمد، ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء مافيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ماعملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال:

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٨١] ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

«وَاتَّقُوا يَوْمًا» أي اخشوا عذاب يوم «تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» ماعملت من خير أو شر.

قال المهايميّ: فإن استوفى الدائن حقه بالتضييق على المديون استوفى الله منه حقوقه بالتضييق. وإن سامحه فالله أولى بالمسامحة. والمديون، إن لم يوف حق الدائن مع قدرته على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٠٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه ابن ماجة في: ١٥ ـ كتاب الصدقات، ١٤ ـ باب إنظار المعسر، حديث ٢٤١٨ (طبعتنا).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رقم ٣٠١٧ (طبعة المعارف).

الأداء استوفى الله منه حقه. وأما من لا يقدر، فيرجى أن يعفو الله عنه ، ويرضى خصمه بعوض من عنده « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم .

تنبيه :

من تأمل هذه الآيات وما اشتملت عليه من عقوبة أهل الربا ومستحليه، أكبر جُرْمَهُ وإثمه. فقد ترتب عليه قيامهم في المحشر مخبلين وتخليدهم في النار ونبزهم بالكفر. والحرب من الله ورسوله واللعنة . وكذا الذم والبغض وسقوط العدالة وزوال الأمانة، وحصول اسم الفسق والقسوة والغلظة ودعاء من ظلم بأخذ ماله على ظالمه . وذلك سبب لزوال الخير والبركة . فما أقبح هذه المعصية وأزيد فحشها وأعظم ما يترتب من العقوبات عليها ! وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ما طوى التصريح به في تلك الآيات من العقوبات والقبائح الحاصلة لأهل الربا في أحاديث كثيرة . فنها : ما رواه الشيخان[1] عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : اجتنبوا السبع الموبقات (أى المهلكات) قالوا : يارسول الله ! وماهن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . وأخرج البخاريّ[2]

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٢٣ ـ باب قول الله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا .

(٢) أخرجه البخاريّ في: ٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٩٣ ـ باب ماقيل في أولاد المشركين.
سنسوق لك أيها القارئ هذا الحديث على طوله بنصه ، لما فيه من الغرائب .

عن سمرة بن جندب قال : كان النبيّ ﷺ ، إذا صلى صلاة ، أقبل علينا بوجهه فقال « من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ » قال فإن رأى أحد قصّها . فيقول ما شاء الله . فسألنا يوماً فقال « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » قلنا : لا . قال « لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة . فإذا رجل جالس ورجل قائم ، بيده كلّوب =

عن سمرة بن جندب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة. فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم . فيه رجل قائم . وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة . فأقبـل الرجل الذى فى النهر . فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان . فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت : ماهذا الذى

= من حديد . إنه يدخل ذلك الـكلّوب فى شدقه حتى يبلغ قفاه . ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك . ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله . قات : ما هـذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفِهْرٍ أو صخرة فيشدخ بها رأسه. فإذا ضربه تدهده الحجر . فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هنا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو . فعاد إليه فضربه . قات : من هذا؟ قالا : انطلق . فانطلقنا إلى ثَقْب مثل التنّور ، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً . فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا . فإذا خمدت رجعوا فيها . وفيها رجال ونساء عراة . فقلت : من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا . حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم على وسط النهر . رجل بين يديه حجارة . فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فردّه حيث كان . فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر ، فيرجع كما كان . فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا . حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة . وفى أصلها شيخ وصبيانٌ . وإذا رجـل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها . فصعدا بى فى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها . فيها رجال وشيوخ وشباب ، ونساء وصبيان . ثم أخرجانى منها . فصعدا بى الشجرة ، فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل . فيها شيوخ وشباب . قلت : طوّفتمانى الليلة، فأخبرانى عما رأيت .

قالا : نعم . أما الذى رأيته يشق شدقه ، فـكذاب . يحدّث بالـكَذبة . فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق . فيصنع به إلى يوم القيامه . =

رأيته فى النهر ؟ قال : آكل الربا . وأخرج مسلم[١] عن جابر بن عبدالله قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه. وقال : هم سواء . وأخرج البخارى[٢] وأبو داود عن أبى جحيفة قال : لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله . وثمت آثار وافرة، ساقها السيوطى فى الدر المنثور .

= والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علّمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يُفعل به إلى يوم القيامة .

والذى رأيته فى الثَّقْب فهم الزناة .

والذى رأيته فى النهر آكلو الربا .

والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام ، والصبيان حوله فأولاد الناس .

والذى يوقد النار مالك ، خازن النار .

والدار الأولى التى دخلتَ دار عامة المؤمنين .

وأما هذه الدار فدار الشهداء .

وأنا جبريل وهذا ميكائيل . فارفع رأسك .

فرفعت رأسى فإذا فوق مثل السحاب . قالا : ذاك منزلك .

قلت : دعانى أدخلْ منزلى . قالا : إنه بقى لك عمر لم تستكمله . فلو استكملت أتيت منزلك » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ١٠٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ١١٣ ـ باب ثمن الكلب، ونصه : عن عون بن أبى جُحَيْفة قال : رأيت أبى اشترى حجّاما . فسألته عن ذلك ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب و كسْب الأمَة . ولعَنَ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله . ولعَنَ المصوِّر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة، أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها . وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال « ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ لَا تَرْتَابُوا » وفى قوله « تَدَايَنتُمْ » دليل على جواز السلم . لأن المداينة فعل اثنين وهو السلم نفسه . لأنه دين من الجانبين جميعاً . وعلى ذلك

روى عن ابن عباس قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى ، أن الله تعالى أَحَلَّهُ وأَذِن فيه ثم قرأ « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ » الآية. رواه البخاري"[١].

وقال آخرون : قوله « إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ » هو بيع كل دين إلى أجل مسمى . فهو يسمى التداين . كما يسمى البائع والمشترى المتبايعين . لأن كل واحد منهما بائع فى وجه . فعلى ذلك ، المداينة التداين . وإنما لم نؤمر بالكتابة فى بيع الأعيان لأنه فى المداينات وصل أحدهما إلى حاجته بقبض رأس المال ، والآخر لم يصل . فلعل ذلك يحمله على إنكار الحق والجحود . فإذا تذكر أنه كتب وأشهد عليه ارتدع عن الإنكار والجحود . لما يخاف ظهور كذبه وفضيحته على الناس . ولا كذلك مع العين بالعين . لأن كل واحد منهما لا يصل إلى حاجته إلا بما يصل به الآخر . فليس هنالك للإنكار معنى ، وثمت وجه آخر وهو أنه يجوز أن ينسى فينكر ذلك ، أو ينسى بعضه ويذكر بعضاً ، فأمر بالكتابه لئلا يبطل حق الآخر بترك الكتابة . ولا كذلك فى بيع العين بالعين . فافترقا . كذا فى التأويلات للماتريدى" « وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ » أى الدين المذكور « كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » الجار متعلق إما بالفعل أى (وليكتب بالحق) . أو بمحذوف صفة لكاتب ، أى: وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . لا يزيد ولا ينقص . وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه ديّن ، حتى يجئ كتابه موثوقاً به معدلًا بالشرع . « وَلَا يَأْبَ » أى ولا يمتنع « كَاتِبٌ » من « أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ » أى كما بينّه بقوله تعالى « بالعدل » . أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته . كما نفعه الله بتعليم الكتاب. كقوله تعالى : وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ[٢] . وفى الحديث[٣] : إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق .

---

(١) لم أهتد إليه .

(٢) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

(٣) أخرجه البخارى" فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٢ ـ باب أى الرقاب أفضل . ونصه : =

وفى الحديث(١) الآخر: من كتم علماً يعلمه، ألجم بلجام من نار .

قال الرازى : ظاهر هذا الكلام نهى لكل كاتب عن الامتناع من الكتابة . وإيجابهَا على كل من كان كاتباً « فَلْيَكْتُبْ » أى تلك الكتابة المعلمة . أمر بها بعد النهى عن إبائها تأكيداً لها « وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ » الإملال الإملاء . وهما لغتان نطق القرآن بهما. قال تعالى : فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ(٢) . أى وليكن الملى على الكاتب الدين وهو الذى عليه الحق، لأنه المقر المشهود عليه « وَلْيَتَّقِ » أى وليخش المملى «اللَّهَ رَبَّهُ » جمع مابين الاسم الجليل والنعت الجميل، للمبالغة فى التحذير « وَلَا يَبْخَسْ » أى لاينقص «مِنْهُ» أى مما عليه «شَيْئاً» مما عليه من الدين « فَإِنْ كَانَ » المدين وهو « الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً » أى خفيف الحلم أو جاهلاً بالإملاء لايحسنه « أَوْ ضَعِيفاً » صبياً أو شيخاً هرماً « أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ » أى أو غير مستطيع للإملاء بنفسه ـ لعى به أو خرس أو عجمة . ولفظ (هو) هنا توكيد للفاعل المضمر ـ والجمهور على ضم الهاء لأنها كلمة منفصلة عما قبلها فهى مبدوء بها . وقرئ بإسكانها على أن يكون أجرى المنفصل مجرى المتصل بالواو أو الفاء أو اللام . نحو : وهو، فهو، لهو . قاله أبو البقاء « فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ » يعنى الذى يلى أمره من قيم أو وكيل أو ترجمان « بِالْعَدْلِ » من غير نقص ولا زيادة « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ »

= عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أفضل؟ قال « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » قلت : فأى الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاها ثمناً وأنفسُها عند أهلها » قلت : فإن لم أفعلْ ؟ قال «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» . قال : فإن لم أفعل ؟ قال « تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تَصَدَّقُ بها على نفسك » .

(١) فى الجامع الصغير للسيوطى : ابن عدى فى (الكامل) عن ابن مسعود .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على المداينة « فَإِنْ لَمْ يَكُونَا » أى الشاهدان « رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ » أى فى العدالة « مِنَ الشُّهَدَاءِ » ولما شرط فى القيام مقام الواحد من الرجال ، العددَ من النساء، علله بما يشير إلى نقص الضبط فيهن فقال « أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا » أى تغيب عنها الشهادة « فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ » الضالة « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا » أى لأداء الشهادة التى تحملوها أو لتحملها . وتسميتهم (شهداء) قبل التحمل من تنزيل المشارف منزلة الواقع « وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ » أى الدين « صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ » أى المذكور من الكتابة « أَقْسَطُ » أى أعدل « عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ » أى أعون لإقامتها إذ بهـا يتم الاعتماد على الحفظ « وَأَدْنَىٰ » أى أقرب«أَنْ لَا تَرْتَابُوا» أى لاتشكوا فى جنس الدين وقدره وأجله بتشكيك أحد المتداينين « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً » أى حالة « تُدِيرُونَهَا » أى تكثرون إدارتها « بَيْنَكُمْ » فتصعب عليكم كتابتها مع قلة الحاجة إليها « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا » لأنها مناجزة فيبعد فيها التنازع والنسيان . قال أبو البقاء (تجارة) يقرأ بالرفع على أن تكون التامة (وحاضرة) صفتها . ويجوز أن تكون الناقصة واسمها تجارة ، وحاضرة صفتها ، وتديرونها الخبر . وقرئ بالنصب على أن يكون اسم الفاعل مضمراً فيه ، تقديره : إلا أن تكون المبايعة تجارة « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كالئاً لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعنى التجارة الحاضرة . على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة . وعن الضحاك : هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل . كذا فى الكشاف . وأخرج ابن المنذر عن جابر بن زيد أنه اشترى سوطاً فأشهد وقال : قال الله « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » .

قال أبو القاسم بن سلامة فى كتابه (الناسخ والمنسوخ): قد كان جماعة من التابعين

يرون أنهم يشهدون فى كل بيع وابتياع . فمنهم الشعبىّ وإبراهيم النخعىّ . كانوا يقولون إنا نرى أن نشهد ولو فى جزرة بقل .

« وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » يحتمل البناءللفاعل والمفعول . ويدل عليه أنه قرئ : ولا يضارَر (بالكسر والفتح) والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى مايطلب منهما ، وعن التحريف والزيادة والنقصان ، أو النهى عن الضرار بهما ، بأن يعجلا عن مهم .

قال الحرالىّ : فى الإحنة تعريض بالإحسان منه للشهيد والكاتب ليجيبه لمراده ، ويعينه على الائتمار لأمره بما يدفع من ضرر ، عطلته واستعماله فى أمر من أمور دنياه . ففى تعريضه إجازة لما يأخذه الكاتب ومن يدعى لإقامة معونة فى نحوه ممن يعرض له فيما يضره التخلى عنه .

« وَإِنْ تَفْعَلُوا » أى ما نهيتم عنه من الضرار « فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ » أى خروج بكم عن الشرع الذى نهجه الله لكم . قال الحرالىّ : وفى صيغة (فعول) تأكيد فيه وتشديد فى النذارة .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أن يعذبكم بالخروج عن طاعته « وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » أحكامه المتضمنة لمصالحكم « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ولما كان التقدير : هذا إذا كنتم حضوراً يسهل عليكم إحضار الكاتب والشاهد ، عطف عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٣] (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

« وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ » أى مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى « وَلَمْ تَجِدُوا

كاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » أى فالذى يستوثق به رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق ، وثيقة لدينه. هذا إذا لم يأمن البعضُ البعضَ بلا وثيقة « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان « فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ » وهو المدين . وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقاً للإعلام ، ولحمله على الأداء « أَمَانَتَهُ » أى دينه . وإنما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به « وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ » فى رعاية حقوق الأمانة . وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير ما لا يخفى « وَلَا تَكْتُمُوا » أيها الشهود « الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ » .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت هلا اقتصر على قوله فإنه آثم . وما فائدة ذكر القلب والجملة هى الآثمة لا القلب وحده ؟ قلت : كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها . فلما كان إثما مقترفاً بالقلب أسند إليه . لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ . ألا تراك تقول ، إذا أردت التوكيد : هذا مما أبصرته عينى ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى . ولأن القلب هو رئيس الأعضاء، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله(١). فكأنه قيل : فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه . ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط . وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه.

---

(١) يشير إلى الحديث النبوىّ الشريف الذى أخرجه البخارىّ فى: ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه ، حديث ٤٧ ونصه :

عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلال بيّن والحرام بيّن . وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى المشبّهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشُّبُهَاتِ كراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب »

واللسان ترجمان عنه . ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح . وهى لها كالأصول التى تتشعب منها . ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر . وهما من أفعال القلوب . فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معظم الذنوب. وقرئ (قلبه) بالنصب . كقوله : سفه نفسه . وقرأ ابن أبى عبلة : أثم قلبه . أى جعله آثما « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم « عَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٤] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا » أى تظهروا « مَا فِي أَنْفُسِكُمْ » من الأفعال الاختيارية باللسان أو الجوارح « أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال أبو مسلم الأصفانىّ : إنه تعالى لما قال فى آخر الآية المتقدمة : والله بما تعملون عليم . ذكر عقيبه ما يجرى مجرى الدليل العقلىّ فقال « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ومعنى هذا الملك ، أن هذه الأشياء لما كانت محدثة فقد وجدت بتخليقه وتكوينه وإبداعه . ومن كان فاعلاً لهذه الأفعال المحكمة المتقنة العجيبة الغريبة المشتملة على الحكم المتكاثرة والمنافع العظيمة لابد أن يكون عالماً بها . إذ من المحال صدور الفعل المحكم المتقن عن الجاهل به . فكأن الله تعالى احتج بخلقه السماوات والأرض ، مع مافيها من وجوه الإحكام والإتقان ، على كونه تعالى عالماً بها محيطاً بأجزائها وجزئياتها .

قال الشعبىّ : إنه تعالى لما نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه ، بيّن أن له ملك السموات والأرض، فيجازى على الكتمان والإظهار . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر

وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله تعالى: وإن تبدوا..الخ. نزلت فى كتمان الشهادة وإقامتها .

وروى الإمام أحمد ومسلم[1] والنسائىّ وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال دخل قلوبهم منها شىء لم يدخل قلوبهم من شىء. فقال النبىّ ﷺ : قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا . قال: فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال : قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال: قد فعلت) وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (قال: قد فعلت) . وفى مسند عبد بن حميد والطبرانىّ : قال ابن عباس : فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها . وصار الأمر إلى أن قضى الله تعالى أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت من القول والعمل . أقول إنّ ماجاء من أن الآية هالت من هالت من الصحابة فإنما جاءه من عمومها ومن قوله « يُحَاسِبْكُمْ » إذ حمله على حساب المؤاخذه ، فأما عمومها فنظمها ظاهر فيه. إلا أنها تتناول الشهادة وكتمانها أولاً وبالذات. وغيرها ثانياً وبالعرض. وأما حمل الحساب على المؤاخذه والانتقام فإن كان عرفياً أو لغوياً فالإخفاء حينئذ مراد به إخفاء متفق على حظره . كنفاق وريب فى الدين . ولا إشكال فى الآية . وقد يؤيده ذكر الإيمان بعده . ويكون ختام السورة بالإبداء والإخفاء بمثابة رد العجز على الصدر . لافتتاح السورة بالمؤمنين والكافرين وما لكل منهما . وإن لم يكن الحساب حقيقة فيما ذكر بل كان معناه إيقافه تعالى العبد على عمله خيراً أو شراً وإراءته عاقبته الحسنى أو السوءى ، وهو الذى يظهر ، فلا إشكال أيضاً . فما روى عن بعض الصحب عليهم الرضوان منشؤه قوة اليقين وشدة الخوف من هول المطلع مع ورود الحساب فى كثير من الآيات فى معرض أخطار القيامة مما يحق أن

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

يخفق له فؤاد كل مؤمن . ولا تنس ما أسلفنا فى المقدمة وفى غير موضع ، أن قولهم : نزلت فى كذا قد يراد أن كذا مما يشمله لفظ الآية لعمومها له ولغيره . وهكذا هنا . فالآية وإن كان سياقها فى الشهادة وكتمانها ، إلا أنها تتناول غيرها بعمومها . ولذلك دخل فيها الوسوسة وتوهم ما توهم . وقوله فى الرواية : فأنزل الله تعالى « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » لايتوهم التراخى بين ما دخل قلوبهم وبين نزولها . بل المراد ، كما أسلفنا فى سبب النزول، أن لفظ « لَا يُكَلِّفُ اللهُ ... » الخ الذى نزل معها مبين أن لا حرج فى مثل الوسوسة ونحوها . فافهم فإنه نفيس جداً . وبه يزاح عنك ما يبحث فيه الكثيرون فى هذه الآية ويرونه من من المعضلات . وبالله التوفيق .

هذا وفى الصحيحين(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى تجاوزلى عن أمتى ماوسوست به صدورُها ، مالم تعمل أو تَكَلَّمْ . وفى الصحيحين(٢) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : إذا همّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه . فإن عملها فاكتبوها سيئة. وإذا همّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا . « فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » وقرئ برفع الفعلين على الاستئناف أى فهو يغفر الخ. وبجزمهما عطفاً على جواب الشرط . وفى تقديم المغفرة على التعذيب إشعار بسبق رحمته تعالى على غضبه « وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . قال الرازىّ : قد بيّن بقوله « لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أنه كامل الملك والملكوت. وبيّن بقوله «وَإِنْ تُبْدُوا..» الخ. أنه كامل العلم والإحاطة . ثم بيّن بقوله « وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أنه كامل القدرة مستول على كل الممكنات بالقهر والقدرة والتكوين والإعدام . ولا كمال أعلى وأعظم من حصول الكمال فى هذه الصفات . والموصوف بهذه الكمالات يجب على كل عاقل أن يكون عبداً منقاداً له ، خاضعاً لأوامره ، ونواهيه ، محترزاً عن سخطه . وبالله التوفيق .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٤٩ـ كتاب العتق، ٦ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق.
(٢) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ٢٠٣ (طبعتنا) ولم يخرجه البخارىّ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨٥] (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

« ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » أى صدقه بقبوله والتخلق به كما قالت عائشة(١) : كان خلقه القرآن والترقى بمعانيه والتحقق « وَالْمُؤْمِنُونَ » أى كذلك آمنوا .

قال الزجاج رحمه الله : لما ذكر الله عز وجل فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والربا والدّين ، ختمها بقوله « ءَامَنَ الرَّسُولُ » لتعظيمه وتصديق نبيه ﷺ والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله ، وغيره ليكون تأكيداً له وفذلكة .

لطيفة :

قوله (والمؤمنون) إما مبتدأ والجملة بعده خبر . أعنى كُلٌّ آمَنَ . والعائد إلى المبتدإ التنوين القائم مقام الضمير فى (كل) ، لأن من جملة العائد إلى المبتدإ التنوين النائب مناب الضمير . وإما معطوف على الرسول فيكون التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين . وقد اختار كثيرون الأول. ومنهم العلامة أبوالسعود . وأطال فى توجيهه . وعندى أن الوجه هو الثانى.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٣٩ (طبعتنا).

وهو حديث طويل . يرويه سعد بن هشام بن عامر وفيه يقول ، بعد أن استأذن على عائشة قال : فقلت: يا أم المؤمنين ! أنبئينى عن خلق رسول الله . قالت : ألست تقرأ القرآن؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبىّ الله كان القرآن . وفيه وصف جامع لقيامه ﷺ وعن وتره على لسان سيدتنا أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها .

لأن المقام لتعداد المؤمن به . وذلك يشترك فيه الرسول وأتباعه . وإن كان كنه إيمان الرسول لا يشاركه فيه غيره . فالمقام ليس مقام الخصوصية. والله أعلم .

« كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ » أي يقولون لا نفرق « بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » أي بردّ بعض وقبول بعض، ولا نشك في كونهم على الحق وبالحق « وَقَالُوا سَمِعْنَا » أي قولك وفهمناه « وَأَطَعْنَا » أي امتثلنا أمرك وقمنا به واستقمنا عليه . ولما علموا أنهم لا يخلون من تقصير ، وأن الرب يغفر لمن يشاء قالوا « غُفْرَانَكَ رَبَّنَا » أي اغفر لنا غفرانك . أو نسألك غفرانك ذنوبنا. وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول « وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » أي الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك ، وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة . لما أن الرجوع للحساب والجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨٦] (لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » أي لا يحملها إلا ماتسعه وتطيقه ولا تعجز عنه .

قال الرازيّ : يحتمل أن يكون هذا ابتداء خبر من الله . ويحتمل أن يكون حكاية عن الرسول والمؤمنين بأنهم قالوا : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . على نسق الكلام في قوله: وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . وقالوا : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . ويؤيد ذلك ما أردفه من قوله : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا . فكأنه تعالى حكى عنهم طريقتهم في التمسك بالإيمان والعمل

الصالح . وحكى عنهم فى جملة ذلك أنهم وصفوا ربهم بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

ثم قال الرازىّ ، فى كيفية النظم : إن قلنا: إن هذا من كلام المؤمنين ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا فكأنهم قالوا : كيف لا نسمع ولا نطيع وأنه تعالى لا يكلفنا إلا ما فى وسعنا وطاقتنا . فإذا كان هو تعالى ، بحكم الرحمة الإلهية ، لا يطالبنا إلا بالشىء السهل الهيّن ، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين . وإن قلنا : إن هذا من كلام الله تعالى ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . ثم قالوا بعده : غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ، دلّ ذلك على أن قولهم : غُفْرَانَكَ ، طلب للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد . فلما كان قولهم (غفرانك) طلباً للمغفرة فى ذلك التقصير ، لا جرم خفف الله تعالى ذلك عنهم . وقال : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . والمعنى: أنكم إذا سمعتم وأطعتم ، وماتعمدتم التقصير ، فعند ذلك لووقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه . فإن الله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . وبالجملة فهذا إجابة لهم فى دعائهم فى قولهم : غفرانك ربنا .

قال زين العابدين پير محمد دره فى (المدحة الكبرى) : وعلى احتمال أن يكون قوله لا يُكلف الله..الخ. حكاية ، فهو من قبيل العطف بلا عاطف . أو الكلام على تقدير قالوا . قال بعضهم : ولك أن تجعل (لا يكلف الله...)الخ فى حيز القول . وأن يكون حكاية للأقوال المتفرقة غير المعطوفة بعضها على بعض للمؤمنين . ويكون مدحاً لهم بأنهم شاكرون لله تعالى فى تكليفه . حيث يرونه بأنه لم يخرج عن وسعهم . وبأنهم يرون أن الله تعالى لا ينتفع بعملهم الخير ، بل هو لهم . ولايتضرر بعملهم الشرّ ، بل هو عليهم .

وقال البقاعىّ : وهذا الكلام من جملة دعائهم على وجه الثناء طلباً للوفاء بما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم عنه سبحانه من ذلك ، خوفاً من أن يكلفوا بما لله تعالى أن يكلف به من المؤاخذة بالوساوس . لأنه مماتخفيه النفوس ولا طاقة على دفعه .

ولعل العدول عن الخطاب إلى الغيبة بذكر الاسم الأعظم من باب التملق بأن له من صفات العظمة ما يقتضى العفو عن ضعفهم . ومن صفات الحلم والرحمة ما يرفِّه عنهم . ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاء لهم على قولهم : سمعنا وأطعنا ، الآية . فأفادهم بذلك أنه لا يحاسبهم بحديث النفس . فانتفى ما شق عليهم من قوله : وإنْ تبدوا ما فى أنفسكم، الآية . بخلاف ما أفاد بنى إسرائيل قولهم : سمعنا وعصينا، من الآصار فى الدنيا والآخرة . فيكون حينئذ استئنافاً جواباً لمن كأنه قال : هل أجاب دعاءهم . ويؤيد هذا الاحتمال اتباعه لحكم ما فى الوسع على طريق الاستئناف أو الاستنتاج بقوله « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »

قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى « لَهَا مَا كَسَبَتْ » الخ . للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها . ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة . وأنها تعود إليها لا إلى غيرها . ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها . فإن اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله . واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته . أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله، لا لغيرها . وعليها لا على غيرها عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه . وإيراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشىء من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه .

قال الحرالىّ : وصيغة (فَعَلَ) مجردة ، تعرب عن أدنى الكسب . فلذلك من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .

لطيفة :

وقال الجاربردىّ فى (شرح الشافية): معنى الكسب تحصيل الشىء على أى وجه كان . والاكتساب المبالغة والاعتمال فيه . ومن ذلك قوله تعالى: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. وفيه تنبيه على لطف الله تعالى بخلقه ، إذ أثبت لهم ثواب الفعل على أى وجه كان . ولم يثبت عليهم عقاب الفعل إلا على وجه مبالغةٍ واعتمال فيه .

قال الزمخشريّ : لما كان الشر مما تشتّهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمّارة به ، كانت فى تحصيله أعمل وأجدّ . فجعلت لذلك مكتسبة فيه . ولما لم تكن فى باب الخير كذلك لفتورها فى تحصيله ، وصفت بما لا دلالة له على الاعتمال والتصرف . انتهى .

قال العلامة ابن جماعة فى (حواشيه) : تفرقته بين الكسب والاكتساب هو ما قاله الزمخشريّ وغيره ونص عليه سيبويه . قال الحلبيّ : وهو الأظهر . وقال قوم : لا فرق . قالوا : وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب فى مورد واحد . قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[(١)] . وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا[(٢)] . بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً[(٣)] . وقال تعالى : بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا[(٤)] . فقد استعمل الكسب والاكتساب فى الشر . وقال الواحديّ : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد . وفى القاموس : كسبه يكسبه كسباً ، وتكسب واكتسب : طلب الرزق . أو كسب أصاب، واكتسب تصرف واجتهد . ثم قال ابن جماعة : ماذكره من تنبيه الآية على لطف الله بخلقه إلى آخره ، قاله ابن الحاجب فى شرح (المفصل) وبمعناه قول بعضهم : فى الآية إيذان أن أدنى فعل من أفعال الخير يكون للإنسان تكرماً من الله على عبده ، بخلاف العقوبة فإنه لا يؤاخذ بها إلا من جدّ فيها واجتهد . وقريب منه قول آخر : للنفس ماحصل من الثواب بأى وجه اتفق حصوله سواء كان بإصابة مجردة أو بتحصيل . وعليها ماحصلته وسعت فيه لا ماحصل من غير اختيار

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٣٨] .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٨١] ونصها : بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥٨] ونصها : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

وسعى . نبه تعالى أن الثواب حاصل لها سواء كان بسعيها واختيارها أو لم يكن كذلك . وأما العقاب فلا يكون عليها إلا بقصدها وتحصيلها .

وما قالوه من الفرق يحتاج إلى ثبت . وقد قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(١) أي يرى جزاءه . وقال : وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(٢) . على أن ترتب الثواب على ماحصل من غير سعي واختيار ، إن كان لمباشرة سببه مع الغفلة عنه، فالعقاب أيضاً كذلك . فمن عمل سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها، وإن صوّر بالإصابة عند أول الالتفات فلا مانع أن يكون العقاب مثله . ومدعى خلافه عليه البيان . نعم الإصرار شرط . لأن الرجوع يمحوه لكنه قدر زائد على الفعل . وبالجملة فما قاله جار الله حسن . وقد ذكره البيضاوىّ أيضاً . وفى إعراب الحلبىّ : الذى يظهر فى هذا ، أن الحسنات مما تكسب دون تكلف . إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات تكتسب بتكلف . إذ كاسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ، ويتجاوز إليها . فحسن فى الآية مجىء التصريفين إحرازاً لهذه المعنى والله أعلم . ثم قال ابن جماعة : والمبالغة من بالغ مبالغة اجتهد ولم يقصر . والاعتمال من اعتمل أى عمل بنفسه وأعمل رأيه وآلته. انتهى.

قال البقاعىّ ولما بشرهم بذلك ، عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتّبه على الأخف فالأخف على سبيل التعلّى ، إعلاماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسياناً ، ولا بما قارفوه خطأً ، ولاحمل عليهم ثقلا . بل جعل شريعتهم حنيفية سمحاء . ولا حملهم فوق طاقتهم . مع أن له جميع ذلك . وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم . ثم رحمهم بأن أحلّهم محل القرب فجعلهم أهلًا للخلافة . فلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر . ويظهر دينهم على كل دين . إذ كان سبحانه هو الداعى عنهم . وليكون الدعاء كله محمولًا على الإصابة ومشمولًا بالإجابة فقال تعالى « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا » أى لا تعاقبنا « إِنْ نَسِينَا » أمرك ونهيك « أَوْ

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧و٨] .

(٢) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

أَخْطَأْنَا » أى ففعلنا خلاف الصواب ، تفريطاً ونحوه .

وقدوَلِع كثير من المفسرين ههنا بالبحث فى أن النسيان والخطأ معفوٌّ عنهما ، فما فائدة طلب العفو عنهما ؟ وأجابوا عن ذلك بوجوه . وأرق جواب رأيته قول العلامة بير محمد فى (المدحة الكبرى) : لما كان طالب العفو الرسول والأنصار والمهاجرون ومن كان على شاكلتهم ، فكأنهم يعدون النسيان من العصيان والخطأ من الخطيئة . كقوله تعالى « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ »(١) .

وقيل فى معنى الآية : لا تعاقبنا إن تركنا أمرك أو اكتسبنا خطيئة . على أن يكون النسيان بمعنى الترك . والخطأ من الخطيئة . وعليه فلا إيراد ، والله أعلم .

« رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا » أى عهداً يثقل علينا .

قال الحرالىّ : الإصر العهد الثقيل الذى فى تحمله أشد المشقة « كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » وهو ما كُلِّفَهُ بنو إسرائيل مما يهد الأركان . ولا بأس بالإشارة إلى جُمَلٍ مما حملوه من الآصار . ننقله عن أسفارهم تأكيدا لما يحمل على الشكر على تخفيف ذلك عنا ، وتعظيما لمنته تعالى ، فلله الحمد فنقول : فى سفر الخروج فى الأصحاح الثانى عشر :

(١٥) سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم . فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل .

وكل هذا الأصحاح آصار شاقة .

وفى السفر المذكور ـ فى الأصحاح الحادى والعشرين :

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا (١٦) ومن سرق إنسانا وباعه أو وُجد فى يده يقتل قتلا .

(١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . (٢٧) وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يُطلقْه حُرًّا عوضا عن سنه (٢٨) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا (٢٩) ولكن إن كان ثوراً نطّاحا من قبلُ وقد أُشهِد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل .

(١) [٢٣ / االمؤمنون / ٦٠] ... ... أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ

وفى السفر المذكور ، فى الأصحاح الثالث والعشرين .

(١٠) وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها (١١) وأما فى السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك . وفضلتهم تأكلها وحوش البرية كذلك تفعل بكرمك وزيتونك . (١٢) ستة أيام تعمل عملك . وأما اليوم السابع ففيه تستريح لكى يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب .

(١٩) أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلٰهك .

وفى سفر العدد ، فى الأصحاح الخامس عشر :

(٣٧) وكلم الرب موسى قائلا (٣٨) كلِّمْ بنى إسرائيل وقل لهم : أن يصنعوا لهم أهدابا فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانْجُونيٍّ (٣٩) فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها .

وفى السفر المذكور ، فى الأصحاح التاسع عشر :

(١١) من مس ميْتا مَيْتَةَ إنسانٍ ما يكون نجسا سبعة أيام . (١٢) يتطهر به فى اليوم الثالث، وفى السابع يكون طاهرا . وإن لم يتطهر فى اليوم الثالث ففى اليوم السابع لا يكون طاهرا. (١٣) كل من مس ميتا ميتة إنسان قدمات ولم‌يتطهر ينجّسُ مسكن الرب . فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء النجاسة لم يُرَش عليها تكون نجسةً . نجاستها لم تزل فيها . (١٤) هذه هى الشريعة . إذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان‌فى‌الخيمة يكون نجسا سبعة أيام (١٥) وكل إناءمفتوح ليس عليه سدادبِعصابة فإنه نجس. (١٦) وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام. وتمام الفصل المذكور كيفية الطهارة من هذه النجاسة الشاقة جدا .

وفى السفر المذكور فى الأصحاح الخامس والثلاثين :

(٣١) ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل .

وفى سفر التثنية ، فى الأصحاح الخامس عشر :

(١٩) كل بِكْرٍ ذكرٍ يولد من بقرك ومن غنمك تقدسه للرب إلٰهك . لاتشتغل على بكر بقرك ولا تَجُزَّ بكرَ غنمك .

وفى سفر الخروج ـ فى الأصحاح الرابع والثلاثين :

(٢٠) وأما بكر الحمار فتفديه بشاة . وإن لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه.

وفى سفر اللاويين ، فى الأصحاح الرابع :

(١) وكلم الرب موسى قائلا (٢) كلم بنى إسرائيل قائلا : إذا أخطأت نفس سهوا فى شىء من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها وعَمِلَتْ واحدة منها (٣) إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب يقرّب عن خطيئته التى أخطأ ثورا ابن بقرٍ صحيحا للرب ذبيحة خَطِيَّةٍ.

وكيفية ذلك حرجة جدا . انظرها .

وفيه ، فى الأصحاح الخامس:

(٢) أو إذا مسّ أحد شيئا نجسا جثة وحش نجس أو جثة بهيمة نجسة أو جثة دبيب نجس وأخفى عنه فهو نجس ومذنب .

(٥) فإن كان يذنب فى شىء من هذه يقرّ بما قد أخطأ به (٦) ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيئته التى أخطأ بها أنثى من الأغنام نعجة أو عنزا من المعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيته .

والأصحاح المذكور كله آصار .

وكذا الأصحاح السادس بعده كله آصار :

وفى الأصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه آصار كثيرة . منها :

(٣٣) وكل متاع خزفٍ وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس، وأما هو فتكسرونه.

وفى الأصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم والفرق بين ولادتها ذكرا وأنثى. وإنها فى الأول تكون نجسة أسبوعا ثم ثلاثا وثلاثين يوما . وفى الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يوما .

وعن تمام أيام طهرها تأتى بكبيس كفارة عنها .

وفى الأصحاح الخامس عشر تشريعات لذوى الجراحات .

وفى ذلك آصار كبرى . انظرها .

وفيه أيضا أحكام الحائض والآصار فى شأنها . ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء (٢٠) وكل ما تضطجع عليه فى طمثها

يكون نجسا وكل ما تجلس عليه يكون نجسا (٢١) وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويكون نجسا إلى المساء

وفى الأصحاح السابع عشر :

(١٥) وكل إنسان يأكل ميتة أو فريسة وطنيا كان أو غريبا يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويبقى نجسا إلى المساء.

وفى الأصحاح التاسع عشر :

(٢٣) ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غُرْلتها . ثلاث سنين تكون لكم غَلْفَاءَ . لايؤكل منها . (٢٤) وفى السنة الرابعة يكون كل ثمرها قُدْسا لتمجيد الرب . (٢٥) وفى السنة الخامسة تأكلون ثمرها . لتزيد بكم غَلَّتَها . أنا الرب إلهكم. (٢٧) لا تقصروا رؤوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك .

وفى الأصحاح الخامس والعشرين :

(٣) ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما. (٤) وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة سبتاً للرب . لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك . (٥) زرِّيع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المُحْولِ لا تقطف . سنة عطلة تكون للأرض. (٦) ويكون سبت الأرض لكم طعاما . لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عندك . (٧) ولبهائمك وللحيوان الذى فى أرضك تكون كل غلتها طعاما .

وفى سفر التثنية ، فى الأصحاح الحادى والعشرين .

(١٨) وإذا كان لرجل ابنٌ معاندٌ وماردٌ ولا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما . (١٩) يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه . (٢٠) ويقولون لشيوخ مدينته . ابننا هذا معاند ومارد لايسمع لقولنا وهو مسرف وسكّير . (٢١) فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت .

وفيه ، فى الأصحاح الثانى والعشرين :

(١٠) لا تحرث على ثور وحمار معا . (١١) لا تلبس ثوباً مختلطاً صوفاً وكتاناً معاً .

وفيه ، فى الأصحاح الرابع والعشرين :

(١) إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته . (٢) ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر . (٣) فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة . (٤) لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست . لأن ذلك رجس لدى الرب.

هذه نبذة يسيرة من الآصار التى كانت على الإسرائيليين ولم يشرعها لنا مولانا بفضله وكرمه فله الحمد ، إنه أرحم الراحمين .

« رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » أى من بليات الدنيا والآخرة . فالدعاء الأول فى رفع شدائد التكليف ، وهذا فى رفع شدائد البليات . ويقال : هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا يستطاع مبالغة . « وَاعْفُ عَنَّا » أى : تجاوز عن ذنوبنا ولا تعاقبنا « وَاغْفِرْ لَنَا » أى غطِّ على ذنوبنا واعف عنها « وَارْحَمْنَا » أى : تفضّل علينا بالرحمة مع كوننا مقصّرين مذنبين « أَنْتَ مَوْلَانَا » أى : ولّينا وناصرنا « فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » فإنّ من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولّى أمره على الأعداء . وفيه إشارة إلى أنّ إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله تعالى ، حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة ، غاية مطلبهم .

قال البقاعىّ : فتضمّن ذلك وجوب قتال الكافرين . وأنهم أعدى الأعداء . وأنّ قوله « لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ » ليس ناهياً عن ذلك. وإنّما هو إشارة إلى أنّ الدين صار فى الوضوح إلى حدّ لا يتصور فيه إكراه . بل ينبغى لكلّ عاقل أن يدخل فيه بغاية الرغبة فضلًا عن الإحواج إلى إرهاب ، فمن نصح نفسه دخل فيه بما دلّ عليه عقله ، ومن أبى دخل فيه قهراً بنصيحة الله التى هى الضرب بالحسام ونافذ السهام .

وقد ورد فى (صحيح مسلم)[1] عن النبىّ ﷺ : أن الله تعالى قال عقب كلّ دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى: ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) ونصه: =

وقد روى البخاري[١] والجماعة عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ، في ليلةٍ ، كفتاه .

وروى الإمام أحمد[٢] عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : أُعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش ، لم يعطهنّ نبيٌّ قبلي .

وأخرج مسلم[٣] عن ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة . إليها ينتهي مايُعرج به من الأرض، فيُقبض منها . وإليها ينتهي مايهبط من فوقها ، فيقبض منها . قال : إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَايَغْشَىٰ [٥٣/النجم/١٦] قال: فَراش من ذهب قال، فأُعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً ، المقحِماتُ .

وعن ابن عباس[٤] قال: بينما جبريل قاعد عند النبيّ ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم . لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض . لم ينزل قط إلا اليوم . فسلّم وقال : أَبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما

= عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ [٢/البقرة / ٢٨٤] قال ، دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء . فقال النبي ﷺ « قولوا سمعنا وأطعنا وسلَّمنا » قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم . فأنزل الله تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال : قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال : قد فعلت) وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا (قال : قد فعلت) [٢ / البقرة ٢٨٦] .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ١٠ ـ باب فضل سورة البقرة.
(٢) أخرجه في المسند في الصفحة ١٥١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .
(٣) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٧٩ (طبعتنا) .
(٤) أخرجه مسلم في : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٤ (طبعتنا)

نبيٌّ قبلك . فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ حرْفاً منهما إلّا أُعْطِيتَهُ . رواه مسلم والنسائىّ . وهذا لفظ مسلم .

وأخرج الترمذىّ[(١)] والنسائىّ والدارمىّ والحاكم وصححه، عن النعمان بن بشير: أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام . أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة . ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان .

وأخرج عبد بن حميد فى (مسنده) عن الحسن : أنه كان إذا قرأ آخر البقرة قال : يالك نعمة ..! يالك نعمة ..!

هـذا ، وقد روى فى فَضْلِ سورة البقرة أحاديث كثيرة . . . منها ماأخرجه مسلم[(٢)] والترمذىّ من حديث النوّاس بن سمعان قال: سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُهُ سورة البقره وآل عمران . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعدُ قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شَرْق . أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ تحاجان عن صاحبهما .

وأخرج أحمد[(٣)] والحاكم والدارمىّ عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا سورة البقرة . فإن أخذها بركة . وتركها حسرة . ولا تستطيعها البطلة . تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما هما الزهراوان يجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تجادلان عن صاحبهما .

وأخرج أحمد ومسلم[(٤)] والترمذىّ عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن، ٤ ـ باب ماجاء فى آخر سورة البقرة.
(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا)
(٣) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٣٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .
(٤) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢١٢ (طبعتنا)
والترمذىّ فى:٤٢ـ كتاب ثواب القرآن ٢ـ باب ماجاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسىّ

بيوتكم مقابر . إن الشيطانَ ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة . ولفظ الترمذىّ : وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان .

وأخرج سعيدبن منصور والترمذىّ(١) والحاكم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : لكلّ شىء سنامٌ . وإن سنام القرآن سورة البقرة . وفيها آية هى سيدة آى القرآن . آية الكرسىّ .

فائدة :

قال ابن القيم : تأمّل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كلّه ، وله الحمد كلّه ، أزمّة الأمور كلّها بيده ، ومصدرها منه ، ومورِدها إليه ، مستوياً على العرش ، لاتخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبيده ، مطّلعاً على أسرارهم وعلانيتهم ، منفرداً بتدبير المملكة . يسمع ويرى ويعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضى ويدبر ، الأمورُ نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لاتتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ، ويمجّد نفسه ، ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلّهم على مافيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه ! يذكّرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها . ويحذّرهم من نقمه ، ويذكّرهم بما أعدّ لهم من الكرامة إنْ أطاعوه ، وما أعدّ لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذمّ أعداءه بسيّئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال ، وينوّع الأدلّة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة .

(١) أخرج الترمذى فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٢ ـ باب ماجاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسىّ .

ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها . ويذكّر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه . وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكّرهم غناءه عنهم وعن جميع الموجودات . وأنه الغنيّ بنفسه عن كلّ ما سواه. وكل ما سواه فقير إليه . وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلّا بفضله ورحمته . ولا ذرة من الشر فما فوقها إلّا بِعَدْلِهِ وحكمته . وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب . وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلّاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم ، والحامي عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم ، والمنجي لهم من كل كرب ، والموفي لهم بوعده . وأنه وليّهم الذي لا وليّ لهم سواه ، فهو مولاهم الحقّ ، وينصرهم على عدوّهم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً جواداً رحيماً جميلًا هذا شأنه ، فكيف لا تحبه ، وتنافس في القرب منه ، وتنفق أنفاسها في التودّد إليه ، ويكون أحبّ إليها من كل ماسواه ، ورضاه آثر عندها من رضى كلّ من سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره ، وتصير حبّه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها ؟

اللّهمّ! اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا . وأعِنّا على إكمال ماقصدناه بفضلك . يا أرحم الراحمين .

تمّ « الجزء الثالث » عشيّة الثلاثاء
في ١٠ جمادي الأولى سنة ١٣١٨ في دارنا .

ويليه « الجزء الرابع »
وأوله سورة
« آل عمران »

استدراك

فاتنا أن نشير إلى أن الاستدراك الذى ألحقناه بالجزء الأول من قلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد ، الشيخ محمد بهجة البيطار .

وها هو ذا يرسل إلينا استدراكه عما زاغ عنه البصر وطغى فى الجزء الثانى . ننشره هنا شاكرين لفضيلته أجزل الشكر على هذه العناية الدقيقة التى لايبتغى بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى . وسنختم كل جزء من التفسير باستدراكه على الجزء الذى سبقه . وهكذا .

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٥	ثلاث مواضع	ثلاثة مواضع
١٩	٢	زدناهم هدى	زادهم هدى
٣٢	٣	مذهبان	مذهبين
٣٧	١٢	منه بدا	(يضاف إليه) أى تكلم به حقيقة لامجازا
	١٣	وإليه يعود	(يضاف إليه) أى لايبقى له أثر فى الوجود
١٠٥	١٤	الشجرةِ	الشجرةَ
١٠٦	٥	لاتقرب	لاتقرب
١٠٧	٦	واسكنوا	« اسكنوا »
١٠٩	١٦	قال اهبطا	(١) قال اهبطا
١١١	٨	بعصهم	بعضهم
١٢٠	١٧	حسانه	حسابه
١٢٣	٥	غوّ	(لعله) غىّ
١٢٤	فى الذيل	(٢) (٣) (٤)	(١) (٢) (٣)

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٨	٤	« واختار	(١) « واختار
	٥	الرجعة	الرجفة
١٣٧	٢	لا تفسدوا	ولا تفسدوا
١٥٩	١٢	فيخرج منها	فيخرج منه
١٦٠	٣	يهبطَ	يهبطُ
١٦٧	٧	وتحوه	ونحوه
١٧٨	١٢	يشرك بها	يشرك به
١٨٨	٢٠	وبشرًى	وبشرَىٰ
١٩١	١٣	وفيه ردًّ	وفيه ردٌّ
٢١٣	٩	ما ارتآره	ما ارتآه
٢٢٤	١٦	إثباب	إثبات
٢٣٢	٤	الأرض	والأرضِ
٢٤٧	١٨	اراهيم	إبراهيم
٢٥٠	١١	عينية	عُيَيْنَة
٢٦٨	١٦	يَرجعون	يُرجعون
٢٧٨	٧	سيما	لاسيما
٣١٧	٨و١٨	وسح	وسبح

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الرابع

وفيه تفسير سورة آل عمران بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

«هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

وهى مدنية. مائتا آية، أو إلا آية . سميت بذلك لأن اصطفاء آل عمران ، وهم عيسى ويحيى ومريم وأمها ، نزل فيه منها ما لم ينزل فى غيره . إذ هو بضع وثمانون آية . وقد جعل هذا الاصطفاء دليلًا على اصطفاء نبينا محمد ﷺ وجعله متبوعاً لكل محب لله ومحبوب له .

وتسمى الزهراء ، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام. والأمان ، لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط فى شأنه . والكنز ، لتضمنها الأسرار العيسوية . والمجادلة ، لنزول نيّف وثمانين آية منها فى مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران . وسورة الاستغفار ، لما فيها من قوله : وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[1] . وطيبة ، لجمعها من أصناف الطيبين فى قوله : الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ[1]. إلى آخره ، أفاده المهايمىّ .

والمراد بعمران هو والد مريم، أم عيسى عليهما السلام ، كما يأتى التنويه به فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ[2] .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧] ونصها : الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

(٢) [٣/ آل عمران / ٣٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

[٣] (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« الٓمٓ » سلف الكلام على ذلك أول البقرة . « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » سبق تأويله فى آية الكرسىّ . « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أى القرآن . عبر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه ، كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل « بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من الكتب المنزلة قبله .

قال المهايمىّ : أى معرّفاً صدق الكتب السالفة . وقال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيًّا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان . فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك. « وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله . تأكيداً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده . إذ بذلك يترقى شأن مايصدقه رفعة ونباهة، ويزداد فى القلوب قبولًا ومهابة، ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة، واستتباع ماسيذكر من العذاب الشديد والانتقام . قاله أبو السعود .

والتوراة اسم عبرانىّ معناه (الشريعة) . والإنجيل لفظة يونانية معناها (البُشرى)

أى الخبر الحسن . هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابيْن فى مصنفاتهم . وقد حاول بعض الأدباء تطبيقهما على أوزان لغة العرب واشتقاقهما منها . وهو خبط . بغير ضبط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

« مِنْ قَبْلُ » متعلق بـ«أنزل» ، أى أنزلها من قبل تنزيل الكتاب . والتصريح به مع ظهور الأمر ، للمبالغة فى البيان « هُدًى لِلنَّاسِ » أى لقوم موسى وعيسى . أو ما هو أعم . لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع « وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » وهو الكتب السماوية التى ذكرها . لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل . أو هو القرآن . وإنما كرر ذكره عما هو نعت له ، ومدح له ، من كونه فارقاً بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيماً لشأنه ، وإظهاراً لفضله . قال الرازىّ : أو يقال إنه تعالى أعاد ذكره ليبيّن أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ، ليجعله فرقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل . وعلى هذا التقدير فلا تكرار . ثم استظهر حمل الفرقان على المعجزات التى قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب الفارقة بين دعواهم ودعوى الكذابين . قال : فالفرقان هو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها ، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة . انتهى .

ويجوز أن يكون المراد بالفرقان (الميزان) المشار إليه فى قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »[١] . والميزان هو العدل فى الأمور كلها ؛ واللفظ مما يشمل ذلك كله لتلاقيها فى المعنى .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ =

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ » أى جحدوا بها « لَهُمْ » بسبب كفرهم بها « عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهذا الوعيد. جىءبه إثر ماتقدم حملًا على الإذعان ، وزجراً عن العصيان « وَاللهُ عَزِيزٌ » لا يغالب يفعل ما يشاء « ذُو انْتِقَامٍ » أى معاقبة ، يقال : انتقم الله منه : عاقبَهُ . والنقمة : المكافأة بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ)

« إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ » أى هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقىّ وسعيد « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ)

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » واضحات الدلالة « هُنَّ

= لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

أُمُّ الْكِتَابِ » أى أصله المعتمد عليه فى الأحكام « وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » وهى ما استأثر الله بعلمها لعدم اتضاح حقيقتها التى أخبر عنها، أو ما احتملت أوجهاً . وجعله كله محكماً فى قوله : (أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ)[(١)] بمعنى أنه ليس فيه عيب ، وأنه كلام حق فصيح الألفاظ ، صحيح المعانى . ومتشابهاً فى قوله (كِتَاباً مُتَشَابِهاً)[(٢)] بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحسن، ويصدق بعضه بعضاً « فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » أى ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ » أى طلب الإيقاع فى الشبهات واللبس « وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وحده « وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ » أى الثابتون المتمكنون مبتدأ خبره « يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ » أى بالمتشابه على ما أراد الله تعالى « كُلٌّ » من المحكم والمتشابه « مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » أى العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائغة . وهو تذييل سيق منه تعالى مدحاً للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر.

تنبيه :

للعلماء فى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة . وأبدعُ ما رأيته فى تحرير هذا المقام مقالة سابغة الذيل لشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان. يقول فى خلالها:

المحكم فى القرآن ، تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخه الله ، مما ألقاه الشيطان . ومن الناس من يجعله مقابلًا لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أوّلًا اتباعاً للظاهر من قوله : فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ . فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ، ينبغى التفطن لها. وجماع ذلك أن الإحكام تارة يكون فى التنزيل. فيكون فى مقابلته ما يلقيه الشيطان. فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشىء ويحصل إتقانه ،

(١) [١١ / هود / ١] ونصها : الٓر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

ولهذا دخل فيه معنى النسخ ، كما دخل فى الحد بالمنع جزء معناه ، لا جميع معناه . وتارة يكون فى إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحىّ . أو يقال (وهو أشبه) : السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، فكل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فهو منسوخ فى اصطلاح السلف . وإلقاء الشيطان فى أمنيته قد يكون فى نفس لفظ المبلِّغ ، وقد يكون فى مسمع المبلَّغ ، وقد يكون فى فهمه ، كما قال : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا(١) . ومعلوم أن من سمع ، سمعَ النص الذى قد رفع حُكْمُهُ ، أو دلالة له ، فإنه يلقى الشيطان فى تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ ، فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به رُفِعَ الحكم ، وَبَانَ المراد . وعلى هذا التقدير ، فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ . بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتارة يكون الإحكام فى التأويل والمعنى ، وهو تميز الحقيقة المقصودة من غيرها ، حتى لا تشتبه بغيرها . وفى مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين ، ولم يقل فى المتشابه (لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله) ، وإنما قال : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين فى هذا الموضع . فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو . والوقف هنا . على ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمهور التابعين ، وجماهير الأمة . ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ(٢) . وهذا يعم الآيات

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

المحكمات والآيات المتشابهات . وما لايعقل له معنى لايتدبر، وقال: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ(١) . ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه . يبيّن ذلك أن التأويل، قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم كحيّ بن أخطب وغيره مَن طلب من حروف الهجاء التي فى أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً . لأن ذلك هو عدد ما للحروف فى حساب الجمل ، بعد إسقاط المكرر . وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن فى اليوم الآخر . وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى وفد نجران مَنْ تأوّل (إنّا ونحن) على أن الآلهة ثلاثة . لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل فى الإيمان بالله. فأولئك تأولوا فى اليوم الآخر. وهؤلاء تأولوا فى الله. ومعلوم أن (إنا ونحن) من المتشابه. فإنه يراد بها الواحد الذى معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذى معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد الواحد المعظم نفسه ، الذى يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى . فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع ، والأسماء المشتركة فى اللفظ هى من المتشابه ، وبعض المتواطئ أيضاً من المتشابه. ويسميها أهل التفسير (الوجوه والنظائر) وصنفوا كتب الوجوه والنظائر . فالوجوه فى الأسماء المشتركة ، والنظائر فى الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين فى ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً فى الأسماء المشتركة، فهى نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ماقاله،

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا .

و [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا.

بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين فى قلوبهم زيغ يدّعون المحكم الذى لا اشتباه فيه مثل : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ[١] . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي[٢] . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ[٣] . وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ[٤] . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[٥]. ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التى أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار. فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف : إن السنة هى تأويل الأمر . قالت عائشة رضى الله عنها[٦] : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفرلى . يتأول القرآن ، تعنى قوله : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا[٧]. وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع.

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٣] ونصها : وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٢٠ / طه/ ١٤] ونصها: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

(٣) [٢٣ / المؤمنون/ ٩١] ونصها : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢] ونصها : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٣و٤] .

(٦) أخرجه البخارىّ فى: ١٠ـ كتاب الأذان، ١٣٩ـ باب التسبيح والدعاء فى السجود .

(٧) [١١٠ / النصر / ٣] .

ليس تأويله فهم معناه ، وقد جاء اسم التأويل فى القرآن فى غير موضع . وهذا معناه. قال الله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ[(١)] فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لايشتبه ، ثم قال : هَلْ يَنْظُرُونَ ، أى ينتظرون ، إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله . إلى آخر الآية . وإنما ذلك مجىء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها . كالدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجىء ربك والملك صفا صفا ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك . فحينئذ يقولون : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لايعلم وقته وقدره وصفته إلا الله . فإن الله يقول: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ[(٢)] . ويقول[(٣)] : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء، فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢و٥٣] ونصهما : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ. ونصه : عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ، قال الله: أعددت..الخ.

التشابه . كما فى قوله : وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً[1] على أحد القولين أى يشبه مافى الدنيا ، وليس مثله . فأشبه اسمُ تلك الحقائق أسماءَ هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائقُ الحقائقَ من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لاندركها فى الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ماهى عليه هى تأويل ما أخبر الله به ، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم . فإنهم ينكرون أن يكون فى الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل فى الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحانىّ ، إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد . وإن كان من منافقة الملّتين المقرين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذى فى الجنة من الروحانىّ والسماع الطيب والروائح العطرة . كلٌّ ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى مااعتقد ثبوته. وكان فى هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون فى الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذى يعلمونه فى الدنيا ، قال الله تعالى : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، فإن تلك الحقائق قال الله فيها : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ[2] ، لا ملك مقرب ولا نبىّ مرسل . وقوله : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ . إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على المتشابه . فإن

(١) [٢ / البقرة / ٢٥] ونصها : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

كان عائداً على الكتاب لقوله: منه. ومنه: فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، فهذا يصح . فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذى أمرنا أن نؤمن به ، لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ(١) . فجعل التأويل الجائى الكتاب المفصل ، وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله . وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا . وكذلك قوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . وإذا كان التأويل الكتاب كله والمراد به ذلك، ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ إلى قوله ـ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ(٢). وكذلك قوله : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً(٣) . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله . وهذا واضح بيّن ، ولا ينافى كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها. فهذا هذا .

---

(١) انظر الهامش رقم ١ ص ٧٥٦ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٣] .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس ، فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه، بخلاف الأمر والنهى . ولهذا فى الآثار : العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه. لأن المقصود فى الخبر الإيمان. وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ماذكرناه. بخلاف الأمر والنهى فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع . وأمور نتركها لابد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ التأويل فى القرآن قوله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(١) والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه ، وهو يعود إلى القرآن . قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾(٢) . فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفى كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(٣) لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله. كما تحداهم وطالبهم لما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤) ، فهذا تعجيز

---

(١) [١٠ / يونس/ ٣٩] ونصها : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٧ــ٤٠] .

(٣) [١١ / هود / ١١٧] .

(٤) [١٠ / يونس / ٣٨] .

لجميع المخلوقين . قال تعالى : وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ[1] ، أى مصدق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، أى مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذى بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس . ولما تحدى القائلين : افْتَرَاهُ ، ودل على أنهم هم المفترون ، قال : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . ففرق بين الإحاطة بعلمه ، وبين إتيان تأويله .

فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به . وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به . فمعرفة الخبر هى معرفة تفسير القرآن . ومعرفة المخبر به هى معرفة تأويله . وهذا هو الذى بيناه فيما تقدم .

إن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر به محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله . ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا[2] . فقد أخبر ، ذماً للمشركين ، أنه إذ قرئ عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم فى ذلك . وقوله : أَنْ يَفْقَهُوهُ . يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصرىّ : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فى ماذا أنزلت وماذا عنى بها . وما استثنى من ذلك لامتشابهاً ولا غيره . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٥و٤٦] .

أقفه عند كل آية وأسأله عنها. فهذا ابن عباس حبر الأمة، وهو أحد من كان يقول: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، يجيب مجاهداً عن كل آية فى القرآن . وهذا هو الذى جعل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل . لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه . فظن أن هذا هو التأويل المنفىّ عن غير الله. وأصل ذلك أن لفظ التأويل، وبه أشير إلى بين ماعناه الله فى القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين . فبسبب الاشتراك فى لفظ (التأويل) اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور فى القرآن .

ومجاهد إمام التفسير ، قال الثورىّ : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وأما التأويل فشأن آخر . ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحدمنهم عن تفسير آية من كتاب الله وقال : هذه من المتشابه الذى لا يعلم معناه ، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن فى القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم . وإنما قد ينفون علم بعض ذلك على بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه ، وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام فى آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك. فلقبوها ، هل يجوز أن يشتمل القرآن على مالا يعلم معناه ، وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم ؟ فجوّز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية ، وبأن الله يمتحن عباده بماشاء . ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التى هى تحريف الكلم عن مواضعه . والغالب على كلتا الطائفتين الخطأ. أولئك يقصرون فى فهمهم القرآن بمنزلة من قيل فيه : وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[1] . وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . ومن المتأخرين من وضع المسألة

(١) [٢ / البقرة / ٧٨] .

بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له ؛ وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه . وبين نفى المعنى عند المتكلم ، ونفى الفهم عند المخاطب ، بون عظيم . ثم احتج بما لا يجرى على أصله ، فقال: هذا عبث ، والعبث على الله محال ، وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع فى الحروف ، وهى عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صريح ، ولا عقل صحيح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطؤوا فى زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفى دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواضعه . فإن الأولين ، لعلمهم بالقرآن والسنن ، وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب ، علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن . فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون للأخبار والأوامر . وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء . وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء فى اليوم الآخر وفى آيات القدر ، ويتأولون آيات الصفات . وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء فى بعض الصفات ، وبعضهم فى بعض ماجاء فى اليوم الآخر . وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان يغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه.

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة ، وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن . ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرؤونه ويتلونه وهم لا يفهمونه . وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطؤوا فى معنى التأويل الذى نفاه الله ، وفى التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك

مبتدعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ، ولكن بفرية على الله ، وقول عليه مالا يعلمونه ، وإلحاد فى أسمائه وآياته . فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك فى لفظ التأويل . فإن التأويل فى عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر: هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . والمتأول عليه وظيفتان : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات ، إذا صنف بعضهم فى إبطال التأويل ، أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم : آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر : بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ، ويترك عند المصلحة ، أو يصح للعلماء دون غيرهم ، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل فى لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما ـ تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله . ومحمد بن جرير الطبرى يقول فى تفسيره : القول فى تأويل قوله كذا وكذا . واختلف أهل التأويل فى هذه الآية . ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثانى ـ فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو نفس المراد بالكلام . فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشىء المخبر به . وبين هذا المعنى والذى قبله بون . فإن الذى قبله يكون التأويل

فيه من باب العلم ، والكلام كالتفسير والشرح والإيضاح . ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان، له الوجود الذهنىّ واللفظىّ والرسمىّ. وأماهذا، فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلة . فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها . وهذا الوضع والعرف . الثالث هو لغة القرآن التى نزل بها ، وقد قدمنا التبيين فى ذلك . ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف: وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ(١) . وقوله : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ*قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ(٢).وقول الملأ: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ(٣). وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤). وقول يوسف لما دخلوا عليه مصر وآوى إليه أبويه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ(٥) .

(١) [١٢/ يوسف / ٦] ونصها : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٣٦و٣٧] . . . قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ، إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٤] .

(٤) [١٢ / يوسف / ٤٥] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٩٩] ونصها : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا(١) .

فتأويل الأحاديث التى هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التى تؤول إليه، كما قال يوسف : هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ(١) . والعالم بتأويلها الذى يخبر به ، كما قال يوسف : لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ . أى فى المنام . إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . أى قبل أن يأتيكما التأويل . وقال الله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٢) قالوا : أحسن عاقبة ومصيراً ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذى هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل فى سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا ، والتأويل فى الأعراف ويونس تأويل القرآن، وكذلك فى سورة آل عمران . وقال تعالى فى قصة موسى والعالم : قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٣) . إلى قوله : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا(٤). فالتأويل هنا تأويل الأفعال التى فعلها العالم

(١) [١٢ / يوسف ١٠٠] . . . وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . . .

(٣) [١٨ / الكهف / ٧٨] .

(٤) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...

من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار . فهو تأويل عمل، لا تأويل قولٍ ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوّله يؤوله تأويلًا ، مثل حوّل تحويلًا ، وعول تعويلًا . و (أوّل يؤوّل) تعدية (آل يؤول أَوْلا)،مثل حال يحول حولًا ، وقولهم (آل يؤول) أى عاد إلى كذا ورجع إليه ، ومنه المـآل ، وهو مايؤول إليه الشيء. ويشاركه فى الاشتقاق الموئل ، فإنه وَأَل ، وهذا من أَوَل ، والموئل المرجع ، قال تعالى : وَلَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا . ومما يوافقه فى اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لايستعمل إلا فى عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤول إليه الآل . كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون . بخلاف الأهل . والأول أفعل ، لأنهم قالوا فى تأنيثه أولى ، كما قالوا جمادى الأولى ، وفى القصص : وله الحمد فى الأولى والآخرة . ومن الناس من يقول فوعل ويقول (أوّلة) إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف . سمى المتقدم أول ـ والله أعلم ـ لأن ما بعده يؤول إليه ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى لا من باب أحمر وحمراء، ولهذا يقولون: جئته أول من أمس وقال : مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ[1] . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[2] . وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ[3] .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٨] ونصها : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] ونصها : وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ .

ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذى فضل عليهم فى الأوّل ، لأن كل واحد يرجع إلى ماقبله ، فيعتمد عليه ، وهذا السابق ، كلهم يؤول إليه . فإن من تقدم فى فعل، فاستبق به من بعده ، كان السابق الذى يؤول الكل إليه . فالأول له وصف السؤدد والاتباع . ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود . والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدى خلاف العائد . لأنه إنما كان أولًا لما بعده ، فإنه يقال (أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) ، و (أَوَّلَ يَوْمٍ) ، فما فيه من معنى الرجوع والعود ، هو للمضاف إليه لا للمضاف . وإذا قلنا: آل فلان فالعود فى المضاف . لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه مآلًا ومرجعاً لغيره . لأن كونه مفضلًا دل على أنه مآل ومرجع ، لا آيل راجع . إذ لافضل فى كون الشىء راجعاً إلى غيره ، آيلًا إليه ، وإنما الفضل فى كونه هو الذى يُرجع إليه ويُؤال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل فى كونه مآلًا ومرجعاً، والتفضيل المطلقُ فى ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المبتدئ . والله أعلم .

فتأويل الكلام ماأوّله إليه المتكلم أومايؤول إليه الكلام أو ماتأوله المتكلم. فإن التفعيل يجرى على غير فعّل كقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(١) ، فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلًا ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل . كعدل وصوم وفطر، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله . فالتأويل هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه. والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤُول ويُؤَوَّل إلى حقيقته التى هى عين المقصود به ، كما قال بعض السلف فى قوله : لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٢) . قال: حقيقة . فإن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإلا لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا ، ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً

(١) [٧٣ / المزمل / ٨] ونصها : وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .
(٢) [٦ / الأنعام / ٦٧] .

فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول. كما روى عن النبىّ ﷺ أنه تلا هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا[1]. قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد.

فصل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كلٌّ واحد من القولين طوائفُ من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم ، وإن أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدعٍ وقع فيها غيرهم، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول ـ من قال إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه. ماالدليل على ذلك ؟ فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمىّ الذى لا يفهم . ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه . وإنما قالوا: كلمات لها معان صحيحة . قالوا فى أحاديث الصفات : تُمرّ كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردّوها وأبطلوها . التى مضمونها تعطيل النصوص على مادلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة فى أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على مادلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض مادلت عليه ، كما يفهمون ذلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال فى غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت فى

(١) [٦ / الأنعام / ٦٥] . . . وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

أحاديث الوعد . مثل : من غشنا فليس منا(١) . وأحاديث الفضائل . ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كله عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلا، بالعرف المتأخر.

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل . وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة الجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن . وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره . بل يبين ويفسر. فاتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد فى أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين ، والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل: إن هذا هو التأويل المذكور فى الآية ، وأنه لا يعلمه إلا الله ، لكان فى هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلا يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله . وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها ، لا التوقف عنها . وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى . لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرؤوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل سورة الإخلاص وآية الكرسى وأول الحديد وآخر الحشر ، وقوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، و : عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، و : إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، و : الْمُقْسِطِينَ ، و : الْمُحْسِنِينَ ، وأنه : يَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٦٤ ونصه : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

و : لَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ(١) . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَاأَسْخَطَ اللَّهَ(٢) .
وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ(٣) . الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ(٤) . ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ(٥) .
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَايَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ
أَيْنَمَا كُنْتُمْ(٦) . وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٧) .
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ(٨) . إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ(٩) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٨] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

(٣) [٩ / التوبة / ٤٦] ونصها : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٦) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٧) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] .

(٨) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٩) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ (١) . مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ (٢) . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (٣) . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٤) . يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (٥) . وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٦) . إلى أمثال ذلك . فيقال لمن ادعى فى هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هـذا فى جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم فى البعض ؟ فإن قلت هذا فى الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، بل كفر صريح . فإنا نفهم من قوله : إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معنى . ونفهم من قوله :

---

(١) [٦/ الأنعام/٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٥) [١٨ / الكهف / ٢٨] ونصها : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

(٦) [٢٠ طه / ٣٩] ونصها : أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي .

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ[1] . معنى . ونفهم من قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[2]، معنى. وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا .

وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الرحيم العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك فى قوله : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ. يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم . وهذا الغلو فى الظاهر ، من جنس غلو القرامطة فى الباطن . لكن هذا أيبس وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود ، أو على حق موجود ، أم لا؟ فإن قال: لا، كان معطلاً محضاً. وما أعلم مسلماً يقول هذا . وإن قال: نعم قيل له: فهل فهمت منها دلالتها على نفس الرب، ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعانى من الرحمة والعلم، وكلاهما فى الدلالة سواء؟ فلابد أن يقول: لأن ثبوت الصفات محال فى العقل، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث. بخلاف الذات. فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثانى كما سنذكره . وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض. فيقال له: ماالفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه؟ فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة، بخلاف الآخر. أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر، وكلا الوجهين

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] ونصها : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

باطل فى أكثر المواضع ، أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير علىّ عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته . وأما الثانى فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر : لم نفيت ، مثلاً ، حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة فى حقنا هى رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة فى حقنا هى ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه . قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه . وكذلك محبته . وإن قال (وهو حقيقة قوله) : لم أُثْبتِ الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما أثبتُّ العلم والقدرة والإرادة بالعقل . وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين . لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على العلم . والتخصيص دل على الإرادة . قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإدناء . وأنواع التخصيص التى لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة . وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص ، وما سلكه فى مسلك الإرادة يسلك فى مثل هذا .

الثانى ـ يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا ، فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفى به الإرادة ، والسمع دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه فى هذه المضايق أعظم ، ودلالته أتم ، فلأى شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة ؟ مع أن النصوص تفرق . فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها فى إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث ـ يقال له : إذا قال لك الجهمىّ : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمر به ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضى محذوراً إن قال بقدمها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة . فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم . ولا يقولون بتجدد صفة له ، لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم . مع تناقضهم .

فصاروا حزبين :

البغداديون ـ وهم أشد غلوًّا فى البدعة فى الصفات وفى القدر ، نفوا حقيقة الإرادة . وقال الجاحظ : لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبى : لا معنى لها إلا نفس الفعل ، إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عباده .

والبصريون ـ كأبى على وأبى هاشم . قالوا : تحدث إرادة لا فى محل ، فلا إرادة . فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقل معلوم الفساد بالبديهة . كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها ، والفعل أيضاً . فإذا أخذ الخصم ينازع فى دلالة النص أو العقل ، جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود فى الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه فى دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعى .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله فى العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعانى ، وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب ماقررناه فى غير هذا الموضع ، فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفى به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويُلْزَمُون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية، والضرورة العقلية، والقواطع العقلية، واتفاق الأمم، وغير ذلك من الدلائل . ثم يطالبون بوجودٍ من جنس مانعهده، أو بوجودٍ يعلمون كيفيته ، فلابد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق . فالقول فى سائر ما سمى ووصف به نفسه ، كالقول فى نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة ، لابد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى ، وانتفاء المانع . وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن عنده مقتضٍ ولا مانع ، فيُبيَّن له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبته قائم . إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فإن كان المقتضى هناك حقًّا ، فكذلك هنا . وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا . وأما المانع فيبين أن المانع الذى تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذى تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفى الآخر ، فإنه إن كان حقًّا نفاهما ، وإن كان باطلًا لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين فى الإثبات والنفى ، ولا سبيل إلى النفى فتعين الإثبات . فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً . وما من أحد إلا ولابد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته ، فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها موجبة النفى خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غيره مرة .

فإن قال مَنْ أثبت هذه الصفات التى هى فينا أعراض كالحياة والعلم والقدرة ، ولم يثبت ما هو فيها أبعاض كاليد والقدم : هذه أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب والتجسيم . قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسى . فإن أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً أو تسميتها تركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قال : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية ، قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك فى حق الله محال . فمفارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقاً ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : وهذا تجسيم والتجسيم منتف .

فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز ، وإن لم يكن له فى الشاهد نظير ، قيل له : فاعقل صفة هى لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير . فإن نفى عقل هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق ، لكنه فرق غير مؤثر فى موضع النزاع . ولهذا كانت المعطلة الجهمية تنفى الجميع لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفى الذات، ومن أثبت هذه الصفات الخبرية من نظير هؤلاء ، صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس هو معقول النص ، ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

وأصل ذلك أنهم أتوا بألفاظ ليست فى الكتاب ولا فى السنة ، وهى ألفاظ مجملة . مثل متحيز ومحدد وجسم ومركب ، ونحو ذلك ، ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلّمة ، ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه فى إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء ، فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعىّ لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ومن جهة العقل من ناحية أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلّبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة يغلبون القياس الثانى ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضىّ ، فإنه قد قيل : أول ما تُكُلِّم فى الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبى الهذيل العلاف ، فإن أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس وعارضهم هشام وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته ، واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيرَه ، ويوجب ما أحال نظيرَه ، إذ كلامهم من

عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً(١) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع فى ذلك سبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعانى المفهومة من الكتاب والسنة لا تردّ بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه . ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ . فهذا أحد الوجهين . وهو منع أن تكون هذه من المتشابه .
الوجه الثانى : أنه إذا قيل هذه من المتشابه ، أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال: الذى فى القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله ، إما المتشابه ، وإما الكتاب كله كما تقدم. ونفى علم تأويله ليس نفى علم معناه كما قدمناه فى القيامة وأمور القيامة . وهذا الوجه قوىّ إن ثبت حديث ابن إسحق فى وفد نجران ، أنهم احتجوا على النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله « إنا ونحن » ونحو ذلك ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن فى القرآن متشابهاً ، وهو ما يحتمل معنيين ، وفى مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك فى مسائل المعاد وأولى ، فإن نفى المتشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفى المتشابه بين موعود الجنة وموجود الدنيا ، وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولًا أن نفى علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى ، ونزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ(٢) وقال

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٧ و ٢٨] .

تعالى : الٓر ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه ، وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢) فحض على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكير فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه ، مثل قوله : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٣) وقوله : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(٤) ومعلوم أن نفى الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفى مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر . وقال علىّ عليه السلام(٥) لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا ! والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف فى الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ،

---

(١) [١٢ / يوسف / ١و٢] .

(٢) [٥٩/ الحشر/ ٢١] وأولها : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ،

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] .

(٤) [٤ / النساء / ٨٢] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٢٤ ـ باب العاقلة . ونصه :

عن أبى جُحَيفة قال : سألت علياً رضى الله عنه : هل عندكم شىء ما ليس فى القرآن ؟ (وقال مرة : ليس عند الناس) فقال : والذى فلق الحب وبرأ النسمة ! ما عندنا إلا ما فى القرآن ، إلا فهماً يُعْطَى رجل فى كتابه . وما فى الصحيفة . قلت : وما فى الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً[١] . وقال النبيّ ﷺ[٢] : رب مبلَّغ أوعى من سامع ، وقال[٣] : بلغوا عنى ولو آية . وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا فى جميع نصوص القرآن، آيات الصفات وغيرها. وفسروها بما يوافق دلالتها . ورووا عن النبىّ ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن . وأئمة الصحابة فى هذا أعظم من غيرهم. مثل عبدالله ابن مسعود الذى كان يقول : لو أعلمُ أعلمَ بكتاب الله منى تبلغه آباط الإبل لأتيته .

(١) [٢١ / الأنبياء/ ٧٩] ونصها : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج، ١٣٢ ـ باب الخطبة أيام منى . ونصه :

عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : خطبنا النبىّ ﷺ يوم النحر . قال « أتدرون أى يوم هـذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال « أى شهر هـذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال « أليس ذو الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليست بالبلدة الحرام ؟ » قلنا: بلى. قال « فإن دماءكم وأموالكم علىّ حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هـذا إلى يوم تلقون ربكم . ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال « اللهم ! اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلَّغ أوعى من سامع . فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل ونصه :

عن عبدالله بن عمرو أن النبىّ ﷺ قال « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وعبدالله بن عباس الذى دعا له النبى ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبى ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا ، وما فى التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما فى عِلْية التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلالة ، أصحاب زيد بن ثابت ، لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر ، وابن عمر ، وابن عباس . ولو كان معانى هذه الآيات منفياً أو مسكوتاً عنه، لم يكن ربانيو الصحابة أهلُ العلم بالكتاب والسنة أكثرَ كلاماً فيه . ثم إن الصحابة نقلوا عن النبى ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل . وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية . كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك ربيعة قبله . وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول. فليس فى أهل السنة من ينكره . وقد بيّن أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ، ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟ ولم يقل مالك : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون: لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجرى ماهيته فى مقال . ومنهم من يقول : ليس له كيفية ولا ماهية . فإن قيل : معنى قوله (الاستواء معلوم) أن ورود هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذى استأثر الله بعلمه ، قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا

من باب تحصيل الحاصل ، فإن السائل قد علم أن هـذا موجود فى القرآن ، وقد تلا الآية ، وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء فى القرآن ، ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، لم يخبر عن الجملة . وأيضاً فإنه قال : والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء ، لا العلم بنفس الاستواء ، وهـذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه . لو قال فى قوله : إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى[1] ، كيف يسمع و كيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول . ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم . وأيضاً فإن من قال هـذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش، لا ينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من المتشابه الذى لا يعلم معناه بالكلية . ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش : علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى . وهذه ثابتة عن السلف . وقد ذكر البخارىّ فى صحيحه بعضها فى آخره ، فى (كتاب الرد على الجهمية)[2] .

وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك ، فهى من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية . وأيضاً قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس فى خصوص الصفات، بل فى صحيح البخارىّ[3]

(١) [٢٠ / طه / ٤٦] وأولها : قَالَ لَا تَخَافَا ،

(٢) كتاب الرد على الجهمية من صحيح البخارىّ هو : ٩٧ ـ كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١ ـ باب مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ =

أن النبيّ ﷺ قال لعائشة : يا عائشة ! إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذريهم، وهذا عامّ . وقصة صُبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا[١]، فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن ، حتى رآه عمر ، فسأل عمرَ عن : الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا[٢] فقال : ما اسمك ؟ قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبدالله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألحّ عليه رجل فى مسألة من هذا الجنس يقول: ما أحوجك أن يُصنع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهـذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبيّ عليه الصلاة والسلام[٣] : إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه . وكما قال تعـالى : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذى يعارض بين آيات القرآن . وقد نهى النبيّ ﷺ عن ذلك وقال[٤] : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبهم

= زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ـ إلى قوله: أُولُوا الْأَلْبَابِ . قالت : قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيتَ الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذى سمى الله فاحذروهم » .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٩٩ من الجزء الأول ، ففيها تفصيل ذلك .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١] .

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٧٨١ .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : المقدمة ، ١٠ ـ باب فى القدر ، حديث ٨٥ (طبعتنا) ونصه: عن عمرو بن شعيب ، عن أبيـه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون فى القدر ، فـكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان ، من الغضب . فقال « بهذا أُمرتم أو لهذا خُلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلـكت الأمم قبلـكم » .

قال فقال عبدالله بن عمرو: ما غبطت نفسى بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ =

ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذى لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ، ومطلوبهم متعذراً ، مثل أغلوطات المسائل التى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها[1] . ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات . وقد تكلم الصحابة فى تفسيرها مثل علىّ بن أبى طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها ، كره سؤاله ، لما رآه من قصده . لكن علىّ كان رعيته ملتوية عليه ، لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس فى اللفظ ذكر الموصوف . والتأويل الذى لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر . وكذلك فى الجاريات والمقسمات ، فهذا لا يعلمه إلا الله تعالى . وكذلك فى قوله « إِنَّا ونحن » ونحوهما من أسماء الله التى فيها معنى الجمع كما اتبعته النصارى ، فإن معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعانى بمنزلة الأسماء المتعددة ، مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فإن المسمى واحد ، ومعانى الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذى لفظه الجمع . وأما التأويل الذى اختص الله به ، فحقيقة ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول فإذا قالوا : ماحقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل : هذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

= ما غبطت نفسى بذلك المجلس وتخلفى عنه .

قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الغلوطات . قال الأوزاعىّ : الغلوطات شداد المسائل وصعابها .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس[1] : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . قيل : أما تأويل الأمر والنهى فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفى هو تأويل الأخبار التى لا يعلم حقيقة مَخْبَرِها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذى يعلم العباد تأويله . وهذا كقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ [2] وقوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ [3] فإن المراد تأويل الخبر الذى فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذى ينتظر ويأتى ، ولما يأتهم . وأما تأويل الأمر والنهى فذاك فى الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل فى التأويل لا ينتظر ، والله سبحانه أعلم وبه التوفيق . انتهى كلام الشيخ تقى الدين.

وإنما سقته بطوله لماأنهذاالبحث من المعارك المهمة التى قل من حررها ونهج فيها منهج الحق كالشيخ قدس سره. مع مافى خلال البحث من القواعد الجليلة فى فن التفسير. فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : المقدمة ، ١١ـ باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ١٦٦ (طبعتنا) ونصه : عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ . وقال « اللهم ! علمه الحكمة وتأويل الكتاب » .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٣) [١٠ / يونس/ ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

وقال الإمام الجليل أبوعبد الله محمد بن المرتضى اليمانيّ في كتاب « إيثار الحق على الخلق » في بحث سبب الاختلاف الشديد بين الفرق مانصه :

وأما الأصل الثاني وهو السمعيّ فهو اختلافهم في أمرين :

أحدهما ـ في معرفة المحكم والمتشابه أنفسهما والتميز بينهما حتى يردّ المتشابه إلى المحكم ،

وثانيهما ـ اختلافهم هل يعلمون تأويل المتشابه ، ثم اختلافهم في تأويله على تسليم أنهم قد عرفوا المتشابه .

ولنذكر سبب وقوع المتشابه على العقول من حيث الحكمة والدقة في كتب الله تعالى أولا ، والمشهور أن سببه الابتلاء بالزيادة في مشقة التكليف لتعظيم الثواب ، وهذا أنسب بالمتشابه من حيث اللفظ . وأما أنا فوقع لي أن سببه زيادة علم الله على علم الخلق ، فإن العوائد التجريبية ، والأدلة السمعية ، دلت على امتناع الاتفاق في تفاصيل الحكم ، وتفاصيل التحسين والتقبيح ، ولذلك وقع الاختلاف بين أهل العصمة من الملائكة والأنبياء ، كما قال تعالى حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ »[1] وحكى الله تعالى اختلاف سليمان وداود ، وموسى وهرون ، وموسى والخضر . وصح في الحديث[2] اختلاف موسى وآدم ، واختلاف الملائكة في حكم قاتل

(١) [٣٨ / صٓ / ٦٩] .

(٢) أخرجه البخاريّ في: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣١ ـ باب وفاة موسى وذكره بعد، حديث ١٦٠٤ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدّر عليّ قبل أن أخلق ؟ » فقال رسول الله ﷺ « فحج آدم موسى » مرتين .

المئة نفس[(١)] ، إلى أمثال لذلك قد أفردتها لبيان امتناع الاتفاق فى نحو ذلك ، وإن علة الاختلاف التفاصيل فى العلم ، فوجب من ذلك أن يكون فى أحكام الله تعالى وحكمه ما تستقبحه عقول البشر ، لأن الله تعالى لو ماثلنا فى جميع الأحكام والحكم دل على مماثلته لنا فى العلم المتعلق بذلك وفى مؤداه ولطائفه وأصوله وفروعه ، ولذلك تجد الأمثال والنظراء فى العلوم أقل اختلافاً ، خصوصاً من المقلدين . وإنما عظم الاختلاف بين الخضر وموسى لما خص به الخضر عليهما السلام. وهذه فائدة نفيسة جداً، وبها يكون ورود المتشابه أدل على الله تعالى وعلى صدق أنبيائه ، لأن الكذابين إنما يأتون بما يوافق الطباع، كما هو دين القرامطة والزنادقة . وقد أشار السمع إلى ذلك بقوله تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ[(٢)] . وقال فى رسول الله ﷺ : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[(٣)]. وكيف يستنكر اختلاف الإنسان الظلوم الجهول وعلام الغيوب الذى جمع معارف

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ ونصه :

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا . ثم خرج يسأل. فأتى راهباً فسأله . فقال له : هل من توبة ؟ قال: لا. فقتله . فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدره نحوها . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه : أن تقرّبى. وأوحى الله إلى هذه : أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما . فوُجد إلى هذه أقرب بشبر . فغُفِرَ له » .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١] ونصها: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ .

(٣) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ =

العارفين في علمه مثل ما أخذه العصفور فى منقاره من البحر الأعظم؟ بل كيف لا يختص هذا الرب الأعظم بمعرفة ما لا نعرفه من الحكم اللطيفة التى يستلزم تفرده بمعرفتها أن يتفرد بمعرفة حسن ماتعلقت به وتأويله ، وبهذا ينشرح صدر العارف للإيمان بالمتشابه ، والإيمان بالغيب فى تأويله. ولنذكر بعد هذا كل واحد من الأمرين المقدم ذكرها على الإيجاز .

أما الأمر الأول ـ وهو اختلافهم فى ماهيتهما . فمنهم من قال : المحكم ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، والمتشابه ما احتمل أكثر من معنى . فهؤلاء رجعوا بالمحكم إلى النص الجلىّ، وما عداه متشابه . وعزاه الإمام يحيي إلى أكثر المتكلمين وطوائف من الحشوية . ومنهم من قال : المحكم ما كان إلى معرفته سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى معرفته بحال ، نحو قيام الساعة والحكمة فى العدد المخصوص فى حملة العرش ، وخزنة النار . ومنهم من قصر المتشابه على آيات مخصوصة. ثم اختلفوا، فمنهم من قال : هى الحروف المقطعة فى أوائل السور، ومنهم من قال آيات الشقاوة والسعادة ، ومنهم من قال: المنسوخ ، ومنهم من قال : القصص والأمثال ، ومنهم عكس فقال: المحكم آيات مخصوصة، وهى آيات الحلال والحرام وما عداها متشابه ، إلى غير ذلك ـ حكى الجميع الإمام يحيي فى (الحاوى) ـ واختار أن المحكم ما علم المراد بظاهره بدليل عقلىّ أو نقلىّ ، والمتشابه به ما لم يعلم المراد منه لا على قرب ولا على بعد، مثل قيام الساعة والأعداد المبهمة . وقد ترك الإمام والشيخ ابن تيمية وجهاً آخر من المتشابه الذى يحتاج إلى التأويل مما لا يعلمه إلا الله على الصحيح ، وذلك وجه الحكم المعينة فيما لا تعرف العقول وجه حسنه ، مثل خلق أهل النار ، وترجيح عذابهم على العفو مع سبق العلم وسعة الرحمة وكمال القدرة على كل شيء ، والدليل على أن الحكمة الخفية فيه تسمى تأويلا له، ما ذكره الله تعالى فى قصة موسى والخضر ، فإن قوله : سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ

= يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (١) صريح فى ذلك ، وهـذا مراد فى الآية ، لأن الله وصف الذين فى قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك ، وهم لا يبتغون علم العاقبة ، عاقبة الخبر عن الوعد والوعيد ، وما يؤول إليه ، على ما فسره الشيخ ، فهم لا يبتغون الجنة والنار والقيامة وذات الرب سبحانه كما يبغيها طالب العيان ، إنما يستقبحون شيئاً من الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معانى كثيرة يختلفون فيها ، وكل منهم يتفرد بمعنى من غير حجة صحيحة إلا مجرد الاحتمال، وربما خالف ذلك التأويلُ المعلومَ من الشرع فتأولوه ، وربما استلزم الوقوع فى أعظم مما فروا منه ، والذى وضح لى فى هذا وضوحاً لا ريب فيه بحسن توفيق الله أمور :

أحدها ـ أن الكلام فى ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة على حد علم الله ، كلاهما باطل ، بل من المتشابه الممنوع الذى لا يعلمه إلا الله تعالى لقوله تعـالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (٢) ولقوله تعـالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ (٣) وإنما تُتَصَوَّر المخلوقات وما هو نحوها . ولما روى من النهى عن التفكر فى ذات الله ، والأمر فى التفكر فى آلاء الله ، ولما اشتهر عن أمير المؤمنين عليه السلام أن ذلك مذهبه ، حتى رواه عنه الخصوم . ومن أشهر ما حفظ عنه عليه السلام فى ذلك قوله فى امتناع معرفة الله عز وجل على العقول : امتنع منها بهـا ، وإليها حاكمهـا . ومن التفكير فى الله والتحكم فيه والدعوى الباطلة على العقول والتكلف

(١) [١٨ / الكهف / ٧٦] وأولها : قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

لتعريفها مالا تعرفه ، حدثت هنا البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وأسمائه . ومن البدع في هذا الموضع بدع المشبهة على اختلاف أنواعهم ، وبدع المعطلة على اختلافهم أيضاً ، فغلاتهم يعطلون الذات والصفات والأسماء . الجميع ، ومنهم الباطنية ، ودونهم الجهمية . ومن الناس من يوافقهم في بعض ذلك دون بعض . فالفريقان المشبهة والمعطلة إنما أُتوا من تعاطي علم ما لا يعلمون . ولو أنهم سلكوا مسالك السلف في الإيمان بما ورد من غير تشبيه لسلموا . فقد أجمعوا على أن طريقة السلف أسلم ، ولكنهم ادعوا أن طريقة الخلف أعلم ، فطلبوا العلم من غير مظانه ، بل طلبوا علم مالا يعلم ، فتعارضت أنظارهم العقلية ، وعارض بعضهم بعضاً في الأدلة السمعية . فالمشبهة ينسبون خصومهم إلى رد آيات الصفات ويدعون فيها ماليس من التشبيه . والمعطلة ينسبون خصومهم وسائر أئمة الإسلام جميعاً إلى التشبيه ، ويدعون في تفسيره مالا تقوم عليه حجة . والكل حرموا طريق الجمع بين الآيات والآثار ، والاقتداء بالسلف الأخيار ، والاقتصار على جليات الأبصار ، وصحاح الآثار . وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه باسناده من حديث زيد بن أسلم أن رجلًا سأل أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة فقال : ياأمير المؤمنين! هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً ؟ فغضب عليه السلام ونادى (الصلاة جامعة) فحمد الله وأثنى عليه إلى قوله : فكيف يوصف الذى عجزت الملائكة مع قربهم من كرسيّ كرامته ، وطول ولههم إليه ، وتعظيم جلال عزته ، وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم من ملكوت القدس كلهم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١) . فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ، وتقدَّمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأْتم به واستضئ بنور هدايته ، فإنما هى نعمة وحكمة أوتيتها . فخذ ماأوتيت وكن من الشاكرين ، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ،

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] .

ولا فى سنة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولا عن أئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه ، فإنه منتهى حق الله عليك . وقد روى السيّد فى الأمالى أيضاً الحديث المشهور فى كتاب الترمذىّ عن على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال(١) : ستكون فتنة ! قلت : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، فهو الفاصل بين الحق والباطل ، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله إلى قوله : من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدِى إلى صراط مستقيم . ورواه فى أماليه بسند آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٤ ـ باب ما جاء فى فضل القرآن ، ونصه : عن الحارث قال : مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث . فدخلت على علىّ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا ترى أن الناس قد خاضوا فى الأحاديث ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أمَا إنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إنها تكون فتنة » قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال « كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ . من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

خذها إليك يا أعور !

(قال أبو عيسى) هذا حديث لا نعرفه إلا من هـذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفى الحارث مقال .

ورواه ابن الأثير فى (الجامع) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو مع شهرته فى شرط أهل الحديث متلق بالقبول عند علماء الأصول ، ولكن المبتدعة يرون تصانيفهم أهدى منه، لبيانهم فيها، على زعمهم، المحكم من المتشابه . فمنهم من صرح بذلك وقال: إن كلامه أنفع من كلام الله تعالى ، وكتبه أهدى من كتب الله ، وهم الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم العنانى. وقد حمله الإمام المطهر بن يحيى على الجنون، وقيل: لم يصح عنه . ومنهم من يلزمه ذلك وإن لم يصرح به . فهذا الأمر الأول من المتشابه وهو التحكم بالنظر فى ذات الله تعالى . وما يؤدى إليه .

الأمر الثانى ـ من المتشابه الواضح تشابهه والمنع منه ، هو النظر فى سر القدر السابق فى الشرور مع عظيم رحمة الله تعالى وقدرته على ما يشاء . وقد ثبت فى كتاب الله تعالى تحير الملائكة الكرام عليهم السلام فى ذلك وسؤالهم عنه بقولهم : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١) ثم ساق خبر آدم وتعليمه الأسماء وتفضيله فى ذلك عليهم إلى قوله : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٢) وفى ذلك إشارة واضحة إلى ما سيأتى بيانه من أن مراد الله بالخلق هم أهل الخير ، فالخلق كلهم كالشجرة ، وأهل الخير ثمرة تلك الشجرة ، وإليه الإشارة بقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٣) وفى حديث الخليل عليه السلام حين دعا على العصاة ، قال

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] وأولها: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، . . .

(٢) [٢ / البقرة / ٣٣] وأولها : قَالَ يَا ءَادَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ . . .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

الله: كفَّ عن عبادى. إن مصير عبدى منى إحدى ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، أو يستغفرنى فأغفر له ، أوأخرج من صلبه من يعبدنى ـ رواه الطبرانىّ ـ .

وقال الإمام الغزالىّ فى كتاب العلم فى (الإحياء) فى أقسام العلوم الباطنة : ولا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرًّا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش وكما يضر ريح الورد بالجعل . وكيف يبعد هذا ، وقولنا : إن كل شىء بقضاء من الله وقدر ـ حق فى نفسه ، وقد أضر سماعه بقوم حيث أوهم ذلك عندهم دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة، والرضا بالقبيح والظلم . وألحد ابن الراوندىّ وطائفة من المخذولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى أوهم عند أكثر الخلق عجزاً، إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم.

وقال فى شرح (أسماء الله الحسنى) فى شرح الرحمن الرحيم : والآن إن خطر لك نوع من الشر لا ترى فيه خيراً ، أو إن تحصيل ذلك الخير من غير شر أولى ، فاتهم عقلك القاصر فى كلا الطرفين ، فإنك مثل أم الصبىّ التى ترى الحجامة شرًّا محضاً ، والغبىّ الذى يرى القصاص شرًّا محضاً ، لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول ، وأنه فى حقه شر محض ، ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ، ولا يدرى أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض ، لا ينبغى لحكيم أن يهمله . هذا أو قريب من هذا . وفى بعض كلامه نظر قد أوضحته فى (العواصم) والسر فى ذلك أن الله تعالى لا يريد الشر لكونه شرا قطعاً ، وإنما يريده وسيلة إلى الخير الراجح كما قال : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١) ، وكما صح فى الحدود والمصائب أنها كفارات ، فهذا هو سر القدر فى الجملة ، وإنما الذى خفى تفصيله ومعرفته فى عذاب الآخرة وشقاوة الأشقياء ، فمن الناس من كبر ذلك عليه وأداه إلى الحكم بنفى التحسين والتقبيح ، فصرحوا بنفى حكمة الله تعالى، وهم غلاة الأشعرية ، إلا بمعنى إحكام المصنوعات فى تصويرها لا سواه ، ومن الناس من أداه ذلك إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

القول بالجبر ، ونفى قدرة العباد واختيارهم ، ومنهم من جمع بينهما . ومن الناس من جعل الوجه فى تحسين ذلك من الله عدم قدرته سبحانه على هدايتهم ، وهم جمهور المعتزلة ، لكنهم يعتذرون عن تسميته عجزاً ، ويسمونه غير مقدور . ومنهم من جعل العذر فى ذلك أن الله لا يعلم الغيب ، وهم غلاة القدرية ، نفاة الأقدار . وقد تقصيتُ الردود الواضحة عليهم ، والبراهين الفاضحة لهم فى (العواصم) ، وجمعت فى ذلك ما لم أسبق إليه ولا إلى قريب منه ، فى علمى . فتمت هذه المسألة فى مجلد ضخم ، وبلغت أحاديث وجوب الإيمان بالقدَر اثنين وسبعين ، وأحاديث صحته مائة وخمسة وخمسين ، الجملة مائتان وسبعة وعشرون حديثاً ، من غير الآيات القرآنية ، والأدلة البرهانية . وصنف ابن تيمية فى بيان الحكمة فى العذاب الأُخروىّ ، وتبعه تلميذه ابن قيّم الجوزية ، وبسط ذلك فى كتابه (حادى الأرواح إلى ديار الأفراح) ، فأفردت ذلك فى جزء لطيف ، وزدت عليه . ومضمون كلامهم أنه لا يجوز اعتقاد أن الله لا يريد الشر لكونه شراً ، بل لابد من خير راجح يكون ذلك الشر وسيلة إليه ، وذلك الخير هو تأويل ذلك الشر السابق له على نحو تأويل الخضر لموسى . وطردوا ذلك فى شرور الدارين معاً . ونصر ذلك الغزالىّ فى شرح (الرحمن الرحيم) ، ولنورد فى ذلك حديثاً واحداً ، مما يدل على المنع من الخوض فى تعيين الحكمة فى ذلك فنقول : قال البيهقىّ فى كتابه (الأسماء والصفات) عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس : لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم! أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت فى ذلك تعصى ، فكيف هذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه أنى لا أُسأل عما أفعل ، وهم يُسألون . فانتهى موسى .

ورواه الهيثمىّ فى مجمع الزوائد ، وعزاه إلى الطبرانىّ ، وزاد فيه : فلما بعث الله عزيراً سأل اللهَ مثل ماسأل موسى ، ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصرّ صرّة من الشمس ؟ قال : لا . قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من الريح ؟ قال : لا . قال : أفتستطيع

أن تجيء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا . قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . أما أنى لا أجعل عقوبتك إلا أنى أمحو اسمك من الأنبياء ، فلا تذكر فيهم . فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته سأل عن ذلك، كموسى . وأجيب عليه بمثل ذلك ، وقال الله تعالى : لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك ، فجمع عيسى من معه فقال : القدر سر الله تعالى فلا تكلفوه .

وروى الطبرانىّ عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر؟ فقال: وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شعاع الشمس ، كلما ازداد فيه نظراً ازداد تحيراً . قلت : ويشهد لهذه الآيات ما جاء فى كتاب الله من قول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا(١) . والجواب الجملىّ عليهم كما مر . وأما أحاديث النهى عن الخوض فى القدر فعشرة أحاديث ، رجال بعضها ثقات ، وبعضها شواهد لبعض ، كما أوضحته فى (العواصم) وأقلُّ من هذا مع شهادة القرآن والبرهان لذلك ، يكفى المنصف . وما حدث بسبب الخوض من الضلالات زيادة عبرة وحيرة .

الأمر الثالث ـ من المتشابه : الحروف المقطعة أوائل السور ، فإن الجهل بالمراد بها معلوم، كالألم والصحة . والفرق بينها وبين أقيموا الصلاة ، ونحو ذلك ضرورىّ . ودعوى التمكن من معرفة معانيها تستلزم جواز أن ينزل الله سورة كلها كذلك أو كتاباً من كتبه الكريمة، ويستلزم جواز أن يتخاطب العقلاء بمثل ذلك ، ويلوموا من طلب منهم بيان مقاصدهم ، ونحو ذلك . وهذا هو اختيار زيد بن علىّ عليه السلام ، والقاسم والهادى عليهما السلام ، وهو نص فى تفسيرهما المجموع . وكذلك الإمام يحيى عليه السلام ، ذكره فى (الحاوى) وقولهم :

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إنا مخاطبون بهـا فيجب أن نفهمها ـ مقلوب . وصوابه : أن لا نفهمها فيجب أن لا نـكون مخاطبـين بفهمها . وقد ذكرت فى الحجة على أنها غير معلومة أكثر من عشرين حجة فى تـكميلة ترجيح أساليب القرآن .

الأمر الرابـع ـ من المتشابه : المجمل الذى لا يظهر معناه بعلم ولا ظن ، سواء كان بسبب الاشتراك فى معناه ، أو لغرابته ، أو عدم صحة تفسيره فى اللغة والشرع ، أو غير ذلك . فقد وقع الوهم فى المجمل لنوح عليه السلام ، كيف لغيره ؟ وذلك قوله : إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ(١) .

وأما المحـكم فهو ما عدا المتشابه ، وغالبه النص الجلىّ ، والظاهر الذى لم يعارض ، والمفهوم الصحيح الذى لم يعارض ، والخاص والمقيد وإن عارضهما العام والمطلق . ويلحق بهذا فوائد .

الأولى ـ الصحيح فى قوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » الوقف على الله ، بدليل ذم مبتغى تأويل المتشابه فى الآية . وهو اختيار الإمام يحيى فى (الحاوى) واحتج بأن «أمّا» للتفصيل على بابها ، والتقدير و « أما الراسخون » بدليل قوله تعـالى « فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » كما تقول : أما زيد فعالم وعمرٌو جاهل ، أى وأما عمرو فجـاهل ، يوضحه أن المخالِف مسلِّم أن هذا هو الظاهر منهـا ، لـكنه يقول: إنه يجب تأويلها على أن المراد ذمهم بابتغاء تأويله الباطل ، فيقيد إطلاق الآية بغير حجة ، ويجعلها من المتشابه ، مع أنها الفارقة بين المحـكم والمتشابه ، وهذا خلف .

---

(١) [١١ / هود / ٤٥ و ٤٦] ونصهما : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

وقد روى الحاكم عن ابن عباس أنه قرأ « ويقول الراسخون » وقال : صحيح . ورواه الزمخشرىّ فى كشافه قراءة عن أبىّ وغيره ، ورواه الإمام أبو طالب فى أماليه عن علىّ عليه السلام . ولم يتأوله ولم يطعن فيه ، وهو فى (النهج) أيضاً ، وهو نص لا يمكن تأويله ، فإن لفظه عليه السلام: اعلم أيها السائل أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق، فيما لم يكلفهم البحث عنه، رسوخاً . فاقتصر على ذلك . انتهى بحروفه .

وأيضاً فلا يجب علم جميع المكلفين بذلك عند الخصوم ، إذ فى المتكلفين الأمىّ والعجمىّ ونحوهم . وإذا كان علم البعض يكفى ويخرج الخطاب بذلك عن العبث ، جاز أن يكون ذلك البعض هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن شاء الله من ملائكته وخواص عباده . والله سبحانه أعلم .

الفائدة الثانية ـ إذا تعارض العام والخاص ، فالمحكم هو الخاص والبناء عليه واجب ، وفيه الجمع بينهما ، وفى العكس طرح الخاص مع رجحانه بالنصوصية . وهى قاعدة كبيرة فاحفظها. ولا خلاف فيها فى الاعتقاد ، لعدم القاعدة فى التاريخ فيه ، ولذلك أجمعوا على إثبات الخلة للمتقين ، وتأويل نفى الخلة المطلق ، فتأمل ذلك .

الفائدة الثالثة ـ إذا كان التحسين العقلىّ مع بعض السمع فهو المحكم ، والمتشابه مخالفه، لما وضح من تأويل الخضر بموافقة العقل ، وفى مخالفة هذه القاعدة عناد بيّن وضلال كبير ، فاعرفها واعتبر مواضعها ترشد. إن شاء الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » من مقال الراسخين ، أى لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلها كالذين فى قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم « وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » تثبت بها قلوبنا « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » كثير النعم والإفضال ، جزيل العطايا والنوال . وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قِبَلِهِ تعالى . وعن عائشة رضى الله عنها[1] قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قلت : يا رسول الله ! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ! فقال : ليس من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ــ وهو فى الصحيح والسنن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » وهذا

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ـ كتاب الدعوات، ٨٩ ـ باب حدثنا أبوموسى الأنصارىّ ونصه : عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة ، أم المؤمنين : ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت : قلت يا رسول الله ! ما أكثر دعاءك : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! قال « يا أم سلمة ! ليس آدمىّ إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » فتلا معاذ (أحد رجال السند) : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .

من تتمة كلام الراسخين فى العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية والرحمة ، فكأنهم قالوا : ليس الغرض من هـذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا ، فإنها منقضية منقرضة . وإنما الغرض الأعظم منه ، ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآل . فإنا نعلم أنك يا إلٰهنا جامع الناس للجزاء فى يوم القيامة ، ونعلم أن وعدك لايكون خلفاً ، فمن زاغ قلبه بقى هناك فى العذاب أبداً، ومن منحته الرحمة والهداية بقى هناك فى السعادة والكرامة أبداً. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ، مايتعلق بالآخرة ـ أفاده الرازىّ ـ ثم قال : احتج الجبائىّ بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال: وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد بدليل قوله تعالى : أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا(١). والوعد والموعد والميعاد واحد. وقد أخبر فى هذه الآية أنه لايخلف الميعاد. فكان هـذا دليلًا على أنه لايخلف فى الوعيد . والجواب : لانسلّم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقاً ، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سلمنا أنه يوعدهم، ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد. أما قوله تعالى : فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا . قلنا : لم لايجوز أن يكون ذلك ، كما فى قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢).

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] ونصها : وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ =

وقوله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[(١)] . وأيضاً لم لايجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أوثانهم أنها تشفع لهم عند الله، فكان المراد من الوعد تلك المنافع .

وذكر الواحدىّ فى (البسيط) طريقة أخرى فقال : لم لا يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الأولياء ، دون وعيد الأعداء ، لأن خلف الوعيد كرم عند العرب . قال : والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك ، قال الشاعر :

إذا وعـد السرّاءَ أنجز وعده وإن أوعـد الضراءَ فالعفو مانعه

وروى المناظرة التى دارت بين أبى عمرو بن العلاء ، وبين عمرو بن عبيد . قال أبو عمرو ابن العلاء لعمرو بن عبيد : ماتقول فى أصحاب الكبائر ؟ قال : أقول إن الله وعد وعداً وأوعد إيعاداً ، فهو منجز إيعاده كما هو منجز وعده ، فقال أبو عمرو بن العلاء : إنك رجل أعجم ، لا أقول أعجم اللسان ، ولكن أعجم القلب . إن العرب تعدّ الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرماً ، وأنشد :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمكذب إيعادى ومنجز موعدى

واعلم أن المعتزلة حكوا أن أباعمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام ، قال له عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ؟ فهل يسمى الله مكذب نفسه ؟ فقال : لا ، فقال عمرو بن عبيد فقد سقطت حجتك ، قالوا : فانقطع عمرو بن العلاء .

وعندى أنه كان لأبى عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السؤال فيقول : إنك قست الوعيد على الوعد ، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين ، وذلك لأن الوعد حق عليه ، والوعيد حق له ، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجود والكرم ، ومن أسقط حق غيره

= الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٤] .
(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

فذلك هو اللؤم ، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد ، وبطل قياسك . وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق . فأما قولك : لو لم يفعل لصار كاذباً ومكذباً نفسه ، فجوابه أن هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتاً جزما من غير شرط ، وعندى جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب فى كلام الله تعالى. فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية. والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ » التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار « وَلَا أَوْلَادُهُمْ » الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة « مِنَ اللهِ » أى من عذابه تعالى « شَيْئًا » من الإغناء ، أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه . يقال : ما أغنى فلان شيئاً ، أى لم ينفع فى مهم ، ولم يكف مؤنة . ورجل مغن أى مجزئ كاف ـ قاله الأزهرىّ . ونظير هذه الآية قوله تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(١) « وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » بفتح الواو أى حطبها ، وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها ، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد ، والفتح للحطب . وقال الزجّاج : المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح . وهذا كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ(٢) » .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٨و٨٩] .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى دأب هؤلاء فى الكفر كدأب آل فرعون . والدأب (بالسكون ، ويحرّك) مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه ، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله، مجازاً . يقال : هـذا دأبك أى شأنك وعملك ، قال الأزهرىّ عن الزجّاج فى هـذه الآية : أى كأمر آل فرعون ، كذا قال أهل اللغة . قال الأزهرىّ : والقول عندى فيه ـ والله أعلم ـ أن دأبهم هنا اجتهادهم فى كفرهم وتظاهرهم على النبىّ ﷺ ، كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ؛ يقال : دأبت أدأب دأباً ودؤوباً إذا اجتهدت فى الشىء ـ انتهى ـ قال أبوالبقاء : وفى ذلك تخويف لهم لعلهم بما حل بآل فوعون « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، فالموصول فى محل جر عطف على ما قبله « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبنىّ على السؤال المقدر « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ » أى عاقبهم وأهلكهم بسببها. « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى الأخذ بالذنب . فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بهذا الدين وهم اليهود (للرواية الآتيـة) أو نصارى نجران ، لأن السورة نزلت لإحقاق الحق معهم ، أو أعمّ « سَتُغْلَبُونَ » أى فى الدنيـا « وَتُحْشَرُونَ » أى يوم القيـامة « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » الفراش ، أى فكفركم ككفر آل فرعون بموسى، وقد فعـل بقريش لكفرهم مارأيتم ، فسيفعل بكم ما فعل بهم ،

وهو أنكم تُغلبون كما غُلبوا . وقد صدق الله وعده بقتل قريظة[١] ، وإجلاء بنى النضير[٢] ، وفتح خيبر[٣] ، وضرب الجزية على من عداهم ، وهو من أوضح شواهد النبوة . وقد روى أبو داود فى سننه والبيهقىّ فى الدلائل من طريق ابن إسحاق ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : يامعشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله بماأصاب قريشاً ، فقالوا : يامحمد ! لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله « قُلْ لِلَّذِينَ ... » إلى قوله « لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ)

« قَدْ كَانَ لَكُمْ » أيها الكافرون المتقدم ذكرهم « ءَايَةٌ » عبرة ودلالة على أنكم ستغلبون ، وعلى أن الله معزّ دينه ، وناصر رسوله ، ومُعْلٍ أمره « فِى فِئَتَيْنِ » أى فرقتين « الْتَقَتَا » يوم بدر للقتال « فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ » أى طاعته ، وهم النبىّ وأصحابه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٤ ـ باب حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر .

وكانوا ثلاثمائه وثلاثة عشر رجلًا . معهم فَرَسَانِ وست أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة « وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ » وهم مشركو قريش وكانوا قريبا من ألف « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ » أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريباً من ألفين ، أراهم الله إياهم، مع قلتهم، أضعافهم ليهابوهم ، ويجبنوا عن قتالهم ، وكان ذلك مدداً لهم من الله تعالى ، كما أمدهم بالملائكة . فإن قلت : فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال : وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ[1] قلت : قللوا أولًا فى أعينهم حتى اجترؤوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين . ونظيره فى المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ[2] . وقوله تعالى: وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ[3] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم ، أبلغ فى القدرة وإظهار الآية ـ كذا فى الكشاف ـ قلت : أو يجاب بأنهم كثروا أولًا فى أعينهم ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصافّ والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمراً كان مفعولًا « رَأْيَ الْعَيْنِ » يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات ـ كذا فى الكشاف ـ « وَاللهُ يُؤَيِّدُ » أى يقوّى « بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى التكثير والتقليل ، وغلبة القليل ، مع عدم العدة ، على الكثير الشاكى السلاح « لَعِبْرَةً » أى لاعتباراً وآية وموعظة « لِأُولِى الْأَبْصَارِ » لذوى العقول والبصائر .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤٤] ونصها : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٩] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها ، وتزهيد الناس فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى ، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها . والمراد بالناس الجنس ـ قاله أبو السعود ـ « حُبُّ الشَّهَوَاتِ » أى المشتهيات ، وعبر عنها بذلك مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوباً فيها ، أوتخسيساً لها ، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتبعها ، شاهد على نفسه بالبهيمية ، « مِنَ النِّسَاءِ » فى تقديمهن إشعار بعراقتهن فى معنى الشهوة إذ يحصل منهن أتم اللذات « وَالْبَنِينَ » للتكثر بهم ، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم ، والتفاخر والزينة « وَالْقَنَاطِيرِ » أى الأموال الكثيرة وقوله « الْمُقَنْطَرَةِ » مأخوذ منها للتوكيد كقولهم ألف مؤلفة ، وبدرة مبدرة ، وإبل مؤبلة ، ودراهم مدرهمة « مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » قال الرازىّ : وإنما كانا محبوبين لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء ، فما لكهما كالمالك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هى القدرة ، والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب ـ لا جرم كانا محبوبين « وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ » أى المرسلة إلى المرعى ترعى حيث شاءت ، أو التى عليها السيمياء ـ أى العلامة ـ قال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضاح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غراً محجلة « وَالْأَنْعَامِ » جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم لتحصيل الأموال النامية « وَالْحَرْثِ » أى الأرض المتخذة للغراس والزراعة « ذَٰلِكَ » أى المذكور « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يتمتع به فيها ثم يفنى « وَاللَّهُ

عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » أى المرجع وهو الجنة ، فينبغى الرغبة فيه دون غيره . وفى إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها ، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله ، وتزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة .

تنبيـــه :

فى تزيين هذه الأمور المذكورات للناس إشارة لما تضمنته من الفتنة :

فأما النساء ، ففى الصحيح أنه ﷺ قال[1] : ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء.

وأما البنون ، ففى مسند أبى يعلى عن أبى سعيد مرفوعاً : الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة ، أى يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، ويمتنع أبوه من الإنفاق فى الطاعة خوف فقره ، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته ، وقد قال تعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ[2] ، وقيـل لبعض النساك : ما بالك لا تبتغى ما كتب الله لك ؟ قال : سمعاً لأمر الله . ولا مرحباً بمن إن عاش فتننى ، وإن مات أحزننى . يريد قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[3] .

وأما القناطير المقنطرة ففيها الآية قبل ، وقوله تعـالى : كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ[4] ، وقال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ[5] ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٧ ـ باب ما يتقى من شؤم المرأة ، حديث ٢١٠٩ ، عن أسامة بن زيد .

(٢) [٦٤/التغابن/١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٦٤ / التغابن / ١٥] .

(٤) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٨٣] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً . =

فما يورث البطر مثل الغنى . وبه تستجمع أسباب السؤدد والرئاسة والمجد والتفاخر .

وأما الخيل فقد تكون على صاحبها وزراً : إذا ربطها فخراً ورياءً ونواء لأهل الإسلام ، كما فى الصحيح[1] وفى مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً : الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله وذكر ماشاء الله ؛ وأما فرس الشيطان فالذى يقامَر أو يراهَن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنَها فهى تَسْتُرُ من فقرٍ .

وأما الفتنة بالأنعام والحرث ففى معنى ما تقدم . والله أعلم .

ولما ذكر تعالى ماعنده من حسن المآب إجمالًا ، أشار إلى تفصيله مبالغة فى الترغيب فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ » أى الشهوات المزينة لكم « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » الله ولم ينهمكوا فى شهواتهم « عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، و « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر المبتدأ الذى هو « جَنَّاتٌ » و « تَجْرِى » صفة لها ، و « عِنْدَ » إما متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار ، وإما صفة للجنات فى الأصل،

= و [٤١ / فصلت / ٥١] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

(١) فى المسند فقط رقم ٣٧٥٦ (طبعة المعارف) .

قدّم فانتصب على الحال . والعندية مفيدة لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها « خَالِدِينَ فِيهَا » أى ما كثين فيها أبد الآباد لايبغون عنها حولا « وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أى من الأرجاس والأدناس البدنية والطبيعية مما لايخلو عنه نساء الدنيا غالباً « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ » التنوين للتفخيم أى رضوان وأى رضوان لايقدر قدره . وهذه اللذة الروحانية تتمة ماحصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها. كما قال تعالى فى آية براءة: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ»(١) أى أعظم ما أعطاهم من النعيم المقيم. روى الشيخان(٢) عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك. فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : ياربنا وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا. « وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » أى عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة ، وأن يزهدوا فيما زهّدهم فيه من أمور الدنيا . ثم وصف سبحانه الذين اتقوا ففازوا بتلك الكرامات بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وماتقرب به إلى الله ، ثم يدعو. ويؤيده

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٥٨ .

مافى الصحيحين من حديث أصحاب الغار[١]، وتوسل كل منهم بصالح عمله ، ثم تفريج البارى تعالى عنهم. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

« الصَّابِرِينَ » أى على البأساء والضراء وحين البأس « وَالصَّادِقِينَ » فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم « وَالْقَانِتِينَ » المطيعين لله الخاضعين له « وَالْمُنْفِقِينَ » أموالهم فى سبيل الله تعالى من الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » جمع سحر (بفتحتين وفتح وسكون) وهو الوقت الذى قبيل طلوع الفجر آخر الليل . وتسحّر إذا أ كل فى ذلك الوقت . قال الحرالىّ : وفى إفهامه تهجدهم فى الليل كما قال تعالى : كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[٢] . وقال الرازىّ : واعلم أن المراد منه من يصلى بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لايشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك . فقوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل ـ انتهى ـ وقد روى ابن أبى حاتم أن عبد الله بن عمر كان يصلى من الليل ، ثم يقول : يانافع ! هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة. وروى ابن جرير عن حاطب قال: سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول: يارب أمرتنى فأطعتك، وهذا السحر. فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت فى الصحيحين[٣] وغيرهما من المسانيد والسنن

(١) انظر صحيح البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٨ ـ باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضى .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١٧و١٨] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٤ ـ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل حديث ٦٢٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ ـ ١٧٢ .

من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا ، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ وفى رواية لمسلم : ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم؟ وفى رواية : حتى ينفجر الفجر .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنىّ فى ذلك جزءا على حدة. فرواه من طرق متعددة . ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يابنىّ! لا يكن الديك أحسن منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة فى تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية ، والألطاف السبحانية ، وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة ، والرغبة وافرة ، مع قربه ، تعالى وتقدس ، من عباده . قال السيوطىّ: فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازىّ : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان ، وفى كمال العبودية .

الأول ـ أن وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل ، وبسبب طلوع نور الصبح كان الأموات يصيرون أحياء ، فهناك وقت الجود العام ، والفيض التام ، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير ، يطلع صبح العالم الصغير ، وهو ظهور نور جلال الله تعالى فى القلب .

والثانى ـ أن وقت السحر أطيب أوقات النوام ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة ، وأقبل على العبودية ، كانت الطاعة أكمل .

والثالث ـ نقل عن ابن عباس «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» يريد المصلين صلاة الصبح، انتهى.

وهذا الثالث أخرجه ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم . وعليه، فإنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : الواو المتوسطة بين الصفات، للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » أى علم وأخبر أو قال أو بيّن أنه لا معبود حقيقىّ سوى ذاته العلية . وشهد بذلك « وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ » بالإقرار ، وهـذه مرتبة جليلة للعلماء ، لقرنهم فى التوحيد بالملائكة المشرفين ، بعطفهم على اسم الله عز وجل «قَائِماً بِالْقِسْطِ» أى بالعدل فى أحكامه « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » كرره تأكيداً وليبنى عليـه قوله « الْعَزِيزُ » فلا يُرام جنابه عظمة «الْحَكِيمُ» فلا يصدر عنه شىء إلا على وفق الاستقامة ـ كذا فى جامع البيان ـ .

وقال فى الانتصاف : هذا التكرار لما قدمته فى نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده، وذلك أن الكلام مصدّر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله « قَائِماً بِالْقِسْطِ » وهو التنزيه . فطال الكلام بذلك فجدد التوحيد تلو التنزيه، ليلى قوله : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ . ولولا هـذا التجديد لـكان التوحيد المتقدم . كالمنقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به . والله أعلم .

لطيفة :

قال الرازىّ : فإن قيل: المدعى للوحدانية هو الله ، فكيف يكون المدعى شاهداً ؟ الجواب : من وجوه : الأول : وهو أن الشاهد الحقيقىّ ليس إلا الله ، وذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة . ثم بعد نصب تلك الدلائل ، هو الذى وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التى نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية ، ثم بعد حصول العلم بالوحدانية ، فهو تعالى وفقهم حتى أرشدوا غيرهم إلى معرفة التوحيد . وإذا كان

الأمر كذلك ، كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال : « قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ »(١) ـ ثم ساق بقية الوجوه فانظره .

وقال العارف الشعرانيّ ، قدس سره ، فى كتاب (الجواهر والدرر) : سألت أخى أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلاهو ؟ فقال رضى الله عنه : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه . فقلت له : فلِمَ عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلاً من النظر فى الأدلة كالبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلاً من التجلى الإلٰهىّ ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا فى الذكر على أولى العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله ، فناسب ذكرهم فى الوسط ، فاعلم ذلك ، انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ » جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أى لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة ـ قاله أبو السعود ـ وفى الآية الأخرى : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢) . « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » مطلقاً ، أو اليهود ، فى دين

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَاأَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

الإسلام « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه . ولم يكن اختلافهم لشبهة عندهم بل « بَغْياً بَيْنَهُمْ » أى حسداً كائناً بينهم ، وطلباً للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع « وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ » المنزلة « فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » قائم مقام جواب الشرط . علة له . أى : فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب . فإنه سريع الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« فَإِنْ حَاجُّوكَ » فى الدين وجادلوك فيه بعد إقامة تلك الآيات « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » أى انقدت لآياته المنزلة ، وأخلصت نفسى وعبادتى له ، لا أشرك فيها غيره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ، ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة ، وبه يحصل التوجه إلى كل شىء « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » عطف على الضمير المتصل .

لطيفة :

هل قوله تعالى : فقل أسلمت وجهى لله ، إعراض عن المحاجة ، أو هو محاجة وإظهار الدليل ؟ فمن قائل بالأول ، وذلك لأنه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مراراً وأطواراً ، فإن هذه السورة مدنية ، وكان قد أظهر لهم المعجزات الجمة بالقرآن وغيره ، فبعد هذا قال : فإن حاجوك فقل أسلمت الخ. يعنى إنّا بالغنا فى تقرير الدلائل وإيضاح البينات ، فإن تركتم الأنف والحسد وتمسكتم بها كنتم مهتدين . وإن أعرضتم ، فإن الله

تعالى من وراء مجازاتكم . وهذا التأويل طريق معتاد فى الكلام . فإن المحقّ إذا ابتلى بالمبطل اللجوج ، وأورد عليه الحجة حالًا بعد حال ، فقد يقول فى آخر الأمر : أما أنا ومن اتبعنى فمنقادون للحق مستسلمون له ، مقبلون على عبودية الله تعالى ، فإن وافقتم واتبعتم الحق الذى أنا عليه بعد هذه الدلائل التى ذكرتها فقد اهتديتم ، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد . فهذا طريق قد يذكره المحتجّ المحقّ مع المبطل المصرّ فى آخر كلامه . ومن قائل بالثانى، أعنى أنه محاجة ، وفى كيفية الاستدلال منها ما ذكره أبو مسلم الأصفهانىّ، وهو أن اليهود والنصارى وعبدة الأوثان كانوا مقرين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، والإقرار بأنه كان محقًّا فى قوله ، صادقاً فى دينه . فأمر الله تعالى محمداً ﷺ بأن يتبع ملته فقال : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١) ، ثم إنه تعالى أمر محمداً ﷺ فى هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم ﷺ حيث قال : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٢) ، فقول محمد ﷺ : أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ . كقول إبراهيم عليه السلام: وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ، أى أعرضت عن كل معبود سوى الله تعالى ، وقصدته بالعبادة ، وأخلصت له . فتقدير الآية كأنه تعالى قال : فإن نازعوك يا محمد فى هذه التفاصيل فقل أنا مستمسك بطريقة إبراهيم وأنتم معترفون بأن طريقته حقة ، بعيدة عن كل شبهة وتهمة. فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات ، وداخلًا تحت قوله : وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ(٣) ـ نقله الرازىّ ـ « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ » أى الذين

(١) [١٦ / النحل / ١٢٣] .
(٢) [٦ / الأنعام / ٧٩] .
(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

لا كتاب لهم كمشركي العرب «أَأَسْلَمْتُمْ» لهذه الآيات كما أسلمت ، أم أنتم بعدُ على الكفر. قال الزمخشريّ : يعني أنه قد أتاكم من البينات مايوجب الإسلام، ويقتضي حصوله لامحالة ، فهل أسلمتم ، أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها ؟ ومنه قوله عز وعلا : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(١). بعد ماذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفي هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانُه للحق ، وللمعاند بعد تجلي الحجة ما يضرب أسداداً بينه وبين الإذعان . وكذلك في (هل فهمتها) توبيخٌ بالبلادة وكلّة القريحة ، وفي (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهيّ عنه . انتهى . « فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا » أي خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم « وَإِنْ تَوَلَّوْا » عن هداك وهديك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أي تبليغ آيات الله ، لاالإكراه إذا عاندوك، إذ ليس عليك هداهم «وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» وعد ووعيد. قال ابن كثير : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً(٢)، وقال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(٣) . وفي

(١) [٥ / المائدة / ٩١] ونصها : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ.

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

الصحيحين[1] وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بنى آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيّهم وأميّهم ، امتثالًا لأمر الله بذلك.

(١) انظر ، فى ذلك ، ما يأتى :

البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠١ ـ باب دعوة اليهودىّ والنصرانىّ ، وعلى ما يقاتلون عليه ، وما كتب النبىّ ﷺ إلى كسرى وقيصر ، والدعوة قبل القتال . وفيه كتابه إلى كسرى .

والبخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، وفيه كتابه إلى قيصر .

وأبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢١ ـ باب ما جاء فى سهم الصفىّ ، حديث ٢٩٩٩ . وفيه كتابه إلى بنى زهير .

وأبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢٧ ـ باب ما جاء فى حكم أرض اليمن ، حديث ٣٠٣٧ . وفيه كتابه إلى بعض رؤساء اليمن .

وفى طبقات ابن سعد ، الجزء الأول ، القسم الثانى ، بالصفحة ١٧ و٢٠ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث وجبلة وأمراء غسّان .

وبالصفحة ١٩ و٢٧ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل هَجَر .

وبالصفحة ٢١ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أساقفة نجران .

وبالجزء الأول ، بالقسم الأول بالصفحة ٣٥ كتابه إلى أهل نجران .

وبالجزء الأول ، القسم الثانى بالصفحة ٢١ و٣٣ كتابه إلى أقيال حضرموت .

وبالصفحة ١٥ كتابه إلى النجاشى .

وبالصفحة ١٦ كتابه إلى المقوقس .

وبالصفحة ٢٥ كتابه إلى مسيلمة .

وبالصفحة ٢٨ و٣٨ كتابه إلى يهود مَقْنا ... الخ الخ.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همّام عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال[1] : والذى نفسى بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودىّ ولا نصرانىّ ، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أهل النار. رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم[2]: بعثت إلى الأحمر والأسود . وقال[3] : كان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعتنا) .

ونصه : عن جابر بن عبدالله الأنصارىّ ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كلّ نبىّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود . وأحلت لى الغنائم ولم تُحَلّ لأحـد قبلى . وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا . فأيما رجل أدركته الصـلاة صلى حيث كان . ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر . وأعطيت الشفاعة » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٧ ـ كتاب التيمم، ١ ـ باب قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا. حديث ٢٣١ . ونصه :

عن جابر بن عبد الله أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ . وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة . وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » وهم اليهود. قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاضٍ يهودىّ لما نهاه عن منكر فعله ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليهما السلام. ولما كان المخاطبون راضين بصنيع أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم. وقوله تعالى: بِغَيْرِ حَقٍّ ، إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق، فى اعتقادهم أيضاً ، فهو أبلغ فى التشنيع عليهم « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات فى الدارين ، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم ، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبى وأخذ الأموال منهم غنيمة ، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم . وأما حبوطها فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم . « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » ينصرونهم من عذاب الله . وقد دلت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى ، وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه . وأن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين. وفى الحديث[1] : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

(١) أخرجه أبو داود فى: ٣٦ ـ كتاب الملاحم، ١٧ـ باب الأمر والنهى، حديث ٤٣٤٤.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ » التوراة . والمراد بهم أحبار اليهود « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ » وهو القرآن « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ » استبعاد لتوليهم بعد علمهم أن الرجوع إلى كتاب الله واجب، إذ قامت عليهم الحجج الدالة على تنزيله « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » حال من فريق ، أى معرضون عن قبول حكمه . أو اعتراض، أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل . ومن المفسرين من حمل قوله « يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ » على التوراة ، وأن الآية إشارة إلى قصة[1] تحاكم اليهود إلى النبىّ ﷺ لما زنى منهم اثنان ، فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا وقالوا: لا نجد فى كتابنا إلا التحميم، فجىء بالتوراة فوجد فيها الرجم، فرجما ، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية . والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٦ ـ باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبىّ ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم « كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ » قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم . فأْتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم . فنزع يده عن آية الرجم . فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هى آية الرجم . فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد .

فرأيت صاحبها يجنأ عليها، يقيها الحجارة .

قال بعض المفسرين : وللآية ثمرتان :

الأولى _ أن من دعى إلى كتاب الله وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة . وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) .

الثمرة الثانية _ أن الإسلام ليس بشرط فى الإحصان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين ، ونزلت الآية مقررة له . انتهى _ أى على القول بذلك ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى التولى والإعراض « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم « وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » من قولهم ذلك . وفى التعبير بالغرور والافتراء إعلام بأن ماحدّثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمّع بما لا يكون . ثم رد قولهم المذكور ، وأبطل ما غرهم باستعظام ما أعدّ لهم ، وتهويله ، وأنهم يقعون فيما لاحيلة لهم فى دفعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« فَكَيْفَ » يصنعون ، وكيف تكون حالتهم « إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ » أى فى يوم

(١) [٢٤ / النور / ٥١] .

« لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك ، وهو يوم القيامة « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » أى جزاء ماعملت من خير أو شر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الضمير لـكل نفس على المعنى. لأنه فى معنى كل إنسان. أى لايظلمون بزيادة عذاب ، أوبنقص ثواب . ثم علّم تعالى نبيه ﷺ كيف يدعوه ويمجده بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ » أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملـكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء . إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة . وتعذيباً وإثابة . من غير مشارك ولا ممانع « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » بيـان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالـكية الملك، وتحقيقٌ لاختصاصها به تعالى حقيقة، وكون مالـكية غيره بطريق المجاز ، كما ينبىء عنه إيثار (الإيتاء) الذى هو مجرد الإعطاء على (التمليك) المؤذن بثبوت المـاليـكة حقيقة ـ أفاده أبوالسعود ـ وفى التعبير بـ (مَنْ) العامة للعقلاء إشعار بمنال الملك من لم يكن من أهله، وأخص الناس بالبعد منه العرب ، ففيه إشعار بأن الله ينوّل ملك فارس والروم العربَ ، كما وقع منه ماوقع ، وينتهى منه ما بقى ، إلى من نال الملك بسببها وعن الاستناد إليها ، من سائر الأمم الذين دخلوا فى هذه الأمة من قبائل الأعاجم ، وصنوف أهل الأقطار ، حتى ينتهى الأمر إلى أن يسلب الله الملك جميع أهل الأرض بظهور ملك يوم الدين ـ كذا فى البقاعىّ ـ « وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

«تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» أى تدخل أحدهما فى الآخر، إما بالتعقيب أو بالزيادة والنقص «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» كالحيوان من النطف والنطف منه ، والبيض من الطير وعكسه . وقيل : إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس . قال القفال : والكلمة محتملة للكل ، أما الكفر والإيمان فقال تعالى : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ[١] . يريد كان كافراً فهديناه ، فجعل الموت كفراً والحياة إيماناً ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعلها قبل ذلك ميتة ، فقال : يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٢] . وقال : فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا[٣]. وقال : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٤] . «وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» أى رزقاً واسعاً غير محدود .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ونصها : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣٠/الروم/ ٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٩].

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » جمع ولىّ ، ومعانيه كثيرة. منها المحب والصديق والنصير . قال الزمخشرىّ : نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التى يتصادق بها ويتعاشر . وقد كرر ذلك فى القرآن : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ[١] . لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ[١] . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . الآية[٢] ـ والمحبة فى الله ، والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان. وقوله تعالى «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» حال. أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالًا أو اشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » أى ومن يوال الكفرة فليس من

(١) [٥ /المائدة/ ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ولاية الله فى شىء يقع عليه اسم الولاية ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً . وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولىّ وموالاة عدوه متنافيان ، قال :

تود عدوّى ثم تزعم أننى صديقك . ليس النوك عنك بعازب

ـ أفاده الزمخشرىّ ـ « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » أى تخافوا منهم محذوراً ، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، كما قال البخارىّ عن أبى الدرداء أنه قال(١) : إنا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وأصل « تقاة » وُقَيَة ، ثم أبدلت الواو تاء ، كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفاً . وفى المحكم : تقاة يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون جمعاً ، والمصدر أجود ، لأن فى القراءة الأخرى : تقية .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار ، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ »(٢) ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص فى موالاتهم لأجلها . فتجوز معاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع . وقد قال الحاكم : فى الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة ، اتقاء لشرهم . قال : وإنما يحسن بالمعاريض التى ليست بكذب . وقال الصادق : التقية واجبة ، وإنى لأسمع الرجل فى المسجد يشتمنى فأستتر عنه بالسارية لئلا يرانى . وعن الحسن : تقية باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٨٢ ـ باب المداراة مع الناس ونصه: ويذكر عن أبى الدرداء : إنا لنكشر فى وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتلعنهم .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٨] ونصها : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ .

واعلم أن الموالاة ، التى هى المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار ، لا تجوز . فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفى ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف ، فجواب ذلك : أن المراد موالاتهم فى أمر الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم . فإن قيل . فى سبب نزول الآية أنه ﷺ منع عبادة بن الصامت عن الاستعانة باليهود على قريش، وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش ، وفى هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم، وقد ذكر الراضى بالله أنه يجوز الاستعانة بالفسّاق على حرب المبطلين ، قال : وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب . وحدّ ﷺ الحلف بينه وبين خزاعة . قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان علىّ عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب ـ والله أعلم ـ أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها. ويحمل على هذا استعانة الرسول ﷺ لليهود . وممنوعة مع عدم الحاجة ، أو خشية مضرة منهم . وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت . فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للمؤمنين والمودة للكفار على كفرهم ، ولا لبس فى تحريم ذلك ، ولا يدخله استثناء. والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخالة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك ، فلا لبس فى تحريم ذلك ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخالة والمشاورة فيما لا يضر المسلمين ، فظاهر كلام الزمخشرىّ أنه لا يجوز إلا للتقية . فحصل من هذا أن الموالى للكافر والفاسق عاصٍ ، ولكن أين تبلغ معصيته ؟ يحتاج إلى تفصيل : إن كانت الموالاة بمعنى الموادة ، وهى أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية . وإن كانت الموالاة كفرا . كفر . وإن كانت فسقاً، فسق. وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً، لم يكفر ولم يفسق. وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة ، فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب ، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ، ويحالفونهم على ذلك ، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب . وإن كانت على أمر محظور كأن يحالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليهم ، فهذه معصية

بلا إشكال ، وكذلك إذا كانت بمعنى أنه يظهر سر المسلمين ويحبّ سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليدٍ لهم عليه أو لقرابةٍ أو نحو ذلك ، فهذا معصية بلا إشكال . لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يُرْوَ أن رسول الله ﷺ حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة (١) .

(١) هذه هي حادثة حاطب بن أبي بلتعة يرويها الإمام البخاريّ في صحيحه في: ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٤١ ـ باب الجاسوس وقول الله تعالى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .

عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها.

فانطلقنا تعادَى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : مامعي من كتاب . فقلنا : لتُخْرِجنّ الكتاب ، أو لنُلْقِينّ الثياب . فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ « ياحاطب : ماهذا ؟ » .

قال : يارسول الله ! لاتعجل عليّ . إني كنت امرءا ملصقا في قريش ـ ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي . وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ « لقد صدقكم » .

قال عمر : يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

قال « إنه شهد بدراً . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

وقال الراضى بالله : إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر . لأنه ﷺ قال للعباس : ظاهرك علينا . وقد اعتذر بأنه خرج مكرهاً . وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا ليستعين به على المسلمين ، ولا لإيناسه . وكذلك أن يَضِيق لضيقه فى قضية معينة لأمر مباح فجائز ، كما كان من ضيق المسلمين من غَلَب فارس الرومَ . فصار تحقيق المذهب أن الذى يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من المُوَالى الرضا بالكفر . والذى يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق . إن قيل : فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به على الجبايات وأنواع الظلم ؟ قلنا : عاص بلا إشكال ، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم. وفسقهم معلوم . فإن قيل : فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين ؟ قلنا : صار باغياً ، وحصل فسقه من جهة البغى والظلم . فإن قيل : حكى عن المهدىّ علىّ بن محمد عليه والسلام أنه كَفَّرَ من تجند مع سلطان اليمن وقضى بردته ، قلنا : هذا يحتاج إلى بيان وجه التفكير بدليل قطعىّ ، وإن ساغ أن نقول ذلك اصطلاحٌ لأمر الإمام كما رد الهادى عليه السلام شهادة من امتنع من بيعة الإمام كان ذلك محتملا ـ انتهى كلامه رحمه الله .

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف ، وقد نقل الإجماعَ على جوازها عند ذلك الإمامُ مرتضى اليمانىّ فى كتابه (إيثار الحق على الخلق) فقال ما نصه :

وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران :

أحدهما ـ خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، ولا برح المحق عدوًّا لأكثر الخلق . وقد صح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال فى ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] وعاءين فأما أحدهما فبثثته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم . ومازال الأمر فى ذلك

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث ١٠٣ .

يتفاحش . وقد صرح الغزالىّ بذلك فى خطبة (المقصد الأسنى) ولوّح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك فى شرح (الرحمن الرحيم) فأثبت حكمة الله ورحمته ، وجوّد الكلام فى ذلك ، وظن أنهم لا يفهمون المخالفة ، لأن شرح هذين الاسمين ليس هو موضع هذه المسألة ، ولذلك طوى ذلك ، وأضرب عنه فى موضعه ، وهو اسم الضار كما يعرف ذلك أذكياء النظار .

وأشار إلى التقية الجوينىّ فى مقدمات (البرهان) فى مسألة قدم القرآن . والرازىّ فى كتابه المسمى (بالأربعين فى أصول الدين) ـ إلى آخر ما ساقه المرتضى فانظره .

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » أى ذاته المقدسة ، فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه ، وموالاة أعدائه ، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهىّ فى القبح . وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » أى المنقلب والمرجع ليجازى كل عامل بعمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » هذا توعد . وأراد إخفاء مودة الكفار وموالاتهم وإظهارها . أو تكذيب النبىّ صلى الله عليه وآله ، أو الكفر . وفى هذه الآية تنبيه منه تعالى لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، فإنه عالم بجميع أمورهم وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)

« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » بصور تناسبه ، أو فى صحف الملائكة ، أو المعنى جزاء ماعملت « وَ » تجد « مَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ » أى عملها السوء « أَمَدًا بَعِيدًا » أى غاية بعيدة لايصل أحدهما إلى الآخر ، و (تود) فى موضع الحال. والتقدير : وتجد ما عملت من سوء محضراً ، وادّةً ذلك « وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » كرره ليكون على بالٍ منهم لا يغفلون عنه ـ كذا فى الكشاف ـ .

وقال أبوالسعود : تكرير لما سبق وإعادة له ، لكن لاللتأكيد فقط ، بل لإفادة مايفيده قوله عز وجل « وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ » من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ، ورحمته الواسعة ، أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه ، وأن تحذيره ليس مبنيًّا على تناسى صفة الرأفة ، بل هو متحقق مع تحققها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب فى دعواه تلك ، حتى يتبع الشرع المحمدىّ فى جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت فى الصحيح[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال : من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٠ ـ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، لقول النبىّ ﷺ . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا » أعرضوا عن الطاعة « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ » أى اختار بالنبوة « ءَادَمَ » نخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة « وَ » اصطفى « نُوحًا » فجعله أول رسول إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ونجى من اتبعه فى السفينة وأغرق من عصاه « وَ » اصطفى « ءَالَ إِبْرَاهِيمَ » أى عشيرته وذوى قرباه، وهم إسمعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى ﷺ ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الأولوية . وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلة ، وكونه إمام الأنبياء وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ[(١)] ـ الآية ـ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: أنا دعوة أبى إبراهيم «وَ» اصطفى «ءَالَ عِمْرَانَ» إذ جعل فيهم عيسى عليه الصلاة السلام الذى أوتى البينات وأيد بروح القدس ، والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى عليهما السلام « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى عالمى زمانهم . أى

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] ونصها : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه . قال السيوطيّ في (الإكليل) : يستدل بهذه الآية على تفضيل الأنبياء على الملائكة لدخولهم في العالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذُرِيَّةً » أي نسلاً . نصب على البدلية من الآلين ، أو على الحالية منهما .

لطيفة :

الذرية مثلثة ، ولم تسمع إلا غير مهموزة . اسم لنسل الثقلين . وقد تطلق على الآباء والأصول أيضاً . قال الله تعالى : وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .[١] قال الصاغانيّ : وفي اشتقاقها وجهان : أحدها أنها من الذرء ووزنها فعولة أو فعيلة . والثاني : أنها من الذرّ بمعنى التفريق لأن الله ذرهم في الأرض ووزنها فعيلة أو فعولة أيضاً . وأصلها ذرورة فقلبت الراء الثالثة ياء كما في تقضت العقاب. كذا في القاموس وشرحه[٢] .

(١) [٣٦ / يس / ٤١] .

(٢) جاء في اللسان . مادة ذرأ ما يأتي :

قال ابن برّي : جعل الجوهريّ الذرية أصلها ذُرِّيئة بالهمز . فخففت همزتها . وألزمت التخفيف .

قال : ووزن الذرية ، على ما ذكره ، فُعِّيلة ، من ذرأ الله الخلق . وتكون بمنزلة مُرِّيقةٍ وهي الواحدة من العصفر .

وغير الجوهريّ يجعل الذرية فُعْلِيَّة من الذَّرِّ . وفُعْلولة ، فيكون الأصل ذُرُّورَة . ثم قلبت الراء الأخيرة ياء لتقارب الأمثال . ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، وكسر ماقبل الياء ، فصارت ذُرِّيَّة .

« بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » فى محـل النصب على أنه صفة لذرية . أى اصطفى الآلَيْن حال كونهم ذرية متسلسلة البعض من البعض فى وراثة الاصطفاء « وَاللهُ سَمِيعٌ » لأقوال العباد « عَلِيمٌ » بضمائرهم وأفعالهم . وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولًا وفعلًا . ونظيره قوله تعـالى : اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١) . وقـوله : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ » فى حيز النصب على المفعولية ، بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران ، وبيان كيفيته . أى اذكر لهم وقت قولها الخ . وامرأة عمران هذه هى أم مريم عليها السلام .

فائدة :

قال العلامة النورىّ فى (غيث النفع) : (امرأت عمران) رسمت بالتـاء ، وكل ما فى كتاب الله جل ذكره من لفظ (امرأة) فبالهاء . إلا سبع مواضع ، هذا الأول ، والثانى والثالث بيوسف (امرأت العزيز تراود) (امرأت العزيز الآن) والرابع بالقصص (امرأت

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ . اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبيـاء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ.

فرعون) ، الخامس والسادس والسابع بالتحريم (امرأت نوح وامرأت لوط وامرأت فرعون) فلو وقف عليها، فالمكيّ والنحويان يقفون بالهاء، والباقون بالتاء ـ انتهى[(١)].

« رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » أى مخلصاً للعبادة (عن الشعبيّ) أو خادماً يخدم فى متعبداتك . حرره جعله نذيرًا فى خدمة المعبد ما عاش ، لا يسعه تركه فى دينه (عن الزجاج) . وفى الآية دلالة على صحة نذر الأم بولدها ، وأن للأم الانتفاع بالولد الصغير لمنافع نفسها ، لذلك جعلته للغير . والمعنى : نذرته وقفاً على طاعتك ، لا أشغله بشيء من أمورى . قال أبو منصور فى (التأويلات) : جعلت ما فى بطنها لله خالصاً لم تطلب منه

---

(١) هذا بيان المواضع الستة التى كتبت فيها (امرأت) بالتاء .

١ ـ [١٢ / يوسف / ٣٠] ونصها : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

٢ ـ [١٢ / يوسف / ٥١] ونصها : قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

٣ ـ [٢٨ / القصص / ٩] ونصها : وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ، لَاتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ .

٤ ، ٥ ـ [٦٦ / التحريم / ١٠] ونصها : ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ .

٦ ـ [٦٦ / التحريم / ١١] ونصها : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

الاستئناس به ولا مايطمع الناس من أولادهم ، وذلك من الصفوة التي ذكر عز وجل. وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذى طلبت امرأة عمران وزكريا حيث قال « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً »(١) وماسأل إبراهيم «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ »(٢) وكقوله : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »(٣) هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا مايطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم ـ انتهى ـ . « فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى تقبل منى قربانى وما جعلت لك خالصاً ، والتقبل أخذ الشى على وجه الرضا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا » الضمير لما فى بطنى ، وإنما أنث على المعنى ، لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله ، أو على تأويل النفس أو النسمة « قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » أى وكنت رجوت أن يكون ذكراً ، وإنما تحسرت أو اعتذرت إذ جهلت قدرها « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » قرئ فى السبع بسكون التاء وضمها ، فعلى القراءة الأولى تكون الجملة المعترضة من كلامه تعالى ، إما لدفع ما يتراءى من أن قولها « رَبِّ وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » قصدت بها إعلام

(١) [٣ / آل عمران / ٣٨] ونصها : هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٤] .

الله تعالى عن أن يحتاج إلى إعلامها ، فأزيلت الشبهة بقوله « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ » هذا ما يتراءى لى . وإما لما ذكروه من أن الاعتراض تعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، وتفخيم لشأنه ، وتجهيل لها بقدره ، أى والله أعلم بالنفس التى وضعتها ، وما علق بها من عظائم الأمور ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك . وعلى القراءة الثانية أعنى ضم التاء ، فالاعتراض من كلامها . إما للوجه الأول من الوجهين السابقين كما استظهرتُه ، أو لما ذكروه من قصد الاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته ، أو تسلية نفسها على معنى : لعل لله تعالى فيه سرًّا وحكمة ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر « وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ » جملة معترضة أيضاً ، إما من كلامه تعالى قصد به معذرتها فى التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى ، ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها ، سيما فى هذا المقام أعنى مقام قصد إخلاص النذر للعبادة . فإن الذكر يفضلها من وجوه منها : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولايصح ذلك فى الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النسوان . ومنها: أن الذكر يصلح لقوّته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة. ومنها: أن الذكر لايلحقه عيب فى الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. ومنها : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى . فهذه الوجوه تقتضى فضل الذكر على الأنثى فى هذا المقام . واللام فى (الذكر والأنثى) على هذا الملحظ، للجنس ـ كذا ظهر لى ـ وعلى قولهم اللام للعهد فيهما أى ليس الذكر الذى طلبته وتخيلت فيه كمالاً ، قصاراه أن يكون كواحد من الأحبار ، كالأنثى التى وهبت لها . فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا ، وإما أن تكون هذه الجملة من كلامها ، والقصد حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية ، وصلاحية خدمة المتعبدات ، فإنهن بمعزل عن ذلك ، فاللام للجنس .

لطيفة :

قيل : قياس كونه من قولها أن يكون « وليست الأنثى كالذكر » فإن مقصودها تنقيص

الأنثى بالنسبة إلى الذكر . والعادة فى مثله أن ينفى عن الناقص شبهه بالكامل ، لا العكس . قال الناصر فى (الانتصاف) وقد وجد الأمر فى ذلك مختلفاً فلم يثبت عين ما قيل . ألا ترى إلى قوله تعالى : لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ(١) ، فنفى عن الكامل شبه الناقص ، مع أن الكمال لأزواج النبىّ ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء ، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران، والله أعلم. ومنه أيضاً : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢). انتهى.

« وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ » قال المفسرون : هى فى لغتهم بمعنى العابدة ، سمتها بذلك رجاءً وتفاؤلًا أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها . لكن رأيت فى تأويل الأسماء الموجودة فى التوراة والإنجيل أن مريم معناه مرارة أو مر البحر. فلينظر. قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة وأنه لا يتعين يوم السابع ، لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع ، كما فيها مشروعية التسمية للأم ، وأنها لا تختص بالأب . ثم طلبت عصمتها فقالت : « وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ » أى أجيرها بحفظك « وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى المطرود لمخالفتك ، فلا تجعل عليها وعلى ذريتها له سلطاناً يكون سبباً لطردها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ » أى قبلها أو تكفل بها ، ولم يقل (بِتَقَبُّلٍ) ،

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] ونصها : يَانِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً .

(٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هوالترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة. قال المهايمىّ : بقبول حسن يجعلها فوق كثير من الأولياء « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً » بجعل ذريتها من كبار الأنبياء ـ انتهى ـ وقال الزمخشرىّ : نباتها مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها ، أى كالصلاح والسداد والعفة والطاعة « وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » أىضمها إليه ، وقرئ بالتشديد. ونصب زكريا ممدود أو مقصوراً والفاعل الله . أى جعله كافلًا لها وضامناً لمصالحها ، وقائماً بتدبير أمورها . وقد روى أن أمها أخذتها وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها إذ كانت بنت إمامهم ، وصاحب قربانهم ، وأحب كلٌّ أن يحظى بتربيتها، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها . عندى خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم . على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها ، فطفا قلم زكريا ، ورسبت أقلامهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى فى آية أخرى : إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ(1) . فأخذها زكريا ورباها فىحجر خالتها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء ، انزوت فىمحرابها تتعبد فيه وصارت بحيث « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

فى الآية مسائل :

الأولى ـ فى معنى المحراب : فى القاموس وشرحه ما نصه : والمحراب : الغرفة والموضع العالى ، نقله الهروىّ فى غريبه عن الأصمعىّ ، قال وضاح اليمن :

ربة محراب إذا جئتها لم ألقها أو أرتقى سلمّاً

وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها . قال : وكذلك هو من المساجد .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ.

وعن الأصمعيّ : العرب تسمى القصر محراباً لشرفه . وقال الأزهريّ : المحراب عند العامة الذى يفهمه الناس مقام الإمام من المسجد . قال ابن الأنباريّ : سمى محراب المسجد لانفراد الإمام فيه ، وبعده من القوم . ومنه يقال : فلان حرب لفلان إذا كان بينهما بعد وتباغض. وفى المصباح : ويقال هومأخوذ من المحاربة لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه ، ثم قال : ومحاريب بنى إسرائيل هى مساجدهم التى كانوا يجلسون فيها . انتهى .

الثانية ـ فى الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد، عند خبيب[1] ابن عدىّ الأنصارىّ رضى الله عنه المستشهَد بمكة، قطفُ عنب. كما فى البخارىّ . وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة . ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرانىّ فى (اليواقيت) عن العارف أبى الحسن الشاذلىّ قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام كان يتعرف إليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، انتهى .

الثالثة ـ قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ » الخ تعليل لكونه من عند الله . إما من تمام كلامها فيكون فى محل نصب . وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف . ومعنى (بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرته . وإما بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى .

الرابعة ـ زكريا المنوه به هنا هو والد يحيى عليهما السلام . ومعنى زكريا تذكار الرب. كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل .

---

(١) انظر فى صحيح البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب هل يستأسر الرجل، ومن لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل، تجد فيه قصة خبيب ومقتله مسرودة بتفصيل واف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سيقت فى تضاعيف حكاية مريم ، لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران . فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين . و « هنا » ظرف مكان ، أى فى ذلك المكان ، حيث هو عند مريم فى المحراب ، أو ظرف زمان أى فى ذلك الوقت ، إذ يستعار (هنا وثمت وحيث) للزمان ، دعا زكريا ربه لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من زوجته ولد مثل ولد أختها فى النجابة والكرامة على الله تعالى . وإن كانت عاقراً عجوزاً ـ كذا فى أبى السعود ـ والذرية هنا الولد ، قال الزمخشرىّ : تقع على الواحد والجمع ، وقد سبق الكلام عليها قريباً عند قوله تعالى « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقوله « طَيِّبَةً » بمعنى مطيعة لك ، لأن ذلك طلبة أهل الخصوص كما سبق إيضاحه فى آية « رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ... » الخ. وقوله تعالى « إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » أى مجيبه ، وقد أجابه الحق تعالى، فأرسل إليه الملائكة مبشرة كما قال تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)

« فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ »أى على ألسنتنا « بِيَحْيَى » وقد قرىء فى السبع بكسر « إِنَّ » وفتحها ، ولفظ(يحى) معرّب عن(يوحنا)

اسمه فى العبرانية . ومعنى يوحنا نعمة الرب . كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ » أى بنبىّ خلق بكلمة (كن) من غير أب . يرسله الله إلى عباده فيصدقه هو . وذلك عيسى عليه السلام « وَسَيِّداً » أى يسود قومه ويفوقهم « وَحَصُوراً » أى لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعاً لها عن الشهوات عفة وزهداً واجتهاداً فى الطاعة « وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ناشئاً منهم لأنه من أصلابهم . أو كائناً من جملتهم . كقوله: وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١) . ولما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

« قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ » أى كيف أَوْ من أين « يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ » أى أدركنى الكبر الكامل المانع من الولادة فأضعفنى « وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ » أى ذات عقر ، فهو على النسب، وهو فى المعنى مفعول أى معقورة، ولذلك لم يلحق تاء التأنيث «قَالَ كَذَٰلِكَ» يكون لك الولد على الحال التى أنت وزوجتك عليها لأن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب بل « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر . وفى إعراب « كذلك » أوجه . منها : أنه خبر لمحذوف أى الأمر كذلك . وقوله تعالى « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » بيان له . ومنها أن الكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف . أى الله يفعل مايشاء فعلًا من ذلك الصنع العجيب الذى هو خلق الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٠] ونصها : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً ، قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

« قَالَ » زكريا « رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً » أى علامة أعرف بها حصول الحمل. وإنما سألها لكون العلوق أمراً خفيًّا لا يوقف عليه . فأراد أن يعلمه الله به من أوله ليتلق تلك النعمة بالشكر من أولها ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهوراً معتاداً « قَالَ » الله تعالى « ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » أى أن لا تقدر على تكليمهم « ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » أى إشارة بيد أو رأس . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه . وقيل: كان ذلك عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ــ حكاه القرطبىّ عن أكثر المفسرين ــ « وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا » أى ذكراً كثيراً «وَسَبِّحْ» أى وسبحه « بِالْعَشِيِّ » وهو آخر النهار . ويقع العشى أيضاً على ما بين الزوال والغروب «وَالْأَبْكَارِ» وهو الغدوة أو من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية الحث على ذكر الله تعالى وهو من شعب الإيمان . قال محمد بن كعب : لو رخص الله لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا لأنه منعه من الكلام وأمره بالذكر ــ أخرجه ابن أبى حاتم ــ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ » شروع فى تتمة فضائل آل عمران . قال المهايمىّ : فيه إشارة إلى جواز تكليم الملائكة الولىّ، ويفارق النبىّ فى دعوى النبوة «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ» بالتقريب والمحبة «وَطَهَّرَكِ» عن الرذائل ليدوم انجذابك إليه «وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ»

بالتفضيل وبما أظهره من قدرته العظيمة حيث خلق منك ولداً من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء . وفى (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال بنبوة مريم . كما استدل بها من فضلها على بنات النبيّ ﷺ وأزواجه. وجوابه: أن المراد عالَمى زمانها ـ قاله السدّىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ » أى اعبديه شكراً على اصطفائه « وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » أى لتزدادى بكثرة السجود والصلاة قرباً . قال البقاعىّ : الظاهر أن المراد بالسجودهنا ظاهره، وبالركوع الصلاة نفسها ، فكأنه قيل : واسجدى مصلية ، ولتكن صلاتك مع المصلين، أى فى جماعة ، فإنك فى عداد الرجال لما خصصت به من الكمال . ثم قال: وإنما قلت هذا لأنى تتبعت التوراة فلم أره ذكر فيها الركوع فى صلاة إبراهيم ولا من بعده من الأنبياء عليهم السلام، ولا أتباعهم إلا فى موضع واحد، لا يحسن جعله فيه على ظاهره . ورأيته ذكر الصلاة فيها على ثلاثة أنحاء : الأول ـ إطلاق لفظها من غير بيان كيفية ، والثانى ـ إطلاق لفظ السجود مجرداً ، والثالث ـ إطلاقه مقروناً بركوع أو جثو أو خرور على الوجه . ونحو ذلك . ثم ساق البقاعىّ ما وقع من النصوص فى ذلك . وقال بعد : فالذى فهمته من هذه الأماكن وغيرها أن الصلاة عندهم تطلق على الدعاء وعلى فعلٍ هو مجرد السجود ، فإن ذكر معه ما يدل على وضع الوجه على الأرض فذاك ، وحينئذ يسمى صلاة . وإلا كان المراد به مطلق الانحناء للتعظيم . وذلك موافق للغة ، قال فى القاموس: سجد خضع ،والخضوع التطامن ، وأما المكان الذى ذكر فيه الركوع فالظاهر أن معناه فعل الشعب كله ساجداً لله ، لأن الركوع يطلق فى اللغة على معان ، منها الصلاة يقال : ركع أى صلى ، وركع إذا انحنى كثيراً ، ولا يصح حمل الركوع على ظاهره لأنه لا يمكن فى حال السجود ، وإن ارتكب فيه تأويل لم يكن تأويل مما ذكرته

فى الركوع ـ والله أعلم ـ واحتججت باللغة لأن مترجم نسخة التوراة ، التى وقعت لى ، فى عداد البلغاء ، يعرف ذلك من تأمل مواقع ترجمته لها . على أنى سألت عن صلاة اليهود الآن فأخبرت أنه ليس فيها ركوع ، ثم رأيت البغوىّ صرح فى قوله تعالى . وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (١) . بأن صلاتهم لا ركوع فيها، وكذا ابن عطية وغيرهما . انتهى كلام البقاعىّ .

لطيفة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن الجماعة مطلوبة فى الصلاة ، وعلى أن المرأة تندب لها الجماعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ماسبق « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » أى من الأنباء المغيبة عنك « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » مطابقاً لما فى كتابهم . وتذكير الضمير فى « نُوحِيهِ » بجعل مرجعه ذلك « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » أى وما كنت معايناً لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على جهة القرعة « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بسببها تنافساً فى كفالتها . وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردنّ واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم . فأيهم ثبت فى جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ، فإنه ثبت ، ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء ـ والله أعلم ـ قال أبو مسلم : معنى يلقون

(١) [٢ / البقرة / ٤٣] ونصها : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

أقـلامهم ، مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعـــالى : فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ(١) ، وهو شبيه بأمر القداح التى تتقاسم بها العرب لحم الجزور . وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شىء فقد قلمته ، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً . وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى استعمال القرعة عند التنازع . وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أنه يجوز التخاصم لطلب الفضل حتى يتميز واحد بمزية ، ودلت على أن التميز يحصل بالقرعة فى الأمر الملبس .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم نفيت المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفى استماع الأنباء من حفاظها ، وهو موهوم ؟ قلت : كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحى ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهى فى غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحى ، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىِّ(٢) ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ(٣) ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ(٤) ـ انتهى ـ وبالجملة، فالنفى تقرير وتحقيق لكون تلك الأنباء وحياً على طريقة التهكم بمنكريه .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤١].

(٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

(٣) [٢٨ / القصص / ٤٦] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٤) [١٢ / يوسف / ١٠٢] ونصها : ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهُ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » شروع فى قصة عيسى عليه السلام « يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ » أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب « اسْمُهُ » ذكّر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر . أى اسمه الذى يميزه لقباً «الْمَسِيحُ» وعلماً «عِيسَى» معرب يسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلّص) ويرادفها (يشوع) بالمعجمة ، إلا أنها عبرانية كما فى تأويل أسماء التوراة والإنجيل. وفيها أن المسيح بمعنى الممسوح أو المدهون . قال البقاعىّ: وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس كان طاهراً متأهلًا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركاً ، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح . انتهى . وإنما قال « ابْنُ مَرْيَمَ » مع كون الخطاب لها ، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت على نساء العالمين « وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى سيداً ومعظماً فيهما « وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى من الله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ » فى محل النصب على الحال « وَكَهْلًا » عطف عليه بمعنى ويكلم الناس ، حال كونه طفلا وكهلا ، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين الحالتين ، وذلك لا شك أنه غاية فى المعجز . وفى ذلك بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلا . والمهد الموضع الذى يهيأ للصبىّ ويوطأ لينام فيه . والكهل مَن وخطه الشيب ، أو من جاوز الثلاثين إلى

الأربعين أو الخمسين . قال ابن الأعرابى : يقال للغلام مراهق ، ثم محتلم ، ثم يقال: تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته ، ثم مجتمع ، ثم كهل ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. قال الأزهرى: وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته . وقوله تعالى « وَمِنَ الصَّالِحِينَ» قال ابن جرير: يعنى من عدادهم وأوليائهم . لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض فى الدين والفضل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« قَالَتْ » مخاطبة لله الذى بعث إليها الملائكة « رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » أى لست بذات زوج « قَالَ كَذَٰلِكِ » أى على الحالة التى أنت عليها من عدم مس البشر « اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولا يحتاج إلى سبب ، ولا يعجزه شىء . وصرح ههنا بقوله « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولم يقل (يَفْعَلُ) كما فى قصة زكريا ، لما أن الخلق المنبىء عن الإحداث للمكوّن أنسب بهذا المقام لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » من الأمور أى أراد شيئاً كما فى قوله تعالى : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا (١) . « فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب كقوله : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٢) . أى إنما نأمر مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشىء سريعا كلمح البصر . وتقدم الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة .

(١) [٣٦/يس/٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .
(٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ » أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية « وَالْحِكْمَةَ » أى تهذيب الأخلاق « وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » إفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة، لزيادة فضلهما وإنافتهما على غيرهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على (يعلّمه) أى ويجعله رسولا إلى جميع الإسرائيليين . وقيل : معطوف على الأحوال السابقة « أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ » معمول لـ(رسولا) لما فيه من معنى النطق . أى رسولا ناطقا بأنى قد جئتكم « بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » التنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها ، والجار متعلق بمحذوف وقع حالًا أى متلبسا ومحتجاً بآية « أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ » الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المماثل لهيأة الطير « فَيَكُونُ طَيْراً » حقيقياً ذا حياة « بِإِذْنِ اللهِ » أى أمره، لا باستقلال منى « وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ » الذى ولد أعمى « وَالأَبْرَصَ » المبتلى بالبرص وهو بياض يظهر فى البشرة لفساد مزاج . وفى (الإكليل) : هذه الآية أصل لما يقوله الأطباء : إن الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص لا يمكن برؤهما كإحياء الموتى « وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ » لا باستقلال منى . نفياً لتوهم

الألوهية ، فهذه معجزات قاهرة فعلية « وَأُنَبِّئُكُمْ » أى أخبركم « بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَاتَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » مما لم أعاينه « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى دلالة « لَكُمْ » على صدق فى دعوى الرسالة « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » مصدقين بآيات الله . وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام ردّ بصر أعميين فى كفرناحوم ، وأعمى فى بيت صيدا ، ورجل ولد أعمى فى أورشليم ، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة ، وأبرأ أبرص فى كفرناحوم ، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين ، وأحيا ابنة جيروس فى كفرناحوم ، والعازر فى بيت عينا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

« وَمُصَدِّقًا » حال معطوفة على قوله (بآية) أى جئتكم بآية ومصدقاً « لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ » أى مقرراً لها ومثبتاً « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين. ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ »[1]. والله أعلم ـ انتهى ـ أقول : من البعض الذى أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير فى السبوت ، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت ، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسألوه : هل يحل أن يشفى فى السبت ؟ فقال لهم عليه السلام : أى إنسان منكم يكون له خروف ، فيسقط فى حفرة يوم السبت

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

ولا يمسكه ويرفعه ؟ والإنسان كم يفضل الخروف ؟ فإذن يحل فعل الخير في السبوت ، ثم أبرأ ذلك المريض ـ كذا في الأصحاح الثاني عشر . من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى ـ وفيه في الأصحاح الخامس الفقرة السابعة عشر قول المسيح عليه السلام : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ـ انتهى ـ وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها ، ثم جاء بولس ومَن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفعه عنهم ، إذ أكمله وأتمه بفعله إياه . وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه ، وأغناهم بشريعته الروحانية ، فنقضوا الناموس الذي جاء لإكماله المسيح . فما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة في الناموس الموسوي ، فنسخت حرمتها في الشريعة العيسوية ، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس ، إذ قال لهم : لا شيء نجس العين . كما في رسالته إلى أهل رومية . ومما نقضوه تعظيم السبت ، فقد كان حكماً أبدياً في الشريعة الموسوية ، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل ، وكان من عمل فيه عملا واجب القتل . ومنه أحكام الأعياد المشروعة في التوراة ، ومنه حكم الختان الذي كان أبدياً في شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى ، وقد ختن عيسى عليه السلام ، فنسخ حكمه الرهبان بعده ، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة ، إلا الزنى ، كما بيّن في (إظهار الحق) ، في الباب الثالث في إثبات النسخ . وقد أسلفنا جملة جليلة في هذا الشأن في سورة البقرة عند قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا[1] . فانظرها . « وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » كرره تأكيداً وليبنى عليه قوله « فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ » .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٥] ونصها : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

« إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا » أى ما آمركم به « صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ » أى من بنى إسرائيل « الْكُفْرَ » أى علمه ووجده منهم « قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ » جمع نصير. والجار متعلق بمحذوف وقع حالا. أى من أنصارى متوجهاً إلى الله ملتجئاً إليه « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ » وهم طائفة من بنى إسرائيل انتدبت للإيمان بالمسيح عليه السلام فوازروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ـ جمع حوارىّ ـ وهو الناصر أو المبالغ فى النصرة والوزير والخليل والخالص كما فى (التوشيح) « نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » أى أنصار دينه ورسوله « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى منقادون لرسالتك . ولما أشهدوه عليه السلام أشهدوا الله تعالى الآمر بما أنزل من الإيمان به وبأوامره فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ » فأشهدناك على ما نحن عليه من تصديقنا دعواه « فَاكْتُبْنَا » أى جزاءً على إشهادنا إياك « مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك . وهم المتقدمون فى آية (شَهِدَ اللَّهُ) أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم .

لطيفة :

جاء فى إنجيل متى فى الأصحاح العاشر ما يأتى :

(١) ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضُعف .

(٢) وأما أسماء الاثنى عشر رسولا فهى هذه . الأول سِمْعَانُ الذى يقال له بُطْرُسُ وأندراوُسُ أخوه . يعقوب بن زَبْدِى ويُوحَنَّا أخوه.

(٣) فِيلُبُّسُ وبَرْثُو لَمَاوُسُ . تُوماَ ومَتَّى العَشَّارُ . يعقوب بن حَلْفَى ولَبَّاوُسُ الملقب تَدَّاوُسَ .

(٤) سِمْعَانُ القانَوِىّ ويهوذا الإسْخَرْ يُوطِىُّ الذى أسلمه .

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام. لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعونهم إلى الحق الذى جاء به ، فبذلوا الجهد فى بثه وانتشاره وإقامته ، إلى أن جاء بولس فسلبهم، بخداعه، دين المسيح الصحيح ، فلم يسمعوا له بعد من خبر ، ولا وقفوا له على أثر ، وطمس لهم رسوم التوراة ، وحلل لهم كل محرم ، كما بين ذلك فى غير هذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَمَكَرُوا » أى الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هموا بالفتك به وإرادته بالسوء ، حيث تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملكهم « وَمَكَرَ اللَّهُ » أى بهم بعد ذلك فانتقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم « وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أى أقواهم مكرا ، وأنفذهم كيداً ، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لايحتسب . وقال البقاعىّ كغيره فى قوله تعالى (وَمَكَرَ اللَّهُ) : أى بأن رفعه إليه. وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه ، وإنما صلبوا أحدهم ، ويقال إنه الذى دلهم ، وأما هو عليه السلام ، فصانه عنده بعد رفعه

إلى محل أوليائه وموطن قدسه ، لينزله فى آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذى طلبوا به العز إلى آخر الدهر ، فكان تدميرهم فى تدبيرهم ، ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ » أى مستوفى مدة إقامتك بين قومك. والتوفى، كما يطلق على الإماتة، كذلك يطلق على استيفاء الشيء. كما فى كتب اللغة. ولو ادعى أن التوفى حقيقة فى الأول، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فنقول: لا مانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام بأتباعه وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسلب الحياة . وهذا الوجه ظاهر جدا ، وله نظائر فى الكتاب العزيز ، قال تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا(١). قال الزمخشرى : يريد ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، أى يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى . ومنه قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ(٢) . حيث لا يميزون ولا

---

(١) [٣٩/ الزمر/ ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٦/ الأنعام/ ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك ـ انتهى كلامه ـ ثم بين سبحانه في بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال : « وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي من مكرهم وخبث صحبتهم ؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[1] . وقوله تعالى : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[2] . وقوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ[3] . وقوله تعالى: ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ[4] . وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبيّ في كتاب (العلوّ) . قال أبو الوليد بن رشد في (مناهج الأدلة) : لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفتها المعتزلة ، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله ـ إلى أن قال : والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، وأن منه تتنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين ، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبيّ ﷺ . وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول . وبيّن بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم ـ إلى أن قال : فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل . وأن إبطاله إبطال الشرائع. قال الدارميّ: وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته . وقد بسط نصوصَ السلف الحافظُ الذهبيّ في كتاب (العلوّ) فانظره ،

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .
(٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .
(٣) [٣٢ / السجدة / ٥] ونصها : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .
(٤) [٦٧ / الملك / ١٦] .

هذا ، ولما كان لذوى الهمم العوال ، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال، بشره تعالى فىذلك بما بشره فقال « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود ، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبقى منهم أحد « ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » ثم فسر الحكم الواقع بين الفريقين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

«وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» أى يبغضهم ، فإن هذه الكناية فاشية فى جميع اللغات ، جارية مجرى الحقيقة .

القول فى تأول قوله تعالى تعالى :

[٥٨] (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وهو مبتدأ وخبره «نَتْلُوهُ عَلَيْكَ » أى من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه . وقوله تعالى « مِنَ الْآيَاتِ » حال

من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر « وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » أى المشتمل على الحكم، أو المحكم المعصوم من تطرق الخلل إليه، والمراد به القرآن .

تنبيه :

فى قوله : إِنِّى مُتَوَفِّيكَ . وجوه فى التأويل كثيرة ، إلا أن الذى فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم ، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا ، لإفادتها وفاته عليه السلام ، أى بالصلب ، ثم رفعه إلى السماء أعنى قيامه حياً بعدوفاته على زعمهم من أنه مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن فى أول ساعة من ليلة السبت ، وأقام فى القبر إلى صبيحة الأحد ، ثم انبعث حياً وتراءى للنسوة اللائى جئن إلى قبره زائرات . وقد استندوا فى هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع ، وشهادة تلاميذه الشفاهية فى العالم ، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً . ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه فى معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب . وقد بين علماؤنا بطلان معتقدهم هذا فى تآليف وتحارير فانظره فى (حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَى » أى شأنه العجيب فى إنشائه بالقدرة من غير أب « عِنْدَ اللهِ » أى فى تقديره وحكمه « كَمَثَلِ ءَادَمَ » أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » جملةمفسرة للتمثيل ببيان وجهالشبه بينهما. وحسم لمادة شبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه السلام بغير أب وأم ، مما لا يكاد يصح ـ قاله أبو السعود ـ وقوله (خَلَقَهُ) أى صور

جسد آدم من تراب ثم قال له (كن) أى بشراً كاملًا روحاً وجسداً فإن أمره تعالى يفيد قوة التكون. قال البقاعىّ : وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء فى (فيكون) دون الماضى ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أن المعنى عليه حكايةً للحال وتصويراً لها إشارةٌ إلى أنه كان الأمر من غير تخلف ، وتنبيهاً على أن هذا هو الشأن دائماً يتجدد مع كل مراد ، لا يتخلف عن مراد الآمر أصلًا كما تقدم التصريح به فى آية : إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .

لطيفة :

قال الرازىّ : الحكماء قالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه :

الأول ـ ليكون متواضعاً ، الثانى ـ ليكون ستاراً ، الثالث ـ ليكون أشد التصاقاً بالأرض. وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض . قال تعالى : إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً[1] . الرابع ـ أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التى هى أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة ، وخلق آدم من التراب الذى هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية ، الخامس ـ خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب ـ انتهى ملخصاً ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى الذى قصصنا عليك من نبأ عيسى الحق ، وقيل : الحق مبتدأ ، والظرف خبر ، أى الحق المذكور . وقيل : الحق فاعل لمضمر ، أى جاءك الحق. وفى (الحق) تأويلان : الأول ـ قال أبو مسلم : المراد أن هذا الذى أنزلتُ

---

(١) [٢ / البقرة/ ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لاما قالت النصارى واليهود . فالنصارى قالوا إن مريم ولدت إلهاً ، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فالله تعالى بيّن أن هذا الذى أنزل فى القرآن هو الحق . ثم نهى عن الشك فيه .

والقول الثانى ـ أن المراد أن الحق فى بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل ، وهو قصة آدم عليه السلام ، فإنه لا بيان أقوى منها . والله أعلم .

« فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » خطاب إماللنبىّ صلى الله عليه وسلم على طريقة التهييج لزيادة الثبات ، أو لكل سامع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

« فَمَنْ حَاجَّكَ » أى جادلك من النصارى بإيراد حجة « فِيهِ » أى فى شأن عيسى زعماً منهم أنه ليس على الشأن المتلوّ « مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى الذى أنزلناه إليك، وقصصناه عليك فى أمره . وللفاضل المهايمىّ فى هذه الآية أسلوب لطيف فى التأويل حيث قال (الْحَقُّ) أى الثابت الذى لا يقبل التأويل جاء (مِنْ رَبِّكَ) الذى رباك بالاطلاع على الحقائق (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) بما ورد فى الإنجيل من إطلاق لفظ الأب على الله فإنه إطلاق مجازىّ لأنه لماحدث منه كان كأبيه. وإذا ظهر لك الحق من ربك بالبيان التام (فَمَنْ حَاجَّكَ) أى جادلك (فِيهِ) لإثبات ابنيته بظواهر الإنجيل (مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) القطعىّ الموجب لتأويله . « فَقُلْ » لم يبق بيننا وبينكم مناظرة ، ولكن نرفع عنادكم بطريق المباهلة « تَعَالَوْا » أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يُعرف فيه علوّ الحق وسفول

الباطل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ » أى يدع كل منه ومنكم نفسه ، وأعزة أهله ، وألصقهم بقلبه ، ممن يخاطر الرجل بنفسه لهم ويحارب دونهم، ويحملهم على المباهلة « ثُمَّ نَبْتَهِلْ » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد فى دعاء اللعنة « فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ » أى إبعاده وطرده « عَلَى الْكَاذِبِينَ » منا ومنكم ليهلكهم الله وينجى الصادقين ، فلا يبقى العناد الباقى عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

تنبيهات :

الأول ــ قال القاشانى : إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأييد الله إياهم به ، وهو المؤثر بإذن الله فى العالم العنصرى ، فيكون انفعال العالم العنصرى منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيئات الواردة عليه ، كالغضب والحزن والفكر فى أحوال المعشوق ، وغير ذلك من تحرك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم . وانفعال النفوس البشرية منه كانفعال حواسنا وسائر قوانا من هيآت أرواحنا ، فإذا اتصل نفس قدسى به كان تأثيرها فى العالم عند التوجه الاتصالى تأثير ما يتصل به ، فتنفعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد . ألم تر كيف انفعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف، وأحجمت عن المباهلة ، وطلبت الموادعة بقبول الجزية؟

الثانى ــ قال ابن كثير : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نصارى نجران لما قدموا المدينة ، فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق وغيره ، وكانوا ستين راكباً ، منهم ثلاثة نفر، إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم واسمه عبد المسيح، والسيد ثِمَالُهُمْ وصاحب رحلهم واسمه الأيهم : ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفى القصة أن النبىّ ﷺ لما أتاه الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : ياأباالقاسم!

دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنــه ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : ياعبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يامعشر النصارى ! لقد عرفتم إن محمداً لنبيٌّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًّا قط ، فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه لَلاستئصال منــكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينــكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجــل ثم انصرفو إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ! قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، فلم يلاعنهم ﷺ ، وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن الشعبيّ عن جابر قال : قدم على النبيّ ﷺ العاقب والطيّب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، قال : فغدا رسول الله ﷺ ، فأخذ بيد عليّ وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج ، قال : فقال رسول الله ﷺ : والذى بعثنى بالحق ، لوقالا: لا، لأمطر عليهم الوادى ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ... الآية ـ قال جابر : أنفسنا وأنفسكم: رسول الله ﷺ وعليّ بن أبى طالب ، وأبناؤنا : الحسن والحسين ، ونساؤنا : فاطمة ، وهكذا ـ رواه الحاكم فى مستدركه بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هكذا قال.

وقد رواه أبوداود الطيالسيّ عن شعبة عن المغيرة عن الشعبيّ مرسلًا ، وهذا أصح .

وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك .

وروى البخاريّ(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٧٢ ـ باب قصة أهل نجران .

رجلًا أميناً، ولاتبعث معنا إلا أميناً. فقال : لأبعثن معكم رجلًا أميناً، حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح . فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة . ورواه مسلم والنسائى أيضاً وغيرهم .

وروى الإمام أحمد(١) عن ابن عباس قال : قال أبو جهل ـ قبحه الله ـ : إن رأيت محمداً يصلّى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ، قال : فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا .

قال ابن كثير : وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى . وقد ساق قصة وفد نجران الإمام ابن القيم عليه الرحمة فى (زاد المعاد) وأعقبها بفصل مهم فى فقهها . فليراجع .

الثالث ـ قال الزمخشرى : فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك . ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمت كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب. ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدّمهم فى الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مُفَدَّوْن بها . وفيه دليل ، لا شىء أقوى منه، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبى ﷺ. لأنه لم يروِ أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، حديث ٢٢٢٥ (طبعة المعارف) .

الرابع ـ استنبط من الآية جواز المحاجة فى أمر الدين ، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلته اقتداء بما أمر به ﷺ. والمباهلة الملاعنة .

قال الكازرونىّ فى تفسيره : وقع البحث عند شيخنا العلامة الدوانىّ قدس الله سره فى جواز المباهلة بعد النبىّ ﷺ ، فكتب رسالة فى شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا فى أمر مهم شرعاً ، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعى فى إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صديق خان فى تفسيره : وقد دعا الحافظ ابن القيّم، رحمه الله، من خالفه فى مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، إلى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة . وتمام هذه القصة مذكور فى أول كتابه المعروف بـ (النونية) ـ انتهى ـ وقد ذكر فى (زاد المعاد) فى فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه : ومنها أن السنّة فى مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله، سبحانه، بذلك رسوله ، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك . ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعىّ سفيانَ الثورىّ فى مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« إِنَّ هَـٰذَا » أى المتقدم من شأن عيسى عليه السلام « لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » الذى

لا معدل عنه ، دون أقاصيص النصارى . والقصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها . فى معنى قصّ الأثر، وهو اتباعه ، حتى ينتهى إلى محل ذى الأثر ـ أفاده الحرالىّ ـ .

قال البقاعىّ : ولما بدأ سبحانه القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلًّا على ذلك بأنه الحىّ القيّوم صريحاً، ختم ذلك إشارة وتلويحاً فقال، عاطفاً على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى عبد الله ورسوله ، مُعَمِّماً للحكم: « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ » فصرح فيه بـ (من) الاستغراقية ، تأكيداً للرد على النصارى فى تثليثهم « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فلا يشاركه أحد فى العزة والحكمة، ليشاركه فى الألوهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن قبول الحق الذى قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيّرة « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » أى بهم فيجازيهم على إفسادهم . والتعبير عنهم بذلك إشارة إلى أنهم، بتوليهم ، مفسدون اعتقادهم واعتقاد غيرهم فى الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى إلى قول معتدل لا يميل إلى التعطيل ولا إلى الشرك ، متفق عليها لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى « أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً » أى لا نرى غيره مستحقّاً للعبادة فنشركه معه ، بل نفرد العبادة لله وحده ، لا شريك له . وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(١) . وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ(٢) . « وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا » أى كعزير والمسيح والأحبار والرهبان الذين كانوا يحلّون لهم ويحرّمون ، كما روى الترمذيّ(٣) عن عديّ بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

قال الكيا الهراسيّ : فيه رد على من قال بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل شرعيّ ،وعلى من قال: يجب قبول قول الإمام فى التحليل والتحريم ولو دون إبانة مستند شرعيّ.

قال البقاعيّ : ولما كان الرب قد يطلق على المعلم والمربّى بنوع تربيةٍ ، نبه على أن المحذور إنما هو اعتقاد الاستبداد والاجتراء على ما يختص به الله فقال : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » الذى اختص بالكمال « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن هذه الكلمة السواء المتفق عليها « فَقُولُوا » أى تبعاً لأبيكم إبراهيم عليه السلام إذ قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وامتثالاً لوصيته إذ قال: وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو غيرها : اعترف بأنى أنا الغالب ، وسلم لى الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره ـ كذا فى الكشاف ـ .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : . . . ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

(٣) أخرجه الترمذيّ فى: ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ١٠ـ حدثنا الحسن ابن مرثد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ » أى تجادلون فيه فيدعيه كل من فريقكم « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ » أى المقرِّر كل منهما لأصل دين منتحلِه منكم « إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ » أى الأشخاص الحمق « حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر محمد ﷺ إذ له ذكر فى كتابكم فأمكنكم تغييره لفظاً ومعنى ، أو من أمر موسى وعيسى عليهما السلام، أو مما نطق به التوراة والإنجيل « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر إبراهيم لكونه لم يذكر فى كتابكم بما حاججتم ، فلا يمكنكم فيه التغيير « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » فيبيّنه لنبيّه « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا » أى كما ادعى اليهود « وَلَا نَصْرَانِيًّا » كما ادعى النصارى « وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً» سبق معنى الحنيف عند قوله تعالى : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ـ فى البقرة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بأنهم مشركون بقولهم : عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، وردٌّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ » أى أخصهم به وأقربهم منه . من (الْوَلْيِ) وهو القرب « لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» أى فى دينه من أمته وغيرهم «وَهَـٰذَا النَّبِيُّ» يعنى خاتم الأنبياء محمداً ﷺ « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » به فعملوا بشريعته الموافقة لشريعة إبراهيم « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » بالنصر والمعونة والمحبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

« وَدَّتْ » أى تمنت « طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ » بالرجوع إلى دينهم حسداًوبغياً« وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّاأَنْفُسَهُمْ » أى ومايتخطاهم الإضلال، ولا يعود وباله إلاعليهم، إذ يضاعف به عذابهم « وَمَا يَشْعُرُونَ» أى أنوزره خاص بهم. ونظير هذه الآية قولهتعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ(١) . وقوله : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً(٢) .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٤ / النساء / ٨٩] ونصها: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ » أى المنزلة على محمد ﷺ « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » أى تعلمون حقيتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » أى تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة « وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى الذى لايقبل تمويهاً ولا تحريفاً « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى عالمين بما تكتمونه من حقيته وقد كانوا يعلمون ما فى التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ﷺ ونبوته، ويلبسون على الناس فى ذالك ، كدأبهم فى غيره . وفى الآية دلالة على قبح كتمان الحق ، فيدخل فى ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة ؛ وعلى قبح التلبيس . فيجب حل الشبهة وإبطالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ » أى أوله « وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » هذه الآية حكاية لنوع آخر

= سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

من تلبيساتهم . وهى مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من المؤمنين أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم . فيظن الضعفاء أنه لاغرض لهم إلا الحق ، وأنه ما ردهم عن الدين بعد اتباعهم له وترك العناد ، وهم أولو علم وأهل كتاب، إلا ظهور بطلانه لهم ، ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الإسلام كما رجعتم .

لطيفة :

قال الرازىّ : الفائدة فى إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول ـ أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزاً .

الثانى ـ أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف .

الثالث ـ أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » من تتمة كلامهم أى ولا تصدقوا إلا نبياً تابعاً لشريعتكم ، لامن جاء بغيرها ، أو ولاتؤمنوا ذلك الإيمان المتقدم ، وهو إيمانهم وجه النهار ، إلا لأجل حفظ أتباعكم وأشياعكم وبقائهم على دينكم « قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ » أى الذى هو

الإسلام وقد جئتكم به ، وما عداه ضلال فلا ينفعكم فى دفعه هذا الكيد الضعيف ولا تقدرون على إضلال أحد منا بعد أن هدانا الله . ثم وصل به تقريعهم فقال « أَنْ » بمد الألف على الاستفهام، فى قراءة ابن كثير . وتقديرها فى قراءة غيره. أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلتم ماقلتم ودبرتموه ألأن « يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » من الشرائع والعلم والكتاب، « أَوْ » كراهة أن « يُحَاجُّوكُمْ » أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتم بعد البيان الواضح فيفضحكم « قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ » أى بإنزال الآيات وغيرها « بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » فلا يمكنكم منعه « وَاللهُ وَاسِعٌ » كثير العطاء « عَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » فيزيده فضلا عليكم « وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » بالمطالبة والترافع وإقامة البينة ، فلا يبعد منه الخيانة مع الله بكتمان ما أمر بإظهاره طمعاً فى إبقاء الرئاسة والرشا عليه. ثم استأنف علة الخيانة بقوله « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أى ذلك الاستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب عقاب ومؤاخذة

فهم يخونون الخلق « وَيَقُولُونَ » أى فى الاعتذار عنه « عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » بادعائهم ذلك وغيره فيخونونه أيضا « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنه كذب محض وافتراء لتحريم الغدر عليهم. كما هو فى التوراة . وقد مضى نقله فى البقرة فى آية :إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا[1]. فارجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » اعلم أن (بلى) إما لإثبات مانفوه من السبيل عليهم فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل، فالوقف حينئذ على (بلى) وقف التمام ، وقوله « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ » جملة مقررة للجملة التى سدت (بلى) مسدّها ؛ وإما لابتداء جملة بلا ملاحظة كونها جواباً للنفى السابق ، فإن كلمة (بلى) قد تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعدها ـ كما نقله الرازىّ ـ وهذا هو الذى أرتضيه . وإن اقتصر الكشاف ومقلدوه على الأول . وقد ذكروا فى (نعم) أنها تأتى للتوكيد إذا وقعت صدرا. نحو : نعم هذه أطلالهم ، فلتكن (بلى) كذلك ، فإنهما أخوان ، وإن تخالفا فى صور ، وعلى هذا فلا يحسن الوقف على (بلى). والضمير فى « بِعَهْدِهِ » إما لاسم (الله) فى قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » على معنى إن كل من أوفى بعهد الله واتقاه فى ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه . وإما لـ« مَنْ أَوْفَى » على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقاه فإنه يحبه .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت فهذا عام. يخيل أنه ولو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا

---

(١) [٢ / البقرة / ٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل. لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسولٍ مصدق لما معهم ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه ـ انتهى ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ » أي يستبدلون « بِعَهْدِ اللهِ » أي بما أخذهم عليه في كتابه. أو بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم « وَأَيْمَانِهِمْ » أي التي عقدوها بالتزام متابعة الحق على ألسنة الرسل « ثَمَنًا قَلِيلًا » من الدنيا الزائلة الحقيرة التي لا نسبة لجميعها إلى أدنى ما فوتوه « أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ » أي لا نصيب ثواب « لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وذلك لحجبهم عن مقامات قربه كما قال تعالى : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . « وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أي ولا يثني عليهم كما يثني على أوليائه ، أو لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي بالنار.

واعلم أن في هذه الآية مسائل :

الأولى ـ قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أن من نقض عهداً لله لغرض دنيوي، أو حلف كاذباً ، فإنه قد ارتكب كبيرة .

الثانية ـ في الجمع بين قوله تعالى هنا : وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ . وقوله : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(١). قال القفال: المقصود من هذه الآية بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره

---

(١) [١٥ / الحجر / ٩٢] .

كلامَه فإنما ذلك بسخطٍ عليه ، وإذا سخط إنسان على آخر قال له : لا أ كلمك . وقد يأمر بحجبه عنه ، ويقول: لاأرى وجه فلان ، وإذا جرى ذ كره لم يذ كره بالجميل ، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب ، نعوذ بالله منه . ومنهم من قال : لايبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءَه كلامَه بغير سفير تشريفاً عاليـاً يختص به أولياءه ، ولا يكلم هؤلاء الـكفرةَ والفساق ، وتـكون المحاسبة معهم بكلام الملائـكة . ومنهم من قال : معنى الآية لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم ، والـكل حسن .

الثالثة ــ روى الشيخان[1] عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان. قال عبدالله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عزوجل: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وفي رواية قال : من حلف على يمين صبر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله تصديق ذلك : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... الآية . فدخل الأشعث بن قيس الـكندىّ فقال : ما يحدثـكم أبوعبد الرحمن؟ قلنا : كذا و كذا ، فقال : صدق ، فيَّ نزلت ، كان بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : شاهـداك أو يمينه ، قلت : إنه إذاً يحلف ولا يبالي ، فقال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان ، ونزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... إلى آخر الآية .

وأخرجه الترمذىّ وأبوداود وقالا : إن الحـكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودىّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ في : ٦٥ ــ كتاب التفسير ، ٣ ــ سورة آل عمران ، ٣ ــ باب إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ .

ومسلم في : ١ ــ كتاب الإيمان ، حديث ٢٢٠ و٢٢١ (طبعتنا) .

وروى البخاريّ[1] عن عبد الله بن أبي أوفى أن رجلًا أقام سلعة وهو في السوق. فحلف بالله لقد أَعْطَى بها مالم يُعْطَهُ، ليوقع فيها رجلًا من المسلمين ، فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ... إلى آخر الآية . وقدمنا في مقدمة التفسير، في بحث سبب النزول ، وفي سورة البقرة أيضاً عند آية : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ[2]، ما يعلم به الجمع بين مثل هذه الروايات، وأنه لا تنافي . فتذكَّرْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » قال الإمام ابن كثير : يخبر تعالى عن اليهود ، عليهم لعائن الله ، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال تعالى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وقال مجاهد والشعبيّ والحسن وقتادة والربيع بن أنس : يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٣ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ =

بِالْكِتَابِ .يحرفونه. وهكذا روى البخاريّ عن ابن عباس[1] أنهم يحرفون: ويزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله .

وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منها حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله. فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول. رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش. وهو من باب تفسير المعرّب المعبِّر ، وفهمُ كثير منهم فاسد ؛ وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء ـ انتهى ـ وقد قدمنا الكلام على ذلك في مقدمة التفسير عند الكلام على الإسرائيليات، وفي سورة البقرة أيضاً عند قوله تعالى[2]: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللهِ .. الآية فليراجع .

ولما بين تعالى كذبهم عليه ـ جل ذكره ـ بين افتراءهم على رسله إذ زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يتخذوه رباً ، فردّ سبحانه عليهم بقوله :

= يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ

(٢) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ » أي ماصح ولا استقام . وفي التعبير بـ« بشر » إشعار بعلة الحكم ، فإن البشرية منافية لماافتروه عليهم « أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ » أي الفهم والعلم أو الحكمة « وَالنُّبُوَّةَ » وهي الخبر منه تعالى ليدعو الناس إلى الله بترك الأنداد « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ » أي الذين بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى عبادته وحده « كُونُوا عِبَادًا لِي » أي اتخذوني ربًّا « مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ » يقول لهم « كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » أي منسوبين إلى الرب لاستيلاء الربوبية عليهم وطمس البشرية بسبب كونهم عالمين عاملين معلمين تالين لكتب الله . أي كونوا عابدين مرتاضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات ، حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة ـ أفاده القاشانيّ ـ « بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ » أي بسبب مثابرتكم على تعليم الناس الكتاب ودراسته، أي قراءته. فإن ذلك يجركم إلى الله تعالى بالإخلاص في عبادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ » أي بالعود إليه وقد بعث لمحو الشرك « بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أي بعد استقراركم على الإسلام .

تنبيهات :

الأول ـ إذا كان ما ذكر فى الآية لا يصلح لنبىّ ولا لمرسل، فَلأَنْ لا يصلح لأحد من الناس غيرهم، بطريق الأولى والأحرى . ولهذا قال الحسن البصرىّ : لا ينبغى هذا لمؤمنٍ ، أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً ـ يعنى أهل الكتاب ـ كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال الله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ... الآية[1] ـ وفى جامع الترمذىّ[2] ـ كما سيأتى ـ أن عدىّ بن حاتم قال: يارسول الله ما عبدوهم . قال : بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم . فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ . بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه الرسل الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغته إياه رسله الكرام ـ قاله ابن كثير ـ

الثانى ـ فى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه . والدراسة مذاكرة العلم والفقه. فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًّا، فمن اشتغل بها، لا لهذا المقصود، فقد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها، ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال ﷺ[3] : نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ـ كذا فى فتح البيان والرازىّ .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد .

(٣) أخرجه مسلم فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٧٣ =

الثالث ـ قرئ فى السبع « وَلَا يَأْمُرُكُمْ » بالرفع على الاستئناف أى ولا يأمركم الله أو النبيّ ، وبالنصب عطفاً على ثم يقول . و (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ . قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم. ومن جملتها ما ذكره الله تعالى فى هذه الآية. وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم ، وإن كان ناسخاً لبعض أحكامهم بما دلت

= (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول . كان يقول « اللهم ! إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم ! آت نفسى تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم ! إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك ، آمنوا به ونصروه أيضاً ، مبالغة فى تشهير أمره . ولا يمنعهم ماهم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره . وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . وقد قرئ فى السبع بفتح اللام من : لِمَا ءَاتَيْتُكُمْ . وكسرها ، فعلى الأول هى موطئة للقسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، و «مَا» حينئذ تحتمل الشرطية، و «لَتُؤْمِنُنَّ» سادّ مسد جواب القسم والشرط . وتحتمل الموصولة بمعنى « لَلَّذِى أَتَيْتُكُمُوهُ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» وعلى الثانى ، أعنى كسر اللام ف «مَا» إما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم الكتاب ثم لمجيء رسول مصدق لكم غير مخالف أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه . وإما موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه ، وجاءكم رسول مصدق له ، وقوله تعالى : فَاشْهَدُوا . أى يا أنبياء ، بعضكم على بعض ، بالإقرار . وفى قوله تعالى : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ : توكيد عليهم . ومن أمعن فى نهج الآية علم أن هذا الميثاق قد بولغ فى شأنه غاية المبالغة ، وإذا كان هذا الإيجاب مع الأنبياء ، فمع أممهم أولى . وقد روى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً، وهو حىّ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . قال ابن كثير : وهذا لا يضادّ ماقاله طاوس والحسن وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول علىّ وابن عباس ـ انتهى ـ

ومن أثر علىّ عليه السلام هذا ، فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق بنبينا ﷺ كما نقل القاضى عياض فى (الشفاء) عن أبى الحسن القابسىّ قال : استخص الله تعالى محمداً بفضل لم يؤته غيره أبانه به . وهو ما ذكره فى هذه الآية ـ انتهى ـ وقد علمت المراد .

بقى أن الإمام أبامسلم الأصفهانىّ ذهب إلى أن فى قوله تعالى : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . حذف مضاف ، أى أممهم ، وعبارته : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب

عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً ، فلما كان الذين أخذ عليهم الميثاق يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ، ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين ، بل هم أمم النبيين . قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق ، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما يليق بالأمم . أجاب القفال رحمه الله فقال : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا فى الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك(١) ، وقد علم الله تعالى أنه لايشرك قط ، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض ، فكذا هنا . وقال: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(٢) وقال فى صفة الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ(٣) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٤) وبأنهم: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٥) . فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير ، فكذا ههنا .

ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولى ، فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك ،

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٦] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٥٠] .

وقد ذكر تعالى على سبيل الفرض والتقدير فى قوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ فكذا ههنا ـ نقله الرازىّ ـ .

ولما بين تعالى أن الإيمان بالنبىّ صلى الله عليه وسلم شرعٌ شرعه وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالباً ديناً غير دين الله . فلهذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » أى استسلم له من فيهما بالخضوع والانقياد لمراده والجرى تحت قضائه ، كما قال تعالى : وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١). وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَاخَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٢) . وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٣). فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم له كرها. فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لايخالف ولايمانع ـ أفاده ابن كثير « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » يوم القيامة فيجزى كلا بعمله ، والجملة سيقت للتهديد والوعيد .

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] .
(٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .
(٣) [١٦ / النحل / ٤٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٤] (قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » أى أولاد يعقوب « وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ، كدأب اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » أى منقادون فلا نتخذ أربابا من دونه .

لطيفة :

نكتة الجمع فى قوله « ءَامَنَّا » بعد الإفراد فى « قُلْ » كون الأمر عامًّا ، والإفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإيذان بأنه أصل فى ذلك . أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة. والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك .

ثانية :

عدى (أنزل) هنا بحرف الاستعلاء، وفى البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين. إذ الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسول ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر ، وقال صاحب (اللباب) : الخطاب فى البقرة للأمة لقوله : قُولُوا. فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً. وهنا قال (قل) ، وهو خطاب للنبى ﷺ دون أمته ، فكان اللائق به (على) لأن الكتب منزلة عليه لاشركة للأمة فيها .

وفيه نظر ، لقوله تعالى : ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا[١] ـ أفاده النسفى ـ .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَمَنْ يَبْتَغِ » أى يطلب « غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً » أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى . كدأب المشركين صريحاً. والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين. « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » لأنه لم ينقد لأمر الله . وفى الحديث الصحيح[1] : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ « وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » لضلاله وجوه الهداية فى الدنيا .

قال العلامة أبو السعود : والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع ، واقع فى الخسران ، بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها . وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » استبعاد لأن يرشدهم الله للصواب ويوفقهم . فإن الحائد عن الحق، بعد ما وضح له، منهمك فى الضلال ، بعيد عن الرشاد. وقيل: نفى وإنكار له ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

= بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(١) أخرجه البخارىّ فى:٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢٠ ـ باب إذا أخطأ العامل أو الحاكم.

طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ. والمعنيُّ بهذه الآية إما أهل الكتاب والمراد كفرهم بالرسول ﷺ حين جاءهم، بعد إيمانهم به قبل مجيئه، إذ رأوه في كتبهم وكانوا يستفتحون به على المشركين. وبعد شهادتهم بحقية رسالته لكونهم عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، وجاءهم البينات على صدقه التي آمنوا لمثلها ولما دونها بموسى وعيسى عليهما السلام. فظلموا بحقه الثابت ببيناته وتصديقه الكتب السماوية . وإما المعنيُّ بالآية من ارتدّ بعد إيمانه. على ماروى في ذلك كما سنذكره. ثم بين تعالى الوعيد على كلٍّ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

« أُولَٰئِكَ » أى الموصوفون بما تقدم « جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ » أى طرده وغضبه « وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » المراد بالناس إما المؤمنين أو العموم ، فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ، فقد لعن نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« خَالِدِينَ فِيهَا » أى فى اللعنة أو العقوبة أو النار ، وإن لم يجر ذكرهما لدلالة الكلام عليهما . والتخليد فى اللعنة على الأول بمعنى أنهم يوم القيامة لا يزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم فى النار ، فلا يخلو شيء من أحوالهم من أن يلعنهم لاعنٌ من هؤلاء ، أو بمعنى الخلود فى أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فعبر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى : مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا* خَالِدِينَ فِيهِ (١) ـ أفاده الرازيّ ـ « لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى لا يمهلون ، أو لا ينتظرون ليعتذروا ، أولا ينظر نظر رحمة إليهم .

(١) [٢٠ / طه / ١٠٠و١٠١] ... وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى الكفر بعدالإيمان « وَأَصْلَحُوا » أى وضمّوا إلى التوبة الأعمالَ الصالحة . وفيه أن التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم . وهـذا من لطفه وبره ورأفته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه . وقد روى ابن جرير(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجـل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هـل لى من توبة ؟ فنزلت : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فأرسل إليه قومه فأسلم . وهكذا رواه النسائىّ والحاكم وابن حبان . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال(٢) : جاء الحرث بن سُوَيد فأسلم مع النبىّ ﷺ ، ثم كفر الحرث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيـه : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله غَفُورٌ رَحِيمٌ . قال فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليه ، فقال الحرث : إنك والله، ما علمتُ ، لصَدُوقٌ ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة . قال : فرجع الحرث فأسلم فحسن إسلامه .

قال ابن سلامة : فصارت فيه توبة ، وفى كل نادم إلى يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية . ثمرة الآية جواز لعن الكفار ، وسواء كان الكافر معيّناً

(١) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٠

والنسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ١٥ ـ باب توبة المرتد .

(٢) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٣

أوغير معيّن ، على ظاهر الأدلة . وقد قال النووىّ : ظاهر الأحاديث أنه ليس بحرام . وأشار الغزالىّ إلى تحريمه إلا فى حق من أعلمنا الله أنه مات على الكفر . كأبى لهب وأبى جهل وفرعون وهامان وأشباههم . قال : لأنه لايدرى بما يختم له . وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم يجوز أنه ﷺ علم موتهم على الكفر . وأما ما ورد فى الترمذىّ[١] عنه ﷺ : ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذىّ . فقيل : اللعان مثل الضرّاب للمبالغة، والمعنى لا يعتاد اللعن حتى يكثر منه . ومن ثمرات الآية صحة التوبة من الكافر والعاصى بالردة وغيرها ، وذلك إجماع. إلّا توبة المرتد ففيها خلاف شاذ . فعند أكثر العلماء أن توبته مقبولة لهذه الآية وغيرها . وعند ابن حنبل لا تقبل توبته ـ رواه عنه فى (شرح الإبانة) قيل وهو غلط. لهذه الآية ولقوله تعالى فى سورة النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا[٢]. فأثبت إيماناً بعد كفر تقدمه إيمان . ولو تكررت منه الردة صحت توبته أيضاً عند جمهور العلماء، لقوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ[٣]. وقال إسحق بن راهويه: إذا ارتد فى الدفعة الثالثة لم تقبل توبته بعد ذلك. أى لظاهر آية النساء ـ انتهى ـ قلت : وفى (زاد المستقنع) و (شرحه) : من فقه الحنابلة ما نصه : ولا تقبل توبة من تكررت ردته بل يقتل . لأن ذلك يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام ـ انتهى ـ وهو قريب من مذهب إسحق . وحكى فى (فتح البارى) مثله عن الليث وعن أبى إسحق المروزىّ من أئمة الشافعية .

---

(١) الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٤٨ ـ باب ما جاء فى اللعنة .

(٢) [٤ / النساء / ١٣٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

(٣) [٨ / الأنفال / ٣٨] . . . وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ » أى الذين ضلوا سبيل الحق وأخطأوا منهاجه . وقد أشكل على كثير قوله تعالى « لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما فى الآية قبلها ، وقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ(١) . وغيرذلك . فأجابوا : بأن المراد عند حضور الموت. قال الواحدىّ فى (الوجيز) : لن تقبل توبتهم لأنهم لايتوبون إلا عند حضور الموت، وتلك التوبة لا تقبل ـ انتهى ـ ، أى كما قال تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ(٢) الآية . وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لايتوبون. كقوله : أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(٣) . وإنما كنى بذلك تغليظاً فى شأنهم وإبرازاً لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة ، وقيل : لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وازديادهم كفراً . وبقى للمفسرين وجوه أخرى ، هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

---

(١) [٤٢/الشورى/ ٢٥] . . . وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ.

(٢) [٤ / النساء / ١٨] . . . قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

(٣) [٢ / البقرة / ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و [٣٦ / يس / ١٠] ونصها : وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا[1] الخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحق وأحمد كما قدمنا ، وذلك لرسوخه فى الكفر . وقد أشار القاشانىّ إلى أن هذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان فى باب العناد ، وعبارته عند قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا : أنكر تعالى هدايته لقوم قد هداهم أولًا بالنور الاستعدادىّ إلى الإيمان ثم بالنور الإيمانىّ إلى أن عاينوا حقية الرسول وأيقنوا بحيث لم يبق لهم (كذا) . وانضم إليه الاستدلال العقلىّ بالبينات ، ثم ظهرت نفوسهم بعد هذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثتها بالحق للحق ، لشؤم ظلمهم وقوة استيلاء نفوسهم الأمارة عليهم الذى هو غاية الظلم فقال : وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، لغلظ حجابهم وتعمقهم فى البعد عن الحق وقبول النور . وهم قسمان : قسم رسخت هيأة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم فيهم وتمكنت ، وتناهوا فى الغى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد ، حتى صار ذلك ملكة لا تزول ؛ وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم رَيْناً ، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا ويستحيوا بحكم غريز العقول. فأشار إلى القسم الأول بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى آخره ، وإلى الثانى بقوله : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ، بالمواظبة على الأعمال والرياضات ، ما أفسدوا ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٨٨٣ .

وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » هذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة المائدة : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) . وقد روى الإمام أحمد والشيخان(٢) عن أنس بن مالك أن النبىّ ﷺ قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أ كنت مفتدياً به ؟ قال: فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك ! وفى رواية للإمام أحمد(٣) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب! خير منزل ، فيقول: سل وتمنَّ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلىالدنيا فأقتل فىسبيلك عشر مرات ـ لما يرى من فضل الشهادة ـ ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب! شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب ! نعم . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل. فيردّ إلىالنار . ولهذا قال « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى من منقذ من عذاب الله ولا مجير من أليم عقابه .

لطيفة :

فىقوله تعالى «وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ» قال صاحب الانتصاف : إن هذه الواو المصاحبة للشرط

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

(٢) أخرجه، فىقريب من هذا اللفظ، البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار .

ومسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، بالجزء الثالث ، صفحة ٢٠٨ (طبعة الحلبىّ) .

تستدعى شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة. والعادة فى مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى . مثاله : قولك أكرم زيداً ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه وإن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى . ومنه : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ[1] . معناه ـ والله أعلم ـ لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو فى مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً. لان قوله : وَلَوْ افْتَدَى بِهِ . يقتضى شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى . وهذه الحال المذكورة ، وهى حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً ، هى حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الزمخشرى الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفى فيما عدا هذه الحالة أولى ؛ فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور . وأما تنزيل الآية عليه فعسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله. فنقول : قبول الفدية التى هى ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال :

منها ـ أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . . . أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

ومنها ـ أن يقول المفتدى فى التقدير : أفدى نفسى بكذا ـ وقد لا يفعل ـ

ومنها ـ أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً، وقد يسلمه مثلًا لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد فى الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهباً افتداء محققاً ، بأن يقدر على هـذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ، ومع ذلك لايقبل منه . فمجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثَمَّ أحوالًا أُخَر لاينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً فىقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(١) ـ والله أعلم ـ وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم . ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلىّ فى يدى هذه . فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع والله ولىّ التوفيق ـ انتهى ـ .

وثمت وجه ثان وهو أن المراد ولو افتدى بمثله معه كما صرح به فى تلك الآية ، فالمعنى لا يقبل ملء الأرض فدية ، ولو زيد عليه مثله ، والمثل يحذف كثيراً فى كلامهم ، كقولك : ضربته ضرب زيد ، تريد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة : تريد مثله . وقضية ولا أبا حسن لها ، أى ولا مثل أبى حسن . كما أنه يراد فى نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، تريد: أنت . وذلك أن المثلين يسد أحدهما مسدالآخر، فكانا فى حكم شيء واحد ، وعلى هذا الوجه يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلى ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

---

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

ووجه ثالث : وهو أن لا يحمل (ملء الأرض) أولًا على الافتداء بل على التصدق ، ولا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق ، بل يكون شرطاً محذوف الجواب ، ويكون المعنى: لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وضمير « به » للمال من غير اعتبار وصف التصدق .

ووجه رابع : وهو أن الواو زيدت لتأكيد النفي . فتبصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ماينفعهم ويقبل منهم، إثْر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أي لن تبلغوا حقيقة البر، وتلحقوا بزمرة الأبرار . بناءً على أن تعريف البر للجنس . أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته، إذا كان للعهد ، حتى تنفقوا في سبيل الله تعالى مما تحبون، أي تهوونه ويعجبكم من كرائم أموالكم ، كما في قوله تعالى : أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ[1] ؛ وقد روى الشيخان[2] عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاءَ وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٧] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب ، حديث ٧٧٦ .

ومسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب . قال أنس : فلما أُنزلت هـذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله . فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسـول الله ﷺ : بَخٍ بَخٍ. ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ماقلت. وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه ـ (وبيرحا روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها والمد والقصر ، وهو اسم حديقة بالمدينة ـ وفى الفائق : إنها فَيْعَلَى من البراح ، وهو الأرض الظاهرة . وبخ بخ كلمة استحسان ومدح كررت للتأكيد ، ورابح بالموحدة أى ذو ربح ، وبالمثناة التحتية أى يروح عليك نفعه وثوابه) .

وفى الصحيحين(١) أن عمر قال : يا رسول الله ! لم أصب مالاً قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر ، فما تأمرنى به ؟ قال : حبس الأصل وسبل الثمرة .

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » فذكرت ماأعطانى الله ، فلم أجد شيئاً أحب إلىّ من جارية لى رومية ، فقلت: هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله ، لنكحتها. يعنى تزوجتها.

تنبيه :

قال القاشانىّ، فى هذه الآية : كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ، ولا يمكن التقرب إليه إلا بالتبرؤ عما سواه ، فمن أحب شيئاً فقد حجب عن الله تعالى به ، وأشرك شركاً خفياً، لتعلق محبته بغير الله ، كما قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ

(١) أخرجه فى المسند حديث ٥١٧٩ (طبعة المعارف) .

كَحُبِّ اللهِ[١] وآثر نفسه به على الله ، فقد بعد من الله بثلاثة أوجه. وهى محبة غير الحق ، والشرك ، وإيثار النفس على الحق ؛ فإن آثر الله به على نفسه وتصدق به وأخرجه من يده فقد زال البعد ، وحصل القرب ، وإلا بقى محجوباً ، وإن أنفق من غيره أضعافه ، فما نال براً لعلمه تعالى بما ينفق وباحتجابه بغيره .

« وَمَاتُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى فمجازيكم عليه، قليلًا كان أو كثيرًا، جيدًا أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ » قال الزمخشرىّ : المعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلالًا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة ، وتحريم ماحرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم ، لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذى حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه، فتبعوه على تحريمه .

تنبيهات :

الأول ـ روى ، فيما حرمه إسرائيل على نفسه، أنه لحوم الإبل وألبانها ، رواه الإمام أحمد فى قصة ، والترمذىّ وقال : حسن غريب . وروى عن ابن عباس والضحاك والسدّىّ وغيرهم موقوفاً عليهم أنه العروق . قالوا : كان يعتريه عرق النسا بالليل فيزعجه ، فنذر لئن عوفى لا يأكل عرقاً ، ولا يأكل ولد ماله عرق ، فاتبعه بنوه فى إخراج العروق من اللحم

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

استنانا به ، واقتداء بطريقه . قال الرازىّ : ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بُرُدًا إلى أخيه عيسو إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه وقال : إن عيسو هو ذا يتلقاك ومعه أربعمائة رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً ، فصلى ودعا ، وقدم هدايا لأخيه ، وذكر القصة ، إلى أن ذكر الملك الذى لقيه فى صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ، ووضع إصبعه على موضع عرق النسا ، فخدرت تلك العصبة وجفت ، فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق ـ انتهى ـ قلت : والقصة مسوقة فى سفر التكوين من التوراة فى الأصحاح الثانى والثلاثين .

الثانى : التحريم المذكور ، على الرواية الأولى، أعنى لحوم الإبل وألبانها ، فكان تبرّرًا وتعبدًا وتزهدًا وقهرًا للنفس، طلباً لمرضاة الحق تعالى. وعلى الثانية فإما وفاء بالنذر وإما تداوياً وإما لكونه يجد نفسه تعافه ـ والله أعلم ـ فالتحريم بمعنى الامتناع .

الثالث : قال الزمخشرىّ : الآية رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . إلى قوله تعالى : عَذَاباً أَلِيماً[1] وفى قوله : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا، إلى قوله: ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ[2] . وجحودَ ما غاظهم واشمأزوا منه ، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم . فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة

(١) [٤ / النساء / ١٦٠و١٦١] . . . وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . . . إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم ـ انتهى ـ .

« قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم أنه تحريم قديم . وفى أمره ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم حادث لا قديم ، كما يدعونه ـ أعظمُ برهان على صدقه وكذبهم إذلم يجسروا على إخراج التوراة . فبهتوا وانقلبوا صاغرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَمَنِ افْتَرَىٰ » أى تعمد « عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » أى فى أمر المطاعم وغيرها « مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لتعرضهم إلى أن يهتكهم تعالى ويعذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ صَدَقَ اللَّهُ » تعريض بكذبهم ، أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون « فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » أى ملة الإسلام التى عليها محمد ﷺ . ومن آمن معه والتى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه « حَنِيفاً » أى مائلاً عن الأديان الزائغة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بما فى اليهودية والنصرانية من شرك إثبات الولد أو إلٰهية عيسى، فكيف يزعمون أنهم على ملته ، وما كان يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وهو الذى بُعِثَ به محمد ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » أى لنسكهم وعباداتهم « لَلَّذِى بِبَكَّةَ » أى للبيت الذى ببكة، أى فيها . وفى ترك الموصوف من التفخيم مالا يخفى . وبكة لغة فى مكة ، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم (ضَرْبَة لازِب ولَازِم) و (النميط والنَّبيط) فى اسم موضع بالدهناء ، وقولهم (أمر رَاتِب ورَاتِم) و (أغبطت الحمى وأَغْمَطَت) . وقيل : مكة البلد ، وبكة موضع المسجد ، سميت بذلك لدقها أعناق الجبابرة ، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ، أو لازدحام الناس بها من « بَكَّهُ » إذا فرقه ووضعه وإذا زاحمه ، كما أن مكة من « مَكَّهُ » أهلكه ونقصه. لأنها تهلك من ظلم فيها وألحد وتنقص الذنوب أو تنفيها ـ كما فى القاموس ـ وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هى (ميشا) أو (ماسا) المذكورة فى التوراة ، وآخر إلى أنه مأخوذ عن اسم واحد من أولاد إسماعيل وهو (مسّا) . « مُبَارَكاً » أى كثير الخير ، لما يحصل لمن حجه ، واعتمره واعتكف عنده وطاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب « وَهُدًى لِلعَالَمِينَ » لأنه قبلتهم ومتعبدهم.

تنبيه :

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولًا فى الوضع والبناء ، ورووا فى ذلك آثاراً. منها أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، ومنها أنه تعالى بعث ملائكة لبناء بيت فى الأرض على مثال البيت المعمور ، وذلك قبل خلق آدم ، ومنها أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، وأنه خلق قبل الأرض بألفى عام. وليس فى هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه . والمتعين أن المراد أول بيت وضع مسجداً . كما بيّنه رواية ابن أبى حاتم عن علىّ رضى الله عنه فى هذه الآيةقال : كانت البيوت قبله، ولكنه

أول بيت وضع لعبادة الله تعالى . وفى الصحيحين[١] عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أىّ مسجد وضع فى الأرض أولُ ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم كان بينهما ؟ قال: أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّهْ . فإن الفضل فيه .

قال ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى. وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهذا من جهل القائل ، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وسلم ، بعد بناء إبراهيم عليه السلام بهذا القدار ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً ، وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

« فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ » وهو الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت. قال ابن كثير : وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطُّوّاف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده ، حيث قال : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى[٢]، وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الترغيب

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٠ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث ١٥٨٩ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١ (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً =

فى زيارة البعض الحرم وفعل الطاعات فيه ، لأنه تعالى وصفه بالبركة والهدى وجعل فيه آيات بينات .

لطيفة :

مقام إبراهيم مبتدأ حذف خبره ، أى منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً . أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة . قالوا : فإن كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض ، وإبقاءه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام ، وحفظه ، مع كثرة الأعداء ، ألوف سنة ، آية مستقلة . ويؤيده قراءة (آية بينة) على التوحيد ، وإما بما يفهم من قوله عز وجل :

« وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » فإنه وإن كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية ، لكنها فى قوة أن يقال « وأمن من دخله » فتكون، بحسب المعنى والمآل، معطوفة على مقام إبراهيم، ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك ، أو يحمل على أنه ذُكِرَ من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ـ أفاده أبو السعود ـ قال المهايمىّ: « فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ » رمى الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وتعجيل عقوبة من عتا فيه ، وإجابة دعاء من دعا تحت ميزابه ، وإذعان النفوس لتوقيره من غير زاجر ، ومن أعظمها . النازل منزلة الكل، مقام إبراهيم، الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت، كلما علا الجدار ارتفع الحجر فى الهواء ، ثم لين ، فغرقت فيه قدماه ، كأنهما فى طين ، فبقى أثره إلى يوم القيامة . ومن آياته أن من دخله كان آمناً من نهب العرب وقتالهم ، وقد أمن صيده وأشجاره اه .

= وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قال أبو السعود : ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ(١) ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام : رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا(٢) ، وكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُطلب . وعن عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج عنه اهـ .

تنبيه :

ما أفادته الآية من إثبات الأمان لداخله إنما هو بتحريمه الشرعىّ الذى وردت به الآيات ، وأوضحته الأحاديث والآثار . ففى الصحيحين(٣) ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : لا هجرة ، ولـكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال يوم فتح مكة(٤) : إن هـذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لُقَطَتَهُ ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلالها . فقال العباس : يا رسول الله إلّا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلّا الإذخر . ولهما عن أبى هريرة مثله أو نحوه ؛

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . . . أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ـ كتاب الجهاد ، ٢٧ ـ باب وجوب النفير، حديث ٧١٠ ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٠ ـ باب لا يحل القتال بمكة، حديث ٧١٠ .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعتنا) .

ولهما[١]، واللفظ لمسلم أيضاً، عن أبي شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ، ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناى ، ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى ، حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبي شريح : ماقال لك ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك ياأباشريح. إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، ولا فارًّا بدم ، ولا فارًّا بِخَرْبَةٍ[٢] .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد)[٣] : قوله فلا يحل لأحد أن يسفك بها دماً ،هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذى يباح فى غيرها ، ويحرم فيها ، لكونها حرما ، كما أن تحريم عضد الشجرة بها واختلاء خلائها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح فى غيرها ، إذ الجميع فى كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا أنواع :

أحدها :

وهو الذى ساقه أبو شريح العدوى لأجله، أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقاتل لاسيما إن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن الزبير. فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع ، وإنما خالف

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ــ كتاب العلم ، ٣٧ ــ باب ليبلغ العلمَ الشاهدُ الغائبَ ، حديث ٨٩ .

ومسلم فى : ١٥ ــ كتاب الحج ، حديث ٤٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أى بسبب السرقة .

(٣) انظر الجزء الثانى ، صفحة ١٧٧ .

فى ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ، فيقال له : هو لا يعيذ عاصياً من عذاب الله ، ولو لم يُعِذْه من سفك دمه لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين ، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم ، وهو لم يزل يعيذ العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعذ مِقْيَسَ بن صُبَابة وابن خطل ومن سمى معهما لأنه فى تلك الساعة لم يكن حرماً بل حلّا ، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السموات والأرض . وكانت العرب فى جاهليتها ، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه فى الحرم فلا يهيجه ، وكان ذلك بينهم خاصةَ الحرم التى صار بها حرماً . ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبىّ ﷺ أن من الأمة من يتأسى به فى إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه : فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك ، وعلى هذا فمن أتى حدًّا أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم يجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . وذكر عن عبد الله بن عمر أنه قال : لو وجدت فيه قاتل عمر مابدهته . وعن ابن عباس أنه قال : لو لقيت قاتل أبى فى الحرم ماهجته حتى يخرج منه ، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعىّ ولا صحابىّ خلافه . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أهل العراق ، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث . وذهب مالك والشافعىّ إلى أنه يستوفى منه فى الحرم كما يستوفى منه فى الحل ، وهو اختيار ابن المنذر ، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص فى كل مكان وزمان ، وبأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة[1] ، وبما روى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ١٨ ـ باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام ، حديث ٩٣٣ ونصه :
=

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارًّا بدم ولا بخربة ، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس لم يعذه الحرم ، ولم يمنعه من إقامته عليه ، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حدًّا أو قصاصاً لم يعذه الحرم ولم يمنع من إقامته ، فكذلك إذا أتاه خارجه ثم لجأ إليه ، إذ كونه حرماً بالنسبة إلى عصمته لا يختلف بين الأمرين ، وبأنه حيوان أبيح قتله لفساده ، فلم يفترق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم وبين كونه قد أوجب ما أبيح قتله فيه ، كالحية والحدأة والكلب العقور ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال[٢]: خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم. فنبه بقتلهن في الحل والحرم على العلة ـ وهي فسقهن ـ ولم يجعل التجاءهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن ، وكذلك فاسق بنى آدم الذى قد استوجب القتل . قال الأولون : ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ، ولا سيما قوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى ، وإما خبر عن شرعه ودينه الذى شرعه في حرمه ، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ

= عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعلى رأسه المِغْفَر . فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال «اقتلوه».

(١) هذا القول ليس قوله صلى الله عليه وسلم وإنما هو قول عمرو بن سعيد . انظر الحاشية رقم ١ ص ٨٩٨ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ٧ ـ باب ما يقتل المحرم من الدواب ، ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب كلهنّ فاسق يُقتلن في الحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

ومسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعتنا) .

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ[١] . وقوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ[٢] .

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم: من دخله كان آمناً من النار ، وقول بعضهم : كان آمناً من الموت على غير الإسلام ، ونحو ذلك ، فكم ممن دخله وهو فى قعر الجحيم . وأما العمومات الدالة على استيفاء الحدود والقصاص فى كل زمان ومكان فيقال أولا : لا تعرض فى تلك العمومات لزمان الاستيفاء ولا مكانه ، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه ، فإن اللفظ لايدل عليها بوضعه ، ولا بتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها ، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع لم يقل إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك العام ، فلا يقول محَصِّلٌ إن قوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ[٣] . مخصوص بالمنكوحة فى عدتها أو بغير إذن وليّها ، أوبغير شهود ، فهكذا النصوص العامة فى استيفاء الحدود والقصاص لاتعرض فيها لزمنه ولامكانه ولاشرطه ولا مانعه ، ولو قدر تناول اللفظ لذلك لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع ، لئلا يبطل موجبها ، ووجب حمل اللفظ العام على ما عداها كسائر نظائره ، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل والمرضع والمريض الذى يرجى برؤه ، والحال المحرّمة للاستيفاء كشدة المرض أو البرد أو الحر ، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة ؟ وإن قلتم ليس ذلك تخصيصاً بل تقييداً لمطلقها كلنا لكم هذا الصاع

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . . . رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

سواءبسواء . وأما قتل ابن خطل فقد تقدم أنه كان فى وقت الحل ، وإن النبىّ ﷺ قطع الإلحاق ، ونص على أن ذلك من خصائصه ، وقوله ﷺ : وإنما أحلت لى ساعة من نهار، صريح فى أنه إنما أحل له سفك دم حلال فى غير الحرم فى تلك الساعة خاصة ، إذ لو كان حلالًا فى كل وقت ، لم يختص بتلك الساعة ، وهـذا صريح فى أن الدم الحلال فى غيرها حرام فيها ، فيما عدا تلك الساعة . وأما قوله : الحرم لا يعيذ عاصياً ، فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق ، يردّ به حـديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الـكعبىّ هذا الحديث ، كما جاء مبيناً فى الصحيح ، فـكيف يقدم على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأما قولـكم : لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس لم يعـذه الحرم منه ، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد رحمه الله، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونهـا ، ومن فرق قال سفك الدم إما ينصرف إلى القتل ولا يلزم من تحريمه فى الحرم تحريم مادونه ، لأن حرمة النفس أعظم ، والانتهاك بالقتل أشد ، قالوا : ولأن الحد بالجلد أو القطع يجرى مجرى التأديب ، فلم يمنع منه كتأديب السيد عبده . وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها فى ذلك . قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام فى الحرم إلا القتل ، قال : والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرم لم يُقَم عليه الحد حتى يخرج منـه ، قالوا : وحينئذ فنجيبكم بالجواب المركب ، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها فى ذلك فرق مؤثر بطل الإلزام ، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر سوينا بينهما فى الحكم وبطل الاعتراض ، فتحقق بطلانه على التقديرين . قالوا : وأما قولـكم إن الحرم لا يعيذ من هتك فيه الحرمة إذ أتى بما يوجب الحد ، فـكذلك اللاجئ إليه ، فهو جمع بين ما فرق الله ورسوله والصحابة بينهما . فروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : من سرق أو قتل فى الحل ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد . وإن سرق أو قتل فى الحرم أقيم عليه فى الحرم . وذكر الأثرم عن

ابن عباس أيضاً : من أحدث حدثاً فى الحرم أقيم عليه ما أحدث فيه من شىء ، وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل فى الحرم فقال « وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ » . والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه:

أحدها :

أن الجانى فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجناية فيه، بخلاف من جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه معظّم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه ، فقياس أحدهما على الآخر باطل .

الثانى :

أن الجانى فيه بمنزلة المفسد الجانى على بساط الملك فى داره وحرمه ، ومن جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط الملك وحرمه ثم دخل إلى حرمه مستجيراً .

الثالث :

أن الجانى فى الحرم قد هتك حرمة الله سبحانه وحرمة بيته وحرمه فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره .

الرابع :

أنه لو لم يقم الحد على الجناة فى الحرم لعم الفساد وعظم الشر فى حرم الله ، فإن أهل الحرم كغيرهم فى الحاجة إلى صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو لم يشرع الحد فى حق من ارتكب الجرائم فى الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله .

والخامس :

أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتنصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى المتعلق بأستاره، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمه أن يهاج ، بخلاف المقدم على انتهاك حرمته .

فظهر سر الفرق ، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه . وأما قولكم إنه حيوان مفسد فأبيح قتله فى الحل والحرم كالكلب العقور فلا يصح القياس ، فإن الكلب العقور طبعه الأذى ، فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله . وأما الآدمى فالأصل فيه الحرمة وحرمته

عظيمة ، فإنما أبيح لعارض فأشبه الصائل من الحيوانات المباحة من المأ كولات ، فإن الحرم يعصمها ، وأيضا فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب العقور والحية والحدأة كحاجة أهل الحل سواء ، فلو أعاذها الحرم لعظم عليهم الضرر بها ـ انتهى . (من الجزء الثانى من صفحة ١٧٧ إلى صفحة ١٨٠) .

ولما ذكر تعالى فضائل البيت ومناقبه أردفه بذكر إيجاب الحج فقال « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » اللام فى البيت للعهد. وحجه : قصده للزيارة بالنسك المعروف . وكسر الحاء وفتحها لغتان ، وهما قراءتان سبعيتان ، وفى الآية مباحث :

الأول :

فى إعرابها قال أبو السعود فى صدر الآية : جملة من مبتدأ هو « حِجُّ الْبَيْتِ » وخبر هو « لِلَّهِ » وقوله تعالى « عَلَى النَّاسِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار ، والعامل فيه ذلك الاستقرار ، ويجوز أن يكون « عَلَى النَّاسِ » هو الخبر ، و « لِلَّهِ » متعلق بما تعلق به الخبر . ثم قال فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فى محل الخبر على أنه بدل من « النَّاسِ » بدل البعض من الكل مخصص لعمومه، فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف ، أى « من استطاع منهم »، وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع ، فلا حاجة إلى الضمير ، وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، أى هم من استطاع ، وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى.

الثانى :

هذه الآية هى آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل بل هى قوله « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ »[1] ، والأول أظهر . وفى فتح البيان : اللام فى قوله « لِلَّهِ » هى التى يقال لها

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « عَلَى » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل : لفلان عليّ كذا . فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا .

الثالث :

يجب الحج على المكلف في العمر مرة واحدة. بالنص والإجماع ؛ روى الإمام أحمد ومسلم[1] وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت. حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال: ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وروى الإمام أحمد وأبو داود[2] والنسائيّ وغيرهم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأيها الناس ! إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفي كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها. الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

= مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ، حديث ٢٣٠٤ .

وأبو داود في : ١١ ـ كتاب المناسك ، ١ ـ باب فرض الحج ، حديث ١٧٢١ .

الرابع :

استطاعة السبيل عبارة عن إمكان الوصول إليه . قال ابن المنذر : اختلف العلماء فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالت طائفة : الآية على العموم ، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماعا لأهل العلم يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضاً ، فعلى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة ، الحجُّ . على ظاهر الآية. قال : وروينا عن عكرمة أنه قال : الاستطاعة الصحة . وقال الضحاك : إذا كان شابا صحيحاً ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضى نسكه . فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا ، بل ينطلق إليه ولو حبوًا ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . وقال مالك : الاستطاعة على إطاقة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى ، وآخر يقدر على المشى على رجليه . وقالت طائفة : الاستطاعة الزاد والراحلة ، كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل ، واحتجوا بحديث ابن عمر أن رجلًا قال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة ـ رواه الترمذىّ ـ وفى إسناده الخوزى فيه مقال . قال ابن كثير : لكن قد تابعه غيره . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث . ورواه الحاكم من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عزوجل : مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . فقيل : ماالسبيل ؟ قال : الزاد والراحلة ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

الخامس :

قال الإمام ابن القيّم الدمشقىّ رضى الله عنه فى (زاد المعاد) فى سياق هديه صلى الله عليه وسلم فى حجته : لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهى حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر ، واختلف هل حج قبل الهجرة ؟

وروى الترمذيّ(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنـه قال : حج النبيّ ﷺ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر، معها عمرة . قال الترمذيّ : هذا حديث غريب من حديث سفيان . قال : وسألت محمداً ـ يعني البخاريّ ـ عن هذا فلم يعرفه من حديث الثوريّ . وفي رواية : لايعد هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر . وأما قوله تعـالى : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فإنها، وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء . فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة ؟ قيـل : لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وفيـه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية إنمـا نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عمران ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة . ويدل عليـه أن أهل مكة وجدوا فى نفوسهم لما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية . ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنمـا كان فى سنة تسع. وبعث الصدّيقَ يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعليّ رضى الله عنه ، وهذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى :

« وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » إما مستأنف لوعيد من كفر به تعالى، لا تعلق له بمـا قبله، وإما أنه متعلق به ومنتظم معه، وهو أظهر وأبلغ . والـكفر، على هذا، إما بمعنى جحد فريضة الحج ، أو بمعنى ترك ما تقـدم الأمر به . ونظيره فى السنة ما رواه

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٦ ـ باب ماجاء: كَمْ حجَّ النبيُّ ﷺ .

النسائىّ والترمذىّ[١] عن بريدة مرفوعاً : العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر . وعن عبد الله بن شقيق قال[٢] : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة ـ أخرجه الترمذىّ ـ ولأبى داود[٣] عن جابر مرفوعاً : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . ولفظ مسلم[٤] : بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وروى الترمذىّ[٥] عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قال الترمذىّ : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال . وقد روى الحافظ أبو بكر الإسماعيلىّ عن عمر بن الخطاب قال : من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً . قال ابن كثير : إسناده صحيح إلى عمر رضى الله عنه . وروى سعيد بن منصور فى سننه عن الحسن البصرىّ قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار ، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية، ماهم بمسلمين، ماهم بمسلمين. قال السيوطىّ فى (الإكليل): وقد استدل بظاهر الآية ابن حبيب على أن من ترك الحج ، وإن لم ينكره ، كفر . ثم قال : وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر: من كان يجد وهو موسر صحيح ولم يحج، كان سيماه بين عينيه كافر، ثم تلا هذه الآية.

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٥ ـ كتاب الصلاة ، ٨ ـ باب الحكم فى تارك الصلاة .
والترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ٩ ـ باب ما جاء فى ترك الصلاة .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ٩ ـ باب ما جاء فى ترك الصلاة .

(٣) أخرجه أبو داود فى: ٣٩ ـ كتاب السنة، ١٥ ـ باب الدليل على الزيادة والنقصان، حديث ٤٦٧٨ .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٣٤ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٧ ـ كتاب الحج ، ٣ ـ باب ما جاء فى التغليظ فى ترك الحج.

تنبيه :

هـذه الآية الـكريمة حازت من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه ، فمنها الإتيان بـ(اللام وعلى) فى قوله : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ . يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته ؛ ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه (من استطاع إليه سبيلا)، وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما ـ أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له.

والثانى ـ أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين .

ومنها قوله « وَمَنْ كَفَرَ » مكان « من لم يحج » تغليظاً على تارك الحج . ومنها ذكر الاستغناء عنه . وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان . ومنها قوله : عَنِ الْعَالَمِينَ ، ولم يقل: عنه . وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الـكامل ، فـكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه ـ أشار لذلك الزمخشرىّ ـ ثم عنف تعالى كفرة أهـل الـكتاب على عنادهم للحق بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى الدالة على نبوة محمد ﷺ وقوله : « وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ » حال مفيدة لتشديد التوبيخ. وإظهارُ الجلالة فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب . وصيغةُ المبالغة فى (شَهِيدٌ) لتأكيد الوعيد ، وكل ذلك موجب لعدم الاجتراء على ما يأتونه . ثم عقب تعالى الإنـكار عليهم فى ضلالهم توبيخهم فى إضلالهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى عن دينه . وكانوا يحتالون لصدهم عن الإسلام « مَنْ ءَامَنَ » مفعول (تصدون) قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به « تَبْغُونَهَا » على الحذف والإيصال ، أى تبغون لها ، أى لسبيل الله التى هى أقوم السبل « عِوَجًا » أى اعوجاجاً وزيغاً وتحريفاً . قال ابن الأنبارىّ : البغى يقتصر له على مفعول واحدإذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب ، وأريد ههنا : تبغون لها عوجاً ثم أسقطت اللام . كما قالوا : وهبتك درهماً ، أى وهبت لك درهماً ، ومثله صدتك ظبياً ، أى صدت لك ظبياً ، وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليماً أصيدكم أم حمارا

أراد : أصيد لكم .

قال الرازىّ : وفى الآية وجه آخر ، وهوأن يكون (عوجاً) فى موضع الحال. والمعنى تبغونها ضالين ، وذلك أنهم كانوا يدّعون أنهم على دين الله وسبيله ، فقال تعالى: إنكم تبغون سبيل الله ضالين ، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الحذف والإيصال .

وذكر ناصر الدين فى (الانتصاف) وجهاً آخر قال : هو أتم معنى ، وهو أن تجعل الهاء هى المفعول به ، و(عوجاً) حال وقع فيها المصدر الذى هو(عوجاً) موقع الاسم ، وفى هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج. على طريقة المبالغة فى مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ فى ذمهم وتوبيخهم ـ والله أعلم ـ

« وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ » بأنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال « وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى بحسن اعتقادكم فيهم لكونهم أهل الكتاب « يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بالتوحيد والنبوة « كَافِرِينَ » لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ..(١) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ » معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب . والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر ؟ « وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ » وهى القرآن المعجز الذى هو أجلّ من الآيات المتلوّة عليهم « وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ، وقد هداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الجهالة « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى من يتمسك بدينه الحق الذى بيّنه بآياته على لسان رسوله ، وهو الإسلام والتوحيد ، المعبر عنه بسبيل الله ، فهو على هدى لا يضل متبعه . قال الزمخشريّ : ويجوز أن يكون حثًّا لهم على الالتجاء إليه فى دفع شرور الكفار ومكايدهم ـ انتهى ـ فالجملة حينئذ

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : . . . مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تذييل لقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا . . . الخ ، لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف شرورهم ومكايدهم ، فلا تخافوهم ، والتجئوا إلى الله فى دفع ذلك ، لأن من التجأ إليه كفاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » أى حق تقواه ، وذلك بدوام خشيته ظاهراً وباطناً والعمل بموجبها . وقد روى الحافظ ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله ابن مسعود أنه قال فى معنى الآية : هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعاً ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

قال ابن كثير : والأظهر أنه موقوف ـ والله أعلم ـ .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى العبدُ اللهَ حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقال علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : أن يجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم. ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

أقول : كل ما روى ، مما تشمله الآية بعمومها، فلا تنافى .

تنبيه :

زعم بعضهم أن هذه الجملة من الآية منسوخة بآية : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .(١) متأولاً حق تقاته بأن يأتى العبد بكل ما يجب لله ويستحقه . قال : فهذا يعجز العبد عن الوفاء ، فتحصيله ممتنع . وهذا الزعم لم يصب المحزّ ، فإن كلًّا من الآيتين سيق فى معنى خاص به ،

---

(١) [٦٤/التغابن/١٦] ونصها : . . . وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فلا يتصور أن يكون فى هذه الجملة طلب مالا يستطاع من التقوى ، بل المراد منهادوام الإنابة له تعالى وخشيته وعرفان جلاله وعظمته قلباً وقالباً ، كما بينا . وهـذا من المستطاع لـكل منيب . وقوله تعـالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . أمر بعبادته قدر الاستطاعة بلا تـكليف لما لا يطاق ، إذ : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا(١) . وظاهر أن من أتى بما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله ، وأخلص فى أعماله ، وكان مشفقاً فى طاعاته، فقد اتقى الله حق تقاته.

« وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مخلصون نفوسكم لله تعـالى . لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلًا ، كما فى قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ(٢) . وهو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى لا تموتن على حال من الأحوال ، إلا حال تحقق إسلامكم وثباتـكم عليه ، كما ينبىء عنه الجملة الاسمية . ولو قيل (إلا مسلمين) لم يفد فائدتها. والعامل فى الحال ماقبل (إلا) بعد النقض . وظاهر النظم الـكريم ، وإن كان نهياً عن الموت المقيد بقيد ، هو الـكون على أى حال غير حال الإسلام ـ لـكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الـكون على حال الإسلام حينئذ . وحيث كان الخطاب للمؤمنين ، كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت . وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور . فإن النهى عن المقيد فى أمثاله ، نهىٌ عن القيد ورفع له من أصله بالـكلية ، مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد . فإن قولك : لا تصلّ إلا وأنت

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : . . . لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : . . . وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

خاشع ، يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك : لا تترك الخشوع فى الصلاة . لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط ، وذاك نهى عنه وعما يقارنه ، ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة ، وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل . وفيه نوع تحذير عما وراء الموت ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقد مضى فى سورة البقرة الكلام على لون آخر من سر البلاغة فى هذه الجملة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا» الحبل إما بمعنى العهد، كما قال تعالى فى الآية بعدها : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ[١] . أى بعهد وذمة، وإما بمعنى القرآن ، كما فى صحيح مسلم[٢] عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٢] ... وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٦ (طبعتنا) ونصه :
عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سَبْرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم. فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ ، يا زيد ، خيراً كثيراً . رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه ، وغزوتَ معه ، وصليتَ خلفه . لقد لقيتَ ، يا زيد ، خيراً كثيراً . =

ألا وإنى تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة ... الحديث ، والوجهان متقاربان ، فإن عهده أى شرعه ودينه وكتابه حرز للمتمسك به من الضلالة ، كالحبل الذى يتمسك به خشية السقوط ، وقوله « وَلَا تَفَرَّقُوا » أى لاتتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم ، كما اختلف اليهود والنصارى ، أوكما كنتم متفرقين فى الجاهلية ، متدابرين ، يعادى بعضكم بعضاً ، ويحاربه . أو ولا تحدثوا

= حدثنا ، يا زيد ، ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا ابن أخى ، والله ! لقد كبرت سنى ، وقدُم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ . فما حدثتكم فاقبلوا . وما لا ، فلا تكلفونيه .

ثم قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً ، بماء يدعى خُمًّا ، بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر . ثم قال « أما بعد . ألا أيها الناس . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما ، كتاب الله فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغّب فيه . ثم قال « وأهلُ بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى » .

فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده . قال : ومَن هم ؟ قال : هم : آل علىّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفى الحديث رقم ٣٧ قال « ألا وإنى تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله ، هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » .

وفيه : فقلنا له : من هم أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا . وايم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعَصَبَتُه الذين حرموا الصدقة بعده .

ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع والألفة التى أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام ـ أفاده الزمخشرىّ ـ « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » قال الزمخشرىّ : كانوا فى الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام ، وقذف فيها المحبة ، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخواناً متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد ، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة فى الله « وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا » أى طرف « حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » بما كنتم فيه من الجاهلية « فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » أى بالإسلام. قال ابن كثير : وهذا السياق فى شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين فى ذات الله، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى: هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ[1]... الآية ـ وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب كفرهم ، فأنقذهم الله منها ، إذ هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ ، يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم فى القسمة ، بما أراه الله ، فخطبهم فقال[2] : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ ـ انتهى ـ

(١) [٨ / الأنفال /٦٢و٦٣] ونصهما: وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان ، حديث ١٩٣١ ونصه : =

لطيفة :

قال الزمخشري : الضمير في : منها . للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ، وهو منها كما قال[١] :

كما شرقت صدر القناة من الدم ـ انتهى ـ

= عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ ، يوم حنين ، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً . فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس . فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ . قال « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ » قال كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ .

قال « لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا . أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبيّ ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار . ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار . إنكم ستلقون بعدي أُثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

وأخرجه مسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٣٩ (طبعتنا) .

(١) قائله الأعشى . وصدره : وتَشرَق بالقول الذي قد أذعتَه

من قصيدة مطلعها :

ألا قل لِتَيَّا قبل مِرَّتها اسلمى ... تحيـــة مشتاق إليها متيّم

يهجو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان ، حين جمع بينه وبين جَهَنَّام ليهاجيه :

يقول قبل البيت :

لئن كنتَ في جب ثمانين قامة ... ورُقِّيت أسباب السماء بسلَّم

ليستدرجنك القولُ حتى تهرَّه ... وتعلمَ إني عنك لستُ بمُلْجَم

وتشرق بالقول الذي قد أذعتَه ... كما شرقت صدر القناة من الدم =

وقال أبو حيان : لا يحسن عوده إلا إلى الشفا ، لأنه المحدَّث عنه ـ انتهى ـ

وفى الانتصاف : يجوز عود الضمير إلى الحفرة ، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنت إليها ، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التى يمتنُّ بالإنقاذ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالإنقاذ من الشفا ، فلمايستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهُوِىّ إلى الحفرة ، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التى يتوقع الهوىّ فيها . فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علىّ فى(التعاليق) من ضرورة الشعر ، خلاف رأيه فى (الإيضاح) ـ نقله ابن يسعون ـ

وماحمل الزمخشرىَّ على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذى كانوا عليه ، ولم يكونوا فى الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ منها . وقد بينا فى أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإنقاذ من الحفرة ، لأنهم كانو صائرين إليها غالباً ، لولا الإنقاذ الربانىّ . ألا ترى إلى قوله ﷺ(١) : الرائع حول الحمى يوشك أن يواقعه ؟ وإلى قوله تعالى : أَمْ مَنْ أَسَّسَ

= يقول : لئن خرقت الأرض فكنت فى جب ثمانين قامة ، أو طرت فى الفضاء فرقيت أسباب السماء، ليبلغنك قولى وليتركنك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام ، وتعلم أنى غير عاجز عن الانتقام وحتى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم الرمح بالدم .

أسباب السماء : مراقيها ، وقيل طرقها ونواحيها . استدرجه : خدعه وأدناه ، أو أتلفه حتى تركه يدرج على الأرض . تهرّه : تكرهه . تشرق : تغصّ . صدر القناة : أعلاها .

من شرح الديوان للدكتور محمد حسين

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٢ ـ باب الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال النبىّ ﷺ « الحلال بيّن والحرام بيّن =

بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ (١) . وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره فى نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله «هار» . والله أعلم ـ انتهى ـ

ثم قال الزمخشرىّ : وشفا الحفرة وشفتها حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو إلا أنها فى المذكر مقلوبة ، وفى المؤنث محذوفة . ونحو الشفا والشفة ، الجانب والجانبة ـ انتهى.

وحكى الزجاج فى تثنية شفا « شفوان » . قال الأخفش لما لم تجز فيه الإمالة عرف أنه من الواو ، لأن الإمالة من الياء ـ كذا فى الصحاح .

ثم قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا فى النار ، فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار ، بالقعود على حرفها مُشْفِين على الوقوع فيها .

قال الرازىّ : وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع فى الحفرة، إلا ما بين طرف الشىء وبين ذلك الشىء .

« كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك البيان « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ » فى كل مكان لإنقاذكم عن الضلال فيه « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » لرشدكم الدينىّ والدنيوىّ فيه . ثم أشار إلى أنه كما أنقذكم من النار والضلال بإرسال الرسل وإنزال الآيات ، فليكن فيكم من ينقذ إخوانه، فقال:

= وبينهما أمور مشتبهة . فمن ترك ماشبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك . ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصى حمى الله . من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٩] ونصها : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ » أى جماعة ، سميت بذلك لأنها يؤمها فرق الناس ، أى يقصدونها ويقتدون بها « يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » وهو ما فيه صلاح دينىّ ودنيوىّ « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ » أى بكل معروف ، من واجب ومندوب يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » أى عن كل منكر ، من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة « وَأُولَئِكَ » الداعون الآمرون الناهون « هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم .

قال بعضهم : الفلاح هو الظفر وإدراك البغية . فالدنيوىّ هو إدراك السعادة التى تطيب بها الحياة ، والأخروىّ أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعز بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل .

لطيفة :

قيل : عطف : (وَيَأْمُرُونَ) على ماقبله ، من عطف الخاص على العام ـ كذا قاله الزمخشرىّ . وناقشه فى الانتصاف . وعبارته : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لامحالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ(١) . وكقوله : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٢) . وكقوله : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى(٣) . وشبه ذلك . لأن الاقتصار على تخصيص مايفرد بالذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .
(٢) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ... وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

يفيده تميزاً عن غيره من بقية المتناولات . وأما هذه الآية فقد ذكر، بعد العام فيها ، جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعوّ إليه إما فعل مأمور ، أو ترك منهيّ ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقيةِ المتناولات ، فالأَوْلى فى ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عامًّا ثم مفصلًا . وفى تنبيه أن الذكر على وجهين مالا يخفى من العناية ـ والله أعلم ـ إلا أن يثبت عرف بخص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذ ذاك يتم مراد الزمخشرى ، وما أرى هذا العرف ثانياً ـ والله أعلم ـ انتهى .

تنبيه .

فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها ـ كذا فى فتح البيان ـ

قال الغزاليّ رضى الله عنه : فى هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى « وَلْتَكُنْ » أمر . وظاهر الأمرِ الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حَصَرَ وقال: أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين. إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف . بل قال : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ . فإذا ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عمّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

فإن قلت : فمن يباشره؟ فالجواب: كل مسلم تمكن منه ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لايؤثر ، لأنه عبث، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا همّ بضرر غيره منع، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لايتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها ـ ذكره الزمخشريّ ـ .

وتفصيل هذا البحث فى (الإحياء) للغزالى قدس سره، وقد قال ، قدس سره ، فى طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون، إنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل النـاس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلًا بعملها، أو متقلدًا لتنفيذها ، مجددًا لهذه السنة الداثرة ، ناهضاً بأعبائها، ومتشمرًا فى إحيائها ، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود والنصارى فى افتراقهم مذاهب ، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى ، وطاعة النفس، والحسد ، حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، ويدعو إلى ما ابتدعه فى دينه ، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة ، المبينة للحق ، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة ، وهى كلمة الحق . فالنهى متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالةً ، وإلى أعقابهم تبعاً . وفى قوله

تعالى « وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين ، والتشديد فى تهديد المشبهين بهم ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول :

ذكر الفخر الرازىّ من وجوه قوله تعالى : اخْتَلَفُوا . أى بأن صار كل واحد منهم يدّعى أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل . ثم قال : وأقول إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة ، فنسأل الله العفو والرحمة ـ انتهى كلامه ـ وقوله (هذاالزمان) إشارة إلى أن هذا الحال لم يكن فى علماء السلف ، وما زالوا يختلفون فى الفروع وفى الفتاوى بحسب ما قام لديهم من الدليل ، وما أداه إليه اجتهادهم ، ولم يضلل بعضهم بعضاً ، ولم يدّع أحدهم أنه على الصواب الذى لا يحتمل الخطأ، وأن مخالفه على خطأ لا يحتمل الصواب ، وإنما نشأ هذا من جمود المقلدة المتأخرين وتعصبهم وظنهم عصمة مذهبهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ فى البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين ، وهم على وحدتهم وتناصرهم .

الثانى :

قال القاشانىّ : يعنى بـ « الآيات » الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة ، واتفاق الكلمة ، فإن للناس طبائع وغرائز مختلفة ، وأهواء متفرقة ، وعادات وسيراً متفاوتة، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ، ويترتب على ذلك فهوم متباينة ، وأخلاق متعادية ، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام، تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بمحبته وطاعته ، كانوا مهملين متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريدة الغنم ، تكون للذئب . ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : لابد للناس من إمام ، بر أوفاجر. ولم يرسل نبىُّ الله ﷺ رجلين فصاعداً لشأنٍ ، إلا وأمّر أحدهما على الآخر ، وأَمَرَ الآخر بطاعته

ومتابعتــه ، ليتحد الأمر ، وينتظم ، وإلا وقع الهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد . قال رسول الله ﷺ[١] : من فارق الجماعة قيــد شبر لم ير بحبوحة الجنة . وقال[٢] : الله مع الجماعة . ألا ترى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برئاسة القلب ، وطاعة العقل ، كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق ، الموجب لخسار الدنيا والآخرة . ولما نزل قوله تعالى : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، خط رسول الله ﷺ خطًّا فقال[٣] : هــذا سبيل الرشد ، ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ : سترون بعدى أموراً تنكرونها ، حديث ٢٥٤٦ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن، ٧ ـ باب ماجاء فى لزوم الجماعة، ونصه: عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يجمع أمتى ، (أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم) على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذّ شذّ إلى النار » .

(٣) أخرجه الدارميّ فى : المقدمة ، ٢٣ ـ باب فى كراهية أخذ الرأى ونصه :

عن عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطًّا ثم قال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » .

ثم تلا : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

الثالث :

قال شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية، قدس سره، في أول كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) : وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته ، دقيقٍ ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا الرسول ﷺ . ولكن إذا وجد لواحدمنهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلابد له من عذر في تركه ، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها ـ عدم اعتقاده أن النبيّ ﷺ قاله ،

الثاني ـ عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ،

الثالث ـ اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة ـ ثم أوسع المقال في ذلك ـ .

وذكر قدس سره، في بعض فتاويه ، أن السلف والأئمة الأربعة والجمهور يقولون: الأدلة بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر . وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى . فإذا رأى دليلًا أقوى من غيره ، ولم ير ما يعارضه ، عمل به ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه ، فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطىء ، بل كل مجتهد مصيب ، مطيع لله ، فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر ، فالمصيب واحد ، وله أجران . كما في المجتهدين في جهة الكعبة ، إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة واحد ، وله أجران لاجتهاده وعمله ،

كان أكمل من غيره ، والمؤمن[(١)] القوىّ أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده الله أجرا بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[(٢)]. قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال فى قصة يوسف : مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ[(٣)] . وقد تبين بذلك أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجلّ العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً[(٤)] . وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال، فى الأصول والفروع.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلٍّ خير . احرص على ماينفعك واستعن بالله . ولاتعجز. وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا . ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٣] .

(٣) [١٢/ يوسف /٧٦] ونصها: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٧٨و٧٩] ونصهما : . . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

ثم قال : وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام . ولم يستوعب الحقَّ إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه ، وهؤلاء هم أهل المرحمة الذين لا يختلفون ـ انتهى .

فعلم أن اختلاف الصحابة والتابعين والمجتهدين في الفروع ليس مما تشمله الآية ، فإن المراد منها الاختلاف عن الحق، بعد وضوحه، برفضه ، وشتان ما بين الاختلافين . ثم على طالب الحق أن يستعمل نظره فيما يؤثر من هذه الخلافيات ، فما وجده أقوى دليلا أخذ به ، وإلا تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ[1] . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه ، فليدعُ بما رواه مسلم[2] في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ـ إذا قام يصلى من الليل ـ اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم. فإن الله تعالى قال فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] : ياعبادى كلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدونى أهدكم ـ انتهى .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ١٧و١٨] ونصهما : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٥ (طبعتنا) وها كموه بجملته :

عن أبي ذر ، عن النبيّ ﷺ ، فيما رَوَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادى ! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما . فلا تظالموا . يا عبادى ! كلكم ضال =

الرابع :

ذكر بعض المفسرين ، هنا ، ما روى من حديث (اختلاف أمتى رحمة) ، ولا يعرف له سند صحيح ، ورواه الطبرانىّ والبيهقىّ فى (المدخل) بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . قال بعض المحققين : هو مخالف لنصوص الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ[1] . ونحوه قوله ﷺ : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم[2] وغيره من الأحاديث الكثيرة . والذى يقطع به أن الاتفاق خير من الخلاف ـ انتهى ـ

= إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم. ياعبادى ! كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم . يا عبادى! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فاستغفرونى أغفر لكم . ياعبادى ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ! إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(١) [١١ / هود / ١١٨ و ١١٩] ونصهما : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٢٢ (طبعتنا) .

عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول =

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود[(١)] بسندهما عن أبي عامر عبدالله بن يحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة . وأنه سيخرج في أمتي أقوام تجَارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه. لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ؛ والله ! يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء نبيكم ﷺ لَغَيْرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به . قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث من طرق ـ انتهى ـ

نبذة في مبدأ الاختلاف في هذه الأمة من أهل الأهواء :

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب (الفرقان بين الحق والباطل) أن المسلمين كانوا في خلافة أبي بكر وعمر ، وصدراً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لاتنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان. ولما اقتتل المسلمون بصِفِّين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين . وحَدَثَ في أيامه الشيعة أيضاً ، لكن كانوا مختفين بقولهم لايظهرونه لعليّ وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف :

= « استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم . ليلني منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، بالصفحة ١٠٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .
وأبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١ ـ باب في شرح السنة ، حديث ٤٥٩٧ .
ونصه هنا عن المسند .

طائفة : تقول إنه إله ، وهؤلاء ، لما ظهر عليهم ، أحرقهم بالنار ؛

والثانية : السابة وكان قد بلغه عن أبي السودا أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه . قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه ؛

والثالثة : المفضِّلة الذين يفضلونه على الشيخين ، وقدتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . وروى ذلك البخاريّ في صحيحه .

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، ثم حدثت المرجئة . ثم قال : وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام : منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج . ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه ، كعبد الله ابنه ، ونحوه ، وكالخلّال ، وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما ، وكأبي الفرج المقدسيّ . وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظوا البدع . وكالبخاريّ في صحيحه ، فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ثم قال قدس سره : إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان ، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، وعمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم ، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك. ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر إلى غير ذلك ؛ والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه من الاحتجاج بها. ثم قال قدس سره : فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل

ينظر ماقال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، كما كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين . فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يوسوس ديناً غير ما جاء به الرسول . وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وقال قدس سره فى رسالته إلى جماعة الشيخ عدىّ بن مسافر ما نصه : وهـذا التفريق الذى حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذى أوجب تسلط الأعـداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١) فمتى ترك الناس بعض ماأمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب، وجماع ذلك فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . إلى قوله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢) . فمن الأمر بالمعروف الأمرُ بالائتلاف والاجتماع والنهى عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهى عن المنكر إقامةُ الحدود على من خرج من شريعة الله تعـالى . ثم قال : ويجب على أولى الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوّموا عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

وقوله تعالى :

(١) [٥ / المائدة / ١٤] .
(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٢ـ١٠٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » أى تبيض وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين لاتباعها الدين الحق الذى هو النور الساطع . وتسودّ وجوه كثيرة ، وهى وجوه الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، لاتباعها الضلالات المظلمة ، وليستدل بذلك على إيمانهم وكفرهم ، فيجازى كل بمقتضى حاله . وهذه الآية لها نظائر ، منها قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ(١) . ومنها قوله تعالى : وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٢) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٣) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٤) . ومنها : تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ(٥) . إلى غير ذلك . وللمفسرين فى هذا البياض والنضرة والغبرة والقترة وجهان :

أحدها : أن البياض مجاز عن الفرح والسرور . والسواد عن الغم . وهذا مجاز مستعمل ، قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٦) . ويقال : لفلان عندى يد بيضاء ، أى جلية سارة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٠] .

(٢) [١٠ / يونس / ٢٦] ونصها : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣٨ـ٤١] .

(٤) [٧٥ / القيامة / ٢٢ـ٢٥] .

(٥) [٨٣ / المطففين/ ٢٤] . (٦) [١٦ / النحل / ٥٨] .

وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ، ومعناه الاستبشار والتهلل . وعند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذى بيض وجهك . ويقال لمن وصل إليه مكروه : اربدّ وجهه واغبرّ لونه ، وتبدلت صورته . فعلى هذا معنى الآية : إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه ، فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك ، إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسودّ وجهه بمعنى شدة الحزن والغم ، وهذا قول أبى مسلم الأصفهانىّ .

والوجه الثانى : أن هذا البياض والسواد يحصلان فى وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه . ولأبى مسلم أن يقول الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (١). فجعل الغبرة والقترة فى مقابلة الضحك والاستبشار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلاً له ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ـ أفاده الرازىّ ـ

لطيفة :

(يوم) منصوب إما مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيراً لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات، وترغيباً فى الاتفاق على التمسك بالدين. أى اذكروا يوم...الخ أو ظرف للاستقرار فى (لهم) أو لـ (عظيم) أو لـ(عذاب) .

« فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً ، وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع مافيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال، وقوله تعالى : أَكَفَرْتُمْ

(١) [٨٠ / عبس / ٣٨ـ٤١] .

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . على إرادة القول ، أى فيقال لهم ذلك ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ـ أفاده أبو السعود ـ والمعنى : أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان ، وهو الدلائل التى نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة ، وما يناجيكم به وجدانكم من صدق هذه الدعوى وحقيتها وشهادته بصحتها ، كما قال تعالى فيما قبل هذه الآية : يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ(١) : فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢) . فقوله تعالى هنا : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، محمول على ما ذكر ، حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وهى عامة فى حق كل الكفار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » المراد برحمة الله الجنة ، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ)

« تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » الإشارة إلى ما تقدم من الوعد والوعيد « وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ » أى لا يشاء أن يظلم عباده ، فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد فى عقاب مجرم ، أو ينقص من ثواب محسن . قال الرازىّ : إنما حسن ذكر الظلم ههنا

(١) [٣ / آل عمران / ٧٠] .
(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٥] .

لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك ، وقال : إنهم ما وقعوا فيه إلا لسبب أفعالهم المنكرة ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلّب . وقال أبو السعود : وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ، كما في قوله تعالى: إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أي له تعالى وحده، من غير شركة، ما فيهما من المخلوقات ملكاً وخلقاً إحياءً وإماتةً وإثابةً وتعذيباً « وَإِلَى اللهِ » أي إلى حكمه وقضائه « تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أي أمورهم فيجازي كُلًّا منهم بما وعده وأوعده ، فلا داعي له إلى الظلم ؟ لأنه غنيّ عن كل شيء ، وقادر على كل شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق ، والدعوة إلى الخير ، و « كنتم » من (كان) التامة ، والمعنى وجدتم وخلقتم خير أمة ، أو (الناقصة) والمعنى كنتم في علم الله خير أمة ، أو في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة و « أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » صفة لأمة ، واللام متعلقة بـ « أخرجت » ، أي أظهرت لهم حتى تميزت وعرفت ، وفصل بينها وبين غيرها .

(١) [١٠ / يونس / ٤٤].

ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعه لغيرهم بقوله « تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » فبهذه الصفات فضلوا على غيرهم ممن قال تعالى فيهم : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[١] . وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ[٢]. قال أبو السعود : وتؤمنون بالله أى إيماناً متعلقاً بكل مايجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء . وإنما لم يصرح به تفصيلاً لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون، وللإيذان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة ، وأن ماخلا عن شيء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى فى شيء . قال تعالى : وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا[٢] وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة ، لأن دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به ما بعده ـ انتهى ـ روى ابن جرير[٣] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى من الناس رِعَةً[٤] ، فقرأ هذه الآية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد

(١) [٥ / المائدة/ ٧٩] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٠و١٥١] ونصهما: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(٣) الأثر ٧٦١٢ من تفسيره (طبعة المعارف) .

(٤) رِعَةً . أصلها من الوَرَع . مثل (العدة) من الوعد . والرعة : الهدى وسوء الهيئة أو حسن الهيئة . أو هى بمعنى الشأن والأمر والأدب . وفى حديث الحسن : ازدحموا عليه فرأى منهم رعة سيئة . فقال : اللهم إليك . يريد بالرعة ههنا الاحتشام والكف عن سوء الأدب ، أى لم يحسنوا ذلك .

شرط الله فيها . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، أي خياراً، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (١) ، أي بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد روى فى معنى الآية عن النبيّ ﷺ أحاديث وافرة ، منها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذيّ(٢) والحاكم عن معاوية بن حيدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل . قال ابن كثير : وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذيّ . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد ونحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يُعْطَهُ نبيّ قبله ، ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وساق طرقه ومخرجيه فأجاد رحمه الله تعالى . « وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى بما أنزل على محمد ﷺ « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى مما هم عليه ، إشارة إلى تسفيه أحلامهم فى وقوفهم مع ما منعهم عن الإيمان من العوض القليل الفانى والرياسة التافهة ، وتركهم الغنى الدائم ، والعز الباهر . ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال مستأنفاً « مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ » أى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ولكنهم قليل « وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة ، خفف سبحانه عن أوليائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ)

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى» أى بألسنتهم لايبالى به من طعن وتهديد «وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ»

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ حدثنا عبد بن حميد.

أى يوماً من الأيام « يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ » يعنى منهزمين مخذولين « ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » يعنى لا يكون لهم النصر عليكم ، بل تنصرون عليهم . وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً؟ لم يقاتلوا فى موطن إلا كانوا كذلك . قال ابن كثير : فإنهم يوم خيبر أذلهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين. ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم، وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام ـ اهـ .

لطائف :

قال الزمخشرىّ :

فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله (ثم لا ينصرون) ؟

قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟

قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقاً كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر .

فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟

قلت: جملة الشرط والجزاء. كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا. ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فما معنى التراخى فى (ثم) ؟

قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار .

قال الناصر بن المنير : وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ، ويزيد هذا الترقي بدخول (ثم) دون (الواو) ، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة لا في الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان ، وأسمح في رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة ـ والله أعلم ـ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ » أي أحيط بهم الهوان والصغار كما يحيط البيت المضروب بساكنه أينما وجدوا ، وقوله : إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ . في محل النصب على الحال . بتقدير : إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله ، وهو استثناء من أعمّ عام الأحوال ، والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال، إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس ، يعني ذمة الله وذمة المسلمين ، أي لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ـ كذا في الكشاف ـ « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » أي استوجبوه « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ » أي الفقر ليكونوا بهذه الأوصاف أعرق شيء في الذل « ذَٰلِكَ » أي ضربت المسكنة والذلة والغضب « بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ » أي استكبارًا وعتوًّا « وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ »

أى الآتين من عند الله حقاً. ولما كانوا معصومين ديناً ودنيا قال « بِغَيْرِ حَقٍّ » أى يبيح القتل « ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة ، كما هو معلل بكفرهم وقتلهم الأنبياء ، فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل : ذلك إشارة إلى علة العلة ، وهو الكفر والقتل ، أى حصلا منهم بسبب عصيانهم واعتدائهم ، فإن الإقدام على المعاصى ، والاستهانة بمجاوزة الحدود يهوّن الكفر . قال الأصفهانىّ : قال أرباب المعاملات : من ابتلى بترك الآداب ، وقع فى ترك السنن. ومن ابتلى بترك السنن ، وقع فى ترك الفرائض . ومن ابتلى بترك الفرائض ، وقع فى استحقار الشريعة . ومن ابتلى بذلك ، وقع فى الكفر .

قال برهان الدين البقاعىّ رحمه الله تعالى : والآية دليل على مؤاخذة الابن الراضى بذنب الأب وإن علا . وذلك طبق ما رأيته فى ترجمة التوراة التى بين أيديهم ، لأنه قال فى السفر الثانى : وقال الله جميع هذه الآيات كلها أنا الرب إلهك الذى أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكون لك آلهة لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التى مما فى السماء فوق وفى الأرض من تحت ومما فى الماء أسفل الأرض لا تسجدن لها ولا تعبدنها لأنى أنا الرب إلهك غيور آخذ الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأحبارى وحافظى وصاياى ـ انتهى ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

« لَيْسُوا سَوَاءً » جملة مستأنفة سيقت تمهيداً للثناء على من أقبل على الحق من أهل الكتاب وخلع الباطل ولم يراع سلفاً ولا خلفاً ، وتذكيراً لقوله تعالى : مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ . أى ليس أهل الكتاب متساوين ومتشاركين فى المساوىء . ثم استأنف قوله بياناً لعدم

استوائهم « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ».

في قوله تعالى « قَائِمَةٌ » وجوه :

الأول ـ أنها قائمة في الصلاة ، وعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(١) . وقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ (٢) . وقوله : قُمِ اللَّيْلَ (٣) . وقوله : وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ(٤) .

والثاني ـ أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له ، غير مضطرب في التمسك به ، كقوله : إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا(٥) أي ملازماً للاقتضاء ، ثابتاً على المطالبة . ومنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٢٠] ونصها : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَلَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٧٣ / المزمل / ٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ونصها : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى : قَآئِماً بِالْقِسْطِ[١] .

الثالث ـ أنها مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام ، بمعنى استقام . والآناء الأوقات واحدها (إنا) مثل (معى) و (أمعاء) و (إنْى) مثل (نِحْى) و (أنحاء) وقوله تعـالى « وَهُمْ يَسْجُدُونَ » جملة مستقلة مستأنفة ، وليست حالا من فاعل « يتلون » لما صح فى السنة من النهى عن التلاوة فى السجود ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أوساجدا، فأماالركوع فعظموا فيه الرب ، وأماالسجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لـكم[٢] .فمعنى الآية أنهم يقومون تاره ويسجدون أخرى ، يبتغون الفضل والرحمة كقوله تعالى: وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَاماً[٣] .وقوله : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ[٤] .ويحتمل أن يكون المعنى : وهم يصـلون ، والصلاة تسمى سجودا وسجدة كما تسمى ركوعا وركعة وتسبيحاً وتسبيحة . وعليه فالجملة يجوز فيها الوجهان ، وتـكرير الإسناد لتقوية الحـكم وتأكيده . ثم وصفهم تعالى بصفات أخر ، مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْـكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » أى على الوجه الذى نطق به الشرع . وظاهر أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله . والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِـكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَـكِيمُ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] . (٤) [٣٩ / الزمر / ٧] .

المعاصي ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ، ولا يحترزون عن معاصي الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » تعريض بمداهنة اليهود في الاحتساب ، بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله ، فإنه أمر بالمنكر ونهي عن المعروف ، وقوله تعالى « وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير . والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه . وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها ، بل بمبادرتهم إلى الشرور « وَأُولَٰئِكَ » أي المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة « مِنَ الصَّالِحِينَ » أي من عداد من صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه . والوصف بالصلاح دالّ على أكمل الدرجات . فهو غاية المدح ، ولذا وصفت به الأنبياء في التنزيل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ » أي لن يعدموا ثوابه . وإيثار صيغة المجهول للجري على سنن الكبرياء . وقرئ الفعلان بالخطاب « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » فيوفيهم أجورهم . وهؤلاء الموصوفون هم المذكورون في آخر السورة : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية[١].

تنبيه :

قال البقاعيّ : أرشد السياق إلى أن التقدير : وأكثرهم ليسوا بهذه الصفات . وقال الرازيّ : لما قال تعالى : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ . كان تمام الكلام أن يقال : وَمِنْهُمْ

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ . إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر . وتحقيقه : أن الضدين يُعلمان معاً . فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر ، قال أبو ذؤيب(١) :

دعاني إليها القلب . إني لأمره مطيع . فما أدرى أرشدٌ طِلَابُها

أراد أم غيّ ، فاكتفى بذكر الرشد عن الغيّ ، وهذا قول الفراء وابن الأنباريّ. وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأن ذكرها قد جرى قبل ، ولأنا قد ذكرنا أن العلم بالضدين معاً ، فذكرُ أحدهما مغن عن ذكر الآخر . كما يقال زيد وعمرو لا يستويان، زيد عاقل ديّن ذكي ، فيغني هذا عن أن يقال : وعمرو ليس كذلك . فكذا هنا . لما تقدم قوله: ليسوا سواء. أغنى عن ذلك الإضمار ـ انتهى ملخصا ـ أقول : لا مانع من كون الآية الآتية هي الشق الثاني المقابل للأول . فإن عنوان الذين كفروا مقابل بمفهومه لما قبله كما لا يخفى ـ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ » أي لن تدفع عنهم « أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

---

(١) من قصيدته التي أولها :

أبا الصُّرم من أسماء حدثك الذي جرى بيننا يوم استقلت ركابُها

في الديوان (عصاني إليها) وفسرها بقوله : أي خطر إليها قلبي وذهب إليها ، فما أدري أرشد الذي وقعتُ فيه أم غيّ .

وعبارة الأصمعيّ : جعل لا يقبل مني . أي ذهب إليها قلبي سفها . وهي أوضح في معنى العصيان من عبارة الشارح هنا .

مِنَ اللهِ شَيْئًا » أى من عذاب الله ، وإن كان التصدق بالأموال يطفىء غضب الرب فى حق المؤمنين ، ويغفر لهم بموت أولادهم ، أو استغفارهم « وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ولما بين تعالى أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوها فى وجوه الخيرات ، فيخطر فى البال أنهم ينتفعون بها ، فأزال تلك الشبهة ، وضرب لها مثلا يذهابها هباءً منثوراً بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » من المكارم ويواسون فيه من المغارم « كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ » أى برد شديد كالصرصر «أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بالكفر والمعاصى فباؤوا بغضب من الله « فَأَهْلَكَتْهُ » فكذا ريح الكفر إذا أصابت حرث إنفاق قومه تهلكه . فصار الظلم ريحاً لحصوله من هوى النفس ذات برودة شديدة لكونه ظلم الكفر الذى هو الموت المعنوىّ فأهلكته ـ قاله المهايمىّ ـ « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ » بإهلاك حرثهم بإرسال ريح من عنده « وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » بإرسال ريح الظلم الكفرىّ على حرثهم الأخروىّ .

لطائف :

إن قيل : الغرض تشبيه (ما أنفقوا) فى ضياعه، بالحرث الذى ضربته الصر ، وقد جعل ما ينفقون ممثلًا بالريح ، فما وجه المطابقة للغرض ؟ أجيب : بأن هذا من التشبيه المركب وهو ماحصلت فيه المشابهة بين ماهو المقصود من الجملتين ، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزائهما، والمقصود تشبيه الحال بالحال ؛ ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مُهْلِكِ ريح فتحصل المشابهة .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : والأقرب أن يقال أصل الكلام ـ والله أعلم ـ مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة . وهو تقديم ما هو أهم . لأن الريح التى هى مثل العذاب ، ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقدمت عناية بذكرها ، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هـذا ، فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة ، قوله تعالى : فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا . . .[1] الآية . ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه ، والأصل : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت . وأن أدعم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة والله الموفق .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ، ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » أي أصحاباً يستبطنون أمركم من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون . قال الزمخشري : بطانة الرجل ووليجته خصيصه وصفيّه الذي يفضي إليه بشُقُوره ثقةً به. شبّه ببطانة الثوب . كما يقال : فلان شعاري ـ انتهى ـ ومن أمثال العرب في سرار الرجل إلى أخيه ما يستره عن غيره : أفضيت إليه بشقوري ـ بضم الشين وقد تفتح ـ أي أخبرته بأمري ، وأطلعته على ما أسره من غيره . وفي القاموس وشرحه : البطانة الصاحب للسر الذي يشاور في الأحوال ، والوليجة وهو الذي يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر . وقال الزجاج : البطانة الدخلاء الذين ينبسط إليهم ويستبطنون ، يقال : فلان بطانة لفلان أي مداخل له موانس . وهؤلاء المنهي عنهم ، إما أهل الكتاب ، كما رواه ابن جرير وابن إسحق عن ابن عباس : أنهم اليهود . وذلك لأن السياق في السورة ، والسباق معهم . وقد كان بين الأنصار وبين مجاوريهم من اليهود ما هو معروف من سابق الرضاع والحلف. وإما المنافقون لقوله بعد : وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا[١] ...الخ. وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى في سورة البقرة : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ[٢] ... الخ ـ وربما كان يغتر بعض المؤمنين بظاهر أقوال المنافقين

(١) [٣ / آل عمران / ١١٩] ونصها : هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

ويظنون أنهم صادقون فيفشون إليهم الأسرار . وإما جميع أصناف الكفار وقوفاً مع عموم قوله تعالى « مِنْ دُونِكُمْ » كما قال تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ(١) . ومما يؤكد ذلك مارواه ابن أبي حاتم أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة نصرانياً ، حافظ كاتب . فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال : قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين .

قال الرازيّ : فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي من اتخاذ النصرانيّ بطانة .

وقال الحافظ ابن كثير : في هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب .

وقال السيوطيّ في (الإكليل) : قال الكيا الهراسيّ : في الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في شيء من أمور المسلمين ـ انتهى ـ

ووجه ذلك ، كما قال القاشانيّ ، أن بطانة الرجل صفيه وخليصه الذي يبطنه ويطلع على أسراره ، ولا يمكن وجود مثل هذا الصديق إلا إذا اتحدا في المقصد واتفقا في الدين والصفة ، متحابين في الله لا لغرض . كما قيل في الأصدقاء : نفس واحدة في أبدان متفرقة . فإذا كان من غير أهل الإيمان ، فبأن يكون كاشحاً أحرى . ثم بيّن نفاقهم واستبطانهم العداوة

---

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

بقوله : « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » أى لا يقصرون بكم فى الفساد . قال القاشانىّ : لأن المحبة الحقيقية الخالصة لا تكون إلا بين الموحدين لكونها ظل الوحدة . فلا تكون فى غيرهم لكونهم فى عالم التضادّ . بل ربما تتألفهم الجنسية العامة الإنسانية لاشتراكهم فى النوع والمنافع والملاذ واحتياجهم إلى التعاون فيها . والمنافعُ الدنيوية واللذات النفسانية سريعة الانقضاء فلا تدوم المحبة عليها . بخلاف المحبة الأولى فإنها مستندة إلى أمر لا تغير فيه أصلًا .

قال الزمخشرىّ : يقال : ألَا فى الأمر ، يألو : إذا قصر فيه . ثم استعمل معدّى إلى مفعولين . فى قولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهدًا ، على التضمين . والمعنى : لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه . والخبال الفساد « وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » أى عَنَتَكُمْ ، على أن (ما) مصدرية ، والعنت شدة الضرر والمشقة ، أى تمَنَّوْا ما يهلككم « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى ظهر البغض الباطن حتى خرج من أفواههم لأنهم لا يتمالكون ، مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها ، أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين . وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان « وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » مما ظهر . لأن ظهوره ليس عن روية واختيار بل فلتة . ومِثْلُهُ يكون قليلا « قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ » الدالة على سوء اتخاذكم إياهم بطانة لتمتنعوا منها فتخلصوا فى الدين وتوالوا المؤمنين وتعادوا الكافرين « إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى من أهل العقل . أو تعقلون ما بيّن لكم فعملتم به . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف موقع هذه الجمل ؟ قلت : يجوز أن يكون (لا يألونكم) صفة للبطانة . وكذلك (قد بدت البغضاء) . كأنه قيل : بطانة غير آليكم خبالا ، بادية بغضاؤهم . وأما (قد بينا) فكلام مبتدأ . وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة . ثم بيّن تعالى خطأهم فى موالاتهم حيث يبذلونها لأهل البغضاء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ » أى تخالطونهم وتفشون إليهم أسراركم ولا يفعلون مثل ذلك بكم. وقوله « وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » الواو للحال وهى منتصبة من ضمير المفعول فى (لا يحبونكم) والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فلا تنكرون منه شيئاً، فليس فيكم مايوجب بغضهم لكم. فما بالكم تحبونهم وهم يكفرون بكتابكم كله ؟

ولم تجعل الواو للعطف على (ولا يحبونكم) أو (تحبونهم) كما ارتضاه أبو حيان لأنه فى معرض التخطئة . ولا كذلك الإيمان بالكتاب فإنه محض الصواب . وإن اعتذر له بأن المعنى : يجمعون بين محبة الكفار والإيمان وهما لا يجتمعان ، لبعده . والحالية مقررة للخطأ فتأمل ، نقله الخفاجىّ .

قال الزمخشرىّ : فيه توبيخ شديد بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم . ونحوه : فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ(١) . « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا » نفاقاً وتغريراً « وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » أى من أجله ، تأسفاً وتحسراً . حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا . وعضُّ الأنامل عادةُ النادم العاجز والمغتاظ إذا عظم حزنه على فوات مطلوبه . ولما كثر هذا الفعل من الغضبان صار ذلك كناية عن

(١) [٤/ النساء/ ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَالَا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

الغضب . حتى يقال فى الغضبان : إنه يعض يده غيظاً ، وإن لم يكن هناك عض « قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ » دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به . والمراد بزيادة الغيظ زيادة مايغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله . وما لهم فى ذلك من الذل والخزى والتبار . كذا فى الكشاف « إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » فيعلم ما فى صدورهم من البغضاء والحنق . وهو يحتمل أن يكون من (المقول) أى وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً . وأن يكون خارجاً عنه بمعنى: قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطْلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم . وقيل : هو أمر لرسول الله ﷺ بطيب النفس ، وقوة الرجاء ، والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمت قول . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ ثم بين تعالى تناهى عداوتهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ » بظهوركم على العدوّ ، ونيلكم الغنيمة ، وخصب معاشكم، وتتابع الناس فى دينكم « تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ » بإصابة العدوّ منكم ، أو اختلاف بينكم ، أو جدب أو بلية « يَفْرَحُوا بِهَا » ولا يعلمون ما لله تعالى فى ذلك من الحكمة .

لطيفة :

المس أصله باليد ، ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء مسًّا . والتعبير به فى جانب الحسنة ، وبالإصابة فى جانب السيئة للتفنن . وقد سوى بينهما فى غير هذا الموضع كقوله : إِنْ تُصِبْكَ

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ(١) . وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ(٢) . وقال : إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(٣) .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : يمكن أن يقال : المس أقل تمكناً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكأن الكلام ـ والله أعلم ـ إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها . وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذى يرثى الشامت عنده منها ، فهم لا يرثون لكم ولا ينفكّون عن حسدهم ، ولا فى هذه الحال . بل يفرحون ويسرون . والله أعلم ـ انتهى ـ

وهذا من أسرار بلاغة التنزيل . فدل التعبير على إفراطهم فى السرور والحزن . فإذا ساءهم أقل خيرنا ، فغيره أولى . وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثى له الشامت فهم لا يرجى موالاتهم أصلًا . فكيف تتخذونهم بطانة ؟ . قال البقاعىّ : ولما كان هذا الأمر منكياً غائظاً مؤلماً داواهم بالإشارة إلى النصر بشرط التقوى والصبر فقال : « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا » أى تصبروا على ما يبتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب وتثبتوا على الطاعة وتنفوا الاستعانة بهم فى أموركم والالتجاء إلى ولايتهم « لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه ، المستعين به لا بغيره : ظافر فى طلبته ، غالب على خصمه ، محفوظ بحسن كلاءة ربه . والمستعين بغيره : مخذول موكول إلى نفسه ، محروم عن نصرة ربه . أفاده القاشانىّ .

---

(١) [٩ / التوبة / ٥٠] ونصها : إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا .

(٣) [٧٠ / المعارج / ٢٠و٢١] .

وقيل : المراد بنفى الضرر عـدم المبالاة به ، لأن المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال ، جريئاً على الخصم . و (الـكيد) الاحتيال على إيقاع الغير فى مكروه « إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » قرىء بياء الغيبة ، على معنى أنه عالم بمـا يعملون فى معاداتـكم من الـكيد فيعاقبهم عليه . وبتاء الخطاب ، أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

تنبيه مهم :

قال الرازىّ : إطلاق لفظ (المحيط) على الله مجـاز ، لأن المحيط بالشىء هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لـكنه تعالى لما كان عالمـاً بكل الأشياء ، قادراً على كل الممكنات ، جَازَ فى مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله : وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ(١) . ـ انتهى ـ

أقول : ما ذكره شبهة جهمية مبناها قياس صفة القـديم على الحوادث ، وأخذ خاصتها به ، وهو قياس مع الفارق . والسمعيات تتلقى من عرف المتـكلم بالخطاب ، لا من الوضع المحدث . فليس لأحد أن يجعل الألفاظ التى جاءت فى القرآن موضوعة لمعانى ، ثم يريد أن يفسر مراد الله تعالى بتلك المعانى . وتتمة هـذا البحث تقدمت فى تفسير (الرحمن الرحيم) من البسملة أول التنزيل الجليل . فارجع إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِذْ غَدَوْتَ » أى خرجت « مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أى تنزل « الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ » أى أماكن ومراكز يقفون فيها « لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ذهب الجمهور وعلماء المغازى إلى أن هذه الآيه نزلت فى وقعة أُحُد ، والسر فى سوق هذه الوقعة الأُحُدِيَّة وإيلائها البدرية ،

(١) [٨٥ / البروج / ٢٠] .

هو تقرير ما سبق . فإن المدعى فيما قبلها المساءة بالحسنة والمسرة بالمصيبة وسنة الله تعالى فيهم فى باب النصر والمعونة ودفع مضار العدوّ ، إذا هم صبروا واتقوا ، والتغيير إذا غيروا . أى اذكر لهم ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين لم يصبروا فى أُحُد ، فأصيبوا وسرّت الأعداء مصيبتكُم ، وحين صبروا واتبعوا فنُصِروا وساء العدوَّ نصرُهم . وفى توجيه الخطاب إليه ﷺ تهييج لغيره إلى تدقيق النظر واتباع الدليل ، من غير أدنى وقوف مع المألوف ـ كذا يستفاد من تفسير البقاعىّ ـ .

وهذه الآية هى افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير فى هذه السورة إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى هذه الوقعة ، كما سيذكر ، وكانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، وجاءوا إلى أطراف المدينة فى غزوة السَّويق ، ولم ينل ما فى نفسه ، أخذ يؤلّب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش . وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا ليحاموا عنهن . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريباً من جبل أُحُد ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه : أيخرج إليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت ، ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أُبىّ ، وكان هو الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، فنهض ودخل بيته ، ولبس لَأْمَتَهُ ، وخرج عليهم وقد انثنى عزم أولئك الملحّين، وقالوا : أكْرَهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج . فقالوا : يارسول الله إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى لنبىّ ، إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين فى المدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وهو بالمدينة : رأى أن فى سيفه ثلمة ، ورأى أن بقرا تذبح ، وأنه أدخل يده فى درع حصينة. فتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة . فخرج يوم الجمعة ! فلما صار بالشَّوْط ، بين المدينة وأُحُد ، انخزل عنه عبد الله بن أُبيّ فى ثلث الناس ، مغاضباً لمخالفة رأيه فى المقام . فتبعهم عبد الله بن عمرو ، والد جابر ، يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبّهم ، وسأل النبيَّ صلى الله علية وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود فأبى ، وسلك حَرَّة بنى حارثة ، ومر بين الحوائط ، وأبو خيثمة من بنى حارثة يدل به ، حتى نزل الشعب من أُحُد مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبّى للقتال وهو فى سبعمائة. فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير . وأَمَرَه وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر. وكانوا خلف الجيش . وأمَرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم . وظاهَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يومئذ ، وأعطى اللواءَ مصعبَ بن عمير ، وجعل على إحدى المجنّبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ . فردّ من استصغره عن القتال . منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد ابن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزام . وأجاز من رآه مطيقاً . منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة . فقيل: أجاز من أجازه ، لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ، وردّ من رد لصغره عن سنّ البلوغ ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ وعدمه فى ذلك . قالوا : وفى بعض ألفاظ حديث ابن عمر : فلما رآنى مطيقاً أجازنى .

وتعبّت قريش للقتال ، وهم فى ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبى دجانة سماك بن خرشة ، وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب ، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد بن عمرو بن صيفيّ ، وكان يسمى (الراهب) لترهبه وتنسكه فى الجاهلية ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفاسق). وكان رأس الأوس فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلّبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه . فكان أول من لقى من المسلمين. فنادى قومه وتعرف إليهم. قالوا : لاأنعم الله لك عيناً يا فاسق ! فقاتل المسلمين قتالا شديدا، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاءً شديدا ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهزمت أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم . فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ! الغنيمة ! فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا فى طلب الغنيمه ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرَهم منهم إلا نحوُ العشرة ، فكرّ المشركون وقتلوا من بقى من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدوّ إلى رسول الله ﷺ . وقاتل مصعب ابن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل ، وجرح رسول الله ﷺ فى وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة فى رأسه ، يقال: إن الذى تولى ذلك عتبة بن أبى وقاص وعمرو بن قميئة الليثىّ. وشد حنظلةُ الغسيلُ على أبى سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأسود الليثىّ ، من شعوب ، فقتله . وكان جنباً . فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسلته .

وأكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط من بعض حفر هناك ، فأخذ عليّ بيده ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومص الدمَ من جرحه مالكُ بن سنان الخدريّ ، والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح. فندرت ثنيتاه فصار أهتم . ولحق المشركون برسول الله ﷺ . وكرّ دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون . وأبو دجانة يلي النبيّ ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان . فرجع وهى على وجنته . فردها عليه السلام بيده فصحّت . وكانت أحسن عينيه . وانتهى النضر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا ، وقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فما تصنعون فى الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة . وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها فى رجله فعرج منها . وقتل حمزة عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم . ووهن المسلمون لصريخ الشيطان . ثم إن كعب بن مالك الشاعر ، من بني سلمة ، عَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنادى بأعلى صوته يبشر الناس. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: أنصت . فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ، وأدركه أبيّ بن خلف فى الشعب، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحرث بن الصمة وطعنه بها فى عنقه . فكرّ أُبيّ منهزماً . وقال له المشركون : ما بك من بأس . فقال : والله ! لو بصق عليّ لقتلنى ، وكان ﷺ قد توعده بالقتل . فمات عدوّ الله بسَرِف ، مرجعهم إلى مكة . ثم جاء عليٌّ رسولَ الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض . فاستوى على صخرة من الجبل. وحانت الصلاة فصلى بهم قعودًا. وغفر الله للمنهزمين من المسلمين. ونزل: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ (١) ..الآية

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٥] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

واستشهد نحو من سبعين . معظمهم من الأنصار . وقتل من المشركين اثنان وعشرون . ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة . ويقال إنه قال لعليّ: لايصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

هذا ملخص هذه القصة . وقد ساقها بأطول من هذا أهل السير . وفيما ذكر كفاية . وأما ما اشتملت عليه من الأحكام والفقه والحكم والغايات المحمودة ، فقد تكفل بيانها الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) فارجع إليه .

تنبيه :

فسر أكثر العلماء (غدوت) بأصلها ، وهو الخروج غدوة أى بكرة . ثم استشكلوا أنه ﷺ خرج إلى أحد بعد صلاة الجمعة كما اتفقت عليه كلمة أهل السير ، فكيف المطابقة ؟

فمنهم من أجاب بأن المراد غدوة السبت ، وأنه كان في صباحه التبوؤ للمقاعد إلا أنه لا يساعده (من أهلك) لأنه لم يكن وقتئذ أهله معه .

ومنهم من قال : المراد غدوة الجمعة أى : اذكر إذ غدوت من أهلك صبيحة الجمعة إلى أصحابك في مسجدك تستشيرهم في أمر المشركين ، ثم قال : وبنى من (غدوت) حالاً إعلاماً بأن الشروع في السبب شروع في مسببه ، فقال (تبوئ المؤمنين) أى صبيحة يوم السبت .

وكان يخطر لى أن الأقرب جعل الغدوّ بمعنى الخروج غير مقيد بالبكرة ، وكثيراً مايستعمل كذلك .

ثم رأيت في فتح البيان ما استظهرته فحمدت الله على الموافقة ونصه : وعبر عن الخروج بالغدوّ الذى هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة ، لأنه قد يعبر بالغدوة والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناها ، كما يقال (أضحى) وإن لم يكن في وقت الضحى ـ انتهى ـ

قال البقاعيّ : ولما كان رجوع عبد الله بن أبيّ المنافق ، كما يأتى فى صريح الذكر آخر القصة ، من الأدلة على أن المنافقين ، فضلًا عن المصارحين بالمصارمة ، متصفون بإخبار الله تعالى عنهم من العداوة والبغضاء ، مع أنه كان سبباً فى هم الطائفتين من الأنصار بالفشل ـ كان إيلاء هـذه القصة للنهى عن اتخاذ بطانة السوء الذين لا يقصرون عن فسادٍ ، فى غاية المناسبة . ولذلك افتتحها سبحانه بقوله مبدلًا من (إذ غدوت) دليلًا على ما قبله من أن بطانة السوء لا يألونهم خبالًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ » أى بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس « أَنْ تَفْشَلَا » أى تكسلا وتجبنا وتضعفا لرجوع المنافقين عن نصرهم وولايتهم فعصمهما الله ، فمضيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا » ناصرهما ، ومتولى أمرهما ، فأمدهما بالتوفيق والعصمة ، « وَعَلَى اللَّهِ » وحده دون ما عداه استقلالًا أو اشتراكاً « فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » فى جميع أمورهم ، فإنه حسبهم . و(التوكل : تفعل) من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد فى كفايته عليه ، ولم يتوله بنفسه . وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل . روى الشيخان[١] عن جابر رضى الله عنه قال : فينا نزلت . إذ همت

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٨ ـ باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا .

ومسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٧١ (طبعتنا) .

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ـ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنوسلمة ، وماتحب أنهالم تنزل لقوله تعالى: والله وليهما . أى لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية . وإن تلك الهَمَّة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لما ذكر تعالى قصة أُحُد أتبعها بذكر قصة بدر . وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا فى غاية الضعف عَدداً وعُدداً ، والكفار كانوا فى غاية الشدة والقوة . ثم إنه تعالى نصر المسلمين على الكافرين ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى والصبر والتقوى هو النصر والمعونة والتأييد . و (بدر) موضع بين الحرمين ، إلى المدينة أقرب ، يقال هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً . أو اسم بئر هناك حفرها رجل اسمه بدر ، وقوله « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقوا كم من نصرته . وقد أشير فى مواضع من التنزيل إلى غزوة بدر ، وكانت فى شهر رمضان ، السنة الثانية من الهجرة ، وكان سببها أن النبيّ ﷺ بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة . معها ثلاثون أو أربعون رجلًا من قريش ، عميدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاصى ، ومخرمة بن نوفل . فندب ﷺ إلى هـذه العير . وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج . ولم يحتفل فى الحشد . لأنه لم يظن قتالًا . وخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، لم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها . واتصل خروجه بأبى سفيان ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفاريّ ، وبعثه إلى أهل مكة يستنفرهم لعيرهم . فنفروا وأوعبوا ، وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ودفع إلى

علىّ راية ، وإلى رجل من الأنصار راية أخرى، يقال كانتا سوداوين . وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة . وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ ، فسلكوا نقب المدينة إلى ذى الحليفة، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء، وبعث ﷺ قبلها بسبس بن عمرو وعدىّ بن أبى الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبى سفيان وعيره ، ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادى دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه فتكلم المهاجرون ، وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، وفهموا ذلك ، فتكلم سعد بن معاذ ، وكان فيما قال : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فسرْ بنا يا رسول الله على بركة الله . فسرّ بذلك وقال: سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر ، وبعث علياً والزبير وسعداً فى نفر يلتمسون الخبر . فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما ، وهو ﷺ قائم يصلى ، وقالوا : نحن سقاة قريش ، فكذبوهما ، كراهية فى الخبر ، ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤنة ، فجعلوا يضربونهما فيقولان : نحن من العير . فسلّم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم ، وقال للغلامين : أخبرانى أين قريش ؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً ، فقال ﷺ : القوم ما بين التسعمئة والألف. وقد كان بَسْبَس وعدىّ مضيا يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأناخا قرب الماء ، واستقيا فى شن لهما ، ومجدى بن عمرو من جهينة بقربهما . فسمع عدىّ جارية من جوارى الحى تقول لصاحبتها : العير تأتى غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم وأقضيك الذى لك ، وجاءت إلى مجدى بن عمرو ، فصدقها . فرجع بسبس وعدىّ بالخبر. وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر. فقال لمجدى: هل أحسست أحداً؟ فقال : راكبين أناخا يميلان لهذا التل، فاستقيا الماء ونهضا . فأتى أبو سفيان مناخهما، وفتت من أبعار رواحلهما . فقال : هذه ، والله ، علائف يثرب . فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا . وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، وتهابنا العرب أبداً ،

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بنى زهرة ، وكان حليفهم ومطاعاً فيهم وقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت ، فارجعوا . وكان بنو عدىّ لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدراً من قريش عدوىّ ولا زهرىّ . وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وَبْلُهُ مما يليهم ، وأصاب مما يلى المسلمين دهس الوادى ، وأعانهم على السير . فنزل صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فقال له الحباب بن المنذر: آلله أنزلك بهذا المنزل فلا نتحول عنه ، أم قصدت الحرب والمكيدة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا بل هو الرأى والحرب . فقال : يا رسول الله ! ليس هذا بمنزل ، وإنما نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ونبنى عليه حوضاً ، ونملؤه ونُعَوِّر القُلُبَ كلها ، فنكون قد منعناهم الماء ، فاستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتيه النصر من ربه ، ومشى يريهم مصارع القوم واحدًا واحدًا . ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحىّ يحزر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزرهم وانصرف وخبرهم الخبر . ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، ولا يكون الحرب ، فأبى أبوجهل، وساعده المشركون ، وتواقفت الفئتان، وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ، ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلح ، وأبوبكر يقاوله . ويقول فى دعائه : اللهم! إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ، اللهم ! أنجز لى ما وعدتنى . وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انتبه ، فقال: أبشر يا أبا بكر! فقد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس . ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : شاهت الوجوه . ثم تزاحفوا . فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز ، فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب ، فقتل حمزةُ وعلىٌّ شيبةَ والوليدَ، وضرب عتبةُ عبيدةَ ، فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعلىّ إلى عتبة فقتلاه ،

وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم. وجال القوم جولة . فهزم المشركون . وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا . وأسر سبعون . واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا . ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة ، وقسم الغنائم فى الصفراء ، ودخل المدينة لثمان بقين من رمضان . وبسطُ القصة فى السير . ومن أبدعها سياقاً وفقهاً (زاد المعاد) فليرجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ » لتقويتكم ونصركم ودفع أعدائكم « بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » من سمائه لقتال أعدائه. وقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

« بَلَىٰ » إما من تتمة مقوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أو ابتداء خطاب من الله تعالى تأييداً لقول نبيه وزيادة على ما وعدهم تكرماً وفضلًا . أى : نعم يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف ولكنه يزيدكم « إِنْ تَصْبِرُوا » على قتالهم « وَتَتَّقُوا » الفرار عنهم « وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا » أى ساعتهم هذه فلا تنزعجوا بمفاجأتهم « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » فى حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم « مُسَوِّمِينَ » بكسر الواو أى معلمين أنفسهم بأداة الحرب على عادة الفرسان يوم اللقاء ليعرفوا بها . وقرئ

بفتح الواو أى معلَّمين من قبله تعالى . روى البخارىّ[١] عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

تنبيه :

فى وعده صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالإمداد بقوله « إِذْ تَقُولُ » وجهان :

الأول ـ أنه كان فى يوم بدر، فإن سياق ماقبله يدل عليه وهو قوله « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ » فـ (إذ) ظرف لـ (نصركم) ، أى نصركم وقت قولك للمؤمنين وقد أظهروا العجز واستغاثوا ربهم . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، على هذا الوجه ، وبين قوله فى سورة الأنفال فى قصة بدر : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ[٢] ؟

فالجواب: أن التنصيص على الألف ههنا لاينافى الثلاثة آلاف فما فوقها، لقوله(مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، وذلك أنهم لما استغاثوا أمدهم بألف ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا ، وكان هذا التدريج ومتابعة الإمداد أحسن موقعاً وأقوى لتقويتهم، وأسرها من أن يأتى مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحى ، ونزوله مرة بعد مرة . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، ومما يؤيد هـذا الوجه أن سياق بدر فى الأنفال من قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . . .[٣] الآيات شبيه بهذا السياق هنا . كما يذوقه من تدبره .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدرًا ، حديث ١٨٥٥ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٩] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ =

الوجه الثانى :

أن هذا الوعد كان يوم أُحُد ، فإن القصة فى سياق أُحُد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً فى أثنائها ؛ ليذكرهم بنعمته عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، وإنه كذلك هو قادر على نصرهم فى سائر المواطن . ثم عاد إلى قصة أُحُد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ... الآية . ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والامداد الذى ببدر من قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف . وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذاك مطلق ، والقصة فى هذه السورة هى قصة أُحُد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً . والقصة فى الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة ، فالسياق هنا غير السياق فى الأنفال ـ أشار لذلك ابن القيّم فى (زاد المعاد) .

وقد انتصر للوجه الأول العلامة أبو السعود ، وبين ضعف الثانى بأوجه وجيهة. فليرجع إليــه .

ونقل الخازن عن ابن جرير أنه قال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف ، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله .

ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يُمَدُّوا بهم . وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك . ولا خبر عندنا صحّ من الوجه الذى يثبت أنهم أُمِدُّوا بالثلاثة الآلاف . ولا بالخمسة الآلاف .

= وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .

وغير جائز ، أن يقال فى ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم به الحجة . ولا خبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أن فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . [٨ / الأنفال / ٩].

فأما فى يوم أُحد فالدلالة على أنهم لم يُمَدُّوا أبْيَنُ منها فى أنهم أمدوا . وذلك أنهم لو أمدوا ، لم يُهزموا ، وينالَ منهم ما نيل منهم .

فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره .

(هذا هو نص ابن جرير . صفحة ١٨٠ و ١٨١ من الجزء السابع (طبعة المعارف) .

فإن قلت: فما تصنع بحديث سعد بن أبى وقاص المروىّ فى الصحيحين أنه قال(١): رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعنى جبريل وميكائيل ؟ قلت : إنما كان ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه صبر ولم يهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد ـ انتهى .

فائدة :

الإمـداد ، لغةً الإعانة . والمراد هنا إعانة الجيش . وهل إعانة الملائكة للجيش بالقتال معهم للحديث السابق . ولحديث عائشة فى الصحيحين(٢) قالت : لما رجع رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٨ ـ باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، حديث ١٨٧٣ .
ومسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ٤٦و٤٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٠ ـ باب مرجع النبىّ صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم ، حديث ٣٠٨ .
ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : قد وضعتَ السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ! قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا ـ وأشار إلى بنى قريظة ، فخرج النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم ـ أو هى بتكثير سواد المسلمين وتثبيت قلوبهم ، كما قال تعالى فى الأنفال[١] : إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ. أوْ بهما معاً . وهو الظاهر . وقد سئل السبكىّ عن الحكمة فى قتال الملائكة ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبىّ وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب التى أجراها الله تعالى فى عباده. والله فاعل الجميع ـ انتهى ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ » أى ما جعل الإمداد بالملائكة إلا لتستبشروا به فتزداد قوةقلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم «وَلِتَطْمَئِنَّ» أى تسكن « قُلُوبُكُمْ بِهِ » أى فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ » وحده لا من الملائكة ولا من غيرهم ، فالأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير ، وفيه توثيق للمؤمنين، وعدم إقناط من النصر عند فقدان أسبابه وأماراته « الْعَزِيزِ » أى الذى لا يغالب فى حكمه « الْحَكِيمِ » الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته الباهرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

« لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ليهلك وينقص طائفة منهم بالقتل والأسر ،

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ... فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

كما كان يوم بدر، مِنْ قتل سبعين وأسر سبعين منهم ، واللام متعلقة ، إما بقوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ . وما بينهما تحقيق لحقيقته ، وبيان لكيفية وقوعه ـ وإما بما تعلق به الخبر فى قوله تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ . من الثبوت والاستقرار « أَوْ يَكْبِتَهُمْ » أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين « فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ » أى فيرجعوا منقطعى الآمال . وإنما أوقع بين المعطوف والمعطوف عليه فى أثناء الكلام قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى لنفسه تأثيراً فى بعض هذه الأمور فيحتجب عن التوحيد ، أى ليس لك من أمرهم شىء ، كيفما كان ، ما أنت إلا بشر مأمور بالإنذار . إن عليك إلا البلاغ ، إنما أمرهم إلى الله ـ أفاده القاشانىّ ـ وفى الاعتراض تخفيف من حزنه لكفرهم ، وحرصه على هداهم ، كما قال : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ . وقوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم للإسلام بعد الضلالة « أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم « فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » أى يستحقون ذلك لاستمرارهم على العناد .

روى البخارىّ[(١)] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد، قَنَتَ بعد الركوع ، فربما قال ، إذا قال سمع الله لمن حمده: اللهم ! ربنا ولك الحمد : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسنى يوسف ، يجهر بذلك ،

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ٤٨٣ .

وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر : اللهم العن فلاناً وفلاناً (لأحياء من العرب) حتى أنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية .

وقد أسند ما علقه عن ابن عمر(١) أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الآخرة من الفجر، يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً . بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية ـ ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر أيضاً ولفظه : اللهم ! العن فلانا وفلانا . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهيل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت هذه الآية : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فيتب عليهم كلهم .

وقال الإمام أحمد(٢) حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى جبهته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل ، فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . الآية ـ انفرد به مسلم . ورواه البخاريّ تعليقاً . وقد تقدم لنا فى مقدمة التفسير تحقيق معنى سبب النزول ، وأن الآية قد تذكر استشهادًا فى مقامٍ ، لكونها مما تشمله . فيطلق الراوى عليها النزول فيه ، ولا يكون قصده أن هذا كان سبباً لنزولها . والحكمة فى منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ظهرت من توبتهم أخيراً . والإلحاح فى الدعاء مظنة الإجابة ، لا سيما من أشرف خلقه . فاقتضت حكمته تعالى إمهالهم إلى أن يتوبوا لِسَابقِ علمه فيهم . وفيه طلب التفويض فى الأمور الملمة ، لما فى طيّها من الأسرار الإلهية .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٩ ـ باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ١٨٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

لطيفة :

قوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . منصوب بإضمار (أن) فى حكم اسم معطوف بـ (أَو) على (الأمر) أو على (شىء) ، أى ليس لك من أمرهم شىء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم ، أو ليس لك من أمرهم شىء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم .

أقول: جَعْلُ « أَوْ يَتُوبَ » منصوباً بالعطف على(يكبتهم) ـ بعيدجداً . وإن قدمه بعض المفسرين على الوجه المتقدم . وذلك لأن قوله تعالى «لَيْسَ لَكَ» كلام مستأنف على ماصرحت به الروايات فى سبب النزول . وهى المرجع فى التأويل ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلِلَّهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » تقرير لما قبله من قوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ ، أى له مافيهما ملكاً وأمراً « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » فيحكم فى خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مقرر لمضمون قوله : يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، مع زيادة . وفى تخصيص التذييل به دون قرينة ، من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه فى الجاهلية من تضعيفه ، كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّيْنُ محله يقول : إما أن تقضى حق أو تربى وأزيد فى الأجل . وفى ندائهم باسم (الإيمان) إشعار بأن من مقتضى الإيمان وتصديقه ترك الربا . وقد تقدم فى البقرة من المبالغة فى النهى عنه ما يروع من له أدنى تقوى. ويوجب، لمن لم يتركه ومايقاربه، الضمان بالخذلان فى كل زمان : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ(١) . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ(٢) . وقوله « أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » أى زيادات متكررة ، وليس لتقييد النهى به ، لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ، بل لمراعاة عادتهم كما بيّنا . ومحله النصب على الحالية من الربا . وقرئ (مضعفة) « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فيما تنهون عنه « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » بإيفاء حقوقكم وصونكم عن أعدائكم ، كما صنتم حقوق الأشياء . ومما يعلم به حكمة نظم هذه الآية فى سلك قصة أحد ، ما رواه أبو داود(٣) عن أبى هريرة أن عمرو بن أُقَيْشٍ رضى الله عنه كان له رباً فى الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أُحُد ، فقال : أين بنو عمى ؟ قالوا بأحد . قال : أين فلان ؟ قالوا : بأُحُد . قال : فأين فلان ؟ قالوا :

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٩] . . . وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٦] .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٣٧ ـ باب فيمن يسلم ويقتل مكانه فى سبيل الله عز وجل ، حديث ٢٥٣٧ .

بأُحُد . فلبس لَأْمَتَهُ ، وركب فرسه ، ثم توجه قِبَلَهُم ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فقال لأخته : سليه : حمية لقومك وغضباً لهم أم غضباً لله عز وجل ؟ فقال : بل غضباً لله عز وجل ورسوله ﷺ ، فمات ، فدخل الجنة ، وما صلى لله عز وجل صلاة .

قال الدينوريّ : وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط ! فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة : هو أخو بني عبد الأشهل .

وعند ابن إسحق : فذكر لرسول الله ﷺ فقال : إنه لمن أهل الجنة ـ هذا ملخص ما أورده البقاعيّ رحمه الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » بالتحرز عن متابعتهم في الربا ونحوه . روى عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » أي في ترك الربا ونحوه « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ » أي إلى ما يؤدي إليهما من الاستغفار

والتوبة والأعمال الصالحة . وقوله « عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » أى كعرضهما ، كما قال في سورة الحديد : سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (١) . وفى العرض وجهان :

الأول ـ أنه على حقيقته . وتخصيصه بالذكر تنبيهاً على اتساع طولها . فإن العرض فى العادة أدنى من الطول ، كما قال تعالى فى صفة فرش الجنة : بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (١) . أى فما ظنك بظاهرها ؟ فكذا هنا .

والثانى ـ أنه مجاز عن السعة والبسطة . قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة ، كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال : هذه دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة . وقال الزمخشرىّ : المراد وصفها بالسعة والبسطة . فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه تعالى وأبسطه ـ والله أعلم ـ « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ » أى فى حال الرخاء واليسر « وَالضَّرَّاءِ » أى فى حال الضيقة والعسر . وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس ، فمخالفتها فيه منقبة

(١) [٥٧ / الحديد / ٢١] . . . أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٥٤] ونصها : مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

شامخة « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » أى الممسكين عليه فى نفوسهم ، الكافّين عن إمضائه مع القدرة عليه ، اتقاء التعدى فيه إلى ما وراء حقه .

روى الإمام أحمد[١] عن جارية بن قدامة السعدىّ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولًا ينفعنى وأقلل علىّ لعلّى أعيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا تغضب . فأعاد عليه . حتى أعاد عليه مرارا . كل ذلك يقول : لا تغضب ـ انفرد به أحمد ـ وروى من طريق آخر أن رجلًا قال : يارسول الله أوصنى ، قال : لاتغضب . قال الرجل : ففكرت حين قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » أى ظلمهم لهم ، ولو كانوا قد قتلوا منهم ، فلا يؤاخذون أحداً بما يجنى عليهم ، ولا يبقى فى أنفسهم موجدة ، كما قال تعالى : وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ[٢] . قال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ما ذم من فعل المشركين فى أكل الربا ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، وندبوا إلى العفو عن المعسرين . قال تعالى عقيب قصة الربا والتداين : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٣] . ويحتمل أن يكون كما قال تعالى فى الدية : فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ[٤] . إلى قوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . ويحتمل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٨٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٧] ونصها : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٠] .

(٤) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثلوا بحمزة وقال : لأمثلنّ بهم . فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ماذكر أنه يفعله من المُثْلَة ، فكان تركه فعل ذلك عفواً. قال تعالى في هذه القصة : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ(١) ـ انتهى ـ وظاهر أن عموم الآية مما يشمل كل ما ذكر. إذ لا تعيين « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » اللام إما للجنس ، وهم داخلون فيه دخولًا أولياً . وإما للعهد ، عبر عنهم بالمحسنين إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفيّ المستلزم لحسنها الذاتيّ . وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله(٢) : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ـ أفاده أبو السعود ـ

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . ونصه : عن أبي هريرة قال : كان النبيّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال « أن تعبد الله ولا تشرك به . وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبيّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . الآية .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

قال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً » من السيئات الكبار « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بأى نوع من الذنوب « ذَكَرُوا اللَّهَ » أى تذكروا حقه وعهده فاستحيوه وخافوه « فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » أى لأجلها بالتوبة والإنابة إليه تعالى .

قال البقاعىّ : ولما كان هذا مفهماً أنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب ، أتبعه بتحقيق ذلك ، ونفى القدرة عليه عن غيره ، مرغباً فى الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين بقوله « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ » أى يمحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها « إِلَّا اللَّهُ » أى الملك الأعلى . وقال أبو السعود « مَنْ » استفهام إنكارىّ . أى لا يغفر الذنوب أحد إلا الله ، خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لإيذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء ، فيسارع إلى الجواب به . والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة ، والجملة معترضة بين المعطوفين ، أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه ، والإشعار بالوعد بالقبول .

وقال الزمخشرىّ : فى هذه الجملة وصف لذاته تعالى بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه ، وجب العفو والتجاوز . وفيه تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . والمعنى أنه وحده معه مصححات المغفرة ـ انتهى ـ .

وفى مسند الإمام أحمد(١) عن الأسود بن سريع رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمـد ، فقال النبىّ ﷺ : عرف الحق لأهله .
وفيه أيضاً(٢) : عن أبى سعيد الخدرىّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ! فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

وفيه أيضا(٣) : عن علىّ رضى الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء منه ، وإذا حدثنى عنه غيرى استحلفته ، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، فيستغفر الله عزّ وجل إلا غفر له ، ورواه أهل السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ـ قال الترمذىّ : حديث حسن « وَلَمْ يُصِرُّوا » أى لم يقيموا « عَلَى مَا فَعَلُوا » أى ما فعلوه من الذنوب من غير استغفار «وَهُمْ يَعْلَمُونَ » حال من فاعل (يصروا) أى لم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه ، والنهى عنه، والوعيد عليه . والتقييد بذلك ، لما أنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح . وقد روى أبو داود والترمذىّ(٤) والبزار وأبو يعلى عن مولى لأبى بكر الصديق رضى الله عنه عن أبى بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩ من الجزء الثـالث (طبعة الحلبىّ) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم ٢ (طبعة المعارف) .
ورواه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٨١ ـ باب ماجاء فى الصلاة عند التوبة .
(٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر، ٢٦ ـ باب فى الاستغفار، حديث ١٥١٤
والترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ١٠٦ ـ باب حدثنا حسين بن يزيد الكوفىّ .

وإسناده لا بأس به . قال ابن كثير : وقول عليّ بن المدينيّ والترمذيّ : ليس إسناد هذا الحديث بذاك ـ فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ، ولكن جهالة مثله لا تضرّ لأنه تابعيّ كبير ، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر ، فهو حديث حسن ـ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

«أُولَٰئِكَ» إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة «جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » أي ستر لذنوبهم « وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من أنواع المشروبات « خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » المخصوص بالمدح محذوف ، أي ذلك. يعني ما ذكر من المغفرة والجنات . ثم عاد التنزيل إلى تفصيل بقية قصة أُحُد ، بعد تمهيده مبادئ الرشد والصلاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قَدْ خَلَتْ » أي مضت « مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » أي وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين « فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم « فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أي وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال . والأمر بالسير والنظر. لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (هَـٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

« هَٰذَا » أى القرآن أو ما تقدم من مؤاخذة المذكورين « بَيَانٌ للنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ » أى تخويف نافع « لِلْمُتَّقِينَ » ثم شجع قلوب المؤمنين وسلاهم عما أصابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ، ولا تحزنوا على من قتل منكم ، والحال أنكم الأَعْلَوْنَ الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم ، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد الإشعار به فيما سبق ، وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » متعلق بالنهى أو بـ(الأعلون) . وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه . أى إن كنتم مؤمنين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة بصنع الله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه . أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون ، فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة ـ أفاده أبو السعود ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ » بالفتح والضم قراءتان ، وهما لغتان، كالضَّعف والضُّعف ، أى

إن أصابكم يوم أُحُد جراح « فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » أى يوم بدر ولم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى ، لأنكم موعودون بالنصر دونهم ، أى فقد استويتم فى الألم ، وتباينتم فى الرجاء والثواب ، كما قال : إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ[1] . فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم ، فقد أصابهم ذلك فى سبيل الشيطان ، وأنتم أُصبتم فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته . وقيل: كلا السَّيْن كان يوم أُحُد ، فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ » أى أيام هذه الحياة الدنيا « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » أى نصرفها بينهم ، نديل تارة لهؤلاء ، وتارة لهؤلاء . فهى عرض حاضر ، يقسمها بين أوليائه وأعدائه . بخلاف الآخرة ، فإن عرضها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا .

قال ابن القيم قدس الله سره (فى ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد) :

ومنها أن حكمة الله وسنته فى رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرةويدال عليهم أخرى ، لكن تكون لهم العاقبة . فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ، ولم يميز الصادق من غيره . ولو انتُصِرَ عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة . فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وماجاؤوا به ، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة ـ انتهى ـ

وقوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » قال ابن القيم: حكمة أخرى وهى أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين فى غيبه ، وذلك العلم

---

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغيبىّ لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنمـا يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً فى الحس .

لطيفة :

فى الآية وجهان :

أحدهما : أن يكون المعلل محذوفاً معناه: وليعلم.. الخ فعلنا ذلك .

الثانى : أن تـكون العلة محذوفة وهـذا عطف عليه معناه : وفعلنا ذلك ليـكون كيت وكيت ، وليعلم الله . وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعـل ليست بواحدة ليسليهم عما جرى عليهم وليبصِّرهم أن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه ـ أفاده الزمخشرىّ ـ

تنبيه :

فى هذه الآية بحث مشهور ، وذلك بأن ظاهرها مشعر بأنه تعالى إنما فعل ذلك ليـكتسب هذا العلم ، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى ، ونظيرها فى الإشكال قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ[1] ..الخ وقوله : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْـكَاذِبِينَ[2] وقوله : لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى[3] .. الخ وقوله: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ[4] .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٣] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٢] ونصها : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .

(٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣١] .

وقوله : إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ(١) .

قال الرازىّ: وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لايعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها فقال : كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالماً بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها .

ولما كانت الدلائل القطعية دالة على أزلية علمه جل اسمه ، أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة :

منها ـ أن هذا من باب التمثيل . فالتقدير فى هذه الآية : ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها ـ أن العلم فيها مجاز عن التميز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى لنميز الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها ـ أن العلم على حقيقته . إلا أنه معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث إنه واقع موجود بالفعل ، أى ليعلم الثابت واقعاً منهم كما كان يعلم أنه سيقع لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذى لم يوجد ، وهذا ما اعتمده ابن القيّم كما نقلناه أولا .

ومنهـا ـ أن الكلام على حذف مضاف . أى ليعلم أولياء الله ، فأضاف إلى نفسه تفخيما ـ والله أعلم .

ثم ذكر حكمة أخرى وهى اتخاذه سبحانه منهم شهداء بقوله « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» أى وليكرم ناساً منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى تضحية النفس شهادة للحق ، واستماتة دونه ، وإعلاء لكلمته ، وهو تعالى يحب الشهداء من عباده ، وقد أعدّ لهم أعلى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

المنازل وأفضلها ، وقد اتخذهم لنفسه ، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة . وفى لفظ (الاتخاذ) المنبئ عن الاصطفاء والتقريب ، من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى وقوله « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » قال ابن القيّم : تنبيه لطيف الموقع جدا على أن كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخزلوا عن نبيه يوم أُحُد فلم يشهدوه ، ولم يتخذ منهم شهداء ، لأنه لم يحبهم ، فأركسهم وردهم ليحرمهم ماخص به المؤمنون فى ذلك اليوم ، وما أعطاه من استشهد منهم ، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التى وفق لها أولياءه وحزبه ـ انتهى .

فالتعريض بالمنافقين . ويحتمل أن يكون بالكفرة الذين أديل لهم ، تنبيهاً على أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم ، بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين . ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

« وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لينقّيهم ويخلصهم من الذنوب ومن آفات النفوس . وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين ، فتميزوا منهم . فحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوّ . ثم ذكر حكمة أخرى وهى محق الكافرين بقوله « وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » أى يهلكهم ، فإنهم إذا ظفروا بَغَوْا وبطروا . فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ، إذ جرت سنة الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ، قيّض لهم الأسباب التى يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم . ومن أعظمها ، بعد كفرهم ، بغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسليط عليهم . والمحق ذهاب الشيء بالكلية حتى لا يرى منه شيء ، وقد محق الله الذى حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأصرّوا على الكفر جميعاً ، ثم أنكر تعالى عليهم حسبانهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد فى سبيله والصبر على أذى أعدائه ، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحَسِبَهُ فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه ، فإنه لووقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة ، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم ، لا على مجرد العلم ، فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه ـ أفاده ابن القيم ـ

وفى الكشاف « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ » بمعنى ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه ، لأنه منتف بانتفائه ، يقول الرجل : ما علم الله فى فلان خيراً ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و (لما) بمعنى (لم) ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفى الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل ، وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ولما . تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله .

لطيفة :

قال أبو مسلم فى (أَمْ حَسِبْتُمْ) : إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتى للتبكيت . وتلخيصه: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد، وهو كقوله : الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(١) . وافتتح الكلام بذكر (أم) التى هى أكثر ما تأتى فى كلامهم واقعة بين ضربين، يشك فى أحدهما لا بعينه . يقولون : أزيداً ضربت أم عمراً ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما . قال : وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً ، فلما قال « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا » كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر . وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة ، وأوجب الصبر على تحمل متاعبها ، وبيّن وجوه المصالح فيها فى الدين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١و٢] .

وفى الدنيا ، فلما كان كذلك ، فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنـة مع إهمال هذه الطاعة ـ انتهى ـ .

ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ » أى الحرب، فإنها من مبادئه ، أو الموت على الشهادة « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ » أى تشاهدوه وتعرفوا هوله « فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ » أى ما تتمنونه من أسباب الموت ، أو الموت بمشاهدة أسبابه العادية ، أو قتل إخوانكم بين أيديكم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » حال من ضمير المخاطبين . وفى إيثار الرؤية على الملاقاة ، وتقييدها بالنظر ، مبالغة فى مشاهدتهم له .

قال ابن عباس : لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا فى الشهادة ، فتمنوا قتالًا يستشهدون فيه فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد، وسببه لهم ، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم ، فأنزل الله تعالى « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ . . . » الآية ـ وقد ثبت فى الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ قال : لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٢ ـ باب كان النبىّ ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ، أخر القتال حتى تزول الشمس . ونصه :

عن سالم أبى النضر ، مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، قال : كتب إليه عبد الله ابن أبى أوفى رضى الله عنهما ، فقرأته أن رسول الله ﷺ ، فى بعض أيامه التى لقى فيها ، =

قال أهل المغازى: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، أقبل عبد الله بن قميئة يريد قتل رسول الله ﷺ . فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه ، وهو يومئذ صاحب رايته ، فقتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرجع فقال : قد قتلت محمداً وصرخ الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل . فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال. ففى ذلك أنزل الله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » والرسل منهم من مات ، ومنهم من قتل ، فلا منافاة بين الرسالة والقتل والموت ، إذ « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » فسيخلو كما خلوا «أَفَإِنْ مَاتَ» أى أتؤمنون به فى حال حياته فإن مات « أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ » أى ارتددتم « عَلَى أَعْقَابِكُمْ » أى بعد علمكم بخلو الرسل قبله ، وبقاء دينهم ، متمسكاً به « وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً » وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» بالنصر والغلبة فى الدنيا ، والثواب والرضوان فى الآخرة ، وهم الذين لم ينقلبوا ، بل قاموا بطاعته ، وقاتلوا على دينه ، واتبعوا رسوله حيًّا وميتاً . وسمّاهم (شاكرين) لأنهم شكروا

= انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام فى الناس قال « أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال « اللهم ! منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

ومسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

نعمة الإسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف . والمعنى أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لا يرتد بموت الرسول وقتله ، ولا يَفْتُر عما كان عليه ، لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، كأصحاب الأنبياء السالفين، وكما قال أنس[1] (عم أنس بن مالك، يوم أحد حين أُرْجف بقتل رسول‌الله عليه السلام وشاع الخبر ، وانهزم المسلمون، وبلغ إليه تقاول بعضهم: ليت فلاناً يأخذ لنا أماناً من أبى سفيان . وقول المنافقين : لو كان نبيًّا ما قتل) : يا قوم ! إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد حى لايموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال: اللهم! إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتل ـ أفاده القاشانىّ ـ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٢ ـ باب قول الله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . ونصه :

عن أنس رضى الله عنه قال: غاب عمى أنس بن‌النضر عن قتال بدر . فقال: يارسول‌الله! غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرينّ الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم ! إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ، ورب النضر ! إنى أجد ريحها من دون أُحُدٍ .

قال سعد : فما استطعت ، يا رسول الله ! ، ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ، ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم. ووجدناه قد قُتِل وقد مَثَّلَ به المشركون . فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

قال‌أنس: كنا نُرَى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... الخ .

روى ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلًا من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه ، فقال له : يا فلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصاريّ : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلّغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل « وَمَا مُحَمَّدٌ ... » الآية ـ رواه أبو بكر البيهقيّ في (دلائل النبوة) .

قال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) : ومنها ـ أي من الغايات في هذه الغزوة ـ أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل. بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويُقتلوا ، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حيّ لا يموت . فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد ، لا هو ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد ، فإن الموت لا بد منه ، فسواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقي. ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل ، فقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... الآية ـ والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة ، فثبتوا عليها حتى ماتوا وقتلوا ، فظهر أثر هذا العتاب ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد على عقبيه ، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم ، وأظفرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم ـ انتهى ـ .

وثبت في الصحيح[1] أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية يوم موت النبيّ ﷺ ، وتلاها منه الناس كلهم ، والحديث مشهور . ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلًا ، لا بد أن تستوفيه وتلحق به ، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً ، وإن تنوعت أسبابه ، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، بقوله :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ٥ ـ باب قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » أى بأمره وإرادته « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أى كتب لكل نفس عمرها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لايتقدم ولايتأخر . وفى الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » أى مانشاء أن نؤتيه ، ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بمن حضر لطلب الغنائم « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ » ونظير هذه الآية قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (١) .وقوله سبحانه : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَانَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُورًا* وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (٢) .

واعلم أن الآية ، وإن كان سياقها فى الجهاد ولكنها عامة فى جميع الأعمال . وذلك لأن المؤثر فى جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعى ، لا ظواهر الأعمال . ثم نعى عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية ، عليهم السلام، بقوله:

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠].

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٨و١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » أى كم من الأنبياء قاتل معهم ، لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، جماعتهم الأتقياء العباد «فَمَا وَهَنُوا» أى ضعفوا « لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ » من الجراح وشهادة بعضهم لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ، ونصرة رسوله « وَمَا ضَعُفُوا » أى عن الجهاد أو العدوّ أو الدين « وَمَا اسْتَكَانُوا » للأعداء بل صبروا على قتالهم « وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » على قتال أعدائه .

تنبيهات

الأول ـ (كأين) بمعنى (كم) الخبرية ، وفيها لغات ، قرئ منها فى السبع : كائن ممدوداً مهموزاً لابن كثير . والباقون بالتشديد . وفيها كلام كثير فى معناها ولغاتها وقراءاتها المتواترة والشاذة وصلًا ووقفاً ، وفى رسمها . فانظر موادّ ذلك .

الثانى ـ قرئ فى السبع « قُتِلَ » بالبناء للمجهول ونائب الفاعل « ربيون » قطعاً . وأما احتمال أن يكون ضميرا لنبيّ ومعه ربيون حال ، أو يكون على معنى التقديم والتأخير ، أى وكائن من نبيّ معه ربيون قتل ـ فتكلفٌ ينبو عن سليم الأفهام . وتعسف يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله . وإن نقله القفال ، ونصره السهيليّ وبالغ فيه . فما كل سوداء تمرة .

الثالث ـ (الربيون) بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرئ بضمها وفتحها ، فالفتح على القياس ، والكسر والضم من تغييرات النسب ، وهم الربانيون ، أى الذين يعبدون الربّ تعالى .

ثم أخبر سبحانه ، بعد بيان محاسنهم الفعلية ، بمحاسنهم القولية ، وهو ما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على عدوهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ » أى هؤلاء الربانيين، مثل قول المنافقين ولا المعجبين . و «قولهم» بالنصب خبر لـ (كان) ، واسمها (أن) وما بعدها فى قوله تعالى « إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

قال ابن القيّم : لما علم القوم أن العدوّ إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلّهم ويهزمهم بها. وأنها نوعان: تقصير فى حق ، أو تجاوز لحد . وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى ، إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يقدروا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم ، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يثبتوا ولم ينتصروا . فوَفَّوُا المقامين حقهما : مقام المقتضى ، وهو التوحيد ، والالتجاء إليه سبحانه . ومقام إزالة المانع من النصرة ، وهو الذنوب والإسراف ـ انتهى ـ

قال القاضى : وهذا تأديب من الله تعالى فى كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن ، سواء كان فى الجهاد أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » من النصر والغنيمة ، وقهر العدوّ ، والثناء الجميل ، وانشراح الصدر بنور الإيمان ، وكفارة السيئات « وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم . وتخصيص وصف الحسن بثواب الآخرة للإيذان بفضله ومزيته ، وأنه المعتدُّ به عنده تعالى ، بخلاف الدنيا لقلّتها وامتزاجها بالمضار ، وكونها منقطعة زائلة

« وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » إشارة إلى أن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان .

قال الرازيّ : فيه دقيقة لطيفة ، وهى أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا: ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا... الآية ـ سماهم الله محسنين كأن الله تعالى يقول لهم : إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسى حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز اه .

ثم حذرهم سبحانه ، إثْرَ ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء المفضى لسعادة الدارين ، من طاعة عدوهم. وأخبر أنه إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة. وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحُد، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » أى إلى الشرك . والارتداد على العقب عَلَمٌ فى انتكاس الأمر ، ومَثَلٌ فى الحَوْر بعد الكَوْر « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » لدين الإسلام ولمحبة الله ورضوانه وثوابه الدنيويّ والأخرويّ. فلا تعتقدوا أنهم يوالونكم كما توالونهم . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على أن على المؤمنين أن لا ينزلوا على حكم الكفار ولا يطيعوهم ولا يقبلوا مشورتهم خشية أن يستنزلوهم عن دينهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

« بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ » فأطيعوه « وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ » ينصركم خيراً من نصرهم لو نصروكم ، وكيف لا يكون خير الناصرين وهو ينصركم بغير قتال، كما وعد بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

« سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الذى يمنعهم من الهجوم عليكم والإقدام على حرمكم « بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ » أى بكونه إلهاً أو متصفاً بصفاته أو مستحقاً للعبادة « سُلْطَانًا » أى حجة قاطعة ينبنى عليها الاعتقادات « وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ » هى . والمثوى : المقر والمأوى والمقام . من (ثوى يثوى) .

لطائف

الأولى :

أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب . قال القاشانىّ : جعل إلقاء الرعب فى قلوب الكفار مسبباً عن شركهم لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات فى قوى النفس لتنورها بنور التوحيد ، فلا تكون تامة إلا للموحد الموقن فى توحيده . وأما المشرك فلأنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم الذى لم يكن له بحسب نفسه قوة ، ولم ينزل الله بوجوده حجة ، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل .

وقال القفال رحمه الله : كأنه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أُحُد

إلا أن الله تعالى سيلقى الرعب منكم بعد ذلك ، فى قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار . ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل ـ انتهى ـ

وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرةشهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاةفليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة ، وأُعطيتُ الشفاعة .

الثانية :

فى ذكر عدم تنزيل الحجة مع استحالة تحققها فى نفسها ، إشعار بنفيها ونفى نزولها جميعاً. لأن مالم ينزل به سلطاناً، لا سلطان له .

الثالثة :

قال أبوالسعود : فى الآية إيذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوىّ ، دون الآراء والأهواء الباطلة .

وقد سبقه إلى ذلك الرازىّ حيث قال : هذه الآية دالة على فساد التقليد . وذلك لأن الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلًا ، وهذا إنما يصح إذا كان القول بإثبات مالا دليل على ثبوته ، يكون باطلًا ، فيلزم فساد القول بالتقليد ـ انتهى ـ ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى النصر على عدوه ، وهو الصادق الوعد ، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزموا أمر الرسول لاستمرت نصرتهم ، ولكن انخلعوا عن الطاعة ، وفارقوا مركزهم ففارقهم النصر ، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفاً لهم سوء عواقب المعصية وحسن عاقبة الطاعة بقوله :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٦ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ » فى قوله: وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ . « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ » أى تقتلونهم قتلًا كثيراً . من (حسه) إذا أبطل حسه « بِإِذْنِهِ » أى بتيسيره وتوفيقه « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » أى ضعفتم وتراخيتم بالميل إلى الغنيمة « وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى فى الإقامة بالمركز ، فقال أصحاب عبد الله[١] : الغنيمة . أى قوم ! الغنيمة . ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين ـ رواه الإمام أحمد ـ

و (الأمر) إما بمعنى الشأن والقصة، وإما الذى يضادّه (النهى) أى فيهم أمرتم به من عدم البراح « وَعَصَيْتُمْ » أى أمر الرسول أن لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا ، فلا تعينونا ـ رواه البخارىّ ـ « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ » أى من الظفر والغنيمة ، وانهزام العدوّ . روى البخارىّ[٢] عن البراء قال : لقينا المشركين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٧ ـ باب غزوة أُحُد وقول الله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . الخ ، حديث ١٤٤٢ = وهذا نصه :

يومئذ ، وأجلس النبيّ ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ـ بلفظ ما تقدم ـ ثم قال البراء : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة .. الحديث « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا » أى الغنيمة فترك المركز « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » فثبت فيه وهم الذين نالوا شرف الشهادة ، ومنهم أنس بن النضر الأسد المقدام(١)، القائل وقتئذ : اللهم ! إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به

= عن البراء رضى الله عنه قال : لقد لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمّر عليهم عبد الله وقال « لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا . وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .

فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل ، يرفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن . فأخذوا يقولون : الغنيمة ! الغنيمه ! فقال عبدالله : عهد إلىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صُرِفَ وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلا .

وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدوّ الله ! أبقى الله عليك ما يخزيك .

قال أبو سفيان : أُعْلُ هُبَلْ . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «أجيبوا» قالوا : ما نقول؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجلّ » .

قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٩٨٧ .

المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقى سعد بن معاذ ، فقال أين ياسعد ؟ إنى أجد ريح الجنة دون أُحُد ! فمضى فقُتِل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ـ هذا لفظ البخارىّ ـ وأخرجه مسلم بنحوه ، فرضى الله عنه وأرضاه وقدس روحه الزكية « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ، ودالت الدولة . وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى « لِيَبْتَلِيَكُمْ » أى ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله ، وترجعوا إليه ، وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره ، وملتم إلى الغنيمة. ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » أى تفضلًا عليكم لإيمانكم « وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى فى الأحوال كلها ، إما بالنصرة وإما بالابتلاء ، فإن الابتلاء فضل ولطف خفىّ ، ليتمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فى المواطن ، ويتمكنوا فى اليقين ، ويجعلوه ملكة لهم ، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ، ولا يذهلوا عن الحق ، وليكون عقوبة عاجلة للبعض ، فيتمحصوا عن ذنوبهم، وينالوا درجة الشهادة ، فيلقوا الله طاهرين ـ أفاده القاشانىّ ـ .

لطائف

الأولى :

(إذا) فى قوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إما شرط ، أوْ ، لا . وعلى الأول فجوابها إما محذوف أومذكور. فتقديره، على كونه محذوفاً، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منعكم الله نصره ـ لدلالة صدر الآية عليه ـ أو صرتم فريقين ، لأن قوله تعالى « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ . . . » الخ يفيد فائدته ، ويؤدى معناه . وعلى كونه مذكوراً فهو إما (وعصيتم) والواو صلة . وحكى هذا عن الكوفيين والفراء ، قالوا : ونظيره قوله تعالى : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ[(١)] . والمعنى ناديناه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣و١٠٤] .

وبعض من نصر هذا الوجـه زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو فى جواب (حتى إذا) بدليل قوله تعـالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا(١) . أى فتحت . وأجابوا عما أُورد عليهم من لزوم تعليل الشىء بنفسه ـ إذ الفشل والتنازع معصية فـكيف يكونان علة لها ـ بأن المراد من العصيان خروجهم عن ذلك المـكان . ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عنه ، فلا لزوم . وإمّا قوله تعالى « صَرَفَـكُمْ عَنْهُمْ » وكلمة (ثم) صلة ـ قاله أبو مسلم ـ .

وعلى الثـانى أعنى كونها ليست شرطاً فهى اسم و (حتى) حرف جر بمعنى إلى متعلقة بقوله تعالى « صدقـكم » باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيـل : لقد نصركم الله (إلى) وقت فشلـكم وتنازعكم .

الثانية :

فائدة قوله تعالى « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَاتُحِبُّونَ » التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لـما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد ، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام .

الثالثة :

ظاهر قوله تعالى : وَلَقَدْ عَفَا عَنْـكُمْ . أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة ، لأنها لم تذكر ، فدل على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الـكبائر .

الرابعة :

فى قوله تعالى : وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . دليل على أن صاحب الـكبيرة مؤمن ، فإن الذنب فى الآية كان كبيرة ـ والله أعلم ـ .

ثم ذكرهم تعالى بحالهم وقت الفرار بقوله :

---

(١) [٣٩/ الزمر / ٧٣] ونصها : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْـكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

« إِذْ تُصْعِدُونَ » متعلق بـ(صرفكم) أو بقوله (ليبتليكم) ، أو بمقدر . والإصعاد الإبعاد فى الأرض . أى تبعدون فى الفرار ، وقرىء : تَصْعَدُونَ . من الثلاثىّ ، أى فى الجبل « وَلَا تَلْوُونَ » أى لا تعطفون بالوقوف « عَلَىٰٓ أَحَدٍ » أى من قريب ولا بعيد ، من الدهش والروعة « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ » أى ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكرة عليهم . وأنتم مدبرون وهو ثابت فى مكانه فى نحر العدو فى نفر يسير وثوقاً بوعد الله ومراقبة له .

قال السدّىّ : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحُد ، فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلىَّ عباد الله ! إلىَّ عباد الله ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل ـ ثم ذكر دعاء النبىّ ﷺ إياهم فقال : إذ تصعدون ... الخ ـ قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

وفى حديث البراء رضى الله عنه فى مسند الإمام أحمد(١) أنهم لما انهزموا لم يبق مع النبىّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا . وروى مسلم(٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ١٠٠ (طبعتنا) ونصه : =

الأنصار ورجلين من قريش : « فَأَثَابَكُمْ »أى جازاكم بهذا الهرب والفرار « غَمًّا بِغَمٍّ » أى غماً متصلًا بغم ، يعنى غم الهزيمة والكسرة ، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمداً قتل . وقيل الباء بمعنى مع ، وقيل بمعنى على ، وهما قريبان من الأول . وقيل الباء للمقابلة والعوض، أى أذاقكم غماً بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ وهو عصيانكم أمره . قاله الزجاج . وقال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين ، وقيل : المعنى غماً بعد غم أى غماً مضاعفاً . ثم أشار إلى سر ذلك بقوله « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى لتتمرنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فيها ، وتتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة ، وجميع الأشياء من الله لا من أنفسكم ، فلا تحزنوا على مافاتكم من الحظوظ والمنافع . وقوله : « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » من الغموم والمضار .

قال العلامة ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقيل جازاكم غماً بما غممتم به رسوله بفراركم عنه ، وأسلمتموه إلى عدوه . فالغم الذى حصل لكم جزاءً على الغم الذى أوقعتموه بنبيه . والقول الأول أظهر لوجوه :

أحدها :

أن قوله لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح ، فنسوا بذلك السلب ، وهذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر .

= عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهقوه قال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » .

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . ثم رهقوه أيضاً . فقال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » .

الثانى :

أنه مطابق للواقع ، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة ، ثم أعقبه غم الهزيمة ، ثم غم الجراح الذى أصابهم ، ثم غم القتل ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم . وليس المراد غمين اثنين خاصة ، بل غماً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان .

الثالث :

أن قوله (بغم) من تمام الثواب ، لا أنه سبب جزاء الثواب . والمعنى أثابكم غماً متصلاً بغم ، جزاء على ما وقع منكم من الهرب ، وإسلامكم نبيه ﷺ وأصحابه ، وترك استجابتكم له وهو يدعوكم ، ومخالفتكم له فى لزوم مركزكم ، وتنازعكم فى الأمر وفشلكم . وكل واحد من هذه الأمور يوجب غمًّا يخصه ، فترادفت عليهم الغموم ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها . ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر . ومن لطفه بهم ، ورأفته ورحمته ، أن هذه الأمور التى صدرت منهم كانت من أمور الطباع ، وهى من بقايا النفوس التى تمنع من النصرة المستقرة ، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل ، فيترتب عليها آثارها المكروهة ، فعلموا حينئذ أن التوبة منها ، والاحتراز من أمثالها ، ودفعها بأضدادها ، أمرٌ متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به ، فكانوا أشد حذراً بعدها ، ومعرفة بالأبواب التى دخل عليهم منها . وربما صحت الأجسام بالعلل .

لطيفة :

لفظ الثواب لا يستعمل فى الأغلب إلا فى الخير ، ويجوز أيضاً استعماله فى الشر ، لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله ، أى رجع إليه . قال تعالى : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ (1) . والمرأة تسمى (ثيّباً) لأن الواطىء عائد إليها . وأصل الثواب كل ما يعود إلى

(1) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

الفاعل من جزاء فعله ، سواء كان خيراً أو شرًّا ، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير . فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام ، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم ، كما يقال : تحيته الضرب وعتابه السيف ، أى جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب على حد : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ[1] ـ قاله الرازىّ ـ .

تنبيه :

قال المفضل : (لا) زائدة ، والمعنى لتتأسفوا على مافاتكم وعلى ما أصابكم عقوبة لكم ، كقوله : أَنْ لَا تَسْجُدَ[2] ، و : لِئَلَّا يَعْلَمَ[3] ، أى أن تسجد وليعلم .

وعندى أنه بعيد ، لاسيما مع تكرار (لا) فى المعطوف ، واستقامة المعنى الجيد على اعتبارها ، فالوجه ما سلف .

« وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » خيراً وشراً ، قادر على مجازاتكم ، وفيه أعظم زاجر عن

(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٩/ التوبة/ ٣٤] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ ـ ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الإقدام على المعصية . ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته ، وخفف عنهم ذلك الغم ، وغيّبه عنهم بالنعاس الذى أنزله عليهم أمنا منه ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً » أى أمناً . والأَمَنة (بتحريك الميم) مصدر، يقال : أمن أمناً وأماناً وأَمَناً وأَمَنة (محركتين) وفى حديث(١) نزول عيسى عليه السلام ، إ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٠٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) ونصه:

عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم . لأنه لم يكن بينى وبينه نبى . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . رجلا مربوعا إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام . فيهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام. ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال . وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم . فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون .

وتقع الأَمَنة فى الأرض ، أى الأمن . ومثله من المصادر العَظَمة والغَلَبة ، وهو منصوب على المفعولية . وقوله تعالى « نُعَاساً » بدل من « أمنة » وقيل : هو المفعول ، و « أمنة » حال أو مفعول له «يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ» وهم المخلصون ، أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق، الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله . والنعاس فى حال الحرب دليل على الأمان ، كما قال فى سورة الأنفال : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ . . .(١) الآية .

وروى البخارى(٢) فى التفسير عن أنس عن أبى طلحة قال : غشينا النعاس ونحن فى مصافّنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه . ورواه الترمذىّ والنسائىّ والحاكم . ولفظ الترمذى(٣) : قال أبو طلحة : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر ، ومامنهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس. فذلك قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً . وقد ساق الرازىّ لذلك النعاس فوائد : منها أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم فى النوم مع السلامة فى مثل تلك المعركة من أدلّ الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم. وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم، ويورثهم مزيد الوثوق بوعدالله تعالى ـ انتهى ـ ثم أخبر تعالى أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه، لادينه ولا نبيه ولا أصحابه، بقوله « وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أى مابهم إلا هم أنفسهم

(١) [٨ / الأنفال / ١١] ونصها : إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١١ ـ باب أَمَنَةً نُعَاساً .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٥ ـ حدثنا عبد بن حميد .

وقصد خلاصها ، فلم يَغْشَهُم النعاس ، من القلق والجزع والخوف « يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ » أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه « ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ » كما قال تعالى فى الآية الأخرى : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا[١] ... الآية ـ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لماظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل . وفسر بأن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى فى سورة الفتح ، حيث يقول : وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا[٢] . وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذاته المبرأة من كل سوء . بخلاف ما يليق بحكمته وحمده ، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه ، وكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد جنده ، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ، ويظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يديل

(١) [٤٨ / الفتح / ١٢] ونصها : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .

(٢) [٤٨ / الفتح / ٦] .

الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق ، إدالةً مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبداً ـ فقد ظن بالله السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته . فإن عزته وحكمة إلٰهيته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به ـ فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكماله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ، ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فوتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ، ولا أنشأها عبثاً ، ولا خلقها باطلًا : ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (١) . وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ، ظن السوء ، فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته . فمن قنط من رحمته ، وأيس من روحه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهى ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملًا كالأنعام ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ، ولا اختيار له ، ولا قدرة ولا إرادة فى حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] .

أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره فى طاعته ، فيخلده فى الجحيم أسفل السافلين ، وينعم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين فى الحسن سواء عنده ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقتضى بقبح أحدهما وحسن الآخر ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ، لم يصرح به ، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة ، والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى ، أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم فى معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم ، لا على كتابه ، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل ، فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان ـ فقد ظن به ظن السوء . فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته العجز . وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان ، وعن التصريح بالحق ، إلى ما يوهم، بل يوقع فى الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد ـ فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء . وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وإن الهدى والحق فى كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره والتشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى هو الهدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء . ومن الظانين به غير الحق ، ظن الجاهلية . ومن ظن به أن يكون فى

ملكه مايشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه ـ فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد ، عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه، بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين ، وإلى الأمكنة التى يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، ومن قال سبحان ربى الأسفل ، كمن قال سبحان ربى الأعلى ـ فقد ظن به أقبح الظن .

ثم قال: وبالجملة فمن ظن به خلاف ماوصف به نفسه ، ووصفه به رسله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله ـ فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ويخافونهم ، ويرجونهم ـ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ثم قال : ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والرهبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه، أنه يخيبه ولا يعطيه ماسأله ـ فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ماهو أهله.

ثم قال : ومن ظن به أنه إن عصاه أو أسخطه وأوضع فى معاصيه ، ثم اتخذ من دونه وليًّا ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً ، حيًّا أو ميتاً ، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه ـ فقد ظن به ظن السوء . وذلك زيادة فى بعده من الله ، وفى عذابه . ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد أعداءه تسليطاً مستقرًّا دائماً فى حياته وفى مماته ، وابتلاه بهم لايفارقونه ، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته ، وظلموا أهل بيته ، وسلبوهم حقهم ، وأذلوهم ، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق ، وهو يرى قهرهم لهم ، وغصبهم إياهم حقهم ، وتبديلهم دين نبيهم ، وهو يقدر على نصر أوليائه ، وحزبه وجنده ، ولا ينصرهم ولا يديلهم ، بل يديل أعداءهم

عليهم أبداً ، أو أنه لايقدر على ذلك ، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته ، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعيه فى حضرته، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت (كما تظنه الرافضة)ـ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه ، سواء قالوا إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون فى قدرته أو فى حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به . ولا ريب أن الرب الذى فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك، غير محمود عندهم ، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوْا هـذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ، ولا يدخل تحت قدرته ، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية بربهم . وكل مبطل وكافر ومبتدع ومقهور مستذل ، فهو يظن بربه هـذا الظن ، وإنه أولى بالنصر والظفر والعلوّ من خصومه . فأكثر الخلق، بل كلهم ، إلا من شاء الله ، يظنون بالله غير الحق وظن السوء . فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى ومنعنى ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ، ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه ، وتغلغل فى معرفة دفائنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شرارُه عما فى زناده ، ولو فتشت من فتشته ، لرأيت عنده تعتباً على القدر ، وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ماجرى به ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت، من ظنه بربه ظن السوء . وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين،

الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزّه عن كل سوء ، فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه . فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك . وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل. وأسماؤه كلها حسنى . والمقصود ماساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى: وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .

ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل بقوله : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ » أى هل لنا من أمر التدبير والرأى من شيء ، استفهام على سبيل الإنكار. أى مالنا أمر يطاع . ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا[1] . وذلك أن عبد الله بن أبيّ لما شاوره النبيّ ﷺ فى هذه الواقعة ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبيّ ﷺ فى أن يخرج إليهم ، كما تقدم : ولما رجع عبد الله بن أبيّ بمن معه ، وأخبر بكثرة القتلى من بنى الخزرج ، قال : هل لنا من الأمر شيء ؟ يعنى أن محمداً ﷺ لم يقبل قولى حين أمرته بأن يبقى فى المدينة ولا يخرج منها « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ » أى التدبير كله لله ، فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مردّ له .

قال الإمام ابن القيّم قدس الله روحه: ليس مقصودهم بقولهم : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ . وقولهم : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا . إثباتَ القدر ، ورد الأمر كله إلى الله . ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لماذموا عليه ، ولما حسن الرد عليهم بقوله : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ . ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية . ولهذا قال غير واحد من المفسرين : إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم ، ويسمعون منهم ، لما أصابهم القتل ، ويكون النصر والظفر

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] ونصها : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لهم . فأكذبهم الله عز وجل فى هذا الظن الباطل ، الذى هو ظن الجاهلية ، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل ، الذين يزعمون ، بعد نفاذ القضاء والقدر الذى لم يكن بد من نفاذه ، أنهم كانوا قادرين على دفعه ، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، فأكذبهم الله بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره ، وجرى به علمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولابد ، شاء الناس أم أبوا . وما لم يشأ لم يكن ، شاء الناس أم لم يشاؤوه . وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكونىّ الذى لاسبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شىء أو لم يكن ، وأنكم لو كنتم فى بيوتكم ، وقد كتب القتل على بعضكم، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولابد . سواء أن يكون لهم من الأمر شىء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة ، الذين يجوّزون أن يقع ما لا يشاؤه الله ، وأن يشاء ما لا يقع ـ انتهى ـ « يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ » أى يضمرون فيها، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية « مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ » لكونه لا يرضاه الله تعالى . ثم بين ذلك بعد إجماله فقال « يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ » أى المسموع « شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا » أى ما غلبنا ، أو ما قتل من قتل منا ، لأنا كنا نمكث فى المدينة ولا نخرج إلى العدوّ . ولما أخبر تعالى بما أخفوه جهلاً منهم ، ظناً أن الحذر يغنى من القدر ، أمره تعالى بالرد عليهم بقوله « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ » أى أجمع رأيكم على أن لا تبرحوا من منازلكم أنتم والمقتولون « لَبَرَزَ » أى خرج « الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » فى اللوح المحفوظ « إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ » أى التى قدر الله قتلهم فيها ، ولم يثبتوا فى ديارهم ، لأنه يوقع فى قلوبهم الخروج إمضاء لقدره وحكمه المحتوم الذى لا يقع خلافه ولا يردّ ، لقوله : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١) . وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة ، حيث لم يقتصر على تحقيق

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

نفس القتل ، بل عين مكانه أيضا . وفى التعبير بـ (مضاجعهم) من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم . « وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ » أى ليعاملكم معاملة الممتحن ، ليستخرج ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ، ليجعله حجة عليكم ، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانًا وتسليماً ، والمنافق ومن فى قلبه مرض لابد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه ؛ وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية ، للإيذان بكثرتها . كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى ... الخ ، أو لفعل مقدر بعدها ، أى : وللابتلاء المذكور فعل ما فعل ، لا لعدم العناية بأمر المؤمنين . وجَعْلُها عللاً لـ« برز » يأباه الذوق السليم . فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول ، لا بيان حكمة البروز المفروض ـ أفاده أبو السعود ـ ثم ذكر تعالى حكمة أخرى بقوله «وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى يخلصه وينقيه ويهذبه ، فإن القلوب يخالطها بغلبة الطبائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة ـ ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبرّ والتقوى . فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص منه . فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن يقضى لها من المحن والبلاء ، ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء . إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك . فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم ، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم . فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا ـ أفاده ابن القيّم .

وقال القاشانىّ : البلاء سوط من سياط الله ، يسوق به عباده إليهم بتصفيتهم عن صفات نفوسهم ، وإظهار ما فيهم من الكمالات ، وانقطاعهم من الخلق إلى الحق . ولهذا كان متوكَّلًا بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال رسول الله ﷺ بيانًا لفضله : ما أوذى نبىّ مثل ما أوذيت . كأنه قال : ما صفى نبىّ مثل ما صفيت . ولقد أحسن من قال :

لله در النائبات فإنها صدأ اللئام وصيقل الأحرار

إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما فى مكمن استعداده .

« وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى الضمائر الملازمة لها ، وعد ووعيد . ثم أخبر تعالى عن تولى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم ، وأنه بسبب كسبهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ » أى عن القتال ومقارعة الأبطال «يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » أى جمع المسلمين وجمع المشركين « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » أى حملهم على الزلل بمكر منه . مع وعد الله بالنصر « بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » أى بشؤم بعض ما اكتسبوه بهم من الذنوب ، كترك المركز ، والميل إلى الغنيمة ، مع النهى عنه ، فمنعوا التأييد وقوة القلب . قال ابن القيّم: كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد ، وجند عليه. ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه. فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر . والعبد لا يشعر، أو يشعر ويتعامى . ففرار الإنسان من عدوه ، وهو يطيقه ، إنما هو بجند من عمله ، بعثه له الشيطان واستزله به . ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ » أى بالاعتذار والندم لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ، ولا شك أنه كان عارضاً عفا الله عنه ، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها « إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » أى يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المنافقون القائلون : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا . « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ » أى سافروا فيها للتجارة فأصيبوا بغرق أو قتل « أَوْ كَانُوا » أى إخوانهم « غُزًّى » جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا » أى مقيمين « مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول ، بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول: بل الآية تفيد الأمرين. أعنى حفظ الاعتقاد المقصود أولًا وبالذات، وحفظ المنطق مما يوقع فى إضلال الناس ، ويخل بالمقام الإلهى ، كما بينته السنة ، وسنذكره فى التنبيه الآتى .

وقوله « لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ » أى القول « حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ » متعلق بـ (قالوا) على أن اللام لام العاقبة ، مثلها فى[1] (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم . والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدةٍ ما ، على ذلك أصلًا « وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ » رد لقولهم الباطل، إثر بيان غائلته . أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد ابن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : ما فىّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء! « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » تهديد للمؤمنين فى مماثلة من ذكر .

(١) [٢٨ / القصص / ٨] .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفراً . وفيها أيضاً دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ المشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) فصلًا في هديه ﷺ في حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان ﷺ يتخير في خطابه ، ويختار لأمته أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه ﷺ[١] عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أني فعلت كذا وكذا . وقال : إنها تفتح عمل الشيطان. وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل . وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقيل عثرته بـ (لو). وفي ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه ، فإنّ ماوقع مما يتمنى خلافه، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته . فإذا قال: لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف المقدّر المقضيّ محال . فقد تضمن كلامه كذباً وجهلًا ومحالًا . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أني فعلت لدفعت

---

(١) أخرجه مسلم في : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كلّ خير. احرص على ماينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قَدَرُ الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

ماقدر عليّ . فإن قيل : ليس فى هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التى تمناها أيضاً من القدر ، فهو يقول : لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عنى ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض ، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة ، وقدر العدو بالجهاد ، فكلاهما من القدر . قيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلاسبيل إلى دفعه ، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته ، بل وظيفته فى هذه الحالة أن يستقبل فعله الذى يدفع به أو يخفف ، ولا يتمنى مالا مطمع فى وقوعه ، فإنه عجز محض ، والله يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس هو مباشرة الأسباب التى ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد فى معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأمانىّ الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبىّ ﷺ منهما . وهو مفتاح كل شر ، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها (لو) ، فلذلك قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم : فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ، فالمتمنى من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المنى رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصى كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التى تعرضه عن المعاصى ، ويحول بينها وبينه ، فيقع فى المعاصى . فجمع فى هذا الحديث الشريف ، فى استعاذته ﷺ أصولَ الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره ، وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منها قرينتان فقال : أعوذ بك من الهم والحزن ، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن مامضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد :

قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم . بل إما أن يكون له حيلة فى دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة فى دفعه ، فلايجزع منه ، ويلبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهبته اللائقة ، ويستجن بجُنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدى الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به ربًّا فى كل شيء ، ولا يرضى به ربًّا فيما يحبّ دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به ربًّا على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق . فالهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة ، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذى كلما رآه شمر إليه ، وجدّ فى سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر ، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإرادته التى تضره فى معاشه ومعاده ، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والأنس به ، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معارصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب فى سجن من الجحيم فى هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم فى معادها ، ولا تزال فى هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، والأنس به ، وجعل محبته فى محل دبيب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولى على القلب الغالب عليه ، الذى متى فقده ، فقد قُوتَهُ ، الذى لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التى هى أعظم أمراضه ، وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له ،

فمنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد . وإذا أقامه فى مقام ، أىّ مقام كان ، فبحمده أقامه فيه ، وحكمته أقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواه ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا يمنع عبده حقًّا هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالمًا ، بل مَنَعَهُ ليتوسل إليه بمحابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ، ويتملقه ويعطى فقره إليه حقه . بحيث يشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع فى نفس الأمر وإن لم يشهده . فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه ، بخلًا منه ولا نقصان من خزائنه ولا استئثارًا عليه بما هو حق للعبد . بل مَنَعَهُ ليردّه إليه وليعزه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوةَ الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، ويوليه بعزله أشرف الولايات ، وليشهده حكمته فى قدرته، ورحمته فى عزته، وبره ولطفه فى قهره . وأنّ منعه عطاء وعزله تولية وعقوبته تأديبٌ وامتحانه محبة وعطية وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه فى مقامه الذى لا يليق به سواه ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن الموت فى سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ » أى فيه من غير قتال « لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ » أى لذنوبكم تنالكم « وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها الفانية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)

« وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ » على أى وجه كان حسب القضاء السابق « لَإِلَى اللهِ » أى الذى هو متوفيكم لا غيره « تُحْشَرُونَ » فيجزيكم بأعمالكم .

لطائف :

الأولى : أطال نحاة المفسرين فى قوله تعالى « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا » الخ . من الوجوه النحوية فى (إذا) هنا ، وإنه ربما يتبادر أن الموقع لـ (إذ) لا لها حيث إن متعلقها وهو (قالوا) ماض . و(إذا) ظرف لما يستقبل . فمن قائل بأن (إذا) لحكاية الحال الماضية، ومن قائل بأنها للاستمرار . وقيل : إن (كفروا) و (قالوا) مراد بهما المستقبل . وفى كلٍّ مناقشات وتعسفات. والحق أنها تكون للمضىّ أيضا . قال المجد الفيروزبادىّ : وتجىء (إذا) للماضى كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا . فلا إشكال.

ونقل الرازىّ عن قطرب : أن كلمة (إذ) و (إذا) يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى . قال الرازىّ : وهذا الذى قاله قطرب كلام حسن ، وذلك لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول ، فَلَأَن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى . ثم قال: وكثيرا أرى النحويين يتحيرون فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريره ببيت مجهول فرحوا به . وأنا شديد التعجب منهم. فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحته كان أولى، انتهى.

الثانية : الجمهور على ضم الميم فى قوله تعالى : أَوْ مُتُّمْ . وهو الأصل لأن الفعل منه يموت. ويقرأ بالكسر وهو لغة طائية. يقال مات يمات مثل خاف يخاف فكما تقول خفت تقول مِت.

الثالثة : قدم القتل على الموت فى الأولى لأنه أكثر ثوابا وأعظم عند الله . فترتبُ المغفرة والرحمة عليه أقوى . وقدم الموت فى الثانية لأنه أكثر. وهما مستويان فى الحشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ » أى للذين تولوا عنك حين عادوا إليك بعد الانهزام، وللمؤمنين عموماً كما قال تعالى : بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١) . و (ما) مزيدة للتوكيد أو نكرة . و (رحمة) بدل منها مبيّن لإبهامها . والتنوين للتفخيم ، أى ما لنت هذا اللين الخارق للعادة ، مع ماسبّب فعلهم من الغضب الموجب للعنف والسطوة ، سيما مع اعتراض من اعترض على ما أشار به ، إلا بسبب رحمة عظيمة « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا » أى سيء الخلق خشن الكلام « غَلِيظَ الْقَلْبِ » أى قاسيه وشديده . تعاملهم بالعنف والجفا « لَانْفَضُّوا » أى تفرقوا « مِنْ حَوْلِكَ » فلم يسكنوا إليك فلا تتم دعوتك. ولكن الله جعلك سهلا سمحا طلقاً ليناً لطيفاً بارًّا رءوفا رحيما . «فَاعْفُ عَنْهُمْ» أى فيما فرطوا فى حقك كما عفا الله عنهم «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ » إتماماً للشفقة عليهم « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » أى أمر الحرب وغيره توددًا إليهم وتطيباً لنفوسهم واستظهارا بآرائهم وتمهيدا لسنة المشاورة فى الأمة. وقد ساق العلامة الرازىّ وجوهاً أخرى فى فائدة أمره تعالى له عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم . منها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كان أكمل الناس عقلا، إلا أن علوم الخلق متناهية. فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح مالا يخطر بباله. لاسيما فيما يفعل من أمور الدنيا. فإنه ﷺ قال(٢): أنتم أعرف

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] ونصها : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١٦ ـ كتاب الرهون ، ١٥ ـ باب تلقيح النخل ، حديث ٢٤٧٠ (طبعتنا) ونصه : =

بأمور دنياكم. ومنها : أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم فى الأمر اجتهد كل واحد منهم فى استخراج الوجه الأصلح فى تلك الواقعة فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه فيها ، وتطابقُ الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله . وهذا هو السر عند الاجتماع فى الصلوات ، وهو السر فى أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد . انتهى .

وقد ثبت مشاورته ﷺ لأصحابه فى عدة أمور: منها أنه شاورهم فى يوم بدر[1] فى الذهاب

= عن طلحة بن عبيد الله قال : مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل . فرأى قوماً يلقحون النخل . فقال « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى . قال « ما أظن ذلك يغنى شيئاً » فبلغهم فتركوه . فنزلوا عنها . فبلغ النبىّ ﷺ فقال « إنما هو الظن إن كان يغنى شيئاً فاصنعوه . فإنما أنا بشر. وإن الظن يخطىء ويصيب . ولكن ما قلت لكم : قال الله ـ فلن أكذب على الله » .

وحديث ٢٤٧١ (طبعتنا) ونصه :

عن عائشة أن النبىّ ﷺ سمع أصواتاً ، فقال « ما هذا الصوت ؟ » قالوا : النخل يؤبرونها . فقال « لو لم يفعلوا لصلح » فلم يؤبّروا عامئذ ، فصار شيصا. فذكروا للنبىّ ﷺ فقال « إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به . وإن كان من أمور دينكم ، فإلىّ » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبى سفيان . قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذى نفسى بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِماد لفعلنا . فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش ... الخ .

إلى العير . فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى[1] : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ . ولـكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وشمالك مقاتلون . وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقـدم أمام القوم ، وشاورهم فى أُحُد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو . فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ. فأبى ذلك عليه السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذرارىّ المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحـد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال .

وقال ﷺ فى قصة الإفك[2] : أشيروا علىّ ، معشر المسلمين ، فى قوم أبنوا أهلى

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٤ (طبعة جوتنجن ، بألمانيا) وصفحة ٢٦٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

والبخارىّ فى : ٦٤ ــ كتاب المغازى ، ٤ ــ باب قول الله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ... الآية ونصه :

عن ابن مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً ، لأن أكون صاحبه أحبّ إلىّ مما عُدِل به . أتى النبىّ ﷺ وهو يدعو على المشركين. فقال: لا نقول كما قال قوم موسى. اذهب أنت وربك فقاتلا . ولـكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك . فرأيت النبىّ ﷺ أشرق وجهُه وسَرَّه . يعنى قوله .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ــ كتاب المغازى ، ٣٤ ــ باب حديث الإفك .

وهو حديث جليل القدر . وفيه نزلت براءة سيدتنا أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها من السماء. وسنسرده بطوله فى تفسير سورة النور، إن شاء الله تعالى .

ورموهم . وايم الله ماعلمت على أهلي من سوء. وأبنوهم بمن ، والله ، ما علمت عليه إلا خيرا . واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها . فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها . أفاده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

قال الخفاجيّ : في الآية إرشاد إلى الاجتهاد وجوازه بحضرته ﷺ . وقال الرازيّ : دلت على أنه ﷺ كان مأمورا بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي. والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة ، فلهذا كان مأمورا بالمشاورة ، انتهى .

وقال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف . « فَإِذَا عَزَمْتَ » أي بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » في الإعانة على إمضاء ماعزمت، لا على المشورة وأصحابها . قال الرازيّ: دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقول بعض الجهال. وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ » كما نصركم يوم بدر « فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » كما فعل يوم أُحُد « فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ » استفهام إنكاريّ مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة. وهذاتنبيه على أن الأمر كله لله، وترغيب في الطاعة ، وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد . وتحذير من المعصية، ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان . كذا في الكشاف . « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أي وليخص

المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه ، لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » قرئ بالبناء للمعلوم، أى ماصح وما تأتّى لنبىّ من الأنبياء أن يخون فى المغنم ، بعد مقام النبوة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل ، وعن تأثير دواعى النفس والشيطان فيهم ؛ وبالبناء للمجهول ، أى ما صح أن ينسب إلى الغلول ويُخوَّن .

روى أبو داود والترمذىّ(١) عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ما كان لنبىّ أن يغل ، فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها ، فأنزل الله « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية . قال الترمذىّ : حسن غريب . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً ، ولفظه : اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشىء فُقِدَ ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية ـ وهذا تنزيه لمقامه ﷺ الرفيع وتنبيه على عصمته . ثم أشار إلى وعيد الغلول بقوله « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى بعينه ، حاملاً له على ظهره، ليفتضح فى المحشر ، كما روى الشيخان(٢) عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٧ ـ حدثنا قتيبة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ـ لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت ـ لفظ مسلم . وروى البخارى[(١)] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له (كركرة) فمات ، فقال رسول الله ﷺ : هو فى النار، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها ـ وعن زيد بن خالد الجهنى أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال : إن صاحبكم غل فى سبيل الله ، ففتشنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوى درهمين ـ أخرجه أبو داود[(٢)] والنسائى ـ وروى عبد الله بن الإمام أحمد[(٣)] عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم فيقول : مالى فيه إلا مثل ما لأحدكم منه . إياكم والغلول، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك . وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد فى الحضر والسفر . فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. إنه لينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم. وأقيموا حدود الله فى

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٩٠ ـ باب القليل من الغلول .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٣٣ ـ باب فى تعظيم الغلول ، حديث ٢٧١٠ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

القريب والبعيد ، ولا تأخذكم فى الله لومة لائم . وروى ابن ماجة بعضه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبىّ ﷺ فقالوا : فلان شهيد . فلان شهيد . حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة . ثم قال رسول الله ﷺ: يا ابن الخطاب ! اذهب فناد فى الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون قال فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم(١) والترمذىّ . وروى أبو داود(٢) عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس فيجوزوا بغنائهم فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة . فقال : أسمعت بلالا ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم . قال : فما منعك أن تجىء ؟ فاعتذر . فقال : كن أنت تجىء به يوم القيامة . فلن أقبله منك .

تنبيه :

من المفسرين من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجازاً عن الإتيان بإثمه تعبيراً بما غلّ عما لزمه من الإثم مجازاً . قال أبو مسلم : المراد أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول ويعزره عليه يوم القيامة ويجازيه لأنه لا يخفى عليه خافية . وقال أبو القاسم الكعبىّ : المراد أنه يشتهر بذلك، مثل اشتهار من يحمل ذلك الشىء . وناقشهما الرازىّ بأن هذا التأويل يحتمل، إلا أن الأصل المعتبر فى علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام دليل يمنعه منه ، وههنا لا مانع من الظاهر ، فوجب إثباته ـ انتهى . ومما يؤيده قوله ﷺ « له رغاء ، له حمحمة ... » الخ الظاهر فى الحقيقة زيادة فى النكال .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٨٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٣٤ ـ باب فى الغلول إذا كان يسيراً يتركه الإمام ولا يحرق رحله ، حديث ٢٧١٢ ، بهذا النص .

وأخرجه فى المسند أيضاً عن عبد الله بن عمرو ، حديث ٦٩٩٦ (طبعة المعارف) .

« ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » تعطى جزاء ما كسبت وافياً ، وإنما عمم الحكم ولم يقل: ثم يوفى ما كسب ، ليكون كالبرهان على المقصود، والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله ، فالغالُّ ، مع عظم جرمه بذلك أولى « وَهُمْ » أى النـاس المدلول عليهم بكل نفس « لَا يُظْلَمُونَ » فلا ينقص ثواب مطيعهم ، ولا يزاد فى عقاب عاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ » بالطاعة « كَمَنْ بَاءَ » رجع « بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ » بسبب المعاصى كالغالّ ومن شاكله « وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ » أى طبقات متفاوتة ، تشبيه بليغ ، ووجهه ما بينهم من تباين الأحوال فى الثواب والعقاب ، كالدرجات فى تفاوتها علوًّا وسفلًا .

قال القاشانىّ : أى كل من أهل الرضا وأهل السخط ذوو درجات متفاوتات ، أو هم مختلفون اختلاف الدرجات .

« وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« لَقَدْ مَنَّ اللّهُ » أى أنعم « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى من جنسهم ، عربيًّا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته ، والانتفاع به . ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خُصوا بالذكر ، وإلا فبعثته صلى الله عليه وسلم إحسان إلى العالمين ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(١) . « يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » يعنى القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية ، لم يطرق أسماعهم شيء من الوحى « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى القرآن « وَالْحِكْمَةَ » أى السنة « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وتزكيته « لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ظاهر من عبادة الأوثان ، وأكل الخبائث ، وعدوان بعضهم على بعض ، وسواها ، فنقلوا ببعثته ﷺ من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم فى العلم والزهد والعبادة ، فعظمت المنة لله تعالى عليهم بذلك . قال الرازى : وفى قوله تعالى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وجه آخر من المنة ، وذلك لأنه صار شرفاً للعرب ، وفخراً لهم ، كما قال سبحانه: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ(٢) . وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه بين اليهود والنصارى والعرب ، ثم إن الأولين كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل. فما كان للعرب ما يقابل ذلك . فلما بعث الله محمداً ، وأنزل عليه القرآن ، صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف جميع الأمم اهـ .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٤٤] .

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذى أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم وبسبب أعمالهم فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا »الهمزة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحُد ، أو على محذوف مثل : أفعلتم كذا وقلتم . و« لما » ظرفه المضاف إلىأصابتكم ، أى حين أصابتكم مصيبة ، وهى قتل سبعين منكم يوم أُحُد ، والحال أنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين: من أين هـذا أصابنا وقدوعدنا الله النصر « قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » أى مماقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز ، فإن الوعـد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة . قال ابن القيم : وذكر سبحانه هذا بعينه فيماهو أعم من ذلك فى السورة المكية فقال : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ[١] . وقال : وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ[٢] فالحسنة والسيئة ههنا النعمة والمصيبة ، فالنعمة من الله منّ بها عليك ، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك ، فالأول فضله ، والثانى عدله ، والعبد يتقلب بين فضله وعدله ، جارٍ عليه فضله ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه . وختم الآية الأولى بقوله « إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » بعد قوله : قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ . إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله ، وأنه عادل قادر ، وفىذلك إثبات القدر والسبب.فذكرالسببوأضافه إلىنفوسهم، وذكر عمومالقدرة وأضافها إلىنفسه ، فالأول

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] . . . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا .

ينفي الجبر ، والثاني ينفي القول بإبطال القدر ، فهوشا كل قوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١) وفي ذكر قدرته ههنا نكتة لطيفة ، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته ، وأنه هو الذي لوشاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ، ولا تتكلوا على سواه . وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أُحُد « فَبِإِذْنِ اللهِ » أي فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار ، فالإذن هنا هو الإذن الكونيّ القدريّ ، لا الشرعيّ الدينيّ ، كقوله في السحر : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ (٢) . ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير بقوله : وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) [٨١ / التكوير / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٢] ونصها : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » أى ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً « وَقِيلَ لَهُمْ » عطف على (نافقوا) داخل معه فى حيز الصلة. أو كلام مبتدأ « تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا » يعنى إن لم تقاتلوا لوجه الله تعالى فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأموالكم « قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ » أى لكنه ليس إلا إلقاء النفس فى التهلكة « هُمْ » أى بهذا القول « لِلْكُفْرِ » فى الظاهر « يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ » فى الظاهر مع أنه لا إيمان لهم فى الباطن أصلاً .

فائدتان :

الأولى ـ قال ابن كثير : استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر ، وفى حال أقرب إلى الإيمان .

الثانية ـ قال الواحدىّ : هذه الآية دليل على أن من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر، ولم يطلق القول بتكفيره . لأنه تعالى لم يطلق القول بكفرهم ، مع أنهم كانوا كافرين ، لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله ـ انتهى .

« يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » أى يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وقوله « بِأَفْوَاهِهِمْ » تأكيد على حدّ : وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ(٢) . « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » .

---

(١) [٦/ الأنعام/٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ » أى من أجل أقاربهم من قتلى أُحُد « وَقَعَدُوا » أى والحال قد قعدوا عنهم خذلاناً لهم « لَوْ أَطَاعُونَا » أى فى الرجوع « مَا قُتِلُوا » كما لم نقتل « قُلْ » كأنكم تزعمون ادعاء القدرة على دفع الموت « فَادْرَءُوا » أى ادفعوا « عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » أى فإنها أقرب إليكم من أنفسهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أن الموت يغنى منه حذر ، والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم، لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود ، مع كتابته عليكم ، فإن ذلك مما لا سبيل إليه .

قال ابن القيّم : وكان من الحكمة تقديره تعالى فى هذه الواقعة تكلم المنافقين بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم، وجوابه لهم ، وعرفوا موادّ النفاق ، وما يؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة . فلله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف ، وإرشاد وتنبيه ، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا » كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذّرون الناس منه ، ليس مما يحذر ، بل هو من أجلّ المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون ، إثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى ، أى لا تحسبنهم أمواتاً تعطلت أرواحهم « بَلْ » هم « أَحْيَاءٌ » فوق أحياء الدنيا لأنهم مقربون « عِنْدَ رَبِّهِمْ »

إذ بذلوا له أرواحهم ، لا بمعنى بقاء أرواحهم ورجوعها إليه ، لمشاركة أرواح غيرهم في ذلك، بل بمعنى أنهم « يُرْزَقُونَ » رزق الأحياء ، لا رزقاً معنويًّا ، بل حقيقيا . كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال[1] : لما أصيب إخوانكم بأُحُد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش . فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله عزّ وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الخ. هكذا رواه الإمام أحمد ؛ ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه . وأخرج مسلم[2] عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... » الخ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

وروى الإمام أحمد[3] عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشهداء على بارق ـ نهر بباب الجنة ـ فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية ـ تفرد به أحمد ـ ورواه ابن جريج بإسناد جيد .

قال ابن كثير : وكأنّ الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

من يكون على هذا النهر بباب الجنة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هـذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح ـ والله أعلم ـ ثم قال : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد[١] حديثاً فيه البشارة لـكل مؤمن بأن روحه تـكون فى الجنة تسرح أيضاً فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعدّ الله لها من الـكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمـد بن إدريس الشافعىّ رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحىّ رحمه الله عن الزهرىّ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنمـا نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه . قوله : يعلق أى يأكل . وفى هذا الحديث أن روح المؤمن تـكون على شـكل طائرٍ فى الجنة ، وأما أرواح الشهداء ، فـكما تقدم ، فى حواصل طير خضر ، فهى كالـكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الـكريم المنان ، أن يميتنا على الإيمان ـ انتهى ـ .

تنبيه :

قال الواحدىّ : الأصح فى حياة الشهداء ، ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، من أن أرواحهم فى أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون .

وقال البيضاوىّ : الآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعـالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . الآية[٢] ـ . وحديث : أرواح الشهداء فى أجواف طير .. الخ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

قال الشهاب : يعنى ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة ، بل هو فى الحقيقة النفس المجردة ، وإطلاقه على البدن لشدة التعلق بها ، وهى جوهر مدرك لذاته ، أى من غير احتياج إلى هذا البدن ، لوصفه بعد مفارقته بالتنعم ونحوه ـ انتهى .

وقال أبو السعود : فى الآية دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه . ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول: المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيورًا خضرا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر ـ انتهى .

وقد أسلفنا فى سورة البقرة ، فى مثل هذه الآية، زيادة على ذلك. فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

«فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعنى بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان الذين لا يغتم فيه بسلبه «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ» أى بإخوانهم المجاهدين الذين «لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ» لم يقتلوا فيلحقوا بهم «مِنْ خَلْفِهِمْ» متعلق بـ« يَلْحَقُوا » والمعنى : أنهم بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم . أو لم يلحقوا بهم : لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» بدل من (الذين) ، بدل اشتمال مبين أن استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم ، والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين. وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة ، بشّرهم الله بذلك ، فهم مستبشرون به. وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل الشهداء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » أى يسرون بما أنعم الله عليهم ، وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ، وتوفير أجرهم عليهم .

قال أبو السعود : كرّر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة ، لا يقادر قدرها ، وهى ثواب أعمالهم . ثم قال : والمراد بالمؤمنين : إما الشهداء ، والتعبير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان ، وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة . وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ، ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم ، وعدّت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين ـ انتهى ـ .

وقال ابن القيّم : إن الله تعالى عزّى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : وَلَا تَحْسَبَنَّ ... الآيات ـ فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته ، وذكرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو أعظم مننه ، ونعمه عليهم ، التى قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية تلاشت فى جنب هذه المنة والنعمة ، ولم يبق لها أثر البتة ، وهى منّته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال الذى كانوا فيه قبل إرساله ، إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم . فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له ، أمر يسير جداً فى جنب الخير الكثير . كما ينال الناس بأذى المطر ، فى جنب ما يحصل لهم به من الخير . وأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ، ليحذروا ، وأنها بقضائه

وقدره ليوحدوه ويتـكلوا عليه ، ولا يخافوا غيره . وأخبرهم بماله فيها من الحكم ، لئلا يتهموا فى قضائه وقدره ، وليتعرف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه . وسلّاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً وأعظم خطراً ممـا فاتهم من النصر والغنيمة ، وعزّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته ، لينافسوا فيه ، ولا يحزنوا عليهم ، فله الحمد كما هو أهله ، وكما ينبغى لـكرم وجهه ، وعز جلاله .

ثم قال ابن القيّم : ولـما انقضت الحرب ، انـكفأ المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذرارىّ والأموال ، فشق ذلك عليهم ، فقال النبىّ ﷺ لعلىّ بن أبى طالب : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن هم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده! لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزهم فيهـا . قال علىّ : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجهوا مكة . ولـما عزموا على الرجوع إلى مكة ، أشرف على المسلمين أبو سفيان ، ثم ناداهم : موعدكم الموسم ببدر . فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : قولوا نعم قد فعلنا . قال أبو سفيان : فذلـكم الموعد . ثم انصرف هو وأصحابه . فلما كان فى بعض الطريق ، تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً ! أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لـكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم ، وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبىّ : أركب معك ، قال : لا . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ، وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله وقال : يا رسول الله ! إنى أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته فَأْذن لى أسير معك ، فأذن له ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، وأقبل

معبدبن أبي معبد الخزاعيّ إلىرسول‌الله صلى الله عليه وسلم فأسلم. فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله ، فلحقه بالروحاء ـ ولم يعلم بإسلامه ـ فقال : ما وراءك يامعبد ؟ فقال : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم . فقال : ما تقول ؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة ، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم ، قال : فلا تفعل ، فإني لك ناصح . فرجعوا على أعقابهم إلى مكة ـ انتهى ـ وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » أي دعوة الله ورسوله إلى الخروج في طلب أبي‌سفيان إرهاباً له «مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ» بأُحُد « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ » بطاعته « وَاتَّقَوْا » مخالفته « أَجْرٌ عَظِيمٌ » روى البخاريّ(١) عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية قالت لعروة : يا ابن أختي ! كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما. لما أصاب نبيّ الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : من يذهب في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلًا فيهم أبو بكر والزبير ، قال ابن هشام(٢) : ولما ثنى معبد أبا سفيان ومن معه، كما تقدم ، مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٢٥ ـ باب الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ .

(٢) السيرة الصفحة ١٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) وصفحة ٥٩٠ (طبعة جوتنجن) .

قالوا : نريد المدينة ؛ قال : ولمَ ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمرّ الركب برسول الله صلى عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله تعالى فى ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

«الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» أى الركب المستقبل لهم «إِنَّ النَّاسَ» أى أبا سفيان وأصحابه « قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » أى الجموع ليستأصلوكم « فَاخْشَوْهُمْ » ولا تأتوهم « فَزَادَهُمْ » أى ذلك القول « إِيمَانًا » أى تصديقاً بالله ويقيناً . والمعنى : أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا ، بل ثبت به عزمهم على طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه . وفى الآية دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاناً ، فإن ازدياد اليقين بتناصر الحجج ، وكثرة التأمل، مما لا ريب فيه « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ » أى كافينا أمرهم من غير عدة لنا ولا عدد « وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » أى الموكول إليه والمفوض إليه الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

« فَانْقَلَبُوا » أى رجعوا من حمراء الأسد « بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » يعنى : العافية وكمال الشجاعة وزيادة الإيمان والتصلب فى الدين « لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى لم يصبهم قتل

ولا جراح « وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ » أى فى طاعة رسوله بخروجهم وجراءتهم « وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » حيث تفضل عليهم بالعافية وما ذكر معها ، وبالحفظ عن كل ما يسوؤهم. وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به .

فائدة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » استحباب هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة .

تنبيه :

حمل الآية على غزوة حمراء الأسد ، هو ماقاله الحسن وقتادة وعكرمة وغير واحد . وروى أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى . قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فى قوله تعالى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ . . . » الآية ـ أن أباسفيان قال، لما انصرف من أُحُد : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا ! فقال النبىّ ﷺ : عسى ! فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً ، فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ، فذلك قوله تعالى « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ . . . » الآية ـ قال : وهى غزوة بدر الصغرى ـ رواه ابن جرير ـ وأخرج أيضاً عن ابن جريج قال: لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان ، فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم (يكيدونهم بذلك ، يريدون أن يرعبوهم) فيقول المؤمنون « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » حتى قدموا بدراً ، فوجدوا أسواقها عافية ، لم ينازعهم فيها أحد .

وروى البيهقىّ عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ » قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرًا مرت فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالًا ، فقسمه بين أصحابه .

قال ابن القيّم فى (الهدى) : إن أباسفيان قال عند انصرافه من أُحُد : موعدكم وإيانا العام القابل ببدر ، فلما كان شعبان ، وقيل ذو القعدة من العام القابل ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه علىّ ابن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، فانتهى إلى بدر ، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين ، وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة، وهم ألفان، ومعهم خمسون فرساً، فلما انتهوا إلى مَرّ الظهران ، مرحلة من مكة ، قال لهم أبو سفيان : إن العام عام جدب ، وقد رأيت أن أرجع بكم. فانصرفوا راجعين ، وأخلفوا الموعد ، فسميت هذه بدر الموعد ، وتسمى بدر الثانية ـ انتهى ـ .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية نزلت فى شأن غزوة حمراء الأسد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ » أى قول الشيطان « يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ » أى يخوفكم بقوله أولياءه الكفار، وحينئذ فأولياءه ثانى مفعولى يخوف، والأول محذوف، أى يخوفكم أولياءه، كما قرئ كذلك ، وقيل : لا حذف فيه ، والمعنى يخوف من يتبعه ، فأما من توكل على الله فلا يخافه « فَلَا تَخَافُوهُمْ » أى أولياءه «وَخَافُونِ» فى مخالفة أمرى ورسولى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله . وقرئ فى السبع « يُحْزِنك » بضم الياء وكسر الزاى

« إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً » قال عطاء : يريد أولياء الله . نقله الرازىّ . قال أبو السعود: تعليل للنهى ، وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبداً ، أى لن يضروا بذلك أولياء الله البتة . وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه ، وفيه مزيد مبالغة فى التسلية .

وقال المهايمىّ : أى لن يضروا أولياء الله ، لأنهم يحميهم الله ، فلو أضروهم لأضروا الله بتعجيزهم إياه عن حمايتهم ، ولا يمكنهم أن يعجزوه شيئاً بل « يُرِيدُ اللهُ » أن يضرهم الضرر الكلىّ وهو « أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ » أى نصيباً من الثواب فى الآخرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية أنه لا يجب الاغتمام من معصية العاصين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا » أى استبدلوا « الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً » فيه تعريض ظاهر باقتصار الضرر عليهم ، كأنه قيل : وإنما يضرون أنفسهم . فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه ، إما بأخذه بدلًا من الإيمان الحاصل بالفعل ، كما هو حال المرتدين ، أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة ، كما هو شأن اليهود ومنافقيهم . فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ، ببيان علته ، بتغيير عنوان الموضوع ، فإن ما ذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم ، وعدم تعديه إلى غيرهم أصلا ، كيف وهو علم فى الخسران الكلىّ ، والحرمان الأبدىّ ، دال على كمال سخافة عقولهم ، وركاكة آرائهم ، فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ، ورزانة الرأى ، ورصانة

التدبير ، من مضارة حزب الله تعالى ، وهى أعز من الأبلق الفرد ، وأمنع من عقاب الجو . وإن أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له ، الحاصل بمشاهدة الوحى الناطق ، وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس ، كما هو دأب جميع الكفرة ، فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا للقواعد الكلية ، لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام ـ أفاده أبو السعود ـ ثم قال : وقوله تعالى « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم ، بذكر غاية إيلامه ، بعد ذكر نهاية عظمه ، قيل : لما جرت العادة باغتباط المشترى بما اشتراه ، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة ، وبتألمه عند كونها خاسرة ، وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك ـ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » أى بتطويل أعمارهم وإمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا « خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » بل هو سبب مزيد عذابهم ، لأنه « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » بكثرة المعاصى فيزدادوا عذاباً « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ مُهِينٌ » ذو إهانة فى أسفل دركات النار .

لطائف

الأولى :

فى (ما) ـ من قوله تعالى « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » الأولى ـ وجهان : أن تكون مصدرية أوموصولة ، حذف عائدها . أى إملاؤنا لهم أو الذى نمليه لهم .

الثانية :

كان حق (ما) فى قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ، ولكنها وقعت فى الإمام متصلة ، فلا يخالف ، وتتبع سنة الإمام فى خط المصاحف .

الثالثة :

(ما) الثانية فى « إِنَّمَا نُمْلِى » الخ متصلة لأنها كافّة .

الرابعة :

فى قوله تعالى « مُهِينٌ » سر لطيف ، وهو أنه لما تضمن الإملاء التمتيع بطيبات الدنيا وزينتها ، وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر ، وصف عذابهم بالإهانة ، ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقاً .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد ، وهو أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب . فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت ، دخل معهم فى الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبّب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ، فأطلع المنافقون رؤوسهم فى هذه الغزوة ، وتكلموا بما كانوا يكتمونه ، وظهر مخبآتهم ، وعاد تلويحهم صريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا ، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا فى نفس دورهم ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ » أى يترك « الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » من الالتباس

بالمنافقين ، بل لا يزال يبتليكم «حَتَّىٰ يَمِيزَ »المنافق« الْخَبِيثَ مِنَ » المؤمن «الطَّيِّبِ وَ » لا يميز إلا بهذا الابتلاء لأنه « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » أى الذى يميز به ما فى قلوب الخلق من الإيمان والكفر « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ » باطلاعه على الغيب ، كما أوحى إلى النبىّ ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال ، حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من سوء جوارهم .

قال ابن القيّم : هذا استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب ، كما قال(١) « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ » فحظكم أنتم وسعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة، كما قال تعالى « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » الذين اجتباهم للاقتداء بهم فى الاعتقادات والأعمال « وَإِنْ تُؤْمِنُوا » فتصححوا الاعتقادات « وَتَتَّقُوا » فتصلحوا الأعمال « فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » وههنا :

لطائف

الأولى :

فى التعبير عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث تسجيل على كل منهما ، بما يليق به ، وإشعار بعلة الحكم .

الثانية :

إفراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكثره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع ، للإيذان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادها ، كما فى مثل قوله تعالى « ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ

(١) [٧٢ / الجن / ٢٦و٢٧] . . . فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.

أَلَّا تَعُولُوا »[١] ونظيره قوله تعالى « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »[٢] حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم .

الثالثة :

تعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق ، مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وإفرازهم عن المنافقين، لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف فى المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى ، مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان ، وإن ظهر مزيد إخلاصهم ، لا بالتصرف فيهم ، وتغييرهم من حال إلى حال أخرى ، مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ، ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه فى قوله تعالى « وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »[٣] .

الرابعة :

إنما لم ينسب عدم الترك إليهم ، لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب إليه ، فإن المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة ، كما يشهد به الذوق السليم .

---

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢] ونصها : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الخامسة :

التعرض للاجتباء فى قوله « يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ ... » الخ للإيذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية ، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل ، تقاصرت عنه همم الأمم ، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم ، وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب أمر متين ، له أصل أصيل ، جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل عليهم السلام .

السادسة :

تعميم الأمر فى قوله تعالى « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهانىّ ، والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل ، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام ، فيدخل فيه تصديقه فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولًا أوليًّا .

هذا ما اقتبسناه من تفسير العلامة أبى السعود رحمه الله . وقد استقرب حمل هذه الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريته لهم . فالمعنى : ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبداً كما تركهم كذلك إلى الآن ، لسر يقتضيه ، بل يفرز عنهم المنافقين ، ولذلك فعله يومئذ ، حيث خلى الكفرة وشأنهم ، فأبرز لهم صورة الغلبة ، فأظهر من فى قلوبهم مرض ، ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤوس الأشهاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ » اعلم أنه تعالى لما بالغ فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى الآيات المتقدمة ، شرع ههنا فى التحريض على بذل المال فى سبيل الله ، وبيّن الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه ، وإيراد ما بخلوا به بعنوان (إيتاء الله تعالى إياه من فضله) للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم ، فإن ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ[1] . « بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ » لاستجلاب العقاب عليهم ، والتنصيص على شريته لهم ، مع انفهامها من نفى خيريته، للمبالغة فى ذلك . والتنوين للتفخيم « سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » بيان لكيفية شرية مآل ما بخلوا به . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعيد على طريق التمثيل ، أى سيلزمون وبال ما بخلوا به لزوم الطوق . وذهب آخرون إلى أنه على ظاهره ، وأنه نوع من العذاب الأخروىّ المحسوس . وأيدوه بما روى البخارىّ[2] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ... » إلى آخرها .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] ونصها : ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة، ٣ـ باب إثم مانع الزكاة ، حديث٧٤٦.

وروى الإمام أحمد[١] والنسائىّ عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثّل الله عز وجل له مالَه يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، ثم يلزمه يطوّقه يقول : أنا كنزك ، أنا كنزك .

وروى الإمام أحمد[٢] والترمذىّ والنسائىّ وابن ماجه عن عبدالله بن مسعود عن النبىّ ﷺ قال : لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه ، يفرّ منه وهو يتبعه ، فيقول : أنا كنزك . ثم قرأ عبد الله مصداقه فى كتاب الله : سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قال الترمذىّ : حسن صحيح .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان عن النبىّ ﷺ قال: من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يتبعه . فيقول: من أنت ويلك؟ فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ، ثم يتبع سائر جسده . قال الحافظ ابن كثير : إسناده جيد قوىّ ، ولم يخرجوه ، وقد رواه الطبرانىّ عن جرير بن عبدالله البجلىّ . ورواه ابن جرير[٣] والحافظ ابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : لا يأتى رجل مولاه فيسأله من فضل مال عنده ، فيمنعه إياه ، إلا دُعِىَ له يوم القيامة شجاعٌ يتلمظ فضله الذى منع .

وروى ابن جرير[٤] مرفوعاً : ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا أخرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه . ورواه أيضاً موقوفاً ومرسلاً .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٩٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٧٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
(٣) تفسير الطبرىّ ، الأثر ٨٢٨٤ .
(٤) تفسير الطبرىّ ، الأثر ٨٢٨٢.

والشجاع (كغراب وكتاب): الحية مطلقاً ، أو الذكر منها ، أو ضرب منها دقيق، وهو أجرؤها ـ كذا فى القاموس وشرحه ـ .

ثم أشار تعالى إلى أنهم ، وإن لم ينفقوا أموالهم فى سبيله ، فهى راجعة إليه بقوله « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره ، فما لهم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله . ونظيره قوله تعالى: وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ(١) فالميراث على هذا على حقيقته ، أو المعنى : أنه يفنى أهل السموات والأرض ويصير أملاك أهلهما بعد فنائهم إلى خالص ملكه ، كما يصير مال المورث ملك الوارث ، فجرى ما هنا مجرى الوراثة ، إذ كان الخلق يدعون الأملاك ظاهراً ، وإلّا فالكل له ، وعلى هذا فهو مجاز .

قال الزجاج رحمه الله : أى أن الله تعالى يفنى أهلهما ، فيفنيان بما فيهما ، فليس لأحد فيهما ملك ، فخوطبوا بما يعلمون ، لأنهم يجعلون، ما يرجع إلى الإنسان ميراثاً، ملكاً له « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فيجازيكم على المنع والبخل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨١] (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » روى الحافظان ابن مردويه وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً(٢) . قالت اليهود : يا محمد ! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

وروى محمد بن إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال[(١)] : دخل أبو بكر الصديق بيت المِدْراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له (أشيع) فقال له أبوبكر : ويحك يافنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عنـد الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضى الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ! لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ! أبصر ما صنع بى صاحبك . فقال رسـول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولًا عظيماً . يزعم أن الله فقير وأنهم عنـه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله ممـا قال ، فضربت وجهه . فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلتُ ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ . . . »[(٢)] الآية ـ ولما كان مثل هذا القول ، سواء كان عن اعتقاد ، أو استهزاء بالقرآن والرسول ـ وهو الظاهر ـ لا يصدر إلا عن تمرد

= و [٥٧ / الحديد / ١١] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٠٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

عظيم لكونه فى غاية العظم والهول ، أشار إلى وعيده الشديد بقوله « سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا » أى ما قالوه من هذه العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة « وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ » إنما نظم مع ما قبله إيذاناً بسوابقهم القبيحة ، وأنه ليس أول جريمة ارتكبوها ، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه هذا الكلام « وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

« ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، بسبب هتكهم حرمة الله ، وحرمة كلامه وأنبيائه المبلغين له .

لطائف

الأولى :

إيراد صيغة الجمع فى الآية مع كون القائل واحداً ، كما روى ، لرضا الباقين بذلك ، ونظائره فى التنزيل كثيرة .

الثانية :

إضافة عذاب الحريق بيانية . أى العذاب الذى هو الحريق .

الثالثة :

الذوق إدراك الطعوم ، ثم اتسع فيه لإدراك سائر المحسوسات والحالات ، وذكره ههنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشىء عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال ـ أفاده البيضاوى ـ .

الرابعة :

تقديم الأيدى عملها ، لأن من يعمل شيئاً يقدمه ، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من حيث

أن عامة أفاعيلها إنما تزاول بهنّ ، فهو من قبيل التعبير عن الكل بالجزء الذى مدار جلّ العمل عليه .

الخامسة :

إن قيل « ظلّام » صيغة مبالغة من الظلم، تفيد الكثير ، ولا يلزم من نفى الظلم الكثير نفى الظلم القليل ، فلو قيل : بظالم ، لكان أدل على نفى الظلم قليله وكثيره . فالجواب عنه من أوجه :

أحدها ـ أن الصيغة للنسب من قبيل (بزّاز) و (عطّار) لا للمبالغة ، والمعنى لاينسب إلى الظلم .

الثانى ـ أن (فعّالا) قد جاء . لا يراد به الكثرة ، كقول طَرَفَة(١) :

ولستُ بحـلَّال التِّلاعِ مخافةً ولـكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ

لا يريد ههنا أنه قد يحلّ التلاع قليلًا ، لأن ذلك يدفعه قوله : متى يسترفد القوم أرفد . وهذا يدل على نفى البخل فى كل حال ، ولأن تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة .

والثالث ـ أن المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظلّام لعبيده ، فالصيغة للمبالغة كمًّا لا كيفاً .

(١) من معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

لخولة أطـلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

قال التبريزىّ : التلاع مجارى الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية . والمعنى : إنى لست ممن يستتر فى القلاع . أى لا أنزلها مخافة فتوارينى من النـاس حتى لا يرانى ابن السبيل والضيف . ولـكن أنزل الفضاء وأرفد من يسترفدنى وأعين من استعاننى . والرفد العطية . والرفد المعونة .

و (مخافة) ينتصب على أنه مفعول له ، أو على المصدر .

الرابع ـ أنه إذا نفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل ضرورة . لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم ، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان للظلم القليل المنفعة أترك .

الخامس :

إن المبالغة لتأكيد معنى بديع ، وذلك لأن جملة : وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ـ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها ، أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم . والتعبير عن ذلك بنفى الظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم ، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها . وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا » نصب بتقدير (أعنى) أو رفع على الذم بتقدير (هُمُ الذين قالوا) : «إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا » أى أمرنا « أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ » أى تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لكذبهم « قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ » أى المعجزات الواضحة « وَبِالَّذِي قُلْتُمْ » بعينه من تشريع القربان الذى تأكله النار « فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ » أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » أى بعد بطلان عذرهم المذكور « فَقَدْ كُذِّبَ » أى فلا تحزن وتسلَّ فقد كذب « رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » جمع زبور أى الكتب الموحاة منه تعالى « وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » أى الواضح الجلىّ . والزبور والكتاب : واحد فى الأصل ، وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين . فالزبور فيه حكم زاجرة ، والكتاب المنير هو المشتمل على جميع الشريعة .

فائدة

فى قربان أهل الكتاب وتشريعه عندهم

اعلم أن القربان (بضم القاف) معناه ، لغةً ، ما يتقرب به إلى الله تعالى وسيلةً لمرضاته . قال فى مرشد الطالبين : كانت ذبائح العبرانيين عديدة جداً ، وكان المستعمل لهذه الذبيحة ، بتعيين الله ، الثيران والنعاج والمعز والحمام واليمام . وكانت الذبائح نوعين عامين : إحداهما كانت تقرب لتكفير الخطايا ، والأخرى شكراً لله على مراحمه وبركاته .

ثم قال : فالذبيحة اليومية كانت مشهورة جداً ، وهى خروف بلا عيب ، يقدم وقوداً لله كفارة للخطايا ، وذلك مرتان صباحاً ومساءً ، طول مدة السنة ، فالتى فى الصباح تقدم عن خطايا الشعب ليلًا ، والتى فى المساء عن خطاياهم نهاراً . وقبل فعل الذبيحة تعترف كل الشعوب بخطاياها فوق الحيوان المراد ذبحه على يد الكاهن الخادم ، وبهذا كان ينقل الإثم إليه بواسطة وضع وكلاء الشعب أيديهم على رأسه ، ثم يذبح ويقرب وقوداً . وفى غضون ذلك تسجد الجماعة فى الدار ، وتبخر الكهنة على المذابح الذهبية ، ويقدمون الطلبات لله عن الشعب . وأما فى يوم السبت ، فكانت تتضاعف الذبيحة ، ويقرب فى كل دفعه خروفان .

ثم قال : يوم الكفارة كان ممتازاً بالذبيحة السنوية ، وهى أنه بعد أن يقرب الكاهن ثوراً كفارة لخطايا عائلته يقرب ما عزان كفارة لخطايا الشعب ـ انتهى ـ .

وقدأشير لكيفية ذبح القربان وحرقه فى مواضع من التوراة. منها سفر الخروج فى الفصل التاسع والعشرين ، ومنها فى الفصل الأول من سفر الأحبار المسمين باللاويين ونصه : ودعا الرب موسى وخاطبه من خباء المحضر قائلًا : خاطب بنى إسرائيل وقل لهم: أى إنسان منكم قرب قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم يقربون قرابينهم إن كان قربانه محرقة من البقر ، فذكرا صحيحاً يقربه عند باب خباء المحضر يقربه للرضوان عنه ، ويضع يده على رأس المحرقة، ويترضى به ليغفر له ، ثم يذبح الثور ويقرب الكهنة بنو هرون الدم وينضحون الدم على المذبح، وماأحاط به فى باب قبة الشهادة ـ يعنى التابوت الذى كان فيه لوحا التوراة المسماة شهادة ـ ثم يسلخون المحرقة ، ويقطعونها قطعاً ، ثم يوقدون ناراً على المذبح، وينضدون الحطب على النار، ثم يجعلون الأعضاء المقطعة الرأس والشحم على الحطب الذى على النار على المذبح ، ويغسلون أكارعه وجوفه بالماء ، ثم يصعده الكاهن ويجعله على المذبح وقوداً وقرباناً لرضا الرب ...الخ .

وفى الفصل السادس من سفر الأحبار : وكلم الرب موسى قائلًا : مُرْ هرون وبنيه ، وقل لهم : هذه شريعة المحرقة ، تكون المحرقة على وقيدة المذبح طول الليل إلى الغداة ، ونار المذبح متقدة عليه ، ويلبس الكاهن قميصه من الكتان ، وسراويلات من الكتان على بدنه ، ويرفع الرماد الذى آلت إليه نار المحرقة على المذبح ، ويجعله إلى جانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثياباً أخر ، ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى موضع طاهر ، وتبقى النار على المذبح متقدة لا تطفأ ، ويضع عليها الكاهن حطباً فى كل غداة ... الخ .

قال بعضهم : زعم الربانيون أن النار التى كانت فى هيكل سليمان ، والتى أمر اليهود بحفظها دون أن تطفأ البتة ، كان أصلها من النار التى نزلت من السماء بعد تقدمة هرون وأبنائه المحرقات ، وأنها بقيت إلى أيام خراب الهيكل على يد بختنصر ، إلا أنه ليس فى التوراة ما يصرح بذلك ـ انتهى ـ

وهذه النار التى نزلت من السماء جاء ذكرها فى الفصل التاسع من سفر الأحبار وملخصه: أن موسى أمر هرون عليهما السلام أن يذبح قربانا ، فذبح عجلا وأحرق لحمه وجلده خارج المحلة ، وأما شحمه وكليتاه وزيادة كبده فقترها على المذبح ، ثم قرب تيسا وثورا وكبشا بكيفية خاصة ، ثم دخل موسى وهرون خباء المحضر ، فخرجت نار من عند الرب ، فأكلت المحرقة والشحوم التى على المذبح ، فنظر جميع الشعب وهتفوا مسبحين وسجدوا ـ انتهى ـ

إذا علمت ذلك ، فقوله تعالى « تَأْكُلُهُ النَّارُ » بمعنى أنه يذبح على الكيفية المعروفة ، ثم تنزل نار من السماء فتأكله ، وتكون معجزة وآية كما حصل فى عهد موسى وهرون من نزول النار وأكلها المحرقة ، كما ذكرنا . وفى عهد سليمان أيضا . فقد جاء فى الفصل التاسع من سفر أخبار الأيام الثانى : أن سليمان لما أتم الدعاء هبطت النار من السماء وأكلت المحرقة والذبائح ، وكان جميع بنى إسرائيل يعاينون هبوط النار ـ انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » كقوله : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [١] . وفى هذه الآية تعزية لجميع الناس ، ووعد ووعيد للمصدق والمكذب « وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى تعطون جزاء أعمالكم وافيا يوم القيامة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . قال الزمخشرىّ : فإن قلت : فهذا يوهم نفى مايروى أن القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ! [٢] قلت : كلمة التوفية تزيل هذا

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦و٢٧] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى ٣٥ ـ كتاب القيامة، ٢٦ ـ باب حدثنا محمد بن أحمد بن مدويه =

الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور .

وقال الرازىّ : بيّن تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهى مكدرة بالغموم والهموم ، وبخوف الانقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع .

= ونصه : عن أبى سعيد قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكشرون . قال « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت . فأكثروا ذكر هادم اللذات ، الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود .

فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا . أما إن كنتَ لَأَحَبَّ من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذ وليتك اليومَ وصرتَ إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال: فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة .

وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر فقال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا . أما إن كنتَ لأبغض من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذ وليتك اليوم وصرت إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال: فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه .

قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه . فأدخل بعضها فى جوف بعض .

قال : ويقيض الله له سبعين تنينا ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا .

فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب .

قال: قال رسول الله ﷺ « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وكذا القول فى العقاب ، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحات وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقى هو الذى يكون يوم القيامة ، نعوذ بالله منه. « فَمَنْ زُحْزِحَ » أى أبعد «عَنِ النَّارِ» التى هى مجمع الآفات والشرور «وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ» الجامعة للّذات والسرور « فَقَدْ فَازَ » أى حصل الفوز العظيم ، وهو الظفر بالبغيـة ، أعنى النجاة من سخط الله والعذاب السرمد ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال(١): قال رسول الله ﷺ : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه . وأخرجه مسلم أيضا « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى لذاتها « إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » المتاع : ما يتمتع وينتفع به ، والغرور (بضم الغين) مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٦١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) . ونصه : عن عبد الرحمن بن عبد رب الـكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وهو جالس فى ظل الـكعبة . فسمعته يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر ، إذ نزل منزلا . فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جَشَرِهِ ومنا من ينتضل ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة . قال فاجتمعنا . قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال « إنه لم يكن نبىّ قبلى إلا دل أمته على ما يعلمه خيرًا لهم ، ويحذرهم ما يعلمه شرًّا لهم . وإن أمتكم هـذه جعلت عافيتها فى أولها . وإن آخرها سيصيبهم بلاء شديد وأمور تنكرونها . تجىء فتن يرقق بعضها لبعض . تجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلـكتى . ثم تنكشف . ثم تجىء الفتنـة فيقول المؤمن : هذه، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه .

ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » .

وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لما تمنّيه لذاتها من طول البقاء ، وأمل الدوام ، فتخدعه ثم تصرعه . قال بعض السلف : الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول. فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« لَتُبْلَوُنَّ » أى لتختبرن « فِي أَمْوَالِكُمْ » بما يصيبها من الآفات « وَأَنْفُسِكُمْ » بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد . وهذا كقوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ... إلى آخر الآيتين[1] ـ أى لا بد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده . أو أهله . وفى الحديث[2] : يبتلى المرء على قدر دينه . فإن كان فى دينه صلابة، زيد فى البلاء . « وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥و١٥٦] . . . ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٧ ـ باب ما جاء فى الصبر على البلاء ونصه : عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاءً ؟ قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، ما عليه خطيئة .

كَثِيرًا » بالقول والفعل « وَإِنْ تَصْبِرُوا » على ذلك « وَتَتَّقُوا » أي مخالفة أمره تعالى « فَإِنَّ ذَٰلِكَ » أي الصبر والتقوى « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أي من معزومات الأمور التي يتنافس فيها المتنافسون . أي مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيه من كمال المزية والشرف . أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه . يعني : أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى ، لابد أن تصبروا وتتقوا . وفي إبراز الأمر بالصبر والتقوى في صورة الشرطية، من إظهار كمال اللطف بالعباد، ما لا يخفى ـ أفاده أبو السعود .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب الصبر. وأن الجهاد لا يسقط مع سماع ما يؤذي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » وهم علماء اليهود والنصارى « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ » أي لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوته ﷺ . وفي قوله تعالى « وَلَا تَكْتُمُونَهُ » من النهي عن الكتمان، بعد الأمر بالبيان، مبالغة في إيجاب المأمور به « فَنَبَذُوهُ » أي الميثاق « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » أي طرحوه ولم يراعوه . ونبذُ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به ، والإعراض عنه بالكلية . كما أن جعله نصب العين علم في كمال العناية به « وَاشْتَرَوْا بِهِ » أي استبدلوا به « ثَمَنًا قَلِيلًا » أي شيئاً حقيراً من حطام الدنيا « فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » بتغيير كلام الله ونبذ ميثاقه .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانه ، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره . وقد تقدم هذا ، وإن المراد بذلك إذا لم يؤد إلى مفسدة . ويدخل في الكتم منع الكتب المنطوية على علم الدين حيث تعذر الأخذ إلا منها .

وقال العلامة الزمخشرىّ عليه الرحمة : كفى بهذه الآية دليلًا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخل بالعلم ، وغيرة أن ينسب إليه غيرهم ـ انتهى ـ .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ـ أخرجه الترمذىّ[1] ـ ولأبى داود[2] : من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ماحدثتكم بشىء . ثم تلا : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ... الآية .

لطيفة :

قال العلامة أبو السعود : فى تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ، لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة فى المأخوذ ، والإعراض عن المعطى ، والتعبير عن المشترى الذى هو العمدة فى العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إليه ، وجعل الكتاب الذى حقه أن يتنافس فيه المتنافسون ، مصحوباً بـ(الباء) الداخلة على الآلات والوسائل ـ من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنىء الحقير ، على الشريف الخطير ، وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلى وسيلة ، والوسيلة مقصداً ـ ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه ـ انتهى ـ

ثم أشار تعالى أنهم لا يرون قبح ذلك بل يفرحون به فقال :

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٩ ـ كتاب العلم ، ٣ ـ باب ما جاء فى كتمان العلم .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٤ ـ كتاب العلم ، ٩ ـ باب كراهية منع العلم ، حديث ٣٦٥٨ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » أى بما فعلوا من اشتراء الثمن القليل بتغيير كلام الله تعالى « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » من وفاء الميثاق من غير تغيير ولا كتمان « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ » أى بمنجاة « مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بكفرهم وتدليسهم.

روى الإمام أحمد[١] عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، أن مروان قال : اذهب يا رافع (لبوابه) إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس مالكم وهذه، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ـ إلى قوله : وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وقال ابن عباس : سألهم النبىّ ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه . وهكذا رواه البخارىّ فى التفسير، ومسلم والترمذىّ والنسائىّ فى تفسيريهما ، وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم فى مستدركه ، وابن مردويه بنحوه . ورواه البخارىّ[٢] أيضاً عن علقمة بن وقاص ، أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس ـ فذكره ـ وروى البخارىّ[٣] عن أبى سعيد الخدرىّ أن رجالًا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٩٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٨ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٧ .

إلى الغزو وتخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الآية ـ وكذا رواه مسلم بنحوه .

ولا منافاة بين الروايتين لأن الآية عامة في جميع ما ذكر ، ومعنى نزول الآية في ذلك وقوعها بعد ذلك ، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها . كما حققناه غير مرة .

تنبيه :

هذه الآية ، وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم ، ففيها ترهيب للمؤمنين عما ذم عليه أهلها من الإصرار على القبائح والفرح بها ومحبة المدح بما عرا عنه من الفضائل . ويدخل في ذلك المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين[1] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة . وفي الصحيحين[2] أيضاً : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور . فليحذر من يأتي بما لا ينبغي ويفرح به ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على الله تعالى .

فائدة :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني ، وفاعل الأول (الذين يفرحون) . وأما مفعولاه فمحذوفان اكتفاء بمفعولي « تَحْسَبَنَّهُمْ » لأن الفاعل

---

(١) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٦ (طبعتنا) ونصه :

عن ثابت بن الضحاك عن النبيّ ﷺ قال « ليس على رجل نذر فيما لا يملك . ولعن المؤمن كقتله . ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة . ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة . ومن حلف على يمين صبر فاجرة » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٦ ـ باب المتشبع بما لم ينل . ومسلم في : ٣٧ ـ كتاب اللباس ، حديث ١٢٦و١٢٧ (طبعتنا) .

فيهما واحد . فالفاعل الثانى تأكيد للأول، وحَسُنَ لما طال الكلام المتصل بالأول . والفاء زائدة ، إذ ليست للعطف ولا للجواب ، وثمت وجوه أخرى .

لطيفة :

تصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور، للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة ، وقطع أطماعهم الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة ، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية ، وعليه كان مبنى فرحهم . وأما نهيه صلى الله عليه وسلم فللتعريض بحسبانهم المذكور ، لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه الصلاة والسلام ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو قادر على عقابهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إيجادهما على ما هما عليه من الأمور المدهشة ، تلك فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع ، وثمار وحيوان، ومعادن ومنافع ، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تعاقبهما ، وكون كل منهما خلفة للآخر ، بحسب طلوع الشمس وغروبها ، أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه

بازدياده « لَآيَاتٍ » أى : لأدلة واضحةعلى الصانع وعظيم قدرته ، وباهرحكمته . والتنكير للتفخيم كمًّا وكيفاً ، أى كثرةعظيمة « لِأُولِي الْأَلْبَابِ » أى لذوىالعقول المجلوّة بالتزكية والتصفية بملازمة الذكر دائماً كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » أى فلايخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر فى تصفية الباطن . فالمراد تعميم الذكر للأوقات ، وعدم الغفلة عنه تعالى . وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ، ليس لتخصيص الذكر بها ، بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالباً « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إنشائهما بهذه الأجرام العظام ، وما فيهما من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلّهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ، فيعلموا أن لها خالقاً قادراً مدبراً حكيماً ، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها تعالى . كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

روى ابن أبىالدنيا فى (كتاب التوكل والاعتبار) عن الصوفىّ الجليل الشيخ أبى سليمان الدارانىّ قدس الله سره أنه قال : إنى لأخرج من منزلى ، فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله علىّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة . وإنما خصص التفكر بالخلق ، للنهى عن التفكر فى الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته .

خرّج ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن سلام : لا تفكروا فى الله ، ولكن تفكروا فيما خلق ، وله شواهد كثيرة .

قال الرازىّ : دلائل التوحيد محصورة فى قسمين : دلائل الآفاق ، ودلائل الأنفس ، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم ، كما قال تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (١) . ولما كان الأمر كذلك ، لا جرم أمر فى هذه الآية بالفكر فى خلق السموات والأرض ، لأن دلالتها أعجب ، وشواهدها أعظم ، وكيف لا نقول ذلك ، ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى فى تلك الورقة عرقاً واحداً ممتدًّا فى وسطها ، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين ، ثم يتشعب منها عروق دقيقة ، ولايزال يتشعب من كل عرق عروق أخر ، حتى تصير فى الدقة بحيث لا يراها البصر ، وعند هذا يعلم أن للخالق فى تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة ، وأسراراً عجيبة ، وأن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض ، ثم إن ذلك الغذاء يجرى فى تلك العروق ، حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة ، جزءٌ من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم. ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة ، وكيفية التدبير فى إيجادها ، وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها ، لعجز عنه . فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة ، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السموات ، مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم . وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان . عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء ، كالعدم . فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشىء الحقير ، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله فى خلق السموات والأرض ، وإذا عرف بهذا البرهان النيّر قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام ، لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين . بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة ، وأسرار عظيمة ، وإن كان لا سبيل إلى معرفتها ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا » على إرادة

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

القول ، بمعنى يتفكرون قائلين ذلك . وكلمة «هذا» متضمنة لضرب من التعظيم ، أى ما خلقت هـذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً ، عارياً عن الحـكمة ، خالياً عن المصلحة ، بل منتظماً لحـكم جليلة ، ومصالح عظيمة . من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ، ووجوب طاعتك ، واجتناب معصيتك ، وأن يكون مداراً لمعايش العباد ، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد .

لطيفة :

قال أبو البقاء : (باطلًا) مفعول من أجله . والباطل ، هنا ، فاعل بمعنى المصدر ، مثل العاقبة والعافية . والمعنى : ما خلقتهما عبثاً . ويجوز أن يكون حالًا . تقديره : ما خلقت هذا خالياً عن حكمة . ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلًا ـ انتهى ـ .

وقوله «سُبْحَانَكَ» أى تنزيهاً لك من العبث ، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال السيوطى : فيه استحباب هـذا الذكر عند النظر إلى السماء . ذكره النووى فى (الأذكار) اه . وفيه تعليم العباد كيفية الدعاء ، وهو تقديم الثناء على الله تعالى أولًا ، كما دل عليه قوله «سُبْحَانَكَ» ثم بعد الثناء يأتى الدعاء ، كما دل عليه « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجـلًا يدعو فى صلاته ، لم يمجد الله تعـالى ، ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : عجل هذا ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليـه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بعد بما شاء ـ رواه أبو داود[1] والترمذى وقال : حديث صحيح .

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى ، وأبدانهم فى طاعة الله ، وقلوبهم فى التفكر فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار ، ثم أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزى ، بقولهم :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث ١٤٨١ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (رَبَّنَآ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

«رَبَّنَآ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ» أى أهنته وأظهرت فضيحته لأهل الموقف. وسر هذا الإتباع عظم موقع السؤال ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ، كانت داعيته فى ذلك الدعاء أكمل ، وإخلاصه فى طلبه أشد ، والدعاء لا يتصل بالإجابة ، إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص ، وهـذا أيضاً تعليم من الله تعالى فناً آخر من آداب الدعاء «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ، ببيان خلود عذابهم ، بفقدان من ينصرهم ، ويقوم بتخليصهم . وغرضهم تأكيد الاستدعاء . ووضع (الظالمين) موضع ضمير المدخلين ، لذمهم ، والإشعار بتعليل دخولهم النـار بظلمهم ، ووضعهم الأشياء فى غير مواضعها . وجمع (الأنصار) بالنظر إلى جمع الظالمين ، أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار . والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر . فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة ، على أن المراد بالظالمين هم الـكفار ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

«رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً» حكاية لدعاء آخر لهم ، وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة ، والابتهال . والتأكيد للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة ، وكمال النشاط . والمراد بالمنادى الرسول ﷺ ، والتنوين للتفخيم ، وهذا كقوله تعالى : وَدَاعِياً إِلَى اللهِ [(١)] . وفى وصفه ﷺ بـ (المنادى) دلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوى وتبليغها إلى

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٦] ونصها : وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .

الدانى والقاصى ، لمـا فيه من الإيذان برفع الصوت « يُنَادِى لِلْإِيمَانِ » أى لأجل الإيمان بالله . فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين (المنادى) و (ينادى) ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ، ثم مقيداً بالإيمان ، تفخيماً لشأن المنادى ، لأنه لا منادى أعظم من منادٍ ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهادٍ يهدى للإسلام ، وذلك أن المنادى إذا أطلق ، ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ، ويهدى لسداد الرأى ، وغير ذلك . فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهدى للإسلام فقـد رفعت من شأن المنادى والهادى، وفخمته . ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه ، ونحوه : هداه للطريق وإليه . وذلك أن معنى انتهاء الغاية ، ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً ـ أفاده الزمخشرىّ ـ .

« أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » أى فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه ، و«أن» إما تفسيرية، أى آمنوا ، أو مصدرية ، أى : بأن آمنوا « رَبَّنَا » تكرير للتضرع ، وإظهار لكمال الخضوع « فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا » أى استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ، وأذهب عنا سيئاتنا بتبديلها حسنات « وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » أى معدودين فى جملتهم حتى نكون فى درجتهم يوم القيامة . والأبرار جمع بارّ أو برّ وهو كثير البِرّ (بالكسر) أى الطاعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » أى على تصديق رسلك والإيمان بهم . أو على ألسنة رسلك . وهو الثواب . وهـذا حكاية لدعاء آخر لهم ، معطوف على ما قبله . وتكرير

النداء لما مرّ « وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله : يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ(١) . بإظهار أنهم ممن آمن معه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي » أى بأنى « لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ » بيان لـ (عامل) وتأكيد لعمومه « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » أى الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم. وهذه جملة معترضة مبينة سبب شركة النساء مع الرجال، فيما وعد الله عباده العاملين . وروى الحافظ سعيد بن منصور فى سننه عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله تعالى « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ . . . » الآية ـ وقالت الأنصار : هى أول ظعينة قدمت علينا ـ ورواه الترمذىّ(٢) ،

(١) [٦٦ / التحريم / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٩ ـ حدثنا ابن أبى عمر . ونصه : عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة، فأنزل الله تعالى: أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والحاكم فى (مستدركه) وقال : صحيح على شرط البخارىّ ، ولم يخرجاه . وروى ابن مردويه عن مجاهد عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » إلى آخرها . وعن جعفر الصادق رضى الله عنه: من حَزَبَهُ أمر فقال : خمس مرات (رَبَّنَا) أنجاه الله مما يخاف ، وأعطاه ما أراد . وقرأ الآيات .

« فَالَّذِينَ هَاجَرُوا » مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية وهى المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة « وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » أى التى ولدوا فيها ونشأوا «وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي» أى من أجله وبسببه ، يريد سبيل الإيمان بالله وحده ، وهو متناول لكل أذى نالهم من المشركين « وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا » أى غزوا المشركين واستشهدوا « لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » جملة قسمية ، خبر المبتدأ الذى هو الموصول ، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه ، بعد ما وعد ذلك عموماً « وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت قصورها الأنهار، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » فى موضع المصدر المؤكد لماقبله ، فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة ، فى معنى الإثابة . وأضافه إليه تعالى ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلاً كثيراً . كما قيل[1] :

إن يعاقبْ يكن غراماً وإن يعـ ... ـطِ جزيلًا فإنه لا يبالى

«وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» أى حسن الجزاء لمن عمل صالحاً . ثم بين تعالى قبح ماأوتى الكفرة من حظوظ الدنيا، وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها، إثْرَ بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب ، بقوله :

---

(١) قائله الأعشى ، من قصيدة مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى . فهل تردّ سؤالى

الغرام: الشر الدائم . ومنه قوله تعالى: إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . أى هلاكا ولزاما لهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ » أى تصرفهم فيها بالمتاجر والمكاسب، أى لا تنظر إلى ماهم عليه من سعة الرزق ودرك العاجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« مَتَاعٌ قَلِيلٌ » أى هو متاع قليل ، لقصر مدته ، وكونه بُلْغةً فانية ، ونعمة زائلة ، فلا قدر له فى جنب ما أعد الله للمؤمنين .

وفى صحيح مسلم[(١)] عن النبىّ ﷺ : والله! ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع ؟

« ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » أى مصيرهم الذى إليه يأوون « وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى الفراش هى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)

« لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، غِبّ بيان وتكرير له ، إثر تقرير ، مع زيادة خلودهم فى الجنات ليتم بذلك سرورهم ، ويزداد تبجحهم ، ويتكامل به سوء حال الكفرة . والنزل (بضمتين، وضم فسكون) المنزل ، وما هيئ للنزيل أن ينزل عليه « وَمَا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٥ (طبعتنا) عن المستورد ، أخى بنى فهر .

عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل . والتعبير عنهم بـ (الأبرار) للإشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البرّ ، كما أنها من قبيل التقوى .

روى الشيخان(١) ـ واللفظ للبخارىّ ـ عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ ، فإذا هو فى مشربة ، وإنه لعلى حصير مابينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، وعند رجليه قرظ مصبور ، وعنـد رأسه أهب معلقة ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم، ٢ ـ باب: تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، حديث ٧٦ . وها كموه بنصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله ، هيبة له . حتى خرج حاجا فخرجت معه . فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له . فوقفت له حتى فرغ . ثم سرت معه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! من اللتان تظاهرتا على النبىّ ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة . قال فقلت : والله ! إن كنت لأريد أن أسألك عن هـذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك . قال : فلا تفعل . ما ظننتَ أنّ عندى من علم فاسألنى . فإن كان لى علم خبرتك به .

قال ثم قال عمر : إن كنا فى الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . قال : فبينا أنا فى أمر أتأمّره إذ قالت امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا. قال فقلت لها: مالك ولما ههنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت لى : عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لهـا : يا بنية ! إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة : والله ! إنا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ! لا تغرنك هذه التى أعجبها حسنُها حبُّ رسول الله ﷺ إياها (يريد عائشة) . =

فبكيت ! فقال : ما يبكيك ؟ قلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت رسول الله ! فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟

وروى ابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من نفس برة ولا فاجرة ، إلا الموت خير لها . لئن كان برًّا ، لقد قال الله تعالى « وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ »

= قال : ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة ، لقرابتي منها . فكلمتها . فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب ! دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟

فأخذتني ، والله ! ، أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد . فخرجت من عندها .

وكان لي صاحب من الأنصار ، إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر . ونحن نتخوّف ملكاً من ملوك غسّان ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا . فقد امتلأت صدورنا منه . فإذا صاحبي الأنصاريّ يدق الباب . فقال: افتح، افتح. فقلت : جاء الغسّانيّ؟ فقال: بل أشد من ذلك . اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . فقلت : رَغِمَ أنف حفصة وعائشة. فأخذت ثوبي ، فأخرج حتى جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشرُبة له يرقى عليها بعجلة . وغلام لرسول الله ﷺ ، أسود ، على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لي .

قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث . فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لعلى حصير ، مابينه وبينه شيء . وتحت رأسه وسادة من أَدَمٍ حشوها ليف. وإن عند رجليه قَرَظًا مصبوباً. وعند رأسه أَهَبٌ معلّقة. فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت . فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله؟ فقال « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ »

وأخرجه مسلم في : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٣٠و٣١ (طبعتنا) .

وقرأ : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مَهِينٌ (١).

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » ويقول « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ... » الآية ـ وأخرج نحوه رزين عن ابن عباس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

جملة مسأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حُكِيَتْ هناتهم من نبذ الميثاق ، وتحريف الكتاب وغير ذلك . بل منهم طائفة يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على النبيّ ﷺ مع ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أى مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلًا ، أى لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ . وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هودًا أو نصارى ، وقد قال تعالى فى سورة القصص : « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨] .

مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا[١] . الآية، وقال تعالى وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[٢] وقال تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ[٣] . وهذه الصفات توجد فى اليهود ، ولكن قليلا ، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ، ولم يبلغوا عشرة أنفس. وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[٤] .

وهكذا قال هنا « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » .

وقد ثبت فى الحديث[٥] أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة (كهيعص)

(١) [٢٨ / القصص/ ٥٢ـ٥٤] . . . وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٣] .

(٤) [٥ / المائدة / ٨٢ـ٨٥] .

(٥) هو جزء من حديث الهجرة إلى الحبشة أخرجه الإمام أحمد فى مسنده رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) وصفحة ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) فلا يفتك نصه الطويل فإنه حديث جليل من الوجهة التاريخية .

بحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنـده البطاركة والقساقسة، بكى وبكوا معه ، حتى أخضبوا لحاهم .

وثبت في الصحيحين[١] أن النجاشي لما مات نعاه النبيّ ﷺ إلى أصحابه ، وقال: إن أخاً لـكم بالحبشة قدمات فصلوا عليه ، فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه .

وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك قال : لمـا توفى النجاشي ، قال رسول الله ﷺ : استغفروا لأخيكم . فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة ؟! فنزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ ... الآية ـ ورواه عبـد بن حميدأيضامرسلاً[٢] . ورواه ابن جرير عن جابر ، وفيه : فقال المنافقون : يصلى علىعلج مات بأرض الحبشة ؟! فنزلت .

وروى الحاكم في (مستدركه) عن عبد الله بن الزبير قال : نزل بالنجاشي عدوّ من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لَدَاءٌ بنصر الله عز وجل ، خير من دواء بنصرة الناس . قال وفيـه نزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ ... الآية ـ ثم قال : هـذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : وإن من أهل الـكتاب ، يعني مسلمة أهل الـكتاب .

وقال عبادبن منصور : سألتالحسن البصريّ عن قول الله: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ ،

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٤ ـ باب الرجل ينعَى إلى أهلالميت بنفسه ، حديث ٦٦٨ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٢و٦٣ عن أبي هريرة ، وحديث ٦٤و٦٥و٦٦ عن جابر ، وحديث ٦٧ عن عمران بن حصين (طبعتنا) .

(٢) الأثر ٨٣٧٦و٨٣٧٧ .

الآية ـ قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله أجر اثنين : للذى كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمداً ﷺ ـ رواه ابن أبى حاتم ـ .

وقد ثبت فى الصحيحين[١] عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين ، فذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ـ أفاده ابن كثير ـ .

ثم إن الإخبار ، فى آخر الآية ، بكونه تعالى : سَرِيعُ الْحِسَابِ . كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفّيها كل عامل على ما ينبغى ، وقدر ما ينبغى. ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر لكونه من لوازمها . ولكونه من لوازمها أشبه التأكيد ، فلذا لم يعطف عليه ـ والله أعلم ـ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ، حديث ٨٢ ونصه :

عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران » .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا » أى على مشاق الطاعات وما يمسكم من المكاره والشدائد «وَصَابِرُوا» أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد . لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً . والمصابرة باب من الصبر . ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه ، تخصيصاً ، لشدته وصعوبته ـ كذا فى الكشاف ـ « وَرَابِطُوا » أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدوّ بالترصد والاستعداد لحربهم ، وارتباط الخيل. قال الله تعالى: وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ[١] ، والرباط فى الأصل أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره ، وكل معدّ لصاحبه ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً ، وقد يتجوّز بالرباط عن الملازمة والمواظبة على الأمر ، فتسمى رباطاً ومرابطة .

قال الفارسىّ : هو ثان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل . وقد وردت الأخبار بالترغيب فى الرباط ، وكثرة أجره . فمنها ما رواه البخارىّ[٢] فى صحيحه عن سهل

---

(١) [٨/ الأنفال/ ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٣ ـ باب فضل رباط يوم فى سبيل الله .

ابن سعد الساعدىّ أن رسول الله ﷺ قال : رباط يوم فى سبيل الله ، خير من الدنيا وما عليها .

وروى مسلم[١] عن سلمان الفارسىّ عن رسـول الله ﷺ أنه قال : رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأَمِنَ الفُتَّان .

وروى الإمام أحمد[٢] عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله ، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذىّ وقال : حسن صحيح . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه أيضاً . وبقيت أحاديث أخر ساقها الحافظ ابن كثير فى تفسيره .

هـذا ومن الوجوه فى قوله تعالى « رَابِطُوا » أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة . فقد روى مسلم[٣] والنسائىّ عن أبى هريرة رضى الله عنـه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المـكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلـكم الرباط ، فذلـكم الرباط ، فذلـكم الرباط . فشبه ﷺ ما ذكر من الأفعال الصالحة بالرباط .

وروى الحاكم فى (مستدركه) والحافظ ابن مردويه عن أبى سلمة بن عبـد الرحمن قال :

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة العشرين من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

ورواه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٥ ـ باب فى فضـل الرباط ، حديث ٢٥٠٠ .

والترمذىّ فى: ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ٢ ـ باب ما جاء فى فضل من مات مرابطاً.

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدرى، يا ابن أخى! فيم نزلت هـذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ؟ » قلت : لا ! قال : أما إنه لم يكن فى زمان النبيّ ﷺ غزو يرابطون فيـه ، ولـكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة فى مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها . فعليهم أنزلت « اصْبِرُوا » أى على الصلوات الخمس ، «وَصَابِرُوا» أنفسكم وهواكم ورابطوا فى مساجدكم . «وَاتَّقُوا اللهَ» فيما عليـكم « لَعَلَّـكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بما يغتبط به . و (لعل) لتغييب المآل . لئلا يتـكلوا على الآمال .

خاتمة

فيما ورد فى الآيات الأواخر من هذه السورة ، وفى فضل هذه السورة بتمامها

قال الحافظ ابن كثير : قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده .

روى البخارى[(١)] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليـل الآخر ، قعد فنظر إلى السماء ، فقال « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » ثم قام فتوضأ ، واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح ـ وهكذا رواه مسلم ـ ورواه البخارى[(٢)] من طريق أخرى بلفظ : حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ... الحديث ـ وهكذا أخرجه الجماعة من طرق .

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : أمرنى العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ . وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة ، حتى إذا لم يبق فى المسجد أحد غيرى ، قام فمرّ بى فقال : من هذا ؟ عبدالله؟ قلت : نعم ! قال : فمه ؟ قلت : أمرنى العباس أن أبيت بكم الليـلة ، قال : فالحق ، الحق .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٧ ـ باب إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .

(٢) فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ٢٠ ـ باب: رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ .

فلما دخل قال : افرش . عبد الله ! فأتى بوسادة من مسوح ، قال : فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيطه ، ثم استوى على فراشه قاعداً ، قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الملك القدوس (ثلاث مرات) ثم تلا هـذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها .

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث علىّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً فى ذلك أيضاً .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة ، ثم قال : اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن شمـالى نوراً ، ومن بين يدىّ نوراً ، ومن خلفى نورًا ، ومن فوقى نوراً ، ومن تحتى نوراً ، وأعظم لى نوراً يوم القيامة[1] . وهـذا الدعاء ثابت فى بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه .

وروى ابن مردويه وعبد بن حميد حديثاً عن عائشة ، وفيه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىّ فى هذه الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إلى قوله « فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها .

ومما ورد فى فضل هذه السورة ما أخرجه مسلم[2] والترمذىّ من حديث النواس بن سمعان : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان ، بينهما شَرْقٌ (أى ضياء ونور) ، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافَّ تُحَاجّان عن صاحبهما .

والله سبحانه الموفق .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١و١٨٧ و١٨٩و١٩١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا).

تمّ تفسير هـذه السورة صباح الجمعة فى ١١ ذى القعدة الحرام
سـنة (١٣١٨) وذلك فى حرم جامع السنانية
فى الشباك القبلىّ من السدة اليمنى العليـا
بيـد جامعه الفقير محمـد
جمـال الدين القاسمىّ
الدمشقىّ غفر له
ولوالديـه
والمؤمنين
آمين

(ويليه الجزء الخامس وفيه تفسير سورة النساء)

ملاحظة : يتضح من الأصل أن المؤلف رحمه الله ، أعاد النظر على هـذا الجزء بعد عام ١٣٢٩ وإن لم يشر إلى ذلك ، لأن طريقة التصويب والتصحيح والشطب والتحشية، التى لوحظت فى الأصل، مطابقة لما ورد فى الجزء الثانى .

ظافر القاسمىّ

استدراك الجزء الثالث من « محاسن التأويل »

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٣	١٩	فى الآخِرة	« فِي الآخِرَةِ »
٣٦٥	٣	بقيعةً	« بقيعَةٍ »
٣٨٧	٩	على البِرِّ	« البِرِّ »
٣٩٧	٩	لم يرصوا	لم يرضَوا
٤١٦	١١	كما كُتِبّ	« كُتِبَ »
٤٢٣	١٥	فليطعمان	كذا فى اليونينيَّة (باللام) وسقطت من الفرع كغيره (شارح)
٤٢٨	١٩	ليكونّ	« لِيَكُونَ »
٤٣٠	٥	استحابه	استحبابه
٤٣٢	٢١	أزواجًا	« أزواجًا »
٤٤٢	١٤	لأنهما	لا أنّهما
٤٥٠	٣	عبد الله ابن عمرو	عبد الله بن عمرو
٤٥١	١٧	من نفِس	« مِنْ نَفْسٍ »
٤٦٦	١١	الى الحكّامٍ	« إلى الحُكَّامِ »
٤٧٢	١٣	وأن بعد	وأن يَعِدَ
٤٧٨	١	حتى لا تكونُ	« حَتَّى لَا تَكُونَ »
٤٨٣	٧	والعمرةَ	« وَالعُمْرَةَ »
٤٩١	١١	لمن يسق	لمن لم يسق

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٨	١٥	لِيُفّسِدَ	« لِيُفْسِدَ »
٥٩٩	٦	إنَّ .... وأنّ	وإنَّ
٥١٣	١٨	فإنما	فـ : إِنَّمَا
٥١٤	١	وإنما	و : إِنَّمَا
٥١٧	١٦	وما فى والأرض	« وما فى الأرض »
٥١٧	١٩	فى ايمانُها	فى إِيمَانِهَا
٥١٨	٢١	صفات الخلوقين	المخلوقين
٥٢٤	١٣	إلى بكم	« إِلىٰ رَبِّكُمْ »
٥٢٥	٢٠	من الـكفارُ	« مِنَ الـكُفَّارِ »
٥٢٧	١١	فيها ما تشتهى الأنفس	« وَفِيهَا ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ »
٥٢٨	٩	اتحرفوا	انحرفوا
٥٥٨	٩	والُمحصَناتِ	« والمُحْصَنَاتُ »
٥٦٩	١٣	والنسانى	والنسائىّ »
٥٨٣	١	إبطلالًا	إبطالًا
٥٨٥	١٠	أبو بكر أبن شيبة	بن أبى شيبة
٥٨٥	١٨	بما فضَّل الله به بعضهم	« بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ »
٦٠٤	١١	ثلاث معانٍ	ثلاثة
٦٠٦	٧	أحدهما	أحدها
٦٠٦	٨	ثلاث قُروء	ثلاثة قُروء
٦٠٦	١٦	تطلقتين	تطليقتين
٦١٠	٢٠	تَرْضَاهَ	تَرْضَاهُ
٦١١	٣	«وَلَا مَوْلُودٌ»	« وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ »

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٢٧	٩	قَانِتِينَ	« قَانِتِينَ »
٦٤١	٦	أتبعه جمله	جملةً
٦٤١	٧	أى يضيق ّ على	أى يضيّق على
٦٤٧	٢٠	كَثِرَةً	« كَثِيرَةً »
٦٧٨	١	هذ الآية	هذه الآية
٦٨٣	١٠	سيما	لاسيما
٦٨٤	١٦	سيما	لاسيما
٦٨٩	٤	فى الأَرْض	« فِى الأَرْضِ »
٦٨٩	١٩	لأرينا كهمُ	« لَأَرَيْنَاكَهُمْ »
٦٩١	٢	ولا شفيعٌ	ولا شفيعٍ
٦٩١	١٦	لا يَسئلونً	« لا يَسْئَلُونَ »
٦٩٤	٢	ثلاث معانى	ثلاثة
٧٠٠	٣	مَن خلاطه	مَن خالطه
٧٠٢	١١	فى الهوء	فى الهواء
٧٢٥	١٢	الأصفانى	الأصفهانىّ
٧٣٣	١٢	لهذه المعنى	لهذا

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الخامس

وفيه تفسير سورة النساء بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٧هـ — ١٩٥٧م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، أن لا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

روى العوفىّ عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقد زعم النحاس أنها مكية . مستنداً إلى أن قوله تعالى : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ الآية(١) نزلت بمكة اتفاقاً فى شأن مفتاح الكعبة . وذلك مستند واهٍ. لأنه لايلزم من نزول آيةٍ أوآيات من سور طويلة، نزل معظمها بالمدينة ، أن تكون مكية. خصوصاً أن الأرجح أن ما نزل بعد الهجرة مدنىّ . ومَن راجع أسباب نزول آياتها عرف الرد عليه . ومما يرد عليه أيضاً ما أخرجه البخارىّ عن عائشة قالت : مانزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . ودخولها عليه كان بعد الهجرة اتفاقاً . وقيل : نزلت عند الهجرة . وآياتها مائة وسبعون وخمس وقيل ست وقيل سبع. كذا فى الإتقان . وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: إن فى سورة النساء لخمس آيات مايسرنى أنَّ لى بها الدنيا وما فيها : إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. الآية(٢) ، و إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ. الآية(٣) ،

(١) [٤ / النساء / ٥٨] ونصها : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا .

(٢) [٤ / النساء / ٤٠] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً .

(٣) [٤ / النساء / ٣١] ونصها : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً .

و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١) ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾(٢). الآية. وروى عبد الرزاق عنه أيضاً قال: خمسُ آياتٍ من النساء لهنّ أحبُّ إليّ من الدنيا جميعاً: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢). وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٣). وروى ابن جرير عن ابن عباسٍ قال: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء، خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت. أوّلهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٤)، والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾(٥)، والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(٦) ثم ذكر قول ابن مسعود سواء. يعنى فى الخمسة الباقية.

لطيفة: إنما سميت سورة النساء، لأن ما نزل منها فى أحكامهن أكثر مما نزل فى غيرها.

---

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

(٢) [٤ / النساء / ٦٤] ونصها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

(٣) [٤ / النساء / ١١٠].

(٤) [٤ / النساء / ٢٦].

(٥) [٤ / النساء / ٢٧].

(٦) [٤ / النساء / ٢٨].

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ » أى اخشوه أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه . ثم نبههم على اتصافه بكمال القدرة الباهرة ، لتأييد الأمر بالتقوى وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريق الترغيب والترهيب، بقوله تعالى « الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » أى فرّعكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم. وخلقُه تعالى إياهم على هذا النمط البديع مما يدل على القدرة العظيمة . ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء. ومنه عقابهم على معاصيهم . فالنظر فيه يؤدى إلى الاتقاء من موجبات نقمته . وكذا جعلُه تعالى إياهم صنواناً مفرعة من أرومة واحدة من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة . كما ينبىء عنه ما يأتى من الإرشاد إلى صلة الأرحام ، ورعاية حال الأيتام، والعدل فى النكاح وغير ذلك . وقد ثبت فى صحيح مسلم(١) من حديث جرير بن عبد الله البجلىّ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٦٩ (طبعتنا) ونصه :

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار . قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى النمار أو العباء (أى لابسيها خارقين أوساطها مقوّرين . والنمار جمع نَمِرة وهى ثياب صوف فيها تنمير) متقلدى السيوف. عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر. فتمعّر (أى تغيّر) وجه رسول الله ﷺ ، لما رأى بهم من الفاقة . فدخل ثم خرج . =

أولئك النفر من مضر ، وهم مجتابو النمار (أى من عريهم وفقرهم) قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ حتى ختم الآية. ثم قال : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ[(١)] . ثم حضهم على الصدقة فقال : تصدق رجل من دينـاره . من درهمه . من صاع بره . من صاع تمره . وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود فى خطبة الحاجة. وفيها : ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها : يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ. الآية. «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أى من نفسها. يعنى من جنسها ليكون بينهما مايوجب التآلف والتضامّ. فإن الجنسية علة الضم . وقد أوضح هـذا بقوله تعالى : وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[(٢)] « وَبَثَّ مِنْهُمَا » أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها، بطريق التوالد

= فأمر بلالاً فأذّن وأقام . فصلى ثم خطب فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [٤ / النساء / ١] إلى آخر الآية : إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً . والآية التى فى الحشر : اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ [١٨/٥٩] تصدق رجل من ديناره . من درهمه . من ثوبه . من صاع بره . من صاع تمره . (حتى قال) ولو بشق تمرة » .

قال فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها . بل قد عجزت . قال ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب . حتى رأيت وجه رسـول الله ﷺ تهلل كأنه مُذْهَبَةٌ (أى فضة مذهبة ، فهو أبلغ فى حسن الوجه وإشراقه) .

فقال رسول الله ﷺ « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء . ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليـه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

(١) [٥٩ / الحشر / ١٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢١] .

والتناسل . « رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً » أى كثيرة . وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » تكرير للأمر وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به . فإن سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا : أسألك بالله وأنشدك الله، على سبيل الاستعطاف ، يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه . وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وإدخال الروعة. ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته. و « تساءلون » أصله تتساءلون . فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً . وقرىء بإدغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس . وقرىء تسألون (من الثلاثىّ) أى تسألون به غيركم . وقد فسر به القراءة الأولى والثانية. وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع . كما فى قولك رأيت الهلال وتراءيناه ـ أفاده أبو السعود ـ وقوله تعالى « وَالْأَرْحَامَ » قرأ حمزة بالجر عطفاً على الضمير المجرور . والباقون بالنصب عطفاً على الاسم الجليل . أى اتقوا الله والأرحام أن تقطعوها . فإن قطيعتها مما يجب أن يتقى . أو عطفاً على محل الجار والمجرور . كقولك مررت بزيد وعمراً . وينصره قراءة « تَسَاءَلُونَ بِهِ وَبِالْأَرْحَامِ » فإنهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل . ويقولون : أسألك بالله وبالرحم. ولقد نبه سبحانه وتعالى ، حيث قرنها باسمه الجليل، على أن صلتها بمكان منه . كما فى قوله تعالى: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا[1] . وقال تعالى: وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ[2] .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٢) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها: وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ =

وقد روى الشيخان[١] عن عائشة رضى الله عنها عن النبىّ ﷺ قال : الرحم معلقة بالعرش . تقول: من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله . ورويا[٢] أيضاً عن جبير بن مطعم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يدخل الجنة قاطع. قال سفيان فى روايته : يعنى قاطع رحم. وروى البخارىّ[٣] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ : ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها. ورويا[٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه . والأحاديث فى الترغيب بصلة الرحم والترهيب من قطيعتها كثيرة .

تنبيه :

دلت الآية على جواز المسئلة بالله تعالى . كذا قاله الرازىّ. ووجهه أنه تعالى أقرهم على هذا التساؤل. لكونهم يعتقدون عظمته. ولم ينكره عليهم . نعم من أداه التساؤل باسمه تعالى إلى

= وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا .

(١) انفرد به مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب، ١١ ـ باب إثم القاطع، حديث ٢٣١١ ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٨ و١٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٥ ـ باب ليس الواصل بالمكافئ ، حديث ٢٣١٦ .

(٤) الحديث الذى انفرد به البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٢ ـ باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم ، حديث ٢٣١٢ ، هذا نصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه » .

التساهل فى شأنه وجعله عرضة لعدم إجلاله ووسيلة للأبواب الساسانية، فهذا محظور قطعاً . وعليه يحمل ما ورد من لعن من سأل بوجه الله. كما سنذكره . وقد ورد فى هذا الباب أحاديث وافرة. منها عن ابن عمر قال[١] قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه ومن أتى عليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم. وروى الإمام أحمد وأبو داود[٢] عن ابن عباس مرفوعاً : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بوجه الله فأعطوه. وعن ابن عمر مرفوعاً: من سئل بالله فأعطى كتب له سبعون حسنة. رواه البيهقىّ بإسناد ضعيف . وفى البخارىّ[٣] عن البراء بن عازب: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع. وذكر منها: وإبرار القَسَم. وروى أبو داود[٤] والضياء فى (المختارة) بإسناد صحيح عن

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٦٨ من الجزء الثانى بهذا النص (طبعة الحلبىّ).
وأبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠٨ ـ باب فى الرجل يستعيذ من الرجل ، حديث ٥١٠٩ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠٨ ـ باب فى الرجل يستعيذ من الرجل ، حديث ٥١٠٨

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٢ ـ باب الأمر باتباع الجنائز ، حديث ٦٦٢ . وهذا نصه :

عن البراء رضى الله عنه قال : أمرنا النبىّ ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض وإجابة الداعى ونصر المظلوم وإبرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس. ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقسّىّ والإستبرق .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٧ ـ باب كراهية المسألة بوجه الله ، حديث ١٦٧١ .

جابر مرفوعاً : لا يسئل بوجه الله تعالى إلا الجنة. وروى الطبرانيّ عن أبي موسى الأشعريّ مرفوعاً : ملعون من سأل بوجه الله . وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله مالم يسأل هُجْرًا. قال السيوطيّ: إسناده حسن. وقال الحافظ المنذريّ: رجاله رجال الصحيح إلا شيخه (يعني الطبرانيّ) يحيى بن عثمان بن صالح. وهو ثقة وفيه كلام. وهُجْرًا (بضم الهاء وسكون الجيم) أي مالم يسأل أمرًا قبيحاً لا يليق. ويحتمل أنه أراد مالم يسأل سؤالًا قبيحاً بكلام قبيح. انتهى . وعن أبي عبيدة ، مولى رفاعة ، عن رافع أن رسول الله ﷺ قال : ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله. رواه الطبرانيّ . وعن ابن عباس رضى الله عنهما[1] أن رسول الله ﷺ قال : إلا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسئل بوجه الله ولا يعطى. رواه الترمذيّ. وقال: حسن غريب. والنسائيّ وابن حبان في صحيحه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إلا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: الذي يسأل بالله ولا يعطى « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » أي مراقباً لجميع أحوالكم وأعمالكم. يراها ويعلمها فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. كما قال: والله على كل شيء شهيد. وفي الحديث[2]: اعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وهذا إرشاد وأمر بمراقبته تعالى. فعلى المرء أن يراقب أحوال نفسه ويأخذ حذره من أن ينتهز الشيطان منه فرصة فيهلك على غفلة .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١٨ ـ باب ما جاء أي الناس خير ، ونصه :

عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال « ألا أخبركم بخير الناس ؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله . ألا أخبركم بالذي يتلوه ؟ رجل معتزل في غنيمة له يؤدي حق الله فيها . ألا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يسأل بالله بوجه الله ولا يعطى به » .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، حديث ٤٦ ونصه : =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

« وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ » شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف مايقابلها أمراً ونهياً. وتقديمُ مايتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم وللابستهم بالأرحام. إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب . واليتيم من مات أبوه . من اليتم ، وهو الانفراد . ومنه الدرة اليتيمة . والقياس الاشتقاقىّ يقتضى وقوعه على الصغار والكبار. وقد خصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم. كما روى أبو داود[(١)] بإسناد حسن عن علىّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ: لا يُتْمَ بعد احتلام . وفى الآية وجوه : الأول ـ أن يراد باليتامى الكبار الذين أونس منهم الرشد مجازاً . باعتبار ما كان ، أوثر لقرب العهد بالصغر . والإشارة إلى

= عن أبى هريرة قال : كان النبىّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان ، أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام؟ قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال: ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان . فى خمس لايعلمهن إلا الله ».

ثم تلا النبىّ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية [٣١ / لقمان / ٣٤] .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٩ ـ باب متى ينقطع اليتيم ، حديث ٢٨٧٣ .

وجوب المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم حينئذ . حتى كأنّ اسم اليتيم باق بعدُ ، غير زائل . الثاني ـ أن يراد بهم الكبار حقيقة ، واردةً على أصل اللغة . الثالث ـ أن يراد بهم الصغار. وبـ(الإيتاء) مايدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة . لادفعها إليهم. وفيه بُعْدٌ . الرابع ـ أن يراد بهم ما ذكر . وبـ(إيتائهم) الأموال ، أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء ولاة السوء وقضاته ويكفّوا عنها أيديهم الخاطفة حتى تؤتى اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محذوفة. فالتجوّز في الإيتاء حينئذ باستعماله في لازم معناه وهو تركها سالمة لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت كذلك. قال الناصر في (الانتصاف) : هذا الوجه قويّ بقوله بعد آيات : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ[1] ، دل على أن الآية الأولى في الحض على حفظها لهم ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم . والثانية في الحض على الإيتاء الحقيقيّ عند حصول البلوغ والرشد . ويقويه أيضاً قوله عقيب الأولى : وَلَا تَتَبَدَّلُوا الخ فهذا كله تأديب للوصيّ ما دام المال بيده واليتيم في حجره . وأما على الوجه الأول فيكون مؤدى الآيتين واحداً وهو الأمر بالإيتاء حقيقة . ويخلص عن التكرار بأن الأولى كالمجملة ، والثانية كالمبيّنة لشرط الإيتاء : من البلوغ وإيناس الرشد . والله أعلم .

« وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ » أي ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ، وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ » نهي عن منكر آخر كانوا يتعاطونه . أي لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم مخلوطة بها للتوسعة « إِنَّهُ » أي الأكل « كَانَ حُوبًا » أي ذنباً

(١) [٤/ النساء/٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

عظيماً . وقرىء بفتح الحاء. وقوله تعالى « كَبِيراً » مبالغة في بيان عظم ذنب الأكل المذكور. كأنه قيل من كبار الذنوب .

تنبيه :

خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولىّ فقيراً لقوله تعالى : وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . كذا قاله البيضاوىّ وتابعه أبو السعود . وعندى أنه لا حاجة إلى تخصيص هذا النهى بالفقير فى هذه الآية لأنها فى الغنىّ ، لقوله : إِلَى أَمْوَالِكُمْ . فلا يشمل مساقها الفقير. وسنوضح ذلك .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت قدحرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم. فلم ورد النهى عن أكله معها ؟ قلت : لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطمعون فيها ، كان القبح أبلغ والذم أحق . ولأنهم كانوا يفعلون كذلك . فنعى عليهم فعلهم وسمّع بهم ليكون أزجر لهم . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) أهل البيان يقولون : النهىّ متى كان درجات فطريق البلاغة النهى عن أدناها تنبيها على الأعلى. كقوله تعالى: فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ (1) . وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية وجدته ببادىء الرأى مخالفاً. لما إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم فى النهى أن يأكله وهو غنىّ عنه . وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه . فكان مقتضى القانون المذكور أن ينهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه حتى يلزم نهى الغنىّ عنه من طريق الأولى . وحينئذ فلابد من تمهيد أمر يوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهى فى هذه الآية . فنقول: أبلغ الكلام

(1) [١٧/الإسراء/٢٣] ونصها: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

ما تعددت وجوه إفادته . ولا شك أن النهى عن الأدنى ، وإن أفاد النهى عن الأعلى ، إلا أن للنهى عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة ، لا تؤخذ من النهى عن الأدنى . وذلك أن المنهىّ كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد . ولا شك أن المستقر فى النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل . فخصص بالنهى تشنيعاً على من يقع فيه . حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء دعاه ذلك إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً . ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم . ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهى بأكله مع الفقر ، إذ ليست الطباع فى هذه الصورة مُعينة على الاجتناب ، كإعانتها عليه فى الصورة الأولى . ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل . مع أن تناول مال اليتيم ، على أى وجه كان ، منهىّ عنه . كان ذلك بالادخار أو بالتباس أو ببذله فى لذة النكاح مثلاً ، أو غير ذلك . إلا أن حكمة تخصيص النهى بالأكل أن العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل . وتعدّ البطنة من البهيمية . وتعيب على من اتخذها ديدنه . ولا كذلك سائر الملاذ . فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدونه من زينة الدنيا . فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ خص النهى به . حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم فى سائر الملاذ أو غيرها ، أكلاً أو غيره . ومثل هذه الآية فى تخصيص النهى بما هو أعلى قوله تعالى : لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً[1] . فخص هذه الصورة لأن الطبع عن الانتهاء عنها أعون . ويقابل هذا النظر فى النهى نظر آخر فى الأمر . وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى . وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب . ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم[2] الآية، كيف خص صورة حضورهم وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم . وذلك

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٠] . . . وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٨] . . . مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

أن الله تعالى علم شح الأنفس على الأموال . فلو أمر بإسعاف الأرقاب واليتامى من المال الموروث ولم يذكر حالة حضورهم القسمة، لم تكن الأنفس بالمنبعثة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم . بخلاف ما إذا حضروا . فإن النفس يرقّ طبعها وتنفر من أن تأخذ المال الجزل وذو الرحم حاضر محروم ، ولا يسعف ولا يساعد . فإذا أمرت فى هذه الحالة بالإسعاف هان عليها امتثال الأمر وائتلافها على امتثال الطبع . ثم تدربت بذلك على إسعاف ذى الرحم مطلقاً حضر أو غاب . فمراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يُلْفَى إلا فى الكتاب العزيز . ولا يعثر عليه إلا الحاذق الفطن المؤيد بالتوفيق . نسأل الله أن يسلك بنا فى هذا النمط . فخذ هذا القانون عمدة . وهو : أن النهى ، إن خص الأدنى فلفائدة التنبيه على الأعلى . وإن خص الأعلى ، فلفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الأقبح . ومثل هذا ، النظر فى جانب الأمر . والله الموفق. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا)

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا » أى أن لا تعدلوا « فِي الْيَتَامَىٰ » أى يتامى النساء. قال الزمخشرىّ : ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة، على القلب . كما قيل أيامى والأصل أيائم ويتائم « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أى من طبن لنفوسكم من جهة الجمال والحسن أو العقل أو الصلاح منهن « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » ومعنى الآية: وإن خفتم ياأولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن ، بإساءة العشرة أو بنقص الصداق، فانكحوا غيرهن من الغريبات فإنهن كثير ولم يضيق الله عليكم . فالآية للتحذير من التورط

فى الجور عليهن والأمر بالاحتياط . وإن فى غيرهن متسعاً إلى الأربع . وروى البخاري[١] عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عَذْق (أى نخلة) وكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شيء. فنزلت فيه : وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى . أحسبه قال : كانت شريكته فى ذلك العذق وفى ماله. ورواه مسلم وأبو داود والنسائى . وفى رواية لهم عن عائشة[٢] هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها . فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره . فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سُنَّتِهِن فى الصداق. فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ [٤/١٢٧] . قالت عائشة : وقول الله تعالى فى آية أخرى: وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ [٤/١٢٧] ، رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال . قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن ، إذا كن قليلات المال والجمال .

وفى رواية[٣] فى قوله تعالى : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ... إلى آخر الآية. قالت عائشة رضى الله عنها : هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل قد شركته فى ماله فيرغب عنها أن يتزوجها

(١) أخرجه البخاري فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء، ١ ـ باب قوله : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ، حديث ١٢٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء، ١ ـ باب قوله: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ، حديث ١٢٣٤ .

(٣) أخرجه البخاري فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٣٧ ـ باب إذا كان الولى هو الخاطب ، حديث ١٢٣٤ .

ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه فى ماله فيحبسها . فنهاهم الله عن ذلك . زاد أبو داود[١] رحمه الله تعالى : وقال ربيعة فى قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ . قال يقول : اتركوهن إن خفتم فقد أحللت لكم أربعاً .

لطائف :

الأول : (ما) فى قوله تعالى : ما طاب لكم ، موصولة . وجاء بـ (ما) مكان (من) لأنهما قد يتعاقبان . فيقع كل واحد منهما مكان الآخر . كما فى قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا[٢] وقوله : وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[٣] . وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ[٤] . قال بعضهم : وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء ، وهن ناقصات العقول .

الثانية ـ فى إيثار الأمر بنكاحهن على النهى عن نكاح اليتامى ، مع أنه المقصود بالذات ، مزيدُ لطف فى استنزالهم عن ذلك . فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه . كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذى أشير إليه ، فيه مبالغة فى الاستمالة إليهن والترغيب فيهن . وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى ـ أفاده أبو السعود ـ .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ١٢ ـ باب ما يكره أن يجمع بينهن من النساء ، حديث ٢٠٦٥

(٢) [٩١ / الشمس / ٥] .

(٣) [١٠٩ / الكافرون / ٥] .

(٤) [٢٤ / النور / ٤٥] ونصها : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الثالثة :

اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور فى الآية لا مفهوم له . وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط فى اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة .

الرابعة :

مثنى وثلاث ورباع معدولة عن أعداد مكررة . ومحلهن النصب على أنها حال من فاعل (طاب) مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن ، والاستمالة إليهن ، بتوسيع دائرة الإذن . أى فانكحوا الطيبات لكم، معدودات هذا العدد . ثنتين ثنتين . وثلاثاً ثلاثاً . وأربعاً أربعاً . حسبما تريدون . فإن قلت : الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أوثلاث أوأربع ، فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع ؟ قلت : الخطاب للجميع. فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له . كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم ، درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة . ولو أفردت لم يكن له معنى . فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون (أو) . قلت : كما جاء بالواو فى المثال الذى حذوته لك. ولو ذهبت تقول: اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ، أعلمتَ أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة . وليس لهم أن يجمعوا بينها . فيجعلوا بعض القسم على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع . وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه الواو . وتحريره أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع إن شاءوا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن شاءوا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ما وراء ذلك . أفاده الزمخشرىّ .

بحث جليل :

قال الرازىّ : ذهب قوم سَدَّى (كحتى . موضع قرب زبيد باليمن اه قاموس) إلى أنه يجوز التزوج بأى عدد أريد. واحتجوا بالقرآن والخبر. أماالقرآن فقد تمسكوا بهذه الآية من

ثلاثة أوجه : الأول ـ أن قوله تعالى : فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، إطلاق فى جميع الأعداد . بدليل أنه لا عدد إلا ويصح استثناؤه منه . وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لكان داخلًا . والثانى ـ أن قوله : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، لا يصلح تخصيصاً لذلك العموم ، لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينفى ثبوت الحكم فى الباقى . بل نقول : إن ذكر هذه الأعداد يدل على رفع الحرج والحجر مطلقاً . فإن الإنسان إذا قال لولده : افعل ما شئت . اذهب إلى السوق وإلى المدينة وإلى البستان، كان تنصيصاً فى تفويض زمام الخيرة إليه مطلقاً. ورفع الحجر والحرج عنه مطلقاً . ولا يكون ذلك تخصيصاً للإذن بتلك الأشياء المذكورة . بل كان ذلك إذناً فى المذكور وغيره . فكذاهنا . وأيضاً، فذكر جميع الأعداد متعذر . فإذا ذكر بعض الأعداد بعد قوله : فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، كان ذلك تنبيهاً على حصول الإذن فى جميع الأعداد . الثالث ـ أن الواو للجمع المطلق . فقوله : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يفيد حل هذا المجموع . وهو يفيد تسعة . بل الحق أنه يفيد ثمانية عشر. لأن قوله : مثنى ليس عبارة عن اثنين فقط ، بل عن اثنين اثنين . وكذا القول فى البقية .

وأما الخبر فمن وجهين : الأول ـ أنه ثبت بالتواتر أنه ﷺ مات عن تسع . ثم إن الله تعالى أمرنا باتباعه فقال : فَاتَّبِعُوهُ ، وأقل مراتب الأمر الإباحة . الثانى ـ أن سنة الرجل طريقته . وكان التزوج بالأكثر من الأربع طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام. فكان ذلك سنة له . ثم إنه عليه السلام قال(١) : فمن رغب عن سنتى فليس منى . فظاهر هذا الحديث

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث ٢٠٩٩ ونصه :

عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبىّ ﷺ يسألون عن عبادة النبىّ ﷺ . فلما أخبروا ، كأنهم تقالّوها . فقالوا : وأين نحن من النبىّ ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . =

يقتضى توجه اللوم على من ترك التزوج بأكثر من الأربعة. فلا أقل من أن يثبت أصل الجواز.

واعلم أن معتمد الفقهاء فى إثبات الحصر على أمرين : الأول ـ الخبر . وهو ما روى أن غيلان أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال الرسول ﷺ : أمسك أربعاً وفارق باقيهن . وروى أن نوفل بن معاوية أسلم وتحته خمس نسوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : أمسك أربعاً وفارق واحدة .

واعلم أن هذا الطريق ضعيف لوجهين : الأول ـ أن القرآن لما دل على عدم الحصر بهذا الخبر كان ذلك نسخاً للقرآن بخبر الواحد وأنه غير جائز . والثانى ـ وهو أن الخبر واقعة حال . فلعله عليه الصلاة والسلام إنما أمره بإمساك أربع ومفارقة البواقى لأن الجمع بين الأربعة وبين البواقى غير جائز، إما بسبب النسب أو بسبب الرضاع . وبالجملة فهذا الاحتمال قائم فى هذا الخبر فلا يمكن نسخ القرآن بمثله (الطريق الثانى) وهو إجماع فقهاء الأمصار على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع. وهذا هو المعتمد، وفيه سؤالان: الأول ـ أن الإجماع لا يَنسَخ ولا يُنسَخ. فكيف يقال : الإجماع نسخ هذه الآية ؟ . الثانى ـ أن فى الأمة أقواماً شذاذاً لا يقولون بحرمة الزيادة على الأربع . والإجماع ، مع مخالفة الواحد والاثنين، لا ينعقد .

(والجواب عن الأول) أن الإجماع يكشف عن حصول الناسخ فى زمن الرسول ﷺ . (وعن الثانى) أن مخالف هذا الإجماع من أهل البدعة. فلا عبرة بمخالفته، انتهى كلام الرازى، وقوله (من أهل البدعة) لا يجوز أخذه على عمومه لما ستراه .

= قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وقال الإمام الشوكانىّ رحمه الله تعالى فى (وبل الغمام) : الذى نقله إلينا أئمة اللغة والإعراب وصار كالمجمع عليه عندهم، أن العدل فى الأعداد يفيد أن المعدود لما كان متكثراً يحتاج استيفاؤه إلى أعداد كثيرة كانت صيغة العدل المفردة فى قوة تلك الأعداد . فإن كان مجىء القوم مثلًا اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، وكانوا ألوفاً مؤلفة ، فقلت : جاءنى القوم مثنى ، أفادت هذه الصيغة أنهم جاءوا اثنين اثنين ، حتى تكاملوا . فإن قلت : مثنى وثلاث ورباع ، أفاد ذلك أن القوم جاءوك تارة اثنين اثنين ، وتارة ثلاثة ثلاثة ، وتارة أربعة أربعة . فهذه الصيغ بينت مقدار عدد دفعات المجىء لا مقدار عدد جميع القوم ، فإنه لايستفادمنها أصلًا. بل غاية مايستفاد منها أن عددهم متكثر تكثراً تشق الإحاطة به . ومثل هذا إذا قلت : نكحت النساء مثنى . فإن معناه نكحتهن اثنتين اثنتين . وليس فيه دليل على أن كل دفعة من هذه الدفعات لم يدخل فى نكاحه إلا بعد خروج الأولى . كما أنه لا دليل فى قولك : جاءنى القوم مثنى ، أنه لم يصل الاثنان الآخران إليك إلا وقد فارقك الاثنان الأولان . إذا تقرر هذا فقوله تعالى « مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » يستفاد منه جواز نكاح النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . والمراد جواز تزوج كل دفعة من هذه الدفعات فى وقت من الأوقات . وليس فى هذا تعرض لمقدار عددهن . بل يستفاد من الصيغ الكثرة من غير تعيين . كما قدمنا فى مجىء القوم . وليس فيه أيضاً دليل على أن الدفعة الثانية كانت بعد مفارقة الدفعة الأولى . ومن زعم أنه نقل إلينا أئمة اللغة والإعراب ما يخالف هذا، فهذا مقام الاستفادة منه، فليتفضل بها علينا . وابن عباس ، إن صح عنه فى الآية أنه قصر الرجال على أربع فهو فرد من أفراد الأمة . وأما القعقعة بدعوى الإجماع فما أهونها وأيسر خطبها عند من لم تفزعه هذه الجلبة . وكيف يصح إجماع خالفته الظاهرية وابن الصباغ ، والعمرانىّ ، والقاسم بن إبراهيم، نجم آل الرسول ، وجماعة من الشيعة ، وثلة من محققى المتأخرين ، وخالفه أيضاً القرآن الكريم ، كما بيناه . وخالفه أيضاً فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما صح

ذلك تواتراً ، من جمعه بين تسع أو أكثر فى بعض الأوقات . « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ(١) . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ(٢) . قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ(٣) ودعوى الخصوصية مفتقرة إلى دليل . والبراءة الأصلية مستصحبة لا ينقل عنها إلا ناقل صحيح تنقطع عنده المعاذير .

وأما حديث(٤) أمره صلى الله عليه وسلم لغيلان، لما أسلم وتحته عشر نسوة، بأن يختار منهن أربعاً ويفارق سائرهن ، كما أخرجه الترمذىّ وابن ماجه وابن حبان ، فهو وإن كان له طرق ، فقد قال ابن عبد البر : كلها معلولة . وأعله غيره من الحفاظ بعلل أخرى . ومثل هذا لاينتهض للنقل عن الدليل القرآنىّ والفعل المصطفوىّ الذى مات ﷺ عليه والبراءة الأصليه . ومن صحح لنا هذا الحديث على وجه تقوم به الحجة ، أو جاءنا بدليل فى معناه، فجزاه الله خيراً. فليس بين أحد وبين الحق عداوة. وعلى العالم أن يوفى الاجتهاد حقه لاسيما فى مقامات التحرير

(١) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] . . . لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا .

(٣) [٣ / آل عمران / ٣١] . . . وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح، ٣٣ ـ باب ماجاء فى الرجل يُسلم وعنده عشر نسوة .

وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٠ ـ باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة ، حديث ١٩٥٣ (طبعتنا) .

والتقرير. كما نفعله فى كثير من الأبحاث . وإذا حاك فى صدره شيء فليكن تورعه فى العمل لا فى تقرير الصواب . فإياك أن تحامى التصريح بالحق الذى تبلغ إليه ملكتك ، لقيل وقال. ولاسيما فى مثل مواطن يجبن عنها كثير من الرجال . فإنك لاتسئل يوم القيامة عن الذى ترتضيه منك العباد بل عن الذى يرتضيه المعبود . وإذا جاء نهر الله بطل نهر[1] معقل . ومن ورد البحر استقل السواقيا. انتهى.

وقال الشوكانى قدس سره أيضا فى (نيل الأوطار) : حديث قيس بن الحرث (وفى رواية الحرث بن قيس) فى إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى. وقد ضعفه غير واحد من الأئمة . قال أبو القاسم البغوى : ولا أعلم للحرث بن قيس حديثاً غير هذا . وقال أبو عمرو النمرى : ليس له إلا حديث واحد ولم يأت به من وجه صحيح . وفى معنى هذا الحديث غيلان الثقفى وهو عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال : أسلم غيلان الثقفى وتحته عشر نسوة، فى الجاهلية. فأسلمن معه. فأمره النبى ﷺ أن يختار منهن أربعاً . رواه أحمد وابن ماجة والترمذى. وحكم أبو حاتم وأبو زرعة بأن المرسل أصح . وحكى الحاكم عن مسلم أن هذا الحديث مما وهم فيه معمر بالبصرة . قال : فإن رواه عنه ثقة خارج البصرة حكمنا له بالصحة . وقد أخذ ابن حبان والحاكم والبيهقى بظاهر الحكم، وأخرجوه من طرق عن معمر من حديث أهل الكوفة وأهل خرسان وأهل اليمامة عنه . قال الحافظ : ولا يفيد ذلك شيئاً . فإن هؤلاء كلهم ، إنما سمعوا منه بالبصرة . وعلى تقدير أنهم سمعوا منه بغيرها، فحديثه الذى حدث به فى غير بلده مضطرب . لأنه كان يحدث فى بلده من كتبه على الصحة . وأما إذا رحل فحدث من حفظه

---

(١) أما نهر معقل ، فقال فى (مراصد الاطلاع) : منسوب إلى معقل بن يسار المزنى الصحابى . فهو معروف بالبصرة فَمُهُ عند فم الإجّانة . ومعقل هو الذى تولى حفره فى ولاية أبى موسى الأشعرى بأمر عمر رضى الله عنه . وقيل : فى زمن زياد وبأمر معاوية .

أما المثل فلا أدرى متى قيل ولأية مناسبة قيل . وفوق كل ذى علم عليم .

بأشياءوهم فيها . اتفق على ذلك أهل العلم . كابن المديني والبخاري وابن أبي حاتم ويعقوب بن شيبة وغيرهم . وحكى الأثرم عن أحمد أن هذا الحديث ليس بصحيح . والعمل عليه . وأعله بتفرد معمر في وصله وتحديثه به في غير بلده . وقال ابن عبد البر: طرقه كلها معلولة . وقد أطال الدارقطني في (العلل) تخريج طرقه . ورواه ابن عيينة ومالك عن الزهري مرسلًا . ورواه عبد الرزاق عن معمر كذلك . وقد وافق معمراً على وصله بحر بن كنيز السقاء عن الزهري . ولكنه ضعيف . وكذا وصله يحي بن سلام عن مالك . ويحي ضعيف . وفي الباب عن نوفل بن معاوية ، عند الشافعي ، أنه أسلم وتحته خمس نسوة . فقال له النبي ﷺ : أمسك أربعاًوفارق الأخرى . وفي إسناده رجل مجهول . لأن الشافعي قال: حدثنا بعض أصحابنا عن أبي الزناد عن عبد المجيد بن سهل عن عوف بن الحرث عن نوفل بن معاوية قال: أسلمت ، فذكره . وفي الباب أيضاً عن عروة بن مسعود وصفوان بن أمية عند البيهقي . وقوله: اختر منهن أربعاً، استدل به الجمهور على تحريم الزيادة على أربع . وذهبت الظاهرية إلى أنه يحل للرجل أن يتزوج تسعاً . ولعل وجهه قوله تعالى : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . ومجموع ذلك لا باعتبار ما فيه من العدل ، تسع . وحكى ذلك عن ابن الصباغ والعمراني وبعض الشيعة . وحكى أيضاً عن القاسم بن إبراهيم . وأنكر الإمام يحي الحكاية عنه . وحكاه صاحب البحر عن الظاهرية ، وقوم مجاهيل . وأجابوا عن حديث قيس بن الحرث المذكور بما فيه من المقال المتقدم . وأجابوا عن حديث غيلان الثقفي بما تقدم فيه من المقال . وكذلك أجابوا عن حديث نوفل بن معاوية بما قدمنا من كونه في إسناده مجهول . قالوا : ومثل هذا الأصل العظيم لا يكتفى فيه بمثل ذلك. ولاسيما وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قد جمع بين تسع أو إحدى عشرة، وقد قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (١) . وأما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] . . . لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .

دعوى اختصاصه بالزيادة على الأربع فهو محل النزاع . ولم يقم عليه دليل . وأما قوله تعالى : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فالواو فيه للجمع لا للتخيير . وأيضاً لفظ مثنى معدول به عن اثنين اثنين . وهو يدل على تناول ما كان متصفاً من الأعداد بصفته الاثنينية . وإن كان فى غاية الكثرة البالغة إلى ما فوق الألوف . فإنك تقول جاءنى القوم مثنى أى اثنين اثنين . وهكذا ثلاث ورباع . وهذا معلوم فى لغة العرب لا يشك فيه أحد . فالآية المذكورة تدل بأصل الوضع على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . وليس من شرط ذلك أن لا تأتى الطائفة الأخرى فى العدد إلا بعد مفارقته للطائفة التى قبلها . فإنه لاشك أنه يصح ، لغة وعرفاً ، أن يقول الرجل ، لألف رجل عنده : جاءنى هؤلاء اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثه أو أربعة أربعة. فحينئذ الآية تدل على إباحة الزواج بعدد من النساء كثير . سواء كانت الواو للجمع أو للتخيير . لأن خطاب الجماعة بحكم من الأحكام بمنزلة الخطاب به لكل واحد منهم . فكأن الله سبحانه وتعالى قال ، لكل فرد من الناس : انكح ماطاب لك من النساء مثنى وثلاث ورباع . ومع هذا فالبراءة الأصلية مستصحبة . وهى بمجردها كافية فى الحل حتى يوجد ناقل صحيح ينقل عنها . وقد يجاب بأن مجموع الأحاديث المذكورة فى الباب لا تقصر عن رتبة الحسن لغيره ، فتنهض بمجموعها للاحتجاج . وإن كان كل واحد لا يخلو عن مقال . ويؤيد ذلك كون الأصل فى الفروج الحرمة . كما صرح به الخطابى . فلا يجوز الإقدام على شىء منها إلا بدليل . وأيضاً هذا الخلاف مسبوق بالإجماع على عدم جواز الزيادة على الأربع . كما صرح بذلك فى (البحر) .

وقال فى (الفتح) اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن . وقد ذكر الحافظ فى (الفتح) و (التلخيص) الحكمة فى تكثير نسائه ﷺ فليراجع ذلك . انتهى .

وقال قدس سره فى تفسيره (فتح القدير) : وقد استدل بالآية على تحريم مازاد على الأربع .

وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة . وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هـذا العدد . كما يقال للجماعة : اقتسموا هذا المال . وهو ألف درهم (أو هذا المال الذى فى البدرة) درهمين درهمين . وثلاثة ثلاثة . وأربعة أربعة . وهـذا مسلم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته ، أو عيّن مكانه . أما لو كان مطلقاً ، كما يقال : اقتسموا الدراهم ، ويراد بها ما كسبوه ، فليس المعنى هكذا . والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول . على أن من قال لقوم يقتسمون مالًا معيناً كبيراً : اقتسموه مثنى وثلاث ورباع، فقسموا بعضه بينهم درهمين درهمين. وبعضه ثلاثة ثلاثة. وبعضه أربعة أربعة . كان هذا هو المعنى العربىّ. ومعلوم أنه إذا قال القائل: جاءنى القوم مثنى ، وهم مائة ألف ، كان المعنى أنهم جاءوه اثنين اثنين . وهكذا: جاءنى القوم ثلاث ورباع . والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد . كما فى قوله تعالى: اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ، أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ، ونحوها . ومعنى قوله « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : لينكح كل فرد منكم ماطاب له من النساء اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . هذا ما تقتضى لغة العرب . فالآية تدل على خلاف ما استدلوا به عليه . ويؤيد هذا قوله تعالى فى آخر الآية : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً. فإنه وإن كان خطاباً للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد . فالأوْلى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنة لا بالقرآن . وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة وكأنه قال : انكحوا مجموع هذا العدد المذكور، فهذا جهل بالمعنى العربىّ . ولو قال : انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً كان هذا القول له وجه . وأما مع المجىء بصيغة العدل فلا . وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون (أو) لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره . وذلك ليس بمراد من النظم القرآنىّ .

أخرج الشافعىّ وابن أبى شيبة وأحمد والترمذىّ وابن ماجة والدارقطنىّ والبيهقىّ ، عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفىّ أسلم وتحته عشر نسوة . فقال له النبىّ ﷺ : اختر منهن

(وفى لفظ أمسك منهن) أربعاً وفارق سائرهن . وروى هـذا الحديث بألفاظ من طرق .
وعن نوفل بن معاوية الديلى قال : أسلمت وعندى خمس نسوة. فقال رسول الله ﷺ : أمسك أربعاً وفارق الأخرى . أخرجه الشافعى فى مسنده .

وأخرج ابن ماجة والنحاس فى (تاريخه) عن قيس بن الحرث الأسدى قال : أسلمت وكان تحتى ثمان نسوة . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته . فقال : اختر منهن أربعاً وخل سائرهن. ففعلت. وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقى .

وقال قدس سره أيضاً فى كتابه (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) : أما الاستدلال على تحريم الخامسة وعدم جواز زيادة على الأربع بقوله عز وجل : مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فغير صحيح . كما أوضحته فى (شرحى للمنتقى) وقد قدمناه . ولـكن الاستدلال على ذلك بحديث قيس بن الحرث وحديث غيلان الثقفى وحديث نوفل بن معاوية هو الذى ينبغى الاعتماد عليه . وإن كان فى كل واحد منها مقال . لـكن الإجماع على ما دلت عليه قد صارت به من المجمع على العمل عليه . وقد حكى الإجماع صاحب (فتح البارى) والمهدى فى (البحر) والنقل عن الظاهرية لم يصح . فإنه قد أنـكر ذلك منهم من هو أعرف بمذهبهم . انتهى .

تتمـة :

روى الدارقطنى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قال : ينكح العبد امرأتين ويطلق تطليقتين وتعتد الأمة حيضتين .

قال الشوكانى فى (نيل الأوطار) قد تمسك بهذا من قال : إنه لا يجوز للعبد أن يتزوج فوق اثنتين . وهو مروى عن على وزيد بن على والناصر والحنفية والشافعية . ولا يخفى أن قول الصحابى لا يكون حجة على من لم يقل بحجيته . نعم ، لو صح إجماع الصحابة على ذلك لـكان دليلا عند القائلين بحجية الإجماع . ولـكنه قد روى عن أبى الدرداء ومجاهد وربيعة

وأبي ثور والقاسم بن محمد وسالم ؛ أنه يجوز له أن ينكح أربعاً كالحر . حكى ذلك عنهم صاحب (البحر) فالأوْلى الجزم بدخوله تحت قوله تعالى : فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ . والحكم له وعليه بما للأحرار وعليهم . إلا أن يقوم دليل يقتضى المخالفة . كما فى المواضع المعروفة بالتخالف بين حكميهما انتهى .

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا » أى بين هذه الأعداد « فَوَاحِدَةً » أى فاختاروها . وقرئ بالرفع أى فحسبكم واحدة « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من الإماء ، بالغةً ما بلغت من مراتب العدد . لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق مثل ما يلزم فى الحرائر . ولا قسم لهن . و (أو) للتسوية . أى التخيير . والعدد يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة . قال الزمخشرىّ : سوّى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ولا توقيت عدد . ولعمرى إنهن أقل تبعة وأقصر شغباً وأخف مؤنة من المهائر . لا عليك ، أكثرت منهن أم أقللت . عدلت بينهن فى القسم أم لم تعدل ، عزلت عنهن أم لم تعزل . انتهى .

« ذَٰلِكَ » أى الاقتصار على واحدة أو على التسرى «أَدْنَىٰ» أى أقرب «أَلَّا تَعُولُوا» أى من أن لا تميلوا ولا تجوروا . لانتفائه رأساً بانتفاء محله فى الأول . وانتفاء خطره فى الثانى. بخلاف اختيار العدد فى المهائر . فإن الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر. هذا إن قدر (تعولوا) مضارع عال، بمعنى جار ومال عن الحق . وهو اختيار أكثر المفسرين . ومن الوجوه المحتملة فيه كونه مضارع عال بمعنى كثر عياله . قال فى القاموس : وعال فلان عولًا وعيالة: كثر عياله ، كأعول وأعيل . انتهى . وعلى هذا الوجه اقتصر الإمام المهايمىّ ، قدس سره ، فى تفسيره حيث قال : أى أقرب من أن لا تكثر عيالكم . فيمكن معه القناعة بحيث لا يضطر إلى الجور فى أموال اليتامى . انتهى . وروى هذا التأويل عن زيد بن أسلم وسفيان ابن عيينة والشافعىّ . وأما قول ابن كثير فى هذا التفسير : ههنا نظر ، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السرارى ـ فجوابه (كما قال الرازىّ) من

وجهين : الأول ـ ماذكره القفّال رضي الله عنه . وهو أن الجوارى إذا كثرن فله أن يكلفهن الكسب . وإذا اكتسبن أنفقن على أنفسهن وعلى مولاهن أيضاً . وحينئذ تقل العيال . أما إذا كانت المرأة حرة ، لم يكن الأمر كذلك . فظهر الفرق . الثانى ـ أن المرأة إذا كانت مملوكة، فإذا عجز المولى عن الإنفاق عليها باعها وتخلص منها . أما إذا كانت حرة فلا بدّ له من الإنفاق عليها . والعرف يدل على أن الزوج ما دام يمسك الزوجة فإنها لا تطالبه بالمهر . فإذا حاول طلاقها طالبته بالمهر فيقع الزوج فى المحنة . انتهى .

تنبيهان

الأول ـ قال بعض المفسرين : دلت الآية على أنه يجب بالنكاح حقوق . وتدل على أن من خشى الوقوع فيما لا يجوز ، قبح منه ما دعا إلى ذلك القبيح . فلا يجوز لمن عرف أنه يخون مال اليتيم إذا تزوج أكثر من واحدة ، أن يتزوج أكثر . وكذا إذا عرف أنه يخون الوديعة ولا يحفظها ، فإنه لا يجوز له قبول الوديعة . وتدل على أن العدل واجب بين الزوجات . وأن من عرف أنه لايعدل فإنه لا تحل له الزيادة على واحدة . وتدل على أن زواجه الصغيرة من غير أبيها وجدّها جائز . وللفقهاء مذاهب فى ذلك معروفة .

الثانى ـ فى سرّ ما تشير إليه الآية من إصلاح النسل . قال بعض علماء الاجتماع من فلاسفة المسلمين فى مقالة عنوانها (الإسلام وإصلاح النسل) ما مثاله : ما زال البشر يسعى منذ ألوف من السنين وراء إصلاح ما يقتنيه من خيل وبقر وغنم ليكثر انتفاعه به . فيختار لإناث هذه الحيوانات أفحلًا كريمة ، هى على ما يرومه من الصفات ، ليحصل منها على نسل أنفع له من أمهاته . وقد زادت رغبة الناس بهذا العصر فى إصلاح النوع النافع من الحيوان. فضرّبوه ورقوه باختيار الأفحُل المناسبة ، حتى حصلوا على صنف من الخيل الجياد تسابق الرياح فتجرى (١٦) متراً فى الثانية من الزمن . وعلى صنف من البقر تحلب فى اليوم الواحد خمسين أقة . وعلى صنف من المعزى والغنم شعره أو صوفه مثل الحرير نعومةً . ولم يقصر

إصلاحهم على الحيوان ، بل تجاوز إلى النبات . فحصلوا بفضله على أشجار كثيرة الثمر لذيذته . وانتفعوا انتفاعاً كبيراً ، ما تيسر لأسلافهم . نعم إن البشر افتكروا فى إصلاح الحيوان الصامت والنبات ، وعلموا ما فيه من الفوائد ، فسعوا إليه السعى الذى يرضاه العلم ، وجنوا ثمار ذلك السعى . ولكنهم ما افتكروا فى إصلاح ما هو أهمّ من كل ذلك : فى إصلاح الحيوان الذكىّ ، والشرير أكثر من الصالح ، والجبان أكثر من الشجاع ، والكاذب أكثر من الصادق ، والكسلان أكثر من أخى الجد النشيط . ولو أنهم أصلحوا نسلهم لما وجد فى النـاس من يولد مريضاً ويعيش مريضاً . فلا ينتفع بوجوده المجتمع ، وهو كثير . قام من بين هـذا الجيل فيلسوفان : ألمانىّ وانكليزىّ . وأخذا يعلمان بكتاباتهما المبنيّة على البراهين وجوب إصلاح الإنسان لنسل الإنسان . ويعددان فوائد هـذا الإصلاح لنوعه . ويبيّنان للملإ أن الرقىّ المطلوب لايتم إلا به . وطفقا يلومان النـاس على اعتنائهم بإصلاح المواشى وإهمالهم إصلاح أنفسهم . الأمر الذى هو أهم من ذلك كثيراً . وذكرا لذلك طرقاً : (منها) منع أصحاب العاهات والأمراض المزمنة وأولى الجرائم الكبيرة من الزواج لينقطع نسلهم الذى يجىء غالباً على شاكلتهم . (ومنها) إباحة تعدد الزوجات للنابغين من الرجال ليكثر نسلهم . وقالا : إذا جرى المجتمع على هذا الانتخاب الصناعىّ قروناً عديدة كان نسل الإنسان الأخير ، بحكم ناموس الوراثة ، سالماً من الأمراض . حسن الطوية . ليس فيه ميل إلى الشر . قويًّا . ذكىّ الفؤاد . نابغاً فى العلوم التى يتعلمها . كأنه نوع أرقى من الإنسان الحاضر . وكانت أهم طريقة أبدياها للارتقاء المنتظر للبشر فى المستقبل ، هى طريقة تعدد الزوجات فى الحاضر للنابغين من الناس . فإن منع أصحاب الأمراض المزمنة والجناة من الزواج إنما يفيد فى تقوية النسل وجعله ميالًا بالفطرة إلى الخير ليس إلا . لا فى جعله أذكى من آبائه وأسمى مداركـ . وتعدد الزوجات للنابغين من المسلمين ، قد جاء به الإسـلام قبل هذين الفيلسوفين بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة . فقد أباح لهم تعددهن إلى أربع . ليكثر نسلهم ،

فيكثر عدد النابغين، الذين بهم وحدهم تتم الأعمال الكبيرة فى هذه الدنيا . فهو من مكتشفات هذا الدين الاجتماعية . وقد جعل رضاهن بذلك شرطاً له لئلا يكون فيه إجحاف بحقوقهن . والعاقلة من النساء تفضل أن تكون زوجة لنابغة من الرجال ـ وإن كان ذا زوجات أخر ـ على أن تكون زوجة لرجل أحمق ، وإن اقتصر عليها . لأنها تعلم أن أولادها من الأول ينجبون أكثر منهم من الثانى . وأما غير النابغين منهم فإن الدين يمنعهم من نكاح أكثر من واحدة ، لئلا يكثر نسلهم . قال الله تعالى فى كتابه المبين يخاطب المؤمنين « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » الخطاب فى هذه الآية لعموم الأمة . فهى تأذن لكل أحد من المسلمين أن يتزوج بأكثر من واحدة من النساء إلى أربع . إذا آنس من نفسه القدرة على العدل بينهن . وإلا وجب عليه الاقتصار على واحدة لئلا يجور عليهن . والقدرة على العدل بين أربع من النساء ، متوقف على عقل كبير وسياسة فى الإدارة وحكمة بالغة فى المعاملة ، لا تتأتى إلا لمن كان نابغة بين الرجال ، ذا مكانة من العقل ترفعه على أقرانه . والرجل النابغة ، إذا تزوج بأكثر من واحدة، كثر نسله فكثر النوابغ . والشعب الذى يكثر نوابغه أقدر على الغلبة فى تنازع البقاء من سائر الشعوب . كما يدلنا عليه التاريخ . ثم خاطب الله ، فى مكان آخر ، الخائفين أن لا يعدلوا بين النساء ؛ وهم غير النوابغ من المسلمين، بقوله : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم. فأمرهم فى هذه الآية ، التى هى فى المعنى تتمة للأولى ، أن لا يقترنوا بأكثر من واحدة لأنهم فى درجة من العقل هى دون درجة النابغين ، لن يستطيعوا معها إتيان العدل بين النساء ، المتوقف على عقل كبير يسهل لصاحبه أن يرضيهن جمعاء . كما يأتيه النابغون والدهاة من الناس. وحرم على هؤلاء ، الذين لم يحوزوا القدرة على العدل ، التزوج بأكثر من واحدة . لئلا يقع الظلم من الرجال على النساء . وهو كثير الصدور من الأوساط ومن كان دونهم فى سلم الارتقاء . ولئلا يكثر نسل غير النابغين . وهو الأهم . فتبقى الأمة فى مكانها من الانحطاط .

وقد تقدم أن الخطاب فى قوله تعالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » فى الآية الأولى لعموم الأمة . غير أن الشرط بالعدل جعله خاصًّا بالعادلين منهم . وهم النابغون الذين يقتدرون على إتيان العدل بين النساء لوفور عقلهم. والغاية من أمر هذا الصنف من المسلمين أن يتزوجوا بأكثر من واحدة إلى أربع، هو تكثير نسلهم ليستفيد من كثرة أمثالهم المجتمع، كما أسلفنا. ولكن النابغة لا يأتى نسله فى الغالب نوابغ ، بمجرد تعدد الزوجات . فإن الزوجة المتوسطة أو المنحطة يكون أولادها فى الغالب أوساطاً أو منحطين . وإن كان أبوهم راقياً . فلا تحصل الفائدة المطلوبة من تعدد الزوجات وهى إصلاح النسل . بل يجب للحصول على هذا المطلب الأسنى أن يقترن النابغون بالنابغات . ليكون أولادهم مثلهم نبوغاً أو أنبغ منهم . بحكم سنة الوراثة . وذلك إنما يتم إذا أحسن النابغون اختيار الأزواج . فنكحوا ما طاب لهم . والنابغة لا يطيب له أن يقترن إلا بمن جمعت نبوغاً مثل نبوغه ، إلى حسن رائع . فإن معاشرة الحمقاء ليس مما يطيب للعاقل الراقى . وإن الخير يطلب عند حسان الوجوه . ولذلك قال تعالى « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » ولم يقل وانكحوا من النساء . وفى قوله تعالى «مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» إشارة إلى مراتب نبوغ الرجل، الثلاث . فكأنه أراد أن لا يتجاوز ، الذى قلّ نبوغه ، الاقترانَ باثنتين . وأن لا يتجاوز ، الذى نبوغه متوسط ، الاقترانَ بثلاث. وأن يحل ، للذى نبوغه أعلى من الأولين ، الاقترانُ بأربع .

وأما الخائفون أن لا يعدلوا فيجب أن لا يتجاوزوا الاقتران بواحدة . لأنهم أناس لن يستطيعوا ، مع كل حرصهم ، أن يعدلوا بين النساء . لقصور عقلهم فى سياسة المنزل وعدم نبوغهم. وهناك إنسان نبوغه أكبر من كل نبوغ . هو محمد ﷺ . الذى اختاره الله لوفور حكمته رسولًا منه إلى البشر . قد أحل له أن يقترن بأكثر من أربع لقدرته على العدل بينهن .

وأظنك ، بعد قراءة ما أوردت ، تعترف ، إن كنت من المنصفين ، أن الإسلام جاء ،

قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام، بسنّة للزواج ، عليها وحدها يتوقف إصلاح نسل البشر ، الذى أخذ فى هذا القرن أفراد من فلاسفة الغرب يحضّون عليه . تلك السنة هى تعدد الزوجات بعد أن كان الرأى العام فى الغرب يعيبه عليها . هذا هو الإسلام يقرر أكبر قاعدة للترقى . وهو إباحة تعدد الزوجات ، اللاتى يطبن لوفور جمالهن وعقلهن، لأفراد نابغين من المسلمين. لا يخافون لوفور عقلهم أن لا يعدلوا بينهن . ولكن المسلمين لم يأتمروا بأمر الله . فأباحوا هذا التعدد لكل أحد من المسلمين . للخائفين أن لا يعدلوا . ولغير الخائفين . ففسد النسل. والذى أعان على فساده هو كون القدرة عليه أصبحت ، بحكم الجهل ، منحصرة فى المال الذى يجمعه الغاصب والسارق والكاسب . فكثر نسل الظالمين وقلّ نسل العادلين من أهل العقل الراجح . انتهى كلامه . وهو استنباط بديع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

« وَءَاتُوا » أى أعطوا « النِّسَاءَ » أى اللاتى أمر بنكاحهن «صَدُقَاتِهِنَّ» أى مهورهن (جمع صدقة كسَمُرَة) وهى المهر « نِحْلَةً » أى عطاء غير مستردّ بحيلة تلجئهن إلى الرد . والنحلة (بكسر النون وضمها ، على ما رواه ابن دريد) اسم مصدر لـ (نحل) . والمصدر النحل (بالضم) وهو العطاء بلا عوض . والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة ، مع كونها واجبة على الأزواج ، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر .

فائدتان :

الأولى ـ هذا الخطاب إما للأزواج ، كما روى عن علقمة والنخعىّ وقتادة ، واختاره الزجاج . فإن ما قبله خطاب للناكحين وهم الأزواج . وإما لأولياء النساء . وذلك لأن العرب

كانت فى الجاهلية لا تعطى النساء من مهورهن شيئاً . ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئاً لك النافجة . ومعناه إنك تأخذ مهرها إبلًا فتضمها إلى إبلك فتنفج مالك أى تعظمه . وقال ابن الأعرابى : النافجة ما يأخذه الرجل من الحلوان إذا زوج ابنته . فنهى الله تعالى عن ذلك وأمر بدفع الحق إلى أهله . وهذا قول الكلبى وأبى صالح. واختيار الفراء وابن قتيبة.

الثانية ـ قال القفال رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون المراد من الإتياء المناولة . ويحتمل أن يكون المراد الالتزام . قال تعالى : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ[1] . والمعنى حتى يضمنوها ويلتزموها . فعلى هذا الوجه الأول ، كان المراد أنهم أمروا بدفع المهور التى قد سموها لهن . وعلى التقدير الثانى كان المراد أن الفروج لا تستباح إلا بعوض يلزم . سواء سمى ذلك أو لم يسم. إلا ما خص به الرسول صلى الله عليه وسلم فى الموهوبة . ثم قال رحمه الله : ويجوز أن يكون الكلام جامعاً للوجهين معاً . والله أعلم .

« فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً » الضمير للصدقات . وتذكيره لإجرائه مجرى ذلك . أى فإن أحللن لكم من المهر شيئاً بطيبة النفس ، جلباً لمودتكم ، لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم. ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم.

« فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً » أى تخذوه وتصرفوا فيه تملكا . وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية . وهنيئاً مريئاً : صفتان من (هنؤ الطعام ومرؤ) إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه . وقيل : الهنىء ما أتاك بلا مشقة ولا تبعة . والمرىء حميد المغبة . وهما عبارة عن التحليل والمبالغة فى الإباحة وإزالة التبعة . لأنهن كالرجال فى التصرفات والتبرعات .

---

(١) [٩/ التوبة/ ٢٩] ونصها : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : للآية ثمرات: منها أنه لابد فى النكاح من صداق . ومنها أنه حق واجب للمرأة كسائر الديون . ومنها أن لها أن تتصرف فيه بما شاءت . ولم تفصل الآية بين أن تقبضه أم لا . ولذا قال بعض الفقهاء : لها بيع مهرها قبل قبضه . ولبعضهم : لاتبيعه حتى تقبضه ، كالملك بالشراء . ومنها أنه يسقط عن الزوج بإسقاطها مع طيب نفسها . وقد رأى شريح إقالتها إذا رجعت، واحتج بالآية . روى الشعبيّ أن امرأة جاءت مع زوجها شريحاً فى عطية أعطتها إياه . وهى تطلب الرجوع . فقال شريح: رد عليها . فقال الرجل أليس قد قال الله تعالى : فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ ؟ فقال : لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه . وروى عنه أيضاً أقيلها فيما وهبت ولا أقيله . لأنهن يُخْدعن . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته : أن النساء يعطين رغبة ورهبة . فأيما امرأة أعطته ثم أرادت أن ترجع فذلك لها . نقله الرازيّ .

أقول: ما رآه شريح وروى عن عمر ، هو الفقه الصحيح والاستنباط البديع . إذ الآية دلت على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط. حيث بنى الشرط على طيب النفس . ولم يقل : فإن وهبن لكم ، إعلاما بأن المراعَى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيّبة . وبرجوعها يظهر عدم طيب نفسها . وذلك بيّن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » اعلم أن فى الآية وجوهاً يحتملها النظم الكريم .

الأول : أن يراد بالسفهاء اليتامى . كما روى عن سعيد بن جبير . والخِطابُ حينئذ للأولياء . نهوا أن يؤتوا اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها لقلة عقولهم . لأن السفيه هو الخفيف الحلم. وإنما أضيفت للأولياء ، وهى لليتامى ، تنزيلًا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء . فكأن أموالهم عين أموالهم . لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسىّ والنسبىّ . مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها . كما فى قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »(١) . أى لا يقتل بعضكم بعضاً . حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم ،مبالغةً فى زجرهم عن قتلهم . فكأن قتلهم قتل أنفسهم . وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطاً لمعاش أصحابها بجعلها مناطاً لمعاش الأولياء ، بقوله تعالى : الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً . أى جعلها الله شيئاً تقومون وتنتعشون . فلو ضيعتموها لضعتم . وقوله تعالى « وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ » أى اجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم . بأن تتجروا وتتربحوا . حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال . وقوله سبحانه « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً » أى كلاماً ليناً تطيب به نفوسهم. ومنه أن يعدهم عدة جميلة، بأن يقول وليهم: إذا صلحتم ورشدتم، سلمنا إليكم أموالكم. (الوجه الثانى) أن يراد بالسفهاء النساء والصبيان . روى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما . فالخِطاب عام والنهى لكل أحد أن يعمدَ إلى ما خوّله الله تعالى من المال فيعطيه امرأته وأولاده . ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقلهم واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم . قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول: لا تعمد إلى مالك وما خوّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما فى أيديهم . ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . (الوجه الثالث) أن

(١) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .

يراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفى بحفظ المال . فيدخل فيه النساء والصبيان والأيتام وكل من كان موصوفاً بهذه الصفة . قال الرازىّ : وهذا القول أولى . لأن التخصيص بغير دليل لا يجوز . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية الحجر على السفيه . وأنه لا يمكّن من ماله . وأنه ينفق عليه منه ويكسى ، ولا ينفق فى التبرعات . وأنه يقال له معروف . كـ(إنْ رشدت دفعنا إليك مالك . وإنما يحتاط لنفعك) .

واستدل بعموم الآية من قال بالحجر على السفيه البالغ . سواء طرأ عليه أم كان من حين البلوغ . ومن قال بالحجر على من يُخدع فى البيوع . ومن قال بأن من يتصدق على محجور، وشرط أن يترك فى يده ، لا يسمع منه فى ذلك .

لطيفة :

فى قوله تعالى « الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً » حث على حفظ الأموال وعدم تضييعها .

قال الزمخشرىّ : كان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن . ولأَنْ أترك مالًا يحاسبنى الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس . وعن سفيان ، وكانت له بضاعة يقلبها : لولاها لتمندل بى بنو العباس . وعن غيره (وقيل له : إنها تدنيك من الدنيا) : لأن أدنتنى من الدنيا لقد صانتنى عنها . وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا . فإنكم فى زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه . وربما رأوا رجلًا فى جنازة ، فقالوا له : اذهب إلى دكانك . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا)

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ » أى اختبروا عقولهم ومعرفتهم بالتصرف « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » أى بأن يحتلموا أو يبلغوا خمس عشرة سنة. لما فى الصحيحين(١) عن ابن عمر قال : إن رسول الله ﷺ عرضه يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازنى . قال نافع : فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لَحَدٌّ بين الصغير والكبير . وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة . وكذا نبات الشعر الخشن حول العورة ، لما رواه الإمام أحمد(٢) وأهل السنن عن عطية القرظىّ قال : عُرِضنا على النبىّ ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل . ومن لم ينبت خلّى سبيله . فكنت فيمن لم ينبت . فخلّى سبيلى . قال الترمذىّ : حسن صحيح . « فَإِنْ ءَانَسْتُمْ » أى شاهدتم وتبينتم «مِنْهُمْ رُشْدًا» أى صلاحاً فى دينهم وحفظاً لأموالهم . قاله سعيد بن جبير ، وروى عن ابن عباس والحسن وغير واحد من الأئمة « فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » أى من غير تأخير . وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد إما بالتبذير أو بالعجز أو بالفسق ، لا يسلم إليه ماله لأنها مفسدة للمال « وَلَا تَأْكُلُوهَا » أيها الأولياء « إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » أى مسرفين ومبادرين كبرهم . أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم . تفرّطون فى إنفاقها وتقولون : ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا « وَمَنْ كَانَ » من الأولياء « غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ » أى يتنزه عن أكل مال اليتيم . فإنه عليه كالميتة والدم . وليقنع بما آتاه الله تعالى من الرزق « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا » يمنعه اشتغاله بمال اليتيم عن الكسب . وإهماله يفضى إلى تلفه عليه « فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته . كما رواه ابن أبى حاتم عن عائشة

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١٨ ـ باب بلوغ الصبيان وشهادتهم .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

حيث قالت : فليأكل بالمعروف بقدر قيامه عليه . ورواه البخاري[(١)] أيضاً. قال ابن كثير : قال الفقهاء : له أن يأكل أقل الأمرين أجرة مثله . وقدر حاجته . وهل يرد إذا أيسر ؟ وجهان : أحدهما لا يرد لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً . وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعيّ . لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . وروى الإمام أحمد[(٢)] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ليس لى مال ولى يتيم . فقال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالًا . ومن غير أن تقى مالك، (أو قال تفدى مالك بماله) ورواه ابن أبي حاتم ولفظه : كل بالمعروف غير مسرف . ورواه أبو داود والنسائيّ وابن ماجه . وروى ابن حبان فى (صحيحه) وابن مردويه فى (تفسيره) عن جابر : أن رجلًا قال : يارسول الله ! مما أضرب يتيمى ؟ قال : مما كنت ضاربا منه ولدك. غير وَاقٍ مالك بماله . ولا متأثل منه مالًا . وروى عبد الرزاق عن الثوريّ عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال : جاء أعرابيّ إلى ابن عباس فقال : إن فى حجرى أيتاما . وإن لهم إبلًا . ولى إبل وأنا أمنح من إبلى فقراء . فماذا يحل لى من ألبانها ؟ فقال : إن كنت تبغى ضالتها ، وتهنأ جرباها ، وتلوط حوضها ، وتسعى عليها ، فاشرب غير مضرّ بنسل ، ولا ناهك فى الحلب . ورواه مالك فى موطإه[(٣)] . وبهذا القول ، وهو عدم أداء البدل ،

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٢ ـ باب : وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، حديث ١١٠٩ . ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها ، فى قوله تعالى : وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ؛ إنها نزلت فى والى مال اليتيم إذا كان فقيراً أنه يأكل منه ، مكان قيامه عليه ، بمعروف .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢١٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٤٩ ـ كتاب صفة النبيّ ﷺ ، حديث ٣٣ (طبعتنا) =

يقول عطاء بن أبى رباح وعكرمة وإبراهيم النخعىّ وعطية العوفىّ والحسن البصرىّ .

والوجـه الثانى ـ يردّ . لأن مال اليتيم على الحظر . وإنما أبيح للحاجة . فيردّ بدله . كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . وقد روى ابن أبى الدنيا عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر رضى الله عنه : إنى أنزلت نفسى من هذا المال منزلة والى اليتيم . إن استغنيت استعففت . وإن احتجت استقرضت . فإذا أيسرت قضيت. وروى سعيد بن منصور فى (سننه) : حدثنا أبو الأحوص عن أبى إسحاق عن البراء قال قال لى عمر رضى الله عنه: إنما أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم إن احتجت أخـذت منه . فإذا أيسرت رددته . وإن استغنيت استعففت . قال ابن كثير : إسناد صحيح .

وروى البيهقىّ عن ابن عباس نحو ذلك . وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى قوله « فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » يعنى القرض . قال وروى عن عبيدة وأبى العالية وأبى وائل ، وسعيد بن جبير (فى إحدى الروايات) ومجاهد والضحاك والشعبىّ والسدّىّ نحو ذلك . قال الفخر الرازىّ : وبعض أهل العلم خص هـذا الإقراض بأصول الأموال من الذهب والفضة وغيرها . وأما التناول من ألبان المواشى واستخدام العبيد وركوب الدواب فمباح له إذا كان غير مضر بالمال . وهذا قول أبى العالية وغيره . واحتجوا بأن الله تعالى قال : فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، فحكم فى الأموال بدفعها إليهم . انتهى .

أقول : الـكل محتمل . إذ لا نص من الأصلين على واحد منها . ولا يخفى الورع .

« فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » أى بعـد البلوغ والرشد « فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ » أى عند

= وهـذا نصه : عن القاسم بن محمد قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عباس فقال له : إن لى يتيما وله إبل ، أفأشرب من لبن إبله ؟ فقال ابن عباس : إن كنتَ تبغى ضالة إبله ، وتهنأ جَرْباها ، وتَلُطُّ حوضها ، وتسقيها يوم وِردها ، فاشرب غير مضرّ بنسل ، ولا ناهك فى الحلْب .

الدفع بأنهم قبضوها. فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة . قال السيوطيّ : فيه الأمر بالإشهاد ندباً. وقيل: وجوباً . ويستفاد منه أن القول فى الدفع قول الصبيّ ، لا الوليّ . فلا يقبل قوله إلا ببينة . « وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً » أى كافياً فى الشهادة عليكم بالدفع والقبض . أو محاسباً. فلا تخالفوا ماأمركم به . ولا يخفى موقع هذا التذييل هنا. فإن الوصيّ يحاسب على مافى يده. وفيه وعيد لوليّ اليتيم وإعلام له أنه تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره . لئلا ينوى أو يعمل فى ماله ما لا يحل ، ويقوم بالأمانة التامة فى ذلك إلى أن يصل إليه ماله . وقد ثبت فى صحيح مسلم(١) أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر إنى أراك ضعيفاً وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تَأَمَّرَنّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنّ مال يتيم .

ثم ذكر تعالى أحكام المواريث بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا)

« لِلرِّجَالِ » أى الأولاد والأقرباء « نَصِيبٌ » أى حظ « مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » أى المتوفون « وَلِلنساءَ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ » أى المال « أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضًا » أى مقطوعاً واجباً لهم . وإيراد حكم النساء على الاستقلال دون الدرج فى تضاعيف أحكام الرجال ، بأن يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن ، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبى الفريقين ، والمبالغة فى إبطال حكم الجاهلية . فإنهم كانوا لا يورّثون النساء والأطفال . ويقولون ، لا يرث إلا من طاعن بالرماح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة . وقد استدل بالآية على توريث ذوى الأرحام لأنهم من الأقربين. وهو استدلال وجيه . ولا حجة لمن حاول دفعه .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)

« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ » أى قسمة التركة « أُولُوا الْقُرْبَىٰ » ذوو القرابة ممن لا يرث . قدّمهم لأن إعطاءهم صدقة وصلة « وَالْيَتَامَىٰ » الضعفاء بفقد الآباء « وَالْمَسَاكِينُ » الضعفاء بفقد ما يكفيهم من المال « فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ » أى أعطوهم من الميراث شيئاً « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا » بتلطيف القول لهم والدعاء لهم بمثل : بارك الله عليكم .

قال ابن كثير فى هذه الآية: المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامى والمساكين ، قسمةَ مال جزيل ، فإن أنفسهم تتشوق إلى شىء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ ، وهذا يأخذ، وهم يائسون لا يُعْطَوْن شيئاً . فأمر الله تعالى ، وهو الرؤوف الرحيم أن يُرْضخ لهم شىء من الوسط ، يكون برًّا بهم وصدقة عليهم وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم كما قال الله تعالى : كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ(١) . وذم الذين ينقلون المال خفية، خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة ، كما أخبر به عن أصحاب الجنة : إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(٢) . فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [٦٨ / القلم / ١٧] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .

مِسْكِينٌ[١] . دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا[٢] . فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه . ولهذا جاء في الحديث: ما خالطت الصدقة مالًا إلا أفسدته . أي منعُها يكون سبب محق ذلك المال بالكلية . انتهى . وقد روى البخاريّ[٣] عن ابن عباس ، في الآية قال : هي محكمة وليست بمنسوخة . وفي لفظ عنه : هي قائمة يعمل بها . وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين، في هذه الآية : أنها واجبة على أهل الميراث ماطابت به أنفسهم. وروى عبد الرزاق في (مصنفه) أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبدالرحمن ، وعائشة حية . فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه . وتلا : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ الآية . وأخرج سعيد بن منصور عن يحيى بن يعمر قال : ثلاث آيات مدنيات محكمات ضيّعهن كثير من الناس : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ، وآية الاستئذان: وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ، وقوله: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ،الآية. وقد ذكر ههنا كثير من المفسرين آثاراً عن بعض السلف بأن هذه الآية منسوخة بآية الميراث . وهي من الضعف بمكان. ولقد أبعد القائل بالنسخ عن فهم سر الآية فيما ندبت إليه من هذه المكرمة الجليلة . وهي إسعاف من ذكر من المال الموروث، والنفسُ الأبية تنفر من أن تأخذ المال الجزل ، وذو الرحم حاضر محروم، ولا يسعَف ولا يساعَد . فالآية بينة بنفسها، واضحة في معناها وضوح الشمس في الظهيرة ، لا تنسخ أو تقومَ الساعة .

---

(١) [٦٨ / القلم / ٢٣و٢٤] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ١٠] ونصها : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٣ ـ باب: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ ـ الآية ، حديث ١٣٢٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » فى الآية وجوه : الأول ـ أنها أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريّهم الضعاف بعد وفاتهم . الثانى : أنها أمر لمن حضر المريض من العوّاد عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم . فلا يتركوه أن يضرّبهم بصرف المال عنهم : الثالث : أنها أمر للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين ، متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم . هل يجوّزون حرمانهم ؟ الرابع : أنها أمر للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا فى الوصية . كما ثبت فى الصحيحين(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعوده قال : يا رسول الله ! إنى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة . أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا . قال: فالشطر ؟

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٧ ـ باب رثى النبىّ ﷺ سعد ابن خولة ، حديث ٥٠ ونصه :

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعودنى فى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى. فقلت: إنى قد بلغ بى من الوجع وأنا ذو مال. ولا يرثنى إلا ابنة . أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال « لا » فقلت : بالشطر ؟ فقال « لا » ثم قال « الثلث. والثلث كبير (أو كثير) إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس . وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها . حتى ما تجعل فى فى امرأتك » .

قال : لا . قال : فالثلث . قال : الثلث . والثلث كثير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس .

وفى الصحيح[1] عن ابن عباس قال : لو غض الناس إلى الربع ؟ لأن رسول الله ﷺ قال الثلث : والثلث كثير (أو كبير) .

والوجه الأول حكاه ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس . قال ابن كثير : وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل أموال اليتامى ظلما .

ونقل الرازى عن القاضى : إن هذا الوجه أليق بما تقدم وتأخر من الآيات الواردة فى باب الأيتام . فجعل تعالى آخر ما دعاهم إلى حفظ مال اليتيم أن ينبههم على حال أنفسهم وذريتهم إذا تصوروها . ولا شك أنه من أقوى الدواعى والبواعث فى هذا المقصود .

قال الزمخشرى : والقول السديد من الأوصياء أن لا يؤذوا اليتامى . ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب . ويدعوهم بـ (يابنى) ويا ولدى . ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له ، إذا أراد الوصية : لا تسرف فى وصيتك فتجحف بأولادك . مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : إنك أن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . ومن المتقاسمين ميراثهم أن يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين .

لطيفة :

لابد من حمل قوله تعالى (تركوا) على المشارفة . ليصح وقوع (خافوا) خبراً له . ضرورة أنه لاخوف بعد حقيقة الموت وترك الورثة . ونظيره: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٣ ـ باب الوصية بالثلث ، حديث١٣١٨ .

بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ(١) . أى شارفن بلوغ الأجل . ولهذا المجاز ، فى التعبير عن المشارفة على الترك ، بالترك ، سِرٌّ بديع . وهو التخويف بالحالة التى لا يبقى معها مطمع فى الحياة ، ولا فى الذبّ عن الذرية الضعاف . وهى الحالة التى ، وإن كانت من الدنيا ، إلا أنها لقربها من الآخرة ، ولصوقها بالمفارقة ، صارت من حيّزها ، ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك . كذا فى الانتصاف .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : إنه يجب أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه . ويحب لذرية غيره من المؤمنين ما يحب لذريته . وأن على ولىّ اليتيم أن لا يؤذى اليتيم . بل يكلمه كما يكلم أولاده بالأدب الحسن والترحيب . ويدعو اليتيم : يا بنىّ ، يا ولدى . وقد جاء فى الرقة على الأيتام آثار كثيرة . اهـ .

وفى الآية إشارة إلى إرشاد الآباء ، الذين يخشون ترك ذرية ضعاف ، بالتقوى فى سائر شؤونهم حتى تحفظ أبناؤهم وتغاث بالعناية منه تعالى . ويكون فى إشعارها تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله تعالى . وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع . وأن الرجال الصالحين يحفظون فى ذريتهم الضعاف . كما فى آية : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا(٢) ، إلى آخرها . فإن الغلامين حُفظا ، ببركة صلاح أبيهما ، فى أنفسهما ومالهما .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣١] ونصها : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا » أى على وجه الظلم من الورثة ، أو أولياء السوء وقضاته ، بخلاف أكل الفقير الناظر فى أموالهم بقدر أجرته، كما تقدم « إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا » أى ما يجرّ إلى النار ويؤدّى إليها «وَسَيَصْلَوْنَ» أى فى القيامة «سَعِيرًا» أى ناراً مستعرة . روى ابن حبان فى (صحيحه) وابن مردويه وابن أبى حاتم عن أبى برزة أن رسول الله ﷺ قال: يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً. قيل: يا رسول الله! من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، الآية .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فى بطونهم، أى ملء بطونهم . يقال : أكل فلان فى بطنه وفى بعض بطنه . قال الشاعر(١) :

كلوا فى بعض بطنكمو تعفوا فإن زمانكم زمن خميص

قال الناصر : ومثله : قد بدت البغضاء من أفواههم أى شرقوا بها وقالوها بملء أفواههم. ويكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير . ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتيم فى ماله، خص الأكل . لأنه أبشع الأحوال التى يتناول مال اليتيم فيها . والله أعلم .

= فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

(١) قال فى الأساس : ومن المجاز : زمن خميص ، أى ذو مجاعة .. وأنشد البيت .

تنبيه :

روى أبو داود[١] والنسائيّ والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد . فاشتد عليهم ذلك . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ[٢] . الآية. فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . وقد مضى ذلك في سورة البقرة .

قال الرازيّ رحمه الله : ومن الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك . وهو بعيد . لأن هذه الآية في المنع من الظلم . وهذا لا يصير منسوخاً . بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى ، إن كان على سبيل الظلم ، فهو من أعظم أبواب الإثم . كما في هذه الآية . وإن كان على سبيل التربية والإحسان ، فهو من أعظم أبواب البر ، كما في قوله : وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ .

وقال رحمه الله قبل ذلك : ما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته تعالى وكثرة عفوه وفضله . لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى ، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم في الطعام ، حديث ٢٨٧١ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

«يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله تعالى : لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ الخ . قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض . وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك . انتهى. والمعنى: يأمركم الله ويعهد إليكم في شأن ميراث أولادكم بعد موتكم « لِلذَّكَرِ »أي منهم« مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ »أي نصيبهما اجتماعاًوانفراداً . أما الأول فانه يعدّ كل ذكر بأنثيين . في مثل ابن مع بنتين . وابن ابنٍ مع بنتي ابن . وهكذا في السافلين . فيضعف نصيبه ويأخذ سهمين . كما أن لهما سهمين . وأما الثاني فإن له الكل وهو ضعف نصيب البنت الواحدة . لأنه جعل لها في حال انفرادها النصف. فاقتضى ذلك أن للذكر ، عند انفراده ، مثلْ نصيبها عندانفرادها، وذلك الكامل . فالمذكور هنا ميراث الذكر مطلقاً. مجتمعاً مع الإناث ومنفرداً . كما حققه صاحب (الانتصاف) .

تنبيه :

قال السيوطيّ : استدل بالآية من قال بدخول أولاد الابن في لفظ (الأولاد) للإجماع على إرثهم ، دون أولاد البنت .

لطائف :

الأولى :

وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق . فهو إلى المال أحوج . ولأنه لو كمل نصيبها، مع أنها قليلة العقل، كثيرة الشهوة لأتلفته في الشهوات إسرافاً. ولأنها قد تنفق على نفسها فقط، وهو على نفسه وزوجته .

الثانية :

لم يقل : للذكر ضعف نصيب الأنثى ، لأن الضعف يصدق على المثلين فصاعداً . فلا يكون نصًّا . ولم يقل : للأنثيين مثل حظ الذكر ، ولا للأنثى نصف حظ الذكر ، تقديماً للذكر بإظهار مزيته على الأنثى ، ولم يقل : للذكر مِثْلَا نصيب الأنثى ، لأن المثل في المقدار لا يتعدد إلا بتعدد الأشخاص . ولم يعتبر ههنا .

الثالثة :

إيثار اسمي (الذكر والأنثى) على ما ذكر أولًا من الرجال والنساء ، للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين في الاستحقاق ، من غير دخل للبلوغ والكبر في ذلك أصلًا. كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورّثون الأطفال، كالنساء .

الرابعة :

استنبط بعضهم من هذه الآية أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها . حيث أوصى الوالدين بأولادهم . فعلم أنه أرحم بهم منهم . كما جاء في الحديث الصحيح[1] وقد رأى امرأة

(١) أخرجه مسلم في : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه :

عن عمر بن الخطاب أنه قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبي . فإذا امرأة من السبي ، تبتغي ، إذا وجدت صبيا في السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال لنا =

من السبي، فرق بينها وبين ولدها فجعلت تدور على ولدها . فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟ قالوا : لا . يا رسول الله . قال: فوالله ! لله أرحم بعباده من هذه بولدها.
« فَإِنْ كُنَّ » أي الأولاد . والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى «نِسَاءً» يعني بنات خلصاً ليس معهن ذكر « فَوْقَ اثْنَتَيْنِ » خبر ثان أو صفة لنساء . أي نساء زائدات على اثنتين « فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ » أي المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام .

تنبيه :

ظاهر النظم القرآني أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعداً حيث لا ذكر معهن. ولم يسم للبنتين فريضة . وقد اختلف أهل العلم في فريضتهما . فذهب الجمهور إلى أن لهما ، إذا انفردتا عن البنين ، الثلثين . وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف . احتج الجمهور بالقياس على الأختين . فإن الله سبحانه قال في شأنهما : فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ . فألحقوا البنتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين . كما ألحقوا الأخوات ، إذا زدن على اثنتين ، بالبنات، في الاشتراك في الثلثين . وقيل : في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين . وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث ، كان للابنتين، إذا انفردتا، الثلثان . هكذا احتج بهذه الحجة إسماعيل بن عياش والمبرّد . قال النحاس : وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط . لأن الاختلاف في البنتين إذا انفردتا عن البنين . وأيضاً للمخالف أن يقول : إذا ترك بنتين وابناً فللبنتين النصف . فهذا دليل على أن هذا فرضهما . ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة النصف إذا انفردت ، بقوله : وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، كان فرض البنتين، إذا انفردتا ، فوق فرض الواحدة . وأوجب القياس على الأختين

= رسول الله ﷺ « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » قلنا : لا ، والله ! وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله ﷺ « لله أرحم بعبده من هذه بولدها » .

الاقتصار للبنتين على الثلثين . وقيل إن (فوق) زائدة . والمعنى : إن كن نساء اثنتين . كقوله تعالى : فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ[1] ، أى الأعناق . ورد هذا النحاس وابن عطية . فقالا : هو خطأ . لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز فى كلام العرب أن تزاد لغير معنى . قال ابن عطية : ولأن قوله (فوق الأعناق) هو الفصيح وليست (فوق) زائدة بل هى محكمة المعنى . لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام فى المفصل دون الدماغ . كما قال دريد بن الصمة : اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم . فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال . انتهى . وأيضاً لو كان لفظ (فوق) زائداً كما قالوا ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، ولم يقل : فلهن ثلثا ما ترك . وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود والترمذى[2] وابن ماجه وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن حبان

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ونصها : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٢٧ ـ كتاب الفرائض ، ٣ ـ باب ماجاء فى ميراث البنات. وهذا نصه .

أما أبو داود فأخرجه فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ٤ ـ باب ما جاء فى الصلب ، حديث ٢٨٩١ وهاكم نصه :

عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى جئنا امرأة من الأنصار فى الأسواق . فجاءت المرأة بابنتين فقالت: يا رسول الله ! هاتان بنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم أحد . وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما كله . فلم يدع لهما مالا إلا أخذه . فما ترى يا رسول الله ! فوالله ! لا تنكحان أبدا إلا ولهما مال . فقال رسول الله ﷺ « يقضى الله فى ذلك » قال ونزلت سورة النساء : يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ .. الآية . فقال رسول الله ﷺ «ادعوا لى المرأة وصاحبها» فقال لعمهما «أعطهما الثلثين. وأعط أمهما الثمن. وما بقى فلك».

(قال أبو داود) : أخطأ فيه . هما ابنتا سعد بن الربيع . وثابت بن قيس قتل يوم اليمامة.

والحاكم والبيهقيّ في (سننه) عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! هاتان ابنتا سعد بن الربيع . قتل أبوهما معك يوم (أُحُد) شهيداً . وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا . ولا تنكحان إلّا ولهما مال . فقال : يقضي الله في ذلك . فنزلت آية الميراث . فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتيْ سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك . أخرجوه من طرق ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر . قال الترمذيّ : هذا حديث صحيح لانعرفه إلا من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل . وقد رواه شريك أيضا عن عبد الله بن محمد بن عقيل من حديثه . كذا في (فتح البيان) « وَإِنْ كَانَتْ » أي المولودة « وَاحِدَةً » أي امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت « فَلَهَا النِّصْفُ » أي نصف ماترك . ولم يكمل لها لأنها ناقصة . ولذلك لم يُجْعل لها الثلثان اللذان هما نصيب الابن معها . ثم ذكر ، بعد ميراث الأولاد ، ميراث الوالدين فقال « وَلِأَبَوَيْهِ » أي الميت . وهو كناية عن غير مذكور . وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه . والمراد بالأبوين الأب والأم . والتثنية على لفظ الأب للتغليب « لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ » من المال « إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ » ذكرٌ أو أنثى « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ » للميت « وَلَدٌ » ذكرٌ أو أنثى « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ » أي ثلث المال مما ترك . والباقي للأب . للذكر مثل حظ الأنثيين . لكن قرر لها الثلث تنزيلا لها منزلة البنت مع الابن، لا منفردة ، حطّاً لها عن درجتها ، لقيام البنت مقام الميت في الجملة . قاله المهايميّ « فَإِنْ كَانَ لَهُ » أي للميت « إِخْوَةٌ » من الأب والأم . أو من الأب أو من الأم، ذكوراً أو إناثاً « فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ » يعني لأم الميت سدس التركة « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ » خبر مبتدأ محذوف. أي هذه الفروض المذكورة إنما تقسم للورثة من بعد إنفاذ وصية يوصي بها الميت إلى الثلث . ومن بعد قضاء دين على الميت . وقرىء في (السبع) : يوصَى مبنياً للمفعول وللفاعل .

قال الحافظ ابن كثير : أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدّين مقدم على الوصية . وروى أحمد والترمذيّ[1] وابن ماجة وأصحاب التفاسير من حديث ابن إسحق عن الحرث ابن عبد الله الأعور عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنكم تقرءون هذه الآية : من بعد وصية يوصى بها أو دين . وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية . وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات . الرجل يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه .

ثم قال الترمذيّ : لا نعرفه إلا من حديث الحرث . وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. لكن كان حافظاً للفرائض ، معتنياً بها وبالحساب . فالله أعلم .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : في الآية أن الميراث إنما يقسم بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا . وفيها مشروعية الوصية . واستدل بتقديمها في الذّكر من قال بتقديمها على الدين في التركة . وأجاب من أخرها بأنها قدمت لئلا يتهاون بها . واستدل بعمومها من أجاز الوصية بما قل أو كثر ، ولو استغرق المال . ومن أجازها للوارث والكافر، حربيًّا أوذميًّا . واستدل بها من قال . إن الدّين يمنع انتقال التركة إلى ملك الوارث . ومن قال إن دَين الحج والزكاة مقدم على الميراث ، لعموم قوله : أَوْ دَيْنٍ . انتهى .

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجة[2] بسند صحيح عن سعد بن الأطول إن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم . وترك عيالًا . فأردت أن أنفقها على عياله . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: إن أخاك محتبس بدَينه فاقض عنه. فقال : يا رسول الله ! قد أديت عنه . إلّا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة . قال : فأعطها فإنها محقة .

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٢٧ ـ كتاب الفرائض ، ٥ ـ باب ماجاء في ميراث الإخوة من الأب والأم .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٥ ـ كتاب الصدقات ، ٢٠ ـ باب أداء الدين عن الميت، حديث ٢٤٣٣ (طبعتنا) .

لطيفة :

(فائدة) وصف الوصية بقوله : يوصى بها ، هو الترغيب فى الوصية والندب إليها . وإيثار (أو) المفيدة للإباحة فى قوله : أو دين ، على (الواو) للدلالة على تساويهما فى الوجوب . وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين . وتقديم الوصية على الدّين ، ذِكْراً مع تأخرها عنه حكماً ، ما قدمنا من إظهار كمال العناية بتنفيذها ، لكونها مظنة التفريط فى أدائها ، ولاطّرادها . بخلاف الدين ـ أفاده أبو السعود « ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً » أى لا تعلمون مَن أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم فى عاجلكم وآجلكم . والمعنى : فرض الله الفرائض، على ما هو، على حكمة . ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم . فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة . والتفاوت فى السهام بتفاوت المنافع . وأنتم لا تدرون تفاوتها . فتولى الله ذلك فضلًا منه . ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير . وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة لأمر القسمة ، وردّ لما كان فى الجاهلية .

قال السمرقندىّ : ويقال: معنى الآية أن الله تعالى علمكم قسمة المواريث . وأنكم لا تدرون أيهم أقرب موتاً فيرث منه الآخر . انتهى. « فَرِيضَةً مِنَ اللهِ » نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف . أى فرض الله ذلك فرضا . أو لقوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللهُ . فإنه فى معنى : يأمركم ويفرض عليكم « إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً » أى بالمصالح والرتب « حَكِيماً » أى فى كل ماقضى وقدر . فيدخل فيه بيان أنصباء الذكر والأنثى، دخولًا أوليًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ)

« وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ » من المال « إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ » ذكر أوأنثى، منكم أو من غيركم « فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ » على نحو ما فصّل « فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ » من المال . والباقى لباقى الورثة « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » أى من بعد استخراج وصيتهن وقضاء دينهن « وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ » من المال « إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ » ذكر أو أنثى، منهن أو من غيرهن « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ » على النحو الذى فصل « فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ » الكلام فيه كما تقدم . وفى تكرير ذكر الوصية والدين، من الاعتناء بشأنهما، ما لا يخفى .

لطيفة :

فى الآية ما يدل على فضل الرجال على النساء . لأنه تعالى حيث ذكر الرجال، فى هذه الآية، ذكرهم على سبيل المخاطبة . وحيث ذكر النساء ذكرهن على سبيل المغايبة . وأيضاً خاطب الله الرجال فى هذه الآية سبع مرات . وذكر النساء فيها على سبيل الغيبة أقل من ذلك . وهذا يدل على تفضيل الرجال على النساء ، كما فضلوا عليهن فى النصيب . كذا يستفاد من

الرازي». «وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِامْرَأَةٌ » أي تورث كذلك« وَلَهُ أَخٌ أَوْأُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَاالسُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا »أي الإخوةوالأخوات من الأم«أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ» أي من واحد«فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ » يستوي فيه ذكرهم وأنثاهم . قال المجد في(القاموس) : الكلالة: من لاولد له ولا والد. أومالم يكن من النسب لحًّا. أو مَن تكلل نسبه بنسبك. كابن العم وشبهه. أوهي الإخوة للأم . أوبنو العم الأباعد . أو ماخلا الوالد والولد. أوهي، من العَصَبَة، من ورث منه الإخوة للأم . فهذه سبعة أقوال محكية عن أئمة اللغة . وقال ابن برّي[(١)] : اعلم أن الكلالة في الأصل هي مصدر (كلّ الميت يكلّ كلًّا ، وكلالة) فهو كلٌّ إذا لم يخلف ولداً ولا والداً يرثانه . هذا أصلها . قال : ثم قد تقع الكلالة على العين دون الحدث . فتكون اسماً للميت الموروث وإن كانت في الأصل اسماً للحدث . على حد قولهم : هذا خلق الله . أي مخلوق الله . قال : وجاز أن تكون اسما للوارث على حد قولهم : رجل عدل أي عادل . وماء غور أي غائر . قال : والأول هو اختيار البصريين من أن الكلالة اسم للموروث . قال : وعليه جاء التفسير في الآية ، أن الكلالة الذي لم يخلف ولداً ولا والداً . فإذا جعلتها للميت، كان انتصابها في الآية على وجهين: أحدهما ـ أن تكون خبر (كان) تقديره : وإن كان الموروث كلالة، أي كَلًّا ليس له ولد ولا والد . والوجه الثاني ـ أن يكون انتصابها على الحال من الضمير في (يورث) أي يورث وهو كلالة . وتكون (كان) هي التامة التي ليست مفتقرة إلى خبر . قال : ولا يصح أن تكون الناقصة ، كما ذكره الحوفيّ ، لأن خبرها لا يكون إلا الكلالة . ولا فائدة في قوله (يورث) . والتقدير : إن وقع أو حضر رجل يموت كلالة ، أي يورث وهو كلالة، أي كلّ . وإن جعلتها للحدث دون العين ، جاز انتصابها على ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن يكون انتصابها على المصدر ، على تقدير حذف مضاف ، تقديره : يورث وراثة كلالة . كما قال الفرزدق[(٢)] : ورثتم قناة الملك لا عن كلالة . أي ورثتموها

(١) اللسان ، الصفحة ٥٩٣ من المجلد الحادي عشر (طبع بيروت) .

(٢) البيت :

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ المُلْك غَيْرَ كَلَالَةٍ عَنِ ابْنِ مَنَافٍ عَبدِ شَمْسٍ وهَاشِمِ =

وراثة قرب ، لا وراثة بعد . وقال عامر بن الطفيل:

وما سَوَّدَتْنِى عَامِرٌ عَنْ كَلَالَةٍ أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

ومنهقولهم: هو ابنعَمٍّ كلالة، أى بعيد النسب . فإذا أرادوا القرب قالوا هو ابن عمدِنْيَة. والوجه الثانى ـ أن تكون الكلالة مصدراً واقعاً موقع الحال . على حد قولهم : جاء زيد ركضاً ، أى راكضاً . وهو ابن عمى دنية ، أى دانياً . وابن عمى كلالة أى بعيداً فى النسب . والوجه الثالث ـ أن تكون خبر (كان) على تقدير حذف مضاف . تقديره : وإن كان الموروث ذا كلالة . قال : فهذه خمسة أوجه فى نصب الكلالة . أحدها ـ أن تكون خبر (كان) والثانى ـ إن تكون حالًا . الثالث ـ أن تكون مصدرًا ، على تقدير حذف مضاف . الرابع ـ أن تكون مصدراً فى موضع الحال . الخامس ـ أن تكون خبر (كان) على تقدير حذف مضاف . فهذا هوالوجه الذى عليه أهل البصرة والعلماء باللغة . أعنى أن الكلالة اسم للموروث دون الوارث . قال : وقد أجاز قوم من أهل اللغة، وهم أهل الكوفة ، أن تكون الكلالة اسماً للوارث . واحتجوا فى ذلك بأشياء : منها قراءة الحسن:وإن كان رجل يورِث كلالة. (بكسر الراء) . فالكلالة ، على ظاهر هذه القراءة ، هى ورثة الميت . وهم الإخوة للأم . واحتجوا أيضابقول جابر أنه قال: يارسول الله ! إنما يرثنى كلالة. فإذا ثبت حجة هذا الوجه، كان انتصاب كلالة أيضاً على مثل ما انتصبت فى الوجه الخامس من الوجه الأول . وهو أن تكون خبر (كان) ويقدر حذف مضاف ، ليكون الثانى هو الأول ، تقديره : وإن كان رجل يورِث ذا كلالة، كماتقول ذا قرابة ، ليس فيهم ولد ولا والد . قال : وكذلك إذا جعلته حالًا من الضمير فى (يورث) تقديره : ذا كلالة . قال : وذهب ابن جنىّ ، فى قراءة من قرأ

= قائله الفرزدق من قصيدة مطلعها :

تَحِنُّ بِزوراء المدينــة ناقتى حنين عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائِمِ

الديوان صفحة ٨٥٢

يورث كلالة ويورّث كلالة ، أن مفعولى (يورث ويورّث) محذوفان أى يورث وارثه ماله. قال : فعلى هذا يبقى (كلالة) على حاله الأولى التى ذكرتها . فيكون نصبه على خبر (كان) أو على المصدر . وتكون (الكلالة) للموروث لا للوارث. قال : والظاهر أن الكلالة مصدر يقع على الوارث وعلى الموروث . والمصدر قد يقع للفاعل تارة وللمفعول أخرى . والله أعلم .

وقال ابن الأثير: الأب والابن طرفان للرجل . فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه . فسمى ذهاب الطرفين كلالة .

وفى الأساس : ومن المجاز كلّ فلان كلالة، إذا لم يكن ولداً ولا والداً . أى كلّ عن بلوغ القرابة الماسة .

وقال الأزهرىّ : ذكر الله الكلالة فى سورة النساء فى موضعين: أحدهما ـ قوله : وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ . والموضع الثانى قوله تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، الآية[1] . فجعل الكلالة هنا الأخت للأب والأم ، والإخوة للأب والأم . فجعل للأخت الواحدة نصف ما ترك الميت وللأختين الثلثين . وللإخوة والأخوات جميع المال بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثيين . وجعل للأخ والأخت من الأم ، فى الآية الأولى ، الثلث . لكل واحد منهما السدس . فبين بسياق الآيتين أن الكلالة تشتمل على الإخوة للأم مرة، ومرة على الإخوة والأخوات للأم والأب. ودل قول الشاعر . أن الأب ليس بكلالة، وأن سائر الأولياء من العصبة بعد الولد كلالة، وهو قوله :

فإن أبا المرء أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] ونصها : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أراد أن أباالمرء أغضب له إذا ظُلِمَ . وموالى الـكلالة، وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غَضَبَ الأب . انتهى .

وروى ابن جرير(١) وغيره عن الشعبيّ قال : قال أبو بكر رحمة الله عليه : إنى قد رأيت فى الـكلالةرأيا. فإن كان صوابا فمن الله وحده لاشريك له . وإن يك خطأً فمنى ومن الشيطان. والله برىء منه . أن الـكلالة ما خلا الولد والوالد .

تنبيه .

اتفق العلماء على المراد من قوله تعالى : وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ـ الأخ والأخت من الأم . وقرأ سعد بن أبى وقاص وغـيره من السلف : وله أخ أو أخت من أم . وكذا فسرها أبو بكر الصديق رضى الله عنه فيما رواه قتادة عنه . قال الـكرخيّ : القراءة الشاذة كخبر الآحاد. لأنها ليست من قبل الرأى. وأطلق الشافعيّ الاحتجاج بها ، فيما حكاه البويطىّ عنه ، فى باب (الرضاع) وباب (تحريم الجمع) وعليه جمهور أصحابه. لأنها منقولة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من انتفاء خصوص قرآنيتها ، انتفاء خصوص خبريتها. وقال القرطبيّ : أجمع العلماء على أن الإخوة ههنا هم الإخوة لأم. قال : ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم ، أو للأب ، ليس ميراثهم هكذا . فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين فى قوله تعـالى : وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ـ هم الإخوة لأبوين ، أو لأب .

لطيفة :

إفراد الضمير فى قوله تعالى : وَلَهُ أَخٌ . إما لعَوْده على الميت المفهوم من المقام ، أو على واحد منهما ، والتذكير للتغليب . أو على الرجل ، واكتفى بحكمه عن حـكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيـه « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ » حال من

(١) الأثر رقم ٨٧٤٥

ضمير « يُوصِي » (على قراءته مبنيا للفاعل) أى غير مدخل الضرر على الورثة . كأن يوصى بأكثر من الثلث . ومن فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور (على قراءته مبنياً للمجهول) وتخصيص هذا القيد بهذا المقام، لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم. وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير[1] عن ابن عباس مرفوعاً: الضرار فى الوصية من الكبائر. ورواه النسائى فى (سننه) عن ابن عباس موقوفاً . وهو الصحيح كما قال ابن جرير « وَصِيَّةً مِنَ اللهِ » مصدر مؤكد لفعل محذوف . وتنوينه للتفخيم . كقوله : فَرِيضَةً مِنْ اللهِ . أو منصوب بـ(غير مضار) على أنه مفعول به . فإنه اسم فاعل معتمد على ذى الحال . أو منفى معنى . فيعمل فى المفعول الصريح . ويعضده القراءة بالإضافة . أى غير مضار لوصية الله وعهده فى شأن الورثة « وَاللهُ عَلِيمٌ » بالمضار وغيره « حَلِيمٌ » لا يعاجل بالعقوبة ، فلا يغتر بالإمهال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهاَ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« تِلْكَ » الأحكام « حُدُودُ اللهِ » أحكامه وفرائضه المحدودة التى لا تجوز مجاوزتها . « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ » فى قسمة المواريث وغيرها « يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومساكنها « خَالِدِينَ فِيهاَ » لا يموتون ولا يخرجون « وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » النجاة الوافرة بالجنة .

---

(١) الأثر رقم ٨٧٨٤

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

« وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » فى قسمة المواريث وغيرها « وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ » بتجاوز أحكامه وفرائضه بالميل والجور « يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » أى لكونه غيّرَ ماحكم الله به، وضادّ الله فى حكمه . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به . ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم . وقد روى أبو داود[١] فى باب (الإضرار فى الوصية) من (سننه) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الرجل ليعمل، أو المرأة، بطاعة الله ستين سنةً . ثم يحضرهما الموت فيضارّان فى الوصية . فتجب لهما النار . وقرأ أبو هريرة : من بعد وصية .. .. حتى بلغ ، ذلك الفوز العظيم . ورواه الترمذىّ وابن ماجه . ورواه الإمام أحمد[٢] بسياق أتم ولفظه : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة . فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله ، فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة . فيعدل فى وصيته ، فيختم له بخير عمله . فيدخل الجنة . قال ثم يقول أبو هريرة : واقرؤا إن شئتم : تِلْكَ حُدُودُ اللهِ . إلى قوله : عَذَابٌ مُهِينٌ .

ثم بين تعالى بعضاً من الأحكام المتعلقة بالنساء ، إثْرَ بيان أحكام المواريث بقوله :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٣ ـ باب ماجاء فى كراهية الإضرار فى الوصية ، حديث ٢٨٦٧

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)

« وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ » أي الخصلة البليغة في القبح ، وهي الزنى، حال كونهن « مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ » أي فاطلبوا من القاذفين لهن « أَرْبَعَةً مِنْكُمْ » أي من المسلمين « فَإِنْ شَهِدُوا » عليهن بها « فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ » أي احبسوهن فيها ولا تمكنوهن من الخروج، صوناً لهن عن التعرض بسببه للفاحشة « حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ » أي يستوفي أرواحهن . وفيه تهويل للموت وإبراز له في صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيها . أو يتوفاهن ملائكة الموت « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » أي يشرع لهن حكماً خاصاً بهن . ولعل التعبير عنه بـ(السبيل) للإيذان بكونه طريقاً مسكوكاً . قاله أبو السعود .

وقد بينت السنة أن الله تعالى أنجز وعده ، وجعل لهن سبيلًا . وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل الوحي كرب له وتربّد وجهه. وإذا سرّي عنه قال : خذوا عني خذوا عني (ثلاث مرار) قد جعل الله لهن سبيلًا . الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة والرجم . والبكر جلد مائة ونفي سنة . هذا لفظ الإمام أحمد[1] وكذا رواه أبو داود الطيالسيّ[2] ولفظه عن عبادة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا نزل عليه الوحي ، عرف ذلك فيه . فلما نزلت « أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » وارتفع الوحي، قال رسول صلى الله عليه وسلم : خذوا حذركم قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة. والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة.

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٣١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه في مسنده . الحديث رقم ٥٨٤

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا)

« وَاللَّذَانِ » : بتخفيف النون وتشديدها « يَأْتِيَانِهَا » أي الفاحشة « مِنكُمْ » أي الرجال « فَآذُوهُمَا » بالسب والتعيير ، ليندما على ما فعلا « فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا » أي أعمالهما « فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا » بقطع الأذية والتوبيخ ، وبالإغماض والستر . فإن التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب « إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا » أي على من تاب « رَحِيمًا » واسع الرحمة . وهو تعليل للأمر بالإعراض .

تنبيه :

هذا الحكم المذكور في الآيتين منسوخ ، بعضه بالكتاب وبعضه بالسنة . قال الإمام الشافعيّ في الرسالة في (أبواب الناسخ والمنسوخ) بعد ذكره هاتين الآيتين [٣٧٦] : ثم نسخ الله الحبس والأذى في كتابه فقال: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .

[٣٧٧] فدلت السنة على أن جلد المائة للزانيَيْن البكرَيْن (لحديث عبادة بن الصامت المتقدم) .

ثم قال : [٣٨٠] فدلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جلد المائة ثابت على البكرين الحرّين ، ومنسوخ عن الثيبين . وأن الرجم ثابت على الثيبين الحرين. ثم قال :

[٣٨١] لأن قول رسول الله ﷺ : خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام. والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ـ أَوَّلُ ما نزل. فنُسِخَ به الحبسُ والأذى عن الزانيَيْن .

[٣٨٢] فلما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً ولم يجلده ، وأمر أُنيساً أن يغدو على امرأة الأسلميّ ، فإن اعترفت رجمها ـ دل على نسخ الجلد عن الزانيين الحرين الثيبين . وثبت الرجم عليهما . لأن كل شيء [أبدًا] بعد أول فهو آخر. انتهى[١] .

(١) رسالة الشافعيّ بتحقيق أحمد محمد شاكر . وهذه أرقام فقرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوَلَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ » استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه ، كما ينبىء عنه وصفه تعالى بكونه تواباً رحيماً . بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم . قوله تعالى « التَّوْبَةُ » مبتدأ وقوله تعالى « لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ » خبره . وقوله تعالى « عَلَى اللهِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار . ومعنى كون التوبة عليه سبحانه ، صدورُ القبول عنه تعالى . وكلمة (على) للدلالة على التحقق البتة بحكم سبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه . والمراد بالسوء المعصية ، صغيرة أو كبيرة ـ كذا فى أبى السعود. « بِجَهَالَةٍ » متعلق بمحذوف وقع حالًا من فاعل (يَعْمَلُونَ) أى متلبسين بها. أى جاهلين سفهاء . أو بـ(يَعْمَلُونَ) على أن الباء سببية . أى يعملونه بسبب الجهالة . والمراد بالجهل السفه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل . لاعدم العلم . فإن من لايعلم لايحتاج إلى التوبة. والجهلُ بهذا المعنى حقيقة واردة فى كلام العرب. كقوله(١) : فنجهل فوق جهل الجاهلينا . « ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » أى من زمان قريب. وظاهر الآية اشتراط وقوع التوبة عقب المعصية بلا تراخ. وإنها بذلك تنال درجة قبولها المحتم تفضلًا . إذ بتأخيرها وتسويفها

(١) البيت : ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

قال التبريزىّ : معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله . فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى . وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأحضر من اختلافهما .

وهذا البيت آخر معلقة عمرو بن كلثوم التى أولها :

ألا هبّى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا

يدخل فى زمرة المصرّين . فيكون فى الآية إرشاد إلى المبادرة بالتوبة عقب الذنب . والإنابة إلى المولى بعده فوراً . ووجوب التوبة على الفور مما لا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان . وهو واجب على الفور . وتتمته فى (الإحياء) .

إذا عرفت هذا ، فما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد من قوله تعالى (من قريب) ما قبل حضور الموت ـ بعيد من لفظ الآية وسرها التى أرشدت إليه . أعنى البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان ، عياذاً بالله تعالى . (فإن قيل) : من أين يستفاد قبول التوبة قبل حضور الموت؟ (قلنا) يستفاد من الآية التى بعدها، ومن الأحاديث الوافرة فى ذلك. لا من قوله تعالى (مِنْ قَرِيبٍ) بما أولوه . وذلك لأن الآية الثانية وهى قوله تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ـ صريحة فى أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة. فبقى ماوراءه فى حيز القبول. وقد روى الإمام أحمد[1] عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر. ورواه ابن ماجة والترمذىّ وقال : حسن غريب .

وروى أبو داود[2] الطيالسىّ عن عبدالله بن عمرو قال: من تاب قبل موته بعام تيب عليه . ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه . ومن تاب قبل موته بساعه تيب عليه . (قال أيوب) . فقلت له إنما قال الله عزوجل: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ . فقال : إنما أحدثك ما سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم . وروى نحوه الإمام أحمد وسعيد بن منصور وابن مردويه . وروى مسلم[3] عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى

(١) المسند بالصفحة ١٢٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى مسنده ، الحديث ٢٢٨٤

(٣) أخرجه فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٣ (طبعتنا).

الحاكم مرفوعا : من تاب إلى الله قبل أن يغرغر قبل الله منه . وروى ابن ماجة عن ابن مسعود بإسناد حسن(١) : التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقوله تعالى « فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى يقبل توبتهم « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ » عند النزاع « قَالَ » عند مشاهدة ما هو فيه « إِنِّى تُبْتُ الْآنَ » فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه « وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فلا ينفعهم ندمهم ولا توبتهم لأنهم بمجرد الموت يعاينون العذاب. روى الإمام أحمد(٢) عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يقبل توبة عبده ويغفر لعبده مالم يقع الحجاب . قيل: يا رسول الله ! وما الحجاب ؟ قال: أن تموت النفس وهى مشركة . ولهذا قال تعالى « أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا » أى أعددنا « لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

(١) أخرجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد، ٣٠ ـ باب ذكر التوبة ، حديث ٤٢٥٠ (طبعتنا).
(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وقوله تعالى: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا» نهى عما كان يفعله أهل الجاهلية بالنساء من الإيذاء والظلم . روى البخاريّ عن ابن عباس رضى الله عنهما[١] قال: كانوا ، إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحق بامرأته . إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها . فنزلت هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ . الآية . ورواه أبو داود والنسائيّ وغيرهم، ولفظ أبى داود عن ابن عباس : أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته . فيعضلها حتى تموت ، أو ترد إليه صداقها : فأحكم الله عن ذلك . أى نهى عنه .

قال السيوطيّ : ففيه أن الحر لا يتصور ملكه ولا دخوله تحت اليد . ولا يجرى مجرى الأموال بوجه . وكرها (بفتح الكاف وضمها) قراءتان . أى حال كونهن كارهات لذلك ! أو مكرَهات عليه . والتقييد (بالكره) لا يدل على الجواز عند عدمه . لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ماعداه . كما في قوله : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ[٢] . «وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ» الخطاب للأزواج . كما عليه أكثر المفسرين . روى عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس[٣] أن الآية فى الرجل تكون له المرأة . وهو كاره لصحبتها . ولها عليه مهر . فيضرها لتفتدى به . والعضل الحبس والتضييق.

(١) أخرجه البخاريّ في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء ، ٦ ـ باب لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣١] ونصها : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا .

(٣) الأثر ٨٨٨٤ من تفسير ابن جرير . ونصه :

عن ابن عباس قوله « ولا تعضلوهن » يقول لا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن يعنى : الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ، ولها عليه مهر ، فيُضِرُّ بها لتفتدى .

أي : ولا يحل لكم أن تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن . أى من الصداق . بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن « إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » أى زنى . كما قاله جماعة من الصحابة والتابعين . يعنى إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذى أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك ، وتخالعها . كما قال تعالى فى سورة البقرة : وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ(١) . الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وغيره : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان . واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنى والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك . يعنى أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ، ويفارقها . قال ابن كثير : وهذا جيد، والله أعلم. قال أبو السعود : (مبينة) على صيغة الفاعل من (بيّن) بمعنى تبين وقرىء على صيغة المفعول. وعلى صيغة الفاعل من (أبان) بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة . ويعضده قراءة أبيّ: إلا أن يفحشن عليكم. انتهى. وفى (الإكليل) استدل قوم بقوله : بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ـ على منع الخلع بأكثر مما أعطاها انتهى .

ثم بين تعالى حق الصحبة مع الزوجات بقوله « وَعَاشِرُوهُنَّ » أى صاحبوهن « بِالْمَعْرُوفِ » أى بالإنصاف فى الفعل والإجمال فى القول حتى لا تكونوا سبب الزنى بتركهن . أو سبب النشوز أو سوء الخلق . فلا يحل لكم حينئذ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية وجوب المعروف من توفية المهر والنفقة والقَسْم

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

واللين فى القول وترك الضرب والإغلاظ بلا ذنب . واستدل بعمومها مَنْ أوجب لها الخدمة إذا كانت ممن لا تخدم نفسها « فَإنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ » يعنى كرهتم الصحبة معهن « فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً » أى ولعله يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهن ولداً صالحاً يكون فيه خير كثير . وبأن ينيلكم الثواب الجزيل فى العقبى بالإنفاق عليهن والإحسان إليهن، على خلاف الطبع . وفى (الإكليل) قال الكيا الهراسىّ: فى هذه الآية استحباب الإمساك بالمعروف وإن كان على خلاف هوى النفس . وفيها دليل على أن الطلاق مكروه .

وقد روى مسلم(١) فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يَفرَكْ مؤمن مؤمنة . إن كره منها خلقاً رضى منها آخر . و (يفرك) بفتح الياء والراء، معناه يبغض .

لطيفة :

قال أبو السعود: ذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه ، وانحصار العلّية فى الثانى، للتوسل إلى تعميم مفعوله ـ ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصاً بمكروه دون مكروه . بل هو سنة إلٰهية جارية على الإطلاق ، حسب اقتضاء الحكمة . وإن ما نحن فيه مادة من موادها . وفيه من المبالغة فى الحمل على ترك المفارقة وتعميم الإرشاد ، مالا يخفى .

تنبيه جليل فى الوصية بالنساء والإحسان إليهن:

كفى فى هذا الباب هذه الآية الجليلة الجامعة . وهى قوله تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . قال ابن كثير : أى طيبوا أقوالكم لهن . وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم . كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله . كما قال تعالى :

(١) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ[١]. وقال رسول الله ﷺ : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى. رواه الترمذىّ عن عائشة ، وابن ماجة[٢] عن ابن عباس، والطبرانىّ عن معاوية . وقال ﷺ : خيركم خيركم للنساء . رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال ﷺ: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى . ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم. رواه ابن عساكر عن علىّ عليه السلام. وعن عمر بن الأحوص رضى الله عنه أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال : ألا واستوصوا بالنساء خيرا . فإنما هن عوانٍ عندكم. ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا . ألا إن لكم على نسائكم حقًّا . ولنسائكم عليكم حقا . فحقكم عليهن إن لا يوطئن فرشكم من تكرهون . ولا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون . ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن. رواه الترمذىّ[٣] وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله (عوان) أى أسيرات . جمع عانية .

وعن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال: قلت: يارسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه ؟

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٨] ونصها : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٥٠ ـ باب حسن معاشرة النساء ، حديث ١٩٧٧ (طبعتنا) .

(٣) الترمذىّ فى : ١٠ ـ كتاب النكاح ، ١١ ـ باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها.

قال أن تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تُقَبِّح ولا تهجر إلا فى البيت . رواه أبو داود[(١)] .

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : ليس[(٢)] من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه ، ورميه بقوسه ونبله ، ومداعبة أهله . رواه أبو داود . وفى رواية له : كل شيء يلهو به الرجل باطل ، إلا تأديبه فرسه ورميه عن قوسه ومداعبته أهله .

قال ابن كثير : وكان من أخلاق النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه . حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، يتودد إليها بذلك . قالت : سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته. وذلك قبل أن أحمل اللحم . ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقنى . فقال : هذه بتلك . وكان ﷺ يجمع نساءه كل ليلة فى بيت التى يبيت عندها فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد . يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار . وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام. يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال الله تعالى: لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة. انتهى.

(١) أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤١ ـ باب فى حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢

(٢) الحديث رواه الترمذىّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ١١ ـ باب ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله .

ونصه : عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسن أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ، ثلاثةً ، الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، والممدّ به » وقال « ارموا واركبوا ، ولأن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا . كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل . إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهنّ من الحق » .

ثم قال: عن عقبة بن عامر الجهنىّ ، عن النبىّ ﷺ ، مثله .

وقال الغزالىّ فى (الإحياء) فى (آداب المعاشرة وما يجرى فى دوام النكاح) : الأدب الثانى ـ حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ، ترحماً عليهن ، لقصور عقلهن . قال الله تعالى: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ : وقال فى تعظيم حقهن : وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً[1] . وقال تعالى : وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ[2] . قيل : هى المرأة .

ثم قال : واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها ، والحلم عندطيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ . فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل . وراجعت امرأةُ عمرَ عُمَرَرضى الله عنه فقال : أتراجعينى؟ فقالت: إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه، وهو خير منك[3] . وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة[4] : إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت علىّ غضبى. قالت . فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لا. ورب محمد ! وإذا كنت غضبى قلت : لا. ورب إبراهيم! قالت قلت: أجل. والله ! يا رسول الله ! ما أهجر إلا اسمك .

---

(١) [٤/ النساء / ٢١] ونصها : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً .

(٢) [٤ / النساء / ٣٦] ونصها : وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً.

(٣) هذه القطعة جزء من حديث طويل رواه ابن عباس عن عمر بن الخطاب فى سؤاله له: مَن المرأتان من أزواج النبىّ ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما : إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ ؟

وقد أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٢٥ ـ باب الغرفة والعلّية المشرفة وغير المشرفة . فلا تفتك مطالعته بإمعان .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح، ١٠٨ ـ باب غيرة النساء ووجدهن.

ثم قال الغزالىّ : الثالث ـ أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة. فهى التى تطيب قلوب النساء . وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال . حتى روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة فى العدْو فسبقته يوماً وسبقها فى بعض الأيام. فقال ﷺ : هذه بتلك .

قال العراقىّ : رواه أبوداود(١) ، والنسائىّ فى (الكبرى) وابن ماجة من حديث عائشة بسند صحيح .

وقالت عائشة رضى الله عنها: سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عيد. فقال لى رسول الله ﷺ : أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قالت قلت : نعم . فأرسل إليهم فجاءوا . وقام رسول ﷺ بين البابين . فوضع كفه على الباب ووضعت رأسى على منكبه . وجعلوا يلعبون وأنظر . وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبك ! وأقول : لا تعجل . (مرتين أو ثلاثاً) ثم قال : يا عائشة ! حسبك . فقلت نعم . وفى رواية للبخارىّ(٢) قالت : رأيت النبىّ ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد . حتى أكون أنا الذى أسأم . فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو .

وقال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبىّ . فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلًا .

وقال لقمان رحمه الله تعالى : ينبغى للعاقل أن يكون فى أهله كالصبىّ . وإذا كان فى القوم وجد رجلًا .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٦١ ـ باب فى السبق على الرجل ، حديث ٢٥٧٨

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١١٤ ـ باب نظر المرأة إلى الحَبَش وغيرهم من غير ريبة .

وقال ﷺ[1] لجابر : هلّا بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟ رواه الشيخان . ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله! لقد كان ضحوكا إذا ولج ، سكوتاً إذا خرج ، آكلًا ما وجد، غيرسائل عما فقد. انتهى بتصرف .

ثم نهى تعالى عن أخذ شيء من صداق النساء مَنْ أراد فراقهن ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾

« وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ » أى تزوج امرأة ترغبون فيها « مَكَانَ زَوْجٍ » ترغبون عنها بأن تطلقوها «وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ» أى إحدى الزوجات. فإن المراد بالزوج الجنس. « قِنطَارًا » أى مالًا كثيراً مهراً « فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » أى يسيراً، فضلًا عن الكثير « أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا » أى باطلا « وَإِثْمًا مُبِينًا » بيناً . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى أتأخذونه باهتين وآثمين .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح، ١٢٢ ـ باب تستحد المغيبة وتمتشط. ونصه : عن جابر بن عبدالله قال: كنا مع النبيّ ﷺ فى غزوة فلما قفلنا كنا قريباً من المدينة تعجلت على بعير لى قطوف . فلحقنى راكب من خلفى فنخس بعيرى بعَنَزَة كانت معه . فسار بعيرى كأحسن ما أنت راء من الإبل . فالتفتُّ فإذا أنا برسول الله ﷺ . فقلت : يا رسول الله ! إنى حديث عهد بعرس. قال « أتزوجت؟ » قلت: نعم. قال « أبكراً أم ثيباً » قال قلت : بل ثيباً . قال « فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك ؟ » قال فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال « أمهلوا حتى تدخلوا ليلا (أى عشاء) كى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٢١] (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

«وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ» إنكار لأخذه إثر إنكار، وتنفير عنه غب تنفير، على سبيل التعجب. أى بأى وجه تستحلون المهر « وَقَدْ أَفْضَىٰ » أى وصل « بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ » فأخذ عوضه « وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » أى عهداً وثيقاً مؤكداً مزيد تأكيد، يعسر معه نقضه . كالثوب الغليظ يعسر شقه .

قال الزمخشرىّ : الميثاق الغليظ حق الصحبة والمضاجعة . ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه. فقد قالوا : صحبة عشرين يوماً قرابة . فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟ انتهى .

قال الشهاب الخفاجىّ: قلت بل قالوا :

صحبة يوم نسب قريب وذمة يعرفها اللبيب

أو الميثاق الغليظ ما أوثق الله تعالى عليهم فى شأنهم بقوله تعالى : فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْتَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ[١]. أو قول الولىّ عند العقد: أنكحتك على ما فى كتاب الله: من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

تنبيه فى فوائد :

الأولى ـ فى قوله تعالى « وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا » دليل على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى عن كثرته ثم رجع عن ذلك. كما روى الإمام أحمد[٢] عن أبى العجفاء السلمىّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغلوا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص١١٥٨.

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

صدق النساء . ألا لا تغلوا صدق النساء. فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بهـا النبيّ ﷺ . ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ، ولا أصدق امرأة من بناته ، أكثر من اثنتى عشرة أوقية . وإن الرجـل ليبتلى بصدقة امرأته (وقال مرة : وإن الرجل ليغلى بصدقة امرأته) حتى تـكون لها عداوة فى نفسه. وحتى يقول: كلفت إليك عَرَقَ القربة. ورواه أهـل السنن . وقال الترمذيّ : هذا حديث صحيـح .

وروى أبو يعلى عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ! ما إكثاركم فى صدق النساء ! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك . ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عنـد الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها . فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال ثم نزل . فاعترضته امرأة من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين ! نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم . قال : نعم . فقـالت أما سمعت ما أنزل الله فى القرآن ؟ قال : وأيّ ذلك؟ قالت : أما سمعت الله يقول : وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا . الآية . قال فقال : اللهم! غفراً . كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس! إنى كنت نهيتـكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم . فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب .

قال أبو يعلى : وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل . إسناده جيّد قويّ. قاله ابن كثير.

وفى (الحجة البالغة) ما نصه : لم يضبط النبيّ ﷺ المهر بحدّ لا يزيد ولا ينقص . إذ العادات فى إظهار الاهتمام مختلفة . والرغبات لهـا مراتب شتى . ولهم فى المشاحّة طبقات . فلا يمكن تحديده عليهم . كما لا يمكن أن يضبط ثمن الأشياء المرغوبة بحد مخصوص . ولذلك قال: التمس ولو خاتماً من حديد(١) . غير أنه سن فى صداق أزواجه ثنتى عشرة أوقية ونشًّا. أى نصفاً ، انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٤٠ ـ باب السلطان وليّ ، لقول النبيّ ﷺ « زوجنا كها بما معك من القرآن » .

وقد ورد ما يفيد الندب إلى تخفيفه وكراهة المغالاة فيه . أخرج أبو داود والحاكم ، وصححه ، من حديث عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] خير الصداق أيسره .

وفى صحيح مسلم[٢] عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال له : إنى تزوجت امرأة من الأنصار. فقال له النبىّ ﷺ : هل نظرت إليها ؟ فإن فى عيون الأنصار شيئاً . قال: قد نظرت إليها . قال: على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: على أربع أواق ! كأنما تنحتون الفضة من عُرْض هذا الجبل . ما عندنا ما نعطيك . ولكن عسى أن نبعثك فى بعث تصيب منه . قال فبعث بعثاً إلى بنى عبس، بعث ذلك الرجل فيهم .

الثانية ـ خص تعالى ذكر من آتى القنطار من المال بالنهى، تنبيها بالأعلى على الأدنى . لأنه إذا كان هذا ، على كثرة ما بذل لامرأته من الأموال ، منهيًّا عن استعادة شيء يسير حقير

= ونصه : عن سهل بن سعد قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى وهبت من نفسى . فقامت طويلا . فقال رجل : زوجنيها إن لم تكن لك بها حاجة . قال « هل عندك من شيء تُصْدِقها ؟ » قال : ما عندى إلا إزارى . فقال « إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك . فالتمس شيئاً » فقال: ما أجد شيئاً . قال « التمس ولو خاتماً من حديد » فلم يجد. فقال « أمعك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم . سورة كذا وسورة كذا . لسورٍ سماها . فقال « زوجنا كها بما معك من القرآن » .

(١) أخرجه أبو داود فى: ١٢ ـ كتاب النكاح، ٣١ ـ باب فيمن تزوج ولم يسمّ صداقا حتى مات ، حديث ٢١١٧ .

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ١٢ ـ باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها ، حديث ٧٥ (طبعتنا) .

منها ، على هذا الوجه ، كان من لم يبذل إلا الحقير منهيًّا عن استعادته بطريق الأولى . ومعنى قوله « وَءَاتَيْتُمْ » والله أعلم : وكنتم آتيتم . إذ إرادة الاستبدال، فى ظاهر الأمر ، واقعة بعد إيتاء المال واستقرار الزوجية ـ كذا فى الانتصاف .

الثالثة .

اتفقوا على أن المهر يستقر بالوطء. واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة . ومنشأ ذلك: أن (أفضى) فى قوله تعالى : وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ . يجوز حملها على الجماع كناية ، جرياً على قانون التنزيل من استعمال الكناية فيما يستحي من ذكره . والخلوة لا يستحيى من ذكرها فلا تحتاج إلى كناية : ويجوز إبقاؤها على ظاهرها .

قال ابن الأعرابىّ : الإفضاء فى الحقيقة الانتهاء. ومنه: وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ . أى انتهى وآوى . هذا، والكناية أبلغ وأقرب فى هذا المقام . ومما يرجحها أنه تعالى ذكر ذلك فى معرض التعجب فقال : وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض . والتعجب إنما يتم إذا كان هذا الإفضاء سبباً قوياً فى حصول الألفة والمحبة ، وهو الجماع، لا مجرد الخلوة . فوجب حمل الإفضاء إليه ـ ذكره الرازىّ من وجوه . ثم قال : وقوله تعالى « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ » كلمة تعجب . أى لأىّ وجه ولأىّ معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك وجعلت ذاتها لذّتك وتمتعك ، وحصلت الألفة التامة والمودة الكاملة بينكما ، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً بذله لها بطيبة نفسه ؟ إن هذا لا يليق بمن له طبع سليم وذوق مستقيم .

الرابعة : فى (الإكليل) استدل بهذه الآية من منع الخلع مطلقاً . وقال: إنها ناسخة لآية البقرة . وقال غيره : إن هذه الآية منسوخة بها. وقال آخرون: لا ناسخ ولا منسوخ بل هى فى الأخذ بغير طيب نفسها. انتهى .

أقول: إن القول الثالث متعين. لأن كلًّا من آيتى البقرة وهذه فى مورد خاص يعلم من مساق النظم الكريم. وذلك لأن قوله فى البقرة: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ(١) ـ صريح فى أن الزوجة إذا كرهت خَلْق زوجها أو خُلُقه أو نقص دينه أو خافت إثما بترك حقه، أبيح لها أن تفتدى منه وحلّ له أخذ الفداء مما آتاها، لقوله تعالى ثَمَّ: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ الخ(١). والحكمة فى حل الأخذ ظاهرة. وهى جبر الزوج مما لحقه من ضعة اختلاعها له وهيمنتها حينئذ عليه، واسترداد ماله أخذ منه، لكان فى صورة المظلوم. لأنه لم يجنح للفراق ولا رغب فيه. فكان من العدل الإلهىّ أن لا يجمع عليه بين خسارتى التمتع والمال. وأما هذه الآية فهى فى حكم آخر. وهو ما إذا أراد استبدال زوجته لطموح بصره إلى غيرها من غير أن تفتدى منه، أو ترغب فى خلع نفسها منه، فيضن بما آتاها ويأسف لأن تحوزه وهو لا يريدها وليس لها فى نفسه وقع، فعزم عليه أن لا يأخذ مما أصدقها شيئا قط بعد الإفضاء. لأنه لو أبيح له الأخذ حينئذ لكان ظلماً واضحاً. لأنه أخذ بلا جريرة منها. فكان فى إبقاء ما فى يدها مما آتاها جبر لما نابها من ألم الإعراض عنها واطراحها، رحمة منه تعالى، وعدلًا فى القضيتين. فالقائل بالنسخ فاته سر الحكمين. وليت شعرى ماذا يقول فى الحديث الصحيح المروىّ فى البخارىّ(٢) وغيره، وهو قوله ﷺ لامرأة

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٨ ـ كتاب الطلاق، ١٢ ـ باب الخلع وكيف الطلاق منه، حديث ٢١٥٣ ونصه: =

ثابت : أتردّين عليه حديقته ! فقالت : نعم . فقال ﷺ لزوجها : اقبل الحديقة وطلقها . ولا يقال: لعل القائل بنسخ الخلع اعتمد فيه قوله تعالى : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ . الخ . وفيه ما فيه من تهويل الأخذ والتنفير عنه كما أسلفنا. لأنا نقول إن دلائل الأحكام الناسخة أو المنسوخة إنما تؤخذ من الجمل التامة فى الأصلين . فلا تؤخذ من شرط بلا جوابه مثلًا. وبالعكس. ولا من مبتدإ بدون خبره وبالعكس. ولا من مؤكد بدون مؤكده. وهكذا . وما نحن فيه لو أخذ عموم تحريم الأخذ من قوله : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ـ لكان كالاستدلال من المؤكد بدون ملاحظة مؤكده. وهذا ساقط . لأن قوله : وَكَيْفَ ـ تنفير عما تقدم ، متعلق به . وما قبله خاص . ولو زعم القائل بالنسخ أن قوله : وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ، عام فى المخلوعة وَمَنْ أريد طلاقها ـ نقول هذا باطل وفاسد . لأن مورد الآية فى إرادته ، هو فراقها مبتدئًا . فلا يصدق على المختلعة . لأنه لا يراد الاستبدال بغيرها ابتداءً من جانب الزوج . وبالجملة فكل من قرأ صدر الآيتين علم أن كلا فى حكم على حدة . لا تعلق فيها له بالآخر . والنسخ لا يصار إليه بالرأى . وقد كثر فى المتأخرين دعوى النسخ فى الآيات هكذا بلا استناد قوىّ. بل لما يتراءى ظاهراً بلا إمعان. فتثبت هذا .

وفى الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنَيْنِ ، بعد فراغهما من تلاعنهما : الله يعلم أن أحدكما كاذب . فهل منكما تائب؟ قالها ثلاثاً . فقال الرجل : يارسول الله : مالى ؟

= عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبىّ ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! ثابت ابن قيس ، ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ: « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت: نعم.

قال رسول الله ﷺ: « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ».

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٢ ـ باب صداق الملاعنة ، حديث ٢١٦٤ ونصه : =

يعنى ما أصدقها . قال : لا مال لك . إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها. وفى سنن أبى داود[1] وغيره ، عن بصرة بن أكثم أنه تزوج امرأة بكراً فى خدرها . فإذا هى حامل من الزنى . فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له . فقضى لها بالصداق وفرق بينهما . وأمر بجلدها . وقال : الولد عبد لك ، والصداق فى مقابلة البضع .

ثم بين تعالى من يحرم نكاحهن من النساء ، ومن لا يحرم . فقال سبحانه :

= عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عمر : رجل قذف امرأته ؟ فقال : فرّق النبىّ ﷺ بين إخوىْ بنى عجلان . وقال « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا . وقال: « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا . فقال « الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ » فأبيا ففرّق بينهما . . . . .

وفى : ٣٣ ـ باب قول الإمام للمتلاعنيْن : أحدكما كاذب فهل منكما تائب ؟ زاد :

قال (الرجل) : مالى ؟ قال « لا مال لك . إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها . وإن كنت كذبت عليها ، فذاك أبعد ذلك .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٧ ـ باب فى الرجل يتزوج المرأة فيجدها حبلى ، حديث ٢١٣١ ونصه :

عن سعيد بن المسيّب عن رجل من الأنصار يقال له بصرة (بن أكثم) قال : تزوجت امرأة بكراً فى سترها . فدخلت عليها فإذا هى حبلى . فقال النبىّ ﷺ: « لها الصداق بما استحللتَ من فرجها . والولد عبد لك . فإذا ولدت فاجلدها » . وفى رواية : (فاجلدوها) وفى أخرى: (فحدّوها) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلًا)

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » بنكاح أو ملك يمين . وإن لم يكنّ أمهاتكم « إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى سوى ما قد مضى فى الجاهلية فإنه معفوّ لكم ولا تؤاخذون به « إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً » أى خصلة قبيحة جدًّا ، لأنه يشبه نكاح الأمهات « وَمَقْتاً » أى بغضاً عند الله وعند ذوى المروآت . ولذا كانت العرب تسمى هذا النكاح: نكاح المقت . وتسمى ذلك المتزوج ، مقتيًّا . قاله ابن سيده . وقال الزجاج : المقت أشد البغض . ولما علموا أن ذلك فى الجاهلية كان يقال له المقت، أُعلموا أنه لم يزل منكراً ممقوتاً. « وَسَاءَ سَبِيلًا » أى بئس مسلكا . إذ فيه هتك حرمة الأب . وقد روى ابن أبى حاتم أنه لما توفى أبو قيس بن الأسلت ، وكان من صالحى الأنصار ، نخطب ابنه، قيس، امرأته ، فقالت : إنما أعدّك ولداً ، وأنت من صالحى قومك ، ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت: إن أبا قيس توفى . فقال: خيراً . ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبنى وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعدّه ولداً . فما ترى ؟ فقال لها: ارجعى إلى بيتك . فنزلت : وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ. الآية. وروى ابن جرير عن ابن عباس[1] قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما يَحْرُمُ إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين. فأنزل الله : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . (وأن تجمعوا بين الأختين) [٤/٢٣].

لطيفة :

قال الرازىّ: مراتب القبح ثلاثة: القبح فى العقول وفى الشرائع وفى العادات. فقوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ، إشارة إلى القبح العقلىّ . وقوله : وَمَقْتاً ، إشارة إلى القبح الشرعىّ.

(١) الأثر رقم ٨٩٣٨ (طبعة المعارف) .

وقوله . وَسَاءَ سَبِيلًا ، إشارة إلى القبح فى العرف والعادة . ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه، فقد بلغ الغاية فى القبح . والله أعلم .

قال ابن كثير : فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد[1] وأهل السنن، من طرق، عن البراء بن عازب. وفى رواية عن عمه أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده ، أن يقتله ويأخذ ماله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » من النسب أن تنكحوهن. وشملت الجدات من قبل

---

(١) هذا نص الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

عن البراء بن عازب قال : مرّ بنا ناس منطلقون . فقلنا : أين تذهبون ؟ فقالوا : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل فأتى امرأة أبيه ، أن نقتله .

وفى الرواية الأخرى، عن البراء بن عازب قال، مرّ بى عمّى الحارث بن عمرو ، ومعه لواء قد عقده له النبىّ صلى الله عليه وسلم . فقلت: أى عمّ ! أين بعثك النبىّ صلى الله عليه وسلم؟ فقال : بعثنى إلى رجل تزوج امرأة أبيه ، فأمرنى أن أضرب عنقه .

الأب أو الأم « وَبَنَاتُكُمْ » من النسب. وشملت بنات الأولاد وإن سفلن « وَأَخَوَاتُكُمْ » من أم أو أب أو منهما « وَعَمَّاتُكُمْ » أي أخوات آبائكم وأجدادكم « وَخَالَاتُكُمْ » أي أخوات أمهاتكم وجداتكم « وَبَنَاتُ الْأَخِ » من النسب ، من أي وجه يكنّ « وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » من النسب من أي وجه يكنّ . ويدخل في البنات أولادهن « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » قال المهايميّ : لأن الرضاع جزء منها وقد صار جزءاً من الرضيع ، فصار كأنه جزؤها فأشبهت أصله . انتهى .

ويعتبر في الإرضاع أمران : أحدهما القدر الذي يتحقق به هذا المعنى . وقد ورد تقييد مطلقه وبيان مجمله في السنّة بخمس رضعات . لحديث عائشة[1] عند مسلم وغيره : كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحَرِّمن. ثم نسخن بخمسٍ معلومات. فتوفي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يقرأ من القرآن . والثاني أن يكون الرضاع في أول قيام الهيكل وتشبح صورة الولد. وذلك قبل الفطام . وإلا فهو غذاء بمنزلة سائر الأغذية الكائنة بعد التشبح وقيام الهيكل. كالشاب يأكل الخبز .

عن أم سلمة[2] قالت : قال رسول الله ﷺ : لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام . رواه الترمذيّ وصححه . والحاكم أيضاً . وأخرج سعيد بن منصور والدارقطنيّ والبيهقيّ عن ابن عباس مرفوعاً : لا رضاع إلا ما كان في الحولين. وصحح البيهقيّ وقفه. قال السيوطيّ في (الإكليل): واستدل بعموم الآية من حرم برضاع الكبير. انتهى. وقد ورد الرخصة فيه

(١) أخرجه مسلم في : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، ٦ ـ باب التحريم بخمس رضعات ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ٥ ـ باب ماجاء ما ذكر أن الرضاعة لا تحرّم إلا في الصغر دون الحولين .

لحاجة تعرض . روى مسلم(١) وغيره عن زينب بنت أم سَلَمَة قالت: قالت أم سلمة لعائشة: إنه يدخل عليك الغلام الأيفع الذى ما أحب أن يدخل عليّ . فقالت عائشة : أما لك فى رسول الله ﷺ أسوة ؟ وقالت : إن امرأة أبى حذيفة قالت : يا رسول الله ! إن سالما يدخل عليّ وهو رجل . وفى نفس أبى حذيفة منه شيء . فقال رسول الله ﷺ : أرضعيه حتى يدخل عليك . وأخرج نحوه البخاريّ من حديث عائشة أيضا .

وقد روى هذا الحديث ، من الصحابة : أمهات المؤمنين وسهلة بنت سهيل وزينب بنت أم سلمة . ورواه من التابعين جماعة كثيرة. ثم رواه عنهم الجمع الجم . وقد ذهب إلى ذلك عليّ وعائشة وعروة بن الزبير وعطاء بن أبى رباح والليث بن سعد وابن علية وداود الظاهريّ وابن حزم . وذهب الجمهور إلى خلاف ذلك .

قال ابن القيّم : أخذ طائفة من السلف بهذه الفتوى . منهم عائشة . ولم يأخذ به أكثر أهل العلم . وقدموا عليها أحاديث توقيت الرضاع المحرم، بماقبل الفطام ، وبالصغر ، وبالحولين . لوجوه : أحدها ـ كثرتها وانفراد حديث سالم . الثانى ـ أن جميع أزواج النبيّ ﷺ سوى عائشة فى شق المنع. الثالث ـ أنه أحوط . الرابع ـ أن رضاع الكبير لا ينبت لحماً ولا ينشر عظماً . فلا يحصل به البعضية التى هى سبب التحريم. الخامس ـ أنه يحتمل أن هذا كان مختصًّا بسالم وحده . ولهذا لم يجئ ذلك إلا فى قصته . السادس ـ أن رسول الله ﷺ(٢) دخل على عائشة وعندها رجل قاعد. فاشتد ذلك عليه وغضب . فقالت : إنه أخى من الرضاعة . فقال : انظرن إخوتكن من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة . متفق عليه. واللفظ لمسلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٧ـ كتاب الرضاع،٧ـ باب رضاعة الكبير،حديث٢٩(طبعتنا).

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، ٨ ـ باب إنما الرضاعة من المجاعة ، حديث ٣٢ (طبعتنا). وهذا نصه : عن مسروق قال : قالت عائشة : دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندى رجل قاعد . فاشتد ذلك عليه ورأيت الغضب فى وجهه . قالت فقلت : يا رسول الله ! إنه أخى من الرضاعة. قالت فقال « انظرن إخوتكن من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة ».

وفى قصة سالم مسلك . وهوأن هذا كان موضع حاجة . فإن سالماً كان قدتبناه أبوحذيفة ورباه . ولم يكن له منه ومن الدخول على أهله بدّ . فإذا دعت الحاجة إلى مثل ذلك فالقول به مما يسوغ فيه الاجتهاد، ولعل هذا المسلك أقوى المسالك . وإليه كان شيخنا يجنح . انتهى . يعنى تقىّ الدين بن تيمية رضى الله عنهما .

«وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ» . قال الرازىّ : إنه تعالى نص فى هذه الآية على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاعة . إلا أن الحرمة غير مقصورة عليهن. لأنه ﷺ قال[1] : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب. وإنما عرفنا أن الأمر كذلك بدلالة هذه الآيات . وذلك لأنه تعالى لما سمى المرضعة أما ، والمرضعة أختاً، فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب . وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعاً : اثنتان منهما المنتسبتان بطريق الولادة ، وهما الأمهات والبنات. وخمس منها بطريق الأخوة ، وهن الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك فى أحوال الرضاع ، ذكر من هذين القسمين صورة واحدة تنبيهاً بها على الباقى . فذكر من قسم قرابة الولادة، الأمهات . ومن قسم قرابة الأخوة، الأخوات. ونبه بذكر هذين المثالين ، من هذين القسمين ، على أن الحال فى باب الرضاع كالحال فى النسب. ثم إنه ﷺ أكد هذا البيان بصريح قوله : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . فصار صريح الحديث مطابقاً لمفهوم الآية . وهذا بيان لطيف. انتهى .

لطيفة :

تعرض بعض المفسرين فى هذا المقام لفروع فقهية مسندها مجرد الأقيسة .

قال الرازىّ : من تكلم فى أحكام القرآن وجب أن لا يذكر إلا ما يستنبطه من الآية .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٧ ـ باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم ، حديث ١٢٨٤ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى بنت حمزة « لا تحلّ لى . يحرُمُ من الرضاع ما يحرم من النسب . هى بنت أخى من الرضاعة » .

فأما ما سوى ذلك فإنما يليق بكتب الفقه « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » أى أصول أزواجكم « وَرَبَائِبُكُمُ » جمع ربيبة، بمعنى مربوبة . قال الأزهرىّ : ربيبة الرجل بنت امرأته من غيره . انتهى . سميت بذلك لأنه يربّها غالباً ، كما يربّ ولده « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » جمع حجر (بفتح أوله وكسره) أى فى تربيتكم . يقال فلان فى حجر فلان ، إذا كان فى تربيته. والسبب فى هذه الاستعارة أن كل من ربى طفلًا أجلسه فى حجره ، فصار الحجر عبارة عن التربية . وسر تحريمهن كونهن حينئذ يشبهن البنات. إلا أنه إنما يتحقق الشبه إذا كن «مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » لأنهن حينئذ بنات موطوءاتكم، كبنات الصلب . والدخول بهن كناية عن الجماع . كقولهم : بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب . أى أدخلتموهن الستر . والباء للتعدية « فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى فلا حرج عليكم فى أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن أو متن .

تنبيهات :

(الأول) ذهب بعض السلف إلى أن قيد الدخول فى قوله تعالى : اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ـ راجع إلى الأمهات والربائب. فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها. لقوله : فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ . وروى ابن جرير[1] عن علىّ رضى الله عنه فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها : أيتزوج بأمها ؟ قال : هى بمنزلة الربيبة . وروى أيضاً عن زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وابن جبير وابن عباس. وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد بن الصابونىّ، فيما نقله الرافعىّ عن العبادىّ . وقد روى عن ابن مسعود مثله، ثم رجع عنه . وتوقف فيه معاوية . وذلك فيما رواه ابن المنذر عن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف . قال: فلم أجامعها حتى توفى عمى عن أمها . وأمها ذات مال كثير . فقال أبى : هل لك فى أمها ؟

(١) الأثر رقم ٨٩٥١ (طبعة المعارف) .

قال فسألت ابن عباس وأخبرته . فقال: انكح أمها . قال وسألت ابن عمر فقال : لاتنكحها . فأخبرت أبي بما قالا، فكتب إلى معاوية . فأخبره بما قالا . فكتب معاوية : إني لا أحل ماحرم الله. ولاأحرم ماأحل الله. وأنت وذاك . والنساء سواها كثير . فلم ينه ولم يأذن لي . فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحنيها .

وذهب الجمهور إلى أن الأم تحرم بالعقد على البنت ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم . قالوا : الاشتراط إنما هو في أمهات الربائب . وروى في ذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها. وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها . وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها . دخل بها أو لم يدخل. أخرجه الترمذي[1] .

قال الحافظ ابن كثير : هذا الخبر غريب ، وفي إسناده نظر . وقال الزجاج : قد جعل بعض العلماء (اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) وصفاً للنساء المتقدمة والمتأخرة . وليس كذلك . لأن الوصف الواحد لايقع على موصوفين مختلفي العامل. وهذا، لأن النساء الأولى مجرورة بالإضافة . والثانية بـ (من) ولا يجوز أن تقول : مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظريفات ، على أن تكون الظريفات نعتاً لهؤلاء النساء ولهؤلاء النساء .

(١) أخرجه الترمذي في : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٢٦ ـ باب ما جاء فيمن يتزوج المرأة ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، هل يتزوج ابنتها ، أم لا ؟

(قال أبو عيسى) : هذا حديث لا يصح من قبل إسناده .

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، قالوا : إذا تزوج الرجل امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، حل له أن ينكح ابنتها . وإذا تزوج الرجل الابنة فطلقها قبل أن يدخل بها ، لم يحل له نكاح أمها ، لقول الله تعالى : وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ .

وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والقول المشهور عن الجمهور ، إبهام تحريم أم المرأة ، وتقييد تحريم الربيبة بدخول الأم . كما هو ظاهر الآية . ولهذا الفرق سر وحكمة . وذلك لأن المتزوج بابنة المرأة لا يخلو بعد العقد وقبل الدخول من محاورة بينه وبين أمها، ومخاطبات ومسارات . فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم ليقطع شوقه من الأم فيعاملها معاملة ذوات المحارم . ولا كذلك العاقد على الأم فإنه بعيد عن مخاطبة بنتها قبل الدخول بالأم . فلم تدعُ الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة . وأما إذا وقع الدخول بالأم فقد وجدت مظنة خلطة الربيبة . فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما. والله أعلم .

الثانى ـ استدل بقوله تعالى « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم » من لم يحرم نكاح الربيبة الكبيرة والتى لم يربّها . روى ابن أبى حاتم عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندى امرأة فتوفيت وقد ولدت لى . فوجدت عليها. فلقينى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال: مالك؟ فقلت : توفيت المرأة . فقال : لها ابنة ؟ قلت: نعم . وهى بالطائف . قال: كانت فى حجرك؟ قلت : لا . هى بالطائف . قال : فانكحها . قلت : فأين قول الله « وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » ؟ قال : إنها لم تكن فى حجرك . إنما ذلك إذا كانت فى حجرك .

قال الحافظ ابن كثير : إسناده قوىّ ثابت إلى علىّ بن أبى طالب، على شرط مسلم . وإلى هذا ذهب الإمام داود بن علىّ الظاهرىّ وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعىّ عن مالك رحمه الله تعالى . واختاره ابن حزم . والجمهور على تحريم الربيبة مطلقاً . سواء كانت فى حجر الرجل أم لم تكن . قالوا : والخطاب فى قوله « اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » خرج مخرج الغالب . فإن شأنهن الغالب المعتاد أن يكنّ فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن . ولم يرد كونهن كذلك بالفعل. وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها. كما أنها النكتة فى إيرادهن باسم الربائب دون بنات النساء . فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن ، وفى شرف التقلب فى حجورهم ، وتحت حمايتهم وتربيتهم ، مما يقوى الملابسة والشبه بينهن وبين أولادهم .

ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم . لا تقييد الحرمة بكونهن فى حجورهم بالفعل ـ كذا قرره أبو السعود ـ .

وفى (الانتصاف) : إن فائدة وصفهن بذلك ، هو تخصيص أعلى صور النهىّ عنه، بالنهى. فإن النهى عن نكاح الربيبة المدخول بأمها عام . فى جميع الصور . سواء كانت فى حجر الزوج أو بائنة عنه فى البلاد القاصية . ولكن نكاحه لماهى حجره أقبح الصور . والطبع عنها أنفر . فخصت بالنهى لتساعد الجبلة على الانقياد لأحكام الملة . ثم يكون ذلك تدريباً وتدريجاً إلى استقباح المحرم فى جميع صوره . والله أعلم .

وفى الصحيحين[1] أن أم حبيبة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ! انكِحْ أختى بنت أبى سفيان (وفى لفظ لمسلم : عزة بنت أبى سفيان) فقال : أوتحبين ذلك ؟ قالت : نعم . لست لك بمخلية . وَأَحَبُّ مَن شاركنى فى خيرٍ أختى . فقال النبىّ ﷺ : إن ذلك لا يحل لى . قلت : فإنا نحدَّث أنك تُريد أن تنكح بنت أبى سلمة . قال : بنت أم سلمة ؟ قلت : نعم . فقال : لو أنها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ، ما حلت لى . إنها لابنة أخى من الرضاعة . أرضعتنى وأبا سلمة ثُوَيْبَةُ . فلا تعرضْنَ علىّ بناتكن ولا أخواتكن . (وفى رواية للبخارىّ : لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لى) .

قال ابن كثير : فجعل المناط فى التحريم مجردتزوجه أم سلمة. وحكم بالتحريم بذلك .

الثالث ـ اشتهر أن المراد من الدخول فى قوله تعالى « دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » معناه الكنائىّ . وهو الجماع . لأنه أسلوب الكتاب العزيز فى نظائره بلاغة وأدبا. ولذا فسره به ابن عباس وغير

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٠ ـ باب وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، حديث ٢١١٠ .

ومسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، ٤ ـ باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

واحد . فمدلول الآية صريح حينئذ فى كون الحرمة مشروطة بالجماع . فلا تتناول غيره من اللمس والتقبيل والنظر لتباعها . ومن أثبت تحريم الربيبة بذلك لحظ أن معنى الدخول أوسع من الجماع . لأنه يقال : دخل بها ، إذا أمسكها وأدخلها البيت . وفى (فتح البيان) : الذى ينبغى التعويل عليه فى مثل هذا الخلاف ، هو النظر فى معنى الدخول شرعاً أو لغة . فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به ، من لمس أو نظر أو غيرهما . وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك . انتهى .

و (فى شرح القاموس للزبيدىّ) : ودخل بامرأته كناية عن الجماع . وغلب استعماله فى الوطء الحلال . والمرأة مدخول بها . قلت : ومنه الدخلة ، لليلة الزفاف . انتهى .

« وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ » أى موطوآت فروعكم بنكاح أو ملك يمين. جمع حليلة . سميت بذلك لحلها للزوج . وقوله تعالى « الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ » لإخراج الأدعياء الذى كانوا يتبنونهم فى الجاهلية . كما قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ[1] . وقال تعالى : وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ[2] . فالسر فى التقييد هو إحلال حليلة المتبنّى ، ردّاً لمزاعم الجاهلية ، لا إحلال حليلة الابن من الرضاع وأبناء الأبناء . كأنه قيل : بخلاف من تبنيتموهم ، فلكم نكاح حلائلهم .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] ونصها : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] ونصها : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .

« وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » في حيّز الرفع، عطفاً على ما قبله من المحرمات . أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين في الوطء بنكاح أو ملك يمين من نسب أو رضاع، لما فيه من قطيعة الرحم « إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » في الجاهلية فإنه معفوّ عنه « إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » تعليل لما أفاده الاستثناء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَالْمُحْصَنَاتُ » أي وحرمت عليكم المزوجات « مِنَ النِّسَاءِ » حرائر وإماء، مسلمات، أَوْ لَا . لئلا تختلط المياه فيضيع النسب « إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أي من اللائي سبين ولهن أزواج في دار الكفر. فهن حلال لغزاة المسلمين، وإن كن محصنات. لأن السبي لهن يرفع نكاحهن ويفيد الحل بعد الاستبراء . روى الإمام أحمد ومسلم[١] وأبو داود والترمذيّ

---

(١) أخرجه مسلم في: ١٧ـ كتاب الرضاع، ٩ ـ باب جواز وطء المسبيّة بعد الاستبراء، وإن كان لها زوج انفسخ نكاحها بالسبي ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين ، بعث جيشاً إلى أوطاس . فلقوا عدوا . فقاتلوهم . فظهروا عليهم . وأصابوا لهم سبايا . فكأن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحرّجوا من غشيانهن، من أجل أزواجهن من المشركين. فأنزل الله عز وجل في ذلك : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . أي فهنّ لكم حلال إذا انقضت عدتهن .

والنسائىّ وابن ماجة عن أبى سعيد الخدرىّ قال: أصبنا سبايا من سبى أوطاس. ولهن أزواج. فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج . فسألنا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فاستحللنا فروجهن .

تنبيه :

استدل بعموم الآية من قال : إن انتقال الملك ببيع أو إرث أو غير ذلك يقطع النكاح . عن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها . وعنه : بيع الأمة طلاقها. وروى ذلك أيضاً عن أُبىّ بن كعب وجابر وابن عباس رضى الله عنهم قالوا : بيعها طلاقها. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها، وعتقها طلاقها، وهبتها طلاقها ، وبراءتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها .

كذا قرأته فى تفسير ابن كثير. ولا يخفى أن المعدود خمسة. ولعل السادس بيع زوجها. حيث قال بعد ذلك : وروى عوف عن الحسن بيع الأمة طلاقها وبيعه طلاقها. فهذا قول هؤلاء من السلف. وحجتهم عموم الاستثناء فى قوله تعالى « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » والجمهور على أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها . واحتجوا بحديث بريرة المخرّج فى الصحيحين(١) وغيرهما . فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث . بل خيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة. فلو كان

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٢٢ ـ باب إذا أسلم على يديه الرجل ، حديث ٣٠٢ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : اشتريت بريرة . فاشترط أهلها ولاءها . فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « أعتقيها فإن الولاء لمن أعطى الوَرِق » .

قالت : فأعتقتها. قالت فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيّرها فى زوجها ، فقالت : لو أعطانى كذا وكذا ما بت عنده . فاختارت نفسها .

بيع الأمة طلاقها لما خيرت . وتخييرها دال على أن المراد من الآية المسبيات فقط . وبالجملة ، فالجمهور قصروا الآية على السبب الذى نزلت فيه .

قال الرازىّ : وهو يرجع إلى تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . أى وهو مقبول ومعمول به فى غيرما موضع . كنصاب السرقة . وفى التنبيه الآتى زيادة لهذا فتأمّله .

فائدة :

اتفق القراء على فتح الصاد فى (المحصنات) هنا . ويقرأ بالفتح والكسر فى غير هذا الموضع. وكلاهما مشهور. فالفتح على أنهن أُحصنّ بالأزواج أو بالإسلام . والكسر على أنهن أَحصن فروجهن أو أزواجهن . واشتقاق الكلمة من الإحصان وهو المنع « كِتَابَ اللهِ » مصدر مؤكد. أى كتب الله « عَلَيْكُمْ » تحريم هؤلاء كتاباً وفرضه فرضاً، فالزموا كتابه ولا تخرجوا عن حدوده وشرعه « وَأُحِلَّ لَكُمْ » عطف على (حرمت عليكم) « مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة . أى أحل لكم نكاح ما سواهن « أَنْ تَبْتَغُوا » مفعول له . أى أحل لكم إرادة أن تبتغوا . أو بدل من (ما) أى ابتغاء النساء « بِأَمْوَالِكُمْ » أى يصرفها إلى مهورهن «مُحْصِنِينَ» حال من فاعل (تبتغوا) والإحصان: العفة، وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم « غَيْرَ مُسَافِحِينَ » غير زانين، والسفاح الزنى والفجور . من السفح وهو الصبّ . لأنه لا غرض للزانى إلّا سفح النطفة . وكان أهل الجاهلية ، إذا خطب الرجل المرأة ، قال : انكحينى . فإذا أراد الزنى قال : سافحينى . قال الزجاج : المسافحة أن تقيم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح .

تنبيه :

قوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ـ عام مخصوص بمحرمات أخر دلت عليها دلائل أخر . فمن ذلك ، ماصح عن النبىّ ﷺ من النهى عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها . وقد حكى الترمذىّ المنع من ذلك عن كافة أهل العلم . وقال : لانعلم بينهم اختلافاً

فى ذلك . ومن ذلك ، نكاح المعتدة . ومن ذلك ، أن من كان فى نكاحه حرة ، لا يجوز له نكاح الأمة . ومن ذلك، القادر على الحرة لا يجوز له نكاح الأمة . ومن ذلك، من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة . ومن ذلك، الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن أبداً . فالآية مما نزل عامًّا ودلت السنة ومواضع من التنزيل على أنها مخصصة بغيرها .

قال الإمام الشافعىّ فى الرسالة :

[٢٤٤] فرض الله عز وجل على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم .

[٢٤٥] فقال فى كتابه: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

[٢٥٠] وقال: وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً .

فى آيات نظائرها .

قال الشافعىّ :

[٢٥٢] فذكر الله عز وجل الكتاب وهو القرآن . وذكر الحكمة . فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٣] وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

[٢٥٤] لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْهُ الحكمة، وذَكَرَ الله جل ثناؤه مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز ، والله أعلم ، أن يقال : الحكمة هنا إلا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٥] وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، وحتَّم على الناس اتباع أمره ـ فلا يجوز أن يقال لقولٍ : فرضٌ ، إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

[٢٥٦] لما وصفنا من أن الله تعالى جل ثناؤه جعل الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم مقروناً بالإيمان به .

[٢٥٧] وسنةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينةً عن الله عز وجل معنى ما أراد ـ دليلًا على خاصه وعامه . ثم قرن الحكمة بها بكتابه ، فأتبعها إياه . ولم يجعل هذا لأحد من خلقه ، غير رسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وإنما أوردنا هذا تزييفاً لزعم الخوارج أن حديث (لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)(١) المروىّ فى الصحيحين وغيرهما ، خبر واحد . وتخصيص عموم القرآن بخبر الواحد لا يجوز . كما نقله عنهم الرازىّ . وأورد من حججهم أن عموم الكتاب مقطوع المتن ظاهر الدلالة . وخبر الواحد مظنون المتن ظاهر الدلالة . فكان خبر الواحد أضعف من عموم القرآن . فترجيحه عليه بمقتضى تقديم الأضعف على الأقوى . وأنه لا يجوز . انتهى .

وقد توسع الرازىّ هنا فى الجواب عن شبهتهم . ومما قيل فيه : إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها مأخوذ من قوله تعالى « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » .

قال العلامة أبو السعود : ويشترك فى هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها . فإن مدار حرمة الجمع بين الأختين إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله . وذلك متحقق فى الجمع بين هؤلاء . بل أولى . فإن العمة والخالة بمنزلة الأم . فقوله ﷺ : لا تنكح المرأة. الخ ، من قبيل بيان التفسير . لا بيان التغيير . وقيل : هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب .

وقال أيضاً : ولعل إيثار اسم الإشارة (يعنى فى قوله: مَاوَرَاءَ ذَٰلِكُمْ) المتعرض لوصف المشار إليه وعنوانه ، على الضمير المتعرض للذات فقط ـ لتذكير ما فى كل واحدة منهن من العنوان الذى عليه يدور حكم الحرمة . فيفهم مشاركة مَن فى معناهن لهن فيها بطريق الدلالة . فإن حرمة الجمع بين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها، ليست بطريق العبارة، بل بطريق الدلالة ، كما سلف . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٢٧ ـ باب لاتنكح المرأة على عمتها ، حديث ٢١١٢ ونصه : عن جابر رضى الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها .

وفى (تنوير الاقتباس) : ويقال فى قوله تعالى « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ » أن تطلبوا بأموالكم تزوجهن وهى المتعة . وقد نسخت الآن . انتهى . وسيأتى الكلام على ذلك.
« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ » أى من تمتعتم به من المنكوحات بالجماع « فَآتُوهُنَّ» فأعطوهن « أُجُورَهُنَّ » مهورهن كاملة « فَرِيضَةً » أى من الله عليكم أن تعطوا المهر تامًّا . و (فَرِيضَةً) حال من الأجور . بمعنى مفروضة . أو نعت لمصدر محذوف . أى إيتاءً مفروضاً. أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » لا حرج عليكم « فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ» أنتم وهن «مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» أى من حطها أو بعضها أو زيادة عليها بالتراضى « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » فيما شرع من الأحكام .

تنبيه :

حمل قوم الآية على نكاح المتعة . قالوا : معنى قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ » أى فمن جامعتموهن ممن نكحتموهن نكاح المتعة ، فآتوهن أجورهن .

قال الحافظ ابن كثير : وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة . ولا شك أنه كان مشروعاً فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة . وهو رواية عن الإمام أحمد . وكان ابن عباس وأبىّ ابن كعب وسعيد بن جبير والسدّىّ يقرؤن : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، فآتوهن أجورهن فريضة . وقال مجاهد : نزلت فى نكاح المتعة . ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت فى الصحيحين[1] عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . وفى صحيح مسلم[2]

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الإنسية، حديث ١٩٠٨ ونصه : عن علىّ رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة ، عام خيبر ، ولحوم حمر الأَنْسيّة .

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ٢١ (طبعتنا) .

عن الربيع بن سبرة الجهنىّ عن أبيه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس! إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء . وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة . فمن كان عنده منهن شىء فليُخَلِّ سبيله . ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . انتهى .

وفى (الكشاف) : قيل نزلت هذه الآية فى المتعة . كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً . ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً . بثبوت أو غير ذلك . ويقضى منها وطره ثم يسرحها . سميت متعة لاستمتاعه بها ، أو لتمتيعه لها بما يعطيها .

وقال الخفاجىّ : روى أن سعيد بن جبير قال لابن عباس رضى الله عنهما : أتدرى ما صنعت بفتواك ؟ فقد سارت بها الركبان وقيل فيها الشعر . كقوله :

قد قلت للشيخ لما طال مجلسه ... يا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس؟
هل لك فى رخصة الأطراف آنسة ... تكون مثواك حتى مصدر الناس؟

فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . والله ! ما بهذا أفتيت ولا أحللت ، إلا مثل ما أحل الله الميتة والدم .

وقال الإمام شمس الدين بن القيّم رضوان الله عليه فى (زاد المعاد) فى الكلام على ما فى غزوة الفتح من الفقه ، ما نصه : ومما وقع فى هذه الغزوة إباحة متعة النساء . ثم حرمها صلى الله عليه وسلم قبل خروجه من مكة . واختلف فى الوقت الذى حرمت فيه المتعة على أربعة أقوال : أحدها ـ إنه يوم خيبر . وهذا قول طائفة من العلماء . منهم الشافعىّ وغيره . والثانى ـ إنه عام فتح مكة . وهذا قول ابن عيينة وطائفة . والثالث ـ إنه عام حنين . وهذا فى الحقيقة هو القول الثانى ـ لاتصال غزاة حنين بالفتح . والرابع ـ إنه عام حجة الوداع . وهو وهم من بعض الرواة . سافر فيه وهمُه من فتح مكة إلى حجة الوداع . وسفرُ الوهم من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ومن واقعة إلى واقعة ، كثيرا ما يعرض للحفاظ فمن

دونهم . والصحيح أن المتعة إنما حرمت عام الفتح . لأنه قد ثبت في صحيح مسلم[1] أنهم استمتعوا عام الفتح مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بإذنه . ولو كان التحريم زمن خيبر لزم النسخ مرتين . وهذا لا عهدة بمثله في الشريعة البتة . ولا يقع مثله فيها . وأيضا، فإن خيبر لم يكن فيها مسلمات . وإنما كن يهوديات . وإباحة نساء أهل الكتاب لم تكن ثبتت بعد. إنما أبحن بعد ذلك في سورة المائدة لقوله : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ،وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ[2] . وهذا متصل بقوله : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ[3] . وبقوله : الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ . وهذا كان في آخر الأمر بعد حجة الوداع ، أو فيها . فلم تكن إباحة نساء أهل الكتاب ثابتة من خيبر . ولا كان للمسلمين رغبة في الاستمتاع . ونساء عدوهم قبل الفتح وبعد الفتح ، استرق من استرق منهم

(١) أخرجه في صحيحه في : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ١٣ (طبعتنا) ونصه : عن جابر وسلمة بن الأكوع قالا : خرج علينا منادى رسول الله ﷺ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أذن لكم أن تستمتعوا . يعني متعة النساء .

(٢) [٥ / المائدة / ٥] . . . إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

(٣) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وصرن إماء المسلمين . فإن قيل : فما تصنعون بما ثبت فى الصحيحين من حديث علىّ بن أبى طالب[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية ؟ وهذا صحيح صريح . قيل : هذا الحديث قد صحت روايته بلفظين : هذا أحدهما. والثانى الاقتصار على نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، هذه رواية ابن عيينة عن الزهرىّ. قال : قال قاسم بن أصبغ : قال سفيان بن عيينة : يعنى أنه نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر لا عن نكاح المتعة. ذكره أبو عمر فى (التمهيد) ثم قال : على هذا أكثر الناس . انتهى، فتوهم بعض الرواة أن (يوم خيبر) ظرف لتحريمهن فرواه : حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعة زمن خيبر والحمر الأهلية . واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث فقال : حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعة زمن خيبر . فجاء بالغلط البيّن. فإن قيل: فأى فائدة فى الجمع بين التحريمين إذا لم يكونا قد وقعا فى وقت واحد ؟ وأين المتعة من تحريم الحمر ؟ قيل : هذا الحديث رواه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه محتجاً به على ابن عمّه ، عبد الله بن عباس فى المسألتين . فإنه كان يبيح المتعة ولحوم الحمر . فناظره علىّ بن أبى طالب فى المسألتين وروى له التحريمين . وقيد تحريم الحمر بزمن خيبر . وأطلق تحريم المتعة وقال : إنك امرؤ تائه. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم المتعة وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . كما قاله سفيان بن عيينة . وعليه أكثر الناس . فروى الأمرين محتجاً عليه بهما ، لا مقيداً لهما بيوم خيبر. والله الموفق.

ولكن ههنا نظر آخر. وهو إنه هل حرمها تحريم الفواحش التى لا تباح بحال ، أو حرمها عند الاستغناء عنها وأباحها للمضطر ؟ هذا هو الذى نظر فيه ابن عباس وقال : أنا أبحتها للمضطر كالميتة والدم . فلما توسع فيها من توسع ولم يقف عند الضرورة ، أمسك ابن عباس عن الإفتاء بحلها ورجع عنه : وقد كان ابن مسعود يرى إباحتها ويقرأ : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٨٧ .

طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[١] . ففي الصحيحين[٢] عنه : كنا نغزو مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وليس لنا نساء فقلنا : ألا نختصى ؟ فنهانا عن ذلك فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب ثم قرأ عبد الله : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَاأَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[١]. وقراءة عبد الله الآية عقيب هذا الحديث تحتمل أمرين : أحدهما ـ الرد على من يحرمها وأنها لو لم تكن من الطيبات لما أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى ـ أن يكون أراد آخر هذه الآية وهو الرد على من أباحها مطلقاً ، وأنه معتدٍ . فإن رسول الله ﷺ إنما رخص فيها للضرورة عند الحاجة فى الغزو ، وعند عدم النساء وشدة الحاجة إلى المرأة . فمن رخص فيها فى الحضر مع كثرة النساء وإمكان النكاح المعتاد فقد اعتدى والله لا يحب المعتدين . فإن قيل : فما تصنعون بما روى مسلم[٣] فى صحيحه من حديث جابر وسلمة بن الأكوع قالا : خرج علينا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لكم أن تستمتعوا (يعنى متعة النساء) قيل : هذا كان زمن الفتح قبل التحريم ثم حرمها بعد ذلك بدليل مارواه مسلم[٤] فى صحيحه عن سلمة بن الأكوع قال: رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام أوطاس ، فى المتعة ثلاثاً . ثم نهى عنها . وعام أوطاس هو وعام الفتح واحد . لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة . فإن قيل : فما تصنعون بما رواه مسلم

---

(١) [٥ / المائدة / ٨٧] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٩ ـ باب قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ، حديث ١٩٩٨ .
ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ١١ (طبعتنا) .

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ١١٨٩.

(٤) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث ١٨ (طبعتنا).

فى صحيحه[(١)] عن جابر بن عبد الله قال : كنا نستمتع بالقَبْضَة من التمر والدقيق ، الأيامَ ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر. حتى نهى عنه عمر فى شأن عمرو بن حريث. وفيما ثبت عن عمر أنه قال[(٢)] : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا أنهى عنهما : متعة النساء ومتعة الحج ؟ قيل : الناس فى هذا طائفتان : طائفة تقول : إن عمر هو الذى حرمها ونهى عنها . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع ما سنه الخلفاء الراشدون . ولم تر هـذه الطائفة تصحيح حديث سبرة بن معبد فى تحريم المتعة عام الفتح . فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده . وقد تكلم فيه ابن معين . ولم ير البخارىّ إخراج حديثه فى صحيحه مع شدة الحاجة إليه ، وكونه أصلًا من أصول الإسلام . ولو صح عنده لم يصبر عن إخراجه أو الاحتجاج به . قالوا : ولو صح حديث سبرة لم يخف على ابن مسعود حتى يروى أنهم فعلوها ويحتج بالآية . قالوا أيضاً : ولو صح لم يقل عمر : إنها كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنهى عنها وأعاقب عليها . بل كان يقول : إنه صلى الله عليه وسلم حرمها ونهى عنها . قالوا : ولو صح لم يُفعل على عهد الصديق ، وهو عهد خلافة النبوة حقًّا . والطائفة الثانية رأت صحة حديث سبرة . ولو لم يصح فقد صح حديث علىّ رضى الله عنه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم متعة

---

(١) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب نكاح المتعة ، حديث١٦ (طبعتنا).

(٢) فى المسند ، حديث رقم ٣٦٩ (طبعة المعارف) ونصه :

عن أبى نضرة قال : قلت لجابر بن عبد الله : إن ابن الزبير ينهى عن المتعة ، وإن ابن عباس يأمر بها ؟ قال فقال لى : على يدى جرى الحديث : تمتعنا مع رسول الله ﷺ ، ومع أبى بكر ، فلما وَلِىَ عمر خطب الناس فقال: إن القرآن هو القرآن . وإن رسول الله ﷺ هو الرسول . وإنهما كانتا ، متعتان على عهد رسول الله ﷺ : إحداهما متعة الحج ، والأخرى متعة النساء .

النساء . فوجب حمل حديث جابر على أن الذى أخبر عنه بفعلها لم يبلغه التحريم ، ولم يكن قد اشتهر حتى كان زمن عمر رضى الله عنه . فلما وقع فيها ظهر واشتهر . وبهذا تأتلف الأحاديث الواردة فيها ، وبالله التوفيق . انتهى .

هذا ، والذين حملوا الآية على بيان حكم النكاح قالوا: المراد من قوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ » الخ أنه إذا كان المهر مقدراً بمقدار معين فلا حرج فى أن تحط عنه شيئاً من المهر ، أو تبرئه عنه بالكلية ، بالتراضى ، كما تقدم . وهو كقوله تعالى « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » وقوله « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » .

وقد روى ابن جرير[1] عن حضرمى أن رجالًا كانوا يقرضون المهر. ثم عسى أن تدرك أحدهم العسرة . فقال الله « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » الخ. يعنى إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ . وأما الذين حملوا الآية على بيان المتعة ، قالوا : المراد من نفى الجناح أنه إذا انقضى أجل المتعة لم يبق للرجل على المرأة سبيل البتة . فإن قال لها: زيدينى فى الأيام وأزيدك فى الأجرة ـ كانت المرأة بالخيار. إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل. فهذا هو المراد من قوله : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ. أى من بعد المقدار المذكور أولًا من الأجر والأجل . أفاده الرازى .

قال السدى : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى . يعنى الأجر الذى أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما . فقال : أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا . فإن شاء زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضى المدة . وهو قوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » قال السدى : إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل. وهى منه بريئة . وعليها أن تستبرئ ما فى رحمها . وليس بينهما ميراث . فلا يرث واحد منهما صاحبه .

---

(١) الأثر رقم ٩٠٤٥ (طبعة المعارف) .

قال ابن جرير الطبري : أولى التأويلين فى ذلك بالصواب ، التأويل الأول . لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله ﷺ . انتهى .

قال المهايمي : ثم أشار تعالى إلى نكاح ما يستباح للضرورة كنكاح المتعة . لكنها ضرورة مستمرة لا تنقطع بكثرة الإسلام فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ » أى لم يقدر « مِنْكُمْ » أيها الأحرار، بخلاف العبيد، أن يحصل « طَوْلًا » أى غنى يمكنه به «أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ »أى الحرائر المتعففات، بخلاف الزوانى. إذ لا عبرة بهن « الْمُؤْمِنَاتِ » إذ لا عبرة بالكوافر « فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى فله أن ينكح بعض ما يملكه أَيْمَانُ إخوانكم « مِنْ فَتَيَاتِكُمُ » أى إمائكم حال الرق « الْمُؤْمِنَاتِ » لا الكتابية . لأنه لا يحتمل مع عار الرق عار الكفر . وقد استفيد من سياق هذه الآية أن الله تعالى شرط فى نكاح الإماء شرائط ثلاثة : اثنان منها فى الناكح والثالث فى المنكوحة . أما اللذان فى الناكح فأحدهما أن يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق . وهو معنى قوله « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ

الْمُؤْمِنَاتَ » فعدم استطاعة الطول عبارة عن عدم ما ينكح به الحرة. فإن قيل : الرجل إذا كان يستطيع التزوج بالأمة ، يقدر على التزوج بالحرة الفقيرة ، فمن أين هذا التفاوت ؟ قلنا : كانت العادة فى الإماء تخفيف مهورهن ونفقتهن لاشتغالهن بخدمة السادات . وعلى هذا التقدير يظهر التفاوت . وأما الشرط الثانى فهو المذكور فى آخر الآية وهو قوله « ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ » أى الزنى بأن بلغ الشدة فى العزوبة. وأما الشرط الثالث المعتبر فى المنكوحة، فأن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة . فإن الأمة إذا كانت كافرة كانت ناقصة من وجهين : الرق والكفر . ولا شك أن الولد تابع للأم فى الحرية والرق . وحينئذٍ يعلق الولد رقيقاً على ملك الكافر . فيحصل فيه نقصان الرق ونقصان كونه ملكاً للكافر . وما ذكرناه هو المطابق لمعنى الآية . ولا يخلو ما عداه عن تكلف لا يساعده نظم الآية .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ كان نكاح الأمة منحطاً عن نكاح الحرة ؟ قلت: لما فيه من اتباع الولد الأم فى الرق ، ولثبوت حق المولى فيها وفى استخدامها . ولأنها ممتهنة مبتذلة خرّاجة ولّاجة . وذلك كله نقصان راجع إلى الناكح ، ومهانة . والعزة من صفات المؤمنين . وسيأتى مزيد لهذا عند قوله تعالى « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » وقوله تعالى « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ » إشارة إلى أنه لا يشترط الاطلاع على بواطنهن . بل يكتفى بظاهر إيمانهن . أى فاكتفوا بظاهر الإيمان . فإنه تعالى العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم فى الإيمان . فرب أمة تفضل الحرة فيه . وقوله تعالى « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » اعتراض آخر جىء به لتأنيسهم بنكاح الإماء حالتئذ . أى أنتم وأرقاؤكم متناسبون ، نسبكم من آدم ودينكم الإسلام « فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » أى مواليهن لا استقلالًا . وذلك لأن منافعهن لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشىء منها إلا بإذن من هى له « وَءَاتُوهُنَّ » أعطوهن « أُجُورَهُنَّ » أى مهورهن « بِالْمَعْرُوفِ » أى بلا مطل وضرار وإلجاء إلى الاقتضاء . واستدل الإمام مالك بهذا على أنهن أحق بمهورهن . وأنه لا حق فيه للسيد .

وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد . وإنما أضافها إليهن لأن التأدية إليهن ، تأديةٌ إلى سيدهن لكونهن ماله « مُحْصَنَاتٍ » حال من مفعول (فَانْكِحُوهُنَّ) أى حال كونهن عفائف عن الزنى « غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ » حال مؤكدة . أى غير زانيات بكل من دعاهن « وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ » أى أخلة يتخصصن بهم فى الزنى . قال أبو زيد : الأخدان الأصدقاء على الفاحشة. والواحد خدن وخدين . وقال الراغب : أكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة نفسانية. ومن لطائف وقوع قوله تعالى : مُحْصَنَاتٍ. الخ . إثر قوله : وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ـ الإشعار بأنهن لو كن إحدى هاتين ، فلكم المناقشة فى أداء مهورهن ليفتدين نفوسهن « فَإِذَا أُحْصِنَّ » أى بالتزويج. وقرىء على البناء للفاعل أى أحصن فروجهن أو أزواجهن « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ » أى فعلن فاحشة وهى الزنى « فَعَلَيْهِنَّ » أى فثابت عليهن شرعاً « نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ » أى الحرائر « مِنَ الْعَذَابِ » أى من الحد الذى هو جلد مائة. فنصفه خمسون جلدة . لا الرجم . قال المهايمىّ : لأنهن من أهل المهانة . فلا يفيد فيهن المبالغة فى الزجر .

تنبيه :

قال ابن كثير : مذهب الجمهور أن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة . سواء كانت مسلمة أو كافرة . مزوجة أو بكراً . مع أن مفهوم الآية يقتضى أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء. وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك . فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة فى إقامة الحد على الإماء . فقدمناها على مفهوم الآية . فمن ذلك ما رواه مسلم[1] فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحدّ مَنْ أحصن منهن ومن لم يُحْصن : فإن أَمَةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت . فأمرنى أن أجلدها . فإذا هى حديث عهد بنفاس . فخشيت ، إن أنا جلدتها ، أن أقتلها .

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فقال : أحسنت : اتركها حتى تَمَاثَلَ . وعند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه (فإذا تعافت من نفاسها فاجلدها خمسين). وعن أبي هريرة[١] قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذازنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها . ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعَر . ولمسلم[٢] : إذا زنت ثلاثاً . ثم ليبعها في الرابعة . وروى مالك[٣] عن عبد الله بن عياش المخزوميّ قال: أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة خمسين خمسين، في الزنى .

الجواب الثاني ـ جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلاحد عليها . وإنما تضرب تأديباً . وهو المحكيّ عن ابن عباس رضي الله عنه . وإليه ذهب طاوس وسعيد ابن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وداود بن عليّ الظاهريّ (في رواية عنه) وعمدتهم مفهوم الآية . وهو من مفاهيم الشرط . وهو حجة عند أكثرهم . فقدم على العموم عندهم. وحديث[٤] أبي هريرة وزيد بن خالد : أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمةإذا زنت ولم تحصَن؟ قال: إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها. ثم بيعوها ولو بضفير .

قال ابن شهاب : لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة، أخرجاه في الصحيحين .

وعند مسلم ، قال ابن شهاب : الضفير الحبل . قالوا فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٤ ـ كتاب البيوع، ١١٠ ـ باب بيع المدبَّر، حديث ١٠٨٨ ومسلم في : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣٠ (طبعتنا) .

(٢) مسلم في : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في : ٤١ ـ كتاب الحدود ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٥ ـ باب إذا زنت الأمة ، حديث ١٠٨٨ و١٠٨٩

وكما وقت فى القرآن بنصف ما على المحصنات . فوجب الجمع بين الآية والحـديث بذلك . والله أعلم .

وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس مرفوعاً : ليس على أمةٍ حدٌّ حتى تحصن . يعنى تزوج . فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات .

ورواه ابن خزيمة مرفوعاً أيضا . وقال: رفعه خطأ . إنما هو من قول ابن عباس .

وكذا رواه البيهقىّ ، وقال مثل قول ابن خزيمة .

قالوا : وحديث علىّ وعمر قضايا أعيـان . وحديث أبى هريرة عنه أجوبة : أحدها ـ إن ذلك محمول على الأمة المزوّجة ، جمعاً بينه وبين هذا الحديث . الثانى ـ أن لفظة الحد فى قوله: فليقم عليها الحد ، مقحمة من بعض الرواة . بدليل . الجواب الثالث ـ وهو أن هـذا من حـديث صحابيين وذلك من رواية أبى هريرة فقط . وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد . وأيضا فقد رواه النسائىّ بإسناد على شرط مسلم من حديث عبـاد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدراً : إن رسول الله ﷺ قال : إذا زنت الأمة فاجلدوها . ثم إذا زنت فاجلدوها ثم إذا زنت فاجـلدوها . ثم إذا زنت فبيعوها ولو بضفير . الرابع ـ أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ (الحد) فى الحديث على (الجلد) . لأنه لما كان الجـلد اعتقد أنه حد . أو أنه أطلق لفظ (الحد) على التأديب . كما أطلق (الحد) على ضرب من زنى من المرضى بعثـكال نخل فيه مائة شمراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيهـا ، مائة . وإنما ذلك تعزير وتأديب عندمن يراه . كأحمد وغيره من السلف . وإنما الحد الحقيقىّ هو جلد البـكر مائة ورجم الثيّب ، انتهى . وله تتمة سابغة .

وقال الإمام ابن القـيّم فى (زاد المعاد) : وحكم فى الأمة إذا زنت ولم تحصن بالحد . وأما قوله تعـالى فى الإماء : فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، فهو نص فى أن حدها بعد التزويج نصف حد الحرة من الجلد . وأما قبل التزويج فأمر بجلدها . وفى هذا الحد قولان :

أحدها ـ أنه الحد . ولـكن يختلف الحال قبل التزويج وبعده . فإن للسيد إقامته قبله. وأما بعده فلا يقيمه إلا الإمام .

والقول الثانى ـ إنَّ جلدها قبل الإحصان تعزيرٌ لا حدٌّ . ولا يبطل هذا مارواه مسلم[1] فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، يرفعه: إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يعيرها، ثلاث مرات. فإن عادت فى الرابعة فليجلدها وليبعها ولو بضفير (وفى لفظ فليضربها بكتاب الله) وفى صحيحه أيضا[2] من حديث علىّ كرم الله وجهه إنه قال : أيها الناس! أقيموا على أرقائكم الحد . من أحصن منهن ومن لم يحصن . فإن أمة رسول الله ﷺ زنت فأمرنى أن أجلدها . الحديث .

فإن التعزير يدخل فيه لفظ (الحد) فى لسان الشارع . كما فى قوله ﷺ : لا يضرب فوق عشرة أسواط إلا فى حدٍّ من حدود الله تعالى . وقد ثبت التعزير بالزيادة على العشرة جنسا وقدراً، فى مواضع عديدة لم يثبت نسخها ولم تجتمع الأمة على خلافها . وعلى كل حال، فلابد أن يخالف حالها بعد الإحصان حالها قبله . وإلا لم يكن للتقييد فائدة . فإما أن يقال قبل الإحصان : لا حد عليها ، والسنة الصحيحة تبطل ذلك . وإما أن يقال : حدها قبل الإحصان حد الحرة، وبعده نصفه ، وهذا باطل قطعاً ، مخالف لقواعد الشرع وأصوله . وإما أن يقال : حدها قبل الإحصان تعزير، وبعده حدٌّ ، وهذا أقوى . وإما أن يقال : الافتراق بين الحالين

---

(١) الذى فى صحيح مسلم هو ماروبناه عنه بالحاشية رقم ١و٢ص١١٩٧ . وجاء فيه أيضاً ما يأتى :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟ قال « إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم إن زنت فاجلدوها . ثم بيعوها ولو بضفير » .

أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٣٢ (طبعتنا) فمن أين هـذا النص الوارد فى الـكتاب ؟

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص١١٩٦.

فى إقامة الحد لا فى قدره وإنه فى إحدى الحالتين للسيّد وفى الأخرى للإمام . وهذا أقرب ما يقال .

وقد يقال: إن تنصيصه على التنصيف بعد الإحصان لئلا يتوهم متوهم أن بالإحصان يزول التنصيف ويصير حدها حد الحرة . كما أن الجلد عن البكر زال بالإحصان وانتقل إلى الرجم، فبقى على التنصيف فى أكمل حالتيها وهى الإحصان ، تنبيها على أنه إذا اكتفى به فيهـا ففى ما قبـل الإحصان أولى وأحرى . والله أعلم « ذَٰلِكَ » أى إباحة نكاح الإماء « لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ » أى المشقة فى التحفظ من الزنى « مِنْكُمْ » أيها الأحرار « وَأَنْ تَصْبِرُوا » على تحمـل تلك المشقة متعففين عن نكاحهن « خَيْرٌ لَكُمْ » من نكاحهن ، وإن سبقت كلمة الرخصة، لما فيه من تعريض الولد للرق . قال عمر رضى الله عنه : أيما حرّ تزوج بأمة فقد أرَقَّ نصفه . ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ، ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر ، وعلى بيعها للحاضر والبادى . وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده ما لا مزيد عليه . ولأنها ممتهنة مبتذلة خرّاجة ولّاجة . وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح . والعزة هى اللائقة بالمؤمنين . ولأن مهرها لمولاها . فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج . فلا ينتظم أمر المنزل. كذا حرره أبو السعود . وقد قيل :

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

قال فى (الإكليل): فى الآية كراهة نكاح الأمة عند اجتماع الشروط . بقوله تعالى : وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ. وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يُرِيدُ اللهُ » أى فى تحريم ما حرم من النساء وتحليـل ما أحل بالشرائط « لِيُبَيِّنَ

لـكُمْ » أى شرائعه « وَيَهْدِيَـكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكُمْ » أى يرشدكم إلى طرائق مَن تقدم من أهل الـكتاب فى تحريم ماحرمه، لتتأسوا بهم فى اتباع شرائعه التى يحبها ويرضاها . وفى الآية دليل على أن كل ما بيَّن تحريمه لنا من النساء، فى الآيات المتقدمة ، فقد كان الحكم كذلك فى الملة السابقة .

وقد قرأت فى سفر الأحبار اللاويين، من التوراة ، فى (الفصل الثامن عشر) مايؤيد ذلك. عدا ما رفعه تعالى عنا من ذلك مما فيه حرج « وَيَتُوبَ عَلَيْـكُمْ » أى يتجاوز عنكم ما كان منكم فى الجاهلية، أو يرجع بكم عن معصيته التى كنتم عليها إلى طاعته « وَاللهُ عَلِيمٌ » أى فيما شرع لـكم من الأحكام « حَـكِيمٌ » مراع فى جميع قضائه الحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْـكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

« وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْـكُمْ » أى من المآثم والمحارم. أى يخرجكم من كل مايكره إلى ما يحب ويرضى . وفيه بيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى، وكمال مضرة ما يريده الفجرة. كما قال سبحانه « وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ » أى ما حرمه الشرع ، وهم الزناة « أَنْ تَمِيلُوا » عن الحق بالمعصية « مَيْلًا عَظِيماً » يعنى بإتيانـكم ما حرم الله عليكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْـكُمْ ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

« يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْـكُمْ » أى فى شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لـكم . ولهذا أباح نـكاح الإماء بشروطه . ونظير هـذا قوله تعالى : يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ[1] . وقوله : مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ[2] . « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا » أى عاجزاً عن دفع دواعى شهواته . فناسبه التخفيف لضعف عزمه وهمته وضعفه فى نفسه . فالجملة اعتراض تذييلىّ مسوق لتقرير ماقبله من التخفيف فى أحكام الشرع .

وفى (الإكليل) : قال طاووس : ضعيفاً أى فى أمر النساء لايصبر عنهن . وقال وكيع : يذهب عقله عندهن . أخرجهما ابن أبى حاتم . ففيه أصل لما يذكره الأطباء من منافع الجماع ومن مضارّ تركه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ » أى لايأكل بعضكم أموال بعض « بِالْبَاطِلِ » أى بما لم تبحه الشريعة كالربا والقمار والرشوة والغصب والسرقة والخيانة،

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] ونصها : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٧٨] ونصها : وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

وما جرى مجرى ذلك من صنوف الحيل « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً » أى معارضة محضة كالبيع « عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » فى المحاباة من جانب الآخذ والمأخوذ منه. وقرىء (تجارةٌ) بالرفع على أن (كان) تامة، وبالنصب على أنها الناقصة. والتقدير: إلا أن تكون المعاملة أو التجارة أو الأموال ، تجارة .

قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية تحريم أكل المال الباطل بغير وجه شرعىّ . وإباحة التجارة والربح فيها . وأن شرطها التراضى . ومن ههنا أخذ الشافعىّ رحمه الله اعتبار الإيجاب والقبول لفظاً. لأن التراضى أمر قلبىّ فلا بد من دليل عليه . وقد يستدل بها من لم يشترطهما إذا حصل الرضا . انتهى .

أى لأن الأقوال، كما تدل على التراضى، فكذلك الأفعال تدل فى بعض المحال قطعاً . فصح بيع المعاطاة مطلقاً .

وفى (الروضة الندية) : حقيقة التراضى لا يعلمها إلا الله تعالى . والمراد ههنا أمارته. كالإيجاب والقبول، وكالتعاطى عند القائل به ، وعلى هذا أهل العلم. لكونه لم يرد ما يدل على ما اعتبره بعضهم من ألفاظ مخصوصة ، وأنه لا يجوز البيع بغيرها . ولا يفيدهم ما ورد فى الروايات من نحو : (بعت منك وبعتك) فإنا لا ننكر أن البيع يصح بذلك . وإنما النزاع فى كونه لا يصح إلا بها . ولم يرد فى ذلك شيء . وقد قال الله تعالى : تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ . فدل ذلك على أن مجرد التراضى هو المناط . ولا بد من الدلالة عليه بلفظ أو إشارة أو كتابة ، بأى لفظ وقع، وعلى أى صفة كان وبأى إشارة مفيدة ، حصل . انتهى . وقوله تعالى « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » فيه وجهان : الأول ـ أن المعنى لا تقتلوا من كان من جنسكم من المؤمنين . فإن كلهم كنفس واحدة . والتعبير عنهم بالأنفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم، بتصويره بصورة ما لا يكاد يفعله عاقل . والثانى ـ النهى عن قتل الإنسان نفسه . وقد احتج بهذه الآية عمرو بن العاص على مسألة التيمم للبرد. وأقره النبىّ صلى الله عليه وسلم

على احتجاجه. كما رواه الإمام أحمد وأبو داود . ولفظ أحمد[١] عن عمرو بن العاص أنه قال : لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال: احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد . فأشفقت ، إن اغتسلت ، أن أهلك. فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح . قال فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له . فقال : يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ قال قلت: نعم يارسول الله! إنى احتلمت فى ليلة باردة ، شديدة البرد . فأشفقت، إن اغتسلت، أن أهلك. وذكرت قول الله عز وجل : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . فتيممت ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً .

وهكذا أورده أبو داود[٢] . قال ابن كثير وهذا، أى المعنى الثانى ، والله أعلم، أشبه بالصواب . وقد توافرت الأخبار فى النهى عن قتل الإنسان نفسه والوعيد عليه .

روى الشيخان[٣] وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن تحسّى سمًّا فقتل نفسه فسمّه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبداً .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٤ ـ باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم؟ حديث ٣٣٤ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٥٦ ـ باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه ، حديث ٧٢١ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٧٥ (طبعتنا) .

ورد فى البخارىّ : يجأ ، وفى مسلم : يتوجأ (ومعناه يطعن) .

وأخرج الشيخان(١) عنه رضى الله عنه قال : شهدنا خيبر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لرجل ممن معه يدّعى الإسلام : هذا من أهل النار .

فلما حضر القتال قاتل الرجل أشدّ القتال حتى كثرت به الجراحة . فكاد بعض الناس يرتاب. فوجد الرجل ألم الجراحة. فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهما فنحر بها نفسه.

فاشتد رجال من المسلمين فقالوا : يا رسول الله ! صدّق الله حديثك . انتحر فلان فقتل نفسه . فقال : قم ، يا فلان ، فأذّن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن . إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر . وهذا لفظ البخارىّ .

وروى أبو داود(٢) عن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : أُخبر النبىّ ﷺ برجل قتل نفسه فقال : لا أصلى عليه .

وفى الصحيحين(٣) من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح. فجزع فأخذ سكينا فحزّ بها يده . فما رقأ الدم حتى مات. قال الله عز وجل : بادرنى عبدى بنفسه ، حرمت عليه الجنة . ولهذا قال تعالى :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر ، حديث ١٤٥١ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ١٧٨ (طبعتنا) وفيه : شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينا . وقال القاضى عياض : صوابه خيبر .

(٢) الحديث لم أجده فى سنن أبى داود . ووجدته فى صحيح مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث ١٠٧ (طبعتنا) ونصه : عن جابر بن سمرة قال : أُتى النبىّ ﷺ برجل قتل نفسه بمشاقص (والمشاقص سهام عراض ، واحدها مِشْقَص) فلم يصلّ عليه .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث ٧٢٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٨٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نارًا ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا)

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ » أى القتل « عُدْوَانًا وَظُلْمًا » أى متعدياً فيه ، ظالماً فى تعاطيه، أى عالما بتحريمه متجاسراً على انتهاكه « فَسَوْفَ نُصْلِيهِ » أى ندخله « نَارًا » أى هائلة شديدة العذاب « وَكَانَ ذَٰلِكَ » أى إصلاؤه النار « عَلَى اللهِ يَسِيرًا » هيناً عليه، لا عسر فيه ولا صارف عنه . لأنه تعالى لا يعجزه شيء .

قال النسفىّ : وهذا الوعيد فى حق المستحل للتخليد . وفى حق غيره، لبيان استحقاقه دخول النار مع وعد الله بمغفرته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)

« إِنْ تَجْتَنِبُوا » أى تتركوا « كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ » أى كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عنها ، مما ذكر ههنا ومما لم يذكر « نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » أى صغائر ذنوبكم ، ونمحها عنكم ، وندخلكم الجنة . كما قال تعالى « وَنُدْخِلْكُمْ » فى الآخرة « مُدْخَلًا كَرِيمًا » أى حسناً وهى الجنة . و (مدخلًا) قرىء بضم الميم ، اسم مكان أومصدر ميمىّ . أى إدخالًا مع كرامة . وبفتح الميم، وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر . وفى الآية دليل على أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر. وردٌّ على من قال : إن المعاصى كلها كبائر ، وإنه لا صغيرة .

قال الإمام ابن القيّم فى (الجواب الكافى): قد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة ،

والتابعين بعدهم ، والأئمة ، على أن من الذنوب كبائر وصغائر . قال الله تعالى : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . وقال تعالى : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ[١]. وفى الصحيح[٢] عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر.

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات: إحداها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها . بمنزلة الدواء الضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية و كيفية . الثانية ـ أن تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شىء من الكبائر . الثالثة ـ أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر . فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة .

وفى الصحيح[٣] عنه ﷺ أنه قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا: بلى يارسول الله! قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين. وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور (ثلاثا) .

وروى فى الصحيح[٤] عنه ﷺ : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن؟ يارسول الله!

(١) [٥٣ / النجم / ٣٢] ونصها : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه ، فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١٠ ـ باب ما قيل فى شهادة الزور ، حديث ١٢٩١ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٢٣ ـ باب قول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ، حديث ١٣٢٥

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) .

قال : الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وفى الصحيح(١) عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الذنب عند الله أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك . قال: ونزلت هذه الآية تصديقا لقول رسول الله ﷺ : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ(٢) الآية .

ثم ساق الخلاف فى تعدادها .اهـ

وعندى أن الصواب هو الوقوف فى تعدادها على ما صحت به الأحاديث . فإن رسول الله ﷺ مبيّن لكتاب الله عز وجل ، أمين على تأويله . والمرجع فى بيان كتاب الله تعالى إلى السنة الصحيحة . كما أن المرجع فى تعريف الكبيرة إلى العدّ دون ضبطها بحد . كما تكلفه جماعة من الفقهاء ، وطالت المناقشة بينهم فى تلك الحدود . وإن منها ماليس جامعاً . ومنها ماليس مانعاً . فكله مما لا حاجة إليه بعد ورود صحاح الأخبار فى بيان ذلك .

وقد ساق الحافظ ابن كثير ههنا جملة وافرة منها وجوّد النقل عن الصحابة والسلف والتابعين . فانظره فإنه نفيس .

ثم نهى تعالى عن التحاسد وعن تمنى مافضل الله به بعض الناس على بعض من المال ونحوه، مما يجرى فيه التنافس بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٢ ـ باب وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، حديث ١٩٦٢

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤١و١٤٢ (طبعتنا) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] . . . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا» أى أصابوا وأحرزوا «وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ » أى أصبن وأحرزن. أى لكل فريق نصيب مما اكتسب فى نعيم الدنيا قبضاً أوبسطاً، فينبغى أن يرضى بما قسم الله له .

وقد روى الإمام أحمد عن مجاهد أن أم سلمة قالت: يارسول الله يغزو الرجال ولايغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى: وَلَا تَتَمَنَّوْا الآية. ورواه الترمذىّ[١] وقال : غريب. ورواه الحاكم فى مستدركه وزاد : ثم أنزل الله[٢] : أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ. الآية فإن صح هذا فالمعنى: لكل أحد قدر من الثواب يستحقه بكرم الله ولطفه. فلا تتمنوا خلاف ذلك . ولا مانع من شمول الآية لما يتعلق بأحوال الدنيا والآخرة . فإن اللفظ محتمل. ولا منافاة. والله أعلم « وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » أى من خزائن نعمه التى لانفاد لها . وقد روى الترمذىّ[٣] وابن مردويه عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ حدثنا ابن أبى عمر .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٩٥] ونصها : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ١١٥ ـ باب فى انتظار الفرج وغير ذلك.

سلوا الله من فضله. فإن الله عزوجل يحب يُسأل . وأفضل العبادة انتظار الفرج. «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » ولذلك جعل الناس على طبقات رفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية. قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

« وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ » أى : ولكل شىء مما ترك الوالدان والأقربون من المال جعلنا ورثة وعَصَبة يلونه ويحرزونه . وهم يرثونه . دون سائر الناس. كما ثبت فى الصحيحين[1] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ألحقوا الفرائض بأهلها . فما بقى فهو لِأَوْلَى رجل ذكر . أى اقسموا الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله فى آيتى الفرائض . فما بقى بعد ذلك فأعطوه للعصبة . ف (مما) تبيين ا (كل) .

قال ابن جرير : والعرب تسمى ابن العم مولى . كما قال الفضل بن العباس[2] :

مهلًا بنى عمنا مهلًا موالينا　　　لا يظهرن بيننا ما كان مدفونا

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨٥ ـ كتاب الفرائض، ٥ ـ باب ميراث الولد من أبيه وأمه. وأخرجه مسلم فى : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث ٢ (طبعتنا) .

(٢) البيت مطلع حماسية أبى تمام الخامسة والخمسين ونصه :

مهلًا بنى عمنا مهلًا موالينا　　　لا تنبُشُوا بيننا ما كان مدفونا

قال المرزوقىّ : المَهْـل والمَهَـل والمُهْـلة تتقارب فى أداء معنى الرفق والسكون . ويقال : لا مَهَل لك ، ومالك من مَهْل .

يقول : رفقاً يا بنى عمنا ، رفقاً موالينا . وهذا التكرار يريد به التأكيد . ويجوز =

وفى (القاموس) و (شرحه تاج العروس) : والمولى : القريب كابن العم ونحوه . قال ابن الأعرابى : ابن العم مولى . وابن الأخت مولى . وقول الشاعر[١] :

هم المولى وإن جنفوا علينا وإنا من لقائهم لزُورُ

قال أبو عبيدة : يعنى الموالى ، أى بنى العم . وقال اللَّهَبِىّ يخاطب بنى أمية :

مهلًا بنى عمنا ، مهلًا موالينا امشوا رويداً كما كنتم تكونونا

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » مبتدأ ضمن معنى الشرط فوقع خبره مع الفاء وهو قوله « فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ » ويقرأ (عاقدت) بالألف . والمفعول محذوف أى عاقدتهم . ويقرأ بغير ألف والمفعول محذوف أيضاً هو والعائد . تقديره عقدت حلفهم أيمانكم . والعقد الشدّ والربط والتوكيد والتغليظ . ومنه : عقد العهد يعقده : شده . والأيمان جمع يمين إما بمعنى اليد اليمنى لوضعهم الأيدى فى العهود ، أو بمعنى القسم وهو الأظهر، لأن العقد خلاف النقض . وقد جاء مقروناً بالحلف فى قوله تعالى : وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا[٢] .

= أن يكون هذا الكلام تهكماً . ويجوز أن يكون رآهم ابتدؤا فى أمر لم يأمن معه، من تفاقم الشأن واستفحال الخطب ، ما لا يقدر معه على تلافيه ، فاسترفقهم لذلك .

وقوله « لا تنبشوا » أى لا تثيروا ما كان مستوراً من السرّ . وذكر الدفن والنبش استعارة فى الإظهار والكتمان .

(١) قال فى اللسان (١٥ / ٤٠٨ بيروت) قائله عامر الخصفىّ من بنى خَصفة . قال أبو عبيدة : يعنى الموالى أى بنى العم ، وهو كقوله تعالى : [٤٠/٦٧] ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا .

قال الطبرىّ (٣/٤٠٥) : جنف الرجل على صاحبه يجنف ، إذا مال عليه وجار ، جَنفا .

وقال محققه محمود محمد شاكر : وزور جمع أزور ، وهو المائل عن الشيء . يقول: هم أبناء عمنا ونحن نكره أن نلاقيهم فنقاتلهم ، لما لهم من حق الرحم .

(٢) [١٦ / النحل / ٩١] ونصها : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

وفى قوله : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ(١). وفى هذه الآية محامل كثيرة ووجوه للسلف والخلف . أظهرها لسلف المفسرين رضوان الله عليهم. وهو أن المعنىّ بالموصول، الحلفاء . وهو المروىّ عن ابن عباس فى البخارىّ كما سيأتى : قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والحسن وابن المسيب وأبى صالح وسليمان بن يسار والشعبىّ وعكرمة والسدّى والضحّاك وقتادة ومقاتل بن حيان ، أنهم قالوا : هم الحلفاء . انتهى .

ويزاد أيضا: علىّ ابن أبى طلحة .

وكان الحلفاء يرثون السدس من محالفيهم. وروى الطبرىّ(٢) من طريق قتادة : كان الرجل يعاقد الرجل فى الجاهلية فيقول: دمى دمك. وترثنى وأرثك. وتطلب بى وأطلب بك. فلما جاء الإسلام بقى منهم ناس. فأمروا بأن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس . ثم نسخ ذلك بالميراث، فقال (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) .

ولذا قال سعيد بن جبير : فآتوهم نصيبهم من الميراث . قال : وعاقد أبو بكر مولى فورثه .

قال الزمخشرىّ : والمراد . بـ(الذين عاقدت أيمانكم) موالى الموالاة . كان الرجل يعاقد الرجل فيقول : دمى دمك . وهدمى هدمك . وثأرى ثأرك . وحربى حربك . وسلمى سلمك . وترثنى وأرثك . وتطلب بى وأطلب بك . وتعقل عنى وأعقل عنك . فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف . انتهى .

(١) [٥ / المائدة / ٨٩] . . . فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) الأثر رقم ٩٢٧٠

وعلى هذا ، فمعنى الآية : والذين عاقدتموهم على المؤاخاة والموالاة، وتحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم على النصر والإرث، قبل نزول هذه الآية ، فآتوهم نصيبهم من الميراث وفاء بالعقود والعهود. إذ وعدتموهم ذلك فى الأيمان المغلظة .

وروى ابن أبى حاتم: كان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول . وترثنى وأرثك . وكان الأحياء يتحالفون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل حلف فى الجاهلية ، أوعقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده الإسلام إلا شدة . ولا عقد ولا حلف فى الإسلام .

وروى الإمام أحمد ومسلم[١] والنسائى عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاحلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . وروى الإمام أحمد[٢] عن قيس بن عاصم أنه سأل النبى ﷺ عن الحلف ؟ قال فقال: ماكان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا به . ولا حلف فى الإسلام . ورواه أيضا[٣] عن عمرو

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) وحديث ١٦٥٥ (طبعة المعارف) ونصه :

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبى ﷺ قال : شهدت حِلْف المطيَّبين مع عمومتى وأنا غلام . فما أحب أن لى حمر النعم وأنى أنكثه .

قال الزهرى : قال رسول الله ﷺ « لم يصب الإسلام حِلْفًا إلا زاده شدة ، ولا حِلف فى الإسلام » وقد ألَّف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٢٠٦ (طبعتنا) ونصه :

عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف فى الإسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية ، لم يزده الإسلام إلا شدة » .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٦١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

(٣) حديث رقم ٦٩١٧ (طبعة المعارف) ونصه :

« كل حلف فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام » .

ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح ، قام خطيباً في الناس ، فقال : يا أيها الناس ! ما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . ولا حلف في الإسلام .

قال ابن الأثير : الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ : لا حلف في الإسلام . وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيّبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه ﷺ : وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق . وبذلك يجتمع الحديثان . وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام . والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام . انتهى .

قال الحافظ ابن كثير : كان هذا ، أي التوارث بالحلف ، في ابتداء الإسلام . ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا ولا ينشئوا بعد هذه الآية معاقدة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ » فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : وترثني وأرثك . كان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ : كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده إلا شدة . ولا عقد ولا حلف في الإسلام . فنسختها هذه الآية : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ [1] .

وروى أبو داود [2] عن ابن عباس في هذه الآية : كان الرجل يحالف الرجل وليس بينهما

---

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] ونصها : وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه في : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ١٦ ـ باب نسخ ميراث العقد بميراث الرحم ، حديث ٢٩٢١ .

نسب . فيرث أحدهما الآخر . فنسخ ذلك فى الأنفال فقال : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ، الآية.

وروى ابن جرير[١] عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر . فأنزل الله تعالى : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا . يقول : إلا أن توصوا لأوليائهم الذين عاقدوا، وصية. فهو لهم جائز من ثلث مال الميت. وذلك هو المعروف .

وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ، الآية .

أقول : على ما ذكر، تكون الآية محكمة فى صدر الإسلام، منسوخة بعده : وثمت وجه آخر فيها . وهو أنها ناسخة لميراث الحليف بتأويل آخر. وهو مارواه البخارى[٢] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ) ورثة (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) . كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرىّ الأنصارىّ دون ذوى رحمه ، للأُخوّة التى آخى النبىّ ﷺ بينهم . فلما نزلت « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ » نُسخت: ثم قال : وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . من النصر والرفادة والنصيحة . وقد ذهب الميراث ويُوصَى له .

وقد فهم بعضهم من هذا الأثر أن هذه الآية نسخت الحلف فى المستقبل ، وحكم الحلف الماضى أيضاً . وأنه لا توارث به . والصحيح ما أسلفناه من ثبوت التوارث بالحلف السابق على نزول الآية فى ابتداء الإسلام ، كما حكاه غير واحد من السلف. وكما قال ابن عباس : كان المهاجرىّ يرث الأنصارىّ دون ذوى رحمه حتى نسخ ذلك .

وقد حاول الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى)[٣] الجمع بين الروايات المتقدمة ورواية

---

(١) الأثر رقم ٩٢٦٨

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ٧ ـ باب وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ... الآية .

(٣) انظر الجزء الثامن ، ص ١٨٦ و ١٨٧ (طبعة بولاق) .

البخاري باحتمال أن يكون النسخ وقع مرتين : الأولى ـ حيث كان المعاقد يرث وحده دون العصبة ، فنزلت : وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا . فصاروا جميعاً يرثون . ثم نسخ ذلك آية الأحزاب وخص الميراث بالعصبة وبقي للمعاقد النصر والإرفاد ونحوهما . والله أعلم .

هذا وثمة روايات أخر في سبب نزولها . منها ما روى أبو داود[1] وابن أبي حاتم عن داود ابن الحصين . قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع . وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقرأت: وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . فقالت : لا تقرأ هكذا ولكن : وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . إنما أنزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن رضي الله عنهما حين أبى الإسلام . فحلف أبو بكر لا يورثه . فلما أسلم أمره الله تعالى أن يورثه نصيبه .

ومنها ما روى ابن جرير[2] عن الزهري عن ابن المسيب قال : نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم يورثونهم . فأنزل الله فيهم . فجعل لهم نصيباً في الوصية ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبة . وأبى الله أن يكون للمدَّعَيْن ميراثاً ممن ادعاهم وتبناهم . ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية .

واعلم أن هذه الوجوه السلفية المروية في نزول الآية ، كلها مما تصدق عليها الآية وتشملها وينطبق حكمها عليها : ولا تنافي بينها . لما أسلفناه في مقدمة التفسير . فراجعها ولا تغفل عنها.

هذا ولأبي علي الجبائي تأويل آخر في الآية . قال: تقدير الآية : ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون والذين عاقدت أيمانكم موالي ، ورثة ، فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ . أي فآتوا الموالي والورثة نصيبهم . فقوله : وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ . معطوف على قوله : وَالْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ . والمعنى : إن ما ترك الذين عاقدت أيمانكم فله وارث هو أولى به. وسمى الله تعالى الوارث مولى . والمعنى : لا تدفعوا المال إلى الحليف بل إلى المولى والوارث .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ١٦ ـ باب نسخ ميراث العقد بميراث الرحم ، حديث ٢٩٢٣ .

(٢) الأثر رقم ٩٢٨٨ .

وقال أبو مسلم الأصفهانيّ : المراد بـ(الَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) الزوج والزوجة. والنكاح يسمى عقدا . قال تعالى : وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ [1] . فذكر تعالى الوالدين والأقربين وذكر معهم الزوج والزوجة. ونظيره آية المواريث ، في أنه لما بيّن ميراث الولد والوالدين، ذكر معهم ميراث الزوج والزوجة .

أقول : هذا التأويل المذكور وما قبله طريقة من لا يقف مع الآثار السلفية في التفسير. ويرى مزاحمتهم في الاجتهاد في ذلك . ذهاباً إلى أن مالم يتواتر في معنى الآية ، من خبر أوإجماع، فلاحجة في المرويّ منه آحاداً ، مرفوعاً أوموقوفاً، وإن صح . وهذه الطريقة سبيل طائفة قصّرت في علم السمع وأقلت البحث عنه . فنشأ من ذلك النقص من الدين والزيادة فيه بالرأي المحض .

ومذهبنا أن لا غنى عن الرجوع إلى تفسير الصحابة رضي الله عنهم . لما ثبت من الثناء عليهم في الكتاب والسنة . ولأن القرآن أنزل على لغتهم . فالغلط أبعد عنهم من غيرهم . لاسيما تفسير حبر الأمة وبحرها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . فمتى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير ، مقدماً على كثير من الأئمة الجماهير . لوجوه متعددة : منها أنه رضي الله عنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأي . روى عنه أنه قال : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار وفي رواية (بغير علم) رواه أبو داود في العلم، والنسائيّ والترمذيّ [2] . فإذا جزم رضي الله عنه بأمر كان دليلًا على رفعه. كما أسلفنا في المقدمة . « إنّ

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٣٥] ونصها : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

(2) رواه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ١ ـ باب ماجاء في الذي يفسر القرآن برأيه. عنه عن النبيّ ﷺ

اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ » من الأشياء التى من جملتها الإيتاء والمنع « شَهِيدًا » أى عالماً. ففيه وعد ووعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا)

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » جمع قوام، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب . أى مسلطون على أدب النساء يقومون عليهن، آمرين ناهين ، قيام الولاة على الرعية . وذلك لأمرين : وهبيّ وكسبيّ. أشار للأول بقوله تعالى « بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » والضمير للرجال والنساء جميعاً. يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم ، وهم الرجال ، على بعض، وهم النساء . وقد ذكروا، فى فضل الرجال، العقل والحزم والعزم والقوة والفروسية والرمى . وإن منهم الأنبياء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والشهادة فى مجامع القضايا والولاية فى النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج وزيادة السهم والتعصيب . وهم أصحاب اللحى والعمائم . والكامل بنفسه له حق الولاية على الناقص . وأشار للثانى بقوله سبحانه « وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » فى مهورهن ونفقاتهن فصرن كالأرقاء . ولكون القوامين فى معنى السادات وجبت عليهن طاعتهم . كما يجب على العبيد طاعة السادات ، وروى ابن مردويه عن عليّ رضى الله عنه قال . أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجل من الأنصار بامرأة . فقالت : يا رسول الله ! إن زوجها فلان بن فلان الأنصاريّ. وإنه ضربها فأثر فى وجهها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس له ذلك.

فأنزل الله تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ. في الأدب . فقال رسول الله ﷺ أردت أمراً وأراد الله غيره . ورواه ابن جرير[1] وابن أبي حاتم مرسلًا من طرق .

قال السيوطيّ : وشواهده يقوى بعضها بعضاً . وقال عليّ بن أبي طلحة في هـذه الآية عن ابن عباس : يعني أمراء عليهن . أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعة . وطاعته أن تـكون محسنة لأهله حافظة لمـاله .

وروى الترمذيّ[2] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لو كنت آمراً أحـداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. « فَالصَّالِحَاتُ » أي من النساء « قَانِتَاتٌ » أي مطيعات لله في أزواجهن « حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ » قال الزمخشريّ : الغيب خلاف الشهادة. أي حافظات لمواجب الغيب. إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن ، حفظن مايجب عليهن حفظه في حال الغيبة ، من الفروج والأموال والبيوت « بِمَا حَفِظَ اللهُ » أي بحفظ الله إياهن وعصمتهن بالتوفيق لحفظ الغيب . فالمحفوظ من حفظه الله . أي لا يتيسر لهن حفظ إلا بتوفيق الله . أو المعنى : بما حفظ الله لهن من إيجاب حقوقهن على الرجال . أي عليهن إن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن . حيث أمرهم بالعـدل عليهن وإمساكهن بالمعروف وإعطائهن أجورهن . فقوله : بما حفظ الله ، يجرى مجرى ما يقال: هذا بذاك . أي في مقابلته . وجعل المهايميّ البـاء للاستعانة حيث قال : مستعينات بحفظه مخافة أن يغلب عليهن نفوسهن وإن بلغن من الصلاح ما بلغن . انتهى .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعا : خير النساء امرأة إذا نظرتَ إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت حفظتك في نفسها ومالك . قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ، إلى آخرها .

(١) الأثر رقم ٩٣٠٤

(٢) أخرجه الترمذيّ في: ١٠ـ كتاب النكاح، ١٠ـ باب ماجاء في حق الزوج على المرأة.

وروى الإمام أحمد[1] عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) فى قوله تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ): إن الزوج يقوم بتربية زوجته وتأديبها ومنعها من الخروج وإن عليها طاعته إلا فى معصية . وإن ذلك لأجل ما يجب لها عليه من النفقة . ففهم العلماء من هذا أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قواماً عليها ، وسقط ما له من منعها من الخروج . واستدل بذلك من أجاز لها الفسخ حينئذ. ولأنه إذا خرج عن كونه قواماً عليها فقد خرج عن الغرض المقصود بالنكاح . واستدل بالآية من جعل للزوج الحجر على زوجته فى نفسها ومالها . فلا تتصرف فيه إلا بإذنه . لأنه جعله (قواماً) بصيغة المبالغة . وهو الناظر فى الشىء الحافظ له . واستدل بها على أن المرأة لا تجوز أن تلى القضاء كالإمامة العظمى . لأنه جعل الرجال قوامين عليهن ، فلم يجز أن يقمن على الرجال. انتهى. « وَاللَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ » أى عصيانهن وسوء عشرتهن وترفعهن عن مطاوعتكم ، من (النشز) وهو ما ارتفع من الأرض يقال : نشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها : استعصت عليه ، وارتفعت عليه وأبغضته ، وخرجت عن طاعته « فَعِظُوهُنَّ » أى خوفوهن بالقول . كاتقى الله، واعلمى أن طاعتك لى فرض عليك ، واحذرى عقاب الله فى عصيانى . وذلك لأن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته . وحرم عليها معصيته، لماله عليها من الفضل والإفضال . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. رواه الترمذىّ[2] عن أبى هريرة والإمام أحمد

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ١٦٦١ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١٠ ـ كتاب النكاح، ١٠ـ باب ماجاء فى حق الزوج على المرأة.

عن معاذ ، والحاكم عن بريدة . وروى البخارى[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح. ورواه مسلم، ولفظه : إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح « وَاهْجُرُوهُنَّ » بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة « فِى الْمَضَاجِعِ » أى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف . ولا تباشروهن . فيكون كناية عن الجماع . قال حماد ابن سلمة البصرى : يعنى النكاح . وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : الهجر هو أن لا يجامعها ، ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد . وزاد آخرون منهم السدّى والضحاك وعكرمة وابن عباس (فى رواية) : ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها . وقيل: المضاجع المبايت . أى لا تبايتوهن . وفى السنن والمسند[2] عن معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال : يارسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال . أن تطعمها إذا طعمتَ وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه . ولا تقبح . ولا تهجر إلا فى البيت « وَاضْرِبُوهُنَّ » إن لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران، ضرباً غير مبرح ، أى شديد ولا شاق . كما ثبت فى صحيح مسلم[3] عن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حجة الوداع: واتقوا الله فى النساء .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ، حديث ١٥٢٩

ومسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ١٢٠ ـ ١٢٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤١ ـ باب حق المرأة على زوجها ، حديث ٢١٤٢

والمسند فى الصفحة الخامسة من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج، ١٩ ـ باب حجة النبىّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

فإنهن عوانٍ عندكم . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرّح .

قال الفقهاء : هو أن لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ولا يؤثر شينا ويجتنب الوجه لأنه مجمع المحاسن . ويكون مفرّقاً على بدنها . ولا يوالى به فى موضع واحد لئلا يعظم ضرره . ومنهم من قال : ينبغى أن يكون الضرب بمنديل ملفوف . أو بيده ! لا بسوط ولاعصا . قال عطاء : ضرب بالسواك .

قال الرازىّ : وبالجملة ، فالتخفيف مراعى فى هـذا الباب على أبلغ الوجوه . والذى يدل عليه أنه تعالى ابتدأ بالوعظ . ثم ترقى منه إلى الهجران فى المضاجع . ثم ترقى منه إلى الضرب. وذلك تنبيه يجرى مجرى التصريح فى أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف ، وجب الاكتفاء به ، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق. وهذه طريقة من قال : حكم هذه الآية مشروع على الترتيب . فإن ظاهر اللفظ ، وإن دل على الجمع ، إلا أن فحوى الآية يدل على الترتيب .

قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : يهجرها فى المضجع . فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضربا غير مبرح . ولا تكسر لها عظما . فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية. وقال آخرون: هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز . أما عند تحققه فلا بأس بالجمع بين الكل .

وعن النبىّ ﷺ : علقوا السوط حيث يراه أهل البيت ، فإنه آدب لهم. رواه عبد بن حميد والطبرانىّ عن ابن عباس، وأبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر « فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا » أى إذا رجعن عن النشوز عند هذا التأديب إلى الطاعة فى جميع ما يراد منهن مما أباحه الله منهن، فلا سبيل للرجال عليهن بعد ذلك بالتوبيخ والأذية بالضرب والهجران « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا » فاحذروه . تهديد للأزواج على ظلم النسوان من غير سبب . فإنهن، وإن ضعفن عن دفع ظلمكم ، وعجزن عن الانتصاف منكم ، فالله سبحانه علىّ قاهر كبير قادر ، ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . فلا تغتروا بكونكم أعلى يدا منهن وأكبر درجة

منهن. فإن الله أعلى منكم وأقدر منكم عليهن . فَخَتْمُ الآية بهذين الاسمين، فيه تمام المناسبة. ولما ذكر تعالى حكم النفور والنشوز من الزوجة ، ذكر ما إذا كان النفور من الزوجين بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا)

« وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا » أصله شقاقا بينهما فأضيف الشقاق إلى الظرف . إما على إجرائه مجرى المفعول به اتساعاً . كقوله : بل مكر الليل والنهار[1] . أصله بل مكر فى الليل والنهار. أو مجرى الفاعل بجعل البين مشاقاً والليل والنهار ماكرين . كما فى قولك : نهارك صائم . والضمير للزوجين. ولم يجر ذكرهما لجرى مايدل عليهما ، وهو الرجال والنساء . أى إن علمتم مخالفة مفرقة بينهما ، واشتبه عليكم أنه من جهته أو من جهتها، ولا يفعل الزوج الصلح ولا الصفح ولا الفرقة ، ولا تؤدى المرأة الحق ولا الفدية « فَابْعَثُوا » أى إلى الزوجين لإصلاح ذات البين وتبيّن الأمر « حَكَمًا » رجلًا صالحًا للحكومة والإصلاح ومنع الظالم من الظلم « مِنْ أَهْلِهِ » أى أقارب الزوج « وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » على صفة الأول . فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال . وأطلب للإصلاح . فيلزمهما أن يَخْلُوَا ويستكشفا حقيقة الحال فيعرفا أن رغبتهما فى الإقامة أو الفرقة « إِنْ يُرِيدَا » أى الحكمان « إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » أى يوقع بينهما الموافقة فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان فى طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد . أو الضمير الأول للحكمين ، والثانى للزوجين . أى إن قصدا

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما ، وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة ، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا » بظواهر الحكمين وبواطنهما . إن قصدا إفساداً يجازيهما عليه . وإلا يجازيهما على الإصلاح . روى ابن أبي حاتم وابن جرير(١) عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلًا صالحًا من أهل الرجل ومثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء . فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته وقصروه على النفقة . وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على ان يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز . فإن رأيا أن يجمعا ، فرضي أحد الزوجين وكره الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرض . ولا يرث الكاره الراضيَ.

وروى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عباس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين . قال : معمر بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما . وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. (وأسند) عن ابن أبي مليكة(٢) أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إليّ وأنفق عليك . فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ؟ فقال : على يسارك في النار إذا دخلت . فشدت عليها ثيابها. فجاءت عثمان فذكرت له ذلك. فضحك. فأرسل ابن عباس ومعاوية . فقال ابن عباس : لأفرقنّ بينهما . فقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شخصين من بَني عبدمناف . فأتياها فوجداها قد أغلقا عليهما أبوابهما. فرجعا .

(١) الأثر رقم ٩٤١٨ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ٩٤٢٧ من تفسير الطبريّ ونصه : أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة ابنة عتبة . فكان بينهما كلام . فجاءت عثمان فذكرت ذلك له ، فأرسل ابن عباس ومعاوية. فقال ابن عباس: لأفرّقن بينهما. وقال معاوية: ما كنت لأفرّق بين شيخين من بني عبدمناف. فأتياها وقد اصطلحا .

وأسند عن عبيدة قال: شهدت عليًّا وجاءته امرأة وزوجها . مع كل واحد منهما فئام من الناس. فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً . فقال عليّ للحكمين : أتدريان ماعليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما . فقالت المرأة . رضيت الله لى وعلىّ . وقال الزوج : أما الفرقة فلا. فقال علىّ : كذبت . والله ! لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة . حتى قال إبراهيم النخعىّ : إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاثاً ، فعلا . وهو رواية عن مالك. وقال الحسن البصرىّ : الحكمان يحكمان فى الجمع لا فى التفرقة. وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم . وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود . ومأخذهم قوله تعالى (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا) ولم يذكر التفريق . وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما فى الجمع والتفرقة بلا خلاف . انتهى . وفى (الإكليل) : أخرج ابن منصور أن المأمور بالبعث الحكام . وعن السدّىّ : إنه الزوجان . فعلى الأول استدل به من قال: إنهما مولّيان من الحاكم . فلا يشترط رضا الزوجين عما يفعلانه من طلاق وغيره . وعلى الثانى استدل من قال : إنهما وكيلان من الزوجين . فيشترط .

وقال ابن كثير : الجمهور على الأول. أعنى أنهما منصوبان من جهة الحاكم . لقوله تعالى. (فَابْعَثُوا حَكَماً) الخ، فسماهما حكمين : ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه . وهذا ظاهر الآية .

وذهب الشافعىّ وأبو حنيفة إلى الثانى . لقول علىّ رضى الله عنه للزوج ، (حين قال : أما الفرقة فلا) ـ فقال : كذبت . حتى تقر بما أقرّت به .

قالوا : فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج . والله أعلم .

وفى الآية تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه ، وفقه الله تعالى لمبتغاه .

تنبيه :

قال الحاكم: فى الآية دلالة على أن كل من خاف فرقة وفتنة جاز له بعث الحكمين . وقد استدل بها أمير المؤمنين على الخوارج فيما فعل من التحكيم . قال مشايخ المعتزلة : لأن المصاحف لما رفعت ، فظهرت الفرقة فى عسكره ، وخاف على نفسه ، جازت المحاكمة، بل وجبت . ولهذا صالح ﷺ يوم الحديبية . وعلى هذا يحمل صلح الحسن عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » يأمر تعالى بعبادته وحده وبالإخلاص فيها بقوله (وَلَا تُشْرِكُو بِهِ شَيْئًا) كما قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ[1] . لأنه تعالى هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الأوقات والحالات. فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من الشرك . الجلىّ والخفىّ . للنفس وشهواتها . وما يتوصل به إليها من المال والجاه . وهذه العبادة حق الله علينا . كما فى الصحيحين[2] عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له : يامعاذ ! أتدرى ما حق الله على

---

(١) [٩٨ / البينة / ٥] ونصها : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٤٦ ـ باب اسم الفرس والحمار ، حديث ١٣٧١ ونصه :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت ردف النبىّ ﷺ على حمار، يقال له عُفَيْر، =

العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .

ثم أوصى سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ، إثر تصدير ما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها ، تنبيهاً على جلالة شأن الوالدين بنظمها فى سلكها بقوله « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقد كثرت مواقع هذا النظم فى التنزيل العزيز كقوله : أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ[1] . وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا[2] . أى أحسنوا بهما إحساناً يفى بحق تربيتهما . فإن شكرهما يدعو إلى شكر الله المقرب إليه . مع مافيه من صلة أقرب الأقارب الموجب لوصلة الله ، وقطعها لقطعه . ثم عطف، على الإحسان إليهما ، الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، بقوله « وَبِذِي الْقُرْبَىٰ » أى الأقارب. وقد جاء فى الحديث الصحيح عن سلمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : الصدقة على المسكين صدقة . وهى على ذى الرحم اثنتان : صلة وصدقة . رواه الإمام أحمد[3] والترمذىّ

= فقال « يا معاذ ! هل تدرى حق الله على عباده وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » فقلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر به الناس ؟ قال « لا تبشرهم فيتكلوا » .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٤٨ ـ ٥١ (طبعتنا) .

(١) [٣١ / لقمان / ١٤] ونصها : وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

والنسائىّ والحاكم وابن ماجه . ثم قال تعالى « وَالْيَتَامَىٰ » وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم. فأمر الله بالإحسان إليهم والحنوّ عليهم ، تنزلًا لرحمته عز وجل « وَالْمَسَاكِينِ » وهم المحاويج الذين لا يجدون مايقوم بكفايتهم. فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم ، وتزول به ضرورتهم « وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ » أى الذى قرب جواره . أو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دِين « وَالْجَارِ الْجُنُبِ » أى الذى جواره بعيد. أو الأجنبىّ . وقال نوف البكالىّ : الجار ذى القربى. يعنى الجار المسلم . والجار الجنب يعنى اليهودىّ والنصرانىّ .

وقد ورد فى الوصية بالجار أحاديث كثيرة . منها قوله ﷺ : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . أخرجاه فى الصحيحين[1] عن ابن عمر .

ومنها ما رواه الإمام أحمد[2] والترمذىّ عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبىّ ﷺ قال : خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه. وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره .

وروى الإمام أحمد[3] عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا يشبع الرجل دون جاره . قال ابن كثير : تفرد به أحمد .

وعن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ماتقولون فى الزنى ؟ قالوا : حرمه الله ورسوله . فهو حرام إلى يوم القيامة . قال فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : لأن يزنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ـ كتاب الأدب، ٢٨ ـ باب الوصاة بالجار، حديث ٢٣٢٥ ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٤١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٦٥٦٦ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٥٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث رقم ٣٩٠ (طبعة المعارف) .

الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره . قال فقال : ما تقولون فى السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله . فهى حرام . قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات ، أيسر عليه من أن يسرق من جاره .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد[١] . وله شاهد فى الصحيحين[٢] من حديث ابن مسعود . قال: سألت (أو سئل) رسول الله ﷺ : أى الذنب عند الله أكبر؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك. قلت : ثم أىّ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك .

وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى العالية عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلى أريد النبىّ ﷺ . فإذا أنا به قائم ورجل معه مقبل عليه . فظننت أن لهما حاجة . قال فقال الأنصارىّ : والله ! لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثى لرسول الله ﷺ من طول القيام . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ! لقد قام بك الرجل حتى جعلت أرثى لك من طول القيام . قال : ولقد رأيته ؟ قلت : نعم . قال : أتدرى من هو ؟ قلت : لا . قال : ذاك جبريل . ما زال يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . ثم قال : أما إنك لو سلمت عليه ردّ عليك السلام .

ورواه عبد بن حميد عن جابر عن عبد الله قال : جاء رجل من العوالى ورسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام يصليان حيث يصلى على الجنائز . فلما انصرف قال الرجل : يارسول الله! من هذ الرجل الذى رأيت يصلى معك ؟ قال : وقد رأيته ؟ قال : نعم . قال : لقد رأيت خيراً كثيراً . هذا جبريل ما زال يوصينى بالجار حتى رأيت إنه سيورثه .

قال ابن كثير : تفرد به من هذا الوجه . وهو شاهد للذى قبله .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٢ ـ باب وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ ، حديث ١٩٦٢

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وروى البزار عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : الجيران ثلاثة : جار له حق واحـد وهو أدنى الجيران حقًّا . وجار له حقان . وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقًّا . فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك ، لا رحم له ، له حق . وأما الجار الذى له حقان ، فجـار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار . وأما الذى له ثلاثة حقوق . فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم .

وروى الإمام أحمد والبخارى[(١)] عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لى جارين . فإلى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما منك باباً

وروى الإمام مسلم[(٢)] عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا ذر ! إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك .

وفى رواية قال : إذا طبخت مرقا فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهـل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف .

وروى الشيخان[(٣)] عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : والله ! لا يؤمن . والله ! لا يؤمن . والله ! لا يؤمن . قيل : ومن ؟ يا رسول الله ! قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه .

ولمسلم[(٤)] : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .

والبوائق : الغوائل والشرور .

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٢ ـ باب حق الجوار فى قرب الأبواب ، حديث ١١٢٨

(٢) أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، حديث١٤٢و١٤٣(طبعتنا).

(٣) لم يرو هذا الحديث إلا البخارى ، ورواه عن أبى شريح ، لا عن أبى هريرة .
أخرجه فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٢٩ـ باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه، حديث٢٣٢٦

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٣ (طبعتنا) عن أبى هريرة

ورويا عنه[1] قال : قال رسول الله ﷺ : يانساء المؤمنات ! لا تحقرن جارة لجارتها ، ولو فرسن شاة .

معناه : ولو أن تهدى لها فرسن شاة . وهو الظلف المحرق . وأراد به الشيء الحقير .

ورويا عنه[2] أن رسول الله ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. وقوله تعالى « وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ » قال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح . وقال زيد بن أسلم : هو جليسك فى الحضر ورفيقك فى السفر . أى فإنه كالجار . وأوضحه الزمخشرىّ بقوله : هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك . إما رفيقاً فى سفر . وإما جاراً ملاصقاً . وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة . وإما قاعداً إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه . فعليك أن تراعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وروى عن علىّ وابن مسعود قالا : هى المرأة . أى لأنها تكون معك وتضجع إلى جنبك « وَابْنِ السَّبِيلِ » أى ابن الطريق . أى المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده وأهله ، وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به . نُسِبَ إلى السبيل الذى هو

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٠ ـ باب لا تحقرن جارة لجارتها، حديث ١٢٥٤ .

ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٩٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٣ ـ باب حفظ اللسان ، حديث ٢١٣٢ ونصه :

قال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٥ (طبعتنا) .

الطريق لمروره عليه وملابسته له. أو الذى يريد البلد غير بلده ، لأمر يلزمه . وقال ابن عرفة : هو الضيف المنقطع به، يعطى قدر ما يتبلغ به إلى وطنه . وقال ابن برّىّ : هو الذى أتى به الطريق. كذا فى (تاج العروس). ولم يذكر السلف من المفسرين وأهل اللغة (السائل) فى معنى ابن السبيل . لأنه جاء تابعاً لابن السبيل فى البقرة ، فى قوله تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ ـ إلى قوله ـ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ) .

قال بعضهم فى (ابن السبيل) :

ومنسوب إلى ما لم يلده كذاك الله نَزَّلَ فى الكتاب

« وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يعنى المماليك . فإنهم ضعفاء الحيلة . أسرى فى أيدى الناس كالمساكين . لا يملكون شيئاً . وقد ثبت عن علىّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ جعل يوصى أمته فى مرض الموت ، يقول : الصلاةَ . الصلاةَ . اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم . رواه أبو داود وابن ماجة[1] وهذا لفظ أبى داود .

وروى الإمام[2] أحمد عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة . وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة. وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة . ورواه النسائىّ .

قال الحافظ ابن كثير . وإسناده صحيح ولله الحمد .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا . قال: فانطلق فأعطهم. فإن رسول الله ﷺ قال: كفى بالمرء إثما أن يحبس، عمن يملك قوته. رواه مسلم[3] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٢٤ ـ باب فى حق المملوك ، حديث ٥١٥٦ .

وابن ماجة فى: ٢٢ ـ كتاب الوصايا ، ١ ـ باب هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ حديث ٢٦٩٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٠ (طبعتنا) .

وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : للمملوك طعامه وكسوته . ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق . رواه مسلم[1] أيضا .

وعنه أيضا عن النبيّ ﷺ قال : إذا أتى أحدكم خادمُه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله أكلة أو أكلتين أو لقمة أو لقمتين . فإنه وَلِيَ حرَّه وعلاجه . أخرجاه[2] . ولفظه للبخاريّ .

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : هم إخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم . أخرجاه[3] « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا » أي متكبرًا عن الإحسان إلى من أُمِرَ ببرّه « فَخُورًا » يعدّد مناقبه كبراً . وإنما خص تعالى هذين الوصفين بالذم ، في هذا الموضع ، لأن المختال هو المتكبر . وكل من كان متكبراً فإنه قلما يقوم برعاية الحقوق . ثم أضاف إليه ذم الفخور لئلا يقدم على رعاية هذه الحقوق لأجل الرياء والسمعة . بل لمحض أمر الله تعالى .

(١) أخرجه في : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة ، ٥٥ ـ باب الأكل مع الخادم ، حديث ١٢٥٢ .

ومسلم في : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاري في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٢ ـ باب المعاصي من أمر الجاهلية ، حديث ٢٨ ونصه :

عن المعرور قال : لقيت أبا ذر في الربذة ، وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك؟ فقال : إني سابيت رجلا فعيرته بأمه . فقال لي النبيّ ﷺ « يا أبا ذر ! أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية . إخوانكم خولكم . جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأخرجه مسلم في : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٣٨ (طبعتنا) .

روى أبو داود[١] والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: الكبر من بطر الحق وغمط الناس .

وروى ابن جرير[٢] عن أبي رجاء الهروى قال . لا تجد سيء المَلَكة (الملكة) إلا وجدته مختالاً فخوراً . وتلا (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...) الآية ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً . وتلا (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)[٣] وقد ورد في ذم الخيلاء والفخر ما هو معروف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » أي بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به فيما تقدم « وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » أي ولا يكونون سبب الإحسان . بل يبخلون بذات أيديهم وبما في أيدي غيرهم .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٢٦ ـ باب ما جاء في الكبر ، حديث ٤٠٩٢ ونصه :

عن أبي هريرة أن رجلا أتى النبي ﷺ ، وكان رجلا جميلا ، فقال : يا رسول الله ! إني رجل حبب إليّ الجمال . أعطيت منه ما ترى . حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعلي (بشسع نعلي) أفمن الكبر ذلك ؟ قال « لا . ولكن الكبر مَن بطر الحق وغَمَطَ الناس » .

(٢) الأثر رقم ٩٤٩٢ من التفسير .

(٣) [١٩ / مريم / ٣٢] .

فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتاً للسخاء ممن وجد . وفى أمثال العرب : أبخل من الضنين بنائل غيره . قال[1] :

وإن امرءًا ضنّت يداه ، على امرئ ۞ بنيل يدٍ من غيره ، لبخيل

قال الزمخشريّ بعد حكاية ما تقدم : ولقد رأينا ممن بلى بداء البخل ، مَن إذا طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد ، شخص به ، وحل حبوته واضطرب ، ودارت عيناه فى رأسه . كأنما نهب رحله ، وكسرت خزانته ، ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده . انتهى «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » أى من المال والغنى . فيوهمون الفقر مع الغنى والإعسار مع اليسار والعجز مع الإمكان « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بأن مَن هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى . ومن كان كافراً بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه ، كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء .

فائدة :

قال أبو البقاء : فى قوله تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) وجهان: أحدها ـ هو منصوب بدل من (مَنْ) فى قوله (مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) وجمع على معنى (مَنْ) ويجوز أن يكون محمولًا على قوله (مُخْتَالًا فَخُورًا) وهو خبر (كَانَ) وجمع على المعنى أيضاً ، أو على إضمار : أذم . والثانى ـ أن يكون مبتدأ والخبر محذوف تقديره : مبغضون . ودل عليه ما تقدم من قوله (لَا يُحِبُّ) ويجوز أن يكون الخبر : معذبون . لقوله (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

(١) قائله أبو تمام من قصيدة يعاتب موسى بن إبراهيم الرافقىّ ، فى ضنه عليه بحاجة . (ديوانه صفحة ٤٠٨) ومطلعها :

وإنى لأستحيي يقينى أن يُرى ۞ لشكّى فى شىء عليه دليلُ

واليد الثانية : النعمة .

ويجوز أن يكون التقدير : هم الذين . ويجوز أن يكون مبتدأ (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ) معطوف عليه ، والخبر (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ) أى يظلمهم .

ثم قال : والبُخْل والبَخَل لغتان . وقدقرىء بهما . وفيه لغتان أُخريان البُخُل بضم الخاء والباء ، والبَخْل بفتح الباء وسكون الخاء. انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً)

« وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ » أى قصد رؤية الخلق إياه ، غفلة عن الخالق تقدس، وعماية عنه، ليقال : ماأسخاهم وماأجودهم « وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ » أى الذى يتقرب إليه وحده ويتحرى بالإنفاق رضاه « وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى هو يوم الجزاء « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً » معيناً فى الدنيا « فَسَاءَ قَرِيناً » فبئس القرين والصاحب الشيطان . لأنه يضله عن الهدى ويحجبه عن الحق . وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان، تقريعاً لهم على طاعته . والمعنى : من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله . ويجوز أن يكون وعيدًا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار .

لطيفة :

قوله تعالى (وَالَّذِينَ) عطف على (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ) أو (عَلَى الْكَافِرِينَ) وإنما شاركوهم فى الذم والوعيد لأن البخل كالإنفاق رياءً ، سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم . ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغاير الوصفىّ مجرى التغاير الذاتىّ . كما فى قوله(1) :

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة فى المزدحم

---

(١) قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه على هذا البيت وبيت آخر معه وهو :

وذا الرأى حين تُغَمّ الأمو   ر بذات الصليل وذات اللجم، =

أو مبتدأ خبره محذوف . يدل عليه قوله تعالى (وَمَنْ يَكُنِ) الخ أى : فقرينهم الشيطان . وإنما حذف للإيذان بظهوره واستغنائه عن التصريح به . أو التقدير: فلا يقبل إحسانهم لأن رياءهم يدل على تفضيلهم الخلق على الله ، ورؤيتهم على ثوابه .

وقد روى مسلم[١] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملًا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه .

وروى ابن أبى حاتم، فى سبب نزول الآية، عن سعيد بن جبير قال: كان علماء بنى إسرائيل يبخلون بما عندهم من العلم . فأنزل الله : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ. الآية .

وأخرج ابن جرير[٢] من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس ، أن رجالًا من اليهود

= قال حفظه الله :

معانى القرآن للفراء ١ : ١٠٥ ، والإنصاف : ١٩٥ ، وأمالى الشريف ١ : ٢٠٥ ، وخزانة الأدب ١ : ٢١٦ . والقرم : السيد المعظم المقدم فى المعرفة وتجارب الأمور . والمزدحم: حومة القتال حيث يزدحم الكماة ، يمدحه بالجرأة فى القتال . وغم الأمر يغم (بالبناء للمجهول): استعجم وأظلم ، وصار المرء منه فى لبس لا يهتدى لصوابه . والصليل صوت الحديد . يعنى بذات الصليل كتيبة من الرجالة يصلّ حديد بيضتها وشكتها وسلاحها . وذات اللجم : كتيبة من الفرسان . يذكر ثباته واجتماع نفسه ورأيه حين تطيش العقول فى صليل السيوف وكرّ الخيول فى معركة الموت . فقوله « بذات الصليل » متعلق بقوله « تغم الأمور » .

تفسير الطبرى طبعة المعارف ، (ج ٣ ص ٣٥٣)

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٢) الأثر ٩٥٠١ من التفسير وهذا نصه :

عن ابن عباس قال : كان كَرْدم بن زيد، حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، =

كانوا يأتون رجالًا من الأنصار ينتصحون لهم . فيقولون : لا تنفقوا أموالكم . فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها . ولا تسارعوا في النفقة ، فإنكم لاتدرون مايكون . فأنزل الله فيهم: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ. الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ، وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا)

« وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللهِ » أي فلم يرجحوا الخلق عليه « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » بالبعث والجزاء فلم يرجحوا تعظيمهم وحطامهم على ثوابه «وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ» أعطاهم الله من المال ، أي طلباً لرضاه وأجر آخرته .

قال العلامة أبو السعود : وإنما لم يصرح به تعويلًا على التفصيل السابق، واكتفاءً بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر. فإنه يقتضى أن يكون الإنفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة. أي: وما الذي عليهم. أو : وأيّ تبعة ووبال عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله؟ وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة ، والاعتقاد في الشيء بخلاف ماهو عليه ، وتحريض على التفكر

= ونافع بن أبي نافع ، وبحْريّ بن عمرو ، وحييّ بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، يأتون رجالًا من الأنصار ـ وكانوا يخالطونهم وينتصحون لهم ـ من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون لهم : لاتنفقوا أموالكم. فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها. ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون . فأنزل الله فيهم « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » أي من النبوة (من التوراة ، كما في ابن هشام) التي فيها تصديق ماجاء به محمد ﷺ « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » إلى قوله « وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً » .

لطلب الجواب . لعله يؤدى بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة . وتنبيه على أن المدعوّ إلى أمر لا ضرر فيه ، ينبغى أن يجيب إليه احتياطاً . فكيف إذا كان فيه منافع لا تحصى . وتقديم الإيمان بهما ، لأهميته فى نفسه ، ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه . وأما تقديم (إنفاقهم رئاء الناس) على عدم إيمانهم بهما ، مع كون المؤخر أقبح من المقدم ، فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به . انتهى « وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً » وعيد لهم بالعقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أى لا يبخس أحداً من ثواب عمله ولا يزيد فى عقابه شيئاً مقدار ذرة ، وهى النملة الصغيرة ، فى قول أهل اللغة . قال ثعلب : مائة من الذر زنة حبة شعير . وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء. والمعنى: إن الله تعالى لا يظلم أحداً شيئاً، قليلاً ولا كثيراً . فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس « وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا » أى وإن تك مثقال ذرة حسنة يضاعف ثوابها . وإنما أنث ضمير المثقال لتأنيث الخبر . أو لإضافته إلى الذرة « وَيُؤْتِ » أى زيادة على الأضعاف « مِنْ لَدُنْهُ » مما يناسب عظمته على نهج التفضل « أَجْرًا عَظِيماً » أى عطاءً جزيلاً . وقد ورد فى معنى هذه الآية أحاديث كثيرة . منها ما فى الصحيحين[1] عن أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث

---

(١) هذا حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٢١ .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٠٢ (طبعتنا) .

الشفاعة الطويل : وفيه : فيقول الله عز وجل : ارجعوا . فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار . وفى لفظ : أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه من النار . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقول أبو سعيد : اقرؤا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) .

وقد روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال : فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة . أى بحسنته . ولا يخرج من النار أبداً .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يستدل له بالحديث الصحيح[١] إن العباس قال : يارسول الله! هل نفعت أبا طالب بشىء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : نعم . هو فى ضحضاح من نار . ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار .

وقد يكون هذا خاصاً بأبى طالب من دون الكفار . بدليل ما رواه أبو داود[٢] الطيالسىّ فى مسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة . يثاب عليها الرزق فى الدنيا . ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بها فى الدنيا . فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة . انتهى .

ورواه مسلم[٣] أيضا عن أنس أيضا مرفوعاً . ولفظه : إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم يكن له حسنة يجزى بها .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ـ كتاب الأدب، ١١٥ـ باب كنية المشرك، حديث ١٨١٤ ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٥٧ (طبعتنا) .

(٢) الحديث رقم ٢٠١١ .

(٣) أخرجه فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا)

« فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »

قال الرازىّ : وجه النظم هو أنه تعالى بيّن أن فى الآخرة لا يجرى على أحد ظلم وأنه تعالى يجازى المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقه . فبيّن تعالى فى هذه الآية أن ذلك يجرى بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق لتكون الحجة على المسئ أبلغ . والتبكيت له أعظم . وحسرته أشد . ويكون سرور من قبل ذلك من الرسول وأظهر الطاعة أعظم . ويكون هذا وعيداً للكفار الذين قال الله فيهم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) ووعداً للمطيعين الذين قال الله فيهم (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) .

ثم قال : من عادة العرب أنهم يقولون فى الشىء الذى يتوقعونه : كيف بك إذا كان كذا وكذا ، وإذا فعل فلان كذا ، أو إذا جاء وقت كذا ؟ فمعنى هذا الكلام : كيف ترون يوم القيامة إذا استشهد الله على كل أمة برسولها . واستشهدك على هؤلاء . يعنى قومه المخاطبين بالقرآن الذين شاهدهم وعرف أحوالهم. ثم إن أهل كل عصر يشهدون على غيرهم ممن شاهدوا أحوالهم. وعلى هذا الوجه قال عيسى عليه السلام: وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ[(١)] . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ[(٢)] .الخ .

---

(١) [٥ / المائدة / ١١٧] ونصها : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

وروى الشيخان(١) وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسـول الله ﷺ : اقرأ علىّ . فقلت : يا رسول الله ؟ أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم . إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء . حتى أتيت إلى هـذه الآية : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا . فقال: حسبك الآن . فإذا عيناه تذرفان.

زاد مسلم : شهيداً ما دمت فيهم . أو قال ما كنت فيهم . شك أحد رواته .

وروى ابن جرير عن ابن مسعود فى هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : شهيد عليهم ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)

« يَوْمَئِذٍ » أى يوم القيـامة « يَوَدُّ » أى يتمنى « الَّذِينَ كَفَرُوا » بالله « وَعَصَوُا الرَّسُولَ » بالإجابة « لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ » أى يهلكون فيها . أى يدفنون . فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى . إذ هو أعزّ لهم من الهوان الذى يلحقهم من فضائحهم . كقوله: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ... الآية . فـ(تسوّى) بمعنى: تجعل مستوية . والباء للملابسة . أى تسوى الأرض متلبسة بهم . وقيل : الباء بمعنى (على) وفى (الدر المصون) : وتسوية الأرض بهم أوعليهم: دفنهم . أو أن تنشق وتبلعهم . أو أنهم يبقون تراباً على أصلهم من غير خلق . وقوله تعالى « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » عطف على (يود) أى ويعترفون

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٩ ـ باب فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، حديث ١٩٩٠ .

وأخرجه مسلم فى: ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٢٤٧ـ٢٤٩ (طبعتنا).

بجميع ما فعلوه . لا يقدرون على كتمانه . لأن جوارحهم تشهد عليهم . أو (الواو) للحال. أي يودون أن يدفنوا في الأرض وحالهم أنهم لا يكتمون من الله حديثاً. ولا يكذبونه بقولهم: وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . كما روى ابن جرير[1] عن الضحاك أن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال : يا ابن عباس ! قول الله تعالى . وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً . وقوله : وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . فقال له ابن عباس : إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت : ألقى على ابن عباس متشابه القرآن. فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد . فيقول المشركون : إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده . فيقولون تعالوْا نقُلْ . فيسألهم فيقولون : وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . قال فيختم على أفواههم ويستنطق جوارحهم فتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين . فعند ذلك تمنَّوْا لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثاً .

وروى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير نحو ما تقدم . واعتمده الإمام أحمد في كتاب (الرد على الجهمية) في باب (بيان ما ضلت فيه الزنادقة من متشابه القرآن) وساق مثل ما تقدم عن ابن عباس . ثم قال : فهذا تفسير ما شكّت فيه الزنادقة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »

---

(١) الأثر ٩٥٢٢ من التفسير .

نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر فى جماعة كانوا يشربونها ثم يصلّون. أى من مقتضى إيمانكم الحياء من الله . ومن الحياء منه أن لاتقوموا إلى الصلاة وأنتم سكارى لاتعلمون ما تخاطبونه . فالحياء من الله يوجب ذلك . وتصدير الكلام بحرفى النداء والتنبيه ، للمبالغة فى حملهم على العمل بموجب النهى . وتوجيه النهى إلى قربان الصلاة ، مع أن المراد هو النهى عن إقامتها ، للمبالغة فى ذلك .

قال الحافظ ابن كثير : كان هذا النهى قبل تحريم الخمر . كما دل عليه الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ[1] . الآية . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاها على عمر . فقال : اللهم ! بين لنا فى الخمر بياناً شافياً . فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه . فقال : اللهم ! بين لنا فى الخمر بياناً شافياً . فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلوات . حتى نزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[2] . إلى قوله تعالى : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . فقال عمر : انتهينا . انتهينا .

ولفظ أبى داود[3] عن عمر بن الخطاب فى قصة تحريم الخمر فذكر الحديث . وفيه : فنزلت الآية التى فى النساء : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٩٠و٩١] ونص الآية ٩١ : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

(٣) أخرجه فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

مَا تَقُولُونَ . فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ، ينادى : لا يقربن الصلاة سكران .

وروى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن سعد رضى الله عنه قال : نزلت فيّ أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار . فأكلنا وشربنا حتى سكرنا . ثم افتخرنا . فرفع رجل لحى بعير ففزر بها أنف سعد فكان سعد مغروز الأنف وذلك قبل تحريم الخمر. فنزلت : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . الآية . والحديث بطوله عند مسلم(١) ورواه أهل السنن إلا ابن ماجة .

وروى أبو داود(٢) والنسائيّ عن عليّ رضى الله عنه ، أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر . فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . فخلط فيها. فنزلت: لَا تَقْرَبُوا . الآية .

وروى ابن أبي حاتم عن عليّ رضى الله عنه : قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر . فأخذت الخمر منا. وحضرت الصلاة. فقدموا فلاناً.قال: فقرأ قل ياأيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا . الآية . وكذا رواه الترمذيّ(٣) وقال: حسن صحيح « وَلَا جُنُباً » عطف على قوله (وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) إذ الجملة في موضع النصب على الحال. والجنب الذى أصابته الجنابة . يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع . لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذى هو الإجناب « إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ » أى مارّين بلا لبث « حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا » من الجنابة : أى لا تقربوا موضع الصلاة ، وهو المسجد ، وأنتم جنب ، إلا مجتازين فيه . إما للخروج منه أو للدخول فيه.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب فى تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧١ .

(٣) أخرجه الترمذيّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ١٢ـ حدثنا سويد.

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى معنى الآية قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل . قال : تمر به مرًّا ، ولا تجلس ثم رواه عن كثير من الصحابة . منهم ابن مسعود وثلة من التابعين .

وروى ابن جرير[1] عن الليث قال حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن قول الله عز وجل : وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ . أن رجالًا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عنـدهم فيريدون الماء . ولا يجدون ممراً إلا فى المسجد . فأنزل الله تعالى : وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ .

قال الحافظ ابن كثير : ويشهد لصحة ماقاله يزيد بن أبى حبيب رحمه الله، ماثبت فى صحيح البخارىّ[2] أن رسول الله ﷺ قال : سدوا كل خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر . وهذا قاله ﷺ فى آخر حياته . علما منه أن أبا بكر . رضى الله عنه سيلى الأمر بعده ويحتاج إلى الدخول فى المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين . فأمر بسد الأبواب الشارعة

(١) الأثر رقم ٩٥٦٧ من التفسير .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ « سدوا الأبواب إلا باب أبى بكر ، حديث ٣١١ ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ الناسَ ، وقال « إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ماعنده ، فاختار ذلك العبد ما عنـد الله » قال فبكى أبو بكر . فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر ، فـكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ «إنّ من أمنِّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر. ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر . ولـكن أخوّة الإسلام ومودته . لايبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ . إلا بابُ أبى بكر » .

إلى المسجد إلا بابه رضى الله عنـه ومن روى: إلاباب علىّ، كاوقع فى بعض السنن، فهو خطأ والصواب ما ثبت فى الصحيح .

ومن هـذا التأويل احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد . ويجوز له المرور . وثمة تأويل آخر فى قوله تعالى (إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ) وهو أن المراد منه المسافرون . أى لا تقربوا الصلاة جنباً فى حال من الأحوال إلا حال كونكم مسافرين . فيكون هذا الاستثناء دليلًا على أنه يجوز للجنب الإقدام على الصلاة عند العجز عن الماء . وقد روى ابن أبى حاتم عن زر بن حبيش عن علىّ فى هذه الآية ، قال : لايقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة ، فلا يجد المـاء ، فيصلى حتى يجد المـاء . ثم رواه من وجه آخر عن علىّ : ورواه عن جماعة من السلف أيضاً : أنه فى السفر .

قال ابن كثير : ويستشهد لهذا القول بالحديث الذى رواه الإمام أحمد(١) وأهل السنن

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) وها كموه بنصه لنفاسته :

عن رجل من بنى عامر قال : كنت كافراً فهدانى الله للإسلام . وكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع ذلك فى نفسى . وقد نعت لى أبو ذر . فحججت فدخلت مسجد منى ، فعرفته بالنعت . فإذا شيخ معروق آدم عليه حلة قطرى . فذهبت حتى قمت إلى جنبه وهو يصلى . فسلمت عليه فلم يردّ علىّ . ثم صلى صلاة أتمها وأحسنها وأطولها . فلما فرغ ردّ علىّ . قلت : أنت أبو ذر ؟ قال : إن أهلى ليزعمون ذلك . قال : كنت كافراً فهدانى الله للإسلام وأهمنى دينى ، وكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة. فوقع ذلك فى نفسى. قال : أتعرف أبا ذر ؟ قلت : نعم . قال : فإنى اجتويت المدينة ، فأمر لى رسول الله ﷺ بذود من إبل وغنم . فكنت أكون فيها . فكنت أعزب عن الماء ومعى أهلى فتصيبنى الجنابة . فوقع فى نفسى أنى قد هلكت . فقعدت على بعير منها . فانتهيت إلى رسول الله ﷺ نصف =

عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : الصعيد الطيب طهور المسلم . وإن لم تجد الماء عشر حجج ، فإذا وجدت الماء فَأَمِسَّهُ بشرتك فإن ذلك خيرلك . وفى هذا التأويل بقاء لفظ الصلاة على معناها الحقيقىّ فى الجملتين المتعاطفتين . وفى التأويل السابق تكون الصلاة ، فى الجملة الثانية محمولة على مواضعها .

قال فى (فتح البيان): وبالجملة، فالحال الأولى أعنى قوله (وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) تقوّى بقاء الصلاة على معناها الحقيق ، من دون تقديره مضاف . وسبب نزول الآية السابق يقوّى ذلك. وقوله (إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ) يقوّى تقدير المضاف . أى لا تقربوا مواضع الصلاة . ويمكن أن يقال : إن بعض قيود النهى (أعنى لا تقربوا وهو قوله : وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) يدل على أن المرادبالصلاة معناها الحقيقىّ . وبعض قيود النهى (وهو قوله : إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ) يدل على أن المراد مواضع الصلاة . ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه . ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيدكل واحد منهما بقيد . وهما : لا تقربوا الصلاة التى هى ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى . ولاتقربوا مواضع الصلاةحال كونكم جنباً إلاحال عبوركم المسجد من جانب إلى جانب . وغاية ما يقال فى هـذا إنه من الجمع بين الحقيقة والمجاز . وهو جائز بتأويل مشهور .

وقال ابن جرير[1] (بعدحكايته للتأويلين) : وأولى القولين بالتأويل لذلك ، تأويل من تأوله

= النهار وهوجالس فى ظل المجلس فى نفر من أصحابه فنزلت عن البعير وقلت : يا رسول الله ! هلكت . قال « وما أهلكك » ؟ فحدثته فضحك . فدعا إنساناً من أهله . فجاءت جارية سوداء بعسّ فيه ماء ، ماهو بملآن، إنه ليتخضخض. فاستترت بالبعير. فأمر رسول الله ﷺ رجلا من القوم فسترنى . فاغتسلت ثم أتيتـه . فقال « إن الصعيد الطيّب طهور ، ما لم تجد الماء ، ولو إلى عشر حجج . فإذا وجدت الماء فأَمِسَّ بشرتك » .

(١) تفسير ابن جرير ، جزء ثامن ، صفحة ٣٨٤ (طبعة المعارف) .

«وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ» ، إلامجتازى طريق فيه . وذلك أنه قد بيّن حكم المسافر إذا عدِمَ الماء . وهو جنب ، فى قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) إلى آخره . فكان معلوماً بذلك أن قوله (وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) لو كان معنيًّا به المسافر لم يكن لإعادة ذكره فى قوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ) معنى مفهوم . وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك .

وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا المساجد للصلاة ، مصلين فيها ، وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولاتقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابرى سبيل .

قال : و (العابر السبيل) المجتازه مرًّا وقطعاً . يقال منه : عبرت هذا الطريق فأنا أعبُره عَبْراً وعبوراً . ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجازه . ومنه قيل ، للناقة القوية على الأسفار : هى عُبْر أسفار . وعَبْر أسفار ، لقوتها على الأسفار . اه

قال ابن كثير : وهذا الذى نصره (يعنى ابن جرير) هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية . وكأنه تعالى نهى عن تعاطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها . وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة وهى الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضا . والله أعلم .

وقوله تعالى (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) غاية للنهى عن قربان الصلاة ومواضعها ، حال الجنابة . والمعنى : لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا . إلا حال عبوركم السبيل .

تنبيهات

الأول ـ فى الآية تحريم الصلاة على السكران حال سكره حتى يصحو . وبطلانها وبطلان الاقتداء به . وعلى الجنب حتى يغتسل إلا أن يكون مسافراً . فيباح له التيمم .

الثانى ـ تمسك بالآية من قال : إن طلاق السكران لا يقع لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد . وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة والليث بن سعد

وإسحق وأبو ثور والمزنيّ واختاره الطحاويّ . والمسألة مبسوطة فى (زاد المعـاد) للإمام ابن القيّم .

الثالث ـ فى الآية دليل على أن ردة السكران ليست بردة : لأن قراءة سورة الكافرين، بطرح اللاءات، كفر . ولم يحكم بكفره حتى خاطبهم باسم الإيمان . وما أمر النبيّ ﷺ بالتفريق بينه وبين امرأته . ولا بتجديد الإيمان . ولأن الأمة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئاً ، لا يحكم بكفره . قاله النسفيّ .

الرابع ـ استدل بأحد التأويلين السابقين على تحريم دخول المسجد على السكران . لما يتوقع منه من التلويث وفحش القول. فيقاس به كل ذى نجاسة يخشى منها التلويث والسباب ونحوه . كذا فى (الإكليل) .

الخامس ـ استدل ابن الفرس بتوجيه الخطاب لهم فى الآية على تكليف السكران ودخوله تحت الخطاب . وفيه نظر . لأن الخطاب عام لكل مؤمن . وعلى تقدير أنه قصد به الذين صلوا فى حال السكر ، فإنما نزل بعد صحوهم . كذا فى (الإكليل) .

السادس ـ فى قوله تعالى (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) رد على من أباح جلوس الجنب مطلقاً إذا توضأ . لأن الله تعالى جعل غاية التحريم الغسل . فلا يقوم مقامه الوضوء . كذا فى (الإكليل) .

أقول : إنما يكون هذا حجة لو كانت الآية نصًّا فى تأويل واحد . وحيث تطرق الاحتمال لها، على ما رأيت ، فلا .

وقد تمسك المبيح ، وهو الإمام أحمد ، بما روى هو وسعيد بن منصور فى (سننه) بسند صحيح ، أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك .

قال سعيد بن منصور فى (سننه) : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، هو الدراورديّ ، عن هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون فى المسجد وهم مجنبون ، إذا توضؤوا وضوء الصلاة .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم .

السابع ـ قال العلامة أبو السعود : لعل تقديم الاستثناء على قوله (حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا) للإيذان ، من أول الأمر ، بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الإطلاق ، كما فى صورة السكر ، تشويقاً إلى البيان ، وروماً لزيادة تقرره فى الأذهان .

الثامن ـ قال أيضاً : فى الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه ، وأن يزكى نفسه عما يدنسها ، ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية ، عند إمكان أعاليها.

التاسع ـ أشعر قوله تعالى (حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) بالنهى عن الصلاة حال النعاس . كما روى الإمام أحمد والبخارىّ[1] والنسائىّ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : إذا نعس أحدكم وهو يصلى فلينصرف ولينم حتى يعلم ما يقول . وفى روايةٍ : فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه .

وقد روى ابن جرير[2] عن الضحاك فى الآية قال : لم يعن بها سكر الخمر . وإنما عنى بها سكر النوم .

قال ابن جرير[3] : والصواب أن المراد سكر الشراب .

---

(١) هذا نص حديث أنس الذى أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥٣ ـ باب الوضوء من النوم ، حديث ١٦٤ ونصه: عن النبىّ ﷺ قال « إذا نعس أحدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقرأ» .

وهذا نص حديث عائشة الذى أخرجه البخارىّ فى الباب نفسه ، حديث ١٦١ .

«إذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يستغفر فيسب نفسه» .

وقريب منه فى المسند بالصفحة ٥٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ٩٥٣٤ .

(٣) التفسير ، الصفحة ٣٧٨ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

قال الرازىّ : ويدل عليه وجهان :
الأول ـ أن لفظ السكر حقيقة فى السكر من شرب الخمر . والأصل فى الكلام الحقيقة .
والثانى ـ أن جميع المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية إنما نزلت فى شرب الخمر. وقد ثبت فى أصول الفقه أن الآية إذا نزلت فى واقعة معينة ، ولأجل سبب معين ، امتنع أن لا يكون ذلك السبب مراداً بتلك الآية .
العاشر ـ قال الحافظ ابن كثير : قد يحتمل أن يكون المراد من الآية التعريض بالنهى عن السكر بالكلية . لكونهم مأمورين بالصلاة فى الخمسة الأوقات ، من الليل والنهار . فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة فى أوقاتها دائما . والله أعلم .
وعلى هذا فيكون كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١) . وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام ، والمداومة على الطاعة لأجل ذلك . انتهى .
الحادى عشر ـ قال الرازىّ : قال بعضهم : هذه الآية ، أى (لَا تَقْرَبُوا) الخ منسوخة بآية المائدة . وأقول: الذى يمكن ادعاء النسخ فيه أن يقال: نهى عن قربان الصلاة حال السكر ممدوداً إلى غاية أن يصير بحيث يعلم ما يقول . والحكم الممدود إلى غايةٍ ، يقتضى انتهاء ذلك الحكم عند تلك الغاية . فهذا يقتضى جواز قربان الصلاة مع السكر إذا صار بحيث يعلم ما يقول . ومعلوم أن الله تعالى لما حرم الخمر بآية المائدة ، فقد رفع هذا الجواز . فثبت أن آية المائدة ناسخة لبعض مدلولات هذه الآية . هذا ما حضر ببالى فى تقرير هذا النسخ .
والجواب عنه : أنا بيّنّا أن حاصل هذا النهى راجع إلى النهى عن الشرب الموجب للسكر عند القرب من الصلاة. وتخصيصُ الشيء بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما عداه إلا على سبيل الظن الضعيف . ومثل هذا لا يكون نسخاً . انتهى . « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ » أى ولم تجدوا

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٢] .

بقربكم ماءً تستعملونه . ومنه فَقْدُ من يناوله إياه ، أو خشيته الضرر به « أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ » لا تجدونه فيه « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أى أو كنتم محدثين . والغائط هو المكان المنخفض . فالمجيء منه كناية عن الحدث . لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليوارى شخصه عن أعين الناس .

قال الخازن : كانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث . فكنوا به عن الحدث . وذلك أن الرجل منهم ، كان إذا أراد قضاء الحاجة ، طلب غائطاً من الأرض ، يعنى مكاناً منخفضاً منها يحجبه عن أعين الناس . فسمى الحدَث بهذا الاسم . فهو من باب تسمية الشيء باسم مكانه . انتهى . وإسناد المجيء إلى واحد مبهم من المخاطبين دونهم ، للتفادى عن التصريح بنسبتهم إلى مايستحيا منه أو يستهجن التصريح به . كذا قاله أبوالسعود . ثم قال : وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ » على التصريح بالجماع. قال الشهاب : وفى ذكر (أحد) دون غيره إشارة إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة كما هو دأبه وأدبه « فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً » قال المهايمى: أى فلا تستحيوا من الله ، بل اعتذروا إليه « فَتَيَمَّمُوا » أى اقصدوا « صَعِيدًا » أى تراباً أو وجه الأرض « طَيِّبًا » أى طاهراً « فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا » تعليل للترخيص والتيسير ، وتقرير لهما . فإن مَن عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين ، لابد أن يكون ميسراً لا معسراً . وفى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ الظاهر أن قوله تعالى (فَلَمْ تَجِدُوا) راجع إلى جميع ما قبلها وحينئذ لا يجوز التيمم فى الكل إلا عند عدم الماء . وأما ماقيل أنه راجع إلى قوله تعالى (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) لأنه قد وجد المانع ههنا من تقييد السفر والمرض ، بعدم الوجود للماء ، وهو أن كل واحد منهما عذر مستقل فى غير هذا الموضع كالصوم ـ فلا يفيد. لأن عدم الوجود معتبر فيهما لإباحة التيمم قطعاً. إذ ليس السفر بمجرده مبيحاً. وكذلك المرض.

وأما ما يقال من أنه قد يباح للمريض التيمم مع وجود المـاء إذا خشى الضرر به ، فعدم الوجود فى حقه إذن غير قيد . فالجواب : أن هذا داخل تحت عدم الماء لأن من تعـذر عليه استعماله هو، عادم له، إذ ليس المراد الوجود الذى لا ينفع . فمن كان يشاهد ماء فى قعر بئر ، يتعذر عليه الوصول إليه بوجه من الوجوه ، فهو عادم له . وهكذا خوف السبيل الذى يسلك إلى الماء . وهكذا من كان يحتاجه للشرب فهو عادم له . ولئن سلمنا ، تنزلا ، أن المراد مطلق الوجود فنقول : المدعى أنه تعالى جوز التيمم للمريض إذا لم يجد الماء . وليس فيه دلالة على منعه من التيمم عند وجوده لعارض يمنعه من المـاء . فإن قيل : من أين تستدلون حينئذ على إباحة تيممه ؟ قلنا : من التحقيق الذى ذكرناه وهو أن المتعذر استعماله معدوم شرعاً وكذا من قوله تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)[1] وقوله (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)[2] وقوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) ومما أخرجه أبو داود[3] وابن ماجة والدارقطنىّ من حديث جابر رضى الله عنه قال : خرجنا فى سفر . فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه . ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هـل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبىّ ﷺ أُخْبِرَ بذلك . فقال : قتلوه ، قتلهم الله ؛ ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . إنما كان يكفيه أن

---

(١) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٥] ونصها : وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٥ ـ باب فى المجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ .

يتيمم ، ويعصر (ويعصب) على جرحه ، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده . ومما رواه أحمد وأبو داود[1] وابن حبان والحاكم والدارقطنيّ عن عمرو بن العاص قال : احتملت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت ، أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح. فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: ياعمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت: إنى سمعت الله يقول (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً . فهذا وما قبله يدل على جواز العدول إلى التيمم لخشية الضرر .

قال مجد الدين ابن تيمية : فى حديث عمرو ، من العلم، أن التمسك بالعمومات حجة صحيحة. انتهى .

وقد روى ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ) قال : نزلت فى رجل من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ . ولم يكن له خادم فيناوله . فأتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له ، فأنزل الله هذه الآية .

قال ابن كثير : هذا مرسل .

الثانية ـ ما يصدق عليه مفهوم عدم الوجود المقيد بالقيام إلى الصلاة ، هو المعتبر فى تسويغ التيمم . كما هو الظاهر من الآية . لا عدم الوجود مع طلب مخصوص ، كما قيل : إنه يطلب فى كل جهة من الجهات الأربع فى ميل أو ينتظر إلى آخر الوقت حتى لا يبقى إلا مايسع الصلاة بعد التيمم . إذ لا دليل على ذلك . فإذا دخل الوقت المضروب للصلاة ، وأراد المصلى القيام إليها فلم يجد حينئذ ما يتوضأ به ، أو يغتسل فى منزله أو مسجده ، أو ما يقرب منهما ، كان ذلك عذراً مسوّغاً للتيمم . فليس المراد بعدم الوجود فى ذلك أن لا يجده بعد

(١) أخرجه أبوداود فى: ١ ـ كتاب الطهارة، ٢٤ ـ باب إذا خاف الجنب البرد ، أيتيمم؟ حديث ٣٣٤ .

الكشف والبحث وإحفاء السؤال . بل المراد أن لا يكون معه علم أو ظن بوجود شيء منه هنالك ، ولم يتمكن فى تلك الحالة من تحصيله بشراء أو نحوه . فهذا يصدق عليه أنه لم يجد الماء عند أهل اللغة . والواجب حمل كلام الله تعالى على ذلك ، مع عدم وجود عرف شرعيّ . وقد وقع منه ﷺ ما يشعر بما ذكرناه . فإنه تيمم فى المدينة من جدار . كما ثبت ذلك فى الصحيحين[1] من دون أن يسأل ويطلب . ولم يصح عنه فى الطلب شيء تقوم به الحجة . فهذا ، كما يدل على وجوب الطلب ، يدل على عدم وجوب انتظار آخر الوقت ، ويدل على ذلك حديث الرجلين اللذين تيمما فى سفر ٍ ثم وجدا الماء . فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر : فقال ﷺ للذى لم يعد : أصبت السنة . أخرجه أبو داود[2] والحاكم وغيرهما من حديث أبى سعيد . فإنه يردّ

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ٣ ـ باب التيمم فى الحضر إذا لم يجد الماء ، حديث ٣٣٢ ونصه :

عن حميد الأعرج ، قال: سمعت عميراً مولى ابن عباس، قال: أقبلت أنا وعبدالله بن يسار، مولى ميمونة ، زوج النبيّ ﷺ حتى دخلنا على أبى جهيم بن الحارث بن الصمة الأنصاريّ . فقال أبو الجهيم : أقبل النبيّ ﷺ من نحو بئر جمل . فلقيه رجل فسلّم عليه . فلم يردّ عليه النبيّ ﷺ . حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم رد عليه السلام .

وأخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٦ ـ باب المتيمم يجد الماء بعدما يصلى فى الوقت ، حديث ٣٣٨ ونصه : عن أبى سعيد الخدريّ قال : خرج رجلان فى سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء . فتيمما صعيدا طيبا . فصليا . ثم وجدا الماء فى الوقت . فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء . ولم يعد الآخر . ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له . فقال للذى لم يعد « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك » وقال للذى توضأ وأعاد « لك الأجر مرتين » .

قول من قال بوجوب الانتظار إلى آخر الوقت على المتيمم . سواء كان مسافراً أو مقيماً . كذا فى (الروضة الندية) .

الثالثة ـ دلت الآية على أن المسافر إذا لم يجد الماء تيمم . طال سفره أو قصر .

الرابعة ـ قرئ فى السبع (لامستم ولمستم) واللامسة واللمس يردان، لغةً ، بمعنى الجس باليد، وبمعنى الجماع . قال المجد فى (القاموس) لمسه يلمِسه ويلمُسه : مسّه بيده . والجارية جامعها . ثم قال : والملامسة المماسة والمجامعة . ومن ثمة اختلف المفسرون والأئمة فى المعنى بذلك هنا . فمن قائل بأن اللمس حقيقةٌ فى الجس باليد ، مجازٌ فى غيره . والأصل حمل الكلام على حقيقته لأنه الراجح، لاسيما على قراءة (لمستم) إذ لم يشتهر فى الوقاع كالملامسة. وروى عن ابن مسعود من طرق متعددة أنه قال[1] : الملامسة ما دون الجماع . وعنه[2] : القبلة من المس وفيها الوضوء . رواهما ابن جرير .

وروى الطبرانى بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : يتوضأ الرجل من المباشرة ، ومن اللمس بيده ، ومن القبلة . وكان يقول فى هذه الآية (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) : هو الغمز .

وروى ابن جرير[3] عن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة . ويرى فيها الوضوء . ويقول : هى من اللِّماس . وذكر ابن أبى حاتم أنه روى عن كثير من التابعين نحو ذلك . قالوا: ومما يؤيد بقاء اللمس على معناه الحقيقى قوله تعالى[4] (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) أى جسّوه . وقال ﷺ[5] لماعز ، حين أقر بالزنى ، يعرّض له بالرجوع

(١) الأثر رقم ٩٦٠٦ .

(٢) الأثر رقم ٩٦٠٧ .

(٣) الأثر رقم ٩٦١٧ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٧] . . . لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

(٥) أخرجه البخارى فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب قول الإمام للمقر : =

عن الإقرار : لعلك قبلت أو لمست ؟ وفى الحديث الصحيح[١] : واليد زناها اللمس . وقالت عائشة[٢] : قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا . فيقبل ويلمس . ومنه ما ثبت فى الصحيحين[٣] : أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة. وهو يرجع إلى الجس باليد. واستأنسوا أيضاً بالحديث الذى رواه أحمد[٤] عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال: يارسول الله ! ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها ، فليس يأتى الرجل من امرأته شيئاً إلا أتاه منها غير أنه لم يجامعها . قال فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ

= لعلك لمست أو غمزت ؟ حديث ٢٥١٦ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أتى ماعز بن مالك النبىّ ﷺ ، قال له « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت ؟ » قال : لا ، يا رسول الله ! قال « أَنِكْتَهَا » ؟ لا يكنى . قال فعند ذلك أمر برجمه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٤٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ)ونصه: عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «كل ابن آدم أصاب من الزنى لا محالة . فالعين زناها النظر . واليد زناها اللمس . والنفس تهوى وتحدث . ويصدق ذلك ويكذبه الفرج ».

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٠٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ ، مامن يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً ، امرأةً امرأةً . فيدنو ويلمس من غير مسيس . حتى يفضى إلى التى هو يومها ، فيبيت عندها .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٦٢ ـ باب بيع الملامسة ، حديث ٢٤٣ ونصه : عن أبى سعيد رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ نهى عن المنابذة ، وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلّبه أو ينظر إليه . ونهى عن الملامسة . والملامسة لمس الثوب لا ينظر إليه .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) :

النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ)[١] الآية . قال فقال له النبيّ ﷺ : توضأ ثم صلّ . قال معاذ : فقلت: يارسول الله ! أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال: بل للمؤمنين عامة. ورواه الترمذيّ[٢] وقال : ليس بمتصل. والنسائيّ مرسلًا . قالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها .

فصل

ومن قائل : أن المعنيّ باللمس هنا الجماع. وذلك لوروده فى غير هذه الآية بمعناه . فدل على أنه من كنايات التنزيل . قال تعالى (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ)[٣] . وقال تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ)[٤] . وقال فى آية الظهار (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا)[٥] . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس

(١) [١١ / هود / ١١٤] . . . إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١١ ـ سورة هود ، ٥ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٧] ونصها : وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

(٥) [٥٨ / المجادلة / ٣] ونصها : وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فى هذه الآية (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ) قال : الجماع . وروى ابن جرير[١] عنه . قال : إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع . ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء . وقد صح من غير وجه عن ابن عباس أنه قال ذلك . وقد تقرر أن تفسيره أرجح من تفسير غيره ، لاستجابة دعوة الرسول ﷺ فيه بتعليمه تأويل الكتاب[٢] . كما أسلفنا بيان ذلك فى مقدمة التفسير .

ويؤيد عدم النقض بالمس ما رواه مسلم[٣] والترمذىّ وصححه عن عائشة قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان . وهو يقول : اللهم ! إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وروى[٤] النسائىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليصلى وإنى لمعترضته بين يديه اعتراض الجنازة . حتى إذا أراد أن يوتر مسّنى برجله .

قال الحافظ ابن حجر فى (التلخيص) : إسناده صحيح . وقوله فى (الفتح) : يحتمل أنه كان بحائل أو أنه خاص به ﷺ ، تكلف ، ومخالفة للظاهر .

وعن إبراهيم التيمىّ عن عائشة رضى الله عنها . أن النبىّ ﷺ كان يقبل بعض أزواجه ثم يصلى ولا يتوضأ. رواه أبو داود[٥] والنسائىّ : قال أبو داود : هو مرسل . إبراهيم التيمىّ

---

(١) الأثر رقم ٩٥٨١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٧ ـ باب قول النبىّ ﷺ « اللهم علمه الكتاب» . حديث ٦٥ ونصه: عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ وقال : «اللهم علمه الكتاب » .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه النسائىّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١١٩ ـ باب ترك الوضوء من مسّ الرجل امرأته من غير شهوة .

(٥) رواه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٨ ـ باب الوضوء من القبلة ، =

لم يسمع من عائشة : وقال النسائى : ليس فى هذا الباب أحسن من هذا الحديث ، وإن كان مرسلًا . وصححه ابن عبد البر وجماعة . وشهد له ماتقدم وما رواه الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث عمرة عن عائشة قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة . فقلت: إنه قام إلى جاريته مارية. فقمت ألتمس الجدار فوجدته قائماً يصلى. فأدخلت يدى فى شعره لأنظر: أغتسل أم لا ؟ فلما انصرف قال: أخذك شيطانك ياعائشة. وفيه محمد بن إبراهيم عن عائشة . قال ابن أبى حاتم: ولم يسمع منها .

قال ابن جرير(١) : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) الجماع دون غيره من معانى اللمس . لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ . ثم أسنده من طرق . وبه يعلم أن حديث عائشة قرينة صرفت إرادة المعنى الحقيقى من اللمس ، وأوجبت المصير إلى معناه المجازى . وأما ما روى عن ابن عمر وابن مسعود ، فنحن لا ننكر صحة إطلاق اللمس على الجس باليد . بل هو المعنى الحقيقى . ولكنا ندعى أن المقام محفوف بقرائن توجب المصير إلى المجاز . وأما قولهم : بأن القبلة فيها الوضوء ، فلا حجة فى قول الصحابى . لاسيما إذا وقع معارضا لماورد عن الشارع. ويؤيد ذلك قول اللغويين . أن المراد بقول بعض الأعراب للنبى ﷺ : إن امرأته لا ترد يد لامس ، الكناية عن كونها زانية . ولهذا قال له ﷺ : طلقها.

وأما حديث معاذ الذى استأنسوا به فلا دلالة فيه على النقض . لأنه لم يثبت أنه كان متوضئاً قبل أن يأمره النبى ﷺ بالوضوء . ولا ثبت أنه كان متوضئاً عند اللمس ، فأخبره النبى ﷺ أنه قد انتقض وضوءه . كذا فى (نيل الأوطار) .

= حديث ١٧٨ ونصه : عن عائشة أن النبى ﷺ قبلها ولم يتوضأ .

والنسائى فى: ١ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ـ باب ترك الوضوء من القبلة. ونصه نص المتن.

(١) التفسير بالصفحة ٣٩٦ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

وقال ابن كثير : هو منقطع بين ابن أبي ليلى ومعاذ . فإنه لم يلقه . ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة ، كما تقدم فى حديث الصديق[1] : ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له. وهو مذكور فى سورة آل عمران عند قوله (ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)[2] الآية .

الخامسة ـ التيمم ، لغةً ، القصد. يقال: تيممته وتأممته ويممته وآممته أى قصدته . وأما الصعيد فهو فعيل بمعنى الصاعد . قال الزجاج : الصعيد وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . لا أعلم اختلافاً بين أهل اللغة فى ذلك . وفى (المصباح) الصعيد فى كلام العرب يطلق على وجوه: على التراب الذى على وجه الأرض. وعلى وجه الأرض. وعلى الطريق وفى (القاموس): الصعيد التراب أو وجه الأرض .

قال الأزهرىّ : ومذهب أكثر العلماء أن الصعيد من قوله تعالى (صعيداً طيباً) هو التراب . انتهى .

واحتجوا بما فى صحيح مسلم[3] عن حذيفة بن اليمان قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً . وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء. وفى لفظ : وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء . قالوا : فخصص الطهورية بالتراب فى مقام الامتنان. فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٢٦ ـ باب فى الاستغفار ، حديث ١٥٢١ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٣٥] ونصها: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٤ (طبعتنا) .

معه . قالوا: وحديث جابر(١) المتفق عليه : جعلت لى الأرض مسجدا وطهوراً، خصصه ماقبله لأن الخاص يحمل عليه العام . واحتجوا أيضا بأن الطيّب لا يكون إلا ترابا . قال الواحدىّ: إنه تعالى أوجب فى هذه الآية كون الصعيد طيّباً . والأرض الطيبة هى التى تنبت بدليل قوله تعالى(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ)(٢) فوجب فى التى لاتنبت أن لاتكون طيبة. فكان قوله (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً) أمراً بالتيمم بالتراب فقط. وظاهر الأمر للوجوب. واحتجوا أيضاً بآية المائدة. قالوا : الآية ههنا مطلقة ولكنها فى سورة المائدة مقيّدة وهى قوله سبحانه وتعالى (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)(٣) وكلمة (من) للتبعيض وهذا لايتأتى فى الصخر الذى لاتراب عليه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ، ونصه :

عن جابر أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعتنا) .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٨] ونصها: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ =

قال الزمخشري : وقولهم إن (من) لابتداء الغاية ، قول متعسف . ولا يفهم أحد من العرب ، من قول القائل: (مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب) إلا معنى التبعيض. ثم قال : والإذعان للحق أحق من المراء . انتهى .

وأجاب القائلون، بجواز التيمم بالأرض وما عليها، عن هذه الحجج ـ بأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض لأنه ما صعد أي علا وارتفع على وجه الأرض . وهذه الصفة لا تختص بالتراب . ويؤيد ذلك حديث : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . وهو متفق عليه من من حديث جابر وغيره. وما ثبت في رواية بلفظ (وتربتها طهوراً) كما أخرجه مسلم من حديث حذيفة ـ فهو غير مستلزم لاختصاص التراب بذلك عند عدم الماء. لأن غاية ذلك أن لفظ التراب دل بمفهومه على أن غيره من أجزاء الأرض لا يشاركه في الطهورية. وهذا مفهوم لقب لا ينتهض لتخصيص عموم الكتاب والسنة . ولهذا لم يعمل به من يعتد به من أئمة الأصول . فيكون ذكر التراب ، في تلك الرواية من باب التنصيص على بعض أفراد العام . وهكذا يكون الجواب عن ذكر التراب في غير هذا الحديث . ووجه ذكره أنه الذي يغلب استعماله في هذه الطهارة . ويؤيد هذا ما ثبت من تيممه ﷺ من جدار . وأما الاستدلال بوصف الصعيد بالطيب ، ودعوى أن الطيب لا يكون إلا ترابا طاهراً منبتا لقوله تعالى[1] (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) ـ فغير مفيد للمطلوب إلا بعد بيان اختصاص الطيّب بما ذكر. والضرورة تدفعه . فإن التراب المختلط بالأزبال أجود إخراجا للنبات . كذا في (الروضة الندية) .

وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٨] ونصها : وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

وأما الاستدلال بآية المائدة وظهور التبعيض فى (من) فذاك إذا كان الضمير عائدا إلى الصعيد .

قال الناصر فى (الانتصاف): وثمة وجه آخر وهو عود الضمير على الحدث المدلول عليه بقوله (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ) إلى آخرها فإن المفهوم منه : وإن كنتم على حدث فى حال من هذه الأحوال : سفر أو مرض ، أو مجىء من الغائط ، أو ملامسة النساء فلم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث، فتيمموا منه . يقال : تيممت من الجنابة . قال : وموقع (من) على هذا مستعمل متداول . وهى على هذا الإعراب إما للتعليل أو لابتداء الغاية . وكلاهما فيها متمكن . والله أعلم .

السادسة ـ أفاد قوله تعالى (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ) أن الواجب فى التيمم عن وضوء أو غسل هو مسح الوجه واليدين فقط . وهذا إجماع . إلا أن فى اليدين مذاهب للأئمة. فمن قائل بأنهما يمسحان إلى المرفقين ، لأن لفظ اليدين يصدق فى إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين وعلى ما يبلغ المرفقين . كما فى آية الوضوء . وعلى ما يبلغ الكفين كما فى آية السرقة (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) . وقالوا : وحمل ما أطلق ههنا ، على ما قيد فى آية الوضوء ، أولى لجامع الطهورية .

وروى الشافعىّ عن إبراهيم بن محمد عن أبى الحويرث عن الأعرج عن ابن الصمة قال: مررت على النبىّ ﷺ وهو يبول . فسلمت عليه فلم يرد علىّ . حتى قام إلى الجدار فحته بعصا كانت معه . ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه . ثم رد علىّ .

وهـذا الحديث منقطع . لأن الأعرج ، وهو عبد الرحمن بن هرمز ، لم يسمع هذا من ابن الصمة. وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة . وكذا هو مخرج فى الصحيحين عن عمير مولى ابن عبـاس قال : دخلنا على أبى جهيم بن الحرث . فقال أبو جهيم : أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل . فلقيه رجل فسلم عليـه . فلم يردّ النبىّ ﷺ ، حتى أقبل على الجدار . فوضع يده على الحائط . فمسح بوجهه ويديه . ثم ردّ عليه السلام .

ولأبي داود[١] عن نافع قال: انطلقت مع ابن عمر في حاجة إلى ابن عباس. فقضى ابن عمر حاجته. فكان من حديثه يومئذ أن قال : مر رجل على رسول الله ﷺ في سكة من السكك. وقد خرج من غائط أو بول . فسلم عليه فلم يرد عليه. حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى في السكة ، ضرب بيديه على الحائط ومسح بهما وجهه . ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه . ثم رد على الرجل السلام . وقال : إنه لم يمنعنى أن أرد عليك السلام ، إلا أنى لم أكن على طهر . وفي رواية : فمسح ذراعيه إلى المرفقين . فهذا أجود ما في الباب . فإن البيهقي أشار إلى صحته. كذا في (لباب التأويل) .

قال ابن كثير في حديث أبي داود ما نصه : ولكن في إسناده محمد بن ثابت العبدي . وقد ضعفه بعض الحفاظ . ورواه غيره من الثقات فوقفوه على فعل ابن عمر . قال البخاري ، وأبو زرعة وابن عدي : هو الصحيح .

وقال البيهقي : رَفْعُ هذا الحديث منكر .

قال ابن كثير : وذكر بعضهم مارواه الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : التيمم ضربتان : ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين . ولكن لا يصح . لأن في إسناده ضعفاً لا يثبت الحديث به . انتهى .

وذلك لأن فيه علي بن ظبيان . قال الحافظ ابن حجر : هو ضعيف ، ضعفه القطان وابن معين وغير واحد. وبه يعلم أن ما استدل به على إيجاب الضربتين ، مما ذكر، ففيه نظر. لأن طرقها جميعها لا تخلو من مقال . ولو صحت لكان الأخذ بها متعينا لما فيها من الزيادة .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٢ ـ باب التيمم في الحضر ، حديث ٣٣٠ .

فصل

ذهب الزهرىّ إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين . ويدل على ذلك ماروى عن عمار بن ياسر قال: تمسّحوا وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصعيد لصلاة الفجر. فضربوا بأكفهم الصعيد ثم مسحوا وجوههم مسحة واحدة . ثم عادوا فضربوا بأكفهم الصعيد مرة أخرى. فمسحوا بأيديهم كلها إلى المناكب والآباط من بطون أيديهم . أخرجه أبو داود[1] .

قال الحافظ فى (الفتح): وأما رواية الآباط فقال الشافعىّ وغيره : إن كان ذلك وقع بأمر النبىّ ﷺ فكل تيمم صح للنبىّ صلى الله عليه وسلم بعده فهو ناسخ له. وإن كان وقع بغير أمره فالحجة فيما أمر به .

فصل

والحق الوقوف فى صفة التيمم على ماثبت فى الصحيحين[2] من حديث عمار، من الاقتصار على ضربة واحدة للوجه والكفين .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ ـ باب التيمم ، حديث ٣١٨ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ٤ ـ باب المتيمم هل ينفخ فيهما ؟ حديث ٢٣٣ ونصه :

عن عبد الرحمن بن أبزى قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى أجنبت فلم أُصب الماء . فقال عمّار بن ياسر لعمر بن الخطاب : أما تذكر أنا كنا فى سفر ، أنا وأنت . فأما أنت فلم تصلّ . وأما أنا فتمعكت فصليت . فذكرت للنبىّ ﷺ . فقال النبىّ ﷺ « إنما كان يكفيك هكذا » فضرب النبىّ ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ، ثم مسح بهما وجهه وكفيه .

وأخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١١٢ (طبعتنا) .

قال عمار : أجنبت فلم أصِب الماء. فتمعكت في الصعيد وصليت. فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فقال : إنما كان يكفيك هكذا . وضرب النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه . متفق عليه . وفي لفظ : إنما كان يكفيك أن تضرب بكفيك في التراب ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك إلى الرسغين. رواه الدارقطنيّ .

وروى الإمام أحمد وأبو داود[1] عن عمار بن ياسر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في التيمم ضربة للوجه واليدين . وفي لفظ : إن النبيّ ﷺ أمره بالتيمم للوجه والكفين. رواه الترمذيّ[2] وصححه .

قال ابن عبد البر : أكثر الآثار المرفوعة عن عمار ضربة واحدة . وما روى عنه من ضربتين فكلها مضطربة . وأما الجواب عن المتفق عليه من حديث عمار بأن المراد منه بيان صورة الضرب ، وليس المراد منه جميع ما يحصل به التيمم ـ فتكلف واضح ، ومخالفة للظاهر .

وقد سرى هذا إلى العلامة السنديّ في (حواشي البخاريّ) حيث كتب على حديث عمار مانصه : قد استدل المصنف (يعني البخاريّ) بهذا الحديث على عدم لزوم الذراعين في التيمم في موضع . وعلى عدم وجوب الضربة الثانية في موضع آخر ، وكذا سيجيء في روايات هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قدم في هذه الواقعة الكفين على الوجه . فاستدل به القائل لعدم لزوم الترتيب. فلعل القائل بخلاف ذلك يقول : إن هذا الحديث ليس مسوقاً لبيان عدد الضربات ولا لبيان تحديد اليد في التيمم ولا لبيان عدم لزوم الترتيب. بل ذلك أمر مفوض إلى أدلة خارجة، وإنما هومسوق لرد مازعمه عمار من أن الجنب يستوعب البدن كله، والقصر في قوله: (إنما كان يكفيك) معتبر بالنسبة إليه . كما هوالقاعدة أن القصر

(١) أخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ ـ باب التيمم ، حديث ٣٢٧ .
(٢) أخرجه الترمذيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١١٠ ـ باب ما جاء في التيمم .

يعتبر بالنظر إلى زعم المخاطب . فالمعنى: إنما يكفيك استعمال الصعيد فى عضوين : وهما الوجه واليد . وأشار إلى اليد بـ(الـكف) . ولا حاجة إلى استعماله فى تمام البدن . وعلى هذا يستدل على عدد الضربات وتحديد اليد ولزوم الترتيب أوعدمه بأدلة أخر. كحديث: التيمم ضربة للوجه وضربة للذراعين إلى المرفقين . وغيرذلك. فإنه صحيح كما نص عليه بعض الحفاظ . وهو مسوق لمعرفة عدد الضربات وتحديد اليد، فيقدم على غير المسوق لذلك. والله تعالى أعلم. انتهى كلامه .

وقوله : فإنه حديث صحيح ، فيه ماتقدم .

وقد قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) فى (فصل هديه ﷺ بالتيمم) مانصه : كان صلى الله عليه وسلم يتيمم بضربة واحدة للوجه والـكفين . ولم يصح عنه أنه تيمم بضربتين ولا إلى المرفقين . قال الإمام أحمد : من قال : إن التيمم إلى المرفقين فإنما هو شىء زاده من عنده. وكذلك كان يتيمم بالأرض التى يصلى عليها. ترابا كانت أوسبخة أو رملًا. وصح عنه أنه قال : حيثما أدركتْ رجلًا من أمتى الصلاةُ فعنده مسجده وطهوره. وهذا نص صريح فى أن من أدركته الصلاة فى الرمل فالرمل له طهور. ولما سافر ﷺ هو وأصحابه فى غزوة تبوك ، قطعوا تلك الرمال فى طريقهم ، وماؤهم فى غاية القلة . ولم يُرْوَ عنه أنه حمل معه التراب ، ولا أمر به، ولا فعله أحد من أصحابه . مع القطع بأن فى المفاوز، الرمالُ أكثر من التراب . وكذلك أرض الحجاز وغيره . ومن تدبر هذا قطع بأنه كان يتيمم بالرمل . والله أعلم . وهذا قول الجمهور .

وأما ما ذكر فى صفة التيمم من وضع بطون أصابع يده اليسرى على ظهور اليمنى ، ثم إمرارها إلى المرفق ، ثم إدارة بطن كفه على بطن الذراع ، وإقامة إبهامه اليسرى كالمؤذن إلى أن يصل إلى إبهامه اليمنى ، فيطبقها عليها ـ فهذا مما يعلم قطعاً أن النبىّ ﷺ لم يفعله . ولا علّمه أحـداً من أصحابه . ولا أمر به ولا استحسنه. وهذا هديه . إليه التحاكم . وكذلك لم يصح عنه التيمم لـكل صلاة . ولا أمر به . بل أطلق وجعله قائما مقام الوضوء . وهذا يقتضى أن يكون حكْمُه حكْمَه ، إلا فيما اقتضى الدليل خلافه. انتهى.

السابعة ـ ذكر هنا الحافظ ابن كثير سبب مشروعية التيمم قال : وإنما ذكرنا ذلك ههنا ، لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة . وبيانه : أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر . والخمر إنما حرم بعد أُحُدٍ بيسير . في محاصرة النبيّ ﷺ لبني النضير . وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل . ولا سيما صدرها . فناسب أن يذكر السبب هنا . وبالله الثقة .

قال الإمام أحمد(١) حدثنا ابن نمير حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة . أنها استعارت من أسماء قلادةً . فهلكت . فبعث رسول الله ﷺ رجالًا في طلبها . فوجدوها . فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء . فصلوا بغير وضوء . فشكوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل التيمم . فقال أسيد بن الحضير ، لعائشة : جزاكِ الله خيراً . فوالله ! ما نزل بك أمر تكرهينه ، إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خيراً .

(طريق أخرى) قال البخاريّ(٢) : حدثنا عبدالله بن يوسف قال: أنبأنا مالك عن عبدالرحمن ابن القاسم عن أبيه ، عن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ ، في بعض أسفاره : حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي . فأقام رسول الله ﷺ على التماسه . وأقام الناس معه . وليسوا على ماء . وليس معهم ماء . فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي ، قد نام . فقال : حبستِ رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ؟ قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول . فجعل يطعنني بيده في خاصرتي . فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رأس رسول الله ﷺ على فخذي . فقام رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٥٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣٠ .

حتى أصبح على غير ماء . فأنزل الله آية التيمم . فتيمموا . فقال أسيد بن الحضير : ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته .

وقد رواه البخارىّ[(١)] أيضا عن قتيبة بن سعيد عن مالك .

ورواه مسلم[(٢)] عن يحيى بن يحيى عن مالك. انتهى كلام ابن كثير .

وأورد الواحدىّ فى (أسباب النزول) هذا الحديث عند ذكر آية النساء أيضاً . وقال ابن العربىّ: لا نعلم أى الآيتين عنت عائشة. قال ابن بطال : هى آية النساء أو آية المائدة . وقال القرطبىّ : هى آية النساء . ووجهه بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء، وآية النساء لا ذكر فيها للوضوء، فيتجه تخصيصها بآية التيمم .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وخفى على الجميع ما ظهر للبخارىّ[(٣)] من أن

---

(١) أخرجه فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ: « لو كنت متخذاً خليلا » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١٠٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٣ ـ باب قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، حديث ٢٣٠ ، حدثنا يحيى بن سليمان ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها : سقطت قلادة لى بالبيداء ونحن داخلون المدينة . فأناخ النبىّ ﷺ ونزل . فثنى رأسه فى حجرى راقدا . أقبل أبو بكر فلكزنى لكزة شديدة وقال: حبست الناس فى قلادة . فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ وقد أوجعنى . ثم إن النبىّ ﷺ استيقظ وحضرت الصبح ، فالتمس الماء فلم يوجد . فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ... الآية .

فقال أسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم .

المراد بها آية المائدة بغير تردد . لرواية عمرو بن الحرث . إذ صرح فيهــا بقوله : فنزلت (يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ) الآية .

وقال الحافظ قبلُ : استدل به (أى بحديث عائشة) على أن الوضوء كان واجباً عليهم قبل نزول آية الوضوء . ولهذا استعظموا نزولهم على غير ماء . ووقع من أبى بكر فى حق عائشة ماوقع. قال ابن عبد البر: معلوم عند جميع أهل المغازى أنه ﷺ لم يصلّ منذ افترضت الصلاة عليه إلا بوضوء. ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند، قال: وفى قوله فى هذا الحديث (آية التيمم) إشارة إلى أن الذى طرأ عليهم من العلم حينئذ حكم التيمم لا حكم الوضوء ، قال : والحكمة فى نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ، ليكون فرضه متلوًّا بالتنزيل .

قال السيوطىّ فى (لباب النقول) بعد تصويب هذا الكلام : فإن فرض الوضوء كان مع فرض الصلاة بمكة . والآية مدنية . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر أيضا فى قول أسيد (ماهى بأول بركتكم) : يشعر بأن هذه القصة كانت بعد قصة الإفك. فيقوّى قول من ذهب إلى تعدد ضياع العقد. وممن جزم بذلك محمد بن حبيب الأخبارىّ فقال : سقط عقد عائشة فى غزوة ذات الرقاع وفى غزوة بنى المصطلق.

وقد روى ابن أبى شيبة من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع ...الحديث . فهذا يدل على تأخرها عن غزوة بنى المصطلق. لأن إسلام أبى هريرة كان فى السنة السابعة ، وهى بعدها بلا خلاف قال : وسيأتى فى المغازى أن البخارىّ يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبى موسى ، وقدومُه كان فى وقت إسلام أبى هريرة . ومما يدل على تأخر القصة أيضا عن قصة الإفك، مارواه الطبرانىّ من طريق عباد بن عبد الله ابن الزبير عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدى ما كان وقال أهل الإفك ماقالوا، خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة أخرى فسقط أيضا عقدى حتى حبس الناس على التماسه . فقال لى أبو بكر : يابنية! فى كل سفرة تكونين عناءً وبلاءً على الناس؟ فأنزل الله عز وجل الرخصة

فى التيمم . فقال أبو بكر : إنك لمباركة (ثلاثاً). وفى إسناده محمد بن حميد الرازىّ وفيه مقال. وفى سياقه من الفوائد بيان عتاب أبى بكر الذى أبهم فى حديث الباب، والتصريح بأن ضياع العقد كان مرتين فى غزوتين. والله أعلم. انتهى كلام الحافظ .

وقال الإمام شمس الدين ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى (غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق): إنها كانت فى شعبان سنة خمس. وبعد ذكرها قال : قال ابن سعد: وفى هذه الغزوة سقط عقد لعائشة فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم. ثم ساق حديث الطبرانىّ المتقدم وقال: هذا يدل على أن قصة العقد التى نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة. وهو الظاهر. ولكن فيها كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه . فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى. انتهى.

وقد روى سبب نزول الآية المذكورة أيضا عن عمار بن ياسر رضى الله عنه[(١)] قال : إن رسول الله ﷺ عرّس بأولات الجيش ومعه عائشة فانقطع عقد لها من جَزْع ظَفَارِ[(٢)] فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء. فتغيظ عليها أبو بكر. وقال: حبست الناس وليس معهم ماء! فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم رخصة التطهُّر بالصعيد الطيب . فقام المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئاً . فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط. ورواه أيضا ابن جرير عن أبى اليقظان رضى الله عنه[(٣)] قال :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢١ ـ باب التيمم، حديث ٣٢٠ .

(٢) فى القاموس : الجزع : الخرز اليمانىّ الصّينى، فيه سواد وبياض . تشبَّه به الأعين. وقال فى اللسان : وظفارِ مثل قطامِ ، مبنية . موضع . وقيل: هى قرية من قرى حِمْيَر إليها ينسب الجَزْع الظفارىّ .

(٣) الأثر ٩٦٧٠ من التفسير .

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلك عقد لعائشة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضاء الصبح . فتغيظ أبو بكر على عائشة . فنزلت عليه الرخصة ، المسح بالصعيد . فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لمباركة. نزل فيك رخصة . فضربنا بأيدينا : ضربة لوجوهنا وضربة لأيدينا إلى المناكب والآباط .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في سبب نزولها وجهاً آخر عن الأسلع بن شريك رضي الله عنه قال : كنت أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصابتني جنابة في ليلة باردة . وأراد رسول الله ﷺ الرحلة فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جنب. وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض. فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها ثم رضفت أحجاراً فأسخنت بها ماءً واغتسلت . ثم لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال: يا أسلع! مالي أرى رحلتك قد تغيرت؟ قلت: يا رسول الله! لم أرحلها. رحلها رجل من الأنصار. قال: ولم ؟ قلت: إني أصابتني جنابة فخشيت القرّ على نفسي، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجارا فأسخنت بها ماءً فاغتسلت به . فأنزل الله عز وجل (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ) إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) .

قال ابن كثير : وقد روي من وجه آخر، عنه .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)

« أَلَمْ تَرَ » من رؤية القلب . وضمن معنى الانتهاء . أي: ألم ينته علمك إليهم . أو من رؤية البصر . أي: ألم تنظر « إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ » أي حظًّا من علم التوراة. وهم أحبار اليهود . قال العلامة أبو السعود : المراد بالذي أوتوه ، ما بيّن لهم فيها من الأحكام والعلوم التي من جملتها ما علموه من نعوت النبيّ ﷺ وحقية الإسلام . والتعبير عنه بالنصيب،

المنبيء عن كونه حقًّا من حقوقهم، التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها ، للإيذان بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعاً . وتنوينه تفخيمىّ مؤيد للتشنيع عليهم ، والتعجيب من حالهم. فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم. والإشعار بمكان ماطوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العوضين « يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ » وهو البقاء على اليهودية ، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوّة الرسول ﷺ ، وأنه هو النبىّ المبشّر به فى التوراة والإنجيل. أى يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهدى ليشتروا ثمناً قليلًا من حطام الدنيا .

وإنما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر . لاسيما بعد الإشعار المذكور . والتعبير عن ذلك بالاشتراء ، الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن ، أى أخذها بدلًا منه ، أخذاً ناشئاً عن الرغبة فيها والإعراض عنه ـ للإيذان بكمال رغبتهم فى الضلالة ، التى حقها أن يعرض عنها كلّ الإعراض . وإعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون . وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم ، وغاية ركاكة آرائهم ـ ما لا يخفى . حيث صورت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز . قاله أبو السعود « وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ » أى لا يكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا ، من كتمان نعوته صلى الله عليه وسلم ، أن تضلوا أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوا ، ويودون لو تكفرون بما أنزل عليكم من الهدى والعلم النافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا)

« وَاللَّهُ أَعْلَمُ » أى منكم « بِأَعْدَائِكُمْ » أى وقد أخبركم بعداوتهم لكم ، وما يريدون بكم ، فاحذروهم . ولا تستنصحوهم فى أموركم ، ولا تستشيروهم « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا » يلى أموركم « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا » ينصركم . أى : فثقوا بولايته ونصرته دونهم.

ولاتتولوا غيره . أو: ولا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء . فإنه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم . ففيه وعد ووعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« مِنَ الَّذِينَ هَادُوا » بيان للموصول وهو (الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ) فإنه متناول لأهل الكتابين . وقد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم ، وتحذيرهم عن مخالطتهم ، والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل ، والاكتفاء بولايته ونصرته . وقوله تعالى « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » هو وما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور ، وتفصيل لفنون ضلالهم . فقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الإبهام ، والتفصيل إثر الإجمال . روماً لزيادة تقرير يقتضيه الحال . أفاده أبو السعود .

قال الإمام ابن كثير : قوله : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) أى يتناولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل ، قصداً منهم وافتراء .

وقال العلامة الرازى : فى كيفية التحريف وجوه : أحدها ـ إنهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر . ثم قال : والثانى ـ أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة وصرف اللفظ من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية . كما يفعله أهل البدعة فى زماننا هذا ، بالآيات المخالفة لمذاهبهم ، وهذا هو الأصح . والثالث ـ أنهم كانوا يدخلون على النبى ﷺ ، ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به . فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه . انتهى .

وقال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى فى (إغاثة اللهفان) : قد اختلف فى التوراة التى بأيديهم . هل هى مبدلة أم التبديل وقع فى التأويل دون التنزيل ؟ على ثلاثة أقوال : قالت طائفة : كلها أو أكثرها مبدل . وغلا بعضهم حتى قال : يجوز الاستجمار بها . وقالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام : إنما وقع التبديل فى التأويل . قال البخارىّ[1] فى (صحيحه) : يحرفون يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله . ولكنهم يتأولونه على غير تأويله . وهو اختيار الرازىّ أيضاً .

وسمعت شيخنا يقول : وقع النزاع بين الفضلاء . فأجاز هذا المذهب ووهّى غيره . فأنكر عليه . فأظهر خمسة عشر نقلًا به . ومن حجة هؤلاء ، أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها . وانتشرت جنوباً وشمالًا . ولا يعلم عدد نسخها إلا الله . فيمتنع التواطؤ على التبديل والتغيير فى جميع تلك النسخ ، حتى لا تبقى فى الأرض نسخة إلا مبدلة . وهذا مما يحيله العقل . قالوا : وقد قال الله لنبيه (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم . ولم يمكنهم تغييرها من التوراة. ولذا لما قرؤوها على النبىّ ﷺ وضع القارئ يده على آية الرجم . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفعها فإذا هى تلوح تحتها . وتوسطت طائفة فقالوا : قد زيد فيها وغُيِّر أشياء يسيرة جداً . واختاره شيخنا فى (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) قال : وهذا كما فى التوراة عندهم : إن الله سبحانه قال لإبراهيم : اذبح إبنك بكرك أو وحيدك ، إسحق . ثم قال : قلت والزيادة باطلة من وجوه عشرة . ثم ساقها فارجع إليه . وقد نقلها عنه هنا الإمام صدّيق خان . فانظره فى تفسيره (فتح الرحمن) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قيل ههنا (عَنْ مَوَاضِعِهِ) وفى المائدة (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)؟ قلت : أما (عَنْ مَوَاضِعِهِ) فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها ، بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه . وأما (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) فالمعنى أنه كانت له مواضع ، هو قَمِنٌ بأن يكون فيها . فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقاره . والمعنيان متقاربان .

وقال الرازى : ذكر الله تعالى ههنا (عَنْ مَوَاضِعِهِ) وفى المائدة (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) والفرق : أنا إذا فسرنا التحريف بالتأويلات الباطلة ، فههنا قوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) معناه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص . وليس فيه بيان أنهم يخرجون تلك اللفظة من الكتاب . وأما الآية المذكورة فى سورة المائدة ، فهى دالة على أنهم جمعوا بين الأمرين. فكانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يخرجون اللفظ أيضاً من الكتاب. فقوله (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ) إشارة إلى التأويل الباطل. وقوله (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) إشارة إلى إخراجه عن الكتاب .

وقال الناصر فى (الانتصاف): الظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد به ، فى هذه الصورة، مثل (غَيْرَ مُسْمَعٍ)و(رَاعِنَا) ولم يقصد ههنا تبديل الأحكام . وتوسطها بين الكلمتين ، بين قوله (يُحَرِّفُونَ) وبين قوله (لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ) والمراد أيضاً تحريف مشاهد بيّن على أن المحرف هما وأمثالهما. وأما فى سورة المائدة فالظاهر ، والله أعلم، أن المراد فيها بـ(الكلم) الأحكام. وتحريفها تبديلها . كتبديلهم الرجم بالجلد . ألا تراه عقبه بقوله (يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) ؟ ولاختلاف المراد بالكلم فى السورتين . قيل فى سورة المائدة: يحرفون الكلم من بعد مواضعه. أى ينقلونه عن الموضع الذى وضعه الله فيه ، فصار وطنه ومستقره ، إلى غير الموضع . فبقى كالغريب المتأسف عليه الذى يقال فيه هذا غريب من بعد مواضعه ومقاره . ولا يوجد هذا المعنى فى مثل (راعنا) و (غير مسمع) وإن وجد

على بعد فليس الوضع اللغوىّ مما يعبأ بانتقاله عن موضعه كالوضع الشرعىّ. ولولا اشتمال هذا النقل على الهزء والسخرية لما عظم أمره. فلذلك جاء هنا (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) غير مقرون بما قرن به الأول من صورة التأسف . والله أعلم. انتهى .

وقال العلامة أبو السعود : والمراد بالتحريف ههنا، إما ما فى التوراة خاصة وإما ماهو أعم منه، ومما سيحكى عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم فى أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا مساغ لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى « وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا » وما بعده، على ماقبله عطفاً تفسيرياً . لأنه يستدعى اختصاص حكم الشرطية الآتية وما بعدها بهنّ من غير تعرض لتحريفهم التوراة . مع أنه معظم جناياتهم المعدودة فقولهم (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) ينبغى أن يجرى على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة. بل وأن يحمل على ماهو أعم من القول الحقيقىّ ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم. أي يقولون فى كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بحضر النبىّ صلى الله عليه وسلم أوْ لا، بلسان المقال أو الحال: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) عناداً أو تحقيقا للمخالفة. انتهى.

قال ابن كثير : ويقولون سمعنا أى: سمعنا ماقلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد. وهذا أبلغ فى كفرهم وعنادهم وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ماعقلوه وهم يعلمون ماعليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة. « وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ » عطف على (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) داخل تحت القول أى: ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبته عليه الصلاة والسلام خاصة. وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر. بأن يحمل على معنى (اسمع)، حال كونك غير مسمع كلاماً أصلا. بصمم أو موت. أى مدعوّاً عليك بلا سمعت . أوغير مسمع كلاماً ترضاه. وللخير بأن يحمل على: اسمع منا غير مسمع مكروهاً. كانوا يخاطبون به النبىّ صلى الله عليه وسلم استهزاءً به (عليهم اللعنة) مظهرين له إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون المعنى الأول مطمئنون به « وَرَاعِنَا » عطف على ماقبله. أى ويقولون فى أثناء خطابهم له ﷺ هذا أيضاً. وهى كلمة ذات وجهين أيضاً محتملة للخير

يحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك. وللشر بحملها على شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابّون بها. أو على السب بالرعونة أي الحمق. وبالجملة فكانوا، سخرية بالدين وهزؤاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام « لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ » أي فتلا بها وصرفاً للكلام من وجه إلى وجه وتحريفاً . أي يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون (رَاعِنَا) موضع (انْظُرْنَا) و (غَيْرَ مُسْمَعٍ) موضع (لا أسمعت مكروها) أو يفتلون بألسنتهم مايضمرونه من الشتم إلى مايظهرونه من التوقير نفاقاً . فإن قلت: كيف جاؤا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ماصرحوا وقالوا (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء. ويجوز أن يقولوه فيما بينهم ويجوز أن لاينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأنهم نطقوا به. كذا في الكشاف .

وأصل (لَيًّا) لوياً لأنه من لويت أدغمت الواو في الياء لسبقها بالسكون. ومثله (الطيّ) « وطَعْناً فِي الدِّينِ » أي قدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على العلّية لـ(يَقُولُونَ) باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين. أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن في الدين . أو على الحالية. أي: لاوين وطاعنين في الدين. أفاده أبو السعود .

« وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا » أي عند ماسمعوا مايتلى عليهم من أوامره تعالى « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » أي بدل قولهم (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) والقول هنا كسابقه أعم من أن يكون بلسان المقال أو بلسان الحال « وَاسْمَعْ » أي لو قالوا عند مخاطبة النبيّ ﷺ بدل قولهم (اسمع) فقط بلا زيادة (غَيْرَ مُسْمَعٍ) المحتمل للشرّ « وَانْظُرْنَا » يعني بدل قولهم (راعنا) المحتمل للمعنى الفاسد كما سلف « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ » في الدنيا بحقن دمائهم وأموالهم وعلوّ رتبتهم بإحاطة الكتب السماوية . وفي الآخرة بضعف الثواب. أفاده المهايميّ .

قال أبو السعود : وصيغة التفضيل إما على بابها واعتبار أصل الفضل في المفضل عليه بناءً على اعتقادهم. أو بطريق التهكم . وإما بمعنى اسم الفاعل «وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ»

أي: ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فطردهم الله عن رحمته وأبعدهم عن الهدى ، بسبب كفرهم « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » منصوب على الاستثناء من (لعنهم) أي ولكن لعنهم الله إلا فريقاً قليلا منهم . آمنوا فلم يلعنوا. أو على الوصفية لمصدر محذوف. أي: إلا إيماناً قليلا أي ضعيفاً ركيكا لا يعبأ به. فإنهم كانوا يؤمنون بالله والتوراة وموسى، ويكفرون ببقية المرسلين وكتبهم المنزلة. ورجّح أبو علي الفارسيّ هذا . قال: لأن (قليلا) لفظ مفرد: ولو أريد به (ناس) لجُمِعَ نحو قوله : إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ [1] . ويمكن أن يجاب عنه بأنه قد جاء فعيل مفردا. والمراد به الجمع قال تعالى: وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً [2]. وقال: وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً [3] يبصرونهم. أفاده الرازيّ. وقد جوز على هذا أن يراد بالقلة العدم بالكلية . كقوله [4]:

قليل التشكي للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤] .

(٢) [٤ / النساء / ٦٩] ونصها : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً.

(٣) [٧٠ / المعارج / ١٠] .

(٤) قائله تأبط شرا ، حماسة أبي تمام رقم ١٣ . ومطلعها :

إني لمهد من ثنائي فقاصد به لابن عم الصدق شمس بن مالك

قال المرزوقيّ في شرح البيت :

المهم يجوز أن يكون من الهمّ الذي هو الحزن، ويجوز أن يكون من الهم الذي هو القصد. يقول : هو صبور على النوائب والعلّات ، لا يكاد يتألم مما يعروه من الملمات . واستعمل لفظ (القليل) والقصد إلى نفي الكل . وهذا كما يقال : فلان قليل الاكتراث بوعيد فلان ، والمعنى : لا يكترث . وعلى ذلك قولهم : قلّ رجل يقول كذا ، وأقل رجل يقول كذا ، والمعنى معنى النفي .

=

أى هو كثير الهم مختلف الوجوه والطرق لايقف أمله على فن واحد بل يتجاوزه إلى فنون مختلفة. صبور على النوائب لا يكاد يتشكى منها . فاستعمل لفظ (قَلِيل) وأراد به نفى الكل . أومنصوب على الاستثناء من فاعل (لَا يُؤْمِنُونَ) أى: فلا يؤمن منهم إلا نفر قليل. وأما قول الخفاجىّ : كان الوجه فيه الرفع على البدل لأنه من كلام غير موجب. وأبى السعود: بأن فيه نسبة القراء إلى الاتفاق على غير المختار ـ فمردود بأن النصب عربىّ جيد . وقد قرئ به فى السبع فى (قَلِيلٌ) من قوله تعالى : مَافَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ[1] وفى (امرأتك) من قوله تعالى : وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ[2] كما قاله ابن هشام فى التوضيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا)

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا » يعنى القرآن «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ»

= وقوله (كثير الهوى) طابَق القليل بقوله (كثير) من حيث اللفظ ، لا أنه أثبت بالأول شيئاً نزرا فقابله بكثير .

(١) [٤ / النساء / ٦٦] ونصها : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً .

(٢) [١١ / هود / ٨١] ونصها : قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .

أى موافقاً للتوراة « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً » أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم . وقال العوفىّ عن ابن عباس: طمسها أن تعمى « فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا » أى فنجعلها على هيئة أدبارها وهى الأقفاء مطموسة مثلها جزاءً على الـكفر . فالفاء للتسبيب. أو ننـكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الأقفاء والأقفاء إلى موضعها. وقد اكتفى بذكر أشدها . فالفاء للتعقيب.

قال الرازىّ:وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة. لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة « أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ » أى: أو نفعل بهم أبلغ من ذلك. وهو أن نطردهم عن الإنسانية بالمسخ الـكلىّ جزاءً على اعتدائهم بترك الإيمان. كما أخزينا به أوائلهم أصحاب السبت جزاء على اعتدائهم على السبت بالحيلة على الاصطياد. فمسخناهم قردة « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ » أى ما أمر به « مَفْعُولًا » أى نافذاً كائنا لا محالة . هذا وفى الآية تأويل آخر. وهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه . وهو صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة. يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم.

قال ابن كثير : وهذا كما قال بعضهم فى قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ[1] : أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى . قال مجاهد : مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً ، يقول: عن صراط الحق . فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ، أى فى الضلال . قال ابن أبى حاتم : وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا . قال السدىّ : فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا : فنمنعها عن الحق، نرجعها كفاراً .

قال الرازىّ: والمقصود على هذا بيان إلقائها فى أنواع الخذلان وظلمات الضلالات . ونظيره قوله تعالى : يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،

(١) [٣٦ / يس / ٨و٩] .

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[(١)] . تحقيق القول فيه أن الإنسان فى مبدأ خلقته ألف هذا العالم المحسوس . ثم إنه عند الفكر والعبودية كأنه يسافر من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات . فقدامه عالم المعقولات ، ووراءه عالم المحسوسات . فالمخذول هو الذى يرد عن قدامه إلى خلفه . كما قال تعالى فى صفتهم : نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ[(٢)] . ثم قال الرازىّ : قال عبد الرحمن بن زيد : هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى . وتأول ذلك فى إجلاء قريظة والنضير إلى الشام . فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء ، من أرض الشام.كما جاءوا منها و(طمس الوجوه) على هذا التأويل يحتمل معنيين : أحدهما ـ تقبيح صورتهم . يقال : طمس الله صورته ، كقوله : قبح الله وجهه . والثانى ـ إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها . وثمة تأويل آخر . وهو : أن المراد بالوجوه الوجهاء . على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير . أى من قبل أن نغيّر أحوال وجهائهم ، فنسلب إقبالهم ووجاهتهم ، ونكسوهم صغاراً وإدباراً .

وقال بعضهم : الأظهر حمل قوله (أَوْ نَلْعَنَهُمْ) الخ على اللعن المتعارف . قال : ألا ترى إلى قوله تعالى : قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ[(٣)] . ففصل تعالى بين اللعن وبين مسخهم قردة وخنازير .

وأقول : لا يخفى أن جميع ما ذكر من التأويلات ، غير الأول ، لايساعده مقام تشديد

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤].

(٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٠] ... ... وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .

الوعيـد ، وتعميم التهديد . فإن المتبادر من اللفظ الحقيقة . ولا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر إرادتها . ولا تعذر هنا . كما أن المتبادر من اللعن ، المشبه بلعن أصحاب السبت ، هو المسخ . وهو الذى تقتضيه بلاغة التنزيل . إذ فيه الترقى إلى الوعيد الأفظع . ولا ننـكر أن تـكون هذه التأويلات مما يشمله لفظ الآية . وإنما البحث فى دعوى إرادتها دون سابقها . فالحق أن المتبادر من النظم الـكريم هو الأول . لأنه أدخـل فى الزجر . ويؤيده ما روى ، أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية . رواه ابن جرير[1] وابن أبى حاتم ولفظه بعد إسناده: عن أبى إدريس عائذ الله الخَوْلانىّ قال : كان أبو مسلم الجليلىّ معلم كعب . وكان يلومه فى إبطائه عن رسول الله ﷺ . قال فبعثه إليه ينظر أهو هو ؟ قال كعب : فركبت حتى أتيت المدينة . فإذا تالٍ يقرأ القرآن ، يقول : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَا . فاغتسلت ، وإنى لأمسّ وجهى مخافة أن أطمس. ثم أسلمت .

وروى، من غير طريق ، نحوه أيضاً .

فإن قيل : قرينة المجاز عدم وقوع المتوعد به . فالجواب : أن عدم وقوعه لا يعين إرادة المجاز . إذ ليس فى الآية دلالة على تحتم وقوعه إن لم يؤمنوا . ولو فهم منها هذا فهما أوليًّا ، لـكان إيمانهم بعدها إيمان إلجاء واضطرار . وهو ينافى التـكليف الشرعىّ . إذ لم تجر سنته تعالى بهذا . بل النظم الـكريم فى هذا المقام محتمل ابتداء للقطع بوقوع المتوعدبه . ولوقوعه معلقاً بأمره تعالى ومشيئته بذلك ، وهو المراد . كما ينبئ عنـه قوله تعالى : وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا[2]: أى مايأمر به ، ويريد وقوعه . وإذا كان الوعيد منوطاً بأمره سبحانه ، فله أن

---

(١) الأثر رقم ٩٧٢٥ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] ونصها : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ =

بمضيه على حقيقته وله أن يصرفه لما هو أعلم به . إلا أن ورود نظم الآية بهذا الخطاب المتبادر في الوقوع غير المعلق ، ليكون أدخل في الترهيب ، ومزجرة عن مخالفة الأمر . هكذا ظهر لنا الآن . وهو أقرب مما نحاه المفسرون هنا من أن العقاب منتظر، أو ، أنه مشروط بعدم الإيمان . إلى غير ذلك . فقد زيفها جميعها العلامة أبوالسعود . ثم اختار أن المراد من الوعيد الأخروى . قال : لأنه لم يتضح وقوعه . وهذا فيه بُعْدٌ أيضاً ، لنبوّ مثل هذا الخطاب عن إرادة الوعيد الأخروى . لاسيما والجملة الثانية التي هددوا بها ، أعنى لعنهم كأصحاب السبت ، كان عقابها دنيويًّا . فالوجه ما قررناه . وماأشبه هذه الآية ، في وعيديها ، بآية يس . أعنى قوله تعالى : وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ[1] . بل هذه عندى تفسير لتلك . والقرآن يفسر بعضه بعضا . فبرح الخفاء والحمد لله .

لطيفة :

الضمير في (نلعنهم) لأصحاب الوجوه . أو (للذين) على طريقة الالتفات أو (للوجوه) إن أريد بها الوجهاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » قال أبو السعود : كلام مستأنف مسوق لتقرير

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

(١) [٣٦ / يس / ٦٦و٦٧] .

ما قبله من الوعيد ، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ، ببيان استحالة المغفرة بدونه. فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون في المغفرة . كما في قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ (١) . يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ (أي على التحريف) وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا . والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً . فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة . وقضى بخلود أصناف الكفرة في النار . ونزوله في حق اليهود ، كما قال مقاتل ، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم . وسياقه لا يقتضي اختصاصه بكفرهم ، بل يكفي اندراجه فيه قطعاً . بل لا وجه له أصلاً . لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر . أي لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وإيمان . لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر . وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدي إلى فتحه . ولأن ظلمات الكفر والمعاصي إنما يسترها نور الإيمان . فمن لم يكن له إيمان لم يغفر له شيء من الكفر والمعاصي . انتهى .

قال الشهاب : الشرك يكون بمعنى اعتقاد أن لله شريكا ، وبمعنى الكفر مطلقاً ، وهو المراد هنا . وقد صرح به في قوله تعالى في سورة (لم يكن) بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا (٢) . فلا يبقى شبهة في عمومه . انتهى .

وقال الرازي : هذه الآية دالة على أن اليهودي يسمى مشركاً ، في عرف الشرع . ويدل عليه وجهان: الأول ـ أن الآية دالة على أن ما سوى الشرك مغفور . فلو كانت اليهودية مغايرة للشرك لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية . وبالإجماع هي غير مغفورة . فدل على أنها داخلة

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٦٩] . . . وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(٢) [٩٨ / البينة / ٦] . . . أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

تحت اسم الشرك . الثانى ـ إن اتصال هـذه الآية بما قبلها ، إنما كان لأنها تتضمن تهديد اليهود . فلولا أن اليهودية داخلة تحت اسم الشرك ، وإلا لم يكن الأمر كذلك . فإن قيل: قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا... إلى قوله : وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا[١] . فعطف المشرك على اليهودىّ ، وذلك يقتضى المغايرة ـ قلنا المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغوىّ . والاتحاد حاصل بسبب المفهوم الشرعىّ . ولا بد من المصير إلا ما ذكرناه ، دفعاً للتناقض. انتهى .

لطيفة :

قال أبو البقاء : الشرك أنواع : شرك الاستقلال وهو إثبات إلٰهين مستقلين . كشرك المجوس . وشرك التبعيض ، وهو تركيب الإله من آلهة كشرك النصارى. وشرك التقريب، وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلفى ، كشرك متقدمى الجاهلية . وشرك التقليد ، وهو عبادة غير الله تبعاً للغير . كشرك متأخرى الجاهلية . وشرك الأسباب . وهو إسناد التأثير للأسباب العادية ، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك . وشرك الأغراض ، وهو العمل لغير الله. فحكم الأربعة الأولى الكفر بإجماع. وحكم السادس المعصية من غير كفر بإجماع. وحكم الخامس التفصيل. فمن قال فى الأسباب العادية إنها تؤثر بطبعها فقد حكى الإجماع على كفره. ومن قال إنها تؤثر بقوة أودعها الله فيها فهو فاسق. انتهى. «وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ» أى مادون الشرك من المعاصى، صغيرة كانت أو كبيرة « لِمَنْ يَشَاءُ » تفضلا منه وإحساناً. قال ابن جرير[٢] : وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فى مشيئة الله عز وجل. إن شاء

(١) [٢٢ / الحج / ١٧] ونصها : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِئِينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) الصفحة رقم ٤٥٠ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه. مالم تكن كبيرته شركا بالله عز وجل اه. وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلا منه ورحمة. وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة. وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة. وقد تقدم قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (١). وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئات من اجتنب الكبائر. فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئاته. ولذا قال الرازي : هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر. ثم جود وجوه الاستدلال . ومنها: أن ماسوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة . ومنها أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به وغير معلق على المشيئة. فوجب أن يكون الغفران المذكور، في هذه الآية، هو غفران الكبيرة قبل التوبة. وهو المطلوب .

وأول الزمخشري هذه الآية على مذهبه : بأن الفعل المنفي والمثبت جميعاً ، موجّهان إلى قوله تعالى (لِمَنْ يَشَاءُ) على قاعدة التنازع . كأنه قيل : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء مادون الشرك. على أن المراد بالأول من لم يتب وبالثاني من تاب. قال: ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله. انتهى .

قال ناصر الدين في (الانتصاف) : عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور البتة . وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له. هذا مع عدم التوبة. وأما مع التوبة فكلاهما مغفور . والآية إنما وردت فيمن لم يتب ولم يذكر فيها توبة كما ترى. فلذلك أطلق الله تعالى نفي مغفرة الشرك وأثبت مغفرة مادونه مقرونة بالمشيئة، كما ترى. فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة. وأما القدرية فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين مادونه من الكبائر. في أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يغفرهما إلا للتائبين. فإذا

(١) [٤ / النساء / ٣١] . . . وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا .

عرض الزمخشرىّ هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونبت عنه. إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه مقرونة بالمشيئة فأما أن يكون المراد فيهما من لم يتب، فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق المغفرة فى أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقاً . إذ هما سيّان فى استحالة المغفرة. وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال فى الشرك (إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ) والتائب من الشرك مغفور له . وعند ذلك أخذ الزمخشرىّ يقطع أحدهما عن الآخر . فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ومع الكبائر التوبة . حتى تنزل الآية على وفق معتقده فيحملها أمرين لا تحمل واحدا منهما : أحدهما ـ إضافة التوبة إلى المشيئة وهى غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر. وأيضا لو كانت مرادة لكانت هى السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلًا. ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم فى العقل . فكيف يليق السكوت عن ذكر ماهو العمدة والموجب ، وذكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الردئ ؟ الثانى ـ أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر. وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى. نعوذ بالله من ذلك .

وأما القدرية فهم بهذا المعتقد يقع عليه بهم المثل السائر (السيد يعطى والعبد يمنع) . لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة للمصرّ على الكبائر ، إن شاء . وهم يدفعون فى وجه هذا التصريح ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح والصلاح، التى هى بالفساد أجدر وأحق. انتهى.

فائدة :

وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة :

الأول ـ عن عائشة(١) قالت : قال رسول الله ﷺ: الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة : ديوان لايعبأ الله به شيئاً . وديوان لايترك الله منه شيئاً . وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان

(١) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

الذى لا يغفره الله فالشرك بالله . قال الله عز وجل : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية. وقال: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ(١) . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه ، أو صلاة تركها. فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز ، إن شاء . وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة . رواه الإمام أحمد . وقد تفرد به .

الثانى ــ عن أنس بن مالك عن النبىّ ﷺ قال : الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله . وظلم يغفره الله . وظلم لا يترك الله منه شيئاً . فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك . وقال : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(٢) . وأما الظلم الذى يغفره الله ، فظلم العباد لأنفسهم ، فيما بينهم وبين ربهم . وأما الظلم الذى لا يتركه ، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض . رواه أبو بكر البزار فى مسنده .

الثالث ــ عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل ذنب عسى الله أن يغفره . إلا الرجل يموت كافرا . أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً . رواه الإمام أحمد(٣) والنسائىّ .

الرابع ــ عن أبى ذر(٤) : أن رسول الله ﷺ قال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله ،

(١) [٥ / المائدة / ٧٢] ونصها : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٤) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ١٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
وأخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ــ كتاب اللباس، ٢٤ ــ باب الثياب البيض، حديث ٦٦٠
ومسلم فى : ١ ــ كتاب الإيمان ، حديث ١٥٤ (طبعتنا) .

ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً) ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر .

قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر .

وكان أبو ذر يحدث بهذا بعدُ ويقول : وإن رغم أنف أبى ذر . أخرجه الإمام أحمد والشيخان .

وفى رواية لهما عن أبى ذر : قال ﷺ : قال لى جبريل : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قلت : يا جبريل ! وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى؟ قال : نعم . وإن شرب الخمر .

الخامس ـ عن جابر قال : جاء أعرابىّ إلى النبىّ ﷺ فقال: يا رسول الله ! ماالموجبتان ؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ومن مات يشرك به دخل النار . أخرجه مسلم[1] وعبد بن حميد فى مسنده .

السادس ـ عن أبى سعيد الخدرىّ[2] قال : قال رسول الله ﷺ : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . رواه الإمام أحمد .

السابع ـ عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال : قال الله عز وجل : من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى . رواه الطبرانىّ .

الثامن ـ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له. ومن توعده على عملٍ عقاباً ، فهو فيه بالخيار . رواه البزار وأبو يعلى .

التاسع ـ عن ابن عمر، قال: كنا ، معشر أصحاب النبىّ ﷺ ، لانشك فى قاتل النفس ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان حديث ١٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وآكل مال اليتيم ، وشاهد الزور ، وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فأمسكنا عن الشهادة . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(١) .

وفي رواية لابن أبي حاتم: فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل.

العاشر ـ عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: مافي القرآن أحبّ إليّ من هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . رواه الترمذيّ(٢) وقال: حديث حسن غريب .

الحادي عشر ـ عن أنس(٣) رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم ! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي . يا ابن آدم ! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي . يا ابن آدم ! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة . رواه الترمذيّ وقال : حديث حسن غريب . لانعرفه إلا من هذا الوجه.

وروى نحوه الإمام أحمد عن أبي ذرّ(٤) ولفظه عن رسول الله ﷺ ، قال : إن الله عز وجل يقول : يا عبدي ! ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك . ويا عبدي ! إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة مالم تشرك بي ، لقيتك بقرابها مغفرة .

والأحاديث في ذلك متوافرة . ويكفي هذا المقدار .

---

(١) الأثر رقم ٩٧٣٢ .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢٣ ـ حدثنا خلاد بن أسلم .

(٣) أخرجه الترمذيّ في : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٩٨ ـ باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ١٥٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً » أى افترى واختلق ، مرتكباً إثما لا يقادر قدره . ويستحقر دونه جميع الآثام . فلا تتعلق به المغفرة قطعاً .

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى فى كتابه (الجواب الكافى) : الشرك بالرب تعالى نوعان: شرك به فى أسمائه وصفاته ، وجعل آلهة أخرى معه . وشرك به فى معاملته . وهـذا الثانى قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره . وهـذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم ، فى خلقه وأمره . فمن كان من أهل هذه الذنوب ، فقد نازع الله ، سبحانه وتعالى ، ربوبيته وملكه . وجعل له ندًّا . وهـذا أعظم الذنوب عند الله . ولا ينفع معه عمل .

وقال بعد ذلك : وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال : إن الله عز وجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ، ليُعرف ويُعبد ويُوحد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له ، والدعوة له . كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(١) . وقال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ(٢) . وقال تعالى : اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً(٣) . وقال تعالى : جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ(٤) . فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ، ويعبد وحده لا يشرك به ،

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٥ / الحجر ٨٥] . . . وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ .

(٣) [٦٥ / الطلاق / ١٢] .

(٤) [٥ / المائدة / ٩٧] .

وأن يقوم الناس بالقسط . وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض . كما قال تعالى[١] : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل . ومن أعظم القسط التوحيد . بل هو رأس العدل وقوامه . وإن الشرك ظلم عظيم . كما قال تعالى[٢] . إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . فالشرك أظلم الظلم . والتوحيد أعدل العدل . فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر . وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له . وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله ، تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، فيما فرض على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى . فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود ، وكان أكبر الكبائر على الإطلاق ، وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله لأهل التوحيد ، وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً ، أو يقبل فيه شفاعة ، أو يستجيب له فى الآخرة دعوة ، أو يقيل له فيها عثرة ـ فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً ، وذلك غاية الجهل به . كما أنه غاية الظلم منه . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه . ووقعت مسألة : وهى أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى . وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء . كحال الملوك . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية . وإنما قصد تعظيمه . وقال : إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى وتدخلنى عليه . فهو المقصود . وهذه وسائل وشفعاء.

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ... وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً فى النار وموجباً لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟ وترتب على هذا سؤال آخر: وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقريب إليه بالشفعاء والوسائط؟ فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول، يمتنع أن تأتى به شريعة، بل جاءت بتقرير ما فى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السبب فى كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب؟ كما قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . فتأمل هذا السؤال. واجمع قلبك وذهنك على جوابه . ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهـل الجنة وأهل النار . فنقول (وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نستمد المعونة والتسديد . فإنه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له . ولا مانع لما أعطى ولا معطى لمـا منع) : الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله . وشرك فى عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبـه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . والشرك الأول نوعان : أحدهما ـ شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك . كشرك فرعون إذ قال(١) وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ وقال تعالى مخبرا عنه أنه قال(٢): وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً . فالشرك والتعطيل متلازمان . فـكل مشرك معطل وكل معطل مشرك . لـكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته . ولـكن عطل حق التوحيد . وأصلُ الشرك وقاعـدته التى ترجع إليها هو التعطيل . وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه . وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله.

(١) [٢٦/ الشعراء / ٢٣] ونصها : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦و٣٧] ... وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد . ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود ، الذين يقولون : ماثَمَّ خالق ومخلوق، ولا ههنا شيئان . بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديّته . وإنه لم يكن معدوماً أصلاً . بل لم يزل ولا يزال . والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها . يسمونها العقول والنفوس . ومن هذا أشرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهميّة والقرامطة . فلم يثبتوا له اسما ولا صفة . بل جعلوا المخلوق أكمل منه . إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثاني . شرك من جعل معه إلٰها آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته . كشرك النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة . فجعلوا المسيح إلٰها وأمه إلٰها . ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة . ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه ، وإنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته . ولهذا كانوا من أشباه المجوس . ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه : إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ (1) . فهذا جعل نفسه نداًّ لله ، يحيي ويميت بزعمه . كما يحيي الله ويميت . فألزمه إبراهيم ، عليه السلام ورحمة الله وبركاته ، أن طَرْد قولك، أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها. وليس هذا

(1) [٢ / البقرة / ٢٥٨] ونصها : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

انتقالاً كمازعم بعض أهل الجدل، بل إلزاما على طرد الدليل إن كان حقاً . ومن هـذا شرك كثير ممن يشرك بالـكواكب العلويات ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم . كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم . ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم . ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة . ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة . ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه، أقبل إليه واعتنى به. ومنهم من يزعم أنه معبودهم الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه . والفوقانىّ يقربه إلى من هو فوقه . حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه . فتارة تـكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا . فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله . وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه . ولـكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته . بل يعمل لحظّ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة . ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فللّه من عمله وسعيه نصيب. ولنفسه وحظه وهواه نصيب. وللشيطان نصيب . وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس. وهو الشرك الذى قال فيه النبىّ ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه[1] : الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. قالوا: وكيف ننجو منه ؟ يارسول الله ! قال : قل: اللهم! إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم .

فالرياء كله شرك . قال تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[2] .

(١) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة ٤٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [١٨ / الـكهف / ١١٠] .

أى كما أنه إله واحد ، لا إله سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده . فكما تفرّد بالإلهية ، يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء ، المقيد بالسنة . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اللهم ! اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً. ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وهذا الشرك فى العبادة يبطل العمل . وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً. فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر . فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة . قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ[1] . فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به. بل الذى أتى به، شيء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه . ويقول الله تعالى[2] : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه . وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور . وأكبر وأصغر. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر . وليس شيء منه مغفورا . فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم بأن يحب المخلوق كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله . وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا[3] الآية .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم : تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[4] . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة . وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوّى مَن خُلِقَ من التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى

(١) [٩٨ / البينة / ٥] . . . وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ.

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٣) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ.

(٤) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨]

العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ـ بالغنىّ بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ فأىّ ظلم أقبح من هذا ؟ وأىّ حكم أشد جورًا منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، كما قال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1] . فعدل المشرك مَن خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه !!

فصل

ويتبع هذا الشرك ، الشرك به سبحانه فى الأقوال والأفعال والإرادات والنيات . فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره ، والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار ، غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبىّ ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها . فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدها من دون الله . وفى الصحيحين[2] عنه أنه قال : لعنة الله على اليهود والنصارى. اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وفى الصحيح[3] عنه :

(١) [٦ / الأنعام / ١] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ حدثنا أبو اليمان ، حديث ٢٨٥و٢٨٦ .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٩ (طبعتنا) .

(٣) رواه أحمد فى المسند بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) . =

إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء . ومن يتخذ القبور مساجد . وفي الصحيح[١] أيضاً عنه : إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد . فإني أنهاكم عن ذلك . وفي مسند الإمام أحمد[٢] رضي الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج . وقال: اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وقال[٣]: إن من كان قبلكم ، إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور . أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر . فكيف حال من سجد للقبر بنفسه ؟ وقد قال النبيّ ﷺ[٤] : اللهم ! لا تجعل قبري وثناً يعبد . وقد حمى النبيّ جانب التوحيد

= وهو في البخاريّ في : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٥ ـ باب ظهور الفتن ، حديث ٢٥٥٠ .
وفي مسلم في : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ١٣١ (طبعتنا) .
وليس فيهما محل الشاهد وهو (والذين يتخذون القبور مساجد) .

(١) أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٢٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، حديث ٢٨١ ونصه :
عن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير . فذكَرَتَا للنبيّ ﷺ فقال « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تيك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .
ومسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مالك في : ٩ ـ كتاب قصر الصلاة في السفر ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

أعظم حماية حتى نهى[١] عن صلاة التطوّع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها . لئلا يكون ذريعة إلى التشبيه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين. وسد الذريعة بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس . وأما السجود لغير الله فقال[٢] : لا ينبغى لأحـد أن يسجد لأحد إلا لله . و (لا ينبغى) فى كلام الله ورسوله ﷺ ـ للذى هو فى غاية الامتناع شرعاً . كقوله تعالى: وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا[٣] . وقوله : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ[٤] . وقوله: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ*وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ[٥] . وقوله عن الملائـكة : مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ[٦] .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٣١ ـ باب لايتحرى الصلاة قبل غروب الشمس، حديث٣٧٩ ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « لاصلاة بعد الصبح حتى ترتفع الشمس ، ولا صلاة بعد العصر حتى تغيب الشمس » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤ ـ باب حق الزوج على المرأة ، حديث ١٨٥٣ (طبعتنا) ونصه : عن عبد الله بن أبى أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبىّ ﷺ . قال « ما هـذا ؟ يا معاذ ! » قال : أتيت الشام فوجدتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم . فوددت فى نفسى أن نفعل ذلك بك . فقال رسول الله ﷺ « فلا تفعلوا . فإنى لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. والذى نفس محمد بيده ! لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها . ولو سألها نفسها ، وهى على قتب ، لم تمنعه » .

(٣) [١٩ / مريم / ٩٢] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٩] ... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠و٢١١] . . . وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .

(٦) [٢٥ / الفرقان / ١٨] ونصها: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ =

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ . كالحلف بغيره . كما رواه أحمد(١) وأبو داود عنه ﷺ ، أنه قال : من حلف بشيء دون الله فقد أشرك . وصححه الحاكم وابن حبان. ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت . كما ثبت عن النبيّ ﷺ(٢) أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت. قال : أجعلتنى لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده . وهذا ، مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة ، كقوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٣) ـ فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك ؟ وأنا فى حسب الله وحسبك ؟ ومالى إلا الله وأنت ؟ وهذا من الله ومنك ؟ وهذا من بركات الله وبركاتك ؟ والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض ؟ أويقول : والله ! وحياة فلان . أو يقول : نذراً لله ولفلان . وأنا تائب لله ولفلان . وأرجو الله وفلاناً ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش؟ يتبين لك أن قائلها أولى لجواب النبيّ ﷺ لقائل تلك الكلمة. وأنه إذا كان قدجعله نداً لله بها، فهذا قدجعل من لا يدانىرسول الله ﷺ فى شيء من الأشياء ، بل لعلهأن يكون من أعدائه ، نداً لرب العالمين . فالسجود والعبادة ، والتوكل والإنابة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذروالحلف ، والتسبيح والتكبير، والتهليل والتحميد ، والاستغفار

= مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا.

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) ونصه : عن ابن عباس أن رجلا قال للنبيّ ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال له النبيّ ﷺ « أجعلتنى والله عَدْلا ؟ بل ما شاء الله وحده » .

(٣) [٨١ / التكوير / ٢٨] .

وحلق الرأس ، خضوعاً وتعبدًا ، والطواف بالبيت ، والدعاء ـ كل ذلك محض حق الله. لا يصلح ولا ينبغي لسواه، من ملك مقرب ولا نبيّ مرسل . وفى مسند الإمام أحمد[١] أن رجلاً أُتى به إلى النبيّ ﷺ قد أذنب ذنباً . فلما وقف بين يديه قال : اللهم ! إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال : قد عرف الحق لأهله .

فصل

وأما الشرك فى الإرادات والنيات ، فذلك البحر الذى لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه. فمن أراد بعمله غير وجه الله ، ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك فى نيته وإرادته . والإخلاص : أن يخلص لله فى أقواله وأفعاله وإرادته ونيته . وهذه هى الحنيفية ، ملة إبراهيم ، التى أمر الله بها عباده كلهم . ولا يقبل من أحد غيرها . وهى حقيقة الإسلام . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ[٢] . وهى ملة إبراهيم عليه السلام، التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور. فنقول (ومن الله وحده نستمد الصواب) : حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به . وهذا هو التشبيه فى الحقيقة . لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصف بها رسول الله ﷺ . فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيماً وطاعة . فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلٰهية .فإن من خصائص الإلٰهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقدشبهه بالخالق. وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولاضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا ، أفضل من غيره . تشبيها بمن له الأمر كله . فأزمّة الأمور كلها بيده ، ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد . وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغنىّ بالذات . ومن خصائص الالٰهية الـكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيـه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تـكون العبادة كلها له وحده . والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلًا وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده . ويمنع عقلًا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له . وذلك أقبح التشبيه وأبطله . ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة. ومن خصائص الإلٰهية العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما : غاية الحب مع غاية الذل . هـذا تمام العبودية . وتفاوتُ منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه . وهـذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع . وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولـكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، واجتالتهم عنها . ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى . فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرتهم وعقولهم . فازدادوا بذلك نوراً على نور . يهدى الله لنوره من يشاء .

إذا عرف هذا ، فمن خصائص الإلٰهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل . فمن توكل علىغيره فقد شبهه به . ومنها التوبة . فمن تاب لغيره فقد شبهه به. ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . وأما

فى جانب التشبه به، فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم، والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاءً ، والتجاء واستعانة ، فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلٰهيته . وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان . ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه . وفى الصحيح[(١)] عنه ﷺ قال: يقول الله عز وجل: العظمة إزارى والكبرياء ردائى. فمن نازعنى واحداً منهما عذبته. وإذا كان المصور، الذى يصنع الصورة بيده، من أشد الناس عذابا يوم القيامة، لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة ـ فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والإلٰهية، كما قال النبىّ ﷺ[(٢)]: أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون. يقال لهم : أحيوا ماخلقتم . وفى الصحيح[(٣)] عنه ﷺ أنه قال :

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، ٣٨ ـ باب تحريم الكبر، حديث ١٣٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه . فمن ينازعنى عذبته » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٥ ـ باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله ، حديث ١٢٢٣ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىّ النبىّ ﷺ وفى البيت قرام فيه صور . فتلوّن وجهه ، ثم تناول الستر فهتكه . وقالت: قال النبىّ ﷺ « من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، الذين يصورون هذه الصور » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٩٠ ـ باب نقض الصور ، حديث ٢٣٠٨ ونصه :

عن أبى زُرعة قال : دخلت مع أبى هريرة داراً بالمدينة . فرأى أعلاها مصوِّرا يصور . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة » .

قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي؟ فليخلقوا ذرة . فليخلقوا شعيرة . فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما وأكبر . والمقصود أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة. فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟ وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده . كملك الأملاك وحاكم الحكام ونحوه. وقد ثبت في الصحيح[1] عنه ﷺ أنه قال : إن أخنع الأسماء عند الله رجل يتسمى بشاهان شاه ملك الملوك. ولا ملك إلا الله . وفي لفظ: أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك . فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له . فهو سبحانه ملك الملوك وحده . وهو حاكم الحكام وحده . فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ، ويقضي عليهم كلهم، لا غيره.

تنبيه :

حيثما وقع في حديث : من فعل كذا فقد أشرك . أو فقد كفر ـ لا يراد به الكفر المخرج عن الملة ، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذي تجري عليه أحكام الردة ، والعياذ بالله تعالى . وقد قال البخاري[2] : باب كفران العشير وكفر دون كفر .

قال القاضي أبو بكر ابن العربي في (شرحه) : مراده أن يبيّن أن الطاعات ، كما تسمى إيماناً، كذلك المعاصي تسمى كفراً . لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد عليه الكفر المخرج عن الملة . فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة ، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١١٤ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله ، حديث ٢٣٦٧ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أخنع الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى بملك الأملاك » .

قال سفيان (أحد رجال السند) : يقول غيره تفسيره : شاهانْ شاهْ .

(٢) صحيح البخاري : ٢ـ كتاب الإيمان، ٢١ ـ باب كفران العشير وكفر دون كفر.

صاحبه مشركا أوكافراً، فإنه يعذر بالجهل والخطأ ، حتى تتبين له الحجة ، الذى يكفر تاركها، بياناً واضحاً مايلتبس على مثله . وينكر ماهو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جليًّا قطعياً . يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل . كما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى. ولم يخالف فى ذلك إلا أهل البدع. قال الشيخ تقىّ الدين فى (كتاب الإيمان): لم يكفّر الإمام أحمد الخوارج ولا المرجئة ولا القدرية . وإنما المنقول عنه وعن أمثاله تكفير الجهمية . مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية . ولا كل من قال : أنا جهمىّ ـ كفّره . بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم ، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة . ولم يكفرهم أحمد وأمثاله بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم ويرى لهم الائتمام بالصلاة خلفهم، والحج والغزو معهم ، والمنع من الخروج عليهم بما يراه لأمثالهم من الأئمة. وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذى هو كفر عظيم. وإن لم يعلموا هم أنه كفر . كان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان . فيجمع بين طاعة الله ورسوله ﷺ فى إظهار السنة والدين وإنكار بدع الجهمية الملحدين ، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالًا مبتدعين . وظلمة فاسقين . انتهى كلام الشيخ . فتأمله تأملا خالياً عن الميل والحيف .

وقال الشيخ تقىّ الدين أيضاً: من كان فى قلبه الإيمان بالرسول وبما جاء به، وقد غلط فى بعض ما تأوله من البدع ولو دعا إليها ، فهذا ليس بكافر أصلًا. والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالًا للأمة وتكفيرا لها . ولم يكن فى الصحابة من يكفرهم، لا علىّ ولا غيره. بل حكموا فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين المعتدين. كما ذكرت الآثار عنهم بذلك فى غير هذا الموضع. وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقة ، من كان منهم منافقاً فهو كافر فى الباطن . ومن كان مؤمناً بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافراً فى الباطن . وإن كان أخطأ فى التأويل كائناً ما كان خطؤه . وقد يكون فى بعضهم شعبة من النفاق . ولا يكون فيه

النفاق الذى يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار. ومن قال: إن الثنتين والسبعين فرقة، كل واحد منهم يكفر كفرا ينقل عن الملة ، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة . بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة . فليس فيهم من كفّر كل واحدمن الثنتين والسبعين فرقة . انتهى .

وقال ابن القيّم فى طرق أهل البدع : الموافقون على أصل الإسلام ولكنهم مختلفون فى بعض الأصول ، كالخوارج والمعتزلة والقدرية والرافضة والجهمية وغلاة المرجئة ـ فهؤلاء أقسام : أحدها ـ الجاهل المقلد الذى لا بصيرة له . فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى . وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان . القسم الثانى ـ متمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق . ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورياسته ولذاته ومعاشه . فهذا مفرّط مستحق للوعيد ، آثم بترك ما أوجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته . فهذا ، إن غلب ما فيه من البدعة والهوى ، على مافيه من السنة والهدى ، ردّت شهادته . وإن غلب مافيه من السنة والهدى ، على ما فيه من البدعة والهوى، قبلت شهادته . الثالث ـ أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويترك ، تعصباً أو معاداة لأصحابه . فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً . وتكفيره محل اجتهاد . انتهى كلامه . فانظره وتأمله . فقد ذكر هذا التفصيل فى غالب كتبه . وذكر أن الأئمة وأهل السنة لا يكفرونهم . هذا مع ما وصفهم به من الشرك الأكبر ، والكفر الأكبر . وبين فى غالب كتبه مخازيهم . ولنذكر من كلامه طرفاً تصديقاً لما ذكرنا عنه . قال رحمه الله فى (المدارج): المثبتون للصانع نوعان : أحدهما ـ أهل الإشراك به فى ربوبيته وإلٰهيته. كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية . فإنهم يثبتون مع الله إلٰهاً آخر . والمجوسية القدرية تثبت مع الله خالقاً للأفعال . ليست أفعالهم مخلوقة لله ولا مقدورة له . وهى صادرة بغير مشيئته تعالى وقدرته . ولا قدرة له عليها. بل هم الذين جعلوا أنفسهم فاعلين مريدين شيّائين . وحقيقة قول هؤلاء : إن الله ليس ربًّا خالقاً لأفعال الحيوان . انتهى كلامه . وقد ذكرهم بهذا الشرك فى سائر كتبه . وشبههم

بالمجوس الذين يقولون : إن للعالم خالقين . وانظر لما تكلم على التكفير هو وشيخه ، كيف حكيا عدم تكفيرهم عن جميع أهل السنة . حتى مع معرفة الحق والمعاندة . قال : كفره محل اجتهاد . كما تقدم كلامه قريباً .

وقال ابن تيمية ، وقد سئل عن رجلين تكلما في مسألة التكفير. فأجاب وأطال . وقال في آخر الجواب : لو فرض أن رجلًا دفع التكفير عمن يعتقد أنه ليس بكافر، حماية له ونصراً لأخيه المسلم، لكان هذا غرضاً شرعيًّا حسناً . وهو إذا اجتهد في ذلك فأصاب فله أجران . وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر . وقال رحمه الله : التكفير إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة . أو بإنكار الأحكام المتواترة المجمع عليها . وسئل أيضا ، قدس الله روحه ، عن التكفير الواقع في هذه الأمة ، مَنْ أَوَّل مَنْ أحدثه وابتدعه ؟ فأجاب : أول من أحدثه في الإسلام المعتزلة . وعنهم تلقاه من تلقاه. وكذلك الخوارج هم أول من أظهره . واضطرب الناس في ذلك . فمن الناس من يحكي عن مالك فيه قولين . وعن الشافعيّ كذلك . وعن أحمد روايتان . وأبو الحسن الأشعريّ وأصحابه لهم قولان . وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قد يكون كفراً. فيطلق القول بتكفير قائله . ويقال: من قال كذا فهو كافر . لكن الشخص المعين الذي قاله لا يكفر حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، من تعريف الحكم الشرعيّ ، من سلطان ، أو أمير مطاع . كما هو المنصوص عليه في كتب الأحكام . فإذا عرفه الحكم وزالت عنه الجهالة قامت عليه الحجة . وهذا كما هو في نصوص الوعيد من الكتاب والسنة. وهي كثيرة جداً . والقول بموجبها واجب على وجه العموم . والإطلاق ، من غير أن يعين شخص من الأشخاص ، فيقال : هذا كافر أو فاسق أو ملعون أو مغضوب عليه أو مستحق للنار ، لاسيما إن كان للشخص فضائل وحسنات ـ فإن ماسوى الأنبياء يجوز عليهم الصغائر والكبائر . مع إمكان أن يكون ذلك الشخص صديقاً أو شهيدا أو صالحاً . كما قد بسط في غير هذا الموضع . من أن موجب الذنوب تتخلف عنه بتوبة أو باستغفار أو حسنات ماحية

أومصائب مكفرة أوشفاعة مقبولة أو لمحض مشيئة الله ورحمته . فإذا قلنا بموجب قوله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا[١] الآية ، وقوله : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[٢] .وقوله : وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ[٣] الآية . وقوله : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ـ إلى قوله ـ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْماً[٤] الآية . إلى غير ذلك من آيات الوعيد ، وقلنا بموجب قوله ﷺ : لعن الله من شرب الخمر[٥] أو من عقّ والديه[٦] أو من غير منار الأرض[٧] أو من ذبح لغير الله أو لعن الله السارق أو لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه

(١) [٤ / النساء / ٩٣] ونصها : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ١٠] .

(٣) [٤ / النساء / ١٤] . . . يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٤) [٤ / النساء / ٣٠] . . . فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ٢ ـ باب العنب يعصر للخمر ، حديث ٣٦٧٤ .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ١٠ ـ باب ماقيل فى شهادة الزور، حديث ١٢٩١ ونصه: عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال النبىّ ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » (ثلاثا) قالوا : بلى ، يا رسول الله ! قال « الإشراك بالله وعقوق الوالدين » وجلس وكان متكئا فقال « ألا، وقول الزور » قال فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

ولم أعثر على حديث فيه لعن عاق والديه. وإذا كان العقوق من أكبر الكبائر فأقل مايستحقه العاقّ هو اللعن .

(٧) أخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ٤٣ (طبعتنا) وهذا نصه :=

أو لعن الله لاوى الصدقة والمتعدى فيها أو من أحدث[1] فى المدينـة حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائـكة والناس أجمعين ، إلى غير ذلك من أحاديث الوعيد ـ لم يجز أن تعين شخصاً، ممن فعل بعض هذه الأفعال، وتقول: هذا المعين قد أصابه هذا الوعيد. لإمكان التوبة وغيرها من مسقطات العقوبة . إلى أن قال : ففعل هذه الأمور ممن يحسب أنها مباحة باجتهاد أو تقليد ونحو ذلك ، وغايته أنه معذور من لحوق الوعيد به لمانع ، كما امتنع لحوق الوعيد بهم لتوبة أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو غير ذلك. وهذه السبيل هى التى يجب اتباعها. فإن ماسواها طريقان خبيثان : أحدهما ـ القول بلحوق الوعيد بكل فرد من الأفراد بعينه . ودعوى أنها عمل بموجب النصوص . وهـذا أقبح من قول الخوارج المـكفرين بالذنوب ،

= عن أبى الطفيل عامر بن واثلة قال : كنت عند علىّ بن أبى طالب ، فأتاه رجل فقال : ما كان النبىّ ﷺ يسرّ إليك ؟ قال فغضب وقال : ما كان النبىّ ﷺ يسرّ إلىّ شيئا يكتمه الناس . غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع . قال فقال : ما هنّ ؟ ياأمير المؤمنـين ! قال : قال « لعن الله من لعن والده . ولعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا. ولعن الله من غيّر منار الأرض».

وحديث ٤٤ رواية أخرى ونصها :

سمعته يقول « لعن الله من ذبح لغير الله . ولعن الله من آوى محدثا . ولعن الله من لعن والديه . ولعن الله من غيّر منار الأرض »

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، ١ ـ باب حرم المدينة ، حديث ١٧٤ عن أنس رضى الله عنـه عن النبىّ ﷺ قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا (انظر تحقيق معنى : من كـذا إلى كذا ، فى تعليقنا على صحيح مسلم بالصفحة ٩٩٥ ، طبعتنا) لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث حدثا فعليه لعنة الله والملائـكة والناس أجمعين » .

والمعتزلة وغيرهم . وفساده معلوم بالاضطرار . وأدلته معلومة فى غير هذا الموضع . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق . لكن الشخص المعين الذى فعله لا يشهد عليه بالوعيد . فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار ، لفوات شرط أو لحصول مانع . وهكذا الأقوال الذى يكفر قائلها. قد يكون القائل لها لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق . وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده . أو لم يتمكن من معرفتها وفهمها . أو قد عرضت له شبهات يعذره الله بها . فمن كان مؤمناً بالله وبرسوله ، مظهراً للإسلام، محبًّا لله ورسوله، فإن الله يغفر له لو قارف بعض الذنوب القولية أو العملية . سواء أطلق عليه لفظ الشرك أو لفظ المعاصى . هـذا الذى عليه أصحاب رسول الله ﷺ وجماهير أئمة الإسلام . لكن المقصود أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل ، بالفرق بين النوع والعين . بل لا يختلف القول عن الإمام أحمد وسائر أئمة الإسلام كمالك وأبى حنيفة والشافعىّ ، أنهم لا يكفرون المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل. ونصوصهم صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم . وإنما كان الإمام أحمد يطلق القول بتكفير الجهمية لأنه ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم ، وأنه يدور على التعطيل. وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة . لكن ما كانوا يكفرون أعيانهم . فإن الذى يدعو إلى القول أعظم من الذى يقوله ولا يدعو إليـه . والذى يعاقب مخالفه أعظم من الذى يدعو فقط . والذى يكفّر مخالفه أعظم من الذى يعاقب . ومع هـذا فالذين من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق . وإن الله لا يرى فى الآخرة . وإن ظاهر القرآن لا يحتج به فى معرفة الله ، ولا الأحاديث الصحيحة . وإن الدين لا يتم إلا بما زخرفوه من الآراء والخيالات الباطلة والعقول الفاسدة . وأن خيالاتهم وجهالاتهم أحكم فى دين الله من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وأن أقوال الجهمية والمعطلة من النفى والإثبات أحكم فى دين الله . بسبب ذلك امتحنوا المسلمين وسجنوا الإمام أحمد وجلدوه وقتلوا جماعة وصلبوا آخرين . ومع ذلك لا يطلقون أسيراً ولا يعطون من بيت

المال إلا من وافقهم ويُقِرّ بقولهم. وجرى على الإسلام منهم أمور مبسوطة في غير هذا الموضع. ومع هذا التعطيل الذى هو شر من الشرك ، فالإمام أحمد ترحّم عليهم واستغفر لهم ، وقال : ما علمت أنهم مكذبون للرسول ﷺ ، ولا جاحدون لما جاء به . لكنهم تأوّلوا فأخطأوا . وقلدوا من قال ذلك . والإمام الشافعيّ لما ناظر حفص الفرد ، من أئمة المعطلة ، في مسألة (القرآن مخلوق) قال له الإمام الشافعيّ : كفرت بالله العظيم . فكفّره ولم يحكم بردته بمجرد ذلك . ولو اعتقد ردته وكفره لسعى في قتله . وأفتى العلماء بقتل دعاتهم مثل غيلان القدريّ والجعد بن درهم وجهم بن صفوان إمام الجهمية وغيرهم . وصلى الناس عليهم ودفنوهم مع المسلمين . وصار قتلهم من باب قتل الصائل . لكفّ ضررهم ، لا لردتهم . ولو كانوا كفاراً لرآهم المسلمون كغيرهم . وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع . وقال ابن القيّم في (شرح المنازل) : أهل السنة متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة، من وجهين مختلفين . ويكون محبوباً لله ومبغوضاً من وجهين . بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب من الآخر . فيكون إلى أهله كما قال تعالى : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ(١) . وقال : وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . فأثبت لهم، تبارك وتعالى، الإيمان مع مقارنة الشرك . فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان. وإن كان تصديق برسله وهم يرتكبون لأنواعٍ من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل واليوم الآخر ـ فهم مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر. وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] ونصها : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

ودخولهم الجنة ، لِمَا قام بهم من السببين . قال : وقال ابن عباس ، فى قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس بكفر ينقل عن الملة . إذا فعله فهو به كفر . وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر . وكذلك قال طاوس وعطاء . انتهى كلامه .

وقال الشيخ تقىّ الدين: كان الصحابة والسلف يقولون: إنه يكون فى العبد إيمان ونفاق. وهذا يدل عليه قوله عز وجل : هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ(٢) . وهذا كثير فى كلام السلف . يبيّنون أن القلب يكون فيه إيمان ونفاق . والكتاب والسنة يدل على ذلك. ولهذا قال النبىّ ﷺ(٣) : يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل قليل لم يخلد فى النار . وإن كان معه كثير من النفاق ، فهذا يعذب فى النار على قدر ما معه ثم يخرج . إلى أن قال : وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] ونصها: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٦٧] ونصها : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٢١ .

وهو حديث طويل جدا ، عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه ، فلا يفتك الاطلاع عليه فإنه قَمِنٌ بذلك.

شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر وشعبة من شعب النفاق . وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذى ينقل عن الإسلام بالكلية . كما قال الصحابة ، ابن عباس وغيره: كفر دون كفر . وهذا عامة قول السلف. انتهى .

فتأمل هذا الفصل وانظر حكايتهم الإجماع من السلف . ولا تظن أن هذا فى المخطىء . فإن ذلك مرفوع عنه إثم خطئه كما تقدم مراراً عديدة .

وقال الشيخ تقىّ الدين فى كتاب (الإيمان) : الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن . وإن المنافقين الذين قالوا : ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(١) ، هم فى الظاهر مؤمنون يصلون مع المسلمين ويناكحونهم ويوارثونهم . كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ . ولم يحكم النبىّ ﷺ فيهم بحكم الكفار المظهرين الكفر لا فى مناكحتهم ولا فى موارثتهم ولا نحو ذلك . بل لما مات عبدالله بن أُبَىّ، وهو من أشهر الناس فى النفاق ، وَرِثَهُ عبد الله ابنه ، وهو من خيار المؤمنين . وكذلك سائر من يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون . وإذا مات لهم وارث ورثوه مع المسلمين وإن علم أنه منافق فى الباطن . وكذلك كانوا فى الحدود والحقوق كسائر المسلمين . وكانوا يغزون مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومنهم مَنْ هَمّ بقتل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . ومع هذا ، ففى الظاهر ، تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان . إلى أن قال : ودماؤهم وأموالهم معصومة ولا يستحل منهم ما يستحل من الكفار . والذين يظهرون أنهم مؤمنون ، بل يظهرون الكفر دون الإيمان ، فإنه ﷺ قال(٢) : أمرت أن أقاتل الناس

(١) [٢ / البقرة / ٨] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٥ ـ باب على ما يقاتل المشركون ، حديث ٢٦٤١ وهذا نصه :

حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها . وحسابهم على الله . وكما قال لأسامة(١) : أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال : فقلت : إنما قالها تعوذاً . قال : هل شققت عن قلبه ؟ وقال(٢) : إنى لم أؤمر أن أنقب عن

= عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن يستقبلوا قبلتنا ، وأن يأكلوا ذبيحتنا ، وأن يصلوا صلاتنا . فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها : لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين » .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥٨ (طبعتنا) ونصه :

عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية . فصبّحنا الحُرُقات من جهينة . فأدركت رجلا فقال : لا إله إلا الله . فطعنته، فوقع فى نفسى من ذلك . فذكرته للنبىّ ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « أقال : لا إله إلا الله وقتلته ؟ » قال قلت : يا رسول الله ! إنما قالها خوفاً من السلاح قال: « أشققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ » فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٦١ ـ باب بعث علىّ بن أبى طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضى الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث ١٤٨١ ونصه:

عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بعث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهَيْبة فى أديم مقروظ ، لم تحصَّل من ترابها . قال فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل . والرابع ، إما علقمة ، وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء . قال فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ، يأتينى خبر السماء صباحاً ومساءً ؟ » قال فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، =

قلوب النــاس ولا أشق بطونهم . وكان إذا استؤذن فى قتل رجـل يقول : أليس يصلى ؟ أليس يشهد ؟ فإذا قيل له : إنه منافق ، قال ذلك . فـكان حكمه فى دمائهم وأموالهم كحـكمه فى دماء غيرهم ولا يستحل منها شيئاً مع أنه يعلم نفاق كثير منهم . انتهى كلام الشيخ .

وقد أوضح حجة الإسلام الغزالىّ رضى الله عنه فى (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) الـكفر المخرج عن الملة، والعياذ بالله تعالى ، بعد مقدمته المدهشة بقوله : لعلك تشتهى أن تعرف حد الـكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين . فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض . ولـكنى أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعـكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تـكفير الفرق وتطويل اللسان فى أهـل الإسلام . وإن اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صادقين بها غير مناقضين لها . فأقول : الـكفر هو تـكذيب الرسول عليه السلام فى شىء مما جاء به . والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به . فاليهودىّ والنصرانىّ كافران لتـكذيبهما للرسول عليه السلام. والبرهمىّ كافر بالطريق الأولى. لأنه أنـكر ، مع رسولنا، سائر المرسلين . والدهرىّ كافر بالطريق الأولى ، لأنه أنـكر ، مع رسولنا المرسل ، سائر الرسل . وهـذا لأن الـكفر حكم شرعىّ كالرق والحرية مثلًا .

= مشمّر الإزار، فقال : يا رسول الله ! اتق الله . قال « ويلك! أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ » قال ثم ولى الرجل .

قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ! ألا أضرب عنقه ؟ قال « لا. لعله أن يكون يصلى » فقال خالد : وكم من مصلّ يقول بلسانه ماليس فى قلبه ! قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « إنى لم أومر أن أنقُب قلوب الناس ولا أشق بطونهم » .

قال ثم نظر إليه وهو مقفٍّ فقال: « إنه يخرج من ضئضئ هـذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم . يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (وأظنه قال) لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » .

إذ معناه . إباحة الدم والحكم بالخلود فى النار . ومدركه شرعىّ فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص. وقد وردت النصوص فى اليهود والنصارى . والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية . وكلهم مشركون . فإنهم مكذبون للرسول . فكل كافرمكذب للرسول، وكل مكذب فهو كافر . فهذه هى العلامة المطردة المنعكسة .

وتتمة هذا البحث فى هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه فاضل. فارجع إليه . وعض بنواجذك عليه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ » تعجيب من تمادحهم بالتزكية التى هى التطهير والتبرئة من القبيح فعلًا وقولًا ، المنافية لما هم عليه من الطغيان والشرك الذى قصه تعالى عنهم قبل . فالمراد بهم اليهود . وقد حكى تعالى عنهم أنهم يقولون : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ[(١)] . وحكى عنهم أيضاً أنهم قالوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً[(٢)] . وأنهم قالوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى[(٣)] . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس

---

(١) [٥ / المائدة / ١٨] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ١١١] ونصها : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

قال: كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لاخطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله: إنى لاأطهر ذا ذنب بآخر لاذنب له. وأنزل الله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ . أى انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هم فيه من الكفر والإثم العظيم. أو من ادعائهم تكفير ذنوبهم مع استحالة أن يُغْفَرَ للكافر شيء من كفره أو معاصيه . وقوله تعالى « بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » تنبيه على أن تزكيته هي المعتد بها دون تزكية غيره . فإنه العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حَسَن وقبيح. وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين .

تنبيه :

قال الزمخشرى : يدخل فى الآية كل من زكى نفسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت: أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١]: والله! إنى لأمين فى السماء، أمين فى الأرض ؟ قلت : إنما قال ذلك حين قال له المنافقون: اعدل فى القسمة ، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه . وشتان من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم اهـ .

وقد ورد فى ذم التمادح والتزكية أحاديث كثيرة . منها عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال[٢] : سمع النبى ﷺ رجلًا يثنى على رجل ويطريه فى المدح فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل . متفق عليه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه[٣] أن رجلًا ذكر عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً

(١) انظر تفصيل ذلك بالحاشية رقم ٢ ص١٣١٧.

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٤ ـ باب ما يكره من التمادح ، حديث ١٢٩٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٤ ـ باب ما يكره من التمادح ، حديث ١٢٩٤ .

فقال النبيّ ﷺ : ويحك! قطعت عنق صاحبك (يقوله مراراً) إن كان أحدكم مادحاً، لامحالة ، فليقل : أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك . وحسيبه الله . ولا يزكى على الله أحداً . متفق عليه . وعن همّام بن الحرث عن المقداد رضى الله عنه[١] أن رجلًا جعل يمدح عثمان رضى الله عنه . فعمد المقداد فجثا على ركبتيه . فجعل يحثو فى وجهه الحصباء . فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا فى وجوههم التراب . رواه مسلم .

وقال الإمام أحمد[٢] : حدثنا معتمر عن أبيه عن نعيم بن أبى هند قال: قال عمر بن الخطاب : من قال : أنا مؤمن فهو كافر . ومن قال : هو عالم ، فهو جاهل . ومن قال : هو فى الجنة فهو فى النار . ورواه ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز عن عمر أنه قال: إن أخوف ماأخاف عليكم إعجاب المرء برأيه . فمن قال إنه مؤمن فهو كافر. ومن قال هو عالم فهو جاهل . ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار .

وروى الإمام أحمد عن معبد الجهنيّ قال: كان معاوية قلّما كان يحدث عن النبيّ ﷺ . قال : وكان قلّما يدع، يوم الجمعة، هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبيّ ﷺ ، يقول : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين . وإن هذا المال حلو خضر فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه. وإياكم والتمادح فإنه الذبح .

وروى ابن ماجة عنه[٣] : إياكم والتمادح فإنه الذبح .

وروى ابن جرير بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال[٤] : إن الرجل ليغدو بدينه ثم

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٩ (طبعتنا) .

(٢) لم أعثر عليه فى المسند . فمن ظفر به فليثبته ههنا .

(٣) أخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٣٦ ـ باب المدح ، حديث ٣٧٤٣ (طبعتنا) .

(٤) الأثر رقم ٩٤٧٧ .

يرجع ومامعه منه شيء. يلقى الرجل ليس يملك له نفعا ولا ضرًّا فيقول له: والله ! إنك لذيت وذيت فلعله أن يرجع ولم يَحْلَ من حاجته بشيء، وقد أسخط الله عليه ، ثم قرأ : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ...الآية « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » عطف على جملة قد حذفت، تعويلا على دلالة الحال عليها وإيذاناً بأنها غنية عن الذكر. أي يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب فتيلًا ،أي أدنى ظلم وأصغره . والفتيل الخيط الذي في شق النواة أومايفتل بين الأصابع من الوسخ . يضرب به المثل في القلة والحقارة . وقيل : التقدير ، يُثَابُ المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلًا . ولا يساعده مقام الوعيد . قاله أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً)

« انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » أي في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى(١) وقولهم : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً (٢) واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة . وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً ، في قوله : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ(٣) ...الآية .

---

(١) [٢ / البقرة / ١١١] وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢/البقرة/١٣٤] ونصها: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

قال العلامة أبو السعود : (كيف) نصب إما على التشبيه بالظرف أو بالحال. والعامل (يفترون) وبه تتعلق (على) أي: في أي حال أو على أي حال يفترون عليه تعالى الكذب. والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها . والجملة في محل النصب بعد نزع الخافض و(النظر) متعلق بهما. وهو تعجيب إثر تعجيب. وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجيب : ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه . وافتراؤهم على الله سبحانه . فإن ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه إياهم. تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . ولكون هذا أشنع من الأول جرماً، وأعظم قبحاً لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ، ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه ـ وَجّه النظر إلى كيفيته تشديداً للتشنيع وتأكيداً للتعجيب . والتصريحُ بالكذب ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً ، للمبالغة في تقبيح حالهم « وَكَفَىٰ بِهِ » أي بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام « إِثْماً مُبِيناً » ظاهراً بيناً كونه إثماً. والمعنى: كفى ذلك وحده في كونهم أشد إثماً من كل كَفَّار أثيم. أو في استحقاقهم لأشد العقوبات . ثم حكى تعالى عن اليهود نوعاً آخر من المكر . وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين ، تعصباً وعناداً ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ » أي علماً بالتوراة الداعية إلى التوحيد وترجيح أهله. والكفر بالجبت والطاغوت. ووصفهم بما ذكر، من إيتاء النصيب، لما مر من منافاته

لما صدر عنهم من القبائح « يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » الجبت يطلق ، لغة، على الصنم والكاهن والساحر والسحر والذى لا خير فيه وكل ما عبد من دون الله تعالى . وكذا الطاغوت. فيطلق على الكاهن والشيطان وكل رأس ضلال والأصنام وكل ماعبد من دون الله ومَرَدَة أهل الكتاب . كما فى القاموس. « وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى أشركوا بالله ، وهم كفار مكة ، أى لأجلهم وفى حقهم « هَٰؤُلَاءِ » يعنونهم « أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا » بالله وحده « سَبِيلًا » أى أرشد طريقة . وإيرادهم بعنوان الإيمان ليس من قِبَل القائلين ، بل من جهة الله تعالى ، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئة لمن رَجَّحَ عليهم المتصفين بأقبح القبائح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » أى أبعدهم عن رحمته وطَرَدهم « وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ » أى يبعده عن رحمته « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » يدفع عنه العذاب دنيويًّا كان أو أخرويًّا . لا بشفاعة ولا بغيرها .

قال الرازىّ : إنما استحقوا هذا اللعن الشديد لأن الذى ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجرى مجرى المكابرة. فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالًا ممن لا يرضى بمعبود غير الله ؟ ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، كيف يكون أقل حالًا ممن كان بالضد فى كل هذه الأحوال ؟

وقد روى الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية ، قال: أنتم خير . قال فنزلت فيهم: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ[1] .

---

(١) [١٠٨ / الكوثر / ٣] .

ونزل : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ـ إلى ـ نَصِيرًا .

وقال الإمام ابن إسحق رضى الله عنه : حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حُيَيّ بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبى الحقيق وأبو عامر ووحوح ابن عامر وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بنى وائل وكان سائرهم من بنى النضير . فلماقدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله عز وجل : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ... إلى قوله عز وجل وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً. وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة. لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين. وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاؤا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبيّ ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فَكَفَى اللهُ شَرَّهُمْ . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا[1] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا)

« أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » . لما ذم سبحانه اليهود بتزكيتهم أنفسهم وتفضيلهم المشركين على الموحدين، شرع فى تفصيل بعض آخر من مثالبهم. وهو وصفهم بالبخل والحسد اللذين هما شر خصلتين . و (أم) منقطعة . والهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك، والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف. أى لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحدًا مقدار نقير لفرط بخلهم . و (النقير) النقرة فى ظهر النواة

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٥] .

وهو مثل فى القلة والحقارة . كالفتيل والقطمير . والمراد بالملك إما ملك أهل الدنيا وإما ملك الله . كقوله تعالى : قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ(١) .

وقال أبو السعود : وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم . وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ؟ ويجوز أن لاتكون الهمزة لإنكار الوقوع بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه . أى لعده منكرا غير لائق بالوقوع . على أن الفاء للعطف والإنكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى : أَلَهُمْ نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرًا؟ كما تقول لغنىّ لا يراعى أباه : أَ لَكَ هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئًا ؟ وفائدة (إذن) تأكيد الانكار والتوبيخ . حيث يجعلون ثبوت النصيب سبباً للمنع مع كونه سبباً للإعطاء. وهى ملغاة عن العمل . كأنه قيل : فلايؤتون الناس إذن : وقرىء : (فإذن لا يؤتوا) بالنصب على إعمالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَاءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ ءَاتَيْنَاءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيماً)

« أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ » منقطعة أيضاً مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق، أعنى البخل ، إلى توبيخهم بالحسد . وهما شر الرذائل كما قدمنا . وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً . واللام فى (الناس) للعهد والإشارة إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين .

وروى الطبرانىّ بسنده عن ابن عباس فى هذه الآية قال : نحن الناس دون الناس . والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٠] ... وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا .

قال الرازىّ : وإنما حسن ذكر الناس لإرادة طائفة معينة من الناس. لأن المقصود من الخلق إنما هو القيام بالعبودية كما قال تعالى(١) : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. فلما كان القائمون بهذا المقصود ليس إلا محمداً ﷺ ومن كان على دينه ـ كان هو وأصحابه كأنهم كل الناس . فلهذا حسن إطلاق لفظ (الناس) وإرادتهم على التعيين « عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وهو النبوة والكتاب والرشد وإزدياد العز والنصر يوماً فيوماً. وقوله تعالى « فَقَدْ ءَاتَيْنَا » تعليل للإنكار والاستقباح وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم . وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم، المبنيَّيْن على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابراً عن كابر . وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر . والمعنى : أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان . فإنا قد آتينا من قبل هذا « ءَالَ إِبْرَاهِيمَ » الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء أعمامه « الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » النبوة « وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً » لا يقادَر قدره . فكيف يستبعدون نبوته ويحسدونه على إيتائها ؟ أفاده أبو السعود .

قال الرازىّ : إن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة . فكلما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم . ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب فى الدين . ثم إنه تعالى أعطاها لمحمد صلى الله عليه وسلم وضم إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولةً وأعظم شوكةً وأكثر أنصاراً وأعواناً . فلما كانت هذه النعم سبباً لحسد هؤلاء ، بَيَّنَ تعالى ما يدفع ذلك فقال : فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً . والمعنى : أنه حصل فى أولاد إبراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك وأنتم لا تتعجبون من ذلك ولا تحسدونهم . فلم تتعجبون من حال محمد صلى الله عليه وسلم ولِمَ تحسدونه ؟

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)

« فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ » حكاية لما صدر عن أسلافهم . أى: فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل إبراهيم. ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنـه . وهو منهم ومن جنسهم . أى من بنى إسرائيل . وقد اختلفوا عليهم . فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل ؟ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك وأبعد عما جئتهم به من الهدى والحق المبين . وفيـه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك ديدنهم المستمر « وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا » أى ناراً مسعّرة يعذبون بها على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله . ثم أخبر تعالى عما يُعَاقِبُ به فى نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا » أى عظيمة هائلة « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ » أى احترقت احتراقاً تامًّا « بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » أى ليدوم لهم . وذلك أبلغ فى العذاب للشخص . لأن إحساسه لعمل النـار فى الجلد الذى لم يحترق ، أبلغ من إحساسه لعملها فى المحترق .

تنبيه :

لهم فى التبديل وجهان : الأول ـ أنه تبديل حقيقىّ مادىّ . فيُخْلَق مكانها جلودٌ أُخَر جديدة مغايرة للمحترقة. الثانى ـ أنه تبديل وصفىّ: أى أعدنا الجلود جديدة مغايرة للمحترقة

صورة . وإن كانت عينها مادةً . بأن يزال عنها الاحتراق ليعود إحساسها للعذاب . فلم تبدل إلا صفتها، لا مادتها الأصلية . وفيه بُعْدٌ . إذ يأباه معنى التبديل .

وقال الرازيّ : يمكن أن يقال: هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع. كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام : كلما انتهى فقد ابتدأ . وكلما وصل إلى آخره فقد ابتدأ من أوله . فكذا قوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ) الآية. يعني: كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة . بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا . فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه . انتهى .

وهذا أبعد مما قبله . إذ ليس لنا أن نعدل في كلام الله تعالى عن الحقيقة إلى المجاز ، إلا عند الضرورة . لاسيما وقد روى عن السلف، صحابةً وتابعين ، أنهم يبدلون في اليوم أو الساعة مرات عديدة . كما رواه ابن جرير(١) وغيره مفصَّلًا . « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً » لا يمتنع عليه ما يريد « حَكِيماً » فيما يقضيه . ومنه هذا التبديل . إذ لايتم تخليد العذاب الموعود، على الكفر الذى لاينزجرون عنه ، بالعذاب المنقطع. وعداً لابد من إيفائه . ثم بيّن مآل أهل السعادة فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » أي بمحمد ﷺ والقرآن وجملة الكتب والرسل « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم بالإخلاص « سَنُدْخِلُهُمْ » أي في الآخرة « جَنَّاتٍ » أي بساتين « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أي من تحت شجرها وقصورها « الْأَنْهَارُ »

---

(١) انظر الصفحة ٤٨٥ وما بعدها من الجزء الثاني من التفسير (طبعة المعارف) .

أى أنهار الخمر واللبن والعسل والماء « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » أى مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها « لَهُمْ فِيهَا » أى الجنة « أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أى من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة « وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا » أى كِنًّا كنينًا لاتنسخه الشمس ، ولاحرّ فيه ولا برد. و (ظليل) صفة مشتقة من لفظ (الظل) لتأكيد معناه ، كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم . وفى الصحيحين(١) عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : إن فى الجنة لشجرة يسير، الراكب الجوادَ المضمَّرَ السريعَ، مائة عام ما يقطعها . وفيهما(٢) أيضاً من رواية أبى هريرة رضى الله عنه قال : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » هـذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٦١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٨ ـ باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ١٥٣٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة » . واقرؤا إن شئتم : وَظِلٍّ مَمْدُودٍ [٥٦ / الواقعة / ٣٠] .

قال أبو السعود : فى تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار ، من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه . وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة . كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم : من حقوق الله تعالى وحقوق العباد . سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية. وإن ورد فى شأن عثمان بن طلحة . انتهى .

أى لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . كما تقرر فى الأصول . وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها . الأبرار منهم والفجار ، كما قال ابن المنذر . وفى حديث سمرة(١) : إن رسول الله ﷺ قال : أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك . رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

قال الحافظ ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة . واسم أبى طلحة عبدالله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبدالدار بن قصىّ بن كلاب القرشىّ العبدرىّ حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم . أسلم عثمان هذا فى الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبى طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذ كافراً . وإنما نبهنا على هذا النسب لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا . وسبب نزولها فيه : لما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم

---

(١) قال الأخ الأستاذ أحمد محمد شاكر فى حاشية عمدة التفسير ، بالصفحة ٢٠٢ من الجزء الثالث ما نصه :

هكذا قال الحافظ ابن كثير. وأرى أنه وهم رحمه الله . فإنى لم أجده من حديث سمرة قط. لا فى المسند ولا فى غيره . ولكن رواه أبو داود : ٣٥٣٥ . والترمذىّ ٢ : ٢٥١ ـ ٢٥٢ (أعنى فى: ١٢ ـ كتاب البيوع، ٣٨ ـ باب حدثنا أبو كريب) من حديث أبى هريرة...الخ.

الفتح ثم رده عليه. قال محمد[1] بن إسحق (فى غزوة الفتح) : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له. فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفّ له الناس فى المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له. صدق وعده. ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده. أَلَا كلُّ مَأْثُرة أو دم أو مال يُدَّعى ، فهو تحت قدمىّ هاتين: إلّا سِدَانَةَ البيت وسِقاية الحاج . وذكر بقية الحديث فى خطبة النبىّ ﷺ يومئذ . إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد. فقام إليه علىّ بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده . فقال: يارسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية. صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له . فقال: هاك مفتاحك، ياعثمان ! اليوم يومُ برٍّ ووفاء .

وروى ابن جرير[2] عن ابن جريج، فى الآية قال : نزلت فى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة. قبض منه النبىّ ﷺ مفتاح الكعبة . ودخل به البيت يوم الفتح . فخرج وهو يتلو هذه الآية: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . فدعا عثمان إليه . فدفع إليه المفتاح . قال : وقال عمر بن الخطاب (لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكعبة وهو يتلو هذه الآية: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا): فداه أبى وأمى. ماسمعته يتلوها قبل ذلك .

قال السيوطىّ: ظاهر هذا أنها نزلت فى جوف الكعبة . انتهى.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الصفحة ٥٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) وصفحة ٨٢٠ و٨٢١ (طبعة جوتنجن) .

(٢) الأثر رقم ٩٨٤٦

وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب أن هذه الآية نزلت فى الأمراء . يعنى الحكام بين الناس .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب ردّ كل أمانة من وديعة وقراض وقرض وغير ذلك . واستدل المالكية، بعموم الآية، على أن الحربىّ إذا دخل دارنا بأمان فأودع وديعة ثم مات أو قتل ، إنه يجب رد وديعته إلى أهله. وأن المسلم إذا استدان من الحربىّ بدارالحرب ثم خرج، يجب وفاؤه . وأن الأسير إذا ائتمنه الحربىّ على شيء لايجوز له أن يخونه . وعلى أن من أودع مالاً وكان المودع خانه قبل ذلك ، فليس له أن يجحده كما جحده . ويوافق هذه المسألة حديث : أدّ الأمانة إلى من ائتمنك . ولا تخن من خانك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، فى هذه الآية قال : مبهمة للبر والفاجر . يعنى عامة .

وقد أخرج ابن جرير(١) وغيره أنها نزلت فى شأن مفتاح الكعبة. لما أخذه النبىّ صلى الله عليه وسلم من عثمان بن طلحة . واختار مارواه علىّ وغيره أنها خطاب لولاة المسلمين . أمروا بأداء الأمانة لمن ولوا عليه. فيستدل بالآية على أن على الحكام والأئمة ونظار الأوقاف أداء الحقوق المتعلقة بذممهم من تولية المناصب وغيرها إلى من يستحقها. كما أن قوله تعالى : وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . أمرٌ لهم بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها . وحيث كان المأمور به ههنا مختصاً بوقت المرافعة، قيد به . بخلاف المأمور به أولاً . فإنه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق إطلاقاً . وأصل العدل هو المساواة فى الأشياء. فكل ماخرج عن الظلم والاعتداء سمى عدلاً .

روى الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص(٢) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا .

(١) انظر الصفحة ٤٩٢ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخدرىّ[1] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الناس إلى الله يوم القيامه وأدناهم عنده مجلساً : إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً : إمام جائر. وروى الحاكم والبيهقىّ بسند صحيح عن ابن أبى أوفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى مع القاضى مالم يجر . فإذا جار تبرأ الله منه وألزمه الشيطان .

قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه فى رسالته (السياسة الشرعية) بعد الخطبة : هذه الرسالة مبنية على آية الأمراء فى كتاب الله تعالى. وهى قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... الآية. قال العلماء: نزلت فى ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . ثم قال : وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها : والحكم بالعدل ، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة . ثم قال : أما أداء الأمانات ففيه نوعان : أحدهما ـ الولايات وهو كان سبب نزول الآية . فإن النبىّ ﷺ لما فتح مكة وتسلم مفاتيح الكعبة من بنى شيبة وطلبها العباس ليجمع له بين سقاية الحاج وسدانة البيت فأنزل الله هذه الآية . فرد مفاتيح الكعبة إلى بنى شيبة . فيجب على ولىّ الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل . قال النبىّ ﷺ : من وَلِىَ من أمر المسلمين شيئاً ، فولّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين . رواه الحاكم فى صحيحه . وفى رواية : من قلد رجلاً عملا على عصابة، وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه ، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلًا لمودة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين . فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار ، من الأمراء الذين هم نواب ذى السلطان والقضاة . ومن أمراء الأجناد ومقدمى

(١) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام. ٤ ـ باب ما جاء فى الإمام العادل .

العساكر الكبار والصغار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التى للمسلمين . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده ، وينتهى ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمراء الحاج والبُرُد وخزان الأموال ونقباء العساكر الكبار والصغار وعرفاء القبائل والأسواق .

على كل من ولى شيئاً من أمور المسلمين من الأمراء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده ، فى كل موضع ، أصلح من يقدر عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طَلَبَ أو سَبَقَ فى الطلب . بل ذلك سبب المنع . فإن فى الصحيح[1] عن النبىّ ﷺ : أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال : إنا لا نولى أمرنا هذا مَنْ طلبه .

وقال[2] لعبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن ! لاتسأل الإمارة . فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها . أخرجاه فى الصحيحين .

---

(١) جاء فى معناه حديث رواه البخارىّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام، ٧ ـ باب ما يكره من الحرص على الإمارة ، حديث ١١٢٩ ونصه :

عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : دخلت على النبىّ ﷺ ، أنا ورجلان من قومى . فقال أحد الرجلين : أمِّرْنا يا رسول الله ! وقال الآخر مثله . فقال « إنا لا نولى هذا من سأله ولا من حرص عليه » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٥ ـ باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها . و ٦ ـ باب من سأل الإمارة وكل إليها ، حديث ٢٤٨٨ ونصه :

عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبىّ ﷺ « يا عبد الرحمن ! لا تسأل الإمارة . فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفِّر عن يمينك وأْت الذى هو خير » .

وقال[١] : من طلب القضاء واستعان عليه وُكِل إليه . ومن لم يطلبه ولم يستعن عليه أنزل الله إليه ملكاً يسدده . رواه أهل السنن . فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما ، أو ولّاه عتاقة أو صداقة أو موافقة في مذهب أو بلد أو طريقة أو جنس ، كالعربية والفارسية والتركية والرومية . أو لرشوة يأخذها منه من ماله أو منفعة . أو غير ذلك من الأسباب . أو لضغن في قلبه على الأحق . أو عداوة بينهما ـ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[٢] .

ثم قال الله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[٣] . فإن الرجل لحبه لولده أو عتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أمانته . وكذلك قد يؤثر زيادة حفظه أو ماله بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة مَنْ يُدَاهِنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته . ثم إن المؤدى الأمانة ، مع مخالفة هواه ، يثيبه الله فيحفظه في أهله وماله بعده . والمطيع لهواه يعاقبه بنقيض قصده . فيذل أهله ويذهب ماله . وفي ذلك الحكاية المشهورة : إن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدّث بما أدرك . فقال : أدركت عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ! أفقرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم . وكان في مرض موته ، فقال: أدخلوهم عليّ . فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً . ليس فيهم بالغ . فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : والله ! يا بنيّ ! ما منعتكم حقًّا هو لكم . ولم أكن بالذي

(١) أخرجه أبو داود في: ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ٣ ـ باب في طلب القضاء والتسرع إليه ، حديث ٣٥٧٨ . عن أنس بن مالك .

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٧] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٢٨] .

آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم . وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين . وإما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله . قوموا عنى .

قال : ولقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فى سبيل الله . يعنى أعطاها لمن يغزو عليها .

قلت : هـذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق ببلاد الترك إلى أقصى المغرب بالأندلس وغيرها من جزيرة قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها ، إلى أقصى اليمن . وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئاً يسيراً، يقال أقل من عشرين درهماً .

قال : وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركتَه بنوه . فأخذ كل واحـد ستمائة ألف دينار . ولقد رأيت بعضهم يتكفّف الناس، أى يسألهم بكفه . وفى هذا الباب من الحـكايات والوقائع المشاهدة فى الزمان، والمسموعة عما قبله، عبرة لـكل ذى لب . وقد دلت سنة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة يجب أداؤها، فى موضع مثل ما تقدم . ومثل قوله لأبى ذر رضى الله عنه فى الإمارة : إنها أمانة وإنها يوم القيامة حسرة وندامة. إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه . فيما رواه مسلم[(١)] .

وروى البخارى[(٢)] فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ قال : إذا

(١) أخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ! ألا تستعملنى ؟ قال فضرب بيده على منـكبى ثم قال « يا أبا ذر ! إنك ضعيف . وإنها أمانة . وإنها يوم القيـامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها » .

(٢) أخرجه فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢ ـ باب من سئل علما وهو مشتغل فى حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل ، حديث ٥٢ ونصه :

عن أبى هريرة قال : بينما النبىّ ﷺ فى مجلس يحدّث القوم جاءه أعرابىّ فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليـه وسلم يحدّث . فقال بعض القوم : سمع ما قال =

ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قيل : يا رسول الله ! وما إضاعتها ؟ قال : إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة .

وقد أجمع المسلمون على هذا .

ثم قال ابن تيمية رحمه الله : القسم الثانى ـ أمانات الأموال كما قال الله تعالى فى الديون : فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ(١) . ويدخل فى هذا القسم الأعيان والديون الخاصة والعامة . مثل رد الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك . وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض وصدُقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك . وقد قال الله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * ـ إلى قوله ـ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٢) . وقال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً(٣) . أى لا تخاصم عنهم .

= فكره ماقال . وقال بعضهم : بل لم يسمع . حتى إذا قضى حديثه قال « أين أراه السائل عن الساعة ؟ » قال : هأنا يا رسول الله ! قال « فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتها ؟ قال « إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة » .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

(٢) [٧٠ / المعارج / ١٩ ـ ٣٢] .

(٣) [٤ / النساء / ١٠٥] .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم[١]: المؤمن من أمِنه الناس على دمائهم وأموالهم . والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. والمهاجر من هاجر مانهى الله عنه. والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله . وهو حديث صحيح، بعضه فى الصحيحين وبعضه فى سنن الترمذىّ . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم[٢]: من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله . رواه البخارىّ .

---

(١) جاء فى الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٢ ـ باب ما جاء فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ».

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وجاء فى النسائىّ فى : ٤٧ ـ كتاب الإيمان ٨ ـ باب صفة المؤمن ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

وجاء فى ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب حرمة دم المؤمن وماله ، حديث ٣٩٣٣ (طبعتنا) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « كل المسلم على المسلم حرام . دمه وماله وعرضه . وحديث ٣٩٣٤ عن فضالة بن عُبيد أن النبىّ ﷺ قال « المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ».

وجاء فى البخارىّ : فى ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٤ ـ باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، حديث ١٠ ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما ، عن النبىّ ﷺ قال « المسلم من سلم المسلمون من يده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »

وجاء فى الترمذىّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضائل الجهاد ، ٢ ـ باب ما جاء فى فضل من مات مرابطا ، عن فضالة بن عُبَيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « المجاهد من جاهد نفسه ».

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٤٣ ـ كتاب الاستقراض وأداء الديون، ٢ ـ باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ، حديث ١١٨٨ ، عن أبى هريرة .

وإذا كان الله تعالى قد أوجب أداء الأمانات التي قبضت بحق ، ففيه تنبيه على وجوب أداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم. وكذلك أداء العارية . ولينظر تتمة هذا البحث في الرسالة المذكورة . فإن الوقوف عليها من المهمات. «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» أي نعم ما يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة . و(ما) إما منصوبة موصوفة بـ (يعظكم) أو مرفوعة موصولة . كأنه قيل نعم شيئا يعظكم به. أو نعم الشيء الذي يعظكم به . والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعائهم إلى الامتثال بالأمر « إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً» لأقوالكم في الأمانات والأحكام «بَصِيرًا» بأفعالكم فيهما . فإن سمع ورأى خيراً جازاكم عليه خير الجزاء. وإن سمع ورأى شرًّا جازاكم عليه. فهو وعد ووعيد. وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي يونس قال : سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا- إلى قوله- سَمِيعاً بَصِيرًا. ويضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه ويقول : هكذا سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقرؤها ويضع إصبعه .

وقال أبو زكريا : وصفه لنا المقرى ووضع أبو زكريا إبهامه الأيمن على عينه اليمنى . والتي تليها على الأذن اليمنى. وأرانا، فقال : هكذا . وهكذا رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وابن مردويه في تفسيره .

وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة. واسمه سليم بن جبير. أفاده ابن كثير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »

اعلم أنه تعالى ، لما أمر الرعاة والولاة بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل ، أمر الرعية من الجيوش وغيرهم بطاعة أولى الأمر الفاعلين لذلك فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك . إلا أن يأمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

قال الرازىّ : قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة . فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا . وقد روى الطبرىّ(١) بسند صحيح عن أبى هريرة : إن أولى الأمر هم الأمراء . واحتج له الشافعىّ بأن قريشاً ومن يليها من العرب كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون إلى أمير . فأمروا بالطاعة لمن ولى الأمر ، والانقياد له إذا بعثهم فى السرايا ، وإذا ولاهم البلاد . فلا يخرجوا عليهم ولا يمتنعوا عليهم، لئلا تفترق الكلمة . ولذلك قال(٢) صلى الله عليه وسلم : من أطاع أميرى فقد أطاعنى. متفق عليه . وفى البخارىّ(٣) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدىّ إذ بعثه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سرية .

قال ابن كثير : وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة وقال الترمذىّ : حديث حسن غريب . ولا نعرفه إلا من حديث ابن جريج .

---

(١) الأثر رقم ٩٨٥٦.

(٢) أخرجه البخارىّ فى:٩٣ـ كتاب الأحكام، ١ـ باب قول الله تعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، حديث ١٤٠٩ ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله . ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى ».

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١١ ـ باب قوله : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، حديث ١٩٩١ .

وروى الطبرى[(١)] عن السدّى أنها نزلت فى قصة جرت لعمار بن ياسر مع خالد بن الوليد. وكان خالد أميراً . فأجار عمار رجلاً بغير أمره . فتخاصما وارتفعا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم. فأجاز أمَانَ عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير .

قال ابن كثير : وهكذا رواه ابن أبى حاتم من طريق عن السدّى مرسلاً . ورواه ابن مردويه عن السدّى عن أبى صالح عن ابن عباس. فذكره بنحوه . اهـ .

ولا تنافى بين الروايتين لما أسلفناه فى مقدمة التفسير فى بحث سبب النزول. فتذكر .

---

(١) الأثر ٩٨٦١ ونصه :

حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن مفضل قال : حدثنا أسباط ، عن السدّى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » قال : بعث رسول الله ﷺ سريّة عليها خالد بن الوليد ، وفيها عمار بن ياسر . فساروا قِبَلَ القوم الذين يريدون . فلما بلغوا قريبا منهم عرّسوا . وأتاهم ذو العُيَيْنَتَيْنِ (الجاسوس) فأخبرهم فأصبحوا قد هربوا . غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ثم أقبل يمشى فى ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد . فسأل عن عمار ابن ياسر فأتاه فقال: ياأبا اليقظان ! إنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وإن قومى لما سمعوا بكم هربوا ، وإنى بقيت . فهل إسلامى نافعى غدا ، وإلا هربت؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم . فأقام . فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحدا غير الرجل . فأخذه وأخذ ماله . فبلغ عمارا الخبر . فأتى خالدا فقال : خلّ عن الرجل فإنه قد أسلم ، وهو فى أمان منى . فقال خالد : وفيم أنت تجير ؟ فاستبّا وارتفعا إلى النبىّ ﷺ . فأجاز أمان عمار ، ونهاه أن يجير الثانية على أمير . فاستبا عند رسول الله ﷺ فقال خالد : يا رسول الله ! أتترك هذا العبد الأجدع يسبنى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا خالد ! لا تسب عمارا فإنه من سب عمارا سبه الله . ومن أبغض عمارا أبغضه الله . ومن لعن عمارا لعنه الله ».

فغضب عمار فقام . فتبعه خالد حتى أخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضى عنه .

فأنزل الله تعالى قوله : أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ .

وقال الزمخشرىّ : المراد بأولى الأمرمنكم ، أمراء الحق . لأن أمراء الجور ، الله ورسوله بريئان منهم . فلا يعطفون على الله ورسوله فى وجوب الطاعة لهم . وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثارالعدل واختيار الحق والأمر بهما والنهى عن أضدادهما. كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان . وكان الخلفاء يقولون : أطيعونى ما عدلت فيكم . فإن خالفت فلا طاعةلى عليكم. وفى الصحيحين[١] عن علىّ رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما الطاعة فى المعروف . وروى الإمام أحمد[٢] عن عمران بن حصين عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: لاطاعة فى معصية الله .

لطيفة :

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : النكتة فى إعادة العامل فى الرسول دون أولى الأمر ، مع أن المطاع فى الحقيقة هو الله تعالى ـ كون الذى يعرف به مايقع به التكليف هما القرآن والسنة . فكان التقدير: وأطيعوا الله فيما قضى عليكم فى القرآن، وأطيعوا الرسول فيمابين لكم من القرآن وما ينصه عليكم من السنة . والمعنى : أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحى المتعبّد بتلاوته . وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحى الذى ليس بقرآن .

---

(١) أخرجه فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، حديث ١٩٣٣ ونصه .عن علىّ رضى الله عنه قال : بعث النبىّ ﷺ سرية وأمّرعليهم رجلا من الأنصار . وأمرهم أن يطيعوه . فغضب عليهم وقال : أليس قد أمر النبىّ ﷺ أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى . قال : قد عزمت عليكم لما جمعتم حطبا وأوقدتم نارا ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطبا فأوقدوا (نارا) فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض. قال بعضهم: إنما تبعنا النبىّ ﷺ فرارا من النار، أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه. فذكر للنبىّ ﷺ فقال « لو دخلوها ماخرجوا منها أبدا . إنما الطاعة فى المعروف ».

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٢٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ).

ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بني أمية . لما قال له : أليس الله أمركم أن تطيعونا في قوله : (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)؟ فقال له : أليس قد نزعت عنكم ، يعني الطاعة ، إذا خالفتم الحق بقوله : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ؟

قال الطيبيّ : أعاد الفعل في قوله (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة. ولم يعده في أولي الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته . ثم بين ذلك بقوله : فإن تنازعتم في شيء . كأنه قيل فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم وردُّوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله . انتهى .(ج ١٣ ص ٩٩)

تنبيه :

يشمل عموم قوله (وَأُولِي الْأَمْرِ) العلماء . كما روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه يعني أهل الفقه والدين . وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصريّ وأبو العالية . وهذا ليس قولاً ثانياً في الآية بل هو مما يشمله لفظها . فهي عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء وإن نزلت على سبب خاص . وقد كثرت الأوامر بطاعة العلماء كالأمراء . قال تعالى : لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ[(١)]. وقال تعالى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[(٢)]. وقال تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ[(٣)] . وفي الحديث

(١) [٥ / المائدة / ٦٣] ونصها : لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

(٢) [١٦ / النحل ٤٣] ونصها: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٨٣] .

الصحيح المتفق على صحته عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] : من أطاعني فقد أطاع الله. ومن عصاني فقد عصى الله. ومن أطاع أميري فقد أطاعني . ومن عصى أميري فقد عصاني . وروى أبو داود[2] عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وروى البخاري[3] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة . والأحاديث في هذا كثيرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (الحسبة في الإسلام) : وقد أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من المؤمنين. وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام . فلهذا كان أولو الأمر صنفين : العلماء والأمراء . فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه[4] (للأحمسية لما سألته مابقاؤنا

---

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٠٩ ـ باب يقاتل من وراء الإمام ويُتقَى به ، حديث ١٤٠٩ ونصه : عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله . ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني . وإنما الإمام جُنَّة يقاتَل من ورائه ويُتقى به . فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا . وإن قال بغيره فإن عليه منه .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨٧ ـ باب في الطاعة ، حديث ٢٦٢٦

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، حديث ٤٣٤

(٤) أخرج الدارمي في مسنده : المقدمة، ٢٣ ـ باب في كراهية أخذ الرأي . ونصه: =

على هذا الأمر ؟) قال : ماستقامت لـكم أئمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان وكل من كان متبوعاً فإنه من أولى الأمر . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى عنه . وعلى كل واحد ممن له عليـه طاعة أن يطيعه فى طاعة الله ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنـه ، حين تولى أمر المسلمين وخطبهم ، فقال فى خطبته : أيها الناس ! القوىّ فيكم الضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم القوىّ عندى حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله . فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ » أى اختلفتم أنتم وأولو الأمر « فِى شَىْءٍ » من الأحكام « فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ » أى فارجعوا فيه إلى كتابه «وَالرَّسُولِ» بالسؤال منه فى زمانه صلى الله عليه وسلم والرجوع إلى سننه بعـده لا إلى ما تهوون ولا إلى ما يهواه الحـكام « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ » الواضع لشرائع العدل « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الذى يجازى فيـه الموافق والمخالف لتلك الشرائع « ذَٰلِكَ » أى الرد إلى كتاب الله وسنة الرسول، والرجوع إليهما فى فصـل النزاع

= عن أبى زرعة بن عمرو عن حية بنت أبى حية قالت : دخل علينا رجل بالظهيرة . فقلت : يا عبد الله : من أين أقبلت ؟ قال : أقبلت أنا وصاحب لى فى بغاء لنا . فانطلق صاحبى يبغى ودخلت أنا أستظل بالظل وأشرب من الشراب .

فقمت إلى لُبَيْنة حامضة فسقيته منها فشرب وشربت .

قالت وتوسمته فقلت : ياعبد الله ! من أنت ؟ فقال : أناأبو بكر . فقلت : أنت أبو بكر، صاحب رسول الله ﷺ الذى سمعتُ به ؟ قال : نعم .

قالت فذكرت غزونا خثعما وغزوة بعضنا بعضافى الجاهلية وماجاء الله به من الألفة وأطناب الفساطيط . فقلت : يا عبد الله ! حتى متى ترى أمر الناس هذا ؟ قال : ما استقامت الأئمة . قلت : ما الأئمة ؟ قال : أما رأيت السيّد يكون فى الحِواء (بيوت مجتمعة على الماء) فيتبعونه ويطيعونه ؟ فما استقام أولئك .

« خَيْرٌ » أى لكم ولحكامكم وأصلح « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلا ، كما قاله السدّى وغير واحد . وقال مجاهد : وأحسن جزاء . وهو قريب .

قال الحافظ ابن كثير : هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شىء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه، أن يردّ التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة. كما قال تعالى : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ(١) . فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق . وماذا بعد الحق إلا الضلال . ولهذا قال تعالى : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أى ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله . فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . فدل على أن من لم يتحاكم، فى محل النزاع، إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر. انتهى.

تنبيهات

الأول ـ قال البيضاوىّ : إن قوله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ ، يؤيد أن المراد بأولى الأمر الأمراء لا العلماء . قال : إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه بخلاف المرؤوس . ثم قال: إلا أن يقال : الخطاب لأولى الأمر، على طريقة الالتفات . وتابعه أبو السعود .

قال الخفاجىّ : وجه التأييد أن للناس والعامة منازعة الأمراء فى بعض الأمور وليس لهم منازعة العلماء . إذ المراد بهم المجتهدون . والناس ممن سواهم لا ينازعونهم فى أحكامهم . والمراد بالمرؤوس (على وزن المفعول) العامة التابعة للرائس والرئيس . فإذا كان الخطاب فى (تَنَازَعْتُمْ) لأولى الأمر على الالتفات صح إرادة العلماء . لأن للمجتهدين أن ينازع بعضهم بعضاً مجادلة ومحاجة . فيكون المراد أمرهم بالتمسك بما يقتضيه الدليل . انتهى . وفى قوله : (إذ ليس للمقلد الخ) ما ستراه .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ١٠] . . . ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

الثـانى ـ فهم كثير من الناس والمفسرين أيضاً أن طاعة أولى الأمر العلماء ، تقليدهم فيما يفتون به . وهو غلط . قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) فى :

فصل

فى عقد مجلس مناظرة بين مقلد وبين صاحب حجة منقاد للحق حيث كان .

قال المقلد : وقد أمر الله تعـالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر ـ وهم العلماء . أو العلماء والأمراء ـ وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به ، فإنه لولا التقليـد لم يكن هناك طاعة تختص بهم . قال : وجوابه أن أولى الأمر، قيـل : هم الأمراء . وقيل : هم العلماء . وهما روايتان عن الإمام أحمـد . والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين . وطاعتهم من طاعة الرسول صلى الله عليـه وسلم . لـكن خفى على المقلدين أنهم يطاعون فى طاعة الله إذا أمروا بأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليـه وسلم . فأين فى الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثار التقليد عليها ؟ ثم قال ابن القـيّم : إن هـذه الآية من أكبر الحجج عليهم وأعظمها إبطالا للتقليد . وذلك من وجوه : أحدها ـ الأمر بطاعة الله التى هى امتثال أمره واجتناب نهيه . الثانى ـ طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يكون العبد مطيعاً لله ولرسوله حتى يكون عالماً بأمر الله تعالى ورسوله . وأما من هو مقلد فيهـا لأهل العلم لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم البتة . الثالث ـ أن أولى الأمر قد نهوا عن تقليدهم ، كما صح ذلك عن معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وغيرهم من الصحابة . وذكرناه عن الأئمة الأربعـة وغيرهم . وحينئذ فطاعتهم فى ذلك إن كانت واجبـة بطل التقليد . وإن لم تـكن واجبة بطل الاستدلال . الرابع ـ أنه سبحانه وتعـالى، قال فى الآية نفسها : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وهذا صريح فى إبطال التقليد والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأى أو مذهب أو تقليد . فإن قيل : فما هى طاعتهم المختصة بهم ؟

فإن كانت الطاعة فيما يخبرون به عن الله تعالى ورسوله ﷺ ، كانت الطاعة لله ورسوله ﷺ لا لهم. قيل: هذا هو الحق . وطاعتهم إنما هى تبع لااستقلال . ولهذا قرنها بطاعةالرسول. وأعاد العامل لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعاً كما يطاع أولو الأمر تبعاً. وليس كذلك. بل طاعته واجبة استقلالًا . كان ، ما أمر به أو نهى عنه فى القرآن، أو لم يكن . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى قبل ذلك : إن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ وهدى أصحابه وأحوال أئمتهم . وسلكوا ضد طريق أهل العلم . أما أمرالله تعالى، فإنه أمر أن يرد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله . والمقلدون قالوا : إنما نردُّه إلى من قلدناه . وأما أمر رسوله فإنه ﷺ أمر عند الاختلاف بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين ، وأمر أن يتمسك بها ويعض عليها بالنواجذ . وقال المقلدون : بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلدناه ونقدمه على كل ما عداه . وأما هدى الصحابة رضى الله عنهم فمن المعلوم بالضرورة أنه لم يكن شخص واحد يقلد رجلًا فى جميع أقواله ويخالف من عداه من الصحابة بحيث لا يرد من أقواله شيئاً ولا يقبل من أقوالهم شيئاً . وهذا من أعظم البدع وأقبح الحوادث . وأما مخالفتهم لأئمتهم فإن الأئمة نهوا عن تقليدهم وحذروا منه . كما تقدم ذكر بعض ذلك عنهم وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال خلفائه الراشدين . فما وافق ذلك منها قبلوه ودانوا الله تعالى به . وقضوا به وأفتوا به . وما خالف ذلك منها لم يلتفتوا إليه وردوه . وما لم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الاجتهاد التى غايتها أن تكون سائغة الاتّباع لا واجبة الاتّباع . من غير أن يلزموا بها أحداً ولا يقولوا إنها الحق دون ما خالفها . هذه طريقة أهل العلم سلفاً وخلفاً. وأما هؤلاء الخلف فعكسوا الطريق وقلبوا أوضاع الدين. فزيفوا كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ وأقوال خلفائه وجميع أصحابه ، وعرضوها على أقوال من قلدوه ، فما وافقها منها قالوا : لنا ؛ وانقادوا له مذعنين . وما خالف أقوال متبوعهم منها قالوا : احتج الخصم

بكذا وكذا . ولم يقبلوه ولم يدينوا به . واحتال فضلاؤهم فى ردها بكل ممكن . وتطلبوا لها وجوه الحيل التى يرونها . حتى إذا كانت موافقة لمذهبهم ، وكانت تلك الوجوه بعينها قائمة فيها ، شنعوا على منازعهم وأنكروا عليهم ردها بمثل تلك الوجوه بعينها . وقالوا : لا تُرَدُّ النصوص بهذا . ومن له همة تسمو إلى الله ومرضاته ، ونصر الحق الذى بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين كان ومع من كان ، لا يرضى لنفسه بمثل هذا المسلك الوخيم والخلق الذميم . انتهى .

الثالث ـ إن قيل : لِمَ لا يجوز أن يكون المراد بقوله (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) أى فوّضوا علمه إلى الله واسكتوا عنه ولا تتعرضوا له ؟ وأيضاً ، لِمَ لا يجوز أن يكون المراد : فردوا هذه الأحكام إلى البراءة الأصلية ؟ قلنا : أما الأول فمدفوع . وذلك لأن هذه الآية دلت على أنه تعالى جعل الوقائع قسمين : منها ما يكون حكمها منصوصاً عليه . ومنها مالا يكون كذلك . ثم أمر فى القسم الأول بالطاعة والانقياد . وأمر فى القسم الثانى بالاجتهاد فيه ، وهو الرد إلى الله وإلى الرسول . ولايجوز أن يكون المراد بهذا الردّ السكوت . لأن الواقعة ربما كانت لا تحتمل ذلك . بل لا بد من قطع الشغَب والخصومة فيها ، بنفىٍ أو إثبات . وإذا كان كذلك امتنع حمل الرد إلى الله ، على السكوت عن تلك الواقعة . وأما السؤال الثانى ـ فجوابه أن البراءة الأصلية معلومة بحكم العقل . فلا يكون رد الواقعة إليها رداً إلى الله بوجه من الوجوه . أما إذا رددنا حكم الواقعة إلى الأحكام المنصوص عليها ، كان هـذا رداً للواقعة على أحكام الله تعالى . فكان حمل اللفظ على هذا الوجه أولى : أفاده الرازىّ .

الرابع ـ استدل مثبتو القياس بقوله تعالى (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ) الخ قالوا : معنى الآية : فإن تنازعتم فى شىء حكمه غير مذكور فى الكتاب والسنة ، فردوا حكمه إلى الأحكام المنصوصة فى الوقائع المشابهة له . وذلك هو القياس . قالوا : ولو كان المراد من قوله تعالى (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) طلبَ حكمه من نصوص الكتاب والسنة ـ لكان داخلًا تحت

قوله(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) وهو إعادة لعين ماضى (كذا) وهو غير جائز . وقد توسع الرازىّ فى تقرير ذلك ههنا ، كما توسع فى أن قوله تعالى (وَأُولِي الأَمْرِ) إشارة إلى الإجماع . فتكون الآية ، بزعمه ، دلت على الأصول الأربع . ولا يخفى ما فى هذا التعمق من دقيق الاستنباط .

الخامس ـ قدمنا رواية البخارىّ فى سبب نزول هذه الآية . وأن ابن عباس قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة .

قال الداودىّ (شارح الصحيح) : هذا وهم على ابن عباس . فإن عبد الله بن حذافة خرج على جيش فغضب عليهم . فأمرهم أن يوقدوا ناراً ويقتحموها . فامتنع بعض وهمّ بعض أن يفعل .

قال : فإن كانت الآية نزلت قبلُ ، فكيف يخص عبد الله بن حذافة بالطاعة دون غيره ؟ وإن كانت نزلت بعدُ فإنما قيل لهم : إنما الطاعة فى المعروف ، وما قيل لهم : لِمَ لم تطيعوه ؟ انتهى .

وأجاب الحافظ ابن حجر : أى المقصود فى قصته قوله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ) لأنهم تنازعوا فى امتثال ما أمرهم به . وسببه أن الذين هموا أن يعطوه وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة . والذين امتنعوا عَارَضَهُ عندهم الفرار من النار . فناسب أن ينزل فى ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع . وهو الرد إلى الله وإلى رسوله . أى : إن تنازعتم فى جواز الشيء وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة . والله أعلم .

ولما أوجب تعالى على جميع المكلفين أن يطيعوا الله ورسوله ، آثرها بأن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه ، وإنما يريدون حكم غيره ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » يعنى القرآن « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » يعنى التوراة . ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله ، لتأكيد العجيب من حالهم وتشديد التوبيخ والاستقباح ، ببيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتما للتحاكم إلى الرسول ، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ » الداعى إلى الطغيان بالحكم على خلاف المنزل إليك والمنزل على من قبلك . وتقدم قريباً معانى الطاغوت . والمراد به ههنا ما سوى كتاب الله وسنة رسوله ، من الباطل « وَقَدْ أُمِرُوا » فى جميع تلك الكتب « أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » أى يتبرؤا منه . لأنه تحاكم على خلاف ما أنزل الله فى كتبه فيعصونه ويطيعون الشيطان « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ » أى من الجن والإنس « أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » عن الحق والهدى . وقوله (ويريد الخ) عطف على (يريدون) داخل فى حكم التعجيب . فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم وإعراضهم عمن يريد هدايتهم ، أعجب من كل عجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : إلى حكم ما أنزل الله فى القرآن الذى تدعون الإيمان به « وَإِلَى الرَّسُولِ » أى : حكمه « رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ » أى يمنعون

خصومهم فيبعدونهم « عَنْكَ صُدُودًا » بليغاً ليتمكنوا مما يريدونه بالرشوة . وقوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ الخ) تكملة لمادة التعجيب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله ، إثْرَ بيان إعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم إلى الطاغوت . وإظهار (المنافقين) فى مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق . وذمهم به . والإشعار بعلة الحكم .

تنبيه ـ فى سبب نزولها.

أخرج ابن أبى حاتم والطبرانىّ بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان أبو برزة الأسلمىّ كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه . فتنافر إليه ناس من المسلمين . فأنزل الله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ـ إلى قوله ـ إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) .

أقول : ثم أسلم أبو برزة وصحب النبىّ صلى الله عليه وسلم . واسمه نضلة بن عبيد .

قال الحافظ ابن حجر فى (التقريب) : صحابىّ مشهور بكنيته . أسلم قبل الفتح . وغزا سبع غزوات . ثم نزل البصرة . وغزا خراسان ومات بها سنة خمس وستين على الصحيح . انتهى .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة ، أو سعيد ، عن ابن عباس قال : كان الجلاس ابن الصامت ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد ، وبَشَرٌ يدّعون الإسلام . فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين ، فى خصومة كانت بينهم ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . فدعوهم إلى الكهان ، حكام الجاهلية . فأنزل الله فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ...) الآية .

وأخرج ابن جرير[1] عن الشعبىّ قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة . فقال اليهودىّ : أحاكمك إلى أهل دينك، أوقال : إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم. لأنه قد علم أنه لايأخذ الرشوة فى الحكم . فاختلفا . واتفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة . فنزلت . وَلَا تعَارُضَ . لما أسلفناه فى المقدمة فى بحث سبب النزول . فتذكر .

(١) الأثر رقم ٩٨٩١ .

قال أبو مسلم الأصفهانيّ : ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقاً من أهل الكتاب . مثل : إنه كان يهوديًّا فأظهر الإسلام على سبيل النفاق . لأن قوله تعالى (يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) إنما يليق بمثل هذا المنافق . انتهى .

أقول : ماستظهره مناف لما أسلفناه مما روى فى نزولها . على أن توصيفهم بالإيمان بـ (ما أنزل من قبل) لا يؤيد ماذكره . لأن هذا كثيراً مايذكر تنويها به وتثبيتاً لركنيته فى الإيمان. وتذكيراً له . كما لا يخفى على من سبر قاعدة التنزيل فى أمثاله . فاعرفه .

مباحث

الأول ـ قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية إنكار من الله عز وجل على من يدّعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين . وهو مع ذلك ، يريد أن يتحاكم ، فى فصل الخصومات ، إلى غير كتاب الله وسنة رسوله. كما ذُكِر فى سبب نزول هذه الآية. ثم ساق ما قدمناه وقال : الآية أعم من ذلك كله . فإنها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكموا إلى ماسواهما من الباطل . وهو المراد بـ(الطاغوت) ههنا ، وأعرضوا كالمستكبرين كما قال تعالى عن المشركين (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا)(1) وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...)(2) الآية

الثانى ـ قال القاضى : يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر . وعدمُ الرضا بحكم محمد صلى الله عليه وسلم كفرٌ . ويدل عليه وجوه : الأول ـ أنه تعالى قال (يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) فجعل التحاكم

(1) [٢ / البقرة / ١٧٠] . . . أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ.
(2) [٢٤ / النور/ ٥١] . . . وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

إلى الطاغوت يكون إيماناً به . ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله . كما أن الكفر بالطاغوت إيمان بالله . الثانى ـ قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . إلى قوله: وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(١) وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث ـ قوله تعالى (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٢) وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة . وفى هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خارج عن الإسلام . سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد . وذلك يوجب صحة ماذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعى الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم . نقله الرازى .

الثالث ـ قال بعض المفسرين : فى هذه الآية وجوب الرضا بقضاء الله سبحانه . والرضا بما شرعه . وتدل على أنه لايجوز التحاكم إلى غير شريعة الإسلام .

قال الحاكم : وتدل على أن من لم يرض بحكمه كفر . وما ورد من فعل عمر وقتله المنافق يدل على أن دمه هدر . لا قصاص فيه ولا دية .

وههنا فرع . وهو أن يقال : إذا تحاكم رجلان فى أمر فرضى أحدهما بحكم المسلمين وأبى الثانى . وطلب المحاكمة إلى حاكم الملاحدة . فإنه يكفر . لأن فى ذلك رضا بشعار الكفرة. انتهى .

الرابع ـ فى قوله تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا) دقيقة بديعة . قال أبو السعود :

---

(١) [٤ / النساء / ٦٥] ونصها : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

(٢) [٢٤ / النور / ٦٣] ونصها : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ...

الاقتصار فى معرض التعجب والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم، دون نفسه، مع وقوعه أيضاً ـ للتنبيه على أن إرادته مما يقضى منه العجب ولا ينبغى أن يدخل تحت الوقوع ، فما ظنك بنفسه ؟

الخامس ـ قال المفسرون : إنما صد المنافقون عن حكم الرسول ﷺ لأنهم كانوا ظالمين. وعلموا أنه لا يأخذ الرشا . وأنه لا يحكم إلا بمرّ الحكم . وقيل : كان ذلك الصدّ لعداوتهم فى الدين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)

« فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » متصل بما قبله ، مبين غائلة جناياتهم المحكية ووخامة عاقبتها . أى كيف يكون حالهم إذا ساقتهم التقادير إليك ، فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، التى منها المحاكمة إلى الطاغوت والكراهة لحكمك ، واحتاجوا إليك فى ذلك « ثُمَّ جَاءُوكَ » للاعتذار عما صنعوا من القبائح « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ » كذباً « إِنْ أَرَدْنَا » أى ما أردنا بذلك التحاكم « إِلَّا إِحْسَانًا » أى فصلًا بالوجه الحسن « وَتَوْفِيقًا » بالصلح بين الخصمين . ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك . فلا تؤاخذنا بما فعلنا . وهذا وعيد لهم على ما فعلوا . وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم . ولا يغنى عنهم الاعتذار .

قال الرازىّ : ذكروا فى تفسير قوله تعالى (أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ) وجوها : الأول ـ إن المراد منه قتل عمر صاحبهم الذى أقرّ أنه لا يرضى بحكم الرسول عليه السلام . فهم جاءوا إلى النبىّ ﷺ ، فطالبوا عمر بدمه. وحلفوا أنهم ما أرادوا بالذهاب إلى غير الرسول إلا المصلحة. وهذا اختيار الزجاج .

قلت : واختياره غير مختار . لأن قصة قتل عمر لم ترو من طريق صحيح ولا حسن . فهي ساقطة عند المحققين . واستدلال الحاكم ، الذي قدمناه ، مسلم . لو صحّت . الثاني ـ قال أبو عليّ الجبائيّ : المراد من هذه المصيبة ماأمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه لا يستصحبهم في الغزوات . وأنه يخصهم بمزيد الإذلال والطرد عن حضرته . وهو قوله تعالى (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا)(١) وقوله (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا)(٢) وبالجملة، فأمثال هذه الآيات توجب لهم الذل العظيم . فكانت معدودة في مصائبهم . وإنما يصيبهم ذلك لأجل نفاقهم .

الثالث ـ قال أبو مسلم الأصفهانيّ : إنه تعالى لمّا أخبر عن المنافقين أنهم رغبوا في حكم الطاغوت وكرهوا حكم الرسول ، بشَّرَ الرسول ﷺ أنه ستصيبهم مصائب تلجئهم إليه وإلى أن يظهروا له الإيمان به ، وإلى أن يحلفوا بأن مرادهم الإحسان والتوفيق . قال: ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا: كيف أنت إذا كان كذا وكذا؟ ومثاله. قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ)(٣) وقوله (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ)(٤) . ثم أمره تعالى، إذا كان منهم ذلك، أن يُعرض عنهم ويعظهم . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٠و٦١] .

(٢) [٩ / التوبة / ٨٣] ونصها : فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ٤١] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا .

(٤) [٣ / آل عمران / ٢٥] ونصها : فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المنافقين « الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ » من النفاق والميل إلى الباطل وإن أظهروا إسلامهم وعذرهم بحلفهم « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى لا تعاقبهم لمصلحةٍ فى استبقائهم ولا تزد على كفهم ، بالموعظة والنصيحة عماهم عليه « وَعِظْهُمْ » أى ازجرهم عما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر « وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » أى مؤثراً واصلًا إلى كنه المراد . فإن قيل : بم تعلق قوله تعالى (فِى أَنْفُسِهِمْ) ؟ فالجواب : بقوله (بَلِيغًا)على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف . أى قل لهم قولًا بليغاً فى أنفسهم مؤثراً فى قلوبهم يغتمون به اغتماماً . ويستشعرون منه الخوف استشعاراً . وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرنه. وأخبرهم أن ما فى نفوسهم من الدغل والنفاق، معلوم عند الله . وإنه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المُكافّة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره . فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف . أو يتعلق بقوله (قُلْ لَهُمْ) أى : قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثه وقلوبهم المطوية على النّفاق ، قولًا بليغاً . وإن الله يعلم ما فى قلوبكم . لا يخفى عليه . فلا يغنى عنكم إبطانه. فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق . وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك ، من انتقامه ، وشرًّا من ذلك وأغلظ . أو قل لهم فى أنفسهم خالياً بهم ، ليس معهم غيرهم، مسارًّا لهم بالنصيحة ، لأنها فى السر أنجع وفى الإمحاض أدخل (قَوْلًا بَلِيغًا) يبلغ منهم ويؤثر فيهم. كذا يستفاد من الكشاف .

قال الناصر فى (الانتصاف) ولكل من هذه التأويلات شاهد على الصحة.أما الأول ـ فلأن حاصله أمره بتهديدهم على وجه مبلغ صميم قلوبهم . وسياق التهديد فى قوله (فَكَيْفَ

إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ) يشهد له . فإنه أخبر بما سيقع لهم على سبيل التهديد . وأما الثانى ـ فيلائمه من السياق قوله (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) يعنى ما انطوت عليه من الخبث والمكر والحيل . ثم أمره بوعظهم والإعراض عن جرائمهم حتى لا تكون مؤاخذتهم بها مانعة من نصحهم ووعظهم . ثم جاء قوله (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً) كالشرح للوعظ ولذكر أهم ما يعظهم فيه . وتلك نفوسهم التى علم الله ما انطوت عليه من المذامّ . وعلى هذا يكون المراد الوعظ وما يتعلق به . وأما الثالث ـ فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام فى كتم عناد المنافقين ، والتجافى عن إفصاحهم والستر عليهم ، حتى عُدَّ حذيفةُ رضى الله عنه ، صاحبَ سره عليه الصلاة والسلام . لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم وتسميتهم له بأسمائهم . وأخباره فى هذا المعنى كثيرة .

تنبيه :

قال بعض المفسرين : وثمرة الآية قبح الرياء والنفاق واليمين الكاذبة والعذر الكاذب . لأنهم اعتذروا بإرادتهم الإحسان . وذلك كذب . ثم قال : ودلت الآية على لزوم الوعظ والمبالغة فيه . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ » كلام مبتدأ . جيء به تمهيداً لبيان خطئهم فى ترك طاعة الرسول ، والاشتغال بستر جناياتهم بالاعتذار بالأباطيل وعدم تلافيها بالتوبة . أى : وما أرسلنا رسولاً إلا ليطاع فيما حكم ، لا ليطلب الحكم من غيره . فطاعته فرض على من أُرسل إليهم . وإنكارُ فرضيتها كفر.

وقوله (بإذن الله) أى: بسبب إذنه فى طاعته ، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه ، لأنه مؤدٍّ عن الله. فطاعته طاعة الله. ومعصيته معصية الله (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ويجوز أن يراد : بتيسير الله وتوفيقه فى طاعته « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » هذا الظلم العظيم غاية العظم ، إذ عرضوها لعذابٍ ، على عذاب النفاق ، بترك طاعتك والتحاكم إلى الطاغوت « جَاءُوكَ » تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا « فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ » من ذلك وتابوا إليه تعالى من صنيعهم « وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ » أى دعا لهم بالمغفرة ، فكان استغفاره شفاعةً لقبول استغفارهم «لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا » أى قابلاً لتوبتهم «رَحِيماً» أى متفضلاً عليهم بالرحمة وراء قبول التوبة .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : ولم يقل : واستغفرت لهم ، وَعَدَلَ عنه إلى طريقة الالتفات ، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعةَ مَنِ اسْمُهُ الرسول ، من الله بمكان . قال فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع من الالتفات خصوصية. وهى اشتماله على ذكر صفة مناسبة لما أضيف إليه. وذلك زائد على الالتفات بذكر الأعلام الجامدة.

تنبيهات

الأول ـ دلت الآية على أن توبة المنافق مقبولة عند الله وفاقاً . وأما فى الظاهر فظاهر الآية قبولها . لأنه جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم مستغفراً لهم وشافعاً . وعن الراضى بالله فى (الباطنية) : إن أظهروا شبههم وما يعتادون كتمه ، دل ذلك على صدق توبتهم . فيقبل وإلا فلا . ودلت الآية على أن من تكررت منه المعصية والتوبة صحت توبته لقوله تعالى : (تَوَّابًا) وذلك ينبئ عن التكرار . كذا فى بعض التفاسير .

الثانى ـ قال الرازىّ : لقائل أن يقول : أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، لكانت توبتهم مقبولة ؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم : قلنا : الجواب

عنه من وجوه : الأول ـ أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله . وكان أيضاً إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره . فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم . الثانى ـ إن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ، ظهر منهم ذلك التمرد . فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد . وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلبوا منه الاستغفار .

الثالث ـ لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتَوْا بها على وجه الخلل،فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول . انتهى .

أقول : وثمة وجه رابع ـ وهو التنويه بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن طاعته طاعته تعالى ، فرضاه رضاه وسخطه سخطه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » فى السر ولا يستحقون اسم الإيمان فى السر « حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ » يجعلوك حاكماً ويترافعوا إليك « فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ » أى فيما اختلف بينهم من الأمور والتبس «ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ» فى قلوبهم «حَرَجًا» أى ضيقاً «مِمَّا قَضَيْتَ» بينهم « وَيُسَلِّمُوا » أى: ينقادوا لأمرك ويذعنوا لحكمك « تَسْلِيمًا » تأكيد للفعل. بمنزلة تكريره . أى تسليماً تاماً بظاهرهم وباطنهم من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . كما ورد فى الحديث[٢] : والذى نفسى بيده ! لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

---

(١) قال السيّد أحمد محمد شاكر فى تعليقه على هـذا الحديث بالصفحة رقم ٢١١ =

تنبيهات

الأول ـ روى البخاريّ[(١)] عن الزهريّ عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً فى شراج الحرة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك . فقال الأنصاريّ: يارسول الله! أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق يازبير . ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر . ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوعى النبيّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصاريّ . وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة .

قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت فى ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) .

قال ابن كثير : هكذا رواه البخاريّ فى (كتاب التفسير) فى (صحيحه) من حديث

= بالجزء الثالث من (عمدة التفسير) ما نصه :

هو الحديث الحادى والأربعون من الأربعين النووية . ولكن ليس فى أوله « والذى نفسى بيده ! » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . قال النوويّ : حديث حسن صحيح . رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح . يريد (كتاب الحجة) لأبى الفتح المقدسيّ .

وذكر ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم ، شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم) أنه رواه أيضاً الحافظ أبو نعيم فى (كتاب الأربعين) التى شرط فيها الصحة . وأنه رواه أيضاً الطبرانيّ . ثم أطال القول فى تعليله . وعندى أن تعليله غير جيد . وأن الحديث صحيح . اهـ .

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٥ـ كتاب التفسير، ٤ـ سورة النساء، ١٢ـ باب فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، حديث ١١٨٠ .

معمر. وفى كتاب (المساقاة) من حديث ابن جريج[١] ومعمر[٢] أيضاً. وفى كتاب (الصلح) من حديث شعيب بن أبى حمزة[٣]. ثلاثتهم عن الزهرىّ عن عروة فذكره. وصورته صورة الإرسال وهو متصل فى المعنى . وقد رواه الإمام أحمد[٤] من هذا الوجه فصرّح بالإرسال فقال : حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب عن الزهرىّ أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه كان يخاصم رجلًا من الأنصار قد شهد بدراً ، إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى شراج الحرّة . كان يستقيان بها كلاهما . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق : ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصارىّ وقال يارسول الله ! أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال للزبير : أسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر . فاستوعى النبىّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قبل ذلك، أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارىّ . فلما أحفظ الأنصارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استوعى النبىّ صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم .

قال عروة : فقال الزبير : والله! ما أحسب هذه الآية أنزلت إلا فى ذلك (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٢ ـ كتاب المساقاة ، ٨ ـ باب شِرْب الأعلى إلى الكعبين .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤٢ ـ كتاب المساقاة ، ٧ ـ باب شرب الأعلى قبل الأسفل.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ١٢ ـ باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم البيّن .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) الحديث ١٤١٩ (طبعة المعارف) .

(هكذا رواه الإمام أحمد وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير فإنه لم يسمع منه . والذى يقطع به أنه سمعه من أخيه عبدالله. فإن أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم رواه كذلك فى (تفسيره). فقال : حدثنا يونس بن عبد الأعلى . حدثنا ابن وهب . أخبرنى الليث ويونس عن ابن شهاب ؛ أن عروة بن الزبير حدثه ؛ أن عبدالله بن الزبير حدثه عن الزبير بن العوام؛ أنه خاصم رجلا . . . الحديث) . قال ابن كثير : وهكذا رواه النسائىّ[(١)] من حديث ابن وهب به . ورواه أحمد والجماعة كلهم من حديث الليث به . وجعله أصحاب الأطراف فى مسند عبد الله بن الزبير . وهكذا ساقه الإمام أحمد فى مسند عبدالله بن الزبير . والله أعلم[(٢)] .

وروى ابن أبى حاتم عن الزهرىّ عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال : نزلت فى الزبير ابن العوام وحاطب بن أبى بلتعة . اختصما فى ماء. فقضى النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يسقى الأعلى ثم الأسفل .

قال ابن كثير : هذا مرسل . ولكن فيه فائدة تسمية الأنصارىّ . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : وحكى الواحدىّ وشيخه الثعلبىّ والمهدوىّ أنه حاطب بن أبى بلتعة . وتعقب بأن حاطباً، وإن كان بدريًّا ، لكنه من المهاجرين . لكن مستند ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن عبد العزيز عن الزهرىّ عن سعيد ابن المسيّب فى قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ... الآية) قال : نزلت فى الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة . اختصما فى ماء . . . الحديث. وإسناده قوىّ مع إرساله . فإن كان سعيد بن المسيب سمعه من الزبير ، فيكون موصولا . وعلى هذا فيؤوّل قوله (من الأنصار) على إرادة المعنى الأعم. كما وقع ذلك فى حق غير واحد كعبد الله بن حذافة . وأما قول الكرمانىّ بأن حاطباً كان حليفاً للأنصار ـ ففيه نظر .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٤٩ ـ كتاب آداب القضاة ، ١٩ ـ باب الرخصة للحاكم الأمين أن يحكم وهو غضبان ، و٢٧ ـ باب إشارة الحاكم بالرفق .

(٢) انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر بالصفحة ٢١٣ من الجزء الثالث من (عمدة التفسير) فاقرأه واقرأه واقرأه ، ثم اقرأه فلن تملّه أبدا . ففيه مالا ينبغى لمؤمن أن يجهله . بل ما ينبغى أن يعلمه علم اليقين .

وأما قوله (من بنى أميـة بن زيد) فلعله كان مسكنه هناك ، كعمر . ثم قال : ويترشح بأن حاطباً كان حليفاً لآل الزبير بن العوام من بنى أسد وكأنه كان مجاوراً للزبير . والله أعلم . (ج ٥ ص ٢٦و٢٧) .

أقول : وقع فى التفسير المنسوب لابن عباس ، ههنا، ذكر حاطب بن أبى بلتعة وتلقيبه بالمنافق وإدراجه تحت قوله تعـالى (رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ). وفى صحة هذا عن ابن عباس نظر . وكيف؟ وقد كان رضى الله عنه من البدريين . وقد انتفى النفاق عمن شهدها .

قال التوربشتىّ : يحتمل أنه أصدر ذلك منه بادرةُ النفس. كما وقع لغيره ممن صحت توبته. إذ لم تجر عادة السلف بوصف المنافقين بصفة النصرة التى هى المدح ولو شاركهم فى النسب . قال : بل هى زلة من الشيطان تمـكن به منها عنـد الغضب ، وليس ذلك بمستنكر من غير المعصوم فى تلك الحالة . انتهى .

ولما همّ عمر رضى الله عنه بضرب عنقه فى قصة الظعينة[1] ، قال حاطب : لا تعجل علىّ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٤١ـ باب الجاسوس وقول الله تعالى: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، حديث ١٩٢٤ ، ونصه :

عن عبيد الله بن أبى رافع قال : سمعت علياً رضى الله عنه يقول : بعثنى رسول الله ﷺ ، أنا والزبير والمقداد بن الأسود . قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا تعَادى بنا خيلُنا . حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة. فقلنا : أخرجى الـكتاب . فقالت : ما معى من كتاب . فقلنا : لتُخْرِجنَّ الـكتاب أو لَنُلْقِيَنَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله ﷺ . فإذا فيـه : من حاطب ابن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ « يا حاطب ! ما هذا ؟ » قال: يا رسول الله ! لا تعجل علىّ. إنى كنت امرءًا ملصقاً فى قريش . ولم أكن من أنفسِها . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات =

يا رسول الله ! والله ! إنى لمؤمن بالله ورسوله . وما ارتددت ولا بدلت . فأقرّه صلى الله عليه وسلم ، وكفّ عمر عنه . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر : إنه قد شهد بدراً . وما يدريك ، يا عمر؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . فذرفت عينا عمر ... الحديث .

ولله در أصحاب الصحاح حيث أبهموا فى قصة الزبير اسم خصمه ستراً عليه كيلا يغض من مقامه . وهكذا ليكن الأدب . وكفانا أصلا عظيما فى هذا الباب إبهام التنزيل الجليل فى كثير من قصصه الكريمة . فهو ينبوع المعارف والآداب على مرور السنين والأحقاب .

هذا كله على الجزم بأنها نزلت فى قصة الزبير وخصمه . وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والراجح رواية الأكثر . وأن الزبير كان لايجزم بذلك . ثم قال الحافظ ابن حجر : وجزم مجاهد والشعبىّ بأن الآية إنما نزلت فيمن نزلت فيه الآية التى قبلها وهى قوله تعالى (ألم تر الخ) فروى إسحق بن راهويه فى (تفسيره) بإسناد صحيح عن الشعبىّ . قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة . فدعا اليهودىّ المنافق إلى النبىّ ﷺ . لأنه علم أنه لايقبل الرشوة . ودعا المنافق اليهودىّ إلى حكامهم . لأنه علم أنهم يأخذونها . فأنزل الله هذه الآيات ، إلى ... ويسلموا تسليما .

وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد ، نحوه .

= بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بهـا قرابتى . وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد صدقكم » قال عمر : يا رسول الله ! دعنى أضربْ عنق هـذا المنافق . فقال « إنه قد شهد بدرا . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وروى الطبرى[(١)] بإسناد صحيح عن ابن عباس أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمى قبل أن يسلم ويصحب .

وروى[(٢)] بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد؛ أنه كعب بن الأشرف. انتهى .

وقال ابن كثير: ذكر سبب آخر غريب جداً. قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبدالأعلى قراءة . أخبرنا ابن وهب . أخبرنى عبد الله بن لهيعة عن أبى الأسود قال : اختصم رجلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى بينهما. فقال المقضىّ عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم. انطلقا إليه. فلما أتيا إليه، فقال الرجل: يا ابن الخطاب! قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا ، فقال : ردنا إلى عمر بن الخطاب فردنا إليك . فقال : أكذاك ؟ قال : نعم . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضى بينكما. فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذى قال : ردنا إلى عمر . فقتله . وأدبر الآخر . فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! قتل عمر ، والله ! صاحبى. ولولا أنى أعجزته لقتلنى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن . فأنزل الله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... الآية) فهدر دم ذلك الرجل وبرىء عمر من قتله. فكره الله أن يسنّ ذلك بعد . فأنزل : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)الآية وكذا رواه ابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن أبى الأسود به ، وهو أثر غريب مرسل . وابن لهيعة ضعيف . والله أعلم .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن دحيم فى (تفسيره) : حدثنا شعيب بن شعيب . حدثنا أبو المغيرة . حدثنا عتبة بن حمزة . حدثنى أبى . أن رجلين اختصما إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقضى للمحق على المبطل . فقال المقضىّ

(١) لم أعثر على هذا الأثر فى نسخة التفسير التى بين يدىّ .

(٢) الأثر رقم ١٩١٥ .

عليه: لاأرضى. فقال صاحبه : فما تريد؟ قال : أن نذهب إلى أبى بكر الصديق . فذهبا إليه . فقال الذى قضى له : قد اختصمنا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقضى لى . فقال أبو بكر : أنتما على ماقضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأبى صاحبه أن يرضى . فقال : نأتى عمر ابن الخطاب . فقال المقضىّ له : قد اختصمنا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقضى لى عليه . فأبى أن يرضى . فسأله عمر بن الخطاب ، فقال كذلك . فدخل عمر منزله وخرج والسيف فى يده قد سله . فضرب به رأس الذى أبى أن يرضى . فقتله . فأنزل الله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... الآية) انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): روى الكلبىّ فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودىّ خصومة . فقال اليهودىّ : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف . فذكر القصة . وفيه أن عمر قتل المنافق وأن ذلك سبب نزول هذه الآيات وتسمية عمر الفاروق . وهذا الإسناد، و إن كان ضعيفاً، لكن تقوى بطريق مجاهد. ولا يضره الاختلاف . لإمكان التعدد. وأفاد الواحدىّ بإسناد صحيح عن سعيد عن قتادة أن اسم الأنصارىّ المذكور قيس . ورجح الطبرىّ فى (تفسيره)[1] وعزاه إلى أهل التأويل فى (تهذيبه) أن سبب نزولها هذه القصة. ليتسق نظام الآيات كلها فى سبب واحد . قال : ولم يعرض بينها ما يقتضى خلاف ذلك . ثم قال : ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت فى أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية. والله أعلم . انتهى .

قال الرازىّ : اعلم أن قوله تعالى (فَلَاوَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) قَسَمٌ من الله تعالى على أنهم لايصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط : أولها ــ قوله تعالى (حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لايكون مؤمنا . الشرط الثانى ــ

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢٤ من الجزء الثامن (طبعة المعارف) .

قوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) . واعلم أن الراضي بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضياً به في الظاهر دون القلب. فبيّن ، في هذه الآية، أنه لابد من حصول الرضا به في القلب . واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر . فليس المراد من الآية ذلك . بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول هو الحق والصدق . الشرط الثالث ـ قوله (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقاً وصدقاً ، قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول . فبيّن تعالى أنه ، كما لابد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب ، فلا بد أيضا من التسليم معه في الظاهر . فقوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) المراد به الانقياد في الباطن . وقوله (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) المراد منه الانقياد في الظاهر . والله أعلم .

الثالث ـ قال الرازي : ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس. لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق. وأنه لا يجوز العدول منه إلى غيره . ومثل هذه المبالغة المذكورة في هذه الآية قلما يوجد في شيء من التكاليف . وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس . وقوله (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ) مشعر بذلك . لأنه متى خطر بباله قياس يفضي إلى نقيض مدلول النص ، فهناك يحصل الحرج في النفس . فبيّن تعالى أنه لا يكمل إيمانه ، إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ، ويسلم النص تسليماً كلياً . وهذا الكلام قويّ حسن لمن أنصف .

الرابع ـ (لا) في قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ) قيل إنها ردٌّ لمقدَّر . أي: تفيد نفي أمر سبق . والتقدير : ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك . ثم استأنف القسم بقوله (وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ) وقيل : مزيدة لتأكيد النفي الذي جاء فيما بعد . أعني الجواب . لأنه إذا ذكر في أول الكلام وفي آخره كان أوكد وأحسن . وقيل : إنها مزيدة لتأكيد معنى القسم . وارتضاه الزمخشريّ . قال : كما زيدت

فى (لئلايعلم)[١] لتأكيد وجوب العلم . قال فى (الانتصاف) يشير إلى أن (لا) لما زيدت مع القسم ، وإن لم يكن المقسم به ، دَلَّ ذلك على أنها إنما تدخل فيه لتأكيد القسم . فإذادخلت حيث يكون المقسم عليه نفياً ، تعين جعلها لتأكيد القسم ، طردًا للباب . أو الظاهر عنده، والله أعلم ، أنها هنا لتوطئة النفى المقسم عليه . والزمخشرىّ لم يذكر مانعاً من ذلك.وحاصل ما ذكره مجيئها لغير هــذا المعنى فى الإثبات . وذلك لا يأبى مجيئها فى النفى على الوجـه الآخر من التوطئة . على أن فى دخولها على القسم المثبت نظرا . وذلك أنها لم ترد فى الكتاب العزيز إلا مع القسم حيث يكون بالفعل . مثل (لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ)[٢](لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)[٣] (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)[٤](فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)[٥] (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)[٦] ولم تدخل أيضاً إلا على القسم بغير الله تعــالى . ولذلك سرٌّ يأبى كونها فى هذه الآية لتأكيد القسم . ويعين كونها للتوطئة : وذلكأن المراد بها فى جميع الآيات التى عددناها تأكيد تعظيم المقسم به . إذ لا يقسم بالشىء إلاإعظاماً له . فــكأنه بدخولها يقول : إن إعظامى لهذه الأشياء بالقسم بها ، كلا إعظام. يعنى أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك . وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعاً لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم ، وللإقسام بها . فيزاح هذا الوهم بالتأكيد ، فى إبراز فعـل القسم مؤكدا بالنفى

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٩٠ / البلد / ١] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ١] .

(٤) [٨١ / التكوير / ١٥] .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ٧٥] .

(٦) [٦٩ / الحاقة / ٣٨و٣٩] .

المذكور . وقد قرر الزمخشرىّ هـذا المعنى فى دخول (لا) عند قوله (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) على وجه مجمل ، هـذا بسطه وإيضاحه . فإذا بين ذلك ، فهذا الوهم الذى يراد إزاحته فى القسم بغير الله ، مندفع فى الإقسام بالله. فلا يحتاج إلى دخول (لا) مؤكدة للقسم. فيتعين حملها على الموطئة . ولا تكاد تجدها ، فى غير الكتاب العزيز ، داخلة على قسم مثبت. وأما دخولها فى القسم ، وجوابه نفى ، فكثير مثل :

فَلَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِىّ لَا يَدَّعِى الْقَوْمُ أَنِّى أَفِرّ[1]

---

(١) استشهد به فى (مغنى اللبيب) بالصفحة ٢٠١ من الجزء الأول . وقال الأمير فى (حاشيته) : هو من قصيدة لامرئ القيس بن حجر ، على ما قال أبو عمرو وغيره . وزعم أبو حاتم أنها لرجل من اليمن ، يقال له ربيعة بن جشم . ومطلعها :

أَحَارَ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى المرءِ مَا يَأْتَمِرْ

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب (شارح الديوان) :

قوله : أحار ، ترخيم حارث . ويجوز ضم الراء على من جعله اسماً على حاله . وفتحها على الإتباع . وهذا الحرف من النداء لا ينادى به إلا من قرب . ولا يستعمل فيما بَعُد . وهذه نكتة من العربية ذكرها المبرّد . أعنى الإتباع فى الاسم المرخّم .

والخمر الذى قد خامره داء أو وجع ، أى خالطه . ويقال : أراد كأنه فى عقب خمار .

و (كأن) ههنا واجبة . أى هو خمر . كما قال :

فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

قال المبرد : هو وإن كان مات فهو مدفون فى الأرض ، فقد كان يجب من أجله أن لا ينالها جدب .

ويعدو على المرء ، أى يصيبه وينزل به . وشرح يأتمر: يهم به ويعْزم عليه . قال الله عز وجل: وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ . أى هموا به واعتزموا عليه ، وليأمر بعضكم بعضاً به . =

وكقوله(١) :

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةُ باحتمالٍ لِتَحْزُنَنِى ، فَلَا بِكِ مَا أُبَالِى

وقوله :

رَأَى بَرْقاً فَأَوْضع فوق بَكْرٍ فَلَا بِكِ مَا أَسَال وَلا أغاما

= وقال فى شرح البيت المستشهد به :

(لا) ردّ لشىء سمعه . لأن البيت أول القصيدة . كأنه قيل له : فررت . فقال ، مجيباً : لا . ثم ابتدأ فأقسم بقوله : وأبيك . ثم بيّن ذلك بقوله : لا يدعى القوم أنى أفر .

والقوم هٰهنا بنو تميم .

(١) استشهد بهما ابن يعيش فى شرحه على المفصل بالصفحة ١٢٩٨ (طبعة ليبزج) . والبيت الأول استشهد به الزمخشرىّ فى (الكشاف) عند قوله تعالى : لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قال شارح الشواهد ، محب الدين أفندى : هو لغويّة بن سلمى . وأمامة اسم امرأة . والاحتمال : الارتحال . وما أبالى ، معناه ما أكترث وأحتفل . والتقدير : فبكِ ما أبالى . و (لا) زائدة . يعنى أظهرت هذه المرأة نفسها ارتحالا عنى لتجلب علىّ حزنا . قيل: يخاطبها ويقول : لا وأبيك ما أبالى .

وهذه اليمين فيها تهكم . وقوله (لا بك) كقولك: لا بالله . و (ما أبالى) جواب القسم.

والبيت الثانى استشهد به الجاحظ فى كتاب الحيوان (١/١٨٦) .

وقائله : عمرو بن يربوع بن حنظلة ، كما فى نوادر أبى زيد ص ١٤٦ .

إن سعلاة أقامت فى بنى تميم حتى ولدت فيهم. فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى، حنَّت وطارت إليهم . فقال شاعرهم :

رأى برقاً فأوضع فوق بَكر فلا بِكِ ما أسال ولا أغاما

الإيضاع: الإسراع فى السير. والبكر: الفتىّ من الإبل . وأغامت السماء : كانت ذات غيم.

وقوله[1] :

فَحَالِفْ . فَلَا واللهِ تَهْبِطُ تَلْعَةً   من الأرض إِلَّا أنت للذلِّ عَارِفُ

وهو أكثر من أن يحصى. فتأمل هذا الفصل فإنه حقيق بالتأمل . انتهى .

الخامس ـ اعلم أن كل حديث صح عن رسول الله ﷺ ، بأن رواه جامعو الصحاح ، أو صححه من يرجع إليه فى التصحيح من أئمة الحديث ، فهو مما تشمله هذه الآية . أعنى قوله تعالى (مِمَّا قَضَيْتَ) فحينئذ يتعين على كل مؤمن بالله ورسوله الأخذ به وقبوله ظاهراً وباطناً . وإلا بأن التمس مخارج لرده أو تأويله ، بخلاف ظاهره ، لتمذهبٍ تقلَّده وعصبية رُبِىَ عليها ، كما هو شأن المقلدة أعداء الحديث وأهله ـ فيدخل فى هذا الوعيد الشديد المذكور فى هذه الآية . الذى تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة .

قال الإمام الشافعىّ[2] فى الرسالة التى أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدىّ : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد عن أبيه قال : أرسله عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا . فذهبت معه إلى عمر . فسأل عن وليدة من ولائد الجاهلية . فقال : أما الفراش فلفلان . وأما النطفة فلفلان . فقال : صدقت . ولكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش .

قال الشافعىّ: وأخبرنى من لا أتهم عن ابن أبى ذئب قال: أخبرنى مخلد بن خفاف قال :

---

(١) استشهد به سيبويه فى (الكتاب) بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الأول .

قال الشنتمرىّ :

الشاهد فيه حذف (لا) وجاز ذلك لأن الموجب تلزمه اللام والنون ، فلم يشكل حذفها. ويقوّى الحذف ، هنا ، ذكر (لا) فى صدر البيت .

والتلعة ما انحدر من الأرض ، وهى أيضاً ما ارتفع . يقول : حالف من تعتزّ بحلفه ، وإلا عرفت الذل حيث توجهت من الأرض .

(٢) إيقاظ همم أولى الأبصار للفُـلَّانىّ (ص ٦ وما بعدها).

ابتعت غلاماً فاستغللته . ثم ظهرتُ منه على عيب فخاصمت فيه إلى عمر بن عبدالعزيز . فقضى لى برده . وقضى علىّ برد غلته . فأتيت عروة فأخبرته فقال: أروح إليه العشية فأخبره أن عائشة أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا ، أن الخراج بالضمان. فعجلت إلى عمر فأخبرته بما أخبرنى به عروة عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر بن عبد العزيز : فَمَا أَيْسَرَ عَلَىَّ من قضاء قضيتُه، واللهُ يعلم أنى لم أرد فيه إلا الحق - فبلغتنى فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فراح إليه عروة فقضى لى أن آخذ الخراج الذى قضى به علىّ له .

قال الشافعىّ: وأخبرنى من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبى ذئب قال: قضى سعيد بن إبراهيم على رجل . بقضيةٍ ، برأى ربيعة بن أبى عبد الرحمن . فأخبرته عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بخلاف ماقضى به . فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبى ذئب ، وهو عندى ثقة ، يخبرنى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف ما قضيت به . فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ومضى حكمك . فقال سعد : وا عجباً . أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأردّ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ! بل أرد قضاء سعد بن أم سعد وأنفذ قضاء رسول الله صلى عليه وسلم . فدعى سعد بكتاب القضية فشقه، فقضى للمقضىّ عليه .

قال الشافعىّ : أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابىّ . قال . حدثنى ابن أبى ذئب عن المقبرىّ عن أبى شريح الكعبىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم(١) قال عام الفتح :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٨ ـ باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، حديث ٩٦ ونصه :

عن أبى هريرة أنه، عام فتح مكة، قتلت خزاعة رجلا من بنى ليث بقتيل لهم فى الجاهلية. فقام رسول الله ﷺ فقال « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحلّ لأحد قبلى . ولا تحل لأحد بعدى . ألا وإنها أحلت لى ساعة من نهار =

من قتل له قتيل فهو بخير النظرين . إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود. قال أبو حنيفة: فقلت لابن أبي ذئب : أتأخذ بهذا ، ياأبا الحرث ؟ فضرب صدرى وصاح عليّ صياحاً كثيراً، ونال منّى وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به ؟ نعم . آخذ به . وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه . إن الله تبارك وتعالى اختار محمداً صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه . واختارلهم مااختار له وعلى لسانه . فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين داخرين . لامخرج لمسلم من ذلك .

وما سكت حتى تمنيت أن يسكت . إنتهى .

قال الإمام الفُلّانى فى (إيقاظ الهمم) بعد نقل مامرّ : تأمل فعل عمر بن الخطاب وفعل عمر بن عبد العزيز وفعل سعد بن إبراهيم، يظهر لك أن المعروف عند الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعند سائر العلماء المسلمين ، أن حكم الحاكم المجتهد ، إذا خالف نص كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله علته وسلم ، وجب نقضه ومنع نفوذه. ولا يعارَض نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسانية والعصبية الشيطانية ، بأن يقال : لعلّ هذا المجتهد قد اطلع على هذا النص وتركه لعلةٍ ظهرت له . أوأنه اطلع على دليل آخر . ونحو هذا ، مما لهج به فرق الفقهاء المتعصبين ، وأطبق عليه جهلة المقلدين فافهم. انتهى .

= ألا وإنها ساعتى هـذه حرام . لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا يَلتقط ساقطتها إلا منشد . ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما يُودَى ، وإما يقاد » .

فقام رجل من أهل اليمن ، يقال له : أبو شاهٍ . فقال : اكتب لى يا رسول الله ! فقال له رسول الله ﷺ « اكتبوا لأبى شاهٍ » .

ثم قام رجل فقال : يا رسول الله ! إلا الإذخر ، فإنـا نجعله فى بيوتنا وقبورنا . فقال رسول الله ﷺ « إلا الإذخر » .

وقال ولىّ الدين التبريزىّ فى (مشكاة المصابيح) فى (الفصل الثالث عشر) من (باب الجماعة وفضلها) : وعن بلال بن عبدالله بن عمر عن أبيه[1] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنّكم . فقال بلال : والله ! لنمنعهن. فقال عبد الله : أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقول أنت : لنمنعهن؟ (وفى رواية سالم عن أبيه) قال : فأقبل عليه عبد الله فسبه سبًّا ماسمعت سبه مثله قط . وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول: والله ! لنمنعهن . رواه مسلم . وعن مجاهد عن عبد الله بن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم[2] قال : لايمنعن رجل أهله أن يأتوا المساجد. فقال ابنٌ لعبد الله بن عمر : فإنَّا نمنعهن . فقال عبد الله : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول هذا؟ قال فما كلمه عبد الله حتى مات . رواه الإمام أحمد .

وقال الطيبىّ شارح (المشكاة): عجبت ممن سمّى بالسنىّ ، إذا سمع من سنة رسول الله وله رأى ، رجح رأيه عليها. وأىّ فرق بينه وبين المبتدع ؟ أما سمع (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؟ وها هو ابن عمر ، وهو من أكابر الصحابة وفقهائها ، كيف غضب لله ورسوله وهجر فلذة كبده لتلك الهنة، عبرة لأولى الألباب.

وروى الإمام مسلم فى[3] (صحيحه) فى(كراهة الحذف)قبيل (كتاب الأضاحى) ، عن

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
وحديث رقم ٥٦٤٠ (طبعة المعارف) .
ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
وحديث رقم ٤٩٣٣ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٤ (طبعتنا) ونصه : عن أبى بريدة قال : رأى عبد الله بن المغفَّل رجلا من أصحابه يحذف . فقال له : =

سعيد بن جبير أن قريباً لعبد الله بن مغفل خذف . قال فنهاه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ، وقال : إنها لاتصيد صيداً ولا تنكأ عدوًّا ، ولكنها تكسر السن وتفقأ العين . فقال فعاد . فقال : أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ثم تخذف . لا أكلمك أبداً .

قال النووى : فيه جواز هجران أهل البدع والفسوق . وأنه يجوز هجرانهم دائماً . فالنهى عنه فوق ثلاثة أيام إنما هو فى هجرٍ لحظ نفسه ومعايش الدنيا . وأما هجر أهل البدع ، فيجوز على الدوام. كما يدل عليه هذا مع نظائر له، لحديث كعب بن مالك .

قال السيوطى : وقد ألفت مؤلفاً سميته (الزجر بالهجر) لأنى كثير الملازمة لهذه السنة .اهـ.

أقول: حديث الخذف ساقه الحافظ الدارمى[1] فى (سننه) تحت باب (تعجيل عقوبة من بلغه عن النبى ﷺ حديث فلم يعظمه ولم يوقره) ورواه من طرق متنوعة . وفى بعضها: أحدثك أنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الخذف ثم تخذف ؟ والله ! لا أشهد لك جنازة ولا أعودك فى مرض ولا أكلمك أبدًا . وأسند الدارمى فى هذا الباب عن قتادة عن ابن سيرين؛ أنه حدث رجلًا بحديث عن النبى ﷺ . فقال رجل : قال فلان وفلان : كذا وكذا ! فقال ابن سيرين : أحدثك عن النبى ﷺ وتقول : قال فلان وفلان ؟ لا أكلمك أبدًا . وأسند أيضاً فيه عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء رجل إلى سعيد بن المسيّب يودعه

= لا تخذف . فإن رسول الله ﷺ كان يكره ـ أو قال ينهى عن الخذف ـ فإنه لايصطاد به الصيد ، ولا ينكأ به العدوّ . ولكنه يكسر السنّ ويفقأ العين .

ثم رآه بعد ذلك يخذف . فقال له : أخبرك أن رسول الله ﷺ كان يكره ـ أو ينهى عن الخذف ـ ثم أراك تخذف ! لا أكلمك كلمة كذا وكذا .

(١) أخرجه فى مسنده فى المقدمة ، ٤٠ ـ باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبى ﷺ حديث ، فلم يعظمه ولم يوقره .

بحج أو عمرة . فقال له : لا تبرح حتى تصلّي . فإن رسول الله ﷺ قال لا يخرج بعد النداء من المسجد إلا منافق . إلا رجل أخرجته حاجة وهو يريد الرجعة إلى المسجد . فقال : إن أصحابي بالحرة . قال فخرج . قال فلم يزل سعيد يولَع بذكره حتى أُخبر أنه وقع من راحلته فانكسرت فخذه.

وذكر الدارمىّ رضى الله عنه قبل هذا الباب (باب ما يتّقى من تفسير حديث النبىّ ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ) وأسند(١) عن معتمر عن أبيه عن ابن عباس أنه قال : أما تخافون أن تعذبوا أو يخسف بكم أن تقولوا : قال رسول الله ، وقال فلان .

قال الإمام شمس الدين بن القـيّم فى (أعلام الموقعين): ترى كثيراً من الناس إذا جاء الحديث يوافق قول من قلده، وقد خالفه راويه يقول : الحجة فيما روى لا فى قوله. فإذا جاء قول الراوى موافقاً لقول من قلده ، والحديث يخالفه قال : لم يكن الراوى يخالف ما رواه إلا وقد صح عنده نسخه . وإلا كان قدحاً فى عدالته. فيجمعون فى كلامهم بين هذا وهذا . بل قد رأينا ذلك فى الباب الواحد . وهذا من أقبح التناقض ، والذى ندين الله به ، ولا يسعنا غيره ، أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ، ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه، أن الفرض علينا وعلى الأمة الأخذ بحديثه وترك كل ما خالفه . ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائناً من كان . لا راويه ولا غيره : إذ من الممكن أن ينسى الراوى الحديث ولا يحضره وقت الفتيا. أو لا يتفطن لدلالته على تلك المسئلة . أو يتأول فيه تأويلًا مرجوحاً . أو يقوم فى ظنه ما يعارضه ولا يكون معارضاً فى نفس الأمر . أو يقلد غيره فى فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه ، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه . ولو قدّر انتفاء ذلك كله ، ولا سبيل إلى العلم بانتفائه ولا ظنه، لم يكن الراوى معصوماً . ولم توجب مخالفته، لما رواه، سقوطَ عدالته . حتى تغلب سيئاته حسناته . وبخلاف هذا الحديث الواحد لا يحصل له ذلك اﻫ .

(١) أخرجه فى مسنده فى المقدمة ، ٣٩ ـ باب ما يتقى من تفسير حديث النبىّ ﷺ ، وقول غيره عند قوله ﷺ .

وقال الفُلّانيّ رحمه الله تعالى فى (الإيقاظ) قال عثمان بن عمر : جاء رجل إلى مالك بن أنس فسأله عن مسألة فقال له : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا . فقال الرجل : أرأيتَ؟ فقال مالك : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قال مالك : لم تكن من فتيا الناس أن يقال لهم : لِمَ قلت هذا ؟ كانوا يكتفون بالرواية ويرضون بها .

قال الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم اه .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى (فتوى له) قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله . ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه، فى كل ما أمر به ونهى عنه ، إلا رسوله ﷺ . حتى كان صدّيق الأمة وأفضلها بعد نبيّها ﷺ ورضى عنه يقول: أطيعونى ما أطعت الله . فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم. واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً فى كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ . وهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل ما يقولونه . وذلك هو الواجب . وقال أبو حنيفة : هذا رأيي . وهذا أحسن ما رأيت . فمن جاء برأى خير منه قبلناه . ولهذا ، لما اجتمع أفضل أصحابه ، أبو يوسف بإمام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، وسأله عن مسئلة الصاع ، وصدقة الخضراوات ، ومسئلة الأحباس ، فأخبره مالك رضى الله عنه بما دلت عليه السنة فى ذلك ـ فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله . ولو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت .

ومالك رحمه الله كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة . أو كلام هذا معناه .

والشافعيّ رحمه الله كان يقول: إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى الحائط . وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق فهى قولى .

ثم قال ابن تيمية : وإذا قيل لهذا المستفتى المسترشد : أنت أعلم أم الإمام الفلانىّ ؟ كانت هذه معارضة فاسدة . لأن الإمام الفلانىّ قد خالفه فى هذه المسألة من هو نظيره من الأئمة . ولست من هذا ولا من هذا . ولـكن نسبة هؤلاء الأئمة إلىّ نسبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وأبىّ ومعاذ ونحوهم إلى الأئمة وغيرهم . فـكما أن هؤلاء الصحابة بعضهم لبعض أكفاء فى موارد النزاع ، فإذا تنازعـوا فى شىء ردوه إلى الله وإلى رسوله ، وإن كان بعضهم قد يكون أعلم فى مواضع أخر . وكذلك موارد النزاع بين الأئمة . وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود رضى الله عنهما فى مسألة تيمم الجنب . وأخذوا بقول أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه وغيره ، لما احتج بالـكتاب والسنة . وتركوا قول عمر رضى اللهعنه فى دية الأصابع ، وأخذوا بقول معاوية بن أبى سفيان ، لما كان من السنة أن النبىّ صلى اللهعليه وسلم قال : هذهوهذهسواء. وقد كان بعضالناس يناظر ابن عباس رضىالله عنهما فى المتعة . فقال له : قال أبو بكر وعمر . فقال ابن عباس : يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء. أقول : قال رسول الله صلى اللهعليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر. وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما ، لما سألوه عنها ، فأمر بها فعارضوه بقول عمر . فبين لهمأن عمر لم يرد مايقولونه . فألحوا عليه فقال لهم . أرسول الله أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس بأن أبا بكر وعمر أعلم من ابنعمر وابنعباس رضى الله عنهم . ولو فتح هذا الباب لأوجبأن يعرضعنأمراللهورسوله، وبقى كل إمامفىأتباعه بمنزلة النبىّ فىأمته. وهذا تبديلللدين وشبيه بما عاب اللهبه النصارى فى قوله(١) : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَاأُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِدًا ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. والله سبحانه أعلم . انتهى .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] .

وقال الإمام ابن القيّم فى خطبة (زادالمعاد): فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته صلى الله عليه وسلم ، وجعل شقاوة الدارين فى مخالفته . فلأتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش فى الدنيا والآخرة . ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء فى الدنيا والآخرة . وقد أقسم صلى الله عليه وسلم[1] بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين . وأقسم سبحانه بأنه لا يؤمن من لم يحكّمه فى كل ما تنازع فيه هو وغيره ، ثم يرضى بحكمه ، ولا يجد فى نفسه حرجاً مما حكم به ، ثم يسلم له تسليما ، وينقاد له انقيادا . وقال تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ[2] . فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله . فليس لمؤمن أن يختار شيئاً

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٢ ـ كتاب الإيمان، ٨ ـ باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث ١٤ ونصه :

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

وفى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٣ ـ باب كيف كانت يمين النبىّ ﷺ ، حديث ١٧٣٦ ونصه :

عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبىّ ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب . فقال له عمر : يا رسول الله ! لأنت أحبّ إلىّ من كل شىء إلا من نفسى .

فقال النبىّ ﷺ « لا . والذى نفسى بيده ! حتى أكون أحب إليك من نفسك » .

فقال له عمر : فإنه الآن ، والله ! لأنت أحب إلىّ من نفسى .

فقال النبىّ ﷺ « الآن ، يا عمر ! » .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . . . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً.

بعد أمره ﷺ . بل إذا أمر فأمره حتم . وإنما الخيرة في قول غيره ، إذا خفي أمره ، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته . فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتّباع، لا واجب الاتباع . فلا يجب على أحدٍ اتباع قول أحدٍ سواه . بل غايته أنه يسوغ له اتباعه. ولو ترك الأخذ بقول غيره، لم يكن عاصياً لله ورسوله . فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله . فلا حكم لأحد معه . ولا قول لأحد معه . كما لا تشريع لأحد معه . وكل حيّ سواه، فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بما أمر به ونهى عما نهى عنه . فكان مبلغاً محضاً ومُخبِرا، لا منشئاً ومؤسساً . فمن أنشأ أقوالًا وأسس قواعد ، بحسب فهمه وتأويله ، لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها ، حتى تعرض على ما جاء به . فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة ، قبلت حينئذ . وإن خالفته وجب ردها واطراحها . وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين ، جعلت موقوفة . وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها . وأمّا أنه يجب ويتعين ، فَكَلّا . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)

« وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » . قال الرازيّ : اعلم أن هذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق . والمعنى : إنا لو شدّدنا التكليف على الناس ، نحو أن نأمرهم بالقتل والخروج عن الأوطان، لصعب ذلك عليهم، ولما فعله إلا الأقلون. وحينئذ يظهر كفرهم وعنادهم.

فلما لم نفعل ذلك ، رحمة منا على عبادنا ، بل اكتفينا بتكليفهم فى الأمور السهلة ، فليقبلوها بالإخلاص ، وليتركوا التمرد والعناد ، حتى ينالوا خير الدارين . انتهى .

ونقله فيما بعدُ عن ابن عباس . وعليه فمرجع الضمير فى (عَلَيْهِمْ) إلى المنافقين . وثمة وجه آخر . وهو عوده إلى الناس كافة . ويكون المراد بـ (القليل) المؤمنين . وأما الضمير فى قوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا) فهو مختص بالمنافقين . ولا يبعد أن يكون أول الآية عامًّا وآخرها خاصًّا . قرره الرازىّ . روى ابن جريج بسنده إلى أبى إسحق السبيعىّ قال : لما نزلت : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ . . . الآية . قال رجل : لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذى عافانا . فبلغ ذلك النبىّ ﷺ فقال : إن من أمتى لرجالًا ، الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى . ورواه ابن أبى حاتم نحوه . وأسند عن السدّىّ قال: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود . فقال اليهودىّ : والله ! لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا . فقال ثابت : والله ! لو كتب علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا . فنزلت الآية . وأسند أيضاً عن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو نزلت لكان ابن أم عبدٍ منهم . وأسند أيضاً عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال : لو أن الله كتب ذلك، لكان هذا من أولئك القليل .

تنبيهات

الأول ـ قال بعض المفسرين : أراد حقيقة القتل والخروج من الديار . وقيل : أراد التعرض للقتل بالجهاد . وأراد الهجرة بالخروج من الديار . والمعنى : لو أمر المنافقون، كما أمر المؤمنون ، مافعلوه. انتهى. والقول الثانى بعيد . لأنه لايعدل عن الحقيقة إلا لضرورة. ولمنافاته للآثار المذكورة الصريحة فى الأول .

الثانى ـ الضمير فى (فعلوه) للمكتوب الشامل للقتل والخروج .لدلالة (كتبنا)عليه. أوهو عائد على أحد مصدرى الفعلين. قال الخفاجىّ: وللعطف بـ(أو) لزم توحيد الضمير. انتهى.

أقول : ذكر الشيخ خالد فى (التصريح) أن إفراد الضمير فى العطف بـ (أو) رأىُ البصريين. والتثنيةُ رأىُ الكوفيين . فأفاد جواز الوجهين. قال محشيه العلامة يس: الذى نص عليه ابن مالك أن (أو) التى للشك والإبهام يفرد بعدها الضمير . والتى للتنويع يطابق . نحو قوله تعالى: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا[1]. ونص على ذلك ابن هشام فى (المغنى) فى (بحث الجملة المعترضة) فقال (فى قوله تعالى : إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا) : الظاهر أن الجواب : فالله أولى بهما . ولا يرد ذلك تثنية الضمير كما قد توهموا . لأن (أو) هنا للتنويع . وحكمها حكم (الواو) فى وجوب المطابقة. نصّ عليه الأبدى . وهو الحق . انتهى . وبه يعلم أن ما اشتهر من أنه إذا ذكر متعاطفان بـ(أو) فإنه يعاد الضمير إلى أحدهما ـ ليس على عمومه .

الثالث ـ قرأ ابن عامر (قليلا) بالنصب على الاستثناء . والباقون بالرفع بدلًا من الضمير المرفوع « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ » أى : من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهرًا وباطنًا . وسميت أوامر الله ونواهيه مواعظ، لاقترانها بالوعد والوعيد « لَكَانَ » أى: فعلهم ذلك « خَيْرًا لَهُمْ » فى عاجلهم وآجلهم « وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا» أى لإيمانهم ، وأبعد من الاضطراب .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

« وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا » أى : من عندنا « أَجْرًا » أى ثوابا « عَظِيماً » يعنى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ﴾

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً » أى لثبتناهم فى الدنيا على دين قويم نرتضيه، وهو الإسلام. ثم بين تعالى فضل الطاعة وأن ثمرتها مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده. فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾

« وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » ولم يذكر المنعَم به إشعاراً بقصور العبارة عن تفصيلة وبيانه « مِنَ النَّبِيِّينَ » الذين أنبأهم الله أكمل الاعتقادات والأحكام . وأمرهم بإنبائها الخلق ، كُلًّا بمقدار استعداده « وَالصِّدِّيقِينَ » (جمع صديق) وهو المبالغ فى صدق ظاهره بالمعاملة ، وباطنه بالمراقبة. أو الذى يصدق قوله بفعله . كذا فى (المدارك) .

قال الرازىّ : للمفسرين (فى الصدّيق) وجوه : الأول ـ أن كل من صدق بكل الدين لايتخالجه فيه شك فهو صديق . والدليل عليه قوله تعالى « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ »(١) . الثانى ـ قال قوم : الصديقون أفاضل أصحاب النبىّ عليه الصلاة

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ =

والسلام . الثالث ـ أن الصديق اسم لمن سبق إلى تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام . فصار فى ذلك قدوة لسائر الناس . وإذا كان الأمر كذلك ، كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أولى الخلق بهذا الوصف . ثم جوّد الرازىّ الكلام فى سبقه رضى الله عنه إلى التصديق ، وفى كونه صار قدوة للناس فى ذلك. فانظره. «وَالشُّهَدَاءِ» الذين استشهدوا فى سبيل الله تعالى «وَالصَّالِحِينَ» الذين صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم «وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ» إشارة إلى النبيين والصديقين وما بعدهما « رَفِيقاً » يعنى فى الجنة . والرفيق الصاحب . سمى رفيقاً لارتفاقك به وبصحبته . وإنما وحّد (الرفيق) وهو صفة الجمع ، لأن العرب تعبّر به عن الواحد والجمع . كالصديق والخليط . والجملة تذييل مقرر لما قبله ، مؤكد للترغيب والتشويق .

قال الزمخشرىّ : فيه معنى التعجب . كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقاً ! ولاستقلاله بمعنى التعجب قرئ (وحسْن) بسكون السين .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : ليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين ... الخ ـ كون الكل فى درجة واحدة . لأن هـذا يقتضى التسوية فى الدرجة بين الفاضل والمفضول . وأنه لا يجوز . بل المراد كونهم فى الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر ، وإن بعد المكان . لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً . وإذا أرادوا الزيارة والتلاقى قدروا عليه . فهذا هو المراد من هذه المعية .

الثانى ـ دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة فى الفضل والعلم إلا هذا الوصف . وهو كون الإنسان صدّيقاً . ولذا أينما ذكر فى القرآن الصديق والنبىّ لم يجعل بينهما واسطة .

= الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

كما قال تعالى فى وصف إسماعيل: إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ[١] . وفى صفة إدريس: إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[٢] . وقال (فى هذه الآية) : مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ . يعنى إنك إن ترقيت من الصديقية وصلت إلى النبوة . وإن نزلت من النبوة وصلت إلى الصديقية . ولا متوسط بينهما. وقال فى آية أخرى: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ[٣] . فلم يجعل بينهما واسطة . وكما دلت هذه الدلائل على نفى الواسطة ، فقد وفق الله هذه الأمة الموصوفة بأنها خير أمة ، حتى جعلوا الإمام بعد الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر، على سبيل الإجماع . ولما توفى رضوان الله عليه دفنوه إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما ذاك إلا أن الله تعالى رفع الواسطة بين النبيين والصديقين فى هذه الآية . فلا جرم ارتفعت الواسطة بينهما فى الوجوه التى عددناها. أفاده الرازى .

الثالث ـ روى الطبرى فى سبب نزولها عن سعيد بن جبير قال: جاء[٤] رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يافلان ! مالى أراك محزوناً ! فقال: يانبى الله ! شىء فكرت فيه . فقال : ماهو ! قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك . غداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك . فلم يرد النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً. فأتاه جبريل بهذه الآية : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ الخ . فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسلًا عن مسروق وعن عكرمة

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٤] ونصها : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا .

(٢) [١٩/ مريم/ ٥٦] ونصها: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.

(٣) [٣٩ / الزمر / ٣٣] ونصها : وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

(٤) الأثر رقم ٩٩٢٤ .

وعامر الشعبيّ وقتادة وعن الربيع بن أنس. وهو من أحسنها سنداً : قال الطبرى[(١)] : حدثنى المثنى قال : حدثنا إسحق قال: حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع قال (فى هذه الآية) : إن أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبيّ ﷺ له فضله على من آمن به فى درجات الجنة . ممن اتبعه وصدقه . فكيف لهم إذا اجتمعوا فى الجنة أن يرى بعضهم بعضا ؟ فأنزل الله فى ذلك هذه الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأعلَين ينحدرون إلى من هو أسفل . منهم فيجتمعون فى رياضها فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه . وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به . فهم فى روضة يحبرون ، ويتنعمون فيه. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً عن عائشة . قالت: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! إنك لأحب إلىّ من نفسى وأحب إلىّ من أهلى وأحب إلىّ من ولدى . وانى لأكون فى البيت فأذكرك . فما أصبر حتى آتيك ، فأنظر إليك . وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك ، إذا دخلتَ الجنة ، رفعت مع النبيين . وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك . فلم يردّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ... الآية . وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى كتابه فى (صفة الجنة) بإسناد قال فيه: لا أرى به بأساً .

الرابع ـ روى فى السنة فى معنى هذه الآية أخبار وافرة. منها : فى صحيح مسلم[(٢)] عن ربيعة بن كعب الأسلمىّ أنه قال : كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتيته بوضوء وحاجته فقال لى : سل : فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة . فقال : أو غير ذلك؟ قلت : هو ذاك . قال : فأعنّى على نفسك بكثرة السجود . ومنها فى مسند الإمام أحمد[(٣)]

(١) الأثر رقم ٩٩٢٨

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٦ (طبعتنا) .

(٣) جاء فى (عمدة التفسير) بالصفحة ٢١٧ من الجزء الثالث . قال الأستاذ أحمد محمد شاكر معلقاً على هذا الحديث ما يأتى : خفى علىّ مكانه من المسند. وبقوله أقول .

عن عمرو بن مرة الجهنيّ : قال . جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله! شهدت أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله . وصليت الخمس وأديت زكاة مالى ، وصمت شهر رمضان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات على ذلك كان مع النبيين والشهداء يوم القيامة هكذا (ونصب أصبعيه) مالم يعقّ والديه .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد . ومنها ما رواه الإمام أحمد[1] أيضاً عن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ألف آية فى سبيل الله تبارك وتعالى كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. إن شاء الله تعالى . ومنها مارواه الترمذيّ[2] عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء .

قال ابن كثير : وأعظم من هذا كله بشارةً ، ما ثبت فى الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال : المرء مع من أحب.

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه الترمذيّ فى : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٤ ـ باب ما جاء فى التجار وتسمية النبيّ ﷺ إياهم .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٩٦ ـ باب علامة حب الله عز وجل لقوله : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ، حديث ٢٣٥٧ ونصه :

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم . فقال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب».

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) ونصه:

عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! متى الساعة؟=

قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث .

وفى رواية عن أنس أنه قال : إنى لأحب رسول الله ﷺ . وأحب أبا بكر وعمر . وأرجو أن يبعثنى معهم ، وإن لم أعمل كعملهم .

وعن أبى سعيد الخدرىّ(١) قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرىّ الغابر من الأفق ، من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : بلى . والذى نفسى بيده ! رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين . أخرجاه فى الصحيحين من حديث الإمام مالك . واللفظ لمسلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً)

« ذَٰلِكَ » مبتدأ. إشارة إلى ماللمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم . أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم . فالمشار إليه إما جميع ما قبله أو ما يليه . « الْفَضْلُ » صفة « مِنَ اللَّهِ » خبره. أى : ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره .

= قال « وما أعددت للساعة ؟ » قال : حب الله ورسوله . قال « فإنك مع من أحببت » .

قال أنس : فما فرحنا ، بعد الإسلام ، فرحاً أشدّ من قول النبىّ ﷺ « فإنك مع من أحببت » .

قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله ، وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث١١ (طبعتنا). وأخرجه البخارىّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٨ ـ باب ماجاء فى الجنة وأنها مخلوقة، حديث ١٥٤٠ .

أو (الْفَضْلُ) خبر ، و (مِنَ اللهِ) حال . والعامل فيه معنى الإشارة . أى : ذلك الثواب، لكمال درجته، كأنه هو الفضل . وإن ماسواه ليس بشىء موجوداً وكائناً من الله تعالى . لأن أعمال المكلفين توجبه .

قال الناصر فى (الانتصاف): معتقدنا ، معاشر أهل السنة ، أن الطاعات والأعمال التى يتميز بها هؤلاء الخواص ، خلقُ الله تعالى وفعله . وإن قُدَرَهم لا تأثير لها فى أعمالهم . بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات ويثيبهم عليها . فالطاعة إذاً من فضله . فله الفضل على كل حال . والمنة فى الفاتحة والمآل . وكفى بقول سيد البشر فى ذلك حجة وقدوة . فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام[1]: لايدخل أحد منكم الجنة بعمله . قيل: ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتعمدنى الله بفضل منه ورحمة . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا . اللهم! اختم لنا باقتفاء السنة . وأدخلنا بفضلك المحض الجنة. انتهى كلام الناصر . والحديث المذكور أخرجه الشيخان عن أبى هريرة. « وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً » بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله .

قال الرازىّ : وله موقع عظيم فى توكيد ما تقدم من الترغيب فى طاعة الله . لأنه تعالى نبه بذلك على أنه يعلم كيفية الطاعة وكيفية الجزاء والتفضل . وذلك مما يرغب المكلف فى كمال الطاعة ، والاحتراز عن التقصير فيه . ثم أعاد تعالى ، بعد الترغيب فى طاعته وطاعة رسوله ، الأمر بالجهاد الذى تقدم ، لأنه أشق الطاعات وأعظم الأمور التى يحصل بها تقوية الدين ، فقال سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٣٥ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لن ينجّى أَحداً منكم عمله » قالوا : ولا أَنت ، يا رسول الله ؟ قال « ولا أَنا . إلا أَن يتغمدنى الله برحمة . سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا ، وشىء من الدُّلْجة . والقصدَ القصدَ تبلغوا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ » أى تيقظوا واحترزوا من العدوّ ولا تمكنوه من أنفسكم . يقال : أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف . كأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه . ويطلق الحذر على ما يحذر به ويصون . كالسلاح والحزم . أى : استعدوا للعدوّ . والحذر على هذا حقيقة . وعلى الأول من الكناية والتخييل . بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية . قال فى (الإكليل) : فيه الأمر باتخاذ السلاح . وأنه لا ينافى التوكل . قال بعض المفسرين : دلت الآية على وجوب الجهاد وعلى استعمال الحذر ، وهو الحزم ، من العدوّ ، وترك التفريط . وكذلك ما يحذرونه وهو استعمال السلاح على أحد التفسيرين . فتكون الرياضة بالمسابقة والرهان فى الخيل ، من أعمال الجهاد « فَانْفِرُوا » أى اخرجوا إلى الجهاد « ثُبَاتٍ » جمع (ثبة) بمعنى الجماعة . كما فى القاموس . أى جماعات متفرقين ، سرية بعد سرية ، وفرقة بعد فرقة إظهاراً للجراءة « أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً » أى مجتمعين كلكم كوكبة واحدة . إيقاعاً للمهابة بتكثير السواد ، ومبالغة فى التحرز عن الخطر . قال الحاكم : اتفق العلماء على أن ذلك موكول إلى اجتهاد الإمام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا)

« وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أى : ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد والخروج مع الجماعة لنفاق . أو معناه : ليثبطن غيره . كما كان المنافقون يثبطون غيرهم . وكان هذا ديدن المنافق عبد الله بن أبيّ . وهو الذى ثبط النـاس يوم أُحُد . وقد روى عن كثير من التابعين أن الآية

نزلت فى المنافقين . فإن ما حكى عنهم هو دأبهم . وقيل : الخطاب للمؤمنين وقوفاً مع صدر الآية . فإنه قال : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا .ثم قال : وَإِنَّ مِنْكُمْ . وقد قال تعالى فى المنافقين: مَا هُمْ مِنْكُمْ .

قال الحاكم : والتقدير على القول الأول :وَإِنَّ مِنْكُمْ ، على زعمه ، فى الظاهر أو فى حكم الشرع « فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ » كهزيمة ، وشهادة ، وغلب العدوّ لكم ، لما لله فى ذلك من الحكمة « قَالَ » أى: المبطئ فرحاً بصنعه ، ومعجباً برأيه « قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ » بالقعود « إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا » أى حاضرًا فى المعركة . فيصيبنى ماأصابهم . يعدّ ذلك من نعم الله عليه . ولم يدر ما فاته من الأجر فى الصبر ، أو الشهادة إن قتل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً)

« وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ » كفتحٍ ، وغنيمةٍ ، ونصرٍ ، وظفرٍ . ونسبة إصابة الفضل إلى جنابه تعالى ، دون إصابة المصيبة ، من العادات الشريفة التنزيلية . كما فى قوله تعالى : وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(١) . « لَيَقُولَنَّ» ندامةً على تثبطه وقعوده ، وتهالكاً على حطام الدنيا ، وتحسُّرًا على فواته « كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ » أى: صلة فى الدين ، ومعرفة بالصحبة « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً » فأصيب غنائم كثيرة ، وحظًّا وافرًا . وقوله تعالى : كَأَنْ لَمْ . الخ، اعتراض بين الفعل وهو (لَيَقُولَنَّ) ومفعوله وهو (يَا لَيْتَنِي الخ) للتنبيه على ضعف عقيدتهم ، وأن قولهم هذا قول من لم تتقدم له معكم موادّة . لأن المنافقين كانوا يوادّون المؤمنين ويصادقونهم فى الظاهر . وإن كانوا

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٠] .

يبغون لهم الفوائل فى الباطن . وفيه تعجيب أيضاً من قولهم المذكور . قال بعض المفسرين : ثمرة ذلك تأكيد وجوب الجهاد وتحريم التثبيط عنه . انتهى .

ولما ذم تعالى المبطئين عن الجهاد ، رغّب المؤمنين فيه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً)

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » أى: يبيعونها بها. وهم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بهـا . والمعنى : إن صَدَّ الذين فى قلوبهم مرض ، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة . ويقال : عنى بالموصول المنافقين المبطئين . أى الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة . فيكون وعظاً لهم بأن يبدلوا التثبيط بالجهاد « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ » أى يستشهد « أَوْ يَغْلِبْ »أى:يظفر على العـدوّ « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ » نعطيه « أَجْرًا عَظِيماً » ثواباً وافراً . روى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج فى سبيله . لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى . وإيماناً بى . وتصديقاً برسلى . فهو علىّ ضامن أن أدخله الجنـة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه . نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة (لفظ مسلم)[١].

(١) أخرجه فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٠٣ (طبعتنا) ونصه :
... «والذى نفس محمد بيده ! مامن كَلْم يُكْلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه لون دم وريحه مسك . والذى نفس محمد بيده! لولا أن يشق على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا . ولـكن لا أجد سعة فأحملهم . ولا يجدون سعة . ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى. والذى نفس محمد بيده ! لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل . ثم أغزو فأقتل . ثم أغزو فأقتل » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » خطاب للمأمورين بالقتال ، على طريقة الالتفات، مبالغةً فى التحريض عليه ، وتأكيداً لوجوبه . وقوله تعالى (وَالْمُسْتَضْعَفِينَ) مجرور، عطفاً على اسم الله . أى: فى سبيل المستضعفين الذين هم كأنفسكم . وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدوّ . أو على السبيل، بحذف المضاف . أى فى خلاص المستضعفين . أو منصوب على الاختصاص . يعنى : وأختص من سبيل الله خلاص المستضعفين . لأن سبيل الله عام فى كل خير . وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصّه .

قال فى (الانتصاف) : وفى النصب مبالغة فى الحث على خلاصهم من جهتين : إحداها ـ التخصيص بعد التعميم. فإنه يقتضى إضمار الناصب الذى هو أختص . ولولا النصب لكان التخصيص معلوماً من إفراده بالذكر . ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم ، بأن أخرجه إلى النطق. « مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » بيان للمستضعفين . أو حال منهم . وهم المسلمون الذين صدّهم المشركون عن الهجرة . فبقوا بمكة مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد . وكان النبىّ ﷺ يدعو لهم فيقول[1] : اللهم ! أنج الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . كما فى الصحيح .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٢٨ ـ باب يُهوِى بالتكبير حين يسجد ، حديث ٢٥٢ ونصه : =

وإنما ذكر (الولدان) معهم، تكميلًا للاستعطاف واستجلاب الرحمة، وتنبيهاً على تناهى ظلم المشركين . بحيث بلغ أذاهم الصبيان . وإيذاناً بإجابة الدعاء الآتى بسبب مشاركتهم فى الدعاء « الَّذِينَ يَقُولُونَ » من إيذاء أهل مكة وإذلالهم إياهم ، متبرئين من المقام بها « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا » أى: بالشرك الذى هو ظلم عظيم . وبأذية المسلمين . وهى مكة . و (الظالم) صفتها . وتذكيره لتذكير ما أسند إليه . فإن اسم الفاعل والمفعول إذا أجرى على غير من هو له، كان كالفعل فى التذكير والتأنيث ، بحسب ماعمل فيه . قاله أبوالسعود . « وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » أى:سخر لنا من عندك حافظاً يحفظ علينا ديننا « وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » ناصراً يدفع عنا أذيّاتِ أعدائنا . أو المعنى : واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة . أى: لتكن أنت ولينا وناصرنا . وقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة . وجعل لمن بقى منهم خير ولىّ وأعزّ ناصر . ففتح مكة على نبيه ﷺ . فتولّاهم أىَّ تولٍّ ، ونصرهم أية نصرة ، حتى صاروا أعزّ أهلها.

وروى البخارىّ[1] بالسند إلى ابن عباس قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين . وبه إليه قال[2] : كانت أمى ممن عذر الله .

= عن أبى هريرة قال : وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول « سمع الله لمن حمده . ربنا ولك الحمد » يدعو لرجال يسميهم بأسمائهم فيقول « اللهم! أنج الوليد بن الوليد ، وسلَمة ابن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين . اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » وأهل المشرق يومئذ من مضر مخالفون له .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء ، ١٤ ـ باب قوله: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، حديث ٧١٥ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ باب إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، حديث ٧١٥ .

قال الرازىّ : معنى الآية : لا عذر لـكم فى ترك المقاتلة . وقد بلغ حال المستضعفين من المسلمين إلى مابلغ فىالضعف . فهذا حث شديد علىالقتال ، وبيان العلة التى صار لهـا القتال واجباً . وهو ما فى القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدى الـكفرة . لأن هـذا الجمع إلى الجهاد يجرى مجرى فـكاك الأسير اه . انتهى

تنبيه :

قال بعض المفسرين : ثمرة هـذه الآية تأكيد لزوم الجهاد . لأنه تعالى وبخ على تركه . وتدلالآية علىلزوم استنقاذ المسلم من أيدى الـكفار. ويأتى مثل هذا استنقاذه من كل مضرة، من ظالم أو لص وغير ذلك . ووجه مأخذ ذلك ، أنه تعالى جعل ذلك كالعلم للانقطاع إليه . وتدل على أن حكم الولدان حكم الآباء ، لأن الظاهر أنه أراد الصغار .

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يراد بالرجال والنساء، الأحرارَ والحرائر . وبالولدان، العبيدَ والإماء . لأنالعبد والأَمَة يقال لهما: الوليد والوليدة . وقيل (للولدان والولائد) : الولدان. لتغليب الذكور على الإناث . كما يقال : الآباء والإخوة . وتدل الآية على أن للداعى حقًّا عند الله . لأنه جعل ذلك اختصاصاً لنصرته . وتدل على لزوم الهجرة من ديار الـكفر . وأن المؤمن لا يذل نفسه بجعله مستضعفاً . لأنه تعـــالى أوجب المقاتلة لزوال الغلبة عليهم . وفى الآيات هذه تأكيدات متتابعة على لزوم الجهاد .

لطيفة :

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : وقفت على نـكتة فى هذه الآية حسنة . وهى أن كلقرية ذكرت فى الـكتاب العزيز ، فالظلم ينسب إليها بطريق المجاز. كقوله : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ـ إلى قوله ـ فَـكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ[1] . وقوله : وَكَمْ

(١) [١٦ / النحل/ ١١٢] ونصها: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَـدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَـكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا[1] . وأما هذه القرية (فى سورة النساء) فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة . لأن المراد بها مكة . فوقرت عن نسبة الظلم إليهـا ، تشريفاً لها ، شرّفها الله تعالى . ثم شجع تعالى المؤمنين ورغّبهم فى الجهاد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » يعنى فى طاعته لإعلاء كلمته. فهو وليّهم وناصرهم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ » فى طاعـة الشيطان الآمر بغاية الطغيان . كإيذاء المستضعفين من المؤمنين وقتال أقويائهم « فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ » أى: جنده . قال أبو السعود : وذكرهم بهـذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان ، والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لمـا أن قتالهم فى سبيله . وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه . فإن ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة . كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف . كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك ، فقاتلوا، ياأولياء الله ! أولياءَ الشيطان . ثم صرح فى التعليل فقيل « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » أى: فى حد ذاته . فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى . ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ، إيذاناً بظهورها. قالوا : فائدة إدخال (كان) فى أمثال هـذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان ، كان كذلك . فالمعنى : إن كيـد الشيطان منذ كان ، كان موصوفاً بالضعف. انتهى. (والكيد): السعى فى فساد الحال على جهة الاحتيال عليه. يقال : كاده يكيده، إذا سعى فى إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه . أفاده الرازىّ .

(١) [٢٨ / القصص / ٥٨] . . . فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْأَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ » وهم المؤمنون عند استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، قبل أن يؤمروا به « كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ » أى : عن القتال . فإنكم لم تؤمروا به « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ » أى : أتموا الصلوات الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها ، ومايجب فيها من مواقيتها. وأعطوا زكاة أموالكم « فَلَمَّا كُتِبَ »أى فرض«عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ » أى الجهاد فى سبيل الله حين قوى حالهم « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ » أى طائفة منهم وهم المنافقون . وإدخالهم مع المؤمنين لما كانوا يظهرونه من أنفسهم أنهم منهم « يَخْشَوْنَ النَّاسَ » أى : يخافون أهل مكة الكفار أن يقتلوهم « كَخَشْيَةِ اللَّهِ » أى كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه « أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » أى: أكثر خوفاً منه .

فإن قيل: ظاهرقوله (أَوْأَشَدَّ خَشْيَةً) يوهم الشك. وذلك على علام الغيوب محال. (أجيب) بأن (أو) إما بمعنى (بل) أو هى للتنويع . على أن معنى : أن خشية بعضهم كخشية الله ، وخشية بعضهم أشد منها . أوللإبهام على السامع . بمعنى أنهم على إحدى الصفتين من المساواة والشدة . وهو قريب مما فى قوله تعالى : « أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »(١) يعنى أن من يبصرهم يقول: إنهم مائة ألف أو يزيدون .

تنبيه :

حكى المفسرون هنا رواية عن ابن عباس ، أن هذه الآية نزلت فى جماعة من الصحابة

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] .

المهاجرين وأنهم كانوا يلقون من مشركى مكة ، قبل الهجرة ، أذى شديداً . فيشكون ذلك إلى النبى ﷺ ، ويقولون: ائذن لنا فى قتالهم . فيقول لهم النبى صلى الله عليه وسلم: كفوا أيديكم . فإنى لم أومر بقتالهم . واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة . ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، لما أمروا بقتالهم فى وقعة بدر ، كرهه بعضهم ، فنزلت الآية .

وعندى أن هذه الآية كسوابقها نزلت فى المنافقين ، تقريعاً لهم وتحذيراً للمخلصين من شاكلتهم . والقول بنزولها فى بعض المؤمنين لا يصح لوجوه : منها ـ أن فى إسنادها عن ابن عباس من ليس على شرط الصحيح . ومنها ـ أن طلبهم للجهاد وهم فى مكة ، مع قلة العدَد والعُدَد ، وممالأة العدو عليهم من كل جانب ـ فى غاية البعد . ومنها ـ أن السياق فى المنافقين . وقد ابتدئ الكلام فى شأنهم من قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ـ إلى قوله تعالى الآتى ـ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ...الآية . كما يظهر من التدبر الصادق . ومنها ـ أن هذا السياق اشتمل على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين . لأنه تعالى قال فى وصفهم : يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . ولا يكون هذا الوصف إلا لكافر أو منافق . وحكى تعالى عنهم أنهم قالوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ . ولم يعهد هذا عن المؤمنين ، بل المحفوظ مبادرتهم للجهاد. كما روى ابن إسحق فى (السيرة)(١) أن النبى ﷺ استشار الناس فى غزوة بدر . فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله ﷺ ! امض لما أراك الله . فنحن معك . والله ! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ(٢) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق! لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة ٢٦٦ و ٢٦٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) و ص ٤٣٤ و ٤٣٥ (طبعة جوتنجن) .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٤] .

ثم قال سعد بن معاذ : امض ، يارسول الله ! لما أردت، فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هـذا البحر لخضته لخضناه معك . ماتخلف منا رجل واحد . وما نـكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء . ومنها ـ أنه تعالى ذكر بعد ذلك قوله : إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ(١) . ولا شك أن هذا من كلام المنافقين . ثم صرح تعالى فى آخر الـكلام عليهم بقوله : فَمَا لَـكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ . فزال اللبس وبرح الخلفاء .

وما أشبه هذه الآيات بقوله تعالى فى (سورة محمد)(٢) : وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ . أى: تأمرنا بالجهاد ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ... إلى قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ « وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ » أى الجهاد فى سبيلك « لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى: هلا عافيتنا وتركتنا حتى نموت بآجالنا « قُلْ » أى: تزهيداً لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفانى ، وترغيباً فيما ينالونه بالجهاد من النعيم الباقى « مَتَاعُ الدُّنْيَا » أى مايتمتع وينتفع به فى الدنيا « قَلِيلٌ » سريع التقضى ، وشيك الانصرام . وإن أخرتم إلى ذلك الأجل « وَالْآخِرَةُ » أى: ثوابها الذى من جملته الثواب المنوط بالجهاد « خَيْرٌ » أى: لـكم من ذلك المتاع الفانى ، لـكثرته وعدم انقطاعه ، وصفائه عن الـكدورات . وإنما قيـل « لِمَنِ اتَّقَىٰ » حثاً لهم على اتقاء العصيان والإخلال بموجب التكليف . « وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا » عطف على مقدر . ينسحب عليـه الـكلام . أى :

(١) [٤ / النساء / ٧٨] ونصها : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً .

(٢) [٤٧ / محمد / ٢٠ـ٢٩]

تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شيء من أجور أعمالـكم ، التى من جملتها مسعاكم فى شأن القتال . فلا ترغبوا عنه . (والفتيل) ما فى شق النواة من الخيط . يضرب به المثل فى القلة والحقارة . وقرئ (يظلمون) باليـاء ، إعادةً للضمير إلى ظاهر (مَن). أفاده أبو السعود .

روى ابن أبى حاتم قال: قرأ الحسن : قل متاع الدنيا قليل . قال : رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك . وما الدنيا كلها ، أولها وآخرها ، إلا كرجل نام نومة فرأى فى منامه بعض ما يحب ثم انتبه . وقال ابن معين : كان أبو مصهر ينشد :

ولا خير فى الدنيا لمن لم يكن له من الله فى دار المقام نصيب
فإن تُعجب الدنيا رجالًا فإنها متـاع قليـــل والزوال قريب

ثم بين تعالى أنه لا ينفعهم الفرار من الموت . لأنه لا خلاص لهم منه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)

« أَيْنَمَا تَكُونُوا » أى: فى أى مكان تـكونوا عند الأجل « يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ » أى: الذى لأجله تـكرهون القتال ، زعما منـكم أنه من مظانه . وتحبون القعود عنه ، على زعم أنه منجاة منـه . أى : وإذا كان لابد من الموت ، فبأن يقع على وجهٍ يكون مستعقباً للسعادة الأبدية ، كان أولى من أن لا يكون كذلك . ونظير هذه الآية قوله تعالى : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا[١] . « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٦] .

بُرُوجٍ » أى حصون « مُشَيَّدَةٍ » أى: مرفوعة مستحكمة . لا يصل إليها القاتل الإنسانىّ . لكنها لا تمنع القاتل الإلهىّ . كما قال زهير بن أبى سلمى[١]:

ومن هاب أسباب المنـايا ينَلْنَهُ ولو رام أسباب السماء بسلَّم

وقد ذكر ابن جرير[٢] وابن أبى حاتم ههنا حكاية مطولة عن مجاهد . والشاهد منها هنا؛ أنها كانت أُخبرت بأنها تموت بالعنكبوت . فاتخذ لها زوجها قصراً منيعاً شاهقاً ليحرزها من ذلك . فبينما هم يوماً فإذا العنكبوت فى السقف . فأراها إياها فقالت : أهذه التى تحذرها علىّ ؟ والله ! لا يقتلها إلا أنا . فأنزلوها من السقف. فعمدت إليها فوطئتها بإبهام رجلها فقتلتها. فطار من سمّها شىء فوقع بين ظفرها ولحمها . واسودت رجلها . فكان فى ذلك أجلها . فماتت .

ولما حكى تعالى عن المنافقين كونهم متثاقلين عن الجهاد . خائفين من الموت ، غير راغبين فى سعادة الآخرة ، أتبع ذلك بخلّة لهم أشنع ، بقوله سبحانه « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ » كخصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحوها « يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى من قِبَلِه،

---

(١) هو البيت التاسع والأربعون من معلقته التى أولها :

أمِن أمّ أوفى دِمنـةٌ لم تَكَلَّمِ بَحَوْمانة الدّرَّاج فالمتثلَّمِ

قال التبريزىّ : ويروى :

ومن يبغ أطراف الرماح ينلنه ولو رام أن يرقى السماء بسلم

يقول : من تعرض للرماح نالته . ورام معناه حاول . والأسباب النواحى . وإنما عنى بها من يهاب كراهة أن تناله . لأن المنايا تنال من يهابها ومن لا يهابها . ونظير هذا قوله عز وجل : قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ . والموت يلاقى من فرّ ومن لا يفر .

(٢) الأثر رقم ٩٩٥٨

لما علم فينا الخير « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ » كقحط وجدب ، وغلاء السعر، ونقص فى الزروع والثمار ، وموت أولاد ونتاج ، ونحوذلك « يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ » يعنون: من شؤمك. كما قال تعالى عن قوم فرعون : فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ[1] . وعن قوم صالح : قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ[2] .

قال أبو السعود : فأمَرَ النبيّ ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجر ، ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال . إذ لا يجترؤن على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى ، خلقاً وإيجاداً ، من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شىء منها بوجه من الوجوه كما تزعمون . بل وقوع الاولى منه تعالى بالذات تفضلا . ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة . كما سيأتى بيانه . فهذا الجواب المجمل فى معنى ما قيل، ردًّا على أسلافهم من قوله تعالى: أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ ، أى إنما سبب خيرهم وشرهم ، أو سبب إصابة السيئة التى هى ذنوبهم ، عند الله تعالى لا عند غيره . حتى يسندوها إليه ويطيّروا به « فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ » يعنى المنافقين « لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً » أى قولا . والجملة اعتراضية مسوقة لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجب من كمال غباوتهم . إذ لو فقهوا شيئاً لعلموا مما يوعظون به ، أن الله هو القابض الباسط . وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان . والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] .... أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢٧ / النمل/ ٤٧] ... قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

« مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ » أى: نعمة « فَمِنَ اللَّهِ » أى: فمن نعمته وتفضله ابتداءً « وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ » أى : بليـة « فَمِنْ نَفْسِكَ » أى من شؤمها بسبب اقترافها المعاصى الموجبة لها . وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى ، نازلة من عنده عقوبة ، كقوله تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (١) .

روى ابن عساكر عن البراء رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : مامن عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم . وما يغفر الله أكثر .

وروى الترمذىّ (٢) عن أبى موسى الأشعرىّ عن النبىّ ﷺ قال: لايصيب عبداً نكتة فما فوقها أو دونها ، إلا بذنب . وما يعفو الله عنه أكثر . قال وقرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤٢ ـ سورة الشورى ، ٢ ـ حدثنا عبد بن حميد . ونصه : عن عبيد الله بن الوازع : حـدثنى شيخ من بنى مرة قال : قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبى بردة . فقلت : إن فيـه لمعتبرا . فأتيته وهو محبوس فى داره التى كان قد بنى . قال وإذا كل شىء منه قد تغير ، من العذاب والضرب . وإذا هو فى قشاش (لُقَاطة) فقلت : الحمد لله ، يا بلال ! لقد رأيتك وأنت تمرّ بنا ، تمسك بأنفك من غير غبار . وأنت فى حالك هذا اليوم !

فقال : ممن أنت ؟ فقلت : من بنى مرة بن عباد . فقال : ألاأحدثك حديثا عسى اللهأن ينفعك به ؟ قلت : هات . قال : حدثنى أبى ، أبو بردة عن أبيه ، أبى موسى؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . . .

لطيفة :

الخطاب فى (أَصَابَكَ) عام لكل من يقف عليه . لا للنبىّ ﷺ . كقوله[1] :

* إذا أنت أكرمت الكريم ملكته *

ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً . وجوّز أن يكون الخطاب له ﷺ ، كما قبله وما بعده ، لكن لا لبيان حاله ﷺ ، بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير . ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم ، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب . لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة . قرره أبو السعود .

قال بعض المفسرين : وثمرة الآية ردّ التطيّر والتشاؤم .

« وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً » بيان لجلالة منصبه ﷺ ومكانته عند الله عز وجل . بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه عليه الصلاة والسلام . بناءً على جهلهم بشأنه الجليل. وتعريف (الناس) للاستغراق . أفادة أبو السعود . أى : فمن أين يتصور لك الشؤم وقد أرسلت داعياً العمومَ إلى الخيرات ؟ فأنت منشأ كل خير ورحمة « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً » أى: على رسالتك وصدقك ، بإظهار المعجزات على يديك . أى : وإذا ثبتت رسالتك ، فاليُمن فى طاعتك ، والشؤم فى مخالفتك .

---

(١) قائله المتنبى . من قصيدة له مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعوّدا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

ومعنى البيت ما قاله شارحه عبد الرحمن البرقوقىّ :

يقول : إن الكريم يقدر الإكرام حق قدره . فإذا أنت أكرمت الكريم صار كأنه مملوك لك . أما اللئيم ، فإنك إذا أكرمته ، زاد عتوًّا وجرأة عليك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)

« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » لأنه عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه . فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه وتعالى « وَمَنْ تَوَلَّىٰ » عن طاعته « فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى كفيلا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها . إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (١) .

ولما بين تعالى وجوب طاعة الرسول ، تأثره بذكر معاملتهم معه .فقال:

القول فى تأويل قوله تعالى

[٨١] (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا)

« وَيَقُولُونَ » أى:المنافقون ، إذا أمرتهم بشىء ، وهم عندك «طَاعَةٌ »بالرفع. أى:أمرنا وشأننا طاعة . ويجوز النصب بمعنى : أطعناك طاعة . كما يقول المنقاد : سمعاً وطاعة ، وسمعٌ وطاعة. قال سيبويه : سمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمدُ الله وثناءٌ عليه . كأنه قال: أمرى وشأنى حمدُ الله وثناءٌ عليه . ولو نصب (حمد الله) كان على الفعل . والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها.« فَإِذَا بَرَزُوا» أى خرجوا «مِنْ عِنْدِكَ» أى: من مجلسك « بَيَّتَ » أى: دبّر ليلا « طَائِفَةٌ مِنْهُمْ » أى من القائلين المذكورين وهم رؤساؤهم « غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ » أى: خلاف ماقالت لك، من القبول وضمان الطاعة . لأنهم مصرون على الرد والعصيان. وإنما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق .

---

(٦) [١٣ الرعد / ٤٠] ونص الآية : وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

تنبيهان :

الأول ـ في (القاموس وشرحه) وبيّت الأمر : عمله أودبره ليلًا . وقال الزجاج : كل ما فكر فيه ، أو خيض بليل ، فقد بيّت . ويقال : بيّت بليل ودبّر بليل بمعنى واحد . وفي الحديث : أنه كان ﷺ لا يبيّت مالًا ولا يقيله . أي : إذا جاءه مال لا يمسكه إلى الليل ولا إلى القائلة . بل يعجل قسمته[1] . انتهى .

ونقل الرازيّ عن الزجاج أيضاً: أن كل أمر تفكر فيه وتأمل في مصالحه ومفاسده كثيراً، يقال فيه مبيّت . وفي اشتقاقه وجهان : الأول ـ من البيتوتة لأن أصلح الأوقات للفكر أن يجلس الإنسان في بيته بالليل . فهناك تكون الخواطر أخلى، والشواغل أقل . فلما كان الغالب أن الإنسان وقت الليل يكون في البيت ، والغالب أنه يستقصي الأفكار في الليل ، لا جرم سمي الفكر المستقصى مبيَّتاً . الثاني ـ اشتقاقه من أبيات الشعر. لأن الشاعر يدبرها ويسويها. قال الأخفش : العرب إذا أرادوا قرض الشعر بالغوا في التفكر فيه . فسمَّوُا المتفكَّر فيه ، المستقصى ، مبيَّتاً . تشبيهاً له ببيت الشعر . من حيث إنه يسوى ويدبر .

الثاني ـ تذكير الفعل. لأن تأنيث (طائفة) غير حقيقيّ . ولأنها في معنى الفوج والفريق. وإسناده إلى طائفة منهم ، لبيان أنهم المتصدون له بالذات . والباقون أتباع لهم في ذلك . لا لأن الباقين ثابتون على الطاعة . « وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ » أي: يثبته في صحائف أعمالهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الموكلين بالعباد فيجازيهم عليه .

قال ابن كثير : والمعنى في هذا التهديد ، أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرُّونه فيما بينهم . وما يتفقون عليه ليلًا من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه . وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة . وسيجزيهم على ذلك . انتهى .

وجوّز أن يكون المعنى : والله يكتبه في جملة ما يوحى إليك في كتابه ، فيطلعك على أسرارهم . فلا يحسبوا أن إبطانهم يغني عنهم . فالقصد لتهديدهم على الأول . وتحذيرهم من

(١) لم أقف على هذا الحديث .

النفاق لأن الله يظهره ، على الثـانى . « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى تجاف عنهم ولا تعاقبهم « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » أى ثق بالله فى شأنهم . فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم « وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا » كفيلًا بالنصرة والدولة لك عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ» إنـكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان ، ليعلموا كونه من عنده تعالى، بمشاهدة مافيه من الشواهد التى من جملتها هذا الوحى الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحـكىّ على ما هو عليـه . وأصل التدبّر التأمل والنظر فى أدبار الأمر وعواقبه خاصة . ثم استعمل فى كل تأمل ، سواء كان نظراً فى حقيقة الشىء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعقابه « وَلَوْ كَانَ » أىالقرآن « مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ » تعالى كما يزعمون « لَوَجَدُوا فِيـهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع . إذ لا علم بالأمور الغيبيـة ، ماضية كانت أومستقبلةً ، لغيره سبحانه . وحيث كانت كلها مطابقة للواقع ، تعيّن كونه من عنده تعالى . قال الزجاج : ولولا أنه من عند الله تعالى لـكان ما فيه من الإخبار بالغيب ، مما يُسره المنافقون وما يبيّتونه ، مختلفاً : بعضُه حق وبعضُه باطل. لأن الغيب لايعلمه إلا الله تعالى .

وقال أبو بكر الأصم : إن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون فى السر على أنواع كثيرة من الـكيد والمـكر . وكان الله تعالى يُطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك . ويخبره بها مفصلة . فقيل لهم إن ذلك ، لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لمـا اطرد الصدق فيه ، ولوقع فيه الاختلاف. فلما لم يقع ذلك قط، علم أنه بإعلامه تعالى. وأما حمـل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة، فما لا يساعده السباق ولا السياق . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال . وعلى القول بفساد التقليد . لأنه تعالى أمر المنافقين بالاستدلال بهذا الدليل على صحة نبوته . أفاده الرازيّ .

وفي الآية، أيضاً، الحث على تدبر القرآن ليعرف إعجازه من موافقته للعلوم واشتماله على فوائد منها. وكمال حججه وبلاغته العليا . وموافقة أحكامه للحكمة. وأخباره الماضية لكتب الأولين، والمستقبلة للواقع .

قال الحافظ ابن حجر : من أمعن في البحث عن معاني كتاب الله ، محافظاً على ماجاء في تفسيره عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل ، وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك ، مقتصراً على ما يصلح للحجة منها ، فإنه الذي يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم . انتهى .

وقد روى البخاريّ[1] في صحيحه تعليقاً عن ابن عون (وهو عبد الله البصريّ، من صغار التابعين) ، أنه قال : ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها. والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه . ويَدَعُوا الناس إلّا من خير . وفي رواية (فيتدبروه) بدل (يتفهموه) .

قال الكرمانيّ : قال في القرآن : يتفهموه ، وفي السنة : يتعلموها . لأن الغالب أن المسلم يتعلم القرآن في أول أمره فلا يحتاج إلى الوصية بتعلمه . فلهذا أوصى بتفهم معناه وإدراك منطوقه . انتهى. وفي بقية الآية العذر للمصنفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض. لأن السلامة عن ذلك من خصائص القرآن . ثم ذكر تعالى عن المنافقين نوعاً آخر من مفاسدهم. وهو إظهارهم أسرار رسول الله ﷺ ، ومبادرتهم بأخبار السرايا وإذاعتها ، بقوله تعالى :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ» أى: مما يوجب أحدهما «أَذَاعُوا بِهِ» أى: أفشوه . فتعودُ إذاعتهم مفسدة من وجوه : الأول ـ أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير . والثانى ـ أنه إن كان ذلك الخبر فى جانب الأمن ، زادوا فيه زيادات كثيرة . فإذا لم توجد تلك الزيادات ، أورث ذلك شبهة للضعفاء فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم . لأن المنافقين كانوا يروون تلك الإرجافات عن الرسول . وإن كان ذلك فى جانب الخوف ، تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين ، ووقعوا عنده فى الحيرة والاضطراب ، فكانت تلك الإرجافات سبباً للفتنة من هذا الوجه . والثالث ـ أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعى على البحث الشديد والاستقصاء التام . وذلك سبب لظهور الأسرار . وذلك مما لا يوافق مصلحة المدينة. والرابع ـ أن العدواة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين والكفار. فكل ما كان أمنا لأحد الفريقين كان خوفاً للفريق الثانى . فإن وقع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم، أرجف المنافقون بذلك . فوصل الخبر فى أسرع مدة إلى الكفار . فأخذوا فى التحصن من المسلمين ، وفى الاحتراز عن استيلائهم عليهم . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا فى ذلك وزادوا فيه ، وألقوا الرعب فى قلوب الضعفة والمساكين . فظهر من هذا أن ذلك الإرجاف كان منشئاً للفتن والآفات من كل الوجوه . ولما كان الأمر كذلك ذم الله تعالى تلك الإذاعة وذلك التشهير ، ومنعهم منه . أفاده الرازى . «وَلَوْ رَدُّوهُ» أى ذلك الأمر الذى جاءهم «إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ» وهم كبراء الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله عنهم ، أو الذين يؤمَّرون منهم وكانوا كأن لم يسمعوا «لَعَلِمَهُ» أى : الأمر

« الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ » أي يستعلمونه ويتطلبونه وهم المنافقون المذيعون « مِنْهُمْ » أي من الرسول وأولى الأمر . يعنى لو أنهم قالوا : نسكت حتى نسمعه من جهة الرسول ومن ذكر معه ، ونعرف الحال فيه من جهتهم ، لعلموا صحته وأنه هل هو مما يذاع أوْ لا ؟ وإنما وضع الموصول موضع الضمير ، يعنى لم يقل (لعلموه) لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام. أو لذمهم أو للتنبيه على خطأهم فى الفحص عن استخراج وإظهار خفىّ ذلك الأمر .

قال الناصر فى (الانتصاف): فى هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل مايسمع . وكفى به كذباً . وخصوصاً عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين فى نحر العدوّ . وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل مايسمعون من أخبارهم، خيرا أو غيره . انتهى.

وقد روى مسلم[1] عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل مايسمع . وعند أبى داود[2] والحاكم عنه : كفى بالمرء إثما . ورواه الحاكم أيضاً عن أبى أمامة .

هذا ، ونقل الرازىّ وجهاً آخر فى الموصول . وهو أن المعنىّ به طائفة من أولى الأمر . قال : والتقدير: ولو أن المنافقين ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر لكان علمه حاصلًا عند من يستنبط هذه الوقائع من أولى الأمر . وذلك لأن أولى الأمر فريقان : بعضهم من يكون مستنبطاً وبعضهم من لا يكون كذلك . فقوله (منهم) يعنى لعلمه الذين يستنبطون المخفيات من طوائف أولى الأمر . فإن قيل : إذا كان الذين أمرهم الله برد هذه الأخبار إلى الرسول وإلى أولى الأمر هم المنافقون ، فكيف جعل أولى الأمر منهم فى قوله (وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ) ؟ قلنا : إنما جعل أولى الأمر منهم على حسب الظاهر . لأن المنافقين

---

(١) فى المقدمة ، حديث رقم ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٨٠ ـ باب فى التشديد فى الكذب، حديث ٤٩٩٢ .

يظهرون من أنفسهم أنهم يؤمنون . ونظيره قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ(١). وقوله : (مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) . انتهى .

وعلى هـذا الوجه يحمل قول السيوطى فى (الإكليل): قوله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ) ... الآية ، هذا أصل عظيم فى الاستنباط والاجتهاد . وقول المهايمى : فلو وجدوا فى القرآن مايوهم الاختلاف ، لوجب عليهم استفسار الرسول والعلماء الذين هم أولو الأمر ، ليعلمهم منهم المجتهدون فى استنباط وجوه التوفيق . وقال بعض الإمامية : ثمرة الآية أنه يجب كتم مايضر إظهاره المسلمين . وأن إذاعته قبيحة . وأنه لا يُخْبَرُ بما لم يعرف صحته . وتدل على تحريم الإرجاف على المسلمين . وعلى أنه يلزم الرجوع إلى العلماء فى الفتيا . وتدل على صحة القياس والاجتهاد . لأنه استنباط. انتهى .

تنبيه :

مانقله الزمخشرى وتبعه البيضاوى وأبوالسعود وغيرهم ، من أن قوله تعالى(وَإِذَا جَاءَهُمْ) عنى به طائفة من ضعفة المسلمين ـ فإن أرادوا بالضعفة المنافقين ، فصحيح . وإلا فبعيد غاية البعد كما يعلم من سباق الآية وسياقها . وكذا مانوعوه من الأقوال فى معناها . فكله لم يصب المرمى . والذى يعطيه الذوق السليم فى الآية هو الوجه الأول . ولها إشعار بالوجه الثانى لا تأباه . فتبصر ولا تكن أسير التقليد . « وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ » بإرسال الرسول وإنزال الكتاب « لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ » بالكفر والضلال « إِلَّا قَلِيلًا » أى: إلا قليلًا منكم ممن تفضل الله عليه بعقل صائب فاهتدى به إلى الحق والصواب ، وعصمه عن متابعة الشيطان . كمن اهتدى إلى الحق فى زمن الفترة . كقس بن ساعدة وأضرابه . وهم عشرة . وقد أوضحت شأنهم فى كتابى (إيضاح الفطرة فى أهل الفترة) فى (الفصل

(١) [٤ / النساء / ٧٢] ونصها : وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا .

الرابع عشر) فانظره . ونقل الرازىّ عن أبى مسلم الأصفهانىّ ، أن المراد بفضل الله ورحمته، هنـا، هو نصرته تعالى ومعونته اللذان عناهما المنافقون بقولهم: فأفوز فوزاً عظيما . أى : لولا تتابع النصرة والظفر لاتبعتم الشيطان وتوليتم إلا القليل منكم من المؤمنين من أهل البصيرة الذين يعلمون أنه ليس مدار الحقية على النصر فى كل حين . واستحسن هذا الوجه الرازىّ وقال : هو الأقرب إلى التحقيق . قال الخفاجىّ : لارتباطه بما بعده . هذا ، وزعم بعضهم أن قوله تعالى : (إِلَّا قَلِيلًا) مستثنى من قوله (أذاعوه) أو (لعلمه) واستدل به على أن الاستثناء لا يتعين صرفه لما قبله . قال : لأنه لو كان مستثنى من جملة (اتبعتم) فسد المعنى لأنه يصير عدم اتباع القليل للشيطان ليس بفضل الله . وهو لا يستقيم . وبيان لزومه أن (لولا) حرف امتناع لوجود . وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان. فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة فقـد سلبت تأثير فضـل الله فى امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ، ضرورة . وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان وعصيان الشيطان بأنفسهم . ألا تراك إذا قلت (لمن تذكره بحقك عليـه): لولا مساعدتى لك لسُلِبَتْ أموالك إلا قليـلًا ، كيف لم تجعل لمساعدتك أثراً فى بقاء القليل للمخاطب . وإنما مننت عليه بتأثير مساعدتك فى بقاء أكثر ماله ، لا فى كله . ومن المحال أن يعتقد مسلم أنه عصم فى شىء من اتباع الشيطان ، إلا بفضله تعالى عليه . هذا ملخص ما قرره صاحب الانتصاف ، وهوّل فيـه . ولا يخفى أن صرف الاستثناء إلى ما يليه ويتصل به لتبادره فيه ، أولى من صرفه إلى الشىء البعيد عنه . واللازم ممنوع . لأن المراد بالفضل والرحمة معنى مخصوص . وهو ما بيناه . فإن عدم الاتباع، إذا لم يكن بهذا الفضل المخصوص ، لا ينافى أن يكون بفضل آخر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا)

« فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ » تلوين للخطاب ، وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بطريق الالتفات . وهو جواب شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم . أى : إذا كان الأمر ، كما حكى من عدم طاعة المنافقين و كيدهم، فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا. قاله أبو السعود. « لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ » أى: إلا فعل نفسك . بالتقدم إلى الجهاد . فإن الله هو ناصرك ، لا الجنود. فإن شاء نصرك وحدك ، كما ينصرك وحولك الألوف . أى : ومن نكل، فلا عليك منه ولا تؤاخذ به .

قال الرازىّ : دلت الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال. لأنه تعالى ما كان يأمره بذلك إلا وهو صلى الله عليه وسلم موصوف بهذه الصفات . ولقد اقتدى به أبو بكر[١] رضى الله عنه حيث حاول الخروج وحده إلى قتال

(١) جاء فى صحيح البخارىّ فى ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١ ـ باب وجوب الزكاة، حديث ٧٤٣و٧٤٤ ما نصه : عن أبى هريرة قال : لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضى الله عنه. و كفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضى الله عنه : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها، فقد عصم ماله ونفسه ، إلا بحقه . وحسابه على الله »؟

فقال : والله ! لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال : والله ! لو منعونى عَنَاقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضى الله عنه : فوالله ! ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق .

مانعى الزكاة . ومن علم أن الأمر كله بيد الله ، وأنه لا يحصل أمر من الأمور لا بقضاء الله، سهل ذلك عليه . وروى ابن أبى حاتم عن أبى إسحق قال : سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدوّ فيقاتل ، فيكون ممن قال الله فيه : ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة؟ قال : قد قال الله تعالى لنبيه : (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) .

ورواه الإمام أحمد[1] أيضاً عنه قال : قلت للبراء : الرجل يحمل على المشركين ، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال : لا. إن الله بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك . إنما ذلك فى النفقة . « وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ » أى على الخروج معك وعلى القتال . ورغبهم فيه وشجعهم عليه . كما قال لهم[2] صلى الله عليه ، يوم بدر ، وهو يسوى الصفوف : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . وقد وردت

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٨١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ)

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) ما نصه :

عن أنس بن مالك قال : بعث رسول صلى الله عليه وسلم بُسَيْسَةَ عينا ينظر ماصنعت عير أبى سفيان . فجاء ومافى البيت أحد غيرى وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فحدثه الحديث. قال فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : إن لنا طلبةً . فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا : فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى عُلوِ المدينة . فقال « لا . إلا من كان ظهره حاضرا »

فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر . وجاء المشركون . فقال رسول الله ﷺ « لا يُقَدِّمَنَّ أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه » فدنا المشركون . فقال رسول الله ﷺ « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » قال يقول عُمَيْر بن الحُمَام الأنصارىّ : يا رسول الله ! جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال « نعم » قال : بَخْ بَخٍ . فقال رسول الله ﷺ « مايحملك على قولك بَخٍ بَخٍ » ؟ قال : لا . والله! يا رسول الله ! إلا رجاءَةَ أن أكون من أهلها . قال « فإنك من أهلها » =

أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك . منها : مارواه البخاري[1] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله . بين كل درجتين كما بين السماء والأرض « عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ » أي: يمنع « بَأْسَ » أي : قتال « الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم كفار مكة . أي: بتحريضك إياهم على القتال ، تبعث هممهم على مناجزة الأعداء ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (عسى .. الخ) عِدَةٌ منه سبحانه وتعالى محققة الإنجاز بكف شدة الكفرة ومكروههم . فإن ماصدر بـ (لعل وعسى) مقرر الوقوع من جهته عز وجل. وقد كان كذلك . حيث روى في السيرة[2] أن رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان ،

= فأخرج تمرات من قَرَنِهِ (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن . ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة .

قال فرمى بما كان معه من التمر . ثم قاتلهم حتى قُتِل .

(١) أخرجه البخاري في: ٥٦ـ كتاب الجهاد، ٤ ـ باب درجات المجاهدين في سبيل الله حديث ١٣٣٥ ونصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله وبرسوله ، وأقام الصلاة وصام رمضان ، كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها » .

فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نبشر الناس ؟

قال: إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله . مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة . أُراه فوقه عرش الرحمن . ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة » .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) وبالصفحة ٦٦٦ (طبعة جوتنجن) .

بعد حرب أُحُد ، موسم بدر الصغرى في ذي القعدة . فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج. وخرج في شعبان سنة أربع في سبعين راكباً . ووافوا الموعد وألقى الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب . فرجعوا من مرّ الظهران . انتهى ، بزيادة .

وقال في ذلك عبد الله بن رواحة (وقيل كعب بن مالك) :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد — لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأقسمُ لو وافيتنا فلقيتنا — لأُبْت ذميما ، وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عُتبة وابنه — وعمراً ، أبا جهل ، تركناه ثاويا
عَصيتم رسول الله ، أفٍّ لدينكم — وأمركم السَّيْءُ ، الذى كان غاويا
فإني ، وإن عنفتموني ، لقائلٌ — فِدًى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه ، لم نَعدِلْهُ فينا بغيره . — شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

«وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا » أي: شدة وقوة من قريش « وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا » أي تعذيبا وعقوبة .

قال ابن كثير : أي : هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ(١) . انتهى .

قال الخفاجيّ : والقصد التهديد أو التشجيع . ثم أشار تعالى إلى أن التحريض على القتال شفاعة في تكفير الكبائر ورفع الدرجات فقال :

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٤] ونصها : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً)

« مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً » أى يتوسط فى أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر ، أوجلب نفع ، ابتغاءً لوجه الله تعالى . ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار « يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا » وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها « وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً » وهى ما كانت بخلاف الحسنة ، بأن كانت فى أمر غير مشروع « يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا » أى: نصيب من وزرها الذى ترتب على سعيه ، مساوٍ لها فى القدار من غير أن ينقص منه شيء .

فوائد

الأولى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى الآية مدح الشفاعة وذم السعاية. وهى الشفاعة السيئة ، وذكر الناس عند السلطان بالسوء . وهى معدودة من الكبائر .

الثانية ـ روى فى فضل الشفاعة أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه الشيخان[(١)] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : كان النبىّ ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب. وعن ابن عباس[(٢)] رضى الله عنهما فى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٢١ ـ باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، حديث ٧٦٥. ونصه : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ، إذا جاءه سائل ، أو طُلِبت إليه حاجة قال « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب شفاعة النبىّ ﷺ فى زوج بريرة ، حديث ٢١٥٤ . ونصه : عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبداً يقال له =

قصة بَرِيرة وزوجها قال : قال لها النبيّ ﷺ : لو راجعتِهِ ! قالت : يا رسول الله ! تأمرنى؟ قال : إنما أنا أشفع . قالت : لا حاجة لى فيه . رواه البخاريّ .

الثالثة ـ قال مجاهد والحسن والكلبيّ وابن زيد : نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض . فما يجوز فى الدين أن يشفع فيه ، فهو شفاعة حسنة . وما لا يجوز أن يشفع فيه، فهو شفاعة سيئة . ثم قال الحسن : من يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر ، وإن لم يشفَّع . لأن الله تعالى يقول : من يشفَع . ولم يقل : من يشفَّع . ويتأيد هذا بقوله عليه الصلاة والسلام(١) : اشفعوا تؤجروا . نقله الرازيّ .

الرابعة ـ قال الزمخشريّ : الشفاعة الحسنة هى التى روعى بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر ، أو جلب إليه خير ، وابتغى بها وجهُ الله، ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت فى أمر جائز ، لا فى حد من حدود الله، ولا فى حق من الحقوق . يعنى الواجبة عليه . والسيئة ما كان بخلاف ذلك . وعن مسروق : أنه شفع شفاعة . فأهدى إليه المشفوع جاريةً . فغضب وردها . وقال : لو علمتُ ما فى قلبك لما تكلمت فى حاجتك . ولا أتكلم فيما بقى منها . انتهى .

= مغيث . كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ، ودموعه تسيل على لحيته . فقال النبيّ ﷺ لعباس « يا عباس ! ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثاً ؟ »

فقال النبيّ ﷺ « لو راجعتِهِ ! » قالت : يا رسول الله ! تأمرنى؟ قال « إنما أنا أشفع ». قالت : لا حاجة لى فيه .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٢١ ـ باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ، حديث ٧٦٥ ونصه :

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا جاءه السائل ، أو طُلبت إليه حاجة ، قال « اشفعوا تؤجروا . ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء » .

وروى أبو داود[١] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من شفع لأخيه بشفاعة، فأهدى له هدية عليها ، فقبلها ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر . وهذا الحديث أورده أيضاً المنذرىّ فى (كتاب الترغيب والترهيب) فى ترجمة (الترغيب فى قضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ، وما جاء فيمن شفع فأهدى إليه) ثم ساق حديث الشيخين[٢] وغيرهما عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المسلم أخو المسلم . لا يظلمه ولا يسلمه . ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كرب الدنيا يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة . وروى الطبرانىّ بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ، ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرّم ، فقد عرّض تلك النعمة للزوال . وروى نحوه عن عائشة وابن عُمر وابن عَمرو . وروى الطبرانىّ وابن حبان فى (صحيحه) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذى سلطان فى مبلغ برٍّ أو تيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام . وفى رواية للطبرانىّ عن أبى الدرداء : رفعه الله فى الدرجات العلا من الجنة . وروى الطبرانىّ عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما عن النبىّ ﷺ : إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم . ورواه عن عمر مرفوعاً بلفظ : أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن . ورواه بنحو ذلك أيضاً عن ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم . انظر الترغيب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٨٢ ـ باب الهدية لقضاء الحاجة ، حديث ٣٥٤١ ، عن أبى أمامة .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٣ ـ باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسْلمه ، حديث ١٢٠٢ .

الخامسة ـ نكتة اختيار النصيب فى (الحسنة) والكفل فى (السيئة) ما أشرنا إليه . وذلك أن النصيب يشمل الزيادة. لأن جزاء الحسنات يضاعف . وأما الكفل فأصله المركب الصعب . ثم استعير للمثل المساوى . فلذا اختير ، أشارةً إلى لطفه بعباده . إذ لم يضاعف السيئات كالحسنات . ويقال : إنه وإن كان معناه المثل لكنه غلب فى الشر وندر فى غيره . كقوله تعالى : يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ[١] فلذا خص به السيئة تطْرية وهرباً من التكرار. و(مِنْ) بيانيــة أو ابتدائية . أفاده الخفاجيّ « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُقِيتاً » أى: مقتدراً. من (أقات على الشيء) إذا اقتدر عليه كما قال[٢] :

وذى ضِغْنٍ كففتُ النفس عنه وكنتُ على مساءته مُقيتاً

أى رب ذى حقد علىّ كففت السوء عنه مع القدرة عليه . أو شهيداً حافظاً . واشتقاقه من (القوت) فإنه يقوىّ البدن ويحفظه. وقوله تعالى :

---

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٨] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) البيت استشهد به الطبرىّ فى (ج ٨ ص ٥٨٤) ، والطبرسىّ فى (ج٣ ص٨٤)، ومقاييس اللغة وفيه : على إساءته ، والزمخشرىّ (ج ١ ص ٣٧٨) ونصه فيه :

وذى ضغن نَفَيْتُ السوء عنه وكنت على إساءته مقيتا

وجاء فى اللسان حسب رواية الكتاب . ولكن قال فى الحاشية ما يأتى :

قوله (على مساءته مقيتا) تبع الجوهرىّ . وقال فى التكملة : الرواية (أُقيتُ) قال : والقافية مضمومة وبعده :

يبيت الليل مرتفقا ثقيلا على فرش القناة وما أَبيتُ
تَعِنّ إلىّ منه مؤذياتٌ كما تبرى الجذاميرَ البروتُ

=

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ » أى إذا سلم عليكم فدعى لسلامة حياتكم وصفاتكم التى بها كمال الحياة بتحية ، فقيل : السلام عليكم « فَحَيُّوا » أى: أداءً لحق المسلِّم عليكم « بِأَحْسَنَ مِنْهَا » أى: بتحية أحسن منها . بأن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله . ولو قالها المسلم ، زيد : وبركاته . قال الراغب : أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها . ثم استعملت فى كل دعاء . وكانت العرب ، إذا لقى بعضهم بعضا ، يقول : حيّاك الله . ثم استعملها الشرع فى السلام . وهى تحية الإسلام . قال الله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ(١) . وقال: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ(٢) . وقال : فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ(٣)

= والبروت جمع بَرْت ، فاعل تبرى كترمى . والجذامير مفعوله على حسب ضبطه . اهـ .

والبرت : الفأس (عمانية) والجذمور : بقية كل شيء مقطوع ، عن ابن الأعرابىّ .

وجاء فى حماسة ابن الشجرىّ ص ٢٥: وقائله هو أبو قيس ابن رفاعة ونصه فيها:

وذى ضغن كففت النفس عنه   وإنى فى مساءته مقيتُ

وكذا فى طبقات الشعراء للجمحىّ ص ٢٤٣ وفيها : وكنت ، على مساءته مقيتُ .

وانظر تعليق السيد محمود محمد شاكر على هذا البيت .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٣] ونصها: وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] ونصها : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا .

(٣) [٢٤/النور / ٦١]ونصها : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ =

قالوا : فى السلام مزية على (حياك) لما أنه دعاء بالسلامة عن الآفات الدينيه والدنيوية ، وهى مستلزمة لطول الحياة ، وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك. ولأن السلام من أسمائه تعالى. فالبداءة بذكره مما لا ريب فى فضله ومزيته « أَوْ رُدُّوهَا » أى:أجيبوها بمثلها . ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله. لأن المجيب يرد قول المسلّم ويكرره «إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً» أى: فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية. فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به . وفى الآية فوائد شتى :

الأولى ـ نكتة نظمها مع آيات الجهاد هو التمهيد لمنع المؤمنين من قتل من ألقى إليهم السلام فى الحرب الآتى قريبا، ببيان أن لكل مسلِّم حقا يؤدى إليه. وذلك لأن السلام نوع من الإكرام . والمكرِم يقابل بمثل إكرامه أو أزيد . قال الرازىّ : إن الرجل فى الجهاد كان يلقاه الرجل فى دار الحرب أو مايقاربها فيسلم عليه . فقد لا يلتفت إلى سلامه عليه ويقتله. وربما ظهر أنه كان مُسْلِماً . فمنع الله المؤمنين عنه . وأمرهم أن كل من يسلّم عليهم ويكرمهم بنوع من الإكرام يقابلونه بمثل ذلك الإكرام أوأزيد . فإنه إن كان كافرًا لا يضر المسلم ، إن قابل إكرام ذلك الكافر بنوع من الإكرام ، أما إن كان مسلماً، وقَتَلَهُ، ففيه أعظم المضار والمفاسد . ولذاقال: إن الله كان على كل شيء حسيباً . أى هو محاسبكم على كل أعمالكم. وكافٍ فى إيصال جزاء أعمالكم إليكم . فكونوا على حذر من مخالفة هذا التكليف . فهذا يدل على شدة العناية بحفظ الدماء . والمنع من إهدارها . وقد روى ابن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال:

= وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه ، وإن كان مجوسيًّا . ذلك بأن الله يقول : فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . وقال قتادة : فحيوا بأحسن منها ، يعنى للمسلمين . أو ردوها ، يعنى لأهل الذمة . ومن هنا حكى الماوردىّ وجها : إنه يقول فى الرد على أهل الذمة ، إذا ابتدؤا: وعليكم السلام . ولا يقول: ورحمة الله . نقله عنه النووىّ . وروى الزمخشرىّ عن الحسن أنه يجوز أن يقال للكافر : وعليك السلام . ولا تقل : ورحمة الله . فإنها استغفار. وعن الشعبىّ أنه قال لنصرانىّ سلم عليه : وعليك السلام ورحمة الله . فقيل له فى ذلك . فقال : أليس فى رحمة الله يعيش ؟ انتهى . والظاهر أنه لحظ الأخبار بذلك ولم يرد مضمون التحية. ومع هذا فالثابت فى الصحيحين (١) عن أنس مرفوعا : إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم. كما يأتى . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية مشروعية السلام ووجوب رده . واستدل بها الجمهور على رد السلام على كل مسلِّم، مسلماً كان أو كافراً. لكن مختلفان فى صيغة الرد .

الثانية ـ ورد فى إفشاء السلام أحاديث كثيرة . منها قول البراء بن عازب رضى الله عنهما: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ، منها : وإفشاء السلام . رواه الشيخان (٢) . وعن أبى هريرة

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٢ ـ باب كيف يرد على أهل الذمة السلامُ ، حديث ٢٣٧٥ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٧ـ كتاب النكاح، ٧١ ـ باب حق إجابة الوليمة والدعوة، حديث ٦٦٢ ونصه :

عن البراء بن عازب رضى الله عنهما : أمرنا النبىّ ﷺ بسبع ونهانا عن سبع . أمرنا بعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبرار القسم ونصر المظلوم وإفشاء السلام وإجابة الداعى . ونهانا عن خواتيم الذهب وعن آنية الفضة وعن المياثر والقَسِّيَّة والإستبرق والديباج .

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. رواه مسلم[(١)]. وعن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام ، وصلّوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قال الترمذيّ[(٢)] : حديث صحيح .

الثالثة ـ في كيفية السلام . قال الرازيّ : إن شاء قال : سلام عليكم . وإن شاء قال : السلام عليكم . قال تعالى في حق نوح : يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا[(٣)] . وقال عن الخليل : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي[(٤)]. وقال في قصة لوط : قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٤٢ ـ باب حدثنا محمد بن بشار ، ونصه :

عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه. وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجئت في الناس لأنظر إليه . فلما استثبتّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . وكان أول شيء تكلم به أن قال . . .

(٣) [١١ / هود / ٤٨] ونصها : قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٤) [١٩ / مريم / ٤٧] ونصها : قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا .

(٥) [١١ / هود / ٦٩] ونصها : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

وقال عن يحيى : وَسَلَامٌ عَلَيْهِ(١) . وقال عن محمد ﷺ : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ(٢) . وقال عن الملائكة : وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم(٣) . وقال عن نفسه المقدسة : سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ(٤) . وقال: فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ(٥) . وأما بالألف واللام فقوله عن موسى عليه السلام : فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ(٦) . وقال عن عيسى عليه السلام : وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٧) فثبت أن الكل جائز . انتهى .

(١) [١٩ / مريم / ١٥] ونصها : وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا .

(٢) [٢٧ / النمل / ٥٩] ونصها: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤] ونصهما : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

(٤) [٣٦ / يس / ٥٨] .

(٥) [٦ / الأنعام / ٥٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

(٦) [٢٠ / طه / ٤٧] ونصها : فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ .

(٧) [١٩ / مريم / ٣٣] .

قال الإمام أبو الحسن الواحديّ : أنت فى تعريف السلام وتنكيره بالخيار . انتهى .

ولكثرة ورود التنكير فى القرآن ، على ما بيناه ، فضله بعضهم على التعريف .

الرابعة ـ فى فضله . روى الإمام أحمد[١] وأبو داود والترمذيّ والدارميّ عن عمران بن الحصين رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : السلام عليكم. فرد عليه ثم جلس. فقال النبيّ ﷺ : عشر . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه فجلس فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد عليه فجلس فقال : ثلاثون . قال الترمذيّ حديث حسن . وفى الباب عن أبى سعيد وعلى وسهل بن حنيف . وقال البزار : قد روى هذا عن النبيّ ﷺ من وجوه ، هذا أحسنها إسنادًا . وفى رواية لأبى داود[٢] ، من رواية معاذ بن أنس رضى الله عنه زيادة على هذا . قال: ثم أتى آخر . فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته. فقال: أربعون. وقال: هكذا تكون الفضائل. وفيه رد على من زعم أنه لا يزاد على (وبركاته) . لا يقال رواية (ومغفرته) عند أبى داود ، هى من طريق أبى مرحوم واسمه عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ عن أبيه . وأبو مرحوم ضعفه يحيى . وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ـ لأنا نقول : قد حسّن الترمذيّ روايته عن سهل بن معاذ. وصححها أيضاً هو وابن خزيمة والحاكم وغيرهم . قال النسائيّ لا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه .

عود

وروى الطبرانيّ عن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال : السلام عليكم كتب له عشر حسنات ، ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .
وأبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٢ ـ باب كيف السلام ، حديث ٥١٩٥ .
والترمذيّ فى : ٤٠ ـ كتاب الاستئذان والآداب ، ٢ ـ باب ماذكر فى فضل السلام.
(٢) أخرجه أبو داود فى: ٤٠ـ كتاب الأدب، ١٣٢ـ باب كيف السلام، حديث ٥١٩٦.

كتبت عشرون حسنة ، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتبت له ثلاثون حسنة. وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلًا مرّ على رسول الله ﷺ وهو فى مجلس فقال: سلام عليكم. فقال: عشر حسنات. ثم مرّ آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله فقال : عشرون حسنة . ثم مرّ آخر فقال: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال: ثلاثون حسنة. فقام رجل من المجلس ولم يسلّم. فقال النبىّ ﷺ : ماأوشك مانسى صاحبكم. إذا جاء أحدكم إلى المجلس فليسلم. فإن بدا له أن يجلس فليجلس. وإن قام فليسلم. فليست الأولى بأحق من الآخرة. وروى الطبرانىّ بإسناد جيد عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : أبخل الناس من بخل بالسلام . ورواه أيضاً عن أبى هريرة . ولأحمد[1] والبزار نحوه عن جابر . وروى الطبرانىّ عن حذيفة بن اليمان عن النبىّ ﷺ قال : إن المؤمن إذا لقى المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده تناثرت خطاياهما كما تتناثر ورق الشجر . قال المنذرىّ : ورواته لا أعلم فيهم مجروحاً . وروى البزار عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : إذا التقى الرجلان المسلمان فسلم أحدهما على صاحبه ، فإنّ أحبهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه . فإذا تصافحا نزلت عليهما مائة رحمة : للبادئ منهما تسعون ، وللمصافح عشرة . وروى أبو داود[2] عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن جابر أن رجلًا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن لفلان فى حائطى عذقاً ، وأنه قد آذانى وشقّ علىّ مكان عذقه . فأرسل إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال « بعنى عذقك الذى فى حائط فلان » قال : لا . قال « فهبه لى » قال : لا . قال « فبعنيه بعذق فى الجنة » قال : لا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « ما رأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام » .

(٢) أخرجه أبو داود فى: ٤٠ ـ كتاب الأدب، ١٣٣ ـ باب فى فضل من بدأ بالسلام، حديث ٥١٩٧ .

الخامسة ـ في بعض أحكامه المأثورة. روى أبو داود[١] عن علىّ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال: يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم . ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم . وفى الموطأ[٢] عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: إذا سلم واحد من القوم أجزأ عنهم . قال النووىّ: هذا مرسل صحيح الإسناد . وفى الصحيحين[٣] عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ: ياعائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام . قالت قلت : وعليه السلام ورحمة الله . ترى مالا نرى (تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال النووىّ : ووقع فى بعض روايات الصحيحين (وبركاته) ، ولم يقع فى بعضها . وزيادة الثقه مقبولة . وفى سنن أبى داود[٤] عن غالب القطان عن رجل قال : حدثنى أبى عن جدى قال : بعثنى أبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ائته فأقرئه السلام . فأتيته فقلت :إن أبى يقرئك السلام. فقال : عليك وعلى أبيك السلام . قال النووىّ : هذا وإن كان رواية عن مجهول، فأحاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم . فيستفاد منه الرد على المبلّغ كالمسلّم . وروى أبو داود[٥] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٤١ ـ باب ما جاء فى رد الواحد عن الجماعة ، حديث ٥٢١٠ .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٣ ـ كتاب السلام، حديث ١ (طبعتنا) ونصه: عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يسلم الراكب على الماشى . وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم » .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٦ ـ باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال ، حديث ١٥١٩ .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٤ ـ باب فى الرجل يقول : فلان يقرئك السلام ، حديث ٥٢٣١ .

(٥) أخرجه أبو داود فى: ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٥ ـ باب فى الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ حديث ٥٢٠٠ .

فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه . ففيه أن من سلم عليه إنسان، ثم لقيه على قرب، ندب التسليم عليه ثانياً وثالثاً. وروى الشيخان(١) عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير .

وروى الشيخان(٢) عن أنس : أنه مر على صبيان فسلم عليهم . وقال : كان رسول الله ﷺ يفعله . ولفظ أبي داود(٣) أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلم عليهم . وعند ابن السنيّ فيه ، فقال : السلام عليكم ياصبيان . وروى أبو داود(٤) عن أسماء بنت يزيد قالت: مرّ علينا النبيّ ﷺ في نسوة فسلم علينا. وروى الترمذيّ نحوه. وروى الشيخان(٥) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم . ورويا(٦) عن أسامة أن النبيّ ﷺ مرّ على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٥ ـ باب تسليم الراكب على الماشي ، و ٦ ـ باب تسليم الماشي على القاعد ، حديث ٢٣٧٠ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٥ ـ باب التسليم على الصبيان.

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٦ ـ باب في السلام على الصبيان، حديث ٥٢٠٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٣٧ ـ باب في السلام على النساء ، حديث ٥٢٠٤ .

(٥) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٢ ـ باب كيف يرد على أهل الذمة السلام ، حديث ٢٣٧٥ .

(٦) أخرجه البخاريّ في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٠ ـ باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، حديث ١٤٢١ ونصه :

عن أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة =

الأوثان واليهود فسلم عليهم النبيّ ﷺ . وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال[1] رسول الله ﷺ : لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه . قال النوويّ : روينا فى موطأ مالك أنه سئل عمن سلم على اليهوديّ أو النصرانيّ هل يستقيله ذلك؟ فقال : لا. قال أبو سعد المتولى الشافعيّ : لو أراد تحية ذميّ ، فعلها بغير السلام . بأن يقول : هداك الله أو أنعم الله صباحك. قال النوويّ : هذا الذى قاله أبو سعد لا بأس به. إذا

= فدَكية. وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة فى بني الحارث بن الخزرج. وذلك قبل وقعة بدر . حتى مرّ فى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، عَبَدة الأوثان واليهود . وفيهم عبد الله بن أبيّ، ابن سلول . وفى المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمّر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه . ثم قال: لا تغبّروا علينا . فسلّم عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله ابن أبيّ ، ابن سلول : أيها المرء ! لا أحسن من هـذا . إن كان ما تقول حقًّا . فلا تؤذنا فى مجالسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه .

قال ابن رواحة : اغشَنا فى مجالسنا ، فإنا نحب ذلك .

فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا .

فلم يزل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخفّضهم حتى ركب دابته . حتى دخل على سعد بن عبادة فقال « أى سعد ! ألم تسمع ماقال أبو حباب؟ » يريد عبدالله بن أبيّ « قال: كذا وكذا ».

قال : اعف عنه ، يا رسول الله ! واصفح . فوالله ! لقد أعطاك الله الذى أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه ، فيعصبونه بالعصابة .

فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك ، شَرِق بذلك . فذلك فعل به ما رأيت .

فعفا عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ١٣ (طبعتنا) .

احتاج إليه فيقول : صبحت بالخير أو بالسعادة أوبالعافية . أو صبحك الله بالسرور أو بالسعادة والنعمة أو بالمسرة أو ما أشبه ذلك .

السادسة ـ قال الحسن البصريّ : السلام تطوع والرد فريضة . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله هو قول العلماء قاطبـة: أن الرد واجب على من سلّم عليه. فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله تعالى فى قوله : فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا . انتهى . وفى ترك الرد إهانة وازدراء وهو حرام . ولذا ندب للجمع المسلم عليهم أن يجيبوا كلهم إظهاراً للإكرام ومبالغة فيه. وإن كان الفرض يسقط ببعضهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى: ليبعثنكم من قبوركم ويحشرنكم إلى حساب يوم القيامة فى صعيد واحد ، فيجازى كل عامل بعمله . قال الزمخشريّ : القيامة والقيام كالطلابة والطلاب . وهى قيامهم من القبورأو قيامهم للحساب. قال الله تعالى : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١) . « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لاشك فى يوم القيامة أو فى الجمع « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » إنكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى حديثه وخبره ووعده ووعيده ، وبيان لاستحالته . لأنه نقص وقبيح . إذْ مَنْ كذب، لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يجر منفعة بكذبه أويدفع مضرة ، أوهوجاهل بقبحه ، أو هو سفيه لايفرق بين الصدق والكذب فى أخباره ، ولايبالى بأيهما نطق . فظهر استحالة الكذب عليه جل شأنه . والغير ، وإن دلت الدلائل على صدقه ، فكذبه ممكن إذا لم ينظر إليها .

(١) [٨٣ / المطففين / ٦] .

فوائد .

الأولى ـ قال الرازىّ : فى كيفية النظم وجهان : أحدهما إنا بينا أن المقصود من قوله : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها ، أن لا يصير الرجل المسلِّم مقتولاً . ثم إنه تعالى أكد ذلك بالوعيد فى قوله : إن الله كان على كل شىء حسيبا . ثم بالغ فى تأكيد ذلك الوعيد بهذه الآية . فبين فى هذه الآية أن التوحيد والعدل متلازمان . فقوله : لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . إشارة إلى التوحيد . وقوله: لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . إشارة إلى العدل. وهو كقوله : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةِ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ(1) ، وكقوله ، فى طه : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(2) . وهو إشارة إلى التوحيد . ثم قال : إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ(3) . وهو إشارة إلى العدل . فكذا فى هذه الآية، بين أنه يجب فى حكمه وحكمته أن يجمع الأولين والآخرين فى عرصة القيامة . فينتصف للمظلومين من الظالمين . ولاشك أنه تهديد شديد . الوجه الثانى ـ كأنه تعالى يقول: من سلم عليكم وحياكم فاقبلوا سلامه وأكرموه وعاملوه بناءً على الظاهر . فإن البواطن إنما يعرفها الله الذى لا إله إلا هو. إنما تنكشف بواطن الخلق للخلق فى يوم القيامة .

الثانية ـ قوله (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) إما خبر للمبتدأ و (ليجمعنكم الخ) . جواب قسم محذوف، والجملة القسمية مستأنفة لا محل لها . أو خبر ثان . وإما اعتراض ، والجملة القسمية خبر .

الثالثة ـ تعدية (لَيجمعنكم) بـ(إلى) لكونه بمعنى الحشر كما بينا . أو لكون (إلى) بمعنى (فى) كما أثبته أهل العربية. وقوله تعالى:

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] . . . لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
(٢) [٢٠ / طه / ١٤] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا)

« فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ » أى: فما لكم تفرقتم فى أمر المنافقين « فِئَتَيْنِ » أى: فرقتين ولم تتفقوا على التبرؤ منهم . والاستفهام للإنكار . والنفى والخطاب لجميع المؤمنين . لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم . وذلك أن فرقة من المؤمنين كانت تميل إليهم وتذب عنهم وتواليهم. وفرقة منهم تباينهم وتعاديهم . فنهوا عن ذلك وأمروا بأن يكونوا على نهج واحد فى التباين والتبرؤ منهم . لأن دلائل نفاقهم وكفرهم ظاهرة جلية . فليس لكم أن تختلفوا فى شأنهم . وقد قيل : إن المراد بهم هنا عبد الله بن أبىّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، ورجعوا بعسكرهم ، بعد أن خرجوا . كما تقدم فى آل عمران. كما أوضحه مارواه الشيخان[1] والإمام أحمد والترمذىّ عن زيد بن ثابت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد . فرجع ناس خرجوا معه . فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم . وفرقة تقول : لا . هم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٥ ـ باب فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ، حديث ٩٥٦ ونصه :

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ) رجع ناس من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من أُحد . وكان الناس فيهم فرقتين : فريق يقول : اقتلهم . وفريق يقول : لا . فنزلت : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ . وقال « إنها طَيْبة تنفى الخَبَث كما تنفى النار خَبَث الفضة » .

والإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

المؤمنون . فأنزل الله : فما لكم فى المنافقون فئتين . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد. هذا لفظ أحمد .

وقدذكر الإمام محمد بن إسحاق(١) فى وقعة أحد : أن عبد الله بن أبىّ، بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش : رجع بثلاثمائة وبقى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة .

وثمة فى نزول الآية رواية أخرى أخرجها الإمام أحمد(٢)فى مسنده عن عبد الرحمن بن عوف: أن قوماً من العرب أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأسلموا وأصابهم وباء المدينةوحمّاها . فأركسوا . فخرجوا من المدينة. فاستقبلهم نفر من أصحابه. يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم. فقالوا لهم : ما لكم رجعتم ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة . فقالوا : أما لكم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟ فقال بعضهم : نافقوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا . فأنزل الله:فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ... الآية . وهذه الرواية هى الأقرب لنظم الآية كما سنبينه فى التنبيه الثانى « وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ » أى نكّسهم وردهم إلى الكفر « بِمَا كَسَبُوا» أى: بسبب ما كسبوه من لحوقهم بالكفار « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ » أى : تعدّوهم من جملة المهتدين. قال أبو السعود : تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين ،

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٩ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٦٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ١٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ). ونصه : عن عبد الرحمن بن عوف أن قوماً من العرب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلموا . وأصابهم وباء المدينة : حمّاها . فأركسوا فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحابه (يعنى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم) فقالوا لهم : مالكم رجعتم ؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة فاجتوينا المدينة . فقالوا: أما لكم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة؟ فقال بعضهم : نافقوا . وقال بعضهم: لم ينافقوا هم مسلمون . فأنزل الله عز وجل: فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا .. الآية .

وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك ، وإشعار بأنه يؤدى إلى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى . وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم ، وهم بمعزل عن ذلك ، سعى فى هدايتهم وإرادة لها . ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر فى حيّز الصلة، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها. بأن يقال: أتهدون الخ للمبالغة فى إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته ، فضلاً عن إمكان نفسه « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » عن دينه « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أى : طريقاً إلى الهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا » كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم فى الكفر وتصديهم لإضلال غيرهم ، إثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم . أى: تمنوا أن تكفروا ككفرهم بعد الإيمان «فَتَكُونُونَ سَوَاءً» أى: فى الكفر والضلال « فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ » فى العون والنصرة لئلا يفضى إلى كفركم ، وإن أظهروا لكم الإيمان طلباً لموالاتكم « حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا » من دار الكفر « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » فتتحققوا إيمانهم « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن الهجرة . فهم، وإن أظهروا لكم الإسلام مع قدرتهم على الهجرة ، فافعلوا بهم ما تفعلون بالكفار. لأنه زال عنهم حكم النفاق بلحوق دار الكفر « فَخُذُوهُمْ » أى: ائتسروهم(١) « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » فى الحل والحرم « وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك .

---

(١) افتعل من (يسر) والمراد ائسروهم . كذا قاله الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

تنبيهان

الأول ـ قال الرازيّ : دلت الآية على أنه لايجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد . وهـذا متأكد بعموم قوله تعالى[1] : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين. لأن ذلك هو الأمر الذى يتقرب به إلى الله تعالى ويتوسل به إلى طلب السعادة فى الآخرة . وإذا كان كذلك،كانت المداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العـداوة . وإذا كان كذلك،امتنع طلب المحبة والولاية فى الموضع الذى يكون أعظم موجبات العداوة حاصلًا فيه . والله أعلم .

الثانى ـ يظهر لى أن الأقرب فى سبب نزول هذه الآيات أعنى قوله تعالى: فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ . الخ ، رواية عبد الرحمن بن عوف . كما يدل عليه سبر هذه الآيات وتدبرها بصادق النظر والإمعان . وقد اهتدى إلى ذلك الفاضل المهايمىّ فى تفسيره . فاقتصر على هـذا الوجه فقال : وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى البـدو لاجتواء المدينة . فلم يزالوا يرتحلون مرحلة بعد أخرى حتى لحقوا المشركين. انتهى . وقول السيوطىّ: فى إسناد رواية عبد الرحمن بن عوف عند أحمد تدليس وانقطاع ـ لايقدح فى إصابتها كبد الحقيقة . لأنها وجدت فيها قرينة تلحقها بالمقبول وهو موافقتها لألفاظ الآية بلا تـكلف . وحينئذٍ فقول زيد بن ثابت : فنزلت فيما تقدم بمعنى أنها تشمل ماوقع من المنخزلين عن أُحُد وماجرى من اختلاف المؤمنين فى شأنهم . لا أنَّ ما وقع كان سببًا لنزولها . واستعمال النزول بذلك معروف كما بيناه فى المقدمة . وإلا لأشكل قوله تعالى : إِلَّا أَنْ يُهَاجِرُوا. إذ لم تطلب المهاجرة إلا من النائين عن المدينة . وأولئك، أعنى الذين انخزلوا عن المسلمين فى أحد ، كانوا بها . فيحتاج إلى جعل المهاجرة بمعنى خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، صابرين محتسبين مخلصين . كما قاله بعض المفسرين . وهذا المعنى لم يشع فى المهاجرة. ولأشكل أيضًا قوله تعالى : فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . فإنه يفيد بأنهم ليسوا من منافقى

(١) [٦٠ / المتحنة / ١] .

أهـل المدينة . وإنه يتوقع الظفر بهم . وإلا فنافقوها بين ظهرانيهم ليلًا ونهاراً . فالظاهر في هـذا المقام رواية ابن عوف . وفي آخر رواية زيد ما يشعر بها حيث قال : إنها طيبة وإنها تنفي الخبث. إشارة إلى أن المدينة نفت هؤلاء الذين نزحوا عنها بعد إسلامهم. والله أعلم. ثم استثنى عن أسر المرتدين وقتلهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) .

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ » يلجئون « إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » أي: عهد بهدنة أو أمان. فاجعلوا حكمهم كحكمهم لئلا يفضي إلى قتال من وصلوا إليهم فيفضي إلى نقض الميثاق « أَوْ جَاءُوكُمْ » عطف على الصلة أي : والذين جاؤكم « حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » حال بإضمار (قد) أي: ضاقت وانقبضت نفوسهم «أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ» لإرادتهم المسالمة «أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ » أي: معكم من أجلكم لمكان القرابة منهم . فهم لا لكم ولا عليكم . قال أبو السعود: استُثْنِي من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان :أحدهما ـ من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين. والآخر: من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين . وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن . أن سراقة بن مالك المدلجيّ حدثهم قال : لما ظهر النبيّ صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأُحُد ، وأسلم من حولهم ، قال : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج . فأتيته فقلت : أنشدك النعمة . بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي . وأنا أريد أن توادعهم. فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام . وإن لم يسلموا لم يحسن تغليب قومك عليهم . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال : اذهب معه فافعل ما يريد .

فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.وإن أسلمت قريش أسلموا معهم. وأنزل الله : إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ . فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم.وفي قوله تعالى« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ »إشعار بقوتهم في أنفسهم ، وأن في التعرض لقتلهم إظهارًا لقوتهم الخفية. فهذه الجملة جارية مجرى التعليل لاستثنائهم من الأخذ والقتل « فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ » أي تركوكم « فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ » مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل « وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ » أي: الانقياد والاستسلام « فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » أي طريقاً بالأسر أو القتل . إذ لا ضرر منهم في الإسلام . وقتالهم يظهر كمال قوتهم .

لطيفة :

قال الخفاجيّ: (السلم) بفتحتين: الانقياد . وقرئ بسكون اللام مع فتح السين وكسرها . وكأن إلقاء السلم استعارة. لأنّ من سلّم شيئاً ألقاه وطرحه عند المسلّم له. وعدم جعل السبيل مبالغة في عدم التعرض لهم ، لأن من لا يمر بشيء كيف يتعرض له؟

تنبيه :

ظاهر النظم الكريم أن الفريقين المستثنين من الكفار . وحاول أبو مسلم الأصفهانيّ كونهما من المسلمين حيث قال : إنه تعالى لما أوجب الهجرة على كل من أسلم ، استثنى من له عذر . فقال : إلا الذين يصلون ، وهم قوم من المؤمنين قصدوا الرسول للهجرة والنصرة . إلا أنهم كان في طريقهم من الكفار مالم يجدوا طريقاً إليه خوفاً من أولئك الكفار . فصاروا إلى قوم بين المسلمين وبينهم عهد . وأقاموا عندهم إلى أن يمكنهم الخلاص . واستثنى بعد ذلك من صار إلى الرسول ، ولا يقاتل الرسول ولا أصحابه . لأنه يخاف الله تعالى فيه . ولا يقاتل الكفار أيضا ، لأنهم أقاربه . أو لأنه أبقى أولاده وأزواجه بينهم . فيخاف ، لو قاتلهم ، أن يقتلوا أولادهم وأصحابه . فهذان الفريقان من المسلمين لا يحل قتالهم . وإن كان لم يوجد منهم الهجرة ولا مقاتلة الكفار . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩١] (سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

« سَتَجِدُونَ » أقواماً « ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ » بإظهار الإسلام لكم « أَنْ يَأْمَنُوكُمْ » أى: على أنفسهم « وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ » بإظهار الكفر « كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ » أى: دعوا إلى الارتدا والشرك « أُرْكِسُوا فِيهَا » أى: رجعوا إليها منكوسين على رؤوسهم « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ » أى يتنحوا عنكم جانباً ، بأن لم يكونوا معكم ولا عليكم . « وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ » أى: ولم يلقوا الانقياد « وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ » أى: عن قتالكم « فَخُذُوهُمْ » أى: اتسروهم « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » أى: وجدتموهم فى داركم أو دارهم « وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » أى: حجة واضحة فى الإيقاع بهم قتلًا وسبياً . لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر، وإضرارهم بأهل الإسلام . أو تسلطاً ظاهراً، حيث أذنا لكم فى أخذهم وقتلهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن كثير : هؤلاء الآخرون، فى الصورة الظاهرة ، كمن تقدمهم . ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك . فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبى ﷺ ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم. ويصانعون الكفار فى الباطن . فيعبدون معهم ما يعبدون ، ليأمنوا بذلك عندهم . وهم فى الباطن مع أولئك . كما قال تعالى: وَإِذَا خَلَوْا

إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ(١) الآية. وحكى ابن جرير(٢) عن مجاهد ؛ أنها نزلت فى قوم من أهل مكة. كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياء . ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان. يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا . فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

الثانى ـ قال الرازى : قال الأكثرون : فى الآية دلالة على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن إيذائنا، لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم. ونظيره قوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ(٣) . وقوله تعالى : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ(٤) . نخص الأمر بالقتال لمن يقاتلنا دون من لم يقاتلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَئاً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً » أى ما جاز ولا صح ولا لاق لمؤمن

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

(٢) الأثر رقم ١٠٠٧٨ .

(٣) [٦٠ / الممتحنة / ٨] . . . وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٩٠] . . . وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

قتل أخيه المؤمن. فإن الإيمان زاجر عن ذلك . إلا على وجه الخطأ . فإنه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية . قال الزمخشري : فإن قلت : بِمَ انتصب خطأ ؟ قلت : بأنه مفعول له . أي:ما ينبغي له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده . ويجوز أن يكون حالًا . بمعنى لايقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ . وأن يكون صفة للمصدر: إلا قتلًا خطأً . والمعنى : إن من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء، البتة . إلا إذا وجد منه خطأٌ من غير قصد. بأن يرمي كافراً فيصيب مسلماً. أو يرمي شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم. انتهى. « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً » أي:بما ذكرنا. فهو، وإن عفي عنه ، لكنه لايخلو عن تقصير في حق الله ، ولا يهدر دم المؤمن بالكلية «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» أي:فالواجب عليه ، لحق الله ، إعتاق نفس محكوم عليها بالإيمان ، ولو صغيرة . ليعتق الله عنه بكل جزء منها جزءًا منه من النار . وقد روى الإمام أحمد[1] عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار ؛ أنه جاء بأمة سوداء . فقال : يا رسول الله ! إن عليّ عتق رقبة مؤمنة . فإن كنت ترى هـذه مؤمنة أعتقها . فقال لها رسول الله ﷺ : أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ قالت : نعم . قال: أتشهدين أني رسول الله ؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟ قالت : نعم . قال : أعتقها . وهـذا إسناد صحيح ، وجهالة الصحابي لاتضره .

وفي موطأ مالك[2] ومسند الشافعي وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٤٥١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . وأخرجه في الموطأ في : ٣٨ ـ كتاب العتق والولاء ، حديث ٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في الموطأ في : ٣٨ ـ كتاب العتق والولاء ، حديث ٨ عن عمر بن الحكم أنه قال : أتيت رسـول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : إن جارية كانت ترعى غنما لي . فجئتها وقد فقدت شاة من الغنم . فسألتها عنها فقالت : أكلها الذئب فأسفت عليها ، =

معاوية بن الحكم أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت: في السماء. قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ . قال : أعتقها فإنها مؤمنة. أفاده ابن كثير.

لطيفتان :

الأولى ـ قال الزمخشريّ : التحرير الإعتاق . والحر والعتيق : الكريم . لأن الكرم في الأحرار ، كما أن اللؤم في العبيد . ومنه عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامها . وحُرّ الوجه أكرم موضع منه . وقولهم للئيم: عبد ، وفلان عبد الفعل ، أي: لئيم الفعل . والرقبة عبارة عن النسمة ، كما عبر عنها بالرأس في قولهم : فلان يملك كذا رأساً من الرقيق .

= وكنت من بني آدم فلطمت وجهها . وعليّ رقبة أفأعتقها ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أين الله ؟ » فقالت: في السماء . فقال « من أنا ؟ » فقالت : أنت رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : «أعتقها»

وأخرجه أحمد في المسند (ضمن حديث طويل) بالصفحة ٤٤٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ).

وفيه قال « أعتقها فإنها مؤمنة » وقال مرة « هي مؤمنة فأعتقها ».

وأخرجه مسلم كذلك في: ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا).

وكذلك في أبي داود في : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٦٧ ـ باب تشميت العاطس في الصلاة، حديث ٩٣٠.

وكذلك في النسائيّ ، ١٣ ـ كتاب السهو ، ٢٠ ـ باب الكلام في الصلاة .

كل هؤلاء عن معاوية بن الحكم ما عدا الموطأ. ففيه عن عمر بن الحكم .

ولقد قال الإمام الزرقانيّ هنا معقبا :

قال ابن عبد البرّ : كذا قال مالك ، وهو وهم عند جميع علماء الحديث. وليس في الصحابة عمر بن الحكم، وإنما هو معاوية بن الحكم. كما قال كل من روى هذا الحديث عن هلال أو غيره. ومعاوية بن الحكم معروف في الصحابة . وحديثه هذا معروف . وأما عمر بن الحكم فتابعيّ أنصاريّ مدنيّ معروف . يعني فلا يصح .

الثانية ـ قيل فى حكمة الإعتاق : إنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار. لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها . من قِبَل أن الرقيق ملحق بالأموات . إذ الرق أثر من آثار الكفر . والكفر موت حكماً : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ[١] . ولهذا منع من تصرف الأحرار . وهـذا مشكل . إذ لو كان كذلك لوجب فى العمد أيضاً . لكن يحتمل أن يقال : إنما وجب عليه ذلك ، لأن الله تعالى أبقى للقاتل نفساً مؤمنة حيث لم يوجب القصاص . فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة . أفاده النسفىّ . « وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ » أى:والواجب عليه أيضاً، لحق ورثة المقتول، عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم ، دية مؤداة إلى ورثته . يقتسمونها اقتسام الميراث . وقد بيّنت السنة مقدارها . وذلك فيما رواه النسائىّ[٢] وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً . وفيه : إن فى النفس الديةَ ، مائةً من الإبل. وفيه : وعلى أهل الذهب ألف دينار . وروى أبو داود[٣] عن جابر عن النبىّ ﷺ ؛ أنه فرض فى الدية على أهل الإبل مائة من الإبل . وعلى أهل البقر مائتى بقرة . وعلى أهل الشاء ألفى شاة . وعلى أهل الحلل مائتى حلة .

وفى الموطأ[٤] أن عمر بن الخطاب قوّم الدية على أهل القرى فجعلها على أهل الذهب ألف دينار . وعلى أهل الورِق اثنى عشر ألف درهم . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل ، لا فى ماله .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ... وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٥ ـ كتاب القسامة ، ٤٧ ـ باب ذكر حديث عمرو بن حزم فى العقول واختلاف الناقلين له .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات، ١٦ ـ باب الدية كم هى ؟ حديث ٤٥٤٣

(٤) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٤٣ ـ كتاب العقول ، حديث ٢ (طبعتنا) .

قال الشافعيّ رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة .
وفي الصحيحين[١] عن أبي هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل. فرمت إحداهما الأخرى بحجر. فقتلتها ، وما في بطنها . فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقضى أن دية جنينها غرةٌ : عبدٌ أو أمةٌ . وقضى بدية المرأة على عاقلتها . ورواه أبو داود[٢] عن جابر بلفظ : أن امرأتين من هذيل قتلت إحداهما الأخرى. ولكل واحدة منهما زوج وولد. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم دية المقتولة على عاقلة القاتلة . وبرأ زوجها وولدها ، قال فقال عاقلة القاتلة : ميراثها لنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . ميراثها لزوجها وولدها .
و(العاقلة) القرابات من قبل الأب وهم عَصَبَتُه . وهم الذين كانوا يعقلون الإبل على باب وليّ المقتول. وسميت الدية عقلًا تسمية بالمصدر. لأن الإبل كانت تعقل بفناء وليّ المقتول . ثم كثر الاستعمال حتى أطلق العقل على الدية ، ولو لم تكن إبلًا . وتضمين العاقلة مخالف لظاهر قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ[٣] . فتكون الأحاديث القاضية بتضمين العاقلة مخصصة لعموم الآية . لما في ذلك من المصلحة . لأن القاتل لو أخذ بالدية لأوشك أن تأتي على جميع ماله . لأن تتابع الخطأ لا يؤمن . ولو ترك بغير تغريم لأهدر دم المقتول . كذا في (نيل الأوطار) .

قال المهايميّ : تجب الدية على كل عاقلة القاتل . وهم عَصَبته غير الأصول والفروع . لأنه لما عفي عن القاتل فلا وجه للأخذ منه . وأصوله وفروعه أجزاؤه . فالأخذ منهم أخذ منه .

---

(١) أخرجه البخاريّ في: ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٢٥ ـ باب جنين المرأة، حديث ٢٢٦٩.
(٢) أخرجه أبو داود في : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ١٩ ـ باب دية الجنين، حديث ٤٥٧٥.
(٣) [٣٥ / فاطر / ١٨] . . . وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

ولا وجه لإهدار دم المؤمن . فيؤخذ من عاقلته الذين يرثونه بأقوى الجهات وهى العصبية . لأن الغُرْم بالغنم . فإن لم يكن له عاقلة ، أو كانوا فقراء ، فعلى بيت المال . انتهى .

وقد خالف أبو بكر الأصم وجمهور الخوارج . فأوجبوا الدية على القاتل لا على عاقلته . واحتجوا بوجوه خمسة عقلية . ساقها الفخر الرازيّ . هنا . وكلها مما لا يساوى فلساً . إذ هى من معارضة النص النبويّ بالرأى المحض .

اللهم : إنا نبرأ إليك من ذلك . وقد غفلوا عن حكمة المشروعية على العاقلة التى بيّناها

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

تنبيـه :

يشمل قوله تعالى (فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ) تسليمها حالّة ومؤجلة . إلا أن الإجماع قد وقع على أن دية الخطأ مؤجلة على العاقلة . ولـكن اختلفوا فى مقدار الأجل . فذهب الأكثر إلى أن الأجل ثلاث سنين . وقال ربيعة : إلى خمس . وحكى فى (البحر) عن بعض الناس بعد حكايته للإجماع السابق : أنها تـكون حالّة . إذ لم يرو عنـه ﷺ تأجيلها . قال فى (البحر) قلنا : روى عن علىّ رضى الله عنه أنه قضى بالدية على العاقلة فى ثلاث سنين . وقاله عُمَر وابن عباس . ولم ينكر . انتهى .

قال الشافعىّ فى (المختصر) : لا أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة فى ثلاث سنين .

قال الرافعىّ : تكلم أصحابنا فى ورود الخبر بذلك . فنهم من قال: ورد . ونسبه إلى رواية علىّ عليه السلام . ومنهم من قال : ورد أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على العاقلة . وأما التأجيل فلم يرد به الخبر . وأخذ ذلك من إجماع الصحابة .

وقال ابن المنذر : ما ذكره الشافعىّ لا نعرفه أصلًا من كتاب ولا سنة . وقد سئل عن ذلك أحمد بن حنبل فقال : لانعرف فيه شيئاً . فقيل : إن أباعبد الله ، يعنى الشافعىّ ، رواه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . فقال : لعله سمعه من ذلك المدنىّ . فإنه كان حسن الظن به .

يعني إبراهيم بن أبي يحيى . وتعقبه ابن الرفعة : بأن من عرف حجة على من لم يعرف . وروى البيهقيّ من طريق ابن لهيعة عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب، قال: من السنة أن تنجّم الدية في ثلاث سنين . وقد وافق الشافعيَّ ، على نقل الإجماع، الترمذيُّ في (جامعه) وابن المنذر . فحكى كل واحد منهما الإجماع . كذا في (نيل الأوطار) . وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا » أي : إلا أن يتصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل فلا تجب عليه . وسمى العفو عنها صدقة حثًّا عليه وتنبيهاً على فضله . قال السيوطيّ في (الإكليل) : فيها (أي:هذه الآية) تعظيم قتل المؤمن والإثم فيه ، ونفيه عن الخطأ ، وأن في قتل الخطأ كفارة ودية. لا قصاص . وأن الدية مسلمة إلى أهل المقتول . إلا أن يصدقوا بها ، أي: يبرؤا منها . ففيه جواز الإبراء من أهل الدية . مع أنها مجهولة . وفي قوله (مسلمة) دون (يسلمها) إشارة إلى أنها على عاقلة القاتل . ذكره سعيد بن جبير . أخرجه ابن أبي حاتم واستدل بقوله: إلى أهله ، على أن الزوجة ترث منها . لأنها من جملة الأهل خلافاً للظاهرية . واحتج بها من أجاز إرث القاتل منها . لأنه من أهله . واحتج الظاهرية بقوله : إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا . على أن المقتول ليس له العفو عن الدية . لأن الله جعل ذلك لأهله خاصة . وعموم الآية شامل للإمام إذا قتل خطأً . خلافاً لمن قال: لا شيء عليه ولا على عاقلته . واستدل بعمومها أيضاً من قال : إن في قتل العبد الدية والكفارة . وإن على الصبيّ والمجنون ، إذا قتلا ، الكفارة. وإن المشارك في القتل عليه كفارة كاملة . انتهى . « فَإِنْ كَانَ » أي:المقتول خطأً « مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ » أي:محاربين « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » فلم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه، بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم ، أو بأن أتاهم بعد مافارقهم لمهمٍّ من المهمات « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » أي : فعلى قاتله الكفارة ، لحق الله دون الدية . فإنها ساقطة . إذ لا إرث بينه وبين أهله . لأنهم محاربون . وقال الإمام زيد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام : لا تؤدى الدية إليهم لأنهم يتقوّون بها . ومعلوم أن سقوط الدية لمن هذه حاله أخذا من إيجاب الله تعالى على قاتله الكفارة ، ولم يذكر الدية كما ذكرها في أول الآية

وآخرها ، وقدروى الحاكم وغيره عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان الرجل يأتى النبى ﷺ ثم يرجع إلى قومه وهم مشركون. فيصيبه المسلمون فى سرية أو غزاة . فيعتق الذى يصيبه رقبة (وَإِنْ كَانَ) أى: المقتول خطأ (مِنْ قَوْمٍ) أى: كفرة (بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ) أى: عهد من هدنة أو أمان . أى : كان على دينهم ومذهبهم (فَدِيَةٌ) أى: فعلى قاتله دية (مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ) إذ هم كالمسلمين فى الحقوق «وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » لحق الله تعالى . وتقديم الدية ههنا مع تأخيرها فيما سلف ، للإشعار بالمسارعة إلى تسليم الدية تحاشياً عن توهم نقض الميثاق .

قال السيوطى : روى الحاكم وغيره عن ابن عباس فى قوله تعالى : وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ الخ. قال: هو الرجل يكون معاهَداً . ويكون قومه أهل عهد . فتسلم إليهم الدية ويعتق الذى أصابه رقبة .

قال السيوطى . ففيه أن المقتول إذا كان من أهل الذمة والعهد ففيه دية مسلمة إلى أهله مع الكفارة . وفيه رد على من قال : لا كفارة فى قتل الذمى . والذين قالوا ذلك قالوا: إن الآية فى المؤمن الذى أهله أهل عهد . وقالوا : إنهم أحق بديته لأجل عهدهم . ويرده تفسير ابن عباس المذكور، وأنه تعالى لم يقل فيه : وهو مؤمن ، كما قال فى الذى قبله . انتهى .

تنبيه :

استدل بالآية من قال: إن دية المعاهد حربياً أو كتابياً ، كالمسلم. لأنه تعالى ذكر فى كل منهما الكفارة والدية . فوجب أن تكون ديتهما سواء كما أن الكفارة عنهما سواء . إذ إطلاق الدية يفيد أنها الدية المعهودة. وهى دية المسلم. وقد أخرج الترمذى[1] عن ابن عباس وقال: غريب ؛ أن النبى صلى الله عليه وسلم وَدَى العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية

(١) أخرجه الترمذى فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ١٢ ـ باب حدثنا أبو كريب .

الضمرىّ ، وكان لهما عهد من النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشعر به عمرو ، بدية المسلمين . وأخرج البيهقىّ عن الزهرىّ أنها كانت دية اليهودىّ والنصرانىّ فى زمن النبىّ ﷺ مثل دية المسلم . وفى زمن أبى بكر وعمر وعثمان . فلما كان معاوية، أعطى أهل المقتول النصف وألقى النصف فى بيت المال . قال : ثم قضى عمر بن عبد العزيز بالنصف وألقى ما كان جعل معاوية . وأخرج أيضاً عن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم وَدَى ذمياً دية مسلم . وفى أثرَىِ البيهقىّ المذكورين مقال . إذ علل الأول بالإرسال . والثانى بأن فى إسناده أبا كرز. وهو متروك. وروى أحمد[1] والنسائىّ والترمذىّ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، قال: عقل الكافر نصف دية المسلم . وأخرج أبو داود[2] عنه بلفظ: دية المعاهد نصف دية الحر . وفى لفظ : قضى أن عقل أهل الكتابيْن نصف عقل المسلمين . وهم اليهود والنصارى . رواه أحمد والنسائىّ وابن ماجه.

وعندى : لا تنافىَ بين هذه الروايات المذكورة . لأن الظاهر أن الفرض فى دية الكافر إنما هو النصف . ولا حرج فى الزيادة عليه ، إلى أن يبلغ دية المسلم تبرعاً وتفضلاً . وبه يحصل الجمع بين الروايات. والاستدلال بالآية على تماثل ديتى المسلم والكافر المتقدم ـ غير ظاهر . لما فى الدية من الإجمال المرجوع فى بيانه إلى السنة ، وقد بينتْه وصح فيها أنه النصف فرضا. والله أعلم «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » أى: رقبة ليحررها. بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها « فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » أى: فعليه صيام شهرين متواصلين لا إفطار بينهما. بحيث لو صام تسعة وخمسين ، وتعمد بإفطار يوم ، استأنف الجميع . لأن الخطأ إنما نشأ من كدورة النفس. وهذا القدر يزيلها ويفيد التزكية. قاله المهايمىّ. «تَوْبَةً مِنَ اللهِ» أى: قبولاً من الله ورحمة منه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٨٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث ٦٦٩٢ (طبعة المعارف) ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات، ٢١ ـ باب دية الذمىّ، حديث ٤٥٨٣.

من (تاب عليه) : إذا قبل توبته . (فتوبة) منصوب على أنه مفعول له . أى : شرع لكم ذلك توبة منه . أو مصدر مؤكد لمحذوف . أى: تاب عليكم توبة منه « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً » بجميع الأشياء التى منها مقدار كدورة هذا الخطأ العظيم « حَكِيماً » فى دواء إزالتها . قال المهايمىّ : وإذا كان للخطأ هذه الكدورة مع العفو عنه ، فأين كدورة العمد ؟ أى: وهى التى ذكرت فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيمًا)

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا » لقتله « فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ » إذ قتل وليّه عمداً « وَلَعَنَهُ » أى أبعده عن الرحمة « وَأَعَدَّ لَهُ » وراء ذلك « عَذَاباً عَظِيماً » أى: فوق عذاب سائر الكبائر ، سوى الشرك .

قال الإمام ابن كثير : هذا تهديد شديد ووعد أكيد لمن تعاطى هـذا الذنب العظيم . الذى هو مقرون بالشرك بالله ، فى غير ما آية فى كتاب الله . حيث يقول سبحانه فى سورة (الفرقان) : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... الآية(١) . وقال تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً . . . الآية(٢) . والآيات والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جداً . فمن ذلك ما ثبت

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] . . . وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥١] . . . وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

فى الصحيحين[١] عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يقضى بين النـاس يوم القيامة فى الدماء . وفى الحديث الآخر الذى رواه أبوداود[٢] عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً . فإذا أصاب دماً حراماً بلّح . وفى حديث[٣] آخر: لَزَوَالُ الدنيا أهون عندالله من قتل رجل مسلم. قلت : رواه الترمذىّ والنسائىّ عن ابن عمرو. وفى الحديث الآخر : لو اجتمع أهل السموات وأهل الأرض على قتل رجل مسلم لـكبهم الله فى النار . قلت : رواه الترمذىّ[٤] عن أبى سعيد وأبى هريرة بلفظ : لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأ كبهم الله عز وجل فى النار . وفى الحديث الآخر[٥] : من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله . قلت : رواه ابن ماجة عن أبى هريرة .

وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٤٥٥ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن والملاحم ، ٦ ـ باب فى تعظيم قتل المؤمن، حديث ٢٤٧٠ .

(معنقا : أى: خفيف الظهر ، سريع السير . بَلَّح : أى أعيا وانقطع) .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٧ ـ باب ماجاء فى تشديد قتل المؤمن.

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٨ ـ باب الحكم فى الدماء .

(قلت : المعروف فى اللغة : كبهم . يقال: كبّه فأكبّ هو . المجرد متعدٍّ ، والمزيد لازم. هكذا نصوا عليه . وقال فى اللسان : هذا من النوادر أن يقال : أفعلتُ أنا وفعلتُ غيرى) .

(٥) أخرجه ابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب التغليظ فى قتل مسلم ظلما، حديث ٢٦٢٠ (طبعتنا) .

وقال البخاري[1] : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال : سمعت ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة . فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها . فقال : نزلت هذه الآية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . وكذا رواه هو أيضاً ومسلم والنسائي من طرقٍ عن شعبة، به . ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن ابن مهدي عن سفيان الثوري عن مغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . فقال : ما نسخها شيء . وقال ابن جرير[2] : حدثنا ابن بشار ، قال حدثنا ابن أبي عدي ، عن سعيد عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال : قال لي عبد الرحمن بن أبزى : سئل ابن عباس عن قوله : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا ... الآية . فقال: لم ينسخها شيء . وقال في هذه الآية : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ) إلى آخرها قال : نزلت في أهل الشرك . وروى ابن جرير[3] أيضا عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . قال : إن الرجل إذا عرف الإسلام ، وشرائع الإسلام ، ثم قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ، ولا توبة له . فذكرت ذلك لمجاهد فقال : إلا من ندم . وروى الإمام أحمد[4] عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس ؛ أن رجلًا أتى إليه فقال : أرأيت رجلًا قتل رجلًا عمداً ؟ فقال: جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...الآية. قال: لقد نزلت من آخر ما نزل . ما نسخها

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٦ ـ باب وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ .

(٢) الأثر رقم ١٠١٩٢ .

(٣) الأثر رقم ١٠١٨٧ .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ٢١٤٢ (طبعة المعارف) .

شيء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه سلم . وما نزل وحى بعد رسول الله ﷺ . قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال : وأنَّى له بالتوبة ؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثكلته أمه. رجل قتل رجلًا متعمداً يجئ يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره ، أو آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله ، تشخب أوداجه دمًا قِبَلَ العرش يقول : يارب ! سل عبدك فيم قتلنى ! ورواه النسائىّ وابن ماجة . وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة . وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف، زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم . نقله ابن أبى حاتم . وفى الباب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال : يجئ المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة ، آخذا رأسه بيده الأخرى ، فيقول : يارب ! سل هذا فيم قتلنى ؟ قال فيقول: قتلته لتكون العزة لك . قال : فإنها لى . قال ويجئ آخر متعلقاً بقاتله فيقول : رب ! سل هذا فيم قتلنى ؟ قال فيقول : قتلته لتكون العزة لفلان . قال: فإنها ليست له. بوء بإثمه. قال، فيهوى به فى النار سبعين خريفاً. ورواه النسائىّ[1] . وأخرج الإمام أحمد والنسائىّ[2] عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً. وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا النضر . حدثنا سليمان بن المغيرة. حدثنا حميد قال : أتانى أبو العالية أنا وصاحب لى : فقال لنا : هلما فأنتما أشب سنًّا منى ، وأوعى للحديث منى . فانطلق بنا إلى بشر بن عاصم . فقال له أبو العالية : حدث هؤلاء حديثك . فقال : حدثنا عقبة بن مالك الليثىّ ، قال : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم سرية فأغارت على قوم . فشد مع القوم رجل

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .
(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ١ ـ باب تحريم الدم .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٨٩ بالجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

فاتّبعه رجل من السرية شاهراً سيفه . فقال الشادّ من القوم : إنى مسلم . فلم ينظر فيما قال . فضربه فقتله. فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ . فقال فيه قولا شديداً . فبلغ القاتل. فبينا رسول الله ﷺ يخطب إذ قال القاتل : والله ! ما قال الذى قال إلا تعوذاً من القتل . قال فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وعمن قِبَلَه من الناس . وأخذ فى خطبته . ثم قال أيضاً : يارسول الله ! ما قال الذى قال إلا تعوذاً من القتل . فأعرض عنه وعمن قبله من الناس وأخذ فى خطبته . ثم لم يصبر حتى قال الثالثة : والله ! يارسول الله ماقال الذى قال إلاتعوذا من القتل . فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعرف المساءة فى وجهه فقال : إن الله أبى على من قتل مؤمنا . (ثلاث مرات) ورواه النسائىّ. ثم قال ابن كثير : والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها . أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل . فإن تاب وأناب وخشع وخضع ، وعمل عملًا صالحاً ، بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته. قال الله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ـ إلى قوله ـ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا[1] الآية. وهذا خبر لايجوز نسخه. وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين ـ خلاف الظاهر . ويحتاج حمله إلى دليل. والله أعلم.

وقال تعالى : قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ[2] . الآية . وهذا عام فى جميع الذنوب : من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك. كل من تاب من أىّ ذلك تاب الله عليه . قال الله تعالى : إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[3] . فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب ما عدا الشرك . وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها ، لتقوية الرجاء . والله أعلم .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨ـ٧٠] .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ... إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

(٣) [٤ / النساء / ٤٨و١١٦] .

وثبت فى الصحيحين[1] خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس ، ثم سأل عالماً هل لى من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه . فهاجر إليه فمات فى الطريق . فقبضته ملائكة الرحمة . وإذا كان هذا فى بنى إسرائيل فَلأَنْ يكون فى هذه الأمة، التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى . لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التى كانت عليهم . وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة وهى قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا .. الآية ، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه . وقد رواه ابن مردويه بإسناده مرفوعاً . ولكن لا يصح . ومعنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه . وكذا كل وعيد على ذنب . لكن قد يكون لذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه ، على قولىْ أصحاب الموازنة والإحباط . وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد . والله أعلم بالصواب . وبتقدير دخول القاتل فى النار ، إما على قول ابن عباس ومن وافقه ، أنه لا توبه له . أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به ـ فليس بمخلد فيها أبداً . بل الخلود هو المكث الطويل . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان .

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ .

ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٢) انظر حديث الشفاعة الذى أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٢١ .

والحديث الذى أخرجه أيضاً عن أنس بن مالك فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٦ ـ باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، حديث ٤٠ .

احرص عليهما كل الحرص ، ولا يفوتنك قراءتهما ودراستهما والتمتع بما فيهما .

وأخرج الحديث الأول مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٠٢ (طبعتنا) .

ثم قال ابن كثير : وأما مطالبة المقتول القاتلَ يوم القيامة فإنه من حقوق الآدميين . وهى لاتسقط بالتوبة . ولكن لابد من ردها إليهم . ولافرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه والمغبون والمقذوف وسائر حقوق الآدميين . فإن الإجماع منعقد على أنها لاتسقط بالتوبة . ولكن لابد من ردها إليهم فى صحة التوبة . فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة . لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة . إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول ، أو بعضها . ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة . أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ورفع درجته فيها ونحو ذلك. والله أعلم . انتهى. وقال النووىّ فى (شرح مسلم) فى شرح حديث الإسرائيلىّ الذى قتل مائة نفس : استدل به على قبول توبة القاتل عمداً . وهو مذهب أهل العلم وإجماعهم . ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس . وأما مانقل عن بعض السلف من خلاف هذا، فمراد قائله الزجر والتوبة . لا أنه يعتقد بطلان توبته . وهذا الحديث وإن كان شرع من قبلنا ، وفى الاحتجاج به خلاف ، فليس هذا موضع الخلاف . وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره . فإن ورد كان شرعاً لنا بلاشك. وهذا قد ورد شرعنا به . وذلك قوله تعالى : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ـ إلى قوله ـ إِلَّا مَنْ تَابَ... الآية(١) . وأما قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا...الآية . فالصواب فى معناها : أن جزاءه جهنم. فقد يجازى بذلك وقد يجازى بغيره . وقد لا يجازى بل يعفى عنه . فإن قتل عمداً مستحلًّا بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتدّ . يخلد فى جهنم بالإجماع . وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاص . مرتكب كبيرة، جزاؤها جهنم خالداً فيها . لكن تفضل الله تعالى وأخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها . فلا يخلد هذا . ولكن قد يعفى عنه ولا يدخل النار أصلًا . وقد لا يعفى عنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] ونصها : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً .

بل يعذب كسائر عصاة الموحدين . ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد فى النار . قال : فهذا هو الصواب فى معنى الآية. ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة ، أن يتحتم ذلك الجزاء . وليس فى الآية إخبار بأنه يخلد فى جهنم. وإنما فيها أنها جزاؤه . أى : يستحق أن يجازى بذلك . وقيل : وردت الآية فى رجل بعينه . وقيل : المراد بالخلود طول المدة ، لا الدوام . وقيل : معناها : هذا جزاؤه ، إن جازاه . وهذه الأقوال كلها ضعيفة أو فاسدة . لمخالفتها حقيقة لفظ الآية . فالصواب ما قدمناه . انتهى .

وقال علاء الدين الخازن : اختلف العلماء فى حكم هذه الآية . هل هى منسوخة أم لا ؟ وهل لمن قَتَلَ متعمداً توبةٌ أم لا ؟ فَرُوى[(١)] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : أَلِمَنْ قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ قال : لا . فتلوتُ عليه الآية التى فى الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[(٢)] . إلى آخر الآية . قال : هذه آية مكية . نسختها آية مدنية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ . وفى رواية[(٣)] ، قال : اختلف أهل الكوفة فى قتل المؤمن . فرحلت إلى ابن عباس .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٢ ـ باب قوله : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، حديث ١٨٠٩ ونصه : عن القاسم بن أبى بزة أنه سأل سعيد بن جبير : هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ، فقرأت عليه : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . فقال سعيد : قرأتُها على ابن عباس كما قرأتها علىّ فقال: هذه مكية . نسختها آية مدنية . التى فى سورة النساء .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

(٣) أخرجها البخارىّ فى الباب السابق أيضا .

فقال : نزلت فى آخر ما نزل . ولم ينسخها شىء . وفى رواية أخرى[١] ، قال ابن عبـاس : نزلت هــذه الآية بالمدينة : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ . . . إلى قوله مُهَاناً . فقال المشركون : وما يُغنى عنا الإسلام ، وقد عدلنا بالله ، وقد قتلنا النفس التى حرم الله ، وأتينا الفواحش ؟ فأنزل الله تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا... إلى آخر الآية[٢]. زاد فى رواية : فأما من دخل فى الإسلام وعقله ثم قَتَلَ فلا توبة له . أخرجاه فى الصحيحين. وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه ناظر ابن عباس فى هـذه الآية فقال : مِن أين لك أنها محكمة ؟ فقال ابن عباس : تكاثُفُ الوعيد فيها .

وقال ابن مسعود : إنها محكمة ، وما تزداد إلا شدة . وعن خارجة بن زيد قال: سمعت زيد ابن ثابت يقول : أنزلت هذه الآية : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيها، بعد التى فى الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، بستة أشهر . أخرجه أبو داود والنسائىّ . وزاد النسائىّ فى روايةٍ : بثمانية أشهر .

وقال زيد بن ثابت : لما نزلت هذه الآية فى الفرقان : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً

(١) أخرجها البخارىّ أيضاً فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٥ ـ سورة الفرقان ، ٣ ـ باب قوله : يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهَا مُهَاناً . ونصها : عن سعيد ابن جبير قال : قال ابن أبزى : سئل ابن عباس فى قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، وقوله : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . . حتى بلغ إِلَّا مَنْ تَابَ . فسألته فقال : لما نزلت قال أهل مكة : فقد عدلنا بالله وقتلنا النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأتينا الفواحش. فأنزل الله: إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ـ إلى قوله ـ غَفُورًا رَحِيماً .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] .

ءَاخَرَ ، عجبنا من لينها . فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد الليّنة . فنسخت اللينةَ . وأراد بالغليظة هذه الآية التى فى سورة النساء . وباللينة آية الفرقان . وذهب الأكثرون من علماء السلف والخلف إلى أن هـذه الآية منسوخة . واختلفوا فى ناسخها . فقال بعضهم : نسختها التى فى الفرقان . وليس هـذا بالقوىّ . لأن آية الفرقان نزلت قبل آية النساء . والمتقدم لا ينسخ المتأخر . وذهب جمهور مَن قال بالنسخ إلى أن ناسخها الآية التى فى النساء أيضاً . وهى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(١) وأجاب، من ذهب إلى أنها منسوخة، عن حديث ابن عباس المتقدم المخرّج فى الصحيحين : بأن هذه الآية خبر عن وقوع العذاب بمن فعل ذلك الأمر المذكور فى الآية . والنسخ لا يدخل الأخبار. ولئن سلمنا أنه يدخلها النسخ، لكن الجمع بين الآيتين ممكن بحيث لا يكون بينهما تعارض . وذلك بأن يحمل مطلق آية النساء على تقييد آية الفرقان . فيكون المعنى : فجزاؤه جهنم إلا من تاب . وقال بعضهم : ما ورد عن ابن عباس إنما هو على سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل . فهو كما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال : إن لم يقتل يقال له: لا توبة لك . وإن قتل ثم ندم وجاء تائباً يقال له : لك توبة .

وقيل : إنه قد روى عن ابن عباس مثله . وروى عنه أيضاً أن توبته تُقبل . وهو قول أهل السنة . ويدل عليه الكتاب والسنة . أما الكتاب فقوله تعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ(٢) . وقوله : إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً(٣) . وأما السنة فما روى عن جابر بن عبد الله قال : جاء أعرابىّ إلى النبىّ ﷺ . فقال : يا رســول الله !

(١) [٤ / النساء / ٤٨] .

(٢) [٢٠ / طه / ٨٢] .

(٣) [٣٩ / الزمر / ٥٣] ونصها : قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

ما الموجبتان ؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار . أخرجه مسلم[١] . وروى الشيخان عن عبادة بن الصامت قال[٢] : كنا مع رسول الله ﷺ فى مجلس فقال : تبايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . وفى رواية : ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف . فمن وفى منكم فأَجْره على الله . ومن أصاب من ذلك فَسَتَرَهُ الله عليه فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه . فبايعناه على ذلك . انتهى .

وقال العلامة أبو السعود : تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود مَنْ قتل المؤمن عمداً فى النار. ولا متمسَّك لهم فيها. لا لما قيل من أنها فى حق المستحل، كما هو رأى عكرمة وأضرابه. بدليل أنها نزلت فى مَقِيس بن صُبَابَة الكنانىّ المرتد . فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . بل لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام . لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم . وما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً. وكذا ماروى عن سفيان : أن أهل العلم كانوا إذا سئلوا قالوا : لاتوبة له ـ محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التشديد والتغليظ . وعليه يحمل ماروى عن أنس رضى الله تعالى عنه : أن النبىّ عليه الصلاة والسلام قال : أَبَى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . وقال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله وأبو صالح : المعنى هو جزاؤه إن جازاه . قالوا : قد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب . ثم إن لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذباً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٢ـ كتاب الإيمان، ١١ ـ باب حدثنا أبو اليمان، حديث ١٨. ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

قال الواحدىّ : والأصل فى ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد ، وأن امتنع أن يخلف الوعد . والتحقيق أنه لاضرورة إلى تفريع مانحن فيـه على الأصل المذكور . لأنه إخبار منه تعالى أن جزاءه ذلك . لا بأنه يجزيه بذلك . كيف لا ؟ وقـد قال الله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّـئَةٍ سَيِّـئَةٌ مِثْلُهَا)[١] . ولو كان هذا إخباراً بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها، لعارضه قوله تعالى (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)[٢] . انتهى .

وقال العلامة الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) : وأما بيان الجمع بين هذه الآية وما خالفها فنقول : لانزاع أن قوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً) من صيغ العموم الشاملة للتائب وغير التائب. بل للمسلم والـكافر . والاستثناء المذكور فى آية الفرقان .أعنى قوله تعالى : إِلَّا مَنْ تَابَ[٣] .بعدقوله تعالى : وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[٤] ـ مختص بالتائبين. فيكون مخصصاً لعموم قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً . أما على ماهو المذهب الحق من أنه ينبنى العامّ على الخاص مطلقاً ، تقدم أو تأخر أو قارن ـ فظاهر ، وأما على مذهب من قال : إن العامّ المتأخر ينسخ الخاص المتقدم ، فإذا سلمنا تأخر قوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً ، على آية الفرقان، فلا نسلم تأخرها من العمومات القاضية بأن القتل مع التوبة من جملة مايغفره الله . كقوله تعالى :قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً[٥] . وقوله تعالى : إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

---

(١) [٤٢ / الشورى/ ٤٠] ونصها: وَجَزَاءُ سَيِّـئَةٍ سَيِّـئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٠] ونصها: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[١] . ومن ذلك ما أخرجه مسلم[٢] عن أبي هريرة . أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليـه . وما أخرجه الترمذيّ[٣] وصححه من حديث صفوان بن عسّال. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بابٌ

(١) [٤ / النساء / ١١٦] .

(٢) أخرجه مسلم في: ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤٣ (طبعتنا).

(٣) أخرجه الترمذيّ في: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٩٨ ـ باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده . ونصه :

عن زرّ بن حبيش قال : « أتيت صفوان بن عسّال المراديّ أسأله المسح على الخفين؟ فقال: ما جاء بك يا زرّ ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العـلم ، رضاً بما يطلب . فقلت : إنه حكّ في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنتَ امرءًا من أصحاب النبيّ ﷺ . فجئت أسألك : هل سمعتَه يذكر في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا كنا سفراً أو مسافرين، أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، لـكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا مع النبيّ ﷺ في سفر . فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابيّ بصوت له جهوريّ : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » وقلنا له : ويحك . اغضض من صوتك ، فإنك عند النبيّ ﷺ ، وقد نُهيتَ عن هذا . فقال : والله ! لا أغضض . قال الأعرابيّ : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم . قال النبيّ ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » .

فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة سبعين عاما . عرضه ، أو يسير الراكب في عرضه ، أربعين أو سبعين عاما » .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام « خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً (يعني للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث حسن صحيح .

من قِبَلِ المغرب يسير الراكب فى عرضه أربعين أو سبعين سنة . خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض . مفتوح للتوبة لايغلق حتى تطلع الشمس من مغربها . وأخرج الترمذى[(١)] أيضاً عن ابن عُمر . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر . وأخرج مسلم[(٢)] من حديث أبى موسى؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . ونحو هذه الأحاديث مما يطول تعداده ـ لا يقال: إن هـذه العمومات مخصصة بقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً..الآية . لأنا نقول : الآية أعم من وجه ، وهو شمولها للتائب وغيره . وأخص من وجه ، وهو كونها فى القاتل . وهذه العمومات أعم من وجه ، وهو شمولها لمن كان ذنبه القتل ولمن كان ذنبه غير القتل . وأخص من وجه ، وهو كونها فى التائب . وإذا تعارض عمومان لم يبق إلا الرجوع إلى الترجيح . ولا شك أن الأدلة القاضية بقبول التوبة مطلقاً أرجح لـكثرتها . وهكذاأيضاً يقال : إن الأحاديث بخروج الموحدين من النار وهى متواترة المعنى ، كما يعرف ذلك من له إلمام بكتب الحديث ، تدل على خروج كل موحد . سواء كان ذنبه القتل أو غيره . والآية القاضية بخروج من قتل نفساً هى أعم من أن يكون القاتل موحداً أو غير موحد . فيتعارض عمومان . وكلاهما ظنىّ الدلالة . ولـكن عموم آية القتل قـد عورض بما سمعته . بخلاف أحاديث خروج الموحدين ، فإنها إنما عورضت بما هو أعم منها مطلقاً . كآيات الوعيـد للعصاة الدالة على الخلود الشاملة للـكافر والمسلم . ولا حكم لهذه المعارضة ، أو بما هو أخص منها مطلقاً . كالأحاديث القاضية بتخليد بعض أهل المعاصى . نحو : من قتل نفسه . وهو يبنى العام على الخاص . وبمـا قررناه يلوح لك انتهاض القول بقبول توبة القاتل إذا تاب ،

(١) أخرجه الترمذىّ فى الباب السابق .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٣١ (طبعتنا) .

وعدم خلوده فى النار إذا لم يتب . ويتبيّن لك أيضاً أنه لا حجة فيما احتج به ابن عباس من أن آية الفرقان مكية منسوخة بقوله تعالى : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا . . . الآية . كما أخرج ذلك عنه البخارىّ ومسلم وغيرهما . وكذلك لا حجة له فيما أخرجه النسائى[١] والترمذىّ[٢] عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يجئ المقتول متعلقاً بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دماً . يقول: يارب ! قتلني هذا . حتى يدنيه من العرش . وفى رواية للنسائىّ[١] فيقول: أى رب! سل هذا فيم قتلنى ؟ لأن غاية ذلك وقوع المنازعة بين يدى الله عز وجل . وذلك لا يستلزم أخذ التائب بذلك الذنب . ولا تخليده فى النار ، على فرض عدم التوبة . والتوبةُ النافعة ، ههنا ، هى الاعتراف بالقتل عند الوارث ، إن كان له وارث . أو السلطان ، إن لم يكن له وارث . والندم على ذلك الفعل ، والعزم على ترك العود إلى مثله . لا مجرد الندم والعزم ، بدون اعتراف . وتسليم للنفس أو الدية إن اختارها مستحقها . لأن حق الآدمىّ لا بُدَّ فيه من أمر زائد على حقوق الله . وهو تسليمه أو تسليم عوضه بعد الاعتراف به . فإن قلت : فعلى مَ تحمل حديث أبى هريرة وحديث معاوية المذكورين فى أول الباب ؟ فإن الأول يقضى بأن القاتل أو المُعين على القتل يلقى الله مكتوباً بين عينيه : الإياس من الرحمة . والثانى يقضى بأن ذنب القتل لا يغفره الله ـ قلت هما محمولان على عدم صدور التوبة من القاتل . والدليل على هذا التأويل ، ما فى الباب من الأدلة القاضية بالقبول عموماً وخصوصاً . ولو لم يكن من ذلك إلا حديث الرجل القاتل للمائة ، الذى تنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . وحديث عبادة بن الصامت المذكور قبله . فإنهما يلجئان إلى المصير إلى ذلك التأويل . ولا سيما مع ما قدمنا من تأخر تاريخ حديث عبادة .

---

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٥ ـ حدثنا الحسن بن محمد الزعفرانىّ .

ومع كون الحديثين فى الصحيحين . بخلاف حديث أبى هريرة ومعاوية . وأيضاً فى حديث معاوية نفسه ما يرشد إلى هذا التأويل. فإنه جعل الرجل القاتل عمداً مقترناً بالرجل الذى يموت كافراً . ولا شك أن الذى يموت كافراً مصرًّا على ذنبه غير تائب منه ، من المخلدين فى النار . فيستفاد من هذا التقييد أن التوبة تمحو ذنب الكفر . فيكون ذلك القرين الذى هو القتل أولى بقبولها .

وقد قال العلامة الزمخشرىّ فى (الكشاف): إن هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ . قال : ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى ، من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة . وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له . وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد : وإلّا فكل ذنب ممحوٌّ بالتوبة . وناهيك بمحو الشرك دليلًا .

ثم ذكر حديث : لَزَوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ، وهو عند النسائىّ[1] من حديث بريدة، وعند ابن ماجة[2] من حديث البراء . و عند النسائىّ[1] أيضاً من حديث ابن عمرو . وأخرجه أيضاً الترمذىّ[3] انتهى . كلام الشوكانىّ .

وقال الإمام ابن القيّم فى (الجواب الكافى) : لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى قامت به السموات والأرض ، وأرسل الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ـ كان (أى الظلم) من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه: وكان قتل الإنسان المؤمن من أقبح الظلم وأشده . ثم قال: ولما

(١) أخرجه النسائى فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب التغليظ فى قتل المسلم ، حديث ٢٦١٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى: ١٤ ـ كتاب الديات ، ٧ ـ باب ما جاء فى تشديد قتل المؤمن .

كانت مفسدة القتل هذه المفسدة ـ قال الله تعالى : مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا(١) .

ثم قال : وفى صحيح البخارى(٢) عن سمرة بن جندب قال : أول ما ينتن من الإنسان بطنه . فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل . ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل . وفى جامع الترمذى(٣) عن نافع قال: نظر عبدالله

(١) [٥ / المائدة / ٣٢] . . . وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٩ ـ باب من شاق شق الله عليه ، حديث ٢٤٣٩ ونصه :

عن طريف أبى تميمة قال : شهدت صفوان وجندبا وأصحابه وهو يوصيهم . فقالوا : هل سمعت من رسول الله شيئاً ؟ قال : سمعته يقول « من سمّع سمّع الله به يوم القيامة » قال « ومن يشاقق يشقق الله عليه يوم القيامة » فقالوا : أوصنا . قال : إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه. فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهراقه فليفعل .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٨٥ ـ باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ، ونصه :

عن نافع عن ابن عمر قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فقال : « يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه ! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ولا تتبعوا عوراتهم : فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته . ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله .

=

ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك . والمؤمن أعظم حرمةً منك . قال الترمذيّ هـذا حديث حسن . وفى صحيح البخاريّ[١] أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً . وذكر البخاريّ[٢] أيضاً عن ابن عمر قال : من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها ، سفك الدم الحرام بغير حله : وفى الصحيحين[٣] عن أبى هريرة يرفعه : سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر . وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم[٤] : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . وفى صحيح البخاريّ[٥] عنه صلى الله عليه وسلم : من قتل معاهَداً لم يرح رائحة الجنة . وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً .

هذه عقوبة قاتل عدوّ الله ، إذا كان معاهداً فى عهده وأمانه. فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن ؟

= قال : ونظر ابن عمر يوماً إلى البيت ، أو إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك. والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب قول الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢١ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب قول الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢١ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٦ ـ باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، حديث ٤٤ .

(٤) أخرجه البخاريّ فى: ٣ ـ كتاب العلم، ٤٣ ـ باب الإنصات للعلماء، حديث ١٠٤.

(٥) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية ، ٥ ـ باب إثم من قتل معاهَدا بغير جرم ، حديث ١٤٩٦ .

وإذا كانت امرأة قددخلت النار ، فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا ، فرآها النبىّ صلى الله عليه وسلم فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم ؟ وفى بعض السنن عنه ﷺ [1] : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق .

وقال ابن القيّم أيضاً قبل ذلك : وقد جعل الله سبحانه وتعالى جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً، الخلود فى النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمداً مالم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل ، طوعاً واختياراً ، مانع من نفوذ ذلك الجزاء . وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف. وهما روايتان عن أحمد. والذين قالوا : لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمىّ لم يستوفه فى دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد أن يستوفى له فى دار العدل . قالوا : فما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله،من استيفائه والعفو عنه . وماينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ وهذا أصح القولين فى المسألة . إن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث. وهى وجهان لأصحاب الشافعىّ وأحمد وغيرهما . ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث . فإن التوبة تهدم ما قبلها . والذنب الذى قد جناه قد أقيم عليه حده . قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم، وجعلهم من خيار عباده . ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة .

---

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب تحريم الدم ، ٢ ـ باب تعظيم الدم .

وابن ماجة فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ١ ـ باب التغليظ فى قتل المسلم، حديث ٢٦١٩ (طبعتنا) .

والترمذىّ فى : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٧ ـ باب ما جاء فى تشديد قتل المؤمن .

وقال تعالى: يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . وهذا فى حق القاتل . وهى تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه . قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه . ولا يمكن تسليمها إلى المقتول. فأقام الشارع وليَّه مقامه.وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه . فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث . والتحقيق فى المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق لله، وحق للمظلوم المقتول ، وحق للولىّ . فإذا سلّم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولىّ ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحاً ـ فقطع حق الله بالتوبة ، وحق الولىّ بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ، وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا.

فصل

ومن العلماء من اختار التوقف فى هـذا المقام . منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانىّ . فإنه قال فى كتابه (إيثار الحق) فى (بحث الوعد والوعيد) . ما نصه : لا شك أن الاستثناء من الوعد والوعيد ، وتخصيص العمومات بالأدلة المتصلة والمنفصلة مقبول . إما على جهه الجمع ، ولا شك فى جوازه وصحته وحسنه ، والإجماع على ذلك وكثرة وقوعه من سلف الأمة وخلفها . بل لا شك فى تقديمه فى الرتبة والبداية بذلك قبل الترجيح . فإن تعذر الجمع فالترجيح . فإن وضح عمل به . فإن لم يتضح وجب الوقف لقوله تعالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[٢] . ولذلك اخترت الوقف فى حكم قاتل المؤمن . بعد الانتصاف منه للمظلوم

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣]

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] . . . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .

والقطع على أنه فاسق ملعون ، واجب قتله والبراءة منه . والقطع أن جزاءه جهنم خالداً فيها ، كما قال تعالى على ما أراد . وإنما وقفت فى محل التعارض الذى أوضحته فى (العواصم) . لا على حسب ماقيل فى أن الله تعالى فى هذه الآية ، هل بيّن جزاءه الذى له أن يفعله إن شاء ؟ أو بيّن جزاءه الذى تخيّر له فى تنجيزه حين لم يبق إلا حقه بعد استيفاء حق المظلوم المقتـول ؟ والله سبحانه أعلم .

فمن رجح الجمع بيْن وعيد القاتل وبيْن قوله تعالى : وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(١) ، وسائر آيات الرجاء وأحاديثه ـ قال بالأول . ومن رجح وعيد القاتل فى هذه الآية ، وفى الأحاديث المخصصة لقتل المؤمن ، بقطع الرجاء ، كما أوضحته فى (العواصم) ـ رجح وعيد القاتل . ومن تعارضت عليه ولم ير فى تنجيز الاعتقاد مصلحة ولا له موجباً ولا إليه ضرورة ـ رجح الوقف . والله عند لسان كل قائل ونيته . ولاشك فى ترجيح النص الخاص على العموم وتقديمه . وعليه عمل علماء الإسلام فى أدلة الشريعة . ومن لم يقدمه فى بعض المواضع لم يمكنه الوفاء بذلك فى كل موضع . واضطر إلى التحكم والتلوّن من غير حجة بيّنة . وقد أجمع من يعتدّ به من المسلمين على تخصيص الصغائر من آيات الوعيد العامة على جميع المعاصى ، متى كان أهل الصغائر من المسلمين . ولم يلزم من ذلك خلف فى آيات الوعيد ولا كذب ولا تـكذيب لشىء منها . فـكذلك سائر ماصح من أحاديث الرجاء ليس فيه مناقضة لعمومات آيات الوعيد ، ولايستلزم تجويز الخلف على الله تعـالى . وذلك باب واحد . ولذلك اشتهرت أحاديث الرجاء فى عصر الصحابة والتابعين . ولم ينكرها أحد . بل رواتها أكابرهم وأئمتهم . وفى (العواصم) من ذلك عن علىّ عليه السلام بضعة عشر أثراً . بل المخصصات للعمومات فى ذلك قرآنية . وعمومات الوعد مانعة قبل تخصيص الوعيد من الجزم على وقوع عمومه دون عموم الوعد . على أن الخلف

(١) [٤ / النساء / ٤٨] ونصها : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا .

عند جماعات كثيرة لا يكون إلا فى عدم الوفاء بالوعد بالخير . وأما الوعيد بالشر فقد اختلف فى تركه . وأجمعوا على أنه يسمى عفواً . كما قال كعب بن زهير(١) :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى　　　والعفو عند رسول الله مأمول

وإنما اختلفوا ، مع تسميته عفواً ، هل يسمى خلفاً أم لا ؟ ومن منع من ذلك ، منع صحة النقل له لغة . واحتج على امتناعه بأنه لا يصح اجتماع اسم مدح واسم ذم على مسمى واحد . انتهى .

فصل

تشرع الكفارة فى قتل العمد . لما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بنى سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: فليعتق رقبة. يفدى الله بكل عضو منها

---

(١) مطلع القصيدة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول　　　متيّم إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

قال ابن هشام عند هذا البيت : جميع ماتقدم توطئة لهذا البيت. فإن غرضه من القصيدة التنصل والاستعطاف . ومعنى (أنبئت) أُخبرت خبراً صادقاً. وترك ذكر الفاعل هنا لأمرين: أحدهما أنه لايتعلق بتعيينه غرض . ومثله : إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا . وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا . وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ . والثانى أن مقام الاستعطاف يناسبه تمريض الخبر بالوعيد. كأن تقول: رُوِى كذا ، لا تحقيقه . والوعد فى الخير والإيعاد فى الشر . ولهذا قال بعض فصحاء العرب فى دعائه : يا من إذا وعد وَفَى . وإذا أوعد عفا

وفى البيت إعادة ذكر الرسول ﷺ لإظهار التفخيم والتعظيم .

ويذكر أنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما سمع هذا البيت قال « العفو عند الله » .

عضواً منه فى النار . ورواه أيضاً بسند آخر عنه . قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صاحب لنا قد أوجب، قال : أعتقوا عنه ، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار . وهذا رواه أبو داود[1] والنسائىّ . ولفظ أبى داود : قد أوجب (يعنى النار) بالقتل .

قال الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) : فى حديث واثلة دليل على ثبوت الكفارة فى قتل العمد . وهذا إذا عفى عن القاتل أو رضى الوارث بالدية . وأما إذا اقتصّ منه فلا كفارة عليه بل القتل كفارته . لحديث عبادة المذكور فى الباب . ولما أخرجه أبو نعيم فى (المعرفة): أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : القتل كفارة . وهو من حديث خزيمة بن ثابت . وفى إسناده ابن لهيعة . قال الحافظ : لكنه من حديث ابن وهب عنه فيكون حسناً. ورواه الطبرانىّ فى الكبير عن الحسن بن علىّ موقوفاً عليه .

ثم حذر تعالى عما يؤدى إلى القتل العمد من قلة المبالاة فى الأمور بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٨ ـ كتاب العتق ، ١٣ ـ باب ثواب العتق ، حديث ٢٩٦٤ ونصه : عن الغريف بن الديلمىّ قال : أتينا واثلة بن الأسقع . قلنا له : حدثنا حديثاً ليس فيه زيادة ولا نقصان. فغضب وقال: إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق فى بيته فيزيد وينقص. قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعته من النبىّ ﷺ . قال: أتينا رسول الله ﷺ فى صاحب لنا أَوْجَبَ ـ يعنى النار ـ بالقتل . فقال « أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار » .

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ » أي: ذهبتم « فِي سَبِيلِ اللَّهِ » إلى أرض العدوّ للغزو « فَتَبَيَّنُوا » أي : اطلبوا بيان كل ماتأتون وما تذرون . ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » نهى عما هو نتيجة لترك المأموربه ، وتعيين لمادة مهمة من المواد التى يجب فيها التبيين . أى : لا تقولوا (لمن أظهر الانقياد لدعوتكم فقال : لا إله إلا الله ، أو سلّم عليكم فحياكم بتحية الإسلام) : لست مؤمناً فى الباطن . وإنما قلتَه باللسان لطلب الأمان . بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه « تَبْتَغُونَ » أى:تطلبون بقتله « عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى: ماله الذى هو سريع النفاد . والجملة حال من فاعل (لَا تَقُولُوا) منبئة عما يحملهم على العجلة وترك التأنّى . وقوله تعالى « فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ » تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنىّ . كأنه قيل : لا تبتغوا ماله، فعندالله مغانم كثيرة يغنمكموها ، فيغنيكم عن ارتكاب ماارتكبتموه. أفاده أبو السعود . ثم قال : وقوله تعالى « كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ». تعليل للنهى عن القول المذكور. أى : مثل ذلك الذى ألقى إليكم السلام ، كنتم أنتم أيضاً . فى مبادئ إسلامكم . لا يظهر منكم للناس غير ماظهر منه لكم ، من تحية الإسلام ونحوها . فمنّ الله عليكم ،بأن قبل منكم تلك المرتبة، وعصم بها دماءكم وأموالكم، ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم . والفاء فى قوله تعالى « فَتَبَيَّنُوا » فصيحة . أى : إذا كان الأمر كذلك ، فاطلبوا بيان هذا الأمر البيّن وقيسوا حاله بحالكم . وافعلوا به مافعل بكم . فى أوائل أموركم . من قبول ظاهر الحال ، من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن « إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فلا تتهافتوا فى القتل وكونوا محترزين محتاطين فى ذلك .

قال ابن كثير (فى سبب نزولها) : أخرج الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يرعى غنماً له . فسلم عليهم . فقالوا: مايسلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه. وأتوا بغنمه النبىّ صلى الله عليه وسلم.

فنزلت هذه الآية: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إلى آخرها. ورواه الترمذيّ[1] ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى الباب عن أسامة بن زيد .

ورواه الحاكم وصححه. وروى البخاريّ[2] عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان رجل فى غنيمة له. فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم . فقتلوه ، وأخذوا غنيمته . فأنزل الله فى ذلك ... إلى قوله: عرض الحياة الدنيا : (تلك الغنيمة) .

وقال البخاريّ[3] : قال حبيب بن إبى عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد : إذا كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، فكذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل . هكذا رواه البخاريّ معلقاً مختصراً .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار مطولًا موصولًا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيهـا المقداد بن الأسود . فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا . وبقى رجل له مال كثير لم يبرح . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله . وأهوى إليه

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٦ ـ حدثنا عبد بن حميد ، ونصه : عن ابن عبـاس قال : مرّ رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ . ومعه غنم له . فسلم عليهم . قالوا : ما سلّم عليكم إلا ليتعوّذ منكم . فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه . فأتوا بها رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعـالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا.

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٧ ـ باب وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات، ١ ـ باب قول الله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ، حديث ٢٥٢٢ .

المقدادفقتله. فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلًا شهد أن لا إله إلا الله؟ والله! لأذكرنّ ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم . فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ! إن رجلًا شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد . فقال: ادعوا لى المقداد . يا مقداد! أقتلت رجلًا يقول: لا إله إلا الله ! فكيف لك بـ (لا إله إلا الله) غداً ؟ قال : فأنزل الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ـ إلى قوله ـ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ... الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمقداد : كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار . فأظهر إيمانه فقتلته . وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل .

قال ابن كثير : فقوله تعالى : كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ ، أى: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذى يُسِرّ إيمانه ويخفيه من قومه . كما تقدم فى الحديث المرفوع، وكما قال تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ ... الآية[1] . وهذا وجه آخر فى مرجع الإشارة ، غير ما سلف ، وهو الأدق . وبالقبول أحق .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : يُستفاد من هذه الرواية (أى:رواية البزار) تسمية القاتل . وأما المقتول ، فروى الثعلبيّ من طريق الكلبيّ عن أبى صالح عن ابن عباس ، وأخرجه عبد بن حميد من طريق قتادة نحوه . واللفظ للكلبيّ : أن اسم المقتول مرداس بن نهيك . من أهل فدك . وأن اسم القاتل أسامة بن زيد . وأن اسم أمير السرية غالب بن فضالة الليثيّ . وأن قوم مرداس لما انهزموا بقى هو وحده . وكان ألجأ غنمه بجبل . فلما لحقوه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم . فقتله أسامة بن زيد . فلما رجعوا نزلت الآية. وكذا أخرج الطبريّ[2] من طريق السّديّ نحوه . وفى آخر رواية قتادة : لأن تحية

---

(١) [٨/ الأنفال/ ٢٦] ونصها : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) الأثر رقم ١٠٢٢١ .

المسلمين السلام ، بها يتعارفون . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر قال : أُنزلت هذه الآية فى مرداس . وهذا شاهد حسن . وأسند ابن أبى حاتم أن أسامة حلف لا يقتل رجلًا يقول: لا إله إلا الله، بعد ذلك الرجل ، وما لقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه .

قال بعض المفسرين من أئمة الزيدية : وبهذا اعتذر إلى علىّ عليه السلام حتى تخلف عنه ، وإن كان عذراً غير مقبول . لأن القتال مع الإمام واجب عند خروج البغاة ويكفر يمينه .

قال الحاكم : إلا أن أمير المؤمنين أذن له . انتهى .

وروى الإمام أحمد[1] عن عبد الله بن أبى حدرد رضى الله عنه قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إضم . فخرجت فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعىّ، ومحلِّم بن جثَّامة بن قيس . فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعىّ على قعود له . معه مُتَيِّع له (تصغير متاع . وهو السلعة) ووطب من لبن. فلما مر بنا سلم علينا. فأمسكنا عنه . وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشىء كان بينه وبينه . وأخذ بعيره ومُتيِّعه . فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر ، نزل فينا القرآن : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ـ إلى قوله تعالى ـ خَبِيرًا . ورواه ابن جرير[2] عن ابن عمر وزاد : فجاء محلم فى بردين. فجلس بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم ليستغفر له فقال رسول الله ﷺ : لا غفر الله لك . فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه. فما مضت له سابعة حتى مات. ودفنوه فى الأرض . فلفظته الأرض، فجاؤوا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له . فقال إن

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١١ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) وابن جرير : الأثر رقم ١٠٢١٢ .

(٢) الأثر رقم ١٠٢١١ .

الأرض تقبل من هو شرٌّ من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم. ثم طرحوه بين صَدَفَيْ جبل، وألقوا عليه الحجارة، ونزلت .

وروى أئمة السير؛ أنه لما كان عام خيبر، جاء عيينة بن بدر يطلب بدم عامر وهو سيد قيس. وكان الأقرع بن حابس يردّ عن محلِّم وهو سيد خندف ، فقال رسول الله ﷺ لقوم عامر : هل لكم أن تأخذوا منا الآن خمسين بعيراً، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟ فقال عيينة بن بدر: والله ! لا أَدَعُهُ حتى أذيق نساءه من الحرّ مثل ما أذاق نسائي . فلم يزل به حتى رضي بالدية.

قال ابن إسحق : وحدثني سالم بن النضر قال : لم يقبلوا الدية حتى قام الأقرع بن حابس فخلا بهم . فقال : يا معشر قيس ! سألكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتيلاً تتركونه ليصلح به بين الناس فمنعتموه إياه . أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيغضب عليكم الله لغضبه ؟ أو يلعنكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلعنكم الله بلعنته ؟ والله ! لتسلمنّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآتين بخمسين من بني تميم كلهم يشهدون أن القتيل ما صلى قط. فلأبطلن دمه . فلما قال ذلك أخذوا الدية .

وأخرج ابن منده عن جزء بن الحدرجان قال : وَفَدَ أخي، قدادٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليمن . فلقيته سرية النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال لهم : أنا مؤمن . فلم يقبلوا منه وقتلوه . فبلغني ذلك . فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ ... الآية . فأعطاني النبيّ صلى الله عليه وسلم دية أخي .

قال القفال : ولا منافاة بين هذه الروايات. فلعلها نزلت عند وقوعها بأسرها. فكان كل فريق يظن أنها نزلت في واقعته . انتهى .

وتقدم لنا في مقدمة التفسير في سبب النزول ما يدفع التنافي في نحو هذا. فارجع إليه .

تنبيه :

قال الرازيّ: اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين، وأمر المجاهدين بالتثبت فيه، لئلا يسفكوا دماً حراماً بتأويل ضعيف . وفي (الإكليل) : استدل بظاهرها

على قبول توبة الزنديق إذا أظهر الاستسلام . وعلى أن الـكافر يحكم له بالإسلام إذا أظهر ما ينافى اعتقاده، على قراءة (السلام) وفى الآية وجوب التثبت فى الأمور ، خصوصاً القتـــل ووجوب الدعوة قبل القتال . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : فى الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام لم يحلّ دمه حتى يختبر أمره . لأن الإسلام تحية المسلمين . وكان تحيتهم فى الجاهلية بخلاف ذلك . فـكانت هذه علامة . وأما على قراءة (السلم) بفتحتين ، أو بكسر فسكون، فالمراد به الانقياد . وهو علامة الإسلام . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الـكريمة وجوب التثبت والتأنى فيما يحتمل الحظر والإباحة . لقوله : فَتَبَيَّنُوا (بالنون) وهـــذا قراءة الأكثر . وحمزةُ والـكسائىّ قراءتهما: (فتثبتوا) من (الثبات) . ويدخل فى هذا أحكام كثيرة من الاعتقادات والأخبار والأفعال من الأحكام وسائر الأعمال، فهذا حكم . والحـكم الثانى أنه يجب الأخذ بالظاهر . فمن أظهر الإسلام أو شيئاً من شعائر الإسلام ، لا يكذّب بل يقبل منــه . ويدخل ، فى هذا ، الملحدُ والمنافقُ . وهذا هو مذهبنا والأكثر . ويدخل فى هذا قبول توبة المرتدّ، خلافاً لأحمد . وقبول توبة الزنديق . وهذا قول عامة الأئمة .

وقال مالك : لا تقبل ، لأن هذا عين مذهبهم أنهم يظهرون خلاف ما يبطنون .

قال الراضى بالله والإمام يحيى : إن أظهروا ما يعتادون إخفاءه قبلت توبتهم . وإلا فلا .

قال على خليل : تقبل توبتهم ، ولو عرفنا من باطنهم خلاف ما أظهروا . كما قبل النبىّ صلى الله عليه وسلم من المنافقين ، وقد أخبر الله تعالى بكفرهم .

وقال أبو مضر : تقبل مالم يعرف كذبهم . وهذا الخلاف فى الظاهر . وأما عنـد الله ، إذا صدق ، فهى مقبولة وفاقا . قال الحاكم : وتدل على أن التوصل بالسبب المحرم إلى المال لا يجوز . وقد ذكر العلماء صوراً فى التوصل إلى المباح بالمحظور، مختلفة . ذكرت فى غير هذا

الموضع . والحجة هنا من قوله تعالى (تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . لأن الذى قصد هنا أخذه، محظور . لأن إظهار الإسلام يحقن النفس والمال . فذلك توصل بمحظور إلى محظور .

وقوله تعالى : لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً . قرئ (السلم) وهذه قراءة نافع وحمزة وابن عامر بغير ألف وهو الاستسلام. وقيل : إظهار الإسلام . وقرأ الباقون: (السلام) بألف وهو التحية . انتهى .

وقال أبو منصور فى (التأويلات) : فيه الأمر بالتثبت عند الشبهة، والنهى عن الإقدام عندها . وهكذا الواجب على المؤمن الوقف عند اعتراض الشبهة فى كل فعل وكل خبر . لأن الله تعالى أمر بالتثبت فى الأعمال بقوله : فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً . وقال فى الخبر : إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا[1] . أمر بالتثبت فى الأخبار عند الشبهة، كما أمر فى الأفعال لنبيه صلى الله عليه وسلم: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[2] . وفى الآية دليل فساد قول المعتزلة . لأنه نهاهم أن يقولوا (لمن قال : إنى مسلم) لست مؤمناً. وهم يقولون : صاحب الكبيرة ليس بمؤمن . وهو يقول ألف مرة (على المثل) أنى مسلم . فإذا نهى أن يقولوا: ليس بمؤمن. أمرهم أن يقولوا: هو مؤمن. فيقال لهم : أنتم أعلم أم الله ؟ على ماقيل لأولئك. انتهى .

وقال الرازى: قال أكثر الفقهاء: لو قال اليهودى والنصرانى: أنا مؤمن، أو قال : أنا مسلم، لا يحكم بهذا القدر بإسلامه . لأن مذهبه أن الذى هو عليه هو الإسلام . وهو الإيمان . ولو قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعند قوم لا يحكم بإسلامه ، لأن فيهم من يقول : إنه رسولُ الله إلى العرب، لا إلى الكل . ومنهم من يقول : إن محمداً الذى هو الرسول الحق،

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] .

بعدُ ماجاء ، وسيجيء بعد ذلك . بل لابد وأن يعترف بأن الدين الذى كان عليه باطل،وأن الدين الموجود فيما بين المسلمين هو الحق والله أعلم . انتهى .

أقول: كل من قال: أنا مؤمن أو أنا مسلم ، من المحاربين ، مظهراً الانقياد لنا، وأنه من ملتنا ، فإنه يحكم بإسلامه ، ويكف عن قتله وأخذ ماله . كتابيًّا كان أو مشركا . وهذا هو المقصود من الآية . وأما مسألة من أراد الدخول فى الإسلام وهو على عقيدةفاسدة، وأنه لابد فى صحة إسلامه من تبرئه عنها ، ونبذها ظهرياً ، وأنه لايكتفى بقوله : أنا مسلم ـ فذاك بحث آخر مسلَّم . لكن ليس مما تشمله الآية . كما أن من أظهر الإسلام وأتى بالشهادتين ولم يَدِنْ بشرائع الإسلام وإقامة شعائره ، كبعض القبائل البادية الجافية ، فإنه يجب على الإمام قتالهم. ولا يقال: إن الآية تشملهم لما ذكرنا . وظاهر أن مدار النهى فى الآية إنما هو على سفك الدماء ابتغاء عرض الدنيا. لقوله (تبتغون). وهو حال كما أسلفنا . والحال قيد لعاملها. فما ذكره الرازى عن الفقهاء ليس مما تشمله الآية . لأن البحث ليس فى القدر الذى يصير به الكافر مسلماً ، بل فى الكف عن قتل المنقاد لنا . فافهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

«لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ» بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم فى الجهاد ، بعد ما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ، ليأنف القاعد عنه ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته ، فيهتز له رغبة فى ارتفاع طبقته. قاله أبو السعود .

وأصله للزمخشري حيث قال : فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان. فما فائدة نفي الاستواء ؟ قلت : معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد . ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته ، فيهتز للجهاد ويرغب فيه ، وفي ارتفاع طبقته . ونحوه : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[1] . أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليُهَابَ به إلى التعلّم ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم . انتهى .

والمراد بهم، وقت النزول، القاعدون عن غزوة بدر والخارجون إليها . كما رواه البخاري[2] والترمذي عن ابن عباس . وقوله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، مخرج لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد: من العمى والعرج والمرض، عن مساواتهم للقاعدين. فإنهم مساوون المجاهدين بالنية . ولا يعتد بزيادة أجر العمل لهم لعظم أمر النية . كما روى الإمام أحمد والبخاري[3] وأبو داود عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه . قالوا : وهم بالمدينة ؟ يارسول الله ! قال : نعم . حبسهم العذر . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً، وسرنا نحن أرواحاً
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] ونصها : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٨ ـ باب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، حديث ١٨٤١ .

(٣) أخرجه البخاري في: ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ٣٥ ـ باب من حبسه العذر عن العدو، حديث ١٣٦٠ .

وروى البخاري[1] عن البراء قال : لما نزلت: لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها . فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته . فأنزل الله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ . وفي رواية للبخاري[2] عن زيد : فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي . قال: يارسول الله! والله ! لوأستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى . فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وكان فخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي . ثم سري عنه فأنزل الله : غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ . وقوله تعالى « بِأَمْوَالِهِمْ » أي: التي ينفقونها على أنفسهم في الجهاد أو على مجاهد آخر « وَأَنْفُسِهِمْ » أي: التي هي أعز عليهم من كل شيء . وإن أنفق عليهم غيرهم إذا لم يكن عندهم مال .

قال أبو السعود : وإيرادهم ، يعني الغزاة ، بعنوان المجاهدين ، دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه ، كما وقع في عبارة ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذا تقييد المجاهدة بكونها في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ـ لمدحهم بذلك والإشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة ، مع ما فيه من حسن موقع السبيل في مقابلة القعود . انتهى .

وظاهر أن نفي المساواة يستلزم التفضيل . إلا أنه للاعتناء به ، وليتمكن أشد تمكن، لم يكتف بما فهم ضمناً ، بل صرح به فقال «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ» . لأنهم رجحوا جانبه « بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ » أي: غير أولي الضرر « دَرَجَةً » في القرب ممن رجحوا جانبه « وَكُلًّا » أي: كل واحد من القاعدين والمجاهدين « وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ » أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنة، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم . والجملة اعتراض جيء به تداركاً

(١) أخرجه البخاري في: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٨ ـ باب لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٣٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٨ ـ باب لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حديث ١٣٥٧ .

لما عسى يوهمه تفضيل أحــد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ » بالجهاد « عَلَى الْقَاعِدِينَ » أى بغير عذر « أَجْراً عَظِيماً » . أى: ثواباً وافراً فى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« دَرَجَاتٍ مِنْهُ » بدل من (أَجْرًا) بدل الكل . مبيّن لكمية التفضيل و (مِنْهُ) متعلق بمحذوف وقع صفة لـ (دَرَجَاتٍ) دالة على فخامتها وجلالة قدرها . قاله أبو السعود .

وقد ثبت فى الصحيحين[١] عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله ﷺ قال: إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال[٢] رسول الله ﷺ : من رمى بسهم فله أجره درجة . فقال رجل : يارسول الله ! وما الدرجة ؟ فقال: أما إنها ليست بعتبة أمك : ما بين الدرجتين مائه عام « وَمَغْفِرَةً » أى : لذنوبهم « وَرَحْمَةً »

(١) الحديث ليس لأبى سعيد وإنما هو لأبى هريرة. وهو من ضمن حديث طويل أخرجه البخارىّ فى: ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٤ ـ باب درجات المجاهدين فى سبيل الله، حديث ١٣٣٥ وهذا نصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » . فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نبشر الناس ؟ قال « إن فى الجنــة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، مابين الدرجتين كما بين السماء والأض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، أُراه فوقه عرش الرحمن . ومنه تتفجر أنهار الجنة » .

(٢) الحديث فى سنن النسائىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٦ ـ باب ثواب من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل . ولــكن عن كعب بن مرّة .

فوق الأجر ودرجاته « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً » تذييل مقرر لما وعد من المغفرةوالرحمة .
وههنا فوائد :

الأولى ـ دلت الآية على أن الجهاد ليس بفرض عين . إذ لو كان فرضاً من فروض الأعيان لم يكن للقاعد فضل ، ولكن تفاوت الفضل بينه وبين المجاهد ، وقال : وكلا وعد الله الحسنى .

الثانية ـ دلت أيضا على أن الجهاد أفضل من القرب التي يفعلها القاعد . لأنه فضّله على القاعد مطلقاً . ويؤيد هذا قوله ﷺ : الجهاد سنام الدين . وقد فرّع العلماء على هذا أن رجلًا لو وقف ماله على أحسن وجوه البر ، أو أوصى أن يصرف فى أحسن وجوه البرّ ، فإنه يصرف فى الجهاد . خلاف ما ذكره أبو عليّ أنه يصرف فى طلب العلم . كذا فى بعض التفاسير .

الثالثة ـ قال السيوطيّ فى (الإكليل) : فى الآية تفضيل المجاهدين على غيرهم . وأن المعذورين فى درجة المجاهدين، واستدل بقوله (بِأَمْوالِهِمْ) على تفضيل المجاهد بمال نفسه على المجاهد بمال يعطاه من الديون أو نحوه .

الرابعة ـ قال الرازيّ : لقائل أن يقول : إنه تعالى قال: إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ . فقدم ذكر النفس على المال . وفى الآية التى نحن فيها وهى قوله : وَالْمُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . قدم ذكر المال على النفس ، فما السبب ؟ وجوابه : أن النفس أشرف من المال . فالمشترى قدم ذكر النفس تنبيها على أن الرغبة فيها أشد . والبائع أخر ذكرها تنبيها على أن المضايقة فيها أشد . فلا يرضى ببذلها إلا فى آخر المراتب .

الخامسة ـ قال أبو السعود : لعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبيء عن المغايرة ، وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات، مع اتحاد المفضل والمفضل عليه ، حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام ـ إما لتنزيل الاختلاف العنوانيّ بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات

منزلة الاختلاف الذاتيّ تمهيداً لسلوك طريق الإبهام، ثم التفسير رَوماً لمزيد التحقيق والتقرير. كما في قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[1] . كأنه قيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادَرُ قدرها ، ولا يبلغ كنهها . وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين ، قيل : وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام ، بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة، فقيل ما قيل . ولله درّ شأن التنزيل . وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات ، على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلًا في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة ، وبالتفضيل الثاني ما أنعم به في الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر ، كما ينبيء عنه تقديم الأول وتأخير الثاني ، وتوسيط الوعد بالجنة بينهما ، كأنه قيل : وفضلهم عليهم . في الدنيا درجة واحدة وفي الآخرة درجات لا تحصى . وقد وسط بينهما في الذكر ما هو متوسط بينهما في الوجود ، أعني الوعد بالجنة ، توضيحاً لحالها ومسارعة إلى تسلية المفضول . والله سبحانه أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » روى البخاريّ[2] عن ابن عباس

---

(١) [١١ / هود / ٥٨] .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١٩ ـ باب إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ... الآية ، حديث ١٩٩٣

أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ . يأتي السهم فيُرْمَى به فيصيب أحدهم فيقتله . أو يُضرب فيُقتل . فأنزل الله : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ... الآية . وأخرجه ابن مردويه ، وسمى منهم (في روايته) قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والوليد بن عتبة بن ربيعة ، وعمرو بن أمية بن سفيان ، وعليّ بن أمية بن خلف . وذكر في شأنهم أنهم خرجوا إلى بدر . فلما رأوا قلة المسلمين دخلهم شك وقالوا : غرّ هؤلاء دينهم . فقتلوا ببدر . وأخرجه ابن أبي حاتم ، وزاد : منهم الحرث بن زمعة بن الأسود ، والعاص بن منبه بن الحجاج . وأخرج الطبرانيّ عن ابن عباس قال : كان قوم بمكة قد أسلموا . فلما هاجر رسول الله ﷺ كرهوا أن يهاجروا ، وخافوا . فأنزل الله : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، إلى قوله : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ . وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة قد أسلموا . وكانوا يخفون الإسلام . فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر . فأصيب بعضهم . فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين ، فأكرهوا فاستغفروا لهم . فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ... الآية . فكتبوا بها إلى من بقي منهم ، وإنه لا عذر لهم ، فخرجوا . فلحق بهم المشركون ففتنوهم فرجعوا . فنزلت : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ[1] . فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا . فنزلت : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا .. الآية[2] . فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا . فلحقوهم . فنجا من نجا وقتل من قتل .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١٠] . . . وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٠] . . . ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

وأخرج ابن جرير[١] من طرق كثيرة نحوه. كذا في (لباب النقول). قال المهايمي : ولما أوهم مافُهِم مما تقدم ، من تساوى القاعدين أولى الضرر والمجاهدين ، أن من قعد عن الجهاد لكونه في دار الكفر محسوب منهم ، وإن عجز عن إظهار دينه ، فإن لم يحسب فلا أقل من أن يحسب من القاعدين غير أولى الضرر ، الموعود لهم الحسنى ـ أزيل ذلك الوهم بأنهم بترك الهجرة من مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم ، مع إمكان الخروج عنه ، صاروا ظالمين مستحقين لتوبيخ الملائكة ، بل لعذاب جهنم ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ أي: في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة عن مكان لا يمكنهم فيه إظهار دينهم مع القدرة عليها وبموافقة الكفار . و (توفاهم) يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ: (توفتهم) ومضارعاً بمعنى تتوفاهم. بمعنى أن الله يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها. أى: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. كذا في (الكشاف) . و(الظلم) قد يراد به الكفر كقوله تعالى : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[٢]. وقد يراد به المعصية كقوله: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ[٣]. ويصح إرادة المعنيين هنا كما أشرنا . روى أبو داود[٤] عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله. « قالوا » أى : الملائكة للمتوفين ، تقريراً لهم بتقصيرهم وتوبيخاً لهم « فِيمَ كُنْتُمْ » أى: في أي شيء كنتم من أمور دينكم « قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ » أى : أرض الأعداء . قال الزمخشري : كيف صح وقوع قوله (كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) جواباً عن قولهم (فِيمَ كُنْتُمْ) وكان حق الجواب : كنا في كذا

(١) الأثر رقم ١٠٢٦١ـ١٠٢٦٩ .

(٢) [٣١/ لقمان/ ١٣] ونصها: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٣٢]

(٤) أخرجه أبوداود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب في الإقامة بأرض الشرك ، حديث ٢٧٨٧ .

أو لم نكن فى شيء ؟ قلت معنى (فيم كنتم) التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شيء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا . فقالوا : كنا مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به ، واعتلالًا بالاستضعاف ، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا فى شيء. فبكتتهم الملائكة بقولهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » أرادوا : إنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التى لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ، ومن الهجرة إلى رسول الله ﷺ كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة . وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب ، والعوائق عن إقامة الدين لاتنحصر ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ـ حقت عليه المهاجرة. انتهى.

« فَأُولَـٰئِكَ » أى: النفر المذكور « مَأْوَاهُمْ » أى: مصيرهم « جَهَنَّمُ » لأنهم الذين ضعّفوا أنفسهم إذ لم يلجئهم الأعداء إلى مساكنة ديارهم «وَسَاءَتْ مَصِيرًا» أى: جهنم . بدل المصير إلى دار الهجرة . ثم استثنى سبحانه من أهل الوعيد ما بينه بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا)

« إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ » لعمى أو عرج أو مرض أو هرم أو فقر « وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » أى: الصبيان فإنهم معذورون فى ترك الهجرة لأنهم « لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً » فى الخروج، إذ لا قوة لهم على الخروج ولا نفقة « وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا » أى: لا يعرفون طريقاً إلى دار الهجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا)

« فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ » أن يتجاوز عنهم بترك الهجرة . قال الرازى :

ههنا سؤال . وهو أن القوم لما كانوا عاجزين عن الهجرة ، والعاجز عن الشيء غير مكلف به، وإذا لم يكن مكلفاً به لم يكن عليه في تركه عقوبة ـ فلِمَ قال : عسى الله أن يعفو عنهم ؟ والعفو لا يتصور إلا مع الذنب . وأيضاً (عسى) كلمة الإطماع. وهذا يقتضى عدم القطع بحصول العفو في حقهم . والجواب عن الأول : أن المستضعف قد يكون قادراً على ذلك الشيء مع ضرب من المشقة . وتمييز الضعف الذى يحصل عنده الرخصة، عن الحد الذى لا يحصل عنده الرخصة، شاق ومشتبه . فربما ظن الإنسان بنفسه أنه عاجز عن المهاجرة ، ولا يكون كذلك، ولا سيما في الهجرة عن الوطن . فإنها شاقة على النفس . وبسبب شدة النفرة قد يظن الإنسان كونه عاجزًا . مع أنه لا يكون كذلك . فلهذا المعنى كانت الحاجة إلى العفو شديدة فى هذا المقام . والجواب عن الثانى ـ بأن الفائدة فى (عسى) الدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه . حتى إن المضطر البيّن الاضطرار من حقه أن يقول : عسى الله أن يعفو عنى . فكيف الحال فى غيره ؟ هذا ما ذكره صاحب (الكشاف) .

والأولى فى الجواب ما قدمناه . وهو أن الإنسان لشدة نفرته عن مفارقة الوطن، ربما ظن نفسه عاجزاً عنها . مع أنه لا يكون كذلك فى الحقيقة . فلهذا المعنى ذكر العفو بكلمة (عسى) لا بالكلمة الدالة على القطع . انتهى. وقال أبو السعود : جيء بكلمة (الإطماع) ولفظ (العفو) إيذانا بأن الهجرة من تأكيد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها ، ممن تحقق عدم وجوبها عليه ، ذنباً يجب طلب العفو عنه ، رجاءً وطمعاً . لا جزماً وقطعاً . وقال المهايمىّ : فيه إشعار بأن ترك الهجرة أمر خطير . حتى إن المضطر حقه أن يترصد الفرصة ويعلق قلبه بها . وإن الصبىّ إذا قدر فلا محيص له عنه . وإن قوّامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم . ثم أكد الإطماع لئلا ييأسوا فقال « وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا » وفى إقحام (كان) إشارة إلى اتصافه تعالى بهذه الصفة قبل خلق الخلق. أو أن هذه عادته تعالى، أجراها فى حق خلقه . ووعده بالعفو والمغفرة مطلقاً مما يدل على أنه تعالى قد يعفو عن الذنب قبل التوبة .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : استدل بالآية على وجوب الهجرة من دار الكفر ، إلّا على من لم يطقها . وعن مالك : الآية تقتضى أن كل من كان فى بلد تُغَيَّرَ فيه السنن، فينبغى أن يخرج منه . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية وجوب الهجرة من دار الكفر . ولا خلاف أنها كانت واجبة قبل الفتح . ولذلك قال الله تعالى فى سورة الأنفال : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَىْءٍ[1] . قيل : ونسخت بعد الفتح . والصحيح عدم النسخ . وقوله صلى الله عليه وسلم[2] : لا هجرة بعد الفتح ، معناه من مكة .

قال جار الله : وهذا يدل على أن الرجل إذا كان فى بلد لايتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب ، وعلم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله ، حقت عليه الهجرة . ثم قال رحمه الله : قال فى التهذيب : وعن القاسم بن إبراهيم : إذا ظهر الفسق فى دار ، ولا يمكنه الأمر بالمعروف ، فالهجرة واجبة . وهذا بناء على أن الدور ثلاث : دار إسلام ، ودار فسق ، ودار حرب . وهذا التقسيم هو مذهب الهادى والقاسم ، وابن أبى النجم فى كتاب

---

(١) [٨ / الأنفال/ ٧٢] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١ ـ باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح . ولكن جهاد ونية . وإذا استنفرتم فانفروا » .

(الهجرة والدور) عن الراضي بالله وجعفر بن مبشر وأبي عليّ. وذهب الإخوان وعامة الفقهاء وأكثر المعتزلة إلى النفي لدار الفسق . واعلم أن من حُمِل على معصيةٍ أو تركِ واجبٍ أو طالبه الإمام بذلك ، فالمذهب وجوب الهجرة مع حصول الشروط المعتبرة . وقد قال الراضي بالله : إن من سكن دار الحرب مستحلًّا ، كَفَرَ . لأن ذلك رد لصريح القرآن . واحتج بهذه. وقد حكى الفقيه حسام الدين حميد بن أحمد عن القاسم والهادي والراضي بالله : التكفير لمن ساكن الكفار في ديارهم . وفي (مهذب الراضي بالله) : يكفر إذا جاورهم سنة . قال الفقيه شرف الدين محمد بن يحيي ، حاكياً عن الراضي بالله: إنه يكفر بسكنى دار الحرب وإن لم يستحل؛ لأن ذلك منه إظهار الكفر على نفسه . والحكم بالتكفير محتمل هنا . ثم قال : وإنما استثنى تعالى الولدان ، وإن كانوا غير داخلين في التكليف ، بياناً لعدم حيلتهم . والهجرة إنما تجب على من له حيلة. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : الهجرة الترك . والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره . وفي الشرع : ترك ما نهى الله عنه . وقد وقعت في الإسلام على وجهين : الأول ـ الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن . كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة . الثاني ـ الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان . وذلك بعد أن استقرّ النبيّ ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه مَنْ أمكنه ذلك من المسلمين . وكانت الهجرة ، إذ ذاك ، تختص بالانتقال إلى المدينة . إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص . وبقي عموم الانتقال من دار الكفر، لمن قدر عليه، باقياً . انتهى. وقد أفصح ابن عمر بالمراد. فيما أخرجه الإسماعيليّ بلفظ : انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار . أي: ما دام في الدنيا دار كفر ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن على دينه . وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . أخرجها مجد الدين بن تيمية في (منتقى الأخبار) في ترجمة (باب بقاء الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وأن لا هجرة من دار

أسلم أهلها) ثم قال : عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] : من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله. رواه أبو داود . وعن جرير بن عبد الله أن رسول الله[٢] صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل . فبلغ النبيّ ﷺ . فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا : يارسول الله ! لم ؟ قال : لا تراءى ناراهما . رواه أبوداود والترمذيّ . وعن معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لاتنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها. رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤]. وعن عبدالله بن السعديّ أن رسول الله ﷺ قال[٥] : لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدوّ . رواه أحمد والنسائيّ .

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٠ ـ باب فى الإقامة بأرض الشرك ، حديث ٢٧٨٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٥ ـ باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود ، حديث ٢٦٤٥ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) ونصه :
عن أبى هند البجليّ قال: كنا عند معاوية ، وهو على سريره وقد غمض عينيه . فتذاكرنا الهجرة . والقائل منا يقول : قد انقطعت . والقائل منا يقول : لم تنقطع . فاستنبه معاوية . فقال : ما كنتم فيه ؟ فأخبرناه . وكان قليل السرد على النبيّ ﷺ . فقال : تذاكرنا عند رسول الله ﷺ فقال « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » .

(٤) وأخرجه أبوداود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب فى الهجرة هل انقطعت ؟ ، حديث ٢٤٧٩ .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٧٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال[١] : لا هجرة بعد الفتح ولـكن جهاد ونيّة . رواه الجماعة إلا ابن ماجة . وعن عائشة ، وسئلت عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم . كان المؤمن يفر بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يفتن . فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام . والمؤمن يعبد ربه حيث شاء . رواه[٢] البخاريّ . وعن مجاشع بن مسعود أنه جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبيّ ﷺ فقال : هذا مجالد . جاء يبايعك على الهجرة. فقال : لا هجرة بعد فتح مكة. ولـكن أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد. متفق عليه[٣] . ولما تضمنت ترجمة المجد، رحمه الله ، شقين،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١ ـ باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ .

ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٨٥ (طبعتنا) .

وأبوداود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب فى الهجرة، هل انقطعت؟ حديث ٢٤٨٠.

والترمذيّ فى : ١٩ ـ كتاب السِّيَر ، ٣٢ ـ باب ما جاء فى الهجرة .

والنسائى فى : ٣٩ ـ كتاب البيعة ، ١٥ ـ باب ذكر الاختلاف فى انقطاع الهجرة .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٣ ـ باب وقال الليث ، حديث ١٤٥٧ .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٣ ـ باب وقال الليث ، حديث ١٤١٣و١٤١٤ .

ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٨٣و٨٤ (طبعتنا) .

وهذا نص البخاريّ :

عن أبى عثمان قال : حدثنى مجاشع قال : أتيت النبيّ ﷺ ، بأخى ، بعد الفتح . قلت : يا رسول الله ! جئتك بأخى لتبايعه على الهجرة . قال « ذهب أهل الهجرة بما فيها » فقلت : على أى شيء تبايعه ؟ قال « أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد » .

فلقيت أبا معبد بعدُ ، وكان أكبرهما . فسألته فقال : صدق مجاشع .

أورد لكلٍّ أحاديث ، فمن قوله : لاهجرة بعد الفتح. الخ ، جميعه للشق الثانى . وهو قوله : وأن لا هجرة من دار أسلم أهلها ، إشارة للجمع بين هذه الأحاديث . وهو ظاهر . ثم رغب تعالى فى المهاجرة بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » فى طاعته « يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً » أى: طريقاً يراغم فيه أنوف أعدائه القاصدين إدراكه « كَثِيرًا وَسَعَةً » أى: فى الرزق ، أو فى إظهار الدين ، أو فى الصدر ، لتبدل الخوف بالأمن « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ » بمكة « مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ » إلى طاعته ، أوالى مكان أمر الله «وَ» إلى «رَسُولِهِ » بالمدينة «ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ » أى: فى الطريق قبل أن يصل إلى المقصد «فَقَدْ وَقَعَ » أى: ثبت «أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »أى: فلا يخاف فوات أجره الكامل، لأنه نوى مع الشروع فى العمل . ولا تقصير منه فى عدم إتمامه «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيماً » فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التى جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج . ويرحمه بإكمال ثواب هجرته .

تنبيهات

الأول ـ فيما روى فى نزول الآية . أخرج ابن أبى حاتم وأبو يعلى بسند جيد عن ابن عباس قال : خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً . فقال لأهله : احملونى فأخرجونى من أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . فنزل الوحى : ومن يخرج من بيته...الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد

ابن جبير عن أبي ضمرة الزرقيّ ، الذي كان مصاب البصر ، وكان بمكة . فلما نزلت : إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ، فقال: إنى لغنيّ وإنى لذوحيلة . فتجهز يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأدركه الموت بالتنعيم. فنزلت هذه الآية: وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ... إلى آخرها. وأخرج ابن جرير[1] نحو ذلك من طرقٍ ، عن سعيد ابن جرير وعكرمة وقتادة والسدّىّ والضحاك وغيرهم . وسمى فى بعضها ضمرة بن العيص، أو العيص بن ضمرة . وفى بعضها جندب بن ضمرة الجندعىّ . وفى بعضها الضمرىّ . وفى بعضها رجل من بنى ضمرة . وفى بعضها رجل من خزاعة . وفى بعضها رجل من بنى ليث . وفى بعضها من بنى كنانة . وفى بعضها من بنى بكر .

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ؛ أن جندع بن ضمرة الضمرىّ كان بمكة . فمرض. فقال لبنيه : أخرجونى من مكة فقد قتلنى غمها . فقالوا : إلى اين؟ فأومأ بيده نحو المدينة . يريد الهجرة . فخرجوا به . فلما بلغوا أَضاة بنى غفار ، مات . فأنزل الله فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ ... الآية .

وأخرج الأمويّ فى (مغازيه) عن عبد الملك بن عمير قال : لما بلغ أكثم بن صيفيّ مخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يأتيه . فأبى قومه أن يدعوه . قال : فليأت من يبلغه عنى ويبلغنى عنه . فانتدب له رجلان . فأتيا النبيّ الله صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفيّ وهو يسألك : مَنْ أنت؟ وما أنت؟ وبم جئت؟ قال أنا محمد بن عبد الله . وأنا عبد الله

---

(١) عن سعيد بن جبير الأثر رقم ١٠٢٨٢ ورقم ١٠٢٨٣ .

وعن عكرمة الأثر رقم ١٠٢٨٧ و١٠٢٩١ و١٠٢٩٢ .

وعن قتادة الأثر رقم ١٠٢٨٥ و١٠٢٨٦ .

وعن السدّىّ الأثر رقم ١٠٢٩٠ .

وعن الضحاك الأثر رقم ١٠٢٨٩ .

ورسوله . ثم تلا عليهم : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ . . . الآية[1] . فأتيا أكثم فقالا له ذلك . قال : أى قوم ! إنه يأمر بمكارم الأخلاق . وينهى عن ملائمها . فكونوا فى هذا الأمر رؤساً ولا تكونوا فيه أذناباً . فركب بعيره متوجهاً إلى المدينة ، فمات فى الطريق . فنزلت فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ ... الآية . قال السيوطىّ : مرسل . إسناده ضعيف .

وأخرج أبو حاتم فى كتاب (المعمرين) من طريقين عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن هذه الآية ؟ فقال : نزلت فى أكثم بن صيفىّ . قيل : فأين الليثىّ ؟ قال : هذا قبل الليثىّ بزمان. وهى خاصة عامة .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن منده والباوردىّ فى (الصحابة) عن هشام بن عروة ، عن أبيه ؛ أن الزبير بن العوام قال : هاجر خالد بن حرام إلى أرض الحبشة . فنهشته حية فى الطريق فمات . فنزلت فيه : وَمَنْ يَخْرُجْ ... الآية .

قال الزبير : فكنت أتوقعه وأنتظر قدومه وأنا بأرض الحبشة . فما أحزننى شىء حزن وفاته حين بلغتنى . لأنه قلّ أحدٌ هاجر من قريش إلا ومعه بعض أهله ، أو ذوى رحمه . ولم يكن معى أحد من بنى أسد بن عبد العزى ولا أرجو غيره .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا الأثر غريب جداً . فإن هذه القصة مكية . ونزول الآية مدنىّ . فلعله أراد أنها تعم حكمه مع غيره ، وإن لم يكن ذلك سبب النزول . والله أعلم .

الثانى ـ ثمرة الآية ، أن من خرج للهجرة ، ومات فى الطريق فقد وجب أجره على الله. قال الحاكم : لكن اختلف العلماء . فقيل : أجر قصده . وقيل : أجر عمله دون أجر الهجرة. وقيل: بل له أجر المهاجرة ، وهو ظاهر فى سبب نزول الآية .

---

(١) [١٦ / النحل / ٩٠] ونصها : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

قال الحاكم : وقد استدل بعض العلماء أن الغازى يستحق السهم وإن مات فى الطريق .

قال : وهو بعيد . لأن المراد بالآية أجر الثواب .

قال الزمخشرىّ ، حكاية عن المفسرين : إن كل هجرة لغرض دينىّ من طلب علم أو حج أو جهاد ، أو فراراً إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة ، أو زهداً فى الدنيا ، وابتغاء رزق طيب ، فهى هجرة إلى الله ورسوله . وإن أدركه الموت فى طريقه فأجره واقع على الله .

ووقع فى كلام الزمخشرىّ على الآية السابقة هذا الدعاء . وهو : اللهم ! إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى ، فاجعلها سبباً فى خاتمة الخير ، ودرك المرجوّ من فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصِلْ جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك فى دار كرامتك ، ياواسع المغفرة .

وكلامه ، رحمه الله ، بناه على أنه يستحب للإنسان أن يدعو الله بصالح عمله .

وقد ذكر البخارىّ(١) ومسلم حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وانسد عليهم بصخرة . وصوبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعا كل واحد منهم بصالح عمله . وانفرجت عنهم الصخرة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٨ ـ باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضى ، حديث ١١١١ .

وأخرجه مسلم فى: ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث١٠٠(طبعتنا).

وهذا نصه من البخارىّ :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبىّ ﷺ قال : خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر . فدخلوا فى غار فى جبل . فانحطت عليهم صخرة . قال فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه . فقال أحدهم: اللهم! إنى كان لى أبوان شيخان كبيران. فكنت أخرج فأرعى ـ

وقد اقتضت الآية لزوم الهجرة ولو ببذل مال كالحج . وفيما سبق من حديث الذى حمل من مكة وقـد قال : احملونى فإنى لست من المستضعفين ـ إشارة إلى أنها تجب الهجرة إذا تمكن من الركوب ولو مضطجعاً فى المحمل . لأنه حمل على سرير . وقد ذكر المتأخرون (فى الحج) أن الصحيح الذى يلزمه أن يمكنه الثبات على المحمل ، قاعداً لا مضطجعاً ، لأن أحداً لا يعجز عن ذلك . فيحتمل أن يسوى بين المسألتين . وأنه يجب الحج ولو مضطجعاً .

= ثم أجىء فأحلُب . فأجىء بالحِلاب فآتى به أبوىّ فيشربان . ثم أسقى الصبية وأهلى وامرأتى . فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان. قال فكرهت أن أوقظهما. والصبية يتضاغَوْن عند رجلى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر . اللهم ! إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء . قال ففرج عنهم .

وقال الآخر : اللهم ! إن كنت تعلم أنى كنت أحب امرأة من بنات عمى . كأشد مايحب الرجل النساء . فقالت : لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار . فسعيت فيها حتى جمعتها. فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتَم إلا بحقه . فقمت وتركتها .

فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة .

قال ففرَجَ عنهم الثلثين .

وقال الآخر : اللهم ! إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً بفَرَقٍ من ذُرَةٍ . فأعطيته . فأبى ذاك أن يأخذ . فعمدتُ إلى ذلك الفرَق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً وراعيها . ثم جاء فقال : يا عبد الله ! أعطنى حقى . فقلت : انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك .

فقال : أتستهزئ بى ؟

قال فقلت : ما أستهزئ بك . ولكنها لك .

اللهم ! إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا .

فكُشِف عنهم .

وأنهما لايجبان مع الاضطجاع . وفعل ضميرة على سبيل الشذوذ . ويحتمل أن يفرق بينهما وتجعل الهجرة أغلظ . لأن فعل المحظور ، وهو الإقامة ، أغلظ من ترك الواجب . وهذا يحتاج إلى تحقيق . كذا فى تفسير بعض الزيدية .

الثالث ـ روى فى معنى هذه الآية أحاديث وافرة . منها ما فى الصحيحين[١] والسنن والمسانيد : عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الهجرة وفى جميع الأعمال .

ومنه الحديث الثابت فى الصحيحين[٢] فى الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل، بذلك العابد، المائةَ . ثم سأل عالما : هل له من توبة ؟ فقال له : ومن يحول بينك

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب الوحى ، ١ـباب حدثنا الحميدى ، حديث ١ . ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٥٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ حدثنا أبو اليمان ، حديث ١٦٢٩ .

ومسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

ونصه عن البخارىّ :

عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال « كان فى بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا . ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال: لا. فقتله. فجعل يسأل . فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدره نحوها. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه أن : تقرّبى . وأوحى الله إلى هذه أن : تباعدى وقال : قيسوا ما بينهما . فوجد إلى هذه أقربَ بشبر . فغُفِر له .

وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت فى أثناء الطريق . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقال هؤلاء : إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء : إنه لم يَصِلْ بعد . فأمروا إن يقيسوا مابين الأرضين . فإلى أيهما كان أقرب فهو منها . فأمر الله هذه أن تقترب من هذه وهذه أن تبعد . فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر . فقبضته ملائكة الرحمة . وفى رواية : أنه لما جاءه الموت نأى بصدره إلى الأرض التى هاجر إليها .

وروى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن عتيك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من خرج من بيته مهاجراً فى سبيل الله ، فخرّ عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أومات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى : سافرتم « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى : إثم

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه :
عن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من خرج من بيته مجاهداً فى سبيل الله عز وجل (ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث الوسطى والسبابة والإبهام فجمعهن وقال : وأين المجاهدون) فخر عن دابته ومات فقد وقع أجره على الله تعالى . أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله . أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله عز وجل » (والله ! إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ) فمات فقد وقع أجره على الله تعالى ، ومن مات قعصاً فقد استوجب المآب .

« أَنْ تَقْصُرُوا » أى : تنقصوا شيئاً « مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ » أى : يقاتلكم « الَّذِينَ كَفَرُوا » فى الصلاة « إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً » ظاهر العداوة. فلا يراعون حرمة الصلاة لعداوتهم .

تنبيه : فى مسائل تتعلق بالآية :

الأولى ـ ذهب الجمهور إلى أن الآية عنى بها تشريع صلاة السفر . وإن معنى قوله تعالى: « أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » هو قصر الكمية، وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية . قالوا : وحكمها للمسافر فى حال الأمن كحكمها فى حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقاً. روى الترمذىّ[1] والنسائى وابن أبى شيبة عن ابن عباس . أن النبىّ صلى الله عليه وسلم: خرج من المدينة لايخاف إلا الله رب العالمين . فصلى ركعتين . وروى البخارىّ[2] وبقية الجماعة عن حارثة بن وهب قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن ماكان ، بمنى ، ركعتين . وروى البخارىّ[3] والبقية عن أنس قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . قلت : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشراً .

وحينئذ فقوله تعالى : (إِنْ خِفْتُمْ) خرج مخرج الغالب ، حال نزول الآية . إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة فى مبدئها مخوفة . بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عامّ ، أو سرية خاصة ، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله . والمنطوق ، إذا خرج مخرج الغالب

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٣٩ ـ باب ماجاء فى التقصير فى الصلاة.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ٢ ـ باب الصلاة بمنى ، حديث ٥٩٧ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١ ـ باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ؟ حديث ٥٩٥ .

فلا مفهوم له . كقوله : وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا(١). وكقوله تعالى : وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُم ... الآية(٢) .

قالوا : ويدل على أن المراد بالآية صلاة السفر مارواه الإمام أحمد(٣) ومسلم وأهل السنن عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب . قلت له : قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه . فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم . فاقبلوا صدقته .

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي حنظلة الحذاء قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟

---

(١) [٢٤ / النور / ٣٣] ونصها : وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) [٤/ النساء/ ٢٣] ونصها: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ١٧٤ (طبعة المعارف) وأخرجه مسلم في: ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٤ (طبعتنا).

فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا. ـ ونحن ءامنون؟ فقال : سنة رسول الله ﷺ .

وروى ابن مردويه عن أبي الوداك قال : سألت ابن عمر عن ركعتين فى السفر ؟ فقال : هى رخصه نزلت من السماء . فإن شئتم فردوها .

قالوا : فهذا يدل على أن القصر المذكور فى الآية هو القصر فى عدد الركعات . وإن ذلك كان مفهوماً عندهم من معنى الآية . قالوا : ومما يدل على أن لفظ (القصر) كان مخصوصاً فى عرفهم بنقص عدد الركعات . ولهذا المعنى ، لما صلى النبى ﷺ الظهر ركعتين ، قال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟(١)

هذا، وذهب كثير من السلف، منهم مجاهد والضحاك والسدى ، إلى أن هذه الآية نزلت فى صلاة الخوف. وأن المعنى بالقصر هو قصر الكيفية لا الكمية . لأن عندهم كمية صلاة المسافر ركعتان . فهى تمام غير قصر . كما قاله عمر وابن عباس وعائشة رضى الله عنهم . قالوا : ولهذا قال تعالى : (إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) وقال تعالى بعدها (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ...) الآية . فبين المقصود من القصر ههنا . وذكر صفته وكيفيته. ولهذا لما عقد البخارى (كتاب صلاة الخوف) صدره بقوله تعالى: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ... إلى قوله : إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وهكذا قال جويبر عن الضحاك فى قوله: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ، قال : ذاك عند القتال. يصلى الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وقال

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٢ ـ كتاب السهو، ٤ ـ باب من لم يتشهد فى سجدتى السهو، حديث ٣٢٠ ونصه . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين . فقال له ذوا اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ يارسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : أصدق ذو اليدين ؟ فقال الناس: نعم . فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم . ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول . ثم رفع .

أسباط عن السدىّ ، فى هذه الآية : إن الصلاة إذا صليت ركعتين فى السفر فهى تمام التقصير. لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة ، فالتقصير ركعة . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ، يوم كان النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان . والمشركون بضجنان فتوافقوا . فصلى النبىّ ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات . بركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعاً . فهمّ بهم المشركون أن يُغِيروا على أمتعتهم وأثقالهم . روى ذلك ابن أبى حاتم . ورواه ابن جرير (1) عن مجاهد والسدّىّ ، وعن جابر وابن عمر . واختار ذلك أيضاً . فإنه قال ، بعد ما حكاه من الأقوال فى ذلك : وهو الصواب . ثم روى عن أمية أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد فى كتاب الله قصر صلاة الخوف ولا نجد قصر صلاة المسافر . فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به . فقد سمى صلاة الخوف مقصورة . وحمل الآية عليها ، لا على قصر صلاة المسافر . وأقره ابن عمر على ذلك . واحتج على قصر الصلاة فى السفر بفعل الشارع . لا بنص القرآن . وأصرح من هذا ما رواه أيضاً عن سماك الحنفىّ قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر ؟ فقال: ركعتان تمام غير قصر. إنما القصر فى صلاة المخافة . فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال . يصلى الإمام بطائفة ركعة . ثم يجىء هؤلاء إلى مكان هؤلاء . ويجىء هؤلاء إلى مكان هؤلاء . فيصلى بهم ركعة. فيكون للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

هذا ما نقله ابن كثير. وهو موافق لما نقله بعض مفسرى الزيدية عن الهادوية والقاسمية؛ أن الآية واردة فى صلاة الخوف ، وأن المراد بالقصر فى الآية قصر الصفة . بمعنى أن المأموم يقصر ائتمامه فيأتمّ بركعة . ويصلى منفرداً فى ركعة . انتهى .

(1) عن مجاهد ، الأثر رقم ١٠٣٢١ و١٠٣٢٢ و١٠٣٢٣ .
وعن السدّىّ ، الأثر رقم ١٠٣٢٦ .
وعن جابر ، الأثر رقم ١٠٣٢٥ .
وعن ابن عمر ، الأثر رقم ١٠٣٢٧ .

قال العلامة أبو السعود : إن هذه الآية الكريمة مجملة في حق مقدار القصر وكيفيته . وفي حق ما يتعلق به من الصلوات . وفي مقدار مدة الضرب الذي نيط به القصر . فكل ماورد عنه ﷺ من القصر في حال الأمن ، وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف ، وبالضرب في المدة المعينة ـ بيان لإجمال الكتاب .

المسألة الثانية ـ إذا حمل القصر على قصر العدد ، وأن الرباعية تكون ركعتين ، فما حكم هذا القصر؟ قلنا : في هذا مذاهب أربعة : الأول ـ أن القصر رخصة والإتمام أفضل . الثاني ـ أنه حتمٌ ، الثالث ـ أنه سنة غير حتم . الرابع ـ أنه مخير كما يخير في الكفارات . وأنهما ، أعني القصر والإتمام ، واجبان . وهاك بيان متعلق هذه المذاهب . تعلق أهل القول الأول بقوله تعالى : فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ . وهذه الكلمة تستعمل فيما هو مباح جائز ، لا فيما هو فرض . نحو : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا(١) . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ(٢) . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ(٣) . إن قيل : قد يستعمل ذلك في الواجب

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٠] ونصها : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] ونصها : لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ .

(٣) [٢ / البقرة/ ٢٢٩] ونصها : الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

مثل: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا[1]. أجابوا بأن ذلك على سبيل المجاز . ومن جهة السنة، ماروى عن عائشة قالت: اعتمرت مع النبىّ ﷺ من المدينة إلى مكة. حتى إذا قدمت مكة قلت : يا رسول الله ! بأبى وأمى أنت ! قصرت وأتممت . وصمت وأفطرت . فقال : أحسنت ، يا عائشة ! وما عاب علىّ . وكان عثمان يقصر ويتم .

ومن جهة المعنى، أن المعقول والمفهوم من لفظ (القصر) إنما هو الرخصة لأجل مشقة المسافر. كما رخص له فى الإفطار . وفى الحديث: تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته . تعلق أهل المذهب الثانى بأن قالوا : حملنا لفظ الجناح على الفرض ، وإن كان مجازاً ، لما روى عن ابن عباس[2] قال : فرضت الصلاة فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين . وعن عمر[3] : صلاة الجمعة ركعتان وصلاة السفر ركعتان . تمام غير قصر . على لسان نبيكم . وكانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره ركعتين . وأقام بمكة ثمانية عشر يوماً يقصر ويقول : أتموا، ياأهل مكة! فإنا قوم سفر. وعن الشعبىّ : من أتم فى السفر فقد رغب عن ملة إبراهيم . وروى أن عثمان أتم الصلاة بمنى . فأنكر عليه عبد الله بن مسعود . وقال : صليتُ خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين . وخلف أبى بكر ركعتين . منفصلتين . فاعتذر عثمان بضروب من الأعذار . منها أنه قد تأهل . وقيل : أتم لأن مذهبه أن القصر لمن لم يكن له زاد ولا راحلة. وهو مذهب سعد بن أبى وقاص . فيكون قولنا : قصرت

(١) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ ـ باب تقصير الصلاة فى السفر ، حديث ١٠٦٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٧٣ ـ باب تقصير الصلاة فى السفر ، حديث ١٠٦٤ (طبعتنا) .

الصلاة، مجازا ، لأنها تامة إذا نقص من الأربع. ويقولون: هذه الأخبار تعارض مايفهم من معقولية التسهيل . ومتعلق أهل القول الثالث والرابع بالجمع بين الروايات ، وسائر الوجوه التى تعلق بها أهل القولين الأولين . فكان واجباً مخيّراً . ومن قال : إنه سنة ، فلأن المشهورعنه ﷺ القصر فى الأسفار، كذا فى تفسير بعض الزيدية .

أقول : حديث عائشة المذكور . رواه النسائىّ والدارقطنىّ والبيهقىّ . واختلف قول الدارقطنىّ فيه، فقال فى (السنن) : إسناده حسن . وقال فى (العلل) : المرسل أشبه . وقال ابن حزم : هذا حديث لا خير فيه . وطعن فيه . وقال ابن النحوىّ (فى البدر المنير): فى متن هذا الحديث نكارة . وهو كون عائشة خرجت مع النبىّ ﷺ فى عمرة رمضان . والمشهور أن عمره كلهن فى ذى القعدة. وأطال فى ذلك .

وقال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وكا ﷺ يقصر الرباعية . فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافراً إلى أن يرجع إلى المدينة . ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية فى سفره البتة . وأما حديث عائشة أن النبىّ ﷺ كان يقصر فى السفر ويتم ، ويفطر ويصوم ، فلا يصح . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هو كذب على رسول الله ﷺ . انتهى .

وقد روى (كان يقصر وتتم) الأول بالياء آخر الحروف . والثانى بالتاء المثناة من فوق. وكذلك (يفطر وتصوم) أى تأخذ هى بالعزيمة فى الموضعين .

قال شيخنا ابن تيمية : وهذا باطل . ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله ﷺ وجميع أصحابه . فتصلى خلاف صلاتهم . كيف ؟ والصحيح عنها[1] ؛ أن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيدت فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فكيف يظن بها ، مع ذلك ، أن تصلى بخلاف صلاة النبىّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه؟.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ١ ـ كيف فرضت الصلوات فى الإسراء ، حديث ٢٣٦ .

ثم قال ابن القيم : قلت : وقد أتمت عائشة بعد موت النبي ﷺ . قال ابن عباس وغيره : إنها تأولت كما تأول عثمان . وإن النبي ﷺ كان يقصر دائماً . فركب بعض الرواة من الحديثين حديثاً وقال : فكان رسول الله ﷺ يقصر وتتم هي . فغلط بعض الرواة فقال : كان يقصر ويتم . أي : هو . والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه . فقيل : ظنت أن القصر مشروط بالخوف والسفر . فإذا زال سبب الخوف زال سبب القصر . وهذا التأويل غير صحيح . فإن النبي ﷺ سافر آمناً . وكان يقصر الصلاة . والآية قد أشكلت على عمر رضى الله عنه وغيره . فسأل عنها رسول الله ﷺ فأجابه بالشفاء . وأن هذا صدقة من الله وشرع شرعه للأمة . وكان هذا بيان أن حكم المفهوم غير مراد . وأن الجناح مرتفع فى قصر الصلاة عن الآمن والخائف . وغايته أنه نوع تخصيص للمفهوم ، أو رفع له . وقد يقال : إن الآية اقتضت قصراً يتناول الأركان بالتخفيف . وقصر العدد بنقصان ركعتين . وقيد ذلك بأمرين : الضرب فى الأرض والخوف . فإذا وجد الأمران ، أبيح القصر . فيصلون صلاة تامة كاملة . وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده . فإذا وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفى العدد . وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق فى الآية . فإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفى الأركان ، وسميت صلاة أمن . وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق . وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة ، باعتبار نقصان العدد . وقد تسمى تامة ، باعتبار إتمام أركانها ، وأنها لم تدخل فى قصر الآية . والأول اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين . والثانى يدل عليه كلام الصحابة . كعائشة وابن عباس وغيرهما . قالت عائشة : فرضت الصلاة ركعتين . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فهذا يدل على أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع . وإنما هى مفروضة كذلك . وأن فرض المسافر ركعتان . وقال ابن عباس : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم فى الحضر أربعاً . وفى السفر ركعتين . وفى الخوف ركعة . متفق على

حديث عائشة . وانفرد مسلم[١] بحديث ابن عباس .

وقال عمر بن الخطاب[٢] : صلاة السفر ركعتان . والجمعة ركعتان . والعيد ركعتان . تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وقد خاب من افترى. وهذا ثابت عن عمر رضى الله عنه . وهو الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم : ما بالنا نقصر وقد أمنّا ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقة تصدق الله بها عليكم . فاقبلوا صدقته . ولا تناقضَ بين حديثيه . فإن النبىّ صلى الله عليه سلم لما أجابه بأن هذه صدقة الله عليكم ، ودينه اليسر السمح ، علم عمر أنه ليس المراد من الآية قصر العدد ، كما فهمه كثير من الناس ، فقال: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر . وعلى هـذا فلا دلالة فى الآية على أن قصر العدد مباح، منفىّ عنه الجناح . فإن شاء المصلى فعـله وإن شاء أتم . وكان رسول الله ﷺ يواظب فى سفره على ركعتين ركعتين ولم يربع قط إلا شيئاً فعله فى بعض صلاة الخوف . كما سنذكره هناك، ونبيّن ما فيه إن شاء الله تعالى . وقال أنس[٣] : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة. وكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة . متفق عليه .

ولما بلغ[٤] عبد الله بن مسعود أن عثمان بن عفان صلى بمنى أربع ركعات ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين . وصليت مع أبى بكر بمنى

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنه فيها ، ٧٣ ـ باب تقصير الصلاة فى السفر ، حديث ١٠٦٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١ ـ باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ، حديث ٥٩٥ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ٢ ـ باب الصلاة بمنى ، حديث ٥٩٨ .

ركعتين وصليت مع عمر ركعتين . فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان. متفق عليه.
ولم يكن ابن مسعود ليسترجع من فعل عثمان أحد الجائزيْن المخير بينهما . بل الأولى على قول .
وإنما استرجع لما شاهده من مداومة النبيّ ﷺ وخلفائه على ركعتين . وفى صحيح البخارىّ[(١)] عن ابن عمر رضى الله عنه قال: صحبت رسول الله ﷺ . فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين . وأبا بكر وعمر وعثمان (يعنى فى صدر خلافة عثمان). وإلا فعثمان قد أتمّ فى آخر خلافته . وكان ذلك أحد الأسباب التى نكرت عليه . وقد خرج لفعله تأويلات :
أحدها ـ أن الأعراب كانوا قد حجوا تلك السنة . فأراد أن يعلمهم أن فرض الصلاة أربع، لئلا يتوهموا أنها ركعتان فى الحضر والسفر . ورد هذا التأويل بأنهم كانوا أحرى بذلك فى حج النبيّ ﷺ . فكانوا حديثى عهد بالإسلام ، والعهد بالصلاة قريب . ومع هذا فلم يربع بهم النبيّ ﷺ . الثانى ـ أنه كان إماماً للناس . والإمام حيث نزل فهو عمله ومحل ولايته .
فكأنه وطنه . وردّ هذا التأويل بأن إمام الخلائق على الإطلاق رسول الله ﷺ ، كان هو أولى بذلك . وكان هو الإمام المطلق ولم يربّع ، التأويل الثالث ـ أن منى كانت قد بنيت وصارت قرية كثر فيها المساكن فى عهده . ولم يكن ذلك فى عهد رسول الله ﷺ . بل كانت فضاء . ولهذا قيل له: يارسول الله! ألا تبنى لك بمنى بيتا يظلك من الحر ؟ فقال: لا. منى مناخ من سبق . فتأول عثمان أن القصر إنما يكون فى حال السفر . ورد هذا التأويل بأن النبيّ ﷺ أقام بمكة عشراً يقصر الصلاة . التأويل الرابع ـ أنه أقام بها ثلاثا . وقد قال[(٢)] النبيّ صلى الله عليه وسلم: يقيم المهاجر بعد نسكه ثلاثاً . فسماه مقيماً . والمقيم غير مسافر .
ورد هذا التأويل بأن هذه إقامة مقيّدة فى أثناء السفر ، ليست بالإقامة التى هى قسيم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١١ ـ باب من لم يتطوع فى السفر دبر الصلاة وقبلها ، حديث ٦٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٤٢ (طبعتنا) ونصه : عن العلاء بن الحضرمىّ قال : قال رسول الله ﷺ « يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ، ثلاثا » .

السفر . وقد أقام صلى الله عليه وسلم بمكة عشرا يقصر الصـــلاة . وأقام بمنى بعد نسكه ، أيام الجمار الثلاث ، يقصر الصلاة . التأويل الخامس ـ أنه كان قد عزم على الإقامامة والاستيطان بمنى ، واتخاذها دارالخلافة. فلهذا أتم . ثم بدا له أن يرجع إلى المدينة . وهذا التأويل أيضاً مما لا يقوى . فإن عثمان رضى الله عنه من المهاجرين الأولين. وقد منع صلى الله عليه وسلم المهاجر من الإقامة بمكة بعد نسكه . ورخص له ثلاثة أيام فقط . فلم يكن عثمان ليقيم بها وقد منع النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك . وإنما رخص فيها ثلاثاً . وذلك لأنهم تركوها لله . وما ترك لله فإنه لايعاد فيه ولا يسترجع . ولهـذا منع النبيّ ﷺ من شراء المتصدق لصدقته . وقال لعمر[1] : لا تشترها ولا تعد فى صدقتك . فجعله عائداً فى صدقته مع أخذها بالثمن . التأويل السادس ـ أنه كان قد تأهل بمنى . والمسافر إذا أقام فى موضع وتزوج فيه أو كان له به زوجة ، أتم . ويروى فى ذلك حديث مرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. فروى عكرمة عن إبراهيم الأزدىّ عن أبى ذباب عن أبيه قال: صلى عثمان بأهـل منى أربعاً وقال : ياأيها الناس ! لما قدمت تأهلت بها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا تأهل الرجل ببلدة فإنه يصلى بها صلاة مقيم رواه الإمام احمد[2] فى (مسنده) وعبد الله ابن الزبير الحميدىّ فى (مسنده) أيضاً . وقد أعله البيهقىّ بانقطاعه وتضعيف عكرمة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٣٧ ـ باب إذا حمل رجل على فرس فهو كالعمرى والصدقة ، حديث ٧٩٧ ونصه :

عن زيد بن أسلم قال : سمعتُ أبى يقول : قال عمر رضى الله عنه : حملت على فرس فى سبيل الله . فرأيته يباع . فسألت رسول الله ﷺ فقال : « لا تشتر . ولا تَعُدْ فى صدقتك »

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٦٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) حـديث ٤٤٣ (طبعة المعارف) ونصه : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن أبيه : أن عثمان ابن عفان صلى بمنى أربع ركعات . فأنكره الناس عليه . فقال : يا أيها الناس ! إنى تأهلت بمكة منذ قدمت . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من تأهل فى بلد . فليصلّ صلاة المقيم ».

قال أبو البركات ابن تيمية : ويمكن المطالبة بسبب الضعف . فإن البخاري ذكره في تاريخه ولم يطعن فيه . وعادته ذكر الجرح والمجروحين . وقد نص أحمد ، وابن عباس قبله ، أن المسافر إذا تزوج لزمه الإتمام . وهذا قول أبي حنيفة ومالك وأصحابهما . وهذا أحسن ما اعتذر به عن عثمان . وقد اعتذر عن عائشة أنها كانت أم المؤمنين . فحيث نزلت فكان وطنها. وهو أيضاً اعتذار ضعيف . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أبو المؤمنين . وأمومة أزواجه فرع على أبوته . ولم يكن يتم لهذا السبب . وقد روى هشام بن عروة عن أبيه أنها كانت تصلي في السفر أربعاً . فقلت لها : لو صليت ركعتين ؟ فقالت : ياابن أختي ! لا يشق عليّ .

قال الشافعي رحمه الله : لو كان فرض المسافر ركعتين ، لما أتمها عثمان ولا عائشة ولا ابن مسعود . ولم يجز أن يتمها مسافر مع مقيم . وقد قالت عائشة : كل ذلك قد فعله رسول الله ﷺ . أتم وقصر . ثم روى عن إبراهيم عن محمد عن طلحة بن عمر عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة قالت: كل ذلك فعل النبي ﷺ . قصر الصلاة في السفر ، وأتم .

قال البيهقي : وكذلك رواه المغيرة بن زياد عن عطاء . وأصح إسناد فيه ماأخبرنا أبوبكر الحازمي عن الدارقطني عن المحاملي : حدثنا سعيد بن محمد بن أيوب . حدثنا أبو عاصم . حدثنا عمر بن سعيد عن عطاء ، عن عائشة ، أن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة في السفر ويتم . ويفطر ويصوم . قال الدارقطني : وهذا إسناد صحيح. ثم ساق من طريق أبي بكر النيسابوري عن عباس الدوري : أنا أبو نعيم . حدثنا العلاء بن زهير . حدثني عبد الرحمن ابن الأسود عن عائشة ، أنها اعتمرت مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة. حتى إذا قدمت مكة قالت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي ! قصرتَ وأتممتُ وصمتُ وأفطرتَ . قال : أحسنت ، يا عائشة !

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا الحديث كذب على عائشة.ولم تكن عائشة لتصلي بخلاف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الصحابة . وهي تشاهدهم يقصرون

ثم تتم وحدها بلا موجب . كيف وهى القـائلة : فرضت الصلاة ركعتين . فزيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر . فكيف يظن أنها تزيد على ما فرض الله ؟ وتخالف رسول الله ﷺ وأصحابه ؟

قال الزهرىّ لعروة ، (لمـا حدثه عن أبيه عنها بذلك) : فماشأنها ؟ كانت تتم الصلاة. فقال : تأولت كما تأول عثمان . فإذا كان النبىّ ﷺ قد حسن فعلهاوأقرها ، فما للتأويل حينئذ وجه . ولا يصح أن يضاف إتمامها إلى التأويل على هذا التقدير . وقد أخبر ابن عمر أن رسول الله ﷺ لم يكن يزيد فى السفر على ركعتين ولا أبو بكر ولا عمر . أفيظن بعائشة أم المؤمنين مخالفتهم وهى تراهم يقصرون ؟ وأما بعد موته ﷺ فإنها أتمت . كما أتم عثمان . وكلا هماتأول تأويلًا . والحجة فى روايتهم لا فى تأويل الواحد منهم . مع مخالفة غيره له . والله أعلم .

وقد قال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن. ولا نجد صلاة السفر فى القرآن . فقال له ابن عمر : يا أخى ! إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً . فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل . وقد قال أنس[1] : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة . فـكان يصلى ركعتين ركعتين . حتى رجعنا إلى المـدينة . وقال ابن عمر : صحبت رسول الله ﷺ . فـكان لا يزيد فى السفر على ركعتين. وأبا بكر وعمر وعثمان رضى عنهم . وهذه كلها أحاديث صحيحة . انتهى كلام ابن القيّم .

قال الإمام الشوكانىّ فى (نيل الأوطار): وقد استدل، بحديثى عائشة، القائلون بأن القصر رخصة . ويجاب عنهم بأن الحديث الثانى لا حجة لهم فيه . لما تقدم من أن لفظ (تتم وتصوم) بالفوقانية . لأن فعلها ، على فرض عدم معارضته لقوله وفعله صلى الله عليه وسلم، لا حجة فيه. فـكيف إذا كان معارضاً للثابت عنه من طريقها وطريق غيرها من الصحابة ؟ وأما الحديث الأول،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١ ـ باب ما جاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر ، حديث ٥٩٥ .

فلو كان صحيحاً ، لكان حجة. لقوله صلى الله عليه وسلم فى الجواب عنها : أحسنت. ولكنه لا ينتهض لمعارضة ما فى الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة . وهذا بعد تسليم أنه حسن ، كما قال الدارقطنىّ . فكيف ؟ وقد طعن فيه بتلك المطاعن المتقدمة . فإنها بمجردها توجب سقوط الاستدلال به عند عدم المعارض . انتهى .

المسألة الثالثة ـ استدل بعموم الآية من جوّز القصر فى كل سفر طويلًا أو قصيراً. ووجهه أن قوله تعالى (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) يصدق على كل ضرب . ولكنه خرج الضرب أى: المشى لغير السفر ، لما كان يقع منه ﷺ من الخروج إلى بقيع الغرقد ونحوه ، ولا يقصر. ولم يأت فى تعيين قدر السفر الذى يقصر فيه المسافر شىء . فوجب الرجوع إلى ما يسمى سفراً لغة وشرعاً . ومن خرج من بلده قاصداً إلى محل ، يعد فى مسيره إليه مسافراً، قصر الصلاة . وإن كان ذلك المحل دون البريد . ولم يأت من اعتبر البريد واليوم واليومين والثلاث وما زاد على ذلك ، بحجة نيرة . وغاية ما جاءوا به حديث[1]: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر ثلاثة أيام بغير ذى محرم. وفى رواية : يوماً وليلة. وفى رواية : بريداً . وليس فى هذا الحديث ذكر القصر ولا هو فى سياقه . والاحتجاج به مجرد تخمين . وأحسن ما ورد فى التقدير ما رواه شعبة عن يحي بن زيد الهنائىّ قال : سألت أنساً عن قصر الصلاة ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ ، صلى ركعتين . والشك من شعبة . أخرجه مسلم وغيره . فإن قلت : محل الدليل فى نهى المرأة عن السفر تلك المسافة بدون محرم، هو كونه صلى الله عليه وسلم سمى ذلك سفرا . قلت : تسميته سفرا لا تنافى

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤٢٣ (طبعتنا) ونصه :
عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعدا ، إلا ومعها أبوها أو ابنها أو زوجها أو أخوها أو ذو محرم منها » .

تسمية ما دونه سفراً . فقد سمى النبيّ صلى الله عليه وسلم مسافة الثلاث سفرا . كما سمى مسافة البريد سفرا ، فى ذلك الحديث باعتبار اختلاف الرواية . وتسمية البريد سفرا لا ينافى تسمية مادونه سفراً . فإن قلت: أخرج الدارقطنىّ والبيهقىّ والطبرانىّ من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : يا أهل مكة ! لا تقصروا فى أقل من أربعة برد . من مكة إلى عسفان ـ قلت: هو ضعيف لاتقوم به الحجة. فإن فى إسناده عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر . وهو متروك. وفى المسألة مذاهب هذا أرجحها . والحاصل أن الواجب هو الرجوع إلى ما يصدق عليه اسم السفر شرعاً أو لغة . كذا فى (الروضة الندية). (وفى المصباح) : سفر الرجل سفرا مثل طلب ، خرج للارتحال . وفى (القاموس) : قوم سفر وسافرة وأسفار وسفار : ذوو سفر ، لضدّ الحضر .

هذا وللقصر مباحث مقررة فى شروح السنة .

ولما كان النص السابق الوارد فى مشروعية القصر مجملًا بَيَّن كيفيته بصورة فى مزيد الحاجة إليها ، ويكتفى فيما عداها ببيان السنة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ » أى: مع أصحابك شهيداً وأنتم تخافون العدوّ « فَأَقَمْتَ لَهُمُ

الصَّلَاةَ » أى: أردت أن تقيم بهم الصلاة بالجماعة التى ، لوفور أجرها، بتحمل مشاقها « فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ » فى الصلاة ، أى بعد أن جعلتهم طائفتين . ولتقف الطائفه الأخرى بإزاء العدوّ ليحرسوكم منهم. وإنما لم يصرح به لظهوره « وَلْيَأْخُذُوا » أى الطائفة التى قامت معك « أَسْلِحَتَهُمْ » معهم لأنه أقرب للاحتياط « فَإِذَا سَجَدُوا » أى : القائمون معك ، سجدتى الركعة الأولى وأتموا الركعة ، فارقوك وأتموا صلاتهم . وتقوم إلى الثانية منتظراً . فإذا فرغوا « فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ » أى: فلينصرفوا إلى مقابلة العدوّ للحراسة « وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا » وهى الطائفة الواقفة تجاه العدوّ « فَلْيُصَلُّوا » ركعتهم الأولى « مَعَكَ » وأنت فى الثانية . فإذا جلست منتظراً ، قاموا إلى ثانيتهم وأتموها ثم جلسوا ليسلموا معك . ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الرابعة الباقية لكل من الطائفتين اكتفاء ببيانه صلى الله عليه وسلم لهم . كما يأتى « وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ » أى: تيقظهم . لأن العدوّ يتوهمون فى الأولى كون المسلمين قائمين فى الحرب. فإذا قاموا إلى الثانية ظهر لهم أنهم فى الصلاة. فههنا ينتهزون الفرصة فى الهجوم عليهم . فلذا خص هذا الموضع بزيادة تحذير فقال: وليأخذوا حذرهم وجعله كالآلة ، فأمر بأخذه وعطف عليه « وَأَسْلِحَتَهُمْ » قال الواحدىّ : فيه رخصة للخائف فى الصلاة بأن يجعل بعض فكره فى غير الصلاة . قال أبو السعود : وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر ، لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لإلقاء السلاح والإعراض عن غيرها، ومئنّة لهجوم العدوّ . كما ينطق به قوله تعالى « وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى تمنوا « لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ » فتضعونها « وَأَمْتِعَتِكُمْ » أى: حوائجكم التى بها بلاغكم « فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً » أى يحملون حملة واحدة فيقتلونكم . فهذا علة الأمر بأخذ السلاح . والأمر بذلك للوجوب . لقوله تعالى « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » أى لا حرج ولا إثم عليكم « إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ » يثقل معه حمل السلاح « أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ » يثقل

عليكم حمله « أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ » أخرج البخاري[1] عن ابن عباس قال : نزلت : إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ ، في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً . ثم أمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط . فقيل « وَخُذُوا حِذْرَكُمْ » لئلا يهجم عليكم العدوّ غيلة « إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » أي : يهانون به . ويقال : شديداً . قال أبو السعود : هذا تعليل للأمر بأخذ الحذر . أي : أعدّ لهم عذاباً مهيناً . بأن يخذلهم وينصركم عليهم. فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب. كي يحل بهم عذابه بأيديكم. وقيل : لما كان الأمر بالحذر من العدوّ موهماً لتوقع غلبته واعتزازه ، نفى ذلك الإيهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوّهم لتقوى قلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٠٣] (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا)

« فَإِذَا قَضَيْتُمُ» أي: أتممتم « الصَّلَاةَ » أي: صلاة الخوف ، على ما فصّل « فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ » أي : فداوموا على ذكره تعالى في جميع الأحوال . فإن ما أنتم عليه من الخوف والحذر مع العدوّ جدير بالمواظبة على ذكر الله والتضرع إليه . قاله الرازيّ . وقال ابن كثير: أمر تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضا بعد غيرها. ولكن هنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها كما قال تعالى (في الأشهر

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء، ٢٢ ـ باب قوله: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، حديث ١٩٩٤ .

الحرم) : فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ[(١)] . وإن كان هـذا منهيًّا عنه فى غيرها ، ولـكن فيها آكد لشدة حرمتها وعظمها. « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ » أى : سكنت قلوبكم بالأمن « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى: على الحالة التى كنتم تعرفونها . فلا تغيروا شيئاً من هيآتها « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » أى: فرضاً موقتاً ، لايجوز إخراجها عن أوقاتها وإن لزمها نقائص فى رعايتها .

فصل

فى أحكام تتعلق بهذه الآية . الأول ـ فى هذه الآية مشروعية صلاة الخوف وصفتها . وأنه لا يجب قضاؤها . وأنه يطلب فيها حمل السلاح إلا لعذر . الثانى ـ تعلّق بظاهر قوله تعالى (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ) مَنْ لم ير صلاة الخوف بعده صلى الله عليه وسلم . زاعماً أنها خاصة بعهده صلى الله عليــه وسلم . لاشتراطه كونه فيهم . ولا يخفى أن الأئمة بعده نوّابه قوّام بما كان يقوم به. فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له صلى الله عليه وسلم . كما فى قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً[(٢)] . وقد قال صلى الله عليه وسلم[(٣)] : صلوا كما رأيتمونى أصلى .

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

(٢) [٩/ التوبة/ ١٠٣] ونصها : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان، ١٨ ـ باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة ، حديث ٦٠٢ ونصه: عن مالك بن الحويرث: أتينا النبىّ صلى الله عليه وسلم =

وعموم منطوق هذا الحديث مقدم على ذلك المفهوم . وقد روى أبو داود[١] والنسائىّ والحاكم وابن أبى شيبة وغيرهم ، عن سعيد بن العاص أنه قال (فى غزوة ومعه حذيفة) : أيكم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا . فأمرهم حذيفة فلبسوا السلاح ثم قال : إن هاجكم هيج فقد حل لكم القتال . فصلى بإحدى الطائفين ركعة . والأخرى مواجهة العدو ثم انصرف هؤلاء . فقاموا مقام أولئك . وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أخرى . ثم سلم عليهم . وكانت الغزوة بطبرستان . قال بعضهم : وكان ذلك بحضرة الصحابة رضى الله عنهم . فلم ينكره أحد . فحل محلّ الإجماع . وروى أبو داود[٢] أن عبد الرحمن بن سمرة صلى، بكابل، صلاة الخوف . الثالث ـ روى الإمام احمد[٣] وابن أبى شيبة وسعيد بن منصور وأبو داود والنسائىّ وغيرهم (فى نزول الآية عن أبى عباس رضى الله عنه)

= ونحن شَبَبَة متقاربون. فأقمنا عنده عشرين يوما وليلة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما رفيقا . فلما ظن أنّا قد اشتهينا أهلنا، أو قد اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا. فأخبرناه . قال «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم» وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها « وصلوا كما رأيتمونى أصلى . فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكبركم » .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، ١٨ ـ باب من قال يصلى بكل طائفة ركعة ولا يقضون ، حديث ١٢٤٦ .

والنسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ١ ـ أخبرنا إسحق بن إبراهيم .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، ١٧ ـ باب من قال يصلى بكل طائفة ركعة ، ثم يسلم ... الخ . حديث ١٢٤٥ .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وأبو داود فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، ١٢ ـ باب صلاة الخوف ، حديث ١٢٣٦ .

والنسائىّ فى: ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف، ٢١ ـ باب أخبرنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار .

قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان . فاستقبلَنا المشركون ، عليهم خالد ابن الوليد . وهم بيننا وبين القبلة. فصلى بنا النبيّ صلى الله عليه وسلم الظهر . فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا : تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ... فحضرت الصلاة . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا السلاح . فصفنا خلفه صفين. ثم ركع فركعنا جميعاً . ثم رفع فرفعنا جميعاً . ثم سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصف الذى يليه والآخرون قيام يحرسونهم . فلما سجدوا وقاموا ، جلس الآخرون . فسجدوا فى مكانهم. ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء. ثم ركع فركعوا جميعاً . ثم رفع فرفعوا جميعاً. ثم سجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصف الذى يليه والآخرون قيام يحرسونهم . فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا . ثم سلم عليهم . وروى عبد الرزاق عن الثورىّ عن هشام ، مثل هذا ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. إلا أنه قال : نكص الصف المقدم القهقرى حين يرفعون رؤسهم من السجود . ويتقدم الصف المؤخر فيسجدون فى مصاف الأولين. وروى عبد الرازق وابن المنذر وابن جرير[1] عن ابن أبى نجيح قال : قال مجاهد (فى قوله تعالى : إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : نزلت يوم كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعسفان والمشركون بضجنان فتواقفوا. فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر أربعاً. ركوعهم وسجودهم وقيامهم معاً جميعهم ، فهمّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم ويقاتلوهم، فأنزل الله عليهم: فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ . فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم العصر وصف أصحابه صفين وكبر بهم جميعاً . فسجد الأولون بسجوده والآخرون قيام لم يسجدوا. حتى قام النبيّ صلى الله عليه وسلم والصف الأول. ثم كبر بهم وركعوا جميعاً. فقدموا الصف الآخر واستأخروا. فتعاقبوا السجود كما فعلوه أول مرة. وقصر النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) الأثر رقم ١٠٣٢١ .

صلاةالعصر ركعتين . وفى هذه الأحاديث أن صلاة الطائفتين مع الإمام جميعاً. واشترا كهم فى الحراسة. ومتابعته فى جميع أركان الصلاة إلا السجود. فتسجد معه طائفة وتنتظر الأخرى حتى تفرغ الطائفة الأولى. ثم تسجد. وإذا فرغوا من الركعة الأولى تقدمت الطائفة المتأخرة مكان الطائفةالمتقدمة. وتأخرت المتقدمة. (فإن قلت): لا ينطبق مافى الآية على هذه الروايات التى حكت سبب نزولها . وذلك لأنه قيـل فى الآية : فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا ... الآية . وفى هذه الروايات أنهم قاموا جميعاً معه ﷺ فى الصلاة. وإنما ينطبق مافيها على مارواه[1] الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : صلى رسول الله ﷺ صلاةالخوف بإحدى الطائفين ركعة، والطائفة الأخرى مواجهة للعدوّ. ثم انصرفوا وقاموا فى مقام أصحابهم مقبلين على العدوّ. وجاء أولئك. ثم صلى بهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ركعة ثم سـلم. ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . وما روياه عن صالح بن خوّات عمن صلى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع؛ أن الطائفة صفت معه وطائفة وجاه العدوّ. فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً. فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدوّ . وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته. فأتموا لأنفسهم فسلم بهم ـ (قلت): بمراجعة ما أسلفناه فى المقدمة من قاعدة سبب النزول يندفع الإشكال . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسـلم بين ضجنان وعسفان. فقال المشركون : لِهَؤُلَاءِ صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم . وهى العصر . فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميـلة واحدة . وأن جبريل عليه السلام أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فأمره أن يقسم أصحابه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣١ ـ باب غزوة ذات الرقاع ، حديث ١٨٨٩ .

ومسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣٠٥و٣٠٦ (طبعتنا) .

شطرين . فيصلى بهم وتقوم طائفة أخرى وراءهم . وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . فتكون لهم ركعة وللنبيّ صلى الله عليه وسلم ركعتان. أخرجه أصحاب السنن [١] .

ثم رأيت القرطبيّ بحث فى (تفسيره) نحوماسبق لى حيث قال : وما ذكرناه من سبب النزول فى قصة خالد بن الوليد . لايلائم تفريق القوم إلى طائفتين . ثم قال (بعد رواية حديث أبى هريرة المذكور) قلت: ولاتعارض بين هذه الروايات . فلعله صلى الله عليه وسلم صلى بهم صلاة أخرى مفترقين. انتهى . الرابع ـ ظاهر الآية الكريمة الترخيص لكل طائفة بركعة واحدة. لأنه لم يبين فيها حال الركعة الباقية. وقد روى النسائىّ [٢] عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بذى قَرَد فصف الناس خلفه صفين : صفا خلفه وصفاً موازى العدوّ. فصلى بالذين خلفه ركعة. ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء . وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم يقضوا ركعة. وكذا روى أبوداود والنسائىّ [٣] أيضاً عن حذيفة أنه صلى بطبرستان بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا. وروى أحمد ومسلم [٤] وأبوداود والنسائىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فرض الله الصلاة على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فى الحضر ، أربعاً . وفى السفر ركعتين . وفى الخوف ركعة. فهذه الأحاديث تدل على أن من صفة صلاة الخوف، الاقتصار على ركعة لكل طائفة .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): وبالاقتصار على ركعة واحدة فى الخوف ، يقول الثورىّ وإسحق ومن تبعهما . وقال به أبو هريرة وأبو موسى الأشعرىّ وغير واحد من التابعين .

(١) أخرجه النسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ١٦ ـ باب أخبرنا العباس بن عبد العظيم .

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ٥ ـ باب أخبرنا محمد بن بشار.

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ١٨ ـ كتاب صلاة الخوف ، ٢ ـ باب أخبرنا عمرو بن علىّ.

(٤) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٥ (طبعتنا) .

ومنهم من قيّد بشدة الخوف . وقال الجمهور : قصر الخوف قصر هيئة لا قصر عدد . وتأولوا هــذه الأحاديث بأن المراد بها ركعة مع الإمام وليس فيها نفى الثانية . ويرد ذلك قوله فى حديث ابن عباس وحذيفة: (ولم يقضوا ركعة) وكذا قوله فى حديث ابن عباس الثانى: (وفى الخوف ركعة) وأما تأويلهم قوله (لم يقضوا) بأن المراد منه لم يعيدوا الصلاة بعد الأمن ـ فبعيد جداً . كذا فى (نيل الأوطار) نعم. وقع فى حديث ابن عمر المتفق عليه وقد قدمناه: ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . وعند أبى داود من حديث ابن مسعود : ثم سلم ، وقام هؤلاء فصلوا لأنفسهم ركعة . ثم سلموا ثم ذهبوا . ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا . وبالتحقيق، كل ماروى هو من صورها الجائزة. ولماذكر الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) هديه صلى الله عليه وسلم فى أدائها، قال فى آخر صورة : وتارة كان يصلى بإحدى الطائفتين ركعة فتذهب ولا تقضى شيئاً . وتجيء الأخرى فيصلى بهم ركعة ولا تقضى شيئاً. فيكون له صلى الله عليه وسلم ركعتان . ولهم ركعة ركعة . وهــذه الأوجه كلها يجوز الصلاة بها .

قال الإمام أحمد : كل حديث يروى فى باب صلاة الخوف فالعمل به جائز . انتهى .

وقال ابن كثير : صلاة الخوف أنواع كثيرة. فإن العدوّ تارة يكون تجاه القبلة . وتارة يكون فى غير صوبها . ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة . بل يصلون فرادى مستقبلى القبلى وغير مستقبليها . ورجالاً وركباناً. ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع فى متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هــذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل .

قال المنذرىّ : وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحـكم وقتادة وحماد . وإليه ذهب طاوس والضحاك. وقد حكى أبو عاصم العبادىّ عن محمد بن نصر المروزىّ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة فى الخوف . وإليه ذهب ابن حزم أيضا . وقال إسحق بن راهويه: أما عند المسايفة

فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء . فإن لم تقدر فسجدة واحدة . لأنها ذكر الله . وقال آخرون : يكفى تكبيرة واحدة. فلعله أراد ركعة واحدة . كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه. وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة والسدّى . ورواه ابن جرير . ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره فى الاجتزاء بتكبيرة واحدة . كما هو مذهب إسحق بن راهويه . وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكى حتى قال : فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها فى نفسه . يعنى بالنية . رواه سعيد بن منصور فى (سننه) عن إسماعيل بن عياش عن شعيب بن دينار عنه . فالله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة . كما أخر النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب الظهر والعصر، فصلاها بعد الغروب . ثم صلى بعدها المغرب ثم العشاء . وكما قال بعدها ، يوم بنى قريظة حين جهز إليهم الجيش : لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة . فأدركتهم الصلاة فى أثناء الطريق . فقال منهم قائلون : لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تعجيل المسير. ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها . فصلّوا الصلاة لوقتها فى الطريق . وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها فى بنى قريظة بعد الغروب . ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من الفريقين . فاحتج فى عذرهم فى تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة ، اليهود . وأما الجمهور فقالوا : هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد . فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . وهذا أبين فى حديث أبى سعيد الخدرىّ الذى رواه الشافعىّ رحمه الله وأهل السنن . ولكن يشكل عليه ما حكاه البخارىّ[(١)] فى (صحيحه) حيث قال (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدوّ)وقال الأوزاعىّ: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء. كل امرئ لنفسه.فإن لم يقدروا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٢ ـ كتاب صلاة الخوف، ٤ ـ باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدوّ .

على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين. فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين. فإن لم يقدروا فلا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول. وقال أنس بن مالك: حضرت عند مناهضة حصن تُستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة. فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار. فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففُتِحَ لنا. وقال أنس: وما يسرني، بتلك الصلاة، الدنيا وما فيها. انتهى. ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ثم بحديث[1] أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة. وكأنه كالمختار لذلك. والله أعلم. ولمن جنح له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً. وكان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب. ولم ينقل أنه أنكر عليهم ولا أحد من الصحابة. والله أعلم. قال هؤلاء: وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي. وممن نص على ذلك محمد بن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمد بن سعد، كاتبه وخليفة بن الخياط وغيرهم. وقال البخاري[2] وغيره: كانت ذات الرقاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى. وما قدم إلا في خيبر. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في : ١٢ ـ كتاب صلاة الخوف ، ٥ ـ باب صلاة الطالب والمطلوب ، حديث ٥٤٩ ونصه :

عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ لنا ، لما رجع من الأحزاب ، « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضَهم العصرُ في الطريق . فقال بعضُهم : لا نصلي حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلي . لم يُرَدْ منا ذلك .

فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحداً منهم .

(٢) البخاري في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٣١ ـ باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة مُحَارِب خَصَفَة من بني ثعلبة من غَطَفَان . فنزل نخلا . وهي بعد خيبر . لأن أبا موسى جاء بعد خيبر .

الحكم الخامس ـ استدل بقوله تعالى (طَائِفَةٌ) على أنه لا يشترط استواء الفريقين في العدد . لكن لابد أن تكون التي تحرس تحصل الثقة بها في ذلك .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): والطائفة تطلق على القليل والكثير حتى على الواحد. فلو كانوا ثلاثة ووقع لهم الخوف . جاز لأحدهم أن يصلي بواحد . ويحرس واحد . ثم يصلي الآخر . وهو أقل ما يتصور في صلاة الخوف جماعة .

السادس ـ استدل بالآية على عظم أمر الجماعة بل على ترجيح القول بوجوبها . لارتكاب أمور كثيرة لا تغتفر في غيرها . ولو صلى كل امرىء منفرداً لم يقع الاحتياج إلى معظم ذلك . أفاده الحافظ ابن حجر في (الفتح) .

قال ابن كثير : وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة . حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة . فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .

السابع ـ قال بعض المفسرين: اختلف في المأمور بأخذ السلاح في قوله تعالى (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) فقيل : هم الطائفة الذين يواجهون العدوّ. وهذا ظاهر . وقيل : بل هم الطائفة المصلون . وأراد ما لا يشغل عن الصلاة من الدرع والخنجر والسيف ونحو ذلك . وقيل : للطائفتين . وهو قول القاسم . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : والظاهر أن المخاطب بأخذ الأسلحة المصلون . إذ من لم يصل إنما أعد للحرس . فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك وتنبيههم عليه . وهم إنما أخروا الصلاة لذلك . أما المصلون فهم في مظنة طرح الأسلحة لأنهم لم يعتادوا حملها في الصلاة . فنبهوا على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة وإن كانوا في الصلاة . لضرورة الخوف وخشية الغرة . وأيضا فصنيع الآية يعطي ذلك . لأنه قال (فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ) وعقب ذلك بقوله (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) فالظاهر رجوع الضمير إليهم . وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف في صحة العود إليهم ، بدلالة قوة الكلام عليهم، وإن لم يذكروا . وناقش

الناصرُ أيضاً ، الزمخشريّ في جعله المراد بقوله تعالى (فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا) غير المصلين. فقال : الظاهر أن معنى السجود ههنا الصلاة ، وقد عبر عنها بالسجود كثيراً . والمراد : فإذا صلت الطائفة ، (أى أتمت صلاتها) فليكونوا من ورائكم . انتهى .

الثامن ـ قال أبو على الجرجانيّ صاحب النظم : قوله تعالى (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) يدل على أنه كان يجوز للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتى بصلاة الخوف على جهة يكون بها حاذراً ، غير غافل عن كيد العدوّ . والذى نزل به القرآن في هذا الموضع هو وجه الحذر . لأن العدوّ يومئذ بذات الرقاع كان مستقبل القبلة . فالمسلمون كانوا مستدبرين القبلة . ومتى استقبلوا القبلة صاروا مستدبرين لعدوّهم . فلا جرم ، أمروا بأن يصيروا طائفتين : طائفة فى وجه العدوّ ، وطائفة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم مستقبل القبلة . وأما حين كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعسفان وببطن نخل ، فإنه لم يفرق أصحابه طائفتين . وذلك لأن العدوّ كان مستدبر القبلة . والمسلمون كانوا مستقبلين لها . فكانوا يرون العدوّ حال كونهم فى الصلاة . فلم يحتاجوا إلى الاحتراس إلا عند السجود . فلا جرم ، لما سجد الصف الأول بقى الصف الثانى يحرسونهم . فلما فرغوا من السجود وقاموا ، تأخروا وتقدم الصف الثانى وسجدوا . وكان الصف الأول حال قيامهم يحرسون الصف الثانى . فثبت بما ذكرنا أن قوله تعالى : (خُذُوا حِذْرَكُمْ). يدل على جواز كل هذه الوجوه . والذى يدل على أن المراد من هذه الآية ما ذكرناه ، أنا لو لم نحملها على هذا الوجه لصار تكراراً محضاً من غير فائدة . ولوقع فعل الرسول بعسفان وببطن نخل على خلاف نص القرآن . وإنه غير جائز . نقله الرازىّ .

وقال الخطابىّ : صلاة الخوف أنواع صلاها النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أيام مختلفة وأشكال متباينة . يتحرى فى ذلك كله ما هو الأحوط للصلاة والأبلغ فى الحراسة . فهى مع اختلاف صورها متفقة المعنى . انتهى . وأنواعها مبينة فى شروح السنة . ثم حثهم تعالى على الجهاد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ » أى: لا تضعفوا فى طلب عدوّكم بالقتال بل جدّوا فيهم واقعدوا لهم كل مرصد . ثم ألزمهم الحجة بقوله سبحانه « إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ » أى: ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم . كما قال تعالى : إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ(١) . ثم زاد فى تقرير الحجة ، وبيّن أن المؤمنين أولى بالمصابرة على القتال من المشركين بقوله تعالى : « وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ » يعنى وتأملون من القرب من الله واستحقاق الدرجات من جناته وإظهار دينه ، كما وعدكم إياه فى كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام ، مالا يأملونه، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأجدر بإقامة كلمة الله « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » أى: فلا يكلفكم إلا بما يعلم أنه سبب لصلاحكم فى دينكم ودنياكم . فجدوا فى الامتثال بذلك فإن فيه عواقب حميدة .

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية وجوب الجهاد وأنه لا يسقط لما يحصل من المضرة بالجراح ونحوه . وأن التجلد وطلب ما يقوّى لازم ، وما يحصل به الوهن لا يجوز فعله . وتدل على جواز المعارضة والحجاج لقوله (فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ) وتدل على أن للمجاهد أن يجاهد لطلب الثواب لقوله (وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) فجعل هذا سبباً باعثاً على الجهاد .هذا معنى كلام الحاكم . ونظير هذا : لو صلى لطلب الثواب أو السلامة من العقاب . وقد ذكر فى ذلك خلاف . فعن الراضى بالله : يجزى ذلك . وقواه الفقيه يحيى بن أحمد . وعن أبى مضر: لا يجزى . لأنه لم ينو الوجه الذى شرع الواجب له. انتهى .

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)

[١٠٦] (وَاسْتَغْفِرِ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

[١٠٧] (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)

[١٠٨] (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا)

[١٠٩] (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً » .

« وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ، كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » .

« وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً » .

« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَالَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً » .

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » .

روى الحافظ ابن مردويه فى سبب نزولها من طريق العوفىّ عن ابن عباس[1]: أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته . فسرقت درع لأحدهم . فَأَظَنَّ (أى:اتهم) بها رجلا من الأنصار . فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعى . فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها فى بيت رجل برئ . وقال لنفر من عشيرته : إنى غيبت الدرع وألقيتها فى بيت فلان وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ليلًا فقالوا : يا نبىّ الله! إن صاحبنا برئ وإن صاحب الدرع فلان . وقد أحطنا بذلك علماً . فاعذرْ صاحبنا على رؤس الناس وجادل عنه . فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرّأه وعذره على رؤس الناس . فأنزل الله : إِنَّا أَنْزَلْنَا . . . الآية . ثم قال تعالى ـ للذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب ـ : يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائنين . ثم قال عز وجل : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ... الآية . يعنى الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب. ثم قال : وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً . يعنى السارق والذين جادلوا عن السارق .

قال ابن كثير : وهذا سياق غريب . وقد ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسّدىّ وابن زيد وغيرهم (فى هذه الآية) أنها نزلت فى سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم ، وهى متقاربة .

وقد روى هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق مطولة . ورواها عنه ، من طريقه ، أبو عيسى الترمذىّ فى (جامعه) فى كتاب التفسير ، عن قتادة بن النعمان رضى الله عنه ، قال :

(١) تفسير الطبرىّ ، الأثر رقم ١٠٤١٣ .

كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق : بِشْر وبَشير (قال أبو ذرّ الخشنىّ : بشير بن أبيرق . كذا وقع هنا : بشير بفتح الباء . وقال الدارقطنىّ : إنما هو بُشَيْر بضم الباء) ومبشّر . وكان بشير رجلًا منافقاً . وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينحله إلى بعض العرب . ثم يقول : قال فـلان كذا أو قال فـلان كذا . فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا : والله ! مايقول هذا الشعر إلا الخبيث . فقال :

أو كلمـــا قال الرجال قصيدة أضِمُوا[١] وقالوا : ابن الأبيرق قالها!

قال : وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة فى الجاهلية والإسلام . وكان الناس إنمـا طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك[٢] ، ابتاع الرجل منها فخص به نفسه . فأما العيال ، فإنما طعامهم التمر والشعير . فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك فجعله فى مشربة له[٣] . وفى المشربة سلاح له : درعان وسيفاهما وما يصلحهما . فعُدِىَ عليه من تحت الليل ، فنقبت المشربة وأخـذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : ياابن أخى ! تعلَّمْ أنه قد عُدِى علينا فى ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذُهب بسلاحنا وطعامنا .

---

(١) (أضموا) أى غضبوا عليه وحقدوا .

(٢) الضافطة : كانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما . ثم قالوا، للذى يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، والمكارى الذى يكرى الأحمال: الضافطة والضفاط. والدرمك : الدقيق النقىّ الحوارىّ .

(٣) المشربة (بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها) وهى الغرفة ، أو العلّيّة ، أو الصفّة بين يدى الغرفة . والمشارب : العلالى .

قال : فتحسستُ في الدار[(١)] وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى ، فيما نراه ، إلا على بعض طعامكم .

قال : وقد كان بنو أبيرق قالوا : ونحن نسأل في الدار : والله ! ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل . رجلًا منا له صلاح وإسلام . فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه[(٢)] ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ! ليخالطنكم هذا السيف أو لتبيّنُنّ السرقة . قالوا: إليك عنا أيها الرجل. فوالله ! ماأنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها . فقال عمي : ياابن أخي! لو أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكرت ذلك له .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرتُ ذلك له، فقلت : يارسول الله ! إن أهل بيت منا أهل جفاء . عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه. فليردوا علينا سلاحنا . وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنظرُ في ذلك . فلما سمع بذلك بنو أبيرق، أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة . فكلموه في ذلك . واجتمع إليه ناس من أهل الدار . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا ، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة في غير بيّنة ولا ثَبَت[(٣)]. قال قتادة : فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته . فقال عمدتَ إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت ؟ قال فرجعت . ولوددتُ أني خرجت من بعض مالي

(١) الدار ، هنا ، المحلة التي تنزلها القبيلة أو البطن منها . ويعني بها القبيلة أو البطن . كما جاء في الحديث « ألا أنبئكم بخير دور الأنصار؟ دور بني النجار، ثم دور بني عبدالأشهل ، وفي كل دور الأنصار خير » . يعني القبيلة المجتمعة في محلة مسكنها .

(٢) اخترط سيفه : سله من غمده .

(٣) الثبت (بفتحتين) : الحجة والبينة والبرهان .

ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . فأتيت عمى رفاعة ، فقال : يابن أخى ! ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الله المستعان .

فلم نلبث أن نزل القرآن « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا » يعنى : بنى أبيرق . « وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ » أى: مما قلتَ لقتادة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ » أى: بنى أبيرق « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ » إلى قوله « ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا » أى : إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم « وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا » قولهم للبيد « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ » يعنى : أسيرا وأصحابه « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ * وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » إلى قوله « فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

فلما نزل القرآن : أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة .

قال قتادة : فلما أتيتُ عمى بالسلاح ، وكان شيخاً قد عسا(١) فى الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولا(٢) ، فلما أتيته بالسلاح ، قال : يا ابن أخى ! هو فى سبيل الله . قال فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

---

(١) عسا فى الجاهلية : أى : كبر وأسنّ . من قولهم : عسا العود ، أى : يبس واشتد وصلب .

(٢) مدخولا : من (الدخَل) وهو العيب والفساد والغش . يعنى أن إيمانه كان فيه نفاق. ورجل مدخول ، أى فى عقله دخل وفساد .

فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين . فنزل على سلافة ابنة سعد بن شُهَيْد . فأنزل الله فيه « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » .

فلما نزل على سلافة ، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر[١] . فأخذت رحله فوضعته على رأسها ، ثم خرجت فرمت به فى الأبطح[٢] ، ثم قالت : أهديتَ إلىّ شعر حسان ! ما كنت تأتينى بخير[٣] .

وقال الترمذىّ : هذا حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرانىّ . وروى يونس بن بكير وغير واحد هذا الحديث عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا . لم يذكروا فيه : عن أبيه عن جده[٤] .

ورواه ابن أبى حاتم عن هاشم بن القاسم الحرانىّ عن محمد بن سلمة به ، ببعضه . ورواه

(١) وهذه هى أبيات حسان . ذكرت فى الديوان طبعة ليدن فى ص ٣٠ ، وطبعة مصر بشرح البرقوقىّ فى ص ٢٧١ ، وفى الروض الأنف للسهيلىّ فى : ج ٢ ص ٢٩ . وها كوها برواية الروض :

وما سارق الدرعين، إذ كنتَ ذاكراً ،   بذى كرم من الرجال أوادعه
وقد أنزلتـه بنت سعد فأصبحت   ينازعها جار استها وتنـازعه
ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتم   وفيكم نبىّ عنـده الوحى واضعه

فى الديوان : جلد استها . وقال البرقوقىّ : قوله ينازعها جلد استها ، لعله يريد يضايقها فى مجلسها . والجلد (بفتح الجيم واللام) واللام هنا ساكنة ، وبكسر الجيم ، واحد الجلود . أى الجلد الذى يجلس عليه . وفى هـذا التفسير من التكلف ما فيه . أما رواية الروض فلا حاجة إليه البتة . فهى واضحة فاضحة مفضوحة .

(٢) الأبطح هو أبطح مكة ، أو بطحاء مكة ، وهو مسيل واديها .

(٣) وأخرجه الإمام الطبرىّ فى تفسيره، الأثر رقم ١٠٤١١ والوارد فى المتن هو نصّ الطبرى.

(٤) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٤ سورة النساء ، ٢٢ـ حدثنا الحسن ابن أحمد بن أبى شعيب أبو مسلم الحرانىّ .

ابن المنذر فى (تفسيره) بسنده عن محمد بن سلمة . فذكره بطوله . ورواه أبو الشيخ الأصفهانىّ فى (تفسيره) بسنده عن محمد بن سلمة به . ثم قال فى آخره : قال محمد بن سلمة : سمع منى هذا الحديث يحيي بن معين وأحمد بن حنبل وإسحق بن إسرائيل . ورواه الحاكم فى كتابه (المستدرك) بسنده عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق بمعناه، أتم منه، وفيه الشعر. ثم قال: وهذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . كذا نقله ابن كثير . قال السيوطىّ فى (اللباب) : وأخرج ابن سعد فى الطبقات بسنده عن محمود بن لبيد قال : عدا بشير بن الحرث على عِلّيّة رفاعة بن زيد ، عم قتادة بن النعمان . فنقبها من ظهرها وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما . فأتى قتادة النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك . فدعا بشيراً فسأله فأنكر . ورمى بذلك لبيدَ ابن سهل ، رجلًا من أهل الدار ذا حسب ونسب . فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... الآيات . فلما نزل القرآن فى بُشير وعثر عليه ، هرب إلى مكة، مرتدًّا . فنزل على سلافة بنت سعد. فجعل يقع فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى المسلمين . فنزل فيه : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ...[1] الآية . وهجاه حسان بن ثابت حتى رجع . وكان ذلك فى شهر ربيع سنة أربع من الهجرة . انتهى .

وأما إيضاح ألفاظ الآيات وثمراتها فنقول : قوله تعالى : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . أى : بما عرفك وأعلمك وأوحى به إليك . سمى ذلك العلم بالرؤية . لأن العلم اليقينىّ المبرأ عن جهات الريب يكون جارياً مجرى الرؤية ، فى القوة والظهور .

قال الزمخشرىّ : وعن عمر رضى الله عنه : لا يقولن أحدكم قضيت بما أرانى الله . فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم . ولكن ليجتهد رأيه . لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً . لأن الله كان يريه إياه . وهو منا الظن والتكلف .

قلت : روى هذا الأثر البيهقى فى (المدخل) وابن عبد البر ، بنحو ما ذكر .

قال ابن الفرس : فى هـذه الآية إثبات الرأى والقياس . وتعقبه السيوطىّ بما أخرجه

(١) [٤ / النساء / ١١٥]

ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: إياكم والرأي . فإن الله تعالى قال لنبيه : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . ولم يقل : بما رأيت. ثم قال السيوطيّ : وقال غيره : يحتمل قوله (بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) . الوحي وَالاجتهاد معاً . انتهى .

وقال ابن كثير : احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية . وبما ثبت في الصحيحين[١] عن أم سلمة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته. فخرج إليهم فقال : ألا إنما أنا بشر . وإنما أقضي بنحو مما أسمع . ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار . فليحملها أو ليذرها .

ورواه الإمام أحمد[٢] عنها أيضاً بلفظ : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست . ليس بينهما بينة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تختصمون إليّ . وإنما أنا بشر . ولعل بعضكم ألحن بحجته (أو قد قال : لحجته) من بعض . فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه . فإنما أقطع له قطعة من النار. يأتي بها إسطاما[٣] في عنقه يوم القيامة . فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي . فقال رسول الله ﷺ : أما إذ قلتما، فاذهبا فاقتسما . ثم توخيا الحق بينكما . ثم استهما . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه .

وقد رواه أبو داود[٤] وزاد : إني إنما أقضي بينكما برأيي . فيما لم ينزل عليّ فيه . انتهى .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ١٦ ـ باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه . حديث ١٢١٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ٤و٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ٣٢٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

(٣) الإسطام : الحديدة التي تحرّك بها النار وتُسْعَر .

(٤) أخرجه في: ٢٣ـ كتاب الأقضية، ٧ ـ باب في قضاء القاضي إذا أخطأ، حديث ٣٥٨٥.

قال السيوطيّ : وفى الآية الرد على من أجاز أن يكون الحاكم غير عالم . لأن الله تعالى فوّض الحكم إلى الاجتهاد . ومن لا علم عنده كيف يجتهد ؟ انتهى. وقوله تعالى : وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ . أي: لأجلهم والذبّ عنهم . وهم طعمة ومن يعينه من قومه على ما تقدم « خصيما » أى مخاصماً . وفيه أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق. وقوله تعالى: وَاسْتَغْفِرِ اللهِ . أى مما قلت لقتادة، كما تقدم مفسراً .

قال الرازيّ : تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء . وقالوا : لو لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب لما أمر بالاستغفار . ثم أجاب عن ذلك بوجوه . وقال القاضي عياض فى (الشفا) : إن تصرف الأنبياء عليهم السلام بأمور لم يُنهوا عنها ولا أُمروا بها ، ثم عوتبوا بسببها ، أو أتوها على وجه التأويل ـ إنما هى ذنوب بالإضافة إلى علىّ منصبهم وإلى كمال طاعتهم . لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم . وأطال فى هذا المقام وأطاب. ثم قال : وأيضاً ، فإن فى التوبة والاستغفار معنى آخر لطيفاً أشار إليه بعض العلماء . وهو استدعاء محبة الله. قال الله تعالى: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ(1) . انتهى. وقوله تعالى: « وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى : يخونونها بالمعصية . جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم . كما جعلت ظلماً لها لرجوع ضررها إليهم .

قال الرازيّ : واعلم أن فى الآية تهديداً شديداً . وذلك لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما مال طبعه قليلًا إلى جانب طعمة ، وكان فى علم الله أن طعمة كان فاسقاً ، فالله تعالى عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة المذنب . فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ، ثم يعينه على ذلك الظلم ، بل يحمله عليه ويرغّبه فيه أشد الترغيب ؟ اهـ . وإنما قيل للخائنين

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٢] ونصها : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(ويختانون) مع أن الخائن واحد، لأن المراد به هو ومن عاونه من قومه ، وهم يعلمون أنه سارق . أو ذكر بلفظ الجمع ليتناوله وكل من خان خيانته . كما أنه إنما ذكر بلفظ المبالغة في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) لأنه تعالى علم منه أنه مفرط في الخيانة وركوب المآثم . ويدل له أنه هرب إلى مكة وارتدّ . كما أسلفنا . قيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لهـا أخوات . وعن عمر رضى الله عنه ، أنه أمر بقطع يد سارق . فجاءت أمه تبكي وتقول : هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه . فقال : كذبتِ . إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة .

وقوله تعالى « يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ » أي: يستترون حياءً منهم وخوفاً من ضررهم « وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ » فلا يستحيون منه «وَهُوَ مَعَهُمْ » أي: وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خافٍ من سرهم .

قال الزمخشري : وكفى بهـذه الآية ناعية على الناس ماهم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم ، إن كانوا مؤمنين ، أنهم في حضرته لا سترة ولا غفـلة ولا غيبة ، وليس إلا الـكشف الصريح والافتضاح .

وقوله تعالى « إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ » أي : يدبرون ويزوّرون الحلف الـكاذب ورمي البريء وشهادة الزور . وقوله تعالى « هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ » ...الآية . المجادلة : أشد المخاصمة. والمعنى هبُوا أنـكم خاصمتم عن السارق وقومه في الدنيا ، فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ وقوله تعالى «أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وانتقامه .

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة هذه الآيات وجوب الحـكم من غير محاباة ولا ميل ، والنهي عن التعصب والمجادلة عن كل خائن وعاص . ويدل تقييـد النهي عن الجدال بالذين يختانون أنفسهم ، على إباحة المجادلة . انتهى .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في هذا الباب ، أتبعه بالدعوة إلى التوبة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا » أى: قبيحاً متعدياً . يسوء به غيره ، كما فى القصة « أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » فيخصها بالمعصية « ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ » بالتوبة الصادقة « يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا » لذنوبه كائنة ما كانت « رَحِيماً » أى متفضلاً عليه .

قال أبو السعود : وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار . لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى فليتحرز عن تعريضها للعقاب . « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)

« وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً » الخطيئة الذنب، أو ما تعمد منه . والإثم الذنب أيضاً. وأن يعمل مالا يحل له (كذا فى القاموس) . قال الراغب : الإثم أعم من العدوان . وقال غيره : هو فعل مبطئٌ عن الثواب « ثُمَّ يَرْمِ بِهِ » أى: يقذف به « بَرِيئاً » أى: مما رماه به، كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح، ذلك الرجلَ الصالحَ ، وهو لبيد بن سهل . كما تقدم . وقد كان بريئاً « فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً » وهو الكذب على الغير بما يبهت منه « وَإِثْماً مُبِيناً » أى بيِّناً فاحشاً . لأنه بكسب الإثم ، آثم . وبرمى البرئ ، باهت . فهو جامع بين الأمرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ » بإعلامك ماهم عليه بالوحي وتنبيهك على الحق « لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ » برمي البريء والمجادلة عن الخائنين . يعني أسير ابن عروة وأصحابه . يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برءاء . ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » لأن وباله عليهم « وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ » لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك . ولما أنزل تعالى فصل القضية وجلّاها لرسوله صلى الله عليه وسلم ، امتنّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال بقوله « وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » أي:القرآن والسنة « وَعَلَّمَكَ » من أمور الدين والشرائع « مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » أي:قبل نزول ذلك عليك . كقوله : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ . . . الآية(١) . وقال تعالى : وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ(٢) . ولهذا قال تعالى : « وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » أي: فيما علمك وأنعم عليك .

قال الرازيّ : هذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب . ثم أشار تعالى إلى ما كانوا يتناجون فيه حين يبيّتون مالا يرضى من القول. بقوله سبحانه :

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . . . وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٦] . . . فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ » أى: مساررتهم . والسياق ، وإن دل على مناجاة بعض قوم ذلك السارق مع بعض ، إلا أنها فى المعنى عامة. والمراد : لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث . ثم استثنى النجوى فى أعمال الخير بقوله سبحانه « إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ » أى: إلا فى نجوى من أمر ، بخفية عن الحاضرين ، بصدقة ليعطيها سراً ، يستر به عار المتصدَّق عليه « أَوْ مَعْرُوفٍ » أى: بطاعة الله . وأعمالُ البر كلها معروف . وسر التناجى فيه أن لا يأنف المأمور عن قبوله لو جهر به « أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ » يعنى الإصلاح بين المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع . على ما أذن الله فيه وأمر به . وسر النجوى فيه أنه لو ظهر أولًا ربما لم يتم .

قال المهايمىّ : قيل فى الحصر : الخير إما نفع جسمانىّ وهو فى الأمر بالصدقة . أو روحانىّ وهو فى الأمر بالمعروف . وإما دفع وهو فى الإصلاح. ويمكن أن يقال : الخير إما نفع متعد من المأمور وهو الصدقة . أو لازم له وهو المعروف . أو دفع ضرر متعد أو لازم له ، وهو الإصلاح . وإنما تتم خيريتها إذا ابتغى بها رضاء الله تعالى كما قال « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ » أى: طلب « مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ » يعنى فى الآخرة « أَجْرًا عَظِيماً » يساوى أجر الفاعل أو يفوقه . وقد دلت الآية على الترغيب فى الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس. وقد أكد تعالى الترغيب بقوله (عَظِيماً) وأن النية فيها شرط لنيل الثواب . لقوله تعالى

(ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ) وعلى أن كلام الإنسان عليه لا له. إلا ما كان فى هذا ونحوه . كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مردويه بسنده إلى محمد بن يزيد بن حنيش قال : دخلنا على سفيان الثورىّ نعوده. فدخل علينا سعيد بن حسان ، فقال له الثورىّ : الحديث الذى كنتَ حدثتنيه عن أم صالح اردُدْه علىّ فقال : حدثتنى أم صالح عن صفية بنت شيبة ، عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : كلام ابن آدم كله عليه لا له . إلا ذكر الله عز وجل . أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر . فقال سفيان : أو ما سمعتَ الله فى كتابه يقول : لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ؟ فهو هذا بعينه . أو ما سمعت الله يقول : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ؟(١) فهو هذا بعينه . أو ما سمعت الله يقول فى كتابه : وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢) * ، الخ . فهو هذا بعينه .

وقد روى هذا الحديث الترمذىّ(٣) وابن ماجه(٤) من حديث ابن حنيش عن سعيد ابن حسان به . ولم يذكر أقوال الثورىّ إلى آخرها .

ثم قال الترمذىّ : حديث غريب لا يعرف إلا من حديث ابن حنيش . قلت: هو مقبول، كما فى (التقريب) لابن حجر . فحسن حديثه .

---

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

(٢) [١٠٣ / العصر / ١و٢] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد، ٦٣ ـ باب منه ، حدثنا محمد بن بشار .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ١٢ ـ باب كف اللسان فى الفتنة ، حديث ٣٩٧٤ (طبعتنا) .

وروى الجماعة(١) عن أم كلثوم بنت عقبة أنهـا سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس الـكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً . وقالت: لم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب . والإصلاح بين النـاس . وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها .

وروى الإمام أحمد(٢) وأبو داود(٣) والترمذىّ(٤) عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى . يا رسول الله ! قال : إصلاح ذات البين . قال : وفساد ذات البين هى الحالقة .

قال الترمذىّ : حسن صحيح .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٢ ـ باب ليس الـكاذب الذى يصلح بين الناس ، حديث ١٣٠٢ .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ١٠١ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب، ٥٠ ـ باب فى إصلاح ذات البين، حديث ٤٩٢١ .

والترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٢٦ ـ باب ما جاء فى إصلاح ذات البين .

(٢) الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٤٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٥٠ ـ باب فى إصلاح ذات البين ، حديث ٤٩١٩ .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب الزهد ، ٥٦ ـ باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البغدادىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ » أى يخالفه ويعاديه « مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ » أى اتضح له الحق « وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ » أى غير ماهم مستمرون عليه من عقد وعمل ، وهو الدين القيّم « نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّىٰ » أى نجعله والياً مرجحاً ما تولاه من المشاقة ومتابعة غير سبيلهم فنزينه له تزين الكفر على الكفرة ، استدراجاًله ليكون دليلًا على شدة العقوبة فى الآخرة . كما قال تعالى : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ(١) .وقال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ(٢) . وقال سبحانه: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٣) « وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ » أى:ندخله إياها « وَسَاءَتْ مَصِيراً » وجعل النار مصيره فى الآخرة . لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة . كما قال تعالى : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(٤) ...الآية . وقال تعالى : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً(٥) .

(١) [٦٨ / القلم / ٤٤] .

(٢) [٦١ / الصف / ٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

(٣) [٦ /الأنعام/ ١١٠] ونصها : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . . . وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ .

(٥) [١٨ / الكهف / ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) هذاملازم للصفة الأولى . ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمةالمحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً . فإنه قد ضمنت لهم العصمة ، فى اجتماعهم ، من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك. ومن العلماء من ادعى تواتر معناها . والذى عوّل عليه الشافعىّ رحمه الله فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته، هذه الآية الكريمة . بعد التروّى والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها . وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : الآية دلت على أن مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة . وقد تبلغ إلى الكفر . ودلت على أن الجهل عذر . لقوله: مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى . ودلت على أن مخالفة الإجماع كبيرة . وأنه دليل كالكتاب والسنة . لكن إنما يكون كبيرة إذا كان نقله قطعياً ، لا آحادياً . انتهى .

وقال المهايمىّ : فى الآية دليل على حرمة مخالفة الإجماع . لأنه عز وجل رتب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ومخالفة الإجماع، فهو إما لحرمة أحدهما وهو باطل . إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحدّ ، إذ لا دخل لأكل الخبز فيه . أو لحرمة الجمع بينهما وهو أيضاً باطل . لأن مشاقة الرسول حرام وإن لم يضم إليها غيرها . أو لحرمة كل واحد منهما وهو المطلوب . انتهى .

ونقل الخفاجىّ قصة استدلال الشافعىّ من هذه الآية عن الإمام المزنىّ قال : كنت عند الشافعىّ يوماً . فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا . فلما رآه ذا مهابة استوى جالساً ، وكان مستنداً لأسطوانة ، فاستوى وسوى ثيابه . فقال له : ما الحجة فى دين الله ؟ قال : كتابه قال : وماذا ؟ قال : سنة نبيه . قال وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله ؟ فتدبر ساعة ساكتاً . فقال له الشيخ : أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن . فإن جئت بآية ، وإلا فاعتزل الناس .

فمكث ثلاثة أيام لا يخرج. وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر ، وقد تغير لونه . فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس . وقال : حاجتى . فقال : نعم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله عز وجل : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ـ إلى آخر الآية . لَمْ يُصْلِه جهنم، على خلاف المؤمنين ، إلا واتّباعهم فرض . قال : صدقت . وقام وذهب .

وروى عنه أنه قال : قرأت القرآن فى يوم وفى كل ليلة ثلاث مرات . حتى ظفرت بها .

وأورد الراغب عليه ، أنه لا حجة فيها على ما ذكره . بأن كل موصوف علق به حكم فالأمر باتباعه يكون فى مأخذ ذلك الوصف . فإذا قيل اقتد بالمصلى فالمراد فى صلاته . فكذا سبيل المؤمنين، يعنى به سبيلهم فى الإيمان ، لا غير . فلا دلالة فى الآية على اتباعهم فى غيره . وردَّ بأنه تخصيص بما يأباه الشرط الأول . ثم إنه إذا كان مألوف الصائمين الاعتكاف ، تناول الأمر باتباعهم ذلك أيضاً . فكذلك يتناول ما هو مقتضى الإيمان فيما نحن فيه. فسبيلُ المؤمنين ، وإن فسر بما هم عليه من الدين ، يعمّ الأصول والفروع ، الكل والبعض . على أن الجزاء مرتب على كل من الأمرين المذكورين فى الشرط، لا على المجموع. للقطع بأن مجرد مشاقة الرسول كافية فى استحقاق الوعيد ، معنى على أن ترك اتباع سبيل المؤمنين اتباع لغير سبيل المؤمنين. لأن المكلف لا يخلو من اتباع سبيلٍ البتة. انتهى. ورأيت للإمام تقىّ الدين بن تيمية فى كتابه (الفرقان بين الحق والباطل) مقالة بديعة فى هذه الآية والإجماع. أجال فيها جواد قلمه وأجاد. وأطال وأطاب. قال رحمه الله: ما يسميه ناس الفروع والشرع والفقه، فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان . فما بقى مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بيّن ذلك. وقد قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ[1].

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، ==

وقال تعالى : مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١) . وقال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٢) . وقال تعالى: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٣) . وقال تعالى : وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ (٤) . فقد بيّن للمسلمين جميع مايتقونه . كما قال : وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ (٥) . وقال تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ (٦) . وهو الردّ إلى كتاب الله ،

= الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) [١٢/يوسف/ ١١١] ونصها: لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ...

(٢) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ...

(٣) [٤٢ / الشورى / ١٠] .

(٤) [٩ / التوبة / ١١٥] ... إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١١٩] ونصها : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

(٦) [٤ /النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

أو إلى سنة الرسول، بعد موته . وقوله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ) شرط . والفعل نكرة فى سياق الشرط. فأى شىء تنازعوا فيـه ردُّوه إلى الله والرسول . ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلًا للنزاع لم يؤمروا بالرد إليه . وقد جاء عنه ﷺ أنه قال(١) : تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هـــذا . والحاصل أن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين . وأما إجماع الأمة فهو فى نفسه حق. لا تجتمع الأمة على ضلالة . وكذلك القياس الصحيح حق. فإن الله بعث رسله بالعدل وأنزل

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، حديث ٥ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى الدرداء قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوّفه ، فقال « آلفقرَ تخافون ؟ والذى نفسى بيده ! لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا حتى لا يُزِيغ قلبَ أحدكم إزاغة إِلّا هِيَهْ . وايم الله ! لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء » .

قال أبو الدرداء : صدق ، والله ، رسول الله ﷺ . تركنا ، والله ، على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء .

قال السدّى : هذا الحديث مما انفرد به المصنف .

وأخرجه فى : ٦ ـ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث ٤٣(طبعتنا)ونصه:

عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقلنا : يا رسول الله ! إن هذه لموعظة مودِّع ، فماذا تعهد إلينا؟

قال « لقد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها : لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك . من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بمـا عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عَضوا عليها بالنواجذ . وعليكم بالطاعة . وإنْ عبداً حبشيًّا . فإنما المؤمن كالجمل الأَنِفِ ، حيثما قِيد يقاد » .

الميزان مع الكتاب . والميزانُ يتضمن العدل وما يعرف به العدل . وقد فسروا إنزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك . والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح ، وقد ضرب الله فى القرآن من كل مثل. وبيّن بالقياس الصحيح، وهى الأمثال المضروبة ، مابينه من الحق . لكن القياس الصحيح يطابق النص . فإن الميزان يطابق الكتاب. والله أمر نبيّه أن يحكم بالعدل. فهو أنزل الكتاب. وإنما أنزل الكتاب بالعدل. قال تعالى: وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ(١) . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ(٢) . وأما إجماع الأمة فهو حق. لا تجتمع الأمة، ولله الحمد، على ضلالة. كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة .فقال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ(٣) . وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه . وقال تعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(٤) . والوسط العدل الخيار . وقد جعلهم الله شهداء على الناس

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٩] . . . وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٢] ونصها : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٠] . . . وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٤٣] . . . وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ =

وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول . وقد ثبت فى الصحيح[١] أن النبىّ ﷺ مُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً . فقال : وجبت . ثم مُرّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً . فقال : وجبت . قالوا : يا رسول الله ! ما قولك وجبت ؟ قال : هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً. فقلت : وجبت لها الجنة . وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً . فقلت : وجبت لها النار . انتم شهداء الله فى الأرض .

فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل . فإذا شهدوا أن الله أمر بشىء فقد أمر به . وإذا شهدوا أن الله نهى عن شىء فقد نهى عنه . ولو كانوا يشهدون بباطل أوخطأ لم يكونوا شهداء الله فى الأرض . وقال تعالى : وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ[٢] . والأمة منيبة إلى ربها فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى : وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

= مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٥ ـ باب ثناء الناس على الميت ، حديث ٧٢٣ ونصه :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: مرُّوا بجنازة. فأثنوا عليها خيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وجبت » . ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا . فقال « وجبت » . فقال عمر بن الخطاب : ماوجبت ؟ قال « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة . وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار . أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وأخرجه مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ(١) . فرضى عمن اتبع السابقين إلى يوم القيامة. فدلَّ على أن متابعهم عامل بما يرضى الله . والله لا يرضى إلا بالحق لا بالباطل. وقال تعالى : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ، والشافعىّ، رضى الله عنه، لما جرد الكلام فى أصول الفقه احتج بهذه الآية على الإجماع. كما كان يسمع هو وغيره من مالك. ذكر ذلك عن عمر بن عبد العزيز . والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين، مستحق للوعيد. كما أن مشاقّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، مستحق للوعيد . ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده. فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لا فائدة فى ذكره. وهنا للناس ثلاثة أقوال: قيل: اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرده مخالفة الرسول المذكورة فى الآية . وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم . فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم. وقيل : بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية . لكن هذا لا يقتضى مفارقته للأول بل قد يكون مستلزماً له . فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر مشاقّ للرسول . وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين . وهذا كما فى طاعة الله والرسول. فإن طاعة الله واجبة. وطاعة الرسول واجبة. وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم . وهما متلازمان . فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . وفى الحديث الصحيح(٢) عن النبىّ ﷺ قال : من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى . ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] . . . وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠٩ ـ باب يقاتل من وراء الإمام ويُتقى به ، حديث ١٤٠٩ .

ومسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٣٢ (طبعتنا) .

ثم قال تقيّ الدين رحمه الله (بعد ثلاثة أوراق) : ومن الناس من يقول : إنها لاتدل على مورد النزاع . فإن الذم فيها لمن جمع الأمرين . وهذا لا نزاع فيه . أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التي بها كانوا مؤمنين . وهي متابعة الرسول . وهــذا لانزاع فيه . أو إن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة . وهذا لا نزاع فيـه . فهذا ونحوه قول من يقول: لاتدل على محل النزاع. وآخرون يقولون : بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقاً. وتكلفوا لذلك ما تكلفوه . كما قد عرف كلامهم ولم يجيبوا عن أسئلة أولئك بأجوبة شافية. والقول الثالث الوسط : إنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم اتباع غير سبيلهم . ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى . وهو يدل على ذم كلٍّ من هذا وهذا . كما تقدم . لكن لا ينفي تلازمهما . كما ذكر في طاعة الله والرسول . وحينئذ يقول : الذم إما أن يكون حقاً لمشاقة الرسول فقط ، أو باتباع غير سبيلهم فقط ، أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما . بل بهما إذا اجتمعا . أو يلحق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر ، أو بكل منهما لكونه مستلزماً للآخر . والأوّلانِ باطلان. لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط، كان ذكر الآخر ضائعاً لافائدة فيه . وكون الذم لايلحق بواحد منهما باطل قطعاً . فإن مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمن اتبعه . ولحوق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر لا تدل عليـه الآية . فإن الوعيد فيها إنمـا هو على المجموع . بقي القسم الآخر وهو أن كلًّا من الوصفين يقتضي الوعيد . لأنه مستلزم للآخر . كما يقال مثـل ذلك في معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والإسلام . فيقال : من خالف القرآن والإسلام أو من خرج عن القرآن والإسلام فهو من أهل النار . ومثله قوله: وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. فإن الكفر بكل واحد من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره . فمن كفر بالله كفر بالجميع. ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل ، فكان كافراً بالله . إذ كذب رسله وكتبه .

وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل . فكان كافراً . وكذلك قوله : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١) . ذمهم على الوصفين . وكل منهما مقتض للذم . وهما متلازمان . ولهذا نهى عنهما جميعاً فى قوله (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به ، فغلط به ، لزم أن يكتم الحق الذى تبين أن هذا باطل، إذ لو بينه زال الباطل الذى لبس به الحق. فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين . من شاقَّه، فقد اتبع غير سبيلهم. وهذا ظاهر . ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضاً فإنه قد جعل له مدخلًا فى الوعيد . فدل على أنه وصف مؤثر فى الذم . فمن خرج عن إجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعاً ، والآية توجب ذم ذلك . وإذا قيل : هى إنما ذمته مع مشاقة الرسول . قلنا: لأنهما متلازمان . وذلك لأن كل ماأجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصاً عن الرسول . فالمخالف لهم مخالف للرسول . كما أن المخالف للرسول مخالف لله . ولكن هذا يقتضى أن كل ما أجمع عليه الرسول قد بيّنه الرسول . وهذا هو الصوب . فلا يوجد مسألة قط مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس . ويعلم الإجماع فيستدل به . كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص . وهو دليل ثان مع النص ، كالأمثال المضروبة فى القرآن . وكذلك الإجماع دليل آخر . كمايقال : قد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع. وكل من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها . فإن مادل عليه الإجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة . وما دل عليه القرآن فعن الرسول أُخِذ . فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه . ولا توجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص . وقد كان بعض الناس يذكر فيها الإجماع بلانص كالمضاربة . وليس كذلك. بل المضاربة كانت مشهورة بينهم فى الجاهلية، لا سيما قريش . فإن الأغلب كان عليهم التجارة . وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال.

(١) [٣ / آل عمران / ٧١] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد سافر بمال غيره قبل النبوة كما سافر بمال خديجة . والعير التى كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة مع أبى سفيان وغيره . فلما جاء الإسلام أقرّها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة . ولم ينه عن ذلك. والسنة قوله وفعله وإقراره . فلما أقرها كانت ثابتة بالسنة . والأثر المشهور فيها عن عمر الذى رواه مالك فى الموطأ[1] ، ويعتمد عليه الفقهاء ، لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه واتّجرا فيه وربحا . وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصّهما بذلك دون سائر الجيش . فقال له أحدهما : لو خسر المال لكان علينا . فكيف يكون الربح وعلينا الضمان ؟ فقال له بعض الصحابة : اجعله مضاربة. فجعله مضاربة .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٣٢ ـ كتاب القراض ، حديث ١ (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: خرج عبدالله وعبيدالله ، ابنا عمر بن الخطاب، فى جيش إلى العراق . فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرىّ، وهو أمير البصرة. فرحّب بهما وسهّل. ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت . ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله . أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين . فأسلفكماه . فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق . ثم تبيعانه بالمدينة . فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين . ويكون الربح لكما . فقالا : وددنا ذلك . ففعل . وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال . فلما قدما باعا فأُرْبِحَا . فلما دفعا ذلك إلى عمر ، قال : أكلّ الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ قالا : لا . فقال عمر بن الخطاب: ابنا أمير المؤمنين . فأسلفكما . أدّيا المال وربحه .

فأما عبد الله فسكت . وأما عبيد الله فقال : ما ينبغى لك ، يا أمير المؤمنين ! هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمنّاه . فقال عمر : أدّياه . فسكت عبد الله ، وراجعه عبيد الله . فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين ! لو جعلته قراضا ! فقال عمر : قد جعلته قراضا . فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه . وأخذ عبد الله وعبيد الله ، ابنا عمر بن الخطاب ، نصف ربح المال .

وإنما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم . والعهد بالرسول قريب . لم يحدث بعده . فعلم أنها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول . كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والحرازة. وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا فقالوا فيها باجتهاد الرأى الموافق للنص . لكن كان النص عند غيرهم . وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول . مع قولهم بصحة القياس . ونحن لانشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى ، كما نقل الأخبار ، ولكن استقرينا موارد الإجماع فوجدنا كلها منصوصة . وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة . كما أنه قد يحتج بقياس ، وفيها إجماع لم يعلمه فيوافق الإجماع. وكما يكون فى المسألة نص خاص وقد استدل فيها بعموم . كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله تعالى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ[1] . وقال ابن مسعود[2] : سورة النساءالقصرى نزلت بعدالطولى . أى: بعد البقرة . وقوله : أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٤] ونصها : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٢ ـ باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ ، حديث ٢٠٦١ ونصه :

عن أيوب عن محمد قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى . وكان أصحابه يعظمونه . فذكر آخر الأجلين . فحدّثتُ بحديث سُبَيعة بنت الحارث ، عن عبد الله بن عتبة. قال فضمزَّ لى بعض أصحابه . قال محمد : ففطنت له . فقلت : إنى إذًا لجرىء إن كذبتُ على عبدالله بن عتبة ، وهو فى ناحية الكوفة. فاستحيا وقال: لكنّ عمّه لم يقل ذاك . فلقيت =

يقتضى انحصار الأجل فى ذلك . فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها . وعلىّ وابن عباس وغيرهما أدخلوها فى عموم الآيتين . وجاء النص الخاص فى قصة[1] سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود . وكذلك . لما تنازعوا فى المفوضة إذا مات زوجها هل لها مهر المثل ، أفتى ابن مسعود فيها برأيه أن لها مهر المثل . ثم رووا حديث بروع بنت واشق بما يوافق ذلك . وقد خالفه علىّ وزيد وغيرهما . فقالوا : لا مهر لها . فثبت أن بعض المجتهدين قديفتى بعموم أو قياس ، ويكون فى الحادثة نص خاص لم يعلمه فيوافقه . ولا يُعلم مسألة واحدة اتفقوا على أنه لا نص فيها . بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص وأولئك يحتجون بنص. كالمتوفى عنها الحامل. هؤلاء احتجوا بشمول الآيتين

= أبا عطية مالك بن عمر . فسألته فذهب يحدثنى حديث سُبيعة . فقلت : هل سمعتَ عن عبد الله فيها شيئاً ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ لنزلت سورة النساء القُصْرَى بعد الطولى : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .

(١) أخرجها البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٢ ـ باب وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ ، حديث ٢٠٦١ .

عن يحيى قال : أخبرنى أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، وأبو هريرة جالس عنده . فقال: أفتنى فى امرأة وَلَدَتْ بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا : وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى (يعنى : أبا سلمة) فأرسل ابن عباس غلامه كُرَيْبًا إلى أم سلمة يسألها .

فقالت : قُتِل زوج سُبَيْعة الأسلمية وهى حبلى . فوضعت بعد موته بأربعين ليلة . فخُطبت . فأنكحها رسول الله ﷺ . وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

لها. والآخرون قالوا : إنما تدخل فى آية الحمل فقط ، وإن آية الشهور فى غير الحامل . كما أن آية القروء فى غير الحامل . وكذلك لما تنازعوا فى الحرام احتج من جعله يميناً بقوله : لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ (١) . وكذلك تنازعوا فى المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى . احتج هؤلاء بحديث فاطمة (٢) وبأن السكنى التى فى القرآن للرجعية . وأولئك قالوا : بل هى لهما . ودلالات النصوص قد تكون خفية . فخص الله بفهمها بعض الناس. كما قال على (٣) : إلَّا فهما

(١) [٦٦ / التحريم /١و٢] . . . وَاللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجها مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ٣٦ (طبعتنا) وهذا نصها :

عن فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة . وهو غائب. فأرسل إليها وكيلُه بشعير . فسخطته . فقال : والله ! مالك علينا من شيء . فجاءت رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له . فقال « ليس لك عليه نفقة » فأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك . ثم قال : تلك امرأة يغشاها أصحابى . اعتدّى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى . تضعين ثيابك . فإذا حللت فآذنينى . قالت : فلما حللت ذكرتُ له ؛ أن معاوية بن أبى سفيان وأبا جهم خطبانى. فقال رسول الله ﷺ « أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه . وأما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحى أسامة بن زيد ». فكرهتُه . ثم قال « انكحى أسامة » فنكحته فجعل الله فيه خيراً ، واغتبطتُ .

وأخرجها بطرق أخرى فى الأحاديث رقم ٣٧ـ٥١ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم ، حديث ٩٥ ونصه:

عن أبى جحيفة قال : قلت لعلىّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا . إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة . قال قلت : فما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

يؤتيه الله عبداً فى كتابه . وقد يكون النص بيّناً ويذهل المجتهد عنـه ، كتيمم الجنب . فإنه بيّن فى القرآن فى آيتين. ولما[١] احتج أبو موسى على ابن مسعود بذلك قال الحاضر: ما درى عبد الله مايقول ، إلا أنه قال : لو أرخصنا لهم فى هذا لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمّم . وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر : إن المطلقة فى القرآن هى الرجعية بدليل قوله: لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا[٢] وأى أمر يحدثه بعدالثلاثة ؟ وقد احتج طائفةعلىوجوب العمرةبقوله:وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ[٣] . واحتجبهذه الآية من منع

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ٧ ـ باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش ، تيمم ، حديث ٢٣٣ ونصه :

عن شقيق بن سلمة قال : كنت عند عبد الله وأبىموسى . فقال له أبو موسى : أرأيت، ياأبا عبد الرحمن! إذا أجنب فلم يجد ماءً كيف يصنع ؟ فقال عبد الله : لايصلى حتى يجد الماء . فقال أبو موسى : فـكيف تصنع بقول عمار ، حين قال له النبىّ ﷺ « كان يكفيك »؟ قال: ألم تر عمر لم يقنع بذلك ؟ فقال أبو موسى : فدعنا من قول عمار . كيف تصنع بهذه الآية ؟

فما درى عبد الله ما يقول .

فقال : إنا لورخصنا لهم فى هذا ، لأوشك، إذا برد على أحدهم الماء ، أن يدعه ويتيمم .

(قال الأعمش) : فقلت لشقيق : فإنما كره عبد الله لهذا ؟ قال : نعم .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

الفسخ . وآخرون يقولون : إنما أمر بالإتمام فقط . وكذلك أمر الشارع أن يتم . وكذلك في الفسخ قالوا : من فسخ العمرة إلى غير حج فلم يتمها . أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم مما شرع فيه فإنه شرع ﷺ أصحابه عام حجة الوداع. وتنازعوا في الذى بيده عقدة النكاح وفي قوله : أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ[1] . ونحو ذلك مما ليس هذا موضع استقصائه . وأمامسألة مجردة اتفقوا على أنه لايستدل فيها بنص جلي ولا خفيّ، فهذامالأعرفه. والجدّ، لماقالأكثرهم: إنهأب، استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله[2] : كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ

= مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) [٤ / النساء / ٤٣] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً .

و [٥ / المائدة / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٢٧] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا =

الْجَنَّةِ وقال ابن عباس: لو كانت الجن تظن أن الإنس تسمى أبا الأب جداً لما قالت : وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا(١) . نقول: إنما هو أب، لكن أب أبعد من أب . وقد روى عن علىّ وزيد أنهما احتجا بقياس ، فمن ادعى إجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقاً فقد غلط . ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم أحد منهم إلا بالرأى والقياس فقد غلط . بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم . فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها . ومن رأى دلالة الميزان ذكرها . والدلائل الصحيحة لا تتناقض . لكن قد يخفى وجه اتفاقهما أو ضعف أحدهما على بعض العلماء . وللصحابة فهم فى القرآن يخفى على أكثر المتأخرين . كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين . فإنهم شهدوا التنزيل وعاينوا الرسول . وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مرادهم ، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك . فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس . ومن قال من المتأخرين : إن الإجماع مستند معظم الشريعة ، فقد أخبر عن حاله . فإنه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك . وهذا كقولهم : إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها . فإنما هذا من قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما على الأحكام وقد قال الإمام أحمد رضى الله عنه : إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها . فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام ، حدثت جميع أجناس الأعمال . فتكلموا فيها بالكتاب والسنة . وإنما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة . والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه . إذ هم أهل الإجماع ، فلا إجماع قبلهم . لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح : اقض بما فى كتاب الله . فإن لم تجد ، فبما فى سنة رسول الله . فإن لم تجد ، فبما قضى به الصالحون قبلك . وفى رواية : فبما أجمع

= أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

(١)[٧٢ / الجن / ٣] . . . مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا .

عليه الناس . فقدم عمر الكتابَ ثم السنةَ : وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر . قدّم الكتاب ثم السنة ، ثم الإجماع . وكذلك ابن عباس كان يفتى بما فى الكتاب ثم بما فى السنة ثم بسنة أبى بكر وعمر . لقوله[1] : اقتدوا باللَّذَيْن من بعدى : أبى بكر وعمر . وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء . وهذا هو الصواب . ولكن طائفة من المتأخرين قالوا : يبدأ المجتهد ينظر أولاً فى الإجماع . فإن وجده لم يلتفت إلى غيره . وإن وجد نصًّا خالفه اعتقد أنه منسوخ بنص لم يبلغه . وقال بعضهم : الإجماع نسخه .

والصواب طريقة السلف . وذلك لأن الإجماع إذا خالفه نص فلابد أن يكون مع الإجماع نص معروف به أن ذاك منسوخ. فأما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة ، وحفظت النص المنسوخ ، فهذا لايوجد قط . وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نُهيت عن اتباعه . وإضاعة ماأُمرت باتباعه . وهى معصومة عن ذلك . ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيراًأوغالباً . فمن الذى يحيط بأقوال المجتهدين ؟ بخلاف النصوص ، فإن معرفتها ممكنة متيسرة . وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أوّلاً . لأن السنة لاتنسخ الكتاب . فلا يكون فى القرآن شيء منسوخا بالسنة. بل إن كان فيه منسوخ ، كان فى القرآن ناسخه . فلا يقدم غير القرآن عليه . ثم إذا لم يجد ذلك طلبه فى السنّة . ولا يكون فى السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخته . لاينسخ السنةَ إجماع ولا غيره . ولا تعارَض السنةُ بإجماع . وأكثر ألفاظ الآثار . فإن لم يجد فالطالب قد لايجد مطلوبه فى السنة . مع أنه فيها . وكذلك

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١٦ ـ فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، كليهما . ونصه : عن حذيفة رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبىّ ﷺ فقال : « إنى لا أدرى ما بقائى فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدى » وأشار إلى أبى بكر وعمر .

فى القرآن . فيجوز له إذا لم يجده فى القرآن أن يطلبه فى السنة . وإذا كان فى السنة لم يكن مافى السنة معارضاً لما فى القرآن . وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سنة. انتهى كلامه قدس الله روحه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٦] ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» قد مر الكلام على هذه الآية الكريمة فى أوائل هذه السورة مطولاً . قالوا : تكريرها إما تأكيداً وتشديداً أو لتكميل قصة طعمة ، وقد مر موته كافراً . أو إن لها سبباً آخر فى النزول . على ما رواه الثعلبيّ عن ابن عباس قال : جاء شيخ ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إنى شيخ منهمك فى الذنوب . إلا أنى لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به . ولم أتخذ من دونه وليًّا . ولم أوقع المعاصى جراءة . وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هرباً . وإنى لنادم تائب . فما ترى حالى عند الله سبحانه وتعالى ؟ فنزلت . واستظهر بعضهم الوجه الأخير قال: لأن التأكيد ، مع بعد عهده ، لايقتضى تخصص هذا الموضع ، فلابدّ له من مخصص. وأغرب المهايمىّ حيث جعلها مشيرة إلى شق الآية الكريمة ، حيث قال : ثم أشار إلى أن وعيد مشاقة الرسول جازم دون مخالفة الإجماع . لأن مشاقة الرسول دليل تكذيبه . وهو مستلزم للشرك بالله . إذ خلق المعجزات لا يكون إلا لكامل القدرة . ولا يكون إلا لإله . فإذا نفاها عن الله فقد أثبت له شريكا وأن الله لايغفر أن يشرك به . ومخالفة الإجماع يجوز أن تكون مغفورة . لأنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، إذ لا تنتهى إلى الشرك . وكل هذه المناسبات دالة دون ذلك قطعاً على دلالة هذه الآية ، على أن ماسوى الشرك مغفور قطعاً . سواء حصلت التوبة أو لم تحصل .

وقد روى الترمذىّ[1] عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : مافى القرآن آية أحب إلىّ من هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. الآية «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا». أى : عن الحق . فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة . وإنما ذكر فى الآية الأولى (فَقَدِ افْتَرَىٰ) لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب . ومنشأ شركهم كان نوع افتراء . وهو دعوى التبنى على الله تعالى بقولهم (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) قاله القاضى.

وفى (السمين) : ختمت الآية المتقدمة بقوله (فَقَدِ افْتَرَىٰ) وهذه بقوله (فَقَدْ ضَلَّ) لأن الأولى فى شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته ، وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع . ومع ذلك فقد كابروا فى ذلك وافتروا على الله . وهذه فى شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم . فناسب وصفهم بالضلال . وأيضاً قد تقدم هنا ذكر الهدى وهو ضد الضلال . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا)

« إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » مايعبد مشركو مكة ونحوهم من دون الله « إِلَّا إِنَاثًا » قال الرازىّ: (يدعون) بمعنى (يعبدون) لأن من عبد شيئاً فإنه يدعوه عند احتياجه إليه. انتهى .

وقد روى الإمام أحمد[2] وابن أبى شيبة وأصحاب السنن وغيرهم ، عن النعمان بن بشير؛

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٢٣ ـ حدثنا خلاد بن أسلم .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٤٠/غافر/٦٠] .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء هو العبادة . ورواه أبو يعلى عن البراء . ورواه الترمذي[١] عن أنس بلفظ : الدعاء مخ العبادة .

وفي قوله تعالى (إِلَّا إِنَاثًا) وجوه :

الأول ـ ما رواه ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : يعني أوثانا . وعليه فمرجع التسمية بالإناث كون أسماء غالبها مؤنثة . كمناة والعزى واللات ونحوها . ولأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحلي ويزينونها على هيآت النسوان . وروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومجاهد وأبي مالك والسدي ومقاتل نحوما لعائشة .

الوجه الثاني ـ أنه عني الملائكة . لأن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقولون عنها : بنات الله. روى ابن جرير[٢] عن الضحاك في الآية : قال المشركون، للملائكة : بنات الله. وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى . قال : فاتخذوهن أربابا وصوروهن جوارى فحكوا وقلدوا وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده . يعنون الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ)[٣] الآيات وقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا)[٤] ...الآية. وقال (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)[٥] انتهى .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ).

---

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة : ١٦ ـ حدثنا هناد.

(٢) الأثر رقم ١٠٤٣٧ ونصه : عن الضحاك ، في قوله : « إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِنَاثًا » قال : الملائكة . يزعمون أنهم بنات الله .

(٣) [٥٣ / النجم / ٢٧] .

(٤) [٤٣ / الزخرف /١٩] . . . . أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

(٥) [٣٧ / الصافات / ١٣٧] . . . . وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

الوجه الثالث ـ ما رواه ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى الآية قال: مع كل صنم جنية.

الرابع ـ قال علىّ بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس والحسن : إناثاً يعنى موتى . قال الحسن : الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح . إماخشبة يابسة وإما حجر يابس . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير(١) . وفى (القاموس . وشرحه): الإناث جمع الأنثى . وهو خلاف الذ كر من كل شىء . والموات الذى هو خلاف الحيوان . كالشجر والحجر والخشب، عن اللحيانىّ . وعن الفراء : تقول العرب اللات والعزى وأشباههما من الآلهة المؤنثة . انتهى .

وقال الإمام أبو البقاء : قوله تعالى (إِلَّا إِنَاثًا) هو جمع أنثى على (فعال) ويراد به كل مالا روح فيه من صخرة وشمس ونحوهما . ويقرأ (أنثى) على الإفراد . ودل الواحد على الجمع . ويقرأ (أُنُثًا) مثل رسل فيجوز أن تكون صفة مفردة مثل امرأة جنب ، ويجوز أن يكون جمع أنيث كقليب وقُلُب . وقد قالوا : حديد أنيث ، من هذا المعنى . ويقرأ أُثُنا والواحد وثن وهو الصنم وأصله وثن ، فى الجمع كما فى الواحد إلا أن الواو قلبت همزة لما انضمت ضمًّا لازماً وهو مثل أَسَد. وأُسُد. ويقرأ بالواو على الأصل جمعاً. ويقرأ بسكون الثاء مع الهمزة والواو. انتهى. قال البيضاوى : ولعله تعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون مايسمونه إناثاً. لأنه ينفعل ولا يفعل . ومن حق المعبود أن يكون فاعلًا غير منفعل ، ليكون دليلًا على تناهى جهلهم وفرط حماقتهم « وَإِنْ يَدْعُونَ » أى: ما يعبدون من دون الله « إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا » وهو إبليس لعنه الله لطاعتهم له فى عبادتها . وإذا أطاعوه فيما سوَّل لهم فقد عبدوه. كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ)(٢) وقال تعالى (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)(٣) والمَرِيد المتمرد العاتى الطاغى .

---

(١) الأثر رقم ١٠٤٣٦ ونصه: عن الحسن « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا » قال : و « الإناث » كل شىء ميت ليس فيه روح : خشبة يابسة : أو حجر يابس . قال الله تعالى : « وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا » إلى قوله: « فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ » .

(٢) [٣٦ / يس / ٦٠] . . . . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] ونصها : قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (لَعَنَهُ اللهُ . وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضًا)

« لَعَنَهُ اللهُ » صفة ثانية لـ(شَيْطَانًا) أى: أبعده الله عن رحمته . فأراد إبعاد مَنْ أُبْعِد بسببه «وَقَالَ » حين أُبْعد « لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ » أى: الذين أبعدتنى بسببهم أى: لأجعلن لى منهم «نَصِيباً» أى: حظًّا « مَفْرُوضًا » أى: مقطوعاً ومقدراً من عبادتهم بأن يعبدوا غيرك، أو يراؤا فيها، أو يعجبوا بها، أو يتلفوها فى المظالم ، أو يحبطوها بالكفر بعدها .

قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى (وَقَالَ) الخ عطف على الجملة المتقدمة أى: شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القولِ الشنيع الصادر عنه عند اللعن . ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن مايعبدونها ينفعل ولا يفعل فعلًا اختيارياً. وذلك ينافى الألوهية غاية المنافاة . ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة : الأول ـ أنه منهمك فى الغيّ لا يكاد يعلق بشىء من الخير والهدى . فتكون طاعته ضلالًا بعيداً عن الحق . والثانى ـ أنه ملعون لضلاله . فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال . والثالث ـ أنه فى غاية السعى فى إهلاكهم وإضلالهم . فموالاة من هذا شأنه غاية الضلال، فضلًا عن عبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

« وَلَأُضِلَّنَّهُمْ » أى: عن الهدى « وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ » أى: الأمانى الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال . قال الرازىّ : إن الشيطان لما ادعى أنه يضل الخلق قال (وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)

وهذا يشعر بأنه لا حيلة له فى الإضلال أقوى من إلقاء الأمانى فى قلوب الخلق . وطلب ما يورث شيئين : الحرص والأمل. والحرص والأمل يستلزم أكثر الأخــلاق الذميمة . وهما كالأمرين اللازمين لجوهر الإنسان . قال[1] صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص والأمل. والحرص يستلزم ركوب أهوال الدنيا وأهوال الدين . فإنه إذا اشتد حرصه على الشيء فقد لا يقدر على تحصيله إلا بمعصية الله وإيذاء الخلق . وإذا طال أمله نسى الآخرة وصار غريقاً فى الدنيا . فلا يكاد يقدم على التوبة ولا يكاد يؤثر فيه الوعظ فيصير قلبه كالحجارة أوأشد قسوة « وَلَآمُرَنَّهُمْ » أى على خلاف أمرك إضلالاً لهم « فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ » أى: فليقطعنها ويشقنها سِمَةً وعلامة للبحائر والسوائب ليحرموها ، بعد ما أحللتها.

قال الواحدى رحمه الله : التبتيك ، ههنا ، هو قطع آذان البحيرة، بإجماع المفسرين . وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً ثم تسيَّب. وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها . فأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح . ولا يردونها عن ماء ولا مرعى. وإذا لقيها المعيي المنقطع به لم يركبها. وسوّل لهم إبليس أن هذا قربة، وهي البحيرة. قال ابن سيده : بحر الناقةَ والشاة يبحرها : شق أذنها بنصفين . وقــل بنصفين طولًا «وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ» أى: دين الله عز وجل. رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وكثيرين. وهــذا كقوله تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)[2] على قول من جعل ذلك أمراً . أى: لا تبدلوا فطرة الله ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١١٥ (طبعتنا) ونصــه : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان : الحرص على المــال والحرص على العمر » .

(٢) [٣٠/ الروم/٣٠] . . . ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ودعوا النـاس على فطرتهم ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء. هل تجدون بها من جدعاء ؟ وفى صحيح مسلم[2] عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٩٣ ـ باب ما قيـل فى أولاد المشركين، حديث ٧١٦. ونصه .

عن أبى هريرة قال : قال النبىّ ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه . كمثل البهيمة تنتج البهيمة . هل ترى فيها جدعاء ؟ » .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنــة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٦٣ (طبعتنا) ونصه :

عن عِياض بن حمار المُجَاشعىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال ، ذات يوم فى خطبتــه : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمـكم مما جهلتم مما علمنى ، يومى هـذا . كل مال نحلته عبدا ، حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم . وإنهم أتتهم الشـياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم . وَأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بى ، ما لم أنزِل به سلطانا . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقـايا من أهل الـكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله أمرنى أن أحرق قريشا . فقلت : رب ! إذاً يثلغوا رأسى (أى: يشدخوه ويشقوه) فيدعوه خبزة (أى: كما يشدخ الخبز) قال : استخرجهم كما استخرجوك . واغزهم نُغْزِكَ (أى: نعينك) وأنفق فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله . وقاتل بمن أطاعك من عصاك . قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفّق . ورجل رحيم رقيق =

وروى الإمام أحمد[١] والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعيّ يجر قُصْبَه في النار . وكان أول من سيَّب السوائب وبَحَرَ البحيرة .

وروى الطبرانيّ عن ابن عباس مرفوعاً : أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحى بن قمعة ابن خندف ، أبو خزاعة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : أنه عنى بالآية خصى الدواب . وقال أنس : منه الخصا . وقد روى ابن عساكر عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن الإخصاء . ورواه الإمام أحمد[٢] أيضا عنه بلفظ : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خصاء الخيل والبهائم. وروى الطبرانيّ عن ابن مسعود: نهى النبيّ ﷺ أن يخصى أحـــد من ولد آدم . وروى

= القلب لـكل ذى قربى ، ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له (أى: لا عقل له يزبره ويمنعـه مما لا ينبغى) الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع ، وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » . وذكر البخل أو الـكذب « والشِّنظير : الفحّاش » .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٧٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) ونصه : عن أبى هريرة قال : قال النبيّ ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعيّ يجرّ قُصْبه (يعنى الأمعاء) فى النار . وهو أول من سيّب السوائب » .

وفى البخاريّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٩ ـ باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٧ .

ومسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) ونصه : عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن إخصاء الخيل والبهائم . وقال ابن عمر : فيها نماء الخَلْق .

البيهقىّ عن ابن عباس : نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن صبر الروح وخصاء البهائم. وقال الحسن: عنى بالآية الوشم (بالشين المعجمة) أخرجه ابن أبى حاتم. روى الإمام أحمد[1] عن أبى هريرة: نهى رسول الله ﷺ عن الوشم . وفى الصحيح[2] عن ابن مسعود: لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله عز وجل . ثم قال: ألا ألْعَنُ من لعن رسولُ الله ﷺ ؟ وهو فى كتاب الله عز وجل ؟ يعنى قوله (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيستدل بالآية على تحريم الخصاء والوشم وما يجرى مجراه ، من الوصل فى الشعر . والتفلج ، وهو تفريق الأسنان. والتنميص ، وهو نتف الشعر من الوجه . انتهى .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣١٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ٤ ـ باب وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، حديث ٢٠٥٥ ونصه :

عن علقمة عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله . فبلغ ذلك امرأةً من بنى أسد يقال لها أم يعقوب . فقالت : إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول . قال : لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه . أما قرأت : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟ قالت : بلى . قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه . قال : فاذهبى فانظرى . فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئا . فقال : لو كانت كذلكِ ما جامَعَتْنا .

قال بعض الزيدية : ويلحق بالوشر ما يفعل فى الخدّ من الشرط للزينة . وحكى الزجاج عن بعضهم ، فى معنى الآية : إن الله تعالى خلق الأنعـام ليركبوها ويأكلوها ، فحرموها على أنفسهم كالبحائر والسوائب والوصائل . وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرة للناس ينتفعون بها ، فعبدها المشركون فغيروا خلق الله . ولا يخفى أن عموم الآية يصدق على جميع المعانى . إذ كلها من تغيير خلق الله . فلا مانع من حمـل الآية عليها . قال البيضاوىّ: قوله (فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) أى: عن وجهه وصورته ، أوصفته . ويندرج فيه ما قيل من فقء عين الحامى ، وخصاء العبيد ، والوشم والوشر ، واللواط ، والسحق ، ونحوذلك . وعبادة الشمس والقمر ، وتغيير فطرة الله تعالى التى هى الإسلام . واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالًا ، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى . انتهى .

وهذه الجمل المحـكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالاً أوحالاً . وما فيها من (اللامات) كلها للقسم . والمأمور به فى الموضعين محذوف، ثقةً بدلالة النظم عليه . ثم حذر تعالى عن متابعته فقال « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ » بإيثار ما يدعو إليه ، مجاوزاً ولاية الله، بترك ما يدعو إليـه « فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا » أى : بيناً لمصيره إلى النار المؤبدة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)

« يَعِدُهُمْ » بأنهم الفائزون « وَيُمَنِّيهِمْ » أى : مالاينالونه « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» باطلاً وضلالًا ، وإيهامَ نفعٍ مما ليس فيه إلا الضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)

« أُولَـئِكَ » أى : أولياءالشيطان « مَأْوَاهُمْ » مصيرهم ومآلهم يوم القيامة « جَهَنَّمُ

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا » معدلاً ومفرًّا . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء ومآلهم من الكرامة فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » أى: صدقت قلوبهم « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى: عملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات « سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت غرفها ومساكنها « الْأَنْهَارُ » أنهار الخمر والماء واللبن والعسل «خَالِدِينَ فِيهَا» مقيمين فى الجنة. لا يموتون ولا يخرجون منها « أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا » صدقاً واقعاً لا محالة . وكيف لا يكون وعد الله حقًّا « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً » وعداً وخبراً . وهو استفهام بمعنى النفى . أى: لاأحدأصدق منه قيلاً. لا إله إلا هو ولا رب سواه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول(١) فى خطبته : إن أصدق الحديث كلام الله . وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم . وشر الأمور محدثاتها . وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . وكل ضلالة فى النار . والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه ، بوعد الله الصادق لأوليائه . والمبالغة فى توكيده ترغيباً للعباد فى تحصيله . و(القيل) مصدر ، كالقال والقول .

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٢٣] (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ » أى: ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الأصنام « وَلَاأَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ » ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا:

(١) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)[(١)] (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)[(٢)] «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ». أى: من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله «وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً» وهذا وعيد للكفار لأنه قال بعده :

القول فى تأيل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » جملة حالية . و(من) الأولى زائدة عند الأخفش . وصفة عند سيبويه . أى : شيئاً من الصالحات « فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً » أى : لا ينقص من حسناتهم قدر نقير . وهو النقرة التى على ظهر النواة . وهذا على سبيل المبالغة فى نفى الظلم . ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان . والراجع فى (وَلَا يُظْلَمُونَ) لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً . وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلاً على ذكره عند الآخر . وقوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) وقوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) بعد ذكر تمنى أهل الكتاب كقوله سبحانه (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)[(٣)] وقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) عقيب قوله (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً).

---

(١) [٥/ المائدة/ ١٨] ونصها: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٠] ونصها : وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٨١] . . . . فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

تنبيه :

ما قدمناه من أن الخطاب فى قوله تعالى (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ) للمشركين وأن قوله تعالى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) أى : من أهل الكتاب والمشركين ـ هو الذى يدل عليه سياق الآية ونظمها الكريم كما بينا. ورواه الطبرى[1] عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن. قال الأولان رضى الله عنهما: (السوء) ههنا هو الشرك. وقال الحسن: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) هو الكافر. ثم قرأ (وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ).

ولما كان لعموم هذا الخطاب روعة، وأىّ روعة، أشفق كثير من الصحابة لأجله. قال ابن كثير: وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة. قال الإمام أحمد[2]: حدثنا عبد الله بن نمير. حدثنا إسماعيل عن أبى بكر بن أبى زهير قال: أخبرت أن أبا بكر رضى الله عنه قال: يارسول الله! كيف الفلاح بعد هذه الآية (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: غفر الله لك، ياأبا بكر! ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى. قال: هو مما تجزون به.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما نزلت (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) شق ذلك على المسلمين. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: سددوا وقاربوا. فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة. حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها. رواه سعيد بن منصور

---

(١) عن ابن عباس، الأثر رقم ١٠٥١٨، وعن سعيد بن جبير، الأثر رقم ١٠٥١٩، وعن الحسن، الأثر رقم ١٠٥١١.

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٨ ـ ٧١ (طبعة المعارف).

وأحمد[١] ومسلم[٢] والترمذىّ والنسائىّ .

وقال عطاء بن يسار عن أبى سعيد وأبى هريرة ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن ، حتى الهم يهمه إلا كفر الله عن سيئاته. أخرجاه[٣] .

وروى ابن مردويه عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال قيل : يارسول الله ! من يعمل سوءًا يجز به ؟ قال : نعم . ومن يعمل حسنة يجز بها عشراً . فهلك من غلب واحدتُه عشراته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » أى: أخلص نفسه له تعالى فلم يتخذ ربا سواه . « وَهُوَ مُحْسِنٌ » أى آت بالحسنات تارك للسيئات . أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفىّ المستلزم لحسنها الذاتىّ . وقد فسر النبىّ[٤] صلى الله

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث ٧٣٨٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى، ١ ـ باب ما جاء فى كفارة المرض حديث٢٢٣٥و٢٢٣٦. ومسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، حديث ٥٢(طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبىّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، حديث ٤٦ ونصه :

عليه وسلم الإحسان بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه.فإن لم تكن تراه فإنه يراك « وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » الموافقة لدين الإسلام ، المتفق على صحتها وقبولها « حَنِيفاً » أى : مائلاً عن الشرك قصداً . أى: تاركا له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليته ، لا يصده عنه صادّ ، ولا يرده عنه رادّ .

قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناً، شرح الإيمان وبين فضله من وجهين : أحدهما ـ أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى. والثانى ـ أنه الدين الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام . وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب فى دين الإسلام . أما الوجه الأول فاعلم أن دين الإسلام مبنىّ على أمرين : الاعتقاد والعمل. أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ) وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع . والوجه أحسن أعضاء الإنسان . فالإنسان إذا عرف بقلبه ربه ، وأقر بربوبيته وعبودية نفسه ، فقد أسلم وجهه لله . وأما العمل فإليه الإشارة بقوله (وَهُوَ مُحْسِنٌ) ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات . فتأمل فى هذه اللفظة

= عن أبى هريرة قال : كان النبىّ ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْمُ فى البنيان . فى خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبىّ ﷺ : إن الله عنده علم الساعة . . . الآية .

ثم أدبر .

فقال : « ردوه » فلم يروا شيئاً . فقال : « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض . وأيضاً فقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله. وهذا تنبيه على أن كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الأمور إلى الخالق ، وإظهار التبرىء من الحول والقوة . وأيضاً ففيه تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله . فإن المشركين كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . والدهرية والطبيعيون يستعينون بالأفلاك والكواكب والطبائع وغيرها . واليهود كانوا يقولون فى دفع عقاب الآخرة عنهم: إنهم من أولاد الأنبياء. والنصارى كانوا يقولون : ثالث ثلاثة . فجميع الفرق استعانوا بغير الله . وأما الوجه الثانى فى بيان فضيلة الإسلام فهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وقد اشتهر عند كل الخلق أن إبرهيم ما كان يدعو إلا إلى الله تعالى كما قال (إِنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(١) وما كان يدعو إلى عبادة فلك ولا طاعة كوكب ولا سجدة لصنم ولا استعانة بطبيعة . بل كان ديدنه الدعوة إلى الله والإعراض عن كل ماسوى الله . وهكذا دعوة محمد ﷺ . ثم إن شرع إبراهيم مقبول عند الكل . وذلك لأن العرب لا يفتخرون بشىء كافتخارهم بالانتساب إلى إبراهيم . وأما اليهود والنصارى فلا شك فى كونهم مفتخرين به . وإذا ثبت هذا لزم ان يكون شرع محمد مقبولاً عند الكل « وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » أى: صفياً خالص المحبة له . وإظهاره ، عليه السلام ، فى موضع الإضمار ، لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح . وسر هذه الجملة الترغيب فى اتباع ملته عليه الصلاة والسلام. فإن من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغا مصححاً لتسميته خليلاً ،

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ، أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد إليه أعناق الهمم، وأشرف ما يرمق نحوه أحداق الأمم . فإن درجة الخلة أرفع مقامات المحبة . وماذاك إلا لكثرة طاعته لربه . كما وصفه به فى قوله : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ)(١) قال كثير من علماء السلف : أى: قام بجميع ما أمر به ، وفى كل مقام من مقامات العبادة . فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير . ولا كبير عن صغير. وقال تعالى (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . .)(٢) الآية . وقال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...)الآية(٣) . والخليل ، لغةً ، الصديق المختص . وقال ابن الأعرابى: الخليل الصادق . وقال الزجاج : هو المحب الذى لا خلل فى محبته . وبه فسر الآية . أى : أحبه محبة تامة لا خلل فيها . وقال ابن دريد : الخليل من أصفى المودة وأصحّها . قال : ولا أزيد فيه شيئاً لأنها فى القرآن . انتهى .

قال الرازىّ : ذكروا فى اشتقاق الخليل وجوهاً : منها أن خليل الإنسان هو الذى يدخل فى خلال أموره وأسراره . والذى دخل حبه فى خلال أجزاء قلبه . ولا شك أن ذلك هو الغاية فى المحبة . قيل : لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ، ودعا القومَ مرة بعد أخرى إلى توحيد الله ، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ، ومنعهم عن عبادة الأوثان ، ثم سلّم للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان ، جعله الله إماماً للخلق ورسولاً إليهم ، وبشره بأن الملك والنبوة فى ذريته . فلهذه الاختصاصات سماه خليلاً ، لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات والمنافع إليه. انتهى .

وقوله: (لأن محبة الله لعبده الخ منزع كلامىّ لا سلفىّ) .

---

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٤] . . . . قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِىَ الظَّالِمِينَ » .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٠] .

ثم قال الرازىّ : وعندى وجه آخر. وهوأن جوهر الروح ، إذا كان مضيئاً مشرقاً علوياً قليل التعلق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية ، ثم انضاف إلى مثل هذا الجوهر المقدس الشريف ، أعمال تزيده صقالة عن الكدورات الجسمانية ، وأفكار تزيده استنارة بالمعارف القدسية والجلايا الإلهية ، صار مثل هذا الإنسان متوغلًا فى عالم القدس والطهارة ، متبرئاً عن علائق الجسم والحسّ . ثم لا يزال هذا الإنسان يتزايد فى هذه الأحوال الشريفة إلى أن يصير بحيث لا يرى إلا الله ، ولا يسمع إلا الله ، ولا يتحرك إلا بالله ، ولا يسكن إلا بالله، ولا يمشى إلا بالله ؛ فكأن نور جلال الله قد سرى فى جميع قواه الجسمانية . وتخلل فيها وغاص فى جواهرها . وتوغل فى ماهياتها . فمثل هذا الإنسان هو الموصوف، حقا ، بأنه خليل . لما أنه تخللت محبة الله فى جميع قواه . وإليه الإشارة بقول[٣] النبىّ ﷺ ، فى دعائه : اللهم! اجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً وفى عصبى نورًا . انتهى .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ (طبعتنا) ونصه :

عن ابن عباس قال : بت ليلة عند خالتى ميمونة . فقام النبىّ ﷺ من الليل . فأتى حاجته . ثم غسل وجهه ويديه . ثم نام . ثم قام فأتى القربة فأطلق شِناقها (الشناق هو الخيط الذى تربط به فى الوتد . وقيل : هو الوكاء) ثم توضأ وضوءًا بين الوضوءين . ولم يكثر . وقد أبلغ . ثم قام فصلى. فقمت فتمطيت كراهةَ أن يرى أنى كنت أنتبه له . فتوضأت . فقام فصلى . فقمت عن يساره . فأخذ بيدى فأدارنى عن يمينه . فتتامّت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة . ثم اضطجع . فنام حتى نفخ. وكان إذا نام نفخ . فأتاه بلال فآذنه بالصلاة. فقام فصلى ولم يتوضأ . وكان فى دعائه «اللهم ! اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا، وعن يسارى نورا ، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، وعَظِّمْ لى نورا » .

قال الإمام العلامة شمس الدين بن القيّم فى كتابه (الجواب الكافى) : الخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها . بحيث لا يبقى فى القلب سعة لغير محبوبه . وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجهٍ ما . وهذا المنصب خاصة للخليلَيْن صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد. كما قال ﷺ(١) : إن الله اتخذنى خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا . وفى الصحيح(٢) عنه ﷺ : لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا . ولكن صاحبكم خليل الله . وفى حديث(٣) آخر : إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولما سأل إبراهيم عليه السلام

(١) هذا الحديث لم أجده فى كتاب من كتب السنة التى تحت يدى . وأخيراً وجدت الحافظ ابن حجر ذكر فى (الفتح) عند الكلام على حديث : « لو كنت متخذاً خليلا لاتخذته خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » ، قال : وقد تواردت هذه الأحاديث على نفى الخلة من النبىّ ﷺ لأحد من الناس . وأمّا ما روى عن أبىّ بن كعب قال : إن أحدث عهدى بنبيكم قبل موته بخمس . دخلت عليه وهو يقول : « إنه لم يكن نبىّ إلا وقد اتخذ من أمته خليلا . وإن خليلى أبو بكر . ألا وإن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خيلا » أخرجه أبو الحسن الحربىّ فى (فوائده) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ فضائل أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ٥ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلا ، حديث ٣١٢ ونصه : عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « لو كنت متخذاً من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر . ولكن أخى وصاحبى » .

وفيه أيضاً عنه ، قال : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذته خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ، ١١ ـ باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ٩٣ ، ونصه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته . ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . إن صاحبكم خليل الله » .

الولد ، فأُعْطيه ، فتعلق حبه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره. فأمر بذبحه . وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً. ولم يكن المقصود ذبح الولد . ولكن المقصود ذبحه من قلبه . ليخلص القلب للرب. فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده ، حصل المقصود . فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم . فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً . بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله . كما أبقى شريعة الفداء . وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدى المناجاة . وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين ، وأبقى ثوابها . وقال : مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ[1] . هى خمس فى الفعل وخمسون فى الأجر. ثم قال ابن القيم قدس سره : وأما ما يظنه بعض الظانين؛ أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله ، فمن جهله . فإن المحبة عامة والخلة خاصة. والخلة نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا . ونفى أن يكون له خليل غير ربه. مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم . وأيضا فإن الله سبحانه يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[2] وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[3] وَيُحِبُّ الصَّابِرِينَ[4] وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[5]

---

(١) [٥٠/ ق/ ٢٩] ... وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

(٢) (٢ / البقرة / ٢٢٢) ونصها : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٢] .

(٤) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

(٥) [٢ / البقرة / ١٩٥] ونصها : وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(١) ،وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٢) . وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام. والشاب التائب حبيب الله. وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى .

وقد تمسك من زعم أن المحبة أصفى من الخلة بما رواه ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه . فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون. فسمع حديثهم . وإذا بعضهم يقول : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلًا . فإبراهيم خليله. وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما . وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته . وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وتعجبكم . أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك . وموسى كليمه . وعيسى روحه وكلمته . وآدم اصطفاه الله. وهو كذلك . وكذلك محمد ﷺ . قال : ألا وإنى حبيب الله . ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر . وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله لى ويدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر. وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هـذا الوجه . ولبعضه شواهد فى الصحاح وغيرها . انتهى .

قلت : ورواه الترمذى(٣) أيضا فى جامعه فى فضائله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : هـذا حديث غريب .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧٦] ونصها : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

(٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨] ونصها : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١ ـ باب فى فضل النبىّ ﷺ ، حدثنا على بن نصر

وظاهر أن قوله ﷺ : ألا وإنى حبيب الله، لا يدل على أن درجة المحبة أرفع . لأنه لم يورد للتفاضل بينهما . وإنما سيقت هذه الجملة مع مابعدها للتعريف بقدره الجسيم ، وفضله العظيم. وبيان خصائصه التى لم تجتمع قبلُ فى مخلوق. ومايُدَان الله تعالى به من حقه الذى هو أرفع الحقوق. (لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا)[1] وروى ابن أبى حاتم عن إسحق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا ألقى فى قلبه الوجل . حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء. وهكذا جاء فى صفة رسول الله ﷺ، أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل ، إذا اشتد غليانها ، من البكاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » جملة مبتدأة. سيقت لتقرير وجوب طاعة الله تعالى على أهل السموات والأرض ، ببيان أن جميع ما فيهما من الموجودات، له تعالى خلقاً وملكاً . لايخرج عن ملكوته شىء منها . فيجازى كلًّا بموجب أعماله خيراً وشرًّا. وقيل: لبيان أن اتخاذه عز وجل لإبراهيم عليه السلام خليلًا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك فى شأن من شؤونه كما هو دأب الآدميين . فإن مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض فى مصالحهم. بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام . وقيل : لبيان أن الخلة لاتخرجه عن رتبة العبودية .

(١) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ.

وقيل: لبيان أن اصطفاءه عليه السلام للخلة، بمحض مشيئته تعالى. أي: له تعالى ما فيهما جميعاً. يختار منهما ما يشاء لمن يشاء . أفاده أبو السعود .

« وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً » يعنى عالماً عِلْمَ إحاطة . لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر (١).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا)

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ » أى: ويسألونك الإفتاء فى النساء . والإفتاء تبيين المبهم ، « قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » ذكروا فى (ما) وجوهاً : المختار منها أنها فى موضع رفع بالعطف على المبتدأ ، وهو لفظ الجلالة . أى: والمتلوّ فى الكتاب يفتيكم فيهن أيضا . أو بالعطف على ضميره فى (يُفْتِيكُمْ) وساغ ، لمكان الفصل بالمفعول والجارّ والمجرور. وذلك المتلوّ فى الكتاب هو قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) قال الرازىّ : وحاصل الكلام أنهم كانوا قد سألوا عن

---

(١) [١٠ / يونس / ٦١] ونصها : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

أحوال كثيرة من أحوال النساء. فما كان منها غير مبين الحكم، ذكر أن الله يفتيهم فيها. وما كان منها مبين الحكم في الآيات المتقدمة، ذكر أن تلك الآيات المتلوّة تفتيهم فيها. وجعل دلالة الكتاب على هذا الحكم إفتاءً من الكتاب. ألا ترى أنه يقال في المشهور : إن كتاب الله بيّن لنا هذا الحكم. وكما جاز هذا، جاز أيضاً أن يقال: إن كتاب الله أفتى بكذا . قال أبو السعود : وإيثار صيغة المضارع للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها و(في الكتاب) إما متعلق بـ(يتلى) أو بمحذوف وقع حالاً من المستكنّ فيه . أي يتلى كائنا فيه « فِي يَتَامَى النِّسَاءِ » متعلق بـ(يتلى) أي: ما يتلى عليكم في شأنهن . وهذه الإضافة بمعنى (من) لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقيل: من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: النساء اليتامى « اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ » أي: ماوجب لهن من الميراث وغيره « وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » روى البخاريّ[1] ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت ، في هذه الآية : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليّها ووارثها . فأشركته في ماله حتى في العذق . فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته . فيعضلها. فنزلت هذه الآية . وعنها[2] أيضاً قالت: وقول الله عز

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤ ـ سورة النساء ، ٤ ـ باب قوله: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ، الحديث ١٢٣٤ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ١ ـ باب وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ، حديث ١٢٣٤ ونصه :

عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ، فقالت : يا ابن أختي ! هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها . فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل مايعطيها غيره. فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق . =

وجل(وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره. حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط. من أجل رغبتهم عنهن . وهذا المروىّ عن عائشة يدل على أن الآية نزلت في المعدمة . وأن الجار المقدّر مع (أن) هنا هو (عن) . وقد تأولها سعيد بن جبير على المعنيين . أى تقدير (عن) و (في) فقال : نزلت في المعدمة والغنية .

قال الحافظ ابن حجر : والمروىّ عن عائشة أوضح، في أن الآية الأولى ، أى: التي في أول السورة، نزلت في الغنية. وهذه الآية نزلت في المعدمة . قال ابن كثير : والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزوجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله أن يمهرها ، أسوة أمثالها من النساء . فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء . فقد وسع الله عز وجل . وهـذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة . وتارة لا يكون له فيها رغبة ، لدمامتها عنده ، أو في نفس الأمر . فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها . كما قال علىّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، وهى قوله (فِي يَتَامَى النِّسَاءِ) الآية : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا . فإن كانت

= فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، فأنزل الله: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ .

قالت عائشة : وقول الله في آية أخرى : وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ : رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال . قالت : فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال .

جميلة وهَـوِيَها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدًا حتى تموت . فإذا ماتت ورثها . فحرّم الله ذلك ونهى عنه .

تنبيه :

ماذكرناه عن ابن جبير من حمل الآية على المعنيين ، أى: أنّ حرف الجر المقدّر مع (أن) هو (عن) و(فى) ، وأن كلامنهما مرادمنها على سبيل البدل لصلاحيتها لهما بالاعتبارين المتقدمين . قال الخفاجىّ : مثله لا يعدّ لبسا بل إجمالًا . كما ذكره بعض المحققين . انتهى .

قلت : وهذا بناء على أن اللبس هو أن يدل اللفظ على غير المراد . والإجمال أن لا تتضح الدلالة . وبعبارة أخرى: إيراد الكلام على وجه يحتمل أمورًا متعددة. وقد نظم بعضهم الفرق بينهما فقال :

والفرق بين اللَّبس والإجمال ... مما به يُهتمّ فى الأقوال
فاللفظ ، إن أفهم غير القصد، ... فاحكم على استعماله بالرد
لأنه اللَّبس . وأما المجمل ... فربما يفهمه من يعقل
وذاك أن لا تفهم المخالفا ... ولا سواه بل تصير واقفا
وحكمه القبول فى الموارد ... فاحفظه نظماً أعظم الفوائد

« وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ » عطف (على يتامى النساء) . وما يتلى فى حقهم : قوله تعالى (يُوصِيكُمُ اللهُ ...) الخ. وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون النساء. وإنما يورثون الرجال القوّام . قال ابن عباس ، فى الآية : كانوا فى الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات . وذلك قوله (لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ) فنهى الله عن ذلك . وبيّن لكل ذى سهم سهمه. فقال (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) صغيراً أو كبيراً . وكذا قال سعيد بن جبير « وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ » بالجر ، عطف على ما قبله . وما يتلى فى حقهم : قوله تعالى (وَلَا

تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ)[١] ونحو ذلك مما لا يكاد يحصر . قال سعيد بن جبير : المعنى : كما أنها إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال وجمال ، فانكحها واستأثر بها . والخطاب للولاة ، أو للأولياء والأوصياء .

تنبيه :

استنبط من الآية أحكام : الأول ـ جواز نكاح الصغيرة . لأن اليتيم : الصغير الذى لم يبلغ . وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال : لا يتم بعد احتلام . رواه أبو داود[٢] . وعن الأصم : أراد البوالغ قبل التزوج . وسماهن باليتم لقرب عهدهن باليتم . والأول أظهر . لأنه الحقيقة . قالوا : قد يطلق اليتيم على البالغة . بدليل قوله[٣] ﷺ : تستأمر اليتيمة فى نفسها . فإن سكتت فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها . رواه أهل السنن . والاستئمار لا يكون إلا من البالغة . وقد ورد قول الشاعر :

إن القبور تنكح الأيامى　　النسوة الأرامل اليتامى

(١) [٤ / النساء / ٢] ونصها : وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

(٢) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٩ ـ باب ما جاء متى ينقطع اليتم ، حديث ٢٨٧٣ ونصه :

عن علىّ بن أبى طالب قال : حفظت عن رسول الله ﷺ « لا يُتم بعد احتلام ، ولا صُمَات يوم إلى الليل » .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٢٣ ـ باب فى الاستئمار ، حديث ٢٠٩٣ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تستأمر اليتيمة فى نفسها . فإن سكتت فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها » .

فسمى البالغات يتامى ، لانفرادهن عن الأزواج . وكل شيء منفرد لا نظير له يقال له يتيم . كقولهم : درة يتيمة . وهذه المسألة فيها أقوال للعلماء : الأول ـ جواز نكاح الصغيرة لجميع الأولياء . وهـذا مذهب الهادوية ومالك وأبي حنيفة وصاحبيه . الثاني ـ للناصر والشافعيّ : لا يجوز ذلك إلا للأب والجد . والثالث ـ لايجوز ذلك إلا للأب فقط . وهذا قول الأوزاعيّ . ومرويّ عن القاسم. دليل الأولين ، ما اقتضاه قوله تعالى (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) وهي نزلت في شأن اليتيمة ينكحها وليها ولا يقسط لها في المهر . فنهوا عن ذلك وأمروا أن يقسطوا في المهر بقوله في سورة النساء (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) واليتم الحقيقيّ مع الصغر . وغيره مجاز. وأدنى الأولياء الذي يجوز له النكاح ، ابن العم. فإذا صح فيه صح . وحجة القول الثاني قوله ﷺ: تستأمر اليتيمة . الحديث المتقدم . والإذن لا يكون إلا بعد البلوغ . وروى الإمام أحمد والدارقطنيّ : أن قدامة بن مظعون زوّج ابنة أخيه ، وكان وصيّها ، ممن أبَتْه . فرفع ذلك إلى النبيّ ﷺ . فقال : هي يتيمة ولا تنكح إلا بإذنها . كذا ذكره بعض مفسري الزيدية.

وتخريج الأحاديث من زيادتي . وما نقله من أن الإذن لا يكون إلا بعد البلوغ يحتاج إلى دليل . إذ لا يدل عليه الخبر بمنطوقه ولا مفهومه .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وفي حديث: لاتنكح الأيّم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن : ظاهر الحديث اشتراط رضاء المزوجة . بكراً كانت أو ثيباً . صغيرة أو كبيرة . انتهى .

قال الترمذيّ[1] في (جامعه) : قال بعضهم : لا يجوز نكاح اليتيمة حتى تبلغ . وقال

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب ما جاء في إكراه اليتيمة على التزويج :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اليتيمة تستأمر في نفسها . فإن صمتت =

أحمد وإسحاق: إذا بلغت اليتيمة سبع سنين فزوجت فرضيت فالنكاح جائز . ولا خيار لها إذا أدركت. واحتجا بحديث عائشة أن النبيّ ﷺ بنى بها وهى بنت تسع سنين . وقد قالت عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهى امرأة . انتهى .

الحكم الثانى ـ أنه يجوز أن يتولى طرفى العقد واحد فى النكاح. لقوله (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) وقد روى ابن سعد من طريق ابن أبى ذئب عن سعيد بن خالد ، أن أم حكيم بنت قارظ قالت لعبد الرحمن بن عوف : إنه قد خطبنى غير واحد . فزوجنى أيّهم رأيت. قال : وتجعلين ذلك إلىّ؟ فقالت : نعم . قال:قد تزوجتك. قال ابن أبى ذئب: فجاز نكاحه .

وروى عبد الرزاق ووكيع والبيهقىّ أن المغيرة بن شعبة أراد أن يتزوج امرأة وهو وليّها. فأمر أبعد منه، فزوجه.

وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : امرأة خطبها ابن عم لها ، لا رجل لها غيره . قال : فلتشهد أن فلاناً خطبها ، وإنى أشهدكم أنى قد نكحته . ولتأمر رجلاً من عشيرتها .

= فهو إذنها . وإن أبت فلا جواز عليها » يعنى إذا أدركت فردّت جاز .

قال : وفى الباب عن أبى موسى وابن عمر وعائشة .

(قال أبو عيسى) : حديث أبى هريرة حديث حسن . واختلف أهل العلم فى تزويج اليتيمة . فرأى بعض أهل العلم أن اليتيمة إذا زوجت فالنكاح موقوف حتى تبلغ . فإذا بلغت فلها الخيار فى إجازة النكاح أو فسخه . وهو قول بعض التابعين وغيرهم . وقال بعضهم : لا يجوز نكاح اليتيمة حتى تبلغ ، ولا يجوز الخيار فى النكاح . وهو قول سفيان الثورىّ والشافعىّ وغيرهما من أهل العلم . وقال أحمد وإسحاق : إذا بلغت اليتيمة تسع سنين فزوجت فرضيت فالنكاح جائز . ولا خيار لها إذا أدركت . واحتجا بحديث عائشة أن النبىّ ﷺ بنى بها وهى بنت تسع سنين . وقد قالت عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهى امرأة .

أخرج هذه الآثار الثلاثة البخاريّ[1] فى (صحيحه) تعليقا فى (باب إذا كان الوليّ هو الخاطب) أى: هل يزوج نفسه أو يحتاج إلى وليّ آخر .

قال ابن المنير : ذكر فى الترجمة ما يدل على الجواز والمنع معاً ، ليكل الأمر فى ذلك إلى نظر المجتهد .

قال الحافظ ابن حجر : لكن الذى يظهر من صنيعه أنه يرى الجواز . فإن الآثار التى فيها أمر الوليّ غيرَه أن يزوجه ـ ليس فيها التصريح بالمنع من تزويجه نفسه .

ثم قال : وقد اختلف السلف فى ذلك . فقال الأوزاعيّ وربيعة والثوريّ ومالك وأبو حنيفة وأكثر أصحابه : يزوّج الوليّ نفسه . ووافقهم أبو ثور . وعن مالك : لو قالت الثيب لوليّها : زوجنى بمن رأيت ، فزوجها من نفسه ، أو ممن اختار ، لزمها ذلك . ولو لم تعلم عين الزوج . وقال الشافعيّ : يزوجهما السلطان أو وليّ آخرمثله ، أو أقعد منه . ووافقه زفر وداود . وحجتهم أن الولاية شرط فى العقد . فلا يكون الناكح منكحاً ، كما لا يبيع من نفسه. انتهى .

الحكم الثالث ـ أنه يجوز للأولياء التصرف فى المال. لأن القيام بالقسط لايتم إلا بذلك « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ » لاسيما فى حق الضعفاء من حفظ أموالهم والقيام بتدبيرهم والإقساط لهم « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً » فيجزيكم به .

---

(١) أخرجها البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٣٧ ـ باب إذا كان الوليّ هو الخاطب . ونصها :

وخطب المغيرة بن شعبة امرأة هو أولى الناس بها . فأمر رجلا فزوجه .

وقال عبد الرحمن بن عوف لأم حكيم بنت قارظ : أتجعلين أمرك إلىّ ؟ قالت : نعم . فقال : قد تزوّجتك .

وقال عطاء : لِيُشْهِد أنى قد نكحتك . أو ليأمر رجلا من عشيرتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ،وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا » أى: زوجها « نُشُوزًا » أى: تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها ، بترك مضاجعتها والتقصير فى نفقتها « أَوْ إِعْرَاضاً » أى : تطليقاً . أو أن يقلّ محادثتها ومجالستها. كراهة لها أو لطموح عينه إلى أجمل منها « فَلَا جُنَاحَ » أى لا إثم « عَلَيْهِمَا » حينئذ « أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا » بحطِّ شيء من المهر أو النفقة . أو هبة شيء من مالها أو قَسْمِها ، طلباً لبقاء الصحبة إن رضيت بذلك . وإلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها أو يفارقها . قال فى (الإكليل) : الآية أصل فى هبة الزوجة حقها من القَسْم وغيره . استدل به من أجاز لها بيع ذلك « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » أى من الفرقة والنشوز والإعراض . قال ابن كثير : بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود(١) وابن ماجة(٢) عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق . قال بعض مفسرى الزيدية : وفى هذه الآية حث على الصبر على نفس الصحبة . لقوله تعالى « وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » أى: من الفرقة وسوء العشرة . أو خير من الخصومة . أو خير من الخيور . كما أن الخصومة شر من الشرور . وقد كان من كرم

(١) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق، ٣ ـ باب فى كراهية الطلاق، حديث ٢١٧٨.

(٢) أخرجه فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١ ـ باب حدثنا سويد بن سعيد ، حديث ٢٠١٨ (طبعتنا) .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم[١] أنه كان يكرم صواحب خديجة بعد موتها. وعنه صلى الله عليه وسلم[٢]: إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه . وهذا فيه صبر. وفي الصبر ما لا يحصر من

(١) أخرجه البخاريّ في: ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٢٠ ـ باب تزويج النبيّ ﷺ خديجة ، وفضلها رضي الله عنها ، حديث ١٧٨٩ وها هو بطرقه الثلاث :

١ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : ماغرت على امرأة للنبيّ ﷺ ماغرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها . وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصَب. وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن .

٢ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : ماغرت على امرأة ماغرت على خديجة ، من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها . قالت : وتزوجني بعدها بثلاث سنين . وأمره ربه عز وجل، أو جبريل عليه السلام، أن يبشرها ببيت في الجنة من قصَب .

٣ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبيّ ﷺ ما غرت على خديجة . وما رأيتها. ولكن كان النبيّ ﷺ يكثر ذكرها. وربما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلت له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول « إنها كانت وكانت . وكان لي منها ولد » .

(٢) أخرجه مسلم في: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ٤ ـ باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ، ونحوهما ، حديث ١١ (طبعتنا) ونصه :

عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة . فسلّم عليه عبد الله . وحمله على حمار كان يركبه . وأعطاه عمامة كانت على رأسه .

فقال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ! إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير .

فقال عبدالله : إن أبا هذا كان وُدًّا (أي: صديقاً من أهل مودته) لعمر بن الخطاب . وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » .

المحاسن والفضائل . والصلح فيه من أنواع الترغيب . روى عنه صلى الله عليه وسلم: من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد . وعن أنس : من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة . انتهى . وفى (الإكليل) : قوله تعالى (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) عام فى كل صلح ، أصل فيه . وفى الحديث[1] : الصلح جائز بين المسلمين. إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . واستدل بعموم الآية من أجاز الصلح على الإنكار والمجهول « وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ » بيان لما جبل عليه الإنسان. أى: جعلت حاضرة له مطبوعة عليه، لا تنفك عنه أبداً . فلا تكاد المرأة تسمح بالنشوز ، والإعراض ، وحقوقها من الرجل. ولا الرجل فى إمساكها مع القيام بحقوقها على ماينبغى، إذا كرهها أو أحب غيرها . والجملة الأولى للترغيب فى المصالحة. والثانية لتمهيد العذر فى المشاحة وللحث على الصلح . فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلّية بغير استمالة، مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالته . وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقتنع من قِبَلِهَا بشىء يسير ، ولا يكلفها بذل الكثير ، فيتحقق بذلك الصلح « وَإِنْ تُحْسِنُوا » فى العشرة « وَتَتَّقُوا » النشوز والإعراض ونقص الحق « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ » من تحمل المشاق فى ذلك « خَبِيرًا » فيجازيكم ويثيبكم . قال أبو السعود : وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات ، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ، ولفظ (التقوى) المنبىء عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه ، وترتيب الوعد الكريم عليه ـ من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة، مالا يخفى .

وما قدمنا فى تفسير الآية هو زبدة ما نقل عن السلف، صحابة وتابعين فى معناها.

قال ابن كثير : ولا أعلم فى ذلك خلافاً . وفى البخارىّ[2] عن عائشة ، فى هذه الآية

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١٢ ـ باب فى الصلح، حديث ٣٥٩٤

(٢) أخرجه فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٩٥ ـ باب وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ، حديث ١٢٠٦ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها : وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا . =

قالت : الرجل تـكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها . يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأني في حلّ . فنزلت هذه الآية . وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن عرعرة قال : جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب عليـه السلام. فسأله عن قول الله عز وجل : وَإِنِ امْرَأَةٌ...الآية ، قال عليّ : يكون الرجل عنده المرأة. فتنبو عينه عنها من دمامتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذذها ، فتكره فراقه . فإن وضعت له من مهرها شيئاً ، حلّ له . وإن جعلت له من أيامها ، فلا حرج . وكذا رواه أبو داود الطيالسيّ[1] وابن جرير . وروى ابن جرير[2] أيضاً عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن هـذه الآية فقال: هذه المرأة تـكون عند الرجل قد خلا من سنها . فيتزوج المرأةَ الشابة يلتمس ولدها . فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وروى سعيد بن منصور عن عروة قال : أنزل في سودة وأشباهها : (وَإِنِ امْرَأَةٌ) الآية وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنت . ففرِقت أن يفارقها رسول الله ﷺ . وضنّت بمكانها منه . وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه . فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة . فقبل ذلك رسول الله ﷺ . وروى نحوه أبو داود[3] الطيالسيّ والترمذيّ عن ابن عباس . وروى الحاكم عن عروة عن عائشة أنها قالت له : يا ابن اختي ! كان رسول الله ﷺ لا يفضِّل بعضنا على بعض في القَسْمِ في مكثه عندنا . وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا . فيدنو من كل امرأة من غـير مسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها .

= قالت : هي المرأة تـكون عند الرجل ، لا يستكثر منها . فيريد طلاقها ويتزوج غيرها . تقول له : أمسكني ولا تطلقني ثم تزوجْ غيري . فأنت في حل من النفقة عليّ والقسمة لي . فذلك قوله تعالى : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ .

(١) الأثر رقم ١٠٥٧٥ .

(٢) الأثر رقم ١٠٥٧٩ .

(٣) أخرجه في: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٤ـ سورة النساء ، ٢٦ـ حدثني محمد بن المثنى.

فيبيت عندها . ولقد قالت سودة بنت زمعة ، حين أسنّت وفرِقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله ! يومى هذا لعائشة. فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها . قالت : نقول فى ذلك أنزل الله تعالى ، وفى أشباهها ، أراه قال : (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا . . .) الآية . وكذلك رواه أبو داود(١) . وفى الصحيحين(٢) عن عائشة قالت : لما كبرت سودة بنت زمعة، وهبت يومها لعائشة . فكان النبىّ ﷺ يقسم لها بيوم سودة . ولا يخفى أن قبوله ﷺ ذلك من سودة، إنما هو لتتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه. فهو أفضل فى حقه عليه الصلاة والسلام.

وقول بعض المفسرين فى هذه القصة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان عزم على طلاق سودة ـ باطل وسوء فهم من القصة . إذ لم يُرْوَ عزمه ﷺ على ذلك . لا فى الصحاح ولا فى السنن ولا فى المسانيد . غاية ماروى فى السنن؛ أن سودة خشيت الفراق لكبرها . وتوهمته. وجلىّ أن للنساء فى باب الغيرة أوهاماً منوعة . فتقدمت للنبىّ ﷺ بقبول ليلتها لعائشة . فقبل منها. وما رواه ابن كثير عن بعض المعاجم من كونه صلى الله عليه وسلم بعث إليها بطلاقها، ثم ناشدته فراجعها ـ فهو (زيادة عن إرساله وغرابته، كما قاله) فيه نكارة لاتخفى .

لطيفة :

حكى الزمخشرىّ هنا ؛ أن عِمران بن حطان الخارجىّ كان من أدمّ بنى آدم. وامرأتُه من أجملهم . فأجالت فى وجهه نظرها يوماً . ثم تابعت الحمد لله . فقال : مالك ؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة . قال : كيف ؟ قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرتَ . ورزقت مثلك فصبرتُ . وقد وعد الله الجنة، عباده الشاكرين والصابرين . انتهى.

(١) أخرجه فى: ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٨ ـ باب فى القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٥.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ٩٨ ـ باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها . وكيف يقسم ذلك ؟ حديث ١٢٦٦ .

قلت : عِمران المذكور ممن خرّج له البخاريّ في صحيحه . ولما مات سئلت زوجته عن ترجمته ؟ فقالت: أوجز أم أطنب ؟ فقيل : أوجزي . فقالت: ماقدمت له طعاماً بالنهار، وما مهدت له فراشاً بالليل . تعني أنه كان صوّاماً قوّاماً رحمه الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ » أي: تساووا بينهن في جميع الوجوه، بحيث لا يقع ميل مّا إلى جانب إحداهن ، في شأن من الشؤون . فإنه وإن وقع القسم الصوريّ ليلة وليلة، فلابد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع . كما قاله ابن عباس وغيره «وَلَوْ حَرَصْتُمْ» أي على إقامة العدل ، وبالغتم في ذلك . لأن الميل يقع بلا اختيار في القلب . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل . ثم يقول : اللهم! هذا قسمي فيما أملك . فلا تلمني فيما تملك ولا أملك . يعني القلب. رواه الإمام أحمد[١] وأهل السنن « فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ » أي: إذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل إليها . وقال المهايميّ :

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

وفي أبي داود في: ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤٨ ـ باب في القسم بين النساء ، حديث ٢١٣٤.

والترمذيّ في : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٢ ـ باب ما جاء في التسوية بين الضرائر .

والنسائيّ في : ٣٦ ـ كتاب عشرة النساء ، ٢ ـ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض .

وابن ماجة في : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٧ ـ باب القسمة بين النساء ، حديث ١٩٧١ (طبعتنا) .

فلاتميلوا ، أى عن امرأة كل الميل فتتركوا المستطاع من القسط « فَتَذَرُوهَا » أى: التى ملتم عنها « كَالْمُعَلَّقَةِ » بين السماء والأرض . لا تكون فى إحدى الجهتين . لا ذات زوج ولا مطلقة . وروى أبوداود[1] الطيالسى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شدقيه ساقط .

كذا رأيته فى (ابن كثير) شدقيه ، بشين معجمة ثم دال .

ورواية أصحاب السنن المنقولة : وشقه (بمعجمة ثم قاف) ساقط. وفى رواية : مائل « وَأَنْ تُصْلِحُوا » أى نفوسكم بالتسوية والقسمة بالعدل فيما تملكون « وَتَتَّقُوا » الحيف والجور « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » فيغفر لكم ما سلف من ميلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيمًا)

« وَإِنْ يَتَفَرَّقَا » أى الزوج والمرأة بالطلاق ، بأن لم يتفق الصلح بينهما ، فاختارا الفرقة

---

(١) رواه فى مسنده ، حديث ٢٤٥٤ وروايته (شقيه) وفى ابن كثير بالصفحة ٥٦٤ من الجزء الأول طبعة سنة ١٩٣٧ م (شقيه) وهو الصواب بخلاف النسخة التى نقل عنها شيخنا المؤلف .

وفى سنن النسائى فى: ٣٦ ـ كتاب عشرة النساء ، ٢ ـ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض .

وابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٧ ـ باب القسمة بين النساء ، حديث ١٩٦٩ (طبعتنا) .

وأبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٨ ـ باب فى القسم بين النساء، حديث ٢١٣٣

والترمذى فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٢ ـ باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر .

« يُغْنِ اللهُ كُلًّا » أي: منهما . أي يجعله مستغنياً عن الآخر « مِنْ سَعَتِهِ » أي: غناه وجوده وقدرته . وفيه زجر لهما عن المفارقة رغماً لصاحبه ، وتسلية لهما بعد الطلاق « وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً » أي: واسع الفضل « حَكِيماً » في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ،وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته. أي: كيف لا يكون واسعاً وله ما فيهما من الخلائق والأرزاق وغيرهما ؟ فله أن يعطي ما شاء منهما لمن شاء من عبيده . وعلى هذا، فهي متعلقة بما قبلها . أو أتى بها تمهيداً لما بعدها من العمل بوصيته ، إعلاماً بأنه مالك ما في السموات والأرض والحاكم فيهما . ولهذا قال « وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أي : من الأمم السابقة. و(الكتاب) اسم جنس يتناول الكتب السماوية « وَإِيَّاكُمْ » معطوف على (الذين) « أَنِ اتَّقُوا اللهَ » أي: وصينا كلًّا منكم ومنهم بالتقوى . وهي عبادته وحده . لا شريك له . والمعنى : أن وصيته قديمة ما زال يوصي الله بها عباده ، ولستم بها مخصوصين . لأنهم بالتقوى يسعدون عنده « وَإِنْ تَكْفُرُوا » أي: بالله « فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أي : فهو مالك الملك كله . لا يضره كفركم. لغناه المطلق. فما الوصية إلا لفلاحكم رحمة بكم. كما في الآية الأخرى (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)(١) وقال تعالى:

(١) [١٤ / إبراهيم / ٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)(١) « وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا » عن عباده « حَمِيدًا » أى: محموداً في ذاته ، حمدوه أو لم يحمدوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ذكره ثالثاً ، إما لتقرير كونه تعالى غنياً حميداً فإن جميع المخلوقات تدل ، بحاجتها على غناه. وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات ، على كونه حميداً . وإما تمهيداً للاحقه من الشرطية. وهو بيان كونه تعالى قادراً على جميع المقدورات . أى : له سبحانه مافيهما من الخلائق خلقاً وملكا . فهو قادر على الإفناء والإيجاد . فإن عصيتموه ، أيها الناس ، فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية . وعلى أن يُوجِدَ قوماً آخرين يشتغلون بعبادته وتعظيمه . فذكر هذه الكلمات فى هذا المقام ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور فى سياقها. كما بيّنا . قال الرازىّ : إذا كان الدليل الواحد دليلًا على مدلولات كثيرة، فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات . ثم يذكر مرة أخرى ليستدل به على الثانى . ثم ثالثاً ليستدل به على المدلول الثالث . وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة . لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر فى الذهن ما يوجب العلم بالمدلول . فكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى . فظهر أن هذا التكرير فى غاية الحسن والكمال . وأيضاً ، فإذا أعدته ثلاث مرات ، وفرّعت عليه فى كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله ، تنبَّه الذهن حينئذ لكون تخليق السموات والأرض دالًّا على أسرار شريفة ومطالب جليلة . فعند ذلك يجتهد الإنسان فى التفكر فيها والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى . ولما كان

(١) [٦٤ / التغابن / ٦] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

الغرض الكلي من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام، عن الاشتغال بغير الله، إلى الاستغراق في معرفة الله، وكان هذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده ـ لا جرم كان في غاية الحسن والكمال. انتهى. « وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا » أي: ربًّا حافظاً. توكل بالقيام بجميع ما خلق.

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٣٣] (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا)

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ » أي: يفنكم ويستأصلكم بالمرّة « أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ » أي: ويوجد، دفعةً مكانكم، قوماً آخرين من البشر. أو خلقاً آخرين مكان الإنس. يعني أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم، ولعدم تعلق مشيئته المبنيّة على الحكم البالغة بإفنائكم. لا لعجزه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً «وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ» أي: إهلاككم بالمرة وتخليق غيركم « قَدِيرًا» بليغ القدرة، كما قال تعالى « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »(١). وقال تعالى « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ »(٢). ففيه

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] ونصها: هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ.

(٢) [١٤/ إبراهيم/ ١٩] ونصها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

و [٣٥ / فاطر / ١٦و١٧].

تقرير لغناه وقدرته ، وتهديد لمن كفر به . قال بعض السلف ، ماأهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيرًا)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » كالمجاهد يجاهد للغنيمة « فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى: فماله يطلب أخسهما . فليطلبهما، أوالأشرف منهما . كما قال تعالى : فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ[١] . وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ...الآية[٢] . وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ . . . الآية[٣] . قال بعضهم: عُنِى بالآية مشركو العرب. فإنهم كانوا يقرون باللهتعالى خالقهم، ولا يقرون بالبعث يوم القيامة. وكانوا يتقربون إلى الله تعالى ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها « وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً » فلا يخفى عليه خافية . ويجازى كُلًّا بحسب قصده .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٠ـ٢٠٢] فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، . . .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٠] . . . وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١٨] . . . ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُورًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » أى مقتضى إيمانكم المبالغة والاجتهاد فى القيام بالعدل والاستقامة . إذ به انتظام أمر الدارين الموجب لثوابهما . ومن أشده القيام بالشهادة على وجهها. فكونوا « شُهَدَاءَ لِلَّهِ » أى: مقيمين للشهادة بالحق، مؤدين لها لوجهه تعالى، ولو كانت الشهادة « عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق عليها ولا تكتموه « أَوْ » على « الْوَالِدَيْنِ » أى الأصول « وَالْأَقْرَبِينَ » أى الأولاد والإخوة وغيرهم . فلا تراعِهِمْ فيها بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم . فإن الحق حاكم على كل أحد « إِنْ يَكُنْ » أى : من تشهدون عليه « غَنِيًّا » يبتغى فى العادة رضاه ويتقى سخطه «أَوْ فَقِيرًا » يترحم عليه غالبًا . أو يخاف من الشهادة عليه أن يلجئ الأمر إلى أن يعطى ما يكفيه« فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا » أى: من المشهود عليه، واعلم بما فيه صلاحهما . فلولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها . لأنه أنظر لعباده من كل ناظر « فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا» أى : إرادة العدول عن أمر الله الذى هو مصلح أموركم ، وأمور المشهود عليهم، لو نظرتم ونظروا إليه .

قال ابن كثير : أى: لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم ، على ترك العدل فى شؤونكم . بل الزموا العدل على أى حال كان . كما قال تعالى : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .(٥) ومن هذا قول

(١) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ =

عبد الله بن رواحة(١) ، لما بعثه النبيّ صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله ! لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ . ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير . وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض « وَإِنْ تَلْوُوا » أي: تحرفوا ألسنتكم عن الشهادة على وجهها «أَوْ تُعْرِضُوا » أي: عنها بكتمها « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فيجازيكم على ذلك . قال تعالى (١) : وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : لهذه الآية ثمرات . هي أحكام : الأول ـ وجوب العدل

= بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٦٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) ونصه :

عن جابر بن عبد الله أنه قال : أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله ﷺ . فأقرّهم رسول الله ﷺ كما كانوا . وجعلها بينه وبينهم . فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم . ثم قال لهم : يا معشر اليهود ! أنتم أبغض الخلق إليّ . قتلتم أنبياء الله عز وجل ، وكذبتم على الله . وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم . قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر. فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي. فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض . قد أخذنا. فاخرجوا عنا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

على القضاة والولاة . وأن لايعدل عن القسط لأمر تميل إليه النفوس وشهوات القلوب من غني أو فقر أو قرابة . بل يستوى عنده الدنىء والشريف والقريب والبعيد . ويروى أن عمر أقام حدًّا على ولد له . فذا كره فى حق القرابة . فقال : إذا كان يوم القيامة شهدتَ عند الله أن أباك كان يقيم عليك الحدود . الحكم الثانى ـ أنه يجب الإقرار على من عليه الحق ولا يكتمه . لقوله تعالى : (وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ) والمراد بالشهادة على النفس الإقرار . وهـــذا ظاهر . وقيـل المعنى : ولو كانت الشهادة وبالًا ومضرة على أنفسكم وآبائكم . بأن تكون الشهادة على سلطان ظالم . وهذه المسألة فيها خلاف بين الفقهاء إذا خشى مضرة دون القتل ، هل يجب عليه الشهادة أم لا؟ فقيل : يجب لأنه لايحفظ ماله بتلف مال غيره . وعن الشافعية والمتكلمين ، وصحح للمذهب ، أنه لا يجب . لأن الشهادة أمر بمعروف ، وشرطه أن لا يؤدى إلى منكر . ولكن إنما يسقط عنه أداء الشهادة بحصول الظن لمضرته ، لا بمجرد الخشية . وقد قال المؤيد بالله فى (الإفادة) : على الشاهد أن يشهد وإن خشى على نفسه وماله . لأن الذى يخشاه مظنون . ولعله غير كائن . يؤول على أن مراده مجوّز لا أنه قد ظن حصول المضرة . وهذا يجوز له الشهادة مع الخشية على نفسه ، قال فى (شرح الإبانة) : يجوز إذا كان قتله إعزازاً للدين . كالنهى عن المنكر . أمَّا لو كتم لغير عذر فلا إشكال فى عصيانه . وعن ابن عباس: ذلك من الكبائر . الحكم الثالث ـ يتعلق بقوله تعالى (شُهَدَآءَ لِلَّهِ) أى : تشهدون لوجه الله كما أمركم . وفى هذا دلالة على أن أخذ الأجرة على تأدية الشهادة لا يجوز . لأنه لم يقمها لله . وقد استثنى أهل الفقه صوراً جوّزوا أخذ الأجرة على تأدية الشهادة . منها : إذا طلب إلى موضع . لأن الخروج غير واجب عليه . ومنها: إذا كان غيره يشهد ويحصل به الحق ، فإن شهادته غير لازمة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا » أى : اثبتوا على إيمانكم « بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ » محمد صلى الله عليه وسلم. يعنى القرآن « وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ » على الرسل ، بمعنى الكتب « وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » أى : خرج عن الهدى وبعد عن القصد كل البعد . أما الكفر بالله فظاهر . وأما بالملائكة فلأنهم المقربون إليه . وأما بالكتب فلأنها الهادية إليه . وأما بالرسل فلأنهم الداعون إليه . وأما باليوم الآخر فلأن فيه نفع إقامته وضرر تركه . فإذا أنكر لزم إنكار النفع الحقيقى والضرر الحقيقى . فهو الضلال البعيد . ثم الكفر بالملائكة كفر بمظاهر باطنه . وبالكتب كفر بمظاهر صفة كلامه . وبالرسل كفر بأتم مظاهره . وباليوم الآخر كفر بدوام ربوبيته وعدله . ثم الكفر بالملائكة يدعو إلى الإيمان بالشياطين . وبكتب الله إلى الإيمان بكتب الكفرة . وبالرسل إلى تقليد الآباء ، وباليوم الآخر الى الاجتراء على القبائح . وكل ذلك ضلال بعيد . أفاده المهايمى . ولما أمر تعالى بالإيمان ورغب فيه ، بيّن فساد طريقة من يكفر بعد الإيمان ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا » فى الآية وجوه : الأول ـ أن المراد الذين تكرر منهم الارتداد ، وعهد

منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه ، يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله . لأن قلوب أولئك، الذين هذا ديدنهم، قلوب قد ضريت بالكفر ومرنت على الردّة. وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى . وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ، ونصحت توبتهم ، لم يقبل منهم ولم يغفر لهم . لأن ذلك مقبول . حيث هو بذلٌ للطاقة واستفراغ الوسع . ولكنه استبعاد له واستغراب . وإنه أمر لا يكاد يكون . وهكذا نرى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع، ثم يتوب ثم يرجع ، فإنه لا يكاد يرجى منه الثبات . والغالب أنه يموت على الفسق . فكذا هنا . الثاني ـ قال بعضهم : هم اليهود. آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا حين عبدوا العجل . ثم آمنوا بعد عوده إليهم ثم كفروا بعيسى والإنجيل . ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ . وقد أورد على هذا الوجه أن الذين ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ ليسوا مؤمنين بموسى . ثم كافرين بالعجل ، ثم مؤمنين بالعوْد ، ثم كافرين بعيسى. بل هم إما مؤمنون بموسى وغيره ، أو كفار لكفرهم بعيسى والإنجيل . والجواب : أن هذا إنما يردُ لو أريد قوم بأعيانهم : كالموجودين وقت البعثة . أما لو أريد جنس ونوع ، باعتبار عدّ ما صدر من بعضهم كأنه صدر من كلهم ، فلا إيراد. والمقصود حينئذ استبعاد إيمانهم لما استقر منهم ومن أسلافهم. الثالث ـ قال آخرون: المراد المنافقون . فالإيمان الأول إظهارهم الإسلام . وكفرهم بعد ذلك هو نفاقهم . وكون باطنهم على خلاف ظاهرهم. والإيمان الثاني هو أنهم كلما لقوا جمعاً من المسلمين قالوا إنا مؤمنون. والكفر الثاني هو أنهم إِذَا[(١)] خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. وازديادهم في الكفر هو جدهم واجتهادهم في استخراج أنواع المكر والكيد في حق المسلمين.

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

وإظهارُ الإيمان قد يسمى إيماناً . قال تعالى : وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ(١) : قال القفال رحمه الله : وليس المراد بيان هذا العدد . بل المراد ترددهم . كما قال : مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ. قال : والذى يدل عليه ، قوله تعالى بعد هذه الآية :بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ . الرابع ـ قال قوم : المراد طائفة من أهل الكتاب قصدوا تشكيك المسلمين فكانوا يظهرون الإيمان تارة والكفر أخرى . على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا : ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢) وقوله (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) معناه أنهم بلغوا فى ذلك إلى حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام .

نقل هذه الوجوه الزمخشرىّ والرازىّ وغيرهما . وكلها مما يشمله لفظ الآية.

تنبيه :

فى الآية مسائل :

الأولى ـ قال فى (الإكليل) : استدل بها من قال : تقبل توبة المرتد ثلاثاً . ولا تقبل فى الرابعة .

وقال بعض الزيدية فى (تفسيره) : دلت على أن توبة المرتد تقبل . لأنه تعالى أثبت إيماناً بعد كفر ، تقدمه إيمان .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢١] . . . وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ، وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

وأقول : دلالتها على ذلك فى صورة عدم تكرار الردة . وأما معه ، فلا . كما لا يخفى .

ثم قال : وعن إسحق : إذا ارتد فى الدفعة الثالثة لم تقبل توبته . وهى رواية الشعبىّ عن علىّ عليه السلام . انتهى .

وذهبت الحنابلة إلى أن من تكررت ردته لم تقبل توبته . كما أسلفنا ذلك فى آل عمران فى قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا ... الآية[1] . وقوله بعدها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا... الآية[2] وذكرنا، ثمة، أن هذه الآية كتلك الآية . وأن ظاهرهما يشهد لما ذهب إليه إسحق وأحمد . وأما الوجوه المسوقة هنا فهى من تأويل أكثر العلماء القائلين بقبول توبة المرتد ، وإن تكررت . وبعدُ . فالمقام دقيق . والله أعلم .

الثانية ــ دلت على أن الكفر يقبل الزيادة والنقصان . فوجب أن يكون الإيمان نصًّا كذلك . لأنهما ضدان متنافيان . فإذا قبل أحدهما التفاوت ، قبله الآخر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ » من باب التهكم « بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » فإنهم آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن . ويدل على مقارنة إيمانهم للكفر ترجيحهم جانب الكفرة فى المحبة إذ هم :

---

(١) [٣ / آل عمران / ٨٦] ونصها : كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٠] ... لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)

« الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » أي : يتخذونهم أنصاراً مجاوزين موالاة المؤمنين « أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ » أي : أيطلبون بموالاتهم القوة والغلبة. وهذا إنكار لرأيهم وإبطال له . وبيان لخيبة رجائهم . ولذا علله بقوله « فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » أي : له الغلبة والقوة . فلا نصرة لهم من الكفار . والنصرة والظفر كله من الله تعالى . وهذا كما قال تعالى في آية أخرى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(١) .

قال ابن كثير : والمقصود ، من هذا ، التهييجُ على طلب العزة من جناب الله، والإقبال على عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين ، الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي ريحانة . أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزاً وكرماً ، فهو عاشرهم في النار . تفرد به أحمد(٢) .

وأبو ريحانة هـذا هو أزديّ واسمه (شمعون) بالمعجمة فيما قاله البخاريّ . وقال غيره : بالمهملة والله أعلم .

تنبيه :

قال الحاكم : دلت الآية على وجوب موالاة المؤمنين ، والنهي عن موالاة الكفار. قال : والنهيّ عن موالاتهم في الدين فقط . وقد ذكر المؤيد بالله ، قدس الله روحه ، معنى هذا . وهي : أن تحبه لما هو عليه . وهذا ظاهر . وهو يرجع إلى الرضا بالكفر ، وما أحبه لأجله .

(١) [٦٣/ المنافقون/ ٨] ونصها : يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة ١٣٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

فأما الخلطة فليست موالاة . وقد جوز العلماء رحمهم الله نكاح الفاسقة . وكذلك الإحسان . فقد مدح الله من أطعم الأسارى . وجوّز كثير منهم الوصية لأهل الذمة . وكذلك الاغتمام بغمه فى أمر ، كاغتمام المسلمين لغلب فارس للروم. كذا فى تفسير بعض الزيدية .

القول فى التأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » قال المفسرون : إن المشركين بمكة كانوا فى مجالسهم يخوضون فى ذكر القرآن ويستهزئون به . فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم بقوله : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ(١) . وهذه الآية من سورة الأنعام . وهى مكية . فامتنع المسلمون عن القعود معهم . ولماقدموا المدينة كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين. وكان اليهود يستهزئون بالقرآن . فنزلت هذهالآية (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ) . يعنى فى سورة الأنعام « أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا » يعنى يجحد بها « وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » وفيها دلالة على أن المنزل على النبىّ ﷺ ، وإن خوطب به خاصة، منزل على الأمة . وأن مدار الإعراض عنهم ، هو العلم بخوضهم فى الآيات . ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع . وأن المراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم . لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط « إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ » أى : إذا قعدتم معهم دل على رضاكم بالكفر

(١) [٦ / الأنعام / ٦٨] . . . وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

بالآيات والاستهزاء بها . فتكونون مثلهم فى الكفر واستتباع العذاب . فاجتماعكم بهم ههنا سبب اجتماعكم فى جهنم . كما قال « إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً » لأنهم لما شاركوهم فى الكفر ، واجتمعوا على الاستهزاء بالآيات فى الدنيا ، جمعهم الله فى عذاب جهنم يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : اعلم أنه لا خلاف فى تحريم القعود والمخالطة ، إذا كان ذلك يوهم بأن القاعد راض . ولا خلاف أنه يحرم إذا خشى الافتتان . ولا خلاف أنه يجوز القعود للتنكير عليهم والدفع لهم .

قال الحاكم : ولذلك يحضر العلماء مع أهل الضلالة يناظرونهم . ولهم بذلك الثواب العظيم . وأما إذا خلا عما ذكرنا ، وكان لا يوهم بالرضا ولا يفتتن ولا ينكر عليهم ، فاختلف العلماء فى ذلك . فمنهم من أوجب المثل . لظاهر الآية .

قال الحاكم : روى(١) أن قوماً أُخذوا على شراب فى عهد عمر بن عبد العزيز . فأمر بضربهم الحدّ . فقيل : فيهم صائم . فتلا قوله تعالى : فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ـ إلى قوله ـ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ . وهذا أيضا ظاهر حديث : لا يحل لعين ترى الله يُعْصى ، فتطرف حتى تغير و تنتقل .

وقال أبو علىّ وأبو هاشم : إن أنكر بقلبه لم يجب عليه أكثر من ذلك . وجاز له القعود ، يعنى مع عجزه عن الإنكار باليد أو باللسان ، وعدم تأثير ذلك .

أقول : ماقالاه مخالف لظاهر الآية . فلا عبرة به .

وقال القاضى والحاكم : أما لو كان له حق فى تلك البقعة ، فله أن لا يفارق . كمن يحضر الجنائز مع النوح ، أو الولائم . فيسمع المنكر فيسعه أن يقعد . والنكير على قدر الإمكان واجب عليه .

---

(١) الأثر رقم ١٠٧٠٩ من تفسير الطبرىّ .

وعن الحسن : لو تركنا الحق للباطل لبطل الشرع . وقد كان خرج إلى جنازة ، خرجت النساء فيها فلم يرجع . ورجع ابن سيرين . انتهى .

أقول : من له حق فى البقعة ، فعليه أن يفارق كغيره . إذ ليس فى مفارقته ضياع حقه. وعموم الآية يشمله ، ولا تخصيص إلا بمخصص . والمسألة المقيس عليها غير ما نحن فيه . على مافيها من الخلاف . كما حكى . ولا قياس مع النص. وقد حكى الحاكم أقوالًا كلها ترجع إلى تخصيص الآية . ولا مستند فيها إلا الرأى ، والاحتمال . فلذا أعرضنا عنها .

قال أبو علىّ : تحريم القعود فى المجلس لما فيه من الإبهام . فإذا أظهر الكراهة جاز القعود فى مكان آخر ، وإن قرب. وأما إذا خاضوا فى حديث غيره، جاز القعود. بمفهوم الآية . ثم إن الآية محكمة عند الجمهور . وروى عن الكلبىّ، أنها منسوخة بقوله تعالى : وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ[1] . وهو مردود . فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها .

قال الحاكم : دلت الآية على أن الراضى بالاستهزاء بالرسول والدين ، كافر. لأنه تعالى قال (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) ودلت على أن الرضا بالكفر كفر .

وقال السمرقندىّ : فى هذه الآية دليل على أن من جلس فى مجالس معصية ، ولم ينكر عليهم ، فيكون معهم فى الوزر سواء . وينبغى أن ينكر عليهم ، إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها. فإن لم يقدر أن ينكر عليهم ينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

وروى ابن جرير عن الضحاك أنه قال : دخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين ، وكل مبتدع إلى يوم القيامة .

وقال فى (فتح البيان) : وفى هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذى هو المعتبر دون خصوص السبب ، دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقيص والاستهزاء،

(١) [٦ / الأنعام / ٦٩] . . . وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

للدلالة الشرعية . كما يقع كثيراً من أُسَرَاء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة . ولم يبق في أيديهم سوى (قال إمام مذهبنا : كذا) و(قال فلان من أتباعه بكذا) أو إذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي ، سخروا منه ، ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً ، ولا بالوا به بالة . وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع . وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع . مع أن الأئمة، الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم ، برءاء من فعلهم . فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم . انتهى.

وفي (الإكليل) : قال ابن الفرس . استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اجتناب أهل المعاصي والأهواء . وفي هذه الآية أصل لما يفعله المصنفون من الإحالة على ما ذكر في مكان آخر ، والتنبيه عليه . انتهى. وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)

« الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ » إما بدل من (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ) وإما صفة للمنافقين: أي: ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو هزيمة « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ » أي : نصر وتأييد وظفر وغنيمة « قَالُوا » لكم « أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ » أي : مظاهرين لكم ، فلنا دخل في فتحكم، فليكن لنا شركة في غنيمتكم « وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ » أي : إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان ، كما وقع يوم أُحد ، فإن الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة « قَالُوا » أي : الكفرة توددًا إليهم ، ومصانعة لهم ، ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم

لضعف إيمانهم « أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ » أى : ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم « وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بأن ثبطناهم عنكم ، وتوانينا فى مظاهرتهم حتى انتصرتم عليهم. وإلا لكنتم نهبة للنوائب. وتسميةُ (ظفر المسلمين) فتحاً ، و(ما للكافرين) نصيباً ؛ لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظ الكافرين .

قال فى (الانتصاف) : وهذا من محاسن نكت القرآن . فإن الذى كان يتفق للمسلمين فيه ، استئصالٌ لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم وأرض لم يطؤها . وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التى لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحاً . فالتفريق بينهما أيضاً مطابق للواقع . والله أعلم .

قال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على وجوب محبة نصرة المؤمنين وكراهة أن تكون اليد عليهم . وتحريم خذلانهم . وإن المنافق لا سهم له . لأن فى الآية إشارة إلى أنهم طلبوا لما منعوا ، فقالوا : ألم نكن معكم ؟ ثم قال . يجوز التأليف من الغنيمة للمنافقين، كما فعل الرسول ﷺ يوم حنين. حتى أعطى الواحد منهم مائة ناقة ، والواحد من المسلمين الشاة أو البعير.
« فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى حكماً يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب . أى : فلا يغترّ المنافقون بحقن دمائهم فى الدنيا لتلفظهم بالشهادة . لماله تعالى فى ذلك من الحكمة . فيوم القيامة لا ينفعهم ظواهرهم . وقوله تعالى « وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » ردٌّ على المنافقين فيما أمّلوهُ ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين . وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم ، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم . كما قال تعالى : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ـ إلى قوله ـ نَادِمِينَ(١) . أى : لن يسلط الله الكافرين على المؤمنين فيستأصلوهم بالكلية . وإن حصل

(١) [٥ / المائدة / ٥٢] . . . يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ .

لهم ظفر حيناً مّا . أفاده ابن كثير وهذا التأويل روعى فيه سابق الآية ولاحقها ، وأن السياق فى (المنافقين) وهو جيد . ويقرب منه ما فى تفسير ابن عباس من حمل (الكافرين) على يهود المدينة. ومن وقف مع عمومها ، قال : المراد بالسبيل الحجة . وتسميتها (سبيلًا) لكونها موصلا للغلبة. أو المراد: مادام المؤمنون عاملين بالحق غير راضين بالباطل ولا تاركين للنهى عن المنكر . كما قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ[1] . قال : فلا يراد أنه قد يُدال للكافرين .

تنبيه :

قد يستدل بهذه الآية على أن الكافر لا ينكح مؤمنة . وأنه لا يلى على مؤمنة فى نكاح ولا سفر . وأن الكافر لا يشفع المؤمن . وهذا قول الهادى فى (الأحكام) والنفس الزكية والراضى بالله . وروى مثله عن الحسن والشعبيّ وأحمد . وقال فى (المنتخب) والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : له الشفعة . لعموم أدلة الشفعة . وبالقياس على رد المعيب فيما شرى من مسلم . ويستدل بأن المرتد تبين منه امرأته المسلمة . والخلاف : هل بنفس الردة كما يقول الحنفية ، أو بانقضاء العدة كما يقول المؤيد بالله والشافعية ؟ وكذلك بيع العبد المسلم من الذميّ . أجازه الحنفية ومنعه المؤيد والشافعية . لكن على الأول ، يجبر على بيعه ، فلا يستخدمه . قيل: والأمّة مجمع على تحريم بيعها من الكافر إذا كانت مسلمة . ولا خلاف أن الآية مخصوصة بأمور . منها: الدَّيْن يثبت للكافر على المؤمن . ومنها: أنه ينفق المؤمن على أبويه الكافرين ونحو ذلك . وإذا خص العموم فقد اختلف الأصوليون : هل تبقى دلالته على الباقى حقيقة أم مجازاً ؟ انتهى. وزاد بعض المفسرين : إن الكافر لا يرث المسلم. وإن المسلم لا يقتل بالذميّ .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] . . . وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ »أى:يفعلون مايفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر . والله يفعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع . حيث تركهم معصومى الدماء والأموال فى الدنيا ، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار فى الآخرة « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ » أى:أتوها « قَامُوا كُسَالَىٰ » أى: متثاقلين كالمكره على الفعل . قال ابن كثير:هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها . وهى الصلاة . إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها. لأنهم لانية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها. كما روى ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان . ولكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح . فإنه يناجى الله ، وإن الله تجاهه ، يغفر له ويجيبه إذا دعاه . ثم يتلو هذه الآية : وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ . انتهى .

قال الحاكم : وفى الآية دلالة على أن من علامات المنافق الكسل فى الصلاة. والكسل: التثاقل عن الشىء لمشقته . فهذه الآية فى صفة ظواهرهم كما قال (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ)(١) ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال« يُرَاءُونَ النَّاسَ» أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ليحسبوهم مؤمنين . لا لإخلاص ومطاوعة أمر الله. ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يُرَوْن فيها غالباً . كصلاة العشاء فى وقت العتمة وصلاة الصبح فى

(١) [٩ / التوبة / ٥٤] ونصها : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

وقت الناس. كما ثبت في الصحيحين[١] أن رسول الله ﷺ قال: إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا . ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام . ثم آمر رجلًا فيصلي بالناس . ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب ، إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار. وفي رواية[٢] : والذى نفسي بيده! لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا أو مِرْماتين حسنتين لشهد العشاء . ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم .

وروى الحافظ وأبو يعلى عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة . استهان بها ربَّه عز وجل . وقوله « وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا » فيه وجوه : الأول ـ معناه ولا يصلون إلا قليلًا . لأنهم إنما يصلون رياءً مادام من يرقبهم . فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا . وتأويل (الذكر) بالصلاة، روى في غير ما آيةٍ عن السلف . الثاني ـ ولا يذكرون الله في صلاتهم إلا قليلًا . لأنهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون . بل هم في صلاتهم ساهون لاهون . وقد روى الإمام مالك[٣] عن العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : تلك صلاة

(١) أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢٥٢ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٢٩ ـ باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث ٤٠٨ عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه في الموطأ في : ١٥ ـ كتاب القرآن ، حديث ٤٦ (طبعتنا) ونصه :
عن العلاء بن عبد الرحمن قال : دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر . فقام يصلّي العصر . فلما فرغ من صلاته ، ذكرنا تعجيل الصلاة ، أو ذكرها ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تلك صلاة المنافقين . تلك صلاة المنافقين . تلك صلاة المنافقين . يجلس أحدهم حتى =

المنافق . تلك صلاة المنافق . تلك صلاة المنافق . يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان ، قام فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا . وكذا رواه مسلم والترمذىّ والنسائىّ . الثالث ـ معناه : ولا يذكرون الله بالتهليل والتسبيح إلا ذكراً قليلًا فى الندرة . على أن الذكر بمعناه المتبادر منه . وعليه، فمن علامات النفاق استغراق الأوقات بحديث الدنيا، وقلة ذكره تعالى بتحميد أو تهليل أو تسبيح. كما أن من صفات المؤمنين ذكر الله تعالى كثيراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا)

« مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ » حال من فاعل (يراؤن) أو منصوب على الذم و(ذلك) إشارة إلى الإيمان والكفر. المدلول عليهما بمعونة المقام. أو إلى (المؤمنين والكافرين) ، فيكون مابعده تفسيراً له . أى : مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان والهوى . وحقيقة المذبذب الذى يُذَبّ عن كلا الجانبين . أى : يذاد ويدفع ، فلا يقرّ فى جانب واحد . إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب . كأنّ المعنى كلما مال إلى جانب ذُبَّ عنه « لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » أى : لا منضمين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين . ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين . وقال مجاهد : لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، يعنى أصحاب محمد ﷺ . وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، يعنى اليهود . « وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ » عن دينه وحجته « فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » أى : طريقاً إلى الصواب والهدى . روى الشيخان عن ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال[١] :

= إذا اصفرّت الشمس ، وكانت بين قرنى الشيطان، أو على قرن الشيطان، قام فنقر أربعا . لا يذكر الله فيها إلا قليلا » .

(١) أخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ١٧ (طبعتنا).

مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين: تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة: (العائرة المتحيرة المترددة لا تدرى لأى الغنمين تتبع).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » هذا نهى عن موالاة الكفرة . يعنى مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، ومناصحتهم ، وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم . كما قال تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ(١) . أى : يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيه . ولهذا قال ههنا (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) أى : حجة عليكم فى عقابكم بموالاتكم إياهم . وقد دلت الآية على تحريم موالاة المؤمنين للكافرين. قال الحاكم : وهى الموالاة فى الدين والنصرة فيه . لا المخالقة والإحسان . قال الزمخشرى : وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخ له : خالص المؤمن وخالق الكافر والفاجر . فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن . وأنه يحق عليك أن تخالص المؤمن . قال أبو السعود : وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال : أتجعلون... الخ، للمبالغة فى إنكار ذلك ، وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته ، فضلا عن صدور نفسه . كما فى قوله عز وجل : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ(٢) .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] . . . وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٨] ونصها : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

لطيفة :

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : كل سلطان فى القرآن حجة . وكذا قال غيره من أئمة التابعين . قال محمد بن يزيد : هو من (السليط) . وهو دهن الزيت لإضاءته . أى: فإن الحجة من شأنها أن تكون نيّرة . وفى (البصائر) إنما سمى الحجة سلطاناً لما يلحق من الهجوم على القلوب . لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ » قرىء بسكون الراء وفتحها « الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » أى الطبق الذى فى قعر جهنم . والدرك كالدرج . إلا أنه يقال باعتبار الهبوط . والدرج باعتبار الصعود . وإنما عوقبوا بذلك لأنهم أخبث الكفرة . إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام وخداعاً للمسلمين .

قال الرازىّ : وبسبب أنهم لمّا كانوا يظهرون الإسلام ، يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك . فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين . فلهذه الأسباب عوقبوا بذلك . ونقل عن ابن الأنبارىّ أنه قال[١] : إنه تعالى أخبر عن آل فرعون بقوله : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وعن المنافقين بما فى هذه الآية. فأيهما أشدعذاباً؟ فأجاب : بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون فى الدرك الأسفل . وقد اجتمع فيه الفريقان. والله أعلم. روى الترمذىّ[٢] عن الحسن قال: قال عتبة بن غزوان على منبر البصرة، إن النبىّ ﷺ قال : إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاماً ، وما تفضى

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٧ ـ كتاب صفة جهنم، ٢ ـ باب ماجاء فى صفة قعر جهنم.

إلى قرارها . وكان عمر رضى الله عنه يقول : أكثروا ذكر النار . فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد وإن مقامعها حديد . وروى الترمذىّ[(١)] عن أبي سعيد الخدرىّ قال: قال رسول ﷺ : ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره « وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » أى : ينقذهم مماهم فيه ويخرجهم من أليم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » أى : عن النفاق « وَأَصْلَحُوا » أى : أعمالهم « وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ » أى : وثقوا به بترك موالاة الكفار « وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ » فلم يبق لهم فيه تردد . ولم يريدوا بطاعتهم إلا وجهه سبحانه ، لا رياء الناس كما كانوا قبل . « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيّز الصلة . وما فيه من معنى البعد ، للإيذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة. أى : لعلو رتبتهم بهذه الأمور لا يكونون فى درك من النار فضلا عن الأسفل ، بل مع المؤمنين المستمرين على الإيمان بلا نفاق . أى: معهم فى درجات الجنان . وقد بيّن ذلك بقوله سبحانه « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » ثواباً وافرا فى الجنة . فيشار كونهم فيه ويساهمونهم . وحذفت (الياء) فى الخط هنا اتباعاً للّفظ . لسكونها وسكون اللام بعدها. ومثله: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ[(٢)]. وَسَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ[(٣)] وَيَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ[(٤)]

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢١ ـ سورة الأنبياء ، ١ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٢) [٥٤ / القمر / ٦] ونصها : فَتَوَلَّ عَنْهُمْ . يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ .

(٣) [٩٦ / العلق / ١٨] .

(٤) [٥٠ / ق / ٤١] ونصها : وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ .

ونحوها . فإن الحذف فى الجميع لالتقاء الساكنين . فجاء الرسم تابعاً للفظ . والقراء يقفون عليه دون ياء ، اتباعاً للخط الكريم . إلا يعقوب والكسائىّ وحمزة . فإنهم يقفون بالياء، نظراً إلى الأصل . كذا فى (الفتح) .

تنبيه .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : من المنافق ؟ قلت: هو فى الشريعة مَن أظهر الإيمان وأبطن الكفر. وأما تسمية من ارتكب مايفسق به بـ(المنافق) فللتغليظ، كقوله[1]: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر جهارا . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[2]: ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان . وقيل لحذيفة رضى الله عنه : من المنافق ؟ فقال : الذى يصف الإسلام ولا يعمل به . وقيل لابن عمر : ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه . فقال: كنا نعده من النفاق : انتهى كلامه .

أقول : قول الزمخشرىّ (فللتغليظ) يوجد مثله لثلّة من شراح الحديث وغيرهم . وقد بحث فيه بعض محقق مشايخنا بقوله : هذا الجواب لا يرتضيه من عرف قدر النبىّ صلى الله

(١) قال فى (الجامع الصغير) : رواه الطبرانىّ فى (الأوسط) عن أنس . وقال العزيزىّ: إسناده حسن .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، عن أبى هريرة . وهذه نصوصه :
الحديث رقم ١٠٧ « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .
والحديث رقم ١٠٨ « من علامات المنافق ثلاثة : إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » .
والحديث رقم ١٠٩ « آية المنافق ثلاث . وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .
أما حديث بصورة ما فى المتن، فلم أهتد إليه .

عليه وسلم . وكأنهم غفلوا عما يستلزمه هذا الجواب مما لا يرتضيه أدنى عالم أن ينسب إليه . وهو الإخبار بخلاف الواقع لأجل الزجر . انتهى . وقال بعض المحققين : عليك أن تقر الأحاديث كما وردت ، لتنجو من معرة الخطر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

« مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ » قال أبو السعود : هو استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم، وجوداً وعدماً، إنما هو كفرهم. لاشيء آخر . فيكون مقرراً لماقبله من إثابتهم عند توبتهم . و(ما) استفهامية مفيدة للنفى على أبلغ وجه وآكده . أى : أىّ شىء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ؟ أم يدرك به الثار ؟ أم يستجلب به نفعاً ؟ أم يستدفع به ضرراً ؟ كما هو شأن الملوك . وهو الغنىّ المتعالى عن أمثال ذلك . وإنما هو أمر يقتضيه كفركم . فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر، انتفى التعذيب لا محالة . وتقديم (الشكر) على (الإيمان) لما أنه طريق موصل إليه . فإن الناظر يدرك أوّلا ما عليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكراً مبهماً . ثم يترقى إلى معرفه المنعم فيؤمن به . وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه « وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » الشكر منه تعالى المجازاة والثناء الجميل . كما فى (القاموس). ويرحم الله ابن القيم حيث يقول فى (الكافية الشافية) :

وهو الشكور . فلن يضيّع سعيهم — لكن يضاعفه بلا حِسْبان
ما للعباد عليه حق واجب — هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عملٌ لديه ضائع — إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذّبوا فبعدله ، أو نعّموا — فبفضله ، والحمدُ للرحمن

القول فى تأويل قوله تعالى

[١٤٨] (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

«لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ» أى: لايحب الله تعالى أن يجهر أحد بالقبيح من القول «إِلَّا مَنْ ظُلِمَ» إلا جهر المظلوم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء. فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه، حتى إنه يجيب دعاءه. ومعلوم أن أنواع الظلم كثيرة. فما نقل عن السلف هنا من ذكر نوع منه، فليس المراد حصر معنى الآية فيه. بل القصد تنبيه المستمع على النوع. فمن ذلك مارواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس[1] فى الآية، يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً. فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه. وذلك قوله (إِلَّا مِنْ ظُلِمَ) وإن صبر فهو خير له. ومن ذلك مارواه عبد الرزاق وابن إسحق وهنّاد بن السرىّ عن مجاهد قال: هى فى رجل أضاف رجلاً فأساء قراه، فتحول عنه. فجعل يثنى عليه بما أولاه. فرخص له أن يثنى عليه بما أولاه. وفى رواية عنه: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول: أساء ضيافتى ولم يحسن. وفى رواية: هو الضيف المحول رحله. فإنه يجهر لصاحبه بالسوء من القول.

قال ابن كثير: وقد روى الجماعة (سوى النسائىّ والترمذىّ) عن عقبة بن عامر[2] قال: قلنا: يارسول الله! إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرووننا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف، فاقبلوا. فإن لم يفعلوا، فخذوا منهم حق الضيف

(١) تفسير الطبرىّ، الأثر رقم ١٠٧٤٩.

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٨٥ ـ باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، حديث ١٢١٣.

الذى ينبغى لهم . وروى الإمام أحمد[١] عن المقدام بن أبى كريمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيما مسلم ضاف قومًا فأصبح الضيف محرومًا ، فإن حقًا على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله . وروى هو وأبو داود[٢] عنه أيضاً . سمع رسول الله ﷺ يقول : ليلة الضيف واجبة على كل مسلم . فإن أصبح بفنائه محروماً كان دينا عليه . فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه . ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبى هريرة ؛ أن رجلاً أتى النبىّ ﷺ فقال: أن لى جاراً يؤذينى . فقال له : أخرج متاعك فضعه على الطريق. فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق. فكل من مرّ به قال : مالك؟ قال جارى يؤذينى . فيقول :اللهم ! العنه . اللهم ! أخزه . قال فقال الرجل : ارجع إلى منزلك. والله ! لا أوذيك أبداً . ورواه أبو داود[٣] فى كتاب الأدب .

وقال عبد الكريم بن مالك الجزرىّ ، فى هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه . ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه . لقوله تعالى (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ)[٤] . وقال قطرب : معنى الآية : إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول ، من كفر أو نحوه . فهو مباح له . وسئل المرتضى عنها فقال : لا يحب الله ذلك ولا يجيزه لفاعله . إلا من ظلم . وذلك مثل ما كان من مردة قريش وفعلهم بأصحاب رسول الله ﷺ ، من العقاب والضرب ، ليشتموا رسول الله ﷺ ويتبرؤا منه . ففعل ذلك عمار . نخلّوهُ وصلبوا صاحبه . فأطلق لمن فعل به هكذا أن يتكلم بما ليس فى قلبه . وفى عمار

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٣٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٢٣ ـ باب فى حق الجوار ، حديث ٥١٥٣ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ٤١] .

وصاحبه نزل قول الله[١] في سورة النحل : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فكانت هذه الآية مبينة لما فى قلب عمار من شحنه بالإيمان . انتهى .

وكل هذا مما تشمله الآية بعمومها . وما نقله السمرقندىّ وغيره عن الفراء فى قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) أن (إلا) بمعنى (لا) يعنى : ولا من ظلم ـ فهذا من تحريف الكلم عن مواضعه : فإن الآية صريحة فى أنه يجوز للمظلوم أن يتكلم بالكلام الذى هو من السوء فى جانب من ظلمه . ويؤيده الحديث الذى رواه الإمام أحمد[٢] وأبو داود والنسائىّ وابن ماجة والحاكم، عن الشريد بن سويد عن رسول الله ﷺ أنه قال[٣] : لىّ الواجد يحل عرضه وعقوبته. وأما من لم يظلم فجهره بالسوء داخل فى الغيبة المحظورة .

فوائد :

قال بعض مفسرى الزيدية : أفادت الآية جواز الجهر بالدعاء على الظالم والجهر بمساويه . ودلت على أن من جهر بكلمة الكفر مكرها، لم يكفر. لأنه مظلوم . وإذا ثبت بطلان حكم لفظ (الكفر) مع الظلم ، فكذا يلزم فى سائر الأحكام من البيع والعتاق والطلاق والإقرار . ثم قال : والمحبة ههنا بمعنى الإباحة . لا أن ذلك يريده الله تعالى .

أقول : هذه نزغة اعتزالية .

ثم قال : وتسميته سوءًا ، لكونه يسوء المقول فيه . وإلا فليس بقبيح فى هذه الحال .

ثم قال : وقول من قال (إلا) هنا بمعنى (الواو) أى : ومن ظلم ، مثل :

وكل أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

خلاف الظاهر . انتهى .

وقد نقل فى معنى هذه الآية حكم ونوادر بديعة . قال الشعبىّ : يعجبنى الرجل إذا سيم

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٢٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الاستقراض ، ١٣ ـ باب لصاحب الحق مقال.

هوناً ، دعته الأنفة إلى المكافأة . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فبلغ كلامه الحجاج فقال : لله دره ! أى رجل بين جنبيه ! وتمثل :

ولا خير فى عرض امرئ لا يصونه   ولا خير فى حلم امرئ ذل جانبه

وقال أعرابىّ لابن عباس رضى الله عنهما : أتخاف علىّ جناحاً إن ظلمنى رجل فظلمته ؟ فقال له : العفو أقرب للتقوى . فقال : وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .

وقال المتنبى(١) :

مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ   إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الْحِلْمِ طُرْقُ الْمَظَالِمِ

لطيفة :

الاستثناء فى قوله تعالى (إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) إما متصل أو منقطع. فعلى الأول فيه وجهان: الأول ـ قول أبى عبيدة : هذا من باب حذف المضاف ، أى: إلا جهر من ظلم . فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . والثانى ـ قول الزجاج : المصدر ههنا بمعنى الفاعل . أى : لا يحب الله المجاهر بالسوء إلا من ظلم . وعلى أنه منقطع ، فالمعنى لكن المظلوم له أن يجهر بظلامته .

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أنا لائمى إن كنتُ وقت اللوائم   عَلِمْتُ بما بى بين تلك المعالم

قال البرقوقىّ شارح الديوان :

الحلم : الأناة والعقل . والجهل هنا نقيض الحلم . والمظالم جمع المظلمة (بكسر اللام) وهى الظلم . يقول : إذا كان حِلْمك داعياً إلى ظلمك فإن من الحلم أن تجهل . لأن الحلم إنما يُلجأ إليه لتدارك الشر . فإذا تفاقم الشر ، ولم يتدارك الشر إلا بالجهل ، كان الجهل حلما :

فلا خير فى حلم إذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه أنْ يكدَّرَا

وهذا معنى قديم تداوله الشعراء وغير الشعراء .

وقوله تعالى « وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً » فيه وعد للمظلوم بأنه تعالى يسمع شكواه ودعاءه ويعلم ظلم ظالمه . كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ(١) . ووعيد له أيضاً بأن يتعدّى فى الجهر المأذون فيه. بل ليقل الحق ولا يقذف بريئاً بسوء فإنه يصير عاصياً لله بذلك . ثم حث سبحانه على العفو بعدما جوّز الجهر بالسوء وجعله محبوباً، حثاً على الأحب إليه والأفضل عنده . وإلا دخل فى الكرم والتخشع والعبودية ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)

« إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا » أى : طاعة وبرًّا « أَوْ تُخْفُوهُ » أى : تعملوه سرًّا « أَوْ تَعْفُوا » أى : تتجاوزوا « عَنْ سُوءٍ » أى : ظلم « فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » أى : يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام . فعليكم أن تقتدوا بسنة الله بالعفو مع القدرة . فثمرة هذه الآية الحث على العفو ، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء ، وإن كان على وجه الانتصار ، حملًا على مكارم الأخلاق . وإنما كان المقصود العفو لأن ما قبلها فى ذكر السوء والجهر به . فمقتضى السياق: لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم . فإن عفا المظلوم عنه ، ولم يدعُ على ظالمه ويتظلم منه ، فإن الله عفوّ قدير. وإنما ذكر قبله إبداء الخير وإخفاءه توطئة للعفو عن السوء. لأنه يعلم من مدح حالَي الخير : السر والعلانية ، أن السوء ليس كذلك جهراً وإخفاءً . فينبغى العفو عنه وتركه . وإنما عطف (العفو) بـ (أو) مع دخوله فى الخير بقسميه ، للاعتداد به ، والتنبيه على منزلته ، وكونه من الخير بمكان مرتفع . وليس المراد أنه حينئذ هو المقصود وأنه من قبيل : وَمَلَائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ(٢) . لأن مثله يعطف بالواو لا بـ (أو) ولذا حمل الخير

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] ... إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ .

(٢) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

على الطاعة والبر مما هو عبادة وقربة فعلية . لتغاير العفو . فالمراد بالتوطئة ذكر ماهومناسب وقدم عليه . كذا في (العناية) .

قال ابن كثير . ورد في الأثر : أن حملة العرش يسبحون الله . فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك . ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث الصحيح(١) : مانقصت صدقة من مال. وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا. وما تواضع أحدلله إلا رفعه الله .

وقال الرازيّ : اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين : صدق مع الحق وخُلق مع الخلق والذي يتعلق مع الخلق محصور في قسمين : إيصال نفع إليهم ، ودفع ضرر عنهم. فقوله : (إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ) إشارة إلى إيصال النفع إليهم . وقوله (أَوْ تَعْفُوا) إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر .

ثم نزل في اليهود إلى أواخر السورة قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ » قال ابن عباس : يعني كعباً وأصحابه « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ » أي في الإيمان « وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ » من الرسل « وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ » منهم . كما قالوا : نؤمن بموسى والتوراة ، ونكفر بما وراء ذلك . وما ذاك إلا كفر بالله تعالى ورسله ، وتفريق بين الله تعالى ورسله في الإيمان . لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بكل نبيّ يأتي مصدقا لما معهم ، ونصره . ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل ، وبالله تعالى من حيث لا يحتسب . لأنهم لما تساووا في المعجزات والدعوة إلى الحق ، والقيام بالخيرات في أنفسهم ، كان الكفر بواحد منهم كفرًا بالكل . بل وبالله.

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٩ (طبعتنا).

إذ يعتقدون فيه أنه صدّق الكاذب بخلق المعجزات . كذا فى (التبصير) « وَيُرِيدُونَ » أى : بقولهم ذلك « أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ » أى بين الإيمان ببعض ، والكفر ببعض « سَبِيلًا » ديناً يسلكونه . مع أنه لا واسطة بينهما قطعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا » أى الذين كفروا كفراً ثابتاً لا ريب فيه . فلا عبرة بمن ادعوا الإيمان به . لأنه ليس شرعيًّا . إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله ، لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهاناً منه « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » يهانون به . وهو عذاب جهنم . أى : كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به عن الله وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا . وإما بكفرهم به ، بعد علمهم بنبوته ، كما كان يفعله كثير من أحبارهم فى عهده ﷺ . حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة . وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه . فسلط الله عليهم الذل الدنيوىّ الموصول بالذل الأخروىّ . وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » كلهم « وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » يعنى بهم أمة محمد ﷺ . فإنهم يؤمنون بكل نبىّ بعثه الله . ولا يفرقون بين أحد منهم ، بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين . كما فعله الكفرة « أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ » أى : يعطيهم « أُجُورَهُمْ »

ثواب إيمانهم بالله ورسله في الآخرة « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » أي: لما فرط منهم « رَحِيماً » مبالغاً في الرحمة عليهم ، بتضعيف حسناتهم .

ثم بيّن تعالى ما جبل عليه اليهود من اللجاج والعناد ، والبعد عن طريق الحق ، بقوله :

القول في التأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً)

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ » قال ابن عباس : كعب وأصحابه « أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ » أي: كما نزلت التوراة على موسى جملة في الألواح. مع أنه لا حاجة لهم إلى طلب ذلك بعد ما وضحت البراهين على نبوتك، لاسيما بإعجاز ما نزل عليك من الفرقان. إلا أن الذي حملهم على سؤالهم هو التعنت والكفر . كما قال قبلهم كفار قريش نظير ذلك : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ... الآيات[1] . ولهذا قال تعالى « فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ » أي : مما سألوك « فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً » أي : رؤية ظاهرة « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ » أي النار النازلة من السماء « بِظُلْمِهِمْ » أي : جراءتهم على الله وعتوّهم وعنادهم . إذ لا يرون آية إلا يطلبون أكبر منها . حتى يروا آية ملجئة إلى الإيمان. بحيث لا يفيد الإيمان معها . فلا يكادون يؤمنون إيماناً يفيدهم أصلًا ، ولا يبعد منهم الكفر، بعد رؤية الآيات. فإنهم رأوا آيات موسى « ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ » أي : إلها وعبدوه « مِنْ بَعْدِ

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ » أي: الدلائل القاطعة على نفي الشرك . ثم تابوا عنه « فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ » أي: تركناهم ولم نستأصلهم « وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا » أي: حجة بينة وتسلطاً ظاهراً على إهلاك. من خالفه. وفي ذلك بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بنصره ، وإن بالغوا في العناد والإلحاد . ثم أشار إلى أنهم مع رؤيتهم الآيات ، لم ينقادوا لأوامر موسى . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

« وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ » أي : الجبل ليتحملوا التكاليف « بِمِيثَاقِهِمْ » أي: بسبب أخذ ميثاقهم . ليخافوا فلا ينقضوه .

قال ابن كثير : وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباءٌ على ما جاءهم به موسى عليه السلام ، رفع الله على رؤوسهم جبلًا . ثم ألزموا فالتزموا ، وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رؤوسهم ، خشية أن يسقط عليهم . كما قال تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ... الآية(١) « وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا » أي : ادخلوا باب إيلياء مطأطئين ، عند الدخول ، رؤوسكم. فخالفوا ما أمروا به . وقد تقدم في سورة البقرة إيضاح هذه الآيات مفصلًا « وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ » أي : وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعاً لهم « وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » أي : عهداً شديداً . فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل . كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٧١] ... وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ . . . الآيات[١] . ثم بين تعالى ما أوجب لعنهم وطردهم ومسخهم من مخالفتهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » (ما) مزيدة للتأكيد ، أو نكرة تامة . و(نقضهم) بدل منها . والباء متعلقة بفعل محذوف . أى فبسبب نقضهم ميثاقهم الذى أخذ عليهم ، فعلنا بهم مافعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم ، أو على أعقابهم « وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى: حججه وبراهينه والمعجزات التى شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام « وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ» كزكريا ويحيى عليهما السلام .

قال العلامة البقاعىّ : وهو أعظم من مطلق كفرهم . لأن ذلك سدٌّ لباب الإيمان عنهم وعن غيرهم . لأن الأنبياء سبب الإيمان . ولما كان الأنبياء معصومين من كل نقيصة ، ومبرأين من كل دنية ، لا يتوجه عليهم حق لا يؤدونه ، قال تعالى « بِغَيْرِ حَقٍّ » أى : كبير ولا صغير أصلاً . وهذا الحرف لكونه فى سياق طعنهم فى القرآن ، الذى هو أعظم الآيات ، وقع التعبير فيه بأبلغ مما فى آل عمران . لأن هذا مع جمع الكثرة ، وتنكير الحق ، عبر فيه بالمصدر ، المفهم لأن الاجتراء على القتل صار لهم خلقاً وصفة راسخة . بخلاف ما مضى . فإنه بالمضارع الذى ربما دل على العروض . ثم ذكر أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظائمهم إلى الله تعالى فقال « وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ » جمع (أغلف) أى : هى مغشاة

(١) [٧/ الأعراف / ١٦٣] . . . إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

بأغشية جبلّية لا يكاد يصل إليها ما جاءبه محمد صلى الله عليه وسـلم . كما قال تعالى : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . . . الآية[1] . أى : فلا ذنب لنا : لأن قلوبنا خلقت بعيدة عن فهم ما يقول الأنبياء . وذلك سبب قتلهم ورد قولهم . وهذا بعد أن كانوا يقرون بهذا النبيّ الكريم ويشهدون له بالرسالة ، وبأنه خاتم الأنبياء ، ويصفونه بأشهر صفاته ويترقبون إتيانه . لا جرم رد الله عليهم بقوله ، عطفاً على ما تقديره (وقد كذبوا) لأنهم ولدوا على الفطرة كسائر الولدان . فلم تـكن قلوبهم فى الأصل غلفاً « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » أى : ليس كفرهم ، وعـدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفاً بحسب الجبلّة . بل الأمر بالعكس . حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم. لأنه خلقها أولاً على الفطرة متمكنة من اختيار الخير والشر . فلما أعرضوا بمـا هيأ قلوبهم له من قبول النقص عن الخير ، واختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم ، وتركوا ما تدعو إليـه عقولهم، طبع سبحانه عليها فجعلها قاسية محجوبة . ولذا سبب عنه قوله « فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً » منهم . كعبد الله بن سلام وأضرابه . أو : إلا إيماناً قليلا لا يعبأ به لتمرن قلوبهم على الـكفر والطغيان .

القول فى تأيل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)

« وَبِكُفْرِهِمْ » أى: بعيسى عليه السلام. وهو عطف على (قولهم) وإعادة الجار لطول مابينهما . وقد جوز عطفه على (بكفرهم) فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع. وقيل هذاالمجموع معطوف على مجموع ماقبله. وتـكرير الـكفر للإيذان بتكرر كفرهم. حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام . كذا فى أبى السعود « وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ

(١) [٤١ / فصلت / ٥] . . . وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ .

بُهْتَانًا عَظِيمًا» أي : مع قولهم الذى يجترؤن به على مريم عليها السلام، بعد ظهور كراماتها وإرهاصات ولدها ومعجزاته ، يبهتونها به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٧] (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا)

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ » .

قال أبو السعود : نظمُ قولهم هـذا فى سلك سائر جناياتهم التى نعيت عليهم ، ليس لمجرد كونه كذباً ، بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبيّ عليه السلام والاستهزاء به . فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنمـا هو بطريق التهكم به عليـه السلام . كما فى قوله تعالى : وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ الخ(١) . ولإنبائه عن ذكرهم له عليـه السلام بالوجه القبيح، على ماقيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى ، مكان ذكرهم القبيح . وقيل : هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى . مدحا له ، ورفعاً لمحله ، وإظهاراً لغاية جراءتهم ، فى تصديهم لقتله ، ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك .

لطيفة :

قال الراغب : سمى عيسى بالمسيح لأنه مسحت عنه القوة الذميمة ، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة . كما أن الدجال مسحت عنه القوة المحمودة من العـلم والعـقل والحلم والأخلاق الحميدة . وقال شمر : لأنه مسح بالبركة . وهو قوله تعالى : وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ(٢) . أو لأن الله مسح عنه الذنوب . وذكر المجد فى كتابه

(١) [١٥ / الحجر / ٦] ... إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٣١] ... وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

(البصائر) في اشتقاقه ستة وخمسين قولا . وتطرف شارح القاموس لبعضها . فانظره « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » أي : لا يصح لهم الفخر بقتله . لأنهم ماقتلوه . ولا متمسك لهم فيما يزعمونه من صلبهم إياه . لأنهم ما صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من ألقي عليه شبهه « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » أي : في شأن عيسى « لَفِي شَكٍّ مِنْهُ » أي : من قتله . وسنبينه بعد « مَا لَهُمْ بِهِ » أي : بقتله « مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ » استثناء منقطع . أي : لكن يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه « وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا » أي: قتلاً يقيناً بمعنى متيقنين أنه عيسى عليه السلام، بل فعلوه شاكين فيه . أو المعنى : انتفى قتله انتفاء يقيناً بمعنى انتفائه على سبيل القطع .

قال البرهان البقاعيّ : وهو أولى لقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » ردٌّ وإنكارٌ لقتله . وإثبات لرفعه . أي: اليقين إنما هو في رفعه إليه «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» أي: لا يبعد رفعه على الله . لأنه عزيز لا يغلب على ما يريده. وحكيم اقتضت حكمته رفعه . فلا بد أن يرفعه . وهي حفظه لتقوية دين محمد ﷺ ، حين انتهائه إلى غاية الضعف بظهور الدجال ، فيقتله . أفاده المهايميّ .

تنبيه :

لا خفاء في أن هذه الآية الكريمة لتكذيب اليهود في دعوى الصلب التي تابعهم عليها أكثر النصارى ، ولتبرئة ساحة مقام عيسى عليه السلام مما توهموه في ذلك . ولما كانت هذه الآية من مباحث الأمتين ، ومعارك الفرقتين ـ أردت بسط الكلام في هذا المقام . انتهاجاً للحق. وأخذا بناصر الصدق . وردَّ أباطيل المكذبين . وتزييف أقوال الملحدين . نورد أولاً مازعموه ورَوَوْه . مما نفاه التنزيل الكريم . ثم بطلان المرويّ عندهم وتهافته بالحجج الدامغة.

ثم ما رواه أئمة سلفنا رضى الله عنهم فى هذه القصة . ثم رد زعمهم أن إلقاء الشبه سفسطة . ثم سقوط دعواهم التواتر فى الصلب . ثم تزييف تفسير بعض النصارى لهذه الآية ، وأنها مطابقة لمعتقدهم على زعمه . مع ذكر من رفض عقيدة الصلب من فرق النصارى . وذكر ماروى فى إنجيل خامس يوافق عقيدة المسلمين، ويطابق هذه الآية . ونختم هذه المباحث بما قاله شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية رضى الله عنه فى هذه الآية، وأبدع ، على عادته قدس سره.

فهذه المطالب ينبغى معرفتها لكل طالب . إذ تفرعت إلى مباحث فائقة . وفوائد شائقة . فنقول وبالله التوفيق :

ذكر مازعموه ورووه مما نفاه التنزيل الكريم

جاء فى الفصل الثانى والعشرين من إنجيل لوقا ما نصه :

٢ ـ كان رؤساء الكهنة والكتبة يلتمسون كيف يقتلون يسوع لكنهم كانوا يخافون من الشعب .

٣٨ ـ أى لأن الشعب كلهم كانوا يبكرون إليه فى الهيكل (وهو الكنيسة) ليستمعوه .

يجمل بنا أن نسوق هنا النص الحرفى منقولا عن نسخة الكتاب المقدس . أى : كتب العهد القديم والعهد الجديد ، المطبوعة فى بيروت (الطبعة الرابعة) سنة ١٨٧٥ مسيحية م (وهى الطبعة المتداولة المترجمة من اللغة اليونانية) .

إنجيـــل لوقا

الأصحاح الحادى والعشرون

(٣٧) وكان فى النهار يعلّم فى الهيكل وفى الليل يخرج ويبيت فى الجبل الذى يدعى جبل الزيتون .

(٣٨) وكان كل الشعب يُبكّرون إليه فى الهيكل ليسمعوه .

٣٧ ـ وكان فى النهار يعلم فى الهيكل وفى الليل يخرج ويبيت فى الجبل المسمى جبل الزيتون.
كما ذكر لوقا قبل الفصل .

٣ ـ فدخل الشيطان فى يهوذا الملقب بالأسخريوطىّ وهو أحد الاثنى عشر .

٤ ـ فمضى وفاوض رؤساء الكهنة والولاة كيف يُسْلمه إليهم .

٥ ـ ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة .

٦ ـ فواعدهم وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم بمعزل عن الجمع .

٧ ـ وبلغ يومُ الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفِصح .

٨ ـ فأرسل بطرس ويوحنا قائلًا : امضيا فأَعِدَّا لنا الفِصح لنأكل .

٩ ـ فقالا له : أين تريد أن نُعِدَّ .

١٠ ـ فقال لهما : إذا دخلتما المدينة يلقاكما رجل حامل جرة ماء. فاتبعاه إلى البيت الذى يدخله.

الأصحاح الثانى والعشرون

(١) وقرب عيد الفطير الذى يقال له الفصح .

(٢) وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه . لأنهم خافوا الشعب .

(٣) فدخل الشيطان فى يهوذا الذى يدعى الإسخريوطىّ وهو من جملة الاثنى عشر .

(٤) فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقوّاد الجند كيف يسلّمه إليهم .

(٥) ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة .

(٦) فواعدهم . وكان يطلب فرصة ليسلّمه إليهم خِلْوًا من جمع .

(٧) وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح .

(٨) فأرسل بطرسَ ويوحنّا قائلا اذهبا وأعدّا لنا الفصح لنأكل .

(٩) فقالا له أين تريد أن نُعِدَّ .

(١٠) فقال لهما إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جَرّة ماء . اتبعاه إلى البيت
حيث يدخل .

١١ ـ وقولا لرب البيت : المعلم يقول لك أين يكون المنزل الذى آكل فيه الفِصح مع تلاميذى .

١٢ ـ فهو يريكما غرفة كبيرة مفروشة . فأعِدَّا هناك .

١٣ ـ فانطلقا فوجدا كما قال لهما وأعدا الفِصح .

١٤ ـ ولما كانت الساعة اتكأ هو والرسل الاثنا عشر معه .

١٥ ـ فقال لهم : لقد اشتهيتُ شهوة أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم .

١٦ ـ فإنى أقول لكم : إنى لا آكله بعد حتى يتم فى ملكوت الله .

١٧ ـ ثم تناول كأساً وشَكَرَ وقال : خذوا فاقتسموا بينكم .

١٨ ـ فإنى أقول لكم : إنى لا أشرب من عصير الكرمة حتى يأتى ملكوت الله .

١٩ ـ وأخذ خبزاً وشَكَرَ وكَسَرَ وأعطاهم قائلًا: هذا هو جسدى الذى يُبْذَل لأجلكم. اصنعوا هذا لذكرى .

---

(١١) وقولا لرب البيت يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى .

(١٢) فذاك يريكما عُلِّيَّة كبيرة مفروشة . هناك أعِدَّا .

(١٣) فانطلقا ووجدا كما قال لهما . فأعدَّا الفصح .

(١٤) ولما كانت الساعةُ اتّكأ والاثنا عشر رسولا معه .

(١٥) وقال لهم شهوةً اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم .

(١٦) لأنى أقول لكم إنى لا آكل منه بعدُ حتى يُكمَلَ فى ملكوت الله .

(١٧) ثم تناول كأسا وشكر . وقال خذوا هذه واقتسموها بينكم .

(١٨) لأنى أقول لكم إنى لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله .

(١٩) وأخذ خبزا وشكر وكسَّر وأعطاهم قائلا هذا هو جسدى الذى يُبذَل عنكم . اصنعوا هذا لذكرى .

٢٠ ـ وكذلك الكاسَ من بعد العشاء قائلًا : هذه هي الكاس العهد الجديد بدمى الذى يسفك من أجلكم .

٢١ ـ ومع ذلك فها إن يدَ الذى يُسْلمنى معى على المائدة .

٢٢ ـ وابنُ البشر ماضٍ كما هو محدود ولكن الويلُ لذلك الرجل الذى يُسْلمه .

٢٣ ـ فطفقوا يسألون بعضُهم بعضاً : من كان منهم مزمعاً أن يفعل ذلك .

٢٤ ـ ووقعت بينهم مجادلة فى أيهم يُحْسَب الأكبر .

٢٥ ـ فقال لهم : إن ملوك الأمم يسودونهم والمسلطين عليهم يُدْعون محسنين .

٢٦ ـ وأما أنتم فلستم كذلك . ولكن ليكن الأكبر فيكم كالأصغر . والذى يتقدم كالذى يَخْدُم .

٢٨ ـ وأنتم الذين ثبتُّم معى فى تجاربى .

---

(٢٠) وكذلك الكأسَ أيضاً بعد العَشاء قائلا هذه للكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يُسفك عنكم .

(٢١) ولكن هُوَذَا يَدُ الذى يسلمنى هى معى على المائدة .

(٢٢) وابن الإنسان ماض كما هو محتوم . ولكن ويل لذلك الإنسان الذى يسلمه .

(٢٣) فابتدأوا يتساءلون فيما بينهم مَن ترى منهم هو المزمع أن يفعل هذا .

(٢٤) وكانت بينهم أيضاً مشاجرة من منهم يُظَن أنه يكون أكبر .

(٢٥) فقال لهم : ملوك الأمم يسودونهم والمتسلطون عليهم يُدْعَوْن محسنين .

(٢٦) وأما أنتم فليس هكذا . بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر والمتقدم كالخادم .

(٢٧) لأن من هو أكبر . الذى يتكىء أم الذى يخدم . أليس الذى يتكىء . ولكن أنا بينكم كالذى يخدم .

(٢٨) أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى .

٢٩ ـ فأنا أُعِدُّ لكم الملكوت كما أَعَدَّه لى أبى .

٣٠ ـ لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

٣١ ـ وقال يسوع: سمعانُ سمعانُ هوذا الشيطان سأل أن يُغرْبلكم مثل الحنطة.

٣٢ ـ لكنى صليت من أجلك لئلا ينقص إيمانك وأنت متى رجعت فَثَبِّتْ إخوتك .

٣٣ ـ فقال له : أنا مستعد أن أمضى معك إلى السجن وإلى الموت .

٣٤ ـ قال : إنى أقول لك يا بطرس إنه لا يصيح الديك اليوم حتى تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

٣٩ ـ ثم خرج ومضى على عادته إلى جبل الزيتون وتبعه التلاميذ .

٤٠ ـ فلما انتهى إلى المكان قال لهم: صلوا لئلا تدخلوا فى تجربة .

٤١ ـ ثم فَصَل عنهم نحو رمية حجر وخر على ركبتيه وصلى .

---

(٢٩) وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا .

(٣٠) لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى وتجلسوا على كراسىّ تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

(٣١) وقال الرب سِمعانُ سِمعانُ هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة .

(٣٢) ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى رجعت ثبّتْ إخوانك .

(٣٣) فقال له يا رب إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت .

(٣٤) فقال أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

(٣٩) وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون . وتبعه أيضاً تلاميذه .

(٤٠) ولما صار إلى المكان قال لهم صلوا لكى لا تدخلوا فى تجربة .

(٤١) وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى .

٤٢ ـ قائلًا : يارب إن شئت فأجزْ عني هذه الكاس لكي لا تكن مشيئتي بل مشيئتك.
٤٣ ـ وتراءى له ملاك من السماء يشدّده .
٤٤ ـ ولما أخذ في النزاع أطال في الصلاة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .
٤٥ ـ ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن .
٤٦ ـ فقال لهم : مابالكم نائمين. قوموا فصلوا لئلا تدخلوا في تجربة .
٤٧ ـ وفيما هو يتكلم وإذا بجمع يتقدمهم المسمى يهوذا أحد الاثني عشر فدنا من يسوع ليقبله .
٤٨ ـ فقال له يسوع : يا يهوذا أبقبلةٍ تُسْلم ابن البشر .
٤٩ ـ فلما رأى الذين حوله ما سيحدث قالوا له : أنضرب بالسيف .
٥٠ ـ وضرب أحدهم عبدَ رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .

---

(٤٢) يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس . ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك .
(٤٣) وظهر له ملاك من السماء يقوّيه .
(٤٤) وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض .
(٤٥) ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه فوجدهم نياماً من الحزن .
(٤٦) فقال لهم: لماذا أنتم نيام. قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة .
(٤٧) وبينما هو يتكلم إذا جمع، والذي يدعى يهوذا أحد الاثني عشر يتقدمهم . فدنا من يسوع ليقبله .
(٤٨) فقال له يسوع: يا يهوذا أبقبلةٍ تسلّم ابن الإنسان .
(٤٩) فلما رأى الذين حوله ما يكون قالوا يا رب أنضرب بالسيف .
(٥٠) وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى .

٥١ ـ فأجاب يسوع وقال : قفوا لاتزيدوا. ثم لمس أذنه فأبرأه .

٥٢ـ ثم قال يسوع للذين جاؤا إليه من رؤساء الكهنة وولاة الهيكل والشيوخ: كأنما خرجتم إلى لص بسيوف وعصى .

٥٣ـ إنى كل يوم كنت معكم فى الهيكل ولم تمدوا علىّ أيديكم ولكن هذه ساعتكم وهذا سلطان الظُّلْمة .

حينئذ تركه تلاميذه وهربوا .

٥٤ـ فارتموا على يسوع فقبضوا عليه وقادوه إلى بيت رئيس الكهنة .

وكان الكتبة والرؤساء مجتمعين. وهناك أعطى يهوذا الحوارى الثلاثين درهما التى أخذها رشوة على تسليم المسيح .

وكان بطرس يتبعه من بعيد ...

٥٤ـ فجلس داخلًا مع الخدام لينظر الغاية .

٥٥ ـ وأضرموا ناراً فى وسط الدار وجلسوا حولها فجلس بطرس بينهم .

٥٦ـ فرأته جارية جالساً عند الضوء فتفرست فيه ثم قالت: إن هذا أيضاً كان معه .

---

(٥١) فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا . ولمس أذنه وأبرأها .

(٥٢) ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقوّاد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه : كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصىّ .

(٥٣) إذ كنت معكم كل يوم فى الهيكل لم تمدوا علىّ الأيادى . ولكنّ هذه ساعتكم وسلطان الظُّلْمة .

(٥٤) فأخذوه وساقوه وأدخلوه إلى بيت رئيس الكهنة . وأما بطرس فتبعه من بعيد.

(٥٥) ولما أضرموا ناراً فى وسط الدار وجلسوا معاً جلس بطرس بينهم .

(٥٦) فرأته جارية جالساً عند النار فتفرست فيه وقالت: وهذا كان معه .

٥٧ ـ فكفر أمام الجمع وأنكره قائلًا : إنى لست أعرفه.

٥٨ ـ وبعدقليل رآه آخرفقال: أنت أيضاًمنهم. فأخذبطرس يحاف لا أعرف هذا الرجل ولست منهم .

٥٩ ـ وبعد نحو ساعة أكد عليه آخر قائلًا: فى الحقيقة هذا أيضاً كان معه فإنه جليلى

٦٠ ـ فقال بطرس: يا رجل لا أدرى ما تقول .

قال مفسروهم: إن خطأ بطرس هذا كان ثقيلًا : لأن المسيح قال: من ينكرنى أمام الناس أنكره أمام أبى الذى فى السموات .

٦٠ ـ وفى الحال بينما هو يتكلم صاح الديك .

٦١ ـ فالتفت يسوع ونظر إلى بطرس فتذكر كلامه إذ قال: إنك قبل أن يصيح الديك . تنكرنى ثلاث مرات .

٦٢ ـ فخرج بطرس وبكى بكاءً مرًّا .

٦٣ ـ وكان الرجال الذين قبضوا عليه يهزأون به ويضربونه .

---

(٥٧) فأنكره قائلا: لست أعرفه يا امرأة .

(٥٨) وبعد قليل رآه آخر وقال: وأنت منهم. فقال بطرس: يا إنسان لست أنا .

(٥٩) ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلا: بالحق إن هذا أيضاً كان معه لأنه جليلىّ أيضاً .

(٦٠) فقال بطرس : يا إنسان لست أعرف ما تقول . وفى الحال بينما هو يتكلم صاح الديك .

(٦١) فالتفت الرب ونظر إلى بطرس . فتذكر بطرس كلام الرب كيف قال له : إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات .

(٦٢) فخرج بطرس إلى خارج وبكى بكاء مرا .

(٦٣) والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه .

٦٤ ـ وغطوه وطفقوا يلطمونه ويسألونه قائلين: تنبأ من الذى ضربك .

٦٥ ـ وأشياء أخر كانوا يقولونها عليه مجدفين .

٦٦ ـ ولما كان النهار اجتمع شيوخ الشعب ورؤساء الكهنة عليه ليميتوه وأحضروه إلى محفلهم

٦٧ ـ وقالوا: إن كنت أنت المسيح فقل لنا. فقال لهم: إن قلت لكم لا تؤمنون .

٦٨ ـ وإن سألتكم لا تجيبونى ولا تطلقونى .

٦٩ ـ ولكن من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله .

٧٠ ـ فقال الجميع : أفأنت ابن الله. فقال لهم : أنتم تقولون إنى أنا هو .

٧١ ـ فقالوا ما حاجتنا إلى شهادة إنا قد سمعنا من فمه .

فأوثقوه. وأما يهوذا الأسخريوطى الدافع، لما رأى يسوع قد دِينَ ندم ومضى فأعاد الثلاثين الفضة إلى رؤساء الكهنة قائلاً : لقد أخطأت بتسليمى دماً زكياً. فقالوا له: ما علينا أنت أخبر. فطرح الفضة فى الهيكل وذهب نخنق نفسه، وأما رؤساء الكهنة فأخذوا الفضة وقالوا لا يحل لنا أن نضعها فى بيت التقدمة لأنها ثمن دم .

---

(٦٤) وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين تنبأ . من هو الذى ضربك .

(٦٥) وأشياء أخر كثيرة كانوا يقولون عليه مجدفين .

(٦٦) ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء الكهنة والكتبة وأصعدوه إلى مجمعهم .

(٦٧) قائلين إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون .

(٦٨) وإن سألت لا تجيبوننى ولا تُطْلقوننى .

(٦٩) منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله .

(٧٠) فقال الجميع: أفأنت ابن الله . فقال لهم: أنتم تقولون إنى أنا هو .

(٧١) فقالوا ما حاجتنا بعدُ إلى شهادة لأننا نحن سمعنا من فمه .

١ ـ ثم ذهب جميع جمهورهم ومضوا بيسوع إلى بيلاطُسَ .
٢ ـ وطفقوا يشكونه قائلين: إنا وجدنا هذا يفسد أمتنا ويمنع من أداء الجزية لقيصر ويدعى أنه هو المسيح الملك .
٣ ـ فسأله بيلاطُس قائلا : هل أنت ملك اليهود؟ فأجابه قائلا : أنت قلت .
٤ ـ فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة وللجموع: إنى لم أجد على هذا الرجل علة .
٥ ـ فلجّوا وقالوا: إنه يهيج الشعب إذ يعلم فى اليهودية كلها مبتدئاً من الجليل إلى ههنا.
٦ ـ فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل: هل الرجل جليلىّ .
٧ ـ ولما علم أنه من إيالة هيرؤدس أرسله إلى هيرؤدس وكان فى تلك الأيام فى أورشليم.
٨ ـ فلما رأى هيرؤدس يسوع فرح جدًّا لأنه من زمان طويل كان يشتهى أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة ويرجو أن يعاين آية يصنعها .

الأصحاح الثالث والعشرون

(١) فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس .
(٢) وابتدؤا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلا إنه هو مسيح مَلِك .
(٣) فسأله بيلاطس قائلا : أنت ملك اليهود . فأجابه وقال: أنت تقول .
(٤) فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع: إنى لا أجد علة فى هذا الإنسان.
(٥) فكانوا يشددون قائلين: أنه يهيّج الشعب وهو يعلّم فى كل اليهودية مبتدئا من الجليل إلى هنا .
(٦) فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل هل الرجل جليلىّ .
(٧) وحين علم أنه من سلطنة هيرودس أرسله إلى هيرودس إذ كان هو أيضاً تلك الأيام فى أورشليم .
(٨) وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجّى أن يرى آية تُصنع منه .

٩ ـ فسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء .

١٠ ـ وكان رؤساء الكهنة والكتبة واقفين يشكونه بلجاجة .

١١ ـ فازدراه هيرودس مع جنوده وهزأ به وألبسه ثوباً لامعاً وردّه إلى بيلاطس .

١٢ ـ وتصادق هيرودس وبيلاطس فى ذلك اليوم وقد كانا من قبل متعادين .

١٣ ـ فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب .

١٤ ـ وقال لهم: قد قدمتم إلىّ هذا الرجل كأنه يفتن الشعب. وها أنا قد فحصته أمامكم فلم أجد على هذا الرجل علة مما تشكونه به .

١٥ ولا هيرودس أيضاً لأنى أرسلتكم إليه وهوذا لم يُصنع به شيء من حكم الموت .

١٦ ـ فأنا أؤدبه وأطلقه .

١٧ ـ وكان لا بد له أن يطلق لهم فى كل عيد رجلا .

---

(٩) وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء .

(١٠) ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد .

(١١) فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس.

(١٢) فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما فى ذلك اليوم لأنهما كانا من قبل فى عداوة بينهما .

(١٣) فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب .

(١٤) وقال لهم : قد قدّمتم إلىّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب . وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه .

(١٥) ولاهيرودس أيضاً . لأنى أرسلتكم إليه . وها لاشيء يستحق الموت صُنِـعَ منه.

(١٦) فأنا أؤدبه وأطلقه .

(١٧) وكان مضطراً أن يطلق لهم كل عيد واحدا .

١٨ ـ فصاحوا كلهم جملة قائلين: ارفع هذا وأطلق لنا بَرْأَبَا .

١٩ ـ كان ذاك قد ألق فى السجن لأجل فتنة حدثت فى المدينة وقَتْلٍ .

٢٠ ـ فناداهم بيلاطس مرة أخرى وهو يريد أن يطلق يسوع .

٢١ ـ فصرخوا قائلين: اصلبه، اصلبه .

٢٢ ـ فقال لهم مرة ثالثة: وأى شر صنع هذا ؟ إنى لم أجد عليه علة للموت فأنا أؤدبه وأطلقه .

٢٣ ـ فألحوا عليه بأصوات عالية طالبين أن يصلب واشتدت أصواتهم .

٢٤ ـ فحكم بيلاطس أن يُجْرَى مطلبهم .

٢٥ ـ فأطلق لهم الذى طلبوه ذاك الذى ألق فى السجن لأجل فتنةٍ. وجلد يسوع بالسياط وأسلمه ليصلب .

قال مفسروهم : ولذا يظهر أن اللصين اللذين صلبا معه جلدا أيضاً والجلادون كانوا ستين نفراً. وأرشاهم اليهود ليميتوه بالجلد خشية أن يطلقه بيلاطس ونزعوا ثيابه وألبسوه لباساً

---

(١٨) فصرخوا بجملتهم قائلين: خذ هذا وأطلق لنا باراباس .

(١٩) وذاك كان قد طرح فى السجن لأجل فتنة حدثت فى المدينة وقتلٍ .

(٢٠) فناداهم أيضا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع .

(٢١) فصرخوا قائلين: اصلبه اصلبه .

(٢٢) فقال لهم ثالثة: فأىّ شر عمل هذا ؟ إنى لم أجد فيه علة للموت . فأنا أؤدبه وأطلقه

(٢٣) فكانوا يلجّون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب . فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة .

(٢٤) فحكم بيلاطس أن تكون طَلِبَتُهُمْ .

(٢٥) فأطلق لهم الذى طُرح فى السجن لأجل فتنةٍ وقتلٍ الذى طلبوه وأسلم يسوع لمشيئتهم.

قرمزياً وضفروا إكليلاً من شوك العوسج ووضعوه على رأسه، وأنشبوا فى رأسه عنفاً أشواكه الحادة. ومن هنا أخذت الكنيسة العادة على إبقاء إكليل من شعر فى رأس الكهنة تذكاراً لإكليل المسيح الشوكى. ثم جثوا على ركبهم مستهزئين به وقائلين: السلام ياملك اليهود. وتناولوا قصبة يضربون بها رأسه. ولما هزؤا به نزعوا عنه ذلك اللباس وألبسوه ثيابه واستاقوه ليصلب. وكان يتقدمه مُبَوِّق يدعو الشعب إلى هـذا المنظر بحسب عادة اليهود . وخشبة الصلب على منكبيه .

٣٢ ـ وانطلق معه بآخرَيْن مجرمين ليُقتلا .

ولما بلغوا إلى المكان المسمى الجمجمة صلبوه هناك هو والمجرمَيْن ، أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار ...

وناولوه خلًّا مخلوطاً بمرارة أو خمراً ممزوجاً بعلقم بعد أن طلب الماء فذاقه ولم يشرب . ولما صلبوه بالمسامير وبالحبال معها. وكانت المسامير فى راحة اليدين والرجلين ، ضربوا جنبه بالحربة فنفذت من صدره. وفى الصليب محل يسند إليه رجليه . واقتسموا ثيابه بالقرعة وهى ثلاثة : القميص والرداء والجبة. ولم يكن يلبس السروال كعادة تلك البلاد . وجلسوا هناك يحرسونه لئلا يسرقه أحد .

وكان الشعب واقفين ينظرون. والرؤساء يسخرون منه معهم قائلين : قد خلص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو مسيح الله المختار .

---

(٣٢) وجاؤا أيضا باثنين آخرين مذنبين ليُقتلا معه .

(٣٣) ولما مضوا به إلى الموضع الذى يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبيْن واحدا عن يمينه والآخر عن يساره .

(٣٥) وكان الشعب واقفين ينظرون . والرؤساء أيضا معهم يسخرون به قائلين: خلَّص آخرين فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله .

٣٦ ـ وكان الجند أيضاً يهزأون به .
٣٧ ـ وقائلين : إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك .
٣٨ ـ وكان عنوان فوقه مكتوباً بالحروف اليونانية واللاتينية والعبرانية : هذا هو ملك اليهود .
٤٤ ـ ولما كان نحو الساعة السادسة حدثت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة .
٤٥ ـ وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه .
٤٦ ـ ونادى يسوع بصوت عظيم قائلا: إيل إيل لِمَ شبقتنى؟ أى: إلٰهى إلٰهى لمذا تركتنى؟ فكان أناس من القائمين يقولون: دعوا ننظر هل يأتى إيليا فيخلصه. ثم صرخ أيضاً بصوت عالٍ وأسلم الروح .
٤٧ ـ فلما رأى قائد المئة ماحدث مجّد الله قائلاً : فى الحقيقة كان هذا الرجل صديقاً .
٤٨ ـ وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين على هذا المنظر، لما عاينوا ماحدث، رجعوا وهم يقرعون صدورهم .

---

(٣٦) والجند أيضا استهزأوا به وهم يأتون ويقدمون له خلا .
(٣٧) قائلين: إن كنت أنت ملك اليهود نخلص نفسك .
(٣٨) وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية: هذا هو ملك اليهود.
(٤٤) وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة .
(٤٥) وأظلمت الشمس ، وانشق حجاب الهيكل من وسطه .
(٤٦) ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: ياأبتاه فى يديك أستودع روحى . ولما قال هذا أسلم الروح .
(٤٧) فلما رأى قائد المائة ما كان مجّد الله قائلا : بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا.
(٤٨) وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لماأبصروا ما كان رجعوا وهم يقرعون صدورهم .

٤٩ ـ وكان جميع معارفه والنساء اللواتى تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك .

٥٠ ـ وإذا برجل اسمه يوسف وهو صالح صديق .

٥١ ـ ولم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم .

٥٢ ـ فدنا إلى بيلاطس وسأله جسد يسوع فأعطاه إياه .

٥٣ ـ فأنزله ولفه فى كتان ووضعه فى قبر منحوت لم يكن وضع فيه أحد.

٥٤ ـ وكان يوم التهيئة أى: الجمعة وقد أخذ السبت يلوح ...

وفى يوم السبت اجتمع عظماء الكهنة عند بيلاطس قائلين له : قد تذكرنا أن ذاك المضل كان يقول وهو حى: إنى أقوم بعد ثلاثة أيام. فمر أن يحرسوا القبر حتى اليوم الثالث. لئلا يأتى تلاميذه فيسرقوه ليلاً ويقولوا للشعب : إنه قام من بين الأموات. فتكون الضلالة الأخيرة شرًّا من الأولى. فأمر لهم بجنود يحرسون وحصنوا القبر وختموا الحجر مع الجنود. وفى عشية السبت المسفر صباحه عن الأحد أتت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظر القبر .

قال مفسروهم : إن هذه الآية أتعبت العلماء فى تفسيرها والتوفيق بين أجزائها وبين أقوال باقى الإنجيليين. انتهى .

---

(٤٩) وكان جميع معارفه ونساء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك.

(٥٠) وإذا رجل اسمه يوسف وكان مشيرا ورجلا صالحا باراً .

(٥١) هذا لم يكن موافقا لرأيهم وعملهم . وهو من الرَّامة مدينة اليهود . وكان هو أيضا ينتظر ملكوت الله.

(٥٢) هذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع .

(٥٣) وأنزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط .

(٥٤) وكان يوم الاستعداد والسبتُ يلوح .

وإذا بزلزلة عظيمة قد صارت لأن ملك الرب انحدرمن السماء. وكان الملك جبريل ظهر بهيئة شاب وجاء فدحرج الحجر عن باب القبر وجلس فوقه . وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج . ومن الخوف منـه اضطرب الحراس وصاروا كالأموات . فقال للنسوة : لاتخفن . فقد عرفت أنـكن تطلبن يسوع المصلوب. إنه ليس ههنا . فإنه قد قام .

وقال لوقا :

٥٥ ـ كانت النساء اللواتى أتين معه من الجليل . يتبعن . فأبصرن القبر وكيف وضع فيه جسده .

٥٦ ـ ثم رجعن وأعددن حنوطاً وأطياباً. وفى السبت قَرَرْنَ على حسب الوصية .

١ ـ وفى أول الأسبوع باكراً جـدًّا أتين إلى القـبر وهن يحملن الحنوط الذى أعددناه .

٢ ـفوجدن الحجر قد دُحرج عن القبر .

٣ ـ فدخلن فلم يجدن جسد يسوع .

٤ ـ وبينما هن متحيرات فى ذلك إذا برجلين قد وقفا عندهن بلباس برّاق .

---

(٥٥) وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وُضِـع جسده .

(٥٦) فرجعن وأعددن حنوطا وأطيابا . وفى السبت استرحن حسب الوصية .

الأصحاح الرابع والعشرون

(١) ثم فى أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعددنه ومعهن أناس .

(٢) فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر .

(٣) فدخلن ولم يجدن جسدً الرب يسوع .

(٤) وفيما هن محتارات فى ذلك إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة .

٥ ـ وإذ كن خائفات ونكّسن وجوههن إلى الأرض قالا لهن : لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات .

٦ ـ إنه ليس ههنا لكنه قام. اذكرن كيف كلمكن وهو فى الجليل.

٧ ـ إذ قال إنه ينبغى لابن البشر أن يُسلَم إلى أيدى أناس خطأة ويصلب ويقوم فى اليوم الثالث .

فذكرن كلامه .

ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله .

وقلن لهم: قد أخذوا يسوع من القبر ولا نعلم أين وضعوه .

١٠ ـ ومريم المجدلية وحنّة ومريم أم يعقوب وأُخَر معهن هن اللواتى أخبرن الرسل بهذا .

فكان عندهم هذا الكلام كالهذيان ولم يصدقوهن .

---

(٥) وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض قال لهن : لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات .

(٦) ليس هو ههنا لكنه قام . اذكرن كيف كلمكن وهو بعد فى الجليل .

(٧) قائلا إنه ينبغى أن يسلَّم ابن الإنسان فى أيدى أناس خُطاةٍ ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم .

فتذكرن كلامه .

ورجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله .

(١٠) وكانت مريم المجدلية ويُوَنَّا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتى قلن هذا للرسل .

(١١) فتراءى كلامهن لهم كالهذَيان ولم يصدقوهن .

١٢ ـ فقام بطرس وأسرع إلى القبر وتطلع فرأى الأكفان موضوعة على حدة فانصرف متعجباً فى نفسه مما كان .

١٣ ـ وإن اثنين منهم كانا سائرين فى ذلك اليوم إلى قرية اسمها عِمّاوُسُ بعيدة عن أورَشليم ستين غلوة .

١٤ ـ وكانا يتحادثان عن تلك الحوادث كلها .

١٥ ـ وفيما هما يتحادثان ويتساءلان دنا منهما يسوع نفسه وكان يسير معهما .

١٦ ـ ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته .

١٧ ـ فقال لهما : ما هذا الكلام الذى تتحاوران فيه وأنتما سائران مكتئبَين .

١٨ ـ فأجاب أحدهما : أفأنت غريب فى أورشليم ولم تعلم ما حدث بها فى هذه الأيام .

١٩ ـ فقال لهما : وما هو ؟ قالا له ما يخص يسوع الناصرى الذى كان رجلاً نبياً ذاقوة فى العمل والقول أمام الله والشعب كله .

---

(١٢) فقام بطرس وركض إلى القبر ونظر الأكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا فى نفسه مما كان .

(١٣) وإذا اثنان منهم كانا منطلقين فى ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غَلْوَةً اسمها عِمْوَاس .

(١٤) وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث .

(١٥) وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب منهما يسوع نفسه وكان يمشى معهما .

(١٦) ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته .

(١٧) فقال لهما: ما هذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين .

(١٨) فأجاب أحدهما الذى اسمه كِلْيوبَاسُ وقال له: هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها هذه الأيام ؟

(١٩) فقال لهما : وما هى ؟ فقالا : المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب .

٢٠ ـ وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه .
٢١ ـ واليوم هو اليوم الثالث لحدوث ذلك .
٢٢ ـ إلا أن نساء منا أدهشننا لأنهن بكرن إلى القبر .
٢٣ ـ فلم يجدن جسده فأتين وقلن: إنهن رأين مظهر ملائكة قالوا إنه حى .
٢٤ ـ فمضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا كما قالت النساء لكنهم لم يروه .
٢٥ ـ فقال لهما : ياقليلى الفهم وبطيىء القلب فى الإيمان بكل مانطقت به الأنبياء .
٢٦ ـ أما كان ينبغى للمسيح أن يتألم هذه الآلام ثم يدخل إلى مجده .
٢٧ ـ ثم أخذ يفسر لهما، من موسى ومن جميع الأنبياء، مايختص به فى الأسفار كلها .
٢٨ ـ فلما اقتربوا من القرية التى كانا يقصدانها تظاهر بأنه منطلق إلى مكان أبعد .
٢٩ ـ فألزماه قائلين: امكث معنا لأن المساء مقبل وقد مال النهار. فدخل ليمكث معهما .

---

(٢٠) كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه .
(٢١) ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل . ولكن مع هذا كله، اليومَ له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك .
(٢٢) بل بعض النساء منا حيرننا إذ كن باكرا عند القبر .
(٢٣) ولما لم يجدن جسدَه أتين قائلات : إنهن رأين منظر ملائكة قالوا: إنه حىّ .
(٢٤) ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضا النساء. وأما هو فلم يروه .
(٢٥) فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب فى الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء .
(٢٦) أما كان ينبغى أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده .
(٢٧) ثم ابتدأ، من موسى وجميع الأنبياء، يفسّر لهما الأمور المختصة به فى جميع الكتب.
(٢٨) ثم اقتربوا إلى القرية التى كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد .
(٢٩) فألزماه قائلين : امكث معنا لأنه نحوُ المساء وقد مال النهار . فدخل ليمكث معهما.

٣٠ ـ ولما اتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما .
٣١ ـ فانفتحت أعينهما وعرفاه فغاب عنهما .
٣٢ ـ فقال أحدهما للآخر: أما كانت قلوبنا مضطرمة فينا حين كان يخاطبنا فى الطريق ويشرح لنا الكتب .
٣٤ ـ وقاما فى تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم فوجدا الأحد عشر والذين معهم مجتمعين .
وهم يقولون: لقد قام يسوع فى الحقيقة وتراءى لسِمْعان .
٣٥ ـ فأخذا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز .
٣٦ ـ وبينماهم يتحدثون بهذه وقف يسوع فى وسطهم وقال لهم: السلام لكم . أنا هو لاتخافوا .
٣٧ ـ فاضطربوا وخافوا وظنوا أنهم يرون روحاً .

---

(٣٠) فلما اتكأ معهما أخذ خبزا وبارك وكسّر وناولهما .
(٣١) فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما .
(٣١) فقال بعضهما لبعض: ألم يكن قلبنا ملتهبا فينا إذ كان يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الكتب .
(٣٣) فقاما فى تلك الساعة ورجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم .
(٣٤) وهم يقولون: إن الرب قام بالحقيقة وظهر لِسِمعان .
(٣٥) وأما هما فكانا يخبران بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز .
(٢٦) وبينما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم وقال لهم: سلام لكم .
(٣٧) فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحا .

٣٨ ـ فقال لهم: ما بالكم مرتعدين ولماذا ثارت الأوهام فى قلوبكم .

٣٩ ـ انظروا يدىّ ورجلىّ إنى أنا هو جسُّونى وانظروا فإن الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لى .

٤٠ ـ ثم أراهم يديه ورجليه.

٤١ ـ وإذ كانوا غير مصدقين بعدُ من الفرح ومتعجبين قال : أعندكم ههنا طعام .

٤٢ ـ فأعطوه قطعة من سمك مشوىّ وشهد عسل .

٤٣ ـ فأخذ وأكل أمامهم .

ثم أخذ الباقى وأعطاهم ...

وبعد مفاوضته معهم .

٥٠ ـ خرج بهم إلى بيت عَنْيَا ورفع يديه وباركهم .

٥١ ـ وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد إلى السماء .

---

(٣٨) فقال لهم : ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم .

(٣٩) انظروا يدىّ ورجلىّ إنى أنا هو . جُسُّونى ، وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى .

(٤٠) وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه .

(٤١) وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم: أعندكم ههنا طعام ؟

(٤٢) فناولوه جزءا من سمك مشوىّ وشيئا من شَهْد عسلٍ .

(٤٣) فأخذ وأكل قدامهم.

(٥٠) وأخرجهم خارجا إلى بيت عَنْيا ورفع يديه وباركهم .

(٥١) وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء .

هـذا ما جاء فى إنجيل لوقا ممزوجاً ببعض تفاسيرهم . وإنما آثرت النقل عنه لزعمهم أن كلامه أصح وأفصح ، وأشد انسجاماً من كلام باقى مؤلفى العهد الجديد . كما فى (ذخيرة الألباب) من كتبهم .

فصل

فى بطلان ما رووه وتهافته بالحجج الدامغة

اعلم أن فى كتبهم الموجودة من التضارب فى هذه القصة ما يقضى بالعجب ويبرهن على عدم الوثوق بها . كما قال تعالى : مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ[1] .

قال البرهان البقاعىّ رحمه الله فى (تفسيره) بعد (أن ساق أزيد مما سقناه عن أناجيلهم ، وقال : أحسن ما رُدّ على الإنسان بما يعتقده) ما نصه : فقد بان لك أن أناجيلهم كلها اتفقت على أن علمهم فى أمره انتهى إلى واحد . وهو الأسخريوطىّ . وأما غيره من الأعداء فلم يكن يعرفه . وإنه إنما وضع يده عليه ولم يقل بلسانه إنه هو . وأن الوقت كان ليلاً . وأن عيسى نفسه قال لأصحابه : كلكم تشكّون فىّ هذه الليلة. وأن تلاميذه كلهم هربوا فلم يكن لهم علم بعد ذلك بما اتفق فى أمره . وإن بطرس إنما تبعه من بعيد . وإن الذى دل عليه خنق نفسه . وإن الناقل لأن الملك قال إنه قام من الأموات، إنما هو نسوة كن عند القبر فى مدى بعيد . وما يدرى النسوة الملك من غيره . ونحو ذلك من الأمور التى لاتفيد غير الظن . وأما الآيات التى وقعت فعلى تقدير تسليمها لا يضرنا التصديق بها . وتكون لجراءتهم على الله بصلب من يظنونه المسيح . وهذا كله يصادق القرآن فى أنهم فى شك منه . ويدل على أن المصلوب ، إن صح أنهم صلبوه، مَن ظنوه إياه ، هو الذى دل عليه .

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

قال بعض العلماء : إنه ألقى شبهه عليه . ويؤيد ذلك قولهم إنه خنق نفسه . فالظاهر أنهم لما لم يروه بعد ذلك ظنوا أنه خنق نفسه : فجزموا به. والله أعلم . انتهى.

وقال العلامة خير الدين الآلوسى فى (الجواب الفسيح) : اعلم أن ما ذكره هذا النصرانىّ من أن المسيح عليه السلام مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن ، وأقام فى القبر إلى صبيحة يوم الأحد ، ثم انبعث حيًّا بلاهوته وتراءى للنسوة اللاتى جئن إلى قبره زائرات ، وظهر بعد لحوارييه ... إلى آخر ماقاله ـ هو ما أجمع عليه النصارى . ويرد ذلك العقل والنقل . وإن صدقهم اليهود فى قتله . فاستمع من المنقول مايتلى عليك بإذن داعيه . وخذ ما يأتيك من المعقول بالدلائل الهادية . على أن المقتول هو الشبه . وأن الحال عند صالبيه اشتبه . وأن المسيح رفعه الله تعالى ، قبل القتل ، إليه . لشرفه عنده ومكانته لديه . قال الله تعالى فى بيان حال اليهود : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ.. الآية. وفى الإنجيل أن رئيس الكهنة أقسم على المأخوذ بالله أءنت المسيح بن الله ؟ فقال له : أنت قلت . ولم يجبه بأنه المسيح . فلو كان المقسم عليه هو المسيح لقال له : نعم . ولم يُوَرّ ولم يتلعثم . وهو محلَّف بالله . لا سيما وهو بزعمهم الإله . الذى نزل لخلاص عباده بإفداء نفسه ودخول الجحيم ولأواه.

وقال لوقا فى الفصل التاسع من إنجيله .

٢٨ ـ إن المسيح صعد قبل الصلب إلى جبل الخليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا .

٢٩ ـ فبينما هو يصلى إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه وصارت تلمع كالبرق .

الأصحاح التاسع

(٢٨) وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام ، أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى .

(٢٩) وفيما هو يصلىّ صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضًا لامعا .

٣٠ ـ وإذا موسى بن عمران وإيليا .

٣١ ـ قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلتهم .

٣٢ ـ وأما الذين كانوا مع المسيح فوقع عليهم النوم فناموا .

وهذا من أوضح الدلالات على رفعه وحصول الشبه الذى نقول به . إذ لا معنى لظهور موسى وإيليا ووقوع النوم على أصحابه إلا رفعه . ألا ترى أن اليهود كانوا يسمعون منه، عليه السلام ؛ أن إيليا يأتى . فلما رفعوه على الخشبة ، كما فى الأناجيل ، قالوا : دعوه حتى نرى أن إيليا يأتى فيخلصه . فصاروا فى شك يريدون تحقيقه . فإن أتى إيليا فما رفعوه هو المسيح . وإن لم يأت فهو غيره كما فى ظنهم . فلما لم يأت ازدادوا ريبة فى أمره . ومن رآه الحواريون بعد يقظتهم، يجوز أن يكون طوراً من أطوار روحه . لأنه عليه السلام لا يبعد أن يكون له قوة التطور . وتشكل الروح بعد الموت أمر ممكن . لا سيما وقد صدرت على يديه معجزات أعظم من ذلك . كإحياء الموتى وكثرة الخبز والحيتان وإبراء الأكمه والأبرص .

وقال يوحنا التلميذ .

١ ـ كان يسوع مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود فى طلبه .

---

(٣٠) وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليّا .

(٣١) اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذى كان عتيدا أن يكمّله فى أورشليم .

(٣٢) وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم. فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين الواقفين معه .

إنجيل يوحنا

الأصحاح الثامن عشر

(١) قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عِبْر وادى قِدْرون حيث كان بستانٌ دخله هو وتلاميذه .

٤ ـ فخرج إليهم يسوع وقال لهم : من تريدون ؟

قالوا: يسوع . (وقد خفى شخصه عنهم) . فقال : أنا يسوع . وفعل ذلك مرتين وقد أنكروا صورته .

فانظر أيها العاقل كيف اعترف هنا أنه يسوع لما علم أن الله تعالى توَلَّى حراسته منهم ، وأنهم لا يقدرون أن ينالوه بسوء . وكيف لم يعترف بأنه المسيح لما سأله رئيس الكهنة عن نفسه . فعدم اعترافه هناك واعترافه هنا دليل واضح أيضاً على أن ما قاله الله سبحانه فى القرآن العظيم هو الحق .

ثم من الأدلة على عدم قتله ما اشتملت عليه الأناجيل من اختلاف المبانى والمعانى والمقاصد والاضطراب فى حكاية هذه الواقعة والتناقض فى ألفاظها . كدعواهم الألوهية مع قوله عليه الصلاة والسلام (عند صلبه بزعمهم) : إلهى ! إلهى ! لم تركتنى . وقوله كما فى الفصل السادس والعشرين من إنجيل متى :

ياأبتاه إن كان لا يمكنك أن تفوتنى هذه الكاس أى: الموت ولابد لى أن أشربها فلتكن مشيئتك . وقام يصلى. وقوله لرئيس الكهنة : إنكم من الآن لاترون ابن الإنسان حتى ترونه جالساً عن يمين القوة وآتياً فى سحاب السماء . يريد بالقوة البارىء تعالى شأنه . وفى الفصل السابع من إنجيل يوحنا : إن المريسيين ورؤساء الكهنة أرسلوا شُرَطاً ليقبضوا على المسيح (يعنى ليقتلوه كما قال مفسروهم) قال أنا ما كث أيضا معكم زمانا . ثم

(٤) فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتى عليه وقال لهم : من تطلبون .

(٥) أجابوه يسوع الناصرى . قال لهم يسوع : أنا هو. وكان يهوذا مسلمهُ أيضا واقفاً معهم.

(٦) فلما قال لهم إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض .

(٧) فسألهم أيضا من تطلبون ، فقالوا: يسوع الناصرى .

(٨) أجاب يسوع قدقلت لكم إنى أناهو . فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون.

أنطلق إلى من أرسلني وتطلبونني فلا تجدونني . وحيثما أكن فلا تستطيعون إليه سبيلاً . قال اليهود في ذواتهم : فإلى أين ؟ هذا عتيد أن ينطلق حتى لانجده نحن ، قال مفسروهم أي : يصعد إلى السماء . وغير ذلك مما لو أردنا ذكره والتنقير عنه لطال البحث .

ثم نقل خير الدين نحواً مما أسلفناه عن أناجيلهم وقال بعد ذلك : فَأَجِل في تناقضها قداح فكرك . وفي تهافتها خيول ذهنك . لترى في هذه القصة ما يدلك على وقوع الشبه ونجاة المسيح عقلًا ونقلًا . كما قال تعالى : وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ . وليتبين لك عبوديته ورسالته عليه السلام . فإن ذلك ظاهر من العبارات . ولنزدك في البيان وضوحاً بما ننبهك عليه بكلمات يسيرة مقدوحاً ومشروحاً .

منها : قولهم إنه صلب قبل غروب يوم الجمعة ودفن مساءها . ولما جاءت النسوة عشية السبت المسفر صباحه عن الأحد ، وجدنه فارغاً ، وقدقام منه المدفون . مع أن النصارى يزعمون ، كما في أناجيلهم ، أنه يبقى في قبره ثلاثة أيام . كما بقي يونان ، أي : يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام بلياليها ، فما هذا إلا دليل على الاختلاق والتهافت في هذا الأمر .

ومنها : سؤالة اليهود مرتين من تطلبون ؟ وهم يقولون : يسوع الناصري . فلم يعرفوه وهو يقول لهم : أنا .

ومنها : أن يهوذا ارتشى ليدلهم عليه . وجعل العلامة على تعيينه لهم تقبيل يده . فلو كان معلوماً لهم لعرفوه بلا دلالة وبلا سؤال . مع أنه كان بين أظهرهم وفي غالب الأيام في هيكلهم .

ومنها : أنه لما أقسم عليه رئيس الكهنة أنه هو المسيح لم يقل له : أنا المسيح . بل قال له : أنت قلت .

---

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

ومنها : إنكار بطرس له وهو من أعظم رسله . وإنكاره كفر .

ومنها: أنه لما سأله الوالى : أنت هو ؟ لم يردّ له جواباً . فلو كان هو لاعترف وأقرّ .

ومنها : أنه لما كان أخذه ليلًا ، وقدشوهت صورته وتغيرت محاسنه بالضرب والنكال ، فهى حالة توجب اللبس بين الشيء وخلافه . فكيف بين الشيء وشبهه ؟ فمن أين يحصل القطع بأنه هو ؟ لا سيما والنصارى قد حكموا أن المسيح عليه السلام قد أعطى قوة التحوّل من صورة إلى صورة . ويحتمل أن المسيح ذهب فى الجماعة الذين أطلقهم الأعوان ، وكان المتكلم معهم تلميذٌ أراد أن يبيع نفسه من الله تعالى وقاية للمسيح . فألقى الله تعالى عليه الشبه . وأتباعُ الأنبياء يفدون أنفسهم لأنبيائهم. وهذا فدى نفسه لإلٰهه، بزعم النصارى .

ومنها : أنه يحتمل أن الأعوان ارتشوا على إطلاقه كما ارتشى يهوذا على الدلالة عليه . وأخذوا غيره ممن يريد أن يفدى نفسه للمسيح . والدليل عليه عدم اعترافه بأنه المسيح .

ومنها : قوله عليه السلام الذى تقدم آنفاً : أنا ما كث معكم زماناً . ثم أنطلق إلى من أرسلنى . فتطلبونى فلا تجدونى . وحيثما أكن فلا تستطيعون إليه سبيلًا . فهذا صريح فى أنهم سيطلبونه ولايجدونه ولاينالون منه شيئاً ، لأنه سيصعد إلى السماء . ومثله مافى الفصل الثانى عشر من (إنجيل يوحنا) ما لفظه : قال لهالجموع : نحن سمعنا من الناموس أنالمسيح يمكث إلى الأبد . فكيف تقول أنت أن ابن البشر سوف يرتفع . من هو هذا ابن البشر ؟ قال لهم يسوع : إن النورمعكم زماناً آخر يسيراً . امشوا مادام لكمالنور . لئلا يدرككم الظلام . ومن يمش فى الظلام فلا يدرى أين يذهب . آمنوا بالنور مادام لكم النور . قال يسوع هذا وذهب متوارياً عنهم . انتهى .

ففى هذا الكلام أدلة كثيرة مؤيدة لقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ (١) .

منها : أن اليهود قالوا لعيسى : إن المسيح المذكور فى العهد القديم يمكث إلى الأبد .

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

أى: فإن كنت أنت المسيح فأنت لا تموت فى هـذا الزمان . بل تبقى إلى قيام الساعة . ولم يكذبهم فى نقلهم ذلك. والمسلمون يقولون: إنه رفع حيًّا إلى السماء وهو الآن حىٌّ فيها. وسينزل آخر الزمان عند قرب الساعة . ويقتل الدجال ويحكم بالشريعة المحمدية . ويتوفى ويدفن عند عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . فهو حىّ إلى الأبد، يعنى إلى قرب قيام الساعة . ونزولُه وموته من أمارات الساعة الـكبرى . وفى هذا القول دلالات ظاهرات أيضاً على أنه ليس بإله :

أحدها ـ أنه قال : ابن البشر . يعنى لا تظنوا أنى أدعى الألوهية وإن أحييت الموتى . لأن ذلك معجزة خلقها الله تعالى على يده للإيمان بنبوّته .

ثانيها . لو كان إلها لما توارى منهم خائفاً من قتلهم له . لأن الإله هو خالق لهم ولعملهم . وعالم بزمن قدرتهم عليه . فـكيف يفرّ وهو يعلم وقت موته ؟ وهو خالق الموت والحياة ؟ ثم إنه يحتمل أن الله تعالى ألقى شبهه على شيطان أو مارد من مردة الجن ليخلص نبيه ورسوله من أيدى أعدائه ، ويرفعه إليـه محفوظاً مكرماً . كما أجرى على يديه إحياء الموتى ، وخَلَقَه من غـير أب ، وأبرأ الأكمه والأبرص . لاسيما وهو بزعمهم إله العالم وخالق الإنس والجن وبنى آدم . فأى ضرورة تدعو لإثبات أنواع الإهانة والعذاب، على ما زعموا، لرب الأرباب . مع وجود التناقض فيما نقلته أناجيلهم فى هذا الفصل والباب .

عجباً للمسيح بين النصارى وإلى أىّ والد نسبوه
أسلموه إلى اليهـود وقالوا : إنهم بعـــد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حـقًّا وصحيحاً ، فأين كان أبوه ؟
حين خلى ابنه رهين الأعادى. أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم فاحمدوهم لأنهم عـــذّبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه واعبـــدوهم لأنهم غلبوه

وفى كتاب (الفاصل بين الحق والباطل) ما نصه : وفى الذى اتخذتموه شهيداً على صلبه من

كلام عاموص النبيّ . أن الله تعالى قال على لسانه : ثلاثة ذنوب أقبل لبني إسرائيل . والرابعة لا أقبلها . بيعهم الرجل الصالح ـ حجة عليكم لا لكم . لأنه لم يقل بيعهم إياى . ولا قال بيعهم إلٰها متساويا معى .

ويجرى تأويل ذلك على وجهين: إما أن يكون عنى بالمبيع عيسى كما تزعمون فقولوا حينئذ إنه (الرجل الصالح) كما قال عاموص ، وليس بالإلٰه المعبود . وإما أن يريد بالمبيع غيره وهو الذى شبه لليهود فابتاعوه وصلبوه . ويلزمكم وحينئذ إنكار صلوبية عيسى عليه السلام . كيف لا ونصوص الإنجيل والكتب النصرانية متضافرة دالة على عدم الصلب لعيسى عليه السلام . ووقوع الشبه على غيره . وذلك من وجوه : أحدها ـ يوجد فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام صعد إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا . فبينما هو يصلى إذ تغير منظر وجهه عما كان عليه وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق . وإذا بموسى بن عمران وإيليا قد ظهرا له وجاءت سحابة فأظلتهم . فوقع النوم على الذين معه . فأى مانع يمنع من أن يكون ذلك قد وقع فى اليوم الذى طلبته فيه اليهود . وإنما قد اختلفتم فى نقلها كما اختلفتم وتناقضتم فى غير ذلك . وغيرتم الكلم عن مواضعه . وظهور الأنبياء عليهم السلام وتظليل السحابة ووقوع النوم على التلاميذ، يكون حينئذ دليلًا ظاهراً على الرفع إلى السماء وعدم الصلب . وإلا فلا معنى لظهور هذه الآيات . وثانيها ـ ما فى الإنجيل أيضاً أن المصلوب قد استسقى اليهود فأعطوه خلًّا مضافاً بمر . فذاقه ولم يشربه . فنادى : إلٰهى إلٰهى لم خذلتنى؟ والأناجيل كلها مصرحة بأنه عليه السلام كان يطوى أربعين يوماً وأربعين ليلة . ويقول للتلاميذ : إن لى طعاماً لستم تعرفونه . ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوماً وليلة كيف يظهر الحاجة والمذلة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد ؟ هـذا لا يفعله أدنى الناس ، فكيف بخواصّ الأنبياء ؟ أو كيف بالرب على ما تدعونه ؟ فيكون حينئذ المدعى للعطش غيره . وهو الذى شبه لكم . وثالثها ـ قوله : إلٰهى إلٰهى لم خذلتنى وتركتنى ؟ هو كلام يقتضى عدم الرضا بالقضا ، وعدم

التسليم لأمر الله تعالى . وعيسى عليه السلام منزّه عن ذلك . فيكون المصلوب غيره . لاسيما وأنتم تقولون: إن المسيح عليه السلام إنما نزل ليؤثر العالم على نفسه ، ويخلّصه من الشيطان ورجسه . فكيف تروون عنه مايؤدى إلى خلاف ذلك، مع روايتكم فى توراتكم أن إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهرون، عليهم السلام، لما حضرهم الموت كانوا مستبشرين بلقاء ربهم، فرحين بانقلابهم إلى سعيهم، لم يجزعوا من الموت ولم يستقيلوا منه . ولم يهابوا مذاقه. مع أنهم عبيده . والمسيح بزعمكم وَلَدٌ وَرَبٌّ . فكان ينبغى أن يكون أثبت منهم . ولما لم يكن كذلك دلّ على أن المصلوب غيره ، وهو الذى شبه لكم .

فصل

فيما روى عن سلفنا الكرام رضى الله عنهم فى تفسير هذه الآية

قال الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقىّ رحمه الله تعالى فى (تفسيره) هنا ما نصه : وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات . التى كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله . ويصوّر من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهَد طيرانه بإذن الله عز وجل . إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها وأجراها على يديه . ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم . حتى جعل نبىّ الله عيسى عليه السلام لايساكنهم فى بلدة. بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام. ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان ، وكان رجلًا مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان ، وأنهوا إليه أن فى بيت المقدس رجلًا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه . فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور . وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه . ويكفّ أذاه عن الناس . فلما وصل الكتاب

امتثل والى بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام . وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفراً . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت . فحصروه هنالك . فلما أحس بهم ، وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم . فكأنه استصغره عن ذلك . فأعادها ثانية وثالثة . وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب . فقال : أنت هو . وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو . وفتحت روزنة من سقف البيت . وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء . وهو كذلك كما قال الله تعالى : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ... الآية .

فلما رفع، خرج أولئك النفر. فلما رأى أولئك النفر ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه. وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك. وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك ، لجهلهم وقلة عقلهم . ما عدا من كان فى البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه . وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم . حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت . ويقال إنه خاطبها . والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة. وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات، والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذى يعلم السر فى السموات والأرض، العالم بما كان ويكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ (١) . أى : رأوا شبهه فظنوا أنه إياه. ولهذا قال: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ[١]. يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى. كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر. ولهذا قال : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا[٢]. أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا[٣] : أى : منيع الجناب لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه. حَكِيمًا أى : فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان. حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين. يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء. فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة بعد أن آمن بى. قال ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: هو أنت ذاك . فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه . فكفر به بعضهم اثنى عشر مرة بعد أن آمن به . وافترقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها. فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس. ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية نحوه . وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة ؟

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .
(٢) [٤ / النساء / ١٥٧] .
(٣) [٤ / النساء / ١٥٨] .

وقال ابن جرير[١] حدثنا ابن حميد. حدثنا يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن وهب ابن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت. فأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صورهم الله عز وجل كلهم على صورة عيسى . فقالوا لهم : سحرتمونا . لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه : من يشترى نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا . فخرج إليهم وقال : أنا عيسى . وقد صوره الله على صورة عيسى . فأخذوه فقتلوه وصلبوه . فمن ثم شبه لهم فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى . وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى. ورفع الله عيسى من يومه ذلك . قال ابن كثير: وهذا سياق غريب جداً . ثم قال ابن جرير: وقد روى عن وهب نحو هذا القول وهو[٢] ما حدثنى المثنى. حدثنا إسحق . حدثنا إسماعيل عن عبد الكريم . حدثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه . فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً فقال : احضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة . فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه . فتعاظموا ذلك وتكارهوه . فقال : ألا من رد على الليلة شيئاً مما أصنع فليس منى ولا أنا منه. فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى، فليكن لكم بى أسوة . فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسى لكم . وأما حاجتى الليلة التى استعنتكم عليها، فتدعون الله لى وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى . فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء . فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ! أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها . فقالوا : والله ! ما ندرى ما لنا ؟ لقد كنا نسمر فنكثر السمر

(١) الأثر رقم ١٠٧٧٩ من تفسير ابن جرير .

(٢) الأثر رقم ١٠٧٨٠ من تفسير ابن جرير .

وما نطيق الليلة سمراً. وما نريد دعاءً إلا حيل بيننا وبينه . فقال : يُذْهب بالراعى وتتفرق الغنم . وجعل يأتى بكلام نحو هـذا ينعَى نفسه . ثم قال : الحقَّ ، ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات . وليبيعنِّى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكل ثمنى ! فخرجوا فتفرقوا . وكانت اليهود تطلبه . وأخذوا شمعون أحد الحواريين وقالوا : هـذا من أصحابه . فجحد وقال : ما أنا بصاحبه . فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك . ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً . فأخذها ودلهم عليه . وكان شُبِّه عليهم قبل ذلك . فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل . فجعلوا يقودونه ويقولون له : أنت كنت تحيى الموتى وتنهر الشيطان وتبرىء المجنون ، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك . حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها . فرفعه الله إليه . وصلبوا ما شُبِّه لهم . فمكث سبعاً . ثم إن أمَّه والمرأة التى كان يداويها عيسى عليه السلام فأبرأها الله من الجنون ، جاءتا تبكيان حيث المصلوب . فجاءهما عيسى فقال : علامَ تبكيان ؟ فقالتا : عليك . فقال : إنى قد رفعنى الله إليه ولم يصبنى إلا خير . وإن هـذا شىء شُبِّه لهم . فأْمُرا الحواريين أن يلقونى إلى مكان كذا وكذا . فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر . وفقَدَ الذى كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع ، فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه . ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يُحَنَّى . فقال : هو معكم ، فانطلقوا فإنه يصبح كلُّ إنسان يحدث بلغة قومٍ . فلْيُنذِرهم وليدعهم .

قال ابن كثير : سياق غريب جداً . وقال ابن جريج عن مجاهد : صلبوا رجلاً شبه بعيسى . ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حيًّا .

فصل

فى رد زعم النصارى أن إلقاء الشبه يفضى إلى السفسطة

قال خير الدين فى (الجواب الفسيح) قال النصارى : القول بإلقاء الشبه على عيسى عليه السلام قول يفضى إلى السفسطة ، والدخول فى الجهالات ، ومالا يليق بالعقلاء . لأنا إذا جوزنا ذلك فينبغى إذا رأى الإنسان ولده أو زوجته لم يثق بأنه ولده أو زوجته . وكذلك سائر المعارف . لايثق الإنسان بأحدمنهم ولايسكن إليه . ونحن نعلم بالضرورة أن الإنسان يقطع بأن ولده هو ولده . وإن كل واحدمن معارفه هو ، من غير شك ولاريبة . بل القول بالشبه يمنع من الوثوق بمدينة الإنسان ووطنه إذا دخله . ولعله مكان آخر أُلقى عليه الشبه . بل إذا غمض الإنسان عينه عن صديقه بين يديه لحظة ، ثم فتحها ، ينبغى أن لا يقطع بأنه صديقه لجواز إلقاء الشبه على غيره . وكل ذلك خلاف الضرورة . فالقول بإلقاء الشبه على غير عيسى خلاف الضرورة . كالقول بأن الواحد نصف العشرة مثلاً ، فلا يسمع .

والجواب عنه من وجوه : أحدها ـ أن هذا تهويل ليس عليه تعويل . بل البراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة قائمة على أن الله تعالى خلق الإنسان وجملة أجزاء العالم . وإن حكم الشيء حكم مثله : فما من شيء خلقه الله تعالى فى العالم إلا هو قادر على خلق مثله . لتعذر خلقه فى نفسه . فيلزم أن يكون خلق الإنسان مستحيلاً . بل جملة العالم. وهو محال بالضرورة. وإذا ثبت أن الله تعالى قادر على خلق مثل لكل شيء فى العالم ، فجميع صفات جسد عيسى عليه السلام لها أمثال فى حيز الإمكان فى العدم ، يمكن خلقها فى محل آخر غير جسد المسيح. فيحصل الشبه قطعاً . فالقول بالشبه قول بأمر ممكن . لا بما هو خلاف الضرورة . ويؤنس ذلك أن التوراة مصرحة بأن الله تعالى خلق جميع ما للحية فى عصا موسى عليه السلام . وهو أعظم من الشبه . فإنّ جَعْلَ حيوان يشبه حيواناً ، وإنسانٍ يشبه إنساناً ـ أقرب من

جعل نبات يشبه حيواناً . وقلب العصا مما أجمع عليه اليهود والنصارى . كما أجمعوا على قلب النار برداً وسلاماً . وعلى قلب لون يد موسى عليه السلام . وعلى انقلاب المـاء خمراً وزيتاً للأنبياءعليهم السلام . وإذا جوزوا مثل هذا فيجوز إلقاءالشبهمن غيراستحالة . علىأنعيسى عليهالسلامقد خولفت عادة الله تعالى الأغلبية فى خلقه من ماء واحد . ونفخ جبريل فىجيب مريم . فجعلُ شبهه علىغيره ليس بأبعد عن العادة ، من خلقه . على أنإحياءه للموتى وإبراءه للأبرص والأكمه أعظم من إلقاء شبهه علىغيره . علىأنعروجهإلىالسماءبناسوته وخرق السماء والتئامها ، ليس بأهون منذلك . على أن رد الشمس ليوشع بن نون، ومشى عيسى وحواريّه على المـــاء ، وسائر معجزات أنبياء بنى إسرائيل ، ليس بأهون مما هنالك . وإذا صح عند النصارى انقلاب الخبز إلى جسد المسيح ، والخمر إلى دمه فى العشاء السرّى ، لِمَ لا يمكن أن يوقع شبهه على أحدهم ؟ كما لا يخفى .

وثانيها ـ أن الإنجيل ناطق بأن المسيح عليــه السلام نشأ بين ظهرانى اليهود . وحضر مراراً عديدة فى مواسمهم وأعيادهم وهياكلهم . يعظهم ويعلمهم ويناظرهم . ويتعجبون من براعته وكثرة تحصيله . حتى إنهم (كما فى الإنجيل) يقولون : أليس هذا ابن يوسف؟ أليست أمه مريم؟ أليس إخوته عندنا ؟ فمن أين له هذه الحـكمة ؟ وإذاً ، كان فى غاية الشهرة والمعرفة عندهم . وقد نص الإنجيل على أنهم عنـــد إرادة الصلب لم يحققوه ، حتى دفعوا لتلميذه ثلاثين درهماً ليدلهم عليه . فما حاجتهم حينئذ أن يكتروا رجلًا من تلاميذه ليعرفهم شخصه ؟ لولا وقوع الشبه الذى نقول به . وثالثها ـ أنه كما تقدم فى الأناجيل ، أُخِذ فى حندس من الليل المظلم فى حالة شُوِّهت صورته وغُـيِّرت محاسنه وهيئته ، بالضرب والسحب وأنواع النكال الموجبة لتغير الحال . ومثل ذلك يوجب اللبس بين الشيء وخلافه. فـكيف بين الشيء وشبهه ؟ حتىإن رئيس الـكهنة عند إحضاره أقسم عليه هل هو يسوع المسيح ابن الله ؟ فلم يجبه. ولوكان هو لأجابه . فمن أين للنصارى واليهود القطع بأن المصلوب هو عين عيسى

عليه السلام دون شبهه ؟ بل إنما يحصل الظن والتخمين كما قال تعالى فى كتابه المبين : وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ .

رابعها ــ قد تقدم فى الأناجيل أنه لما جاء اليهود إلى محله خرج إليهم وقال : من تريدون؟ قالوا : يسوع. وقدخفى شخصه عليهم . ففعل ذلك مرتين وهم ينكرون صورته . وهذا دليل الشبهه ، ورفع عيسى عليه السلام . ولا سيما وقد نقل غير واحد من العلماء عن بعض النصارى القول بأن المسيح عليه السلام كان قد أعطى قوة التحول من صورة إلى صوة .

خامسها ــ قول متى فى (الفصل الخامس والعشرين) من (إنجيله) ما لفظه: حينئذ قال لهم يسوع كلكم تشكون فىّ هذه الليلة . لأنه مكتوب إنى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية . ولكن بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل . فأجاب بطرس وقال له : وإن شك فيك الجميع فأنا لاشك أبداً . قالله‌يسوع : الحق أقول لك . إنك هذه الليلة ، قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات . انتهى .

فقدشهد عليهم بالشك. بل خَيْرُهُمْ بطرس الذى هو خليفة عليهم ، شك. فقد انخرمت الثقة بأقوالهم . وصح قوله تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ .

سادسها ــ إن فى (الفصل السابع والعشرين) من (إنجيل متى) مالفظه : حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دِينَ ، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ . قائلاً : قد أخطأت إذ سلمت دما بريئاً . فقالوا : ماعلمنا . أنت أبصر . فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف . ثم مضى وخنق نفسه . انتهى .

فهذه الأناجيل ليست قاطعة فى صلبه . بل فيها اختلافات . فيحتمل أن يهوذا كذب عليهم فى قوله (هو هذا) ويدل على وقوع ذلك ، ويقرِّبه ظهور ندمه بعد هذا . ولا سيما

وهو من جملة الاثنى عشر الذين شهد لهم المسيح بالسعادة الأبدية . والسعيد لايتم منه مثل هذا الفساد العظيم . فيلزم إما أن يهوذا مادل عليه ، أو كون المسيح ما شهد لهم بالسعادة الدائمة . أو إن أناجيلهم محرفة مبدلة . ويحتمل أن أحد أتباع المسيح باع نفسه من الله تعالى وقاية للمسيح عليه السلام . وادعى أنه هو . ومثل هذا كثير فى أتباع الأنبياء . حيث يريدون أن يَفْدوا أنفسهم بدل أنبيائه . ويحتمل أن الأعوان أخذوا عليه رشوة وأطلقوه ، وأخذوا بدله . كما أن يهوذا ، مع أنه صديقه ورسوله ، أخذ رشوه ودلهم عليه . ويحتمل أن الله تعالى أرسل شيطاناً على صورته وصلبوه . ويحتمل أن الملك الذى نزل عليه ليقويه ، كما تقدم فى إنجيل لوقا بزعمهم ، صار فداءًله . ويحتمل أن هذا الذى نزل إنما نزل لرفعه. لأنه لوكان نازلاً لتقويته لقوّاه . فلما لم نر أنه قواه فيقتضى أنه رفعه إلى السماء ، أو فدى نفسه له .

وقال بعض الأفاضل : ومن الأدلة على رفعه وصلب شبهه مافى الفصل التاسع من (إنجيل لوقا) مالفظه : أن المسيح ضعد إلى حبل ليصلى وأخذ بطرس ويوحنا ويعقوب معه . وفيما هو يصلى صارت هيئته ووجهه متغيرة ، ولباسه مضيئاً لامعاً . الخ .

فهذا فيه دلالة على رفعه وحصول الشبه الذى نقول به . إذ لا معنى لظهور موسى وإيلياء ، ووقوع النوم على أصحابه ، وتغير وجهه وإضاءة لباسه ، إلا رفعه . ورؤيتهم له بعد ذلك ، إنما هو من تطور روحه . لأنه عليه السلام كان له قوة التطور : وهذا من أحكام الروح والنفس .

ولئن قلنا إنه لايدل على الرفع بالوجه التام ، غير أنا نتنزل ونقول : ما دام فى هذه المرة تغيرت هيئته ووجهه ولباسه ، واجتمع بالأنبياء وسمع من الغمامة هذا الصوت ، فلا أقل من أن يكون ذلك مقدمة لرفعه ومقياساً ، ومبدأ لتقويته وإيناساً . واليهود لم يتحققوا من أنفسهم أنه هو المسيح . بل اعتمدوا على قول يهوذا كما تقدم لك . ويهوذا قوله قول فرد ، وغير صالح للاحتجاج . للاحتمالات والأدلة التى ذكرناها لك . فلم يبق فى قول الفرقتين حجة

أن المصلوب هو المسيح عليه السلام ، لا شبهه . وأناجيلهم حالها معلوم لديك . وبيان اشتباههم المحكى لك فى القرآن ، لا يخفى عليك . انتهى .

وهنا سؤال يورده بعض النصارى وهو: أن عيسى عليه السلام إذا كان لم يصلب حقيقة ، وإنما صلب رجل ألقى عليه شبهه ، ورفع هو إلى السماء ، فَلِمَ لَمْ يخبر الحواريين بذلك قبل رفعه أو بعده ؟

والجواب : أن عيسى عليه السلام لم يخبر بذلك لعلمه بأن إناساً سيفترون عليه ويقولون بألوهيته. فأبهم الأمر ليكون ذلك أدل على كونه عبداً من عبيد الله . لايقدر على جلب نفع ولا دفع ضر . بخلاف مالو أخبر بأنه لا يصلب ، أو لم يصلب ، وأن المصلوب شبهه ، فإنه ربما كان ذلك مقوياً لشبهة أولئك الجماعة . ولعدم كون هذه المسألة من المسائل الاعتقادية فى الأصل . إذ لواعتقد أحد ، قبل إرسال نبينا عليه الصلاة والسلام ، بصلب عيسى ، لم يضره ذلك . لكن لما ورد نبينا الذى لا ينطق عن الهوى ، أبان خطأ النصارى فى الوجهين : أحدهما ـ اعتقاد أن عيسى إله . والآخر ـ اعتقاد أنه قد قتل وصلب. وإبان أنه عبد من عبيد الله تعالى تولاه بالرسالة ، واصطفاه وحفظه من أيدى أعدائه وحماه ، كذا فى (منية الاذكاء فى قصص الأنبياء) .

فصل

فى سقوط دعواهم التواتر فى أمر الصلب

قال القرافى : اعلم أن النصارى قالوا: إنهم واليهود أمتان عظمتان طبقوا مشارق الأرض ومغاربها . وكلهم يخبر أن المسيح عليه السلام صلب . وهم عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب . والإنجيلُ أيضا مخبر عن الصلب . فإن جوزتم كذبهم ، وكذب ما يدعى أنه الإنجيل، وإن مثل هؤلاء ممكن تواطؤهم على الكذب ـ لزم المحال من وجوه : أحدها ـ أنه يتعذر عليكم أيها المسلمون، جعل القرآن متواتراً. وثانيها ـ أن قاعدة التواتر تبطل بالكلية.

فإن غاية خــبر التواتر يصل إلى مثل هذا . وثالثها ـ أن إنـكار الأمور المتواترة . جحد للضرورة ، فلا يسمع . فلو قال إنسان : الخبر عن وجود بغداد ودمشق كذب ، لم يسمع ذلك منه ، وعدّ خارجاً عن دائرة العقلاء . وحينئذ يتعين أن القول بالصلب حق وأن إخبار المسلمين والقرآن عن عدم ذلك، مشكل.

والجواب من وجوه : أحدها ـ أن جميع النصارى واليهود يوردون هـذا السؤال ولا يعلمون حقيقة التواتر ولا شروطه . وإنما فهم ذلك وغيرَه هــذه الأمةُ المحمدية والملة الإسلامية ! لعلو قدرها وشرفها واختصاصها بمعاقد العلوم وأزمتها . دون غيرها . كما هو مسلم عند كل دريّ (كذا) منصف. وها نحن نوضح ذلك إن شاء الله تعالى فنقول : إن التواتر له شروط : الشرط الأول ـ أن يكون المخبر عنه أمراً محسوساً . ويدل على اعتبار هذا الشرط، أن الأمة العظيمة قد تخبر عن القضايا الجسيمة وهي باطلة . كإخبار المعطلة عن عـدم الصانع والفلاسفة عن قدم العالم . مع بطلان ذلك عند أمم كثيرة . وسببه أن مجال النظر يكثر فيه وقوع الخطأ . فلا يثق الإنسان بالخبر عن العقليات ، حتى ينظر فيجد البرهان العقليّ يعضد ذلك الخبر . فحينئذ يقطع بصحة ذلك الخبر . أما الأمور المحسوسة ، مثل المُبْصرات ونحوها فشديدة البعد عن الخطإ . وإنما يقع الخلل من التواطؤ على الـكذب . فإذا كان المُخْبِرون يستحيل تواطؤهم على الـكذب حصل القطع بصحة الخبر . الشرط الثاني ـ استواء الطرفين والواسطة . وتحرير هذا الشرط أن المخبرين لنا ، إذا كانوا يستحيل تواطؤهم على الـكذب وكانوا هم المباشرين لذلك الأمر المحسوس ، المخبر عنه ، حصل العلم بخبرهم . وإن لم يكن المخبر لنا هو المباشر لذلك الأمر المحسوس ، بل ينقلون عن غيرهم أنه أخبرهم بذلك ، فلا بد أن يكون الخبر المباشر عدداً يستحيل تواطؤهم على الـكذب ، فإنه إن جاز الـكذب عليه ، وهو أصل هؤلاء المخبرين لنا ، فإذا لم يبق الأصــــل لم يبق المفرع عليه . فلا يلزم من كون المخبر لنا يستحيل تواطؤهم على الـكذب حصول العلم بخبرهم . لجواز فساد أصلهم

المعتمدين عليه . فيتعين أن يكون الأصل عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب . فهذا معنى قولنا : (استواء الطرفين)فى كونهما عدداً يستحيل تواطؤهما على الكذب ـ شرط. فإن كان المخبر لنا عددا يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وأصلهم الذى ينقلون عنه كذلك ، لكن أصلهم لم يباشر ذلك الأمر المحسوس ، بل ينقل عن غيره أيضاً ، فأصل ذلك الأصل يجب أن يكون عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب أيضاً . لما تقدم . وفى هذه الصورة حصل طرفان وواسطة . فالطرفان المخبر لنا . والمباشر الأول الواسطة الذى بينهما . فيجب استواء الطرفين والواسطة . والوسائط تكثرت فى كونهم عدداً يستحيل تواطؤهم على الكذب. فينقسم ، بهذا التحرير، التواتر إلى طرف فقط ، وإلى طرفين بلا وساطة ، وإلى طرفين وواسطة . والثلاثة أقسام مشتركة فى هذا الشرط . فإذا تقرر حقيقة التواتر فنقول : الحس إنما يتعلق بأن هذا مصلوب على هذه الخشبة . وأما أنه عيسى عليه السلام نفسه أو غيره، فهذا لا يفيده الحس البتة . بل إنما يعلم بقرائن الأحوال إن وجدت ، أو بأخبار الأنبياء عليهم السلام عن الله تعالى الذى أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . والذى يدل على أن الحس لا يفرق بين المماثلات ، أنا لو وضعنا فى إناء رطلا من الماء مثلا . وأريناه لإنسانٍ ، ثم رفعنا ذلك الماء ووضعنا فيه رطلاً آخر من ذلك الماء ثم أريناه ذلك الإنسان . وقلنا له : هذا الماء هو عين الماء الأول أو مثله ؟ فإنه إذا أنصف يقول : الذى أدركه بحسِّى أن هذا ماء بالضرورة . أما أنه عين الأول أو غيره مماثلاً له ، فلا أعلم. لكون الحس لا يحيط بذلك . هذا فى المائعات . وكذلك كفٌّ من تراب أو أوراق الأشجار أو أنواع الحبوب . كالحنطة مثلاً . إذا أخذ منها حفنتان ونحو ذلك . وكذلك الحيوانات الوحشية والطيور شديدة الالتباس على الحس . إذا اتحد النوع فى اللون والسن والغلظ . وإنما كثرت الفروق فى الحيوانات الإنسية كالفرس ونحوها .

مطلب :

وسر ذلك أن أسباب النشأة فى الوحشية مشتركة بالمياه والمراعى والبرارى . والحيوان

الإنسي يختلف ذلك فيه ، بحسب مقتنيه ، اختلافاً كثيراً . فينشأ بحسب دواعى بنى آدم فى السعة والضيق ، وإيثار نوع من العلف على غيره ، ومكان مخصوص على غيره ، وإلزام الحيوان أنواعاً من الأعمال والرياضة دون غيرها ، فيختلف الحيوان الإنسي بحسب ذلك . ثم يتصل ذلك بالتُّطَف فى التوليد . مضافاً إلى مايحصل للولد من داعية مريبة فيعظم الاختلاف . والحيوان الوحشي سلم عن جميع ذلك . فتشابهت أفراد نوعه . ولا يكاد الحس يفرق بين اثنين منه البتة . فإذا تقرر أن الحس لا سلطان له على الفرق بين المثلين ، ولا التمييز بين الشيئين ، فيجب القطع أن كون المصلوب هو خصوص عيسى عليه السلام دون شبهه أو مثله ـ ليس مدركا بالحس . وإذا لم يكن مدركا بالحس ، جاز أن يخرق الله تعالى العادة لعيسى عليه السلام شبهه فى غيره . كما خرق له العادة فى إحيائه الموتى وغيره . ثم يرفعه ويصونه عن إهانة أعدائه . وهو اللائق بكريم آلائه . فى إحسانه لخاصة أنبيائه وأوليائه . وإذا جوز العقل مثل هذا مع أن الحس لا مدخل له فى ذلك ، بقى إخبار القرآن الكريم عن عدم الصلب سالماً عن المعارض . مؤيداً بكل حجة . وسقط السؤال بالكلية . وثانيها ـ سلمنا أن الحس يتعلق بالتفرقة بين المثلين . والتمييز بين الشبهين . لكن لا نسلم أن العدد المباشر للصلب كانوا بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب . ويدل على أنهم ليسوا كذلك ، أن الحواريين فرّوا عنه . لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود . فحينئذ عدد التوتر متعذر من جهة شيعة النصارى عن أسلافهم . لا يفيد علماً بل هو ظن وتخمين لا عبرة به . لذلك قال الله سبحانه فى قرآنه المبين: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ . أى: هم لا يتيقنون ذلك . بل يحزرون بالظن والتخمين . وأما من جهة الملة اليهودية ، فلأن المباشر منهم للصلب إنما هو الوزعة وأعوان الولاة . وذلك فى مجرى العادة يكون نفراً قليلاً . كالاثنين أو الثلاثة ونحوها . يجوز عليهم الكذب ولا يفيد خبرهم العلم بكون العادة وخرج الصلب عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب يفتقر إلى نقل متواتر . فإنه لو وقع ونقل بأخبار الآحاد لم يحصل لنا

علم بالصلب. فإن المتواترات إذا نقلت بأخبار الآحاد، سقط اعتبارها في إفادة العلم. لجواز كذب الناقل . فلا يكون عدد التواتر حاصلاً في نفس الأمر . والنصارى واليهود إنما يعتمدون على التوراة والإنجيل . ولا يوجد يهودي ولا نصراني على وجه الأرض يروى التوراة والإنجيل، عدلاً عن عدل ، إلى موسى وعيسى عليهما السلام . وإذا تعذرت عليهم رواية العدل عن العدل ، فأولى أن يتعذر التواتر . ولم يبق في الكتابين إلا أخبار وتواريخ بعيدة الزمان جداً. بحيث إن التواريخ الإسلامية أصح منها ، لقرب عهدها . مع أنه لا يجوز الاعتقاد في فروع الديانات على شيء من التواريخ . فضلاً عن أصول الأديان. وإذا ظهر أن مستند هاتين الأمتين العظيمتين في العدد ، في غاية الضعف ـ كانت أخبارها في نفسها في غاية الضعف . لأن الفرع لا يزيد على أصله . وثالثها ـ أن نصوص الإنجيل مشعرة بعدم صلب عيسى عليه السلام بخصوصه . كما نقلنا بعضها آنفاً .

وقال في (تخجيل الأناجيل) : فيقال للنصارى : ما ادعيتموه من قتل المسيح وصلبه ، أتنقلونه تواتراً أم آحاداً ؟ فإن زعموا أنه آحاد لم يقم بذلك حجة ، ولم يثبت العلم الضروري . إذ الآحاد لم يأمن عليهم فيها السهو والغفلة والتواطؤ على الكذب . وإذا كان الآحاد يعرض عليهم ذلك، فلا يحتج بهم في القطعيات . وإن عَزَوْا ذلك إلى التواتر ، قلنا لهم : شرط التواتر استواء الطرفين فيه والوسط . وهو أن ينقل الجم الغفير عن الجم الغفير الذين شاهدوا المشهود به ، وهو المصلوب . وعلموا أنه هو ضرورة . فإن اختل شيء من ذلك فلا تواتر . فإن زعم النصارى أن خبرهم في قتل المسيح وصلبه بهذه الصفة ، أكذبتهم نصوص أناجيلهم التي بأيديهم . إذ قال لهم نقلتها الذين دوّنوها لهم وعليها معوّلهم : إنه لما أُخذ فقتل كان في شرذمة يسيرة من تلاميذه . فلما أقبل عليه هربوا بأسرهم . ولم يتبعه إلا بطرس من بعيد. ولما دخل الدار حيث اجتمعوا نظرت جارية منهم إلى بطرس فعرفته . فقالت : هذا كان مع يسوع . فحلف أنه لا يعرف يسوع بقوله . وخادعهم حتى تركوه . وذهب ولم يكد يذهب .

وأن شاباً آخر تبعه وعليه إزار فتعلقوا به . فترك إزاره بأيديهم وذهب عرياناً . فهؤلاء أصحابه وأتباعه ، لم يحضر منهم ولا رجل واحد بشهادة أناجيلهم . وأما أعداؤه اليهود ، الذين تزعم النصارى أنهم حضروا الأمر ، فلم يبلغوا عدد التواتر . بل كانوا آحاداً وأفراداً. لأن عموم الناس الذين حضروا لا يرون إلا شخصاً على خشبة ومعه لصّان مصلوبان . ولا شك أن هيئتهم وصفتهم متغيرة عن الحالة التى قبل أخذهم . وأما المشايخ ونحوهم فلم يعرفوه أيضاً . ففى الأصحاح الثانى والعشرين من (إنجيل لوقا) ما لفظه : فلما كان النهار اجتمع مشايخ الشعب ورؤساء الكهنة وأدخلوه إلى مجمعهم . وقالوا له : إن كنت أنت المسيح فقل لنا . قال لهم : إن قلت لكم لم تؤمنوا لى . وإن سألتكم لم تجيبونى ولم تخلونى . انتهى .

وهذا يحتمل أنهم يسألونه عن ذاته أو عن رسالته . على أنا لو سلمنا كثرة عددهم وصدق معرفتهم فيمكن تواطؤهم على الكذب . لأنهم لما لم يجدوه هو، ولم يعلموا محل المسيح، وكان ذلك من تلاميذه ، واستحلوا قتله أيضاً ، أشاعوا أنه هو المسيح ليترك الناس متابعته ، ولئلا يتخذوا المسيح نبيًّا . وصمموا ، أنهم إذا وجدوا المسيح بعد هذا أيضاً ، يعملون به كما عملوا بصاحبه . ويؤيد هذا أنهم جعلوا على القبر حراساً لئلا يُنبش القبر ويُرى أنه غير المسيح . ومما يزيد الأمر وضوحاً قول (إنجيل متى) فى (الأصحاح الثامن والعشرين) : أن مريم لما جاءت لزيارة القبر رأت ملَكاً قد نزل من السماء برجّة عظيمة . فَدَحْرَجَ الحجر عن فم القبر . وجلس عنده . فكاد الحراس أن يموتوا من هيبته . وبادروا من فورهم إلى المشايخ فأعلموهم بالقصة . فأرشاهم المشايخ برشوة أن يستروا القصة وأن يشيعوا أن التلاميذ سرقوه ونحن نيام . فما يؤمنكم أن تكون هذه العصابة من اليهود . كما أنهم ستروا الآية التى ذكرتم، صلبوا شخصاً من أتباعه وأوهموا الناس أنه المسيح. فإذا تبين عدم الاحتجاج بإجماع اليهود والنصارى الآن على صلبه ، فنرجع إلى القرائن العقلية والنقلية . فأما العقل فلا يجوّز أن الإله القادر على كل شىء يقتله أذل عباده ، وهم اليهود . ويضربونه ويعملون به ما هو محرر

فى أناجيل النصارى المضطربة المحرفة المكتوبة بعد رفعه بسنين عديدة وأعوام مديدة . مع أنه يفرّ منهم مرات كثيرة ويستغيث ويطلب من الله تعالى تأخير أجله بقوله : أجزْ عنى هذه الكاس . ويصرخ ويقول : إلهى ! إلهى ! لم تركتنى ؟ ويسلم روحه . وعند الصلب يطلب منهم الماء لكثرة عطشه . فيعطوه خلًّا بدله . وأىّ خلاص لعباده فى هذه الحالة ، وهو بزعمهم أتى ليخلص العالم من الخطيئة . بل صار موقعاً لهم فى الإثم بسبب عدم إيمانهم به . فكيف يكون مخلصاً بنفسه ؟ وأما النقل ، فقد تبين لك تهافت أناجيلهم واضطرابها ، والدلالة على عدم المعرفة به ، وعدم وجوده فى قبره . والأعظم من ذلك عند كل ذى عقل سليم قوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وأما قول متى فى (الأصحاح السابع والعشرين) : فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح ، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت والقبور تفتحت ، وقام كثير من الأجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا للكثيرين ـ فهو قول بهت ومحال . لايخفى بطلانه على ذوى العقول من النساء والرجال . لأنه لو كان صحيحاً لأطبق الناس على نقله . ولم يتفق إخفاء مثله . ولزال الشك عن تلك الجموع فى أمر يسوع . فحيث داموا على الجحد له والتكذيب ، دلّ على كذب ما نقله عباد الصليب . وإذا كان اليهود أعطوا دراهم رشوة، كما علمت سابقاً ، لحراس القبر حتى لايخبروا القائد وسائر الناس بملك نزل من السماء على قبر يسوع ، كى لا يظن براءته مما نسب إليه أعداؤه، فكيف تكون هذه الآيات العظيمة ؟ وتقوم الأموات من قبورها ؟ ويدخلون المدينة ؟ ولا يكون ذلك حجة على من لايؤمن به إذ ذاك ؟ وأيضاً ، مامعنى تفتح القبور وقيام القديسين من قبورهم ؟ فهل كان استبشارا بمصابه ؟ فهم إذ ذاك ليسوا من أحبابه. أو كان جزعاً على مماته ؟ وخرجوا إعانة له قبل فواته ؟ فواعجبا لرب أحياهم بعد أن كانوا رفات . ولم يعينوه حتى قضى ومات . وأحيى الرمم ، وصرخ عند تسليم الروح.

ولم يقدر على إبراء مافيه من جروح . وليت شعرى ماعمل هؤلاء القديسون ؟ أبقوا فى المدينة المقدسة ؟ أم كروا إلى قبورهم فهم راجعون ؟ وهل التأم الهيكل والصخور ؟ أم دامت على انشقاقها إلى كثير من الدهور ؟ فإن قيل : إنما لم يشتهر ذلك ، لأن أصحاب المسيح لم يحضر منهم أحد خوفا من اليهود ، والذين شاهدوا هـذه الآيات من اليهود تواطؤا على الكتمان حسداً وبغياً . قلنا : مثل هذه الآيات العظيمة إذا وقعت ، علمها من حضر ومن غاب ، من الأعداء والأحباب . لأنها آيات نهارية . ومعجزات تشتهر فى البرية . ويتناقلها أهل البلدان . وتبقى مؤرخة بكل لسان . فى سائر الملل بكل أرض وزمان . فعلم بالضرورة أن هذه الأقوال. مما اخترعها وحررها أئمة الضلال. ليخدعوا بها ضعفاء العقول. ويتوصلوا إلى جذب الدنيا بالكذب على هذا الرسول . انتهى .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى كتابه (الملل) عند الكلام على النصارى : ومما يعترض به علينا اليهود والنصارى ، ومن ذهب إلى إسقاط الكوافّ (جمع كافة) من سائر الملحدين، أن قال قائلهم : قد نقلت اليهود والنصارى أن المسيح عليه السلام قد صلب وقتل . وجاء القرآن بأنه ﷺ لم يقتل ولم يصلب . فقولوا لنا : كيف كان هذا ؟ فإن جوزتم على هذه الكواف العظام المختلفة الأهواء والأديان والأزمان والبلدان والأجناس ، نقل الباطل فليست بذلك أولى من كافتكم التى نقلت أعلام نبيكم وشرائعه وكتابه . فإن قلتم : اشتبه عليهم فلم يتعمدوا نقل الباطل ، فقد جوزتم التلبيس على الكواف . فلعل كافتكم أيضاً ملتبس عليها . فليس سائر الكواف أولى بذلك من كافتكم، وقولوا لنا : كيف فرض الإقرار بصلب المسيح عندكم قبل ورود الخبر عليكم ببطلان صلبه وقتله ؟ فإن قلتم : كان الفرض على الناس الإقرار بصلبه ، وجب من قولكم الإقرار أن الله فرض على الناس الإقرار بالباطل. وأن الله تعالى فرض على الناس تصديق الباطل والتديّن به. وفى هذا مافيه . وإن قلتم: كان الفرض عليكم الإنكار لصلبه، فقد أوجبتم أن الله تعالى فرض على الناس تكذيب

الكواف . وفى هذا إبطال قول كافتكم . بل إبطال جميع الشرائع . بل إبطال كل خبر كان فى العالم ، عن كل بلد وملك، ونبي وفيلسوف وعالم ، ووقعتم . وفى هذا ما فيه .

قال أبو محمد رضى الله عنه: هذه الإلزامات كلها فاسدة فى غاية الحوالة والاضمحلال بحمد الله تعالى . ونحن مبيّنون ذلك بالبراهين الضرورية بياناً لا يخفى على من له أدنى فهم. بحول الله تعالى وقوته. فنقول وبالله التوفيق: إن صلب المسيح لم يقله قط كافة. ولا صح بالخبر قط . لأن الكافة التى يلزم قبول نقلها هى إما الجماعة التى يوقن أنها لم تتواطأ ، لتنابذ طرقهم ، وعدم التقائهم، وامتناع اتفاق خواطرهم ، على الخبر الذى نقلوه عن مشاهدة ، أو رجع إلى مشاهدة ، ولو كانوا اثنين فصاعدا . وإما أن يكون عدد كثير يمتنع منه الاتفاق فى الطبيعة على التمادى على سنن ما تواطؤا عليه ، فأخبروا بخبر شاهدوه، ولم يختلفوا فيه، فما نقلوه أحد أهل هاتين الصفتين على مثل إحداها . وهكذا حتى يبلغ إلى مشاهدة . فهذه صفة الكافة التى يلزم قبول نقلها ، ويضطر خبرها سامعها إلى تصديقه. وسواء كانوا عدولاً أو فساقاً أو كفاراً . ولا يقطع على صحته إلا ببرهان. فلما صح ذلك نظرنا فيمن نقل خبر صلب المسيح عليه السلام، فوجدناه كوافّ عظيمة . صادقة بلا شك فى نقلها جيلاً بعد جيل . إلى الذين ادّعوا مشاهدة صلبه . فإن هناك تبدلت الصفة ورجعت إلى شرَط مأمورين مجتمعين . مضمون منهم الكذب وقبول الرشوة على قول الباطل . والنصارى مقرّون بأنهم لم يقدموا على أخذه نهاراً خوف العامة . وأنهم أخذوه ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح . وأنه لم يبق فى الخشبة إلا ست ساعات من النهار . وأنه أنزل أثر ذلك . وأنه لم يصلب إلا فى مكان نازح عن المدينة . فى بستان فخّار متملك للفخار . ليس موضعاً معروفاً بصلب من يصلب . ولا موقوفاً لذلك . وأنه بعد هذا كله رُشِيَ الشُّرَطُ على أن يقولوا إن أصحابه سرقوه . ففعلوا ذلك . وإن مريم المجدلانية ، وهى امرأة من العامة ، لم تقدم على حضور موضع صلبه . بل كانت واقفة على بعد تنظر . هذا كله فى نص الإنجيل عندهم . فبطل أن يكون صلبه منقولاً بكافة . بل بخبر يشهد ظاهره

على أنه مكتوم متواطأ عليـه . وما كان الحواريون ليلتئذ ، بنص الإنجيل ، إلا خائفين على أنفسهم، غُيَّباً عن ذلك المشهد . هاربين بأرواحهم مستترين . وإن شمعون الصفاغر ّر ودخل دارقيقان الـكاهن أيضاً بضوء النهار . فقال له : أنت من أصحابه ؟ فانتفى وجحد وخرج هارباً عن الدار . فبطل أن ينقل خبر صلبه أحدٌ تطيب النفس عليه . على أن نظن به الصدق . فـكيف أن ينقله كافة . وهذا معنى قوله تعالى: وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . إنما عنى تعالى أن أولئك الفساق ، الذين دبّروا هذا الباطل ، وتواطؤا عليه ، هم شبهوا على من قلدهم . فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه . وهم كاذبون في ذلك . عالمون أنهم كذبة . ولو أمكن أن يشبه ذلك على ذي حاسة سليمة ، لبطلت النبوات كلها . إذ لعلها شبهت على الحواس السليمة . ولو أمكن ذلك لبطلت الحقائق كلها . ولأمكن أن يكون كل واحد منا يشبه عليه فيما يأكل ويلبس . وفيمن يجالس. وفي حيث هو فلعله نائم، أو مشبه على حواسه . وفي هذا خروج إلى السخف وقول السفسطائية والحماقة . وقد شاهدنا نحن مثل ذلك . وذلك أننا أنذرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحـكم المستنصر . فرأيت أنا وغيري نعشاً فيـه شخص مكفن . وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة ، في بيت . وخارج البيت أبي رحمه الله وجماعة عظماء البلد . ثم صلينا في ألوف من النـاس عليه . ثم لم يلبث شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيًّا. وبويع بعد ذلك بالخلافة. ودخلت عليه أنا وغيري وجلست بين يديه . ورأيته . وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام .

قال أبو محمد رضي الله عنه : وأما قوله : قد جوّزتم التمويه على الـكافة ، فقـد بينا أنها لم تـكن كافة قط . وحتى لو صح أنها كافة فـكيف لا يجوز ذلك في كل آية تحيل الطبائع والحواس ؟ فهو ضرورة لا يحمل على الممكنات . فلو صح أنها كانت كافة ، لـكان خبر الله تعالى أنه شبه لهم ، حاكماً على حواسهم ومحيلاً لها . كخروج النبيّ ﷺ ليـلة هاجر بحضرة مائة رجل من قريش . وقد حجب الله سبحانه أبصارهم عنه فلم يروه. وأما ما لم يأت خبر عن

الله عز وجل بأنه شبه على الكافة ، فلا يجوز أن يقال ذلك . لأنه قطع على المحال وإحالة طبيعة . وإحالةُ الطبائع لا تدخل فى الممكن . إلا أن يأتى بذلك يقين عن الله عز وجل ، فيلزم قبوله . وأما التشبيه على الواحد والاثنين ونحو ذلك فإنه جائز . وكذلك فقد العقل والسخافة يجوز ذلك على الواحد والاثنين ونحو ذلك. ولا يجوز على الجماعة كلها . وقوله تعالى: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، إنما هو إخبار عن الذين يقولون تقليداً لأسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل وصلب . فهؤلاء شُبِّه لهم القول . أى : أدخلوا فى شبهة منه . وكان المشبهون لهم شيوخ السوء فى ذلك الوقت . وشُرَطهم المدّعون أنهم قتلوه . وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك . وإنما أخذوا مَنْ أمكنهم فقتلوه وصلبوه فى استتار ومنع من حضور الناس . ثم أنزلوه ودفنوه تمويهاً على العامة التى شبه الخبر لها .

ثم نقول لليهود والنصارى، بعد أن بينا بحول الله وقوته بيان ماشنعوه فى هذه المسألة : إن كوافكم قد نقلت عن بعض أنبيائكم فسوقاً ووطء إماء . وهو حرام عندكم . وعن هارون عليه السلام أنه هو الذى عمل العجل لبنى إسرائيل وأمرهم بعبادته والرقص أمامه . وقد نزه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام عن عبادة غيره. وعن الأمر بذلك ، وعن كل معصية ورذيلة. فإذا جوزوا كلهم هذا على أنبياء ، منهم موسى عليه السلام وسائر أنبيائهم ـ كان كل ماأمروهم به ، مع جنس عمل العجل والرقص والأمر بعبادته . ومن جنس وطء الإماء وسائر ما نسبوه إلى داود وسليمان عليهما السلام وسائر أنبيائهم . لا سيما وهم يقرون بأن العجل كان يخور بطبعه . وأما نحن فجوابنا فى هذا كله بأن ليس شيء منه نقل كافة . ولكن نقل آحاد كذبوا فيه . وأما خوار العجل فإنما هو على ما روينا عن ابن عباس رضى الله عنه ، من أنه إنما كان صفير الريح تدخل من فيه وتخرج من دبره . لا أنه خار بطبعه قط . وحتى لو صح أنه خار بطبعه، لكان ذلك من أجلِ القوة التى كانت فى القبضة التى قبضها السامرىّ من أثر جبريل عليه السلام . والذى يعتمد عليه فهو قول ابن عباس رضى الله عنه الذى ذكرناه . وبالله تعالى التوفيق .

وأماقوله : كيف كان الفرض قبل ورود النص ببطلان صلبه ؟ الإقرار بصلبه أم الإنكار له؟ فهذه قسمة فاسدة شغبية . قد حذر منها الأوائل كثيراً . ونبه عليها أهل المعرفة بحدود الكلام . وذلك أنهم أوجبوا فرضاً ثم قسموه على قسمين : إما فرض بإنكار ، وإما فرض بإقرار . وأضربوا عن القسم الصحيح فلم يذكروه . وهذا لا يرضى به لنفسه إلا جاهل أو سخيف مغابط غابن لنفسه ، غاش لمن اغترّ به . وإنما الحقيقة ههنا أن يقول . هل يلزم الناس، قبل ورود القرآن، فرض بالإقرار بصلب المسيح ، أو بإنكار صلبه، أو لم يلزمهم فرض بشيء من ذلك؟ فهذه هي القسمة الصحيحة والسؤال الصحيح . وحق الجواب أنه لم يلزم الناس قط، قبل ورود القرآن، فرض بشيء من ذلك . لا بإقرار ولا بإنكار . وإنما كان خبراً لا يقطع العذر ولا يوجب العلم الضروريّ . ممكن صدق قائله . فقد قتل أنبياء كثيرة وممكن أن يكون ناقله كذب في ذلك . وهو بمنزلة شيء مغيب في دار . فيقال لهذا المعترض بهذا السؤال الفاسد : ما الفرض على الناس فيما في هذه الدار؟ الإقرار بأن فيها رجلاً أم الإنكار لذلك ؟ فهذا كله لا يلزم منه شيء. ولم ينزل الله عز وجل كتاباً قبل القرآن بفرض إقرار بصلب المسيح ﷺ ولا بإنكاره . وإنما ألزم الفرض بعد نزول القرآن بتكذيب الخبر بصلبه. فإن قالوا : قد نقل الحواريون صلبه وهم أنبياء وعدول . قيل لهم وبالله التوفيق : الناقلون لنبوتهم وأعلامهم ولقولهم بصلبه عليه السلام ، هم الناقلون عنهم الكذب في نسبه والقول بالتثليث الذي من قال به فهو كاذب على الله تعالى ، مفتر عليه ، كافر به . فإن كان الناقل لذلك عنهم صادقاً أو كانوا كافة، فما كان يوحنا ومتى وبولس إلا كفاراً كاذبين . وما كانوا قط من صالحي الحواريين . وإن كان ناقل ماذكرنا عنهم كاذباً، فالكاذب لا يقوم بنقله حجة . فبطل التمويه المتقدم. والحمد لله رب العالمين .

فصل

أخذ بعض نصارى هذا العصر يتذبذب فى الاعتقاد . فطفق يرد على المسيحيين قولهم بتثليث الآلهة . وأنه مضاد لصريح نصوص الوحى . أخذ يسلم بحقية القرآن وكذا التوراة والإنجيل الموجودين وأنهما لم يحرفا تحريفاً جوهرياً . واعتقد بصلب المسيح يقيناً . وصار يناقش المفسرين فيما فسروا به الآية المذكورة ، أعنى آية الصلب . زاعماً أن المنفىّ عن اليهود فيها هو نسبة الفعل لهم توبيخاً لتهكمهم وازدرائهم . وَرَدَّ فعل الصلب إليه تعالى . وقد توسع فى هذا الموضوع وألف كتاباً سماه (المعتقد الصحيح فى صلب السيد المسيح) ولما كان مبحثه غريباً جدًّا ، أردت أن أورد هنا بعض تمويهاته فى رسالته . وأعقبها بما فوِّق عليه من سهام ردود تهافته .

قال فى أول رسالته : إن التباس فهم آية الصلب هو غالباً فى تقدير نائب الفاعل لفعل (شُبِّهَ لَهُمْ) فإنا إن قدرنا نائب الفاعل مصدراً مأخوذاً من الفعل السابق المذكور فى الآية (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ) وكان التقدير: شبه لهم أنهم قتلوه وأنهم صلبوه . أو شبه لهم قتلهم له وصلبهم إياه . والمعنى أنه مثل أو خيّل لهم أنهم كانوا هم القاتلين وهم الصالبين ـ انحلت المسألة تقريباً . وزالت كل صعوبة تأويل . حيث أن السيد المسيح لم يقتل أصلا . ولا صلب قهراً . أو مات جبراً . أو اضطراراً . بل هو من نفسه (على زعمه) قدم ذاته للصلب عن رغبته واختياره ورضاه . فكأنّ اليهود لم يفعلوا شيئاً بقدرتهم ومجرد إرادتهم . حتى يحق لهم الافتخار بأنهم قتلوه . وأما إن قدِّر المسيح نائب الفاعل لـ(شبه) تعقدت المسئلة وضاع السياق اللغوىّ . لأنه لا وجه ، لغوياً ، فى الآية يثبت وقوع الصلب على رجل آخر غيره . إذ لم يذكر صريحاً ولا إشارة .

ثم ذكر فى الفصل السادس أن القرآن العزيز لم يؤنب النصارى ، ولا مرة ، على ضلال

اعتقادهم بصلب المسيح وموته وقيامته . ولا كذب الإنجيل أو الحواريين . ولا لام الذين آمنوا بصلب المسيح . حال كونه نبههم مراراً على غير ضلالات عندهم .

وذكر فيه أيضاً : لم ترد أحاديث صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بنفى صلبه . وفيه أيضاً : أن هذه الآية يصح تأويلها إيجابياً طبقاً لما فى الإنجيل . بما أن عدة آيات أخرى قرآنية مجانسة لها أُوِّلت بخلاف ظاهرها اللفظىّ . كأفعال المبايعة والرمى والموت والحياة . وما أشبه ذلك . التى نسبت صريحاً لغير فاعلها الظاهر .

وقال فى الفصل العاشر : أما قولنا إن القرآن العزيز قصد نفى نسبة فعل الصلب لليهود وإسناده لله حقيقة ، فهو استناد على قوله : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ[1] وقوله : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ[2] فهنا الفاعل الظاهر حسًّا وفعلًا إنما هو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. ولـكن الفاعل الحقيقىّ إنما هو الله الفاعل كل شيء فى الـكل .

ثم قال : وربما يعترض أنه ذكر فى الآية نفسها أن الله رمى ، وإنه تعالى هو المبايع ، فنقول : كذلك فى آى الصلب وإخباره مراراً عديدة صرح فى الإنجيل أن الفاعل والمسلّم والبازل والحاكم والآذن فى أمر الصلب إنما هو الله جل جلاله .

ثم قال : نقول أخيراً: إن آية الصلب القرآنية هى صحيحة فى ذاتها تماماً وكمالًا . ومطابقة أشد المطابقة لما ورد فى نفس القرآن بهذا الشأن . ولـكلٍّ فحوى أسفار الميثاقين أو العهدين .

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٧] ونصها : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

(٢) [٤٨ / الفتح / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

بكل بيان . إنمـا تفسيرها بمطلق النفى كان وما زال غلطاً وضدّ الحقيقه والذوق اللغوى . وضد ما جانسها فى الآى الأخرى من نفس القرآن . ومن نصوص سائر الـكتب المنزلة . ولا سيما الإنجيل ، الذى زبدته وروحه وقوامه وخلاصته هى كون المسيح صلب ومات وقام وعرج إلى السماء . وأرسل البارقليط الآخر الرسول محمدا مبلغ القرآن العظيم ، الحاوى روح الصدق والحق ، والمذكر بكل ما قال المسيح فى الإنجيل الشريف .

ثم قال : إن إنـكار أمر الصلب أو إثباته ليس من الأركان فى الدين عند المحمديين . ولا هو محرِّم قطعاً الاختلاف فى تفسير بعض آيات . وقد وجد ويوجد عدة اختلافات عند اليهود والنصارى والمسلمين . وليس ذلك محرماً إلا إذا آل لإنـكار أو لإفساد نفس الآيات . أو إيقاع الشبهة على ذات نصوص الوحى . ففى آية الصلب ليس شىء من ذلك. بل بالعكس تأييد كل النصوص الإلٰهية .

هذا خلاصة ما أورده فى رسالته . وقد رد عليه من الفضلاء المسلمين عـدد وافر ، فى تآليف بديعة. منها كتاب (السيوف البتّارة) اعتمـد مؤلفها فى إيراد حججها على التواريخ الإفرنجية المعول عليها . فإن الإفرنج أعرف من غيرهم بحقيقة ما يهمهم ، وأبعد عن مظنة التشيّع فى شهادتهم على أنفسهم ، فى أمر دينهم .

قال رعاه الله : يعلم الواقف على حقائق التاريخ أن مسألة الصلب من أهم المسائل التى ولدت الشقاق والنفرة فيما بين النصارى عموماً ونصارى مصر والشام فى الأجيال الأولى خصوصاً . فإنهم كانوا غالباً يرفضون حصول الصلب رفضاً باتا . لأن بعضهم كان يعتبره إهانة لشرف المسيح ، ونقصاً فاضحاً . والبعض الآخر كان يجحده ارتـكاناً على الأدلة التاريخية . وهؤلاء الجاحدون للصلب طوائف كثيرة . منها : الساطرنيوسيون والمركيونيون والبارديسيانيون والتاتيانيسيون والـكاربوكراتيون والمانيسيون والبارسكاليونيون والبوليسيون . إذ كلهم اعتقدوا ، مع كثيرين غيرهم ، بأنه لا يمكنهم أن يسلموا بنوع من الأنواع ، أن المسيح سمّر

فعلا ، أو مات على الصليب حقيقة . حتى استخفوا بالصليب والصلب . وقال بعض المؤرخين الأفاضل : إن الخلاف الذى وقع بين النصارى فى مبدأ الأمر كان سبباً فى انسلاخ جملة طوائف وتشتتها واعتبارها فى رأى آخرين مارقة من الدين. ولكن هذه الطوائف المضطهدة المهضومة كانت أفكارها منطبقة على الأصول النصرانية عقلًا ونقلًا . بخلاف أفكار مضطهديهم ، فإن هذه الطوائف بنت على ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام أنه لا يجوز أن يمتهن . واستنتجت من هذا أنه لم يصلب قطعاً . وأن ألفاظ التوجع والتضجر، التى نسبتها إليه كتب النصارى المتأخرين ، لم يتفوه بها ولا تصح نسبتها إليه . وبالجملة إن الشخص المصلوب غير عيسى قطعاً . وأنه عليه الصلاة والسلام لم تسلط عليه أيدى مضطهديه . بل رفع إلى السماء. ومن القائلين . بهذه الأفكار الدوسيتية والمرسيونية والفلنطانيائية . وغير خاف أنه حتى على فرض البنوة فقط ، لا يمكن عقلًا أن يتصور صلبه . انتهى .

ويؤيد هذا ما قاله الباحث الشهير الموسيو إدوار سيوس ، أحد أعضاء (الانستيتو دى فرنس) فى باريس . المشهور بمعارضته المسلمين فى كتابه (عقيدة المسلمين فى بعض المسائل النصرانية) صحيفة (٤٩) : إن القرآن ينفى قتل عيسى وصلبه . ويقول بأنه ألقى شبهه على غيره . فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه . وإن ما قاله القرآن موجود عند طوائف النصرانية منهم الباسيليديون . كانوا يعتقدون ، بغاية السخافة ، أن عيسى وهو ذاهب لمحل الصلب ، ألقى شبهه على سيمون السيرناى تماماً . وألقى شبه سيمون عليه . ثم أخفى نفسه ليضحك استهزاء على مضطهديه الغالطين . ومنهم السيرنتيون ، فإنهم قرروا أن أحد الحواريين صلب بدل عيسى . وقد عثر على فصل من كتب الحواريين . وإذا كلامه نفس كلام الباسيليديين . وقد صرح (إنجيل القديس برنابا) باسم الذى صلب بدل عيسى فقال : إنه يهوذا . انتهى .

ولم يرد المؤرخ، المترجم كلامه، على هذا الإنجيل ، إلا بدعوى أنه كلام لا يعول

عليه . وهـــذا الرد من رجل صدر نفسه للرد على المسلمين غير كاف . فيستفاد من جميع ما ذكر أن جمًّا غفيراً من طوائف النصارى ذوات البال والأهمية ، كانت تنبذ عقيدة صلب المسيح نبذاً ، وتفندها تفنيداً . وما زالوا كذلك حتى جاء الإسلام فدخلوا فيه أفواجاً . لإنكار القرآن . وما أنكروه من الصلب وغيره . وبالجملة فإن أغلب الشعوب الشرقية ، قبل الفتح الإسلاميّ ، رفضت القتل والصلب . حتى قال ياسيليوس الباسليدى : إن نفس حادثة القيامة ، المدعى بها بعد الصلب الموهوم ، هى من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب . ومن المعلوم أن نصارى الشام هم الذين وقعت هذه الحادثة بينهم . فهم أقرب الناس إلى العـلم بحقيقتها . وكذلك من جاورهم من نصارى المصريين وغيرهم . لحصول الجوار وقرب المسافة . فكيف لا تكون شهادتهم هى عين الصواب ؟ وبذلك يتبين أن دعوى (صاحب جريدة شهادة الحق) الإجماعَ على الصلب وانفراد القرآن الشريف بنفيه ـ غير مسلمة ، مع وجود هذه الطوائف المنازعة فى الصلب . وقد صرح القرآن بأن رسول الله صلى الله عليه وســـلم إنما بعث لتصديق ما بين يديه من الحق وتبيين ما اختلف فيه طوائف النصارى مع اليهود ، والنصارى مع بعضهم بعضاً . ولو حكمنا التاريخ لشهد لهؤلاء الناس وبَرَّرَ أقوالهم . وذلك أن أهل فلسـطين كانوا يعبدون الأوثان ويخالفون بنى إسرائيل فى ديانتهم . فـكان من مبادئهم ، العاملين عليها فى سياستهم العمومية ، بذل المجهود وإفراغ الوسع فى معاكسة عقائد اليهود . لإدخالهم فى الديانة الوثنية وتقويض دعائم الشريعـة الموسوية . والضغط على شعائرهم الملية . يشهد لهذا أقوال الـكاتب الشهير (أرنست رنان) العضو فى (الأكادمى الفرنسـاوية) المنفرد بالإجادة والشهرة ، فى رسالة نشرت فى جريدة العالمين فى ١٥ مارس ١٨٩٣ . معنونة بـ(اليهود تحت حكم الرومان) حيث قال : إن كل المناصب ذوات المرتب الباهظ كانت تعطى غنيمة باردة لليهود الذين يطرحون دينهم ظهريا . ويجعلون شعائرهم الملية شيئاً . ويعتنقون ديانة الرومان الوثنية . فـكان من

ضغط الرومان ومن تزلف اليهود إليهم ، ومن أطماعهم إلى الرتب والألقـاب ، أن ارتد غالب سواد اليهود وعبدوا جوبيتر الألومبي . وكان الواحـد منهم يخفي الاختتان بعملية شاقة جدًّا (ذكرها سلس المؤرخ الروماني الشهير) ثم يتزيى بزى الرومان ويسحب ذيوله تيهاً وإعجاباً بنفسه وبعوائد الرومان . وازدراء واحتقاراً لبنى جلدته وذوى ملته . فرحاً بلقمة يلتقمها . أو مرتبة يتربع فى دستها . وما زالت اليهود تَتَرَوْمَنُ حتى أن الأحبار غادروا الهيكل والجامع . واشتغلوا بملاعب الرومان الرياضية . وأخيراً آل الأمر ، قبل وجود عيسى عليه السلام ، إلى إدخال صنمهم الأكبر ووضعه فى محل تقريب القربان نفسه . بحيث أن القربانات كانت تعمل أمامه . حتى كادت معالم اليهودية أن تنمحي من صحيفة الوجود . ووقع ذلك سيئ الوقع وأثّر أردأ تأثير فى نفوس البقية القليلة من اليهود التى اعتصمت بدينها . انتهى .

وبهذا يعلم مقدار ضغط الرومان على اليهود لمحو آثار دينهم من الوجود . فليس من المعقول أن الحكومة ، وهى على ما ترى من الكراهة الدينية لليهود ، تجيبهم إلى ما طلبوا من تنفيذ أمر الصلب . أو تعيره أدنى ذرة من الأهمية . خصوصاً والحاكم الرومانىّ على فلسطين فى ذاك الوقت ، كان يكره اليهود كما يكره أن يلقى فى النار . وهم يكرهونه أشد من ذلك . دليلنا على ذلك ما كتبه المسيو رنان المذكور فى كتابه المشهور المسمى (حيـاة المسيح) حينما تكلم على شكاية اليهود من عيسى بدعوى أنه غيّر التوراة . وكان ذلك على زعمهم ليستوجب قتله . حيث قال : إن حاكم فلسطين المسمى (بونسيوس) الملقب (بيلاطس) ـ أظهر عدم عنايته بمنازعات اليهود الداخلية وشكاويهم وخصوماتهم . بل كان يعتبر أن هذه الأعمال صادرة عن عقول مختلة وأفكار معتلة . وبالإجمال ، كان يكره اليهود وهم يكرهونه أشد من كراهته لهم . لأنهم كانوا يجدونه قاسياً ذا أنفة وكبر . غير مكترث بهم . ولقد رموه وعابوه بجنايات لا يسعها عقل عاقل . والمتمسكون بدينهم منهم رأوا أن غرض بيلاطس هذا ، سحق أثر الشريعة الموسوية سحقاً ومحوها محواً . وتعصبهم الأعمى وكراهتهم

الدينية له جعلاه يأنف من أفكارهم . فانه كان يميل كل الميل إلى الأحكام الوضعية الرومانية . التى كانت نهـاية فخر كل رومانىّ فى ذلك الحين . وكان يرى أفـكار اليهود سخيفة تقهقرية . لأنه كلما هم بجلب النافع العام ، وسن مشروع يضمن الراحة والرفاهية ، قام الأحبار عن آخرهم وعارضوه بتفسـير التوراة التى كانت تسدّ فى وجهه أبواب التحسين والتغيير . فلم يعتن بجرح حواسهم ومسّ شرفهم ومعالمهم الدينية . وعاملهم بالقسوة والـكبر وعدم تنفيذ رغباتهم . فانشعب الأمر ودام الفشل . وأخيرًا اضطرت الحـكومة إلى إقالته من منصبه بسبب قيامة اليهود عليه . ولقد كانت نفس بيلاطس تضيق ، وصدره يحرج عند مجىء شكوى ضد عيسى عليه الصلاة والسلام . حيث كان لا يسمح بتنفيذ أمر القتل عليه . وعيسى ضد اليهود ، ويعيب التوراة كما يقولون . فـكان ذلك عن رغبة الحاكم . وجلّ مايتمنى . فـكيف يكون هو الآمرَ والمنفذَ لقتله ؟ مع أنه كان قادراً على تنفيذ رغباته المضادة لليهود على خط مستقيم . والحقيقة أن بيلاطس كان ميالاً كل الميل لخلاص السيد المسيح من هؤلاء الظلمة . ولعله رأى ما فيه من جميل الشيم والأخلاق الـكريمة الطاهرة . فرَاقه ذلك، زيادة عن كراهته لليهود . فعمل على خلاصه من الصلب . كما يتضح من إنجيل متى ٢٧و٢٤ . ولوقا ٢٣ و ١٢ . ويوحنا ١٣ و ٢٣ . وفى بعض آيات الإنجيليْن أن عيسى سوعد من زوجة بيلاطس الحاكم القائلة (كما هو مذكور فى إنجيل متى ٢٧و١٩) : إياك وهذا البارّ . لأنى تألمت اليوم كثيراً فى حلم من أجله . ولعلها رأته فبهرها كماله ووقاره وحشمته وبلوغه الغاية فى الأدب والشمائل الطاهرة . والظاهر أنها رأت هذا الشاب البرىء المبجّل من إحدى نوافذ قصرها المطلة على أفنية هيكل سليمان عليه السلام . فظهر لها بكماله الحقيقىّ . فاستفظعت إهدار دم هذا البرىء الوقور . وكيفما كان السبب ، فالذى لايشك فيه أحد ، أن بيلاطس كان محباً لعيسى عليه السلام حبًّا شديدًا . ولذلك سأله بكمال اللطف والأدب ليفرغ ما فى وسعه لتبرئته. انتهى .

فيؤخذ من كلام (رنان) أن الحاكم المنوط به الأمر والتنفيذ ، كان مضاداً للصلب . فلا غرابة فى عدم حصوله للمسيح عليه السلام ، وتبديله بآخر . وكراهة هذا الحاكم لليهود مشهورة لا تحتاج لزيادة إيضاح . حتى إن ترتوليانوس ، أحد آباء الكنيسة النصرانية ، جزم بأن بيلاطس الحاكم كان نصرانياً فى الباطن . وفى الجزء الأول من تاريخ الديانة النصرانية لمؤلفه (ملمن) : إن تنفيذ الحكم كان فى وقت الغلس وإسدال ثوب الظلام . فيستنتج من ذلك أيضا إمكان استبدال السيد المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا فى سجون القدس ، منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم . كما اعتقد بعض الطوائف . وصدقهم القرآن . ولقد جرى على هذا الرأى جماعة من المؤرخين المهمّين (كالمسيو شارل بيكار) و (ارنست دى بونس) وغيرهما . فإن الأول قال : إن مسألة صلب المسيح كلها مبتكرة مخترعة لا غير . لتوافق اعتقادات قديمة . مآلها أن الله لا يسكن غضبه إلا بسفك دم القربان من بنى آدم . وكانت اليهود تقدم أولادها قرباناً للذبح استجلابا لإسكان غضب الخالق وجلب رضاه . ويقول : إنهم ربما أكلوا لحوم القربان الآدمىّ وشربوا دمه . ولما قامت الأنبياء فى بنى إسرائيل واضطهدت هذه العادة الشنعاء ، بدّل ذبح الآدمىّ قرباناً بذبح الحيوان . وأطال المسيو (بيكار) فى شرح ارتباط تضحية سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام مع هذه العوائد القديمة . فأفاد أن نفس الصليب كان مستعملاً رمزاً عن شىء عندهم اسمه (اللنجام) وهو عبارة عن خشبتين متصلبتين متداخلتين فى بعضهما .

وأما المسيو (أرنست دى بونس الألمانىّ) فإنه قال فى كتابه المسمى بـ (النصرانية الحقة) صحيفة ١٤٢ ما معناه : إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء ، هو من مبتكرات ومخترعات بولس ومن شابهه ، من الذين لم يروا المسيح عليه الصلاة والسلام . لا من أصول النصرانية الأصلية .

فوضح وضوح الشمس لذى عينين أن التاريخ ، فضلاً عن كونه لم يُثبت مسألة الصلب

والقتل ، يرجح نفى حصوله رجحاناً لايكاد يفارق اليقين الحقيقىّ . ومعلوم أن أخذ الأمور التاريخية فى هـذا الصدد عن طوائف مصر والشام أولى ، لأنهم أبناء جلدتها ، وأدرى بحوادث بلادهم الحقيقية . فيؤخذ من كل ذلك : أولا ـ أن كافة الظروف التى حصل فيها تنفيذ الحـكم كانت مساعدة لتخليص المسيح عليـه الصلاة والسلام . وبالأخص اضطهاد الحـكومة الرومانية للعقائد الموسوية . وعدم الاعتناء بها لا يسهل تنفيذها . ثانياً ـ وقت الغلس الذى حصل فيه ذلك الصلب الموهوم .

وكان يمكننا لدرس هـذا الموضوع التكلم على جمـلة مسائل تفند دعوى الصلب تفنيداً لا مزيد عليه . ومن ضمنها ، أن نصارى اليوم تدعى أن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام حكم عليه من مجمع اليهود بالقتل بسبب تغييره لأحكام التوراة . ومن المعلوم أن الحـكم، فى ذلك الموضوع، الرجم لا الصلب . فهذا مما رتـكن عليه مثل الموسيو (شارل بيكار) فى ادعائه أن النصارى الحديثين احتاجوا لعلامة الصليب رمزاً لبعض عقائد كانوا يريدون إدخالها فى الديانة. وهى مسألة الفدا . انتهى كلام صاحب السيوف البتارة .

ولما اطلع عليها ذلك النصرانىّ المذبذب المردود عليه ، أعياه الرد من الطريقة التاريخية، فأخذ يرد عليها تشبثاً بأسباب واهية . فعدَّ، كل من رفض الصلب من نصارى الأيام الأول، هرطوقيا . أى : مارقاً من الدين . ورمى أصحاب التواريخ من أهل أوروبا الذين وافقوا المسلمين فى عدم حصول الصلب بأنهم كفرة الإفرنج . ثم تمسك بالأناجيل الأربعة الرسمية وقال: إنه لا يمكنه أن يزيف شيئاً منها مادامت شاهدة من أولهـا إلى آخرها بحصول الصلب حقيقة . وأنه يلزم حينئذ تأويل ماجاء فى القرآن المجيد حتى يصل للوفاق .

فعاد صاحب (السيوف البتارة) وألف رسالة ثانية فى شهادة علماء الإفرنج بحفظ القرآن وتحريف ماسواه . تـكملة للأول . فتوسع جزاه الله خيراً فى هـذا الموضوع ثم قال (فى الـكلام على الإنجيل) مالفظه : أما الإنجيل فإنه أبعد عن الصحة من التوراة بكثير . إذ

لا يفهم أحد للآن كيف تعدد الإنجيل الأصلي إلى نسخ شتى متباينة. ولأي مرجح استحسنت منها النصارى الحاليون أربعة أناجيل ، مختلفة كل الاختلاف ، متضاربة كل التضارب . ولا يدرى لماذا عدلوا عن (إنجيل برنابا) مثلاً الذى وافق القرآن قبل ظهوره فى المسائل التى أبتها الكتب الحالية . فإنا نجد هذا الإنجيل يخبر أن السيد المسيح نبي ، عبد ، مخلوق . ليس بإله. وأنه لم يصلب . وفيه البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مذكوراً بلفظه (كذا). وهاك ما قاله السيد المسيح فى الإنجيل المذكور (وإنى وإن كنت بريا ، لكن بعض الناس لما قالوا فى حقى إنه الله وابن الله، كره الله هذا القول واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة على ولا يستهزؤن. فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا . ويظن كل شخص أنى صلبت. لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله . فإذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط . وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس .

وقد استشهد العلامة (سيل) الإنكليزي، المشهور فى أوروبا بترجمة المصحف الشريف، بهذه الآية الإنجيلية ، تفسيراً لقوله تعالى فى سورة آل عمران (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[1] وإنجيل برنابا أثبته العلماء قبل الإسلام بنحو ثلاثمائة سنة. حتى أن العالم الإنكليزي (تولاند) قال : وعلى النصرانية السلام ، بمجرد رؤيته هذا الإنجيل. ثم قال : قال العلامة (هيردر) وجماعة آخرون : إن الإنجيل الأصلي كان واحداً . إلا أنه لم يكتب . بل قاله المسيح مشافهة. ورواه الحواريون عنه للناس شفاهياً أيضاً . فحفظ الخلق منه بعض أقوال أضافوا إليها ما استحسنوه من السير والقصص . ونقصوا منها ما لم يوافق أذواقهم . وما زالت تنتقل الروايات المختلفة من شخص إلى آخر ، ومن زمن إلى غيره حتى تشعبت ، وكتب أخيراً منها أناجيل شتى ، فاختارت الكنائس منها أربعة جعلتها الرسمية .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٤] .

ثم قال مؤلف (السيوف البتارة): فوضح وضوحاً تامًّا لذى بصيرة، أن الحجة على دعوى صلب المسيح قد سقطت سقوطاً لا تقوم بعده أبداً. سواء من جهة التاريخ الصحيح الذى دحضها وخذل مدعيها بأجلى برهان ، أو من جهة الأناجيل المعتبرة عندهم. لذهاب أصلها أدراج الرياح ، بثبوت التحريف والتغيير لها .

ثم قال : وأما قوله (يعنى المذبذب) . بأن طوائف النصارى الرافضة للصلب هراقطة ـ فغريب . لأنهم مثله فى العقيدة لا يمتازون إلا بإنكارهم الصلب الحقيقىّ للمسيح . وهل الاقتصار ، فى الرد من باحث، على قوله (كفرة) يعد من باب نقض الدليل بالدليل وتزييف الحجة بالحجة؟ أو من باب المكابرة فى المحسوس والانقطاع عن المناظرة للعجز الواضح . وإذا جاز إطلاق (كفرة) على هؤلاء وهم أمناء النصرانية واليهودية ـ جاز أن تصف بهذه الصفة كل يهودىّ ونصرانىّ. وحينئذ لا يصح احتجاجك بإجماعهم ولا بشىء من آرائهم . وتكون فى ردك بكلمة (هراقطة . كفرة) أشبه بمن اقتصر فى مناظرة خصمه على كلمة (لا) فقط. فهو يكررها ولا يسأم من الرد بها .

ثم قال : فقد برح الخفاء وانكشف الغطاء وبان للقراء أن لا إجماع بين النصارى أنفسهم على حصول الصلب منذ تكلم الناس فيه حتى الآن . وتفرقت فيه آراؤهم أيدى سبا. وذهبوا فيه كل مذهب. فلا تكاد تجد قولاً لأحدهم فى أىّ عصر إلا وهو مضادّ لأقوال آخرين منهم على خط مستقيم . حتى لا ترى إلا غوغاء وجلبة المناقضات . فلم يتفقوا على كيفية الصلب ولا على معناه ولا على المراد منه . ولا اجتمع فيه رأيان . كان ذلك من باب التقليد والتسليم ، الذى لا يقام عليه دليل أعظم من أن يقال : إن الدين ينبغى أن لا يفهم ولا يدخل معناه السرىّ تحت تصورٍ. هذا مع أن الصلب عند النصارى هو قلب دينهم (كما يقولون) وأساس معتقدهم . حتى كأنه بمنزلة التوحيد عند المسلمين . ومع أن نفى الصلب عندنا ليس من الأصول التى انبنى عليها ديننا فى شىء ، بل لا تخرج مسألته عن كونها من قصص الأولين ، كالإخبار عن

نوح وإبراهيم وموسى ، مما سيق لنحو الوعظ والاعتبار ـ فلم يهجس بخلد مسلم منذ وجد الإسلام إلى يومنا هذا أن عيسى صلى الله عليه وسلم صلب أو قتل. ولم يخرق إجماعَ المسلمين على ذلك واحدٌ منهم في كل عصر ومكان . وما ذلك إلا لضبط القرآن الكريم وصيانته . ولو حكّمنا غير متدين في هذه المسألة ، ونظر لأهميتها عند النصارى ، مع عدم قدرتهم على إثباتها ، ولفرعيّتها عند المسلمين ، مع إجماعهم على نفيها إجماعاً لا مثيل له في العالم ـ لا نبهر من همة المسلمين في ضبط وحفظ كتابهم ، وثباتهم في صغير الأمر وكبيره . وتمنى أن تتدلى الأنجم الزهر ليصوغ منها عقود ثناء ومدح لهم ، على عنايتهم بدينهم إلى هذا الحد الذي لا نظير له . ولم يسعه إلا أن يقلب أكف الأسف ، ويعضّ بنان الندم على تزعزع دين غيرهم . لدرجة أن أعظم أصل فيه لا يثبت إلا في مخيلات بعض المقلدين . من غير استناد على دليل نقليّ صحيح. أو عقليّ مسلم، حتى قام عقلاؤهم نافضين غبار التقليد ، ناشدين الحقيقة. فانجلت، لكثير منهم، عن تدمير هذا البناء التقليديّ. والرجوع إلى ما ثبت بالدليل في ديانة غيرهم. ومما هو جدير بالتنبه له أن بولس الذي عزا إليه كل محقق التاريخ من الإفرنج وغيرهم، أنه وحده المخترع لمسائل الصلب والفداء ، وألوهية عيسى إلى غير ذلك ـ قد أبان أن الصلب والقتل ليسا حقيقيين . كما جاء في رسالته لأهل غلاطية. حيث قال : أنتم الذين رسم يسوع المسيح بينكم مصلوباً . وقال في رسالته لأهل رومية : نحن نقوم بشبه موته . إلى أن قال : فدفنا معه بالمعمودية ، لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته ، نصير أيضاً بارتفاعه ، عالمين أن إنساننا العتيق قد صلب معه الخ . فيستفاد من مجموع أقوال بولس هذه أن المسيح لم يصلب ولم يقتل حقيقة . وإنما ذلك مجاز عن الشبه المقتول المصلوب . كما جاء في إنجيل برنابا . وقد يدعوك حب التمسك بهذه المسألة إلى أن تؤوّل كلام بولس بما لا يحتمله اللفظ والسياق . وأنت لاهٍ عن أنه متى وقع الاحتمال سقط الاستدلال . وإنما أتينا بكلامه تنزلاً معك على التسليم الجدليّ بصحة ما روى عنه في رسالته لأهل غلاطية . فنقول : حتى على

فرض صحة ماروى عن بولس نفسه ، فإنه يشهد لنفى الصلب والقتل . لالحصولها حقيقة . هذا ولو قارنت دعوى الصلب والفداء عما جاء فى التوراة من قولها (الشرير فدية الصدّيق) لكان معناه ، على مقتضى زعمك ، أن عيسى شرّ بالإضافة لكل أحد . وهذا لايجوز لاعقلاً ولاشرعاً . فوجب ، أخذاً من عبارة التوراة ، أن يكون المصلوب شرّيراً فداء لصدّيق ، هو عيسى عليه الصلاة والسلام . كما جاء فى إنجيل بانابا. انتهى ملخصاً .

ولن يعدم الحق أنصاراً، والباطل خزياً وانكساراً .

فصل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه فى كتابه (الفرقان) وهو من آخر مصنفاته . صنفه بقلعة دمشق، ما لفظه : (فإن قيل) فإذا كان فى كتب الأناجيل التى عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم ، وقال لهم : أنا المسيح . ولا يقولون إن الشيطان تمثل على صورته ـ فالشيطان ليس هو لحم وعظم . وهذه أثر المسامير . أو نحو هذا الكلام ـ فأين الإنجيل الذى قال الله عز وجل فيه : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ(١) . وقال قبل هذا : وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٢) . وقال قبل هذا : وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ

(١) [٥ / المائدة / ٤٧] .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٦و٤٧] .

وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ[١]. وقال أيضاً : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ[٢] . وقال أيضاً : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[٣] . وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب ، الذين بعث إليهم ، وهو من كان في وقتهم ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة . لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم . وكذلك قوله : وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ[٤] ، إخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله . وكذلك قوله : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ[٥] ، هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الإنجيل. ومن لا يؤمر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، قيل قبل هذا: إنه قد قيل ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والإنجيل بل ذلك مبدّل . فإن التوراة انقطع تواترها. والإنجيل إنما أخذ عن أربعة . ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة والإنجيل باطل ليس من كلام الله . ومنهم من قال : بل ذلك قليل . وقيل : لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب وإنما حرّفوا معانيها بالتأويل . وهذان القولان، قال كلًّا منهما كثير من المسلمين . والصحيح القول الثالث ، وهو أن في الأرض

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٣و٤٤] . . . فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٦] . . . مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ.

(٣) [٥ / المائدة / ٦٨] .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٣] . . . ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

(٥) [٥ / المائدة / ٤٧] . . . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبيّ ﷺ ، ونسخاً كثيرة محرّفة . ومن قال : إنه لا يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه . ومن قال : جميع النسخ بعد النبيّ ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ . والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ويخبر أن فيهما حكمه . وليس فى القرآن خبر أنهم غيّروا جميع النسخ . وإذا كان كذلك فنقول : هو سبحانه قال : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ(١) . وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح . فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها فى التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام . ومعلوم أن هذا الذى فى التوراة والإنجيل ، من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ، ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى . بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما . وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ، ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمرا به فى حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس. وكذلك(٢) : لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ . وقوله(٣) : وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . فإن إقامة الكتاب، العمل بما أمر الله به فى الكتاب ، ومن التصديق بما أخبر به على لسان الرسول .

وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ، ليس هو مما أنزله

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٧] . . . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٨] ونصها : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٦] . . . مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ .

الله على الرسول ، ولا ممـا أمر به ، ولا أخبر به . وقد يقع مثل هذا فى الـكتب المصنفة . يصنّف الشخص كتاباً فيذكر ناسخه ، فى آخره ، عمر المصنف ونسبه وسنه . ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف . ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن . وأن لا يكتب فى المصحف غير القرآن . فلا يكتب أسماء السور ولاالتخميس والتعشير ولا (آمين) . ولاغير ذلك . والمصاحف القديمة والتى كتبها أهل العلم ، على هـــذه الصفة . وفى المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور والتخميس والتعشير والوقف والابتداء . وكتب فى آخرالمصحف تصديقه . ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك . وليس هذا من القرآن . فهكذا ما فى الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ، ليس هومماقاله المسيح، وإنما هو مما رآه مَن بعده. والذى أنزله الله هو ماسمع من المسيح المبلغ عن الله . فإن قيل : فإذا كان الحواريون قداعتقدواأن المسيح صلب ، وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل والدين، فقد دخلت الشبهة .

قيل: الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء، إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء، فإن الحجة فى كلام الأنبياء . وما سوى ذلك فموقوف على الحجة. إن كان حقاً قُبِلَ وإلَّا رُدّ. ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبىّ ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله . لاسيما المتواتر ، كالقرآن وكثير من السنن . وأما ما قالوه ، فـما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم . وماتنازعوا فيــه ، رُدَّ إلى الله والرسول . وعُمَرُ قد كان أَوَّلًا أنــكر موت النبىّ ﷺ . حتى ردَّ ذلك عليه أبو بكر . وقد تنازعوا فى دفنه حتى فصـل أبو بكر بالحديث[١] الذى رواه. وتنازعوا فى

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ١٦ ـ كتاب الجنائز ، الحديث ٢٧ (طبعتنا) ونصه :

حدثنى يحيى عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ توفى يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء. وصلى عليه الناس أفذاذا . لايؤمهم أحد . فقال ناس : يدفن عند المنبر . وقال آخرون :=

تجهيز جيش أسامة . وتنازعوا فى قتال[1] مانعى الزكاة . فلم يكن هـذا قادحاً فيما نقلوه عن النبىّ ﷺ . والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح . ولم يشهد أحد منهم صلبه . فإن الذى صُلِبَ إنما صلبه اليهود . ولم يكن أحـد من أصحاب المسيح حاضراً . وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح . وقد قيل إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح . ولـكن هم كذبوا وشبهوا على الناس . والأول هو المشهور وعليـه جمهور الناس . وحينئذ

= يدفن بالبقيع . فجاء أبو بكر الصديق فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « مادفن قط نبىّ إلا فى مكانه الذى توفى فيه » .

فحفر له فيه . فلما كانوا عند غسله ، أرادوا نزع قميصه فسمعوا صوتاً يقول : لا تنزعوا القميص . فلم يُنزع القميص . وغُسِّل وهو عليه ﷺ . اهـ .

قال ابن عبد البرّ : هذا الحديث لا أعلمه يروى على هذا النسق بوجه من الوجوه ، غير بلاغ مالك هذا . ولـكنه صحيح من وجوه مختلفة ، وأحاديث شتى ، جمعها مالك

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١ ـ باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٣و٧٤٤ ونصهما :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ . وكان أبو بكر رضى الله عنه. وكفر من كفر من العرب . فقال عمر بن الخطاب : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمِرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه. على الله » ؟

فقال : والله ! لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال . والله ! لو منعونى عَنَاقا كانوا يؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضى الله عنه : فوالله ! ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق .

فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب. لكن عمدتهم على ذلك ، الشخص الذى جاء الشيطان بعد أيام وقال . أنا المسيح . وذاك شيطان . وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ماتجيء ويدّعى (كذا) إنه نبيّ أوصالح . ويقول . أنافلان النبيّ والصالح. ويكون شيطاناً. وفى ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه جاء وقال: أنا المسيح. جئت لأهديك. فعرف أنه الشيطان . فقال . أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها . فإن جئت اليوم بشىء يخالف ذلك لم نقبل منك . فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب. كما قال تعالى: وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ[1]. وأضاف الخبر عن قتله، إلى اليهود بقوله: وقولهم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ[2] فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة . إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح . ومن جوز قتله فهو كمن قتله . فهم فى هذا القول كاذبون . وهم آثمون . وإذا قالوه فخرا لم يحصل لهم الفخر . لأنهم لم يقتلوه . وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه . وقد قال النبيّ[3] ﷺ : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يارسول ! فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

(١) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٧] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان، ٢٢ ـ باب المعاصى من أمر الجاهلية، ولا يكفّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، حديث ٢٩ ونصه :

عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل . فلقينى أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال: ارجع. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » فقلت : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » .

وقوله : وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ: قيل هم اليهود والنصارى. والآية تعم الطائفتين. وقوله: لَفِى شَكٍّ مِنْهُ. قيل: من قتله. وقيل: منه، أى: فى شك منه. هل صلب أم لا؟ كما اختلفوا فيه . فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : إنه إله . فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ؟ وهم فى شك من ذلك ما لهم به من علم . فإذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح ؟

فإن قيل : كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هـذا فى إيمانهم ، فأين المؤمنون به الذين قال فيهم : وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا[1] . وقوله : فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ[2] . (قيل) ظنٌّ من ظن منهم أنه صلب لا يقدح فى إيمانه. إذا كان لم يحرف ماجاء به المسيح. بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح فى إيمانه . فإن هـذا اعتقاد موته على وجه معيّن . وغاية الصلب أن يكون قتلاً له . وقتـل النبىّ لا يقدح فى نبوته . وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء. وقال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ...[3]

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٢) [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٦] ونصها: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ.

الآية. وقال تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ (١). وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلهم.هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءهم في اليقظة . فإنهم لا يكفرون بذلك . بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتّباعاً للسنة وأتباعاً لها . وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره . وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله فهذا غلط منه لا يوجب كفره . فكذلك ظنُّ من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح ، لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدح فيما نقلوه عنه . وعُمَرُ ـ لما كان يعتقد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يمت(٢) ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ـ لم يكن

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٣] . . . وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبيّ ﷺ « لو كنت متخذاً خليلًا » حديث ٦٦٤و٦٦٥ وهذا نصهما :

عن عائشة رضي الله عنها ، زوج النبيّ ﷺ ، أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنح (يعني بالعالية) فقام عمر يقول : والله ! ما مات رسول الله ﷺ .

قالت : وقال عمر : والله ! ما كان يقع في نفسي إلا ذاك . وليبعثنّه الله فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم .

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله . قال : بأبي أنت وأمي . طبتَ حيًّا وميْتاً . والذي نفسي بيده ! لا يذيقك الله الموتتين أبدا . ثم خرج فقال : أيها الحالف ! على رِسْلِك .

فلما تكلم أبو بكر جلس عمر . فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألَا من كان يعبد محمداً ﷺ ، فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت . وقال : =

هذا قادحاً فى إيمانه . وإنما كان غلطاً ورجع عنه . وقوله تعالى : مَا لَهُمْ بِهِ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم . انتهى كلام ابن تيمية رضى الله عنه .

ولإمام الأدباء، شرف الدين البوصيرى رحمه الله، قصيدة فى هذا المقام. نظمها فى سلك ما تقدم تكملة للمرام . قال قدس سره .

جاء المسيح من الإله رسولاً ... فأبى أقل العالمين عقولاَ
قوم رأوا بشراً كريماً فادّعَوْا ... من جهلهم لله فيه حلولاً
وعصابةماصدقته وَأكْثرت، ... بالإفك والبهتان ، فيه القيلا
لم يأت فيه مُفْرِط ومُفَرِّط ... بالحق تجريحا ولا تعديلا
فكأنما جاء المسيح إليهم ... ليكذبوا التوراة والإنجيلا
فاعجب لأمته التى قد صيرت ... تنزيهها لإلهها التنكيلا
وإذا أراد الله فتنة معشر ... وأضلهم،رَأَوُا القبيح جميلا
هم بجّلوه بباطل فابتزّه ... أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم ... زمراً . ألَمْ ترَ عقدها محلولا
هو آدم فى الفضل إلا أنه ... لم يُعْطَ حال النفخة التكميلا
أسمعتموا أن الإله لحاجة ... يتناول المشروب والمأكولا ؟
وينام من تعب ويدعو ربه ... ويروم من حرّ الهجير مقيلا
ويمسّه الألم الذى لم يستطع ... صرفاً له عنه ولا تحويلاً

= إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [٣٩/ الزمر / ٣٠] وقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [٣ / آل عمران / ١٤٤]

قال : فنشج الناس يبكون . . . الخ

ياليت شعرى ، حين مات بزعمهم   من كان بالتدبير عنه كفيلا ؟
هل كان هذا الكون دبر نفسه   من بعده أم آثر التعطيلا ؟
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه .   وأراه كان القاتل المقتولا .
اجْزُوا اليهود بصلبه خيراً . ولا   تجزوا (يهوذا) الآخذ البرطيلا
أيكون قوم فى الجحيم ويصطفى   منهم كايماً ربّنا ، وخليلا
وإذا فرضتم أن عيسى ربكم ،   أفلم يكن لفدائكم مبذولاً ؟
وأُجِلّ روحاً قامت الموتى به   عن أن يرى بيد اليهود قتيلا
فدعوا حديث الصلب عنه ودونكم   من كتبكم ما وافق التنزيلا
شهد الزبور بحفظه ونجاته .   أفتجعلون دليله مدخولاً ؟
أيكون من حفظ الإله مضيعا   أو من أشيد بنصره مخذولاً ؟
أيجوز قول منزه لإلهه :   سبحان قاتل نفسه مقتولاً ؟
أو جلّ من جعل اليهودُ بزعمكم   شوك القتاد لرأسه إكليلا
ومضى لحبل صليبه مستسلماً   للموت مكتوف اليدين ذليلا
كم ذا أبكتكم ولم تستنكفوا   أن تسمعوا التبكيت والتخجيلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا   لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا

وهى سابغة الذيل ، كلها من هذا النفس البديع .

واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم. وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى عليه السلام ، وبين أنه ماحصل لهم ذلك المقصود ، وأنه حصل لعيسى أعظم المناصب وأجل المراتبَ ـ بيَّن تعالى تحقيق ما أثبته فى الآية السابقة ، من القطع بكذبهم . مثبتاً أنهم فى مبالغتهم فى عداوته ، سيكونون من أتباعه المصدقين بجميع أمره ، الذى منه التصديق بمحمد ﷺ . مؤكدا له أشد تأكيد لما عندهم من الإنكار له ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

« وَإِنْ مِنْ أَهْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ » أى : ما أحد من أهل الكتاب يدرك نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ، إلا ليؤمنن به قبل موته . أى: موت عيسى عليه السلام . أى: لا يموت حتى ينزل فى آخر الزمان يؤيد الله به دين الإسلام. حتى يدخل فيه جميع أهل الملل . إشارة إلى أن موسى عليه السلام، إن كان قد أيده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زماناً طويلاً ، فالنبىّ الذى ينسخ شريعة موسى، وهو عيسى عليهما السلام ، هو الذى يؤيد الله به هذا النبىّ العربىّ ، فى تجديد شريعته ، وتمهيد أمره ، والذود عن دينه . ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة ، وأتباع مستكثرة . أمر قضاه الله تعالى فى الأزل . فاقصروا أيها اليهود . فمعنى الآية إذن ، والله أعلم : إنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين فى عيسى عليه السلام على شك ، إلا وهو يوقن بعيسى عليه السلام قبل موته ، بعد نزوله من السماء ، أنه ما قتل وما صلب . ويؤمن به عند زوال الشبهة أفاده البقاعىّ .

روى البخارىّ(١) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده! ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا له من الدنيا ومافيها. ثم يقول أبو هريرة: واقرؤا إن شئتم: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٩ ـ باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، حديث ١١١٥ .

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . وأخرجه مسلم[١] أيضاً وابن مردويه وزاد بعد قوله (قبل موته) : موت عيسى ابن مريم . ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

ورواه الإمام أحمد[٢] عن حنظلة عن أبي هريرة أيضا مرفوعاً ولفظه : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما .

قال وتلا أبوهريرة : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... الآية . فزعم حنظلة أن أباهريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى. فلا أدرى هذا كله حديث النبيّ ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة .

ورواه أحمد[٣] أيضاً عن عبدالرحمن عن أبي هريرة. وفيه: ويهلك الله فى زمانه الملل كلها

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٢ ـ ٢٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال « الأنبياء إخوةٌ لعلّات. دينهم واحد وأمهاتهم شتى. وأنا أولى النـاس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبيّ . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض . سبط . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. بين مُمَصَّرَتَيْن (الممصرة من الثياب التى فيها صُفرة خفيفة) فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل . حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها غير الإسلام . ويهلك الله فى زمانه المسيح الكذاب . وتقع الأَمَنَة فى الأرض. حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً . والنمور مع البقر . والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات ، لا يضر بعضهم بعضاً . فيمكث ما شاء الله أن يمكث . ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه » .

غير الإسلام . ويمكث أربعين ثم يتوفى ويصلّي عليه المسلمون . وفي حديث النوّاس بن سمعان عند مسلم[١] : فينزل عند المنارة شرقيّ دمشق .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير، هنا ، الأحاديث المتواترة في نزوله عليه السلام ، من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنوّاس بن سمعان وعبدالله بن عمرو ابن العاص ومُجَمِّع بن جارية وأبي سريحة حذيفة بن أَسِيد رضي الله عنهم . وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية . وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح .

قال ابن كثير : وقد بنيت في هذه الأعصار ، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، منارة للجامع الأمويّ ، بيضاء من حجارة منحوتة ، عوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . وكان أكثر عمارتها من أموالهم . وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا من إخبار النبيّ ﷺ بذلك . انتهى .

قلت : وقد اشتهرت هذه المنارة بمئذنة عيسى .

وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في (تاريخه) عن بعض السلف ؛ أن عيسى عليه السلام ، بعد نزوله ، يدفن مع النبيّ ﷺ في حجرته . فالله أعلم .

والتأويل المذكور في الآية رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير[٢] والعوفيّ[٣] ، كلاهما عن ابن عباس .

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ١١٠ (طبعتنا) وهو حديث طويل وجليل، من علامات النبوة ، ينبغي الاطلاع عليه ودراسته دراسة عميقة .

(٢) عن سعيد بن جبير ، الأثر رقم ١٠٧٩٤ و١٠٧٩٥ من التفسير .

(٣) عن العوفيّ ، الأثر رقم ١٠٨٠٧ من التفسير .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك عن ابن عباس في الآية قال : يعني اليهود خاصة.

وبه إلى الحسن : يعني النجاشيّ وأصحابه .

وبه إليه قال : إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة ، مقاماً يؤمن به البر والفاجر .

وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد .

قال ابن كثير : وهـذا القول هو الحق . وروى عن ابن عباس أيضاً ومحمد بن الحنفية ومجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين والضحاك وجويبر ؛ أن المعنى : وإنْ من أهـل الـكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبـل موت ذلك الـكتابيّ عند الغرغرة . حين لا ينفعه الإيمان . ذهاباً إلى أنه إذا عاين عَلِمَ الحق من الباطل . لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه .

قال عكرمة : قال ابن عباس : لا يموت اليهوديّ حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله. ولو عجل عليه بالسلاح .

قال الزمخشريّ : فإن قلت: مافائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم ؟ قلت : فائدته الوعيد . وليكون علمهم بأنهم لابد لهم من الإيمان به عن قريب ، عند المعاينة ، وأن ذلك لا ينفعهم ـ بعثاً لهم وتنبيهاً على معاجلة الإيمان به في أوان الانتفاع به . وليكون إلزاماً للحجة لهم . انتهى.

قال الأصبهانيّ : ويدل على صحة هذا التأويل قراءة أبيّ بن كعب رضي الله عنه (إلا ليؤمنُنَّ به قبل موتهم) بضم النون وإلحاق ميم الجمع .

والأسانيد إلى ابن عباس في هذا التأويل كلها صحيحة. كما قاله ابن كثير .

وثمة وجه آخر وهو أن الضمير الأول للنبيّ صلى الله عليه وسـلم . والثاني للـكتابيّ. رواه ابن جرير(١): عن عكرمة قال: لا يموت النصرانيّ ولا اليهوديّ حتى يؤمن بمحمد ﷺ

(١) الأثر رقم ١٠٨١٣ من التفسير .

وتلا الآية . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول . وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب، بعد نزول عيسى عليه السلام، إلا آمن به قبل موته أى: قبل موت عيسى عليه السلام .

قال ابن كثير : ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح . لأنه المقصود من سياق الآى، فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك . فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك . وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه . وهم لا يتبينون ذلك . ثم إنه رفعه إليه . وإنه باق حى . وإنه سينزل قبل يوم القيامة . كما دلت عليه الأحاديث المتواترة . فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية (يعنى لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أوالسيف) .

فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ . ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم .

ثم قال : فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى : أن كل كتابى لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما السلام ـ فهذا هو الواقع . وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلى له ما كان جاهلاً به فيؤمن به . ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له ، إذا كان قد شاهد الملك . كما قال تعالى : فى أول هذه السورة : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ... الآية[1] . وقال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ . . . الآية « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ » أى : عيسى عليه السلام « عَلَيْهِمْ » أى : على أهل الكتاب « شَهِيدًا » أى بأعمالهم التى شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

وبعد نزوله إلى الأرض . قال قتادة : يشهد عليهم أنه قد بلّغهم الرسالة من الله ، وأقرّ بعبوديته لله عز وجل . وهذا كقوله تعالى : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . إلى قوله العزيز الحكيم[١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا)

« فَبِظُلْمٍ » أى: بسبب ظلم عظيم ؛ فالتنوين للتفخيم . وهو جامع لتفصيل نقض الميثاق وما عطف عليه مما استحلوه ، بعد أن حرمته التوراة « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا » أى تلبسوا باليهودية. وفيه تعظيم ظلمهم أيضاً . إذ صدر عنهم بعدماادعوا أنهم من أهل التوراة والرجوع إلى الحق « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » قال ابن كثير : هـذا التحريم قد يكون قدَريًّا. بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا فى كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم. فحرموها على أنفسهم تضييقاً وتنطعاً . ويحتمل أن يكون شرعيًّا . بمعنى أنه تعالى حرّم عليهم فى التوراة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك . كما قال تعالى : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ[٢]. أى : ماعدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، من لحوم الإبل وألبانها . ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة فى التوراة . كما قال فى سورة الأنعام : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا

(١) [٥ / المائدة / ١١٦] . . . اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] . . . قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[1] . أى : إنما حرمناعليهم ذلك، لطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه .

ولما ذكر ظلمهم ذكر مجامع من جزئياته بقوله تعالى « وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : الذى لا أوضح منه ولا أسهل ولا أعظم « كَثِيرًا » أى : ناساً كثيراً . أوْ صداً كثيراً . فهم صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق . وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه . ولهذا كانوا أعداء الرسل وقتلوا خلقاً من الأنبياء . وكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦١] (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ » أى : فى التوراة « وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ » أى : من اليهود المصرّين على الكفر . لا لمن تاب وآمن من بينهم « عَذَابًا أَلِيمًا » وجيعاً يخلص إلى قلوبهم .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا)

« لَـٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ » أى : الثابتون فى العلم المستبصرون فيه. كعبد الله بن سلام .

قال الرازىّ : الراسخون فى العلم : الثابتون فيه . وهم فى الحقيقة المستدلون . لأن المقلد يكون بحيث إذا شُكِّكَ يَشُكّ . وأما المستدل فإنه لا يتشكك ، البتة . فالراسخون هم المستدلون « وَالْمُؤْمِنُونَ » أى: من الأميين اللاحقين بهم فى الرسوخ ، بصحبة رسول الله ﷺ « يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » من القرآن « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » على سائر الأنبياء لاطلاعهم على كمالات المنزل عليك وأنه صدق ما أنزل من قبلك . فلا بد من الإيمان به أيضاً « وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ » قال ابن كثير : هكذا هو فى مصاحف الأئمة . وكذا هو فى مصحف أبىّ بن كعب .

قال الزمخشرىّ : ارتفاع (الراسخون) على الابتداء . و (يؤمنون) خبره و (المقيمين) نصب على المدح . لبيان فضل الصلاة . وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد. ولا يلتفت إلى مازعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف. وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، ومالهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان. وغبى عليه أن السابقين الأولين ، الذين مَثَلُهُم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام، وذب المطاعن عنه، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم . وخرقاً يرفوه من يلحق بهم .

وقيل : هو عطف على (بما أنزل إليك) أى يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء . وفى مصحف عبد الله (والمقيمون) بالواو . وهى قراءة مالك بن دينار والجحدرىّ وعيسى الثقفىّ . انتهى .

وجوز عطف (المقيمين) على الضمير فى (منهم) وعطفه على الضمير فى (إليك) . والكتاب أنزل للنبىّ ولأتباعه . قال تعالى(١) : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . كذا فى حواشى الشذور. وقد أشار الزمخشرىّ بقوله (كانوا أبعد همة) إلى ردّ ما نقل ، أن عثمان رضى الله عنه، لما فرغ من المصحف أتى به إليه . فقال : قد أحسنتم وأجملتم. أرى شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها. ولو كان المُمْلى من هذيل، والكاتب من قُريش، لم يوجد فيه هذا .

قال الحافظ السخاوىّ: هذا الأثر ضعيف . والإسناد فيه اضطراب وانقطاع . لأن عثمان رضى الله عنه جُعِل للناس إماما يقتدون به. فكيف يرى فيه لحنا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ؟ وقد كتب مصاحف سبعة وليس فيها اختلاف قط ، إلا فيما هو من وجوه القراءات. وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع ، كيف يقيمه غيرهم(٢) ؟

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٧] . . . وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

(٢) وقد نقل ابن هشام فى شرح شذور الذهب عن الإمام تقىّ الدين أبى العباس أحمد ابن تيمية رحمه الله أنه قال :

وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إنّ هـذان) لحن . وأن عثمان رضى الله عنه قال : إن فى المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها . وهذا خبر باطل لا يصحّ من وجوه :

أحدها ـ أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن فى القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم فى إزالته .

والثانى ـ أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح فى الكلام ، فكيف =

وتأول قوم اللحن فى كلامه (على تقدير صحته عنه) بأن المراد الرمز والإيماء كما فى قوله(٣)

مَنْطِقٌ رائع وتلحن أحيا نًا . وخير الكلام ما كان لحنًا

= لا يستقبحون بقاءه فى المصحف ؟

والثالث ـ أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم. لأن المصحف الكريم يقف عليه العربىّ والعجمىّ .

والرابع ـ أنه قد ثبت فى (الصحيح) أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضى الله عنه فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش .

ولما بلغ عمرَ رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ (عتى حين) على لغة هذيل ـ أنكر ذلك عليه وقال: أقرئ الناس بلغة قريش فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلامه ملخصا (قاله ابن هشام) .

(١) قائله مالك بن أسماء .

قال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : كان مالك شاعرا غزلا (ظريفا) .

وهو القائل فى جارية له :

أَمُغَطًّى منى على بصرى بالحـ ـب أم أنتِ أكمل الناس حسنَا

وحـديث ألذُّه هو مما يشتهى الناعتون يُوزَنُ وزنَا

منطق صائب وتلحن أحيا نا وأحلى الحديث ما كان لحنَا

وقال المرزبانىّ : إنما أراد وصفها بالظرف والفطنة وأنها تورّى عما قصدت له وتتنكب التصريح .

وعلى هـذا فبعيد جداً تأوّل اللحن ، فى القول المزعوم نسبته إلى عثمان ، بهذا المعنى . إذ لا يستقيم مع قوله : ستقيمه العرب بألسنتها . وإنما تقيم العرب بألسنتها اللحن الذى هو الخطأ فى الإعراب ، وهو ضد الصواب .

أى: المراد به الرمز . بحذف بعض الحروف خطاً . كألف (الصَّابِرِين) مما يعرفه القراء إذا رأوه . وكذا زيادة بعض الحروف . كذا فى (عناية الراضى) « وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » رفعه بالعطف على (الرَّاسِخُونَ) أو على الضمير فى (يُؤْمِنُونَ) أو على أنه مبتدأ ، والخبر (أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ). والوجوه المذكورة تجرى فى(الْمُقِيمِينَ) على قراءة الرفع « وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » يعنى : والمصدقون بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب . وإنما قدم الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع ، لأنه المقصود فى هـذا المقام . لأنه لبيان حال أهل الكتاب وإرشادهم . وهم كانوا يؤمنون ببعض ذلك ويتركون بعضه . فبيّن لهم ما يلزمهم ويجب عليهم « أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيماً » يعنى الجنة . لجمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح .

لطيفة :

فى الآية وجوه من الإعراب . أحسنها ما اعتمده أبو السعود ، من أن جملة (أُولَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ)الخ خبر للمبتدأ الذى هو (الرَّاسِخُونَ) وما عطف عليه . وأن جملة (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ)الخ حال من (الْمُؤْمِنُونَ) مبينة لكيفية إيمانهم . أو اعتراض مؤكد لما قبله . قال : وهـذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أُوعِد الأولون بالعذاب الأليم ووُعِد الآخرون بالأجر العظيم . كأنه قيل إثْرَ قوله تعالى (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) لـكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجراً عظيما . وأما ما جنح إليـه الجمهور من جعل قوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ)الخ خبراً للمبتدأ ، ففى كمال السداد ، خلا أنه غير متعرض لتقابل الطرفين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا)

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » اعلم أنه تعالى لما حكى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وذكر تعالى بعده أنهم لا يسألون استرشاداً ، ولكن للتعنت واللجاج ، وبيّن أنواعاً من فضائحهم ـ أشار إلى رد شبهتهم . فاحتج عليهم بأنه ليس بدعاً من الرسل . وأمرُه في الوحي كسائر الأنبياء الذين يوافقون على نبوتهم . ولم ينزل على كل واحد منهم كتاب بتمامه مثل ما أنزل على موسى . وإذ لم يكن هذا من شرط النبوة ، وَضَحَ أن سؤالهم محض تعنت .

تنبيه :

قيل : بدأ بنوح لأنه أول نبيّ شرع الله تعالى على لسانه الأحكام ، والحلال والحرام . وفي (العناية) بدأ به تهديداً لهم . لأنه أول نبيّ عوقب قومه . لا أنه أول مشرع ، كما توهم . وظاهر الآية يدل على أن من قبل نوح لم يكن يوحى له كما أوحى لنبينا ﷺ . لا أنه غير موحى إليه أصلا ، كما قيل . انتهى . «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » وهم أولاد يعقوب عليهم السلام «وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾

« وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ » أى : فى السور المكية « وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ » أى : لم نسمهم لك فى القرآن . وقد أحصى بعض المدققين أنبياء اليهود والنصارى ورسلهم فوجد عددهم لا يتجاوز الخمسين . روى فى عدتهم أحاديث تُكُلِّم فى أسانيدها . منها حديث أبى ذر : إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر . صححه ابن حبان . وخالفه ابن الجوزىّ فذكره فى (موضوعاته) واتهم به إبراهيم بن هاشم . وقد تكلم فيه غير واحد « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » يعنى خاطبه مخاطبة من غير واسطة . لأن تأكيد (كلّم) بالمصدر يدلّ على تحقيق الكلام . وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك . لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر . فلا يقال: أراد الحائط يسقط إرادة. وهذا رد على من يقول: إن الله خلق كلاماً فى محلٍّ . فسمع موسى ذلك الكلام . قال الفراء : العرب تسمى كل ما يوصل إلى الإنسان كلاماً ، بأى طريق وصل . لكن لا تحققه بالمصدر . وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام . فدل قوله تعالى (تَكْلِيماً) على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة . قال بعضهم : كما أن الله تعالى خص موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحاً فى نبوة غيره من الأنبياء ، فكذلك إنزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحاً فى نبوة من أنزل عليه كتابه منجماً من الأنبياء . كذا فى (اللباب) .

تنبيه :

يحسن فى هذا المقام إيراد عقيدة السلف الكرام فى مسألة الكلام . فإنها من أعظم مسائل الدين. وقد تحيرت فيها آراء أهل الأهواء من المتقدمين والمتأخرين. واضطربت فيها الأقوال. وكثرت بسببها الأهوال . وأثارت فتنا وجلبت محناً . وكم سجنت إماما . وبكت

أقواماً . وتشعبت فيها المذاهب . واختلفت فيها المشـــارب. ولم يثبت إلا قول أهل السنة والجماعة . المقتفين لأثر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الـكرام رضى الله عنهم . فنقول : قال شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية عليه رحمة الرحيم السلام ، فى كتابه إلى جماعة العارف عدى بن مسافر ما نصه :

فصل

ومن ذلك الاقتصاد فى السنة واتباعها كما جاءت بلا زيادة ولا نقصان . مثل الـكلام فى القرآن وسائر الصفات ، فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة : أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود . هكذا قال غير واحـد من السلف. روى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار وكان من التابعين الأعيان قال : مازلت أسمع الناس يقولون ذلك . القرآن الذى أنزله الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذا القرآن الذى يقرؤه المسلمون ويكتبونه فى مصاحفهم . وهو كلام الله لا كلام غيره . وإن تلاه العباد وبلّغوه بحركاتهم وأصواتهم . فإن الـكلام لمن قاله مبتدئاً ، لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً. قال الله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ(١) . وهذا القرآن فى المصاحف . كما قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ(٢) . وقال تعالى : يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ(٣) . وقال : إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(٤) . والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه . كل ذلك يدخل فى القرآن وفى كلام الله . وإعرابُ الحروف هو من تمام الحروف . كما قال النبيّ ﷺ :

(١) [٩ / التوبة / ٦] . . . ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٨٥ / البروج / ٢١و٢٢] .

(٣) [٩٨ / البينة / ٢و٣] ونصهما : رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ . . .

(٤) [٥٦ / الواقعة / ٧٧و٧٨] .

من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات . وقال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحبُّ إلينا من حفظ بعض حروفه .

ثم قال رحمه الله : والتصديق بما ثبت عن النبي ﷺ ، أن الله يتكلم بصوت وينادى آدم عليه السلام بصوت ، إلى أمثال ذلك من الأحاديث . فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة . وقال أئمة السنة : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، حيث تلى ، وحيث كتب . فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن إنها مخلوقة . لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل . ولا يقال غير مخلوقة ، لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد . ولم يقل قط أحد من أئمة السلف : إن أصوات العباد بالقرآن قديمة . بل أنكروا على من قال (لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق) وأما من قال : إن المداد قديم ـ فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة . قال الله تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا . فأخبر أن المداد يكتب به كلماته . وكذلك من قال (ليس القرآن فى المصحف . وإنما فى المصحف مداد وورق وحكاية وعبارة) فهو مبتدع ضال . بل القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ هو ما بين الدفتين . والكلام فى المصحف على الوجه الذى يعرفه الناس، له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء . وكذلك من زاد على السنة فقال : إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة ، فهو مبتدع ضال . كمن قال : إن الله لا يتكلم بحرف ولا صوت ـ فإنه أيضا مبتدع منكر للسنة . وكذلك من زاد وقال : إن المداد قديم ـ فهو ضال . كمن قال : ليس فى المصاحف كلام الله. وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون: إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط ، كلام الله ـ فهو بمنزلة من يقول : ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه . هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفى . وكلاهما خارج عن السنة والجماعة . وكذلك إفراد الكلام فى النقطة والشكلة بدعة ، نفياً وإثباتاً . وإنما حدثت

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٩] .

هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل . فإن من قال : إن المداد الذى تنقط به الحروف وتشكل به، قديم ـ فهوضال جاهل . ومن قال : إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن ـ فهوضال مبتدع. بل الواجب أن يقال · هذا القرآن العربىّ هو كلام الله . وقد دخل فى ذلك حروفه بإعرابها . كما دخلت معانيه . ويقال : وما بين اللوحين جميعه كلام الله . فإن كان المصحف منقوطاً مشكولاً أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله . وإن كان غير منقوط ولا مشكول ، كالمصاحف القديمة التى كتبها الصحابة ، كان أيضاً ما بين اللوحين هو كلام الله . فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظىّ لا حقيقة له . ولا يجوز أن يحدث فى الدين ما ليس منه .

وسئل رحمه الله تعالى عن رجلين تباحثا فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت . وقال أحدهما : النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن. وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن . فما الصواب فى ذلك ؟

فأجاب رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة يتنازع فيها كثير من الناس. ويخلطون الحق بالباطل . فالذى قال : إن القرآن حرف وصوت ، إن أراد بذلك أن هذا القرآن الذى يُقرأ المسلمين هو كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين على محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وأن جبرئيل سمعه من الله ، والنبىّ ﷺ سمعه من جبرئيل ، والمسلمون سمعوه من النبىّ ﷺ ، كما قال تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ[1] . وقال : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ[2] ـ فقد أصاب فى ذلك .

(١) [١٦/ النحل/ ١٠٢] . . . لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها. والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع.
ومن قال : إن القرآن العربيّ لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبرئيل أو غيره ، عبّر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلّاب والأشعريّ ومن وافقهما ـ فهو قول باطل من وجوه كثيرة . فإن هؤلاء يقولون: إنه معنى واحد قائم بالذات . وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد. وإنه لا يتعدد ولا يتبعض. وإنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وبالعبرانية كان توراة. وبالسريانية كان إنجيلًا. فيجعلون معنى آية الكرسى ، وآية الدَّين ، وقل هو الله أحد ، وتبت يدا أبى لهب، والتوراة والإنجيل وغيرها ـ معنى واحداً . وهذا قول فاسد بالعقل والشرع. وهو قول أحدثه ابن كلاب . لم يسبقه إليه غيره من السلف . وإن أراد قائل بالحرف والصوت ، أن الأصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذى فى المصاحف قديم أزليّ ـ أخطأ وابتدع، وقال ما يخالف العقل والشرع . فإن النبيّ ﷺ قال(١) : زينوا القرآن بأصواتكم . فبين أن الصوت صوت القارئ . والكلام كلام البارى . كما قال تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ(٢) . فالقرآن الذى يقرؤه المسلمون

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ «الماهر بالقرآن مع سفرة الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم ».

قال الحافظ فى (الفتح) : هذا الحديث من الأحاديث التى علقها البخاريّ ولم يصلها فى موضع آخر من كتابه . وقد أخرجه فى كتاب (خلق أفعال العباد) من رواية عبدالرحمن ابن عوسجة عن البراء ، بهذا .

وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائيّ وابن ماجة والدارميّ ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما من هذا الوجه .

(٢) [٩ / التوبة / ٦] . . . ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

كلام الله لا كلام غيره . كما ذكر الله ذلك . وفي السنن(١) عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فقال : ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي . قالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم (الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ) : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي . ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلّغوا كلام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم(٢) كقوله: إنما الأعمال بالنيات ـ يعلمون أن الحديث الذي يسمعونه حديث النبيّ ﷺ . تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه . والمحدّث بلّغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبيّ ﷺ . فالقرآن أولى أن يكون كلام الله ، إذا بلّغته الرسل عنه ، وقرَأهُ الناس بأصواتهم . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه. ونادى موسى بصوت نفسه . كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف . وصوت العبد ليس هو صوت الرب . ولا مثل صوته . فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وقد نص أئمة الإسلام، أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة: من أن الله ينادِي بصوت . وإن القرآن كلامه تكلم بحروفٍ وصوتٍ. ليس منه شيء كلاماً لغيره . لا جبرئيل ولا غيره . وأن العباد يقولونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم. فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ . والكلام كلام الباري . وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٢٠ ـ باب في القرآن ، حديث ٤٧٣٤

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١ ـ كتاب الوحي ، ١ ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، حديث ١ .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

بين صوت العبد وصوت الرب . بل يجعل هذا هو هـذا . فينفيهما جميعاً . ويثبتهما جميعا . فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربيّ كلام الله ، وأن يكون مناديا لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذى يقرؤه المسلمون كلام الله . كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله . ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً . لا فرق بين القديم والحادث . وهذا مصيب فى هذا الفرق دون ذاك الثانى ، الذى فيه نوع من الإلحاد والتعطيل . حيث جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق . وإذا أثبت ، جَعَلَ صوت الرب هو صوت العبد ، أو سكت عن التمييز بينهما ، مع قوله : إن الحروف متعاقبة فى الوجود ، مقترنة فى الذات ، قديمة أزلية الأعيان ، فجعل عين صفة الرب تحل فى العبد ، ويتحد بصفته ، فقال فى نوع من الحلول والاتحاد يفضى إلى نوع من التعطيل . وقد علم أن نفى الفرق والمباينة ، بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته ، خطأ وضلال . لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها . بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد . ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذى أنزله على نبيّه محمد ﷺ . حروفه ومعانيه . وأنه ينادى عباده بصوته . ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد . وعلى أنه ليس بشيء من أصوات العباد ، ولا مداد المصاحف ، قديماً . بل القرآن مكتوب فى مصاحف المسلمين . مقروء بألسنتهم . محفوظ بقلوبهم . وهو كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط . لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون . ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها . فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز . وإن كتبت بنقط وشكل جاز . ولم يكره ، فى أظهر قولى العلماء . وهو إحدى الروايتين عن أحمد . وحكم النقط والشكل حكم الحروف فإن الشكل يبين إعراب القرآن ، كما يبين النقط الحروف . والمدادُ الذى يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط ، مخلوق . وكلام الله العربيّ الذى أنزله وكتب فى المصاحف بالشكل والنقط ، وبغير شكل ونقط ، ليس بمخلوق . وحكم الإعراب حكم الحروف . لكن الإعراب لا يستقل بنفسه . بل هو تابع للحروف المنقوطة . والشكل والنقط لا يستقل بنفسه . بل هو تابع للحروف

المرسومة . فلهذا لا يحتاج لتجريدها وإفرادها بالكلام . بل القرآن الذى يقرؤه المسلمون هو كلام الله: معانيه وحروفه وإعرابه . والله تكلم بالقرآن العربى الذىأنزله على محمد ﷺ . والناس يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم، والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله . وهو القرآن العربى الذى أنزل على نبيه . سواء كتب بشكل ونقط، أو بغير شكل ونقط . والمداد الذى كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق . والقرآن الذى كتب فى المصحف بالمداد هو كلام الله منزل، غير مخلوق. والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين . لأن كلام الله مكتوب فيها . واحترام النقط والشكل، إذا كتب المصحف مشكلًا منقوطًا ، كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين . كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه . والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه . فجميعه كلام الله . فلا يقال : بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله . وهو سبحانه نادى موسى . بصوت سمعه موسى . فإنه قد أخبر أنه نادى موسى فى غير موضع من القرآن . كما قال تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١) . والنداء لا يكون إلا صوتًا باتفاق أهل اللغة . وقد قال تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا(٢) . فقد فرّق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى . فمن قال: إن موسى لم يسمع صوتًا، بل ألهم معناه ــ لم يفرق بين موسى وغيره . وقد قال تعالى:

(١) [٧٩ / النازعات / ١٥و١٦] .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٣و١٦٤] .

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ(١) ، وقال تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ(٢) . فقد فرّق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب . كما كلم الله موسى . فمن سوّى بين هذا وهذا ، كان ضالًّا . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره : لم يزل الله متكلماً إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته . يتكلم بشيء بعد شيء . كما قال تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(٣) . فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك . وقال تعالى : فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ(٤) . فهو سبحانه ناداهما حين ذاقا الشجرة . ولم ينادهما قبل ذلك . وكذلك قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ(٥). بعد أن خلق آدم وصوّره . ولم يأمرهم قبل ذلك . وكذا قوله : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٦) . فأخبر أنه قال له: كُنْ فَيَكُونُ.

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٣] . . . وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١] .

(٤) [٧ / الأعراف / ٢٢] .

(٥) [٧ / الأعراف / ١١] . . . فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ.

(٦) [٣ / آل عمران / ٥٩] .

بعد أن خلقه من تراب . ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير . يخبر أنه تكلم فى وقت معين . ونادى فى وقت معين . وقد ثبت فى الصحيحين[(١)] عن النبى ﷺ ؛ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ[(٢)] . قال : نبدأ بما بدأ الله به . فأخبر أن الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل غير مخلوق . منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين . ثم قالت طائفة : هو معنى واحد . وهو الأمر بكل مأمور والنهى عن كل منهى والخبر بكل مُخْبَر . إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلًا. وهذا القول مخالف للشرع والعقل. وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، لازمة لذات الله ، لم تزل لازمة لذاته . وأن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً . أزلًا وأبداً . لم تزل ولا تزال . لم يسبق منها شىء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل . وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته. وإنه فى الأزل كان متكلما بالنداء الذى سمعه موسى. وإنما تجدد استماع موسى. لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس . بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى . ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : إن القرآن مخلوق ، فى أصل قولهم . فإن أصل قولهم: إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وقالوا : هذه حوادث . والرب لا تقوم به الحوادث . فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب حجة النبى ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

وهى قطعة من حديث جابر الطويل فى صفة الحجة النبوية . ولم يخرجه البخارى .

(٢) [٢ / البقرة / ١٥٨] . . . فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا . وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم . وأخطأوا فى ذلك . فلا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا . وادعوا أن الرب لم يكن قادراً فى الأزل على كلام يتكلم به ، ولا فعل يفعله . وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً . بغير أمر حدث . أو يغيّرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً . لكن يقولون: إن المقدور كان ممتنعاً . وإن الفعل صار ممكناً له ، بعد أن صار ممتنعاً عليه . من غير تجدد شيء . وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً فى الأزل على ما يمكن، فيما لا يزال على ما لا يمكن فى الأزل . فيجمعون بين النقيضين . حيث يثبتونه قادراً فى حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم . ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل، وبين عينه . كما لم يفرّق الفلاسفة بين هذا وهذا . بل الفلاسفة ادعوا أن مفعوله المعين قديم بقدمه . فضلّوا فى ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول . فإن الأدلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم . بل تدل على أن ما سوى الله مخلوق حادث . بعد أن لم يكن . إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته . كما تدل على ذلك الدلائل القطعية . والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازما ، بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء . بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته . ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين ، له . ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة . فكيف بالفاعل بالإرادة ؟ وما يذكر بأن المعلول يقارن علته ، إنما يصح فيما كان من العلل يجرى مجرى الشروط . فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط. بل قد يقارنه . كما تقارن الحياة العلم . وأما ما كان فاعلا ، سواء سمى علة أو لم يسم ، فلابد أن يتقدم على الفعل المعين . والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته . ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلتزمه مفعول معين . وقول القائل (حركت يدى فتحرك الخاتم) هو من باب الشروط لا من باب الفاعلين . ولأنه لو كان العالم قديما لكان فاعله موجبا بذاته فى الأزل . ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه . ولو كان كذلك لم يحدث شيئاً من الحوادث. وهذا خلاف المشاهدة . وإن كان هو سبحانه لم يزل قادرًا على الكلام والفعل . بل لم يزل متكلما

إذا شاء ، فاعلًا لما يشاء . ولم يزل موصوفاً بصفات الـكمال، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام. والعالم فيه من الإحكام والإتقان مادل على علم الرب . وفيه من الاختصاص مادّل على مشيئته . وفيه من الإحسان مادل على رحمته . وفيه من العواقب الحميدة مادل على حكمته . وفيه من الحوادث مادل على قدرة الرب تعالى . مع أن الرب مستحق لصفات الـكمال لذاته، فإنه مستحق لـكل كمال ممكن للوجود . لا نقص فيه . منزه عن كل نقص . وهو سبحانه ليس له كفؤ فى شىء من أموره . فهو موصوف بصفات الـكمال على وجه التفصيل . منزه فيها عن التشبيه والتمثيل . ومنزه عن النقائص مطلقاً . فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل . وكماله من لوازم ذاته المقدسة . لا يستفيده من غيره . بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء . وما جعله فيهم من صفات الأحياء . وخالقُ صفات الـكمال أحق بها مَن لا كفؤ له فيها . وأصلُ اضطراب الناس فى مسألة كلام الله ، أن الجهمية والمعتزلة ، لما ناظرت الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم ، اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثاً . بناء على أن ما لا يتناهى لا يمكن وجوده . والتزموا أن الرب كان فى الأزل غير قادر على الفعل والـكلام . بل كان ذلك ممتنعاً عليه . وكان معطلًا عن ذلك . وقد يعبرون عن ذلك بأنه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لا يزال، مع امتناع الفعل عليه فى الأزل. فيجمعون بين النقيضين . حيث يصفونه بالقدرة فى حال امتناع المقدور لذاته . إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أولا . والأزل لا أول له . والجمع بين إثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين . ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث . وهو الفعل المعين والمفعول المعين . وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والـكلام . بل هذا يكون دائماً . وإن كان كلٌّ من آحاده حادثاً . كما يكون دائماً فى المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانياً . بخـلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً، فإن هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل . ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنـكار ذلك . لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة ، كابن سينا وأمثاله .

الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره . فخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء . مع مخالفتهم لسلفهم ، أرسطو وأتباعه ، فإنهم لم يكونوا يقولون ذلك . وإن قالوا بقدم الأفلاك . وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين . بناءً على إثبات علة غاية لحركة الفلك . يتحرك الفلك للنسبة بها . لم يثبتوا له فاعلًا مبتدعاً . ولم يثبتوا ممكناً قديما واجباً بغيره . وهم ، وإن كانوا أجهل بالله وأكفر من متأخريهم ، فهم يسلمون لجمهور العقلاء ، أن ما كان ممكناً بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبوقاً بالعدم . فاحتاجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق منفصل عنه . وطائفة وافقتهم على امتناع وجود مالا نهاية له . لكن قالوا : تقوم به الأمور الاختيارية . فقالوا : إنه فى الأزل لم يكن متكلما ، بل ولا كان الكلام مقدوراً له . ثم صار متكلما بلا حدوث حادث ، بكلام يقوم به . وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم. وطائفة قالت: إذا كان القرآن غير مخلوق ، فلا يكون إلا قديم العين ، لازماً لذات الرب . فلا يتكلم بمشيئته وقدرته . ثم منهم من قال : هو معنى واحد لايتعدد ولا يتبعض. ومنهم من قال: إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات. وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة فى أصل قولهم أنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته. وأنه لاتقوم به الأمور الاختيارية . وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض. ولن يأتىَ يوم القيامة . ولم يناد موسى حين ناداه . ولا تغضبه المعاصى ولا ترضيه الطاعات . ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا فى قوله(١) : وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، ونحو ذلك ، أنه لا يراها إذا وجدت . بل إما أنه لم يزل رائياً لها. وإمَّا أنه لم يتجدد شىء موجود، بل تعلق معدوم. إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة. مع مخالفة صريح العقل. والذى ألجأهم لذلك ، موافقتهم للجهمية على أصل قولهم : فى أنه سبحانه

(١) [٩ / التوبة / ١٠٥] ... وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لا يقدر فى الأزل على الفعل والـكلام . وخالفوا السلف والأئمة فى قولهم : لم يزل الله متكلما إذا شاء . ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية . والحدوثية . والاتحادية. والاقترانية . وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة . الذين يقولون : إن الله لم يتـكلم لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتـكلم به بمشيئته وقدرته . لا قديم النوع ولاقديم العين. ولاحادث ولا مخلوق. بل كلامه عنـدهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون : إنه كلم موسى من سماء عقله . وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الـكليات دون الجزئيات . فإنه إنما يعلمها على وجه كلى . ويقولون، مع ذلك : إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله . وقولهم (يعلم نفسه ومفعولاته) حق، كما قال تعالى: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[1] . لـكن قولهم، مع ذلك (إنه لا يعلم الأعيان المعينة) جهل وتناقض . فإن نفسه المقدسة معينة . والأفلاك معينة . وكل موجود معين . فإن لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات . إذ الـكليات إنما تـكون كليات فى الأذهان لا فى الأعيان . فمن لم يعلم إلا الـكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات : تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً . وهم، إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال للبارى تعالى. إن هؤلاء يقولون : إن الحوادث تقوم بالقديم . وإن الحوادث لا أول لها . لـكن نفوا ذلك عن البارى . لاعتقادهم أنه لا صفة له . بل هو وجود مطلق . وقالوا : إن العلم نفس عين العالِم. والقدرة نفس عين القادر . والعلم والعالِم شىء واحد . والمريد والإرادة شىء واحد. فجعلوا هذه الصفة هى الأخرى . وجعلوا الصفات هى الموصوف . ومنهم من يقول : بل العلم كل المعلوم . كما يقوله الطوسىّ صاحب (شرح الإشارات) فإنه أنـكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه . وابن سينا أقرب إلى الصواب . لـكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيـام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف ، وكل صفة هى الأخرى . ولهذا كان هؤلاء هم أوغل فى الاتحاد والإلحاد ممن يقول : معانى الـكلام شىء واحد . لـكنهم

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

ألزموا قولهم لأولئك فقالوا : إذا جاز أن تكون المعانى المتعددة شيئاً واحداً ، جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هى الإرادة . فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الإلزام لا جواب عنه. ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى، جاز أن تكون الصفة هى الموصوف. فجاء ابن عربىّ وابن سبعين والقونوىّ ونحوهم ، فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى والصفة هى الموصوف ، جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق ، هو الموجود الممكن المحدَث المخلوق . فقالوا: إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق . وقالوا: الوجود واحد . ولم يفرّقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين . كما لم يفرّق أولئك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع . وكان منتهى أمر أهل الإلحاد فى الكلام ، إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد . الذى قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد فى الخالق والمخلوقات . كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه ، وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا : أولًا إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين ، بل لما نادى موسى فقال : إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى. إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، كانت الهمزة والنون وما بينهما موجوداً فى الأزل ، يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله . ثم قال فريق منهم : إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القرّاء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان : قديم ومحدث . وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلىّ . وحكى عن بعضهم أنه قال : المداد قديم أزلىّ . وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه . بل منهم من يظن أنه قديم فى علمه . ومنهم من يظن أن معناه متقدم على غيره . ومنهم من يظن أن معنى اللفظ أنه غير مخلوق . ومنهم من لا يميز بين ما يقول . فصار هؤلاء حلولية اتحادية فى الصفات . ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد فى الذات والصفات . وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل . والصواب فى هذا الباب وغيره ، مذهب سلف الأمة وأئمتها : أنه

سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء . وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لانهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى . لم يناده قبل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم . وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد الذين عطلوا الذات أوالصفات أوالكلام أوالأفعال ـ باطلة.وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات والصفات ـ باطلة . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع . وقد بسطناها فى (الواجب الكبير). والله أعلم بالصواب. (وقال تقى الدين أيضاً فى مقالة له فى هذا البحث): أول من أظهر إنكار التكليم والمُخَالَّة الجعد بن درهم فى أوائل المائة الثانية . وأمر علماء الإسلام، كالحسن البصرىّ وغيره، بقتله. فضحّى به خالد بن عبد الله القسرىّ ،أمير العراق بواسط . فقال : أيها الناس ضحوا . تقبل الله ضحاياكم. فإنى مضحٍّ بالجعد بن درهم . إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا . ولم يكلم موسى تكليما . تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيراً

ثم نزل فذبحه . وأخذ ذلك عنه الجهم بن صفوان . فأنكر أن يكون الله يتكلم . ثم نافق المسلمين فأقر بلفظ الكلام وقال : كلامه يخلق فى محل كالهواء وورق الشجر . ودخل بعض أهل الكلام أوالجدل ، من المنتسبين إلى الإسلام ، من المعتزلة ونحوهم ، فى بعض مقالة الصابئة والمشركين . متابعة للجعد والجهم . وكان مبدأ ذلك أن الصابئة فى الخلق على قولين : منهم من يقول : إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن . كما أخبرت بذلك الرسل وكتب الله تعالى. ومنهم من ابتدع فقال : بل هى قديمة أزلية. لم تزل موجودة بوجود الأول واجب الوجود بنفسه . ومنهم من قد ينكر الصانع بالكلية . ولهم مقالات كثيرة الاضطراب، فى الخلق والبعث والمبدأ والمعاد . لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبلٍ من الله تعالى

يجمعهم . والظنون لا تجمع الناس فى مثل هذه الأمور . التى تعجز الآراء عن درك حقائقها إلا بوحى من الله تعالى . وهم إنما يناظر بعضهم بعضا بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية . وقوى الطبائع الموجودة فى التراب والماء والهواء والحيوان والمعدن والنبات . ويريدون بهذه المقدمات السفلية أن ينالوا معرفة الله ، وعلم مافوق السموات . وأول الأمر وآخره . وهذا غلط بيّن . اعترف أساطينهم بأن هذا غير ممكن . وأنهم لا سبيل لهم إلى إدراك اليقين . وأنهم إن يتبعون إلا الظن . فلما كان حال هذه الصائبة المبتدعة الضالة ومن أضلوه من اليهود والنصارى ، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهتد بهدى الله الذى بعث به رسله ، من أهل الكلام والجدل ـ صاروا يريدون أن يأخذوا مآخذهم. كما أخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله(١) : لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا يارسول الله ! فارس والروم ؟ قال : ومَن الناس إلا فارس والروم ؟ فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصابئة . وهو الكلام فى الأجسام والأعراض. بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام . ثم حدوثها . ثم يقال: مالا يسبق الحوادث فهو حادث. واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا فى إثبات حدوث العالم . فلما رأوا أن الأعراض ، التى هى الصفات ، تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض ـ التزموا نفيها عن الله . لأن ثبوتها مستلزم حدوثه . وبطلان دليل حدوث العالم الذى اعتقدوا أن لادليل سواه. بل ربما اعتقدوا أنه لايصح إيمان أحد إلا به ـ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٤ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لتتبعن سَنَن من كان قبلكم ، حديث ٢٥٨٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع » فقيل : يا رسول الله ! كفارس والروم ؟ قال « ومن الناس إلا أولئك » ؟

معلوم بالاضطرار من دين الإسلام . وهؤلاء يخالفون الصابئة الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم وبأن النبوة كمال يفيض على نفس النبي . لأن هؤلاء المتكلمين أكثر حقاً وأتبع للأدلة العقلية والسمعية، لِمَا تنورت به قلوبهم من نور الإسلام والقرآن . وإن كانوا قد ضلوا فى كثير مما جاء به الرسل . لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها . فوافقوا أولئك على أن الله لم يتكلم. كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات . ورأوا أن إثباته متكلما يقتضى أن يكون جسما . والجسم حادث . لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف. بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره . لأنه يفتقر من المخارج إلى ما لا يفتقر إليه غيره . ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ما ليس فى غيره . ولما رأوا أن الرسل اتفقت على أنه متكلم ، والقرآن مملوء من إثبات ذلك ـ صاروا تارة يقولون: متكلم مجازاً لا حقيقة. وهذا قولهم الأول لما كانوا فى بدعتهم على الفطرة . قبل أن يدخلوا فى المعاندة والجحود. ثم إنهم رأوا هذا شنيعاً فقالوا : بل هو متكلم حقيقة . وربما حكى بعض متكلميهم الإجماع. وليس عندهم كذلك . بل حقيقة قولهم وأصله ، عند من عرفه وابتدعه : إن الله ليس بمتكلم . وقالوا : المتكلم مَنْ فعل الكلام ، ولو فى محل منفصل عنه . ففسروا المتكلم فى اللغة بمعنى لا يعرف فى لغة العرب ولا غيرهم ، لا حقيقة ولا مجازاً . وهذا قول من يقول : القرآن مخلوق . وهو أحد قولى الصابئة الذين يوافقون الرسل فى حدوث العالم . وهو وإن كفر بما جاءت به الرسل ، فليس هو فى الكفر مثل القول الأول . لأن هؤلاء لا يقولون: إن الله أراد أن يبعث رسولاً معيناً ، وأن ينزل عليه هذا الكلام الذى خلقه. وأنكروا أن يكون متكلما على الوجه الذى دلت عليه الكتب الإلهية ، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة . ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة ، وبين المؤمنين أتباع الرسل ، الخلافُ . فكفر هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم . واختلفوا فى كتاب الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. واتبع المؤمنون ما أنزل إليهم من ربهم من أن الله تكلم بالقرآن . وأنه

كلم موسى تكليما. وأنه يتكلم. ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون. بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الإيمان ، الذى علموا به مراد الرسل من أخبارهم برسالة الله وكلامه. وتبعوا هذا القرآن والحديث وإجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر أتباع الأنبياء . وعلموا أن قول هؤلاء أخبث من قول اليهود والنصارى . حتى كان ابن المبارك إمام المسلمين يقول : إنَّا لنحكى كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية . وكان قد كثر ظهور هؤلاء ، الذين هم فروع المشركين ، ومن اتبعهم ، من مبدلة الصابئين ثم مبدلة اليهود والنصارى فى أوائل المائة الثانية وأوائل الثالثة ، فى إمارة أبى العباس الملقب بالمأمون ، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين . الذين كانوا قبل النصارى ، ومن أشبههم من فارس والهند . وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم . وقد تقدم أن أهل الكلام المبتدع فى الإسلام هم من فروع الصابئين . كما يقال : المعتزلة مخانيث الفلاسفة . فظهرت هذه المقالة فى أهل العلم والكلام . وفى أهل السيف والإمارة . وصار فى أهلها من الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء، ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . الذين اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم . ولم يبدلوا ويبتدعوا . وذلك لقصورٍ وتفريطٍ من أكثرهم ، فى معرفة حقيقة ما جاء به الرسول وأتباعه .

فصل

فجاء قوم من متكلمى الصفاتية الذين نصروا أن الله له علم وقدرة وبصر وحياة، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية . وفرّقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها أعراضاً ، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها أعراضاً . لأن العرض ما لا يدوم وما لا يبقى . أو ما يقوم بمتحيز أو جسم . وصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام . وهؤلاء أهل الكلام القياسىّ من الصفاتية ، فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة فى كثير من أمورهم . وأثبتوا الصفات التى قد يستدل بالقياس العقلىّ عليها . كالصفات

السبع . وهى الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والـكلام. ولهم نزاع فى السمع والبصر والـكلام . هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية السمعية ؟ ولهم اختلاف فى البقاء والقدم . وفى الإدراك الذى هو إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات. ولهم أيضاً اختلاف فى الصفات السمعية القرآنية الخبرية . كالوجه واليد . فأكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها . وكثير من متأخريهم لا يثبتها . وأما ما لا يرد إلا فى الحديث فأكثرهم لا يثبتها . ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ماعارضها من القياس العقلىّ عنده. ومنهم من يفوّض معناها. وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات. وإنما المقصود القول فى رسالة الله وكلامه الذى بلغته رسله . فكان هؤلاء، بينهم وبين أهل الوراثة النبوية، قدر مشترك بما ملكوه من الطرق الصائبة فى أمر الخالق وأسمائه وصفاته. فصار فى مذهبهم فى الرسالة تركيب من الوراثتين . لبسَواحق ورثة الأنبياء بباطل ورثة أتباع الصابئة . كما كان فى مذهب أهل الـكلام المحض المبتدع كالمعتزلة ، تركيب. وليس بين الأثارة النبوية وبين الأثارة الصابئة . لـكن أولئك أشد اتباعاً للأثارة النبوية ، وأقرب إلى مذاهب أهل السنة ، من المعتزلة ونحوهم ، من وجوه كثيرة . ولهـذا وافقهم فى بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه والحديث والتصوف، لوجوه : أحدها ـ كثرة الحق الذى يقولونه وظهور الأثارة النبوية عندهم . الثانى ـ لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة وبعضها ممـا ابتدع فى الإسلام . واستيلاء ما فى ذلك من الشبهات عليهم . وظنهم أنه لم يكن التمسك بالأثارة النبوية من أهل العقل والعلم إلا على هذا الوجه . الثالث ـ ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات والموضحة لسبيل الهدى عندهم. الرابع ـ العجز والتفريط الواقع فى المنتسبين إلى السنة والحـديث . تارة يرون ما يعلمون صحته. وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الـكتاب إلا أمانىّ ، ويُعرِضون عن بيان دلالة الـكتاب والسنة على حقائق الأمور. فلما كان هذا منهاجهم ، وقالوا: إن القرآن غير مخلوق ، لما دل على ذلك من النصوص وإجماع

السلف . ولمّا رأوا أنه مستقيم على الأصل الذى قرروه فى الصفات ، ورأوا أن التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقلىّ ، لا يستقيم إلا أن يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى كسائر الصفات. كما جعله الأوّلون من باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديما كسائر الصفات . ورأوا أنه ليس إلا مخلوقاً أو قديماً ، فإن إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضى حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على حدوث الموصوف ، ويبطل لدلالة حدوث العالم ، ثم رأوا أنه لا يجوز أن يكون معانى كثيرة ، بل إما معنى واحداً عند طائفة ، أو معانى أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هى المعنى القائم بالنفس ، وأن الحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام، بل دالة عليه . فتسمى باسمه إما مجازا عند طائفة أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة وإما مجازاً فى كلام الله، حقيقة فى غيره عند طائفة. وخالفهم الأولون وبعض من يستنن أيضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف والأصوات، وليس وراء ذلك معنى إلا العلم ونوعه ، أو الإرادة ونوعها . فصار النزاع بين الطائفتين. وادعى هؤلاء أن الأمر والنهى والخبر صفات للكلام إضافية. ليست أنواعاً له وأقساماً . وأن كلام الله معنى واحد . إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن . وبالعبرية فهو توراة . وبالسريانية فهو إنجيل . وقال لهم أكثر الناس: هذا معلوم الفساد بالضرورة . كما قال الأولون: إنه خلق الكلام فى الهواء فصار متكلما به . وإن المتكلم مَنْ أحدث الكلام ولو فى ذاتٍ غير ذاته . وقال لهم أكثر الناس : إن هـذا معلوم الفساد بالضرورة . وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً . كما أن الإنسان المتكلم اسم للروح والجسم جميعاً . وإنه إذا أطلق على أحدهما فبقرينة . وإن معانى الكلام متنوعة ليست منحصرة فى العلم والإرادة ، كتنوّع ألفاظه . وإن كانت المعانى أقرب إلى الاتحاد والاجتماع. والألفاظ أقرب إلى التعدد والتفرّق . والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة . وإن لم يكن عندهم المعنى الذى هو كلام الله مخلوقاً . وفرّقوا بين كتاب الله وكلامه . فقالوا : كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق . وكلام الله

هو معناها غير مخلوق. وهؤلاء والأولون متفقون على خلق القرآن الذى قال الأولون: إنه مخلوق. واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف ؟ هل خلقت فى الهواء أو فى نفس جبرئيل أو أن جبرئيل هو الذى أحدثها أو محمد ؟ وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل وما جاء عنهم من الكتب والأثارة من العلم . وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً . لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين . وهو أن القرآن كله كلام الله . لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله . والقرآن هو القرآن الذى يعلم المسلمون أنه القرآن . حروفه ومعانيه . والأمر والنهى . هو اللفظ والمعنى جميعاً . ولهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة والفقهاء ، إذا تكلموا فى الأمر والنهى، ذكروا ذلك ، وخالفوا من قال : إن الأمر هو المعنى المجرد . ويعلمون أهل الأثارة النبوية أهل السنة والحديث وعامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة ؛ أن قوله تعالى: الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ[1]. ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره. وكلام الله هو ما تكلم به، لا ما خلقه فى غيره ولم يتكلم هو به.

(وسئل تقى الدين أيضاً) ماتقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين ، فيمن يقول : الكلام غير المتكلم والقول غير القائل . والقرآن والمقروء والقارىء كل واحد منها له معنى . بينوا لنا ذلك بياناً شافياً ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد . أثابكم الله بمنه .

(فأجاب رحمه الله) : الحمد لله . من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل، وأراد أنه مبائن له ومنفصل عنه، فهذا خطأ وضلال . وهو من يقول : إن القرآن مخلوق . فإنهم يزعمون أن الله لا تقوم به صفة من الصفات لا القرآن ولا غيره . ويوهمون الناس بقولهم : العلم غير العالم ، والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم . ثم يقولون : وما كان

(١) [٢ / البقرة / ١و٢] . . . هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

غير الله فهو مخلوق . وهذا تلبيس منهم . فإن لفظ (الغير) يراد به مايجوز مبائنته للآخر ومفارقته له . وعلى هذا فلا يجوز أن يقال : علم الله غيره ولا كلامه غيره . ولا يقال : إن الواحد من العشرة غيرها . وأمثال ذلك . وقد يقال بلفظ (الغير) ماليس هو الآخر . وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف . ولكن على هـذا المعنى ، لا يكون ماهو غير ذات الله الموصوفة بصفاته ـ مخلوقاً . لأن صفاته ليست هي الذات . لكن قائمة بالذات . والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله . وليس الاسم اسما لذاتٍ لا صفات لها . بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها . والصواب في مثل هـذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم . والقول صفة القائل . وكلام الله ليس مبائناً منه . بل أسمعه لجبرئيل ونزّله به على محمد صلى الله عليه وآله وسلم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فَارَقَ ذَاتَهُ وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق . منـه بدا وإليه يعود . فقولهم (منه بدا) رد على من قال (إنه مخلوق في بعض الأجسام، ومن ذلك المخلوق ابتدأ) فبينوا أنه الله هو المتكلم به . ومنه بدا، لا من بعض المخلوقات . (وإليه يعود) أي : فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف . وأما القرآن فهو كلام الله . فمن قال: إن القرآن ، الذي هو كلام الله ، غير الله ـ فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال: إن الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال : إن الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به ، فخطؤه ظاهر . وكذلك: أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه المسلمون ـ فقد أخطأ . وإن أراد بالقرآن مصدر (قرأ يقرأ قراءة وقرآنا) وقال : أردت القراءة غير المقروء ، فلفظ القراءة مجمل قد يراد بالقراءة القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر ، فمن جعل القراءة التي هي المصدر، قال : القارئ غير المقروء. كما يجعل التكلم الذي فعله غير الكلام الذي هو يقول ، وأراد بـ(الغير) أنه ليس هو إياه ـ فقد صدق. فإن الكلام الذي يتكلم به الإنسان يتضمن فعلاً كالحركة، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف

والمعانى . ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسيما منه أخرى . فالأول كما يقال : الإيمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم(١) : إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها مالم تعمل به أو تكلم . ومنه قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ(٢) . ومنه قوله تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ(٣) . وأمثال ذلك فيما يفرق فيه بين القول والعمل . وأما دخول القول فى العمل ففى مثل قوله تعالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٤) . وقد فسروه بقوله: لا إله إلا الله . ولما سئل(٥) : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٥ ـ باب إذا حنث ناسياً فى الأيمان ، حديث ١٢٤٢ ، عن أبى هريرة .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٣) [١٠ / يونس / ٦١] . . . إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٤) [١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٢ ـ باب أى الرقاب أفضل ، حديث ١٢٤١ ونصه :

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت النبىّ ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » قلت: فأى الرقاب أفضل؟ قال « أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » قلت: فإن لم أفعل ؟ قال « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » قال : فإن لم أفعل ؟ قال « تدع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدّق بها على نفسك ».

مع قوله(١) : الإيمان بضع وسبعون . والحياء شعبة من الإيمان . أفضلها وأعلاها قول : لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ونظائر ذلك متعددة . وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً ، إذا قال قولاً كالقراءة ، هل يحنث ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره . بناء على هذا . فهذه الألفاظ التى فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها ، وإلا وقع فيها نزاع واضطراب ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام تقىّ الدين رحمه الله تعالى .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى كتاب (الرد على الجهمية) : سألت أبى عن قوم يقولون (لما كلم الله موسى) : لم يتكلم بصوت . فقال أبى : بلى . تكلم جل ثناؤه بصوت . هذه الأحاديث نرويها كما جاءت . وقال أبى : حديث ابن مسعود(٢) : إذا تكلم الله تعالى سمع له صوت

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٤ ـ باب فى ردّ الإرجاء ، حديث ٤٦٧٦ .

(٢) لم أعثر على حديث فى هذا الموضوع وبهذا اللفظ لعبدالله بن مسعود ، وإنما وقفت على حديث لأبى هريرة .

أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٤ ـ سورة سبأ ، ١ ـ باب حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، حديث ٢٠١٥ ونصه :

عن عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبىّ الله ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان . فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا (للذى قال) الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع ، هكذا بعضه فوق بعض . . .

فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان =

كمر السلسلة على الصفوان . قال : وهذه الجهمية تنكره . وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس . ثم قال : حدثنا المحاربي عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبيد الله قال : إذا تكلم الله تبارك وتعالى بالوحي، سمع صوته أهل السماء فيخرون سجداً .

وقال السفاريني في (شرح العقيدة): روى في إثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثاً . وأخرج الإمام أحمد غالبها ، واحتج به . وأخرج الحافظ ابن حجر أيضاً في (شرح البخاري) واحتج بها البخاري وغيره من أئمة الحديث . على أن الحق سبحانه يتكلم بحرف وصوت . وقد صححوا هذا الأصل واعتقدوه ، واعتمدوا على ذلك ، منزهين الله تعالى عما لا يليق بجلاله . من شبهات الحدوث وسمات النقص . كما قالوا في سائر الصفات ، معتمدين على ما صح عندهم من صاحب الشريعة المعصوم في أقواله وأفعاله ، الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقال الإمام الواسطي ابن شيخ الحرمين الشافعي في (عقيدته) : إنني كنت برهة من الدهر متحيراً في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ، ومسألة الفوقية ، ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد . وكنت متحيراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك . من تأويل الصفات وتحريفها ، أو إمرارها والوقوف فيها . أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل . فأجد النصوص في كتاب الله وسنة رسوله ناطقة مبينة لحقائق هذه الصفات . وكذلك في إثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت . ثم أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم ، منهم من تأول الاستواء بالقهر والاستيلاء . وتأول

= الساحر أو الكاهن . فربما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيها . وربما ألقاها قبل أن يدركه . فيكذب معها مائة كذبة .

فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟

فيصدَّق بتلك الكلمة التي سمع من السماء .

النزول بنزول الأمر . وتأول اليدين بالنعمتين والقدرتين . وتأول القَدَم بقدمصدق عند ربهم. وأمثال ذلك . ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله معنى قائماً بالذات ، بلا حرف ولا صوت ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم . وممن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم فى صدرى منزلة . مثل بعض فقهاء الأشعرية الشافعيين . لأنى على مذهب الشافعىّ رحمه الله تعالى ، عرفت فرائض دينى وأحكامه . فأجد مثل هؤلاء الأجلة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال . وهم شيوخى . ولى فيهم الاعتقاد التام . لعلمهم وفضلهم . ثم إننى مع ذلك أجد فى قلبى من هذه التأويلات حزازات لايطمئن قلبى إليها . وأجد الكدر والظلمة منها. وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناًبها . فكنت كالمتحير. المضطرب فى تحيره . المتململ من قلبه فى تقلبه وتغيره . وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول ، مخافة الحصر والتشبيه . ومع ذلك ، فإذا طالعت النصوص الواردة فى كتاب اللهوسنةرسوله أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعانى . وأجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرح بها مخبراً عن ربه، واصفا له بها . ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص ويؤولها كما تأولها هؤلاء الفقهاء المتكلمون . ثم قال: والذين أولوا ماأولوا، هوأنهم مافهموا فى صفات الرب إلامايليق بالمخلوقين . فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه ، وعطلوا ما وصف الحق به نفسه . ولو علموا أن هذه الصفات هى كلها ثابتة له ، كما يليق بجلاله وعظمته ، لا على ما نعقل من صفات المخلوقين ، لسلموا من التشبيه والتأويل المؤدى إلى التعطيل .

ثم قال : ومسألة الحرف والصوت تساق هذا المساق . فإن الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد بجميع حروفه . فقال تعالى : آلمص[1]. وقال : قٓ ، وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ[2] . وكذلك

(١) [٧ / الأعراف / ١] .
(٢) [٥٠ / قٓ / ١] .

جاء فى الحديث[١] : فينادى يوم القيامة بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرُب . وفى الحديث: لا أقول (الٓم) حرف ولـكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف . فهؤلاء ما فهموا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٢ ـ باب قول الله تعـالى : وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . ونصه :

عن جابر عن عبدالله بن أُنيس قال: سمعت النبىّ ﷺ يقول : يحشر اللهُ العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب : أنا الملك ، أنا الديّان .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : أخرجه بتمامه فى الأدب المفرد . وكذا أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانىّ ، كلهم من طريق همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل .

وها كم نص الحديث فى الأدب المفرد ، رقم ٩٧٠ (بتحقيقنا) :

عن ابن عقيل أن جابر بن عبدالله حدثه أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ . فابتعت بعيراً ، فشددت إليه رحلى شهراً حتى قدمت الشام . فإذا عبد الله بن أُنيس . فبعثت إليه أن جابراً بالباب . فرجع الرسول فقال: جابر بن عبدالله ؟ فقلت : نعم. فخرج فاعتنقنى . قلت: حديث بلغنى لم أسمعه. خشيتُ أن أموت أو تموت. قال: سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد ـ أو الناس ـ عراة غُرْلًا بُهْمًا » قلنا : ما بهما ؟ قال « ليس معهم شيء . فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد (أحسبه قال : كما يسمعه مَن قرب) : أنا الملك . لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة . ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة » .

قلت : وكيف ؟ وإنما نأتى الله عراة بُهْمًا ؟ قال « بالحسنات والسيئات » .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

من كلام الله إلا ما فهموه من كلام المخلوقين . فقالوا : إذا قلنا بالحرف فإن ذلك يؤدى إلى القول بالجوارح واللهوات . وكذلك إذا قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الحلق والحنجرة . فعملوا بهذا من التخبيط كما عملوا فيما تقدم من الصفات . والتحقيق هو أن الله تعالى تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فإنه قادر ـ والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات . وكذلك له صوت يليق به يُسمع . ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والحنجرة . فكلام الله كما يليق به، وصوته كما يليق به . ولا ننفى الحرف والصوت عن كلامه سبحانه ، لافتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات . فإنهما فى جناب الحق لا يفتقران إلى ذلك . وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف بقوله: هذا عبارة عن ذلك . فإن قيل : هذا الذى يقرؤه القارىء هو عين قراءة الله وعين تكلمه هو؟ قلنا : لا . بل القارئ يؤدى كلام الله . والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً ، لا إلى من قاله مؤدّياً مبلغاً . ولفظ القارئ فى غير القرآن مخلوق ، وفى القرآن لا يتميز اللفظ المؤدِّى عن الكلام المؤدَّى عنه . ولهذا منع السلف من قول (لفظى بالقرآن مخلوق) لأنه لا يتميز. كما منعوا عن قول (لفظى بالقرآن غير مخلوق) فإن لفظ العبد فى غير التلاوة مخلوق وفى التلاوة مسكوت عنه . كيلا يؤدى الكلام فى ذلك إلى القول بخلق القرآن . وما أمر السلف بالسكوت عنه ، يجب السكوت عنه . والله الموفق والمعين .

تنبيه :

قال فى (العناية) : القراءة المشهورة فى الآية رفع الجلالة الشريفة . وقرئ بنصبها فى الشواذ . انتهى .

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ أبو بكر بن مردويه أن رجلًا جاء إلى أبى بكر ابن عياش فقال : سمعت رجلًا يقرأ : وكلم اللهَ موسى تكليما . فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثّاب ، وقرأ يحيى بن وثّاب على

أبي عبد الرحمن السلمىّ ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمىّ على علىّ بن أبي طالب ، وقرأ علىّ بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً .

وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيّاش ، رحمه الله ، على من قرأ كذلك ، لأنه حرّف لفظ القرآن ومعناه . وكأن هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن الله كلم موسى عليه السلام،أويكلم أحداً من خلقه . كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ : وكلم اللَّهَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً. فقال له:ياابن الخنا ! كيف تضع بقوله تعالى(١) : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ . يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« رُسُلًا » أي: كل هؤلاء النبيين أرسلناهم رسلًا « مُبَشِّرِينَ » بالجنة لمن آمن « وَمُنْذِرِينَ » من النار لمن كفر « لِئَلَّا » لكيلا « يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ » يوم القيامة أي: معذرة يعتذرون بها قائلين : لولا أرسلت إلينا رسولًا فيبيّن لنا شرائعك ، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك ، لقصور القوّة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح ، وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها . كما في قوله عز وجل : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ...الآية(٢). وإنما سميت حجة ،

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ... قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ.

(٢) [٢٠ / طه / ١٣٤] ... مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ .

مع استحالة أن يكون لأحد عليه، سبحانه، حجة فى فعل من أفعاله ، بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء ـ للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى ، بمقتضى كرمه ورحمته لعباده ، بمنزلة الحجة القاطعة التى لا مردّ لها . ولذلك قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا[1]. أفاده أبو السعود .

وفى الصحيحين[2] عن المغيرة: لَا أَحَدَ أحبُّ إليه العذر من الله . ومن أجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين. وقوله تعالى «بَعْدَ الرُّسُلِ» أى: بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، . . .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث ٣٥ (طبعتنا) ونصه :

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ليس أحد أحبَّ إليه المدح من الله عز وجل . من أجل ذلك مدح نفسه . وليس أحـد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش . وليس أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله . من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل » .

وأخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٦ ـ سورة الأنعام، ٧ ـ باب لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وفى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٧ ـ سورة الأعراف، ١ ـ باب إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

وفى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٧ ـ باب الغيرة .

وفى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ .

الحديث ٢٠٠٣ وكل طريق من هذه الطرق تنقص القطعة التى أوردها المؤلف وأخرجها مسلم، ضمن الحديث .

متعلق بـ (حجة) أو بمحذوف وقع صفة لها . وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل . كما قال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا[1] . وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة الله تعالى ، لا تثبت إلا بالسمع « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا » يعنى فى انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله « حَكِيمًا » فى بعث الرسل للإنذار .

تنبيه :

أشارت الآية إلى بيان حاجة البشر إلى إرسال الرسل ، وإلى وظيفتهم عليهم السلام .

قال العلامة السيد محمد عبده، مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى هذا المبحث : أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم ، الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل ـ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعِدّ لها، بمحض فضله، بعض من يصطفيه من خلقه ؟ وهو أعلم حيث يجعل رسالته . يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال مايليقون معه للاستشراق بأنوار علمه . والأمانة على مكنون سره . مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم ، لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه . فيشرفون على الغيب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين . نهاية الشاهد وبداية الغائب . فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها . ثم يتلقون من أمره أن يحدّثوا عن جلاله ، وما خفى على العقول من شؤون حضرته الرفيعة ، بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدّر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه . معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول أفهامهم . وأن يبلغوا عنه شرائع عامة . تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم ، فى ذلك

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

الـكون المغيّب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة . ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات . حتى تقوم بهم الحجة ويتم الإقناع بصدق الرسالة . فيكونون بذلك رسلًا من لدنه إلى خلقه، مبشرين ومنذرين .

لاريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حىّ بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلًا من خلقه ـ يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ـ أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل : ولِمَ لَمْ يودع فى الغرائز ما تحتاج إليه من العلم ، ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل ، وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية فى الحياة الآخرة ؟ وما هـذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث. وهو النوع الإنسانىّ . ذلك النوع ، على ما به ، وما دخـل فى تقويم جوهره من الروح المفـكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لـكل حال بطبعه، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال . فلو أُلهِمَ حاجاته كما تلهم الحيوانات، لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إمّا حيواناً آخر، كالنحل والنمل ، أو مَلَـكاً من الملائـكة . ليس من سكان هذه الأرض .

ثم قال : إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ، ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلًا ، من الإلهام الهادى إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فـكره يتصرف فيه، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته، ولم يفض عليه، مع ذلك الشعور ، عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الأفـكار فى مجاريها . وترمى به إلى حيث يدرى ولا يدرى . وفى كل ذلك الويل على جامعته،

والخطر على وجوده . أفهل مُنِيَ هـذا النوع بالنقص ، ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ نعم . هو كذلك . لولا ماأتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الإنسان عجيب فى شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت . ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم . ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع ، متى عرض له أمرٌ مَّا، لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه . ذلك لسرّ عرفه المستبصرون . واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قيد إلى هواه . ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته . أكمل الواهبُ الجوادُ لجملته ، ما اقتضته حكمته فى تخصيص نوعه ، بما يميزه عن غيره ، أن ينقص من أفراده . وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرِّف للحواس، لينظر فى طلب اللقمة، وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ـ جاد على الجملة بما هو أمسّ بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء . وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع . منّ عليه بالنائب الحقيقىّ عن المحبة ، بل الراجع بها إلى النفوس التى أقفرت منها . لم يخالف سنته فيه ، من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد . غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه ، وهى جهة الخضوع والاستكانة . فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين . وميزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم . وأيد ذلك، زيادة فى الإقناع، بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول . فيستخذى الطامح . ويذل الجامح . ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده. وينبهر لها بصر الجاهل فيرتدّ عن غيه. يَطرُقون القلوب بقوارع من أمر الله. ويدهشون المدارك ببواهر من آياته . فيحيطون العقول بما لامندوحة عن الإذعان له. ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول

والفاضل . فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري . يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم . وماأراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته. وأولئك هم الأنبياء والمرسلون . فبعثة الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، من متممات كون الإنسان . ومن أهم حاجاته في بقائه . ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمهاالله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١) .

ثم قال ، في الكلام على وظيفة الرسل عليهم السلام : تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل ، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه . ولكنها حاجة روحية ؛ وكل ما لامس الحس منها ، فالقصد فيه إل الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة وتقويم ملكاتها . أو إيداعها مافيه سعادتها في الحياتين . أمّا تفصيل طرق المعيشة ، والحذق في وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أُعِدّ للوصول إليه ، من أسرار العلم ـ فذلك مما لا دخل للرسالات فيه . إلا من وجه العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيما متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته . وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال . وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشرّ في نفسه أو عرضه أو ماله ، بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة، على ما حدد في شريعتها .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته . ويبيّنون الحدّ الذي يجب

(١) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً .

أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان . على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة . يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده . ويُنهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمـال والمعاملات ؛ ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات ، فيما اختلف من الأوقات . تذكرة لمن ينسى . وتزكية مستمرة لمن يخشى . تُقَوِّى ما ضعف منهم . وتزيد المستيقن يقيناً .

يبيّنون للناس مااختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم . فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع . ويؤيدون، بمـا يبلغون عنه ، ما تقوم به المصالح العامة . ولا تفوت به المنافع الخاصة . يَعُودون بالنـاس إلى الألفة . ويكشفون لهم سر المحبة . ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة . ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم، ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم . يعلمونهم لذلك أن يرعى كلٌّ حق الآخر ، وإن كان لا يغفل حقه . وأن لا يتجاوز فى الطلب حدّه . وأن يعين قويُّهم ضعيفَهم . ويمد غنيُّهم فقيرهم . ويهدى راشدُهم ضالَّهم . ويعلم عالمُهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة . يسهل عليهم أن يردّوا إليها أعمالهم . كاحترام الدماء البشرية إلا بحق . مع بيـان الحق الذى تهدر له . وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق . مع بيان الحق الذى يبيح تناوله . واحترام الأعراض . مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع . ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملـكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لـكل مخلوق بحقه بلا استثناء .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، إلى طلب الرغائب السامية ، آخذين فى ذلك كله بطرَف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه .

يفصّلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرّضهم لسخطه عليهم .

ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى . لمن وقف عندحدوده، وأخذبأوامره ، وتجنب الوقوع فى محظوراته . يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به ؛ مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشقّ عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الأجر . أو إرضاءً لمن بيده الأمر . وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانىّ . لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم .

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات . فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكنّ من طبقات الأرض ؛ ولا مقادير الطول فيها والعرض . ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها . ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى إبقاء أشخاصها وأنواعها ... وغير ذلك مما وضعت له العلوم . وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم . فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هَدَى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . يزيد فى سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصّرين . ولكن كانت سنة الله فى ذلك ، أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال . وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ـ فإنما يقصد منه ، النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه . وحالهم ، عليهم الصلاة والسلام ، فى مخاطبة أممهم ، لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون . وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم . ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق إلى العامة ، بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة . وكذلك ما وجه إلى الخاصة ، يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة . وهذا القسم أقل ماورد فى كلامهم.

على كل حال ، لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح ، وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان . بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان . مطالباً لهاباحترام البرهان . فارضاً عليها أن تبذل ماتستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديه من العوالم . ولكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين . انتهى .

ولما تضمن قوله تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...الآية، إثباتَ نبوته والاحتجاج على تعنتهم عليه، بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء ، كأنه قيل: إنهم لا يشهدون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (لَـٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا)

« لَـٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنْزَلَ إِلَيْكَ »من القرآن المعجزالناطق بنبوتك.قال الزمخشرى: معنى شهادةالله بما أنزل إليه ، إثباته لصحته، بإظهار المعجزات . كما تثبت الدعاوى بالبينات . إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب، بالمعجزة « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » أى: وهو عالم به ، رقيب عليه . فالظرف حال من الفاعل . والجملة كالتفسير لما قبلها « وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » أى: بذلك « وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا » على صحة نبوتك وإن لم يشهد غيره . وفيه تسلية للنبىّ صلى الله عليه سلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بما شهد الله بإنزاله، مع اطلاعهم على إعجازه « وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وهو دين الإسلام ، مَن أراد سلوكه « قَدْ ضَلُّوا » أى بما فعلوا « ضَلَالًا بَعِيدًا » لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا » أى الخلائقَ بإضلالهم « لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا » لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة . التى هى طريق الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا)

« إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ » أى: المؤدى إليها. وهو اكتسابهم الأعمال السيئة « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا » أى : هيّنًا لا يعسر عليه ولا يستعظمه . ولما قرر أمر النبوة ، وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها ، ووعيد من أنكرها ، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعيد على الرد ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : بالهدى ودين الحق والبيان الشافى الذى يجب قبوله « فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ » أى : إيماناً خيراً لكم . أو ائتوا أمرًا خيرًا لكم من تقليد المعاندين « وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : فهو قادر على تعذيبكم لعظم ملكوته . أو فهو غنىّ عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم . كما قال تعالى : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ(١) « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » فى صنعه . ولما أجاب تعالى عن شبهات اليهود وألزمهم الحجة ، جرّد الخطاب للنصارى ، زجراً لهم عما هم عليه من الكفر والضلال . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ » أى: بالإفراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام

(١) [١٤ / إبراهيم / ٨] ونصها : وَقَالَ مُوسَىٰ . . .

وادعاء ألوهيته . فإنه تجاوزٌ فوق المنزلة التي أُوتيهَا . وهي الرسالة . واستفيد حرمة الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد . وفي الصحيح [١] عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله . وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيدنا وابن سيدنا ! وخيرنا وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس! عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله. والله ! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل .

قال ابن كثير : تفرد به من هذا الوجه . « وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ » أي : لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد . بل نزهوه عن جميع ذلك « إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » صفة له مفيدة لبطلان ماوصفوه به من كونه ابناً لله تعالى «رَسُولُ اللهِ» خبر المبتدأ أعني المسيح . أي: مقصور على مقام الرسالة لا يتخطاه « وَكَلِمَتُهُ » أي : مكوّن بكلمته وأمره الذي هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة « أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ » أي : أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام « وَرُوحٌ مِنْهُ » أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة . وإنما أضافَهُ إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم . كما يقال : بيت الله ، وناقة الله . وقيل : الروح هو نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم . فحملت بإذن الله . سمي النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح . وإنما أضافه إلى نفسه لأنه وجد بأمره تعالى وإذنه .

قال أبو السعود: (من) لابتداء الغاية مجازاً ، لا تبعيضية ، كما زعمت النصارى . يحكى أن طبيباً نصرانيًّا للرشيد، ناظَرَ عليَّ بن حسين الواقديّ المروزيّ ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى . وتلا هذه الآية . فقرأ الواقديّ : وَسَخَّرَ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب واذكر في الكتاب مريم، حديث ١٢١٤

(٢) قال الأستاذ أحمد محمد شاكر في (عمدة التفسير) : إنه الحديث رقم ١٢٥٧٨ .

لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ(١) . فقال : إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزأ منه ، تعالى علوًّا كبيراً. فانقطع النصرانىّ وأسلم. وفرح الرشيد فرحاً شديداً، ووصل الواقدىّ بصلة فاخرة . وقيل : سمى روحاً ، لإحيائه الموتى بإذن الله . وقيل : لإحيائه القلوب . كما سمى به القرآن لذلك ، فى قوله تعالى(٢) : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا . وقيل : أريد بالروح الوحى الذى أوحى إلى مريم بالبشارة . وقيل : جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شىء بغاية الطهارة والنظافة ، قالوا : إنه روح . فلما كان عيسى عليه السلام متكوّنا من النفخ ، لا من النطفة ، وصف بالروح . وتقديم كونه عليه السلام رسول الله فى الذكر ، مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه ، فى الوجود ـ لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل ، وتعيين مآل ما يحتمله، وسدّ باب التأويل الزائغ. انتهى. « فَآمِنُوا بِاللهِ » وخصوه بالألوهية « وَرُسُلِهِ » أى:جميعهم وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ » أى:الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم . كما ينبئ عنه قوله تعالى(٣) : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ .

وقد ذكر السيد عبد الله الهندىّ فى مناظرته مع قسيس الهند حكاية عن مناظره؛ أنه

---

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٣] . . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . . . مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] ونصها : وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

حكى أن فرقة من النصارى تسمى (كولى رى دينس) كانت تقول: الآلهة ثلاثة: الأب والابن ومريم. قال : ولعل هذا الأمر كان مكتوباً فى نسخهم، لأن القرآن كذبهم . انتهى .

أو التقـدير: ولا تقولوا: الله ثلاثة. أى ثلاثة أقانيم . وفى تعاليمهم المدرسية المطبوعة الآن مانصه : أخص أسرار المسيحية سر الثالوث. وهو إله واحـد فى ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس. والأب هو الله والإبن هو الله وروح القدس هو الله. وليسوا ثلاثة آلهة. بل إله واحد موجود فى ثلاثة أقانيم متساوين فى الجوهر ومتميزين فيما بينهم بالأقنومية. وذلك لأن لهم جوهرا واحدا ولاهوتا واحدا وذاتا واحدة. وليس أحد هذه الأقانيم الثلاثة أعظم أوأقدم أوأقدر من الآخرين . لـكون الثلاثة متساوية فى العظمة والأزلية والقدرة وفى كل شيء. ماعدا الأقنومية. ولا نقدر أن نفهم جيداً هذه الحقائق لأنها أسرار فائقة العقل والإدراك البشرى. انتهى كلامهم فى تعليمهم المدرسى المطبوع فى بيروت سنة (١٨٧٦) مسيحية . فانظر إلى هذا التناقض والتمويه . يعترفون بأن الثلاثة آلهة . ثم يناقضون قولهم وينـكرون ذلك .

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه (إظهار الحق) عن صاحب (ميزان الحق) النصرانى أنه قال : نحن لا نقول : إن الله ثلاثة أشخاص أو شخص واحد . بل نقول بثلاثة أقانيم فى الوحدة . وبين الأقانيم الثلاثة وثلاثة أشخاص بُعد السماء والأرض . انتهى .

قال رحمة الله : وهذه مغالطة صرفة . لأن الموجود لا يمكن أن يوجد بدون التشخص . فإذا فرض أن الأقانيم موجودون وممتازون بالامتياز الحقيقى ، كما صرح هو بنفسه فى كتبه ، فالقول بوجود الأقانيم الثـلاثة هو بعينه القول بوجود الأشخاص الثلاثة . على أنه وقع فى الصحيفة التـاسعة والعشرين من كتاب الصلاة، الرائج فى كنيسة انـكلترة ، المطبوع سنة (١٨١٨) ماترجمته : أيها الثلاثة المقدسون والمباركون والعالون منزلةً، الذين هم واحد. يعنى ثلاثة أشخاص وإلها واحداً . فوقع فيه ثلاثة أشخاص صريحاً . وكذلك مملوءة بعبارات

مصرحة بأن عيسى ابن الله، وأنه الله، وأن مريم أم الله وزوجة الله . ويسجدون لها ولصورتها السجود المحرَّم فى كتبهم لغير الله، كما يسجدون لله . نسأله سبحانه وتعالى الحفظ . ونعوذ به من الخذلان وتسويلات الشيطان .

ولقد شفى الغليل الأستاذ الجليل الشيخ رحمة الله فى (إظهار الحق) فساق ، فى الباب الرابع منه، إبطال التثليث بالبراهين الدامغة والحجج البالغة . كما رد عليهم من المسلمين وممن أسلم منهم عدد وافر يفوت الحصر . وقد انتشر ، ولله الحمد ، فى ذلك مؤلفات نافعة . بل رد عليهم فرق كثيرة منهم. فقد جاء فى كتاب (الرأى الصواب وفصل الخطاب) للقس جبارة ما صورته : إن المسيحيين الموحدين الذين ظهروا منذ (٨٠) سنة فى أميركا ولهم الآن ثلاثمائة كنيسة والدرجة الأولى فى المعارف والمدارس والاجتماعات الأدبية ، وكذلك لهم فى انكلترا ثلاثمائة كنيسة وتآليف عديدة معتبرة ، ويعتبرون القرآن كما يعتبرون الإنجيل والتوراة كتباً إلهية ـ لا يؤمنون بتثليث الآلهة . أى إنهم لا يعتقدون بكون السيد المسيح أو الروح القدس هو إله حقيقىّ. كالله الواجب الوجود. بل يعتقدون أن الله وحده هو الإله الحق. انتهى.

وفيه أيضاً مالفظه : كل الكتب المنزلة تعلّم بالوحدانية وتنفى تثليث الآلهة. أو كون الله ثلاثة. وتعلن صريحاً بأوضح العبارة؛ أن الله واحد أحد. وأنه لا إله حقًّا سواه . انتهى .

وفى كتاب (سوسنة سليمان) ذكر فرق منهم متعددة صارت إلى إنكار ألوهية المسيح والروح القدس. وهذا الكتاب ساق من فرقهم العتيقة والحديثة واختلافهم مايقضى بالعجب. مما يؤيد ما قاله الحافظ ابن كثير، من أن لهم آراء مختلفة وأقوالاً غير مؤتلفة . ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً . انتهى.

قال شيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيمية فى (الرسالة القبرصية) : فتفرّق النصارى فى التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتيتاً لا يقرّ به عاقل ولم يجىء نقل . إلا كلمات متشابهات فى الإنجيل وما قبله من الكتب . قد بينتها كلمات محكمات فى الإنجيل وما قبله . كلها تنطق

بعبودية المسيح وعبادته لله وحده . ودعائه وتضرعه . ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسله ، كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله . فأرباب التثليث فى الوحدانية ، والاتحاد فى الرسالة ، قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ما هو بيّن بفطرة الله التى فطر الناس عليها، وبكتب الله التى أنزلها . انتهى .

وقد اجتمع لدىّ، بحمده تعالى ، حين كتابة هذه السطور عشرون مؤلَّفا فى الرد عليهم. وكلها ، ولله الحمد ، مطبوعة منتشرة . فلا حاجة للإطالة بالنقل عنها . لسهولة الوقوف عليها .

قال الماوردىّ فى (أعلام النبوّة) : فأما النصارى فقد كانوا، قبل أن تنصر قسطنطين الملك، على دين صحيح فى توحيد الله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام . ثم اختلفوا فى عيسى بعد تنصر قسطنطين. وهو أول من تنصر من ملوك الروم . أى لأن الروم كانوا صابئة . ثم قهرهم على التنصر قسطنطين لما ملكهم . فقال أوائل النسطورية : إن عيسى هو الله . وقال أوائل اليعاقبة : إنه ابن الله . وقال أوائل الملكانية : إن الآلهة ثلاثة . أحدهم عيسى . ثم عدل أواخرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر ، حين استنكرته النفوس ، ودفعته العقول ، فقالوا : إن الله تعالى جوهر واحد . هو ثلاثة أقانيم : أقنوم الأب . وأقنوم الابن . وأقنوم روح القدس . وأنها واحدة فى الجوهرية . وأن أقنوم الأب هو الذات . وأقنوم الابن هو الكلمة . وأقنوم روح القدس هو الحياة . واختلفوا فى الأقانيم . فقال بعضهم : هى خواص. وقال بعضهم : هى أشخاص . وقال بعضهم : هى صفات . وقالوا : إن الكلمة اتحدت بعيسى . واختلفوا فى الاتحاد .

ثم قال : وليس لهذه المذاهب شبهة تقبلها العقول . وفسادُها ظاهر فى المعقول . وقوله تعالى « انْتَهُوا » أى : عن التثليث « خَيْرًا لَكُمْ » أى : انتهاء خيرا . أو اقصدوا خيراً من التثليث وهو التوحيد « إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أى: بالذات . لا تعدد فيه بوجهٍ ما. وبقوله « سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ » تنزيه لمقامه جل شأنه ، عما زعموه من بنوّة عيسى

حيث قالوا : إنه الله وابن الله . والذى أوقعهم فى هذه المهلكة الوخيمة ، والورطة الجسيمة، ما ورد موهماً من ألفاظ الإنجيل كالأب والابن . فلم يحملوها على ما أريد منها . وحملوها على ظاهرها. فضلُّوا وأضلُّوا . وفى (منية الأذكياء) ما نصه : وأما ما ورد فى الإنجيل الموجود الآن ، من إطلاق ابن الله على عيسى عليه السلام، فهو ـ إن لم يكن مما حرّف ـ يكون مجازاً ، بمعنى ابن المحبة . كما يقال: فلان من أبناء الدنيا . ونظير ذلك قول عيسى عليه السلام لليهود ، حين ادعوا أن لهم أباً واحداً هو الله : (لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى) . ثم قال لهم : (أنتم من أب هو إبليس . وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا .) ادعت اليهود أن الله تعالى أبوهم . أى أنهم مطيعون له إطاعة الابن للأب . فكذبهم عيسى عليه السلام وجعلهم أبناء الشيطان . أى أنهم مطيعون له . ولا يخفى أن الابن والأب هنا مجازان . وقد كثر إطلاق اسم الأب على الله تعالى . واسم الابن على العبد الصالح ، فى الكتب السالفة . فهو إما من الخبط فى الترجمة . وإما مؤوّل بما ذكرنا، فلا تغفل . لكن قد منع من هذا الإطلاق فى الملة المحمدية بالكلية ، تحرزاً من الإيهام والوقوع فى شرك الأوهام . وهذا هو الطريق الرشد . وقوله تعالى « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تعليل لتنزهه مما نسب إليه . بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه . فكيف يكون بعض ملكه جزءًا منه؟ إذ البنوّة والملك لا يجتمعان « وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا » أى : إليه يكل كل الخلق أمورهم . وهو غنىّ عنهم . فأنّى يتصور فى حقه اتخاذ الولد ، الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)

« لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ » جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من التنزيه . أى: لن يأنف من أن يكون عبداً لله. فإن عبوديته شرف يتباهى به «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » من أن يكونوا عبيداً له تعالى. واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء .

قال الزمخشرىّ : أى : ولا من هو أعلى منه قدرًا وأعظم منه خطرًا . وهم الملائكة الكروبيون. الذين حول العرش . كجبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومَن فى طبقتهم .

ثم قال : فإن قلت : من أين دل قوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) على أن المعنى: ولا من فوقه ؟ قلت : من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك . وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوّهم فى رفع المسيح عن منزلة العبودية . فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية . ولا من هو أرفع منه درجة . كأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية. فكيف بالمسيح ؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصيص المقربين . لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة . ومثاله قول القائل(١) .

وما مثله ممن يُجَاوِدُ حَاتِمٌ ... ولا البحر ذو الأمواج يَلْتَجُّ زَاخِرُهْ

لا شبهة فى أنه قصد بالبحر ذى الأمواج ، ما هو فوق حاتم فى الجود . ومن كان له

(١) لم أعثر على هذا البيت فى غير هذا الموضع فلا أعلم قائله . ممن يجاود أى : ممن يجاوده حاتم . والمجاودة مفاعلة من الجود . وزخر البحر يزخر زخراً وزُخُورا : طما وتملّأ . والتجّ البحر : تلاطمت أمواجه .

ذوق فليذق، مع هذه الآية قوله : وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ[1] ، حتى يعترف بالفرق البين . انتهى .

قال البيضاوىّ : وجوابه أن الآية : للرد على عبدة المسيح والملائكة . فلا يتجه ذلك . وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير . كقولك : أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤس . وإن أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة ، وهم الكروبيون ، الذين هم حول العرش ، أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة، على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه . انتهى .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف): وقد كثر الاختلاف فى تفضيل الأنبياء على الملائكة. فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء. وذهب القاضى أبو بكر، منّا، والحليمىّ وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة . واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدتهم فى تفضيل الملائكة . من حيث الوجه الذى استدل به الزمخشرىّ. ونحن بعون الله نشبع القول فى المسألة من حيث الآية . فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة . أحدها ـ أن سيدنا محمدًا عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام . فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح ، أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام . وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدّع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء ، أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة . وبين طائفتنا فى هذه الطرف خلاف (السؤال الثانى) أن قوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) صيغة جمع . تتناول مجموع الملائكة . فهذا يقتضى كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح.

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢٠] ونصها : وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح . وفى هـذا السؤال أيضا نظر . لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائـكة ، فقديقال يلزمه القول بأنه أفضل من الـكل . كما أن النبىّ عليه الصلاة والسلام ، لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء ، كان أفضل من كلهم . ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل ، والتفضيل على الجملة أحدٌ ممن صنف فى هذا المعنى . وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين ، وادعى أنه لا يلزم منه ، على التفصيل ، تفضيل على الجملة . ولم يثبت عنه هـذا القول . ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف . وهو : أن التفضيل المراد ، جل أماراته رفع درجة الأفضل فى الجنة . والأحاديث متوافرة بذلك . وحينئذ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم ، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه . لا سبيل إلى الأول . لأنه يلزم منـه رفع المفضول على الأفضل . فتعين الثانى وهو ارتفاع درجة الأفضـل على درجات المجموع ، ضرورة . فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم، قطعاً . الثالث أنه عطف الملائـكة على المسيح بالواو . وهى لا تقتضى ترتيبا. وأما الاستشهاد بالمثال المذكور على أن الثانى أبدا يكون أعلى رتبة ، فمعارض بأمثلة لا تقتضى ذلك. كقول القائل : ما عابنى على هذا الأمر زيد ولا عمرو . قلت : وكقولك لاتؤذ مسلماً ولاذمّيًّا. فإنهذا الترتيب وجه الـكلام. والثانى أدنى وأخفض درجة . ولوذهبت تعـكس هذا ، فقلت : لا تؤذ ذميًّا ولامسلماً، ليجعل الأعلى ثانياً، لخرجت عن حد الـكلام وقانون البلاغة . وهذا المثال بين مايورد فى نقض القانون المقرر. ولـكن الحق أولى من المراء . وليس بين المثالين تعارض . ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء. فنقول : النـكتة فى الترتيب فى المثالين الموهوم تعارضهما واحـدة . وهى توجب فى مواضع تقديم الأعلى ، وفى مواضع تأخيره . وتلك النـكتة مقتضى البلاغة التنائى عن التـكرار والسلامة عن النزول . فإذا اعتمدت ذلك فمهماأدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولًا بالنسبة

إلى أوله ، أو يكون الآخر مندرجاً فى الأول ، قد أفاده . وأنت مستغن عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، واستئنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول. مثاله الآية المذكورة . فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة ، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه . لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح ، على هذا التقدير ، عبداً لله غير مستنكف من العبودية ـ لزم من ذلك أن من دونه فى الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبدا لله، وهم الملائكة على هذا التقدير. فلم يتجدد إذاً بقوله (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) إلا ما سلف أول الكلام . وإذا قدرت المسيح مفضولا بالنسبة إلى الملائكة، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبدا له، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك. وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل. فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة . إذ لم يستلزم الأول الآخر . فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتتزايد. وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز . لأنه الغاية فى البلاغة . وبهذه النكتة يجب أن تقول : لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً . فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب فى الآية ، لأنك إذا نهيته عن إيذاء المسلم ، فقد يقال ذاك من خواصه احتراماً للإسلام . فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوبة عنه هذه الخصوصية . فإذا قلت : ولا ذمياً ـ فقد جددت فائدة لم تكن فى الأول . وترقيت من النهى عن بعض أنواع الأذى، إلى النهى عن أكثر منه . ولو رتبت هذا المثال كترتيب الآية ، فقلت : لا تؤذ ذمياً ، فهم النهىّ أن أذى المسلم أدخل فى النهى . إذ يساوى الذمىّ فى سبب الاحترام وهو الإنسانية مثلا ، ويمتاز عنه بسبب أجلّ وأعظم وهو الإسلام . فيقنعه هذا النهى عن تجديد نهى آخر عن أذى المسلم . فإن قلت : ولا مسلماً ، لم تجدد له فائدة . ولم تعلمه غير ما علمه أولا . فقد علمت أنها نكتة واحدة ، توجب أحياناً تقديم الأعلى ، وأحياناً تأخيره . ولا يميز لك ذلك إلا السياق . وما أشك أن سياق الآية يقتضى تقديم الأدنى وتأخير الأعلى . ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة

قوله تعالى : فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ [١] . استغناءً عن نهيه عن ضربهما فما فوقه . بتقدير الأدنى. ولم يَلِق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التأفيف والإنهار (كذا) . لأنه مستغنى عنه . وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) [٢] ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة ، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيدة عند المعتقد لذلك ، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل فى الآية على غير محل الخلاف . وذاك أن تفضيل الملائكة فى القوة وشدة البطش وسعة التمكن والاقتدار. قال : وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية . لأن المقصود الرد على النصارى فى اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام . مستندين إلى كونه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص [٣]. وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة . فناسب ذلك أن يقال : هذا الذى صدرت على يديه الخوارق ، لا يستنكف عن عبادة الله تعالى . بل من هو أكثر خوارق وأظهر آثاراً . كالملائكة المقربين الذين من جملتهم جبريل عليه السلام . وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه . فقلب عاليها

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] ونصها : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران/ ٤٩] ونصها : وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

سافلها. فيكون تفضيل الملائكة ، إذًا ، بهذا الاعتبار . لا خلاف أنهم أقوى وأبطش وأن خوارقهم أكثر . وإنما الخلاف فى التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات فى دار الجزاء . وليس فى الآية عليه دليل . ولما كان أكثر مالبس على النصارى فى ألوهية عيسى كونه مخلوقاً ، أى: موجوداً من غير أب ، أنبأنا الله تعالى أن هـذا الموجود من غير أب، لا يستنكف من عبادة الله . بل ولا الملائكة المخلوقون من غير أب ولا أم . فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى . ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام . فنظر الغريب بالأغرب . وشبه العجيب من قدرته بالأعجب . إذ عيسى مخلوق من أم . وآدم من غير أم ولا أب . ولذلك قال(١) : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . ومدار هذا البحث على النكتة التى نبهت عليها . فمتى استقام اشتمال المذكور أيًّامّا على فائدة ، لم يشتمل عليها الأول بأى طريق كان ، من تفضيل أو غيره ، من الفوائد ــ فقد استدّ النظر وطابق صيغة الآية والله أعلم . وعلى الجملة فالمسألة سمعية. والقطع فيها معروف بالنص الذى لا يحتمل تأويلًا . ووجوده عسر، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. انتهى. « وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ » أى : يأنف منها ويمتنع « وَيَسْتَكْبِرْ » أى : يتعظم عنها ويترفع « فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً » أى : فيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذى وعدهم ، ويفصل بينهم بحكمه العدل .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩] ونصها : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا » فلم يستكبروا عن عبوديته « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فلم يستنكفوا عن عبادته « فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ » أى ثواب أعمالهم من غير أن ينقص منها شيء « وَيَزِيدُهُمْ » أى:على أجورهم شيئاً عظيماً : « مِنْ فَضْلِهِ » بتضعيفها أضعافاً مضاعفة، مبالغة فى إعزازهم « وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا » أى : عن عبادة الله عزوجل « فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » هو عذاب النار « وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا » يواليهم ليعزهم « وَلَا نَصِيرًا » ينصرهم ويدفع عنهم العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِيناً)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ » لما بيّن تعالى بطلان ما عليه الكفرة على طبقاتهم من فنون الكفر والضلال ، عمم الخطاب ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وسماه برهاناً لما أوتيه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه . ففيه تنبيه لهم على أن الحجة قد تمت ببعثته . فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل . قال أبو السعود: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِيناً » أى: ضياءً واضحاً على الحق . يهتدى به من ظلمات الضلال . وهو القرآن .

القول فى تأيل قوله تعالى :

[١٧٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)

« فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ » أى : عصموا به أنفسهم مما يُرديها من زيغ الشيطان « فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ » وهى الجنة « وَفَضْلٍ » يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة . كالنظر إلى وجهه الكريم وغيره من مواهبه الجليلة « وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً » فيسلكهم ، بتمسكهم بالبرهان والنور المبين ، الطريق الواضح القصد . وهو الإسلام . وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة ، على الوعد بالهداية إليها ، على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين ـ للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلىّ . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧٦] (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« يَسْتَفْتُونَكَ » أى: فى ميراث الكلالة. استغنى عن ذكره لوروده فى قوله سبحانه « قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة . والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما. روى الشيخان(٢) وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : دخل علىّ النبىّ ﷺ وأنا مريض. فتوضأ فصب علىّ. أوقال: صبوا عليه. فعقلت فقلت : لا يرثنى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ٢١ ـ باب وضوء العائد للمريض، حديث ١٥١ .

إلا كلالة . فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض « إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ » أى: مات. واختصاص الهلاك بميتة السوء عُرْفٌ طارئ لا يعتد به . بدليل ما لا يحصى من الآى والأحاديث . ولطروّ هذا العرف قال الشهاب فى (شرح الشفاء) : إنه يمنع إطلاقه فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولا يعتدّ بأصل اللغة القديمة ، كما لا يخفى عمن له مساس بالقواعد الشرعية والله أعلم . كذا فى (تاج العروس) . « لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ » أى : الميت، من المال .

قال ابن كثير : تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفى فى وجود الكلالة انتفاء الولد . وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير[(١)] عنه بإسناد صحيح . ولكن الذى يرجع إليه ، قول الجمهور. وقضى الصديق رضى الله عنه ؛ أنه الذى لا ولد له ولا والد . ويدل على ذلك قوله (وَلَهُ أُخْتٌ) ولو كان معها أب لم ترث شيئاً ، لأنه يحجبها بالإجماع . فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد بالنص أيضاً، عند التأمل أيضاً . لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد . بل ليس لها ميراث بالكلية. وروى الإمام أحمد[(٢)] عن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم ؟ فأعطى الزوج النصف والأخت النصف . فكلم فى ذلك فقال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بذلك . وقد نقل ابن جرير[(٣)] وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان (فى الميت ترك بنتاً وأختاً) : أنه لا شيء للأخت لقوله (إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ) قال : فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً . فلا شيء للأخت . وخالفهما الجمهور فقالوا (فى هذه المسألة) : للبنت النصف بالفرض . وللأخت النصف الآخر بالتعصيب. بدليل غير هذه الآية . وهذه نقصت أن يفرض لها فى هذه الآية . وأما وراثتها بالتعصيب.

(١) الأثران : ٨٧٤٨و٨٧٦٧ .

(٢) المسند بالصفحة ١٨٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة ٤٤٣ من الجزء التاسع (طبعة المعارف) .

فلما رواه البخاري[(١)] من طريق سليمان عن إبراهيم الأسود قال : قضى فينا معاذ بن جبل ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، النصف للبنت والنصف للأخت . ثم قال سليمان (قضى فينا) ولم يذكر (على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وفي صحيح البخاري[(٢)] أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبوموسى الأشعري عن بنت ، وبنت ابن ، وأخت؟ فقال . للبنت النصف وللأخت النصف ، وائت ابن مسعود فسيتابعني . فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين . أقضي فيها بما قضى النبي صلى الله عليه وسلم : النصف للبنت . ولبنت الإبن السدس، تكملة للثلثين . وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ » أي : والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة، وليس لها ولد . أي: ولا والد . لأنها لو كان لها ولد لم يرث الأخ شيئاً . فإن فرض أن معه من له فرض، صرف إليه فرضه . كزوج أو أخ من أم . وصرف الباقي إلى الأخ . لما ثبت في الصحيحين[(٣)] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ألحقوا الفرائض بأهلها . فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر . وقوله تعالى « فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ » أي: فإن كان، لمن يموت كلالة، أختان، فرض لهما الثلثان . وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما . ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين . كما استفيد حكم الأخوات من البنات

(١) أخرجه البخاري في : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٦ ـ باب ميراث البنات ، حديث ٢٤٩٧ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٨ ـ باب ميراث ابنة ابن مع ابنة ، حديث ٢٤٩٨ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٨٥ ـ كتاب الفرائض ، ٥ ـ باب ميراث الولد من أبيه وأمه ، حديث ٢٤٩٦ .

ومسلم في : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث ٢و٣ (طبعتنا) .

فى قوله : (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَاتَرَكَ)[(١)]. وقوله تعالى «وَإِنْ كَانُوا» أى : من يرث بطريق الاخوة « إِخْوَةً » أى مختلطة « رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ » أى منهم « مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ » أى مثل نصيب اثنتين من أخواته الإناث « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى : كراهة أن تضلوا فى ذلك . أو على تقدير (اللام ولا) فى طرفى (أَنْ) أى لئلاتضلوا. وقيل : ليس هناك حذف ولا تقدير . وإنما هو مفعول (يبين) أى : يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتم وطباعكم . لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه . ورجحه بعضهم بأنه من حسن الختام ، والالتفات إلى أول السورة وهو[(٢)] (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) فإنه أمرهم بالتقوى . وبين لهم ما كانوا عليه فى الجاهلية . ولما تم تفصيله قال لهم : إنى بينت لكم ضلالكم فاتقونى كما أمرتكم . فإن الشر إذا عرف اجتنب . والخير إذا عرف ارتكب .

قال العلامة أبوالسعود : وأنت خبير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى على طريقة تعيين مواقع الخطأ والضلال ، من غير تصريح بما هو الحق والصواب . وليس كذلك .

---

(١) [٤ / النساء / ١١] ونصها : يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً .

(٢) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً .

« وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ » من الأشياء التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم « عَلِيمٌ » مبالغ في العلم . فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم .

تنبيهات

الأول ـ اعلم أنه تعالى لما بين في أول السورة أحكام الأموال ، ختم آخرها بذلك أيضاً ، ليكون الآخر مشاكلا للأول . وأما وسط السورة فقد اشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفة للدين .

الثاني ـ نزل في الكلالة آيتان : إحداهما في الشتاء ، وهي التي في أول هذه السورة . والأخرى في الصيف وهي هذه الآية . ولهذا تسمى هذه الآية آية الصيف .

الثالث ـ روى البخاري[1] ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : آخر سورة نزلت براءة . وآخر آية نزلت : يَسْتَفْتُونَكَ . والله سبحانه وتعالى أعلم . وهو الموفق والمعين .

وقد تم بحمده تعالى ما تيسر من (محاسن تأويل) هذه السورة الكريمة . ضحوة الجمعة، غرة صفر الخير عام(١٣٢٠). في السدة اليمنى العليا من جامع السنانية . على يد كاتبه وجامعه العبد الضعيف الذليل الجهول ، محمد جمال الدين القاسمي ، غفر المولى له وأعانه على الإتمام بمنه وكرمه

ويليه الجزء السادس. وأوله: (سورة المائدة)

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٢٧ ـ باب يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ، حديث ١٩٤١ .
ومسلم في : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث ١٠ ـ ١٣ (طبعتنا) .

جـــدول
بيان الخطأ والصواب الذى جاء بالجزء الرابع

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد السيد محمد بهجة البيطار ، حفظه الله .

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٧٥٢	١٧	ثلاثة معانٍ
٧٦١	١٢	لا يُعْـلم معناها
٧٦٥	٥	« تُرْزَقَانِهِ »
٧٦٦	٣	تعويلا
٧٧١	١٦	« وَاصْبِرْ »
٧٧٣	١١	أحدها
٧٧٤	٤	غلوًّا
٧٧٨	٥	« أَقْفَالُهَا »
٧٧٩	٧	« يُسَبِّحْنَ »
٧٨٤	٣	القرآن
—	٦	تَأْوِيلَهُ
٧٨٥	١٢	« مِنْ عِلْمٍ »
٧٨٦	١٠	يُستنكر
٧٨٧	١٢	لعله : ومنهم مَنْ عَـكَسَ
٧٩٨	١٩	« بِالْقِسْطِ »
٨٠١	١٤	تخويف
٨٠٢	١٠	« الْتَقَتَا »
٨١١	١٢	« مَا جَاءَهُمْ »
—	١٩	« مِمَّا تُشْرِكُونَ »

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٨١٣	٢٠	« رَبَّكَ »
٨١٩	١٥	باستعظام
٨٢٠	٩	وإماتة
٨٢٠	١٢	المالكية
٨٢٢	١٨	« كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمانَ »
٨٢٤	١٠	على هذا
٨٢٦	١٠	التكفير
٨٣١	١٤	سبعة مواضع
٨٣٣	١٦	« رَبِّ إِنِّى »
٨٣٤	٩	لاسيما
٨٣٦	٥	ممدودًا
٨٤٠	٨	تعالى
٨٤٠	١١	« وَالْإِبْكَارِ »
٨٤٣	٢٠	« رَحْمَةً »
٨٤٨	٣	السابعةَ عشْرةَ
٨٤٨	٣	لا تظنوا
٨٥٣	١٦	قوله تعالى
٨٥٧	١	منا ومنكم
٨٦٣	١١	فى كتابكم
٨٧٢	١١	« يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ »
٨٧٨	١٤	« لَا يَسْتَكْبِرُونَ »
٨٨٩	٩	« البرّ »
٨٩٠	١و٣	البرّ

رقم الصفحة	السطر	الصواب
٨٩٧	١١	خلاها
٨٩٨	١٤	أحدها
٩١٥	٦	كبرت
٩١٦	٢٠	(٢)
٩٢١	٥	يخصّ
٩٢١	٦	ثابتا
٩٢١	١٢	« وَأُولَـٰئِكَ »
٩٢٨	٥	(٢)
٩٢٩	١٥	ثلاث
٩٣١	٩	«أَخَذْنَا »
٩٣٢	١١	« إِلَىٰ رَبِّهَا »
٩٣٣	آخر سطر	عبس
٩٤١	١٧	« عَلَى الصَّلَوَاتِ »
٩٤٣	١٢	وإيثار
٩٥٤	١٤	يمكث
٩٦٥	٢٠	« تَـكُونُ »
٩٦٦	١٠	(١)
٩٨٠	١٥	الأمرين
٩٨٠	١٩	« فى ابْتِغَاءِ »
٩٨١	١٣	« أَنْ تَدْخُلُو »
٩٨١	١٦	[٣/آل عمران/ ١٤٢] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْـكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

الصواب	السطر	رقم الصفحة
نَعَى عليهم	١٦	٩٨٩
أو بقوله	٥	٩٩٩
التشبيه	١٩	١٠٠٧
على ظهر	٩	١٠١٧
معاصيها	١٤	١٠١٧
لا سيما	٨	١٠٢٠
« وَمَا كَانَ »	١١	١٠٢٤
« وَيُزَكِّيهِمْ »	٩	١٠٢٨
ضعفيها	٩	١٠٢٩
بعينه	١٢	١٠٢٩
« مَا أَصَابَكَ »	١٣	١٠٢٩
وافيتموه	٣	١٠٣٩
« وَإِذْ »	١٠	١٠٦٣
« مُهِينٌ »	٢	١٠٧٦
مستأنفة	١٣	١٠٧٦
« اصْبِرُوا »	٢	١٠٨٢

وجزى الله مولانا الأستاذ خير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين النافعين . آمين .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ

[٣٨/ص/٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ

١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء السادس

وفيه تفسير سورتي المائدة والأنعام

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقمه وخرّج آياته وأحاديثه، وعلّق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

« الطبعة الأولى »

[١٣٧٧هـ — ١٩٥٨م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، أن لا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

«هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

٥ — سورة المائدة

سميت بها لأن قصتها أعجب ما ذكر فيها . لاشتمالها على آياتٍ كثيرةٍ ولطفٍ عظيم على من آمن . وعنفٍ شديدٍ على من كفر . فهو أعظم دواعى قبول التكاليف ، المفيدة عقدة المحبة من الاتصال الإيمانىّ ، بين الله وبين عبيده . أفاده المهايمىّ .

وهذهالسورة مدنية. وآياتها مائة وعشرون .

قال الشهاب الخفاجىّ : السورة مدنية ، إلّا قوله تعالى : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . الخ. فإنها نزلت بمكة . انتهى .

أقول : فى كلامه نظران :

الأول ـ إن هذا بناء على أن المكىّ مانزل بمكة ولو بعد الهجرة . والمدنىّ مانزل بالمدينة . وهو اصطلاح لبعض السلف . ولكن الأشهر كما فى (الإتقان) : أن المكىّ ما نزل قبل الهجرة . والمدنىّ ما نزل بعدها . سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفرٍ من الأسفار .

والثانى ـ بقى عليه ، لو مشى على ذاك الاصطلاح، آيات أخر .

قال السيوطىّ فى (الإتقان) : فى (النوع الثانى معرفة الحضرىّ والسفرىّ) للسفرىّ أمثلة .

منها : أول المائدة . أخرج البيهقىّ فى (شعب الإيمان) عن أسماء بنت يزيد ؛ أنها نزلت بمنى . وأخرج فى (الدلائل) عن أم عمرو ، عن عمها ؛ أنها نزلت فى مسيرٍ له . وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب قال : نزلت سورة المائدة فى حجة الوداع، فيما بين مكة والمدينة .

ومنها : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)[١] فى الصحيح عن عمر : أنها نزلت عشية عرفة ، يوم الجمعة ، عام حجة الوداع . وله طرق كثيرة . لكن أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرىّ ؛ أنها نزلت يوم غدير خمّ . وأخرج مثله من حديث أبى هريرة . وفيه : إنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، مرجعه من حجة الوداع . وكلاهما لا يصح .

ومنها : آية التيمم فيها . فى الصحيح[٢] عن عائشة ؛ أنها نزلت بالبيداء وهم داخلون المدينة.

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث ٢٣٠ ونصه :

عن عائشة زوج النبىّ ﷺ ، قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لى . فأقام رسول الله ﷺ على التماسه . وأقام الناس معه . وليسوا على ماء . فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ والناسِ وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر ، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى ، قد نام . فقال : حبستِ رسول الله ﷺ والناسَ ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

قالت عائشة : فعاتبنى أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول . وجعل يطعُننى بيده فى خاصرتى ، فلا يمنعنى من التحرك إلّا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذى . فقام رسول الله ﷺ ، حين أصبح ، على غير ماء .

=

ومنها : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ...)(١) الآية نزلت ببطن نخل .

ومنها : (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)(٢) نزلت فى ذات الرقاع . انتهى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط هذه الروايات ، عند هذه الآيات .

قال ابن كثير : روى الإمام أحمد(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ـ ناقة رسول الله ﷺ ـ إذ نزلت عليه المائدة كلها . فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وروى الإمام أحمد(٤) أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، لم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها . تفرد به أحمد .

وروى الحاكم عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لى : يا جبير ! تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت . فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه . وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه . ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

= فأنزل الله آية التيمم فتيمموا .

فقال أُسَيد بن الحُضَيْر : ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

قالت : فبعثنا البعير الذى كنا عليه ، فأصبنا العقد تحته .

(١) [٥ / المائدة / ١١] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(٢) [٥/المائدة/٦٧] ونصها : يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ،وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٦٦٤٣ (طبعة المعارف) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » روى ابن أبى حاتم ؛ أن رجلًا أتى عبد الله ابن مسعود فقال : اعهد إلىّ ! فقال : إذا سمعت الله يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) فأرعها سمعك . فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه .

و(الوفاء) ضدالغدر، كمافى (القاموس) وقال غيره : هوملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء . يقال : وفى بالعهد وأوفى به .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : ورد فى الكتاب العزيز (وفّى) بالتضعيف فى قوله تعالى : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ(١) . وورد (أوفى) كثيرا . ومنه : أوفوا بالعقود . وأما (وَفَى) ثلاثيا، فلم يرد إلّا فى قوله تعالى : وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ(٢) . لأنه بنى أفعل التفضيل من (وفى) إذ لا يبنى إلا من ثلاثىّ .

---

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] .

(٢) [٩/ التوبة /١١١] ونصها : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

و (العقود) جمع عقد وهو العهد الموثق . شبه بعقد الحبل ونحوه ، وهى عقود الله التى عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف . قال علىّ بن طلحة : قال ابن عباس : يعنى بالعهود ما أحلّ الله وما حرم ، وما فرض ، وما حدّ فى القرآن كلّه ، ولا تغدروا ولا تنكثوا . وقال زيد بن أسلم : العقود ستة : عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين . قال الزمخشرىّ : والظاهر أنها عقود الله عليهم فى دينه، من تحليل حلاله وتحريم حرامه . وأنه كلام قديم مجملًا. ثم عقب بالتفصيل . وهو قوله : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ » البهيمة ما لا عقل له مطلقاً ، من ذوات الأرواح أو ذوات الأربع.

قال الراغب : خص فى المتعارف بما عدا السباع والطير . وإضافتها للأنعام، للبيان . كثوب الخز . وإفرادها لإرادة الجنس . أى : أحلّ لكم أكل البهيمة من الأنعام . جمع (نَعَم) محرّكة وقد تسكن عينه . وهى الإبل والبقر والشاء والمعز « إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ » يعنى : رخصت لكم الأنعام كلها . إلّا ماحرم عليكم فى هذه السورة، وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك . وذلك أنهم كانوا يحرمون السائبة والبَحيرة . فأخبر الله تعالى أنهما حلالان ، إلّا مابيّن فى هذه السورة ، ثم قال « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ » يعنى : أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون . ف (غير) نصب على الحالية من ضمير (لكم). قال فى (العناية) : ولا يرد ما قيل: إنه يلزم تقيد إحلال بهيمة الأنعام بحال انتفاء حل الصيد وهم حرم . وهى قد أحلت لهم مطلقاً . ولا يظهر له فائدة، إلّا إذا عنى بالبهيمة الظباء وحمر الوحش وبقره. لأنه ـ مع عدم اطراد اعتبار المفهوم ـ يعلم منه غيره بالطريق الأولى . لأنها إذا أُحلت فى عدم الإحلال لغيرها ، وهم محرمون لدفع الحرج عنهم ، فكيف فى غير هذه الحال ؟ فيكون بياناً لإنعام الله عليهم بما رخص لهم من ذلك . وبياناً لأنهم فى غنيةٍ عن الصيد وانتهاك حرمة الحرم . وفى (الإكليل) : فى الآية تحريم الصيد فى الإحرام والحرم . لأن « حرماً » بمعنى محرمين ، ويقال : أحرم أى: بحجٍ وعمرةٍ . وأحرمَ : دخل فى الحرم . انتهى.

قال بعض الزيدية : والمراد بالصيد المحرّم على المحرِم، هو صيد البر . لقوله فى هذه السورة: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُماً)[١] هذا إذا جعل (حرم) جمع (محرم) وهو الفاعل للإحرام . وإن جعل للداخل فى الحرم ، استوى تحريم البحرىّ والبرّى . وذلك حيث يكون فى الحرم نهر فيه صيد فيحرم ، لقوله تعالى[٢]: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً . لأنه يقال لمن دخل الحرم ، أنه محرم . كما يقال : أعرق وأنجد: إذا دخل العراق ونجدًا. ويكون التحريم فى مكة وحرم المدينة لما ورد من الأخبار فى النهى عن صيد المدينة وأخذ شجرها . نحو : المدينة[٣] حرم من عير إلى ثور . انتهى .

« إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » من تحليل وتحريم . وهو الحكيم فى جميع ما يأمر به وينهى عنه .

---

(١) [٥ / المائدة / ٩٦] ونصها : أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٧] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، ١ ـ باب حرم المدينة ، حديث ٩٤٣ ونصه :

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « المدينة حرم من كذا إلى كذا . لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث . من أحدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ورواه أيضاً فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٦ ـ باب إثم من آوى محدثاً . ونصه :

حدثنا عاصم قال : قلت لأنس : أحرّم رسول الله ﷺ المدينة ؟ قال : نعم . مابين كذا إلى كذا . لا يقطع شجرها . من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

و (ما بين كذا إلى كذا) معناه : من عير إلى ثور .

وانظر، فى ذلك، البحث التاريخىّ الذى حررناه ورددنا فيه على ثلاثة من الأئمة الكبار المتقدمين. ومن تابعهم من إخواننا المعاصرين . انظر صحيح مسلم (طبعتنا) عند الكلام على صحيفة الإمام علىّ بن أبى طالب ، صفحة (٩٩٥) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ » أى: معالم دينه . وهى المناسك . وإحلالها أن يتهاون بحرمتها ، وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها . وقد روى ابن جرير[١] عن عكرمة

(١) ابن جرير : الأثر ١٠٩٥٨ عن السدّىّ ، والأثر : ١٠٩٥٩ عن عكرمة .

وسنسوق الأثرين بنصهما وبتحقيقهما بقلم السيد محمود محمد شاكر ، لاختلاف نصوصهما عن نص المؤلف :

الأثر ١٠٩٥٨ ـ حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن المفضل ، قال : حدثنا أسباط عن السدّىّ قال : أقبل الحطم بن هند البكرىّ ، ثم أحد بنى قيس بن ثعلبة ، حتى أتى النبىّ ﷺ وحده . وخلّف خيله خارجة من المدينة . فدعاه . فقال : إلام تدعو ؟ فأخبره = وقد كان النبىّ ﷺ قال لأصحابه « يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان ! » = فلما أخبره النبىّ ﷺ ، قال : أَنْظُرُ ، ولعلى أُسلمُ ، ولى من أشاوره .

فخرج من عنده . فقال رسول الله ﷺ « لقد دخل بوجه كافر وخرج بعَقِب غادر » .

فمرّ بسرح من سرح المدينة فساقه . فانطلق به وهو يرتجز :

قد لفَّها الليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ ... ليس براعى إبلٍ ولا غَنَمْ

ولا بجزّارٍ على ظهر الوَضَمْ ... باتوا نِياماً ، وابن هند لم يَنَمْ

بات يقاسيها غلام كالزَّلَمْ ... خَدَلَّجُ الساقين ممسوحُ القَدَمْ =

والسّدّىّ قالا: نزلت فى الحُطَم، واسمه شريح بن هند البكرىّ . أتى المدينة وَحْدَهُ . وخَلَّف خيله خارج المدينة . ودخل على النبىّ ﷺ فقال له: إلامَ تدعو الناس ؟ قال ﷺ : إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة . فقال : حسن . إلّا أن لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم . ولعلى أُسْلِمُ وآتى بهم . فخرج من عنده . وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان . فلما خرج شريح قال النبىّ ﷺ :

= (قال السيد محمود محمد شاكر : وقبل هذا الرجز :

* هذا أوان الشدِّ فاشتدِّى زِيَمْ *

و (زيم) : اسم فرس . وقوله (حطم) : شديد الحطم ، فقالوا للسائق الذى لا يُبقى شيئاً من السير والإسراع : (حطم). و (الوضم) ما يوق به اللحم عند تقطيعه، من خشب أو غيره . و (الزلم) بفتح الزاى واللام ، أو بضم الزاى ، واحد (الأزلام) وهى قداح الميسر . يعنى كالقدح فى صلابته ونحافته وملاسته . و (خدلج الساقين) : ممتلئ الساقين ، وهذا غير حسن فى الرجال . وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابىّ :

* مُهَفْهَفُ الكَشْحَيْنِ خَفَّاقُ الْقَدَمْ *

أى : ضامر الخصر . و (خفاق القدم) لأقدامه خفق متتابع على الأرض من سرعته وهو يحدو بالإبل . ورواية الطبرىّ (ممسوح القـدم) أى : ليس لباطن قدمه أخمص . فأسفل قدمه مستو أملس لين، ليس فيهما تكسر ولا شقاق. وقد جاء فى صفة رسول الله ﷺ (مسيح القدمين) اه . ولنرجع إلى باقى الأثر :

ثم أقبل من عام قابل حاجًا قد قلّد وأهدى . فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، فنزلت هذه الآية ، حتى بلغ . . . وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ .

قال له ناس من أصحابه : يارسول الله ! خلّ بيننا وبينه ، فإنه صاحبنا! قال «إنه قد قلّد» قالوا : إنما هو شىء كنا نصنعه فى الجاهلية ! فأبى عليهم . فنزلت هذه الآية . =

لقد دخل بوجه كافر، وخرج بقفا غادر . وما الرجل بمسلم . فمر بسرح من سراح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول :

قد لَفَّهَا الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ   لَيْسَ بِرَاعِي إِبلٍ وَلَا غَنَمْ
وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ الْوَضَمْ   بَاتُوا نِيَاماً وَابنُ هِنْدٍ لَمْ يَنَمْ
بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلَامٌ كَالزَّلَمْ   خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ مَمْسُوحُ الْقَدَمْ

فتبعوه فلم يدركوه . فلما كان العام القابل، خرج شريح حاجا مع حُجاج بكر بن وائل، من اليمامة . ومعه تجارة عظيمة . وقد قلّد الهدى . فقال المسلمون : يارسول الله ! هذا الحطم قد خرج حاجًّا نَخَلِّ بيننا وبينه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إنه قد قلّد الهدى . فقالوا : يارسول الله! هذا شيء كنا نفعله فى الجاهلية . فأبى النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ . قال ابن عباس : هى المناسك . كان المشركون يحجون ويهدون . فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم . فنهاهم الله عن ذلك . وعن ابن عباس أيضاً : لا تحلوا شعائر الله : هى أن تصيد وأنت محرم . ويقال : شعائر الله، شرائع دينه التى حدها لعباده . وإحلالها الإخلال بها . وظاهر أن عموم اللفظ يشمل الجميع .

= وأما الأثر رقم ١٠٩٥٩ فها كه بنصه :

حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثنى حجاج عن ابن جريج عن عكرمة قال : قدم الحُطَمُ ، أخو بنى ضبيعة بن ثعلبة البكرىّ ، المدينةَ فى عيرٍ له يحمل طعاما ، فباعه . ثم دخل على النبيّ ﷺ فبايعه وأسلم . فلما ولّى خارجاً ، نظر إليه فقال لمن عنده « لقد دخل علىّ بوجهٍ فاجرٍ ، وولى بقفا غادر » .

فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام. وخرج فى عير له تحمل الطعام فى ذى القعدة، يريد مكة. فلما سمع به أصحاب رسول الله ﷺ ، تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتطعوه فى عيره، فأنزل الله عزوجل: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ...الآية. فانتهى القوم.

«وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ» المراد به الجنس . فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم . وهى أربعة : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب . أى لا تحلوها بالقتال فيها . وقد كانت العرب تحرم القتال فيها فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام لم يَنْقُضْ هذا الحكم . بل أكده. كذا فى (لباب التأويل) .

قال ابن كثير : يعنى بقوله : وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه ، من الابتداء بالقتال . كما قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)[1] . وقال تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) الآية[2] . وفى صحيح البخارى[3] عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣٦] ونصها : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ ـ باب قوله إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، حديث ٥٩ ونصه : عن أبى بكرة عن النبى ﷺ قال: إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

قال ، فى حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهرا . منها أربعة حرم...الحديث وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت . كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس رضى الله عنه، فى قوله تعالى (وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) : يعنى لا تستحلوا القتال فيه. وكذا قال مقاتل وعبد الكريم بن مالك الجزرىّ . واختاره ابن جرير أيضاً . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ . وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم . واحتجوا بقوله تعالى : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ[1] . والمراد أشهر التسيير الأربعة . قالوا : فلم يستثن شهرا حراما من غيره . انتهى . وفى كتاب (الناسخ والمنسوخ) لابن حزم : إن الآية نسخت بآية السيف. ونقل بعض الزيدية فى(تفسيره) عن الحسن أنه ليس فى هذه السورة منسوخ . وعن أبى ميسرة : فيها ثمانى عشرة فريضة . وليس فيها منسوخ . (انتهى) .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شىء ؟ قال : لا .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى (فصل سرية الخبط) كان أميرها أبا عبيدة ابن الجراح . وكانت فى رجب ، فيما ذكره الحافظ بن سيد الناس فى (عيون الأثر) .

ثم قال، فى فقه هذه القصة : إن فيها جواز القتال فى الشهر الحرام . إن كان ذِكْرُ التاريخ فيها برجب، محفوظاً . والظاهر ، والله أعلم ، أنه وهم غير محفوظ. إذ لم يحفظ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه غزا فى الشهر الحرام ، ولا أغار فيه ، ولا بعث فيه سرية . وقد عيّر

---

(١) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

المشركون المسلمين لقتالهم فيه فى أول رجب ، فى قصة العلاء بن الحضرمى ، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام . وأنزل الله فى ذلك : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ [1] . الآية. ولم يثبت ماينسخ هذا بنص يجب المصير إليه ، ولا اجتمعت الأمة على نسخه. وقد استدل على تحريم القتال فى الأشهر الحرام بقوله تعالى : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [2] .ولاحجة فى هذا . لأن الأشهر الحرمههنا هى أشهر التسيير التى سيّر الله فيها المشركين فى الأرض يأمنون فيها . وكان أولها يوم الحج الأكبر ، عاشر ذى الحجة . وآخرها عاشر ربيع الآخر . هذا هو الصحيح فى الآية لوجوه عديدة ، ليس هذا موضعها . انتهى . وقوله تعالى « وَلَا الْهَدْيَ » أى : لا تحلوه بأن يُتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله . والهدى : ما أهدى إلى الكعبة من إبل أو بقر أوشاء. وفى (الإكليل) : هذا أصل فىمشروعية الإهداء إلى البيت . وتحريم الإغارة عليه . وذبحه قبل بلوغ محله . واستدل بالآية أيضاً على منع الأكل منه .

« وَلَا الْقَلَائِدَ » جمع قلادة . وهى ما يقلد به الهدى ، من نعل أو لحاء شجر ، ليعلم أنه هدى، فلا يتعرض له . والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى. وهى البدن . وعطفها على (الهدى) مع دخولها فيه ، لمزيد التوصية بها ، لمزيتها على ما عداها . إذ هى أشرف الهدى . كقوله : وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ [3] عطفا على الملائكة . كأنه قيل : والقلائد منه، خصوصا . أو النهى عن التعرض لنفس القلائد، مبالغة فى النهى عن التعرض

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٩٧ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٩٨ .

(٣) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

لأصحابها . على معنى : لا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها . كما نهى عن إبداء الزينة بقوله تعـالى : وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ(١) . مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها . كذا لأبى السعود .

وقال الحافظ ابن كثير : يعنى لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام . فإن فيه تعظيم شعائر الله . ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام . وليعلم أنه هـدى إلى الـكعبة. فيجتنبها من يريدها بسوء . وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها . فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غـير أن ينقص من أجورهم شيء. ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذى الحُلَيفة . وهو وادى العقيق . فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعا . ثم اغتسل وتطيّب وصلى ركعتين . ثم أشعر هديه وقـلّده . وأهلّ للحج والعمرة، وكان هديه إبلا كثيرة تُنيف على الستين ، من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعـالى(٢) : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

(١) [٢٤ / النـــور / ٣١] ونصها : وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٣٢] .

قال بعض السلف : إعظامها استحسانها واستسمانها . قال علىّ بن أبى طالب(١) : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن . رواه أهل السنن . وقال مقاتل : ولا القلائد ، فلا تستحلوه . وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم فى غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر . وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره، فيأمنون به . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عطاء : كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون . فنهى الله عن قطع شجره . وكذا قال مطرف بن عبدالله. وأمانهم بذلك منسوخ . كما روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : نُسخ من هذه السورة آيتان : آية القلائد وقوله(٢) : فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . وبسنده إلى ابن عوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شىء؟ قال: لا. « وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ » أى : لا تحلوا قوما قاصدين زيارة المسجد الحرام بأن تصدوهم أو تقاتلوهم أو تؤذوهم، لأنه من دخله كان آمناً . وقوله تعالى : « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا » حال من المستكن فى (ءَامِّينَ) أى : قاصدين زيارته حال كونهم

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٦ ـ باب ما يكره من الضحايا ، حديث ٢٨٠٤ ونصه :

عن علىّ قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذنين ، ولا نضحّى بعوراء ، ولا مقابَلَة ، ولا مدابَرَة ، ولا خرقاء ، ولا شرقاء .

والترمذىّ فى : ١٧ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٦ ـ باب ما يكره من الأضاحىّ .

والنسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٩ ـ باب المدابرة وهى ماقطع من مؤخر أذنها .

وابن ماجة فى : ٢٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٨ ـ باب مايكره أن يضحى به، حديث ٣١٤٢.

(٢) [٥ / المائدة / ٤٢] ونصها : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

طالبين التجارة ورضوان الله بحجهم . ونقل ابن كثير عن ثمانية من سلف المفسرين أنه عنى بالفضل طلب الرزق بالتجارة . قال : كما تقدم فى قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ (١) . وقد ذكر عكرمة والسدّى وابن جرير أن الآية نزلت فى الحُطَم ابن هند البكرى . وتقدمت قصته . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: كان المؤمنون والمشركون يحجون ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا من مؤمن أو كافر . ثم أنزل الله بعدها : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا (٢)... الآية . وقال تعالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ (٣) . وقال : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٤) . فنفى المشركين من المسجد الحرام. وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن قتادة فى قوله (وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ) قال : منسوخ . كان الرجل فى الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج، تقلد من الشجر ، فلم يعرض

(١) [٢ / البقرة / ١٩٨] ونصها : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ .

(٢) [٩ / التوبة / ٢٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٩ / التوبة / ١٧] ونصها : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٤) [٩ / التوبة / ١٨] ونصها : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ .

له أحد . فإذا رجع تقلد قلادة من شعر ، فلم يعرض له أحد . وكان المشرك يومئذ لا يُصدّ عن البيت . فأمروا أن لا يقاتلوا فى الشهر الحرام ولا عند البيت . فنسخها قوله(١) : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله (وَلَا الْقَلَائِدَ) يعنى أن من تقلد قلادة من الحرم، فأمنوه . قال : ولم تزل العرب تعيّر من أخفر ذلك. قال الشاعر(٢) :

أَلَمْ تقتلا الْحِرْجَيْنِ إِذْ أَعْوَرَا كُمَا يُمِرَّانِ بِالْأَيْدِى اللِّحَاءَ الْمُضَفَّرَا

أفاده ابن كثير . وهـــذه الروايات توضح أنه عنى بـ(الآمّين) : المشركين خاصة . إذ هم

---

(١) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٢) استشهد به الطبرىّ بالصفحة ٤٧٠ من الجزء التاسع .

قال السيد محمود محمد شاكر : ذكر الطبرىّ أن الشعر فى رجلين قتلا رجلين ، وروَى : ألم تقتلا. والذى فى المراجع: ألم تقتلوا . وهو الذى يدل عليه سياق الشعر. فإن أوله قبل البيت:

ألا أبلغا جُلَّ السوارِى وجابرا وأبلغ بنى ذى السهم عنِّى ويَعْمَرَا

وقولا لهم عنى مقالةَ شاعر أَلَمَّ بقولٍ ، لم يحاول ليَفْخَرَا

لعلكمُ لما قتلتم ذكرتمُ ولن تتركوا أن تقتلوا ، من تعمَّرا

فالشعر كله بضمير الجمع . وسببه أن جندباً ، أخو البرق بن عياض اللحيانىّ ، قتل قيساً وسالماً ابنى عامر بن عريب الكنانيين ، وقتل سالم جندباً ، اختلفا ضربتين .

وقال :

رواية أبى جعفر (الطبرىّ) كما شرحها « أعوراكما » ورواية الديوان « أعورالكم » .

وقال الطبرىّ فى شرح البيت : الحِرجان هما الرجلان المقتولان . وكانا تقلدا لحاء الشجر ليأمنا على أنفسهما . ومعنى (أعوراكما) أمكنا كما من عورتهما .

المحتاجون إلى نهى المؤمنين عن إحلالهم وما يفيده التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم . وكذا الرضوان من تشريفهم ، والإشعار بحصول مبتغاهم . فالسرّ فيه تأكيد النهى والمبالغة فى استنكار المنهىّ عنه . قال الزمخشرىّ وأبو السعود : قد كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم . وأن الحج يقربهم إلى الله تعالى . فوصفهم الله تعالى بظنهم . وذلك الظن الفاسد ، وإن كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى ، لكن لا يُبْعدُ فى كونه مداراً لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية ، وخلاصهم عن المكاره العاجلة . لا سيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره . ونقل الرازىّ عن أبى مسلم الأصفهانىّ ؛ أن المراد بالآية، الكفار الذين كانوا فى عهد النبىّ ﷺ . فلما زال العهد بسورة براءة ، زال ذلك الخطر ، ولزم المراد بقوله تعالى : فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا(١) . انتهى .

« وَإِذَا حَلَلْتُمْ » أى خرجتم من الإحرام ، أو خرجتم من الحرم إلى الحل « فَاصْطَادُوا » أى: فلا جناح عليكم فى الاصطياد « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ » أى: لا يحملنكم على الجريمة ، شدةُ بغض قوم « أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . أى لأن صدوكم عن زيارته والطواف به للعمرة . وقرىء بكسر الهمزة من (إن) على أنها شرطية « أَنْ تَعْتَدُوا » أى : عليهم . قال أبو السعود : وإنما حذف ، تعويلا على ظهوره ، وإيماء إلى أن المقصد الأصلى من النهى ، منع صدور الاعتداء عن المخاطبين ، محافظة على تعظيم الشعائر . لا منع وقوعه على القوم ، مراعاة لجانبهم . وهو ثانى مفعولى (يَجْرِمَنَّكُمْ) أى: لا يكسبنكم شدةُ بغضكم لهم ، لصدهم إياكم عن المسجد الحرام ، اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفّى .

تنبيهات

الأول ـ قال ابن كثير : أى : لا يحملنكم بغض قوم ، قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وذلك عام الحديبية ، على أن تعتدوا حكم الله فيهم ، فتقتصوا منهم ظلما

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص١٨٠٢.

وعدوانا ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد . وهـذه الآية كما سيأتى من قوله : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ[(١)] أى : لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل . فإن العدل واجب على كل أحد ، فى كل أحد، فى كل حال . وقال بعض السلف : ماعاملت من عصى الله فيك ، بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل ، به قامت السموات والأرض . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا سهل بن عفان، حدثنا عبد الله بن جعفر عن زيد بن أسلم ، قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه ، حين صدهم المشركون عن البيت . وقـد اشتد ذلك عليهم . فمر بهم ناس من المشركين من أهل المشرق ، يريدون العمرة . فقال أصحاب النبى ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم . فأنزل إليه هذه الآية .

الثانى ـ قوله : « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ » نهى عن إحلال قوم من الآمين ، خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن إحلال الكل كافة ، لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لإحلالهم ، داعية إليه .

الثالث ـ لعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى : وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، مع ظهور تعلقه بما قبله ، للإيذان بأن حرمة الاعتداء لاتنتهى بالخروج عن الإحرام ، كانتهاء حرمة الاصطياد به . بل هى باقية مالم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية . وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض بسائر الآمّين ، بالطريق الأولى . أفاده أبوا السعود .

الرابع ـ دلت الآية على أن المضارّة ممنوعة. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام[(٢)] : لا ضرر

(١) [٥ / المائدة / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٧ ـ باب من بنى فى حقه مايضر بجاره ، حديث ٢٣٤٠ و ٢٣٤١ (طبعتنا) .

ولاضرار فى الإسلام. وقوله‌عليه الصلاة والسلام[١] : أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك . ذكره بعض الزيدية. وفى (الإكليل): فى‌الآية النهى عن الاعتداء ، وأنه لا يؤخذ أحد بذنب أحد .

الخامس ـ (جرم) جارٍ مجرى (كسب) فى‌المعنى وفى التعدى إلى مفعول واحد ، وإلى اثنين . يقال : جرم ذنبا ، نحو كسبه . وجرمته ذنبا ، نحو كسبته إياه . خلا أن (جرم) يستعمل غالبا فى كَسْب مالا خير فيه . وهو السبب فى إيثاره ههنا على الثانى . وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة إلى معنى الثانى . فيقال : أجرمته ذنبا وأكسبته إياه . وعليه قراءة من قرأ (يُجْرِمَنَّكُمْ) بضم الياء. أفاده أبو السعود .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون ، أمروا ، إثر مانهوا عنه ، بأن يتعاونوا على كل ماهو من باب البر والتقوى ، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى . فدخل فيه مانحن بصدده من التعاون على العفو والإغضاء عما وقع منهم ، دخولا أوليا . ثم نهوا عن التعاون فى كل ماهو من مقولة الظلم والمعاصى . فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهانىّ : أفاده أبو السعود .

قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله . والعدوان : جواز ما حدّ الله فى الدين ، ومجاوزة مافرض الله فى النفس والغير . وفى معنى الآية أحاديث كثيرة . منها ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : الدال على الخير كفاعله . رواه البزار . وعن أبى مسعود البدرىّ قال : قال رسول الله ﷺ[٢] : من دل على خير فله مثل أجر فاعله. رواه مسلم . وعن

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٧٩ ـ باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده ، حديث ٣٥٣٥ عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، ٣٨ ـ باب فضل إعانة الغازى =

أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ[1] : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه . لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه . لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً. رواه مسلم . وعن سهل بن سعد[2] ؛ أن رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام، يوم خيبر : فو الله! لأن يهدى الله بك رجلا واحداً، خير لك من حمر النعم. متفق عليه . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه

= فى سبيل الله بمركوب وغيره ، وخلافته فى أهله بخير ، حديث ١٣٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي مسعود الأنصاريّ قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : إنى أُبْدِع بى (أى : هلكت دابتى وهى مركوبى) فاحملنى. فقال « ماعندى » فقال رجل : يا رسول الله! أنا أدله على من يحمله . فقال رسول الله ﷺ « من دل على خير فله مثل أجر فاعله ».

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٠٢ ـ باب دعاء النبيّ ﷺ إلى الإسلام والنبوة ، حديث ١٤٠٥ ونصه :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، سمع النبيّ ﷺ يقول يوم خيبر « لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه » .

فقاموا يرجون لذلك أيُّهم يُعْطَى . فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطَى . فقال « أين عليّ » ؟ فقيل : يشتكى عينيه . فأمر فدُعى له . فبصق فى عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شىء . فقال : نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال « على رِسْلك ، حتى تنزل بساحتهم . ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم. فوالله! لَأَنْ يُهْدَى بك رجل واحد خير لك من حمر النعَم».

(٣) أخرجه البخاريّ فى: ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٤ ـ باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً. حديث ١٢٠٣ ونصه :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالماً أومظلوماً». =

وسلم: انصر أخاك ظالماً أومظلوماً . قيل: يارسول الله! هذا نَصَرْتُه مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم . فذاك نصرك إياه . رواه الإمام أحمد والشيخان . وعن يحي بن وثاب عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال : المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، أعظم أجراً من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم . رواه الإمام أحمد(١) . وروى الطبرانيّ والضياء القدسيّ عن أوس بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال : من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإسلام . وعن النوّاس(٢) ابن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : البر حسن الخلق . والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس . رواه مسلم .

تنبيه فى فروع مهمة .

قال بعض الزيدية : من ثمرات الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأنه

= وفى الباب نفسه عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا : يا رسول الله ! هذا ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال « تأخذ فوق يديه ».

ورواه ثالثة فى : ٨٩ ـ كتاب الإكراه ، ٨ ـ باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه ، إذا خاف عليه القتل . ونصه :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقال رجل : يا رسول الله ! أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إذا كان ظالماً ، كيف أنصره ؟ قال « تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » .

أما النص الذى ساقه المؤلف فلم أعثر عليه وإن كان قريباً جدًّا من هذا النص الأخير .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٥٠٢٢ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، حديث ١٥ (طبعتنا).

لا يجوز إعانة متعدّ ولاعاص. فيدخل فى ذلك تكثير سواد الظلمة بوجهٍ ، من قولٍ أوفعلٍ أو أخذ ولايةٍ أو مساكنةٍ . وفى (الإكليل) : استدل المالكية بالآية على بطلان إجارة الإنسان نفسه ، لحمل خمر ونحوه ، وبيع العنب لعاصره خمرا، والسلاح لمن يعصى به ، وأشباه ذلك . انتهى . وهو مُتّجِهٌ .

وقال شيخ الإسلام تقىّ الدين بن تيمية فى كتابه (السياسة الشرعية) : ولا يحل للرجل أن يكون عونا على ظلم . فإن التعاون نوعان: نوع على البر والتقوى ، من الجهاد وإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وإعطاء المستحقين. فهذا ما أمر الله به ورسوله . ومن أمسك عنه خشية أن يكون من أعوان الظلمة، فقد ترك فرضاً على الأعيان أو على الكفاية ، متوهما أنه متورع . وما أكثر مايشتبه الجبن والفشل بالورع، إذ كل منهما كف وإمساك .

والثانى ـ تعاون على الإثم والعدوان . كالإعانة على دم معصوم ، أو أخذ مال معصوم ، وضرب من لايستحق الضرب، ونحو ذلك . فهذا الذى حرمه الله ورسوله . نعم ، إذا كانت الأموال قد أخذت بغير حق ، وتعذر ردها إلى أصحابها ، ككثير من الأموال السلطانية. فالإعانة على صرف هذه الأموال فى مصالح المسلمين ، كسداد الثغور ونفقة المقاتلة ، ونحو ذلك ، من الإعانة على البر والتقوى . إذ الواجب على السلطان فى هذه الأموال، إذا لم يمكن معرفة أصحابها وردها عليهم ولا على ورثتهم ـ أن يصرفها مع التوبة ، إن كان هو الظالم، إلى مصالح المسلمين . وإن كان غيره قد أخذها فعليه أن يفعل بها ذلك . وكذلك لو امتنع السلطان من ردها، كان الإعانة على إنفاقها فى مصالح أصحابها، أولى من تركها بيد من يضيعها على أصحابها وعلى المسلمين . فإن مدار الشريعة على قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ(1) .

---

(١) [٦٤ / التغابن / ١٦] ونصها : فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

المفسر لقوله :اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ(١) وعلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم. أخرجاهفي الصحيحين(٢). وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطيل المفاسد وتقليلها . فإذا تعارضت، كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما ـ هوالمشروع . والمعينُ على الإثم والعدوان من أعان ظالما على ظلمه . أما من أعان المظلوم على تخفيف الظلم عنه ، أو على أداء المظلمة ، فهو وكيل المظلوم لاوكيل الظالم. بمنزلة الذى يقرضه أو الذى يتوكل فى حمل المال له إلى الظالم . مثال ذلك : ولىّ اليتيم والوقف ، إذا طلب ظالم منه مالًا ، فاجتهد فى دفع ذلك، بدفع ما هو أقل منه إليه أو إلى غيره بعد الاجتهاد التام فى الدفع ـ فهو محسن، وما على المحسنين من سبيل . وكذلك ، وكيل المالك من المتأديين والكتّاب وغيرهم ، الذى يتوكل لهم فى العقد والقبض ودفع ما يطلب منهم ، لا يتوكل للظالمين فى الأخذ . وكذلك لو وضعت مظلمة على أهل قرية أو درب أو سوق أو مدينة ، فتوسط رجل محسن فى الدفع عنهم بغاية الإمكان ، وقسّطها بينهم على قدر طاقتهم ، من غير محاباة لنفسه ولا لغيره ، ولا ارتشاء ، بل توكل لهم فى الدفع عنهم والإعطاء ـ كان محسناً . لكن الغالب أن من يدخل فى ذلك

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، حديث ٢٥٨٥ ونصه :

عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « دعونى ما تركتكم . إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٣٠ (طبعتنا) .

يكون وكيل الظالمين محابيا مرتشياً مخفراً لمن يريد ، وآخذا ممن يريد. وهذا من أكبر الظلمة الذين يحشرون فى توابيت من نارٍ هم وأعوانهم وأشباههم، ثم يقذفون فى النار . انتهى .
« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى: اخشوه فيما أمركم ونهاكم « إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » . يعنى لمن خالف أمره . ففيه وعيد وتهديد عظيم . ثم بين تعالى المحرمات التى أشير إليها بقوله تعالى : إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » وهى مافارقه الروح بغير سبب خارجىّ . لأنها تنجست بمفارقته من غير مطهر ، من ذكر اسم الله تحقيقاً أو تقديراً ، كإسلام الذابح . كذا فى (التبصير). وقدخص من (الميتة) السمك بالسّنة : فإنه حلال . مات بتذكية أو غيرها . لما رواه مالك فى موطأه، والشافعىّ وأحمد فى مسنديهما، وأبوداود والترمذىّ والنسائىّ وابن ماجة فى سننهم، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، عن أبى هريرة[١] أن رسول الله صلى

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ١٢ (طبعتنا) .
وأبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ =

الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر ؟ فقال : هو الطهور ماؤه، الحل ميتته. وهكذا الجراد. لما سيأتي. قال الرازيّ : تحريم الميتة موافق لما في العقول . لأن الدم جوهر لطيف جدًّا . فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه ، وتعفن وفسد ، وحصل من أكله مضار عظيمة . انتهى .

أخرج ابن منده في كتاب (الصحابة) من طريق عبد الله بن جبلة بن حبان بن حجر عن أبيه عن جده حبان قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة . فأنزل تحريم الميتة فأكفأت القدر « وَالدَّمُ » أي: المسفوح منه. لقوله تعالى في الأنعام(١) : أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا . وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال؟ فقال: كلوه . فقالوا : إنه دم. فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وكذا رواه حماد ابن سلمة عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة قالت : إنما نهى عن الدم السافح .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) : أحل لنا ميتتان ودمان. فأما الميتتان فالسمك والجراد . وأما الدمان فالكبد والطحال . وكذا رواه أحمد بن حنبل

= والترمذيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٢ ـ باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور .

والنسائيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٧ ـ باب ماء البحر .

وابن ماجة في : ١ ـ كتاب الطهارة، ٣٨ـ باب الوضوء بماء البحر، حديث ٣٨٦ (طبعتنا).

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) وحديث رقم ٧٢٣٢ (طبعة المعارف) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) .

وابن ماجة في : ٢٨ ـ كتاب الصيد ، ٩ ـ باب صيد الحيتان والجراد ، حديث ٣٢١٨ (طبعتنا) .

وابن ماجة والدارقطنىّ والبيهقىّ من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهو ضعيف . قال الحافظ البيهقىّ : ورواه إسمعيل بن أبى إدريس ، عن أسامة، وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر، مرفوعا . قال الحافظ ابن كثير : وثلاثتهم كلهم ضعفاء . ولـكن بعضهم أصلح من بعض . وقد رواه سليمان ابن بلال ، أحد الأثبات ، عن زيد بن أسلم عن ابن عمر . فوقفه بعضهم عليه . قال الحافظ أبو زرعة الرازىّ : وهو أصح . نقـله ابن كثير .

أقول : أقوى مما ذكر فى الحجة، مافى الصحيحين[1] وغيرهما من حديث ابن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد . وفيهما أيضاً من حديث[2] جابر ؛ إن البحر ألقى حوتا ميتا فأكل منه الجيش . فلما قدموا قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم .فقال: كلوا رزقا أخرج الله لـكم . أطعمونا منه إن كان معكم . فأتاه بعضهم بشىء. وفى البخارىّ[3] عن عمر فى قوله تعالى[4]: أُحِلَّ لَـكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . قال : صيده ما اصطيد . وطعامه ما رمى به. وفيه عن ابن عباس قال : طعامه ميتته .

قال ابن كثير : روى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة وهو صُدَىّ بن عجلان قال : بعثنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٣ ـ باب أكل الجراد ، حديث ٢٢٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٦٥ ـ باب غزوة سيف البحر ، حديث ١٢٢٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٢ ـ باب قول الله تعالى : أُحِلَّ لَـكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ .

(٤) [٥/ المائدة/ ٩٦] .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومى أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام. فأتيتهم . فبينما نحن كذلك، إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها . فقالوا: هلم، ياصدى! فكل . قال، قلت : ويحكم. إنما أتيتكم من عند من يحرّم هذا عليكم. فأقبلوا عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...الآية. ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه . وزاد بعد هذا السياق قال : فجعلت أدعوهم إلى الإسلام ويأبون علىّ . فقلت : ويحكم ! اسقونى شربة من ماء فإنى شديد العطش. قال، وعلىّ عباءتى . فقالوا : لا . ولكن ندعك حتى تموت عطشاً . قال : فاغتممت وضربت برأسى فى العباء . ونمت على الرمضاء فى حرّ شديد . قال ، فأتانى آت فى منامى بقدح من زجاج . لم ير الناس أحسن منه . وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه . فأمكننى منه فشربته . فلما فرغت من شرابى استيقظت. فلا، والله! ما عطشت ولا عربت (عرب كفرح فسدت معدته. قاموس) بعد تيك الشربة.

ورواه الحاكم فى مستدركه عن علىّ بن حماد ، عن أحمد بن حنبل بسنده إلى أبى أمامة . وزاد بعد قوله (بعد تيك الشربة) : فسمعتهم يقولون : أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تُمْجِعُوهُ(١) بمذقة؟ فأتونى بمذقة فقلت : لاحاجة لى فيها . إن الله أطعمنى وسقانى . وأريتهم بطنى ، فأسلموا عن آخرهم . انتهى .

قال الزمخشرىّ : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التى تموت حتف أنفها . والفصيد ، وهو الدم فى المباعر، يشوونها ويقولون : لم يُحْرَمْ من فُزْدَ لَهُ(٢) .

(١) تمجعوه : المجْع أكل التمر اليابس . ومَجَعَ يَمجُع مَجْماً : أكل التمر باللبن معاً .

(٢) جاء فى هامش الكشاف ، الجزء الأول ص ٤٠٣ (طبعة بولاق عام ١٣١٨ ه) ما نصه : قوله : فى المباعر . أى : مواضع البعر وهى الأمعاء . وقوله : فُزْد ، بضم الفاء وسكون الزاى آخره دال مهملة . ويروى : فُصْد ، بسكون الصاد تخفيفاً ، أى: لم يحرم القِرى من فصدت له الراحلة ، فحظى بدمها . اه من القاموس . اه مصححه .

وتقدم الكلام[١] على ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ . . . الآية[٢] .

قال المهايميّ : حرم الدم لأنه متعلق الروح بلا واسطة . فأشبه النجس بالذات ، لا يؤثر فيه المطهر . « وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ » لأنه نجس في حياته بصفاته الذميمة . وهي ، وإن زالت بالموت ، فهو منجّس ولم يقبل التطهير . لأنه لما كان نجسا حال الحياة والموت ، أشبه النجس بالذات. فكأنه زيد تنجيسه بالموت . وإنما ذكر اللحم إشارة إلى أنه ، وإن لم يكن موصوفا في الحياة بالصفات المنجسة لروحه ، كان متنجسا بنجاسة روحه ، ثم بزوال الروح . انتهى .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ . يعني إنسيّه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم . كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطّرد . وفي صحيح مسلم عن بُرَيْدَةَ بن الحصيب الأسلميّ رضي الله عنه قال[٣] : قال رسول الله ﷺ من لعب بالنردشير ، فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه . فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به ؟ وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفي الصحيحين[٤] : أن رسول الله ﷺ قال : إن الله حرم بيع الخمر

---

(١) انظر الصفحة رقم (٣٧٩) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤١ ـ كتاب الشعر ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٤٤ ـ كتاب البيوع ، ١١٢ ـ باب بيع الميتة والأصنام ، حديث ١١٢١ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، عام الفتح ، وهو بمكة « إن الله ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » =

والميتة والخنزير والأصنام : فقيل : يا رسول الله ! أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لا. هو حرام « وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ » أى: نودى عليه بغير اسم الله، كما فى (الصحاح) وأصل الإهلال رفع الصوت. وكان العرب فى الجاهلية ، يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح . فحرم الله ذلك بهذه الآية . وبقوله(1) : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

قال ابن كثير فى الآية : أى ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام . لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم . فمن عدل بها عن ذلك ، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء فى متروك التسمية ، إما عمدا أو نسيانا . كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام، إن شاء الله تعالى .

وروى ابن أبى حاتم عن الجارود بن أبى سبرة قال : كان رجل من بنى رياح يقال له : ابن نائل . وكان شاعرا . نافر غالباً ، جدَّ الفرزدق بماء بظهر الكوفة . على أن يعقر هذا مائة من إبله ، إذا وردت الماء . فلما وردت الماء، قاما بسيفيهما فجعلا يكشفان عراقيبها. قال: فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم. وعلىّ بالكوفة . قال : فخرج علىّ. على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وهو ينادى: يا أيها الناس! لا تأكلوا من لحومها. فإنما أهل بها لغير الله. هذا أثر غريب.

= فقيل : يا رسول الله ! أرأيت شحوم الميتة ، فإنها يطلى بها السفن ، ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس . فقال « لا. هو حرام » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « قاتل الله اليهود . إن الله لما حرم شحومها، جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .

(1) [٦ / الأنعام / ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود عن ابن عباس[١] قال : نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب. ثم أسند عن عكرمة[٢] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل. أفاده ابن كثير .

وفى (القاموس وشرحه) : وعاقره : فاخره وكارمه فى عقر الإبل . ويقال : تعاقرا إذا عقرا إبلهما ، يتباريان بذلك ، ليرى أيهما أعقر لها . ومن ذلك معاقرة غالب بن صعصعة، أبي الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحيّ لما تعاقرا بصوأر . فعقر سحيم خمسا ثم بدا له . وعقر غالب مائة .

وفى حديث ابن عباس : لا تأكلوا من تعاقر الأعراب. فإنى لا آمن أن يكون مما أهل به لغير الله .

قال ابن الأثير : هو عقرهم الإبل . كان الرجلان يتباريان فى الجود والسخاء . فيعقر هذا وهذا . حتى يعجز أحدهما الآخر . وكانوا يفعلونه رياء وسمعة وتفاخرا . ولا يقصدون به وجه الله تعالى . فشبهه بما ذبح لغير الله تعالى. انتهى .

وروى الإمام مسلم عن عليّ[٣] رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله . لعن الله من لعن والديه . لعن الله من آوى محدثا . لعن الله من غير منار الأرض .

وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحيّ ، ١٤ ـ باب ما جاء فى أكل معاقرة الأعراب ، حديث ٢٨٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٧ ـ باب فى طعام المتباريين ، حديث ٣٧٥٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحيّ ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

دخل الجنة رجل فى ذباب، ودخل النار رجل فى ذباب . قالوا: وكيف ذلك ؟ يارسول الله! قال : مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً . فقالوا لأحدهما : قرب قال : ليس عندى شىء أقرب. قالوا له : قرب ولو ذبابا . فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل . فضربوا عنقه . فدخل الجنة . وفى هذه القصة ترهيب من وجوه : منها كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم . ومنها معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم . مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر . ومنها أن فى هذا شاهداللحديث الصحيح(1) : الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك. كذا فى كتاب (التوحيد).

« وَالْمُنْخَنِقَةُ » وهى التى تموت بالخنق إما قصدا وإما اتفاقا . بأن تتخبل فى وثاقها فتموت به . قال الحسن وغيره : هى التى تختنق بحبل الصائد أو غيره . وبأى وجه اختنقت فهى حرام . وقال ابن عباس: كانت الجاهلية يخنقون الشاة ، حتى إذا ماتت أكلوها . والمنخنقة من جنس الميتة . لأنها لما ماتت ، وما سال دمها ، كانت كالميت حتف أنفه . إلا أنهافارقت الميتة بكونها تموت بسبب انعصار الحلق بالخنق، بخلاف الميتة فإنها بلا سبب .

قال المهايمىّ : المنخنقة ، وإن ذكر اسم الله عليها فقد عارضه سريان خباثة الخانق إليها، مع تنجسها بالموت « وَالْمَوْقُوذَةُ » يعنى المقتولة بالخشب . وكان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصىّ . حتى إذا ماتت أكلوها . وفى (القاموس وشرحه) الوقذ شدة الضرب . وقذه يقذه وقذاً : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت . وشاة وقيذ وموقوذة قتلت بالخشب . وقال أبو سعيد : الوقذ الضرب على فأس القفا . فيصير هدتها إلى الدماغ ، فيذهب

---

(1) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٩ ـ باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك ، حديث ٢٤٣٣ ، عن عبد الله بن مسعود .

العقل. فيقال : رجل موقوذ . وفى الصحيح(١) أن عدىّ بن حاتم قال : قلت: يارسول الله! إنى أرمى بالمعراض الصيد، فأصيب . قال : إذا رميت بالمعراض نخزق فكله . وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ ، فلا تأكله « وَالْمُتَرَدِّيَةُ » هى الساقطة من جبل أو فى بئر ، فتموت . والتردى السقوط فى مهواة . وهذه الثلاثة فى معنى الميتة . فإنها ماتت ولم يسل دمها . « وَالنَّطِيحَةُ » هى التى نطحتها أخرى فماتت . فهى حرام . وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها. وإن أرسل إنسان الناطح بذكر اسم الله . لأنه لما لم يكن بطريق الصيد المشروع، لم تخل من خباثة .

فائدة :

قال التبريزىّ فى (تهذيبه) وابن قتيبة فى (أدب الكاتب) : ما كان على فعيل ، نعتا للمؤنث وهو فى تأويل مفعول ، كان بغيرهاء . نحو كف خضيب وملحفة غسيل. وربما جاءت بالهاء يُذْهَبُ بها مذهب الأسماء . نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع . . وقالوا : ملحفة جديد . لأنها فى تأويل مجدودة أى مقطوعة . وإذا لم يجز فيه مفعول فهو بالهاء. نحو مريضة وظريفة وكبيرة وصغيرة . وجاءت أشياء شاذة . فقالوا : ريح خريق ونافة سديس وكثيبة خصيف .

وقال ابن السكيت : قد تأتى فعيلة بالهاء وهى فى تأويل مفعول بها . تخرج مخرج الأسماء ولا يُذْهب بها مذهب النعوت . نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ، ومررت بقتيلة بنى فلان .

وقال الجوهرىّ : إنما جاءت النطيحة بالهاء ، لغلبة الاسم عليها . وكذلك الفريسة والأكيلة والرميّة . لأنه ليس هو على (نَطَحْتُها ، فهى منطوحة) وإنما هو الشىء فى نفسه مما يُنطح والشىء مما يفرس ويؤكل .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٤ـ كتاب البيوع، ٣ ـ باب تفسير المشبّهات، حديث ١٤١ وأخرجه أيضاً فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣ ـ باب ما أصاب المعراض بعرضه.

« وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ » أى ماعدا عليها فأكل بعضها . قال قتادة : كان أهل الجاهلية، إذا جرح السبع شيئا فقتله أو أكل منه ، أكلوا ما بقى منه . فحرمه الله تعالى .

قال المهايمىّ : هو ، وإن أشبه الصيد ، لكنه لما أكله قصد بذلك نفسه ، فسرت خباثته فيها . انتهى . و (السبع) بضم الباء وفتحها وسكونها : المفترس من الحيوان . مثل الأسد والذئب والنمر والفهد . وماأشبهها مماله ناب، ويعدو على الناس والدواب فيفترسها. وسمى بذلك لتمام قوته . وذلك أن (السبع) من الأعداد التامة ، وفى الآية محذوف تقديره : وما أكل السبع بعضَه . كما ذكرنا . لأن ما أكله فَقَدْ فُقِدَ . فلا حكم له ، إنما الحكم للباقى منه. وقوله تعالى « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ » أى ما أدركتم ذكاته من هذه المذكورات المنخنقة فما بعدها . بحيث ينسب موتها إلى الذبح دون غيره ، فإنه يتحقق فيه المطهر، ولايؤثر فيه السابق . لأن اللاحق ينسخه . بل هو واقع قبل تأثير السابق . إذ لايتم التأثير إلا بالموت. أفاده المهايمىّ .

قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى : إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح ، فكلوه فهو ذكىّ . وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن والسدّىّ . وروى ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ، فى الآية قال : إن مصعت[1] بذنبها ، أو ركضت برجلها ، أو طرفت بعينها ، فكل . وروى ابن جرير[2] عن الحرث عن علىّ أيضا قال : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة ، وهى تحرك يدا أو رجلا ، فكلها . وهكذا روى عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد ؛ أن المذكاه متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح ، فهى حلال . وهذا مذهب جمهور الفقهاء . أفاده ابن كثير .

وفى الموطأ[3] : سئل مالك عن شاة تردت فتكسّرت ، فأدركها صاحبها فذبحها ،

(١) فى (اللسان) : ومصعت الدابة بذَنَبِها مصْعاً : حرّكته من غير عَدْوٍ .

(٢) الأثر رقم ١١٠٣٦ .

(٣) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢٤ ـ كتاب الذبائح ، حديث ٧ (طبعتنا) .

فسال الدم منها ولم تتحرك ؟ فقال مالك : إذا كان ذبحها ونَفَسُها يجرى وهى تطرف، فليأكلها .

والتذكية الذبح ، كالذكا والذكاة . قال الراغب: حقيقة التذكية إخراج الحرارة الغريزية. لكن خص فى الشرع بإبطال الحياة على وجه دون وجه . أى وهو قطع الحلقوم والمرىء . بمُنْهرٍ للدم : من سكين وسيف وزجاج وحجر وقصب ، له حد يقطع كما يقطع السلاح المحدد. مالم يكن سنا أوظفرا. لحديث رافع بن خديج فى الصحيحين[1] وغيرهما قال : قلت يا رسول الله ! إنا لاقو العدوّ غدا . وليس معنا مدى . أفنذبح بالقصب ؟ فقال : ماأَنْهَرَ الدم وذُكِر اسم الله عليه ، فكلوه . ليس السن والظفر . وسأحدثكم عن ذلك : أما السن فعظم. وأما الظفر فمدى الحبشة .

وأما حديث أبى العشراء عن أبيه : قلت : يا رسول الله ! أما تكون الذكاة إلا فى الحلق واللبّة[2]؟ قال: لو طعنت فى فخذها لأجزأك، أخرجه أحمد وأهل السنن- فى إسناده مجهولون.

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٧ ـ كتاب الشركة ، ٣ ـ باب قسمة الغنم ، حديث ١٢٣٠ ونصه :

عن عَبَاية بن رفاعة بن رافع بن خديج عن جده قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بذى الحُلَيْفَة . فأصاب الناسَ جوعٌ . فأصابوا إبلا وغنما . قال وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أخريات القوم . فعجلوا وذبحوا ونصبوا القدور . فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقدور فأُكفِئَتْ . ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير . فندَّ منها بعير . فطلبوه فأعياهم . وكان فى القوم خيل يسيرة . فأهوى رجل منهم بسهم فحبسه الله . ثم قال « إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش ، فما غلبكم منها فاصنعوا به هكذا » .

فقال جدى : إنا نرجو أو نخاف العدوّ غدا ، وليست مُدًى . أفنذبح بالقصب ؟ قال « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه ، فكلوه . ليس السنَّ والظفرَ . وسأحدثكم عن ذلك. أما السنّ فعظم . وأما الظفر فمدى الحبشة » .

(٢) فى (اللسان) واللَّبَّة : موضع الذبح

وأبو العشراء لايعرف من أبوه . ولم يَرْو عنه غير حماد بن سلمة. فهو مجهول. كذا في (الروضة).

وقال الحافظ ابن حجر في (التلخيص) : أبو العشراء مختلف في اسمه وفي اسم أبيه . وقد تفرد حماد بن سلمة بالرواية عنه على الصحيح . ولا يعرف حاله .

وقال في (التقريب) : أعرابيّ مجهول .

قال الترمذيّ في جامعه ، بعد سوقه لهذا الحديث : قال أحمد بن منيع : قال يزيد بن هرون : هذا في الضرورة . وفي الباب عن رافع بن خديج . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذا الحديث صحيح . ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة . انتهى .

وتصحيحه له ، مع جهالة راويه المذكور ، فيه نظر . فإن حد الصحيح كما في (التقريب) ما اتصل إسناده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة . قال (شارحه السيوطيّ) : تخرج بقيد (العدول) ما نقله مجهول عيناً أو حالًا . أي : فليس بصحيح بل ضعيف .

وفي (النخبة) أن خبر الآحاد مقبول ومردود ، والثاني إما لسقط من إسناد أو طعن في راوٍ . والطعن إما لكذب أو تهمته بذلك. إلى أن قال: أو جهالته بأن لا يعرف فيه تعديل ولا تجريح معيّن . فتبصّر .

« وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ » قال الزمخشريّ : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت . يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها. يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها . تسمى الأنصاب.

قال ابن كثير : فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح ، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله . لما في الذبح عند النصب من الشرك الذى حرمه الله ورسوله . انتهى .

وقد ورد النهي عن الذبح لله بمكان يذبح فيه لغيره تعالى . فروى أبو داود[١] ، بإسناد

(١) أخرجه أبو داود في : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٢٢ ـ باب مايؤمر به =

على شرط الشيخين ، عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنـه قال : نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة . فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله . ولا فيما لا يملك ابن آدم .

ففيه ، أن المعصية قد تؤثر فى الأرض . وكذلك الطاعة . وفيه المنع من النذر إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله . أو عيد من أعيادهم ، ولو بعد زواله أيضاً . وأنه لايجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة لأنه نذر معصية . وفيه الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ، ولو لم يقصده . كذا فى (كتاب التوحيد) .

لطيفة :

(النُّصب) بضمتين ، وضم فسكون ، إما جمعٌ ، واحدُه نِصَاب . ككتاب وكتب . أو مفرد جمعه أنصاب كعُنُق وأعناق . وقُفْل وأقفال . وفى (القاموس وشرحه) : النُّصُبُ: كل ما نصب وجعل علَما . وكل مانُصِب فعبد من دون الله تعالى . والأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فَيُهَلُّ عليها ويذبح لغير الله تعالى . وقال القتيبيّ: النصب صنم أوحجر. وكانت الجاهلية تنصبه تذبح عنده ، فيحمرّ بالدم . ومنه حديث[1] أبى ذر فى إسلامه قال :

= من الوفاء بالنذر ، حديث ٣٣١٣ ونصه :

عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا ببُوَانَةَ . فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى نذرت أن أنحر إبلا ببُوَانَةَ . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبَدُ » ؟ قالوا : لا . قال « هل كان فيها عيد من أعيادهم » ؟ قالوا : لا . قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٣٢ (طبعتنا) وهو حديث طويل .

فخرجت مغشيًّا عليّ ثم ارتفعت كأنى نُصُبٌ أحمر . يريد أنهم ضربوه حتى أدْمَوْهُ . فصار كالنصب المحمّر بدم الذبائح . انتهى .

قال ابن جريج : كانت النصب ثلاثمائة وستين نصبا . وكانوا يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت ، بدماء تلك الذبائح . ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب .

« وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ » أى: وحرم عليكم، أيها المؤمنون، الاستقسام بالأزلام. أى: طلب القسْم والحكم بها . والأزلام جمع زَلَم (محركة) . و (كصُرَد) وهى : قداح ثلاثة كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية . مكتوب على أحدها : (افعلْ) وعلى الآخر (لاتفعل) والثالث غفل ، ليس عليه شىء . وقد زُلِّمت وسُوِّيت ووضعت فى الكعبة . يقوم بها سدنة البيت . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً ، أتى السادن وقال : أخْرِجْ لى زلما . فيجيلها ثم يُخرج زلما منها . فإذا خرج قدح الأمر ، مضى على ماعزم عليه . أو النهى قعد عما أراده. أو الفارغ أعاد .

قال الأزهرىّ (فى معنى الآية) : أى : تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين . فمعنى الاستقسام هو طلب معرفة ماقسم له من الخير والشر ، مما لم يقسم له بواسطة ضرب القداح . وذكر محمد بن إسحق وغيره ؛ أن أعظم أصنام قريش، صنم كان يقال له هُبَل. منصوب على بئر داخل الكعبة، فيها توضع الهدايا، وأموال الكعبة فيه . وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها مايتحاكمون فيه مما أشكل عليهم . فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه . وفى (اللباب) : كانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها : (أمرنى ربى) وعلى واحد : (نهانى) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد : (ملصق) وعلى واحد : (العقل) وعلى واحد غفل . أى ليس عليه شىء . وكانت العرب ، فى الجاهلية ، إذا أرادوا سفرا أو تجارة أو نكاحاً ، أو اختلفوا فى نسب أو أمر قتيل ، أو تحمل عقل ، أو غير ذلك من الأمور العظام ــ جاءوا إلى هُبَل . وكانت أعظم صنم لقريش بمكة . وجاؤا بمائة

درهم . وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم . فإن خرج (أمرنى ربى) فعلوا ذلك الأمر. وإن خرج (نهانى ربى) لم يفعلوه . وإن أجالوا على نسب ، فإن خرج (منكم) كان وسطاً فيهم . وإن خرج (من غيركم) كان حلفا فيهم . وإن خرج (ملصق) كان على حاله. وإن اختلفوا فى العقل، وهو الدين ، فمن خرج عليه قدح العقل تحمّله. وإن خرج غفل أجالوا ثانياً. حتى يخرج المكتوب عليه . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه وسماه فسقا . كما يأتى : وثبت فى الصحيحين[1] أن النبىّ ﷺ لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم وإسمعيل مصورَيْن فيها . وفى أيديهما الأزلام . فقال : قاتلهم الله . لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا . وفى الصحيح[2] أن سراقة بن مالك ابن جعشم، لما خرج فى طلب النبىّ ﷺ وأبى بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة . مهاجريْن، قال: فاستقسمت بالأزلام : هل أضرّهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره : لا تضرهم . قال فعصيت الأزلام واتبعتهم . ثم استقسم بها ثانية وثالثة . كل ذلك يخرج الذى يكره : لا تضرهم . وكان كذلك . وكان سراقة لم يُسلم إذ ذاك . ثم أسلم بعد ذلك .

وروى ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائرا « ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ » أى خروج عن الأخذ بالطريق المشروع . والإشارة إلى الاستقسام . أو إلى تناول ما حرم عليهم . لأن المعنى : حرم عليكم تناول الميتة وكذا وكذا . فإن قلت : لِمَ كان استقسام المسافر وغيره بالأزلام ، لتعرف الحال ـ فسقاً ؟ قلت : لأنه دخول فى علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوب

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، عن ابن عباس . حديث ٢٦٤ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٥ ـ باب هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، حديث ١٨٢٢ .

وقال : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ(١) . واعتقاد أن إليه طريقاً وإلى استنباطه . وقوله : أمرنى ربى ونهانى ربى ـ افتراء على الله . وما يدريه أنه أمره أو نهاه ؟ والكهنة والمنجمون بهذه المثابة . وإن كان أراد بالرب الصنم ، فقد روى أنهم كانوا يجيلونها عند أصنامهم ـ فأمره ظاهر . كذا فى الكشاف .

تنبيه :

فى (الإكليل): استدل بهذه الآية على تحريم القمار والتنجيم والرمل وكل ماشا كل ذلك. وعداه بعضهم إلى منع القرعة فى الأحكام، وهو مردود . انتهى . أى لتباين القصد فيهما . فإن القرعة فى قسمة الغنائم وإخراج النساء ونحوها ، لتطييب نفوسهم والبراءة من التهمة فى إيثار البعض . ولو اصطلحوا على ذلك جاز من غير قرعة . كما (فى العناية) .

قال الحاكم : وتدل على تحريم التمسك بالفأل والزجر والتطير والنجوم . فأما التفاؤل بالخير فمباح . قال الأصمّ : ومن هذا قول المنجم : إذا طلع نجم كذا فاخرج ، وإن لم يطلع فلا تخرج .

قال الراضى بالله : ومن عمل بالأيام فى السعد والنحس ، معتقدا أن لها تأثيرا ، كفر . وإن لم يعتقد أثم . وقد روى أبو داود(٢) والنسائىّ وابن حبان عن قطن بن قبيصة ، عن أبيه ، أنه سمع النبىّ ﷺ يقول : إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

قال عوف أحد رواته : العيافة زجر الطير والطرق الخط يخط بالأرض . وفى (القاموس) عِفْتُ الطير عيافة : زجرتها . وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها، فتتسعّد أو تتشأّم ، وهو من عادة العرب كثيرا .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٦٥] . . . وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ٢٣ ـ باب فى الخط وزجر الطير ، حديث ٣٩٠٧ .

وقال أبو زيد : : الطرق أن يخط الرجل فى الأرض بإصبعين ثم بإصبع .

وقال ابن الأثير . : الطرق الضرب بالحصى الذى تفعله النساء . وقيل : هو الخط بالرمل. والجبت : كل ما عبد من دون الله تعالى . وقد روى مسلم فى صحيحه[١] ، عن بعض أزواج النبىّ ﷺ ، عن النبىّ ﷺ قال: من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوما . وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود والحاكم عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمران بن حصين مرفوعا : ليس منا من تَطيَّر أو تُطُيِّرَ له ، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له . ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ الله . رواه البزار بإسناد جيد. ورواه الطبرانى فى (الأوسط) بإسناد حسن من حديث ابن عباس . دون قوله :وَمَنْ أَتَىٰ الخ .

قال البغوىّ : العراف الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك . وقيل : هو الكاهن . والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل . وقيل: الذى يخبر عما فى الضمير . وقال أبو العباس بن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ، ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق . وقال ابن عباس (فى قوم يكتبون أبا جاد وينظرون فى النجوم) : ما أرى من فعل ذلك ، له عند الله من خلاق . وفى الأحاديث السابقة من الترهيب ما فيها من التصريح بأنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ١٢٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) وهذا نصه : عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضاً ، أو امرأة فى دبرها، أو كاهناً فصدقه ، فقد برئ مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام» .

الإيمان بالقرآن ، والتصريح بأنه كفر . وعن ابن مسعود مرفوعا[(١)] . الطيرة شرك. الطيرة شرك. ومامنا إلا...ولـكن الله يذهبه بالتوكل . رواه أبو داود والترمذى وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد[(٢)] من حديث ابن عَمْرٍو : من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول: اللهم! لاخير إلاخيرك ، ولا طير إلاطيرك ، ولا إله غيرك .

وعن أنس قال : قال[(٣)] رسول الله ﷺ : لاعدوى ولاطيرة ويعجبنى الفأل . قالوا: وما الفأل؟ قال : الـكلمة الطيبة . رواه الشيخان .

ولأبى داود[(٤)] بسند صحيح عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عنـد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل ولا تردّ مسلما . فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم ! لا يأتى بالحسنات إلا أنت . ولا يدفع السيئات إلا أنت . ولا حول ولا قوة إلا بك.

فائدة :

قال الحافظ : ابن كثير : قد أمر الله المؤمنين، إذا ترددوا فى أمورهم، أن يستخيروه، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة فى الأمر الذى يريدونه . كما رواه الإمام أحمـد والبخارى[(٥)]

---

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ٢٤ ـ باب فى الطيرة ، حديث ٣٩١٠.

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٢٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) حديث ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٤ ـ باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ . ومسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ١١٢ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ٢٤ ـ باب فى الطيرة ، حديث ٣٩١٩

(٥) أخرجه البخارى فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٥ ـ باب ما جاء فى التطوع مثنى مثنى ، حديث ٦٣٧ .

وأهل السنن من طرق عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور ، كما يعلمنا السورة من القرآن . ويقول : إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم ! إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم ! إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه باسمه) خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى (أو قال عاجل أمرى) وآجله فاقدره لى ، ويسره لى ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ودنياى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى ، فاصرفنى عنه واصرفه عنى ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به . هذا لفظ الإمام أحمد . « الْيَوْمَ يَئِسَ » أى : قنط « الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ » روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ؛ يعنى : يئسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روى عن عطاء بن أبى رباح والسدّىّ ومقاتل بن حيان . وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت فى الصحيح[١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن بالتحريش بينهم . نقله ابن كثير . وعليه فـ(من) تعليلية . أى : يئسوا من مراجعة دينهم لأجل دينكم الذى ضم إليه جمهور الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها . ودخلوا فيه أفواجا .

وللزمخشرىّ تأويل بديع ، تابعه عليه مَن بعده ، ونحن نسوقه أيضاً . قال رحمه الله : لم يُرِدْ بقوله تعالى : (الْيَوْمَ) يوم بعينه . وإنما أريد به الزمان الحاضر ، وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية . كقولك : كنت بالأمس شابا وأنت اليوم أشيب . فلا تريد (بالأمس) اليوم الذى قبل يومك ولا (باليوم) يومك . وقيل : أريد يوم نزولها . وقد نزلت يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة ، بعد العصر فى حجة الوداع . وقوله تعالى : يَئِسَ . الخ . أى يئسوا منه أن يبطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث ، بعد ما حرمت عليكم . وقيل :

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

يئسوا من دينكم أن يغلبوه . لأن الله عز وجل وفّى بوعده من إظهاره على الدين كله .

« فَلَا تَخْشَوْهُمْ » بعد إظهار الدين ، وزوال الخوف من الكفار ، وانقلابهم مغلوبين مقهورين ، بعدما كانوا غالبين « وَاخْشَوْنِ » وأخلصوا لى الخشية . انتهى كلامه .

وأوضح الوجه الأول ، الرازىّ فقال: ليس المراد باليوم هوذلك اليوم بعينه، حتى يقال: إنهم مايئسوا قبله بيوم أو يومين ، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان ، معناه : لاحاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار ، لأنكم الآن صرتم حيث لا يطمع أحد من أعدائكم فى توهين أمركم .

ثم بين تعالى أكبر نعمه وأعظم مننه على هذه الأمة وهو : إكماله لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبىّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه . ولهذا جعله تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحلّه ، ولا حرام إلا ما حرّمه ، ولا دين إلا ما شرعه . فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة . ولهذا قال « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » يعنى أحكامه وفرائضه، فلا زيادة بعده . ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. هذا ماروى عن ابن عباس . وقال سعيد بن جبير وقتادة : معنى (الإكمال) أنه لم يحج معهم مشرك . وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين . وقيل : معناه كفايتهم أمر العدوّ ، وجعل اليد العليا لهم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم . وبما ذكرنا أولاً – من أنّ المراد بالإكمال عدم الزيادة – يندفع ما يتوهم من ثبوت النقص أولًا . ولذا قال ابن الأنبارىّ (فى الآية) : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت . وذلك أنّ الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشىء فى وقت ثم يزيد عليه فى وقت آخر . فيكون الوقت الأول تامًّا فى وقته . وكذلك الوقت الثانى تامًّا فى وقته . فهو كما يقول القائل : عندى عشرة كاملة ، ومعلوم أنّ العشرين أكمل منها .

والشرائع التي تعبد الله عز وجلّ بها عباده، في الأوقات المختلفة، مختلفة . وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبّد بها . فكمل الله عز وجلّ الشرائع في اليوم الذي ذكره ـ وهو يوم عرفة ـ ولم يوجب ذلك ، أنّ الدين كان ناقصاً في وقت من الأوقات .

وللإمام القفّال نحو ذلك ، نقله عنه الرازيّ واختاره . قال : إنّ الدين ما كان ناقصاً البتة ، بل كان أبداً كاملًا . يعني : كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت . إلّا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه . فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت . وكان يزيد بعد العدم . وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة ، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة . فالشرع أبداً كان كاملًا . إلّا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص . والثاني كمال إلى يوم القيامة . فلأجل هذا قال : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . « وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » يعني بإكمال الدين والشريعة . لأنه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام . أو بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين . وهدم منار الجاهلية ومناسكهم ، وأن لم يحج معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . أو بإنجاز ما وعدهم بقوله : وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ . فكان من تمام النعمة فتح مكة وما ذكرنا . « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » يعني : اخترته لكم من بين الأديان ، وآذنتكم بأنه هو الدين المرضيّ وحده . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ[(١)] أو معناه : الانقياد لأمري فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم . ومعلوم أن الإسلام لم يزل مرضيًّا للحق تعالى منذ القدم ، إلّا أن المعنيّ به، في الآية، الصفة التي هو اليوم بها . وهي نهاية الكمال والبلوغ به أقصى درجاته . أي: فالزموه ولا تفارقوه : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ[(٢)] ..!

---

(١) [٣ / آل عمران / ٨٥] ... وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٩] ... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

روى البغوىّ بسنده عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال جبريل: قال الله عز وجلّ: هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلّا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه .

فوائد

الأولى : روى الإمام أحمد والشيخان[١] وغيرهم عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : ياأمير المؤمنين! إنكم تقرأون آيةً فى كتابكم، لوعلينا، معشر اليهود ، نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً . قال: وأىّ آية ؟ قال: قوله : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى . فقال عمر : والله ! إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى يوم جمعة .

قال ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن عمر . وروى ابن جرير[٢] عن قبيصة ابن أبى ذئب قال : قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذى أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه . فقال عمر : أىّ آية يا كعب ؟ فقال : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . فقال عمر : قد علمت اليوم الذى أُنزلت ، والمكان الذى أنزلت فيه . نزلت فى يوم جمعة ويوم عرفة . وكلاهما بحمد الله لناعيدٌ . وروى ابن جرير[٣] القصة أيضاً عن ابن عباس ، وأنه قال : نزلت يوم عيدين اثنين . يوم عيد ويوم جمعة ... وروى ابن مردويه عن ابن الحنفية عن علىّ قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢ ـ باب قوله ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، حديث ٤١ .

(٢) الأثر رقم ١١١٠٠

(٣) الأثر رقم ١١٠٩٨

عليه وسلم وهو قائم عشية عرفه : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . ورواه أيضاً عن سمرة. وروى ابن جرير نحوه عن معاوية[١] . وروى عن السدّيّ[٢] قال : نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات. فقالت[٣] أسماء بنت عميس : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحجة . فبينما نحن نسير إذ تجلّى له جبريل ، فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن . فنزلت . فأتيته فسجيت عليه برداً كان عليّ .

وقال ابن جرير[٤] وغيره : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً .

وقال ابن جرير[٥] : حدثنا سفيان بن وكيع : حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ وذلك يوم الحج الأكبر ـ بكى عمر. فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قال : أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا . فأما إذ كمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. فقال : صدقت .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء. انتهى .

قلت : والحديث المذكور رواه مسلم[٦] عن أبي هريرة . والترمذيّ عن ابن مسعود.

---

(١) الأثر رقم ١١١٠٨

(٢) الأثر رقم ١١٠٨١

(٣) الأثر رقم ١١٠٨١

(٤) ابن جرير ، الصفحة ٥١٨ من الجزء التاسع (طبعة المعارف) .

(٥) الأثر رقم ١١٠٨٣

(٦) أخرجه مسلم في: ١ ـ كتاب الإيمان، حديث ٢٣٢ (طبعتنا) ونصه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً . فطوبى للغرباء » .

وابن ماجة عنهما أيضاً وعن أنس . والطبرانيّ عن سلمان وسهل وابن عباس .

هذا ، وروى ابن جرير[١] من طريق العوفيّ عن ابن عباس في الآية قال : ليس ذلك بيومٍ معلومٍ عند الناس . ومن طريق أبي جعفر الرازيّ عن الربيع بن أنس قال: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى حجة الوداع . وروى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبديّ عن أبي سعيد الخدريّ ؛ أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خمّ ، حين قال لعليّ : من كنتُ مولاه فعليّ مولاه . ثم رواه عن أبي هريرة وفيه: إنه اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ـ يعني مرجعه عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع .

قال ابن كثير : ولا يصح لا هذا ولا هذا . بل الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية ، أنها نزلت يوم عرفة وكان يوم جمعة. كما قدمنا عن عمر وعليّ ومعاوية وابن عباس وسمرة رضي الله عنهم ، وعن ثلة من التابعين .

الثانية : استدلّ نفاة القياس بهذه الآية ، على أنّ القياس باطل . وذلك لأنّ الآية دلت على أنه تعالى قد نصّ على الحكم في جميع الوقائع . إذ لو بقي بعضها غير مبيّن الحكم لم يكن الدين كاملًا ، وإذا حصل النص في جميع الوقائع ، فالقياس ـ إن كان على وفق ذلك النص ـ كان عبثاً . وإن كان على خلافه كان باطلًا .

وأجاب عنه مثبتو القياس بما بسطه الرازيّ . فانظره .

الثالثة : قال صاحب (فتح البيان) : لا معنى للإكمال في الآية إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه الشرع . إمّا بالنص على كل فردٍ فرد ، أو باندراج ما يحتاج إليه تحت العمومات الشاملة . ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ[٢] . وقوله :

---

(١) الأثر رقم ١١١١٣

(٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (١) وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : تركتكم على الواضحة، ليلها كنهارها . وجاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين . وبما يفيد هذا المعنى ، ويصحح دلالته ، ويؤيد برهانه ، ويكفى فى دفع الرأى ، وأنه ليس من الدين ـ قول الله تعالى هذا. فإنه إذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض إليه نبيّه صلى الله عليه وسلم، فما هذا الرأى الذى أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه ؟ لأنه إن كان من الدين ـ فى اعتقادهم ـ فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم ، وهذا فيه ردّ للقرآن . وإن لم يكن من الدين ، فأىّ فائدة فى الاشتغال بما ليس منه ؟ وما ليس منه فهو ردّ بنص السنة المطهرة ـ كما ثبت فى (الصحيح) ـ وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأى أن يدفعوه بدافع أبدا. فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصكّ به وجوه أهل الرأى ، وترغم به آنافهم ، وتدحض به حجتهم . فقد أخبرنا الله فى محكم كتابه أنه أكمل دينه . ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل . فمن جاء بشىء من عند نفسه

---

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] ونصها : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١ ـ باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث ٥ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى الدرداء قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه . فقال « آلفقرَ تخافون ؟ والذى نفسى بيده ! لتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا ، حتى لا يُزِيغ قلبَ أحدكم إلاّ هِيَهْ . وايم الله ! لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها سواء » .

وزعم أنه من ديننا قلنا له : إنّ الله أصدق منك : وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا[١] . اذهب لا حاجة لنا فى رأيك . وليت المقلدة فهموا هـذه الآية حقّ الفهم حتى يستريحوا ويريحوا . وقد أخبرنا الله فى محكم كتابه أنّ القرآن أحاط بكل شىء فقال : مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ[٢] . وقال : تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً[٣] . ثم أمر عباده بالحكم بكتابه فقال : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ[٤] . وقال : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ[٥] . وقال: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ[٦] .

---

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] ونصها : وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٨٣٤ .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٩] ونصها : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٠٥] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا .

(٦) [٦ / الأنعام / ٥٧] ونصها : قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ .

وقال : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(١) . وفى آية ... هُمُ الظَّالِمُونَ(٢) . وفى أخرى... هُمُ الْفَاسِقُونَ(٣) . وأمر عباده أيضاً فى محكم كتابه باتباع ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(٤) . وهـذه أعمّ آية فى القرآن ، وأبينها فى الأخذ بالسنة المطهرة ، وقال : أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ(٥) . وقد تكرر هـذا فى مواضع من الكتاب العزيز .

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] ونصها : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٤٥] ونصها : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤٧] ونصها : وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .

وقال : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا(١) . وقال : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ(٢) . والاستكثار من الاستدلال على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله لا يأتى بعائدة ، ولا فائدة زائدة ، فليس أحد من المسلمين يخالف فى ذلك . ومن أنكره فهو خارج عن حزب المسلمين . وإنما أوردنا هذه الآيات الكريمة ، والبينات العظيمة ، تليينًا لقلب المقلّد الذى قد جمد ، وصار كالجلمد . فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر القرآنية ، ربما امتثلها وأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، طاعة لأوامره . فإنّ هذه الطاعة ، وإن كانت معلومة لكل مسلم ، لكن الإنسان قد يذهل عن القوارع الفرقانية والزواجر المحمدية . فإذا ذُكِّر بها ذَكَرَ . ولا سيما من نشأ على التقليد ، وأدرك سلفه ثابتين عليه غير متزحزحين عنه . فإنه يقع فى قلبه ؛ أن دين الإسلام هو هذا الذى هو عليه . وما كان مخالفًا له فليس من الإسلام فى شىء . فإذا راجع نفسه رجع .. ولهذا تجد الرجل إذا نشأ على مذهب من هذه المذاهب ، ثم سمع ـ قبل أن يتمرد بالعلم ويعرف ما قاله الناس ـ خلاف ذلك المألوف ، استنكره وأباه قلبه ، ونفر عنه طبعه . وقد رأينا وسمعنا من هذا الجنس مالا يأتى عليه الحصر . ولكن إذا وازن العاقل بعقله ، بين من اتبع أحد أئمة المذاهب فى مسألة من مسائله التى رواها عنه المقلّد ـ ولا مستند لذلك العالم فيها ، بل قالها بمحض الرأى لعدم وقوفه على الدليل ـ وبين من تمسك فى تلك المسألة بخصوصها بالدليل الثابت فى القرآن والسنة ؛ أفاده العقل بأن بينهما مسافات تنقطع فيها أعناق الإبل ، لا جامع بينهما . لأنّ من تمسك بالدليل أخذ بما أوجب الله عليه الأخذ به ، واتبع ما شرعه الشارع لجميع الأمة : أولها وآخرها ،

---

(١) [٢٤ / النور / ٥١] . . . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٢١] . . . لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا .

وحيّها وميتها ..! والعالم يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره . والجاهل يمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة ، واسترواء النص ، وكيف حكم الله فى محكم كتابه أو على لسان رسوله فى تلك المسألة . فيفيدونه النص إن كان ممن يعقل الحجة إذا دل عليها ، أو يفيدونه مضمون النص بالتعبير عنه بعبارة يفهمها . فهم رواة وهو مسترو ، وهذا عامل بالرواية لا بالرأى ؛ والمقلد عامل بالرأى لا بالرواية . لأنه يقبل قول الغير من دون أن يطالبه بحجة . وذلك فى سؤاله يطالب بالحجة لا بالرأى ، فهو قابل لرواية الغير لا لرأيه . وهما من هذه الحيثية متقابلان ؛ فانظر كم الفرق بين المنزلتين ؟ والكلام فى ذلك يطول ويستدعى استغراق الأوراق الكثيرة ، وهو مبسوط فى مواطنه ، وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ ، وبالله التوفيق . انتهى كلامه .

الرابعة : قال بعض الزيدية : ثمرة الآية تعظيم هذا اليوم المذكور ، وأنه يلزم الشكر لله تعالى على التمسك بملّة الإسلام .

وقوله تعالى « فَمَنِ اضْطُرَّ » متصل بذكر المحرمات . وما بينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه . وهو أنّ تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل ، والنعمة التامة ، والإسلام المرضىّ . ومعناه : فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات : الميتة وما بعدها ، أى : أصيب بالضر الذى لا يمكنه الامتناع معه من الميتة وما بعدها « فِى مَخْمَصَةٍ » أى : مجاعة يخاف معها الموت أو مبادئه ـ و (المخمصة) : مصدر مثل المَغْضبة والمَتْبة . يقال : خمصه الجوع خمصاً ومخمصة ، وخمص البطن (مثلثة الميم) خلا . «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أى : غير منحرف إليه بالأكل فوق الضرورة ، أو العصيان بالسفر . كقوله تعالى : غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ(1)

(١) [٢/ البقرة/ ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » لتناوله الحرام ـ فلا يؤاخذه به « رَحِيمٌ » أى : بإعطائه الرخصة فيه لعلمه بحاجة عبده المضطر ، وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويغفر له . وفى (المسند)[١] و(صحيح) ابن حبان، عن ابن عمر ـ مرفوعاً ـ قال : قال رسولُ الله ﷺ : إنّ الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته. لفظ ابن حبان . وفى لفظٍ لأحمد[٢]: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة . ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً فى بعض الأحيان . وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها. وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً ، بحسب الأحوال . واختلفوا : هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال . وليس من شرط تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً ـ كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ـ بل متى اضطر إلى ذلك جاز له . وقد روى الإمام أحمد[٣] عن أبى واقد الليثىّ؛ أنهم قالوا : يارسول الله ! إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة . فمتى تحل لنا بها

= و [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و [١٦ / النحل / ١١٥] ونصها: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٨٧٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٣٩٢ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

الميتة ؟ فقال : إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقلا[١] ، فشأنكم بها. إسناده صحيح على شرط الشيخين ؛ والاصطباح : شرب اللبن بالغداة فما دون القائلة ، وما كان منه بالعشيّ فهو الاغتباق ؛ ومعنى لم تحتفئوا : أي تقتلعوا . وفي اللفظة عدة روايات. وروى أبو داود عن الفجيع العامريّ:[٢] أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يحل لنا من الميتة ؟ قال : « ما طعامكم ؟ » قلنا : نصطبح ونغتبق ! قال أبو نعيم : فسره لي عقبة : قدح غدوة وقدح عشية ، قال : ذاك ، وأبي ! الجوع . فأحل لهم الميتة على هذه الحال . تفرد به أبو داود . وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم . فأحلّ لهم الميتة لتمام كفايتهم. وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حدّ الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسدّ الرمق ، والله أعلم. وروى أبو داود[٣] عن جابر بن سمرة أنّ رجلًا نزل الحَرَّة ومعه أهله وولده. فقال رجل:

(١) في اللسان : احتفى البقلَ: اقتلعه من الأرض . وقال أبو حنيفة : الاحتفاء : أخذ البقل بالأظافير من الأرض .

قال أبو عبيد : هو من (الحفا) مهموز مقصور ، وهو أصل البرديّ الأبيض الرطب منه .

الأزهريّ :وقال أبو سعيد: صوابه (تحتفوا) بتخفيف الفاء من غير همز. وكل شيء استؤصل فقد احْتُفِيَ . قال : واحتفى البقلَ : إذا أخذه من وجه الأرض بأطراف أصابعه، من قصره وقلّته .

قال : ومن قال (تحتفئوا ، بالهمز ، من الحفأ البرديّ) فهو باطل . لأن البرديّ ليس من البقل. اهـ (من اللسان)

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٦ ـ باب في المضطر إلى الميتة ، حديث ٣٨١٧ .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٦ ـ باب في المضطر إلى الميتة ، حديث ٣٨١٦

إنّ ناقة لي ضلت . فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت. فقالت له امرأته : انحرهـا ! فأبى ، فنفقت ، فقالت اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها ونأكله ، فقال : حتى أسأل رسـول الله صلى الله عليه وسلم . فأتاه ، فسأله ، فقال له : هـل عندك غنى يغنيك ؟ قال : لا ! قال : فـكلوها ! قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال: هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك ! تفرد به .

وقد يحتج به من يجوّز الأكل والشبع والتزود منها مدة، يغلب على ظنه الاحتياج إليها. والله أعلم. أفاده ابن كثير. وقوله: (فَنَفَقَتْ). أي ماتت. (من باب نصر وفرح) قال ابن برّي: أنشد ثعلب(١) .

فما أشياء نشريها بمـال فإن نفقت فأكسدما تـكون؟

تنبيه: قال بعض المفسرين: ليس في هذه الآية بيان لتقديم أحدها. والفقهاء يقولون: يقدم الأخف تحريماً ، فميتة المأكول على ميتة غيره . انتهى .

وفي (رحمة الأمة) أنّ المضطر إذا وجد ميتة وطعام الغير ، ومالـكه غائب ، أنّ له أكله بشرط الضمان، دون الميتة . عنـد مالك وأكثر أصحاب الشافعيّ وجماعة من الحنفية . وعند أحمد وآخرين: يأكل الميتة .

قال ابن كثير : قد استدل بقوله تعالى (غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ) من يقول بأنّ العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأنّ الرخص لا تنال بالمعاصي. والله أعلم .

---

(١) استشهد به اللسان في مادة (ن ف ق) صفحة ٣٥٧ من المجلد العاشر (طبعـة بيروت) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ » أى : من المطاعم « قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » أى: ماليس بخبيث منها. وهو كل مالم يأت تحريمه فى كتاب أو سنة . و (الطيّب) فى اللغة هو المستلذ . و (الحلال) المأذون فيه ، يسمى طيبا تشبيهاً بما هومستلذ. لأنهما اجتمعا فى انتفاء المضرة « وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ » عطف على (الطيبات) بتقدير مضاف. أى : وصيد ما علمتموه . أومبتدأ، على أنّ (ما) شرطية وجوابها (فكلوا) . و (الجوارح) : الكواسب من سباع البهائم والطير ـ كالكلب والفهد والعقاب والصقر والبازى والشاهين ـ لأنها تجرح لأهلها أى تكسب لهم . الواحدة جارحة . تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أى : كسبهم خيراً . وفلان لا جارح له . أى : لا كاسب . ومنه قوله تعالى : وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ [(١)] . أى: كسبتم . وقيل: سميت (جوارح) لأنها تجرح الصيد عند إمساكه. وقوله تعالى « مُكَلِّبِينَ » أى : معلمين لها أن تَسْتَشْلِىَ إذا أُشْلِيَتْ ، وتنزجر إذا زجرت ، وتجتنب عند الدعوة ، ولا تنفر عند الإرادة ، فتصير كأنها وكلاؤكم لتعلمهن . إلا إذا قتلت بأنفسها من غير تعليم ، فلا يحل صيدها .

قال الزمخشرىّ : (المكلّب) مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها ورائضها

(١) [٦ /الأنعام/ ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لذلك ، بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف . واشتقاقه من (الكلب) لأن التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب . فاشتق من لفظه لكثرته فى جنسه . أو لأن السبع يسمى كلباً . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : اللهمّ سلط عليه كلباً من كلابك. فأكله الأسد. (الحديث حسن، أخرجه الحاكم) ، أومن الكلب الذى هو بمعنى الضراوة ، يقال : هو كلب بكذا إذا كان ضارياً به . وانتصاب (مكلّبين) على الحال من (علمتم) . فإن قلت : مافائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بـ (علمتم) ؟ قلت : فائدتها أن يكون مَن يعلم الجوارح نحريراً فى علمه، مدرّباً فيه، موصوفاً بالتكليب. وقوله تعالى « تُعَلِّمُونَهُنَّ » حال ثانية أو استئناف، وفيه فائدة جليلة . وهى أنّ على كل آخذٍ علماً أن لا يأخذه إلّا من أقْتَلِ أهله علماً ، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه . وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل . فكم من آخذٍ ، عن غير متقن، قد ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير أنامله « مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ » أى : من علم التكليب . لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل . أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه . وانزجاره بزجره . وانصرافه بدعائه . وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه . انتهى .

وقال الناصرفى (الانتصاف) : وفى الآية دليل على أن البهائم لها علم . لأن تعليمها، معناه لغةً ، تحصيل العلم لها بطرقه. خلافاً لمنكرى ذلك.

« فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ » أى : صِدْنَ لكم وإن قتلنه بأن لم يأكلن منه «وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» الضمير يرجع إلى (ماعلمتم من الجوارح) أى : سمواعليه عند إرساله، كما بيّنه حديث أبى ثعلبة وعدىّ الآتى. وجوز رجوعه إلى (ما أمسكن) على معنى : وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى بالأكل مما فقد فيه شرط من هذه الشرائط استعجالاً إليها « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى: المجازاة على كل ما جلّ ودقّ .

تنبيهات

الأول : روى ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ، عن عديّ بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيّيْن . سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ! قد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ؛ قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم ؛ وقال مقاتل : ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق . وقد سئل الزهريّ عن شرب البول للتداوي؟ فقال : ليس هو من الطيبات ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن وهب : سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس؟ فقال: ليس هو من الطيبات . وروى ابن أبي حاتم في سبب نزولها أثراً آخر ، عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يارسول الله ! ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ، فسكت . فأنزل الله : يَسْأَلُونَكَ...الآية. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك عليه، فليأكل مما لم يأكل.

وعند ابن جرير[1] عن أبي رافع قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليستأذن عليه ، فأذن له . فقال : قد أذنّا لك يارسول الله ! قال : أجل . ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب . قال أبو رافع : فأمرني أن أقتل كلّ كلب بالمدينة . حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها . ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته. فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته ، فجاؤوا فقالوا : يا رسول الله ! ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ قال ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأنزل الله عز وجل : يَسْأَلُونَكَ ... الآية .

---

(١) الأثر رقم ١١١٣٤

ورواه الحاكم فى (مستدركه) وقال : صحيح ولم يخرجاه .

وروى ابن جرير[١] أيضاً عن عكرمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا رافع فى قتل الكلاب حتى بلغ العوالى . فجاء عاصم بن عدىّ وسعيد بن خيثمة وعويمر بن ساعدة فقالوا : ماذا أحلّ لنا يا رسول الله ؟ فنزلت الآية . ورواه الحاكم أيضاً عن عكرمة . وكذا قال محمد بن كعب القرظىّ فى سبب نزولها : أنه فى قتل الكلاب ـ أفاده ابن كثير .

قال بعض المفسرين : لما نزلت الآية ، أذن صلى الله عليه وسلم فى اقتناء الكلاب التى ينتفع بها ، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها . وأمر بقتل العقور وما يضر. انتهى .

أقول : روى الإمام أحمد ومسلم[٢] عن جابر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب . حتى أن المرأة تقدم من البادية بكلبها فتقتله ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها وقال : عليكم بالأسود البهيم ذى النقطين فإنه شيطان .

وروى الشيخان[٣] عن ابن عمر : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب. إلا كلب صيدٍ أو كلب غنم أو ماشية .

وعن عبد الله بن المغفل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : لولا أنّ الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها . فاقتلوا منها كل أسود بهيم. رواه أبو داود[٤] والدارمىّ ، وزاد

---

(١) الأثر رقم ١١١٣٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٤٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٤٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢١ ـ باب فى اتخاذ الكلب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

الترمذى(١) والنسائى(٢) : وما من أهل بيت يرتبطون كلباً إلّا نقص من عملهم كل يوم قيراط. إلّا كلب صيد أو كلب حرث أو كلب غنم.

وظاهر هذه الأحاديث، أنه صلى الله عليه وسلم كان أمر بقتلها كلها. ثم رخص فى استبقائها. إلّا الأسود فإنه مستحق القتل .

وقول إمام الحرمين : ثم استقر الشرع على النهى عن قتل جماع الكلاب حيث لا ضرر فيها حتى الأسود البهيم- يحتاج إلى برهان .

قال ابن عبد البر : فى هـذه الأحاديث إباحة اتّخاذ الكلب للصيد والماشية . وكذلك للزرع . لأنها زيادة حافظ . وكراهة اتّخاذها لغير ذلك . إلّا أنه يدخل فى معنى الصيد وغيره مما ذكر ، اتخاذها لجلب المنافع ودفع المضارّ قياساً ، فتمحض كراهة اتّخاذها لغير حاجة ، لما فيه من ترويع الناس ، وامتناع دخول الملائكة إلى البيت الذى الكلاب فيه .

ثم قال : ووجه الحديث عندى؛ أن المعانى المتعبد بها فى الكلاب . من غسل الإناء سبعاً، لا يكاد يقوم بها المكلف ولا يتحفظ منها، فربما دخل عليه باتّخاذها ماينقص أجره من ذلك.

وروى أن المنصور بالله سأل عمرو بن عبيد عن سبب هـذا الحديث ؟ فلم يعرفه . فقال المنصور : لأنه ينبح الضيف ويروّع السائل . انتهى .

وقال الخطابىّ : معنى (قوله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الكلاب أمة من الأمم ... الخ). أنه صلى الله عليه وسلم كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جيل من الخلق ، لأنه ما من خلق لله تعالى إلّا وفيه نوع من الحكمة وضرب من المصلحة . يقول : إذا كان الأمر على هذا ، ولا سبيل إلى قتلهن ، فاقتلوا أشرارهن وهى السود البُهم . وأبقوا ماسواها لتنتفعوا بهنّ فى الحراسة .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٦ ـ كتاب الصيد ، ١٦ ـ باب ماجاء فى قتل الكلاب.

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد ، ١٠ ـ باب صفة الكلاب التى أمر بقتلها .

وقال الطيبى : قوله (أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ) إشارة إلى قوله تعـالى . وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ (١) . أى : أمثالكم فى كونها دالة على الصانع ومسبحة له . قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (٢) . أى : يسبح بلسان القال أو الحال. حيث يدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وتنزيهه عما لا يجوز عليه، فبالنظر إلى هذا المعنى، لا يجوز التعرض لها بالقتل والإفناء . ولكن إذا كان لدفع مضرةٍ ـ كقتل الفواسق الخمس ـ أو جلب منفعةٍ ـ كذبح الحيوانات المأكولة ـ جاز ذلك .

الثانى :

ذهب جمهور الصحابة والتابعين والأئمة إلى أنّ الجوارح التى يحل صيدها ، ما قَبِلَ التعليم من ذى ناب (كالكلب والفهد والنمر) أو ذى مخلب (كالطيور المذكورة قبل) . قال فى (النهاية) : حتى الهر إن تعلّم ، واحتجوا بعموم الآية .

وروى أحمد (٣) وأبو داود عن مجالد عن الشعبى عن عدى بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال : ما علّمت من كلبٍ أو بازٍ ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك . قلت: وإن قتل ؟ قال : وإن قتل ولم يأكل منه شيئاً. فإنما أمسكه عليك .

(١) [٦ / الأنعام / ٣٨] . . . مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة **٢٥٧** من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) ونصه: عن عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ فعلمنى الإسلام . ونعت لى الصلاة وكيف أصل كل صلاة لوقتها . ثم قال لى « كيف أنت يا ابن حاتم ! إذا ركبت من قصور اليمن =

قال البيهقيّ : تفرد مجالد بذكر الباز فيه ، وخالف الحفاظ .

أقول : روى ابن جرير بالسند المذكور إلى عديّ قال : سألت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن صيد البازى ؟ فقال : ما أمسك عليك فكل . وعن ابن عمر ومجاهد : لا يحل إلا صيد الكلب فقط . روى ابن جرير[1] بسنده ، أن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير (والبزاة من الطير) فما أدركت فهو لك . وإلّا فلا تطعمه . وقال ابن أبي حاتم : كره مجاهد صيد الطير كلّه، وقرأ قوله : وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ . أى : فإن قوله تعالى (مكلّبين) يشير إلى قصر ذلك على الكلب . وقال الحسن البصريّ والنخعيّ وأحمد وإسحق: يحل من كل شيء إلا الكلب الأسود البهيم. لأنه قد أمر بقتله.

الثالث : قدمنا أنّ انتصاب (مكلّبين) على الحال من (علمتم) . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو (الجوارح) أى : وما علمتم من الجوارح فى حال

= لا تخاف إلا الله حتى تنزل قصور الحيرة ؟ » قال قلت : يا رسول ! فأين مقانب طيء ورجالها ؟ قال « يكفيك الله طيئاً ومن سواها » قال قلت : يا رسول الله ! إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب والبزاة . فما يحل لنا منها ؟ قال « يحل لكم ما علمتم من الجوارح تعلمونهن مما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه . فما علَّمت من كلب أو باز، ثم أرسلت وذكرت اسم الله عليه ، فكل مما أمسك عليك . قلت : وإن قَتَلَ ؟ قال « وإن قتل ، ولم يأكل منه شيئاً . فإنما أمسكه عليك» . قلت : أفرأيت إن خالط كلابَنا كلابٌ أخرى حين نرسلها ؟ قال « لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذى أمسك عليك » قلت : يا رسول الله ! إنا قوم نرمى بالمعراض ، فما يحلّ لنا ؟ قال « لا تأكل ما أصبت بالمعراض ، إلا ما ذكيتَ » .

وأبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٢ ـ باب فى الصيد ، حديث ٢٨٥١ .

(١) الأثر رقم ١١١٥٥ .

كونهن مكلبات للصيد . وذلك أن تصيد بمخالبها وأظفارها . فيستدل بذلك ، والحالة هذه ، على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخالبه وظفره ، أنه لا يحل . كما هو أحد قولى الشافعىّ وطائفةمن العلماء . ولهذا قال (تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ) وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا استشلاه استشْلَى ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجئ إليه ، ولا يمسكه لنفسه . ولهذا قال تعالى : فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ . فمتى كان الجارح معلّما وأمسك على صاحبه ـ وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ـ حلّ الصيد وإن قتله ، بالاجماع .

وقد وردت السنة بمثل مادلت عليه هذه الآية الكريمة . كما ثبت فى (الصحيحين)(١)

(١) إنى رأيت ، حرصاً على نص الحديث ، أن آتى بجميع طرقه ، منقولة من كتاب (جامع مسانيد البخارىّ) وهاهِيَهْ :

٤ ـ كتاب الوضوء ، ٣٣ ـ باب الماء الذى يغسل به شعر الإنسان .

عن عدىّ بن حاتم قال: سألت النبىّ ﷺ فقال « إذا أرسلت كلبك المعلَّم فقَتَلَ فكُلْ. وإذا أكل فلا تأكل . فإنما أمسكه على نفسه » قلت : أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر ؟ قال « فلا تأكل . فإنما سميت على كلبك ولم تسمّ على كلب آخر » .

٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٣ ـ باب تفسير المشبهات .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت النبىّ ﷺ عن المعراض ؟ فقال « إذا أصاب بحده فكُلْ ، وإذا أصاب بعرْضه فلا تأكل ، فإنه وقيذ » قلت : يا رسول الله ! أرسل كلبى وأسمّى ، فأجد معه على الصيد كلباً آخر لم أسمّ عليه ، ولا أدرى أيهما أخذ ؟ قال « لا تأكل . إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على الآخر » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١ ـ باب التسمية على الصيد .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال: سألت النبىّ ﷺ عن صيد المعراض ؟ فقال =

عن عدىّ بن حاتم قال: قلت: يارسول الله! إنى أرسل الكلاب المعلّمة وأذكر اسم الله؟ فقال : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ماأمسك عليك. قلت : وإن قتلن؟ قال : وإن قتلن، مالم يشركها كلب ليس منها . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على غيره . قلت له : فإنى أرمى بالمعراض الصيد؟ فقال: إذا رميت بالمعراض الصيد فخزق فكله، فإن أصابه بعرض، فإنه وقيذ، فلا تأكله.

= « ما أصاب بحده فكُلْ ، وما أصاب بعَرْضه فهو وقيذ » وسألته عن صيد الكلب ؟ فقال « ما أمسك عليك فكُلْ، فإنَّ أَخْذَ الكلب ذكاة. وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره ، فخشيت أن يكون أخذه معه ، وقد قتله ، فلا تأكل . فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢ ـ باب صيد المعراض .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن المعراض ؟ فقال « إذا أصبت بحدّه فكُلْ ، فإذا أصاب بعَرْضه فقَتَلَ فإنه وقيذ فلا تأكل » فقلت : أرسل كلبى ؟ فقال « إذا أرسلت كلبك وسميت فكُلْ » قلت : فإن أكل ؟ قال « فلا تأكل ، فإنه لم يمسك عليك وإنما أمسك على نفسه » قلت : أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر ؟ قال « لا تأكل . فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمّ على آخر » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣ ـ باب ما أصاب المعراض بعرضه .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ! إنا نرسل الكلاب المعلّمة؟ قال « كل ما أمسكن عليك » قلت : وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن » قلت : وإنا نرمى بالمعراض ؟ قال « كل ما خزق ، وما أصاب بعرضه فلا تأكل » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٧ ـ باب إذا أكل الكلب .

عن عدىّ بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ قلت : إنا قوم نصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلّمة، وذكرت اسم الله فكُلْ مما أمسكن عليكم وإن قتلن. =

وفى لفظٍ لهما : إذا أرسلت كلبك فاذكر الله. فإن أمسك عليك فأدركته حيًّا ، فاذبحه . وإنأدركته قد قتل ولم يأكل منه، فكله. وإنّ أخذ الكلب ذكاته . وفى روايةلهما : فإن أكل فلا تأكله . فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه . فهذا دليل للجمهور أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً . ولم يستفصلوا . كما ورد بذلك الحديث . وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لا يحرم مطلقاً. أَكَلَ أو لم يأكل .

= إلا أن يأكل الكلب . فإنى أخاف أن يكون إنما أمسكه على نفسه . وإن خالطها كلاب من غيرها ، فلا تأكل » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٨ ـ باب الصيد إذا غاب عنه يومين أو ثلاثة .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنــه عن النبىّ ﷺ قال « إذا أرسلت كلبك وسميت ، فأمسك وقتَلَ ، فكُلْ . وإن أكل فلا تأكل ، فإنما أمسك على نفسه . وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن ، فلا تأكل . فإنك لا تدرى أيها قتل . وإن رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُلْ. وإن وقع فى الماء فلا تأكل».

وعن عدىّ أنه قال للنبىّ ﷺ : يرمى الصيد ، فيقتفرُ أثره اليومين والثلاثة ثم يجده ميتا ، وفيه سهمه ؟ قال « يأكل إن شاء » .

٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٩ ـ باب إذا وجد مع الصيد كلبا آخر .

عن عدىّ بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ! إنى أرسل كلبى وأسمى ؟ فقال النبىّ ﷺ « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فأكل ، فلا تأكل . فإنما أمسك على نفسه »قلت: إنى أرسل كلبى ، أجد معه كلبا آخر لا أدرى أيها أخذه ؟ قال « لاتأكل . فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره».

وسألته عن صيد المعراض ؟ فقال « إذا أصبت بحده فكل . وإذا أصبت بعرضه فقتل ، فإنه وقيذ، فلا تأكل » . =

روى ابن جرير(١) عن سلمان الفارسيّ وأبي هريرة قالا : كُلْ وإن أكل ثلثيه. وعن سعد بن أبي وقاص : ... وإن أكل ثلثيه . وعنه : ... وإن لم يبق إلا بضعة . وعن ابن عمر : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك. أكل أو لم يأكل. وحكاه عن عليّ وابن عباس وغير واحدٍ من التابعين .

وروى ذلك مرفوعاً أيضاً . أخرج أبو داود(٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنّ أعرابيًّا ، يقال له أبو ثعلبة ، قال : يارسول الله ! إنّ لى كلاباً مكلبة فأفتنى فى صيدها .

= ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ما جاء فى التصيد .

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيّد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلّمة وذكرت اسم الله ، فكل مما أمسكن عليك . إلا أن يأكل الكلب ، فلا تأكل . فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ـ ١٣ ـ باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها .

عن عدىّ بن حاتم قال : سألت النبىّ ﷺ قلت : أرسل كلابى المعلَّمة : ؟ قال « إذا أرسلت كلابك المعلمة ، فذكرت اسم الله فأمسكن فكل . وإن رميت بالمعراض ، فخزق ، فكل » ورقم الحديث ١٤١ .

وأخرجه مسلم فى: ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، حديث ١ـ٧ (طبعتنا)

(١) الأثر رقم ١١١٨٧ ـ ١١٩٣ عن سلمان الفارسىّ .

والأثر رقم ١١١٩٨ عن أبى هريرة .

والأثر رقم ١١١٩٥ عن سعد بن أبى وقاص .

والأثر رقم ١١٢٠٢ عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود فى: ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ، ٢٢ ـ باب فى الصيد، حديث ٢٨٥٧.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إن كان لك كلاب مكلبة ، فكل مما أمسكن عليك . فقال : ذكيّ وغير ذكيّ ، وإن أكل منه ؟ قال : نعم وإن أكل منه . فقال: يارسول الله ! أفتني في قوسي ! فقال : كلْ ماردت عليك قوسك . قال: ذكيّ وغير ذكيّ ؟ قال : وإن تغيب عنك مالم يَضِلّ أو تجد فيه أثرا غير سهمك . قال: أفتني في آنية المجوس إذا اضطررنا إليها . قال : اغسلها وكُلْ فيها . هكذا رواه أبو داود وقد أخرجه النسائيّ . وكذا رواه أبوداود[1] عن أبي إدريس الخولانيّ عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله، فكُلْ وإن أكل منه ، وكُلْ ما ردت عليك يدك .

وقد احتج بما ذكرنا من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه ، وقد توسط آخرون فقالوا : إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم . لحديث عديّ ، وللعلة التي أشار إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما إن أمسكه ، ثم انتظر صاحبه ، فطال عليه ، وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لايؤثر في التحريم . وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة . وهذا تفريقٌ حسن، وجمعٌ بين الحديثين ، صحيح .

وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجوينيّ في كتابه (النهاية) : أن لو فصل مفصل هذا التفصيل . وقد حقق الله أمنيته ، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب . أفاده ابن كثير .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وسلك الناس في الجمع بين حديث عديّ وأبي ثعلبة طرقاً منها للقائلين بالتحريم (الأولى) حمل حديث أبي ثعلبة الأعرابيّ على ما إذا قتله وخلاه ثم عاد فأكل منه ، و (الثانية) الترجيح ، فرواية عديّ في الصحيحين ورواية الأعرابيّ في غيرها . ومختلف في تضعيفها . وأيضاً ، فرواية عديّ صريحة مقرونة بالتعليل المناسب للتحريم . وهو خوف الإمساك على نفسه ، متأيد بأن الأصل في الميتة التحريم . فإذا

(١) أخرجه أبو داود في : ١٦ ـ كتاب الأضاحيّ ، ٢٢ ـ باب في الصيد ، حديث ٢٨٥٢

شككنا فى السبب المبيح، رجعنا إلى الأصل ولظاهر الآية المذكورة . فإن مقتضاها أنّ الذى تمسكه من غير إرسال لا يباح . ويتقوى أيضاً بالشواهد من حديث ابن عباس عند أحمد[1] : إذا أرسلت الكلب فأكل الصيد، فلاتأكل. فإنما أمسك على نفسه . فإذا أرسلته فقتله ولم يأكل ، فكُلْ. فإنما أمسك على صاحبه . وأخرجه البزار من وجه آخر عن ابن عباس. وابن أبى شيبة من حديث أبى رافع، نحوه بمعناه . ولو كان مجرّد الإمساك كافياً لما احتيج إلى زيادة (عليكم) فى الآية . وأما القائلون بالإباحة ، فحملوا حديث عدىّ على كراهة التنزيه ، وحديث الأعرابىّ على بيان الجواز. قال بعضهم : ومناسبة ذلك أن عديًّا كان موسراً . فاختير له الحمل على الأولى . بخلاف أبى ثعلبة ، فإنه كان بعكسه . ولا يخفى ضعف هذا التمسك ، مع التصريح بالتعليل فى الحديث لخوف الإمساك على نفسه . وقد وقع فى رواية لابن أبى شيبة: إن شرب من دمه فلا تأكل فإنه لم يُعَلَّمْ ما عَلَّمته . وفى هذا إشارة إلى أنه إذا شرع فى أكله ، دلّ على أنه ليس يعلم التعليم المشترط .

الرابع : فى الآية مشروعية التسمية . قال ابن كثير : قوله تعالى : اذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، أى عند إرساله له ، كما قال النبىّ ﷺ[2] لعدىّ بن حاتم : إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله فكل ماأمسك عليك . وفى حديث أبى ثعلبة المخرج فى (الصحيحين)[3] أيضاً:

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٣١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث ٢٠٤٩ (طبعة المعارف)

(٢) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة ١٨٥٠.

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ٤ ـ باب صيد القوس، حديث ٢١٩٨ ونصه :

عن أبى ثعلبة الخشنىّ قال : قلت : يانبىّ الله ! إنا بأرض قوم أهل الكتاب . أفنأكل فى آنيتهم ؟ وبأرض صيد ، أصيد بقوسى وبكلبى الذى ليس بمعلّم وبكلبى المعلَّم ، فمايصلح لى؟ =

إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله. وإذا رميت بسهمك . ولهذا اشترط مَن اشترط من الأئمة ، كالإمام أحمد رحمه الله ، فى المشهور عنه ، التسمية عند إرسال الكلب والرمى بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث . وهذا القول هو المشهور عند الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال . كما قال السدّىّ وغيره . وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى هذه الآية : إذا أرسلت جارحك فقل : بسم الله . وإن نسيت فلا حرج . انتهى .

قال بعض الزيدية : والتسمية هنا كالتسمية على الذبيحة . فمن قائلٍ بوجوبها على الذاكر لا الناسى . لحديث(١) : رفع عن أمتى الخطأ والنسيان . ومن قائلٍ بأنها مستحبة . ومن قائلٍ بأنها شرط مطلقاً . والمشهور عن أحمد التفرقة بين الصيد والذبيحة . فذهب فى الذبيحة إلى هذا القول الثالث . ثم قال : لقائلٍ أن يقول : يحتمل أن يرجع قوله تعالى (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ) إلى الأكل . أى : فسموا عند الأكل . فدلالة الآية محتملة فى وجوب التسمية . انتهى . وهذا الاحتمال حكاه ابن كثير ونصّه :

= قال « أما ما ذكرت من أهل الكتاب، فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها . وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله ، فكل . وما صدت بكلبك المعلّم فذكرت اسم الله فكل . وما صدت بكلبك غير معلّم ، فأدركت ذكاته ، فكل » .

وأخرجه أيضا فى : ١٠ ـ باب ما جاء فى التصيد .

وفى : ١٤ ـ باب آنية المجوس والميتة .

وأخرجه مسلم فى: ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ومايؤكل من الحيوان، حديث٨(طبعتنا).

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث ٢٠٤٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى ذر الغفارىّ قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استُكرهوا عليه » .

وقال بعض الناس : المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل . كما ثبت في (الصحيحين)[1] ؛ أن رسول الله ﷺ علّم ربيبه ، عمر بن أبي سلمة ، فقال : سمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك . وفي (صحيح البخاريّ)[2] عن عائشة ؛ أنهم قالوا : يا رسول الله ! إن قوماً يأتوننا، حديث عهدٍ بكفرٍ، بلحمانٍ ، لا ندري أذُكِرَ اسم الله عليها أم لا ؟ فقال : سموا الله أنتم وكلوا أنتم . وقال الترمذيّ : حسن صحيح .

الخامس : في الآية جواز تعليم الحيوان وضربه للمصلحة . لأن التعليم قد يحتاج إلى ذلك. كذا في (الإكليل) . وتقدم عن الزمخشريّ والناصر ما في الآية أيضاً من الأخذ عن النحرير ، وأن البهائم لها علم . واستدلّ بالآية على إباحة اتخاذ الكلب للصيد وللحراسة ، بالسّنّة . كما تقدم .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٠ ـ كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين ، حديث ٢١٧٣ ونصه :

عن عمر بن أبي سَلَمَة قال : كنت غلاماً في حَجْر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال لي رسول الله ﷺ « يا غلام ! سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك » .

فما زالت تلك طِعْمتي بعدُ .

(٢) أخرجه البخاريّ في: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم . حديث ١٠٣٨ ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها ؛ أن قوماً قالوا لرسول الله ﷺ : إن قوماً يأتونا باللحم ، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا عليه أنتم وكلوه » .

قالت : وكانوا حديثي عهد بكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

وقوله تعالى « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » أى : من الذبائح والصيد. تكريره تأكيد للمنة. قال أبو السعود : قيل المراد بالأيام الثلاثة وقت واحد. وإنما كرر للتأكيد . ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حَسُنَ تكريره . والمراد بالطيبات ما مرّ .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : دلت الآية على جواز أكل العالى من الأطعمة والأصباغ . قال فى (الروضة والغدير) : وإن كان التقنع بالأدون هو الأولى ، كما فعله علىّ عليه السلام وغيره من الفضلاء . فقد روى أن عليًّا عليه السلام كان يطعم الناس أطيب الطعام . فرأى بعضُ أصحابه طعامَهُ . وهو خبز شعير غير منخولٍ، وملح جريش، وهو مختوم عليه لئلا يبدل. ومن كلامه عليه السلام : والله ! لأروضنّ نفسى رياضة تهش إلى القرص إن وجدته مطعوماً، وإلى الملح إن وجدته مأدوماً . ولما روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى كراهة الإدامين مجتمعين . انتهى .

« وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : يعنى ذبائحهم .

قال ابن كثير : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ؛ أن ذبائحهم حلال للمسلمين . لأنهم

يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه ما هو منزه عنه، تعالى وتقدس . انتهى .

قال المهايمي : وإن لم يعتد بذكرهم اسم الله ، لكنهم لما ذكروه ، أشبه ما يعتد بذكره، فأشبه طعامهم الطيبات .

مباحث

الأول : ما ذكرناه من أن المعنيّ بالطعام الذبائح ، هو الذى قاله أئمة السلف : صحابة كابن عباس وأبي أمامة ، وأتباعاً كمجاهد وثمانية غيره . كما في ابن جرير[1] وابن كثير .

وفي (اللباب) : أجمعوا على أن المراد بـ (طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ذبائحهم خاصة . لأن ما سوى الذبائح فهي محللة قبل أنْ كانت لأهل الكتاب وبعد أنْ صارت لهم . فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة . ولأنّ ماقبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح . فحملُ هذه الآية عليه أولى . لأنّ سائر الطعام لا يختلف ، من تولّاه من كتابيّ أو غيره . وإنما تختلف الذكاة . فلما خص أهل الكتاب بالذكر، دلّ على أن المراد بطعامهم ذبائحهم. انتهى.

الثاني : استدل بالآية على جميع أجزاء ذبائحهم . وهو قول الجمهور .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وعن مالك وأحمد ، تحريم ما حرم الله على أهل الكتاب كالشحوم . قال ابن القاسم: لأن الذى أباحه الله طعامهم. وليس الشحوم من طعامهم. ولا يقصدونها عند الذكاة وتعقب بأن ابن عباس فسّر (طعامهم) بذبائحهم . وإذا أبيحت ذبائحهم لم يحتج إلى قصدهم أجزاء المذبوح . والتذكية لا تقع على بعض أجزاء المذبوح دون بعض . وإن كانت التذكية شائعة في جميعها دخل الشحم لامحالة . وأيضاً فإن الله تعالى نص بأنه حرم عليهم كل ذى ظفر . فكان يلزم ، على قول هذا القائل ، إن اليهوديّ ، إذا ذَبَح ماله ظفر، لا يحل للمسلم أكله . ثم قال ابن حجر : وقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)

---

(١) الآثار من رقم ١١٢٣٦ـ١١٢٥١ .

يستدل به على الحلّ . لأنه لم يخص لحماً من شحم ، وكون الشحوم محرمة على أهل الكتاب لا يضر ، لأنها محرمة عليهم لا علينا . وغايته بعد أن يتقرر أن ذبائحهم لنا حلال ، أنّ الذى حرم عليهم منها مسكوتٌ فى شرعنا عن تحريمه علينا . فيكون على أصل الإباحة . انتهى .

وفى (الصحيح)(١) عن عبد الله بن مغفّل رضى الله عنه قال : كنا محاصرين قصر خيبر . فرمى إنسان بجراب فيه شحم . فنزوت لآخذه . فالتفتّ فإذا النبىّ ﷺ فاستحييت منه . وفى رواية : أُدْلِىَ بجراب من شحم يوم خيبر . فحضنته وقلت : لاأعطى اليوم من هذا أحداً . والتفتّ فإذا النبىّ ﷺ يتبسّم .

قال الحافظ ابن حجر : فيه حجة على من منع ما حرّم عليهم كالشحوم . لأن النبىّ ﷺ أقرّ ابن مغفل على الانتفاع بالجراب المذكور . وفيه جواز أكل الشحم ، مما ذبحه أهل الكتاب ، ولو كانوا أهل حرب . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : استدل على المالكية الجمهور بهذا الحديث . وفى ذلك نظر . لأنه قضية عين . ويحتمل أن يكون شحماً يعتقدون حله ، كشحم الظهر والحوايا ونحوها . والله أعلم .

وأجود منه فى الدلالة ما ثبت فى (الصحيح)(٢) أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٢ ـ باب ذبائح أهل الكتاب وشحومها من أهل الحرب وغيرهم ، حديث ١٤٨٨ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، ٧ ـ باب إذا غدر المشركون بالمسلمين ، هل يعفى عنهم ؟ حديث ٢٤٩٨ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما فتحت خيبر ، أهديت للنبىّ ﷺ شاة فيها سمّ . فقال النبىّ ﷺ « اجمعوا إلىّ من كان ههنا من يهود » فجمعوا له . فقال « إنى سائلكم عن شىء . فهل أنتم صادقىّ عنه » ؟ فقالوا : نعم . قال لهم النبىّ ﷺ « من أبوكم » ؟ =

شاة مصليّة . وقد سمّوا ذراعها ـ وكان يعجبه الذراع ـ فتناوله فنهش منه نهشةً . فأخبره الذراع أنه مسموم . فَلَفَظَهُ وأثّر ذلك فى ثنايا رسول الله ﷺ وفى أبهره . وأكل معه منها بشر ابن البراء بن معرور ، فمات . فقتل اليهودية التى سمتها، وكان اسمها زينب . ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ؟ وفى الحديث الآخر : إن رسول الله ﷺ أضافه يهودىّ على خبز شعير وإهالة سنخة. يعنى ودكا زنخاً .

الثالث : تمسك ابن العربىّ ـ من أئمة المالكية ـ بهذه الآية على حلّ ما يقتله الفرنج، وإن رأيناذلك، لأنه من طعامهم . نقله عنه الشيخ خليل فى (توضيحه) واستبعده . وقال الإمام ابن زكرى : صنف ابن العربىّ فى إباحة مذكّى النصرانىّ بغير وجه ذكاتنا . والمحققون على تحريمه . وقد أوضح ذلك الفقيه محمد الدليمىّ السوسىّ المالكىّ فى (فتاويه) ، وقد سئل عن ذبيحة الكتابىّ: هل تحل المذكىّ كيف كانت. سواء وافقت ذكاتنا أم لا ؟ بقوله مجيباً:

= قالوا : فلان . فقال « كذبتم ، بل أبوكم فلان » قالوا : صدقت . قال « فهل أنتم صادقىّ عن شىء ، إن سألت عنه » ؟ فقالوا: نعم. يا أبا القاسم! وإن كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفته فى أبينا . فقال لهم « من أهل النار » ؟ قالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها . فقال النبىّ ﷺ « اخسؤا فيها. والله ! لا نخلفكم فيها أبدا » ثم قال « فهل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه » ؟ فقالوا : نعم . يا أبا القاسم ! قال « هل جعلتم فى هذه الشاة سمًّا » ؟ قالوا : نعم . قال « ماحملكم على ذلك » ؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح . وإن كنت نبيًّا لم يضرك .

وأخرجه أبو داود ، بمعناه ، فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ٦ ـ باب فيمن سقى رجلا سمًّا أو أطعمه ، فمات ، هل يقاد منه ؟ حديث ٤٥٠٨ عن أنس و ٤٥٠٩ وعن أبى هريرة ، حديث ٤٥١٠و٤٥١١و٤٥١٢ .

قال الإمام ابن العربيّ : إذا سلّ النصرانيّ عنق دجاجة حلّ للمسلم أكلها . لأن الله تعالى أحلّ لنا أكل طعامهم الذى يستحلونه فى دينهم . وكل ما ذكوه على مقتضى دينهم، حل لنا أكله . ولا يشترط أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا . وذلك رخصة من الله تعالى وتيسير منه علينا . ولا يستثنى من ذلك إلّا ما حرّم الله تعالى على الخصوص . فإنه ، وإن كان طعامهم الذى يستحلونه ، فلا يحل لنا أكله . انتهى .

الرابع : قال الرازيّ : نقل عن بعض أئمة الزيدية ؛ أن المراد بـ (الطعام) فى الآية، الخبز والفاكهة وما لا يحتاج فيه إلى الذكاة . انتهى .

وقد اطلعت على قطعة من تفسير بديع لبعض الزيدية قال فيه : اختلف العلماء من الأئمة والفقهاء : ماأريد بـ (الطعام) ؟ فقال القاسم والهادى ومحمد بن عبد الله ، ورواية عن زيد : إن ذبائح أهل الكتاب وجميع الكفار لا تجوز . لقوله تعالى (إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ) وهذا خطاب للمسلمين . والرواية الثانية عن زيد وعامة الفقهاء من الحنفية والشافعية والمالكية والجعفرية والإمامية . واختاره الأمير ح والأمير يحيى : جواز ذبائح أهل الكتاب . ويفسرون (الطعام) بالذبائح وغيرها . وهذا مروىّ عن الحسن والزهريّ والشعبيّ وعطاء وقتادة وأكثر المفسرين. وأخذوا بالعموم فى إطلاق(الطعام) . فأجاب الأولون بأن(الطعام) يطلق على الحبوب يقال : سوق الطعام . قال القاضى: الأقرب الحِلّ . لأن ذلك بفعلهم يصير طعاماً . ولأنه خص أهل الكتاب . أجيب : بأنه خصّهم لئلا يظن أنّ طعامهم الذى لم يذكّوه محرم . ثم عند الهادى والقاسم ، عليهما السلام ، تنجس رطوباتهم . لقوله تعالى[1]: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ . فيحرم ما حصل فيه رطوبتهم، إلّا ماأخذناه قهراً . وعند المؤيد بالله ومن معه : إن رطوبتهم طاهرة . والخلاف فى الرطوبة عامة فى الكفار . انتهى .

وفى (الروضة الندية) ما نصه : وأما ذبيحة أهل الذمة ، فقد دلّ على حلّها القرآن الكريم بهذه الآية . ومن قال : إن اللحم لا يتناوله (الطعام) فقد قصر فى البحث ، ولم

(١) [٩ / التوبة / ٢٨]

ينظر فى كتب اللغة ، ولا نظر فى الأدلة الشرعية المصرحة بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أكل ذبائح أهل الكتاب . كما فى أكله (١) صلى الله عليه وسلم للشاة التى طبختها يهودية وجعلت فيها سمًّا ، والقصة أشهر من أن تحتاج إلى التنبيه عليها . ولا مستند للقول بتحريم ذبائحهم إلّا مجرد الشكوك والأوهام التى يبتلى بها من لم يرسخ قدمه فى علم الشرع . فإن قلت : قد يذبحونه لغير الله ، أو بغير تسمية ، أو على غير الصفة المشروعة فى الذبح . قلت : إن صح شىء من هذا، فالكلام فى ذبيحته ، كالكلام فى ذبيحة المسلم إذا وقعت على أحد هذه الوجوه . وليس النزاع إلا فى مجرد كون كفر الكتابىّ مانعاً ، لا كونه أخذ بشرط معتبر. انتهى .

الخامس : أريد بـ (أَهْلِ الْكِتَابِ) اليهود والنصارى ومن دخل فى دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم . وأما من دخل فى دينهم بعد مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ وهم متنصّرو العرب من بنى تغلب ـ فلا تحلّ ذبيحته . روى عن علىّ بن أبى طالب قال : لا تأكل من ذبائح نصارى بنى تغلب . فإنهم لم يتمسكوا بشىء من النصرانية إلّا بشرب الخمر . وبه قال ابن مسعود . وسئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب ؟ فقال : لا بأس به. ثم قرأ(٢) : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . وهذا قول الحسن وعطاء والشعبىّ وعكرمة وقتادة والزهرىّ والحكم وحماد ـ كذا فى (اللباب) .

قال ابن كثير : وأما المجوس فإنهم ـ وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب ـ فإنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم . خلافاً لأبى ثور، إبراهيم بن خالد الكلبىّ (أحد الفقهاء من أصحاب الشافعىّ ، وأحمد بن حنبل) ولما قال ذلك ، واشتهر عنه ، أنكر عليه الفقهاء ذلك . حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه ـ يعنى فى هذه المسألة ـ وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال (٣) : سنوا بهم سنة أهل الكتاب.

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ١٨٦٠ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥١]

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ١٧ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

ولكن لم يثبت بهذا اللفظ . وإنما الذى فى (صحيح) البخارى[١] عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر. ولو سلم صحة هذا الحديث، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) فدلّ بمفهومه مفهوم المخالفة، على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل ..!

السادس : قيل : هذه الآية تقتضى إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً، وإنْ ذكروا غير اسم الله تعالى . وعن ابن عمر : لو ذبح يهودىّ أو نصرانىّ على غير اسم الله تعالى ، لا يحل ذلك . وهو قول ربيعة . وسئل الشعبىّ وعطاء ، عن النصرانىّ يذبح باسم المسيح ؟ فقال: يحلّ . فإن الله تعالى قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون . وقال الحسن : إذا ذبح اليهودىّ أو النصرانىّ وذكر غير اسم الله ، وأنت تسمع ، فلا تأكل . وإذا غاب عنك فكُلْ . فقد أحلّه الله لك . كذا فى (اللباب) . وقول الحسن ـ فى هذا البحث ـ هو الحسن .

وفى (النهاية) من كتب الزيدية : أما إذا ذبح أهل الذمة لأعيادهم وكنائسهم ، فكرهه مالك ، وأباحه أشهب ، وحرمه الشافعىّ. وذلك لتعارض عموم قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وعموم قوله تعالى (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ)[٢] فتخصيص

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية ، ١ ـ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩٢ ونصه :

عن بجالة قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية ، عم الأحنف . فأتانا كتاب عمر بن الخطاب، قبل موته بسنة : فرّقوا بين كل ذى محرم من المجوس .

ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَرَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٣] ونصها : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

كل واحد للآخر محتمل . ثم قال : والجمهور على تحريم ذبيحة المرتدّ . وأجازها إسحق ، وكرهها الثوريّ . وسبب الخلاف : هل المرتد يتناول اسم (الكتاب) أم لا ؟ قال : وهكذا منشأ الخلاف في ذبائح بني تغلب ، هل اسم (الكتاب) يتناول المتنصّر والمتهوّد من العرب ، كما روى عن ابن عباس ؟ أوْ لا يتناول ، كما روى عن عليّ عليه السلام . انتهى .

وقوله تعالى «وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ» يعني: ذبائحكم حلال لهم . فتأكل اليهود والنصارى ذبيحة المسلمين . كذا في (التفسير) المنسوب لابن عباس .

ونقل بعض مفسّري الزيدية عن ابن عباس وأبي الدرداء ، وبقية التابعين السالف ذكرهم ، وأكثر المفسّرين والفقهاء ، أنّ المراد ذبائح المسلمين .

وقال الزجاج : تأويله : حلّ لكم أن تطعموهم . لأن الحلال والحرام والفرائض إنما تعقد على أهل الشريعة .

وقال ابن كثير : أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم . وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم . اللهم ! إلّا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه . سواء كان من أهل ملّتهم أو غيرها . والأول أظهر في المعنى . أي : ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم . وهذا من باب المكافأة والمجازاة . كما ألبس(١)

(١) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٨ ـ باب هل يُخرَجُ الميت من القبر واللحد لعلة ؟ حديث ٦٧٦ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أتى رسولُ الله ﷺ عبدالله بن أبيّ ، بعدما أدخل حفرته . فأمر به فأخرج . فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه . فالله أعلم . وكان كسا عباسا قميصا .

وقال أبو هريرة : وكان على رسول الله ﷺ قميصان . فقال له ابن عبد الله : يا رسول الله! ألبس أبي قميصك الذي يلي جلدك .

قال سفيان : فيُرَوْنَ أن النبيّ ﷺ ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع .

النبيّ ﷺ ثوبه لعبد الله بن أُبَىّ، ابن سلول حين مات ودفنه فيه . قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه . فجازاه النبيّ ﷺ ، ذلك بذلك . فأمّا الحديث[1] الذى فيه (لا تصحب إلّا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلّا تقىّ) فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم . انتهى .

وقال الرازىّ : أى : ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم . لأنه لا يمتنع أن يحرم الله أن نطعمهم من ذبائحنا . وأيضاً، فالفائدة فى ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة فى الجانبين، وإباحة الذبائح كانت حاصلة فى الجانبين . لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على التمييز بين النوعين . انتهى .

وقال البرهان البقاعىّ فى (تفسيره) : وقوله تعالى (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) أى : تناوله لحاجتكم إلى مخالطتهم، للإذن فى إقرارهم على دينهم بالجزية . ولما كان هذا مشعراً بإبقائهم على مااختاروا لأنفسهم، زاده تأكيداً بقوله (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) أى : فلا عليكم فى بذله لهم ، ولا عليهم فى تناوله . انتهى .

وفى (أمالى) الإمام السهيلىّ رحمه الله تعالى : قيل : ما الحكمة فى هذه الجملة وهم كفار لايحتاجون إلى بياننا ؟ فعنه جوابان : أحدهما أن المعنى : انظروا إلى ماأحل لكم فى شريعتكم، فإن أَطْعَمُوكُمُوهُ فكلوه ، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم . فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم . ثم نسخ ذلك فى شرعنا . والآية بيان لنا لا لهم. أى : اعلموا أنما كان محرماً عليهم، مما هو حلال لكم، قد أحلّ لهم أيضاً. ولذلك لوأطعمونا خنزيراً أونحوه وقالوا:

---

(١) أخرجه الدارمىّ فى : ٨ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٣ ـ باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء .

وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) عن أبى سعيد الخدرىّ .

هو حلال فى شريعتنا، وقد أباح الله لـكم طعامنا ـ كذبناهم وقلنا : إن الطعام الذى يحـل لـكم هو الذى يحل لنا، لاغيره . فالمعنى : طعامهم حل لـكم، إذا كان الطعامَ الذى أحللته لـكم . وهذا التفسير معنى قول السدىّ وغيره .

الثانى : للنحاس والزجاج والنقاش وكثير من المتـأخرين ؛ أن المعنى : جائز لـكم أن تطعموهم من طعامكم . لا أن يبين لهم ما يحل لهم فى دينهم . لأن دينهم باطل . إلّا أنه لم يقل: وإطعامكم، بل (طعامكم) ـ والطعام المأكول ـ وأما الفعل فهو الإطعام . فإن زعموا أن (الطعام) يقوم مقام (الإطعام) توسعاً ، قلنا : بقى اعتراض آخر . وهو الفصل بين المصدر وصلته بخبر المبتدأ . وهو ممتنع بالإجماع . لا يجيزون (إطعام زيد حسنٌ للمساكين) ولا (ضربك شديدٌ زيداً) فكيف جاز (وطعامكم حلّ لهم) ؟ انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد يستدل بهذه الآية من يرى الـكفار مخاطبين بفروع الشريعة . لأن التحليل حكم وقد علقه بهم فى قوله (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) كما علق الحـكم بالمؤمنين . وهذه الآية أبين فى الاستدلال بها من قوله[1]: لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . فإنّ لقائلٍ أن يقول: فى تلك الآية نفى الحـكم ليس بحكم . ولا يستطيع ذلك فى آية (المائدة) هذه . لأن الحـكم فيها مثبت ، والله أعلم .

ثم قال : ولما استشعر الزمخشرىّ دلالتها على ذلك، وهو من القائلين بأن الـكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة ـ أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين ، أى : لا جناح عليكم ـ أيها المسلمون ! ـ أن تطعموا أهل الـكتاب . انتهى .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ » عطف على (الطيبات) أو مبتدأ حذف خبره لدلالة ما قبله عليه . أى : حلٌّ لـكم . والمراد بـ (المحصنات) العفيفات عن الزنى . كما قال تعالى[2] فى الآية الأخرى: مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . وهو المروىّ عن الحسن والشعبىّ وسفيان وإبراهيم ومجاهد . وحكى ابن جرير رواية أخرى عن مجاهد أنه قال :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] (٢) [٤ / النساء / ٢٥]

المحصنات الحرائر . فقيل : عنى بهن غير الإماء . وقيل: أراد بهن العفيفات ، كقول الجمهور. وذلك لأن الحرّ يطلق على خلاف العبد ، وعلى خيار كل شيء ، كما فى (القاموس) .

قال الزمخشريّ : وتخصيصهن بعثٌ على تخير المؤمنين لنطفهم . والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق . وكذلك نكاح غير العفائف منهن . انتهى .

أقول: جواز نكاح الأمَة موقوف على خوف العنت وعدم طول الحرة، لآية[1]: وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ... الخ . وأما نكاح غير العفيفة فأجازه الأكثرون . وذهب الإمام أحمد إلى تحريم نكاح الزانية على زانٍ وغيره ، حتى تتوب وتنقضى عدتها . لقوله تعالى : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ولما أخرجه أحمد[2] بإسناد رجاله ثقات ، والطبرانيّ فى (الكبير) و (الأوسط) من حديث عبد الله بن عمرو: أن رجلًا من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى امرأة يقال لها أم مهزول ، كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه . فقرأ عليه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . وأخرج أبو داود[3] والنسائىّ والترمذىّ وحسّنه ، من حديث ابن عمر : أن مرثد بن أبى مرثد الغنوىّ كان يحمل الأسارى بمكة . وكان بمكة بغىّ يقال لها عناق . وكانت صديقته . قال : فجئت النبىّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقلت : يارسول الله ! أنكح عناقاً ؟ قال ،فسكت عنى . فنزلت الآية : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ[4] فدعانى فقرأها علىّ وقال : لا تنكحها .

(١) [٤ / النساء / ٢٥]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٢٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٠٩٩ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤ ـ باب فى قوله تعالى (الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً) حديث ٢٠٥١ .

(٤) [٢٤ / النور / ٣] ونصها : الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

وأخرج أحمد وأبو داود[١] بإسناد رجاله ثقات ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : الزانى المجلود لا ينكح إلا مثله . قال ابن القيّم : أخذ بهذه الفتاوى ـ التى لا معارض لها ـ الإمام أحمد ومن وافقه ـ وهى من محاسن مذهبه ـ فإنه لم يجوّز أن ينكح الرجل زوجاً تحبه . ويعضد مذهبَه بضعة وعشرون دليلًا قد ذكرناها فى موضع آخر .

وأخرج ابن ماجة[٢] والترمذىّ وصححه ، من حديث عمرو بن الأحوص ، أنه شهد حجة الوداع مع النبىّ صلى الله عليه وسلم . فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : استوصوا فى النساء خيراً . فإنما هنّ عندكم عوان . ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك. إلّا أن يأتين بفاحشةٍ مبيّنةٍ . فإن فعلن ، فاهجروهنَّ فى المضاجع ، واضربوهنّ ضرباً غير مبرّح ،فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا . وأخرج أبو داود[٣] والنسائىّ ، من حديث ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى لا تمنع يد لامس، قال: غرّبها ، قال: أخاف أن تتبعها نفسى . قال : فاستمتع بها. قال المنذرىّ: ورجال إسناده محتج بهم فى الصحيحين .

قال ابن القيّم : عورض بهذا الحديث المتشابه ، الأحاديث المحكمة الصريحة فى المنع من تجويز البغايا . واختلفت مسالك المحرّمين لذلك فيه . فقالت طائفة : المراد بـ (اللامس)

---

(١) أخرجه أبو داود فى: ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٤ ـ باب فى قوله تعالى: الزانى لا ينكح إلا زانية ، حديث ٢٠٥٢ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب حق المرأة على الزوج ، حديث ١٨٥١ (طبعتنا) .

والترمذىّ فى : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١١ ـ باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب فى تزويج الأبكار ، حديث ٢٠٤٩ .

وأخرجه النسائىّ فى : ٣٧ ـ كتاب الطلاق ، ٣٤ ـ باب ما جاء فى الخلع .

ملتمس الصدقة لا ملتمس الفاحشة . وقالت طائفة : بل هذا فى الدوام غير مؤثر . وإنما المانع ورود العقد على الزانية ، فهذا هو الحرام . وقالت طائفة : بل هذا من التزام أخف المفسدتين لدفع أعلاها . فإنه لما أُمِرَ بمفارقتها خاف من أن لا يصبر عنها فيواقعها حراماً ، فأمره حينئذٍ بإمساكها . إذ مواقعتها بعقد النكاح أقل فسادًا من مواقعتها بالسفاح . وقالت طائفة : بل الحديث ضعيف لا يثبت . وقالت طائفة : ليس فى الحديث مايدل على أنها زانية. وإنما فيه أنها لا تمنع ممن يمسّها أو يضع يده عليها أو نحو ذلك ، فهى تعطى الليان لذلك. ولا يلزم أن تعطيه الفاحشة الكبرى . ولكن هذا لايؤمن معه إجابتها الداعى إلى الفاحشة . فأَمَرَهُ بفراقها ، تركاً لما يريبه إلى ما لا يريبه . فلما أخبره بأن نفسه تتبعها ، وأنه لا صبر له عنها ، رأى مصلحة إمساكها أرجح المسالك . والله تعالى أعلم . وتتمة البحث فى ذلك يأتى إن شاء الله تعالى فى سورة النور .

فائدة :

أفتى جابر بن عبد الله وعامر الشعبيّ وإبراهيم النخعيّ والحسن البصريّ بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها ، أنه يفرق بينهما وتردّ عليه ما بذل لها من المهر . رواه ابن جرير عنهم .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : هنّ أيضاً حلّ لكم . والجمهور : على أن المراد بـ (المحصنات) العفائف عن الزنى ، كما قدمنا .

قال ابن كثير : وهو الأشبه . لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمّية وهى مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية ، ويتحصل زوجها على ما قيل ، حشفاً وسوء كيلة .

وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف ـ ممن فسّر (المحصنات) بالعفيفات ؛ أن الآية تعم كل كتابية عفيفة . سواء كانت حرة أو أمة . ومن فسرها بـ(الحرائر) قال : لا يصح نكاح الأمة الكتابية بحالٍ ، إذ لا يحتمل عار الكفر مع عار الرق ، على أنه يؤدى إلى استرقاق الكافر ولدَ المسلم .

تنبيهات

الأول : ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية . وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين . ورواية عن زيد والصادق والباقر ، واختاره الإمام يحيى وقال : إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة ، وأنّ عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه ، وهى نصرانية . وأنّ طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية . كذا نقله المفسرون .

وروى البيهقىّ وعبد الرزاق وابن جرير عن عمر أنّه قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانىّ المسلمة . وروى عبد الرزاق أيضاً عن سعيد بن المسيب ؛ أن عمر بن الخطاب كتب إلى حذيفة بن اليمان وهو بالكوفة، ونكح امرأة من أهل الكتاب ، فكتب: أن فارِقْها فإنك بأرض المجوس. فإنى أخشى أن يقول الجاهل : قد تزوج صاحبُ رسول الله ﷺ كافرة! ويحلل الرخصة التى كانت من الله عز وجل فيتزوجوا نساء المجوس ... ففارقها .

وروى عبد الرزاق والبيهقىّ عن قتادة : أن حذيفة نكح يهودية . فقال عمر : طلِّقْها فإنها جمرة . فقال : أحرام هى؟ قال : لا ، ولكنى أخاف أن تعاطوا الموسات منهن ..

وروى عبد الرزاق عن زيد بن وهب قال : كتب عمر بن الخطاب : إن المسلم ينكح النصرانية ، والنصرانىّ لا ينكح المسلمة . وروى أيضاً عن جابر قال : نساء أهل الكتاب لنا حلّ، ونساؤنا عليهم حرام . وروى أيضاً عن معمر عن الزهرىّ قال : نكح رجل من قومى فى عهد النبىّ ﷺ امرأة من أهل الكتاب . وروى عن ابن عمر كراهية ذلك. ويحتج بقوله تعالى (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)[1] وكان يقول : لا أعلم شركاً

(١) [٢ / البقرة / ٢٢١] ونصها: وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

أعظم من قولها: إن ربها عيسى . وأجاب الجمهور بأنه عامّ خص بهذه الآية، إن قيل بدخول الـكتابيات فى عموم المشركات ، وإلّا ، فلا معارضة بين الآيتين . لأن أهل الـكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غيرموضع. كقوله تعالى : لَمْ يَـكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَـكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(١) . وكقوله: وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْـكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟(٢) .

الثانى : استدل بعموم الآيةمن جوّز نكاح الحربيات الـكتابيات. وروى عن ابن عباس: أن الإذن فى الذميات خاصة ، ويقرأ : قَاتِلُوا الَّذِينَ ـ إلى قوله ـ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ . قال : فمن أعطى ، حل . ومن لا ، فلا . وهذا الاستدلال دقيق جداً . فليتأمل !

الثالث : قال المهايمىّ : لما اعتبر فى طعام أهل الـكتاب شبهه بالطيّب ـ كما قدمنا ـ اعتبر فى باب النـكاح ، فأحلّ المحصنات منهم . واحتمل كفرهنّ لأنه إنما لم يحتمل كفر غيرهم لأنهم يدعون إلى النار . وهؤلاء لـما اعترفوا بأصل النبوّة ، ولا شبهة لهم فى نفى أمر نبوة محمد ﷺ، فضلًا عن حجة ، ضعفت دعوتهم إليها ، فلم يعتد بها . على أن الرجل مستولٍ على المرأة . فلا تؤثر فيه تأثير الرجل ، فلذلك لم يصح تزويج المسلمة بالـكتابىّ . على أن فيه إذلالًا للمسلمة فلا تحتمل .

الرابع : ذهب ثلة من العترة الطاهرة إلى أن المراد من (المحصنات) المؤمنات منهن . ذهاباً إلى تحريم نـكاح الـكافرة . قال بعض مفسرى الزيدية ، بعد أن ساق مذهب الأكثرين المتقدم : وقال القاسم والهادى والنفس الزكية ومحمد بن عبد الله وعامة القاسمية ـ وهو مروىّ

(١) [٩٨ / البينة / ١] .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْـكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

عن ابن عمر : إنه لا يجوز لمسلمٍ نكاح كافرةٍ ، كتابية كانت أو غيرها . واحتجوا بقوله في سورة البقرة : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ(١) . قالوا ـ يعني الأكثرين ـ : هذا في المشركات لا في الكتابيات ؛ قلنا : اسم الشرك ينطلق على أهل الكتاب بدليل قوله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ . إلى قوله : سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢) . وعن ابن عمر : لا أعلم شركا أعظم من قول النصرانية : إن ربها عيسى . وعن عطاء : قد كثر الله المسلمات . وإنما رخص لهم يومئذ . قالوا : إنه تعالى عطف أحدهما على الآخر فدلّ على أنهما غيرين ، حيث قال تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ(٣) ؛ قلنا : هذا كقوله تعالى : الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ(٤) . قالوا : الآية مصرحة بالجواز في قوله : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . قلنا : في سورة النور : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ(٥) . وقوله في سورة النساء : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ(٦) .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٨٧١ .

(٢) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٣) [٩٨ / البينة / ١] . . . مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٨٠] ونصها : كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .

(٥) [٢٤ / النور / ٢٦] ونصها : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

(٦) [٤ / النساء / ٢٥] . . . مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، =

فشرط الإيمان فى هذا يقضى بالتحريم . فتُتأوّل هذه الآية : أنه أراد المحصنات من أهل الكتاب اللاتى قد أسلمن ، لأنهم كانوا يتكرهون ذلك ، فسماهنّ باسم ما كنّ عليه . وقد ورد مثل هذا فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ(١) . وقوله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ(٢) . وقوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ(٣) . قالوا : سبب النزول وفعل الصحابة يدل على الجواز . وإنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول : قوله (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ)(٤) عامّ نخصّه بقوله تعالى (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ؛ أو نقول : أراد بـ (الْمُشْرِكَاتِ) الوثنيات وبـ (الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) ما أفاده الظاهر . أو يكون قوله (وَالْمُحْصَنَاتُ ...) ناسخاً لتحريم الكتابيات بقوله : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ . قلنا : نقابل ما ذكرتم بما روى ؛ أن كعب بن مالك

= بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤٦] ... وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

و [٦ / الأنعام / ٢٠] ... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ... وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٢١] .

أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية . فسأل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: إنها لا تحصن ماءك؛ وروى أنه نهاه عن ذلك . وبأنا نتأوّل قوله تعالى : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . فنجمع ونقول : تخصيص المشركات بـ (الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) متراخٍ ، والبيان لا يجوز أن يتراخى ! قالوا : روى جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال : أحلّ لنا ذبائح أهل الكتاب وأحلّ لنا نساؤهم. وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا . قال فى (الشفا) : قال علماؤنا : هذا حديث ضعيف النقل . قالوا : قوله صلى الله عليه وسلم فى المجوس : (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) الخبر أفاد جواز ذبائحهم ونكاح نسائهم . قلنا : الجواز منسوخ بأدلة التحريم . ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس فنقول : كافرة فأشبهت الحربية ، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة . أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس . قالوا : لا حكم للاعتبار مع الأدلة . انتهى بحروفه. وهو فقه غريب .

وقوله تعالى « إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » أى : أعطيتموهنّ مهورهنّ . وتقييد الحلّ بإيتائها، لتأكيد وجوبها والحثّ على ماهو الأوْلى ، مبادرة لفراغ الذمة . فإن شغل الذمة بحق الآدميّ أشدّ من شغلها بحق الله تعالى « مُحْصِنِينَ » متعفّفين « غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى : غير مجاهرين بالزنى « وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ » مسرّين به ، و (الخدن) الصديق . يقع على الذكر والأنثى . وحمل المسافحة على إظهار الزنى لظهور مقابله فى الإسرار ، لتبادره من الخدن وهو الصديق . وقيل : الأول نهى عن الزنى ، والثانى نهى عن مخالطتهن . كذا فى (العناية).

قال ابن كثير : كما شرط الإحصان فى النساء ـ وهى العفّة عن الزنى ـ كذلك شرطها فى الرجال . وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً . ولهذا قال (غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصيةٍ ولا يردّون أنفسهم عمن جاءهم (وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) أى : ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلّا معهنّ ، كما تقدم فى سورة النساء ، سواء . ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يصحّ نكاح المرأة البغيّ حتى تتوب ،

ومادامت كذلك لايصح تزويجها من رجل عفيف . وكذلك لايصحّ عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنى ، لهذه الآية وللحديث : لا ينكح الزانى المجلود إلّا مثله .

وروى ابن جرير (١) : أن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشةً فى الإسلام أن يتزوج محصنة. فقال له أُبىّ بن كعب : ياأمير المؤمنين ! الشرك أعظم من ذلك. وقد يقبل منه إذا تاب .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » يريدُ بـ (الإيمان) شرائع الإسلام . على أنه مصدر أريد به المؤمن به . كـ(درهمٌ ضَرْبُ الأمير) . و (الكفر) الإباء عنه وجحوده . والآية تذييل لقوله : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ... تعظيماً لشأن ما أحله الله وما حرّمه ، وتغليظاً على من خالف ذلك. كذلك فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

---

(١) الأثر رقم ١١٢٦٧ .

الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » لما كان من جملة الإيفاء بالعقود التي افتتحت به هذه السورة إقامة الصلاة ، وكانت مشروطة بالطهارة ، بيّن سبحانه في هذه الآية كيفيّتها .

قال بعض المفسرين : نزلت في عبدالرحمن وكان جريحاً . وقيل : لما احتبس ﷺ في سفرٍ ليلًا ـ بسبب عقدٍ ضاع لعائشة ، وأصبحوا على غير ماء . انتهى .

والثاني رواه البخاريّ ـ كما في (أسباب النزول) للسيوطيّ ـ وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة النساء[1] في (آية التيمّم) ثمة . فانظره .

ولهذه الآية ثمرات هي أحكام شرعية

الأولى : وجوب الوضوء وقت القيام إلى الصلاة أي إرادته . فقوله تعالى : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ كقوله : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ[2] . وكقولك: إذا ضربت غلامك فهوّن عليه ، في أن المراد إرادة الفعل . قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له ، وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه . فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم : الإنسان لا يطير ، والأعمى لا يبصر ، أي: لا يقدران على الطيران والإبصار . ومنه قوله تعالى : نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . يعني : إنا كنا قادرين على الإعادة ـ كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل . وذلك لأن الفعل مسبب عن القدرة والإرادة . فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما . ولإيجاز الكلام ونحوه ، من إقامة المسبب مقام السبب ، قولهم : كما تدين تدان . عَبّر عن الفعل المبتدأ ـ الذي هو سبب الجزاء ـ بلفظ الجزاء الذي هو مسبب عنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧١ .

(٢) [١٦ / النحل / ٩٨] . . . مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

الثانية : ظاهر الآية وجوب الوضوء على كل قائمٍ إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً . نظراً إلى عموم (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) من غير اختصاص بالمحدثين . والجمهور على خلافه لما روى الإمام أحمد[١] ومسلم وأهل السنن عن بريدة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة . فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يارسول الله ! إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله . قال : إنى عمداً فعلته ياعمر . وروى البخاريّ[٢] عن سويد بن النعمان قال : خرجنا مع رسول الله صلى عليه وسلم ، عام خيبر . حتى إذا كنا بالصهباء صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر. فلما صلى دعا بالأطعمة. فلم يؤت إلّا بالسويق . فأكلنا وشربنا . ثم قام النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المغرب . فمضمض ثم صلى لنا المغرب ولم يتوضأ . وروى الإمام أحمد[٣] وأبو داود عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وقد سئل عن وضوء أبيه عبد الله ، لكل صلاة ، طاهرا أو غير طاهر ، عمن هو ؟ قال : حدثته أسماء بنت زيدبن الخطاب؛ إنّ عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمِر بالوضوء لكل صلاة طاهراً أو غير طاهر . فلما شقّ ذلك عليه أُمِر بالسواك عند كل صلاة ، ووُضع عنه الوضوء إلّا من حدث . فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك . كان يفعله حتى مات. قال ابن كثير : وفى فعل ابن عمر هذا ، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة ، دلالة على استحباب ذلك . كما هو مذهب الجمهور .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٥٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥١ ـ باب من مضمض من السويق ولم يتوضأ ، حديث ١٥٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٢٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) . وأبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٢٥ ـ باب السواك ، حديث ٤٨ .

وقد روى ابن جرير[١] عن ابن سيرين ، أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة . وعن عكرمة : أن عليًّا ـ رضى الله عنه ـ كان يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ...﴾الآية ؛ وعن النزال بن سبرة قال : رأيت عليًّا صلى الظهر . ثم قعد للناس فى الرحبة. ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه. ثم مسح برأسه ورجليه وقال : هذا وضوء من لم يحدث ، وفى رواية : إنه توضأ وضوءاً فيه تجوّز فقال : هذا وضوء من لم يحدث ؛ وكذا حكى أنس عن عمر أنه فعله . والطرق كلّها جيدة . وأما ماراه أبو داود الطيالسىّ عن سعيد بن المسيب أنه قال : الوضوء من غير حدث اعتداء ـ فهو غريب عنه . ثم هو محمول على من اعتقد وجوبه . وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك . روى الإمام أحمد عن أنس قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كلّ صلاة . قيل له : فأنتم كيف تصنعون ؟ قال : كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد مالم نحدث ! ورواه البخارىّ[٢] وأهل السنن أيضاً . وروى أبو داود[٣] والترمذىّ وابن ماجة وابن جرير عن ابن عمر مرفوعا: من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات . وضعفه الترمذىّ .

وإذ دلّت هذه الأحاديث على أن الوضوء لا يجب إلّا على المحدث ، فالوجه فى الخروج من ظاهر الآية ، أن الخطاب فيها خاص بالمحدثين .

---

(١) الأثر رقم ١١٣٢٤ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥٤ ـ باب الوضوء من غير حدث ، حديث ١٦٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٣٢ ـ باب الرجل يجدد الوضوء من غير حدث ، حديث ٦٢ .

والترمذىّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٤ ـ باب الوضوء لكل صلاة .

وابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٧٣ ـ باب الوضوء على الطهارة ، حديث ٥١٢ (طبعتنا) .

وفى (العناية) : الإجماع صرفها عن ظاهرها . فأما أن تكون مقيدة ـ أى وأنتم محدثون ـ بقرينة دلالة الحال ، ولأنه اشترط الحدث فى البدل وهو التيمم ـ فلو لم يكن له مدخل فى الوضوء ، مع المدخلية فى التيمم ، لم يكن البدل بدلاً . وقوله (فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً) صريح فى البدلية . وقيل : فى الكلام شرط مقدر. أى : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ .. إن كنتم محدثين . وإن كنتم جنباً فاطهروا . وهو قريب جدًّا . انتهى .

وزعم بعضهم ؛ أن الوجوب على كل قائم للصلاة كان فى أول الأمر ثم نسخ . واستدلّ على ذلك بحديث عبد الله بن حنظلة المتقدم . ونظر فيه بحديث: (المائدة من آخر القرآن نزولًا) وأجيب بأن الحافظ العراقىّ قال : لم أجده مرفوعاً . هـذا ، وقال الزمخشرىّ: لا يجوز أن يكون الأمر فى الآية شاملًا للمحدثين وغيرهم ـ لهؤلاء على وجه الإيجاب ، ولهؤلاء على وجه الندب ـ لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية . وفى (الانتصاف) : من جوّز أن يراد بالمشترك كلّ واحدٍ من معانيه على الجمع ، أجاز ذلك فى الآية . ومن المجوزين لذلك الشافعىّ ـ رحمه الله تعالى ـ وناهيك بإمام الفنّ وقدوته . وإذا وقع البناء على أن صيغة (أفعل) مشتركة بين الوجوب والندب ، صحّ تناولها فى الآية للفريقين المحدثين والمتطهرين . وتناولها للمتطهرين من حيث الندب ، والله أعلم .

الثالثة : قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : تمسك بهذه الآية مَنْ قال : إنّ الوضوء أول مافرض بالمدينة ، فأمّا ماقبل ذلك ، فنقل ابن عبد البرّ اتفاق أهل السير على أن غسل غسل الجنابة إنما فرض على النبىّ ﷺ وهو بمكة . كما فرضت الصلاة . وأنه لم يصلّ قط إلّا بوضوء . قال : وهذا مما لا يجهله عالم .

وقال الحاكم فى (المستدرك) : وأهـل السنة بهم حاجة إلى دليل الردّ على من زعم أن الوضوء لم يكن قبل نزول آية المائدة . ثم ساق حديث ابن عباس : دخلت فاطمة على النبىّ ﷺ وهى تبكى، فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تماهدوا ليقتلوك ! فقال : ائتونى بوضوء فتوضأ ... الحديث .

قال ابن حجر : وهذا يصلح ردًّا على من أنكر وجود الوضوء قبل الهجرة ، لا على من أنكر وجوبه حينئذٍ . وقد جزم ابن الحكم المالكيّ بأنه كان قبل الهجرة مندوباً ؛ وجزم ابن حزم بأنه لم يشرع إلّا بالمدينة ، وردّ عليهما بما أخرجه ابن لهيعة فى (المغازى) التى يرويها عن أبى الأسود ـ يتيم عروة ـ عنه ؛ أن جبريل علّم النبىّ ﷺ الوضوء عند نزوله عليه بالوحى . وهو مرسل ؛ ووصله أحمد[1] من طريق ابن لهيعة أيضاً . لكن قال : عن الزهرىّ عن عروة عن أسامة بن زيد عن أبيه ، وأخرجه ابن ماجة[2] من رواية رشدين ابن سعد ، عن عقيل ، عن الزهرىّ ، نحوه . لكن لم يذكر زيد بن حارثة فى السند ؛ وأخرجه الطبرانىّ فى (الأوسط) من طريق الليث عن عقيل موصولًا ، ولو ثبت لكان على شرط الصحيح ، لكن المعروف رواية ابن لهيعة . انتهى .

أى : وابن لهيعة يضعف فى الحديث .

الرابعة : قيل: فى الآية دلالة على أن الوضوء لا يجب لغير الصلاة. وأيّد بما رواه أبو داود والنسائىّ[3] والترمذىّ عن عبد الله بن عباس ؛ أنّ رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا : أَلَا نأتيك بوضوء ؟ فقال : إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة . قال الترمذىّ : حديث حسن .

وروى مسلم[4] عن ابن عباس قال : كنا عند النبىّ ﷺ . فأتى الخلاء . ثم إنه رجع فأتى بطعام . فقيل : يا رسول الله ! ألا تتوضأ ؟ فقال : لم أصلّ فأتوضأ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ).

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٨ ـ باب ما جاء فى النضح بعد الوضوء ، حديث ٤٦٢ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٠٠ ـ باب الوضوء لكل صلاة .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ١١٨ـ١٢١ (طبعتنا) .

وأما اشتراط الوضوء للطواف وسجدة التلاوة وصلاة الجنازة ومسّ المصحف ـ عندمن أوجبه ـ فمن أدلةٍ أخر مقررة فى فقه الحديث .

الخامسة : (وجوب غسل الوجه) والغسل إمرار الماء على المحل حتى يسيل عنه ، هذا هو المحكىّ عن أكثر الأئمة . زاد بعضهم : مع الدلك . وعن النفس الزكية : أن مجرد الإمساس يكفى وإن لم يَجْرِ . وحدّ الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولًا . ومن الأذن إلى الأذن عرضاً . وقد ساق بعض المفسرين هنا مذاهب ، فيما يشمله الوجه ومالا يشمله ، ومحلها كتب الخلاف .

السادسة : (وجوب غسل اليدين) :

وهذا مجمع عليه ؛ وأما المرفقان ، تثنية مرفق (كمِنْبَر ومَجْلِس) موصل الذراع فى العضد ، فالجمهور على دخولها فى المغسول ؛ وحكى عن زفر وبعض المالكية وأهل الظاهر عدم دخولها . وسبب الخلاف أن المغيّا بـ (إلى) تارةً يتضح دخوله فى الغاية ، وطوراً لا ، وآونةً يحتمل .

قال الزمخشرىّ : (إلى) تفيد معنى الغاية مطلقاً ، فأما دخولها فى الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل ، فما فيه دليل على الخروج قوله : فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ[1] لأن الإعسار علة الإنظار ، وبوجود الميسرة تزول العلة ، ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظراً فى كلتا الحالتين ، معسراً وموسراً ، وكذلك : ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ[2] لو دخل الليل لوجب الوصال ؛

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٠] ونصها : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٨٧] ونصها : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا =

ومما فيه دليل على الدخول قولك : حفظت القرآن من أوله إلى آخره ، لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله . ومنه قوله تعالى : مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى[1] لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله ؛ وقوله (إِلَى الْمَرَافِقِ) و (إِلَى الْكَعْبَيْنِ) لا دليل فيه على أحد الأمرين ، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط . فحكموا بدخولها فى الغسل ، وأخذ زفر وداود بالمتيقن ، فلم يدخلاها . انتهى .

قال الرضىّ : الأكثر عدم دخول حدّى الابتداء والانتهاء فى المحدود . فإذا قلت : اشتريت من هذا الموضع إلى ذلك الموضع ، فالموضعان لا يدخلان ظاهراً فى الشراء . ويجوز دخولها فيه مع القرينة ؛ وقال بعضهم : ما بعد (إلى) ظاهر الدخول فيما قبلها . فلا تستعمل فى غيره إلّا مجازاً . وقيل : إن كان ما بعدها من جنس ما قبلها نحو : أكلت السمكة إلى رأسها ، فالظاهر الدخول وإلّا فلا ، نحو : أتموا الصيام إلى الليل . والمذهب هو الأول . ثم قيل : بأنها فى الآية بمعنى (مع) كقوله تعالى[2] : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ . قال الرضىّ : والتحقيق أنها بمعنى الانتهاء . أى تضيفوها إلى أموالكم ، ومضافة إلى المرافق . انتهى .

قال صاحب (النهاية) : وقول من لم يدخل المرافق من جهة الدلالة اللفظية أرجح ، وقول من أدخلها من جهة الأثر أبين . لأن فى حديث مسلم[3] مما رواه أبو هريرة :

= حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

(١) [١٧/ الإسراء/ ١] ونصها : سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

(٢) [٤ / النساء / ٢]

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

أنه غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد . ثم اليسرى . ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع فى الساق . ثم اليسرى كذلك . واحتج أهل المذهب بحديث جابر : أنه صلى الله عليه وآله كان يدير الماء على مرفقيه . قالوا : ودلالة الآية مجملة . وهذا بيان للمجمل . وبيان المجمل الواجب يكون واجباً . انتهى .

وقال المجد ابن تيمية فى (المنتقى) : يتوجه من حديث أبى هريرة وجوب غسل المرفقين. لأن نص الكتاب يحتمله . وهو مجمل فيه . وفعله ﷺ بيان لمجمل الكتاب ، ومجاوزته للمرفق ليس فى محل الإجمال ، ليجب بذلك. انتهى .

وأجابوا بأن حديث جابر رواه الدارقطنىّ والبيهقىّ . وفى إسناده متروك . وقد صرح بضعفه غير واحدٍ من الحفاظ . وحديث أبى هريرة فعل لا ينهض بمجرده على الوجوب . وقولهم (هو بيان للمجمل) فيه نظر . لأن (إلى) حقيقة فى انتهاء الغاية ـ كما قدمنا ـ فلا إجمال . والله أعلم .

السابعة : قال الرازىّ : يقتضى قوله تعالى (إِلَى الْمَرَافِقِ) تحديد الأمر ، لا تحديد المأمور به . يعنى أن قوله (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) أمر بغسل اليدين إلى المرفقين ، فإيجاب الغسل محدود بهذا الحدّ . فبقى الواجب هو هذا القدر فقط ، أما نفس الغسل فغير محدود بهذا الحدّ ، لأنه ثبت بالأخبار أن تطويل الغرة سنة مؤكدة. انتهى .

الثامنة : أشعر أيضاً قوله تعالى (إِلَى الْمَرَافِقِ) أن ينتهى فى غسل اليدين بها ، ويبتدأ بالأصابع . قال الحاكم : وقد وردت السنة بذلك ، وهو الذى عليه الفقهاء ، ولدلالة لفظ (إلى) لأنها للغاية ، وغاية الشىء آخره . وقالت الإمامية : السنة أن يبتدىء بالمرفق . وقالوا : إن (إلى) هنا بمعنى (من) قال الحاكم : هذا تقدير فاسد .

التاسعة : ذهب الجمهور إلى أن تقديم اليمين على الشمال سنّة ، مَنْ خالفها فاته الفضل وتمّ وضوؤه . وذهب العترة والإمامية ـ كما فى (البحر) للمهدى ـ إلى وجوبه . واحتج عليهم

بأن الآية لاتفيد ذلك ، فمتى غسلهما مرتباً أو غير مرتب ـ قدم اليمنى أو اليسرى ـ فقد امتثل الأمر . وأجابوا بأن الدلالة على الوجوب من السنة ، فقد روى أحمد وأبو داود[(١)] عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إذا لبستم وإذا توضأتم فابدأوا بأيامنكم ! وأجيب : بأن الأمر للندب لقوله : إذا لبستم وإذا توضأتم . فقرن بينه وبين اللبس . فإذن يدل على وجوب التيامن في اللبس كما يدلّ عليه في الوضوء ، وهم لا يقولون به . وأيضاً فقد روى عن عليّ عليه السلام أنه قال : ما أبالي بدأت بيميني أو بشمالي إذا أكملت الوضوء . رواه الدارقطنيّ . وروى نحوه البيهقيّ وابن أبي شيبة . وروى أبو عبيد في الطهور : أن أبا هريرة كان يبدأ بمیامنه . فبلغ ذلك عليًّا فبدأ بمياسره . ورواه أحمد بن حنبل عن عليّ . قال الحافظ ابن حجر : وفيه انقطاع . وهذه الطرق يقوى بعضها بعضاً . وكذلك الحديث المقترن بالتيامن في اللبس، المجمع على عدم وجوبه، صالح لجعله قرينة تصرف الأمر إلى الندب . ودلالة الاقتران ـ وإن كانت ضعيفة ـ لكنها لا تقصر عن الصلاحية للصرف. لاسيما مع اعتضادها بقول عليّ عليه السلام وفعله .

العاشرة : ذهب بعض العترة إلى أنه لا مسح على الجبائر . ففي (الأحكام) من كتبهم : إذا جبر على جرح أو كسر وخشي من نزع الجبائر ضرراً ، لا يشرع المسح . قال : لأنّ الآية تقتضي غسل اليد دون ما عليها . والجمهور منهم ومن غيرهم : أنه يمسح، لحديث جابر : إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده . رواه أبو داود[(٢)] والدارقطنيّ . وصححه ابن السكن .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ ـ كتاب اللباس، ٤١ ـ باب في الانتعال، حديث ٤١٤١ وابن ماجة في: ١ ـ كتاب الطهارة، ٤٢ ـ باب التيمن في الوضوء، حديث ٤٠٢ (طبعتنا).

(٢) أخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٥ ـ باب في المجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ ونصه :

الحادية عشرة : (وجوب مسح الرأس) :

والمسح إمساس المحل الماء بحيث لا يسيل ، والباء فى قوله تعالى (بِرُءُوسِكُمْ) تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق ، فكأنه قيل : وألصقوا المسح برؤوسكم . قال الزمخشرىّ : وماسح بعض الرأس ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه . أى : فيكون الواجب مطلق المسح كلًّا أو بعضاً ـ وأيًّا ما كان ـ وقع به الامتثال . والسنة الصحيحة وردت بالبيان ، وفيها مايفيد جواز الاقتصار على مسح البعض فى بعض الحالات كما فى صحيح مسلم(١) وغيره من حديث المغيرة ؛ أنه صلى الله عليه وسلم أدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه

= عن جابر قال : خرجنا فى سفر . فأصاب رجلًا منا حجرٌ فشجه فى رأسه . ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات .

فلما قدمنا على النبىّ صلى الله عليه وسلم أُخبر بذلك . فقال « قتلوه ، قتلهم الله . ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (أو يعصب) على جرحه خرقة ، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » .

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٨١ (طبعتنا) ونصه :

عن المغيرة قال : تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخلفت معه . فلما قضى حاجته قال « أمعك ماء » ؟ فأتيته بمَطْهرة . فغسل كفيه ووجهه . ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كمّ الجبة . فأخرج يده من تحت الجبة . وألقى الجبة على منكبيه . وغسل ذراعيه . ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه . ثم ركب وركبت . فانتهينا إلى القوم وقد قاموا فى الصلاة . يصلى بهم عبد الرحمن بن عوف وقد ركع بهم ركعة . فلما أحسّ بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ذهب يتأخر . فأومأ إليه . فصلّى بهم . فلما سلّم قام النبىّ صلى الله عليه وسلم وقمت . فركعنا الركعة التى سبقتنا .

ولم ينقض العمامة . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة[١] ؛ أنه مسح رأسه فأقبل وأدبر . وهذه هى الهيئة التى استمرّ عليها صلى الله عليه وسلم . فاقتضى هذا أفضلية الهيئة التى كان صلى الله عليه وسلم يداوم عليها . وهى : مسح الرأس مقبلًا ومدبراً . وإجزاء غيرها فى بعض الأحوال . ولا يخفى أن الآية لاتفيد إيقاع المسح على جميع الرأس . كما فى نظائره من الأفعال. نحو: ضربت رأس زيد ، وبرأسه . وضربت زيداً وضربت يد زيدٍ. فإنه يوجد المعنى اللغوىّ فى جميع ذلك ، بوجود الضرب على جزء من الأجزاء المذكورة . وهكذا ما فى الآية . وليس النزاع فى مسمى الرأس لغة ، حتى يقال: إنه حقيقة فى جميعه . بل النزاع فى إيقاع المسح عليه . وعلى فرض الإجمال، فقد بينه الشارع تارةً بمسح الجميع، وتارةً بمسح البعض . بخلاف الوجه. فإنه لم يقتصر على غسل بعضه فى حال من الأحوال ، بل غسله جميعاً . وأما اليدان والرجلان فقد صرح فيهما بالغاية . فإن قلت: إن المسح ليس كالضرب الذى مثلت به . قلت: لا ينكر أحد من أهل اللغة أنه يصدق قول من قال (مسحت الثوب أو بالثوب . أو مسحت الحائط أو بالحائط) على مسح جزء من أجزاء الثوب أو الحائط . وإنكار مثل هذا مكابرة . كذا فى (الروضة) .

---

(١) أخرجه فى البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٣٨ ـ باب مسح الرأس كله لقول الله تعالى : وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ، حديث ١٤٦ ونصه :

أن رجلا قال لعبد الله بن زيد (وهو جدّ عمرو بن يحيى) : أتستطيع أن ترينى كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم .

فدعا بماء فأفرغ على يديه فغسل مرتين . ثم مضمض واستنثر ثلاثا . ثم غسل وجهه ثلاثا . ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين . ثم مسح رأسه بيديه . فأقبل بهما وأدبر . بدأ بمقدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه . ثم ردهما إلى المكان الذى بدأ منه . ثم غسل رجليه .

قال شمس الدين بن القيّم فى (الهدى) : ولم يصحّ عنه ﷺ فى حديث واحد، أنه اقتصر على مسح بعض رأسه البتة . ولكن كان إذا مسح بناصيته كمل على العمامة . فأما حديث أنس الذى رواه أبو داود[1] : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وعليه عمامة قِطْرية ، فأدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة ـ فهذا مقصود أنس به أن النبىّ ﷺ لم يَنْقُضْ عمامته حتى يستوعب مسحُ الرأس الشعرَ كله . ولم ينف التكميل على العمامة . وقد أثبته المغيرة بن شعبة وغيره . فسكوت أنس عنه لا يدل على نفيه . انتهى .

قال الشوكانىّ : ليس النزاع إلّا فى الوجوب . وأحاديث التعميم ، وإن كانت أصح ، وفيها زيادة وهى مقبولة ـ لكن أين دليل الوجوب ؟ وليس إلّا مجرد الفعل . وهو لا يدل على الوجوب. ثم قال : وبعد هذا ، فلاشك فى أولوية استيعاب المسح لجميع الرأس وصحة أحاديثه. ولكن دون الجزم بالوجوب ، مفاوز وعقاب.

فصل

وأما قوله تعالى : وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . فقرأه بالنصب نافع وابن عامر وحفص والكسائىّ ويعقوب . وبالجرّ الباقون ، ومن هاتين القراءتين تشعبت المذاهب فى صفة طهارة الرجلين . فمن ذاهبٍ إلى أنّ طهارتهما الغسل. ومن ذاهب إلى أنها المسح. ومن مخيّر بينهما. ولكلٍّ من هذه المذاهب حججٌ وتأويلاتٌ وأجوبةٌ ومناقشاتٌ نسوق شذرةً منها .

فنقول : قال الأولون : قراءة النصب ظاهرها يفيد الغسل . وقراءة الجرّ ظاهرها يفيد المسح . إلّا أنه لما وجد ما يرجح الغسل تأولنا ما أفادته قراة الجرّ فى الظاهر . والمرجح للغسل أمور .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٨ ـ باب المسح على العمامة ، حديث ١٤٧ .

منها : ما فى (الصحيحين)[١] و (السنن) عن عثمان وعلىّ وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب ؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين فى وضوئه ، إما مرةً وإما مرتين أو ثلاثاً . على اختلاف رواياتهم . وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أنّ رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلّا به .

وفى (الصحيحين)[٢] عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ فى سفره. فأدركنا وقد أرهقنا العصر . فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا . قال ، فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار . مرتين أو ثلاثاً . وكذلك هو فى (الصحيحين)[٣] عن أبى هريرة. وفى (صحيح مسلم)[٤] عن عائشة عن النبىّ ﷺ أنه قال : أسبغوا الوضوء . ويل للأعقاب من النار . وروى البيهقىّ والحاكم ، بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن الحرث بن جزء ؛ أنه

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٢ ـ باب الوضوء مرة مرة ، حديث ١٢٨ عن ابن عباس .

و ٢٣ ـ باب الوضوء مرتين مرتين ، حديث ١٢٩ عن عبد الله بن زيد .

و ٢٤ ـ باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ، حديث ١٣٠ عن عثمان بن عفان .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٧ ـ باب غسل الرجلين، ولا يمسح على القدمين ، حديث ٥٣ .

ومسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٢٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٩ ـ باب غسل الأعقاب ، حديث ١٣٢ .

ومسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٢٨ (طبعتنا)

(٤) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

سمع رسول الله ﷺ يقول : ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار . وروى الإمام أحمد(١) وابن ماجة(٢) وابن جرير(٣) عن جابر بن عبد الله قال : رأى النبيّ ﷺ في رِجْلِ رَجُلٍ مثلَ الدرهم لم يغسله، فقال : ويل للأعقاب من النار .

قال ابن كثير : ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة . وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنّه يجوز ذلك ، لما توعد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب جميع الرِّجل . بل يجرى فيه ما يجرى في مسح الخف . وروى الإمام أحمد(٤) عن خالد بن معدان عن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا يصلّي وفي ظهر قدمه لمعةٌ قدر الدرهم ، لم يصبها المـاء . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء . زاد أبو داود : والصلاة . وروى الإمام أحمد(٥) عن أبي أمامة قال : حدثنا عمرو بن عَبَسَة قال : قلت : يارسول الله ! أخبرني عن الوضوء ، قال : مامنكم من أحدٍ يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر ، إلّا خرّت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٩٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) . وأخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٦ ـ باب تفريق الوضوء ، حديث ١٧٥ ، عن خالد عن بعض أصحاب النبيّ ﷺ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١ ـ كتاب الطهارة وسننها ، ٥٥ ـ باب غسل العراقيب ، حديث ٤٥٤ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١١٥١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ). وأخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٦ ـ باب تفريق الوضوء ، حديث ١٧٥

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (من حديث طويل) بالصفحة رقم ١١٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

حين ينتثر . ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلّا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء . ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلّا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله . ثم يمسح رأسه إلّا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع المـاء . ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمر الله إلّا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء . ثم يقوم فيحمد الله ويثنى بالذى هو له أهل ، ثم يركع ركعتين إلّا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال أبو أمامة : ياعمرو! انظر ماتقول . سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أَيُعْطى هذا الرجل كله فى مقامه ؟ قال عمرو بن عبسه : ياأبا أمامة ! لقد كبرسنى ورقّ عظمى واقترب أجلى . ومابى حاجة أنأ كذب على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا مرة أو مرتين أو ثلاثاً . لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك ... قال ابن كثير : وإسناده صحيح وهو فى (صحيح مسلم)[1] من وجه آخر ، وفيه : ثم يغسل قدميه كما أمره الله . فدلّ على أن القرآن يأمر بالغسل. وهكذا روى أبو إسحق السبيعىّ عن الحرث عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أُمرتم. ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علىّ ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رش على قدميه الماء وهما فى النعلين فدلكهما . إنما أراد غسلًا خفيفاً وهما فى النعلين . ولا مانع من إيجاد الغسل والرّجل فى نعلها . ويكون فى هذا ردّ على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين . وهكذا مارواه ابن جرير[2] عن حذيفة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سباطة قومٍ فبال قائمـا ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه . وهو حديث صحيح . وقد أجاب ابن جرير عنه : بأنّ الثقات الحفاظ رووه عن حذيفة : فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه . قال ابن كثير : ويحتمل الجمع بينهما . بأن يكون فى رجليه خفان وعليهما نعلان .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٩٤ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١١٥٢٨ .

وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد[١] عن أوس بن أبى أوس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة . ورواه أبو داود[٢] عنه بلفظ : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سباطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه . ثم قال الجمهور : إن قراءة الجرّ محمولة على الجوّ الجوارىّ . ونظيره كثير فى القرآن والشعر . كقوله تعالى : عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ[٣] . وَ: حُورٍ عِينٍ[٤] بالجرّ فى قراءة حمزة والكسائىّ عطفاً على (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ)[٥] والمعنى مختلف . إذ ليس المعنى : يطوف عليهم ولدان مخلدون بحور عين . وكقولهم : جحر ضبٍّ خربٍ ، وللنحاة باب فى ذلك . حتى تعدوا ، من اعتباره فى الإعراب ، إلى التثنية والتأنيث وغير ذلك . وقد ساق شذرة من أشباهه ونظائره أبو البقاء هنا . فانظره . وما قيل بأن حرف العطف مانع من الجوار (زعماً بأنه خاص بالنعت والتأكيد) مردود بأنه ورد فى العطف كثيراً فى كلام العرب . قال الشاعر[٦] :

لم يبق إلّا أسير غير منفلتٍ ومو ثقٍ فى عقال الأسر مكبول

نخفض (موثقاً) بالمجاورة للمنفلت . وحقه الرفع عطفاً على (أسير) . وقال[٧] :

فهل أنت ـ إن ماتت أتانك ـ راحلٌ إلى آل بسطام بن قيس نخاطِبِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٦٢ ـ باب المسح على الجوربين ، حديث ١٦٠ .

(٣) [١١ / هود / ٢٦] .

(٤) [٥٦ / الواقعة / ٢٢] .

(٥) [٥٦ / الواقعة / ١٨] .

(٦) لم أعرف اسم هذا الشعر . ولم أعثر على هذا البيت فى مكانٍ .

(٧) لم أعرف اسم هذا الشاعر . ولم أعثر على هذا البيت فى مكانٍ .

فجرّ (نخاطب) للمجاورة . وحقه الرفع عطفاً على (راحل) . وكفى فى الردّ قراءة (وحورٍ) بالجرّ كما قدّمنا . قالوا : وشرط حسن الجرّ الجوارىّ عدم الإلباس مع تضمن نكتة . وهنا كذلك . فإن الغاية دلت على أنه ليس بممسوح . إذ المسح لم تضرب له غاية فى الشريعة . والنكتة فيه الإشارة إلى تخفيفه حتى كأنه مسح .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والوجه فيه أن الغسل والمسح متقاربان ، من حيث إن كل واحد منهما إمساس بالعضو . فيسهل عطف المغسول على الممسوح من ثَمَّ ـ كقوله : متقلداً سيفاً ورمحاً . وعلفتها تبناً وماء بارداً ـ ونظائره كثيرة . وبهذا وجّه الحذاق . ثم يقال : ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب ؟ وهلّا أسند إلى كل واحد منهما الفعل الخاصّ به على الحقيقة ؟ فيقال : فائدته الإيجاز والاختصار وتوكيد الفائدة ـ بما ذكره الزمخشرىّ ـ أى : من أنّ الأرجل لما كانت مظنة للإسراف المذموم المنهىّ عنه ، فعطفت على الرابع الممسوح ، لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد فى صبّ الماء عليها . ثم قال الناصر : وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلًا : واغسلوا أرجلكم غسلًا خفيفاً لا إسراف فيه كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل مع الممسوح . ونبه بهذا التشريك، الذى لا يكون إلّا فى الفعل الواحد أو الفعلين المتقاربين جدًّا، على أن الغسل المطلوب فى الأرجل، غسل خفيف يقارب المسح. وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة . انتهى.

وأما من أوجب الجمع بين المسح والغسل فأخذًا بالجمع بين القراءتين. ومراد من ذهب إلى هذا بالمسح ، هو الدلك. كما تقدم عن النفس الزكية .

قال ابن كثير : من نقل عن ابن جرير ـ أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية ـ فلم يحقق مذهبه فى ذلك ، فإن كلامه فى تفسيره إنما يدلّ على أنه أراد أنه يجب دَلْك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك ، فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما ، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح ، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد

وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما. فحكاه من حكاه كذلك . ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء ، وهو معذور . فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخرعليه لاندراجه فيه . وإنما أراد ما ذكرته والله أعلم . ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين فى قوله « وَأَرْجُلَكُمْ » خفضاً على المسح وهو الدلك ، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه . انتهى .

وأما من قال : الوجب هو المسح ، فتمسك بقراءة الجر ، وهومذهب الإمامية . وأجابوا عن قراء النصب بأنها مقتضية للمسح أيضاً . وقدوقفت على كتاب (شرح المقنعة) من كتبهم فوجدته أطنب فى هذا البحث ، ووجه اقتضاء النصب للمسح بأن موضع الرؤوس موضع نصب لوقوع الفعل ، الذى هو المسح . عليه . قال : وعلى هذا لا ينكر أن يعطف الأرجل على موضع الرؤوس لا لفظها فينصب ، والعطف على الموضع جائز مشهور فى لغة العرب . ثم ساق الشواهد فى ذلك وقال بعد : فإن قيل : ما أنكرتم أن تكون القراءة بالنصب لا تقتضى الغسل، فلا تحتمل المسح. لأن عطف الأرجل على موضع الرؤوس فى الإيجاب توسّع وتجوّز . والظاهر والحقيقة يوجبان عطفها على اللفظ لا الموضع . قلنا : ليس الأمر على ما توهمتم ، بل العطف على الموضع مستحسن فى لغة العرب ، وجائز لا على سبيل الاتساع والعدول عن الحقيقة . فالمتكلم مخير بين حمل الإعراب على اللفظ تارةً ، وبين حمله على الموضع أخرى . قال : وهذا ظاهر فى العربية مشهور عند أهلها ، وفى القرآن والشعر له نظائر كثيرة. ثم قال : على أنّا لو سلمنا أن العطف على اللفظ أقوى ، لكان عطف الأرجل على موضع الرؤوس أولى ، مع القراءة بالنصب . لأن نصب الأرجل لا يكون إلّا على أحد وجهين : إما بأن يعطف على الأيدى والوجوه فى الغسل ، أو يعطف على موضع الرؤوس فينصب، ويكون حكمها المسح . وعطفها على موضع الرؤوس أولى . وذلك أن الكلام إذا حصل فيه عاملان ، أحدهما قريب والآخر بعيد ، فإعمال الأقرب أولى من إعمال الأبعد . وقد نص أهل العربية على هذا فى باب التنازع . انتهى . فتأمّل جدلهم.

قال الحافظ ابن كثير : وقد روى عن طائفة من السلف القول بالمسح . فروى ابن[١] جرير عن حميد قال : قال موسى بن أنس ونحن عنده : ياأباحمزة ! إن الحجاج خطبنا بالأهواز، ونحن معه. فذكر الطهور فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم. وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه. فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج . قال الله تعالى : وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ .

قال : وكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما .

قال ابن كثير : إسناده صحيح إليه .

وروى ابن جرير[٢] أيضاً عن عاصم عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة بالغسل. وإسناده صحيح أيضاً .

وأسند[٣] أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس قال : الوضوء غسلتان ومسحتان .

وكذا روى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ) ، قال : هو المسح . ثم قال : وروى عن ابن عمر وعلقمة وأبي جعفر محمد بن عليّ والحسن (فى إحدى الروايات) وجابر بن زيد ومجاهد (فى إحدى الروايتين) نحوه .

وروى ابن جرير[٤] عن أيوب قال : رأيت عكرمة يمسح على رجليه . وعن الشعبي[٥] قال: نزل جبريل بالمسح . ألا ترى أنّ التيمم، أن يمسح ما كان غسلًا ويلغى ما كان مسحاً ؟

---

(١) الأثر رقم ١١٤٧٥

(٢) الأثر رقم ١١٤٧٦

(٣) الأثر رقم ١١٤٧٤

(٤) الأثر رقم ١١٤٨٦

(٥) الأثر رقم ١١٤٨٠

وأما من ذهب إلى التخيير ، فقال: لما جاءت القراءة بما يوجب الغسل وبما يوجب المسح، دلّ على أنه مخيّر . قال فى (الشفا) : القراءتان لا توجبان الجمع، بل تثبتان التخيير .

ولا يخفى أن ظاهر الآية صريح فى أن واجبهما المسح . كما قاله ابن عباس وغيره . وإيثار غسلهما فى المأثور عنه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو للتزيد فى الفرض والتوسع فيه حسب عادته صلى الله عليه وسلم ، فإنه سنّ فى كل فرضٍ سنناً تدعمه وتقويه. فى الصلاة والزكاة والصوم والحج . وكذا فى الطهارات كما لا يخفى . ومما يدلّ على أن واجبهما المسح ، تشريع المسح على الخفّين والجوربين . ولا سند له إلا هذه الآية ، فإن كل سنة أصلها فى كتاب الله ، منطوقاً أو مفهوماً ، فاعرف ذلك واحتفظ به ، والله الهادى .

فصل

فيما قاله الصوفية ــ قدس الله سرهم ــ من أسرار طهارة هذه الأعضاء :

فأما الوجه ، فإنما وجب غسله لأن فيه أكثر الحواس الظاهرة التى ينتفع بالمحسوسات بواسطتها ، فلا بدّ من تطهيره عند ظهور آثار حدثت عنها ، ولسبق الإحساس على العمل، قدم ما فيه أكثر الحواس الظاهرة أى غير السمع . ثم أمر بتطهير الآلة الفاعلية للأفعال التى منها تلك الآثار ــ وهى الأيدى إلى المرافق ــ لأن العمل بالأصابع يحتاج إلى تحريك الكف التى لا تتحرك غالباً إلّا بتحريك المرافق ؛ ثم أمر بمسح الرأس لأنه جامع للحواس الباطنة، فأشبه جامع الحواس الظاهرة ، وأخّره عن غسل اليدين لأنه مخزن الصور المدركة بالحواس الظاهرة من أعماله وغيرها . ولم يأمر بغسله لأنه يضر بصاحب الشعر ، ولا بد منه فى الزينة . لاسيّما للمرأة ، فخفف بالمسح . ثم أوجب غسل آلة السعى لمشابهة آلة العمل وهى الأرجل ، ولما كانت حركتها توجب حركة جميع البدن، اقتصر على أدنى الغايات . أعنى : الكعبين ، لئلا تبطل فائدة تخصيص الأعضاء ، وفى الفصل بين المغسولات بالممسوح إيماء إلى وجوب الترتيب ، والسرّ فيه ما أشرنا إليه . كذا فى تفسير (المهايمىّ) .

وذكر الشعرانيّ ـ قُدِّس سره ـ في سرّ ذلك . أن الوجه به حصول المواجهة في حضرة الله تعالى عند خطابه ؛ والشرع قد تبع العرف في ذلك . وإلّا فكل جزء من بدن العبد ـ ظاهراً وباطناً ـ ظاهر للحق تعالى من العبد . أمر الله تعالى العبد بالتوبة فوراً ، مسارعة للتطهير من النجاسة المعنوية . لأن الماء لا يصل إلى القلب . فافهم . ثم وجه قول الجمهور بدخول المرفقين في اليدين بأنهما محل الارتفاق . وتكمل الحركة بهما في فعل المخالفات . ووجّه قول زفر وداود ، بأنهما لم يتمحضا للذراعين، لأنهما مجموع شيئين: إبرة الذراع ورأس العظمين . ثم وجّه مسح جميع الرأس ، بالأخذ بالاحتياط. فيمسح جميع محل الرياسة التي عند المتوضىء ليخرج عن الكبر الذي في ضمنها ، ويمكن من دخول حضرة الله تعالى في الصلاة. فإن من كان عنده مثقال ذرة من كبر لا يمكن من دخوله الجنة يوم القيامة، كما ورد . إذ هي الحضرة الخاصة . وكذلك القول في حضرة الصلاة . ثم وجّه غسل القدمين بمؤاخذة العبد بالمشي بهما في غير طاعة الله عزّ وجل ، وكونهما حاملَيْن للجسم كلّه . وممدين له بالقوة على المشي، فإذا ضعفا بالمخالفة أو الغفلة سرى ذلك فيما حملاه ، كما يسرى منهما القوة إلى ما فوقهما إذا غسل ، فإنهما كعروق الشجرة التي تشرب الماء وتمدّ الأغصان بالأوراق والثمار . فتعين فيهما الغسل دون المسح . ثم ذكر سرّ من ذهب إلى وجوب الموالاة في طهارة أعضاء الوضوء ، بأن الغالب على المتطهرين ضعف أبدانهم من كثرة المعاصي ، أو الغفلات ، أو أكل الشهوات . وإذا لم يكن موالاة جفت الأعضاء كلها قبل القيام إلى الصلاة، مثلا. وإذا جفت فكأنها لم تغسل ولم تكتسب بالماء انتعاشاً . ولا حياة تقف بها بين يدي ربها. فخاطبت ربها بلا كمال حضورٍ ولا إقبالٍ على مناجاته . هذا حكم غالب الأبدان . أما أبدان العلماء العاملين وغيرهم من الصالحين ، فلا يحتاجون إلى تشديدٍ في أمر الموالاة لحياة أبدانهم بالماء . ولو طال الفصل بين غسل أعضائهم . فيحمل قول من قال بوجوب الموالاة على طهارة عوامّ الناس . ويحمل قول من قال بالاستحباب على طهارة علمائهم وصالحيهم.

وسمعت سيدى علياً الخوّاص ، رحمه الله تعالى، يقول: نِعْمَ قول من قال بوجوب الموالاة فى هذا الزمان . فإنّ من لم يوجبها يؤدى قوله إلى جواز طول الفصل جدًّا . وزيادة البطء فى زمن الطهارة ، وفوات أول الوقت . كأن يغسل وجهه فى الوضوء للظهر بعد صلاة الصبح. ثم يغسل يديه ربع النهار. ثم يمسح رأسه بعد زوال الشمس . ثم يغسل رجليه قبيل العصر. مع وقوع ذلك المتوضئ مثلاً ، فى الغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية والضحك والغفلة . وغير ذلك من المعاصى والمكروهات . أو خلاف الأولى إن كان ممن يؤاخذ به كما يؤاخذ بأكل الشهوات . فمثل هذا الوضوء، وإن كان صحيحاً فى ظاهر الشرع ـ من حيث إنه يصدق عليه إنه وضوء كامل ـ فهو قليل النفع لعدم حصول حياة الأعضاء به بعد موتها أو ضعفها أو فتورها . ففات بذلك حكمة الأمر بالموالاة فى الوضوء ـ وجوباً أو استحباباً ـ وهى إنعاش البدن وحياته قبل الوقوف بين يدى الله تعالى للمناجاة . ثم لو قدر عدم وقوع ذلك المتوضئ، الذى لم يوال، فى معصية أو غفلة فى الزمن المتخلل بين غسل الأعضاء ، فالبدن ناشف كالأعضاء التى عمتها الغفلة والسهو والملل والسآمة. فلم يَصِرْ لها داعية إلى كمال الإقبال على الله تعالى حال مناجاته . اهـ .

وقد كمل أسرار السنن بما يبهج ، فلينظر فى (ميزانه) رحمه الله تعالى .

وفى كلام الله تعالى من الفوائد والأسرار واللطائف ، ما تضيق عنه الأسفار .

وقوله تعالى « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً » أى : بخروج منيٍّ أو التقاء ختانين « فَاطَّهَّرُوا »أى: بالماء ، أى : اغتسلوا به . قال المهايميّ: أى: بالغوا فى تطهير البدن لأنه يتلذذ به الجميع تلذذاً أغرقه فى غير الله، فأثّر فيه بالحدث « وَإِنْ كُنْتُمْ » جنباً « مَرْضَىٰ» تخافون من استعمال الماء « أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أى رجع من مكان البراز « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » أى : اقصدوا « صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » تذليلاً للعضوين الشريفين . وقد مرّ تفسير هـذا وأحكامه فى سورة

النساء. « مَايُرِيدُ اللهُ » أى ما يريد بالأمر بالطهارة للصلاة ، أو بالأمر بالتيمم « لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ » أى ضيقٍ فى الامتثال أو فى تحصيل الماء « وَلَـٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ » أى عن الذنوب ، أو ليجعلكم فى حكم الطاهرين بالتذلل بالتراب . فإنه لما رفع التكبر فكأنما رفع الحدث الذى ينشأ عن أمثاله « وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » أى : بشرعه ماهو مطهّر لأبدانكم ومنعش لها مما لحقها، ومكفّر لذنوبكم ، أوليتمّ برخصه إنعامه عليكم بتمكينكم من عبادته بكل حالٍ، حتى حال الحدث « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » نعمته ورخصته فيثيبكم .

وقد روى ابن[1] جرير عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه . ورواه مسلم[2] وأصحاب السنن عن أبى هريرة مفصلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » بالهداية لهذا الدين القويم لتذكركم المنعم وترغبكم

---

(١) الأثر رقم ١١٥٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ٣٢ (طبعتنا) ونصه :
عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا توضأ العبد المسلم (أو المؤمن) فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء (أو مع آخر قطر الماء) فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء (أو قال مع آخر قطر الماء) فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء (أو مع آخر قطر الماء) حتى يخرج نقيًّا من الذنوب » .

فى شكره « وَمِيثَاقَهُ » أى عهده الوثيق « الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » أى : أكد عليكم بقبوله « إِذْ قُلْتُمْ » أى : لرسول الله ﷺ « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » حين بايعتموه على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى نقض شىءٍ من عهوده ولو بالقلب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى : بخفيّاتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ » أى : مقتضى إيمانكم الاستقامة ، فكونوا مبالغين فى الاستقامة باذلين جهدكم فيها لله . وهى إنما تتم بالنظر فى حقوق الله وحقوق خلقه فكونوا « شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ » أى : العدل . لا تتركوه لمحبة أحد ولا لعداوة أحد « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ » أى : لا يحملنّكم « شَنَآنُ » أى : شدة عداوة « قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا » فى حقهم . قال المهايمىّ : أى : فإنّا لا نأمركم به من حيث ما فيه من توفية حقوق الأعداء ، بل من حيث ما فيه من توفية حقوق أنفسكم فى الاستقامة « اعْدِلُوا هُوَ » ـ أى : العدل ـ « أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ » أى : لحفظ الأنفس أن تتجاوز حدّ استقامتها « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : أن تبطلوا حقوقه أو حقوق عباده ولو بطريقٍ توهمون فيه العدل « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » من الأعمال فيجازيكم بذلك . وقد ثبت فى (الصحيحين)(١)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة، ١٢ ـ باب الهبة للولد، حديث١٢٦٣.
وفى : ١٣ ـ باب الإشهاد فى الهبة .
وفى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٩ ـ باب لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد .
وأخرجه مسلم فى : ٢٤ ـ كتاب الهبة ، حديث ٩ ـ ١٨ (طبعتنا) .

عن النعمان بن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلًا . فقالت أمي : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ . فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكلّ ولدك نحلت مثله ؟ قال: لا . فقال : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم . وقال : إني لا أشهد على جور . قال ، فرجع أبي فردّ تلك الصدقة .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالقسط . يدخل فيه الشهادة بالعدل والحكم به . وكذلك الفتوى . وأن قول الحق لا يترك وجوبه بعدوّ ولا صديق . ولا يجوز اتباع الهوى .

قال الزمخشريّ : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله ، إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » التي من جملتها العدل والتقوى « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » يعني ثواباً وافراً في الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » التي منها ما تلي من الأمر بالعدل والتقوى . « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أهل النار . ثم بيّن تعالى أنّ من مقتضى الإيمان ملازمة شكره على ذكر نعمه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أى : فى حفظه إيّاكم عن أعدائكم « إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ » أى : بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك « فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » أى : منعها أن تمدّ إليكم ، وردّ مضرّتها عنكم .

قيل : الآية إشارة إلى ماروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرىّ عن أبى سلمة عن جابر : أنّ النبىّ ﷺ نزل منزلًا وتفرق الناس فى العضاه يستظلون تحتها. وعلّق النبىّ ﷺ سلاحه بشجرة. فجاء أعرابىّ إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه . ثم أقبل على النبىّ ﷺ فقال: من يمنعك منى ؟ قال : الله عزّ وجلّ . قال الأعرابىّ مرتين أو ثلاثاً : من يمنعك منى ؟ والنبىّ ﷺ يقول : الله . قال : فشام الأعرابىّ السيف . فدعا النبىّ ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابىّ ، وهو جالس إلى جنبه ، ولم يعاقبه .

وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ، ويذكر أنّ قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ . فأرسلوا هذا الأعرابىّ . وتأوّل هذه الآية .

وأخرج أبو نعيم فى (دلائل النبوة) من طريق الحسن عن جابر بن عبد الله ؛ أن رجلًا من محارب يقال له غورث بن الحرث قال لقومه : أقتل لكم محمداً . فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه فى حجره فقال : يا محمد ! أأنظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم . فأخذه فاستله وجعل يهزه ويهم به فيكبته الله تعالى . فقال : يا محمد ! أما تخافنى ؟ قال : لا . قال : أما تخافنى والسيف فى يدى؟ قال: لا . يمنعنى الله منك . ثم غمد السيف ورده إلى رسول الله. فأنزل الله الآية .

وقصة هذا الأعرابيّ ثابتة فى (الصحيح)(١) .

وأخرج ابن جرير(٢) عن عكرمة ويزيد بن أبي زيادة واللفظ له : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود بني النضير ، يستعينهم فى عقلٍ أصابه . فقالوا : نعم . اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذى تسألنا ، فجلس . فقال حيّ بن أخطب لأصحابه : لا ترونه أقرب منه الآن . اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ولا ترون شرًّا أبداً ، فجاؤا إلى رحى عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم ، حتى جاء جبريل فأقامه من ثمت . فأنزل الله الآية . وروى نحوه ابن أبي حاتم .

---

(١) أخرجها البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٣ ـ باب من علّق سيفه بالشجر فى السفر عند القائلة ، حديث ١٣٩٣ ونصه :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، أخبر أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم قِبَل نجد . فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قفلنا معه . فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه . فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرة وعلّق بها سيفه . ونمنا نومةً . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا . وإذا عنده أعرابيّ . فقال « إن هذا اخترط عليّ سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتاً . فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله . ثلاثا » ولم يعاقبه وجلس .

وأخرجه أيضاً فى ٨٧ ـ باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة .

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣١ ـ باب غزوة ذات الرقاع .

وفى : ٣٢ ـ باب غزوة بنى المصطلق .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٣١١ (طبعتنا) .

وفى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٣ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١١٥٥٧ .

قال ابن كثير : ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو إليهم ، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم . انتهى .

وعلى هذه الروايات ، فالمراد من قوله تعالى (اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من أعظم المحن .

وذكر الزمخشريّ ، ومن بعده ، من وجوه إشارات الآية ، ما كان بعسفان من حفظه تعالى لهم من أعدائهم ، لما همّوا بقتلهم عند اشتغالهم بصلاة العصر ، بعد ما رأوهم يصلون الظهر . فندموا على أن لا أكبوا عليهم . فردّ كيد أعدائهم إذ أنزل عليهم صلاة الخوف . انتهى .

ولفظ الآية محتمل لذلك ، بيد أني لم أره الآن مسنداً عن أئمة الأثر .

«وَاتَّقُوا اللهَ» أي في رعاية حقوق نعمته ولا تخلّوا بشكرها «وَعَلَى اللهِ» خاصة دون غيره «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» فإنه الكافي في إيصال الخير ودفع الشر لمن توكل عليه .

قال أبو السعود : والجملة تذييل مقرر لما قبله . وإيثار صيغة أمر الغائب ، وإسنادها إلى المؤمنين ، لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانيّ ، وللإيذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان ، داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى ، وازع عن الإخلال بهما .

بحث جليل في التوكل

قال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية ـ قدس الله سرّه ـ في بعض مصنّفاته : قد ظنّ طائفة ممن تكلم في أعمال القلوب ، أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة . بل ما كان مقدراً بدون التوكل ، فهو مقدر مع التوكل . ولكن التوكل عبادة يثاب عليها من جنس الرضا بالقضا . وذكر ذلك أبو عبد الله بن بطة فيما صنفه في هذا الباب . وقول هؤلاء يشبه قول من قال : إن الدعاء لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة . بل هو عبادة يثاب عليها كرمي الجمار . وآخرون يقولون : بل الدعاء علامة وأمارة . ويقولون ذلك في جميع

العبادات . وهـذا قول من ينفى الأسباب فى الخلق والأمر ، ويقول : إن الله يفعل عندها، لا بها . وهو قول طائفةٍ من متـكلمى أهل الإثبات للقدر ـ كالأشعرىّ وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية . وأصل هذه البدعة من قول جهم . فإنه كان غالياً فى نفى الصفات وفى الجبر ، فجعل من تمام توحيد الذات نفى الصفات ، فى تمام توحيد الأفعال نفى الأسباب. حتى أنـكر تأثير قدرة العبد ، بل نفى كونه قادراً . وأنـكر الحـكمة فى التوكل والرحمة . وكان يخرج إلى الجذمى فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ يعنى أنه يفعل بمحض المشيئة بلا رحمة . وقوله فى القدر ، قد تقرب إليه الأشعرىّ ومن وافقه من الطوائف . والذى عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الـكلام إثبات الأسباب . كما دلّ على ذلك الـكتاب والسنة، مع دلالة الحسّ والعقل. والـكلام على هؤلاء مبسوط فى مواضع أخر. والمقصود هنا الـكلام على التوكل . فإن الذى عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله ، من جلب المنفعة ودفع المضرة ، ما لا يحصل لغيره . وكذلك الدعاء . والقرآن يدل على ذلك فى مواضع كثيرة . ثم هو سبب عند الأكثرين ، وعلامة عند من ينفى الأسباب : قال الله تعالى(١) : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . والحسب : الـكافى . فبيّن أنه كافٍ مَنْ توكل عليه . وفى الدعاء : ياحسيب المتوكلين ! فلا يقال : هو حسْب غير المتوكل كما هو حسْب المتوكل ، لأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع فى مثل ذلك أن يكون وجود الشرط كعدمه . ولأنه

(١) [٦٥ / الطلاق / ٢و٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

رتب الحكم على الوصف المناسب له . فعلم أن توكله هو سبب كونه حسيباً له ، ولأنه ذكر ذلك فى سياق الترغيب فى التوكل ، كما رغب فى التقوى . فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية مالا يحصل لغيره ، لم يكن ذلك مرغّبا فى التوكل . كما جعل التقوى سبباً للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب . وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١) . فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل ، والوكيل لا يستحق المدح إذا لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ولم يدفع عنه مضرة . والله خير من توكل العباد عليه. فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كلّ شرّ . وقال تعالى : ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾(٢) . وقال : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا﴾(٣) . فأمر أن يُتّخذ وكيلًا ونهى أن يتخذ من دونه وكيلًا . لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجاتِ العبد ، والوكالة الجائزة أن يتوكل الإنسان فى فعلٍ يقدر عليه ، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه. فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلّا الله . وذاك الذى يوكله لا يفعل شيئاً إلّا بمشيئة الله وقدرته . فليس له أن يتوكل عليه ، وإن وكله . بل يعتمد على الله فى تيسير ما وكله فيه ، فلو كان الذى يحصل للمتوكل على الله، يحصل وإن توكل على غيره، ويحصل بلاتوكّل ، لكان اتّخاذ بعض المخلوقين وكيلًا أنفع من اتّخاذ الخالق وكيلًا . وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد . لأن التوكل على الخلق يشهد نفعه . وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤) أى : الله كافيك وكافى مَن اتبعك من المؤمنين . فلو كانت كفايته للمؤمنين المتبعين للرسول ـ سواء اتبعوه أو لم يتبعوه ـ لم يكن للإيمان واتباع الرسول أثر فى هذه

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .
(٢) [٧٣ / المزمل / ٨و٩] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٢] .
(٤) [٨ / الأنفال / ٦٤] .

الكفاية . ولا كان لتخصيصهم بذلك معنى . وكان هذا نظير أن يقال : هو خالقك وخالق من اتبعك . ومعلوم أنّ المراد خلاف ذلك . وإذا كان الحسب معنىً يختص بعض الناس، علم أن قول المتوكل : (حَسْبِيَ اللّهُ) وقوله : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أمر مختص لامشترك . وأن التوكل سبب ذلك الاختصاص ، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعدٍ أو خصّ أهله بكرامة ، فلا بدّ أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق في حصول تلك الكرامة . وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر . فقد يكفي الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال . لكن لابد أن يكون للمتوكل أثر في حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين . فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلا ، وإن عدم التوكل . وقد قال تعالى : وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ[١] فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل ، بحرف (الفاء). وهي تفيد السبب. فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل . وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل . وفي الأثر[٢] : من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . فلو كان التوكل لا يجلب منفعة ولايدفع مضرة، لم يكن المتوكل أقوى من غيره . وقال تعالى : يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا[٣] . وقال في أثناء السورة: وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٣و١٧٤] .

(٢) قال السيوطيّ في (الجامع الصغير) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب (التوكل)
وقال شارحه : إسناده حسن .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١ـ٣] .

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا(١) . فأمره سبحانه بتقواه واتباع مايوحى إليه وأمره بالتوكل . كما جمع بين هذين الأصلين فى غير موضع . كقوله : فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(٢) . وقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا* رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٣) . وقوله : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(٤) . وقوله : رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا(٥) . وقوله : هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(٦) . وقوله:وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ(٧) . وقوله فى الفاتحة:

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] .

(٢) [١١ / هود / ١٢٣] ونصها : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(٣) [٧٣ / المزمل / ٨و٩] .

(٤) [٤٢ / الشورى / ١٠] ونصها : وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

(٥) [٦٠ / الممتحنة / ٤] ونصها : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

(٦) [١٣ / الرعد / ٣٠] ونصها : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ .

(٧) انظر الحاشية رقم ١ ص١٩٠٥.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(١) . وعلم القرآن مجتمع فى الفاتحة ، وعلم الفاتحة فى هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه . وإذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل . فإنه من عبادة الله . كقوله : يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ(٢) . وقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٣) . وإذا قرن به التوكل كان مأموراً به بخصوصه. وهذا كلفظ الإسلام والإيمان. والإيمان والعمل ، ولفظ الصلاة مع العبادة ومع اتباع الكتاب . ولفظ الفحشاء والبغى مع المنكر . ونظائر ذلك متعددة . يكون اللفظ عند تجرده وإفراده يتناول أنواعاً. وقد يعطف بعض تلك الأنواع عليه فيكون مأموراً به لخصوصه . ثم قد يقال : إذا عطف لم يدخل فى المعطوف عليه . وقد يقال : بل الأمر به خاص وعام ، كما فى قوله(٤) : وَمَلَائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ . وإذا كان الله أمره بالتوكل على الله ، ثم قال : وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ، علم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه . كما يقال فى الخطب والدعاء : الحمد لله كافى من توكل عليه . وإذا كان (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) فهذا مختص به سبحانه ليس غيره من الموجودات (كَفَىٰ بِهِ وَكِيلًا) فإن من يتخذ وكيلًا من المخلوقين غايته أن يفعل بعض الأمور، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله ، وهو عاجز عن أكثر المطالب . فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه (كفى به وكيلًا) علم أنه يفعل بالمتوكل عليه مالا يحتاج معه إلى غيره من جلب المنافع ودفع المضار . إذ لو بقى شىء لم يكن (كفى به وكيلًا) وهذا نقيض قول من ظنّ أنّ المتوكل عليه لا يحصل له بتوكله جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل يجرى عليه من القضاء ما كان يجرى لو لم

---

(١) [١ / الفاتحة / ٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١] ... الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٤) [٢ / البقرة / ٩٨] ونصها : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

يتوكل عليه . والذين ظنوا ، أصل شبهتهم أنهم لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئاً فلابدّ أن يكون ، وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما سبق علمه فهو كائن لا محالة ـ صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه ، وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع . وهذا غلط عظيم ضلّ فيه طوائف : طائفة قالت : لا حاجة إلى الأعمال المأمور بها . بل من خلق للجنة فهو يدخلها وإن لم يؤمن . ومن خلق للنار فهو يدخلها وإن آمن ولم يكفر . وهذه الشبهة سئل عنها النبيّ صلى الله عليه وسلم(١) لما قال : ما منكم من أحدٍ إلّا وقد علم مقعده من الجنة والنار قالوا : أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ! اعملوا ، فكلّ ميسّر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسييسّر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسّر لعمل أهل الشقاء . وهذا المعنى قد ثبت عن النبيّ ﷺ فى (الصحيح) فى مواضع تبيّن أنّ ماسبق به الكتاب سبق بالأسباب التى تفضى إليه ، فالسعادة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به سعيداً ، والشقاوة سبقت بأن صاحبها يستعمل فيما يصير به شقيًّا . فالقدر تضمن الغاية وسببها . لم يتضمن غايةً بلا سبب . كما تضمن أن هذا يولد له بأن يتزوج ويطأ المرأة ، وهذا تُنْبِت أرضه بأن يزدرع ويسقى الزرع . وأمثال ذلك . وكذلك

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٢ ـ سورة الليل ، ٧ ـ باب فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ، حديث ٧١٨ ونصه :

عن علىّ رضى الله عنه قال : كان النبىّ ﷺ فى جنازة . فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض . فقال « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » قالوا : يا رسول الله ! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة ، فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاء ، فيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ... الآية .

فى (السنن)(١) أنه قيل له : يا رسول الله ! أرأيت أدويةً نتداوى بها ، ورقىً نسترق بها ، وتقاةً نتقيها ، هل تردّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هى من قدر الله . فبيّن أن الأسباب التى تُدفع بها المكاره هى من القدر ، ليس القدر مجرّد دفع المكروه بلا سبب . وكذلك قول من قال : (إن الدعاء لا يؤثر شيئاً والتوكل لا يؤثر شيئاً) هو من هذا الجنس ، لكن إنكار ما أمر به من الأعمال أمر ظاهر ، بخلاف تأثير التوكل . لكن الأصل واحد . وهو النظر إلى المقدور مجرداً عن أسبابه ولوازمه . ومن هذا الباب : (أن المقتول يموت بأجله) عند عامة المسلمين . إلّا فرقة من القدرية قالوا: إن القاتل قطع أجله. ثم تكلم الجمهور : لولم يقتل ؟ قال بعضهم : كان يموت لأن الأجل قدفرغ ؛ وقال بعضهم : لا يموت لانتفاء السبب . وكلا القولين قد قال به من ينسب إلى السنة ، وكلاهما خطأ . فإن القدر سبق بأنه يموت بهذا السبب لا بغيره. فإذا قدر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما فى المقدور ، ولو كان المقدور أنه لا يموت بهذا السبب ، أمكن أن يكون المقدور أنه يموت بغيره ، وأمكن أن يكون القدر أنه لا يموت . فالجزم بأحدهما جهل فيما تعددت أسبابه . لم يجزم بعدمه عند عدم بعضها ، ولم يجزم بثبوته إن لم يعرف له سبب آخر . بخلاف ما ليس له إلّا سبب واحد . مثل دخول النار . فإنه لا يدخلها إلّا من عصى . فإذا قدر أنه لم يعص لم يدخلها . وقال تعالى : فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(٢)

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣١ ـ كتاب الطب ، ١ ـ باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، حديث ٣٤٣٧ (طبعتنا) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٥٩و١٦٠] ونصها : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * . . .

فأمَرَه إذا عزم ، أن يتوكل على الله ؛ فلو كان التوكل لا يعينه على نيل ما عزم عليه، لم يكن لأمره به عند العزم فائدة . بيّن أنه هو سبحانه الناصر دون غيره وقال : وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١) .فنهى عن التوكل على غيره ، وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذى لا يقدر عليه غيره . وإلّا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر ، فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكن لذكر انفراده بالنصر معنى ؛ فإنه على هذا القول : نصره لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه . وهذا يناقض مقصود الآية . بل عند هؤلاء : قد ينصر من يتوكل على غيره ولا ينصر من توكل عليه ، فكيف يأمر بالتوكل عليه دون غيره مقروناً بقوله : إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وكذلك قوله تعالى : أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ،وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * ... ـ إلى قوله ـ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ،عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(٢) فبيّن أن الله يكفى عبده الذى يعبده ، الذى هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، الذى هو من عباده المخلصين ، الذى هو من عِبَادِ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً(٣) . ومثل هذا قوله: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ(٤) . وقوله: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُاللهِ يَدْعُوهُ(٥)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٣٦ـ٣٩] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] ونصها : وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .
(٤) [١٧ / الإسراء / ١] .
(٥) [٧٢ / الجن / ١٩] ... كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

وقوله : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا[١] . ونظائر ذلك متعددة . ثم أمره بقوله : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ[٢] . وقال تعالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ[٣] . وكذلك قال عن هود لما قال قومه : إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٤] * فهذا من كلام المرسلين، مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه. فنوح يقول : إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... الآية . فدعاهم، إذا استعظموا مايفعله كارهين له، أن يجتمعوا ثم يفعلون به ما يريدونه من الإهلاك . وقال : فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ . فلولا أنه بحقيقة هذه الكلمة ـ وهوتوكله على الله ـ يعجزهم عما تحداهم به من مناجزته ، لـكان قد طلب منهم أن يهلكوه . وهذا لايجوز ، وهذا طلب تعجيز لهم . فدلّ على أنه ـ بتوكله على الله ـ يعجزهم عمّا تحدّاهم به . وكذلك هود ، يُشهد الله تعالى وإياهم أنه برىء مما يشركون بالله . ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله : فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا يبين أنه توكل على من أخذ بنواصي الإنس وسائر الدواب . فهو يدفعكم عني لأني متوكل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٣٨] .
(٣) [١٠ / يونس / ٧١] .
(٤) [١١ / هود / ٥٤ ـ ٥٦] .

عليه . ولو كان وجود التوكل كعدمه فى هذا، لكان قد أغراهم بالإيقاع به ، ولم يكن لذكر توكله فائدة ، إذ كان حقيقة الأمر عند هؤلاء أنه لا فرق بين من توكل ومن لم يتوكل فى وصول العذاب إليه . وهم كانوا أكثر وأقوى منه . فكانوا يهلكونه . وهو لو قال : فإنّ الله مولاى وناصرى ـ ونحو ذلك ـ لعلم أنه مخبر أنّ الله تعالى يدفعهم ، وإنما يدفعهم لإيمانه وتقواه ، ولأنه عبده ورسوله . فالله مع رسله وأوليائه ، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع الله عن المؤمنين المتقين ، علم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة ، تجلب بها المنفعة وتدفع بها المضرة . والتوكل من أعظم ذلك . وعلم أن من ظن أن المقدور من المنافع والمضارّ ، ليس معلقاً بالأسباب ، بل يحصل بدونها، فهو غالط . وكذلك من جعل ذلك مجرّد أمارة وعلامة، لاقتران هذا بهذا، فقد أخطأ . فإن الله أخبر أنّه فعل هذا بهذا فى غير موضع من القرآن، فى خلقه وأمره . كقوله : فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ(١) . وقوله : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢) . وقوله : بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٣) ، وأنكر على من ظنّ وجود الأسباب كعدمها فى مثل قوله : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٤) . وقوله : أَفَنَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٥) . وأمثال ذلك. وهؤلاء يقولون بالجبر . قالوا: والأمر والنهى حقيقته أنه إعلام بوقوع العذاب بالعاصى بمحض المشيئة لا لسبب ونحوه ، ولا بحكمة . فقلبوا حقيقة الأمر والنهى إلى الجبر . كما أبطلوا الأسباب

(١) [٧ / الأعراف / ٥٧] .
(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢٤] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٢] .
(٤) [٦٨ / القلم / ٣٥] .
(٥) [٣٨ / صٓ / ٢٨] .

والحـكمة . وأبطلوا قدرةالعباد . وهم ، وإن كانوا يردون على القدريةويذكرون من تناقضهم ما يبين به فساد قول القدرية ، فقد ردوا باطلًا بباطل ، وقاتلوا بدعة ببدعة . كردّ اليهود على النصارى والنصارى على اليهود ، مقالتهم فى المسيح ، وكلتـا المقالتين باطلة ، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة فى علىّ باطـل ، ونظائره متعددة. انتهى . فاحفظه ينفعك فى مواضع كثيرة . وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

« وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بنى إسرائيل ـ من الخيانة ونقض الميثاق ـ وما أدى إليه ذلك من التبعات ، مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به . وتحذيرهم من نقضه . أو لتقرير ما ذكر من همّ بنى قريظة بالبطش . وتحقيقه حسبما مرّ من الرواية ببيان أنّ الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم ـ أفاده أبو السعود .

زاد الرازىّ : تقرير الإلزام بالتكليف بأنه سنة الله فى الذين خلوا .

« وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً » رئيساً. سمى بذلك لأنه يفتش حال القوم ويعلم دخيلة أمرهم « وَقَالَ اللَّهُ » أى : لهم . وفى الالتفات تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد « إِنِّي مَعَكُمْ » أى: بالعلم والقدرة والنصرة « لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ

وَءَامَنتُمْ بِرُسُلِى » أى:الذين يجيئون إليكم « وَعَزَّرْتُمُوهُمْ » أى : أعنتموهم ونصرتموهم بالسيف على الأعداء « وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ » أى بالإنفاق فى سبيل الخير «قَرْضاً حَسَناً» بلامنٍّ ولا طلب ربحٍ دنيوىٍّ ، من رياء وسمعة « لَأُكَفِّرَنَّ » أى : لأمحونّ « عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » ذنوبكم « وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أى : تطَّرد من تحت شجرها ومساكنها « الْأَنْهَارُ » أنهار الماء واللبن والخمر والعسل « فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ » أى : بعد أخذ الميثاق والإقرار به « مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى واضح السبيل، الموصّل إلى كل مطلبٍ عال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ » (الباء) سببيّة و (ما) مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس . أى: بسبب نقضهم ميثاقهم . أونكرة ، أى : بشىء عظيم صدرمنهم من نقضهم ميثاقهم المؤكد ، الموعود عليه النصر والمغفرة والأجر العظيم « لَعَنَّاهُمْ » أى أبعدناهم عن رحمتنا « وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً » بحيث لا تلين لرؤية الآيات والنذر ، ولاتتعظ بموعظةٍ ، لغلظها وقساوتها لغضب الله عليهم . وبقيت تلك القساوة واللعنة فى ذريتهم « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ » أى : كلم الله فى التوراة ، بصرف ألفاظه أومعانيه « عَنْ مَوَاضِعِهِ » التى أنزلت.

قال ابن كثير : أى : فسدت فُهومُهم ، وساء تصرّفهم فى آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه مالم يقل . عياذاً بالله من ذلك .

قال أبو السعود : والجملة استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم . فإنه لا مرتبة أعظم مما

يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل ، والافتراء عليه . وقيـل : حال من مفعول (لعناهم) .

« وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » أي: تركوا نصيباً وافراً ممـا أُمروا به في التوراة ، تركَ الناسي للشيء لقلة مبالاته بحيث لم يكن لهم رجوع عليه . أومن اتّباع محمد ﷺ «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ » أي : خيانة . على أنها مصدر كـ (لاغيةٍ وكاذبةٍ) . أوطائفةخائنة. يعني : أن الغدر والخيانة عادة مستمرةلهم ولأسلافهم، بحيث لايكادون يتركونها أو يكتمونها . فلا تزال ترى ذلك منهم .

قال مجاهد . وغيره يعني بذلك تمالؤَهم على الفتك برسول الله ﷺ .

« إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » وهم المؤمنون منهم « فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ » أي لا تعاقبهم .

قال ابن كثير :

هذا موجب النصر والظفر . كما قال عمر : ما عاملتَ مَنْ عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وبهذا ، يحصل لهم تأليف وجمعٌ على الحقّ . ولعلّ الله يهديهم .

ولهذا قال تعـالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » يعني به الصفح عمّن أساء ، فإنه من باب الإحسان .

تنبيه :

قال بعض المفسّرين :

في هذا دلالة على جواز التحليف على الأمور المستقبلة . وأخذ الـكفيل على الحق الذي يفعل في المستقبل. وفي قوله تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...) الخ، دليلٌ على تأكيدالميثاق، وقبح نقضه ، وأنه قد يسلب اللطف الْمُبْعِد من المعاصي ، ويورث النسيان . ولهـذا قال تعالى : وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وعن ابن مسعود : قدينسى المرء بعض العلم بالمعصية. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ » بعبادة الله وحده ، وأن لا يشركوا به شيئاً ، وحفظ شرعة عيسى عليه السلام . وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم ـ دون أن يقال (ومن النصارى) ـ إيذاناً بأنهم فى قولهم (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ)(١) بمعزل من الصدق . وإنما هو تقوّل محض منهم . وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء . أو إظهاراً لـكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم . فإن ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه . أفاده أبو السود .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وبقيت نـكتة فى تخصيص هذا الموضع بإسنادالنصرانية إلى دعواهم . ولم يتفق ذلك فى غيره . ألا ترى إلى قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ؟(٢) فالوجه فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه لما كان المقصود فى هذه الآية

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .
و [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٨] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ =

ذمّهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم فى نصرة الله تعالى ، نَاسَبَ ذلك أن يصدر الـكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة . وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوى النصرة وقولها دون فعلها . والله أعلم .

قال الشهاب الخفاجىّ : الموجود فى كتب اللغـــة والتاريخ أن النصارى نُسِبت إلى بلدة (ناصرة) أى التى حُبل فيها المسيح وتربى فيها . ولذلك كان يدعى عليـه السلام (ناصريًّا) . ثم قال : فلو قيـل فى الآية : إنهم على دين النصرانية وليسوا عليها لعدم عملهم بموجبها ومخالفتهم لِمَا فى الإنجيل من التبشير بنبيّنا ﷺ ـ لـكان أقرب من وجه التسمية الذى ذكروه .

« فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا » أى ألقينا « بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى: يتعادون ويتباغضون إلى قيـام الساعة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة ، وآراؤهم الزائغـة المؤدية إلى التفرّق فرقاً متباينة ، يلعن بعضها بعضاً ، ويكفّر بعضها بعضاً « وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ » يخبرهم الله فى الآخرة « بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »من المخالفة وكتمان الحق والعداوة والبغضاء ، ونسيان الحظ الوافر مما ذكّروا به . وهـذا وعيد شديد بالجزاء والعذاب .

لطيفة :

تطرف البقاعىّ ـ رحمه الله تعالى ـ فى(تفسيره) هنا إلى ذكر نقباء بنى إسرائيل بأسمائهم. وأن عدتهم طابقت عدة نقباء النصارى ـ وهم الحواريون ـ كما طابقت عدة نقباء[1] الأنصار

= وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٩٣ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

ليلة العقبة الأخيرة ، حين بايع النبيّ ﷺ الأنصار على الحرب ، وأن يمنعوه إذا وصل إليهم ، وقال لهم : أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيباً ـ كما اختار موسى من قومه ـ فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وذكر البقاعيّ : أن بعث النقباء من بنى إسرائيل كان مرتين : الأول لما كلّم تعالى موسى فى برية سيناء فى اليوم الأول من الشهر الثانى من السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر . وقد فصلت فى الفصل الأول من سفر (العدد) . والمرة الثانية : بعثوا لجسّ أرض كنعان . وفصلت أيضاً فى الفصل الثالث عشر من سفر (العدد) ثم ذكر البقاعيّ : أن نقباء اليهود فى جسّ الأرض لم يوف منهم إلّا يوشع بن نون وكالب بن يفنا . وأما نقباء النصارى ، فخان منهم واحد ـ وهو يهوذا ـ كما مضى عند قوله تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ . وأما نقباء الأنصار فكلهم وَفَى وبرّ بتوفيق الله تعالى .

وقد اقتصّ البقاعى أسماء نقباء الفرق الثلاث ، ولمعة من نبئهم . فانظره ، والله أعلم .

ثم خاطب تعالى الفريقين من أهل الكتاب إثْرَ تشديد النكير عليهم بتحريف كتبهم ونبذهم الميثاق ، ودعاهم إلى الحنيفية حتى يكونوا على نورٍ من ربهم . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ » أى : من نحو بعثته ﷺ ، وآية الرجم فى التوراة ، وبشارة عيسى به ، إظهاراً للحقّ « وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » أى : مما تخفونه . لا يبينه . مما لا ضرورة فى بيانه ، صيانةً لكم عن زيادة الافتضاح . أو يعفو فلا يؤاخذ . وفى هذه الآية بيان معجزة له ﷺ . فإنه

لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً من أحد ، فإخباره بأسرار ما فى كتابهم إخبارٌ عن الغيب ، فيكون معجزاً « قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ » يريدالقرآن . لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانته ما كان خافياً على الناس من الحق . أولأنه ظاهر الإعجاز. أوالنور، محمد ﷺ لأنه يهتدى به، كما سمى سراجاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ » أى رضاه بالإيمان به « سُبُلَ السَّلَامِ »أى: طرق السلامة والنجاة من عذاب الله «وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» أى:ظلمات الكفر والشُّبه إلى نور الإيمان والدلائل القطعية « بِإِذْنِهِ » أى : بتوفيقه وإرادته « وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الدين الحقّ السوىّ فى الاعتقادات والأعمال ، العرِىّ عن الإفراط والتفريط فيها . ثم أشار إلى إفراط بعض النصارى فى حق عيسى ، وتفريطهم فى حقّ الله جل شأنه فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » فى هذه الآية وجهان :

الأول : إنّ ما أفادته من الحصر ـ وإن لم يصرحوا به ـ إلّا أنه نسب إليهم لأنه لازم مذهبهم لأن معتقدهم مؤدّ إليه .

قال الرازىّ : لأنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام . فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة . فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلّت فى عيسى واتّحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول . وإن قلنا : إنّ الأقنوم عبارة عن الصفة ، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول . ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى ، يلزم خلوّ ذات الله عن العلم . ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً . فحينئذٍ يكون الإله هو عيسى على قولهم . فثبت أنّ النصارى ـ وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول ـ إلّا أن حاصل مذهبهم ليس إلّا ذلك . انتهى .

وبطلان الاتّحاد معلوم بالبداهة .

قال العلامة العضد فى (الموقف الثانى) : المقصد الثامن : الاثنان لا يتحدان . وهذا حكم ضرورىّ . فإن الاختلاف بين الماهيتين والهويتين اختلاف بالذات فلا يعقل زواله . وهذا ربما يزاد توضيحه فيقال : إنْ عدم الهويتان فلا اتحاد ، بل وحدث أمر ثالث غيرهما ـ وإن عدم أحدهما ـ فلا يتحد المعدوم بالموجود ، وإن وجدا فهما اثنان كما كانا ، فلا اتحاد أيضاً . انتهى .

الوجه الثانى : إنه عُنِى بهذه الآية قوم يقولون بأن حقيقة الله هو المسيح لا غير .

قال الزمخشرىّ : قيل : كان فى النصارى قوم يقولون ذلك . انتهى .

قال الإمام الشهرستانىّ فى (الملل والنحل) عند ذكر فرق النصارى :

ومنهم اليعقوبية أصحاب يعقوب . قالوا بالأقانيم الثلاثة ـ كما ذكرنا ـ إلّا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو . وعنهم أخبرنا القرآن الكريم : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . فمنهم

من قال : المسيح هو الله . ومنهم من قال : ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الحق . لا على طريق حلول جزء فيه . ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو . وهذا كما يقال : ظهر الملَك بصورة الإنسان ، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان .. الخ .

وذكر الإمام الماورديّ في (أعلام النبوة) : إنّ أوائل النسطورية قالوا : إن عيسى هو الله . انتهى .

وذكر الإمام ابن إسحق[1] في (السيرة) : إن نصارى نجران لمّا وفدوا على رسول الله ﷺ ، كانوا من النصرانية على دين ملكهم . مع اختلاف من أمرهم . يقولون هو الله . ويقولون هو ولد الله . ويقولون هو ثالث ثلاثة ـ يعني هو تعالى وعيسى ومريم ـ وكذلك قول النصرانية . ثم قال : ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن .

« قُلْ » ـ أي : تبكيتاً لهم ، وإظهاراً لفساد قولهم ـ « فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً » أي : من يستطيع إمساك شيء من قدرته تعالى « إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » أي : يميتَه « وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » أي : فضلًا عن آحادهم . احتج بذلك على فساد قولهم . وتقريره : أن المسيح حادثٌ بلا شبهة . لأنه تولد من أم . ولذا ذكرت الأم للتنبيه على هذا . ومقهورٌ قابل للفناء أيضاً كسائر الممكنات . ومن كان كذلك كيف يكون إلهاً ؟

قال أبو السعود : وتعميم إرادة الإهلاك للكل ـ مع حصول المطلوب بقصرها على المسيح ـ لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ، ببيان أنّ الكل تحت قهره تعالى وملكوته . لا يقدر أحد على دفع ما أريد به . فضلًا عن دفع ما أريد بغيره . وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك . كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية .

(١) لم أهتد إلى محلها في سيرة ابن هشام .

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» من الخلق والعجائب ـ وهذا تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى ، إثر بيان انتفائها عن غيره « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة فى أمر المسيح ـ لولادته من غير أب ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ـ أى : يخلق مايشاء من أنواع الخلق كما شاء بأبٍ أو بغير أب ..!

قال السمرقندىّ : وإنما قال (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) لأن النصارى أهل نجران كانوا يقولون: لو كان عيسى بشراً كان له أب . فأخبرهم الله تعالى أنه قادر على أن يخلق خلقاً بغير أب .

« وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ » من خلق الخلق ، والثواب لأوليائه ، والعقاب لأعدائه ـ « قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة . وبيان لبطلانها بعد بطلان ما صدر عن أحدهما . أى قالوا : نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء فى المنزلة والكرامة . ونحن أحباؤه لأننا على دينه .

قال ابن كثير : ونقلوا عن كتابهم أن الله قال لعبده إسرائيل : أنت ابنى بكرى. فحملوا هذا على غير تأويله وحرّفوه . وقد ردّ عليهم غيرُ واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم . وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام . كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ، يعنى ربى وربكم . ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من البنوّة

ما ادعوها فى عيسى عليه السلام . وإنما أرادوا بذلك معزّتهم لديه ، وحظوتهم عنده ..! انتهى .

وقال الجلال الدوانى فى (شرح عقائد العضد) : وما نُقِلَ عن الإنجيل ـ فعلى فرض صحته وعدم التحريف ـ يكون إطلاق الأب عليه بمعنى المبدأ . فإن القدماء كانوا يسمون المبادىء بالآباء . وأنت تعلم أن المتشابهات فى القرآن وغيره من الكتب الإلهية كثيرة . ويردّها العلماء بالتأويل إلى ما علم بالدليل . فلو ثبت ذلك لكان من هذا القبيل . انتهى .

وقال الدهلوىّ فى (الفوز الكبير) : إن الله عزّ وجلّ شرف الأنبياء وتابعيهم فى كل ملّة بلقب المقرب والمحبوب . وذم الذين ينكرون الملّة بصفة المبغوضية . وقد وقع التكلم فى هذا الباب بلفظ شائع فى كل قوم ، فلا عجب أن يكون قدذكر الأبناء مقام المحبوبين . فظنّ اليهود أن ذلك التشريف دائر مع اسم اليهودىّ والعبرىّ والإسرائيلىّ . ولم يعلموا أنه دائر على صفة الانقياد والخضوع وتمشية ماأراد الحقّ سبحانه ببعثة الأنبياء لاغير . وكان ارتكز من هذا القبيل فى خاطرهم كثير من التأويلات الفاسدة المأخوذة من آبائهم وأجدادهم . فأزال القرآن هذه الشبهات على وجهٍ أتمّ . انتهى .

« قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » أى : لو كنتم أبناءه وأحبّاءه لَمَا عذبكم ، لكن اللازم منتفٍ إذ عذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودة .

لطيفة :

قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه ، فتلا عليه الصوفىّ هذه الآية : قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ . وهذا الذى قاله حسن . وله شاهد فى (المسند) للإمام أحمد[١] حيث قال : حدثنا ابن أبى عدىّ ،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٤ والصفحة ٢٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

عن حميد ، عن أنس قال : مرّ النبيّ ﷺ فى نفرٍ من أصحابه ، وصبيّ فى الطريق . فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعي وتقول : ابنى ابنى ! وسعت فأخذته، فقال القوم : يا رسول الله ! ما كانت هذه لتلقى ولدها فى النار . قال : فخفضهم النبيّ ﷺ فقال : لا ، ولا يلقى الله حبيبه فى النار . قال ابن كثير : تفرّد به أحمد . انتهى .

وقال السمرقنديّ : فى الآية دليل أن الله تعالى إذا أحبّ عبده يغفر ذنوبه ولا يعذبه بذنوبه . لأنه تعالى احتج عليهم فقال : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ لو كنتم أحباء إليه ؟ وقد قال[١] فى آية أخرى : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . ففيها دليل أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذين يجاهدون فى سبيل الله[٢] : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ .

وقوله تعالى « بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ » عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أى : لستم كذلك بل أنتم بشر « مِمَّنْ خَلَقَ » أى : من جنس من خلقه من غير مزية لكم عليهم « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » لمن تاب من اليهودية والنصرانية « وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » من مات على اليهودية والنصرانية « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى : المرجع، مصير من آمن ومن لم يؤمن . فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٢] ونصها : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

(٢) [٦١ / الصف / ٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ » أى : ما أمرتم به وما نهيتم عنه « عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ » متعلق بـ (جاءكم) أى : جاءكم على حين فتورٍ من إرسال الرسل ، وانقطاعٍ من الوحى . إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسولٌ . ومدة الفترة بينهما خمسمائة وتسع وستون سنة . « أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ » تعليل لمجىء الرسول بالبيان على حذف المضاف . أى : كراهة أن تعتذروا بذلك يوم القيامة، وتقولوا : ما جاءنا من رسولٍ ـ بعد ما درس الدينُ ـ يبشرنا لنرغب فنعمل بما يسعدنا فنفوز . وينذرنا لنرهب فنترك ما يشقينا فنسلم . وقد كان اختلط فى تلك الفترة الحقّ بالباطل ـ كما سنبيّنه ـ « فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » متعلق بمحذوف تنبىء عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به . أى: لا تعتذروا (بما جاءنا) فقد جاءكم بشير أى بشير ، ونذير أى نذير . « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » من إرسال الرسل ، والثواب لمن أجاب الرسل ، والعقاب لمن لم يُجبْهم .

قال البقاعىّ : وفى الختم بوصف القدرة، وإتباعه تذكيرهم ما صاروا إليه من العز بالنبوّة والملك ، بعد ما كانوا فيه من الذل بالعبودية والجهل ، إشارة إلى أن إنكارهم لأن يكون من ولد إسماعيل عليه السلام نبىّ ، يلزم منه إنكارهم للقدرة .

تنبيه :

قال ابن كثير : كانت الفترة بين عيسى ابن مريم ـ آخر أنبياء بنى إسرائيل ـ وبين محمد

خاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق . كما ثبت فى (صحيح البخارىّ)[١] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : أنا أولى الناس بابن مريم ليس بينى وبينه نبىّ . وهذا فيه ردّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبىّ يقال له خالد بن سنان . كما حكاه القضاعىّ وغيره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : استدل به ـ يعنى بحديث أبى هريرة ـ على أنه لم يبعث بعد عيسى أحد إلّا نبيّنا ﷺ . وفيه نظر . لأنه ورد[٢] أن الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية ـ المذكورة قصتهم فى سورة « يس » ـ كانوا من أتباع عيسى . وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيَّيْن ، وكانا بعد عيسى . والجواب : أن هـذا الحديث يضعف ما ورد من ذلك . فإنه صحيح بلا تردد . وفى غيره مقال . أو المراد : إنه لم يبعث بعد عيسى نبىّ بشريعة مستقلة . وإنما بعث بعده ، مَنْ بُعِثَ ، بتقرير شريعة عيسى . وقصة خالد ابن سنان أخرجها الحاكم فى (المستدرك) من حديث ابن عباس . ولها طرق جمعتُها فى ترجمته فى كتابى فى (الصحابة) . انتهى .

وقد ذكرت فى كتابى (إيضاح الفطرة فى أهل الفترة)(*) فى الباب الحادى عشر مَنْ كان فى الفترة من الأنبياء على ما روى . فارجع إليه .

قال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية ، أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرسل ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ .

ومسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٤٣ (طبعتنا) .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى [٣٦ / يس / ١٣و١٤] ونصهما : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ .

(*) كتاب مخطوط للمؤلف رحمه الله .

وطموس من السبل ، وتغيّر الأديان ، وكثرة عبّاد الأوثان والنيران والصلبان . فكانت النعمة به أتمّ النعم ، والحاجة إليه أمر عام ، فإن الفساد كان قد عمّ جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد . إلّا قليلًا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين . كما روى أحمد(١) عن عياض المجاشعىّ ـ رضى الله عنه ـ أن النبىّ ﷺ خطب ذات يوم

(١) أخرجه بالصفحة ١٦٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وأخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة ، حديث ٦٣ (طبعتنا) وها كموه نسوقه بنصه الكامل لما فيه من الفوائد الجليلة :

عن عياض بن حمار المُجَاشعىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال ، ذات يوم فى خطبته « ألا إن ربّى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى ، يومى هـذا . كل مال نحلته عبداً حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم (أى استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل) عن دينهم . وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم. وأمرتْهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم . إلا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائما ويقظان . وإن الله أمرنى أن أحرّق قريشاً . فقلت : ربِّ ! إذاً يَثْلَغُوا رأسى (أى : يشدخوه ويشجّوه ، كما يشدخ الخبز ، أى يكسر) فيدعوه خُبْزَةً .

قال : استخرجْهم كما استخرجوك . واغزهم نُغْزِكَ (أى نُعينك) وأنفق فسننفق عليك. وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله . وقاتل بمن أطاعك من عصاك .

قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفَّق . ورجل رحيم رقيق القلب ، لكل ذى قربى ومسلم . وعفيف متعفف ذو عيال .

قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له (أى لا عقل له يزبره ويمنعه =

فقال فى خطبته : وإن ربّى، أمرنى أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمنى فى يومى هذا . كلّ مالٍ نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاءَ كلهم ، وأنهم أتتهم الشياطين فأضلّتْهم عن دينهم . وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتْهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا . ثم إن الله عزّ وجلّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم . عجميهم وعربيهم . إلّا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء . تقرؤه نائماً ويقظاناً ... انتهى .

وقال الاستاذ النحرير الشيخ محمد عبده مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى بحث رسالة نبينا ﷺ ما نصّه : ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلمّ بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة ، فى زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسّة إلى قارعة تهزّ عروش الملوك، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء، إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء . وإلى نارٍ تنقض من سماء الحقّ على أُدُمِ الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول . وصيحةٍ فصحى ترعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبّه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين ، والقادة الغارّين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشدٍ يقيم الإنسان على الطريق التى سنّها الإله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)(١) ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أُعدّ فى الداريين له . ولكنا نستعير من التاريخ كلمةً يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرّخو ذلك العهد ، نظر إمعانٍ وإنصافٍ .

= مما لا ينبغى) الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع ، وإن دقّ إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » .

وذكر البخل والكذب .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣] .

كانت دولتا العالم (دولة الفرس فى الشرق، ودولة الرومان فى الغرب) فى تنازع وتجالد مستمرٍ دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظُلَم من الإحن حالكة . ومع ذلك ، فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنّن فى الملاذ بالغةً حدّ ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمّة . وكان شَرَهُ هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حدّ . فزادوا فى الضرائب ، وبالغوا فى فرض الإتاوات ، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم . وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوىّ فى اختطاف ما بيد الضعيف . وفكّر العاقل ، فى الاحتيال لسلب الغافل ؛ وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب ، لفقد الأمن على الأرواح والأموال . غمرت مشيئة الرؤساء إرادةَ من دونهم . فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب . يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصىّ ، وظنّ أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلّا لخدمة ساداتهم وتوفير لذّاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها . ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها . فلم يفارقها الحذر من أنّ بصيص النور الإلٰهىّ ، الذى يخالط الفطر الإنسانية ، قد يفتق الغُلُفَ التى أحاطت بالقلوب ، ويمزّق الحجب التى أسدلت على العقول . فتهتدى العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن يُنْشِئوا سحباً من الأوهام. ويهيِّئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة . فيغلظ الحجاب ، ويعظم الرَّين . ويختنق بذلك نور الفطرة . ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

وصرّح الدين ، بلسان رؤسائه ، أنه عدوّ العقل وعدوّ كل ما يثمره النظر . إلّا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس . وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد .

هـذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم . عبيد أذلّاء ،

حيارى فى جهالة عمياء . اللهمّ إلّا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة، آوت إلى بعض الأذهان . ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر . ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها ، بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يُرَى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشرَه حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام . مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كلّ ذلك هو الدين. فاستولى الاضطراب على المدارك . وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً . وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلًا عليها ، فوق ما رزئت به من سائر الخطوب . وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات . خاضعة للشهوات . فخر كل قبيلة فى قتال أختها . وسفك دماء أبطالها . وسبي نسائها . وسلب أموالها . تسوقها المطامع ، إلى المعامع . وزين لها السيئاتِ ، فسادُ الاعتقادات . وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدًّا صنعوا أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها . فلما جاعوا أكلوها . وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن . أو تنصُّلًا من نفقات معيشتهنّ . وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يَعُدْ معه للعفاف قيمة .

وبالجملة : فكانت ربط النظام الاجتماعىّ قد تراخت عقدها فى كل أمة . وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجلٍ منهم يوحى إليه رسالته ؟ ويمنحه عنايته ؟ ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم . التى أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم ، كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى .

ثمّ أشار إلى تفريطهم فى أمر الله الوارد على لسان موسى ، وتفريطهم فى حقه مع حثّه إياهم على شكر الله . ليسارعوا إلى امتثال أمره ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » أى : التى هى فوق نعمه على من سواكم. فلا تفرّطوا فى أمره إذْ لم يفرّط فى حقكم « إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ » أى : وهم أكمل الخلائق ومكملوهم ، ولم يبعث فى أمةٍ ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً » يعنى : وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط مملوكين، فأنقذكم الله . فسمى إنقاذهم ملكاً « وَءَاتَاكُمْ » أعطاكم « مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » من أنواع الإكرام التى خصكم بها ـ كفلق البحر لهم ، وإهلاك عدوّهم ، وتوريثهم أموالهم ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، وإخراج المياه العذبة من الحجر، وإظلال الغمام فوقهم ... ـ فمقتضى هذه النعم المبادرة إلى امتثال أوامر المنعِم ، شكراً له .

ثم أخبر تعالى عن تحريض موسى عليه السلام لقومه على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذى استحوذ عليه الجبابرة ، وأنهم نكلوا وعصوا أمره ، فعوقبوا بالتّيه لتفريطهم ، فقال سبحانه مخبراً عن موسى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ » يعنى : أرض بيت المقدس التى كانت مقدسة بمساكنة من مضى من الأنبياء. ثم تلوّثت بمساكنة الأعداء من جبابرة الكنعانيين . فأراد تطهيرها بإخراجهم وإسكان قومه « الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » أى : التى وعدكموها على لسان

أبيكم إبراهيم، بأن تكون ميراثاً لولده بعد أن جعلها مهاجَره «وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ» أى : لاتنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » أى : فترجعوا مغبونين بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)

« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ » أى : متغلبين ليس لنا مقاومتهم « وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا » أى : من غير صنع من قِبَلِنا فإنه لاطاقة لنا بإخراجهم منها « فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا» أى: بسببٍ من الأسباب التى لاتعلق لنا بها « فَإِنَّا دَاخِلُونَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« قَالَ رَجُلَانِ » هما يوشع بن نون وكالب بن يفنا « مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ » أى : يخافون الله تعالى دون العدوّ، ويتقونه فى مخالفة أمره ونهيه .

وقال العلامة البقاعىّ : أى من الذين يوجد منهم الخوف من الجبارين . ومع ذلك لم يخافا .

« أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » أى : بالتثبيت والثقة بوعده تعالى ومعرفة مقام أوامره تعالى « ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ » أى : باب بلدهم ، أى: باغتُوهم وامنعوهم من البروز إلى الصحراء ، لئلا يجدوا للحرب مجالًا « فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ » ـ أى : باب بلدهم ـ « فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ » عليهم « وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا » أى : لا على قوة أنفسكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى : بكمال قدرته ووعده النصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ)

« قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا » ـ أى : الجبابرة ـ « فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَاقَاعِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« قَالَ » أى : موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد ، على طريقة البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى « رَبِّ إِنِّى لَاأَمْلِكُ » أى : أحداً ألزمه قتالهم « إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي » هٰرون . قال المهايمىّ : أى : ومَنْ يؤاخينى ويوافقنى كهٰرون ويوشع وكالب . « فَافْرُقْ » أى : فاحكم بما يميز بين المحق والمبطل لتفرق « بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين عن أمرك ، وهو فى معنى الدعاء عليهم . وقد استجاب الله دعاءه ، وفرق بأن أضلّهم ظاهراً كما ضلّوا باطناً . كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« قَالَ فَإِنَّهَا » أى الأرض المقدسة « مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ » أى : بسبب أقوالهم هذه

وأفعالهم . لا يدخلونها ولا يملكونها ، ممن قال هذه المقالة أو رضيها أحد ، فالتحريم تحريم منع لاتحريم تعبد « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ » أى: يترددون فى البرية متحيرين فى الأرض حتى يهلكوا كلهم ، و (التيه) المفازة التى يتيه فيها سالكها فيضلّ عن وجه مقصده « فَلَا تَأْسَ » أى : تحزن « عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين من قيد الطاعات .

قال العلامة البقاعىّ : ثم بعد هلاكهم أدخلها بنيهم الذين ولدوا فى التيه . وفى هذه القصة أوضح دليل على نقضهم للعهود التى بنيت السورة على طلب الوفاء بها ، وافتتحت بها ، وصرح بأخذها عليهم فى قوله[1] : وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ... الآيات ، وفى ذلك تسلية للنبىّ ﷺ فيما يفعلونه معه ، وتذكير له بالنعمة على قومه بالتوفيق، وترغيب لمن أطاع منهم ، وترهيب لمن عصى. ومات فى تلك الأربعين ، كل من قال ذلك القول أو رضيه حتى النقباء العشرة . وكان الغمام يظلّهم من حرّ الشمس . ويكون لهم عمود من نور بالليل يضىء عليهم . وغير هذا من النعم . لأن المنع بالتيه كان تأديباً لهم . لاغضب . إذ أنهم تابوا. ثم ساق البقاعىّ ـ رحمه الله ـ شرح هذه القصة من التوراة التى بين أيديهم بالحرف . ونحن نأتى على ملخصها تأثراً له ، فنقول :

جاء فى سفر (العدد) فى الفصل الثالث عشر : إن شعب بنى إسرائيل لمّا ارتحلوا من حَصِيروت ونزلوا ببرّية فاران ، كلم الرب موسى بأن يبعث رجالًا يجسّون أرض كنعان . من كل سبط رجلًا واحداً . وكلهم يكونون من رؤساء بنى إسرائيل؛ فأرسلهم موسى وأمرهم أن ينظروا إلى الأرض ، أجيدة أم رديئة ؟ وإلى أهلها ، أشديدون أم ضعفاء ؟ قليلون أم كثيرون ؟ وأن يوافوه بشىء من ثمرها . فساروا واجتسّوا الأرض من برية صِينَ إلى رَحُوبَ عند مدخل حماة ، ثم رجعوا بعد أربعين يوماً . وكان موسى وقومه فى برية فاران فى قادش ، فأروهم ثمر الأرض ، وقصّوا عليهم ماشاهدوه من جودة الأرض ، وأنها تدرّ لبناً وعسلًا. ومن

(١) [٥ / المائدة / ١٢] .

شدة أهلها وقوتهم وتحصن مدنهم ؛ فاضطرب قوم موسى . فأخذ كالبُ ـ أحد النقباء ـ يسكتهم عن موسى ويقول : نصعد ونرث الأرض فإنا قادرون عليها . وخالفه بقية النقباء وقالوا : لا نقدر أن نصعد إليهم لأنهم أشدّ منّا . وهوّلوا على بنى إسرائيل الأمر وقالوا : شاهدنا أناسا طوال القامات، سيما بنى عَناقَ . فصرنا فى عيوننا كالجراد . وكذلك كنا فى عيونهم . فعند ذلك ضجّ قوم موسى ورفعوا أصواتهم وبكوا وقالوا : ليتنامتنا فى أرض مصر أوفى هذه البرية ، ولا تكون نساؤنا وأطفالنا غنيمةً للجبابرة . وخيرلنا أن نرجع إلى مصر . وقالوا : لنُقِمْ لنارئيساً ونرجع إلى مصر . فلما شاهد موسى ذلك منهم وقع هووأخوه هرون على وجوههما أمام الإسرائيليين . ومزّق ، من النقباء، يوشع بن نون وكالب ، ثيابهما . وكلّما بنى إسرائيل قائلين : إن الأرض التى مررنا فيها جيدة ، وإذا كان ربنا راضياً عنافإنه يدخلنا إياها . فلا تتمردوا ولا تخافوا أهلها فسيكونون طعمة لنا . إذ الرب معنا . فلما سمع بنو إسرائيل كلام يوشع وكالب قالوا : لِيُرْجَمَا بالحجارة ، وكاد حينئذٍ أن يحيق ببنى إسرائيل العذاب الإلٰهىّ ، لولا تضرع موسى إلى ربّه بأن يعفو عنهم ، كيلا يكونوا أحدوثة عند أعدائهم المصريين . فعفا تعالى عنهم . وأعلم موسى ؛ أنّ قومه لن يروا الأرض التى أقسم عليها لآبائهم . وأنهم يموتون جميعاً فى التيه . إلّا كالباً . فإنه لحسن انقياده سيدخل الأرض ، وكذلك يوشع ؛ وأعلمه تعالى أيضاً بأن أطفال قومه الذين سيهلكون فى التيه يكونون رعاة فيه أربعين سنة بعدد الأيام التى تجسس النقباء فيها أرض الكنعانين . كل يوم وزره سنة ليعرفوا انتقامه، عزّ سلطانه . ثم هلك النقباء العشرة، الذين شنّعوا لدى قومهم تلك الأرض، بضربة عجلت لهم . ثم همّ قوم موسى بالصعود إلى الكنعانيين لما أخبرهم موسى بما أعلمه تعالى . فنهاهم موسى وقال لهم : لا فوز لكم الآن بالنصر الربانىّ . وإن فعلتم فإن العدوّ يهزمكم وتسقطون تحت سيفه . فتجبّروا وصعدوا إلى رأس الجبل. فنزل العمالقه والكنعانيون عليهم فضربوهم وحطّموهم ، ثم بعد انقضاء الأربعين سنة فتحت الأرض المقدسة على يد يوشع ، كما شرح فى (سفره) ، والله أعلم .

تنبيهات

الأول : قوله تعالى (أَرْبَعِينَ سَنَةً) ظرف متعلق بـ(يتيهون) . واحتمال كونه ظرفا لـ (محرمة) كما ذكره غير واحد ـ لا يصح إلا بتكلف ؛ لما شرحناه من سياق القصة .

الثانى : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) على أنّ من لحقه عذاب الله لا يجوز أن يحزن عليه لأن ذلك حكمه ، بل يحمد الله تعالى إذا أهلك عدوًّا من أعدائه.

الثالث : قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارا من وضع بنى إسرائيل، فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام . وأن طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع . تحرير الحساب . وهذا شيء يستحيى من ذكره . ثم هو مخالف لما ثبت فى (الصحيحين) : أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن . ثم ذكروا أنّ هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زِنْية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته . وهذا كذب وافتراء ، فإن الله تعالى ذكر أنّ نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (١) . وقال تعالى : فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ(٢) . وقال تعالى : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ (٣) ؛ وإذا كان ابنُ نوح، الكافرُ ، غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ فى عقلٍ ولا شرعٍ . ثم فى وجود رجلٍ يقال له عوج بن عنق، نظر . والله أعلم .

(١) [٧١ / نوح / ٢٦] ونصها : وَقَالَ نُوحٌ . . .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١١٩و١٢٠] .

(٣) [١١ / هود / ٤٣] ونصها : قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ.

الرابع : قال ابن كثير : تضمنت هذه القصة تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجادلتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصَفِيّه من خلْقه في ذلك الزمان . وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم . هـذا ، مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوّهم ، فرعون ، من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليمّ وهم ينظرون ، لتقرّ به أعينهم (وما بالعهد من قدم) . ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازن عشر المشار في عدة أهلها وعددهم . وظهرت قبائح صنيعهم للخاصّ والعام . وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ولا يسترها الذيل . وقال ـ رحمه الله ـ قبل ذلك : وما أحسن ما أجاب به الصحابة[1] ـ رضي الله عنهم ـ يوم بدرٍ رسولَ الله ﷺ حين

(١) أخرجه مسلم في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبي سفيان . قال ، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد ؟ يارسول الله! والذي نفسي بيده ! لو أمرتنا أن نُخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغِماد (موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل) لفعلنا . قال ، فندب رسول الله ﷺ الناس . فانطلقوا حتى نزلوا بدرا . ووردت عليهم روايا قريش (أي إبلهم التي كانوا يستقون عليها . فهي الإبل الحوامل للماء . واحدتها راوية) وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه . فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه ؟ فيقول : مالي علم بأبي سفيان . ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف .

فإذا قال ذلك ضربوه . فقال : نعم . أنا أخبركم . هذا أبو سفيان .

فإذا تركوه فسألوه فقال : مالي بأبي سفيان علم . ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس . فإذا قال هذا أيضاً ضربوه . =

استشارهم فى قتال النفير الذين جاءوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان . فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفير ، وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف فى العدة والبيض واليلب. فتكلم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فأحسن . ثم تكلم ، من الصحابة ، من المهاجرين . ورسولُ الله ﷺ يقول : أشيروا علىّ أيها المسلمون ! وما يقول ذلك إلّا ليستعلم ما عند الأنصار. لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذٍ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يارسول الله؟ فوالذى بعثك بالحقّ ! لو استعرضت بنا هذا البحر ، لخضته ، لخضناه معك . ما تخلّف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلق بنا عدونا غداً . إنّا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء . لعل الله أنْ يُرِيَك منّا ما تقرّ به عينك . فَسِرْ بنا على بركة الله . فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه لذلك .

وروى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لَأَن أكون أنا صاحبه ، أحبّ إلىّ مما عدل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله ! يا رسول الله ! لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ . ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

= ورسول الله ﷺ قائم يصلى . فلما رأى ذلك انصرف . قال « والذى نفسى بيده ! لتضربوه إذا صدقكم ، وتتركوه إذا كذبكم » .

قال ، فقال رسول الله ﷺ « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ، ههنا وههنا فما ماط (أى تباعد) أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٨٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٦٩٨ (طبعة المعارف) .

فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك . وسرّه ذلك . وهكذا رواه البخاريّ[(١)] في (المغازي) .

الخامس : استنبط العمرانيون من هذه الآية أنّ من عوائق الملك حصول الذلّة للقبيل، والانقياد لسواهم .

قال الحكيم ابن خلدون في (مقدمة العبر) في الفصل ١٩ تحت العنوان المذكور : إن الذلة والانقياد كاسران لسَوْرة العصبية وشدّتها . فإنّ انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها ، فما رئموا (ألفوا) للمذلّة حتى عجزوا عن المدافعة ، ومن عجز عن المدافعة ، فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة . واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام ، وأخبرهم أنّ الله قد كتب لهم ملكها ، كيف عجزوا عن ذلك ، قالوا[(٢)] : إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا . أي : يخرجهم الله منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا، وتكون من معجزاتك يا موسى ، ولما عزم عليهم لجّوا وارتكبوا العصيان وقالوا[(٣)] له : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا . وما ذلك إلّا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة ، كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها ؛ وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد ، وما رئموا من الذلّ للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملةً . مع أنهم

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٤ ـ باب قول الله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ... الخ الآيات [٨ / الأنفال / ٩ ـ ١٣] .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٢] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

لم يؤمنوا حقّ الإيمان بما أخبرهم به موسى ، من أن الشام لهم ، وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم ، بحكم من الله قدّره لهم . فأقصروا عن ذلك وعجزوا ، تعويلاً على ماعلموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة ، لما حصل لهم من خلق المذلة . وطعنوا فيما أخبرهم به نبيّهم من ذلك وما أمرهم به . فعاقبهم الله بالتيه . وهو أنّهم تاهوا فى قَفْرٍ من الأرض مابين الشام ومصر أربعين سنةً . لم يأووا فيها لعمران ، ولا نزلوا مصراً ، ولا خالطوا بشراً ، كما قصّه القرآن ، لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ، لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه. ويظهر من مساق الآية ومفهومها : أن حكمة ذلك التيه مقصودة . وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلّقوا به . وأفسدوا من عصبيّتهم ، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ، ولا يُسَام بالمذلة . فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ؛ ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنةً أقلّ ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر ، سبحان الحكيم العليم . وفى هذا أوضح دليل على شأن العصبية. وأنّها هى التى تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة . وأنّ من فقدها عجز عن جميع ذلك كلّه . اهـ .

ثم بيّن تعالى وخيمَ عاقبة البغى والحسد ، فى جزاء ابنى آدم لصلبه . تعريضاً باليهود . وأنهم إن أصروا على بغيهم وحسدهم فسيرجعون بالصفة الخاسرة فى الدارين ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ » أى : على هؤلاء البغاة الحسدة من اليهود وأشباههم « نَبَأَ ابْنَىْ ءَادَمَ » هابيل وقابيل، ملتبساً « بِالْحَقِّ » أى : الصدق والصحة موافقاً لما فى كتبهم « إِذْ

قَرَّبَا قُرْبَانًا » أى : ما يتقرب به إلى الله تعالى من نسيكةٍ أو صدقةٍ . وكان هابيل راعىَ غنم ، وقابيل يحرث الأرض . فقدّم هابيل شيئاً من أبكار غنمه ومن سمانها . وقدّم قابيل شيئاً رديئاً من ثمر الأرض « فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا » وهو هابيل « وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ » وهو قابيل « قَالَ » قابيل لهابيل « لَأَقْتُلَنَّكَ » على قبول قربانك « قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » أى: إنما أُتيتَ من قبل نفسك ، لانسلاخها من لباس التقوى .لا من قبلى. فلِمَ تقتلنى ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيمٍ مختصرٍ جامعٍ لمعانٍ ؛ وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلّا من مؤمنٍ مُتَّقٍ ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم !

وعن عامر بن عبد الله : أنه بكى حين حضرته الوفاة : فقيل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت ؟ قال : إنى أسمع الله يقول :إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. كذا فى (الكشاف) .

وروى ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل قال : يحبس الناس فى بقيع واحد فينادى منادٍ: أين المتقون ؟ فيقومون فى كنفٍ من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشركَ وعبادةَ الأوثان وأخلصوا العبادة . فيمرون إلى الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

« لَئِنْ بَسَطْتَ » أى : مددت « إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي » أى : ظلماً « مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ » أى : دفعاً « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » أى : من أن أصنع كما تريد أن تصنع .

وفى (الصحيحين)[١] : عن النبىّ ﷺ أنه قال : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : يا رسول الله ! هذا القاتل . فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود والترمذىّ فى حديث سعد بن أبى وقاص قال : قلت: يا رسول الله ! أرأيت إن دخل بيتى وبسط يده ليقتلنى ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : كن كابن آدم ـ وتلا ـ : لَئِنْ بَسَطْتَ ... الآية .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٢ ـ باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، حديث ٢٩ ونصه :

عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقينى أبو بكرة فقال : أين تريد؟ قلت : أنصر هذا الرجل . قال : ارجع فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » فقلت : يا رسول الله ! هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ١٤و١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٨٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) وحديث ١٦٠٩ (طبعة المعارف) ونصه :

عن بُسر بن سعيد أن سعد بن أبى وقاص قال ، عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى » قال : أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده إلىّ ليقتلنى؟ قال « كن كابن آدم » .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن والملاحم ، فى النهى عن السعى فى الفتنة ، حديث ٤٢٥٧ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٢٩ ـ باب ما جاء تكون فتنةٌ القاعد فيها خير من القائم .

قال المهايميّ في تفسير هذه الآية : أي : إني ـ وإن لم أكن في الدفع ظالماً ـ أخاف الله أن يكره مني هدم بنيانه الجامع ليظهر فيه من حيث كونه رب العالمين . انتهى .

وهو منزع صوفيّ لطيف .

وقال أبو السعود : فيه من إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى، على أبلغ وجهٍ وآكده، مالا يخفى . كأنه قال : إني أخافه تعالى إن بسطت يدي إليك لأقتلك ، أن يعاقبني . وإن كان ذلك مني لدفع عداوتك عني . فما ظنّك بحالك وأنت البادئ العادي؟ وفي وصفه تعالى بربوبيّة العالمين تأكيدٌ للخوف . قيل : كان هابيل أقوى منه . ولكن تحرّج عن قتله واستسلم خوفاً من الله تعالى . لأن القتل للدفع لم يكن مباحاً حينئذٍ . وقيل : تحرياً لما هو الأفضل ، حسبما قال[1] عليه الصلاة والسلام : كن عبدالله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. ويأباه التعليل بخوفه تعالى ، إلّا أن يدعى أنّ ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية في استتباع الغائلة ، مبالغة في التنزّه. انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

« إِنِّي أُرِيدُ » أي : باستسلامي لك وامتناعي عن التعرض لك « أَنْ تَبُوءَ » أي: ترجع إلى الله ملتبساً « بِإِثْمِي » أي: بإثم قتلي « وَإِثْمِكَ » أي: الذي كان منك قبل قتلي ، أوالذي من أجله لم يتقبل قربانك « فَتَكُونَ » أي : بالإثمين « مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » .

قال الناصر في (الانتصاف) : فأما إرادته لإثم أخيه وعقوبته فمعناه : إني لا أريد أن

---

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

أقتلك فأعاقب . ولمّا لم يكن بدٌّ من إرادة أحد الأمرين؛ إمّا إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإمّا إثم أخيه بتقدير أن يستسلم ـ وكان غيرَ مريدٍ للأول ، اضطر إلى الثانى. فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أنّ الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل ـ ولم تكن حينئذٍ مشروعة ـ فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا، كما يتمنّى الإنسان الشهادة.ومعناها أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه فى ذلك من الإثم ؛ ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذل نفسه فى سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله ضمناً وتبعاً . والذى يدل على ذلك؛ أنّه لا فرق فى حصول درجة الشهادة وفضيلتها بين أن يموت القاتل على الكفر وبين أن يختم له بالإيمان ، فيحبط عنه إثم القتل الذى به كان الشهيد شهيداً. أعنى بقى الإثم على قاتله، أو حبط عنه. إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته ولا يزيدها ، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمنى باعتبار بقائه وإحباطه ، فدلّ على أنه أمر لازم تبع، لا مقصود . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » أى : رخصت وسهلت له نفسه . والتصريح بأخوّته لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه . أى : الذى حقه أن يحفظه من كل من قصده بالسوء بالتحمل على نفسه« فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ديناً، إذْ صار كافراً حاملًا للدماء إلى يوم القيامة. ودُنيا، إذ صار مطرودًا مبغضاً للخلائق .

وقد أخرج الجماعة ـ غير أبى داود ـ عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ[1]: لاتقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها. لأنه كان أول من سنّ القتل. انتهى.

ولما قتله لم يدر ما يصنع به من إفراط حيرته .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ، حديث ١٥٧٥ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَبَعَثَ اللهُ غرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

« فَبَعَثَ » أى : أرسل « اللهُ غُرَاباً » فجاء « يَبْحَثُ » أى : يحفر بمنقاره ورجله متعمقاً « فِي الْأَرْضِ » .

قال القتيبىّ : هذا من الاختصار . ومعناه : بعث غراباً يبحث التراب على غراب ميت. وكذا رواه السدّىّ عن الصحابة ؛ أنه تعالى بعث غرابين اقتتلا . فقتل أحدهما الآخر . فحفر له . ثم حثى عليه حثياً .

« لِيُرِيَهُ » الضمير المستكن إمّا لله تعالى أو للغراب . والظاهر ، للقاتل أخاه « كَيْفَ يُوَارِي » أى : يستر فى التراب « سَوْءَةَ أَخِيهِ » أى : جسده الميت . وسمّى سوأة لأنه مما يسوء ناظره « قَالَ يَا وَيْلَتَا » كلمة جزع وتحسّر ، والألف فيها بدل من ياء المتكلم . والويل والويلة الهلكة « أَعَجَزْتُ » أى : أضعفت عن الحيلة « أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ » أى : الذى هو من أخسّ الحيوانات . والاستفهام للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب « فَأُوَارِيَ » أى: أغطى « سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ » أى: صار « مِنَ النَّادِمِينَ » أى : على حيرته فى مواراته حيث لم يدفنه حين قتله . فصار أجهل من الحيوانات العجم وأضلّ منها وأدنى .

وفى (التنوير) : ولم يكن نادماً على قتله .

وقال أبو الليث عن ابن عباس : لو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً منه .

تنبيهات

الأول : ظاهر الآية أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، وأنه تعلم ذلك من الغراب . ولا مانع من ذلك . إذ مثله مما يجوز خفاؤه . لاسيما والعالم ، فى أول طور النشأة ، وأنه أول قتيل ، فيكون أول ميت .

ونقل الرازىّ احتمال أن يكون عالما بكيفية دفنه، قال : فإنه يبعد فى الإنسان أن لا يهتدى إلى هذا القدر من العمل ، إلا أنه لما قتله تركه بالعراء استخفافا به ، ولما رأى الغراب يدفن الغراب الآخر ، رق قلبه ولم يرض أن يكون أقل شفقة منه . فواراه تحت الأرض ، والله أعلم.

الثانى : فى الآية دلالة على أن الندم ، إذا لم يكن لقبح المعصية ، لم يكن توبة .

قال الرازىّ : ندم على قساوة قلبه وكونه دون الغراب فى الرحمة . فكان ندمه لذلك ، لا لأجل الخوف من الله تعالى ، فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم .

الثالث : الآية أصل فى دفن الميت .

الرابع : قال ابن جرير(١) : زعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل ، قال له الله : ياقابيل ! أين أخوك هابيل ؟ قال : ما أدرى. ما كنت عليه رقيباً . فقال الله : إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض ، الآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها فبلعت دم أخيك من يدك. فإذا أنت عملت فى الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها، حتى تكون فزعا تائها فى الأرض . انتهى .

الخامس : روى ابن جرير(٢) بسنده عن علىّ بن أبي طالب قال : لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم فقال :

---

(١) الأثر رقم ١١٧٦٥ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٧٢١ من التفسير .

تغيّرتِ البلادُ ومن عليها   فلونُ الأرض مغبرّ قبيحُ
تغيَّرَ كل ذى لونٍ وطعمٍ   وقلّ بشاشةُ الوجه المليحِ

فأجيب آدم عليه الصلاة والسلام :

أبا هابيلَ ! قد قُتِلا جميعاً   وصار الحىُّ كالميت الذَّبيحِ
وجاء بِشِرَّةٍ قد كان منها   على خوف ، فجاء بها يصيحُ

أقول : قد اشتهر البيتان الأولان . وقد فنّد نسبتهما إلى آدم غيرُ واحد .

قال الزمخشرىّ : روى أن آدم رثاه بشعر . وهو كذب بحت . وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر . انتهى .

قال الشرّاح : (المليح) فى النظم المذكور ، إن رفع فخطأ . لأنه صفة الوجه المجرور ، وإن خفض فإقواء وهو عيب قبيح ، وإن كثر . وقول من قال (الوجه فاعل قلّ . وبشاشةً منصوب على التمييز بحذف التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف) ألحنُ . وقيل : إن آدم عليه الصلاة والسلام رثاه بكلام منثور بالسريانىّ . فلم يزل ينقل إلى أن وصل إلى يعرب بن قحطان ـ وهو أول من خطّ بالعربية ـ فقدم وأخّر وجعله شعراً عربياً . انتهى .

قال الخفاجىّ . لاشك أن لوائح الوضع عليه رائحة لركاكته ، لكن ما استصعبوه من الإقواء ، وترك التنوين ، ليس بصعب . لما فى أشعار الجاهلية والشعراء من أمثاله . مع أنه قد يخرج بأنه نعت جرى على المحل . لأن الوجه فاعل المصدر ، وهو بشاشة .

السادس : حكمة تخصيص الغراب كون دأبه المواراة .

قال أبو مسلم : عادة الغراب دفن الأشياء . فجاء غراب فدفن شيئاً فتعلم ذلك منه . انتهى .

والغراب هو الطائر الأسود المعروف . وقسموه إلى أنواع . وفى الحديث : أنه ﷺ غيّر اسم غراب لما فيه من البعد . ولأنه من أخبث الطيور . والعرب تقول : أبصر من غراب ،

وأحذر من غراب ، وأزهى من غراب ، وأصفى عيشاً من غراب ، وأشدّ سواداً من غراب، وهـذا بأبيه أشبه من الغراب بالغراب . وإذا نعتوا أرضاً بالخصب قالوا : وقع فى أرض لا يطير غرابها . ويقولون : وَجَدَ تمرة الغراب ، وذلك أنه يتبع أجود التمر فينتقيه . ويقولون: أشأم من غراب ، وأفسق من غراب . ويقولون : طار غراب فـلان ، إذا شاب رأسه . وغراب غاربٌ على المبالغة . كما قالوا : شعر شاعر ، وموت مائت . قال[1] رؤبة :

* فازجر من الطير الغراب الغاربا *

قالوا : وليس شىء فى الأرض يُتشاءم به إلّا والغراب أشأم منه . وللبديع[2] الهمذانىّ فصل بديع فى وصفه . ذكره فى (المضاف والمنسوب) وأورد مايضاف إليه الغراب ويضاف إلى الغراب . والأبيات فى غراب البين كثيرة، ملئت بها الدفاتر .

وحقق الإمام أبوعبد الله الشريف الغرناطىّ ـ قاضى غرناطة ـ فى «شرحه على (مقصورة حازم) أن غراب البين فى الحقيقة هو الإبل التى تنقلهم من بلاد إلى بلاد . وأنشد فى ذلك مقاطيع. منها :

غلط الذين رأيتهم بجهـالة ... يَلْحَوْنَ كُلُّهم غراباً ينعق
ما الذنب إلّا للأباعر إنهـا ... ممـا يشتّت جمعَهم ويفرّق
إن الغراب بيمنه تدنو النوى ... وتشتت الشملَ الجميعَ الأينُق

(١) استشهد به فى اللسان ، بالصفحة ٦٤٦ من المجلد الأول (طبعة بيروت) .

(٢) هذا ما رواه الثعالبىّ فى (كتاب ثمار القلوب ، فى المضاف والمنسوب) بالصفحة ٣٦٣ ونصه :

ما أعرف لفلان مثلا إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموما على أى جنب وقع ، إن طار فقسّم الضمير ، وإن وقع فمروّع بالنذير . وإن حجل فخشية الأمير، وإن صاح فصوت الحمير، وإن أكل فدبرة البعير . (والدَّبْرَةُ : قرْحَتُه) .

وأنشد ابن المسناوىّ لابن عبد ربّه :

زعق الغراب فقلت : أكذب طائر ‏ إن لم يصدقه رغاء بعير

كذا فى « تاج العروس » شرح القاموس .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

« مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ » أى : بسبب قتل قابيل هابيل ظلماً « كَتَبْنَا » أى فرضنا وأوجبنا « عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ » وإنما خُصّوا بالذكر لأنهم أول من تعبدوا بذلك . وقوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ » أى : بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص « أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ » أى : أو بغير فساد يوجب إهدار دمها ـ كالكفر مع الحراب ، والارتداد ، وقطع الطريق الآتى بعد ، وزنا المحصن ـ « فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً » أى : من حيث إنه هتك حرمة الدماء ، وسنَّ القتل ، وجرّأ الناس عليه . أو من حيث إنّ قتل الواحد وقتل الجميع سواء ، فى استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم « وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » أى : ومن تسبب لبقاء حياتها بعفوٍ أو منعٍ عن القتل أو استنقاذٍ من بعض أسباب الهلكة ، فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً . والمقصود منه : تعظيم قتل النفس وإحيائها فى القلوب ترهيباً عن التعرض لها ، وترغيباً فى المحاماة عليها . أفاده البيضاوىّ .

وقال أبو مسلم فى معنى الآية : من قتل نفساً وجب على المؤمنين معاداته . وأن يكونوا

خصومه، كما لو قتلهم جميعاً . لأن المسلمين يدٌ واحدة على من سواهم . ومن أحيا وجب موالاته عليهم ، كما لَوْ أحياهم . انتهى .

وقيل للحسن البصري[١] : هذه الآية لنا كما كانت لبني إسرائيل ؟ فقال : إي والذي لا إله غيره ! كما كانت لهم . وَمَا جَعَلَ دِمَاءَهُمْ أكرم من دمائنا .

أقول : القاعدة في ذلك ؛ أن جميع ما يحكى في القرآن من شرائع الأولين وأحكامهم ، ولم ينبّه على إفسادهم وافترائهم فيه ، فهو حقّ . وقد أوضح ذلك الإمام الشاطبيّ في (الموافقات) فانظره فإنه مهمّ .

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال[٢] : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئتُ لأنصرك . وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ! فقال : يا أبا هريرة ! أيسرّك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت : لا ! قال : فإنك إن قتلت رجلًا واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً . فانصرِفْ مأذوناً لك ، مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل .

وروى الإمام أحمد[٣] عن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! اجعلني على شيء أعيش به . فقال رسول الله ﷺ : يا حمزة ! نفس تحييها أحبّ إليك أم نفس تميتها ؟ قال : بل نفس أحييها . قال : عليك بنفسك .

---

(١) الأثر رقم ١١٨٠٠ من تفسير ابن جرير .

(٢) قال شيخنا السيد أحمد محمد شاكر معلقاً عليه في الصفحة ١٣٠ من الجزء الرابع من (عمدة التفسير) قال حفظه الله :

هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرجه . وقد رواه ابن سعد في الطبقات (٣/١/٤٨ـ٤٩) وإسناده صحيح جدا . وذكره السيوطيّ في الدر المنثور (٢:/٢٧٧) ولم ينسبه لغير ابن سعد .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) وحديث ٦٦٣٩ (طبعة المعارف) .

« وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ » يعنى : بنى إسرائيل « رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » أى : الآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم ، تأكيداً لوجوب مراعاته ، وتأييداً لتحتم المحافظة عليه . « ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى : من بنى إسرائيل « بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى : بعد ما كتبنا عليهم، وبعد مجئ الرسل بالآيات والزجر المسموع منهم « لَمُسْرِفُونَ » يعنى : بالفساد والقتل - لا يبالون بعظمة ذلك .

قال ابن كثير : هذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها . كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ، ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج ، إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية . ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فَدَوْا من أسروه، وَوَدَوْا من قتلوه . وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك فى (سورة البقرة) حيث يقول : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ... الآيات(١) .

وقال الرازىّ : المقصود من شرح هذه المبالغة ـ يعنى قوله تعالى (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ...) الآية ـ أن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى . ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام فى الواقعة التى ذكرنا أنهم عزموا

(١) [٢ / البقرة / ٨٤و٨٥] ونصهما : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

على الفتك برسول الله ﷺ وبأكابر أصحابه ـ كان تخصيص بنى إسرائيل فى هـذه القصة، فى هذه المبالغة العظيمة، مناسباً للـكلام ومؤكّداً للمقصود .

ولما ذكر تعالى تغليظ الإثم فى قتل النفس بغير قتل نفس ولا فساد ـ أتبعه ببيان الفساد المبيح للقتل بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّمَا جَزَاءُ » أى مـكافأة « الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى : يخـالفونهما ويعصون أمرهما « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أى: يعملون فى الأرض بالمعاصى وهو القتل وأخذ المـال ظلماً « أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ » أى : أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى « أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » أى : يطردوا منها ويُنَحَّوْا عنها . وهو التغريب عن المدن، فلا يقرّون فيها « ذَٰلِكَ » أى: الجزاء المذكور « لَهُمْ خِزْيٌ » ذل وفضيحة « فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » أى من المحاربين « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ روى ابن جرير(١) وأبوداود والنسائى عن ابن عباس ؛ أنها نزلت فى المشركين. وروى ابن جرير عن أبىّ ، أنها نزلت فى قوم من أهل الكتاب نقضوا عهدهم مع النبىّ ﷺ . وظاهرٌ أنّها عامة فى المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات . كما روى الشيخان(٢) وأهل السنن وابن مردويه وهذا لفظه : عن أنس بن مالك ؛ أن ناساً من عرينة قدموا المدينةفاجتووها. فبعثهم رسول الله ﷺ فى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها ففعلوا فصحّوا ، فارتدّوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعى وساقوا الإبل . فأرسل رسول الله ﷺ فى آثارهم ، فجئ بهم . فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسَمَرَ أعينهم وألقاهم فى الحرّة. قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً ، حتى ماتوا . ونزلت : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ... الآية . ولمسلم(٣) عن أنس قال : إنما سمل النبىّ ﷺ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٣ ـ باب ما جاء فى المحاربة ، حديث ٤٣٧٢ ونصه :

عن ابن عباس قال : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) إلى قوله (غَفُورٌ رَحِيمٌ) نزلت هذه الآية فى المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يُقدَر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحدّ الذى أصابه .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٦ ـ باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ، حديث ١٧٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٢٨ ـ كتاب القسامة ، حديث ٩ ـ ١٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٢٨ ـ كتاب القسامة ، حديث ١٤ (طبعتنا) .

أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء . وعند البخاريّ : قال أبو قلابة[١] : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله .

الثانية ـ زعم بعضهم أن الآية نزلت نسخاً لعقوبة العرنيين المتقدمة .

قال ابن جرير[٢] : حدثنا عليّ بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : ذاكرت الليث ابن سعد: ما كان من سَمْل النبيّ ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا . فقال : سمعت محمد ابن عجلان يقول : أُنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك ، وعلَّمه عقوبة مثلهم من القطع والقتل والنفي، ولم يسمل بعدهم غيرهم . قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو ـ يعني الأوزاعيّ ـ فأنكر أن تكون نزلت معاتبة ، وقال: بلى. كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم . ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم مِمَّن حارب بعدهم. فرفع عنهم السمل. وروى[٣] ابن جرير أيضاً في القصة عن سعيد بن جبير قال : فما مثل رسول الله ﷺ قبلُ ولا بعدُ، قال:

(١) أخرجه البخاريّ في : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٦ ـ باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ، حديث ١٧٣ .

(٢) الأثر رقم ١١٨١٨ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨١٠ من التفسير ونصه :

عن عبد الكريم = وسئل عن أبوال الإبل = فقال : حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال: كان ناس أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام . فبايعوه ، وهم كَذَبَة ، وليس الإسلامَ يريدون . ثم قالوا : إنا نجتوي المدينة . فقال النبيّ ﷺ « هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح ، فاشربوا من أبوالها وألبانها » . قال ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء الصريخ ، فصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلوا الراعي وساقوا النَّعَم . فأمر نبيّ الله فنودي في الناس: أنْ « يا خيل الله اركبي » قال ، فركبوا ، لا ينتظر فارس فارساً . قال ، فركب رسول الله ﷺ على أثرهم . فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم . فرجع صحابة رسول الله ﷺ =

ونهى عن المُثْلة، قال(١): لَا تُمَثِّلُوا بِشْيء . والنهى عن المُثْلة مروىّ فى الصحيح والسنن.

الثالثة ـ احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء، فى ذهابهم إلى أنّ المحاربة فى الأمصار وفى السبلات على السواء. لقوله : وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . وهـذا مذهب مالك والأوزاعىّ والليث بن سعد والشافعىّ وأحمد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولو شهروا السلاح فى البنيان لا فى الصحراء لأخذ المال، فقد قيل : إنهم ليسوا محاربين بل هم بمنزلة المنتهب . لأن المطلوب يدركه الغوث إذا استغاث بالناس . وقال الأكثرون : إن حكم مَن فى البنيان والصحراء واحد ، بل هم فى البنيان أحق بالعقوبة منهم فى الصحراء ، لأن البنيان محل الأمن والطمأنينة ، ولأنه محـل تناصر الناس وتعاونهم ، فإقدامهم عليه يقتضى شدة المحاربة والمغالبة ، ولأنهم يسلبون الرجـل فى داره جميع ماله ، والمسافر لا يكون معه غالباً إلّا بعض ماله ؛ وهذا هو الصواب .

حتى قال مالك فى الذى يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه: إن هذه محاربة . ودمه إلى السلطان لا إلى ولىّ المقتول . ولا اعتبار بعفوه عنه فى إنفاذ القتل .

= وقد أسروا منهم ، فأتوا بهم النبىّ ﷺ ، فأنزل الله : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . الآية . قال فكان نَفْيُهم أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم ، ونفوهم من أرض المسلمين . وقَتَلَ نبىُّ الله منهم ، وصلب ، وقطع ، وسَمَلَ الأعين .

قال ، فما مثَّل رسول الله ﷺ قبلُ ولا بعدُ .

قال : ونهى عن المُثْلة وقال « لا تمثِّلوا بشىء » .

قال : فكان أنس بن مالك يقول ذلك ، غير أنه قال : أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٣ (طبعتنا) وهو ضمن حديث طويل كان يوصى به ﷺ ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية .

وإنما كان ذلك محاربة ، لأن القتل بالحيلة كالقتل مكابرةً ، كلاهما لا يمكن الاحتراز منه، بل قد يكون ضرر هذا أشدّ ، لأنه لايدرى به .

وقيل : إنّ المحارب هو المجاهر بالقتال ، وإنّ هذا المغتال يكون أمره إلى ولىّ أمر الدم. والأول أشبه بأصول الشريعة .

الرابعة ــ ظاهر الآية : أن عقوبة المحاربين المفسدين أحد هذه الأنواع . فيفعل الإمام منها ما رأى فيه صلاحاً .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس، فى الآية[١] : من شهر السلاح فى قبة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله . وكذا قال سعيد بن المسيّب[٢] ومجاهد[٣] وعطاء[٤]

(١) الأثر رقم ١١٨٥٠ من تفسير ابن جرير . وكان فى الأصل (فئة الإسلام) فصححها الأستاذ محمود شاكر وجعلها (قبة الإسلام) وقال : و (قبة الإسلام) يعنى فى ظله ، وحيث مستقر سلطانه . ولذلك سموا البصرة : قبّة الإسلام . قال الشاعر :

بنت قبةَ الإسلام قيسٌ لأهلها ولو لم يقيموها لطال التواؤها

وأصل القبة خيمة من أدم مستديرة . وذلك كقولهم أيضاً (دار الإسلام) بهذا المعنى الذى بينتهُ .

وقال شيخنا السيد أحمد محمد شاكر بالصفحة ١٣٥ من الجزء الرابع من (عمدة التفسير) : وفى المطبوعة (فئة الإسلام) وكذلك كانت فى طبعة الطبرىّ القديمة ، وهى لا معنى لها . وكلمة (قبة الإسلام) واضحة الرسم والنقط فى مخطوطتى ابن كثير . ومضبوطة بالشكل فى إحداها .

(٢) الأثر رقم ١١٨٥١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨٤٤ من التفسير .

(٤) الأثر رقم ١١٨٤٨و١١٨٤٩ من التفسير .

والحسن البصرى[1] وإبراهيم النخمى[2] والضحاك . كما رواه ابن جرير ، وحكى مثله عن أنس .

قال ابن كثير : ومستند هذا القول ظاهر . وللتخيير نظائر من القرآن . كقوله[3] فى جزاء الصيد : فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا . وقوله[4] فى كفارة الترفه : فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ. وقوله[5] فى كفارة اليمين : إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .هذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية . وقال

---

(١) الأثر رقم ١١٨٤٦و١١٨٤٧و١١٨٥٢و١١٨٥٣ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٨٤٥ من التفسير .

(٣) [٥ / المائدة / ٩٥] ونصها : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(٤) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٥) [٥/المائدة/٨٩] ونصها : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ =

الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال . أخرج الشافعيّ عن إبراهيم بن أبي يحيى ، عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس، في قطّاع الطريق : إذا قَتَلُوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا . وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا ، قُطِّعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نُفوا من الأرض . وقد رواه ابن أبي شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان ، عن حجاج ، عن عطية عن ابن عباس بنحوه . وعن أبي مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعيّ والحسن وقتادة والسدّيّ وعطاء الخراسانيّ نحو ذلك . وهكذا قال غير واحدٍ من السلف والأئمة . انتهى .

وفي (النهاية) من فقه الزيدية : يرجع في المحارب إلى رأي الإمام ، فإن كان له رأيٌ قتله أو صلبه ـ لأن القطع لا يدفع المضرة ـ وإن كان لا رأي له لكنه ذو قوةٍ قطعه من خلاف ، وإن عدم القوة والرأي ضُرب ونُفي ؛ وهذا معنى التخيير بين هذه الأمور ، أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام، على ما ذكر . انتهى .

ورأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية فصلًا مهمًّا في المحاربين في كتابه (السياسة الشرعية) وقد مثّلهم بقطّاع الطريق الذين يعترضون الناس بالسلاح في الطرقات ونحوها ليغصبوهم المال مجاهرةً ، من الأعراب أو التركمان أو الأكراد أو الفلاحين، أو فَسَقة الجند أو مَرَدة الحاضرة أو غيرهم . ثم ساق رواية الشافعيّ المتقدمة عن ابن عباس وقال :

هذا قول كثير من أهل العلم ـ كالشافعيّ وأحمد رضي الله عنهما ـ وهو قريب من قول أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ . ومنهم من قال : للإمام أن يجتهد فيهم فيقتل من رأى قتله

= يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

مصلحة فيهم وإنْ كان لم يَقْتل مثل أن يكون رئيساً مطاعاً فيهم . ويقطع من رأى قطعه مصلحة وإنْ كان لم يأخذ المال. مثل أن يكون ذا جلَدٍ وقوةٍ فى أخذ المال . كما أنّ منهم من يرى أنه إذا أخذوا المال قُتّلوا وقُطِّعوا وصُلِّبوا . والأول قول الأكثر. فمن كان من المحاربين قد قَتَلَ فإنه يقتله الإمام حدًّا لا يجوز العفو عنه بحال ، بإجماع العلماء . ذكره ابن المنذر . ولا يكون أمره إلى ورثة المقتول . بخلاف مالو قتل رجل رجلًا لعداوةٍ بينهما ، أو لخصومة ، أو نحو ذلك من الأسباب الخاصة . فإن هـذا دمه لأولياء المقتول . إن أحبوا قتلوا . وإن أحبوا عَفَوْا . وإن أحبوا أخذوا الدية لأنه قتله لغرض خاص . وأما المحاربون فإنما يُقتلون لأخذ أموال الناس، فضررهم عام بمنزلة السُّرَّاق . فكان قتلهم حدّ الله . وهـذا متفق عليه بين الفقهاء. حتى لو كان المقتول غير مكافئٍ للقاتل . مثل أن يكون القاتل حرًّا والمقتول عبداً، أو القاتل مسلماً والمقتول ذمّيًّا أو مستأمناً . فقد اختلف الفقهاء : هل يقتل فى المحاربة ؟ والأقوى أنه يقتل للفساد العام حدًّا ، كما يقطع إذا أخذ أموالهم . وكما يحبس بحقوقهم . وإذا كان المحاربون الحرامية جماعة، فالواحد منهم باشر القتـل بنفسه والباقون له أعوان وردءٌ له ، فقد قيـل : إنه يقتل المباشر فقط . والجمهور على أن الجميع يقتلون ولو كانوا مائة . والردء والمباشر سواء . وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين . فإن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قتل ربيئة المحاربين . والربيئة هو الناظور الذى يجلس على مكانٍ عالٍ ينظر منه لهم من يجيء . ولأن المباشر إنما يمكن من قتله بقوة الردء ومعونته . والطائفة إذا انتصر بعضها ببعض ، حتى صاروا ممتنعين، فهم مشتركون فى الثواب والعقاب كالمجاهدين . فإن النبيّ ﷺ قال[1] : المسلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، وَيرُدّ

---

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٨٥ ـ كتاب الفرائض، ٢١ ـ باب إثم من تبرأ من مواليه، حديث ٩٥ ونصه :

قال عليّ رضى الله عنه : ماعندنا كتاب نقرؤه ، إلا كتابُ الله ، غيرَ هذه الصحيفة =

مُتَسَرِّيهم على قاعدتهم . يعني : أن جيش المسلمين إذا تسرّت منه سرية فغنمت مالًا ، فإن الجيش يشاركها فيما غنمت. لأنها بظهره وقوّته تمكنت . لكن تُنْفَلُ عنه نفلًا . فإن النبيّ ﷺ كان ينفل السرية ، إذا كانوا في بدايتهم، الربع بعد الخمس . فإذا رجعوا إلى أوطانهم وتسرّت سرية، نفلهم الثلث بعد الخمس . وكذلك لو غنم الجيش غنيمة شاركته السرية ، لأنها في مصلحة الجيش . كما قسم النبيّ ﷺ لطلحة والزبير يوم بدر ، لأنه كان قد بعثهما في مصلحة الجيش. فأعوانُ الطائفة المتمنعة وأنصارها منها، فيما لهم وعليهم . وهكذا المقتتلون على باطل لا تأويل فيه ، مثل المقتتلين على عصبية ودعوى جاهلية. كقيس ويمن ونحوهما ، هما ظالمتان. كما قال النبيّ ﷺ [1] : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل : يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه . أخرجاه في (الصحيحين) وتضمن كل طائفة ما أتلفته الأخرى من نفسٍ ومال وإن لم يعرف عين القاتل . لأن الطائفة الواحدة المتمنع بعضها ببعض كالشخص الواحد . وأما إذا أخذوا المال فقط ولم يقتلوا ـ كما قد يفعله الأعراب كثيراً ـ فإنه يقطع من كل واحد يده اليمنى ورجله اليسرى عند أكثر العلماء . كأبي حنيفة والشافعيّ وأحمد وغيرهم . وهذا معنى قوله تعالى : أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ . تقطع اليد التي يبطش بها، والرجل التي يمشي عليها، وتحسم يده ورجله

= قال ، فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل . قال ، وفيها « المدينة حرم ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ . فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه ، يوم القيامة صرف ولا عدل . ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل . وذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها أدناهم . فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٤٤.

بالزيت المغليّ ونحوه ، لينحسم الدم فلا يخرج فيُفضى إلى تلفه . وكذا تحسم يد السارق بالزيت . وهذا الفعل قد يكون أزجر من القتل . فإن الأعراب وفسقة الجند وغيرهم، إذا رأوا دائماً من هو بينهم مقطوع اليدوالرجل، ذكروا بذلك جرمه ، فارتدعوا . بخلاف القتـل ، فإنه قد يُنسَى . وقد يؤثر بعض النفوس الأبية قتله على قطع يده ورجله من خلاف ، فيكون هذا أشدّ تنكيلًا له ولأمثاله . وأما إذا شهروا السلاح ولم يقتلوا نفساً ولم يأخذوا مالًا ، ثم أغمدوه ، أو هربوا ، وتركوا الحراب ، فإنهم يُنْفَوْنَ . فقيل : (نفيهم) تشريدهم . فلا يتركون يأوون فى بلد . وقيل : هو حبسهم . وقيل : هو ما يراه الإمام أصلح من نفيٍ أو حبس أو نحو ذلك . والقتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه . لأن ذلك أَوْحَى (أى : أسرع) أنواع القتـل . وكذلك شرع الله قتل ما يباح قتله من الآدميين والبهائم إذا قدر عليه على هـذا الوجه . قال النبيّ ﷺ[1] : إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة . وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ . وليُحِدّ أحدكم شفرته ، ولْيُرِحْ ذبيحته . رواه مسلم . وقال[2] : إنّ أعف الناس قِتْلَةً أهل الإيمان . وأما الصلب المذكور فهورفعهم على مكان عال ليراهم النـاس ويشتهر أمرهم ، وهو بعد القتل، عند جمهور العلماء . ومنهم من قال : يُصَلَّبُون ثم يقتلون وهم مصلوبون . وقد جوّز بعض الفقهاء قتلهم بغير السيف حتى قال : يتركون على المكان العالى حتى يموتوا حتف أنوفهم بلا قتل .

الخامسة : تتمةالآية . أعنى قوله تعالى (ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) تدل على أن المحاربين يعاقبون فى الدنيا والآخرة مطلقاً. ولا يكون الحدّ المذكور طهرة لهم ، ولو كانوا مسلمين .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٥٧ (طبعتنا) عن شدّاد ابن أوس .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١١٠ ـ باب فى النهى عن المُثْلة ، حديث ٢٦٦٦ .

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : ظاهره أن عقوبة المحارب لا تكون كفارة له ، كما تكون فى سائر الحدود .

وقال العارف الشعرانيّ فى (ميزانه) : سمعت شيخنا ، شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لم يرد لنا أن أحداً يؤخذ بذنبه فى الدنيا والآخرة معاً ، إلّا المحاربين ، لقوله تعالى فيهم: ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ ... الآية .

وقال ابن كثير : هذا يرجح رواية نزولها فى المشركين . فأما أهل الإسلام ففى (صحيح مسلم)(١) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أخذ على النساء، ألّا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا يَعْضَه بعضنا بعضاً. فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أتى منكم حدًّا فأقيم عليه فهو كفارته ، ومن ستره الله فأمره إلى الله. إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له .

السادسة : دلّ قوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) على أن توبة المحاربين ، قبل الظفر بهم ، تسقط عنهم حدّ المحاربين المذكور فى الآية . سواء كانوا مشركين أو مسلمين . وهو مروىّ عن علىّ وأبى هريرة والسدّىّ وغيره . وقد قال الهادى: إذا تاب المحارب قبل الظفر به ، سقط عنه كل تبعة من قتل أو دَين ، لعموم الآية .

قال ابن كثير : أما على قول من قال : إنها فى أهل الشرك ، فظاهر . أى : فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم، سقط عنهم جميع الحدود المذكورة. فلا يطالبون بشىء مما أصابوا من مالٍ أو دمٍ . قال أبو إسحق : جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التى وجبت عليهم فى كفرهم ، ليكون ذلك داعياً لهم إلى الدخول فى الإسلام . وأما المحاربون المسلمون، فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم تحتّم القتل والصلب وقطع الرجل . وهل يسقط قطع اليد ؟ فيه قولان للعلماء . وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

كما روى ابن أبي حاتم عن الشعبيّ قال : كان حارثة بن بدر التميميّ من أهل البصرة ـ وكان قد أفسد فى الأرض وحارب ـ فكلم رجالًا من قريش منهم : الحسن بن عليّ وابن عباس وعبدالله بن جعفر. فكلّموا عليًّا فيه فلم يؤمنه . فأتى سعيد بن قيس الهمدانيّ ، فخلفه فى داره ثم أتى عليًّا فقال : يا أمير المؤمنين ! أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فساداً ـ فقرأ حتى بلغ « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ » . فقال : اكتب له أماناً . قال سعيد بن قيس : فإنه جارية بن بدر . وكذا رواه ابن جرير[1] من غير وجهٍ عن مجالد عن الشعبيّ ، فقال حارثة بن بدر :

ألا أبلغا همدان إما لقيتَها ... على النأى لا يَسْلَمْ عدوّ يَعيبها

لَعَمْرُ أبيها إن همدان تتقى الـ ... ـإلهَ ويقضى بالكتاب خطيبُها.

وروى ابن جرير[2] ـ من طريق سفيان الثوريّ عن السدّيّ ، ومن طريق أشعث ـ كلاهما . عن عامر الشعبيّ قال : جاء رجل من مراد إلى أبى موسى ـ وهو على الكوفة فى إمرة عثمان رضى الله عنه ـ بعد ما صلى المكتوبة فقال : يا أبا موسى ! هذا مقام العائذ بك. أنا فلان بن فلان المراديّ . كنت حاربت الله ورسوله ، وسعيتُ فى الأرض فساداً ، وإنى تبت من قبل أن تقدروا عليّ . فقام أبو موسى فقال : إن هذا فلان بن فلان . وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فساداً ، وإنه تاب من قبل أن يُقْدر عليه ، فمن لقيه فلا يَعْرِض له إلّا بخير ، (فإن يك صادقاً فسبيل من صدق . وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه) . فأقام الرجل ما شاء الله ، ثم إنه خرج فأدركه الله بذنوبه فقتله . ثم قال[3] ابن جرير : حدثنى عليّ ، حدثنا الوليد بن مسلم ، قال: قال الليث. وكذلك حدثنى موسى بن إسحق المدنيّ ، وهو الأمر عندنا ،

---

(١) الأثر رقم ١١٨٧٩ و١١٨٨٠ و١١٨٨١ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٨٨٤ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١١٨٨٩ من التفسير .

أنّ علياً الأسدىّ حارب وأخاف السبيل ، وأصاب الدم والمال ، فطلبه الأئمة والعامة ، فامتنع ولم يُقْدَرْ عليه حتى جاء تائباً . وذلك أنه سمع رجلًا يقرأ هذه الآية : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١) . فوقف عليه فقال: يا عبد الله ! أعد قراءتها . فأعادها عليه . فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السَّحَر . فاغتسل . ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ . فصلّى الصبح ثم قعد إلى أبى هريرة فى غِمار أصحابه . فلما أسفر عرفه الناس فقاموا إليه . فقال : لا سبيل لكم علىّ . جئت تائباً من قبل أن تقدروا علىّ . فقال أبو هريرة : صدق . وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم ـ فى إمرته على المدينة فى زمن معاوية ـ فقال : هذا علىّ جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل . قال ، فترك من ذلك كله .

قال : وخرج علىّ تائباً مجاهداً فى سبيل الله فى البحر . فلقوا الروم . فقرَّبوا سفينته إلى سفينة من سفنهم . فاقتحم على الروم فى سفينتهم . فهُزِموا منه إلى سفينتهم الأخرى . فمالت بهم وبه . فغرقوا جميعاً .

هذا ، وفى تفسير بعض الزيدية ـ نقلًا عن زيد والنفس الزكية والمؤيد بالله وأبى حنيفة ومالك والشافعىّ ـ أنَّ توبة المحارب تُسقط الحدود لله ، دون حقوق بنى آدم من قتل أو مال ، لقوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى (٢) وقوله : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ[١] وقوله تعالى: وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً[٢] وقوله صلى الله عليه وسلم: على اليد ما أخذت حتى ترد[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام[٤] « لا يحل مال امرئ مسلم إلَّا بطيبة من نفسه » . قال فى (شرح الإبانة) : وروى زيد بن علىّ بإسناده إلى أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ؛ أنَّ قاطع الطريق ، إذا تابَ قبل أن يؤخذ وظفر به الإمام ، ضمن المال واقتص منه . ثم قال : أما الكافر فلا خلاف أن توبته تسقط عنه جميع الحدود . انتهى .

وأخرج أبو داود[٥] والنسائىّ عن ابن عباس قال : نزلت فى المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل .

وليست تحرز هـذه الآيةُ الرجلَ المسلم من الحدّ ، إن قتل أوأفسد فى الأرض أوحارب الله ورسوله .

---

(١) [٥ /المائدة / ٤٥] ونصها : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٣] ونصها: وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٣٩ ـ باب ما جاء فى أن العارية مؤداة ، ونصه :

عن سمرة عن النبىّ ﷺ قال « على اليد ما أخذت حتى تؤدِّى » .

(٤) لم أهتد إلى هذا الحديث .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٣ ـ باب ما جاء فى المحاربة ، حديث ٤٣٧ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٥] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا » ـ أى اطلبوا ـ « إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » أى : القربة ـ كذا فسّره ابن عباس ومجاهد وأبو وائل والحسن وزيد وعطاء والثوريّ وغير واحد . وقال قتادة : أى تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وقرأ ابن زيد : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ . قال ابن كثير : وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة ، لا خلاف بين المفسرين فيه . وفى (القاموس وشرحه) : الوسيلة والواسلة ، المنزلة عند الملك والدرجة والقربة والوصلة . وقال الجوهريّ : الوسيلة ، ما يتقرب به إلى الغير . والتوسيل والتوسل واحد . يقال: وَسَّل إلى الله تعالى توسيلًا ، عمل عملًا تقرب به إليه ، كتوسل . و (إلى) يجوز أن يتعلق بـ (ابتغوا) وأن يتعلق بـ (الوسيلة) . قدم عليها للاهتمام به « وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : بسبب المجاهدة فى سبيله . وقد بين كثير من الآيات أن المجاهدة بالأموال والأنفس .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير (الوسيلة) هو المعوّل عليه . وقد أوضحه إيضاحاً لا مزيد عليه ، تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة فى (كتاب الوسيلة) فرأينا نقل شذرة منه ، إذْ لا غنى للمُحَقِّقِ فى علم التفسير عنه .

قال رحمه الله بعد مقدّمات :

إن لفظ الوسيلة والتوسل ، فيه إجمال واشتباه ، يجب أن تعرف معانيه ويعطى كلّ ذى حقٍ حقه. فيعرف ماورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه. وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك . ويعرف ما أحدثه المحدثون فى هذا اللفظ ومعناه . فإن كثيراً من اضطراب الناس فى هذا الباب هو بسبب ماوقع من الإجمال والاشتراك فى الألفاظ ومعانيها،

حتى تجد أكثرهم لا يعرف فى هذا الباب فصل الخطاب . فلفظ الوسيلة مذكور فى القرآن فى قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ . وفى قوله تعالى : قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا[1] . فالوسيلة التى أمر الله أن تبتغى إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه ، هى ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات. فهذه الوسيلة التى أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لايدخل فى ذلك ، سواء كان محرماً أو مكروها أو مباحاً. فالواجب والمستحب هو ماشرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب واستحباب . وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول . فجماع الوسيلة التى أمر الله الخلق بابتغائها ، هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلّا ذلك .

و (الثانى) لفظ الوسيلة فى الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم[2] : سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لاتنبغى إلّا لعبدمن عباد الله . وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة. وقوله : من قال حين يسمع النداء[3]: اللهم ! رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة! آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محمودا الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة. فهذه الوسيلة للنبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٦و٥٧] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١١ (طبعتنا) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٨ ـ باب الدعاء عند النداء ، حديث ٣٩٢ ، عن جابر بن عبد الله .

خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله لههذه الوسيلة . وأخبرنا أنها لا تـكون إلا لعبد من عباد الله . وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول صلى الله عليه وسلم . وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقدحلت عليه الشفاعة يوم القيامة . لأن الجزاء من جنس العمل. فلمادعوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو هُوَ لَهُم. فإن الشفاعة نوع من الدعاء . كما قال[١] : إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا . وأما التوسل بالنبيّ ﷺ والتوجه به فى كلام الصحابة، فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به فى عرف كثير من المتأخرين يرادبه الإقسام به والسؤال به. كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح. وحينئذ، فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين. ويراد به معنى ثالث لم ترد به سـنة . فأما المعنيان الأولان الصحيحان باتفاق العلماء ، فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته . والثانى دعاؤه وشفاعته كما تقدم. فهذان جائزان بإجماع المسلمين . ومن هذا قول عمر بن[٢] الخطاب : اللهمّ! إنّا كنا إذا أجدبنا توسّلنا إليك بنبيّنا فتسقينا ، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا. أى : بدعائه وشفاعته . وقوله تعالى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) أى : القربة إليه بطاعته . وطاعةُ رسوله طاعتُه ؛ قال[٣] تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ . فهذا التوسل الأول هو أصل الدين ، وهذا لا ينـكره أحدٌ من المسلمين . وأمّا التوسّل بدعائه وشفاعته ـ كما قال عمر ـ فإنه توسّل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسّل به إلى التوسل بعمه العباس ؛

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١١ (طبعتنا) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٣ ـ باب سؤال الناس الإمامَ الاستسقاء إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢ .

(٣) [٤ / النساء/ ٨١] ... وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس . فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس ، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته . بخلاف التوسل الذى هو الإيمان به والطاعة له، فإنه مشروع دائماً . فلفظ التوسل يراد به ثلاث معان : (أحـــدها) التوسّل بطاعته . فهذا فرض لا يتمّ الإيمان إلّا به . و (الثانى) التوسّل بدعائه وشفاعته . وهذا كان فى حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته . و (الثالث) التوسّل به. بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته . فهذا هو الذى لم تكن الصحابة يفعلونه فى الاستسقاء ونحوه ، لا فى حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره . ولا يعرف هذا فى شيء من الأدعية المشهورة بينهم . وإنما ينقل شيء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة . أو عن من ليس قوله حجة ، وهذا هو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ إنه لا يجوز . ونهوا عنــه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدورىّ فى كتابه الكبير فى الفقه المسمى بـ (شرح الكرخىّ) فى باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحدٍ من أصحاب أبى حنيفة . قال بشر بن الوليد : حدّثنا أبو يوسف قال : قال أبو حنيفة : لا ينبغى لأحدٍ أن يدعو إلّا به . وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبى يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله . فلا أكره هذا . وأكره أن يقول : بحق فلانٍ ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام .

قال القدورىّ : المسألة بخلقه لا تجوز . لأنه لا حق للخلق على الخالق . فلا تجوز وفاقاً .

وهذا الذى قاله أبو حنيفة وأصحابه ــ من أن الله لا يسأل بمخلوق ــ له معنيان : أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق ، أولى وأحرى . وهــذا بخلاف

إقسامه سبحانه بمخلوقاته ـ كالليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى[١]، والشمس وضحاها[٢]، والنازعات غرقا[٣]، والصافات صفا[٤] ـ فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ، مايحسن معه إقسامه . بخلاف المخلوق، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها . كما فى (السنن) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[٥] : من حلف بغير الله فقد أشرك . وقد صححه الترمذىّ وغيره . وفى لفظ : فقد كفر . وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه فى (الصحيحين)[٦] أنه قال : من كان حالفا فليحلف بالله . وقال: لا تحلفوا بآبائكم . فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . وفى (الصحيحين) عنه أنه

---

(١) [٩٢ / الليل / ١و٢] ونصها : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ .

(٢) [٩١ / الشمس / ١] .

(٣) [٧٩ / النازعات / ١] .

(٤) [٣٧ / الصافات / ١] .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ١٨ ـ كتاب النذور ، ٩ ـ حدثنا قتيبة ، ونصه :

عن ابن عمر سمع رجلا يقول : لا ، والكعبة ! فقال ابن عمر : لا يُحلف بغير الله . فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٦) أخرجه فى البخارىّ فى: ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٢٦ ـ باب أيام الجاهلية، حديث ١٢٩٨ ونصه :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ألا من كان حالفاً ، فلا يحلف إلا بالله » وكانت قريش تحلف بآبائها ، فقال « لا تحلفوا بآبائكم » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٣و٤ (طبعتنا) .

قال(١) : من حلف باللات والعزّى فليقل: لا إله إلّا الله . وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمته ـ كالعرش والكرسيّ والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبيّ ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وسراويل الفتوّة وغير ذلك . . . ـ لا ينعقد يمينه ، ولا كفارة فى الحنث بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبى حنيفة ، وأحد القولين فى مذهب الشافعيّ وأحمد . وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » من الأموال وغيرها « جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ » أى ليفادوا به أنفسهم « مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم ، وإنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجهٍ .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٥ ـ باب لا يُحْلَف باللات والعزّى ولا بالطواغيت ، حديث ٢٠٥٢ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبيّ ﷺ قال « من حلف فقال فى حلفه : باللات والعزّى ، فليقل : لا إله إلا الله . ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك ، فليتصدق » .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٥ (طبعتنا) .

وقد روى البخارىّ عن أنس قال(١) : قال رسول الله ﷺ : يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم . فيقال له : قد كنتَ سُئِلْتَ ما هو أيسر من ذلك : أن لا تشرك بى . فيؤمر به إلى النار . ورواه مسلم(٢) وغيره بنحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

« يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » دائم لا ينقطع . وهذا كما قال تعالى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ... الآية(٣) .

روى ابن مردويه ، عن يزيد بن صهيب الفقير ، عن جابر بن عبد الله . أنّ رسول الله ﷺ قال : يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة . قال ، فقلت لجابر بن عبد الله ؛ يقول الله : يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا . قال : اتل أوّل الآية : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ ... الآية ، ألا إنهم الذين كفروا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٩ ـ باب من نوقش الحساب عذب، حديث ١٥٧٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٥١ و٥٢ (طبعتنا).

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٠] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم[1] هذا الحديث من وجهٍ آخر . عن يزيد الفقير ، عن جابر وهذا أبسط سياقاً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٠ (طبعتنا) ونصه :

عن يزيد الفقير قال : كنت قد شغفنى رأى من رأى الخوارج ، فخرجنا فى عصابةٍ ذوى عدد نريد أن نحجّ . ثم نخرجَ على النــاس . قال فمررنا على المدينة . فإذا جابر بن عبد الله يحدّث القوم ، جالس إلى سارية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فإذا هو قد ذكر الجهنميين . قال فقلت له : يا صاحب رسول الله ! ما هذا الذى تحدّثون ؟ والله يقول : إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [٣ / آل عمران / ١٩٢] و : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [٣٢ / السجدة ٢٠] فما هـذا الذى تقولون ؟ قال فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت: نعم . قال: فهل سمعتَ بمقام محمد عليه السلام؟ (يعنى الذى يبعثه الله فيه) قلت : نعم. قال : فإنه مقام محمد صلى الله عليـه وسلم المحمود الذى يُخرج الله به مَن يُخرج . قال ثم نعت وضع الصراط ومَرَّ الناس عليه. قال، وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك . قال غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال يعنى فيخرجون كأنهم عيدان السماسم. قال : فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه . فيخرجون كأنهم القراطيس .

فرجعنا قلنا : ويحكم ! أترون الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فرجعنا . فلا ، والله ! ما خرج منا غير رجل واحد .

[قال فى النهاية : عيدان السماسم هو جمع سمسم . وعيدانه تراها ، إذا قلعت وتركت فى الشمس ليؤخذ حبها ، دقاقا سوداء كأنها محترقة . فشبه بها هؤلاء . قال: وطالما تطلبت هذه اللفظة ، وسألت عنها فلم أجد فيها شافياً . قال : وما أشبه أن تكون اللفظة محرفة ، وربما كانت عيدان الساسم ، وهو خشب أسود كالأبنوس اه . وأما القاضى عياض فقال : لايعرف معنى السماسم هنا . قال: ولعل صوابه عيدان الساسم، وهو أشبه ، وهو عود أسود. وقيل : هو الأبنوس . قال النووىّ : والمختار أنه السمسم .]

زاد ابن أبي حاتم : قال جابر : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قد جمعته قال : أليس الله يقول : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا[1] ؟ فهو ذلك المقام ، فإن الله تعالى يحبس أقواماً بخطاياهم فى النار ماشاء، لا يكلمهم . فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم .

ولما أوجب تعالى ـ فى الآية المتقدمة ـ قطع الأيدى والأرجل عند أخذ المال على سبيل المحاربة ـ بيّن أن أخذ المال على سبيل السرقة يوجب قطع الأيدى والأرجل أيضاً ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

« وَالسَّارِقُ » أى : من الرجال « وَالسَّارِقَةُ » أى من النساء « فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » يعنى يمين كل منهما . والمقطع الرسغ ، كما بيّنته السنّة « جَزَاءً بِمَا كَسَبَا » أى: يقطع الآلة الكاسبة « نَكَالًا » أى: عقوبةً « مِنَ اللَّهِ » أى : على فعل السرقة المنهىّ عنه من جهته تعالى ، لا فى مقابلة إتلاف المال، فإنه غير السرقة . فلذلك لا يسقط بعفو المالك ، بخلاف العفو عن المال . ولا يبالى فيه بعزة السارق ، لأنه تعالى غالب على أمره يمضيه كيف يشاء ، كما قال: « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أى: فلا يبالى ـ مع عزته الموجبة لامتثال أمره ـ عزّة مَنْ دونه « حَكِيمٌ » فى شرائعه ، فيختل أمر نظام العالم بمخالفة أمره ، إذ فيه نفع عام للخلائق .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وفى الآية مسائل

الأولى ـ قال أبو السعود : لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال ، صرح بالسارقة أيضاً ، مع أن المعهود فى الكتاب والسنة إدراج النساء فى الأحكام الواردة فى شأن الرجال بطريق الدلالة . لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة فى الزجر . انتهى .

ولما كانت غلبة السرقة فى الرجال ، لقوتهم بدأ بالسارق . كما أن غلبة الزنى لما كانت فى النساء لفرط شهوتهن ـ قال فى آية الزنى: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى.

الثانية ـ قال ابن كثير : روى الثورىّ بسنده إلى ابن مسعود ؛ أنه كان يقرؤها : والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما. وهذه قراءة شاذة . وكان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها لا بها ، بل هو مستفاد من دليل آخر ؛ وقد كان القطع معمولًا به فى الجاهلية فقرر فى الإسلام، وزيدت شروط أخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى . كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه ، وزيادات هى من تمام المصالح . ويقال : إن أول من قطع الأيدى فى الجاهلية قريش ، قطعوا رجلًا يقال له (دويك) مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة ، كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال : سرقه قوم فوضعوه عنده .

الثالثة : ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء كان قليلًا أو كثيراً ، لعموم هذه الآية: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا. فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً . بل أخذوا بمجرد السرقة .

وقد روى ابن جرير[1] وابن أبى حاتم عن نجدة الحنفىّ قال : سألت ابن عباس عن قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا . أخاص أم عام؟ فقال : بل عام . . وهذا يحتمل أن يكون موافقة لابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل ذلك ، فالله أعلم .

(١) الأثر رقم ١١٩١٤ فى التفسير .

وتمسكوا بما ثبت فى (الصحيحين)[١] عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليهوسلم قال : لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده .

وأما الجمهور فاعتبروا النصاب ، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره . فعند الإمام مالك[٢] : النصاب ثلاثه دراهم مضروبة خالصة . فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه،وجب القطع. واحتج فىذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قطع فى مجنٍّ ثمنه ثلاثةدارهم. أخرجاه[٣] فى (الصحيحين) . قال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضى الله عنه فى أترجة قوّمت بثلاثة دراهم . وهو أحب ما سمعت فى ذلك .

قالأصحاب مالك : ومثلهذا الصنيع يشتهر ولمينكر . فمن مثلهيحكى الإجماعالسكوتىّ. وفيه دلالة على القطع فى الثمار ، خلافاً للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم فى أنه لابد من عشرة دراهم ، وللشافعية فى اعتبار ربع دينار ، والله أعلم . وذهب الشافعىّ رحمه الله إلى أن الاعتبار فى قطع يد السارق بربع دينـــار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، والحجة فى ذلك ما أخرجه الشيخان[٤] من طريق الزهرىّ عن عمرة عن عائشة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٧ ـ باب لعن السارق إذا لم يسمّ ، حديث ٢٥٠٩ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى الموطأ فى : ٤١ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ١٣ ـ باب قول الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، حديث ٢٥١٢ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ١٣ ـ باب قول الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، حديث ٢٥١٠ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ١ـ٣ (طبعتنا) .

رضى الله عنها : أن رســول الله ﷺ قال : تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً . ولمسلم[١] عنها أيضاً : أن رسول الله ﷺ قال : لا تقطع يد السارق إلّا فى ربع دينار فصاعداً. قال الشافعية : هذا الحديث فاصل فى المسألة، ونصٌّ فى اعتبار ربع الدينار لا ماسواه. قالوا: وحديث ثمن المجنّ، وإن كان ثلاثة دراهم، لا ينافى هذا . لأنه إذ ذاك كان الدينار باثنى عشر درهما. فهى ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق . ويروى هـذا المذهب عن عمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم . وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث والأوزاعىّ وإسحق (فى رواية عنه) وأبو ثور وداود الظاهرىّ ، رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد وإسحق (فى رواية) إلى أنّ كل واحـد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مردّ شرعىّ. فمن سرق واحداً منهما أو مايساويه قطع ، عملًا بحديث ابن عمر وبحديث عائشة . ووقع فى لفظٍ عنـد الإمام أحمد[٢] عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : اقطعوا فى ربع دينار ولاتقطعوا فيما هو أدنى من ذلك . وكان ربع الدينار يومئذٍ ثلاثة دراهم، والدينار اثنى عشر درهما . وفى لفظٍ للنسائىّ[٣] : لاتقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن. قيل لعائشة: ما ثمن المجنّ ؟ قالت : ربع دينار . فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه ، وكذا سفيان الثورىّ ، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة . واحتجوا بأن ثمن المجنّ الذى قطع فيه السارق على عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٨٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه النسائىّ فى: ٤٦ ـ كتاب السارق، ٩ـ باب ذكر الاختلاف على الزهرىّ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقطع يد السارق فى دون ثمن المجنّ . وكان ثمن المجنّ عشرة دراهم . قالوا : فهذا ابن عباس وعبد الله بن عَمْرو قد خالفا ابن عُمَر فى ثمن المجنّ . فالاحتياط الأخذ بالأكثر ، لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق فى عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمة واحد منهما . يحكى هذا عن علىّ وابن مسعود وإبراهيم النخعىّ وأبى جعفر الباقر ، رحمهم الله تعالى .

وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلّا فى خمس . أى فى خمسة دنانير أو خمسين درهما. وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله .

وقد أجاب الجمهور ـ عما تمسك به الظاهرية من حديث[1] أبى هريرة : يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده ـ بأجوبة : (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة .وفى هذا نظر لأنه لابد من بيان التاريخ . و (الثانى) أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن . قاله الأعمش فيما حكاه البخارىّ[2] وغيره عنه . و (الثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج فى السرقة من القليل إلى الكثير الذى تقطع فيه يده . ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه فى الجاهلية حيث كانوا يقطعون فى الكثير والقليل . فلعن السارق يبذل يده الثمينة فى الأشياء المهينة .

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعرّى ، لما قدم بغداد ، اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا على الفقهاء فى جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، ونظم فى ذلك شعراً فقال:

يد بخمسِ مئين عسجد وُدِيَتْ ما بالها قطعت فى ربع دينـار ؟

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٩٧٨ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٧ ـ باب لعن السارق إذا لم يسمّ. ونصه : قال الأعمش : كانوا يرون أنه بيض الحديد . والحبل ، كانوا يرون أنه منها ما يسوى دراهم .

وقد أجابه النـــاس فى ذلك ؛ فـكان جواب القاضى عبد الوهاب المالـكىّ رحمه الله أنه قال : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة . ولما خانت هانت، ومنهم من قال : هذا من تمام الحـكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة . فإن فى باب الجنـــايات ، ناسب أن تَعْظُمَ قيمة اليد بخمسمائة دينار ، لئلا يجنى عليها . وفى باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع ربع دينار لئلا يسارع الناس فى سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحـكمة عند ذوى الألباب. ولهذا قال :جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. أى : مجازاة على صنيعهما السّيء فى أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به فى ذلك . كذا فى تفسير ابن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس سره فى كتابه (السياسة الشرعية) : وأما السارق فيجب قطع يده اليمنى بالـكتاب والسنة والإجماع. قال الله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ... الآية . ولا يجوز، بعد ثبوت الحدّ عليه بالبيّنة أو الإقرار، تأخيره . لا بحبس ولا مال يفتدى به ولا غيره . بل تقطع يده فى الأوقات المعظمة وغيرها . فإن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد فى سبيل الله . وينبغى أن يعرف أن إقامة الحدّ رحمة من الله بعباده . فيكون الوالى شديداً فى إقامة الحدّ ، لا تأخذه رأفة فى دين الله فيعطله ، ويكون قصده رحمة الخلق بكف الناس عن المنكرات ، لا إشفاء غيظه وإرادة العلوّ على الخلق . بل بمنزلة الوالد إذا أدب ولده. فإنه لو كف عن تأديب ولده ، كما تستر به الأم رقة ورأفة ، لفسد الولد . وإنمـا يؤدبه رحمةً وإصلاحاً بحاله . مع أنه يودّ ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب . وبمنزلة الطبيب الذى يسقى المريض الدواء الـكريه . وبمنزلة قطع العضو المتآكّل والحجم وقطع العروق بالفصاد ونحو ذلك. بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الـكريه ، وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة. فـكذلك شرعت الحدود . وهكذا ينبغى أن تـكون نية الوالى فى إقامتها ، فإن من كان قصده صلاح الرعية والنهى عن المنـكرات ، بجلب المنفعة لهم ورفع المضرة عنهم وابتغائه بذلك وجه

الله تعالى وطاعة أمره ـ ألان الله له القلوب وتيسرت له أسباب الخير. وكفاه العقوبة اليسيرة. وقد يرضى المحدود إذا قام عليه الحدّ . وأما إذا كان غرضه العلوّ عليهم وإقامة بأسه ليعطوه أو ليبذلوا له ما يريد من الأموال ـ انعكس عليه مقصوده .

ويروى أن عمر بن عبدالعزيز ، رحمه الله ، قبل أن يلي الخلافة كان نائباً للوليد بن عبدالملك على مدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان قد ساسهم سياسة صالحة ، فقدم الحجاج من العراق وقد سامهم سوء العذاب، فسأل أهلَ المدينة عن عمر : كيف هيبته فيكم ؟ قالوا : ما نستطيع أن ننظر إليه هيبة له ! قال : كيف محبتكم له ؟ قالوا : هو أحب إلينا من أهلنا ! قال : فكيف أدبه ؟ قالوا : مابين الثلاثة الأسواط إلى العشرة .. قال : هذه هيبته وهذه محبته وهذا أدبه ! هذا أمر من السماء .

وإذا قطعت يده حسمت. ويستحب أن تعلق في عنقه . فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى . فإن سرق ثالثاً أورابعاً، ففيه قولان للصحابة ومن بعدهم من العلماء : (أحدهما) تقطع أربعته في الثالثة والرابعة ، وهو قول أبي بكر ، وهو مذهب الشافعيّ رضي الله عنه ، والكوفيين وأحمد في إحدى الروايتين . و (الثاني): أنه يحبس . وهو قول عليّ رضي الله عنه والكوفين وأحمد في روايته الأخرى . وتتمة مباحث السرقة مقررة في كتب السنة .

الرابعة ـ قرأ الجمهور برفع (السارق والسارقة) على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : وفيما يتلى عليكم ـ أو وفيما فرض عليكم ـ السارق والسارقة ، أي : حكمهما . أو الخبر قوله تعالى (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط . إذ المعنى : الذي سرق والتي سرقت. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب، وفضلها سيبويه على قراءة الرفع، لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلّا بتأويل وإضمار ، كذا اشتهر عن سيبويه .

قال الناصر في (الانتصاف) : المستقرأ من وجوه القراءات أن العامة لا تتفق فيها أبداً

على العدول عن الأفصح . وجدير بالقرآن أن يجرى على أفصح الوجوه ، وأن لا يخلو من الأفصح ، وما يشتمل عليه كلام العرب الذى لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها . وسيبويه يحاشى من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح واشتماله على الشاذ الذى لا يعدّ من القرآن . ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل . قال سيبويه فى ترجمة (باب الأمر والنهى) بعد أن ذكر المواضع التى يختار فيها النصب : وملخصها أنّه متى بنى الاسم على فعل الأمر، فذاك موضع اختيار النصب . ثم قال كالموضّح لامتياز هذه الآية عما اختار فيها النصب : وأما قوله عز وجل : السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ... الآية ، وقوله[1] :وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا ... فإن هذا لم يبن على الفعل ولكنه جاء على مثال قوله[2] : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . ثم قال بعد: فيها كذا وكذا. يريد سيبويه تميز هذه الآى عن المواضع التى بيّن اختيار النصب فيها . ووجه التميز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيه مبنيا على الفعل . وأما فى هذه الآى فليس بمبنىٍّ عليه . فلا يلزم فيه اختيار النصب .

عاد كلامه قال : وإنما وضع المثل للحديث الذى ذكر بعده . فذكر أخباراً وقصصاً . فكأنه قال : ومن القصص: مثل الجنة . فهو محمول على هذا الإضمار . والله أعلم . وكذلك

(١) [٢٤ / النور / ٢] ونصها : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ١٥] ونصها : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى) لما قال جل ثناؤه: سُورَةٌ[١] أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . قال في جملة الفرائض: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى ـ ثم جاء ـ فَاجْلِدُوا . بعد أن مضى فيهما الرفع، يريد سيبويه : لم يكن الاسم مبنياً على الفعل المذكور بعد ، بل بنى على محذوف متقدم وجاء الفعل طارئاً .

عاد كلامه قال كما جاء[٢]: وقائلةٍ خَوْلَانُ فانكِحْ فَتَاتَهُمْ * فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر ؛ وكذلك (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) وفيما فرض عليكم السارقة والسارق ، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث . وقد قرأ ناس وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ . بالنصب ، وهو فى العربية على ما ذكرت لك من القوة ، ولكن أبت العامة إلّا الرفع .

يريد سيبويه أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنياً على الفعل غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قويًّا بالنسبة إلى الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم . وليس يعنى أنه قوىّ بالنسبة إلى الرفع ، حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ؛ فإنه قد بين أن ذلك يخرجه من الباب الذى يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه . والباب مع القراءتين مختلف ؟ وإنما يقع الترجيح بعد التساوى فى الباب . فالنصب أرجح من الرفع حيث ينبنى الاسم على الفعل . والرفع متمين (لا أقول أرجح) حيث بنى الاسم على كلام متقدم .

ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار . ولو كان كما ظنّه الزمخشرىّ، لم يحتج سيبويه إلى تقديرٍ بل كان يرفعه على الابتداء ، ويجعل الأمر خبره . فالملخّص على هذا : أن النصب على وجه واحد . وهو بناء الاسم على فعل الأمر . والرفع على وجهين: أحدهما ضعيف وهو الابتداء وبناء الكلام على الفعل . والآخر قوىّ بالغ كوجه النصب ـ وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف دلّ عليه السياق . وحيثما تعارض لنا وجهان

(١) [٢٤ / النور / ١] ونصها : سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

(٢) انظر : سيبويه ص ٧٠ جزء أول .

فى الرفع ، أحدهما قوىّ والآخر ضعيف ، تعيّن حمل القراءة على القوىّ كما أعربه سيبويه رضى الله عنه . والله أعلم . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَمَنْ تَابَ » أى : رجع من السُّرَّاق إلى الله « مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ » أى : سرقته « وَأَصْلَحَ » أى : عمله « فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ » أى : يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : مبالغ فى المغفرة ولذلك يقبل توبته . وهو تعليل لما قبله .

قال أبو السعود : وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة . وكذا فى قوله عزّ وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » فإن عنوان الألوهية مدارُ أحكام ملكوتهما . والاستفهام لتقرير العلم . والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجهٍ وأتمّه . أى : ألم تعلم أن له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلىّ فيهما وفيما فيهما « يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » وتقديم التعذيب لأن السياق للوعيد . فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ومنه التعذيب والمغفرة .

تنبيه :

ذهب الجمهور إلى أن توبة السارق تُسْقط عنه حدود الله . وأما حقّ الآدمىّ من القطع وردّ المال أو بدله فلا يَسْقط بتوبته .

وقال أبو حنيفة : متى قطع ، وقد تلفت فى يده فإنه لا يرد بدلها . وقد بينت السنة أنه إن عفى عنه قبل الرفع إلى الإمام، سقط القطع .

روى ابن ماجه[١] عن ثعلبة الأنصارىّ : أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله! إنى سرقت جملًا لبنى فلان فطهِّرنى. فأرسل إليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا افتقدنا جملًا لنا . فأمر به فقطعت يده . قال ثعلبة (أحد رجال السند) : أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول : الحمد لله الذى طهرنى منك . أردت أن تدخلى جسدى النار . وروى الإمام أحمد[٢] عن عبد الله بن عمرو : أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا . يارسول الله ! إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها : فنحن نفديها (يعنى أهلها) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقطعوا يدها. فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة : هل لى من توبة ؟ يارسول الله ! قال : نعم . أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك. فأنزل الله عز وجل فى سورة المائدة : فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ... » الآية .

قال ابن كثير: وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت . وحديثها ثابت فى الصحيحين[٣]

(١) أخرجه ابن ماجة فى: ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب السارق يعترف ، حديث ٢٥٨٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٧٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٥٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٥٣ ـ باب وقال الليث، حديث ١٢٨٧ وأخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٨ و٩ (طبعتنا) .

من رواية الزهرىّ عن عائشة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الفتح . ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها ، تلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟ قال أسامة : استغفرلى ، يارسول الله !

فلما كان العشىّ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد . فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده ! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك . وتزوجت .

قالت عائشة : فكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ، وهذا لفظ مسلم. وفى لفظ له[(١)] عن عائشة قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبىّ ﷺ بقطع يدها . وعن ابن عُمَرَ . قال : كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على ألسنة جاراتها وتجحده . فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها . رواه الإمام أحمد[(٢)] وأبو داود والنسائىّ ، وهذا

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٣٨٣ (طبعة المعارف) .

وأبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ١٦ ـ باب فى القطع فى العارية إذا جحدت ، حديث ٤٣٩٧ .

والنسائىّ فى : ٤٦ ـ كتاب السارق ، ٥ ـ باب ما يكون حرزاً وما لا يكون .

لفظه . وفى لفظ له[١] : إنّ امرأة كانت تستعير الحلىّ للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا بلال ! فخذ بيدها فاقطعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ » نهىٌ . قال أبو البقاء : والجيّد فتح الياء وضم الزاى . ويقرأ بضم الياء وكسر الزاى من (أحزننى) وهى لغة . « الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى : فى إظهاره بما يلوح منهم آثار الكيد للإسلام ومن موالاة الكافرين « مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ » أى بألسنتهم . متعلّق بـ (قالوا) « وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ » وهم المنافقون ، أى : لا تبال بهم فإنى ناصرك عليهم « وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا » عطف على (مِنَ الَّذِينَ قَالُوا) وهم يهود بنى قريظة ، كعب وأصحابه « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ » خبر لمحذوف، أى : هم سماعون . واللام إما لتقوية العمل ، وإما لتضمين السماع معنى القبول ، وإما لام كى، والمفعول محذوف ؛ والمعنى : هم مبالغون فى سماع الكذب الذى افترته أحبارهم أو فى قبوله . أو سماعون أخباركم ليكذبوا عليكم بالزيادة والنقص إرجافاً وتهويلاً .

---

(١) أخرجه النسائىّ فى: ٣٦ ـ كتاب السارق ، ٥ ـ باب ما يكون حرزاً وما لا يكون.

وفى (الإكليل) : أن قوله تعالى (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) يدلّ على أن سامع المحظور كقائله فى الإثم .

« سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ » أى : لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنه إفراطاً فى البغضاء . أى : قابلون من الأحبار ومن أولئك المفرطين فى العدواة الذين لا يقدرون أن ينظروا إليك . قيل : هم يهود خيبر . والسماعون، بنو قريظة « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ » أى : كلم التوراة فى الأحكام « مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ » أى : التى وضعه الله عليها .

قال ابن كثير : أى يتناولونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

« يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا » أى : إن أوتيتم هذا المحرّف المزال عن مواضعه من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام « فَخُذُوهُ » أى : اعملوا به فإنه الحقّ « وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ » بأن أفتاكم الرسول بخلافه «فَاحْذَرُوا» أى: من قبوله ، وإياكم وإياه! فإنه الباطل والضلال .

قال ابن كثير : قيل : نزلت فى قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا تعالوا نتحاكم إلى محمد . فإن حكم بالدية فاقبلوه . وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه . والصحيح أنها نزلت فى اليهوديَّيْن اللذين زنيا . وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم. فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبَيْن . فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه . فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله . ويكون نبيًّا من أنبياء الله قد حكم بذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك : فروى مالك عن نافع عن ابن عمر قال[1] : جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إنّ فيها الرجم . فأتَوْا بالتوراة فنشروها . فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٤١ ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

ماقبلها وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم . فقالوا: صدق ، يا محمد ! فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما . فقال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة . وأخرجاه فى الصحيحين(١) . وهذا لفظ الموطأ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على رسول الله ﷺ بيهودىّ محمَّم مجلود. فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ! هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا ، والله ! ولولا أنك نشدتنى بهـذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم . ولـكنه كثر فى أشرافنا . فـكنا إذا أخذنا الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد . فقال النبىّ ﷺ : اللهم ! إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قال : فأمر به فرجم قال : فأنزل الله عز وجل . يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ـ إلى قوله ـ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ . أى يقولون : إيتوا محمـداً . فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه . وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا . قال الحافظ ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم(٣)

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٧ ـ باب أحكام أهـل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام ، حديث ٧٠٤ .

ومسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، ٦ ـ باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى ، حديث ٢٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٨٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه مسلم فى: ٢٩ ـ كتاب الحدود ، ٦ ـ باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

دون البخاريّ . وأبو داود[١] والنسائيّ وابن ماجه[٢] . وكذا روى أبو بكر الحميديّ في (مسنده) نحوه في سبب نزولها عن جابر . وأبو داود أيضاً ، عن ابن عمر .

« وَمَنْ يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ » أي:ضلالته « فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا » أي : في دفع ضلالته « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ » أي : من دنس الفتنة ووضر الكفر لانهماكهم فيهما ، وإصرارهم عليهما ، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية « لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أي : فضيحة وهتك ستر ، بظهور نفاقهم بالنسبة للمنافقين . وذل وجزية وافتضاح، بظهور كذبهم في كتمان نص التوراة بالنسبة لليهود . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وهو النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ » أي الباطل . خبر لمحذوف . وكرر تأكيداً لما قبله وتمهيداً لقوله « أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » أي : الحرام . وهو الرشوة كما قال ابن مسعود .

قال الزمخشريّ : السحت كل مالا يحل كسبه . وهو من (سَحَتَهُ) إذا استأصله .

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٥ ـ باب في رجم اليهوديين ، حديث ٤٤٤٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في: ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ١٠ ـ باب رجم اليهوديّ واليهودية، حديث ٢٥٥٨ (طبعتنا) .

لأنه مسحوت البركة . كما قال تعالى : يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا[١] . والربا باب منه . وقرئ (السحت) بالتخفيف والتثقيل ، و(السحت) بفتح السين على لفظ المصدر من (سحته) ، و(السحت) بفتحتين ،و(السحت) بكسر السين . وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. انتهى.

وفى (اللباب) : السحت كله حرام تحمل عليه شدة الشره . وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذى لا تكون له بركة ولا لآخذه مروءة ويكون فى حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة . ومعلوم أن حال الرشوة كذلك ، فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم. عن أبى هريرة[٢] : أن رسول الله ﷺ لعن الراشى والمرتشى فى الحكم . أخرجه الترمذىّ. وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

قال ابن مسعود : الرشوة فى كل شىء. فمن شفع شفاعة ليردّ بها حقًّا أو يدفع بها ظلماً، فأهدى بها إليه، فقبل، فهو سحت . فقيل له : ياأباعبد الرحمن ! ما كنا نرى ذلك إلّا الأخذ على الحكم ؟ فقال : الأخذ على الحكم كفر ! قال الله تعالى : وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

« فَإِنْ جَاءُوكَ » يعنى اليهود لتحكم بينهم « فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ » لأنهم اتخذوك حكماً « أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحقّ بل ما يوافق أهواءهم ، أى : فأنت بالخيار . وقد استدل بالآية من قال : إن الإمام مخيّر فى الحكم بين أهل الذمة أوالإعراض عنهم. وعن بعض السلف : إنّ التخيير المذكور نسخ بقوله تعالى : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . والتحقيق أنها محكمة ، والتخيير باق . وهو مروىّ عن الحسن

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٦] ونصها . . . وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٩ ـ باب ماجاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم .

والشعبيّ والنخعيّ والزهريّ ، وبه قال أحمد . لأنه لا منافاة بين الآيتين . فإن قوله تعالى : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) فيه التخيير. وقوله تعالى (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ) فيه كيفية الحكم، إذا حكم بينهم « وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا »أى : فلن يقدروا على الإضرار بك ، لأن الله تعالى عاصمك من الناس « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ »، أى : بالعدل الذى أمرت به ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل « إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أى : العادلين فيما وَلُوا وحكموا .

روى مسلم(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وَلُوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

« وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ» تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه . مع أن الحكم منصوص فى كتابهم الذين يدّعون الإيمان به .

قال بعضهم : معنى (فِيهَا حُكْمُ اللّهِ) أى : فى المسألة التى تحاكموا فيها إلى النبيّ صلوات الله عليه . وهو حكم الله بحسب اعتقادهم أو بحسب الحقيقة . قال : ووجود هذا الحكم الخاص فيها، لاينافى القول بوجود أشياء أخرى كثيرة فيها محرفة . وسمّاها التوراة : إما باعتبار عرفهم ، أو باعتبار أصلها ، أو لا شتمالها على أشياء كثيرة من التوراة الحقيقية . ولولا ذلك ماصحّ أن تسمى بذلك، كالإنجيل؛ مع اعتقاد تحريفها وتبديلها وعدم صحة كثير من أجزائها وكتبها... اهـ .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

« ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أىّ : من بعد البيان فى التوراة، وحكمك الموافق لما فى كتابهم « وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » أى : بالتوراة كما يزعمون .

قال الحاكم : وفى الآية دلالة على أنه لا يجوز طلب الرخصة بترك ما يعتقده حقًّا إلى ما يعتقده غير حقٍّ . وقوله تعالى (ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) يدلّ على أن التولّى عن حكم الله يخرجه عن الإيمان .

قال بعض الزيدية : إذا كره حكم الشرع وطلب حكم المنع ، هل ذلك يخرجه عن حكم الإيمان ؟ وهذا ينبغى أن يفصل فيه ، فيقال : إن اعتقد صحته ، أو رأى له مزية أوتعظيماً ، أواستهان بحكم الإسلام ، فلا إشكال فى كفره . وإن لم يحصل ذلك منه ، بل اعتقد أنه باطل خسيس، وأنه يعظّم شرع الإسلام، ولكن يميل إلى هوى نفسه ، فهذا لا يكفر على الظاهر. إذ الكفر يحتاج إلى دليل قاطع .

وفى كلام الحاكم ما تقدم : أنه يخرجه عن الإيمان . فإن أوهم أنه حق أو أنه أصلح من شرع الإسلام، فهذا محتمل للكفر . لأن كفر إبليس اللعين ، بكونه اعتقد أن أمر الله تعالى له بالسجود لآدم، غير صلاح. لكونه خلقه من طين، وإبليس من النار . انتهى .

ثمّ أشار تعالى إلى حالة اليهود الذين كانوا لا يبالون بالتوراة ويحرّفونها ، ويقتلون النبيين ، بأنهم خالفوا ما أمرهم الله فى شأنها من الهداية بها وصونها عن التحريف ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى » أى : إرشادٌ إلى الحق « وَنُورٌ » أى : إظهار لما انبهَمَ من الأحكام « يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ » من بنى إسرائيل « الَّذِينَ أَسْلَمُوا » أى : الذين كانوا مسلمين من لدن موسى إلى عيسى عليهم السلام . وسنذكر سرّ هـذه الصفة « لِلَّذِينَ هَادُوا » وهم اليهود . و (هاد) بمعنى تاب ورجع إلى الحق .

قال المهايمىّ : (لِلَّذِينَ هَادُوا) أى : لا لمن يأتى بعدهم . ولم يختص بالحكم بها الأنبياء بل يحكم بها « الرَّبَّانِيُّونَ » أى : الزهّاد العبّاد « وَالْأَحْبَارُ » أى: العلماء الفقهاء « بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » أى : بسبب الذى استودعوه من كتاب الله أن يحفظوه من التغيير والتبديل وأن يقضوا بأحكامه . والضمير فى (اسْتُحْفِظُوا) للأنبياء والربانيين والأحبار جميعاً . ويكون الاستحفاظ من الله ، أى : كلفهم حفظه . أو للربانيين والأحبار ، ويكون الاستحفاظ من الأنبياء « وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » أى : رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه . أوبأنه حق وصدق من عند الله . فعلموا اليهود وعلماؤهم الصالحون لا يفتون ولا يقضون إلا بما لم ينسخ من شريعتهم وما لم يحرف منهـا ، لشيوعه وتداوله وتواتر العمل به .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : قوله تعالى (الَّذِينَ أَسْلَمُوا) صفة أجريت على النبيين على سبيل

المدح . كالصفات الجارية على القديم سبحانه . لا للتفصلة والتوضيح . وأريد بإجرائها التعريض باليهود ، وأنهم بعداء من ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث ، وأن اليهودية بمعزل منها . انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : وإنما بعثه على حمل هذه الصفة على المدح دون التفصلة والتوضيح ، أنّ الأنبياء لا يكونون إلّا متّصفين بها . فذكر النبوّة يستلزم ذكرها . فمن ثمَّ حملها على المدح ، وفيه نظر . فإن المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التي يتميّز بها الممدوح عمن دونه . والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم . ألا ترى أنه لا يحسن في مدح النبيّ ﷺ أن يقتصر على كونه رجلًا مسلماً ؟ فإن أقل متبعيه كذلك . فالوجه ـ والله أعلم ـ أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها ولينوّه بها إذا وصف بها عظيم القدر . كما يكون ثبوتها بقدر موصوفها . فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها . وعلى هذا الوصف جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ[1] وأمثاله . تنويهاً بمقدار الصلاح . إذ جُعِل صفة الأنبياء . وبعثاً لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته . وكذلك قيل في قوله تعالى : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا[2] . فأخبر ، عن الملائكة المقربين ، بالإيمان . تعظيماً لقدر الإيمان وبعثاً للبشر على الدخول فيه ، ليساووا الملائكة المقربين في هذه الصفة . وإلّا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنون ليس إلّا . ولهذا قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا) يعني من البشر لثبوت حقّ الأخوة

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٧] ونصها : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

فى الإيمان بين الطائفتين . فكذلك ـ والله أعلم ـ جرى وصف الأنبياء فى هذه الآية بالإسلام تنويهاً به . لقد أحسن القائل فى أوصاف الأشراف ، والناظم فى مدحه عليه الصلاة والسلام:

فلئن مدحتُ محمداً بقصيدتى فلقد مدحتُ قصيدتى بمحمّدِ

والإسلام ، وإن كان من أشرف الأوصاف ، إذ حاصله معرفة الله تعالى بما يجب له ويستحيل عليه ويجوز فى حقه ، إلّا أن النبوّة أشرف وأجلّ ، لاستعمالها على عموم الإسلام مع خواص المواهب التى لا تسعها العبارة . فلو لم نذهب إلى الفائدة المذكوة فى ذكر الإسلام بعد النبوة ، فى سياق المدح ، لخرجنا عن قانون البلاغة المألوف فى الكتاب العزيز ، وفى كلام العرب الفصيح ، وهو الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، لا النزول على العكس . ألا ترى أن أبا الطيب(١) كيف تزحزح عن هذا المهيع فى قوله :

شمس ضحاها هلال ليلتها درّ تقاصيرها زبرجدها !

فنزل عن الشمس إلى الهلال ، وعن الدر إلى الزبرجد فى سياق المدح . فضغت الألسن عرض بلاغته ، ومزقت أديم صيغته . فعلينا أن نتدبّر الآيات المعجزات ، حتى يتعلق فهمنا بأهداب علوّها فى البلاغة المعهود لها . والله الموفق .

وقوله تعالى « فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ » قال الزمخشرىّ : نهىٌ للحكام عن خشيتهم غير الله فى حكوماتهم وإدهانهم فيها ، وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطانٍ ظالم ، أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء .

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أَهْلًا بدارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُها أَبْعَدُ ما بَانَ عنك خُرَّدُها

يمدح محمد بن عبيد الله العلوىّ المشطَّب .

قال شارحه البرقوقىّ : التقاصير : القلائد التى تعلق على القصرة ، والقصرة أصل العنق. يقول : هو فيما بينهم كالشمس فى النهار ، والهلال فى الليل ، والدر والزبرجد فى القلادة . أى : هو أفضلهم وأشهرهم ، وبه زينتهم وفخرهم .

وقال أبو السعود : خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات . وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة . والفاء لترتيب النهى على ما فصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الأنبياء عليهم السلام، ومن يقتدى بهم من الربانيين والأحبار المتقدمين عملاً وحفظاً . فإن ذلك مما يوجب الاجتناب عن الإخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأىّ وجهٍ كان . فضلاً عن التحريف والتغيير . ولما كان مدار جراءتهم على ذلك، خشية ذى سلطان أو رغبة فى الحظوظ الدنيوية ، نهوا عن كل منهما صريحاً ، أى إذا كان شأنها كما ذكر فلا تخشوا الناس كائناً من كانوا ، واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم «وَاخْشَوْنِ» فى مخالفة أمرى والإخلال بحقوق مراعاتها «وَلَا تَشْتَرُوا» أى تستبدلوا « بِآيَاتِى » أى التى فيها ، بأن تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلًا منها « ثَمَنًا قَلِيلًا » من الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، فإنها ـ وإن جلّت ـ قليلة مسترذلة فى نفسها ، لا سيما بالنسبة إلى ما فات عنهم بترك العمل بها « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ » أى كائناً من كان ، دون المخاطبين خاصةً ، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أوليًّا . أى : من لم يحكم بذلك مستهيناً به ، منكراً له كما يقتضيه ما فعلوه اقتضاءً بيّناً « فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » لاستهانتهم به . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير عن الإخلال به أشدّ تحذير . حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى . فكيف وقد انضمّ إليه الحكم بخلافه ؟ لا سيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلًا . قاله أبو السعود .

تنبيهات

الأول : فى قوله تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ) دلالة على أنّ على الحاكم أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

الثانى : فى قوله تعالى (وَلَا تَشْتَرُوا . . .) الخ دلالة على تحريم الرشا على التبديل

وكتمان الحق ، وأن فِعْلَ ذلك ، لغرضٍ دنيويٍّ من طلب جاه ، أو مال ـ محرّمٌ .

الثالث : فى قوله (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ . . .) الآية ، تغليظ فى الحكم بخلاف المنصوص عليه ، حيث علق عليه الكفر هنا ، والظلم والفسق بعدُ .

الرابع : ماأخرجه مسلم(١) عن البراء : أن قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) الثلاث الآيات فى الكفار كلها . وكذا ماأخرجه أبو داود عن ابن عباس : أنها فى اليهود خاصة، قريظة والنضير ـ لا ينافى تناولها لغيرهم ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكلمة « مَنْ » وقعت فى معرض الشرط فتكون للعموم .

الخامس : كفر الحاكم بغير ما أنزل بقيد الاستهانة به والجحود له ، هو الذى نحاه كثيرون وأثروه عن عكرمة وابن عباس .

وروى الحاكم وابن أبى حاتم وعبد الرزاق عن ابن عباس وطاوس : أن من لم يحكم بما أنزل الله، هى به كفر، وليس بكفر ينقل عن الملة . كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ونحو هذا روى الثورىّ ، عن عطاء قال: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق . رواه ابن جرير(٢) .

ونقل فى (اللباب) عن ابن مسعود والحسن والنخعىّ : أن هـذه الآيات الثلاث عامة فى اليهود وفى هذه الأمة ، فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله، فقد كفر وظلم وفسق. وإليه ذهب السدّىّ. لأنه ظاهر الخطاب . ثم قال: وقيل : هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عياناً عمدا ، وحكم بغيره . وأما من خفى عليه النص أو أخطأ فى التأويل ، فلا يدخل فى هذا الوعيد .. انتهى .

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢٨ (طبعتنا) .

(٢) عن ابن عباس : الأثر ١٢٠٥٣و١٢٠٥٤و١٢٠٥٥
وعن طاوس : الأثر ١٢٠٥٢و١٢٠٥٦
وعن عطاء : الأثر ١٢٠٤٧

وقال اسمعيل القاضى فى (أحكام القرآن) : ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا ـ يعنى اليهود ـ واخترع حكما يخالف به حكم الله ، وجعله دينا يعمل به ، فقد لزمه مثل مالزمهم من الوعيد المذكور، حاكما كان أو غيره .

السادس : روى سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمات .

أخرج الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال : إن الله أنزل (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ، و(أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) و(أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فى الطائفتين من اليهود . وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتله الذليلةُ من العزيزة فديته مائة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبىّ ﷺ المدينة. فذلّت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ. ويومئذ لم يظهر ولم يوطئهما عليه وهو فى الصلح . فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً . فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان فى حيين قط ، دينهما واحد ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، ديةُ بعضهم نصف ُدية بعض ؟ إنا إنما أعطينا كم هذا ضيماً منكم لنا وفرَقاً منكم. فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك . فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم . ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ! ما محمد بمعطيكم منهم ضعف مايعطيهم منهم . ولقد صدقوا، ماأعطونا هذا إلّا ضيماً منا وقهراً لهم . فدُسّوا إلى محمد من يَخْبُرُ لكم رأيه . إن أعطاكم ماتريدون حكّمتوه ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكّموه . فدَسّوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبُروا لهم رأى رسول الله ﷺ . فلما جاءوا رسولَ الله ﷺ أخبر اللهُ رسوله ﷺ بأمرهم كلِّه وماأرادوا . فأنزل الله تعالى : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٢١٢ (طبعة المعارف) .

ـ إلى قوله ـ الْفَاسِقُونَ . ثم قال : فيهما ، والله ! نزلت ، وإياهم عنى الله عزّ وجلّ . ورواه أبو داود بنحوه .

وروى ابن جرير[١] من طريق أخرى عن ابن عباس قال : إن الآيات فى المائدة قوله : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ـ إلى ـ الْمُقْسِطِينَ) إنما أنزلت فى الدية فى بنى النضير وبنى قريظة. وذلك أن قتلى بنى النضير، وكان لهم شرف يُؤَدَّى الدية كاملة . وأن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية . فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله ذلك فيهم. فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك ، فجعل الدية فى ذلك سواء . ورواه أحمد وأبو داود والنسائىّ بنحوه .

وروى ابن جرير[٢] أيضاً عن ابن عباس قال : كانت قريظة والنضير . وكانت النضير أشرف من قريظة . فكان إذا قتل القرظىّ رجلًا من النضير قُتِل به . وإذا قتل النضيرىّ رجلًا من قريظة ، وُدِىَ بمائة وسق من تمر . فلما بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتل رجلٌ من النضير رجلًا من قريظة . فقالوا : ادفعوه إليه . فقالوا : بيننا وبينكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ . ورواه أبو داود والنسائىّ وابن حبان والحاكم فى (المستدرك) بنحوه . وهكذا قال قتادة ومقاتل ابن حيان وغير واحد .

وقد روى العوفىّ وعلىّ بن أبى طلحة الوالبىّ عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا ، كما تقدمت الأحاديث بذلك . وقد يكون اجتمع هذان السببان فى وقت واحد . فنزلت هذه الآيات فى ذلك كله ، والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

---

(١) الأثر رقم ١١٩٧٤ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١١٩٨٥ من التفسير .

وقد أسلفنا فى (المقدمة) فى بحث سبب النزول، مايزيل الإشكال فى تعدد السبب. فتذكر.

ومما يقوى أن سبب النزول قضية القصاص ـ كما قال ابن كثير ـ قوله تعالى بعد ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » أى : فرضنا على اليهود فى التوراة « أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » أى: مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق « وَالْعَيْنَ » مفقوءة « بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ » مجدوع « بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ » مقطوعة « بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ » مقلوعة « بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » أى : ذات قصاص ، أى : يقتص فيها إذا أمكن . كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك وإلا ـ ككسر عظم وجرح لحم مما لا يمكن الوقوف على نهايته ـ فلا قصاص ، بل فيه حكومة عدل .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية مما وُبِّخت به اليهود أيضاً وَقُرِّعت عليه . فإن عندهم فى نص التوراة أن النفس بالنفس . وقد خالفوا حكم ذلك عمداً وعناداً. فأقادوا النضرىّ من القرظىّ ، ولم يُقِيدوا القرظىّ من النضرىّ. وعدلوا إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزانى المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال ـ ههنا ـ فى تتمة الآية (فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر

الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه . فخالفوا وظلموا ، وتعدوا على بعضهم بعضاً ـ أفاده ابن كثير .

الثانى ـ قوله تعالى (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ) والمعطوفات بعده، كلها قرئت منصوبة ومرفوعة ، والرفع للعطف على محل (أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) لأن المعنى : وكتبنا عليهم النفس بالنفس ، إما لإجراء (كتبنا) مجرى (قلنا) وإما لأن معنى الجملة التى هى قولك (النَّفْسُ بِالنَّفْسِ) مما يقع عليه (الكتب) كما تقع عليه (القراءة) ، تقول : كتبت الحمد لله ، وقرأت سورة أنزلناها . ولذلك قال الزجاج : لو قرىء (إِنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) بالكسر لكان صحيحاً . كذا فى (الكشاف) . وقد توسع الخفاجىّ فى (العناية) فى بحث الرفع ـ هنا ـ على عادته فى النحويات . فانظره إن شئت .

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذىّ[1] والحاكم عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ) نصب النفس ورفع العين . قال الترمذىّ : حسن غريب . وقال البخارىّ : تفرد ابن المبارك بهذا الحديث .

الثالث : استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا ـ إذا حكى مقرراً ولم ينسخ ؛ كما هو المشهور عن الجمهور ، وكما حكاه الشيخ أبو إسحق الأسفراييني عن نص الشافعىّ وأكثر أصحابه ـ بهذه الآية . حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة . وقال الحسن البصرىّ : هى عليهم وعلى الناس عامة . رواه ابن أبى حاتم . وقد حكى الإمام أبو منصور بن الصباغ فى كتابه (الشامل) اجتماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على مادلت عليه .

الرابع : قال ابن كثير :

احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة . بعموم هذه الآية الكريمة . وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائىّ وغيره ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٣ ـ كتاب القراءات ، ١ ـ حدثنا على بن حجر .

كتب فى كتاب عمرو بن حزم[١] : أن الرجل يقتل بالمرأة .

(١) هذه حكاية الكتاب الذى كتبه سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ إلى عمرو ابن حزم :

ذكر منه الإمام مالك فى الموطأ : ١٥ ـ كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، الحديث رقم ١ (طبعتنا) قوله : أن لا يمسّ القرآنَ إلا طاهر .

وفى : ٤٣ ـ كتاب العقول ، حديث رقم ١ (طبعتنا) أخرج منه هذه القطعة :

أن فى النفس مائةً من الإبل، وفى الأنف إذا أُوعِىَ جَدْعا مائةٌ من الإبل ، وفى المأمومة ثلث الدية ، وفى الجائفة مثلها ، وفى العين خمسون ، وفى اليد خمسون ، وفى الرجل خمسون ، وفى كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل ، وفى السنّ خمس ، وفى المُوضِحة خمس .

وذكر الإمام السيوطىّ فى (تنوير الحوالك) ما يأتى :

(عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم أنه فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو ابن حزم أنه لا يمس القرآن إلا طاهر) قال الباجىّ : هذا أصل فى كتابة العلم وتحصينه فى الكتُب .

وقال ابن عبد البرّ : لا خلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث . وقد روى مسنداً من وجه صالح . وهو كتاب مشهور عند أهل السير . معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بها فى شهرتها عن الإسناد ، لأنه أشبه المتواتر فى مجيئه، لتلقى الناس له بالقبول .

قلت (أى السيوطىّ) : أخرج البيهقىّ فى (دلائل النبوة) من طريق ابن إسحاق . قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن أبيه أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا ، الذى كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن ، يفقّه أهلها ويعلّمهم السنة ويأخذ صدقاتهم . فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فيه أمره . فكتب ... الخ (ثم ساقه السيوطىّ) .

=

= قال البيهقى : وقد روى سلمان بن داود عن الزهرى عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده هذا الحديث موصولا بزيادات كثيرة فى الزكوات والديات وغير ذلك، ونقصان عن بعض ما ذكرناه .

قلت (أى السيوطى) : وسأسوقه فى كتاب (العقول) .

وفى كتاب (العقول) لم يسقه ، كما وعد هنا .

وقال الزرقانى عند ذكر القطعة التى رواها الإمام مالك فى (العقول) ما يأتى :

وهو كتاب جليل فيه أنواع كثيرة من الفقه فى الزكاة والديات والأحكام وذكر الكبائر والطلاق والعتاق وأحكام الصلاة فى الثوب الواحد والاحتباء فيه ، ومس المصحف وغير ذلك .

وأخرجه النسائى وابن حبان موصولا من طريق الزهرى عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا فيه الفرائض والسنن والديات وبعث به مع عمرو بن حزم . فقدم به إلى اليمن . وهذه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى إلى شرحبيل بن عبد كلال ، والحارث بن عبد كلال . ونعيم بن عبد كلال ، قيل ذى رعين ومعافير وهمدان . أما بعد. فذكر الحديث بطوله.

أقول : وقد بحثت عن هذا الكتاب الجليل ، كى أثبته بتمامه فى هذا التفسير الجليل ، حتى عثرت عليه فى سيرة ابن هشام ، التى لخصها من سيرة ابن إسحاق ، بالصفحة ٩٦١ (طبعة جوتنجن) وبالصفحة ٢٤١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

ووقفت عليه أيضا فى سنن النسائى ، فى : ٤٥ ـ كتاب القسامة ، ٤٧ ـ باب حديث عمرو بن حزم فى العقول واختلاف الناقلين له .

وها نحن نسوقه بسنده كما رواه الإمام النسائى :

أخبرنا عمرو بن منصور قال : حدثنا الحكم بن موسى ، قال : حدثنا يحى بن حمزة عن سليمان بن داود قال: حدثنى الزهرى عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده: =

= أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا فيه الفرائض والسنن والديات . وبعث به مع عمرو بن حزم . فقرئت على أهل اليمن . وهذه نسختها :

« من محمد النبيّ ﷺ إلى شُرَحْبِيل بن عبد كُلال ، ونُعَيْم بن عبد كُلال ، والحارث بن »
« عبد كُلَال ، قَيْلِ ذى رُعَيْنٍ ومُعَافِرَ وهَمْدَان . أما بعد »

وكان فى كتابه :

« أن من اعتبط مؤمنا قَتْلا عن بينة ، فإنه قَوَدٌ . إلا أن يرضى أولياء المقتول . وأن »
« فى النفس الدية مائةً من الإبل . وفى الأنف إذا أُوعِب جَدْعُهُ الديةُ . وفى اللسان الديةُ . »
« وفى الشفتين الديةُ . وفى البيضتين الديةُ . وفى الذَّكَر الديةُ . وفى الصُّلْب الديةُ . وفى »
« العينين الديةُ . وفى الرجل الواحدة نصف الدية . وفى المأمومة ثُلُثُ الدية . وفى الجائفة »
« ثلث الدية . وفى المُنَقِّلة خمس عَشْرَة من الإبل . وفى كل أصبع من أصابع اليد والرجل »
« عشر من الإبل . وفى السنّ خمس من الإبل . وفى المُوضِحَةِ خمس من الإبل . »
« وأن الرجل يقتل بالمرأة . وعلى أهل الذهب ألف دينار . »

خالفه محمد بن بكّار بن هلال .

أخبرنا الهيثم بن مروان بن الهيثم بن عمران العَنَسِيّ قال : حدثنا محمد بن بكّار بن بلال . قال : حدثنا يحيى . قال : حدثنا سليمان بن أرقم . قال: حدثنى الزهريّ عن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بكتاب ، فيه الفرائض والسنن والديات . وبعث به مع عمرو بن حزم. فقرئ على أهل اليمن . هذه نسخته . فذكر مثله ، إلا أنه قال :

« وفى العين الواحدة نصف الدية . وفى اليد الواحدة نصف الدية . وفى الرجل الواحدة »
نصف الدية» .

قال أبو عبد الرحمن : وهذا أشبه بالصواب ، والله أعلم . =

= وسليمان بن أرقم متروك الحديث .

وقد روى هذا الحديثَ يونُسُ عن الزهريّ مرسلا :

أخبرنا أحمد بن عمرو بن السرح . قال : حدثنا ابن وهب . قال : أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال : قرأتُ كتاب رسول الله ﷺ ، الذي كتبه لعمرو بن حزم ، حين بعثه على نجران .

وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم .

فكتب رسول الله ﷺ :

« هذا بيان من الله ورسوله . يَا ءَايُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . »

وكتب الآيات منها حتى بلغ : إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . ثم كتب :

« هذا كتاب الجراح ، في النفس مائة من الإبل » نحوه .

أخبرنا أحمد بن عبد الواحد . قال : حدثنا مروان بن محمد . قال : حدثنا سعيد ، وهو ابن عبد العزيز ، عن الزهريّ قال : جاءني أبو بكر بن حزم بكتاب في رقعةٍ من أدمٍ ، عن رسول الله ﷺ :

« هذا بيان من الله ورسوله . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . »

فتلا منها آيات . ثم قال :

« في النفس مائة من الإبل . وفي العين خمسون . وفي اليد خمسون . وفي الرجل خمسون. »

« وفي المأمومة ثلث الدية . وفي الجائفة ثلث الدية . وفي المنقِّلة خمسَ عشرةَ فريضة . »

« وفي الأصابع عشرٌ عشرٌ . وفي الأسنان خمسٌ خمسٌ . وفي المُوضِحَةِ خمس ».

قال الحارث بن مسكين ، قراءة عليه وأنا أسمع ، عن ابن القاسم . قال : حدثني مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : الكتابُ الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم في (العقول) : =

وفى الحديث الآخر[(١)]: المسلمون تتكافأ دماؤهم. وهذا قول جمهور العلماء . وعن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، وحكى عن الحسن وعثمان البستىّ، ورواية عن أحمد ؛ أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، بل تجب ديتها . وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية ، على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمىّ ، وعلى قتل الحرّ بالعبد . وقد خالفه الجمهور فيهما . ففى (الصحيحين)[(٢)] عن أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن فى النفس مائة من الإبل . وفى الأنف ، إذا أُوعِىَ جَدْعاً ، مائة من الإبل . »
« وفى المأمومة ثلث النفس . وفى الجائفة مثلها . وفى اليد خمسون . وفى العين خمسون . »
« وفى الرجل خمسون . وفى كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل . وفى السن خمس . »
« وفى المُوضِحَةِ خمس. »

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٨ ـ كتاب الديات ، ١١ ـ باب أَيُقَادُ المسلم بالكافر ؟ ، حديث ٤٥٣٠ ونصه . عن قيس بن عباد قال : انطلقت أنا والأشتر إلى علىّ عليه السلام . فقلنا : هل عهد إليك رسول ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس عامة ؟ قال : لا . إلا ما فى كتابى هذا . قال ، فأخرج كتابا من قراب سيفه ، فإذا فيه « المؤمنون تَكَافَأُ دماؤهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، من أحدث حدثا فعلى نفسه . ومن أحدث حدثا أوآوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم ، حديث ٩٥ ، ونصه :

عن أبى جحيفة قال ، قلت لعلىّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : إلَّا كتابُ الله ، أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة .

قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة؟ قال « العقل، وفِكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر » ولم يخرج مسلم هذه القطعة .

لا يقتل مسلم بكافر . وأما العبـد ، ففيه عن السلف آثار متعددة . إنهم لم يكونوا يُقيدون العبدمن الحرّ ، ولا يقتل حرّ بعبد . وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح . وحكى الشافعيّ الإجماع. على خلاف قول الحنفية فى ذلك . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية مشروعية القصاص فى النفس والأعضاء والجروح بتقدير شرعنا . كما قال صلى الله عليه وسلم فى حـــديث أنس[٣] : كتاب الله القصاص ؛ واستدل بعموم (النفس بالنفس) من قال بقتل المسلم بالـكافر ، والحرّ بالعبد ، والرجل بالمرأة . وأجاب ابن الفرس بأن الآية أريدبها الأحرار المسلمون . لأن اليهود المـكتوب ذلك عليهم فى التوراة كانوا ملةً واحدة ليسوا منقسمين إلى مسلم وكافر ، وكانوا كلهم أحراراً لا عبيدَ فيهم . لأن عقد الذمة والاستعباد إنمـا أبيح للنبىّ صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء . لأن الاستعباد من الغنائم . ولم تحلّ لغيره . وعقد الذمة لبقاء الـكفار . ولم يقع ذلك فى عهد نبىّ . بل كان المـكذبون يهلـكون جميعاً بالعذاب . وأخّر ذلك فى هذه الأمة رحمة . وهذا جواب مبين .

وقوله (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) استدل به فى كل جرحٍ قيل بالقصاص فيه ـ كاللسان والشفة وشجاج الرأس والوجه وسائر الجسد ـ وعلى أن نتف الشعر والضرب لاقصاص فيه ، إذ ليس بجرح . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٣ ـ كتاب الصلح ، ٨ ـ باب الصلح فى الدية ، حديث ١٣٠٦ ونصه :

عن أنس أن الرُّبَيِّع ، وهى ابنـة النضر ، كسرت ثنيَّة جارية . فطلبوا الأَرْش . وطلبوا العفوا فأبوا . فأتوا النبىّ ﷺ فأمرهم بالقصاص .

فقال أنس بن النضْر : أتُـكْسَرُ ثنيَّة الرُّبَيِّع ؟ يا رسول الله ! لا . والذى بعثك الحق! لا تـكسر ثَنِيَّتُها . فقال « يا أنس ! كتابُ الله القصاص » .

فرضى القوم وعفوا .

فقال النبىّ ﷺ « إن من عباد الله ، مَنْ لو أقسم على الله لأبَرَّهُ » .

وقال بعض الزيدية فى (تفسيره) : مذهب أئمة أهـل البيت ومالك والشافعىّ ؛ أنه لا يقتل المسلم بالـكافر . وقال أبو حنيفة : يقتل به . لا بالحربىّ ولا بالمستأمن من الحربيين أخذاً بعموم الآية . قلنا : هى مخصصة بقوله فى سورة الحشر : لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ . وهـذا يقتضى نفى المساواة عموماً . قالوا : أراد (فى الآخرة) . قلنا : قال الله : وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْـكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا[1] . قالوا: ليس هذا على عمومه فإن له أخذ الدّين منه، وذلك سبيل . قلنا : قال صلى الله عليه وسلم[2] : لا يقتل مؤمن بكافر. فعمّ . قالوا : أراد بكافر حربىّ . بدليل أن فى آخر الخبر : ولا ذو عهد فى عهده . والمعنى : لا يقتل المؤمن ولا الـكافر الذى عوهد، بالـكافر الذى لا عهد له . قلنا : قدتمت الجملة الأولى وهى قوله عليه السلام : لا يقتل المؤمن بـكافر . وأما قوله : ولا ذو عهد فى عهده ، فهذه جملة أخرى . يريد : لا يقتل ما دام فى العهد . مع أن الحديث إن احتمل أنها جملة واحـدة فالمراد : لا يقتل مؤمن بأحد من الـكفار عموما . وكذلك المعاهد لا يقتل بأحد من الـكفار عموماً . فقامت الدلالة على أن المعاهد ، يقتل ببعض الـكفار . وبقى المؤمن على عمومه . وما قلنا مروىّ عن علىّ عليه السلام وعمر وعثمان وزيد بن ثابت . وقد رجع عمر إلى هذا لما أنـكر عليه علىّ عليه السلام وزيد . وهذه المخصصات تخصص ماورد من العمومات فى هذه المسألة . انتهى .

---

(١) [٤ / النساء/ ١٤١] ونصها : الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَـكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَـكُنْ مَعَـكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْـكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْـوِذْ عَلَيْـكُمْ وَنَمْنَعْـكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللهُ يَحْـكُمُ بَيْنَـكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْـكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٠٠٨ .

الخامس : ـ عموم قوله تعالى (وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ) كعموم قوله تعالى (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) فما خصص ذلك العام ، خصصه هنا ، لكن ننبه على أطراف :

منها ـ : أن اليسرى لا تؤخذ باليمنى ، والوجه عدم المساواة .

ومنها ـ : عين الأعور تؤخذ بعين الصحيح على ما نصه فى (الأحكام) ، وإليه ذهب أبو حنيفة والشافعىّ لعموم الآية . وقال فى (المنتخب) ومالك : لا تؤخذ ، لأن نورها أكثر فتطلب المساواة . واحتجوا بأنه مروىّ عن علىّ عليه السلام وعمر وابن عمر وعثمان؛ قال فى (الشرح) : وكان الإمام يحيي لا يصحح هذه الرواية عن علىّ عليه السلام .

ومنها ـ : فى كيفية القصاص . فإن قلعت العين ثبت القصاص بالقلع . وإن ضرب حتى ذهب بصره ثبت القصاص . قال فى (التهذيب) : فقيل: بالقلع. وقيل: تحمى حديدة ثم تقرب من عينه .

وأما قوله تعالى (وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ) فالكلام فى عمومه كما تقدم . ويذكر هنا تنبيه ، وهو أن القصاص إنما يكون إذا استؤصلت . لأن ذلك كالمفصل ، لا إذا قطع بعضها .

والعموم فى قوله تعالى (وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ) أيضاً كما تقدم . والقصاص : إذا قطعت من أصلها لا إذا قطع البعض . ولا تؤخذ أذن الصحيح بأذن الأصمّ .

وكذا عموم قوله تعالى (وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ) والقصاص : إذا قلع من أصله . ولا بد من المساواة . فلا يؤخذ الصحيح بالأسود ولا بالمكسور . ولا الثنية بالضرس . ونحو ذلك . كما لا تؤخذ اليمنى باليسرى .

وأما قوله تعالى (وَالْجُرُوحَ) فهذا فيما تمكن فيه المساواة ، ويؤمن على النفس لتحرج الأمة .

كذا فى (تفسير بعض الزيدية) . وتتمة فقه هذه الآية يرجع فيه إلى مطولات كتب السنة وشروحها .

وقوله تعـالى « فَمَنْ تَصَدَّقَ » أى : من المستحقين « بِهِ » أى : بالقصاص . أى : فمن عفا عن الجانى . والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الترغيب « فَهُوَ » أى : التصدق « كَفَّارَةٌ لَهُ » أى : للمتصدق يكفر الله بها ذنوبه . وقيل : فهو كفارة للجانى ، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه . وهـذا التأويل الثانى روى عن كثير من السلف . كما أخرجه ابن أبى حاتم . واللفظ محتمل . إلّا أن الأخبار الواردة فى فضل العفو تشهد للأول .

روى الإمام أحمد(١) عن الشعبىّ ؛ أن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن رجل يجرح فى جسده جراحة فيتصدق بها إلّا كفّر الله عنه مثل ماتصدّق به. ورواه النسائىّ أيضاً .

وروى الإمام أحمد(٢) عن رجل من أصحاب النبىّ ﷺ قال: من أصيب بشىء من جسده فتركه لله ، كان كفارة له .

وروى الإمام ابن جرير(٣) عن أبى السفر قال: دفع رجل من قريش رجلًا من الأنصار ، فاندقّت ثنيّته . فرفعه الأنصارىّ إلى معاوية . فلما ألحّ عليـه الرجل قال معاوية : شأنك وصاحبك . قال ، وأبو الدرداء عنـد معاوية . فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلمٍ يصاب بشىء من جسده ، فيهبه ، إلّا رفعه الله به درجةً وحطّ عنه به خطيئة . فقال الأنصارىّ : أنت سمعتَه من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعتْه أذناى ووعاه قلبى. فخلّى سبيل القرشىّ . فقال له معاوية : مروا له بمال .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) لم أهتد إلى هذا الحديث .

(٣) الأثر رقم ١٢٠٨٠ من التفسير .

ورواه الإمام أحمد(١) أيضاً عن أبي السفر قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار. فاستعدى عليه معاوية. فقال القرشيّ : إن هذا دق سني ، فقال معاوية : كلّا . إنا سنرضيه . قال فلما ألح عليه الأنصاريّ ، قال معاوية : شأنك بصاحبك ـ وأبو الدرداء جالس ـ فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن مسلم يصاب بشيء من جسده ، فيتصدق به ، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه بها خطيئة. قال فقال الأنصاريّ: ءأنت سمعت هـذا من رسول الله ﷺ قال: نعم. سمعته أذناي ووعاه قلبي. يعني فعفا عنه الأنصاريّ. وهكذا رواه الترمذيّ وقال : غريب ، ولا أعرف لأبي السفر سماعاً من أبي الدرداء .

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لأنهم حكموا بخلاف حكم الله العدل . وتقدم في أول التنبيهات الخمس ، قريباً ، سرّ التعبير ههنا بـ (الظالمون) وقبله بـ (الكافرون) فتذكَّر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

« وَقَفَّيْنَا » أي أتبعنا « عَلَىٰ آثَارِهِمْ » يعني أنبياء بني إسرائيل « بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أي: أرسلناه عقبهم « مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ » أي : مؤمناً بها حاكماً بما فيها « وَءَاتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدًى » أي إلى الحق « وَنُورٌ » أي : بيان للأحكام « وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ » أي: لما فيها من الأحكام. وتكرير ذلك لزيادة التقرير .

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٤٨ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .
وأخرجه الترمذيّ في : ١٤ ـ كتاب الديات ، ٥ ـ باب ما جاء في العفو .

قال ابن كثير : أى متبعاً لها غير مخالف لما فيها ، إلا فى القليل . مما بيّن لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح . أنه قال لبنى إسرائيل : وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . ولهذا كان المشهور من قول العلماء : إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

« وَهُدًى وَمَوْعِظَةً » أى : زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم « لِلْمُتَّقِينَ » أى : لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه . وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين ، لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ » أمر مبتدأ لهم ، بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها : دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام ، وشواهد نبوّته . وقيل : هو حكاية للأمر الوارد عليهم . بتقدير فعلٍ مَعْطوف على (ءَاتَيْنَاهُ) : وقلنا ليحكم أهل الإنجيل . وقرئ (وليحكمَ) بالنصب على أن اللام (لام كى) أى : آتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم .

قال بعض المحققين : وإنما خص أهل الإنجيل بالذكر ، لبيان أن الإنجيل لم ينزله الله للأمم كافة وأن شريعته ليست باقية لكل زمان . لأن بعثة عيسى عليه السلام كانت خاصة بالأمة اليهودية.

« وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى : الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحقّ .

تنبيه :

فى هذه الآية والآيتين المتقدمتين ، من الوعيد ما لا يقادر قدره . وقد تقدم أنّ هذه الآيات ، وإن نزلت فى أهل الكتاب ، فليست مختصة بهم . بل هى عامة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ويدخل فيه السبب دخولًا أوليًّا .

وفى (فتح البيان) فى تفسير هذه الآيات ، مباحث نادرة سابغة الذيل . فلتراجع .

ولما ذكر تعالى التوراة التى أنزلها على موسى كليمه ، وأثنى عليها وأمر باتباعها ، ثم ذكر الإنجيل ومدحه وأمر باتباعه ـ شرع فى التنويه بالقرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أى : الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق . لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوىّ . وتفوّقه على بقية أفراده ، وهو القرآن الكريم . فاللام للعهد . أفاده أبو السعود .

« بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ » بيان لـ (ما) . و (اللام) للجنس . يعنى : أنه يصدّق جميع الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه من قبله . وإنما قيل (لما قَبْلَ الشىء) : هو بين يديه ، لأن ما تأخر عنه

يكون وراءه وخلفه . فما تقدم عليه يكون قدامه وبين يديه « وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ » أى : مؤتمناً عليه وشهيداً وحاكماً على ما قبله من الكتب .

قال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حقّ ، وما خالفه منها فهو باطل .

« فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ » أى : بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك « بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » أى : بما بيّن الله لك فى القرآن .

قال فى (الإكليل) : هذا ناسخ للحكم بكل شرع سابق . ففيه أنّ أهل الذمة إذا ترافعوا إلينا يحكم بينهم بأحكام الإسلام ، لا بمعتقدهم . ومن صور ذلك عدم ضمان الخمر ونحوه . انتهى .

« وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ » نهى أن يحكم بما حرفوه أو بدّلوه اعتماداً على قولهم . ضمّن (وَلَا تَتَّبِعْ) معنى (ولا تنحرف) فلذا عدى بـ (عن) فكأنه قيل : ولا تنحرف عما جاءك من الحقّ متبعاً أهواءهم . أو التقدير : عادلًا عمّا جاءك .

« لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً » أى : شريعة موصلة إلى الله « وَمِنْهَاجاً » أى : طريقاً واضحاً فى الدين ، تجرون عليه .

قال ابن كثير : هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام ، المتفقة فى التوحيد . كما ثبت فى (صحيح البخارىّ)[1] عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات . ديننا واحد . يعنى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة . والأنبياء إخوةٌ لِعَلّاتٍ ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » .

بذلك ، التوحيدَ الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله . كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(١) . وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ(٢) ... الآية .

وقال أبو السعود : قوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) كلام مستأنف جئ به لحمل أهل الكتابين ، من معاصريه عليه الصلاة والسلام ، على الانقياد لحكمه بما أنزل إليه من القرآن الكريم ، ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين، وإنما الذى كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة . والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس قاطبة، لكن لا للموجودين خاصة، بل للماضين أيضا بطريق التغليب . والمعنى: لكل أمة كائنة منكم ، أيها الأمم الباقية والخالية ، جعلنا ـ أى عيّنا ووضعنا ـ شرعة ومنهاجاً خاصيْن بتلك الأمة . لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عيّنت لها . فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة . والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبىّ عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الإنجيل . وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس إلّا . فآمنوا به واعملوا بما فيه .

وفى (الإكليل) : استدلّ بهذه الآية من قال : إنّ شرع من قبلنا ليس بشرع لنا . وبقوله : وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ... الآية ، من قال : إنه شرع لنا مالم يردْ ناسخ . واستدلّ بالآية أيضاً من قال : إن الكفر ملل لا ملة واحدة ، ولم يورّث اليهود من النصارى شيئاً . انتهى.

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

قال النسفيّ : ذكر الله إنزال التوراة على موسى عليه السلام . ثم إنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام . ثم إنزال القرآن على محمد ﷺ . وبيّن أنه ليس للسماع فحسب ، بل للحكم به . فقال في الأول : (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ) وفي الثاني . (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ) وفي الثالث : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) .

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » أي : جماعة متفقة على شريعة واحدة « وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » متعلق بمحذوف يستدعيه النظام . أي : ولكن جعلكم أمماً مختلفة ليختبركم فيما أعطاكم من الشرائع المختلفة . هل تتركون ما ألفتم منها لِمَا أحدث منها مذعنين له ، معتقدين أن خلافه لهـا بمقتضى المشيئة الإلهية المبنية على أساس الحكم البالغة ، والمصالح النافعة لكم في المعاش والمعاد ؟ أو تزيغون عن الحق ، وتتبعون الهوى ، وتستبدلون المضرة بالجدوى ، وتشترون الضلالة بالهدى ؟وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء . بل العمدة في ذلك ما أشير إليه من انطواء الاختلاف على مافيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً ، كما ينبىء عنه قوله تعالى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » أي : إذا كان الأمر كما ذكر ، فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم ، وابتدروها انتهازاً للفرصة وإحرازاً لسابقة الفضل والتقدم . ففيه من تأكيد الترغيب في الإذعان للحق ، وتشديد التحذير عن الزيغ ، ما لا يخفى . أفاده أبو السعود .

وقوله : « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد . أي : مصيركم ومعادكم ـ أيها الناس ـ إليه يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أي : فيخبركم بما لا تشكّون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ومبطلكم ، وعاملكم ومفرّطكم في العمل . كذا في (الكشاف) .

فالإنباء مجاز عن المجازاة ، وإنما عبر عنها به ، لوقوعها موقع إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الإنباء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٩] (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ » عطف على (الكتاب) أى : أنزلنا إليك الكتاب والحكم بما فيه . أو على (الحق) أى : أنزلناه بالحق وبـ (أن احكم) ويجوز أن يكون جملة ، بتقدير : وأمرنا أن احكم . وفى التعرض لعنوان إنزاله تعالى إياه ، تأكيد لوجوب الامتثال ، وتمهيد لما يعقبه من قوله « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ » أى : يصرفوك عنه . وإظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب . كإعادة (ما أنزل الله) « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى : عن الحكم المنزل وأرادوا غيره « فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ » يعنى بذنب التولّى عن حكم الله ، وإرادة خلافه ، فوضع (ببعض ذنوبهم) موضع ذلك . وأراد : أن لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد . وأن هـذا الذنب ـ مع عظمه ـ بعضُها وواحد منها . . وهـذا الإبهام لتعظيم التولى ، واستسرافهم فى ارتكابه ، ونحو (البعض) فى هذا الكلام مافى قول لبيد(١)

---

(١) هو البيت السادس والخمسون من معلقته التى مطلعها :

عَفَتِ الديارُ مَحَلُّها فمُقامُها بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُها

وقال التبريزىّ ، فى شرح البيت المستشهَد به :

يقول : أترك الأمكنة إذا رأيت فيها ما يُكره . إلا أن يدركنى الموت فيحبسنى . وأراد بـ (النفوس) نفسه .

(أو يرتبطْ بَعْضَ النفوس حِمَامُهَا ..!) أراد نفسه ، وإنما قصد تفخيم شأنها بهـذا الإبهام . كأنه قال : نفساً كبيرة ونفساً أىّ نفس . فـكما أن التنكير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية ، فـكذلك إذا صرح بالبعض . كذا فى (الكشاف) .

وفى (الحواشى) : ومثل هذا قوله تعالى : وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ[(١)] أراد محمداً ﷺ ؛ وقيل : ذلك من الخصوص الذى أريد به العموم ؛ وقيل : أراد العذاب فى الدنيا . وأما فى الآخرة فإنه يعذب بجميع الذنوب . ولقد تلطف القائل :

وأقول بعض الناس عنك كناية * خوفَ الوشاة، وأنت كلُّ الناس .

« وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ » أى : لمتمردون فى الكفر معتدون فيه ؛ وهذا تسجيل عليهم بالمخالفة . يعنى : إن التولّى عن حكم الله من التّمرد العظيم والاعتداء فى الكفر. والجملة اعتراض تذييلىّ مقرر لمضمون ما قبله . ونظيرها قوله تعالى : وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ[(٢)] وقوله تعالى : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ[(٣)] .

روى ابن جرير[(٤)] وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد ، وابن صلوبا ،

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٣] ونصها : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

(٢) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١١٦] . . . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

(٤) الأثر رقم ١٢١٥٠ من التفسير .

وعبد الله بن صوريا ، وشاس بن قيس ؛ بعضُهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا : يامحمد ! إنك قد عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم . وأنا ـ إن اتبعناك ـ اتبعنا يهودُ ، ولم يخالفونا . وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك . فأبى ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ » أى : يريدون منك .

قال أبو السعود : إنكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم . و (الفاء) للعطف على مقدر يقتضيه المقام . أى : أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية . وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب . لأن التولّى عن حكمه عليه الصلاة والسلام ، وطلب حكم آخر ، منكر عجيب . وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب . والمراد بـ (الجاهلية) إمّا الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى، الموجبة للميل والمداهنة فى الأحكام، فيكون تعييراً لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم، يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لايصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى . وإما أهل الجاهلية ، وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى . انتهى .

« وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً » أى : قضاءً « لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى : ينظرون بنظر اليقين إلى العواقب . والاستفهام إنكار لأن يكون أحدٌ حكمُه أحسنَ من حكمه تعالى أو مساوياً له .

قال ابن كثير : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم ـ المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شرّ ـ وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها

الرجال بلا مستند من شريعة الله ؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ؛ وكما يحكم به التتارُ مِنَ السياسات الملكية المأخوذة عن جنكزخان الذى وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها . وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله . فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير . قال الله تعالى : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ . أى : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ، (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) أى : ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن ، وعلم أن الله تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ؟ فإنه تعالى هو العالم بكل شىء ، القادر على كل شىء ، العادل فى كل شىء . روى ابن أبى حاتم عن الحسن قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية . وكان طاوس إذا سأله رجل : أفضل بين ولدى فى النحل؟ قرأ : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ .. الآية . وروى الطبرانىّ : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حقٍّ ليريق دمه . ورواه البخارىّ[(١)] بزيادة. انتهى كلام ابن كثير .

قال بعض مفسّرى الزيدية : اشتمل قوله تعالى : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ .. ـ إلى قوله : وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، على عشرين وجهاً من التأكيد فى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ ـ كتاب الديات ، ٩ ـ باب من طلب دم امرئ بغير حق ، حديث ٢٥٢٥ ونصه :

عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ، ومبتغٍ فى الإسلام سنة الجاهلية ، ومُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق ليُهَرِيق دمه » .

ملازمة شريعة نبيّنا ﷺ التي أنزلها الله تعالى ، واختارها لأمته ، واستأثر بكثيرٍ من أسرارها فلم يُطْلَع عليها ، وما أشدّ امتثال ما تضمّنته ؟ وكيف الخروج عن عهدته خصوصاً على الأئمة والحكام ؟ ولن يحصل ذلك حتى يلجم نفسه بلجام الحق ، ويعزل عن نفسه مطالعة الخلق ، لهذه الجملة . لا يقال : إنه صلى الله عليه وسلم معصوم لا يتبع أهواءهم ، فكيف نهى عما يعلم الله أنه لا يفعله ؟ قال الحاكم : ذلك مقدور له ، فيصحّ النهي وإن علم أنه لا يفعله . وقيل : الخطاب له والمراد غيره . كذلك لا يقال : قوله (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) يخرج من ذلك القياس . لأن ذلك ـ إن جعل خطاباً له عليه الصلاة والسلام ـ فلم يكن متعبّداً بالقياس . وإن كان خطاباً للكل فالقياس ثابت بالدليل فهو بمثابة المنزل. هكذا ذكر الحاكم. والأكثر : أنه يجوز منه عليه الصلاة والسلام الاجتهاد ، ومنعه آخرون . وقوله تعالى : (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) قد يستدل به على أن الواجبات على الفور . وهو محتمل . لأن المراد قبل أن يسبق عليكم الموت . انتهى .

وفي (الإكليل) : استدلّ به على أن تقديم العبادات أول وقتها أفضل من تأخيرها . انتهى .

وقد روى مسلم[1] عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: أفضل الأعمال الصلاة لوقتها وبرّ الوالدين .

وروى أبو داود[2] والترمذيّ والحاكم عن أم فروة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها .

---

(١) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٤٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٩ ـ باب في المحافظة على وقت الصلوات، حديث ٤٢٦ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ » أى : لايتخذ أحد منكم أحداً منهم وليًّا ، بمعنى : لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم .

قال المهايمىّ : إذا كان تودد أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقصد افتتانه عن بعض ما أنزل الله مع غاية كماله ، فكيف حال من يتودد إليهم من المؤمنين ؟ انتهى .

ووصفهم بعنوان (الإيمان) لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه. فإن تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين ، من أقوى الزواجر عن موالاتهما . « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » إيماء إلى علة النهى . أى : فإنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضاً لاتحادهم فى الدين . وإجماعهم على مضادتكم . فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم ! ! « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » أى : من جملتهم ، وحكمه حكمهم وإن زعم أنه مخالف لهم فى الدين ، فهو بدلالة الحال منهم لدلالتها على كمال الموافقة .

قال الزمخشرىّ : وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين واعتزاله . كما قال[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تراءى ناراهما . ومنه قول عمر

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٥ ـ باب على ما يقاتل المشركون ، حديث ٢٦٤٥ ونصه :

عن جرير بن عبد الله قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريّة إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود . فأسرع فيهم القتل .

قال ، فبلغ ذلك النبىّ ﷺ فأمر لهم بنصف العقل . وقال « أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله ! لِمَ ؟ قال « لا تراءى ناراهما » .

رضي الله عنه لأبي موسى في كاتبه النصراني : لا تكرموهم إذ أهانهم الله. ولا تأمنوهم إذ خوّنهم الله . ولا تُدنوهم إذ أقصاهم الله . وروى أنه قال له أبو موسى : (لا قوام للبصرة إلّا به) فقال : مات النصراني والسلام . يعني : هب أنه قد مات ، فما كنتَ تكون صانعاً حينئذ ، فاصنعه الساعة واستغن عنه بغيره .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » يعني : الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : ليتق أحدكم أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا وهو لا يشعر . قال . فظنناه يريد هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ... الآية.

ثم بيّن تعالى كيفية تولّيهم . وأشعر بسببه وبما يؤول إليه أمره . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

« فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أي : نفاقٌ وشكٌّ في وعد الله لإظهار دينه « يُسَارِعُونَ فِيهِمْ » أي : في مودتهم في الباطن والظاهرِ ، من غير نظرٍ فيما يلحقهم من الضرر في دين الله ، والفضيحة بالنفاق « يَقُولُونَ » أي : في عذرهم « نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ » أي : من دوائر الزمان ، وصرف من صروفه ، فتكون الدولة لهم ، فنحتاج إليهم ، فنحن نتحفّظ عن شرهم . ولا يتفكرون في أن الدائرة ربما تصيب من يوالونهم . والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها . وأصلها : الخط المحيط بالسطح . استعيرت لنوائب الزمان ، بملاحظة إحاطتها واستعمالها في المكروه . و (الدولة) ضدها ، وقد ترد بمعنى (الدائرة) أيضاً ، لكنه قليل . كذا في (العناية) .

ثم ردّ تعالى عِللَهُم الباطلة ، وقطع أطماعهم الفارغة ، وبشّر المؤمنين بالظفر بقوله سبحانه « فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ » أي : فتح مكة ، عن السدّيّ . أو فتح قرى اليهود من خيبر وفدك ، عن الضحّاك . وقال قتادة ومقاتل: هو القضاء الفصْل بنصره ﷺ على أعدائه، وإظهار المسلمين «أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ» يقطع شأفة اليهود ، ويجليهم عن بلادهم «فَيُصْبِحُوا» أي : المنافقون « عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ » من الشك في ظهور الإسلام ، أو من النفاق « نَادِمِينَ » لافتضاحهم بالنفاق مع الفريقين . وتعليق الندامة بما كانوا يكتمونه ـ لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة ـ لما أنه الذى كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها . فدلّ ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » قال الزمخشري : قرئ بالنصب عطفاً على (أَنْ يَأْتِيَ) ، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ . أي : ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت . وقرئ (يقول) بغير (واو) وهي مصاحف مكة والمدينة والشام كذلك . على أنه جواب قائل يقول : فماذا يقول المؤمنون حينئذٍ ؟ فقيل : يقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا ؟ (فإن قلت) : لمن يقولون هذا القول ؟ (قلت) : إمّا أن يقوله بعضهم لبعض تعجّباً من حالهم ، واغتباطاً بما منّ الله عليهم من التوفيق في الإخلاص « أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » أي : حلفوا لكم بأغلاظ الأيمان « إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ » أي : إنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار . وإمّا أن يقولوه لليهود ، لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة . كما حكى الله عنهم : وَلَئِنْ(١) قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ . أي : فقد تباعدوا عنكم. فيظهر أنهم لم يكونوا مع المؤمنين

(١) [٥٩ / الحشر / ١١] .

ولا مع اليهود « حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ » أى : فى الدنيا ، إذْ ظهر نفاقهم عند الكل . وفى الآخرة ، إذْ لم يبقَ لهم ثواب .

قال الزمخشرىّ : هذه الجملة من قول المؤمنين . أى : بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس ، وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم ! أومن قول الله عز وجلّ ، شهادة لهم بحبوط الأعمال ، وتعجيباً من سوء حالهم .. انتهى .

وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول ـ : فى سبب نزول هذه الآيات الكريمات .

روى عن السدّىّ[1] ، أنها نزلت فى رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحُدٍ : أمَّاأنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودىّ فأواليه وأتهوّد معه لعله ينفعنى إذا وقع أمر أوحدث حادث . وقال الآخر: وأما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانىّ بالشام فأواليه وأتنصّر معه. فأنزل الله تعالى: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ... الآيات .

وقال عكرمة : نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة. فسألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أى : إنه الذبح . رواه ابن جرير[2] . وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبىّ ، ابن سلول .

روى ابن جرير[3] عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنّ لى موالى من يهود كثير عددهم . وإنى

(١) الأثر رقم ١٢١٥٩ من تفسير ابن جرير .

(٢) الأثر رقم ١٢١٦٠ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٢١٥٦ فى التفسير .

أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود . وأتولّى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أُبيّ : إني رجل أخاف الدوائر . لا أبرأ من ولاية مواليّ . فقال رسول الله ﷺ لعبدِ الله بن أُبيّ : يا أبا الحباب ! ما بخلتَ به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه . قال قد قبلت فأنزل الله عز وجلّ : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآيتين .

ثم روى ابن جرير[1] عن الزهريّ قال : لما انهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر .. فقال مالك بن صيف : غرّكم إن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ! أما لو أَمْرَرْنَا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدٌ أن تقاتلونا. فقال عبادة بن الصامت : يارسول الله! إنّ أوليائى من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيرا سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم، ولا مولَى لِي إلّا اللهُ ورسوله .. فقال عبدالله بن أبيّ : لكنى لا أبرأ من ولاية يهود . إنى رجل لابدّ لى منهم. فقال رسول الله ﷺ : يا أبا الحباب ! أرأيت الذى نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت ، فهو لك دونه. فقال إذاً أقبل ! قال : فأنزل الله : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ ... ـ إلى قوله ـ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ .

وقال محمد[2] بن إسحق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . فقام إليه عبد الله بن أبيّ ، ابن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يامحمد ! أحسن فى مواليّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ. فقال : يامحمد ! أحسن فى مواليّ. قال : فأعرض عنه . فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ : أرسلنى . وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلًا، ثم

(١) الأثر رقم ١٢١٥٧ من التفسير .

(٢) السيرة بالصفحة رقم ٥١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٥٤٦ (طبعة جوتنجن) .

قال : ويحك ! أرسلني . قال : لا ، والله ! لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله ﷺ : هُمْ لك .

قال محمد(١) بن إسحق : فحدّثنى أبى ، إسحق بن يسار ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبىّ ، وقام دونهم . ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ـ وكان أحد بنى عوف من الخزرج ، لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبىّ ـ فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله عزوجل، وإلى رسوله من حلفهم وقال : يارسول الله! أتولّى الله ورسوله والمؤمنين. وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .. ففيه وفى عبد الله بن أبىّ نزلت الآيات: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبدالله ابن أبىّ نعوده، فقال له النبىّ ﷺ : قد كنت أنهاك عن حب يهود. فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات. وكذا رواه أبوداود .

الثانى : قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرات الآية أحكام .

(الأول) ـ أنه لا يجوز موالاة اليهود ولا النصارى . قال الحاكم : والمراد موالاته فى الدين . وجعل الزمخشرىّ الموالاة فى النصرة والمصافاة ، وبيّن وجوب المجانبة للمخالف فى الدين ، كما تقدم. والبعد والمجانبة استحباب، إذ قد جازت المخالطة فى مواضع بالإجماع ، وذلك حيث لا يوهم محبتهم ولا بأنهم على حق .

---

(١) السيرة بالصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٥٤٦ (طبعة جوتنجن) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٠١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(الحكم الثانى) ـ أن للإمام أن يسقط الحدّ إذا خشى ، أو يؤخره. وقد ذكر هذا، الأمير يحيي والراضى بالله والحاكم . وهذا مأخوذ من سبب النزول ، وترك النبىّ ﷺ بنى قينقاع لعبد الله بن أبىّ.

(الحكم الثالث) ـ صحة الموالاة منهم لبعضهم بعضاً . وقد قال علىّ بن موسى القمىّ : الآية تدل على أنهم ملة واحدة: فتصح المناكحة بينهم والموارثة . والمذهب خلاف ذلك. والدلالة على ماذكر محتملة . لأنها تحتمل أن المراد: بعضهم أولياء بعض فى معاداة المسلمين؛ أو يعنى: بعض اليهود ولياً لبعض اليهود .

(الحكم الرابع) ـ أن من تولاهم فهو منهم . ولا خلاف فى أنه صار عاصياً لله كما عصوه . ولكن أين تبلغ حد معصيته ؟ وقد اختلف فى ذلك ، فقيل : معنى قوله (فإنه منهم) أى : حكمه حكمهم فى الكفر ، وهذا حيث يقرّهم على دينهم . فكأنه قد رضيه . وقيل: من تولاهم على تكذيب رسول الله ﷺ . وقيل : المراد أنه منهم فى وجوب عداوته والبراءة منه . قال الحاكم : ودلالة الآية مجملة . فهى لا تدل على أنه كافر إلا أن يحمل على الموافقة فى الدين .

(الحكم الخامس) ـ ذكره الحاكم ، أنه لايجوز الاستعانة بهم . قلنا : ذكر الراضى بالله : أنه ﷺ قد حالف اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب ، وجدد صلى الله عليه وآله الحِلْف بينه وبين خزاعة . حتى كان ذلك سبب الفتح . وكانت خزاعة عَيْبَة نصح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مسلمهم وكافرهم . قال الراضى بالله : وهو ظاهر قول آبائنا عليهم السلام . وقد استعان علىّ عليه السلام بقتلة عثمان . واستعان صلى الله عليه وآله وسلم بالمنافقين . قال الراضى بالله : ويجوز الاستعانة بالفسّاق على حرب المبطلين . فتكون هذه الاستعانة غير موالاة .

التنبيه الثالث ـ في التفسير المتقدّم مانصه : وفى الآية الكريمة زواجر عن موالاة اليهود والنصارى من وجوه : (الأول) ـ النهى بقوله : لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . وسائرُ الكفار لاحقٌ بهم . (الثانى) ـ قوله تعالى : بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . والمعنى : أن الموالاة من بعضهم لبعضٍ لاتحادهم بالكفر ، والمؤمنون أعلى منهم . (الثالث) ـ قوله تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . وهذا تغليظ وتشديد ومبالغة . مثل قوله صلى الله عليه وآله[1] : لا تراءى ناراهما . ومثل قوله عليه السلام[2]: لا تستضيئوا بنارِ المشركين . (الرابع) ـ ما أخبر الله به أنه لا يهديهم . (الخامس) ـ وصفهم بالظلم ، والمراد : الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار . (السادس) ـ أنه تعالى أخبر أنّ الموالاة لهم من ديدن الذين فى قلوبهم مرض ، أى: شكّ ونفاق . (السابع) ـ ما أخبر الله تعالى به من علة الموالين، وأنّ ذلك خشية الدوائر . لا أنّه بإذنٍ من الله ولا من رسوله . (الثامن) ـ قطع الله لِمَا زينه لهم الشيطان من خشية رجوع دولة الكفر فقال تعالى : فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ . و(عسى) فى حق الله تعالى لواجب الحصول بالفتح لمكة أو لبلاد الشرك . (التاسع) ـ مابشر الله تعالى به من إهانتهم بقوله : أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . قيل : إذلال الشرك بالجزية . وقيل : قتل قريظة وإجلاء النضير . وقيل: أن يورث المسلمين أرضهم وديارهم . (العاشر) ـ ماذكره الله تعالى من الأمر الذى يؤول إليه حالهم ، وأنهم يصبحون نادمين على ما أسرّوا فى أنفسهم

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٠٢٤ .

(٢) أخرجه النسائىّ فى: ٤٨ـ كتاب الزينة ، ٥١ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لا تنقشوا على خواتيمكم عربيا » ونصه :

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا على خواتيمكم عربيا » .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

من غشّهم للمسلمين ونصحهم للكافرين . وقيل : من نفاقهم . وقيل : من معاقدتهم للكفار ، وذلك حين معاينتهم للعذاب . وقيل : في الدنيا ، بما صاروا فيه من الذلّة والصغار . (الحادي عشر) ـ ماذكره الله تعالى من تعجب المؤمنين من فضيحة أعداء الله وخبثهم في إيمانهم بقوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ ... الآية . (الثاني عشر) ـ ما أخبر الله من حالهم بقوله تعالى: حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . قيل : خسروا حظّهم من موالاتهم . وقيل : أهلكوا أنفسهم. وقيل : خسروا ثواب الله . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » لما نهى تعالى ـ فيما سلف ـ عن موالاة اليهود والنصارى ، وبيّن أنّ موالاتهم مستدعيـة للارتداد عن الدين بقوله : (فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) وقوله : (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) ـ شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق . ونوّه بقدرته العظيمة . فأعلم أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خيرٌ لهامنه ، وأشدّ منعة ، وأقوم سبيلًا . كما قال تعالى : وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (١) . وقال تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] ونصها : هَاأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ(١) . وقال تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(٢) * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . أى : بممتنع ولا صعب .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال المحققون : هذه الآية من الكائنات التى أخبر عنها فى القرآن قبل كونها . وقد وقع المخبَرُ به على وفقها . فيكون معجزاً . فقد روى أنه ارتدّ عن الإسلام إحدى عشرة فرقة : ثلاث فى عهد رسول الله ﷺ .

(بنو مدلج) ورئيسهم ذو الحمار ـ بحاء مهملة وضبطه بعضهم بالمعجمة ـ وهو الأسود العنسى ـ بالنون نسبة إلى عنس قبيلة باليمن ـ وكان كاهناً ثم تنبأ باليمن ، واستولى على بلاده، وأخرج عمال رسول الله ﷺ ، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن . فأهلكه الله على يدى فيروز الديلمىّ . بيَّتَهُ فقتله . وأخبر رسولُ الله ﷺ بقتله ليلة قُتل . فسُرَّ المسلمون . وقُبضَ رسول الله ﷺ من الغد فى آخر شهر ربيع الأول .

و (بنو حنيفة) قوم مسيلمة(٣) : تنبأ وكتب إلى رسول ﷺ : من مسيلمة رسول الله

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٣] ونصها : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٦و١٧] .

(٣) جاء فى سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) والصفحة ٩٦٥ (طبعة جوتنجن) ما يأتى :

وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله ﷺ : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك . أما بعد ، فإنى قد أُشركتُ فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض . ولكنّ قريشاً قوم يعتدون .

إلى محمد رسول الله . أمابعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك . فأجاب عليه الصلاة والسلام: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .. فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين ؛ وقُتِلَ على يَدَىْ وحشىٍّ، قاتل حمزة ، وكان يقول : قتلتُ خير الناس فى الجاهلية ،وشرّ الناس فى الإسلام . أراد : فى جاهليتى وإسلامى .

و (بنو أسد) قوم طليحة بن خويلد : تنبأ فى حياة النبىّ ﷺ ، وكثر جمعه ، ومات

= فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب .

قال ابن إسحاق : فحدثنى شيخ من أشجع ، عن سَلَمَة بن نُعَيم بن مسعود الأشجعىّ، عن أبيه نعيم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما ، حين قرأ كتابه « فما تقولان أنتما؟ » قالا : نقول كما قال . فقال « أما ، والله ! لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » .

ثم كتب إلى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وجاء فى طبقات ابن سعد بالصفحة ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت) ما يأتى :

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب ، لعنه الله ، يدعوه إلى الإسلام . وبعث به مع عمرو بن أمية الضمرىّ . فكتب إليه مسيلمة جواب كتابه ، ويذكر فيه أنه نبىّ مثله ، ويسأله أن يقاسمه الأرض ، ويذكر أن قريشاً قوم لا يعدلون . فكتب إليه رسول الله ﷺ ، وقال : العنوه لعنه الله ! وكتب إليه : بلغنى كتابك الكذبُ والافتراء على الله. وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى .

قال ، وبعث به مع السائب بن العوّام ، أخى الزبير بن العوّام .

ﷺ وهو على ذلك . فبعث إليه أبو بكر خالداً رضى الله عنهما فقصده . فانهزم طليحة بعد القتال إلى الشام . ثم أسلم وحسن إسلامه .

وسبعٌ فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :

(فزارة) قوم عُيَيْنَة بن حصن ؛

و (غطفان) قوم قرة بن سلمة القشيرىّ ؛

و (بنو سليم) قوم الفجاءة بن عبد ياَلِيل ـ بيائين ولا مين كهابيل ـ صنم سمى هذا به .

و (بنو يربوع) قوم مالك بن نويرة .

و (بعض تميم) قوم سجاح بنت المنذر . كانت كاهنة ثم تنبأت وزوجت نفسها مسيلمة الكذاب ثم أسلمت وحسن إسلامها .

و (كندة) قوم الأشعث بن قيس .

و (بنو بكر بن وائل) بالبحرين ، قوم الحطم ـ كزفر ـ بن زيد . وكفى الله أمرهم على يدى أبى بكر رضى الله عنه .

وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه :

(غسان) قوم جبلة بن الأيهم ، نصّرته اللطمةُ وسيَّرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه .

والجمهور : على أنه مات على ردته . وقيل : إنه أسلم .

وروى الواقدىّ(١) : أن عمر رضى الله عنه كتب إلى أحبار الشام ـ لما لحق بهم ـ

(١) وهذا ماجاء فى طبقات ابن سعد ، بالصفحة ٢٦٥ من المجلد الأول (طبعة بيروت): قالوا : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى جبلة بن الأيهم ، ملك غسّان ، يدعوه إلى الإسلام . فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأهدى له هدية . ولم يزل مسلماً حتى كان فى زمن عمر بن الخطاب . فبينما هو فى سوق دمشق إذ وطئ =

كتاباً فيه : أن جبلة ورد إلىّ في سراة قومه ، فأسلم فأكرمته . ثم سار إلى مكة فطاف فوطئ إزارَهُ رجلٌ من بنى فزارة ، فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه . (وقيل: قلع عينه ، ويدل له ما سيأتى) فاستعدى الفزاريّ على جبلة إلىّ . فحكمت إما بالعفو أو بالقصاص . فقال: أتقتصّ منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقلت: شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلّا بالعافية.

فسأل جبلةُ التأخيرَ إلى الغد . فلما كان من الليل ركب مع بنى عمه ولحق بالشام مرتدًّا. وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تنصّرتُ بعد الحقّ عاراً للطمةٍ ... ولم يك فيها، لو صبرت لها ، ضرر
فأدركنى فيهـــا لجاج حميّـةٍ ... فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... صبرت على القول الذى قاله عمـــر

هذا ما في (الـكشاف) و (العناية) .

وقال الخطابىّ أهل الردة كانوا صنفين : صنفاً ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعدلوا إلى الـكفر. وهذه الفرقة طائفتان : (إحداهما) أصحاب مسيلمة الـكذاب من بنى حنيفة وغيرهم

= رجلا من مزينة . فوثب المزنىّ فلطمه . فأخذ وانطُلق به إلى أبى عبيدة بن الجراح . فقالوا : هذا لطم جبلة . قال : فليلطمه . قالوا : وما يُقتل ؟ قال : لا . قالوا : فما تقطع يده؟ قال : لا ، إنما أمر الله ، تبارك وتعالى ، بالقوَد . قال جبلة : أو ترون أنى جاعل وجهى ندًّا لوجه جَدْيٍ جاء من عَمْقٍ ! (عمق : أرض لمزينة . اللسان) بئس الدين هـــذا ! ثم ارتد نصرانيًّا وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم .

فبلغ ذلك عمر ، فشقّ عليه وقال لحسان بن ثابت : أبا الوليد ! أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانيًّا ؟ قال : إنا لله وإنا إليــه راجعون . ولِمَ ؟ قال : لطمه رجل من مزينة ، قال : وحُقّ له .

فقام له عمر بالدرّة فضربه بها .

الذين صدقوه على دعواه فى النبوة ، وأصحاب الأسود العنسى ومن استجابه من أهل اليمن . وهــذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ ، مدعية النبوة لغيره . فقاتلهم أبو بكر حتى قتل مسيلمة باليمامة ، والعنسىّ بصنعاء ، وانفضّت جموعهم وهلك أكثرهم . و(الطائفة الأخرى) ارتدوا عن الدين . فأنـكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين. وعادوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية ، فلم يكن يسجد لله فى الأرض إلا فى ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس .

قال ؛ والصنف الآخر : هم الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنـكروا وجوبها ووجوب أدائها إلى الإمام ، وهؤلاء، على الحقيقة ، أهـل البغى وإنمـا لم يدعوا بهذا الاسم فى ذلك الزمن خصوصاً، لدخولهم فى غمار أهل الردة ، وأضيف الاسم فى الجملة إلى أهل الردة، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمهما .

انظر تتمة هذا المبحث فى (نيل الأوطار) فى كتاب الزكاة .

قال الشوكانىّ : فأما مانعو الزكاة منهم ، المقيمون على أصل الدين ، فإنهم أهل بغى . ولم يسمَّوا على الانفراد كفاراً ، وإن كانت الردة قد أضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين فى منع بعض مامنعوه من حقوق الدين ، وذلك أن الردة اسم لغوىّ . فـكل من انصرف عن أمر كان مقبلًا عليه ، فقد ارتد عنه . وقد وجد من هؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة ومنع الحق . وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح ، وعلق بهم الاسم القبيح ،لمشاركتهم القوم الذين كان ارتدادهم حقًّا .

الثانية : قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) .

مذهب السلف فى المحبة المسندة له تعالى ، أنها ثابتة له تعالى بلا كيف ولا تأويل ، ولا مشاركة للمخلوق فى شىء من خصائصها . كما تقدم فى الفاتحة فى (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ).

فتأويل مثل الزمخشرىّ لها _ بإثابته تعالى لهم أحسن الثواب ، وتعظيمهم والثناء عليهم

والرضا عنهم ـ تفسير باللازم ، منزع كلامىّ لاسلفىّ . وقد أنكر الزمخشرىّ أيضاً كون محبة العباد لله حقيقية ، وفسرها بالطاعة وابتغاء المرضاة . فرده صاحب (الانتصاف) بأنه خلاف الظاهر . وهو من المجاز الذى يسمى فيه المسبب باسم السبب ، والمجاز الذى لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة بالقواعد ، لينظر : أهى ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة ، لغة ، ميل المتصف بهـا إلى أمر ملذ . واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحسن : كلذة الذوق فى المطعوم ، ولذة النظر واللمس فى الصور المستحسنة ، ولذة الشم فى الروائح العطرة ، ولذة السمع فى النغمات الحسنة ، وإلى لذة تدرك بالعقل : كلذة الجاه والرياسة والعلوم ومايجرى مجراها . فقد ثبت أن فى اللذات الباعثة على المحبة ما لا يدركه إلا العقل دون الحس ، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها ، وإذا تفاوتت المحبة بحب تفاوت البواعث . فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات ، فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحقّ . فاللذة الحاصلة فى معرفته تعالى ، ومعرفة جلاله وكماله ، تـكون أعظم . والمحبة المنبعثة عنها تـكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات . فقد تحصّل من ذلك أن محبة العبد

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب أبى حفص القرشىّ العدوىّ رضى الله عنه ، حديث ١٧٣٤ ونصه :

عن أنس رضى الله عنه ؛ أن رجلا سأل النبىّ صلى الله عليـــه وسلم عن الساعة ؟ قال « وماذا أعددت لها ؟ » قال : لا شىء ، إلا أنى أحب الله ورسوله صلى الله عليـــه وسلم . فقال « أنت مع من أحببت » .

قال أنس : فما فرحنا بشىء فرَحَنَا بقول النبىّ ﷺ « أنت مع من أحببت » .

قال أنس : فأنا أحب النبىّ ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم .

ممكنة ، بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك ، وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقيّ لغةً ، وكانت الطاعة والموافقات كالمسبب عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابيّ(١) الذى سأل عن الساعة ؟ فقال النبيّ ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل . ولكن حب الله ورسوله . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت مع من أحببت . فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة لله غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابيّ نفاها وأثبت الحب، وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك . ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة فى اللغة ، إذا تأكدت سميت عشقاً ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ، وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات فى ذكره وطاعته ـ فلا تمنع أن تسمى محبته عشقاً ، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة . انتهى .

الثالث : قوله تعالى « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

قال ابن كثير : هذه صفات المؤمنين الكمل ، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه، متعززاً على خصمه وعدوّه ، كما قال تعالى : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ(١) .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين ؟ قلت فيه وجهان : (أحدهما) أن يضمن الذل معنى الحنوّ والعطف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع .

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] ونصها : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً .

و (الثانى) أنهم ـ مع شرفهم وعلوّ طبقتهم وفضلهم على المؤمنين ـ خافضون لهم أجنحتهم. وقرئ (أذلةً وأعزةً) بالنصب على الحال .

وفى (الحواشى) : أن قوله تعالى : « أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » تكميل . لأنه لما وصفهم بالتذلل ، ربما توهم أن لهم فى نفسهم حقارة ، فقال : ومع ذلك هم أعزة على الكافرين ، كقوله :

جُلوسٌ فى مجالسهم رِزَانٌ (١) وَإنْ ضَيْفٌ أَلَمَّ بهم خُفُوفٌ

واستدل بالآية على فضل التواضع للمؤمنين والشدة على الكفار .

الرابعة : قوله تعالى : وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

قال الزمخشرىّ : يحتمل أن تكون (الواو) للحال على معنى : أنهم يجاهدون ، وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين ، فإنهم كانوا موالين لليهود . فإذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم ؛ وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط . وأن تكون للعطف على أنّ من صفتهم المجاهدة فى سبيل الله . وأنهم صلاب فى دينهم. إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين ـ إنكار منكر أو أمر بمعروف ـ مضوا فيه كالمسامير المحماة ، لا يرعبهم قول قائلٍ ولا اعتراض معترضٍ ولا لومة لائمٍ . يشق عليه جدهم فى إنكارهم وصلابتهم فى أمرهم . و (اللومة) المرّة من اللوم . وفيها وفى التنكير مبالغتان . كأنه قيل : لا يخافون شيئاً قط من لوم أحدٍ من اللوّام . انتهى .

وفيه وجوب التمسك بالحق وإن لامه لائم . وإنه مع تمسكه به ، صيّره محلَّه أعلى ممن تمسّك به من غير لومٍ . لأنه تعالى مدح مَن هذا حاله . وفيه أيضاً ، أن خوف الملامة ليس عذراً فى ترك أمر شرعىّ .

---

(١) رزان جمع رزين . خفاف جمع خِفّ . والخِفّ هو الخفيف ، كما جاء فى اللسان .

روى الإمام أحمد(١) عن أبي ذرّ قال : أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبعٍ : أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أَدْبَرَتْ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مرًّا ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول (لا حول ولا قوة إلّا بالله) فإنهنّ كنز من تحت العرش .

وروى الإمام أحمد(٢) أيضاً عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله ﷺ : ألا ، لا يمنعنّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا رآه أو شهده . فإنه لا يقرّب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحقٍّ أو أن يذكر بعظيم .

وروى أيضاً عنه(٣) قال : قال رسول الله ﷺ : لايحقرنّ أحدكم نفسه ، أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة : مامنعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة الناس، فيقول : إياي أحقّ أن تخاف .

وروى الشيخان(٤) عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٥٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤٣ ـ باب كيف يبايع الإمام الناس ، حديث ٢٥٤٧ ، وهذا لفظه .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) وهذا لفظ مسلم :

قال : بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره، وعلى أَثَرَةٍ علينا ، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

على السمع والطاعة فى المنشط والمكره . وأن لاننازع الأمر أهله . وأن نقول بالحق حيثما كنّا ، لا نخاف فى الله لومة لائم .

الخامسة : قوله تعالى (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ)

الإشارة إلى ما ذكر من حب الله إياهم ، وحبهم لله وذلّتهم للمؤمنين ، وعزّتهم على الكافرين ، وجهادهم فى سبيل الله ، وعدم مبالاتهم للوْم اللوّام . فالمذكور كله فضل الله الذى فضل به أولياءه .

قال المهايمىّ : أما المحبتان فظاهر . وكذا العزة على الكفار والجهاد . وأما الذلة على المؤمنين فلأنه تواضع موجب للرفع . وأما عدم خوف اللامة فلِما فيه من تحقيق المودة مع الله .

وقوله تعالى « يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أى : ممن يريد به مزيد إكرام من سعة جوده « وَاللهُ وَاسِعٌ » أى : كثير الفواضل، جلّ جلاله .

ولمّا نهى عن موالاة اليهود والنصارى ، أشار إلى من يتعيّن للموالاة، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ » المفيض عليكم كلّ خير « وَرَسُولُهُ » الذى هو واسطة الفيض « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » المُعِينون فى موالاة الله ورسوله بأفعالهم ، لأنهم « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » التى هى أجمع العبادات البدنية « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » القاطعة محبة المال الجالب للشهوات « وَهُمْ رَاكِعُونَ » حال من فاعل الفعلين ، أى : يعملون ما ذكر ـ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ـ وهم خاشعون ومتواضعون لله ومتذللون غير معجبين . فإن رؤيتهم تؤثر فيمن يواليهم بالعون فى موالاة الله ورسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)

« وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا » فيعينهم وينصرهم « فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » فى العاقبة على أعدائه .

تنبيهات :

الأول : إنما أفرد (الولىّ) ولم يجمع ، مع أنه متعدّد ، للإيذان بأن الولاية لله أصل ، ولغيره تبعٌ لولايته عزّ وجل . فالتقدير : وكذلك رسوله والذين آمنوا .

الثانى : ثمرة هذه الآية تأكيد موالاة المؤمنين والبعد عن موالاة الكفار .

الثالث : قال ابن كثير : توهم بعض الناس أن هذه الجملة ـ يعنى قوله تعالى (وَهُمْ رَاكِعُونَ) ـ فى موضع الحال من قوله (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أى فى ركوعهم . ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح . وليس الأمر كذلك عند أحدٍ من العلماء ممن نعلمهم من أئمة الفتوى . وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثراً عن علىّ بن أبى طالب ، أنّ هذه الآية نزلت فيه : إنّه مرّ به سائل فى حال ركوعه ، فأعطاه خاتمه . ثم روى ابن كثير الأثر المذكور عن ابن أبى حاتم وابن جرير(١) وعبد الرزاق وابن مردويه ، ثم قال : وليس يصحّ شيء منها بالكليّة . لضعف أسانيدها وجهالة رجالها .. انتهى .

وقد اقتصّ ذلك الخفاجىّ فى (حواشى البيضاوىّ) عن الحاكم وغيره بطول . ثم أنشد أبياتاً لحسان بن ثابت فيها . ولوائح الضعف بل الوضع لا تخفى عليها . لا سيما ونفس حسان ابن ثابت ، العريق فى العربية ، بعيد مما نسب إليه . وأىّ حاجة للتنويه بفضل علىّ عليه السلام بمثل هذه الواهيات . وفضله أشهر من نارٍ على علم .

(١) الأثر رقم ١٢٢١٠ من التفسير .

قال البغوىّ[١] : روى عن عبدالملك بن سليمان قال: سألت أباجعفر، محمدبن علىّ الباقر عن هذه الآية (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) من هم ؟ فقال : المؤمنون. فقلت : إن ناساً يقولون هو علىّ . فقال : علىٌّ من الذين آمنوا .

قال ابن كثير : وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردناها ، أنّ هذه الآية كلها نزلت فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، حين تبرأ من حلف يهود ، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين .

الرابع : ذهب من رأى أن هذه الآية نزلت فى علىّ عليه السلام وأنه تصدق بخاتمه وهو راكع ـ كما قدّمنا ـ إلى أنّ العمل القليل فى الصلاة لا يبطلها ، وإن صدقة النفل تسمى زكاة . نقله السيوطىّ فى (الإكليل) عن ابن الفرس .

وقال بعض الزيدية : ثمرة الآية تأكيد موالاة المؤمنين ، وبيان فضل من نزلت فيه. وأنه يجوز إخراج الزكاة فى الصلاة، وتنوى . وكذا نية الصيام فى الصلاة تصح . وإن الفعل القليل لا يفسد الصلاة . قال : وهذا مأخوذ من سبب نزولها، لا من لفظها . ومتى قيل إنّ علياً عليه السلام لم تجب عليه زكاة ؟ قلنا : إذا صحّ ما ذكر أنّها نزلت فيه ، كان أولى بالصحة، وأنها قد وجبت عليه .

قال فى (الغياضة) : إن قيل : قد روى أنه كان من ذهب ، والذهب محرّم على الرجال؛ أجيب بأن ذلك كان فى صدر الإسلام ثم نسخ ، أو أنّ هـذا من خواصّ علىٍّ عليه السلام. انتهى .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف صحّ أن يكون لعلىّ رضى الله عنه ، واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت : جىء به على لفظ الجمع ، وإن كان السبب فيه رجلًا واحداً ، ليرغب الناس فى مثل فعله فينالوا مثل ثوابه . ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية

(١) الأثر رقم ١٢٢١١ من تفسير ابن جرير .

من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء . حتى إنْ لَزَّهُمْ أمرٌ لا يقبل التأخير ـ وهم في الصلاة ـ لم يؤخروه إلى الفراغ منها . انتهى .

وإنما أوردنا هـذا ، على علاته ، تعجيباً من غرائب الاستنباط . وقد توسع الرازيّ ، عليه الرحمة ، في المناقشة مع الشيعة هنا ، فليراجع فإنه بحث بديع .

الخامس : قوله تعالى (فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) معناه : فإنهم هم الغالبون . فوضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى (من) دلالة على علة الغلبة . وهو أنهم حزب الله . فكأنه قيل : ومن يتولّ هؤلاء فهم حزب الله . وحزب الله هم الغالبون . وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم ، وتعريضاً لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل (الحزب) القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُمْ . وقيـل : الحزب جماعة فيهم شدة . فهو أخصّ من الجماعة والقوم .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة غيرهم ، إن كانت لجرّ نفع ، فضررها أعظم . وإن كانت لدفع ضرر ، فالضرر الحاصل بها لايفى بالمدفع ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أي : مقتضى إيمانكم حفظ تعظيم دينكم « لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ » أي : الذي هو رأس مالِ كمالاتكم ، الذي به انتظام معاشكم ومعادكم ، وهو مناط سعاداتكم الأبدية ، وسبب قربكم من ربكم « هُزُوًا » أي : شيئاً مستخفاً « وَلَعِباً » أي : سخرية وضحكاً ، مبالغة في الاستخفاف به حتى لعبوا بعقول أهله.

ثم بيّن المستهزئين وفصّلهم بقوله تعالى « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ » قرئ بالنصب والجرّ ، يعني المشركين كما في قراءة ابن مسعود (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) « أَوْلِيَاءَ » في العون والنصرة . وإنما رتب النهي على وصف اتخاذهم الدين هزواً ولعباً ، تنبيهاً على العلة ، وإيذاناً بأن من هذا شأنه ، جدير بالبغضاء والشنآن والمنابذة . فكيف بالموالاة ؟ « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أي : في ذلك ، بترك موالاتهم ، أو بترك المناهي على الإطلاق . فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليًّا « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أي: حقًّا ، فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة .

ثم بيّن استهزاءهم بحكم خاص من أحكام الدين ، بعد استهزائهم بالدين على الإطلاق ، إظهارا لكمال شقاوتهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » أي : دعوتم إليها بالأذان « اتَّخَذُوهَا » أي : الصلاة أو المناداة « هُزُوًا وَلَعِباً » بأن يستهزئوا بها ويتضاحكوا « ذَلِكَ » أي الاتخاذ « بِأَنَّهُمْ » أي بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » أي : معاني عبادة الله ، فإن السفه يؤدي إلى الجهل بمحاسن الحق والهزء به ، ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترأوا على تلك العظيمة . فإن الصلاة أكمل القربات ، وفي النداء معان شريفة من تعظيم الله باعتبار ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. ومن ذكر توحيده باعتبار ذاته ، وباعتبار عدم مغايرة أسمائه وصفاته ، ومن تعظيم رسوله باعتبار قيامه بمصالح المعاش والمعاد ، ومن الصلاة من حيث هي وصلة ما بين العبد وبين الله، ومن حيث إفادتها معالي الدرجات ، ومن تعظيم مقصده وهو الفلاح في الظاهر والباطن ، وما هو غاية مقصده من القرب من الله باعتبار عظمة ظاهره وباطنه،ومن الوصول إلى توحيده الحقيقيّ . أفاده المهايميّ .

تنبيهات :

الأول : فى آثار رويت فى هذه الآية :

روى أبو الشيخ ابن حبان عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسويد ابن الحارث ، قد أظهرا الإسلام ونافقا ، وكان رجل من المسلمين يوادّهما ، فأنزل الله « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ... » الآية.

وروى ابن جرير[١] وابن أبى حاتم عن السدّىّ فى قوله « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِباً » قال : كان رجل من النصارى بالمدينة ، إذا سمع المنادى ينادى : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : حُرِّق الكاذب. فدخلت خادمه ليلة من الليالى بنار، وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله .

وذكر محمد[٢] بن إسحق بن يسار فى (السيرة) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن . وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد والحرث بن هشام جلوس بفِناء الكعبة . فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه. فقال الحرث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً. لو تكلمتُ لأخْبَرَتْ عنى هذه الحصى . فخرج عليهم النبىّ ﷺ فقال : قد علمت الذى قلتم. ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحرث وعتاب: نشهد أنك رسول الله. والله! ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك.

وروى الإمام أحمد[٣] عن عبد الله بن محيريز ـ وكان يتيماً فى حجر أبى محذورة ـ قال :

---

(١) الأثر رقم ١٢٢١٨ من التفسير .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) والصفحة ٨٢٢ (طبعة جوتنجن) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

قلت لأبى محذورة : ياعم! إنى خارج إلى الشام . وأخشى أن أسأل عن تأذينك . فأخبرنى ؛ أن أبامحذورة قال له: نعم ! خرجت فى نفر فكنا ببعض طريق حنين ، فقفل رسول الله صلى عليه وسلم من حنين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق . فأذّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله ﷺ ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون. فصرخنا نحكيه ونستهزىء به. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوت فأرسل إلينا، إلى أن وقفنا بين يديه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشار القوم كلهم إلىّ ، وصدقوا . فأرسل كلّهم وحبسنى فقال : قم فأذن . فقمت ، ولا شىء أكره إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرنى به ، فقمت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فألقى إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو نفسه فقال: قل : الله أكبر، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أنّ محمداً رسول الله، أشهد أنّ محمداً رسول الله . ثم قال لى : ارجع فامدد من صوتك . ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أنّ محمداً رسول الله ، أشهد أنّ محمداً رسول الله . حىَّ على الصلاة، حىّ على الصلاة ، حىَّ على الفلاح، حىَّ على الفلاح . الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . ثم دعانى حين قضيت التأذين فأعطانى صرة فيها شىء من فضة . ثم وضع يده على ناصية أبى محذورة . ثم أمرّها على وجهه مرتين . ثم مرتين على يديه . ثم على كبده . ثم بلغت يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سرّة أبى محذورة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله فيك . فقلت : يا رسول الله ! مُرنى بالتأذين بمكة . فقال : قد أمرتك به . وذهب كل شىء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهية ، وعاد ذلك كله محبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدمت على عتّاب بن أَسِيد ، عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذّنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانى : دلت الآية على وجوب موالاة المؤمنين ومعاداة الكفار. والمراد به فى أمر الدين، كما تقدم .

الثالث : دلت على أن الهزء بالدين كفر ، وأن هزله كجدّه .

قال فى (الإكليل) : الآية أصل فى تكفير المستهزئ بشيء من الشريعة .

الرابع : دلت على أن للصلاة نداء وهو الأذان ، فهى أصل فيه .

قال الزمخشريّ : قيل : فيه دليل على ثبوت الأذان بنصّ الكتاب ، لا بالمنام وحده .

ولمّا نهى تعالى عن تولّى المستهزئين ، أمر أن يخاطبوا بأن الدين منزّه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ، ويظهر لهم سبب ما ارتكبوا ويلقموا الحجر ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ » وصفوا بذلك تمهيداً لتبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم ، أى : يا أصحاب الكتاب ، العالمين بالنقائص والكمالات ، التى يستحق على تحققها وفقدها الاستهزاء ، « هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا » أى : ما تعيبون وتنكرون منا « إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللهِ » وهو رأس الكمالات « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق « وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ » وهو يشهد لما أنزل إلينا « وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ » أى : متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر .

لطائف

الأولى : إنما فسر (تنقمون) بـ (تعيبون) و (تنكرون) لأن النقمة معناها الإنكار باللسان أو بالعقوبة ـ كما قاله الراغب ـ لأنه لا يعاقَب إلّا على المنكَر فيكون على حد قوله :

* ونشتم بالأفعال لا بالتكلم * فلذا حسن (انتقم منه) مطاوعه ، بمعنى عاقبه وجازاه ، وإلّا فكيف يخالف المطاوع أصله؟ فافهم . و (نقم) ورد كعَلِم يعلَم وضَرَبَ يضرِب ،

وهى الفصحى ، ويمدّى بـ (من) و (على) . وقال أبوحيّان : أصله أن يتعدى بـ (على). ثم (افتعل) المبنىّ منه ، يعدى بـ (من) لتضمنه معنى الإصابة بالمكروه ، وهنا (فعل) بمعنى (افتعل) . كذا فى (العناية) .

الثانية : فى الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس ، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر ، موجبا لنقمه ، مع كونه فى نفسه موجباً لقبوله وارتضائه . فمعنى الآية : ليس شيء ينقم من المؤمنين . فلا موجب للاستهزاء . وهــذا مما تقصد العرب فى مثله ، تأكيد النفى والمبــالغه فيه بإثبات شيء ، وذلك الشيء لا يقتضى إثباته ، فهو منتفٍ أبداً . ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس ، فمن الأول[1] نحو :

ولاعيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهُمْ بهنّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ

ومن الثانى هذه الآية وشبهها . أى : ما ينبغى لهم أن ينقموا شيئاً إلّا هذا ، وهــذا

(١) قائله النابغة الذبيانىّ ، من قصيدة مطلعها :

كِلِينى لهمٍّ ، يا أميمةَ ، ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

قالها يمدح عمرو بن الحارث الأصغر المعروف بالأعرج ، ابن الحارث الأكبر بن أبى شمر. حين هرب إلى الشام، لما بلغه أن مرّة بن ربيع بن قريع وشى به إلى النعمان ، فى أمر المتجردة .

وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسىّ فى شرح البيت المستشهد به :

الفلول: الثلوم . والقراع : المجالدة . وقوله (لا عيب فيهم غير أن سيوفهم) هذا الاستثناء سماه ابن المعتز توكيد المدح . لأن انفلالها من قراع الكتائب ، عند التحصيل ، فخر وفضل .

ومثل هذا قول الشاعر :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد ، فما يُبقى من المال باقيا

فاستثنى جوده الذى يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالكمال . وبهذا الاستثناء زاد كمالا، وتأكد حسنا .

لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً ، فليس شيء ينقمونه ، فينبغي أن يؤمنوا به ولا يكفروا . وفيه أيضاً التعريض بكفرهم ، وتقريع بسوء الصنيع في مقابلة الإحسان .

الثالث : إسناد الفسق إلى أكثرهم ، لأن من قال منهم ما قال ، وحمل غيره على العناد، طلباً للرياسة والجاه وأخذ الرشوة ، إنما هو أكثرهم . ولئلا يظن أن من آمن منهم داخل في ذلك .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ، مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

« قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ » المخاطب بكاف الجمع أهل الكتاب المتقدم ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، أو المؤمنون . والمشار إليه الأكثر الفاسقون . وتوحيد اسم الإشارة لكونه يُشارُ بِهِ إلى الواحد وغيره ، أو لتأويله بالمذكور ونحوه . وفي الكلام مقدر أي : بشرٍ من حال هؤلاء . وقيل : المشار إليه المتقدمون الذين هم أهل الكتاب ، يعني أنّ السلف شرٌّ من الخلف . وجعله الزمخشريّ إشارة إلى المنقوم .

وقد جوّد في إيضاحه العلامة أبو السعود بقوله : لما أمر عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتهم ، ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه عندهم أيضاً ، وكفرهم بما هو مسلم لهم ـ أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقةً ، ماهم عليه من الدين المحرف . وينعى عليهم في ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها، على منهاج التعريض. لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب

متن المكابرة والعناد . ويخاطبهم قبل البيان بما ينبىء عن عظم شأن المبيَّن ، ويستدعى إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به ، والتنبئة المشعرة بكونه أمراً خطيراً ، لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر . وحيث كان مناط النقم شرّية المنقوم حقيقةً أو اعتقاداً ، وكان مجرد النقم غير مقيد لشريته البتة ، قيل (بشرٍّ من ذلك) ولم يقل : بأنقم من ذلك ، تحقيقاً لشرية ما سيذكر وزيادة تقريرٍ لها . وقيل : إنما قيل ذلك ، لوقوعه فى عبارة المخاطبين . حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام : أومن باللهِ وماأنزل إلينا ... ـ إلى قوله ـ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام، قالوا : لا نعلم شرًّا من دينكم . وإنما اعتبر الشرية بالنسبة إلى الدين ـ وهو منزّه عن شائبة الشرية بالكلية ـ مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته، ليثبت أن دينهم شرّ من كل شرّ . أى: هل أخبركم بما هو شرٌّ فى الحقيقة مما تعتقدونه شرًّا ، وإن كان فى نفسه خيرًا محضاً ؟ انتهى .

وقوله : « مَثُوبَةً عِندَ اللهِ » أى جزاء ثابتاً عند الله . قال الراغب : الثواب ما رجع إلى الإنسان من جزاء أعماله . سمى به بتصور أن ماعمله يرجع إليه ، كقوله[1] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ») ولم يقل: ير جزاءه . والثواب يقال فى الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف فى الخير . وكذا المثوبة، وهى مصدر ميمىّ بمعناه. وعلى اختصاصها بالخير استعملت هنا فى العقوبة على طريقة[2] :

* تحيةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجيعُ *

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧] .

(٢) هذا من أبيات الكتاب (١/٣٦٥) وصدره : وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيل .
قال الشنتمرىّ : قائله عمرو بن معدى كرب .
والشاهد فيه جعل الضرب تحية ، على الاتساع . وإنما ذكر هذا تقوية لجواز البدل =

فى التهكم . ونصبها على التمييز من (بشرّ) .

وقوله تعالى « مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ » بدل من (شر) على حذف مضاف ، أى : بشر من أهـل ذلك من لعنه الله ، أو بشر من ذلك دينُ من لعنه الله . أو خبر محذوف. أى : هو من لعنه الله وهم اليهود ، أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهما كهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات ومسخ بعضهم قردة وخنازير، وهم أصحاب السبت . كما تقـدم بيانه فى سورة البقرة « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » عطف على صلة (مَنْ) والمراد من الطاغوت : العجل ، أو الـكهنة وكل من أطاعوه فى معصية الله تعالى « أُولَـٰئِكَ » أى : الملعونون الممسوخون « شَرٌّ مَـكَانًا » إثبات الشرارة للمكان كناية عن إثباتها لأهله ، كقولهم: (سلام على المجلس العالى) و(المجد بين برديه) كأن شرهم أثر فى مكانهم أو عظم حتى صار متجسما ! وقيل : المراد بالمـكان محل الـكون والقرار الذى يؤول أمرهم إلى التمـكن فيه ، كقوله[1] (شرٌّ مكانًا) وهو مصيرهم ، يعنى جهنم. «وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» أى : أكثر ضلالا عن الصراط المستقيم .

ثم بين تعالى علامات كمال شرهم وضلالهم بقوله :

= فيما لم يكن من جنس الأول . يقول : إذا تلاقوا فى الحرب ، جعلوا ، بدلا من تحية بعضهم لبعض ، الضرب الوجيع .

ومعنى (دلفت) زحفت . والدليف مقاربة الخطو فى المشى .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٤] ونصها : الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَـكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

« وَإِذَا جَاءُوكُمْ » يعنى سفلة اليهود ، ويقال : المنافقون « قَالُوا ءَامَنَّا » أى : بك ونعتك ، أنه فى كتابنا « وَقَدْ دَخَلُوا » إليكم متلبسين « بِالْكُفْرِ » بكفر السرّ « وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا » أى : من عندكم متلبسين « بِهِ » أى : بكفر السر ، فهم مستمرون عليه « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ » أى من الكفر ، وفيه وعيد لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى اليهود « يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ » أى : الحرام ، كالكذب والعصيان من غير مبالاة من الله ولا من الناس « وَالْعُدْوَانِ » أى : الظلم والاعتداء على الناس « وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ » أى الحرام كالرشا . وخصه بالذكر مع اندراجه فى الإثم للمبالغة فى التقبيح ، وفيه دلالة على تحريم الرشا ، لأن ذلك ورد فى كبرائهم أنهم يسترشون فى تغيير الحكم « لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » مما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

« لَوْلَا » أى هلا « يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ » أى : الزهاد منهم والعبّاد « وَالأَحْبَارُ »

أى العلماء « عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ » أى الكذب « وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ » أى الرشوة ، المفسدة أمر العالم كله « لَبِئْسَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » من ترهبهم وتعلمهم لغير دين الله . أو من تركهم نهيهم . وهذا الذم المقول فيهم ، أبلغ مما قيل فى حق عامتهم . أولًا : لأنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبى المناكير بالعمل فى قوله (لبئس ما كانوا يعملون)، وعبّر عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة فى قوله (لبئسما كانوا يصنعون) ـ كان هذا الذم أشد . لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء ، وحرفة لازمة ، هم فيها أمكن من أصحاب المناكير فى أعمالهم ..

وهذا معنى قول الزمخشرىّ : كأنهم جُعِلوا آثم من مرتكبى المناكير ، لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وكأن المعنى فى ذلك؛ أن مُوَاقِعَ المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها . وأما الذى ينهاه ، فلا شهوة معه فى فعل غيره . فإذا فرط فى الإنكار كان أشد حالا من المُوَاقِع . ثم قال الزمخشرىّ: ولعمرى! إن هذه الآية مما يَقِذُ السامع وينعى على العلماء توانيهم . انتهى .

وفى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب النهى عن المنكر على العلماء ، واختصاص ذلك بهم .

وقال البيضاوىّ : فيها تحضيض لعلمائهم على النهى عن ذلك ، فإن (لولا) إذا دخل على الماضى أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .

روى ابن[1] جرير عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أشدّ توبيخاً من هذه الآية .

وقال الضحاك[2] : ما فى القرآن آية أخوف عندى منها .

وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علىّ بن أبى طالب، فحمد الله وأثنى

---

(١) الأثر رقم ١٢٢٣٩ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٢٢٣٨ من التفسير .

عليه ثم قال : أيها الناس ! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار . فلما تمادوا أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم . واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرّب أجلاً .

وروى[١] الإمام أحمد عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من قومٍ يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى ، هم أعزّ منه وأمنع ، ولم يغيّروا ، إلّا أصابهم الله منه بعذاب .

ولفظ أبى داود[٢] عنه ، مرفوعاً : ما من رجلٍ يكون فى قومٍ يعمل فيهم بالمعاصى ، يقدرون على أن يغيّروا عليه فلا يغيّروا ، إلّا أصابهم الله بعذاب قبل أن يموتوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » أخرج الطبرانىّ وابن إسحق عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : إن ربك بخيلٌ لا ينفق . فنزلت .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٦ ـ كتاب الملاحم ، ١٧ ـ باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٣٩ .

وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه : نزلت في فنحاص ، رأس يهود قينقاع ؛ وتقدم أنه الذي قال : إن الله فقير ونحن أغنياء . فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

فيكون أريد بالآية هنا، ما حكي عنه بقوله المذكور . والله أعلم .

ولما لم ينكر على القائل قومُه ورضوا به، نُسِبَتْ تلك العظيمة إلى الكل، كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً ، وإنما القاتل واحد منهم . و (غلّ اليد وبسطُها) : مجاز مشهور عن البخل والجود. ومنه قوله تعالى[1]: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ قالوا : والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال . لاسيما لدفع المال ولإنفاقه . فأطلقوا اسم السبب على المسبب . وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل . فقيل للجواد : فياض الكف ، مبسوط اليد ، وسبط البنان نَزِهُ الأنامل . ويقال للبخيل : كزّ الأصابع، مقبوض الكف، جعد الأنامل. وقوله تعالى « غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ » دعاء عليهم بالبخل أو بالفقر والمسكنة ، أو بغلّ الأيدي حقيقة . يغلّون أي : تشدّ أيديهم إلى أعناقهم أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة « وَلُعِنُوا » أي : أبعدوا عن الرحمة فلا يوفقون للتوبة « بِمَا قَالُوا » من الكلمة الشنيعة التي لا تصح في حق الله حقيقةً ولا مجازاً « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » أي : بأنواع العطايا المختلفة . وثنّى (اليد) مبالغة في الردّ ونفي البخل عنه تعالى ، وإثباتاً لغاية الجود ، فإن غاية ما يبذله السخيّ من ماله أن يعطيه بيديه « يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ » تأكيد لما قبله ، منبه على أن إنفاقه تابع لمشيئته ، المبنية على الحِكَم ، التي عليها يدور أمر المعاش والمعاد .

وهٰهنا مباحث

الأول : ما زعمه الزمخشريّ ومن تابعه ـ مِن أنّ إثبات اليد لا يصحّ حقيقة له تعالى ـ فإنه نزغة كلامية اعتزالية .

قال الإمام ابن عبد البرّ في (شرح الموطأ) : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٩]

الواردة كلها فى القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز . إلّا أنهم لا يكيّفون شيئاً من ذلك ولا يحدّون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع ، الجهمية والمعتزلة كلها ، والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة . ويزعم أن من أقرّ بها شبّه . وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود . والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله . وهم أئمة الجماعة .

وقال القاضى أبو يعلى فى كتاب (إبطال التأويل) : لا يجوز ردّ هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها . والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله ، لا تشبّه بسائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها . ثم قال : ويدل على إبطال التأويل ، أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين ، حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها ، ولو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق . لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعرىّ رحمه الله تعالى فى كتاب (الإبانة) فى باب (الكلام فى الوجه والعينين والبصر واليدين) وذكر الآيات فى ذلك ، ورد على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته . مثل قوله :

فإن سئلنا : أتقولون لله يدان ؟ قيل : نقول ذلك ؛ وقد دل عليه قوله(١) (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وقوله(٢) (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) وروى(٣) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً .

(٢) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) أخرجه أبو داود فى: ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٦ ـ باب فى القدر ، حديث ٤٧٠٣ =

إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذرية. وقد جاء فى الخبر المأثور عن النبىّ[1] صلى الله عليه وسلم : أن الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عـدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده . وليس يجوز فى لسان العرب ، ولا فى عادة أهل الخطاب ، أن يقول القائل : عملت كذا بيدى، ويعنى به النعمة . وإذا كان الله إنمـا خاطب العرب بلغتها وما يجرى فى مفهومها فى كلامها ، ومعقولا فى خطابها، وكان لا يجوز فى خطاب أهل اللسان أن يقول القائل : فعلت بيدى، ويعنى به النعمة ـ بطل أن يكون معنى قوله عز وجل (بِيَدَىَّ) النعمة. وذكر كلاماً طويلا فى تقرير هذا ونحوه .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانىّ فى كتاب (الإبانة) له :

= ونصه :

عن مسلم بن يسار الجهنىّ ؛ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ) .

فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل خلق آدم . ثم مسح ظهره بيمينه . فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » .

فقال رجل : يا رسول الله ! ففيم العمل ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار .

(١) لم أقف على هذا الأثر .

فإن قال : فما الدليل على أنّ لله وجها ويداً ؟ قيل له : (وَيَبْقَى[1] وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) وقوله تعالى (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ)[2] فأثبت لنفسه وجهاً ويداً : فإن قال : فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجهاً ويداً إلّا جارحة ؟ قلنا : لا يجب هذا كما لا يجب ـ إذا لم نعقل حيًّا عالما قادراً إلّا جسماً ـ أن نقضى نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه ..

وقال الشيخ تقيّ الدين فى (الرسالة المدنية) .

مذهب أهل الحديث ـ وهم السلف من القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم من الخلف ـ أنّ هذه الأحاديث تُمَرُّ كما جاءت ويُؤْمَن بها وتُصَدَّق وتصان عن تأويلٍ يفضى إلى تعطيل، وتكييف يفضى إلى تمثيل . وقدأطلق غير واحدٍ ممن حكى إجماع السلف ـ منهم الخطابيّ ـ مذهب السلف أنّها تجرى على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها . وذلك ، أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثباتَ وجودٍ لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجودٍ لا إثبات كيفية .. انتهى .

ويرحم الله الإمام يحي الصرصريّ الأنصاريّ حيث يقول من قصيدة :

إن المقال بالاعتزال لَخِطَّةٌ ... عمياء حلّ بها الغُواة المُرَّدُ

هجموا على سبل الهدى بعقولهم ... ليلًا فعـاثوا فى الديار وأفسدوا

صمٌّ ، إذاذكر الحديث لديهم ... نفروا ، كأن لم يسمعوه ، وغرّدوا

واضرب لهم مَثَلَ الحمير إذارأتْ ... أُسْدَ العرين فهنّ منهم شُرَّدُ

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ من الصفحة ٢٠٥٨ .

إلى أن قال :

يدعو من اتبع الحديث مشبّها　　هيهات ليس مشبّها من يُسند
لـكنه يروى الحديث كما أتى　　من غير تأويلٍ ولا يتأوّد

الثـانى : روى الإمام[١] أحمد والشيخان[٢] فى معنى الآية عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن يمين الله ملأى لايغيضها نفقة. سحاءُ الليلَ والنهارَ . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ مافى يمينه. وكان عرشه على الماء وفى يده الأخرى الفيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض وقال : يقول الله تعالى : أنفقْ أُنفق عليكَ .

الثالث : فى هذه الآية دلالة على جواز لعن اليهود ، ولا إشكال أنّ ذلك جائز .

الرابع : هذه الآية أصل فى تـكفير من صدر منه ، فى جناب البارئ تعالى ، ما يؤذن بنقص .

وقوله تعالى « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى من اليهود «مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» من جوامع الخيرات « طُغْيَانًا » أى : عدواناً على الناس ، أو تمادياً فى الجحود « وَكُفْرًا» أى : فى أنفسهم بعد كفرهم وطغيانهم بالتحريف وأخذ الرشوة أوّلا . وهـذا من إضافة الفعل إلى السبب . أى : يزدادون طغياناً وكفراً بما أنزل ، كما[٣] قال : فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٩٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١ ـ سورة هود ، ٢ ـ باب قوله وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠١٢. ومسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة، حديث ٣٦ (طبعتنا).

(٣) [٩ / التوبة /١٢٥] ونصها : وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ .

قال الحافظ ابن كثير : أى يكون ما آتاك الله ، يا محمد ، من النعمة نقمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم. فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكافرون، الحاسدون لك ولأمتك، طغياناً ـ وهو المبالغة والمجاوزة للحد فى الأشياء ـ وكفراً أى تكذيباً . كما قال(١) تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . وقال تعالى(٢) : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا .

« وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » فكلمتهم أبداً مختلفة وقلوبهم شتى ، لا يقع بينهم اتفاق ولا تعاضد .

وقد ذكر الشهرستانى أنهم افترقوا نيفاً وسبعين فرقة . ولما قدم النبى ﷺ المدينة ، كان اليهود ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . وبسط ماجرياتهم ، وهديه ﷺ فى شأنهم، مبسوط فى (زاد المعاد) لابن القيم . فراجعه .

قال الرازى : واعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها، هو أنه تعالى بيّن أنهم إنما ينكرون نبوته بعد ظهور الدلائل على صحتها ، لأجل الحسد ولأجل حب الجاه والتبع والمال والسيادة. ثم إنه تعالى بيّن أنهم ، لما رجّحوا الدنيا على الآخرة ، لا جرم أن الله تعالى ، كما حرمهم سعادة الدين ، فكذلك حرمهم سعادة الدنيا . لأن كل فريق منهم بقى مصرًّا على مذهبه ومقالته . يبالغ فى نصرته ويطعن فى كل ماسواه من المذاهب والمقالات . تعظيماً لنفسه وترويجاً لمذهبه. فصار ذلك سبباً لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم . وانتهى الأمر فيه إلى أن بعضهم يكفّر بعضاً ، ويغزو بعضهم بعضاً .

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] ونصها : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ، ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٢] .

وفى الآية وجهان : (أحدهما) ما بين اليهود والنصارى ، لأنه جرى ذكرهم فى قوله تعالى[1] (لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ) ، وهو قول الحسن ومجاهد . لأنهم المحدَّث عنهم فى قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ . و(الثانى) ما بين فرق اليهود خاصة .

أقول : وهو الظاهر . فإن قلت : فهذا المعنى حاصل أيضاً بين فرق المسلمين ، فكيف يكون ذلك عيباً على الكتابيين حتى يذموا به ؟ قلت : بدعة التفرق التى حصلت فى المسلمين، إنما حدثت بعد عصر النبىّ صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة والتابعين . أما فى الصدر الأول فلم يكن شىء من ذلك حاصلا بينهم ؛ فحَسُنَ جَعْلُ ذلك عيباً على الكتابيين فى ذلك العصر الذى نزل فيه القرآن .

« كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ » أى : كلما أرادوا حرب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإثارة شر عليه ، ردهم الله سبحانه وتعالى ، بأن أوقع بينهم منازعةً كفَّ بها عنه شرهم ، أو : كلما أرادوا حرب أحد ، غلبوا وقهروا ، ولم يقم لهم نصر من الله تعالى على أحد قط . فإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب ، لأنه كان عادتهم ذلك . ونيران العرب مشهورة، منها هذه. وإطفاء النار على الأول عبارة عن دفع شرهم ، وعلى الثانى غلبتهم . و(للحرب) إما صلة لـ(أوقدوا) ، أو متعلق بمحذوف وقع صفة لـ(ناراً) أى : كائنة للحرب. « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أى : للفساد أو مفسدين ، أى : يجتهدون فى الكيد للإسلام وأهله وتعويق الناس عنه وإثارة الفتن « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » أى : من كان الإفساد صفته . و(اللام) أما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليًّا ؛ أو للعهد ،ووضع المظهر موضع المضمر للتعليل ، وبيان كونهم راسخين فى الإفساد .

---

(١) [٥ / المائدة / ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ » أى : مع ما عددنا من سيئاتهم « ءَامَنُوا » برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به « وَاتَّقَوْا » مباشرة الكبائر « لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » أى ذنوبهم « وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ » فى الآخرة مع المسلمين . وفيه إعلام بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتحه باب التوبة على كل عاص ، وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى ، وأن الإسلام يَجُبُّ ماقبله وإن جلّ . وأن الكتابىّ لا يدخل الجنة مالم يسلم.

قال الزمخشرىّ: وفيه أن الإيمان لاينجى ولا يسعد إلامشفوعاً بالتقوى، كما قال الحسن: هذا العمود ، فأين الأطناب ؟ انتهى .

قال ناصر الدين فى (الانتصاف) : هو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجعله دليلا على قاعدته ، فى أن مجرد الإيمان لا ينجى من الخلود فى النار ، حتى ينضاف إليه التقوى . لأن الله تعالى جعل المجموع فى هذه الآية شرطاً للتكفير ولإدخال الجنة . وظاهره أنهما مالم يجتمعا لايوجد تكفير ولادخول الجنة .وأنى له ذلك؟ والإجماع والاتفاق من الفريقين ـ أهل السنة والجماعة ، والمعتزلة ـ على أن مجرد الإيمان يَجُبّ ماقبله ويمحوه كما ورد النص . فلو فرضنا موت الداخل فى الإيمان عقيب دخوله فيه، لكان كيوم ولدته أمه ـ باتفاق ـ مكفَّرَ الخطايا محكوماً له بالجنة . فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط ، هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال . وإن كانت التقوى ـ على أصل موضعها ـ الخوف من الله عز وجل ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبائر ، وحينئذ لا يتم للزمخشرىّ منه غرض .

وما هذا إلا إلحاح ولجاج فى مخالفة المعتقد المستفاد من قوله(١) عليه الصلاة والسلام : من قال : لا إلٰه إلا الله دخل الجنة وإن زنى أو سرق . كررها النبىّ صلى الله عليه وسلم مراراً ، ثم قال : وإن رغم أنف أبى ذر. لمّا راجعه رضى الله عنه فى ذلك ؛ ونحن نقول : وإن رغم أنف القدرية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٦] (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ » أى : أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله ﷺ . وأصل الإقامة الثبات فى المكان . ثم استعير إقامة الشىء لتوفية

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٢٤ ـ باب الثياب البيض، حديث ٦٦٠ ونصه :

عن أبى ذر قال : أتيت النبىّ ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم . ثم أتيته وقد استيقظ فقال « ما من عبد قال : لا إلٰه إلا الله ، ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال « وإن زنى وإن سرق » قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال « وإن زنى وإن سرق، على رغم أنف أبى ذر ».

وكان أبو ذر إذا حدّث بهذا ، قال : وإن رغم أنف أبى ذر .

قال عبد الله (أى البخارىّ) : هـذا عند الموت أو قبله ، إذا تاب وندم وقال : لا إلٰه إلا الله ، غفر له .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٥٤ (طبعتنا) .

حقه « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ » أى : بيّنوا ما بيّن لهم ربهم فى التوراة والإنجيل . ويقال : أقروا بجملة الكتب والرسل من ربهم ، ويقال: هو القرآن « لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » لوسَّع عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض ، ويكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع . أو يرزقهم الجنان اليانعة الثمار ، فيجتنونها من رأس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض . وَجَعْلُ (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) بمعنى الأمطار والأنهار التى تحصل بها أقواتهم ـ بعيدٌ من الأكل . والأقرب الوجوه الثلاثة المتقدمة . ونبه تعالى بذلك على أن ما أصابهم من الضنك والضيق ، إنما هو بشؤم معاصيهم وكفرهم ، لا لقصورٍ فى فيض الكريم، تعالى. ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق ، وهو كقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ[1] . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ[2] . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . . . الآيات[3] . وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[4] .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٩٦] ... وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٢و٣] ونصهما : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

(٣) [٧١ / نوح / ١٠] .

(٤) [٧٢ / الجن / ١٦] .

روى الإمام[(١)] أحمد عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبيّ ﷺ شيئاً فقال : وذاك عند ذهاب العلم قال ، قلنا : يا رسول الله ! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبْناءَنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ! إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة . أَوَ ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل، لا ينتفعون مما فيهما بشيء .

وفي رواية ابن أبي حاتم : أوليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى ؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ؟ ثم قرأ : لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ... الآية .

« مِنْهُمْ أُمَّةٌ » أي طائفة « مُقْتَصِدَةٌ » أي: عادلة مستقيمة ، وهم من آمن بالنبيّ ﷺ، كعبد الله بن سلام والنجاشيّ وسلمان « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ » أي : بئس « مَا يَعْمَلُونَ » أي : من تحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة . والآية كقوله[(٢)] تعالى : وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٧] (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« يَأَيُّهَا الرَّسُولُ » نودي صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة تشريفاً له وإيذاناً بأنها من موجبات الإتيان بما أمر به من التبليغ « بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ » مما يفصّل مساوئ الكفار ، ومن قتالهم ، والدعوة إلى الإسلام ، غير مراقب في التبليغ أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه « وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ » أي : ما تؤمر به من تبليغ الجميع ، ستراً لبعض

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ)

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

مساوئهم « فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » أى : شيئاً مما أرسلت به . لما أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض . فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً . كما أنّ من لم يؤمن ببعضها، كان كمن لم يؤمن بكلّها .

قال فى (الانتصاف) : ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمراً معلوماً عند الناس، مستقرًّا فى الأفهام أنه عظيم شنيع ، ينقم على مرتكبه ، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع ، فضلًا عن كتمان الرسالة من الرسول ـ استغنى عن ذكر الزيادات التى يتفاوت بها الشرط والجزاء، للصوقها بالجزاء فى الأفهام . وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة، فهم ماوراءه من الوعيد والتهديد . وحسن هذا الأسلوب فى الكتاب العزيز بذكر الشرط عامًّا بقوله (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) ولم يقل : فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة . حتى يكون اللفظ متغايراً ؛ وهذه المغايرة اللفظية ـ وإن كان المعنى واحداً ـ أحسنُ رونقاً وأظهرُ طلاوةً ، من تكرار اللفظ الواحد فى الشرط والجزاء . وهذا الفصل كاللباب من علم البيان .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » عِدةٌ منه تعالى بحفظه من لحوق ضرر بروحه الشريفة ، باعث له على الجدّ فيما أمر به من التبليغ وعدم الاكتراث بعداوتهم وكيدهم « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » تعليل لعصمته ، أى : لا يهديهم طريق الإساءة إليك ، فما عذرك فى مراقبتهم ؟

تنبيهات

الأول : لاخفاء فى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد بلّغ البلاغ التام ، وقام به أتمّ القيام ، وثبت فى الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضرّاء وهو مكروب ومحروب، وقد لقى بمكة من قريش ما يشيب النواصى ، ويهدّ الصياصى . وهو ، مع الضعف ، يصابر صبر المستعلِى ، ويثبت ثبات المستولِى . ثم انتصب لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته ، وأحدقوا بجنباته ، وصار بإثخانه فى الأعداء محذوراً ، وبالرعب منه منصوراً ، حتى أصبح سراج الدين وهّاجاً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

روى البخاريّ[١] ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها، قالت لمسروق : من حدثك أنّ محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، والله يقول : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية .

وفى (الصحيحين)[٢] عنها أيضاً أنها قالت : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتما شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية : وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ .

وروى البخاريّ[٣] وغيره عن أبى جحيفة قال :قلت لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ! إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن، ومافى هذه الصحيفة . قلت: ومافى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخاريّ[٤] : قال الزهرىّ : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ٧ ـ باب يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

(٢) هذه القطعة من الحديث لم يروها إلا مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٨ (طبعتنا) .

وما رواها قط البخارىّ فى صحيحه عن عائشة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٧١ ـ باب فكاك الأسير ، حديث ٩٥ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٤٦ ـ باب قول الله تعالى : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ .

قال ابن كثير : وقد شهدت له صلى الله عليه وسلم أمتُه بإبلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً . كما ثبت فى (صحيح مسلم)(١) عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله

(١) هذا أطول وأصح حديث فى وصف حجته صلى الله عليه وسلم . وقد آثرت إثباته هنا برمته ، وذلك لقيمته ولتيسير الاطلاع عليه .

أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب حجة النبىّ ﷺ ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) ونصه :

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وإسحاق بن إبراهيم. جميعاً عن حاتم . قال أبو بكر: حدثنا حاتم بن إسماعيل المدنىّ عن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : دخلنا على جابر بن عبدالله . فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ . فقلت : أنا محمد بن علىّ بن حسين . فأهوى بيده إلى رأسى فنزع زرى الأعلى (أى أخرجه من عروته لينكشف صدرى عن القميص) ثم نزع زرى الأسفل. ثم وضع كفه بين ثديىّ وأنا يومئذ غلام شابّ . فقال : مرحباً بك ، يا ابن أخى ! سل عما شئت . فسألته ، وهو أعمى . وحضر وقت الصلاة فقام فى نِسَاجَةٍ (فى النهاية : هى ضرب من الملاحف منسوجة) ملتحفاً بها . كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاها إليه من صغرها . ورداؤه إلى جنبه على المشجب (هو عيدان تضم رؤوسها ويفرج بين قوائمها ، توضع عليها الثياب) فصلى بنا . فقلت : أخبرنى عن حَجّة رسول الله ﷺ . فقال بيده (أى : أشار بها) فعدّ تسعاً ، فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج. ثم أذّن فى الناس فى العاشرة ؛ أن رسول الله ﷺ حاجّ . فقدم المدينة بشر كثير . كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل مثل عمله . فخرجنا معه . حتى أتينا ذا الحليفة . فولدت أسماء بنت عُمَيْس محمدَ بن أبى بكر . فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع ؟ قال « اغتسلى واستثفرى (الاستثفار هو أن تشد فى وسطها شيئاً ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على =

صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يومئذ : أيها الناس ! إنكم مسؤولون عنى فما أنتم قائلون؟

= محل الدم وتشد طرفيها ، من قدامها ومن ورائها ، فى ذلك المشدود فى وسطها . وهو شبيه بثفر الدابة الذى يجعل تحت ذنبها) بثوب وأحرمى » .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، ثم ركب القصواء . حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرتُ إلى مدّ بصرى بين يديه . من راكب وماش . وعن يمينه مثل ذلك. وعن يساره مثل ذلك . ومن خلفه مثل ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا . وعليه ينزل القرآن . وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شىء عملنا به . فأهلّ بالتوحيد «لبيك اللهم! لبيك. لبيك لاشريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك. والملك لاشريك لك».

وأهلّ الناس بهذا الذى يهلون به . فلم يردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً منه . ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبيته .

قال جابر : لسنا ننوى إلا الحج . لسنا نعرف العمرة . حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن . فرَمَلَ (الرمل إسراع فى المشى مع تقارب الخطا ، وهو الخَبَب) ثلاثا ومشى أربعا. ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام . فقرأ : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [٢ / البقرة / ١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان أبى يقول (ولا أعلمه ذكره إلا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم) : كان يقرأ فى الركعتين: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. وقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ .

ثم رجع إلى الركن فاستلمه . ثم خرج من الباب إلى الصفا . فلما دنا من الصفا قرأ : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ [٢ / البقرة / ١٥٨] « أبدأ بما بدأ الله به » .

فبدأ بالصفا . فرقى عليه ، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة . فوحّد الله وكبّره . وقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . لا إله إلا الله وحده . أنجز وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده » .

ثم دعا بين ذلك . قال مثل هذا ثلاث مرات . =

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع رأسه ويرفع يده إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : اللهم ! هل بلغت ؟ .

= ثم نزل إلى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة . فمن كان منكم ليس معه هدى فليحلّ ، وليجعلها عمرة » .

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يا رسول الله ! ألِعامنا هـذا أم لأبدٍ ؟ فشبّك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة فى الأخرى وقال « دخلت العمرة فى الحج » مرتين « لا . بل لأبدٍ أبدٍ » .

وقدم علىّ من اليمن ببُدْن النبىّ صلى الله عليه وسلم، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حلّ، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت . فأنكر ذلك عليها . فقالت : إن أبى أمرنى بهذا .

قال ، فكان علىّ يقول ، بالعراق : فذهبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محرّشاً على فاطمة للذى صنعت . مستفتيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرتْ عنه : فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها . فقال « صدقتْ . صدقتْ. ماذا قلت ، حين فرضت الحج ؟ » قال ، قلت : اللهم ! إنى أهلّ بما أهلّ به رسولك . قال « فإن معى الهدى فلا تحلّ »

قال فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىّ من اليمن ، والذى أتى به النبىّ صلى الله عليه وسلم مائة .

قال ، فحلّ الناسُ كلهم وقصّروا . إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى . فأهلّوا بالحج . وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر . ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس. وأمر بقبة من شَعَرٍ تضرب له بِنَمِرَةَ (موضع بجنب عرفات)

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تشكّ قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام . كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

= فأجاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بِنَمِرةَ(١) ، فنزل بها . حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له . فأتى بطن الوادى ، فخطب الناس فقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا . فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية ، تحت قدمىّ موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هُذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا عباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله. فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحدا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرّح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتابَ الله . وأنتم تُسألون عنى . فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحتَ . فقال بإصبعه السبّابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس « اللهم ! اشهدْ . اللهم ! اشهدْ » ثلاث مرات .

ثم أذّن . ثم أقام فصلى الظهر . ثم أقام فصلى العصر . ولم يصلّ بينهما شيئاً .

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات (هى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة) وجعل حبل المشاة بين يديه (حبل المشاة أى مجتمعهم) واستقبل القبلة . فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص . وأردف أسامة خلفه . ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمامَ . حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رحله . ويقول بيده اليمنى « أيها الناس! السكينةَ السكينةَ » .

كلما أتى حبلًا من الحبال (الحبل هو التل اللطيف من الرمل الضخم) أرخى لها قليلاً ، حتى تصعد . حتى أتى المزدلفة. فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين. ولم يسبّح =

(١) قال ياقوت : ناحية بعرفَة .

وروى الإمام أحمد(١) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة

= بينهما شيئاً . ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر . وصلى الفجر حين تبين له الصبح ، بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام . فاستقبل القبلة . فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جدًّا . فدفع قبل أن تطلع الشمس . وأردف الفضل بن عباس. وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما . فلما دفع رسـول الله ﷺ مرت به ظُعُنٌ يجرين . فطفق الفضل ينظر إليهن . فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل . فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر . فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضـــل . يصرف وجهه إلى الشق الآخر ينظر .

حتى أتى بطن مُحَسِّر . فحرّك قليلا . ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى . حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة . فرماها بسبع حصيات . يكبّر مع كل حصاة منها . حصى الخَذْف .

رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بيده . ثم أعطى عليًّا، فنحر ما غبر . وأشركه فى هديه . ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعَةٍ ، فجُعِلَتْ فى قِدْر ، فطُبِخَت. فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت . فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم . فقال « انزِعوا ، بنى عبد المطلب ! فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم ، لنزعت معكم » .

فناولوه دلواً فشرب منه .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢٠٣٦ (طبعة المعارف) .

الوداع : ياأيها الناس ! أىّ يوم هـذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال : أىّ بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام . قال فأىّ شهر هـذا ؟ قالوا : شهر حرام . قال : فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هـذا . ثم أعادها مراراً . ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : اللهم ! هل بلّغتُ ؟ مراراً (قال ابن عباس : والله ! إنها لوصية إلى ربه عز وجل) ثم قال : ألا فليبلغ الشاهدُ الغائب . لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ..! » . وقد روى البخارىّ[1] نحوه .

الثانى : تضمن قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) معجزة كبرى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الماوردىّ فى كتابه (أعلام النبوة) فى الباب الثامن فى معجزاته. عصمته ﷺ . ما نصه :

أظهر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم من أعلام نبوته بَعْدَ ثبوتها بمعجز القرآن ، واستغنائه عما سواه من البرهان ، ماجعله زيادة استبصار يُحجّ بها من قلت فطنته ، ويذعن لهـا من ضعفت بصيرته ، ليكون إعجاز القرآن مُدرَكا بالخواطر الثاقبة تفكرا واستدلالا ، وإعجاز العيان معلوماً ببداية الحواس احتياطاً واستظهارًا ، فيكون البليد مقهورا بوهمه وعيانه ، واللبيب محجوجا بفهمه وبيانه . لأن لـكل فريق من الناس طريقاً هى عليهم أقرب، ولهم أجذب ، فـكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلا ، وأعم دليلا . فمن معجزاته عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير ، والعدد الـكثير ، وهم على أتم حنق عليه ، وأشد طلب لنفسه. وهو بينهم مسترسل قاهر ، ولهم مخالط ومكاثر ، ترمقه أبصارهم شزرا ، وترتد عنه أيديهم ذعرا ، وقد هاجر عنه أصحابه حذرا ، حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة. ثم خرج عنهم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٣٢ ـ باب الخطبة أيام منى ، حديث ٨٩٢ .

سليما لم يُكْلَمْ فى نفس ولا جسد . وما كان ذلك إلا بعصمة إلٰهية وعده الله تعالى بها فحققها حيث يقول : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . فعصمه منهم .

ثم قال الماوردىّ رحمه الله تعالى : وإن قريشاً[1] اجتمعت فى دار الندوة . وكان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة ، وكان زعيم القوم . وساعده عبد الله بن الزِّبَعْرَى وكان شاعر القوم . فحضهم على قتل محمد صلى الله عليه وسلم وقال لهم : الموت خير لكم من الحياة. فقال بعضهم : كيف نصنع ؟ فقال أبو جهل : هل محمد إلا رجل واحد ؟ وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش ؟ فليس فيكم من يزهد فى الحياة فيقتل محمداً ويريح قومه ؟ وأطرق مليا. فقالوا : من فعل هـذا ساد . فقال أبو جهل : مامحمد بأقوى من رجل منا . وإنى أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر . فإن قُتِلْتُ أرحت قومى ، وإن بقيت فذاك الذى أوثر . فخرجوا على ذلك . فلما اجتمعوا فى الحطيم، خرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقالوا : قد جاء . فتقدم من الركن فقام يصلى . فنظروا إليه يطيل الركوع والسجود ،فقال أبو جهل :فإنى أقوم فأريحكم منه، فأخذمهراسا عظيما . ودنا من رسول الله ﷺ وهو ساجد لايلتفت ولا يهابه، وهو يراه . فلما دنا منه ارتعد وأرسل الحجر على رجله . فرجع وقد شدخت أصابعه وهو يرتعد ، وقد دوخت أوداجه . ورسول الله ﷺ ساجد ، فقال أبو جهل لأصحابه : خذونى إليكم.فالتزموه وقد غشى عليه ساعة . فلما أفاق قال له أصحابه : ماالذى أصابك ؟ قال :لما دنوت منه ، أقبل علىّ من رأسه فحل فاغرٌ فاه . فحمل علىّ أسنانه . فلم أتمالك . وإنى أرى محمداً محجوباً . فقال له بعض أصحابه : ياأبا الحكم ! رغبت وأحببت الحياة ورجعت . قال : ماتغرّونى عن نفسى . قال النضر بن الحرث : فإن رجع غداً فأنا له . قالوا له: ياأبا سهم !لئن فعلت هذا لتسودنّ . فلما كان من الغد اجتمعوا فى الحطيم منتظرين رسول الله ﷺ . فلما أشرف عليهم قاموا

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٣١٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ١٩٠ (طبعة جوتنجن) .

بأجمعهم فواثبوه . فأخذ حفنة من تراب وقال : شاهت الوجوه . وقال : حمٓ لا ينصرون ، فتفرقوا عنه .

وهذا دفع إلهىّ وثق به من الله تعالى. فصبر عليه حتى وقاه الله، وكان من أقوى شاهد على صدقه.

(ومن أعلامه) : أن معمر بن يزيد ، وكان أشجع قومه ، استغاثت به قريش وشكوْا إليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت بنو كنانة تصدر عن رأيه وتطيع أمره ، فلما شكوا إليه قال لهم : إنى قادم إلى ثلاث وأريحكم منه .وعندى عشرون ألف مُدَجّج(٤) فلا أرى هذا الحىّ من بنى هاشم يقدر على حربى . وإن سألونى الدية أعطيتهم عشر ديات ، ففى مالى سعة . وكان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار فى عرض شبر ، وقصته فى العرب مشهورة بالشجاعة والبأس . فلبس ، يوم وعده قريشاً ، سلاحه وظاهر بين درعين . فوافقهم بالحطيم ورسول الله ﷺ فى الحجر يصلى . وقد عرف ذلك فما التفت ولا تزعزع ولا قصر فى الصلاة . فقيل له : هذا محمد ساجد . فأهوى إليه ، وقد سل سيفه وأقبل نحوه. فلما دنا منه رمى بسيفه وعاد . فلما صار إلى باب الصفا عثر فى درعه فسقط فقام، وقد أدمى وجهه بالحجارة، يعدو كأشد العدو . حتى بلغ البطحاء ما يلتفت إلى خلف . فاجتمعوا وغسلوا عن وجهه الدم وقالوا : ماذا أصابك ؟ قال : ويحكم ! المغرور من غررتموه . قالوا :ماشأنك؟ قال : مارأيت كاليوم. دعونى ترجع إلىّ نفسى. فتركوه ساعة وقالوا : ماأصابك ؟ ياأباالليث! قال: إنى لما دنوت من محمد ، فأردت أن أهوى بسيفى إليه ، أهوى إلىّ من عند رأسه شجاعان أقرعان ينفخان بالنيران، وتلمع من أبصارهما. فعدوت . فما كنت لأعود فى شىء من مساءة محمد.

(ومن أعلامه) : أن كلدة بن أسد ، أبا الأشد ، وكان من القوة بمكان ، خاطر قريشاً يوماً فى قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم . فرأى رسول الله ﷺ فى الطريق يريد المسجد ما بين دار عقيل وعقال . فجاء كلدة ومعه المزراق. فرجع المزراق فى صدره . فرجع فزعاً . فقالت له قريش :مالك ؟ ياأباالأشد ! فقال : ويحكم!

(١) الشاكُّ فى السلاح ، أى : الداخل « قاموس » ــ المؤلف .

ما ترون الفحل خلفى ؟ قالوا : ماترى شيئاً . قال : ويحكم ! فإنى أراه . فلم يزل يعدو حتى بلغ الطائف. فاستهزأت به ثقيف ، فقال : أنا أعذركم ، لو رأيتم ما رأيت لهلكتم .

(ومن أعلامه) : أن أبا لهب خرج يوما ، وقد اجتمعت قريش فقالوا له: ياأباعتبة! إنك سيدناوأنت أولى بمحمدمنا . وإن أبا طالب هو الحائل بيننا وبينه . ولوقتلته لم ينكر أبو طالب ولا حمزة منك شيئاً . وأنت برئ من دمه فنؤدى نحن الدية وتسود قومك . فقال : فإنى أكفيكم .! ففرحوا بذلك ومدحته خطباؤهم . فلما كان فى تلك الليلة وكان مشرفاً عليه ، نزل أبو لهب، وهو يصلى . وتسلقت امرأته أم جميل الحائط، حتى وقفت على رسول الله ﷺ، وهو ساجد . فصاح به أبو لهب فلم يلتفت إليه ، وهما كانا لا ينقلان قدماً ولا يقدران على شىء حتى تفجر الصبح . وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له أبو لهب : يامحمد! أطلق عنا. فقال : ما كنت لأطلق عنكما أوتضمنا لى أنكما لا تؤذيانى . قالا : قد فعلنا . فدعا ربه فرجعا .

(ومن أعلامه) : أن[1] قريشاً اجتمعوا فى الحطيم . فخطبهم . عتبة بن ربيعة فقال : إن هذا ابن عبد المطلب قد نغص علينا عيشنا وفرّق جماعتنا وبدّد شملنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا . وكان فى القوم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحرث ومنبه ونبيه ابنا الحجاج ، وأمية وأبىّ ابنا خلف ، فى جماعة من صناديد قريش . فقالوا له : قل ماشئت فإنا نطيعك. قال : سأقوم فأكلمه . فإن هو رجع عن كلامه وعما يدعو إليه ، وإلا رأينافيه رأينا . فقالوا له : شأنك ياأبا عبد شمس! فقام وتقدم إلى النبىّ ﷺ وهو جالس وحده . فقال : أنعم صباحا يامحمد ! قال : ياعبد شمس ! إن الله قد أبدلنا بهذا ، السلام ، تحية أهل الجنة . قال : ياابن أخى ! إنى قد جئتك من عند صناديد قريش

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ١٨٥و١٨٦ (طبعة جوتنجن) .

لأعرض عليك أمورهم. إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ولنا فيها الفسحة ! ثم قال: ياابن عبد المطلب! أنا زعيم قريش فيما قالت . قال : قل . قال : ياابن عبد المطلب ! إنك دعوت العرب إلى أمر ما يعرفونه فاقبل منى ما أقول لك . قال : قل . قال : إن كان ما تدعو إليه تطلب به ملكا فإنا نملكك علينا من غير تعب وتتوجك ، فارجع عن ذلك. فسكت . ثم قال له : وإن كان ما تدعو إليه أمراً تريد به امرأة حسناء فنحن نزوجك . فقال : لاقوة إلا بالله ! ثم قال له : وإن كان ما تتكلم به تريد مالا أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل فى قريش . فإن ذلك أهون علينا من تشتت كلمتنا وتفريق جماعتنا. وإن كان ما تدعو إليه جنوناً داويناك كما تداوى قيسُ بنى ثعلبة مجنونَهم. فسكت النبىّ ﷺ . فقال : يامحمد .! ماتقول ؟ وبم أرجع إلى قريش؟ فقال النبىّ ﷺ: حم(١) تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * ـ حتى بلغ إلى قوله ـ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. قال عتبة : فلما تكلم بهذا الكلام ، فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسى من أعجازها . وقام فزعاً يجر رداءه . فرجع إلى قريش وهو ينتفض انتفاض العصفور . وقام النبىّ ﷺ يصلى . فقالت قريش : لقد ذهبت من عندنا نشيطاً ورجعت فزعاً مرعوباً فما وراءك ؟ قال : ويحكم! دعونى. إنه كلمنى بكلام لا أدرى منه شيئاً . ولقد رعدت علىّ الرعدة حتى خفت على نفسى ، وقلت : الصاعقة قد أخذتنى ... فندموا على ذلك .

(ومن أعلامه) : أنه لما أراد الهجرة ، خرج من مكة ومعه أبو بكر . فدخل غاراً فى جبل ثور ليستخفى من قريش . وقد طلبته وبذلت لمن جاء به مائة ناقة حمراء ، فأعانه الله تعالى بإخفاء أثره . وأنبت على باب الغار ثمامة (وهى شجرة صغيرة) . وألهمت العنكبوتُ فنسجت

(١) [٤١ / فصلت / ١ ـ ١٣] .

على باب الغار نسج سنين فى طرفة عين . ولُدِغ[1] أبو بكر هذه الليلة غير لدغة . نخرّق ثيابه وجعلها فى الشقوق . وسدّ بعضها بقدمه اتّقاءً لرسول الله ﷺ . وأقام فيه ثلاثة أيام ثم خرج منه . فلقيه[2] سراقة بن مالك بن جعشم . وهو من جملة من توجه لطلبه ، فقال له أبو بكر: هذا سراقة قد قرب . فقال رسول الله ﷺ : اللهمّ ! اكفنا سراقة. فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى إبطها . فقال سراقة : يا محمد ! ادع الله أن يطلقنى ولك علىّ أن أردّ من جاء يطلبك، ولا أعين عليك أبداً ! فقال اللهمّ ! إن كان صادقاً فأطلق عن فرسه. فأطلق الله عنه . ثم أسلم سراقة وحسن إسلامه .

هذا ما أورده الماوردىّ من الأعلام قبل الهجرة ؛ ثم أورد ما وقع بعدها ؛ وسننقلها عن ابن كثير ، فإنه قال فى هذه الآية :

ومن عصمة الله لرسوله ، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسّادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهاراً ، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة . فصانه فى ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب . إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً فى قريش . وخلق الله فى قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ ، لا شرعية . ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها . ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك فى الكفر، هابوه واحترموه. فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً . ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحمل إلى دارهم ، وهى المدينة . فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود . وكلّما همّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وردّ

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٣٢٨و٣٢٩ (طبعة جوتنجن) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٣٣١و٣٣٢ (طبعة جوتنجن) .

كيده عليه . كما كاده اليهود[١] بالسحر، فحماه الله منهم وأنزل عليه سورتى المعوذتين دواءً لذلك الداء . ولما سمّه[٢] اليهود فى ذراع تلك الشاة بخيبر ، أعلمه الله به وحماه منه. ولهذا أشباه كثيرة جدًّا يطول ذكرها . فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة :

فقال ابن جرير[٣] : حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر حدثنا محمد بن كعب القرظىّ وغيره قالوا : كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلًا اختارله أصحابُه شجرة ظليلة، فيَقيل تحتها . فأتاه أعرابىّ فاخترط سيفه ثم قال : من يمنعك منى ؟ قال : الله عزوجلّ. فرُعِدَتْ يد الأعرابىّ وسقط السيف منه . قال : وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله عز وجل : وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.

وروى ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله الأنصارىّ قال : لما غزا رسول الله ﷺ بنى

(١) انظر صحيح البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب، ٤٧ ـ باب السحر وقول الله تعالى: وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . و ٤٩ ـ باب هل يستخرج السحر و ٥٠ ـ باب السحر .

وفى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٦ ـ باب إن الله يأمركم بالعدل والإحسان .

وفى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٥٧ ـ باب تكرير الدعاء .

والحديث رقم ١٤٩٩ عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

(٢) انظر صحيح البخارىّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٧ ـ باب إذا غدر المشركون بالمسلمين ، هل يعفى عنهم ؟

وفى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٤١ ـ باب الشاة التى سُمَّت للنبىّ ﷺ بخيبر .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٥٥ ـ باب ما ذكر فى سُمّ النبىّ ﷺ .

والحديث رقم ١٤٩٨ عن أبى هريرة .

(٣) الأثر رقم ١٢٢٧٨ من التفسير .

أنمار، نزل ذات الرقاع بأعلى نخـــل . فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلّى رجليه ، فقال الوارث من بنى النجار : لأقتلنّ محمداً . فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له أعطنى سيفك، فإذا أعطانيه قتلته به. قال : فأتاه فقال : يا محمد ! أعطنى سيفك أشيمه. فأعطاه إياه . فرعدت يده حتى سقط السيف من يده . فقال رسول الله ﷺ : حال الله بينك وبين ما تريد. فأنزل الله عز وجل : يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه . ثم قال : وقصة غورث بن الحرث مشهورة فى الصحيح . يريد ما أخرجه الشيخان[1] عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد . فلما قفل رسول الله ﷺ أدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة . فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا . وإذا عنده أعرابىّ فقال : إنّ هذا اخترط علىّ سيفى وأنا نائم . فاستيقظت وهو فى يده صلتاً. فقال : من يمنعك منى ؟ فقلت : الله . ثلاثاً . ولم يعاقبه وجلس .

وفى رواية أخرى قال جابر : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع. فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ . فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٨٤ ـ باب من علّق سيفه بالشجر فى السفر عند القائلة .و٨٧ ـ باب تفرّق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر. والحديث رقم ١٣٩٣ .

وأخرجه مسلم فى:٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث ٣١١و٣١٢ (طبعتنا).

وسلم معلق بالشجرة . فاخترطه فقال : تخافنى ؟ فقال : لا ! فقال : من يمنعك منى؟ قال: الله. فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ .

وزاد البخارىّ فى رواية له : إن اسم ذلك الرجل غورث بن الحرث .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها ، فينزل تحتها . فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها . فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد .! من يمنعك منى ؟ فقال رسول الله ﷺ : الله يمنعنى منك. ضع السيف. فوضعه . فأنزل الله عز وجل : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . وكذا رواه ابن حبان فى (صحيحه) .

وروى الإمام أحمد[١] عن جعدة بن خالد بن الصمة قال : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ورأى رجلا سمينا ، فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يومئ إلى بطنه بيده ويقول : لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك. قال : وأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم برجل فقالوا : هذا أراد أن يقتلك ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : لم ترع، لم ترع . ولو أردت ذلك لم يسلطك الله علىّ .

الثالث : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل نزول هـذه الآية يُحْرَسُ ، كما روى الإمام أحمد[٢] عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهى إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يارسول الله ؟ قال : ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة ! قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك . فقال: ماجاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك ، يارسول الله ! قال : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ فى نومه . أخرجاه فى (الصحيحين)[٣] :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٧١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٤ ـ كتاب التمنى ، ٤ ـ باب قول النبىّ ﷺ =

وفى لفظ : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة مقدمه المدينة ، يعنى على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة ، وكان ذلك فى سنة ثنتين منها .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزلت (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم : أيها الناس! انصرفوا فقد عصمنى الله. أخرجه الترمذىّ[1] والحاكم وابن أبى حاتم وابن جرير[2].

وقد روى ابن جرير[3] عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس. فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بنى هاشم يحرسونه . حتى نزلت عليه هذه الآية : يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال : إن الله قد عصمنى من الجن والإنس . ورواه الطبرانى أيضاً . وروى ابن جرير نحوه أيضاً عن جابر[3] .

قال ابن كثير: وهذا حديث غريب، وفيه نكارة. فإن هذا الآية مدنية، بل هى من أواخر ما نزل بها ، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية ، والله أعلم ! انتهى .

أقول : بمراجعة ما أسلفنا فى (المقدمة) من قاعدة أسباب النزول يرتفع الإشكال ، فتذكر .

= « ليت كذا وكذا ، حديث ١٣٨٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٩و٤٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٤ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٢) الأثر رقم ١٢٢٧٦ من التفسير .

(٣) هذان الأثران ذكرهما ابن كثير فى تفسيره عن ابن مردويه (ج ٢ ص ٧٨) ولم أجدهما فى الطبرىّ .

الرابع : قال العلامة أبو السعود : إيراد هذه الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب ، لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ، ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها ، وخصوصاً مايتلوها من النص الناعى عليهم كمال ضلالتهم ، ولذلك أعيد الأمر فقيل خطاباً للفريقين :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

« قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » أى : من الدين « حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ » أى تراعوهما وتحافظوا على مافيهما من الأمور التى من جملتها دلائل نبوة النبىّ ﷺ واتباعه .

قال بعض المحققين :

معنى قوله تعالى (حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) أى : تعملوا طبق الواجب بأحكامهما ، وتحيوا شرائعهما ، وتطيعوا أوامرها، وتنتهوا بنواهيهما. فإن الإقامة هى الإتيان بالعمل على أحسن أوجهه ، كإقامة الصلاة مثلا. أى فعلها على الوجه اللائق بها. ولا يدخل فى ذلك القصص التى فيهما ولا العقائد ونحوها فإنها ليست عملية . والمراد أن يعملوا بما بقى عندهم من أحكام التوراة والإنجيل على علاته وعلى ما به من نقص وتحريف وزيادة ، فإن شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هى أقل أقسامها تحريفاً ، وأكثر التحريف فى القصص والأخبار والعقائد وما ماثلها ، وهى لا تدخل فى الأمر بالإقامة . ولا شك أن أحكام التوراة والإنجيل وما فيهما من شرائع ومواعظ ونصائح ونحوها ،لاتزال فيهما أشياء كثيرة لاعيب

فيها ، ونافعة للبشر ، وفيها هداية عظمى للناس ، فهى مما يدخل تحت قوله تعالى[(١)] (وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ) فإذا أقام أهل الكتاب أحكامهما على علاتها كانوا لاشك على شيء يعتد به ويصح أن يسمى ديناً . وإذا لم يقيموها وجروا على خلافهما ، كانوا مجردين من كل شيء يستحق أن يسمى ديناً . وكانوا مشاغبين معاندين ، وبدينهم غير مؤمنين إيماناً كاملا . وهذا معنى صحيح، وهو المتبادر من الآية . فأى شيء فى هذا المعنى يدل على عدم تحريف التوراة والإنجيل وعلى وجودهما كاملين ، كما يدعى ذلك المكابرون من أهلهما ، وخصوصاً بعد قوله تعالى[(٢)] (وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) ؟

ثم قال: ولك أن تقول: معنى قوله تعالى: لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . الحقيقيّين ، وذلك يستلزم البحث والتنقيب والجد والاجتهاد فى نقد ما عندهم منهما نقداً عقلياً تاريخياً صحيحاً، حتى يستخلصوا حقهما من باطلهما بقدر الإمكان . ونتيجة ذلك العناء كلّه ، أن يكونوا على شيء من الدين الحق ، وهذا أمر لاشبهة فيه . ولو اتبعوا القرآن لأراحوا واستراحوا . ولكنهم ـ كما أخبر تعالى عنهم ـ لا يزيدهم القرآن إلّا طغياناً وكفراً وحسداً وعناداً فلا يؤمنون به . ولا يهتم جمهورهم بإصلاح دينهم من المفاسد وتنقيته من الشوائب . فلم يدركوا خير هذا ولا ذاك . فكأن الآية تريهم أنهم إذا لم يتبعوا القرآن يجب عليهم القيام بعبء ثقيل جدًّا من البحث والتمحيص ، وبعد ذلك يكونون على شيء من الحق لا على الحق

---

(١) [٣ / آل عمران / ٣و٤] ونصهما : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(٢) [٥ / المائدة / ١٣] ونصها : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

كلّه ولو أقاموا التوراة والإنجيل الحقيقيين غاية الإقامة ، فما بالك إذا كان ذلك مستحيلًا لعدم وجودهما على حقيقتهما ؟ فهم ليسوا على شيء مطلقاً. ولا يمكن أن يكونوا عليه. فإن كتبهم قد صارت خلقةً بالية . لذلك قال رسول الله ﷺ لعمر رضى الله عنه، حينما رأى ورقةً من التوراة بيده : ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حيًّا ماوسعه إلّا اتّباعى . (فإن قيل) : وكيف يحثهم الله على العمل بأى شيء من دينهم، ومنه ما جاء القرآن ناسخاً له ؟ (قلت) : لاشك عند كل عاقل أنه خير لأهل الكتاب أن يعملوا بشرائع دينهم الأصلية ، فإنهم حينئذٍ يتجنبون الكذب والتحريف والعناد والأذى والإفساد فى الأرض وإهلاك الحرث والنسل والزنى ، وغير ذلك مما يعمله الناس. فمراد القرآن على التفسير الأول للآية حثهم ـ إن أصروا على عدم الإيمان به ـ على العمل بدينهم على الأقل ليستريح النبيّ وأتباعه من أكثر شرورهم ورذائلهم . ولكن بعد العمل بدينهم لا يكونون على الدين الحق الكامل؛ بل الذى يفهم من الآية أنهم يكونون على شيء من الدين، وهو ـ ولاشك ـ خير من لاشيء . ولا يفهم أنهم يكونون على الحق كله وعلى الدين الكامل الذى لاغاية أعظم منه ، فإن ذلك لا يكون إلّا بالإسلام (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)(١) . انتهى .

ولا يخفى أنهم إذا أقاموا التوراة والإنجيل ، آمنوا بمحمد صلوات الله عليه وسلم . لما تتقاضى إقامتُهما الإيمانَ به . إذ كثر ما جاء فيهما من البشارات به والتنويه باسمه ودينه . فإقامتهما على وجوههما تستدعى الإسلام البتة ، بل هى هو ، والله الموفق ...

« وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : القرآن المجيد بالإيمان به . وفى التعبير بقوله تعالى (لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ) من التحقير والتصغير ما لاغاية وراءه . كماتقول : هذا ليس بشيء! تريد غاية تحقيره وتصغير شأنه . وفى أمثالهم : أقل من لا شيء . أى : لستم على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً، لفساده وبطلانه .

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

ثم بيّن تعالى غلوّهم فى العناد وعدم إفادة التبليغ فقال : « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ طُغْيَانًا » أى تمادياً « وَكُفْرًا » أى ثباتاً على الكفر « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى : فإذا بالغت فى تبليغ ما أنزل إليك ، فرأيت مزيد طغيانهم وكفرهم ، فلا تحزن عليهم لغاية خبثهم فى ذواتهم ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ، وفى المؤمنين غنى عنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » فيما يستقبلهم من العذاب « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : فى الآخرة إذا خاف المقصرون وحزنوا على تضييع العمر ..

لطائف

الأولى : (الصابئون) رفع على الابتداء . وخبره محذوف . والنية به التأخير عما فى حيز (إن) من اسمها وخبرها . كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا . والصائبون كذلك ، وأنشد سيبويه[1] شاهداً له :

وَإِلَّا فاعلموا أَنَّا وأنتم ... بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِى شِقَاقِ

---

(١) جاء فى (شواهد الكشاف) ما يأتى :

إذا جُزَّت نواصى آل بدرٍ ... فأدُّوها وأَسْرَى فى الوِثاقِ
وإلا فاعلموا أنَّا وأنتم ... بُغَاةٌ ما بَقِينا فى شِقاقِ =

أى: فاعلموا أنا بغاة، وأنتم كذلك . ثم قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ماالتقديم والتأخير إلّا لفائدة ، فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح. فما الظنّ بغيرهم ؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعـــدودين ضلالًا وأشدّهم غيًّا ، وما سموا صابئين إلّا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها. أى : خرجوا . كما أن الشاعر قدم قوله (وَأَنْتُمْ) تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل فى الوصف بالبغاة من قومه . حيث عاجل به قبل الخبر الذى هو (بغاة) لئلا يدخل قومه فى البغى قبلهم ، مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) :

ثمـة سؤال، وهو أن يقال : لو عطف (الصابئين) ونصبه ـ كما قرأ ابن كثير ـ لأفاد أيضاً دخولهم فى جملة المتوب عليهم ، وَلَفُهِم من تقديم ذكرهم على (النصارى) ما يفهم من

= فى سورة المائدة عند قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ، حكمهم كذا ، وَالصَّابِئُونَ كذلك . فـ (الصابئون) مرفوع للتأخير عما فى خبر (إن) كقوله :

* وإنى وقيّارٌ بها لغريبُ *

وأنشد سيبويه شاهداً له : وإلّا فاعلموا أنا وأنتم ... الخ .

أى : فاعلموا أنا بغاة ، وأنتم كذلك .

والبيت لبشر بن أبى خازم ، وقبله : إذا جُزّت ... الخ .

وسبب هذا الشعر أن قوماً من آل بدر جاؤا إلى بنى طيء . فعمد بنو طيء فجزّوا نواصيهم ، وقالوا : قد مَنَنَّا عليكم ولم نقتلكم . وآل بدر حلفاء بنى أسد . فغضب بنو أسد لأجل ما صنع بالبدريين . فقال بشر بن أبى خازم هذه القصيدة يذكر فيها ما صنع بآل بدر. ويقول للطائيين : إذا جززتم نواصيهم ، فاحملوا إلينا وأطلقوا من أسرتم منهم . فإن لم تفعلوا فاعلموا أنا نبغيكم ونبقى أبداً معاندين ، يبغى بعضنا على بعض .

الرفع من أن هؤلاء الصابئين ـ وهم أوغل الناس فى الكفر ـ يتاب عليهم، فما الظن بالنصارى؟ ولكان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادىّ . فلِمَ عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين ؟ وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادىّ ؟ ويجاب عن هذا السؤال بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف . لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات . وهذا الصنف من جملتها ، والخبر عنها واحد. وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادىّ وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به . ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل . تقديره مثلًا (والصابئون كذلك) فيجىء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها . وهو بهذه المثابة ، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة ، فكانوا أحقاء بجعلهم تبعاً وفرعاً مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخبر ، وفائدة التقديم على الخبر أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر ، بين الجزأين ، أدلّ على الخبر المحذوف من ذكره ، بعد تقضى الكلام وتمامه ، والله أعلم .

الثانية ـ فإن قلت : إن قوله تعالى (مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ) كيف يقع خبراً عن (الَّذِينَ ءَامَنُوا) أو بدلًا ، وهو يقتضى انقسام المؤمنين إلى مؤمنين وغير مؤمنين ؟

أجيب : بأن المراد بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا) الذين آمنوا باللسان فقط . وهم المنافقون . فالمعنى: الذين آمنوا باللسان ومن معهم، مَن أحدث منهم إيماناً خالصاً . أو يؤول (مَنْ ءَامَنَ) بمن ثبت على الإيمان . فيصح فى حق المؤمنين الخلص . وفى هذا شبه جمع بين الحقيقة والمجاز ، ودفع بأن الثبات على الإيمان ليس غير الإيمان ، بل هو وإحداثه فردان من مطلقه . والوجه الأول . إذ فى ضمّ المؤمنين إلى الكفرة إخلال بتكريمهم ، قاله الخفاجىّ .

قال أبو السعود : أما على تقدير كون المراد بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا) مطلق المتدينين بدين الإسلام، المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بـ (مَنْ ءَامَنَ) من اتصف منهم بالإيمان الخالص على الإطلاق ، سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه ـ كما هو شأن المخلصين . أو بطريق

إحداثه وإنشائه ـ كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف. وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة فى ترغيب الباقين فى الإيمان ، ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخلّ بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين الأعلام . انتهى .

الثالثة : قال الرازىّ : لما بيّن تعالى أن أهل الكتاب ليسوا على شىء ما لم يؤمنوا ، بيّن أن هذا الحكم عام فى الكل ، وأنه لايحصل لأحد فضيلة ولامنقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، وذلك لأن الإنسان له قوتان : القوة النظرية والقوة العملية . أما كمال القوة النظرية فليس إلا بأن يعرف الحق . وأما كمال القوة العملية فليس إلا بأن يعمل الخير . وأعظم المعارف شرفاً معرفة أشرف الموجودات وهو الله سبحانه وتعالى . وكمال معرفته إنما يحصل بكونه قادرا على الحشر والنشر ؛ فلا جرم كان أفضل المعارف هو الإيمان بالله واليوم الآخر . وأفضل الخيرات فى الأعمال أمران : المواظبة على الأعمال المشعرة بتعظيم المعبود ، والسعى فى إيصال النفع إلى الخلق. ثم بين تعالى أن كل من أتى بهذا الإيمان وبهذا العمل ، فإنه يرد يوم القيامة من غير خوف ولا حزن . والفائدة فى ذكرهما : أن الخوف يتعلق بالمستقبل ، والحزن بالماضى ، فقال : (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) بسبب مايشاهدون من أهوال القيامة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بسبب ما فاتهم من طيّبات الدنيا ، لأنهم وجدوا أموراً أعظم وأشرف وأطيب . (فإن قيل): كيف يمكن خلوّ المكلف ، الذى لا يكون معصوماً ، عن أهوال يوم القيامة ؟ فالجواب من وجهين : الأول ـ أنه تعالى شرط ذلك بالعمل الصالح. ولا يكون آتياً بالعمل الصالح إلّا إذا كان تاركا لجميع المعاصى . والثانى ـ أنه إذا حصل خوف ، فذلك عارض قليل لايعتدبه. انتهى .

ثم بين تعالى بعضاً آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أي : على الإيمان بالله ورسله « وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا » ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون في دينهم « كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ » أي : بما يخالف هواهم ويضادّ شهواتهم من الأحكام الحقة . مع أن وضع الرسالة، الدعوةُ إلى مخالفة الهوى « فَرِيقًا » منهم « كَذَّبُوا » مع ظهور دلائل صدقهم « وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ » بعد التكذيب . سدًّا لدعوتهم إلى ما يخالف أهويتهم .

لطيفتان

الأولى: قال الزمخشريّ : جواب الشرط محذوف يدل عليه قوله (فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه .

قال الناصر في (الانتصاف) : ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى ، وهي توأمة هـذه ، قوله تعالى (١) : أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . فأوقع قوله (اسْتَكْبَرْتُمْ) جواباً. ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض . فلو قدر الزمخشريّ ههنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال : وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، لكان أولى ، لدلالة مثله عليه .

(١) [٢ / البقرة / ٨٧] ونصها : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ .

الثانية: قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم جىء بأحـد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً ؟ قلت : جىء (يَقْتُلُونَ) على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة ، للتعجيب منها .

قال فى (الانتصاف) : أو يكون حالا على حقيقته . لأنهم داروا حول قتل محمد ﷺ . وقد قيل هذا الوجه فى أخت هذه الآية فى (البقرة) ؛ وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضى ، وتمثيله بقوله تعالى(١) :أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . فعدل عن (فأصبحت) إلى (فتصبح) تصويراً للحال واستحضارا لها فى ذهن السامع ، ومنه(٢) :

بأنى قد لقيت الغول تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كالصحيفة صَحْصَحَانِ
فأضربها بلا دَهَشٍ فخرّت ... صريعاً لليدين وللجِرَانِ

وأمثاله كثيرة . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] .

(٢) ضم إليها صاحب شواهد الكشاف قبلهما هذا البيت :

فمن ينكرْ وجود الغول، إنى ... أخبّر عن يقينٍ بل عيـانِ

ثم قال :

أنشدها المؤلف فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ . حيث قال (فتثير) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، ويستحضر الصورة البديعة الدالّة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهمّ المخاطب ، أو غير ذلك كما فى قول تأبط شرا : بأنى قد لقيت الغول تهوى الخ لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجّع فيها (بزعمه) على ضرب الغول . كأنه يُبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة ، للتعجب من جراءته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

قال الخفاجيّ : اقتصر العلامة هنا على حكاية حال أسلافهم، لقرينة ضمائر الغيبة ، وترك تلك الآية ـ يعني آية البقرة ـ على الاحتمالين لقرينة ضمائر المخاطبين . ليكون توبيخاً وتعييراً للحاضرين بفعل آبائهم . ولذا عقبت هذه الآية بقصة عيسى عليه الصلاة والسلام . فتأمّل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

« وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أي : ظن بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل « فَعَمُوا وَصَمُّوا » عطف على (حسبوا) ، و (الفاء) للدلالة على ترتيب مابعدها على ماقبلها ؛ أي : آمنوا بأس الله تعالى، فتمادوا في فنون الغيّ والفساد ، وعموا عن الدين ، بعد ما هداهم الرسل إلى معالمه الظاهرة ، وصمّوا عن استماع الحق الذي ألقوه عليهم ، ولذلك فعلوا ما فعلوا « ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أي : مما كانوا فيه .

قال العلامة أبو السعود : لم يسند التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى

= وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بعد موتها . لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيل : فسقناه ، فأحييناه . معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص ، وأدل عليه .

والغول : السعالي . والعرب تسمى كل داهية غولا .

واختلف في وجوده . فمنهم من أنكر وجوده أصلا .

والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى . أي : تهبط . بسهب ، أي : فضاء بعيد من الأرض . والصحيفة : الكتاب . وقاع صحصحان أو صحصمان ، أي : مستوٍ .
والجران : مقدم العنق من مذبحه إلى منحره .

والصمم، تجافياً عن التصريح بنسبة الخير إليهم. وإنما أشير إليها فى ضمن بيان توبته تعالى عليهم ، تمهيداً لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى :

« ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا » كرة أخرى « كَثِيرٌ مِنْهُمْ » بدل من الضمير فى الفعلين أو خبر محذوف ، أى : أولئك كثير منهم « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى : بما عملوا ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ورعايةً للفواصل . والجملة تذييل أشير به إلى بطلان حسبانهم المذكور . ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا ، إشارة إجمالية ، اكتفى بها تعويلاً على ما فصل نوع تفصيل فى سورة (بنى إسرائيل)[1] ـ أفاده أبو السعود . وهو مأخوذ من كلام القفال ، كما سيأتى :

تنبيه :

فى هذه الآية إشارة إلى ما اكتنف بنى إسرائيل من الفتنة وعذاب الله الذى حاق بهم قبل عيسى وبعده . وذلك أن أنبياءهم قبل عيسى كانوا يوبخون رؤساءهم الأشرار وشعبهم على خطاياهم . ولاسيما فى عبادتهم الأوثان . وينصحونهم أن يرجعوا إلى الله . وينذرونهم بعقابه تعالى الشديد ودمارهم إن لم يتوبوا . كما أنبأهم إرْميا عليه السلام بخراب بلدهم ، وقضائه تعالى الهائل عليهم ، إن أصرّوا على طغيانهم . فما استمعوا له . حتى روى أنه ختم له بالشهادة. إذ رجمته اليهود بمصر عتوًّا واستكباراً . ثم سلط الله عليهم بختنصر ، ملك بابل ، وسبى شعبهم وهدمت جنوده مدينتهم بيت المقدس وهيكلها . وصارت تلال خرابٍ . وذلك لاستئصال كفرهم وشرورهم ، وتطهير هيكلهم من نجاسة أوثانهم . فحلّ عليهم من البابلية الشقاء والويل . وأُخذوا أسرى إلى ما وراء الفرات . ولم يترك منهم إلّا الفقراء فقط . وبذلك انتهى ملكهم . وكان ذلك قبل ولادة عيسى عليه السلام بنحو خمسائة وثمان وثمانين سنة . ثم تاب الله عليهم ورحمهم من سبيهم ، وأعادهم برحمته إلى مدينتهم بيت المقدس . بعد أن أقاموا فى بابل سبعين سنة . وابتدأوا ببناء هيكلهم ثانية . وأرجعوا العبادة إليه. وقام حزقيال عليه

(١) هى سورة الإسراء .

السلام بوعظهم وتهذيبهم ودعوتهم إلى التوبة وتذكيرهم بما مضى ليعتبروا . وهكذا كل نبيّ فيهم، لم يزل ينذرهم ويدعوهم إلى الله إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام . فعموا عن الاهتداء به وصمّوا عن وعظه ، وكان ما كان من همّهم بقتله. فدمرهم الله بعد ذلك وأباد مملكتهم . وطُرِدوا من أرضهم بعد رفع عيسى عليه السلام بنحو أربعين سنة. وأخذ الرومانيون مدينتهم وهدموها مع الهيكل . وحلت عليهم نقمة الله فتفرقوا شذر مذر .

هذا ، وما قيل بأن قوله تعالى (فَعَمُوا وَصَمُّوا) إشارة إلى عبادتهم العجل ـ فإنه بعيد . لأنها ، وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم ، لكنها في عصر موسى عليه السلام . ولا تعلّق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام بأعصار . وكذا ما قيل بأن قوله تعالى (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا) إشارة إلى طلبهم الرؤية ـ فبعيد أيضاً ، لما ذكرنا . وفنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تتناهى . خلا أنّ انحصار ما حكى عنهم ههنا في المرتين ، وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام ، يقضي بأن المراد ما ذكرناه . والله عنده علم الكتاب . كذا أفاده أبو السعود ،

ونحن نوافقه على ما رآه . بيد أنّ ما سقناه في التنبيه أظهر في ماجرياتهم ، وأشدّ مطابقةً لما في تواريخهم ، مما ساقه هنا . فتثبّت .

ويرحم الله الإمام القفال حيث قال : ذكر الله تعالى في سورة (بني إسرائيل) ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية فقال[1]: وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . فهذا في معنى (فعموا وصمّوا) ثم قال: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. فهذا في معنى قوله (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ) انتهى .

(١) [١٧ / الإسراء / ٤ ـ ٦] .

ثم بيّن تعالى كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد المباين لأصل دعوة عيسى عليه السلام ، من التوحيد الخالص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ »

قال الرازىّ : هذا قول اليعقوبية منهم . يقولون : إن مريم ولدت إلهاً . قال : ولعلّ معنى هذا المذهب أنهم يقولون : إن الله تعالى حلّ فى ذات عيسى واتّحد بها ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

وقد سبق الكلام على مثل هذه الآية فى هذه السورة مفصّلًا ، فتذكّر .

ثم بيّن تعالى أنهم صمّوا عن مقالات عيسى الداعية إلى التوحيد ، كما عَمُوا عما فيه من أمارات الحدوث ، بقوله سبحانه « وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ » ولم يقل اعبدونى . ثم صرّح بقوله « رَبِّي وَرَبَّكُمْ » قلعاً لمادة توهم الاتحاد « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ » كيف والشرك أعظم وجوه الظلم « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » أى : ما لهم من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار ، إما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة . والجمع لمراعاة المقابلة بـ (الظالمين) ؛ و (اللام) إما للعهد، والجمع باعتبار معنى (مَنْ) ، كما أن الإفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها . وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوليًّا . ووضعه على الأول موضع الضمير، للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحقّ . والجملة تذييل مقرِّر لما قبله . وهو إمّا من تمام كلام عيسى عليه السلام ، وإمّا وارد من جهته تعالى ، تأكيداً لمقالته عليه السلام ، وتقريرًا لمضمونها . أفاده أبو السعود .

ثم بيّن تعالى كفر طائفةٍ أخرى منهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » أى : أحد ثلاثة آلهةٍ ، بمعنى واحد منها ، وهم الله ومريم وعيسى .

قال بعضهم : كانت فرقة منهم تسمى (كولى رى دينس) تقول : الآلهة ثلاثة : الأب والابن ومريم .

وجاء فى كتاب (علم اليقين) : أن فرقة منهم تسمى (المرْيَميِّين) قال : يعتقدون أن المريم والمسيح إلٰهان . قال : وكذلك البربرانيّون وغيرهم . انتهى .

وأسلفنا عن ابن إسحق أنّ نصارى نجران ، منهم من قال بهذا أيضاً .

أو المعنى : أحـد ثلاثة أقانيم كما اشتهر عنهم . أى هو جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم : أب وابن وروح القدس . وزعموا ، أن الأب إلٰه والابن إلٰه والروح إلٰه والـكلّ إلٰه واحد . كما قدمنا عنهم فى قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ .

قال الرازىّ رحمه الله : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل . فإن الثلاثة لا تـكون واحداً ، والواحد لا يكون ثلاثة. ولا يرى فى الدنيا مقالة أشدّ فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى . انتهى .

وقد صنفت عدة مصنفات فى تزييف معتقدهم هذا ، وهى شهيرة متداولة ، والحمد لله .

لطيفة :

اتفق النحاة واللغويون على أن معنى قولهم (ثالث ثلاثة ورابع أربعة ... ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقاً . لا الوصف بالثالث والرابع .

وفى (التوضيح وشرحه) : لك فى اسم الفاعل المصوغ من لفظ اثنين وعشرة وما بينهما أن تستعمله على سبعة أوجه : (أحدها) أن تستعمله مفرداً عن الإضافة ، ليفيد الاتصاف بمعناه . فتقول : ثالث ورابع ، ومعناه حينئذٍ واحد موصوف بهذه الصفة وهى كونه ثالثاً ورابعاً .

(الوجه الثانى) أن تستعمله مع أصله الذى صيغ هو منه ، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير . فتقول : خامس خمسة أى : واحد من خمسة لا زائد عليها ، ويجب حينئذٍ إضافته إلى أصله . كما يجب إضافة البعض إلى كله . كـ : يد زيدٍ ، قال تعالى : إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ[1] . وقال تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وزعم الأخفش وقطرب والكسائىّ وثعلب أنه يجوز إضافة الأول إلى الثانى، ونصبه إياه . فعلى هذا يجوز ثالث ثلاثةٍ بجرّ « ثلاثة » ونصبها . كما يجوز فى (ضارب زيد).

(الوجه الثالث) أن تستعمله مع مادون أصله الذى صيغ منه بمرتبة واحدة، ليفيد معنى التصيير ، فتقول : هذا رابع ثلاثة أى : جاعل الثلاثة بنفسه أربعة ؛ قال تعالى : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ[2] . أى : إلا هو

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] ونصها : إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) [٥٨ / المجادلة/ ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

مصيّرهم أربعة ومصيّرهم ستة . ويجوز حينئذٍ إضافته وإعماله ، كما يجوز الوجهان فى جاعل ومصير ونحوهما .

وانظر تتمة الأوجه .

وبما ذكرناه يعلم ردّ ما ذهب إليه الجامى فى (شرح الكافية) من اعتبار الصفة فى نحو (ثالث ثالثة) حيث قال فى شرح قول ابن الحاجب (ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) : أى أحدها . لكن لا مطلقاً . بل باعتبار وقوعه فى المرتبة الثالثة . قال : وإلّا يلزم جواز إرادة الواحدِ الأولَ من عاشر العشرة وذلك مستبعد جدًّا . انتهى .

فكتب عليه بعض المحققين ما نصّه : الظاهر من عبارة (التوضيح) ومن كلام المصنف أنه لا يعتبر الوقوع فى المرتبة الثانية أو الثالثة وهكذا ... إذْ يبعد فى الآيتين كون المراد بـ « ثَانِيَ اثْنَيْنِ وَثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » كونه فى المرتبة الثانية أو الثالثة بل المراد أنه بعض تلك العدّة ، بلا نظر لكونه فى المرتبة الثانية أوالثالثة . إلّا أن يكون هذا باعتبار الوضع ، وإن كان الاستعمال بخلافه . ولذا كتب العلامة عبد الحكيم على قوله (وذلكمستبعدٌ جدًّا) أى: عند العقل ، وإلّا فالاستعمال بخلافه. انتهى .

« وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ » فى نصّ الإنجيل والتوراة وجميع الكتب السماوية ودلائل العقل « إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » لايتعدد أفراداً ولا أجزاءً « وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ » من هذا الافتراء والكذب ، بعد ظهور الدلالة القطعية ، متمسكين بمتشابهات الإنجيل التى أوضحتْها محكماتُه « لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فى الآخرة . من عذاب الحريق والأغلال والنكال .

قال الزمخشرىّ : ولم يقل (ليمسّنهم) لأن فى إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة . وهى تكرير الشهادة عليهم بالكفر فى قوله (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا) وفى البيان فائدة أخرى . وهى الإعلام فى تفسير (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ) أنهم بمكان من الكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ » بالتوحيد والتنزيه عمّا نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فيرجعوا عن التمسك بالمتشابهات إلى القطعيات. فالاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، فيه تعجيب من إصرارهم . ومدار الإنكار والتعجيب عدم الانتهاء والتوبة معاً . أو معناه : ألا يتوبون ـ بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر وهذا الوعيد الشديد ـ مما هم عليه . فمدارها عدم التوبة عقب تحقق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة .

قال ابن كثير: هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه . مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . فكل من تاب إليه تاب عليه. كما قال « وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لهؤلاء إن تابوا، ولغيرهم .

قال أبو السعود : الجملة حالية من فاعل (يَسْتَغْفِرُونَهُ) مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار . أى: والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة. فيغفر لهم عند استغفارهم ، ويمنحهم من فضله .

ثم أشار تعالى إلى بطلان التمسك بمعجزات عيسى وكرامات أمّه على إلٰهيتهما ، بأنّ غايتهما الدلالة على نبوّته وولايتها ، استنزالًا لهم عن الإصرار على ماتقوّلوا عليهما ، وإرشادًا لهم إلى التوبة والاستغفار فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« مَا الْمَسِيحُ » أى : المعلوم حدوثه من كونه « ابْنُ مَرْيَمَ » بالخوارق الظاهرة على

يديه « إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ » أي : مضت « مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » أولو الخوارق الباهرة . فله أسوة أمثاله . كما قال تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ(١) . أي : ما هو إلّا رسول من جنس الرسل الذين خلوا قبله ، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها . إن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وفلق بها البحر على يد موسى . وهو أعجب . وإن خلقه من غير أب ، فقد خلق آدم من غير أب ولا أم . وهو أغرب منه . وفي الآية وجه آخر : أي مضت من قبله الرسل ، فهو يمضي مثلهم . فالجملة ـ على كل ـ منبئة عن اتصافه بما ينافي الألوهيّة « وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ » أي : مبالغة في الصدق . ووقع اسم الصديقة عليها لقوله تعالى: وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ . والوصف بذلك مشعر بالإغراق في العبودية والقيام بمراسمها . فمن أين لهم أن يصفوها بما يباين وصفها ؟

تنبيه :

قال ابن كثير :

دلت الآية على أن مريم ليست بنبيّة . كما زعمه ابن حزم وغيره ـ ممن ذهب إلى نبوّة سارة أم إسحق ونبوّة أم موسى ونبوّة أم عيسى ـ استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . وهذا معنى النبوّة . والذي عليه الجمهور أنّ الله لم يبعث نبيًّا إلّا من الرجال . قال الله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ(٢) . وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعريّ، رحمه الله، الإجماعَ على ذلك . انتهى .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٩] ... وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .

(٢) [١٢ / يوسف / ١٠٩] ... أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

فائدة (فى حقيقة الصديق والصدق) :

قال العارف القاشانىّ قدس الله سرّه فى (لطائف الأعلام) :

الصدّيق الكثير الصدق . كما يقال : سكّيت وصرّيع إذا كثر منه ذلك . والصدّيق من الناس مَن كان كاملًا فى تصديقه لما جاءت به رسل الله علماً وعملًا ، قولًا وفعلًا . وليس يعلو على مقام الصديقية إلّا مقام النبوّة . بحيث إن من تخطى مقام الصديقية حصل فى مقام النبوّة . قال الله تعالى : أُوَلَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ... الآية[1] . فلم يجعل تعالى بين مرتبتى النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللهما . ثم بيّن قدس سره صدق الأقوال ، وصدق الأفعال ، وصدق الأحوال . (فالأول) هو موافقة الضمير للنطق . قال الجنيد : حقيقة الصدق أن تصدق فى موطنٍ لا ينجيك فيه إلّا الكذب . و (صدق الأفعال) هو الوفاء لله بالعمل من غير مداهنة . قال المحاسبىّ : الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قَدْرٍ له فى قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه . ولا يحب اطّلاع النـاس على مثاقيل الذر من حسن عمله . ولا يكره أن يطلع الناس على السيىء من حاله . لأن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم. وليس هذا من أخلاق الصدّيقين . و (صدق الأحوال) اجتماع الهم على الحق، بحيث لا يختاج فى القلب تفرقة عن الحق بوجه .

وقوله تعالى : « كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » استئناف مبين لما قبله من أنهما كسائر البشر فى الافتقار إلى الغذاء . وفيه تبعيد عما نسب إليهما .

قال الزمخشرىّ : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام ، ومايتبعه من الهضم والنفض ، لم يكن إلا جسما مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة، مع شهوة وقَرَمٍ وغير ذلك ... مما يدل على أنه مصنوع مؤلَّف مدبَّر كغيره من الأجسام .

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] . . . مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

لطيفة :

إنما أخر فى الاستدلال على بطلان مذهب النصارى ، حاجتهما للطعام عما قبله من مساواتهما للرسل عليهم السلام ، ترقيا فى باب الاستدلال من الجلىّ للأجلى ، على ما هو القاعدة فى سوق البراهين لإلزام الخصم ، حتى إذا لم يسلِّم فى الجلىّ لغموضه عليه ، يورد له الأجلى تعريضاً بغباوته ، فيضطر للتسليم ، إن لم يكن معاندا ولا مكابرا .

هذا ماظهر لى فى سر التقديم والتأخير .

وأما قول الخفاجىّ ـ ملخصاً كلام البيضاوىّ ـ فى سر ذلك: أنه تعالى بين أولا أقصى مراتب كمالها ، وأنه لا يقتضى الألوهية ،وقدمه لئلا يواجههما بذكر نقائص البشرية الموجبة لبطلان ماادعوا فيهما ، على حد قوله تعالى : عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ . حيث قدم العفو على المعاتبة له ﷺ انتهى ـ فبعيدٌ .

وقياسه على الآية قياس مع الفارق لاختلاف المقامين . فالأظهر ما ذكرناه ، والله أعلم بأسرار كتابه .

« انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ » أى : على توحيد الله ، وبطلان الاتحاد وإلهية عيسى وأمه ، وبطلان شبهاتهم ! « ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى : كيف يصرفون عن التأمل فيها إلى الإصرار على التمسك بالشبهات الظاهرة البطلان . !

قال أبو السعود : وتكرير الأمر بالنظر ، للمبالغة فى التعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ، ولا يرعوون عن ذلك ، بعد ما بين لهم حقيقة حالهما بياناً لايحوم حوله شائبة ريب ، وثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت . أى : إن بياننا للآيات أمر بديع فى بابه، بالغ لأقاصى الغايات القاصية من التحقيق والإيضاح . وإعراضهم عنها ـ مع انتفاء مايصححه بالمرة ، وتعاضد مايوجب قبولها ـ أعجب وأبدع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً » هذا دليل آخر على فساد قول النصارى ، والموصول كناية عن عيسى وأمه . أى : لا يستطيعان أن يضرا كم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب فى الأنفس والأموال. ولا أن ينفعا كم بمثل ماينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب. ولأن كل مايستطيعه البشر من المضار والمنافع، فبإقدار الله وتمكينه ، فكأنهما لا يملكان منه شيئاً. وإيثار (ما) على (من) لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأساً ، ببيان انتظامهما فى سلك الأشياء التى لاقدرة لها على شىء أصلا ؛ أى : وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شىء لا يخرج مقدور عن قدرته . وإنما قدم (الضر) لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع . « وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » بالأقوال والعقائد . فيجازى عليها إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ، فهو وعد ووعيد .

تنبيهات :

الأول. جعل ابن كثير الخطاب فى قوله تعالى (أَتَعْبُدُونَ) عامًّا للنصارى وغيرهم ، أى : قل لهؤلاء العابدين غيرَ الله من سائر فرق بنى آدم .

وفى (تنوير المقباس) أن (ما) عبارة عن الأصنام خاصة .

وكلاهما مما يأباه السباق والسياق .

الثانى : قال فى (فتح البيان) : إذا كان هـذا فى حق عيسى النبىّ ، فما ظنك بولىّ من الأولياء ؟ فإنه أولى بذلك .

الثالث : جعل أكثر المفسرين (ما) كناية عن عيسى عليه السلام فقط ، والمقام أنها كناية عنه وعن أمه عليهما السلام ، كما أوضحه المهايمىّ واعتمدناه .

الرابع : دلت الآية على جواز الحجاج فى الدين ؛ فإن كان مع الـكفار وأهـل البدع ، فذلك ظاهر الجواز ؛ وإن كان مع المؤمن جاز بشرط أن يقصد إرشاده إلى الحق ، لا إن قصد العلوّ فحظور. وحكى عن الشافعيّ أنه كان إذا جادل أحداً قال : اللهم! ألق الحق على لسانه. أفاده بعض الزيدية .

ولمـا أقام تعالى الأدلة القاهرة على بطلان ما تقوله النصارى ، أرشدهم إلى اتباع الحق ومجانبة الغلوّ الباطل ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قُلْ يَا أَهْلَ الْـكِتَابِ لَا تَغْـلُوا فِي دِينِـكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَـثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْـكِتَابِ » أى : الذى هو ميزان العدل « لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ » أى : لاتتجاوزوا الحد فى تعظيم عيسى وأمه ، وترفعوهما عن رتبتهما إلى ما تقوّلتم عليهما من العظيمة ، فأدخلتم فى دينكم اعتقادًا غير الحق بلا دليل عليه ، مع تظاهر الأدلة على خلافه . ونصب (غـير) على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : غلوًّا غيرالحق. يعنى غلوًّا باطلا . أو حال من ضمير الفاعل أى : مجاوزين الحق . و(الغلو) نقيض التقصير ، ومعناه الخروج عن الحـد ؛ وذلك لأن الحق بين طرفى الإفراط والتفريط ، ودين الله بين الغلو والتقصير .

تنبيه :

دلت الآية على أن الغلوّ فى الدين غلوَّانِ : (غلوّ حق) كأن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجتهد فى تحصيل حججه ؛ و (غلوّ باطل) وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه .

قال بعض الزيدية : دلت الآية على أن الغلوّ فى الدين لا يجوز ، وهو المجاوزة للحق إلى الباطل . ومن هـذا ، الغلوُّ فى الطهارة مع كثير من الناس ، بالزيادة على ما ورد به الشرع لغير موجب . انتهى .

ومن هذا القبيل الغلوّ فى تعظيم الصالحين وقبورهم حتى يصيّرها كالأوثان التى كانت تعبد .

وروى[1] الإمام أحمد والنسائىّ وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس ؛ أن النبيّ ﷺ قال : إيّاكم والغلوّ فى الدين . فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ فى الدين .

وعن عمر[2] ؛ أن رسول الله ﷺ قال : لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله . أخرجاه .

ولمسلم[3] عن ابن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : هلك المتنطّعون ! قالها ثلاثاً .

ثم نهاهم تعالى عن اتباع سلفهم وأئمتهم الضالين بقوله سبحانه :

« وَلَا تَتَّبِعُوا » قال المهايمىّ : أى : تقليداً « أَهْوَاءَ قَوْمٍ » تمسّكوا بخوارقهما على إلٰهيتهما . فإن نظروا إلى سبقهم فغايتهم أنهم « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ » إلى كثرة أتباعهم

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٨٥١ (طبعة المعارف) .

والنسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب مناسك الحج ، ٢١٨ ـ باب التقاط الحصى .

وابن ماجة فى : ٢٥ ـ كتاب المناسك ، ٦٣ ـ باب قدر حصى الرمى ، حديث ٣٠٢٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ عن عمر رضى الله عنه ، فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ ، حديث ١٢١٤ .

وليس فى مسلم .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ٧ (طبعتنا) .

فغايتهم أنهم « أَضَلُّوا كَثِيرًا » ممن شايعهم على التثليث « وَ » إلى تمسكهم بمتشابهات الإنجيل ، فغايتهم أنهم « ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » إذْ لم يردّوها إلى المحكمات .

تنبيهات :

الأول : قال الرازيّ :

الأهواء ـ ههنا ـ المذاهب التى تدعو إليها الشهوة دون الحجّة . قال الشعبيّ : ما ذكر الله لفظ الهوى فى القرآن إلّا ذمّه. قال : وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١) . وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (٢) . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) . أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ (٤) . قال أبو عبيدة : لم نجد الهوى يوضع إلّا فى موضع الشر. لا يقال : فلان يهوى الخير. إنما يقال : يريد الخير ويحبه . وقال بعضهم: الهوى إله يعبد من دون الله . وقيل: سمّى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى النار . وأنشد فى ذم الهوى :

إنّ الهوى لهو الهوانُ بعينهِ   فإذا هويتَ فقد لقيتَ هواناً

وقال رجل لابن عباس : الحمد لله الذى جعل هواى على هواك ، فقال ابن عباس : كل هوى ضلالة .

---

(١) [٣٨ / صٓ / ٢٦] ونصها : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٦] ونصها : فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ .

(٣) [٥٣ / النجم / ٣] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٤٣] ... أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا .

الثانى : قال الرازىّ أيضاً :

إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات فى الضلال : فبيّن أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلّين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمرّوا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا . ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى ، من هذه الحالة . نعوذبالله منها. ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم ، فى ذلك الإضلال ، أنه إرشاد إلى الحقّ . ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين ، وبالضلال الثانى الضلال عن طريق الجنة . انتهى .

وهذه الوجوه ــ مع ما أسلفناه عن المهايمىّ ــ كلّها مما يصح إرادتها من الآية لتصادقها جميعاً عليهم .

الثالث : دلت الآية على أن ما لهؤلاء الكفرة من الأباطيل ــ مع مخالفتها للعقول ومزاحمتها للأصول ــ لا مستند لها ولا معول لهم فيها غير التقليد لأسلافهم الضالّين ، الذين أحدثوا القول بالتثليث بعد نحو ثلاثمائة سنة من رفع المسيح عليه السلام . وقرروه فى تعاليمهم بعد جدال واضطراب . وتمسّكوا فى ذلك ، بظواهر الألفاظ التى لا يحيطون بها علماً ، مما لا أصل له فى شرع الإنجيل ، ولا مأخوذ من قول المسيح ولا من أقوال حوارييّه . وهو مع ذلك مضطرب متناقض متهافت ، يكذب بعضه بعضاً ، ويعارضه ويناقضه ، كما تبيّن من الكتب المصنفة فى الردّ عليهم .

الرابع : جاء فى (تنوير المقباس) :

إن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا : نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ . وبقوله (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ) العاقب والسيد . والأول ــ كما قال ابن إسحق ــ كان أمير القوم وذا رأيهم . والثانى صاحب رحلهم ومجتمعهم .

والأظهر أن المعنىّ بـ (أهل الكتاب) عموم النصارى . والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أوليًّا .

الخامس : ذكر كثير من المفسّرين : أن المراد بـ (أهل الكتاب) هنا : اليهود والنصارى . وأن كليهما غلا فى عيسى عليه السلام : أما غلوّ اليهود فالتقصير فى حقه حتى نسبوه إلى غير رِشْدة . وأما غلوّ النصارى فمعلوم . وأن الخطاب فى قوله تعالى (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ) لليهود والنصارى الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ . نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم . انتهى .

وظاهر أنّ ما نسب للفريقين ـ من الغلوّ والابتداع ـ مسلّم . بيد أن الأقرب للسباق الداحض لشبهات النصارى ، أن تكون هذه الآية فيهم زجرًا لهم عمّا سلكوه، إثر إبطاله بالبراهين الدامغة . على أن الغلوّ ألصق بالنصارى منه باليهود ، كما لا يخفى . والله أعلم .

ثم أخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل فيما أنزله على داود وعيسى عليهما السلام . بسبب عصيانهم وما عدّد من كبائرهم . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى : لعنهم الله عز وجلّ « عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أى : لسانهما . وأفرد لعدم اللبس ، إن أريد باللسان الجارحة. وقيل : المراد به الكلام وما نزل عليهما . كذا فى (العناية) .

« ذَٰلِكَ » أى: لعنهم الهائل « بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » بقتل الأنبياء واستحلال المعاصى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٩] (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » أي : لا ينهى بعضهم بعضاً عن ارتكاب المآثم والمحارم . ثم ذمّهم على ذلك ليحذر من ارتكاب مثل الذى ارتكبوه فقال « لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » مؤكداً بلام القسم . تعجيباً من سوء فعلهم ، كيف وقد أدّاهم إلى ما شرح من اللعن الكبير .

تنبيهات :

الأول : دلت الآية على جواز لعنهم .

الثانى : دلت الآية أيضاً على المنع من الذرائع التى تبطل مقاصد الشرع . لما رواه أكثر المفسرين ؛ أن الذين لعنهم داود عليه السلام أهل أيلة الذين اعتدوا فى السبت واصطادوا الحيتان فيه . وستأتى قصتهم فى (الأعراف) .

الثالث : دلت أيضاً على وجوب النهى عن المنكر .

قال الحاكم : وتدل على أن ترك النهى من الكبائر .

الرابع : روى الإمام أحمد[١] فى معنى الآية عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٣٧١٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٦ ـ حدثنا عبدالله ابن عبد الرحمن .

وأبو داود فى : ٣٦ ـ كتاب الملاحم ، ١٧ ـ باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٣٦ .

وابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢٠ ـ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حديث ٤٠٠٦ (طبعتنا) .

ﷺ : لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، أو فى أسواقهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : لا، والذى نفسى بيده ! حتى تَأْطِرُوهم على الحق أطرا . أى : تعطفوهم عليه . ورواه الترمذىّ وقال : حسن غريب .

وأخرجه أبو داود عنه فقال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا ! اتقِ اللهَ، ودَعْ ما تصنع، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ـ إلى قوله ـ فَاسِقُونَ . ثم قال: كلا والله ! لتأمرنّ بالمعروف . ولتنهونّ عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطِرنّه على الحق أطراً ، أو تقصرنّه على الحق قصراً .

زاد فى رواية : أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم .

وكذا رواه الترمذىّ وحسّنه ، وابن ماجه .

والأحاديث فى (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) كثيرة ، ومما يناسب منها هذا المقام :

ما رواه الإمام أحمد(١) والترمذىّ عن حذيفة بن اليمان : أن النبىّ ﷺ قال : والذى نفسى بيده ! لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، أو ليُوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لَتَدْعُنّه فلا يستجيب لكم .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٨٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٩ ـ باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى (الصحيحين)[١] عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطيع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان .

وروى الإمام[٢] أحمد عن عدىّ بن عميرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم . وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه . فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة .

وروى ابن ماجة[٣] عن أبى سعيد الخدرىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله ليَسْأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذْ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله عبداً حجته قال : يارب ! رجوتك وفرقت الناس .

قال الحافظ ابن كثير : تفرّد به ابن ماجة . وإسناده لا بأس به .

وروى الإمام[٤] أحمد والترمذىّ عن حذيفة عن النبىّ ﷺ قال : لاينبغى لمسلم أن يذل نفسه . قيل : وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء مالا يطيق .

قال الترمذىّ : حسن غريب .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٨ (طبعتنا) .
وليس فى البخارىّ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٩٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، حديث ٤٠١٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .
والترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٦٧ ـ باب حدثنا محمد بن بشار .

وروى ابن ماجة(١) عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ! متى نترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم . قلنا : يارسول الله ! وما ظهر فى الأمم قبلنا ؟ قال : الملك فى صغاركم ، والفاحشة فى كباركم ، والعلم فى رُذالتكم .

قال زيدبن يحيي الخزاعىّ، أحد رواته : معنى قول النبىّ ﷺ (والعلم فى رُذالتكم) إذا كان العلم فى الفساق .

تفرّد به ابن ماجة . وله شاهد فى حديث أبى ثعلبة يأتى إن شاء الله عند قوله تعالى (لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ) ـ أفاده ابن كثير .

أقول : هذه الأحاديث إنما يتروّح بها الضعفة، من نحو العلماء والقادة . وأما من كان لهم الكلمة النافذة والوجاهة التامة فهيهات أن تغنى عنهم ، وهذه المواعيد الهائلة تخفق فوق رؤوسهم .. ولذا قال العلّامة الزمخشرىّ : فياحسرة على المسلمين فى إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير ، وقلّة عبئهم به . كأنه ليس من ملّة الإسلام فى شيء . مع ما يتلون من كتاب الله ، وما فيه من المبالغات فى هذا الباب . وقد مرّ عند قوله تعالى (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ) (٢) ما يؤيد ما هنا ، فتذكّر .

الخامس : قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف وقع ترك التناهى عن المنكر تفسيرًا للمعصية والاعتداء ؟ قلت : من قِبَلِ أن الله تعالى أمر بالتناهى . فكان الإخلال به معصية، وهو اعتداء .

ولما وصف تعالى أسلافهم بما مضى ، وصف الحاضرين بقوله :

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، حديث ٤٠١٥ (طبعتنا) .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٣] . . . وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٠] (تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

« تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ » أى : من أهل الكتاب « يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : يوالون المشركين ، بغضاً لرسول الله ﷺ .

قال الرازىّ : والمراد منهم كعب بن الأشرف وأصحابه ، حين استجاشوا المشركين على الرسول ﷺ. وذكرنا ذلك فى قوله تعالى (وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا) .

« لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أى : لبئس شيئاً قدموا لمعادهم . وقوله تعالى : « أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » هو المخصوص بالذم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد، ومبالغة فى الذم .والمعنى: لبئس زادهم فى الآخرة موجب سخطه تعالى عليهم « وَفِي الْعَذَابِ » أى : عذاب جهنم « هُمْ خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَوْ كَانُوا » أى : هؤلاء الذين يتولون عبدة الأوثان من أهل الكتاب «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ » أى نبيهم موسى عليه السلام « وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ » أى : من التوراة « مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ » إذ الإيمان بالله يمنع من تولّى من يَعْبُدُ غَيْرَهُ « وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » خارجون عن دينهم ، أو متمردون فى نفاقهم . يعنى : أن موالاتهم

للمشركين كفى بها دليلا على نفاقهم ، وأن إيمانهم ليس بإيمان ، لأن تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى عليه السلام. فلما فعلوا ذلك ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى عليه السلام ، بل مرادهم الرياسة والجاه ، فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه ، فلهذا وصفهم تعالى بالفسق .

وفي الآية وجه آخر : وهو أن يكون المعنى : ولو كانوا ـ أي منافقو أهل الكتاب المدّعون للإيمان ـ يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن حق الإيمان ، ما ارتكبوا ماارتكبوه ، من موالاة الكافرين في الباطن .

والوجه الأول أقوم ، والله أعلم .

ثم أكد تعالى ماتقدم من مثالب اليهود بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » وإنما عاداهم اليهود لإيمانهم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوة الأنبياء ـ أشار إليه المهايمي .

وقال غيره : لشدة إبائهم ، وتضاعف كفرهم ، وانهماكهم في اتباع الهوى ، وركونهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء ، والاجتراء على تكذيبهم ، ومناصبتهم لهم . ولهذا قتلوا كثيرا منهم حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وسموه ، وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين . وفي تقديم (اليهود) على (المشركين) ، بعد لزّهما في قرَن واحد ، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن

فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى(١) (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) إيذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص . « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ » للين جانبهم وقلة غلّ قلوبهم .

قال ابن كثير : وما ذاك إلا لما فى قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح، من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى(١) : وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً . وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً فى ملّتهم . انتهى .

ولأن من مذهب اليهود ، أنه يجب إيصال الشر إلى من خالف دينهم بأى طريق كان ، من القتل ونهب المال ونحوهما . وهو عند النصارى حرام . فحصل الفرق .

وقد روى ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً : ماخلا يهودىّ بمسلم إلا همّ بقتله .

ولكثرة اهتمام النصارى بالعلم والترهب ، مما يدعو إلى قلة البغضاء والحسد ، ولين العريكة ، كما أشير إليه بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ » أى : كونهم أقرب مودة للمؤمنين « بِأَنَّ مِنْهُمْ » أى : بسبب أن منهم « قِسِّيسِينَ » أى علماء « وَرُهْبَانًا » أى عبّاداً متجردين « وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى : يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود . وفى الآية دليل على أن الإقبال على العلم ، والإعراض عن الشهوات ، والبراءة من الكبر ـ محمود . وإن كان ذلك من كافر .

---

(١) [٢ / البقرة / ٩٦] . . . وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٧] ونصها : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) :

إنما قال تعالى : (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ) ولم يقل (النَّصَارَىٰ) تعريضا بصلابة اليهود فى الكفر والامتناع من الامتثال للأمر ، لأن اليهود قيل لهم: ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ. فقابلوا ذلك بأن قالوا(٢): فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ . والنصارى قالوا(٣) : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ . ومن ثم سُمُّوا نصارى . وكذلك أيضاً ورد أول هذه السورة(٤) . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . فأسند ذلك إلى قولهم ، والإشارة به إلى قولهم : (نَحْنُ أَنْصَارُ

(١) [٥ / المائدة / ٢١] ونصها : يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

(٢) [٥ / المائدة / ٢٤] ونصها : قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٥٢] ونصها : فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

و [٦١ / الصف / ١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

(٤) [٥ / المائدة / ١٤] ونصها : وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

اللهِ) لـكنه ههنا ذكر تنبيهاً على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ولا على ما قالوه من أنهم أنصار الله. وفى الآية الثانية ذكر تنبيها على أنهم أقرب حالا من اليهود . لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالردّ مكافحة اليهود. بل قالوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .واليهودقالت: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ... الآية ، فهذا سره . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ » عطف على (لا يستكبرون) . قال أبو البقاء :ويجوز أن يكون مستأنفاً فى اللفظ وإن كان له تعلق بما قبله فى المعنى . يعنى:وإذا سمعواالقرآن « تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ » أى : تنصبّ « مِنَ الدَّمْعِ » الحاصل من اجتماع حرارة الحب والخوف ، مع برد اليقين « مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » أى من كتابهم،فوجدوه أكمل منه وأفضل ، أو من الذى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحق ، أو من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى كتابهم « يَقُولُونَ » أى : من عدم استكبارهم « رَبَّنَا ءَامَنَّا » أى : بك وبما أنزلت وبرسولك محمد « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى : الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته . روى الحاكم ، وصححه ، عن ابن عباس قال : أى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته هم الشاهدون . يشهدون لنبيهم أنه قد بلّغ ، وللرسل أنهم قد بلّغوا .

وقوله تعالى :

القول فى تأيل قوله تعالى :

[٨٤] ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾

« وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ » إنكار استبعادٍ لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه ـ وهو الطمع ـ فى إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين « وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ » أى . وبما جاءنا من القرآن . وفى إعرابه وجه آخر يأتى ، « وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ » يعنى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أوالمعنى : أن يدخلنا ربّنا الجنةمع الأنبياء والمؤمنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

« فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُو » أى : بما تكلموا به من قولهم (رَبَّنَا ءَامَنَّا) الصادر عن اعتقادٍ وإخلاص واعتراف بالحقّ « جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت شجرها ومساكنها « الْأَنْهَارُ »يعنى أنهار الماءواللبن والخمر والعسل« خَالِدِينَ فِيهَا » أى: مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها « وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » يعنى المؤمنين الموحّدين المخلصين فى إيمانهم .

تنبيهات

الأول : اتفق المفسرون على أن هذه الآيات الأربع نزلت فى النجاشىّ وأصحابه رضوان الله عليهم .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيّب وأبى بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرىّ وكتب معه كتاباً إلى النجاشىّ . فقدم

على النجاشيّ . فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم . ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسل إلى الرهبان والقسّيسين . ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم. فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع. فهم الذين أنزل اللهُ فيهم: وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً . . . ـ إلى قوله ـ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشيّ ثلاثين رجلًا من خيار أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا، فنزلت فيهم الآية.

وأخرج النسائيّ[1] عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآيات في النجاشيّ وأصحابه: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) .

وروى الطبرانيّ عن ابن عباس نحوه، بأبسط منه .

ـ كذا في (أسباب النزول للسيوطيّ) ـ

وقال ابن كثير : قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشيّ وأصحابه، الذين، حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن ، بكوا حتى أخضبوا لحاهم.

قال ابن كثير : وهذا القول فيه نظر . لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشيّ قبل الهجرة . انتهى .

أقول : إن نظره مدفوع ، فإنه حكى في هذه الآية بعد الهجرة ما وقع قبلها ، ونظائره في التنزيل كثيرة ، ولا إشكال فيه . . وظاهر أنّ المقصود بهذه الآية التعريض بعناد اليهود الذين كانوا حول المدينة . وهم يهود بني قريظة والنضير . وبعناد المشركين أيضاً ، وقساوة قلوب الفريقين ، وأنه كان الأجدر بهما أن يعترفوا بالحق كما اعترف به النجاشيّ وأصحابه . وقال ابن كثير : هذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

(١) لم أهتد إلى محل هذا الحديث في سنن النسائيّ .

الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ[1] ... الآية ، وهم الذين قال[2] الله فيهم : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ... ـ إلى قوله ـ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . انتهى .

وكان سبب هجرة الصحابة إلى أرض الحبشة؛ أنّ قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم ، فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فآذوهم وعذبوهم ، فافتتن من افتتن منهم ، وعصم الله من شاء منهم .

قال ابن[3] إسحق رحمه الله تعالى : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ـ قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صِدْق ، حتى يجعلَ الله لكم فرجاً مما أنتم .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة. وفرّوا إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ... لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٢ ـ ٥٥] ... أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .

(٣) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٢٠٨ (طبعة جوتنجن) .

فكان[١] جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ـ سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ـ ثلاثةً وثمانين رجلًا ، إن كان عمّار بن ياسر فيهم ، وهو يشكّ فيه .

ثم روى ابن إسحق[٢] بسنده إلى أم سلمة ـ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشيّ . أمِنّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلمّا بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فينا رجلين منهم جَلْدَيْن . وأن يُهدوا للنجاشيّ هدايا مما يُستطرف من متاع مكة . وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَم . فجمعوا له أَدَماً كثيراً . ولم يتركوا من بطارقته بِطريقاً إلّا أهدَوْا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص . وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشيّ فيهم . ثم قدّما إلى النجاشيّ هداياه. ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشيّ ـ ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار ـ فلم يبق من بطارقته بطريق إلّا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشيّ ، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى ـ أى لجأ ـ إلى بلد الملك منا ، غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردّهُم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسْلمهم إلينا ولا يكلمهم. فإنّ قومهم أعلى بهم عيناً . (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٢١٥ (طبعة جوتنجن) .

(٢) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والصفحة رقم ٢١٧و٢١٨ (طبعة جوتنجن) .

ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشيّ فقبلها منهما ، ثم كلّماه بما كلّما كلّ بطريق .

قالت : ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشيّ . قالت : فقالت بطارقته حوله : صَدَقَا . أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم . فأَسْلِمهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم . فقالت : فغضب النجاشيّ ثم قال: لاها الله ! إذاً لا أسْلِمهم إليهما . ولا يُكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوَهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم . فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم . وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا . ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ! ما علمنا . وما أَمَرَنَا به نبينا ،كائنا فى ذلك ما هو كائن . فلما جاؤوا ـ وقد دعا النجاشيّ أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ قالت : فكان الذى كلّمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار . ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . ـ قالت : فعدّد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ،

وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .! قالت : فقال له النجاشيّ : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشيّ : فاقرأه عليّ . قالت : فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت : فبكى ، والله ! النجاشيّ حتى اخضلّت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشيّ : إن هذا ، والذى جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا ، فلا ، والله ! لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون.

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله ! لآتينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم (أى شجرتهم التى منها تفرعوا) .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله ! لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال : أيها الملك! إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما. فأرسلْ إليهم فسلهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم. ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول ، والله ! ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟ قالت : فقال جعفر بن أبى طالب نقول فيه الذى جاءنا نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشيّ بيده إلى

الأرض فأخذ منها عودًا ، ثم قال: والله ! ما عدا عيسى ابن مريم، مما قلتَ، هـذا العودَ . قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن نخرتم ، والله ! اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ والشيوم الآمنون ـ مَنْ سبّـكم ، غرِم . قالها ثلاثاً .

ثم قال : ما أحب أن لى دَبْرًا ـ والدبر الجبل ـ من ذهب وأنى آذيت رجلًا منكم . ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها .

قالت : نخرجا من عنده مقبوحَيْن مردودًا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنـده بخير دارٍ مع خير جارٍ .

ثم روى ابن اسحق فى قصته : أن النجاشيّ عمد إلى كتاب فـكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله . ويشهد أنّ عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم . انتهى .

وإسلام النجاشيّ معروف . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما مات، صلّى عليه مع تباعد الديار .

وذكر شمس الدين ابن القـيّم فى (زاد المعاد) : أنه كان مخرجهم إلى الحبشة فى السنة الخامسة من المبعث .

التنبيه الثانى :

فى الآية دليل على أن المشروع عند قراءة القرآن الخشوع والبكاء . وفى الخبر : ابكوا فإن لم تجدوا بكاءً فتباكوا . أخرجه المنذرىّ فى (الترغيب والترهيب) عن عبدالله بن عمرو. وقال : رواه الحاكم مرفوعاً وصحّحه . والمراد إشراب القلب والخوف المهابة لله تعالى .

الثالث : فى قوله تعالى (يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا) وقوله (فَأَثَابَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا) دليل على أن الإقرار داخل فى الإيمان كما هو مذهب الفقهاء. وتعلقت الـكرامية فى أن الإيمان مجرد القول بقوله (بِمَا قَالُوا) ، لـكن الثناء بفَيْض الدمع فى السباق ، وبالإحسان فى السياق، يدفع

ذلك ؛ وأنّى يكون مجرد القول إيماناً وقد قال الله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ؟ نفى الإيمان عنهم ، مع قولهم (ءَامَنَّا بِاللَّهِ) لعدم التصديق بالقلب.

وقال أهل المعرفة : الموجود منهم ثلاثة أشياء : البكاء على الجفاء ، والدعاء على العطاء ، والرضا بالقضاء . فمن ادعى المعرفة ، ولم يكن فيه هذه الثلاثة ، فليس بصادق فى دعواه ..! أفاده النسفيّ .

وقال الخازن : إنما علق الثواب بمجرد القول ، لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا . وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب . لأن القول إذا اقترن بالمعرفة فهو الإيمان الحقيقيّ الموعود عليه بالثواب .

وقال الرازيّ : لما حصلت المعرفة والإخلاص وكمال الانقياد ، ثم انضاف إليه القول ، لا جرم كمل الإيمان .

الرابع : قوله تعالى (وَمَا جَاءَنَا) يجوز أن يكون فى موضع جرّ ، أى : وبما جاءنا ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال من الفاعل المستتر ، أو لغو متعلق بـ (جَاءَ) أى : وبما جاءنا من عند الله . ويجوز أن يكون مبتدأ و (مِنَ الْحَقِّ) الخبر ، والجملة فى موضع الحال . وقوله تعالى (وَنَطْمَعُ) يجوز أن يكون معطوفاً على (نُؤْمِنُ) أى : وما لنا لا نطمع . ويجوز أن يكون التقدير : ونحن نطمع ، فتكون الجملة حالاً من ضمير الفاعل فى (نُؤْمِنُ) ـ أفاده أبو البقاء.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أى : الذين جحدوا الحقّ الذى جاءهم وكذّبوا بحُجَجِ الله وبراهينه أولئك أصحاب الجحيم ، أى : النار الشديدة الحرارة ، جزاءً وفاقاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » أى: ماطاب ولذّ منه. كأنه ـ لما تضمن ما سلف مدحَ النصارى على الترهب ، والحث على كسر النفس ، ورفض الشهوات ـ عَقَبَهُ النهيُ عن الإفراط فى ذلك بتحريم اللذائذ من المباحات الشرعية . ثم أشار إلى أنه اعتداء بقوله سبحانه « وَلَا تَعْتَدُوا » أى: عمّا حدّ الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً . أو : ولا تعتدوا فى تناول الحلال فتجاوزوا الحدّ فيه إلى الإسراف كما قال تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ...) الآية(١) . وقال (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا)(٢) . أو : ولا تعتدوا على النفس والأهل بمنع الحقوق. أو : ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » فى كل ما ذكر ، وهو تعليل لما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

« وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا » أى : كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله . فيكون (حَلَالًا) مفعول (كُلُوا) و (مِمَّا) حال منه، أو متعلقة بـ (كُلُوا) ، أو هو المفعول و (حَلَالًا) حال من (مَا) أو من عائده المحذوف ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣١] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦٧] .

أكْلًا حلالا . وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ » تأكيد للتوصية بما أمر به ، وزاده تأكيداً بقوله : « الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » لأن الإيمان به يوجب التقوى ، فى الانتهاء إلى ما أمر به وعما نهى عنه .

قال المهايمىّ : مقتضى إيمانكم أن لا تغيروا شيئاً من أحكام دينكم ، وأن لا تعارضوا فى أحكامه ولو بكراهة من أنفسكم ، وأن تتقوه فى وضع قواعد تخالف قواعد الشرع ، بل غاية ما يجوز أخذ معان من علم الشريعة مؤكدة لمقتضاه .

تنبيهات .

الأول : فيما روى فى سبب نزولها :

أخرج الترمذىّ[1] عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوتى فحرمتُ علىّ اللحم . فأنزل الله تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا . . الآية .

وروى ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما تفعل الرهبان . فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم . فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا : نعم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأنكح النساء . فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى . وروى ابن مردويه نحوه .

وفى (الصحيحين)[2] من حديث عائشة رضى الله عنها ؛ أنّ ناساً من أصحاب

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٤ ـ حدثنا عمرو بن علىّ أبو حفص الفلاس .

(٢) الحديث عن أنس .

=

رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبيّ ﷺ عن عمله فى السرّ ؟ فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال : ما بال أقوامٍ يقول أحدهم كذا وكذا ؟ لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم. وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنّتى فليس منّى .

وروى ابن أبى حاتم ؛ أن عبد الله بن مسعود جاءه معقل بن مقرن فقال : إنى حرمت فراشى . فتلا عليه هذه الآية .

وأخرج أيضاً عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود . فجىء بضرعٍ فتنحّى رجل . فقال عبد الله : ادن . فقال: إنى حرمت أن آكله . فقال عبد الله : ادن فاطعَم وكفّر عن يمينك . وتلا هذه الآية . ورواه الحاكم أيضاً .

= أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث ٢٠٩٩ ونصه :

عن حميد بن أبى حميد ، الطويل ؛ أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبىّ ﷺ يسألون عن عبادة النبىّ ﷺ. فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها. فقالوا : وأين نحن من النبىّ ﷺ ؟ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء ، فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله ! إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكنى أصوم وأفطر ، وأصلّى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وأخرجه عن أنس ، مسلم أيضاً فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ٥ (طبعتنا) .

الثانى ـ قال بعض الزيدية : ثمرة الآية النهى عن تحريم الطيبات من الحلال . وذكر الحاكم: أنهذا النهى يحتمل وجوهاً لا مانع من الحمل على جميعها: أحدها لاتعتقدوا التحريم. ومنها : لا تحرّموا على غيركم بالفتوى والحكم . ومنها : لا تجروه مجرى المحرمات فى شدة الاجتناب . ومنها : لا تلتزموا تحريمه بنذرٍ أو غيره .

وقال القاضى : لا تحرموا الحلال بفعل يصدر منكم ، كالبياعات الربوية وخلط الحلال بالمغصوب والطاهر بالنجس .

ثم قال : ويتعلق بهذا أمران : الأول إذا حرم الحلال، هل يجب عليه الحنث والرجوع ؟ قلنا : ظاهر الآية يدل على ذلك، ويلزم مع ذلك التوبة . الأمر الثانى : هل يلزمه فى ذلك كفارة ؟ قلنا : هذه الآية قد يستدل بها على اللزوم ، لأن النهى يقتضى فساد المنهىّ عنه . وهذه المَسْأَلَة فيها خلاف بين العلماء . انتهى .

وقال ابن كثير : ذهب الشافعىّ إلى أنه من حرّم مأكلًا أو ملبساً أو شيئاً ، ما عدا النساء، أنّه لايحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً . لإطلاق هذه الآية . ولأنالذى حرماللحم على نفسه ـ كما فى الحديث المتقدم ـ لم يأمره النبىّ ﷺ بكفارة .

وذهب آخرون ـ منهم الإمام أحمد ـ إلى أنّ من حرم شيئاً ـ مما ذكر ـ فإنه يجبعليه كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين . فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس ، وكما فى قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) . ثمقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾(٢) ... الآية ، وكذلك هنا . لما ذكر هذا الحكمعقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدلّ على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير . والله أعلم .

---

(١) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٢] ... وَاللهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

وفى (زاد المعاد) لابن القيّم فصل مهمّ فى حكم من حرم أَمَتَهُ أو زوجته أو متاعه . تنبغى مراجعته .

الثالث : هذه الآية أصل فى ترك التنطع والتشدّد فى التعبّد ـ كذا فى (الإكليل) .

قال ابن جرير : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء، ممَّا أحلّ الله لعباده المؤمنين ، على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ، ولذلك ردّ النبىّ ﷺ التبتّل على عثمان بن مظعون . فثبت أنه لا فضل فى ترك شيء مما أحلّه الله لعباده . وأن الفضل والبرّ إنما هو فى فعل ما ندب الله إليه عباده ، وعمل به رسول الله ﷺ وسنّه لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون . إذْ كان خير الهدى هدى نبيّنا محمد ﷺ ... فإذا كان ذلك كذلك تبيّن خطأ من آثَرَ لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ، إذا قدر على لباس ذلك من حله . وآثَرَ أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء .. قال : فإن ظنّ ظانّ أن الفضل فى غير الذى قلنا ـ لما فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل منهما من القيمة إلى أهل الحاجة ـ فقدظنّ خطأً . وذلك أن الأَوْلى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربّها ، ولاشيء أضرّ على الجسم من المطاعم الرديئة. لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التى جعلها الله سبباً إلى طاعته .. انتهى .

وللرازىّ هنا مبحث جيّد فى حكمة هذا النهى ، مؤيد لما ذكر . فليراجع فإنه نفيس .

وقد أخرج الترمذىّ[1] عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل .

وله[2] عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله ﷺ بلحمٍ فرُفِع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٩ ـ باب ما جاء فى حب النبىّ ﷺ الحلواء والعسل .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٤ ـ باب ما جاء فى أى اللحم كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ .

فنهش منها . قالت[1] عائشة : ما كان الذراع أحبّ إلى رسول الله ﷺ. ولـكن كان لا يجد اللحم إلّا غبًّا ، وكان يعجل إليهالذراع لأنه أعجلها نضجاً. أخرجه الترمذيّ .

وحكى الزمخشريّ عن الحسن أنه دعى إلى طعامٍ ومعه فَرْقَدُ السَّبَخِيُّ وأصحابه . فقعدوا على المـــائدة ـ وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغيرذلك ـ فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسنُ : أهو صائم ؟ قالوا : لا ولـكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليهوقال: يا فريقد ! أترى لعاب النحل، بلباب البر، بخالص السمن ، يعيبه مسلم . ؟

وعنه : أنه قيل له : فلان لا يأ كل الفـالوذ ويقول : لا أؤدى شكره قال : أفيشرب الماء البارد ؟ قالوانعم ، قال: إنه جاهل. إن نعمة الله عليه فى الماء البارد أ كثر من نعمته عليه فى الفالوذ .

وعنه : أن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم.قال الله[2] تعالى (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ). ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا فتنعّموا وأطاعوا .. ولا عـذر قوماً زواها عنهم فعصوه .

الرابع : قال الرازىّ : لم يقل تعالى : كُلُوا مَا رَزَقَـكُمْ ، ولـكن قال (مِمَّا رَزَقَـكُمُ اللَّهُ) وكلمة (مِنْ) للتبعيض . فـكأنه قال : اقتصروا فى الأ كل على البعض واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات ، لأنه إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال (وَلَا تُسْرِفُوا) ـ

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٣٤ ـ باب ما جاء فى أى اللحم كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ٧] ونصها : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » تقدم الكلام على اللغو فى اليمين فى (سورة البقرة) وإنه مايسبق إليه اللسان بلاقصدالحلف ، كقول الإنسان: لا،والله! وبلى والله! والمرادبالمؤاخذة: مؤاخذة الإثم والتكفير، أى: فلاإثم فى اللغوولا كفارة «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ » أى : بتعقيدكم الْأَيْمَانَ وتوثيقها عليه بأن حلفتم عن قصدٍ منكم ، أى : إذا حنثتم . أو بنكث ما عقدتم، فحذف للعلم به. وقرئ بالتخفيف ، وقرىء (عاقدتم) بمعنى عقدتم « فَكَفَّارَتُهُ » أى : فكفارة نكثه، أى الخصلة الماحية لإثمه « إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ » يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ » أى : لا من أجوده فضلا عما تخصونه بأنفسكم . ولا من أردأ ماتطعمونهم فضلا عن الذى تعطونه السائل « أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » أى : عتقها « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ » أى : شيئاً مما ذكر « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » كفارته « ذَلِكَ » أى : المذكور « كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ » أى : التى اجترأتم بها على الله تعالى « إِذَا حَلَفْتُمْ » أى : وحنثتم « وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ » أى : عن الإكثار منها ـ أو عن الحنث ـ إذا لم يكن ماحلفتم عليه خيراً ، لئلا يذهب تعظيم اسم الله عن قلوبكم « كَذَلِكَ » أى : مثل هذا البيان الكامل « يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ ءَايَاتِهِ » أى : أعلام شرائعه « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى : نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج .

قال المهايمىّ : أى : تشكرون نعمه بصرفها إلى ماخلقت له ،ومن جملتها صرف اللسان، الذى خلق لذكر الله وتعظيمه ، إلى ذلك. فإذا فات صرف بعض ماملكه إلى بعض مايجبره ليقوم مقام الشكر باللسان ، إذ به يتم تعظيمه . فإذا لم يجد كسر هوى النفس من أجله فهو أيضاً من تعظيمه . فافهم .

وفى هذه الآية مباحث :

الأول : معنى : (أو) التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث . فإذا لم يجد انتقل إلى الصوم .

فأما الإطعام فليس فيه تحديد بقدر . لا فى وجبة ولا وجبتين ، ولا فى قدر من الكيل .

ولذا روى عن الصحابة والتابعين فيه وجوه . جميعها مما يصدق عليه مسماه ، فبأيها أخذ أجزأه . فمنها مارواه ابن بى حاتم عن علىّ رضى الله عنه قال : يغديهم ويعشيهم . كأنه ذهب ـ رضى الله عنه ـ إلى المراد بالإطعام الكامل ـ أعنى قوت اليوم وهو وجبتان ـ وإلا فالإطعام يصدق على الوجبة الواحدة .

ولذا قال الحسن ومحمد بن الحنفية : يكفيه إطعامهم أكلة واحدة خبزاً ولحماً . زاد الحسن : فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً ، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلًّا حتى يشبعوا .

وعن عمر وعلى أيضاً وعائشة وثلة من التابعين : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر أو نحوهما .

وعن ابن عباس : لكل مسكين مدّ من بُر ومعه إدامه .

وفى (فتح القدير) من كتب الحنفية : يجوز أن يغديهم ويعشيهم بخبز. إلا أنه إن كان بُرًّا لا يشترط الإدام ، وإن كان غيره فبإدام .

وحكى عن الهادى : اشتراط الأكل لإشعار (الإطعام) بذلك .

والأكثرون : أن الأكل غير شرط . لأنه ينطلق لفظ (الإطعام)على التمليك .

الثانى : إطلاق (المساكين) يشمل المؤمن والكافر الذمىّ والفاسق . فبعضهم أخذ بعموم ذلك . ومذهب الشافعيه والزيدية :خروج الكافر بالقياس على منع صرف الزكاة إليه ، وأما الفاسق فيجوز الصرف إليه مهما لم يكن فى ذلك إعانة له على المنكر . ولم يجوزه الهادى . وظاهر الآية اشتراط العدد فى المساكين . وقول بعضهم : إن المراد إطعام طعام يكفى العشرة، مفرعاً عليه جواز إطعام مسكين واحد عشرة أيام ـ عدول عن الظاهر ، لا يثبت إلا بنص .

الثالث : لم يبين فى الآية حدّ الكسوة وصفتها ؛ فالواجب حينئذ الحمل على ما ينطلق عليها اسمها .

قال الشافعىّ ، رحمه الله : لو دفع إلى كل واحدٍ من العشرة مايصدق عليه اسم الكسوة ـ من قميصٍ أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة ـ أجزأه ذلك .

وقال مالك وأحمد بن حنبل : لابد أن يدفع إلى كلّ واحد منهم من الكسوة ما يصحّ أن يصلى فيه ، إن كان رجلًا أو امرأة ، كل بحسبه .

وقال العوفىّ عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة .

وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت .

وعن ابن المسيّب : عمامة يلفّ بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها .

وعن الحسن وابن سيرين : ثوبان ثوبان .

وروى ابن مردويه عن عائشة عن رسول الله ﷺ فى قوله تعالى (أَوْ كِسْوَتُهُمْ) قال: عباءة لكلّ مسكين . قال ابن كثير : حديث غريب .

أقول : لا يخفى الاحتياط والأخذ بالأكمل والأفضل فى الإطعام والكسوة .

الرابع : قال الرازىّ : المرادُ بِـ (الرقبة) الجملة . قيل : الأصل فى هذا المجاز أنّ الأسير فى العرب كان يجمع يداه إلى رقبته بحبل . فإذا أطلق حلّ ذلك الحبل . فسمّى (الإطلاق من الرقبة) فكّ الرقبة . ثم جرى ذلك على العتق . وقد أخذ بإطلاقها أبو حنيفة فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة . وقال الشافعىّ وآخرون : لابدّ أن تكون مؤمنة . وأخذ تقييدها من كفارة القتل لاتحاد الموجب، وإن اختلف السبب . ومن حديث معاوية ابن الحكم السلمىّ ـ الذى هو فى (موطأ مالك)(١) و (مسند الشافعىّ) و (صحيح مسلم)(٢) ـ

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٣٨ ـ كتاب العتق والولاء ، حديث ٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) وسنسوقه بنصه الكامل :

عن معاوية بن الحكم السُّلَمِىّ قال : بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله ! فرمانى القوم بأبصارهم . فقلت : واثكل أُمّياهْ . ما شأنكم ؟ تنظرون إلىّ ! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم . فلما رأيتهم يصمّتوننى . لكن سكتُّ . فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبأبى هو وأمى ! ما رأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه . فوالله ! ما كهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى . قال « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس . إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» .أو كما قال رسول الله ﷺ . قلت : يا رسول الله ! إنى حديث عهد بجاهلية . وقد جاء الله بالإسلام . وإن منا رجالًا يأتون الكهّان . قال « فلا تأتهم » قال : ومنا رجال يتطيّرون . قال « ذاك شىء يجدونه فى صدورهم . فلا يصدّنّهم » قال قلت : ومنا رجال يخطّون . قال « كان نبىّ من الأنبياء يخطّ ، فمن وافق خطه فذاك » .

قال : وكانت لى جارية ترعى غنما لى قِبَل أُحُد والجوّانية . فاطلعتُ ذات يوم فإذا =

أنه ذكر أنّه عليه عتق رقبة . وجاء معه بجارية سوداء . فقال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . . . الحديث بطوله .

قال الشعرانيّ، قدس سره، في (الميزان) : قال العلماء : عدم اعتبار الإيمان في الرقبة مشكل . لأن العتق ثمرته تخليص رقبة لعبادة الله عزّ وجلّ . فإذا أعتق رقبة كافرة فإنما خلّصها لعبادة إبليس . وأيضاً فإن العتق قربة ، ولا يحسن التقرب إلى الله تعالى بكافر . انتهى.

الخامس : للعلماء في حدّ الإعسار الذي يبيح الانتقال إلى الصوم أقوال . وظاهر الآية هو أن لا يملك قدر إحدى الكفارات الثلاث ـ من الإطعام أو الكسوة أو العتق ـ فإن وجد قدر إحداها كان ذلك مانعاً من الصوم ، اللهمّ إذا فضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك .

وقد روى ابن جرير عن سعيد بن جبير والحسن أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام ، وإلّا صام .

السادس : إطلاق قوله تعالى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) صادق على المجموعة والمفرّقة . كما في قضاء رمضان . لقوله (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)(١) . ومَن أوجب التتابع استدلّ بقراءة

= الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ . فعظّم ذلك عليّ . قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتني بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال « مَن أنا ؟ » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] ونصها : أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . =

أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود أنهما كانا يقرءان (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ) وقراءتهما لا تتخلف عن روايتهما .

قال الأعمش : كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك .

قال ابن كثير : وهذه ، إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً ، فلا أقلّ أن يكون خبر واحد أو تفسيرًا من الصحابة . وهو فى حكم المرفوع .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة : يا رسول الله ! نحن بالخيار ؟ قال : أنت بالخيار . إن شئت أعتقت . وإن شئت كسوت . وإن شئت أطعمت . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب جدًّا .

ونقل بعض الزيدية ، روايةً عن ابن جبير ، أنه كان يصلى تارةً بقراءة ابن مسعود وتارةً بقراءة زيد .

السابع : قال الناصر فى (الانتصاف) : فى هذه الآية ـ يعنى قوله تعالى (ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) ـ وجهٌ لطيفُ المأخذ فى الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث ، وهو المشهور من مذهب مالك . وبيان الاستدلال بها أنه جعل مابعد الحلف ظرفاً لوقوع الكفارة المعتبرة شرعاً . حيث أضاف (إذا) إلى مجرد الحلف ؛ وليس فى الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث . فتعين تقديره مضافاً إلى الحلف . بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار . إذْ لا يعطى قوله (ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ) إيجاباً ، إنما يعطى صحةً واعتبارًا . والله أعلم .

= و [٢ / البقرة / ١٨٥] ونصها : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

وهذا انتصار على منع التـكفير قبل الحنث مطلقاً ، وإن كانت اليمين على برّ .

والأقوال الثلاثة فى مذهب مالك ، إلّا أن القول المنْصُور هوالمشهور . انتهى .

وقال الرازىّ : احتجّ الشافعىّ بهذه الآية على أن التـكفير قبل الحنث جائز . لأنها دلت على أن كل واحد من الثلاثة كفارة لليمين عند وجود الحلف . فإذا أدّاها بعد الحلف، قبل الحنث ، فقد أدّى الـكفارة . وقوله (إِذَا حَلَفْتُمْ) فيه دقيقة . وهى التنبيه على أن تقديم الـكفارة قبل اليمين لا يجوز . انتهى .

وفى (الصحيحين)(١) من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها ، فـكفّر عن يمينك وَأْتِ الذى هو خـير . وعند أبى داود : فـكفّر عن يمينك ثم أْتِ الذى هو خير .

الثامن قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَـكُمْ) استحباب ترك الحنث إلّا إذا كان خيرًا ، أى : لما تقدم من حديث ابن سمرة . وهذا على أحد وجهين فى الآية . والآخر النهى عن الإكثار من الحلف كما سبق . قال كثيّر(٢) :

قليل الأَلَايَا حافظٌ ليمينه   وإن سَبَقَتْ منه الأَلِيَّةُ بَرَّت!

(١) أخرجه البخارىّ فى ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١ ـ باب قول الله تعـالى : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِـكُمْ ، حديث رقم ٢٤٨٨ وها كهو بتمامه :

عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبىّ ﷺ « يا عبدالرحمن بن سمرة ! لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسئلة وُكِلْتَ إليها ، وإن أوتيتها من غير مسئلة أعنتَ عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها ، فـكفّر عن يمينك وأْتِ الذى هو خير .

وأخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ١٩ (طبعتنا) .

(٢) استشهد به فى اللسان . ولم ينسبه . وقال : الألية على فعِيلة : اليمين . والجمع ألايا . وبَرَّت يمينه : صدقت .

التاسع : حكمة تقديم الإطعام على العتق ـ مع أنه أفضل ـ من وجوه : (أحـدها) : التنبيه من أول الأمر على أنّ هذه الـكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب . وإلّا لَبُدِئ بالأغلظ (ثانيها) : كون الطعام أسهل لأنه أعمّ وجودًا ، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعى التخفيف والتسهيل فى التـكاليف و (ثالثها) : كون الإطعام أفضل ، لأن الحرّ الفقير قد لا يجد الطعام ، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام ، فيقع فى الضرّ . أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته، أفاده الرازىّ .

العاشر : سرّ إطعام العشرة ، أنه بمنزلة الإمساك عن الطعام عشرة أيام العدد الـكامل، الـكاسرة للنفس المجترئة على الله تعالى. وسرّ الـكسوة كونه يجزى بستر العورة سرّ المعصية. وسرّ التحرير فكّ رقبة عن الإثم. وسرّ صوم الثلاثة، أنّ الصيام لما كان ضيرًا بنفسه اكتفى فيه بأقلّ الجمع . أفاده المهايمىّ ، قدس سره .

= وأنشده فى (الألفاظ الـكتابية)، ولم ينسبه وقد أخطأ فيه خطأين قال : سُبِقت وقال : بُرّتْ .

وقصيدة كثير التى يظن أن منها هذا البيت رواها :

فى مهذب الأغانى بالصفحة ١٦٠ من الجزء الثالث .

وفى أمالى المرتضى ، الطبعة الأولى ، بالصفحة ١٤٠ من الجزء الرابع .

وفى رغبة الآمل بالصفحة ٢٠٦ من الجزء الثالث .

وفى أمالى القالى بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثانى .

وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة بالصفحة ٤٧٥ .

وفى شواهد الـكشاف بالصفحة ٢٥ .

كل أولئك لم أجد فى شىء منها هذا البيت المستشهد به .

الحادى عشر : قال شمس الدين بن القيّم فى (زاد المعاد) :

« كان ﷺ يستثنى فى يمينه تارةً ، ويكفرها تارة ، ويمضى فيها تارة . والاستثناء يمنع عقد اليمين . والكفارة تحلّها بعد عقدها . ولهذا سمّاها الله (تَحِلَّة) . وحلف ﷺ فى أكثر من ثمانين موضعاً . وأمره الله سبحانه بالحلف فى ثلاثة مواضع : فقال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ)(١) وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ)(٢) وقال تعالى : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٣) .

وكان إسماعيل بن إسحق القاضى يذكر أبا بكر بن داود الظاهرىّ ولا يسميه بالفقيه . فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له . فتوجهت اليمين على أبى بكر بن داود . فتهيّأ للحلف. فقال له القاضى إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعنى عن الحلف ؟ وقد أمر الله تعالى نبيّه بالحلف فى ثلاثة مواضع من كتابه . قال : أين ذلك ؟ فسردها أبوبكر ، فاستحسن ذلك منه جدًّا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم .. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ » أى : الشراب الذى خامر العقل ، أى خالطه

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . . . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

(٢) [٣٤ / سبأ / ٣] . . . عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ .

(٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

فستره « وَالْمَيْسِرُ » أى : القمار « وَالأَنْصَابُ » أى : الأصنام المنصوبة للعبادة « وَالأَزْلامُ » أى : القداح « رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » أى : خبيث من تزيين الشيطان ، وقذر تعاف عنه العقول .

قال المهايمىّ : لأن الخمر تضيع العقل ، وما دون السكر داع إلى ما يستكمله ، فأقيم مقامه فى الشرع الكامل . والميسر يضيع المال . والأنصاب تضيع عزة الإنسان بتذلُّلِهِ لما هو أدنى منه . والأزلام تضيع العلم للجهل بالثمن والمثمن . انتهى .

وما ذكره هو شذرة من مفاسدها « فَاجْتَنِبُوهُ » أى : اتركوه ، يعنى : ما ذكر . أو (الرجس) الواقع على الكل « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : رجاء أن تنالوا الفلاح فتنجوا من السخط والعذاب وتأمنوا فى الآخرة .

ثم أكد تعالى تحريم الخمر والميسر ببيان مفاسدهما الدنيوية والدينية . فالأولى فى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ » أى : المشاتمة والمضاربة والمقاتلة « وَالْبَغْضَاءَ » القاطعة للتعاون الذى لابد للإنسان منه فى معيشته « فِي الْخَمْرِ » أى إذا صرتم نشاوى « وَالْمَيْسِرِ » إذا ذهب مالكم . وقد حكى أنه ربما قامر الرجل بأهله وولده فإذا أخذه الخصم وقعت العداوة بينهما أبداً . ثم أشار إلى مفاسدها الدينية بقوله : « وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » إذ يغلب السرور والطرب على النفوس والاستغراق فى اللاذّ الجسمانية فيلهى عن ذكر الله . والميسر ، إن كان صاحبه غالباً انشرحت نفسه ومنعه حب الغلبة والقهر عن ذكر الله . وإن كان مغلوباً ، مما حصل من الانقباض أو الاحتيال إلى أن يصير غالباً،

لايخطر بباله ذكر الله « وَعَنِ الصَّلَوٰةِ » أى : ويصدكم عن مراعاة أوقاتها . وقوله تعالى « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » من أبلغ ماينهى به ، كأنه قيل : قد تلى عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع . فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا ؟ أفاده الزمخشري .

تنبيهات :

الأول : سبق الكلام على الخمر والميسر فى سورة البقرة فى قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) وسلف أيضاً معنى الأنصاب والأزلام فى أول هذه السورة عند قوله: (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ) فتذكر .

الثانى: إنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ، ثم أفردا آخراً ، وخصصا بشرح مافيهما من الوبال ــ للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما . وذكر الأصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة . كأنه لامباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله فى علم الغيب ، وبين من شرب خمراً أو قامر .

روى الحارث بن أبى أسامة فى (مسنده) عن ابن عمرو مرفوعاً : شارب الخمر كعابد وثن ، وشارب الخمر كعابد اللات والعزَّى . وإسناده حسن .

وتخصيص الصلاة بالإفراد ، مع دخولها فى الذكر ، للتعظيم والإشعار بأن الصادّ عنها كالصادّ عن الإيمان، لما أنها عماده .

الثالث : هذه الآية دالة على تأكيد تحريم الخمر والميسر من وجوه :

(منها) : تصدير الجملة بـ (إنما) وذلك لأن هذه الكلمة للحصر ، فكأنه تعالى قال : لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا الخمر والميسر وما ذكر معهما .

و (منها) : أنه قرنهما بعبادة الأوثان .

و (منها):أنه جعلهما رجساً كما قال تعالى (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ)[١] .

و (منها) : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت .

و (منها) : أنه أمر بالاجتناب ، وظاهر الأمر للوجوب .

و (منها) : أنه جعل الاجتناب من الفلاح. وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خيبة ومحقة .

و (منها) : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ـ وهو وقوع التعادى والتباغض ـ وما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة .

و (منها) : إعادة الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف بقوله سبحانه (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فآذن بأن الأمر فى الزجر والتحذير ، وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية . وأنّ الأعذار قد انقطعت بالكلية .

و (منها) : قوله تعالى بعد ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ » أى : فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه « وَاحْذَرُوا » أى : مخالفتهما فى ذلك . فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الخمر والميسر دخولاً أولياً .

و (منها) : قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى: إن أعرضتم عن الامتثال

---

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] ونصها : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .

بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر ، فقد قامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار . والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ إذ أدّاه بما لا مزيد عليه . فما بقى بعد ذلك إلّا العقاب . وفيه تهديد عظيم ووعيد شديد فى حقّ من خالف وأعرض عن حكم الله وبيانه .

الرابع : قال الرازىّ : اعلم أن من أنصف وترك الاعتساف ، علم أنّ هـــذه الآية نصّ صريح فى أن كل مسكر حرام . وذلك لأنه تعالى رتب النهى عن شرب الخمر على كونها مشتملة على تلك المفاسد الدينية والدنيوية . ومن المعلوم فى بَدَائِهِ العقول أن تلك المفاسد إنما تولّدت من كونها مؤثرة فى السكر . وهذا يفيد القطع بأن علة قوله (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) هى كون الخمر مؤثّرًا فى الإسكار . وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن كلّ مسكر حرام . قال : ومن أحاط عقله بهذا التقرير ، وبقى مصرًّا على قوله ، فليس لعناده علاج . انتهى .

ثم بيّن تعالى رفع الإثم عمّن مات وهو يشرب الخمر قبل التحريم ـ كما سنفصّله ـ بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ » أى إثم « فِيمَا طَعِمُوا » مما حرّم بعد تناولهم « إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

وهنا مسائل

الأولى : قال بعض المفسرين : إنْ قيل : لِمَ خصّ المؤمنين بنفى الجناح فى الطيبات إذا

ما اتقوا ، والكافر كذلك ؟ قال الحاكم : لأنه لا يصحّ نفى الجناح عن الكافر ، وأما المؤمن فيصحّ أن يطلق عليه ، ولأن الكافر سدّ على نفسه طريق معرفة الحلال والحرام . انتهى .

وفى (العناية) : تعليق نفى الجناح بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها ، فإن عدم الجناح فى تناول المباح الذى لم يحرم لا يشترط بشرط . بل على سبيل المدح والثناء والدلالة على أنهم بهذه الصفة .

قال الزمخشرىّ : ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح ؟ فتقول ـ وقد علمت أن ذلك أمر مباح ـ ليس على أحد جناح فى المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً ؛ تريد: إن زيداً تقىّ مؤمن محسن ، وإنه غير مؤاخذ بما فعل .

وقال العلامة أبو السعود : ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة، لا دخل لها فى انتفاء الجناح . وإنما ذكرت فى حيز (إذا) شهادةً باتصاف الذين سئل عن حالهم بها، ومدحاً لهم بذلك ، وحمداً لأحوالهم . وقد أشير إلى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعاً للاتقاء فى كل مرة تمييزاً بينها وبين ماله دخل فى الحكم ، فإنّ مساق النظم الكريم بطريق العبارة ـ وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتى بقضية كلمة (إذا ما) ـ لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لإثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلىّ على الوجه البرهانىّ بطريق دلالة النص بناءً على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها ، فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا كانوا فى طاعته تعالى . مع مالهم من الصفات الحميدة ـ بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال ـ وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمهما إذ ذاك . ولو حرّما فى عصرهم ، لاتقوهما بالمرة .

وقال الطيبىّ : المعنى أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات . وإنما المطلوب منهم الترقى فى مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين ومعارج القدس والكمال . وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك ، وعلى الإيمان بما يجب

الإيمان به ، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة التى يتمكن بها إلى الترقى إلى مرتبةالمشاهدةومعارج (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) وهو المعنىّ بقوله تعالى: وَأَحْسِنُوا...الخ وبه ينتهى للزلفى عند الله ومحبته . والله يحب المحسنين .

قال الخفاجىّ : وهـذا دفع للتكرير وأنه ليس لمجرد التأكيد ، لأنه يجوز فيه العطف بـ (ثم) كما صرح به ابن مالك فى قوله تعالى : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(١) . بل به باعتبار تغاير ما علق به مرة بعد أخرى . والله أعلم .

الثانية : الإحسان المذكور فى الآية : إمّا إحسان العمل ، أو الإحسان إلى الخلق ، أو إحسان المشاهدة المتقدم ؛ ولا مانع من الحمل على الجميع .

الثالثة : روى فى سبب نزولها عن أنس قال(٢): كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة. فنزل تحريم الخمر . فأمر ﷺ منادياً فنادى . فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ماهذا الصوت . قال، فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادى : ألا إنّ الخمر قد حرّمت . فقال لى : اذهب فأهرقها. قال ، فَجَرَتْ فى سكك المدينة .

قال ، وكانت خمرهم يومئذٍ الفضيخ . فقال بعض القوم : قتـل قوم وهى فى بطونهم .

---

(١) [١٠٢ / التكاثر / ٣و٤] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٢١ ـ باب صب الخمر فى الطريق ، حديث ١٢١٦ وهذا نصه :

عن أنس رضى الله عنه : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة . وكان خمرهم يومئذ الفضيخ . فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادى « ألا إنّ الخمر قد حرّمت » .

قال ، فقال لى أبو طلحة : اخرجْ فأهرقها . فخرجت فهرقتها فجرت فى سكك المدينة .

فقال بعض القوم : قد قُتِل قوم وهى فى بطونهم .

فأنزل الله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا . . . الآية.

قال ، فأنزل الله : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآية . رواه البخارى[1] فى (التفسير) .

وروى الترمذى[2] عن البراء بن عازب قال : مات ناس من أصحاب النبى ﷺ وهم يشربون الخمر . فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب النبى ﷺ : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ قال ، فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ . . . الآية . وقال : حسن صحيح .

وعن ابن عباس قال[3] : قالوا : يا رسول الله ! أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ (لما نزل تحريم الخمر) ، فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد[4] عن أبى هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات : قدم رسول الله ﷺ

(١) هذا نص البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٠ ـ باب قوله : إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذى تسمونه الفضيخ . فإنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً ، إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : حرّمت الخمر . قالوا : أهرق هذه القلال ، يا أنس !

قال : فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل .

وفى: ١١ ـ باب قوله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ... إلى قوله : وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ونصه كنص المتن .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١١ ـ حدثنا بذلك بندار .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٢ ـ حدثنا عبد بن حميد .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) .

المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر . فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ؟ فأنزل الله على نبيه ﷺ : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا(١) ... إلى آخر الآية . فقال الناس : ما حرّم علينا . إنما قال : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ . وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين. أمّ أصحابه في المغرب. خلط في قراءته فأنزل الله(٢) آية أغلظ منها : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك(٣) : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... ـ إلى قوله ـ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . ؟ فقالوا : انْتَهَيْنَا. رَبَّنَا ! فقال الناس : يا رسول الله ! ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً ومن عمل الشيطان ؟ فأنزل الله تعالى : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا... الآية ، فقال النبيّ ﷺ : لو حرّمت عليهم ، لتركوها كما تركتم .

قال ابن كثير : انفرد به أحمد .

وعن(٤) أبي ميسرة قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللهمّ ! بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... الآية ، فدُعي عمر

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] .

(٢) [٤ / النساء / ٤٣] .

(٣) [٥ المائدة / ٩٠] .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٣٧٨ (طبعة المعارف) .

وأبو داود في : ٢٥ ـ كتاب الأشربة ، ١ ـ باب في تحريم الخمر ، حديث ٣٦٧٠ .

والترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥ سورة المائدة ، ٨ ـ باب حدثنا عبد بن حميد .

فقرئت عليه فقال : اللهمّ ! بَيِّنَ لنا فى الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التى فى سورة النساء : يأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . فكان منادى رسول الله ﷺ ـ إذا قال : حىّ على الصلاة ـ نادى : لا يقربنّ الصلاة سكران. فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ ! بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية التى فى المائدة . فدُعى عمر فقرئت عليه . فلما بلغ قول الله تعالى (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قال عمر : انتهينا ! انتهينا ! رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن .

وروى البيهقىّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار . شربوا فلما أن ثمـل القوم عبث بعضهم ببعض . فلما أن صَحَوْا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول : صنع بى هـذا أخى فلان . وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، فيقول : والله ! لو كان بى رؤوفاً رحيما ماصنع بى هذا . حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم ، فأنزل الله تعالى هـذه الآية . إِنَّمَا الْخَمْرُ . . . . ـ إلى قوله ـ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

فقال ناس من المتكلفين : هى رجس وهى فى بطن فلان وقد قتل يوم أُحُد. فأنزل الله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ... الآية . ورواه النسائىّ فى (التفسير) .

وأخرج أبوبكر البزار عن جابر رضى الله عنه قال : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبىّ ﷺ ثم قتلوا شهداء يوم أحد، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم . فنزلت : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ...الآية . قال البزار . إسناده صحيح .

قال ابن كثير : هو كما قال .

وقد ساق ابن كثير ـ هنا ـ أحاديث كثيرة فى تحريم الخمر مما رواه أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، فمن شاء فليرجع إليه . ولا يخفى أن تحريمها معلوم من الدين بالضرورة .

وقد روى السيوطىّ فى (الجامع الكبير) عن ابن عساكر بسنده إلى سيف بن عمر عن الربيع وأبى المجالد وأبى عثمان وأبى حارثة قالوا : كتب أبو عبيدة إلى عمر رضى الله عنهما : إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب . منهم ضرار وأبو جندل . فسألناهم فتأولوا وقالوا : خيرنا فاخترنا . قال : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ ولم يعزم . فكتب إليه عمر : فذلك بيننا وبينهم (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) يعنى : فانتهوا . وجمع الناس فاجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة ويضمنوا النفس ، ومن تأول عليها بمثل هـذا ، فإن أبى قتل . وقالوا : من تأول على ما فرّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم منه، يزجر بالفعل والقتل . فكتب عمر إلى أبى عبيدة : أن ادعهم . فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم . وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين . فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الأشهاد فقالوا : حرام. فجلدهم ثمانين . وحدّ القوم ،وندموا على لجاجتهم، وقال : ليحدثن فيكم ـ ياأهل الشام ! ـ حادث ، فحدث(١) الرمادة .

ورواه سيف بن عمر أيضاً عن الشعبىّ والحكم بن عيينة .

---

(١) قال الدكتور محمـد حسين هيكل فى كتابه (الفاروق عمر) بالصفحة ٢٨٧ من الجزء الأول ما نصه :

وسبب المجاعة أن أُمسك المطر فى شبه الجزيرة كلها تسعة أشهر كاملة . وأن تحركت الطبقات البركانية من أرضها فاحترق سطحها وكل ما عليه من نبات . فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب . فإذا تحركت الريح سَفَتْ رمادا . ولذا سمّى هذا العام عام الرمادة.

ونشأ عن إمساك المطر وهبوب الرياح وهلاك الزرع والضرع جوع أهلك الناس والأنعام.

فقد فنى كثير من قطعان الغنم والماشية ، وجف ما بقى منها، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها ، رغم جوعه وبلواه .

من ثم أقفرت الأسواق فلم يبق فيها ما يباع ويشترى ، وأصبحت الأموال فى أيدى أصحابها لا قيمة لها . إذ لا يجدون إزاءها ما يسدّ رمقهم . وطال الجهد واشتد البـلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق اليرابيع والجرذان ، يخرجون ما فيها . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ » أى : يرسله إليكم وأنتم محرمون « تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ » لتأخذوه ، وهو الضعيف من الصيد وصغيره « وَرِمَاحُكُمْ » لتطعنوه ، وهو كبار الصيد « لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ » فيمتنع عن الاصطياد لقوة إيمانه .

قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية . فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون .

قال ابن كثير : يعنى أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم فى رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سرًّا وجهرًا ، لتظهر طاعة من يطيع منهم فى سره أو جهره ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١) .

وقوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَىٰ » أى : بالصيد « بَعْدَ ذَٰلِكَ » يعنى بعد الإعلام والإنذار « فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ » لمخالفته أمر الله وشرعه .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير فى قوله (بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) ؟ قلت : قلّل وصغّر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التى تدحض عندها أقدام الثابتين ـ كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ـ وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده ، فكيف شأنهم عند ما هو أشدّ منه ..؟

(١) [٦٧ / الملك / ١٢] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : قد وردت هذه الصيغة بعينها فى الفتن العظيمة فى قوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ[1] . فلا خفاء فى عظم هذه البلايا والمحن التى يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر عظيم. فقول الزمخشرىّ : إنه قلل وصغّر تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام ـ مدفوعٌ باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ المراد بما أشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعضٌ من كلٍّ ، بالنسبة إلى مقدور الله تعالى . وإنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول . وأنه مهما اندفع عنهم ممّا هو أعظم فى المقدور فإنما يدفعه عنهم إلى ماهو أخف وأسهل، لطفاً بهم ورحمةً . ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر، وحاملًا على الاحتمال. والذى يرشد إلى أن هذا مرادٌ ، أنّ سبق التوعد بذلك لم يكن إلّا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه . فيكون أيضاً باعثاً على تحمله . لأن مفاجأة المكروه بغتة أصعب . والإنذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه . وحاصل ذلك لطف فى القضاء ... فسبحان اللطيف بعباده . وإذا فكّر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد المندفع عنه منها أكثر ، إلى مالا يقف عند غاية . فنسأل الله العفو والعافية واللطف فى المقدور ... انتهى .

وللزمخشرىّ أن يجيب بأن آية (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) شاهدة له لا عليه. لأنه المقصود فيه أيضاً التحقير بالنسبة إلى ما دفعه الله عنهم ـ كما صرح به الناصر ـ مع أنه لا يتم دفعه بالآية إلّا إذا كان (وَنَقْصٍ) معطوفاً على مجرور (من) ، ولو عطف على (شىء) لكان مثل هذه الآية بلا فرق ... كذا فى (العناية) .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ » أى : محرمون بحجّ أو عمرة .

قال المهايميّ : لأن قتله تجبّر . والمحرم فى غاية التذلّل . انتهى .

وذكر القتل، دون الذبح والذكاة، للتعميم . أو للإيذان بكونه فى حكم الميتة. و (الصيد) ما يصاد مأكولًا أو غيره . ولا يستثنى إلّا ما ثبت فى (الصحيحين)[1] عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : خمس فواسق يقتلان فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وفى رواية : (الحية) بدل (العقرب) .

قال زيد بن أسلم وابن عيينة : الكلب العقور يشمل السباع العادية كلها . ويستأنس لهذا بما روى أنّ رسول الله ﷺ لمّا دعا على عتبة بن أبى لهب قال : اللهمّ ! سلّط عليه كلبك. فأكله السبع بالزرقاء . « وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ » أيها المحرمون « مُتَعَمِّدًا » ذاكرًا

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد ، ٧ ـ باب ما يقتل المحرمُ من الدواب ، حديث ٩٢٦ ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن النبيّ ﷺ قال « خمس من الدواب ، كلهن فاسق يُقتلن فى الحَرَم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعتنا) وفيه (الحية) عوضاً عن العقرب .

لإحرامه « فَجَزَاءٌ » بالتنوين ورفع ما بعده ، أي : فعليه جزاء هو « مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » أي : شبهه في الخلقة . وفي قراءة بإضافة (جزاء) « يَحْكُمُ بِهِ » أي : بالمثل مجتهدان « ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ » لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به . وقد حكم ابن عباس وعمر وعليّ رضي الله عنهم في النعامة ببدنة . وابن عباس وأبو عبيدة في بقر الوحش وحماره ببقرة . وابن عمر وابن عوف في الظبي بشاة . وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما في الحمام ، لأنه يشبهها في العبّ « هَدْيًا » حال من (جزاء) « بَالِغَ الْكَعْبَةِ » أي : يبلغ به الحرم. فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه . فلا يجوز أن يذبح حيث كان «أَوْ» عليه « كَفَّارَةٌ » غير الجزاء . وإن وجده. هي « طَعَامُ مَسَاكِينَ » من غالب قوت البلد مايساوي قيمة الجزاء. لكل مسكين مدّ . وفي قراءةٍ بإضافة (كفارةٍ) لما بعده، وهي للبيان «أَوْ» عليه« عَدْلُ » مثل « ذَٰلِكَ » الطعام « صِيَامًا » يصوم ، عن كل مدّ ، يوماً « لِيَذُوقَ » أي : هاتكُ حرمة الله « وَبَالَ أَمْرِهِ » أي : شدة وثقل هتكه لحرمة الإحرام . و (ليذوق) متعلق بالاستقرار في الجار والمجرور . أي : فعليه جزاء ليذوق . أو بفعل يدلّ عليه الكلام . أي: شرع ذلك عليه ليذوق « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ » من قتل الصيد قبل تحريمه . « وَمَنْ عَادَ » إليه « فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » بطلب الجزاء في الدنيا والمعاقبة في الآخرة . وكيف يترك ذلك « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » غالب على أمره . ومقتضى عزته الانتقام من هاتك حرمته ، فهو لا محالة « ذُو انْتِقَامٍ » ممّن عصاه .

تنبيهات :

الأول ـ روى ابن أبي حاتم عن طاوس قال : لا يحكم على من أصاب صيداً خطأً ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً .

قال ابن كثير: وهذا مذهب غريب . وهو تمسك بظاهر الآية .

ورأيت في بعض تفاسير الزيدية نسبة هذا القول إلى ابن عباس وعطاء ومجاهد وسالم وأبي ثور وابن جبير والحسن (في إحدى الروايتين) ، والقاسم والهادي والناصر وغيرهم. انتهى.

والجمهور : أن العامد والناسى سواء فى وجوب الجزاء عليه .

وقال الزهرىّ : دلّ الكتاب على العامد . وجرت السنة على الناسى .

الثانى ـ إذا لم يكن الصيد مثليًّا حكم ابن عباس بثمنه يحمل إلى مكة . رواه البيهقىّ .

الثالث ـ ذهب معظم الأئمة إلى التخيير فى هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، لأنه جىء بلفظ (أو) وحقيقتها التخيير .

وعن بعض السلف أن ذلك على الترتيب . قالوا : إنما دخلت (أو) لبيان أن الجزاء لا يعدو أحد هذه الأشياء ؛ ولأنا وجدنا الكفارات من الظهار والقتل على الترتيب . قلنا : هذا معارض بكفارة اليمين وبدم الأذى ، فلا يخرج عن حقيقة اللفظ وهو التخيير .

الرابع ـ تعلق بظاهر قوله تعالى (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ) من قال : لا كفارة على العائد . لأنه تعالى لم يذكرها . وهو مروىّ عن ابن عباس وشريح . والجمهور : على وجوبها عليه . لأن وعيد العائد لا ينافى وجوب الجزاء عليه . وإنما لم يصرح به لعلمه فيما مضى . مع أن الآية يحتمل أن معناها : من عاد بعد التحريم إلى ما كان قبله .

الخامس ـ قال الحاكم : كما دلت الآية على الرجوع إلى ذوى العدل فى المماثلة . ففى ذلك دلالة على جواز الاجتهاد وتصويب المجتهدين . وجواز تعليق الأحكام بغالب الظن . وجواز رجوع العامىّ إلى العالم ، وأن عند التنازع فى الأمور يجب الرجوع إلى أهل البصر ... انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« أُحِلَّ لَكُمْ » خطاب للمُحْرِمِينَ « صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ » قال المهايمىّ : إذ ليس فيه التجبّر المنافى للتذلل الإحرامىّ . و(صَيْدُ الْبَحْرِ) مايصاد منه طريًّا ، و (طَعَامُهُ) مايتزود

منه مملحاً يابساً ، كذا فى رواية عن ابن عباس . والمشهور عنه أن صيده ما أخـذ منه حيًّا ، وطعامه ما لفظه ميتاً . قال ابن كثير : وهـــذا روى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبى أيوب الأنصارىّ رضى الله عنهم ، وعن غير واحد من التابعين .

روى ابن جرير وإبن أبى حاتم عن أبى بكر قال : طعامه كل ما فيه .

وعن ابن المسيب : طعامه ما لفظه حيًّا أو حسر عنه فمات .

« مَتَاعًا لَـكُمْ » أى : تمتيعاً للمقيمين منكم يأكلونه طريا « وَلِلسَّيَّارَةِ » منكم يتزودونه قديدًا .

و (السيارة) القوم يسيرون . أُنِّث على معنى الرفقة والجماعة .

تنبيهان :

الأول : قال ابن كثير . استدل الجمهور على حل ميتته بهـــذه الآية ، وبما رواه الإمام مالك[1] عن ابن وهب وابن كيسان عن جابر قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل. فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة ـ قال وأنا فيهم ـ قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش. فجمع ذلك كله فكان مزودىْ تمر ، قال : فكان يقوّتنا كل يوم قليلاقليلا حتى فنى ولم تصبنا إلا تمرة تمرة ، فقلت: وماتغنى تمرة ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فقدت . قال ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثـل الظَّرِبِ . فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة . ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا . ثم أمر براحلة فرحلت ، ثم مرت تحتها ولم تصبها .

وهذا الحديث مخرج من (الصحيحين)[2] وله طرق عن جابر . وفى (صحيح مسلم)[3]

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٤٩ ـ كتاب صفة النبىّ ﷺ ، حديث ٢٤ (طبعتنا) .
(٢) أخرجه البخارىّ فى:٤٧ـ كتاب الشركة، ١ـ باب الشركة فى الطعام، حديث١٢٢٦ ومسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .
(٣) أخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ١٧ (طبعتنا) .

عن جابر : وتزودنا من لحمه وشائق . فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجه الله لكم . هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله .

وفي بعض روايات مسلم[1] : أنهم كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة .

فقال بعضهم : هي واقعة أخرى . وقال بعضهم : هي قضية واحدة، ولكن كانوا أولًا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة . فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة . والله أعلم .

وعن أبي هريرة[2]: أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء. فإن توضأنا به عطشنا . أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته . رواه مالك والشافعيّ وأحمد وأهل السنن. وصححه البخاريّ والترمذيّ وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم .

---

(١) لم أقف على هذه الرواية .

(٢) أخرجه أحمد في المسند بالصفحة ٢٣٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٧٢٣٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤١ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٨٣ .

والترمذيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٥٢ ـ باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور .

والنسائيّ في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٦ ـ باب ماء البحر .

وابن ماجة في : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٣٨ ـ باب الوضوء بماء البحر ، حديث ٣٨٦ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال[١] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال . رواه الشافعىّ وأحمد وابن ماجة والدارقطنىّ والبيهقىّ ، وله شواهد. وروى موقوفاً .فهذه حجج الجمهور .

الثانى : احتج بهذه الآية أيضاً من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . وقد تقدم عن الصديق أنه قال : طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع ، وأباح ماسواها ، لما رواه الإمام أحمد[٢] وأبوداود عن أبى عبدالرحمن التيمىّ ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع. وللنسائىّ عن عبدالله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيقها تسبيح .

« وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا » أى : محرمين ؛ فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أَثِمَ وَغَرِمَ ، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله. لأنه فى حقه كالميتة « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فى الاصطياد فى الحرم أو فى الإحرام ، ثم حذرهم بقوله سبحانه : « الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : تبعثون فيجازيكم على أعمالكم .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٩٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٧٢٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٨ ـ كتاب الصيد ، ٩ ـ باب صيد الحيتان والجراد ، حديث ٣٢١٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٤٥٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وأخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٥ ـ باب فى قتل الضفدع ، حديث ٥٢٦٩ .

والنسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٣٦ ـ باب الضفدع .

لطيفة :

قال المهايميّ : إنما حرّم الصيد على المحرم ، لأنه قصد الكعبة التي حُرِّمَ صَيْدُ حرمها ، فجعل كالواصل إليه . وإنما حرم صيد حرمها لأنها مثال بيت الملك ، لا يتعرض لما فيه أو في حرمه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ » أي : مدارًا لقيام أمر دينهم بالحج إليه ، ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجَبْي ثمرات كلّ شيء إليه .

قال المهايميّ : جعله الله مقام التوجه إليه في عبادته للناس المتفرقين في العالم ، ليحصل لهم الاجتماع الموجب للتألف ، الذي يحتاجون إليه في تمدّنهم ، الذي به كمالُ معاشهم ومعادهم ، لاحتياجهم إلى المعاونة فيهما .

« وَالشهْرَ الْحَرَامَ » بمعنى الأشهر الحرم ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ـ قيامًا لهم بأمنهم من القتال فيها . لأنه حرم فيها ليحصل التآلف فيها « وَالْهَدْيَ » وهو ما يهدى إلى مكة « وَالْقَلَائِدَ » جمع قلادة . وهي ما يجعل في عنق البدنة التي تهدى وغيره . والمراد بـ (القلائد) ذوات القلائد وهي البدن . خصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر . والمفعول الثاني محذوف ، ثقةً بما مرّ ، أي : جعل الهدى والقلائد أيضًا قيامًا لهم . فإنهم كانوا يأمنون بسَوْق الهدى إلى البيت الحرام على أنفسهم . وفيه قوام لمعيشة الفقراء ثَمَّت . وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوها أو قلّدوا أنفسهم ، عند الإحرام ، من لحاء شجر

الحرم . فلا يتعرض لهم أحد « ذَٰلِكَ » أى : الجعل المذكور « لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فإنّ جعله ذلك لجلب المصالح لكم ودفع المضار عنكم قبل وقوعها ، دليلٌ على علمه بما هو فى الوجود وما هو كائن .

وقد جوّد الرازىّ تقرير هذا المقام فأبدع ، فلينظر .

وقوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تعميمٌ إثر تخصيصٍ للتأكيد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرّ على ذلك « وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وعدٌ لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

« مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » يعنى : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم ، إلّا تبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج . وفى الآية تشديدٌ فى إيجاب القيام بما أمر به . وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ . وقامت عليكم الحجّة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم فى التفريط « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » من الخير والشرّ ، فيجازيكم بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » حكم عام فى نفى المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الردئ من الأشخاص والأعمال والأموال ، وجيّدها . قصد به الترغيب فى صالح العمل وحلال المال « وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ » فإنّ العبرة بالجودة والرداءة ، دون القلّة والكثرة . فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير . والخطاب عامّ لكل معتبر ـ أى : ناظر بعين الاعتبار ـ ولذلك قال « فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِى الْأَلْبَابِ » أى: فاتقوه فى تحرّى الخبيث وإنْ كثر . وآثروا الطيّب وإنْ قلّ « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى : بمنازل القرب عنده تعالى المعدّ للطيّبين .

تنبيهان

الأول ـ قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى لمّا زجر عن المعصية ورغّب فى الطاعة بقوله : اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . . الآية ثم بما بعدها أيضاً ـ أتبعه بنوعٍ آخر من الترغيب والترهيب بقوله : قُلْ لَا يَسْتَوِى . . . الآية . وذلك لأنّ الخبيث والطيب قسمان : أحدهما الذى يكون جسمانيًّا وهو ظاهر لكل أحد . والثانى الذى يكون روحانيًّا . وأخبث الخبائث الروحانية الجهل والمعصية . وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله تعالى وطاعته . وذلك لأن الجسم الذى يلتصق به شىء من النجاسات يصير مستقذرًا عند أرباب الطباع السليمة . فكذلك الأرواح الموصوفة بالجهل بالله والإعراض عن طاعته تصير مستقذرة عند الأرواح الكاملة المقدسة . وأما الأرواح العارفة بالله تعالى ، المواظبة على خدمته ، فإنها تصير مُشْرِقَةً بأنوار المعارف الإلهية ، مبتهجةً بالقرب من الأرواح المقدسة الطاهرة. وكما أنّ الخبيث والطيّب

فى عالم الجسمانيات لا يستويان ، فكذلك فى عالم الروحانيات لا يستويان . بل المباينة بينهما فى عالم الروحانيات أشدّ لأن مضرة خبث الخبيث الجسمانىّ شىء قليل ومنفعة طيبة مختصرة. وأمّا خبث الخبيث الروحانىّ فمضرّته عظيمة دائمة أبدية . وطيب الطيّب الروحانىّ فمنفعته عظيمة دائمة أبدية . وهو القرب من جوار ربّ العالمين ، والانخراط فى زمرة الملائكة المقربين ، والمرافقة مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين. فكان هذا من أعظم وجوه الترغيب فى الطاعة والتنفير عن المعصية .

الثانى ـ قال بعض المفسّرين : من ثمرة الآية أنه ينبغى إجلال الصالح وتمييزه على الطالح. وأنّ الحاكم إذا تحاكم إليه الكافر والمؤمن ، ميّز المؤمن فى المجلس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْئَلُوا » أى : نبيّكم « عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ » أى : تظهر « لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » لمافيها من المشقة « وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ » أى : وإن تسألوا عن أشياء نزل القرآن بها مجملة ، فتطلبوا بيانها ، تبين لكم حينئذ لاحتياجكم إليها. هذا وجه فى الآية . وعليه ف (حين) ظرف لـ (تسئلوا).

وثمت وجه آخر : وهو جعل (حين) ظرفاً لـ (تبد) ، والمعنى : وإن تسألوا عنها . تُبْدَ لكم حين ينزل القرآن .

قال ابن القيّم : والمراد بـ (حين النزول) زمنه المتصل به ، لا الوقت المقارن للنزول . وكأنّ فى هذا إذناً لهم فى السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله . ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقاً. ثم قال : وثمت قول ثانٍ فى قوله تعالى: وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا ... الخ ، وهو أنّه من باب التهديد والتحذير ، أى : ما سألتم عنها فى وقت نزول الوحى جاءكم

بيان ما سألتم عنه بما يَسُوءكم : والمعنى : لاتتعرّضوا للسؤال عمّا يَسُوءكم بيانه، وإن تعرضتم له فى زمن الوحى أبدى لكم . انتهى .

وقال بعضهم : إنه تعالى، بيّن أولًا أنّ تلك الأشياء ـ التى سألوا عنها ـ إن أبديت لهم ساءتهم . ثم بيّن ثانياً أنهم إن سألوا عنها أُبْدِيَتْ لهم . فكان حاصل الكلام إن سألوا عنها أبديت لهم ، وإن أبديت لهم ساءتهم ، فيلزم من مجموع المقدمتين أنهم ، إن سألوا عنها ، ظهر لهم ما يَسُوءهم ولا يسرّهم .

قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى (إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) صفة لـ(أَشْيَاءَ) داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها . وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بإبدائها ، لا بالسؤال عنها ، عقبت بِشَرْطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجب للمحذور قطعاً . فقيل : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ . أى : تلك الأشياء الموجبة للمساءة بالوحى ، كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل . والمراد بها : ما يشق عليهم ويغمّهم من التكاليف الصعبة التى لا يطيقون بها ، والأسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه . فكما أنّ السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها ، كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لإيجابها عليهم بطريق التشديد، لإساءتهم الأدب واجترائهم على المسئلة والمراجعة ، وتجاوزهم عمّا يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عزّ وجلّ، من غير بحثٍ فيه ولا تعرّض لكيفيته وكمّيّته . أى: لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عمّا لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم ـ إن أفتاكم بها وكلفكم إياها حسبما أوحى إليه ـ لم تطيقوا بها ، ونحو بعض أمورٍ مستورة تكرهون بروزها .

« عَفَا اللهُ عَنْهَا » أى : عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم توسعةً عليكم . أو : عفا الله عن بيانها لئلّا يسوءكم بيانها. فالجملة فى موضع جرّ صفة أخرى لـ (أَشْيَاءَ) . أو المعنى : عفا الله عن مسائلكم السالفة ، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بمسائلكم ، فلا تعودوا إلى مثلها . فالجملة حينئذٍ مستأنفة مبينة لأن نهيهم عنها لم يكن لمجرّد

صيانتهم عن المساءة . بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها . وفيه من حثّهم على الجدّ فى الانتهاء عنهـا مالا يخفى « وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » اعتراض تذييلىّ مقرّر لعفوه تعالى ، أى : مبالغ فى مغفرة الذنوب . ولذا عفا عنكم ولم يؤاخذكم بما فرط منكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)

« قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى : سألوا هذه المسئلة ، لكن لا عينها ، بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال . وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير « ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ » أى : بسببها . حيث لم يمتثلوا ما أجيبوا به، ويفعلوه . وقد كان بنو إسرائيل يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا . والمعنى : احذروا مشابهتهم والتعرّض لما تعرّضوا له .

تنبيهات

الأول : روى البخارىّ(١) فى سبب نزولها فى (التفسير) عن أبى الجويرية عن ابن عباس قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً . فيقول الرجل : من أبى ؟ ويقول الرجل، تضلّ ناقته : أين ناقتى ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا ...حتى فرغ من الآية كلها .

وأخرج(٢) أيضاً عن موسى بن أنس عن أنس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله صلى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٢ ـ باب قوله: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، حديث ٢٠٠١ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٢ ـ باب قوله: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، حديث ٨٠ .

الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرا ... قال : فغطّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم، لهم خنين . فقال رجل : مَن أبى ؟ قال : فلان ، فنزلت هذه الآية : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .

وروى البخاريّ[1] أيضاً فى كتاب (الفتن) عن قتادة : أنّ أنساً حدثهم قال : سألوا النبيّ ﷺ حتى أحْفَوْه بالمسئلة . فصعد النبيّ ﷺ ذات يومٍ المنبر فقال : لا تسألونى عن شىء إلّا بينت لكم. فجعلتُ أنظر يميناً وشمالًا ، فإذا كلّ رجلٍ رأسه فى ثوبه يبكى. فأنشأ رجل ـ كان إذا لاحى يُدْعَى إلى غير أبيه ـ فقال: يا نبىّ الله ! من أبى ؟ فقال : أبوك حذافة . ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ رسولًا . نعوذ بالله من سوء الفتن .

فقال النبيّ ﷺ : ما رأيت فى الخير والشرّ كاليوم قط. إنه صوّرت لِىَ الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط .

فكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ .

وفى رواية : قال قتادة يُذْكَرُ ـ بالبناء للمجهول ـ هذا الحديث ... الخ .

وروى البخاريّ[2] أيضاً فى كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنّة) فى باب ما يكره من كثرة السؤال ، عن الزهريّ قال : أخبرنى أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ النبيّ ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر . فلما سلّم قام إلى المنبر فذكر الساعة . وذكر أن بين يديها أمورا عظاما ، ثم قال : من أحب أن يسأل عن شىء فليسأل عنه ،

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ١٥ ـ باب التعوّذ من الفتن، حديث ٨٠.

(٢) أخرجه البخاريّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٣ ـ باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ، حديث ٨٠ .

فوالله ! لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتـكم به مادمت فى مقامى هـذا . قال أنس : فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : سلونى . فقال أنس : فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى ؟ يارسول الله ! قال : النار . فقام عبد الله بن حذافة فقال : من أبى ؟ يارسول الله ! قال : أبوك حذافة . قال : ثم أكثر أن يقول : سلونى .

فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك .

ثم قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ! لقد عرضت علىّ الجنة والنار آنفا فى عُرْض هذا الحائط وأنا أصلى . فلم أركاليوم فى الخير والشر .

وعند مسلم : قال ابن شهاب : أخـبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعتُ بابنٍ قطّ أعقّ منك . أأمنت أن تـكون أمك قد قارفت بعض ماتقارف نساء أهل الجاهلية ، فتفضحها على أعين الناس ؟

قال عبد الله بن حذافة : والله ! لو ألحقنى بعبد أسود للحقته .

وروى ابن جرير(٢) عن السدّىّ قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الأيام فقام خطيبا فقال : سلونى . ــ نحو ما تقدم ــ وزاد : فقام إليه عمر فقبل رجله وقال : رضينا بالله ربا ... الخ .

وزاد : وبالقرآن إماما، فاعف عنا عفا الله عنك . فلم يزل به حتى رضى .

وأخرج أيضا عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمارّ وجهه حتى

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٣ ــ كتاب الفضائل ، حديث ١٣٦ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١٢٨٠١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٢٨٠٢ من التفسير .

جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا؟ قال : فى النار . ـ نحو مامر ـ وفيه : فنزلت: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا...الآية .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وبهذه الزيادة ـ أى على مافى البخارىّ من قول رجل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أين أنا ؟ قال : فى النار . ـ يتضح أن هذه القصة سبب نزول : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ... الآية ، فإن المساءة فى حق هذا جاءت صريحة ، بخلافها فى حق حذافة فإنها بطريق الجواز ، أى : لو قدر أنه فى نفس الأمر لم يكن لأبيه ، فبيّن أباه الحقيقىّ ، لافتضحت أمه ، كما صرحت بذلك أمه حين عاتبته على هذا السؤال . انتهى .

وروى الإمام أحمد[١] والترمذىّ[٢] عن أبى البخترىّ عن علىّ رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) قالوا : يارسول الله ! أفى كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفى كلّ عام ؟ فسكت ، قال ثم قالوا : أفى كلّ عام ؟ . فقال : لا . ولو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت لما استطعتم . فأنزل الله : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا ... الآية .

قال الترمذىّ : غريب. وسمعت البخارىّ يقول : أبو البخترىّ لم يدرك عليًّا.

وروى ابن جرير نحوه عن أبى هريرة[٣] وأبى أمامة[٤] ، وكذا عن ابن عباس[٥] ،

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٩٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٥ ـ حدثنا أبو سعيد الأشجّ .

(٣) الأثر رقم ١٢٨٠٤ من التفسير .

(٤) الأثر رقم ١٢٨٠٧ من التفسير .

(٥) الأثر رقم ١٢٨٠٨ من التفسير .

قال فى الآية :لاتسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولـكن انتظروا. فإذا نزل القرآن فإنـكم لا تسألون عن شى إلا وجدتم بيانه اه .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل . إما على سبيل الاستهزاء أو الامتحان ، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذى لو لم يسئل عنه لـكان على الإباحة .

الثانى ـ قال ابن كثير : ظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته . فالأولى الإعراض عنها وتركها . وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام[1] أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : لا يبلغنى أحدٌ عن أحدٍ شيئاً . فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . ورواه أبو داود[2] والترمذىّ[3] .

الثالث ـ قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) :

لم ينقطع حكم هذه الآية . بل لا ينبغى للعبد أن يتعرّض للسؤال عمّا إن بدا له ساءه . بل يستعفى ما أمكنه ، ويأخذ بعفو الله . ومن ههنا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا صاحب الميزاب ! لا تخبرنا . لمّا سأله رفيقه عن مائه : أطاهر أم لا ؟

وكذلك لاينبغى للعبد أن يسأل ربّه أن يبدى له من أحواله وعاقبته ماطواه عنه وستره. فلعلّه يسوءه إن أبدى له . فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله . فإنه سبحانه يكره إبداءها ، ولذلك سكت عنها . اه .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧٥٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٨ ـ باب فى رفع الحديث من المجلس ، حديث رقم ٤٨٦٠ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب، ٦٣ ـ باب فضل أزواج النبىّ ﷺ .

وما ذكره من التعميم هو باعتبار ظاهرها . وأما المقصود أولًا وبالذات ـ كما يفيده تتمتها ـ فهو النهى عن السؤال بما يسوء إبداؤه فى زمن الوحى .

ويدل له ، مارواه البخارىّ(١) عن سعد بن أبى وقاص : أنّ النبىّ ﷺ قال : إنّ أعظم المسلمين جرماً ، مَنْ سأل عن شىء لم يحرَّم فحرِّم من أجل مسئلته .

فإن مثل ذلك قد أمن وقوعه .

وعن أبى هريرة : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : ذرونى ما تركتكم . فإنما هلكَ مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشىء فأْتُوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه رواه(٢) الإمام أحمد ومسلم والنسائىّ .

وعن أبى ثعلبة الخشنىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إنّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها . وحدّ حدودًا فلا تعتدوها . وحرّم أشياء فلاتقربوها . وترك أشياء، من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها .. رواه الدارقطنىّ وأبو نعيم .

وعن سلمان الفارسىّ(٣) قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فقال :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٣ ـ باب مايكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ، حديث ٢٥٨٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٣٦١ (طبعة المعارف) .

ومسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) .

والنسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الحج ، ١ ـ باب وجوب الحج .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٦ ـ باب ما جاء فى لبس الفراء .

وابن ماجة فى : ٢٩ ـ كتاب الأطعمة ، ٦٠ ـ باب أكل الجبن والسمن ، حديث ٣٣٦٧ (طبعتنا) .

الحلال ما أحـلّ الله فى كتابه . والحرام ما حرّم الله فى كتابه . وما سكت عنه فهو مما قد عفاعنه، فلا تتـكلّفوا. رواه الترمذىّ والحاكم وابن ماجة .

وأخرج الشيخان(١) عن أنس قال : كنا نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء . وكان يعجبنا أن يجىء الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع .

وفى قصة(٢) اللعان من حديث ابن عمر : فـكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها .

---

(١) هــذا الحديث لم يروه البخارىّ وهاكموه بنصه الـكامل كما أخرجه مسلم فى :
١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٠ (طبعتنا) .

عن أنس بن مالك قال : نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء . فـكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية ، العاقلُ ، فيسأله ونحن نسمع .

فجاء رجل من أهل البادية ، فقال : يا محمـد ! أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال « صدق » قال : فمن خلق السماء ؟ قال « الله » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال « الله » قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال « الله » قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال « صدق » قال : فبالذى أرسلك ! آلله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا . قال « صدق » قال : فبالذى أرسلك ! آلله أمرك بهـذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا . قال « صدق » قال : فبالذى أرسلك ! آلله أمرك بهذا ؟ قال « نعم » قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال « صدق » .

قال ثم ولى . قال : والذى بعثك بالحق ! لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن .

فقال النبىّ ﷺ « لئن صدق ، ليدخلنّ الجنة » .

(٢) انظرها فى البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٤ ـ سورة النــور ، =

ولمسلم(١) عن النوّاس بن سمعان قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة بالمدينة ، ما يمنعني من الهجرة إلّا المسألة . كان أحدنا، إذا هاجر، لم يسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ومراده : أنه قدم وافدًا ، فاستمر بتلك الصورة ليحصل المسائل ، خشية أن يخرج من صفة الوفد إلى استمرار الإقامة ، فيصير مهاجرًا ، فيمتنع عليه السؤال .

وفيه إشارة إلى أن المخاطب بالنهى عن السؤال غير الأعراب ، وفودًا كانوا أو غيرهم .

وأخرج أحمد(٢) عن أبى أمامة قال : لمّا نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ...) الآية، كنّا قد اتقينا أن نسأله ﷺ . فأتينا أعرابيًّا فرشوناه برداءٍ وقلنا : سل النبيّ ﷺ .

ولأبى يعلى عن البراء : إن كان ليأتى علىّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيّب . وإن كنا لنتمنى الأعراب ـ أى قدومهم ـ ليسألوا، فيسمعوهم أجوبة سؤالات الأعراب ، فيستفيدوها .

وأمّا ما ثبت فى الأحاديث من أسئلة الصحابة، فيحتمل أن يكون قبل نزول الآية ،

= ١ ـ باب قوله عز وجل : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، حديث ٢٧٩ .

وفى مسلم فى : ١٩ ـ كتاب اللعان ، حديث ١ (طبعتنا) .

والحديث من رواية سهل بن سعد ، لا من رواية ابن عمر .

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث ١٥ (طبعتنا) وتتمة الحديث :

قال : فسألته عن البرّ والإثم ؟ فقال رسول الله ﷺ « البرّ حُسْن الخلق ، والإثم ماحاك فى نفسك ، وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس » .

(٢) من حديث طويل . فى المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

ويحتمل أن النهى فى الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه ، أو مالهم بمعرفته حاجة راهنة : كالسؤال عن الذبح بالقصَب . والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة . والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن . والأسئلة التى فى القرآن : كسؤالهم عن الكلالة والخمر والميسر والقتال فى الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد وغير ذلك ...

لكن الذين تعلقوا بالآية فى كراهية كثرة المسائل عمّا لم يقع، أخذوه بطريق الإلحاق، من جهة أن كثرة السؤال ، لمّا كانت سبباً للتكليف بما يشق ، فحقها أن تجتنب .

وقد عقد الإمام الدارمىّ[١] فى أوائل (مسنده) لذلك باباً . وأورد فيه عن جماعة من الصحابة والتابعين آثارًا كثيرة فى ذلك ، منها :

عن ابن عمر : لا تسألوا عما لم يكن . فإنى سمعت عمر يلعن السائل عما لم يكن .

وعن عمر : أحرّج عليكم أن تسألوا عمّا لم يكن . فإن لنا فيما كان شغلًا .

وعن زيد بن ثابت؛ أنه كان إذا سئل عن الشىء؟ يقول : كان هذا ؟ فإن قيل : لا ! قال : دعوه حتى يكون .

وعن أبىّ بن كعب، وعن عمار نحو ذلك .

وأخرج أبو داود فى (المراسيل) : عن أبى سلمة ومعاذ مرفوعاً : لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها . فإنكم إن تفعلوا لم يزل فى المسلمين مَنْ إذا قال سُدِّد ـ أو وفق ـ وإن عجلتم تشتَّتَتْ بكم السبل .

وعن أشياخ الزبير بن سعيد مرفوعاً : لايزال فى أمتى من إذا سئل سُدِّد ، حتى يتساءلوا عمّا لم ينزل .

قال بعض الأئمة : والتحقيق فى ذلك ؛ أن البحث عما لا يوجد فيه نص ، على قسمين :

(١) أخرج هذه الآثار الدارمىّ فى المقدمة فى : ١٨ ـ باب كراهية الفتيا .

(أحدهما) أن يبحث عن دخوله فى دلالة النصّ على اختـــلاف وجوهها ؛ فهذا مطلوب لا مكروه . بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين . (ثانيهما) ـ أن يدقق النظر فى وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر فى الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس بأن يجمع بين متفرقين بوصف طرديّ مثلا . فهذا الذى ذمه السلف . وعليه ينطبق حديث ابن مسعود رفعه : هلك المتنطعون ... أخرجه مسلم[1] ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته .

ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها فى الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، وهى نادرة الوقوع جـدا ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه فى غيرها أولى ، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع فى بيان ما يكثر وقوعه . وأشد من ذلك ـ فى كثرة السؤال ـ البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها . ومنها لا يكون له شاهد فى عالم الحسّ . كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هـذه الأمة ... إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف . والكثير منه لم يثبت فيه شىء ، فيجب الإيمان به من غـير بحث . وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه فى الشك والحيرة . قال بعضهم : مثال التنطع فى السؤال حتى يفضى بالمسؤول إلى الجواب بالمنع بعد أن يفتى بالإذن ـ أن يسأل عن السلع التى توجد فى الأسواق : هـل يكره شراؤها ممن هى فى يده من قبل البحث عن مصيرها إليه أو لا ؟ فيجيبه بالجواز . فإن عاد فقال : أخشى أن يكون من نهب أو غصب ، ويكون ذلك الوقت قد وقع شىء من ذلك فى الجملة، فيحتاج أن يجيبه بالمنع . ويقيّد ذلك إن ثبت شىء من ذلك حرم ، وإن تردد كره أو كان خلاف الأولى . ولو سكت السائل عن هذا التنطع لم يزد المفتى على جوابه بالجواز . وإذا تقرر ذلك ، فمن يسدّ باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التى يكثر وقوعها، فإنه يقـل فهمه وعلمه ؛ ومن توسع فى تفريع

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ٧ (طبعتنا) عن عبد الله بن مسعود.

المسائل وتوليدها ـ ولا سيما فيما يقل وقوعه أو يندر ، ولا سيما إن كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة ـ فإنه يذم فعله ، وهو عين الذى كرهه السلف . ومن أمعن فى البحث عن معانى كتاب الله ، محافظاً على ما جاء فى تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل . وحصل من الأحكام مايستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معانى السنة وما دلت عليه كذلك، مقتصرًا على مايصلح للحجة منها ، فإنه الذى يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمـل فقهاء الأمصار من التابعين فمَن بعدهم . ـ كذا فى (فتح البارى) ـ .

ثم رأيت فى (موافقات) الإمام الشاطبىّ رحمه الله تعالى، فى أواخرها ـ فى هذا الموضوع ـ مبحثاً جليلًا ، قال فى أوله :

الإكثار من الأسئلة مذموم . والدليـل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح . من ذلك قوله تعالى ... ـ وساق هـذه الآية وما أسلفناه من الآثار وزاد أيضاً عما نقلنا ـ ثم قال : ... والحـاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية ، مذموم. وقدكان أصحاب رسول الله ﷺ قد وُعِظوا فى كثرة السؤال حتى امتنعوا منه. وكانوا يحبون أن يجىء الأعراب فيسألون حتى يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العـلم . . ثم قال : ويتبيّن من هذا أن لـكراهية السؤال مواضع ، نذكر منها عشرة مواضع :

(أحدها) : السؤال عمّا لا ينفع فى الدين ، كسؤال[٢] عبد بن الله بن حذافة : مَن أبى ؟ وروى فى (التفسير) أنه عليه السلام سئل : مابال الهلال يبدو رقيقاً كالخيط ثم لا يزال ينمو

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢٩ ـ باب من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدّث ، حديث ٨٠ عن أنس بن مالك .

حتى يصير بدرًا ثم ينقص إلى أن يصير كما كان ؟ فأنزل الله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ... [١] الآية ، فإنما أجيب بما فيه من منافع الدين .

و (ثانيها) : أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته ، كماسأل الرجل عن الحج [٢] : أَ كلّ عام ؟ مع أن قوله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) [٣] قاض بظاهره أنه للأبد، لإطلاقه. ومثله سؤال بني إسرائيل بعدقوله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.. [٤]

و (ثالثها) : السؤال من غير احتياجٍ إليه في الوقت ، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ خاص

(١) [٢ / البقرة / ١٨٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أيها الناس ! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » فقال رجل: أ كلّ عام؟ يا رسول الله! فسكت. حتى قالها ثلاثا. فقال رسول الله ﷺ « لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » ثم قال « ذروني ما تركتكم . فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأْتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٧] ونصها : فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٦٧] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ[١] . وقوله : وسكت عن أشياء رحمةً بكم، لا عَنْ نسيان، فلا تبحثوا عنها .

و (رابعها) : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها ، كما جاء فى النهى[٢] عن الأغلوطات .

و (خامسها) : أن يسأل عن علة الحكم ـ وهو من قبيل التعبدات ، أو السائل ممّن لا يليق به ذلك السؤال ـ كما فى حديث[٣] قضاء الصوم دون الصلاة .

و (سادسها) : أن يبلغ بالسؤال إلى حدّ التكلّف والتعمّق ، وعلى ذلك يدلّ قوله تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ[٤] ؛ ولما سئل الرجل[٥]:

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢١٧٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٤ ـ كتاب العلم ، ٨ ـ باب التوقى فى الفتيا ، حديث ٣٦٥٦ ونصه :

عن معاوية أن النبىّ ﷺ نهى عن الغَلوطات .

(الغلوطات) بفتح الغين المعجمة وضم اللام ـ هى المسائل التى يغالط بها العلماء ليزلّوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنة . وهى جمع غلوطة ـ بالفتح ـ ثم قيل : هى مثل حلوبة وركوبة، إذا جملا اسمين . وقيل: أصلها أغلوطة ، خففت بطرح الهمزة . كما تقول : لحمر . وأنت تريد (الأحمر) . اهـ محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث ٦٩ (طبعتنا) ونصه :

عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ فقالت : أَحَرُورِيَّةٌ أنت ؟ قلت : لست بحرورية ، ولكنى أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٤) [٣٨ / ص / ٨٦] .

(٥) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث ١٤ (طبعتنا) =

يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ قال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإنا نرد على السباع وترد علينا.

و(سابعها) : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأى ، ولذلك قال سعيد : أعراقىّ أنت؟ وقيل لمالك بن أنس : الرجل يكون عالمًا بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا. ولكن يخبر بالسنة . فإن قبلت منه ، وإلّا سكت .

و (ثامنها) : السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى[1] : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ... الآية . وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضًا للخصومات أسرع التنقل. ومن ذلك سؤال من سأل[2] مالكًا عن الاستواء؟ فقال: الاستواء معلوم ، والكيفية مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

= ونصه : عن يحي بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج فى ركب ، فيهم عمرو بن العاص . حتى وردوا حوضاً . فقال عمرو بن العاص : ياصاحب الحوض ! هل ترد حوضَك السباعُ ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإنا نردُ على السباع وترد علينا .

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ .

(٢) جاء فى كتاب (العلوّ) للذهبىّ ما يأتى :

وروى يحي بن يحي التميمىّ وجعفر بن عبدالله وطائفة قالوا : جاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) كيف استوى ؟

قال : فما رأيت مالكا وجد (أى غضب) فى شىء كموجدته من مقالته . وعلاه =

و (تاسعها) : السؤال عما شجر بين السلف الصالح . وقد سئل عمر بن عبدالعزيز عن قتال أهل صِفِّين؟ فقال : تلك دماء كف الله عنها يدى، فلا أحب أن ألطّخ بها لسانى .

و (عاشرها) : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة فى الخصام . وفى القرآن فى ذم نحو هذا[1] : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ .. »وقال[2] : بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، وفى[3] الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم .

هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ماسواها ، وليس النهى فيها

= الرُّحَضَاءُ (يعنى العرق) وأطرق القوم . فسُرِّى عن مالك وقال : الكيف غير معقول. والاستواء منه غير مجهول . والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وإنى أخاف أن تكون ضالا .

وأمر به فأُخرج .

وساق البيهقىّ بإسناد صحيح عن أبى الربيع الرشدينىّ عن ابن وهب قال : كنت عند مالك، فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ! (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء . ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . وكيف عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة . أخرِجوه . اهـ كلام الإمام الذهبىّ .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠٤] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٨] ونصها : وَقَالُوا ءَأَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٧ ـ باب وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، حديث ١٢١١ عن عائشة .

واحدًا ، بل فيها ما تشتدّ كراهيته، ومنها ما يخفّ ، ومنها ما يحرم ، ومنها يكون محـلّ اجتهاد. وعلى جملة ، منها يقع النهى عن الجدال فى الدين كما جاء : إن المراء فى القرآن كفر. وقال تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ...الآية(١) . وأشباه ذلك من الآى والأحاديث ... فالسؤال فى مثل ذلك منهىّ عنه ، والجواب بحسبه . انتهى كلامه.

التنبيه الرابع :

قال بعض المفسّرين : لابد من تقييد النهى فى هذه الآية (بما لا تدعو إليه حاجة) . لأن الأمر الذى تدعو إليـه الحاجة فى أمور الدين قد أذن الله بالسوال عنه فقال : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٢) . وقال ﷺ(٣): قاتلهم الله ألّا سألوا إذ لم يعلموا. فإنما شفاء العىّ السؤال ... انتهى .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٦٨] ... حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٥ ـ باب فى المجروح يتيمم ، حديث ٣٣٦ ونصه :

عن جابر قال : خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجّه فى رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات .

فلما قدمنا على النبىّ ﷺ أخبر بذلك . فقال « قتلوه ، قتلهم الله . ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العىّ السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر (يعصب) على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » .

ولا يخفى أن الآية بقيدها ـ أعنى (إِنْ تُبْدَ . . . الخ) ـ غنية عن أن تقيّد بقيدٍ آخر كما ذكره البعض . لأن المراد بها ما يشق عليهم من التكاليف الصعبة وما يفتضحون به ـ كما أسلفنا ـ مما هو خوض فى الفضول ، وشروع فيما لا حاجة إليه . وفيه خطر المفسدة . والشيء الذى لا يحتاج إليه ويكون فيه خطر المفسدة ، يجب على العاقل الاحتراز عنه .

وأمّا ما تدعو إليه الحاجة فلا تشمله الآية ـ كما يتضح من نظمها الكريم ـ مع ما بيّنته السنّة فى سبب النزول ، وتحرّج الصحابة عن المسائل المارّ بيانه ـ معلومٌ أنه فيما لا ضرورة إليها . وإلّا فمسائلهم فى الضروريات والحاجيات طفحت بها كتب السنة ، مما يبيّن أن هذه الآية فى موضوع خاص .

وقد كان ﷺ يكره فتح باب كثرة المسائل ، خشية أن تفضى إلى حرج أو مساءة أو تعنّت .

روى الشيخان(١) عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية : أن النبىّ ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال ، و كثرة السؤال .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٢ ـ باب ما يكره من قيل وقال ، حديث ٥٠٠ ونصه :

عن ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة؛ أن معاوية كتب إلى المغيرة أنِ اكتبْ إلىّ بحديث سمعتَه من رسول الله ﷺ . قال فكتب إليه المغيرة : إنى سمعته يقول ، عند انصرافه من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ثلاث مرات .

قال : وكان ينهى عن قيل وقال ، و كثرة السؤال ، وإضاعة المال ، ومنعٍ وهاتِ ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ١٢و١٣و١٤ (طبعتنا) .

وروى أحمد وأبو داود : أن النبيّ ﷺ نهى عن الأغلوطات ـ وهى صعاب المسائل ـ والآثار فى ذلك كثيرة .

ثم بيّن تعالى بطلان ما ابتدعه أهل الجاهلية ـ من تحريم بعض بهيمة الأنعام ـ بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

«مَاجَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ» أى ماشرع وماوضع. و(من) مزيدة لتأكيد النفى. والبحيرة (كسفينة) فعيلة بمعنى المفعول من (البحر) وهو شق الأذن . يقال : بحر الناقة والشاة ، يبحرها : شق أذنها. وفى البحيرة أقوال كثيرة ساقها صاحب القاموس وغيره .

قال أبو إسحق النحويّ : أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة : أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن ، فكان آخرها ذكرا، بحروا أذنها (أى:شقوها) وأعفواظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع عن ماء ترده ولا من مرعى . وإذا لقيها المعي المنقطع به ، لم يركبها « وَلَا سَائِبَةٍ » وهى الناقة كانت تسيب فى الجاهلية لنذر أو لطواغيتهم. أى تترك ولا تركب ولا يحمل عليها كالبحيرة . أو كانت إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث ، ليس بينهن ذكر ، سيبت فلم تركب ولم يجزّ وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ولدُها أو الضيف . أوكان الرجل إذا قدم من سفر بعيد ، أو برئ من علة ، أونجت دابته من مشقة أو حرب ، قال : هى (أى ناقتى) سائبة « وَلَا وَصِيلَةٍ » كانوا إذا ولدت الشاة ستة أبطن عَنَاقَيْن عَنَاقَيْن . وولدت فى السابع عناقاً وجديا ، قالوا : وصلت أخاها . فلا يذبحون أخاها من أجلها. وأحلّوا لبنها للرجال وحرموه على النساء . والعناق (كسحاب) الأنثى من أولاد المعز .

وقيل: الوصيلة كانت فى الشاة خاصة، إذا ولدت الأنثى فهى لهم، وإذا ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم. وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم « وَلَا حَامٍ » وهو الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود . فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس ، وسيبوه للطواغيت . وقيل : هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن . ثم هو حام حمى ظهره . فيترك فلا ينتفع منه بشيء ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وحكى أبو مسلم : إذا نتجت الناقة عشرة أبطن ، قالوا : حمت ظهرها .

وقد روى فى تفسير هذه الأربعة ، أقوال أخر . ولا تنافى فى ذلك . لأن أهل الجاهلية لهم فى أضاليلهم تفننّات غريبة .

هذا وروى ابن أبى حاتم عن أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة ، عن أبيه مالك بن نضلة ، قال : أتيت النبىّ ﷺ فى خلقان من الثياب . فقال لى : هل لك من مال ؟ فقلت : نعم . قال : من أىّ المال ؟ قال فقلت : من كل المال : الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا أتاك الله مالًا كثيرا فَكَثِّر عليك . ثم قال : تنتج إبلك وافية آذانها ؟ قال قلت : نعم . قال: وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟ قال: فلعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها، وتقول: هذه حرم ؟ قلت : نعم . قال : فلا تفعل . إن كل ما آتاك الله لك حلّ . ثم قال: مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .

أما البحيرة فهى التى يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها . فإذا ماتت اشتركوا فيها . وأما السائبة فهى التى يسيبون لآلهتهم يذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن . فإذا ولدت السابع جدعت وقطعت قرنها فيقولون : قد وصلت ، فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض .

قال ابن كثير : هكذا ذكر تفسير ذلك مدرجاً فى الحديث . وقد روى من وجه آخر

عن أبي الأحوص من قوله ، وهو أشبه . وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد[١] عن مالك ابن نضلة . وليس فيه تفسير هذه . والله أعلم .

« وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

أي : ما شرع الله هذه الأشياء ، ولاهي عنده قربة . ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم .

وفي البخاريّ[٢] أن التبحير والتسييب وما بعدهما، كله لأجل الطواغيت. يعني أصنامهم ،

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) وهذا نصه :

عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت النبيّ ﷺ وأنا قشيف الهيئة . فقال « هل لك مال » ؟ قال قلت : نعم . قال « فما مالك » ؟ فقال : من كل المال ، من الخيل والإبل والرقيق والغنم . قال « فإذا آتاك الله عزّ وجل مالا ، فليُرَ عليك » فقال « هل تنتج إبل قومك صحاحاً آذانها ، فتعمد إلى الموسى فتقطعها أو تقطّعها وتقول: هذه بحر. وتشق جلودها وتقول: هذه حرم ، فتحرمها عليك وعلى أهلك » ؟ قال قلت: نعم. قال « كلُّ ما آتاك الله عزّ وجل لك حلٌّ ، وساعد الله أشدّ ، وموسى الله أحدّ » وربما قالها وربما لم يقلها . وربما قال « ساعد الله أشدّ من ساعدك ، وموسى الله أحد من موساك » قال قلت : يا رسول الله ! رجل نزلتُ به فلم يَقْرِنِ ولم يكرمني. ثم نزل بي، أقريه أو أجزيه بما صنع؟ قال « بل اقْرِهِ ».

(٢) الذي وجدته في البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٣ ـ باب مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، هذا نصه (الحديث ١٦٥٧) :

عن سعيد بن المسيّب قال: البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحلُبها أحد من الناس. والسائبة كانوا يسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء .

وفي الصحيحين[١] عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال رأيت عمرو بن عامر الخزاعيّ يجر قُصْبَهُ في النار . وكان أول من سيّب السوائب وبَحَرَ البحيرة وغيّر دين إسماعيل . لفظ مسلم .

زاد ابن جرير : وحمى الحامى .

وروى الإمام أحمد[٢] عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: إن أول

(١) أخرجه البخاريّ في الباب السابق ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعيّ يجرّ قُصْبَه في النار . كان أول من سيّب السوائب » .

والوصيلة الناقة البكر تبكّر في أول نتاج الإبل ، ثم تُثَنّى بعدُ بأنثى . وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر .

والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت وأعفَوْه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسمّوْه الحامِيَ .

وهذا نصه في مسلم في: ٥١ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا).

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن لحيّ بن قَمَعَة بن خِندف ، أبا بني كعب هؤلاء ، يجرّ قُصْبَه في النار » .

حديث رقم ٥١ (طبعتنا) .

عن ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيّب يقول : إن البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . وأما السائبة التي كانوا يسيّبونها لآلهتهم ، فلا يحمل عليها شيء .

وقال ابن المسيّب : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت عمرو ابن عامر الخزاعيّ يجرّ قُصْبَه في النار . وكان أول مَن سيّب السيوب » .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٤٢٥٨ (طبعة المعارف) .

من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر . وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار.

قال ابن كثير : عمروٌ هذا هو ابن لُحَيٍّ بن قَمَعَةَ أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرْهم . وكان أول من غيرّ دين إبراهيم الخليل. فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاء من الناس إلى عبادتها والتقرب بها . وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية فى الأنعام وغيرها . كما ذكره الله تعالى فى (سورة الأنعام) عند قوله تعالى(1) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ... الآيات . انتهى .

لطيفة .

قال الرازىّ : فإن قيل: إذا جاز إعتاق العبيد والإماء ، فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والإتعاب والإيلام ؟ قلنا : الإنسان مخلوق لخدمة الله تعالى وعبوديته . فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادته تعالى ، فكان ذلك قربة مستحسنة . وأما هذه الحيوانات فإنها مخلوقة لمنافع الناس . فإهمالها يقتضى فوات منفعة على مالكها وعلى غيره . أى وهو خلاف الحكمة التى خلقت هى لأجلها . على أن الرقيق إذا أُعتق قَدَرَ على تحصيل مصالح نفسه ، بخلاف البهيمة . فى تسييبها إيقاع لها فى أنواع من المحنة والمشقة .

قال المهايمىّ : قاسوه (يعنى التبحير) على عتق الإنسان مع ظهور الفرق . لما فى عتق الإنسان من تمليك التصرفات ، ولا تصرف للحيوانات العجم .

ثم قال : الأول كالعتق بلا نذر . والثانى كالعتق بالنذر . والثالث مشبه بما يشبه العتق. والرابع ملك النفس بلا تمليك . ولا معنى للتمليك فى الحيوانات العجم، فهذه الأمور غير معقولة ظاهراً وباطنا ، فلا يفعلها الحكيم .

---

(1) [٦ / الأنعام / ١٣٦] ... فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية تحريم هذه الأمور . واستنبط منه تحريم جميع تعطيل المنافع . ومن صور السائبة : إرسال الطائر ونحوه . واستدل ابن الماجشون بالآية على منع أن يقول لعبده : أنت سائبة . وقال : لا يعتق . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : قال الحاكم : استدل بعضهم على بطلان الوقف بالآية الكريمة . لأن الملك لايخرج عن ملك صاحبه إلاإلى مالك آخر . أوعلى وجه القربة إلى الله. كتحرير الرقاب .

قال الحاكم : وليس بصحيح . لأن الوقف قربة كالعتق . ولقائل أن يقول : يستدل بالآية على نظير ذلك . وهو ما يلقى فى الأنهار والطريق وقرب الأشجار ، من طرح البيض والفراريج ونحو ذلك . فلا يجوز فعله ، ولا يزول ملك المالك . ويحتمل أن يقال : قد رغب عنه وصيره مباحاً . وأما كسر البيض على العمارة والطريق والأبواب ، فالظاهر عدم الجواز. لأن فى ذلك إضاعة مال ، ولم يرد بفعله دليل . انتهى .

ولما بيّن تعالى أن أكثرهم لا يعقلون أن تحريم هذه الأشياء افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق، وإنما يقلدون قدماءهم ـ أشار إلى عنادهم واستعصائهم حينما هدوا إلى الحق، وإلى ضلالهم ببقائهم فى أسر التقليد، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » من الكتاب المبيّن للحلال والحرام « وَإِلَى الرَّسُولِ » أى : الذى أنزل هوعليه ، لتقفوا على حقيقة الحال،وتميزوا بين الحرام والحلال،

فترفضوا تقليد القدماء المفترين على الله الكذب بالضلال « قَالُوا » أى : لإفراط جهلهم وانهما كهم في التقليد « حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا » أى كافينا ذلك . و(حَسْبُنَا)مبتدأ والخبر (مَا وَجَدْنَا) و (مَا) بمعنى الذى . والواو فى قوله تعالى « أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ » للحال . دخلت عليها همزة الإنكار . أى : أحَسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم « لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا » أى لا يعرفون حقًّا ولا يفهمونه « وَلَا يَهْتَدُونَ » أى : إليه . قال الزمخشرىّ : والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى . وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة . انتهى .

وقال الرازىّ : واعلم أن الاقتداء إنما يجوز بالعالم المهتدى . وإنما يكون عالمًا مهتديًا إذا بنى قوله على الحجة والدليل . فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالمًا مهتديًا . فوجب أن لا يجوز الاقتداء به . انتهى .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية قبح التقليد ووجوب النظر واتباع الحجة . ثم قال : وقد فسر التقليد بأنه قبول قول الغير من غير حجة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أى الزموا أن تصلحوها باتباع كتاب الله وسنة رسوله « لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ » أى ممن قال (حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا) أو أخذ بشبهة . أو عاند فى قول أو فعل « إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » أى إلى الإيمان . وكأن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار فى كفرهم وضلالهم . فقيل لهم : عليكم أنفسكم وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها فى طريق الهدى . لا يضركم ضلال الضالين وجهل الجاهلين ،

إذا كنتم مهتدين . كما قال عز وجل[1] لنبيه صلى الله عليه وسلم : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .

قال الزمخشريّ : وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصى ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم ، فهو مخاطب بهذه الآية « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ » بعد الموت « جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ » أى يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال . فهو وعد ووعيد للفريقين . وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره .

تنبيه :

لا يستدل بالآية على سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لأن الظاهر من الآية أن ضلال الغير لا يضر، وأن المطيع لربه لا يكون مؤاخذا بذنوب العاصى . وإلا فمن تركهما مع القدرة عليهما، فليس بمهتد . وإنما هو بعض الضلال الذى فصلت الآية بينهم وبينه .

قال الحاكم: ولو استدل على وجوبهما بقوله تعالى(عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم) كان أولى. لأنه يدخل فى ذلك كل مالزم من الواجبات. أى كما فعل المهايميّ فى تفسيره حيث قال: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ . أى الزموا أن تصلحوها باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله . والعقليات المؤيدة بها ، ودعوة الإخوان إلى ذلك . بإقامة الحجج ودفع الشبه . وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بما أمكن من القول والفعل . لا تقصروا فى ذلك . إذ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، بدعوتهم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول وإقامة الحجج لهم، ودفع الشبه عنهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بما أمكن من القول والفعل . ولا تقصروا فى ذلك . إذ إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ، من التقصير أو الإيفاء قولا وفعلا ، فى حق أنفسكم أو غيركم . انتهى .

(١) [٣٥ / فاطر / ٨] ونصها : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

ونقل الرازىّ عن عبد الله بن المبارك أنه قال : هـذه أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإنه قال (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) يعنى عليكم أهل دينكم . ولا يضركم من ضل من الكفار . وهذا كقوله (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)(١) يعنى أهل دينكم. فقوله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) يعنى بأن يعظ بعضكم بعضا ، ويرغّب بعضكم بعضا فى الخيرات وينفّره عن القبائح والسيئات . والذى يؤكد ذلك ما بينا أن قوله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) معناه : احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصى والإصرار على الذنوب . فكان ذلك أمرا بأن نحفظ أنفسنا . فإذا لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان ذلك واجباً . انتهى .

وروى الإمام أحمد(٢) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرؤون هذه الآية : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . إلى آخر الآية . وإنكم تضعونها على غير موضعها. وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس ، إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه ، يوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه .

ورواه أصحاب السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم .

وروى الترمذىّ(٣) عن أبى أمية الشعبانىّ . قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنىّ فقلت له :

---

(١) [٢ / البقرة / ٥٤] ونصها : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٦ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٨ ـ باب حدثنا سعيد بن يعقوب .

كيف تصنع بهـذه الآية ؟ قال: أية آية ؟ قلت : قوله تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قال : أما والله ! لقد سألت عنها خبيرا . سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر . حتى إذارأيت شحًّا مطاعاً وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوامّ . فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا ، يعملون مثل عملكم .

قال عبد الله بن المبارك : وزادنى غير عتبة : قيل يارسول الله ! أجر خمسين رجلا منا أومنهم ؟ قال : لا، بل أجر خمسين منكم .

قال الترمذىّ : هذا حديث حسن غريب .

وكذا رواه أبو داود وابن ماجة وابن جرير[1] وابن أبى حاتم .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فقال . إن هـذا ليس بزمانها . إنها اليوم مقبولة . ولكنه قد يوشك أن يأتى زمانها . تأمرن فيصنع بكم كذا وكذا. أو قال : فلا يقبل منكم. فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازىّ عن الربيع عن أبى العالية قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسا . فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس . حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه. فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك . فإن الله يقول(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ...) الآية. قال، فسمعها ابن مسعود فقال : مه .لم يجىء تأويل هذه بعدُ. إن القرآن أنزل حيث أنزل .ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن . ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنه آى

---

(١) الأثر رقم ١٢٨٦٢ من التفسير .

قد وقع تأويلهن بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بيسير . ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأْمروا وانهَوْا . وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فأمر نفسك . وعند ذلك جاء تأويل هذه الآية . أخرجه ابن جرير .

وأخرج أيضا[1] أنه قيل لابن عمر : لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فقال ابن عمر : إنها ليست لى ولا لأصحابى . لأن رسول الله ﷺ قال: ألا فليبلغ الشاهد الغائب . فكنا نحن الشهود وأنتم الغيَب . ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا . إن قالوا لم يقبل منهم .

وقد ضعف الرازىّ ما روى عن ابن مسعود وابن عمر مما سقناه . قال: لأن قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب عام، وهو أيضاً خطاب مع الحاضرين . فكيف يخرج الحاضر ويخص الغائب ؟ انتهى .

أقول : ليس مراد ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما، إخراج الحاضرين عن الخطاب، وأنه لم يعن بها إلا الغيب. وإنما مرادهما الردّ على مَنْ تأولها بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فأعلماه بأنه لا يسوغ الاستشهاد بها فى ترك ذلك ، والاسترواح لظاهرها ، إلا فى الزمن الذى بيّنّاه . وحاصله : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان ما قُبِلَا . فإن رُدَّا فى مثل ذلك الزمن فليقرأ :عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ . هذا مرادهما. والله أعلم .

---

(١) الأثر رقم ١٢٨٥١ من التفسير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى : ظهرت أماراته « حِينَ الْوَصِيَّةِ » بدل من الظرف ، لا ظرف (للموت) ولا لحضوره . فإن فى الإبدال تنبيهاً على أن الوصية من المهمات التى لا ينبغى التهاون بها . وقوله تعالى « اثْنَانِ » خبر (شَهَادَةُ) بتقدير مضاف . أى شهادة بينكم حينئذ ، شهادة اثنين . أوفاعل (شَهَادَةُ) على أن خبرها محذوف . أى : فيما نزل عليكم ، أن يشهد بينكم اثنان «ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» أى من المسلمين «أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» أى من أهل الذمة «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ » أى سافرتم فيها « فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا » أى : توقفونهما للتحليف « مِنْ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ » أى صلاة العصر . كما قاله ابن عباس وثلة من التابعين. وعدم تعيينها، لتعيينها عندهم بالتحليف بعدها . لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار . واجتماعُ طائفتى الملائكة ، فيه تكثير للشهود منهم على صدقه وكذبه . فيكون أقوى من غيره وأخوف . وعن الزهرىّ : بعد أىّ صلاة للمسلمين كانت . وذلك لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب والزور ، كما قال الله تعالى :

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ(١). فالتعريف فى (الصَّلَاةَ) إما للعهد أو للجنس. « فَيُقْسِمَانِ » أى: يحلفان « بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ » أى: شككتم فيهما بخيانة وأخذ شىء من تركة الميت. وقوله تعالى « لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا » جواب للقسم. أى: يقولان: لا نأخذ لأنفسنا بدلًا من الله. أى: من حرمته عرضاً من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب. أى لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال « وَلَوْ كَانَ » أى: من نقسم له ونشهد عليه ، المدلول عليه بفحوى الكلام «ذَا قُرْبَىٰ» أى: قريباً منا. تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذباً. ومبالغة فى التنزه عنه. كأنهما قالا: لا نأخذ لأنفسنا بدلًا من حرمة اسمه تعالى مالًا. ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء. فكيف إذا لم يكن كذلك؟«وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ» أى: الشهادة التى أمرنا الله تعالى بإقامتها. وإضافتها إلى الاسم الكريم تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها « إِنَّا إِذًا » إن كتمناها « لَمِنَ الْآثِمِينَ » أى: المعدودين من المستقرين فى الإثم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٧] (فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« فَإِنْ عُثِرَ » أى اطلع بعد التحليف « عَلَىٰ أَنَّهُمَا » أى: الشاهدين الوصيين «اسْتَحَقَّا إِثْمًا » أى: فعلا ما يوجبه من خيانة أو غلول شىء من المال الموصى به إليهما « فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا » أى: فرجلان آخران يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما أى: فى توجه

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] ونصها: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

اليمين عليهما لإظهار الحق وإبراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما « مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ » أى: من ورثة الميت الذين استحق من بينهم الأوليان، أى: الأقربان إلى الميت، الوارثان له، الأحقَّان بالشهادة، أى: اليمين . فـ(الْأَوْلَيَانِ) فاعل (اسْتَحَقَّ) . ومفعول (اسْتَحَقَّ) محذوف، قدّره بعضهم (وصيتهما) وقدره ابن عطية (مالهم وتركتهم)، وقدره الزمخشرىّ أن يجردوها للقيام بالشهادة لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين. وقرئ على البناء للمفعول أى: من الذين استحق عليهم الإثم . أى: جنى عليهم . وهم أهل الميت وعشيرته . فـ(الْأَوْلَيَانِ) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . كأنه قيل: ومن هما ؟ فقيل: الأوليان . أو هو بدل من الضمير فى (يَقُومَانِ) أو من (ءَاخَرَانِ) وقد جوز ارتفاعه بـ(اسْتَحَقَّ) على حذف المضاف. أى: استحق عليهم ندب الأوليين منهم للشهادة . وقرئ الأوّلِيْن جمع (أوّل) على أنه صفة للذين، مجرور أو منصوب على المدح . ومعنى الأَوَّلِيَّةِ التقدم على الأجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها . وقرئ الأوليين، على التثنية . وانتصابه على المدح . أفاده أبو السعود .

وقرئ الأوَّلَيْن تثنية (أول) نصباً على ما ذكر . كما فى البيضاوىّ .

قال أبو البقاء : ويقرأ الأوليين وهو جمع (أولى) وإعرابه كإعراب الأوّلين . ويقرأ الأولان، تثنية (الأول) وإعرابه كإعراب (الأَوْليان) « فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ » عطف على(يقومان) « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ » أى: بالقبول « مِنْ شَهَادَتِهِمَا » أى: لقولنا: إنهما خانا وكذبا فيما ادعيا من الاستحقاق، أحق من شهادتهما المتقدمة . لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم « وَمَا اعْتَدَيْنَا » أى : ما تجاوزنا الحق فيها أو فيما قلنا فيهما من الخيانة « إِنَّا إِذًا » أى: إن اعتدينا « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه، بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى. أو من الواضعين الحق فى غير موضعه .

ومعنى الآية الكريمة أن الرجل إذا حضرته الوفاة فى سفر ، فليشهد رجلين من المسلمين.

فإن لم يجدهما، فرجلين من أهل الكتاب . يوصى إليهما ويدفع إليهما ميراثه . فإذا قدما بتركته ، فإن صدّقهما الورثة وعرفوا ما لصاحبهم ، قُبِلَ قولهما وتركا . وإن اتهموهما ، رفعوهما إلى السلطان فحلفا بعد صلاة العصر بالله، ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنّا ولا غيرنا . فإن اطلع الأوليان على أن الكافرَيْن كذبا فى شهادتهما، قام رجلان من الأولياء ، فحلفا بالله؛ أن شهادة الكافرَيْن باطلة ، وأنا لم نعتد . فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء. هكذا روى ابن جرير[1] عن ابن عباس وابن جبير وغيرهما .

قال الإمام ابن كثير: وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولها، والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول ، إذا ظهر لوث فى جانب القاتل . فيقسم المستحقون على القاتل . فيدفع برمته إليهم . كما هو مقرر فى (باب القسامة) . وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس عن تميم الدارىّ فى هذه الآية (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ..) إلى آخرها قال : برىء الناس منها غيرى وغير عدىّ بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام . فأتيا الشام لتجارتهما . وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل (بدال أو زاى مصغرًا . وضبطه بالثانية ابن ماكولا) ابن أبى مريم بتجارة،معه جام من فضة يريد به الملك . وهوأعظم تجارته . فمرض فأوصى إليهما . وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم . واقتسمناه أنا وعدىّ . فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا . وفقدوا الجام فسألونا عنه . فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره .

قال تميم : فلما أسلمت ، بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك . فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم . وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها . فوثبوا

(١) الأثر رقم ١٢٩٧٩ من التفسير .

عليه . فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه . فحلف فنزلت : يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُم ـ إلى قوله ـ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا . فنزعت الخمسمائة من عدىّ بن بداء .

وهكذا رواه الترمذىّ(١) وابن جرير(٢) عن محمد بن إسحق به، فذكره.

وعنده : فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيّنة فلم يجدوا . فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف . فأنزل الله هذه الآية . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا. فنزعت الخمسمائة من عدىّ بن بداء .

ثم تكلم الترمذىّ على إسناده . وأسند(٣) بعد ذلك هذه القصة مختصرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارىّ وعدىّ بن بداء . فمات السهمىّ بأرض ليس بها مسلم . فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوّصاً بذهب. فأحلفهما رسول الله ﷺ . ثمّ وجد الجام بمكة . فقيل : اشتريناه من تميم وعدىّ . فقام رجلان من أولياء السهمىّ فحلفا بالله لشهادتنا أحقّ من شهادتهما . وأنّ الجام لصاحبهم . وفيهم نزلت هذه الآية . وكذا رواه أبو داود . ثم قال الترمذىّ : حديث حسن غريب !

وأقول : أخرجه البخارىّ(٤) أيضاً فى كتاب (الوصايا) تحت باب عقده لهذه الآية بخصوصها .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٩ ـ حدثنا الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرانىّ .

(٢) الأثر رقم ١٢٩٦٧ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢٠ ـ حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٣٥ ـ باب قوله الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... الآية، حديث ١٣٣٠.

و (الجام) الإناء ، وتخويصه أن يجعل عليه صفائح من ذهب كخوص النخل .

قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين . منهم عكرمة ومحمد ابن سيرين وقتادة . وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر . رواه ابن جرير . وكذا ذكرها مرسلةً مجاهد والحسن والضحاك. وهذا يدلّ على اشتهارها فى السلف وصحتها .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما رواه[1] ابن جرير بإسنادين صحيحين، وأبو داود بإسنادٍ ـ رجالُه ثقاتٌ ـ عن الشعبيّ : أن رجلًا من المسلمين حضرته الصلاة بدقوقاء[2]، قال : فحضرته الوفاة ـ ولم يجد أحدًا من المسلمين يُشهده على وصيّته ـ فأشهد رجلين من أهل الكتاب؛ قال : فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعريّ رضى الله عنه فأخبراه . وقدما الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعريّ : هذا أمرٌ لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيّرا ، وإنّها لوصية الرجل وتركته. قال : فأمضى شهادتهما .

وقوله (هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ) الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعديّ بن بداء .

---

(١) الأثر رقم ١٢٩٦٨ من التفسير .

(٢) قال ياقوت فى (معجم البلدان) : هى مدينة بين إربل وبغداد معروفة . لها ذكر فى الأخبار والفتوح . وكان بها وقعة للخوارج ، فقال الجعديّ بن أبى صمام الذهليّ يرثيهم :

شباب أَطاعوا الله حتى أحبهم ، وكلهم شارٍ يَخَاف ويَطمع
فلما تَبَوَّوْا من دَقُوقا بمنزل لميعاد إخوان تداعَوْا فأجمعوا
دعوا خصمهم بالمحكمات وبيّنوا ضلالتهم ، والله ذو العرش يسمع
بنفسى قَتْلَى فى دَقُوقَاءَ غودرتْ وقد قُطعتْ منها رؤوس وأذرع
لتَبْكِ نساء المسلمين عليهمُ ، وفى دون ما لاقَيْن مبكىً ومَجْزَعُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

ثم بيّن وجه الحكمة والمصلحة المتقدم تفصيله بقوله :

« ذَٰلِكَ » أى : الحكم المذكور « أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا » أى : أقرب إلى أن يؤدى الشهود ـ أو الأوصياء ـ الشهادة فى نحو تلك الحادثة على حقيقتها من غير تغيير لها ، خوفاً من العذاب الأخروىّ. فـ (الوجه) بمعنى الذات والحقيقة .

قال أبوالسعود : وهذه ـ كما ترى ـ حكمةُ شرعيةِ التحليف بالتغليظ المذكور ؛ وقوله تعالى « أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ » بيان لحكمة شرعيةِ ردّ اليمين على الورثة، معطوف على مقدرٍ ينبىء عنه المقام ؛ كأنه قيل : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة . أو يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم ، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ، ويغرموا فيمتنعوا من ذلك.
« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى : فى مخالفة أحكامه التى منها هذا الحكم ، وهو ترك الخيانة والكذب « وَاسْمَعُوا » أى : ما تؤمرون به سماعَ قبولٍ « وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته ، أى : إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم .

وقد استفيد من الآية أحكام :

الأول ـ لزوم الوصية حال الخوف من الموت وحضور قرائنه . لأنه تعالى قال (حِينَ الْوَصِيَّةِ) أى : وقت أن تحق الوصية وتلزم .

الثانى ـ قال بعضهم : دلّ قوله تعالى (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) على أن الحكم شرطه أن يشهد فيه اثنان عدلان . وهذا إطلاق لم يفصل فيه بين حقّ الله وحق غيره ،

ولا بين الحدود وغيرها ، إلّا شهادة الزنى . فلقوله تعالى فى النور (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)(1) وهذا مجمع عليه . اهـ .

قال ابن القيّم فى (أَعْلَامِ الْمُوَقِّعِين) : إنه سبحانه ذكر مايحفظ به الحقوق من الشهود ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلّا بذلك . فليس فى القرآن نفى الحكم بشاهد ويمين ، ولا بالنكول ، ولا باليمين المردودة ، ولا بأيمان القسامة ، ولا بأيمان اللعان وغير ذلك مما يبين الحق ويظهره ويدل عليه . والشارع ـ فى جميع المواضع ـ يقصد ظهور الحقّ بما يمكن ظهوره به من البينات التى هى أدلة عليه وشواهد له . ولا يرد حقًّا قد ظهر بدليله أبداً. فيضيع حقوق الله وحقوق عباده ويعطلها. ولا يقف ظهور الحق على أمر معيّن لا فائدة فى تخصيصه به مع مساواة غيره فى ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحاً لا يمكن جحده ودفعه . وقد أطال فى ذلك بما لا يستغنى عن مراجعته .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) دلالة على صحة شهادة الذمىّ على المسلم عموماً . لكن خرج جوازها فيما عدا وصية المسلم فى السفر بالإجماع .

قال بعض المفسّرين : ذهب الأكثر إلى أن شهادة الذميين قد نسخت . وعن الحسن وابن أبى ليلى والأوزاعىّ وشريح والراضى بالله وجدّه الإمام عبدالله بن الحسين : أنها صحيحة ثابتة . وكذا ذهب الأكثر إلى أن تحليف الشهود منسوخ. وقال طاوس والحسن والهادى: إنه ثابت . انتهى .

أقول : لم يأت من ادعى النسخ بحجة تصلح لذكرها وتستدعى التعرّض لدفعها .

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقّعين) :

أمر تعالى فى الشهادة على الوصية فى السفر باستشهاد عدلين من المسلمين أو آخريْن من

(1) [٢٤ / النور / ٤] ونصها : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

غيرهم . وغير المؤمنين هم الكفار . والآية صريحة فى قبول شهادة الكافرين على وصية فى السفر عند عدم الشاهدين المسلمين . وقد حكم به النبىّ ﷺ والصحابة بعده ، ولم يجئ بعدها ما ينسخها ، فإنّ (المائدة) من آخر القرآن نزولًا وليس فيها منسوخ ، وليس لهذه الآية معارض البتة . ولا يصح أن يكون المراد بقوله (مِنْ غَيْرِكُمْ) من غير قبيلتكم ؛ فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا . . .) الآية . ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله (مِنْ غَيْرِكُمْ) أيتها القبيلة . والنبىّ ﷺ لم يفهم هذا من الآية . بل إنما فهم منها ما هى صريحة فيه ، وكذلك أصحابه من بعده . اه .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) :

واستدلّ بالآية على جواز شهادة الكفار بناءً على أن المراد بال (غير) الكفارُ . وخصّ جماعةٌ القبولَ بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذٍ . منهم : ابن عباس وأبو موسى الأشعرىّ ، وسعيد بن المسيّب ، وشريح ، وابن سيرين ، والأوزاعىّ ، والثورىّ ، وأبوعبيد ، وأحمد ـ وهؤلاء أخذوا بظاهر الآية ـ وقوّى ذلك حديث الباب ـ يعنى حديث ابن عباس المتقدم ـ فإن سياقه مطابق لظاهر الآية . وقيل: المراد بال (غير) العشيرة . والمعنى (منكم) أى : من عشيرتكم (أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) أى : من غير عشيرتكم ، وهو قول الحسن واحتجّ له النحاس بأن لفظ (آخر) لابدّ أن يشارك الذى قبله فى الصفة ، حتى لا يسوغ أن تقول : مررت برجل كريم ولئيم آخر . فعلى هذا فقد وصف (الاثنان) بالعدالة. فيتعيّن أن يكون (الآخران) كذلك . وتعقب بأن هذا ـ وإن ساغ فى الآية الكريمة ـ لكن الحديث دلّ على خلاف ذلك . و الصحابىّ إذا حكى سبب النزول كان ذلك فى حكم الحديث المرفوع اتفاقاً . وأيضاً، فى ما قال ردّ المختلف فيه بالمختلف فيه . لأن اتّصاف الكافر بالعدالة مختلف فيه . وهو فرع قبول شهادته ، فمن قبلها وصفه بها ، ومن لا ، فلا . واعترض أبو حيّان على المثال الذى ذكره النحاس بأنه غير مطابق. فلو قلت : جاءنى رجل مسلم وآخر

كافر ، صحّ . بخلاف ما لو قلت : جاءنى رجل مسلم وكافر آخر . والآية من قَبِيل الأول لا الثانى . لأن قوله (أو آخران) من جنس قوله (اثنان) ، لأن كُلًّا منهما صفة (رجلان)، فكأنه قال : فرجلان اثنان ورجلان آخران . وذهب جماعة من الأئمة إلى أن هـذه الآية منسوخة . وأن ناسخها قوله تعالى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) واحتجوا بالإجماع على ردّ شهادة الفاسق . والكافرُ شرّ من الفاسق . وأجاب الأولون : بأن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وأن الجمع بين الدليلين أولى من إلغاء أحدهما . وبأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن. حتى صحّ عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجَمْعٍ من السلف ؛ أن سورة المائدة محكمة . وعن ابن عباس ؛ أن الآية نزلت فيمن مات مسافرًا وليس عنده أحد من المسلمين، فإن اتّهما استحلفا . أخرجه الطبرىّ بإسنادٍ رجاله ثقات .

وأنكر أحمد على من قال : إن هذه الآية منسوخة .

وصحّ عن أبى موسى الأشعرىّ أنه عمل بذلك بعد النبىّ ﷺ كما تقدّم .

ورجّح الفخر الرازىّ ـ وسبقه الطبرىّ ـ لذلك؛ أن قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب للمؤمنين . فلما قال (أَوْ ءَاخَرَانِ) وضح أنه أراد غير المخاطبين . فتعيّن أنهما من غير المؤمنين . وأيضاً: فجواز استشهاد المسلم ليس مشروطاً بالسفر . وأن أبا موسى حكم بذلك فلم ينكره أحد من الصحابة . فكان حجةً . انتهى كلام الحافظ .

وفى (فتح البيان) : الحق أن الآية محكمة لعدم وجود دليلٍ صحيحٍ يدل على النسخ . وأما قوله تعالى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) وقوله (وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) فهما عامّان فى الأشخاص والأزمان والأحوال . وهذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين . ولا تعارض بين خاصٍّ وعامٍّ . انتهى .

وقد أطنب الرازىّ فى (تفسيره) فى الاحتجاج على عدم نسخها بوجوهٍ عديدة ، وجوّد الكلام ـ فى أن المراد من (غيركم) أى : من غير ملّتكم ـ تجويدًا فائقًا .

الرابع : قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) :

ذهب الكرابيسى ثم الطبرى وآخرون إلى أنّ المراد بالشهادة فى الآية اليمين . قال : وقد سمى الله اليمين شهادة فى آية اللعان . وأيدوا ذلك بالإجماع على أن الشاهد لا يلزمه أن يقول: أشهد بالله . وأنّ الشاهد لا يمين عليه أنه شهد بالحق . قالوا : فالمراد بالشهادة اليمين لقوله (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ) أى : يحلفان . فإن عرف أنهما حلفا على الإثم رجعت اليمين على الأولياء . وتعقب بأن اليمين لا يشترط فيها عدد ولا عدالة ، بخلاف الشهادة . وقد اشترطا فى هذه القصة ، فقوى حملها على أنها شهادة . وأما اعتلال من اعتل فى ردّها بأنها تخالف القياس والأصول ـ لما فيها من قبول شهادة الكافر وحبس الشاهد وتحليفه وشهادة المدعى لنفسه واستحقاقه بمجرّد اليمين ـ فقد أجاب من قال به بأنه حكم بنفسه مستغنٍ عن نظيره . وقد قبلت شهادة الكافر فى بعض المواضع ، كما فى الطبّ . وليس المراد بالحبس السجن . وإنما المراد : الإمساك لليمين ليحلف بعد الصلاة . وأما تحليف الشاهد فهو مخصوص بهذه الصورة عند قيام الريبة . وأما شهادة المدعى لنفسه واستحقاقه بمجرّد اليمين ، فإن الآية تضمّنت نقل الأيمان إليهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيّين . فيشرع لهما أن يحلفا ويستحقا ، كما يشرع لمدعى الدم فى القسامة أن يحلف ويستحق . فليس هو من شهادة المدعى لنفسه ، بل من باب الحكم له بيمينه القائمة مقام الشهادة لقوة جانبه . وأىّ فرقٍ بين ظهور اللوث فى صحة الدعوى بالدم ، وظهوره فى صحة الدعوى بالمال؟ وحكى الطبرىّ : أنّ بعضهم قال : المراد بقوله (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) الوصيان . قال: والمراد بقوله (شَهَادَةُ بَيْنِكُم) معنى الحضور لما يوصيهما به الموصى . ثم زيف ذلك . انتهى كلام (الفتح) .

ولا يخفاك أنّ الآية بنفسها ـ مع ماورد فى نزولها ـ غنيّة عن تكلف إدخالها تحت القياس والقواعد والتمحّل لتأويلها .

الخامس : فى قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) دلالة على تغليظ اليمين .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) وبعض المفسّرين :

ذهب الجمهور إلى وجوب التغليظ بالزمان والمكان . فأما فى الزمان فبعد العصر . وأما فى المكان : ففى المدينة عند المنبر ، وبمكة بين الركن والمقام، وفى بيت المقدس عند الصخرة، وبغيرها بالمسجد الجامع . واتفقوا على أنّ ذلك فى الدماء والمال الكثير، لا فى القليل . انتهى .

وذهبت الزيدية والحنفية والحنابلة إلى أن اليمين لا تغلظ بزمان ولا بمكان . وأخذوا بعموم قوله(١) ﷺ : البيّنة على المدّعى واليمين على من أنكر، ولم يفصل . قالوا : وقوله تعالى فى هذه الآية (مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) يحتمل أن ذكره لأنهم كانوا لا يعتادون الحكم إلّا فى ذلك الوقت .

قال بعض الزيدية : وهل التغليظ فى المكان والزمان على سبيل الوجوب أو الاستحباب؟ قال الإمام المؤيد بالله يحي بن حمزة : المختار ، التغليظ فى الأيمان لفساد أهل الزمان . وذلك مرويّ عن أمير المؤمنين المرتضى وأبى بكر وعمر وعثمان وابن عباس ومالك والشافعىّ . قال : والمختار أنّه مستحبّ غير واجب . انتهى .

وفى كتاب (الشهادات) من (صحيح البخارىّ) بابان فى هذه المسألة . فليراجع مع شروحه .

السادس : قال ابن أبى الفرس : فى قوله تعالى (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ) دليل على أن (أقسم بالله) يمين ، لا (أقسم) فقط .

السابع : فى قوله تعالى (وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ . . .) الآية دليل على تحريم كتمان الشهادة . وذلك لا إشكال فيه .

الثامن : قال السيوطىّ : تخصيص الحلف فى الآية باثنين من أقرب الورثة (يعنى على قراءة الأوليان) لخصوص الواقعة التى نزلت لها . ثم ساق رواية البخارىّ السابقة . أى : وللإشارة إلى الاكتفاء باثنين من أقرب الورثة أيضاً وإن كان فيهم كثرة .

---

(١) قال فى (الجامع الصغير) : أخرجه البيهقىّ فى (الشعب) وابن عساكر ، عن ابن عمرو

غريبة :

قال مكيّ فى كتابه المسمّى بـ (الكشف) :

هذه الآيات الثلاث ـ عند أهل المعانى ـ من أشكل ما فى القرآن إعراباً ومعنًى وحكماً وتفسيرًا . ولم يزل العلماء يستشكلونها ويكفّون عنها .

قال : ويحتمل أن يبسط ما فيها من العلوم فى ثلاثين ورقة أو أكثر ، وقد ذكرناها مشروحة فى كتاب مفرد .

قال ابن عطيّة : هـــذا كلام من لم يقع له النتاج فى تفسيرها ، وذلك بيّن من كتابه رحمه الله تعالى ـ يعنى من كتاب مكيّ ـ .

قال القرطبيّ : ما ذكره مكيّ ، ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً .

قال السعد فى (حاشيته على الكشاف) : واتفقوا على أنها أصعب ما فى القرآن إعراباً ونظماً وحكماً ... انتهى .

أقول :

هذه الآية الكريمة غنيّة بنفسها ـ مع ما ورد فى سبب نزولها ، وما قاله حبر الأمة وترجمان القرآن فى معناها ـ عن التشكيك فيها ، والتكلّف لإدخالها تحت القواعد ، والتمحّل لتأويلها . فخُذْ ما نقلناه من محاسن تأويلها وكن من الشاكرين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« يَوْمَ » منصوب بـ (اذْكُرُوا) أو (احذَرُوا) « يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ » وذلك يوم القيامة ، وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم . كيف لا ؟ وذلك

يوم مجموع له الناس ، بل لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم ، بناءً على ظهور كونهم أتباعاً لهم « فَيَقُولُ » أى : للرسل « مَاذَا أُجِبْتُمْ » أى : ما الذى أجابكم من أرسلتم إليهم ؟ ففيه إشعار بخروجهم عن عهدة الرسالة . إذ لم يقل : هل بلّغتم رسالاتى ؟ وفى توجيه السؤال إليهم ، والعدول عن إسناد الجواب إلى قومهم بأن يقال : ماذا أجابوا ـ من الإنباء عن شدة الغضب الإلٰهىّ مالا يخفى .

وفى (الصحيح)(١) فى حديث الشفاعة : إنّ ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله .

« قَالُوا » من هيبته تعالى ، وتفويضاً للأمر إلى علم سلطانه وتأدّباً بليغاً فى ذاك الموقف الجلالىّ « لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى : وَمَنْ عَلِمَ الخفيات ، لم تخف عليه الظواهر التى منها إجابة أممهم لهم .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : اعلم أنّ عادة الله تعالى جارية فى هذا الكتاب الكريم أنّه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام ، أتبعها إمّا بالإلٰهيات ، وإمّا بشرح أحوال الأنبياء ، أوبشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكداً لماتقدم ذكره من التكاليف والشرائع . فلا جرم ، لمّا ذكر ـ فيما تقدم ـ أنواعاً كثيرة من الشرائع ، أتبعها بوصف أحوال القيامة .

الثانى : قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم . كما كان

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣ ـ باب قول الله عز وجل : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، حديث ١٥٧٩ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٢٧و٣٢٨ (طبعتنا) .

سؤال الموءودة توبيخاً للوائد . فإن قلت : كيف يقولون : لاعلم لنا ، وقد علموا بما أجيبوا ؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيكلون الأمر إلى علمه ، وإحاطته بما مُنُوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارًا للتشكي واللجأ إلى ربهم فى الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة ، وأفتّ فى أعضادهم ، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم فى أيديهم . إذ اجتمع توبيخ الله وتشكى أنبيائه عليهم . ومثاله : أن ينكب بعض الخوارج على السلطان، خاصة من خواصّه نكبةً ، قد عرفها السلطان واطلع على كنهها ، وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : مافعل بك هذا الخارجىّ ؟ (وهو عالم بما فعل به) يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بى، تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالاً عليه، وإظهارًا للشكاية ، وتعظيماً لما حلّ به منه . انتهى .

واستظهر الرازىّ أن نفى العلم لهم على حقيقته عملًا بما تقرر من أن العلم غير الظن . قال : لأن الحاصل من حال الغير عن كل أحد إنما هو الظن لاالعلم . وفى الحديث : نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، وقال[1] ﷺ: إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه. فإنما أقطع له قطعة من النار . فالأنبياء قالوا : لا علم لنا البتة بأحوالهم . إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن . والظن كان معتبرًا فى الدنيا. وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن . لأن الأحكام فى الآخرة مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور . فلهذا السبب قالوا : لا علم لنا . ولم يذكروا ما معهم من الظن . لأن الظن لا عبرة به فى القيامة . والله أعلم .

الثالث : دلت الآية على جواز إطلاق لفظ (العلّام) عليه. كما جاز إطلاق لفظ (الخلّاق)

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٢٧ ـ باب من أقام البينة بعد اليمين ، حديث ١٢١٢ عن أم سلمة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث ٤و٥و٦ (طبعتنا) .

عليه . وأما العلّامة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقه فى حقه . ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث . أفاده الرازىّ .

على أن المختار أن أسماءه تعالى توقيفية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » شروع فى بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين ، من المفاوضة ، على التفصيل . إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ، ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين . وتخصيصُ شأن عيسى عليه السلام بالبيان ، تفصيلًا بين شؤون سائر الرسل عليهم السلام ، مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل ـ لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم . فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم، وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم . أفاده أبو السعود.

« اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ » أى : منّتى عليك « وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ » بما طهرها واصطفاها على نساء العالمين « إِذْ أَيَّدْتُكَ » أى: قوّيتك « بِرُوحِ الْقُدُسِ » أى: بجبريل عليه السلام

لتثبيت الحجة . أو بجعل روحك طاهرة عن العلائق الظلمانية . بحيث يعلم أنه ليس بواسطة البشر ، فيشهد ببراءتك وبراءة أمك . ومن ذلك التأييد قويت نفسك الناطقة . لذلك « تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا » أي : فى أضعف الأحوال وأقواها . بكلام واحد من غير أن يتفاوت فى حين الطفولة وحين الكهولة . الذى هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشُد .

قال ابن كثير : أي جعلتك نبيًّا داعيًا إلى الله فى صغرك وكبرك . فأنطقتك فى المهد صغيرًا . فشهدت ببراءة أمك من كل عيب . واعترفت لى بالعبودية . وأخبرتَ عن رسالتى إياك ودَعْوَتِك إلى عبادتى . ولهذا قال (تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) أى : تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك . وضمن (تكلم) تدعو ، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب . انتهى .

« وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ » أى : الخط وظاهر العلم الذى يكتب « وَالْحِكْمَةَ » أى : الفهم وباطن العلم الذى لا يكتب ، بل يخص به أهله « وَالتَّوْرَاةَ » وهى المنزلة على موسى الكليم عليه السلام « وَالْإِنْجِيلَ » وهوالذى أنزله عليه، صلى الله وسلم عليه « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أى : تقدر وتصور منه صورة مماثلة لهيئة الطير « بِإِذْنِي » أى : لك فى ذلك « فَتَنْفُخُ فِيهَا » أى : فى تلك الهيئة المصورة « فَتَكُونُ » أى : فتصير تلك الهيئة « طَيْرًا » لحصول الروح من نفختك فيها « بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ » أى : الذى يولد أعمى مطموس البصر « وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ » أى : من القبور أحياء « بِإِذْنِي » فهذا مما فعل به من جرّ المنافع. ثم أشار إلى مادفع عنه من المضارّ، فقال سبحانه « وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ » أى : منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء وسعوا فى قتلك وصلبك، فنجيتك منهم ورفعتك إلىّ وطهرتك من دنسهم «إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى : المعجزات التى توجب انقيادهم لك لتعاليها عن قوى البشر فلا يتوهم فيها السحر « فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى: ماهذا الذى ريناا إلا سحر ظاهر.

لطيفة :

إن قيل: إن السياق فى تعديد نعمه تعالى على عيسى عليه السلام وقول الكفار فى حقه، إن هذا إلا سحر مبين ، ليس من النعم بحسب الظاهر. فما السر فى ذكره ؟ فالجواب: إن من الأمثال المشهورة : إن كل ذى نعمة محسود . فطعن اليهود فيه بهذا الكلام يدل على أن نعم الله تعالى فى حقه كانت عظيمة . فحسن ذكره عند تعديد النعم ، للوجه الذى ذكرناه. أفاده الرازىّ .

ولما بين تعالى النعم اللازمة ، تأثَّرها بنعمه عليه المتعدية ، فقال سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ » أى: بطريق الإلهام والإلقاء فى القلب « أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي » أى: عن دعوته « قَالُوا ءَامَنَّا » وأكدوا إيمانهم بقولهم « وَاشْهَدْ » أى: لتؤديها عند ربك « بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ » أى: منقادون لكل ما تدعونا إليه .

وههنا لطائف :

الأولى ـ إنما قدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب. والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع فى الظاهر . يعنى آمنا بقلوبنا وانقدنا بظواهرنا .

الثانية ـ إنما ذكر تعالى هذا فى معرض تعديد النعم . لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس ، محبوبا فى قلوبهم ، من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان . كذا قاله الرازىّ .

وقال المهايمىّ : ليحصل له رتبة التكميل وثواب رشدهم .

الثالثة ـ قال الرازىّ : إن قيل: إنه تعالى قال فى أول الآية (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ

وَالِدَتِكَ) ثم إن جميع ما ذكره تعـالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمه تعلق بشيء منها . قلنا : كل ماحصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية ، فهو حاصل ، على سبيل التضمن والتبع للأم . ولذلك قال تعالى : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً(١) . فجعلهما معاً آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر . انتهى .

وقال بعضهم : قيـل : أريد بالذكر في قوله تعالى (اذْكُرْ نِعْمَتِي) الشكر . ففي ذلك دلالة على وجوب شكر النعمة . وإن النعمة على الأم نعمة على الولد . والشكر يكون بالقول والفعل والاعتقاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ » ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا إلهيته أو ولديته، ليستقلّ بإنزال المائدة « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » هذه قصة المائدة وإليهاتنسب السورةفيقال: سورة المائدة. وههنا قراءتان: الأولى (يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) بالياء على أنه فعل وفاعل و (أَنْ يُنَزِّلَ) المفعول . والثانية ـ بالتاء و (رَبَّكَ) نصب أي سؤال ربك . فحذف المضاف . والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه ؟ وهي قراءة عليّ وعائشة وابن عباس ومعاذ رضي الله عنهم . وسعيد بن جبير والكسائيّ ، في آخرين .

قال أكثر المفسرين : الاستفهام على القراءة الأولى محمول على المجاز . إذ لايسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكّوا في قدرة الله تعالى . لـكنه كما يقول الرجل لصاحبه :

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٠] . . . وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

هل تستطيع أن تقوم معى ؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام ، مبالغة فى التقاضى . وإنما قصد بقوله (هَلْ تَسْتَطِيعُ) هل يسهل عليك، وهل يخف أن تقوم معى ؟ فكذلك معنى الآية . لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ، ومعترفين بكمال قدرته . وسؤالهم ليس لإزاحة شك ، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة . كما قال إبراهيم عليه السلام[1] (وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة فى القلب . ولهذا السبب قالوا (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا) وحاصله أن (هَلْ يَسْتَطِيعُ)سؤال عن الفعل دون القدرة عليه ، تعبيرا عنه بلازمه . أو عن المسبب بسببه . وقيل المعنى : هل يطيع ربك ؟ أى هل يستجيب دعوتك إذا دعوته ؟ (فيستطيع) بمعنى (يطيع) وهما بمعنى واحد. والسين زائدة. كاستجاب وأجاب واستجب وأجب و (يطيع) بمعنى (يجيب) مجازاً، لأن المجيب مطيع .

وذكر أبو شامة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم عاد أباطالب فى مرض. فقال له : ياابن أخى! ادع ربك أن يعافينى . فقال: اللهمّ ! اشف عمى. فقام كأنما نشط من عقال . فقال : ياابن أخى! إن ربك الذى تعبده ليطيعك. فقال : ياعم ! وأنت لو أطعته لكان يطيعك . أى يجيبك لمقصودك .

وحسنه فى الحديث المشاكلة ، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى .

قال الخازن : وقال بعضهم: هو على ظاهره . وقال: غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة فى قلوبهم . وكانوا بشرًا ، فقالوا هـذه المقالة . فرد عليهم غلطهم بقوله « قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » يعنى اتقوا الله أن تشكوا فى قدرته .

والقول الأول أصح . انتهى .

---

(١) [٢/ البقرة/ ٢٦٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ =

وعليه فمعنى (اتَّقُوا اللَّهَ) من أمثال هذا السؤال ، وأن توقفوا إيمانكم على رؤية المائدة إن كنتم به وبرسالتى (مُؤْمِنِينَ) فإن الإيمان مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات .

لطيفة :

فى المائدة قولان : الأول ـ أنها الطعام نفسه ، من (ماد) إذا أفضل . كما فى (اللسان) وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم . أى : وإن لم يكن معه خوان . كما فى (التقريب) و (اللسان) وصرح به ابن سيده فى (المحكم) .

قال الفاسىّ : والآية صريحة فيه ، قاله أرباب التفسير والغريب . والثانى ـ أنها الخوان عليه الطعام . قال الفارسىّ : لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام ، وإلا فهى خوان ، وصرّح به فقهاء اللغة ، وجزم به الثعالبىّ وابن فارس . واقتصر عليه الحريرىّ فى (درة الغوّاص) وزعم أن غيره من أوهام الخواص . وذكر الفاسىّ فى (شرحها) أنه يجوز إطلاق (المائدة) على (الخوان) مجرّدًا عن الطعام ، باعتبار أنه وضع أو سيوضع . وقال ابن ظفر : ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها . كما قيل (لقحة) بعد الولادة . وقال أبو عبيد : المائدة فى المعنى مفعولة ، ولفظها فاعلة . وهى مثل عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وقيل : من (ماد) إذا أعطى . يقال : ماد زيد عمرًا ، إذا أعطاه . وقال أبو إسحق : الأصل عندى فى (مائدة) أنها فاعلة . من (ماد يميد) إذا تحرّك . فكأنها تميد بما عليها . أى: تتحرك. وقال أبو عبيدة : سميت (مائدة) لأنها مِيدَ بها صاحبها. أى : أُعْطِيَهَا وتُفُضِّلَ عليه بها . وفى (العناية) : فكأنها تعطى من حولها مما حضر عليها . وفى (المصباح) : لأن المالك

= فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

مادها للناس . أي: أعطاهم إياها . ومثله في كتاب (الأبنية لابن القطاع) : ويقال في المائدة مَيْدة . قاله الجرمي[1] وأنشد :

ومَيْدةٍ كثيرةِ الألوانْ تُصنع للإخوان والجيران

كذا في (القاموس وشرحه) . والخِوان بضم الخاء وكسرها ما يؤكل عليه الطعام كما في (القاموس) . معرّب كما في (الصحاح) و (العين). وقيل: إنه عربيّ مأخوذ من (تخونه) أي نقص حقه . لأنه يؤكل عليه فينقص . كذا في (العناية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ)

«قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا» أي آمنا . لكنا نريد الأكل منها من غير مشقة تشغلنا عن عبادة الله تعالى « وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا » أي فلا تعتريها شبهة لا يؤمَن من ورودها، لولا مثل هذه الآية . فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلاليّ مما يوجب قوة اليقين « وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا » أي في دعوى النبوة ، وفيما تعدنا من نعيم الجنة ، مع أنها سماوية «وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ » أي فنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا . ويؤمن بسببها كفارهم . أومن الشاهدين للعين دون السامعين للخبر .

ثم لما رأى أن لهم غرضا صحيحاً في ذلك ، وأنهم لا يقلعون عنه ، أزمع على استدعائها واستنزالها .

---

(١) استشهد به في اللسان ، في مادة (م ي د) بالصفحة رقم ٤١٣ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

روى ابن أبي حاتم ؛ أنه توضأ واغتسل ودخل مصلاه ، فصلّى ما شاء الله . فلما قضى صلاته قام مستقبل القبلة ، وصفّ قدميه ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره وطأطأ برأسه ، خشوعا . ثم أرسل عينيه بالبكاء . فما زالت دموعه تسيل على خديه ، وتقطر من أطراف لحيته ، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه ، من خشوعه . فعند ذلك دعا الله تعالى فقال : اللهم ! ربنا. كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا » أى : يا الله المطلوب لكل مهمّ ، الجامع للكمالات ، الذى ربانا بها . ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية ، إظهارًا لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » أى التى فيها ما تعدنا من نعيم الجنة « تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا » أى يكون يوم نزولها عيدًا نعظمه ونسرّ به ، نحن الذين يدركونها . ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوّون فى دينهم . و (العيد) العائد . مشتق من (العود) لعوده فى كل عام بالفرح والسرور . وكل ماعاد عليك فى وقت فهو عيد، قال الأعشى (١) :

فوا كبدى من لاعج الحب والهوى ... إذا اعتاد قلبى من أميمةَ عيدُها

كذا فى (العناية) .

وفى (القاموس) (العيد) بالكسر ، ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه .

(١) ليس فى ديوان الأعشى ، فهو ليس من قوله . وبحثت عنه فى ما بين يدىّ من المصادر الأدبية واللغوية، فلم أهتد إليه .

وكل يوم فيه جمع « وَءَايَةً مِنْكَ » أي : على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياي « وَارْزُقْنَا » أي : أعطنا ما سألناك « وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أي : خير من يرزق . لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)

« قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ » إجابة لدعوتكم « فَمَنْ يَكْفُرْ » أي : بي وبرسولي « بَعْدُ » أي بعد تنزيلها ، المفيد للعلم الضروريّ بي وبرسولي « مِنْكُمْ » أيها المنعَّمون بها « فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » أي من عالَمي زمانهم . أومن العالَمين جميعاً .

روى[1] ابن جرير بسنده إلى قتادة قال : كان الحسن يقول : لماقيل لهم (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ) الخ قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

وروى[2] منصور بن زاذان عن الحسن أيضا . أنه قال ، في المائدة : أنها لم تنزل .

وروى[3] ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال : هو مَثَلٌ ضربه الله ولم ينزل شيء . أي مثل ضربه الله لخلقه ، نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه .

قال الحافظ ابن كثير : وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن . وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى . وليس هو في كتابهم . ولو كانت قد نزلت ، لكان ذلك

---

(١) الأثر رقم ١٣٠٢٠ من التفسير .

(٢) الأثر رقم ١٣٠٢١ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٣٠١٩ من التفسير .

مما يتوفر الدواعى على نقله . وكان يكون موجودًا فى كتابهم متواترًا . ولا أقل من الآحاد . والله أعلم .

ثم قال : ولكن الجمهور أنها نزلت . وهو الذى اختاره ابن جرير . قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها فى قوله تعالى (إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ) ووعد الله ووعيده حق وصدق .

وهذا القول هو ، والله أعلم ، الصواب . كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم . اه

ومن الآثار ما أخرجه الترمذى(١) عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ : أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد . فخانوا وادخروا ورفعوا لغد . فمسخوا قردة وخنازير . قال الترمذى : وقد روى عن عمار ، من طريق ، موقوفاً وهو أصح .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ؛ أن عيسى ابن مريم ، قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها . عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة . فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

وقد ساق ابن كثير آثاراً فى نزولها لا تخلو عن غرابة ونكارة فى سياقها ، كما لا يخفى .

روى الإمام أحمد(٢) عن ابن عباس قال قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك . قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم : قال فدعاه ، فأتاه جبريل

---

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢١ ـ حدثنا الحسن بن قزعة .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢١٦٦ (طبعة المعارف) .

فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة .

ورواه الحاكم فى مستدركه وابن مردويه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمْ أَءَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ » اعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل (مَاذَا أُجِبْتُمْ) توبيخ مَن تمرد من أممهم . وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى ، الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام . لأن طعن سائر الأمم كان مقصورًا على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه ، حيث وصفوه بما لا يليق أن يوصف مقامه به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد . فلا جرم، ذكر تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، إشمارا بعبوديته . فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه ، تدل على أنه عبد وليس بإله . ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره، عليه السلام، على رؤوس الأشهاد، بالعبودية، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل . إكذابا لهم فى افترائهم عليه ، وتثبيتاً للحجة على قومه ؛ فهذا سر سؤاله تعالى له ، مع علمه بأنه لم يقل ذلك . وكل ذلك لتنبيه النصارى الذين كانوا فى وقت نزول الآية ومَن تأثرهم ، على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم .

تنبيهات :

الأول : روى عن قتادة : أن هـذا القول يكون يوم القيامة لقوله تعالى (هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)(١) . وقال السدّيّ : هذا الخطاب والجواب ، فى الدنيا . وصوّبه ابن جرير ، قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء . واحتج ابن جرير على ذلك بوجهين : (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضىّ ؛ و (الثانى) قوله : إِنْ تُعَذِّبْهُمْ . وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ .

قال الحافظ ابن كثير : وهذان الدليلان فيهما نظر . لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضىّ ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ...) الآية : التبرؤ منهم وردّ المشيئة فيهم إلى الله تعالى . وتعليقُ ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه. كما فى نظائر ذلك من الآيات . فالذى قاله قتادة وغيره هو الأظهرُ . فالله أعلم أنّ ذلك كائن يوم القيامة ، ليدلّ على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد .

وقد روى بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه ، أبى موسى الأشعرىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأُمَمِهم . ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقرّ بها فيقول : يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ . . . الآية ، ثم يقول : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ » فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيُسْئَلون فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك ! قال : فيطول شَعْر عيسى عليه السلام . فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدى الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار !

قال ابن كثير : وهذا حديث غريب عزيز !

---

(١) الأثر رقم ١٣٠٣٧ من التفسير .

الثانى : إيثار قوله تعالى (أُمِّىَ) على (مَرْيَمَ) توبيخ للمتخذين، على توبيخ . أى مع أنك بشر تلد وتولد قبل هذا .

الثالث : توهم بعضهم أن كلمة (من دون الله) تفيد أنّ النصارى يعتقدون أن عيسى وأمه ، عليهما السلام ، مستقلان باستحقاق العبادة، بدلًا عن الله تعالى . كما يقال : اتخذت فلانًا صديقًا من دونى . فإن معناه أنه استبدله به ، لا أنه جعله صديقًا معه . وهم لم يقولوا بذلك . بل ثلّثوا . فأجاب : بأن من أشرك مع الله غيره فقد نفاه معنى . لأنه وحده لا شريك له ، منزه عن ذلك . فإقراره بالله كلا إقرار . فيكون (مِنْ دُونِ اللَّهِ) مجازًا عن (مَعَ اللَّهِ). ولا يخفى أن هذا تكلف . لأن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل . فالصواب أن المراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه . كما فى قوله تعالى[1] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا) وقوله عز وجل[2] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ـ إلى قوله... سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) إذ به يتأتى التوبيخ ، ويتسنى التقريع والتبكيت . هذا ما حققوه هنا .

وأقول: إن كلمة (دون) فى هذه الآية وأمثالها بمعنى (غير) كما حققه اللغويون. ولا تفيد،

---

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(٢) [١٠ / يونس / ١٨] . . . قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥٥] ونصها: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا .

وضعا ، الاستقلال والبدلية، كما توهم وسر ذكرها إفهام الشركة. لأنه لولاها لتوهم دعوى انحصار الألوهية فيما عداه . مع أنهم لا يعتقدون ذلك . ولا يفهم من نحو (أَتَّخَذْتَ صَدِيقًا مِنْ دُونِي) الاستبدال . فذاك من قرينة خارجية. وإلا فالمثال لا يعينه . لجواز إرادة اتخاذه معه كما لا يخفى . فتبصر « قَالَ سُبْحَانَكَ » أى أنزهك تنزيها لائقاً بك من أن يقال هذا ويُنطق به « مَا يَكُونُ لِي » أى ما يتصور منى بعد إذ بعثتنى لهداية الخلق « أَنْ أَقُولَ » أى فى حق نفسى « مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ » أى ما استقر فى قلوب العقلاء عدم استحقاقى له مما يضلهم « إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام، بالطريق البرهانى. فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا. فحيث انتفى علمه تعالى به ، انتفى صدوره عنه حتما . ضرورة ، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم . قاله أبو السعود « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي » استئناف جار مجرى التعليل لما قبله . كأنه قيل : لأنك تعلم ما أخفيه فى نفسى. فكيف بما أعلنه ؟ وقوله تعالى « وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » بيان للواقع ، وإظهار لقصوره. أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك . أفاده أبو السعود « إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

«مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ » أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به . وإنما قيل : (مَا قُلْتُ لَهُمْ) نزولا على قضية حسن الأدب ، ومراعاة لما ورد فى الاستفهام . وقوله تعالى « أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ » تفسير المأمور به « وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ

فيهم » أى : رقيباً أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك ، ويتأتى لى نهيهم عما أشاهده فيهم مما لا ينبغى « فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى » أى : بالرفع إلى السماء كما فى قوله تعالى (إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ)(١) والتوفى : أخذ الشىء وافياً . والموت نوع منه . قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا)(٢) وسبق فى قوله تعالى (يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) فى (آل عمران) زيادة إيضاح على ماهنا . فتذكر « كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ » أى : الناظر لأعمالهم . فمنعتَ من أردت عصمته من التفوّه بذلك . وخذلت من خذلت من الضالين ، فقالوا ماقالوا « وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » اعتراض تذييلىّ مقرر لما قبله . وفيه إيذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل ، حين كونه عليه السلام فيما بينهم .

تنبيه :

دلت الآية على أن الأنبياء ، بعد استيفاء أجلهم الدنيوىّ ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أممهم . وقد روى البخارىّ(٣) هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس! إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا . ثم قال: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ...إلى آخر الآية . ثم قال:

(١) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى أبواب متعددة من صحيحه وأولها ما جاء فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ .

ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم . ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب ! أصيحابى . فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

قال الحافظ ابن كثير : هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزّ وجلّ . فإنه الفعال لما يشاء . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ(١) . ويتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله . وجعلوا لله ندًّا وصاحبة وولدًا . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. انتهى.

أى . إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه . وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك . وإن تغفر لهم فلا عجز ولا استقباح . لأنك القادر القوىّ على الثواب والعقاب . الذى لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب . فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم . فإن عذبت فعدل ، وإن غفرت ففضل . وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد . فلا امتناع فيه لذاته ، ليمتنع الترديد والتعليق بـ (إن). أفادة البيضاوىّ .

يعنى أن المغفرة ، وإن كانت قطعية الانتفاء بحسب الوجود ، لكنها لما كانت بحسب العقل، تحتمل الوقوع واللاوقوع، استعمل فيها كلمة (إن) فسقط ما يتوهم أن تعذيبهم ، مع أنه قطعىّ الوجود ، كيف استعمل فيه (إن) وعدم وقوع العفو بحكم النص والإجماع .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٣] .

وفى كتب الكلام: إن غفران الشرك جائز عقلا عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة . لأن العقاب حق الله على المذنب ، وليس فى إسقاطه مضرة .

وبالجملة : فليس قوله تعالى (إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) تعريضاً بسؤاله العفو عنهم . وإنما هو لإظهار قدرته على ما يريد ، وعلى مقتضى حكمه وحكمته . ولذا قال : إنك أنت العزيز الحكيم ، تنبيهاً على أنه لا امتناع لأحد عن عزته ، فلا اعتراض فى حكمه وحكمته .

قال الرازىّ : قال قوم : لو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم ، أشعر ذلك بكونه شفيعاً لهم . فلما قال : فإنك أنت العزيز الحكيم ، دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى ، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه .

وفى (العناية) ما ملخصه : أن ما ظنه بعضهم من أن مقتضى الظاهر (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) بدل (العزيز الحكيم) كما وقع فى مصحف عبد الله بن مسعود ـ فقد غاب عنه سر المقام . لأنه ظن تعلقه بالشرط الثانى فقط ، لكونه جوابه. وليس كما توهم . بل هو متعلق بهما . ومن له الفعل والترك عزيز حكيم . فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام ، أو هو متعلق بالثانى ، وإنه احتراس، لأن ترك عقاب الجانى قد يكون لعجز ينافى القدرة ، أو لإهمالٍ ينافى الحكمة . فبيّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : هذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب . وقد ورد فى الحديث أن النبىّ ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها .

روى الإمام[1] أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : صلى النبىّ ﷺ ذات ليلة . فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فلما أصبح قلت : يا رسول ! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت. تركع

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

بها وتسجد بها ؟ قال : إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى ؛ فأعطانيها . وهى نائلة، إن شاء الله، لمن لايشرك بالله شيئاً .

وأخرجه النسائى أيضاً .

وروى الإمام أحمد[1] أيضاً عن أبى ذر قال : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالى فى صلاة العشاء . فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون . فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله . فلما رأى القومَ قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى . فجئت فقمت خلفه فأومأ إلىّ بيمينه ، فقمت عن يمينه . ثم جاء ابن مسعود فقام خلفى وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله . فقمنا ثلاثتنا يصلى كل واحد منا بنفسه ، ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو . وقام بآية من القرآن يرددها ، حتى صلى الغداة . فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود: أن سله ما أراد إلى ماصنع البارحة ؟ فقال ابن مسعود : لاأسأله عن شىء حتى يُحْدث إلىّ ، فقلت : بأبى وأمى ! قمتَ بآية من القرآن ومعك القرآن . لو فعل هذا بعضنا لوجدناعليه. قال:دعوت لأمتى . قلت : فماذا أجبت ؟ أو ماذا رد عليك ؟ قال : أجبت بالذى لو اطلع عليه كثير منهم طلعة ، تركوا الصلاة . قلت : أفلا أبشر الناس، قال: بلى . فانطلقت مُعْنِقاً قريباً من قذفةٍ بحجر . فقال عمر : يا رسول الله ! إنك إن تبعث بهذا نكلوا عن العبادة . فناداه أن ارجع . فرجع .

وتلك الآية (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وروى الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ؛ أن النبىّ ﷺ تلا قول الله عزّ وجلّ فى إبراهيم (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى . . . الآية)[2] وقول عيسى (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . . . وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فرفع يديه وقال : اللهم ! أمتى أمتى . وبكى . فقال الله تعالى : يا جبريل ! اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فاسأله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل ! اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

ثم ختم تعالى حكاية ماحكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل، عليهم الصلاة والسلام، مع الإشارة إلى نتيجة ذلك ومآله بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (قَالَ اللهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« قَالَ اللهُ هَـٰذَا » أى : يوم القيامة « يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ » لأنه يوم الجزاء. والمراد بـ (الصَّادِقِينَ) المستمرون على الصدق فى الأمور الدينية ، التى معظمها التوحيد ، الذى الآية فى صدده . وفيه شهادة بصدق عيسى عليه السلام فيما قاله ، جواباً عن قوله : أَءَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . الآية . وقوله تعالى « لَهُمْ جَنَّاتٌ » تفسير للنفع المذكور. ولذا لم يعطف عليه ، أى : لهم بساتين من غرس صدقهم « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » أى : من تحت شجرها وسررها « الْأَنْهَارُ » أنهار الماء واللبن والخمر والعسل « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين لا يموتون ولا يخرجون « أَبَدًا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ » لصدقهم « وَرَضُوا عَنْهُ » تحقيقاً لصدقهم . فلم يسخطوا لقضائه فى الدنيا « ذَٰلِكَ » أى : الخلود والرضوان « الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى : الكبير الذى لا أعظم منه . كما قال تعالى (لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)(١) وكما قال (وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)(٢) وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٦١] .
(٢) [٨٣/المطففين/٢٦] ونصها : خِتَامُهُ مِسْكٌ، وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ » تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا فى المسيح وأمه . وذلك من تقديم الظرف . لأنه المالك لا غيره، فلا شريك له. « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : مبالغ فى القدرة. فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته ومشيئته . فلا نظير له ولا وزير . لا إلٰه غيره ولا رب سواه .

روى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو ، قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة . أخرجه الترمذىّ[١] والحاكم . وأخرجا أيضاً عن عائشة قالت : آخر سورة نزلت المائدة والفتح ـ كذا فى (الإتقان) ـ .

كمل ما قدره تعالى على عبيده من محاسن تأويل هذه السورة الشريفة

بعد عصر يوم الجمعـــة فى ١٩ رمضان عام ١٣٢٠

فى السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية .

والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ٢٣ ـ حدثنا قتيبة

سُورَة الأَنعَام

بسم الله الرحمن الرحيم

٦ - سورة الأنعام

وهى مكية . وهى مئة وخمس وستون آية

روى العوفىّ وعكرمة وعطاء عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هى مكية ، نزلت جملة واحدة ، نزلت ليلًا ، وكتبوها من ليلتهم ، غير ست آيات منها ، فإنها مدنيات ، وهى قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ . . .(١) إلى آخر الثلاث آيات . وقوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

(١) [٦ / الأنعام / ١٥١ـ١٥٣] ونصها : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

قَدْرِهِ ...[١] الآية . وقوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ...[٢] إلى آخر الآيتين .

وذكر مقاتل نحو هـــذا وزاد آيتين ، وهما قوله تعالى : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ . . .[٣] الآية . وقوله تعالى : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ . . .[٤] الآية .

وروى عن ابن عباس أيضاً وقتادة أنهما قالا : إنها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة ، قوله: وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ[٥] . وقوله : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ...[٦] الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًىٰ لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهَا قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢١ ، ٢٢] ونصهما : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

(٣) [٦ / الأنعـام / ١١٤] ونصها : أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٢٠] ونصها : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٥) انظر الحاشية رقم ١ .

(٦) [٦ / الأنعام / ١٤١] ونصها : وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ =

قال البيهقىّ فى (الدلائل) : فى بعض السور التى نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة ، فألحقت بها . وكذا قال ابن الحصار : كل نوع من المكىّ والمدنىّ ، منه آيات مستثناة . قالا : إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل . ثم ناقش فى استثناء هذه الآيات ، قال : ولا يصح به نقل ، خصوصاً ما ورد أنها نزلت جملة .

وردّ عليه السيوطىّ بأنه صح النقل عن ابن عباس، باستثناء : قُلْ تَعَالَوْا ...[1] الآيات الثلاث ، والبواقى : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ[2] ، لما أخرجه ابن أبى حاتم أنها نزلت فى مالك بن الصيف . وقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً[3] . نزلتا فى مسيلمة. وقوله : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ[4] . وقوله : وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ[5] .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبىّ قال : نزلت الأنعام كلها بمكة ، إلا آيتين نزلتا بالمدينة فى رجل من اليهود ، وهو الذى قال : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ[6] ـ كذا فى (اللباب) و (الإتقان) . ومن خصائص هذه السورة ما أخرجه الطبرانىّ عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً ، جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك ، يجأرون بالتسبيح .

= مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣٠ .
(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .
(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣١ .
(٤) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٢٢٣١ .
(٥) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٢٣١ .
(٦) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٢٣١ .

وروى السدّيّ عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة.
وروى نحوه من وجه آخر عنه أيضاً .

وروى الحاكم فى (مستدركه) عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ماسدَّ الأفقَ . ثم قال : صحيح على شرط مسلم .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت سورة الأنعام معها موكب الملائكة سدّ ما بين الخافقيْن ، لهم زجَل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج ، ورسول الله يقول : سبحان الله العظيم ! سبحان الله العظيم !

وأخرج أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، لهم زَجَل بالتسبيح والتحميد .

قال الرازىّ : قال الأصوليون : هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة :

أحدهما ـ أنها نزلت دفعة واحدة .

والثانى ـ أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة . والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين . وذلك يدل على أن علم الأصول فى غاية الجلالة والرفعة . وأيضاً فإنزال مايدل على الأحكام ، قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم ، وبحسب الحوادث والنوازل . وأما ما يدل على علم الأصول ، فقد أنزله الله جملة واحدة، وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور، لا على التراخى. اهـ

وأخرج[1] الدارمىّ فى (مسنده) عن عمر رضى الله عنه قال : الأنعام من نواجب القرآن.

وفى القاموس : نجائب القرآن أفضله ومحضه . ونواجبه لبابه . انتهى .

وسميت بـ(سورة الأنعام) ، لأن أكثر أحكامها ، وجهالات المشركين فيها ، وفى التقرب بها إلى أصنامهم ـ مذكورة فيها .

---

(١) أخرجه الدارمىّ فى (مسنده) فى : ٢٣ ـ كتاب فضائل القرآن ، ١٧ ـ باب فضائل الأنعام والسور : عن عمر قال : الأنعام من نواجب القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى جميع المحامد ، بما حمد به نفسه أو خلقه ، أو حمد به الخلقُ ربهم ، أوبعضهم، مخصوص به . ثم أخبر عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامدبقوله: « الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم المخلوقات ، فيما يرى العباد ، وفيهما العبر والمنافع ، لأن السموات بأوضاعها وحركاتها أسباب الكائنات والفاسدات التى هى مظاهر الكمالات الإلٰهية . والأرض مشتملة على قوابل الكون والفساد التى هى المسببات .

« وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » أى : أوجدها منفعة لعباده ، فى ليلهم . ونهارهم . وههنا :

لطائف

الأولى ـ أن المقصود من الآية التنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسام هو الحقيق بالحمد والعبادة ، دون ما سواه .

الثانية ـ لفظ (جعل) يتعدى إلى واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كما هنا ؛ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى (صيّر) كقوله[١]: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا. والفرق بين (الخلق) و (الجعل) : أن (الخلق) فيه معنى التقدير ، وفى (الجعل) معنى التضمين ، كإنشاء شىء من شىء أوتصيير شىء شيئاً ، أونقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك:

(١) [٤٣ / الزخرف / ١٩] .

وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا[١] أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً[٢]. وإنما حسَّن لفظ (الجعل) ههنا، لأن النور والظلمة لما تعاقبا ، صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر ـ قاله الرازىّ ـ وسبقه إليه الزمخشرىّ .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد وردت (جَعَلَ) و (خَلَقَ) موردًا واحدًا . فورد: وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا[٣] . وورد : وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا[١] . وذلك ظاهر فى الترادف . إلا أن للخاطر ميــلًا إلى الفرق الذى أبداه الزمخشرىّ . ويؤيده أن (جَعَلَ) لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما (خَلَقَ) . وفى إضافة (الخلق) فى هذه الآية إلى السموات والأرض ، و (الجعل) إلى الظلمات والنور ، مصداق للمميّز بينهما ـ والله أعلم ـ .

الثالثة ـ إن قيل : لم جمعت السموات دون الأرض مع أنها مثلهن لقوله تعالى : وَمِنَ

(١) [٧/ الأعراف/ ١٨٩] ونصها : هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

و [٣٩ / الزمر / ٦] ونصها : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٥] .

(٣) [٤ / النساء / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا .

الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ(١) ، وفى الحديث(٢) : هل تدرون ما هذه ؟ قالوا : هذه أرض . هل تدرون ما تحتها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : أرض أخرى ، وبينهما مسير خمسمئة عام ، حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمئة عام ـ أخرجه الترمذىّ ، وأبو الشيخ عن أبى هريرة رضى الله عنه ؟ .

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ونصها : اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ونصه :

عن أبى هريرة قال : بينا نبىّ الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبىّ الله ﷺ « هل تدرون ما هذا » ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع سماوات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلًا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » .

ثم قرأ : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

فالجواب : لأن السموات طبقات متفاضلة بالذات ، مختلفة بالحقيقة ، بخلاف الأرضين ـ كما قاله البيضاوىّ ـ .

وقال الرازىّ : إن السماء جارية مجرى الفاعل . والأرض مجرى القابل . فلو كانت السماء واحدة لَتَشَابَهَ الأثر ، وذلك يخلّ بمصالح هذا العالم . أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية ، فحصل بسببها الفصول الأربعة ، وسائر الأحوال المختلفة ، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم . أما الأرض فهى قابلة للأثر ، والقابل الواحد كاف فى القبول . انتهى .

وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها .

الرابعة ـ الظاهر فى (الظلمات والنور) أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر . والذى يقوى ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما . والأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ولأن (الظلمات والنور) إذا قرنا بالسموات والأرض ، لم يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان .

ونقل عن بعض السلف أنه عنى بهما الكفر والإيمان .

ورجح الرازىّ الأول لما ذكر .

ووجه بعضهم الثانى بأن المعنى : أنه لما خلق السموات والأرض ، فقد نصب الأدلة على معرفته وتوحيده . ثم بيّن طرق الضلال ، وطريق الهدى ، بإنزال الشرائع والكتب السماوية . ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، فناسب المقام (ثم) الاستبعادية ، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل، اختيار الباطل . انتهى .

وعليه فجمع (الظلمات) وتوحيد (النور) ظاهر. لأن الهدى واحد ، والضلال متعدد، كما قال فى آخر هذه السورة[1] : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] ونصها : وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وعلى الأول، فجمعها لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ، فإن لكل جرم ظلمة ، وليس لكل جرم نور . وأما تقديمها فلسبقها فى التقدير والتحقق ، على النور .

وفى الأثر(١) : إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره .

وقوله تعالى: « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى ، بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه . مسوق لإنكار ماعليه الكفرة ، واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها ، واجترائهم على ما يقضى ببطلانه بديهة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبد الله بن الدَّيلمىّ قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط له بالطائف ، يقال له الوَهْط ، وهو مخاصر فتى من قريش ، يُزَنّ بشرب الخمر . فقلت له : بلغنى عنك حديثٌ : أن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحا . وأن الشقىّ من شقى فى بطن أمه ، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهَزُه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه .

فلما سمع الفتى ذكر الخمر ، اجتذب يده من يده ، ثم انطلق .

ثم قال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحلّ لأحد أن يقول علىّ ما لم أقل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عزّ وجلّ خلق الخلق فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ . فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عزّ وجلّ » .

وسمعت رسول الله ﷺ يقول . . .

ورواه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٨ ـ باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة .

المقول. والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمدوالعبادة ، باعتبار ذاته ، وباعتبارما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه . ثم هؤلاء الـكفرة لا يعملون بموجبه ، ويعدلون به سبحانه . أي : يسوّون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر ، الذي رأسه الحمد ، مع كون كل ما سواه مخلوقا له ، غير متصف بشيء من مبادىء الحمد .

وكلمـة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ، القاضية ببطلانه . و (الباء) متعلقه بـ (يعدلون) ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى ، لزيادة التشنيع والتقبيح . والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنـكار والاستبعاد، والمحافظة على الفواصل . وترك المفعول لظهوره ، أو لتوجيه الإنـكار إلى نفس الفعل ، بتنزيله منزلة اللازم ، إيذاناً بأنه المدار في الاستبعاد ، لا خصوصية المفعول . هـذا هو الحقيق بجزالة التنزيل ـ أفاده أبو السعود ـ .

ثم ناقش ما وقع للمفسرين هنا مما يخالفه. فانظره .

وأصل (العـدل) مساواة الشيء بالشيء . والمعنى : أنهم يجعلون له عديلًا من خلقه ، مما لا يقدر على شيء ، فيعبدون الحجارة ، مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض .

وقال النضر بن شميل : (الباء) بمعنى (عن) أي : عن ربهم يعدلون وينحرفون ، من العدول عن الشيء .

لطيفة :

قال ابن عطية رحمه الله : (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين . ثم بعد هـذا كله قد عدلوا بربهم . فهذا كما تقول : أعطيتك وأحسنت إليك ، ثم تشتمني ؟ ولو وقع العطف في هذا ونحوه بـ (الواو) لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثم) . انتهى . أي : ففيها الدلالة على التوبيخ والإنـكار ، كالتعجيب أيضاً .

قال أبو حيان : هذا الذى ذهب إليه ابن عطية من أن (ثم) للتوبيخ . والزمخشرىّ من أنها للاستبعاد ـ مفهوم من سياق الكلام ، لا من مدلول (ثم) . انتهى .

وإنما لم تحمل (ثم) على التراخى ، مع استقامته ، لكون الاستبعاد أوفق بالمقام ، لأن التراخى الزمانىّ معلوم فيه ، فلا فائدة فى ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث ، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى ، مع معاينتهم لموجبات توحيده . وتخصيصُ خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ما ذكره من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها ، كما ورد فى قوله تعالى(١) : أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ـ لما أن محل النزاع بعثهم . فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم بشؤون أنفسهم أعرف ، والتعامى عن الحجة النيرة أقبح . والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ . أى : ابتدأ خلقكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل ، لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر . وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين ، لا إلى آدم عليه السلام ، وهو المخلوق منه حقيقة ، بأن يقال : هو الذى خلق أباكم ... الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه ، فى إيجاب الإيمان بالبعث ، وبطلان الامتراء ـ لتوضيح منهاج القياس ، وللمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس . مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية : هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه ، عليه السلام ، منه،

(١) [٣٦ / يس / ٨١] . . . بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر آحاد الجنس ، انطواءً إجمالياً ، مستتبِعاً لجريان آثارها على الكل . فكان خلقُه عليه السلام من الطين خلقاً لكل أحد من فروعه منه . ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته ، أبدع من أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه ، كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه ، وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم ، وكمال علمه وحكمته ، وكان ابتداء حال المخاطبين أَوْلى بأن يكون معيارًا لانتهائها ـ فعل ما فعل . ولله در شأن التنزيل ! وعلى هذا السر مدار قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ . . .(١) الخ . وقوله تعالى : وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٢) . كما سيأتى .

وقيل : المعنى خلق أباكم منه ، على حذف المضاف . وقيل : معنى خلقهم منه ، خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض . وأيًّاما كان، ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث، مالا يخفى . فإن من قدر على إحياء مالم يشم رائحة الحياة قط ، كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة ـ أفاده أبو السعود ـ .

وفى (العناية) : أن فى الآية التفاتاً ، لأن الخطاب ـ وإن صح كونه عامًّا ـ لكنه خاص بالذين كفروا ، كما يقتضيه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) . ونكتته أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذى فى الآية السابقة ، والشكر عليه أوجب . وقد أشير فى كل من الدليلين إلى المبدأ والمعاد ، وما بينهما . انتهى .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١١] . . . ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٩] ونصها : قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً .

أخرج أبو داود[1] والترمذىّ عن أبى موسى الأشعرىّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك . والسهلُ والحَزْنُ ، والخبيث والطيّب .

وقوله تعالى : « ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا » أى: كتب لموت كل واحد منكم أجلًا خاصًّا به . أى : حدًّا معيناً من الزمان يفنى عند حلوله . أو كتب ، لِمَا بين أن يولد كل منكم إلى يوم أن يموت ، أجلًا .

« وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » أى : وحدّ معين لبعثكم جميعاً ، مثبت معيّن فى علمه ، لا يقبل التغيير ، ولا يقف على وقت حلوله أحد . كقوله تعالى[2] : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ . فمعنى (عِنْدَهُ) أنه مستقل بعلمه . و (أَجَلٌ) مبتدأ لتخصيصه بالصفة ، ولوقوعه فى موقع التفصيل . وتنوينه لتفخيم شأنه ، وتهويل أمره ، ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذى هو (عِنْدَهُ) ، مع أن الشائع فى مثله التأخير ، كأنه قيل : وأىّ أجل معين فى علمه لا يعلمه أحد لا مجملًا ولا مفصلًا . وأما أجل الموت فمعلوم إجمالًا وتقريباً ، بناء على ظهور أماراته ، أو على ما هو المعتاد فى أعمار الإنسان .

« ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث ، بعد معاينتهم لما ذكر

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٦ ـ باب فى القدر ، حديث ٤٦٩٣ وأخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١ ـ حدثنا محمد ابن بشار .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

من الحجج الباهرة الدالة عليـه . أى : تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه ، مع مشاهدتـكم فى أنفسكم ما يقطع مادة الامتراء . فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها ، وإبقائها ما يشاء ، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » أى المعبود فيهما ، « يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » أى من الأقوال أو الدواعى والصوارف القلبية وأعمال الجوارح، « وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ » أى : ماتفعلونه من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب . وتخصيصه بالذكر ، مع اندراجه فيما سبق، على التفسير الثانى للسر والجهر ـ لإظهار كمال الاعتناء به لأنه الذى يتعلق به الجزاء ، وهو السر فى إعادة (يعلم) .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وما هاتان الآيتان الـكريمتان ـ يعنى هـذه الآية وآية الزخرف ، وهى قوله تعالى(١) : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ـ إلا توأمتان . فإن التمدح فى آية الزخرف ، وقع بما وقع التمدح به ههنا من القدرة على الإعادة والاستئثار بعـلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : للمفسرين فى هذه الآية أقوال ، بعد اتفاقهم على إنـكار قول الجهمية الأول ، القائلين ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه فى كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك . فالأصح من الأقوال أنه المدعوّ فى السموات وفى الأرض ، أى :

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

يعبده ويوحده ويقرّ له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَباً وَرَهَباً[١] إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية ـ على هذا القول ـ كقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَٰهٌ . أى : هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض . وعلى هذا ، فيكون قوله : (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) خبراً أو حالا .

والقول الثانى ـ إن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات ومافى الأرض من سر وجهر . فيكون قوله (يَعْلَمُ) متعلقا بقوله (فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ) تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات ... الخ .

والقول الثالث ـ إن قوله : (وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ) وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال (وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) وهذا اختيار ابن جرير . انتهى .

ورجح ابن عطية فى الآية : أنه الذى يقال له (الله) فيهما . قال : وهذا عندى أفضل الأقوال ، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى . وإيضاحه : أنه أراد أن يدل على خلقه ، وآيات قدرته ، وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات. فجمع هذه كلها فى قوله (وَهُوَ اللهُ ـ الَّذِى لَهُ هَٰذِهِ كُلُّهَا ـ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ) كأنه قال : وهو الخالق والرازق والمحيى والمميت فيهما .

تنبيه :

قال الرازىّ : الآية تدل على كون الإنسان مكتسباً للفعل ، والكسب هو الفعل المُفضِى إلى اجتلاب نفع ، أو دفع ضرّ . ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب ، لكونه تعالى منزّهاً عن جلب النفع ، ودفع الضرّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢١/ الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ » يعنى : مايظهر لـكفار مكة دليل من الأدلة التى يجب فيها النظر والاعتبار ، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن ، التى من جملتها الآيات السالفة ، الناطقة ببدائع صنعه وقدرته على البعث «إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ» أى : على وجه التكذيب والاستهزاء ، لقلة خوفهم وتدبرهم ، فى العواقب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ » يعنى: القرآن الذى تُحُدُّوا به ، فعجزوا عنه « فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى : مصداق أنباء الحق الذى كانوا يكذبون به على سبيل الاستهزاء . وأنباؤه عبـارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة . فهو وعيد شديد لهم بأنه لابد لهم أن يذوقوا وباله . وقد ذاقوه يوم بدر وغيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ)

«أَلَمْ يَرَوْا» أى: ألم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر، لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين قبلهم، أنباءهم مرارا كثيرة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ»، أى من أمة، فلم نبق منها

أحدا ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم الماضية ، والقرون الخالية . « مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ » أي : قررناهم وثبتناهم في الأرض ، « مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » أي : ما لم نجعل لكم من السعة والرفاهية وطول الأعمار ، ياأهل مكة ! « وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ » أي المطر . قال المهايمي : هو أبلغ من (أَنْزَلْنَا) في الدلالة على الكثرة ، « عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا » أي كثيراً ، « وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ » أي من تحت أشجارهم ، فماشوا في الخصب بين الأنهار والثمار ، وسقيا الغيث المدرار ، « فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » أي : بسبب ذنوبهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسلهم ، وجعلناهم أحاديث ، فماأغنى عنهم ما كانوا فيه . أي وسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب . « وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » أي: بدلا من الهالكين . يعني : فلا يتعاظمه تعالى أن يهلك هؤلاء ، ويخلي ديارهم منهم ، وينشىء أمة سواهم ، فما هم بأعزّ على الله منهم . والرسول الذي كذبوه أكرم على الله من رسلهم . فهم أولى بالعذاب ، ومفاجأة العقوبة، لولا لطفه وإحسانه .

ثم بين تعالى شدة مكابرتهم ، إثر إعراضهم، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ » أي مكتوباً في ورق ، « فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » أي : فمسوه ، « لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا » أي : ليس هذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله ، « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » تعنتاً وعناداً . وتخصيص (اللمس) لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا ، ولأنه يتقدمه الإبصار ، حيث لا مانع . وتقييده بـ (الأيدي) لرفع التجوز ، فإنه قد يتجوز به للفحص ، كقوله[1]: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ـ أفاده البيضاوي .

(١) [٧٢ / الجن / ٨] . . . فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا .

قال الناصر فى (الانتصاف) : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم ، تحقيق القراءة على قرب . أى : فقرءوه وهو فى أيديهم ، لا بعيد عنهم ، لما آمنوا .

وقال ابن كثير : وهـذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١) . ولقوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ)

« وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » أى: ليكون معه فيكلمنا أنه نبىّ ، كقوله(٣) : لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

« وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ » جواب لمقترحهم ، وبيان لمانعه ، وهو البقيا عليهم ، كيلا يكونوا كالباحث عن حتفه بظلفه . والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته ، وهى آية لا شىء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر . فإن سنة الله قد جرت فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية ، ثم لم يؤمنوا ، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا

(١) [١٥ / الحجر / ١٤و١٥] .
(٢) [٥٢ / الطور / ٤٤] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧] ونصها : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

إِذًا مُنظَرِينَ[١] . وقوله تعالى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ[٢] .

« ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ » أى : لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ، فضلا عن أن ينذروا به. ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين ، قضاء الأمر ، وعدم الإنظار.جعل عدم الإنظار . أشد من قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

تنبيه :

ذكر الزمخشرى وجهاً ثانياً فى تعجيل عذابهم ، عند نزول الملائكة ، وهو أنه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكهم ، وفى (الكشف) الاختيار قاعدة التكليف ، وهذه آية ملجئة . قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[٣] . فوجب إهلاكهم ، لئلا يبقى وجودهم عارياً عن الحكمة ، إذ ماخلقوا إلا للابتلاء بالتكليف، وهو لا يبقى مع الإلجاء . هذا تقريره على مذهبهم ، وهو غير صاف عن الإشكال . انتهى . وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة ، وكأنّ وجه إشكاله أنه وقع فى القرآن ، والواقع ما ينافيه ، كما فى قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ... الآية[٤] ـ كذا فى (العناية) ـ

---

(١) [١٥ / الحجر / ٨] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] . . . وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

(٣) [٤٠ / الفتح / ٨٥] . . . سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وذكر أيضاً وجهاً ثالثاً . وهو أنهم إذا شاهدوا ملَـكاً فى صورته، زهقت أرواحهم من هول مايشاهدون .

قال فى (الانتصاف) : ويقوّى هذا الوجه قوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَـكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا . قال ابن عباس . ليتمكنوا من رؤيته ، ولا يهلـكوا من مشاهدة صورته . انتهى .

وهـــذا الوجه آثره أبو السعود فى التقديم حيث قال : أى لو أنزلنا ملـكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر ، بحيث لاتطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية. ألايرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائـكة ويفاوضونهم على الصورة البشرية ؟ كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام ، وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك ، وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالـكلية ، واستحال جعـــله نذيرًا ، وهو ـ مع كونه خلاف مطلوبهم ـ مستلزم لإخلاء العالم عما عليـه يدور نظام الدنيا والآخرة ، من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع. وقد قال سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا[1] . انتهى .

وفى (العناية) أن الوجه الثـــالث لا يناسب قوله (ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) ، لأنه يدل على إهلاكهم ، لا على هلاكهم ، برؤية الملك ، إلا بتـكلف .

هذا، وقال الناصر فى (الانتصاف) : على الوجه الأول لايحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية فى نزول الملك . فإنه ربما يُفهم هذا الـكلام أن الآيات التى لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك فى الوضوح، وليس الأمر كذلك . فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم ، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، إذ الذى يتوقف الوجوب عليـه المعجز من حيث كونه معجزًا ، لا المعجز الخاص ،

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] ونصها : مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا.

فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم ، فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ فى العناد المناسب لعدم النَّظِرة ـ والله أعلم ـ

قال المهايمىّ : لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك ، وتنزيل الملك بصورته الملكوتية يقطع أمر التكليف ، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم الملكوت ، فلا يمهلون ، لأن الإمهال للنظر . والمعجزة ـ وإن أفادت علماً ضرورياً ـ لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر ، ولا خفاء مع انكشاف عالم الملكوت ، فلا وجه للإمهال للنظر، فلا يقبل الإيمان معه، فلا بد من المؤاخذة عقيبه . انتهى ـ فليتأمل ـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » جواب ثان . أى: ولو جعلنا النذير الذى اقترحوه ملكاً لمثلناه رجلًا ، لما مرّ من عدم استطاعة الآحاد ، لمعاينة الملك على صورته ، من النور. وإنما رآه كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية . « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » جواب محذوف . أى : ولو جعلناه رجلًا لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم حينئذ ، بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك . ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز ، الناطق بها ، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق ـ لكذبوه ، كما كذبوا النبىّ عليه الصلاة والسلام . ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم ما تقدم من قضاء الأمر .

تنبيهات

الأول ـ فى إيثار (رَجُلًا) على (بَشَرًا) إيذان بأن الجعل بطريق التمثيل ، لا بطريق قلب الحقيقة ، وتعيين لما يقع به التمثيل .

الثانى ـ فى الآية بيان لرحمته تعالى بخلقه ، وهو أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق

رُسُلًا منهم، ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال . كما قال تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ...(١) الآية . وقال تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا(٢) .

الثالث ـ التعبير عن تمثيله تعالى (رَجُلًا) باللبس إما لكونه فى صورة اللبس ، أو لكونه سبباً للبسهم ، أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة . وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً ، كأنه قيل : لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم ـ أفاده أبو السعود .

الرابع ـ جوز بعضهم وجهاً ثانياً فى قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً) وهو أن يكون جواب اقتراح ثان ، على أن الضمير عائد للرسول ، لا لمقترحهم السابق . قال : لأنهم تارة يقولون : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وتارة يقولون: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً(٣) . والمعنى: ولو جعلنا الرسول ملكاً لمثلناه رجلًا . والظاهر هو الوجه الأول .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] . . . وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٩٥] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٤] ونصها : إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

وقوله تعالى : «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر ، والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة . و (حاق) بمعنى نزل وحلّ . ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر . أى : فنزل بهم وبال استهزائهم ، أو العذاب الذى كانوا يسخرون من التخويف به ، إذ هلكوا فى الدنيا على أقبح الوجوه ، ثم ردوا إلى أفظع العذاب أبد الآبدين. وجعل الرسل فى أعلى منازل القرب من رب العالمين .

ثم أمر تعالى أن يصدعهم بالتجول فى الأرض إن ارتابوا فيما تواتر ، أو تعاموْا عمَّا رأوْا ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » أى : سيروا فى الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم ، وتفكروا فى أنهم كيف أُهلكوا لمَّا كذبوا الرسل وعاندوا ، فتعرفوا صحة ما توعظون به . وفى السير فى الأرض ، والسفر فى البلاد ، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها ـ تكملة للاعتبار ، وتقوية للاستبصار . أى : فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

وفى هذه الآية تكملة للتسلية ، بما فى ضمنها من العدة اللطيفة ، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين . وقد أنجز ذلك يوم بدر أىّ إنجاز .

لطيفة :

وقع هنا (ثُمَّ انْظُرُوا) . وفى النمل[1] : قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا . وكذا فى العنكبوت[2] . فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ (ثم) ، كما هو مبسوط فى (العناية) ، مع ماعليه . ونقل عن بعضهم أن السير متحد فيهما ، ولكنه أمر ممتد ، يعطف بالفاء تارة ، نظرًا لآخره ، وبـ (ثم) نظرًا لأوله ، ولا فرق بينهما .

وفى (الانتصاف) : الأظهر أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحدًا ، ليكون ذلك سببًا فى النظر ، فحيث دخلت الفاء ، فلإظهار السببية . وحيث دخلت (ثم) ، فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى: خلقاً وملكاً ، وهو سؤال تبكيت وتقريع ، « قُلْ لِلَّهِ » تقرير للجواب ، نيابة عنهم . أى : هو لله ، لا خلاف بينى وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره . ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقاً ، كما فى قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن فى موضع يكون فيه الجواب قدبلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر

(١) [٢٧ / النمل / ٦٩] . . . كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] . . . كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

على إنكاره منكر ، ولا على دفعه دافع ، كما هنا . قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تثاقلوا في الجواب، مع تعينه، لكونهم محجوجين .

وقوله تعالى « كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق ، شمول ملكه وقدرته للكل ، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم التوبة والإنابة ، وأن ماسبق ذكره ، وما لحق من أحكام الغضب ، ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق . كيف لا ؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة ، وهداهم إلى معرفته وتوحيده ، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه . وقد بدلوا فطرة الله تبديلا ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب ، واستهزؤوا بالرسل ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(١) . ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضاً مسلك الغابرين . ومعنى : (كتب الرحمة على نفسه) أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة، بالذات ، لا بتوسط شيء أصلا . وفي التعبير عن (الذات) بـ (النفس) حجة على من ادعى أن لفظ (النفس) لا يطلق على الله تعالى ، وإن أريد به الذات، إلا مشاكلة. لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى « لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » جواب قسم محذوف . والجملة استئناف مسوق للوعيد ، على إشراكهم وإغفالهم النظر ، لأنه لما بين كمال إلهيته بقوله (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ) . ثم أخبر بأنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال ، ودفع عذاب الاستئصال ، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم ، ويحاسبهم على كل ما فعلوا ، لأن الملك الحكيم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .

لا يهمل أمر رعيته ، ولا يسوغ فى حكمته أن يسوى بين المطيع والعاصى قيل :(ليجمعنكم) جواب لقوله : (كَتَبَ) ، لأنه يجرى مجرى القسم .

وقيل : (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) بدل من الرحمة ، بدل البعض .

قال المهايمىّ : كمال الرحمة فى الجزاء ، إذ بدونه تضييع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضييع المظالم ، ولا جزاء فى دار الدنيا ، لأنه فرع التكليف ، ودار التكاليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى .

و (إلى) بمعنى اللام ، كقوله [1] : إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى اليوم ، أو فى الجمع .

« الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى : بتضييع رأس مالهم ، وهو الفطرة الأصلية ، والعقل السليم ، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحى ، وغير ذلك من آثار الرحمة .

« فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى: لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

قال أبو السعود : والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس ، والانهماك فى التقليد ، وإغفال النظر ، أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان . والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى، لتقبيح حالهم ، غير داخل تحت الأمر .

تنبيه :

روى فى معنى هذه الآية عن أبى هريرة [2] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما خلق الله

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩] ونصها : رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

(٢) يضطرنا هذا السياق إلى سرد جميع روايات هذا الحديث كما جاءت فى كتابنا =

الخلق كتب فى كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ـ رواه الشيخان ـ

وفى البخارىّ : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى سبقت غضبى ، فهو مكتوب عنده ، فهو العرش .

وفى رواية لهما : أن الله لما خلق الخلق .

= (جامع مسانيد صحيح البخارىّ) والحديث رقم ١٥٠٩ فى الصحيح ورقم ٢٣٤ من مسند أبى هريرة ، فها كموها بنصها الكامل :

٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى : وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .

حدثنا قتيبة بن سعيد . حدثنا مغيرة بن عبدالرحمن القرشىّ عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٥ ـ باب قول الله تعالى : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ .

حدثنا عبدان عن أبى حمزة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه ، هو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش: إن رحمتى تغلب غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب: وكان عرشه على الماء. وهو رب العرش العظيم .

حدثنا أبو اليمان . أخبرنا شعيب . حدثنا أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتى سبقت غضبى » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٨ ـ باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ .

حدثنا إسماعيل . حدثنى مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه ؛ إن رحمتى سبقت غضبى » . =

وعند مسلم : لما قضى الله الخلق، كتب فى كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده . زاد البخارىّ : على عرش . ثم اتفقا : إن رحمتى تغلب غضبى .

وسنذكر، إن شاء الله، شذرة من أحاديث الرحمة عند آية (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) قريباً .

قال أبو السعود : ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق ، وأكثر وصولاً إليهم ، مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير .

= ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

وقال لى خليفة بن خياط . حدثنا معتمر . سمعت أبى عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده : غلبت (أو قال سبقت) رحمتى غضبى ، فهو عنده فوق العرش » .

٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

حدثنى محمد بن أبى غالب . حدثنا محمد بن إسماعيل . حدثنا معتمر . سمعت أبى يقول : حدثنا قتادة؛ أن أبا رافع حدثه أنه سمع أباهريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق؛ إن رحمتى سبقت غضبى . فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، رقم ١٤و١٥و١٦ (طبعتنا) .

الحديث رقم ١٤ ؛ أن النبىّ ﷺ قال « لما خلق الله الخلق ، كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » .

الحديث رقم ١٥ ؛ عن النبىّ ﷺ « قال الله عزّ وجلّ ، سبقت رحمتى غضبى » .

الحديث رقم ١٦ ؛ قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه على نفسه، فهو موضوع عنده : إن رحمتى تغلب غضبى » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَهُ » أى : ولله عز وجل ، « مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى ما استقر وحلّ ، من (السكنى) بمعنى (الحلول) . كقوله تعالى : وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ(١) . والمعنى : له تعالى كل ما حصل فى الليل والنهار ، مما طلعت عليه الشمس أو غربت. شبه الاستقرار بالزمان ، بالاستقرار فى المكان ، فاستعمل استعماله فيه . أو (سكن) من (السكون) ، مقابل الحركة . أى : ما سكن فيهما وما تحرك ، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ، كما فى قوله : سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ(٢) ، لأن ذلك يعرف بالقرينة . وعليه، فإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس . لأن السكون أكثر وجودًا ، والنعمة فيه أكثر .

قال بعضهم : لا حاجة لدعوى الاكتفاء ، فإن ما سكن يعم جميع المخلوقات ، إذ ليس شيء منها غير متصف بالسكون ، حتى المتحرك ، حال حركته ، على ما حقق فى الكلام : من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة وكثرتها .

لطيفة .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ذكر تعالى فى الآية الأولى السموات والأرض ، إذ لا مكان سواهما . وفى هذه الآية ذكر الليل والنهار ، إذ لا زمان سواهما . فالزمان والمكان ظرفان

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٥] . . . وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ .

(٢) [١٦ / النحل/ ٨١] ونصها : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات . وهذا بيان في غاية الجلالة .

وقال الرازيّ : ههنا دقيقة أخرى . وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات . وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها .

« وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » يسمع كل مسموع ، ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه المَلَوَان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ » أي لكفار مكة المبكّتين بما تقدم : « أَغَيْرَ اللهَ أَتَّخِذُ وَلِيًّا » أي معبوداً . كقوله تعالى : قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . والمعنى : لا أتخذ ولياً إلا الله وحده . « فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق . بالجر، صفة للجلالة ، مؤكدة للإنكار ، «وهو يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» أي: يَرْزُقُ ولا يُرْزَق . أي : المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . أي : فيجب اتخاذه ولياً ليعبد شكراً على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض . قيل: المراد بالطعم الرزق، بمعناه اللغويّ . وهو كل ما ينتفع به ، بدليل وقوعه مقابلًا له في قوله تعالى : مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ[١] . فعبر بالخاص عن العام مجازاً ، لأنه أعظمه وأكثره ، لشدة الحاجة إليه . واكتفى به عن العام ، لأنه يعلم ، من نفي ذلك ، نفي ما سواه .

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٧] .

«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ». أي : وجهه لله مخلصاً له ، لأصير متبوعاً للباقين . كقوله : وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(١) . وكقول موسى : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ(٢) .

« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : وقيل لى : (وَلَا تَكُونَنَّ) . فهو معطوف على (أُمِرْتُ) بمعنى : أمرت بالإسلام ، ونهيت عن الشرك صريحاً مؤكداً، بعد النهى فى ضمن الأمر . ونهى المتبوع نهى التابعين . ويجوز عطفه على (قُلْ) . وفى الآية إرشاد إلى أن كل آمر ينبغى أن يكون عاملاً بما أمر به ، لأنه مقتداهم . قيل : هذه الآية للتحريض ، كما يأمر الملك رعيته بأمر ، ثم يقول : وأنا أول من يفعل ذلك ، ليحملهم على الامتثال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي » أى : بمخالفة أمره ونهيه أىّ عصيان . فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليًّا . « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يعنى : عذاب يوم القيامة ، الذى تظهر فيه عظمة القهر الإلهىّ . وفى الآية مبالغة أخرى فى قطع أطماعهم ،وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم . ووجه التعريض إسنادماهومعلوم الانتفاء ، بـ (إنْ) التى تفيد الشك تعريضاً . وجيء بالماضى إبرازا له فى صورة الحاصل على سبيل الفرض ، تعريضاً

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ . . .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

بمن صدر عنهم ذلك . وحيث كان تعريضا لهم ، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك ـ لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية ، مع أنه معصوم . كما لا يتوهم مثله في قوله : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ(١) وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر، بأن الخوف تعلق بالعصيان المتنع الوقوع امتناعاً عاديًّا، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان . وهذا لا يدل على حصول الخوف .

قال بعضهم : لا يقال على تقدير العصيان ، يكون الجواب هو استحقاق العذاب ، لا الخوف . لأنا نقول : لا منافاة بينهما . فالخوف إما على حقيقته ، أو كناية عن الاستحقاق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

« مَنْ يُصْرَفْ » بالبناء للمفعول ، أي العذاب ، « عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ » أي : نجاه وأنعم عليه ، أو أدخله الجنة ، لقوله : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ(٢) ، وقوله : يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ(٣) والجملة مستأنفة ، مؤكدة لتهويل العذاب .

« وَذَٰلِكَ » أي الصرف أو الرحمة ، « الْفَوْزُ الْمُبِينُ » أي : الظاهر .

ثم ذكر تعالى دليلا آخر، في أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ وليا غير الله تعالى، بقوله :

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ...،

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨٥] ونصها : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ٨] ونصها : وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ » أى ببلية ، كفقر ومرض ونحوها . و(الضر) : اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه ، « فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » أى : فلا يقدر على دفعه إلا هو وحده . « وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ » من عافية ورخاء ونحوها : و (الخير) اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له ، « فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى : ومن جملته ذلك ، فيقدر عليه ، فيمسك به ، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد . كقوله تعالى : فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ(١) . وكقوله سبحانه : مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ(٢) .

وفى الصحيح(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ .

(١) [١٠/يونس/١٠٧] ونصها : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٣٥ / فاطر / ٢] . . . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ١٥٥ ـ باب الذكر بعد الصلاة ، حديث رقم ٥٠٠ وهذا نصه :

عن ورّاد ، كاتب المغيرة بن شعبة قال: أملى علىّ المغيرة بن شعبة ، فى كتاب إلى معاوية؛ أن النبىّ ﷺ كان يقول فى دُبُر كل صلاة مكتوبة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم ! لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه[1] قال : كنت خلف النبىّ ﷺ فقال : ياغلام ! إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله تعالى لك، ولواجتمعوا على أن يضروك بشىء ، لم يضروك إلا بشى قد كتبه الله تعالى عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ـ رواه الترمذىّ ـ وقال : حسن صحيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » أى : هو الغالب بقدرته ، المستعلى فوق عباده ، يدبر أمرهم بما يريد ، فيقع فى ذلك مايشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره .

قال أبو البقاء : فى (فوق) وجهان :

أحدهما ـ فى موضع نصب على الحال من الضمير فى (القاهر) أى : مستعليا وغالبا .

والثانى ـ فى موضع رفع على أنه بدل من (القاهر) أو خبر ثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ،قُلْ لَا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

« قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً » أى بحيث لا يمكن معارضته بما يساويه « قُلِ اللَّهُ »

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى:٣٥ـ كتاب القيامة،٥٩ ـ باب حدثنا بشر بن هلال البصرى.

أى : أكبر شهادة ، إذ لا احتمال لطروّ الكذب فى خبره أصلًا ، جل شأنه . وأمره ﷺ بأن يتولى الجواب بنفسه ، إما للإيذان بتعينه ، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره، أولأنهم ربما يتلعثمون فيه ، لا لترددهم فى أنه تعالى أكبر من كل شىء ، بل فى كونه شهيدًا فى هذا الشأن .

وقوله تعالى « شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » خبر لمحذوف ، أوخبر عن لفظ الجلالة . ودل على جواب (أىّ) من طريق المعنى ، لأنه إذا كان تعالى هو الشهيد بينه وبينهم ، كان أكبرُ شىء شهادة ، شهيدًا له . فيكون من الأسلوب الحكيم ، لأنه عدل عن الجواب المتبادر ـ إليه ، ليدل على أن أكبر شىء شهادة شهيد للرسول ، فإن الله أكبر شىء شهادة ، والله شهيد له ، فينتج الأكبر شهادة شهيد له . والقياس المذكور من الشكل الثالث ، لأن الحد الأوسط موضوع فى المقدمتين ، لا من الثانى ، كما وقع للشهاب فى (العناية) وهو من بديهيات الميزان .

قال بعضهم: الغرض من السؤال بـ (أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) أن شاهدى أكبر شهادة . فقوله (شَهِيدٌ ...) الخ تنصيص له ، والسؤال المذكور لا يحتاج إلى جواب ، لكونه معلوماً بيّناً عند الخصم ، فحاصله أن الله الذى هو أكبر شهادة ، شهد بذلك . انتهى .

ومعنى (شَهِيدٌ) مبالغ فى الشهادة على نبوّتى، بحيث يقطع النزاع بينى وبينكم ، إذ شهد سبحانه بالقول فى الكتب التى أنزلها على الأولين ، وبالفعل فيما ظهر على يدىّ من المعجزات، لا سيما معجزة القرآن ، كما قال تعالى :

«وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرْءَانُ» أى : الجامع للعلوم التى يحتاج إليها فى المعارف والشرائع، فى ألفاظ يسيرة ، فى أقصى مراتب الحسن والبلاغة ، معجزة شاهدة بصحة رسالتى . لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء ، وقد عجزتم عن معارضته « لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ » ، أى بما فيه من الوعيد، « وَمَنْ بَلَغَ » عطف على ضمير المخاطبين . أى : لأنذركم به، يا أهل مكة! وسائر من بلغه

من الناس كافة ، فهو نذير لكل من بلغه ، كقوله تعالى : وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ(١) .

« أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ » تقرير لهم مع إنكار واستبعاد .

« قُلْ لَا أَشْهَدُ » بما تشهدون ، « قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » أى : بل أشهد أن لا إله إلا هو ، لا يشارك فى إلهيته ، ولا فى صفات كماله « وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » يعنى : الأصنام .

وفى هذه الآية :

مسائل :

الأولى ـ استدل الجمهور بقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ) فى جواب (أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) على جواز إطلاق (الشىء) عليه تعالى . وكذا بقوله سبحانه وتعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ(٢) ، فإن المستثنى يجب أن يدخل تحت المستثنى منه ، وذلك لأن الشىء أعم العام ـ كما قال سيبويه ـ لوقوعه على كل مايصح أن يعلم ويخبر عنه . واختار الزمخشرىّ شموله حتى للمستحيل . وصرح كثير من المحققين بأنه يختص بالموجود ؛ وضعفوا من أطلقه على المعدوم ، بأنه محجوج بعدم استعمال العرب ذلك ، كما علم باستقراء كلامهم ، وبنحو . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٢٨ / القصص / ٨٨] ونصها : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إِلَّا وَجْهَهُ ، إذ المعدوم لا يتصف بالهلاك ، وبنحو : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [1] . إذ المعدوم لا يتصور منه التسبيح .

قال الناصر فى (الانتصاف) : هــذه المسألة معدودة من علم الـكلام باعتبارٍ مّا ، وأما هذا البحث فلغوىّ ، والتحاكم فيه لأهل اللغة . وظاهر قولهم : غضبت من لا شيء . و

* إذا رأى غير شيء ظنه رجلا [2] *

ـ أن الشيء لا ينطلق إلا على الموجود ، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم ، عدمًا كان أو وجودًا ، أو ممكنًا أو مستحيلًا ، لمــا صدق على أمرٍ مّا أنه ليس بشيء ، والأمر فى ذلك قريب . انتهى .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

(٢) صدر البيت :

* وضاقت الأرض حتى كان هاربهم *

من قصيدة لأبى الطيّب المتنبّى ، قالها فى صباه ، يمدح سعيد بن عبــد الله بن الحسن ابن الـكلابىّ المنبجىّ .

ومطلعها :

أَحْيَا ! وأيسرُ ما لاقيتُ ما قَتَلَا والبينُ جار على ضُعفى وما عَدَلَا

قال الواحدىّ : يعنى لشدة ما لحقهم من الخوف ضاقت عليهم الأرض ، فلم يجدوا مهربا ـ كقوله تعالى : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ـ وهاربهم إذا رأى غير شيء يعبأ به أو يفكر فى مثله ، ظنه إنسانًا يطلبه . وكذا عادة الهارب الخائف . كقول جرير :

ما زلتَ تحسب كل شيء بعدهم خيلا تــكرّ عليهم ، ورجالا

هـــذا ، وتمسك مَنْ منع إطلاقه عليه تعالى بقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا(١) . والاسم إنما يحسن لحسن مسماه ، وهو أن يدل على صفة من صفات الـكمال، ونعت من نعوت الجلال . ولفظ (الشيء) أعمّ الأشياء ، فيكون مسماه حاصلًا فى أحسن الأشياء وفى أرذلها . ومتى كان كذلك ، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الـكمال، فوجب أن لا يجوز دعوة الله بهذا الاسم ، لأنه ليس من الأسماء الحسنى ، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها . وأجيب : بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى ، لـكونها توقيفية ، وكونه لا يدعى به لعدم وروده ـ لا ينافى شموله للذات العلية ، شمول العامّ . والمراد بإطلاقه عليـــه تعالى (فيما تقدم) شموله ، لا تسميته به . وبالجملة ، فلا يلزم من كونه ليس من الأسماء الحسنى ، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولًا كليًّا ، كيف ؟ وهو الموضوعات العامة . والتحاكم للغويين فى ذلك ـ كما قدمنا ـ .

الثانية ـ ما أسلفناه من أن المعنىّ بالشهادة هو شهادته تعالى فى ثبوت النبوة له ﷺ ، هو الذى جنح إليه الأكثر . وكأن مشركى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وســـلم شاهداً على نبوته . فقيل لهم : أكبر شىء شهادة هو الله تعالى ، وقد شهد لى بالنبوة ، لأنه أوحى إلىّ هـــذا القرآن ، وتحدّاكم بمعارضته ، فعجزتم ، وأنتم أنتم فى مقام البلاغة . وإذ كان معجزاً ، كان إظهاره تعالى إياه على وفق دعواى ، شهادةً منه على صدقى فى النبوة .

ولبعضهم وجه آخر ، وهو أن المعنىّ ، شهادته تعالى فى ثبوت وحدانيته ، وتنزهه عن الأنداد والأشباه . ويرشحه تتمة الآية ، وهو قوله : (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ . . .) الخ وقوله (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .)(٢) الآية ، وقوله (فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] ونصها : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

مَعَهُمْ)[١] ، مما يدل على أن الشهادة إنما عنى بها ، فى موارد التنزيل ، ثبوت الوحدانية . والقرآن يفسر بعضه بعضا ـ والله أعلم ـ .

الثالثة ـ إنما اقتصر على الإنذار فى قوله (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) لكون الخطاب مع كفار مكة ، وليس فيهم من يبشَّر . أو اكتفى به عن ذكر البشارة على حدّ (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)[٢] .

الرابعة ـ استدل بقوله تعالى (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة ، وإلى الجن .

الخامسة ـ استدل به أيضاً على أن أحكام القرآن تعمّ الموجودين يوم نزوله ، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامة ، خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل ـ عند الحنابلة ـ وبالإجماع عندنا فى غير الموجودين ، وفى غير المكلفين يومئذ ـ أفاده أبو السعود ـ .

السادسة ـ روى ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى قوله (وَمَنْ بَلَغَ) : من بلغه القرآن ، فكأنما رأى النبيّ ﷺ وكلمه . ورواه ابن جرير[٣] عنه بلفظ : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٠] ونصها : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل / ٨١] ونصها : وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ .

(٣) الأثر رقم ١٣١٢٤ من التفسير .

وروى[1] عبد الرزاق عن قتادة فى هذه الآية ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله.

وقال الربيع بن أنس : حقٌّ على من اتبع رسول الله ﷺ ، أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ ، وأن ينذر بالذى أنذر .

السابعة ـ دلّ قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وقوله(وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) على إثبات التوحيد بأعظم طرق البيان ، وأبلغ وجوه التأكيد . لأن (إنما) تفيد الحصر ، و(الواحد) صريح فى نفى الشركاء . ثم صرّح بالبراءة عن إثبات الشركاء . وقد استحب الشافعىّ لمن أسلم بعد إتيانه بالشهادتين، أن يتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام، لقوله (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) عقب التصريح بالتوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ . الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

وقوله تعالى « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » يعنى: اليهود والنصارى « يَعْرِفُونَهُ » أى : يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت فى الكتابين « كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ » بحلاهم ونعوتهم ، لا يخفون عليهم ، ولا يلتبسون بغيرهم .

قال المهايمىّ: لأنه ﷺ ذكر فى الكتاب نعته . وهو ، وإن لم يفد تعيُّنه باللون والشكل والزمان والمكان ، تعيّن بقرائن المعجزات . فبقاء الاحتمال البعيد فيه ، كبقائه فى الولد ، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته ، أو يكون من الفجور ، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور . فهو، كما يعرفون أبناءهم فى ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها.

---

(١) الأثر رقم ١٣١١٩ من تفسير ابن جرير .

قال الزمخشريّ : وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب ، وبصحة نبوّته .

ثم بيّن تعالى أن إنكاره خسران لما عرفوه ، ولما أمروا بالتدين به بقوله « الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أي : من المشركين « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بهذا الأمر الجليّ الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوّهت به ، لأنه مطبوع على قلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً » كقولهم : الملائكة بنات الله(١) ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله . قال تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا(٢) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] ونصها : وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ .

و [١٦ / النحل / ٥٧] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ .

و [١٧ / الإسراء / ٤٠] ونصها : أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً .

و [٣٧ / الصافات / ١٥٠] ونصها : أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ .

و [٤٣ / الزخرف / ١٩] ونصها: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

و [٥٣ / النجم / ٢٧] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ .

(٢) [٧ / الأعراف/٢٨]ونصها : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا =

« أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أى : القرآن والمعجزات ، حيث سموها سحرًا . وإنما ذكر (أو) مع أنهم جمعوا بين الأمرين ، تنبيهاً على أن كلًّا منهما وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم على النفس . فكيف ؟ وهم قد جمعوا بينهما ، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ، ونفوا ما أثبته .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : لا ينجون من مكروه ، ولا يفوزون بمطلوب . وإذا كان حال الظالمين هذا ، فكيف بمن لا أحد أظلم منه ؟

تنبيه :

ما ذكرناه من كون الموصول كناية عن المشركين هو الظاهر ، لأن السورة مكية ، والخطاب مع مشركى أهلها . وجعله البيضاوىّ لهم ، ولأهل الكتاب، وقوفاً مع عموم اللفظ. والمهايمىّ ؛ لأهل الكتاب خاصة ، ربطاً للآية بما قبلها . والظاهر الأول ، لما قلنا . وعبارة المهايمىّ : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) بتفويت ما أوتوا من الكتاب ، وما أمروا به ، فهم لا يؤمنون . وكيف لا يخسرون ، وهم ظالمون ، وكل ظالم خاسر ؟ وإنما قلنا : إنهم ظالمون، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظاً أو معنًى ، فيفترون على الله الكذب ، ويكذبون آيات الله من كتابهم ، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه . وقد يسترون بعض ما فى كتابهم ، وهو أيضاً تكذيب . فعلوا جميع ذلك لأنه لايتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور.

وقال فى قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ ...) الآية : لأنهم بالتحريف يدّعون إلٰهية أنفسهم، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل ، وينسبون إيجادها إلى غير الله ، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة . وإنما قلنا: كل ظالم خاسر ، لأن كل ظالم لايفلح . كما قال تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أى : لا يفلحون فى الدنيا بانقطاع الحجة عنهم ، وظهور المسلمين عليهم . وفيه إشارة إلى أن مدّعى الرسالة ، لو كان كاذباً كان مفترياً على الله ، فلا يكون مفلحاً ، فلا يكون سبباً لصلاح العالم ، ولا محلًّا لظهور المعجزات . انتهى .

= وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ » أى : الإنس والجن والشياطين . منصوب بمضمر تهويلًا للأمر « جَمِيعاً » ليفتضح من لا يفلح من الظالمين مزيد افتضاح ، ويظهر المفلحون بكمال الإعزاز . « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى مضوا على الشرك ، بأن ماتوا عليه ، وهم الشاهدون أن مع الله آلهة أخرى « أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ » أى الذين جعلتموهم شركاءنا ، وهم شركاؤكم فى العبودية ـ كذا قاله المهايمىّ ـ وعليه ، فالإضافة على بابها .

وفى (العناية) : الإضافة فيه لأدنى ملابسة ، كما أشار إليه القاضى بقوله : أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله ، لأنه لا شركة بينهم ، وإنما سموهم شركاء ، فلهذه الملابسة أضيفوا إليهم .

قيل : قوله تعالى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) يقتضى حضورهم معهم فى المحشر ، و (أين) يسأل بها عن غير الحاضر ؟ أجيب بأنه بتقدير مضاف . أى : أين نفعهم وشفاعتهم ، أو أنهم بمنزلة الغيَّب ، لعدم ما رجوا منهم من الشفاعة . وعلى كلٍّ ، فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم ، وأن يقرر فى نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأيوس منه . وذلك تنبيه لهم فى دار الدنيا على فساد هذه الطريقة .

وقوله تعالى « الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : تزعمونها شركاء من عند أنفسكم . أى : فقصدتم بذلك فعل الفاتنين فى المملكة بجعلها لغير من هى له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

« ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ » أى : جواب ما اعترض به على فتنتهم التى هى شهادة أن مع الله آلهة أخرى . وعبّر عن جوابهم بالفتنة ، لأنه كذب « إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » اعتذروا عن أصنامهم بنفيها مؤكدًا بالقَسَم بالاسم الجامع ، مع نسبة الربوبية إليه تعالى ، لا إلى ما سواه ، مبالغة فى التبرؤ من الإشراك . فكان هذا العذرُ ذنباً آخر مؤكدًا لافترائهم بالإشراك الذى نفوه . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى : بنفى الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود « وَضَلَّ » أى : وكيف ضاع وغاب « عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم ، كقوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)(١) فـ (ما) موصولة ، كناية عن الشركاء . وإيقاع الافتراء عليها ، مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية ، والشركة والشفاعة ونحوها ـ للمبالغة فى أمرها ، كأنها نفس المفترى .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٣٧] ونصها : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ .

تنبيهات :

الأول ـ ماذكرناه من أنه عبرعن جوابهم بالفتنة هو الأظهر . فالمراد : الجواب بما هو كذب ، لأنه سبب الفتنة ، فتجوّز بها إطلاقاً للمسبب على السبب ، أو هو استعارة . وقيل: الفتنة بمعنى العذر ، لأنها التخليص من الغش لغة ، والعذر يخلّص من الذنب ، فاستعيرت له . وقيل : بمعنى الكفر ، لأن الفتنة ما تفتتن به ويعجبك ، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به ، ويظنونه شيئاً ، فلم تكن عاقبته إلا الخسران ، والتبرؤ منه ، وليس هذا على تقدير مضاف ، بل جعل عاقبة الشيء عينه ، ادّعاءً .

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن فى اللغة ، لا يعرفه إلا من عرف معانى الكلام ، وتصرف العرب فى ذلك . وذلك أن الله تعالى بيّن كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهالكين على حبه. فأعلم فى هذه الآية، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلاأن تبرؤوا منه وتباعدوا عنه ، فحلفوا أنهم ماكانوا مشركين . ومثاله : أن ترى إنساناً يحب غاوياً مذموم الطريقة ، فإذا وقع فى محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ماكانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه .

قال الخفاجىّ ـ بعد نقله ما ذكر ـ : وليس هذا من قبيل عتابك السيف ، ولا من تقدير المضاف ، وإن صح فاحفظه ، فإنه من البدائع الروائع .

الثانى ـ ما بيّناه من أن (ما) فى قوله تعالى : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) موصولة ، كناية عن الشركاء ، بمعنى عدم إغنائها عنهم ـ هو الموافق للآية الثانية التى سقناها . وجوز كونها مصدرية . أى : انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك، حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية ، وتبرؤوا منه بالمرة .

هذا ، وجعل الناصر فى (الانتصاف) (ضَلَّ) بمعنى سُلِبُوا علمه ، فكأنهم نسوه وذهلوه دهشاً. وهوبعيد، لعدم ملاقاته للآية الأخرى. والتنزيل يفسر بعضه بعضاً. وعبارته:

فى الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به، كذب ، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره بخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبرّيهم كذباً ؟ مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون . أى : سلبوا علمه حينئذ دهشاً وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم . انتهى .

الثالث ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ .

قلت : الممتحَن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه ، من غير تمييز بينهما ، حيرة ودهشاً . ألا تراهم يقولون : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[1] ؟ وقد أيقنوا بالخلود ، ولم يشكوا فيه . وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ[2] ، وقد علموا أنه لا يقضى عليهم .

وأما قول من يقول : معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا ، وما علمنا أنا على خطأ فى معتقدنا ، وحمل قوله : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) يعنى فى الدنيا ـ فتمحلٌ وتعسف وتحريف لأفصح الكلام ، إلى ما هو عيّ وإفحام . لأن المعنى الذى ذهبوا إليه ، ليس هذا الكلام بمترجم عنه ، ولا منطبق عليه ، وهو ناب عنه أشد النبوّ . وما أدرى ما يصنع، مَنْ ذلك تفسيره ، بقوله تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ[3] بعد قوله : وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، فشبه كذبهم فى الآخرة بكذبهم فى الدنيا. انتهى .

والقول المذكور ، والحمل الذى ناقش فيه ، أصله لأبى علىّ الجبائىّ والقاضى . فإنهما

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٧٧] . . . قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب ، واعتلّا بوجوه واهية ساقها الرازيّ. فلتنظر ثمّت ، فإنا لا نسوّد وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل .

ثم بيّن تعالى بعض ما كان يصدر من مشركي مكة، مما طبع على قلوبهم بسببه فقال سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » أى : يصغى حين تتلو القرآن ، ولا يجزئ عنه شيئاً ، لأنه لا يتدبر فيه حتى يطّلع على إعجازه ، ويؤثر فيه الإرشاد « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى حُجُباً، جمع كنان. كغطاء وأغطية، لفظاً ومعنًى «أَن يَفْقَهُوهُ » أى: كراهة أن يفهموا، ببواطن قلوبهم، بواطنَه التى بها إعجازه وإرشاده ، بإقامة الدلائل ورفع الشبه . «وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا» أى : وجعلنا فى آذانهم ، التى هى طريق الوصول إلى بواطن القلوب ، صمماً مانعاً من وصول السماع النافع . وقد مرّ فى أول البقرة تحقيق ذلك . فتذكر !

وقوله تعالى « وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا » إشارة إلى أنه لا يختص ماذكر منهم بالقرآن ، لرؤيتهم قصوراً فيه ، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول لا يؤمنوا بها ، ويحملوها على السحر . لفرط عنادهم ، واستحكام التقليد فيهم ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كقوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ(١) .

« حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ » أى : بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك يحاجّونك ويناظرونك فى الحق بالباطل . ثم فسر المجادلة بقوله « يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ

(١) [٨ / الأنفال / ٢٣] . . . وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم وأحاديثهم التى لا نظام لها . وعدُّ أحسن الحديث وأصدقه، من قبيل الأباطيل (وَهُوَ الَّذِى لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)ـ رتبةٌ من الـكفر لا غاية وراءها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

«وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ » أى: لايقنعون بماذكر من تكذيبه، بل ينهون الناس عن استماعه.

قال المهايمىّ: وهم، لرؤيتهم حلاوة نظمه فوق نثرهم وشعرهم، مع متانة معانيه، يعرفون أن التدبر فيه يفيد التطلع على إعجازه . فيخافون تأثيره فى قلوب الخلائق . لذلك ينهون عنه . أى : عن قراءته واستماعه، لئلا يدعوهم إلى التدبر فيه، فيفسد عليهم أغراضهم الفاسدة .

« وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » أى: يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهارًا لغاية نفورهم عنه، وتأكيدًا لنهيهم عنه . فإن اجتناب الناهى عن المنهىّ عنه، من متممات النهْى. ولعل ذلك هو السرّ فى تأخير (النأى) عن (النهى) ـ أفاده أبو السعود ـ .

ولما أشعر ذلك بكونهم يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، خوفاً من قوة تأثير التنزيل فى القلوب، أتبعه بأنه لا يحصل لهم هذا المطلوب، لأن الله متم نوره، ومظهر دينـــه، وإن الدائرة عليهم بقوله: « وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » بتعريضها لأشد العذاب عاجلًا وآجلًا « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى بذلك .

تنبيه :

روى الحاكم وغيره، عن ثلة من التابعين، أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب، كان ينهى عن النبىّ ﷺ أن يُؤْذَى ، وينأى عنه فلا يؤمن به، وحميته حينئذ، باعتبار استتباعه لأتباعه .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنها نزلت فى عمومة النبىّ ﷺ، وكانوا عشرة،

فـكانوا أشد الناس معه فى العلانية ، وأشدهم عليه فى السر . ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافيه ، وهو المراد بالنزول ـ كما أسلفنا مرارًا ـ وقد قال أبو طالب يخاطب النبيّ ﷺ :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم — حتى أوسَّد فى التراب دفينـا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضةٌ — وابشر بذاك وقرَّ منه عيونًا
ودعوتنى وزعمتَ أنك ناصح — ولقد صدقتَ وكنت ثَمّ أمينا
وعرضت ديناً لا محـالة أنه — من خير أديان البرية دينا
لولا الملامةُ أو حذارى سبةً — لوجدتَنى سمحاً بذاك مبينا

وفى (ينهون) و (ينأون) تجنيس بديع .

ولما أخبر تعالى أنهم يهلـكون أنفسهم ، شرح كيفيته مع بيان ما سيصدر عنهم فى الآخرة من القول المناقض لعقدهم الدنيوىّ ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ » أى : اطّلعوا عليها فعاينوها . يقال : وقف فلاناً على ذنبه : أطلعه عليه . أو أُدخلوها فعرفوا ما فيها من العذاب . يقال : وقفت على ما عند فلان ، تريد : فهمته وتبينته . والوقف عليها مجازىّ ، أو هو حقيقىّ بمعنى القيام . و (عَلَى) إما على حقيقتها . أى : أقيموا واقفين فوق النار على الصراط ، وهو جسر فوق جهنم . أو هى بمعنى (فى) ، أى : أُقيموا فى جوف النار وغاصوا فيها ، وهى محيطة بهم . وصحح معنى الاستعلاء حينئذ، كون النار دركات وطبقات، بعضها فوق بعض .

« فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » تمنوا الرجوع إلى الدنيا ، حين لا رجوع ، واعدين أن لا يكذبوا بما جاءهم ، وأن يكونوا من المؤمنين ، أى: بآياته ، العاملين بمقتضاها ، حتى لا نرى هذا الموقف الهائل . أو من فريق المؤمنين الناجين من العذاب ، الفائزين بحسن المآب .

تنبيه :

جواب (لو) محذوف ، تفخيما للأمر ، وتعظيما للشأن . وجاز حذفه لعلم المخاطب به . وأشباهه كثيرة فى القرآن والشعر . ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم. وحذفُ الجواب فى ذلك أبلغ فى المعنى من إظهاره . ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله! لئن قمتُ إليك . وسكتّ عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وَعَظُمَ الخوفُ ، ولم يدر أىّ الأقسام تبغى . ولوقلتَ : لأضربنك، فأتيت بالجواب لَأَمِنَ غير الضرب ، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواه . فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا فى حصول الخوف ـ أفاده الرازىّ ـ وملخصه : أن حذف الجواب ثقة بظهوره ، وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ » إضراب عما يدل عليه تمنيهم الباطل من الوعد ، بالتصديق والإيمان ، أى : ليس ذلك عن عزم صحيح ، وخلوص اعتقاد ، بل هو بسبب آخر ، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون فى أنفسهم من الكفر والشرك ، بقولهم : (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم ، فتمنوا لذلك ،

أو بشهادة جوارحهم عليهم ، أو ما كانوا يكتمون فى أنفسهم فى الدنيا من صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كقوله تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ بِصَائِرَ ...[1] الآية ـ وقوله تعالى[2] مخبرا عن فرعون وقومه : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا . أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين ، وأنه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه . ولا ينافى هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة . لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق فى سورة مكية وهى (العنكبوت) فقال: وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ[3] . هذا ماذكروه مما يمكن تنزيل اللفظ الكريم عليه لعمومه . وقد ناقش فى ذلك كلِّه العلامةُ أبو السعود ، واعتمد أن المراد بـ (مَا كَانُوا يُخْفُونَهُ فِى الدُّنْيَا) النارُ التى وقفوا عليها ، إذ هى التى سيق الكلام لتهويل أمرها ، والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها ، و (بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشىء كفر به ، وإخفاء له لا محالة . وإيثاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل : (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)[4] وقوله تعالى : (هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)[5] ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم :

(١) [١٧ / الإسراء / ١٠٢] . . . وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا .
(٢) [٢٧ / النمل / ١٤] . . . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .
(٣) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .
(٤) [٥٥ / الرحمن / ٤٣] .
(٥) [٥٢ / الطور / ١٤] .

(وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا)(١) لمراعاة ما في مقابلته من البدو . هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم .

ثم قال فى الوجوه المتقدمة : إنه بعد الإغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال ، لا سبيل إلى شيء من ذلك أصلا ، لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار ، وتفظيع حال أهلها ، وقد ذكر وقوفهم عليها ، وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف . ورتب عليه تمنيهم المذكور بـ (الفاء) القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها ، فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية ، وهى نفسها أدهى الدواهى ، وأزجر الزواجر ، وإسنادها إلى شيء من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر ، مع عدم جريان ذكرها ، ثَمَّت ـ أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله . وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون ، فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها ، وأبوابها مفتوحة . فتأمل .

أقول : لا ريب فى بلاغة ما قرره ونفاسته ، لولا تكلفه حمل الإخفاء على ما ذكره ، مما هو غير ظاهر فيه ، وليس له نظائر فى التنزيل الكريم . فمجازيته حينئذ من قبيل المعمى . وفى الوجوه الأول إبقاؤه على حقيقته بلا تكلف ، وشموله لها ـ غير بعيد . لأن فى كل منها ما يؤيده ، كما بيناه . غاية الأمر أن ما قرره وجه منها بديع . وأما كونه المراد لا غير ، فدونه خرط القتاد ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ .

« وَلَوْ رُدُّوا » أى عن موقفهم ذلك إلى الدنيا كما تمنوه ، وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال « لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » من الكفر والشرك « وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » فى وعدهم بالإيمان ، أو ديدنهم الكذب فى أحوالهم .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٧] ونصها : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

«وَقَالُوا» عطف على (لعادوا) أواستئناف، «إِنْ هِيَ» أى ماالحياة ، فالضمير لما بعده ، « إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى : ليست الحياة التى يتوهم فيها البعث ، والتى يتوهم فيها الرد إلا حياتنا الأولى « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » أى : بعد مفارقتنا هذه الحياة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ » قال الجلال : أى عرضوا عليه . وقال ابن كثير : أى وقفوا بين يديه . « قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا » أى المعاد « بِالْحَقِّ » تقريعاً لهم ، ورداً لما يتوهمون عند الردّ « قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا » أى : إنه لحق ، وليس بباطل ، كما كنا نظن . أكدوا اعترافهم باليمين إظهارا لكمال يقينهم بحقيّته ، وإيذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً فى نفعه . « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ » أى : ببلوغ الآخرة وما يتصل بها ، أو هو مجرى على ظاهره ، لأن منكر البعث منكر للرؤية ـقاله النسفىّ ـ والثانى هو الصواب، وإن

اقتصر كثيرون على الأول ، وجعلوه استعارة تمثيلية لحالهم بحال عبدٍ قدم على سيده بعد مدة، وقد اطّلع السيد على أحواله . فإما أن يلقاه ببشر لما يرضى من أفعاله ، أو يسخط لما يسخط منها ـ فإنه نزغة اعتزالية . ولا عدول إلى المجاز ما أمكنت الحقيقة .

وفى كلام النسفىّ إشعار بأن اللقاء معناه الرؤية ، وهو ما فى القاموس . قال شارحه الزبيدىّ : وهو مما نقدوه ، وأطالوافيه البحث ، ومنعوه . وقالوا : لا يلزم من الرؤية اللقىّ، كالعكس .

وقال الراغب : هو مقابلة الشىء ومصادفته معاً ، ويعبّربه عن كل منهما . ويقال ذلك فى الإدراك بالحسّ والبصر .

لطيفة :

قال الخفاجىّ فى (العناية) : قيل : روى عن علىّ رضى الله عنه أنه نظم أبياتاً على وفق هذه الآية ، وفى معناها وهى :

زعم المنجمُ والطبيبُ ، كلاهما ... لاتُحْشَرُ الأجساد . قلتُ : إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر. ... أو صحّ قولى ، فالخسار عليكما

قال الخفاجىّ: لاأدرى من أيهما أعجب ؟ الرواية أم الدراية؟ فإن هذا الشعر لأبى العلاء المعرّى فى ديوانه وهو :

قال المنجمُ والطبيبُ ، كلاهما : ... لاتُحْشَرُ الْأَجْسَادُ . قلت : إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر . ... أو صحّ قولى ، فالخسار عليكما
أضحى التُّقَى والشر يصطرعان فى الدّ ... نيا . فأيهما أبَرّ لديكما
طهّرتُ ثوبى للصلاة وقبله ... جسدى . فأين الطهر من جسديكما
وذكرت ربى فى الضمائر مؤنِساً ... خَلَدِى بذاك ، فَأَوْحِشاَ خَلَدَيْكما

وبكرت فى البَرْدين[1] أبغى رحمة منه ، ولا تَرِعَانِ فى بَرْدَيكما
إن لم تَعُدْ بيدى منافعُ بالذى آتى ، فهل من عائدٍ بيديكما
بُرْدُ التقىّ ، وإن تهلهل نسجُه ، خير ، بعلم الله ، من بُرْديكما

قال ابن السيد فى (شرحه) . هذا منظوم مما روى عن علىّ رضى الله عنه؛ أنه قال لبعض من تشكك فى البعث والآخرة : إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة ، فقد تخلصنا جميعاً. وإن لم يكن الأمر كما تقول ، فقد تخلصنا وهلكتَ . فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده. وهذا الكلام ، وإن خرج مخرج الشك ، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه ، وقلةِ أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه . مع أن المناظر على ثقة من أمره ، وهو نوع من أنواع الجدل .

وقوله : (إِلَيْكُمَا) كلمة يراد بها الردع والزجر . ومعناها : كُفَّا عما تقولان ، وحقيقته: قولكما مصروف لكما ، لا حاجة لى به . انتهى.

ومن له معرفة بقرض الشعر ، يعلم أنه شعر مولد .

ثم نبه الخفاجىّ على أن هذا النوع يسمى استدراجاً .

قال فى (المثل السائر) : الاستدراج نوع من البلاغة استخرجتُه من كتاب الله تعالى ، وهو مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال ، يستدرج الخصم حتى ينقاد ويذعن،

---

(١) البَرْدَان : الغداة والعشىّ :

ومنه الحديث الشريف المروىّ فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرىّ ، رقم ٣٦٩ (اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان) ونصه :

« من صلّى البردين دخل الجنة » .

أى : من صلى صلاة الفجر والعصر ، لأنهما فى بردَىِ النهار ، أى طرفيه ، حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحرّ .

وتَرِعان من وَرِع يَرِعُ . قال فى اللسان : الورع الكفّ عن المحارم والتحرّج .

وهو قريب من المغالطة ، وليس منها . كقوله تعـــالى : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)(١) . ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله : (إن يك كاذبا فكذبه عائد عليه، وإن يصدق يصبكم بعض ما وعدكم به) ، ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى ، فإنه نبيّ صادق ، فلابدأن يصيبهم كل ماوعد به ، لابعضه ، لـكنه أتى بماهوأذعن لتسليمهم وتصديقهم ، لما فيه من الملاطفة فى النصح ، بكلام منصف غير مشتطّ مشدّد . أراهم أنه لم يعطه حقه ، ولم يتعصب له ، ويحام عنه ، حتى لا ينفروا عنه . ولذا قدم قوله (كَاذِبًا) ، ثم ختم بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي . . . » الخ يعنى : أنه نبيّ على الهدى ، ولو لم يكن كذلك ما آتاه الله النبوة وعضده . وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا يخفى . انتهى .

وقوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى : جاءتهم القيامة فجأة . وسميت القيامة (ساعة) ، لأنهاتفجأ الناس بغتة فىساعةلايعلمها أحد إلا هو تعالى . والمعنى: جاءتهم منيّتهم . على أن المراد بالساعة ، الصغرى . قال الراغب : الساعة الـكبرى بعث الناس للمحاسبة ، والصغرى موت الإنسان. فساعة كل إنسان موته ، وهى المشار إليها بقوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) . ومعلوم أن الحشر ينال الإنسان عند موته . انتهى .

و (بغتة) مصدر فى موضع الحال ، أى : مباغتة . أو مصدر لمحذوف ، أى : تبغتهم . أو للمذكور. فإنّ (جاءتهم) ، بمعنى (بغتتهم) .

---

(١) [٤٠/ غافر/ ٢٨] ونصها : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

« قَالُوا » يعنى : منكرى البعث ، وهم كفار قريش ، ومن سلك سبيلهم فى الكفر والاعتقاد . « يَاحَسْرَتَنَا » أى: يا ندامتنا! والحسرة : التلهف على الشيء الفائت . وذكرت على وجه النداء للمبالغة . والمراد : تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة . « عَلَىٰ مَافَرَّطْنَا» أى: قصرنا « فِيهَا » أى : فى الحياة الدنيا . أضمرت وإن لم يجر ذكرها، للعلم بها. أى : على ما ضيعنا فيها ، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا . أو الضمير للساعة ، أى : على ما فرطنا فى شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة .

وقال ابن جرير(١) : الضمير يعود إلى الصفقة التى دل عليها قوله (قَدْ خَسِرَ ...) الخ إذ الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع قد جرت . قال : والمعنى : قد وُكِس الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم الإيمان الذى يستوجبون به من الله رضوانَه وجنته ، بالكفر الذى يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته . ولا يشعرون ما عليهم من الخسران فى ذلك، حتى تقوم الساعة. فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران فى بيعهم ، قالوا حينئذ تندما: (يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) .

وقوله تعالى « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » حال من فاعل (قَالُوا) ، فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصورًا على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون، مع ذلك، تحمل الأوزار الثقال . والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة ، بحيث لا تزول ولا تُنْسَى بما يكابدونه من فنون العقوبات ــ قاله أبو السعود ــ .

والأوزار : جمع وزر ، وهو فى الأصل : الحمل الثقيل ، سمى به الذنب لثقله على صاحبه . قيل : جعلها محمولة على الظهور استعارة تمثيلية ، مثل لزومها لهم ، على وجهٍ لا يفارقهم ،بذلك. وخص الظهر ، لأنه المعهود حمل الأثقال عليه . كما عهد الكسب بالأيدى .

(١) تفسير ابن جرير (طبعة المعارف) بالصفحة ٣٢٥ من الجزء الحادى عشر .

وقيل : هو حقيقة ، لما روى عن السدّيّ(١) أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره ، إلا جاءه رجل قبيح الوجه ، أسودُ اللون ، مُنتن الريح، عليه ثياب دنِسة ، حتى يدخل معه قبره . فإذا رآه قال له : ما أقبح وجهك ! قال : كذلك كان عملك قبيحاً . قال : ما أنتن ريحك ! قال : كذلك كان عملك منتناً . قال : ما أدنس ثيابك ! قال فيقول : إن عملك كان دنساً . قال : من أنت ؟ قال : أنا عملك . قال : فيكون معه فى قبره . فإذا بعث يوم القيامة قال له : إنى كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات ، وأنت اليوم تحملنى . قال : فيركب على ظهره فيسوقه ، حتى يدخله النار . فذلك قوله تعالى (وَهُمْ يَحْمِلُونَ ...) الآية .

قال الخفاجيّ : ولعل هذا تمثيل أيضاً . وقريب منه ما قيل : من قال بالميزان ، واعتقد وزن الأعمال ، لا يقول إنه تمثيل . انتهى .

« أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » أى : بئس ما يحملونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ » أى : هزل ، وعمل لا يجدى نفعاً « وَلَهْوٌ » أى : اشتغال بهوى وطرب ، وما لا تقتضيه الحكمة ، وما يشغل الإنسان عما يهمه مما يلتذ به ثم ينقضى .

« وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » لدوامها ، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضارّ والآلام .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ذلك حتى تتقوا ماأنتم عليه من الكفر والمعاصى، ولا تؤثرون الأدنى الفانى ، على الأعلى الباقى . وههنا

---

(١) الأثر رقم ١٣١٨٨ من تفسير ابن جرير .

لطائف

الأولى: قال الرازىّ : اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم فى الدنيا ، وتحصيل لذاتها. فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركاكتها. واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها . لأن هـذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها . فلهذا السبب حصل فى تفسير هذه الآية قولان :

الأول ـ أن المراد منه حياة الكافر. قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق . والسبب فى وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة ، أن حياة المؤمن يحصل فيهـا أعمال صالحة ، فلا تكون لعبًا ولهوًا .

والقول الثانى ـ إن هـذا عام فى حياة المؤمن والكافر . والمراد منه : اللذات الحاصلة فى هذه الحياة ، والطيبات المطلوبة فى هـذه الحياة ، وإنما سماها بـ(اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ) لأن الإنسان، حال اشتغاله باللعب واللهو، يلتذ به. ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة. فكذلك هذه الحياة، لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة .

الثانية : قال الخفاجىّ : جمع اللهو واللعب فى آيات . فتارة يقدم اللعب، كما هنا . وتارة قدم اللهو كما فى العنكبوت[1] . ولهذا التفنن نكتة مذكورة فى (درة التأويل) ملخصها : أن الفرق بين اللهو واللعب ، مع اشتراكهما فى أنهما الاشتغال بما لا يعنى العاقل ويهمه من هوى أو طرب ، سواء كان حراماً أم لا ؛ أن اللهو أعم من اللعب ، فكل لعب لهو ، ولا عكس . فاستماع الملاهى لهو ، وليس بلعب . وقد فرقوا بينهما أيضاً بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة ، والاسترواح به ، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب ، وإن لم يقصد به

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] ونصها : وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ذلك ، كما نقل عن أهل اللغة ، قالوا : واللهو، إذا أطلق، فهو اجتلاب المسرة بالنساء ، كما قال امرؤ القيس(١) :

ألا زعمت بَسْبَاسَةُ اليومَ أنني كَبِرْتُ وأن لا يحسنُ اللهوَ أمثالي

وقال قتادة : اللهو، فى لغة اليمن (المرأة). وقيل: اللعب طلب: المسرة والفرح بما لا يحسن أن يطلب به . واللهو : صرف الهم بما لا يصلح أن يصرف به .

ولما كانت الآية ردًّا على الكفرة فى إنكار الآخرة ، وحصر الحياة فى الحياة الدنيا ، وليس فى اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية ـ قدم اللعب الدال على ذلك ، وتمم باللهو . وأما فى العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها ، بالقياس إلى الآخرة. ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير. والاشتغالُ باللهو، مما يقصر به الزمان ، وهو أدخل من اللعب فيه . وأيام السرور قصار ، كما قال :

وليلةٍ إحدى الليالى الزُّهْرِ لم تك غير شَفَقٍ وفجر

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أيها الطَّلَلُ البالى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى

قال السندوبىّ : بسباسة إحدى صواحباته التى يتغزل بهن .

لا يحسن اللهو (ويروى : لا يحسن السرّ) وهو ما يكون بين الرجل والمرأة .

وقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب :

ويروى السرّ ، وهو النكاح .

وأمثال جمع مثل ، أراد أمثالى من الرجال .

ومعنى البيت : أنه لما عيّرته وقالت له : كبرتَ وشُغِلتَ عن اللهو . ولا يحسن أمثالك من الرجال اللهو ، وإذا لم يحسنه أمثالك فأنت لا تحسنه .

وإذا قالت العرب (مثلك لا يحسن كذا) فإنما هو على طريقة التعظيم أن يذكروا مثله ولا يذكروه .

الثالثة :

فى قوله تعالى (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين، لعب ولهو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

وقوله تعالى « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ » قرئ بفتح الياء وضمها ، « الَّذِي يَقُولُونَ » أى : يقولونه فيك ، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لتسليته ﷺ عن الحزن الذى يعتريه ، مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب ، والمبالغة فيه ، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةمن الله عز وجل ، وأن ما يفعلونه فى حقه فهو راجع إليه تعالى فى الحقيقة ، وأنه ينتقم منهم أشد انتقام . وكلمة (قَدْ) لتأكيد العلم بما ذكر ، المفيد لتأكيد الوعيد .

وقوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » الفاء للتعليل ، لأن قوله تعالى : (قَدْ نَعْلَمُ) بمعنى لا تحزن ، كما يقال فى مقام المنع والزجر : نعلم ما تفعل ! ووجّه التعليلَ فى تسليته له ﷺ بأن التكذيب فى الحقيقة لى ، وأنا الحليم الصبور ، فتخلق بأخلاق .

قال أبو السعود : وهذا يفيد بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ، ورفعة المحل ، والزلفى من الله عز وجل ، إلى حيث لا غاية وراءه ، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه ، على طريقة قوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)(١) ، بل نفى تكذيبهم عنه ، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ

(١) [٤ / النساء / ٨٠] . . . وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)[١] إيذانا بكمال القرب، واضمحلال شؤونه عليه الصلاة والسلام في شأن الله عز وجل . وفيه استعظام لجنايتهم، منبئ عن عظم عقوبتهم. وقيل: المعنى: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، عناداً أو مكابرة. ويعضده ماروى سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية عن عليّ رضى الله عنه قال: قال أبو جهل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) الآية ـ رواه الحاكم وصححه .

وروى ابن جرير[٢] عن السديّ قال : لما كان يوم بدر ، خلا الأخنس بأبي جهل فقال : ياأبا الحكم ! أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا، فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) فآيات الله محمد ﷺ .

قال الرازيّ : وهذا القول غير مستبعد ، ونظيره قوله تعالى[٣] في قصة موسى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) . وقيل : المعنى فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات الله . كما يروى أن أباجهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكننا نكذب ما جئتنا به .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . . . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٢) الأثر رقم ١٣١٩٣ من التفسير .

(٣) [٢٧ / النمل / ١٤] . . . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

قال أبو السعود : وكأن صدق المخبر عند الخبيث ، بمطابقة خبره لاعتقاده . والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية . وقرئ « لَا يُكْذِبُونَكَ » من (أكذبه) ، بمعنى وجده كاذباً ، أو نسبه إلى الكذب ، أو بيّن كذبه ، وقال : أكذبه وكذبه بمعنى ـ كذا فى القاموس وشرحه ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام ، فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين . وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، فى الصبر على ماأصابهم من أممهم ، من فنون الأذية . وعدة ضمنية له ﷺ بمثل مامُنِحُوه من النصر. وتصديرُ الكلام بالقسم ، لتأكيد التسلية . وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير ـ أفاده أبو السعود ـ .

قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ) دليل على أن قوله : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) ليس بنفى لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك : ما أهانوك ، ولكنهم أهانونى ! انتهى .

وناقشه الناصر فى (الانتصاف) بأنه لا دلالة فيه ، لأنه مؤتلف مع نفى التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين . أى : هؤلاء لم يكذبوك ، فحقك أن تصبر عليهم ، ولا يحزنك أمرهم . وإذا كان مَن قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم ، فصبروا عليهم ، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد ائتلف، كما ترى، بالتفسيرين جميعا . ولكنه من غير الوجه الذى استدل به ، فيه تقريب لما اختاره ، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها

فى نحو قوله تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) فسلاه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم . وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع ، مؤيد بالنظائر ـ والله أعلم ـ .

« فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا » أى على تكذيبهم وإيذائهم ، فتأسّ بهم « حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ » أى : لمواعيده ، من قوله : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)(٢) ،وقوله (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)(٣) .

« وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ » أى من خبرهم فى مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلابد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إمهالهم لإهمالهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ،وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« وَإِنْ كَانَ كَبُرَ » أى : شق وثقل ، « عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ » أى : عن الإيمان بما جئت به من القرآن ، ونأيهم عنه ، ونهيهم الناس عنه ، « فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ » أى سَرَبًا ومنفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض ، حتى تطلع لهم آية يؤمنون

(١) [٣٥ / فاطر / ٤] . . . وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٧١و١٧٢] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . . . إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

بها ، « أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ » أى مصعدا تعرج به فيها ، « فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ » أى : مما اقترحوه ، فافعل. وحَسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به . أى : لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضروريا غير نافع .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ » أى : ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه ، « فَلَا تَكُونَنَّ » أى : بالحرص على إيمانهم ، أو الميل إلى نزول مقترحهم « مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التى من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختيارا ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطرارا ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار .

تنبيهات

الأول ـ فى هذه الآية مالا يخفى من الدلالة على المبالغة فى حرصه ﷺ على إسلام قومه ، وتراميه عليه ، إلى حيث لو قَدَرَ أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء ، لأتى بها. رجاءَ إيمانهم ، وشفقة عليهم .

الثانى ـ قال الناصر فى (الانتصاف) : هذه الآية كافلة بالرد على القدرية فى زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو) ، ومقتضاها امتناع جوابها ، لامتناع الواقع بعدها . فامتناع اجتماعهم على الهدى ، إذاً إنما كان لامتناع المشيئة . فمن ثم ترى الزمخشرىّ يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة ، لا يكون الإيمان معها اختيارا ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ، ثابتة غير ممتنعة ، ولكن لم يقع متعلقها . وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ـ والله الموفق ـ .

الثالث ـ لم يقل (لَا تَكُنْ جَاهِلًا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيما لنبيه ﷺ

بأن لم يُسْند الجهل إليه ، للمبالغة فى نفيه عنه . وما فيـه من شدة الخطاب ، سرُّه تبعيد جنابه الـكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزعُ فى مواطن الصبر ، مما لا يليق إلا بالجاهلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

وقوله تعـــالى « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » تقرير لما مرّ من أن على قلوبهم أكنة ، وتحقيق لـكونهم بذلك من قبيل الموتى ، لا يتصور منهم الإيمان البتة . أى : إنما يستجيب لك ، بقبول دعوتك إلى الإيمان ، الأحياء الذين يسمعون ما يلقى إليهم ، سماع تفهم ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم . كقوله تعالى (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ)[1] وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية ، أموات بالنسبة إلى الإنسانية ، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة ، والأخلاق الرديئة .

و (الْمَوْتَىٰ) مبتـــدأ . يعنى : الـكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، يبعثهم الله يوم القيامة ، ثم إليه يرجعون ، فيجزيهم بأعمالهم . فالموتى مجاز عن الـكفرة كما قيل :

لا يُعْجِبَنَّ الجهولَ بِزَّتُهُ فذاكَ مَيْتٌ ثِيَابُهُ كَفَنُ

قيـل : فيه رمز إلى أن هدايتهم كبعث الموتى ، فلا يقدر عليه إلا الله . ففيه إقناط للرسول ﷺ عن إيمانهم . وفى تسميتهم (موتى) من التهكم بهم ، والإزراء عليهم ، ما لا يخفى .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٨٠] . . . وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَقَالُوا » يعنى : مشركى مكة ، بيان لنوع آخر من تعنتهم ، إذ لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخرّ لها صمّ الجبال ، « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى: خارق، على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتمنتون . كقولهم[1] (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ...) الآيات .

« قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى : إن اقتراحها جهل ، لما أن فى تنزيلها قلعاً لأساس التكليف ، المبنىّ على قاعدة الاختيار . أو استئصالا لهم بالكلية ، فإن من لوازم جحد الآية الملجئة، الهلاكُ ، جريا على سنته تعالى فى الأمم السالفة . وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ » أى: مستقرة فيها ، لا ترتفع عنها « وَلَا طَائِرٍ » يرتفع عنها إذ « يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » أى : أصناف مصنفة فى ضبط أحوالها ، وعدم إهمال شىء منها ، وتدبير شؤونها ، وتقدير أرزاقها .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] .

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ » أي : ما تركنا ، وما أغفلنا ، في لوح القضاء المحفوظ ، « مِنْ شَيْءٍ » أي : جليل أو دقيق ، فإنه مشتمل على مايجرى في العالم ، لم يهمل فيه أمر شيء : والمعنى : أن الجميع علمهم عند الله ، لا ينسى واحداً منها من رزقه وتدبيره . كقوله: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[1] أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها. «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » يعني : الأمم كلها، من الدوابّ والطير، فينصف بعضهم من بعض، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجمَّاء من القرناء . وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء ، لإجرائها مجراهم .

تنبيهـــات

الأول ـ قال الزمخشريّ : إن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لايشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان .

وقال الرازيّ : المقصود أن عناية الله لما كانت حاصلة لهذه الحيوانات ، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة، لأظهرها ، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية .

وقال القاضي : إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار ، وبيّن أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون ، بيّن بعده بقوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ..) إلخ، أن البعث حاصل في حق البهائم أيضاً .

الثاني ـ زيادة (مِنْ) في قوله : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) لتأكيد الاستغراق . و (فِي) متعلقة بمحذوف هو وصف لـ(دَابَّةٍ) مفيد لزيادة التعميم . كأنه قيل : وما فرد من

(١) [١١ / هود / ٦] .

أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الأرض . وكذا زيادة الوصف فى قوله : (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) .

قال فى الانتصاف : فى وجه زيادة التعميم ، أن موقع قوله : (فِى الْأَرْضِ) و (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) موقع الوصف العام ـ وصفة العام عامة ـ ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة ، تضافرت صفتان عامتان .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : إن قلت : كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطائر ؟ قلت : لَمَّا كان قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ) دالاًّ على معنى الاستغراق، ومغنياً عن أن يقال : وما من دوابّ ولا طير ، حمل قوله : (إِلاَّ أُمَمٌ) على المعنى .

الرابع ـ دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة ، وجاء فى الحديث : لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها ـ رواه أبوداود[1] والترمذىّ عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه ـ .

الخامس ـ ماذكرناه فى معنى مماثلة الأمم لنا، من تدبيره تعالى لأمورها ، وتكفله برزقها ، وعدم إغفال شئ منها ، مما يبيّن شمول القدرة ، وسعة العلم ـ هو الأظهر . موافقة لقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا . . .)[2] الآية ـ والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ونقل الواحدىّ عن ابن عباس أن المماثلة هى فى معرفته تعالى ، وتوحيده وتسبيحه وتحميده . كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[3] ، وقوله :

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٢ ـ باب فى اتخاذ الكلاب للصيد وغيره ، حديث ٢٨٤٥ .

والترمذىّ فى : ١٦ ـ كتاب الصيد ، ١٦ ـ باب ما جاء فى قتل الكلاب .

(٢) [١١ / هود / ٦] .

(٣) [١٧ / الإسراء /٤٤] ونصها : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً .

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)(١) .

وعن أبي الدرداء قال : أبهمت عقول البهائم عن كل شئ ، إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه .

وقيل : المماثلة فى أنها تحشر يوم القيامة كالناس .

أقول : لا شك فى صحة الوجهين بذاتهما ، وصدق المثلية فيهما ، ولكن الحمل عليهما يُبعده عدم ملاقاته للآية الأخرى . فالأمسّ، تأييداً للنظائر ، ماذكرناه أولاً ـ والله أعلم ـ .

السادس ـ ما بيناه فى معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ فى العرش ، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام ـ هو الأظهر ، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييداً للنظائر القرآنية . ولم يذكر الإمام ابن كثير سواه، على توسعه .

وقيل : المراد منه القرآن كقوله تعالى(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)(٢) .

قال الخفاجىّ : قيل: حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده . ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئاً من الحجج وغيرها إلا ذكرناه ، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه ، ويكذب بآياتنا ؟ فالكلام بعضه آخذ بحجز بعض بلا شبهة .

وقال أبو السعود : أى ما تركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته .

قال الشهاب فى قول البيضاوىّ (فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلًا

---

(١) [٢٤ / النور / ٤١] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

(٢) [١٦ / النحل/ ٨٩] ونصها : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

أو مجملًا) : يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن ، لإشارته بنحو قوله[١] : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) إلى القياس. وقوله (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)[٢] إلى السنّة. بل قيل : إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه . كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبخ الحلوى ، أين ذكر في القرآن ؟ فقال : في قوله تعالى[٣] (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) انتهى .

واستظهر الرازيّ أن المراد (بالكتاب) القرآن . واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد ، انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن . فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن . إذا ثبت هذا ، فلقائل أن يقول : كيف قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) مع أنه ليس فيه تفاصيل علم

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] ونصها : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٧] ونصها : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٣] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

و [٢١ / الأنبياء / ٧] ونصها : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الطب ، وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم . وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم فى علم الأصول والفروع ؟ .

والجواب : أن قوله : (مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ) يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التى يجب معرفتها ، والإحاطة بها ، وبيانه من وجهين :

الأول ـ أن لفظ (التفريط) لايستعمل نفيا وإثباتا ، إلا فيما يجب أن يبين ، لأن أحدا لاينسب إلى التفريط والتقصير فى أن لايفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الثانى ـ أن جميع آيات القرآن ، أو الكثير منها ، دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ، ومعرفة الله ، ومعرفة أحكام الله . وإذا كان هذا التقييد معلوما من كل القرآن ، كان المطلق ههنا محمولا على ذلك المقيّد . أما قوله : إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع ، فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه، لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه. فأما روايات المذاهب، وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها . وأماتفاصيل علم الفروع ، فقال العلماء : إن القرآن دل على أن الإجماع ، وخبر الواحد ، والقياس ، حجة فى الشريعة . فكل مادل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة، كان ذلك فى الحقيقة موجودا فى القرآن .

وذكر الواحدىّ رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول ـ روى أن ابن مسعود(١) كان يقول : مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه؟

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٤ ـ باب وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .

عن عبد الله قال : لعن الله الواشمات والموتشمات والمتفلّجات للحسن المغيّرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأةً من بنى أسد يقال لها : أمّ يعقوب . =

يعنى : الواشمة والمستوشمة ؛ والواصلة والمستوصلة ،

وروى أن امرأة قرأت جميع القرآن ، ثم أتته ، فقالت : ياابن أم عبد ! تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة ! فقال . لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وإن مما آتانا به رسول الله أنه قال : لعن الله الواشمة والمستوشمة .

قال الرازىّ : وأقول : يمكن وجدان هـــذا المعنى فى كتاب الله بطريق أوضح من ذلك ، لأنه تعالى قال فى سورة النساء (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ .)(١) فحكم

= فجاءت فقالت : إنه بلغنى إنك لعنت كيت وكيت . فقال : ومالى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، ومن هو فى كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

قال : لئن كنتِ قرأتيهِ ، لقد وجدتيهِ . أما قرأتِ : وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ؟

قالت : بلى .

قال : فإنه قد نهى عنه .

قالت : فإنى أرى أهلك يفعلونه .

قال : فاذهبى فانظرى .

فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً .

فقال : لو كانت كذلك ما جامعتنا .

وأخرجه مسلم فى : ٣٧ ـ كتاب اللباس والزينة ، حديث ١٢٠ (طبعتنا) .

(١) [٤ / النساء / ١١٧، ١١٨] ونصها : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا . . .

عليه باللعن ، ثم عدّد بعده قبائح أفعاله ، وذكر من جملتها قوله[١] (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ) . وظاهر هذه الآية يقتضى أن تغيير الخلق يوجب اللعن . انتهى .

قلت : وتتمة الحديث تؤيد ذلك أيضاً . ولفظه : لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله ـ رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود[٢] ـ .

ثم قال الرازى :

المثال الثانى ـ ذكر أن الشافعىّ رحمه الله كان جالساً فى المسجد الحرام فقال: لا تسألونى عن شىء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى . فقال رجل : ما تقول فى المُحْرِم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : لا شىء عليه . فقال : أين هذا فى كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : « وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » ثم ذكر إسناداً إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . ثم ذكر إسنادا إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور . قال الواحدىّ : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات .

وأقول . ههنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل فى أموال المسلمين العصمة . قال تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)[٣] . وقال : (لَا يَسْأَلْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١١٩] ونصها : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٠١ .

(٣) [٢/ البقرة/ ٢٨٦] ونصها : لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا =

أَمْوَالَكُمْ)(١) وقال (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)(٢) فنهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة ، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة . وهذه العمومات تقتضى أن لا يجب على المحرم الذى قتل الزنبور شىء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة .

المثال الثالث ـ قال الواحدىّ: روى فى حديث العسيف الزانى(٣) أن أباه قال للنبىّ ﷺ : اقض بيننا بكتاب الله . فقال عليه السلام : والذى نفسى بيده! لأقضينّ بينكما بكتاب الله .

= إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٦] ونصها : إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ .

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً .

(٣) أما حديث العسيف فها كه بنصه الكامل :

فقد أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٠ ـ باب الاعتراف بالزنى ، حديث ١١٥٤و١١٥٥ .

عن أبى هريرة وزيد بن خالد قالا : كنا عند النبىّ ﷺ ، فقام رجل فقال: أنشدك الله إلّا قضيت بيننا بكتاب الله .

فقام خصمه ، وكان أفقه منه ، فقال : اقض بيننا بكتاب الله وأذن لى .

قال « قل » .

قال : إن ابنى كان عسيفاً على هذا ، فزنى بامرأته . فافتديت منه بمائة شاة وخادم . =

ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت. قال الواحدى: وليس للجلد والتغريب ذكر فى نص الكتاب . وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبى ﷺ فهو عين كتاب الله . قال الرازى : وهذا حق ، لأنه تعالى قال : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ، وكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلا تحت هذه الآية . انتهى .

وبالجملة، فالقرآن الكريم كلية الشريعة ، والمجموع فيه أمور كليات ، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله ، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها ، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال . وقد جود البحث فى هذه المسألة المهمة، العلامة الشاطبى فى (الموافقات) فى الطرف الثانى ، فى الأدلة على التفصيل . فارجع إليه .

وقد نقلنا شذرة منه فى مقدمة هذا التفسير . فتذكر ! .

السابع ـ قال أبو البقاء: (مِنْ) فى قوله تعالى (مِنْ شَيْءٍ) زائدة . و(شىء) هنا واقع موقع المصدر . أى : تفريطاً . وعلى هذا التأويل لا يبقى فى الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوى على ذكر كل شىء صريحا . ونظير ذلك : لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)[٣] . أى :

= ثم سألت رجالا من أهل العلم فأخبرونى ؛ أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم .

فقال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده ! لأقضين بينكما بكتاب الله ، جل ذكره . المائة شاة والخادم رد . وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد ، يا أُنَيْس! على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها » .

فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها .

وأخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٠] ونصها : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ =

ضررا . وقد ذكرنا له نظائر . ولا يجوز أن يكون (شَيْئًا) مفعولا به ، لأن (فَرَّطْنَا) تتعدى بنفسها ، بل بحرف الجر، وقد عديت بـ (فِي) إلى (الْكِتَابِ) ، فلا تتعدى بحرف آخر . ولا يصح أن يكون المعنى : ما تركنا فى الكتاب من شىء ، لأن المعنى على خلافه ، فبان أن التأويل ما ذكرنا . انتهى .

وقال الخفاجى : التفريط التقصير . وأصله أن يتعدى بـ (فى) وقد ضمن هنا معنى (أَغْفَلنَا وَتَرَكْنَا) . فـ (مِنْ شَيْءٍ) فى موضع المفعول به ، و (مِنْ) زائدة . والمعنى : ماتركنا فى الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائل الألوهية والتكاليف .

هذا ما ارتضاه أبو حيان والزمخشرى ، وعدل عنه البيضاوى . لأنه لا يتعدى . فجعل التقدير (تفريطاً) فحذف المصدر ، وأقيم (شيئاً) مقامه ، وتبع فيه أبا البقاء ، إذ اختار هذا ، وأورد عليه فى (الملتقط) أنه ليس كما ذكر ، لأنه إذا تسلط النفى على المصدر ، كان منفيا على جهة العموم ، ويلزمه نفى أنواع المصدر ، ونفى جميع أفراده ، وليس بشىء ، لأنه يريد أن المعنى حينئذ : أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن ، وهو مما لا شبهة فيه ، ولا يلزمه أن يذكر فيه كل شىء كما لزم على الوجه الآخر ، حتى يحتاج إلى التأويل . كما أن نفى تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمين ، كما مر . وأما ما قيل : إن (فرط) يتعدى بنفسه، لما وقع فى القاموس (فرط الشىء، وفرط فيه تفريطاً ضيعه وقدم العجز فيه وقصر) فلا نسلم أنه يتعدى بنفسه. وتفردُ صاحب القاموس بأمر، لا يسمع فى مقابلة الزمخشرى وغيره . مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية ، بل مجازية ، أو بطريق التضمين ـ انتهى كلام الشهاب ـ .

أقول : ما للمجد فى القاموس ، ليس من تفرداته وعندياته ، إذ اللغة مرجعها السماع ،

= تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

لا الاجتهاد . وموازنته بين الزمخشريّ وغيره ، من باب معرفة الحق بالرجال ، الذى الصواب عكسه . على أنه ليس فى (الكشاف) ما يقتضى مازعمه . وقد استشهد شارح القاموس ، الزبيديّ شاهدا على تعديته بنفسه ، تأييدا لكلام المجد ، قول صخر الغيّ[1] :

ذلك بَزِّى فلن أُفَرِّطَهُ أخاف أن يُنجزوا الذى وعدوا

قال ابن سيدة : يقول . لا أضيعه ، وقوله : بزى ، أراد سلاحى. ثم قال الزبيديّ: وقال أبو عمرو : فرطتك فى كذا وكذا ، أى تركتك . وبه فسر أيضاً قول صخر . انتهى .

وأنشد أبو السعود قول ساعدة بن جُؤَيَّة[2] :

* معه سِقاءٌ لا يفرِّط حمله *

أى : لا يتركه .

وبه يعلم سقوط ما لأبى البقاء ، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعدى بـ (فى) ودعوى التضمين السابقة ، وتكلف كون (شَىْءٍ) واقعا موقع المصدر .

هذا وقرىء (فَرَطْنَا) بالتخفيف، وهو بمعنى المشدّد . وإنما توسعنا فيما روى على القول الثانى فى معنى الكتاب، لشهرة الآية فى هذا المعنى ، وإن كان الأظهر الأول ، لما ذكرناه ، ولأن السورة مكية ، والأحكام فيها لم تتم ـ والله أعلم ـ .

الثامن ـ دلت الآية على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها ، أى : بعثها يوم القيامة . كقوله تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)[3] .

وروى الإمام أحمد[4] عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين

---

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا أخلّفه فأتقدم عنه . وقال ابن سيده . يقول : لا أضيّعه . وقيل : معناه لا أقدمه وأتخلّف عنه .

(٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ف ر ط) يقول : لا يترك حمله ولا يفارقه .

(٣) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٦٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

تنتطحان ، فقال : يا أباذر ! هـل تدرى فيم تنتطحان ؟ قال : لا. قال : لـكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما . ورواه عبدالرزاق وابن جرير[١] ، وزاد : قال أبو ذر : ولقد تركنا رسولُ الله ﷺ، ومايقلّب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد[٢] فى مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال : إن الجماء لتُقَصُّ من القرناء يوم القيامة .

وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة فى هـذه الآية قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : الدوابّ والبهائم والطير وكل شىء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ! فلذلك يقول الـكافر: « يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا ». وقدروى هذا مرفوعاً فى حديث الصور . أفاده ابن كثير .

قلت : روى الإمام أحمد[٣] ، والبخارىّ فى (الأدب المفرد) ومسلم[٤] والترمذىّ[٥] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء ، من الشاة القرناء ، تنطحها .

---

(١) الأثر رقم ١٣٢٢٣ من التفسير .

وفى المسند بالصفحة ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٢٠ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٠٣ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٢ ـ باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : حشرها الموت . وروى عن مجاهد والضحاك مثله . والأول أظهر .

التاسع ـ (في الإكليل) : استدل بهذه الآية على مسألة أخرى ، أخرجه أبو الشيخ عن أنس أنه سئل : من يقبض أرواح البهائم ؟ قال : ملك الموت . فبلغ الحسن فقال : صدق ! وإن ذلك في كتاب الله . ثم تلا هذه الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ » أي : مثلهم في جهلهم ، وعدم فهمهم ، وسوء حالهم ، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذي لا يسمع) والبكم (جمع أبكم ، وهو الذي لا يتكلم) . وهم مع ذلك في ظلمات لا يبصرن . فكيف يهتدي مثلهم إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل ، إعلاماً ببيان كمال غراقتهم في الجهل ، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية .

ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله « مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أي : فهو المتصرف في خلقه بما يشاء ، فمن أحب هدايته ، وفقه بفضله وإحسانه للإيمان . ومن شاء ضلالته تركه على كفره . (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

ثم أمر تعالى رسوله بأن يبكتهم بما لا سبيل لهم إلى إنكاره ، ببيان أنهم إذا نزلت بهم شدة ، فإنهم يفزعون إليه تعالى ، لا إلى الأصنام ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ » أى:أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ » أى:مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة ، « أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ » يعنى القيامة «أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ » أى: فى كشف العذاب عنكم . وهذا محطّ التبكيت . أى : أتخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة ، بل لا تدعونها مع الله أيضاً « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » متعلق بـ (أَرَأَيْتَكُمْ) مؤكد للتبكيت ، كاشف عن كذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

« بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ » أى : تخصون بالدعوة « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » أى : إن شاء كشفه . والتقييد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير مطّردة ، بل هى تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حِكَم استأثر بعلمها « وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ » أى : تتركون ما تشركون تركاً كليًّا لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع . عطف على (تَدْعُونَ) ، وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما، وتأخر الكشف عنهما،لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة .

ثم بين تعالى أن من كفار الأمم السالفة من بلغوا فى القسوة إلى أن أخذوا بالشدائد ليخضعوا ويلتجئوا إلى الله تعالى ، فلم يفعلوا . تسلية لنبيه ﷺ فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ » أى : رسلا ، فكذبوهم ولم يبالوا، لكونهم فى الرخاء ، « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ » أى : الشدة والقحط ، « وَالضَّرَّاءِ » أى : المرض ونقصان الأنفس والأموال « لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ » أى : يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم ، فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » أى : بالتوبة والتمسكن . ومعناه. نفى التضرع. كأنه قيل : فلم يتضرعوا . وجئ بـ (لَوْلَا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم ، كما قال «وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» فلم يكن فيها لين يوجب التضرع ، ولم ينزجروا وإنما ابتلوا به ، « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : من الشرك . فالاستدراك على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع ، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم المزينة لهم .

لطيفة :

إن قلت : قد أسند تعالى هنا التزيين إلى الشيطان ، وأسنده إلى نفسه فى قوله : وَكَذَٰلِكَ (زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ)(١) فهل هو حقيقة فيهما ، أو فى أحدهما ؟ قلت : وقع التزيين

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] ونصها : وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ =

فى مواقع كثيرة : فتارة أسنده إلى الشيطان، كالآية الأولى ، وتارة إلى نفسه كالثانية، وتارة إلى البشر كقوله (زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ)(١) ـ فى قراءة ـ وتارة بجهولا غير مذكور فاعله كقوله (زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ)(٢) ، لأن التزيين له معان يشهد بها الاستعمال واللغة : أحدها : إيجاد الشىء حسناً مزيناً فى نفس الأمر ، كقوله : (زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا) ، والثانى : جعله مزيناً من غير إيجاد ، كتزيين الماشطة العروس ، والثالث : جعله محبوباً للنفس ، مشتهى للطبع ، وإن لم يكن فى نفسه كذلك . فهذا إن كان بمعنى خلق الميل فى النفس والطبع لا يسند إلا إلى الله ، لأنه الفاعل له حقيقة ، لإيجاده له ، ولغة ونحواً لا تصافه بخلقه . وإن كان بمجرد تزويره وترويجه بالقول وما يشبهه ، كالوسوسة والإغواء،

= فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(١) [٦ / الأنعام [١٣٧] ونصها : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس/ ١٢] ونصها: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٦] ونصها : إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ .
و [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .
و [٦٧ / الملك / ٥] ونصها: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

فهذا لا يسند إليه تعالى حقيقة ، وإنما يسند إلى البشر أوالشيطان . وإذا لم يذكر فاعله، يقدّر في كل مكان ما يليق به ـ كذا في (العناية) ـ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

« فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » أي : من البأساء والضراء ، أي تركوا الاتعاظ به « فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » أي : من النعم ، كالصحة والسعة وراحة البال والأمن، وصنوف رغائبهم، استدراجاً وإملاء ومكراً بهم ، عياذاً بالله من مكره ، « حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا » من مطالبهم ورغائبهم، مع الشرك « أَخَذْنَاهُمْ » أي : بالعذاب المستأصل ، « بَغْتَةً » أي : فجأة بلاتقديم مذكّر، إذلم يفدهم في المرة الأولى ، « فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ » متحسرون، يئسون من كل خير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أي : آخرهم . كناية عن الاستئصال ، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ماقبله . وهو من (دَبَرَهُ) إذا تبعه ، فكان في دُبُرِهِ . أي : خلفه . فالدابر ما يكون بعدالآخر ، ويطلق عليه تجوّزاً . وقال أبوعبيد: دابر القوم آخرهم . وقال الأصمعيّ : الدابر الأصل ، ومنه : قطع الله دابره ، أي : أصله .

« وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أي : على ما جرى عليهم من الهلاك . فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض ، من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها ، لاسيما مع مافيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم،عليهم السلام .

تنبيهات

الأول ـ روى في هذه الآية أخبار وآثار . منها ما أخرجه الإمام أحمد[١] عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ ... إلى .. هم مُبْلِسُونَ » ورواه ابن جرير[٢] وابن أبي حاتم عنه .

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم (أَوْ فُتِحَ عَلَيْهِمْ) باب خيانة، حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ... الآية . ورواه أحمد وغيره .

وقال الحسن البصريّ : من وسع الله عليه ، فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأى له . ومن قتّر عليه ، ولم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له . ثم قرأ . « فَلَمَّا نَسُوا ... » الآية ـ قال الحسن : مكر بالقوم، ورب الكعبة ! أعطوا حاجتهم ثم أخذوا .

وقال قتادة : بغت القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ـ روى ذلك ابن أبي حاتم ـ

الثاني ـ قال الرازيّ : قال أهل المعاني : وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية .

الثالث ـ قال الزمخشريّ : في قوله تعالى (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم ، وأجزل القسم . أى : فهو إخبار بمعنى الأمر ، تعليماً للعباد .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ١٤٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

(٢) الأثر رقم ١٣٢٤١ من التفسير .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ونظيرها قوله تعالى[(١)] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)فيمن وقف هنا ، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين . ومنهم من وقف على (الْمُنْذَرِينَ) وجعل الحمد متصلا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون. فعلى الأول يكون الحمد ختماً ، وعلى الثانى فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعاً ، ولكنه فى آية النمل أظهر فى كونه مفتتحاً لما بعده ، وفى آية الأنعام ختم لما تقدمه حتماً ، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك . انتهى .

قلت : إذا جرينا على ما هو الأسدّ فى الآى من توافق النظائر ، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا ، وإدعاء الأظهرية فيها ممنوع ، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضاً . فتأمل . ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيت عليهم . وتثنية الإلزام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

بقوله تعالى: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » بأن أصمكم وأعماكم ، « وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ » بأن غطى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم « مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟ » أى: بذلك المأخوذ. وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان ، وفسد أمره ، وبطلت مصالحه فى الدين والدنيا .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى نوردها بطرق مختلفة، كتصريف الرياح. و(انظر) يفيد التعجيب من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة .

(١) [٢٧ / النمل / ٥٨و٥٩] . . . ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

« ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ » أى : بعد رؤيتهم تصريف الآيات يعرضون عنها ، فلا يتأملون فيها، عنادا وحسدا وكبرا .

تنبيهات

الأول ـ المراد بالآيات : إما مطلق الدلائل ، أو الدلائل القرآنية مطلقا ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله : إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ . . . الآية . ومن الترغيب بقوله : فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ، والترهيب بقوله : إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ . . . الآية . ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين . ذهب إلى كلٍّ بعضٌ من المفسرين ، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع .

الثانى ـ قال بعض المفسرين من الزيدية : دلت الآية على جواز الاحتجاج فى أمر الدين. انتهى. وهو ظاهر.

الثالث ـ المقصود من هذه الآية : بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث ، وصونها عن الآفات ، ليس إلّا الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المنعم بهذه النعم العالية ، والخيرات الرفيعة ، هو الله تعالى . فوجب أن يقال : المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى . وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة ـ قرره الرازىّ ـ .

ثم أشار تعالى إلى تبكيت لهم آخر بإلجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)

قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِن أَتَاكُمْ » لإعراضكم عن الآيات بعد تصريفها « عَذَابُ اللهِ » أى : المستأصل لكم ، « بَغْتَةً » أى : فجأة من غير تقديم ما يشعر به ؛ إذ لم يفد ما تقدم ، «أَوْ جَهْرَةً » بتقديمه مبالغة فى إزاحة العذر . وقيل : ليلا أو نهارا ، كما فى قوله تعالى : بَيَاتاً أَوْ نَهَارًا ، لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة ، وفيما أتى نهارا الجهرة « هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ » أى : هل يهلك بذلك العذاب إلاأنتم؟ وَوَضَعَ الظاهرَ موضعه ، تسجيلاعليهم بالظلم ، وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الإعراض عما صرف الله له من الآيات، موضع الإيمان

ثم أشار تعالى إلى وظيفة الرسل ، وتحقيق مافى عهدتهم ، لبيان أن ما يقترحه الكفار عليه ، ﷺ ، ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ » بالثواب لأهل الإيمان والأعمال الصالحة ، « وَمُنْذِرِينَ » بالعقاب لأهل الكفر والمعاصى ، « فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ » للأعمال والأخلاق ، فهم أهل البشارة ، « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من العذاب الذى أنذروا به دنيويًّا وأخرويًّا ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : بفوات مابشروا به من الثواب العاجل والآجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ » أى : الذى أنذروا به عاجلا أو آجلا « بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » أى : عن أمر الله فى ترك الإيمان ، ومباشرة الأعمال الطالحة واكتساب الأخلاق الرديئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أى : قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات ، وأخرى غير ذلك : لا أدعى أن خزائن رزق الله مفوضة إلىّ ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهبا ، وغير ذلك .

(والخزائن : جمع خزانة، وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشىء. وخَزْنُ الشىء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدى) .

« وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ » أى : من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوها .

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » أى: حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للعادات مالا يطيقه البشر ، من الرقىّ فى السماء ونحوه ، أو تعدّوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى ، كما ينبئ عنه قولهم : مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . والمعنى : إنى لا أدعى شيئاً من هـذه الأشياء الثلاثة ، حتى تقترحوا علىّ ما هو من آثارها وأحكامها ،

وتجعلوا عدم إجابتى إلى ذلك، دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التى لاتعلق لها بشىء مما ذكر قطعا . بل إنما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل، والعمل بمقتضاه فقط ، كما ينبئ عنه قوله تعالى :

« إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ » أى: ماأتبع فيما أقول لـكم إلا ما يوحى إلىّ من جهته تعالى ، شرفنى بذلك وأنعم به علىّ ، إذ يكشف لى عن الملائكة فيخبروننى .

ثم كرر الأمر تثنية للتبكيت بقوله :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ » مثل للضال والمهتدى على الإطلاق . والاستفهام إنكارىّ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ماذكر من الحقائق ، ومن يعلمها . وفيه من الإشعار بكمال ظهورها، ومن التنفير عن الضلال، والترغيب فى الاهتداء ـ ما لا يخفى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر . أى : أفلا تتفكرون فتهتدوا ، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان .

تنبيهات :

الأول ـ جعل بعض المفسرين قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) تبرؤًا من دعوى الألوهية، لأن قسمة الأرزاق بين العباد ، ومعرفة الغيب ، مخصوصان به تعالى . قال : ولذا كرر فى الملكية لفظ (وَلَا أَقُولُ) . والمعنى : لا أدعى الألوهية ولا الملكية .

وأورد على هذا أن المراد : لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقترحونه ، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية ، وإلا لقيل : لا أقول لكم إنى إله. كما قيل: ولا أقول لكم إنى ملك . وأيضاً فى الكناية عن الألوهية بـ (عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ) ما لا يخفى من البشاعة ، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا ـ كذا فى (العناية) ـ .

قال أبو السعود : وجعل هذا تبرؤًا عن دعوى الإلهية ، مما لاوجه له قطعاً .

الثانى ـ قال الجبائىّ : الآية دالة على أن المَلَك أفضل من الأنبياء ، لأن المعنى : لا أدعى منزلة فوق منزلتى .ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح ذلك .

قال القاضى : إن كان الغرض بما نفى طريقة التواضع ، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفى قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة ، لم يدل على كونهم أفضل .

وقرر الزمخشرىّ الأول تأييدا لمذهبه فقال فى تفسير الآية : أى لا أدعى ما يستبعد فى العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ، وهى قِسَمه بين الخلق وأرزاقه، وعلم الغيب، وإنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى ، وأفضله ، وأقربه منزلة منه .أى: لم أدع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكروها ، وإنما أدعى ما كان مثله لكثير من البشر ، وهو النبوة . انتهى .

وتعقبه الناصر فى (الانتصاف) بقوله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له، فى تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمرى إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة فى الاستدلال بها . ولمخالفه أن يقول : إنما أوردت الآية ردًّا على الكفار فى قولهم : مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ...) الآية ـ فردّ قولهم : (مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ)بأنه بشر ، وذلك شأن البشر ، ولم يدّع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء، لأنه لا خلاف أن الأنبياء، يأكلون الطعام ، وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء .

وكذلك رد قولهم (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ) بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به .

ثم قال الناصر رحمه الله : ولم يحسن الزمخشري في قوله (ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة) فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملكية ، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ. والمنزلة عبارة عن المحل الذي يُنزِل اللهُ فيه العبد من علوّ وغيره ، فإطلاقها على الإلهية تحريف. والله الموفق للصواب .

الثالث ـ قال الرازيّ : ظاهر قوله تعالى (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) يدل على أنه ﷺ لا يعمل إلا بالوحي ، وهو يدل على حكمين :

الأول ـ أن هذا النص يدل على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .

الثاني ـ أن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، بقوله تعالى : (فَاتَّبِعُوهُ) ، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى . والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير . ثم قال (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وأن لا يكون غافلًا عن معرفته. انتهى.

وفي (فتح الرحمن) : تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء ، عملًا بما يفيده القصر في هذه الآية .

والمسألة مدونة في الأصول . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوتيت القرآن ومثله معه .

ثم لما أخبر تعالى : أن أولئك المشركين كالصم البكم العمي ، بل الموتى ، إذ لم يتعظوا بتصريف الآيات الباهرة، أمر بتوجيه الإنذار إلى من يتأثر بما يوحى إليه ، اطّراحاً لأولئك الفجار ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَأَنْذِرْ بِهِ » أى : بما يوحى ، المتقدم ذكره « الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ » يعنى : من دون الله تعالى ، « وَلِيٌّ » أى : ناصر ينصرهم « وَلَا شَفِيعٌ » يشفع لهم وينجيهم من العذاب ، غيره تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أى : الاعتقادات الفاسدة ، والأعمال الطالحة ، والأخلاق الرديئة .

قال فى (العناية) : خص بالذكر هؤلاء ، لأنهم الذين ينفعهم الإنذار ، ويقودهم إلى التقوى . وليس المراد الحصر حتى يرد أن إنذاره لغيرهم لازم أيضاً . انتهى .
وجملة (لَيْسَ لَهُمْ) فى موضع الحال من (يُحْشَرُوا) ، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. والمراد بـ (الولىّ) و (الشفيع) الآلهة التى كان المشركون يزعمون أنها شفعاؤهم ، وحينئذ فلا دلالة فى الآية على نفى الشفاعة للمسلمين ، لأن شفاعة الرسل يومئذ إنما تكون بإذنه تعالى ، فكأنها منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

روى الإمام مسلم[١] عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال له المشركون : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... » الآية .

وأخرج نحوه الحاكم وابن حبان فى صحيحيهما .

وروى الإمام أحمد[٢] عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ ، وعنده خبّاب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يامحمد ! أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل عليه القرآن : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » إلى قوله « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » .

ورواه ابن جرير[٣] عن ابن مسعود أيضاً قال : مرّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٥و٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٩٨٥ (طبعة المعارف) .

(٣) الأثر رقم ١٣٢٥٥ من التفسير .

وفيـه : فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء من قومك ، أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم نتبعك ! فنزلت هذه الآية : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... »الآية .

ووراء ما ذكرنا، روايات لا تصحّ ولا يوثق بها .

إذا علمت ذلك تبين أنه ﷺ لم يطردهم بالفعل ، وإنما همّ بإبعادهم عن مجلسه آن قدوم أولئك ، ليتألفهم فيقودهم ذلك إلى الإيمان ، فنهاه الله عن إمضاء ذلك الهمّ .

فماأورده الرازىّ من كونه ﷺ طردهم ، ثم أخذ يتكليف فى الجواب عنه ، لمنافاته العصمة على زعمه ، فبناءٌ على واهٍ . والقاعدة المقررة أن البحث فى الأثر فرع ثبوته ، وإلا فالباطل يكفى فى رده، كونُه باطلًا . وقدأوضحت ذلك فى كتابى (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث).

والمعنى : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهـذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك . كقوله[1] : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) .

وقوله تعـالى : « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى يعبدونه ويسألونه ، « بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » قال سعيد بن المسيّب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة .

وقوله تعالى : « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » المراد بالوجه الذات ، كما فى قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ومعنى إرادة الذات الإخلاص لها ، والجملة حال من (يَدْعُونَ) أى : يدعون ربهم مخلصين له فيه ، وتقييده به لتأكيد عليّته للنهى ، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام، المضاد للطرد.

وقوله تعالى « مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ »،

(١) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

كقول نوح عليه السلام في الذين قالوا(١) : (أَنُؤْمِنَ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) أي: إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء .

قال العلامة أبو السعود : الجملة اعتراض وسط بين النهي وجوابه، تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوّغاً لطردهم من أقاويل الطاعنين في دينهم ، كدأب قوم نوح حيث قالوا . (مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) أي : ما عليك شيء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة ، حتى تتصدى له ، وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتك ، حسبما هو شأن منصب النبوة ، اعتبار ظواهر الأعمال ، وإجراء الأحكام على موجبها . وأما بواطن الأمر فحسابها على العليم بذات الصدور، كقوله تعالى (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي) وذكر قوله تعالى : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ) مع أن الجواب قد تم بما قبله ، للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ ، بنظمه في سلك مالا شبهة فيه أصلًا ، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام، عليهم ، على طريقة قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)(٢) وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة

(١) [٢٦/ الشعراء/ ١١١ـ١١٣] وهاكم نصها حسب الكتاب : قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ، لَوْ تَشْعُرُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ٣٤] ونصها : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٠ / يونس / ٤٩] ونصها: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

و [١٦ / النحل / ٦١] ونصها : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا =

جملةواحدة، لتأدية معنى واحد،على نهج قوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) فغيرحقيق بجلالة شأن التنزيل . انتهى .

والقول المذكور للزمخشريّ ، حيث ذهب إلى أن الجملتين فى معنى جملة واحدة ، تؤدى مؤدَّى (وَلَا تَزِرُ) الآية ، وأنه لابد منهما .

هذا ، وقيل : الضمير للمشركين، والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ، ولا أنت بحسابهم، حتى يهمك إيمانهم ، ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين .

وأغرب المهايميّ حيث قال : والعماةُ، لكونهم أرباب شرف ومال ، يكرهون مجالستهم ، لقلة شرفهم ومالهم ، فقال عز وجل لأشرف الناس : (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما يعود عليك من نقصهم فى الشرف والمال من شىء (وَمَا مِنَ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى : وما يعود عليهم من كمالك فى الشرف والمال عليهم من شىء ، فإذا لم يلحقك نقصهم ، ولم يأخذوا كمالك بسلبه عنك ، فلاوجه لطردهم . انتهى .

وفيه بعدٌ ، لعدم ملاقاته لآية نوح السالفة . ولا يخفى مراعاة النظائر .

وفى (العناية) : قدم خطابه ﷺ فى الموضعين ، تشريفاً له . وإلا كان الظاهر (وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ) بتقديم (عَلَى) ومجرورها ، كما فى الأول . وفى النظم رد العجز على الصدر ، كما فى قوله : عادات السادات ، سادات العادات .

وقوله تعالى : « فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » الظلم : وضع الشىء فى غيرمحله، أى : فلا تهمّ بطردهم عنك ، فتضع الشىء فى غير موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ » هم الشرفاء « بِبَعْضٍ » وهم المستضعفون ، بما

= مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

مننا عليهم بالإيمان . وقوله : « لِيَقُولُوا » أى : الشرفاء « أَهَٰؤُلَاءِ » أى المستضعفون ، « مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ بَيْنِنَاَ » أى : بشرف الإيمان ، مع أن الشرفاء على زعمهم ، أولى بكل شرف ، فلو كان شرفاً لا نعكس الأمر ، فهو إنكار لأن يُخَصَّ هؤلاء من بينهم بإصابة الحق ، والسبق إلى الخير ، كقولهم : (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)[1] .

ثم أشار تعالى إلى أنه إنما منَّ عليهم بنعمة الإيمان ، لأنه علم أنهم يعرفون قدر هذه النعمة ، فيشكرونها حق شكرها . وأما أولئك ، فلا يعرفون قدرها ، فلا يشكرونها ، بقوله سبحانه «أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ»؟ فهو ردٌّ لقولهم ذلك ، وإبطالٌ له ، وإشارةٌ إلى أن مدار استحقاق الإنعام، معرفة شأن النعمة، والاعتراف بحق المنعم . كما أن فيه من الإشارة إلى أن أولئك المستضعفين عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن، والتوفيق للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك ، مع التعريض بأن القائلين بمعزل عن ذلك كله ـ مالا يخفى.

قال الحافظ ابن كثير : إن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه فى أول بعثته ضعفاء الناس ، من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل . كما قال قوم نوح لنوح (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ...)[2] الآية ـ وكما سأل هرقلُ[3] ملكُ الروم أباسفيان ـ حين سأله عن تلك المسائل ـ : (فأشراف الناس

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١١ / هود / ٢٧] ونصها : فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

(٣) انظر صحيح البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث ٧، عن أبى سفيان لما أرسل إليه هرقل فى ركب من قريش ، وكانوا تجارًا بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه =

يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم. فقال : هم أتباع الرسل) وكان مشركو مكة يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا) كقوله: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ[1] . وكقوله تعالى: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[2] ؟ قال الله تعالى في جواب ذلك : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا[3] وقال فى جوابهم هنا : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ، أى :له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . كما قال تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[4] .

وفى الحديث الصحيح[5] : إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

= وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه ... وهو حديث طويل يوجّه فيه هرقل إلى أبى سفيان عما يعلمه أبوسفيان عن رسول الله ﷺ . لا يَفُتْ مسلماً الاطلاع على هذا الحديث فإن فيه خيرًا كثيرًا .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ .

(٢) [١٩ / مريم / ٧٣] .

(٣) [١٩ / مريم / ٧٤] .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] .

(٥) أخرجه مسلم فى: ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٣٣ (طبعتنا) ونصه: عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصابعه إلى صدره .

وأخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) حديث رقم ٧٨١٤ (طبعة المعارف) .

وروى[١] ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم ابن عدىّ ، والحرث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، فى أشراف من بنى عبد مناف ، من الكفار ، إلى أبى طالب فقالوا : ياأباطالب ! لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعُسَفاؤنا ـ كان أعظم فى صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، وتصديقنا له . فأتى أبو طالب النبىّ ﷺ ، فحدثه بالذى كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلتَ ذلك ، حتى تنظر ما الذى يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم ! فأنزل الله عز وجل هذه الآية : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)[٢] . إلى قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) . قال : وكانوا : بلالٌ وعمارُ بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة وصبيح مولى أسيد . ومن الحلفاء : ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القارىّ ، وواقد بن عبد الله الحنظلىّ ، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ، ومرثد بن أبى مرثد = وأبو مرثد من غنىّ ، حليفُ حمزة بن عبد المطلب = وأشباههم من الحلفاء . ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ) ... الآية ـ فلما نزلت أقبل عمر ، فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ...)[٣] الآية .

تنبيهات وفوائد

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية :

١ ـ أن الواجب فى الدعاء الإخلاص به ، لأنه تعالى قال : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) ـ هكذا قال الحاكم ـ وهكذا جميع الطاعات ، لاتكون لغرض الدنيا . قال النفس الزكية عليه السلام :

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير .
(٢) [٦ / الأنعام / ٥١] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٥٤] .

إذا دعا الإمام ثم وجد أفضل منه، وجب عليه أن يسلم الأمر له . فإن لم يفعل ذلك فسق ، لأنه إن لم يفعل دل على أنه طالب للدنيا .

٢ ـ ودلت على أن الغداة والعشيّ لهما اختصاص بفضل العمل والدعاء ، فلذلك خصهما بالذكر .

٣ ـ ودلت على أن الفضل بالأعمال. وما خرج من المفاضلة من غير أمر الدين، كالكفاءة فى النكاح ، فذلك لمخصص ، نحو قوله عليه السلام(١) : العرب بعضها أكفاء للبعض .

٤ ـ ودلت على أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره ، وهى كقوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ(٢) . وقد تقدم ما ذكر فيما ورد أن الميت ليعذَّب ببكاء أهله ، على أن المراد إذا أوصاهم بذلك .

٥ ـ ودلت على أن حديث النفس لا يؤاخذ به ، لأنه قد روى أنه ﷺ قد همّ بذلك .

٦ ـ ودلت على أن الفقر لا يؤثر فى حال المؤمن . وقد ورد فى الحديث(٣) عنه ﷺ : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بكذا سنة . وروى أن آخر من يدخل الجنة

---

(١) أخرجه فى الجامع الصغير ، عن عائشة فى السنن للبيهقىّ . ونصه : العرب للعرب أكفاء . والموالى أكفاء للموالى ، إلا حائك أو حجّام .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٣٧ ـ باب ماجاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ونصه :

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، نصف يوم » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

من الصحابة عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله . وروى أن عليًّا عليه السلام لم يخلف شيئاً بعد وفاته ـ هكذا في التهذيب ـ انتهى .

أقول : الحديث الأول ، رواه الترمذيّ عن أبي هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . وأما حديث : آخر من يدخل الجنة من الصحابة ... الخ فلم أجده بهذا اللفظ .

وقد روى البزار وأبو نعيم عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف . والذى نفس محمد بيده ! لن يدخلها إلا حبوًا . قال السيوطيّ : إسناده ضعيف ـ كذا في (منتخب كنز العمال) في ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، في (فضائل الصحابة) .

٧ ـ هذا ، وقال ابن الفرس : قد يؤخذ من هذه الآية أن لا يمنع من يذكّر الناس بالله وأمور الآخرة في جامع أو طريق أو غيره . قال : وقد اختلف المتأخرون في مؤذن يؤذن بالأسحار ، ويبتهل بالدعاء ، يردّد ذلك إلى الصباح ، وتأذى به الجيران ، هل يمنع ؟ واستدل (من قال : لا يمنع) بهذه الآية ، وبقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ[1] . . . الآية . انتهى .

٨ ـ قرأ ابن عامر « بالغُدْوَةِ » بالواو وضم الغين ، هنا وفى سورة الكهف ، والباقون بالألف وفتح الغين . وهى قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء المطارديّ وغيرهم .

قال أبو عبيد : قرأ ابن عامر وأبو عبدالرحمن السلميّ (بالغدوة) ، وقرأ العامة (بالغداة) ونراها قرآ ذلك اتباعاً للخط ، لأنها رسمت فى جميع المصاحف بالواو ، كالصلاة والزكاة ،

---

(١) [٢ / البقرة / ١١٤] ونصها : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وليس، فى إثباتهم الواو فى الكتابة، دليل على أنها القراءة ، لأنهم قد كتبوا (الصلاة والزكاة) بالواو ، ولفظهما على تركها ، فكذلك (الغداة) ، على هذا وجدنا ألفاظ العرب . انتهى .

وقال أبو علىّ الفارسىّ: الوجه قراءة العامة (بالغداة) ، لأنها تستعمل نكرة ، فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها . فأما (غدوة) فمعرفة ، وهو علم صيغ له ، وحينئذ فيمتنع دخول لام التعريف عليه ، كسائر المعارف ، وكتابتها بالواو لا تدل على قولهم . انتهى .

قال الشهاب مجيبًا ومناقشًا: إن (غدوة) وإن كان المعروف فيها أنها علم جنس، ممنوع من الصرف ، ولا تدخله الألف واللام ، ولا تصح إضافته ، فلا تقول : غدوة يوم الخميس ـ كما قال الفرّاء ـ ولكنه سمع اسم جنس أيضاً ، منكّرًا مصروفاً ، فتدخله اللام ، وقد نقله سيبويه فى كتابه عن الخليل ، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو ، فلا عبرة بقول أبى عبيد أن من قرأ بالواو أخطأ ، وأنه اتبع رسم الخط ، لأن الغداة تكتب بالواو ، كالصلاة والزكاة ، وهو علم جنس ، لا تدخله الألف واللام ، والمُخَطِّئُ مُخْطِئٌ ، لما مر . وقد ذكر المبرّد عن العرب تنكيره وصرفه ، وإدخال الألف واللام عليه ، إذا لم يرد غدوة يوم بعينه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكفى بوقوعه فى القراءة المتواترة حجة ، فلا حاجة إلى ما قيل : إنه علم ، لكنه نكّر ، لأن تنكير علم الجنس لم يعهد . ولا أنه معرفة ، ودخلته اللام لمشاكلة العشىّ . كما فى قوله : رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً ، إذ قال (اليزيد) لمجاورة الوليد . ومنه تعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة . انتهى .

٩ ـ فى القاموس : الغُدوة بالضم ، البكرة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس كالغداة . والعشىّ والعشية : آخر النهار .

وفى الصحاح : من صلاة المغرب إلى العتمة .

وقال الأزهرىّ : يقع العشىّ على ما بين الزوال والغروب .

١٠ ـ جعل الزمخشرىّ (ذلك) إشارة إلى هذا الفتن المذكور ، حيث قال : ومثل ذلك

الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض ، أي: ابتليناهم بهم . وعبر عنه بذلك، إيذاناً بتفخيمه. كقولك : ضربت زيداً ذلك الضرب . ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه ، لأن المثل ليس بمراد ، إنما جيء به مبالغة ، كما يقال (ذلك كذلك) كذا قرره العلامة . يعني: أن التشبيه كما يجعل كناية عن الاستمرار ، لأن ما له أمثال يستمر نوعه بتجدد أمثاله ، كما أشار إليه شراح الحماسة في قوله :

هكذا يذهبُ الزمانُ ويَفْنَى الـ ـعلمُ فيه ويدرُسُ الأَثَرُ

والاستمرار يقتضي التحقق والتقرر ويستلزمه ، فجعل في أمثال هذا بواسطة الإشارة إلى البعيد عبارة عن تحقق أمر عظيم . وكونه عظيما مستفاد من لفظ (ذلك) المشار به إلى هذا الفتن القريب المذكور، وليست الكاف فيه زائدة. ومن قال إنها مقحمة أراد أن التشبيه فيه غير مقصود فيه ، بل المراد لازمه الكنائيّ أو المجازيّ . والزمخشريّ ، لما في هذا الوجه من البلاغة والدقة ، اختاره فيما ورد فيه كذلك ـ كذا في (العناية) ـ .

وقال أبو السعود : (ذلك) إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل ، ومحله في الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف . والتقدير : فتنا بعضهم ببعض فتوناً كائناً مثل ذلك الفتون ، والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، فصار نفس المصدر المؤكد ، لا نعتاً له . والمعنى : ذلك الفتون الكاملَ فتناً .

قال الشهاب : هذا الإقحام للمبالغة، مطرد في عُرْفِ العرب والعجم . انتهى .

وقيل : الكاف ليست بزائدة ، والمشار إليه هو المشبه به ، الأمر المقرر في الذهن ، والمشبه مادل عليه الكلام من الأمر الخارجيّ ، والمبالغة إنما يفيدها الإبهام الذهنيّ والتفسير بقوله : (فَتَنَّا) ، وهو ما يعلمه كل أحد من الفَتْن مَنْ هو ـ انظر (العناية) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وقوله تعالى «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» : ذهب جماعة من المفسرين إلى أن هؤلاء هم الذين سأل المشركون طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام .

قال البيضاوىّ : وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن ، واتباع الحجج ، بعد ما وصفهم بالمواظبة على العبادة ، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم ، أو يبلّغ سلام الله تعالى إليهم ، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله ، بعد النهى عن طردهم ، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتى العلم والعمل. ومن كان كذلك ينبغى أن يقرّب ولا يطرد ، ويُعَز ولا يُذَل ، ويُبَشَّر من الله بالسلامة فى الدنيا ، والرحمة فى الآخرة . انتهى .

وسلف عن ابن جرير[1] أنها نزلت فى عمر رضى الله عنه . وأخرج الفريابىّ وابن أبى حاتم عن ماهان، قال : جاء ناس إلى النبىّ ﷺ فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فما ردّ عليهم شيئاً ، فأنزل الله : (وَإِذَا جَاءَكَ ...) الآية . ولا يخفى أن الآية تشمل جميع ذلك ، وربما تتعدد الوقائع المشتركة فى حكم واحد ، فتنزل الآية بياناً للكل . وتقدم لنا فى مقدمة هذا التفسير ، فى بحث سبب النزول ، أن قول السلف : نزلت فى كذا ، قد يقصدون به أن واقعته مما يشملها لفظ الآية ، لنزولها إثرها ، فتذكرْهُ ، وأَجِلْ فكرك فى أطرافه ، فإنه مهم جداً. وبمعرفته يندفع إشكال الرازىّ الذى قرره هنا .

(١) الأثر رقم ١٣٢٦٤ من التفسير (انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٣٢٩) .

وقـوله تعالى : (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أى : أوجبها على ذاته المقدسة ، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً .

وقوله : (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ) الخ بدل من (الرَّحْمَةَ » . وقرىء بكسر الهمزة على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف .

وقوله : (بِجَهَالَةٍ) فى موضع الحال ، أى : عمله وهو جاهل ، وفيه معنيان :

أحدهما ـ أنه فاعل فعل الجهلة ، لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أوظانّ ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير ، ومنه[1] قول قول الشاعر :

على أنها قالت عشيةَ زُرْتُهَا جهلتَ على عمدٍ ولم تَكُ جَاهِلًا

والثانى ـ أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته ـ كذا فى الكشاف ـ .

---

(١) استشهد به الزمخشرىّ فى الكشاف وقال :

وفيه معنيان : أحدهما أنه فاعل فعل الجهلة . لأن من عمل مايؤدى إلى الضرر فى العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظانّ ، فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر . أى : جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شىء حتى يعلم حاله وكيفيته .

وقال شارحه : ولا يشترى الحلم بالجهل ، ولا الأناة بالطيش ، ولا الرفق بالخرق ، كما قال :

فإن تزعمينى كنت أجهل فيكم فإنى شريت الحلمَ بعدكِ بالجهل

وإن لم يكن كذلك ، يصدق عليه أنه من أكبر الجهّال ، والحمار أفضل منه. انتهى.

فعلى الأول ، الجهل : بمعنى السفه والمخاطرة من غير نظر للعواقب ، كما فى قوله(١) :

* فَنَجْهَلَ فَوْقَ جهلِ الجَاهِلِيناَ *

وكانت العرب تتمدح به ، فلا حاجة لتقدير مفعول .

وعلى الثانى ، المراد : الجهالة بمضارّ ما يفعله .

وقوله تعالى (وَأَصْلَحَ) أى : العمل . كقوله (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا)(٢) .

وروى الإمام أحمد والشيخان(٣) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما قضى الله على الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى .

تنبيه :

نقل بعض المفسرين عن الحاكم أنه قال : دلت الآية على وجوب تعظيم المؤمنين .

---

(١) هذا البيت السادس والتسعون من معلقة عمرو بن كلثوم ، وهو آخرها . وصدره :

* ألا ، لا يجهلَنْ أحدٌ علينا *

قال التبريزىّ : معناه نهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله .

فنسب الجهل إلى نفسه وهو يريد الإهلاك والمعاقبة ، ليزدوج اللفظتان فتكون الثانية على مثل لفظة الأولى ، وهى تخالفها فى المعنى ، لأن ذلك أخف على اللسان وأخصر من اختلافهما .

ومطلع القصيدة :

ألا هُبِّى بصحنك فاصبَحينا ولا تُبْقِى خمور الأَنْدَرِيناَ

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٠] ونصها : إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنْ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) بالصفحة ٢٢٥٥ وفيها سردنا جميع روايات هذا الحديث ، كما جاءت فى كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخارىّ) .

ودلت على أنه ينبغى إنزال المسرة بالمؤمن ، لأنه أمر بأن يقول لهم(كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) لتطييب قلوبهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى : آيات القرآن ، فى صفة المطيعين والمجرمين . ومرّ قريبًا الكلام على (كذلك) « وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل . وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره ، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث ، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور ، لم يقصد تعليله بها بعينها ، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر . أو علة لفعل مقدّر ، هو عبارة عن المذكور ، فيكون مستأنفًا . أى : ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل . وقرئ بنصب (السبيل) على أن الفعل متعد ، وتاؤه للخطاب . أى : ولتستوضح أنت ، يا محمد ! سبيل المجرمين ، فتعاملهم بما يليق بهم ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » أى : تعبدونه أو تسمونه آلهة . ثم كرر الأمر تأكيدًا لقطع أطماعهم بقوله تعالى « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ » أى : فى عبادة الأصنام ، وطرد من ذكر .

ثم قال البيضاوىّ : هو إشارة إلى الموجب للنهى . وعلة الامتناع عن متابعتهم ، واستجهال لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوًى ، وليس بهدى . وتنبيه لمن تحرّى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد . انتهى .

« قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا » أى : إن اتبعت أهواءكم ، لمخالفة الأمر الإلهىّ والعقل جميعاً . « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أى : للحق إن اتبعت ما ذكر . وفيه تعريض بأنهم كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)

« قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى » أى : على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلىّ ، لا يمكن التشكيك فيها « وَكَذَّبْتُمْ بِهِ » استئناف أو حال ، والضمير للبينة . والتذكير باعتبار المعنى المراد . أعنى : الوحى، أو القرآن ، أو نحوهما . « مَاعِنْدِى مَاتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ » أى : من العذاب .

قال أبو السعود : استئناف مبين لخطئهم فى شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بالبينة ، وهو عدم مجىء ما وعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم (مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1]؟ بطريق الاستهزاء ، أو بطريق الإلزام ، على زعمهم . أى : ليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن ، وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه ، فى حكمى وقدرتى ، حتى أجىء به ، وأظهر لكم صدقه . أو ليس أمره بمفوّض إلىّ .

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى: لوكان عندى لكنت أنا الحاكم ، لكن ماالحكم فى ذلك تعجيلًا وتأخيرًا إلا لله، وَقَدْ حَكَمَ بتأخيره ، لماله من الحكمة العظيمة، لكنه محقق الوقوع لأنه « يَقُصُّ الْحَقَّ » أى : يبينه بياناً شافياً ، « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ » أى : القاضين بين عباده .

---

(١) [١٠ / يونس / ٤٨] ونصها: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

لطيفة :

قرىء « يَقْضِ الحقَّ »[1] بالضاد ، وانتصاب الحق على المصدرية ، لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه . أو على المفعولية ، بتضمين (يقضى) معنى (ينفذ) ، أو هو متعد من (قضى الدرع) إذا صنعها . قال الهذلىّ[2] :

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا   داودُ أوصَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

(١) قال الإمام النسفىّ فى تفسيره (مدارك التنزيل) :
(يقص) حجازىّ وعاصم . أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره . من (قص أثره) .
الباقون (يقض الحق) أى : القضاء الحق فى كل ما يقضى من التأخير والتعجيل .
فالحق صفة لمصدر (يقض). وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين .

(٢) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ من قصيدته التى مطلعها :

أمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تتوجَّعُ   والدهر ليس بمُعْتِبٍ من يجزعُ

قالها وقد هلك له خمسة بنين فى عام واحد ، أصابهم الطاعون .

وفى رواية : وكان له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ، ثم ماتت فيه ، فهلكوا فى يوم واحد .

الضمير فى (وعليهما) عائد إلى بطلين سبق وصفهما قبل هذا البيت .

(مسرودتان) أى : درعان مخروزتان أو منسوجتان . من (السرد) وهو الخرز . وقيل : النسج ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض .

تبَّع من ملوك حمير كانت تنسب إليه الدروع التبّعية . وذكر الأصمعىّ ما يفيد أن أبا ذؤيب قد غلط فى هذا ، فقال : إنه (أى أبا ذؤيب) سمع بالدروع التبّعية فظن أن تبعاً عملها . وكان تبع أعظم شأناً من أن يصنع شيئاً بيده . وإنما عملت بأمره وفى ملكه .

(قضاهما) أى : فرغ منهما داود النبىّ عليه السلام .

(الصنَع) الحاذق بالعمل ، والمرأة صنعاء .

قال الرازيّ : واحتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله : (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) قال : والفصل يكون في القضاء ، لا في القصص . وأجاب أبو عليّ الفارسيّ فقال : القصص ههنا بمعنى القول ، وقد جاء الفصل في القول . قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)(١) . وقال (أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)(٢) ، وقال : (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ)(٣) . انتهى .

قال الشهاب : معنى (يقصه) أي يبيّنه بياناً شافياً ، وهو عين القضاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

« قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ » أي: لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تستعجلونه ، بأن يكون أمره مفوضاً إليّ من قِبَلِهِ تعالى ، لقضي الأمر بيني وبينكم ، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم .

وفي (العناية) : قضي الأمر بمعنى قطع . وقضاؤه كناية عن إهلاكهم.

قال أبوالسعود : وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل ، الذي هو الله تعالى، وتهويل الأمر ، ومراعاة حسن الأدب ـ ما لا يخفى . فما قيل في تفسيره : لأهلكتكم

---

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣] .

(٢) [١١ / هود / ١] ونصها : الٓر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٣٢] ونصها : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

عاجلًا ، غضباً لربى ، واقتصاصاً من تكذيبكم به ؛ ولتخلصت سريعاً ـ بمعزل من توفية المقام حقه .

وقوله تعالى : (وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية، من انتفاء كون أمر العذاب مفوضاً إليه ﷺ ، المستتبع لانتفاء قضاء الأمر ، وتعليل له. والمعنى : والله تعالى أعلم بحال الظالمين ، وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج ، لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إلىّ ، فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت فى الصحيحين[١] عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يارسول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا بقرن[٢] الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى. فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فنادانى ملك الجبال ، وسلّم علىّ ، ثم قال : يامحمد ! إنّ الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال . وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك . فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبيْن ! فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين فى السماء ، فوافقت إحداها الأخرى ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، الحديث رقم ١٥٢٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ١١١ (طبعتنا) .

(٢) قال ياقوت فى (معجم البلدان) :

وقال القاضى عياض : قرن المنازل ، وهو قرن الثعالب ، ميقات أهل نجد ، تلقاء مكة على يوم وليلة .

وهذا لفظ مسلم : فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .

فالجواب : ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه ، حال طلبهم له ، لأوقعه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال ، أنه، إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة ، يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم ، وسأل الرفق لهم . انتهى .

ثم بيّن تعالى اختصاص المقدورات الغيبية به ، من حيث العلم ، إثر بيان اختصاص جميعها به تعالى من حيث القدرة، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » جمع (مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح) وقرىء (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) شبه بالأمور الجليلة التى يستوثق منها بالأقفال ، وأثبت لها المفاتح تخييلا .

وقوله تعالى : « لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » تأكيد لمضمون ما قبله ، وإيذان بأن المراد الاختصاص من حيث العلم . والمعنى : ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لى ، حتى ألزمكم بتعجيله ، ولا معلوماً لدىّ لأخبركم بوقت نزوله ، بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلماً ، فينزله حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحكم والمصالح ـ أفاده أبو السعود ـ .

ثم لما بين تعالى تعلق علمه بالمغيبات ، تأثّرهُ بالمشاهدات، على اختلاف أنواعها، وتكثر أفرادها بقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » من الخلق والعجائب . ثم بالغ فى إحاطة علمه

بالجزئيات الفائتة للحصر بقوله سبحانه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى : مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهى .

تنبيهـــات

الأول ـ قال الحاكم : دلّ قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب . انتهى .

وفى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليّين وغيرهم من مدّعى الكشف والإلهام ، ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم . ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة ، والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق ﷺ(١) : من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد .

قال ابن مسعود : أوتى نبيكم كل شىء إلا مفاتيح الغيب .

قال ابن عباس : إنها الأقدار والأرزاق .

وقال الضحاك : خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب .

وقال عطاء : هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ونصه: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها ، أو كاهنا فصدقه ، فقد برئ مما أنزل الله على محمد عليه الصلاة والسلام .

وأخرجه ابن ماجة فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ١٢٢ ـ باب النهى عن إتيان الحائض ، الحديث رقم ٦٣٩ (طبعتنا) .

وقيل : هو انقضاء الآجال ، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم . واللفظ أوسع من ذلك .

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] : مفاتح الغيب خمس لا يعلمها

(١) لتعدد روايات هذا الحديث، ولاختلاف بعض ألفاظ فيها ، نرانا مضطرين إلى سرد جميعها عن كتابنا (جامع مسانيد صحيح البخاري) والحديث رقم ٥٧٩ . وهو برقم ٧٢ من مسند عبد الله بن عمر . وهاكم نصوص رواياته :

١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٢٩ ـ باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا الله .

حدثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون فى غد . ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام . ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرض تموت . وما يدرى أحد متى يجىء المطر » .

٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام، ١ ـ باب وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

حدثنا عبد العزيز بن عبدالله . حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتح الغيب خمس : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

٦٥ ـ كتاب التفسير، ١٣ـ سورة الرعد، ١ ـ باب إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ.

حدثنى إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن قال : حدثنى مالك عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله . ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله . ولا تدرى نفس بأى أرض تموت . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . =

إلا الله تعالى . لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله . ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله. ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا . ولا تدري نفس بأي أرض تموت . ولا يدري أحد متى يجيء المطر ـ أخرجه البخاري ـ وله ألفاظ . وفي رواية : ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله . انتهى .

الثاني ـ قرىء (ولا حبةٌ ولا رطبٌ ولا يابسٌ) بالرفع ، وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل (من ورقة) وأن يكون رفعاً على الابتداء ، وخبره (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار ـ كذا في الكشاف ـ .

الثالث ـ ما أسلفناه في (الكتاب المبين) من أنه (اللوح المحفوظ) هو المتبادر من إطلاقه أينما ورد . وقيل : الكتاب المبين علم الله تعالى. والأظهر الأول.

قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق ، كما قال عز وجل :(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)[1] وفائدة هذا الكتاب أمور :

= ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣١ ـ سورة لقمان ، ٢ ـ باب إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

حدثنا يحيى بن سليمان قال: حدثني ابن وهب قال: حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبدالله ابن عمر ؛ أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .

٩٧ـ كتاب التوحيد ، ٤ـ باب قول الله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا.

حدثنا خالد بن مخلد . حدثنا سليمان بن بلال . حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم ما في غد إلا الله . ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله . ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله . ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] . . . إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

أحدها ـ أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى فى المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما فى السموات والأرض شىء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ ، لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم ، فيجدونه موافقاً له .

وثانيها ـ يجوز أن يقال : إنه تعالى ذكر ما ذكر ، من الورقة والحبة ، تنبيهاً للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شىء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولاعقاب ولا تكليف ، فبأنْ لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها ـ أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام ، امتنع أيضاً تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كِتْبَةُ جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجباً تامًّا ، وسبباً كاملًا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر ، وتأخر ما تقدم ، كما قال صلوات الله عليه(١) : جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامه . انتهى .

الرابع ـ روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : مامن شجرة فى بر ولا بحر ، إلا ملَك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٩٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٨٥٤ م (طبعة المعارف) ونصه :

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله خلق خلقه ، ثم جعلهم فى ظلمة ، ثم أخذ من نوره ماشاء ثم ألقاه عليهم ، فأصاب النور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء . فمن أصابه النور يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأ يومئذ ضل . فلذلك قلت : جفّ القلم بما هو كائن » .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن الحرث قال : ما فى الأرض من شجرة ، ولا كمغرز إبرة ، إلا عليها ملك موكل يأتى الله بعلمها . يبسها إذا يبست ورطوبتها إذا رطبت . وكذا رواه ابن جرير[1] .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهى الدواة ، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضى ، ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل بر أو فجور ، وقرأ هذه الآية : (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ...) إلى آخر الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » أى : يُنيمكم فيه . استعير (التوفى) من الموت للنوم ، لما بينهما من المشاركة فى زوال الإحساس والتمييز ، فإن أصله قبض الشىء بتمامه .

« وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ » أى فيه . وتخصيص الليل بالنوم ، والنهار بالكسب ، جرياً على المعتاد . « ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ » أى : يوقظكم . أطلق البعث ترشيحاً للتوفى « فِيهِ » أى : فى النهار ، « لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى » أى ليتم مقدار حياة كل أحد .

« ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بالبعث بعد الموت ، « ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : فى ليلكم ونهاركم ، بالمجازاة عليه ، مبالغة فى عدله .

تنبيهان :

الأول ـ ظاهر الخطاب فى الآية على العموم . وخصه فى (الكشاف) بالكفرة ، ذهاباً إلى أن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ) يدل على تهديد شديد ، لا يليق إلا

---

(١) الأثر رقم ١٣٣٠٨ من التفسير .

بالمعاندين الجاحدين ، وأن المقصود بيان حالهم المذمومة فى الليل . كما أن قوله : (مَا جَرَحْتُمْ) بيان حالهم المذمومة فى النهار . وحمل (البعث) لا على الإيقاظ ، بل على البعث من القبور . و (فيه) بمعنى (من أجله) كقولك : فيم دعوتنى ؟ فتقول : فى أمر كذا . والمعنى : أنكم ملقَوْن كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار. وأنه تعالى مطلع على أعمالكم ، يبعثكم من القبور فى شأن ماقطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار، ليقضى الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى ، وجزائهم على أعمالهم . والذى حمله على ذلك، زعمه أن قوله (وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) دالّ على حال اليقظة ، وكسبهم فيها . وكلمة (ثم) تقتضى تأخير البعث عنها .

قال شراحه : ولا يخفى مافيه من التكلف ، وأنه لا حاجة إليه ، لأن قوله : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) إشارة إلى ما كسب فى النهار السابق على ذلك الليل ، ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفى ، وأن الإيقاظ متأخر عن التوفى . وإن قولنا (يفعل ذلك التوفى لنقضى مدة الحياة المقدرة) كلام منتظم غاية الانتظام .

الثانى ـ قال الشريف المرتضى فى (الدرر والغُرر) فيما وقع من القرآن من ذكر الرجوع إلى الله نحو (إِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) : كيف ترجع إليه ، وهى لم تخرج من يده ؟ وأجاب : بأنه فى دار التكليف قد يغيّر البعض ، فيضيف بعض أفعاله تعالى إلى غيره ، فإذا انكشف الغطاء ، انقطعت حبال الآمال عن غيره ، فيرجع إليه . أو أن المراد أن الأمور فى يده من غير خروج ورجوع حقيقىّ . ف (رجع) بمعنى (صار) . تقول العرب : رجع علىّ من فلان مكروه ، بمعنى صار ، ولم يكن سبق . فهو بمعنى المصير إليه ، كما تشهد به اللغة . أو أنه فى دار الدنيا ما يكون للعباد ظاهرًا كالعبد لسيده ، فإذا أفضى الأمر إلى الآخرة ، زال ذلك ، ورجع الأمر كله إلى الله ، ظاهرًا وباطناً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » قد مرّ تفسيره ، وأنه المتصرف فى أمورهم لا غيره ، يفعل بهم ما شاء .

« وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » أى : ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وهم الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ(١) ، كقوله : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) وقوله : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ)(٢) الآية .

لطيفة :

الحكمة فى ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه ، وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصى . وأن العبد إذا وثق بلطف سيده ، واعتمد على عفوه وستره ، لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ـ أفاده القاضى ـ .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى: أسبابه ومباديه « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » أى : ملائكة موكلون بذلك ، « وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ » أى: بالتوانى والتأخير . وقال ابن كثير : أى: فى حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عزوجل ، إن كان من الأبرار ففى عليين ، وإن كان من الفجار فى سجّين .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : [٨٢ / الانفطار / ١٠و١١] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ .

(٢) [٥٠ / قٓ / ١٧] . . . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

« ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » أى : الذى يتولى أمورهم . و(الْحَقِّ) : العدل الذى لا يحكم إلا بالحق . قال ابن كثير : الضمير للملائكة . أو للخلائق المدلول عليهم بـ(أحد). والإفراد أولًا ، والجمع آخرًا لوقوع التوفى على الانفراد ، والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)(١). وقال : (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)(٢) إلى قوله (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ولهذا قال (مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) .

« أَلَا لَهُ الْحُكْمُ » يومئذ لا حكم فيه لغيره ، « وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ » يحاسب الخلائق فى أسرع زمان .

فوائد :

الأولى ـ قال ابن كثير : ونذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام(٣) أحمد عن سعيد ابن يسار عن أبى هريرة رضى الله عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الميت تحضره

(١) [٥٦ / الواقعة / ٤٩و٥٠] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٤٧ ـ ٤٩] ونصها : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

(٣) رواه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

الملائكة ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ ، قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة ، كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال ذلك ، حتى تخرج . ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون ، مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة ، وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجلَ السوءَ ، قالوا : اخرجى أيتها النفس الخبيثة ، كانت فى الجسد الخبيث. اخرجى ذميمة ، وأبشرى بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فلا يزال حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان! فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت فى الجسد الخبيث . ارجعى ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر . فيجلس الرجل الصالح ، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء ، فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول . قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب .

الثانية ـ قال بعض أهل الكلام : إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم ، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم . فأما الروح التى تحيا بها النفس ، فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل . والمراد بالأرواح، المعانى والقوى التى تقوم بالحواس ، ويكون بها السمع والبصر ، والأخذ والمشى والشم . ومعنى (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أى : يوقظكم ، ويرد إليكم أرواح الحواس ، فيستدل به على منكرى البعث ، لأنه بالنوم يُذهب أرواحَ هذه الحواس ، ثم يردها إليها . فكذا يحيى الأنفس بعد موتها ـ نقله النسفىّ ـ .

الثالثة ـ قال الخازن: فإن قلت: قال الله تعالى فى آية: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)(١)

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وقال فى آية أخرى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ)(١) ، وقال هنا : (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ .

قلت : وجه الجمع أن التوفى فى الحقيقة هو الله تعالى . فإذا حضر أجل العبد ، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ، والملك الموت أعوان من الملائكة ، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده . فإذا وصلت إلى الحلقوم ، تولى قبضها ملك الموت نفسه ، فحصل الجمع .

قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت، مثل الطشت، يتناول من حيث شاء . وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم . انتهى .

ثم أمر تعالى أن يبكّت المشركون بانحطاط شركائهم عما زعموا لها ، بأنهم يخصون الحق تعالى بالالتجاء إليه عند الشدائد بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ » أى : شدائده ، كخوف العدوّ ، وضلال الطريق ، « وَالْبَحْرِ » كخوف الغرق ، والضلال ، وسكون الريح . استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتهما فى الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب . أى : اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه .

« تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً » أى : تذللا إليه ، تحقيقاً للعبودية ، « وَخُفْيَةً » بضم الخاء ،

(١) [٣٢ / السجدة / ١١] . . . ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

وقرئ بكسرها . أي : سرًّا ، تحقيقاً للإخلاص . « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا » حال من الفاعل بتقدير القول . أي : قائلين ، وعداً بالشكر ، لئن أنجيتنا « مِنْ هَٰذِهِ » أي : الشدة المعبر عنها بالظلمات ، « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أي : لك ، باعتقاد أنك المخصوص بالثناء الجميل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

ثم أمره تعالى بالجواب تنبيها على ظهوره وتعينه عندهم ، أو إهانة لهم إذ لا يلتفتون لخطابه بقوله : « قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ » أي : من غير شفاعة أحد ولا عون ، « ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » أي : ثم أنتم بعد ما تشاهدون من النجاة عنها ، الموعود فيها بالشكر وعدا وثيقاً بالقَسَم ، تشركون ، بعبادته والثناء عليه ، غيره . وتنسبون النجاة الحاصلة بعد تخصيصه بالدعوة ، إلى شفاعة الشريك ، فقد جعلتم الشرك مكان الشكر .

تنبيهات

الأول ـ ماقدمناه من أن ظلمات (الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) مجاز عن مخاوفها وأهوالها ، هو ماقاله المحققون .

قال الرازيّ : ومنهم من حمله على حقيقته فقال: أما ظلمات البحر، فهي أن تجتمع ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة ، والأمواج الهائلة إليها ، فلم يعرفوا كيفية الخلاص ، وعَظُمَ الخوفُ . وأما ظلمات البر ، فهي ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، والخوف الشديد من هجوم الأعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب . والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد ، لا يرجع

الإنسان إلا إلى الله تعالى . وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطنا ، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله تعالى ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى . وهو المراد من قوله (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) . فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة ، والخلقة الأصلية فى هذه الحالة ، بأنه لا ملجأ إلا الله ، ولا تعويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات . ولكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة ، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب ، ويقدم على الشرك . ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن فى إلهية الأصنام والأوثان .

ثم قال الرازىّ رحمه الله ، وأنا أقول : التعلق بشىء مما سوى الله فى طريق العبودية ، يقرب من أن يكون تعلقاً بالوثن ، ولذلك فإن أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفىّ . انتهى .

الثانى ـ قال بعض المفسرين : دل قوله تعالى : (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) على أن دعاء السرّ أفضل . قيل : وكان جهر النبىّ ﷺ بالدعاء ليعلّم غيره . انتهى .

وهذا بناء على أن قوله تعالى : (تَضَرُّعاً) تذللا ، لا جهرا . وكثير من المفسرين ذهب إلى أن المعنى جهرا وسرا ، ولعله الصواب . فإن العيان يؤيده ، إذ لا يتمالك من اشتد عليه الأمر ، وأظلم عليه طريق الخلاص ، على الاقتصار على دعاء السر وحده ـ والله أعلم ـ .

وفى القاموس وشرحه : تضرع إلى الله تعالى ، أى : ابتهل وتذلل . وقيل : أظهر الضراعة ، وهى شدة الفقر والحاجة إلى الله تعالى . ومنه قوله تعالى : (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) أى : مظهرين الضراعة ، وحقيقة الخشوع . انتهى .

الثالث ـ المراد بالكرب ما يعم ماتقدم ، ولا محذور فى التعميم بعد التخصيص ، لكثرة وروده . أو ما يعترى المرء من العوارض النفسية التى لا تتناهى ، كالأمراض والأسقام ،

وماقيل : إن المراد بالأول كرب مخصوص ، أو الأولى نعمة رفع ، وهذه نعمة دفع ، وأنه من قبيل (متقلداً سيفاً ورمحاً) ـ تكلف لا داعى له ـ كذا فى (العناية) ـ .

الرابع ـ وضع (تشركون) ، موضع (لا تشكرون) الذى هو مقتضى الظاهر المناسب لقوله : (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لأن إشراكهم تضمن عدم صحة عبادتهم ، وشكرهم لأنه عبادة ، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه . إذ التوحيد ملاك الأمر ، وأساس العبادة ، فوضعه موضعه توبيخاً لهم ، لعدم الوفاء بالعهد . ولم يذكر متعلقه لتنزيله منزلة اللازم ، تنبيهاً على استبعاد الشرك فى نفسه ـ كذا فى (العناية) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

« قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ » قال المهايمىّ : أى: قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر: إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها، لاستمرار منشأ الخوف ،وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها. إذ هو القادر على إرسال عذاب أعظم من تلك الشدة من فوقكم ، كإمطار النار أو الحجارة، أو إسقاط السماء .

« أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » كالخسف والطوفان ، « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا » أى : يخلطكم فرقاً خلط اضطراب ، فيجعلكم متحزبين مختلفين فى القتال ، بأن يقوّى أعداءكم « وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ » أى: شدة « بَعْضٍ » يعنى : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والتعذيب .

« انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ » أى : نحوِّلها من نوع إلى آخر . « لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ » أى : يفهمون ويعتبرون ، فيكفوا عن كفرهم وعنادهم .

تنبيهان :

الأول ــ روى البخارىّ[1] عن جابر رضى الله عنه قال . لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك! (أَوْمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذبوجهك! (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قال : هذا أهون ، أو هذا أيسر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس مايفسر به حديث جابر ، ولفظه: عن النبىّ ﷺ قال : دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعاً ، فرفع عنهم ثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض، وأن لايلبسهم شيعاً ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الأخريين. فيستفاد من هذه الرواية المراد بقوله (مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) ، ويستأنس له أيضاً بقوله تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ)[2] .

وروى الإمام[3] مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بنى معاوية، دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلًا ، ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثاً ، فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة . سألت

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ــ كتاب التفسير ، ٦ ــ سورة الأنعام ، ٢ ــ باب قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ... الآية . الحديث رقم ٢٠٠٢

(٢) [١٧ / الإسراء / ٦٨] . . . حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ــ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

ربى أن لا يهلك أمتى بالسَّنة ، فأعطانيها . وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق ، فأعطانيها . وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها .

وروى الإمام أحمد[١] من حديث أبى بصرة نحوه ، لكن قال (بدل خصلة الإهلاك)، أن لا يجمعهم على ضلالة[٢] . وكذا الطبرىّ من مرسل الحسن .

قال الخفاجىّ : فإن قلت : كيف أجيبت الدعويان ، وسيكون خسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ؟ أى : كما رواه الترمذىّ[٣] وغيره ؟

قلت : الممنوع خسف مستأصل لهم . وأما عدم إجابته فى بأسهم ، فبذنوب منهم ، ولأنهم بعد تبليغه ﷺ لهم ، ونصيحته لهم ، لم يعملوا بقوله. انتهى .

وقد روى أحمد والترمذىّ[٤] من حديث سعد بن أبى وقاص قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : « قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ »... » الخ ، فقال : أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعدُ. قال الحافظ ابن حجر : وهذا يحتمل أن لا يخالف حديث جابر، بأن المراد بتأويلها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) الأثر رقم ١٣٣٧٥ من التفسير .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب ما جاء فى الخسف ونصه : عن حذيفة بن أسيد قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج والدابة وثلاثة خسوف . خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب . ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس (أو تحشر الناس) فتبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » .

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٣ ـ حدثنا الحسن بن عرفة .

ما يتعلق بالفتن ونحوها . انتهى . أي : مما ستصدق عليها الآية ، ولما تقع بالمسلمين . فقوله: إنها كائنة ، أي : في المسلمين ، لا أنهـا خطاب لهم ، ونزولها فيهم ـ كما وهم ـ إذ يدفعه السياق والسباق ، وتتمة الآية ـ كما لا يخفى ـ وسنزيده بياناً .

الثاني ـ ماروى عن ابن عباس من أنه كان يقول في قوله تعالى : (عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) يعني أئمة السوء (وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يعني : خدم السوء . رواه ابن جرير[1] وابن أبي حاتم . فإن صح عنه، فمراده أن لفظ الآية مما يصدق على ذلك. لأن العذاب كل مامرّ (من المرارة) على النفس، وشق عليها ، لا أن ذلك هو المراد من الآية ، لنبوّه عن مقام التهويل ، في شديد الوعيد، ولخفاء الكناية عن ذلك من جوهر اللفظ ، ولعدم موافقته لنظائر الآية في هذا الباب ـ كما لا يخفى ـ .

والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات في بعض المقامات، إشعاراً بأن معناها يحاكي تلك الواقعات ، لا أنها نزلت في تلك القضيات . ومن ذلك قول أبيّ بن كعب ، قال في هذه الآية : هن أربع خلال ، كلهن واقع ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين (أُلْبِسُوا شِيَعاً) و (ذَاقَ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) ، وبقيت اثنتان لا بد منهما الرجم والخسف ـ رواه[2] أحمد وغيره ـ وقد أعلّ هـذا الأثر بأن أبيًّا لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية ، وكأن التقييد بذلك من كلام أبي العالية، روايه عنه . وبالجملة، فاستشهاد السلف بالآيات في بعض الشؤون، للإشعار المذكور ـ مما لا ينكر ، فافهم ذلك، فإنه ينفعك في مواطن كثيرة .

---

(١) الأثر رقم ١٣٣٤٩ من التفسير .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

وقوله تعالى « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ » أى بالقرآن المجيد « وَهُوَ الْحَقُّ » أى الكتاب الصادق فى كل ما نطق به . « قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى : لم يفوض إلىّ أمركم فأمنعكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق . إنما أنا منذر ، وقد بلغت . وبعضهم أرجع الضمير فى (بِهِ) للعذاب . أى : كذب بالعذاب الموعود ، قومك المعاندون ، وهو الواقع لا محالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار ، لصدقه أو كذبه . « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : مستقر هذا النبأ ومآله ، وأن العاقبة له ، كما قال تعالى (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٨] (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ » أى : بالطعن والاستهزاء ، « فِي ءَايَاتِنَا » أى : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التى حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركى مكة ، فقد كان ديدنهم ذلك ، « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى فلا تجالسهم ، وقم عنهم ، « حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض فى آياتنا .

« وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ » بأن يشغلك فتنسى النهى عن مجالستهم ، « فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى : إن ينسينّك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهى ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالطعن فى الكلام المعجز ، عنادًا .

وفى الحديث(١) : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه ـ رواه الطبرانىّ عن ثوبان مرفوعاً . وإسناده صحيح ـ وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ...) الآية ، لأن فى حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه، مشاركة لصاحبه .

فوائد :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات. انتهى

وقال الرازىّ : ومن الحشوية من استدل بهذه الآية فى النهى عن الاستدلال والمناظرة فى ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض فى آيات الله ، والخوض فى آيات الله حرام بدليل هذه الآية .

والجواب عنه : أن المراد من الخوض فى الآية ، الشروع فى الطعن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال ـ والله أعلم ـ .

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١١ ـ كتاب الطلاق، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسى، حديث رقم ٢٠٤٥ (طبعتنا) عن ابن عباس .

(٢) [٤/ النساء/ ١٤٠] ... إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً .

وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أحكام :

الأول ـ وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لا يقعد معهم ، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عامّ لنا ، ولرسول الله ﷺ . وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع في قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذًا ، فلا فائدة في دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذا كان وقوفه يوهم عدم الكراهة .

الحكم الثاني ـ جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضاً فقد قال تعالى : (حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) . قال الحاكم : والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات . وتدل على إباحة الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفي الآية أيضاً دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال: وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .

الحكم الثالث ـ أن الناسي مرفوع عنه الحرَج . فإن قيل : النسيان فعل الله ، فلِمَ أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر . فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره في النار فمات ، يقال : إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله . واختلف في النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحدثه الله في القلب . وقال أبو هاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضروريّ الذي جرت العادة بحصوله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَـٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » أى: ومايلزم المتقين الذين يجالسونهم شىء عما يحاسبون عليه من خوضهم ، « وَلَـٰكِنْ ذِكْرَىٰ » أى: ولكن أمروا بالإعراض عنهم ، ليكون ذكرى لضعفاء المسلمين ، لئلا يقع شىء من مطاعن المستهزئين فى قلوبهم. « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى : يبلغ مبلغ التوقى من شبهاتهم ، بالجلوس مع علمائه بدلهم .

تنبيهان

الأول ـ ماذكرناه فى معنى الآية ، هو ماقرره المهايمىّ رحمه الله تعالى . وقيل : المعنى : ولكن على المتقين أن يذكروهم ذكرى إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ، لعلهم يتقون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم ، فلايعودون إليه . وجوزوا أن يكون الضمير (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) ، أى : يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم ، أو يزدادوها . انتهى .

وما ذكرناه أسدّ وأوجه .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير، قال فى الآية : أى ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك . أى : إذا تجنبتهم ، وأعرضت عنهم . وعليه فالموصول كناية عن النبىّ ﷺ . التفت به تعظيما وتكريماً .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قد يستدل بقوله تعالى : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ...) الخ على أن من جالس أهل المنكر ، وهو غير راض بفعلهم ، فلا إثم عليه . لكن آية النساء تدل على أنه آثم ، مالم يفارقهم ، لأنه قال : (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ)(١) أى:

(١) [٤/ النساء/ ١٤٠] ونصها: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ =

إن قعدتم فأنتم مثلهم فى الإثم، وهى متأخرة . فيحتمل أن تـكون ناسخة لهذه ، كما ذهب إليه قوم منهم السدّىّ . اه .

أقول : المنفىّ فى الآية هو لحوق شيء من وبال الخائضين ، وإثم كفرهم لمجالسيهم المتقين، فلا ينافى ذلك لحوق وبال المجالسة على انفرادها ، وهو ما أفادته آية النساء . فالمثلية إذن فى مطلق الإثم ، وإن تباين (ماصدقه) فيهما ، إذ لاقائل بأن مطلق مجالستهم ردة وكفر. نعم ! لو قيـل بأن المثلية محمولة على ما إذا حصل الرضا بشأن مجالستهم ، فلا إشكال إذن . وبالجملة فاستدلال (الا كليل) واهٍ ، ولذا عبر بـ (قد) ، ودعوى النسخ أوهى . فتأمل !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » أى : الذى كلفوه ودعوا إليه ، وهو دين الإسلام ، « لَعِبًا وَلَهْوًا » حيث سخروا به واستهزؤوا «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» حيث اطمأنوا بها ، وزعموا أن لا حياة بعدها أبدًا ، وأن السعادة فى لذاتها . أى : أعرض عنهم ، ودعهم ، ولا تبال بتكذيبهم، وأمهلهم قليلًا ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . « وَذَكِّرْ بِهِ » أى: ذكر الناس بهذا القرآن « أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مخافة أن تسلم إلى الهلاك ، وترتهن بسوء كسبها ، وغرورها بإنـكار الآخرة . يقال : أبسله لـكذا : عرضه ورهنه ،

= ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا .

أو أسلمه للهلكة . « لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ » ينصرها بالقوة « وَلَا شَفِيعٌ » يدفع عنها بالمسألة .

« وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا » أى : وإن تفد كل نوع من أنواع الفداء ، بما يقابل العذاب ، لا يقبل منها ، لبعدهم عن مقام الفداء . والعدل : الفدية ، لأن الفادى يعدل المفدى بمثله .

« أُولَـٰئِكَ » إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً « الَّذِينَ أُبْسِلُوا » أى : سلموا للهلاك ، بحيث لا يعارضه شىء ، « بِمَا كَسَبُوا » بهذا الاغترار من إنكار الآخرة معها ، والانهماك فى الشهوات المحرمة ، « لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ » أى : ماء مغلىّ يتجرجر فى بطونهم ، وتتقطع به أمعاؤهم ، « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بنار تشتعل بأبدانهم، « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى : بسبب كفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا » أى : أنعبد من دونه ما لا يقدر على نفعنا ، إن دعوناه ، ولا ضرنا إن تركناه ، « وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا » عطف على (ندعو)، داخل فى حكم الإنكار والنفى . أى : ونرد إلى الشرك . والتعبير عنه بالرد على الأعقاب ـ لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو عَلَمٌ فى القبح ، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر ـ أفاده أبو السعود ـ .

« بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ » أى : للإسلام والتوحيد ، وأنقذنا من عبادة الأصنام ، فنصير

كالمستمر على الضلال ، بل « كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ » أي : استمالته عن الطريق الواضح مردة الجن ، « فِي الأَرْضِ » القفر المهلكة ، « حَيْرَانَ » أي : تائها ضالّا عن الجادّة ، لا يدرى كيف يصنع ، « لَهُ » أي : لهذا المستهوَى « أَصْحَابٌ » أي : رفقة « يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » أي : إلى الطريق المستقيم ، « ائْتِنَا » على إرادة القول ، أي : يقولون ائتنا . أي : وهو قد اعتسف المهمه ، تابعاً للشياطين ، لا يجيبهم ولا يأتيهم . فشبه حال من خلص من الشرك ، ثم عاد له ، بحال من ذهبت به المردة في مهمه بعد ما كان على الجادة ، ولا يدرى مقصده الذى هو سائر إليه ، مع وجود رفقة تناديه لتهديه ، وهو لا يسمع لهم .

«قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ » أي : الذى أرسل به رسله ، « هُوَ الْهُدَى » أي : وما وراءه ضلال وغىّ ، « وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ » أي : فى مخالفة أمره . (وأن أقيموا) عطف على (لنسلم) . ومعناه : أن نسلم . فاللام فيه رديفة (أن) ، أو عطف عليه ؛ واللام تعليلية ، أي : للإسلام ، ولإقامة الصلاة . وفى ورود (أقيموا الصلاة) محكيا بصيغته ، وورود (نسلم) محكيا بمعناه ، احتمال أن يكون ﷺ حكى قول الله بمعناه ، دون لفظه . انظر (الانتصاف) .

تنبيه :

فى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع ، وعطفها على الأمر بالإسلام ، وقرنها بالأمر بالتقوى ــ دليل على تفخيم أمرها ، وعظم شأنها ــ ذكره بعض الزيدية ــ.

« وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ ،عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة ، كقوله : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)(١) .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ » بيان لقدرته تعالى على حشرهم ، بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع . والمراد بـ (القول) كلمة (كن) تحقيقا أو تمثيلا . فـ (قوله الحق) مبتدأ وخبر . و (يوم) ظرف لمضمون هذه الجملة . كقوله تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(٢) وكأن قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ) الخ عقب قوله : (وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) سيق للاحتجاج على قدرته تعالى على البعث ، ردًّا على منكرى ذلك من المشركين ، الذين السياق فيهم . وماأشبه الآية بقوله تعالى: (أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ...)(٣) الآية .

ولا يخفى أن باستحضار النظائر القرآنية ، تنجلى الحقائق . وقد توسع المفسرون هنا فى إعراب هذه الجملة ، بسرد وجوه ضاع الظاهر بينها ــ وقد علمته ، فاحرص عليه ــ .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] . . . ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .
(٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .
(٣) [٣٦ / يس / ٨١و٨٢] .

« وَلَهُ الْمُلْكَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » أى: فلابد أن يفعل بالمطيع والعاصى فعل الملوك، لمن يطيعهم أو يعصيهم . فـ (يوم) ظرف لقوله (وَلَهُ الْمُلْكَ) ـ قاله أبو السعود ـ وتقييد اختصاص الملك به تعالى، بذلك اليوم، مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات ، لغاية ظهور ذلك، بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا ، المصححة للمالكية المجازية فى الجملة ، كقوله تعالى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[١] . وقوله : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ)[٢] .

وقد زعم بعضهم أن المراد بـ (الصور) هنا جمع صورة ، أى : يوم ينفخ فيها ، فتحيي. قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بـ (الصور) القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهكذا قال ابن جرير[٣]: الصواب عندنا ماتظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال[٤]: إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ .

وروى الإمام أحمد[٥] عن عبد الله بن عمرو قال: إن أعرابيا سأل النبىّ ﷺ عن الصور؟

(١) [٤٠ / غافر / ١٦] ونصها : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٦] . . . وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا .

(٣) تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ٤٦٣ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ونصه : عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبىّ ﷺ كان يقول « كيف أنعم ؟ وصاحب الصور قد التقم الصور ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر متى يؤمر » .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٨٠٥ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٢١ ـ باب فى ذكر البعث والصور ، =

فقال: قرن ينفخ فيه . ورواه أبو داود والترمذيّ والحاكم، عنه أيضاً .

« عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أي هو عالمهما، « وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » ذو الحكمة في سائر أفعاله . والعلم بالأمور الجليّة والخفية .

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكر لمن اتخذ دينه هزوا ولعبا إنكار إبراهيم عليه الصلاة والسلام- الذي يزعمون أنهم على دينه ، ويفتخرون به ـ على أبيه في شركه بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ، إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا » أي : صوراً مصنوعة ، « ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أي : باعتقاد إلهيتها ، أو اتصافها بصفاته ، أو استحقاقها للعبادة ، لأن الإلهية بوجوب الوجود بالذات . وهي ممكنة مصنوعة وأنى لها الاتصاف بصفاته ، وهي عاجزة عن النفع والضر، خالية عن الحياة والسمع والبصر، والعبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها من لا يخلو عن هذه الوجوه من الذلة ، وإنما يستحقها من كان في غاية العلوّ ـ أفاده المهايميّ ـ .

تنبيهات :

الأول ـ قرئ « آزَرَ » بالنصب ، عطف بيان ، لقوله : (لأبيه) وبالضم على النداء .

الثاني ـ الآية حجة على الشيعة في زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن آزر عم إبراهيم ، لا أبوه ، على مابسطه الرازيّ هنا ، وذلك لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، ومثله لا يجزم به من غير نقل .

= حديث ٤٧٤٢. أما الترمذيّ فلم يروه . إنما روى الحديث السابق عن أبي سعيد الخدريّ في: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٨ ـ حدثنا ابن أبي عمر .

الثالث ـ قال بعض مفسرى الزيدية : فى الآية دلالة على بطلان قول الإمامية : إن الإمام لايجوز أن يكون إبوه كافرا . لأنه إذا جاز نبىّ ، أبوه وزوجته كافران ، فالامام أولى .

اشتمل كلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ذكر الحجة العقلية إجمالا على فساد قول عبدة الأصنام ، بإنكاره اتخاذها آلهة ، وهى ما هى فى عجزها . وقد جاءت مفصلة فى سورة مريم فى قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ...) الآيات[١] .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيح[٢] عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة . فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب! إنك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى: إنى حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال : ياإبراهيم ! انظر ماتحت رجليك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فليقى فى النار .

الرابع ـ قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين، لا سيما للأقارب ، فإن من كان أقرب ، فهو أهمّ . ولهذا قال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(١) [١٩ / مريم / ٤١ـ٤٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٦ .

الْأَقْرَبِينَ)(١) ، وقال تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)(٢) . وقال ﷺ(٣) : ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . ولهذا بدأ ﷺ بعليّ وخديجة وزيد ، وكانوا معه فى الدار ، فآمنوا وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب، ثم بالموالى . وبدأ إبراهيم بأبيه ، ثم بقومه . وتدل هذه الآية على أن النصيحة فى الدين والذم والتوبيخ لأجله، ليس من العقوق ، كالهجرة ـ هكذا فى التهذيب. انتهى .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .

(٢) [٦٦ / التحريم / ٦] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٣) هذا الحديث (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) ملفّق من حديثين :

الأول (ابدأ بنفسك ثم تصدق عليها) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٤١ (طبعتنا) ونصه :

عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبدًا له عن دُبُر . فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال « ألك مال غيره » ؟ فقال : لا . فقال « من يشتريه منى » ؟ فاشتراه نُعَيْم بن عبد الله العَدَوىّ بثمانمائة درهم . فجاء بها رسولَ الله ﷺ . فدفعها إليه ، ثم قال « ابدأ بنفسك فتصدق عليها . فإن فضل شىء فلأهلك . فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك . فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » .

يقول : فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك .

والحديث الثانى (ابدأ بمن تعول) وأخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١٨ ـ باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، حديث ٧٦٣ ونصه :

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبىّ ﷺ قال « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول. وخير الصدقة عن ظهر غنى. ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى: نطلعه على حقائقهما، ونبصره فى دلالتهما على شؤونه عز وجل ، من حيث إنهما بما فيهما ، مربوبان ومملوكان ، له تعالى . و(الملكوت) مصدر على زنة المبالغة ، كالرَّهبوت والجبَروت ، ومعناه : الملك العظيم، والسلطان القاهر. وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما. وقد أسلفنا الكلام فى (وكذلك) قريباً عند قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا)[1] وأن مختار الزمخشرىّ كونه إشارة إلى مصدر ما بعده ، والكاف مقحمة ، والتقدير : تلك الإراءة والتبصير البديع، نريه ونبصره. فجدّدْ به عهداً .

« وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » عطف على علة محذوفة لم تقصد بعينها ، إشعاراً بأن لتلك الإراءة فوائد جمة ، من جملتها ما ذكر .

قال المهايمىّ فى الآية : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليعلم أن شيئاً من روحانيات الأفلاك والكواكب والمشايخ والشياطين لا يصلح للإلهية، (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) بالتوحيد بالاستدلال بالأدلة الكثيرة . وقيل : (وَلِيَكُونَ) علة لمقدر هو عبارة عن المذكور . أى : وليكون من الموقنين بالتوحيد ، فعلنا ما فعلنا من الإراءة والتبصير بآيات السموات والأرض .

لطائف

الأولى ـ قال الرازىّ : وههنا دقيقة عقلية ، وهى أن نور جلال الله تعالى لا نهاية غير

---

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .

منقطع ولا زائل البتة ، والأرواح البشرية ، لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب ، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى . فإذا كان الأمر كذلك ، فبقدر ما يزول ذلك الحجاب ، يحصل هذا التجلّى . فقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ، لأن كل ماسوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب، لا جرم تجلّى له ملكوت السموات بالتمام . فقوله : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ) معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نورُ تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله (وَكَذَٰلِكَ) منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية.

الثانية ـ قال الرازىّ : اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل. ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة، وغير مستفاد من الفكر والتأمل . واعلم أن الإنسان فى أول ما يستدل به ، فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه ، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت ، صارت سببًا لحصول اليقين . وذلك لوجوه :

الأول ـ أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة ، فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهى إلى الجزم .

الثانى ـ أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة . فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد، جارٍ مجرى تكرار الدرس الواحد . فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذى لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا .

الثالث ـ أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جدًّا ، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول، امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة فى القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة ، فإذا حصل الاستدلال الثانى امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم . وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر

نورها فى أول الأمر ، وهو الصبح ، فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح . ثم ، كما أن الصبح لايزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فكذلك العبد كلما كان تدبره فى مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر ، كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى . إلا أن الفرق بين شمس العلم ، وشمس العالَم ، أن شمس العالم الجسمانىّ لها فى الارتقاء والتصاعد حدّ معين ، لا يمكن أن يزاد عليه فى الصعود . وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد ، فلا نهاية لتصاعدها، ولا غاية لازديادها . فقوله (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) إشارة إلى مراتب الدلائل والبينات . وقوله (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) إشارة إلى درجات أنوار التجلى ، وشروق شمس المعرفة والتوحيد . انتهى .

الثالثة ـ ذكر تعالى الإراءة فى هذه الآية مجملة ، ثم فصلها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا، قَالَ هَٰذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي » قال المهايمىّ: لما رأى ـ يعنى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ الملكوت ، وأيقن أن شيئاً منها لايصلح للإلٰهية ، أراد الرد على قومه فى اعتقاد إلٰهيتها لحسنها ، باعتبار افتقارها فى أفعالها إلى أجسام لها دناءة الأفول ، وإن كانت علوية ، وكذا فى اعتقاد إلٰهية تلك الأجسام. كما رد عليهم فى اعتقاد إلٰهية الأصنام، فلتَظْهرَ ظهور الكواكب التى كانوا يعبدونها . انتهى .

وبالجملة ، فالآية بيان لكيفية استدلاله عليه الصلاة والسلام ، ووصوله إلى رتبة الإيقان. ومعنى (جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) ستره بظلامه . و (الكوكب) قيل : الزهرة ، وقيل : المشترى .

أقول : (الكوكب) لغةً : النجم . قال الزبيديّ فى (شرح القاموس) : وكونه علماً بالغلبة على الزهرة غير معتدّ به ، وإنما هى الكوكبة بالهاء . انتهى .

قال الزمخشريّ : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب،فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدِثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . وقول إبراهيم لقومه : (هَٰذَا رَبِّى) إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولًا ، ثم إبطال قولهم بالاستدلال ، لأنه أقرب لرجوع الخصم .

قال الزمخشريّ : قول إبرهيم ذلك، هو قول من ينصف خصمه ، مع علمه بأنه مبطل. يحكى قولَهُ كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغَب . ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة.

« فَلَمَّا أَفَلَ » أى : غاب ، « قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » أى : لا أحب عبادة من كان كذلك ، فإن الأفول دناءة تنافى الإلٰهية ، بل تمنع من الميل إلى صاحبها ، فضلًا عن اتخاذه إلهاً أو معبودًا ، فضلًا عما يفتقر إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)

« فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً » أى : طالعاً منتشر الضوء «قَالَ هَٰذَا رَبِّى» على الأسلوب المتقدم « فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِ رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » فإن ما رأيته لا يليق بالإلٰهية لدناءته بحوه .

قال الزمخشريّ : وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلٰهاً ، وهو نظير الكواكب في الأفول ، فهو ضال . وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .

وفي (الانتصاف) : التعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولًا (لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ) وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقامت عليه، بالاستدلال الأول ، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال . فما عرّض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تمّ قيام الحجة ، وتبلّج الحقّ ، وبَلَغَ من الظهور غاية المقصود . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي » على نحو ما تقدم ، وتذكير اسم الإشارة لتذكير الخبر، أولأنه أراد : هــذا الطالع ، أو الذي أراه ، أو لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ليستدرجهم . إذ لو حقر بوجه ما كان سبباً لعــدم إصغائهم ـ وعلى الأخير اقتصر المهايميّ ـ فقال : لم يؤنثه لئلا يعارض عظمته نقص الأنوثة ، ولو غــير حقيقية ، وهي وإن كانت في الواقع لم يأت بها لفظاً ، لأنه قصد بذلك مساعدة الخصم أولا .

وقوله تعالى : « هَٰـذَا أَكْبَرُ » أي : أكبر الكواكب جرماً ، وأعظمها قوة ، فهو أولى بالإلهية . وفيه تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر .

« فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ » صادعاً بالحق : « يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » أى من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى ، أو من إشراككم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ » أى : وجه قلبى وروحى فى المحبة والعبادة ، بل جملته مسلماً « لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً » أى : مائلا عن الأديان الباطلة ، والعقائد الزائغة ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وفى هذا المقام :

مباحث

الأول ـ توسع المفسرون هنا فى قوله : (هَٰذَا رَبِّى) :

فمن قائل بأن المتكلم بهذا آزر ، وأنه لما قال ذلك ، قال إبراهيم (لاأحب الآفلين) .

وقيل: إنه إبراهيم ، وكان ذلك فى حال الطفولية ، قبل استحكام النظر فى معرفة الله تعالى لقوله : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى ...) الخ .

وقيل : بعد بلوغه وتكريمه بالرسالة ، إلا أنه أراد الاستفهام الإنكارىّ ، توبيخاً لقومه ، فحذف الهمزة ، ومثله كثير .

وقيل: على إضمار القول أى: يقولون هذا ربى ، وإضمار القول كثير .

وقيل : المعنى فى زعمكم واعتقادكم .

وقيل : الإخبار على سبيل الاستهزاء ... إلى أقوال أخر .

والقصد فى ذلك تنزيه مقامه عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة ، واعتقاد ربوبية ذلك ، لمنافاته للعصمة .

وأقول : هذا مسلّم بلا ريب ، ولكنّ الأوجَه من جميع ذلك كله ما أسلفناه أوّلا من أن قوله : (هَٰذَا رَبِّى) من باب استعمال النصفة مع الخصوم ، على سبيل الوضع ، وهو سوق مقدمة فى الدليل لايعتقدها ، لكونها مسلمة عند غيره ، لأجل إلزامه بها . وهو مصطلح أهل الجدل . وقد اقتصر الزمخشريّ على هذا الوجه الفريد .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وذلك متعين . وقد ورد فى الحديث الوارد فى الشفاعة[1] أنهم يأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى! نفسى ! ويذكر كذباته الثلاث ، ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة هى أختى ، وإنما عنى : فى الإسلام . وقوله : إنه سقيم ، وإنما عنى همّه بقومه وبشركهم والمؤمن يسقمه ذلك ـ وقوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) ، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دلّ ذلك على أنها أعظم ما صدر منه . فلو كان الأمر على مايقال ، من أن هذا الكلام محكيّ عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعدّه ، وأعظم ، مما ذكرناه . لأنه حينئذ يكون شكّا ، بل جزما . على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير[2] من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر . واختاره ابن جرير مستدلا عليه بقوله : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى) الآية . وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السَّرَب الذى ولدته فيه أمه ، حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان ،

(١) حديث الشفاعة هذا أخرجه البخارىّ فى مواضع . ومنها فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث ٤٠ عن أنس وفيه ذكره ، عليه السلام ، كذباته الثلاث .

(٢) الأثر رقم ١٣٤٦٢ من التفسير .

لما كان قد أُخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به ، وحان وضعها ، ذهبت إلى سَرَبٍ ، ظاهرَ البلدة ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين .

ثم قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين، فى المقام الأول مع أبيه، خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية ، التى هى على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبيّن فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل ، وهى الكواكب السيارة السبعة . وأشدُّهن إضاءة وأشرفهن عندهم، الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه ، ولا تملك لنفسها تصرفا ، بل هى جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة، لما له فى ذلك من الحكم العظيمة ، وهى تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال . وهذه لا تصلح للإلهية . ثم بين فى القمر ما بين فى النجم ، ثم الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، تبرأ من عبادتهن وموالاتهن ، وأخبر بأنه يعبد خالقهن ومسخرهن .

ثم قال ابن كثير : وكيف يجوز أن يكون ناظرا فى هذا المقام ، وهو الذى قال الله فى حقه (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)(١) . وقال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥١و٥٢] .

قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[١] .

وقد ثبت فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : كل مولود يولد على الفطرة .

وفى صحيح مسلم[٣] عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء . وقال تعالى (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ)[٤] . ومعناه، على أحدالقولين، كقوله (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) . فإذا كان هذا فى حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل

(١) [١٦ / النحل / ١٢٠و١٢١] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٠ ـ باب إذا أسلم الصبىّ فمات ، هل يصلَّى عليه ؟ حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة كان يحدّث قال النبىّ ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه . كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ . هل تحسّون فيها من جدعاءَ ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... الآية .

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) .

وانظر نصه الكامل بالصفحة (١٥٦٩) من هذا التفسير .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٧٢] ... شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ .

الذى جعله الله (أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ناظرًا فى هـذا المقام ؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله ﷺ ، بلاشك ولا ريب .

ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيـه من الشرك ، لا ناظرًا ، قوله تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ...) الآية الآتية . انتهى .

وممن جوّد هذا المبحث الجليل ، وبيّن أن إبراهيم عليـه الصلاة والسلام كان مناظرًا لقومه ، العلامةُ الشهرستانىُّ فى كتابه (الملل والنحل) ، ونحن نسوقه عنـه تأييدًا لهذا البحث المهم ، وتعرّفاً بمعتقد قومه ، وما دفعهم إليه ، لما فيه من الفوائد .

قال رحمه الله تحت ترجمة (أصحاب الهياكل والأشخاص) : هؤلاء من فرق الصابئة (وهم المتعصبون للروحانيين) ، وقد أدرجنا مقالتهم فى المناظرات جملة ، ونذكرها ههنا تفصيلًا :

اعلم أن أصحاب الروحانيات ، لما عرفوا أن لابد للإنسان من متوسط ، ولابد للمتوسط من أن يُرَى فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع ، فتعرفوا أولًا بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا لِيوم زحل مثلًا يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخّروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجتهم منه ، الحاجة التى تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به .

وكذلك رفع الحاجة التى تختص بالمشترى فى يومه وساعته ، وجميع الإضافات التى

ذكرنا ، إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب، فكانوا يتقربون إلى الهياكل ، تقرباً إلى الروحانيات ـ يعني الملائكة ـ ويتقربون إلى الروحانيات ، تقرباً إلى البارئ تعالى ، لاعتقادهم بأن لكل روحانيّ هيكلاً ، ولكل هيكل فَلَكاً ، فالهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهي أربابها ومدبراتها ، تتصرف في أبدانها تدبيراً وتصريفاً وتحريكاً ، كما يتصرف في أبداننا. ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب . وهذه الطلسمات المذكورة في الكتب والسحر والكهانة والتختيم والتعزيم والخواتيم والصور، كلها من علومهم. وأما أصحاب الأشخاص فقالو : إذا كان لا بد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ، والروحانيات وإن كانت هي الوسائل ، لكنا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نخاطبها بالألسن ، لم يتحقق القرب إليها إلا بهياكلها ، ولكن الهياكل قد ترى في وقت ، ولا ترى في وقت ، لأن لها طلوعاً وأفولاً ، وظهوراً بالليل ، وخفاء بالنهار، فلم يَصْفُ لنا التقرب بها ، والتوجه إليها ، فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، فنعكف عليها، ونتوسل بها إلى الهياكل، فنتقرب بها إلى الروحانيات، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص في مقابلة هيكل ، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل ، أعني الجوهر الخاص به من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيأة التي تصدر أفعاله عنه ، وراعوا في ذلك الزمانَ والوقتَ والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية، من اتصال محمود يؤثر في نجاح المطالب التي تستدعى منه ، فتقربوا إليه في يومه وساعته ، وتبخّروا بالبخور الخاص به وتختموا بخاتمه ، ولبسوا ثيابه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزّموا

بعزائمه ، وسألوا حاجتهم منه، فيقولون : كان تقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها، وذلك هو الذى أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب والأوثان . فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها ـ كما شرحنا ـ وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ، إذ سموها آلهة فى مقابلة آلهة أولئك السماوية ، وقالوا: (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ)[(١)] . وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هذين الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . وتلك الحجة أن كسرهم قولًا بقوله : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) . ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام ، لا من غيره ، كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقال : (يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا)[(٢)] لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم ، حتى عملت أصناماً فى مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصرًا ، وأن تغنى عنك ، وتضر وتنفع ، وإنك بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، ، لأنك خلقت سميعاً بصيرًا ضارًّا نافعاً. والآثار السماوية فيك أظهر منها فى هذا المتخذ تكلفاً ، والمعمول تصنعاً ، فيالها من حيرة ، إذصار المصنوع بيديك، معبودًا لك ، والصانع أشرف من المصنوع . (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)(يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ

(١) [١٠ / يونس / ١٨] ونصها : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) [١٩ / مريم / ٤٢] ونصها : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ . . .

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ)[١] فلم يقبل حجته القولية ، فعدل عليه الصلاة والسلام إلى الكسر بالفعل ، فجعلهم جذاذاً ، إلا كبيرًا لهم (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)[٢] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)[٣] فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم ، كما أفحمهم بالقول ، حيث أحال الفعل منهم ، وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ، وإلا فما كان الخليل كاذباً قط . ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل كما أراه الله تعالى الحجة على قومه ، قال (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها ، وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة ، وتقريرًا أن الكمال فى الرجال ، فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي) على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) وإلا فما كان الخليل كاذباً فى هذا القول ، ولا مشركاً فى تلك الإشارة . ثم استدل بالأفول والزوال والتغير والانتقال ، بأنه لا يصلح أن يكون ربًّا إلٰهاً ، فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير فاحتاج إلى مغير ، وهذا لو اعتقدتموه ربًّا قديماً وإلٰهاً أزليًّا ، ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعاً ووسيلة ، فالأفول والزوال أيضاً ، يخرجه عن الكمال . وعن هذا ما

---

(١) هذه هى الآيات الشريفة حسب ترتيبها وبنصها الكامل فى الكتاب .

[١٩ / مريم / ٤٤ـ٤٦] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٥٩] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣ـ٦٥] .

مااستدل عليهم بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص ، لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه الصلاة والسلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته . وذلك أبلغ فى الاحتجاج . ثم (لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ). فيا عجبـــاً ! من لا يعرف ربًّا كيف يقول : (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون فى مدارج البداية ؟ دع هـذا كله خاف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف. فإن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج . وعن هذا قال (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ) لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب الذى يقتبسون منـــه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هى الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ، وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثة لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والـكمال ، منوطة بتلخيصها وتحريرها . ذلك الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح، والمسلك اللائح . انتهى كلام الشهرستانىّ رحمه الله تعالى. وإنما نقلت كلامه برمته ، لأنه كما قيل :

* وما محاسن شىء كلُّهُ حَسَنُ *

وقد قدّم رحمه الله الـكلام على أصحاب الروحانيات الصابئة ، وأتبعها بمناظرة بديعة جرت بينهم وبين الحنفاء ، بما تفيد مراجعتُه فائدة كبرى . فجزاه الله خيرًا .

الثانى ـ تبيّن مما ذكره الشهرستانىّ أن سر احتجاج الخليل علـيه الصلاة والسلام بالأفول دون البزوغ ، مع كون كل منهما منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية ـ هو إتيانهم من حيث تحيرهم ، إلزاماً لهم بما يعترفون بصحته .

وقال أبو السعود : لما كان البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ، ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة ـ عدل عنه إلى الأفول ، لأنه حالة مقتضية لانطماس الآثار ، وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد . انتهى. وهو لطيف ، إلا أن الأول أسدّ .

الثالث ـ لو قيل : إن الأفول ، لما كان يمنع من استحقاق معروضه لصفة الربوبية على ما ذكرنا ، وقد ثبت ذلك فى أكبر الكواكب ـ (أعنى الشمس) ـ فلزم ثبوته فيما دونها بالأولى ـ فهلا اقتصر على أفول الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟ أجيب : بأن الأخذ من الأدنى فالأدنى ، إلى الأعلى فالأعلى ، له نوع تأثير فى التقرير والبيان والتأكيد ، لا يحصل من غيره ، فكان سوق الاستدلال على هذا الوجه أولى ـ أفاده الرازىّ ـ .

الرابع ـ قال الرازىّ : تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنيًّا على الدليل ، لا على التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ » أى جادلوه ، وأرادوا مغالبته بالحجة ، فيما ذهب إليه من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، تارة بأدلة فاسدة ، واقفة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف ، وقد أشير إلى جواب كل منهما . « قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ » أى: أتجادلوننى فى توحيده ، وقد هدانى لإقامة الحجج ، ورفع الشبه على نفى إلهية ما سواه ،

وقد ثبت أنها ناقصة فى ذواتها ، فكمالاتها من غيرها ، ولا إلهية للناقص بالذات ، لأن كماله لا يكون مطلقاً . و (تحاجونى) بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية ، وقرىء بحذف الأولى .

وقوله تعالى : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر بنفسها ولا تنفع ، وهو جواب عما خوفوه عليه الصلاة والسلام فى أثناء المحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم ، كما قال لهود عليه السلام قومُه : (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ)(1) . و تخويفهم ، وإن لم يسبق له ذكر ، لكنه فهم من قوله: (وَلَا أَخَافُ) .

وقال ابن كثير : أى ومن الدليل على بطلان قولكم : إن هذه المعبودات لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدونى بها ولا تُنظرون . انتهى .

« إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا » أى : من إصابة مكروه بى من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى ، من غير دخل لمعبوداتكم فيه أصلا .

وفى (الانتصاف) : غاية خوف إبراهيم منها ، المعلق على مشيئة الله تعالى لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى ، لا بها ، وكأنه فى الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذى أثبته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلا خوف منها ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى : « وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » كأنه علة الاستثناء ، أى : أحاط بكل شىء علماً . فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال المخوف بى من جهتها ، أى : كرجمه بالنجوم. لأنه إذا أحيل شىء إلى علم الله ، أشعر بجواز وقوعه . وفى الإظهار فى موضع الإضمار ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته .

---

(1) [١١ / هود / ٥٤] ... قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

هذا ، وجعل المهايمي ذلك علة لاستدراك محذوف ، لعلمه من المقام ، حيث قال في الآية: ولا أخاف الضرر على نفسي من تأثير ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربي أن يجعل لهم شيئاً من التأثير ، لكنه لا يشاء في شأني ، لأنه (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)فعلم أنه لو أوجد التأثير فيهم بما يضرون به مَن بعثه لتوحيده ، صار محجوبا . انتهى ـ والأول أقرب ـ .

« أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » أي : تعتبرون بأن هذه المعبودات جمادات ، لا تضر ولا تنفع، وأن النافع الضار هو الذي خلق السموات والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ » أي : معبوداتكم ، وهي مأمونة الخوف ، « وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ » ، أي : بإشراكه « عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا » أي: حجة . إذ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة. والمعنى : وما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع أعظم المخوفات وأهولها . « فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ » أي : فريقي الموحدين والمشركين ، « أَحَقُّ بِالْأَمْنِ » أي: من لحوق الضرر، « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أي: ما يحق أن يخاف منه . أو مَن أحق بالأمن أو مِن أولي العلم؟ وجواب الشرط محذوف . أي : فأخبروني .

ثم بيّن تعالى من له الأمن، جواباً عما استفهم عنه الخليل عليه السلام بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أي: بشرك، كما يفعله الفريق المشركون ،

حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل، وأن عبادتهم للأصنام من تمام إيمانهم وأحكامه، لكونها لأجل التقريب والشفاعة ، كما قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ)(١). وهذا معنى اللبس ـ أفاده أبو السعود ـ وسيأتى زيادة لذلك .

« أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ » يوم القيامة « وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أى : إلى الحق ، ومن عداهم فى ضلال .

روى البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عبدالله قال: لما نزلت (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(٢) ـ هذا لفظ رواية البخارىّ ـ .

ولفظ رواية الإمام أحمد عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شقّ ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ! فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؟ إنما هو الشرك .

أقول : هذه الرواية توضح رواية البخارىّ السابقة ـ أعنى : قول ابن مسعود : فنزلت (إِنَّ الشِّرْكَ . . .) الخ ـ من جهة أن النزول أريد به تفسير الآية ، لا سبب نزولها ، وهو اصطلاح للصحابة والتابعين دقيق، ينبغى التنبه له . وقد أشرنا له فى المقدمة . فجدد به عهداً.

ولابن أبى حاتم عن عبد الله مرفوعاً (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال : بشرك .

---

(١) [٣٩ / الزمر [٣] ونصها : أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .

(٢) [٣١ / لقمان / ١٣] ونصها : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

قال : وروى عن أبي بكر وعمر وأبيّ بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو ابن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلميّ ومجاهد وعكرمة والنخعيّ والضحاك وقتادة والسدّيّ، وغير واحد نحو ذلك. نقله ابن كثير . وبالجملة، فلا يعلم مخالف من الصحابة والتابعين في تفسير (الظلم) هنا بالشرك ، وقوفاً مع الحديث الصحيح في ذلك ، المبين للنظائر القرآنية الموضّح بعضها لما أبهم في بعض . وتعرف تلك القاعدة من مثل هذا الحديث يكشف غمة أوهام كثيرة. ولو قيل : لا يلزم من قوله : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) أن غير الشرك لا يكون ظلماً ، يجاب : بأن التنوين في (بظلم) للتعظيم ، فكأنه قيل : لم يلبسوا إيمانهم بظلم عظيم . ولما تبين أن الشرك ظلم عظيم علم أن المراد : لم يلبسوا إيمانهم بشرك ، أو أن المتبادر من المطلق أكمل أفراده ـ كذا في العناية ـ .

قال الرازيّ : والدليل على أن هذا هو المراد ، أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

تنبيه :

حيث علم أن الصادق المصدوق ﷺ فسر الآية بما تقدم ، فليُعَضَّ عليه بالنواجذ . وأما ماهذى به الزمخشريّ من قوله في تفسير الآية : أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم ، وَأَبَى تفسيرَ الظلم بالكفر ، لفظُ (اللبس) أي : لأن لبس الإيمان بالشرك أي : خلطه به، مما لا يتصور ، لأنهما ضدان لا يجتمعان ـ على زعمه ـ فمدفوع بأنه يلابسه . لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق ، سواء كان باللسان أو غيره ، فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب ، لجواز أن يصدّق بوجود الصانع ، دون وحدانيته ، لما في قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)[1] وهو ما أشير إليه قبل.

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٦] .

ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالشرك الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك ، بل تغطيته بالكفر ، وجعله مغلوباً مضمحلًّا ، أو اتصافه بالإيمان ، ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مرارًا . وبعد تسليم ما ذكر ، فاختصاص الأمن بغير العصاة لا يوجب كون العصاة معذبين البتة ، بل خائفين ذلك ، متوقعين للاحتمال ، ورجحان جانب الوقوع ـ كذا فى (شرح الكشاف) .

وفى (الانتصاف) : إنما يروم الزمخشرىّ بذلك تنزيله على معتقده ، فى وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصى . ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة ، هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت ، وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار فغير آمنين بوجهٍ ما . انتهى .

وأما قول المعتزلة : حديث عبد الله المتقدم ـ إن صح ـ يكون خبرَ واحـدٍ ، فى مقابلة الدليل القطعىّ ، ومثله لا يعمل به ـ فالجواب : بأنه صح بلا ريب ، لتخريج الشيخين له .

* وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل[1] *

وقولهم : فى مقابلة الدليل القطعىّ ، بهتان عظيم . ويالله العجب من هؤلاء ، قابلوا السنة الصحيحة بكناسة الرأى ، ولم يستحيوا من الله تعالى ورسوله فى هذه المخالفة ، فأين تذهب

(١) قال ياقوت فى معجم البلدان : نهر معقل منسوب إلى معقِل بن يسار بن عبد الله ابن معبّر . . . ، صحب النبىّ ﷺ .

وهو نهر معروف بالبصرة ، فمه عند فم نهر الإجّانة .

ذكر الواقدىّ أن عمر أمر أبا موسى الأشعرىّ أن يحفر نهرًا بالبصرة ، وأن يُجْرِى على يد معقل بن يسار المزنىّ ، فنسب إليه .

به عقولهم ؟ إلى الحق أم إلى الباطل ؟ ولـكن كما قال ابن سَهْلٍ[١] :

* فما أضيعَ البرهانَ عند المقلِّدِ *

هذا ، وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابيّ فقال : يا رسول الله ! والذى بعثك بالحق ! لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى ، لأهتدى بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض ، فاعرض علىّ . فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل . فازدحمنا حوله ، فدخل خفّ بَكْرِهِ فى بيت جرذان ، فتردّى الأعرابىّ ، فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : صدق! والذى بعثنى بالحق! لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغنى حتى مَا لَهُ من طعام إلا من خضر الأرض . أسمعتم بالذى عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا ؟ هذا منهم ! أسمعتم بـ (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) ؟ فإن هذا منهم .

وفى لفظٍ قال : هذا عمل قليلًا وأُجِر كثيرًا .

وروى نحوه الإمام أحمد[٢] عن جرير بن عبدالله مطولًا ، وفيه بيان قوله : فاعرض علىّ ، ولفظه : ما الإيمان ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت .

---

(١) عجز مطلع قصيدة له وصدره :

* أقلّد وجدى ، فليبرهن مفنِّدى *

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعه الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

وقوله تعالى « وَتِلْكَ » أى : الدلائل المشار إليها فى قوله (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً) إلى ههنا « حُجَّتُنَا » أى : التى لا يمكن نقضها « ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » أى : أرشدناه إليها، وعلمناه إياها ، بلا واسطة معلّم « عَلَىٰ قَوْمِهِ » متعلق بـ (حُجَّتُنَا) إن جعل خبر (تِلْكَ)، وبمحذوف إن جعل بدله ، أى : آتيناها حجة ودليلا على قومه الكثيرين ، ليغلب وحده .

« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ » يعنى : فى العلم والحكمة ، وقرئ بالتنوين . « إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فى رفعه وخفضه ، « عَلِيمٌ » بحال من يرفعه واستعداده له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ)

[٨٥] (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٨٦] (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُ » أى : لإبراهيم عوضاً عن قومه ، لما اعتزلهم وما يعبدون ، « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ، وولد ولد ، لتقر عينه ببقاء العقب « كُلًّا هَدَيْنَا » أى: كلا منهما هديناه الهداية الكبرى ، بلحوقهما بدرجة أبيهما فى النبوة ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا[1] .

(١) [١٩ / مريم / ٤٩] .

قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، وذلك بعد أن طعن في السن، وأيس وامرأته سارة ، من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك : قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخاً، إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ [١] * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ [٢] فبشروها فتعجبت، وبشروها مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقبا ، كما قال تعالى : وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [٣]. وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة . وقال : فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [٤] . أي: ويولد لهذا المولود وَلَدٌ في حياتكما ، فتقرّ أعينكما به ، كما قرت بوالده ، وإن الفرح بولد الولد شديد ، لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به ، وبولد اسمه يعقوب ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكانت هذه المجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم، ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين، من صلبه، على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... الآية[٥] .

« وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ » أي : من قبله ، هديناه كما هديناه . وعدّ هداه نعمة على إبراهيم ، من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد .

---

(١) [١١ / هود / ٧٢] .

(٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١١٢] .

(٤) [١١ / هود / ٧١] ونصها : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ . . .

(٥) [١٩ / مريم / ٤٩] ونصها : . . . مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

قال ابن كثير : كل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهـل الأرض ، إلا من آمن به ، وهم الذين صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ(١) ... الآية . وقال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ(٢) . وقال تعالى: أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً(٣) .

وقوله تعالى : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الضمير لإبراهيم أو لنوح ، على ما يأتى ، « دَاوُدَ » عطف على « نُوحًا » أى : وهدينا داود ، وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات ، وما قبلها ، وما يلحقها ، تعديد أنواع نعم الله تعالى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، جزاء اعتزاله قومه وما يعبدون ، وقيامه بنصرة التوحيد، ودحض الشرك . فذكر تعالى أولا رفع درجته ، بإيتائه الحجة على قومه ، وتخصيصه بها ، ثم جعله عزيزاً فى الدنيا ، حسبا ونسبا ، أصلا وفرعا ، لأنه تولد من نوح أول المرسلين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٦] ... فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

(٣) [١٩ / مريم / ٥٨] .

رسالة عامة ، ووهبت له الذرية الطاهرة ، أنبياء البشر . ولذا ذهب الأكثرون إلى أن الضمير في (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) لإبراهيم ، لأن مساق النظم لبيان شؤونه العظيمة ، كأنه قيل : ولم نزل نرفع درجاته بعد ذلك إذ هدينا من ذريته داود . . . الخ ، فهو المقصود بالذكر في هذه الآيات . وذكر نوح عليه السلام، لأن كون إبراهيم من أولاده أحد موجبات رفعته كما تقدم. والغاية هي إلزام من ينتمي إليه من المشركين .

ولا يقال : إن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه، لأنه يقال : إن العرب تجعل العمّ أبا، كما أخبر تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا: نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ[1] ، مع أن إسماعيل عم يعقوب ، ودخل في آبائه تغليباً .

وقال محيي السنة رحمه الله تعالى: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) أي: ذرية نوح ﷺ ، ولم يرد من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه ذكر في جملتهم يونس ﷺ ، وكان من الأسباط ، في زمن شعياء ، أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى من الموصل .

وقال: إن لوطاً عليه السلام كان ابن أخي إبراهيم عليه السلام، آمن بإبراهيم، وشخص معه مهاجرًا إلى الشام ، فأرسله الله إلى أهل سدوم .

ومن قال : الضمير لإبراهيم ﷺ ، يقدّر : ومن ذرية إبراهيم وداود وسليمان هدينا . لأن إبراهيم هو المقصود بالذكر . وذكر نوح لتعظيم إبراهيم . ولذلك ختم بيونس ولوط ، وجعلهما معطوفين على (نُوحًا هَدَيْنَا) من عطف الجملة على الجملة . وصاحب (الكشف) أخرج (إلياس) ﷺ . وليس كذلك . لما في (جامع الأصول) عن الكسائيّ ، أنهما من ذريته. فبقي لوط خارجاً . ولما كان ابن أخيه آمن به ، وهاجر معه ، أمكن أن يجعل من ذريته على سبيل التغليب ـ كما ذكره الطيبيّ ـ .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] ونصها : أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَاتَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

وبالجملة ، فالآية المذكورة من المنن على إبراهيم على كلا الوجهين ، لأن شرف الذرية ، وشرف الأقارب شرف ، لكنه على الأول أظهر ، ويكون تطرية فى مدح إبراهيم ﷺ بالعود إليه مرة بعد أخرى .

تنبيهات :

الأول ـ قال الحافظ ابن كثير : فى ذكر عيسى عليه السلام ، فى ذرية إبراهيم أو نوح (على القول الآخر) دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أمه مريم عليهما السلام . وقد روى ابن أبى حاتم أن الحجاج أرسل إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبىّ ﷺ ، تجده فى كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟! قال : أليس تقرأ سورة الأنعام (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ . . . حتى بلغ : وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ) قال : بلى ! قال : أليس من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ! فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه ، وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا . وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم، لما ثبت فى صحيح البخارىّ[1] أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٩٢ ـ كتاب الفتن، ٢٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ للحسن بن علىّ: إن ابنى هذا لسيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، حديث ١٣٠٧ ونصه :

حدثنا الحسن قال : لما سار الحسن بن علىّ رضى الله عنهما إلى معاوية بالكتائب ، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تولّى حتى تدبر أخراها. قال معاوية: من لذرارىّ المسلمين؟ قال الحسن: ولقد سمعت أبا هريرة قال: بينا النبىّ صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم «ابنى هذا سيد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» .

قال للحسن بن عليّ : إن ابنى هذا سيّد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. فسماه (ابناً) فدلعلى دخوله فى الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوّز . انتهى .

وفى (العناية) : أورد على الاستدلال بتناول الذرية أولاد البنت من هـذه الآية ، بأن عيسى عليـه السلام ليس له أب ، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه ، فلا يظهر قياس غيره عليه . والمسألة مختلف فيها ، والقائل بها استدل بهذه الآية ، وآية المباهلة ، حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضى الله عنهما بعدما نزل : نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ[1] . إن لم نقل إنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم . انتهى .

الثانى ـ إنما لم يذكر إسماعيل عليـه السلام مع إسحاق ، بل أخّر ذكره عنه ، لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياءبنىإسرائيل ، وهمبأسرهم أولادإسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فلم يخرج من صلبه من الأنبياء إلا خاتمهم وأفضلهم ﷺ . ولا يقتضى المقام ذكره ﷺ لأنه أمر أن يحتج على العرب فى نفى الشرك بأن إبراهيم لما ترك قومه وما يعبدون ، إلى عبادة الله وحده ، رزقه الله النعم العظيمة فى الدين والدنيا ، ومنها إيتاؤه أولادا أنبياء . فإذاكان المحتج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يُذكر فى هـذا المعرض . ولهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحاق ـ أفاده الرازىّ ـ.

الثالث ـ اعلمأنه تعالىذكر هنا ثمانية عشر نبيًّا منالأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب ، لا بحسب الزمان ؛ ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضى الترتيب . ولـكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب ، وهى أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بنـوع من الـكرامة والفضل ، فذكر أولا نوحا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول

(١) [٣ / آل عمران / ٦١] ونصها : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الأنبياء ، وإليهم ترجع أنسابهم جميعا . ثم من المراتب المعتبرة، بعـد النبوة ، الملك والقدرة والسلطان . وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظًّا وافرا . ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد ، وقد خص الله بهـذه أيوب عليـه السلام . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما ، وهو يوسف عليه السلام ، فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة . ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الأنبياء عليهم السـلام كثرة المعجزات ، وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر . ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا ، والإعراض عنها، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام ، ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين . ثم ذكر الله من بعـد هؤلاء الأنبياء، مَن لم يبق له أتباع ولا شريعة ، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط . فإذا اعتبرنا هـذه اللطيفة على هذا الوجه ، كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه ـ أفاده الخازن وأصله للرازىّ ـ .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) من يرى أن الأنبياء أفضل من الملائـكة . لأن العالَم اسم لـكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل فيه الملَك .

الخامس ـ نـكتة ذكر (الهداية) فى قوله تعـالى (كُلًّا هَدَيْنَا) هو تعديد النعم على إبراهيم صلى الله عليه وسلم بشرف الأصول والفروع ـ كما أسلفنا ـ والولد لا يُعدّ نعمة ما لم يكن مهديًّا .

السادس ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا) من أنـكر إفادةَ التقديم الحصرَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَمِنْ ءابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَمِنْ ءابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ » عطف على (كُلًّا) أو (نُوحاً) أى : كلا منهم فضلنا ، وفضلنا بعض آبائهم ، أو هدينا من آبائهم ومن معهم للدين الخالص جماعات كثيرة ، فالمفعول محذوف . « وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى : فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال ، فجعلت لهم هـــذه الفضائل أيضاً ، ولحقت إبراهيم ، فازداد ارتفاع درجاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ » إشارة إلى ما دانوا به ، « يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا » أى : هؤلاء مع عظمتهم « لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » من الأعمـــال المرضية . فـكيف بمن عداهم ؟

قال ابن كثير: فيه تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته ، كقوله تعالى: وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . . الآية(١) وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، كقوله : قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ(٢) . وكقوله : لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ... وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨١].

فَاعِلِينَ[١] . وكقوله : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر ، والمعطوفين عليهم ، باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها . « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » أي: جنس الكتاب المتحقق في ضمن أي فرد كان من أفراد الكتب السماوية . والمراد بـ (إيتائه) التفهيم التام بما فيه من الحقائق . والتمكينُ من الإحاطة بالجلائل والدقائق ، أعمّ من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداءً ، أو بالإيراث بقاءً . فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معيّن ـ أفاده أبو السعود ـ .

« وَالْحُكْمَ » أي : الحكمة ، أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق والصواب ، « وَالنُّبُوَّةَ » قال البيضاويّ وأبو السعود : أي الرسالة . قال الخفاجيّ : النبوة وإن كانت أعم ، إلا أن المراد بها ما يشمل الرسالة ، لأن المذكورين رسل . انتهى .

« فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا » أي : بهذه الثلاثة ، « هَٰؤُلَاءِ » يعني : قريشاً ، فإنهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ، كافرون بما يصدقه جميعاً ، « فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا » أي : وفقنا للإيمان بها ، « قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ » وهم الأنبياء عليهم السلام، المذكورون وأتباعهم. أوأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأظهر ـ في مقابلة

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٧] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٤] .

كفار قريش . أى : فإن فى إيمانهم غنية عن إيمان الـكفرة بها . وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها ، بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشيء ، ومراعاته ـ إيذان بفخامتها وعلوّها ، وأنه مما ينبغى أن يقدر قدرها قياماً بحق الوكالة ، وعهد الاستحفاظ .

قال الرازىّ : دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ، ويقوى دينه، ويجعله مستعليا على كل من عاداه ، قاهرا لـكل من نازعه . وقد وقع هذا الذى أخبر الله تعالى عنه فى هذا الموضع . فـكان جاريا مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى الأنبياء المذكورين « الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ » أى : إلى الصراط المستقيم « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » أى : بطريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرفيعة، اعمل.

تنبيهات

الأول ـ استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، مالم يرد ناسخ .

الثانى ـ استدل بها ابن عباس رضى الله عنه على استحباب السجدة فى (ص) ، لأن داودعليه السلام سجدها، رواهالبخارىّوغيره ـ ولفظالبخارىّ[1] : عن العوّام، قال: سألت مجاهدا عن سجدة (ص) ، فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ماتقرأ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فـكان داود

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ١ ـ حدثنا محمد ابن بشار .

ممن أُمِرَ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ .

الثالث ـ قال الرازىّ : احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وتقريره : أنا بيّنا أن خصال الكمال ، وصفة الشرف ، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة ، والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس كان صاحب التضرع ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ، لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم إنه تعالى لما ذكر الكل ، أمر نبينا ﷺ بأن يقتدى بهم بأسرهم ، فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التى كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به ، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال ، وثبت أنه أفضلهم . وهو استنباط حسن .

الرابع ـ « اقْتَدِهْ » يُقرأُ بسكون الهاء وإثباتها فى الوقف دون الوصل ، وهى على هذا هاء السكت . ومنهم من يثبتها فى الوصل أيضا لشبهها بهاء الإضمار . ومنهم من يكسرها وفيه وجهان : أحدهما هى هاء السكت أيضاً ، شبهت بهاء الضمير ، وليس بشىء . والثانى هى هاء الضمير والمضمر المصدر أى : اقتد الاقتداء . ومثله[1] :

هــذا سُراقَةُ للقرآن يدرُسُهُ والمرءُ عندارُّشا ، إنْ يَلْقَهَا ذِيبُ

(١) قال صاحب الخزانة (ج ٢ ص ٢ ، طبعة السلفية) ما نصه :

هو من شواهد سيبويه .

على أن الضمير فى (يدرسه) راجع إلى مضمون يدرس . أى يدرس الدرس فيكون =

(فالهاء) ضمير (الدرس) لامفعول ، لأن (يدرس) قد تعدى إلى (القرآن) . وقيل: مَنْ سكن الهاء جعلها هاء الضمير ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ـ أفاده أبو البقاء ـ .

وأما قول الواحدىّ : الذين أثبتوا الهـاء راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة فى الخط ، فكرهوا مخالفة الخط فى حالتى الوقف والوصل ، فأثبتوا ـ فقد قال الخفاجىّ : إنه مما لا ينبغى ذكره ، لأنه يقتضى أن القراءة بغير نقل تقليدا للخط ، فمن قاله فقد وهم .

« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى : على القرآن أو التبليغ ، فإن مساق الكلام يدل عليهما ، وإن لم يجر ذكرهما ، « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة وتذكير لهم ليرشدوا من العمى إلى الهدى .

تنبيهان :

الأول ـ فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس . وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .

الثانى ـ قال الخفاجىّ : قيل: الآية تدل على أنه يحلّ أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام. قال : وللفقهاء فيه كلام . انتهى.

= راجعاً للمصدر المدلول عليه بالفعل . وإنما لم يَجُز عوده للقرآن ، لئلا يلزم تعدّى العامل إلى الضمير وظاهره معاً .

واستشهد به أبو حيّان فى (شرح التسهيل) على أن ضمير المصدر قد يجىء مرادًا به التأكيد ، وأن ذلك لا يختص بالمصدر الظاهر على الصحيح .

وأورده سيبويه على أن تقديره عنده : والمرء عند الرشا ذئبٌ إنْ يلقها .

وتقديره عند المبرّد : إن يلقها فهو ذئب .

وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يقف على قائلها أحدٌ .

قال الأعلم: هجا هذا الشاعر رجلا من القرّاء، نسب إليه الرياء وقبول الرشا والحرص عليها.

وعكس بعض مفسرى الزيدية حيث قال : فى هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم العلوم ، لأن ذلك جرى مجرى تبليغ الرسالة . انتهى .

أقول : إن الآية دلت على نفى سؤاله صلى الله عليه وسلم منهم أجرا ، كى لا يثقل عليهم الامتثال . وأما استفادة الحـل والتحريم منها ، ففيه خفاء . والقائل بالأول يقول : المعنى لاأسألـكم جعلا تعففاً . أى : وإن حلّ لى أخذه . وبالثانى : لا أسألـكم عليه أجرا لأنى حظرت من ذلك .

قال ابن القيّم : أماالهدية للمفتى ، ففيها تفصيل : فإن كانت بغير سبب الفتوى ، كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مُفْتٍ ، فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافأ عليها . وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سبباً إلى أن يفتيه بما لا يفتى به غيره ممن لا يهدى له ، لم يجز له قبول هديته . لأنهاتشبه المعاوضة على الإفتاء . وأما أخذ الرزق من بيت المال، فإن كان محتاجاً إليه ، جاز له ذلك. وإن كان غنيًّا عنه ، ففيه وجهان : وهـذا فرع متردد بين عامل الزكاة ، وعامل اليتيم. فمن ألحقه بعامل الزكاة قال: النفع فيه عام، فله الأخذ . ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ . وحكم القاضى فى ذلك حكم المفتى ، بل القاضى أولى بالمنع . وأما أخذ الأجرة فلا يجوز ، لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا يجوز المعاوضة عليه ، كما لو قال : لا أعلمك الإسلام والوضوء والصلاة إلا بأجرة . أو سئل عن حلال أو حرام ؟ فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهـذا حرام قطعا ، ويلزمه ردّ العوض ، ولا يملـكه . انتهى .

وفى حديث عبد الرحمن بن شبل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : اقرؤوا القرآن ، ولا تَغْلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به ـ أخرجه الإمام أحمد[١] برجال الصحيح . وأخرجه أيضاً البزار وله شواهد ـ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وأخرج أحمد[١] والترمذىّ ـ وحسّنه ـ عن عمران بن حصين أن النبىّ ﷺ قال : من قرأ القرآن فليسأل الله تبارك وتعالى به ، فإنه سيجىء قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به .

وأخرج ابن ماجة[٢] والبيهقىّ عن أبىّ بن كعب قال : علّمت رجلًا القرآن ، فأهدى لى قوساً ، فذكرت ذلك للنبىّ ﷺ فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار .

وهناك أحاديث أخر ، ومنها استدل على حظر أخذ الأجرة على التعليم .

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففى الصحيحين[٣] عن عبدالله بن مسعود فى قصة اللديغ من قوله ﷺ : إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لى معكم سهماً .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى: ١٢ ـ كتاب التجارات ، ٨ ـ باب الأجر على تعليم القرآن، حديث رقم ٢١٥٨ (طبعتنا) .

(٣) هذا الحديث ليس عن عبد الله بن مسعود وإنما هو عن عبد الله بن عباس . وليس فى الصحيحين بل هو من الأحاديث التى انفرد بها البخارىّ عن مسلم .

أخرجه البخارىّ فى: ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٤ ـ باب الشرط فى الرقية بقطيع من الغنم، حديث رقم ٢٢٦٠ ونصه :

عن ابن عباس أن نفرًا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّوا بماء فيهم لديغ (أو سليم) فعرض لهم رجل من أهل الماء . فقال : هل لديكم من راقٍ ؟ إن فى الماء رجلا لديغا (أو سليما) .

فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء . فبرأ .

فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك ، وقالوا : أخذتَ على كتاب الله أجرًا ؟! =

قال العلامة الشوكانيّ : حديث (أحق ما أخذتم عليه أجرًا) عامٌّ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارىء ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارىء من العطاء ، لأجل كونه قارئًا ، ونحو ذلك . فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلًا تحت العموم . وبعض أفراد العامّ فيه ، أدلة خاصة تدل على جوازه ، كما دل العامّ على ذلك . فمن تلك الأفراد أخذ الأجرة على الرقية ، وتعليم المرأة فى مقابلة مهرها . قال : هكذا ينبغى تحرير الكلام فى المقام ، والمصير إلى الترجيح من ضيق العطن . أى : لأنه يصار إليه عند تعذر الجمع ، وقد أمكن ، فكان الأحق ـ والله الموفق ـ .

ولما بين تعالى شأن القرآن العظيم ، وأنه نعمة كبرى على العالمين ، تأثّره ببيان كفرهم بذلك ، على وجه سرى إلى الكفر بجميع الكتب المنزلة ، فقال سبحانه :

= حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ! أخذ على كتاب الله أجرًا !!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا ، كتاب الله » .

أما الحديث الذى فيه (اضربوا لى بسهم) فهو حقيقة فى الصحيحين من رواية أبى سعيد الخدريّ فى قصة مثل قصة الحديث السابق .

فقد أخرجه البخاريّ فى :

٣٧ ـ كتاب الإجارة ، ١٦ ـ باب ما يعطى فى الرقية .

وفى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٩ ـ باب فاتحة الكتاب .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٣ ـ باب الرقى بفاتحة الكتاب .

وفى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٩ ـ باب النفث فى الرقية

والحديث رقم ١١٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث ٦٥و٦٦ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أي : ما عظموه حق تعظيمه . و (حَقَّ) نصب على المصدرية ، وهو في الأصل صفة للمصدر . أي : قَدْرَهُ الحقَّ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه . « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أي : حين اجترؤوا على التفوه بهذه الجملة الشنعاء ، وذلك منهم مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فألزموا بما لا سبيل لهم إلى إنكاره أصلاً ، حيث قيل في جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم :

« قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا » حال من الضمير في (بِهِ) أو من (الْكِتَابِ) ، « وَهُدًى لِلنَّاسِ » أي : ضياء من ظلمة الجهالة ، وبياناً يفرق بين الحق والباطل ، « تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا » : يجزئونه أوراقاً يبدونها للناس مما ينتخبونه . أي : فكيف ينكر إنزال شيء ، وهذا المنزل المذكور ظاهر للعيان . والعدول عن التوراة إلى ذكر الكتاب وصفته ، والحال بعده ـ لزيادة التقريع ، وتشديد التبكيت ، وإلقام الحجر . « وَتُخْفُونَ كَثِيرًا » معطوف على (تُبْدُونَهَا) ، والعائد محذوف . أي : كثيراً منها . أو كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب . أي : وهم يخفون كثيراً . أي : ومع ذلك فالإلزام يكفي بما يبدونه ، المعترف لديهم بحقيّته . وفيه نعي على أهل الكتاب بسوء صنيعهم المذكور ، إذ ما يريدون بإخفاء كثير منها إلا تبديل الدين .

« وَعُلِّمْتُمْ » أي : على لسان محمد ﷺ « مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » من المعارف

التى لا يرتاب فى أنها تنزيل ربانى ، « قُلِ اللهُ » أى : أنزله الله ، أو الله أنزله . أَمَرَهُ بأن يجيب عنهم ، إشعارًا بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيهاً على أنهم بُهِتُوا ، بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .

« ثُمَّ » بعد التبليغ وإلزام الحجة « ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ » أى : فى باطلهم « يَلْعَبُونَ » أى : يفعلون فعل اللاعب ، وهو ما لا يجرّ لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضررًا ، مع تضييع الزمان .

تنبيه :

فى هذه الآية قولان :

الأول ـ أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن القائل ذلك هم المشركون ، وإلزامهم إنزال التوراة ، لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ، وهذا هو الظاهر .

قال ابن كثير : قال ابن عباس[١] ومجاهد[٢] وعبد بن كثير : هذه الآية نزلت فى قريش ، واختاره ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأصح ، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبى ﷺ ، لأنه من البشر ، كما قال تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ[٣] وكقوله تعالى : وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا[٤] . وكذا قالوا هنا : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ . فألزموا بإنزال

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٢ من التفسير .
(٢) الأثر رقم ١٣٥٤١ من التفسير . وصوابه : عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدا .
(٣) [١٠ / يونس / ٢] . . . وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ .
(٤) [١٧ / الإسراء / ٩٤] .

الـكتاب الذى جاء به موسى ، وهوالتوراة التى علموا هم وكل أحد أن الله أنزلها على موسى تـكذيباً لقولهم ، وإيقافاً على عنادهم . ومعلوم ما كان بين قريش ويهود المدينة من التعارف ، وتسليم قريش أنهم أهل كتاب، وأنهم أعلم منهم لأجله ، مما يوجب اعترافهم بحقية التوراة، وأنها منزلة من لدنه تعالى . وعلى هــذا القول ، فالقراءة بالياء التحتية ظاهرة . وعلى قراءة الخطاب ، فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين . وهو التفات عند الأدباء ــ حكاه الخفاجىّ ــ وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية ، تعريضاً لهم بأن إنـكارهم إنزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة فى البطلان ، وعدم الإسناد إلى برهان . ثم القول بأن الخطاب فى (عُلِّمْتُمْ) لمؤمنى قريش . لا يقتضيه السياق ولا السباق ، وفيه تفكيك للنظم الجليل، كالقول بأنه اعتراض للامتنان على النبىّ ﷺ وأتباعه ، لهدايتهم للمجادلة بالتى هى أحسن . بل الخطاب فيه كسابقه ، والمراد بتعليمهم ، وهم مشركون ، ما يسمعونه ويتلقفونه من النبىّ ﷺ وصحابته ، من فرائد الوحى وفوائده ، مما لا يرتاب فى تنزيلها ، كما أوضحناه قبل .

القول الثانى ــ إن هذه الآية مدنية النزول . ولا يرد أن هذه السورة مكية ، ومناظرات اليهود كانت فى المدينة ، لأن كثيراً من السور المـكية ألحقت بهـا آيات مدنية ، وحينئذ فقولهم (هــذه السورة مكية) أى : إلا ما استثنى مما ألحق بها ، كما أوضحه السيوطىّ فى (الإتقان) وساق له شواهد . وقد أشرنا إلى ذلك أول هذه السورة ، فتذكر !

ثم القائلون بأنها مدنية ، منهم من قال : نزلت فى طائفة من اليهود ، أو فى فنحاص ، أو فى مالك بن الصيف . أخرج ابن جرير[1] من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من السماء كتابا ، فأنزلت .

---

(١) الأثر رقم ١٣٥٤٠ من التفسير ونصه :

عن ابن عباس قوله : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ =

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ـ مرسلا ـ قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك ابن الصيف ، نخاصم النبيّ ﷺ ، فقال له النبيّ ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ـ وكان حبرا سمينا ـ ؟ فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ! فقال له أصحابه : ويحك ! ولا على موسى ؟ فأنزل الله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...) الآية .

قال البغوىّ : وفى القصة أن مالك بن الصيف ، لما سمعت اليهود منه تلك المقالة ، عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ، فلم قلت : ما أنزل الله من شيء ؟ فقال مالك بن الصيف : أغضبنى محمد ، فقلت ذلك ! فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ! فنزعوه عن الحبرية . وبعد الوقوف على ذلك ، فلا معنى لاعتراض بعضهم بأن مالك بن الصيف كان مفتخرا بكونه يهوديا متظاهرا بذلك ، ومع هذا المذهب لا يمكنه البتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء ، لأنه تبين أنه قال ذلك متغيظاً ، وقد أخذ الغضب منه مأخذه عنادا ومكابرة ، توصلا لدفع ما يريده. وقد يبلغ الحمق بصاحبه إلى حدٍّ يتبرأ فيه من مذهبه ومعتقده ، إغاظة لخصمه على زعمه . وبوادر اللسان فى حق المولى تعالى وتقدس ، مما لا تغتفر ، ولذا بين تعالى جهل ذاك القائل بقوله : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

قال العلامة البقاعىّ : لأن من نسب ملكا تام الملك إلى أنه لم يبث أوامره فى رعيته بما يرضيه ليفعلوه ، وما يسخطه ليجتنبوه ، فقد نسبه إلى نقص عظيم . فكيف إذا كانت تلك النسبة كذباً ؟ وإنما أسند إلى الكل ـ والقائل بعضهم ـ لأنهم لم يردّوا على قائله ، ولم

= مِنْ شَيْءٍ . يعنى بنى إسرائيل . قالت اليهود : يا محمد ! أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم! قالوا : والله ! ما أنزل الله من السماء كتاباً .

قال : فأنزل الله : « قُلْ » يا محمد ! « مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » إلى قوله « وَلَا ءَابَاؤُكُمْ » قال : الله أنزله .

يعاجلوه بالأخذ على يده ، تهويلا للأمر ، وبياناً لأنه يجب على كل من سمع بآية من آيات الله أن يسعى إليها ، ويتعرف أمورها . فمن طعن فيها أخذ على يده بما تصل إليه قدرته ، فقال مشيراً إلى أن اليهود قائلوا ذلك ، ملزماً لهم بالاعتراف بالكذب ، أو المساواة للأميين فى التمسك بالهوى دون كتاب ، موبخاً لهم ، ناعياً عليهم سوء جهلهم ، وعظيم بهتهم ، وشدة وقاحتهم ، وعدم حيائهم (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) ؟ أى : قل لهؤلاء السفهاء الذين تجرأوا على هذه المقالة ، غير ناظرين فى عاقبتها ، وما يلزم منها ، توبيخاً لهم ، وتوقيفاً على شنيع جهلهم (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) الذى أنتم تزعمون التمسك بشرعه (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى : أوراقاً مفرقة ، لتتمكنوا بها من إخفاء ما أردتم ، (تُبْدُونَهَا) لِلنَّاسِ أى : تظهرونها للناس ، (وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) أى : منها مما تريدون به تبديل الدين . هذا على قراءة الفوقانية . وعلى قراءة التحتانية التفات مؤذن بشدة الغضب ، مشير إلى أن ما قالوه حقيق بأن يستحيي من ذكره ، فكيف بفعله . وقوله (وَعُلِّمْتُمْ) أى : أيها اليهود بالكتاب الذى أنزل على موسى (مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ) أى : أيها اليهود من أهل هذا الزمان (وَلَا ءَابَاؤُكُمْ) أى : الأقدمون . انتهى كلام البقاعىّ رحمه الله تعالى . وفى قوله (وإنما أسند إلى الكل ...) إلى آخره ، نظر . لأن إسناده ليس إليهم ، لأنهم رضوا به ، لأن القصة السالفة تدل على خلافه .

وللبقاعىّ رحمه الله وجه آخر فى الآية . قال : ويمكن أن تكون مكية ، ويكون قولهم هذا حين أرسلت إليهم قريش تسألهم عنه ﷺ فى أمر رسالته ، فاحتج عليهم بإرسال موسى عليه السلام ، وإنزال التوراة عليه . انتهى . وهو قريب وجيه جدًّا .

وبالجملة، فالآية الكريمة متصادقة مع الأوجه المذكورة ، وتتنزل فى التأويل ، على ما بينا فى كلٍّ تنزيلًا لا شائبة معه لإشكال مّا . وقد استصعب الرازىّ تأويلها ، وأخذ يحاول أسئلة هى على طرف الثُّمام ، بعد النظر فيما بيّنا ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا .

لطائف

الأولى ـ قال أبو السعود رحمه الله : ليس المراد بالآية مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط ، بل بإنزال القرآن أيضاً ، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعاً ، لما فيها من الشواهد الناطقة به .

الثانية ـ قال أيضاً في قوله تعالى (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أي : تضعونه في قراطيس مقطعة ، وورقات مفرقة ، بحذف الجار ، بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم ، أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة . وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم ، كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ، ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة .

الثالثة ـ في قوله تعالى (يبدونها ويخفون كثيراً) دلالة على أنه لا يجوز كتم العلم الديني عمن يهتدي به . قاله بعض الزيدية .

ولما أبطل تعالى كلمتهم الشنعاء السالفة بتقرير إنزال التوراة ، بين تنزيل ما يصدقها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

« وَهَٰذَا » يعني : القرآن ، « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أي : كثير المنافع والفوائد ، لاشتماله على منافع الدارين ، وعلوم الأولين والآخرين ، وما لا يتناهى من الفوائد .

قال الرازي : العلوم إما نظرية ، وإما عملية . فالأولى أشرفها . وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه . ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب . وأما الثانية : فالمطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى

بطهارة الأخلاق ، وتزكية النفس . ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب . ثم جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه ، والمتمسك به ، يحصل له عز الدنيا ، وسعادة الآخرة . انتهى . قال الخفاجى : وقد شوهد ذلك فى كل عصر .

« مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » ، أى: من التوراة أو من الكتب التى أنزلت قبله ، فى إثبات التوحيد ، والأمر به ، ونفى الشرك ، والنهى عنه . وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ .

« وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ » يعنى : مكة . سميت بذلك لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأناً ، وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل . وفى ذكرها بهذا الاسم ، المنبئ عما ذكر ، إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأض كافة . « وَمَنْ حَوْلَهَا » من أطراف الأرض ، شرقاً وغرباً . كما قال فى الآية الأخرى : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ(١) . وقوله : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا(٢) . وقال : تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(٣) . وقال تعالى : وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ، ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . . . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ(١) .

وثبت فى الصحيحين(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، وذكر منهن : وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة .

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر ، حتى يؤمن بالنبىّ والكتاب (والضمير يحتملهما) ويحافظ على الصلاة. والمراد بها إما الطاعة مجازاً ، أو حقيقتها. وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطرا .

قال الرازىّ : ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شىء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ(٣)

(١) [٣ / آل عمران / ٢٠] ونصها : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ...

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم، ١ ـ باب قول الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، حديث ٢٣١ ونصه :

عن جابر أن النبىّ ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يُعْطَهُن أحدٌ قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا . فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ . وأحلت لى الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلى . وأُعطيت الشفاعة . وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصّة ، وبُعثتُ للناس عامة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ =

أى: صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شىء من المعاصى إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف، لا جرم خصها الله بالذكر فى هذا المقام . انتهى

أقول : الحديث المذكور رواه الطبرانىّ فى أوسط معاجمه عن أنس وصحح . وتمامه: فقد كفر جهارا ـ كما فى الجامع الصغير ـ .

أخرج ابن أبى حاتم عن مسروق، قال فى هذه الآية : أى يحافظون على مواقيتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً » أى : اختلق إفكا ، فجعل له شركاء أو ولدا ، أو أحكاما فى الحل والحرمة ، كعمرو بن لحىّ وأشباهه ، ممن جعل قوله قول الله. «أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» ممن ادعى النبوة كذباً . وهذا يزيد على الافتراء فى دعوى النبوة .

قال البقاعىّ : هذا تهديد على سبيل الإجمال ، كعادة القرآن الجميل ، يدخل فيه كل من اتصف بشىء من ذلك ، كمسيلمة والأسود العنسىّ وغيرهما . ثم قال : رأيت فى كتاب (غاية المقصود فى الرد على النصارى واليهود) لابن يحيى المغربىّ الذى كان من علمائهم فى حدود

= عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، . . .

سنة ٥٦٠ ثم هداه الله للإسلام فبين فضائحهم : إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحى إلى جميعهم فى كل يوم مرات . ثم قال: إن الربانيين أكثرهم عددا، يزعمون أن الله يخاطبهم فى كل مسألة بالصواب . وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم فى الأمم . انتهى.

« وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ » أى : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى ممـا يفتريه من القول ، كالنضر بن الحارث . وهـذا كقوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا »[1] الآية .

قال المهايمىّ : أى ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله، مع أنه قد عرف إعجازه ، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله ، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه . ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة ، فيعلم ما للظالمين فيها ، المبيّن بقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ » . أى : شدائده وسكراته وكرباته ، « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » أى : بالضرب والعذاب ، كقوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ[2] .

« أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ » أى : قائلين لهم : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم، تغليظاً وتوبيخاً وتعنيفاً عليهم . وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل . أى : فشبه فعل الملائكة فى قبض أرواحهم ، بفعل الغريم الذى يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف فى استيفاء حقه من غير إمهال . وفى (الكشف) أنه كناية عن ذلك ، ولا بسط ولا قول حقيقة . قال الناصر فى (الانتصاف) : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة ، على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة ، فلا معدل عنها . انتهى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣١] . . . إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٥٠] . . . وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه فى جسده ، وتعصى ، وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى) المتقدمة ، فإنها صريحة . ومراعاة النظائر القرآنية أعظم مايفيد فى باب التأويل .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية حال الكافر عند القبض ، وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ .

« الْيَوْمَ » أى: وقت الإماتة ، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له . « تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » أى ، الهوان الشديد ، « بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ » كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به ـ قاله المهايمىّ ـ . « وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ماأنزل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا » أى : للحساب والجزاء « فُرَادَىٰ » أى : منفردين عن الأموال والأولاد ، وما أثرتموه من الدنيا . أو عن الأعوان والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم . و (فرادى) جمع فريد ، كأسير وأسارى .

« كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : مشبهين ابتداء خلقكم ، حفاة عراة غرلا (يعنى (قلفاً) .

روى الشيخان[١] عن ابن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس ! إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرْلًا ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

ورويا[٢] أيضاً عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ: تحشرون حفاة عراة غرْلًا . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ ! قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

وروى الطبرى[٣] بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقالت : يارسول! واسوأتاه ! إن الرجال والنساء يحشرون

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث ١٥٨٥ ونصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال «إنكم محشورن حفاة عراة غُرْلا» ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

« وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم . وإن أناساً من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى ! أصحابى ! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول ، كما قال العبد الصالح : وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ـ إلى قوله : الْحَكِيمُ » .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٥ ـ باب كيف الحشر ، حديث ٢٤٥١ .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٥٦ (طبعتنا) .

(٣) الأثر رقم ١٣٥٧٠ من التفسير .

جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال رسول الله ﷺ : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، شُغِل بعضهم عن بعض .

« وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ » ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة من الأموال والأولاد والخدم والخول « وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » يعنى : فى الدنيا ، ولم تحملوا منه نقيرًا . كناية عن كونهم لم يصرفوه إلى ما يفيد فى الآخرة .

وقد ثبت فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال : يقول ابن آدم : مالى ! مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وزاد فى رواية: وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس .

« وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ » أى : لله فى الربوبية ، واستحقاق العبادة ، « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » قرئ بالرفع . أى : شملكم . فإن البين من الأضداد ، يستعمل للوصل والفصل . وبالنصب على إضمار الفاعل ، لدلالة ماقبله عليه . أى : تقطع الأمر ، أو الاشتراك ، أو وصلكم بينكم . أو على إقامته مقام موصوفه . والأصل : لقد تقطع مابينكم ، وقد قرئ به . أى: تقطع مابينكم من الأسباب والوصلات.

« وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » أى : ذهب عنكم ما زعمتم من رجاء الأنداد والأصنام ، كقوله تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ[2] . وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[3] .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣و٤ (طبعتنا) عن عبد الله بن الشخِّير .

(٢) [٢ / البقرة / ١٦٦و١٦٧] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠١] .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً[١] . والآيات فى هذا كثيرة جدًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ » شروع فى بعض مبدعاته الدالة على كمال قدرته ، وعلمه وحكمته ، إثر تقرير شأن توحيده تعالى ، وذلك للتنبيه على أن المقصود الأعظم هو معرفته سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله ، وأنه مبدع الأشياء وخالقها . ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة ، لا هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها ، ولتعريف خطئهم فى الإشراك الذى كانوا عليه . والمعنى : أن الذى يستحق العبادة دون غيره ، هو الله الذى فلق الحب عن النبات ، والنواة عن النخلة .

وفى معنى (فالق) قولان :

أحدهما ـ أنه بمعنى خالق . وهو قول ابن عباس فى رواية العوفىّ عنه . وبه قال الضحاك ومقاتل . قال الواحدىّ : ذهبوا بـ (فالق) مذهب (فاطر) . وأنكر الطبرىّ[٢] هذا ، وقال: لايعرف فى كلام العرب (فلق الله الشيء) ، بمعنى خلق . ونقل الأزهرىّ عن الزجاج جوازه . وكذا المجد فى القاموس .

قال الرازىّ : (الفطر) هو الشق ، وكذلك (الفلق) . فالشيء قبل أن دخل فى الوجود كان معدوماً محضاً ، ونفياً صرفاً . والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ،

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . . . وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

(٢) انظر الصفحة ٥٥٢ من الجزء الحادى عشر (طبعة المعارف)

ولا انفلاق ، ولا انشقاق . فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه ، وأخرج ذلك المحدَث من ذلك الشق . فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمبدع .

والقول الثانى ـ وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق . وفى معناه وجهان :

أحدها ـ مروىّ عن ابن عباس قال : فلق الحبة عن السنبلة ، والنواة عن النخلة . وهو قول الحسن والسدّىّ وابن زيد . قال الزجاج : يشق الحبة اليابسة ، والنواة اليابسه ، فيخرج منها ورقاً أخضر .

الوجه الثانى ـ وهو قول مجاهد : أنه الشقان اللذان فى الحب والنوى .

وضعف بأنه لا دلالة فيه على كمال القدرة .

و (الحب) : ماليس له نوى ، كالحنطة والشعير والأرز .

و (النوى) : جمع نواة ، وهو الموجود فى داخل الثمرة ، مثل نوى التمر والخوخ وغيرها .

قال الإمام الرازىّ : إذا عرفت ذلك ، فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ، ثم مرّ به قدر من المدة ، أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقًّا ، ومن أسفلها شقًّا آخر ، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ، المسماة بعروق الشجرة . وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة فى الهواء بالشجرة الهابطة فى الأرض .

ثم إن ههنا .

عجائب :

فإحداها ـ أن طبيعة تلك الشجرة ، إن كانت تقتضى الهوىّ فى عمق الأرض ، فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء ؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض ؟ فلما تولد منها الشجرتان، مع أن الحس والعقل

يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى ـ علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع .

وثانيها ـ أن باطن الأرض جرم كثيف صلب، لا تنفذ المسلّة القوية فيه ، ولا يغوص السكين الحادّ القوىّ فيه. ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة ، بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة ، لصارت كالماء ، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ فى تلك الأرض الصلبة ، والغوص فى بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصول هذه القوى الشديدة ، لهذه الأجرام الضعيفة التى هى فى غاية اللطافة ، لابد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

وثالثها ـ أنه يتولد من تلك النواة شجرة ، ويحصل فى تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإنّ قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفى داخل ذلك القشر جرم الخشبة ، وفى وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف، يشبه العهن المنفوش . ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ، ويتولد على الأغصان الأوراق أولًا ، ثم الأزهار والأنوار ثانياً ، ثم الفاكهة ثالثاً . ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر، وتحته ذلك القشر الذى يشبه الخشب ، وتحته ذلك القشر الذى هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب ، وتحته ذلك اللب . وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف ، وهو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف ، وهو الدهن . وهو المقصود الأصلىّ . فتولدُ هذه الأجسام المختلفة فى طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها ، مع تساوى تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة ، والطبائع الأربع ـ يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر ، لا بتدبير الطبائع والعناصر .

ورابعها ـ أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة فى الفاكهة الواحدة ، فالأترج : قشره حارّ يابس ، ولحمه بارد رطب، وحماضه بارد يابس ، وبزره حار يابس . وكذلك العنب : قشره

وعَجَمُهُ بارد يابس ، وماؤه ولحمه حارّ رطب . فتولدُ هذه الطبائع المتضادة ، والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة ـ لابد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار .

وخامسها ـ أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة ، فبعضها يكون اللب فى الداخل ، والقشر فى الخارج ، كما فى الجوز واللوز . وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة فى الخارج ، وتكون الخشبة فى الداخل ، كالخوخ والمشمش . وبعضها يكون النواة لها لبّ ، كما فى نوى المشمش والخوخ. وبعضها لا لب له ، كما فى نوى التمر . وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر، بل يكون كله مطلوباً ، كالتين . فهذه أحوال مختلفة فى هذه الفواكه . وأيضاً هذه الحبوب مختلفة فى الأشكال والصور ، فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان انصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحمص على وجه آخر . فهذه الأشكال المختلفة لابد وأن تكون لأسرار وحِكَمٍ ، عَلِمَ الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل . وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى فى كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ، ومنفعة أخرى . وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاءً لحيوانٍ، وسمًّا لحيوان آخر. فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال ، مع اتحاد الطبائع ، وتأثيرات الكواكب ، يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم .

وسادسها ـ أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة ، وجدت خطًّا واحدًا مستقيماً فى وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان . وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة ، يمنة ويسرة ، فى بدن الإنسان ، ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب أُخر، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار ، بسبب الصغر ـ فكذلك فى تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير الوسطانىّ خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج ، حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر . والخالق تعالى إنما فعل ذلك ، حتى إن القوى الجاذبة

المركوزة فى جرم تلك الورقة ، تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية فى تلك المجارى الضيقة . فلما وقفت على عناية الخالق فى إيجاد تلك الورقة الواحدة ، علمت أن عنايته فى تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايته فى تكوين جملة النبات أكمل . ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان ، علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكمل . ولما عرفت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الإنسان ، علمت أن عنايته فى تخليق الإنسان أكمل . ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان فى هذا العالم ليكون غذاءً ودواءً للإنسان بحسب جسده ، والمقصود من تخليق الإنسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[١] . فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها ، حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة فى الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية ، كما قال: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[٢] . وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقة تلك الورقة من الحبة والنواة . فهذا كلام مختصر فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ . ومتى وقف الإنسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له . ونسأل الله التوفيق والهداية . انتهى كلام الرازىّ رحمه الله تعالى .

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » كالحيوان من النطفة ، والنبات الغض الطرىّ من الحب اليابس ، « وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ » كالنطفة والحب « مِنَ الْحَيِّ » كالحيوان والنبات .

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] ونصها : وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

و [١٦ / النحل / ١٨] ونصها : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

« ذَٰلِكُمُ اللهُ » أي : الفالق للحب والنوى ، والمخرج الحيّ من الميت وعكسه ، هو الله ، القادر العظيم الشأن ، المستحق للعبادة وحده .

« فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أي : تصرفون عنه إلى غيره .

قال الرازيّ : والمقصود منه أن الحيّ والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل، يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية . بل لابد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم ، والمدبر العليم .

تنبيه :

ذهب الزمخشريّ ومن تبعه إلى أن قوله تعالى : (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) عطف على (فَالِقُ) لا على (يُخْرِجُ الْحَيَّ) ، لأنه بيان لفالق الحب والنوى ، وهذا لا يصلح للبيان . وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه ، كقوله (صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ)[1] . والصحيح أنه معطوف على (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) واشتماله على زيادة فيه ، لا يضر ذلك بكونه بياناً . كما أن (مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) بيان مع شموله للحيوان والنبات . وفيه من البديع التبديل ، كقوله تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)[2] .

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٩] ونصها : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ .

(٢) [٢٢ / الحج / ٦١] ونصها : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

و [٣١ / لقمان / ٢٩] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

قال فى (الانتصاف) : وقد وردا جميعاً بصيغة الفعل كثيرًا فى قوله : (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)(١) وقوله (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ)(٢) فعطفُ أحد القسمين على الآخر، كثيرًا دليلٌ على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه فى آية الأنعام هذه وردّه إلى (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ). فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة فى هـذه الآية من قوله (فَالِقُ الْحَبِّ) و (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) و (جَاعِلُ اللَّيْلِ)و (مُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده ، وهو قوله (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحىّ من الميت ، واستحضاره فى ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أدائهما الفعلُ المضارع دون اسم الفاعل

= و [٣٥ / فاطر / ١٣] ونصها : يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

و [٥٧ / الحديد / ٦] ونصها : يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(١) [٣٠ / الروم / ٢٤] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣١] ونصها : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فعدل عن الماضى المطابق لقوله (أَنْزَلَ) لهذا المعنى ، ومنه ما فى قوله[٣]:

بأنّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحَانِ

فأضرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صريعاً لليدينِ وللجِرَانِ

---

(١) [٢٢ / الحج / ٦٣] . . . إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

(٢) من شواهد الكشاف . قال الشارح :

فى سورة الملائكة عند قوله تعالى : وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ . حيث قال (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع دون ما قبله وما بعده ، ليحكى الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، ويستحضر الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك ، كما فى قول تأبط شرا: بأنى قد لقيت الغول تهوى . . . الخ .

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها ، بزعمه ، على ضرب الغول . كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة .

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها ، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيــل فسقناه فأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدلّ عليه .

والغول السعالى . والعرب تسمّى كل داهية غولا . واختلف فى وجوده . فمنهم من ينكر وجوده أصلا ، والقائل يثبت وجوده ويقول : لقيت الغول تهوى ، أى: تهبط . بسهب أى فضاء بعيد عن الأرض والصحيفة الكتاب . وقاع صحصحان وصعصمان أى مستوٍ . والجِران مقدّم العنق من مذبحه إلى منحره .

فعدل إلى المضارع إرادةً لتصوير شجاعته ، واستحضارها لذهن السامع . ومنه (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً)(١) فعدل عن (مُسَبِّحَاتٍ) وإن كان مطابقاً لـ (مَحْشُورَةً) لهذا السبب ــ والله أعلم ــ . ثم هذا المقصد إنما يجئ فيما يكون العناية به أقوى . ولا شك أن إخراج الحىّ من الميت أشهر فى القدرة من عكسه . وهو أيضاً أول الحالين ، والنظر أول مايبدأ فيه . ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحىّ بَانَ عنه ، فكان الأول جديرًا بالتصدير والتأكيد فى النفس ، ولذلك هومقدم أبدًا على القسم الآخر فى الذكر ؛ حسب ترتيبهما فى الواقع . وسهل عطف الاسم على الفعل وحسّنه. أن اسم الفاعل فى معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدّر بالآخر ، فلا جناح فى عطفه عليه ــ والله أعلم ــ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

وقوله تعالى « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ » خبر آخر لـ(إنَّ) ، أو لمبتدأ محذوف . و(الْإِصْبَاحِ) مصدر سمى به الصبح . قال امرؤ القيس(٢) :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِى   بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَلِ

---

(١) [٣٨ / صٓ / ١٨و١٩] . . . كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ .

(٢) من معلقته التى أولها :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ   بسِقْطِ اللوى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب فى شرح البيت :

هذا البيت متعلق بما قبله . لأن تقديره : فقلت له : ألا أيها الليل الطويل ألا انجل. =

أى : شاقُّه عن ظلمة الليل « وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً » أى : صيّر الظلام يسكن إليه ، ويطمئن به، استرواحاً من تعب النهار . أو يسكن فيـه الخلق ، أى : يقرّوا ويهدؤا (من السكون)ـ وهو الأظهر لقوله (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) ـ وقرىء (وَجَاعِلُ اللَّيْلِ) .

« وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً » أى : على أدوار مختلفة ، لتحسب بهما الأوقات التى نيط بهاالعبادات والمعاملات. كما ذكره فى سورة يونس فى قوله(٢) (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) .

« ذَٰلِكَ » أى التسيير بالحساب المعلوم « تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ » أى : الغالب على أمره ، « الْعَلِيمِ » بتدبيرها ، ومراعاة الحكمة فى شأنهما .

= أى انكشف بإقبال الصبح . ثم رجع فقال : وما الإصباح فيك بأمثل . أى إذا جاء الصبح فأنا مغموم كما كنت فى الليل . فليس الصبح بأمثل من الليل .

وقال الأصبهانىّ : معنى قوله (بأمثل) أن الصبح قد يجىء والليل مظلم . يقول : ليس الصباح بأمثل وهو فيك . أى أريد أن يجىء مجيئاً منكشفاً متجلياً ، لا سواد فيه . كما قال البحترىّ ، وإلى هذا أشار فقال :

فأزرق الفجر يأتى قبل أبيضه ‏ ‏ ‏ ‏ وأولُ الغيث طَلٌّ ثم ينسكب

قال الأصبهانىّ : ولو أراد أن الصباح ليس بأمثل من الليل ، لقال : منك بأمثل . اهـ .

(١) [١٠ / يونس / ٦٧] ونصها : هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

و [٢٨ / القصص / ٧٣] ونصها : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٥] ونصها : هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازيّ : قوله تعالى (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ...) الآية ، نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته . فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان . والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية . وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية. ثم قرر الحجة من وجوه عديدة ، وأجاد رحمه الله .

الثانى ـ قرىء (الْأَصْبَاحِ) بفتح الهمزة، على أنه جمع صُبْح ، كقُفْل وأقفال .

الثالث ـ فى (البحر الكبير) : أن السنة الشرعية قمرية لاشمسية ، والشمسية مما حدث فى دواوين الخراج ، وإنما أضيف الحساب فى الآية إليهما ، لأن بطلوع الشمس ومغيبها يعرف عدد الأيام التى تتركب منها الشهور والسنون ، فمن هنا دخلت ـ انتهى .

الرابع ـ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله : (وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(١) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة (حم السجدة) قال : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(٢). انتهى .

وفى (العزة) معنى القهر ، أى : الذى قهرهما بجعلهما مسخرين ، لا يتيسر لهما إلا ما أريد

---

(١) [٣٦ / يس / ٣٧و٣٨] .

(٢) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

بهما ، كما قال : (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)[(١)]، ومعنى القدرة الكاملة أيضاً .

قال الرازيّ : (الْعَزِيزِ) إشارة إلى كمال قدرته ، و (الْعَلِيمِ) إشارة إلى كمال علمه . ومعناه : أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيآتها المحدودة ، وحركاتها القدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة . وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار ـ والله أعلم ـ .

الخامس ـ أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : (حُسْبَانًا) قال : يعنى عدد الأيام والشهور والسنين . وقال قتادة : يدوران فى حساب . قال السيوطىّ : فالآية أصل فى الحساب والميقات . انتهى .

ثم بيّن تعالى نعمته فى الكواكب ، إثْرَ بيان نعمته فى النيّرين إعلاماً بكمال قدرته وحكمته ورحمته بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى :

---

(١) [٧/ الأعراف/ ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

في ظلمات الليل في طرق البر والبحر « قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ » أي : بينا الآيات على قدرته تعالى وحكمته واليوم الآخر « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أي: وجه الاستدلال بها. وإنما خلقت للاستدلال المتأثر بالعمل بموجبها ، ألا وهو الاستدلال بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكمال قدرته وعلمه واستحقاقه العبادةَ وحده .

تنبيهـــان

الأول ـ ذكر تعالى في غير هذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء ، وكونها رجوماً للشياطين. قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر ـ نقله ابن كثير ـ .

أقول : مراده اعتقادٌ منافٍ للعقد الصحيح لا اعتقاد حِكَمٍ وإسرار غير الثلاث فيها ، إذ فوائد المكونات غير محصورة . وذكر حكمةٍ في مكوّن لا ينفي ما عداها ـ فافهم !

الثاني ـ قال السيوطيّ في (الإكليل) : هذه الآية أصل في الميقات ، وأدلة العقليات .

ثم بين تعالى نوعاً آخر من نعمه ، وأدلة قدرته الباهرة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)

«وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» يعني: آدم عليه السلام «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ» قرىء (مُسْتَقِرٌّ) بفتح القاف وكسرها ، وأما (مُسْتَوْدَعٌ) فبفتح الدال لا غير . وهما، على الأول، إما مصدران ، أي : فلكم استقرار واستيداع ؛ أو اسما مكان ، أي : موضع استقرار واستيداع . والاستقرار إما في الأصلاب ، أو فوق الأرض ، لقوله تعالى : (وَلَكُمْ

فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ)(١) أو فى الأرحام ، لقوله تعـالى : (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ)(٢) أو الاستيداع فى الأرحام ، فجعل الصلب مستقرّ النطفة ، والرحم مستودعها، لأنها تحصل فى الصلب ، لا من قبل شخص آخر ، وفى الرحم من قبـل الأب ، فأشبهت الوديعة ، كأنّ الرجل أودعها ما كان عنده ، أو فى الأصلاب ، أو تحت الأرض ، أو فوقها ، فإنها عليها ، أو وضعت فيها لتخرج منها مرة أخرى كقوله(٣) :

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائعُ

ونقل الرازىّ عن الأصمّ أن المستقر مَنْ خُلِقَ من النفس الأولى ، ودخل الدنيا واستقر فيها. والمستودع الذى لم يخلق بعد وسيخلق. وجعل أبو مسلم الأصفهانىّ (المستقر) كناية عن الذّكر ، و (المستودع) كناية عن الأنثى . قال : إنما عبر عن الذكر بـ (المستقر) لأن النطفة إنما تتولد فى صلبه ، وإنما تستقر هناك . وعـبر عن الأنثى بـ (المستودع) لأن رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة ـ والله أعلم ـ .

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٦] ونصها : فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . .

(٢) [٢٢ / الحج / ٥] ونصها : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

(٣) قائله لبيد من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينا وَمَا تَبْلَى النُّجُومُ الطوالعُ وتبقى الجبالُ بَعْدَنَا والمَصَانِعُ

وعلى قراءة (مستقِر) بكسر القاف اسم فاعل ، أى : فمنكم قارّ ، ومنكم مستودع . ووجه كون الأول معلوماً ، والثانى مجهولا ، كون الاستقرار صادرا منّا دون الاستيداع .

قال الرازىّ : مقصود الآية أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام. ثم اختلفوا فى المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية متساوية فى الجسمية، ومختلفة فى الصفات التى باعتبارها حصل التفاوت فى المستقر والمستودع. والاختلاف فى تلك الصفات لابدّ له من سبب ومؤثّر ، وليس السبب هو الجسمية ولوازمها ، وإلا لامتنع حصول التفاوت فى الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل المختار الحكيم . ونظير هــذه الآية فى الدلالة قوله تعالى : (وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)[1] .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ » قال الزمخشرىّ : فإن قلت ، لِمَ قيل (يعلمون) مع ذكر النجوم ، و(يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا . فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنة وتدقيق نظر ، مطابقاً له . انتهى ـ وهــذا بناء على أن الفقه شدة الفهم والفطنة ، ومن قال : إنه الفهم مطلقاً ، وليس بأبلغ من العلم ـ قال : إنه تفنن ، حذرا من صورة التكرير .

قال الناصر فى (الانتصاف): جواب الزمخشرىّ صناعىّ، وإلا فلا يتحقق هذا التفاوت، ولا سبيل إلى الحقيقة . قال : والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة ، تحسيناً للنظم ، واتساقا فى البلاغة . ويحتمل

(١) [٣٠/ الروم/ ٢٢] ونصها : وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وجها آخر فى تخصيص الأولى بالعلم ، والثانية بالفقه . وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لايتدبر آيات الله،ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولًا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الإلهية فى تدبيره لها ، أمر خارج عن نفس الناظر . ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة ، وتقلباتهم فى أطوار مختلفة ، وأحوال متغايرة ، فإنه نظرٌ لا يعدو نفس الناظر ، ولا يتجاوزها . فإذا تمهد ذلك ، فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله ، وعدم النظر فيها والتفكر، أبشعُ من جهله بالأمور الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها . فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم ، نُفِىَ من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لايتبصرون فى أنفسهم ، ونفىُ الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة ، فخص به أسوأ الفريقين حالا .و(يفقهون)ههنا مضارع فَقِهَ الشىء ـ بكسر القاف ـ إذا فهمه، ولوأدنى فهم. وليس من(فقُه) بضم القاف، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه صار فقيها ـ قاله الهروىّ فى معرض الاستدلال على أن (فقه) أنزل من (علم)ـ . وفى حديث سلمان[1] أنه قال ، وقد سألته امرأة جاءته : فَقِهَتْ أى : فَهِمَتْ ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً كان أذمّ فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً. وكأن معنى قولك : (لايفقه شيئاً) ليست له أهلية الفهم وإن فهِّم . وأما قولك (لا يعلم شيئاً) فغايته نفى حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم ، لو يعلّم . والذى يدل على أن التارك للفكرة فى نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة فى غيره قوله تعالى : (وَفِى الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) فخص التبصر

---

(١) هذا نصه كما جاء فى اللسان :

أنه نزل على نَبَطِيَّة بالعراق ، فقال لها : هل هنا مكان نظيف أصلّى فيه ؟

فقالتْ : طهِّرْ قلبك وصلّ حيث شئتَ .

فقال سلمان : فَقِهَتْ . أى فهمتْ وفطنتْ للحق والمعنى الذى أرادتْ .

فى النفس بعد اندراجها فيما فى الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر فى نفسه إنكارا مستأنفاً . وقولنا ، فى أدراج الكلام : (إنه نفى العلم عن أحد الفريقين، ونفى الفقه عن الآخر) يعنى : بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة ، والتفقه فيها بقوم . فأشعر أن قوما غيرهم لا علم عندهم ، ولا فقه ـ والله الموفق ـ فتأمل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول . فالنظر فى الحسن غير مملول . انتهى . وهذا من دقة النظر فى الكتاب العزيز ، وإبراز محاسنه ولطائفه .

ثم بين تعالى حجة كبرى على كمال قدرته ، ومنة أخرى من جسيم نعمته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٩] (وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » أى : من السحاب ، لقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)[1] وسمى السحاب سماء، لأن العرب تسمى كل ماعلا سماء.

« فَأَخْرَجْنَا بِهِ » التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أى : فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء، مع وحدته « نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ » أى : صنف من أصناف

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨و٦٩] .

النبات والثمار المختلفة الطعوم والألوان ، كقوله تعالى :(يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)(١) .

« فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ » أي : من النبات ، يعني أصوله «خَضِرًا» أي : شيئاً غضًّا أخضر. يقال : أخضر وخضِر ، كأعور وعوِر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، « نُخْرِجُ مِنْهُ » صفة لـ (خضرا) وصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة ، لما فيها من الغرابة ، أي: نخرج من ذلك الخضر « حَبًّا مُتَرَاكِبًا » أي : متراكا بعضه على بعض، مثل سنابل البر والشعير والأرز .

قال الرازيّ: ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الإبر ، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة .

ثم بين تعالى ماينشأ عن النوى من الشجر، إثر بيان ما ينشأ عن الحب من النبات بقوله سبحانه : « وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ » الطلع : أول ما يبدو من ثمر النخيل كالكيزان يكون فيه العذق ، فإذا شق عنه كيزانه سمي عذقا (بكسر العين وسكون الذال المعجمة بعدها) ـ وهو القنو ، أي : العرجون، بما فيه من الشماريخ ، وجمعه قنوان ـ (مثلث القاف) وهو ومثناه سواء ، لا يفرق بينهما إلا الإعراب.

قال الزمخشريّ : قنوان ، رفع بالابتداء ، و(من النخل) خبره ، و (من طلعها) بدل منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . انتهى . وجوّز أن يكون (من النخل) عطفاً على (منه) ، وما بعده مبتدأ وخبر . أي : وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان دانية ، أي : ملتفة ، يقرب بعضها من بعض ، أو قريبة من المتناول ، وإنما اقتصر على

(١) [١٣ / الرعد / ٤] ونصها : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ذكرها لدلالتها على مقابلها ، أعنى البعيدة ، كقوله تعالى : (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) ولزيادة النعمة فيها « وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ » عطف على (نبات كل شىء) أى : وأخرجنا بهجنات ، أو على (خضرا) . وقال الطيبيّ : الأظهر أن يكون عطفاً على (حبّا) لأن قوله: (نبات كل شىء) مفصل لاشتماله على كل صنف من أصناف النامى ، كأنه قال : فأخرجنا بالنامى نبات كل شىء ينبت كل صنف من أصناف النامى . والنامى : الحب والنوى وشبههما .

وقوله : (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ...) الخ تفصيل لذلك النبات . أى : أخرجنا منه خضرا بسبب الماء ، فيكون بدلا من (فأخرجنا) الأول، بدل اشتمال . ومن ههنا يقع التفصيل ، فبعض يخرج منه السنابل ذات حبوب متكاثرة ، وبعض يخرج منه ذات قنوان دانية ، وبعض آخر جنات معروشات ... الخ .

« وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ » العطف فيه كما تقدم « مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » حال من (الزيتون) ، اكتفى به عن حال ما بعده . أو من (الرمان) لقربه . والمحذوف حال الأول .

قال الزمخشريّ : يقال اشتبه الشيآن وتشابها ، كقولك : استويا وتساويا . والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا . وقرئ : متشابها وغير متشابه . والمعنى : بعضه متشابها، وبعضه غير متشابه فى الهيأة والمقدار واللون والطعم، وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها .

« انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : ثمر كل واحد من ذلك إذا أخرج ثمره ، كيف يكون ضئيلا ضعيفاً ، لا يكاد ينتفع به ، « وَيَنْعِهِ » أى : وإلى حال ينعه ونضجه ، كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ . أى : انظروا إلى ذلك نظر اعتبار واستبصار واستدلال ، على قدرة مقدره ومدبره وناقله ، على وفق الرحمة والحكمة ، من حال إلى حال ، فإن فيه آيات عظيمة دالة على ذلك ، كما قال :

«إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى : يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار هو المستحق للعبادة دون ما سواه ، أو هو القادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم . قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث ، فاحتج عليهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال ، وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى . فبيّن أنه تعالى كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء ، ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ، ثم تصوير الأعمال بصور كثيرة ، وإفادة أمور زائدة ، وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة ، غير متشابهة فى اللذة ، جزاء عليها. والله أعلم ـ .

لطيفة :

قال الرازىّ : اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر ، لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة . وإنما قدم النخل على سائر الفواكه ، لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة فى خواص كثيرة ، بحيث لا توجد تلك المشابهة فى سائر أنواع النبات . ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : فإنها خلقت من بقية طينة آدم . وإنما ذكر العنب عقيب النخل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال . فأول ما يظهر على الشجر ، يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم ، لذيذة المطعم ، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه . ثم بعده يظهر الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق ، نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة . ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر،

وهو فى الحقيقة ألذ الفواكه المدخرة ، ثم يبقى منه أنواع من المتناولات وهى الزبيب والدبس والخل ، ومنافع هذه لا يمكن ذكرها إلا فى المجلدات . وأحسن مافى العنب عَجَمُهُ ، والأطباء يتخذون منه (جوارشنات) عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة . فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه .

وأما الزيتون فهو أيضاً كثير النفع ، لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل أيضاً عنه دهن كثير ، عظيم النفع فى الأكل ، وفى سائر وجوه الاستعمال .

وأما الرمان فحاله عجيب جدًّا ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام: قشره وشحمه وعَجَمُهُ وماؤه. أما الأقسام الثلاثة الأول وهى القشر والشحم والعَجَم فكلها باردة يابسة قابضة عفصة قوية فى هذه الصفات . وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات ، فإنه ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال ، وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ، ودواء من وجه ، فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين . فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفى بشرحها مجلدات، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة ، التى هى أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى . انتهى .

أقول : حديث (أكرموا عمتكم النخلة) المذكور ، رواه أبو يعلى وابن أبى حاتم والعقيلىّ وابن عدىّ وابن السنىّ وأبو نعيم وابن مردويه عن علىّ رضى الله عنه ، كما فى الجامع الصغير، ورمز عليه بالضعف .

ولما ذكر تعالى هذه البراهين، من دلائل العالم العلوىّ والسفلىّ، على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ، ووافر نعمته ، واستحقاقه للألوهية وحده ـ عقبها بتوبيخ من أشرك به والرد عليه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ » أى : جعلوهم شركاءه فى العبادة . فإن قيل : فكيف عُبِدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن ، وأمرهم بذلك . كقوله : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)(١) . وكقوله تعالى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى ...)(٢) الآية . وقال إبراهيم لأبيه : (يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا)(٣) . وكقوله : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)(٤) وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)(٥) .

---

(١) [٤ / النساء [١١٧ـ١١٩] .

(٢) [١٨ / الكهف / ٥٠] ونصها: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .

(٣) [١٩ / مريم / ٤٤] .

(٤) [٣٦ / يس / ٦٠و٦١] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٤١] وَقَالُوا ...

« وَخَلَقَهُمْ » حال من فاعل (جَعَلُوا) ، مؤكدة لما فى جَعْلِهِمْ ، ذلك من كمال القباحة والبطلان ، باعتبار علمهم بمضمونها . أى : وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن (وليس من يخلق كمن لا يخلق) ! وقيـل : الضمير للشركاء . أى : والحال أنه تعـالى خلق الجن ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له ؟ كقول إبراهيم : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ*وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)(١) . أى : وإذا كان هو المستقل بالخالقية ، وجب أن يفرد بالعبادة ، وحده لا شريك له .

تنبيه :

ما ذكرناه من معنى قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) أنهم أطاعوا الجن فى عبادة الأوثان ، هو ماقرره ابن كثير ، وأيده بالنظائر المتقدمة ، ونقل عن الحسن ، فتكون الكناية لمشركى العرب .

وقيل : المراد بالجن الملائكة ، فإنهم عبدوهم وقالوا عنهم بنات الله . وكلا الأمرين موجب للشريك . أما الأول فظاهر . وأما الثانى فلأن الولد كفء الوالد ، فيشاركه فى صفات الألوهية . وتسمية الملائكة (جنًّا) حقيقة ، لشمول لفظ الجن لهم . وقيـل : استعارة . أى : عبدوا ما هو كالجن ، فى كونه مخلوقاً مستترًا عن الأعين .

وذهب بعض السلف ـ منهم الكلبى ـ إلى أنها نزلت فى الثنوية القائلين بأن للعالم إلٰهين : أحدهما خالق الخير وكل نافع . وثانيهما خالق الشر وكل ضار . ونقله ابن الجوزى عن ابن السائب . وحكاه الفخر عن ابن عباس رضى الله عنـه ، وأنه قال : نزلت فى الزنادقة الذين قالوا : إن الله وإبليس أَخَوَانِ . فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ؛ وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور .

قال الرازى : وقول ابن عباس المذكور أحسن الوجوه المذكورة فى هذه الآية ، وذلك ،

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٩٥و٩٦] قَالَ...

لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة .

وقوّى ابن عباس قوله المذكور بقوله تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً)(١) . وإنما وصف بكونه من الجن، لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكةُ والروحانيون مستترة من العيون ، فلذلك أطلق لفظ الجن عليها .

قال الفخر : هذا مذهب المجوس . وإنما قال ابن عباس : هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بـ (الزند) ، والمنسوب إليه يسمى (زندى) ، ثم عُرّب فقيل : (زنديق) ، ثم جمع فقيل : (زنادقة) . واعلم أن المجوس قالوا : كل ما فى هـذا العالم من الخيرات فهو من (يزدان) ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من (اهرمن) (وهو المسمى بإبليس فى شرعنا) ثم اختلفوا ، فالأكثرون منهم على أن (اهرمن) محدث ، ولهم فى كيفية حدوثه أقوال عجيبة . والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلىّ . وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله فى تدبير هذا العالم ، فخيرات هذا العالم من الله تعالى ، وشروره من إبليس . فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . وإنما جمع حينئذ فى الآية ، لكونه مع أتباعه كأنهم معبودون .

ثم قال الرازىّ : وقوله تعالى (وَخَلَقَهُمْ) إشارة إلى الدليل القاطع على فساد كون إبليس شريكاً ، وتقريره أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس ليس بقديم ، بل هو محدث . إذا ثبت هـذا فنقول : إن كل محدث فله خالق وموجد ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى. فهؤلاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق إبليس هو الله تعالى . ولما كان إبليس أصلًا لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلّموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد . وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا : لابد من إلهين ، فسقط قولهم . انتهى ملخصاً .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥٨] . . . وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

وقوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ » أي : اختلقوا وافتروْا له « بَنِينَ » كقول أهل الكتابين في المسيح وعزير « وَبَنَاتٍ » كقول بعض العرب في الملائكة .

قال الزمخشري : يقال خلق الإفك وخرقه واختلقه بمعنى . وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها . كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم: قد خرقها والله ! ويجوز أن يكون من (خَرَقَ الثَّوْبَ) إذا شقه : أي اشتقوا له بنين وبنات . وقرىء (وَخَرَّقُوا) بالتشديد للتكثير لقوله (بنين وبنات) .

« بِغَيْرِ عِلْمٍ » أي : من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقولٍ عن عمى وجهالة ، من غير فكر وروية ، أو بغير علم بمرتبة ما قالوا ، وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لايقادَرُ قدره . وفيه ذم لهم بأنهم يقولون بمجرد الرأي والهوى . وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه تعالى إلا ماجزم به ، وقام عليه الدليل .

ثم نزه ذاته العلية عما نسبوه إليه بقوله : « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ » من أوصاف الحوادث الخسيسة من المشاركة والتوليد .

ثم استدل تعالى على بطلان ما اجترؤوا عليه بوجوه أربعة. بدأ منها بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي : مبدعهما بلا مثال سبق . وقيل : بمعنى عديم النظير فيهما . قال أبو السعود : والأول هو الوجه . والمعنى : أنه تعالى مبدع لقطري العالم العلويّ والسفليّ ، بلا مادة ، فاعل على الإطلاق ، منزه عن الانفعال بالمرة . والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه ، فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟

« أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ » أى : من أين وكيف يكون له ولد ـ كما زعموا ـ والحال أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبة يكون الولد منها ؟ ويستحيل ضرورة وجود الولد بلاوالدة ، وإن أمكن وجوده بلاوالد . وأيضاً، الولد لايحصل إلا بين متجانسين، ولا مجانس له تعالى .

وقوله تعالى : (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ)جملة مستأنفة ، لتقرير تنزهه عنه ، والحالية بعدها مؤكدة للاستحالة المذكورة .

وقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ » جملة أخرى مستأنفة ، لتحقيق ما ذكر من الاستحالة . أو حال ثانية مقررة لها. أى : أنى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شىء انتظمه التكوين والإيجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولداً له تعالى. فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟ ـ أفاده أبو السعود ـ

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى : مبالغ فى العلم أزلًا وأبدًا . جملة مستأنفة أيضاً ، مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ، ببطلان مقالتهم الشنعاء . أى : أنه سبحانه لذاته عالم بكل المعلومات ، فلو كان له ولد ، فلابد أن يتصف بصفاته ، ومنها عموم العلم ، وهو لغيره تعالى منفىّ بالإجماع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢](ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

«ذَٰلِكُمْ » أى: الموصوف بما سبق ، البعيد رتبته عن مراتب من يشارك أو ينسب إليه الولادة ، إذ هو « اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ » أى : بالإيمان به وحده ، فإن من جَمَعَ تلك الصفات استحق العبادة وحده . « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى : رقيب وحفيظ ، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

وقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » جملة مستأنفة ، إما مؤكدة لقوله (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وإماهى مؤكدة لما تقرر قبلُ من تنزهه وتعاليه عن إفكهم أعظم تأكيد ، ببيان أنه لا تراه الأبصارالمعهودة وهى أبصار أهل الدنيا ، لجلاله وكبريائه وعظمته ، فأنى يصح أن ينسب إلى عليائه تلك العظيمة ؟ وذلك لأنه تعالى لم يخلق لأرباب هذه النشأة الدنيوية استعداداً لرؤيته المقدسة .

قال العارف الجليل الشيخ الأكبر قدس سره فى (فتوحاته) : سبب عجز الناس عن رؤية ربهم فى الدنيا ضعف نشأة هذه الدار ، إلا لمن أمده الله بالقوة ، بخلاف نشأة الآخرة لقوتها . وسبب رؤيته تعالى فى المنام كون النوم أخا الموت . وفى الحديث إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا . فما نفى الشارع إلارؤية الله فى الدنيا يقظة . انتهى.

وقال بعضهم : إن الأبصار المعهودة فىالدنيا لا تدركه تعالى، لأن هذه الأحداق مادامت تبقى على هذه الصفات التى هى موصوفة بها فى الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدركه إذا تبدلت صفاتها ، وتغيرت أحوالها .

وفى الصحيحين(١) منحديث أبىموسى الأشعرىّ رضىاللهعنهقال: قال رسولالله ﷺ

(١) ليس فى الصحيحين . بل هو مما انفرد به مسلم عن البخارىّ . أخرجه فى :
١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٩٣ (طبعتنا) وهذا نصه :
عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال « إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

قال ابن كثير: وفى الكتب المتقدمة؛ أن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : ياموسى ! إنه لا يرانى حىّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . وقال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)[1] .

أقول : كون المنفىّ من الإدراك فى هذه الآية هو الإدراك الدنيوىّ خاصة ، لا يحتاج إلى حجة ولا برهان. ومن فهم من بعض الفرق ، كالمعتزلة ، من هذه الآية أن المنفىّ هو الإدراك فى النشأتين ، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المتواترة . أما الكتاب فمثل قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[2] . وأما السنة فما روى عن جرير بن عبد الله البجلى[3] قال : كنا جلوسا عند النبىّ ﷺ ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامّون فى

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢و٢٣] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، حديث رقم ٣٥٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها ، فافعلوا. ثم قرأ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ.

قال ابن كثير : تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبيّ ﷺ : أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات . انتهى

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأدلة السمع طافحة بوقوع ذلك في الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، ومنع ذلك في الدنيا . إلا أنه اختلف في نبينا ﷺ . انتهى.

قال ابن كثير : كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرؤيا في الدار الآخرة ، وتنفيها في الدنيا ، وتحتج بهذه الآية . انتهى.

فعن مسروق[1] قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه ! هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت: لقد قفّ شعري مما قلت! أين أنت من ثلاث من حدثكهنّ فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ . وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ[2] ومن حدثك أنه يعلم ما في غد

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ١ ـ باب حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

وأخرجه الترمذيّ بأطول من هذا السياق في: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٥ ـ حدثنا أحمد بن منيع .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . . . أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .

فقد كذب، ثم قرأت[١]: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً . ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت[٢]: يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... الآية . ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين ـ أخرجه الشيخان والترمذىّ ـ .

وخالفها ابن عباس . فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده. والمسألة تذكر مبسوطة فى أول سورة النجم إن شاء الله تعالى .

ومن الناس من ذهب إلى أن الإدراك ليس هو مطلق الرؤية ، بل هو معرفة الكنه أو الإحاطة .

قال ابن كثير : قال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك . فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفىّ ما هو ؟ فقيل: معرفة الحقيقة ، فإن هـذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنين ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى .

وقال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية، وهو الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم . قال تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً[٣].

---

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] ونصها : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

(٢) [٥ / المائدة / ٦٧] . . . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

(٣) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً .

وفى صحيح مسلم[1] : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا . انتهى.

وقال النسفىّ: تشبثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفىّ هو الإدراك لاالرؤية، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئىّ وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهات ، يستحيل إدراكه ، لا رؤيته ، فنزّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ، ونفى الإحاطة التى تقتضى الوقوف على الجوانب والحدود ، لا يقتضى نفى العلم به ، فكذا هذا . على أن مورد الآية ، وهو التمدح ، يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفى إدراك ماتستحيل رؤيته . لاتمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وإنما التمدح بنفى الإدراك مع تحقق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية ، دليل ارتفاع نقيصة التناهى والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم. انتهى.

وقد جود العلامة العضد فى (المواقف) البحث فى هذه الآية ، ونقل شبه المنكرين فيها ، وأجاب عنها . ونحن، لنفاسته ، ننقل كلامه مع شرحه للسيد الشريف قدس سره ، وبعض حواشيه ، ونصه :

الأولى ـ من شبه المنكرين للرؤية السمعية قوله تعالى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ :

١ ـ والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية . فمعنى قولك : أدركته ببصرى ، معنى رأيته. لافرق إلا فى اللفظ . أو هما أمران متلازمان لايصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) ونصه : عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش . فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان، وهو يقول « اللهم! أعوذ برضاك من سَخَطك. وبمعافاتك من عقوبتك . وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

فـلا يجوز : رأيته وما أدركته ببصرى ولا عكسه . فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية فى مقام المبالغة ، فى جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار ، لا يفيد عموم الأوقات ، فلابد أن يفيده ما يقابله ، فلا يراه شىء من الأبصار ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لما ذكرنا .

٢ ـ ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى ، فإنه ذكره فى أثناء المدائح. وما كان من الصفات عدمه مدحاً ، كان وجوده نقصاً ، يجب تنزيه الله عنه ، فظهر أنه يمتنع رؤيته ، وإنمـا قلنا : (من الصفات) احترازا عن (الأفعال) ، كالعفو والانتقام ، فإن الأول فضل ، والثانى عدل ، وكلاهما كمال . والجواب :

أما عن الوجه الأول فى الاستدلال بالآية فمن وجوه :

الأول ـ أن الإدراك هو الرؤية ، على نعت الإحاطة بجوانب المرئىّ ، إذ حقيقته النيل والوصول ، و(إنا لمدركون) أى ملحقون ، و(أدركت الثمرة) أى : وصلت إلى حد النضج و(أدرك الغلام) أى بلغ . ثم نقـل إلى الرؤية المحيطة ، لـكونها أقرب إلى تلك الحقيقة . والرؤية المـكيفة بكيفية الإحاطة،أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة . فلا يلزم من نفى المحيطة عن البارى سبحانه ، لامتناع الإحاطة ، نفى المطلقة عنه . وقوله (لا يصح نفى أحدهما مع إثبات الآخر) ممنوع ، بل يصح أن يقال : رأيته وما أدركه بصرى . أى : لم يحط به من جوانبه ، وإن لم يصح عكسه .

الثانى ـ أن (تدركه الأبصار) موجبة كلية ، لأن موضوعها جمع محلّى باللام الاستغراقية . وقد دخل عليها النفى فرفعها . ورفع الموجبة الـكلية سالبة جزئية . وبالجمـلة فيحتمل قوله : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) إسنادُ النفى إلى الـكل ، بأن يلاحظ أولًا دخول النفى ، ثم ورود العموم عليه ، فيكون سالبة كلية . ونفىُ الإسناد إلى الـكل بأن يعتبر العموم أولًا ، ثم ورود النفى عليه ، فيكون سالبة جزئية. ومع احتمال المعنى الثانى، لم يبق فيه حجة لـكم علينا.

لأن أبصار الكفار لاتدركه، إجماعاً . هذا مانقوله : لو ثبت أن اللام فى الجمع للعموم والاستغراق، وإلا عكسنا القضية ، فادَّعَيْنا أن الآية حجة لنا وقلنا : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) سالبة مهملة فى قوة الجزئية، فالمعنى: لاتدركه بعض الأبصار، وتخصيص البعض بالنفى يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض ، فالآية حجة لنا لا علينا . انتهى ـ لكن هذا إنما يستقيم إذا كانت المهملة مرادفة للجزئية . وكونها فى قوتها لا يفيد المرادفة . ولهذا اعترض عليه بأن الجنس فى حيّز النفى يفيد العموم اتفاقاً ، نحو : ما جاءنى الرجل . وإنما الاحتمال لعموم السلب ، وسلب العموم عند قصد الاستغراق ، فكيف تعكس القضية على تقدير حمل اللام على الجنس؟ ولو ثبت المرادفة لاندفع الاعتراض ، إذتصير الآية حينئذ حجة لنا إلزامية ، حيث يرجع قيد البعضية إلى النفى، كما أرجع المستدل قيد العموم، على تقدير الاستغراق، إليه. فتأمل !ـ كذا فى حواشى الجلبى والشروانىّ ـ .

الثالث ـ من تلك الوجوه أنها ـ أى الآية ـ وإن عمت فى الأشخاص باستغراق اللام ، فإنها لاتعم فى الأزمان ، فإنها سالبة مطلقة لا دائمة ، ونحن نقول بموجبه ، حيث لايرى فى الدنيا .

قال العلامة حسن جلبى : وما استدل به الخصم سابقاً على أنها دائمة، من أن إيجابها لا يفيد عموم الأوقات ، فلابد أن يفيده ما يقابله ـ فجوابُه : أنه إنما يتم إذا كان التقابل بينهما تقابل التناقض ، وهو ممنوع . فإن القضية الموجبة والسالبة ، الغير الموجهتين ، لم توضعا فى العربية لمعنيين متناقضين ، بل لهما محامل يحملهما المستعمل حسب ما يريده .

الرابع ـ منها أن الآية تدل على أن الأبصار لاتراه ، ولايلزم منه أن المبصرين لايرونه، لجواز أن يكون ذلك النفى المذكور فى الآية ، نفياً للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعاً، كما هو العادة ، فلا يلزم نفى الرؤية بالجارحة مطلقاً . وأما الجواب عن الوجه الثانى وهو قوله : تمدح البارى بأنه لا يرى ، فنقول : هذا مدعاكم ، فأين الدليل عليه ؟ إن قلت : أشير فيما

تقدم إلى دليله بأنه ذكر فى أثناء المدائح ، والمذكور بينهما يجب أن يكون مدحاً ـ قلت : ذلك الدليل إنما يدل على التمدح بنفى المبصرية ، لا بنفى الرؤية ، والفرق قدسبق فى الجواب الأول . انتهى .

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضى أنه تمدح، لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته ، بل لنافيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو امتنعت رؤيته لماحصل المدح بنفيها عنه ، إذلامدح للمعدوم بأنه لايرى، حيث لم يكن له ذلك ، وإنما المدح فى عدم الرؤية للمتمنع المتعزز بحجاب الكبرياء ، كما فى الشاهد . انتهى .

وناقش الخيالى قولهم : (لا مدح للمعدوم) بأن عدم مدح المعدوم لاشتماله على معدن كل نقص أعنى : العدم ، فإن أصل المادح والكمالات هو الوجود ، وقد عرا عنه . كما أن الأصوات والروائح لا تمدح بمنع إمكان رؤيتها ، لكونها مقرونة بسمات النقص .

قال : والحق أن امتناع الشىء لا يمتنع التمدح بنفيه ، إذ قد ورد التمدح بنفى الشريك، ونفى اتخاذ الولد فى القرآن ، مع امتناعهما فى حقه تعالى . انتهى .

ووافقه حسن چلبى فى (حواشى شرح المواقف) ، لكنه أجاب بأن المدح بجهة لا يقتضى الكمال من جهات أخر ، وكذا النقصان من جهة لا ينافى المدح بغيرها . انتهى .

وأجاب قره خليل بوجوه :

الأول ـ أن مراد ذلك المستدل هو الإلزام على المعتزلة ، لا تحقيق الاستدلال على جواز الرؤية .

الثانى ـ أن مبنى كلامه على العرف واللغة، فإن أهلهما إذا أرادوا مدح شىء يقولون هذا الشىء مما لا تدركه الأبصار ، أو مما لا تراه العيون ، مع أنها مما تدركه عادة . فهذا القول منهم يدل على إمكان رؤية ذلك الشىء عادة ، بل على وقوعها أيضاً . بخلاف الأصوات والروائح ونحوها ، فإنها ليست مما تدركه الأبصار عادة ، فلا يحسن مدحها بعدم إدراك

الأبصار ، أو بعدم رؤيتها . نعم ! إذا أرادوا مدح الأصوات يقولون : لم تسمعها أذن ، وإذا أرادوا مدح الروائح ، يقولون : لم يشمها أنف .

الثالث ـ إنا قلنا : إن نفى الرؤية فى مقام المدح يدل على إمكان الرؤية ، ولم نقل إن نفى كل شيء فى مقام المدح يدل على إمكان ذلك الشيء ، حتى يرد علينا النقض بنفى الشريك ، أو بنفى اتخاذ الولد فى مقام المدح ، مع أن إمكان المنفى فى صورة النقض نقص ينافى الألوهية ، وإمكان المنفى فيما نحن بصدده ليس نقصاً ، بل هو كمال . انتهى .

قال حسن حلبى : إن قيـــل : يلزم على ثبوت التمدح بنفى الرؤية ، تعززاً وتمنعاً ، أن لا يزول ، لأن زوال ما به التمدح نقص ، فيلزم أن لا يرى فى الآخرة . والجواب : أن ذلك فيما يرجع إلى الصفات . والتمدحُ بنفى الرؤية يرجع إلى التمدح بخلق ضدها ، وهو من قبيل الأفعال ، كما أن خلق الرؤية أيضاً منها . انتهى .

وقد بيناه أولًا ، وسيأتى لذلك تتمة شافية إن شاء الله تعالى عند قوله سبحانه (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ، مما هو أعظم حجة ، وأوضح برهاناً ، والله الموفق.

وقوله تعالى « وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » أى: يرى جميع المرئيات، ويبصر جميع المبصرات، لا يخفى عليـــه شىء منها . « وَهُوَ اللَّطِيفُ » أى : الذى يعامل عباده باللطف والرأفة ، « الْخَبِيرُ » أى : العليم بدقائق الأمور وجلياتها . وجوز أن تـكون الجملة تعليلًا لما قبلها ، على طريقة اللف ، أى : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير . قيل : فيكون (اللَّطِيفُ) مستعارًا من مقابل الـكثيف ، فشبه به الخفىّ عن الإدراك . وهذا بناء على أنه فى ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم . والتحقيق أن اللطافة المطلقة لا توجد فى الجسم ، لأن الجسمية يلزمها الـكثافة ، وإنما لطافتها بالإضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق ، الذى يجلّ عن إدراك البصائر ، فضلًا عن الأبصار ، ويعز عن شعور الأسرار ، فضلًا عن الأفـكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ،

وينزه عن حلول الألوان والأشكال . فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق ، بل بالقياس إلى ما هو دونه فى اللطافة ، ويوصف بالنسبة إليه بالكثافة ـ كذا حققه البهائىّ فى (شرح الأسماء الحسنى) . وقول الخفاجىّ : (اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الرأفة) ، لا يظهر له مناسبة هنا ـ مدفوعٌ بملاحظة أن قوله تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) ذكر للتخويف ، كما أسلفنا ، وحينئذ يناسب أن يشفع ببيان رأفته ورحمته ، جرياً على سنن الترغيب والترهيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

وقوله تعالى « قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ » أى : الآيات والدلائل التى تبصرون بها الهدى من الضلالة . جمع (بصيرة) ، وهى الدلالة التى توجب البصر بالشىء ، والعلم به . وجوّز أن يكون المعنى : قد جاءكم من الوحى ما هو كالبصائر للقلوب ، جمع (بصيرة) وهو النور الذى يستبصر به القلب ، كما أن البصر نور تستبصر به العين .

« فَمَنْ أَبْصَرَ » أى : الحقّ بتلك البصائر وآمن به « فَلِنَفْسِهِ » أى : فلنفسه أبصر ، لأن نفعه لها ، « وَمَنْ عَمِيَ » أى : ضل عن الحق . والتعبير عنه بـ (العمى) للتقبيح له ، والتنفير عنه ، « فَعَلَيْهَا » أى : فعلى نفسه عمى ، وإياها ضر بالعمى . « وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » أى : برقيب يرقبكم ، ويحفظكم عن الضلال ، بل أنا منذر ، والله يحفظ أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ » أى: نوردها على وجوه كثيرة فى سائر المواضع، لتكمل الحجة على المخالفين، « وَلِيَقُولُوا » فى ردها : « دَرَسْتَ » أى : قرأت على غيرك، وتعلمت منه . وحفظت بالدرس أخبار من مضى . كقولهم (فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(١).

يقال: درس الكتاب يدرسه دراسة، إذا أكثر قراءته وذلّله للحفظ . قال ابن عباس: (وليقولوا) يعنى : أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن (درست) يعنى : تعلمت من يسار وخير، وكانا عبدين من سبى الروم، ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله ! وقال الفرّاء : معناه تعلمت من اليهود ـ كذا فى (اللباب) ـ .

وقرىء (دَارَسْتَ) بالألف وفتح التاء . أى: دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية. كقولهم(٢)(إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ...) الآية .

ويقرأ « دَرَسَتْ » بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء . أى : مضت وقدمت وتكررت على الأسماع، كما قالوا : (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)(٣) . وهـذه القراآت الثلاث

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٠٣] ونصها : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٢٥] ونصها : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨ / الأنفال / ٣١] ونصها : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و[١٦/النحل/٢٤] ونصها : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . =

متواترة . وقرىء فى الشواذ (دُرِسَتْ) ماضياً مجهولا . أى : تليت وعفيت تلك الآيات . وقرىء (دَرَّسْتَ) مشددا معلوما ، وتشديده للتكثير أو للتعدية . أى : درّست غيرك الكتب. وقرئ مشددا مجهولا . وقرئ (دورست) بالواو مجهول دارس. ودارست بالتأنيث، والضمير للآيات أو للجماعة : وقرىء « درُست » بضم الراء ، والإسناد للآيات مبالغة فى محوه أو تلاوته ، لأن (فعل) المضموم للطبائع والغرائز . وقرأ أبىّ رضى الله عنه (درس) وفاعله ضمير النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أو الكتاب ، إن كان بمعنى انمحى . و (درسن) بنون الإناث مخففاً ومشددا . وقرىء (دارسات) بمعنى قديمات ، أو بمعنى ذات درس أو دروس ، كـ (عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)(١) . وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : هى دارسات .

« وَلِنُبَيِّنَهُ » أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً . أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

« لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى : الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه .

= و [٢٣ / المؤمنون / ٨٣] ونصها : لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَـٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٢٥ / الفرقان / ٥] ونصها : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

و [٢٧ / النمل / ٦٨] ونصها : لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٦٨ / القلم / ١٥] ونصها : إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

و [٨٣ / المطففين / ١٣] ونصها : إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٢١] ونصها : فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

تنبيهان :

الأول ـ قيل : اللام الثانية حقيقة ، والأولى لام العاقبة والصيرورة . أى : لتصير عاقبة أمرهم ، إلى أن يقولوا: درست ، كما فى قوله تعالى:(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)(١) وهم لم يلتقطوه للعداوة ، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة . فكذلك الآيات صرّفت للتبيين،ولم تصرّف ليقولوا: درست. ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات ، كما حصل التبيين ، فشبه به .

قال الخفاجىّ : وجوّز أن يكون على الحقيقة أبو البقاء وغيره، لأن نزول الآيات لإضلال الأشقياء ، وهداية السعداء. قال تعالى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً)(٢) وقال : الرازىّ : حمل اللام على العاقبة بعيد . لأنه مجاز . وحمله على لام الغرض حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز. وإن المراد منه عين المذكور فى قوله تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرا. قال ومما يؤكد هذا التأويل قوله (وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ، يعنى : إنا ما بيناه إلا لهؤلاء . فأما الذين لا يعلمون ، فما بينا هذه الآيات لهم ، وإذ لم يكن بيانا لهم ثبت جعله ضلالا لهم . انتهى .

وقيل : هذه اللام لام الأمر ، ويؤيده أنه قرئ بسكونها ، كأنه قيل : وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا هم ما يقولون ، فإنه لا احتفال بهم ، ولا اعتداد بقولهم . وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٨] . . . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

وفيه نظر ، لأن ما بعده يأباه ، إذ اللام فى (لنبينه) نص فى أنها لام كى . وأما تسكين اللام فى القراءة الشاذة ، فلا دليل فيه ، لاحتمال أنها خففت لإجرائها مجرى كبد ، وكونها معترضة . و (لنبينه) متعلق بمقدر معطوف على ما قبله ، وإن صحته لا يخرجه عن كونه خلاف الظاهر ـ كذا فى (العناية) ـ .

الثانى ـ قال الشريف قدس سره : أفعاله تعالى يتفرع عليها حكم ومصالح متقنة هى ثمراتها ، وإن لم تكن عالّا غائية لها ، حيث لولاها لم يقدم الفاعل عليها . ومن أهل السنة من وافق المعتزلة فى التعليل والغرض الراجع منفعته إلى العباد ، وادعى أنه مذهب الفقهاء والمحدثين .

إذاعرفت هذا، فاعلم أن حقيقة التعليل عند أهل السنة بيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل . وأما تفسيره بالباعث الذى لولاه لم يقدم الفاعل على الفعل ، أو عدم اشتراط ذلك، فهو من تحقيقات المتكلمين، لاتعلق له باللغة . وأما عند أهل اللغة فهو حقيقة فى ذلك مطلقاً، والفرق بينها وبين لام العاقبة ، أن لام العاقبة ماتدخل على مايترتب على الفعل وليس مصلحة. وهل يشترط فيها أن يظنه المتكلم غير مترتب أم لا ، حتى يكون فى كلامه تعالى من غير حكاية أم لا ، فيه خلاف ـ كذا فى (العناية) ـ .

ولما حكى تعالى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات، أتبعه بالأمر بالثبات على ماهو عليه ، تقوية لقلبه ، وإزالة لما يحزنه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

« اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من تبليغ الرسالة ، التى هى الآيات المصرفة ، مبالغة فى إلزام الحجة . وقوله « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » اعتراض أكد به إيجاب

الاتباع ، أو حال مؤكدة من (ربك) ، بمعنى : منفردًا فى الألوهية . « وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » قال أبو مسلم : أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار ، وترك الموعظة . وقال المهايمىّ : أى لا تحزن عليهم إذا أصروا على الشرك والعمى مع هذه البصائر . فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى ، لاقتضاء استعدادهم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا » أى : مع استعدادهم ، ولكن جرت سنته برعاية الاستعدادات ، « وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً » أى : هم وإن كان لهم الاستعداد للإيمان فى فطرتهم ، وقد أبطلوه ، فأنت وإن كنت داعياً إلى إصلاح الاستعداد الفطرىّ ، وما جعلناك متولياً عليهم ، تحفظ مصالحهم ، حتى تكون مصلحاً لاستعدادهم الفطرىّ .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » تدبر عليهم أمورهم ، أو تغيرهم من استعدادهم إلى آخر، بل هو مفوض إلى الله تعالى ، يفعل بهم بمقتضى استعدادهم الطبيعىّ لهم من غير تغيير له ، بل هو مفوّض إلى اختيارهم ـ أفاده المهايمىّ ـ .

تنبيهان :

الأول ـ فى قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا) دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر ، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه ، مع توجهه إليه ، بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه ، لعدم صرف اختياره الجزئىّ نحو الإيمان ، وإصراره على الكفر . والزمخشرىّ يفسره بمشيئة إكراه وقسر ، لأن عندهم مشيئة الاختيار حاصلة ألبتة . قال النحرير : وهذه عكازته فى دفع مذهب أهل السنة .

الثانى ـ قال القاشانىّ فى تفسير قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) : أى كل مايقع ، فإنما يقع بمشيئة الله ، ولاشك أن استعداداتهم التى وقعوا بها فى الشرك ، وأسباب ذلك ، من تعليم الآباء والعادات وغيرها ، أيضاً واقعة بإرادة من الله ، وإلا لم تقع. فإن آمنوا بذلك فبهداية الله ، وإلا فهوّن على نفسك ، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال ، وما أنت بموكل عليهم بالإيمان . ولاينافى هذا ما قال فى تعييرهم فيمابعدبقوله : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم قالوا ذلك عناداً ودفعاً للإيمان بذلك التعلل ، لا اعتقاداً . فقولهم ذلك ، وإن كان صدقاً فى نفس الأمر ، لكنهم كانوا به كاذبين ، مكذبين للرسول ، إذ لوصدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضاً بإرادة الله ، وكذا كل دين ، فلم يعادوا أحد . ولوعلموا أن كل شئ لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين ، بل كانوا موحدين . لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد ، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم ، فلذلك عيّرهم به ، لا لأنه ليس كذلك فى نفس الأمر . فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله ، وأنه كما أراد شركهم فى الزمان السابق ، لم يرد إيمانهم الآن ، إذ ليس كل منهم مطبوع القلب ، بدليل إيمان من آمن منهم. فلم لايجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد ، واحتجوا بالعادة ، وماوجدوا من آبائهم فأشركوا ، ثم إذا سمعوا الإنذار ، وشاهدوا آيات التوحيد ، اشتاقوا إلى الحق ، وارتفع حجابهم فوحّدوا . فلذلك وبخهم على قولهم ، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائماً ، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم ، لعل من كان فيه أدنى استعداد ، إذا انقطع عن حجته ، وسمع وعيد من قبله من المنكرين ، ارتفع حجابه ، ولان قلبه فآمن ، ويكون ذلك توفيقا له ، ولطفاً فى شأنه ، فإن عالم الحكمة يبتنى على الأسباب . وأمامن كان من الأشقياء

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤٨] ونصها: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَاأَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ.

المردودين ، المختوم على قلوبهم ، فلا يرفع لذلك رأساً ، ولا يلقى إليه سمعاً . انتهى .

وليكن هذا على بال منك ، فالمقام دقيق جدًّا ، وسيأتى بيانه فى الآية الآتية إن شاءالله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : لا تذكروا آلهتهم، التى يعبدونها، بما فيها من القبائح ، لئلا يتجاوزوا إلى الجناب الرفيع .

روى عبد الرزاق عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فنهوا عنه لذلك. وقال الزجاج : نهوا أن يلعنوا الأصنام التى كانت تعبدها المشركون . انتهى .

فـ (الَّذِينَ يَدْعُونَ) عبارة عن الآلهة ، والعائدمقدر ، والتعبير بـ (الَّذِينَ) على زعمهم أنهم من أولى العلم ، أو بناء على أن سبّ آلهتهم سبّ لهم ، كما يقال : ضربُ الدابة صفعٌ لراكبها . فإن قيل : إنهم كانوا يقرّون بالله وعظمته ، وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء عنده ، فكيف يسبونه ؟ قلنا : لا يفعلون ذلك صريحاً ، بل يفضى كلامهم إلى ذلك ، كشتمهم له ولمن يأمره بذلك مثلاً . وقد فسر (بِغَيْرِ عِلْمٍ) بهذا ، وهو حسن جدًّا . أو أن الغيظ والغضب ربما حملهم على سب الله صريحاً . ألا ترى المسلم قد تحمله شدة غضبه على التكلم بالكفر ؟!

و (عَدْوًا) مصدر ، أى : ظلماً وعدواناً . يقال : عدا عليه عدوًا ، كـ (ضرباً) ، و (عدوّا) كـ (عتوّ) ، و (عداء) كـ (عزاء) ، و (عدواناً) كـ (سبحان) إذا تعدى

وتجاوز ، وهو مفعول مطلق لـ (تسبوا) من معناه ، لأن السب عدوان . أو مفعول له ، أو حال مؤكدة مثل (بِغَيْرِ عِلْمٍ) ـ كذا فى العناية ـ .

تنبيه :

قال ابن الفرس فى الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم، أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن ، لم يجز أن يُسَبّوا ولا دينهم . قال : وهى أصل فى قاعدة سد الذرائع .

قال السيوطىّ: وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى . وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن الحَسَن يصير قبيحاً إذا كان يحصل بفعله مفسدة .

قال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :

أحدها : أنها جماد لا ذنب لها .

والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسبّ الله تعالى .

قال : والذى يجب علينا بيان بغضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهــذا ليس بسبٍّ . ولهذا قال أمير المؤمنين (يوم صفين) : لا تسبوهم ، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم . انتهى .

وقال الزمخشرىّ: فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صح النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصى؟ قلت : رب طاعة عُلِمَ أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة . كالنهى عن المنكر ، هو من أجلّ الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ، ووجب النهى عن ذلك ، كما يجب النهى عن المنكر . فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا

جنازة ، فرأى محمد نساءً ، فرجع. فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية ، لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس بسببٍ لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها ، حضر الرجال أو لم يحضروا . بخلاف سب الآلهة . وإنما خيل إلى ابن سيرين أنه مثله ، حتى نبه عليه الحسن . انتهى .

ومنه قال بعض مفسري الزيدية : واعلم أن المعصية إن كانت حاصلة لامحالة ، سواء فعل الحسن أم لا ، لم يسقط الواجب ، ولا يقبح الحسن . انتهى .

وكذا قال الخفاجيّ : إن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة ، وكانت سبباً لها ، وجب تركها . بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية ، لا يمكن دفعها . وكثيرًا ما يشتبهان . ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجال والنساء ، وخالفه الحسن للفرق بينهما . انتهى.

قال الرازيّ : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلٰهيتها ، فلا حاجة ، مع ذلك ، إلى شتمها .

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الماضية على الضلال ﴿ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي : بالبعث بعد الموت ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ أي : يخبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا . وذلك بالمحاسبة والمجازاة عليه .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب أهل السنة إلى ظاهر الآية ، من أن المزيّن للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ، هو الله تعالى . وذلك لأن صدور الفعل من العبد يتوقف على حصول الداعي ، ولا بد أن يكون ذلك الداعي بخلق الله تعالى . وقد بسط الرازيّ ذلك ، وساق تأويلات المعتزلة الركيكة ، فانظره !

الثاني ـ في قوله تعالى : (فَيُنَبِّئُهُم) الخ وعيد بالجزاء والعذاب . كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلت.

الثالث ـ فيه نكتة سرية ، مبنية على حكمة أبيّة ، وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة . فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت بهذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها أحسن الأحاسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام[1] : حُفّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات . فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة . وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها ، لما أن كلاًّ منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى . فليتدبر ! ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ » مصدر فى موقع الحال . أى : أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ، باذلين فى توثيقها طاقتهم « لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ » أى : خارق كما اقترحوا ، « لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أى : أمرها فى حكمه وقضائه خاصة ، يتصرف بها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، لا تتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته ، حتى يمكننى أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء . وهذا سدٌّ لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ، ببيان صعوبة منالها ، وعلو شأنها ـ أفاده أبو السعود ـ

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ١ (طبعتنا) رواه أنس بن مالك .

« وَمَايُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ » قرىء (إِنَّهَا) بالكسر على الاستئناف ، والمفعول الثانى محذوف ، كأنه قيل : وما يدريكم إيمانهم ؟ ثم أخبرهم بما علم منهم إخباراً ابتدائياً . أو هو جواب سؤال ، كأنه قيل : لم وُبِّخوا ؟ فقيل : لأنها إذا جاءت لا يؤمنون! أو هو مبنى على قوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) فإنه أبرز فى معرض المحتمل ، كأنه سأل عنه سؤال شاكّ ، ثم علل بقوله لـ(أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) جزماً بالطرف المخالف ، وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة . وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه يتضمن إنكار صدق المشركين فى المقسم عليه. وهذا نوع من السحر البيانىّ ، لطيف المسلك . هذا على أن الخطاب للمؤمنين ، إذ كانوا يتمنون مجىء الآية طمعاً فى إيمانهم . وقيل : هو للمشركين ، لقراءة : (لَا تُؤْمِنُونَ) ، فيكون فيه التفات . وقرىء (أَنَّهَا) بالفتح ، وعليه فقيل : مقتضى حسن ظن المؤمنين بهؤلاء المعاندين ، حذف (لا) . وتوضيح ذلك بالمثال أنه إذا قيل لك : أكرم زيداً يكافئك ، قلت فى إنكاره : ما أدراك أنى إذا أكرمته يكافئنى ؟! فإن قيل : لا تكرمه فإنه لا يكافئك ، قلت فى إنكاره : ماأدراك أنه لا يكافئنى ؟! تريد : وأنا أعلم منه المكافأة . فمقتضى حسن ظن المؤمنين بالمشركين أن يقال : ومايدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ، فإثبات (لا) يعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت ، وأنت تنكر على من نفى .

وقد وجه الفتح بستة وجوه :

منها ـ جعل (لا) صلة ، كقوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ)(١) ، وقوله تعالى : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)(٢) أى: يرجعون . وضعّف الزجاج هذا الوجه ، بأن ما كان لغواً يكون كذلك على جميع التقديرات ، وليس كذلك هنا ، فإن (لا)

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

على قراءة الكسر ليست بصلة . وأجاب الفارسىّ بأنه لم لا يجوز أن يكون لغوًا على أحد التقديرين ، ومفيدًا على التقدير الثانى ؟ انتهى .

ومنها ـ جعل (أنّ) بمعنى (لعل) . قال الخليل : تقول العرب : ائت السوق أنك تشترى لناشيئًا ، أى لعلك . فكأنه تعالى قال : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الواحدىّ: « أن » بمعنى « لعل » كثير فى كلامهم ، قال[1] الشاعر :

أَرِينى جَوَادًا مات هَزْلًا لَأنَّنى   أَرَى مَا تَرَيْنَ أو بخيلًا مخلَّدًا

وقال عدىّ بن[2] حاتم :

أعاذلَ ما يُدْرِيكِ أنّ منيتى   إلى ساعةٍ فى اليومِ أو فى ضُحَى الْغَدِ

ويؤيده أن (يشعركم) و (يدريكم) بمعنى . وكثيرًا ما تأتى (لعل) بعد فعل الدراية، نحو (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ)[3] . وفى مصحف أبىّ (وَمَا أَدْرَاكَ لَعَلَّهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

ومنها ـ جعل (أن) بمعنى هل .

ومنها ـ جعل الكلام جواب قسم محذوف بناء على أن (إن) فى جواب القسم يجوز فتحها . والذى ارتضاه الزمخشرىّ وتبعه المحققون حمل الكلام على ظاهره ، وأن الاستفهام

---

(١) استشهد به الطبرىّ فى التفسير ، (ج ٣ ص ٧٨ طبعة المعارف) .

قال : يعنى بقوله « أرينى » دلينى عليه وعرفينى مكانه ، ولم يعن به رؤية العين .

واستشهد به مرة أخرى (ج ١٢ ص ٤٢ طبعة المعارف) قال : (لَأَننى) بمعنى لعلنى .

كما استشهد به المؤلف هنا .

(٢) استشهد به الطبرىّ فى التفسير (ج ١٢ ص ٤١ طبعة المعارف) قال : بمعنى (لعلّ منيتى) .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣] .

فى معنى النفى ، والإخبار عنهم بعدم العلم لا إنكار عليهم . والمعنى : وما يدريكم أن الآية التى يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها . يعنى : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرون ذلك .

قال فى (الانتصاف) : لما جاءت الآية تفهم، ببادىء الرأى، أن الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له ، والواقع على خلاف ذلك. اختلف العلماء (وساق نحو ماقدمنا فى الوجوه) ثم قال : وأما الزمخشرىّ فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها فى نصابها ، من غير حذف ولا تأويل . فقال قوله السالف . ونحن نوضح اطراده فى المثال المتقدم ، ليتضح بوجهيه فى الآية ، فنقول : إذا حرمت زيدا لعلمك بعدم مكافأته ، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان: حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره فى عدم العلم بما أحطت به علما . فإن أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافىء ؟ وإن عذرته فى عدم علمه بأنه لا يكافىء قلت : وما يدريك أنه لا يكافىء ؟ يعنى : ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لا تخبر أمره خبرى . فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين فى عدم علمهم بالمغيب فى علم الله تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء . فاستقام دخول (لا) وتعين ، وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار . انتهى

وفى نفى السبب ، وهو الإشعار ، مبالغة فى نفى المسبب ، وهو الشعور .

قال الخفاجىّ : وفى نفى المسبب بهذا الطريق مبالغة ليست فى نفيها بدونها ، لأن فى الكناية إثبات الشىء ببينة . وفيه تعريض بأن الله عالم بعدم إيمانهم ، على تقدير مجىء الآية المقترحة لهم ، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون . فعدم الإنزال لعدم الإيمان . و (يشعركم وينصركم) ونحوه ، قرىء بضم خالص وسكون واختلاس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ » عطف على (لا يؤمنون) ، داخل فى حكم (مايشعركم) ، مقيد بما قيد به . أى: ومايشعركم أنانقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلايفقهونه. وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكن لامع توجهها إليه ، واستعدادها لقبوله ، بل لكمال نبوّها عنه ، وإعراضها بالكلية . ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم ، إشعارا بأصالتهم فى الكفر ، وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار ـ أفاده أبو السعود ـ .

« كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ » أى : بما جاء من الآيات « أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى : قبل سؤالهم الآيات التى افترحوها ، « وَنَذَرُهُمْ » أى : ندعهم «فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» أى : يترددون متحيرين ، لا نهديهم هداية المؤمنين .

قال أبو السعود (ونذرهم) عطف على (لا يؤمنون) ، داخل فى حكم الاستفهام الإنكارىّ ، مقيد بما قيد به ، مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ، ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره ، بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق ، مع توجههم إليه، واستعدادهم له بطريق الإجبار ، بل بأن يخليهم وشأنهم ، بعد ماعلم فساد استعدادهم ، وفرط نفورهم عن الحق ، وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا،ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم، كما أشرنا إليه . انتهى

وفى (اللباب): فى الآية دليل على أن الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ،وأن

القلوب والأبصار بيده وفى تصريفه ، فيقيم ما شاء منها ، ويزيغ ما أراد منها . ومنه قوله ﷺ[١] : يامقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك . انتهى .

ثم بين تعالى كذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ » أى: ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة ، بل نزلنا إليهم الملائكة ، كما قالوا (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ)[٢] .
«وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ» كما قالوا (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٣] ، «وَحَشَرْنَا» أى : جمعنا « عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ » من الحيوانات والنباتات والجمادات ، « قُبُلًا » أى : كفلاء بصحة ما بشروا به وأنذروا « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » لغلوهم فى التمرد والطغيان ، « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى : إيمانهم فيؤمنوا ، « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » أى :

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القَدَر ، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين إصبعى الرحمن ، ونصه :

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ! آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم . إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء » .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] ونصها : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٤٤ / الدخان / ٣٦] .

إنهم لو أوتوا كل آية لم يؤمنوا ، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون . أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .

قال القاشانيّ : وفي الحقيقة لا اعتبار بالإيمان المرتب على مشاهدة خوارق العادات ، فإنه ربما كان مجرد إذعان لأمر محسوس ، وإقرار باللسان ، وليس في القلب من معناه شيء ، كإيمان أصحاب السامريّ . والإيمان لا يكون إلا بالجنان ، كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(١) .

تنبيهان :

الأول ـ يقرأ (قُبُلًا) بضم القاف والباء ، وفيه وجهان : أحدهما : هو جمع قبيل بمعنى الكفيل ، مثل قليب وقُلُب ؛ والآخر : أنه مفرد ، كقُبُل الإنسان ودُبُره . وعلى كلا الوجهين هو حال من كلّ . ويقرأ بالضم وسكون الباء على تخفيف الضمة. ويقرأ بكسر القاف وفتح الباء ، وانتصابه على الظرفية . كقولهم : لي قبل فلان حق . أو على الحالية ، وهو مصدر ، أي عياناً ومشاهدة .

الثاني ـ في قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) حجة واضحة على المعتزلة ، لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى ، حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه الأمة ، وحملة شريعتها على أنه ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وللمعتزلة تحيل في المدافعة بحمل المشيئة المنفية ، على مشيئة القسر والاضطرار . وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء . وأما وهو القدوة والمتبوع ، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه ، فإلى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال .

ثم سلّى تعالى نبيه عما كان يقاسيه من قومه ، بتأسيه بمن سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٤] . . . وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » أى : مثل ذلك الجعل الذى جعلناه فى حقك ، حيث جعلنا لك عدوّا يضادونك ولا يؤمنون ، جعلنا لكل نبيّ تقدمك عدوّا من مَرَدَة الإنس والجن ، فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، كما قال تعالى : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ)(١) . وقال ورقة بن نوفل للنبيّ ﷺ(٢) : لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودى .

« يُوحِي » أى : يلقى ويوسوس « بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ » أى : المموه منه ، المزين ظاهره ، الباطل باطنه ، « غُرُورًا » أى : للضعفاء ، لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب ، وكذا الغارّين، ليقهرهم بمقتضى استعدادهم . وفى الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بفعل الله سبحانه وتعالى، وخلقه .

قال المهايمىّ : لتظهر الحجج بمجادلتهم ، وترتفع شبهاتهم ، ولئلا يقال إنه شخص ساعده الكلّ ليأكلوا أموال الناس ، أو يتواسوا عليهم .

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ» أى : مافعلوا ذلك ، يعنى: معاداة الأنبياء ، وإيحاء الزخارف. وهو أيضاً دليل على المعتزلة . « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أى : من الكفر، فسوف يعلمون .

ثم عطف على قوله (غُرُورًا) علة ثانية للإيحاء بقوله تعالى :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٣] . . . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) هذه قطعة من الحديث الطويل الذى أخرجه البخارىّ فى: ١ ـ كتاب بدء الوحى، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف . روته سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

« وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ » أى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليغرّهم به ، ولتميل إليه « أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » لمساعدته لهم على أهوائهم ، « وَلِيَرْضَوْهُ » أى : لأنفسهم بعد ما مالت إليه قلوبهم ، « وَلِيَقْتَرِفُوا » أى : وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ، « مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ » أى : من الآثام .

قال القاشانىّ : فتقوى غوايتهم ، ويتظاهرون ، ويخرج ما فيهم من الشرور إلى الفعل ، ويزدادوا طغياناً وتعدياً على النبىّ ، فتزداد قوة كماله ، وتهيج أيضاً بسببه دواعى المؤمنين ، والذين فى استعدادهم مناسبة للنبىّ ، فتنبعث حميتهم ، وتزداد محبتهم للنبىّ ، ونصرهم إياه ، فتظهر عليهم كمالاتهم .

لطيفة :

إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة ، دون ما عداها من الأمور التى يجب الإيمان بها ، وهم بها كافرون ، إشعاراً بما هو المدار فى صَغْوِ أفئدتهم إلى مايلقى إليهم ، فإن لذّات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره ، وآلامها مزينة بالشهوات ، فالذين لايؤمنون بها ، وبأحوال ما فيها ، لايدرون أن وراء تلك المكاره لذات ، ودون هذه الشهوات آلاماً ، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم فى الدنيا بادىء الرأى ، فهم مضطرون إلى حب الشهوات ، التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ، ومموّهات الأباطيل . وأما المؤمنون بها ، فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال، ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات ، لعلمهم ببطلانها، ووخامة عاقبتها ـ أفاده أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

وقوله تعالى « أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً » على تقدير القول ، كما فى نظائره ، أى : قل لهم : أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منّا من المبطل . والمعنى : أطلب معبودًا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم ـ وهذا عندى أظهر ـ ثم رأيت فى (تنوير المقباس) الاقتصار عليه ، حيث قال (أَبْتَغِي حَكَماً) أعبد ربًّا . وأما كون الآية واردة على قولهم (اجعل بيننا وبينك حكمًا) فلا يصح ، لأنهم بمعزل عن الانصياع لذلك .

« وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ » أى : القرآن المعجز ، « مُفَصَّلًا » أى : مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم أمة أمية ، لا تدرون ما تأتون وما تذرون .

وفى الآية .

مسائل :

الأولى ـ قال فى (الإكليل) : استدل الخوارج بقوله تعالى (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً) على إنكارهم التحكيم . قال : وهو مردود ، فإن التحكيم المنكر أن يريد حكماً يحكم بغير ما حكم الله تعالى . انتهى .

قلت : هذا مبنىّ على الوجه الأول ، وقد عرفت أن الأظهر الوجه الثانى ، فلا استدلال، ولا ردَّ .

الثانية ـ قالوا : الحكم أبلغ من الحاكم ، وأدل على الرسوخ ، لما أنه لا يطلق إلا على العادل ، وعلى من تكرر منه الحُكْم ، بخلاف الحاكم .

الثالثة ـ فى الآية تنبيه على أن القرآن الكريم كافٍ فى أمر الدين، مغنٍ عن غيره، ببيانه وتفصيله .

« وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » لما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، ولتصديقه ما عندهم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ، ولم يخالط علماءهم . وهذا تقرير لكونه منزلًا من عند الله ببيان أن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى .

« فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أى : فى أنه منزل من ربك بالحق ، بسبب جحود أكثرهم وكفرهم به ، فيكون من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(١) .

قال ابن كثير : هذا كقوله تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)(٢). قال: وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه . ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » وقرئ (كلمات ربك) أى : بلغت الغايةَ أخباره وأحكامه ومواعيده « صِدْقًا » فى الأخبار والمواعيد « وَعَدْلًا » فى الأقضية والأحكام .

---

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤] ونصها : قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ . . .

(٢) [١٠ / يونس / ٩٤] .

وقال القاشانيّ : أي تم قضاؤه تعالى في الأزل بما قضى وقدر من إسلام من أسلم ، وكفر من كفر ، ومحبة من أحب ، وعداوة من عادى ، قضاءً مبرماً ، وحكماً صادقاً ، مطابقاً لما يقع ، عادلاً بمناسبة كل قول وكل كمال وحال ، لاستعداد من يصدر عنه واقتضائه له . انتهى .

« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أي : لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل. أوْ لاأحد يقدر أن يحرّفها شائعاً ذائعاً ، كما فعل بالتوراة . على أن المراد بها القرآن ، فيكون ضماناً لها منه تعالى بالحفظ ، كقوله (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(١) .

وقال القاشانيّ : أي لا مبدل لأحكامه الأزلية . انتهى .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : يستدل به من قال إن اليهود والنصارى لم يبدلوا لفظ التوراة والإنجيل ، وإنما بدلوا المعنى ، لأن كلمات الله لا تبدل . انتهى ـ وهو رواية(٢) عن ابن عباس ـ أخرجها البخاريّ في آخر صحيحه . وبسط المقام في ذلك الحافظُ ابن حجر في (فتح الباري) . وتقدم لنا في سورة البقرة شذرة من هذا البحث ، فجدد به عهداً .

« وَهُوَ السَّمِيعُ » لما يظهرون من الأقوال « الْعَلِيمُ » أي بما يخفون .

ثم حذر تعالى من الركون إليهم والعمل بآرائهم بقوله :

---

(١) [١٥ / الحجر / ٩] ونصها : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قوله الله تعالى: بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

وانظر في ذلك، وفي مثله ، كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخاريّ) ففيه كل ما صح عن ابن عباس. ونصه : يحرّفون ، يزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرّفونه يتأولونه على غير تأويله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ » أى : من النـاس ، وهم الكفار « يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى : عن الطريق الموصل إليه ، بتزيينهم زخارفهم عليك ، ودعوتهم إياك إلى ما هم فيه من اتباع الهوى ، كما قال « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهم يقلدونهم ، « وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه ، كاتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه ، وتحليل الميتة ، وتحريم البحائر. و (إنْ) فيه وفيما قبله نافية . والخرص : الحَزْرُ والتخمين ، وقد يعبر به عن الكذب والافتراء ، وأصله القول بالظن ، وقول ما لا يستيقن ويتحقق ـ قاله الأزهرىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » تقرير لمضمون الشرطية ، وما بعدها . وتأكيد لما يفيده من التحذير . أى : هو أعلم بالفريقين ، فاحذر أن تكون من الأولين . ـ أفاده أبو السعود ـ

تنبيه :

قال الرازىّ : تمسك نفـاة القياس بهذه الآية فقالوا : رأينا أن الله تعالى بالغ فى ذم الكفار فى كثير من آيات القرآن ، بسبب كونهم متبعين للظن . والشيء الذى يجعـله الله تعالى موجباً لذم الكفار ، لابد وأن يكون فى المعنى فى أقصى مراتب الذم . والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن ، فوجب كونه مذموماً محرّما . لا يقال : لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة ، كان العمل به عملًا بدليل مقطوع ، لا بدليل مظنون . لأنا نقول : هذا مدفوع من وجوه :

الأول ـ أن ذلك الدليـل القاطع إما أن يكون عقليًّا ، وإما أن يكون سمعيًّا ، والأول باطل ، لأن العقل لا مجال له فى أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لا سيما عند من ينـكر تحسين العقل وتقبيحه . والثانى أيضاً باطل ، لأن الدليل السمعىّ إنما يكون قاطعاً لو كان متواترًا ، أو كانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر ، سوى هذا المعنى الواحد. ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة ، ولارتفع الخلاف فيـه بين الأمة . فحيث لم يوجد ذلك ، علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود .

الثانى ـ هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة ، إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن . وبيانه أن التمسك بالقياس مبنىّ على مقامين : الأول : أن الحـكم فى محل الوفاق معلل بكذا . والثانى : أن ذلك المعنى حاصل فى محل الخلاف . فهذان المقامان، إن كانا معلومين على سبيل القطع واليقين ، فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء فى صحته . وإن كان مجموعهما ، أو كان أحدهما ظنيًّا ، فحينئذ لا يتم العمل بهـذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدالّ على أن متابعة الظن مذمومة . والجواب لِمَ لا يجوز أن يقال: الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أمارة ، وهو مثل اعتقاد الـكفار. أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستندًا إلى أمارة ، فهذا الاعتقاد لا يسمى ظنًّا ، وبهذا الطريق سقط هذا الاستدلال . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ)

وقوله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال . وذلك أنهم خاصموا المسلمين فقالوا: ماذبح الله لا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ـ أخرجه النسائى(١) عن ابن عباس ـ

(١) أخرجه النسائىّ فى: ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٤٠ ـ باب تأويل قول الله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

فنزلت الآية . والمعنى : كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه ، لرفعه تنجيس الموت إياه المانع من الأكل ، لا مما ذكر عليه اسم غيره ، أو مات حتف أنفه .

« إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه ، واجتناب ماحرمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)

وقوله تعالى : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ماذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب. أى : وأىّ غرض لكم فى أن تتحرجوا من أكله ، وما يمنعكم عنه ؟ « وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ » أى : بيّنه ووضحه .

قال بعض المفسرين : يعنى فى آية المائدة فى قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)... الآية(١) . وردّ بأن المائدة من آخر مانزل بالمدينة ، والأنعام مكية . فالصواب أن التفصيل إمّا

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فى قوله تعالى بعد هذه الآية (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...)(١) الآية ، فإنه ذكر بعدُ بيسير ، وهذا القدر من التأخر لايمنع أن يكون هوالمراد ؛ وإما على لسان الرسول، ثم أنزل بعد ذلك فى القرآن . و (فصل) و (حرم) قرىء كل منهما معلوماً ومجهولًا . ومعنى الآية : لا مانع لكم من أكل ما ذكر ، وقد بين لكم المحرم أكله ، وهذا ليس منه .

« إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ » أى : مما حرم عليكم . أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة ، فيباح لكم .

« وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ » قرئ بفتح الياء وضمها « بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : يضلون فيحرّمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم ، من غير تعلق بشريعة .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ » أى المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

تنبيه :

قال الرازىّ : دلت هذه الآية على أن القول فى الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام . انتهى .

وقال بعض الزيدية : فى الآية دلالة على تحريم الفتوى والحكم بغير دلالة ، ولكن اتباع الهوى .

ولما بين تعالى أنه فصل المحرمات ، أتبعه بما يوجب تركها بالكلية ، فقال سبحانه :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٥] ونصها : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

« وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ » أى : سيئات الأعمال والأقوال الظاهرة على الجوارح « وَبَاطِنَهُ » أى : مايسرّ منه بالقلب كالعقائد الفاسدة ، والعزائم الباطلة . أو مايعلن من الذنوب وما يسر منها ، ويستتر فيه .

قال السدىّ : ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه مع الخليلة والصدائق والأخدان . ولا يخفى أن اللفظ عامّ فى كل محرم ، ولذا قال قتادة : أى سره وعلانيته ، قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره . كقوله تعالى[١] : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ » أى : يكتسبون . قال الشهاب : الاقتراف فى اللغة الاكتساب ، وأكثر مايقال فى الشر والذنب . ولذا قيل: الاعتراف يزيل الاقتراف . وقد يرد فى الخير كقوله تعالى[٢] : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) انتهى .

وقد روى[٣] مسلم وغيره عن نوّاس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) [٧ / الأعراف / ٣٣] . . . وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] ونصها : ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا).

البرّ حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

قال الحاكم : فى الآية دلالة على أن العبد يؤاخذ بأفعال القلب ، كما يؤاخذ بأفعال الجوارح . اهـ. أى : على التفسير الأول فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » أى : عند ذبحه . أى : بأن ذكر عليه اسم غيره ، يعنى : ذبح لغيره تعالى . « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » والفسق ما أُهِلَّ لغير الله به ، كما فى الآية الآتية آخر السورة . قال المهايمىّ . (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) أى : خروج عن الحسن إلى القبيح ، بتناول ما تنجس بالموت بلا مانع عن تأثيره . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ » أى . يوسوسون « إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ » أى : من الكفار ، « لِيُجَادِلُوكُمْ » أى : فى تحليل الميتة ، « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ » أى : فى تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل ، « إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » أى : لهم مع الله ، فيما يختص به من التحليل والتحريم .

تنبيهات

الأول ـ روى فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى ناس إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ! إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله تعالى ، فأنزل الله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) إلى قوله : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » . أخرجه أصحاب السنن[٢] .

وفى رواية لأبى داود فى قوله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٨ـ١٢١] .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ١٢ ـ باب فى ذبائح أهل الكتاب، حديث ٢٨١٩

لِيُجَادِلُوكُمْ) قال : يقولون ما ذبح اللهُ ـ فلا تأكلوا ، وما ذبحتم أنتم فكلوا ؟ فأنزل الله تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) وفى أخرى : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) ، فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)[١] .

وعند النسائىّ[٢] قال : خاصمهم المشركون ، فقالوا : ماذَبَحَ اللهُ لاتأكلونه ، وماذبحتم أنتم أكلتموه ؟ ـ كذا فى تيسير الوصول .

الثانى ـ دلت الآية على مشروعية التسمية عند الذبح فقيل : باسم الله ، بهذا اللفظ الكريم . وقيل : بكل قول فيه تعظيم له كالرحمن ، وسائر أسمائه الحسنى ، لقوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ)[٣] ولقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا)[٤] .

الثالث ـ ماقدمناه من حمل الآية على ما ذبح لغير الله تعالى هو الأظهر فى تأويلها، لقوله تعالى بعدُ : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ » ومراعاة النظائر فى القرآن أولى ما يلتمس به المراد .

وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء قال : نزلت فى ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان ،

(١) فى الباب السابق ، حديث ٢٨١٨و٢٨١٧

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٤٠ ـ باب تأويل قوله عز وجل : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

(٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . . . أَيًّا مَّاتَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . . . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وذبائح المجوس . وقد حاول بعضهم أن يقويه فجعل الواو فى قوله : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) حالية ، لقبح عطف الخبر على الإنشاء . قال : والمعنى: لا تأكلوه حال كونه فسقاً . والفسق مجمل يفسره قوله : (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) ، فيكون النهى مخصوصاً بما أهل لغير الله به ، فيبقى ما عداه حلالاً ، إما بالمفهوم ، أو بعموم دليل الحل ، أو بحكم الأصل . واعترض على هذا الحمل بأنه يقتضى أن لا يتناول النهى أكل الميتة ، مع أنه سبب النزول ، وبأن التأكيد بـ (إن) و (اللام) ينفى كون الجملة حالية ، لأنه إنما يحسن فيما قصد الإعلام بتحققه ألبتة ، والرد على منكر تحقيقاً أو تقديراً (على ما بين فى المعانى) ، والحال الواقع فى الأمر والنهى مبناه على التقدير ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إن كان فسقاً ، فلا يحسن (وإنه لفسق) بل (وهو فسق) وأجيب عن الأول بأنه دخل بقوله : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) (مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) وبقوله : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ . . .) إلخ الميتة ، فيتحقق أن هذا النهى مخصوص بما ذبح على النصب ، أو مات حتف أنفه . وعن الثانى بأنه لما كان المراد بالفسق ههنا الإهلال لغير الله، كان التأكيد مناسباً ، كأنه قيل : لا تأكلوا منه إذا كان هذا النوع من الفسق الذى الحكم به متحقق ، والمشركون ينكرونه ـ كذا فى العناية ـ .

ومما يقويه أيضاً قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) على أن المراد به الخروج عن طاعة الله تعالى ، وهو وجه ثان فيه ، وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) فإن من أكل الميتة ، أو ما ذبح على النصب فسق ، ومع الاستحلال يكفر ، بخلاف ما ذبحه المسلم ولم يسمّ عليه ، فإن آكله لا يفسق ولا يكفر إجماعاً ـ أشار له الرازىّ ـ وحينئذ فلا دلالة فى الآية على تحريم ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها، عمداً أو سهواً .

وقد روى أبو داود فى (مراسيله) عن الصلت السدوسىّ قال : قال رسول الله ﷺ : ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكره ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنىّ عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله ، فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى .

واحتج البيهقىّ أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها أن قوماً قالوا للنبىّ ﷺ : إن قوماً يأتوننــا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ، فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثى عهــد بكفر ـ رواه البخارىّ[1] والنسائىّ ـ قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها . وكذا قال الخطابىّ : فيه دليل على أن التسمية غير شرط على الذبيحة ، لأنها لو كانت شرطاً لم تستبح الذبيحة بالأمر المشكوك فيـه ، كما لو عرض الشك فى نفس الذبيحة ، فلم يعلم هل وقعت الذكاة المعتبرة أم لا ؟ وهذا هو المتبادر من سياق الحــديث ، حيث وقع الجواب فيه : (سموا أنتم) ، كأنه قيل لهم : لا تهتموا بذلك ، بل الذى يهمكم أنتم أن تذكروا اسم الله وتأكلوا . وهــذا من الأسلوب الحكيم. ومما يدل أيضاً قوله تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)[2] فأباح الأكل من ذبائحهم ، مع وجود الشك فى أنهم سمّوا أم لا. هذا، وقد تمسك بظاهر الآية قوم فذهبوا إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، عمدًا تركت التسمية أو نسياناً . واحتجوا أيضاً بقوله تعالى فى آية الصيد: (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ)[3]، وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢١ ـ باب ذبيحة الأعراب ونحوهم ، حديث ١٠٣٨ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥] ونصها : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٤] ونصها : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ =

كحديثى عدىّ[١] بن حاتم وأبى ثعلبة[٢] : إذا أرسلت كلبك المعلَّم ، وذكرت اسم الله فكل ، وهما فى الصحيحين .

= الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيد، حديث ١٤١ ونصه :

عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قوم نتصيد بهذه الكلاب ؟ فقال « إذا أرسلت كلابك المعلَّمة ، وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليك ، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه . وإن خالطها كلب من غيرها فلا تأكل » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٠ ـ باب ماجاء فى التصيد، حديث رقم ٢١٩٨ ونصه :

عن أبى إدريس عائذ الله قال : سمعت أبا ثعلبة الخُشَنِىّ رضى الله عنه يقول : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! إنا بأرض قومٍ أهلِ الكتاب ، نأكل فى آنيتهم . وأرض صيد أصيد بقوسى وأصيد بكلبى المعلّم والذى ليس معلَّما . فأخبرْنى ما الذى يحل لنا من ذلك . فقال « أما ما ذكرت أنك بأرض قومٍ أهلِ الكتاب تأكل فى آنيتهم ، فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها . وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها . وأما ما ذكرت أنك بأرض صيد ، فما صدتَ بقوسك فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك المعلَّم فاذكر اسم الله ثم كل . وما صدت بكلبك الذى ليس معلَّما ، فأدركتَ ذكاتَه ، فكل » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

وحديث رافع بن خديج[١] : ما أنهر الدمَ وذُكِر اسمُ الله فكلوه ـ في الصحيحين أيضاً ـ .
وحديث ابن مسعود[٢] أن رسول الله ﷺ قال للجنّ : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه ـ رواه مسلم ـ .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٥ ـ باب التسمية على الذبيحة ، ومن ترك متعمدًا ، حديث ١٢٣٠ .

عن عَبَايَةَ بن رِفاعَةَ بن رافع عن جده رافع بن خَدِيج قال : كنا مع النبيّ ﷺ بذي الحُلَيْفة . فأصاب الناسَ جوعٌ . فأصبنا إبلا وغنما . وكان النبيّ ﷺ في أخريات الناس ، فعجلوا فنصبوا القدور ، فدُفع إليهم النبيّ ﷺ . فأمر بالقدور فأكفئت . ثم قَسَم فعدل عشرة من الغنم ببعير . فندّ منها بعير . وكان في القوم خيل يسيرة فطلبوها فأعياهم . فأهوى إليه رجل بسهم فحبسه الله .

فقال النبيّ ﷺ «إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش . فما ندّ عليكم فاصنعوا به هكذا» .
قال ، وقال جدّي : إنا لنرجو (أو نخاف) أن نلقى العدوّ غدًا . وليس معنا مُدًى ، أفنذبح بالقصب ؟ فقال « ما أنهر الدمَ وذُكر اسم الله عليه ، فكل . ليس السنّ والظفرَ . وسأخبركم عنه . أما السنّ فعظم ، وأما الظفر فمُدَى الحبشة » .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ ـ كتاب الأضاحيّ ، حديث ٢٠ ـ ٢٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٥٠ (طبعتنا) ونصه :

عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا . ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة . ففقدناه . فالتمسناه في الأودية والشِّعاب . فقلنا : استُطِير أو اغْتِيل (معنى استطير : طارت به الجن . ومعنى اغتيل : قُتِل سرًّا . والغِيلة هي القتل خِفيةً) . =

وحديث جندب بن سفيان البجلىّ قال[١] : قال رسول الله ﷺ : من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا ، فليذبح باسم الله ـ أخرجاه ـ .

قالوا : ففى هذه الأحاديث إيقاف الإذن فى الأكل على التسمية ، والمعلق بالوصف ينتفى عند انتفائه ، عند من يقول بالمفهوم . والشرط أقوى من الوصف .

واحتجوا أيضاً بحديث عائشة المتقدم (سموا عليه أنتم وكلوا) . قالوا : إن القوم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك ، لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح ، إن لم تكن وجـدت . أى : فتسميتكم الآن تستبيحون بها كل ما لم تعلموا أَذَكَرُوا اسم الله عليه

= قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَلِ حراءَ . قال فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم .

فقال « أتانى داعى الجن فذهبت معه . فقرأت عليهم القرآن » .

قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال « لـكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم ، أوفرَ ما يكون لحما . وكل بعرة علفٌ لدوابّـكم » .

فقال رسول الله ﷺ « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانـكم » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ١٧ ـ باب قول النبىّ ﷺ : فليذبح على اسم الله ، حديث رقم ٥٦٢ ونصه :

عن جندب بن سفيان البجلىّ قال : ضحينا مع رسول الله ﷺ أضحيةً ذات يوم . فإذا أناس قد ذبحوا ضحاياهم قبل الصلاة . فلما انصرف رآهم النبىّ ﷺ أنهم قد ذبحوا قبل الصلاة فقال « من ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى . ومن كان لم يذبح حتى صلينا ، فليذبح على اسم الله » .

وأخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث ١ ـ٣ (طبعتنا) .

أم لا ، إذا كان الذابح ممن تصح ذبيحته إذا سمّى . قالوا : ويستفاد منه أن كل ما يوجد في أسواق المسلمين محمول على الصحة ، وكذا ما ذبحه أعراب المسلمين ، لأن الغالب أنهم عرفوا التسمية . انتهى .

وأجاب من حمل الآية على الوجه الأول؛ بأن الأمر في حديث عديّ وأبي ثعلبة محمول على التنزيه، من أجل أنهما كانا يصيدان على مذهب الجاهلية ، فعلمهما النبيّ ﷺ أمر الصيد والذبح ، فرضه ومندوبه ، لئلا يوافقا شبهة في ذلك ، وليأخذا بأكمل الأمور . وأما الذين سألوا عن تلك الذبائح ، فإنهم سألوا عن أمر قد وقع لغيرهم ، فعرّفهم بأصل الحل فيه .

وقال ابن التين : يحتمل أن يراد التسمية هنا عند الأكل ، وبذلك جزم النوويّ .

وأما التسمية على ذبحٍ تولاه غيرهم ، فلا تكلف عليهم فيه ، وإنما يحمل على غير الصحة إذا تبين خلافها .

وقال المهلب : هذا الحديث أصل في أن التسمية ليست فرضاً . فلما نابت تسميتهم عن التسمية على الذبح ، دل على أنها سنة ، لأن السنة لا تنوب عن فرض . انتهى .

وذهب بعض من اشترط التسمية في الحل إلى جواز أكل ما تُرِكَتْ عليه سهوًا لا عمدًا . واحتج بما رواه البيهقيّ عن ابن عباس مرفوعاً : المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يسمي حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله . قال الحافظ ابن كثير : وَرَفْعُهُ خطأ . والصواب وقفه على ابن عباس ، من قوله . نصّ عليه البيهقيّ . واحتج أيضاً بالحديث المرويّ من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس[1] وأبي هريرة[2] وأبي ذر[3] وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو

(١) أخرجه ابن ماجة في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسي، حديث ٢٠٤٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسي، حديث ٢٠٤٤ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه ابن ماجة في : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ١٦ ـ باب طلاق المكره والناسي، حديث ٢٠٤٣ (طبعتنا) .

عن النبيّ ﷺ : إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

ورواه الطبرانىّ عن ثوبان مرفوعاً بلفظ : رفع عن أمتى الخطأ . . . الحديث .

وروى ابن عدىّ عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! أرأيتَ الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ! فقال النبىّ ﷺ : اسم الله على كل مسلم .

قال ابن كثير : وإسناده ضعيف .

وقد علمت الأظهر فى تأويل الآية أولا ـ والله أعلم ـ .

الرابع ـ قال ابن جرير[1] : اختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل نُسِخ من حُكمها شىء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شىء ، وهى محكمة فيما عُنِيَتْ به . وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم .

وروى عن الحسن البصرىّ وعكرمة أنه تعالى نسخ من هذه الآية واستثنى قوله : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) . وروى ابن أبى حاتم عن مكحول أيضاً أنه تعالى نسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ ههنا، فإنما أراد التخصيص . انتهى.

وقد قدمنا فى المقدمة أنه علم من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغوىّ ، الذى هو إزالة شىء بشىء ، لا بإزاء مصطلح الأصوليين . فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى. إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غيره ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عامّ ، وغير ذلك مما أسلفنا ، فتذكر !

(١) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثانى عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

الخامس ـ قال الزجاج : فى قوله تعالى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى ، فهو مشرك. وإنما سمى مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى . وهذا هو الشرك . انتهى .

وقال ابن كثير : (إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدّمتم عليه غيره ، فهذا هوالشرك . كقوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . . .)[1] الآية . وقد روى الترمذىّ[2] فى تفسيرها عن عدىّ بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ! ما عبدوهم. قال : إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم . فذاك عبادتهم إياهم . انتهى .

السادس ـ قال الكعبىّ : الآية حجة على أن (الإيمان) اسم لجميع الطاعات ، وإن كان معناه فى اللغة التصديق ، كما جعل تعالى (الشرك) اسماً لكل ما كان مخالفاً لله تعالى ، وإن كان فى اللغة مختصاً بمن يعتقد أن لله شريكاً ، بدليل أنه تعالى سمى طاعة المؤمنين للمشركين، فى إباحة الميتة، شركاً .

---

(١) [٩ / التوبة / ٣١] . . . وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفىّ . ونصه :

عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبىّ ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب . فقال « ياعدىّ! اطرح عنك هذا الوثن » .

وسمعته يقرأ فى سورة براءة : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . قال « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه » .

وتعقبه الرازىّ؛ بأنه لِمَ لايجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن لله شريكاً فى الحكم والتكليف ؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط . انتهى .

ثم ضرب تعالى مثلًا للمؤمن والكافر ، لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين ، إثر تحذيرهم عنها ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » مثل به من هداه الله بعد الضلالة ، وبصّره بنور الحجج والآيات ، يتأمل بها فى الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، والمهتدى والضالّ ، بمن كان ميتاً فأعطاه الحياة ، وما يتبعها من القوى المدركة والمحرّكة . ومن بقى على الضلالة ، بالخابط فى الظلمات ، لا ينفك منها ، ولا يتخلص ، فهو متحيّر على الدوام . « كَذَٰلِكَ » أى : مثل ذلك التزيين البليغ « زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى: من فنون الكفر والمعاصى ، ولذا جادلوا بها الحق ، وأصروا عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

وقوله تعالى :« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا » تسلية للنبىّ صلى ﷺ . أى : كما جعلنا بمكة كبراء ليمكروا على أتباعهم فى تزيين الباطل ، وستر الحق ـ جعلنا فى كل قرية، أرسلنا إليها الرسل، أكابرها المجرمين ، متصفين بصفات

المذكورين ، مزيناً لهم أعمالهم ، مصرين على الباطل ، مجادلين به الحق ، ليفعلوا المكر فيها على أتباعهم بالتلبيس ، ليتركوا متابعة الرسل .

قال ابن كثير : المراد بـ (المكر) ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف المقال والفعال ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)[١] ، وكقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا...)[٢] الآية.

وقال الزمخشري : خص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال ، والماكرون بالناس ، كقوله : (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)[٣] .

«وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» أي : ما يضرون بمكرهم إلا أنفسهم، لأن وباله يحيق بهم ، كما قال تعالى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ)[٤] . وقال :

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٢] .

(٢) [٣٤/ سبأ/ ٣١ـ٣٣] ونصها: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، . . . . . . وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) [١٧ / الإسراء [١٦] ونصها : وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا .

(٤) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] . . . وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)(١) . قال الزمخشرى : هذه تسلية لرسول الله ﷺ ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)

« وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ » أى : برهان وحجة قاطعة « قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ » أى : من الوحى والمعجزات المصدقة له . كقوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...)(٢) الآية. وقوله سبحانه : (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً)(٣) .

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفى للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها ، فيليق للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيره انكشافه له ، لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم .

وقد روى الإمام(٤) أحمد عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل ، بنى

---

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . . . لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٥٢] .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

كنانة . واصطفى من بنى كنانة ، قريشاً ، واصطفى من قريش ، بنى هاشم . واصطفانى من بنى هاشم . وانفراد بإخراجه مسلم[١] أيضاً.

وروى الإمام أحمد[٢] عن المطّلب بن أبى وَدَاعَةَ عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً .

« سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ » أى : ذلة وهوان بعد كبرهم وعظمتهم «عِنْدَ اللهِ» أى : يوم القيامة ، جزاء على منازعتهم له تعالى فى كبره بردّ آياته ورسالته ، واعتراضهم عليه فى تخصيصه بالرسالة غيرهم ، « وَعَذَابٌ شَدِيدٌ » يعنى : فى الآخرة . « بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ » فى الدنيا إضرارًا بالأنبياء .

قال ابن كثير : لما كان المكر غالباً ، إنما يكون خفيًّا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة ، جزاء وفاقاً . ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان .

(١) وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٧٨٨ (طبعة المعارف) ونصه :

قال العباس : بلغه ﷺ بعضُ ما يقول الناس . قال فصعِد المنبر فقال « مَنْ أنا ؟ قالوا: أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة . وخلق القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة . وجعلهم بيوتاً ، فجعلنى فى خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً وخيركم نَفْسًا » .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخارىّ : =

والحكمة فى هذا، أنه لما كان الغدر خفيًّا لايطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير عَلَماً منشورًا على صاحبه بما فعل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ » أى: للتوحيد « يَشْرَحْ » أى : يوسع « صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » بتصقيله بنور الهداية، فيقبل نورالحق ، كماقال تعالى : (وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)(١) .

= عن ابن مسعود وأنس فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ ـ باب إثم الغادر للبر والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٣و١٥٠٤ .

وأخرجه عن ابن عمر فى هذا الباب ، حديث رقم ١٥٠٥ .

وعن ابن عمر أيضاً فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٩ ـ باب ما يدعى الناس بآبائهم ، من طريقين .

وفى : ٩٠ ـ كتاب الحيل ، ٩ ـ باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت .

وفى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢١ ـ باب إذا قال عند قوم شيئاً ، ثم خرج فقال بخلافه .

وأخرجها مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٩ـ١٤ (طبعتنا) .

وفى هذه الأحاديث كلهن لم ترد (عند استه) .

أماالحديث الذى وردت به، فهو ما انفرد به مسلم وأخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ١٥ (طبعتنا) عن أبى سعيد الخدرىّ .

(١) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ =

روى عبد الرزاق أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ قال : نور يقذف فيـــه فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . ورواه ابن جرير(١) وابن أبى حاتم . قال ابن كثير : وللحديث طرق مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً .

« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » أى : شديد الضيق ، فلا يتسع للاعتقادات الصائبة فى الله ، والأمور الأخروية .

قال أبو البقاء : حرِجًا (بكسر الراء) صفة لـ(ضيّقا) ، أو مفعول ثالث ، كما جاز فى المبتدأ أن تخبر عنه بعدة أخبار . أويكون الجميع فى موضع خبر واحد، كـ(حلوحامض). وعلى كل تقدير، هو مؤكد للمعنى . ويقرأ بفتح الراء ، على أنه مصدر . أى: ذا حرج . وقيل: هوجمع حَرَجَة، مثل قصبة وقصب ، والهاء فيه للمبالغة . انتهى .

وقوله تعالى « كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ » أى : يتكلف الصعود فى جهة السماء ، وطبعه يهبط إلى الأرض ، فشبه ، للمبالغة فى ضيق صدره، بمن يزاول أمرًا غير ممكن . لأن صعود السماء مثلٌ فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه القدرة . وقيل : معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبوًّا عن الحق ، وتباعدًا فى الهرب منه . وأصل (يصّعّد) يتصعد من(الصعود) .

« كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » فى الاعتقادات والأخلاق . والرجسُ ما استقذر من العمل ، وسمى بذلك مبالغة فى ذمه .

= يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

(١) الأثر رقم ١٣٨٥٣ من التفسير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَهَٰذَا » أى: البيان الذى جاء به القرآن، أو طريق التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله « صِرَاطُ رَبِّكَ » أى : طريقه الذى ارتضاه « مُسْتَقِيماً » لا ميل فيه إلى إفراط وتفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال . أو لا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به .

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » أى : المعارف والحقائق التى هى مركوزة فى استعدادهم ، فيهتدوا بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ » أى : السلامة من المكاره ، وهى الجنة ، لكونهم فى مقام القرب ، « عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ » يتولاهم بمحبته ، ويجعلهم فى أمانه ، « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى : بسبب أعمالهم الصالحة فى سلوكهم صراطه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » أى : اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم ، وتنذرهم به ، يوم نحشرهم جميعاً ، يعنى : الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً .

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ » أى : نقول : يا معشر الجن ! يعنى : الشياطين . قال المهايمىّ : خصهم بالنداء لأنهم الأصل فى المكر . « قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ » أى : من إغوائهم وإضلالهم . أومنهم ، بأن جعلتموهم أتباعكم ، وأهل طاعتكم ، وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية ، واللذات الجسمانية عليهم ، ووسوستكم لهم بالمعاصى ، فحشروا معكم . وهذا بطريق التوبيخ والتقريع .

« وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ » أى : الذين أطاعوهم وتولوهم « مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ » قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعملت الإنس. أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة، على اللذات الغائبة « وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا » أى : بالموت ، أو بالمعاد الجسمانىّ على أقبح صورة ، وأسوأ عيش .

قال أبو السعود : قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وإظهارًا للندامة عليها ، وتحسرًا على حالهم ، واستسلامًا لربهم . ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين ، للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلًا .

« قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ » أى : منزلكم ، كما أن دار السلام مثوى المؤمنين .

« خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » قال القاشانىّ : أى إلا وقت مشيئته أن تخفف ، أو ينجى منكم من لا يكون سبب تعذيبه شركاً راسخًا فى اعتقاده .

وقال المهايمىّ : أى إلّا وقت مشيئته أن ينقلكم منها إلى الزمهرير، انتقالكم من شهوة إلى أخرى .

وقال الزمخشرىّ : أى يخلدون فى عذاب النار ، الأبَد كلَّه ، إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار ، إلى عذاب الزمهرير . فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول

الموتور الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه : أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت . وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد . فيكون قوله (إلا إذا شئت) من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد ، لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع . انتهى .

قال الخفاجىّ : لما كان الخطاب للكفرة ، وهم لا يخرجون من النار ، لأن ما قبله بيان حالهم ، فيبعد جعله شاملًا للعصاة ، ليصح الاستثناء باعتباره ، مع أن استعمال (ما) للعقلاء قليل - وَجَّهُوهُ بأن المراد النقل من النار إلى الزمهرير ، أو المبالغة فى الخلود ، بمعنى أنه لا ينتفى إلا وقت مشيئة الله ، وهو مما لا يكون مع إبرازه فى صورة الخروج وإطماعهم فى ذلك تهكمًا وتشديدًا للأمر عليهم . و (ما) مصدرية وقتية . أو إن المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول .

وردّ الأول بأن فيه صرف النار من معناها العلمىّ ، وهو دار العذاب ، إلى اللغوىّ . وأجيب عنه بأنه لا بأس بالصرف إذا دعت إليه ضرورة . وقيل عليه : إن المعترض لا يسلم الضرورة ، لإمكان غير ذلك التأويل . مع أن قوله (مَثْوَاكُمْ) يقتضى ماذهب إليه المعترض بحسب الظاهر . وردّ الأخير أبو حيّان بأنه فى الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج ، والمخرج منه ، فإذا قلت : قام القوم إلا زيدًا ، فمعناه : إلا زيدًا ما قام . ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيدًا ما يقوم فى المستقبل . وكذلك سأضرب القوم إلا زيدًا ، معناه : إلا زيدًا فإنى لا أضربه فى المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيدًا فإنى ما ضربته قبلُ ، إلا إذا كان استثناء منقطعًا ، فإنه يسوغ ، كقوله : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ . فإنهم ذاقوها . ولك أن تقول : إن القائل به يلتزم انقطاعه ، كما فى الآية التى ذكرها ، ولا محذور فيه ، مع ورود مثله فى القرآن ، وفيه نظر . وقيل : إنه غفلة عن تأويل الخلود بالأبد ، والأبد لا يقتضى الدخول . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : قد ثبت خلود الكفار فى العذاب ثبوتًا قطعيًّا ، فمن ثم

اعتنى العلماء بالـكلام على الاستثناء فى هذه الآية ، وفى أختها فى سورة هود . فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللـكفار ، والمستثنى العصاة ، لأنهم لا يخلدون ـ وقدعلمت بُعْدَه ـ .

ثم قال : وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى : مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة ، والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلىّ فى مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وإن ذلك ليس بأمر واجب عليه ، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عزوجل . وفيها على هذا الوجه دفع فى صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الـكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحـكمة ، وأنه لا يجوز فى العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف، إنما يظهر بالبسط فقال : المراد ـ والله أعلم ـ إلا ما يشاء من زيادة العذاب . ولم يبين وجه الاستثناء . والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه فى الحـكم ، ونحن نبيّنه فنقول : العـذاب ـ والعياذ بالله ـ على درجات متفاوتة ، كأن المراد أنهم مخلدون فى جنس العـذاب إلا ماشاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تـكاد لبلوغها الغاية ، ومباينتها لأنواع العذاب فى الشدة، تعدّ ليس من جنس العذاب ، وخارجة عنه . والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد ، كما تقدم فى التعبير عن كثرة الفعل بـ (رُبَّ) و (قَدْ) ، وهما موضوعان لضد الـكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد فى لغة العرب . وقد حام أبو الطيب[1] حوله فقال :

لقد جدتَ حتى كاد يبخل حاتم ... للمنتهى ومن السرور بكاء

---

(١) نص البيت فى ديوانه ، شرح اليازجىّ والبرقوقىّ هكذا :

وَلَجُدْتَ حتى كدتَ تبخلُ حائلًا ... للمنتهى ، ومن السرورِ بكاء =

فكأنّ هؤلاء إذا نقلوا إلى غاية العذاب ، ونهاية الشدة ، فقد وصلوا إلى الحد الذى يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته فى التعبير بمعاملة المغاير . وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط .

وفى تفسير ابن عباس رضى الله عنه ما يؤيده . انتهى .

وفى الآية تأويلات أخر :

منها : ما نقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه تعالى استثنى قوماً قد سبق علمه أنهم يُسلمون ويصدقون النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكىّ ، وأن (ما) بمعنى (من) .

= وقال اليازجىّ فى شرحه :

حائلًا أى متغيرا . والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء واللام متعلقة بـ (كدت) وقوله : ومن السرور بكاءُ ، مبتدأ وخبر .

يقول : قد جدت حتى لم تترك فى الجود غاية إلا انتهيت إليها . وحينئذ كدت تحول إلى البخل لأنك قد بلغت منتهى الجود ، كما يحول السرور عند اشتداده إلى البكاء .

وقال البرقوقىّ :

حائلا متحولا . وللمنتهى أى لأجل الانتهاء ، ومن السرور خبر ، وبكاء مبتدأ . والجملة استئنافية . يقول : ولقد بلغت من الجود أقصاه حتى كدت تتحول عن آخره حين تناهيت إليه . إذ ليس من شأنك أن تقف فى الكرم عند غاية . وليس هناك جود بعد أن بلغت نهايته . ومثل ذلك السرور ، إذا اشتد تحول إلى بكاء .

والبيت من قصيدة مطلعها :

أَمِنَ ازديارَكِ فى الدُّجى الرُّقَباءُ إذ حيث أنتِ من الظَّلامِ ضياءُ

يمدح بها أبا علىّ ، هرون بن عبدالعزيز الأوراجىّ الكاتب . وكان يذهب إلى التصوّف .

فأين هذا من نصه الذى ساقه الزجاج ، على ما فيه ؟؟!

ومنها : أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ، ويخرجون من النار ، فإذا توجهوا للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم . وهو معنى قوله[١] : (فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) . قال الشريف المرتضى في (الدرر): فإن قيل: أي فائدة في هذا الفعل، وما وجه الحكمة فيه؟ قلنا: وجه الحكمة فيه ظاهر ، لأن ذلك أغلظ على نفوسهم، وأعظم في مكروههم، وهو ضرب من العقاب الذي يستحقونه بأفعالهم القبيحة . لأن من طمع في النجاة والخلاص من المكروه ، واشتد حرصه على ذلك ، ثم حيل بينه وبين الفرج ، وردّ إلى المكروه ، يكون عذابه أصعب وأغلظ من عذاب من لا طريق للطمع عليه ـ كذا في العناية ـ .

ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أي : إلا وقت مشيئته فناءها ، وزوال عذابها .

قال السيوطيّ في (الدر المنثور) : أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضي الله عنه : لو لبث أهل النار في النار ، كقدر رمل عالج ، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه . وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن أيضاً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ونقل هذا عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . انتهى .

وقد انتصر لهذا القول جماعة. قالوا : وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم ، كله حق مسلّم لا نزاع فيه . وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب مادامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد ، ففرق بين من يخرج من الحبس ، وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وقد بسط البحث في ذلك وجوّده الإمام ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح) ، ومع كونه انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً ، وذكر له خمسة وعشرين دليلا ، لم يصححه ، حيث قال : أما أبدية الجنة ، وأنها لا تفنى ولا

---

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٤] .

تبيد ، فما يعلم بالاضطرار ، ولم يقل بفنائها أحد . ومن قال به ـ كالجهمية ـ فهو ضال مبتدع منحرف عن الصواب ، وليس له فى ذلك سلف . وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف ، والأصح عدم فنائها أيضاً . انتهى.

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط هذا المقام فى آية هود .

وقد روى ابن جرير(١) وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية أنه قال : لاينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه . لا ينزلهم جنة ولا نارًا .

« إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ » فلا يعذب إلا على ما تقتضيه الحكمة ، « عَلِيمٌ » أى : بمن يعذب بكفره ، فيدوم عذابه . أو بسيآت أعماله ، فيعذب على حسبها ، ثم ينجو منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ » أى : من الإنس « بَعْضًا » أى : نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال ، كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، « بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى : بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى.

قال الرازىّ : لأن الجنسية علة الضم . فالأرواح الخبيثة تنضم إلى مايشا كلها فى الخبث. وكذا القول فى الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشا كله فى النصرة والمعونة والتقوية .

---

(١) الأثر رقم ١٣٨٩٢ من التفسير ، ونصه :

عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) قال : إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه . لا ينزلهم جنة ولا نارا .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : الآية معنى حديث (كما تكونون يولَّى عليكم) أخرجه ابن قانع فى معجم الصحابة من حديث أبى بكرة . انتهى .

وأسند فى (الجامع الصغير) تخريجه إلى الديلميّ فى (الفردوس) عن أبى بكرة ، وإلى البيهقيّ ، عن أبى إسحاق السبيعيّ مرسلا ـ ورمز له بالضعف ـ .

وأسند فى (الدر المنثور) عن منصور بن الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ ما سمعتَهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتُهم يقولون : إذا فَسَدَ الناسُ أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وأخرج نحوه عن مالك بن دينار وكعب والحسن .

قال أبو الليث السمرقنديّ فى (تفسيره) : ويقال فى معنى الآية : نسلط على بعض الظالمين بعضاً فيهلكه أو يذلّه . قال : وهذا كلام لتهديد الظالم ، لكى يمتنع عن ظلمه . ويدخل فى الآية جميع من يَظْلِمُ : من راع فى رعيته ، وتاجر فى تجارته ، وسارق ، وغيرهم .

قال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم ، فقف وانظر فيه متعجباً . انتهى .

وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

ثم بين تعالى ما سيكون من توبيخ الكفار من الفريقين يوم القيامة ، إثر بيان توبيخ الجن بإغواء الإنس وإضلالهم ، وَأَعْلَمَ أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بالكفر ، وأنهم لم يعذبوا إلا بالحجة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

« يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى الدنيا « رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي » بالأمر والنهى « وَيُنْذِرُونَكُمْ » يخوفونكم « لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » وهو يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه أفانين الأهوال . « قَالُوا » يعنى الجن والإنس . « شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا » أى : أقررنا بإتيان الرسل وإنذارهم ، وبتكذيب دعوتهم ، كما فصّل فى قوله تعالى[١]:(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

« وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى : ما فيها من الزهرة والنعيم ، وهو بيان لما أدّاهم فى الدنيا إلى الكفر « وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ » أى : فى الآخرة . قال المهايمىّ : بعد شهادة جوارحهم « أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » أى : فى الدنيا بما جاءتهم الرسل .

تنبيهات

الأول ـ استدل بقوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) مَن قال إن الله بعث إلى الجن رسلًا منهم . وحكاه ابن جرير[٢] عن الضحاك بن مزاحم ، والأكثرون على أنه لم يكن من الجن رسول ، وإنما كانت الرسل من الإنس فقط . نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

قال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذُرٌ . وأجابوا عن ظاهر الآية بأن فيها

(١) [٦٧ / الملك / ٩] .

(٢) الأثر رقم ١٣٨٩٦ من التفسير .

مضافاً . أى : من أحدكم ، وهم الإنس . أو من إضافة ماللبعض للكل ، كقوله تعالى : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ)(١) وإنما يخرجان من أحدهما ، وهو الملح دون العذب . وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع فى قوله : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)(٢) وهو جائز فى كل ما اتفق فى أصله . فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز ، مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين ، وهم الإنس . وهذا قول الفرّاء والزجاج .

وقال أبو السعود : المعنى : ألم يأتكم رسل من جملتكم ، لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً ، بل من الإنس خاصة . وإنما جعلوا منهما، إمالتأكيد وجوب اتباعهم، والإيذان بتقاربهما ذاتاً ، واتحادهما تكليفاً وخطاباً ، كأنهما من جنس واحد . ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر . وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل . وقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن ، وأنذروا به قومهم ، حيث نطق به قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ...)(٣) إلى قوله تعالى : (وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)(٣) . انتهى .

وهكذا فى عهد كل رسول لايبعد أنه تعالى كان يلقى الداعية فىقلوب قوم من جنّ عصره فيسمعون كلامهم، ويأتون قومهم من الجن ، ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل ، وينذرونهم به . وقد سمى تعالى رسل عيسى رسل نفسه فقال : (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ)(٤) وتحقيق القول فيه : أنه تعالى إنما بكّت الكفار بهذه الآية ، لأنه تعالى أزال العذر ، وأزاح العلة ، بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين . فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .
(٢) [٥٥ / الرحمن / ١٩] ونصها : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ .
(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . . . فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ .
(٤) [٣٦/ يس/١٤] . . . فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ .

الطريق ، فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر ، وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلاً ـ كذا قرره الرازي ـ .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على أن الرسل من الإنس قوله تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...)(١) إلى قوله تعالى : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)(٢). وقوله تعالى عن إبراهيم : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)(٣) فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته . ولم يقل أحد: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم ، ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)(٤). وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ)(٥) . ومعلوم أن الجن تتبع للإنس في هذا الباب . انتهى .

الثاني ـ إن قيل : ما السبب في أنهم أقروا في هذه الآية بالكفر ، وجحدوه في قوله :

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] . . . وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . . . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] ونصها : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . . . وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

(٥) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . . . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

(وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[1]؟ قلنا: يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرّون ، وأخرى يجحدون . وذلك يدل على شدة خوفهم ، واضطراب أحوالهم ، فإن مَن عظم خوفه ، كثر الاضطراب في كلامه ـ أفاده الرازيّ ـ .

زاد الزمخشريّ : أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم .

الثالث ـ إن قيل : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ أجيب : بأن الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؛ والثانية ذم لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا، واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم، واستيجاب عذابه . وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم ـ كذا في (الكشاف) ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ » إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتبيين الآيات ، وإلزام الحجة بالإنذار والتهديد . وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم لم تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه ، وينبههم على بطلانه ، لأنه ينافي الحكمة . وجوز في ذلك أن يكون خبرًا لمحذوف . أي : الأمر ذلك . أو مبتدأ وخبره محذوف . أي : كما ذكر . أو خبره (أَنْ لَمْ يَكُنْ . . .) الخ . والمشار إليه إتيان الرسل ، أو ما قص من أمرهم ، أو السؤال المفهوم من قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) . واستظهر أبو السعود أن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، واستيجاب العذاب ، وأنه مبتدأ خبره ما بعده ، وأن (أَنْ) مصدرية ، و (اللام)

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] ونصها : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

مقدرة قبلها . أو مخففة ، واسمها ضمير الشأن ، و (بِظُلْمٍ) متعلق بـ (مُهْلِكَ) . أى : بسبب ظلم ، أو بمحذوف حالًا من (الْقُرَىٰ) ، أى متلبسة بظلم . والمعنى : ذلك ثابت لانتفاء كون ربك ، أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب ظلم فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه برسول .

تنبيه :

فى الآية دليل على أنه لا تكاليف قبل البعثة ، ولا حكم للعقل . كقوله[1] (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

« وَلِكُلٍّ » أى : من المكلفين « دَرَجَاتٌ » أى : مراتب « مِمَّا عَمِلُوا » أى : من أعمالهم ، يبلغونها ويثابون بها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . واستدل بها ، على هذا التأويل ، بأن الجن يدخلون الجنة ويثابون .

قال ابن كثير : ويحتمل أن يعود قوله (وَلِكُلٍّ) لكافرى الجن والإنس . أى : ولكلٍّ درجة فى النار بحسبه ، كقوله (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)[2] .

« وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ)

« وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ » عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .
(٢) [٦/ الأنعام/ ١٤]

« ذُو الرَّحْمَةِ » أي : يترحم عليهم بالتكليف ، تكميلًا لهم ، ويمهلهم على المعاصى . وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه سبحانه ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ » أي : من الخلق يعملون بطاعته « كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ » ذهب بهم ثم بذريتهم ، لكنه أبقاكم ترحمًا عليكم . وهذا كقوله تعالى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ،وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« إِنَّ مَا تُوعَدُونَ » أي : من البعث وأحواله « لَآتٍ » أي : لكائن لا محالة « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أي : بفائتين يعجز عنكم . وهذا ردٌّ لقولهم : من مات فقد فات . أي : هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم رفاتاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ،فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أي : على غاية تمكنكم واستطاعتكم . يقال : مكن مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن . أو على جهتكم وحالتكم ، من قولهم : مكان ومكانة ، كمقام ومقامة . والمعنى : اثبتوا على كفركم . « إِنِّى عَامِلٌ » أي : ما أمرت به من الثبات على الإسلام . « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أي : التى

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَ ...

بنيت لعبادته تعالى وحده ، دون غيرهم ، هل تكون للعدل الذى يضع العبادة فى موضعها ، أوللظالم بوضعها فىغير موضعها . والمرادبالدار ، الدنيا . وبالعاقبة، العاقبة الحسنى . أى: عاقبة الخير ، لأنها الأصل، فإنه تعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة، وقنطرة المجاز إليها .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى : الكافرون . ووضع الظلم موضع الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أىّ فرد كان من أفراد الظلم ، فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده ؟

لطائف

فى إيراد التهديد بصيغة الأمر، أعنى : قوله (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)مبالغة فى الوعيد، كأن المهدِّ يريد تعذيبه ، مجمعاً عليه ، فيحمله بالأمر على ما يؤدى إليه . وتسجيل بأن المهدَّد لايتأتى منه إلا الشر ، كالمأمور به الذى لايقدر أن يتفصّى عنه .

وفى قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) مع الإنذار ، إنصاف فى المقال ، وحسن الأدب ، حيث لم يقل (العاقبة لنا) وفوض الأمر إلى الله . وهذا من الكلام المنصف ، كقوله تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)(١) .

وفيه تنبيه على وثوق المنذِر بأنه محق .

وفيه تبشير بأن العاقبة له .

قال ابن كثير : وقد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله عليه ، فمكن له فى البلاد، وحكّمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك فى حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته ، فى أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين . كما

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٤] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ ، ...

قال تعالى : (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)(١) . وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)(٢) وقال تعالى : (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)(٣) وقال تعالى :(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)(٤) . وقد فعل تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة .

ثم بين تعالى نوعاً من جهالات مشركي مكة وضلالاتهم ، وهو ترجيحهم جانب الأصنام على جانبه سبحانه ، بعد تشريكهم إياه فيما اختص بخلقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ » أي : خلق « مِنَ الْحَرْثِ » أي : الزرع «وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً»

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٥١و٥٢] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ١٣و١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...

(٤) [٢٤ / النور / ٥٥] ... وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

يصرفونه إلى الضيفان والمساكين . أي : ولأصنامهم نصيباً يصرفونه إلى التنسك والسدنة. وإنما لم يذكرا اكتفاء بما بعده .

« فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ » بالفتح والضم (وقال الشهاب : الزعم مثلث كالودّ) . أي : هذا مستقر له الآن ، من غير استقرار له في المستقبل لعارض . «وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا» وهو مستقر لهم ، بل يستقر لهم ماليس لهم أيضاً ، فكانوا إذا سقط في نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه ، أوفى نصيبها شيء من نصيبه تركوه ، كما قال تعالى : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ » أي: عند نمائه أو سقوطه فيما هو لله. أوهلاك ماهولله لايصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين . « وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ » أي : عند نمائه أوسقوطه فيما هو للأصنام ، أوهلاك مالها ، فينفقون عليها ، بذبح نسائك عندها ، والإجراء على سدنتها ، ونحو ذلك . وعللوا ذلك بأن الله غنيّ ، وهي محتاجة « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أي : ما يقسمون ، لأنهم أولًا عملوا مالم يشرع لهم ، وضلوا في القسم. لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذرجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهاً .

وقال المهايميّ : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أي : من ترجيح جانب الأصنام على جانب الله ، بعلة تقتضي ترجيح جانب الله لإلٰهيته ، وعدم صلاحيتها للإلٰهية مع الحاجة .

وما ذكرناه في الآية هو الذي قاله أئمة التفسير .

فقد روى عليّ بن أبي طلحة والعوفيّ عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءًا ، وللوثن جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أوشيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد، ردُّوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن ، فسقى شيئاً

جعلوه لله، جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله ، فسقى ما سمِّي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى ، فقال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ...) الآية.

قال ابن كثير : وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدّيّ وغير واحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ » أي : مثل ذلك التزيين ، وهو تزيين الشرك في القسمة المتقدمة ، زين لهم أولياؤهم من الشياطين ما هو أشد منه قبحاً في باب القربان ، وهو قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، وإنما سميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم ، فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم ، « لِيُرْدُوهُمْ » أي : يهلكوهم بالشرك وقتل الولد . من (الإرداء . وهو ، لغة ، الإهلاك) ، « وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ » أي: ليخلطوا عليهم ما هم عليه، بدين إبراهيم في ذبح إسماعيل عليهما السلام. أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل . فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ » أي : فلا تحزن على هلاكهم بما يفعلونه ، لأنه بمشيئة الله ، « فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » أي : لأن له فيما شاءه حكماً بالغة[1](إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

تنبيه :

(شُرَكَاؤُهُمْ) فاعل (زَيَّنَ) أُخِّر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدَّم ، واهتماماً به ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨]

لأنه موضع التعجب ، لأنهم يقدمون الأهمّ ، والذين هم بشأنه أَعْنَى . وقرأ ابن عامر (وَحْدَهُ) (زُيِّن) على البناء للمفعول الذى هو القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء بإضافة القتل إليه، مفصولًا بينهما بمفعوله . وقد زيّف الزمخشرىّ ، عفا الله عنه ، هذه القراءة ، وعد ذلك من كبائر كشافه حيث قال : «وأما قراءة ابن عامر ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لـكان سمجاً مردودًا ، كما سمج ورُدّ(١) :

* زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِى مَزَادَهْ *

(١) وصدر البيت :

* فَزَجَجْتُهَا بِمِزَجَّةٍ *

زججتها أى ضربتها بالزج . والزجّ كعب الرمح . والمِزَجَّة رمح قصير يسمى المزراق . والقلوص الشابّة من الإبل كالفتىّ من الرجال . وأبو مزادة كنية رجل .

زججتها فعل وفاعل ومفعول . و (بمزجة) متعلق به . وزجّ منصوب بنزع الخافض أى زججتها زجًّا كزج . والقلوص منصوب على أنه مفعول المصدر، فصل به بين المتضايفين . وأبى مزادة ، جُرَّ بإضافة (زج) إليه .

والشاهد فى الفصل بين المتضايقين بغير الظرف والجار والمجرور ، وهو المفعول . وهو جائز عند الـكوفيين .

والبصريون منعوا هذا . وقالوا : إن المتضايفيْن فى قوة شىء واحد فلا يجوز الفصل بينهما . إلا أن العرب توسعت فى الظروف والجار والمجرور ، ما لم تتوسع فى غيرها .

وأجابوا عن الشواهد الشعرية بأنها لم يعرف لها قائل ، فلا يصح الاحتجاج بها .

وقال شارح شواهد المفصل : لم يسمّ أحد قائلَه ولا ذكر له سابقاً ولا لاحقاً .

وجاء فى خزانة الأدب : وهـذا البيت لم يعتمد عليه متقنو كتاب سيبويه . حتى قال السيرافىّ : لم يثبته أحد من أهل الرواية ، وهو من زيادات أبى الحسن الأخفش فى حواشى كتاب سيبويه ، فأدخله بعض النسّاخ فى بعض النسخ . =

فكيف به فى الكلام المنثور ؟ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟
قال : والذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف (شُرَكَائِهِمْ) مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ـ لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم ـ لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : لقد ركب الزمخشرىّ متن عمياء ، وتاه فى تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله ، وأبرئ حملة كتابه ، وحفظة كلامه ، مما رماهم به ، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً ، لا نقلاً وسماعاً ، فلذلك غلّط ابن عامر فى قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة فى (شركائهم) ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب (أولادهم) بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً ، فقرأه منصوباً . قال : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه . فهذا كله كما ترى ظنٌّ من الزمخشرىّ أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواه . ولم يعلم الزمخشرىّ أن هذه القراءة بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها ، يعلم ضرورة أن النبىّ ﷺ قرأها على جبريل ، كما أنزلها عليه ، ثم تلاها النبىّ ﷺ على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر

= قال الزمخشرىّ فى (مفصّله) : وما يقع فى بعض نسخ (الكتاب) من قوله :

فزججتها بمزجّة   زجَّ القلوصَ أبى مزادهْ

فسيبويه برئ من عهدته .

وقال صاحب الخزانة معقباً على قول الزمخشرىّ :

أراد أن سيبويه لم يورد هذا البيت فى كتابه ، بل زاده غيره فى كتابه ، وإنما برأ سيبويه من هذا ، لأن سيبويه لا يرى الفصل بغير الظرف . وإذا كان هذا مذهبه ، فكيف يورد بيتاً على خلاف مذهبه ؟

يتناقلونها، ويقرؤون بها، خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق فى جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلًا عن أفصح من نطق بالضاد ﷺ . فإذا علمت العقيدة الصحيحة ، فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشرىّ ، ولا بقول أمثاله ممن لحّن ابن عامر، فإن المنكِر عليه إنما أنكر ماثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة. ولولا عذر أن المنكِر ليس من أهل الشأنين : أعنى علم القراءة وعلم الأصول، ولايعدّ من ذوى الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين . وإنه على هـذا العذر لفى عهدة خطرة ، وزلة منكرة ، تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة ، فيها ماليس متواتراً ، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل . وغايته أنه ادعى أن نقلها لايشترط فيه التواتر. وأما الزمخشرىّ فظن أنها تثبت بالرأى ، غير موقوفة على النقل ، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وما حمله على هذا الخيال إلا التغالى فى اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية، حتى يردّ ما خالفها. ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذى ادعاه مطردا ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله ، فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل . وهو وإن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبيه بما إضافته غير محضة . حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة ، لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره ، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر، وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره، لما بيناه من انفكاكه فى التقدير ، وعدم توغله فى الاتصال ، بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه ، بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير : فكّه بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل ، وأضافه إلى الفاعل ، وبقى المفعول مكانه حين الفك . ويسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة يضاف إلى المفعول . وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل ، لوقوعه فى غير مرتبته، إذ ينوى به التأخير ، فكأنه لم يفصل . كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حلّ فى غير رتبته ، لأن النية به التأخير، وأنشد أبو عبيدة :

فَدَاسَهُمْ دَوْسَ الْحَصَادَ الدَّائِسِ

وأنشد أيضاً(١) :

يَفْرُكْنَ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ بِالْقَاعِ فَرْكَ الْقُطُنَ الْمَحَالِجِ

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوّى عدم توغله فى الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً . فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد ، منظرة بشواهد من أقيسة العربية ، تجمع شمل القوانين النحوية ، لهذه القراءة . وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا قدر كاف إن شاء الله فى الجمع بينهما ـ والله الموفق ـ وما أجريناه فى أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التى يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر فى إضافته، ولا مستبعد من القياس ، ولم نفرده فى الدلالة المذكورة . إذ المتفق على عدم تمحضها لا يسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ـ والله الموفق ـ انتهى كلام الناصر رحمه الله تعالى(٢) .

ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من مفترياتهم بقوله :

---

(١) فى اللسان : قال جَنْدَل بن المثنَّى :

* يَفْرُكُ حَبَّ السُّنْبُلِ الْكُنَافِجِ *

وقال : الكنافج السمين الممتلئ . وسنبل كنافجٌ مكْتنز . وقال ابن سيده : وقيل هو الغليظ الناعم .

(٢) ويجدر بنا فى هذا المقام أن نطلع القارئ الحصيف على رأى كبير المفسرين، الإمام محمد بن جرير الطبرىّ ، قال رضى الله عنه :

وقرأ بعض قَرَأَةِ الشام (وكذلك زُيِّن) بضم الزاى (لكثير من المشركين قَتْلُ) بالرفع (أولادَهم) بالنصب (شركائِهم) بالخفض بمعنى : وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

« وَقَالُوا هَٰذِهِ » إشارة إلى ماجعلوه لآلهتهم، والتأنيث للخبر «أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ» أى : حرام (والجمهور على كسر الحاء وسكون الجيم) فِعْل بمعنى مفعول ، كالذِّبح والطِّحن ، يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات. أى : محرمة علينا ، أو محجرة علينا فى أموالنا للأوثان . ويقرأ بضم الحاء .

= قتلُ شركائهم أولادَهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيـــه من الاسم . وذلك فى كلام العرب قبيح غير فصيح .

وقد روى عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيد قراءة من قرأ بما ذكرتُ من قَرَأَةِ أهل الشام ، رأيتُ رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهـل العراق ينكرونه .

وذلك قول قائلهم :

فزججتـــه متمكّنا زجَّ القَلُوصَ أبى مَزَادَهْ

قال أبو جعفر : والقراءة التى لا أستجيز غيرها (وكذلك زَيَّنَ لـكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم) بفتح الزاى من (زين) ونصب (القتل) بوقوع (زين) عليـه . وخفض (أولادهم) بإضافة (القتل) إليهم ، ورفع (الشركاء) بفعلهم . لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم ، على ما ذكرتُ من التأويل .

وإنما قلتُ : (لا أستجيز القراءة بغيرها) لإجماع الحجة من القَرَأَةِ عليه . وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد . ففى ذلك أوضح بيان على فساد ما خالفها من القراءة .

« لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ » قال فى (المدارك) : كانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا : لا يطعمها إلا من نشاء . يعنون: خدم الأوثان، والرجال دون النساء .

« بِزَعْمِهِمْ » حال من فاعل (قالوا) أى : متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .

قال ابن كثير : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ)(١) .

« وَأَنْعَامٌ » أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام « حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا » يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى « وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا » أى : حالة الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام « افْتِرَاءً عَلَيْهِ » أى : على الله ، وكذباً منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ، ولا رضيه منهم. « سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى : عليه ، ويسندون إليه . وفيه وعيد وتهديد .

ثم بيّن تعالى فنًّا آخر من ضلالهم بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ » يعنون أجنّة البحائر والسوائب « خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » يعنون أنه حلال للذكور دون الإناث ، إن ولد حيًّا لقوله سبحانه : « وَإِنْ يَكُنْ » أى : مافى بطونها « مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ » فالذكور والإناث فيه سواء .

وفى رواية العوفىّ عن ابن عباس أن المعنىّ بـ (مَافِي بُطُونِهَا) هو اللبن . كانوا يحرمونه

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] .

على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه . وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

وقال الشعبيّ : البحيرة، لايأكل من لبنها إلاالرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وكذا قال عكرمة وقتادة وابن أسلم .

« سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أي: بالتحليل والتحريم على سبيل التحكم ونسبته إلى الله تعالى « إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » أي : حكيم فى أفعاله وأقواله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خيرأو شر ، وسيجزيهم عليها .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : استدل مالك بقوله (خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون البنات ، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف ، لأن ذلك من فعل الجاهلية . واستدل به بعض المالكية على مثل ذلك فى الهبة . انتهى .

لطائف

(التاء) فى (خَالِصَةٌ) إما للنقل إلى الاسمية ، أو للمبالغة ، أو لأن (الخالصة) مصدر كالعافية ، وقع موقع (الخالص) مبالغة ، أو بحذف المضاف . أى : ذو خالصة ، أو للتأنيث بناءً على أن (ما) عبارة عن الأجنة . والتذكير فى (محرم) باعتبار اللفظ . وقرىء (خَالِصَةً) بالنصب على أنه مصدر مؤكد ، والخبر (لِذُكُورِنَا) . ووصفهم واقع موقع مصدر (سَيَجْزِيهِمْ) بتقدير مضاف . أى : جزاء وصفهم بالكذب عليه تعالى فى التحريم والتحليل من قوله تعالى : (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ)[1] .

---

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] ونصها : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ .

قال الشهاب : وهذا من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون: وصف كلامه الكذب، إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أي : ساحرة ، وقدّه يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق ، مبالغةً . حتى كأنَّ من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له . قال المعرّي[1] :

سَرَى برقُ المَعَرَّةِ بعد وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلاَلاَ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ» يعني: وأد بناتهم خشية السبي أو الفقر « سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ » لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم ، لا هم « وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » من البحائر والسوائب ونحوها « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا » عن الصراط المستقيم . « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أي : إلى الحق والصواب .

قال الشهاب : وفي قوله (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) بعد قوله (قَدْ ضَلُّوا) مبالغة في نفي الهداية عنهم، لأن صيغة الفعل تقتضي حدوث الضلال، بعد أن لم يكن. فلذا أردف بهذه الحال، لبيان عراقتهم في الضلال ، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض .

---

(١) من قصيدته في سقط زند . ومطلعها :

أَعَنْ وَخْدِ القِلاصِ كشفْتِ حالا ومِنْ عنــدِ الظلامِ طلبتِ مَالَا

قال شارح البيت :

بعد وهن أي بعد طائفة من الليل . ومعرّة النعمان بلد بالشام . ورامة موضع بعينه .

يقول: لما حللنا برامة مغربا نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام، من صوب معرة النعمان، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال . أي يشكو ضعفه لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

تنبيه :

حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين . أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمرة ماخلقوا له . وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا وحجروا فيها ابتداعاً . وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل . وهذا التعميم ، وإن كان حقا ، إلا أن الأظهر حمله على الآخرة ، توفيقاً بين النظائر ، كقوله[1] تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) .

روى الحافظ ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ...) الآية ـ وهكذا رواه[2] البخاريّ فى مناقب قريش من (صحيحه) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ » تمهيد لماسيأتى من تفصيل أحوال الأنعام . أى : هوالذى أنعم عليكم بأنواع النعم ، لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم وغيرها معروشات ، أى : مسموكات بما عملتم لها من الأعمدة . يقال : عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القضبان . (وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ) متروكات على وجه الأرض لم تعرش . « وَ » أنشأ « النَّخْلَ » المثمر لما هو فاكهة وقوت ،

(١) [١٠ / يونس / ٦٩و٧٠]

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ١٢ ـ باب قصة زمزم وجهل العرب.

« وَالزَّرْعَ » المحصل لأنواع القوت « مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ » أى : ثمره وحَبّه فى اللون والطعم والحجم والرائحة . « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً » فى اللون والشكل، ورقهما « وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » فى الطعم « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ » أى : كلوا من ثمر كل واحد مما ذكر ، إذا أدرك .

قال الرازىّ : لما ذكر تعالى كيفية خلقه لهذه الأشياء، ذكر ما هو المقصود الأصلىّ من خلقها ، وهو انتفاع المكلفين بها ، فقال : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) واختلفوا ما الفائدة منه ؟ فقال بعضهم : الإباحة . وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله، لمكان شركة المساكين فيه، بل هذا هو الظاهر . فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعاً من هذا التصرف . وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل، وإما التصدق ، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير. قال تعالى[1]: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) . انتهى .

« وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » قرىء بفتح الحاء وكسرها . وهذا أمر بإيتاء من حضر يومئذ ما تيسر ، وليس بالزكاة المفروضة ـ هكذا قال عطاء ـ أى : لأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة . وكذا قال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه . وفى رواية عنه : عند الحصاد يعطى القبضة ، وعند الصرام يعطى القبضة . ويتركهم يتبعون آثار الصرام . وهكذا روى عن نافع وإبراهيم النخعىّ وغيرهم . وعند هؤلاء أن هذا الحق

(١) [٢٨ / القصص / ٧٧] ونصها : وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

باقٍ لم ينسخ بالزكاة ، فيوجبون إطعام من يحضر الحصاد لهذه الآية . ومما يؤيده أنه تعالى ذم الذى يصرمون ولا يتصدقون ، حيث قصّ علينا سوء فعلهم وانتقامه منهم . قال تعالى فى سورة (ن) : (إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)[١] أى: كالليل المدلهمّ، سوداء محترقة . (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ *أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ...)[٢] الآيات .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الحق نسخ بآية الزكاة ، حكاه ابن جرير [٣] عن ابن عباس وثلة من التابعين .

قال ابن كثير : فى تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً . ثم إنه فسر بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . انتهى .

ولانظرَ ، لما عرفت فى المقدمة من تسمية مثل ذلك نسخاً عند السلف ، ومرّ قريباً أيضاً ، فتذكر !

وذهب بعضهم إلى أن الآية مدنية، ضمت إلى هذه السورة فى نظائرها، بيّناها أول السورة، وأن الحق هو الزكاة المفروضة . روى عن أنس وابن عباس وابن المسيّب .

والأمر بإيتائها يوم الحصاد، للمبالغة فى العزم على المبادرة إليه . والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

قال الحاكم : وقيل : إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على الأرباب ، فلا يحسب عليهم ما أكل قبله .

---

(١) [٦٨ / القلم / ١٧ـ٢٠] ونصها : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...

(٢) [٦٨ / القلم / ٢١ـ٢٤] .

(٣) الأثران رقم ١٤٠٢٠و١٤٠٢١ من التفسير .

وقد روى العوفيّ عن ابن عباس قال : كان الرجـــل إذا زرع فـكان يوم حصاده ، لم يُخرج مما حصد شيئاً ، فقال تعالى : (وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد ، وما يلقط الناس من سنبله .

وقد روى الإمام أحمد[1] وأبو داود[2] عن جابر بن عبد الله قال : أمر رسول الله ﷺ من كل جادّ عشرة أوسق من التمر، بقنو يعلق فى المسجد للمساكين .

قال ابن كثير : إسناده جيد قويّ .

تنبيه :

قال فى (الإكليـل) : استدل بالآية من أوجب الزكاة فى كل زرع وثمر ، خصوصاً الزيتون والرمان المنصوص عليهما . ومن خصها بالحبوب ، قال : إن الحصاد لا يطلق حقيقة إلا عليها . وفيها دليل على أن الزكاة لا يجب أداؤها قبل الحصاد . واستدل بها أيضاً على أن الاقتران لا يفيد التسوية فى الأحكام ، لأنه تعالى قرن الأكل ، وهو ليس بواجب اتفاقاً ، بالإيتاء ، وهو واجب اتفاقا. انتهى .

وقوله تعالى : « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » النهى عن الإسراف ، إما فى التصدق ، أى : لا تعطوا فوق المعروف . قال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصادشيئاً، ثم تبادروا فيـه وأسرفوا ، فنزلت (وَلَا تُسْرِفُوا) . وقال ابن جريج : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . جدَّ نخـــلًا له فقال : لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فنزلت . ولذا قال السدّيّ : أى : لا تعطوا أموالـكم فتقعدوا فقراء . وإما فى الأكل قبل الحصاد ، وهذا عن أبى مسلم قال : ولا تسرفوا فى الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدى إلى بخس حق الفقراء . وإما فى كل شىء ، قال عطاء : نهوا عن السرف فى كل شىء.

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٥٩و٣٦٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه أبوداود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٢ ـ باب فى حقوق المال، حديث ١٦٦٢

وقال إياس بن معاوية : ماجاوزتَ به أمر الله ، فهو سرف . واختار ابن جرير[1] قول عطاء. قال ابن كثير : ولاشك أنه صحيح ، لكن الظاهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية ، حيث قال تعالى (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) أن يكون عائدًا على الأكل . أى : لا تسرفوا فى الأكل ، لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كقوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . .)[2] الآية .

وفى صحيح البخارى[3] تعليقاً : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة . وهذا من هذا ـ والله أعلم ـ انتهى .

وقد جنح إلى هذا المهايمىّ فى تفسيره حيث قال : ولا تسرفوا فى أكلها لئلا يبطل، باستيفاء الشهوات ، معنى المزرعة .

ثم بيّن تعالى حال الأنعام ، وأبطل ماتقوّلوا عليه فى شأنها بالتحريم والتحليل، بقوله :

---

(١) الأثر رقم ١٤٠٤١ من التفسير ونصه :

عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : « وَلَا تُسْرِفُوا » يقول : لا تسرفوا فيما يأتى يوم الحصاد ، أم كل شيء ؟ قال : بلى ! فى كل شيء، ينهى عن السرف .

قال : ثم عاودته بعد حين فقلت : ما قوله « وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ؟
قال: ينهى عن السرف فى كل شيء . ثم تلا « لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا » [٢٥/الفرقان/٦٧].

(٢) [٧/ الأعراف/ ٣١] ونصها : يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس، ١ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

« وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا » أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يفرش للذبح (أى : يضجع) أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش .

وعن ابن عباس : الحمولة الكبار التى تصلح للحمل ، والفرش الصغير كالفصلان والعجاجيل والغنم ؛ لأنها دانية من الأرض، للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها . فعلى الوجهين الأولين : الفرش بمعنى المفروش ، وعلى الثالث : الكلام على التشبيه .

« كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى : من الثمار والزروع والأنعام ، لحفظ الروح ، واستزادة القوة .

« وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى : أوامره فى التحليل والتحريم ، كما اتبعها أهل الجاهلية ، فحرموا ما رزقهم الله افتراء عليه ـ كما مرّ ـ .

« إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » أى : ظاهر المداوة ، يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويزيد قوتكم ، ويدعوكم إلى الافتراء على الله إن نسبتموه إلى أمره ، أو إلى دعوى الإلهية لكم إن استقللتم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وقوله تعالى « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » بدل من (حَمُولَةً وَفَرْشًا) أو مفعول (كُلُوا) .

(وَلَا تَتَّبِعُوا) معترض بينهما ، أو فعل دل عليه ، أو حال من (ما) بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه . قال تعالى[1] (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ). وقد يقال لمجموعهما ، والمراد الأول .

« مِنَ الضَّأْنِ » زوجين « اثْنَيْنِ » الكبش والنعجة « وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » التيس والعنز . « قُلْ » أى : تبكيتاً لهم ، وإظهارًا لانقطاعهم عن الجواب « ءَالذَّكَرَيْنِ » من الضأن والمعز « حَرَّمَ » الله عليكم أيها المشركون « أَمِ الْأُنثَيَيْنِ » منهما « أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ » أى : أم ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى ، كما قالوا : (مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ ...)[2] الآية .

« نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ » أى بدليل نقلىّ من كتب أوائل الرسل ، أو عقلىّ فى الفرق بين هذين النوعين ، والنوعين الآتيين ـ قاله المهايمى ـ .

« إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى : فى دعوى التحريم .

وفى قوله تعالى (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ...) تكريرٌ للإلزام ، وتثنيةٌ للتبكيت والإفحام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ » عطف على قوله تعالى (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) أى : وأنشأ من

---

(١) [٥٣ / النجم / ٤٥]

(٢) [٦ / الأنعام / ١٣٩] ونصها : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

الإبل اثنين هما الجمل والناقة . « وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » ذكراً وأنثى . « قُلْ » أى : إفحاماً لهم أيضاً فى هذين النوعين « آلذَّكَرَيْنِ » منهما « حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ » أى من ذينك النوعين . والمعنى إنكار أن الله سبحانه وتعالى حرم عليهم شيئا من الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى ذلك . وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها ـ للمبالغة فى الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من موادافترائهم. فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى . مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه . وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع حصول التبكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال : قل آلذكور حرم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث ـ لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والإلزام . أفاده أبو السعود .

ثم كرر الإفحام بقوله تعالى « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » حاضرين « إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا » أى حين وصاكم بتحريم بعض وتحليله . وهذا من باب التهكم « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً » أى فنسب إليه تحريم مالم يحرم « لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى دليل « إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » قال ابن كثير : أول من دخل فى هذه الآية عمرو ابن لحىّ بن قمعة . لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامى . كما ثبت ذلك فى الصحيح[1] .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥ ـ سورة المائدة ، ١٣ ـ باب مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، حديث ١٦٥٧ ونصه :

قال أبوهريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعىّ يجرّ قُصْبَه فى النار . كان أول من سيّب السوائب . والوصيلة الناقة البكر تبكّر فى أول نتاج الإبل ، ثم تُثَنّى بعدُ بأنثى. وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما ذكر. =

وقال أبو السعود : المراد كبراؤهم المقرّون لذلك . أو عمرو بن لحىّ وهو المؤسس لهذا الشر . أو الـكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه ، سبحانه وتعالى .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : « فإنْ قلت : كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضا غير أجنبىّ من المعدود . وذلك أن الله عز وجل منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم. فاعترض بالاحتجاج على من حرمها. والاحتجاجُ على من حرمها تأكيد وتسديد للتحليل . والاعتراضات فى الـكلام لا تساق إلا للتوكيد . انتهى .

تنبيه :

دلت الآية على إباحة لحوم أكل الأنعام. وذلك معلوم من الدين ضرورة . وكذلك الانتفاع بالركوب فيما يركب، والافتراش للأصواف والأوبار والجلود . وعلى ردّ ما كانت الجاهلية تحرّمه بغير علم .

قال المؤيد بالله : ويدخل الإنسىّ والوحشىّ فى قوله : (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ). وردّ بأن قوله تعالى (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) بيان للأنعام . والأنعام لا تطلق على الوحشىّ . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

ثم أمر تعالى رسول الله ﷺ ـ بعد إلزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقوّلونه فى أمر التحريم افتراء بحت ـ بأن يبيّن لهم ما حرمه عليهم ، فقال سبحانه :

= والحام فحل الإبل يضرب الضرابَ المعدودَ فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت ، وأعفوه من الحمل ، فلم يحمل عليه شىء ، وسموه الحامىَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (قُلْ لَاأَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْلَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِاللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً » أى طعاما محرما من المطاعم «عَلَىٰ طَاعِمٍ» أى : أىّ طاعم كان من ذكر أو أنثى . ردًّا على قولهم (مُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) وقوله « يَطْعَمُهُ » لزيادة التقرير « إِلَّا أَنْ يَكُونَ » أى ذلك الطعام « مَيْتَةً » . قال المهايمىّ : والموت سبب الفساد . فهو منجس ، إلا أن يمنع من تأثيره مانع من ذكر اسم الله، أو كونه من الماء،أو غيرها « أَوْ دَماً مَسْفُوحاً » أى سائلا لا كبدا أوطحالا « أَوْلَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ » لتعوّده أكل النجاسات « أَوْ فِسْقاً » أى : خروجا عن الدين الذى هو كالحياة المطهّرة « أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أى ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غيرالله. وإنما سمى (مَاأُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) فسقاً، لتوغله فى باب الفسق ومنه قوله تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) . « فَمَنِ اضْطُرَّ » أى : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء مماذكر « غَيْرَ بَاغٍ » أى: على مضطر مثله، تارك لمواساته «وَلَا عَادٍ» متجاوز قدر حاجته من تناوله « فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » لا يؤاخذه . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة والمائدة بما فيه كفاية .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الردّ على المشركين الذين ابتدعوا ماابتدعوه من تحريم البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر تعالى رسولَه أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه إليه أن ذلك محرم. وأن الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها.

وما عدا ذلك فلم يحرم . وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه تعالى؟ وعلى هذا ، فلا ينفى تحريم أشياء أُخَر فيما بعد هذا . كما جاء النهى عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير ـ انتهى ـ وبالجملة فالآية تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحى إليه إلى تلك الغاية غيره . ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شىء آخر، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها. وذلك لأن هذه السورة مكية . فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضاً، طارئ. قيل : إذا حرم غير ما ذكر كان نسخاً لما اقتضته هذه الآية من تحليله . وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما فى الآية . فصحّ تحريم كل ذى ناب من السبع ومخلب من الطير . ومن الناس من يسمى هذا نسخاً بالمعنى السلفىّ. وقد بيّنّاه مرارًا .

قال بعض الزيدية : وقد تعلق ابن عباس بالآية فى تحليل لحم الحمر الأهلية . وعائشة فى لحوم السباع . وعكرمة فى إباحة كل شىء سوى ما فى الآية . وعن الشعبىّ ؛ أنه كان يبيح لحم الفيل ويتلو هذه الآية .

ولا تعلق لجميعهم بالآية. لأنه تعالى بين ما يحرم فى تلك الأحوال . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : احتج بها كثير من السلف فى إباحة ماعدا المذكور فيها . فمن ذلك الحمر الأهلية. أخرجه البخارىّ(١) عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن حُمُر الأهلية . فقال : قد كان يقول ذلك الحكمُ بن عمرو الغفارىّ عندنا بالبصرة . ولكن أبى ذلك البحرُ (ابنُ عباس) وقرأ: (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَآ أُوحِىَ إِلَىَّ) الآية . وأخرج أبو داود(٢) عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ؟ فقرأ :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الإنسية ، حديث ٢٢٠٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٩ ـ باب فى أكل حشرات =

قُلْ لَا أَجِدُ . . . الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وغيره، بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير؟ تلت : قُلْ لَا أَجِدُ... الآية . وأخرج عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ماحرم الله فى كتابه : قُلْ لَا أَجِدُ الآية . انتهى .

وأخرج أبوداود عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذّرا . فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه . فما أحل فهو حلال وما حرّم فهو حرام . وما سكت عنه فهو معفوّ . وتلا : قُلْ لَا أَجِدُ ... الآية .

وذكرنا ضعف التعلق بهذه الآية على ماذهبوا إليه .

قال فى (فتح البيان) : معنى الآية أنه تعالى أمره ﷺ بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شيء مما أوحى إليه محرّماغير هـذه المذكورات . فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها، لولا أنها مكية . وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وصحّ عن رسول الله ﷺ تحريم كل ذى ناب من السباع(٢)

= الأرض ، حديث ٣٧٩٩ ونصه :

عن عيسى بن نميلة عن أبيه قال : كنت عند ابن عمر فسئل عن أكل القنفذ ؟ فتلا (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ...) الآية . قال قال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول: ذُكر عند النبىّ ﷺ فقال « خبيثةٌ من الخبائث » .

فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله ﷺ هذا ، فهو كما قال [مَا لَمْ نَدْرِ] .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٦ ـ كتاب الطعام ، ٣٠ ـ باب ما لم يذكر تحريمه ، حديث ٣٨٠٠ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى:٧٦ـ كتاب الطب،٥٧ـ باب ألبان الأتن،حديث٥٧٨٠ ونصه: عن أبى ثعلبة الخشنىّ رضى الله عنه، قال: نهى النبىّ ﷺ عن أكل كل ذى ناب من السباع. وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ١٢ (طبعتنا) .

وكل ذى مخلب من الطير[1] وتحريم الحمر الأهلية[2] والـكلاب، ونحو ذلك .

وبالجملة ، فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات، كما يدل عليه السياق ويفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الـكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شىء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شىء حرمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيـه تحريم شىء من الأشياء. وقد رُوِى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة؛ أنه لا حرام إلا ما ذكره الله فى هذه الآية . وروى ذلك عن مالك . وهو قول ساقط ومذهب فى غاية الضعف لا ستلزامه لإهمال غيرها ، مما نزل بعـدها من القرآن ، وإهمالِ ما صح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول هذه الآية . بلا سبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجبه . وقول جابر (لـكن أبى ذلك البحرا بن عباس) فى رواية البخارىّ المتقدمة، أقول : وإن أبى ذلك البحر ، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ . والتمسكُ بقول صحابىٍّ فى مقابلة قول النبىّ ﷺ من سوء الاختيار وعدم الانصاف . انتهى كلام الفتح .

وفى (نيل الأوطار) : الاستدلال بهـــذه الآية إنما يتمّ فى الأشياء التى لم يرد النصّ بتحريمها . وأمّا الحمر الأنسية فقد تواترت النصوص على ذلك . والتنصيص على التحريم مقدم على عموم التحليل وعلى القياس . وأيضا الآية مكية . انتهى .

وقد ثبت عن ابن عمر رجوعه عن التعلق بعمومها .

روى سعيد بن منصور والإمام أحمـد[3] وأبو داود[4] عن نميلة الفزارىّ قال : كنت

(١) أخرجه مسلم فى: ٣٤ـ كتاب الصيد والذبائح، حديث١٦ (طبعتنا) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٨ ـ باب لحوم الحمر الأنسية ، حديث ٥٠٦ ونصه :

عن ابن عمر رضى الله عنهما : نهى النبىّ ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، يوم خيبر .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

(٤) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٣٤ .

عند ابن عمر ، وإنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : قل لا أجد...الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكِرَ عند النبيّ ﷺ فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر: إن كان النبيّ ﷺ قاله فهو كما قال .

أى والخبائث محرّمة بنص القرآن، فهو مخصص لعموم هذه الآية .

وعن المقدام بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ: ألاهل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهومتكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . فما وجدنا فيه حلالا استحللناه. وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى . أخرجه الترمذيّ[1] وقال : حديث حسن غريب .

ولأبى داود[2] قال: قال رسول الله ﷺ : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه. لا يوشك رجل شبعانُ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهليّ ولا كل ذى ناب من السبع ولا لُقَطَةُ معاهد ألا أن يستغنى عنها صاحبها. ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه . فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه . (أى يأخذ منهم عوضا عما حَرَموه من القِرى) .

هـذا والزمخشريّ فسر محرما بـ (طعاما محرما من المطاعم التى حرمتموها) وجعل الاستثناء منقطعا . أى لا أجد ما حرمتموه لكن أجد الأربعة محرّمة . وهذا لا دلالة فيه على الحصر حتى ترد المحرمات الأخر . إذ الاستثناء المنقطع ليس كالمتصل فى الحصر . وغير الزمخشريّ لم يقيّده بما ذكر . لأن الأصل الاتصال وعدم التقييد . وأوّلوها بما قدمنا قبل . وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغا . بمعنى : لا أجد

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٣٩ ـ كتاب العلم ، ١٠ ـ باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبيّ ﷺ .

(٢) أخرجه أبوداود فى: ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ٥ ـ باب فى لزوم السنّة، حديث ٤٦٠٤

شيئاً من المطاعم المحرمات فى وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال ، إلا فى وقت أو حال كون الطعام أحد الأربعة. فإنى أجد حينئذ محرما . فالمصدر للزمان أو الهيئة . وفيه أن المصدر المؤول من (أن والفعل) لا ينصب على الظرفية . ولا يقع حالا ، لأنه معرفة . والله أعلم .

الثانى ـ فى قوله تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحى لا بالهوى . قال الشهاب: كنى بعدم الوجدان عن عدم الوجود. ومبنى هذه الكناية على أن طريق التحريم التنصيص منه تعالى . وتفسيره بمطلق الوحى استظهروه . ولذا قال : أوحى ولم يقل : أنزل .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل النبىّ ﷺ بقوله (عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) على أنه إنما حرم من الميتة أكلها . وأن جلدها يطهر بالدبغ . فأخرج أحمد[1] وغيره عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زَمْعة فقالت : يا رسول الله ! ماتت فلانة (يعنى الشاة) فقال : فلولا أخذتم مَسْكها؟ فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ : إنما قال الله عز وجل : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ. فإنكم لا تطعمونه . إن تدبغوه تنتفعوا به. فأرسلت إليها فسلختْ مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قِرْبة ، حتى تخرّقت عندها .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى (مَسْفُوحًا) على إباحة غيره . وذلك لأن الدم المسفوح هو ما سال من الحيوان فى حال الحيـاة ، أو عند الذبح ـ لا كالكبد والطحال ـ وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل . قال عمران بن جدير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم ، وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال : لا بأس بذلك ! إنما نهى عن الدم المسفوح .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٠٢٧ (طبعة المعارف) .

وقال إبراهيم النخعيّ : لا بأس بالدم في عِرْقٍ أو مخّ ، إلّا المسفوح .

وقال عكرمة : لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود .

ثم بيّن تعالى أنه حرم على اليهود أشياء أخرى غير هذه الأربعة، تحقيقاً لافتراء المشركين فيما حرّموه، إذْ لم يوافق شيئاً مما أنزله تعالى ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا » أي : اليهود خاصة « حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » قال سعيد بن جبير : هو الذي ليس منفرج الأصابع ـ كالجمل والوَبْر والأرنب ـ فإنها من ذوات الأظفار الغير المشقوقة ـ أي المنفرجة ـ وأما ذو الظفر المشقوق وهو يجترّ من البهائم، فلم يحرم عليهم.

«وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا» لا لحومهما «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا» يعني : ما علق بالظهر من الشحوم « أَوِ الْحَوَايَا » أي : الأمعاء والمصارين ـ أي : ماحملته من الشحوم ـ « أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » كالمخ والعصعص « ذَٰلِكَ » أي : تحريم تلك الأطايب عليهم « جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ » بسبب ظلمهم ، وهو قتلهم الأنبياء بغير حقّ ، وأكلهم الربا ـ وقد نهوا عنه ـ وأكلهم أموال الناس بالباطل ، كقوله تعالى[1] ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ .

قال المهايميّ : أي : ولم يكن لغيرهم ذلك البغي ، فلا وجه لتحريمها عليهم مع كونها أطايب في أنفسها .

« وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أي : في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر ؛ وهو تخصيص التحريم بهم، لبغيهم .

(١) [٤ / النساء / ١٦٠] .

قال ابن جرير(١) : لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرّمه على نفسه .

قال أبوالسعود : ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٢) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » الضمير إمّا لليهود لأنهم أقرب ذكرًا، ولذِكْرِ المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك؛ وإمّاللمشركين، وإماللفريقين. أى: فإن كذبتك اليهود فى التخصيص وزعموا أن تحريم الله لا ينسخ ، وأصرّوا على ادعاء قدم التحريم ؛ أو المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم ، أوهما فيما ادّعيا « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل « وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : ومع رحمته فهو ذو بأس شديد. وفيه ترغيبٌ لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة، وذلك فى اتباع رضوانه ، وترهيبٌ من المخالفة .

وليعلم أن المشركين لما لزمتهم الحجة ـ ببطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم مالم يحرمه الله ـ أخبرَ تعالى عنهم بما سيقولونه من شبهة يتشبثون بها لشركهم وتحريم ما حرّموا . وفائدةُ الإخبار بما سوف يقولونه ، توطين النفس على الجواب ، ومكافحتهم بالردّ، وإعداد الحجة قبل أوانها ، فقال تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٦ من الجزء الثانى عشر من التفسير (طبعة المعارف) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٩٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا » يعنى مشركى قريش والعرب « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ » يعنى ما حرموه من البحائر والسوائب وغيرها « كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا » أى : حتى أنزلنا عليهم العذاب « قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » أى : أمر معلوم يصحّ الاحتجاج به فيما قلتم فتظهروه لنا « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ » أى : فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما حرّمتم « وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ » تكذبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » البيّنة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات. ومنه : (أيمان بالغة) أى : مؤكدة . أو (البالغة) التى بلغ بها صاحبها صحة دعواه فهى (كعيشة راضية) . « فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء هدايةَ بعضٍ صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحقّ ، وضلالَ آخرين صرفوا كسبهم إلى خلاف ذلك، من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم ، فوقع ذلك على الوجه الذى شاءه .

قال الإمام أبو منصور الماتريدىّ فى (تأويلاته) : قيل : الآية فى مشركى العرب . قالوا ذلك حين لزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فى تحريم ما حرّموا من الأشياء . وأضافوا

ذلك إلى الله ، وهو صلة قوله (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ... ـ إلى قوله ـ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا)(١) ، فلما لزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فزعوا إلى هذا القول (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ...)(٢) الآية ! انتهى .

والقصد : الاعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراك وتحريم الحلال . أي: ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ، ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق ، لأنه قادر . فلو لم يكن حقًّا يرضاه لمنعنا منه . وهو لم يمنعنا منه فهو حقٌّ . وفي حكاية هذه المناظرة والمجادلة بيانٌ لنوعٍ من كفرهم شنيع جدًّا ..!

تنبيه :

هذه الآية تكرر نظيرها في التنزيل الكريم في عدة سور ، وهي من الآيات الجديرة بالتدبر لتمحيص الحق في المراد منها .

فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصي والكفر ، كما تبجّح بذلك منهم الطبرسيّ الشيعيّ في (تفسيره) وقال : إن فيها تكذيباً ظاهراً لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه ؛ وكذا الزمخشريّ في (تفسيره) .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٣و١٤٤] ونصهما : ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٨] ونصها : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

ومعلومٌ أنّ عقيدة الفرقة الناجية، الإيمانُ بأن : ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن، وأنه ما فى السموات والأرض من حركة ولا سكون إلّا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون فى ملكه إلّا ما يريد ، وهو خالقٌ لأفعال العباد .. !

وقد خالف فى ذلك عامة القدرية ـ الذين سمّاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ـ فقالوا : لا إرادة إلّا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلّا ما أمر به ، ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد. فعندهم أكثر مايقع من أفعال العباد على خلاف إرادته تعالى. ولما كان قولهم هذا فى غاية الشناعة، تبرأ منهم الصحابة. وأصل بدعتهم ـ كما قال ابن تيمية ـ كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه . وسنبيّن تحقيق ذلك بعد أن نورد شبهتهم فى هذه الآية وندمغها ـ بعونه تعالى ـ بعدة وجوه فنقول :

(قالوا) : إن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى. ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا، ولمَا صدر عنا تحريم المحللات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى ردّ عليهم مقالتهم وبيّن بطلانها وذمّهم عليها وأوعدهم عليها وعيداً شديداً . فلو كان يجوز إضافة المشيئة إلى الله تعالى فى ذلك ، على ماتضيفون أنتم ، لم يكن يردّ ذلك عليهم ويتوعّدهم !

(قلنا) : إنّ المشيئة فى الآية تتخرّج على وجوه :

أحدها : ما قال الحسن والأصمّ ـ إن المشيئة ههنا الرضا ـ فمرادهم : أنّ الله رضى بفعلنا وصنيعنا ـ حيث فعل آباؤنا مثل ما فعلنا ـ فلم يَحُل الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم، ولا منعهم عن ذلك ؛ فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعهم عنه !

قال أبو منصور : وإنما استدلوا بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يخوفون بالهلاك والعذاب على صنيعهم ، ثم رأوا آباءهم ماتوا على ذلك ولم يأتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أنّ الله رضى بذلك .

وبالجملة ، أرادوا بقولهم ذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضيّ عند الله. ولما كانت حجّتهم داحضةً باطلة ـ لأنها لو كانت صحيحة لمـا أذاقهم الله بأسه ودمّر عليهم وأدال عليهم رسله الـكرام ـ قال تعـالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَ كُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أى: بأنّ الله راضٍ عليكم فيما أنتم فيه ! وهذا من التهكّمِ والشهادةِ بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة .

وفى (الوجيز): الحاصل أنّ المشركين اعتقدوا عدم التفرقة بين المأمور المرضيّ والمشيئة، كما اعتقدت المعـتزلة ، فاحتجوا على حقيّة الإشراك . وينادى على ذلك قوله (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ...) فإنه لو كان المراد أنّ ذلك ليس بمشيئة الله تعـالى لقال (كَذَٰلِكَ كَذَبَ) بالتخفيف لا التشديد. وهذه الآية ـ عند من له أذن واعية ـ تصيح على المعتزلة بالويل والثبور، لـكن فى آذانهم وقر ، ومن لم يهده الله فلا هادى له . انتهى .

الوجه الثانى : إن المشيئة فى الآية بمعنى الأمر والدعاء إلى ذلك . أى: يقولون: إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم فى سورة الأعراف بقوله : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) فردّ تعالى عليهم بقوله : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) .

الوجه الثالث : إنّ قولهم ذلك كان على سبيل الاستهزاء والسخرية دفعاً لدعوته ﷺ ، وتعلّلًا لعدم إجابته وانقياده ، لا تفويضاً للـكائنات إلى مشيئة الله تعالى . فما صدر عنهم ، كلمةُ حقّ أريد بها باطل . ولذلك ذمّهم الله بالتـكذيب لأنهم قصدوا به تـكذيب النبيّ ﷺ فى وجوب اتباعه والمتابعة ، فقال : (كَذَٰلِكَ كَذَبَ) بالتشديد ، ولم يذمهم بالـكذب فى قولهم ذلك ، وإلّا لقال (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ) بالتخفيف، إشارة إلى أن ذلك الـكلام فى نفسه حق وصدق .

وقال آخرا: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فأشار إلى صدق مقالتهم وفساد غرضهم . فالعتاب الذى لحقهم والوعيد الذى أوعدهم، إنما كان لاستهزائهم ،

كما ذكر فى قوله تعالى[1] (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) هى كلمة حقّ . لكن قالها استهزاءً فلحقه الذم .

وهذا الوجه اقتصر عليه العضد فى (المواقف) وقرره أيضاً أبو منصور فى (تأويلاته).

قال الحسن بن الفضل : لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالًا له ومعرفةً بحقه وبما يقولون ، لَمَا عابهم بذلك . ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلًا من غير معرفةٍ بالله وبما يقولون .

الوجه الرابع : ما يستفاد من قول الإمام : إنّ فى كلام المشركين مقدمتين :

(إحداها) : أن الكفر بمشيئة الله تعالى . و (الثانية) : أنه يلزم منه اندفاع دعوة النبيّ ﷺ . وما ورد من الذمّ والتوبيخ إنما هو على الثانية ، إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان ويعذبه على خلافه ويبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعاةً إلى دار السلام ، وإن كان لا يهدى إلّا من يشاء .

الوجه الخامس : إن قولهم ذلك كان على سبيل العناد والعتوّ .

قال البقاعىّ فى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى: بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة فى قولهم : إذا كان الكلّ بمشيئة الله كان التكاليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة . وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشيء ويعاقب عليه لأن ملكه تامّ ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشانىّ قدس سره ، فى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ): أى : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عنادًا وعتوًّا ، فعذّبوا بكفرهم .

ثم قال فى قوله تعالى (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) : أى: إن كان لكم

(١) [١٩ / مريم / ٦٦] .

علمٌ بذلك وحجّة ، فبيّنوا . وإنما قال ذلك ، إشارة إلى قولهم : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) لأنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لعلموا أن إيمان الموحّدين وكلّ شيء ، لا يقع إلّا بإرادة الله. فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل وَالَوْهم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف . ولعمرى إنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لما كانوا مشركين بل كانوا موحّدين . ولكنهم اتبعوا الظنّ فى ذلك ، وبنوا على التقدير والتخمين لغرض التكذيب والعناد ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزامًا لهم وإثباتًا لعدم امتناعهم عن الرسل . لأنهم محجوبون فى مقام النفس . وأنّى لهم اليقين ؟ ومن أين لهم الاطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) أى : إن كان ظنكم صدقاً فى تعليق شرككم بمشيئة الله ، فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من أهل دين ، لكون كل دين حينئذٍ بمشيئة الله ، فيجب أن توافقوهم وتصدقوهم ، بل لله الحجة عليكم فى وجوب تصديقهم وإقراركم بأنكم أشركتم ، بمن لا يقع أمرٌ إلّا بإرادته، ما لا أثر لإرادته أصلًا . فأنتم أشقياء فى الأزل مستحقّون للبعد والعقاب . وقوله تعالى (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بلى ، صدقتم . ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم كلّكم ، فبأىّ شيء علمتم أنه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهذا تهييج لمن عسى أن يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدى فيرجع عن الشرك ويؤمن . انتهى .

الوجه السادس : ما فى (لباب التأويل) من أنه قيل فى معنى الآية : أنهم كانوا يقولون الحقّ بهذه الكلمة ـ وهو قولهم (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) ـ إلّا أنهم كانوا يعدّونه عذرًا لأنفسهم ، ويجعلونه حجّة لهم فى ترك الإيمان . والردّ عليهم فى ذلك : أنّ أمر الله بمعزلٍ عن مشيئته وإرادته ؛ فإن الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمرٍ بجميع ما يريد ، فعَلَى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإنّ مشيئته لا تكون عذرًا لأحدٍ عليه فى فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمره بالإيمان . وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالحاصل : أنه

تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى فى شركهم وكفرهم ، فأخبر الله تعالى أنّ هذا التمسّك فاسدٌ باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى فى كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الوجه السابع : ما قرره الناصر فى (الانتصاف) : إنّ الردّ عليهم إنّما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وإنّ إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنّهم يقيمون الحجّة على الله ورسله بذلك . فردّ الله قولهم وكذبهم فى دعواهم ـ عدم الاختيار لأنفسهم ـ وشبّهَهُم بمن اغترّ قبلهم بهذا الخيال . فكذب الرسل، وأشرك بالله ، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كلّه بمشيئة الله ، ورامَ إفحامَ الرسل بهذه الشبهة. ثم بيّن الله تعالى أنهم لا حجّة لهم فى ذلك، وأن الحجة البالغة له لا لهم، بقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ). ثم أوضح تعالى أنّ كلّ واقع بمشيئته، وإنه لم يشأ منهم إلّا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) . والمقصود من ذلك : أن يتمحّض وجه الردّ عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة ، وعموم تعلقها بكلّ كائن عن الردّ ؛ وينصرف الردّ إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم ، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبّرت هذه وجدتها كافية فى الردّ على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة. بل هو مجبور على أفعاله مقهورٌ عليها . وهم الفرقة المعروفون بـ (المجبرة) . والزمخشرىّ يغالط فى الحقائق فيسمىّ أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختيارًا وقدرةً ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية. فمن هذه الجهة سوّى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقباً عامّاً لأهل السنة . وجماع الردّ على المجبرة ـ الذين ميزناهم عن أهل السنة ـ فى قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ـ إلى قوله ـ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) . وتتمة الآية ردٌّ صراح على (طائفة الاعتزال) القائلين بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين . فلم تقع من أكثرهم ! ووجه الردّ : أن (لو) إذا دخلت على فعل

مثبت نفته ؛ فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فَلَوْ شَاءَ) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم. ولو شاءها لوقعت . فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحلّ عقدهم. فإذا ثبت اشتمال الآية على ردّ عقيدة الطائفتين المذكورتين ـ المجبرة فى أوّلها والمعتزلة فى آخرها ـ فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنّة منطبقة عليها . فإن أوّلها ـ كما بيّنا ـ يثبت للعبد اختيارًا وقدرةً على وجه يقطع حجته وعذره فى المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله فى العبد ، وأنّ جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلٰهية ، خيرًا أو غيره . وذلك عين عقيدتهم . فإنهم ـ كما يثبتون للعبد مشيئةً وقدرة ـ يسلبون تأثيرها ، ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجّته ، ملزم له بالطاعة على وفق اختياره . ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته فى أفعال عباده . فهم ـ كما رأيت ـ تبعٌ للكتاب العزيز : يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق . انتهى .

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قيل له : إن ناساً يقولون : ليس الشرّ بقَدَر . فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ـ إلى قوله ـ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[1] .

وبتحقيق هذه الوجوه يسقط قول الطبرسىّ المعتزلىّ : لو كان الأمر على ماقاله أهل الجبر ـ من أن الله تعالى شاء منهم الكفر ـ لكانت الحجة للكفّار على الله ، من حيث فعلوا ما شاء الله ، ولكانوا بذلك مطيعين له . لأن الطاعة هى امتثال الأمر المراد ، ولا تكون الحجّة لله عليهم على قولهم، من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر . فأىّ حجّة له عليهم مع ذلك ؟ انتهى .

وكذا قول الزمخشرىّ : ما حكى عن المشركين كمذهب المجبرة بعينه . ولذا قال النحرير: نعم ! هو كمذهبهم فى كون كلّ كائن بمشيئة الله . لكن الكفرة يحتجّون بذلك على حقية

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨و١٤٩] .

الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما يرتكبون من القبائح . وكونها ليست بمعصية لكونها موافقة للمشيئة التى تساوى معنى الأمر ، على ما هو مذهب القدرية : من عدم التفرقة بين المأمور والمراد ، وأنّ كلّ ما هو مرادٌ لله فهو ليس بمعصية منهيّ عنها . والمجبرة ـ وإن اعتقدوا أن الكلّ بمشيئة الله ـ لكنهم يعتقدون أن الشرك وجميع القبائح معصية ومخالفة للأمر يلحقها العذاب بحكم الوعيد ، ويعفو عن بعضها بحكم الوعد . فهم ـ فى ذلك ـ يصدّقون الله فيما دلّ عليه العقل والشرع من امتناع أن يكون أكثر ما يجرى فى ملكه على خلاف ما يشاء . والكفرة يكذّبونه فى لحوق الوعيد على ما هو بمشيئته تعالى . انتهى .

فصل

قال الإمام شمس الدين ابن القيّم الدمشقيّ رحمه الله تعالى فى كتابه (طريق الهجرتين) بعد أن أطال فى سرد أحاديث القدر وآثاره ، ما نصّه :

فالجواب أنّ ههنا مقامين : مقام إيمانٍ وهدًى ونجاة ، ومقام ضلالٍ وردى وهلاك ، زلّت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء .

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة، فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأنّ ماشاء كان وإنْ لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإنْ شاء الناس . وهذه الآثار ـ التى كلها تحقق هذا المقام ـ تبيّن أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه . وهذا فى كل كتابٍ أنزله الله على رسله .

وأما المقام الثانى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربّه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمّارة بالسوء ، حتى يقول قائل هؤلاء :

ألقاه فى اليمّ مكتوفاً وقال له : إيّاك ! إيّاك ! أن تبتلّ بالماء

ويقول قائلهم :

دعاني وسدّ الباب دوني . فهل إلى دخولي سبيلٌ ؟ بيّنوا لِيَ قصّتي

ثم ساق ـ رحمه الله ـ قصصاً غريبة في ذلك ، ثم قال :

وسمعته ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ يقول :

القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة : نفاة القدر وهم (القدرية المجوسيّة) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وهم (القدرية المشركية) . والمخاصمون به للربّ سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم (القدرية الإبليسية) وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : بِمَا أَغْوَيْتَنِي (١) ولم يعترف بالذنب ويَبُوءُ بِهِ كما اعترف به آدم. فمن أقرّ بالذنب وَبَاءَ به ونزّه ربّه فقد أشبه أباه آدم . ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برّأ نفسه واحتجّ على ربّه بالقدر فقد أشبه إبليس. ولا ريب أنّ هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شرٌّ من القدرية النفاة . لأن النفاة إنما نَفَوْه تنزيهاً للربّ وتعظيماً له أن يقدّر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب . ونزّهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه البتة. بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه.. ونحو ذلك . كما يحكى عن بعض الجبرية إنه حضر مجلس بعض الولاة. فأتى بطرّار (هو الذي يقطع الهمايين أو الأكمام ويستلّ ما فيها) أحولَ . فقال له الوالي : ما ترى فيـــه؟ فقال : اضربه خمسة عشر ـ يعني سوطاً ـ فقال له بعض الحاضرين ـ ممّن ينفي الجبر ـ بل ينبغي أن يضرب ثلاثين سوطاً : خمسة عشر لطرّه ومثلها لحَوَلِهِ. فقال الجبريّ : كيف يضرب على الحَوَل ولا صنع له فيه؟ فقال: كما يضرب على الطرّ ولا صنع له فيه، عندك ... فبُهِتَ الجبريّ .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٦] ونصها : قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .

و [١٥ / الحجر / ٣٩] ونصها : قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

وأما (القدرية الإبليسية والمشركية) فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدوّ لله ورسله، لا يقرّ بأمر ولا نهى ، وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم : سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ...[١] الآية، وقال[٢] تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وقال تعالى[٣]: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، وقال[٤] : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . فهذه أربعة مواضع فى القرآن، بيَّنَ سبحانه فيها أنّ الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل .

وقد افترق الناس فى الكلام على هذه الآيات أربع فِرقٍ :

الفرقة الأولى : جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأنّ للمحتجّ بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين : (فرقة) كذبت بالأمر والوعد والوعيد ، وزعمت أن الأمر والنهى والوعد والوعيد ، بعد هذا ، يكون ظلماً ، والله لا يظلم من خلقه أحدًا ! و(فرقة) صدقت بالأمر والنهى والوعد والوعيد وقالت : ليس ذلك بظلم ، والله يتصرف فى ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على مالا صنع له فيه ، بل يعذبه على فعله هوسبحانه لا على فعل عبده. إذ العبد لا فعل له ، والملك ملكه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . فإنّ هؤلاء الكفار إنما قالوا

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .
(٢) [١٦ / النحل / ٣٥] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .
(٤) [٣٦ / يس / ٤٧] .

هذه المقـالة ـ التى حكاها الله عنهم ـ استهزاء منهم ، ولو قالوا ـ اعتقادًا للقضاء والقدر ، وإسناداً لجميع الـكائنات إلى مشيئته وقدرته ـ لم ينـكر عليهم . ومضمون قول هذه الفرقة إنّ هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد ـ لا على جهة الاستهزاء ـ فيـكون للمشركين على الله الحجّة ؛ وكفى بهذا القول فسادًا وبطلاناً .

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها فى إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة . إذْ لو صحت المشيئة العامة ـ وكان الله قد شاء منهم الشرك والـكفر وعبادة الأوثان ـ لـكانوا قد قالوا الحق ، وكان الله يصدقهم عليه ولم ينـكر عليهم . فحيث وصفهم بالخرْص ـ الذى هو الـكذب ـ ونفى عنهم العلم ، دلّ على أن هذا الذى قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه ؛ إذْ لو كان علماً لـكانوا صادقين فى الإخبار به ، ولم يقل لهم : هل عندكم من علم .

وجعلت هـــذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التـكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون فى ملـكه مالا يشاء ، ويشاء مالا يكون ، وإنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائـكة ، ولا على أفعال الحيوانات . وإنه لا يقـدر أن يضلّ أحداً ، ولا يهديه ، ولا يوفقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والـكفر ، ولا يلهمه رشدَه ، ولا يجعل فى قلبه الإيمان ، ولا هو الذى جعل المصلّى مصلياً والبرَّ برًّا والفاجر فاجرًا والمؤمن مؤمناً والـكافر كافراً . بل هم جعلوا أنفسهم كـذلك .

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التى قبلها فى إلقاء الحرب والعــداوة بين الشرع والقدر. فالأولى تحيزت إلى القدر وحاربت الشرع . والثانية تحيزت إلى الشرع ، وكذبت القدر . والطائفتان ضالتان ، وإحداهما أضلّ من الأخرى .

و (الفرقة الثالثة) : آمنت بالقضاء والقدر وأقرّت بالأمر والنهى . ونزّلوا كلّ واحدٍ منزلته : فالقضاء والقــدر يُؤمن به ولا يُحتجّ به ، والأمر والنهى يُمتثل ويُطاع. فالإيمان بالقضاء والقدر ـ عندهم ـ من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلّا الله . والقيام بالأمر

والنهى موجب شهادة أن محمدًا رسول الله . وقالوا : من لم يقرّ بالقضاء والقدر، ويقم بالأمر والنهى فقد كذّب بالشهادتين وإنْ نطق بهمابلسانه. ثمّ افترقوا فى وجههذه الآياتفرقتين: (فرقة) قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبتهلذلك . فجعلوا مشيئته له وتقديره له، دليلًا على رضاه به ومحبته له . إذ لو كرههوأبغضه لحال بينه وبينهم . فإنّ الحكيم إذا كان قادرًا على دفع ما يكرهه ويبغضه ، دفعه ومنع من وقوعه . وإذا لم يمنع من وقوعه ، لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته . وكلاهما ممتنع فى حق الله . فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به .

وقد وافق هؤلاء من قال: إنّ الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها. ولكن خالفهم فى أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم فى نصف قولهم وخالفهم فى الشطر الآخر .

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين ، وأنّمشيئة الله تعالى العامة وقضاءهوقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكلّ ماشاءه وقدّره .

وهؤلاءالمشركون ـ لمّااستدلوابمشيئتهعلى محبتهورضاه ـ كذّبهموأنكرعليهم ، وأخبر أنه لاعلم لهم بذلك، وأنهم خارصون مفترون . فإنمحبة الله للشىء ورضاه به، إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله، لا بمجرد خلقه . فإنه خلق إبليس وجنوده ـ وهم أعداؤه ـ وهو سبحانه يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ... فهكذا فى الأفعال . خلق خيرها وشرها وهو يحبّ خيرها ويأمر به ويثيب عليه . ويبغض شرها وينهىعنه ويعاقب عليه . وكلاهما خلقه . ولله الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه ويكرهه ، من الذوات والصفات والأفعال ، كلٌّ صادر عن حكمته وعلمه ، كما هو صادر عنقدرته ومشيئته ...

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ، ودفع الأمر بالمشيئة . فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره . فجعلوا القضاء والقدر

إبطالا لدعوة الرسل ، ودفعاً لما جاءوا به . وشاركهم فى ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم ، وخالفوهم فى النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهى .

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام ، وورث كلّ قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما فى جميع تركتهم ، وإما فى كثير منها ، وإما فى جزء منها . وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذى جعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصليا والمتقى متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره ، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كلّ نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدى من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذى وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم ـ فإنه يحول بين المرء وقلبه ـ فكفروا به . ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . إيمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .

و (القضاء والقدر) عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى :

الأولى ـ علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم .

الثانية ـ كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض .

الثالثة ـ مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته ، كما لا خروج له عن علمه .

الرابعة ـ خلقه له وإيجاده وتكوينه . فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شىء .

فالخالق ـ عندهم ـ واحد وما سواه فمخلوق . ولا واسطة ـ عندهم ـ بين الخالق والمخلوق. ويؤمنون ـ مع ذلك ـ بحكمته ، وأنه حكيم فى كل ما فعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه . وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره ـ كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها ـ بل هى أمر وراء ذلك ، وهى الغاية المحبوبة له المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوى ، وقدّر فهدى ، وأمات وأحيى، وأشقى وأضلّ وهدى، ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هى الغاية والفعل وسيلة إليها، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفى للغايات ، وهو محال ، إذ نفى الغاية مستلزم لنفى الوسيلة. فنفى الوسيلة ـ وهى الفعل ـ لازم لنفى الغاية وهى الحكمة . ونفى قيام الفعل والحكمة به نفى لهما فى الحقيقة ؛ إذ فعلٌ لا يقوم بفاعله ، وحكمةٌ لا تقوم بالحكيم ـ شىء لا يعقل. وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلٰهيته . وهـذا لازم لمن نفى ذلك ولا محيد له عنه ، وإن أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وماجاءت به الرسل، لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق ، كائنا ما كان .

والمقصود : أن ورثة الرسل وخلفاءهم ـ لكمال ميراثهم لنبيهم ـ آمنوا بالقضاء والقدر والحِكَم والغايات المحمودة فى أفعال الرب وأوامره ، وقاموا ـ مع ذلك ـ بالأمر والنهى ، وصدّقوا بالوعد والوعيد : فآمنوا بالخلق الذى من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة . وبالأمر الذى من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب؛ فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوها بنفى لوازمهما ـ كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ـ وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبة فى هذا الميراث النبوىّ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة، لا يجتمع إلا فى قلوب خواص الخلق

ولبّ العالم ، وليس الشأن فى الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلّال... فإن القدرية تؤمن بلفظ (القدر) ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينىّ ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر . وكذلك (الحكمة) فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى ، فهى ـ عندهم ـ وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته ... والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ، ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ، ويجعلونها مخلوقاً من مخلوقاته ، كما قالوا فى كلامه وإرادته . فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ (الحكمة) وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك (الأمر) و (الشرع) فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبغض شيئا ، وجميع الكائنات محبوبة له ، وما لم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب. ولا فرق فى نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجوز والسجود للأصنام والشمس والقمر. ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهى بالكلية . ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها .

والمقصود : أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهى والوعد والوعيد ، حقيقة الإيمان ، إلا أتباع الرسل وورثتهم .

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته . ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر .

ولهذا ، كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونَفَتْهُ ، وهم غلاتهم

الذين كفّرهم السلف والأئمة وتبرّأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة ، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرّحت بأنّ الله لا يقدر عليها . فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية : فجاءت على إثبات القدرة والعلم ، وأنكرت الحكمة والرحمة .

ولهذا ، كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الربّ وعزته وحكمته . ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا ، كقوله : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(١) ، وقال : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٢) ، وقال : حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٣) ، وقال في (حمٓ فصّلت ، بعد ذكر تخليق العالم) : ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٤) ، وذكر نظير هذا في (الأنعام) فقال : فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٥) . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته . وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدّمه عليه . وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها ، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للربّ سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقه وأمره ، حكيم في خلقه وأمره . ولهذا ، كان (الحكيم) من أسمائه الحسنى . فالحكمة من صفاته العُلَى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول

---

(١) [٢٧ / النمل / ٦] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٢] .

(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢] .

(٤) [٤١ / فصلت / ١٢] ونصها : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

(٥) [٦ / الأنعام / ٩٦] .

المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة . والحكمة هى سنة الرسول ، وهى تتضمّن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به . فكلّ هذا يسمّى حكمة . وفى الأثر[١] : الحكمة ضالّة المؤمن . وفى الحديث[٢] : إنّ من الشعر حكمة . فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته ، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده . وهو محمود على جميع ما فى الكون من خيرٍ وشرٍّ حمدًا استحقه لذاته ، وصدر عنه خلقُه وأمرُه . فمصدر ذلك كله عن الحكمة. فإنكار الحكمة إنكار لحمده فى الحقيقة ، والله أعلم . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فى خلال بعض فتاويه، فى حقيقة الاحتجاج بالقضاء والقدر ، ما نصّه :

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء فى توحيد الربوبية . حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية ؛ فإن هؤلاء المشركين لمّا أنكروا ما بعثت به الرسل من الأمر والنهى ، وأنكروا التوحيد ـ الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ـ وهم يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شىء ، ما بقى عندهم من فرق، من جهة الله تعالى، بين مأمور ومحظور فقالوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، وهذا حقّ . فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن . ولكن أىّ فائدة لهم فى هذا ؟ غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدرًا أن يكون

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٩ ـ كتاب العلم، ١٩ ـ باب ماجاء فى فضل الفقه على العبادة، ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن . فحيث وجدها ، فهو أحق بها » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٠ ـ باب مايجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، حديث ٢٣٥٣ ، عن أبىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال « إن من الشعر حكمة » .

محبوباً مرضيًّا لله . ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضيه ، بل ليسوا فى ذلك إلّا على ظنّ وخَرْص . انتهى .

وقال بعض المحققين فى حقيقة العقيدة :

ثبت بالبرهان أنّ قدرة الله تعالى متصرفة فى الممكنات عن إرادةٍ واختيار . وأن الإرادة لا تخرج عما ينكشف بالعلم من مواقع الحكمة ، ووجوه النظام . وأنه خالق كلّ شىء وإليه يرجع الأمر كله . ومن الممكنات التى اقتضتها الحكمة والنظام وجودُ مخلوقٍ ذى قدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ ، يعمل بقدرته ماتنبعث إليه إرادته بمقتضى علمه بوجوه المصلحة والمنفعة لنفسه، وهو الإنسان . وهذا ـ عند البعض ـ هو معنى كونه خليفة الله فى الأرض يعمرها ويظهر حكمة الله وبدائع أسراره فيها ، ويقيم سننه الحكمية حتى يعرف كماله بمعرفة كمال صنعه . ولا يزال الإنسان يظهر الآيات من هذه المكونات آناً بعد آنٍ ، ولا يعلم مبلغه من ذلك إلّا الله تعالى . والمشهور أن الخلافة خاصة بأفراد من الإنسان وهم الأنبياء عليهم السلام . ولا يستلزم واحد من القولين أن الله تعالى استخلفهم لحاجة به إلى ذلك . حاشاه .

قال البيضاوىّ (فى بيان أن كلّ نبىٍّ خليفة) : استخلفهم فى عمارة الأرض، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم ـ لا لحاجةٍ به تعالى إلى من ينوبه ـ بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط . ولذلك لم يستنبىء مَلَكاً كما قال : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا(١) . انتهى .

وكذلك إذا قلنا : إن كلّ النوع خليفة فى العوالم الأرضية .

فعلم من كلٍّ من القولين ؛ أن فى الإنسان معنى ليس فى غيره . فإذا كانت خلقة المَلَك لا تساعد على إرشاد الناس ، لأنه ليس من جنسهم ولا يمكن لكلّ واحدٍ التلقى منه ، فكذلك لاتساعد خلقته. وليس من وظيفتها، إظهارخواص الأجسام وقواها ووجوه الانتفاع

(١) [٦ / الأنعام / ٩] . . . وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ .

بها . ولو كان إيجاد مخلوقٍ ـ على ماذكرنا فى خلق الإنسان ـ غير ممكنٍ لما وجد . ولا ينكر كونه على ما ذكرنا إلّا من ينكر الحسّ والوجدان ، وهما أصل كلّ برهان . ومثل هذا لا يخاطب ولا يطلب منه التصديق بشيء ما .

إذن ، معنا قضيّتان قطعيّتا الثبوت :

(إحداهما) : كون الإنسان يعمل بقدرةٍ وإرادة يبعثها علمه على الفعل أوالترك والكف، وهى بديهية .

و (الثانية) : هى أنّ الله هو الخالق الذى بيده ملكوت كلّ شيء ، وهى نظرية .

ويتولّد من هاتين القضيّتين القطعيّتين مسألتان نظريتان :

الأولى : ما الفرق بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته ؟

والجواب من وجوه :

(أحدها) : أن صفات الله قديمة بقدمه فهى ثابتة له لذاته . وصفات الإنسان حادثة بحدوثه وهى موهوبة له من الله تعالى كذاته .

(ثانيها) : أن علم الله محيط بكلّ شيء[1] يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء . وأما الإنسان فما أوتى من العلم[2] إلّا قليلا ! وإرادةُ الله تعالى لا تتغيّر ولا تقبل الفسخ لأنها عن علمٍ تامٍّ . بخلاف إرادة الإنسان فإنها تتردد لتردّده فى العلم بالشيء . وتفسخ لظهور الخطأ فى العلم الذى بنيت عليه . وتتجدّد لتجدّد علمٍ لم يكن له من قبل. وقدرةُ الله تعالى متصرّفة فى كلّ ممكن . فيفعل كلّ ما يعلم أنّ فيه الحكمة . وقدرة الإنسان لا تصرّف لها ولا كسب إلّا فى أقلّ القليل من الممكنات .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

(٤) يشير إلى قوله تعالى [١٧/ الإسراء/ ٨٥] وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

فكم من أمرٍ يعلم أن فيه مصلحته ومنفعةً له وهو لا يقدر على القيام به .

(ثالثها) : أن صفات الإنسان عرضة للضعف والزوال ، وصفات الله تعالى أبدية كما أنّها أزلية .

وبالجملة : إنّ المشاركة بين صفات الله تعالى وصفات عباده إنّما هى فى الإسم ، لا فى الجنس كما زعم بعضهم، فبطل زعم من قال : إنّ إثبات كون الأفعال التى تصدر من الإنسان هى بقدرته وإرادته ـ يقتضى أن يكون شريكاً لله تعالى[1] . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

المسألة الثانية : ـ وهى عضلة العقد ومحكّ المنتقد ـ أن القضاء عبارة عن تعلّق علم الله تعالى أو إرادته فى الأزل ؛ بأنّ الشىء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة ، والقدر وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق فى الأزل .

ومن الأشياء التى يتعلق بها القضاء والقدر أفعال العباد الاختيارية . فإذا كان قد سبق القضاء المبرم ـ بأن زيدا يعيش كافرا ويموت كافرا ـ فما معنى مطالبته بالإيمان وهو ليس فى طاقته ؟ ولا يمكن فى الواقع ونفس الأمر أن يصدر منه. لأنه فى الحقيقة مجبور على الكفر فى صورة مختار له ؟ كما قال بعضهم .

والجواب عن هذا : أن تعلق العلم والإرادة بأن فلاناً يفعل كذا ، لا ينافى أن يفعله باختيار، إلا إذا تعلق العلم بأن يفعله مضطرا كحركة المرتعش مثلا . ولكن أفعال العباد الاختيارية قد سبق فى القضاء بأنها تقع اختيارية ، أى: بإرادة فاعليها لا رغما عنهم. وبهذا صح التكاليف ولم يكن التشريع عبثا ولا لغواً .

وثم وجه آخر فى الجواب ، وهو : لو كان سبق العلم أو الإرادة بأن فاعلا يفعل كذا ، يستلزم أن يكون ذلك الفاعل مجبورا على فعله، لكان الواجب ، تعالى وتقدس ، مجبوراً على

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

أفعاله كلها . لأن العلم الأزلىّ قد تعلق بذلك ، وكل ما تعلق به العلم الصحيح لابد من وقوعه .

فتبين ـ بهـــذا ـ أن الجبرية ومن تلا تلوهم قد غفلوا عن معنى الاختيار ، واشتبهت عليهم الأنظار ، فـكابروا الحسّ والوجدان ، ودابروا الدليل والبرهان ، وعطلوا الشرائع والأديان ، وتوهموا أنهم يعظمون الله ولـكنهم ما قدروه حقّ قدره ، ولا فقهوا سر نهيه وأمره ، حيث جرّؤا الجهال على التنصل من تبعة الذنوب والأوزار ، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر ، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان. فياعجباً لهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء، وهو الاعتقاد بإحاطة علم الله بالأشياء ! أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته، ويظلم الجهل بصيرته ، أن يكون أعظم مهذب لنفسه ، ومؤدب لعقله وحسه ، اعتقادُه بأن الله عليم بمـا يسر ويعلن ، ويظهر ويبطن ، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه . ؟ بلى [٢] ! إن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تـكن تراه فإنه يراك . وأما الذين ضلوا السبيل،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٧ ـ باب سؤال جبريل النبىّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، الحديث رقم ٤٦ ونصه :

عن أبى هريرة قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟

قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائـكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث » .

قال : ما الإسلام ؟

قال « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » .

قال : ما الإحسان ؟

واتبعوا فاسد التأويل ، فيقولون كما قال من قبلهم وقص الله علينا ذلك بقوله عز وجل . سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية . فانظر كيف رماهم العليم الحكيم بالجهل ، وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم .

وفى هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قلبه ، والله عليم حكيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

وقوله تعالى « قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ » أى : أحضروهم « الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا » يعنى ماتقولون من الأنعام والحرث . والمراد بـ(شهدائهم) قدوتهم الذين ينصرون قولهم . وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم ، وأنه لا متمسك لهم ،

= قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : متى الساعة ؟

قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها . وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْم فى البنيان . فى خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبىّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... الآية .

ثم أدبر .

فقال « ردوه » .

فلم يروا شيئاً .

فقال « هذا جبريل جاء يعلّم الناس دينهم » .

كمن يقلدهم فيحق الحق ويبطل الباطل « فَإِنْ شَهِدُوا » أى: بعد حضورهم بأن الله حرم هذا « فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ » أى : فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لما علمت من افترائهم على الله ومشيهم مع أهويتهم .

وفى (العناية) : (فَلَا تَشْهَدْ) استعارة تبعية . وقيل مجاز مرسل ، من ذكر اللازم وإرادة الملزوم. لأن الشهادة من لوازم التسليم. وقيل كناية . وقيل مشاكلة . « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » من وضع المظهر موضع المضمر ، للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره ، أى سوّى به الأصنام، فهو متبع للهوى لا غير . لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات، موحّداً لله تعالى .

ولما بيّن تعالى فساد ما ادعوا من أن إشراكهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه ، بأمر الله ومشيئته ، بظهور عجزهم عن إبراز ما يتمسك به فى ذلك ، وإحضار شهداء يشهدون بذلك، بعد ما كافوه مراراً ـ أمر الرسولَ بأن يبين لهم من المحرمات مايقتضى الحال بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

فقال تعالى « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » من الأوثان « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » أى : وأحسنوا بالوالدين إحسانا . قال الحاكم :

والإحسان مايخرج عن حد العقوق ، ومثل هذا قوله تعالى : وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا[(١)] . ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ، ذكر فى المحرمات . وكذا حكم ما بعده من الأوامر . فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده . بل هو عينه عند البعض . كأن الأوامر ذكرت وقُصِدَ لوازمها ، ومن سر ذلك هنا ـ أعنى وضع (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) موضع (النهى عن الإساءة إليهما) ـ المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة فى شأنهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ، بخلاف غيرهما . « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ » أى من أجل فقر ، ومن خشيته . والمراد بالقتل : وأد البنات وهن أحياء ، وكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » لأن رزق العبيد على مولاهم « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ » يعنى : الزنى لقوله : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً[(٢)] ؛ وإنما جئ بصيغة الجمع قصداً إلى النهى عن أنواعه أو مبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر منه « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » يعنى : علانيته وسره « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ » أى قتلها لإيمانها أو أمانها « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالعدل . يعنى بالقود والرجم والارتداد « ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ » تلطفاً ورأفة « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يعنى : لتعقلوا عظمها عند الله تعالى فتكفوا عن مباشرتها .

قال (المهايمى) : فالشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد للفقر ، منشؤه الجهل بما فى الشرك من استهانة المنعم بالإيجاد ، وبما فى الإساءة إلى الأبوين من مقابلة الإحسان بالإساءة، وقربان الفواحش من متابعة الهوى ، والقتل من متابعة الغضب ؛ وكلها أضداد العقل .

---

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] ونصها : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٢] ونصها : وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

تنبيه :

قال بعض (الزيدية) : قوله تعالى (مِنْ إِمْلَاقٍ) خرج على العادة . وإلا فهو محرم ، خشى الفقر أم لا . وقد دلت على تحريم قتل الأولاد .

قال (الحاكم) : فيدخل فى ذلك شرب الدواء لقتل الجنين . قال الإمام (يحيى) : إذا نفخ فيه الروح دون إفساد النطفة والعلقة والمضغة قبل أن ينفخ فيها الروح . وفى (الأحكام) يجب على من انقطع حيضها أن توقى من الأدوية مايخاف على الجنين منها، إذا كانت من ذوات البعول . وفى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد للزوم ماتقدم . انتهى .

لطيفة :

قال القاشانىّ : لما كان الكلام مع المشركين فى تحريم الطيبات ، عدّد المحرمات ليستدل بها على المحللات. فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهى عن أجناس الرذائل . وابتدأ بالنهى عن رذيلة القوة النطقية التى هى أشرفها . فإن رذيلتها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل . بخلاف رذيلة أخويها من القوتين البهيمية والسبعية . فقال (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) إذ الشرك من خطئها فى النظر ، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان . وعقبه بإحسان الوالدين . إذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة الله فى الإيجاد والربوبية . لأنهما سببان قريبان فى الوجود والتربية . وواسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتى إيجاده وربوبيته . ولهذا قال (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فعقوقهما يلى الشرك ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق الله تعالى ومعرفة صفاته . ثم بالنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر . فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق ، وأن أرزاق العباد بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . والاحتجاب عن سر القدر، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجل . فأولاها لا تقع إلا من خطئها فى معرفة ذات الله تعالى . والثانية من خطئها فى معرفة صفاته . والثالثة من معرفة أفعاله . فلا

يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ؛ وهذه الحجب أمُّ الرذائل وأساسها . ثم بيّن رذيلة القوة البهيمية لأن رذيلتها أظهر وأقدم فقال : (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) ، ثم أشار إلى رذيلة القوة السبعية بقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ) . الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ » أى: بوجه من الوجوه « إِلَّا بِالَّتِي »أى: بالخصلة التى « هِيَ أَحْسَنُ » يعنى أنفع له . كتثميره أو حفظه أوأخذه قرضاً . لا بأ كله ، وإنفاقه فى مآربكم وإتلافه ، فإنه أفحش . وقد ذكرنا طرفاً فيما رخص فيه لوليّ اليتيم أووصيه فى قوله تعالى فى سورة النساء (وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)(١) وقد روى (أبو داود)(٢) عن ابن عباس قال : لما أنزل الله : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ . الآية ، و: إِنَّ

---

(١) [٤ / النساء / ٦] ونصها : وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ، وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٧ ـ باب مخالطة اليتيم فى الطعام ، حديث ٢٨٧١ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ...(١) الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله ، أو يفسد . فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)(٢) فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه . قيل : إنما خص تعالى مال اليتيم بالذكر ، لكونه لا يدفع عن نفسه ولا عن ماله هو ولا غيره. فكانت الأطماع في ماله أشد . فعزم في النهي عنه لأنه حماه ومقدمته، وأمر بتنميته. « حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أي قوته التي يقدر بها على حفظه واستنمائه ، وهذا غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي، كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً . فحينئذ سلموه إليه كما في قوله تعالى : فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . والأشد جمع (شدة) كنعمة وأنعم ، أو شَدّ ككلب وأكلب، أو شد كصِرّ وآصُر . وقيل هو مفرد كآنك « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أي بالعدل والتسوية في الأخذ والإعطاء. وقد توعد تعالى على تركه في قوله(٣): وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

قال ابن كثير : وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال. روى الترمذيّ(٤) عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لأصحاب الكيل والميزان) : إنكم

---

(١) [٤ / النساء / ١٠] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٣) [٨٣ / المطففين / ١ـ٦] .

(٤) أخرجه الترمذيّ في : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٩ ـ باب ما جاء في المكيال والميزان.

وليتم أمرين هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم . ثم ضعفه وصحح وقفه على ابن عباس .
وروى نحوه ابن مردويه مرفوعا، ولفظه : إنكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين ، بهما هلكت القرون المتقدمة : المكيال والميزان .

« لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا » أى:عند الكيل والوزن «إِلَّا وُسْعَهَا» أى: جهدها بالعدل. وهذا الاعتراض جىء به عقيب الأمر بالعدل ، لبيان أن مراعاة الحدّ من القسط ، الذى لازيادة فيه ولا نقصان ، مما يجرى فيه الحرج ، لصعوبة رعايته . فأمر ببلوغ الوسع ، وأن الذى ما وراءه معفوّ عنه . وقد روى ابن مردويه عن سعيد بن المسيّب قال : قال رسول الله ﷺ : (أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلاوسعها) : من أوفى على يده فى الكيل والميزان، والله أعلم بصحة نيته بالوفاء فيهما ، لم يؤاخذ .

قال ابن المسيّب : وذلك تأويل (وسعها) .

قال ابن كثير : هذا مرسل غريب .

وفى (العناية) : يحتمل رجوع قوله تعالى (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) إلى ماتقدم. أى جميع ما كلفناكم ممكن، ونحن لانكلف ما لايطاق . انتهى. والأول أولى .

« وَإِذَا قُلْتُمْ » أى: فى حكومة أو شهادة ونحوها «فَاعْدِلُوا» أى : فيها . أى: لاتقولوا إلا الحق « وَلَوْ كَانَ » أى: المقول له أو عليه « ذَا قُرْبَىٰ » أى: ذا قرابة منكم. فلا تميلوا فى القول له أو عليه ، إلى زيادة أو نقصان .

قال بعض الزيدية : معنى قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) أى اصدقوا فى مقالتكم . قال : وهذه اللفظة من الأمور العجيبة فى عذوبة لفظها وقلة حروفها وجمعها لأمور كثيرة من الإقرار والشهادة والوصايا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والفتاوى والأحكام والمذاهب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك ، وبين أنه يلزم العدل فى القول، ولو كان المقول له ذا قربى . كقوله تعالى(١) : (وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) .

---

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ =

«وَ بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا» أى: ماعهدإليكم من الأمور المعدودة، أو أىّ عهدكان. فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليًّا . أوماعاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور « ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ماذكر فى هذه الآيات « وَصَّاكُمْ بِهِ » أى أمركم بالعمل به فى الكتاب « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون . وفى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) تأكيد آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ » يقرأ بفتح همزة (أن) والتشديد. ومحلها مع مافى حيزها الجرّ بحذف لام العلة . أى: ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأمر والنهى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى قويماً لا اعوجاج فيه، فاعملوا به. وجوز أن يكون محلها مع مافى حيزها النصب على (ما حرم) أى : وأتلو عليكم أن هذا صراطى . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف . « وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ » يعنى الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات « فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » أى: فتفرقكم عن صراطه المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده . روى الإمام (أحمد)(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه

= شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤١٤٢ (طبعة المعارف) .

سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً.. الآية. ورواه (الحاكم) وصححه.

لطائف

قال الكيا الهراسيّ : فى الآية دليل على منع النظر والرأى ، مع وجود النص .

قال ابن كثير : إنما وحّد (سبيله) لأن الحق واحد ولهذا جمع (السبل) لتفرقها وتشعبها. كما قال تعالى[1]: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .

قال ابن عطية : وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات، من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام . وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

قال قتادة : اعلموا أن السبيل سبيل واحد . جماعة الهدى ، ومصيره الجنة . وأن إبليس استبدع سبلا متفرقة . جماعة الضلالة ، ومصيرها إلى النار . وروى[2] علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية وفى قوله: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ونحو هذا فى القرآن، قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة. وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله .

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى ماذكر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل «وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » أى اتباع سبل الكفر والضلالة . وفيه تأكيد أيضا . روى[3] الترمذىّ وحسنه ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

(٢) الأثر رقم ١٤١٦٦ من تفسير ابن جرير .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٧ ـ حدثنا الفضل بن الصباح البغدادىّ .

الله ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ـ إلى قوله ـ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

وروى الحاكم ، وصححه عن ابن عباس قال : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب. ثم قرأ : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...الآيات .

وروى الحاكم وصححه، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) حتى فرغ من ثلاث آيات . ثم قال : ومن وفى بهن فأجره على الله . ومن انتقص منهن شيئاً ، فأدركه الله فى الدنيا ، كانت عقوبته . ومن أخره إلى الآخرة، كان أمره إلى الله. إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه .

لطيفة :

قال النسفىّ : ذكر أولّا (تَعْقِلُونَ) ثم (تَذَكَّرُونَ) ثم (تَتَّقُونَ) لأنهم إذا عقلوا تفكروا ، ثم تذكروا ، أى اتعظوا ، فاتقوا المحارم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

« ثُمَّ ءَاتَيْنَا » أى : أعطينا « مُوسَى الْكِتَابَ » يعنى التوراة «تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ» يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله إما ضمير (الَّذِى) أى : تماماً للكرامة والنعمة على الذى أحسن. أى: على من كان محسنا صالحاً. يريد جنس المحسنين. وتدل عليه قراءة عبد الله (على الذين أحسنوا) وإما ضمير موسى عليه السلام ومفعوله محذوف . أى: تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر به . أو تماماً على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع . من (أحسن الشىء) إذا أجاد معرفته، أى زيادة على علمه على وجه التتميم.

وعلى الأول ، فـ(تماماً) فى موقع المفعول له . وجاز حذف اللام لـكونه فى معنى (إتماماً) أو مصدر لقوله(ءَاتَيْنَا)من معناه. لأن إيتاء الـكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً. فـ(تمام) بمعنى (إتمام) كنبات فى قوله تعالى : وَاللهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. أو(أصله إيتاء تمام). وعلى الوجه الثانى هو حال من الـكتاب . وقرأ يحيى بن يعمر (عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ) بالرفع أى: على الذى هو أحسن ، أو على الوجه الذى هو أحسن ما يكون عليه الـكتب. فـ(تماماً) حال من الـكتاب بمعنى (تاما) أى حال كون الـكتاب تامًّا كائناً على أحسن ما يكون .

قال ابن جرير : هذه قراءة لا أستجيز القراءة بها . وإن كان فى العربية لها وجه صحيح .

« وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ » أى: وبياناً مفصلًا لـكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى الدين « وَهُدًى » لهم إلى ربهم فى سلوك سبيله « وَرَحْمَةً » عليهم بإفاضة الفوائد « لَعَلَّهُمْ » أى: أهل الـكتاب « بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » يصدقون بلقائه للجزاء .

لطيفة :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (ثُمَّ ءَاتَيْنَا) مَن قال إن (ثمّ) لا تفيد الترتيب . انتهى .

قال ابن كثير و (ثُمَّ) ههنا لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب كما قال الشاعر :

قل لمن سَادَ ثمَّ سَادَ أَبُوهُ ثم سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهْ

وقال (أبو السعود) : و (ثُمَّ) للتراخى فى الأخبار كما فى قولك : بلغنى ما صنعت اليوم، ثم ما صنعتَ أمس أعجبُ . أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل : ذلـكم وصاكم به قديماً وحديثاً. ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة. فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها ، أعظم من التوصية بها فقط . انتهى .

ثم أشار إلى أن التوراة، وإن كانت تماماً على النهج الأحسن ، فالقرآن أتم منه وأزيد حسنا. فهو أولى بالمتابعة، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَهَٰذَا » أى: القرآن « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ » أكثر نفعاً من التوراة ديناً ودنيا « فَاتَّبِعُوهُ » أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام « وَاتَّقُوا » يعنى مخالفته واتباع غيره لكونه منسوخاً به « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى : لترحموا بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه . وفيه إشارة إلى أنه لا رحمة بمتابعة المنسوخ وإن آمن صاحبها بلقاء ربه .

قال بعض الزيدية : وفى قوله تعالى (فَاتَّبِعُوهُ) دلالة على وجوب تعلم القرآن ليمكن الاتباع له . لكن هو كسائر العلوم فرض كفاية إلا ما يتعين على كل مكلف ، كتعلم ما لا تصح الصلاة إلا به ، فإنه يجب عليه . انتهى.

لطيفة :

قال ابن كثير : إنه تعالى كثيرًا مايقرن بين الكتابين كقوله: وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا[١] ، وقوله أول السورة : قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ[٢] ، ثم قال : وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية[٣] ،

(١) [١١ / هود / ١٧] ونصها : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام/ ٩١] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

(٣) [٦ / الأنعام / ٩٢] ونصها: وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي =

وقوله تعالى مخبرًا عن المشركين : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ[1] . وقوله تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... الآية[2] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ)

« أَن تَقُولُوا » علة لـ (أَنزَلْنَاهُ) . أى : كراهة أن تقولوا يوم القيامة . أو لئلا تقولوا « إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا » اليهود والنصارى « وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ » عن تلاوة كتابهم « لَغَافِلِينَ » لا علم لنا بشىء منها لأنها ليست بلغتنا .

قال أبو السعود : ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافى عموم أحكامه. فلِمَ لَمْ تعملوا بأحكامه العامة ؟ والمعنى : وإن كنا لا ندرى ما فى كتابهم ، إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقى منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها ، وإن لم يكن منزلًا علينا . وبهذا تبين أن معذرتهم هذه ، مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم ، كما أن قطع تلك المعذرة بإنزال القرآن لاشتماله أيضاً عليها ، لا على سائر الشرائع والأحكام فقط . انتهى .

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٨] ... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٠] ... يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)

« أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ » أى: كما أنزل عليهم « لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ » أى : إلى الحق وأسرع منهم إجابة للرسول لمزيد ذكائنا وجدّنا فى العمل « فَقَدْ جَاءَكُمْ » . قال أبو السعود : متعلق بمحذوف ينبيء عنه الفاء الفصيحة ، إما معلل به ، أى : لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم . وإما شرط له . أى : إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم، فقد حصل ما فرضتم وجاءكم. « بَيِّنَةٌ » أى : كتاب حجة واضحة « مِنْ رَبِّكُمْ » متعلق بـ (جَاءَكُمْ) أو بمحذوف صفة لـ (بَيِّنَةٌ) أى : بينة كائنة منه تعالى، لا يتوهم فيه السحر « وَهُدًى » بإقامة الدلائل ورفع الشبه « وَرَحْمَةٌ » بإفاضة الفوائد وتسهيل طريقكم وتيسيرها إلى أشرف الكمالات «فَمَنْ أَظْلَمُ» . قال أبو السعود : الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فإن مجيء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه. أى: وإذا كان الأمر كذلك فَمَنْ أَظْلَمُ «مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا » أى : صَرَفَ الناس وصدَّهم عنها . فجمع بين الضلال والإضلال. والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم منه أو مساوياً له « سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ » الناس « عَنْ ءَايَاتِنَا » أى : التى لو لم يصدفوا عنها لعرفوا إعجازها « سُوءَ الْعَذَابِ » أى : العذاب السيء « بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ» وهذا كقوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ(١) .

---

(١) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« هَلْ يَنْظُرُونَ » يعنى قد أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما كانوا يعتقدون من الضلالة . فما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدّهم عن آيات الله ؟

قال البيضاوىّ : يعنى أهل مكة . وهم ما كانوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر ، شبهوا بالمنتظرين . « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ » يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة .

قال ابن كثير : وذلك كائن يوم القيامة . وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله تعالى(١) : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ، بما فيه كفاية .

ومذهب السلف : إمرار ذلك بلا كيفٍ ، كما مرّ مرارًا .

قيل : إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ . أى : ملائكة الموت لقبض أرواحهم « أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ » وذلك قبل يوم القيامة ، كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئًا من ذلك . كما روى البخارىّ(٢) فى تفسير هذه الآية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦ ـ سورة الأنعام ، ٩ ـ باب قوله: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ .

من عليها . فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ورواه مسلم أيضاً[١] ، ولمسلم[٢] والترمذيّ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض. « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ » صفة (نَفْسًا) « أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » عطف على (ءَامَنَتْ) والمعنى أن بعض أشراط الساعة إذا جاء ، وهى آية ملجئة مضطرة ، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات . أو مقدمة الإيمان غير كاسبة فى إيمانها خيرًا لفسقها . فتوبتها حينئذ لا تجدى .

قال الطبريّ : معنى الآية لا ينفع كافرًا لم يكن آمن قبل الطلوع ، إيمانٌ بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع ، عملٌ صالح بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ، حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[٣] . وكما ثبت فى الحديث الصحيح[٤] : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . انتهى .

وبالجملة : فالمعنى أنه لا ينفع من كان مشركًا إيمانُه . ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . وذلك لذهاب زمن التكليف .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٨ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٩ (طبعتنا) .

(٣) [٤٠ / غافر / ٨٥] . . . سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

(٤) أخرجه الترمذيّ فى: ٤٥ ـ كتاب الدعوات، ٩٨ـ باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ، حدثنا إبراهيم بن يعقوب .

قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات ، وهو على عمل صالح مع إيمانه ، قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية ، كما قبل منه قبل ذلك . فأما من آمن من شركٍ أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية ، فلا يقبل منه . لأنها حالة اضطرار . كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا . فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك ، لمعاينتهم الأهوال والشدائد ، التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة .

وقال ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه . فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً فى عمله ، فهو بخير عظيم . وإن لم يكن مصلحاً ، فأحدث توبة حينئذ ، لم تقبل منه توبته . كما دلت عليه الأحاديث . وعليه يحمل قوله تعالى (أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) أى : لا يقبل منها كسب عمل صالح ، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك . انتهى .

والأحاديث المشار إليها ، منها ما رواه (مسلم)[1] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه . وروى (الترمذىّ)[2] وصححه

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٩٨ ـ باب فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ونصه :

عن زرّ بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادىّ أسأله المسح على الخفين . فقال : ما جاء بك يا زرّ ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً عما يطلب . فقلت : إنه حكّ فى صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنتَ امرءًا من أصحاب النبىّ ﷺ . فجئت أسألك : هل سمعته يذكر فى ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . كان يأمرنا إذا كنا سَفْرًا (أو مسافرين) أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهنّ إلا من جنابة. لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعتَه يذكر فى الهوى شيئاً ؟ قال : نعم . كنا =

عن صفوان بن عسال المرادىّ قال : قال رسول الله ﷺ : بابٌ من قِبَل المغرب مسيرة عرضه (أو قال يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض . مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه . ولأبى داود[١] والنسائىّ من حديث معاوية رفعه : لا تزال تقبل التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

قال ابن حجر: سنده جيد . وأخرجه أحمد[٢] والدارمىّ[٣] وعبد بن حميد من حديثه أيضاً

= مع النبىّ ﷺ فى سفر ، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابىّ بصوت له جهورىّ : يا محمد ! فأجابه رسول الله ﷺ نحوًا من صوته « هاؤم » .

وقلنا له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبىّ ﷺ ، وقد نُهيتَ عن هذا . فقال : والله ، لاأغضض . قال الأعرابىّ : المرء يحب القوم ولمّا يلحق بهم ؟ قال النبىّ ﷺ « المرء مع من أحب يوم القيامة » . فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من قِبَل المغرب مسيرة سبعين عاماً ، عرضه (أو يسير الراكب فى عرضه) أربعين أو سبعين عاما .

قال سفيان (أحد رجال السند) : قبل الشام . خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً . (يعنى للتوبة) لا يغلق حتى تطلع الشمس منه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢ ـ باب فى الهجرة هل انقطعت ؟ حديث رقم ٢٤٧٩ ونصه :

عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه كما جاء فى أبى داود .

(٣) أخرجه الدارمىّ فى : ١٧ ـ كتاب السير ، ٧٠ ـ باب إن الهجرة لا تنقطع .

بلفظ : لاتنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها . وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال : لاتنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل. فقال معاوية وعبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي ﷺ قال : إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله. ولاتنقطع ماتُقُبِّلَتِ التوبة . ولاتزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب. فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلب بما فيه، وكُفِيَ الناسُ العملَ.

قال ابن كثير : هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وَهٰهُنا مسائل

الأولى : ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) فى الآية هو طلوع الشمس من مغربها . كما فى حديث الصحيحين[١] السابق . ولا يقال يخالف ذلك حديث مسلم[٢] : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها . . . الحديث . وفى ثبوت ذلك بخروج الدجال نظر . لأن نزول عيسى ﷺ بعده. وفى زمنه خير كثير دنيوى وأخروى. فالإيمان مقبول وقتئذ . لأنا نقول: لا منافاة . وذلك لأن (البعض) فى الآية، إن كان عدة آيات ، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول، وإن كان إحدى آيات ، فهو محمول على المبيّن فى الحديث، لأنه أعظمها. كذا فى (العناية) .

قال ابن عطية : إذا أخبر النبى ﷺ بتخصيص مانع القبول بالطلوع، فى الحديث الصحيح، لم يجز العدول عنه ، وتعيّن أنه معنى الآية . انتهى .

وقال القاضى عياض : المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك . بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التى هو عليها . والحكمة فى ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوى . فإذا

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٥٧٧و٢٥٧٨ .

(٢) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٢٥٧٨ .

شوهد ذلك حصل الإيمان الضرورىّ بالمعاينة . وارتفع الإيمان بالغيب . فهو كالإيمان عند الغرغرة . وهو لا ينفع . فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله .

الثانية : قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان لا ينفع مع عدم كسب الخير فيه . وهو مردود . فى الكلام تقدير . والمعنى : لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبلُ ، إيمانها حينئذ ، ولا ينفع نفساً لم تكسب خيرًا قبلُ ، توبتُها حينئذ .

وقال الشهاب السمين : قد أجاب الناس بأن المعنى فى الآية إنه إذا أتى بعض الآيات لا ينفع نفساً كافرة، إيمانُها الذى أوقعته إذ ذاك . ولا ينفع نفساً سبق إيمانها ولم تكسب فيه خيرًا . فقد علق نفى نفع الإيمان بأحد وصفين : إما نفى سبق الإيمان فقط ، وإما سبقه مع نفى كسب الخير . ومفهومه أنه ينفع الإيمان السابق وحده ، وكذا السابق ومعه الخير . ومفهوم الصفة قوىّ فيستدل بالآية لمذهب أهل السنة . ويكون فيه قلب دليل المعتزلة ، دليلًا عليهم .

وأجاب ابن المنير فى (الانتصاف) فقال : هذا الكلام من البلاغة يلقب (اللف) وأصله : يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة قبلُ ، إيمانُها بعدُ . ولا نفساً لم تكسب خيرًا قبلُ ، ما تكتسبه من الخير بعدُ ، فَلَفَّ الكلامين فجعلهما كلامًا واحدًا إيجازًا . وبهذا التقرير يظهر أنها لا تخالف مذهب أهل الحق . فلا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير ولو نفع الإيمان المتقدم من الخلود . فهى بالرد على المعتزلة أولى من أن تدل لهم .

وقال ابن الحاجب فى (أماليه) : الإيمان قبل مجىء الآية نافع ولو لم يكن عمل صالح غيره، ومعنى الآية : لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح،لم يكن الإيمان قبل الآية ، أو لم يكن العمل مع الإيمان قبلها . فاختصر للعلم .

ونقل الطيبىّ كلام الأئمة فى ذلك . ثم قال : المعتمد ما قال ابن المنير وابن الحاجب. وبسطه:

أن الله تعالى ، لما خاطب المعاندين بقوله تعالى (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ . .)[١] الآية، علل الإنزال بقوله (أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ)[٢] الخ إزالة للعذر وإلزاما للحجة . وعقبه بقوله (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ) الخ تبكيتا لهم وتقريرا لما سبق من طلب الاتباع . ثم قال (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ ..)الآية أى أنه أنزل هذا الكتاب المنير كاشفاً لكل ريب وهاديا إلى الطريق المستقيم ورحمة من الله للخلق، ليجعلوه زادا لمعادهم فيما يقدمونه من الإيمان والعمل الصالح. فجعلوا شكر النعمة أن كذبوا بها ومنعوا من الانتفاع بها . ثم قال (هَلْ يَنْظُرُونَ ...) الآية . أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم عذاب الدنيا بنزول الملائكة بالعقاب الذى يستأصل شأفتهم. كما جرى لمن مضى من الأمم قبلهم . أو يأتيهم عذاب الآخرة بوجود بعض قوارعها . فحينئذ تفوت تلك الفرصة السابقة فلا ينفعهم شىء مما كان ينفعهم من قبلُ، من الإيمان . وكذا العمل الصالح مع الإيمان . فكأنه قيل : يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها العمل الصالح فى إيمانها حينئذ ، إذا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا من قبل. ففى الآية لف . لكن حذفت إحدى القرينتين بإعانة النشر ، ونظيره قوله تعالى[٣] : وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً .

قال : فهذا الذى عناه ابن المنير بقوله : إن هذا الكلام فى البلاغة يقال له (اللف) والمعنى يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ، لم تكن مؤمنة من قبل ذلك، إيمانُها من بعد ذلك ،

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٥] . . . وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦] . . . عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

(٣) [٤ / النساء / ١٧٢] ونصها : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، . . .

ولا ينفع نفساً كانت مؤمنة، لـكن لم تعمل فى إيمانها عملا صالحاً قبل ذلك، ما تعمله من العمل الصالح بعد ذلك. قال : وبهذا التقرير يظهر مذهب أهـــل السنة . فلا ينفع بعد ظهور الآية اكتساب الخير ، أى: لإغلاق باب التوبة ورفع الصحف والحفظة . وإن كان ما سبق قبل ظهور الآية من الإيمان ينفع صاحبه فى الجملة .

ثم قال الطيبى : وقد ظفرتُ ، بفضل الله بعد هذا التقرير ، على آية أخرى تشبه هذه الآية وتناسب هذا التقرير معنى ولفظاً . من غير إفراط ولا تفريط . وهى : قوله تعـالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ...(١) الآية . فإنه يظهر منه أن الإيمان المجرد قبل كشف قوارع الساعة نافع . وأن الإيمان المقارن بالعمل الصالح أنفع . وأما بعد حصولها فلا ينفع شىء أصلا. والله أعلم. انتهى ملخصاً .

الثالثة : قال فى (الوجيز) فى قوله تعالى (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) أى لفصل القضاء بين خلقه. وإتيانه نؤمن به ولا نعرف كيفه . انتهى .

وفى حواشى (جامع البيان) : كيف لا يؤمن بإتيانه ومجيئه تعـالى يوم القيامة، وقد جاء فى القرآن فى عدة مواضع : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ(٢). وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٣). إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ(٤)، وأى أمر أصرح منه فى القرآن ؟ .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢و٥٣] ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٢) [٢ / البقرة/ ٢١٠] ... وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

(٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [١٦/ النحل/٣٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

وروى الطبرىّ[١] فى (تفسيره) عن ابن عباس مرفوعا : إن فى الغمام طاقات يأتى الله فيها، محفوفاً . وذلك قوله[٢] : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ .

قال عكرمة : والملائكة حوله، فهذا من صفات الله تعالى. يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت وإن لم نعرف كيفيتها . وعدم علمنا بكيفيتها ، بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته . فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه . وهذا هو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة . انتهى .

وقوله تعالى « قُلِ انْتَظِرُوا » أى: قل لهؤلاء الكافرين، بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون . « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى لذلك ، لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

ثم بيّن تعالى أحوال أهل الكتاب ، إثْرَ بيان حال المشركين بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى : اختلفوا فيه ، مع وحدته فى نفسه ، فجعلوه أهواء متفرقة « وَكَانُوا شِيَعًا » أى : فرقاً تشيع كل فرقة إماما لها بحسب غلبة تلك الأهواء . فلم يتعبدوا إلا بعادات وبدع، ولم ينقادوا إلا لأهواء وخدع « لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » أى : من عقابهم . أو أنت برىءٌ منهم محمىّ الجناب عن مذاهبهم . أو المعنى : اتركهم فإن لهم مالهم. وقال القاشانىّ : أى: لست من هدايتهم إلى التوحيد فى شىء . إذ هم أهل التفرقة

---

(١) الأثر رقم ٤٠٣٨

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٠] ... وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

لايجتمع همهم ولا يتحد قصدهم « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ » أي: في جزاء تفرقهم ومكافأتهم، لا إليك « ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ » يعني إذا وردوا يوم القيامة « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أي : من السيئات والتفرقة ، لمتابعة الأهواء . ويجازيهم على ذلك بما يماثل أفعالهم .

تنبيه :

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدّيّ : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى . وروى العوفيّ عن ابن عباس في الآية؛ أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا . وحمل بعضهم الآية على أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة . وآخر على الخوارج . وأسندوا في ذلك حديثاً رفعوه .

قال ابن كثير : وإسناد ذلك لا يصحّ . ثم قال : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لااختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برّأ رسولَ الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...)(١) الآية. وفي الحديث(٢) نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات . ديننا واحد. فهذا هو الصراط المستقيم،

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ، حديث ١٦١٧ ونصه :

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « أنا أولى الناس بابن مريم . والأنبياء أولاد عَلَّات . ليس بيني وبينه نبيّ » .

وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لاشريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر. وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء . والرسل برءاء منها كما قال الله تعالى : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ؛ ثم قال : وقوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) كقوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1] الآية. انتهى .

وقد أخرج أبو داود [2] عن معاوية قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إنّ مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة . وإن هــذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين. ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة . ورواه الترمذىّ عن عبد الله بن عمْرو ، وفيــه : قالوا من هى يا رسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابى .

ثم بين لطفه سبحانه فى حكمه وعدله يوم القيامة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » أى جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » يعنى عشر حسنات أمثالها فى الحسن .

قال (المهايمىّ) : كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب يعطيه بما يليق بسلطنته ، لا قيمة

(١) [٢٢ / الحج/ ١٧] . . . إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١ ـ باب شرح السنة ، حديث رقم ٤٥٩٧ .

العنقود. انتهى . والعشر أقل ماوعد من الأضعاف. وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة وبغير حساب . ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ » أى: بالأعمال السيئة « فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » فى القبح .

قال المهايمىّ : فمن كفر خلد فى النار ، فإنه ليس أقبح من كفره . كمن أساء إلى سلطان يقصد قتله . ومن فعل معصية عذب بقدرها كمن أساء إلى آحاد الرعية . انتهى .

« وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى : بنقص الثواب وزيادة العقاب.

لطيفة :

قال القاشانىّ فى قوله تعالى (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) : هذا أقل درجات الثواب . وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب والسيئة بظهور النفس . فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب الذى يتلو مقام النفس فى الارتقاء، تلو مرتبة العشرات للآحاد فى الأعداد . وأما فى السيئة فلأنه لامقام أدون من مقام النفس، فينحط إليه بالضرورة . فيرى جزاءه فى مقام النفس بالمثل . ومن هذا يعلم أن الثواب من باب الفضل . فإنه يزيد به صاحبه ويتنوّر استعداده ويزداد قبوله لفيض الحق. فيتقوى على أضعاف مافعل ويكتسب به أجورًا متضاعفة إلى غير نهاية ، بازدياد القبول على فعل كل حسنة وزيادة القدرة والشغف على الحسنة عند زيادة الفيض إلى ما لايعلمه إلا الله . كما قال بعد ذكر أضعافها إلى سبعمائة : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ(1) . وأن العقاب من باب العدل إذ العدل يقتضى المساواة. ومن فعل بالنفس، إذا لم يعف عنه ، يجازى بالنفس سواء . انتهى .

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٦١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تنبيه :

وردت أحاديث كثيرة فى معنى الآية . فروى الإمام أحمد[١] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ، فيما يروى عن ربه تعالى : إن ربكم تبارك وتعالى رحيم . من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله ولا يهلك على الله إلا هالكُ . ورواه البخارىّ[٢] ومسلم[٣] والنسائىّ . وروى الإمام[٤] أحمد ومسلم[٥] عن أبى ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أو أزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أوأغفر . ومن تقرب منى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٥١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو سيئة ، حديث ٢٤٣٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه بالكامل :

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها ، أو أَغْفِرُ . ومن تقرّب منى شبرًا ، تقربت منه ذراعا . ومن تقرب منى ذراعا ، تقرّبت منه باعا . ومن أتانى يمشى، أتيته هرولة . ومن لقينى بقُرَاب الأرض (قراب الأرض ما يقارب مِلْأها) خطيئة ، لا يشرك بى شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة » .

شبرًا تقربت منــه ذراعاً . ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بى شيئاً ، لقيته بمثلها مغفرة . وروى الشيخان(١) عن أبى هريرة . أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة . لفظ البخارى . وروى الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام . وذلك لأن الله تعالى قال : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وروى(٢) الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله. ورواه النسائى والترمذى وزاد: فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، اليوم بعشرة أيام .

وبقيت أخبار أخر . وفيما ذكر كفاية .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر أولئك المفرقين دينهم بما أنعم سبحانه عليه، من إرشاده إلى دينه القويم بقوله:

---

(١) أخرجه البخارى فى: ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ ، حديث ٢٦٠١ .

وأخرج فى معناه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان حديث ٢٠٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده المخصلين « دِيناً » نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه هدانى صراطاً. بدليل قوله (وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)(١) أومفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى عرفنى ديناً . أو مفعول (هدانى) . و (هدى) يتعدى إلى اثنين « قِيَماً » صفة (دِيناً) يقرأ بالتشديد أى: ثابتاً أبداً لاتغيره الملل والنحل، ولاتنسخه الشرائع والكتب، مقوماً لأمر المعاش والمعاد . ويقرأ بالتخفيف على أنه مصدر نعت به . وأصله قِوَم كَعِوَض . فَأُعِلَّ لإعلال فعله كالقيام . « مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » المتفق على صحتها وهى التى أعرض بها عن كل ما سواه تعالى . عطف بيان لـ (دِيناً) « حَنِيفاً » حال من (إِبْرَاهِيمَ) أى مائلاً عن كل دين وطريق باطل ، فيه شركٌ ما ، وقوله تعالى « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل . أى ما كان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلاً وفرعاً. صرح بذلك رداً على الذين يدعون أنهم على ملته من مشركى مكة واليهود والنصارى. أفاده أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٢) وليس يلزم من كونه أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية،

(١) [٤ / النساء / ١٧٥] ونصها : فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ . . .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها. لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال. ولهذا قال: أنا خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام. وروى ابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا وملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وروى الإمام أحمد(١) عن ابن عباس قال قيل لرسول الله ﷺ: أىّ الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: الحنيفية السمحة. وروى الإمام أحمد(٢) عن عائشة قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقنى على منكبيه لأنظر إلى زَفْنِ الحبشة. حتى كنت التى مللت، فانصرفت عنهم. وقالت عائشة: قال لى رسول الله ﷺ يومئذ: ليعلم يهود أن فى ديننا فسحة. إنى أرسلت بحنيفية سمحة.

وأعيد الأمر فى قوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦٢] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

«قُلْ إِنَّ صَلَاتِي» لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع، وما سبق بأصولها. أى: إن صلاتى إلى الكعبة «وَنُسُكِي» أى: طوافى وذبحى للهدايا فى الحج والعمرة، أو عبادتى كلها «وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي» أى: وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح. أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات، كالوصية والتدبير. أو الحياة والممات أنفسهما «لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢١٠٧ (طبعة المعارف)

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبى).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

« لَا شَرِيكَ لَهُ » أى : خالصة لله لا أشرك فيها غيره « وَبِذَٰلِكَ » أى : القول أوالإخلاص « أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » أى: من هذه الأمة . لأن إسلام كل نبىّ متقدم على إسلام أمته .

قال ابن كثير : يأمر تعالى نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى ويذبحون لغير اسمه ؛ أنه مخالف لهم فى ذلك . فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا » فأشركه فى عبادته . وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم ، وفى إيثار نفى البغية والطلب ، على نفى العبادة ، أبلغيّة لا تخفى « وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ » حال فى موضع العلة للإنكار والدليل له . أى وكل ماسواه مربوب مثلى لا يصلح للربوبية ، فلا أكون عبداً لعبده .

قال ابن كثير : أى فلا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه . لأنه رب كل شىء ومليكه وله الخلق والأمر . ففى هذه الآية الأمر بإخلاص العبادة والتوكل . كما تضمنت الآية التى قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا . كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . وقوله[١]: فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ.

(١) [١١ / هود / ١٢٣] .

وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)(١) وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)(٢) وأشباه ذلك من الآيات .

« وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » .

قال ابن كثير: إخبار عن الواقع يوم القيامة من جزاء الله تعالى وحكمه وعدله؛ أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى .

وقال أبو السعود : كانوا يقولون للمسلمين : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم ، وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب عليكم من الخطايا ـ فهذا رد له بالمعنى الأول . أي لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها . ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ، حتى يتأتى ما ذكرتم . وقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) رد له بالمعنى الثانى . أى : لا تحمل يومئذ نفس حاملة، حمل نفس أخرى، حتى يصح قولكم .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى أنه لا يؤاخذ أحد بفعل أحد . وقد ردت عائشة به على من قال : إن الميت يعذب ببكاء الحى عليه . أخرجه البخارىّ(٣)، وأخرج

(١) [٦٧ / الملك / ٢٩] . . . . فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

(٢) [٧٣ / المزمل / ٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٣ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه . وسنسوقه بما فيه من الحوار الذى دار بين عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وبين سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

عن ابن جريج قال : أخبرنى عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة قال : توفيت ابنة =

ابن أبي حاتم عنها ؛ أنها سئلت عن ولد الزنى؟ فقالت ليس عليه من خطيئة أبويه شيء. وتلت هذه الآية .

قال: الكيا الهراسي : ويحتج بقوله : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) في عدم

= لعثمان رضي الله عنه ، بمكة . وجئنا لنشهدها . وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. وإني لجالس بينهما (أو قال: جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي) فقال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما ، لعمرو بن عثمان : ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله ﷺ قال « إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه » .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك .

ثم حدّث قال : صدرتُ مع عمر رضي الله عنه من مكة ، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرة . فقال : اذهب فانظر مَنْ هؤلاء الركب . قال فنظرت فإذا هو صهيب . فأخبرته فقال : ادعه لي . فرجعت إلى صهيب : فقلت : ارتحل فالحق أمير المؤمنين.

فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول : وا أخاهْ واصاحباهْ .

فقال عمر رضي الله عنه : ياصهيب ، أتبكي عليّ وقد قال رسول الله ﷺ « إن الميت يعذَّب ببعض بكاء أهله عليه » ؟

قال ابن عباس رضي الله عنه : فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها . فقالت : رحم الله عمر . والله ! ما حدّث رسول الله ﷺ : إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه . ولكن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه »

وقالت : حسبكم القرآن : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

قال ابن عباس رضي عنهما عند ذلك : والله هو أضحك وأبكى .

قال ابن أبي مليكة : والله ! ما قال ابن عمر رضي عنهما شيئاً .

ورقم حديث ابن عمر ٦٨٤ وعمر ٦٨٥ وعائشة ٦٨٦ .

نفوذ تصرف زيد على عمرو إلا ما قام عليه الدليل . قال ابن الفرس : واحتج به من أنكر ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام .

وقال بعض الزيدية : قوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) يعنى فى أمر الآخرة. فيبطل قول إن أطفال المشركين يعذبون بكفر آبائهم . ويلزم أن لا يعذب الميت ببكاء أهله عليه . حيث لا سبب له . وأما فى أمر الدنيا، فقد خص هذا بحديث العاقلة . وكذلك أسر أولاد الكفار ونحو ذلك . انتهى .

« ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل . وهذه الآية كقوله تعالى : (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ*قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)(١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ » جمع خليفة . أى يخلف بعضكم بعضا فيها ، فتعمرونها خلفا بعد سلف ، للتصرف بوجوه مختلفة « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » أى فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك . كقوله تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)(٢) وقوله

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٥و٢٦] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٢] ونصها: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا=

سبحانه(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)(١)

وقوله تعالى « لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءَاتَاكُمْ » أي : ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ، أي امتحنكم ، ليختبر الغنيّ في غناه ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وفي صحيح مسلم(٢) عن أبي سعيد الخدريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء . أفاده ابن كثير .

ثم رهّب تعالى من معصيته ورغّب في طاعته بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ » أي : لمن عصاه وخالف رسله « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أي: لمن والاه واتبع رسله .

لطائف

الأولى : قال السيوطيّ في (الإكليل) . استدل بقوله تعالى (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) مَنْ أجاز أن يقال للإمام: خليفة الله . انتهى .

أي: بناء على وجهٍ في الآية. وهو أن المعنى: جعلكم خلائف الله في الأرض تتصرفون فيها. ذكره المفسرون . وآثرتُ ، قبلُ ، غيرَ هذا الوجه لأنه أدق وأظهر ، والله أعلم .

الثانية: قال القاضي : وصف العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة ، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة ـ تنبيها على أنه سبحانه وتعالى غفور بالذات ، معاقب بالعرض ، كثير الرحمة مبالغ فيها ، قليل العقوبة مسامح فيها. انتهى .

= بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٩٩ (طبعتنا) .

الثالثة : قال ابن كثير : إن الحق تعالى ، كثيرا ما يقرن فى القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)(١) وقوله : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (٢). إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب. فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه. وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها . وتارة بهما. لينجع فى كلّ بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك مانهى عنه وزجر ، أنه قريب مجيب.

قد تم بحمده تعالى الكلام على (محاسن تأويل) سورة الأنعام. وذلك ضحوة الأربعاء فى ٢٨ ربيع الأول. فى شباك السدّة اليمنى العليا من جامع السنانية عام ١٣٢١ . وكان تخلّل مدة شهر ونصف، وقفت عن كتابة شىء من هذه السورة فيها ، وذلك من آخر البحث فى قوله تعالى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية ، لعارض رحلتى إلى بيت المقدس
فى ٢٨ محرم من العام المذكور . وبعد العود إلى الوطن فى ٨ ربيع الأول
بدأت من قوله تعالى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ..) الآية، فى ٢٠ ربيع
الأول ، وتمت السورة فى التاريخ المتقدم ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ
هَدَانَا اللَّهُ . بقلم جامعه جمال الدين
القاسمىّ

ـ ويليه الجزء السابع ـ ويحتوى على تفسير سُوَر : ٧ ـ الأعراف، ٨ ـ الأنفال، ٩ ـ التوبة

---

(١) [١٣ / الرعد / ٦] ونصها : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، ....

(٢) [١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠] .

جـــدول

بيان الخطأ والصواب الذى جاء بالجزء الخامس

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأوحد، السيد محمد بهجة البيطار، حفظه الله

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٠١	١٧	حويا	حوبا
١١٠٦	٧	ومنهم	فمنهم
١١١١	٢١	سوة	نسوة
١١٢٠	١٥	بقوله	بقوله[١]
—	بالهامش		(١) [٤ / النساء / ١٢٩]
١١٢٣	٥	الايتاء	الإيتاء
١١٣٤	١٨	أجاهًن	أجلَهن
١١٤٥	٣	من بعدِ	من بعدِ
١١٤٨	١١	امرَءٌ	امرُؤٌ
١١٤٩	٢٠	وصية	وَصيةٍّ
١١٥٨	٥	ان يخافا	أنْ يَخَافَا
١١٦٤	١١	بهتانَا	بُهْتَانًا
١١٧٤	٥	أرضـ نكم	أَرْضَعْنَـكُمْ
١١٧٩	٤	ومساررات	مسارّات
١١٩٣	٨	عقدةَ	عُقْدَةُ
١١٩٥	١	المؤمناتَ	المؤمناتِ
١١٩٥	٤	ذّٰلك	ذَٰلِك

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٩٥	١٣	وان تصبروا	وَأَنْ تَصْبِرُوا
١٢٠٠	٧و١٧	وان تصبروا	وَأَنْ تَصْبِرُوا
١٢٠٢	٨	لا تأكلُوا	لَا تَأْكُلُوا
١٢٠٣	١	معارضة	معاوضة
١٢٠٦	٤	عُدُوَاناً	عُدْوَاناً
١٢١٤	١٥	الّارحام	الْأَرْحَامِ
١٢١٥	١٢	وَلِـكلّ	وَلِـكُلٍّ
١٢٣٢	٤	البرّ	البرَّ
١٢٤٨	٦	تقديره مضاف	تقدير مضاف
١٢٥٤	١٠	من حرج	من حرج(٣)
—	وفى الهامش		(٣) [٢٢ / الحج / ٧٨]
—		(٣) أخرجه	(٤) أخرجه
١٢٥٥	٢	احتملت	احتلمت
١٢٦١	٨	أو لامستَم	أو لامستُمْ
١٢٧٩	٩	سمعنا وأطعنا	سمعنا وعصينا
١٢٨٥	٩	يأيها ذ الذين	يأيها الذين
١٢٨٥	٢٠	انعم الله ..	أنعم الله عليه
١٢٩٠	٤	(إنه لا يغفر)	إنه (لا يغفر)
١٢٩٦	١٤	لعلّى أبلغَ	أَبْلُغُ
١٣٢٢	١٨	يَخْلفَ	يُخْلِفَ
١٣٥٥	٢١	قد يعلم الذين	قد يعلم الله الذين
١٣٥٧	٦	لا يجاورنك	لا يجاورونك
١٣٥٧	٢٢	بما كسبت	ما كسبت

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٦٦	١٩	عنقى	عنق
١٣٧٠	٨	(١)	(٥)
١٣٩١	٩	أن يتعمدنى	أن يتغمدنى
١٣٩٢	١٦	لَيُبْطِئَنَّ	لَيُبَطِّئَنَّ
١٤٠١	٤	ان تصبهم	وإن
١٤٠٦	١١	افادة	أفاده
١٤٠٧	٦	إنما	فإنّماَ
١٤١١	١٣	العدواة	العداوة
١٤١٦	١	لا بقضاء الله	إلّا بقضاء الله
١٤٣٤	٧	والملائكةِ	والملائكةُ
١٤٣٦	١	فى المنافقون	فى المنافقين
١٤٣٧	٤	فى حيّز	فى حيّز
١٤٥٤	٩	متملقا	متعلّقاً
١٤٥٩	١٥	ويخلدَ فيها	ويخلدْ فيهِ
١٤٦٢	٥	ويعّفو	وَيَعْفُو
١٤٧٨	١	ثم طرحواه	ثم طرحوه
١٤٨٤	٦	درجاتِ منه	درجاتٍ منه
١٤٨٦	٦	التفضيليين	التفضيلَيْن
١٤٨٧	١٤	ءامنَاَ	ءَامنَّا
١٤٩٠	١٨	وبعلق	ويعلّق
١٤٩١	٣	تُغَيَّرَ	تُغَيَّرُ
١٥٠٠	١	ضميرة	ضمرة
١٥٠٤	١٤	فى الأرَض	فى الأرْض

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥٠٦	١٠	ولا جناح	و « لا جناح »
١٥٠٦	١١	ولا جناح عليهما	فلا جناح
١٥١٧	٣	وليأخذوا	وَلْيَأْخُذُوا
١٥٢٠	٤	بإحدى الطائفين	الطائفتين
١٥٢٠	٩	عن أبى عباس	عن ابن عباس
١٥٢٢	٦	لم يصلّوا	لَمْ يُصَلُّوا
١٥٢٢	٨	بإحدى الطائفين	بإحدى الطائفتين
١٥٢٧	٤	حاز	جاز
—	٢٠	ولْيَأخذوا	وَلْيَأْخُذُوا
١٥٢٩	٧	قَرَحٌ	قَرْحٌ
١٥٣٩	١٦	هبووا	هبوا
١٥٤٢	٣	مرضاةِ	مَرْضَاتِ
١٥٤٤	١٢	الصوب	الصواب
١٥٥٨	٣	مرضاةَ	مرضاتَ
١٥٦٥	١٧	ان يدعون إلا	إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
١٥٧١	٢٠	من من حاجتها	من حاجتها
١٥٧٨	١٠	إنى برئ	وإننى برئ
١٥٨٢	١٢	المتطهرينُ	الْمُتَطَهِّرِينَ
١٥٨٦	٥	وداومها	ودوامِهَا
١٥٨٨	١٥	والمستضعَفينَ	والمستَضْعَفِينَ
١٦١٥	١٨	نصيبُ	نصيبٌ
١٦٢٣	٢١	وسندع الزبانية	و : سندع الزبانية
—	٢١	ويوم يناد	و : يوم

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٣٣	٣	ما جيل	ما جُبِلَ
—	٤	فى التأويل قوله	فى تأويل قوله
١٦٣٧	٨	التى نعيث	التى نُعِيَتْ
١٦٣٨	١	وتطرف	وتطرّق
١٦٥٤	٢٠	جسدً الرب	جسد الرب
١٦٦٢	١٦	رأوأ مجده	رأوا مجده
١٦٦٦	٤	عند عند النبىّ	عند النبيّ
١٦٧٠	١	إلا اتباعُ الظن	إلا اتباعَ الظن
١٦٧٥	٧	إلى صوة	إلى صورة
—	١١	فأنا لأشك	فأنا لا أشك
١٦٧٧	١٧	عظمتان	عظيمتان
١٦٨٠	١٥	التوتر	التواتر
١٦٨١	٤	عليها	عليهما
١٦٩٠	٨	فَلَمَ	فَلَمْ
١٦٩٦	١٩	ومختراعات	ومخترعات
١٧٠١	٥	بانابا	بونابا
١٧٠١	١٣	مصدّفا	مصدّقا
١٧٠٧	١٥	القييامة	القيامةِ
١٧٠٩	١	مالهم به إلا اتباع الظن	مالهم به من علم
١٧١٠	١٩	وأجلّ المراتبَ	وأجَلُّ المراتبِ
١٧١١	٤	وإن من أهل أهل	وإن من أهل الكتاب
١٧١٧	١٠	وأكلهم أموالِ	أموالَ
١٧١٨	٥	الرَسخون	الرّاسِخُونَ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧١٨	١٠	أُنزِل	أُنْزِل
١٧٢٦	١١	القرأن	القرآن
١٧٢٦	١٦	رُوُحُ	رُوحُ
١٧٣١	٦	فناده	فناداه
١٧٥٢	٦	تضع	تصنع
—	١٥	أَهلـكناهم	أَهْلَـكْنَاهُمْ
١٧٥٥	١٦	أَوَ مَلَـكاً	أَوْ مَلَـكاً
١٧٥٧	١٠	فالقصد فيه إلـ	إلى
١٧٦٠	١٦	شيهدا	شَهِيدًا
١٧٦٣	١٩	طبيبا	طبيبا
١٧٦٤	٢	جرأ	جزءًا
١٧٧٤	١٣	ويستكبرْ	وَيَسْتَـكْـبِرْ
١٧٧٧	١٦	ليس له ولد ولا وله أخت	ولد وله أخت

وجزى الله مولانا خير ما يجازى به عباده العالمين الصالحين العاملين النافعين . آمين .

كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علّامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء السابع

وفيه تفسير سورة : الأعراف

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

بسم الله الرحمن الرحيم

٧ – سُورَةُ الأعرافِ

أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة ، قال : الأعراف مكية ، إلا آية (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ) وقال : من هنا إلى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ) مدنيّ .

وآياتها مائتان وست آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓصٓ)

تقدّم الكلام فى أول سورة البقرة ، على حروف فواتح السور ، والمذاهب فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

« كِتَٰبٌ » أى : هذا كتاب « أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ » أى : لايكن فيك ضيق صدر من تبليغه ، مخافة أن يكذبوك ، أو أن تقصر فى القيام بحقه . فإنه ﷺ كان يخاف قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ، وأذاهم . فكان يضيق صدره من الأداء ، ولا ينبسط له ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم .

قال الناصر : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ...) الآية[١] « لِتُنذِرَ بِهِۦ » أى : بالكتاب المنزل ، المشركين ليؤمنوا « وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى : عظة لهم . وتخصيص الذكرى بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالمشركين . وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام .

---

(١) [١١ / هود / ١٢] . . . إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « ٱتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل ، وهو القرآن ، والمراد بـ (مَا أُنزِلَ) : القرآن والسنة . وقوفاً مع عمومه ، لقوله سبحانه (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)[١] .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن المباح مأمور به ، لأنه من جملة ما أنزل الله ، وقد أمرنا باتباعه ـ انتهى ـ .

وأقول : هذا غلوّ فى الاستنباط ، وتعمق بارد . ويرحم الله القائل : إذا اشتد البياض صار برصاً .

« وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى لاتتبعوا أولياء غيره تعالى، من الجن والإنس. فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع « قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » أى ما تتعظون إلا قليلا ، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دينه تعالى ، وتتبعون غيره . ثم حذرهم تعالى بأسه ، إن لم يتبعوا المنزل إليهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ)

[٥] (فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا » أى أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم « فَجَآءَهَا

(١) [٥٣ / النجم / ٣ و٤] .

بَأْسُنَا » أى : فجاء أهلها عذابنا « بَيَاتاً » أى : بائتين ، كقوم لوط . والبيتوتة : الدخول فى الليل ، أى ليلًا قبل أن يصبحوا « أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ » أى قائلين نصف النهار، كقوم شعيب . والمعنى: فجاءها بأسنا غفلة، وهم غير متوقعين له . ليلا وهم نائمون،أو نهارا وهم قائلون وقت الظهيرة. وكل ذلك وقت الغفلة . والمقصود أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم، من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب ؛ وفيه وعيد وتخويف للكفار . كأنه قيل لهم : لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة ، فإن عذاب الله إذا نزل ، نزل دفعة واحدة . ونظير هذه الآية قوله تعالى(1) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) ؟ ثم تأثر تعالى عذابهم الدنيوىّ ببيان عذابهم الأخروىّ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى : المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم كما قال : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ(2) « وَلَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى : عما أجيبوا به ، كما قال سبحانه : يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ(3) . والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ)

« فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم » أى : على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم « بِعِلْمٍ » أى : عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة « وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ » أى : عنهم وعما وجد منهم .

(1) [٧ / الأعراف / ٩٧و٩٨] . (2) [٢٨ / القصص / ٦٥] .
(3) [٥ / المائدة / ١٠٩] . . . قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ » أى : وزن الأعمال والتميز بين راجحها وخفيفها ، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم ، العدل . « فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى : حسناته فى الميزان « فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » أى : الناجون من السخط والعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ)

« وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى : حسناته فى الميزان « فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم » بالعقوبة « بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ » أى : يكفرون .

تنبيهات

الأول: قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية ذكر الميزان، ويجب الإيمان به . انتهى.

وقال الإمام الغزالىّ فى (المضنون) : تعلّق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور. وبالموت ينكشف الغطاء ، كما قال تعالى[1] : فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده ، وهى مقادير تلك الآثار ، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض ، ولا يمتنع فى قدرة الله تعالى أن يجرى سبباً يعرف الخلق فى لحظة واحدة مقادير الأعمال ، بالإضافة إلى تأثيراتها فى التقريب والإبعاد . فحدّ الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ، ومثاله فى العالم المحسوس مختلف ، فمنه الميزان المعروف ، ومنه القبان للأثقال ، والاصطرلاب لحركات الفلك والأوقات ، والمسطرة للمقادير والخطوط ، والعَروض لمقادير

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] ونصها : لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .

حركات الأصوات . فالميزان الحقيقىّ ، إذا مثله الله عز وجل للحواس ، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها . فحقيقة الميزان وحده موجود فى جميع ذلك ، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان . وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل ، وللخيال عند التمثيل ، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات . والتصديقُ بجميع ذلك واجب . انتهى .

الثانى : الذى يوضع فى الميزان يوم القيامة . قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً .

قال البغوىّ : يروى هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى (الصحيح)[1] أَنَّ الْبَقَرَةَ وَءَالَ عِمْرَانَ يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَابَتَانِ ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ . ومن ذلك فى (الصحيح)[2] قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون ، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى أسهرتُ ليلك، وأظمأتُ نهارك . وفى حديث البراء[3]

---

(١) الحديث رواه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى أمامة الباهلىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . اقرءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَابَتَان. أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ. تحاجّان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البَطَلَة » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٥٢ ـ باب ثواب القرآن ، حديث ٣٧٨١ (طبعتنا) ونصه : عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ « يجىء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب ، فيقول : أنا الذى أسهرتُ ليلك وأظمأت نهارك » .

(٣) هو حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

فى قصة سؤال القبر : فيأتى المؤمنَ شابٌّ حسن اللون ، طيّب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح . وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

فالأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية، تبرز على هذا القول فى النشأة الآخرة بصور جوهرية ، مناسبة لها فى الحسن والقبح . فالذنوب والمعاصى تتجسم هناك ، وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[1] ، وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا[2] . الآية ـ وكذا قوله ﷺ[3] فى حق من يشرب من إناء الذهب والفضة: إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم. ولا بعد فى ذلك . ألا يرى أن العِلْمَ يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن .

وقيل : صحائف الأعمال هى التى توزن ، ويؤيده حديث البطاقة . فقد أخرج أحمد[4]

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٤] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ . . .

(٢) [٤ / النساء / ١٠] . . . وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٤ ـ كتاب الأشربة ، ٢٨ ـ باب آنية الفضة ، حديث ٢٢٣٣ ونصه :

عن أم سلمة ، زوج النبىّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال « الذى يشرب فى إناء الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٩٩٤ (طبعة المعارف) ونصه :

قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا . كل سجلّ مدّ البصر . ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتى الحافظون ؟ قال: لا ، يارب . فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيُبْهت الرجل . فيقول : لا ، يا رب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة . =

والترمذىّ وصححه ، وابن ماجة والحاكم والبيهقىّ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة . فينشر له تسعة وتسعون سجلًّا ، كل سجلّ منها مدّ البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول:لا، يارب ! فيقول: أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. يارب فيقول : بلى . إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم . فيُخرَج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فيقول: يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلّات؟ فيقال : إنك لاتظلم . فتوضع السجلات فى كِفة ، والبطاقة فى كِفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما فى الحديث(١) : يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ،

= لاظلم اليوم عليك .

فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيقول : أحضروه فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هـذه السجلّات ؟ فيقال : إنك لا تُظْلَم . قال فتوضع السجلات فى كِفّة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقُلُ شىء باسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، حدثنا سويد بن نصر .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣٥ ـ باب ما يرجى من رحمـة الله يوم القيامة ، حديث ٤٣٠٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ـ ١٨ سورة الكهف ، ٧ ـ باب أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ، حديث رقم ٢٠٢٣ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسـول الله ﷺ قال « إنه ليأتى الرجل العظيم =

فلا يزن عند الله جناح بعوضة . ثم قرأ (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا)(١) .

وفى مناقب عبد الله(٢) بن مسعود ؛ أن النبيّ ﷺ قال : أتعجبون من دقة ساقيه ؟ والذى نفسى بيده ! لهما فى الميزان أثقل من أُحُدٍ .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً . فتارة توزن الأعمال ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم ـ انتهى ـ .

قال أبو السعود : وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوىّ ، والحكم العادل . وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية . قالوا : إن الميزان إنما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشيء . ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك ، لأنها أعراض قد فنيت . وعلى تقدير بقائها ، لا تقبل الوزن ـ انتهى ـ وأصله للرازىّ .

قال فى (العناية): فمنهم مَن أوّل الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل، أومقابلتها بجزائها.

= السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

وقال : اقرءوا : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٥] أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ . . .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٩٩١ (طبعة المعارف) ونصه :

عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك . وكان دقيق الساقين. فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه . فقال رسول الله ﷺ «مم تضحكون» ؟ قالوا : يانبىّ الله ، من دقة ساقيه . فقال «والذى نفسى بيده ! لهما أثقل فى الميزان من أُحُد ».

من قولهم: وازنه ، إذا عادله . وهو إما كناية أو استعارة . بتشبيه ذلك بالوزن المتصف بالخفة والثقل ، بمعنى الكثرة والقلة . والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف . انتهى .

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .

قال في (فتح البيان) :وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه . بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة لأحد . فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم : من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلٌّ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم . وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها . بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم . يعرف هذا كل منصف . ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه . وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا[1] . وقوله : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ[2] . وقوله : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ[3] وقوله : وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ[4] .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] . . . وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٢ و ١٠٣] .

(٣) [٤ النساء/ ٤٠] . . . وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .

(٤) [١٠١ / القارعة / ٨ و ٩] .

والأحاديث فى هـذا الباب كثيرة جدًّا مذكورة فى كتب السنة المطهرة . وما فى الـكتاب والسنة يغنى عن غيرها . فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه ، مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق ، والصباح يغنى عن المصباح ـ انتهى ـ .

وخلاصته ؛ أن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت ، ولا تعذر ههنا .

الثالث : إن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد ؟ فما الحـكمة فى وزنها ؟ قلت : فيه حكم :

منها ـ إظهار العدل ، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده .

ومنها ـ امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى .

ومنها ـ تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة .

ومنها ـ إظهار علامة السعادة والشقاوة .

ونظيره ؛ أنه تعالى أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ ثم فى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم ، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى . كذا فى (اللباب) .

وقال أبو السعود : إن قيل : إن المـكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور ، فيـكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها . وإما منـكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال ، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه ، فما الفائدة فى الوزن ؟

أجيب بأنه ينـكشف الحال يومئذ ، وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هى عليـه ، وبأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح ، وغير ذلك . وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا ، فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها ، وأن كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ، ولا يخطر بباله خلاف ذلك ـ انتهى ـ .

وقد سبقه إلى نحوه الرازيّ .

ولما أمر تعالى أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم ، ونهاهم عن اتباع غيره ، وبيّن لهم وخامة عاقبته بالإهلاك فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ـ ذكرهم فنون نعمه ترغيباً فى اتباع أمره ونهيه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى جعلنا لكم فيها مكاناً وقرارا . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ » جمع معيشة ، وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » الكلام فيه كالذى فى قوله (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وقد مرّ قريباً . والتذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم ، أى ما مننا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم ، وترك متابعة من دوننا ، فتحصلوا معايش السعادات الأبدية . ثم بيّن تعالى نعمته على آدم التى سرت إلى بنيه ، وبيّن لهم عداوة إبليس وما انطوى عليه من الحسد لأبيهم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ » هذا كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ

إِنِّى خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ)[(١)] وفى تصدير هذه الآية بالقسم وحرف التحقيق ، كالتى قبلها ، إعلام بكمال العناية بمضمونهما .

قال أبو السعود : وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين ، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما ، توفية لمقام الامتنان حقه ، وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم ، بالرمز إلى أن لهم حظًّا من خلقه عليه السلام وتصويره ، لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعاً ، إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ، ومصنوع على شاكلته ، فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره . أى : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير ، وأحسن تقويم ، سار إليكم جميعاً ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ)

« قَالَ » سبحانه وتعالى « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » أى أن تسجد كما وقع فى سورة (ص) . و (لا) مزيدة للتنبيه على أن الموبَّخ عليه ترك السجود . ولتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كما فى قوله تعالى[(٢)] : (لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ) كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك . وتوقف بعض المحققين فى وجه إفادة (لا) النافية تأكيد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه ، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكده مطلقاً ، بل إذا صحبت نفياً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح ،

(١) [١٥ / الحجر / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ... أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

كما في (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وكما هنـا ، فإنها تؤكد تعلق المنع به ـ انتهى ـ .

وقيل : (مامنعك) محمول على (ماحملك ومادعاك) مجازا أو تضميناً. وقال الراغب: المنع ضد العطية ، وقد يقال في الحماية . والمعنى ماحماك عن عدم السجود . ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود ، مع علمه به، للتوبيخ ولإظهار معاندته و كفره و كبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصلَ آدم عليه السلام. كما أوضحه قوله تعالى: « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ » قال ابن كثير . هذا من العذر الذي هو أكبر من الذنب ـ انتهى ـ .

وإنما قال هـذا ، ولم يقل (منعني كذا) مطابقة للسؤال . لأن في هـذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ، ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منـه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول ، مع ما في طيّها من إنـكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . فالجملة متضمنة للجواب بقياس استدلاليّ ، وهي من الأسلوب الأحمق كما في قصـة نمروذ . وقد علل ماادعاه من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، لأنها جوهر نورانيّ ، وهو ظلمانيّ . ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى (مَامَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)(١) أي: بغير واسطة، وباعتبار الصورة . كما نبه عليه بقوله (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)(٢) وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائـكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليـه

(١) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ٢٩] ونصها : فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـٰجِدِينَ .

و [٣٨ / ص / ٧٢] .

أمر الخلافة فى الأرض ، وأن له خواصّ ليست لغيره . وبالجملة فالشىء كما يشرف بمادته ، يشرف بفاعله وغايته وصورته ، والثلاثة فى آدم عليه السلام دونه ، فاستبان غلطه .

وفى (اللباب) أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق ، وأخطأ طريق الصواب ، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهـذا الذى حمله ، مع سابقة شقائه ، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورده ذلك العطب والهلاك . ومن جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت ، وهذا كان الداعى لآدم عليه السلام ، مع سابقة سعادته ، إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت[١] : قال رسول الله ﷺ : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجانّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . رواه مسلم .

تنبيه :

روى ابن جرير[٢] بإسناد صحيح عن الحسن فى قوله تعالى (خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وأخرج[٣] أيضا بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالقياس ، وإلا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد .

قال الرازىّ : بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة (ٱسْجُدُوا لِآدَمَ) خطاب عامّ يتناول جميع الملائكة ، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هـذا العموم بالقياس ، وهو أنه مخلوق

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١٤٣٥٦ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٤٣٥٥ من التفسير .

من النار ، والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، والأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت فى جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك . وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذم ، وما ذاك إلا لعدم جوازه . وأيضاً فى الآية دلالة على ذلك من وجه آخر : وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا) فوصفه تعالى بكونه متكبرا ، بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذى يوجب تخصيص النص وهذا يقتضى أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبَّر على الله . ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد، والإخراج من زمرة الأولياء . ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وهذا هو المراد مما نقله الواحدىّ فى (البسيط) عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشىء من رأيه ، قرنه الله مع إبليس ـ هذا ما نقله الواحدىّ فى (البسيط) عن ابن عباس ، وأفاده الرازىّ .

وقد روى عن السلف آثار كثيرة فى ذم القياس ، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس . وعن مسروق قال : لا أقيس شيئاً بشىء ، فتزلّ قدمى بعد ثبوتها . وعن الشعبىّ : إياكم والقياس ، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام، وحرمتم الحلال ، وَلَأَنْ أتغنى غنية ، أحب إلىّ من أن أقول فى شىء برأيى . وقد ذكر الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله من هذا المعنى آثارًا وافرة فى (جامع بيان العلم وفضله) وقال : احتج من نفى القياس بهذه الآثار ومثلها . وقالوا فى حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة . وتكلم داود فى إسناد حديث معاذ وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ ، ولم يُسَمَّوْا . قال الحافظ ابن عبد البر : وحديث معاذ صحيح مشهور ، رواه الأئمة العدول ، وهو أصل فى الاجتهاد والقياس على الأصول . ثم قال : وسائر الفقهاء وقالوا فى هذه الآثار وما كان مثلها

فى ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، أو القياس الذى يردّ به أصل، والقول فى دين الله بالظن . ألا ترى إلى قول من قال منهم : أول من قاس إبليس ؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأى الفاسد ، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا فى رد الفروع إلى أصولها ، لا فى رد الأصول بالرأى والظن . وإذا صحّ النص من الكتاب والأثر ، بطل القياس (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ...) الآية[1] ـ وأىّ أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خُلق منه آدم ، وما خُلق منه إبليس ، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلة ليست بمانعة من أن يأمره الله بما يشاء ، فهذا ومثله لا يحلّ ولا يجوز . وأما القياس على الأصول ، والحكم للشىء بحكم نظيره ، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف ، بل كل من رُوِى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً. لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف فى الأحكام.

وقال مسروق الوراق :

كنّا من الدين قبل اليوم فى سعةٍ ... حتى ابْتُلِينَا بأصحاب المقاييسِ
قاموا من السوق إذ قلَّت مكاسبهُم ... فاستعملوا الرأى عند الفقرِ والبُوسِ
أما العُرَيْب فقوم لا عطاءَ لهم ... وفى الموالى علاماتُ المفاليسِ

فلقيه أبو حنيفة فقال : هجوتنا . نحن نرضيك . فبعث إليه بدراهم فقال :

إذا ما أهلُ مصرٍ بَادَهُونَا ... بآبدةٍ من الفُتْيَا لطيفهْ
أتيناهم بقياسٍ صحيح ... صَلِيبٍ من طراز أبى حنيفهْ
إذا سَمِعَ الفقيهُ بِهِ وَعَاهُ ... وأثبته بِحِبْرٍ فى صحيفهْ

قال ابن عبد البر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . . . مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا .

الزمن ، فقال :

إذا ذُو الرأيِ خَاصَمَ عن قياسٍ ... وجاء ببدعة منه سخيفهْ
أتيناهم بقولِ الله فِيهَا ... وآثارٍ مبرّزة شريفهْ

هكذا حكاه ابن عبد البر فى (جامع فضل العلم) . وله فيه فى (باب ما جاء فى ذم القول فى دين الله بالرأى والقياس على غير أصل) مقالات سابغة جديرة بالمراجعة .

ومما ذكر فيه : أن أهل الحديث أفرطوا فى أبى حنيفة، وتجاوزوا الحدّ . قال : والسبب الموجب لذلك ، عندهم ، إدخاله الرأى والقياس على الآثار ، واعتبارها . وأكثرُ أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر بطل النظر . وكان ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره ، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأى : وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده ، كإبراهيم النخَعىّ وأصحاب ابن مسعود . إلا أنه أغرق هو وأصحابه فى تنزيل النوازل ، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم . فأتى منهم فى ذلك خلافٌ كبير للسلف . ثم قال: وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل فى آية ، أو مذهب فى سنة، ردّ من أجل ذلك المذهب سنةً أخرى بتأويل سائغ ، أو ادعاء نسخ . إلا أن لأبى حنيفة من ذلك كثيرا ، وهو يوجد لغيره قليل . وعن الليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك ابن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبىّ ﷺ ، مما قال مالك فيها برأيه . قال : ولقد كتبت إليه أعظه فى ذلك . هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاويه : أنه روى عن علىّ وزيد أنهما احتجا بقياس، فمن ادعى إجماعهم ـ أى الصحابة ـ على ترك العمل بالرأى والقياس، مطلقا فقد غلط، ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس ، فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها ـ انتهى ـ .

وقال ابن تيمية رحمه الله فى فتوى أخرى : والصحابة كانوا يحتجون فى عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأى،ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً . والقياس الصحيح نوعان :

أحدهما : أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر فى الشرع ، كما ثبت عن النبىّ ﷺ فى الصحيح[1] أنه سئل عن فأرة وقعت فى سمن ، فقال : ألقوها وما حولها ، وكلوا سمنكم . وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن، فلهذا قال جماهير العلماء : إنه أىّ نجاسة وقعت فى دهن من الأدهان كالفأرة التى تقع فى الزيت ، وكالهرّ الذى يقع فى السمن ، فحكمها حكم تلك الفأرة التى وقعت فى السمن . ومن قال من أهل الظاهر : إن هذا الحكم لا يكون إلا فى فأرة وقعت فى سمن ، فقد أخطأ ، فإن النبىّ ﷺ لم يخص الحكم بتلك الصورة ، لكن لما استُفتى عنها أفتى فيها ، والاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع ، فأجاب المفتى عن ذلك ، خصه لكونه سئل عنه ، لا لاختصاصه بالحكم . ومثل هذا أنه سئل عن رجل[2] أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمَّخة

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣٤ ـ باب إذا وقعت الفأرة فى السمن الجامد أو الذائب ، حديث ١٧٥ ونصه :

عن ابن عباس عن ميمونة رضى الله عنهم قالت : سئل رسول الله ﷺ عن فأرة سقطت فى سمن ؟ فقال « ألقوها وما حولها ، وكلوه » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٢ ـ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، حديث ٨١٥ ونصه :

عن صفوان بن يعلى بن أميّة ؛ أن يعلى كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى ! فلما كان النبىّ ﷺ بالجعرانة ، وعليه ثوب قد أظلّ عليه ، ومعه ناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب . فقال : يا رسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم =

بخلوق فقال: انزع عنك الجبة الخلوق، واصنع فى عمرتك ما كنت تصنع فى حجك. فأجابه عن الجبة ، ولو كان عليه قميص أو نحوه ، كان الحكم كذلك بالإجماع .

والنوع الثانى من القياس : أن ينص على حكم لمعنى من المعانى ، ويكون ذلك المعنى موجوداً فى غيره ، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوّى بينهما ، وكان هذا قياساً صحيحاً . فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع. فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يعرف مراده باللفظ . وإذا عرفنا مراده، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك ، لا لمعنى يخص الأصل ، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك . وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص ، منعنا القياس . كما أنا علمنا أن الحج خص به الكعبة، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة، وأن المفروض من الصلوات خص به الخمس، ونحو ذلك، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على المنصوص غيره. وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة، كتعيين الكعبة وشهر رمضان، أو عين بعض الأقوال والأفعال ، كتعيين القراءة فى الصلاة ، والركوع والسجود ، بل وتعيين التكبير وأمّ القرآن ، فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ

= فى جبة بعد ما تضمخ بطيب ؟ فنظر النبىّ ﷺ ساعة . فجاءه الوحى . فأشار عمر إلى يعلى أن : تعالَ . فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة . ثم سُرِّى عنه فقال « أين الذى يسألنى عن العمرة آنفا » ؟ فالتمس الرجل فجىء به إلى النبىّ ﷺ . فقال « أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع فى عمرتك كما تصنع فى حجك » .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ(١). وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص، من جنس قياس الذين قالوا: إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ(٢). وكذلك قياس(٣) المشركين الذين قاسوا الميتة بالمذكى وقالوا أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟ قال تعالى: وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(٤). فهذه الأقيسة الفاسدة، وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه، فقياسه فاسد. وكل من سوّى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد. لكن من القياس ما يعلم صحته، ومنه ما يعلم فساده، ومنه ما لم يتبين أمره. فمن أبطل القياس مطلقاً فقوله باطل. ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل.

---

(١) [٩/ التوبة/ ٣٧] ... زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ .

(٢) [٢ البقرة/ ٢٧٥] ونصها : ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ، وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ، فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

(٣) أخرجه النسائيّ في : ٤٣ ـ كتاب الضحايا، ٤٠ ـ باب تأويل قول الله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ، ونصه :

عن ابن عباس في قوله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ، قال: خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح اللهُ فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم أكلتموه .

(٤) [٦/ الأنعام/ ١٢١] ونصها : وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ...

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته ، فقد استدل بما لا يعلم صحته ، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لايعلم عدالته . فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى مايعلم صحته ، وإلى مايعلم فساده ، وإلى ماهو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها . ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة ، سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة ، وهذا هو المراد من قول من قال : النصوص تتناول أفعال المكلفين. ويراد بالنص مادلالته قطعية لاتحتمل النقيض، كقوله: تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ[1]. وَ: ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ[2]، فالكتاب هو النص ، والميزان هو العدل ، والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتفريق بين المختلفين . ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص ، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد. ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً ، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح، ومن كان متبحرا فى الأدلة الشرعية ، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

(٢) [٤٢/ الشورى/ ١٧] ونصها : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ .

و [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

بالنصوص وبالأقيسة، فثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة ، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر ، كما يدل النص على ذلك ، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء ، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، كما دل القرآن على هذا المعنى . وهـذا المعنى موجود فى جميع الأشربة المسكرة ، لافرق فى ذلك بين شراب وشراب، فالفرق بين الأنواع المشتركة من هذا الجنس تفريق بين المتماثلين، وخروج عن موجب القياس الصحيح، كما هو خروج عن موجب النصوص. وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس، لـكن يقولون : معنا آثار توافق ، اتبعناها ؛ ويقولون : إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر . وغلطوا فى فهم النص ، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم . ومعرفة عموم الأسماء الموجودة فى النص وخصوصها ، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد قال تعالى(١): ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ . والـكلام فى ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا ـ والله أعلم ـ انتهى كلامه رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ)

« قَالَ » تعالى لإبليس « فَٱهْبِطْ مِنْهَا » أى : بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى . وأكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التى هو فيها من الملكوت الأعلى ـ انتهى ـ وعليه اقتصر المهايمىّ حيث قال : فاهبط منها أى : من رتبة الملكية إلى رتبة العناصر . « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا » أى : فما يصح ولا يستقيم ، فإنها

(١) [٩ / التوبة / ٩٧] . . . وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

مكان المطيعين الخاشعين « فَاْخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ، متفرّع على علته « إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ » أى : من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« قَالَ أَنظِرْنِىٓ » أى : أمهلنى ولا تمتنى « إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : آدم وذريته من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ)

« قَالَ » أى : الله له « إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ » أى من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية. قال ابن كثير : أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع . ولا معقب لحكمه .

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ اليمانىّ فى تفسيره (التهذيب)[١] :

قال الأستاذ السيد ظافر القاسمىّ ، حفظه الله ، وَلَدُ المؤلف رضى الله عنه :

وجد على غلاف الجزء السابع من هذا الكتاب بخط المؤلف رحمه الله ما نصه :

وقفت على الجزء الرابع من تفسيرٍ اشتُرِىَ من اليمن ، يسمى «التهذيب» من الأعراف إلى براءة ، كتب عليه ما مثاله :

« تصنيف الشيخ الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ رحمة الله عليه »

وترتيبه ، بعد أن يسوق آية أو آيتين أو ثلاثاً ، أن يقول :

١ ـ القراءة ـ ثم يذكر وجوه القراءات .

٢ ـ اللغة ـ ثم يذكر مفردات الآية ومعانيها اللغوية واشتقاقها . =

ومتى قيل : ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون ؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى ، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية . ومتى قيل : هل خاطبه بهذا ؟ قلنا : يحتمل ذاك ، ويحتمل أنه أمر ملكاً نخاطبه به . ومتى قيل : هل يجوز إجابة دعاء الكافر ؟ قلنا : فيه خلاف .

الأول : قيل لا ، لأنه إكرام وتعظيم ـ عن أبى علىّ ـ ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة ، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه ، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع .

= ٣ ـ الإعراب .

٤ ـ النظم .

٥ ـ المعنى .

٦ ـ الأحكام ـ يذكر فيها دلالة الآى على كذا وكذا الخ .

٧ ـ القصة ـ إن كانت حوت ذلك .

وهو ترتيب جميل .

انتهى ما كتبه المؤلف رحمه الله .

وقد سألتُ الأستاذ الشيخ حامد التقىّ ، من علماء دمشق ، وقد سبق له أن لازم المؤلف رحمه الله قرابة عشرين عاماً ، عن الكتاب ومؤلفه الجشمىّ فأجابنى :

كان المرحوم غالب النائلىّ رفيقاً للإمام القاسمىّ فى طلب العلم ، وتجمعهما قرابة رحمية ، وقد كان موظفاً أيام الدولة العثمانية ، فنقل إلى اليمن ، وعاش فيها حول عشر سنوات ، عاد بعدها ، ومعه بعض الكتب المخطوطة ، وقد اطلع عليها المؤلف ، فوجد من بينها هذا الجزء من « التهذيب » وحده ، فاقتبس منه ما استحسن اقتباسه . وقد توفى المرحوم غالب النائلىّ عام ١٩٤٨ ، وبيعت مكتبته إلى أحد تجار الكتب ، ولم نعد نعرف شيئاً عن هذا الكتاب.

انتهى كلام الأستاذ التقىّ . =

الثانى : يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له ، لأنه تفضّل ــ عن أبى بكر أحمد بن علىّ ــ وليس بالوجه . ومتى قيل : إذا أُنظر هل يكون إغراء بالمعصية ؟ قلنا : لا ، لأنه لم يعلم ماالوقت

= ثم تجىء بعد هذا ترجمة الجشمىّ وها هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما ترجمة الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ ، فبعد البحث عثرت على ترجمة مختصرة له فى كتاب (تاريخ بيهق) المطبوع باللغة الفارسية طبع إيران وستراها فى الصفحة المقابلة فسلموها لظافر بك القاسمىّ مع إبلاغه السلام .

ولعلك تفحص عن كتاب (التهذيب) فى المكتبة الظاهرية إذا كان لايوجد فى مكتبة ظافر بك ، فإنه على الظاهر تفسير حسن وصاحبه ينتمى إلى علىّ رضى الله عنه .

« ترجمة الحاكم الإمام أبى سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقىّ »

تولد ونشأ فى قصبة جشم ــ فى إيران قريبة من بيهق ، وبيهق اسمها الآن سُبْزَوار ، وهى إلى سبزوار بالقرب من نيسابور فى لواء خراسان ــ وله تصانيف فى الأصول والفقه كثيرة. مثل عيون المسائل وشرح العيون وغيرها . مثل تحكيم العقول . وله تفسير لطيف يقع فى عشرين مجلدًا ــ ولم يذكر المترجم أن اسمه التهذيب ــ وله طريقة لطيفة فى التصنيف . تفقه فى مجلس القاضى أبى محمد الناصحىّ وكان يختلف فى ذلك إلى الأمير أبى الفضل الميكالىّ . وقد روى الحديث عن الإمام أبى عبد الرحمن السلمىّ والإمام أبى الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسىّ . وقد مدحه الإمام علىّ بن أبى صالح الخوارىّ بهذه الأبيات :

ألا ياضارباً فى الأرض أقصر ... فما تبغيه عند ابن الكرامه

أقول لمن غدا يبغى مزيدًا ... عليه: علمت أنك فى الكرامه

أليس يقابل الطلاب مهما ... تلقوه ببرٍّ أو كرامه

أبا سعد بقيت فكل شخص ... يروم الفضل حقًّا منك رامه =

المعلوم ، فلا يكون إغراءً مع تجويزه هجوم الموت عليه ، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار ، ولعنه ـ علم أنه لايختار الإيمان أبداً . ومتى قيل : مافائدة إنظاره ؟ قلنا : لطف له ، لأنه يمكنه من استدراك أمره . وهل يضل به أحد ؟ قال أبو عليّ : لا ، لقوله تعالى : مَآ أَنتُمْ

= ومدحه أيضاً الإمام مسعود بن عليّ الصوابيّ بهذه الأبيات :

أبا سعد جزيت بلا نهـايه   أراك بلغت فى التصنيف غايه

وخلصت القلوب الغلف حقًّا   وأوضحت الشريعة والهدايه

وفى سور المحامد والمســاعى   مناقبك الشريفة صِرْنَ آيه

وهو الحاكم الإمام أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة بن محمد بن أحمد بن الحسن بن كرامة بن إبراهيم بن إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحنفية بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام . فبينه وبين جده ابن الحنفية عشرة آباء إلى عليّ رضى الله عنــه أحد عشر ، وهو علويّ ولـكنه لم يكن معروفاً ولم يشتهر بهذا النسب . وله ولدان أحدهما الحاكم محمد توفى فى شهور سنة ثمان عشرة وخمسمائة. ولم يذكر المترجم تاريخ وفاة المترجَم له ولا تاريخ ولادته. ولـكن يعرف تاريخ وفاته على الإجمال من ملاحظة تاريخ وفاة ولده الحاكم محمد المذكور .

نقلت هذه الترجمة عن كتاب (تاريخ بيهق) تأليف أبى الحسن بن عليّ بن زيد البيهقيّ المعروف بابن فندق ، المطبوع باللغة الفارسية فى إيران بتاريخ ١٣١٧ شمسية .

١٧ رجب سنة ١٣٧٦

وأقول أنا :

لقد بحثت عن هــذا التفسير حتى علمت أن البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية فى بلاد اليمن ، ذكرت فى التقرير الذى قدمه إلى وزارة المعارف رئيسها الدكتور خليل يحيى نامى بالصفحة رقم ١٨ منه ما يأتى : =

عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١). ولأنه لو ضل به أحد ، لكان بقاؤه مفسدة، فكان الله تعالى لا يُنظره . فأما أبو هاشم فيجوّز أن يضل به أحـد ، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة ، ويجوز أن يكون لطفاً لنا من وجوه : أحدها أن المكلف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح ، كان ثوابه أكثر ، ولأنه تعالى عرفنا عداوته، والعاقل يجتهد فى أن يغيظ عدوّه ويغمّه ، وذلك إنما يكون بطاعة ربه ، ومن أطاعه فمن قِبَل نفسه أتى ، لا من قبل ربه . انتهى كلام الجشميّ ، وهو جارٍ على أصول المعتزلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ)

« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » أى أضللتنى عن الهدى ، أو حكمت بغوايتى . والباء للقسم ، كما فى قوله تعالى : قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ (٢). أى: فأقسم بإغوائك إياى. وقيل: هى بمعنى لام التعليل، أى: لأجل إغوائك إياى « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ » أى: لآدم وبنيه ترصدًا بهم، كما يقعد القطاع للطريق على السابلة « صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » أى: طريقك السوىّ، وهو طريق الحق، ومعناه لا أفتر عن إفسادهم . وانتصابه على الظرفية أو على نزع الجارّ .

= ٩ ـ كتاب التقريب المنتزع من كتاب (التهذيب) لأبى سعد الحسين بن كرامة الجشمىّ البيهقىّ ـ للقاضى محمد بن عامر الأصبهانىّ ـ رقم التصوير ١٧

١٠ ـ التهذيب فى التفسير ـ للحاكم أبى سعد بن كرامة الجشمىّ البيهقىّ ، الموجود منه ثمانية مجلدات . رقم التصوير من ٨٧ ـ ٩٣ و ٢٧٠ . وهذا محفوظ بدار الكتب . انتهى .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٢و١٦٣] .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾

« ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ » أى من جميع الجهات الأربع . مثّل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أى وجه يمكنه ، بإتيان العدوّ من الجهات الأربع التى يعتاد هجومه منها . ولذلك لم يذكر الفوق والتحت « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ » أى مستعملين لقواهم وجوارحهم ، وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله . وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن ، كقوله : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[١] ـ . روى الإمام[٢] أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطِوَل. قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمال. فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد . فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة .

وقال الحافظ : ورد فى الحديث استعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

كلها ، فروى الإمام أحمد(١) وأبو داود (٢) والنسائى (٣) وابن ماجة (٤) وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عُمَر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى اللهم ! إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ؛ اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ؛ اللهم ! احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى . ورواه البزار عن ابن عباس .

فائدة

قال الجشمىّ : تدل الآية أنه سأل الإنظار ، وأنه تعالى أنظره ، وقد بينا ما قيل فيه . وتدل على شدة عداوته لبنى آدم وحرصه على إضلالهم . وتدل على أن أكثر بنى آدم غير شاكرين . وتدل على أن الإضلال فعل إبليس ، والقبول عنه فعلهم ، لذلك أضافه إليهم ، وذمَّهم عليه ، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك . ـ انتهى ـ والكلام فى أمثالها معروف .

ثم أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرد والإبعاد عن محل الملأ الأعلى ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤٧٨٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠١ ـ باب مايقول إذا أصبح ، حديث ٥٠٧٤ .

(٣) أخرج النسائىّ قوله « اللهم إنى أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » فى : ٥٠ ـ كتاب الاستعاذة ، ٦٠ ـ باب الاستعاذة من الخسف.

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١٤ ـ باب مايدعو به الرجُل إذا أصبح وإذا أمسى ، حديث رقم ٣٨٧١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ، لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً » بالهمزة فى القراءة المشهورة ، من (ذَأَمَهُ) إذا حقره وذمه ، وقرئ « مَذُوماً » بذال مضمومة وواو ساكنة ، وهى تحتمل أن تكون مخففة من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، وأن تكون من المعتلّ، وكان قياسه (مذيم) كمبيع. إلا أنه أبدلت الواو من الياء، على حدّ قولهم (مكول) فى مكيل، و(مشوب) فى مشيب . « مَّدْحُوراً » مقصيًّا مطرودًا « لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » اللام فيه ، لتوطئة القسم. وجوابُه « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ » أى: لَمن أطاعك من الجن والإنس، لأملأن جهنم من كفاركم ، كقوله تعالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا(١) .

قال الجشمىّ : وإنما قال ذلك لأنه لا يكون فى جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين ، وكفار الإنس وفسّاقهم، الذين انقادوا له وتركوا أمر الله لأمره، فجمعهم فى الخطاب. ومتى قيل : لم ضيّق جهنم ووسع الجنة ؟ قلنا : لأن جهنم حبس ، والجنة دار ملك . ومتى قيل : فما الفائدة فى قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ) قلنا : لطفاً ليكون المكلف تبعاً للأنبياء دون الشياطين ، ولطفاً لإبليس وحزبه ، لأنه غاية فى الزجر والنهى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس ، وأنه يملأ جهنم منهم . ولا بدّ فيه من شرط ، وهو أن لا يتوب ، أو لا يكون معه طاعة أعظم . وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه ، تحذيرًا عن مثل حاله .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

وقوله تعالى : « وَيَـٰٓـَٔادَمُ » أى : وقلنا يا آدم « ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ » أى جنة الخلد ، أو جنة فى الأرض .

قال الجشمىّ : وقد تقدم ذكر هذه القصة ، والفائدة فى إعادتها أن القرآن نزل فى بضع وعشرين سنة ، والعوارض تعرض، والوفود تقدم، فكانت القصة تعاد، ليسمع من لم يسمع، استصلاحاً ولطفاً . لأن فى إعادة قصة واحدة ، فى مواضع بألفاظ مختلفة ، كل واحد منها فى نهاية الحسن ، من إعجاز القرآن . « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ » أى من كل مكان « شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ)

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ » أى : إبليس بأكل الشجرة مخيلًا لهما النفع « لِيُبْدِىَ لَهُمَا » أى : يظهر لهما « مَا وُۥرِىَ » أى: ستر « عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا » أى: عوراتهما، واللام فى (لِيُبْدِىَ) إما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدوره منهما ، أى : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوآتهما ؛ أو للتعليل والغرض، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريقٍ ما .

تنبيه :

فى الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه مستهجن فى الطباع ، ولذلك سميت سوأة ، لأنه يسوء صاحبها .

قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ، وأنه كان فى شريعة آدم عليه السلام . قال القاضى : لا دليل فى الآية على الوجوب ، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : فى الآية دليل على أنهما كرها التعرّى ، وإن لم يكن لهما ثالث ، ففى ذلك دليل على قبح التعرّى ، وإن لم يكن مع المتعرى أحد ، إلا لحاجة .

« وَقَالَ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا » أى : إلّا كراهة أن تكونا « مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ » أى : من الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين . وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لارتكابهما ذلك طمعاً فى نيل ما ذكر . وأجاب ، من لم ير هذا ، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم . ولئن كانت بعدها ، فلعل آدم رغب فى الملكية للقوة والشدة والقدرة ، أو لخلقة الذات ، بأن يصير جوهراً نورانيًّا ـ أشار له الرازىّ ـ

وقال الناصر : لايلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل ، أن يكون الأمر كذلك فى علمه تعالى . ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ، وهو فى ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً ، وليس فى الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ، ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كَذَب لهما وغرّهما ، إذ قال الله تعالى:(فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ) فلعل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره ـ انتهى ـ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : وأنا أقول : لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية . والكلام الذى فيها ، حكاه الله تعالى عن قول إبليس فى معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس . وإنما يستدل من كلامه تعالى ، أومن كلام حكاه عن بعض أنبيائه . وإن لم يكن ذلك ، فكلام حكاه راضياً به مقرًّا له ـ انتهى ـ .

على أنه قرئ (مَلِكين) بكسر اللام ، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبى

كثير . قال الواحدىّ : إنما أتاهما إبليس من جهة الملك . ويدل على هـذا قوله تعالى (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)[(١)] ـ انتهى ـ .

والقراءة الشاذة قد تكون تفسيراً للمتواترة ، كما لا يخفى ، وبه يندفع ما للرازىّ هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

« وَقَاسَمَهُمَا » أى أقسم لهما « إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » أى : فى هذا الأمر . قال ابن كثير : أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله ـ انتهى ـ .

وعن قتادة : إنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاةٍ ، أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ! فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ » أى : أطمعهما . وأصله : الرجل العطشان يدلّى فى البئر ليروى من مائها ، فلا يجد فيها ماءً ، فيكون مدلّياً فيها بغرور ، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدى نفعاً . وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية ، إلى رتبة سافلة . فإن

(١) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ .

التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . وقيل : معنى دلاهما جرأهما بغروره ، والأصل فيه (دللهما) ، والدلّ والدالة الجرأة كما قال[1] :

أَظُنُّ الحِـلْمَ دلَّ عليَّ قومي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

فأبدل أحد حرفى التضعيف ياءً .

« فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا » أى : أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما اللباس ، فظهرت لهما عوراتهما . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى ـ انتهى ـ وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا ، فإن الذوق وجود الطعم بالفم ، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير ، وهو المراد هنا ، لأنه وقع فى آية أخرى مصرحاً بالأكل فيها « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ » أى : أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة « عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ » أى : ليستترا به .

قال الجشمىّ : تدل على أن ستر العورة كان من شريعة آدم عليه السلام . وقد استدل قوم بالآية على وجوب الستر . قال القاضى : وليس فى الآية مايوجب الوجوب، إذ ليس فيها أكثر من أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : وتدل على أن الستر من خلُق آدم وحواء، وأنهما كرها العرّى وإن لم يكن لهما ثالث ، ففى ذلك دليل على قبح التعرّى إلا عند الحاجة .

« وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ » أى يذكرهما النهى السابق والأمر والتجنب عن الشيطان « أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ » أى : عن الأكل منها « وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

---

(١) قائله قيس بن زهير . وقد استشهد به فى اللسان فى مادة (د ل ل) ج ١١ ص ٢٤٧ (طبعة بيروت) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا » أى أضررناها بالمعصية « وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا » أى ماسلف « وَتَرْحَمْنَا » أى بالتوبة وقبولها « لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » أى لنصيرن ممن خسر جميع ماحصل له من الكمالات . قال الضحاك بن مزاحم (فى قوله : رَبَّنَا ظَلَمْنَآ ...)الآية ـ هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة :

قال الجشمىّ : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشقى إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

« قَالَ ٱهْبِطُواْ » أى من الجنة إلى ما عداها . وقال أبو مسلم : معناه اذهبوا . وهو خطاب لآدم وحواء وإبليس . قال ابن كثير : والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال فى سورة طه : (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ...) الآية[1] ـ وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهى تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم . ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان فى تعيين تلك

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

البقاع فائدة ، تعود على المكلفين ، في أمر دينهم أو دنياهم ، لذكرها الله تعالى في كتابه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم ـ انتهى ـ « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » أي استقرار أو موضع استقرار . « وَمَتَاعٌ » أي تمتع ومعيشة « إِلَىٰ حِينٍ » أي : إلى تقضّي آجالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

« قَالَ فِيهَا » أي الأرض « تَحْيَوْنَ » تعيشون « وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » أي يوم القيامة للجزاء ، كقوله تعالى(1) : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . ثم ذكرهم سبحانه بنعمته في تبوئة الدار والمستقر في الأرض ، وكسوتهم لباساً يسترون به سوءاتهم ، بعد ما نزع عنهما لباس الجنة ، وذلك لما هم ، بعد الإهباط ، من الحاجة إلى اللباس والمعاش . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا » يعني ما يلبس من الثياب وغيره .

قال الزمخشريّ : جعل ما في الأرض منزلا من السماء ، لأنه قضى ثمّة وكتب ، أي قضى وقسم لكم ، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح المحفوظ .

وقال أبو البقاء : لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر ، والمطر ينزل ، جعل ماهو المسبب بمنزلة السبب ـ انتهى ـ .

---

(1) [٢٠ / طه / ٥٥] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتوى له فى معنى النزول : لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام ، فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام فى اللباس والأثاث ، وهذا ـ والله أعلم ـ معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم فى اللباس والرياش، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهى لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان .

« يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ » أى يستر عوراتكم التى قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق ، وأنتم مستغنون عن ذلك « وَرِيشًا » عطفه إما من عطف الصفات ، فوصف اللباس بشيئين : مواراة السوأة ، والزينة . فالريش بمعنى الزينة ، لأنه زينة الطير فاستعير منه . وأما من عطف الشىء على غيره . أى أنزلنا لباسين : لباس مواراة ولباس زينة ؛ فيكون مما حذف فيه الموصوف ، أى لباساً ريشاً أى ذا ريش ، والريش مشترك بين الاسم والمصدر . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وحكاه البخارىّ(١) عنه : الريش المال . وحكاه غير واحد من السلف . قال الإمام ابن تيمية : وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص . قال ابن زيد: جمالاً . وقرئ : رياشاً . قال

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ونصه :

قال ابن عباس : لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ : إلا عليها حافظ . كَبَدٍ : فى شدة خلق . وَرِيَاشًا (وريشاً) : المال .

وفى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف . ونصه :

قال ابن عباس : ورياشاً ، المال .

وانظر كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخارىّ) مادة (ر ى ش) ص ٧٧

ابن السكيت : الرياش هو الأثاث من المتاع ، ما كان من لباس أو حشو من فراش أودثار ، والريش : المتاع والأموال ، وقد يكون فى الثياب دون الأموال . وإنه لحسن الريش ، أى : الثياب ـ انتهى ـ .

ويقال : راش فلان ، أى جمع الريش ، وهو المال والأثاث . وراش الصديقَ أطعمه وسقاه وكساه ، وأصله من الريش ، كأن الفقير المملق لانهوض له ، كالمقصوص منه الجناح وكل من أوليته خيراً ، فقد رشته ـ كذا فى تاج العروس ـ .

فائدة

روى الإمام [أحمد (١) عن أبى أمامة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استجدّ ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد الله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به ، كان فى ذمة الله تعالى وفى جوار الله ، وفى كنف الله حيًّا وميتاً . ورواه الترمذىّ (٢) وابن ماجة (٣) . وروى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) وأخرجه الترمذىّ فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٢٩ ـ باب مايقول إذا لبس ثوباً جديداً . ونصه :

عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه (عمامة أو قميصاً أو رداء) ثم يقول « اللهم ! لك الحمد . أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ماصنع له . وأعوذ بك من شره وشر ماصنع » .

قال : وفى الباب عن عمر وابن عمر .

(٣) وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٢ ـ باب مايقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً ، حديث رقم ٣٥٥٧ (طبعتنا) ونصه كنص المسند .

الإمام أحمد[١] عن أبي مطر أنه رأى علياً رضى الله عنه أتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول ولبسه : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أوعن نبيّ الله ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ عند الكسوة : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى .

ولما بيّن تعالى ساتر الظاهر وزينته ، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله : « وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ » أى: خشية الله ، أو الإيمان ، أو السمت الحسن، والكل متقارب ، ورفعه بالابتداء ، خبرهُ جملةُ « ذَٰلِكَ خَيْرٌ » أو خيرٌ ، وذلك صفته ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير .

قال المهايميّ : لأن الظاهر محل نظر الخلق ، والباطن محل نظر الحق والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة . وقال القاشانيّ : لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس ، ذلك خير لأنه من جملة أركان الشرائع ، لأنه أصل الدين وأساسه ، كالحمية فى العلاج ـ انتهى ـ .

قال أبو على الفارسيّ : معنى الآية : ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذى يتجمل به . قال : وأضيف اللباس إلى التقوى، كما أضيف إلى الجوع فى قوله : فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ[٢] . ـ انتهى ـ

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٣٥٤ (طبعة المعارف) .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ .

أى : فهو استعارة مكنية وتخييلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس ، تشتمل على جميع بدنه ، بحسب الورع والخشية من الله ، اشتمال اللباس على اللابس ، أو من قبيل (لُجَيْنِ الماء). وقرأ نافع وابن عامر والكسائىّ (وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ) بالنصب ، عطفاً على (لباساً) .

« ذَٰلِكَ » أى إنزال اللباس « مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » الدالة على فضله ورحمته على عباده « لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى : نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها .

قال الزمخشرىّ : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوآت ، وخصف الأوراق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى ، وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التى عدّها . وذهب علىّ بن موسى القمىّ إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة . وقال آخرون: لا تدل ، وليس فى الظاهر إلا الإنعام به من حيث نفى الحر والبرد وستر العورة والتجمل به ، فأما أنه واجب ، فبعيد . ولو ثبت وجوبه عليه ، احتجنا إلى وجوبه فى شريعتنا إلى دليل مستأنف . وقد ثبت فى هذه الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع ، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى . وتدل على أنه تعالى، كما أنعم بنعم الدنيا ، أنعم بنعم الدين، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل الصالح، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التى بها يحصل الفوز بالثواب، فتحصل نعمة الدارين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ، إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى لا يخدعنكم عن دخول الجنة ، بنزع لباس

الشريعة والتقوى عنكم ، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم « كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ » نعت لمصدر محذوف، أى لا يفتننكم فتنةً مثل إخراج أبويكم « يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » أى الظاهر بسبب نزع لباس التقوى « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ » أى الظاهرة الدالة على السوأة الباطنة . وجملة (ينزع) حال من (أبويكم) أو من فاعل (أخرج) ، أى : أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأن كان سبباً فى أن نزع عنهما ؛ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

تنبيهان :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل): استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة، واستدل بالآيتين من قال: إن العورة هى السوأتان خاصة ـ انتهى ـ .

الثانى ـ قال الإمام الرازىّ : اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان، فقال: (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ...) الآية ـ وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ، ولطف وسوسته ، وشدة اهتمامه، إلى أن قدر على إلقاء آدم فى الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة ـ فبأن يقدر على أمثال هذه المضار فى حق بنى آدم أولى . فبهذا الطريق حذر تعالى بنى آدم بالاحتراز عن وسوسته .

وقوله تعالى : « إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ » أى : جنوده من الشياطين « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » أى من مكان لا ترونهم فيه . والجملة استئناف لتعليل النهى، وتأكيد التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجى ، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . عن مالك ابن دينار : إن عدوّا يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُرَوْنَ فهو كافر ـ انتهى ـ ومراده بالبعض ، المعتزلة ، ولذا

قال الزمخشريّ : فيــه دليل بيّن أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم ، وأن زعْم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة ـ انتهى ـ

وقال الجشمىّ : تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه . ثم قال : ومتى قيل : أليس يُرَون زمن الأنبياء ، ويرى المعاين الملَك؟ فجوابنا: أنه يزداد قوة الشعاع، أو تتكاثف أبدانهم ، فيكون معجزة للنبي ـ انتهى ـ

وأجاب أهل السنة كما فى (العناية): بأنه قد ثبتت رؤيتهم، بالأحاديث الصحيحة المشهورة، وهى لاتعارض ما فى الآية . لأن المنفى فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا .

وقال فى فتح البيان : وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة ، وليس فى الآية مايدل على ذلك . وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لانراه وليس فيها أنا لانراه أبدا، فإن انتفاء الرؤية منّا له ، فى وقت رؤيته لنا ، لايستلزم انتفاءها مطلقاً . والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ، وتكون الآية مخصوصة بها ، فيكونون مرئيين فى بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض ـ انتهى ـ .

وقد أوضح الغزالىّ رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة حيث قال فى (الركن الثانى) : الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافا يكون بين الأنواع . ثم قال : ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر ـ أعنى جواهر الملائكة ـ وإن كانت غير محسوسة . وهذه المشاهدة على ضربين : إما على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[1] . وكما كان النبيّ عليه الصلاة والسلام[2] ، يرى جبريل فى صورة دِحْيَةَ الكلبىّ .

(١) [١٩ / مريم / ١٧] ونصها : فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٨٥٦ و ٥٨٥٧ (طبعة المعارف) ونصهما :

والقسم الثانى أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة ، كما أن محسوسات عالمنا هـذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس ، وكذا فى الجن والشياطين ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » قال الزجاج : يعنى سلطناهم عليهم: يزيدون فى غيهم ـ انتهى ـ والجملة تعليل آخر للنهى ، وفيه تحذير أبلغ من الأول.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً » أى: ما تناهى قبحه من الذنوب، كالشرك وكشف العورة فى الطواف

= عن يحيى بن يعمر . قلت لابن عمر : إن عندنا رجالا يزعمون أن الأمر بأيديهم، فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا ؟ فقال: أخبرهم أنى منهم برئ. وأنهم منى برءاء . ثم قال : جاء جبريل ﷺ إلى النبىّ ﷺ فقال : يا محمد ! ما الإسلام ؟ فقال « تعبد الله لا تشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم ؟ قال « نعم » قال : صدقتَ . فما الإحسان ؟ قال « تخشى الله تعالى كأنك تراه ، فإلّا تكن تراه فإنه يراك » قال : فإذا فعلتُ ذلك فأنا محسن؟ قال « نعم » قال: صدقتَ . قال : فما الإيمان؟ قال « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ قال « نعم » قال : صدقت .

وعن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثله . قال : وكان جبريل عليه السلام يأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى صورة دِحْيَة .

« قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » أى؟ إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها، فاقتدوا بهم ، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها ، حيث أقرنا عليها ، إذ لو كرهها لنقلنا عنها، وهما باطلان ، لأن أحدهما تقليد للجهال ، والتقليد ليس بطريق للعلم ، والثانى افتراء على ذى الجلال .

قال الشهاب : فى قوله تعالى : (وَٱللَّهُ أَمَرَنَا) : مضاف مقدر ، أى أمر آباءنا ، فلا يقال الظاهر أمرهم بها ، والعدول عن الظاهر إشارة إلى ادعاء أنّ أمر آبائهم أمرٌ لهم .

« قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ » أى : هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ، لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال « أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه ، يتضمن النهى عن الافتراء عليه تعالى ، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط قال الشهاب : ولا دليل فى الآية لمن نفى القياس ، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم، لأنه مخصوص فى عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتد به ، أو بدليل آخر .

تنبيه :

قال مجاهد(١) : كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة أو الشيء وتقول :

اليومَ يبدو بعضهُ أو كُلُّهُ وما بدا منــه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله (وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ...) الآية ـ قال ابن كثير: كانت العرب ،ما عدا قريشاً ، لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها. وكانت قريش ـ وهم الحمس ـ يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسىّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديدًا ، ولا أعاره أحمسىّ ثوباً ؛

(١) الأثر رقم ١٤٤٦٢ من تفسير الطبرىّ .

طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة ، فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر ، فتقول : اليوم يبدو ... ـ البيت ـ وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر تعالى عليهم ذلك .

وذكر السيوطيّ في (الإكليل) عن ابن عباس أيضاً ؛ أنها نزلت في طوافهم بالبيت عراة ، رواه أبو الشيخ وغيره . قال : ففيها وجوب ستر العورة في الطواف .

تنبيهان :

الأول ـ ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر ، ولا زمة له ، والفحشاء ـ أعني الشرور والمعاصي ـ غير مأمور بها بنص الآية ، فلا تكون مرادة له تعالى .

وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد ينفك عن الإرادة ، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة ، فلا تكون الإرادة تابعة له وجودا . ومما يوضح أن الشيء قد يؤمر به ولا يكون مرادا، أن السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده ، يأمره بالشيء ولا يريده منه . ومنها أن الأمر أمران : أمر تكويني يحصل به وجود الأشياء ، وهو خطاب (كن) وهو تابع للإرادة ، ويعم جميع الكائنات . فالطاعات والمعاصي كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر ، ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعةُ والعصيان والثواب والعقاب . لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم .

وأمر تشريعيّ تدوينيّ : أي شرعه الله لعباده ، وكلفهم به ، مما دون في كتب الشريعة وبُيِّن . وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط . والكفرُ والمعاصي ليست مأمورةً بهذا الأمر . والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين ، وقالوا : إن الكفر والمعاصي لو كانت مرادَه تعالى ، لكانت مأمورا بها ، وإتيانُ المأمور به طاعة ، فيكون الكافر والفاسق مطيعيْن ، فإنهما مأمور بهما بالأمر الأول ، وليس مأمورا بهما بالأمر الثاني ، حتى يكون إتيانهما طاعة .

قال السيلكوتى : ولا يخفى عليك أن تقسيم الأمر إلى أمرين ، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى: (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(١) عَلَىٰ ظاهره ، كما ذهب إليه البعض . وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب ، كما ذهب إليه الأشعرىّ ومن تبعه ، فلا . انتهى ـ والمسألة مبسوطة فى محالها المعروفة .

الثانى ـ قوله تعالى (قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) جواب عن شبهتهم الثانية . ولم يذكر جواباً عن الأولى . قال الإمام : لأنهـا إشارة إلى محض التقليد . وقد تقرر فى المعقول أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل فى الأديان المتناقضة . فلو كان التقليد حقًّا ، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة . فلما كان فساده ظاهرا ، لم يذكره تعالى .

الثالث ـ قال فى (فتح البيان) : فى هـذه الآية الشريفة أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر ، لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون:(إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ)(٢) والقائلون : (وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) . والمقلد ، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق ـ لم يبق عليه . وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودىّ على يهوديته ، والنصرانىّ على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته . فما أبقاهم على هـذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية والبدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن الله كما ينبغى . وهذا هو التقليد البحت ، والقصور الخالص . ثم قال : وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٢) [٢٣ / الزخرف / ٢٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ . . .

الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم ـ انتهى ـ .

ولما نفى تعالى ما تقوّلوه عليه ، وأخبر أنه لا يأمر بالفحشاء ، بيّن ما أمر به بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

« قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ » أى : بالعدل . وللسلف فيه هنا وجوه : ما ظهر في العقول كونه حسناً ، أو التوحيد ، أو كلمة الإخلاص. وعن أبي مسلم: جميع الطاعات . قال الحاكم: وهو الوجه : ولا يخفى أن الجميع مما يشمله (القسط) فلا منافاة . « وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» معطوف على الأمر الذي ينحلّ إليه المصدر مع (أن) . أى : بأن أقسطوا وأقيموا ، والمصدر ينحل إلى الماضي والمضارع والأمر ، كما نقله المُعرِب . أو معطوف على (أَمَرَ رَبِّى) أى : قل أقيموا . قال الجرجانيّ : الأمر معطوف على الخبر ، لأن المقصود لفظه، أو لأنه إنشاء معنى . انتهى ـ و (الوجوه) مجاز عن الذوات . ومسجد إما مصدر، والوقت مقدر قبله ، و (عند) بمعنى (في) . أى : أقيموا ذواتكم في كل وقت سجود، وذلك بمنعها عن الالتفات إلى الغير فيه ، وبمراعاة موافقة الأمر مع صدق النية ، أو باستقبال القبلة فيه . وإما اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغويّ ، أى في كل وقت سجود أو مكانه . والسجود على هذه الأوجه مجاز عن الصلاة ، أو المسجد هو المصطلح عليه . والمعنى : في أيّ مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم . والأمر على هذا الوجه للندب . قيل : وهو لا يناسب المقام . وإما على ما قبله ، فهو للوجوب .

وهذه الوجوه مستفادة مما روى عن السلف . قال في (اللباب) : معنى الآية في قول

مجاهد والسدّىّ : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة . وقال الضحاك : المعنى إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه ، ولا يقولن أحدكم : أصلى فى مسجدى ، أو مسجد قومى . وقيل : معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً .

« وَٱدْعُوهُ » أى : اعبدوه « مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى : الطاعة بتخصيصها له ، لأنه استحق عبادتكم بإبدائه إياكم ، ولا يسعكم تركها ، إذ إليه عودكم بالآخرة ؛ فإنه « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » أى : كما أنشأكم ابتداء ، يعيدكم إليه أحياء ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة . وإنما شبه الإعادة بالابتداء ، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ، إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

« فَرِيقًا هَدَىٰ » بأن وفقهم للإيمان « وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ » وهم الكافرون « إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ » أى: أنصارًا وأرباباً « مِن دُونِ ٱللَّهِ » حيث أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصى « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » أى : أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن جرير (١) : قوله تعالى (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عنادًا منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى ـ فرقٌ . وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية ـ انتهى ـ .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨٨ من الجزء الثانى عشر من تفسيره (طبعة المعارف) .

وحاصله ، كما قال القاضي : إن الآية دلت على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم . قال القاضي : وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر ، أي : يحمل الضمير في (اتَّخَذُوا) على الكافر المقصر في النظر . وأما الذين اجتهدوا وبذلوا الوسع فمعذورون ، كما هو مذهب البعض ـ كذا في (العناية) .

الثاني ـ قال الرازيّ : هذه الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين ، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين ، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين . ولولا أن هذا الحسبان مذموم ، لما ذمهم بذلك ـ انتهى ـ .

قال المهايميّ : ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان ، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة ، فطافوا عراة . وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام ، فقال عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ)

« يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ » أي : من اللباس « عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » أي : بيت بني للعبادة ، على أنه اسم مكان ، أو مصدر بمعنى السجود ، مرادًا به الصلاة والعبادة . فإن العبادة أولى أوقات التزين « وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ » أيام الحج تقوّيًا على العبادة « وَلَا تُسْرِفُوٓاْ » أي : إسرافًا يوجب الانهماك في الشهوات ويشغل عن العبادة ، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ » المعتدين .

تنبيهات :

الأول ـ كنا أسلفنا في مقدمة هذا التفسير ، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال . وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا ، لأنها نزلت في ذلك.

فقد روى مسلم[١] عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُرْيانة ، فتقول : من يعيرنى تِطْوَافا[٢] ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ   وَمَا بَدَا مِنْهُ فَـلَا أُحِلُّهُ

فنزلت هــذه الآية (خُذُواْ زِينَتَكُمْ . . .) الآية . ونزلت (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ . . .) الآية .

وعند ابن جرير[٣] عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدُو بعضُهُ أو كلُّهُ   فمـا بدا منه فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت (خُذُواْ زِينَتَكُمْ) . قال فى (اللباب) : وفى رواية أخرى عنه[٤] : فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا . وروى العوفىّ[٥] عن ابن عباس أيضاً فى الآية قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو مايوارى السوأة، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عنـد كل مسجد . وأخرج أبو الشيخ عن طاووس قال : أمروا بلبس الثياب ، وأخرج من وجه آخر عنه قال : الشملة

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٤ ـ كتاب التفسير ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

(٢) تطوافاً: هو ثوب تلبسه المرأة تطوف به. وكان أول الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبدا. ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى اللقاء . حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة ، فقال تعالى : خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وقال النبىّ ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » .

(٣) الأثر رقم ١٤٥٠٤ .

(٤) الأثر رقم ١٤٥٠٧ .

(٥) الأثر رقم ١٤٥٠٨ من تفسير ابن جرير .

من الزينة . وقال مجاهد : كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجًّا أو معتمراً يقول : لا ينبغي لى أن أطوف فى ثوب قد عصيت فيه ، فيقول : من يعيرنى مئزراً ؟ فإن قدر عليه وإلّا طاف عرياناً . فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون : (خُذُواْ زِينَتَكُمْ . . .) الآية . وقال الزهرىّ : إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ـ وهم قريش وأحلافهم ـ فمن جاء من غير الحمس ، وضع ثيابه ، وطاف فى ثوب أحمسىّ ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه . فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقى ثيابه ، ويطوف عرياناً . وإن طاف فى ثياب نفسه ألقاها ، إذا قضى طوافه وحرّمها ، أى جعلها حراماً عليه ؛ فلذلك قال تعالى: خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . والمراد من الزينة لبس الثياب التى تستر العورة . قال مجاهد : مايوارى عوراتكم ، ولو عباءة ـ انتهى ـ قال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعىّ ، وسعيد بن جبير وقتادة والسدّىّ ، والضحاك ومالك عن الزهرىّ وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها : أنها نزلت فى طواف المشركين بالبيت عراة ـ انتهى ـ فظهر أن المراد بالزينة مايستر العورة لأنه اللازم المأمور به الذى بيّنه سببُ النزول ، دون لباس التجمل المتبادر منه ، لأن المستفاد من (خُذُواْ) هو وجوب الأخذ ، ولباس التجمل مسنون ـ قاله الشهاب ـ وأقول دلّت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص ، لغةً ، بالجيّد من اللباس كما توهم . وبين ذلك العوفىّ عن ابن عباس فيما نقلناه .

وفى (التهذيب) : الزينة اسم جامع لكل شىء يتزين به . ومثله فى (الصحاح) و(القاموس) وعبارته : الزينة مايتزين به .

وقال الحرالىّ : الزينة تحسين الشىء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة .

وقال الراغب : الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان فى شىء من أحواله ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة ـ انتهى ـ .

وقد نقل الرازىّ إجماع المفسرين على أن المراد بـ (الزينة) لبس الثياب التى تستر العورة .

قال : والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات . قال : وأيضاً إنه تعالى قال فى الآية المتقدمة (قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً) فبين أن اللباس الذى يوارى السوأة من قبيل الرياش والزينة . ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة فى هذه الآية . فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذى تقدم ذكره فى تلك الآية . وأيضاً فقوله (خُذُواْ زِينَتَكُمْ) أمر ، والأمر للوجوب . فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملًا بالنص بقدر الإمكان . ولا يقال : إن قوله (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) أمر إباحة ، فيكون المعطوف عليه كذلك ، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر فى المعطوف ، تركه فى المعطوف عليه .

هذا ، وقد روى الحافظ ابن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعىّ عن قتادة عن أنس مرفوعاً : أنها نزلت فى الصلاة فى النعال . وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه ، وعن أبى هريرة مثله . قال ابن كثير : وفى صحته نظر ـ والله أعلم ـ قلت : لا نظر ، لأن ذلك مما تشمله الزينة ، وقد أسلفنا فى المقدمة أن قولهم : (نزلت فى كذا) لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به ، بل مخصوصة بنوعه ، فتعم ما أشبهه ، فَتَذَكَّرْ . والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدًّا ، منها : عن أبى مسلمة [1] سعيد بن يزيد ، قال : سألت أنساً : أكان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يصلى فى نعليه ؟ قال : نعم (متفق عليه) . قال العراقىّ فى (شرح الترمذىّ) : وممن كان يفعل ذلك ـ يعنى لبس النعل فى الصلاة ـ عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفىّ ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء ابن يسار وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وطاووس وشريح القاضى وأبو مجلز وأبو عمر الشيبانى والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعىّ وإبراهيم التيمىّ وعلىّ بن الحسين وابنه أبو جعفر . انتهى.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٢٤ ـ باب الصلاة فى النعال حديث رقم ٢٥٦.

وقد أخرج أبو داود[١] من حديث أبى سعيد الخدرىّ أنه قال : قال ﷺ : إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وليصلّ فيهما . وحديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : رأيت رسول الله ﷺ يصلى حافياً ومنتعلاً . أخرجه أبو داود[٢] وابن ماجة[٣] .

الثانى : دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف ، لأنه سبب النزول ، قالوا : واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة فى المسجد .

الثالث : حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال: لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة فى الصلاة ، فُهِم منها ، فى الجملة ، حسن التزين بلبس ما فيه حسن

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب الصلاة فى النعل ، حديث ٦٥٠ ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بأصحابه ، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره .

فلما رأى ذلك القومُ ألقَوْا نعالهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال « ما حملكم على إلقائكم نعالكم » ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جبريل صلى الله عليه وسلم ، أتانى فأخبرنى أن فيهما قذراً » وقال « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر . فإن رأى فى نعليه قَذَرًا أو أذًى ، فليمسحه وليصلّ فيهما » .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب الصلاة فى النعل ، حديث ٦٥٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٦٦ ـ باب الصلاة فى النعال ، حديث ١٠٣٨ (طبعتنا) .

وجمال فيها . قال الكيا الهراسي : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذي يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف . وقال ابن الفرس : استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة فى مساجد القبائل بغير أردية . واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلى بغير قلادة أو قرطين . كذا فى (الإكليل). والأخير من الغلو فى النزع . وقال ابن كثير : ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة ، يستحب التجمل عند الصلاة، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد . والطيب لأنه من الزينة . والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد[1] وأبو داود[2] والترمذى[3] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم . وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر وينبت الشعر ولأحمد[4] وأهل السنن ، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم . وروى الطبرانى بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تميماً الدارى اشترى رداء بألف ، وكان يصلى فيه .

الرابع : وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة ، بالأمر بالأكل والشرب فى قوله تعالى (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) ما رواه الكلبى أن بنى عامر كانوا لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم . فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يارسول الله.

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢٢١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ١٤ ـ باب فى الأمر بالكحل ، حديث ٣٨٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٨ ـ كتاب الجنائز ، ١٨ ـ باب مايستحب من الأكفان.

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

فأنزل الله عز وجل (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) . وقال السدّىّ : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرّمون عليهم الودك ماأقاموا فى الموسم . فقال الله تعالى لهم : وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ . . . الآية .

الخامس : فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحلّ ، وذلك بتحريمه ، وقال الجشمى اليمنىّ فى تفسيره (التهذيب) : تدل الآية على المنع من الإسراف . وذلك على وجهين : أولهما : إنفاق فى معصية كالفخار واللعب والزنى والخمر ونحوها . وثانيهما : أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار . لأن من له قدر يسير ، لو أنفقه فى ضيافة أو طيب أو ثياب خز ، وهو وعياله يحتاجون إليه ، فهو سرف محرم . ومثله فى الموسرين لا يقبح ولا يكون سرفاً . وتدل على أن الأشياء على الإباحة . والعقل يدل على ذلك . لأنه تعالى خلقه لمنافعهم . والسمع ورد مؤكدا . ولذلك قال : (مَنْ حَرَّمَ) مطالبا بدليل سمعىّ اهـ .

وقد روى الإمام أحمد [١] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده . وأخرج النسائى [٢] وابن ماجة [٣] نحوه .

وقال البخارىّ [٤] : قال ابن عباس : كل ماشئت والبس ماشئت ماأخطأتك اثنتان :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) الحديث رقم ٦٦٩٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٦ ـ باب الاختيال فى الصدقة .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٢ ـ كتاب اللباس ، ٢٣ ـ باب البس ماشئت ، ماأخطأك سرف أو مخيلة ، حديث رقم ٣٦٠٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ١ ـ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ

سرف أو مخيلة . ورواه ابن جرير (١) عنه أيضاً بلفظ : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مخيلة . قال الشهاب : هذا (أى ما قاله ابن عباس) لا ينافى ما ذكره الثعالبىّ وغيره من الأدباء ؛ أنه ينبغى للإنسان أن يأكل مايشتهى ، ويلبس مايشتهيه الناس ، كما قيل:

نصيحــة نصيحة قالت بها الأكياسُ
كل ما اشتهيت والبسـ ـنَّ ما اشتهته الناسُ

فإنه لِترْك ما لم يعتد بين الناس ، وهذا لإباحة كل ما اعتادوه . و (المخيلة : الكبر) . و (ما) دواميــة زمانية . و (أخطأتك) من قولهم : أخطأ فلان كذا ، إذا عدمه . وفى الأساس: من المجاز لن يخطئك ما كُتِب لك ، وأخطأ المطر الأرض : لم يصبها ، وتَخَاطَأَتْهُ النبلُ: تجاوزته وَتَخَطَّأَتْهُ. انتهى .

وفى قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ) وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الأشياء . لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه .

السادس ـ تناقل المفسرون وغيرهم ماقيل إن قوله تعالى (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ) الآية ـ جَمعَ الطب كله . وأصله ما حكاه الزمخشرىّ والكرمانىّ فى عجائبه ؛ أن الرشيد كان له طبيب نصرانىّ حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وما هى ؟ قال : قوله تعالى (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ) ، فقال النصرانىّ : ولا يؤثر من رسولكم شىء فى الطب ! فقال : قد جمع رسولنا ﷺ الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وماهى ؟ قال قوله (٢): المعدة بيت الداء ، والحمية

(١) الأثر رقم ١٤٥٢٩ من التفسير .

(٢) قال فى كشف الخفاء ، رقم ٢٣٢٠ مايأتى :

قال فى (المقاصد) : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ . بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، أو غيره .

رأس الدواء ، وأعط كل بدن ما عودته . فقال النصرانىّ : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًّا .

قال فى (العناية) : وترك بعضهم تمام القصة، لأن فى ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين. وفى شعب الإيمان للبيهقىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة ، صدرت العروق بالصحة ، وإذا فسدت المعدة ، صدرت العروق بالسقم . ـ انتهى ـ .

أقول : إن صحت هذه الحكاية ، فصواب جواب النصرانىّ فى سؤاله الثانى بالتفنيد والفِرْية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُثر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم يؤثر عن نبىّ قط. وللمحدّثين، فى عهد السلف، منه قسم كبير فى جوامعهم ومسانيدهم . وأما أعلام المتأخرين فقد اضطرهم وفرة ما روى فى ذلك إلى تدوينه فى أسفار مطولة ومختصرة بعنوان (الطب النبوىّ) . وقد بيّن الإمام ابن القيّم : عليه الرحمة ، اشتمال التنزيل العزيز على أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه ، فى كتابه (زاد المعاد) ، بياناً يدهش الألباب ، وفوق كل ذى علم عليم . قال ، عليه الرضوان ، فى كتابه (زاد المعاد ،فى هدى خير العباد) :

فصل

قد أتينا على جمل من هديه ﷺ فى المغازى والسير والبعوث والسرايا والرسائل والكتب التى كتب بها إلى الملوك ونوابهم، ونحن نتبع ذلك بذكر فصول نافعة فى هديه فى الطب الذى تطبب به ، ووصفه لغيره، ونبين ما فيه من الحكمة التى يعجز أكثر عقول أكثر الأطباء عن الوصول إليها، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم، فنحن نقول وبالله المستعان:

المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان . وهما مذكوران فى القرآن . ومرض

القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغيّ ؛ وكلاهما فى القرآن . قال تعالى فى مرض الشبهة : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾(٢) . وقال تعالى فى حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض : ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ، بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٣) . فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ، إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٤) . فهذا مرض شهوة الزنى ـ والله أعلم .

وأما مرض الأبدان فقال تعالى(٥) : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ . وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع ، يبين

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . . . ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ .

(٢) [٧٤ / المدثر/٣١] ونصها: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ .

(٣) [٢٤ / النور / ٤٨ ـ ٥٠] .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] .

(٥) [٢٤ / النور / ٦١] . . . ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ =

ذلك عظمة القرآن والاستغناء به، لمن فهمه وعقله، عن سواه . وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ؛ والحِمْية عن المؤذى، واستفراغ الموادّ الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى هذه المواضع الثلاثة . فقال فى آية الصوم: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ(١) . فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ؛ والمسافر، طلباً لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم فى السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلّل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها. وقال فى آية الحج: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ(٢) . فأباح للمريض، ومن به أذًى من رأسه، من قمل أو

= أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا، فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ، . . . وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ، وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ، وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ، . . . ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

حكّة أو غيرها ، أن يحلق رأسه فى الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر ، وإذا حلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها . فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه. والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمنىّ إذا سبغ ، والبول والغائط والريح والقىء والعطاس والنوم والجوع والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داءً من الأدواء بحبسه. وقد نبه سبحانه، باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن فى الرأس، على استفراغ ماهو أصعب منه ، كما هى طريقة القرآن ؛ التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأما الحِمْية ، فقال فى آية الوضوء : وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا[(1)] . فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حِميةً له أن يصيب جسده ما يؤذيه . وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له، من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب، ومجامع قواعده

ونحن نذكر هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فمسلّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم ، وعلى أيديهم . فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن تكون مُؤْثِرة لمرضاته ولمحابّه ، متجنبة لمناهيه ومساخطه . ولا صحة لها ولا حياة لها البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل . وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك . وإنما ذلك حياة نفسه

---

(١) [٤ / النساء / ٤٣] يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ، . . . فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

البهيمية الشهوانية وصحتها وقوتها . وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل . ومن لم يميز بين هذا وبين هذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات . وعلى نوره ، فإنه منغمس فى بحار الظلمات ــ انتهى ــ :

وقد قرر رحمه الله هذا المقام بأسلوب آخر فى كتابه (طريق الهجرتين) نورده أيضاً لبداعة أسلوبه . قال عليه الرحمة :

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعىّ بفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف فى آلات الإدراك مع استقامة إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ماهى عليه ، كما يدرك الحلو مرّا ، والخبيث طيباً ، والطيّب خبيثاً . وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة . فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدّ الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة ؛ وسبب هذا الخروج عن الاعتدال ، إما فساد فى الكمية أو فى الكيفية فالأول إما نقص فى المادة فيحتاج إلى زيادتها ، وإما زيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها . والثانى إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعىّ ، فيداوى بمقتضى ذلك . ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذى ، واستفراغ الموادّ الفاسدة . ونظرُ الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة . وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا فى رمضان ، ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برأ ، حفظاً لقوتهما عليهما . فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، فالصوم يضعفها . فأما الحمية عن المؤذى ، فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له

عن ورود المؤذِى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذِى له فى باطنه ؟ وأما استفراغ المادة الفاسدة ، فإنه سبحانه أباح للمُحْرِم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ، فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفّها ، فنبّه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال : والله ! لو سافرت إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة ، لكان سفراً قليلاً ــ أو كما قال ــ انتهى .

ثم ردّ تعالى على من حرّم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس ، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، تأكيداً لما سبق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء المشركين الذين يحرّمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم « مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ » أى من الثياب وسائر ما يتجمّل به « ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ » من النبات كالقطن والكتان ، والحيوان كالحرير والصوف ، والمعادن كالدروع . هكذا عمم المفسرون هنا . ووجهه أن تخصيصه يغنى عنه ما مرّ « وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ » أى المستلذات من المآكل والمشارب .

قال المهايمىّ : يعنى إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذى هو العبادة ، فيحرمان معها ، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة، فعل عبيد الملوك إذا حضروا خدمتهم ، ولا ينافى ذلك تذللهم لهم ، وكذلك الطيبات التى خلقها لتطييب قلوب عباده ليشكروه ، والشكر عبادة ، فلا ينافى التلذذُ العبادة ، بل قد يكون داعية إليها . انتهى .

تنبيهات

الأول ـ فسرت (الطيبات) بـ (الحلال ، وفسرت بـ (اللحم والدسم) الذى كانوا يحرمونه أيام الحج كما تقدم ، وفسرت بـ (البحائر والسوائب) كما قال تعالى[(١)]: قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا . وظاهر أن لفظ الآية أعم من ذلك ، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ، لأنها إنما وردت نعياً عليهم فيه ، والعبرة بعموم اللفظ .

قال الرازى : لفظ (الزينة) يتناول جميع أنواع التزين ، ومنه تنظيف البدن ، ومنه المركوب ، ومنه أنواع الحلى (يعنى للنساء) . ثم قال : ويدخل تحت (الطيبات) كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب . وقد رد النبيّ صلى الله عليه وسلم[(٢)] على عثمان بن مظعون ، ماهم به من الاختصاء والتبتل .

الثانى ـ دلت الآية على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة ، لأن الاستفهام فى (مَنْ) لإنكار تحريمها على وجه بليغ ؛ لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه .

الثالث ـ فى الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة ، لأنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه، أو حرّمه على غيره . وما أحسن ماقال ابن جرير الطبرىّ : لقد أخطأ

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] . . . قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ .

(٢) جاء فى طبقات ابن سعد (ج ٣ ص ٣٩٤ ، طبعة بيروت) قال : أخبرنا سليمان ابن داود الطيالسىّ قال : أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهرىّ ، عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبى وقاص قال : لقد ردَّ رسول الله ﷺ ، على عثمان بن مظعون ، التبتّلَ . ولو أذن له فى ذلك ، لاختصى .

من آثر لباس الشعر والصوف، على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حله، ومَنْ أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البُرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة ـ انتهى ـ .

الرابع ـ قال ابن الفرس : واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخزّ للرجال . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخزّ ، فقال له الناس : مثلك يلبس هذا ؟ فقال لهم : من ذا الذى يحرم زينة الله التى أخرج لعباده ؟ ولكن أخرج عن طاووس أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم بالحرير ولا بالديباج، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت عنه . كذا فى (الإكليل) .

أقول : عدم شمول الآية للحرير غنيّ عن البيان ، لأن ما خصه الدليل لا يتناوله العامّ . والأحاديث فى تحريم الحرير لا تحصى كثرةً ، فاستنباط حلّه منها مردود على زاعمه .

« قُلْ هِىَ » أى زينة الله والطيبات ، مخلوقة « لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » بالأصالة ، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبع « خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى : لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لأن الله حرم الجنة على الكافرين . وانتصابها على الحالية . وقرئ بالرفع ، أى على أنه خبر بعد خبر .

لطيفة :

قال المهايمى: إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذّات الآخرة ، فيرغبوا فيها مزيد رغبة ، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان . فإذا ذهب هذا المعنى ، تصير خالصة لهم يوم القيامة ، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين، وهو خلاف مقتضى الحكمة . وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الإيمان ، وهو العبادة والتقوى ، ولكن من غير انهماك فى الشهوات .

« كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى الحكمةَ فى خلق الأشياء ، واستعمال

الأشياء على نهج ينفع ولا يضر . فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع فى الكبر ، والانهماك فى الشهوات ، فيحرمان على أهل العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قُلْ » إنهما من المنافع الخالصة فى أنفسهما . والإفضاء احتمال غير محقق . فإذا أفضى، فالحرام هو المفضَى إليه بالذات لأنه « إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ » أى : ما تفاحش قبحه من الذنوب ، أى تزايد (وهى الكبائر) وهى مايتعلق بالفروج « مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » أى : ما جاهر به بعضهم بعضاً ، وما ستره بعضهم عن بعض ، وما ظهر من أفعال الجوارح ، وما بطن من أفعال القلوب « وَٱلْإِثْمَ » أى : ما يوجب الإثم ، وهو عامّ لكل ذنب ، وذكره للتعميم بعد التخصيص . ويقال : إن الإثم هو الخمر ، قال الشاعر(١) :

نهانا رسول الله أن نقرُبَ الزنى ... وأن نشرب الإثم الذى يُوجب الوِزْرَا

وأنشد الأخفش(٢) :

شربتُ الإثم حتى ضلَّ عقلى ... كذاك الإثم تذهبُ بالعقولِ

وهو منقول عن ابن عباس والحسن. وذكره أهل اللغة كالأصمعىّ وغيره . قال الحسن: ويصدقه قوله تعالى : قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ(٣) . وقال ابن الأنبارىّ : لم تسمّ العرب الخمر

(١) لم أقف على هذا البيت فى محل ما ، ولم أعرف اسم هذا الشاعر .

(٢) استشهد به فى اللسان ، مادة (ا ث م) بالصفحة رقم ٦ من المجلد الثانى عشر (طبعة بيروت) .

(٣) [٢/ البقرة / ٢١٩] ونصها : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَآ =

إثماً فى جاهليـة ولا إسلام ، والشعر المذكور موضوع . وردَّ بأنه مجاز ، لأنه سببه . وقال أبو حيان : هذا التفسير غير صحيح هنا ، لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحُد ، وقد سبقه إلى هـذا غيره . وأيضاً ، الحصر يحتاج إلى دليـل . كذا فى (العناية) « وَٱلْبَغْىَ » أى : الاستطالة على الناس وظلمهم . إنمـا أفرده بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، للمبالغة فى الزجر عنه . وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضى أنه تَميَّزَ من بينها حتى عدّ نوعاً مستقلًّا « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » متعلق بـ(البغى) ، مؤكد له معنى . وقيل : البغى قد يخرج عن كونه ظلماً إذا كان بسبب جائز فى الشرع ، كالقصاص ، إلا أن مثله لا يسمى بغياً حقيقة ، بل مشاكلة « وَ » قد حرّم « أَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا » أى: برهاناً أى: ما لم يقم عليه حجة . قال الزمخشرىّ : فيه تهكم ، لأنه لا يجـوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره . وفى (العناية) : إنما جاء التهكم من حيث أنه يوهم أنه لو كان عليه سلطان لم يكن محرّماً ، دلالة على تقليدهم فى الغىّ . والمعنى على نفى الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ ـ انتهى ـ قال الرازىّ : وهـذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل . وتبعه القاضى فقال : فى الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان « وَ » قد حرّم عليـكم « أَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : تتقوّلوا عليه ، وتفتروا الـكذب فى التحليل والتحريم ، أو فى الشرك .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على تحريم جميع الذنوب ، لأن قوله (ٱلْفَوَٰحِشَ وَٱلْإِثْمَ) يشتمل على الصغير والـكبير ، والأفعال القبيحة ، والعقود المخالفة للشرع ، والأقاويل الفاسدة ، والاعتقادات الباطلة . ودخل فى قوله (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب

= إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ، وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

والخيانات ، والمكر ، والخديعة . ودخل تحت قوله (وَٱلْبَغْىَ) كل ظلم يتعدى على الغير ، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج ، والأمراء إذا انتصروا بغير حق . ودخل تحت قوله (وَأَن تُشْرِكُواْ) تحريم كل شرك وعبادة لغير الله . ودخل تحت قوله (وَأَن تَقُولُواْ) كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق ، وشهادة زور ونحوه . فالآية جامعة فى المحرمات ، كما أن ما قبلها جامعة فى المباحات . وفيه تعليم للآداب، ديناً ودنيا ، وتدل على بطلان التقليد، لأنه أوجب اتباع الحجة ، لقوله (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا) ، والسلطان الحجة . وتدل على أن لكل أحد وقت حياة ، ووقت موت ، لايجوز فيه التقديم والتأخير ، فيبطل قول من يقول : المقتول مات قبل أجله. انتهى .

ثم أوعد تعالى أهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عنده سبحانه ، كما نزل بالأمم ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى : مدة أو وقت لنزول العذاب بهم « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ » أى : ميقاتهم المقدر لهم « لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » أى : لايتركون بعد الأجل شيئاً قليلًا من الزمان ، ولا يهلكون قبله كذلك . والساعة مثل فى غاية القلة من الزمان .

لطائف

١ ـ وقع هذا التركيب فى موضع من التنزيل ، وفيه بحث مشهور : وهو أنه لما كان الظاهر عطف (لا يستقدمون) على (لا يستأخرون) كما أعربه الحوفىّ وغيره ، أُورِدَ عليه أنه فاسد ، لأن (إذا) إنما يترتب عليها الأمور المستقبلة لا الماضية، والاستقدام حينئذ بالنسبة إلى مَحِلّ الأجل متقدم عليه ، فكيف يترتب عليه ما تقدمه ؟ ويصير باب الإخبار

بالضروريّ الذى لافائدة فيــه ، كقولك : إذا قمت فيما يأتى ، لم يتقدم قيامك فيما مضى . وأجيب بأن المراد بالمجيء الدنوّ ، بحيث يمكن التقــدم فى الجملة ، كمجيء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه . وقيل : إن جملة (لَا يَسْتَقْدِمُونَ) مستأنفة . وقيل : إنها معطوفة على الشرط وجوابه ، أو على القيد والمقيّد. أو أن مجموع (لايستأخرون ولايستقدمون) كناية عن أنهم لايستطيعون تغييره . والتحقيق أنه عطف على (يَسْتَأْخِرُونَ) لكن لا لبيان انتفاء التقدم، مع إمكانه فى نفسه كالتأخر ، كما يتوهم ، بل للمبالغة فى انتفاء التأخر . يعنى أن التأخر مساوٍ للتقدم فى الاستحالة، ولذا نظمه معه فى سلك، كما فى قوله سبحانه[1]: (وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فإن من مات كافراً مع ظهور أن لاتوبة له رأساً ، قد نظم فى عدم القبول، فى سلك من سوّفها إلى حضور الموت. إيذاناً بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة.

٢ ـ تقديم بيان انتفاء الاستئخار ، لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب. وأما (ما) فى قوله تعالى : (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ)[2] من سبق (السبق) فى الذكر ؛ فلما أن المراد هناك بيان سر تأخــير إهلاكهم مع استحقاقهم له ، حسبما ينبئ عنه قوله تعــالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)[3] . فالأهم هناك بيان انتفاء السبق .

٣ ـ صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك، مع طلبهم له، أفاده أبو السعود.

ثم أنذر تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يهدونهم ، وبشّر وأنذر بقوله سبحانه:

---

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) [١٥ / الحجر / ٥] .

و [٢٣ / المؤمنون / ٤٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِى » شرط ذكره بحرف الشك ، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب . وضمت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك أكد فعلها بالنون الثقيلة أو الخفيفة . والمراد ببنى آدم جميع الأمم ، وهو حكاية لما وقع مع كل قوم . وليس المراد بالرسل نبينا ﷺ وببنى آدم أمته، كما قيل، فإنه خلاف الظاهر ـ كذا فى (القاضى وحواشيه) ـ وجواب الشرط قوله تعالى «فَمَنِ ٱتَّقَىٰ» أى التكذيب « وَأَصۡلَحَ » أى عمله « فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ »من العذاب «وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ» فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ » أى تكبروا « عَنۡهَآ » فلم يؤمنوا بها أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ » :

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على وجوب اتباع الرسل ، وقبول ما يؤدّون . وتدل على أن الصلاح فى الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم ، لأنهم يكونون بطريقته أعرف، ومن النفار عنه أبعد ، وإلى السكون إليه أقرب. وتدل على أن الغرض بالرسول مايؤدى من الأدلة، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولًا إلا ومعه ما يؤديه : وتدل على أن الجنة تنال بشيئين :

بالأعمال الصالحة ، واتقاء المعاصى ، فبطل قول المرجئة . وتدل على أن المؤمن فى الآخرة لا يخاف ولا يحزن، خلاف ما يقوله الأحسد به (كذا) والحشوية ـ هكذا قاله أكثر أصحابنا ـ.

وقال أبو بكر أحمد بن على : قوله (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) كقول الطبيب للمريض (لا بأس عليك) يعنى أن أمره يؤول إلى العافية . وليس هذا بالوجه لأنه نفى الخوف والحزن مطلقاً . وتدل على الوعيد للمكذبين ، كما تدل على الوعد للمطيعين ، ترغيباً وترهيباً . وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد ، فبطل قولهم فى المخلوق والاستطاعة . انتهى كلامه رحمه الله .

ثم ذكر تعالى وعيد المكذبين الذين تقدم ذكرهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ » أى ممن تقوّل على الله كذباً بالتحليل والتحريم ، أو بنسبة الولد والشريك ، أو كذب بآياته المنزلة « أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ » أى يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك . أى مع ظلمهم وافترائهم وتكذيبهم ، لا يُحْرَمون ما قدر لهم من العمر والرزق إلى انقضاء آجالهم. وفى الآية وجوه أخر ، هذا أظهرُها وأقواها فى المعنى ، وتتمة الآية تدل عليه ، وحينئذ تتلاقى مع نظائرها ، كقوله تعالى: قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ[(١)] .

---

(١) [١٠ / يونس / ٦٩ و ٧٠] .

وقوله تعالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا . . .(١) الآية ـ « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ » أي : ملائكة الموت تقبض أرواحهم « قَالُوٓا۟ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء، فلا نراهم يخلّصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد . وفائدة السؤال وجهان : توبيخ وتبكيت لهم يزيدهم غمًّا إلى غم ، ولطف بالمكلف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب. و (ما) وقعت موصولة بـ (أين) فى خط المصحف العثمانى، ومقتضى الاصطلاح الفصل لأنها موصولة «قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا » أي: غابوا عنا فلم يخلّصونا من شيء « وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ » أي : عابدين لما لا يستحق العبادة . اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمدوه فى العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ)

«قَالَ» أي الله ، سبحانه، لهم فى الآخرة « ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ » أي فى جملة أمم قد مضت « مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين « فِى ٱلنَّارِ » متعلق بـ (ادخلوا) « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ » أي فى النار « لَّعَنَتْ أُخْتَهَا » أي التى

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٣و٢٤] . . . ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

قبلها لضلالها بها، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام(١) : ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ... الآية ـ « إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً » أى تداركوا، بمعنى تلاحقوا واجتمعوا فى النار « قَالَتْ أُخْرَاهُمْ » وهم الأتباع « لِأُولَاهُمْ » أى : لأجل أولاهم، إذ الخطاب مع الله سبحانه ، لا معهم . قال ابن كثير : أى قالت أخراهم دخولًا وهم الأتباع ، لأولاهم وهم المتبَعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: « رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا » أى سنّوا لنا الضلال ، ودعوا إليه ، فاقتدينا بهم « فَـَٔاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ ٱلنَّارِ » أى مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا « قَالَ » أى تعالى « لِكُلٍّ ضِعْفٌ » أى عذاب مضاعف. أما القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال . وأما الأتباع والسفلة ، فبالضلال وتقليد أهل الضلال ، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة « وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ » أى ما لكم ، أو ما لكل فرقة . وقرئ بالياء . وعليها ، فهو تذييل لم يقصد إدراجه فى الجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

« وَقَالَتْ أُولَـٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ » أى لا فضل لكم علينا فى ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم ، فقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب. وقوله تعالى: « فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » من قول القادة ، أو من قول الله تعالى للفريقين ، وهو أظهر .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] ونصها : وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة ، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم ، وتوادّوا فى الدنيا ، فإنهم فى الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم . وتدل على فساد التقليد ، والاغترار بقول علماء السوء . وتدل على أن الداعى إلى الضلال مضلّ . وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له . وتدل على أن اشتراكهم فى العذاب لا يوجب لهم راحة ، بخلاف الاشتراك فى محن الدنيا . وتدل على أن ذلك الإضلال فعلهم ، فيبطل قول المجبرة فى المخلوق ، والهدى والضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ » أى لا تفتح لأعمالهم ، ولا لدعائهم ، ولا لشىء مما يريدون به طاعة الله . أى لا يقبل ذلك منهم ، لأنه ليس صالحاً ولا طيّباً . وقد قال سبحانه : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ، وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)(١) قال ابن عباس: أى لا يرفع لهم منها عمل صالح، ولا دعاء ـ رواه جماعة عنه . وقاله مجاهد وابن جبير . أو المعنى : لا تنزل عليهم البركة والرحمة ، ولا يغاثون ، لأنه أجرى العادة بإنزال الرحمة من السماء ، كما فى قوله: (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)(٢)

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً . . . وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٢) [٥٤ / القمر / ١١] .

أو المعنى : لا يؤذن لهم فى صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة ، على ماروى أن الجنة فى السماء . أو المعنى لا تفتح لأرواحهم، إذا ماتوا ، أبواب السماء ، كما تفتح لأرواح المؤمنين ـ رواه الضحاك عن ابن عباس ـ ورواه ابن جرير[١] عن البراء ؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهـذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ! (بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون له ، فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ . . .) الآية ـ قال ابن كثير : هكذا رواه . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه الإمام أحمد[٢] مطولا وأبو داود والنسائىّ وابن ماجة من طرق .

(١) الأثر رقم ١٤٦١٤ من التفسير .

(٢) هأنذا أثبت هذا الحديث مطوّلا . فقد رواه فى المسند بالصفحتين ٢٨٧ و ٢٨٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع النبىّ ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير . وفى يده عود ينكت فى الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر . ثم يجىء ملك الموت ، عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الطيبة ! اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان . قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها . فإذا أخذها ، لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها . فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب =

تنبيهات :

الأول ـ قال الشهاب كون السماء لها أبواب ، وأنها تفتح للدعاء الصالح ، وللأعمال الصاعدة أو للأرواح ـ وارد فى النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فلا حاجة إلى تأويل . انتهى .

= نفحة مسك وجدت على الأرض . قال فيصعدون بها . فلا يمرون (يعنى بها) على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هـذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا . فيستفتحون له فيفتح لهم . فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة . فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى علّيين ، وأعيدوه إلى الأرض . فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه مَلَكان فيُجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى . فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدّ بصره .

قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير . فيقول: أنا عملك الصالح . فيقول : رب ! أقم الساعةَ حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال ، وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح . فيجلسون منه مدّ البصر . ثم يجىء =

وهذا على قاعدة أهل الظاهر فى مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . والتنزيل الكريم ، إنما ورد على مناحٍ للعرب معروفة فى لسانهم ـ والله أعلم.

= مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فقول : أيتها النفس الخبيثة ! اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال فتفرق فى جسده . فينتزعها كما ينتزع السّفود من الصوف المبلول . فيأخذها . فإذا أخذها لم يدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح . ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها . فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ماهذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا) حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا . فيستفتح له فلا يفتح له » .

ثم قرأ رسول الله ﷺ «لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ . » فيقول الله عزوجل : اكتبوا كتابه فى سجّين ، فى الأرض السفلى . فتطرح روحه طرحا .

ثم قرأ : وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ . « فتعاد روحه فى جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدرى . فيقولان له مادينك ؟ فيقول : هاههاه . لا أدرى . فيقولان له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه . لا أدرى . فينادى منادٍ من السماء : أن كذب . فافرشوا له من النار . وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرّها وسمومها . ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءك . هذا يومك الذى كنتَ توعد . فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب ! لا تُقم الساعةَ ».

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السّنة ، ٢٤ ـ باب فى المسألة فى القبر وعذاب القبر، حديث ٤٧٥٣ .

الثاني ـ التضعيف في (تفتح) لتكثير المفعول ، لا الفعل لعدم مناسبة المقام .

الثالث ـ قرئ بالتخفيف في (تفتح) وبالتخفيف ، والياء . وقرئ على البناء للفاعل ، ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات مجازاً ، وبالياء على أنه لله تعالى .

« وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ » أي يدخل « ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ » أي ثقب الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم .

لطائف

الأولى ـ قرأ الجمهور (الجمل) بفتح الجيم والميم ، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير قال الفراء : الجمل زوج الناقة . وقال شمر : البكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل والناقة بمنزلة الرجل والمرأة . وقرئ في الشواذ (الجُمَّل) كسكَّر وصُرَد وقُفْل وعُنُق وجَبْل بمعنى حبل السفينة الغليظ الذي يقال له (القَلْس) .

وقال أبو البقاء : يقرأ في الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة ، لأن تخفيف المفتوح ضعيف ؛ ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الحبل الغليظ ، وهو جمع مثل صُوَّم وقُوَّم ؛ ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أَسَد وأُسُد ؛ ويقرأ كذلك إلا أن الميم ساكنة ، وذلك على تخفيف المضموم ـ انتهى ـ .

وذكر الكواشيّ أن القراءات المذكورة كلها لغات في البعير ما عدا « جُمَّلا » كسكّر وقفل ، ونوقش في ذلك ـ انتهى ـ .

وقراءته (كسكّر) على معنى الحبل المذكور ، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ، واختارها سعيد بن جبير .

قال الزمخشريّ : وعن ابن عباس رضي الله عنه ، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه . إلا أن قراءة العامة أوقع ، لأن سمّ الإبرة مثل في ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خَرْتِ الإبرة.

وقالوا للدليل الماهر (خِرِّيت) للابتداء به فى المضايق المشبهة بأَخْرات الإبر ؛ والجملُ مثل فى عظم الجرم ، قال [١] :

* جسم الجمال وأحلام العصافير *

إن الرجال ليسوا بجَزَر تراد منهم الأجسام ، فقيـل : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان ، الذى لا يلج إلا فى باب واسع ، فى ثقب الإبرة .

وعن ابن مسعود : أنه سئل عن الجمل؟ فقال : زوج الناقة، استجهالاً للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تـكلّفٌ ـ انتهى ـ .

وحاصله أن الجمل لما كان مثلاً فى عظم الجسم ، لأنه أكبر الحيوانات جسما عند العرب، وخرق الإبرة مثلاً فى الضيق ، ظهر التناسب . على أن فى إيثار الجمل ، وهو مما ليس من شأنه الولوج فى سم الإبرة ، مبالغة فى استبعاد دخولهم الجنة .

الثانية ـ (السَّم) : الثقب الضيق . قال أبو البقاء : بفتح السين وضمها، لغتان ـ انتهى وصرح بالتثليث فيه ، وفى القاتل المعروف ، صاحبُ القاموس وغيره ، إلا أنهم قالوا : المشهور فى الثقب الفتح كما فى التنزيل . والأفصح فى القاتل الضم .

---

(١) صدر البيت :

* لا بَأْسَ بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ *

وقائله حسان بن ثابت الأنصارىّ ، ورواية العجز فى الديوان :

* جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ *

قاله من قصيدة يهجو بها النجاشى الشاعرَ ومطلعها :

حارِ بنَ كعب ألَا الأحلام تزجُرُكُمْ عنـا وأنتم من الجُوفِ الجَمَاخِيرِ

قوله : تزجركم عنا ، أى عن هجائنا . والجوف ، جمع أجوف ، وهو واسع الجوف . والجماهير جمع جمخور ، وهو الواسع الجوف أيضاً . والمراد الضعفاء المستريحون .

قال العلامة الفاسىّ : قال الزبيدىّ : لم أر من تعرض لكسرها ، وكأنها عامية .

قلت : قال الزمخشرىّ : وقرئ (فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ) بالحركات الثلاث ، وكفى به مرجعاً.

الثالثة ـ (الخياط) ككتاب ومنبر ، ماخيط به الثوب ، والإبرة ـ كذا فى القاموس ـ

قال الزمخشرىّ : وقرأ عبد الله (فى سم المخيط) . قال الشهاب : بكسر الميم وفتحها ، كما ذكره المُعْرِب ، وهى قراءة شاذة .

الرابعة ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل): فى قوله تعالى (حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ ... الخ) جواز فرض المحال ، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء ـ انتهى ـ .

والتعليق على المحال معروف فى كلام العرب ، كقوله :

إذا شابَ الغرابُ أتيتُ أهلى وصار القارُ كاللَّبَنِ الحَليبِ

وقوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الجزاء الفظيع « نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ)

« لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ » أى : فرش من تحتهم « وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » أى أغطية ، إذ أحاطت بهم الخطيئة « وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ » أى بالكفر ، وإنما عبر عنهم بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى ، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين . وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة ، والظلم مع التعذيب بالنار الذى هو أشد من الحرمان المذكور ـ تنبيهاً على أنه أعظم الجرائم . ثم تأثر تعالى وعيده بوعده ، على سنته فى تنزيله الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ » قال أبوالبقاء : والذين آمنوا مبتدأ، وفى الخبر وجهان : أحدهما ـ (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ) ، والتقدير (منهم) ، فحذف العائد ، كما حذف فى قوله : وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١) .

والثانى ـ أن الخبر (أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ) و (لَا نُكَلِّفُ) معترض بينهما ـ انتهى ـ وعلى الثانى اقتصر غير واحد من المحققين . قالوا : وسر الاعتراض ، الترغيبُ فى اكتساب ما يؤدى إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله ، وتيسير تحصيله . والذى حسّنه سبق العمل الصالح قبله . أى وإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع ، زادت الرغبة فى ذلك الاكتساب ، لحصوله بما فيه يسر لا عسر .

لطيفة :

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمرّ . قاله الرازىّ ، أخذاً من قول معاذ فى الآية (يسرها لا عسرها) قال : وأما أقصى الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً . وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود .

قلت : فى القاموس : الوسع (مثلثة) الجدة والطاقة كالسعة . وفيه : الجهد الطاقة (ويضم) والمشقة ـ انتهى ـ .

قال ابن الأثير : الجهد (بالفتح) المشقة ، وقيل: المبالغة والغاية ، وبالضم الوسع والطاقة،

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٣] .

وقيل : هما لغتان فى الوسع والطاقة ، فأما فى المشقة والغاية ، فالفتح لا غير ـ انتهى ـ وبه يعلم أن ما جرى عليه الرازىّ قول للغويين ، ليس وفاقاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ » أى : نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة ، أو نطهّرها منها ، حتى لا يكون بينهم إلا التوادّ والتعاطف . وصيغة الماضى للإيذان بتحققه وتقرره وتقرره « تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا » أى لِمَا جزاؤه هذا ، أى : لأسباب هذا العلوّ ، بإرسال الرسل والتوفيق للعمل « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ » أى ما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هذا ثوابه ، لولا أن وفقنا الله بدلائله وألطافه وعنايته « لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » أى : فاهتدينا بإرشادهم قال الزمخشرىّ : يقولون ذلك ، أى (الْحَمْدُ لِلَّهِ ... الخ) سرورًا واغتباطاً بما نالوا ، وتلذّذا بالتكلم به ، لا تقرّباً ولا تعبدًا ، كما ترى من رزق خيرًا فى الدنيا يتكلم بنحو ذلك ، ولا يتمالك أن لا يقوله ، للفرح والتوبة « وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : أعطيتموها بسبب أعمالكم فى الدنيا . فالميراث مجاز عن الإعطاء ، تجوّز به عنه إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً ، وإن كان سبباً بحسب الظاهر ، كما أن الإرث ملك بدون كسب ، وإن كان النسب مثلاً سبباً له . وعلى ما تقرر ، فلا يقال إنه معارض لما ثبت فى الصحيحين[1] من قوله ﷺ : واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة ! قالوا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ـ كتاب الرقاق ، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل ، حديث ٢٤٢٧ ونصه :

=

ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل . ولا يحتاج إلى الجواب عنه ، ولا أن يقال الباء للعوض لا للسبب . وهذا تنجيز للوعد بإثابة المطيع ، لا بالاستحقاق والاستيجاب ، بل هو بمحض فضله تعالى ، كالإرث ـ كذا فى العناية ـ .

روى الإمام مسلم[1] عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنةَ نادى منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً . فذلك قوله عز وجل (وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ...) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُواْ نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ » أى إذا استقروا فى منازلهم « أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ » توبيخاً

= عن عائشة عن النبىّ ﷺ قال « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُهُ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٧٨ (طبعتنا) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « ينادى منادٍ : إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا . وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا . وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا » .

فذلك قوله عز وجل : وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وتحسيراً لهم « أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » حيث نلنا هذه المراتب العالية « فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » من تنزيلكم إلى أسفل سافلين ، لاستكباركم على الآيات والرسل « قَالُواْ نَعَمْ » أي وجدناه حقاً « فَأَذَّنَ » أي نادى « مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ » أي بين الفريقين ليسمعهم ، زيادة فى شماتة أحد الفريقين وندامة الآخر « أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ)

« ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أي : يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دينه القويم الذى بيّنه على ألسنة رسله لمعرفته وعمارة الدارين « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أي : يبغون لها زيغاً وميلاً عما هى عليه ، حتى لايتبعها أحد « وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ » أي وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون لايؤمنون به ، فلهذا لا يبالون ، فيأتون المنكر من القول والعمل ، لأنهم لا يرجون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ، وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

« وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ » أي: بين الفريقين سور وستر، أو بين الجنة والنار ، ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى. وقد سمى هذا الحجاب سوراً فى آية[1] (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ) وقوله تعالى « وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ

(١) [٥٧ / الحديد / ١٣] ونصها : يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا . . .

رِجَالٌ » أى على أعراف الحجاب وشرفاته وأعاليه ، وهو السور المضروب بينهما ، جمع عَرْف ، مستعار من عرف الفرس ، وعرف الديك . وكل ما ارتفع من الأرض عرف ، فإنه بظهوره أعرف مما انخفض .

وقد حكى المفسرون أقوالاً كثيرة فى رجال الأعراف، عن التابعين وغيرهم ، أنهم فضلاء المؤمنين ، أوهم الشهداء ، أو الأنبياء ، أو قوم أوذوا فى سبيل الله ، فاطلعوا على أعدائهم ليشمتوا بهم ، فعرفوهم بسيماهم ، وسلّموا على أهل الجنة . واللفظ ، لإبهامه ، يحتمل ذلك ، لأن السياق يدل على سمّو قدرهم ، لا سيما بجعل منازلهم الأعراف ، وهى الأعالى ، والشرف ، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك ـ والله أعلم ـ .

« يَعْرِفُونَ كُلًّا » أى من أهل الجنة والنار « بِسِيمَٰهُمْ » أى بعلامتهم التى أعلمهم الله بها ، كبياض الوجه وسواده .

فائدة

السيما مقصورة وممدودة ، والسيمة والسيمياء بكسرهن العلامة . قال القاضى : السيمى فِعْلى مِنْ (سام إبله) إذا أرسلها فى المرعى معلمة . أو من (وسم) على القلب (كالجاه) من (الوجه). انتهى . وعلى الثانى اقتصر ابن دريد « وَنَادَوْا » أى رجالُ الأعراف « أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ » أى حين رأوهم من أعرافهم ، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة « أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ » بطريق الدعاء والتحية ، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره . والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه فيما رواه عنه العوفىّ . قال رضى الله عنه : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا مَن فى الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام « لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » الضميران فى الجملتين لأصحاب الأعراف ، والأولى حال من الواو ، والثانية حال من فاعل (يَدْخُلُوهَا) ، أى نادوْهم وهم لم يدخلوا الجنة بعدُ ، حال كونهم طامعين فى دخولها ، مترقبين .

قال الجشميّ رحمه الله: قيل: إذا كان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين، فلِمَ تأخر دخولهم؟ قلنا : هم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعداء ، وإن تأخر دخولهم ، لظهور فضلهم ، وجلالة طريقهم إلى منازلهم اه .

ولا يبعد عندى أن يكون جملة (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) حالًا من (أصحٰب الجنة) أى نادوهم بالسلام وهم فى الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب، إشارة إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم فى دخول الجنة ، وعلوّ منازلهم على سواهم ـ والله أعلم ـ .

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة ، أى: نادى أهلُ الأعراف أصحابَ الجنة بالسلام، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون فى دخولها. وهو وجه جيّد . فالجملة الأولى حال من المفعول وهو (أصحٰب الجنة) والثانية حال من فاعل (يدخلوها) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ » أى : أبصار أهل الأعراف أو أهل الجنة .

قال الجشميّ : وإنما قال (صُرِفَتْ) لأن نظرهم إلى أهل النار نظر عداوة . فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم . فأما أهل الجنة فوجوههم إليهم سرورًا بهم ، فلا يحتاج إلى تكلف . وقيل: لأنهم مع أهل الجنة بُعَدَاء من أهل النار، فيحتاجون إلى صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار. ثم قال الجشميّ : تدل الآية على وجوب الاجتناب من الظلمة فى الدنيا، كيلا يكون معهم فى الآخرة ـ انتهى ـ .

« تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ» أى: إلى جهتهم « قَالُواْ » من شدة خوفهم تعوّذًا بالله «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى : فى النار . وقال أبو السعود : فى وصفهم

بالظلم ـ دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء ـ إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط ، بل ما يوجبه ويؤدى إليه من الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٨] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

«وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا» يعنى من عظماء أهل الضلالة «يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ» أى : التى تدل على أعيانهم ، وإن تغيرت صورهم «قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ» أى: كثرتكم أو جمعكم للأموال التى تدفع بها الآفات «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» عن الحق، أو على الخلق . وقرئ (تَسْتَكْثِرُونَ) من الكثرة ، أى : من الأتباع الذين يستعان بهم فى دفع الملمات .

قال ابن القيم : يعنى ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إما نفى وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأفحم. ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم فى الدنيا ، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم فى الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

«أَهَٰٓؤُلَآءِ» الضعفاء من المؤمنين «ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ» برفع درجاتهم فى الآخرة ، فهاهم فى الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفى رياضها يُحْبَرُونَ. وقوله تعالى: «ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» أى : لا خوف عليكم من

العذاب النازل بالكفار ، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم ، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف ، يتآمرون بينهم بدخول الجنة بعد تبكيت أهل النار ، فيقول بعضهم لبعض: ادخلوا الجنة ؛ وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين ، أى يقولون لهم : ادخلوا الجنة ، أو من تتمة مخاطبة أهل الأعراف للرجال ، كأنه قيل لهم : انظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمته ، كيف نالوها ، حيث قيل لهم من قِبَلِه تعالى : ادخلوا الجنة. وعلى كلٍّ فالجملة مبنية على قول محذوف إيجازاً ، للعلم به .

لطيفة :

بيّن الزمخشرىّ سرّ حبسهم على الأعراف ، ثم إدخالهم الجنة أبدع بيان، فقال رحمه الله: يقال لأصحاب الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا مايقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحداً لايسبق عند الله إلا بسبْقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يُعرف ذلك اليوم بسيماه التى استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسىء عن إساءته ، ويزيد المحسن فى إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد، حتى أقصر الناس عملاً ـ انتهى ـ .

ثم بيّن تعالى ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، بعد التكبر عليهم ، وبعد ما أقسموا لا ينالهم الله برحمة ، وأنهم لايجابون إلى ذلك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ، قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ » أى : الذى

رحمكم الله به ليسكن حرارة النار والعطش . قال الجشميّ : وذكروا لفظ (الإفاضة) لأن أهل الجنة أعلى مكاناً. « أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى: من الأطعمة والفواكه « قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » أى : منعهما عنهم ، لأنه أنعم عليهم فى الدنيا ، فلم يشكروه ، فمنعهم نعمه فى الآخرة . فالتحريم تحريم منع ، لا تحريم تعبد . ثم وصف الكافرين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ)

« الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِباً » أى: مما زينه لهم الشيطان. واللهو : كل ما صدّ عن الحق . واللعب : كل أمر باطل . أى : ليس دينهم فى الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم وديدنهم « وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا » بزخارفها العاجلة ، فلم يعملوا « فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ » أى : نتركهم ترك المنسىّ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة « كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا » أى : كما فعلوا بلقائه ، فعل الناسين ، فلم يُخطروه ببالهم ، ولم يهتموا به .

لطيفة :

قال الشهاب : (نَنْسَاهُمْ) تمثيل . شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتدّ به ، ويلتفت إليه ، فينسى . لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أى لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شىء ، كما قال[1]: (فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيراً فى لسان العرب. ويصح هنا أيضاً، فيكون استعارة تحقيقية، أو مجازاً مرسلاً؛ وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً، لأنهم لم يكونوا ذاكرى الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم ـ بحال من عرف شيئاً ، ثم نسيه . وليست الكاف للتشبيه ، بل للتعليل ، ولا مانع من التشبيه أيضاً ـ انتهى ـ .

(١) [٢٠ / طه / ٥٢] قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى . . .

وقال تعالى: « وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ » أى وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى . روى الترمذىّ[١] عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالًا وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا ؟ قال فيقول : لا ! فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى .

وفى حديث أبى هريرة عند مسلم[٢] : فيلقى العبد ربه ، فيقول : أى فلْ ! ألم أكرمك

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٦ ـ باب منه ، حدثنا سويد بن نصر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ١٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال «هل تضارّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فهل تضارّون فى رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فو الذى نفسى بيده ! لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد، فيقول: أىْ فُلْ ! ألم أكرمك وأسوّدك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذَرْكَ ترأس وتربَع ؟ فيقول : بلى . قال أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أىْ فُلْ ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أىْ ربِّ ! فيقول : أفظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول: فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يارب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويثنى بخيرٍ ما استطاع . فيقول : ههنا إذاً . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطِق . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه .

وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » .

وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ! فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : إني أنساك كما نسيتني !

ولما أخبر تعالى عن خسارتهم في الآخرة ذكر أنه أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

«وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ» أي بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية تفصيلاً مبيّنا « عَلَىٰ عِلْمٍ » أي عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ، حتى جاء محكماً قيّما غير ذي عوج ، وهذا كقوله تعالى: أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ (1). «هُدًى» أي دلالة ترشدهم إلى الحق ، وتنجيهم من الضلالة « وَرَحْمَةً » أي ينجيهم من العذاب لما فيه من الدلائل ورفع الشبه « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » لأنهم المغتنمون لفوائده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » أي ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره ، من تبيّن صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد . قال الشهاب : (فالنظر) هنا بمعنى (الانتظار)

(1) [٤/ النساء / ١٦٦] لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

لابمعنى الرؤية . والتأويل بمعنى العاقبة ، وما يقع فى الخارج ، وهو أصل معناه ، ويطلق على التفسير أيضاً . والمعنى : أنهم قبل وقوع ما هو محقق ، كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاة ما وعـــدوا به . فلا يقال : كيف ينتظرونه مع جحدهم ؟ فإنهم وإن جحدوه ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين وفى حكمهم ، من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لامحالة « يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ » يعنى يوم القيامة، لأنه يوم الجزاء ، وماتؤول إليه أمورهم « يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ » أى تركوه ترك المنسىّ ، حين كان ينفعهم الذكر ، فلم يؤمنوا به عند معاينة العذاب « قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ » أى بما هو واقع من الاعتقادات والوعد والوعيد « فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ » فى إزالة العذاب « أَوْ نُرَدُّ » إلى مكان العمل « فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » من الجحود واللهو واللعب وأعمال الدنيا. قال عزوجل: « قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ » بصرف أعمالهم فى الـكفر « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عنـد الله ، وعلموا أنهم كانوا فى دعواهم كاذبين .

ولما قدم سبحانه ذكر الـكفار وعبادتهم غيره ، سبحانه ، احتج عليهم ، مبيناً بأفعاله أنه لا معبود سواه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ، تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى إن سيدكم ومالـكم ومدبركم الذى يجب أن تعبدوه أيها الناس ، الذى أنشأ أعيان السموات والأرض فى مقدار ستة أيام .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الشهاب : اليوم فى اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا ، فالمعنى فى ستة أوقات ، كقوله تعالى : وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ (١) . وإن أريد المتعارف ، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ، فالمعنى فى مقدار ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات ، فيقدر فيه مضاف ـ انتهى ـ .

وفى شرح القاموس : إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وإن الثانى تعريف شرعىّ عند الأكثر . ونقل عن الفاسى شارحه : أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع ، أو من الغروب إلى الغروب .

ثم قال الزبيدىّ : ويستعمل بمعنى مطلق الزمان ، نقله عن ابن هشام ، وحكاه عن سيبويه فى قولهم : (أنا ، اليوم ، أفعل كذا) فإنهم لا يريدون يوماً بعينه ، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر . قال : وبه فسروا قوله تعالى (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)(٢)

---

(١) [٨/ الأنفال/ ١٦] . . . إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

(٢) [٥/ المائدة/ ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ، ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ثم قال : وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ، ومنه والحديث[1] : تلك أيام الهرج . أى وقته ولا يختص بالنهار دون الليل ـ انتهى ـ .

وإرادة الوقت مطلقاً منه ، عين إرادة مطلق الزمان قبله ، كما يتبادر . والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقا ، لغوىّ فيهما ـ كما نقله شارح القاموس ـ خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق ، فتثبتْ هذا .

الثانية ـ قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه خلق العالم ، سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن ؛ والستة الأيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا فى هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس .

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمى السبت ، وهو القطع . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد[2] فى مسنده عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق فى

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٥ ـ باب ظهور الفتن ، حديث رقم ٢٥٤٨ ونصه :

عن أبى وائل ، عن عبد الله (وأحسبه رفعه) قال : بين يدى الساعة أيام الهَرْج . يزول العلم ويظهر فيها الجهل .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل ـ فقد رواه مسلم[١] بن الحجاج فى (صحيحه) والنسائىّ ، من غير وجه . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : فى ستة أيام ، ولهذا تكلم البخارىّ وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعاً ـ والله أعلم ـ انتهى .

وقد بسطت الكلام فيه فى شرحى على (الأربعين العجلونية) .

الثالثة ـ قال القاضى : فى خلق الأشياء مدرّجاً ، مع القدرة على إيجادها دفعة ـ دليل للاختيار . أى لأنه لو كان بالإيجاب ، لصدر دفعة واحدة . وفيه حث على التأنى فى الأمور.

وقوله تعالى : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » اعلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ومنه: ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ[٢]، وبمعنى القصد ومنه[٣]: ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ؛ وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه. قال الفرّاء: تقول العرب : استوى إلىّ يخاصمنى ، أى أقبل علىّ . ويأتى بمعنى الاستيلاء قال الشاعر[٤] :

* قد استوى بشر على العراق *

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٧ (طبعتنا).

(٢) [١١/ هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

(٤) عجزه : * من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقِ *

استشهد به فى اللسان ص ٤١٤ من المجلد الرابع عشر (طبعة بيروت) .

ويقينى أن هذا البيت مصنوع مصنوع .

وقال آخر[١] :

فلما علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعى لنسر وكاسر

ويأتى بمعنى العلوّ ، ومنه آية : ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾[٢] : ومنه هذه الآية .

قال البخارىّ فى آخر (صحيحه) ، فى كتاب الردّ على الجهمية ، فى باب قوله تعالى : (﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[٣] : قال مجاهد : استوى ، علا على العرش ـ انتهى ـ .

وفى كتاب (العلوّ) للحافظ الذهبىّ : قال إسحق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : (﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾)[٤] أى ارتفع . ونقل ابن جرير[٥] عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع . وقال : إنه فى كل مواضعه بمعنى علا وارتفع ، وأقول : لا حاجة إلى الاستكثار من ذلك ، فإن الاستواء غير مجهول ، وإن كان الكيف مجهولاً .

روى الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه (الرد على الجهمية) عن شريح بن النعمان ، عن عبد الله بن نافع قال : قال مالك بن أنس : الله فى السماء ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخلو منه شىء .

---

(١) لم أعرف قائله ولم أجده فى مكان .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] ونصها : ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

(٣) [١١ / هود / ٧] ونصها : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) الأثر رقم ٥٨٨ من التفسير (طبعة المعارف) .

وروى البيهقيّ عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : ياأبا عبد الله! (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كيف استوى ؟ فأطرق مالك ، وأخذته الرُّحَضاء ، ثم رفع رأسه فقال : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . و(كيف) عنه مرفوع. وأنت صاحب بدعة . وفي رواية قال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الحافظ الذهبيّ في كتاب (العلوّ) ـ بعد ما ساق هذا ـ ما نصه :

وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها ، وأن استواءه معلوم ، كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحذلق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف ، كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل، لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمراره ، والسكوت عنه . ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله ، لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

ثم قال الذهبيّ : قال الإمام العلم ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ صاحب التصانيف الشهيرة، في كتابه (مختلف الحديث) : نحن نقول في قول الله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)[1] أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع : احذر التقصير فإني معك ، يريد أنه لا يخفى عليّ تقصيرك . وكيف يسوغ لأحد أن يقول : إن الله سبحانه بكل مكان، على الحلول فيه، مع قوله: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

(١) [٥٨/ المجادلة/ ٧] ونصها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

اُسْتَوَىٰ)[١] ومع قوله : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ)[٢] كيف يصعد إليه شيء هو معه ، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه ؟ قال : ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم ، وما ركبت عليه ذواتهم ، من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله عز وجل هو العليّ وهو الأعلى ، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه ، والأمم كلها عجميّها وعربيّها يقول : إن الله في السماء ، ما تُرِكَتْ على فِطَرِهَا ـ انتهى ـ .

ثم قال الذهبيّ أيضاً : عن يزيد بن هرون شيخ الإسلام ، أنه قيل له : مَن الجهمية ؟ قال : من زعم أن (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) على خلاف ما يقرّ في قلوب العامة ، فهو جهميّ .

قال الذهبيّ : والعامة ، مراده بهم ، جمهور الأمة وأهل العلم ، والذي وقر في قلوبهم من الآية ، هو ما دل عليه الخطاب ، مع يقينهم بأن المستوى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[٣] هذا هو الذي وقر في فطرهم السليمة ، وأذهانهم الصحيحة . ولو كان له معنى وراء ذلك ، لتفوّهوا به ، ولما أهملوه . ولو تأول أحدٌ منهم الاستواء ، لتوفرت الهمم على نقله ، ولو نقل لاشتهر . فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من (الاستواء) ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب ، وللمخلوق على الخالق ـ فهذا نادر . فمن نطق بذلك زُجر وعُلّم ، وما أظن أن أحداً من العامة يقرّ في نفسه ذلك ـ والله أعلم ـ انتهى .

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُوْلَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين ، الشيخ عبدالقادر الجيلانيّ قدس الله روحه في كتابه (تحفة المتقين وسبيل العارفين) في باب اختلاف المذاهب في صفات الله عز وجل ، وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ)(١) : قال إسحاق : في العلم . إلى أن قال : والله تعالى بذاته على العرش ، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله (إِلَّا ٱللَّهُ) . وقد روى ذلك عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش ، ويعلم ما في السموات والأرض . إلى أن قال : ووقف جماعة من منكرى استواء الرب عز وجل على قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ) وابتدأوا بقوله (ٱسْتَوَىٰ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) يريدون بذلك نفي الاستواء الذى وصف به نفسه ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته .

وقال في كتابه (الغنية) : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال : لا يخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال إنه في السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)(٢) وقوله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ)(٣) وقال تعالى :

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ . وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ .   (٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ونصها : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [١] والنبي صلى الله عليه وسلم [٢] حكم بإسلام الأَمَةِ لما قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . وقال النبي ﷺ [٣] (في حديث أبي هريرة رضي الله عنه) : لما خلق الله الخلق ، كتب كتاباً على نفسه ، وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي . وفي لفظ آخر : لما قضى الله سبحانه الخلق ، كتب على نفسه في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي . وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، لا على معنى القعود والمماسة ، كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلوّ والرفعة ، كما قالت الأشعرية ، ولا على الاستيلاء والغلبة ، كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ، ذلك ، بل المنقول عنهم حمله

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

عن معاوية بن الحكم السلميّ . ونص هذه القصة ، قال :

وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُدٍ والجوَّانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ . فعظَّمَ ذلك عليّ . قلت : يارسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتني بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله » ؟ قالت : في السماء . قال « من أنا » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ، حديث ١٥٠٩ .

على الإطلاق . وقد روى عن أم سلمة (١) زوج النبيّ ﷺ فى قوله عزوجل (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (٢) : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر . وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبيّ ﷺ فى (صحيحه)، وكذلك فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تُمَرُّ كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل . وقال أيضاً (فى رواية بعضهم) : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذه الأماكن ، فى كتاب الله عز وجل ، أو حديث عن النبيّ ﷺ ، أو عن أصحابه رضى الله عنهم ، أو عن التابعين . فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال فى صفات الرب عزوجل (كيف) ؟ و (لِمَ) ؟ لا يقول ذلك إلا شكّاك . وقال أحمد رضى الله عنه (فى فى رواية عنه،فى موضع آخر) : نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدّ ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد ، لما روى عن سعيد بن المسيّب ، عن كعب الأخبار ، قال ، قال الله تعالى فى (التوراة) : أنا الله فوق عبادى ، وعرشى فوق جميع خلقى ، وأنا على عرشى ، عليه أدبر عبادى ، ولا يخفى علىّ شىء من عبادى . وكونه عزوجل على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل على كل نبيّ أرسل ، بلا كيف ، ولأن الله تعالى ـ فيما لم يزل ـ موصوف بالعلوّ والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه ، من العرش وغيره . فلا يحمل الاستواء على ذلك. فالاستواء من صفات الذات ، بعد ما أخبرنا به ، ونص عليه وأكده فى سبع آيات من كتابه، والسنة المأثورة به، وهو صفة لازمة له، ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة ، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً ، موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ، ونؤمن بما فيهما ، ونكل الكيفية فى الصفات إلى علم الله عزوجل ،

(١) لم أجد هذا الحديث .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله : كما وصف الله تعالى نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته . لا تفسير له غيرها ، ولم نتكلف غير ذلك ، فإنه غيب لا مجال للعقل فى إدراكه ، ونسأل الله تعالى العفو والعافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفى صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام ـ انتهى كلام الجيلانىّ قدس سره ـ .

وروى أبو إسماعيل الأنصارىّ فى (ذم الكلام وأهله) عن أبى زرعة الرازىّ ؛ أنه سئل عن تفسير (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه، وعلمه فى كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله .

وأسند عن عبد الرحمن بن أبى حاتم قال : سألت أبى وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة فى أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء فى جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء فى جميع الأمصار، حجازاً وعراقاً، ومصراً وشاماً ويمناً . فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائنٌ من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شىء علماً .

تنبيهات

الأول ـ فى بطلان تأويل (استوى) بـ (استولى) :

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى الكنانىّ ، صاحب الشافعىّ رحمهما الله تعالى ، فى كتاب (الرد على الجهمية) : زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب : استوى فلان على مصر ، يريدون استولى عليها . قال : فيقال له : هل يكون خلقٌ من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه ؟ فإذا قال لا ، قيل له : فمن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السموات والأرض ، ثم استولى عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها . ثم ذكر كلاماً طويلا فى تقرير العلوّ والاحتجاج عليه .

وقال ابن عرفة فى كتاب (الرد على الجهمية) : حدثنا داود بن علىّ قال : كنا عندابن الأعرابىّ ، فأتاه رجل فقال : مامعنى قوله تعالى (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)؟ قال: هو على عرشه كما أخبر . فقال : يا أبا عبد الله ! إنما معناه استولى . فقال : اسكت . لا يقال : استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضادّ ، فأيهما غلب، قيل: استولى . والله تعالى لامضادّ له ، وهو على عرشه كما أخبر . ثم قال : الاستيلاء بعد المغالبة ، كما قال النابغة [1] :

إلا لمثلك أو مَنْ أنت سابِقُهُ   سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأَمَدِ

وروى الخطيب البغدادىّ عن محمدبن أحمدبن النضر قال : كان ابن الأعرابىّ جارنا، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبى دؤاد سأله : أتعرف فى اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال لا أعرفه ! وفى رواية . أرادنى ابن أبى دؤاد أن أطلب له فى بعض لغات العرب ومعانيها

(١) قاله من قصيدته التى مطلعها :

يا دارَ ميَّة بالعلياء فالسَّنَدِ   أَقْوَتْ وطال عليها سالف الأَبَدِ

مية ، اسم امرأة . والعلياء مكان مرتفع من الأرض . والسند سند الوادى فى الجبل ، وهو ارتفاعه حيث يسند فيه ، أى يصعد . وأقوت خَلَتْ . والسالف الماضى . والأبد الدهر، وجمعه آباد .

(معنى البيت) إنه لما وقف على الدار وتذكر من كان فيها من أحبة ، أقبل عليها يخاطبها استراحة منه إليها ، وتوجُّعاً على من ذهب عنها . ثم تحوّل من مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب اتساعاً ومجازاً . وكذلك تفعل العرب ، تحوّل مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب . قال الله عز وجل : حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . إنما الكلام : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة . وكذلك البيت إنما كان : يادار مية أقويت وطال عليك سالف الأبد .

وفى البيت المستشهد به : استولى : غلب . والأمد : الغاية التى تجرى إليها .

(ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ، ولا وجدته . وابن الأعرابيّ أبو عبد الله كان لغويّ زمانه ـ كما قال الذهبيّ ـ .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعريّ في كتابه الذي سماه (الإبانة في أصول الديانة)، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون في الذب عنه ، عند من يطعن عليه ، فقال :

فصل

في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون . قيل له : قولنا الذي نقول به التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته، قائلون، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين .

ثم قال في (باب الاستواء على العرش) : إن قال قائل : ماتقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول : إن الله مستو على عرشه ، كما قال (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) وقد قال الله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)[2] وقال(بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ)[3]

(١) [٢٠ / طه / ٥] .
(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .
(٣) [٤ النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

وقال (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ)[١] وقال حكاية عن فرعون (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا)[٢]. كذَّب موسى فى قوله: إن الله فوق السموات. وقال (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ)[٣] فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال : ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ، لأنه مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ، يعنى جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذى هو أعلى السموات . ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا)[٤] فلم يرد أن القمر يملؤهن ، وأنه فيهن جميعاً . ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم، إذا دعوا، نحو السماء، لأن الله على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطونها ، إذا دعوا ، إلى الأرض .

ثم قال :

فصل

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل فى كل مكان ،

(١) [٣٢ / السجدة / ٥] . . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦و٣٧] . . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

(٣) [٦٧ / الملك / ١٦] . . . فَإِذَا هِيَ تَمُورُ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٦] . . . وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا .

وجحدوا أن يكون الله على عرشه ، كما قال أهل الحق . وذهبوا فى الاستواء إلى (القدرة) ، فلو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله قادر على كل شىء ، فالله قادر على الأرض ، وعلى الحشوش ، وعلى كل مافى العالم. فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى (الاستيلاء) ، وهو عز وجل مستولٍ على الأشياء كلها ، لكان مستوياً على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء ، مستولٍ عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستوٍ على الحشوش والأخلية ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش (الاستيلاء) ، الذى هو عامّ فى الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها . وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل ـ انتهى ـ .

قلت: وكلام أبى الحسن الأشعرىّ الأخير مأخوذ من كتاب ردّ الإمام أحمد على الجهمية، حيث قال فى كتابه المذكور :

ومما أنكرت الجهمية الضُّلَّال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا : لِمَ أنكرتم ذلك ؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)(١) وقال : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا)(٢) قالوا: هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش ، فهو على العرش، وفى السموات ، وفى الأرض، وفى كل مكان، لايخلو منه مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان . وتلوا آيات من القرآن (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ)(٣) فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة، وليس فيها من عظمة

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . .

(٣) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

الله شيء ، فقالوا : أى مكان ؟ فقلنا: أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ؛ وقد أخبرنا أنه فى السماء ، فقال سبحانه : (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ...)[(١)] الآية ـ وقال (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)[(٢)] وقال (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ)[(٣)] وقال : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)[(٤)] وقال : (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ)[(٥)] وقال : (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ)[(٦)] وقال : (تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ)[(٧)] وقال: (وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)[(٨)] ـ فهذا أخبر الله أنه فى السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً . قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ)[(٩)]. (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ)[(١٠)] وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه،

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٦] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٩] . . . لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ.

(٤) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيماً .

(٦) [١٦ / النحل / ٥٠] . . . وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٧) [٧٠ / المعارج / ٤] . . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

(٨) [٦ / الأنعام / ١٨] .

(٩) [٤ / النساء / ١٤٥] . . . وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا .

(١٠) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والشياطين مكانهم ؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس ، ولكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ)(١) يقول : هو إله مَن في السموات، وإله مَن في الأرض، وهو على العرش ! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، وذلك قوله : (لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)(٢) .

قال : ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صافٍ ، وفيه شيء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه . وخصلة أخرى : لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً في داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار . فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع ما خلق ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق .

قال أحمد رضي الله عنه : ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ . . .) إلى أن قال: (.. إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا . فقلنا : لِمَ قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله يقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) يعني أن الله بعلمه رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم ، يفتح الخبر بعلمه ، ويختمه بعلمه ـ انتهى ـ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .
(٢) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ . . .

ثم قال الإمام أحمد فى آخر كتابه المذكور : وقلنا للجهمية : زعمتم أن الله فى كل مكان، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم : أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه : فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا[١] . لِمَ تجلى ، إذا كان فيه بزعمكم ؟ ولو كان فيه، كما تزعمون، لم يكن يتجلى لشيء . لـكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك .

وقلنا للجهمية : الله نور ؟ فقالوا : نور كله . فقلنا : قال الله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[٢]. فقد أخبر جل ثناؤه أن له نورًا ، قلنا: أخبرونا، حين زعمتم أن الله فى كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضىء البيت المظلم من النور الذى هو فيه إذا زعمتم أن الله فى كل مكان ؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضىء ؟ فعند ذلك تبين كذبهم على الله . فرحم الله من عقل عن الله ، ورجع عن القـول الذى يخالف الـكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وَتَرَكَ دين الشيطان، ودين جهم وشيعته ـ انتهى ـ.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر فى كتاب (التمهيد) فى شرح حديث[٣] (ينزل ربنا

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] ونصها: وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] . . . وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ١٤ ـ باب الدعاء نصف الليل ، حديث رقم ٦٢٩ ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتنزل ربنا تبارك وتعـالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى فأغفر له؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ (طبعتنا) .

كل ليلة . . .) الحديث ـ ما نصه : هــذا الحديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة . وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم : (إن الله في كل مكان ، وليس على العرش) والدليل على صحة ما قاله أهل الحق في ذلك قوله تعالى : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)[1] ثم ساق عدة آيات في ذلك ـ وقال : هذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة . وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء ، وقولهم في تأويل (ٱسْتَوَىٰ) استولى ، فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر في اللغة . ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله تعالى لايغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد . ومن حق الـكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عزوجل على الأشهر والأظهر من وجوهه ، مالم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم . ولو ساغ ادعاء المجاز لـكل مدع، ماثبت شيء من العبادات . وجَلَّ اللهُ أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين. والاستواء معلوم في اللغة مفهوم ، وهو العلوّ والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتمـكن فيه . قال أبو عبيدة في قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)[2] قال : علا ، قال : تقول العرب : استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت . وقال غيره : استوى أي استقر ، واحتج بقوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ)[3] انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن في شبابه مزيد .

قال ابن عبد البر : الاستواء : الاستقرار في العلوّ ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال:

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٨ / القصص/١٤] . . . ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

(لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ)[1] وقال تعالى : (وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ)[2] وقال تعالى : (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ)[3] وقال الشاعر[4] :

فأوردتُهم ماءً بفيفاءَ قَفْرَةٍ　　　وقد حلَّق النجم اليمانىُّ فاستوىٰ

وهذا لا يجوز أن يتأوَّل فيه أحد (استولى) ، لأن النجم لا يستولى . وقد ذكر النضر ابن شميل ـ وكان ثقة مأموناً جليلاً فى علم الديانة واللغة ـ قال : حدثنى الخليل ـ وحسبك بالخليل ـ قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابىّ ، وكان من أعلم ما رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال : (استووا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابىّ إلى جانبه : إنه أمركم أن ترفَّعوا ، فقال الخليل: هو من قول الله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ)[5] فصعدنا إليه . قال: وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبدالله بن داود الواسطىّ

---

(١) [٤٣/ الزخرف / ١٣] . . . وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٣) [٢٣/ المؤمنون/ ٢٨] . . . فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٤) لم أعرف اسم الشاعر ولم أهتد إلى هذا البيت فى موضع .

والفيف والفيفاء : المفازة لا ماء فيها .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)[١] قال : استولى على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان ـ فالجواب : أن هـذا حديث منـكر على ابن عباس رضى الله عنهما ، ونَقَلَتُهُ مجهولة وضعفاء ؛ فأما عبد الله بن داود الواسطى وعبد الوهاب بن مجاهـد فضعيفان . وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد ، فـكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث، لو عقلوا وأنصفوا؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا[٢] ؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة السلام كان يقول : إلٰهى فى السماء وفرعون يظنه كاذباً . قال الشاعر :

فسبحان من لا يَقْدِرُ الخلقُ قدرَهُ ... ومن هو فوق العرش فَرْدٌ مُوَحَّدُ
مليكٌ على عرش السماء مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوجوهُ وَتَسْجُدُ

وهذا الشعر لأميّة بن أبى الصَّلت . وفيه يقول فى وصف الملائـكة :

وَسَاجِدُهُمْ لا يرفع الدهرَ رأسَهُ ... يعظِّمُ رَبًّا فوقه وَيُمَجِّدُ

قال : فإن احتجوا بقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ)[٣] وبقوله تعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ)[٤] وبقوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] . . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

نَّجْوَى ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ)[١] ، وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته ـ تبارك وتعالى جدّه ـ قيل : لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس فى الأرض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هـذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه فى السماء إله معبود من أهل السماء ، وفى الأرض إله معبود من أهل الأرض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير . وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فالاختلاف فى ذلك ساقط ، وأسعد النـاس به من ساعده الظاهر . وأما قوله فى الآية الأخرى : (وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ) فالإجماع والاتفاق قد بيّن أن المراد أنه معبود من أهل الأرض . فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضاً فى أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع ، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم ، إذا كَرَبَهُمْ أمر ، أو نزلت بهم شدة ، رفعوا وجوههم إلى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء ، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهـذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته . لأنه اضطرارىّ لم يخالفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم ، وقد قال ﷺ للأمة التى أرادمولاها عتقها[٢] ،

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصـلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) وهو قطعة من حديث طويل ونصها :

عن معاوية بن الحَكَم السُّلَمِىّ قال : وكانت لى جارية ترعى غنما لى قِبَل أُحُد والجوّانيّة (موضع فى شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل =

إن كانت مؤمنة . فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(١) فلا حجة لهم فى ظاهر هذه الآية ، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل فى القرآن قالوا تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله . وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم فى قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(٢) قال : هو على عرشه ، وعلمه معهم أينما كانوا . قال : وبلغنى عن سفيان الثورىّ مثله . قال سنيد : حدثنا حماد بن زيد عن عاصم ابن بهدلة عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : الله فوق العرش ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخفى عليه شىء من أعمالكم . ثم ساق من طريق يزيد بن هرون عن حماد ابن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسىّ مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسىّ إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ،

= من بنى آدم . آسف كما يأسفون . لكنى صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك علىّ . قلت : يارسول الله ! أفلا أُعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله » ؟ قالت : فى السماء . قال « من أنا » ! قالت أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم . وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب (الاستذكار) .

وقال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في (الرسالة المدنية): إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ﷺ ، أو وصفه بها المؤمنون الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ـ فصرفُها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وحقيقتها المفهومة منها ، إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لابد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي ، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربيّ ، ولا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب ، أو خلاف الألسنة كلها ، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازيّ مما يراد به اللفظ ، وإلا فيمكن كل مُبْطِل أن يفسر أي لفظ بأي معنى ناسخ له ، وإن لم يكن له أصل في اللغة .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازيّ بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء ، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلابدّ من دليل قاطع عقليّ أو سمعيّ يوجب الصرف . وإن ادعى ظهور صرفه عن الحقيقة ـ فلابد من دليل مرجح للحمل على المجاز .

الثالث : أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض . وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيمانيّ يبيّن أن الحقيقة مرادة ، امتنع تركها . ثم إن كان هذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلابد من الترجيح .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره ، وضد حقيقته فلابد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عيّنه أو لم يعيّنه ، لا سيما في الخطاب العلميّ الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم ، دون عمل الجوارح ، فإنه سبحانه جعل القرآن نورًا وهدًى وبياناً للناس وشفاءً لما في الصدور ، وأرسل الرسول

ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم(١) ، وليحكم بين الناس فيما اختلفوافيه(٢) ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل(٣) . ثم هـذا الرسول الأميّ العربيّ بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة والعبارات . ثم الأمّة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنة ، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلًا يمنع من حمله على ظاهره ، إما بأن يكون عقليًّا ظاهرًا مثل قوله (وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ)(٤) فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد (أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها) . وكذلك قوله (خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ)(٥) يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل في هـذا العموم . أو سمعيًّا ظاهرًا مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعضها الظواهر .

---

(١) يشير إلى [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ، وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) يشير إلى [٢ / البقرة / ٢١٣] ونصها : كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ، وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

(٤) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٠٢] ونصها : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفى لا يستنبطه إلا أفراد الناس، سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا، لأنه إذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى ، وأعاده مرات كثيرة ، وخاطب به الخلق كلهم، وفيهم الذكىّ والبليد ، والفقيه وغير الفقيه ، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ، ويعقلوه ويتفكروا فيه ، ويعتقدوا موجبه ، ثم أوجب أن لا يقصدوا بهذا الخطاب شيئًا من ظاهره ، لأن هناك دليلًا خفيًّا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره ـ كان تدليساً أو تلبيساً ، وكان نقيض البيان ، وضد الهدى . وهو بالألغاز والأحاجىّ أشبه منه بالهدى والبيان . فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره ، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفىّ على أن الظاهر غير مراد ، كيف إذا كان ذلك الخفىّ شبهة ليس لها حقيقة؟ ـ انتهى ـ .

الثانى ـ يتوهم كثير أن القول بالعلوّ والاستواء يلزم منهما القول بالتجسيم ، وقد رمى بذلك كثير من المحدِّثين ، وممن رماهم بذلك الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية حيث قال ـ عفا الله عنه ـ : وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة ، وأكثرهم المحدّثون . ولا بن تيمية أبى العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة، ومبالغة فى القدح فى نفيها . ورأيت فى بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال :هو معدوم ، أو يقال : طلبته فى جميع الأمكنة فلم أجده ، ونسب النافين إلى التعطيل . هذا مع علوّ كعبه فى العلوم العقلية والنقلية ، كما يشهد به من تتبع تصانيفه .

ومحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ؛ أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة (الفوق) ، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى ، ولذلك يتوجه إليها فى الدعاء . ولا يخفى أنه ليس فى هذا القدر غائلة أصلًا ، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول ، وأنكر كون (الفوق) قبلة الدعاء ، بل قال : قبلة الدعاء هو نفسه ، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة ، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوّز انتهى كلام الدوانىّ ـ .

وتعقبه غير واحد :

منهم : الشيخ إبراهيم الكورانيّ فى حاشيته عليه المسماة (بمجلى المعانى) قال : إن ابن تيمية ليس قائلا بالتجسيم ، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسما ، فى رسالة تكلم فيها على حديث النزول . وقال فى رسالة أخرى : من قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان ، أو إن الله تعالى يماثل شيئا من المخلوقات فهو مفترٍ على الله سبحانه . بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة ، مع نفى اللوازم ، ونقل عليه إجماع السلف ، صرح به فى الرسالة القدرية ـ انتهى ـ .

ومنهم : ولىّ الله الدهلوىّ قدس سره ، قال فى كتابه (حجة الله البالغة) : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث ، وسموهم مجسمة ومشبهة ، وقالوا : هم المتسترون بالبلكفة ، وقد وضح علىّ وضوحا بيّنا أن استطالتهم هذه ليست بشىء ، وأنهم مخطئون فى مقالتهم رواية ودراية ، وخاطئون فى طعنهم أئمة الهدى ـ انتهى ـ .

ومنهم : الشهاب الألوسىّ المفسر ، فإنه كتب على كلام الدوانىّ ما نصه : حاشا لله تعالى أن يكون ـ يعنى ابن تيمية ـ من المجسمة ، بل هو أبرأ الناس منهم . نعم يقول بالفوقية ، وذلك مذهب السلف ، وهو بمعزل عن التجسيم . وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث ، وكلام السلف الصالح ، كما لا يخفى على العارف المنصف . نقله عنه ابنه فى (محاكمة الأحمدين) .

وأقول . إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افترى وما درى ، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن غرر كلامه فى فتاويه التى أوضح فيها الحق ، وأنار بها مذهب السلف قاطبة . وهاك شذرة من درره . قال رحمه الله فى بعض فتاويه :

والأصل فى هذا الباب أن كل ما ثبت فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به ، مثل علوّ الرب ، واستوائه على عرشه ، ونحو ذلك . وأما الألفاظ المبتدعة

فى النفى والإثبات ، مثل قول القائل : هو فى جهة ، أو ليس فى جهة، وهو متحيز، أو ليس بمتحيز ، ونحو ذلك من الألفاظ التى تنازع فيها الناس ، وليس مع أحدهم نص ، لا عن الرسول ﷺ ، ولا عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، ولا أئمة المسلمين ـ هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى فى جهة ، ولا قال ليس هو فى جهة، ولا قال هو متحيز، ولا قال ليس بمتحيز ، بل ولا قال هو جسم أو جوهر ، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر . فهذه الألفاظ ليست منصوصة فى الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ؛ والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحاً . فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولا منهم . وإن أرادوا معنى فاسدا يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم. فإذا قال القائل : إن الله تعالى فى جهة ، قيل : ما تريد بذلك ؟ أتريد بذلك أنه سبحانه فى جهة موجودة تحصره وتحيط به ، مثل أن يكون فى جوف السموات ، أم تريد بالجهة أمرًا عدميًّا ، وهو ما فوق العالم شىء من المخلوقات . فإن أردت الجهة الوجودية، وجعلت الله تعالى محصوراً فى المخلوقات، فهذا باطل ، وإن أردت الجهة العدمية ، وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات ، بائن عنها ، فهذا حق ، وليس فى ذلك أن شيئاً من المخلوقات حَصَرَهُ ، ولا أحاط به ، ولا علا عليه ، بل هو العالى عليها ، المحيط بها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ... ﴾[1] الآية ـ وقد ثبت فى الصحيح[2] عن النبىّ ﷺ أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة ، ويطوى

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٧] . . . سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٤ ـ باب يقبض الله الأرض ، حديث ٢٠٣٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه . ثم يقول . أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

السموات بيمينه ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ماالسموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، ومابينهن ، فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم . وفى حديث آخر أنه يرميها كما يرمى الصبيان الكرة . فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى ، إلى هذا الحقر والصغار ، كيف تحيط به وتحصره ؟ ومن قال إن الله تعالى ليس فى جهة ، قيل له : ما تريد بذلك ؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السموات ربٌّ يعبد ، ولا على عرشٍ إله ، ونبينا محمد ﷺ لم يعرج به إلى الله تعالى ، والأيدى لا ترفع إلى الله تعالى فى الدعاء ، ولا تتوجه القلوب إليه ـ فهذا فرعونىّ معطل ، جاحد لرب العالمين . وإن كان يعتقد أنه مقرٌّ به فهو جاهل متناقض فى كلامه . ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد وقالوا : إن الله تعالى بذاته فى كل مكان ، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق . وإن قال : مرادى بقولى (ليس فى جهة) أنه لا تحيط به المخلوقات فقد أصاب فى هذا المعنى . وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز : إن أراد بقوله (متحيز) أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ ، وإن أراد به منحاز عن المخلوقات ، بائن عنها ، عال عليها ، فقد أصاب . ومن قال : (ليس بمتحيز) ، إن أراد المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب ، وإن أراد ليس ببائن عنها ، بل هو لا داخل فيها ، ولا خارج عنها ، فقد أخطأ . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : أهل الحلول والاتحاد ، وأهل النفى والجحود ، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة .

فأهل الحلول يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة ، فيقولون : وجود المخلوقات وجود الخالق .

وأما أهل النفى والجحود فيقولون : لا هو داخل العالم ، ولا خارج ، ولا مباين له ،

ولا حالّ فيه ، ولا فوق العالم ولا فيه ، ولا ينزل منه شىء ، ولا يصعد إليه شىء ، ولا يتقرب إليه بشىء ، ولا يدنو إليه شىء ، ولا يتجلى لشىء ، ولا يراه أحد ، ونحو ذلك .

وهـــذا قول متكلمة الجهمية المعطلة ، كما أن الأول قول عباد الجهمية . فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبّدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود ، الذى هو قول فرعون . وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلقهما ، فإما أن يكون دخل فيهما ، وهذا حلول باطل ، وإما أن يكونا دخلا فيه ، وهو أبطل وأبطل ، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما ، لم يدخل فيهما ، ولم يدخلا فيـــه ، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة .

ولأهل الجحود والتعطيل فى هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عزوجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، ومافطر الله تعالى عليه عباده ، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة ، فإن هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته ، عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان فى الكتاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى . وقد قال النبىّ ﷺ فى الحديث الصحيح[1] : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبوهريرة رضى الله عنه : اقرؤوا إن شئتم (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٩ ـ باب إذا أسلم الصبىّ فمات هل يصلّى عليه ، حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رســـول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء » ؟

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ (طبعتنا) .

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ)(١) وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : عليك بدين الأعراب والصبيان فى الكتّاب ، عليك بما فطرهم الله تعالى عليه ، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم، فيريدون أن يغيروا فطرة الله تعالى ، ودينه عز وجل ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات ، لا يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم . وقد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع. وأصلُ ضلالهم تكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها فى كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين . كلفظ : المتحيز والجسم والجهة ونحو ذلك. فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بيّنها، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ)(٢) . ومن تكلم فى الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة ، فهو من الخائضين فى آيات الله تعالى بالباطل ، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين مالم يقولوه . وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الكلام، فيها شبهات أضلتهم ، ولم يهتدوا لجوابهم، فإنهم يجدون فى تلك الكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة ، وهم لايعرفون حقائق هذه الألفاظ ، ولا ماأراد بها

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٨] ونصها : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

أصحابها ، فإن ذكر لفظ (الجسم) فى أسماء الله تعالى وصفاته ، بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولم يقل أحد منهم إن الله تعالى جسم ، ولا أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا أن الله تعالى جوهر ، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر . ولفظ الجسم لفظ مجمل ، فمعناه فى اللغة هو البدن . ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان فهو مفتر على الله عز وجل ، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال ، ومن قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يماثل شيئاً من المخلوقات ، فالمعنى صحيح ، وإن كان اللفظ بدعة . وأما من قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يُرى فى الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربىّ ، بل القرآن العربى مخلوق ، أو هو تصنيف جبريل عليه السلام ، أو نحو ذلك ، فهو مفتر على الله تعالى فيما نفاه عنه . وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ، ومن وافقهم على مذهبهم ، فإنهم يظهرون للناس التنزيه ، وحقيقةُ كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نجسّم ، بل نقول : الله ليس بجسم ، ومرادهم بذلك نفى حقيقة أسمائه وصفاته .

إلى أن قال : فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزه عن كل نقص وعيب ، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل . قال عز شأنه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)(١) فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) رد على الممثلة . وقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) رد على المعطلة ـ انتهى ملخصاً ـ .

وقال رضى الله عنه (فى جواب على سؤال رفع إليه نصه : الاستواء هل هو حقيقة أو مجاز ؟) : ما نصه ملخصاً :

(١) [٤٢ / الشورى / ١١] .

القول فى الاستواء والنزول كالقول فى سائر الصفات التى وصف بها نفسه فى كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليـــه وسلم ، فإن الله تعالى سمى نفسه بأسماء ، ووصف نفسه بصفات ، فالقول فى بعض هذه الصفات ، كالقول فى بعض. ومذهب سلف الأمة وأئمتها أَنْ نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفى صفات الله تعـالى التى وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين . ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لايجوز إطلاق النفى على ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات ، بل هذا جحد للخالق ، وتمثيل له بالمعدومات . وقد قال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها فى القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لاعلى المجاز ، لأنهم لاينفون شيئاً من ذلك، ولا يجدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج، فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عنـد من أقرّ بها ، نافون للمعبود ، لامثبتون . والحق فيما قاله القائلون ، مما نطق به الـكتاب والسنة، وهم أئمةالجماعة. هذا الذى حكاه ابن عبد البر .

ومن أنـكر أن يكون شىء من هذه الأسماء والصفات حقيقة، فإنما أنـكر، لجهله لمسمى الحقيقة ، أو لـكفره وتعطيله لمـا يستحقه رب العالمين . وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق، فيقال له: هذا باطل ، فإن الله موجود حقيقة، والعبد موجود حقيقة ، وله تعالى ذات حقيقة ، والعبـد له ذات حقيقة ، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات ، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة ، وللعبد سمع وبصر وعلم حقيقة ، وليس علمه وسمعه وبصره مثل عـلم العبد وسمعه وبصره . ولله كلام حقيقة ، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين . والله استوى على عرشه حقيقة ، وللعبد استواء على الفُلْك حقيقة ، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق . فإن الله لايفتقر إلى شىء ، ولا يحتاج إلى شىء ، بل هو

الغنيّ عن كل شيء، والله تعالى يحمل العرش وحملته، بقدرته[1] وَ: يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا . فمن ظن أن معنى قول الأئمة (الله مستوٍ على عرشه حقيقة) يقتضى أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفُلْك والأنعام ، لزمه أن يكون قولهم : إن الله له علم حقيقة وسمع وبصر حقيقة وكلام حقيقة ، يقتضى أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم ، فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق ، كان فى غاية الجهل ، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى ، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب ، كما لا نسبة بين ذاته وذاته . فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة ، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازا ؟ ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى ، فله المثل الأعلى . فكل كمال حصل للمخلوق ، فالخالق أحق به ، وكل نقص ينزه عنه مخلوق ، فالحق أحق أن ينزه عنه ، ولهذا كان لله المثل الأعلى ، فإنه لا يقاس بخلقه ، ولا يمثل بهم ، ولا تضرب به الأمثال ، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا فى قياس. ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات لله تبارك وتعالى، بل صفات الكمال لازمة لذاته، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له، بل يمتنع تحقق ذات من الذات عريّةً عن جميع الصفات، وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع. فإذا قال : وجود الله ، وذات الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، وسمع الله ، وبصر الله ، وكلام الله ، ورحمة الله ، وغضب الله ، واستواء الله ، ونزول الله، ومحبة الله ، ونحو ذلك، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شيء من المخلوقات ، ومن غير أن يماثله فيها شيء من المخلوقات . وإذا قال. وجود العبد وذاته وماهيته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستواؤه ونزوله ، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به ، من غير أن تماثل صفاته صفات

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٤١] ونصها : إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

الله تعالى . بل أبلغ من ذلك؛ أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ماذكره في كتابه . كما ذكر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وحريرا وذهباً وفضة وحورا وقصورا وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء . فتلك الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا ، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه، والاسم يتناولهما حقيقة، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق ، والمخلوق عن مشابهة الخالق . فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلا لمخلوقاته ، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة ! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض، مع أن مباينتهما للمخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق لكل مخلوق ؟ والجاهل يضل بأن يقول : العرب إنما وضعوا لفظ (الاستواء) لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك ، أو استواء السفينة على الجوديّ ، ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات . فهو كما يقول القائل : إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفاناً ، وأصمخة وآذاناً ، وشفتين ولساناً ، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاد ، وهذا كله جهل منه . فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه ، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته مما يختص به ، يتناول ذلك خصائص العبد . وإذا قيل سَمْعُ الله وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته ، كان هذا متناولا لما يختص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين . وكذلك إذا قيل استواء الرب ، فهذا الاستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع والبصر المضاف إلى الله . لا يجوز أن يتناول ذلك شيئاً من خصائص المخلوقين وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويعطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته ،

وخرجوا عن القياس العقليّ ، والنص الشرعى ، فلا يبقى بأيديهم لامعقول صريح ، ولامنقول صحيح . ثم لا بد لهم من إثبات بعض مايثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات : فإذا أثبتوا البعض ، ونفوا البعض ، قيل لهم : ماالفرق بين ما أثبتموه ومانفيتموه؟ ولم كان هذا حقيقة، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلا ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعا وعقلا . ونظائر هذا كثيرة ، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته ، إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلا للمخلوقين ، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم ، كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سفسطة ، وآخره زندقة لأنه يقتضى نفى جميع أسماء الله وصفاته ، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد . وإن فرق بين صفة وصفة ، مع تساويهما فى أسباب الحقيقة والمجاز ، كان متناقضاً فى قوله ، متهافتاً فى مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض .

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هـذه الأمور ، تبين له أن مذهب السلف والأئمة فى غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح ، والمنقول الصحيح. وأن من خالفه ، كان مع تناقض قوله المختلف الذى يؤفك عنه من أفك ، خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والشرع ، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لناولهم خير الدنيا والآخرة ــ انتهى ــ .

فائدة

فى منشأ هذا التعطيل

وبيّن رضى الله عنه ، فى فتوى أخرى له فى الصفات ، مورد هذا التعطيل . حيث قال رضى الله عنه :

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلّال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة ــ أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما (استوى)

استولى ونحو ذلك ـ أول ماظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها . فتنسب مقالة الجهمية إليه، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودىّ الساحر الذى سحر النبىّ ﷺ . وكان الجعد هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ، بقايا أهل دين النمروذ الكنعانيين ، الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم وكانوا يعبدون الكواكب ، ويبنون لها الهياكل ، ومذهبهم فى الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما ، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل ﷺ إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً ـ فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ـ من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسِّيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشركين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين ، وإما من المشركين . ثم لما عرِّبت الكتب الرومية فى حدود المئة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان فى قلوب الضلال ، ابتداء من جنس ما ألقاه فى قلوب أشباههم . ولما كان فى حدود المئة الثانية ، انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية ، بسبب بشر بن غياث المريسى وطبقته ، وكلام الأئمة ـ مثل مالك رضى الله عنه وسفيان بن عيينة وأبى يوسف والشافعىّ وأحمد وإسحق والفضيل بن عياض وبشر الحافى وغيرهم ـ فى بشر المريسىّ هذا كثيرٌ فى ذمه وتضليله . وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدى الناس ، مثل أكثر التأويلات التى ذكرها أبو بكر بن فورك فى كتاب (التأويلات) وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازىّ فى كتابه الذى سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها فى كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبى على الجبائى وعبد الجبار بن أحمد الهمدانىّ وأبى الحسين البصرىّ وابن عقيل وأبى حامد الغزالىّ وغيرهم . وهى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسىّ فى كتابه . وإن كان قد يوجد فى كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن فى أشياء ، فإنما بَيَّنْتُ أن عين

تأويلاتهم هى عين تأويلات المريسى . وعلمنا ذلك بكتاب (الرد) الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمى ّ أحد الأئمة المشاهير فى زمن البخارىّ ، صنف كتاباً سماه (نقض عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله فى التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسىّ ، بكلام يقتضى أن المريسىّ أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام ، إذا طالعه العاقل الذكىّ ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم . ثم إذا رأى الأئمة ـ أئمة الهدى ـ قد أجمعوا على ذم المريسية ، وأكثرهم كفّروهم، أوضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين ، هو مذهب المريسىّ ـ تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رضى الله عنه :

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ماوصف به نفسه ، أووصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته. وكل واحد من فريقى التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل . أما المعطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ماهو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات ، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولاً ، وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأى جسم كان، على أى جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به ، فلا يلزمه

شيء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام . وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان . أو قوله : إذا كان مستوياً على العرش ، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا . فإن كليهما مثّل ، وكلاهما عطّل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقيّ ، وامتاز الثانى بإثبات (استواء) هو من خصائص المخلوقين ، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التى لعلم المخلوقين وقُدَرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أنه ليس فى العقل الصحيح ، ولا فى النقل الصريح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلًا ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان فى قلبه شبهة وأحبّ حلها ، فذلك سهل يسير ـ انتهى كلامه ـ .

ومن أحاط عقله بهذه الغرر ، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم . وفى هذه النفائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله .

الثالث : يطلق العرش على معانٍ : السرير ، ومنه آية (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)(١) . والملك ، يقال : ثل عرشهم . وسقف البيت ، ومنه آية : (وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا)(٢)

---

(١) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، =

وحديث (كالقنديل المعلق بالعرش) . أو البناء ، ومنـــه : (وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ)[١]
أى يبنون . ومنه : العريش ، وهو ما يستظل به . والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحدّ .

قال فى القاموس : العرش ، عرش الله تعالى ، ولا يحدّ ـ انتهى ـ .

وقال الراغب : عرش الله عز وجل مما لايعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة ، ولذا لم يصح فى صفته حديث ، وكل ما روى فى ذلك فليس من مرويات الصحاح .

قال البيهقىّ فى كتاب (الأسماء والصفات) : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم ، خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتاً ، وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة ، وفى أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه ، وفى الأخبار والآثار الواردة فى معناه دليل على صحة ذلك ـ انتهى ـ .

وقال الحافظ الذهبىّ فى كتاب (العلوّ) : اعلم أن الله عز وجل ، قد أخبرنا ، وهو

= قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٨ / الكهف / ٤٢] ونصها : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] ونصها : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ .

أصدق القائلين ، بأن عرش بلقيس عرش عظيم ، فقال : (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)[١] ثم ختم الآية بقوله: (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ)[٢]، فكان عرشها عظيما بالنسبة إليها ، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته . ثم قال : فما الظن بما أعد الله تعالى من السُّرُرِ والقصور فى الجنة لعباده ، فما الظن بالعرش العظيم الذى اتخذه العلىّ العظيم لنفسه فى ارتفاعه وسعته وقوائمه وماهيته وحملته الحافّين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته ؟ اسمع وتعقل ما يقال ، والجأ إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة ، فالقرآن مشحون ، بذكر العرش ، وكذلك الآثار ، بما يمتنع أن يكون المراد به (الملك) . فدع المكابرة والمراء ، فإن المراءَ فى القرآن كفر . آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون . لا إله إلا الله الحليم الكريم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم . الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الذهبيّ رحمه الله تعالى ـ .

الرابع ـ سئل الشيخ تقىّ الدين بن تيمية، عليه الرحمة والرضوان ، عن العرش : هل هو كرى أم لا ، فإذا كان كريًّا والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة، فيقصد العلوّ دون غيره ، إذ لافرق حينئذ بين قصد جهة العلوّ وغيرها من الجهات التى تحيط بالداعى ، ومع هـذا نجد فى قلوبنا قصدًا يطلب العلوّ ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . فأخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا وقد فطرنا عليها .

فأجاب رحمه الله بقوله :

إنّ لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليـه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكريّة، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا فى علم الهيأة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع ، وهو الأطلس، محيط بها، وهو الذى يحركها الحركة الشرقية، وإن كان لكل

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧٣٧ .
(٢) [٢٧ / النمل / ٢٦] .

فلك حركة تخصه ، ثم سمعوا فى أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيّه والسموات السبع ، فقالوا (بطريق الظن) : إن العرش هو الفلك التاسع ، لا عتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق . ثم إن منهم من رأى أنه هو الذى يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس . وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف ، وذلك غير صحيح ، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة ، كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) . والأخبار تدل على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السموات والأرض . فقد ثبت فى صحيح البخارىّ[1] أنه ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، وأن له قوائم ـ كما فى حديث[2] أبى سعيد : فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . وقد استدل من قال إنه مقبب ، بما رواه أبو داود[3] من قوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله تعالى على عرشه ، وإن عرشه على سمواته ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ، حديث ١٥٠٦ عن عمران بن حصين .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢٥ ـ باب قول الله تعالى: وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حديث رقم ١١٩٣ ونصه ، عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ ﷺ قال « الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٨ ـ باب فى الجهمية ، حديث رقم ٤٧٢٦ ونصه : عن جبير بن مطعم قال : أتى رسولَ الله ﷺ أعرابىٌّ فقال : يا رسول الله ! جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا =

وسمواته فوق أرضه هكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة ـ) . وهـــذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك، لـكن لفظ (القبة) يستلزم استدارة من العلوّ، لا من جميع الجوانب، إلا بدليل منفصل. ولفظ (الفلك) يستدل به على الاستدارة مطلقاً، كما قال ابن عباس فى : (كُلٌّ فِى فَلَكٍ)[١] : فى فلـكة مثل فلـكة المغزل. وأما لفظ (القبة) فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفى ولا إثبات ، لـكن يدل على الاستدارة من العلوّ .

واعلم أن العرش ، سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً به ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض ، محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوىّ والسفلىّ بالنسبة إلى الخالق تعـالى فى غاية الصغر ، كما قال تعالى : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٢] .

وفى الصحيحين[٣] عن النبىّ ﷺ أنه قال: يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة

= فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويحك! أتدرى ما تقول » ؟ وسبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه . شأن الله أعظم من ذلك. ويحك ! أتدرى ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهـكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه « وإنه ليئطّ أطيط الرحْل بالراكب » .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] ونصها : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

(٣) أخرجه البخـارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٢ ـ باب وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ، حديث رقم ٢٠٣٩ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ وفى الصحيحين[١] عن عبد الله بن عمر ، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟ وفى لفظ[٢]: ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء .

وفى رواية أخرى قال: قرأ على المنبر: وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...الآية ـ قال : مطويّة فى كفه ، يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة . ففى هذه الأحاديث وغيرها ، المتفق على صحتها ، ما يبيّن أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل ، أصغر من أن تكون ، مع قبضه لها ، إلا كالشيء الصغير فى يد أحدنا ، حتى يدحوها كما تدحى الكرة .

ثم قال فى الجواب: فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميناه كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، فلا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة مالم يصف . وإذ كان كذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة. وفى ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل . وبكل حال فهو مباين لهـا ، ليس بمجانب لها . ومن

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٩ ـ باب قول الله تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، حديث رقم ٢٦٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٤و٢٥(طبعتنا) وهذا لفظ مسلم .

(٢) نصه فى مسلم : حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء منه، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله ؟

وليس فيه (ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله) .

المعلوم أن الواحد منا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا كان عنده خردلة ؛ إن شاء قبضها ، فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها ، بل جعلها تحته ، فهو فى الحالين مباين لهـا ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات ، كإحاطة الـكرة بما فيها أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذى نحن عليها بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبة بالنسبة إلى ماتحتها ، أوغير ذلك ـ فعلى التقدير يكون العرش فوق المخلوقات ، والخالق سبحانه فوقه ، والعبد فى توجهه إليه عز وجل ، يقصد العلوّ ، دون التحت .

وتمام هـذا البحث بأن يقال : لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك ، ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها ، وليس بكرىّ . فإن كان الأول ، فمن المعلوم ـ باتفاق من يعلم هذا ـ أن الأفلاك مستديرة كرية ، وأن الجهة العليا هى جهة المحيط ، وهو المحدود ؛ وأن الجهة السفلى هى المركز ، وليس للأفلاك إلا جهتان : العلوّ والسفل فقط . وأما الجهات الست فهى للحيوان ، فإن له ست جوانب : يؤم جهة فتكون أمامه ، ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذى شماله ، وجهة تحاذى يمينه ، وجهة تحاذى رأسه ، وجهة تحاذى رجليه . وليس لهذه الجهات فى نفسها صفة لازمة ، بل هى بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لـكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو للعلوّ ، والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التى وضعها الله تعالى للأنام ، وأرساها بالجبال ، هو الذى عليه الناس والبهائم وغيرها . فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها ، وليس هناك شىء من الآدميين ومايتبعهم . ولو قدر أن هناك أحداً ، لـكان على ظهر الأرض ، ولم يكن مَن فى هذه الجهة تحت مَن فى هذه الجهة ، ولا مَن فى هذه تحت مَن فى هذه . كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحـد جانبى الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالىّ تحت الجنوبىّ ، ولا بالعكس ، وإن كان الشمالىّ هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا ، كان ارتفاع القطب عنده

ثلاثين درجة ، وهو الذى يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها ، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو (تحتٌ) إضافىّ . كما لو كانت نملة تمشى تحت سقف ، فالسقف فوقها ، وإن كانت رجلاها تحاذيانه ، وكذلك من عُلق منكوسا ، فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه تلى السماء وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان فى أحد جانبى الأرض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته . وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة . وهذا كما أنه قول أهل الهيأة والحساب ، فهو الذى عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسين المناوىّ وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج ابن الجوزىّ وغيرهم . وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره . ومن ظن أن من يكون فى الفلك من ناحية يكون تحته مَن فى الفلك من الناحية الأخرى فى نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم . فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلوّ . ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلا من غير جهة العلوّ ، كان جاهلا باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى مافوقه ! وغاية مايقدر أن يكون كرىّ الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله ، فإن السموات السبع والأرض فى يده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا . وأما قول القائل : إذا كان كريًّا ، والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما الفائدة فى التوجه إلى العلوّ دون التحت ، ومع هذا نجد فى قلوبنا قصد العلوّ ؟ فيقال : هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ، وتحت ما على وجه الأرض ، من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط . فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة ، لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ؛ وأهل الهيأة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

أرجلنا ، وألقى فى الخرق شيء ثقيل كالحجر ونحوه ، لكان ينتهى إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر ، لا لتقيا جميعاً فى المركز ، الذى هو النقطة المتوسطة فى كرة الأرض . ولو قدر أن إنسانين التقيا فى المركز بدل الحجر، لالتقت رجلاهما، ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك . وإذا كان مطلوب أحدٍ ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب ، لأنه لو قدر أن رجلا أو ملكا يصعد إلى السماء ، كان صعوده مما يلى رأسه ، ولا يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، أو يذهب يميناً أو شمالا ثم يصعد. ولو أن رجلا أراد مخاطبة القمر، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنه قد يشرق ويغرب ، فكيف بما هو فوق كل شيء لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى . وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق ، وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادىّ الذى يقوم بقلوب العباد ، كيف يعدل عن الصراط المستقيم ؟

مطاب فى حديث الإدلاء

إلى أن قال :

وحديث الإدلاء ، الذى رواه أبو هريرة وأبو ذر ، قد رواه الترمذىّ[1] وغيره من حديث

(١) رواه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ونصه : عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا» ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « بينكم وبينها مسير خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون =

الحسن عن أبى هريرة ، وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبى هريرة ، ولـكن يقوّيه حديث أبى ذر المرفوع . فإن كان ثابتاً ، فمعناه موافق لهذا . فإن قوله عليه الصلاة والسلام : لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله ، إنما هو تقدير مفروض ، أى لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لـكن لا يمـكن أن يدلى أحد على الله عز وجل شيئاً ، لأنه عال بالذات ، وإذا أُهْبط شىء إلى جهة الأرض وقف فى المركز . والمقصود بيان إحاطة الخالق سبحانه ، كما بيّن أنه يقبض السموات ، ويطوى الأرض ، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى ، ولهذا قرأ فى تمام الحديث : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[1] . وهـــذا كله على

= ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع سموات ، ما بين كل سمـــاءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فإن فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بُعْدَ مثل ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتـكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فإنها الأرض » ثم قال «هل تدرون ما الذى تحت ذلك» ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال «فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنـكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى ، لهبط على الله» .

ثم قرأ : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلىّ بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبى هريرة (أقول) فى سماع الحسن من أبى هريرة ، انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر على الحديث رقم ٧١٣٨ من مسند أحمد (طبعة المعارف) .

(١) [٥٧ / الحديد / ٣] .

تقدير صحته، فإن الترمذيّ لما رواه قال: وفسره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله. وبعضُ الحلوليه والاتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حالٌّ بذاته فى كل مكان ، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك . وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم ، بل على تقدير ثبوته ، فالمراد به الإحاطة ، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه . وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه فى الدعاء إلى جهة العلوّ ، وقال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا[١]. فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة. وقد ثبت فى الصحيحين[٢] أنه ﷺ قال: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه ، فإن الله تعالى قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، وليبصق عن يساره أو تحت رجله . وفى رواية : إنه أذن أن يبصق فى ثوبه . وفى حديث[٣] أبى رزين

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] . . . لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨ كتاب الصلاة ، ٣٣ ـ باب حك البزاق باليد من المسجد ، حديث ١٨٠ عن أنس .

و ٣٦ ـ باب ليبزق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، حديث ٢٧٢ عن أبى سعيد الخدرىّ.

و ٣٨ ـ باب كفارة البزاق فى المسجد ، حديث ٢٧١ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا) من حديث طويل فى عدة معانٍ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٩ ـ باب فى الرؤية ، حديث ٤٧٣١

وأخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١٣ ـ باب فيما أنكرت الجهمية ، حديث رقم ١٨٠ (طبعتنا) ونصه : عن أبى رزين قال : قلت : يا رسول الله ! أنرى الله يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال « يا أبا رزين ! أليس كلكم يرى القمر مُخْلياً به » ؟ قال قلت : بلى . قال « فالله أعظم ، وذلك آية فى خلقه » . وكذا فى أبى داود .

المشهور : لما أخبر ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه ، فقال له أبو رزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله تعالى : هذا القمر آية من آيات الله تعالى ، كلكم يراه مخلياً به ، فالله أكبر . وفى الصحيحين[(١)] : لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم فى الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم . واتفق العلماء على أن رفع المصلّى بصره إلى السماء منهىّ عنه . وروى محمد بن سيرين أن النبىّ ﷺ كان يرفع بصره فى الصلاة إلى السماء ، حتى نزل : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[(٢)] : فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده . فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة ، لأن الداعى المأمور بالذل، لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه . خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[(٣)]. الآية ـ ثم بين تأويل[(٤)] (الحجرُ الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه) وقال: قد ظنوا[(٥)] أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا وهم ، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٢ ـ باب رفع البصر إلى السماء فى الصلاة ، حديث رقم ٥٤٧ عن أنس . وليس فى مسلم .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

(٤) نصه : الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده .

قال فى الجامع الصغير : خط (أى الخطيب) وابن عساكر عن جابر بإسناد ضعيف .

(٥) فى هامش المخطوطة : (أقول ممن ظنه الغزالىّ فى (فيصل التفرقة) اهـ ج . ق) .

النبيّ ﷺ فإنه صريح فى أن الحجَر ليس هو من صفاته تعالى، وتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يدَه على الإطلاق ، فلا تكون اليد حقيقة . وقوله: (فكأنما صافح الله تعالى) الخ صريح فى أن المصافح ليس مصافحاً له تعالى ، لأن المشبَّه ليس هو المشبه به .

إلى أن قال : فهذا كله بتقدير كرّية العرش ، وأما إذا قدر أنه ليس بكرىّ الشكل ، بل هو فوق العالم من الجهة التى هى وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكريّة ، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام ، فوق نصف الأرض الكرىّ ، أو غير ذلك من المقادير التى يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه ـ فعلى كل تقدير لايتوجه إلى الله تعالى إلا إلى العلوّ ، مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه . وعلى ما ذكرناه لا يلزم شىء من المحذور والتناقض . وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من اعتقاد فاسد ، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كريًّا ، والله تعالى فوقه كما تقتضيه ذاته ، سبحانه عن مشابهة المخلوقين ـ وجب (فيما عند الزاعم) أن يكون سبحانه كريًّا ، ثم يعتقد أنه إذا كان كريًّا فيصح التوجه إلى ما هو كرى كالفلك التاسع من جميع الجهات ، وهذا خطأ ، فإن القول بأن العرش كرىّ لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك فى أشكالها وأقدارها أو فى صفاتها ، بل قد تبين أنه سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا . فإذا كانت الحمصة مثلا فى يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل ، إذا استشعر علوّ الإنسان على ذلك وإحاطته ، بأن يكون الإنسان كالفلك ؟ فالله تعالى ـ وله المثل الأعلى ـ أعظم من أن يظن به ذلك . وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله[1] حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وإذا لم يكن كريًّا . فالأمر ظاهر مما تقدم ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله تعالى أعلم .

(١) يشير إلى الآية [٣٩/الزمر/٦٧] ونصها: وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وإنما أشبعنا الكلام ، فى هذا المقام ، لأنه من أصول العقائد الدينية ، ومهمات المسائل التوحيدية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشيء يعلق بقلب الأذكياء ، بل اجتهدوا فى إيراد التمحلات التى تأباها فطرة الله أشد الإباء ، فبقيت نفوس أنصار السنة المحققين ، مائلة إلى مذهب السلف الصالحين ، فإن الأئمة منهم ، كان عقدهم ما بيناه فلا تكن من الممترين ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : « يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ » أى يغطيه به ، يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار ، فيغطيه ويلبسه ، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً . قال الشهاب : وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الاستعارة ، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه ، فكأنه لفّ عليه لفّ الغشاء ؛ أو شبه تغييب كل منهما ، بطريانه عليه ، بستر اللباس للابسه انتهى — .

ولم يذكر العكس للعلم به ، أو لأن اللفظ يحتملهما ، ولذلك قرئ « يَغْشَى ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارُ » بنصب الليل ، ورفع النهار « يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا » أى يعقبه سريعاً ، كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء . قال الرازىّ : وإنما وصف سبحانه هذه الحركة بالسرعة ، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الإنسان إذا كان فى العَدْوِ الشديد الكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك ، كانت تلك الحركة فى غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى : « يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا » ؛ « وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ » أى مذللات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه . قال الشهاب : وسماه (أمراً) على التشبيه ؛ إذ جَعَلَ هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره . ويصح حمله على ظاهره — انتهى — .

أى وهو الكلام ، فيكون تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم ، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا ، وخراب هـذا العالم . وقد قرئ (والشَّمْسَ) وما بعده بالنصب عطفاً على (السموات) ونصب (مُسَخَّرَاتٍ) على الحال . وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء ، والخبر « أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ » أى هو الذى خلق الأشياء كلها ، وهو الذى صرفها على حسن إرادته ، وفسر الأمر بالقضاء والحكم .

تنبيهان :

الأول استخرج سفيان بن عيينة ، من هذا المعنى ، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق، فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر . يعنى أن من جعل الأمر الذى هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله . كذا فى (اللباب) . قال فى (الإكليل) : استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق ، أخرجه ابن أبى حاتم . لأن (الأمر) هو الكلام ، وقد عطفه على (الخلق) فاقتضى أن يكون غيره ، لأن العطف يقتضى المغايرة، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظىّ. انتهى.

الثانى : قال فى اللباب : فى الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ، أى للحصر المستفاد من تقديم الظرف . ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات فى هذا العالم .

« تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم . قال فى (التاج) : سئل أبو العباس عن تفسير (تَبَارَكَ ٱللَّهُ) فقال : ارتفع ـ انتهى ـ .

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة ، ليفردوه بالألوهية ، أمرهم بأن يدعوه وحده متذللين مخلصين فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ)

«ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً »نصب على الحال،أى: ذوى تضرع وخفية، والتضرع (تفعّل) من (الضراعة) وهو الذل . والخفية (بضم الخاء وكسرها) مصدر خَفِيَ كرضى بمعنى اختفى ، أى : استتر وتوارى .وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذى القدرة الباهرة ، والرحمة الواسعة . وإذا حصل له ذلك ، فلابد من صونه عن الرياء ، وذلك بالاختفاء ، وتوصلاً للإخلاص .

فوائد :

فى هذه الآية مشروعية الدعاء ، بشرطَيْهِ المذكورين .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : ومن التضرع رفع الأيدى فى الدعاء ، فيستحب . وقد أخرج البزار عن أنس قال : رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو ، فقال أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم: هذا الابتهال . ثم خاضت الناقة ، ففتح إحدى يديه فأخذها وهو رافع الأخرى ـ انتهى ـ .

وفى الصحيحين(١) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً. إن الذى تدعون سميع قريب . . . الحديث .

أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ ونصه : عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ . فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرْنا ارتفعت أصواتنا . فقال النبىّ ﷺ « أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم . فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا . إنه معكم . إنه سميع قريب . تبارك اسمه وتعالى جدّه » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ (طبعتنا).

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال : إن كان الرجل، لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس؛ وإن كان الرجل، ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر ، فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، ومايسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول : أُدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً . وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا[1].

وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

وقال الناصر في (الانتصاف): وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية ، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاءً لا تضرّع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى. فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه. وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدّ، وتستكّ المسامع وتستدّ ، ويهتز الداعي بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد ، وربما حصلت للعوامّ حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت ، ورعاية سمت الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل ، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء . وفي خفض الصوت به ، أوفر وأوفى وأزكى . فما أكثر التباس الباطل بالحق ، على عقولٍ كثيرة من الخلق . اللهم ! أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ـ انتهى ـ .

---

(١) [١٩ / مريم / ٣] .

وقد روى الحافظ أبو الشيخ فى (الثواب) عن أنس مرفوعاً : دعوة فى السرّ تعدل سبعين دعوة فى العلانية .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » أى : لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شىء ، ويدخل فيه الاعتداء بترك الأمرين المذكورين ، وهما التضرع والإخفاء دخولًا أوليًّا .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية كراهية الاعتداء فى الدعاء . وفسره زيد بن أسلم بالجهر ، وأبو مجلز بسؤال منازل الأنبياء ، وسعيد بن جبير بالدعاء على المؤمن بالسر . أخرج ذلك ابن أبى حاتم . ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء .

وقد روى الإمام أحمد(١) وأبو داود أن سعدًا سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ، ونحوًا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال : لقدسألت الله خيرًا كثيرًا ، وتعوّذتَ بالله من شرّ كثير ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون قوم يعتدُون فى الدعاء (وفى لفظ : يعتدون فى الطهور والدعاء) ، وقرأ هذه الآية : ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ . . . الآية ـ وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل .

وروى الإمام أحمد(٢) وأبو داود أن عبد الله بن مغفّل سمع ابنه يقول : اللهم! إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يابنىّ ! سل الله الجنة ، وعُذْ به من النار ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٨٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث رقم ١٤٨٠ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وأخرجه أبوداود فى : ١ ـ كتاب الطهارة ، ٤٥ ـ باب الإسراف فى الماء ، حديث رقم ٩٦

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا » قال أبو مسلم : أى لاتفسدوها بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، وبعث الرسل ، وبيّن الطريق ، وأبطل الكفر .

وقال أبو حيّان : هذا نهى عن إيقاع الفساد فى الأرض ، وإدخال ماهيته فى الوجود بجميع أنواعه ، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان . ومعنى (بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا) : بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ، ومصالح المكلفين . انتهى.

« وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » أى : ذوى خوف من وبيل العقاب ، نظراً إلى قصور أعمالكم ؛ وطمع فيما عنده من جزيل الثواب ، نظراً إلى سعة رحمته ، ووفور فضله وإحسانه .

« إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى : أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . . . الآية[1] .

لطائف

الأولى ـ قال فى (اللباب) : إن قلت : قال فى أول الآية (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) وقال هنا (وَٱدْعُوهُ) ، وهذا هو عطف الشىء على نفسه ، فما فائدة ذلك ؟

قلت : الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ) أى : ليكن الدعاء مقروناً

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ .

بالتضرع والإخبات . وقوله (وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً) أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى فى بيان شرط صحة الدعاء ، والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء . وقيل : معناه كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم كلها ، ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء ، وإن اجتهدتم فيهما .

الثانية ـ فى قوله تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ . . .) الآية ـ ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة ، وهو الإحسان فى القول والعمل . قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .

الثالثة ـ تذكير (قريب) ، لأن (الرحمة) بمعنى الرحم ، أو لأنه صفة لمحذوف ، أى أمر قريب ، أو على تشبيه بـ (فعيل) ، الذى هو بمعنى (مفعول) أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره ، فإنه يقال : فلانة قريبة منى لا غير ، وفى المكان وغيره يجوز الوجهان . أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه ، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه . وقد أوصلوا توجيه تذكيره إلى خمسة عشر وجهاً .

ولما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قدير ـ نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ » أى قدام رحمته التى هى المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه والجنوب تدرّه ، والدبور تفرقه . وهذا كقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ)(١) وقوله سبحانه : (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ)(٢) . قال الثعالبىّ : المبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

تنبيه :

قال أبوالبقاء : يقرأ (نُشُرًا) بالنون والشين مضمومتين ، وهو جمع ، وفى واحده وجهان أحدهما (نَشُور) مثل صبور وصبر . فعلى هذا يجوز أن يكون (فعول) بمعنى (فاعل) ، أى: ينشر الأرض . ويجوز أن يكون بمعنى (مفعول) كركوب بمعنى مركوب ، أى : منشورة بعد الطى ، أو مُنْشَرَة أى مُحيَاة ، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنْشَر ، ويجوز أن يكون جمع ناشر ، مثل بازل وبُزُل . ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على تخفيف المضموم . ويقرأ نَشْرًا بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نَشَرَ بعد الطىّ ، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أى عاش. ونصبه على الحال، أى ناشرة ، أو ذات نشر، كما تقول: جاء ركضاً أى راكضاً.

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٨] . . . وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٤٦] . . . وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ويقرأ : بُشُرًا بالباء وضمتين ، وهو جمع بشير ، مثل قليب وقُلُب . ويقرأ كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف . ويقرأ بشرى مثل حُبْلَى ، أى : ذات بشارة ويقرأ بَشْرا بفتح الباء وسكون الشين ، وهو مصدر بَشَرْته ـ أى بالتخفيف ـ إذا بشّرته ـ انتهى ـ .

« حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ » أى حملت « سَحَابًا ثِقَالًا » أى من كثرة مافيها من الماء « سُقْنَـٰهُ » أى : السحاب . قال الشهاب : السحاب اسم جنس جمعىّ ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، كتمر وتمرة . وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ، ويجمع . وأهل اللغة تسميه جمعاً ، فلذا روعي فيه الوجهان ، فى وصفه وضميره ـ انتهى ـ . أى أرسلناه مع أن طبعه الهبوط « لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ » أى : لأجله ولمنفعته ، أو لإحيائه أو لسقيه . و (ميت) قرىء مشدداً ومخففاً « فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ » أى الضمير . والضمير فى (به) للبلد « فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى المختلفة الأنواع ، مع أن ماءها واحد . والمراد (بكل الثمرات) المعتادة فى كل بلد تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها . والضمير فى (به) للماء أو للبلد . « كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإخراج « نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ » أى نحيها بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبت منه الأجساد فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الأرض « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لكى تتذكروا ، من أحوال الثمرات التى أعيدت إلى حالها بعد تلفها ، أحوالَ الآخرة ، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

تنبيه :

من أحكام الآية كما قال الجشمىّ : أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر . وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء . فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا .

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة ، وأنهـا قطع متجاورات ، علم فساد التقليد ، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده . ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات ، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

« وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ » أى : الأرض الـكريمة التربة « يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ » أى يخرج نباته وافياً حسناً غزير النفع بمشيئته وتيسيره « وَٱلَّذِى خَبُثَ » أى كالحرّة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود . وكالسبخة (بكسر الباء) وهى الأرض ذات الملح « لَا يَخْرُجُ » أى : نباته « إِلَّا نَكِدًا » أى : قليلاً ، عديم النفع . يقال : عطاء نـكد ، أى قليل لا خير فيه ، وكذا رجل نـكد . قال[1] :

فأعطِ ما أعطيتَـه طيِّباً   لا خيرَ فى المَنْكُودِ والنَّاكِدِ

وقال :

لا تُنْجِزِ الوَعْدَ إن وَعَدْتَ . وإن   أعطيتَ ، أعطيتَ تافهاً نَكِدا

تنبيه :

قال ابن عباس فى الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والـكافر .

وقال قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله ، وانتفع به . كالأرض الطيبة أصابها الغيث ، فأنبتت . والـكافر بخلاف ذلك . وهذا كما فى الصحيحين[٢] عن أبى موسى قال ، قال رسول الله ﷺ : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الـكثير ، أصاب

(١) قال فى اللسان : والنَّـكد والنَّـكْد قلة العطاء ، وأن لا يهنأه من يعطاه . وأنشد البيت:

(٢) أخرجه البخاريّ فى: ٣ ـ كتاب العلم، ٢٠ ـ باب فضل من عَلِمَ وعلّم، حديث ٦٨ وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فُقِه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلتُ به .

لطيفة :

قال أبو البقاء : يقرأ (يَخْرُجُ نَبَاتُهُ) بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات . ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الياء، على ما لم يسم فاعله . ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات أي: فيخرج اللهُ أو الماء . ثم قال: ويقرأ (نَكِدًا) بفتح النون وكسر الكاف، وهو حال، ويقرأ بفتحهما على أنه مصدر أي: ذا نكد . ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف وهو مصدر أيضاً، وهو لغة ويقرأ يُخرج بضم الياء وكسر الراء ، ونكداً مفعوله .

« كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ » أي : نبين وجوه الحجج ونرددها ونكررها « لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » يعني كما ضربنا هذا المثل ، كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية ، وحجة بعد حجة ، لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية، وأَنْ جَنَّبهم سبيل الضلالة . وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ » اعلم أن الله تعالى ، لما ذكر في أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ـ أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما جرى لهم مع أممهم . قال الرازيّ : وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ، ليس من خواص قوم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبيّ ﷺ ، وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه تعالى يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا ، والخسارة فى الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه تعالى ، وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ ، لأنه كان أمياً ، وما طالع كتاباً ، ولا تلمذ أستاذاً . فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دلّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله تعالى .

ونوح عليه السلام هو ابن لامَكَ بن مَتُوشَالَحَ بن أَخْنُوخَ بن يَارَدَ بن مَهْلَئِيل بن قَيْنَانَ ابن أَنُوشَ بن شيث بن آدم عليه السلام . هكذا نسبه ابن إسحق وغير واحد من الأئمة ، وأصله من التوراة .

ومعنى (أرسلنا) بعثنا ، وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس . كذا فى (اللباب) . وإدريس هو أخنوخ ـ فيما يزعمون ، قاله ابن كثير ـ : قال محمد بن إسحق : ولم يلق نبيّ من قومه من الأذى مثل نوح ، إلا نبيّ قتل . وقال يزيد الرقاشى : إنما سمى نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه ـ انتهى ـ . وفيه نظر . لأنه إنما يصح ما ذكره ، لو كان (نوح) لقباً مع وجود اسم له غيره ، واللفظ عربيًّا ، لمناسبة الاشتقاق . أما وهو اسمه الوضعىّ ، واللفظ غير عربىّ ، فلا . وفى كتاب (تأويل الأسماء الواقعة فى الكتب السالفة) أن نوحاً معناه راحة أو سلوان ، فتثبّتْ .

وكان ، قبل بعثة نوح عليه السلام ، قوم عرفوا الله وعبدوه خصوصاً فى عائلة شيث عليه السلام ، ثم فسد نسل شيث أيضاً ، واختلطوا مع الأشرار ، وامتلأت الأرض من جرائمهم ، وزاغوا عن الصراط المستقيم ، وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام ، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام ، ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودًّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه ـ وله الحمد والمنة ـ رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له « فَقَالَ يَٰقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يشاركونى فى كمالاتى « ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ » أى : مستحق للعبادة فى الوجود « غَيْرُهُۥٓ » قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة لإله ، باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية ، وبالجر على اللفظ ، وبالنصب على الاستثناء ، وحكم (غير) حكم الاسم الواقع بعد (إلا) ، أى : ما لكم من إله إلا إياه « إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى: إن تركتم عبادته أو عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » هو يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان . ووصف اليوم بـ (العظم) لبيان عظم ما يقع فيه ، وتكميل الإنذار .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ) قلت : الأولى ـ بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية ـ بيانٌ للداعى إلى عبادته ، لأنه هو المحذور عقابه ، دون ما كانوا يعبدونه من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ » أى : الأشراف ، أو الجماعة ، أو ذوو الشارة والتجمع « إِنَّا لَنَرَىٰكَ » أى : بأمرك بعبادة الله ، وترك عبادة غيره وتخويف العذاب على ترك عبادةالله ، وعلى عبادة غيره « فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى : فى ذهاب عن طريق الحق والصواب، لكونه خلاف ما وجدنا عليه آباءنا . قال ابن كثير : وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ(١) . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى » أى : ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة ، من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه ، إدريس ، فهذا نكتة جمع (الرسالات) ، وإلا فرسالة كل نبىّ واحدة ، وهى مصدر ، والأصل فيه أن لا يجمع ، فجمع لِمَا ذُكِرَ

---

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٢] .　　(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

« وَأَنصَحُ لَكُمْ » وأقصد صلاحكم بإخلاص « وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا من طريق الوحى ، أشياء لا علم لكم بها ، أوأعلم من قدرته الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه .
قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلّغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات ، كما جاء فى صحيح مسلم [1] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جميعاً : أيها الناس ! إنكم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحتَ . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

---

(١) من حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبىّ ﷺ . أخرجه مسلم فى: ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) وهذا نصه ، فيما يتعلق بخطبته :
خطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شىء من أمر الجاهلية، تحت قدمىّ موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا العباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرّح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله . وأنتم تُسألون عنى . فما أنتم قائلون ؟ » .
قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس « اللهم ! اشهد. اللهم ! اشهد » ثلاث مرات ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ » أى : موعظة « مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى : من العذاب إن لم تؤمنوا « وَلِتَتَّقُواْ » أى : وليوجد منكم التقوى ، وهى الخشية بسبب الإنذار «وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» أى: ولترحموا بالتقوى إن وُجدتْ منكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ)

«فَكَذَّبُوهُ» أىأصروا على تكذيبه معطول مدة إقامته فيهم ولميؤمنمعه منهم إلا قليل « فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ » أى عن الحق، فلم يستبصروا الحق ولميستنيروا بنور الوحى الذىهو كالشمس، ولا بظهور الآيات ، ولا بآية الطوفان المغرق لهم ، بعد إنذاره به ، على تكذيبهم . والعمى ذهاب بصر العينين ، وبصر القلب . يقال : عَمِى فهو أعمى وعَمٍ . كما فى القاموس .

وكان من أمر نوح عليه السلام ، أن قومه ، لما أعرضوا عن الإيمان ، وتمادوا على العصيان ، وعبادة الأوثان ، وطال عليه أمرهم ، شكاهم إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه أنه (لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ)(١) وهم ناس قليل ، فحينئذ دعا عليهم فقال : وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا(٢) . فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة ، وصار قومه يسخرون منه ، ويقولون : يا نوح! قد صرت نجارا بعد النبوة ! فقال: إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ

---

(١) [١١ / هود / ٣٦] ونصها : وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (١) . فلما فرغ من صنع السفينة ، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كلّ زوجين اثنين من أنواع الحيوانات ، حتى لا ينقطع نسلها . وحشرها إليه من كل جهة . ولما رأى فوران التنور ، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى فى ابتداء الطوفان ، ركب فى الفلك هو ومن آمن معه ، وحمل من كلٍّ زوجين اثنين . وأمر الله تعالى السماء أن تمطر . والأرض أن تتفجر عيوناً ، وارتفع الماء فى هـذا الطوفان فوق رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حيًّا غـير أهل السفينة .

وفى التوراة : أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع ، حتى غمرت المياه وجهَ الأرض ، وَعَلَتْ خمسة عشر ذراعا فوق الجبال الشامخة ، وهلك بالطوفان كل جسم حىّ . ثم أرسل الله ريحاً عاصفة ، فانقطعت الأمطار ونقصت المياه شيئاً فشيئاً ، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك . وحين خروجه منه بنى مذبحاً للقرابين ، شكراً لله تعالى ، وتناسلت الناس من أولاد نوح الثلاثة : سامٍ وحامٍ ويافث . وتوطن سام بلاد آسية ، وأقام حام بنواحى إفريقية ، وسكن يافث الديار الأوروبية ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الجشمىّ : فى الآيات فوائد . منها : أن نوحاً دعاهم أولًا إلى التوحيـد . والرسولُ وإن حمل الشرائع ، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد . ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد، فلذلك بدأ به. وجميع الرسل بدءوا بالتوحيد ثم بالشرائع. ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام ، بمكة ، فى التوحيد ـ انتهى ـ .

وقال ابن كثير : بين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله

(١) [١١/هود/٣٨و٣٩] ونصهما: وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ ...

والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، كقوله : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا(١) . الآية ـ وهذه سنة الله فى عباده ، فى الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين . قال مالك عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« وَإِلَىٰ عَادٍ » متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى (أَرْسَلْنَا) فى قصة نوح . أى وأرسلنا إلى عادٍ ، وهى قبيلة كانت تعبد الأصنام ، وكانت ذات بسطة وقوة ، قهروا الناس بفضل القوة.

قال الشهاب: (عاد) اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحىّ فيجوز صرفه وعدمه ، كثمود ـ كما ذكره سيبويه ـ .

قال الليث : وعاد الأولى ، هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله.

قال زهير(٢) :

وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا

(١) [٤٠ / غافر [٥١] ... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ .

(٢) صدر البيت : * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَهْلَكَ تُبَّعاً *

من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هل يرى الناسُ ما أرى من الأمرِ ، أو يَبْدُو لهم ما بَدَا لِيَا =

وأما عاد الأخيرة ، فهو بنو تميم ، ينزلون رمال عالج (١) .

وفى كتاب الأنساب : عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، كان يعبد القمر ، ويقال إنه رأى من صلبه وأولاد أولاده أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية، وكانت بلادهم إرم المذكورة فى القرآن ، وهى من عُمان إلى حضرموت . ومن أولاده شدّاد بن عاد صاحب المدينة المذكورة ـ كذا فى تاج العروس ـ .

وقال ابن عرفة : قوم عاد كانت منازلهم فى الرمال وهى الأحقاف .

وقال ابن إسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت .

وقوله تعالى : « أَخَاهُمْ هُودًا » أى أخاهم فى النسب ، لأنه منهم ، فى قول النسابين . وقيل: الناس كلهم إخوة فى النسب، لأنهم ولد آدم وحواء . فالمراد صاحبهم، وواحد فى جملتهم،

= يقول : هل يرى الناس من الرشد ماأرى ، أى يظهر لهم مايظهر لى أن الناس يموتون ؟

وفى بيت الشاهد :

تُبّع : ملك من ملوك حمير . وعاد هو أبو لقمان . وعاديا أبو السموأل ، وكان له حصن بتيماءَ يقال له الأبلق ، وهو الذى استودعه امرؤ القيس أدراعه .

(١) فى معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩ طبعة بيروت) .

عالج رملة بالبادية مسماة بهذا الاسم . قال أبو عبيد الله السكونىّ : عالج رمال بين فَيْد والقُرَيات ينزلها بنو بحتر من طيّئ وهى متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها ولا يقدر أحد عليهم فيه ، وهومسيرة أربع ليال ، وفيه برك إذا سالت الأودية امتلأت .

وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوَبار .

قال ابن السكيت : إذا أكل البعير العَلَجَانَ ، وهو نبت ، قيل : بعير عالج . وهو شجر يشبه العَلندَى وأغصانها صلبة ، الواحدة علجانة . فيجوز أن يكون هذا الموضع سمى بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج . أو يكون لصلوبته يعالج المشى فيه أى يمارس .

كما يقال : ياأخا العرب ، للواحد منهم . وإنما أرسل منهم ، لأنهم أفهم لقوله من قول غيره ، وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته وشرف أصله ، وأرغب فى اقتفائه .

قال الشهاب: اشتهر أن هوداً عربىّ ، وظاهر كلام سيبويه أنه أعجمىّ، ويشهدله ماقيل: إن أول العرب يعرب ـ انتهى ـ .

وهود هو ـ على ما قال ابن إسحق ـ ابن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح . ويقالغير ذلك ـ والله أعلم ـ .

وروى ابن إسحق عن عامر بن واثلة ، قال: سمعت علياً يقول لرجـل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمريخالطه مَدَرَةٌ حمراء، ذاأراكٍوسدرٍ كثير، بناحية كذاوكذا، منأرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ، ياأمير المؤمنين ! والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ! قال : لا، ولـكنى قد حُدِّثت عنه . فقال الحضرمىّ. وماشأنه ياأمير المؤمنين؟ قال: فيهقبرهود عليه السلام ـ ورواه ابن جرير(١) ـ . قال ابن كثير : وهذا فيه فائدة أن مسا كنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك . وقال : إنهم كانوا يأوون إلى العُمُد فى البر ، كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ(٢) . وذلك لشدةبأسهم وقوتهم، كماقال تعالى: فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ(٣).ولذادعاهم هودعليهالسلام إلىعبادة الله وحده، لاشريكله، وإلى طاعته وتقواه ، كما قال تعالى « قَالَ » أى : هود « يَـٰقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يكونوامثلى « ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ » أى : وحده « مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى: تخافون عذابه .

---

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٣ من التفسير .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٦ـ٨] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ » أي : في خفة حلم ، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ؛ وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها « وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ » أي : في ادعائك الرسالة ، إذ استبعدوا أن يرسل الله أحداً من أهل الأرض إليهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أي : إليكم ، لإصلاح أمر نشأتيكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ » أي : ناصح لكم فيما آمركم به من عبادته تعالى وحده ، وأمين على تبليغ الرسالة ، لا أكذب فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ، فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أي :

أيامَ الله ولقاءه ، أي : لاتعجبوا واحمدوا الله على ذلكم « وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أي: خلفتموهم في مساكنهم ، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً بعدهم ، فإن شدّاد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شِحْر عُمَان ـ كذا قالوا ـ « وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً » أي قامة وقوة « فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ » أي: في استخلافكم ، وبسطة أجرامكم، وماسواها من عطاياه ، لتخصصوه بالعبادة « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أي تفوزون بالفلاح .

تنبيهان

الأول قال الزمخشريّ : في إجابة الأنبياء عليهم السلام ، مَنْ نَسَبَهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدب حسن ، وخلق عظيم . وحكايةُ الله عز وجل ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم ، على ما يكون منهم ـ انتهى ـ .

وزاد القاضي : إن في ذلك كمال النصح والشفقة ، وهضم النفس ، وحسن المجادلة قال : وهكذا ينبغي لكل ناصح ـ انتهى ـ .

الثاني ـ لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين المولعين بنقل الغرائب ، بدون وضعها على محك النظر والنقد ، من المبالغة في طول قوم عاد ، وضخامة أجسامهم ، وأن أطولهم كان مائة ذراع ، وأقصرهم كان ستين ذراعاً ، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقليّ ولا نقليّ ، وهو وهْم. وأما قوله جل شأنه مخاطباًلقوم عاد (وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً) فإنه لايدل على ما أرادوا ، وإنما يدل على عظم أجسامهم وقوتهم وشدتها . وهذا من الأمور المعتادة . فإن الأمم ليست متساويةفي ضخامة الجسم وطوله وقوته ، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً . ومما يدل على أن أجسام من سلف كأجسامنا، لاتتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً، مساكنُ ثمود

قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية . ومثله ، بل أعرق منه في الوهم ، ماينقلونه في وصف عوج ابن عنق الجبار ملك بيسان ، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها . والحال أن الشمس كوكب ، لا مزاج له من حر أو برد ، وإنما حرارتها من انعكاس شعاعها ، بمقابلة سطح الأرض والهواء ، فشدة حرارتها في الأرض ، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الارتفاع .

وقد أنكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك في (مقدمة تاريخه) ، وأبان أن الذي أدخل الوهم على الناس في طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسيمة ، ومصانعهم العظيمة ، كأهرام مصر وإيوان كسرى ، فيتخيلون لأصحابها أجساماً تناسب ذلك . والحال أن عظم هذه المصانع والآثار في أمة من الأمم ناشيء عن عظم ذواتها ، واتساع ممالكها ، وقوة شوكتها ، ونماء ثروتها ، واستعانتها بالماهرين في فن جر الأثقال ، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن عشر معشاره . وأنكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، وأنها بنيت في مدة ثلاثمائة سنة في صحارى عدن . بناها شداد بن عاد حيث سمع وصف الجنة . وأنها لما تم بناؤها ، أرسل الله على أهلها صيحة، فهلكوا كلهم، وأن اسمها (إرم ذات العماد) وأنها المشار إليها بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ [1] * ويزعمون أنها لم تزل باقية في بلاد اليمن ، وإنما حجبت عن الأبصار . وحيث إن ذلك لم يُرو عن الصادق الأمين فلا نعول عليه ، ولا نلتفت إليه . وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة، هم المؤرخون الذين يعتمدون على أخبار بني إسرائيل ، ويقلدونهم من غير برهان ودليل ، والله الهادي إلى سواء السبيل ـ كذا أفاده بعض المحققين ـ .

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطغيانهم وإنكارهم على هود عليه السلام ، بقوله سبحانه:

(١) [٨٩ / الفجر / ٦ ـ ٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ، فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

« قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ » أى لنخصه بالعبادة « وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » أى فى الإخبار بنزول العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ ، فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ)

« قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ » أى عذاب . والرجس والرجز بمعنى ، حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر ، كالأسد والأزد . وأصل معناه الاضطراب . يقال: رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت ، وهم فى مرجوسة من أمرهم ، أى فى اختلاط والتباس، ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حلّ به. وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب مجاز، قال: لأنه حقيقة فى الشيء القذر، فاستعير لجزائهم. وظاهر اللغة أنه حقيقة. ووجه التعبير بالمضىّ عما سيقع، تنزيل المتوقع كالواقع كما فى (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ)(١) « وَغَضَبٌ » أى سخط لإشراككم معه من هو فى غاية النقص ، فى أعلى كمالاته التى هى الإلهية « أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ » أى فى أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات،

(١) [١٦ / النحل / ١] ونصها: أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ، سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ .

لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومُحالٌ وجوده . وهذا كقوله تعالى : مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ[1] كذا في الكشاف ـ .

قال الشهاب : جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة ، كما يقال لما لا يليق : ما هو إلا مجرد اسم . فالمعنى : أتجادلونني في مسميات لها أسماء لا تليق بها ، فتوجه الذم للتسمية ، الخالية عن المعنى . والضمير حينئذ راجع لـ (أسماء) وهي المفعول الأول للتسمية، والثاني آلهة، ولو عكس لزم الاستخدام ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى : «مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ »أي حجة ودليل على هذه التسمية، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل ، وإنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى ، إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل ، فتحقق بطلان ما هم عليه .

قال الجشميّ : دلت الآية على فساد التقليد، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم . وتدل على أن المعارف مكتسبة . وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه. ويدل قوله (أَتُجَٰدِلُونَنِي) على أن المبطل مذموم في جداله ، والواجب عليه النظر ليعرف الحق . انتهى .

وقال القاضي : بين تعالى أن منتهى حجتهم وسندهم ، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى، وإسنادَ الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله، إظهاراً لغاية جهالتهم، وفرط غباوتهم .

« فَٱنتَظِرُوٓاْ »أي: نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ)، لأنه وضح الحق ، وأنتم مصرّون على العناد « إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ » أي : لما يحل بكم .

قال المهايميّ : فجاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه ، بمجرى العادة ، أحد، وجعل من قبيل الريح التي تتقدم الأمطار ، لكفرهم برياح الإرسال .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] ونصها : إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ)

« فَأَنجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ معَهُۥ » أى: من آمن به، على خرق العادة « بِرَحْمَةٍ مِّنَّا » ليدل على رحمتنا عليهم فى الآخرة « وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا » أى استأصلناهم . قال الشهاب : قطع الدابر ، كناية عن الاستئصال إلى إهلاك الجميع ، لأن المعتاد فى الآفة إذا أصابت الآخر أن تمرّ على غيره، والشيء إذا امتد أصله أخذبرمته. والدابر بمعنى الآخر «وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ » عطف على (كَذَّبُوا۟) داخل معه فى حكم الصلة .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فائدة نفى الإيمان عنهم فى قوله : (وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ) مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم ، كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين . انتهى .

قال الطيبيّ : يعنى إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير ، تزيد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده ـ انتهى ـ .

قال ابن كثير : قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم[(١)] *مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ[(٢)]. كما قال فى الآية الأخرى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ[(٣)] لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل

(١) يشير إلى [٥١ / الذاريات / ٤١] وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٤٢] .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٦ـ ٨] .

منهم ، فترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتثلغ رأسه حتى تُبينَهُ من جثته .

وقال محمد بن إسحق[(١)] : كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هودا، الأحقافَ قال : و (الأحقاف) الرملُ ، فيما بين عُمَان إلى حضرموت ، فاليمن كله .

وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض كلها . وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله . وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له (صُدَاء) وصنم يقال له (صَمُود) وصنم يقال له (الهباء) : فبعث الله إليهم هودا ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا ، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفّوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك . فأبوا عليه وكذبوه . وقالوا[(٢)] : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) .

واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم . وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له (مرثد بن سعد بن عفير) وكان يكتم إيمانه . فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم، وأكثروا فى الأرض الفساد ، وتجبّروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع، كلمهم هود فقال[(٣)] : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) .

(قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ)[(٤)] أى: ماهذا الذى جئتنا به إلا

---

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٤ من تفسير ابن جرير الطبرىّ .

(٢) [٤١ / فصلت ١٥] ونصها : فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً،أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً،وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٢٨ ـ ١٣١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٣ ـ ٥٥] .

جنون أصابك به بعضُ آلهتنا هذه التى تعيب . (قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) إلى قوله[1] (صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

فلما فعلوا ذلك ، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين ، فيما يزعمون ـ حتى جهدهم ذلك .

وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد ، فطلبوا إلى الله الفرج منه ، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة ، مسلمهم ومشركهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفةٌ أديانهم ، وكلهم معظِّم لمكة ، يعرف حرمتها ومكانها من الله .

قال ابن إسحق : وكان البيت فى ذلك الزمان معروفا مكانه ، والحرم قائم فيما يذكرون ، وأهل مكة يومئذ العماليق ـ وإنما سموا (العماليق) لأن أباهم (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) ـ وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة ، فيما يزعمون ، رجلا يقال له معاوية بن بكر ، وكان أبوه حيًّا فى ذلك الزمان ، ولكنه كان قد كبر ، وكان ابنه يرأس قومه ، وكان السؤدد والشرف من العماليق ، فيما يزعمون ، فى أهل ذلك البيت .

وكانت أم معاوية بن بكر ، كلهدة ابنة الخبيرىّ ، رجل من عاد . فلما قحط[2] المطر عن عاد وجُهِدوا قالوا : جهِّزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم ، فإنكم قد هلكتم ! فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزّال بن هزيل ، وعتيل بن صُدّ بن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وكان مسلما يكتم إسلامه ، وجُلْهُمة بن الخبيرىّ ، خال معاوية بن بكر أخو أمه .

---

(١) [١١ / هود / ٥٦] إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(٢) قَحَطَ المطر وقُحِطَ : احتبس .

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر . فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه ، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا . فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم . وكانوا أخواله وصِهْرَه .

فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر ، أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية بن بكر ـ وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا .

فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتعوّذون بهم من البلاء الذى أصابهم ، شق ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالى وأصهارى ! وهؤلاء مقيمون عندى ، وهم ضيفى نازلون علىّ ! والله ما أدرى كيف أصنع بهم ؟ أستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضِيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جَهْدا وعطشا ! ! أو كما قال :

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعرا نغنّيهم به ، لا يدرون من قاله ، لعل ذلك أن يحركهم ! .

فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

ألا ياقَيْلَ ، ويحك ! قم فهَيْنِم ... لعل الله يُصبحُنا غَمَاما (١)
فيسقى أرضَ عادٍ ، إنّ عادًا ... قدَ امْسَوْا لا يُبينون الكلاما (٢)
من العطش الشديد، فليس نَرْجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلام
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهمُ عيَامَى (٣)

(١) القيل معناه السيد ، يطلق على كل من ملك حِمْيَر . ويحك كلمة ترحم . هينم أمر من (الهينمة) وهو الصوت الخفىّ ، والمراد ادعُ .

(٢) قدَ امْسَوْا بنقل حركة الهمزة للدال الساكنة . لا يبينون الكلاما ، أى ضعفوا ومرضوا من القحط . اهـ من (العناية) .

(٣) أعام القوم هلكت إبلهم فلم يجدوا لبنا . والعيمة شدة شهوة اللبن . وعام القوم قل لبنهم من القحط . ورجل عيمان وامرأة عيمى والجمع عيام وعيامى .

وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعادىّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهارَكُم وليلَكم التَّماما
فقُبِّح وفدُكم من وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنتهم به الجرادتان . فلما سمع القوم ماغنّتا به ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، إنما بعثكم قومكم يتعوذون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ! .

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله لا تُسْقَوْن بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سقيتم ! فأظهر إسلامه عند ذلك . فقال لهم جُلْهمة بن الخبيرىّ خال معاوية بن بكر ، حين سمع قوله ، وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به :

أبا سعدٍ فإنك من قبيل ذوى كرم وأمُّك من ثمودِ
فإنّا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ
أتأمرنا لنترك دين رِفدٍ ورَمْلَ وآلَ صُدّ والعبُودِ
ونتركَ دين آباء كرام ذوى رأى، ونتْبَعَ دينَ هودِ

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر : احبسا عنا مرثد بن سعد . فلا يقدمن معنا مكة . فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا !

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد . فلما ولَّوْا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها ، قبل أن يدعوا الله بشىء مما خرجوا له . فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله بمكة ، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون ، يقول : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعوك به وفدُ عاد .

وكان قَيل بن عنز رأس وفد عاد .

وقال وفد عاد : اللهم أعط قَيْلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله .

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا ، لقمانُ بن عاد ، وكان سيد عاد .

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي ، فأعطني سؤلي. وقال قَيـْل بن عنز حين دعا : يا إلهنا ، إن كان هود صادقاً فاسقنا ، فإنا قد هلكنا .

فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثا : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم ناداه مناد من السحاب : يا قَيل ! اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب . فقال : اخترت السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء . فناداه مناد : اخترتَ رَمَادًا رِمْدِدًا[1] ، لا تُبقى من آل عاد أحدا، لا والدا تترك ولا ولدا، إلا جعلته هَمِدا[2]، إلا بنى اللُّوذِيَّة المُهَدَّى ـ وبنو اللوذية، بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم ، فهم عادٌ الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد ـ وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون ، التي اختارها قَيْل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد يقال له (المغيث) .

فلما رأوها استبشروا بها وقالوا (هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) يقول الله (بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)[3] أي كل شيء أُمِرَتْ به.

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها (مَهْدَد) فلما تيقنت ما فيها صاحت ثم صَعِقَتْ . فلما أفاقت قالوا : ماذا رأيت يا مهدد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها كشُهُبِ النار ، أمامها رجال يقودونها !

ف(سَخَّرَهَا) الله (عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)[4]، كما قال الله ـ والحسوم الدائمة ـ

(١) رماد رِمْدِد أي متناه في الاحتراق والدقة .

(٢) هامد وَهَمِد وهميد : ميت هالك .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٤و٢٥] فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ . . . فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

(٤) [٦٩ / الحاقة / ٧] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك. فاعتزل هود ، فيما ذكر لى، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح ، إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس .

وإنها لتمرّ على عاد بالظّعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه .

فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلة مقمرة ، مُمْسَى ثالثة فى مُصاب عاد . فأخبرهم الخبر ، فقالوا له : أين فارقتَ هودًا وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر .

فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به ، فقالت هزيلة بنت بكر : صدق ، ورب الكعبة .

قال ابن كثير : وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة . وقد قال الله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[1].

وروى الإمام أحمد[2] عن أبى وائل عن الحارث البكرىّ قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطَع بها، فقالت لى : يا عبد الله ! إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها، فأتيت المدينة. فإذا المسجد غاصّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً . فجلست ، فدخل منزله ـ أو قال رحله ـ فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل كان بينكم وبين تميم شىء ؟ قلت : نعم. قال وكانت لنا الدبرة عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهاهى بالباب ، فأذن لها ، فدخلتْ . فقلتُ : يا رسول الله ! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فاجعل الدهنا . فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يارسول الله ! فإلى أين تضطر

(١) [١١ / هود ٥٨] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

مضرك ؟ قال قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : (معزاء حملت حتفها) حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً . أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ! قال هيه ، وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قَيْل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر ، خرج جبال تهامة فنادى : اللهم ! إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم ! اسق عاداً ما كنت تسقيه ! فمرت به سحابات سود ، فنودي منها : اخْتَرْ ؛ فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رماداً رمددا ، لا تبقي من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بُعِث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا ، حتى هلكوا . قال أبو وائل : وصدق . قال : فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد ـ هكذا رواه الإمام أحمد في المسند ، ورواه الترمذي والنسائيّ وابن ماجة وابن جرير(١) ـ .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

«وَإِلَىٰ ثَمُودَ» أي : وأرسلنا إلى ثمود . وهي قبيلة أخرى من العرب سموا باسم جدهم ثمود ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عابر . وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة ، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام . وكانت ثمود بعد عاد ،

---

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٥ من التفسير .

ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله . وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع ـ نقله ابن كثير ـ .

وثمود كصبور ، وتضم ثاؤه ، وقرئ به أيضاً ، وقرئ بصرفه ومنعه . أما الثانى فلأنه اسم القبيلة ، ففيه العلمية والتأنيث . وأما الأول فلأنه اسم للحىّ ، أو لأنه لما كان اسمها الجد ، أو القليل من الماء كان مصروفاً ، لأنه علم مذكر ، أو اسم جنس ، فبعد النقل حُكى أصله . كذا فى (العناية) .

« أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا » هو ـ على ما قاله علماء التفسير والنسب ـ : ابن عبيد بن آسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود « قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّـهَ مَا لَـكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ » دعاهم عليه الصلاة والسلام بما يدعو به الرسل أجمعون ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ[1] . وقال : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّـهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ[2] « قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتى « هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّـهِ لَكُمْ ءَايَةً » أى خلقها حجة وعلامةً على رسالتى . وأضافها إليه تفضيلاً وتخصيصاً . كـ (بيت الله) ؛ أو لأنه لا مالك لها غيره تعالى ، أو لأنها حجته عليهم فى أنهم ، إن حفظوها وأطلقوا لها رعيها وسقياها حفظوا ، وإن غدروا بها أُهلكوا ، ولذا قال : « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّـهِ » أى التى لا يملكها غيره ، العشبَ « وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ » أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تُريبوها بشىء من الأذى ، ولو تأذت منها دوابّكم ، إكراماً لآية الله « فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : فى الدارين لجرأتكم على آيات الله .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] . . . فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّـهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ، فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ » قال الشهاب : لم يقل: خلفاء عاد ، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً « وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى : أنزلكم فى أرض الحجر. والمباءة المنزل. « تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا » أى : تبنون فى سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف . فـ (من) بمعنى (فى) ، كقوله تعالى (نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ)[1] . أو هى ابتدائية ، أو تبعيضية ، أى: تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل وهى الطين . والسهل خلاف الحزْن، وهو موضع الحجارة والجبال «وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا» أى: لتسكنوها أيام الشتاء . والجبال إما مفعول ثان بتضمين (نحَتَ) معنى (اتخذ) ، أو منصوب بنزع الخافض، على ما جاء فى الآية الأخرى : والنحت معروف فى كل صلب . ومضارعه مكسور الحاء . وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق : وقرئ تنحاتون بالإشباع ، كـ (ينباع) ، أفاده الشهاب.

بحث الإشباع فى وسط الكلمة

أقول : بهذه القراءة يستدل على ثبوت الإشباع فى وسط الكلمة لغة . ومثله (ينباع) المذكورة ، وهى من قول عنترة[2] :

يَنْبَاعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

(٢) استشهد به فى اللسان (ج ٨ ص ٣٤٥ بيروت) قال : =

أى ينبع العرق من خلف أذن ناقة غضوب ، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن ، فتولّدت من إشباعها ألف . ومثله قولنا (آمين) ، والأصل (أمين) فأشبعت الفتحة ، فتولدت من إشباعها ألف ـ قاله الزوزنىّ ـ .

= فأما قول عنترة :

يَنباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ زَيَّافَةٍ ، مثل الفَنيقِ المُكْدَمِ

فإنما أراد (ينبع) فأشبع فتحة الياء للضرورة ، فنشأت بعدها (ألف) .

والبيت الرابع والثلاثون من معلقته التى مطلعها :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

ومعنى البيت كما قاله التبريزىّ :

قال ابن الأعرابىّ : ينباع ، ينفعل . من (باع يبوع) إذا مرّ مرًّا لَيِّناً ، فيه تَلَوٍّ . كقول الآخر :

* ثمتَ ينباعُ انبياعَ الشُّجَاعْ *

وأنكر أن يكون الأصل فيه (ينبع) .

وقال : ينبع : يخرج كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرِدْ هذا . إنما أراد السَيَلان وتلوّيه على رقبتها كتلوّى الحية .

وقال غيره (كقول اللسان) : هو من (نبع ينبع) ثم أشبع الفتحة فصارت ألفا .

والذفريان الحَيْدَان الناتئان من الأذن ومنتهى الشعر . وأول مايعرق من البعير الذفريان .

والغضوب والغضبى واحد . وغضوب للتكثير .

والجَسْرَة : الماضية فى سيرها ، وقيل: الجسرة: الضخمة القوية .

والزيافة المسرعة .

والفنيق الفحل .

والمكدم بمعنى المكدَّم ، والكدم العضّ .

ومثله (استكان) على القول بأنه افتعل من (السكون) فزيدت الألف لإشباع الفتحة . كما فى (شرح الشافية) .

ومنه (عَقْرَاب) ـ قال فى (تاج العروس) : سمع العَقْرَاب فى اسم الجنس . قال[1] :

أعوذ بالله من العَقْرَابِ   الشائلاتِ عُقَدَ الأذْنَابِ

قال : وعند أهل الصرف ألف (عقراب) للإشباع ، لفقدان (فَعلال) بالفتح ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى: « فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ » أى نعمه عليكم لتصرفوها إلى ماخلقها لأجله « وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » بالمعاصى وعبادة غيره تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ » أى عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة والكلمات الناصحة « مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ » أى استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم ، إذ لم يكن لهم استكبار يمنعهم من الانقياد « لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ » بدل من (ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟) بإعادة الجار ، بدل الكل ، إن كان الضمير لقومه ، فيدل على أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين . وبدل البعض إن كان الضمير (لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟) فيدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين . قال أبو السعود : والأول هو الوجه ، إذ لا داعى إلى توجيه الخطاب أولًا إلى جميع المستضعفين ، مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم . على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين ، أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم « أَتَعْلَمُونَ » أى من آية الناقة ومن الكلمات الناصحة « أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ » إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له.

---

(١) لم أهتد إليه فى كتاب . فمن كان على بينة منه ، فليدلّنى عليه .

وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر ، بل عدلوا عنه ، كما قال تعالى : « قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ » عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى)، مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذى تنبىء عنه الجملة الاسمية ، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه ، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به . أفاده أبو السعود .

فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقّى السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ، تنبيها على أنه هو الذى ينبغى أن يسأل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٦] (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

«قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ» وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، إظهاراً لمخالفتهم إياهم ، وردّا لمقالتهم .

قال فى (الانتصاف) : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبَوْا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (١) ، فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين ، المؤمنين والمكذبين ، عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة ، احتياطاً للكفر ، وغلوّاً فى الإصرار ـ انتهى ـ ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه فى إصابة العذاب عن مسها بالسوء . كما قال تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ » أى نحروها. والعقر: الجرح، وأثر كالحز فى قوائم الفرس والإبل. يقال : عقره بالسيف يعقره بالكسر ، وعقّره تعقيراً ، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم .

قال الأزهرىّ : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يجعل النحر عقراً ، لأن ناحر الإبل يعقرها : ثم ينحرها .

وفى اللسان : عَقَرَ الناقة وعقَّرها ، إذا فعل بها ذلك حتى تسقط ، فينحرها مستمكناً منها ، أى : لئلا تشرد عند النحر .

وفى الحديث[١] : لا عقر فى الإسلام .

قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أى ينحرونها ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . كذا فى (تاج العروس) ـ .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم . كذا فى (الكشاف) .

قال أبو السعود : وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه ، بحيث أصابت غائلته الكل ، ما لا يخفى.

« وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى استكبروا عن امتثاله ، وهو عبادته وحده ، أو الحذر من مسّ الناقة بسوء . وزادوا فى الاستهزاء « وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى : من العذاب على عقر الناقة. والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى ذلك ، ولذا قالوا : « إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى فإن الله ينصر رسله على أعدائه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٠ ـ كتاب الجنائز ، ٧٠ ـ باب كراهية الذبح عند القبر ، حديث رقم ٣٢٢٢

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أى: الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبدل حركتها عند نزع الروح « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » فى بلادهم أو مساكنهم « جَاثِمِينَ » أى : ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها . والصيحة والزلزلة من آثار الريح المرسلة التى كانت رحمة فانقلبت عذاباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ » أى فأعرض صالح « عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي » المتضمنة لتخويف العذاب عنه « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » فأمرتكم بكل خير ، ونهيتكم عن كل شر « وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ » أى من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهويتكم. والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم، بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولّيَ مُغْتَمٍّ متحسر على ما فاته من إيمانهم ، يتحزن لهم بقوله (يَا قَوْمِ . . .) إلخ كذا فى (الكشاف) . أو خاطبهم خطاب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر حيث قال[1] :

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ ونصه :

عن ابن عمر قال: اطلع النبيّ ﷺ على أهل القليب فقال «هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً»؟

فقيل له : تدعو أمواتا ؟

فقال « ما أنتم بأسمع منهم . ولكن لا يجيبون » .

إنا وجدنا ماوعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقًّا . ـ كما رواه البخاريّ ـ لا تحزنًا ، ولـكن إعلامًا بنصر الله له ، وتحقيق رسالته ، زيادة فى حزنهم وتوبيخهم ، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم ، ولـكن لايتـكلمون. كما فى (الصحيح) . ويجوز عطف قوله (فَتَوَلَّىٰ) على قوله (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) ، فيكون الخطاب لهم حين أشرفوا على الهلاك ، لا بعده . فيكون عليه السلام تولى عنهم تولىَ ذاهب عنهم، منكرٍ لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب . والمتبادر الأولُ لظهور الفاء فى التعقيب ـ والله أعلم ـ .

تنبيهات

الأول : نأثرهنا ماروواه علماء التاريخ والنسب فى بسطقصة ثمود، لمـكان العظة والاعتبار مفصلًا . وإلا ، فجلىّ أن ماأجمله التنزيل الـكريم لاغاية وراءه فى ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص ، فلا حاجة إلى السعى وراءه لفقد القطع به ، اللهم إلا لزيادة الاتعـاظ ، وتقوية العبرة، ولذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال[1]: حدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج.

وخلاصة ماروه عن ثمود أن عاداً لما هلـكت، عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم فى الأرض، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على الله ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحـــده ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عُشَرَاءَ ، تمخض من صخرة صماء ، عينوها بأنفسهم ، وكانت صخرة منفردة فى ناحية الجبل ، يقال لها (الـكاثبة) ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه. فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث ١٦٢٤ ونصه : عن عبــد الله بن عَمْرٍو أن النبيّ ﷺ قال : بلّغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاء ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعمر بن جلمس . وكان لجندع بن عمرو ابن عم له ، شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل ، رحمه الله :

وكانت عصبةٌ من آل عمرو إلى دين النبيّ دَعَوْا شِهابا
عزيزَ ثمودَ كلِّهِمُ جميعاً فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزًا وما عدلوا بصاحبهم ذُؤَابَا
ولكن الغواة مِنَ آل حجْر تولوا بعد رشدهمُ ذُبَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها ، بعد ما وضعته ، بين أظهرهم مدة ، تشرب من بئرها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ماشاؤوا من أوعيتهم وأونيهم ، كما قال في الآية الأخرى : وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ(١) وقال تعالى : هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٢) . وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، ليسعها . لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت ـ على ما ذكر ـ خلقاً هائلا ، ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها . فلما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبيّ عليه السلام ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . قال قتادة : بلغني أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها ، حتى على النساء في خدورهن . قال ابن كثير : قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا)(٣) ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] قَالَ . . .
(٣) [٩١ / الشمس / ١٤] .

وقال(وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا)[١]، وقال(فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ)[٢]. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك ـ والله أعلم ـ .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير[٣] ، وغيره من علماء التفسير ، أن سبب قتلها ، أن امرأة من ثمود يقال لها (عنيزة بنت غنم بن مجلز، تكنى بأم غنم، وهى من بنى عبيد بن المهل، أخى رُميل بن المهل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزا مسنة، وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم .

وامرأة أخرى يقال لها (صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيّا) سيّد بنى عبيد وصاحب أوثانهم فى الزمن الأول . وكان الوادى يقال له (وادى المحيّا) وهو المحيّا الأكبر، جدّ المحيّا الأصغر أبى صدوف .

وكانت صدوف من أحسن الناس ، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر .

وكانتا من أشد امرأتين فى ثمود عداوة لصالح، وأعظمه به كفرا .

وكانتا تحتالان أن تُعقر الناقة مع كفرهما به ، لما أضرّت به من مواشيهما .

وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له (صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف) من بنى هلس ، فأسلم وحسن إسلامه .

وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها ، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح ، حتى رقّ المال .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] ونصها: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ، وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا.

(٢) [٧ / الأعراف / ٧٧] ونصها : فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

(٣) انظر تفسير الطبرىّ (جامع البيان عن تأويل القرآن) الصفحة ٥٣١ من الجزء الثانى عشر (طبعة المعارف) .

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوفُ ، فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وبيّتت [(١)] له . فأخذت بنيه وبناته منه فغيّبتهم فى بنى عبيد، بطنِها الذى هى منه .

وكان صنتم زوجُها من بنى هليل، وكان ابن خالها . فقال لها : ردّى علىّ ولدى . فقالت: حتى أنافرك إلى بنى صنعان بن عبيد أو إلى بنى جندع بن عبيد . فقال لها صنتم : بل أنافرك إلى بنى مرداس بن عبيد . وذلك أن بنى مرداس بن عبيد كانوا قد سارعوا فى الإسلام وأبطأ عنه الآخرون .

فقالت لا أنا فرك إلا إلى من دعوتك إليه .

فقال بنو مرداس : والله لتعطِنّه ولده طائعة أو كارهة .

فلما رأت ذلك أعطته إياهم .

ثم إن صدوف وعنيزة مَحَلَتَا [(٢)] فى عقر الناقة للشقاء الذى نزل . فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له (الحباب) لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها . فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مهرج بن المحيا) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة. وكانت من أحسن الناس ، وكانت غنية كثيرة المال ، فأجابها إلى ذلك .

ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف بن جندع) رجلا من أهل قُرْح .

وكان قدار رجلا أحمر أزرق قصيرا . يزعمون أنه كان لزنية ، من رجل يقال له (صهياد) ولم يكن لأبيه (سالف) الذى يدعى إليه . ولكنه قد ولد على فراش (سالف) وكان يدعى له وينسب إليه .

فقالت : أعطيتك أىَّ بناتى شئت ، على أن تعقر الناقة .

---

(١) بيتت له : فكّرت فى الأمر وخمرته ودبّرته ليلا .

(٢) محل به : كاده واحتال فى المكر به حتى يوقعه فى الهلكة .

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو ، من أشراف رجال ثمود . وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه .

فانطلق قدار بن سالف ، ومصدع بن مهرج ، فاستنفرا غُواةً من ثمود . فاتّبعهما سبعة نفر . فكانوا تسعة نفر . أحد النفر الذين اتّبعوهما رجل يقال له ، (هويل بن مبلغ)خال قدار ابن سالف ، أخو أمه لأبيها وأمها ، وكان عزيزا فى أهل حجر . و (دعير بن غنم بن داعر) وهو من بنى خلاوة بن المهل .

و (دأب بن مهرج) أخو مصدع بن مهرج .

وخمسة لم تحفظ لنا أسماؤهم .

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قُدار فى أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع فى أصل أخرى . فمرت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها .

وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجها، فأسفرت لقُدار وأرته إياه . ثم ذمرّته [1] فشدّ على الناقة بالسيف فخشف [2] عرقوبها . فخرّت ورغَتْ رَغاةً واحدة تحذّر سقبها . ثم طعن فى لبتها فنحرها .

انطلق سقبها حتى أتى جبلا مُنيفا . ثم أتى صخرة فى رأس الجبل فزعا ولاذ بها . واسم الجبل فيما يزعمون (صنو) ـ فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقرت ، قال انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بعذاب الله تبارك وتعالى ونقمته . فاتّبع السقبَ أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم (مصدع بن مهرج) فرماه مصدع بسهم ، فانتظم قلبه ، ثم جرّ برجله فأنزله ، ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه .

فلما قال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، قالوا له وهم يهزءون به : ومتى ذلك

(١) ذمرّته : شجّعته وحثته وحرّضته .

(٢) خشف رأسه بالحجر : شدخه . وكل ما شدخ فقد خشف .

يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ ـ وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد (أول) والاثنين (أهون) والثلاثاء (وبار) والأربعاء (جبار) والخميس (مؤمن) والجمعة (العروبة) والسبت (شيار) وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء ـ فقال لهم صالح حين قالوا له ذلك : تصبحون غداة يوم مؤمن ، يعنى يوم الخميس ، ووجوهكم مصفرّة ، ثم تصبحون يوم العروبة ، يعنى يوم الجمعة، ووجوهكم محمرّة ، ثم تصبحون يوم شيار ، يعنى يوم السبت ، ووجوهكم مسودّة. ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، يعنى يوم الأحد .

فلما قال لهم صالح ذلك ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً . إن كان صادقاً عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلا ليبيّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة . فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدّخين قد رُضِخوا بالحجارة. فقالوا لصالح : أنت قتلتهم! ثم هموا به. فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدًا، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون !

فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . والنفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة ، التسعةُ الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن بقوله تعالى[١] (وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) إلى قوله : (لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

فأصبحوا من تلك الليلة التى انصرفوا فيها عن صالح، وجوههم مصفرّة ،فأيقنوا بالعذاب. وعرفوا أن صالحاً قد صَدَقهم ، فطلبوه ليقتلوه . وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجلٍ منهم يقال له (نفيل) يكنى بأبى هدب، وهو مشرك ، فغيّبه ، فلم يقدروا عليه .

(١) [٢٧ / النمل / ٤٨ ـ ٥٢] .

فغدوا على أصحاب صالح فعذّبوهم ليدلّوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له (ميدع بن هرم) : يانبيّ الله ، إنهم يعذبوننا لندلّهم عليك ، أفندلُّهم عليك ؟ قال : نعم. فدلهم عليه (ميدع بن هرم) .

فلما علموا بمكان صالح ، أتوا أبا هدب فكلموه فقال لهم : عندى صالح ، وليس لكم إليه سبيل . فأعرضوا عنه وتركوه . وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه .

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون فى وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرّة ، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم محمرّة، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودّة . حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَن أسلم معه إلى الشام . فنزل رملة فلسطين . وتخلف رجل من أصحابه يقال له (ميدع بن هرم) فنزل قُرْح ـ وهى وادى القرى ، وبين القُرح وبين الحجر ثمانية عشر ميلا ـ فنزل على سيدهم رجل يقال له (عمرو بن غنم) وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يَشْرَكْ فى قتلها . فقال له ميدع ابن هرم : يا عمرو بن غنم ، اخرج من هذا البلد ، فإن صالحاً قال : من أقام فيه هلك ، ومن خرج منه نجا .

فقال عمرو : ما شركت فى عَقْرها ، وما رضيتُ ما صُنِع بها .

فلما كانت صبيحة الأحد ، أخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك . إلا جارية مُقعدة يقال لها (الزُّرَيْعة) وهى الكلبة ابنة السِّلْق . كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجليها بعدما عاينت العذاب أجمعَ. فخرجت كأسرع مايُرَى شىء قط . حتى أتت أهل قُرح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه ، ثم استسقت من الماء فسُقِيَتْ ، فلما شربت ماتت .

الثانى ـ قال الرازىّ : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل فى حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهى الرجفة والطاغية والصيحة . والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة . فالمسلمون

يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ[(١)]. ويقال : طغى طغيانا ، وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ[(٢)] وقال في غير الحيوان : إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ[(٣)]، أي: غلب وتجاوز عن الحد. وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد ، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها . وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ[(٤)]. فبطل ما زعمه ذلك البعض .

الثالث ـ قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد ، سوى صالح عليه السلام ، ومن تبعه رضي الله عنهم . إلا أن رجلا يقال له أبو رغال . كان ، لما وقعت النقمة بقومه ، مقيماً إذ ذاك في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ ، جاءه حجر من السماء فقتله .

روى الإمام أحمد[(٥)] عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال : لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها ، فأخذتهم صيحة أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلا واحدًا كان في حرم الله فقالوا : من هو يارسول الله ؟ قال : أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . قال ابن كثير: وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

وروى عبد الرزاق عن معمر : أخبرني إسماعيل بن أمية ؛ أن النبيّ ﷺ مرّ بقبر أبي رغال فقال : أتدرون من هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا قبر أبي رغال ،

(١) [٩٦ / العلق / ٦و٧]. (٢) [٩١ / الشمس / ١١] . (٣) [٦٩ / الحاقة / ١١].
(٤) [٧٩ / النازعات / ١٣و١٤] .
(٥) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

رجل من ثمود ، كان فى حرم الله ، فمنعه حرمُ الله عذابَ الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم ، فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن .

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، كما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ أخرجه أبو داود وغيره [(١)] .

الرابع ـ ذكرنا قبل ؛ أن رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين وَجِلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم أن يشربوا من مائها . فروى الإمام أحمد [(٢)] عن ابن عمر قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمُودَ ، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم . فأمرهم النبيّ ﷺ ، فأهَرَاقوا القدور ، وعَلَفُوا العجين الإبلَ ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا ، وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم .

وروى أحمد [(٣)] والبخارىّ [(٤)] ومسلم [(٥)] عن ابن عمر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ، ٤١ ـ باب نبش القبور ، حديث رقم ٣٠٨٨ (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٥٩٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٢١١ (طبعة المعارف) . (٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٨٠ ـ باب نزول النبى ﷺ الحجْر ، حديث رقم ٢٨٤ .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣٨ و ٣٩ (طبعتنا) .

وللبخاريّ[(١)] : أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا منها ، واستقينا . فأمرهم النبيّ ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

الخامس ـ قال ابن كثير : ذكر بعض المفسرين أن كل نبيّ هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم في الحرم ، حرم مكة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد[(٢)] : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: يا أبا بكر! أيّ واد هذا ؟ قال : هذا وادي عُسْفان . قال : لقد مر به هود وصالح على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمها الليف ، أُزُرُهم العباء ، وأرديتهم النِّمَار ، يُلَبُّون ، يحجون البيت العتيق . قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَلُوطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق ، أي وأرسلنا لوطاً . ولفظه أعجميّ معناه في العربية (ملفوف) أو (مُرّ) ، كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل ـ وهو فيما قاله علماء النسب والتفسير ـ ابن هاران بن تارح (ويقال آزر) وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليهما السلام ، وهاجر معه إلى الشام ،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٧ ـ باب قول الله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ، حديث رقم ١٥٩٥

ومسلم في : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٠ (طبعتنا)

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٠٦٧ (طبعة المعارف) .

وتوطنا بلد الكنعانيين من فلسطين ، وهي الأرض المقدسة ، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردنّ ، وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها ، وإلى ما جاورها من القرى . فصار يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها ، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين ، من بني آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور .

قال ابن كثير : وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنعه أهل سدوم ، عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر ، حتى كان قومُ لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأمويّ ، باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

ثم بيّن تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ » أي الفعلة المتناهية في القبح . وقوله تعالى : « مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ » أي ما عملها أحد قبلكم ، والباء للتعدية ، من قولك (سبقته بالكرة) إذا ضربتها قبله ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[(١)] : (سبقك بها عُكّاشة) . كذا في (الكشاف) .

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة ، مسوقة لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ والتقريع . فإن مباشرة القبيح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى عليهم أولًا إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيدًا للإنكار السابق ، وتشديدًا للتوبيخ بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

« إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ » أي : الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، لا ليأتيهم الرجال .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥٠ ـ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، حديث ١٦٠٥

وقرئ بهمزتين صريحتين، وبتليين الثانية، بغير مدّ، وبمدٍّ أيضاً. وفى زيادة (إن) و (اللام) مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد. وفى إيراد لفظ (الرجال) دون الغلمان والمردان ونحوها، مبالغة فى التوبيخ وتأتون، من (أتى المرأة) إذا غشيها. قاله الزمخشرىّ.

وفى (تاج العروس) : أتى الفاحشة : تلبّس بها ، ويكنى بالإتيان عن الوطء، وهو من أحسن الكنايات، ورجل مأتىّ أُتى فيه ، ومنه قول بعض المولدين :

يأتى ويؤتَى ليس ينكر ذا ، ولا هـذا ، كذلك إبرة الخيّاط

انتهى .

وقوله تعالى «شَهْوَةً» مفعول له، أى للاشتهاء، أى لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولا ذمّ أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة ، كطلب النسل ونحوه . أو حال ، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة ، غير ملتفتين إلى السماجة . كذا فى (الكشاف) « مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ » أى: مجاوزين عن مواتاة النساء اللاتى خلقن لذلك . قال أبو السعود : ويجوز أن يكون المراد من قوله (شَهْوَةً) الإنكار عليهم ، وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة ، كما ينبىء عنه قوله تعالى (مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ) أى : متجاوزين النساء اللاتى هنّ محالّ الاشتهاء كما ينبىء عنه قوله تعالى[1] (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ). « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ » إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح ، وتدعو إلى اتباع الشهوات. وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود فى كل شىء . فمن ثمّ أسرفوا فى باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه[2] (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) . كذا فى (الكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

« وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ » أى : المستكبرين فى مقابلة نصحه « إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

(١) [١١ / هود / ٧٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٦٦]

أَخْرِجُوهُم » أى : لوطاً والمؤمنين معه « مِّن قَرْيَتِكُمْ » أى : بلدكم . قال الزمخشريّ : يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذى هو أصل الشر كله . ولكنهم جاءوا بشىء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجراً بهم ، وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم. وقولهم « إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة . كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم (أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد) .

قال ابن كثير : قال مجاهد : يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيستدل به على تحريم أدبار النساء ، أى بناء على أن تفسير الصحابىّ له حكم المرفوع .

ورجح ابن القيم أنه فى حكم الموقوف .

والمسألة تقدمت مستوفاة فى قوله تعالى (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)(١) فتذكر .

تنبيه :

قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى كتابه (إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ) :

قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث فى كتابه ، دون سائر الذنوب ، وإن كان مشتملاً على ذلك . لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)(٢)، وقوله تعالى فى حق اللوطية (وَلُوطاً ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَـٰٓئِثَ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ)(٣)، وقالت اللوطية (أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)(٤) فأقروا ، مع شركهم وكفرهم، أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك،

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٣] . (٢) [٩/ التوبة / ٢٨] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٤] .
(٤) [٢٧ / النمل / ٥٦] .

باجتنابهم له . وقال تعالى فى حق الزناة : (ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ)(١)، وأما نجاسة الشرك فهى نوعان نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة . فالمغلظة : الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله عزوحل لا يغفر أن يُشْرَك به . والمخففة : الشرك الأصغر ، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوقات والحَلِف به ، وخوفه ورجائه .

ثم قال : ونجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جدًّا . ولهذا ، أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً ، فكلما كان الشرك فى العبد أغلب ، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ، إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ)(٢) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب ، وتمكن منه ، صار تتيماً ، والتتيم : التعبد ، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه ، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره ، والشوق إليه ، والسعى فى مرضاته ، وإيثار محابه ، على حب الله وذكره ، والسعى فى مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، ويصير متعلقاً بمعشوقة من الصور ــ كما هو مشاهد ــ فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عزوجل ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ، ويتقرب إليه مالا يتقرب إلى الله ، وينفق فى مرضاته مالا ينفقه فى مرضاة الله ، ويتجنب سخطه ، ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير آثر عنده من ربه ، حبا وخضوعاً وذلًّا وسمعاً وطاعة . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة ، فكلما قوى شرك العبد ، بُلى بعشق الصور ، وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزانى واللواطة ، كمالُ لذته إنما يكون مع العشق ، ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد ، ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية فى تبعيد القلب من

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيّب ، لا يصعد إليه إلا طيّب . وكلما ازداد خبثاً ، ازداد من الله بعدًا . ولهذا قال المسيح ـ فيما رواه الإمام أحمد في كتاب (الزهد) ـ : لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء .

ولما كانت هذه حال الزنى ، كان قريناً للشرك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) .

ثم قال رحمه الله : والمقصود أن الله سبحانه وسمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالًا ، وسمى فاعله جنباً ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراماً ، يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهراً كاملًا بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقول اللوطية : ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود : ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾(٣) ، وهكذا المشرك ، إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك . وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنيّ تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال ، ولا بشيء مما خالفها . فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقه أهل الشرك والبدعة :

إذا لم يكن بدّ من الصبر فاصطبر على الحق . ذاك الصبرُ تُحْمَدُ عُقْباهُ

ـ انتهى ـ .

---

(١) [٢٤ / النور / ٣] . (٢) [٨٥/ البروج / ٨] . (٣) [٥/المائدة / ٥٩] .

ولما همّ قوم لوط بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، أخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، كما أشار لذلك بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)

« فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ » أي ومن يختص به من ذويه ، أو من المؤمنين لطيبهم . قال ابن كثير : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى(١) : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) « إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ » أي فإنا لم ننجها لخبثها . قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه ، وتُعْلِمُهُمْ بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم . ولهذا ، لما أُمِر لوط عليه السلام لِيسرِيَ بأهله ، أُمِرَ أن لا يُعْلِمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم . والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم. ولهذا قال ههنا (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ) « كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » أي من الذين غبروا في ديارهم ، أي بقوا فهلكوا . وقيل : من الهالكين . وهو تفسير باللازم . والتذكير للتغليب ، ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا » أي وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف ، وهو مبين بقوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)(٢) أي طين متحجر .

قال المهايمي : ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم في صورة العقاب .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٥و٣٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٤] .

وقرأت في التوراة المعربة أن الملكين اللذين جاءا لوطاً، عليه السلام، يخبرانه ويبشرانه بهلاك قومه ، قالا له : أخرج من هذا الموضع ، من لك ههنا من أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك ، فإنَّا بعثنا الرَّب لنهلك هذه المدينة . ولما كان عند طلوع الفجر ألحّ الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه ، ثم أمسكا بأيديهم جميعاً وصيّراهم خارج المدينة وقالا : لا يلتفت أحد منكم إلى ورائه ، وتخلصا إلى الجبل . ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سَدُومَ وعمُورة كبريتاً ونارا ، وقلَبَ تلك المدن ، وكل البقعة ، وجميع سكان المدن ونَبْتَ الأرض ، والتفتت امرأته إلى ورائها فصارت نُصُبَ مِلْح ، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه ، فتطلع إلى جهة سدوم وعمُورة ، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتُون ـ انتهى ـ .

وقرأت في نبوة حزْقيال عليه السلام ، في الفصل السادس عشر ، في بيان إثم سدوم ما نصه :

إن الاستكبار والشبع من الخبز ، وطمأنينه الفراغ ، كانت في سدوم وتوابعها ، ولم تعضد يد البائس والمسكين ، وتشامخن وصنعن الرجس أمامي ، فنزعتهن كما رأيت ـ انتهى ـ .

وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج ، لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بالبحر الميت ، أو بحيرة لوط . والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

قال في (مرشد الطالبين) بحر لوط ، هو بحر سدوم ، ويدعى أيضاً البحر الميت ، وهو بركة مالحة في فلسطين ، طولها خمسون ميلا ، وعرضها عشرة أميال ، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدما ، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمُورة وأدمة وصبوييم ـ انتهى ـ .

وقوله : « فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ » أي هؤلاء أجرموا بالكفر وعمل الفواحش ، كيف أهلكناهم . والنظر تعجيباً من حالهم ، وتحذيرا من أعمالهم ، فإن من تستولي عليه رذيلة الدعارة ، تكبحه عن التوفيق نفساً وجسدا ، وتورده موارد الهلكة والبوار ، جزاء ماجنى لهم اتباع الأهواء .

تنبيه في حد اللوطيّ :

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لاط بذكر ، ولو كان بكرا ، وكذلك المفعول به ، إذا كان مختاراً ، لحديث ابن عباس ، عند أحمد [(١)] وأبي داود [(٢)] وابن ماجه [(٣)] والترمذيّ [(٤)] والحاكم والبيهقيّ ، قال : رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به . قال ابن حجر : رجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً .

وأخرج ابن ماجه [(٥)] والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أولم يحصنا ـ وإسناده ضعيف ـ .

قال ابن الطلاع في (أحكامه) : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم في اللواط ، ولا أنه حكم فيه . وثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به ـ رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة ـ انتهى .

وأخرج البيهقيّ عن عليّ أنه رجم لوطيًّا .

وأخرج البيهقيّ أيضاً عن أبي بكر ؛ أنه جمع الناس في حق رجل ينكَح كما تنكح النساء، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولًا ، عليّ بن أبي طالب قال:

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٧٢٣ . (٢) أخرجه أبو داود في : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب فيمن عَمِل عَمَل قوم لوط ، الحديث رقم ٤٤٦٢ . (٣) أخرجه ابن ماجة في : ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ١٢ ـ باب عَمِل عَمَلَ قوم لوط ، حديث رقم ٢٥٦١ .

(٤) أخرجه الترمذي في : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب ماجاء في حدّ اللوطيّ .

(٥) الذي وقفت عليه هو حديث للترمذي أخرجه في : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب ماجاء في حدّ اللوطيّ ونصه : عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال « اقتلوا الفاعل والمفعول به » وليس فيه (أحصنا أولم يحصنا) .

هذا ذنب لم تَعْص به أمّةٌ من الأمم إلا أمة واحدة ، صنع الله بها ماقد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار .

وأخرج أبو داود (١) عن سعيد بن جبير ومجاهد ، عن ابن عباس: فى البكر يؤخذعلى اللوطية ، يرجم .

وأخرج البيهقىّ عن ابن عباس أيضاً ؛ أنه سئل عن حد اللوطىّ فقال : ينظرأعلى بناءفى القرية فيرمى به منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وقال المنذرىّ : حرق اللوطيةَ بالنار أبو بكر وعلىّ وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك .

وبالجملة ، فلما ثبت أن حده القتل بقى الاجتهاد فى هيأته حرقاً أو تردية أو غيرها .

وقال بعض المحققين : إن كان اللواط ممايصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص بما ورد فيه من القتل لكل فاعل ، محصناً أو غيره . وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى ، ففى أدلته الخاصة له مايشفى ويكفى ـ انتهى ـ .

وقال الإمام الجشمىّ اليمنىّ : لو كان فى اللواط حد معلوم لما خفى على الصحابة ، حتى شاورهم فى ذلك أبو بكر رضى الله عنه ، لمّا كتب إليه خالد بن الوليد .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى فى اللواط بشىء ، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال: اقتلوا الفاعل والمفعول به ـ رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح ـ وقال الترمذىّ : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد ، بعد مشاورة الصحابة ، وكان على كرم الله وجهه أشدهم فى ذلك .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب فيمن عَمِل عَمَلَ قوم لوط ، حديث رقم ٤٤٦٣ .

وقال ابن القصار وشيخنا : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا فى كيفية قتله . فقال أبو بكر الصديق : يرمى من شاهق . وقال علىّ كرم الله وجهه : يهدم عليه حائط . وقال ابن عباس : يقتلان بالحجارة . فهذا اتفاق منهم على قتله ، وإن اختلفوا فى كيفيته . وهذا موافق لحكمه صلى الله عليه وسلم فيمن وطئ ذات محرم ، لأن الوطء فى الموضعين لا يباح للواطئ بحال . ولهذا جمع بينهما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، فإنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه. وروى أيضاً عنه : من وقع على ذات رحم فاقتلوه . وفى حديثه[1] أيضاً بالإسناد : من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه . وهذا الحكم على وفق حكم الشارع، فإن المحرمات كلما تغلظت ، تغلظت عقوبتها . ووطء من لا يباح بحالٍ أعظم جرمًا من وطء من يباح فى بعض الأحوال ، فيكون حده أغلظ . وقد نص أحمد فى إحدى الروايتين عنه ؛ أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء ، فيقتل بكل حال ، أو يكون حده حدّ الزانى . واختلف السلف فى ذلك ، فقال الحسن : حدّه حدالزانى. وقال أبو سلمة : يقتل بكل حال . وقال الشعبىّ والنخعىّ : يعزّر ، وبه أخذ الشافعىّ ومالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية ، فإن ابن عباس أفتى بذلك ، وهو راوى الحديث . انتهى .

وقد طعن الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث (الهداية) فى دعوى إجماع الصحابة على قتل اللوطىّ فى رواية البيهقىّ : أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم ، فكان أشدهم فى ذلك قولًا علىّ ، فقال : نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأيهم على ذلك . قال ابن حجر : قلت : وهو ضعيف جدًّا . ولو صح لكان قاطعاً للحجة . انتهى .

وجلىّ أن عقوبات القتل أعظم الحدود ، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع أو حديث صحيح السند والمتن، قطعىّ الدلالة . ولذا كان على الحاكم بذل جهده فى ذلك استبراءً لدينه ــ والله أعلم ــ .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٥ـ كتاب الحدود ، ٢٣ـ باب ما جاء فيمن يقع على بهيمة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » أى وأرسلنا إليهم . قال ابن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين .

قال ابن كثير : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة التى بقرب معان من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة.

« قَالَ يَٰقَوْمِ » أى : الذين أحب كمالهم ديناً ودنيا « ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ » وهذه دعوة الرسل كلهم كما قدمنا « قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى ما تبيّن به الحق من الباطل . يعنى دعوته وإرشاده . ومن هنا قال بعضهم: عنى بالبينة مجىء شعيب ، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة . ومن فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة ذهاباً إلى أن النبىّ لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله ، فلا بد من دليل يعلم صدقه به ، وما ذاك إلا المعجزة ـ قال : إن معجزة شعيب لم تذكر فى القرآن، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة فى القرآن . ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم ، فكل من أبطلت شبهة ضلاله ، وأظهرت له حجة الحق الذى يدعى إليه فقد جاءته البينة. لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق. فاحفظه .

قال الجشمىّ : واختلفوا ، فقيل : لا يجوز أن يبعث إلا ومعه شرع ـ عن أبى هاشم ـ. وقيل : يجوز أن يدعو إلى ما فى العقل ـ عن أبى على ـ انتهى .

وقد دلت الآيات هذه على أن شعيباً ، عليه السلام، دعاهم إلى التوحيد والشرائع، على ما جرت به عادة الرسل، فمنها قوله: « فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ » أي فأتموهما للناس بإعطائهم حقوقهم « وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ » أي : لاتنقصوهم حقوقهم فلا تخونوا الناس في أموالهم ، وتأخذوها على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى[1] : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ..) إلى قوله : (لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

يقال : بخسه حقه أي نقصه إياه ، وظلمه فيه .

قال الزمخشري : كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم ، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه . قال زهير :

أفي كلِّ أسواقِ العراقِ إتاوَةٌ وفي كلِّ ما باع امرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

قال القاضي: وإنما قال (أَشْيَآءَهُمْ) للتعميم، تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ـ انتهى ـ .

والنهي عن النقص يوجب الأمر بالإيفاء . فقيل: في فائدة التصريح بالمنهيّ عنه، بيان لقبحه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله تعالى : (وَلَا تَبْخَسُواْ ...) الآية ـ قال : أي لاتسمّوا لهم شيئاً ، وتعطوا لهم غير ذلك . ودلت الآية على أن إيفاء الكيل والميزان واجب على حسب ما يعتاد في صفة الكيل والوزن « وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ » أي : بالكفر والظلم « بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا » أي: بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام «ذَٰلِكُمْ» إشارة إلى العمل بما أمروا به ونهوا عنه «خَيْرٌ لَّكُمْ» في الحال لتوجه الناس إليكم بسبب حسن الأحدوثة، وفي المآل « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » أي : مصدقين قولي .

---

(١) [٨٣ / المطففين / ١ـ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ » نهى عن قطع الطريق الحسىّ . أى : لا تجلسوا على كل طريق فيه ممر الناس الغرباء ، تضربونهم وتخوفونهم ، وتأخذون ثيابهم، وتتوعدونهم بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم .

قال مجاهد : كانوا عشارين ـ أخرجه أبو الشيخ . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّىّ مثله. وعن ابن عباس وغير واحد أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه .

قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال (بِكُلِّ صِرَٰطٍ) وهو الطريق . وهذا الثانى هو قوله « وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : تصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب، وتطلبون لها عوجاً بإلقاء الشبه ، ووصفها بما ينقّصها لتغييرها « وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ » بالعدد والعُدَد ، فاشكروا نعمة الله عليكم فى ذلك « وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى : من الأمم الخالية ، والقرون الماضية، وما حلّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)

« وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ » يعنى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين مؤمنة وكافرة « فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا »

أى : بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .

قال الشهاب : وخطاب (اصبروا) للمؤمنين ، ويجوز أن يكون للفريقين ، أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكفار على مايسوؤهم من إيمانهم . أو للكافرين. أى تربصوا لتروا حكم الله بيننا وبينكم « وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ » لأنه منزّه عن الجور فى حكمه ، فسيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ » أىعن الإيمان« لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ » أى إلى ترك دعوى الرسالة، والإقراربها، داخلين « فِى مِلَّتِنَا » أى ملة المشركين .

قال الجشمىّ : الملة الديانة التى يجمع على العمل بها فرقةٌ عظيمة . والأصل فيه تكرر الأمر ، من قولهم : طريق ممل ومليل ، إذا تكرر سلوكه حتى صار معلماً . ومنه الملل : تكرار الشيء على النفس حتى تضجر منه ـ انتهى .

« قَالَ » أى شعيب « أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ » أى : أتجبروننا على ذلك ، وإن كنا كارهين له ؟ مع أنه لا فائدة فى الإكراه ، لأن دينكم إن كان حقًّا ، لم نكن بالإكراه منقادين له ، وإن كان باطلا ، لم نكن بالإكراه متصفين به، لأنه بالحقيقة صفة القلب، ولا يسرى إكراهكم إليه. وكيف لانكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ)

« قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى اختلقنا عليه باطلا بأن له شريكا « إِنْ عُدْنَا » إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، لندخل « فِى مِلَّتِكُم » القائلة بأن له شريكا « بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا » فأرانا أنه كالا نجاء من النار « وَمَا يَكُونُ » أى ينبغى « لَنَآ أَن نَّعُودَ » أى عن دعوى الرسالة والإقرار بها فنصير « فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا » أى الذى يربّينا بما علم من استعدادنا ؛ لأنه « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » أى فعلم استعداد كل واحد فى كل وقت ، لكن « عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا » أى ليحفظنا عن المصير إليها « رَبَّنَا » إن قصدوا إكراهنا عليها أو إخراجنا من قريتهم « ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ » فغلبنا عليهم « وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ » أى خير الحاكمين ، فلا تغلّبُ الظالمين وإن كثروا ، على المظلومين إذا استفتحوك .

تنبيهات :

الأول ـ اعلم أن ظاهر قوله تعالى (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا)وقوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته. ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبائر ، فضلا عن الشرك .

وفى (المواقف وشرحها) : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها ، غير أن الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم تجويز الكفر . وجوّز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك ، واحترازاً عن إلقاء النفس فى التهلكة . ومثله فى (شرح التجريد) .

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر ، كان للعلماء فى هذه الآية وجوه :

منهـا : أن العود المقابل للخروج ، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها . والجار والمجرور حال . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، داخلين فى ملتنا . وهذا الوجه اقتصر عليه المهايمىّ ، وسايرناه فيه مع تفسير تتمة الآية .

ومنها : أن العود المذكور إلى ما خرج منه ، وهو القرية . والمجرور حال كالسابق . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إليها ، كائنين فى ملتنا . وعُدِّىَ (عاد) بـ(فى) كأن الملة لهم بمنزله الوعاء المحيط بهم .

ومنها : أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان فى ملتهم، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم

ومنها : أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس ، وإيهاماً لأنه كان على دينهم . وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة .

ومنها : أن (لَتَعُودُنّ) بمعنى لتصيرن . إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى (صار) ، فيعمل عمل (كان) . ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك، وهو الانتقال من حال سابقة ، إلى حال مؤتنفة مثـل (صار) . وكأنهم قالوا ـ والله أعلم ـ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفارًا مثلنا .

قال الرازىّ : تقول العرب . قد عاد إلىّ من فلان مكروه ، يريدون : قد صـار إلىّ منه المكروه ابتداءً . قال الشاعر[1] :

فإن تـكنِ الأيامُ أحسنّ مدةً إلىّ فقـد عادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أراد : فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان ـ انتهى ـ.

ومنه حديث معاذ[2] . قال له النبىّ ﷺ : (أَعُدت فتّانا يا معاذ ؟) أى صرت .

(١) لم أعرف اسمه ولم أقف على بيته .

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى مادة (ع و د) .

ومنه حديث خزيمة(١) : عَادَ لَهَا النِّقَادُ مُجْرَنْثِماً . أى صار .

وفى حديث كعب(٢) : وددت أن هذا اللبن يعود قَطِرَاناً ، أى يصير . فقيل له: لم ذلك؟ قال : تَتَبَّعَتْ قريشُ أذنابَ الإبل ، وتركوا الجماعات .

قال الشهاب: إلا أنه قيل إنه لا يلائم قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) إلا أن يقال بالتغليب فيه، أو يقال: التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع فى المكروه. ألا ترى إلى قوله (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ) (٣) وأمثاله ؟

ومنها : أن العود يطلق ، ويراد به الابتداء . حققه الراغب والجاربردىّ وغير واحد . وأنشدوا قول الشاعر :

* وَعَادَ الرأسُ مِنِّى كالثَّغَامِ (٤)

ومعنى الآية : لتدخلنّ فى ملتنا ، وقوله تعالى (إِنْ عُدْنَا) أى دخلنا ـ كذا فى تاج العروس ـ .

ومنها : إبقاء صيغة العود على ظاهرها، من استدعائها رجوع العائد، إلى حالٍ كان عليها قبل . كما يقال : عاد له ، بعد ما كان أعرض عنه . إلا أن الكلام من باب التغليب . قال الزمخشرىّ : لما قالوا (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ) فعطفوا على ضميره، الذين

---

(١) استشهد به فى اللسان، نقلا عن النهاية ، فى مادة (ع و د) وقال فى مادة (ج ر ث م): النِّقَادُ : صغار الغنم . ومجرنثما : مجتمعا متقبضا ، وإنما اجتمعت فى الجدب لأنها لم تجد مرعى تنتشر فيه. وإنما لم يقل (مجرنثمة) لأن لفظ (النقاد) لفظ الاسم الواحد . كالحِذَار والخِمَار.

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى ماد (ع و د) .

(٣) [٧ / الأعراف / ٨٣] و [٢٧ / النمل / ٥٧] .

(٤) فى اللسان : الثَّغام نبت على شكل الحَلِىّ ، وهو أغلظ منه ، وأجلّ عودا ، يكون فى الجبل ينبت أخضر ثم يبيضّ إذا يبس ، وله سَنَمَةٌ غليظة . ولا ينبت إلا فى قُنَّة سوداء ، وهو ينبت بنجد وتهامة .

دخلوا فى الإيمان منهم بعد كفرهم ـ قالوا (لَتَعُودُنَّ) فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعاً ، إجراءً للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال (إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراءً لكلامه على حكم التغليب ـ انتهى ـ .

ومنها : ما قاله الناصر فى (الانتصاف) : إنه يسلم استعمال (العود) بمعنى (الرجوع إلى أمر سابق) ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى[1] : (ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ) والإخراج يستدعى دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الإيمان لم يدخل قط فى ظلمة الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلىّ ، لم يدخل قط فى نور الإيمان ، ولا كان فيه . ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التى خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ، ثم عدوله عنه إلى الإيمان ، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور ، توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس فى حق الكافر . وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى[2] : (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره فى هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار ، لإقامة حجة الله على عباده ـ والله أعلم ـ انتهى .

الثانى : فى قوله : (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا) ردّ إلى الله تعالى مستقيم .

قال الواحدىّ : والذى عليه أهل العلم والسنة فى هذه الآية ؛ أن شعيباً وأصحابه قالوا : ما كنا لنرجع إلى ملتكم ، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار ، إلا أن يريد إهلاكنا . فأمورنا راجعة إلى الله ، غير خارجة عن قبضته ، يسعد من يشاء بالطاعة ، ويشقى من يشاء بالمعصية . وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله . ولم تزل الأنبياء والأكابر

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

يخافون العاقبة ، وانقلاب الأمر . ألا ترى إلى قول الخليل[١] عليه الصلاة والسلام: (وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ) ؟ وكان نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول[٢] : يا مقلّبَ القلوب ! ثبِّتْ قلبي على دينك .

وقال الزجاج: المعنى : وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها . وتصديق ذلك قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) ، يعنى أنه تعالى يعلم ما يكون ، من قبل أن يكون ، وما سيكون . وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء . فالسعيد من سعد في علم الله تعالى . والشقىّ من شقى في علم الله تعالى .

وقال الناصر في (الانتصاف) : موقع قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة ، والاطلاع على الأمور الغائبة . فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد . ولو وقع ، فبقدرة الله ومشيئته المغيّبة عن خلقه . فالحذر قائم ، والخوف لازم. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام (وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)[٣] لما ردّ الأمر إلى المشيئة، وهي مغيّبة، مجّد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ـ والله أعلم .

وقال أبو السعود: معنى (وَمَا يَكُونُ لَنَآ . . .) الآية ـ أي ما يصح لنا أن نعود فيها في حالٍ من الأحوال ، أو في وقت من الأوقات ، إلا أن يشاء الله . أي إلا حال مشيئة الله تعالى ، أو وقت مشيئته تعالى ، لعودنا فيها . وذلك مما لا يكاد يكون، كما ينبئ عنه قوله تعالى : (رَبُّنَا . .) فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم ، مما ينبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً ، وكذا قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) فإن تنجيته تعالى لهم منها ، من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها . وقيل معناه : إلا أن يشاء الله خذلاننا . فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى . وَأَيًّا ما كان ، فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حيّز الإمكان ، وخطر الوقوع ، بناء على كون مشيئته تعالى كذلك . بل بيان استحالة وقوعها . كأنه

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٥]. (٢) أخرجه الترمذىّ في: ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن . (٣) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيهات ذلك . بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له ـ انتهى ـ .

ولا يخفى أن إفهام ذلك الاستحالةَ ، هو باعتبار الواقع ، وما يقتضيه منصب النبوة . وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية، الذى هو من أعلى مقامات الخواصّ، فيكون ماذكرناه أولا أدقّ ، وبالقبول أحق .

قال الإمام ابن القيم فى (طريق الهجرتين) : قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه ، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)[1] فالرغب الرجاء ، والرهب الخوف والخشية . وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[2] وفى الصحيح[3] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنى أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية. وفى لفظ آخر: إنى أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى. وكان صلى الله عليه وسلم[4] يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وقد قال تعالى[5] (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ) فكلما كان العبد بالله أعلم ، كان له أخوف .

الثالث : قال الفرّاء[6] : أهل عُمان يسمون (القاضى) الفاتح والفتاح . لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما كنت أدرى قوله (رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ) حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها : تعالَ أفاتحك ، أى أحاكمك .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٢ ـ باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، حديث ٢٣٤٣ . (٤) أخرجه النسائىّ فى: ١٣ ـ كتاب السهو ، ١٨ ـ باب البكاء فى الصلاة . (٥) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٦) انظر معانى القرآن للفراء ، الصفحة ٣٨٥ من الجزء الأول (طبعة دار الكتب) .

وقال الشهاب : الفتح ، بمعنى الحكم ، وهى لغة لحمير ، أو لمراد ، والفُتَاحة (بالضم) عندهم الحكومة . أوهو مجاز بمعنى : أظهرْ وبيّن أمرنا ، حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل. ومنه فتح المشكل لبيانه وحلّه، تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الأغلاق، حتى يوصل إلى ما خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ)

«وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا» أى فيما يأمركم به وينهاكم عنه « إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ » أى لجاهلون مغبونون ، لاستبدالكم ضلالته بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من بخس الكيل والميزان .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩١] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى الزلزلة الشديدة .

قال ابن كثير: أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم فى سورة هود، فقال (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ)[1] والمناسبة هناك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تهكموا به فى قولهم (أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ . . .) الآية[2] ـ فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال تعالى فى الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[3] وما ذاك إلا أنهم قالوا له فى سياق القصة (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...)[4] الآية

(١) [١١ / هود / ٩٤] . (٢) [١١ / هود / ٨٧] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٨٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة . وقد اجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة، وهى سحابة أظلتهم ، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام « فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ » أى مدينتهم « جَٰثِمِينَ » أى ساقطين ميتين ، لا ينتفعون برؤوس أموالهم ولا بزوائدها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٢] (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا، ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا » استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ) وعقوبتهم بمقابلته . والموصول مبتدأ ، وخبره جملة(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا)أى استؤصلوا بالمرة ، وصاروا كأنهم، لما أصابتهم النقمة ، لم يقيموا بديارهم ، التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم السابق : « ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ » ديناً ودنيا ، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا .

قال أبو السعود : استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير . وإعادة الموصول والصلة كما هى ، لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ما ذكر فى حيّز الصلة ، هو الذى استوجب العقوبتين . أى الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقالتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له ، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام ، كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى: (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ) .

وقال الزمخشرىّ : فى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة فى ردّ مقالة الملأ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظام لما جرى عليهم .

وفى (العناية) : أن من عادة العرب الاستئناف من غير عطف ، فى الذمّ والتوبيخ . فيقولون : أخوك الذى نهب مالنا ، أخوك الذى هتك سترنا . ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ » أى : أعرض عن شفاعتهم والحزن عليهم « وَقَالَ » أى: فى الاعتذار « يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى » أى بالأمر والنهى « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » أى : حذرتكم من عذاب الله ، ودعوتكم إلى التوبة والإيمان بما يفيد ربح الدارين ، ويمنعكم خسرانهما ، لكنكم كفرتم « فَكَيْفَ ءَاسَىٰ » أى : أحزن حزناً شديداً « عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ » أى بالله إن هلكوا ، فضلاً عن أن أشتغل بشفاعتهم . يعنى أنه لا يأسى عليهم ، لأنهم ليسوا أحقّاء بالأسى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال ، لما لم يقبلوا نصيحة نبيّهم . فتدل على وجوب قبول النصيحة فى الدين . وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظلمة ، بل يجب أن يحمد الله ويشكر . كما قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)(١)

لطيفة :

ذكروا أن شعيباً، عليه السلام، يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته وأصله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً يقول : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه .

(١) [٦ / الأنعام / ٤٥] .

والمراجعة (مفاعلة) من الرجوع ، وهى مجاز عن المحاورة . يقال : راجعه القول . وإنما عنى النبيّ صلى الله عليـه وسلم ما ذكر فى هـذه السورة ، كما يعلم بالتأمل فيه . كذا فى (العناية) .

ثم أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالًا ، إثر بيان الأمم المذكورة تفصيلًا ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ » أى كذبه أهلها « إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا » أى قبل الإهلاك الكلىّ « بِٱلْبَأْسَآءِ » أى شدة الفقر « وَٱلضَّرَّآءِ » أى المرض ، لاستكبارهم عن اتباع ، نبيهم ، وتعززهم عليه « لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ » ليتضرعوا ويتذللوا ، ويحطّوا أردية الكبر والعزة ، فيؤمنوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ » أى أعطيناهم ـ بدل ما كانوا فيه من البلاء ، كالشدة والمرض ـ السعةَ والصحةَ « حَتَّىٰ عَفَوا۟ » أى كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم. من قولهم : عفا النبات ، وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت . ومنه قوله ﷺ[1] (وأعفوا اللحى) « وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ » يعنى وأبطرتهم النعمة وأشروا ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .
والبخاريّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٦٥ ـ باب إعفاء اللحى ، حديث رقم ٢٢٩٢.

فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر . يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء، وقد مس آباءنا نحو ذلك فصبروا على دينهم ، فنحن مثلهم ، نقتدى بهم ، وما هو بابتلاء من الله لعباده ، تصديقاً لوعد الرسل، فازدادوا كفراً بعد الإعلام القولىّ والفعلىّ . والمعنى : أن الله تعالى ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه ، فما فعلوا . ثم بالحسنة ليشكروا ، فما فعلوا . وإذا لم ينجع فيهم هـذا ولا ذاك ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ، وقد فعل . كما قال سبحانه « فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى فأخذناهم أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة ، من غير شعور منهم، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم، كقوله تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ...)[١] الآية ـ وفى الحديث[٢] (موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر) رواه الإمام أحمد والبيهقىّ عن عائشة . مرفوعاً .

تنبيه :

اعتقاد أن مناوبة الضراء والسراء عادة الدهر ، من غير أن يكون هناك داعيـة تؤدى إليها ، ولا حكمة فيهما ، هو من اعتقاد الكافرين .

قال ابن كثير : المؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، فيشكر الله على السراء ، ويصبر على الضراء . ولهذا جاء فى الحديث[٣] : لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيًّا من ذنوبه . والمنافقُ مثله كمثل الحمار لا يدرى فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه ـ أو كما قال ـ.

وفى الصحيحين[٤] : عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

وقوله تعالى :

---

(١) [٦ / الأنعام / ٤٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ). (٣) لم أعثر على هذا النص فيما بين يدىّ من المصادر.

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا). ولم يخرجه البخارىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ » أى القرى المُهْلَكَة « ءَامَنُواْ » أى بالله ورسلهم « وَٱتَّقَوْاْ » أى الكفر والمعاصى « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى لوسعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات ، التى بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض . فـ (فتحنا) استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول . أو مجاز مرسل فى لازمه ، وهو التيسير . أو أريد بـ (بركات السماء) المطر و (بركات الأرض) النبات والثمار « وَلَٰكِن كَذَّبُواْ » أى الرسل « فَأَخَذْنَٰهُم » أى عاقبناهم « بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

أفادت الآية قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ »(١) أى : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا من العذاب ، كما قال تعالى عنهم (فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)(٢) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ)

« أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ » أى : القرى المذكورة « أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا » أى : عذابنا ونكالنا « بَيَٰتًا » أى : ليلًا ، أى وقت بيات « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى حال كمال الغفلة .

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٤٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

« أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ » أى : يخوضون فى الباطل ويلهون من فرط الغفلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)

« أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ » وهو أخذه العبد من حيث لا يحتسب « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ » أى لا يأمن أحدٌ أخذَه تعالى العبدَ من حيث لا يشعر ، مع كثرة ما رأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون ، إلا القوم الذى خسروا عقولهم ، وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ، فصاروا خاسرين إنسانيتهم ، بل أخسّ من البهائم . وفى قوله تعالى « أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ » تكرير للنكير فى قوله : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ) لزيادة التقرير .

قال الزمخشرىّ : فعلى العاقل أن يكون فى خوف من مكر الله ، كالمحارب الذى يخاف من عدوّه الكمين ، والبيات ، والغيلة . وعن الربيع بن خُثَيْم أن ابنته قالت : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يا بنتاه ! إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا) . ـ انتهى ـ .

وقال الحسن البصرىّ : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق ، وَجِلٌ خائفٌ . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

تنبيه :

الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية ، وهو الاسترسال فى المعاصى ، اتكالا على عفو الله ـ كما فى جمع الجوامع ـ .

وقال الحنفية : إنه كفر كاليأس ، لقوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ)(١) (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)(٢) .

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود(٣) رضى الله عنه (مِنَ الْكَبَائِرِ الْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ) . وما ورد من أنه كفر ، محمول على التغليظ . كذا فى (العناية) .

وروى ابن أبى حاتم والبزار عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل : مَا الْكَبَائِرُ ؟ فَقَالَ : الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ . قال بعضهم : والأشبه أن يكون موقوفاً .

قال ابن حجر : وبكونه أكبر الكبائر ، صرح ابن مسعود . كما رواه عنه عبد الرزاق والطبرانىّ .

قال الكمال بن أبى شريف : عطفهما ـ يعنى الإياس والأمن ـ فى الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر ، ظاهر فى أنهما غير الكفر .

وقال أيضاً . مراد الشافعية بكونه كبيرة ؛ أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها فى حد الآمن من المكر ، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به فى حد اليائس . وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر ، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه . فينبغى أن يكون كل منهما كافرا عند الشافعية أيضاً ، ويحمل عليه نص القرآن ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« أَوَلَمْ يَهْدِ » أى يتبين « لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ » أى المأخوذين

(١) [١٢ / يوسف / ٨٧] . (٢) [الأعراف / ٩٩] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

« أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين « وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى نختم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيماناً .

قال أبو البقاء : يقرأ (يهد) بالياء وفاعله (أن لو نشاء) . و (أن) مخففة من الثقيلة، أى : أو لم يبين لهم علمهم بمشيئتنا . ويقرأ بالنون . و (أن لو نشاء) مفعوله . وقيل : فاعل (يهدى) ضمير اسم الله تعالى ـ انتهى ـ .

ويؤيده قراءة النون . وجوز أن يكون ضميرا عائدا على ما يفهم مما قبله ، أى : أَوَلَمْ يهد ما جرى للأمم السابقة . وتعدية (يهد) باللام ، لأنه بمعنى (يبين) إما بطريق المجاز ، أو التضمين .

قال الشهاب : وإنما جعل بمعنى (يبين) ، وإن كان (هدى) يتعدى بنفسه ، وباللام وبإلى ـ لأن ذلك فى المفعول الثانى لا فى الأول ، كما هنا ، فهذا استعمال آخر . وقيل : لك أن تحمل اللام على الزيادة ، كما فى (رَدِفَ لَكُم)(١) والمراد بـ(الذين) أهل مكة ومن حولها ، كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ، وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ) .

« تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ » أى المذكورة وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط، وقوم شعيب « نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا » مما يدل على مؤاخذتهم بذنوبهم لإصرارهم عليها بعد التنبيه.

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

ثم بين تعالى أنه أعذر إليهم، بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل بقوله: « وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ » عند مجيء الرسل بالبينات والدلائل القاطعة « بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ » أي بسبب تكذيبهم بالحق أول ماورد عليهم ، إذ تمرنوا على التكذيب ، فلم تفدهم الآيات، واستوت عندهم الحالتان، كقوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ...) الآية(١) ـ ولهذا قال « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ » أي من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر ، لما علم أنهم يختارون الثبات على الكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ)

« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ » أى من وفاء عهد « وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ » أى : خارجين عن الطاعة مارقين ، فلذلك أخذناهم .

قال الزمخشريّ : الضمير (للناس) على الإطلاق ، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد . يعنى: أن أكثر الناس نقض عهد الله وميثاقه فى الإيمان والتقوى. والآية اعتراض.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا ، إذا عاهدوا الله فى ضرّ ومخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمنن ، ثم نجاهم ، نكثوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم » أى : الرسل المتقدم ذكرهم ، وهم نوح وهود وصالح ولوط

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٩و١١٠] .

وشعيب، أو الأمم المحكية من بعدهلاكهم « مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ » وهي العصا، واليد البيضاء، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان، والجراد ، والقمّل ، والضفادع، والدم ، حسبما يأتي مفصلًا « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » وهو ملك مصر في عهد موسى « وَمَلَإِيْهِۦ » أي قومه « فَظَلَمُوا۟ بِهَا » أي كفروا بها . أجرى الظلم مجرى الكفر في تعديته بالباء ، وإن كان يتعدى بنفسه، لأنهما من وادٍ واحد. (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[1]. أو هو بمعنى الكفر مجازًا أو تضمينًا، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه ، وهو موضع الإيمان ، لأنه أوتي الآيات لتكون موجبة للإيمان بما جاء به . فعكسوا ، حيث كفروا فوضعوا الشيء في غير موضعه . أو الباء سببية ، ومفعوله محذوف ، أي ظلموا أنفسهم بسببها، بأن عرضوها للعذاب الخالد . أو ظلموا الناس لصدّهم عن الإيمان بها ، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب مالقوا ، كما يشير له قوله تعالى « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أي لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم ، وآتاه أعداءهم ، فأغرقهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أي : أرسلني إليك الذي هو خالق كل شيء وربّه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

«حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ» أي جدير بذلك وحريّ به ، لما علمت

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

من حالى . والباء و (على) يتعاقبان . يقال : رميت بالقوس وعلى القوس . وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقرأ أُبيّ رضى الله عنه (حقيق بأن لاأقول) «قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ» أى آية منه تشهد على صدق فيما جئتكم به بالضرورة « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ روى أنه تعالى أمره أن يأتى فرعون ويقول له: إن إلهنا أمرنا أن نسير ثلاثة أيام فى البرّية ، ونقرّب له قرابين ونعبده . وقد علم تعالى أن فرعون لايدعهم يمضون، ولكن ليظهر آياته على يد موسى ، ويهلك عدوّه . فلما أتى موسى فرعونَ وكلمه فى أن يرسل معه قومه ، أنكر أمر الرب له ، وقال: لماذا نعطل الشعب عن أعماله؟ وكانوا مسخرين لفرعون فى عمل اللبن، وأمر بزيادة عملهم ، بأن يجمعوا التبن من أنفسهم ، بعد أن كانوا يعطونه من قبل فرعون .

ثم طلب فرعون من موسى آية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

« قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

« فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ » التى هى جماد « فَإِذَا هِىَ » أى من غير سترة ولا معالجة سبب «ثُعْبَانٌ» أى حية كبيرة هائلة ، فاضت عليه الحياة لتدل على فيضان الحياة العظيمة على يديه « مُّبِينٌ » أى ظاهر لا مُتَخَيَّل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٨] (وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ)

« وَنَزَعَ يَدَهُۥ » أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه « فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ »

أى بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمرها . فيدلّ على أنه يظهر على يديه شرائعُ تغلب أنوارُها المعنوية الأنوارَ الحسية ، ويتقوى بها الحياة بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى الأشراف الذين يكرهون شرف الغير عليهم، فى دفع هذه الآيات الظاهرة عن خواطر الخلق « إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ » أى ماهر فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

« يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ » أى من أرض مصر بسحره ليتملك عليها « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » أى تشيرون فى أمره . وهذا من تمام الحكاية عن قول الملأ ، أو مستأنف من قول فرعون ، تقديره فقال : ماذا تأمرون ؟ ويدل عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١١] (قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ)

« قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » أى أخّر أمرهما ، وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

قال أبو منصور: والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر، وهو الهمّ بقتله ، فقالوا أخّره ليتبين حاله للناس . وأصل (أَرْجِهْ) أرجئه ، كما قرئ كذلك . من (أرجأت) « وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ أى مدائن الصعيد من نواحى مصر « حَـٰشِرِينَ » أى من يحشر لك السحرة ويجمعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ)

« يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ » وقرئ (سحّار) « عَلِيمٍ » أى ماهر فى باب السحر ، ليعارضوا موسى بنظير ما أراهم من البينات .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على عظيم معجزة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه غير الله تعالى ، حتى نسبوه إلى السحر . وتدل على أن عادة البشر ، أن من رأى أمرًا عظيماً أن يعارضه . فلذلك دعا فرعون بالسحرة . فدل على أن العرب لو قدروا على مثل القرآن ، لعارضوه . وتدل على أن الطريق فى المعجزات ، المعارضة بإتيان مثله ، ولذلك قال تعالى فى القرآن : (فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ)(1) ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه . وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ) فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه ، كما هو عادة الناس فى هذا الزمن . انتهى .

ثم تسابقت شُرَط فرعون ، فحشروهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ)

« وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

« قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » ولما توثقوا من فرعون

(1) [١٠ / يونس / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ)

« قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ » أى أول من ألقى، كما فى الآية الأخرى . قيل : خيّروا موسى إظهارا للجلادة ، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره .

وقال الزمخشرىّ : تخييرهم إياه أدب حسن ، راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (قَالَ أَلْقُواْ ، فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

« قَالَ » أى : موسى لهم « أَلْقُواْ » أى ما أنتم ملقون . وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهىّ ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا « فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ » أى خيلوا لها ماليس فى الواقع « وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ » أى وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ، كما فى الآية الأخرى(١) : (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ) « وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » أى: فى باب السحر، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد عصاه ، فصارت العصىّ ثعابين .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآيات على أن القوم أتوا بما فى وسعهم من التمويه ، وكان الزمان زمان سحر ، والغالب عليهم الاشتغال به ، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه ،

(١) [٢٠ / طه / ٦٦و٦٨] .

ما لم يقدر عليه أحد ، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر . وهكذا ينبغى فى المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع فى القوم ، ويتعذر عليهم مثله . وكان الطب هو الغالب فى زمن عيسى ، فجاء بإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس ذلك فى وسع طبيب . وكان الغالب فى زمن نبيّنا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر ، فجاء القرآن وتحداهم به . وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصىّ متحركة ، حتى أوهموا أنها أحياء . ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلِم ، وكان مثله مقدورا لكل من يتعاطى صناعتهم ، عُلِمَ أنه شعبذة . ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها ، ويمكن إتيان مثلها ، ويخفى أمرها ، بخلاف المعجزة .

ثم قال : وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف ، حيث استغاث بهم وبهنتهم لدفع مكروه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ » أى تبتلع « مَا يَأْفِكُونَ » أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق ، وهو باطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« فَوَقَعَ الْحَقُّ » أى ثبت الإعجاز « وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من السحر لإبطال الإعجاز .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

« فَغُلِبُوا هُنَالِكَ » أى فى مكان الوعد الذى اجتمع فيه أهل مصر بدعوته ، لظنه غلبة السحرة « وَانقَلَبُوا » أى رجعوا « صَاغِرِينَ » أى : ذليلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)

« وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)

« رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ » .

قال الجشميّ : دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر ، فآمنوا فى الحال. وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة، لذلك اعترفوا بهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا » أى الصنع « لَمَكْرٌ » أى حيلة « مَّكَرْتُمُوهُ » أى دبرتموه أنتم وموسى « فِي ٱلْمَدِينَةِ » أى فى مصر قبل الخروج للميعاد « لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وعيدٌ أجمله ثم فصله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

« لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى من كل جانب، عضواً مغايراً للآخر،

كاليد من أحدها ، والرجل من آخر .

قال الشهاب : (مِّنْ خِلَـٰفٍ) حال ، أي مختلفة . وقيل (مِنْ) تعليلية متعلقة بالفعل ، أي لأجل خلافكم ، وهو بعيد .

« ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » أي تفضيحاً لكم ، وتنكيلاً لأمثالكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ)

« قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ » أي فلا نبالي بما تهددنا به ، لأنه هو الذي يقربنا إلى من آمنا به ، فيحيينا بحياةٍ خير من الحياة الدنيوية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ، رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

« وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا » أي ما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله . أي وما عبته وأنكرته هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك « رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أي أفِضْ علينا صبراً واسعاً لنثبت على دينك « وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » أي ثابتين على الإسلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ)

« وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أي خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا

السحرة جاهروا بالإسلام ، ولم يبالوا بالتوعد « أَتَذَرُ » أي أتترك « مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أي في أرض مملكتك بتغيير الناس عنك « وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ » الآلهة جمع (إله) ، بمعنى المعبود . وكان للمصريين آلهة كثيرة منها المسمى (أو سيرس) وكانوا يعتقدون أن روحه توجد في الثور المسمى (أبيس) ، فيعبدونه أيضاً ، ويعبدون كثيراً من الحيوانات . وكانوا يعبدون الظلام أيضاً ، ويعبدون (بَعْلَزَ بوب) صنم (عقرون) يعتقدون أن وظيفته طرد الذباب . وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم في الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض . هكذا حكى عنهم بعض المدققين .

وقد ذكر الشهرستانيّ في (الملل والنحل) أن فرعون كان أول أمره على مذهب الصابئة ، ثم انحرف عن ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، إذ رأى في نفسه قوة الاستعمال والاستخدام . انتهى .

وتقدم في سورة البقرة بيان مذهب الصابئة . فتذكَّرْ .

وقال بعضهم : إن كلمة (الآلهة) لفظة اصطلاحية عند العبرانيين ، يراد بها القضاة والحكام الذين يقضون بأمر الله ، وأنها لو حملت على هذا ههنا ، لم يبعد ، ويكون المعنى : ويذرك وقضاتك وذوي أمرك ، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر ، وإلهاب قلب فرعون على موسى ، وإثارة غضبه . وقد صرح غير واحد بوقوع ألفاظ من غير العربية في القرآن ، كما نقله السيوطيّ في النوع الثامن والثلاثين من (الإتقان) ـ انتهى ـ والأظهر ما قدمناه أولاً . « قَالَ سَنُقَتِّلُ » قرىء بالتخفيف والتشديد « أَبْنَآءَهُمْ » المولودين « وَنَسْتَحْىِۦ » أي نستبقي « نِسَآءَهُمْ » أي للاستخدام « وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ » أي بالغلبة والقدرة عليهم ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ، إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

«قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟» أى على أذاهم «إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا» أى يعطيها « مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » يعنى أن النصر والظفر للمتقين على عدوّهم. وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم ، ويهلكهم وينجى قومه من عذاب آل فرعون لهم .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآيات على أن قوم فرعون ، لما عجزوا عن موسى فى آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد فى الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده . وذلك من أدلّ الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح فى معجزته ، ولهذا قال مشايخنا : إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن ، التى فى إيرادها إبطال أمر النبيّ ﷺ ، إلى القتال ، الذى لا يفيد ذلك ــ دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضالّ مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد . وتدل على أن عند الخوف من الظَّلَمة يجب الفزع إلى الله تعالى ، والاستعانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا فى هذين : وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة فى الدفع ، واللطف له فى الصبر . وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« قَالُوٓا۟ » أى قوم موسى « أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » أى فعلوا

بنا من الهوان والإذلال من قبل بعثتك وبعدها. ثم صرح لهم موسى بما رمز إليه من البشارة قبلُ « قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ » أي فرعون وجنوده « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » أي فيرى الكائن منكم من العمل، حسنه وقبيحه ، وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. ثم بيّن تعالى ما أحلّ بفرعون وقومه من الضرّاء ، لما تأبى عن إجابة موسى وإرسال قومه معه ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ » أي بالجدب والقحط « وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أي يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر إلى أمر موسى. وذلك لأن الشدة ترقّق القلوب ، وترغّب في الضراعة إلى الله تعالى .

قال الجشميّ: تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً في الدين، لذلك قال : (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . اهـ

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم ، والشدائد ، لم يزدادوا إلا تمردًا وكفراً ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ، أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ » أي الصحة والخصب « قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ » أي لأجلنا واستحقاقنا، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم، فيشكروه على إنعامه « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ » شدة « يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ » أي يتشاءموا . وأصله (يتطيروا). يعني أنهم يقولون:

هذه بشؤمهم «أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّـهِ» أى شدتهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر، عند الله ، لا عند غيره ، أى من قِبَلِهِ تعالى «وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أى أن ما أصابهم من الله تعالى ، فيقولون ما يقولون ، مما حكى عنهم . ثم أخبر تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوّهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

«وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» أى بمصدقين بالرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

«فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ» أى على آل فرعون . وأما قوم موسى فلطف تعالى بهم، فلم ينلهم ولا محالّهم سوء من الطوفان ولا غيره . والطوفان (لغةً) هو المطر الغالب ، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به . فعمّ الطوفان الصحراء ، وأتلف عُشبها ، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ، ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر «وَٱلْجَرَادَ» فأكل جميع عشب أرض مصر والثمر، مما تركه الطوفان ، حتى لم يبق شىء من ثمرة ولا خضرة فى الشجرة ، ولا عشب فى الصحراء «وَٱلْقُمَّلَ» فعمّ أرض مصر ، وكان على النـاس والبهائم ، وهو بضم وتشديد كـ (سُكَّر) صغار الذرّ ، أو شىء صغير بجناح أحمر . أو دوابّ صغار من جنس القردان ، أو الدبى الذى لا أجنحة له ، وهو الجراد الصغار .

قال أبو البقاء : (القمّل) يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون الميم . قيل : هما لغتان . وقيل : هما القمل المعروف فى الثياب ونحوها ، والمشدد يكون فى الطعام ـ انتهى.

وردّ ابن سيده ، وتبعه المجدفي (القاموس) القول بأن المراد به قمل الناس . «وَٱلضَّفَادِعَ» فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع ، وغطّت أرض مصر « وَٱلدَّمَ » فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً ، ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً « ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ » أي مبينات لايشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته ؛ أو مفرقات بعضها إثر بعض . و (آيات) حال من المنصوبات قبلُ « فَٱسْتَكْبَرُواْ » أي عن الإيمان ، فلم يؤمنوا لموسى ، ويرسلوا معه بني إسرائيل « وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أي عاصين كافرين .

قال الجشميّ : تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر وجهلهم، حيث عاهدوا في كل آية يأتي بها على صدقه وإثبات العهد ، أنهم لا يؤمنون بهـا . وليس هذا عادة مَنْ غَرَضُهُ الحق . وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها . وتدل على وجوب التدبر في الآيات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٣٤] (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ » أي نزل بهم العذاب المفصل « قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ » أي بعهده عندك ، وهو النبوة . ف (ما) مصدرية .

قال الشهاب : سميت النبوة عهدا ، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو لأن لها حقوقاً تحفظ ، كما تحفظ العهود . أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى ـ انتهى ـ .

« لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أي الذين أرسلتَ لطلبهم ، ليعبدوا ربهم تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)

« فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ » يعنى إلى الوقت الذى أجّل لهم ، وهو وقت إهلاكهم بالغرق فى اليمّ « إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » أى ينقضون العهد الذى التزموه ، فلم يفوا به . فإن فرعون كان كلما حلّ بمصر نقمة مما تقدم، يدعو موسى، ويطلب منه أن يشفع إلى الله تعالى بكشفها . ويعِدُهُ أنها إذا كشفت أطلق شعبه لعبادته تعالى ، حتى إذا كشفت أخلف ما وعد ، وقسا قلبه . ولما لم يتعظوا بما شاهدوه مما تقدم ، أتتهم النقمة القاضية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٦] (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ)

« فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ » أى البحر « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ » أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها. وقد روى أن فرعون ، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر، أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا، فارتحل بنو إسرائيل على عَجَلٍ ليلًا ، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشٍ ، من عين شمس إلى « سُكُّوت » وسلكوا طريق برية البحر الأحمر . ولما سمع فرعون بارتحالهم ، ندم على ما فعل، من إطلاقهم من خدمته، فجمع جيشه ومراكبه الحربية ، ولحقهم فأدركهم، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر . حينئذ خاف الإسرائيليون ، وأخذوا يتذمرون على موسى ، فقال لهم : لا تخافوا ، إن الله معنا . ثم أمر تعالى موسى ، فمد يده إلى البحر الأحمر، فانشق ماؤه، وصار فيه طريق واسعة ، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة ، فيبس قعره ، فعبر فيه الإسرائيليون ،

والماء عن يمينهم وشمالهم ، فتبعهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر ، فمدّ موسى يده ، بإذن الله ، على البحر ، فارتدّ ماؤه سريعاً ، وغمر فرعونَ وجنوده ومراكبه ، فغرقوا جميعاً ، ثم طَفَتْ جِيَفُهُم على وجه الماء ، وانقذفت إلى الساحل ، فشاهدها الإسرائيليون عياناً . هـذا ملخص ما روى هنا .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما . انتهى

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

« وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ » أي بالاستعباد وقتل الأبناء . وفي التعبير عنهم بهذا ، إظهار لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم إحسانه إليهم ، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة « مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا » أي الأرض المقدسة، أي جوانبها الشرقية والغربية ، حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا في أكنافها حيث شاءوا . وقوله تعالى « ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا » أي بالخصب وسعة الأرزاق « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أي مضت واستمرت عليهم، وهي وعده إياهم بالنصر والتمكين « بِمَا صَبَرُوا۟ » أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه .

قال الزمخشريّ : وحسبك به حاثًّا على الصبر ، ودالًّا على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وعن الحسن : عجبت ممن خفّ كيف خفّ، وقد سمع قوله تعالى ـ وتلا الآية ـ ومعنى (خفّ) طاش جزعاً وقلّة صبر ، ولم يرزن أولى الصبر .

« وَدَمَّرْنَا » أي خربنا وأهلكنا « مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ » أي ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور « وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ » (بكسر الراء وضمها) أي من الجنّات . أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء ، كصرح هامان . وهذا كما قال تعالى (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ)(١) . وقال تعالى (كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)(٢) .

قال الزمخشريّ : وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله، وظلمهم ومعاصيهم. ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مَلَكَةِ فرعون ، واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر : من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه، كما وصفه، (لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(٣) جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ)(٤) وليسلّي رسول الله ﷺ مما أرى من بني إسرائيل بالمدينة ، فقال تعالى :

....

(١) [٢٨ / القصص / ٥و٦] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٥ ـ ٢٨] .
(٣) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] . (٤) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

« وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ » أى الذى أغرق فيه أعداءهم ، وهو بحر القلزم كـ(قنفذ) ، بلد كان فى شرقىّ مصر ، قرب جبل الطور ، أضيف إليه ، لأنه على طرفه ، ويعرف البلد الآن بـ(السويس) ومن زعم أن البحر هو نيل مصر ، فقد أخطأ ، كما فى (العناية). « فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ » قرئ بضم الكاف وكسرها « عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ » أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها « قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا » أى صنما نعكف عليه « كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ » أى أصنام يعكفون عليها « قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى شأن الألوهية وعظمتها ، وأنه لا يستحقها إلا الله وحده .

قال البغوىّ رحمه الله : ولم يكن ذلك شكًّا من بنى إسرائيل فى وحدانية الله تعالى ، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ، ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى . وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ، وكان ذلك لشدة جهلهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ » يعنى عبدة تلك التماثيل « مُتَبَّرٌ » أى مهلك « مَّا هُمْ فِيهِ » أى من الشرك « وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى عبادة الأصنام ، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض .

قال الرازىّ : أجمع كلّ الأنبياء ، عليهم السلام ، على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد فى ذلك الغير كونه إلها للعالم ، أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله تعالى ، لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعام ، وهى بخلق الجسم والحياة والشهوة

والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها . والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به . انتهى .

وعن أبي واقد الليثيّ رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم يقال لها (ذات أنواط) فقالوا : يارسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى (أَجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ) والذى نفسي بيده ! لتركبنّ سنن من كان قبلكم ـ أخرجه الإمام أحمد[1] والترمذيّ [2] وابن جرير وغيرهم ـ .

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشيّ المالكيّ : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ، ويعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِهَا ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي ذات أنواط ، فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو شامة الشافعيّ الدمشقيّ في كتاب (البدع والحوادث) : وقد عم الابتلاء بتزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمُد ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظُم وقع تلك الأماكن في قلوبهم ، فيعظّمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، بالنذر لها ، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر . ثم شرح شجرة مخصوصة فقال : ما أشبهها بذات أنواط ، التي في الحديث .

وروى ابن وضاح في كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبيّ ﷺ فقطعت ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة . ولهذا البحث تتمة مهمة في (إغاثة اللهفان) لابن القيّم . فلتنظر .

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالَ » أى موسى ، مذكّراً لقومه نعمه تعالى عليهم ، الموجبة لتخصيصه تعالى بالعبادة « أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا » أى أطلب لكم معبوداً . يقال : أبغاه الشيء طلبه له ، كـ (بغاه إياه) ، يتعدى إلى مفعولين ، وليس من باب الحذف والإيصال . وفى الحديث[(١)]: ابغنى أحجاراً أستطيب بها ، بهمزة القطع والوصل . وقال الشاعر[(٢)] :

وكم آملٍ من ذى غِنًى وقرابةٍ لتبغيَه خيرا وليس بفاعلِ

والاستفهام فى الآية للإنكار والتعجب والتوبيخ « وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » أى والحال ، أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ » أى : من فرعون وقومه « يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » أى يكلفونكم إياه ، أو يولونكم إياه ، يقال : سامه الأمر يسومه ، كلفه إياه وجشمه وألزمه . أو أولاه إياه « يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » أى فنجاكم منه وحده ، من غير شفاعة أحد .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر . وتدل على أن المحن فى الأولاد والأهل بمنزلة المحن فى النفس ، ويجرى مجراه . انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٠ ـ باب الاستنجاء بالحجارة ، حديث رقم ١٢٦ . (٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ب غ ى) بالصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع عشر (طبعة بيروت) . قال: وبغيتك الشيءَ: طلبته لك. ومنه قول الشاعر. وساق البيت.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » روى أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر ، نزلوا فى برّية طور سيناء ، وكانت مدة خروجهم إلى أن نزلوا شهرا ونصفاً . ولما نزلوا تلقاء الجبل ، صعد موسى إليه ، وسمع كلامه تعالى وأوامره ووصاياه . ثم انحدر موسى إلى قومه ، وأعلمهم بما أمروا به ، وصاروا يشاهدون على الجبل ضباباً ، وصوت رعود ، وبروقاً . ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى الجبل ليؤتيه الشرائع التى كتبها على قومه . فصعد موسى الجبل ، وكان مغطى بالغمام ، فدخل موسى فى وسط الغمام وأقام فى الجبل أربعين يوماً ، لم يأكل ولم يشرب ، لِما أُمِدَّ من القوة الروحانية ، والتجليات القدسية ، وأوتى فى برهتها الألواح التى كتبت فيها شرائعهم ، ولما رجع إلى قومه ، كان على وجهه أشعة نور مدهشة ، فخافوا من الدنوّ منه ، فجعل على وجهه برقعاً ، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة ، رفعه ، وإذا أتاهم وضعه . والله أعلم .

« وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ » أى حين توجه للمناجاة « ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى » أى : كن خليفتى فيهم « وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى لا تتبع من سلك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على أنه استخلف هرون عند خروجه ، لما رأى أنهم أشد طاعة له ، وأكثر قبولا منه ، ومخاطبات موسى عليه السلام لهرون وجوابه له كقوله :

(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى)(١) وقول هرون (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى)(٢) (فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ)(٣) كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية ، وإن اشتركا فى النبوة . والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع ، لأنه المعقول من الاستخلاف عند الغيبة . وتدل على أنه يجوز أن ينهاه عن شىء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله ، عظة له ، واعتبارا لغيره ، وتأكيداً ومصلحة للجميع . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

«وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا» أى حضر الجبل لوقتنا الذى وقّتنا له وحددنا «وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ» أى خاطبه من غير واسطة ملك « قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى » أى لن تطيق رؤيتى، لأن هذه البنية الآدمية فى هذه النشأة الدنيوية ، لا طاقة لها بذلك، لعدم استعدادها له . بل ما هو أكبر جرماً، وأشد خلقاً وصلابة ـ وهو الجبل ـ لا يثبت لذلك ، بل يندكّ . ولذا قال تعالى (وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ) أى الذى هو أقوى منك (فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ) أى ثبت مكانه ، حين أتجلى له ، ولم يتزلزل (فَسَوْفَ تَرَىٰنِى) ، أى تثبت لرؤيتى ، إذا تجليت عليك ، وإلا فلا طاقة . وفيه من التلطيف بموسى ، والتكريم له ، والتنزل القدسىّ ـ ما لا يخفى « فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ » أى: ظهر له وَبَانَ ـ قاله الزجاج ـ « جَعَلَهُۥ » أى: التجلى «دَكًّا»

(١) [٢٠ / طه / ٩٣] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٤] . (٣) [٧ / الأعراف / ١٥٠] .

أى مفتتاً ، فلم يستقر مكانه . فنبه تعالى على أن الجبل ، مع شدته وصلابته ، إذا لم يستقر ، فالآدمىّ مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . وفيه تسكين لفؤاد موسى ، بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه ، وأما أن المانع محالية الرؤية ، فليس فى القرآن إشارة إليه

« وَخَرَّ » أى وقع « مُوسَىٰ صَعِقاً » أى مغشياً عليه من هول ما رأى « فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ » أى من الإقدام على سؤالى الرؤية « وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بأنه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ فى هذه النشأة .

قال فى (الانتصاف) : إنما سبح موسى عليه السلام لِمَا تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق . فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبح الله ، وقدس علمه وخبره عن الخلف . وأما التوبة فى حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزها مبرأً من كل ما ينحط به . ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (سيئات المقربين ، حسنات الأبرار) .

تنبيه :

قال المتكلمون : دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين :

الأول ـ أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها . لأن العاقل ، فضلا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لا يطلب المحال . ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالاستحالة ، فإن الجاهل بما لا يجوز على الله ، لا يصلح للنبوة . إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة . ولا ريب فى نبوة موسى عليه السلام ، وأنه من أولى العزم .

الثانى ـ أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر ممكن فى نفسه . والمعلق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به . والمحال لايثبت على شىء من التقادير الممكنة .

وأمازعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروريّ ، فمعنى قوله : (أَرِنِيٓ) أى : اجعلنى عالماً بك علماً ضرورياً ـ خلاف الظاهر . فإن النظر الموصول بـ (إلى) نص فى الرؤية البصرية فلا يترك بالاحتمال ، مع أن طلب العلم الضروريّ لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول . وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام، كان سألها لقومه، حيث قالوا[1] : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً) ، فسأل ليعلموا امتناعها ـ فإنه خلاف الظاهر ، وتكلّف يذهب رونق النظم، فترده ألفاظ الآية . وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى فى الآخرة، بالكتاب والسنة، أما الكتاب فلقوله تعالى[2] : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »؛ وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة فى الحق الصراح، عسر إقناعه مهما قوى الدليل وعظمت الحجة .

قال فى فتح البيان : رؤيته تعالى فى الآخرة ، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة . والجدالُ فى مثل هذا والمراوغة لا تأتى بفائدة . ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك عليه أباه ، وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة ـ يوقع فى التعصب . والمتعصبُ، وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه ، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم . وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فى الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجًّا، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية :

يَأْبَى الْفَتَى إلا اتبَاعَ الهوى ... ومَنْهَجُ الحقِّ لَهُ وَاضِحُ

ـ انتهى ـ .

وهذا تعريض بالمعتزلة ، وفى مقدمتهم الزمخشريّ . وقد انتقل ، عفا الله عنه ، أخيراً إلى

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] . (٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

هجاء أهل السنة بما أنشده :

لجماعةٌ سَمَّوْا هواهُمْ سنةً ... وجماعةً حُمُرٌ لعَمْرِى مُوكَفَهْ
قد شَبَّهُوهُ بخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا ... شُنْعَ الوَرَى فتَسَتَّرُوا بِالبَلْكَفَهْ

والبلكفة نَحْتٌ ، كالبسملة ، أى بقولهم (بَلَا كَيْفَ) .

قال فى (الانتصاف): ولولا الاستنان بحسّان بن ثابت الأنصارىّ، صاحب رسول الله ﷺ وشاعره ، والمنافح عنه ، وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بـ (العدلية) وبـ (الناجين) سلاماً ، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه ، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم ، فنقول :

وجماعةٌ كفروا برؤية ربِّهِمْ ... حقًّا ووعدُ الله مالَنْ يُخْلِفَهْ
وَتَلَقَّبُوا عَدْلِيَّةً . قلنا : أَجَلْ ... عَدَلُوا بربهم . فَحَسْبُهُمُو سَفَهْ
وتلقَّبوا الناجين . كَلَّا ! إنهم ... إنْ لَمْ يَكُونُوا فِى لَظًى فَعَلَى شَفَهْ

وقال أبو حيّان فى الرد عليه :

شبهتَ جهلًا صدرَ أمة أحمدٍ ... وذوى البصائر بالحمير المُوكَفَهْ
وَجَبَ الخسارُ عليك . فانظر منصفاً ... فى آية الأعراف فهى المنصِفَهْ
أتُرَى الكليمَ أتى بجهلٍ ماأتى ... وأتى شيوخُكَ ما أَتَوْا عن مَعْرِفَهْ
إن الوجوهَ إليه ناظرةٌ . بذا ... جاء الكتاب . فقلتمُ : هذا سَفَهْ
نطق الكتابُ وأنت تنطق بالهوى ... فَهَوَى الْهَوَى بِكَ فى المَهَاوِى المُتْلِفَهْ

وقال العلامة الجاربردىّ :

عجباً لقومٍ ظالمين تَسَتَّرُوا ... بالعَدْلِ . ما فيهم لعَمْرِى مَعْرِفَهْ
قد جاءهم من حيث لايدرونه ... تعطيلُ ذاتِ الله مَعْ نَفْىِ الصِّفَهْ

وقد ساق السبكىّ فى (طبقاته) فى ترجمة الجاربردىّ عدة قصائد ومقاطيع فى الردّ عليه .

ثم ذكر الله تعالى أنه خاطب موسى باصطفائه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ » أى اخترتك على أهل زمانك، وآثرتك عليهم « بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى » أى: وبتكليمى إياك « فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ » أى ماأعطيتك من شرف النبوة والمناجاة « وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ » أى على النعمة فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

«وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ »من الحلال والحرام « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » أى بعزم على العمل بما فيها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا» أى بما أمروا به دون مانهوا عنه « سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ » وهى الأرض التى وعدوا بها من فلسطين ، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنةمن خروجهم من مصر، وبقائهم فى البرّية . فإن موسى عليه السلام ، لما مات ، خلفه يشوع بن نون ، فحارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان ، وفتح بلادهم ، وصارت ملكاً للإسرائيليين .

تنبيه :

قال الجشمىّ(١) : تدل الآية على حدوث كلامه ، لأن قوله (ٱصْطَفَيْتُكَ) أى اختصصتك به ، ولو كان قديماً لكان موسى وغيره سواء ، ولما صحّ الاختصاصُ . ويدل

(١) لاتنس قول المؤلف رضى الله عنه ، لما ساق أول ما نقله من كتاب (التهذيب) عن مؤلفه الجشمىّ ، لاتنس ماقاله بالصفحة رقم ٢٦٣٥ . ونصه (وهو جارعلى أصول المعتزلة وهذا من هذا . فتنبه .

قوله (وَكَتَبْنَا) أنه أعطاه التوراة مكتوبة فى الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقين ، ليقع لهم العلم ضرورة . ويدل على أن فى التوراة شرائع ، وجميع ما يحتاج إليه . ويدل قوله (بِقُوَّةٍ) أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل ، وأنه يفعل بقدرة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ)

« سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى ، قلوبَ المتكبرين عن طاعتى، والمتكبرين على الناس . أى فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل ، كقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ)(١) . وقوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ)(٢) . وقوله تعالى « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » إما صلة للفعل ، أى يتكبرون بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل . أو حال من فاعله ، أى يتكبرون غير محقين « وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ » أى حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم « لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا » تكبراً عليها « وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ » يعنى طريق الحق والهدى والاستقامة واضحاً ظاهراً « لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » لمنافاته أهويتهم «وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ » أى الضلال عن الحق والهلاك « يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » أى طريقاً يميلون إليه « ذَٰلِكَ » أى الصرف عن الآيات، أو اتخاذهم الغى سبيلا « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » أى : لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بها . أو غافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل . ثم بين وعيد المكذبين بقوله :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] . (٢) [٦١ / الصف / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ » أى القيامة، وهى الكرّة الثانية. سميت (آخرة) لتأخرها عن الدنيا « حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ » أى بطلت ، فلم تعقب نفعاً . والمراد جزاء أعمالهم ، لأن الحابط إنما يصح فى المنتظَر ، دون ما تقضّى ، وهذا كقوله (لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ)(١) « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى إلّا جزاء عملهم من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ) الخ كلام مع قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متصل بما سبق من قصصهم ، وهو (أَوَلَمْ يَهْدِ ...) الخ .

وإيراد قصة موسى وفرعون للاعتبار .

وقال الكعبيّ وأبو مسلم الأصفهانىّ : إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه . ومعنى صرفهم إهلاكهم ، فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها ، وهو شبيه بقوله : (بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ)(٢) فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ، ومنعه من القيام بما يلزمه فى تبليغ النبوة والرسالة. انتهى. والله أعلم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ)

« وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ » يخبر تعالى عن

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٦٧] .

ضلال من ضل من بنى إسرائيل ، فى عبـادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامرىّ من حلىّ القبط ، الذى كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلاً ، جسداً لا روح فيه . وقد احتال بإدخال الريح فيه ، حتى صار يسمع له خوار ، أى صوت كصوت البقر . وإنما أضاف الصوت إليه ، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه . وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ)(١) .

لطائف :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم قيل (وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ... عِجْلًا) والمتخذ هو السامرىّ ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما ـ أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلاً منهم باشره ، ووُجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : (بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا) والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه ، راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه .

والثانى ـ أن يراد : واتخذوه إلـهاً وعبدوه . فإن قلت : لم قال (مِنْ حُلِيِّهِمْ) ولم يكن الحلىّ لهم ، إنما كانت عوارى فى أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها فى أيديهم عوارى ، كفى به ملابسة . على أنهم قد ملكوها بعد المُهْلَكِين ، كما قال تعالى : (وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)(٢) انتهى .

قال النسفىّ : وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان ، فدخل داراً استعارها ، يحنث . وأن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها ـ انتهى ـ .

والحُلِىّ بضم الحاء والتشديد ، جمع « حَلْى » بفتح فسكون ، كـ(ثَدْى وثُدِىّ) وهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة .

---

(١) [٢٠ / طه / ٨٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

وقوله «تعالى: أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر . والمعنى : ألم يروا ، حين اتخذوه إلـهاً ، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل ، كآحاد البشر ؟ فهو جماد لا ينفع ولا يضر . فكيف يكون إلـهاً ؟

وقوله تعالى « اتَّخَذُوهُ » تكرير لتأكيد الذم ، أى: اتخذوه إلـهاً وعبدوه . «وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ » أى : واضعين الأشياء فى غير مواضعها . والجملة إما استئنافية ، أو اعتراض تذييلى للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك ، فلا ينكر هـذا منهم . أو حالية ، أى : اتخذوه فى هذه الحالة المستقرة لهم .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، وأنه تعالى دلهم ، فى بطلان اتخاذ العجل إلـهاً ، بأنه لا يتكلم ولا يهدى. وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفد فيه الحيلة، ولا تنفد فى الكلام . وتدل على أن إزالة الشبه فى الدين واجب ، كما أزالها الله تعالى . وتدل على أن القوم كانوا جهالا غير عارفين حقيقة الأشياء ، لذلك عبدوا العجل . وتدل على أن تلك الحلىّ كانت ملكا لبنى إسرائيل ، لذلك قال (حُلِيِّهِمْ) . فإن ثبت أنهم استعاروه، فيدل على زوال ملكهم ، وانتقال الملك إلى بنى إسرائيل ، كما تملك أموال أهل الحرب. وتدل على أن الاتخاذ فعلهم[1] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ » أى : ندموا على عبادة العجل «وَرَأَوْاْ» أى علموا وأيقنوا « أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ » أى: عن الحق والهدى« قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا » أى بقبول توبتنا « وَيَغْفِرْ لَنَا » أى : ما قدمنا من عبادة العجل « لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ» أى: بالعقوبة. أى : ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم .

(١) انظر : الصفحة رقم ٢٨٥٤ ، الحاشية رقم (١) .

لطيفة :

يقال للنادم على ما فعل ، الحَسِرِ على ما فَرَطَ منه (قد سُقِطَ فى يده) و (أُسْقِطَ) مضمومتين ـ قاله الزجاج ـ .

وقال الفراء : يقال سُقِطَ فى يده وأسقط ، من الندامة ، و (سُقِطَ) أكثر وأجود . وأنكر أبو عمرو (أسقط) بالألف ، وجوزه الأخفش .

قال الزمخشرىّ : من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غمًّا ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الزجاج : معناه : سقط الندم فى أيديهم ، أى فى قلوبهم وأنفسهم . كما يقال: حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالا أن يكون فى اليد، تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس، بما يحصل فى اليد ، ويرى بالعين ـ انتهى ـ .

وقال الفارسىّ : أى : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم . فإن صح ذلك فهو إذن من السقوط .

وفى (العباب) : هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه نزول الشىء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، فيسقط . وذكر اليد لأن الندم يحدث فى القلب ، وأثره يظهر فى اليد ، كقوله تعالى (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا)[1] ولأن اليد هى الجارحة العظمى، فربما يسند إليها مالم تباشره، كقوله تعالى (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)[2] ـ انتهى ـ .

وعليه ، فيكون (سُقط) من السقاط ، وهو كثرة الخطأ كما قال :

كيف يَرْجُونَ سِقَاطِى بَعْدَ مَا　　لَفَعَ الرأسَ بياضٌ وصَلَعْ

وقيل : من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ، ويضعه على يده ، معتمداً عليه ، وتارة

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٠]

يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيأة لو نزعت يده لسقط على وجهه، فكانت اليد مسقوطاً فيها ، لتمكن السقوط فيها. ويكون قوله (سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ) بمعنى سقط على أيديهم، كقوله (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ)(١) أى عليها . و (سُقِطَ) عده بعضهم من الأفعال التى لا تتصرف ، كـ (نِعْمَ وَبِئْسَ) . وقرئ (سَقَطَ) معلوماً ، أى الندم ، أو العض ، أو الخسران ، وكله تمثيل . وقرىء (أُسْقِطَ) رباعىّ مجهول ، وهى لغة نقلها الفراء والزجاج ، كما قدمنا .

ثم بين تعالى ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات . وكان أعلمه تعالى بفتنة قومه . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ، قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا » أى : شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل ، وحزيناً أى على ما فاته من مناجاة ربه « قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ » أى بئسما عملتم خلفى ، أو قمتم مقامى ، وكنتم خلفائى من بعدى . والخطاب إما لعبدة العجل ، من السامرىّ وأشياعه . أو لوجوه بنى إسرائيل ، وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه . ويدل عليه قوله (ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى)(٢) ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى: بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى ـ قاله الرازىّ « أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى : ميعاده الذى

(١) [٢٠ / طه / ٧١] . (٢) [٧ الأعراف / ١٤٢] .

وعدنيه من الأربعين ، فلم تصبروا إلى تمامها . وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل ، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه ، وينضمون إليه ، وفعلوا ذلك ، وجعلوا يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون : هذا الإله الذي أخرجنا من مصر ـ عياذاً بالله ـ . وقال أبو مسلم : معناه سبقتم أمر الله ، فعبدتم ما لم يأمركم به « وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ » أي طرحها من شدة الغضب ، وفرط الضجرة ، بين يديه فتكسرت . وهي ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية . وإنما ألقاها ، عليه السلام ، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل . فإنه ، عليه السلام ، لما نزل من الجبل ، ودنا من محلتهم ، رأى العجل ورقصهم حوله ، اتقد غضبه فألقاها غضباً لله ، وحمية لدينه . وكان هو في نفسه حديدا ، شديد الغضب . وكان هرون ألين منه جانباً ، ولذلك كان محبباً إلى قومه .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدلّ ابن تيمية بقوله تعالى (وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ) على أن من ألقى كتاباً على يده ، إلى الأرض ، وهو غضبان ، لا يلام ـ انتهى ـ وهو ظاهر . « وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ » أي بشعره « يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ » ظنًّا أن يكون قصر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرى (قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى * قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ)(١) . وقال ههنا : « قَالَ ٱبْنَ أُمَّ » قرئ بالفتح والكسر ، وأصله يا ابن أمي ، خفف بحذف حرف النداء والياء ، وذكر الأم ليرققه عليه . وقوله : « إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى » إزاحة لتوهم التقصير في حقه . والمعنى : بذلتُ وسعي في كفّهم حتى قهروني واستضعفوني ، وقاربوا قتلي « فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ » أي بالإساءة إليّ . والشماتةُ سرور الأعداء بما يصيب المرء « وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أي في عقوبتك لي ، في عدادهم . أولا تعتقد أني منهم ، مع براءتي وعدم تقصيري .

(١) [٢٠ / طه / ٩٢ـ٩٤] .

قال الجشمىّ : تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط فى حال الخوف على النفس ، وفى الحال الذى يعلم أنه لا ينفع . لذلك قال هرون (ٱسْتَضْعَفُونِى) . وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود فى الدين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

« قَالَ » أى موسى عليه السلام ، متضرعاً إلى ربه ، استنزالا لرحمته ، وتعوذا بمغفرته من سخطه . ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك « رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ » وقال الزمخشرىّ: لما اعتذر إليه أخوه، وذكر له شماتة الأعداء قال (رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى) ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تتم لهم شماتتهم. واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرّط فى حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ » أى من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصرىّ : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغال ، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب عن أبى قلابة الجرمىّ أنه قرأ هـذه الآية (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ) قال : هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان ، ولو كفراً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا » إلى الله « وَآمَنُوا » أى أخلصوا الإيمان « إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : محّاء لذنوبهم . منعم عليهم بالجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

« وَلَمَّا سَكَتَ » أى سكن « عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ » أى التى كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت « وَفِي نُسْخَتِهَا » أى فيما نسخ منها، أى كتب. و(النسخة) فعلة بمعنى مفعول ، كالخطبة « هُدًى وَرَحْمَةٌ » بالشرائع والوصايا الربانية ، المرشدة لما فيه الخير والصلاح « لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » أى يخشون .

لطيفتان :

الأولى ـ قال أبو السعود : فى هـذا النظم الكريم ، يعنى قوله تعالى (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)، من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول ، منزلة الآمر بذلك ، المغرى عليه، بالتحكم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت ـ مالا يخفى . انتهى .

وأصله للزمخشريّ حيث قال : هـذا مَثَلٌ . كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هـذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق

صحيح ـ إلا لذلك ؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة (وَلَمَّا سَكَنَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ؟ انتهى .

ومراده بالمثل كونه استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص آمرٍ ناهٍ ، وأثبت له السكوت تخييلا .

وعدّ بعض أهل العربية الآية من المقلوب، أى من نمط قلب الحقيقة إلى المجاز، وكأن الأصل (وَلَمَّا سَكَتَ مُوسَىٰ عَنِ ٱلْغَضَبِ) كما فى خرق الثوب المسمار .

قال فى (الانتصاف) والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح، لما فيه من المعنى البليغ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى، حتى كأنه كان يصرفه فى أوامره. ومثل هذه النكتة الحسناء ، لاتلفى فى (خرق الثوب المسمار) . انتهى .

وقرئ سكن وسَكَّتَ وأسكت ، أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه .

الثانية ـ اللام فى (للذين) متعلقة بمحذوف ، صفة (لرحمة) أى كائنة لهم . أو هى لام الأجل ، أى هدى ورحمة لأجلهم : واللام فى (لربهم) لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى : (إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ)[1] أو هى أيضاً لام العلة، والمفعول محذوف. أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، لا للرياء والسمعة . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٥] (وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ، فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ)

«وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

(١) [١٢ / يوسف / ٤٣] .

شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام ، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامرىّ ما قال ، وحرق العجل ، وذرّاه فى اليمّ ، اختار من بنى إسرائيل سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله ، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طورسيناء لميقات وقّتَهُ له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلمٍ ، فقال له السبعون ـ فيما ذكر لى ـ حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعلُ . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلَّه ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب . ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعلْ ولا تفعلْ ، فلما فرغ إليه من أمره ، وانكشف عن موسى الغمام ، أقبل إليهم ، فقالوا لموسى : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ)(١) وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد ، فماتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ) قد سفهوا ، أتهلك مَنْ ورائى من بنى إسرائيل؟

وفى رواية السدّىّ : فقام موسى يبكى ويقول : يا رب ! ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم ، وقد أهلكتَ خيارهم ، (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ) .

وقال ابن إسحق : اخترت منهم سبعين رجلاً ، الخيّر فالخير ، أرجع إليهم ، وليس معى رجل منهم واحد ، فما الذى يصدقوننى أو يأمنوننى عليه بعد هذا ؟ وعلى هذا فالمعنى : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموننى .

وقال الزجاج : المعنى لو شئت أمتّهم من قبل أن تبتليهم ، بما أوجب عليهم الرجفة . انتهى.

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] .

قال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) بعد نقل كلام من ذكرنا : وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود ، والذى يظهر ـ والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه ، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم. يقول موسى : إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل . وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول : لو شئت واخذتنى قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسعنى عفوك أولاً ، فليسعنى اليوم . ثم قال نبى الله : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فقال ابن الأنبارى وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد ، أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل .

قال الفرّاء : ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم (أَرِنَا ٱللَّـهَ جَهْرَةً) . انتهى .

واستظهار أن هذا استفهام استعطاف ، سبقه إليه المبرّد .

تنبيه :

قال فى (اللباب) : معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة ، أى ثم أُحْيُوا . وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجفة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيأة ، أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك ، راحمهم وخاف عليهم الموت ، واشتد عليه فقدهم ، وكانوا له وزراء على الخير ، سامعين له مطيعين ، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه ، فكشف الله عنهم تلك الرجفة ، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله . والله أعلم .

« إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ » أى ماالفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحنتهم ، فالأمر كله لك وبيدك . لا يكشفه إلا أنت . كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائذون بك

منك ، ولاجئون منك إليك . يعنى إنِ الأمر إلّا أمرك ، والحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء .

قال الواحدىّ : هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية ، التى لا يبقى لهم معها عذر . « أَنتَ وَلِيُّنَا » أى متولى أمورنا القائم بها « فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

« وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » أى أثبت لنا فيها خصلة حسنة ، كالعافية والحياة الطيبة ، والتوفيق للطاعة « وَفِي الْآخِرَةِ » أى حسنة أيضاً ، وهى المثوبة الحسنى والجنة . « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى تبنا إليك . يقال : هاد إليه يهود ، إذا رجع وتاب ، فهو هائد . ولبعضهم : يا راكب الذنب هُدْ، هُدْ واسجد كأنك هُدْهُدْ

وقال آخر : * إنى امرؤ مما جَنَيْتُ هَائِدُ *

قال أبو البقاء : المشهور ضم الهاء ، وهو من (هاد يهود) إذا تاب . وقرئ بكسرها ، من (هاد يهيد) إذا تحرك أو حرك ، أى حركنا إليك نفوسنا ، وعلى القراءتين ، يحتمل الوجهين ، البناء للفاعل والمفعول ، بمعنى ملنا أو أمالنا غيرنا ، أو حركنا أنفسنا ، أو حركنا غيرنا ، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى ، وإن اختلف التقدير .

« قَالَ » استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: فماذا قال تعالى فى جواب دعاء موسى ؟ فقيل قال « عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » أى تعذيبه من العصاة « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة ،

كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ)(١) ولعلها هى المراد هنا ، بدليل مقابلتها بـ (العذاب) قبل، كما قابل الآية التى ذكرناها بقوله (وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا)(٢) والله أعلم . « فَسَأَكْتُبُهَا » أى هذه الرحمة « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى الكفر والشرك والفواحش « وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ » أى يعطون زكاة أموالهم « وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا » أى بكتابنا ورسولنا « يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا ، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعى أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ، لذلك قالوا (إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ) . وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر، ويخص بالثواب المؤمن، فلذلك فصل . ومن تأمل هذا السؤال والجواب ، عرف عظيم محل هذا البيان ، لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شىء يصح عليه التنعم ، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها . وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذى هو التصديق ، حتى ينضم إليه الطاعات ، فيبطل قول المرجئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« ٱلَّذِينَ » بدل من الموصول الأول ، بدل الكل، أو منصوب على المدح، أو مرفوع

---

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .

عليه، أى أعنى الذين أوهم الذين « يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ » أى الذى أرسل إلى الخلائق لتكميلهم « ٱلنَّبِيَّ » أى الذى نبئ بأكمل الاعتقادات والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحى « ٱلْأُمِّيَّ » أى الذى لم يحصل علماً من بشر «ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا »أى باسمه (محمد وأحمد) ونعوته « عِندَهُمْ » زيد هـذا لزيادة التقرير ، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا « فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ » يعنى الإيمان بالله. ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع «وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ »يعنى الكفر والشرك والمعاصى ومساوئ الأخلاق، لأن العقل والشرع ينكره «وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ » أى التى حرمت عليهم لمعاصيهم «وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ » أى التى كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم ـ هذا فى باب المأكولات « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ » أى الأمر الذى يثقل عليهم من التكاليف الشاقة «وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ » جمع (غُلّ) بالضم ، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة، أى يخفف عنهم ما كلفوه منها ـ وهذا فى باب العبادات « فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ » أى بالنبى الأمى وهو محمد ﷺ « وَعَزَّرُوهُ » أى عظموه ووقروه « وَنَصَرُوهُ » أى على أعدائه فى الدين فمنعوهم عنه « وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ) وهو القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه .

ولا يقال : القرآن أنزل مع جبريل ، فما معنى (أُنزِلَ مَعَهُۥٓ)؟ لأن المراد أنزل مع نبوته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق بـ (اتبعوا) أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى ، والعمل بسنته ، وبما أمر ونهى عنه ، فيكون أمرًا بالعمل بالكتاب والسنة ، أو هو حال ، أى اتبعوا القرآن كما اتبعه ، مصاحبين له فى اتباعه . وفى التعبير عن القرآن بـ (النور) المنبىء عن كونه ظاهرًا بنفسه لإعجازه ، ومظهرًا لغيره من الأحكام، لمناسبة الاتباع «أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »الفائزون بالرحمة ، والناجون من النقمة.

تنبيهات :

الأول ـ يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى (قَالَ عَذَابِي . . .) الخ جواب لموسى عليه السلام، وذلك أنه دعا بالمغفرة لقومه أجمعين ، كتابه حسنتي الدنيا والآخرة لهم، فأجيب أولًا بأن ذلك لا يحصل لقومه كلهم ، برًّا أو فاجرًا ، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلًا . ولذلك قرأ الحسن وزيد بن عليّ هنا (لمن أساء) فعل ماض من (الإساءة) ، وفي طيه أن ما أصاب قومه من الرجفة هو من عذابه تعالى ، الذي شاء إصابتهم به لأفاعيلهم . وثانيـًا إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات ، المتبعون للنبيّ الأميّ ، فمن استقام على هـذه الشرائط ، كتب له ذلك . ولا يقال ـ على هذا ـ كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه ؟ لأنا نقول : الاتباع أعم من الاتباع (بالقوة)، وذلك بالإيمان به إجمالًا ، حسبما أشار له الكتابان لمن تقدم موته على زمن بعثته، وإما (بالفعل) لمن لحق زمان بعثته . وفيه تبشير لموسى بالنبيّ ﷺ ، وتعريف له بشأنه ، وإعلام بشأنه ، بأن كتابة الرحمة موقوفة على اتباعه . وعليه فيكون قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) بدلا من الموصول الأول، بدل الكل . أو منصوب على المدح ،أو مرفوع عليه. أي : أعني الذين ، أو هم الذين .

وقال بعضهم : إن جواب موسى ينتهي إلى قوله تعالى (ٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ) ومابعده مستأنف ، فكأنه تعالى أعلم موسى بأنه ذو عذاب ، يصيب به من يشاء ، كما أصاب أصحاب الرجفة . وذو رحمة واسعة ، تكتب للمتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات ، أي فأمر قومك بأن يكونوا من الفريق المرحوم بالمشي على هذا الوصف المرقوم . ثم استأنف تعالى الإخبار عمّن يتبع النبيّ الأميّ بأنهم المفلحون حقًّا، وعليه فيكون قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) مبتدأ خبره (أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) ، وتكون القصة استتبعت أعقاب بني إسرائيل ، بأنهم إذا اتبعوا النبيّ الأمي ، كانوا هم المفلحين .

وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى (قَالَ عَذَابِىٓ) ارتجال خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم. قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له ، صلى الله عليه وسلم بأنهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه ، حقت لهم رحمته تعالى الواسعة ، وإلا فلا يأمنوا أن يصابوا بانتقامه تعالى ، كما جرى لأسلافهم . وفى ذلك كله من التنويه بشأن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المتقين ، ما لا يخفى .

الثانى ـ تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان ـ هذا ما ذكر فى اللغة . وعندى أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة ، كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ)[1] بدليل المقابلة بقوله (وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا)[2] فلعل الرحمة فى قوله تعالى هنا : (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) بمعنى الجنة ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل . والله أعلم .

وقال أبو منصور : ما من أحد مسلم وكافر ، إلا وعليه من آثار رحمته فى هذه الدنيا . بها يتعيشون ويؤاخون ويوادّون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، لاحظّ للكافر فيها . وذلك قوله (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)[3] أى : معصية الله، والخلافَ له، (وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) ، كقوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ)[4] جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر ، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، لاحظّ للكافر فيها . فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد فى هذه الدنيا ، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة فى الآخرة ويحتمل قوله ـ والله أعلم ـ . (وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ)[5] أنهم سألوا الرحمة ، فقال : سأكتبها للذين يتقون معاصى الله ومخالفته . انتهى .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٥٦] . (٤) [٧ / الأعراف / ٣٢] .
(٥) [٧ / الأعراف / ١٥٦] .

الثالث ـ إنما أفرد (الزكاة) بالذكر ، مع دخولها فى التقوى قبل ، لعلوّها وشرفها ، فإنها عنوان الهداية ، ولأنها كانت أشق عليهم ، فذكرها لئلا يفرّطوا فيها .

الرابع ـ كونه صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، أمر مقرر مشهور . وهل صدر عنه ذلك فى كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور[١] ، أو أنه لم يكتب ، وإنما أسند إليه مجازا ، أو أنه صدر منه ذلك معجزة ؟ ـ انظر فى (فتح البارى) تفصيله ـ .

و (الأمىّ) نسبة إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم كان ذلك ، كما فى الحديث[٢] : (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وأما نسبته إلى (أم القرى) فلأن أهلها كانوا كذلك. أو إلى (أُمِّهِ) كأنه على الحالة التى ولدته أمه عليها . وقيل : إنه منسوب (إلى الأَمّ) ـ بفتح الهمزة ـ بمعنى القصد ، لأنه المقصود ، وَضَمُّ الهمزة من تغيير النسب . ويؤيده قراءة يعقوب (الأَمىّ) ـ بفتح الهمزة ـ ، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً. وإنما وصفه تعالى به تنبيها على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته . فهى له مدح وعلوّ كعب ، لأنها معجزة له ، كما قال البوصيرىّ .

* كَفَاكَ بالعلمِ فى الأمّى مُعْجِزَةً *

كما أن صفة التكبر لله مادحة ، وفى غيره ذامة ، كذا فى (العناية) .

الخامس ـ فى قوله تعالى: «ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ) إشارة إلى بشائر الأنبياء عليهم السلام ، بنبوته ﷺ .

قال الماوردىّ فى (أعلام النبوة) فى الباب الخامس عشر فى بشائر الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٤ ـ كتاب الشهادات ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أجل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ ورقم ٨٨٢ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ـ كتاب الصوم، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ «لا نكتب ولا نحسُب » حديث رقم ٩٦٨ .

إن لله تعالى عوناً على أوامره ، وإغناءً عن نواهيه ، فكأن أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة ، بما تُقدمه من بشائرها ، وتبديه من أعلامها وشعائرها ، ليكون السابق مبشراً ونذيراً ، واللاحق مصدقاً وظهيراً ، فتدوم بهم طاعة الخلق ، وينتظم بهم استمرار الحق . وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء ، بنبوّة محمد ﷺ ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثا على القبول . فمنهم من عيّنه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ، ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصّه بأفعاله ، ومنهم من ميّزه بظهوره وانتشاره . وقد حقق الله تعالى جميعها فيه ، حتى صار جليا بعد الاحتمال ويقيناً بعد الارتياب ، ثم سرد الماوردىّ البشائر من نصوص كتبهم .

وجاء فى (إظهار الحق) مانصه : إن الإخبارات الواقعة فى حق محمد ﷺ ، توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب . ومن عرف أولًا طريق إخبار النبىّ المتقدم ، عن النبىّ المتأخر ، على ماعرفتَ فى الأمر الثانى ـ يعنى فى كلامه ـ ثم نظر ثانياً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات ، وقابلها بالإخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى عليه السلام ، جزم بأن الإخبارات المحمدية فى غاية القوة .

وجاء فى (منية الأذكياء فى قصص الأنبياء) ما نصه : إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته . غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه ـ يعنى من نسخهم الأخيرة ـ إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً ، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان فى اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد ، قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات ، ليبعد صدقها على النبىّ عليه الصلاة والسلام . فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع ، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولاما قصد

به ، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع ، وتيسر المقابلة بينها . وها نحن نورد شذرة من البشائر لديهم :

فمنها : فى الباب السادس عشر من سفر التكوين فى حق هاجر هكذا :

١١ ـ وقال لها ملاكُ الربِّ أنتِ حُبْلَى فتلدين ابناً . وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .

١٢ ـ وإنه يكون إنساناً وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه . وأمامَ جميع إخوته يسكن .

هذه بشارة بمحمد ﷺ ، لا بجده إسماعيل ، لأن إسماعيل عليه السلام ، لم تكن يده فوق يد الجميع ، ولا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص . بل فى التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أُخرجا من وطنهما مكرهيْن ، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق ، وكان الملك والنبوة فى بنى إسحق ، وكان بنو إسماعيل فى البرارى العطاش ، ولم يسمع أن الأمم دانت لهم ، حتى بعث رسول الله ﷺ ، فدانت له الملوك ، وخضعت له الأمم ، وعلت يده وأيدى بني إسماعيل على كل يد ، وصارت يد كلٍّ بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده . كما أن فى مواضع كثيرة من التوراة ، ذكر يعقوب ، والمقصود بالذكر ولد يعقوب . فمن ذلك قوله فى السفر الخامس : (يَاإِسْرَآءِيلُ ! أَلَا تَخْشَى ٱللَّـهَ رَبَّكَ ، وَتَسْلُكُ فِى سَبِيلِهِ وَتَعْمَلُ لَهُ) ؟ فهذا خطاب لبنى إسرائيل باسم أبيهم ، وكذلك قوله لقوم موسى : (اسمع إسرائيل ، ثم احفظ ، واعمل يحسن إليك ربك ، وتكثر وتنعم) ونظائره كثيرة . فظهر أنه قد يذكر اسم الأب ، ويراد الابن مجازاً ، بقرينة الحال ، وإلا لزم الخلف فى خبره تعالى .

ومنها : فى الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا :

١ ـ وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجلُ الله بنى إسرائيل قبل موته .

٢ ـ فقال : جاء الربّ من سيناءَ وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فَارَانَ وأتى من رِبْوَاتِ القُدْسِ وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم .

ولا غموض بأن مجئ الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إنزاله التوراة على موسى بطور سينا ـ هكذا يفسره أهل الكتاب ـ والأمر كذلك فيجب أن يكون إشراقه من سعير عبارة عن إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سعير بقرية تدعى (ناصرة، واسم النصارى مأخوذ منها . واستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد فى جبـــل فاران . وفاران هى مكة ، لا يخالفنا فى ذلك أهل الكتاب . ففى الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل عليه السلام هكذا :

٢٠ ـ وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرِّيَّة. وكان ينمو رامِيَ قوس .

٢١ ـ وسكن فى برِّيَّة فَارَانَ . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه فى مكة ، وفيها مات ، وبها دفن . وهـــذه البشارة صريحة فى نبينا ﷺ ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمه لا يعرف القمر . فأى نبيّ ظهر فى مكة بعد موسى غير محمد ، وانتشر دينه فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما يقتضيه الاستعلاء المذكور فى البشارة .

ومنها : فى الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

١٧ ـ قال لى الربّ قد أحسنوا فى ما تكلموا .

١٨ ـ أُقيم لهم نبيًّا من وسْط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به .

١٩ ـ ويكون أن الإنسانَ الذى لا يسمع لـكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه .

هذا البشارة فى حق نبينا ﷺ قطعاً، لأنه من ذرية إسماعيل، وذريته يسمون إخوة لبنى إبراهيم ، بدليل ما ذكر فى التوراة فى حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته ، ينصب المضارب . وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام ، عن بعد بعيد، إخوةً

كما دعى فى القرآن هود وصالح ، إخوة لعاد وثمود ، مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام .

وكما قيل فى سفر العدد فى الباب العشرين :

١٤ ـ وأرسل موسى رسلا من قَادَشَ إلى ملك أُدُومَ . هكذا يقول أخوك إسرائيل قد عرفتَ كلَّ المشقة التى أصابتنا (مع أنهما أبناء أعمام على بعدبعيد) .

وليست هذه الشهادة فى حق أحد من أنبياء بنى إسرائيل ، وإلّا ، لقال : وسوف أقيم لهم نبيا مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام لولد إسماعيل (رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ) وكما قال تعالى فى خطاب بنى إسماعيل : (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وأما مازعمته اليهود من أن المراد يوشع ، فتى موسى ، فهو باطل من وجوه :

١ ـ أن المبشر به من إخوة بنى إسرائيل ، لا من نفس بنى إسرائيل ، ويوشع كان من نفس بنى إسرائيل .

٢ ـ أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما فى آخر سفر الثثنية .

(الأصحاح الرابع والعشرون) .

١٠ ـ ولم يقم بعدُ نبيٌّ فى بنى إسرائيل مثلُ موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه .

ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى .

٣ ـ أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير إليه بعبارة صريحة قبل هذه فى الباب الأول من هذا السفر .

٣٨ ـ يَشُوعُ بن نونٍ الواقفُ أمامك هو يدخل إلى هناك . شدِّده لأنه هو يقسمها لإسرائيل .

فأى مقتضٍ للرمز والتلويح ، بعد هذا التصريح ؟ وأى موجب لإدخال (سوف) الدالة على الاستقبال على فعل حاصل فى الحال ؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المراد به عيسى عليه السلام ، فهو أيضاً باطل ، لوجوه :

١ ـ أنه من بنى إسرائيل ، والمبشَّر به هنا من غيرهم .

٢ ـ أن موسى بشَّر بنبيّ مثله ، وهم يدّعون أن عيسى إله ، وينكرون كونه نبيًّا مرسلًا ، وإلا لزم اتحاد المرسِل والمرسَل ، وهو غير معقول . على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام ، أقوى من مشابهته لعيسى ، لاتّحادهما فى أمور :

١ ـ كونهما ذَوَىْ والدَيْنِ وأزواج ، بخلاف عيسى عليه السلام .

٢ ـ كونهما مأمورَيْنِ بالجهاد ، بخلاف عيسى عليه السلام . وقد أشار فى هذه البشارة بقوله : **١٩** ـ ويكون أى الإنسان الذى لا يسمع لكلامى ، الذى يتكلم به باسمى ، أنا أطالبه . إلى كون هذا النبيّ مأمورًا بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله ، والانتقام منه بسيفه البتّار . وزعمت النصارى أن الانتقام هنا بمعنى العذاب الأخرويّ لمنكريه ، وهو خطأ ، لأن ذلك لا يختص بهذا النبيّ ، بل كل من أنكر ما جاء به نبيّ من الأنبياء ينتقم منه فى الآخرة ، فلا معنى لتخصيص هذا النبيّ بالذكر حينئذ .

٣ ـ كون شريعتهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء ، وإيجاب الطهارة وقت العبادة ، وهذه كلها ليست موجودة فى شريعة عيسى عليه السلام ـ على ما تقول النصارى ـ ونظائر ذلك كثيرة . وفى هذه البشارة إشارة إلى كون هذا النبيّ أميًّا لا يقرأ ، حيث قال (يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى) وبذلك تعرف سر وصفه به فى قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ...) الآية التى نحن فى صددها .

ومنها ـ فى الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد ، روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ، ولا يعرفه . وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم ، وهو ثابت فيكم) . وهذه بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس

من يقوم مقامه ، وينوب فى تبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، مقابه ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، وهل هذا إلا محمد ﷺ . و (الأب) هنا بمعنى الرب والإله ، لأنه اصطلاح أهل الكتابين . وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه (روح الحق) إلى أن الحق قبل مبعثه لا يكون كالميت لا حراك له ، ولا انتعاش ، وأنه إذا بعث يكون كالروح له ، فيرجع حينئذ قائماً فى الأرض . ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام ، هو الذى أحيي الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما اندرس ، ولم يبق فيه نفس . ثم قال : (والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب باسمى هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) . ولا شك بأن محمداً ﷺ هو الذى علم كل شيء من الحقائق ، وأوضح ما خفى من الدقائق ، وذكّر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عباد الله تعالى ، قربه إليه بالرسالة واصطفاه ، وأنه لم يَدْعُ لسوى عبادة الله وتوحيده ، وتنزيهه وتمجيده . وقوله (باسمى) أى بالنبوة . ثم أبان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتى فقال : (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون . حتى إذا كان ، تؤمنون) .

وفى الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور : (فأما إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق ، وهو يشهد لأجلى ، وأنتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء) .

وفى الباب السادس عشر منه : (لكنى أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أنطلق ، لم يأتكم الفارقليط . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ذاك ، فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وعلى بر ، وعلى حكم . أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بى . وأما على البر فلأنى منطلق إلى الأب ، ولستم ترونني بعدُ . وأما على الحكم ، فإن رئيس هذا العالم قد دين . وإن لى كلاماً كثيراً أقوله لكم ، ولكنكم لستم تطيقون حمله . وإذا جاء روح الحق ذاك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما سيأتى ، وهو يمجدنى ، لأنه يأخذ مما هو لى ، ويخبركم جميع ما هو للأب ، فهو لى . من أجل هذا قلت (إن مما هو لى يأخذ ويخبركم) . ومن أمعن النظر فى هذه

العبارات ، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحاوى والإشارات جزم بأن (الفارقليط) هو محمد ﷺ ، فإنه هو الذى ظهر بعد عيسى عليه السلام ، وشهد لعيسى بالنبوة والرسالة ، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية ، ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً ، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل ، بريئة الساحة ، وهو الذى وبخ العالم ، سيما اليهود ، على الخطايا ، لاسيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام ، والطعن فى والدته الطاهرة البتول ، وهو الأمين الصادق ، الذى علم جميع الحقائق ، وهو الذى أبان من الأسرار مالم تطق تحمله قبل مجيئه الأفكار ، وهو الذى ، لا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ [١] .

وفسر العلامة ابن قتيبة (روح الحق الذى من الأب ينبثق) أى يصدر بكلام الله المنزل ، واستدل بقوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)[٢] والمراد به هنا القرآن الكريم ، لأنه هو الذى يشهد للمسيح بالنبوة والنزاهة ، عما افترى عليه ، وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، كما شهد الحواريون الذين كانوا معه ، واهتدوا بهديه . ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك ، فتعيّن أن يكون هو المراد .

وفى قول عيسى عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل .

ولفظ (فارقليط) يونانىّ الأصل ، قيل : أصله باراكلى طوس ، بمعنى المعزّى والمعين والوكيل أو الشافع . وقيل : بيركلوطوس ، فيكون قريباً من معنى محمد وأحمد .

معلوم أن المسيح عليه السلام ، كان يتكلم باللسان العبرانىّ ، الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانىّ ، لأنه كان عبرانيًّا ابن عبرانية ، نشأ فى قومه العبرانيين ، فنقلُ أقواله فى هذه الأناجيل ، نقل بالمعنى . فترجيح من رجح من النصارى ، أن أصل فارقليط هو الأول ترجيح بلا مرجح ، والتفاوت بين اللفظين يسير جدًّا ، والحروف اليونانية

(١) [٥٣ / النجم / ٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

متشابهة . وأيًّا كان أصله ، فالا ستدلال صحيح ، لصدق اللفظ بمعانيه كلها على النبيّ ﷺ صدقاً جليا، لايخفى إلا على مشاغب .

وقد كانت هذه البشارة سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان ، كما بينه فى كتابه (تحفة الأديب فى الرد على أهل الصليب) .

وقد نبذ النصارى بعدُ الأناجيلَ المصرحة باسم (محمد) لكونها شجى فى حلوق أهوائهم ، كإنجيل (برنابا) ففيه التصريح بقوله (إلى أن يجىء محمد رسول الله) كما نقله فى (إظهار الحق) .

وإذا كان حالهم فى تراجمهم ، فى لقب إلههم ، ولقب خليفته ما علم ـ فكيف يرجى منهم صحة بقاء لفظ (محمد أو أحمد) ؟ ! ألا إن سيف الحق أمضى ، وسهام الصواب أنفذ ، فثمة من الأوصاف الصريحة ، والأشائر الصحيحة ، مالا يبقى معه وقفة لحائر .

هـــذا ، وفى كتبهم بشائر كثيرة ، تعرض لذكرها جلة من العلماء ، مما أناف على العشرين .

قال الماوردىّ : لعل مالم يصل إلينا منها أكثر . وقد اقتصرنا على ماقدمنا ، رَوْماً للاختصار ، ولسهولة الوقوف على البقية ، من مثل (أعلام النبوّة للماوردىّ) و (إظهار الحق) وغيرهما .

وقد قال صاحب (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله ، عليه رحمة الله: إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى فى القرن الأول ، شهد بوجود البشارات المحمدية فى كتب العهدين ، مثل عبد الله بن سلام ، وابنى سعية ، وبنيامين، ومخيريق ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود. ومثل بحيرا ونسطورا الحبشى ، وضغاطر ، وهو الأسقف الرومىّ الذى أسلم على يد دِحْيَةَ الكلبىّ وقت الرسالة فقتلوه . والجارود ، والنجاشى ، والسوس ، والرهبان الذى جاءوا مع جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وغيرهم من علماء النصارى . وقد اعترف بصحة نبوته ، وعموم

رسالته ، هرقل قيصر الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وحُيىّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ، ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا .

ولما ورد على النبىّ صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وحاجّهم فى شأن عيسى عليه السلام وحجّهم ، دعاهم إلى المباهلة بأمره تعالى ، فنكصوا على أعقابهم ، خوفا من شؤم مغبتها، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها (وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)[1].

السادس ـ قوله تعالى (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ) يحتمل أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون مفسرًا لـ (مَكْتُوبًا) أى لما كتب .

السابع ـ الطيبات أعم من الطيبات فى المآكل كالشحوم ، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام . ومن الطيبات فى حكم الشريعة كالبيع ، وما خلا كسبه عن سحت . وكذا الخبائث ما يستخبث ، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به ، أو ما خبث فى الحكم كالربا والرشوة وغيرها من المكاسب الخبيثة. قيل: يستبعد إرادة ماطاب أو خبث فى الحكم ، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله ، أو حكم بحرمته ، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله ، ويحرّم ما يحكم بحرمته ، ولا فائدة فيه . وردّوه بأنه يفيد فائدة وأىّ فائدة ! لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع ، لا بالعقل والرأى .

الثامن ـ فى قوله تعالى(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ) إشارة إلى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال[2] : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال ﷺ[3] لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرىّ ، لما بعثهما إلى اليمن : بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢٧ / النمل / ١٤] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) من حديث طويل رواه أبوأمامة عنه ﷺ . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٦٤ ـ باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصا إمامه ، حديث ١١٢٩ .

وقدمنا أن (الإصر والأغلال) استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة . فمنها تحريم طبخ الجدى بلبن أمه ، ومنها نظام الأعياد التى يعيّدونها لله فى السنة وهى عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال . وكذلك عيد كل سبت ، لا يعمل فيه أدنى عمل . وكذلك سبت المزارع . ففى كل سنة سابعة سبت للأرض ، لا يزرع فيها ، ولا يقطف الكروم ، بل تترك الأراضى عطلًا ، وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية . ومنها أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما يقتل حدًّا . وكذا من يعمل يوم السبت يقتل . ومن كان به جن أو تابعة يرجم بالحجارة حتى يموت . ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة ، ثم تبيّن كذبه ، جميعاً يقتلان . وإذا أمسكت امرأةٌ عورةَ رجل تقطع يدها . وإذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات المنطوح ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه . ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم . ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر ، وطلقها أو مات عنها ، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها . وغير ذلك من الآصار التى تقدم بعضها فى آخر سورة البقرة ـ فراجعه ـ .

التاسع ـ قال الجشمىّ : تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان فى الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة . وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدى إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النصرة . وهذا لا يختص بعصره . فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجة ، ووضع الكتب فيه ، وحلّ شبه المخالفين ، يزيد فى كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا (منازل العلماء فى ذلك أعظم المنازل) اهـ .

العاشر ـ قال العلامة البقاعىّ : لما تراسلت الآى ، وطال المدى فى أقاصيص موسى عليه السلام ، وبيان مناقبه العظام ، ومآثره الجسام ، وكان ذلك ربما أوقع فى بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً ، وأعظمهم رتبة ـ ساق سبحانه هذه الآيات ، هذا السياق ، على هذا

الوجه ، الذى بين أعلاهم مراتب ، وأزكاهم مناقب ، الذى خص برحمتـــه من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلا . وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل ، اهتماماً به ، وتعجيلاً له ، مع ما سيذكر ، مما يظهر أفضليته ، ويوضح أكمليته ، بقصته مع قومه ، فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه ، فى سورة (الأنفال) و (براءة) بكمالها .

ثم قال البقاعىّ : لما تم ما نظمه تعالى فى أثناء هذه القصص ، من جواهر أوصاف هذا النبى الكريم ، حث على الإيمان به ، إيجاباً له على وجهٍ علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف ، تقدم زمانه أو تأخر ـ أمرَهُ سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه ، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه ، تحقيقاً لعموم رسالته ، وشمول دعوته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ، فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » أى كافة « ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ » نعوتٌ للفظ الجلالة ، أى الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة . والآية نصٌّ فى عموم بعثته للأحمر والأسود ، والعربىّ والعجمىّ . وفى الحديث : أعطيت خمساً لم يعطهن نبىٌّ قبلى ـ ولا أقولهن فخراً ـ بُعثت إلى الناس كافة ، الأحمر والأسودِ ؛ ونصرت بالرعب مسيرةَ شهر ؛ وأُحلّت لى الغنـائم ، ولم تحلّ لأحد قبلى ؛ وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، فَأَخَّرْتُهَا لأمتى ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً . رواه الإمام أحمد(١) عن ابن عباس

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٤٢ (طبعة المعارف) .

مرفوعاً، ورواه[١] أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلى . أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان مَنْ قبلى إنما يرسل إلى قومه ؛ ونُصرت على العدوّ بالرعب، ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لمُلئ منه رعباً ؛ وأحلت لى الغنائم ، آكلها ؛ وكان من قبلى يُعَظِّمونَ أكلها ، كانوا يَحْرِقُونها ؛ وجُعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً ، أينما أدركتنى الصلاة تمسَّحْتُ وصليتُ وكان مَنْ قبلى يُعَظِّمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بِيَعِهِمْ وكنائسهم ؛ والخامسة هى ما هى! قيل لى : سل ، فإن كل نبيّ قد سأل ، فأخرتُ مسألتى إلى يوم القيامة ، فهى لكم ، ولمن يشهد أن لا إله إلا الله .

قال الحافظ ابن كثير : إسنادهما جيد قوىّ .

وروى الإمام أحمد بمعناه عن ابن عمر وأبى موسى ، وهو ثابت فى الصحيحين[٢] عن جابر .

وأخرج مسلم[٣] عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ! لا يسمع بى رجل من هذه الأمة ، يهودىّ ولا نصرانىّ ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار « فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ » أى الذى نبئ ما يرشد الخلائق كلهم ، مع كونه أميًّا . وفى نعته بذلك زيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين « ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ » أى ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه « وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصحفة رقم ٢٢٢ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٠٦٨ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٦ ـ باب قول النبىّ ﷺ « جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا » حديث رقم ٢٣١ .
ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ)

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ » أى : موقنين ثابتين ، يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ، ويرشدونهم « وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ » وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم ، لا يجورون . والآية سيقت لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كَتْبِ الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعى رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام ، من كل خير ، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم . وقيل هم الذين آمنوا بالنبىّ ﷺ . ويأباه أنه قد مرّ ذكرهم فيما سلف . أفاده أبو السعود .

وهذه الآية كقوله تعالى (مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)(١) ، وقوله تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(٢)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَطَّعْنَٰهُمُ » أى قوم موسى « اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا » أى صيّرناهم قطعاً ، أى فرقاً ، وميزنا بعضهم من بعض . والأسباط : أولاد الولد ، وكانوا اثنتى عشرة قبيلة ، من اثنى عشر

(١) [٣ / آل عمران / ١١٣] . (٢) [٣/ آل عمران / ١٩٩] .

ولدًا ، من ولد يعقوب عليه السلام « أُمَمًا » أى عظيمة وجماعة كثيفة العدد « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ » أى فى التيه « أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ » فضربه « فَٱنۢبَجَسَتْ » أى انفجرت « مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا » بعدد الأسباط « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ » أى سبط منهم « مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ » فى التيه من حرّ الشمس « وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » حيث أوجبوا لها العذاب الدائم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦١] (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ، سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ » يعنى بيت المقدس، والقائل موسى عليه السلام، دعاهم إلى دخول بيت المقدس . أو يوشع ، فإنه دعاهم ، بعد وفاة موسى، إلى غزو بيت المقدس « وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ » أى قولوا حُطَّ عنا ذنوبنا ، وقيل: أمروا بكلمة إذا قالوها حَطَّ عنهم أوزارهم « وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ » أى باب القرية « سُجَّدًا » أى ساجدين أو خاضعين . أُمِروا بأن يدخلوها بالتواضع ، وكان ذلك شرطًا فى قبول فعلهم « نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ)

« فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا »

أى عذاباً « مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » وقد تقدم تفسير هذا كله فى سورة البقرة[(1)] بما يغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

« وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ)[(2)] . فقوله تعـــالى (وَسْئَلْهُمْ) عطف على (اذكر) المقدر عند قوله (وَإِذْ قِيلَ) أى واسأل اليهود المعاصرين لك ، سؤال تقريع وتقرير ، بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله ، وإعلاماً بأن هذا من علومهم التى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى .

وقال ابن كثير : أى : واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذّر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم .

و (هذه القرية) هى أيلة ، بين مدين والطور ، وقيل هى متنا ، بين مدين وعينونا . ومعنى كونها (حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ) أنها قريبة منه ، راكبة لشاطئه .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢ / البقرة / ٥٩] صفحة رقم ١٣٣ من التفسير .

(٢) [٢/ البقرة /٦٥].

وقوله تعالى : (إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ) أى يتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم فى يوم السبت ، وقد نهوا عنه ، فقد أخذت عليهم العهود والمواثيق أن يحفظوا السبوت من عمل ما .

و (الحيتان) السمك ، وأكثر ماتستعمل العرب الحوت ، فى معنى السمكة .

و (شُرَّعًا) جمع شارع ، من (شرع) بمعنى دنا . يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنا منا ، وأشرف علينا . وشرعت على فلان فى بيته ، فرأيته يفعل كذا ، وهو حال من (حِيتَانُهُمْ) أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء ، قريبة من الساحل ، ويوم لايسبتون لاتأتيهم أصلًا إلى السبت المقبل .

قرىء (يُسْبِتُونَ) ثلاثيًّا ، ومزيداً فيه ، من (أسبت) معلوماً ومجهولًا أيضا ، بمعنى ، لايدخلون فى السبت ، ولا يدار عليهم .

وقوله تعالى (كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع ، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء ، فى اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ، أى نعاملهم معاملة من يختبرهم ، بسبب فسقهم ، فيظهر عدوانهم ، فيستحقون المؤاخذة .

ثم بين تعالى تماديهم فى العدوان ، وعدم انزجارهم عنه ، بعد العظات والإنذارات ، بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ » أى جماعة من صلحائهم ، يحاورون فريقاً ممن دأَبَ فى عظتهم « لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ » أى : مخترمهم ومطهر الأرض منهم « أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

عَذَابًا شَدِيدًا » أى بل معذبهم عذاباً شديداً ، إذ مجرد الإهلاك قد يوجد معه لطف ، وأما شدة العذاب فتلك القاصمة « قَالُواْ » أى: الوعاظ « مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى نعظهم معذرة إليه تعالى ، لئلا ننسب إلى التفريط فى وصيته بالنهى عن المنكر . وقرئ بالرفع . أى موعظتنا معذرةٌ « وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى ورجاء فى أن يتقوا فيتوبوا فينجوا من الإهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

« فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ » أى فلما تركوا ماذكرهم به صلحاؤهم، ترك الناسى للشيء، وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً ، بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلًا « أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى : المرتكبين المنكر .

« بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ » أى: شديد، وزناومعنى « بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » بفعل المنكر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ)

« فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ » ، أى تكبروا وأبوا أن يتركوا مانهوا عنه « قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ » أى صاغرين أذلاء ، بُعَدَاءَ من الناس .

قال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقولٍ سُمِعَ .

وقال غيره : المراد بالأمر هو الأمر التكوينيّ ، لا القوليّ ، أى: التكليفيّ ، لأنه ليس فى وسعهم حتى يؤمروا به . وفى الكلام استعارة تخييلية . شبه تأثير قدرته تعالى فى المراد من غير توقف ، ومن غير مزاولة عمل واستعمال آلة ، بأمر المطاع للمطيع، فى حصول المأمور به، من غير توقف . كذا فى (العناية) .

وظاهر الآية يقتضي أن الله تعالى عذبهم أوّلا بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا وتفصيلا لما قبلها .

تنبيهات :

الأول ـ قال الجشميّ : تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت . وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ ، وأنهم خالفوا أمر الله، وهذا القدر يقتضيه الظاهر. ومتى قيل : أفظهور الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام ، هل كانت معجزة ؟ قلنا : اختلفوا فيه . فقيل : كان معجزة لنبيّ ذلك الزمان ، لأنه لا يتفق للسمك أن يأتي الأنهار كثيرا في يوم واحد ، ولا يظهر في سائر الأيام . فإن كان كذلك ، فلا بد أن الله تعالى قوّى دواعي الحيتان يوم السبت، فظهروا . وصرفهم في سائر الأيام، فلم يظهروا ، فكانت معجزة. وقيل : كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت ، فعلموا ذلك فكثروا في ذلك اليوم على عادتهم ، كما اعتاد الدواب كثيرا من الأشياء . انتهى .

وقد روى في اعتدائهم في السبت روايات :

منها ـ أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الحبائل والبرك قبل يوم السبت، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة ، نشبت بتلك الحبائل ، فلم تخلص منها يومها، فإذا كان الليل ، أخذوها بعد انقضاء السبت .

ومنها ـ أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل ، ولكن يأكلونها في غيره من الأيام، فتأول لهم الشيطان أن النهي عن الأكل فيه منها ، لا عن صيدها . فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت : مانراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف ، أو قذف ، أو ببعض ما عنده من العذاب . فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم ، وإذا هم قردة ـ رواه عبد الرزاق وابن جرير ـ وثمة روايات أخر .

وروى عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم ، لا أبدانهم ـ والله أعلم ـ .

الثاني ـ استُدِلَّ بهذه القصة على تحريم الحِيَلِ .

قال الإمام ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) : ومن مكايد الشيطان التى كادَ بها الإسلام وأهــله ، الحيل والمـكر والخداع ، الذى يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط مافرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه . وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه . فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص ، وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف ، وعملوابه . ورأى يخالف النصوص ، وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذى ذموه وأنـكروه . وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى، فهذا النوع محمود ، يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً، والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله . وقال فى سادسها :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لَمَّا احتالوا على إباحة ماحرمه الله تعالى عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد . قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ، ممن يتلبس بعــلم الفقه ، وهو غــير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حـدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عنـدها . ليس المتحيلَ على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه . ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تـكذيبا لموسى عليه السلام وكفرا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل . واحتيال ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة ، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفى أوصافه شبه منهم ، وهو مخالف له فى الحد والحقيقة . فلما نَسَخَ أولئك المعتدون دين الله تعـالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض ظاهره ، دون حقيقته ، مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم ، دون الحقيقة ، جزاء وِفَاقاً .

ثم روى فى عاشرها عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (١) : لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل .

الثالث ـ دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السمك يوم السبت ، كما بيّنا . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم . وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكم إياهم ؟ فأجابتها المنكرة : بأنا نفعل ذلك اعتذارا إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ثم نص تعالى على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين .

وقال ابن كثير : وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين ، أو من الناجين ؟ على قولين . ويروى أن ابن عباس كان توقف فيهم ، ثم صار إلى نجاتهم ، لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، وخالفوهم ، وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فكساه حلة .

الرابع ـ دل قوله تعالى (قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على أن النهى عن المنكر لا يسقط ، ولو علم المنكِر عدم الفائدة فيه . إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين ، والغيرة على حدود الله ، والاعتذار إليه تعالى ، إذ شدد فى تركه ـ لكفاه فائدة .

ولما ذكر تعالى بعض مساوئ اليهود ، تأثره ببيان أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة فقال سبحانه :

---

(١) رواه أبو عبد الله بن بطّة . انظر : الجزء الأول من (إغاثة اللهفان) ص ٣٤٨ (طبعة مصطفى الحلبيّ) عام ١٣٥٧ هـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ، وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ » أى آذن ، (كتوعد بمعنى أوعد) . من (الإيذان) بمعنى (الإعلام) أُجْرِيَ مجرى فعل القسم ، كعلم الله ، وشهد الله . ولذلك أجيب بما يجاب به القسم ، وهو قوله : « لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ » والمعنى : وإذ حتم ربك وحكم ، ليسلطن على اليهود « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك ، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم . وقد بعث الله تعالى ، بعد سليمان عليه السلام ، بختنصر مالك بابل ، فخرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وجلا كثيرا منهم إلى بابل ـ قصبة مملكته ـ وأقاموا فيها سبعين سنة ، ثم تسلطت عليهم ملوك شتى ، ولبثوا زماناً طويلا يكابدون بلاء عنيفاً ، من تواتر الحروب على بلادهم ، إلى أن صاروا جميعا تحت سلطة الرومان ، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة ، واستؤصلوا من أرضهم ، وتفرقوا فى البلاد شذر مذر ، صاغرين مقهورين. ومن هاهنا، استدل من استدل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز ، وباتصال ذلهم . « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ » لمن أقام على كفره ، ونبذ وصاياه «وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

ثم أخبر تعالى عن تبددهم فى الأقطار بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ، مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

«وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا » أى فرقنا بنى إسرائيل فى الأرض ، وجعلنا كل فرقة

منهم فى قطر من أقطارها ، بحيث لا تخلو ناحية منها ، منهم ، تكملة لإدبارهم ، حتى لا تكون لهم شوكة « مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ » أى من ينحط عن درجة الصلاح، لكفرٍ أوفسق « وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى بالنعم والنقم التى هى أمثلة جزاء الصلاح والفسق « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن أسباب السيئات إلى الحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ، وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء المذكورين « خَلْفٌ » أى بدل سوء . والمراد بهم الذين كانوا فى زمن رسول ﷺ . و (الخلف) مصدر ، ولذا يوصف به المفرد وغيره ، وقد شاع فى الطالح، ومفتوح اللام بـ(الصالح) ، وربما جاء عكسه «وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة من أسلافهم المختلفين ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهى ، والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها كما قال: « يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ » أى حطام هـذا الشىء الأدنى ، يريد الدنيا ، وما يتمتع به منها . وفى قوله (هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ) تخسيس وتحقير . و (العَرَض) بفتح الراء ، ما لا ثبات له ، ومنه استعار المتكلمون (العرض) لمقابل (الجوهر) . و (الأدنى) إما من الدنوّ بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب بالنسبة إلى الآخرة . وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » أى يتقاضون عن بذل الحق ونشره ، بعرض الحياة الدنيا ، ويتحكمون على الله تعالى بأنه لا يؤاخذهم بما أخذوا « وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ » الواو للحال ، أى يرجون المغفرة ، وهم مصرّون

عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين ، كلما لاح لهم مثل الأول أخذوه . « أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ » أى الميثاق الوارد فيه « أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ » أى فلو صح ما تحكموا به على الله ، لم يكن لأخذ هذا الميثاق معنى .

ثم أخبر تعالى أن أخذهم ليس عن جهلهم بذلك الميثاق بقوله : « وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ » أى قرأوا ما فى الكتاب من الميثاق مرة بعد مرة «وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ » أى من ذلك العرض الخسيس « لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى أخذ هذا الأدنى بدل كتم الحق «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى فتعلموا ذلك ، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب ، بالنعيم المخلد . وقرىء بالياء . وفى الالتفات تشديد للتوبيخ .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ)

«وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ» أى يتمسكون به فى أمور دينهم. يقال: مسّك بالشىء وتمسك به . وقرىء يُمْسِكون ، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا « وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع ، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق ، فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لإصلاحهم . فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت ؟ أجيب : بأن إفرادها ، إظهارا لمزية الصلاة ـ لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان .

قال الجشمىّ : تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب ، ووعد من تمسّك به، تنبيهاً

لنا وتحذيراً عن سلوك طريقهم . وتدل على أن الاستغفار باللسان ، وتمنى المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

«وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» أى رفعناه «كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ» أى سحابة «وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ» أى ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت فى الجوّ «خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم» أى وقلنا، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من أحكام التوراة «بِقُوَّةٍ» أى عزيمة وجد «وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ» أى بالعمل ولا تتركوه كالمنسىّ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى مساوئ الأعمال ، أو راجين أن تنظموا فى سلك المتقين . وهذه الآية كقوله تعالى (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ)(١).

وقد روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنهم راجعوا موسى فى فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رءوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها ، لأرمينكم بهذا! فخرّوا سجّداً ، فرَقاً من أن يسقط عليهم ـ رواه النسائى(٢) وسنيد ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧٢] (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُواْ بَلَىٰ ، شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ)

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى أخرج من أصلابهم

(١) [٤ / النساء / ١٥٤] . (٢) لم أهتد إليه .

نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات ، ثم جعلت علقة ، ثم مضغة ، ثم أنشأهم بشراً سويًّا حيًّا مكلفاً ، فجعل خلقه إياهم كذلك ، إخراجاً من أصلابهم ، لأن أصلهم خرج منها . و (مِن ظُهُورِهِمْ) بدل من (بَنِىٓ ءَادَمَ) بدل البعض . وقرئ (ذرياتهم) « وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها ، تقريراً لهم بربوبيته التامة .

قال الجشمىّ : أى أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقته ، وغرائب صنعته ، من أعضاء سوية ، وحواس مدركة ، وجوارح ظاهرة ، وأعصاب وعروق وغير ذلك ، مما يعلمه من تفكر فيه ، وكلها تدل عليه وعلى صفاته ووحدانيته ، فبالإشهاد بالأدلة ، صار كأنه أشهدهم بقوله .

وقوله تعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) على إرادة القول ، أى قائلا : ألست بربكم ، ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شؤونكم ، فينتظم استحقاق المعبودية ، ويستلزم اختصاصه به تعالى « قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ » أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك ، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصنعة ، صاروا كأنهم قالوا (بلى) ، وإن لم يكن هناك قول باللسان . فالآية من باب التمثيل المعروف فى كلام العرب . مثّل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد ، وإخراجهم من ظهور آبائهم ، شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب ، بحمله إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلًا . والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية ، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة . قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ) [1] والفطرة هى معرفة ربوبيته .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] .

وفى الصحيحين [١] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أوينصّرانه أويمجّسانه كما تنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

والجماء سالمة الأذن ، والجدعاء مقطوعتها .

وفى صحيح مسلم [٢] عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ : يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم .

وروى الطبرى عن الحسن عن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله ﷺ : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهوّدانها أوينصّرانها .

قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ...) الآية ـ رواه الإمام أحمد [٣] والنسائى ، بدون استشهاد الحسن بالآية .

وأما الأخبار المروية فى إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتكليمه تعالى إياهم ، ونطقهم ، ثم إعادتهم إلى صلب أبيهم ـ فغير صحيحة الإسناد . وما حَسُنَ إسناده منها فغير صريح فى ذلك ، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية ، كما بينه الحافظ ابن كثير . قال رحمه الله :

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهـذا الإشهاد فطرهم على التوحيد ، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض والأسود . وقد فسر الحسن الآية بذلك .

قالوا : ومعنى (أشهدهم) أى أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا . والشهادة

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٠ ـ باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبىّ الإسلام ، حديث ٧١٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ ـ ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٥١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) ضمن حديث طويل. (٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

تارة تكون بالقول ، كقوله (قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا)(١) الآية ـ وتارة تكون حالا كقوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ)(٢) أى حالهم شاهداً عليهم بذلك لا لأنهم قائلون ذلك. وكذا قوله تعالى (وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)(٣) كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : (وَءَاتَـٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)(٤) .

قالوا : ومما يدل على أن المراد هذا، أن جعل الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

« أَن تَقُولُواْ » أى كراهة أن تقولوا « يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى الذى يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد « إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا » أى عن ربوبيته وتوحيده « غَـٰفِلِينَ » أى لم ننبّه عليه . فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر ، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك . إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا » أى سنوا الإشراك واخترعوه « مِن قَبْلُ » أى من قبل زماننا « وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ » أى فنشأنا على طريقهم، احتجاجاً بالتقليد،

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٧] .
(٣) [١٠٠ / العاديات / ٧] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] .

وتعويلا عليه ، فقد قطعنا العذر بما بيّنا من الآيات « أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » أى أتؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك ، وأسسوا من الباطل ، أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول ، وأقوال الرسل ؟ والاستفهام للإنكار ، أى أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل . والمعنى : أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد ، هو فى أصل فطرتكم ، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل ؟ والفطرة أكبر دليل ، فهى تسد باب الاعتذار بوجهٍ ما . لا سيا والتقليد عند قيام الدلائل ، والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا مساغ له أصلا .

تنبيهات

الأول ـ وافق الإمام ابن كثير ، فى هذا المقام أيضا الجشميّ فى تفسيره ، قال :

ويروى أصحاب الحديث عن أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة ، ويجعلون ذلك تأويلا للآية ، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم ، فأخرج منه ذريته ، أمثال الذر ، فقال : ألست بربكم؟ فقالوا : بلى طائعين . ثم أعادهم فى صلب آدم . وإن تأويل الآية على ذلك .

قال : وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد ، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك ، وذكروا فى الرواية ما نذكره . قالوا : فمما يدل على فساده وجوه .

منها : أنه لو كان حالٌ كما ذكروا ، لذكرناه ، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل ، خصوصاً إذا كان إشهاداً عليه ، ليعمل به .

ومنها : ما ذكره شيخنا أبو عليّ ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم ، وهذا شنيع من الكلام .

ومنها : أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة ، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة ، فلو خلقهم ابتداءً لا من شىء ، لم يصح ذلك .

ومنها : أن الجزء الواحد ، لا يجوز أن يكون حيًّا عاقلًا ، لأن تلك البنية ، لا تحمل الحياة ، فلا بد من أن يكون مؤلفاً من أجزاء ، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع فى ظهر آدم .

ومنها : أنه يفتح باب التناسخ ، والقول بالرجعة ، لأن لهم أن يقولوا : إذا جاز الإعادة ثمة ، لم ينكر التناسخ .

ومنها : أنه لابد أن يكون فيه فائدة ، وفائدته أن يذكره ليجرى على تلك الطريقة ، وإذا لم يذكره بطلت فائدته .

ومنها : أن الاعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا ذلك ، فكيف يصح فى ابتداء الخلق ، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل .

ثم قال : قال مشايخنا رحمهم الله : والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه :

منها : أنه قال : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ) ولم يقل (من آدم) . وقال : (مِن ظُهُورِهِمْ) ولم يقل (من ظهره) . وقال (ذُرِّيَّتَهُمْ) ولم يقل (ذريته) .

ومنها : أنه قال : (أَن تَقُولُواْ) يعنى فعل ذلك ، لكيلا تقولوا : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ . وأى غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لايذكرون شيئاً من ذلك .

ومنها : أنه قال : (إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا) ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك . وكل ذلك يبين فساد ما قالوا . ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية ، ولا قبلها ، بل ردها . غير أبى بكر أحمد بن علىّ ، فإنه جوّز ذلك من غير قطع على صحته . غير أنه قال : ليس ذلك بتأويل الآية ، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراق الكريمة فى شكر النعمة ، والإقرار بالربوبية . كما قال : إنهم ولدوا على الفطرة . قال: وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى. انتهى ما قاله الجشمىّ .

الثانى ـ تدل الآية على فساد التقليد فى الدين ، وتدل على أنه تعالى أزال العذر، وأزاح العلة ، وبعدها لايعذر أحد . ذكره الجشمىّ .

الثالث ـ استدل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة فى معناها ، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية؛ قال تعالى[1] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ) وقال تعالى[2] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم

(١) [١٤ / إبراهيم / ١٠] . (٢) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ). (قُلْ [١] مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

وعن عمران بن حصين قال : قال النبيّ ﷺ لأبى : ياحصين : كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبى: سبعة ستا فى الأرض ، وواحـداً فى السماء ! قال : فأيهم تُعِدُّ لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذى فى السماء ـ رواه الترمذيّ [٢] ـ فالله تعـالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد ، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً ، ما يحلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس ، فطرة بالغة .

قال التقى ابن تيمية : إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطرىّ ضرورىّ فى نفوس الناس . وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته ، حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حـذاق النظار ؛ أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته ، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتـكلمين .

وقال أيضاً : ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة ، ولا طريق لها إلا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر فى الأمة عن المعتزلة ونحوهم . ولهذا قال أبو جعفر السمنانىّ وغـيره : إيجاب الأشعرىّ النظر فى المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال .

وذكر رحمه الله أن الذى يدل عليه كلام الأئمـة والسلف ـ وهو أعدل الأقوال ـ أن النظر يجب فى حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص . فوجوبه من العوارض التى تجب على بعض الناس فى بعض الأحوال ، لا من اللوازم العامة . والذين أوجبوا النظر ليس معهم مايدل على عموم وجوبه، إنما يدل على أنه قد يجب، كقوله تعالى [٣]: (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٨٦ و ٨٧] . (٢) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٦٩ ـ باب حدثنا أحمد بن منيع . (٣) [١٠ / يونس / ١٠١] .

وَٱلْأَرْضِ) وقوله[1] (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ) فإنه خطاب مع المتكبرين الجاحدين ، أُمِروا بالنظر ، ليعرفوا الحق ، ويقرّوا به، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء .

قال أبو حيّان التوحيديّ فى (مقابساته) فى المقابسة الثانية والأربعين : قيل لأبى الخير: حدثنا عن معرفة الله، تقدس وعلا، ضرورةٌ هى أم استدلال ؟ فإن المتكلمين فى هذا اختلفوا اختلافاً شديداً ، وتنابذوا عليه تنابذاً بعيداً ، ونحب أن يحصل لنا جواب ، فيفسر على حد الاختصار مع البيان .

فقال : هى ضرورة من ناحية العقل، واستدلال من ناحية الحسّ. ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقل فى المعقول ، أو بالحس فى المحسوس ، ساغ أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال ، لأن الحس يتصفح ويستقوى بمؤازرة العقل ومظاهرته وتحصيله . وأن يظن تارة أنها ضرورة ، فإن العقل السليم من الآفة ، البرىء من العاهة ، يحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جحده وإنكاره والتشكك فيه ، لكن ضرورة لائقة بالعقل . لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس. لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار، وحمل وإكراه . وضرورة العقل لطيفة جدًّا . لأنه يعظ ويلاطف وينصح ويخفف .

ثم ضرب مثلًا لطيفاً ، وقال بعده : فعلى هذا ، فإن الله تقدس اسمه ، معروف عند العقل بالاضطرار ، لا ريب عنده فى وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، لأنه يستحيل كثيراً ، ولا يثبت أصلًا، فمن استدل ترقى من الجزئيات . ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكليات. وكلا الطريقين قد وضح بهذا الاعتبار ، وكُفِى مؤونة الخبط والإكثار . فأما ما ينظر منه فى الجدال، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والعصبيّة. وهناك للهوى ولادة وحضانة، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة . أخذ الله بأيدينا ، وكفانا الهوى الذى يؤذينا ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى:

(١) [٨٦ / الطارق / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى مثل ما ذكرنا ، نبيّن الأدلة والحجج ، ليرجعوا إلى الحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على قومك أو على اليهود « نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا » أى علم الكتاب ، فلطف به حتى تعلم وفهم المعانى ، وصار عالماً بها « فَٱنسَلَخَ مِنْهَا » بأن نزع العلم عنه ، فكفر بها ، وخرج منها خروج الحية من جلدها « فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى فلحقه وأدركه وصار قريناً له حتى أضله « فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ، فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا » أى لعظمناه بالعمل بها « وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ » أى مال إلى الدنيا ، ورغب فيها « وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث » وذلك لأنه استوى فى حقه إيتاء الآيات ، والتكليف بها ، والتعظيم من أجلها ، وعدم ذلك . كالكلب يدلع لسانه بكل حال ، إن تحمل عليه ، أى

تشدّ عليه وتهيجه ، أو تتركه غير متعرض له بالحمل عليه ، فلهثه موجود فى الحالتين جميعاً «ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا »أى من التوراة أو غيرها « فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ)

«سَآءَ مَثَلًا» أى ما مثل به« ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا » أى حيث شبهوا بالكلاب، إما فى استواء الحالتين فى النقصان ، وأنهم ضالون ، وعظوا أم لم يوعظوا كما قدمنا . وإما فى الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز الهدى والعلم ، وأقبل على هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت فى الصحيح عنه ﷺ قال(١) : ليس لنا مثل السوء . العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه . « وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ » اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم، حيث قال : قوله (ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا) أى بيناها ، فلم يقبل، وعرى منها. وسواء قولك: انسلخ وعرى وتباعد . وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على الكفر . قال : ونظيره قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم)(٢) وقال فى حق فرعون : (وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)(٣) . ومنهم من ذهب إلى أن الموصول فيها أريد به معيّن ، فروى عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيّب وزيد بن

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٣٠ ـ باب لا يحل لأحد أن يرجع فى هبته وصدقته ، حديث رقم ١٢٦٤ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٢٤ ـ كتاب الهبات ، حديث ٥ ـ ٨ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٤٧] . (٣) [٢٠ / طه / ٥٦] .

أسلم وأبى روق أنه أمية بن أبى الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا فى ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام حسده ، ثم مات كافراً ، ولم يؤمن بالنبىّ ﷺ . وهو الذى قال فيه رسول الله[1] (إنه آمن شعره وكفر قلبه) يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه يوحد الله فى شعره ، ويذكر دلائل توحيده .

وقيل : نزلت فى أبى عامر الراهب ، الذى سماه النبىّ ﷺ (الفاسق) ، كان يترهب فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق ، وأتى قيصر واستنجده على النبىّ ﷺ ، فمات هناك طريداً وحيداً . وهو قول سعيد ابن المسيّب .

وقيل نزلت فى منافقى أهل الكتاب . كانوا يعرفون النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه . عن الحسن والأصم .

وقيل: إنه فرعون. والآيات آيات موسى، كأنه لما اقتص أنباء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب له المثل .

ومن الأقوال التى تناقلها المفسرون أنها نزلت فى بلعام بن بَعُور ، ويحكون عنه قصة لم تُرْوَ فى جوامع الآثار الصحيحة عندنا، ولا هى مطابقة لما عند أهل الكتاب . فقد ذكر نبؤه فى الفصل الثانى والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد، من تاريخ التوراة، بغير ما يرويه المفسرون عنه . ثم رأيت الجشمىّ لم يصحح ذلك ، فحمدت المولى على الموافقة . وعبارته :

« وعن مجاهد قال : هو نبى يقال له بلعم . رشاه قومه فكفر . وهذا لا يجوز ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر . لأن ذلك ينفّر الخلق عن الأنبياء ، والقبول منهم ، ويحقرهم

(١) فى كشف الخفاء رقم ١٩، رواه أبو بكر بن الأنبارىّ فى كتاب المصاحف، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس . قال المناوى : وسند الحديث ضعيف .

فى النفوس ، ولأنهم حجج الله على خلقـــه ، اصطفاهم . فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد » ـ انتهى ـ وهو كذلك لأن من قرأ نبأه فى السفر المتقدم ، رأى من ثباته ، وعدم موافقته لبالاق ، ملك مؤاب ، على ما أراده منه ـ ما يبرئه عن ذلك .

تنبيه :

قال الجشمىّ : إن قيل : كيف تتصل الآية بما قبلها ؟ قلنا : على القول بأنه عنى بهـــا فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بنى إسرائيل . وقيل لما نهى عن تقليد الآباء فى الدين ، بيّن فى هذه الآية حال علماء السوء ، الذين يختارون الدنيا على الآخرة . نهياً عن تقليدهم واتباعهم ، كما نهى عن تقليد الآباء . وقيل : لـــا تقدم ذكر أخذ الميثاق ، بين حال من آتاه الله الآيات فانسلخ منها ولم يتبعها . اهـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ، وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

«مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» قال أبو السعود: لما أمر النبىّ ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ، ليتفكروا فيه ، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق ـ عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء ، من غير تأثيرلها فيه ، سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله ، حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه ، كسائر أفعال العباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ، أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ)

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا » أي خلقنا « لِجَهَنَّمَ » أي لدخولها والتعذيب بها « كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » وهم الكفار من الفريقين، الموصوفون بقوله تعالى: « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا» أي آيات الله الهادية إلى الكمالات « وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » أي دلائل وحدته ، بصر اعتبار « وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا » أى الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، يعنى أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية ، كما قال تعالى[١] (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ) . «أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ » أى السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا فى الذى يقيتها ، كقوله تعالى : (وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً »[٢] أى ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها ، لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول. وقوله تعالى: « بَلْ هُمْ أَضَلُّ »أى الأنعام، إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات ودفع تلك النقائص. وهم مع ما لهم من تلك القوة قد خلوا عن الكمالات ، وعن دفع أضدادها ، فكانوا أردأ حالاً منها ، لنقصهم مع وجود قوة الكمال فيهم . وأيضاً : الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ما تبصره . وهؤلاء ، أكثرهم يعلم أنه معاند ، فيقدم على النار . وأيضاً : الأنعام قد تستجيب لراعيها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، وأيضا : إنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف هؤلاء ؛ فإنهم خلقوا ليعبدوا الله ، ويوحدوه ،

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧١] .

فكفروا به وأشركوا «أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ» أى عن تلك الكمالات والنقائص، ليهتموا لتحصيلها ودفعها، اهتمامهم لجر المنافع الدنيوية، ودفع مضارّها.

تنبيه:

قال أبو السعود: المراد بهؤلاء الذين ذُرئوا لجهنم، الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، لكن لا بطريق الجبر، من غير أن يكون من قِبَلِهم ما يؤدى إلى ذلك، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدًا، بل يصرّون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر. فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيًّا بها، كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرىّ للعبادة، وتمكنهم التام منها، جعل خلقهم مغيًّا بها. كما نطق به قوله تعالى[1]: (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٠] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا، وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

«وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ» روى مقاتل أن رجلًا دعا الله فى صلاته، ودعا الرحمن. فقال بعض المشركين: إن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فنزلت الآية. و (الحسنى) تأنيث (الأحسن). والمعنى: لله الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها «فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ» أى يميلون عن الإقرار بها ويجحدونها، ويعدلون عنها كفرًا بها. كقوله تعالى[2]: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) أى زادهم ذكر الرحمن نفورًا. ولذا قال تعالى[3]: (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ). وقوله تعالى «سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» يعنى فى الآخرة، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها.

(١) [٥١/الذاريات/٥٦]. (٢) [٢٥/ الفرقان /٦٠]. (٣) [١٧/ الإسراء/ ١١٠].

تنبيهات

الأول ـ قال السيد محمد بن المرتضى اليمانيّ في (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال هـذا الرب الكريم . وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد ، الذي لا بد منه. لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عدّ مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكائدهم للإسلام . فإنهم عكسوا المعلوم عقلًا وسمعاً . فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفي والجحد المحض . وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ . . .) الآية . وقال[1] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ) الآية ـ فما كان منها منصوصاً في كتاب الله ، وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هـذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله . فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به . انتهى .

الثاني ـ روى الشيخان[2] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة ، والله وترٌ يحب الوتر . وفي رواية : من أحصاها . قال البخاريّ[3] : أحصيناه : حفظناه وأخرجه الترمذيّ[4] وزاد سوقَ الأسماء معدودة:

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٦٨ ـ باب لله مائة اسم غير واحد ، حديث رقم ١٣١٣ .

وأخرجه مسلم في : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٥و٦ (طبعتنا) . (٣) أخرجه في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٢ ـ باب إن لله مائة اسم إلا واحدا.

(٤) أخرجه الترمذيّ في ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨٢ ـ باب حدثنا يوسف بن حماد البصري.

ثم قال : ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن ماجة[1] أيضاً . فسرد الأسماء بزيادة ونقصان .

قال الحافظ ابن كثير : والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ؛ أن سرد الأسماء فى هـذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانىّ عن زهير ابن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوىّ . انتهى .

وقال النووىّ : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى. وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما المقصود من الحديث الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصرها . ولهذا جاء فى الحديث[2] الآخر : أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربىّ المالكىّ عن بعضهم ؛ أن لله ألف اسم . انتهى .

وقال السيد اليمانىّ[3] فى (إيثار الحق) : عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء ، ولا ينبغى ترك شىء منها ، ولا اختصاره ! فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم. ولو كان منها شىء لا ينبغى اعتقاده ولا ذكره ، ما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم . وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ماورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخارىّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه ، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده ، من أحصاها ، بالجنة كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء . فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر وقد

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١٠ ـ باب أسماء الله عزوجل ، حديث ٣٨٦٠ و٣٨٦١ (طبعتنا) (٢) من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) (٣) الصفحة رقم ١٦٩ .

ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المرويّ بالضرورة والنص . أما الضرورة ، فإن في كتاب الله أكثر من ذلك . وأما النص ، فحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال (١) : ما قال عبد أصابه همّ أو حزن : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً ـ رواه أحمد ، وأبو عوانة في (صحيحه) وأبو يعلى والبزار .

ثم أخذ اليمانيّ يذكر ماوجده من الأسماء منصوصاً ، غير معرّج على التقليد . فانظره في (إيثار الحق) ، فإنه جوّد البحث بمنزع شريف.

الثالث ـ قال بعض مفسري الزيدية في قوله تعالى (فَادْعُوهُ بِهَا) : المعنى سموه بها ، وفي ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنى ، وهو أمر ندب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين ، وحث على ذلك في الحديث عنه ﷺ . وإن أريد التسمية بما فيه مدح ، دون ما فيه إلحاد ، فذلك وجوب .

الرابع ـ قال السيد اليمانيّ في (إيثار الحق) : هل يجوز تسمية محامد الرب تعالى وأسمائه الحسنى صفات له سبحانه وتعالى ؟ قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (٢) وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى ، وكذلك جاء في كلام عليّ عليه السلام أنه قال: فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ـ ذكره السيد أبو طالب في (الأمالي) بإسناده ، والسيد الرضي في (النهج) كلاهما في جوابه عليه السلام ، على الذي قال له :

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) . (٢) [١٦ / النحل / ٦٠] .

صف لنا نار ربنا ـ وهذا لا يعارض قوله عز وجل (سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)(١) لأنه لم ينزه ذاته عن الوصف مطلقاً ، حتى يعم الوصف الحسن ، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ)

« وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ » أى للجنة ، لأنه فى مقابلة (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)(٢) ـ قاله النسفىّ ـ « أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ » أى يدعون إليه « وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ » أى يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار ؛ أن المراد بالأمة ، هذه الأمة المحمدية . وقال قتادة : بلغنا أن النبىّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها. وعن الربيع بن أنس ـ فى هذه الآية ـ قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى قوماً على الحق ، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل . وفى الصحيحين(٣) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة. وفى رواية : حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

قال الشهاب : استدل بالآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » حديث رقم ٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧٤و١٧٥ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها ، أو نفتح لهم من الأحوال ما يلائم أهويتهم ، ثم نهلكهم . وأصل الاستدراج : أن يتدرج إلى الشىء قليلاً قليلاً ، تشبيهاً بمن يرقى درجة درجة ، حتى ينتهى إلى العلوّ . وقيل : أصله من الدرج الذى يطوى فكأنه يطوى منزلة بعد منزلة ، كما يطوى الدرج . وقيل : لأنه من الدرجة فيكون ، لأنه ينحط درجة بعد درجة حتى ينتهى إلى حال الهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأُمْلِي لَهُمْ » أى أمهلهم ليزدادوا إثماً « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى قوىّ شديد . والمعنيّون بهذا الخطاب كفار مكة . قال فى (التنوير) : هم أبو جهل وأصحابه المستهزئون ، أخذهم الله بعذابه فى يوم (أُحُد) ، وأهلك كل واحد بهلاكٍ غير هلاك صاحبه . انتهى . ويدل قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ » أى كما يختلقون . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى : أو لم يتفكروا فى أنه ليس بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق ، شىء من جنة . وجوّز أن يكون الكلام تمّ عند قوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) إنكاراً لعدم تفكرهم فى شأنه ، الموقف على صدقه ، وصحة نبوته . ثم ابتدأ نفى الجنة عنه تعجيباً وتبكيتاً .

و(الجِنَّةُ) مصدر ، كالجلسة ، بمعنى الجنون ، وليس المراد به الجن . كما في قوله تعالى[1] : (مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ) ، لأنه يحوج إلى تقدير مضاف ، أي مسّ جنة أو تخبطها . والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ، مما يطلعهم على نزاهته عما ذكر ، ففيه تأكيد للنكير ، وتشديد له « إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ » أي رسول مخوّف « مُّبِينٌ » أي موضح إنذاره ، مبالغة في الإعذار . ولما نعى عليهم تفكرهم في شأنه ﷺ ، أنكر إخلالهم في التأمل بالآيات التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس ، الشاهدة بصحة الآيات المنزلة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ)

« أَوَلَمْ يَنظُرُواْ » أي نظر استدلال « فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ » من الشمس والقمر والنجوم والسحاب . والملكوت : الملك العظيم « وَٱلْأَرْضِ » أي وفي ملكوت الأرض ، من البحار والجبال والدواب والشجر « وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » أي وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم (الشيء) ، من أجناس لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف « وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ » عطف على (ملكوت) . أي في احتمال أن يهلكوا عما قريب ، فيفارقوا الدنيا ، وهم على أتعس الأحوال « فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ » أي القرآن « يُؤْمِنُونَ » أي إذا لم يؤمنوا به ، وهو المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية . وفي هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأسًا ، ونفي له بالكلية .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية على وجوب النظر في الأدلة ، وأنها طريق المعرفة . وتدل على أنه لا شيء ينظر فيه ، إلا ويعرف الله تعالى به ..

(١) [١١٤ / الناس / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ، وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى كفرهم يتحيرون. يعنى أن من كتب عليـــه الضلالة ، فلا يهديه أحد ، ولا يغنيه النظر ، ولا الإنذار. كما قال تعالى[١] : (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)[٢] (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ » أى عن قيامها وحينها « أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا » أى متى إرساؤها أو وقت إرسائها ، أى إثباتها وإقرارها . والرسوّ يستعمل فى الأجسام الثقيلة ، وإطلاقه على المعانى ، تشبيهاً لها بالأجسام « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ » أى لا يظهرها فى وقتها إلا هو « ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى عظمت و كبرت على أهلهما لهولها وما فيها من المحاسبة والمجازاة . أو ثقل علم وقتها على أهلهما . أو عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، من انتشار النجوم ، وتـكوير الشمس ، وتسيير الجبـــال « لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً » أى فجأة على حين غفلة منكم « يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا »

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] .

أى عالم بها « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن علمها عند الله ، لم يؤته أحدًا من خلقه .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت . لم كرر (يَسْـَٔلُونَكَ) و (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ) ؟ قلت: للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله : (كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق فى كتبهم ، لا يخلون المكرر من فائدة زائدة . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى إلا فى الكتاب العزيز ، وهو أجلّ من أن يشارك فيها . وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرير ، أن الكلام إذا بُنى على مقصد ، واعترض فى أثنائه عارض ، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول، وقد بعد عهده ، طُرّى بذكر المقصد الأول ، لتتصل نهايته ببدايته . وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى ، وهذا منها . فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَٰهَا) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى) إلى قوله (بَغْتَةً) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن فى قوله : (كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده ، فطُرِّىَ ذكره تطرية عامة ، ولا نراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول، مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل : (يَسْـَٔلُونَكَ) ولم يذكر المسؤول عنه ، وهو (الساعة) اكتفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملًا ، فقال : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ) . ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفتْ عليه العرب فى هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد ، تطرية للذكر ، قوله :

عَجِّلْ لَنَا هذا وألحقنا بذا الـ ... ـشحم إنا قد مللناه بَجَلْ

أى فقط ، فذكر الألف واللام ، خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثانى ، استبعد العهد بالأولى ، فطَرّىَ ذكرها ، وأبقى الأولى فى مكانها . ومن ثم استدلّ ابن جنى .

على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء ، فهو بيت كامل ، وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن . قال : ولو كان بيتاً واحداً ، لم يكن عهد الأولى متباعداً ، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها . ألا ترى أن عَبِيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات ، وجعل آخر المصراع الأول (أل) لم يعدها أول المصراع الثانى ، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قول عبيد ابن الأبرص الأسدىّ :

يا خليلىّ اربَعَا واستَخْبِرا الْ ... مَنْزِلَ الدَّارِسَ عَنْ أَهْلِ الْحِلَالِ
مِثْلَ سَحْقِ الْبُرْدِ عَفَّى بَعْدَكَ الْ ... قَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأْوِيبُ الشَّمَالِ

اربعا : أقيما . الحلال : اسم امرأة . سَحْق البرد : يريد مثل البرد المسحوق أى البالى . وعفى ، بالتشديد : محا . القطر : المطر . مغناه . هو الموضع الذى كانوا يسكنونه . والشمال ـ بالفتح والكسر ـ من الرياح ، مامهبّه من مطلع الشمس وبنات نعش . وهى لاتكاد تهب ليلا . وتأويبها : هبوبها النهار كله) ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً . فانظر هذه النكته ، كيف بالغت العرب فى رعايتها ، حتى عدت القريب بعيداً ، والمتقاصر مديداً . فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان، فى صناعتى العربية والبيان ، والله المستعان ـ انتهى ـ .

(والقصيدة بتمامها فى (مختارات ابن الشجرىّ) بالصفحة رقم ٣٧)

ثم أمره تعالى أن يخبر بعبوديته الكاملة، بما ينبئ عن عجزه عن علم الساعة بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ، إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لا أقدر ، لأجل نفسى ، على جلب نفعٍ ما،

ولا على دفع ضرٍّ ما « إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ » أى تمليكه لى من ذلك بأن يلهمنيه ، فيمكننى منه ، ويقدرنى عليه . وهذا كقوله تعالى فى سورة يونس(١) (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ* قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ). « وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ » أى النفع ، بترتيب أسبابه ، فكنت مثلاً أعد للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص « وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ » أى الضر ، للتوقى عن أسبابه « إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » أى عبد أرسلتُ نذيرًا وبشيرًا ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب . وقوله تعالى « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » يجوز أن يتعلق بـ (نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) جميعاً ، لأن المؤمنين هم المنتفعون بالنذارة والبشارة ، أو يتعلق بـ (بَشِيرٌ) وحده، ومتعلق النذير محذوف ، أى للكافرين ، وحذف للعلم به . وقال الشهاب : ليطهر اللسان منهم . ثم بيّن تعالى عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الإشراك ، بتذكير مبادئ أحوالهم المنافية له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٩] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ، فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ » وهى نفس آدم عليه السلام « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » أى من جنسها ، كقوله تعالى(٢) : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا) « لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » أى ليطمئن إليها ويميل ، ولا ينفر ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس . وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان

---

(١) [١٠/ يونس/ ٤٨ و ٤٩] . (٢) [٣٠/ الروم/ ٢١] .

إلى ولده ، ويحبه محبة لكونه بضعة منه . وذكّر (لِيَسْكُنَ) بعد ما أنث في قوله (وَاحِدَةٍ) و (مِنْهَا زَوْجَهَا) ذهاباً إلى معنى النفس ، ليبين أن المراد بها آدم ، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى . أفاده الزمخشريّ . «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» أي وطئها . و(التغشي) كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان « حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً » أي خف عليها ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ، ثم العلقة، ثم المضغة «فَمَرَّتْ بِهِ »أي فاستمرت به خفيفة، وقامت وقعدت «فَلَمَّا أَثْقَلَت» أي صارت ذات ثقل ، لكبر الولد في بطنها « دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا» أي ولدًا سويًا قد صلح بدنه ، أو غلامًا « لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أي على نعمائك التي منها هذه النعمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

«فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا» أي كما طلبا « جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا » أي أخلا بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال ، إذ استبدلوه بالإشراك . وقوله تعالى : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تنزيه فيه معنى التعجب .

تنبيه :

هذه الآية سيقت توبيخاً للمشركين في جنايتهم بالشرك، ونقضهم ميثاقهم ، في جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه . وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن . ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة . ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون وولد لهم مايشتهون، ليكونن من الشاكرين. ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم ، التي امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم في إفراده بالشكر ،

حيث أشركوا معه غيره فى ذلك. ونظير هذه الآية، فى الإخبارعن تبديل المشركين نعمة الله كفراً، قولهتعالى[١] فىسورةيونس (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ، حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ *فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وقد ذكرالمفسرون ههنا أحاديث وآثاراً تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولاحاجة بنا إلىرواياتها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينهالحافظ ابن كثيرفى (تفسيره) . وتقبُّل ثُلةٍمن السلف لهـا وتلقيها ـ لا يجدى فى صحتها شيئاً . إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الـكتاب ، كما برهن عليه ابن كثير . وتهويلُ بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة ، إذ أخرجها فلان وفلان ، من تنميق الألفاظ لتزيق المعانى ؛ فإن المشكاة النبوية أجلُّ من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته .

إذا علمت ذلك ، تبين لكأن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها ، آدم وحواء ، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك ، وأن ظاهر النظم يقتضيه ، ثم أخذ يؤوله ، إما بتقدير مضاف ، أى جعل أولادهما له شركاء ، فيما آتى أولادهما ، وإما بأن المراد جعل أحدهما وهو (حواء)من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك ـ فإنه ذهب فى غير مذهب .

وقد قرر ما ارتضيناه فى معنى الآية غير واحد . قال الحسن البصرىّ ، فيما روى عنه ابن جرير : إن الآيةعنى بها ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده . وفى رواية عنه : كان هذا فى بعض الملل ، ولم يكن بآدم .

قال ابن كثير : والأسانيد إلى الحسن ، فى تفسير هـــذا ، صحيحة ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية .

---

(١) [١٠ / يونس / ٢٢ و ٢٣] .

قال : ولو كان الحديث المرفوع ، فى أنها فى آدم وحواء ، محفوظاً عنـده من رواية رسول الله ﷺ ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، لاسيما مع تقواه وورعه . فهذا يدل على أنه ـ إن صح ـ موقوف على الصحابىّ ، لا مرفوع . انتهى .

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل ، وبيان أن هـذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين فى جهلهم ، وقولهم بالشرك . وتقرير هذا الـكلام ، كأنه تعالى يقول : هو الذى خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه فى الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته ، وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما ، لئن آتيتنا ولداً صالحاً سويًّا لنـكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سويًّا ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع ، كما هو قول الطبائعيين . وتارة إلى الـكواكب ، كما هو قول المنجمين . وتارة إلى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام .

وقال الناصر فى (الانتصاف) ـ متعقباً على الزمخشرىّ ـ : الأسلم والأقرب، والله أعلم، أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معيّن . وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر ، الجنس الآخر ، الذى هو الأنثى ، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس ، وإن كان فيهم الموحدون ، على حد (بنو فلان قتلوا قتيلا) يعنى من نسبة ما صدر من البعض إلى الـكل .

فائدة :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة هذه الآية أنه تعالى لما قال (فَلَمَّآ أَثْقَلَت) جعل حال الإثقال يخالف ما قبله ، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف . وقد ذهب الهادى إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر ، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض ،

تنفذ من الثلث . وهو قول مالك والليث ، واحتجا بالآية ، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال . وقال غيرهما : تصرفها من الجميع ، ما لم يأخذها الطلق . قلنا : إنه يجوز عليها بعد الستة ، وضع الحمل في كل وقت . انتهى .

ثم قال : ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا ، وإن حصول الولد منة يجب الشكر عليها . انتهى .

ثم استأنف تعالى توبيخ المشركين كافة ، واستقباح إشراكهم ، وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوا به سبحانه ، وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه في حقه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

« أَيُشْرِكُونَ » أي بخالق الأشياء تعالى وتقدس « مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا » أي لا يقدر على خلق شيء ما، كقوله تعالى[(١)]: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) أي: وَمَنْ هذه صفته كيف يعبد ؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده لا محالة « وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أي بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل[(٢)] عليه الصلاة والسلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)

« وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ » أي لعبدتهم إذا حزبهم أمر « نَصْرًا » أي بجلب نفع ، أو دفع ضر « وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ » إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى :

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٩٥] .

(وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ)(١) وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة .

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أسلما لما قدم النبىّ ﷺ المدينة ، وكانا شابين ، فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قومهما . وكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيدًا فى قومه ـ صنم يعبده ويطيّبه ، فكانا يجيئان فى الليل، فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة . فيجئ عمرو بن الجموح ، فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً . حتى أخذاه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلّياه فى حبل فى بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ، ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال :

تاللهِ لو كنتَ إلـهاً مُسْتَدَنْ   لم تك والـكلبَ جميعاً فى قَرَنْ

(مستدن : ذليل مستعبد . والقَرَن : الحبل) .

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدًا ، رضى الله عنه وأرضاه .

(انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ طبعة الحلبىّ . وص ٣٠٣ طبعة جوتنجن) .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، لأن قوله : (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ . . .) الآية ـ حجاج . وتدل على أن المستحق للعبادة الذى يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ)

« وَإِن تَدْعُوهُمْ » أيها المشركون « إِلَى ٱلْهُدَىٰ » أى إلى مافيه رشاد « لَا يَتَّبِعُوكُمْ » أى إلى مرادكم وطلبتكم « سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ » يعنى أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، كما قال إبراهيم[١] : (يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا) . وجوّز فى الآية أن يكون المعنى : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم وتطلبوا منهم ، كما تطلبون من الله ، الخير والشر ، لايجيبوكم كما يجيبكم الله ، لقوله تعالى[٢] بعدُ : (فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة « عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ » أى مخلوقات مماثلة لكم « فَٱدْعُوهُمْ » أمر تعجيز وتبكيت . أى فادعوهم لجلب نفع ، أو كشف ضر « فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى زعمكم أنها آلهة . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ)

«أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ،

(١) [١٩ / مريم / ٤٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » تبكيت إثر تبكيت ، مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزيّ ، من عدم الاستجابة ، ببيان فقدان آلتها بالكلية . فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية ، إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محركة . ومدركة . وما ليس له شيء من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة . كأنه قيل : ألهم هذه الآلات التي بها تتحقق الاستجابة ، حتى يمكن استجابتهم لكم ؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة ، تكريراً للتبكيت ، وتثنية للتقريع ، وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها ، كافٍ في الدلالة على استحالة الاستجابة . أفاده أبو السعود .

ويقال : إنه لما جعلهم مثلهم ، كرّ على المثلية بالنقض بما ذكر ، لأنهم أدون منهم ، وعبادة الشخص مَن هو مثله لا تليق ، فكيف من هو دونه .

تنبيه :

قال الرازيّ : تعلق بعض أغمار المشبهة وجهّالهم بهذه الآية ، في إثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، فقالوا : إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء ، لهذه الأصنام ، دليلاً على عدم إلهيتها. فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى ، لكان عدمها دليلاً على عدم الإلهية ، وذلك باطل . فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى . . . الخ .

وأقول : الظاهر أن ملحظ مثبتيها هو أن عدمها يدل على النقص، وهو محال على المولى تعالى ، إذ له كل صفة كمال . ومعلوم أن في إثباتها له تعالى من آيات أخر، وأحاديث مشهورة، ما يغني عن تكلف استنباطها له تعالى من مثل هذه الآية ، ولكن على المنهاج السلفيّ، وهو إثبات بلا تكييف ، إذ من كيّف فقد مثّل ، ومن نفى فقد عطّل . فالمشبهة كالمعطلة ، والحق وراءهما ، والمسألة شهيرة .

ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون ، أمر تعالى رسوله ﷺ أن يناصبهم للمحاجّة ، ويكرر عليهم التبكيت ، فقال سبحانه : « قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » أي استنصروا بها على « ثُمَّ كِيدُونِ » أي اعملوا أنتم وهم في هلاكي من حيث لا أشعر به ، حتى يمكنني دفعه .

« فَلَا تُنظِرُونِ » أى عجّلوا فى كيدى، فلا تمهلونى مدة أطلع فيها على كيدكم، فإنى لا أبالى بكم . وقد أثبت نافع وأبو عمرو الياء فى (كِيدُونِى)، والباقون حذفوها. ومثله فى قوله[1] : (وَلَا تُنظِرُونِ)(ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)[2] قال الواحدىّ : والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافى، وقد حذفوا هذه الياآت إذا كانت فى القوافى ، كقوله :

يلمسُ الأحلاسَ فى منزلِهِ بيديه كاليَهُودىّ المُصَلْ (وأصلها المصلِّى)

والذين أثبتوها ، فلأن الأصل هو الإثبات .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ)

« إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ »تعليل لعدم المبالاة، المنفهم من السوق انفهامًا جليًّا . أى: الذى يتولى حفظى ونصرتى هو الله الذى أنزل الكتاب، المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة .

قال أبو السعود : ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب ، للإشعار بدليل الولاية ، والإشارة إلى علة أخرى لعدم المبالاة. كأنه قيل: لا أبالى بكم وبشركائكم ، لأن وليي هو الله الذى نزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصرى ، وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فضلًا عن نصركم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ » تذييل مقرر لما قبله . أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده ، وينصرهم ولا يخذلهم . وفيه تعريض ، لمن فقد الصلاح ، بالخذلان والمَحْقِ .

قال الحسن البصرىّ : إن المشركين كانوا يخوّفون الرسول ﷺ بآلهتهم ، فقال تعالى (ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ . . .) الآية ـ ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضارّ إلىّ ، بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود عليه السلام ، لما قال قومه (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ

(١) [١٠/ يونس / ٧١]. (٢) [١١ / هود / ٥٥].

بِبَعْضِ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ، قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ...) الآية[1].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)

«وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ» أى لا يتولون أحدًا ، لأنهم لا يستطيعون نصركم « وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ » أى إذا قصد إضرارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ، وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

« وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ » إذ ليس لهم سمع ، وإن صوّرت لهم الآذان . كما أنه لا بصر لهم ، وإن صورت لهم الأعين . كما قال : « وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ » إذ صورت لهم الأعين «وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» لأنهم جماد عوملوا معاملة من يعقل ، فعبر عنهم بضميره ، لأنهم على صور مصورة كالإنسان . وهذا من تمام التعليل ، لعدم مبالاته بهم ، فلا تكرار .

وقال السدّىّ: المراد بهذا (المشركون) وروى عن مجاهد نحوه. أى وإن كانوا ينظرون إليك ، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية .

قال ابن كثير : والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة . أى تفصياً من التفكيك ، لأن المحدث عنهم الأصنام .

تنبيه :

من غرائب استنباط المعتزلة قولهم فى هـذه الآية ـ والعبارة للجشمىّ ـ ما مثاله : تدل

(١) [١١ / هود / ٥٤ ـ ٥٦] .

الآية على أن النظر غير الرؤية ، وأنه لا يقتضى الرؤية ، لذلك أثبتهم ناظرين غير رائين .

قال : ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره . ويقسمون النظر إلى وجوه ، ولا تنقسم الرؤية .

قال: فبطل قول من يقول: إن قوله تعالى(1) (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يقتضى الرؤية . انتهى .

ولا يخفى أن الأصل فى إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار، ولذلك تتعاقب فى هذا المعنى، وتترادف كثيراً . وانفكاكه عن الرؤية فى هذه الآية لقرينة كون المحدَّث عنهم جماداً ، ولا قرينة فى الآية لتقاس على ما هنا . دع ماصح من الأخبار فى وقوعها ، مما هو بيان لها ـ فافهم ـ .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصفح عن المشركين، إذا جادلوه فى شركائهم بعد هذا البيان، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ)

« خُذِ ٱلْعَفْوَ » أى مكان الغضب ، ليكونوا أقبل للنصيحة « وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ » أى بالجميل المستحسن من الأفعال ، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير، ولما كان الناصح لغيره ، كالمعرَّض لعدوانهم ، ثلَّث بما يحتاج إليه فى ذلك فقال : «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ» أى المصرِّين على جهلهم ، فلا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم ، وأغضِ على ما يسوؤك منهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال بعض العلماء : إن سر الشريعة فى الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن

(١) [٧٥ / القيامة / ٢٢و٢٣] .

ومحو المستقبح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ) فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ماأنكرته واستقبحته . ذلك لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات في كل البلاد . اهـ .

الثاني ـ روى عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها .

وروى البخاريّ[1] عن ابن عباس أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب : هي يا ابن الخطاب ! فوالله ، ماتعطينا الجزل ، ولا تحكم فينا بالعدل ، فغضب عمر ، حتى همّ أن يوقع به . فقال له الحرّ بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وإن هذا من الجاهلين .

قال ابن عباس : والله ! ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ » أى يصيبنّك من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهلهم وإساءتهم ، وتحملك على خلاف ماأمرت فيه من العفو والأمر بالمعروف « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » أى استجر به، وادعه فى دفعه « إِنَّهُ سَمِيعٌ » أى لدعائك « عَلِيمٌ » أى باستعاذتك.

قال الزمخشريّ : النزغ والنسغ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصى . أى فشبهت وسوسته وإغراؤه بالغرز، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف ، ٥ ـ باب خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، حديث ٢٠٠٤ .

فى الجلد ، كما يفعله السائق لحث الدواب . وجعلُ النزغ نازغاً مجاز بالإسناد ، لجعل المصدر فاعلًا ، كجد جدّه .

قال أبوالسعود: وفى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ » أى أصابهم « طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ » أى وسوسة وخاطر منه « تَذَكَّرُواْ » أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه « فَإِذَا هُم » أى بسبب ذلك التذكر «مُّبۡصِرُونَ» أى مواقع الخطأ، ومكائد الشيطان. فينتهون عنها ولايتبعونه . وقرىء (طيف) على أنه مصدر ، من قولهم (طاف به الخيال يطيف طيفا) ، أو تخفيف (طيّف) كليّن وهيّن . وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى، عند نزغ الشيطان ، وأن المتقين هذه عادتهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] (وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ)

«وَإِخۡوَٰنُهُمۡ» يعنى وأماإخوان الشياطين من شياطين الإنس. كقوله : (إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ)(١) ، وهم الذين لم يتقوا ؛ فلم يتأت لهم التذكر ، ولا ينفع فيهم الاستعاذةلأن الشياطين « يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ » أى يكونون مددًا لهم بتكثير الشبه والتزيين والتسهيل فى الضلال ، يعنى تساعدهم الشياطين على المعاصى ، وتسهلها عليهم وتحسّنها لهم

(١) [١٧ / الإسراء ٢٧] .

« ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ » أى لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يصرّوا ولا يرجعوا : يعنى أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، ولا يسأمون من إمدادهم من الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية : وجوز عود الضمير لـ (الإخوان) ، أى لا يرعوون عن الغىّ ولا يقصرون، وإن بولغ عليهم فى الوعظ بآيات الله ، وإقامة الدلائل، ورفع الشبه ، وغير ذلك. وجوز أيضاً أن يراد أيضـاً بـ (الإخوان) الشياطين ، ويرجع الضمير إلى (الْجَٰهِلِينَ) أى وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ، يمدون الجاهلين فى الغىّ .

قال الزمخشرىّ : والأول أوجه ، لأن (إخوانهم) فى مقابلة (الَّذِينَ اتَّقَوْا) .

ثم بين تعالى ، من أنواع إغوائهم ، لجاجهم فى طلب آيات معينة، وتعنتهم فى اقتراحها، مع أن لديهم المعجزة العظمى ، والخارقة الكبرى ، وهى القرآن الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ، هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ » أى مما اقترحوه « قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا » أى هلا تكلفتها وأنشأتها من عندك « قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي » أى فلست بمفتعل للآيات، ولا أتقدم إليه تعالى فى شىء منها. ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبينات ، فقال سبحانه « هَٰذَا » أى القرآن « بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ » أى بمنزلة البصائر للقلوب ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصواب . فالكلام على طريقة التشبيه البليغ . أو سبب البصائر ، فهو مجاز مرسل . أو استعارة لإرشاده . أو المعنى : حجج بيّنة ، وبراهين نيّرة . وإنما جمع خبر المفرد لاشتماله على آيات وسور ، جعل كل منها بصيرة . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ـ لتأكيد وجوب

الإيمان بها « وَهُدًى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أى من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى به ، فيتفكرون فى حقائقه .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة ، لا بحسب اقتراحهم ، لأن ذلك قد يكون فسادًا . ويدل قوله : (هَـٰذَا بَصَآئِرُ) أن المعارف مكتسبة . وتدل أن جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه ، لذلك قال : (أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ) ، ومتى قيل : هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس ؟ قلنا : لا ! لأن القياس والاجتهاد إذا كان متعبدًا به ، فاتباعه اتباع الوحى . كالعامىّ يقبل من المفتى ، والعالم يجتهد ، ويتبع الوحى ، كذلك هذا . والذى يدل عليه أن النبىّ ﷺ لا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه حتى يؤمر به ـ انتهى كلامه ـ وفى إطلاقه تفصيل له موضع آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ » أى عن حديث النفس وغيره « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة . أى وإذا قرئ القرآن الذى ذكرت خصائصه ، فاستمعوا له ، أى أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه ، وتتدبروا مواعظه ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى ، إعظاماً له واحتراماً ، لكى تفوزوا بالرحمة التى هى أعظم ثمراته ، لا كما يعتمده كفار قريش من قولهم (لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ)(١) .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٢٦] .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها ، وعليه أهل الظاهر ، وهو قول الحسن البصريّ وأبى مسلم الأصفهانىّ . وقد روى مسلم(١) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبّر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا . وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة .

وروى الإمام أحمد(٢) وأهل السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : هل قرأ أحد منكم معى آنفاً ؟ قال رجل : نعم . يارسول الله . قال: إنى أقول : مالى أنازَع القرآن ؟ قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

قال الترمذى (٣) : هذا حديث حسن . وصححه أبو حاتم الرازيّ . نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدَها للمأموم . وذلك فيما رواه عبادة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : إنى أراكم تقرءون وراء إمامكم ؟ قال : قلنا : يارسول الله ! إى والله . قال : لاتفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها ـ رواه أبو داود(٤) والترمذىّ(٥) ـ وفى لفظ: فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جهرت

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٧٧ ـ ٨١ عن أنس و٨٢ عن عائشة و٨٦ عن أبى هريرة (طبعتنا) أما حديث أبى موسى فلم أهتد إليه . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٢٦٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١١٦ ـ باب ماجاء فى ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٣١ ـ باب القراءة فى الفجر ، حديث ٨٢٣ . (٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٦٩ ـ باب لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب .

به ، إلا بأم القرآن ـ رواه أبو داود والنسائىّ ، والدارقطنىّ وقال : رواته كلهم ثقات .

وأخرج ابن حبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : أتقرءون فى صلاتكم خلف الإمام ، والإمام يقرأ ؟ فلا تفعلوا ، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب فى نفسه .

وأما حديث أبى هريرة المتقدم ، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً ، بل جهراً . لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم ، لا مع إسراره . ولو سلم دخول ذلك فى المنازعة لكان الاستفهام الإنكارىّ فيه عامًّا لجميع القرآن ، أو مطلقاً فى جميعه . وحديث عبادة خاص أو مقيّد ، ولا تعارض بين عام وخاص ، أو مطلق ومقيد ، لابتناء الأول على الثانى . وكذا يقال فى عموم الآية . وفى هذا جمع بين دلالة الكتاب ، وصحيح السنة ، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن .

الثانى ـ روى عن كثير من السلف أن الآية نزلت فى الصلاة . وعن بعضهم : فيها وفى الخطبة يوم الجمعة . وعن بعضهم : فيهما وفى خطبة الأضحى والفطر . وقد قدمنا فى مقدمة الكتاب مصطلح السلف فى قولهم (نزلت هذه الآية فى كذا) وبيّنّا أنه قد يراد بذلك ، أن الآية تشمل ذلك الشىء لدخوله فى عمومها ، لا أنه سبب لنزولها ، وذلك فى بعض المقامات ، وما هنا منه . وبتحقيق هذا يسقط ما للرازىّ هنا من أنه إذا قيل بنزولها فى منع المأموم من الجهر بالقراءة ، يذهب تناسب الآية مع ماقبلها من إفحام المشركين ، بأن يستمعوا لقراءته ، ليقفوا على إعجازه . وما للخازن ؛ بأن الآية مكية ، وخطبة الجمعة والعيدين شرعتا بالمدينة ـ فافهمه ـ .

الثالث ـ روى الإمام أحمد [١] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة . قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠٥] (وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ)

«وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ» خطاب للنبىّ ﷺ ، والمراد عامّ . أو المعنى : واذكر ربك أيها الإنسان . والأول أظهر ، لأن ما خوطب به النبىّ ﷺ ولم يكن من خصائصه ، فإنه مشروع لأمته. وقد أوضح هذا آية: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(١). والأمر بالذكر ، قال الزمخشرىّ : هو عام فى الأذكار من قراءةالقرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك . وقال بعض الزيدية : هذا الأمر يحتمل الوجوب ، إن فسر الذكر بالصلاة ، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان ، فهو محمول على الاستحباب . قال : وبكلٍّ فسرت الآية .

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره :

الأول ـ أن يكون فى نفسه ، لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

الثانى ـ أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث ـ أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة الألوهية ، من المؤاخذة على التقصير فى العمل ، لتخشع النفس ، ويخضع القلب .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١ و ٤٢] .

الرابع ـ أن يكون دون الجهر ، لأنه أقرب إلى حسن التفكر . قال ابن كثير : فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداء ولا جهراً بليغاً . وفى الصحيحين (١) عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبىّ ﷺ : يا أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً . إن الذين تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته . قال الإمام : المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والمخافة ، كما قال تعالى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)(٢) .

الخامس ـ أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله (وَدُونَ الْجَهْرِ) لأن معناه : ومتكلماً كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على (تَضَرُّعًا) ، أو هو معطوف على (فِي نَفْسِكَ) . أى اذكره ذكراً فى نفسك ، وذكراً بلسانك دون الجهر .

السادس ـ أن يكون بالغدوّ والآصال ، أى فى البكرة والعشىّ . فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد . وما بينهما ، الغالبُ فيه الانقطاعُ إلى أمر المعاش . وقد روى : أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره ، فطلب الذكر فيهما ، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر .

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله « وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ » أى من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه ، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية .

---

(١) أخرجه فى البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت بالتكبير ، حديث ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ـ٤٧ (طبعتنا) . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

ثم ذكر تعالى ما يقوى دواعي الذكر، وينهض الهمم إليه، بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل النهار، لا يفترون، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) ﴿سجدة﴾

«إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ» يعني الملائكة الذين هم في أعلى مقامات القرب «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ» أي لا يتعظمون عنها. وقوله «وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ» أي فينبغي أن يقتدى بهم فيما ذكر عنهم، ففيه حث ولطف مرغب في ذلك. لأنه إذا كان أولئك ـ وهم ما هم في قرب المنزلة والعصمة ـ حالهم في عبادته تعالى وتسبيحه ما ذكر، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم.

تنبيهات

الأول ـ قال الرازيّ : تمسك أبو بكر الأصم بهذه الآية في تفضيل الملائكة على البشر قال : لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ...) الآية ـ أي فأنت أولى وأحق بالعبادة، والمسألة مستوفاة في كتب الكلام. واستنبط من قال بالتفضيل المذكور من الآية؛ أنه ينبغي للعبد أن ينظر إلى من فوقه في طاعة الله تعالى.

الثاني ـ قال الرازيّ: المشبهة تمسكوا بقوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ...) وقالوا: لفظ (عِندَ) مشعر بالجهة. ثم أجاب بما هو معروف للخلف. ويعني، سامحه الله، بالمشبهة الحنابلة، وهم براء من التشبيه، كما يعلمه من طالع عقائدهم، واقفون على حدّ النصوص بلا تشبيه ولا تعطيل، ولم ينفردوا بذلك، فقد تقدمهم من لا يحصى في هذه المسألة. راجع كتاب (العلوّ للذهبيّ) تعلم ما ذكرنا.

الثالث ـ قال الجشميّ : تدل الآية على كون الملائكة مكلفين . وتدل على أنهم سجدوا لله . وآدمُ كان قبلة السجود ، لأنه وصفهم بأنهم يسجدون له .

الرابع ـ هذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقدورد فى حديث رواه ابن ماجة(١) عن أبى الدرداء عن النبيّ ﷺ ، أنه عدها فى سجدات القرآن .

وروى الشيخان (٢) عن عبد الله بن عمر أن النبيّ ﷺ كان يقرأ القرآن ، فيقرأ سورة فيها سجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته ، فى غير وقت صلاة .

وروى مسلم (٣) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويلتا ! أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ ، فلى النار .

وروى مسلم (٤) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة .

الخامس ـ السجدةالمشروعة ، إن كانت لآية ، أُمِرَ فيها بالسجود فللأمر ، أو حكى فيها

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٦ (طبعتنا) . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن : ٨ ـ باب من سجد لسجود القارئ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٠٥ (طبعتنا).

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٣٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٢٢٥ (طبعتنا) .

استنكاف الكفرة عنه ، فلمخالفتهم وإرغامهم ، أو حكى فيها سجود الأنبياء أو الملائكة ، فللتأسي بهم ـ كذا في (العناية) .

وهذا آخر ما تيسر تعليقه على سورة الأعراف ، فلله الحمد على هذا التسهيل والإسعاف. ونسأله بمنه وكرمه العون على الإتمام ، فإنه ذو الجلال والإكرام .

وكان الفراغ من ذلك طلوع الشمس من يوم الثلاثاء ، في ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٣٢١ بشباك السدة العليا اليمنى من جامع السنانية . على يد الفقير جمال الدين القاسمي غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، ورحمه وإياهم إنه أرحم الراحمين .

تم الجزء السابع

ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الثامن

ويحتوي على تفسير سورتي الأنفال والتوبة

تنبيه :

كانت النية معقودة على إخراج (التفسير) على حسب تجزئة المؤلف . لكنا ، لما رأينا أن حجوم الأجزاء غير متساوية ، ولتيسير الحصول عليها ، قررنا إخراج الأجزاء الباقية ، ابتداء من هذا الجزء ، في حجم الأجزاء الأربعة الأولى . والله الموفق والمستعان .

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثامن

وفيه تفسير سورتي : الأنفال والتوبة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨ – سُورَة الأنفال (١)

مدنية ، أو ، إلا (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ . . .) الآيات السبع ، فمكية . وآياتها خمس وسبعون آية .

سميت بالأنفال لأنها مبدأ هذه السورة ، ومنتهى ما ذكر فيها من أثر أمر الحروب .

(١) بدأت بمحاسن تأويل هذه السورة بعد عودتى من مصر بعد فجر الاثنين ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢١ (مؤلفه) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

روى البخارىّ[١] عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت فى بدر .

وروى الإمام أحمد[٢] عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدراً . فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدوّ ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون : وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدوُّ منه غرة . حتى إذا كان الليـــل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدوّ : لستم بأحق به منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا . نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، واشتغلنا به — فنزلت: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية — فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاقٍ[٣] من المسلمين .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ـ باب قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، حديث رقم ١٨٦٩ . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٢٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) . (٣) قال ابن الأثير : أى قسمها فى قـدر فُواق ناقةٍ ، وهو ما بين الحلبتين من الراحة . وتضم فاؤه وتفتح .

وهذا الحديث رواه الترمذي[١] أيضاً وحسنه ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الحاكم . ولفظ ابن إسحق عن عبادة قال : فينا ، أصحابَ بدر ، نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء .

وروى أبو داود[٢] والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : من صنع كذا وكذا فله من النَّفَل كذا وكذا . فتسارع في ذلك شبّان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم ، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم . فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإنا كنا رِدْءاً لكم ، لو انكشفتم لثُبْتُم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية ـ وهذا مما يفيد أن التشاجر كان متنوعاً ، وأن الآية نزلت لفصله .

والأنفال : هي المغانم ، جمع (نَفَل) محركة ، وهو الغنيمة . أي كل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب . قال ابن تيمية : سميت بذلك ، لأنها زيادة في أموال المسلمين . أي لأن النفل يطلق على الزيادة ـ كما في (التاج) . ومنه النافلة لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة .

وقوله تعالى : (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) — قال المهايمي : أي ليست هي في مقابلة الجهاد ، وإنما مقابله الأجر الأخروي ، وهذه زائدة عليه ، خرجت عن ملك المشركين فصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله . والرسول خليفة يعطيها ، على ما أراه الله ، من يشاء . ولما أطلق له ﷺ الحكم فيها ، قسمها بينهم بالسوية ، ووهب من استوهبه . فروى الإمام أحمد[٣] عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قُتِل

(١) لم أجد هذا الحديث في سنن الترمذي . (٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٤٤ ـ باب في النفل ، حديث رقم ٢٧٣٧ . (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٥٥٦ (طبعة المعارف) .

أخي عمير وقتلتُ سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبيّ ﷺ فقال : اذهب فاطرحه فى القبَض . قال ، فرجعت ، وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى ، وأخذ سلَبى . قال ، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال . فقال لى رسول الله ﷺ : اذهب فخذ سلَبك . وروى الإمام أحمد[1] والترمذيّ ـ وصححه ـ عن سعد بن مالك قال : قلت : يارسول الله ! قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف ، فقال : إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضعه . قال ، فوضعته ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى . قال ، إذا رجل يدعونى من ورائى . قال ، قلت : قد أنزل الله فىّ شيئاً . قال : كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وإنه قد وُهب لى ، فهو لك . قال ، وأنزل الله هذه الآية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . .) الآية .

تنبيهات

الأول ـ ذهب بعضهم إلى أن أنفال بدر قسمت من غير تخميس ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى .

قال ابن كثير : فيه نظر . ويرد عليه حديث علىّ بن أبى طالب فى شارفَيْه اللذيْن حصلا له ، من الخمس ، يوم بدر . فالصواب أنها مجملة محكمة ، بيّن مصارفها فى آية الخمس .

الثانى ـ روى عن عطاء أنه فسر (الأنفال) بما شذّ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال من دابة أو أَمَةٍ أو متاع . قال : فهو نَفَلٌ للنبيّ ﷺ يصنع به ما يشاء .

قال ابن كثير : وهذا يقتضى أنه فسر (الأنفال) بالفىء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ١٥٣٨ (طبعة المعارف) .

قلت : صِدْقُ (النفل) عليه ، لا شك فيه ، وأما كونه المراد من الآية بخصوصه ، فلا يساعده سبب نزولها المارّ ذكره ، لاسيما قوله : (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) المشير إلى التنازع المتقدم .

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ، أى ما يدفع إلى الغازى زائداً على سهمه من المغنم ، والكلام الذى قلته قبل ، يجرى هنا أيضاً .

ونقل الرازىّ عن القاضى : أن كل هذه الوجوه تحتمله الآية . قال: وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض ، وإن صح فى الأخبار ما يدل على التعين ، قضى به . وإلا فالكل محتمل . وكما أن كل واحد منها جائز ، فكذلك إرادة الجميع جائزة ، فإنه لا تناقض بينها . أى لصدق (النَّفَل) عليها .

الثالث ـ وقع عند الزمخشرىّ أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر ، لمن الحكم فيها ألمهاجرين أم للأنصار ، أم لهم جميعاً ؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر الزمخشرىَّ أبو السعود فى سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل مملّ . ولا أدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها فى صحاحهم ولا سننهم، بل ولا أصحاب السير ، كابن إسحق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! ولكن هو الرأى (قاتله الله !)ونبذ كتب السنة، والتقليد البحت ، الذى لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقاداً لها مصدقاً ماينطق به فمه ، غثًّا كان أو سميناً . اللهم نوّر بصيرتنا بفضلك .

وقوله تعالى (فَاتَّقُوا اللهَ) أى فى الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين فى الله .

وقوله تعالى (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أى أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق .

وقوله تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى فى قسمه بينكم ، على ما أراه الله تعالى .

وقوله تعالى (إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) متعلق بالأوامر الثلاثة .

قال الزمخشرىّ : جعل التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله ، من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها . فمعنى قوله (إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى كاملى الإيمان .

ثم بيّن تعالى من أريد بالـ (مؤمنين) بذكر أوصافهم الجليلة ، المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث ، ترغيباً لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة ، فقال سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ » أى الكاملون المخلصون فيه « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ » أى حقه أو وعيده « وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فزعت لذكره ، واقشعرت إشفاقاً ألا تكون قامت بحقه ، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ، وبطشه بالعصاة وعقابه .

قال الجُشمىّ : ومتى قيل : لِمَ جاز وصفهم هاهنا بالوجل والطمأنينة فى قوله (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)(١) فجوابنا فيه وجوه :

منهـا : أنه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه ، وتوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه .

ومنهـا : أن قلوبهم تطمئن لمعرفه توحيده ، ووعده، ووعيده ، فعند ذلك توجل لأوامره ونواهيه، خوف التقصير فى الواجبات ، والإقدام على المعاصى ، والمستقبل بتغير حاله . انتهى.

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ » أى حججه وهى القرآن « زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » أى يقيناً وطمأنينة نفس ، إلى ما عندهم ؛ فإن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه ، وأثبت لقدمه .

(١) / ١٣ / الرعد / ٢٨] .

وقد استدل البخاريّ وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها ، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة . بل قد حكى الإجماع عليه غيرُ واحد ، كالشافعيّ وأحمد بن حنبل وأبي عبيد « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أي لا يرجون سواه ، ولا يخشون غيره ، ولا يفوّضون أمورهم إلى غيره .

ولما ذكر تعالى ، من أعمالهم الحسنة ، أعمالَ القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، أعقبه بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أي المفروضة بحدودها وأركانها ، في أوقاتها . والموصول نعت للموصول الأول ، أو بيان له ، أومنصوب على المدح .

وقوله « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » عامّ في الزكاة ، وأنواع البر والقُربات .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » أي لا شك في إيمانهم . و (حَقًّا) صفة لمصدر محذوف، أي إيماناً حقًّا أو مصدر مؤكد للجملة ، أي حق ذلك حقًّا ، كقولك . هو عبدالله حقًّا.

قال عمرة بن مرة (في هذه الآية) : إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيّد حقًّا ، وفي القوم سادة . وفلان تاجر حقًّا ، وفي القوم تجار . وفلان شاعر حقًّا ، وفي القوم شعراء . انتهى .

وكأنه أراد الرد على من زعم أن (حَقا) من صلة قوله (لَهُمْ دَرَجَاتٌ) بعدُ، تأكيداً له وأن الكلام تم عند قوله (الْمُؤْمِنُونَ) ، فإن هذا الزعم يصان عنه أسلوب التنزيل الحكيم .

وقد تطرف بعض المفسرين هنا لمسألة شهيرة . وهي : هل يجوز أن يقال : أنا مؤمن حقًّا .

قال الطوسيّ في (نقد المحصل) : المعتزلة ومن تبعهم يقولون : اليقين لا يحتمل الشك والزوال . فقول القائل : (أَنا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ) لا يصح إلا عند الشك ، أو خوف الزوال . وما يوهم أحدهما ؛ لا يجوز أن يقال للتبرك . انتهى .

والغزاليّ في الإحياء ، بسط هذه المسألة ، وأجاب عمن سوّغ ذلك بأجوبة :

منهـا : التخوف من الخاتمة ، لأن الإيمان موقوف على سلامة الخاتمة .

ومنها : الاحتراز من تزكية النفس .

ومنهـا : غير ذلك. انظره بطوله .

وقال ابن حزم في (الفِصَل) : القول عندنا في هذه المسألة ؛ أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه ، فإن كان يدرى أنه مصدّق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ ، وبكل ما أتى به ، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك ، كما أمر تعالى في قوله : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)[٢] .ولا نعمة أَوْكد ولا أفضل ، ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول : أنا مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى ، في وقتي هذا . ولا فرق بين قوله (أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ) وبين قوله (أَنَا أَسْوَدُ أَوْ أَنَا أَبْيَضُ) وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والعجب في شيء ، لأنه فرض عليه أن يحقن دمه بشهادة التوحيد . وقول ابن مسعود : (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ) عندنا صحيح، لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود الجزم على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات ، وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع أن يقول المرء (إِنِّي مُؤْمِنٌ) بمعنى (مصدق) .

(١) [٩٣/ الضحى / ١١].

وأما قول المانعين : (من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة) فالجواب: إنا نقول إن متنا على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنن والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ ، وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه فى الجنة إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا فى الدنيا ، ولا نأمن مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان ؛ ولا ندرى ما ذا نكسب غداً ، ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى كلام ابن حزم رحمه الله ، ولقد أجاد فيما أفاد .

وقوله تعالى : « لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى منازل ومقامات عاليات فى الجنة « وَمَغْفِرَةٌ » أى تجاوز لسيآتهم « وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو ما أعدّ لهم من نعيم الجنة .

تنبيـه :

قال الُجشمىّ : تدل الآية على أشياء :

منها : أن الإيمان اسم شرعىّ لثلاث خصال : القول ، والاعتقاد ، والعمل . خلاف ماتقوله المرجئة . لأن الوجل وزيادة التصديق من فعل القلب ، والتدبر والتفكر كذلك ، والصلاة والإنفاق من أعمال الجوارح ، والتوكل يشتمل على فعل القلب والجوارح . ثم بين فى آخره أن من جمع هذه الخصال فهو المؤمن حقاً .

ومنها : أنها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، لأن هذه الطاعات تزيد وتنقص ، وقد نص على ذلك فى قوله (زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) .

ومنها : أن الواجب عند تلاوة القرآن التدبر والتفكر فيما أمر ونهى ، ووعد وأوعد ، لينجرّ للرغبة والرهبة . وذلك حثّ على الطاعة ، وزجر عن المعاصى .

ومنها : وجوب التوكل عليه . والتوكل على ضربين : منها فى الدنيا ، ومنها فى الدين .

أما فى الدنيا فلا بد من خصال :

منها : أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذى أتيح له ، ولا يطلب محرماً .

ومنها : إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرّم .

ومنها : ألا يظهر الجزع عند الضيق ، بل يسلك فيه طريق الصبر ، واعتقادأن ما هو فيه مصلحة له .

ومنها : أنما يرزق من النعم بعدها ، من جهته تعالى . إما بنفسه أو بواسطة .

ومنها : ألا يحبسه عن حقوقه خشية الفقر .

ومنها : ألا يسرف فى النفقة ولا يقتر .

فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلا .

فأما الذى يزعمه بعضهم ؛أن التوكل إهمال النفس، وترك العمل ـ فليس بشىء. وقد أمر الله تعالى بالإنفاق ، وبالعمل . وثبت عن الصحابة ـ وهم سادات الإسلام ـ التجارة والزراعة والأعمال . وكذلك التابعين . وبهذا أجرى الله العادة . وقد أمر النبىّ (1) ﷺ الأعرابىّ أن يعقل ناقته ويتوكل .

فأما التوكل فى الدين فخصال :

منها : أن يقوم بالواجبات ، ويجتنب المحارم ، لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة .

ومنها : أن يسأله التوفيق والعصمة .

ومنها : أن يرى جميع نعمه منه ، إذ حصل بهدايته وتمكينه ولطفه .

ومنها : أن لا يثق بطاعته جملة ، بل يطيع ويجتنب المعاصى ، ويرجو رحمة ربه ، ويخاف عذابه . فعند ذلك يكون متوكلا .

ثم قال الجشمىّ : وتدل الآية على أن تارك الصلاة والزكاة لا يكون مؤمناً، خلاف قول المرجئة . انتهى .

وقوله تعالى :

---

(1) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ـ كتاب صفة القيـــامة والرقائق والورع ، ٦٠ ـ باب حدثنا عمرو بن علىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ » الكاف فى (كَمَا) كاف التشبيه ، والعامل فيه يحتمل وجوها . فإما هو معنى الفعل الذى دل عليه (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ) ، تقديره نزع الأنفال من أيديهم بالحق ، كما أخرجك بالحق . وإما هو معنى الحق ، يعنى هذا الذكر حق ، كما أخرجك بالحق . وإما أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه ، أى حالهم هــذه فى كراهة تنفيل الغزاة ، كحال إخراجك من بيتك للحرب فى كراهتهم له (كما سيأتى فى تفصيل القصة) . وهذا هو قول الفرّاء ، فإنه قال : الكاف شبهت هذه القصة التى هى إخراجه من بيته ، بالقصة المتقدمة ، التى هى سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها ، مع أنها أولى بحالهم .

وقوله تعالى : (مِنْ بَيْتِكَ) أراد به بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها مثواه . أى إخراجه إلى بدر . وزعم بعض أن المراد إخراجه ﷺ من مكة إلى المدينة للهجرة . وهو ساقط ، يرده سياق القصة البدرية فى الآيات بعدُ . وملخصها[1] أن أبا سفيان قدم بعير من الشام فى تجارة عظيمة ، فخرج النبيّ ﷺ وأصحابه ليغنموها ، فعلمت قريش . فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليذبّوا عنها ، وهم النفير . وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل ، فنجت . فقيل لأبى جهل : ارجع ، فأبى وسار إلى بدر . فشاور ﷺ أصحابه وقال لهم : إن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فوافقوه على قتال النفير ، وكره بعضهم ذلك ، وقالوا : لم نستعد له ، كما قال تعالى :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والصفحة رقم ٤٢٧و٤٢٨ (طبعة جوتنجن) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

« يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ » وهو الجهاد وتلقى النفير « بَعْدَمَا تَبَيَّنَ » أى ظهر لهم أنهم يُنصرون فيه « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، وكان ذلك لقلة عددهم، وعدم تأهبهم. إذ روى أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فيهم فارسان ، المقداد والزبير. وقيل الأول فقط. والمشركون ألف،ذوو عِدَّة وعُدَّة وفيه تعريض بأنهم إنما يسار بهم إلى الظفر والغنيمة للوعد الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

« وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ » العير أو النفير « أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ » أى تحبون « أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ » وهو العير، لاذات الشوكة، وهى النفير . والشوكة : السلاح أو حدته « وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ » أى يثبته ويعليه ، وهو دعوة رسوله « بِكَلِمَاتِهِ » أى بآياته المنزلة ، وأوامره فى هذا الشأن « وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » أى يستأصلهم ، فلا يبقى منهم أحداً .

ثم بيّن تعالى الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم عليها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ » أى ليثبت الدين الحق ، ويمحق الدين الباطل ،

باستئصال أهله ، مع ظهور شوكتهم « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى المشركون ذلك .

ثم ذكرهم تعالى التجاءهم إليه ، واستمدادهم منه النصر يوم بدر ، وإمداده حينئذ بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » أى تطلبون منه الغوث ، وهو التخلص من الشدة ، والعون بالنصر عليهم « فَاسْتَجَابَ لَكُمْ » أى الدعاء « أَنِّى مُمِدُّكُمْ » أى معينكم « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » بكسر الدال ، أى متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ، أو مردفين غيرهم . وقرئ بفتحها على معنى أن الله أردف المسلمين بهم ، أو مردفين بغيرهم ، أى من ملائكة آخرين . وقرئ (بآلاف) بالجمع ، كما يأتى .

روى مسلم(١) عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ؛ نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ؛ فاستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ؛ ثم مدّ يده ؛ فجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم آتنى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ؛ لا تعبد فى الأرض . فما زال يهتف بربه مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله ! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعتنا) .

وروى البخاريّ[١] عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب .

وروى البخاريّ[٢] عن معاذ بن رفاعة ، عن رافع الزرقيّ ، عن أبيه ـ وكان ممن شهد بدراً ـ قال : جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال : ما تعدّون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسمين ـ أو كلمة نحوها ـ قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة .

تنبيهات :

الأول ـ قال الجشميّ : تدل الآية على أن الملَك يجوز أن يتشبه بالآدميّ ، ولا يخرج من كونه ملكاً ، بأن يغير أطرافهم دون الأجزاء التي صاروا بها أحياء والذي ينكر أن يقدر أحد على تغيير الصور ، بل نقول : إن الله هو الذي يقدر على ذلك . انتهى .

الثاني ـ قال الزمخشريّ : وعن السدّيّ (بِآلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ـ على الجمع ـ ليوافق ما في سورة آل عمران . فإن قلت : فبم يُعتذر لمن قرأ على التوحيد ، ولم يفسر (المردِفين) بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، و(المردَفين) بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالألف ، من قاتل منهم ، أو الوجوه منهم ، الذين مَنْ سواهم أتباع لهم . انتهى .

وقال شمس الدين ابن القيّم في (زاد المعاد) في بحث غزوة بدر :

فإن قيل : ههنا ذكر أنه أمدهم بألف ، وفي سورة آل عمران قال[٣] : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فكيف الجمع بينهما ؟

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدرا ، حديث رقم ١٨٥٥ . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١١ ـ باب شهود الملائكة بدراً ، حديث رقم ١٨٥٣ . (٣) [٣ / آل عمران / ١٢٤ ، ١٢٥] .

قيل : اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف ، والذي بخمسة ، على قولين :

أحدهما : أنه كان يوم (أُحُد)،وكان إمداداً معلقاً على شرط ، فلمافات شرطه، فات الإمداد . وهذا قول الضحاك ومقاتل . وإحدى الروايتين عن عكرمة .

والثاني : أنه كان يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.والرواية الأخرى عن عكرمة واختاره جماعة من المفسرين. وحجة هؤلاء: أن السياق يدل على ذلك. فإنه سبحانه قال[1] : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) إلى أن قال : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ) أى هذا الإمداد (إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ).قال هؤلاء : فلما استغاثوا،أمدهم بألف، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف،ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف ، لما صبروا واتقوا . وكان هذا التدريج ، ومتابعة الإمداد ، أحسن موقعاً ، وأقوى لتقويتهم وأسرّ لها من أن يأتي مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ، ونزوله مرة بعد مرة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة في سياق (أُحُد) وإنما أدخل ذكر (بدر) اعتراضا في أثنائها، فإنه سبحانه قال[2] :(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) ثم قال[1] :(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)فذكره نعمه عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ثم عاد إلى قصة (أُحُد) ،وأخبر عن قول رسوله لهم (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ)ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله،والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف ، وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق . والقصة في سورة آل عمران ، هي قصة (أُحُد)مستوفاة مطولة ، و(بدر) ذكرت فيها اعتراضاً .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٣ـ١٢٦] (٢) [٣ / آل عمران / ١٢١و١٢٢]

والقصة في سورة الأنفال قصة (بدر) مستوفاة مطولة ، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال . يوضح هذا أن قوله[1] (وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا) قد قال مجاهد : هو يوم (أُحُد) ، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه ، فلا يصح قوله إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ » أي هذا الإمداد « إِلَّا بُشْرَىٰ » أي بشارة لكم بالنصر « وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أي من غير أن يكون فيه شركة لغيره « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » قال بعض الحكماء : ذكر تعالى في هذه الآية حكمة إخبارهم بالنصر ، وأنه يريد بشراهم وطمأنينتهم وتوكلهم عليه ، وهو أدعى إلى قوة العزيمة . فإن العامل إذا أيقن بأن معه قاهر الكون : رفعته تلك الفكرة ، وجعلته أقوى الناس ، وأقدرهم على صعاب الأمور ، لا كما يظنه المتكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله ، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة ، فباؤا بغضب على غضب . انتهى .

ثم ذكَّرهم سبحانه بنعم أخرى جعلها سبباً لنصرهم ، وللعناية بهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)

« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ » أي يلقي عليكم النوم للأمن الكائن منه تعالى ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٥] .

مما حصل لكم من الخوف من كثرة عدوّكم . وقد كان أسهرهم الخوف ، فألقى تعالى عليهم النوم فأمنوا واستراحوا . وكذلك فعل تعالى بهم يوم (أُحُد) ، كما قال جل ذكره[1] (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ) وقرئ (يُغْشِيكم) من الإغشاء ، بمعنى التغشية . والفاعل في الوجهين هو الله تعالى . وقرئ (يَغْشاكم) على إسناد الفعل إلى النعاس.

وفي الصحيح[2] أن رسول الله ﷺ لما كان يوم (بدر) في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان ، أخذت رسولَ الله ﷺ سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل ، على ثناياه النقع . ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلوا[3] (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) .

ثم ذكّرهم تعالى منة أخرى تدل على نصره إياهم بقوله سبحانه: «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » أي : من الحدث الأصغر والأكبر ، وهو تطهير الظاهر « وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ » أي وسوسته بأنكم على هذا الرمل لا تتمكنون من المحاربة ، ومع فقد الماء كيف تفعلون ؟ فأزال تعالى بإنزاله ، ذلك . فكان لهم به طهارة باطنة ، فكملت لهم الطهارتان ، أي من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن « وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ » أي يقويها بالثقة ، بالأمن وزوال الخوف « وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » أي على الرمل . قال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر ، فأطفأ به الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ؛ وثبتت به أقدامهم .

قال الجشميّ : قال القاضي : وهو أشبه بالظاهر . وقيل بالصبر وقوة القلب التي أفرغها عليهم ، حتى ثبتوا لعدوّهم . وقوله (به) يرجع إلى الماء المنزل ، أو إلى ما تقدم من البشارة والنصر .

ثم أشار تعالى إلى نعمة خفية أظهرها تعالى لهم ليشكروه عليها بقوله :

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٤] (٢) لم أعثر على هذا الحديث بهذا النص ولكن وجدت حديثاً بهذا المعنى عن ابن عباس . أخرجه البخاريّ في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٩ ـ باب ما قيل في درع النبيّ ﷺ والقميص في الحرب (٣) [٥٤ / القمر / ٤٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ » أى الذين أمدّ بهم المسلمين « أَنِّي مَعَكُمْ » أى بالعون والنصر .

قال الجشمىّ : يحتمل مع الملائكة ، إذ أرسلهم ردءاً للمسلمين ، ويحتمل مع المسلمين ، كأنه قيل : أوحى إلى الملائكة أنى مع المؤمنين ، فانصروهم وثبتوهم .

وقوله تعالى : « فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » أى بدفع الوسواس وبالقتال معهم والحضور مدداً وعوناً « سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الخوف .

ثم علمهم تعالى كيفية الضرب بقوله تعالى : « فَاضْرِبُوا » أمرٌ للمؤمنين أو للملائكة . وعليه ، ففيه دليل على أنهم قاتلوا « فَوْقَ الْأَعْنَاقِ » أى أعالى الأعناق التى هى المذابح ، تطييراً للرؤوس . أو أراد الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق « وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » أى أصابع . جمع (بنانة) قيل : المراد بالبنان، مطلق الأطراف مجازاً ، تسمية للكل بالجزء ، لوقوعها فى مقابلة الأعناق والمقاتل . والمعنى : اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« ذَٰلِكَ » أى الضرب أو الأمر به « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى خالفوهما فيما شرعا . وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » تقرير

لما قبله ، إن أريد بالعقاب ما وقع لهم فى الدنيا ، أو وعيد بما أعدّ لهم فى الآخرة ، بعد ما حاق بهم فى الدنيا ، وبيان لخسرانهم فى الدارين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

« ذَٰلِكُمْ » خطاب للكفرة على طريقة الالتفات « فَذُوقُوهُ » أى ذلك العذاب ، أيها الكفار ، فى الدنيا « وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ » فى الآخرة .

ثم نهى تعالى عن الفرار من الزحف ، مبينا وعيده بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ » أى الظهور بالانهزام . و (الزحف) الجيش الكثير ، تسمية بالمصدر ، والجمع زحوف ، مثل فلس وفلوس . ويقال : زحف إليه ، أى مشى ، وزحف الصبىّ على استه قبل أن يقوم. شبه بزحف الصبيان مشى الجيش الكثير للقتال ، لأنه لكثرته يرى كأنه يزحف ، أى يدب دبيباً قبل التدانى للضراب أو الطعان .

قال أبو السعود : (زَحْفًا) منصوب ، إما على أنه حال من مفعول (لَقِيتُمُ) أى : زاحفين نحوكم ، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر ، هو الحال منه ، أى يزحفون زحفا. وأما كونه حالًا من فاعله أو منه ، ومن مفعوله معاً كما قيل - فيأباه قوله تعالى (فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) إذ لا معنى لتقييد النهى عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدوّ ، أو بكثرتهم . بل توجه العدوّ إليهم وكثرتهم هو الداعى إلى الإدبار عادة ، والمحوج إلى النهى عنه .

وحمله على الإشعار بما سيكون منهم يوم حنين ، حيث تولّوا مدبرين ، وهم زحف من الزحوف اثنا عشر إلفاً ـ بعيدٌ .

والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال ، وهم كثير جمّ ، وأنتم قليل ، فلا تولوهم أدباركم ، فضلًا عن الفرار ، بل قابلوهم وقاتلوهم ، فضلًا عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم .

قال الشهاب : عدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحاً للانهزام ، وتنفيراً عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ » أي يوم اللقاء « دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ » أي مائلًا له . يقال: تحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل . وهــذا التحرف إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهمّ من هؤلاء ، وإما بالفرّ للـكرّ ، بأن يخيّل عدوه أنه منهزم ليغره ، ويخرجه من بين أعوانه ، فيفرّ عنه ، ثم يكرّ عليه وحده أو مع من في الـكمين من أصحابه ، وهو باب من مكايد الحرب « أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ » أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليستعين بهم « فَقَدْ بَاءَ » أي رجع « بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أي ما صار إليه من عذاب النار.

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على وجوب مصابرة العدو ، أي الثبات عند القتال ، وتحريم الفرار منه يوم الزحف ، وعلى أنه من الـكبائر . لأنه توعد عليه وعيداً شديداً .

الثاني ـ ظاهر الآية العموم لـكل المؤمنين في كل زمن ، وعلى كل حال ، إلّا حالة التحرف أو التحيز ، وهو مرويّ عن ابن عباس ؛ واختاره أبو مسلم . قال الحاكم : وعليه أكثر الفقهاء.

وروى عن جماعة من السلف ؛ أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم (بدر) ، لقوله تعالى (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ) وأجيب بأن الإشارة فى (يَوْمَئِذٍ) إلى يوم لقاء الزحف كما يفيده السياق ، لا إلى يوم بدر .

الثالث ـ ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى (أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ) أى جماعة أخرى من المسلمين ، سوى التى هو فيها ، سواء قربت تلك الفئة أو بعدت . وقد[1] روى أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر رضى الله عنه : لو تحيز إلىّ لكنت له فئة . وفى رواية عنه : أيها الناس ! أنا فئتكم . وقال الضحاك : المتحيز إلى فئة ، الفارّ إلى النبىّ وأصحابه . وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه . وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال : من فرّ من سرية إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم ، دخل فى هذه الرخصة . ثم أورد حديث عبد الله بن عمر المروىّ عند الإمام أحمد[2] وأبى داود[3] والترمذىّ[4] وغيرهم . قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع ؛ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا : لو دخلنا المدينة . فبتنا ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة ، وإلا ذهبنا ! فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال : لا ، بل أنتم العكّارون ، أنا فئتكم وفئة المسلمين ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . قال الترمذىّ : حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد ـ انتهى ـ . أى وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة . قال الحاكم فى (مسألة الفرار) : إن

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) الصفحة رقم ٢٠٢ و ٢٠٣ من الجزء التاسع والعكّارون : الكرّارون إلى الحرب . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٣٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٩٦ ـ باب فى التولى يوم الزحف ، حديث ٢٦٤٧ (٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٢١ ـ كتاب الجهاد ، ٣٧ ـ باب ما جاء فى الفرار من الزحف .

ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده . فإن ظن المقاومة لم يحلّ الفرار . وإن ظن الهلاك ، جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت ، إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات . وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور .

وعن الكرخيّ : أن الثبات والمصابرة واجب ، إذا لم يخش الاستئصال ، وعرف عدم نكايته للكفار ، والتجأ إلى مصرٍ للمسلمين ، أو جيش ، وهكذا أطلق فى (شرح الإبانة) فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ، ولم يعتبر العدد الآتى بيانه .

الرابع ـ روى عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى[1] : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) قال الحاكم : إذا أمكن الجمع فلا نسخ وأقول : كنا أسلفنا أن السلف كثيراً مايعنون بـ (النسخ) تقييد المطلق ، أو تخصيص العامّ ، فلا ينافى كونها محكمة إطلاقهم النسخ عليها .

قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضى بوجوب المصابرة ، وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة . لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى[2] فى السورة هذه : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة . لأنه خبر معناه الأمر . فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى ، وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين ، فقال تعالى[1] : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) .

وعن ابن عباس : من فرّ من اثنين فقد فرّ ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ .

وبالجملة ، فلا منافاة بين هذه الآية وآية الضّعف ، فإن هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله فى آية الضِّعف .

وفى (المهذب) : إن زاد عددهم على مثلىْ عدد المسلمين ، جاز الفرار . لكن إن غلب على ظنهم أنهم لايهلكون ، فالأفضل الثبات . وإن ظنوا الهلاك ، فوجهان : يلزم الانصراف

(١) [٨ / الأنفال / ٦٦] . (٢) [٨ / الأنفال / ٦٥] .

لقوله تعالى[١] (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) . والثانى : يستحب ولا يجب ، لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة . وإن لم يزد عدد الكفار على مثلْ عدد المسلمين ، فإن لم يظنوا الهلاك ، لم يجز الفرار . وإن ظنوه فوجهان : يجوز لقوله تعالى[١] (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ولا يجوز ، وصححوه لظاهر الآية .

ثم بيّن تعالى أن نصرهم يوم بدر ، مع قلتهم ، كان بحوله تعالى وقوته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ » أى بقوتكم « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » أى سبّب فى قتلهم بنصرتكم وخذلانهم وألقى الرعب فى قلوبهم ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، وأذهب عنها الفزع والجزع « وَمَا رَمَيْتَ » أى أنت يا خاتم النبيين ، أى ما بلغتَ رمية الحصباء إلى وجوه المشركين « إِذْ رَمَيْتَ » أى بالحصباء ، لأن كفاً منها لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » أى بلغ بإيصال ذلك إليهم ليقهرهم . وقال أبو مسلم (فى معنى الآية): أى ما أصبت إذ رميت ، ولكن الله أصاب . والرمى لا يطلق إلا عند الإصابة ، وذلك ظاهر فى أشعارهم .

وقد روى عن غير واحد ؛ أنها نزلت[٢] فى شأن القبضة من التراب التى حصب بها النبىّ ﷺ وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش ، بعد دعائه وتضرعه واستكانته . فرماهم بها وقال (شاهت الوجوه) . ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، وانهزموا.

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية أن فعل العبد يضاف إليه تعالى إذا كان بنصرته ومعونته

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] .

(٢) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) الصفحة رقم ٢٠٥ من الجزء التاسع .

وتمكينه . إذ معلوم أنهم قتلوا ، وأنه رمى ، ولذلك قال (إِذْ رَمَيْتَ)ولهذا يضاف إلى السيد ما يأتيه غلامه . وتدل على أن الإضافة بالمعونة والأمر ، صارت أقوى ، فلذلك قال (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ) .

وقال في (العناية) : استدل بهذه الآية والتي قبلها على أن أفعال العباد بخلقه تعالى ، حيث نفى القتل والرمى . والمعنى : إذ رميت أو باشرت صرف الآلات . والحاصل: ما رميت خلقاً إذ رميت كسباً . وأورد عليه أن المدعى ، وإن كان حقاً ، لكن لادلالة في الآية عليه ، لأن التعارض بين النفى والإثبات الذى يتراءى في بادئ النظر ، مدفوع بأن المراد ما رميت رمياً تقدر به على إيصاله إلى جميع العيون ، وإن رميت حقيقة وصورة ، وهذا مراد من قال : (ما رميت حقيقة ، إذ رميت صورة) فالمنفى هو الرمى الكامل ، والمثبت أصله، وقدر منه . فالإثبات والنفى لم يردا على شىء واحد ، حتى يقال : (المنفى على وجه الخلق ، والمثبت على وجه المباشرة) ولو كان المقصود هذا لما ثبت المطلوب بها ، الذى هو سبب النزول ، من أنه أثبت له الرمى ، لصدوره عنه ، ونفى عنه ، لأن أثره ليس في طاقة البشر ، ولذا عدت معجزة له ، حتى كأنه لا مدخل له فيها أصلا . فمبنى الكلام على المبالغة ، ولا يلزم منه عدم مطابقته للواقع ، لأن معناه الحقيقى غير مقصود . هكذا ينبغى أن يفهم هذا المقام ، إذ لو كان المراد ما ذكر ، لم يكن مخصوصاً بهذا الرمى ، لأن جميع أفعال العباد كذلك بمباشرتهم وخلق الله . انتهى .

وهذا التحقيق جيد، وقد نبه عليه أيضاً العلامة ابن القيم في (زاد المعاد) حيث قال : وقد ظنت طائفة أن الآية دلت على نفى الفعل عن العبد وإثباته لله ، وأنه هو الفاعل حقيقة ، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة ، مذكورة في غير هذا الموضع . ومعنى الآية : أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمى ، ونفى عنه الإيصال الذى لم يحصل برميه ، فالرمى يراد به الحذف والإيصال ، فأثبت لنبيه الحذف ، ونفى عنه الإيصال . انتهى .

وقوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ » أى ليمنحهم من فضله « بَلَاءً حَسَنًا »

أى منحاً جميلا ، بالنصر والغنيمة والفتح ، ثم بالأجر والمثوبة ، غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره ، فيعرفوا حقه ويشكروه .

قال أبو السعود : واللام ، إما متعلقة بمحذوف متأخر ، فالواو اعتراضية ، أى وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة ، فعل ما فعل ، لا لشيء غير ذلك ، مما لا يجديهم نفعاً .وإما ، برمى ، فالواو للعطف على علة محذوفة ، أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى . . . الخ . وتفسير البلاء هنا بالمنحة هو مااختاره المحققون من قولهم : (أبلاه الله ببلية إبلاء حسناً) إذا صنع به صنعاً جميلا ، وأبلاه معروفا ، قال زهير (فى قصيدته التى مطلعها .

صحاالقلبُ عن سَلْمَى وقد كادَ لَا يَسْلُو وأقفر من سَلْمَى التَّعانيقُ والثَّقْلُ

والتعانيق والثقل : مواضع) :

جزى اللهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بِكم وأبلاهمـا خَيْرَ البَلَاءِ الذى يَبْلُو

(أى إحسان فعلهما بكم . فأبلاهما خير البلاء ، أى صنع الله إليهما خير الصنيع الذى يبتلى به عباده . والإنسان يبلى بالخير والشر) أى صنع بهماخير الصنيع الذىيبلو به عباده . واستظهر الطيبى تفسيره بالإبلاء فى الحرب بدليل ما بعده . قال ابن الأعرابى : يقال : أبلى فلان إذا اجتهد فى صفة حرب أو كرم . ويقال : أبلى ذلك اليوم بلاء حسنا .

« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ » أى لدعائهم واستغاثتهم « عَلِيمٌ » أى بمن يستحق النصر والغلب وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمى . ومحله الرفع. أى المقصود أو الأمر (ذلكم) . وقوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » معطوف عليه . أى

مضعف بأس الكافرين وحيلهم بنصركم وخذلانهم ، أى أن المقصود إبلاء المؤمنين ، وتوهين كيد الكافرين .

قال ابن كثير : هذه بشارة أخرى . مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنه فى تبار ودمار . أى : وقد وجد المخبر على وفق الخبر ، فصار معجزة للنبىّ ﷺ ، ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ » خطاب للمشركين ، أى إن تطلبوا الفتح ، أى القضاء وأن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم القضاء بما سألتم .

روى الإمام أحمد(١) والنسائىّ والحاكم ، وصححه ، عن عبد الله بن ثعلبة . أن أبا جهل قال ، حين التقى القوم : اللهم ! أقطعنا للرحم . وآتانا بما لا نعرفه ، فَأَحِنْهُ ـ أى فأهلكه ـ الغداةَ . فكان المستفتِحَ .

وعن السدّىّ(٢) ؛ أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر : أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله وقالوا : اللهم ؟ انصر أعزّ الجندين ، وأكرَمَ الفئتين ، وخيرَ القبيلتين . فقال تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا . . .) الآية .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ أن هذه الآية إخبار عنهم بما قالوا (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٣١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) الصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء التاسع .

هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ . . .) الآية ـ قيل : فى هذا الخطاب تهكم بهم ؛ يعنى فى قوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) لأن الذى جاءهم الهلاك والذلة . كذا فى (العناية) . وهو مبنىّ على أن الفتح بمعنى النصر ، وله معنى آخر وهو الحكم بين الخصمين والقضاء . وبهما فسرت الآية أيضاً . « وَإِنْ تَنْتَهُوا » أى عن الكفر وعداوة الرسول « فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى فى الدنيا والآخرة « وَإِنْ تَعُودُوا » أى لمحاربة الرسول « نَعُدْ » أى لنصره عليكم « وَلَنْ تُغْنِيَ » أى تدفع « عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصر . قرئ بكسر (إن) استئنافاً ، وفتحها ، على تقدير اللام .

تنبيه :

جُوِّز أن يكون الخطاب فى قوله تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا) للمؤمنين ، أى إن تطلبوا النصر باستغاثتكم ربكم ، فقد حصل لكم ذلك ، فاشكروا ربكم ، والزموا طاعته . وقوله تعالى (إِنْ تَنْتَهُوا) أى عن المنازعة فى أمر الأنفال ، وعن طلب الفداء على الأسرى الذى عوتبوا عليه بقوله تعالى[1] (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ) ، فقال تعالى : وَإِنْ تَنْتَهُوا ـ عن مثله ـ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا إلى تلك المنازعات نعد عليكم بالإنكار ، وتهييج العدوّ ؛ لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة ، وترك المخالفة ، ثم لا تنفعكم الفئة والكثرة ، إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، فإنه مع الكاملين فى إيمانهم . وهذا الوجه قرره الرازىّ ونقله عن القاضى .

قال البيضاوىّ : ويؤكده الآية بعدُ ؛ فإن المراد بها الأمر بطاعة الرسول ؛ والنهى عن الإعراض عنه ؛ والله أعلم .

---

(١) [٨ / الأنفال ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ » أى تعرضوا عنه بمخالفة أمره « وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » أى القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا » أى ادعوا السماع « وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى سماع تدبر واتعاظ ، وهم المنافقون أو المشركون . فالمنفىّ سماع خاص ، لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزّلوا منزلة من لم يسمع أصلاً ، بجعل سماعهم بمنزلة العدم . وقيل: السماع مجاز عن التصديق .

قال الزمخشرىّ : والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الأمور ، من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كَلاَ تصديقٍ ، وأشبه سماعُكم سماعَ من لا يؤمن .

ثم بيّن تعالى سوء حال المشبه بهم ، مبالغة فى التحذير ، وتقريراً للنهى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ » أى ما يدبّ على الأرض ، أو شر البهائم « عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ » أى عن سماع الحق « الْبُكْمُ » أى عن النطق به « الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى لا يفهمونه . جعلهم تعالى من جنس البهائم ، لصرفهم جوارحهم عما خلقت له ، ثم جعلهم شرّها لأنهم

عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل، وفى ذكرهم فى معرض التشبيه، بهذا الأسلوب، غاية فى الذم . وقد كثر ، فى التنزيل ، تشبيه الكافرين بنحو هذا ، كقوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً) وقال تعالى[1] (أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »)[2] .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

« وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ » أى فى هؤلاء الصم البكم « خَيْرًا » صدقاً ورغبة « لَأَسْمَعَهُمْ » أى الحجج والمواعظ ، سماع تفهم وتدبر ، أى لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين . أى ولكن لم يعلم الله فيهم شيئاً من ذلك ، لخلوّهم عنه بالمرة ، فلم يسمعهم كذلك ، لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة ، وإليه أشير بقوله تعالى (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا » أى : ولو أسمعهم سماع تفهم ، وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية ، لتولوا عما سمعوه من الحق « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن قبوله جحوداً وعناداً . قال الرازىّ : كل ما كان حاصلًا ؛ فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده ، من لوازم عدمه ، فلا جرم حَسُنَ التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده .

تنبيه :

قد يتوهم أن الشرطيتين فى الآية مقدمتا قياس اقترانىّ . هكذا : لو علم فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا . ينتج : لو علم فيهم خيراً لتولوا . وفساده بيّن . وأجيب : بأنه إنما يلزم النتيجة الفاسدة لو كانت الثانية كلية ، وهو ممنوع . واعترض بأن هذا المنع، وإن صح فى قانون النظر ، إلا أنه خطأ فى تفسير الآية ، لابتنائه على أن المذكور قياس مفقود

(١) [٢ / البقرة / ١٧١] .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

شرائط الإنتاج ، ولا مساغ لحمل كلام الله عليه . وأجيب : بأن المراد منع كون القصد إلى ترتيب قياسٍ ، لانتفاء شرطٍ ، لا أنه قياس فقد شرطه . كما أنه يمنع منه عدم تكرار الوسط أيضاً ، وإنما المقصود من المقدمة الثانية تأكيد الأولى ، إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع ، لعدم الخيرية فيهم ، ولو وقع الإسماع ، لا تحصل الخيرية فيهم ، لعدم قابلية المحل . كذا في (العناية).

وقد حاول بعضهم تصحيح كونها قياساً شرطيًّا ، متحد الوسط ، صحيح الإنتاج ، بتقدير : لو علم فيهم خيرًا في وقتٍ ، لتولوا بعده .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » الاستجابة : بمعنى الإجابة . قال :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

(يريد : فلم يجبه . وقائله كعب بن سعد الغنويّ . والقصيدة في الأصمعيات رقم ١٤) .

والمراد بها الطاعة والامتثال . وإنما وحّد الضمير في قوله (دَعَاكُمْ) ـ أي الرسول ـ لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى .

وقال الزمخشريّ : لأن استجابته ﷺ ، كاستجابته تعالى ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد . وقوله (لِمَا يُحْيِيكُمْ) ، قال عروة بن الزبير ـ فيما رواه ابن إسحق ـ أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقوّاكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوّكم بعد القهر منهم لكم . وإنما سمي الجهاد حياة ، لأن في وهن عدوّهم بسببه حياة لهم وقوة ، أو لأنه سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة ، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة ،

كما قال تعالى (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)[١] أى الحياة الدائمة ، فيكون مجازاً مرسلًا ، بإطلاق السبب على المسبب ، أو استعارة . وقيل : (لِمَا يُحْيِيكُمْ) أى من العلوم الدينية التى هى مناط حياة القلب ، كما أن الجهل موته .

قال الشهاب : وإطلاق الحياة على العلم ، والموت على الجهل ، استعارة معروفة ، ذكرها الأدباء ، وأهل المعانى . وأنشد الزمخشرىّ لبعضهم :

لا تعجبنّ الجهولَ حُلَّتُه ... فذاكَ مَيْتٌ ، وثوبُهُ كَفَنُ

وقد ألمّ فيه بقول أبى الطيّب ، من قصيدته التى أولها :

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمنِ ... يخلو من الهمِّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ

ومنها :

لا تُعْجِبَنَّ مضيما حسنُ بِزَّتِهِ ... وهل تروقُ دَفِيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ

والأظهر أن يُعْنَى بـ (ما يحييكم) ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة . فيدخل فيه ما تقدم وغيره .

تنبيه :

استدل النبىّ ﷺ بهذه الآية على وجوب إجابته إذا نادى أحداً وهو فى الصلاة . روى البخارىّ[٢] عن أبى سعيد بن المعلَّى رضى الله عنه قال : كنت أصلى ، فمرّ بى النبىّ ﷺ ، فدعانى ، فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ ألم يقل الله (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا . .) الآية .

وقوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » يحتمل وجوهاً من المعانى.

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٤] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٨ ـ سورةالأنفال ، ٢ ـ باب: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، حديث رقم ١٩٦١ .

أحدهما : أنه تعالى يملك على المرء قلبه فيصرفه كيف يشاء ، فيحول بينه وبين الكفر ، إن أراد هدايته ، وبينه وبين الإيمان ، إن أراد ضلالته . وهذا المعنى رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس ، وصححه ، وقاله غير واحد من السلف. ويؤيده ما روى ؛ أن النبى ﷺ كان يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك . فقيل : يارسول الله ! آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى ، يقلبها ـ رواه الإمام أحمد [1] والترمذى [2] عن أنس ـ ولفظ مسلم [3] : إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم ! مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك ـ انفرد مسلم عن البخارى بإخراجه عن عبد الله بن عمرو ـ .وفى رواية : إن قلب الآدمى بين إصبعين من أصابع الله ، فإذا شاء أزاغه ، وإذا شاء أقامه ـ رواه الإمام أحمد [4] عن عائشة ـ . وروى أيضاً مثله عن جابر وبلال والنواس [5] بن سمعان وأم سلمة ، كما ساقه ابن كثير . وعلى هذا المعنى ، فالآية استعارة تمثيلية، لتمكنه من قلوب العباد ، فيصرفها كيف يشاء ، بما لا يقدر عليه صاحبها . شبه بمن حال بين شخص ومتاعه ، فإنه يقدر على التصرف فيه دونه .

ثانيها : أنه حث على المبادرة إلى الطاعة ، قبل حلول المنية . فمعنى (يحول بينه وبين قلبه) يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها ، وهى التمكن من إخلاص القلب ، ومعالجة أدوائه وعلله ، ورده سليما ، كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله . فشبه الموت بالحيلولة بين المرء وقلبه ، الذى به يعقل ، فى عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١١٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .
(٢) أخرجه الترمذى فى : ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ـ باب ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن . (٣) أخرجه مسلم فى : ٤٦ـ كتاب القدر ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

ثالثها : أنه مجاز عن غاية القرب من العبد ، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر ، لاتصاله بهما ، وانفصال أحدهما عن الآخر . و (يحول) إما استعارة تبعية معناه يقرب . أو استعارة تمثيلية . وهذا المعنى نقل عن قتادة حيث قال : الآية كقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (١) وفيه تنبيه على أنه تعالى مطلع ، من مكنونات القلوب ، على ما عسى أن يغفل عنه صاحبها .

« وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى فيجزيكم بأعمالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » الفتنة : إما بمعنى الذنب ، كإقرار المنكر ، وافتراق الكلمة والتكاسل فى الجهاد وإما بمعنى العذاب . فإن أريد الذنب فإصابته بإصابة أثره . وإن أريد العذاب ، فإصابته بنفسه . و (لَا تُصِيبَنَّ) جواب للأمر ، أى : إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم ، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم ، وتمدى رذيلتهم إلى من يخالطهم ، كقوله تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (٢) . قاله القاشانىّ .

وقد روى الإمام أحمد (٣) عن جرير أن رسول الله ﷺ قال : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعملون ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب .

وروى نحوه عن عدىّ بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة .

(١) [٥٠ / ق ١٦] . (٢) [٣٠ / الروم ٤١] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

قال الكرخيّ : ولا يستشكل هذا بقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (١) ، لأن الناس ، إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيره ، إذا كان قادرا على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة . هذا بفعله ، وهذا برضاه . وقد جعل تعالى ، بحكمته ، الراضي بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة . انتهى .

وذكر القسطلانيّ أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له ، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده ، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر ، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار . انتهى .

وعن ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب . « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أي لمن يخالف أوامره .

ثم نبه تعالى عباده المؤمنين السابقين الأولين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، ورزقهم من الطيبات ، ليشكروه بدوام الطاعة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَاذْكُرُوا » أي يا معشر المهاجرين « إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » أي في العدد « مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » أي مقهورون في أرض مكة قبل الهجرة ، تستضعفكم قريش « تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ » أي أهل مكة . و (تخطفه) و (اختطفه) بمعنى استلبه وأخذه

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٤] و [١٧ / الإسراء ١٥] و [٣٩ / الزمر / ٧] .

بسرعة « فَآوَاكُمْ » أى إلى المدينة « وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ » يعني أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره ، وذلك بمظاهرة الأنصار ، وإمداد الملائكة ، والتثبيت الرباني « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » أى الغنائم لأنها لم تطب إلا لهم « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى المولى على ما تفضل به وأولى . وما ذكرنا من كون الخطاب فى الآية للمهاجرين خاصة ، هو أنسب بالمقام والسياق والسياق يشعر به . وقيل : الخطاب للعرب كافة ، وعليه قول قتادة بن دعامة السدوسيّ رحمه الله فى هذه الآية : كان هذا الحيّ من العرب أذل الناس وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالا . والله ! ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله . انتهى .

وأقول : الأمر فى العرب ، وإن كان كما ذكر ، لكن فى تنزيل بعض ألفاظ الآية عليه تكلف لا يخفى فالظاهر ما ذكرنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لما ذكّرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليشكروه ، وكان من شكره الوقوف عند حدوده ، بين لهم ما يحذر منها ، وهو الخيانة . ويدخل فى خيانة الله تعطيل فرائضه ، ومجاوزةَ حدوده . وفى خيانة رسوله رفض سنته ، وإفشاء سره للمشركين . وفى خيانة أماناتهم الغلول فى المغانم ، أى السرقة منها ، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر ، وكل ما تعبدوا به .

وقد روى فى نزول الآية شىء مما ذكرنا . ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره . ومن ذلك[(١)] ما رواه سعيـــد بن منصور عن عبد الله بن أبى قتادة قال : نزلت فى أبى لبابة حين حاصر رسول الله ﷺ قريظة وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد ، فاستشار قريظة من أبى لبابة فى النزول على حكم سعد ، وكان أهل أبى لبابة وأمواله فيهم ، فأشار إلى حلقه ـ أنه الذبح ـ قال أبو لبـابة : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ، ثم حلف ألا يذوق ذواقاً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه . وانطلق إلى المسجد ، فربط نفسه بسارية ، فمـكث أياماً ، حتى كان يخرّ مغشياً عليه من الجهد ، ثم أنزل الله توبته ، وحلف لا يحله إلا رسول صلى الله عليه وسلم بيده ، فحله ، فقال[(٢)] : يا رسول الله ! إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة ، فقال : يجزيك الثلث أن تصدق به .

قال بعض المفسرين : دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية، وإتعاب النفس وتوبيخها ، لأنه صلى الله عليـه وسلم لم ينكر على أبى لبابة . ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة ، لأنه عليه السلام قال : يجزيك ثلث مالك ، وهذا سبيل قوله[(٣)] فى هود ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

وفى قوله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم منه من غيره ، لأن المعنى : وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله .

قال الرازىّ : ثم إنه لما كان الداعى إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد ، نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦٨٦ و ٦٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحـة رقم ٢٤٦ ، ٢٤٧ و ٢٤٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) انظر موطأ مالك : ٢٢ ـ كتاب النذور والأيمان ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود ١١٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » أى محنة من الله ليبلوكم ، هل تقعون بهما فى الخيانة ، أو تتركون لهما الاستجابة لله ولرسوله ، أو لا تلهون بهما عن ذكره ، ولا تعتاضون بهما منه . فسموا (فتنة) اعتبارا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم . ويجوز أن يراد (بالفتنة) الإثم أو العذاب ، فإنهم سبب الوقوع فى ذلك .

قال الحاكم : قد أمر الله بالعلم بذلك ، وطريق العلم به التفكر فى أحوالهما وزوالهما ، وقلة الانتفاع بهما ، وكثرة الضرر ، وأنه قد يعصى الله بسببهما .

وقوله تعالى : « وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر رضاه على جمع المال وحب الولد ، فلم يورط نفسه من أجلهما . وقد جاء التحذير من فتنتهما صراحة مع الترهيب الشديد فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »(١) قيل : هذه الآية من جملة ما نزل فى أبى لبابة ، وما فرط منه لأجل ماله وولده .

ولما حذر تعالى ، فيم تقدم ، عن الفتنة بالأموال والأولاد ، بشر من اتقاه فى الافتتان بهما وفى غيره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

---

(١) [٦٣ / المنافقون / ٩] .

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » قال المهايميّ : أشار تعالى إلى أن من ترك الخيانة ، واستجاب لله ، فلا يخاف على أهله وماله وعرضه ، أى كما خاف أبو لبابة . فإن من اتقاه تعالى فلا يجترئ أحد على أهله وحوزته ، لأنه يؤتى فرقاناً يفارق به سائر الناس من المهابة والإعزاز . انتهى .

وقيل : « فرقاناً » أى نصراً ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حزبه ، والإسلام بإعزاز أهله . ومنه قوله تعالى (يَوْمَ الْفُرْقَانِ)(١) . وقيل : بياناً وظهوراً يشهر أمركم ، ويبث صيتكم وآثاركم فى أقطار الأرض من قولهم : بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ، أى طلع الفجر . وقيل : فصلًا بين الحق والباطل ، ومخرجاً من الشبهات . كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢) .

والفرقان (كالفرق) ، مصدر (فَرَقَ) ، أى فصل بين الشيئين ، سواء كان بما يدركه البصر ، أو بما تدركه البصيرة . إلا أن الفرقان أبلغ ، لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » لما ذكّر الله تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٨] .

(وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ) ذكر نبيه ﷺ نعمته عليه خاصة ، فى حفظه من مكر قريش [1] به ليشكره تعالى فى نجاته من مكرهم ، واستيلائه عليهم . وذلك أن قريشاً ، لما أسلمت الأنصار ، وأخذ نور الإسلام فى الانتشار ، فرقوا أن يتفاقم أمره ، فاجتمعوا فى دار الندوة (وهى دار بناها قصىّ بن كلاب ليصلح فيها بين قريش . ثم صارت لمشاورتهم . وهى الآن مقام الحنفىّ . والندوة الجماعة من القوم ، وندا بالمكان اجتمع فيه ، ومنه النادى) ليتشاوروا فى أمره صلى الله عليه وسلم . فقال أبو البخترىّ بن هشام : رأيى أن تحبسوه فى بيت ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا بابه ، غير كوّة ، تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به ريب المنون . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (لِيُثْبِتُوكَ) أى ليحبسوك ويوثقوك ، لأن كل من حبس شيئاً وربطه فقد جعله ثابتاً لا يقدر على الحركة منه . ثم اعترض هذا الرأى شيخ نجدىّ دخل معهم ، فقال : بئس الرأى ! يأتيكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم ! ثم قال هشام بن عمرو : رأيى أن تحملوه على جمل ، وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع ، واسترحتم . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (أَوْ يُخْرِجُوكَ) ، يعنى من مكة ، ثم اعترض النجدىّ أيضاً بقوله : بئس الرأى ! يفسد قوماً غيركم ، ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً ، وتعطوه سيفاً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا . وهذا ما ذكره تعالى بقوله : (أَوْ يَقْتُلُوكَ) . ثم قال النجدىّ اللعين : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأيا . فتفرقوا على رأى أبى جهل ، مجمعين على قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ : وأمره أن لا يبيت فى مضجعه ، وأذن الله له فى الهجرة . فأمر عليا ، فنام فى مضجعه ، وقال له : اتشح ببردتى ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحات رقم ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات رقم ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه . ثم خرج ﷺ ، وأخذ قبضة من تراب ، فأخذ الله بأبصارهم عنه ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ : (يٰسٓ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ) إلى قوله (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)[1] ومضى مع أبي بكر إلى الغار ، وبات المشركون يحرسون عليًّا ، يحسبون أنه النبيّ . فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه ، فرأوا عليًّا ، فقالوا : أين صاحبك ؟ فقال : لا أدرى ! فاتبعوا ، أثره فلما بلغوا الغار ، رأوا نسج العنكبوت على بابه ، فقالوا : لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر . وخيب الله سعيهم ، وأبطل مكرهم . ثم مكث ﷺ فيه ثلاثا ، ثم خرج إلى المدينة .

روى ذلك عن ابن عباس من طرق عند ابن إسحاق والإمام أحمد والحاكم والبيهقيّ ـ دخلت روايات بعضهم في بعض ـ .

وقوله تعالى (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) أي يدبر مايبطل مكرهم . وقوله : (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أي أعظمهم تأثيراً ، قاله المهايميّ وأفاد أيضا في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها ؛ أن هذه تشير إلى أن المتقي كما يجعل الله له فرقاناً يمنع من الاجتراء على أهله وماله وعرضه ظاهرا ، يحفظه من مكر من مكر به ، بل يمكر له على ما كره . انتهى .

ثم أخبر تعالى عن كفر قريش وعتوّهم وتمردهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا » أي مثل هذا « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا » أي المتلوّ . وهذا غاية المكابرة ، ونهاية العناد . كيف لا ؟ ولو استطاعوا شيئاً من ذلك ،

---

(١) [٣٦ / يس / ١ ـ ٩] .

فما الذى كان يمنعهم من المشيئة ، وقد تُحُدُّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله ، وقُرِّعوا على العجز ، وذاقوا من ذلك الأمرين ، ثم قورعوا بالسيف ، فلم يعارضوا سواه ، مع فرط أنفتهم، واستنكافهم أن يغلبوا ، خصوصاً فى باب البيان الذى هم فرسانه ، المالكون لأزمته ، وغاية ابتهاجهم به .

وقوله تعالى : « إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطروه وكتبوه من القصص . قيل : (أساطير) لا واحد له ، وقيل : هو جمع أسطر وسطور وأسطار ، جموع سطر ، بسكون الطاء وفتحها ، فهو جمع الجمع . وقيل : هو جمع أسطورة ، كأحدوثة وأحاديث . والأصل فى السطر الخط والكتابة . يقال : سطر: كتب ، ويطلق على الصف من الشىء كالكتاب والشجر . كذا فى القاموس وشرحه .

وقد روى أن قائل هذا . النضر بن الحارث من كلدة ، وأنه كان ذهب إلى بلاد فارس، وجاء منها بنسخة حديث رستم واسفنديار ، ولما قدم ووجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس ما قصه تعالى من أحاديث القرون . قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، فزعم أنه مثل ما تلقفه . وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من متلقفاته ، ثم يقول: بالله ! أينا أحسن قصصاً ، أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله تعالى منه يوم بدر ، وأسره المقداد ، ثم أمر ﷺ به ، فضربت عنقه . وإسناده قوله إلى الجميع ، إما لرضا الباقين به أو لأن قائله كبير متبع . وقد كان اللعين قاصّهم الذى يعلمهم الباطل ويقودهم إليه ، ويغرهم بمثل هذه الجمجمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ

أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » هذا أسلوب من الجحود بليغ ، لأنهم عدّوا حقية القرآن محالًا ، فلذا علقوا عليه طلب العذاب الذى لا يطلبه عاقل ، ولو كان ممكناً لفرّوا من تعليقه عليه . والمعنى ، إن كان هذا القرآن حقًّا منزلًا ، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل ، كما فعلتَ بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . وفى إطلاقهم (الحق) عليه ، وجعله من عند الله تهكم بمن يقول ذلك من النبى أو المؤمنين . وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقًّا على الوجه ، يدعيه ﷺ ، وهو تنزيله ، لا الحق مطلقاً ، لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع ، غير منزل ، كالأساطير . فالتعريف للعهد . و(أَمْطِرْ) استعارة أو مجاز لـ(أَنْزِلْ) قال الزمخشرىّ : وقد كثر الإمطار فى معنى العذاب . فإن قلت : ما فائدة قوله (من السماء) ، والإمطار لا يكون إلا منها ؟ قلت : كأنه أريد أن يقال : فأمطر علينا السجيل ، وهى الحجارة المسوّمة للعذاب ، فوضع (حجارة من السماء) ، موضع (السجيل) كما تقول : صبّ عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً . وقوله (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى سوى الإمطار المذكور ، أو من عطف العامّ على الخاصّ.

وعن معاوية ، أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من قومى قومك ! قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . أى الذى هو الأصلح لهم ، ولكن لشدة جهلهم وعتوهم وعنادهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا تقديم العقوبة ، كقوله تعالى[1] : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (وَقَالُوا[2] رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) وقوله[3] :(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال[4] قوم شعيب له : (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص / ١٦] .
(٣) [٧٠ / المعارج / ١ ـ ٣] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

وعن عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أن قائل ذلك النضر بن الحارث ، صاحب القول السالف . قال عطاء : لقد أنزل في النضر بضع عشرة آية ، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر.

وروى البخاري[(١)] عن أنس أن قائل ذلك أبو جهل .

وروى ابن مردويه عن بريدة قال : رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقًّا فاخسف بي وبفرسي .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » بيان للموجب لإمهالهم ، وعدم إجابة دعائهم . واللام لتأكيد النفي ، والدلالة على أن تعذيبهم ، والنبيّ بين أظهرهم ، غير مستقيم في الحكمة ، لأن سنته تعالى ، وقضية حكمته ، ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، لأنه لو نزل العذاب في مكانهم لأصاب كل من كان فيه . وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم .

وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » ذكروا فيه ثلاثة أوجه :

الأول ـ أن المراد استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين . قال الطيبيّ : وهذا الوجه أبلغ ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٣ ـ باب قوله : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، حديث ٢٠٠٧ .

والثانى ـ أن المراد به دعاء الكفرة بالمغفرة ، وقولهم : (غفرانك) فى طوافهم بالبيت ، كما رواه ابن أبى حاتم ، فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعاً من عذابه ، ولو من الكفرة .

والثالث أن المراد بالاستغفار التوبة، والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره ، فيكون القيد منفيًّا فى هذا ، ثابتاً فى الوجهين الأولين .

قال القاشانى : العذاب سَورة الغضب وأثره ، فلا يكون إلا من غضب النبىّ ، أو من غضب الله المسبب من ذنوب الأمة . والنبىّ عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة ، لقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(١) ولهذا لما كسروا رباعيته قال (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) ولم يغضب كما غضب نوح عليه السلام وقال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)(٢) فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب ، وكذا وجود الاستغفار ، فإن السبب الأولىّ للعذاب لما كان وجود الذنب ، والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته ، بل يوجب زواله ، فلا يتسبب لغضب الله ، فما دام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون . انتهى .

روى الترمذىّ(٣) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : أنزل الله علىّ أمانين لأمتى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ . . .) الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد(٤) والحاكم وصححه ، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بنى آدم مادامت الأرواح فيهم ، فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] . (٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٤ ـ باب حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

وروى الإمام أحمد[١] عن فضالة بن عبيد عن النبيّ ﷺ أنه قال : العبد آمن من عذاب الله عز وجل ما استغفر الله عز وجل .

ثم بيّن تعالى أنهم أهل للعذاب لولا المانع المتقدم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى وأىّ شىء لهم فى انتفاء العذاب عنهم ، وحالهم الصد عن المسجد الحرام ، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية . ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة .

قال القاشانىّ : أى ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب أنفسهم ، بل إنهم مستحقون بذواتهم ، لصدودهم ، وصدهم المستعدين ، وعدم بقاء الخيرية فيهم . ولكن يمنعه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين معك فيهم . ثم قال : واعلم أن الوجود الإمكانىّ يتبع الخير الغالب ، لأن الوجود الواجبىّ هو الخير المحض . فما رجح خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية ، وإذا غلب الشر لم تبق المناسبة ، فلزم استئصاله وإعدامه . فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالباً ، فلم يستحقوا الدمار بالعذاب . وأما إذا تفرقوا فما بقى إلا شرهم خالصاً فوجب تدميرهم ، كما وقع فى وقعة بدر . ومن هذا يظهر تحقيق المعنى الثانى فى قوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)[٢] لغلبة الشرع على المجموع حينئذ . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » ردّ لما كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى)
(٢) [٨ / الأنفال / ٢٥] .

نصدّ من نشاء ، وندخل من نشاء . أى ما كانوا مستحقين ولاية أمره ، لشركهم « إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » أى من الشرك ، فلهم أن يصدوا المفسدين « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنهم لا ولاية لهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

« وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً » أى تصفيراً « وَتَصْدِيَةً » أى تصفيقاً بالأكفّ .

روى ابن أبى حاتم أن ابن عمر رضى الله عنهما حكى فعلهم ، فصفر ، وأمال خده ، وصفق بيديه .

وعن ابن عمر أيضاً قال : إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصفقون .

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهم كانو يطوفون بالبيت عراة ، يصفرون ويصفقون .

وعن مجاهد أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاته .

وقال الزهريّ : يستهزئون بالمؤمنين .

وهذه الجملة إما معطوفة على (وَهُمْ يَصُدُّونَ) ، فيكون لتقرير استحقاقهم للعذاب ، أو على قوله (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ) ، فيكون تقريراً لعدم استحقاقهم لولايته .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ماوجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحو من قوله (أى الفرزدق):

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه   أَدَاهِمَ سوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْرَا

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء . ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة .

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون . وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته ، يخلطون عليه . ما كنت أخشى ، أي : ما كنت أعلم . وأداهم : جمع (أدهم) وهو الأسود من الحيات. والعرب تذكر (الأدهم) وتريد به (القيد) كما في قصة القبعثرى. والمحدرجة : السياط . انتهى.

« فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » أي اعتقاداً وعملاً ، وفيه إشعار بأن هذا الفعل المبطل لحرمة البيت ، كفر ، للإستهانة بشعائره تعالى والسخرية بها. والعذاب المذكور هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، كما قاله غير واحد من السلف ، واختاره ابن جرير .

تنبيه :

قال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) : المتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق ، والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة ، أشباه هؤلاء المشركين قال ابن عرفة وابن الأنباري : المكاء والتصدية ليسا بصلاة ، ولكن الله تعالى . أخبر أنهم جعلوا ، مكان الصلاة التي أمروا بها ، المكاء والتصدية . فألزمهم ذلك عظيم الأوزار . وهذا كقولك : زرته فجعل جفائي صلتي ، أي أقام الجفاء مقام الصلة والمقصود أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ، ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم ، بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم . والله سبحانه لم يشرع التصفيق[1] للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ، لئلا يتشبهوا بالنساء . فكيف إذا فعلوه ، لا لحاجة ، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً . انتهى .

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه البخاريّ في : ١٠ ـ كتاب الأذان ٤٨ ـ باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول ، فتأخر الآخر أو لم يتأخر جازت صلاته ، والحديث رقم ٤٢٩ عن سهل بن سعد الساعديّ وهو حديث طويل ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم « من رابه شيء في صلاته فليسبّح . فإنه إذا سبّح التُفِتَ إليه . وإنما التصفيق للنساء » .

وقال قبله : ومن مكائد عدوّ الله ومصايده التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة الذي يصدّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان .

وقال شيخه تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى ، في بعض فتاويه : وأما اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ بالشبابات والاجتماع على ذلك ، ديناً وطريقاً إلى الله وقربة ، فهذا ليس من دين الإسلام ، وليس مما شرعه لهم نبيّهم محمد ﷺ ، ولا أحد من خلفائه ، ولا استحسن ذلك أحد من أئمة المسلمين . بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، ولا عهد أصحابه ، ولا تابعيهم بإحسان ، ولا تابعي التابعين . بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة ، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا بخراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع ، وإنما ابتدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة ، ولهذا قال الشافعيّ ـ لما رأى ذلك ـ : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (التغبير) ، يصدون به الناس عن القرآن . وسئل عنه أحمد فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل ، أنجلس معهم ؟ قال : لا ! وكذلك كرهه سائر أئمة الدين ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه . فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل ابن عياض ، ولا معروف الكرخيّ ، ولا أبو سليمان الدارانيّ ولا أحمد بن أبي الحواريّ ، ولا السريّ السقطيّ ، وأمثالهم . والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين ، تركوه في آخر أمرهم . وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر ، والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ : وما ذكره الإمام الشافعيّ رضي الله عنه أنه من إحداث الزنادقة ، من كلام إمام خبير بأصول الإسلام . فإن هذا السماع لم يرغّب فيه ، ويدعو إليه في الأصل ، إلا من هو متهم بالزندقة ، كابن الراونديّ والفارابيّ وابن سينا وأمثالهم .

ثم قال رحمه الله : نعم ! قد حضره أقوام من أهل الإرادة والمحبة ، وممن له نصيب فى المحبة، لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته . كما دخل قوم من الفقهاء فى أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ظناً منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته . ولا عرفوا مغبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولا وعملا وذوقا وخبرة لا يستقل به أكثر الناس ، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة .

ثم قال رحمه الله: ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب، ومعارفها وأذواقها، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة ، إلا وفى ضمن ذلك من المفسدة ما هو أعظم منه . فهو للروح ، كالخمر للجسد ، يفعل فى النفوس ، أعظم ماتفعله حميّا الكؤوس .

ثم قال : وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبيّ ﷺ لم يترك شيئاً يقرّب إلى الجنة ، إلا وقد حدث به ، ولا شيئا يبعد عن النار ، إلا وقد حدث به . وإن هذا السماع ، لو كان مصلحة ، لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ..)(1) الآية. وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، لم يلتفت إليه. كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة ، لم يلتفت إليه انتهى .

وقد سلف لنا شيء من هذا البحث عند قوله تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)(2) فليراجع.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ

(1) [٥/ المائدة/٣] . (2) انظر الصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الثانى من هذا التفسير.

تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ » نزلت فيمن ينفق على حرب النبي ﷺ من المشركين، وبيان سوء مغبة هذا الإنفاق . وقد ذهب الضحاك إلى أنه عنى بها المطعمون منهم يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلًا من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم عشرة جزر .

وروى عن مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي سفيان ، ونفقته الأموال في (أُحُد) لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى(1) محمد بن إسحاق عن الزهريّ أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا . قال : ففيهم ، كما ذكر عن ابن عباس ، أنزلت الآية .

ولا يخفى شمول الآية لجميع ذلك . واللام في (ليصدوا) لام الصيرورة ، ويصح أن تكون للتعليل ، لأن غرضهم الصد عما هو سبيل الله بحسب الواقع ، وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم . وسبيل الله طريقه وهو دينه، واتباع رسوله. ولما تضمن الموصول معنى الشرط، والخبر بمنزلة الجزاء ، وهو (فَسَيُنْفِقُونَهَا) اقترن بالفاء . و (ينفقون) إما حال ، أو بدل من (كفروا) وفي تضمن الجزاء من معنى الإعلام والإخبار ، التوبيخ على الإنفاق ، والإنكار عليه ، كما في قوله : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ)(2) . وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء ، الدلالة على كمال سوء الإنفاق ، كما في قوله(3) : (إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) وقولهم(4): من أدرك الصَّمَّانَ فقد أدرك المرعى. والمعنى : الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور الله ، والصدّ عن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، سيعلمون عن قريب سوء

(1) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٥و٥٥٦ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٦٤ ومابعدها من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) . (2) [١٦ / النحل / ٥٣] . (3) [٣ / آل عمران / ١٩٢] . (4) الصمان : أرض فيها غلظ وارتفاع وفيها قيعان واسعة ورياض معشبة. وإذا أخصبت رتعت العرب جميعها .

مغبة ذلك الإنفاق ، وانقلا به إلى أشد الخسران ، من القتل والأسر فى الدنيا ، والنكال فى العقبى : قال المتنبى :

إذا الجودُ لم يُرْزَقْ خلاصاً من الأذى فَلاَ الحمد مكسوباً ولا المالُ باقِياَ

(والأذى هنا المنّ)

وفى جعل ذات الأموال تصير (حسرة) أى ندماً وتأسفاً ـ وهى عاقبة أمرها ـ مبالغة. والمراد بالغلبة فى قوله : (ثم يغلبون) الغلبة التى استقر عليها الأمر ، وإن كانت الحرب بينهم سجالا قبل ذلك. فإن قلت : غلبة المسلمين متقدمة على تحسرهم ، بالزمان، فلم أخرت بالذكر؟ قلت : المراد أنهم يغلبون فى مواطن أخر بعد ذلك . كذا فى (العناية) .

تنبيه :

قال بعضهم ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية الله تعالى ، وأن الإنفاق فى ذلك معصية ، فيدخل فى هذا معاونة الظلمة على حركاتهم فى البغى والظلم ، وكذلك بيع السلاح والكراع ، ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » أى الكافر من المؤمن ، أو الفساد من الصلاح . واللام متعلقة بـ(يحشرون) أو (يغلبون) . أو ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول الله ﷺ ، مما أنفقه المسلمون فى نصرته ، واللام متعلقة بقوله (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) « وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ » أى : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم ، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ،

ليزيد به عذابه ، كمال الكانزين « أُولَـٰئِكَ » إشارة إلى الخبيث ، لأنه مقدر بالفريق الخبيث ، أو إلى المنفقين « هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ » لخسرانهم أنفسهم وأموالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَاقَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوافَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى أبا سفيان وأصحابه . فالتعريف فيه للعهد أو للجنس ، فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليًّا « إِنْ يَنْتَهُوا » أى عن الكفر وقتال النبىّ صلى الله عليه وسلم « يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » أى من الكفر والمعاصى « وَإِنْ يَعُودُوا » إلى قتاله « فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » أى الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير ، أو الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر . وقوله (فقد مضت) الخ دليل الجزاء . والتقدير : انتقمنا منهم فقد مضت الخ .

تنبيه :

استدل بالآية على أن الإسلام يجبّ ماقبله ، كما جاء فى الحديث[١] ، وأن الكافر إذا أسلم ، لا يخاطب بقضاء مافاته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إتلاف مال أو نفس. وأجرى المالكية ذلك كله فى المرتد إذا تاب ، لعموم الآية ، واستدلوا بها على إسقاط ما على الذمىّ من جزية وجبت عليه قبل إسلامه . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن وهب عن مالك : لا يؤاخذ كافر بشىء صنعه فى كفره إذا أسلم ، ولم يعد طلاقهم شيئاً ، لأن الله تعالى قال (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) كذا فى (الإكليل) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند، بالصفحة رقم١٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ). من حديث طويل ، عن عمرو بن العاص .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى شرك أو إضلال لغيرهم ، وفتن منهم للمؤمنين عن دينهم « وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » أى يخلص التوحيد لله ، فلا يعبد غيره « فَإِنِ انْتَهَوْا » أى عن الكفر والمعاصى ظاهراً فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى ببواطنهم « بَصِيرٌ » أى فيجازيهم ، وعليه حسابهم ، فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا ببواطنهم . كقوله تعالى (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ...)[١] الآية ـ وفى الآية الأخرى (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)[٢] . وفى الصحيحين[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل . وفى الصحيح[٤] أن رسول الله ﷺ قال لأسامة : لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : لا إله إلا الله ، فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسامة : أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بـ(لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله ! إنما قالها تعوّذاً ، فقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه : مَنْ لك بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى : ٤٥ ـ باب بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحُرُقات من جهينة ، حديث رقم ١٩٢٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٥٨ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

« وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ » أى ناصركم ومعينكم ، فثقوا بولايته ونصرته « نِعْمَ الْمَوْلَى » فلا يضيع من تولاه « وَنِعْمَ النَّصِيرُ » فلا يُغلب من نصره .

ثم بيّن تعالى مصرف ما أحله لهذه الأمة وخصها به ، وهو الغنائم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى قلّ أو كثُر من الكفار « فَأَنَّ لِلَّهِ » أى الذى منه النصر المتفرع عليه الغنيمة « خُمُسَهُ » شكراً له على نصره وإعطائه الغنيمة « وَلِلرَّسُولِ » أى الذى هو الأصل فى أسباب النصر « وَلِذِي الْقُرْبَى » وهم بنو هاشم والمطلب « وَالْيَتَامَى » أى من مات آباؤهم ولم يبلغوا ، لأنهم ضعفاء « وَالْمَسَاكِينِ » لأنهم أيضاً ضعفاء كاليتامى « وَابْنِ السَّبِيلِ » وهو المسافر الذى قطع عليه الطريق ويريد الرجوع إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلغ به .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى ـ قال الفقهاء : (الغنيمة) المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، أى ما ظهر عليه المسلمون بالقتال . وهل هى والفيء والنفل شيء واحد أوْ لَا ؟ وسنفصله فى آخر المسائل .

الثانية ـ «ما» فى (أنما) بمعنى الذى، والعائد محذوف، وكان حقها ، على أصولهم،أن تكتب مفصولة . قال الشهاب : وقد أجيز فى (ما) هذه أن تـكون شرطية .

الثالثة ـ قوله تعالى : (مِنْ شَىْءٍ) ، بيان للموصول ، محله النصب ، على أنه حال من عائد الموصول ، قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة ، وألا يشذ عنها شىء ، أى ما غنمتموه كائناًما كان يقع عليه اسم الشىء ، حتى الخيط والمِخْيَط .

الرابعة ـ (الخمس) بضم الميم ، وسكونها ، لغتان قد قرىٔ بهما .

الخامسة ـ أفادت الآية أن الواجب فى المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى ، وقسمة الباقى بين الغانمين بالعدل ، للراجل سهم ، وللفارس ذى الفرس العربىّ ثلاثة أسهم ، سهم له ، وسهمان لفرسه . هكذا قسم النبىّ ﷺ عام خيبر . ومن الفقهاء من يقول: للفارس سهمان . والأول هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مئونة نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين . ومنهم من يقول : يسوى بين الفرس العربىّ والهجين فى هذا . والهجين يسمى البرذون والأكديش . ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يحابى أحد ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله ، كما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقسمونها .

وفى صحيح البخارىّ[1] أن سعد بن أبى وقاص رأى أنّ له فضلاً على من دونه ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائـكم ؟

وفى مسند أحمد[2] أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم ، يكون سهمه وأسهمُ غيره سواء ؟ قال : ثـكلتك أمكَ ابن أمّ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٦ ـ باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ، حديث رقم ١٣٨٤ . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٩٣ (طبعة المعارف) .

سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم . كذا في (السياسة الشرعية) لابن تيميـة .

وفي (زاد المعاد) لابن القيّم : كان ﷺ إذا ظفر بعدوّه،أمر منادياً فجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش : للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم . وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة . وقيل : بل كان النفل من الخمس . وجمع لسلمة بن الأكوع ، في بعض مغازيه ، بين سهم الراجل والفارس ، فأعطاه خمسة أسهم ، لعظم غنائه في تلك الغزوة .

قال ابن تيمية : وما زالت الغنائم تقسم بين الغانمين في دولة بني أمية وبني العباس ، لما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر .

السادسة ـ ذهب الجمهور إلى أن ذكر الله تعالى في قوله : (فَأَنَّ لِلَّهِ) للتعظيم ، أي تعظيم الرسول ، كما في قوله تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)(1) أو لبيان أنه لا بد في الخمسة من إخلاصها لله تعالى، وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه. وتمسك بعضهم بظاهر ذلك، فأوجب سهماً سادساً لله تعالى،يصرف في وجوه الخير ، أو يؤخذ للكعبة قال: لأن كلام الحكيم لا يُعَرَّى عن الفائدة ، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات في قوله تعالى : (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)(2) ،فكذا هنا . وهذا مرويّ عن أبي العالية ، والربيع والقاسم وأسباطه . ويؤيد ماللجمهور ، ما رواه البيهقيّ بإسناد صحيح عن عبدالله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبيّ ﷺ ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ! ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : لِلَّهِ خمسها وأربعة أخماسها للجيش . قلت : فما أحد أولى به

(1) [٩ / التوبة / ٦٢] . (2) [٩ / التوبة / ٦٠] .

من أحد ؟ قال : لا، ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم.

ومن لطائف الحسن أنه أوصي بالخمس من ماله وقال : الا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه ؟

السابعة ـ خمس النبي ﷺ الذى جعله الله له، كان أمره فى حياته مفوّضاً إليه ، يتصرف فيه بما شاء ، ويرده فى أمته كيف شاء .

روى الإمام أحمد[١] أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ! كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوهم إلى بعير من القسم . فلما سلّم قام رسول الله ﷺ ، فتناول وبرة بين أنملتيه فقال : إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمِخْيَط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلّوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس ، فى الله تبارك وتعالى، القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر ، وجاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . ينجى الله تبارك وتعالى به من الغم والهم .

قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو دواد[٢] والنسائىّ عن عمرو بن عَبَسَةَ ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم ، فلما سلّم أخذ وَبَرَة من جَنْب البعير ثم قال : ولا يحلّ لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود عليكم ـ واستدل به على أنه عليه الصلاة والسلام كان يصرفه لمصالح المسلمين ـ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٤٩ ـ باب فى الإمام يستأثر بشىء من الفىء لنفسه ، حديث رقم ٢٧٥٥ .

وكان له صلى الله عليه وسلم من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، رواه أبو داود[1] عن محمد بن سيرين والشعبيّ مرسلا ، وأحمد والترمذيّ عن ابن عباس .

وللعلماء فيما يصنع بخمسه صلى الله عليه وسلم من بعده مذاهب : فمن قائل : يكون لمن يلي الأمر من بعده . قال ابن كثير : روى هذا عن أبي بكر وعليّ وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع . ومن قائل : يصرف في مصالح المسلمين . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح. ومن قائل : بأنه يصرف لقرابته صلى الله عليه وسلم . ومن قائل : بأنه مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . واختاره ابن جرير . وللمسألة حظ من النظر .

الثانية ـ أجمعوا على أن المراد بـ (ذَوِي الْقُرْبَىٰ) قرابته صلى الله عليه وسلم . وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة . لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية ، وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية له . مسلمهم طاعة الله ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا ابني عمهم ، فلم يوافقوهم ، بل حاربوهم ونابذوهم ، ومالأوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذمهم أبو طالب[2] في قصيدته بقوله منها :

---

[1] أخرجه أبو داود في : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ، ٢١ ـ باب ما جاء في سهم الصفيّ ، الحديث رقم ٢٩٩١ عن عامر الشعبيّ ، والحديث رقم ٢٩٩٢ عن محمد ، بما يقارب هذا اللفظ . (٢) انظر القصيدة بتمامها وعدتها ٩٤ بيتاً في ابن هشام بالصفحات ١٧٢ ـ ١٧٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات ٢٩١ ـ ٢٩٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ)

جَزَى اللهُ عَنَّا عبدَ شمسٍ ونَوْفَلًا ... عقوبةَ شرٍّ عاجلًا غيرَ آجـــلِ

(نوفل : هو ابن خويلد . كان من شياطين قريش . قتله عليّ بن أبى طالب يوم بدر) .

بمـــيزانِ قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعِيرَةً ... له شاهِدٌ من نفسه غيرُ عائـــلِ

(لا يخيس ، من قولهم : خاس بالعهد إذا نقضه وأفسده . والعائل : الجائر) .

لَقَدْ سَفِهَتْ أَحْـــلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا ... بنى خَلَفٍ قَيْضًا بِنَا والغَيَاطِلِ

(قيضا : عوضا . والغياطل : بنو سهم) :

ونحنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ... وآلِ قُـصَيٍّ فى الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

(الصميم: الخالص من كل شيء. والذؤابة: الجماعة العالية، وأصله الخصلة من شعر الرأس).

وقال جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : أعطيتَ بنى المطلب من خمس خيبر ، وتركتنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة منك ؟ فقال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ـ رواه مسلم(١) ـ ،

وفى رواية : أنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام ـ أفاده ابن كثير .

وقد روى عن ابن عباس وزين العابدين والباقر أنه يسوّى فى العطاء بين غنيّهم وفقيرهم ، ذكورهم وإناثهم ، لأن اسم القرابة يشملهم ، ولأنهم عُوِّضوه لما حرمت عليهم الزكاة ، وقياساً على المال المقرّ به لبنى فلان . واعتبر الشافعىّ أن سهمهم استحق بالقرابة ، فأشبه الميراث . قال : فللذكر منه مثل حظ الأنثيين . انتهى .

وقال فى (العناية) : إنه كان لعبد مناف ، جد النبيّ ﷺ خمس بنين : هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب وأبو عمرو ، وكلهم أعقبوا إلا أبا عمرو .

التاسعة ـ سهم اليتامى : قيل يخص به فقراؤهم ، وقيل : يعم الأغنياء والفقراء .

(١) هذا الحديث لم يخرجه مسلم وإنما هو من أفراد البخارىّ ، أخرجه فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر حديث رقم ١٤٨٢ .

حكاه ابن كثير . والأظهر الثانى. والسرّ فيه ماقدمناه فى سورة البقرة ، فتذكره فإنه مهم .

العاشرة ـ المساكين : المحاويج الذين لايجدون مايسدّ خلتهم ويكفيهم . وابن السبيل: ذكرنا معناه أولا .

الحادية عشرة ـ قال بعضهم : بقتضى ما ذكر فى هذه الآية ، وما فى صدر هذهالسورة من الأنفال ، وما فى سورة الحشر من قوله تعالى(١) (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ) الآية ـ أن القسمة فى الأموال المظفور بها ثلاثية : نفل : وغنيمة ، وفىء . ويقتضى إطلاق جعل النفل لله ولرسوله، والغنيمة لمن ذكر مخمسة ، والفىء لمن ذكر بلا قيد التخميس ـ أن لكل من الثلاثة حكما يخالف الآخر ، وإن النفل ما يعطى لمن له من العناية والمقاتلة ماليس لغيره ، وفاء لِعَدتِهِ بذلك ، قبل إحراز الغنيمة كالسَّلَب . وإن الغنيمة ما أحرز بالقتال ، سوى ما شرط التنفيل به ، لأنه لا يخمس . والفىء ما أخذ من الكفار بغير قتال ، كالأموال التى يصالحون عليها ، والجزية والخراج ، ونحو ذلك . وإلى هذا التفصيل ذهب الجمهور . وذهب بعضهم إلى اتحاد الثلاثة ، وعدم التفرقة بينها ، وإلى دخولها فى الغنيمة ، وقال : ما أطلق فى آية الأنفال ، وآية الحشر ، مقيد بآية الغنيمة هذه . وهذا هو مراد قول بعضهم : إنهما منسوختان بهذه ، بمعنى أن إطلاقهما مقيد بهذه . والله أعلم .

وقوله تعالى : « إِنْ كُنتُمْ ءَامَنتُمْ بِاللهِ » أى فاعملوا بما ذكر، وارضوا بهذه القسمة فالإيمان يوجب العمل بالعلم ، والرضا بالحكم :

وقد جاء فى الصحيحين(٢) من حديث عبد الله بن عباس ، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم : وآمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله .

(١) [٥٩ / الحشر / ٦و٧] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٤٠ ـ باب أداء الخمس من الإيمان ، حديث رقم ٤٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٣و٢٤و٢٥ (طبعتنا) .

ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم ... الحديث ـ فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقد بوّب البخاري[1] على ذلك في باب الإيمان من صحيحه ، فقال : (باب أداء الخمس من الإيمان) وساق الحديث المذكور .

وقوله تعالى « وَمَا أَنْزَلْنَا » معطوف على (بالله) أي إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل « عَلَىٰ عَبْدِنَا » أي محمد عليه الصلاة والسلام ، أي من الآيات والملائكة والنصر « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » أي يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل . و(الفرقان) بمعناه اللغوي ، والإضافة فيه للعهد « يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » يعني جمع المؤمنين وجمع الكافرين . فالتعريف للعهد . وكان التقاؤهما يوم الجمعة . لسبع عشرة مضت من رمضان ، والمؤمنون يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون مابين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على سبعين ، وأسر منهم مثل ذلك « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فيقدر على نصر القليل على الكثير ، كما فعل بكم يوم بدر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« إِذْ أَنْتُمْ » بدل من (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) ، أو ظرف لمحذوف ، أي : اذكروا إذ أنتم يامعشر المؤمنين « بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا » يعني بشفير الوادي الأدنى من المدينة « وَهُمْ » يعني

(١) انظر الباب رقم ٤٠ من كتاب الإيمان .

المشركين أبا جهل وأصحابه « بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ » أي البُعْدَى عن المدينة ، مما يلي مكة « وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ » أي العير التي فيها أبو سفيان ، بما معه من التجارة التي كان الخروج لأجلها ، أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من (بدر) .

لطيفة:

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كانت أسفل منهم ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته وتكامل عدته ، وتمهّد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، والتياث أمرهم ، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ، ليست إلا صنعاً من الله سبحانه ، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته ، وباهر قدرته . وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون ، كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا بأس بها . ولا ماء بالعدوة الدنيا ، وهي خَبَارٌ (ما لان من الأرض واسترخى) تسوخ فيه الأرجل ، ولا يمشي فيها إلا بتعب ومشقة . وكانت العير وراء ظهور العدوّ ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميّتهم ، وتشحذ في المقاتلة عنها نيّاتهم ؛ ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذبّ عن الحريم ، والغيرة على الحرب ، على بذل جُهَيْدَاهم في القتال ، وألا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ، ويضبط هممهم ، ويوطن نفوسهم ، على ألا يبرحوا موطنهم ، ولا يُخْلُوا مراكزهم ، ويبذلوا منتهى نجدتهم ، وقصارى شدتهم . وفيه تصوير ما دبّر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضي أمراً كان مفعولاً ، من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، مبهمة غير مبيّنة ، حتى خرجوا ليأخذوا العير ، راغبين في الخروج ، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا غيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق ، وكان ما كان . انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشرىّ ، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز .

وقوله تعالى « وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ » أى ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لخالف بعضكم بعضاً ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم ، على الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقى ما وفقه الله وسبب له . قاله الزمخشرىّ .

وفى حديث كعب بن مالك[1] قال : إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد .

وروى ابن جرير[2] عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ، وشهد الناس بعضهم إلى بعض .

« وَلَـٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا » أى ولكن جمع بينكم على هذه الحال على غير ميعاد ، ليقضى ما أراد من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، من غير ملأ منكم . وقوله « كَانَ مَفْعُولًا » أى حقيقاً بأن يفعل . وقيل : (كان) بمعنى (صار) أى صار مفعولا ، بعد أن لم يكن . وقيل : إنه عبر به عنه لتحققه حتى كأنه مضى .

وقوله تعالى « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » أى إنما جمعكم مع عدوّكم فى مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع حجة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ يهلك من هلك ، أى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، أنه مبطل لقيام الحجة عليه . ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة ويقين ، بأنه دين الحق ، الذى يجب

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبى الثانية) بالصفحة رقم ١١ من الجزء العاشر .

الدخول فيه ، والتمسك به . وذلك أن ما كان من وقعة (بدر) ، من الآيات الغرّ المحجّلة ، التى من كفر بعدها ، كان مكابراً لنفسه ، مغالطاً لها .

لطائف :

الأولى ـ قوله تعالى (لِيَهْلِكَ) بدل من (لِيَقْضِيَ) أو متعلق بـ (مَفْعُولاً) .

الثانية ـ الحياة والهلاك استعارة للكفر والإسلام ، وقرئ (ليهلَك) بفتح اللام .

الثالثة ـ (حَيَّ) يقرأ بتشديد الياء ، وهو الأصل ، لأن الحرفين متماثلان متحركان ، فهو مثل شدّ ومدّ . ومنه قول عَبِيد بن الأبرص :

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَامَهْ

ويقرأ بالإظهار ، وفيه وجهان :

أحدهما ـ أن الماضى حمل على المستقبل ، وهو (يحيا) فكما لم يدغم فى المستقبل ، لم يدغم فى الماضى ، وليس كذلك شدّ ومدّ ، فإنه يدغم فيهما جميعاً .

والوجه الثانى ـ أن حركة الحرفين مختلفة ، فالأولى مكسورة ، والثانية مفتوحة ، واختلاف الحركتين ، كاختلاف الحرفين ، ولذلك أجازوا فى الاختيار : لححت عليه ، وضبب البلد ، إذا كثر ضبه . ويقوى ذلك أن الحركة الثانية عارضة ، فكأن الياء الثانية ساكنة ، ولو سكنت لم يلزم الإدغام ، وكذلك إذا كانت فى تقدير الساكن ، والياآن أصل ، وليست الثانية بدلاً من (واو) . فأما الحيوان ، فـ (الواو) فيه بدل من (الياء) . وأما الحواء ، فليس من لفظ (الحية) ، بل من (حوى يحوى) إذا جمع ـ قاله أبو البقاء ـ . « وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى بكفر من كفر وعقابه ، وإيمان من آمن وثوابه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً » منصوب بـ (اذكر) ، أو بدل آخر من (يوم الفرقان) . وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم فى رؤياه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوّهم « وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ » أى لجبنتم وهبتم الإقدام « وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى أمر الإقدام والإحجام، فتفرقت كلمتكم « وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ » أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع بتأييده وعصمته « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن والصبر والجزع . ولذلك دبر ما دبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً » وذلك تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ ، وليعاينوا ما أخبرهم به ، فيزداد يقينهم ، ويجدّوا ، ويثبتوا .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ! فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً ! ـ رواه ابن أبى حاتم وابن جرير[1] (وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) أى فى اليقظة ، حتى قال أبو جهل : إن محمداً وأصحابه أَكَلَة جَزُورٍ . مثل فى القلة ، كـ (أكلة رأس) أى أنهم لقلتهم يكفيهم ذلك . و (أكلة) بوزن (كتبة) ، جمع آكل ، بوزن فاعل ، والجزور الناقة . كذا فى (العناية) . « لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً » أى من إظهار الخوارق الدالة على صدق دين الإسلام، وكذب دين الكفر « كَانَ مَفْعُولاً » أى كالواجب فعله على الحكيم ، لما فيه من الخير الكثير . قاله المهايمى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء العاشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبى الثانية).

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت : الغرض فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض فى تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟ قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثّرهم فيها بعده ، ليجترئوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة ، فيبهتوا ويهابوا ، وتفلّ شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن فى حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله[1] (يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) ولئلا يستمدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولاً وكثرتهم آخراً .

الثانية ـ قال الزمخشرىّ أيضاً : فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا ؟ قلت: بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر ، أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث فى أعين الحُولِ ما يرون به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين ـ وكان بين يديه ديك واحد ـ فقال : ما لى لا أرى هذين الديكين أربعة ؟ انتهى .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وفى هذا ـ يعنى كلام الزمخشرىّ ـ دليل بيّن على أن الله تعالى هو الذى يخلق الإدراك فى الحاسة ، غير موقوف على سبب من مقابلة ، أو قرب ، أو ارتفاع حجب ، أو غير ذلك . إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلا ، لما أمكن أن يستر عنهم البعض ، وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك . فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذن بين الرؤية ونفيها فى مقدرة الله تعالى ؟ وهى رادّة على القدرية المنكرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب فى حصول الإدراك عقلاً ، وأنها تستلزم الجسمية ، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى فى جسم . فهذه الآية حسبهم فى إبطال زعمهم ، ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معضون ، والله الموفق .

الثالثة ـ لا يقال : إن قوله تعالى (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً) مكرر مع ماسبق .

(١) [٣ / آل عمران / ١٣] .

لأنّا نقول : إن المقصود من ذكره أولاً هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدقه ﷺ ، والمقصود منه هاهنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم في أعين المشركين ، ثم تكثيرهم للحكمة المتقدمة .

وفي قوله تعالى : « وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها ، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد .

ثم أرشد تعالى عباده المؤمنين إلى آداب اللقاء في ميدان الوغى ، ومبارزة الأعداء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا » أي إذا حاربتم جماعة فاثبتوا للقائهم واصبروا على مبارزتهم ،فلا تفروا ولا تجبنوا ولا تنكلوا . وتفسير (اللقاء) بـ(الحرب) لغلبته عليه، كالنزال ولم يصف الفئة بأنها كافرة ،لأنه معلوم غير محتاج إليه « وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا » أي في مواطن الحرب ، مستظهرين بذكره مستنصرين به ،داعين له على عدوّكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أي تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة .

وقد ثبت في الصحيحين[(١)] عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه، التي لقي فيها العدوّ انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام في الناس فقال : أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية ،فإذا لقيتموهم فاصبروا ،واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٢ ـ باب كان النبيّ ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس ، حديث رقم ١٣٤٦ .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

ثم قال : اللهم ! منزلَ الكتاب ، ومُجرىَ السحاب ، وهازمَ الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم .

وفى الآية إشعار بأن على العبد ألا يَفْتُرَ عن ذكر ربه، أشغلَ ما يكون قلباً، وأكثرَ ما يكون همًّا ، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ، ويقبل إليه بكليته ، فارغ البال ، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل ما يأمران به وينهيان ، وهذا عامّ ، والتخصيص بالذكر هنا فيه تأكيد « وَلَا تَنَازَعُوا » أى باختلاف الآراء ، أو فيما أُمرتم به « فَتَفْشَلُوا » أى تجبنوا ، إذ لا يتقوى بعضكم ببعض . « وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » أى قوتكم وغلبتكم ، ونصرتكم ودولتكم . شبه ما ذكر فى نفوذ الأمر وتمشيته ، بالريح وهبوبها . ويقال : هبت رياح فلان ، إذا دالت له الدولة ونفذ أمره ، قال :

إذا هبّت رياحُكَ فاغتنمْها ... فإن لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ
ولا تغفلْ عن الإحسانِ فيها ... فما تدرِى السكونَ متَى يكُونُ

« وَاصْبِرُوا » أى على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهويتكم الداعية إلى التنازع ، فالصبر مستلزم للنصر « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » أى بالنصر .

قال ابن كثير رحمه الله : وقد كان للصحابة رضى الله عنهم ، فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم ، والقرون قبلهم ولا يكون لأحد من بعدهم . فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ،

من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

تنبيه :

قال بعض المفسرين في قوله تعالى (وَلَا تَنَازَعُوا) ، أي لا تختلفوا فيما أمركم به من الجهاد ، بل ليتفق رأيكم . قال : ولقائل أن يقول : استثمر من هذا وجوب نصب أمير على الجيش ليدبّر أمرهم . ويقطع اختلافهم ، فإن بلزوم طاعته ، ينقطع الاختلاف. وقد فعله صلى الله عليه وسلم في السرايا، وقال(١) : اسمعوا وأطيعوا ، وإن أُمّر عليكم عبد حبشيّ . انتهى .

ولما أمر تعالى المؤمنين بالثبات والصبر عند اللقاء ، أمرهم بالإخلاص فيه ، بنهيهم عن التشبه بالمشركين ، في انبعاثهم للرياء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا » أي فخرا بالشجاعة « وَرِئَاءَ النَّاسِ » أي طلباً للثناء بالسماحة والشجاعة « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أي لا تكونوا كأبي جهل وأصحابه ، وقد أتاهم رسول أبي سفيان ، وهم بالجحفة : أن ارجعوا ، فقد سلمت عيركم . فأبوا وقالوا : لا نرجع حتى نأتي بدرا ، فننحر بها الجزر ، ونسقى بها الخمر ، وتعزف علينا فيه القيان ، وتسمع بنا العرب . فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم . فوافوها، فَسُقُوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان . أي : لا يكن أمركم رياء ولا سمعة ولا التماس ما عند الناس ، وأخلصوا لله

(١) أخرجه البخاريّ في : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٤ ـ باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، الحديث رقم ٤٣٤ عن أنس . وفيه (استُعْمِل) عوضاً عن (أُمِّرَ) .

النية والحسبة ، فى نصر دينكم ، ومؤازرة نبيّكم ، لا تعملوا إلا لذلك ، ولا تطلبوا غيره . و(الرئاء) مصدر (راءى) ، إذا أظهر العمل للناس ليروه غفلة عن الخالق . وقد يقال راياه مراياة ورياء ، على القلب . و (بطراً ورئاء) إما مفعول من أجله ، أو مصدر فى موضع الحال . و (يصدون) إما حال ، بتأويل اسم الفاعل ، أو بجعله مصدر فعل هو حال ، وإما مستأنف . ونكتة التعبير بالاسم أولا ثم الفعل ، الإعلام بأن البطر والرياء دأبهم ، بخلاف الصد فإنه تجدد لهم فى زمن النبوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

« وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى فى معاداة الرسول والمؤمنين ، بأن وسوس إليهم « وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ » أى من النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه « وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » أى مجير ومعين لكم « فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ » أى تلاقتا ، وتراءت كل واحدة صاحبتها ، فرأى الملائكة نازلة من السماء لإمداد المؤمنين « نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ » أى ولّى هارباً على قفاه « وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ » أى من عهد جواركم « إِنِّي أَرَى » أى من الملائكة النازلة لإمداد المؤمنين « مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » أى أن يعذبنى قبل يوم القيامة « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى فلا يبعد مع إمهالى إلى القيامة ، أن يعذبنى لشدة عقابه .

تنبيه :

ذكروا فى التزيين وجهين :

أحدها : أن الشيطان وسوس لهم من غير تمثيل ، فى صورة إنسان ، وهو مروىّ عن

الحسن والأصم . فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة . والنكوص وهو الرجوع استعارة لبطلان كيده :

وثانيهما : أنه ظهر فى صورة إنسان ، لأنهم لما أرادوا المسير إلى بدر ، خافوا من بنى كنانة ، لأنهم كانوا قتلوا رجلا ، وهم يطلبون دمه ، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتمثل إبليس اللعين فى صورة سراقة الكنانى ، وقال : أنا جاركم من بنى كنانة ، فلا يصل إليكم مكروه منهم . فقوله (إنى جار لكم) على الحقيقة . وقال الإمام : معنى (الجار) هنا الدافع للضرر عن صاحبه ، كما يدفع الجار عن جاره . والعرب تقول : أنا جار لك من فلان ، أى حافظ لك ، مانع منه . وهذا القول الثانى ذهب إلى جمهور المفسرين .

روى مالك(١) فى الموطأ عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ، مرسلا ؛ أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤى الشيطان يوما هوفيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ ، منه فى يوم عرفة . وماذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام . إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

قال الإمام : وكان فى تغيير صورة (إبليس) إلى صورة (سراقة) معجزة عظيمة للرسول ﷺ ، وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم ، حتى بلغتنى هزيمتكم فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سراقة ، بل كان شيطانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ » أى بالمدينة . و (إذ) منصوب بـ (اذكر) مقدراً ، أو

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ ـ كتاب الحج ، حديث ٢٤٥ (طبعتنا) ،

بـ (زين) « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يجوز أن يكون من صفة المنافقين ، وتوسطت والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، لأن هذه صفة للمنافقين ، لا تنفك عنهم . قال تعالى[1](فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) . أو تكون الواو داخلة بين المفسِّر والمفسَّر نحو : أعجبني زيد وكرمه . ويجوز أن يراد : الذين هم على حرف ، ليسوا بثابتي الأقدام فى الإسلام . وعن الحسن : هم المشركون . «غَرَّ هَؤُلَاءِ» يعنون المؤمنين «دِينُهُمْ» فظنوا أنهم ينصرونهم به على أضعافهم « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »أى من يعتمدعليه سبحانه وتعالى فإنه ينصره على أضعافه ، بالغين ما بلغوا ، لأنه عزيز غالب على ما أراد ، وهو يريد نصر أوليائه؛ حكيم،وحكمته تقتضى نصرهم . وهو جواب لهم من جهته تعالى ،وردلمقالتهم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا » أى يقبض أرواحهم «الْمَلَائِكَةُ» أى ملائكة القهر والعذاب بما يناسب هيآت نفوسهم « يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » لإعراضهم عن الحق ، ولهيآت الكبر والعجب والنخوة فيها « وَأَدْبَارَهُمْ » لميلهم إلى الباطل ، وشدة انجذابهم إليه ، ولهيآت الشهوة والحرص والشره«وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » عطف على(يضربون) بإضمار القول . أى : ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة . وجواب (لو) محذوف ، لتفظيع الأمر وتهويله .

وقال ابن كثير: وهذا السياق ، وإن كان سببه وقعة بدر ، ولكنه عامّ فى حق كل كافر. وفى سورة القتال مثل هذه الآية . وتقدم فى الأنعام نحوها ، وهو قوله تعالى[2]: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ)أى بالضرب فيهم بأمر ربهم.

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ » أى ما كسبتم من الكفر والمعاصى « وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى بأن يأخذهم بلا جرم .

فإن قيل : ما سر التعبير بـ (ظلّام) بالمبالغة ، مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، وبرجوع النفى للقيد ؟

وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهلم جرّا . فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلّام) لذلك ، أى لكثرة الكمية فيه .

ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم ، يظلم للانتفاع بالظلم . فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركاً .

ومنها : أن (ظلاماً) للنسب ، كـ (عطار) ، أى لا ينسب إليه الظلم أصلاً .

ومنها : أن كل صفة له تعالى فى أكمل المراتب ، فلو كان تعالى ظالماً ، كان ظلاماً ، فنفى اللازم ، لنفى الملزوم .

ومنها : أن نفى (الظلام) لنفى الظالم ، ضرورةَ أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالاً من اللازم إلى الملزوم .

ومنها : أن العذاب من العظم بحيث ، لولا الاستحقاق ، لكان المعذب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه . فالمراد تنزيهه تعالى ، وهو جدير بالمبالغة .

وأيضاً : لو عذب تعالى عبيده بدون استحقاق وسبب ، لكان ظلماً عظيما ، لصدوره عن العدل الرحيم . كذا فى (العناية) .

وفي صحيح مسلم(١) عن أبي ذرّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول : إني حرمت الظلم على نفسي ،وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . ياعبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه . والحديث طويل جليل . معروف ، عند المحدثين ، بالحديث المسلسل بالدمشقيين .

ثم بين تعالى أن سير المشركين المستمر ، وعادتهم الدائمة ، مع ماأرسل به النبيّ ﷺ، كسير الأمم السالفة مع رسلهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَدَأْبِ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » خبر لمقدر ، أي دأب هؤلاء ، كدأب آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم ، كقوم نوح ، وهو عملهم الذي دأبوا ، أي استمروا عليه ، ثم فسره فقال : « كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ » أي قبل يوم القيامة « بِذُنُوبِهِمْ » أي كما أخذ هؤلاء ، لأنهم اجترؤوا على معاصيه بما رأوا لأنفسهم من القوة. فضعّفهم ، إظهاراً لقوته « إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » قال المهايميّ : تأخير العذاب إنما يكون للرحمة ، لكنه لما اشتد عنادهم ، اشتد غضبه ، لأنه شديد العقاب لمن اشتد عناده معه ، فلا يكون في حقه رحمة .

(١) من حديث طويل نفيس ، قد أفرده شيخ الإسلام بشرح قيّم . أخرجه مسلم في: ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذَٰلِكَ » أي التعذيب الذي علم كونه مؤاخذة بالذنوب « بِأَنَّ اللَّهَ » أي بسبب أنه تعالى « لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ » بتبديله إياها بالنقمة « حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » من موجبات تلك النعم من اعتقاد أو قول أو عمل . وهذا إخبار عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى[1] : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

قال القاشاني . كل ما يصل إلى الإنسان هو الذي يقتضيه استعداده ، ويسأله بدعاء الحال، وسؤال الاستحقاق . فإذا أنعم على أحد النعمة الظاهرة أو الباطنة لسلامة الاستعداد، وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى أفسد استعداده ، وغير قبوله للصلاح ، بالاحتجاب وانقلاب الخير الذي فيه بالقوة إلى الشر ، لحصول الرين وارتكام الظلمة فيه ، بحيث لم يبق له مناسبة للخير ، ولا إمكان لصدوره منه ، فيغيرها إلى النقمة عدلا منه وَجودًا ، وطلباً من ذلك الاستعداد إياها بجاذبة الجنسية والمناسبة ، لا ظلما وجورا . انتهى .

« وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي فيغير إذا غيّروا ، غضباً عليهم بما يسمع منهم أو يعلم

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)

« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » فكان مبدأ تغييرهم أنهم « كَذَّبُوا

---

(١) [١٣ / الرعد / ١١] .

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى الذى رباهم بالنعم ، فصرفوها إلى غير ما خلقت له بمقتضى تلك الآيات ، فكانت ذنوباً « فَأَهْلَكْنَاهُمْ » أى زيادة على سلبه النعم « بِذُنُوبِهِمْ » أى بما صرفوا بها النعم إلى غير ماخلقت له « وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ » لإغرافهم النعم فى بحر الإنكار بنسبتها إلى فرعون حيث أقروا بإلهيته « وَكُلٌّ » أى من الفرق المكذبة الكافرة ، أو من آل فرعون، ومن قبلهم ، وكفار قريش : « كَانُوا ظَالِمِينَ » أى بصرف النعم إلى غير ماخلقت له ، وهو نوع من الإغراق لها فى بحر الإنكار لأنه مرجع التغيير لها . كذا أوّل المهايمىّ . وفيه إشارة إلى دفع ما يتوهم من التكرار فى الآيتين ، بتغاير التشبيهين فيهما ، فلا يحتاج إلى دعوى التأكيد . فمعنى الأول : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى الكفر ، فأخذهم وآتاهم العذاب . ومعنى الثانى : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى تغييرهم النعم ، وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التغيير ، وهو أنه أغرقهم . وقيل : إن النظم يأباه ، لأن وجه التشبيه فى الأول كفرهم المترتب عليه العقاب ، فينبغى أن يكون وجهه فى الثانى قوله (كذبوا) لأنه مثله ، إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد تشبيه ، صالحة لأن تكون وجه الشبه ، فتحمل عليه ، كقوله تعالى[(١)]: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وأما قوله : (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة . . .) فكالتعليل لحلول النكال ، معترض بين التشبيهين ، غير مختص بقوم ، فجعْلُهُ وجهاً للتشبيه بعيدٌ عن الفصاحة . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى أصرّوا على كفرهم ورسخوا فيه « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى فلا يتوقع منهم إيمان .

---

(١) [٣/ آل عمران ٥٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٦] (الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)

« الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ » أى لا يخافون عاقبة الغدر ، ولا يبالون بما فيه من العار والنار .

تنبيهات :

الأول ـ قال المهايمىّ : أشار تعالى إلى أنه كيف يترك نعمه على من غيّر أحواله التى كانت أسباب النعم ، وقد كان بها إنسانيته ، فبتغييرها لحق بالدوابّ ، وبإنكار المنعِم صار شرًّا منها . والنعم تسلب ممن لا يعرف قدرها، فكيف لا تسلب ممن ينكر المنعِم ؟ .

الثانى ـ دلت الآية على جواز تحقير العصاة ، والاستخفاف بهم ، حيث سماهم تعالى (دوابّ) وأخبر أنهم (شرّ الدواب) .

الثالث ـ قالوا : نزلت الآية فى يهود بنى قريظة ، رهط كعب بن الأشرف ، فإن رسول الله ﷺ ، كان عاهدهم ألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، فنقضوا العهد ، وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا . فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا . ومالأوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق . وركب كعب بن الأشرف إلى مكة ، فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرابع ـ (الذين) بدل من الموصول الأول ، أو عطف بيان له ، أو نصب له على الذم . وضمن (عاهدت) معنى الأخذ ، حتى عدّى بـ (من) أى أخذت منهم عهدهم . وقيل : (من) صلة ، وقال أبو حيّان : هى للتبعيض ، لأن المباشر بالذات للمعاهدة بعض القوم ، وهم الرؤساء والأشراف .

الخامس ـ قوله : (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) ، حال من فاعل (ينقضون) ، أى يستمرون على النقض ، والحال أنهم لا يتقون العارَ فيه ، لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتقى

نقض العهد ، حتى يسكن الناس إلى قوله ، ويثقون بكلامه . فبيّن الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد ، فهو شرّ من الدواب .

ثم شرع تعالى في بيان أحكام الناقضين ، بعد تفصيل أحوالهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٧] ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

« فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ » أي فإما تصادفنهم وتظفرنّ بهم « فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » أي فرّق بهم مَن وراءهم من المحاربين. يعني : بأن تفعل بهم من النكال وتغليظ العقوبة ، ما يشرّد غيرهم خوفاً ، فيصيروا لهم عبرة . كما قال : « لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أي لعل المشرَّدين يتعظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين ، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر. قال في (التاج) : وقيل : معنى (فشرد بهم) فسمّع بهم ، وقيل : فزّع بهم ولا يخفى أن هذه المعاني متقاربة . وأصل التشريد الطرد والتفريق . ويقال . شرد به تشريداً ، سمَّع الناس بعيوبه . قال :

أُطوِّفُ بالأباطح كلّ يوم مخافَةَ أن يُشَرِّدَ بي حَكِيمُ

معناه أَنْ يَسَمِّعَ بي و (حكيم) رجل من بني سُلَيم كانت قريش وَلَّتْهُ الأخذ على أيدي السفهاء .

استشهد به في اللسان في مادة (ش ر د) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٨] ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً » بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد ، إثر بيان

الناقضين له بالفعل . و (الخوف) مستعار للعلم . أي : وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقضَ عهد فيما سيأتي ، بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ، ومخايل الشرّ « فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ » أي فاطرح إليهم عهدهم « عَلَى سَوَاءٍ » أي على طريق مستوٍ قصدٍ ، بأن تظهر لهم النقض ، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد ، كي لا يكون من قِبَلِكَ شائبة خيانة أصلًا ، وإن كانت في مقابلة خيانتهم .

وقوله « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » تعليل للأمر بالنبذ ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال ، لكونها خيانة ، فيكون تحذيرًا له ﷺ منها ، وإما باعتبار استتباعه للقتال ، فيكون حثًّا له ﷺ على النبذ أولاً ، وعلى قتالهم ثانياً ، كأنه قيل . وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ، ثم قاتلهم ، إن الله لا يحب الخائنين ، وهم من جملتهم ، لما علمت من حالهم . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلت الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحةٍ ، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظهر منهم أمارة الخيانة ، وتدل على إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر ، وأن يعلمهم بذلك ، لئلا يعيبوا علينا بنصب الحرب مع العهد .

روى أصحاب السنن[1] أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم . فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر !

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ١٥٢ ـ باب في الإمام يكون بينه وبين العدّ عهد فيسير إليه ، حديث رقم ٢٧٥٩ .
وأخرجه الترمذيّ في : ١٩ ـ كتاب السير ، ٢٧ ـ باب ما جاء في الغدر .

الله أكبر ! وفاء لا غدر . فإذا هو عمرو بن عَبَسة(١) ، فأرسل إليه معاوية فسأله ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء : فرجع معاوية .

وروى الإمام أحمد(٢) عن سلمان الفارسىّ أنه انتهى إلى حصن أو مدينة ، فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله عز وجل للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها .

هذا ، وما ذكر من وجوب إعلامهم، إنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها ، كما هو منطوق الآية . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ(٣) بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم فى ذمة رسول الله ﷺ ، فلم يرُعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمرّ الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ » قرئ بالياء والتاء « الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا » أى فاتوا وأفلتوا من

---

(١) يوجد فى كثير من نسخ التفاسير «عنبسة» بزيادة نون قبل الباء ، وهو تحريف، ويغلط به من لا علم له بأسماء الرجال . اهـ لمؤلفه .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٠٢ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣١ وما بعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

أن يظفر بهم « إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ » أى لا يفوتون الله من الانتقام منهم ، إما فى الدنيا بالقتل ، وإما فى الآخرة بعذاب النار . وقرئ بفتح (أن) على تقدير لام التعليل ، وهذا كقوله تعالى(١) : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقوله تعالى(٢) : (لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) وقوله تعالى(٣) (لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ » أى لقتال ناقضى العهد السابق ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، وهو الأنسب بسياق النظم الكريم « مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » أى من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها ، أطلق عليه القوة مبالغة .

قال الشهاب : وإنما ذكر لأنه لم يكن لهم فى (بدر) استعداد تام ، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى فى كل زمان .

« وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » (الرباط) فى الأصل مصدر ربط ، أى شدّ ، ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل الله . فالإضافة ، إما باعتبار عموم المفهوم الأصلىّ ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركا بين معان أخر ، كانتظار الصلاة ، وملازمة

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤] . (٢) [٢٤ / النور / ٥٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٦ و ١٩٧] .

ثغر العدوّ ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان ، كـ(عين الشمس) ومنه يعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركا . وإذا كان من إضافة المطلق للمقيد ، فهو على معنى (من) التبعيضية . وقد يكون (الرباط) جمع ربيط ، كفصيل وفصال . قال في (التاج) : يقال : نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل . ثم إن عطفها على (القوة) مع كونهامن جملتهاللإيذان بفضلها على بقية أفرادها ، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة « تُرْهِبُونَ بِهِ » أي تخوّفون بذلك الإعداد « عَدُوَّ اللهِ » وهو المثبت له شريكاً ، المبطل لـكلمته « وَعَدُوَّكُمْ » أي الذي يظهر عداوتكم ، فتخوفونهم لئلا يحاربوكم باعتقاد القوة في أنفسهم دونكم .

تنبيه :

دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إتقاء بأس العدوّ وهجومه . ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبيّ الضيم ، قويّ القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار ، وخضد شوكة المستبدين الـكافرين ، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقاباً متتالية،وهم سادة الأمم، وقادة مشعوب، وزمام الحول والطول وقطب روحى العز والمجد ، لا يستكينون لقوة ، ولا يرهبون لسطوة . وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الـكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضاً من فروض الـكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض . ولذا تعاني اليوم من غصته ماتعاني . وكيف لا يطمع العدوّ بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدوّ ؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها ، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدوّ بلادهامن أطرافها درساً يجب أن تتدبره ، وتتلافى ما فرطت به . قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله ،

فيقضي ـ والعياذ بالله ـ على الإسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار ، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار . وبالله الهداية .

وقوله تعالى « ءَاخَرِينَ » أى وترهبون قوماً آخرين « مِنْ دُونِهِمْ » أى من دون من يظهر عداوتكم ، وهم المنافقون « لَا تَعْلَمُونَهُمْ » أى أنهم يعادونكم « اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » أى أنهم أعداؤكم ، يظهرون عداوتهم إذا رأوا ضعفكم . ثم شجعهم سبحانه على إنفاق المال فى إعداد القوة ، ورباط الخيل ، مبشراً لهم بتوفية جزائه كاملًا ، بقوله تعالى « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى الذى أوضحه الجهاد « يُوَفَّ إِلَيْكُمْ » أى فى الدنيا من الفيء والغنيمة والجزية والخراج ، وفى الآخرة بالثواب المقيم « وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ » أى بترك الإثابة.

تنبيهات :

الأول ـ هذه الآية أصل فى كل ما يلزم إعداده للجهاد من الأدوات .

الثانى ـ فى قوله تعالى (تُرْهِبُونَ بِهِ) إشارة إلى التجافى عن أن يكون الإعداد لغير الإرهاب كالخيلاء . وفى حديث الإمام مالك[١] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : الخيل ثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ولرجل وزر . فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام ، فهى على ذلك وزر.

الثالث ـ ما ذكرناه فى تأويل (الآخرين) من أنهم المنافقون ، يشهد له قوله تعالى[٢] (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

ثم بين تعالى جواز مصالحة الكفار بقوله :

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢١ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) من حديث طويل . (٢) [٩ / التوبة / ١٠١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

« وَإِنْ جَنَحُوا » أى مالوا وانقادوا « لِلسَّلْمِ » بكسر السين وفتحها ، لغتان ، وقد قرئ بهما . أى الصلح والاستسلام ، بوقوع الرهبة فى قلوبهم ، بمشاهدة ما بكم من الاستعداد ، وإعتاد العتاد « فَاجْنَحْ لَهَا » أى فمل إلى موافقتهم وصالحهم وعاهدهم ، وإن قدرت على محاربتهم ، لأن الموافقة أدعى لهم إلى الإيمان . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلحَ ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . و (السلم) يذكر ويؤنث ـ كما فى القاموس ـ .

قال الزمخشريّ : (السلم) تؤنث تأنيث نقيضها ، وهى الحرب . قال العباس بن مرداس:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيت بِهِ والحربُ يكفيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

« وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أى لا تخف فى الصلح مكرهم ، فإنه يعصمك من مكرهم « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » لأقوالهم « الْعَلِيمُ » أى بأحوالهم ، فيؤاخذهم بما يستحقون ، ويردّ كيدهم فى نحرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

« وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ » أى بالصلح لتكفّ عنهم ظاهراً ، وفى نيتهم الغدر « فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ » أى كافيك بنصره ومعونته . قال مجاهد : يريد قريظة . ثم علل كفايته له ، بما أنعم عليه من تأييده ﷺ بنصره وبالمؤمنين ، فقال تعالى : « هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ » أى يوم بدر بعد الضعف ، من غير إعداد قوة ولا رباط « وَبِالْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » أى جمع بين قلوبهم وكلمتهم ، بالهدى الذى بعثك الله به إليهم ، بعد ما كان فيها العصبية والضغينة « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » أى من الذهب والفضة « مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » إذ لا يدخل ذلك تحت قدرة البشر ، لكونه من عالم الغيب « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » أى بين قلوبهم بدينه الذى جمعهم إليه « إِنَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن « حَكِيمٌ » أى فاقتضت حكمته ذلك ، لما فيه من تأييد دينه ، وإعلاء كلمته .

قال الزمخشرىّ رحمه الله تعالى : التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الآيات الباهرة . لأن العرب ، لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضغينة ، فى أدنى شىء ، وإلقائه بين أعينهم ، إلى أن ينتقموا ، لا يكاد يأتلف منهم قلبان . ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحابّ والتوادّ ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله ، والبغض فى الله . ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ما أراد . وقيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ، ويديم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ، ما آثرته أختها ، وتكرهه وتنفر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا أنصارًا وعادوا أعوانًا ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه ، وبليغ قدرته . انتهى .

وإنما ضعف القول الثانى لأنه ليس فى السياق قرينة عليه . كذا فى (العناية) .

أقول : لكن شهرة ما كان بين هذين البطنين من التمادى الذى تطاول أمده ، واستحال قبل البعثة نضوب مائه ، يصلح أن يكون قرينة . ونقل علماء السيرة[1] أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لما لقى فى الموسم الرهط من الخزرج ، ودعاهم إلى الله تعالى . فأجابوه وصدقوه ، قالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك . رواه ابن إسحاق وغيره .

وفى الصحيحين[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الأنصار فى شأن غنائم (حنين) قال لهم يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمنّ .

لطيفة :

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء . ثم يقرأ : (لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ . . .) الآية .

وعند البيهقىّ نحوه . وقال : ذلك موجود فى الشعر :

إذا بتّ ذو قربَى إليك بزلة ... فغشّك واستغنى فليس بذى رُحْمِ
ولكنّ ذا القربى الذى إن دعوتَه ... أجاب ، وأَنْ يرمى العدوّ الذى ترمى

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٢٨٦و٢٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٧٠و٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوّال سنة ثمان ، الحديث رقم ١٩٣١ عن عبد الله ابن زيد بن عاصم .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) .

قال : ومن ذلك قول القائل :

ولقد صحبتُ الناس ثم سَبَرْتهم   وبلوتُ ما وصلوا من الأسبابِ

فإذا القرابــة لا تقرّب قــاطعاً   وإذا المــودة أقرب الأسبــابِ

قال البيهقيّ : لا أدرى هذا موصولًا بكلام ابن عباس ، أو هو قول مَن دونه مِن الرواة.

قال الرازيّ : احتج أصحابنا بهذه الآية ، على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات، كلها من خلق الله تعالى . وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ولما بين تعالى كفايته لنبيه صلى الله عليه وسلم عند مخادعة الأعداء ، في الآية المتقدمة ، أعلمه بكفايته له في جميع أموره مطلقاً ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » قال العلامة ابن القيم في مقدمة (زاد المعاد) في تفسير هذه الآية : أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وهاهنا تقديران :

أحدهما ـ أن تكون الواو عاطفة لـ(مَنْ) على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ، على المذهب المختار ، وشواهده كثيرة ، وشُبَه المنع منه واهية .

والثاني ـ أن تكون الواو واوَ (مع) ، وتكون (من) في محل نصب عطفاً على الموضع فإن (حسبك) في معنى كافيك ، أي الله يكفيك، ويكفي من اتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيداً درهم ، قال الشاعر :

إذا كانتِ الهيجاء وانشقّتِ العصا   فحسبُك والضحاكَ سيفٌ مُهَنَّدُ

وهذا أصح التقديرين . وفيها تقدير ثالث ، أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء ،

أى ومن اتبعك من المؤمنين ، فحسبهم الله ؛ وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون (من) فى موضع رفع عطفاً على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك. وهذا ، وإن قال به بعض الناس ، فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى[1]: (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده . وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده ، حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى[2] : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ؟ وأتباعه ، قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه فى حسب رسوله ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبطل الباطل . ونظير هذا قوله[3] : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله ؛ كما قال تعالى[4] : (وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال[3] : (إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) ولم يقل وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده . كما قال تعالى[5] : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب ، لله وحده . كما أن العبادة والتقوى والسجود ، لله وحده. والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى . ونظير هذا قوله تعالى[6]:(أَلَيْسَ اللهُ

(١) [٨ / الأنفال / ٦٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .
(٣) [٩ / التوبة / ٥٩] . (٤) [٥٩ / الحشر / ٧] .
(٥) [٩٤ / الشرح / ٧] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٣٦] :

بِكَافٍ عَبْدَهُ) فـ (الحسب) هو (الكافى) ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كافٍ عبده ، فكيف يجعل أتباعه مع الله فى هذه الكفاية ؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد، أكثر من أن تذكرها هنا . انتهى .

قال الخفاجىّ (فى العناية) : وتضعيفه الرفع لا وجه له ، فإن الفراء والكسائىّ رجّحاه ، وما قبله وما بعده يؤيده . انتهى .

وأقول : هذا من الخفاجىّ من الولع بالمناقشة ، كما هو دأبه ، ولو أمعن النظر فيما برهن عليه ابن القيّم وأيده بما لا يبقى معه وقفة ، لما ضعفه . والفراء والكسائىّ من علماء العربية ، ولأئمة التأويل فقه آخر . فتبصر ، ولا تكن أسير التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ » أى حثهم « عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٦] (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ،وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ،وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .

فى الآية مسائل .

الأولى ـ مشروعية الحضّ على القتال ، والمبالغة فى الحث عليه . وقد كان النبىّ ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم ، ومواجهة العدوّ ، كما قال لهم[١] يوم بدر ، حين أقبل المشركون فى عَدَدهم وعُدَدهم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ! فقال : بخٍ بخٍ . فقال : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فتقدم الرجل ، فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

الثانية ـ ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) شرط فى معنى الأمر بوجوب مصابرة الواحد للعشرة . أى بألا يفرّ منهم .

روى البخارىّ[٢] عن ابن عباس قال: لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) كتب عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ولا عشرون من مائتين . ثم نزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية ـ فكتب أن لا يفر مائة من مائتين .

وفى رواية أخرى[٢] عنه قال: لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) شق ذلك على المسلمين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية ـ فلما خفف الله عنهم من العدة ، نقص عنهم من الصبر ، بقدر ماخفف عنهم .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه مسلم فى : ٣٣ كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعتنا) عن أنس بن مالك . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٨ ـ سورة الأنفال ، ٦ ـ باب يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، و ٧ ـ باب الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، الحديث رقم ٢٠٠٨ .

قال في (اللباب) : فظاهر هذا أن قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) ناسخ لما تقدم في الآية الأولى، وكان هذا الأمر يوم بدر . فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين ، فثقل ذلك على المؤمنين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ـ أيها المؤمنون ـ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً) يعني في قتال الواحد للعشرة ، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. فردّ العشرة إلى الاثنين. فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفروا. فأيما رجل فرّ من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فرّ . انتهى .

قال في (العناية) : وذهب مكيّ إلى أنها مخففة لا ناسخة ، كتخفيف الفطر للمسافر. وثمرة الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة ، فقتل ، هل يأثم أوْ لاَ ؟ فعلى الأول يأثم ، وعلى الثاني لا يأثم .

وقال الرازيّ : أنكر أبو مسلم الأصفهانيّ دعوى النسخ في الآية ، وقال : الأمر الذي فهم من الآية مشروط بكون العشرين قادرين على الصبر ، أي إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين ، فليشتغلوا بمقاومتهم . ثم دل قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) على أن ذلك الشرط غير حاصل منهم ، فلم يكن التكليف لازماً عليهم . وبالجملة ، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة ، فلم يثبت ذلك الحكم . وعلى هذا فلا نسخ . ولا يقال إن قوله تعالى (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ) مشعر بأن هذا التكليف كان متوجهاً عليهم قبله، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقيل قبله ، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى[1] في ترخيصه للحرّ في نكاح الأَمَة «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ» وليس هناك نسخ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر . فكذا ها هنا.

(١) [٤ / النساء / ٢٨] .

ومما يدل على عدم النسخ ذكر هذه الآية مقارنة للأولى . وجعلُ الناسخ مقارنا المنسوخ ، لا يجوز إلا بدليل قاهر .

قال الرازيّ ، بعد تقرير كلام أبي مسلم : إن ثبت إجماع الأمة قبل أبي مسلم على حصول النسخ في الآية ، فلا كلام عليه ، وإلا فقول أبي مسلم صحيح حسن . انتهى .

الثالثة في قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) إشارة إلى علة غلبة المؤمنين عشرةَ أمثالهم من الكفار ، فالظرف متعلق بـ(يَغْلِبُوا) أي بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر ، لا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالى ، وإعلاء لكلمته ، وابتغاء لرضوانه ، كما يفعله المؤمنون ، وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية ، واتباع خطوات الشيطان ، وإثارة نائرة البغي والعدوان ، فلا يستحقون إلا القهر والخذلان . أفاده أبو السعود .

الرابعة ـ قال الرازيّ : احتج هشام على قوله (إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها) بقوله : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً) إذ يقتضي أن علمه بضعفهم ما حصل إلا في هذا الوقت . وأجاب المتكلمون بأن معناه : الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله . وأما قبل ذلك فقد كان الحاصل العلم بأنه سيقع أو سيحدث . انتهى .

وقال الطيبيّ رحمه الله : معناه الآن خفف الله عنكم لما ظهر متعلق علمه تعالى ، أي كثرتكم الموجبة لضعفكم بعد ظهور قلتكم وقوتكم .

الخامسة ـ في (الضعف) لغتان : الفتح والضم ، وبهما قرئ . وهو يؤكد كونهما بمعنى فيكونان في الرأي والبدن . وقيل : (الفتح) في الرأي والعقل ، (والضم) في البدن . وهو منقول عن الخليل . وقرئ (ضعفاء) بصيغة الجمع .

السادسة ـ إن قيل : إن كفاية عشرين لمائتين تغني عن كفاية مائة لألف وكفاية مائة لمائتين تغني عن كفاية ألف لألفين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة في الأولى ، وثبات الواحد للاثنين في الثانية ، فما سر هذا التكرير ؟ أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل

على الكثير لزيادة التكرير المفيد لزيادة الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة ، لاتتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين . وتغلب المائة الألف . وأما الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي .

قال في (الفتح) : وقد قيل ، في سر ذلك ، إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف .

السابعة ــ قال في (البحر) : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى . ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في جملتي التخفيف وحذف من الثانية ، لدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : (وَاللهُ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ) مبالغة في شدة المطلوبية . ولم يأت في جملتي التخفيف بقيد الكفر ، اكتفاء بما قبله .

قال الشهاب : هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك ، وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف (بِإِذْنِ اللهِ) وهو قيد لهما . وقوله : (وَاللهُ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ) إشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب . وبقي فيها لطائف . فلله در التنزيل ما أحلى ماء فصاحته ! وأنضر رونق بلاغته !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » روى الإمام[١] أحمد عن أنس قال : استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر فقال : إن الله قد أمكنكم منهم

---

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ! اضربْ أعناقهم ، فأعرض عنه النبيّ ﷺ . ثم عاد رسول الله ﷺ لمقالته وقال : إنما هم إخوانكم بالأمس ، وعاد عمر لمقالته ، فأعرض عنه ﷺ . فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله ! نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء .

وأخرج مسلم(١) فى (أفراده) من حديث عمر بن الخطاب ؛ قال ابن عباس : لما أسروا الأسارى . قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبوبكر : يارسول الله ! هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : ماترى ياابن الخطاب ؟ قال : قلت لا ، والله ! يارسول الله ! ما أرى الذى رأى أبو بكر . ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكِّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه ،فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلتُ . فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يارسول الله ! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكى على أصحابك ـ من أخذهم الفداء ،لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة من نبىّ الله ﷺ ـ فأنزل الله عز وجل (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ...) الآية . ذكره الحميدىّ فى (مسنده) عن عمر بن الخطاب ، من أفراد مسلم بزيادة فيه .

ومعنى (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ) ماصح له وما استقام . وقرئ (للنبىّ) على العهد . والمراد

(١) أخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعتنا) وهو بعض من حديث طويل . فانظره .

على كلّ، نبيِّنا ﷺ ، وإنما نكّر تلطفاً به، حتى لا يواجه بالعتاب . وقرئ (أُسَارَى) .
ومعنى (يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) يكثر القتل ويبالغ فيه، حتى يذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولى أهله . يقال : أثخن في العدوّ، بالغ في قتلهم . كما في (الأساس) . وأثخن في الأرض قتلاً إذا بالغ . وقال ابن الأعرابيّ : أثخن إذا غلب وقهر .

قال الرازيّ : وإنما حمله الأكثرون على القتل، لأن الدولة إنما تقوى به . قال المتنبي :

لا يسلم الشرفُ الرفيعُ من الأذى   حتى يُراقَ عَلَى جوانبه الدمُ

ولأنه يوجب قوة الرعب، وشدة المهابة، فلذلك أمر تعالى به .

وقوله تعالى « تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا » أي متاعها الزائل، بفداء أسارى بدر . و(العرض) ما لا ثبات له ولو جسماً . ومنه استعار المتكلمون (العرض) المقابل (للجوهر)، قاله الشهاب . « وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » أي يريد لكم ثوابها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أي غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » أي فيما يأمر به عباده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

« لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ » أي لأصابكم « فِيمَا أَخَذْتُمْ » أي بسببه، وهو الفداء « عَذَابٌ عَظِيمٌ » أي شديد، بقدر إبطالكم الحكمة العظيمة، وهي قتلهم الذي هو أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، وأفلّ لشوكتهم . والمراد بـ (الكتاب) الحكم، وإنما أطلق عليه لأنه مكتوب في اللوح . ولأئمة التفسير أقوال في تفسيره . فقيل : هو أنه لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك . وقيل : هو أنه لا يعذب المخطئ في اجتهاده . وقيل : هو كون أهل بدر مغفوراً لهم . وقيل : هو حلّ المغانم.

وللرازيّ مناقشة في هذه الأقوال . واختار أن (الكتاب) هو حكمه في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة، لأنه كتب على نفسه الرحمة، وسبقت رحمتُه غضبَه .

أقول : لعل الأمسّ في تهويل ما اكتسبوه ، تفسير (الكتاب) بما في قوله تعالى[1] : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازيّ : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا قليلين . فلما كثروا وقوى سلطانهم ، أنزل الله بعد ذلك في الأسارى[2] (حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) .

وأقول : هذا الكلام يوهم أن قوله (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) يريد حكم الآية التي نحن في تفسيرها . وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كلتيهما تدلّ على أنه لا بد من تقديم الإثخان ، ثم بعده أخذ الفداء . انتهى .

وقال بعضهم : لا تظهر دعوى النسخ من أصلها ، إذ النهي الضمنيّ ، كما هنا ، مقيد ومُغَيًّا بالإثخان . أي كثرة القتال اللازمة لها قوة الإسلام وعزته . وما في سورة القتال من التخيير ، محله بعد ظهور شوكة الإسلام بكثرة القتال ، فلا تعارض بين الآيتين ، إذ ما هناك بيان للغاية التي هنا . نقله في (الفتح) .

الثاني ـ قال القاضي : في الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأً ، ولكن لا يقرّون عليه .

الثالث ـ قال ابن كثير : وقد استمرّ الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ؛ أن الإمام مخيّر فيهم ، إن شاء قتل ، كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال ، كما فعل بأسرى بدر ، وبمن أُسِر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردها وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] . (٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

وإن شاء استرقّ من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعيّ وطائفة . وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة ، مقرر فى موضعه .

الرابع ـ قال بعض مفسرى الزيدية : فى هذه الآية سؤال وهو أن يقال : إن كان فعلهم اجتهاداً وخطأً ، فلِمَ عوتبوا ؟ ويلزم أن لا معصية . وإن تمكنوا من العلم وقصروا ، فكيف أقرّهم الرسول ﷺ ؟ وجواب ذلك من وجهين :

الأول ـ عن أبى علىّ ؛ أن ذلك كان معصية صغيرة . قال الحاكم : وكانوا متمكنين من العلم ، إذا ما عاتبهم .

وقيل : كان خطأً وقصروا فعوتبوا على التقصير انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » أى كلوا بعضه ، بعد إخراج الخمس حلالاً ، أى مطلقاً عن العتاب والعقاب ، من (حل العقال) . (طَيِّبًا) أى لذيذاً هنيئاً . أو حلالاً بالشرع ، طيباً بالطبع . قيل : هذا الأمر تأكيد لحل المغانم ، لأنه علم مما تقدم من قوله (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ . . .) الآية ـ وإشارة لاندراج مال الفداء فى عمومها ، فـ (مَا غَنِمْتُمْ) هنا ، إما الفدية ، لأنها غنيمة ، أو مطلق الغنائم . والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . وجعلُ الفاء عاطفة على سبب مقدر ، أى أبحت لكم الغنائم ، فكلوا ـ قد يستغنى عنه بعطفه على ما قبله لأنه بمعناه ، أى لا أؤاخذكم بما أخذ من الفداء فكلوه . كذا فى (العناية) .

قال أبو السعود : والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى دعوه فكلوا مما غنمتم . ثم قال : وقيل (ما) عبارة عن الفدية ، فإنها من جملة الغنائم ، ويأباه اتساق النظم الكريم وسياقه . انتهى . وهو متجه .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى فى مخالفة أمره ونهيه « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لكم ويرحمكم إذا اتقيتموه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ » أى لمن فى ملكتكم ، كأن أيديكم قابضة عليهم وذلك تخليصاً لهم من أسر الضلال بضعف الإيمان « إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا » أى قوة إيمان وإخلاصاً فيه « يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ » أى من الفداء ، إما أن يخلفكم فى الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم فى الآخرة « وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَإِنْ يُرِيدُوا » أى الأسرى « خِيَانَتَكَ » أى نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة ، أو منع ماضمنوا من الفداء « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل (بدر) بالكفر به « فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ » أى فأمكنك منهم ، أى أظفرك بهم قتلا وأسرا ، كما رأيتم يوم بدر ، فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى عليم بما فى بواطنهم من إيمان وتصديق ، أو خيانة ونقض عهد . حكيم يجازى كلا بعمله ، الخير بالثواب ، والشر بالعقاب .

روى ابن هشام فى (السيرة) أن فداء المشركين يوم بدر كان أربعة آلاف درهم بالرجل إلى ألف درهم ، إلا من لا شيء له . فمنّ رسول الله ﷺ عليه .

وقال ابن إسحاق : كان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس ، وذلك أنه كان رجلا موسرا ، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً .

وفى صحيح البخارى[1] عن أنس أن رجالا من الأنصار قالوا : يارسول الله ! ائذن لنا، فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . قال : لا والله ! لاتذرون منه درهما .

وروى ابن إسحاق[2] أن العباس قال : يارسول الله ! قد كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل وعقيل وحليفك عتبة . قال : ما ذاك عندى يارسول الله ! قال : فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أُصِبْتُ فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفنته لبنىّ : الفضل وعبد الله وقثم ؟ قال : والله ! يا رسول الله ، إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى ، يارسول الله ، ما أصبتم من عشرين أوقية من مال كان معى . فقال رسول الله ﷺ : لا . ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك .

ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، فأنزل الله عز وجل فيه : (يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِمَنْ فِى أَيْدِيكُمْ ...) الآية .

قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبدا كلهم فى يده مال ، يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

---

(١) أخرجه فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ١٢ ـ باب حدثنى خليفة ، حديث رقم ١٢٤٥

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٣٣١٠ (طبعة المعارف).

وروى ابن إسحاق أيضا أن العباس كان يقول : فيّ نزلت ، والله ! حـــين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي .

وروى ابن جريج عن عطاء ابن عباس ؛ أن عباسا وأصحابه قالوا للنبيّ ﷺ : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحنّ لك على قومنا ، فأنزل الله تعالى[1] (إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .) الآية . قال ، فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا ، وأن لي الدنيا ، لقد قال : (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف . وقال : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) وأرجو أن يكون قد غفر لي .

وروى البيهقيّ عن أنس[2] قال : أُتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين ، فقال : انثروه في مسجدي . قال ، وكان أكثرَ مال أتي به رسول الله ﷺ ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت إليهم ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله ! أعطني ، فاديت نفسي ، وفاديت عقيلًا ، فقال رسول الله ﷺ : خذ ! فحثا في ثوبه ، ثم ذهب يقلّه ، فلم يستطع . فقال : مرْ بعضهم يرفعه إليّ ، قال : لا ، قال : فارفعه أنت عليّ ، قال : لا ! فنثر منه ، ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه ببصره حتى خفي عنه ، عجباً من حرصه .

فما قام رسول الله ﷺ وثمّ منها درهم . وفي رواية : وما بعث إلى أهله بدرهم .

ورواه البخاريّ[3] تعليقاً .

وفي رواية : فجعل العباس يقول وهو منطلق : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع في الأخرى !

ثم ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين وأنصار فقال :

---

(١) [٨ /لأنفال/ ٧٠] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ٤ ـ باب ما أقطع النبيّ ﷺ من البحرين وما وعد من مال البحرين ، حديث رقم ٢٧٧ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءاوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَالَّذِينَ ءامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَـكُم مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْـكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَـكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَهَاجَرُوا » أى من مكة إلى المدينة لنصر الله ورسوله « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى طاعتـه « وَالَّذِينَ ءاوَوْا وَنَصَرُوا » أى وطنوا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم « أُولَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى يتولّى بعضهم بعضاً فى النصرة والمظاهرة، ويقوم مقام أهله ونفسه ، ويكون أحق به من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

قال ابن إسحاق(١) : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تآخوا أخوين أخوين ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب فقال : هذا أخى . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعمّ النبىّ ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى النبىّ ﷺ أخوين . وإليه أوصى حمزة يوم (أُحُد) حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت. وجعفر ذو الجناحين الطيار فى الجنة ومعاذ بن جبل أخوين . وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين . وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير بن العوام وسلمة

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

ابن سلامة أخوين ، أو عبدالله بن مسعود وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين وطلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد وأبيّ بن كعب أخوين . ومصعب ابن عمير وأبو أيوب الأنصاريّ أخوين . وأبو حذيفة وعباد بن بشر أخوين. وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذرّ الغفاريّ والمنذر بن عمرو أخوين . وسلمان الفارسيّ وأبو الدرداء أخوين . وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين . وبلال الحبشيّ وأبو رويحة الخثعميّ أخوين :

ولما خرج بلال إلى الشام ، وأقام فيها مجاهداً ، قال له عمر : إلى من نجعل ديوانك ؟ قال : مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبداً ، للأخوّة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني . فضم إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، لمكان بلال منهم .

قال ابن إسحاق . فهؤلاء من سمى لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .

تنبيه :

نقل الواحديّ عن ابن عباس وغيره ، أن المراد من هذه الولاية ، هي الولاية في الميراث.

قال ابن كثير : لما تآخوا كانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بالمواريث. ثبت ذلك في صحيح البخاريّ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد .

قال الخفاجيّ : فكان المهاجريّ يرثه أخوه الأنصاريّ ، إذا لم يكن له بالمدينة وليّ مهاجريّ ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجريّ . واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعدُ ، إذ لم تكن هجرة . و (الوليّ) القريب والناصر . لأن أصله القرب المكانيّ ، ثم جعل للمعنويّ ، كالنسب والدين والنصرة . فقد جعل ﷺ ، في أول الإسلام ، التناصر الدينيّ أخوّة ، وأثبت لها أحكام الأخوّة الحقيقية من التوارث ، فلا وجه لما قيل إن هذا التفسير لا تساعده اللغة ، فالولاية على هذا ، الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية . انتهى .

ومراده بـ(ما قيل) ماذكره الرازيّ في تضعيف تفسير الولاية بالوراثة ، حيث قال :

واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى ، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ماقررناه في مواضع من هذا الكتاب . ويقال : السلطان وليّ من لا وليّ له ، ولا يفيد الإرث . وقال تعالى[1] : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا يفيد الإرث ، بل الولاية تفيد القرب ، فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً للبعض ، مهتماً بشأنه ، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته . والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء ، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه . وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى ، كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ ، لاسيما وهم يقولون : إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى في آخر الآية : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ)[2] وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به ، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى مذكورة معه ؟ هذا في غاية البعد ، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك ، فحينئذ يجب المصير إليه . إلا أن دعوى الإجماع بعيدة . انتهى .

وأقول : لعموم هذا الخطاب ونظمه وجه في إثبات التوارث ، لا سيما وقد نفى تعالى ولاية من لم يهاجر نفياً استغرق أقرب الأقارب حيث قال : « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا » أي بأن أقاموا في بواديهم « مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » أي إلى المدينة . وقوله تعالى : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ » أي إذا استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال دينيّ ، فيجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم المشركين ، لأنهم إخوانكم في الدين « إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » أي عهد ومهادنة إلى مـــدة ، فلا تعينوهم عليهم ، لئلا تخفروا ذمتكم ، وتنقضوا عهدكم « وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فلا تخالفوا أمره .

(١) [١٠ / يونس / ٦٢] . (٢) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

تنبيهات :

الأول ـ احتج من ذهب إلى أن المراد من قوله تعالى : (مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى من توليتهم فى الميراث ، وأنه هو المراد فى الآية السابقة أيضاً ، بقوله تعالى : (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) فإن هذا موالاة فى الدين ، فحينئذ لا يجوز حمل الموالاة المنفية ، على النصرة والمظاهرة ، لأنها لازمة لكل حال الكلا الفريقين .

وأجاب الرازىّ بما معناه : إن الولاية هنا ليس المراد بها مطلق التولى حتى يرد ما ذكروه ، بل عنى بها معنى خاص ، وهو علاقة شديدة ، ومحبة أكيدة ، وإيثار قوىّ ، وأخوة وثيقة . ولا يلزم من النصر التولى . فقد ينصر المرء ذمياً لأمرٍ ما ولا يتولاه ، ويدافع عن عبده أو أمته وبعينهما ولا يتولاهما ـ والله أعلم ـ

الثانى ـ يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر ، وطلب من كل من آمن من البادين أن يهاجر ، ليكثر سواد المسلمين ، ويظهر اجتماعهم ، وإعانة بعضهم لبعض ، فتتقوى بألفتهم شوكتهم ، ولم يزل طلب الهجرة إلا بفتح مكة ، لقوله ﷺ : لا هجرة بعد فتح مكة . رواه البخارىّ(١) عن مجاشع بن مسعود .

الثالث ـ شمل نفى الموالاة عن الذين لم يهاجروا وقتئذ ، حرمانهم من المغانم والفيء .

روى الإمام أحمد(٢) عن بريدة بن الحُصَيْب الأسلمىّ رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ

---

(١) حديث مجاشع بن مسعود أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١١٠ ـ باب البيعة فى الحرب ألّا يفرّوا ، حديث رقم ١٤١٣ ورقم ١٤١٤ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ـ كتاب الإمارة ، حديث ٨٣و٨٤ (طبعتنا) .

ونصه : قال : أتيت النبىّ ﷺ أبايعه على الهجرة فقال «إن الهجرة قد مضت لأهلها» .

وأما حديث « لا هجرة بعد الفتح » فقد رواه البخارىّ عن ابن عباس فى: ٥٦ـ كتاب الجهاد ، ١ ـ باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

إذا بعث أميراً على سرِّية أوجيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً. وقال : اغزوا بسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتها ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم . ثم ادعهم من التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك ، أن لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ،يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

قال ابن كثير : انفرد به مسلم[1] ، وعنده زيادات أخر .

الرابع ـ قرأ حمزة (ولايتهم) بكسر الواو ، والباقون بفتحها .

قال الشهاب : جاء في اللغة : (الولاية) مصدراً بالفتح والكسر ، فقيل : هما لغتان فيه بمعنى واحد ، وهو القرب الحسيّ والمعنويّ ، وقيل : بينهما فرق ، فالفتح ولاية مولى النسب ونحوه . والكسر ولاية السلطان. قاله أبو عبيدة . وقيل الفتح من النصرة والنسب . والكسر من الإمارة . قاله الزجاج. وخطأ الأصمعيُّ قراءة الكسر ، وهو المخطئُ لتواترها. واختلفوا في ترجيح إحدى القراءتين. ولما قال المحققون من أهل اللغة : إن (فعالة) بالكسر في الأسماء لما يحيط بشيء ، ويجعل فيه كاللفافة والعمامة . وفي المصادر يكون في الصناعات وما يزاول بالأعمال ، كالكتابة والخياطة ـ ذهب الزجاج وتبعه غيره إلى أن الولاية لاحتياجها إلى تمرن وتدرب شبهت بالصناعة ، ولذا جاء فيها الكسر ، كالإمارة . وهذا يحتمل أن الواضع حين وضعها شبهها بذلك، فتكون حقيقة. ويحتمل ـ كما في بعض شروح الكشاف ـ أن تكون استعارة ، كما سموا الطب صناعة . انتهى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى فلا يتولاهم إلا من كان منهم ، ففيه إشارة إلى نهى المسلمين عن موالاتهم . وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم ، وإن كانوا أقارب وقد استدل به على أنه لا توارث بين المسلمين والكفار .

روى الحاكم فى (مستدركه) عن أسامة عن النبىّ ﷺ قال : لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلما ، ثم قرأ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية رواه الشيخان عنه[1] بلفظ : لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم .

وقوله تعالى : « إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل ، وتولّى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار، تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة ، لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك ، كان الشرك ظاهرا ، والفساد زائداً ، فى الاعتقادات والأعمال .

وقيل : الضمير المنصوب للميثاق أو حفظه أو النصر أو الإثبات . وقيل إنه للإستنصار المفهوم من الفعل . والفتنة: إهمال لمؤمنين المستنصرين بنا ، حتى يسلط علينا الكفار . إذ فيه وهن للدين .

قال الشهاب : وفيه تكلف ، أى فالأوجه عوده للتولى والتواصل ـ كما بينا ـ .

قال الرازىّ : بيان هذه الفتنة والفساد عن وجوه :

الأول ـ أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار فى زمان ضعف المسلمين ، وقلة عددهم ، وزمان قوة الكفار ، وكثرة عددهم ، فربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار.

(١) الحديث رواه مسلم عن أسامة بن زيد فى : ٢٣ ـ كتاب الفرائض ، حديث رقم ١ (طبعتنا) ولم يخرجه البخارىّ .

الثانى ـ أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم ، فيصير ذلك سبباً لجرأة الكفار عليهم .

الثالث أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم فى الزيادة فى العدد والعدد صار ذلك سبباً لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ، ورغبة المخالف فى الالتحاق بهم . انتهى .

وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » عودٌ لذكر المهاجرين والأنصار ، للثناء عليهم ، والشهادة لهم ، مع الموعد الكريم . فلا تكرار ، لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم ، فذكرهم هاهنا لبيان تعظيم شأنهم ، وعلوّ درجتهم .

قال الرازىّ : وبيانه من وجهين :

الأول ـ أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ، وذلك يدل على الشرف والتعظيم .

والثانى ـ وهو أنه تعالى أثنى عليهم هاهنا من ثلاثة أوجه :

أولها ـ قوله « أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فقوله (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ) يفيد الحصر ، وقوله (حَقًّا) يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محقين محققين فى طريق الدين ، وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محقًّا فى دينه ، لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ، ولم يكن فى هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين .

وثانيها ـ قوله (لَهُم مَّغْفِرَةٌ) والتنكير يدل على الكمال ، أى مغفرة تامة كاملة .

وثالثها ـ قوله (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) والمراد منه الثواب الرفيع الشريف . انتهى .

وقد أثنى تعالى على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى كتابه الكريم .

والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ » أى من جملتكم ، أى المهاجرون والأنصار ، فى استحقاق ما استحقيتموه من الموالاة والمناصرة ، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم .

وهل المراد من قوله (مِنْ بَعْدُ) هو من بعد الهجرة الأولى ، أو من بعد الحديبية . وهى الهجرة الثانية ، أو من بعد نزول هذه الآية ، أو من بعد يوم بدر ؟ أقوال ـ واللفظ الكريم يعمها كلها ، والتخصيص بأحدها تخصيص بلا مخصص . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى حكمته وقسمته ، أو فى اللوح ، أو فى القرآن ، لأن (كتاب الله) يطلق على كل منها « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فيقضى بين عباده بما شاء من أحكامه التى هى منتهى الصواب والحكمة والصلاح .

تنبيهات :

الأول إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالات والمناصرة عند من فسر ما تقدم من قوله (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) وما بعده بالتوارث .

أخرج أبو داود(١) من حديث ابن عباس قال : كان الرجل يحالف الرجل ، ليس بينهما

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ١٦ ـ باب نسخ ميراث العقد بميراث الأرحام ، حديث رقم ٢٩٢١ .

نسب ، فيرث أحدهما من الآخر، فنسخ ذلك آية الأنفال فقال : (وَأُولُوا الأَرْحَامِ ...) الخ إلا أن فى إسناده مَن فيه مقال .

وأما من فسر الموالاة المتقدمة بالنصرة والمعونة والتعظيم ، فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض . وذلك أن تلك الآية ، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث ، بيّن الله تعالى فى هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة ، إلا ما خصه الدليل ، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم .

قال الرازىّ : وهذا أولى . لأن تكثير النسخ ، من غير ضرورة وحاجة ، لا يجوز .

الثانى ـ استدل بالآية من ورّث ذوى الأرحام ، وهم من ليسوا بعصبات ، ولا ذوى سهام . قال : ويعضده حديث[1] : (الخال وارث من لاوارث له) . وأجاب من منع توريثهم بأن المراد من الآية من ذكر اللهُ من ذوى السهام والعصبات . ومن الحديث : (من كان وارثه الخال فلا وارث له) . وردّ بأنها عامة فلا موجب للتخصيص ، وبأن معنى الحديث : من كان لا وارث له غيره ، لحديث : (أنا عماد من لا عماد له) .

ثم إن الذين أثبتوا ميراثهم اختلفوا فى أنهم هل يرثون بالقرب ، أو بالتنزيل ، وهل يرث القريب مع البعيد ، وهل يفضل الذكر على الأنثى أوْ لَا ؟ والآية محتملة . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

قال ابن كثير : ليس المراد بقوله : (وَأُولُوا الأَرْحَامِ) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لافرض لهم ولاعصبة ، بل يدلون بوارث كالخالة والخال ، والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم ، كما زعمه بعضهم ، ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحاً فى المسألة . بل الحق أن الآية عامة ، تشمل جميع القرابات ؛ كما نص عليه ابن عباس

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ٨ ـ باب فى ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩ و٢٩٠٠ عن المقدام الكندىّ .

ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورّثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث[١] : (إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض فى كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك ، لم يكن وارثاً . انتهى .

ولا يخفى ضعف هذا الاستدلال ، إذ لا يلزم من ثبوت الحق تعيين الفرض . على أن معنى الحديث ، أعطى كل ذى حق حقه مفصلاً ومجملاً ، وقد أعطاهم حق الأولوية العامة ، ووكل بيان ما يفهم من إجمال الإرث بعمومها لاستنباط الراسخين وفهمهم على قاعدة عمومات التنزيل .

وقد رأيت فى هذه المسألة مقالة بديعة أوردها الحسن الصابىء فى (تاريخ الوزراء) فى أخبار وزارة أبى الحسن بن الفرات ، نأثرها هنا ، لأنها جمعت فأوعت ، قال رحمه الله :

ونسخة ما كتب به أبو خازم إلى بدر المعتضدىّ جواب كتابه إليه فى أمر المواريث :

وصل كتاب الأمير ، يذكر أنه احتيج إلى كتابى بالذى أراه واجبا من مال المواريث لبيت المال ، وما لا أراه واجباً منه ، وتلخيص ذلك وتبيينه ـ وأنا أذكر للأمير الذى حضرنى من الجواب فى هذه المسألة والحجة فيما سأل عنه ليقف على ذلك إن شاء الله ـ .

الناس مختلفون فى توريث الأقارب ، فروى عن زيد بن ثابت أنه جعل التركة ـ إذا لم يكن للمتوفى من يرثه من عصبة وذى سهم ـ لجماعة من المسلمين وبيت مالهم . وكذلك يقول فى الفصل بعد السُّهمان المسماة ، إذا لم تكن عصبة . ولم يرو ذلك عن أحد من الصحابة سوى زيد بن ثابت . وقد خالفه عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وجعلوا ما يفضل من السُّهمان ردا على أصحاب السهام من القرابة ، وجعلوا

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٦ ـ باب ما جاء فى الوصية للوارث ، حديث رقم ٢٨٧٠ .

المال لذى الرحم إذا لم يكن وارث سواه . والسنّة تعاضد ما روى عنهم ، وتخالف ما روى عن زيد بن ثابت وتأويل القرآن يوجب ما ذهبوا إليه . وليس لأحد أن يقول فى خلاف السنة والتنزيل بالرأى . قال الله تعالى[1] : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ ، بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فصيّر القريب أولى من البعيد . وإلى هـذا ذهب عمر وعلىّ وعبد الله رضى الله عنهم ومن تابعهم من الأئمة ، وعليه اعتمدوا ، وبه تمسكوا ـ والله أعلم .

ولو كان فى هذه المسألة ما يدل عليه شاهد من الكتاب والسنة ، لكان الواجب تقليد الأفضل والأكثر من السابقين الأولين ، وترك قبول من سواهم ممن لا يلحق بدرجتهم بسابقته . وإذا ردّ أمر الناس إلى التخيير من أقاويل السلف فهل يحيل أو يشكل على أحد أن زيداً لا يفى علمه بعلم عمر وعلىّ وعبد الله ؟ وإذا فضلوا فى السابقة والهجرة ، فمن أين وجب أن يؤخذ بما روى عن زيد بن ثابت ، واطّراح ما روى عنهم ، وقد استدلوا مع ذلك بالكتاب فيما ذهبوا إليه ، وبالسنة فيما أفتوا به؟ والرواية ثابتة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بتوريث من لا فرض له فى الكتاب من القرابة . فمن ذلك ما ذكر لنا عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبى عامر الهروىّ عن المقدام بن معدى كرب عن النبىّ ﷺ[2] أنه قال : الخال وارث من لا وارث له يرث ماله ، ويعقل عنه . وكذلك بلغنا عن شريك ابن عبد الله عن ليث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مثله . وعن ابن جريج عن عمر بن سلم عن طاوس عن عائشة أن النبىّ ﷺ قال مثل ذلك . وذكر عن عبادة بن أبى عباد عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عقبة عن محمد بن يحيا بن حبان عن عمه واسع ابن حبان قال: توفى ثابت بن أبى الدحداح ، فقال النبى ﷺ لعاصم بن عدىّ : أله فيكم نسب؟

(١) [٨ / سورة الأنفال/ ٧٥] .(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٨ ـ كتاب الفرائض ، ٨ ـ باب فى ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠ .

قال : فدفع تركته إلى ابن أخته . فقد أوجب عليه السلام ، بما نقلته عنه هذه الرواية ، توريث من لا سهم له من القرابة مع عدم أصحاب السُّهمان المبينة فى الكتاب . وأعطى الجدة السدس من الميراث ، ولا فرض لها ، وفى ذلك الاتفاق ، وفيما صير لها من السدس ، دليل على أن مَنْ لا سهم له من القرابة فى معناها ؟ إذا بطلت السهام ، ولم يكن من أهلها ، وأنه أولى بالميراث من الأجنبىّ .

والمروىّ عن زيد بن ثابت أنه جعل الفضل عن سهام الفرائض ، وكل المال ، إذا سقطت السهام بعد أهلها ، لجماعة المسلمين . فجعلهم كلهم وارثا ، وجعل ما يصير لهم من ذلك ـ فى خلاف مال الفىء المصروف إلى الشحنة وأرزاق المقاتلة وإلى المصالح إذا كان ذلك ـ يكون فيما روى عنه للناس كافة ، وعددهم لا يحصى ، فغير ممكن أن يقسم ذلك فيهم وهم متفرقون فى أقطار الأرض ، مشارقها ومغاربها . وإذا امتنع ذلك وخرج إلى ما ليس بممكن ، فسد وثبت ما قلناه من قول أكابر الأئمة . وقد تأول بعض المتأولين قول الله تعالى(١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فقال فيه : كان الناس يتوارثون بالحلف دون القرابة . فلما أوجب الله المواريث لأهلها من الأقارب ، مُنِع الحليف بما فرض من السهمان فغلطوا وصرفوا حكم الآية إلى الخصوص ، فذلك غير واجب مع عدم الدليل ، لأن مخرجها فى السمع مخرج العموم .

وبعد ، فلو كان تأويلها ما ذهبوا إليه ، وكانت السهام التى نسخت ما يرثه الحليف قبل نزول الفرائض ، لوجب فى بدء ، وما قالوا إذا كان لا وارث الميت من أصحاب السهام أن يكون الحليفان فى التوارث على أول فرضهما ، وعلى المقدم من حكمهما ، لأن الذى منعهما إذا ثبت هذا التأويل (من له سهم) دون (من لا سهم له) ، فإذا ارتفع المانع ، رجع الحكم إلى بدئه . ولا اختلاف بين الفريقين أن الحليف لا يرث الحليف اليوم ، وإن كان لا وارث سواه ، وهذا يدل على فساد تأويلهم ، وعلى أن المراد فى الآية التى أوجبت الحق للأقارب غير الذى ذهبوا إليه ، فإن الله سبحانه إنما أراد بمعناها اختصاص القريب بالإرث دون البعيد.

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

وقد يلزم من ذهب إلى الرواية عن زيد ، وترك الرواية عن عمر وعليّ وعبد الله عليهم السلام جانباً ، وأسقط التعاقل بين الأجنبيّ والقريب ، أن يجعل ذا الرحم أولى ، لأنه لا يفضل الأجنبيّ بالقرابة . وترتيبُ المواريث في الأصل يجرى على من تقدمه من فضل غيره في المناسبة ، كالأخ للأب والأم ، والأخ للأب ، وابن العم للأب والأم ، وابن العم للأب ، واختصاصهما قرابة أولاها بالميراث عند جمع الجميع . قال الله تعالى[1] : (يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ) وولد الولد ، من سفل منهم ومن ارتفع ، يعمهم هذا الاسم ، إلا أن الأقرب منهم ، فى معنى الآية ، أحق من الأبعد . فإذا كان ذلك كذلك ، كان القريب أولى من الأجنبيّ بالتركة للرحم التى تقرّب بها دونه .

وبعد، فإن العلماء نفر يسير لا يعرفون الصواب فى هذه المسألة ، إلا فيما روى عن الخليفتين عمر وعليّ صلوات الله عليهما ، وماروى عن ابن مسعود ، ثم لم يقتصروا فى المبالغة والدليل فى توريث ذى الرحم ، إلا على ما روى عن عبد الله بن العباس ، جدّ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وترجمان القرآن ، وبحر العلم ، ومن كان إذا تكلم سكت الناس ، ومن دعا له النبيّ ﷺ فقال[2] : اللهم ! فقهه فى الدين وعلمه التأويل . ودعوة النبيّ ﷺ مستجابة . ومن كان أعلم بتأويل القرآن فاتباعه فيه أوجب . وقد روى عن ابن عباس مثل ذلك من قول عمر وعليّ

(١) [٤ / النساء / ١١] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٧ ـ باب قول النبيّ ﷺ « اللهم ! علمه الكتاب » ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب .

وفى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ١٠ ـ باب وضع الماء عند الخلاء ، ونصه : اللهم فقهه فى الدين .

وفى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٢٤ ـ باب ذكر ابن عباس ، ونصه : اللهم ! علمه الحكمة .

وفى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب ، والحديث رقم ٦٥ . أما النص الذى أورده المؤلف فلم أعثر عليه .

وعبد الله والجماعة . ومازالت الخلفاء من أجداد أمير المؤمنين،أعزه الله ، يستقضون الحكام، فيقضون برد المواريث على الأقارب ، ولا ينكرون ذلك على مَنْ قضى به مِنْ قضاتهم ، ولا تردونه متجاوزاً للحق فيه ، وما عرفت الجماعة بغير هذا الاسم إلا منذ نحو عشرين سنة . وأمير المؤمنين أولى من اتبع آثار السلف ، واقتدى بخلفاء الله ، ومَالَ إلى أفضل المذهبين ، وإلى الله الرغبة في عصمة الأمير ، وتسديده ، والحمد لله رب العالمين . انتهى .

ونقل أبو الحسن الصابي قبل نسخة أبي الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة في المواريث ، وفيها نقل ما كتبه عبدالحميد في كتاب مواريث أهل الملة ، وأنه حكى فيه أن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم ومن اتبعهم من الأئمة الهادين رحمة الله عليهم ، رأوا أن يردّ على أصحاب السهام من القرابة ما يفضل عن السهام المفترضة في كتاب الله تبارك وتعالى من المواريث ، إذا لم يكن للمتوفى عَصَبة يحوز باقي ميراثه،وجعلوا ، رضي الله عنهم ، تركة من يتوفى ولا عَصَبة له لذوي رحمه ، إن لم يكن له وارث سواهم،ممتثلين في ذلك أمر الله سبحانه إذ يقول[1]: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وسنة رسول الله ﷺ في توريثه من لا فرض له في كتاب الله تعالى من الخال وابن الأخت والجدة . انتهى .

الثالث ـ استدل بالآية الإمامية ، على تقديم الإمام عليّ كرم الله وجهه على غيره في الإمامة، لاندراجها في عموم الأولوية . والجواب ـ على فرض صحة هذه الدلالة ـ أن العباس رضي الله عنه كان أولى بالإمامة ، لأنه كان أقرب إلى رسول الله ﷺ من عليّ رضي الله عنه .

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

سُورَةُ التَّوبَةِ

٩ ـ سورة التوبة

هي مدنية بإجماعهم . قيل : سوى آيتين في آخرها[1] (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .) فإنهما نزلتا بمكة . وفيه نظر . فقد روى البخاري[2] عن البراء أنها آخر سورة نزلت ، واستثنى بعضهم (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...) [3] الآية ـ لما ورد أنها نزلت في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي طالب : لأستغفرنّ لك مالم أنه عنك. وهي مائه وتسع وعشرون آية ولهذه السورة عشرة أسماء :

١ ـ براءة : سميت بها لافتتاحها بها ، ومرجع أكثر ما ذكر فيها إليها .

٢ ـ التوبة : لتكرارها فيها ، كقوله تعالى[4] (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)[5] وقوله[6] (ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ) وقوله[7] (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ) وقوله[8] : (عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) وقوله[9] : (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ) ، وقوله[10] : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ) وقوله[11] : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ) وهما أشهر أسمائها .

٣ ـ الفاضحة : أخرج البخاري[12] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: سورة

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١ ـ باب قوله بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حديث ١٩٤١ . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٤) [٩ / التوبة / ٣] . (٥) [٩ / التوبة / ٥و١١]. (٦) [٩ / التوبة / ٢٧]. (٧) [٩ / التوبة / ٧٤] . (٨) [٩ / التوبة / ١٠٢]. (٩) [٩ / التوبة / ١١٧]. (١٠) [٩ / التوبة/١٠٤]. (١١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (١٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ١ ـ حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حديث رقم ١٨٦٩ .

التوبة ، قال : التوبة هى الفاضحة ، ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها .

٤ — سورة العذاب: رواه الحاكم عن حذيفة ، وذلك لتكرره فيها .

٥ — المقشقشة: رواه أبو الشيخ عن ابن عمر ، والقشقشة معناها التبرئه ، وهى مبرئة من النفاق .

٦ — المنقرة : أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير لأنها نقرت عما فى قلوب المشركين . أى بحثت .

٧ — البَحوت: بفتح الباء ، صيغة مبالغة ، رواه الحاكم عن المقداد

٨ — الحافرة : ذكره ابن الغرس ،لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ،أى بحثت عنها ، مجازاً

٩ — المثيرة : رواه ابن أبى حاتم عن قتادة لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم أى أخرجتها من الخفاء إلى الظهور .

١٠ — المبعثرة : لأنها بعثرت أسرارهم أى أظهرتها .

١١ — المدمدمة : أى المهلكة لهم .

١٢ — المخزية .

١٣ — المنكلة : أى المعاقبة لهم .

١٤ — المشرّدة : أى الطاردة لهم والمفرقة جمعهم .

وليس فى السور أكثر أسماء منها ومن الفاتحة .

تنبيه :

للسلف فى وجه ترك كتابة البسملة فى هذه السورة والتلفظ بها أقوال :

١ ـ روى الحاكم فى (المستدرك) عن ابن عباس قال : سألت عليّ بن أبى طالب : لِمَ لَمْ تكتب فى (براءة) البسملة ؟ قال : لأنها أمان . وبراءة نزلت بالسيف . أى فنزولها لرفع

الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى،مشفوعاً بوصف الرحمة. ولذا قال ابن عيينة : اسم الله سلام وأمان ، فلا يكتب فى النبذ والمحاربة . قال الله تعالى[1] : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) قيل له : فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب البسملة . قال: إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم ، ولم ينبذ إليهم . ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى ؟ فمن دعى إلى الله عز وجل فأجاب ، ودعى إلى الجزية فأجاب ، فقد اتبع الهدى ، فظهر الفرق . وكذا قال المبرد : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود ، فلذلك لم تفتتح بالتسمية .

٢ — عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ماحملكم على أن عمدتم إلى الأنفال ،وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين،فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا سطر البسملة ، ووضعتموها فى السبع الطوال ، ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد،وكان إذا نزل عليه شىء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضموا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وإذا نزلت عليه الآية يقول : ضموا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وظننتُ أنها منها . وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها ، من أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب البسملة،ووضعتها فى السبع الطوال . أخرجه أبو داود[2] والترمذى[3] وقال: حديث حسن. ورواه الإمام أحمد[4] والنسائى وابن حبان فى صحيحه،والحاكم وصححه.

(١) [٤ / النساء / ٩٤] . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٢٢ ـ باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، باب من جهر بها ، حديث رقم ٧٨٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ١ـحدثنا محمد بن بشار.

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) حديث ٣٩٩ (طبعة المعارف) وعلى هذا الحديث تعليق بقلم شيخنا الأستاذ أحمد شاكر فى الكلام على رجال سند هذا الحديث وفى تضعيفه . فانظره فإن البحث جليل جداً .

قال الزجاج : والشبه الذى بينهما أن فى (الأنفال) ذكر العهود ، وفى (براءة) نقضها.

٣ — أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال : (الأنفال) و) (براءة) سورة واحدة . ونقل مثله عن مجاهد ، وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان . وقال ابن لهيعة : يقولون إن (براءة) من (الأنفال) ، ولذلك لم تكتب البسملة فى (براءة) ، وشبهتهم اشتباه الطرفين ، وعدم البسملة . ويردّه تسمية النبىّ ﷺ كلا منهما .

وقال الحاكم : استفاض النقل أنهما سورتان .

وقال أبو السعود : اشتهارها بهذه الأسماء ـ يعنى الأربعة عشر اسماً المتقدمة ـ يقضى بأنها سورة مستقلة ، وليست بعضاً من سورة الأنفال، وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها ، خلاف الظاهر . انتهى .

ونقل صاحب (الإقناع) أن البسملة ثابتة (لبراءة) فى مصحف ابن مسعود ، قال : ولا يؤخذ بهذا .

وعن مالك : أن أولها لما سقط ، سقط معه البسملة ، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها . كذا فى (الإتقان) .

ثم اعلم أن القراء أجمعوا على ترك قراءة البسملة فى أول هذه السورة اتباعاً لسقوطها فى فى الرسم من مصحف الإمام ، إلا ابن مناذر ، فإنه يسمى فى أولها ، كما فى مصحف ابن مسعود .

وقال السخاوىّ فى (جمال القراء) : إنه اشتهر تركها فى أول براءة .

وروى عن عاصم التسمية فى أولها ، وهو القياس . لأن إسقاطها ، إما لأنها نزلت بالسيف أو لأنهم لم يقطعوا بأنها سورة مستقلة ، بل من الأنفال . ولا يتم الأول ، لأنه مخصوص بمن نزلت فيه ، ونحن إنما نسمى للتبرك . وأما الابتداء بما بعد أول براءة ، فلا نصّ للمتقدمين من أئمة القراء فيه ، وظاهر إطلاق كثير التخيير فيها ، واختار السخاوىّ

الجواز ، وقال : ألا ترى أنه يجوز بغير خلاف أن يقول : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ) (١) وإلى منعها ذهب الجعبرىّ ، وتعقبه السخاوىّ فقال : إن كان نقلاً فسلَّم ، وإلا فردٌّ عليه ، لأنه تفريع على غير أصل.

وقال ابن الجزرىّ فى (النشر) : من اعتبر بقاء أثر العلة التى من أجلها حذفت البسملة أولها ، وهى نزولها بالسيف ، لم يبسمل . ومن لم يعتبر ذلك ، أو لم يرها ، بسمل بلا نظر . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » خبر لمحذوف ، وتنوينه للتفخيم . أى هذه براءة . أو مبتدأ مخصص بصفة ، وخبره (إلى الذين) . و (البراءة) فى اللغة انقطاع العصمة ، يقال : برئت من فلان براءة ، أى انقطعت بيننا العصمة ، ولم يبق بيننا علقة .

فإن قيل: حق البراءة أن تُنسب إلى المعاهد ، فلم لم تنسب إليهم، ونسبت إلى الله ورسوله؟ أجيب : بأن (عاهدتم) إخبار عن سابق صدر من الرسول ﷺ والجماعة ، فنسب إلى الكل ، كما هو الواقع ، وإن كان بإذن الله أيضاً .

وأما البراءة فهى إخبار عن متجدد ؛ فكيف ينسب إليهم ، وهم لم يحدثوه بعد ، وإنما يسند إلى من أحدثه ؟ وقال الناصر : إن سر ذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله ﷺ فى مقام نسب فيه النبذ إلى المشركين ، لا يحسن أدباً . ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

لأمراء السرايا حيث يقول لهم[١] : إذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله ، فأنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أصادفت حكم الله فيهم أَوْ لا ! وإن طلبوا ذمة الله ، فأنزلهم على ذمتك . فَلَأَنْ تخفر ذمتك ، خير من أن تخفر ذمة الله !

فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوقير ذمة الله ، مخافة أن تخفر ، وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع ، فتوقير عهد الله ، وقد تحقق من المشركين النكث ، وقد تبرأ منه الله ورسوله بألا ينسب العهد المنبوذ إلى الله ـ أحرى وأجدر . فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه .

وقال الشهاب : ولك أن تقول : إنما أضاف العهد إلى المسلمين ، لأن الله علم أن لا عهد لهم ، فلذا لم يضف العهد إليه ، لبراءته منهم ، ومن عهدهم فى الأزل . وهذا نكتة الإتيان بالجملة اسمية خبرية . وإن قيل : إنها إنشائية للبراءة منهم ، ولذا دلت على التجدد . انتهى .

قال ابن إسحاق[٢] . نزلت براءة فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم ، ألا يصدّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام . وكان ذلك عهداً عامًّا بينه وبين الناس من أهل الشرك . وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى (تبوك) ، وفى قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى سرائر أقوام كانوا يَسْتَخْفُونَ بغير ما يظهرون .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .
وأخرجه أبو داود فى: ١٥ ـ كتاب الجهاد، ٨٢ ـ باب فى دعاء المشركين، حديث رقم ٢٦١٢
وأخرجه الترمذىّ فى: ١٩ ـ كتاب السير ، ٤٧ ـ باب ماجاء فى وصية النبى ﷺ فى القتال .
وأخرجه ابن ماجه فى: ٢٤ـ كتاب الجهاد ، ٣٨ـ باب وصية الإمام، حديث رقم ٢٨٥٨ (طبعتنا)

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩١٩ و ٩٢٠ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٨٨ و ١٨٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وقال ابن كثير : وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة (تبوك) ، وهمّ بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركون ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس (براءة من الله ورسوله) ، فلما قفل ، أتبعه بعلىّ بن أبى طالب ، ليكون مبلغاً عنه ﷺ ، لكونه عَصَبَةً له ، كما سيأتى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ)

« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » أى فقولوا لهم : سيروا فى الأرض بعد نبذنا العهد آمنين من القتل والقتال مدة أربعة أشهر ، وذلك من يوم النحر إلى عشر يخلون من ربيع الآخر . والمقصود تأمينهم من القتل ، وتفكرهم واحتياطهم ، ليعلموا أنهم ليس لهم بعدها إلا السيف ، وليعلموا قوة المسلمين إذ لم يخشوا استعدادهم لهم . وهذه الأربعة الأشهر كانت عهداً لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأتمت له . فأما من كان له عهد موقت ، فأجله إلى مدته ، مهما كانت ، لقوله تعالى[١] : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) كما يأتى . روى هذا عن غير واحد ، واختاره ابن جرير[٢] . وقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ،

---

(١) [٩ / التوبة / ٤] . (٢) انظر تفسير الطبرىّ بالصفحة رقم ٦٢ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ومن كان عهده بغير أجل حُدَّ بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن .

أقول : ولا يرد عليه إطلاق قوله تعالى (إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ) ، لأن له أن يجيب بأن الإضافة للعهد ، أي المدة المعهودة وهي الأربعة الأشهر . والله أعلم .

« وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ » يعني أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ، ولكن لحكمة ولطف بكم . أي فلا تفوتونه . وإن أمهلكم « وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » أي مُذِلُّهم بالقتل في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣] (وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

«وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » (الأذان) بمعنى الإيذان ، وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء . وارتفاعه كارتفاع (براءة) وهذه الجملة معطوفة على مثلها ، والفرق بين معنى الجملة الأولى والثانية أن تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت ، وإنما عُلقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين ، وعلق الأذان بالناس ، لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعامّ لجميع الناس ، من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث . كذا في (الكشاف).

ويوم الحج الأكبر : قيل يوم عرفة ، وقيل يوم النحر .

قال ابن القيّم : وهو الصواب ، لأنه ثبت فى الصحيحين(١) أن أبا بكر وعليًّا رضى الله عنهما ، أذّنا بذلك يوم النحر ، لا يوم عرفة .

وفى سنن أبى داود(٢) بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال والاستقالة . ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة ، ولهذا سمى طوافه طواف الزيارة ، لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة ، ثم أذن لهم يوم النحر فى زيارته ، والدخول عليه إلى بيته ، ولهذا كان فيه ذبح القرابين ، وحلق الرؤوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج وعمل يوم عرفة ، كالطهور والاغتسال بين يدى هذا اليوم . انتهى .

تنبيه .

روى الأئمة هاهنا آثارا كثيرة ، نأتى منها على جوامعها :

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد: قدم رسول الله ﷺ من (تبوك) حين فرغ، فأراد الحج ثم قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج . حتى لا يكون ذلك : فأرسل أبا بكر وعليًّا فطافا بالناس فى (ذى المجاز) وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها ، وبالمواسم كلها ، فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر ، فهى الأشهر المتواليات ،

(١) أخرجه البخارىّ فى . ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ـ سورة التوبة ، ٢ ـ باب قوله : فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، و ٣ ـ باب قوله : وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، حديث رقم ٢٤٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٣٥ (طبعتنا).

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١١ ـ كتاب المناسك ، ٦٦ ـ باب يوم الحج الأكبر ، حديث رقم ١٩٤٥و١٩٤٦ .

عشرون من ذى الحجة ، إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلهم بالقتال ، إلى أن يؤمنوا .

وروى[1] ابن إسحاق بسنده عن أبى جعفر محمد بن علىّ رضوان الله عليه قال : لما نزلت (براءة) على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ! لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال : لا يؤدّى عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . فخرج علىّ بن أبى طالب على ناقة رسول الله ﷺ (العضباء) حتى أدرك أبا بكر الصديق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية . حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ ، فقال: أيها الناس! إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة . إلا أحدٌ كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق[2] : فكان هذا من أمر (براءة) فيمن كان من أهل الشرك من أهل

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢١ (طبعة جوتنجن) ورقم ١٩٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٢ (طبعة جوتنجن) ورقم ١٩١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

العهد العامّ ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

وروى البخاريّ[١] عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذّنين ، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

قال حميد : ثم أردف النبىُّ ﷺ بعلىّ بن أبى طالب ، فأمره أن يؤذن ببراءة .

قال أبو هريرة : فأذن معنا علىّ فى أهل منى يوم النحر ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وفى رواية أخرى للبخاريّ[٢] ، قال أبو هريرة : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذّن يوم النحر بمنى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل (الأكبر) من أجل قول الناس ـ للعمرة ـ الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حجّ فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخاريّ فى (كتاب الجهاد) .

وروى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة قال : كنت مع علىّ بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ (براءة) فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله ـ أو أَمَدَهُ ـ إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله برىء من المشركين ورسولُه ، ولا يحج هذا البيتَ بعد العام مشرك . قال : فكنت أنادى حتى صَحِل صوتى (صحِل الرجلُ وصَحِل صوتُهُ : بَحّ) .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٦٧ ـ باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك ، حديث رقم ٢٤٥ . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ١٦ ـ باب كيف ينبذ إلى أهل العهد ، حديث رقم ٢٤٥ . (٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٩٦٤ (طبعة المعارف).

وقوله تعالى « فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى فإن تبتم أيها المشركون ، من كفركم ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد ، فهو خير لكم من الإقامة على الشرك رأس الضلال والفساد « وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان وأبيتم إلا الإقامة على ضلالكم وشرككم « فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ » أى غير فائتين أخذه وعقابه « وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوّتك وخالفوا أمر ربهم « بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى موجع يحل بهم . وفيه من التهكم والتهديد ما فيه ، كيلا يظن أن عذاب الدنيا ، لوفات وزال خلصوا من العذاب . بل العذابُ الشديدُ مُعَدٌّ لهم يوم القيامة .

ثم استثنى تعالى من ضرب مدة التأجيل ، لمن له عهد مطلق بأربعة أشهر ، مَن له عهد مؤقت بتأجيله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا » أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط . قال أبو السعود : وقرئ بالمعجمة ، أى لم ينقضوا عهدكم شيئاً ، من (النقض) ، وكلمة (ثم) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة « وَلَمْ يُظَاهِرُوا » أى لم يعاونوا « عَلَيْكُمْ أَحَدًا » أى عدوًّا من أعدائكم « فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ثم حرّض تعالى على الوفاء بذلك ، منبهاً على أنه من باب التقوى بقوله سبحانه « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه فى ذلك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِذَا انسَلَخَ » أى انقضى « الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ » أى التى أبيح للذين عوهدوا فيها أن يسيحوا فى الأرض وحرم فيها قتالهم « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » أى من حِلٍّ أو حَرَمٍ ـ كذا قاله غير واحد ـ قال ابن كثير : هذا عامّ ، والمشهور تخصيصه بغير الحرم ، لتحريم القتال فيه ، لقوله تعالى(١) (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) « وَخُذُوهُمْ » أى اسروهم « وَاحْصُرُوهُمْ » أى احبسوهم فى المكان الذى هم فيه ، لئلا يتبسطوا فى سائر البلاد «وَاقْعُدُوا لَهُمْ» أى لقتالهم « كُلَّ مَرْصَدٍ »أى طريق وممرّ « فَإِنْ تَابُوا » أى عن الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ » أى فاتركوا التعرض لهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر .

تنبيهات :

الأول ـ ما ذكرناه من أن المراد (بالأشهر الحرم) أشهر العهد ، هو الذى اختاره الأكثرون . سماها (حرما) لتحريم قتال المشركين فيها ودمائهم . فالألف واللام للعهد . ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة ، تأكيدا لما ينبىء عنه إباحة السياحة من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها . وقيل : المراد (بالأشهر الحرم) : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ؛ روى ذلك عن ابن عباس

(١) [٢ / البقرة / ١٩١] .

والضحاك والباقر ، واختاره ابن جرير . وضعف بأنه لا يساعده النظم الكريم ، لأنه يأباه ترتبه عليه (بالفاء) فهو مخالف للسياق الذى يقتضى توالى هذه الأشهر .

قال ابن القيم : (الحرم) هاهناهى أشهر التسيير ، أولها يوم الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الحج الأكبر ، الذى وقع فيه التأذين بذلك ، وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله[1] (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) فإن تلك واحد فرد هو رجب ، وثلاثة سرد وهى ذو القعدة وتالياه . ولم يسيّر المشركين فى هذه الأربعة ، فإن هذا لا يمكن ، لأنها غير متوالية ، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . انتهى .

وقالوا : يلزم على هذا بقاء حرمة تلك الأشهر . وتكلف الجواب بنسخها ، إما بانعقاد الإجماع عليه ، أو بما صح من أنه ﷺ حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ، مع أن فى هذا الإجماع كلاماً ، وقد خالف بعضهم فى بقاء حرمتها، إلا أنهم لم يعتدّوا به كما قاله فى (العناية). وفيها : إن لك أن تقول : منع القتال فى الأشهر الحرم فى تلك السنة ، لا يقتضى منعه فى كل ما شابهها ، بل هو مسكوت عنه ، فلا يخالف الإجماع ، ويكون حلّه معلوماً من دليل آخر .

وأقول : يظهر لى ترجيح هذا الثانى وأن المراد بالأربعة الأشهر هى المعروفة ، وأن قوله تعالى :(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) هى هذه الأربعة ، لأنها حيثما أطلقت فى التنزيل لا تنصرف إلا إليها ، فصرفها إلى غيرها يحتاج إلى برهان قاطع .

قال فى (فتح البيان) ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم . وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

النحر ، فكان الباقى من الأشهر الحرم ، التى هى الثلاثة المسرودة ، خمسين يوما ، تنقضى بانقضاء شهر المحرم ، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم . انتهى .

ولا يقال : إن الباقى من الأشهر الحرم ثمانون يوماً ، إذ الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة ، بسبب النسىء ، ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة ، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال[1] : إن الزمان قد استدار . . . . الحديث ـ لأنا نقول : كان ذو القعدة عامئذ هو ذا الحجة بحسابهم ، لا فى الواقع ، وكذلك ذو الحجة ، المحرمَ ، فعوملوا بحسابهم .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) فى قوله تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) : هذه آية السيف الناسخة لآيات العفو والصفح والإعراض والمسالمة . انتهى .

وروى عن الضحاك أنها منسوخة بقوله تعالى فى سورة محمد[2] : (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) وردّه الحاكم بأنه لا شبهة فى أن براءة نزلت بعد سورة محمد ؛ ومقتضى كلام الحاكم أنها لا ناسخة ولا منسوخة . قال : لأن الجمع ، من غير منافاة ، ممكن فحيث ورد فى القرآن ذكر الإعراض ، فالمراد به إعراض إنكار ، لا تقرير . وأما الأسر والفداء ، فالمراد به أنه خيّر بين ذلك ، لا أن القتل حتم ، إذ لو كان حتما ، لم يكن للأخذ معنى بعد القتل . انتهى .

ويشمل عمومها مشركى العرب وغيرهم ، واستدل بقوله تعالى : (وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) على جواز حصارهم والإغارة عليهم وبياتهم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ ـ باب قوله إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، حديث رقم ٥٩ عن أبى بكرة .

(٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

الثالث ـ فهو من قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا . . .) الآية أن الأمر بتخلية السبيل معلق على شروط ثلاثة : التوبة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فحيث لم تحصل جاز ماتقدم من القتل والأخذ والحصر . ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه ، فى قتال مانعى الزكاة ، على هذه الآية الكريمة وأمثالها .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يرحم الله أبا بكر ، ما كان أفقهه !

وفى الصحيحين[1] عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة:

وروى الإمام أحمد[2] عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . ورواه البخارىّ وغيره .

الرابع ـ ذكر ابن القيّم خلاصة بديعة فى سياق ترتيب هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين، من حين بعث ، إلى حين لقى الله عز وجل ، مما يؤيد فهم ما تشير إليه هذا السورة ، قال رحمه الله :

أول ما أُوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ فى نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ)[3] فنبأه بقوله[4] (اقرأ) وأرسله بـ (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم أمره أن ينذر عشيرته

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٣) [٧٤/ المدثر / ١،٢] . (٤) [٩٦/ العلق/١] .

الأقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكفّ عمن لم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام :

قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم .

وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسماً لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . فقتل الناقض لعهده ، وأجّل من لا عهد له أوله عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . فاستقرّ أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له

خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويَكِلَ سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلّى عليهم وأن يقوم على قبورهم ، وأخبره أنه إن استغفر لهم أو لم يستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم . فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين . انتهى .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» : أى وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتَ بقتالهم ، أى استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد ، فأجبْه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أى القرآن الذى تقرؤه عليه ، ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الأمر ، وتقوم عليه حجة الله به ، فإن أسلم ثبت له ما للمسلمين ، وإن أبى فإنه يردّ إلى مأمنه وداره التى يأمن فيها ، ثم قاتله إن شئت. وقوله تعالى (ذَٰلِكَ) يعنى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون، أى جهلة ، فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق ، ولا يبقى لهم معذرة .

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى ، وأنه يمكّن من العود من غير غدر به ولا خيانة . ولذا ورد فى الترهيب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزجر أشد الزجر .

فروى البخاريّ فى (تاريخه) والنسائىّ عن النبىّ ﷺ قال : من أَمَّنَ رجلاً على دمه فقتله، فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافراً .

وروى أحمد والشيخان[1] عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

قال ابن كثير : من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، فى أداء رسالة أو تجارة ، أو طلب صلح أو مهادنة ، أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى ، ما دام مترددا فى دار الإسلام ، إلى أن يرجع إلى مأمنه ووطنه .

قال الحاكم : وإنما يجار ويؤمّن إذا لم يعلم أنه يطلب الخداع والمكر ، لأنه تعالى علل لزوم الإجارة بقوله (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) .

الثانى ـ قال الحاكم : تدل الآية على أنه يجوز للكافر دخول المسجد لسماع كلام الله .

الثالث ـ استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن كلام الله بحرف وصوت قديمين ، وهم الحنابلة، ومن وافقهم كالعضد . قالوا: لأن منطوق الآية يدل على أن كلام الله يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق، والذى يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات. فدل ذلك على أن كلام الله ليس هذه الحروف والأصوات . والقول بأن كلام الله شيء مغاير لها باطل . لأن رسول الله ﷺ ما كان يشير بقوله (كلام الله) إلا لهما ، وقد اعترف الرازىّ بقوة هذا ، لإلزام من خالف فيه ، وقد مضى لنا فى قوله تعالى[2] (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً) فى آخر سورة النساء ، بسط لهذا فارجع إليه .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ ـ باب إثم الغادر للبر والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٤ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٤] .

الرابع ـ قال الرازيّ : دلت الآية على أن التقليد غير كاف فى الدين ، وأنه لا بد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً ، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن ، وإما أن نقتلك . فلما لم يُقَلْ له ذلك ، بل أمهل وأزيل الخوف عنه، ووجب تبليغه مأمنه ـ علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد فى الدين ، وأنه لا بد من الحجة والدليل ، فلذا أمهل ليحصل له النظر والا ستدلال .

ثم بيّن تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونَظِرَتَهُ إياهم أربعة أشهر، ثم بعدها السيف المرهف بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ » أى أمان « عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ » أى وهم كافرون بهما ، فالاستفهام بمعنى الإنكار ، والاستبعاد لأن يكون لهم عهد « إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » يعنى أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية على ترك الحرب معهم عشر سنين « فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ » أى فما داموا مستقيمين على عهدهم ، مراعين لحقوقكم ،فاستقيموا لهم على عهدهم « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه فى نقض عهد المستقيمين على عهدهم .

قال ابن كثير : وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ، ومالأوا حلفاءهم ، وهم بنو بكر ، على خزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، فقتلوهم معهم فى الحرم أيضاً . فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان،ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة . فأطلق من أسلم منهم ، بعد القهر والغلبة عليهم ، فسموا الطلقاء ، وكانوا

قريباً من ألفين . ومن استمر على كفره ، وفرّ من رسول الله ﷺ ، بعث إليه بالأمان والتسيير فى أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء . ومنهم صفوان بن أمية . وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله للإسلام .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » أى يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق « لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا » اى قرابة ويميناً « وَلَا ذِمَّةً » أى عهداً . وهذه الجملة مردودة على الآية الأولى ، أى كيف يكون لهم عهد ، وحالهم ما ذكر ؟ وفيه تحريض للمؤمنين على التبرؤ منهم، لأن من كان أسير الفرصة ، مترقباً لها ، لا يرجى منه دوام العهد.

قال الناصر : ولما طال الكلام باستثناء الباقين على العهد ، أعيدت (كيف) تطرية للذكر ، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض . انتهى .

ثم استأنف تعالى بيان حالهم المنافيه لثباتهم على العهد بقوله « يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ » أى ما تتفوّه به أفواههم « وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » أى متمردون ، لاعقيدة تزعهم ، ولا مروءة تردعهم. وتخصيص الأكثر ، لما فى بعض الكفرة من التفادى عن الغدر ، والتعفف عما يجرّ إلى أحدوثة السوء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩] (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ » أى استبدلوا بها « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى من متاع الدنيا . يعنى

أهويتهم الفاسدة « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ » أى فعدلوا عنه أو صرفو غيرهم « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)

« لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ » أى المجاوزون الغاية فى الظلم والمساوئ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ تَابُوا » أى عما هم عليه من الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » أى فهم إخوانكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ، فعاملوهم معاملة الإخوان . وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه .

وقوله « وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » جملة معترضة للحث على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ)

« وَإِنْ نَكَثُوا » أى نقضوا « أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ» أى فقاتلوهم . وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم ، للإيذان بأنهم صاروا

بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر ، أحقاء بالقتل والقتال . وقيل : المراد بالأئمة رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم ، أو للمنع من مراقبتهم ، لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم ، فإن قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم أفاده أبو السعود .

« إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ » جمع يمين أى لا عهود لهم على الحقيقة ، حيث لا يراعونها ولا يعدّون نقضها محذورا . فهم ، وإن تفوهوا بها ، لا عبرة بها . وقرئ (لا إيمان) بكسر الهمزة ، أى لا إسلام ولا تصديق لهم ، حتى يرتدعوا عن النقض والطعن « لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » أى عن الكفر والطعن ويرجعون إلى الإيمان .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال إن الذمّىّ يقتل إذا طعن فى الإسلام أو القرآن أو ذكر النبىّ ﷺ بسوء ، سواء شرط انتقاض العهد به أم لا . واستدل من قال بقبول توبته بقوله (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) . انتهى .

ثم حضّ على قتالهم بتهييج قلوب المؤمنين وإغرائهم بقوله سبحانه .

---

[١٣] (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » أى التى حلفوها فى المعاهدة « وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ » يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ، حسبما ذكر فى قوله تعالى[1] : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فيكون نعياً عليهم جناياتهم القديمة « وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى بالقتال يوم بدر ، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك ، استمروا على وجوههم طلبا للقتال ، بغياً وتكبراً . وقيل : بنقضهم العهد ، وقتالهم مع حلفائهم

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠]

بني بكر لخزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان . قاله ابن كثير .

وقال الزمخشريّ : أي وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المنير ، وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة ، لعجزهم عنها ، إلى القتال ، فهم البادئون بالقتال ، والبادىء أظلم . فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم « أَتَخْشَوْنَهُمْ » أي أتخافون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ» بمخالفة أمره وترك قتالهم «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» يعني أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالي بمن سواه ، كقوله تعالى[1] : (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ) ـ قاله الزمخشريّ ـ وفيه من التشديد مالا يخفى .

ثم عزم تعالى على المؤمنين الأمر بالقتال مبيناً لحكمته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٤] (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)

« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ » أي بآلام الجراحات والموت « بِأَيْدِيكُمْ » أي تغليبا لكم عليهم « وَيُخْزِهِمْ » أي بالأسر والاسترقاق ، فيجتمع في حقهم العذاب الحسيّ والمعنويّ « وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » أي : ممن لم يشهد القتال .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » أى بما كابدوا من المكاره والمكايد « وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » أى فيحصل لكم أجرهم « وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى فى أفعاله وأوامره . وقد أنجز الله سبحانه لهم هذه المواعيد كلها ، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة دالة على صدقه وصحة نبوته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا » أى على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالجهاد « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونَ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً » أى بطانة يفشون إليهم أسرارهم . والواو فى (ولما) حالية ، و (لما) للنفى مع التوقع ، والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانىّ ، إذ لو شم رائحة الوجود ، لَعَلِمَ قطعا. فلما لم يعلم لزم عدمه قطعاً. (ولَمْ يَتَّخِذُوا) عطف على(جاهدوا) داخل فى حيز الصلة. والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، والحال أنه لم يتبين الخلّص من المجاهدين منكم من غيرهم، بل لابد أن تختبروا ، حتى يظهر المخلصون منكم ، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله ، لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة ، أى بطانة من الذين يضادون رسول الله ﷺ ، والمؤمنين رضوان الله عليهم . ودلت (لما) على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن ، وإن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين . وفى الآية اكتفاء بأحد القسمين، حيث لم يتعرض للمقصرين، وذلك لأنه بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين ، وهذا كما قال[١] :

وَمَا أَدْرِى إذا يَمَّمْتُ أرضاً أُرِيدُ الخَيرَ أيُّهُمَا يَلِينِى

(١) قائله المُثَقِّب العبدىّ ، فى مفضليته السادسة والسبعين .

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى(١) : (الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) . وقال تعالى(٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ...) الآية ـ قال تعالى(٣) (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ...) الآية ـ وكلها تفيد أن مشروعية الجهاد اختبار المطيع من غيره .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ » أى ما صحّ لهم وما استقام « أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ » أى التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، أى يعمروا شيئاً منها ، فهو جمع مضاف فى سياق النفى ، ويدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أوليًا ، إذ نفىُ الجمع يدل على النفى عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد المعيّن بطريق الكناية . وقرئ (مسجد الله) بالتوحيد ، تصريحاً بالمقصود ، وهو المسجد الحرام ، أشرف المساجد فى الأرض ، الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وأسسه خليل الرحمن .

قال فى (البصائر) : (يعمر) إما من العمارة التى هى حفظ البناء ، أو من العمرة التى هى الزيارة ، أو من قولهم : عمرت بمكان كذا أى أقمت به . انتهى .

« شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ » أى بحالهم وقالهم ، وهو حال من الضمير فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣] . (٢) [٢/البقرة / ٢١٤] و [٣/ آل عمران / ١٤٢] .
(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٩] .

(يَعْمُرُوا) « أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ » وهذا كقوله تعالى(١) : (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) ولهذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)

« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ » أى لم يعبد إلا الله « فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » أى إلى الجنة . وإبراز اهتدائهم مع مابهم من الصفات السنية ، فى معرض التوقع ، لقطع أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء ، والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ، ولتوبيخهم بقطعهم أنهم مهتدون. فإن المؤمنين، مابهم من هذه الكمالات، إذا كان أمرهم دائراً بين (لعلّ وعسى)، فما بال الكفرة وهم هم ، وأعمالهم أعمالهم!! وفيه لطف للمؤمنين ، وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ، ورفض الاغترار بالله تعالى ـ كذا حرره أبو السعود ـ .

وقال الناصر : وأكثرهم يقول : إن (عسى) من الله واجبة ، بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين . والحق أن الخطاب مصروف إليهم ، كما قال الزمخشرىّ. أى فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوّة ، والعاقبة عند الله معلومة ، ولله عاقبة الأمور .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٤] .

تنبيهات :

الأول ـ قال الزمخشري : (العمارة) تتناول رمّ ما استرمّ منها وقمّها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر . ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجلّه وأعظمه . وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا ، فضلاً عن فضول الحديث .

روى البخاري[1] ومسلم عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : من غدا إلى المسجد أو راح ، أعدّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح .

ورويا[2] أيضاً عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى ، بنى الله له بيتاً في الجنة .

وأخرج الترمذي[3] عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ...) الآية .

الثاني ـ إنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لدخوله في الإيمان بالله . فترك للمبالغة في ذكر الإيمان بالرسالة ، دلالة على أنهما كشيء واحد . إذا ذكر أحدهما فهم الآخر . على أنه أشير بذكر المبدأ والمعاد إلى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، ومن جملته رسالة ﷺ كما في قوله تعالى[4] (ءَامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) . كذا في (العناية) .

(١) أخرجه البخاريّ في : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٧ ـ باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح ، حديث ٤١٧ .

أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٨٥ (طبعتنا).

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٥ ـ باب من بنى مسجداً ، حديث ٢٩٧

وأخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ٢٤ و٢٥ (طبعتنا).

(٣) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ ـ حدثنا أبو كريب.

(٤) [٢ / البقرة / ٨] .

الثالث ـ فى تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر ، تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما .

الرابع ـ دات الآيتان على أن عمل الكفار محبط لا ثواب فيه .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ،وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »روى العوفى فى (تفسيره) عن ابن عباس أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله ، وقيام على السقاية ، خير ممن آمن وجاهد . وكانوا يفخرون بالحرم ، ويستكبرون به ، من أجل أنهم أهله وعماره . فخير اللهُ الإيمانَ والجهاد مع رسوله ، على عمارة المشركين البيت ، وقيامهم على السقاية ، وبيّن أن ذلك لا ينفعهم مع الشرك ، وأنهم ظالمون بشركهم ، لا تغنى عمارتهم شيئاً .

قال اللغويون :(السقاية) بالكسر والضم موضع السقى . وفى (التهذيب):هو الموضع المتخذ فيه الشراب فى المواسم وغيرها . انتهى .

وفى (التاج) : سقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء، وكان يليها العباس رضى الله عنه فى الجاهلية والإسلام . انتهى .

وروى الإمام مسلم[١] عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبىّ ﷺ فقال رجل: ما أبالى الا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ؛ وقال الآخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم ؛ فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبىّ ﷺ وهو

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ١١١ (طبعتنا) .

يوم الجمعة . ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ...) الآية .

ورواه عبد الرزاق فى (مصنفه) ولفظه : إن رجلاً قال : ما أبالى الا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ... الحديث .

قال بعضهم : فظاهر هذه الرواية أن المفاضلة كانت بين بعض المسلمين المؤثرين للسقاية والعمارة على الهجرة والجهاد ونظائرهما ، ونزلت الآية فى ذلك ، مع أن الرواية السالفة عن ابن عباس تنافيه . وكذا تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به ، وكذا وصفهم بالظلم لأجل تسويتهم المذكورة .

وأقول : لا منافاة . وظاهر النظم الكريم فيما قاله ابن عباس لا يرتاب فيه ، وقول النعمان (فأنزل الله) بمعنى أن مثل هذا التحاور نزل فيه فيصل متقدم ، وهو هذه الآية ، لا بمعنى أنه كان سبباً لنزولها كما بيناه غير ما مرة . وهذا الاستعمال شائع بين السلف ، ومن لم يتفطن له تتناقض عنده الروايات ، ويحار فى المخرج ، فافهم ذلك وتفطن له .

وتأييد أبى السعود نزولها فى المسلمين بما أطال فيه ، ذهول عن سباق الآية وعن سياقها ، فيما صدعت فيه من شديد التهويل ، وعن لاحقها فى درجات التفضيل ، وقصر الفوز والرحمة والرضوان على المشبه به .

لطيفة :

لا يخفى أن السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلابد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين . اى أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله ... الخ ويؤيده قراءة من قرأ (سقاة الحاج وعَمَرَة المسجد الحرام) أو : أجعلتموها كإيمان من آمن ... الخ .

قال أبو البقاء : الجمهور على (سقاية) بالياء ، وصحت الياء لما كانت بعدها تاء التأنيث .

ثم بيّن تعالى مراتب فضل المؤمنين، إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ » أى من أهل السقاية والعمارة ، وهم ، وإن لم يكن لهم درجة عند الله ، جاء على زعمهم ومدعاهم . قاله فى (العناية) . « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى لا أنتم . أى المختصون بالفوز دونكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ)

« يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

ثم نهاهم تعالى عن موالاة المشركين ، وإن كانوا أقرب الأقربين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ » أى بطانة وأصدقاء ، تفشون إليهم أسراركم ، وتمدحونهم وتذبون عنهم « إِنِ اسْتَحَبُّوا » أى اختاروا « الْكُفْرَ

عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى نوصفهم الموالاة فى غير موضعها ، ولتعديهم وتجاوزهم عما أمر الله به .

ثم أشار تعالى إلى أن مقتضى الإيمان ترك الميل الطبيعىّ إذا كان مانعاً من محبة الله ، ومحبة واسطة الوصول إليه ، ومحبة مايعلى دينه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

«قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ» أى أقاربكم الأدنون ، أو قبيلتكم . قال أهل اللغة: عشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون ، أو قبيلته، كالعشير ـ بلا هاء ـ مأخوذة من (العشرة) أى المعاشرة ، لأنها من شأنهم ، أو من (العَشَرة) الذى هو العدد لكمالهم ، لأنها عدد كامل « وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا » أى اكتسبتموها « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » أى فوات وقت نفادها بفراقكم لها «وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا» أى منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين «أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ» أى المنعم بالكل « وَرَسُولِهِ » وهو واسطة نعمه « وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » أى مما يعلى دينه « فَتَرَبَّصُوا» أى انتظروا « حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ » أى بقضائه ، وهو عذاب عاجل ، أو عقاب آجل ، أو فتح مكة . وهذا أمر تهديد وتخويف . أى فارتقبوا قهر الله بدعوى محبته بالإيمان ، وتكذيبها بترجيح محبة غيره « وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين والمؤثرين لما ذكر على رضاه تعالى .

تنبيهات :

الأول ـ قال بعضهم : ثمرة الآيتين تحريم موالاة الكفار ، ولو كانوا أقرباء ، وأنها كبيرة لوصف متوليهم بالظلم ، ووجوب الجهاد ، وإيثاره على كل هذه المشتهيات المعدودة طاعة لله ورسوله .

الثاني ـ قال الرازيّ : الآية الثانية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

الثالث ـ في هذه الآية وعيد وتشديد ، لأن كل أحد قلما يخلص منها ، فلذا قيل إنها أشد آية نعت على الناس كما فصّله في (الكشاف) بقوله :

وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها . كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين . فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ، ما يستحبّ له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرّد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدري أيّ طرفيه أطول ؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيّره ؟!

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » أي في مواقف حروب كثيرة ، ووقعات شهيرة ، كغزوة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة . وكانت غزوات رسول الله ﷺ

ـ على ما ذكر في الصحيحين(١) ـ من حديث زيد بن أرقم ، تسع عشرة غزوة . زاد بريدة في حديثه : قاتل في ثمان منهن ويقال: إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون،وقيل ثمانون.

« وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ » أي فاعتمدتم عليها ، حيث قلتم : لن نغلب اليوم من قلة « فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا » أي من أمر العدوّ ، مع قلتهم « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أي برحبها وسعتها . والباء للملابسة والمصاحبة . أي ضاقت ، مع سعتها ، عليكم . وهو استعارة تبعية ، إما لعدم وجدان مكان يقرّون به آمنين مطمئنين من شدة الرعب ، أو أنهم لا يجلسون في مكان ، كما لا يُجلَس في المكان الضيق « ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ » أي منهزمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أي ماتسكنون به ، وتثبتون من رحمته ونصره ، وانهزام الكفار، واطمئنان قلوبهم للكرّ بعد الفرّ «عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ »أي الذين انهزموا. وإعادة الجارّ للتنبيه على اختلاف حاليهما . أو الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا : أو على الكل ، وهو الأنسب . ولاضير في تحقق أصل السكينة في الثابتين من قبل ، والتعرض لوصف الإيمان للإشعار بعلية الإنزال . أفاده أبو السعود . « وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا » يعني الملائكة « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي بالقتل والأسر والسبي « وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لكفرهم في الدنيا .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ١ ـ باب غزوة العُشَيْرة أو العُسَيْرة حديث رقم ١٨٣٩ .

ومسلم في : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤٣ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ » أى منهم ، لحكمة تقتضيه . أى يوفقه للإسلام « وَاللَّهُ غَفُورٌ » أى يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى « رَحِيمٌ » أى يتفضل عليهم ويثيبهم .

تنبيهات :

الأول ـ فيما نقل فى غزوة[١] (حنين) ، وتسمى غزوة (أوطاس) ، وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة (هوازن) ، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ وكانت هذه الوقعة بعد فتح مكة ، فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، فإن الفتح كان لعشر بقين من رمضان ، وبعده أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة ، وهو يقصر الصلاة ، فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له ، وهم عامدون إلى مكة ، وقد نزلوا (حنيناً) وكانوا ، حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ بالمدينة ، يظنون أنه إنما يريهم . فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بنى نصر ، وقد أوعب معه بنى نصر بن معاوية ابن بكر بن هوازن وبنى جُشَم بن معاوية وبنى سعد بن بكر ، وناساً من بنى هلال بن عامر ابن صعصعة بن معاوية والأحلاف وبنى مالك بن ثقيف بن بكر . وفى جشم دريد بن الصمة رئيسهم وكبيرهم . شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً ، وجميع أمر الناس إلى مالك بن عوف . فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ فتح مكة ، أقبلوا عامدين إليه ، فأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، يرى أنه أثبت لموقفهم . فلما نزل بأوطاس ، اجتمع إليه الناس ، فقال دريد :

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٤٠ وما بعدها (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٨٠ ومابعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

بأى وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعْمَ مجال الخيل ، لا حَزْنٌ ضِرسٌ ، ولا سهلٌ دَهْسٌ . مالى أسمع رغاءَ البعير ، ونُهَاق الحمير ، ويُعَار الشاء وبكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالك مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ليقاتلوا عنها ، فقال : راعىَ ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسلاحه . وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلك ومالك ! ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها أحدٌ منهم . قال : غاب الحدّ والجِدّ ، لو كان يوم علاءٍ ورفعةٍ لم يغب عنهم كعب ولا كلاب ، ولوددْت أنكم فعلتم ما فعلا . فمن شهدها منكم؟ قالوا : عمرو وعوف ابنا عامر . قال : ذانك الجذَعان ، لا ينفعان ولا يضران ! ثم أنكر على مالك رأيه فى ذلك وقال له : لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعليا قومهم ، ثم ألق الصبيان على متون الخيل شيئاً ، فإن كانت لك ، لحق بك من ورائك ، وإن كانت لغيرك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك . قال : لا ، والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كِبرْت ، وكبر عقلك . والله لتطيعننّى يا معشر هوازن ، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ! وكره أن يكون لدريد ابن الصمة فيها ذكر أو رأى . قالوا أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتنى . ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد . وبعث عيوناً من رجاله فأتوه ، وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ! ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً ، على خيل بُلْق : والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . فو الله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

فلما سمع بهم نبىّ الله ﷺ ، بعث عبد الله بن أبى حدرد الأسلمىّ يستعلم خبرهم ، فجاءه وأطلعه على جلية الخبر ، وأنهم قاصدون إليه ، فاستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع ـ وقيل أربعمائة ـ وخرج فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة ، وألفان من مسلمة الفتح ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية ، ومضى لوجهه ، وفى جملة من اتبعه عباس بن مرداس والضحاك بن سفيان

الكلابيّ ، وجموع من عبس وذبيان ، ومزينة ، وبني أسد . ومرّ في طريقه بشجرة سدر خضراء ، وكان لهم في الجاهلية مثلها ، يطوف بها الأعراب ويعظمونها ، ويسمونها ذات أنواط . فقالوا : (١): يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال لهم : قلتم كما قال قوم موسى (٢)(اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) والذي نفسي بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم . ثم نهض حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة ، وهو واد حزن فتوسطوه في غبش الصبح ، وقد كمنت هوازن في جانبيه، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لايلوى أحد على أحد ، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا ، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر ، والفضل وقثم ابنا العباس ، وجماعة سواهم ، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء (دلدل) والعباس آخذ بشكائمها ، وكان جهير الصوت ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينادي بالأنصار وأصحاب الشجرة ، (قيل : وبالمهاجرين) فلما سمعوا الصوت وذهبوا ليرجعوا ، صدهم ازدحام الناس عن أن يثنوا رواحلهم ، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم ، واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبي ﷺ ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة ، فاستقبلوا هوازن ، والناس متلاحقون ، واشتدت الحرب ، وحمي الوطيس . ولما غَشَوْا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل به وجوههم وقال : شاهت الوجوه ! فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ، ثم صدق المسلمون الحملة عليهم ، وقذف الله في قلوب هوازن الرعب . فلم يملكوا أنفسهم ، فولوا منهزمين ، ولحق آخر الناس ، وأسرى هوازن مغلولة بين يديه ، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم ، واستحرّ القتل في بني مالك من ثقيف ، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً ، وانحازت طوائف هوازن إلى أوطاس ، واتبعتهم طائفة من خيل

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ ما جاء : لتركبنّ سنن من كان قبلكم ، عن أبي واقد الليثيّ . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٨] .

المسلمين الذين توجهوا من (نخلة) ، فأدركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن ، أبا عامر الأشعرىّ عمّ أبى موسى ، فقاتلهم ، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة ، فأخذ أبو موسى الراية ، وشدّ على قاتل عمه ، فقتله ، وانهزم المشركون ، وانفضّت جموع أهل هوازن كلها ، واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة . ثم جُمِعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها ، فأمر بها ، فحبست (بالجعرانة) بنظر مسعود بن عمرو الغفارىّ . وسار ﷺ من فوره إلى الطائف ، فحاصرها (ثقيف) خمس عشرة ليلة ، وقاتلوا من وراء الحصون ، وأسلم من كان حولهم من الناس ، وجاءت وفودهم إليه . ثم انصرف صلى الله عليه وسلم عن الطائف، ونزل الجعرانة فيمن معه من الناس وأتاه هناك وفد هوازن ، مسلمين راغبين ، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال ، فاختاروا العيال والأبناء ، وكلموا المسلمين فى ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ﷺ : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ومن لم تطب نفسه عوّضه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نصيبه ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم . وكان عدد سبى هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وقسم صلى الله عليه وسلم الأموال بين المسلمين ، ونفل كثيرا من الطلقاء (وهم الذين منّ عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بالإطلاق يوم فتح مكة من الأسر ونحوه) يتألفهم على الإسلام ، مائة مائة من الإبل ، ومنهم مالك بن عوف النصرىّ . فقال حين أسلم[1] :

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدِى ... ومتى يشأ يخبرك عما فى غدِ
وإذا الكتيبة عرّدَتْ أنيابُها ... بالسمهرىّ وضربِ كل مهندِ
فكأنه ليث على أشباله ... وسْط الهباءة خادر فى مرْصَدِ

(١) السيرة ص ٨٧٩ (طبعة جوتنجن) وج ٤ ص ١٣٤ (طبعة الحلبى) .

الثانى ـ قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) فى فصل جوّد فيه : الإشارة إلى بعض ما تضمنته هـذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكمية ما نصه :

كان الله عز وجل قد وعد رسوله ، وهو صادق الوعد ، أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس فى دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ، ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليُظهر الله سبحانه لرسوله وعباده ، قهره لهذه الشوكة العظيمة ، التى لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين . فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة ،مع كثرة عددهم وعُددهم،وقوة شوكتهم ، ليطامِنَ رؤوساً رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه ، كما دخله رسول الله ﷺ ، واضعاً رأسه ، منحنياً على فرسه ؛ حتى إن ذقنه تكاد أن تمس سرجه ، تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته أن أحلّ له حرمه وبلده ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده،وليبين الله لمن قال : (لن نغلب اليوم عن قلة) ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه ، لا كثرتكم التى أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتم مدبرين. فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خِلَع الجبر مع بريد النصر[1](ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) وقد اقتضت حكمته أنّ خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار[2].(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ

(١) [٩ / التوبة / ٢٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥و٦] .

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) . ومنها أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم أهل مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبياً ولا أرضاً ، كما روى أبو داود[١] عن وهب بن منبه قال : سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا !

وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى مايحتاج إليه الجيش من أصحاب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشياههم ، وسبيهم معهم نزلاً وضيافة ، وكرامة لحزبه وجنده ، وتمم تقديره سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبرزت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لاحاجة لنا فى دمائكم ، ولا فى نسائكم وذراريكم . فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاءوا مسلمين ، فقيل : إن من شكران إسلامكم ، وإتيانكم ، أن ردّ عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم[٢] (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا ، يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين ، والنبي ﷺ رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جميعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٢٥ ـ باب ما جاء فى خبر مكة ، حديث ٣٠٢٣ . (٢) [٨ / الأنفال / ٧٠] .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم ، وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمه عليهم ، بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوّهم . إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى . انتهى .

الثالث ـ قال بعضهم : دلت الآية على أنه يجب الانقطاع إلى الله تعالى ، والاتكال عليه . ودل ما حكى في القصة على جواز ماورد حسنه من جواز التأليف ، وملاطفة المؤمنين والرمى بالحصا حالة الحرب ، والأصوات التي يرهب بها . انتهى .

ولابن القيم في (زاد المعاد) فصول حسنة في فقه هذه الوقعة . فلينظر .

الرابع ـ قوله : (ويوم حنين) ، قيل : منصوب بمضمر معطوف على (نصركم) أي ونصركم يوم حنين . واستظهر عطفه على محل (في مواطن) بحذف المضاف في أحدهما ، أي ومواطن يوم حنين . أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين .

قال أبو مسعود : ولعل التغيير للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر . انتهى .

قال الشهاب . فيكون عطف (يوم حنين) على منوال (ملائكته وجبريل) كأنه قيل: نصركم الله في أوقات كثيرة ، وفي وقت إعجابكم بكثرتكم . ولا يرد عليه ما قيل إن المقام لا يساعد عليه ، لأنه غير وارد ، لتفضيل بعض الوقائع على بعض . ولم يذكر المواطن توطئة ليوم حنين كالملائكة ، إذ ليس يوم حنين بأفضل من يوم بدر ، وهو فتح الفتوح ، وسيد الوقعات ، وبه نالوا القدح المعلى ، والدرجات العلى ، لأن القصد في مثله إلى أن ذلك الفرد فيه من المزية ما صيّره مغايراً لجنسه . لأن المزية ليس المراد بها الشرف ، وكثرة الثواب فقط ، حتى يتوهم هذا . بل ما يشمل كون شأنه عجيباً ، وما وقع فيه غريباً ، للظفر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، إلى غير ذلك من المزايا . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاة المشركين ، مع عدم إفادتها التقوية المحصلة للنصر ، تضر بسريان نجاسة بواطنهم إلى بواطن المؤمنين الطاهرة ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » أي المطهرة بواطنهم بالإيمان « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » أي ذوو نجس ، لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ، فهو مجاز عن خبث الباطن ، وفساد العقيدة ، مستعار لذلك . أو هو حقيقة ، لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ، ولا يجتنبون النجاسات ، فهي ملابسة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة في وصفهم بها . « فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ » أي لحج أو عمرة كما كانوا يفعلون في الجاهلية . قال المهايميّ : لأن المسجد الحرام يجتمع فيه المتفرقون في الأرض ، ليسري صفاء القلوب من بعض إلى بعض ، وهاهنا يخاف سريان الظلمات في العموم « بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا » أي بعد حج عامهم هذا ، وهو عام تسع من الهجرة ، حين أمّر أبو بكر على الموسم . وتقدم لنا أن النبيّ ﷺ أتبع أبا بكر بعليّ رضي الله عنهما ، ليناديَ في المشركين : ألا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك ، وحكم به شرعاً وقدراً « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » أي فقراً بسبب منعهم من الحرم ، لانقطاع أرفاق كانت لكم من قدومهم « فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » أي من فتح البلاد ، وحصول المغانم ، وأخذ الجزية ، وتوجه الناس من أقطار الأرض . قال ابن إسحاق : إن الناس قالوا : لتقطعنّ عنا الأسواق ، فلتهلكنّ التجارة ، وليذهبنّ ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فقال الله تعالى

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً . . .) إلى قوله (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فعوضهم الله مما قطع عنهم بأمر الشرك ، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية . انتهى . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ » أى بما يصلحكم « حَكِيمٌ » أى فيما يأمر به وينهى عنه .

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على نجاسة المشرك ، كما فى الصحيح [٢] (المؤمن لا ينجس) وأما نجاسة بدنه ، فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ، لأن الله تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب . وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم . وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ ، رواه ابن جرير ، ونقله ابن كثير .

وأقول : الاستدلال بكونه تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب غير ناهض ، لأن البحث فى المشركين وقاعدة التنزيل الكريم ، التفرقة بينهم وبين أهل الكتاب ، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه .

وقال بعض المفسرين اليمنيين : مذهب القاسم والهادي وغيرهما : أن الكافر نجس العين ، أخذاً بظاهر الآية ، لأنه الحقيقة . ويؤيد ذلك حديث [١] أبى ثعلبة الخشنى فإنه قال للنبى ﷺ إنا نأتى أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم ، فقال ﷺ : اغسلوها ثم اطبخوا فيها .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥ ـ كتاب الغسل ، ٢٤ ـ باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ، حديث رقم ٢٠٤ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٣ ـ كتاب الحيض ، حديث رقم ١١٥ م (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٤ ـ باب صيد القوس ، حديث رقم ٢١٩٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : إن المشرك ليس نجس العين ، لأنه ﷺ توضأ من مزادة مشرك ، واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها ، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبيّ ﷺ إلى الأسارى ولا تغسل ، وكان أصحاب النبيّ ﷺ يطبخون فى أوانى المشركين ولا تغسل . وأوّلوا الآية بما تقدم من الوجوه ، وكلٌّ متأولٌ ما احتج به الآخر . انتهى :

الثانى ــ قال السيوطىّ فى (الإكليل) فى قوله تعالى(١) « فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا) : إن الكافر يمنع من دخول الحرم ، وإنه لا يؤذن له فى دخوله ، لا للتجارة ولا لغيرها ، وإن كان مصلحة لنا ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق فى القرآن ، فالمراد به الحرم كله ، كما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء وغيرهم . واستدل بظاهر الآية مَن أباح دخوله الحرم سوى المسجد ، لقصره فى الآية عليه . واستدل الشافعىّ بظاهر الآية على أنهم لا يمنعون من دخول سائر المساجد ، لقوله (الْحَرَامَ). وقاس عليه غيره سائرَ المساجد . واستدل أبو حنيفة بظاهرها أيضاً على أن الكتابىّ لا يمنع من دخوله لتخصيصه بالمشرك . انتهى . وهو المتجَه .

قال الشهاب : وبالظاهر أخذ أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، إذ صرف المنع عن دخول الحرم للحج والعمرة ، بدليل قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم ، وهو ظاهر ، أى لأن موضع التجارات ليس عين المسجد . ونداء علىّ كرم الله وجهه بقوله : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، بأمر النبىّ ﷺ ، يعيّنه . فلا يقال إن منطوق الآية يخالفه . انتهى .

الثالث ــ قال الناصر : قد يستدل بقوله تعالى (فَلَا يَقْرَبُوا . . .) الآية ــ من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وخصوصاً بالمناهى ، فإن ظاهر الآية توجه النهى

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] .

إلى المشركين ، إلا أنه بعيد ، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي ، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه ، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه. ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمون ، تصديرُ الكلام بخطابهم في قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وتضمينه نصًّا بخطابهم بقوله (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) ، وكثيراً ما يتوجه النهي على مَن المراد خلافه ، وعلى ما المراد خلافه ، إذا كانت ثمّ ملازمة كقوله : لاأرينَّك هاهنا (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] . انتهى .

الرابع ـ (العيلة) مصدر من (عال) بمعنى افتقر . وقرئ (عائلة) . وهو إما مصدر بوزن فاعلة ، أو اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر ، أي حالاً عائلة ، أي مفقرة .

قال ابن جنيّ : هذه من المصادر التي جاءت على فاعلة ، كالعاقبة والعافية . ومنه قوله تعالى[2] (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً) ، أي لغواً . ومنه قولهم : مررت به خاصة ، أي خصوصاً وأما قوله تعالى[3] (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) فيجوز أن يكون مصدراً ، أي خيانة ، وأن يكون على تقدير : نية أو عقيدة خائنة . وكذا هاهنا يقدر : إن خفتم حالاً عائلة . انتهى .

الخامس ـ إن قيل : ما وجه التعليق بالمشيئة في قوله تعالى (إِنْ شَاءَ) مع أن المقام وسبب النزول ، وهو خوفهم الفقر ، يقتضي دفعه بالوعد بإغنائهم من غير تردد ؟ فالجواب : أن الشرط لم يذكر للتردد ، بل لبيان أنه بإرادته لاسبب له غيرها ، فانقطِعوا إليه ، واقطَعوا النظر عن غيره . ولينبّه على أنه متفضل به ، لا واجب عليه ، لأنه لو كان بالإيجاب لم يوكل إلى الإرادة ، فلا يقال إن هذا لا حاجة إلى أخذه من الشرط ، مع قوله تعالى (مِنْ فَضْلِهِ) لأن قوله (مِنْ فَضْلِهِ) يفيد أنه عطاء وإحسان ، وهذا يفيد أنه بغير إيجاب ، وشتان بينهما ، وقيل إنه للتنبيه على أنه بإرادته ، لا بسعي المرء وحيلته :

لَوْ كَانَ بِالْحِيَلِ الْغِنَى لَوَجَدْتَنِي   بنجوم أَقْطَارِ السَّمَاءِ تَعَلُّقِي

كذا في (العناية) .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] . (٢) [٨٨ / الغاشية / ١١] (٣) [٥ / المائدة / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » اعلم أنه لما ذكر تعالى حكم المشركين فى إظهار البراءة من عهدهم ، وفى إظهار البراءة منهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم ، وفى تبعيدهم عن المسجد الحرام ، وعدم الخوف من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ــ ذكر بعده حكم أهل الكتاب . هو أن يقاتلوا إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية ، منبهاً فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه الكلى ، مرشداً إلى سلوكه ابتغاء لفضله ، واستنجازاً لوعده .

قال مجاهد : نزلت الآية حين أمر النبىّ ﷺ بقتال الروم ، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك .

وقال الكلبىّ : نزلت فى قريظة والنضير من اليهود ، فصالحهم ، فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام ، وأول ذلّ أصاب أهل الكتاب بأيدى المسلمين . انتهى .

ولا يخفى شمول الآية لكل ذلك بلا تخصيص .

قال ابن كثير : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب ــ اليهود والنصارى ــ وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم ، فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ، ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك فى عام جدب ، ووقت قيظ وحرّ . وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام

لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعدُ إن شاء الله تعالى . انتهى .

والتعبير عن (أهل الكتاب) بالموصول المذكور ، للإيذان بعلّية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال ، فإنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، كما أمر تعالى ، إذ لديهم من فساد العقيدة ، فيما يجب له تعالى ، وفي البعث ، أعظم ضلال وزيغ ،(وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ)، يعني ما ثبت تحريمه في الكتاب والسنة . وقيل : المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه ، فالمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً ، إذ غيّروا وبدّلوا اتباعاً لأهوائهم .

قال الشهاب : فيكون المراد : لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم ، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم . وقوله تعالى (دِينَ الْحَقِّ) من إضافة الموصوف للصفة ، أو المراد بـ (الْحَقِّ) ، الله تعالى . وقوله تعالى (حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ) أي ما تقرر عليهم أن يعطوه .

قال ابن الأثير : الجزية المال الذي يعقد عليه الكتابيّ الذمة ، وهي (فِعْلَة) من الجزاء كأنها جَزَتْ عن قتله .

وقال الراغب : سميت بذلك للاجتزاء بها عن حقن دمهم (١) .

وقال الشهاب : قيل مأخذها من (الجزاء) بمعنى القضاء . يقال : جزيته بما فعل ، أي جازيته . أو أصلها الهمز من (الجزء والتجزئة) ، لأنها طائفة من المال يعطى . وقيل : إنها معرب (كزيت) وهو الجزية . بالفارسية . انتهى .

وقوله تعالى (عَنْ يَدٍ) حال من فاعل (يُعْطُوا) و (اليد) هنا إمّا بمعنى الاستسلام والانقياد ، يقال: هذه يدي لك ، أي استسلمت إليك ، وانقدت لك . وأعطى يده أي انقاد . كما يقال في خلافه : نزع يده من الطاعة . لأن من أبى وامتنع ، لم يعط يده ، بخلاف المطيع

---

(١) عبارة النهاية ولسان العرب : « كأنها جزت عن قتله » وهي أوضح من عبارة الراغب .

المنقاد ، وإما بمعنى النقد ، أى حتى يعطوها نقداً غير نسيئة ، فيكون كـ (اليد) فى قوله ﷺ [١] : لا تبيعوا الذهب والفضة . . . إلى قوله (يداً بيد) . وإما بمعنى الجارحة الحقيقية ، و (عن) بمعنى الباء ، أى لا يمشون بها عن يد أحد ، ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ . وإما بمعنى: عن طيبة نفس؛ قال أبو عبيدة: كل من انطاع لقاهر بشىء أعطاه ، من غير طيب نفس به وقهر له ، من يد فى يد ، فقد أعطاه عن يد (مجاز القرآن ج ١ ص ٢٥٦) . وإما بمعنى الجماعة ، أنشد ابن الأعرابى :

أعطى فأعطانى يداً وَدَارَا   وباحةً حوّلها عَقَارَا

(الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ واللسان ج ١٥ ص ٤٢٥ ، بيروت) .

ومنه الحديث [٢] (وهم يدٌ على من سواهم) أى هم مجتمعون على أعدائهم ، يعاون بعضهم بعضاً ـ قاله أبو عبيد ـ وإما بمعنى الذل ـ نقله ابن الأعرابىّ وحكاه وجهاً فى الآية ـ .

هذا إن أريد باليد يد المعطى . وإن أريد بها يد الآخذ ، فاليد إما بمعنى القوة ، أى عن يد قاهرة مستولية ويقولون : مالى به يد أى قوة . وإما بمعنى السلطان ، وهو كالذى قبله ، ومنه يد الريح سلطانها . قال لبيد :

* نِطافٌ أَمْرُهَا بِيَدِ الشَّمَالِ *

(اللسان ج ١٥ ص ٤٢٢ . وصدره كما جاء فى الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ :
* أَضَلَّ صِوَارَهُ وتَضَيَّفَتْهُ * وفيه : نُطُوفٌ) .

لما ملكت الريح تصريف السحاب ، جعل لها سلطان عليه . وإما بمعنى النعمة ، أى عن إنعام عليهم بذلك ، لأن قبول الجزية ، وترك أنفسهم عليهم ، نعمة عليهم .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٧٨ ـ باب بيع الفضة بالفضة و ٧٩ ـ باب بيع الدينار بالدينار نسأً ، حديث رقم ١٠٩٧ عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ٢٢ ـ كتاب المساقاة ، حديث ٧٦ (طبعتنا) وانفرد مسلم بقوله (إلا يداً بيد) . (٢) أخرجه ابن ماجه فى : ٢١ ـ كتاب الديات ، ٣١ ـ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ، حديث رقم ٢٦٨٣ (طبعتنا) عن ابن عباس .

قال الناصر فى (الانتصاف) : وهذا الوجه أملى بالفائدة .

وإما بمعنى الغنى ، حكاه فى (العناية) ، ونقله (التاج) من معانى اليد .

وقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى أذلاء .

تنبيهات :

الأول ـ قوله تعالى (عَنْ يَدٍ) إما حال من الضمير فى (يُعْطُوا) أو من الجزية أى مقرونة بالانقياد ، ومسلمة بأيديهم ، وصادرة عن غنى ، ومقرونة بالذلة ، وكائنة عن إنعام عليهم . كذا فى (العناية) .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل قبول الجزية من أهل الكتاب .

الثالث ـ قال أيضاً : استدل من قال بأن معنى اليد فيما تقدم ، الغنى ، أنها لا تجب على مُعسر . ومن قال بأنه لا يرسل بها ، على أنه لا يجوز توكيل مسلم بها ، ولا أن يضمنها عنه ، ولا أن يحيل بها عليه .

الرابع ـ قال السيوطىّ أيضاً : استدل بقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) من قال إنها تؤخذ بإهانة ، فيجلس الآخذ ، ويقوم الذمىّ ويطأطىء رأسه ، ويحنى ظهره ، ويضعها فى الميزان ، ويقبض الآخذ لحيته ، ويضرب لهزمتيه . قال : وردّ به على النووىّ حيث قال : إن هذه سيئة باطلة . انتهى .

قلت : ولقد : صدق النوىّ عليه الرحمة والرضوان ، فإنها سيئة قبيحة ، تأباها سماحة الدين ، والرفق المعلوم منه . ولولا قصد الرد على من قالها لما شوهت بنقلها ديباجة الصحيفة .

ثم رأيت ابن القيم رد ذلك بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أصحابه . قال : والصواب فى الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الله تعالى عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعىّ . انتهى .

ثم قال السيوطيّ : واستدل بالآية من قال : إن أهل الذمة يتركون فى بلد أهل الإسلام، لأن مفهومها الكف عنهم عند أدائها ، ومن الكف ألا يجلوا . ومن قال لاحدّ لأقلها ، ومن قال هى عوض حقن الدم لا أجرة الدار . انتهى .

الخامس ـ روى أبو عبيد فى كتاب (الأموال) عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب ، أهل نجران ، وكانوا نصارى .

السادس ـ قال أبو عبيد : ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب ، وعلى المجوس بالسنّة .

وقال ابن القيّم : لما نزلت آية الجزية أخذها ﷺ من ثلاث طوائف : من المجوس واليهود والنصارى ، ولم يأخذها من عباد الأصنام . فقيل : لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء ، ومن دان بدينهم اقتداء بأخذه وتركه ، وقيل : بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وهم كعبدة الأصنام من العجم ، دون العرب والأول قول الشافعيّ وأحمد (فى إحدى روايتيه) ، والثانى قول أبى حنيفة وأحمد فى الرواية الأخرى . وأصحاب القول الثانى يقولون : إنما لم يأخذها من مشركى العرب لأنها إنما نزلت فرضيتها بعد أن أسلمت دارة العرب ، ولم يبق فيها مشرك ، فإنها نزلت بعد فتح مكة ، ودخول العرب فى دين الله أفواجاً ، فلم يبق بأرض العرب مشرك ، ولهـذا غزا بعد الفتح تبوك ، وكانوا نصارى ، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلونه ، وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين . ومن تأمل السير وأيام الإسلام ، علم أن الأمر كذلك ، فلم تؤخذ منهم الجزية ، لعدم من يؤخذ عنه ، لالأنهم ليسوا من أهلها . قالوا : وقد أخذها من المجوس فليسوا بأهل كتاب . ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع ، وهو حديث لا يثبت مثله ، ولا يصح سنده . ولا فرق بين عبادة النار ، وعبادة الأصنام . بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عباد النار . وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم مالم يكن فى عباد النار ، بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل . فإذا أخذت منهم الجزية ، فأخذها من

عباد الأصنام أولى . وعلى ذلك تدل سنة رسول الله ﷺ ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم[1] أنه قال : إذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ، فأيتهن أجابوك إليها ، فاقبل منهم . وكف عنهم . ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم .

وقال المغيرة لعامل كسرى : أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبد الله أو تؤدي الجزية .

وقال رسول الله ﷺ لقريش[2] : هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب ، وتؤدي العجم إليكم بها الجزية ؟ قالوا : ماهي : قال : لا إله إلا الله .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن النبي ﷺ[3] صالح أهل نجران على ألفي حلة ، النصف في صفر ، والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح ، يغزون بها ، والمسلمون ضامنون بها ، حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيدة أو غدرة . وعلى ألا يُهدَم لهم بيعة ، ولا يخرج لهم قس ، ولا يفتنوا عن دينهم ، مالم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا .

ولما وجه[4] ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل محتلم ديناراً ، أو قيمته من ثياب . وفي هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس ، ولا القدر ، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً ، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين ، واحتمال من تؤخذ منه ، وحاله

---

(١) أخرجه مسلم في :٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٣ (طبعتنا) عن بريدة بن الحصيب .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة ص ، ١ ـ حدثنا محمود ابن غيلان .

وأخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٠٠٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه أبو داود في :١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء ، ٣٠ ـ باب في أخذ الجزية ، حديث ٣٠٤١ . (٤) أخرجه أبو داود في :٩ ـ كتاب الزكاة ، ٥ ـ باب في زكاة السائمة حديث رقم ١٥٧٦ .

فى الميسرة ، وما عنده من المال . ولم يفرق رسول الله ﷺ ولاخلفاؤه فى الجزية بين العرب والعجم . بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب ، وأخذها من مجوس[١] هَجَر . وكانت مدينة قاعدة البحرين ، وكان أهلها عرباً ، فإن العرب أمة ليس لها فى الأصل كتاب. وكانت كل طائفة تدين بدين من جاورها من الأمم ، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس وتنوخ وبهرا . وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم . وكانت قبائل من اليمن يهود ، لمجاورتهم ليهود اليمن . فأجرى رسول الله ﷺ أحكام الجزية ، ولم يعتبر آباءهم ، ولا متى دخلوا فى أهل الكتاب ، هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده ، ومن أين يعرفون ذلك ، وكيف ينضبط ، وما الذى دل عليه ؟ وقد ثبت فى السير والمغازى أن من الأنصار من تهوّد أبناؤهم بعد النسخ بشريعة عيسى ، وأراد آباؤهم إكراههم على الإسلام ، فأنزل الله تعالى[٢]: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) وفى قوله لمعاذ[٣] : خذ من كلّ حالم ديناراً ، دليل على أنها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة .

السابع ـ قال الإمام أبو يوسف رحمه الله فى كتاب (الخراج) :

وليس فى شيء من أموالهم، الرجال منهم والنساء ، زكاة ، إلا ما اختلفوا به فى تجارتهم، فإن عليهم نصف العشر ، ولا يؤخذ من مال حتى يبلغ مائتى درهم ، أو عشرين مثقالاً من الذهب ، أو قيمة ذلك من العروض للتجارة ، ولا يضرب أحدمن أهل الذمة فى استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ؛ ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية ، ولا يحل للوالى أن يدع أحداً من النصارى واليهود والمجوس والصابئين والسامرة ، إلاأخذ منهم الجزية ، ولا يرخص لأحد منهم فى ترك شيء من ذلك ، ولا يحل

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٨ ـ كتاب الجزية والموادعة ، ١ ـ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩١ و ١٤٩٢ و ١٤٩٣ . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

(٣) أخرجه أبو داود فى:٩ـ كتاب الزكاة ، ٥ـ باب فى زكاة السائمة، حديث١٥٧٦

أن يدع واحداً ويأخذ من واحد ، ولا يسع ذلك ، لأن دماءهم وأموالهم إنما أحرزت بأداء الجزية ، والجزية بمنزلة مال الخراج .

ثم قال أبو يوسف مخاطباً هارون الرشيد:

وقد ينبغي يا أمير المؤمنين ـ أيدك الله ـ أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا ، ولا يُـكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يُؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تـكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته[2] : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن سعيد بن زيد أنه مرّ على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، فقال : ماشأن هؤلاء ؟ فقيل له أقيموا فى الشمس فى الجزية ! قال : فـكره ذلك ، ودخل على أميرهم وقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من عذب الناس عذبه الله .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب مرّ بطريق الشام وهو راجع فى مسيره من الشام على قوم قد أقيموا فى الشمس ، يصبّ على رؤوسهم الزيت ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقال : عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها ! فقال عمر : فما يقولون هم وما يعتذرون به فى الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد ! قال : فدعوهم لا تـكلفوهم مالا يطيقون. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : لاتعذبوا الناس، فإن الذين يعذبون الناس فى الدنيا ، يعذبهم الله يوم القيامة، وأمر بهم فخلى سبيلهم

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والفىء والإمارة ، ٣٣ـ باب فى تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث ٣٠٥٢. (٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٨ـ باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضى الله عنه. حديث ٧٣٧

ثم قال : وحدثني عمير بن نافع عن أبي بكر قال : مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهوديّ . قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية ، والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) [1] ، والفقراء هم المسلمون ، وهـذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . قال : قال أبو بكر : أنا شهدت ذلك من عمر ، ورأيت ذلك الشيخ . انتهى .

الثامن ـ في الغرض من الجزية ورأفة المسلمين بمن أظلوهم بسيوفهم .

قال الإمام الشيخ محمد عبده مفتي مصر في كتاب (الإسلام والنصرانية) في هذا المعنى ، تحت بحث المقابلة بين الإسلام الحربيّ ، والمسيحية السلمية ، ما نصه ص ٧٤ :

الإسلام الحربيّ ، كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس ، وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها ، لتكون عوناً على صيانتهم ، والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة . خلفاء المسلمين ، كانوا يوصون قوادهم باحترام العبّاد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ؛ وكل من لم يُعِن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، لهم مالنـــا ، وعليهم مـــا علينا [2] ، ومن آذى ذميًّا فليس منا . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين

(١) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٢) لم أقف على هذا الحديث .

عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى الإسلام وضيقُ الصدر من طبع الضعيف ، فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته .

المسيحيةُ السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها ، تراقب أعمال أهله ، وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر ، مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد العجز عن إخراجهم من دينهم ، وتمميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاءً حقيقيًّا ، لا يمنع غيرَ المسيحىّ من تعدى المسيحىّ إلا كثرة العدد ، أو شدة المضد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها ، بشىء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلّبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء ، لا يمكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلّون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . انتهى .

وفى كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) فى بحث إجلاء أهل نجران ما نصه :

إن أساس الدعوة إلى الإسلام التبليغ ، وأنه لا إكراه فى الدين ، فمن قبلها كان من المسلمين ، ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم ، وأن يعطيهم جزءًا من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه ، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه ، وأن لا يُفتَنَ عن دينه ، وأن تكون له الذمة والعهد أنَّى حل ، وحيثما وجد من ممالك الإسلام ، ما دام وافيًا بعهده ، مؤديًا لجزيته ، لا يخون المسلمين ، ولا يمالئ عليهم عدوّهم . وأحسن شاهد على هذا نسوقه إليك فى هـذا الفصل ، خبر أهل نجران اليمن ، وكانوا من الكتابيين ، لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ، ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم ، مالم يخونوا أو يغدروا .

وتحرير الخبر عنهم أنه كان وَفَدَ وَفْدُهم على رسول الله ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ،

وسألوه الصلح ، وأن يقبل منهم الجزاء ، فصالحهم على شيء معلوم ، يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده ، وأن لا يفتنوا عن دينهم ، ومراتبهم فيه ، ولا يحشروا ، ولا يعشروا ، وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم ، وبعثهم وأمثلتهم . لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف ، غير ظالمين ولا مظلومين ، ولهم على ذلك جوار الله ، وذمة رسوله أبداً ، حتى يأتي أمر الله ، ما نصحوا وأصلحوا . واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ، ولا يتعاملوا به .

ولما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، أقرهم على حالهم ، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله ﷺ ، مع أنه كان يتخوفهم ، ويود إجلاءهم ، لما روى (١) أن رسول الله ﷺ قال : لا يبقين في جزيرة العرب دينان .

ولما حضرت أبا بكر الوفاة ، أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم لنقضهم العهد بإصابتهم الربا .

فانظر كيف أن النبي ﷺ كان يرى أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثة عهد بالإسلام ، قد عانى ﷺ ما عانى في جمع كلمتها ، وتوحيد وجهتها ، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها ، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام ، على حداثة عهدهم فيه ، وعدم تمكنهم بعدُ من أصوله الصحيحة . هذا من وجه ، ومن وجه آخر ، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ، ولا يخفى مافيه من الضرر على من جاورهم من أهل

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ مرسلا في : ٤٥ ـ كتاب الجامع ، الحديث رقم ١٧ و ١٨ ، ١٩ (طبعتنا) .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٧٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) عن عائشة متصلا .

اليمن ، الذين ينضب التعاملُ بالربا معينَ ثروتهم ، ويؤذن بفقرهم ، على غير شعور منهم ، لا سيما وأن الشريعة الإسلامية قد حرمته تحريماً باتاً ، ولا يؤمن من أن النجرانيين باستمرارهم على تعاطى الربا ، يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا . ومع هذه الأسباب التى تلجىء إلى إكراه النجرانيين على الإسلام ، فإن النبىّ ﷺ لم يكرههم على ذلك، لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام، لهذا تركهم على دينهم ، بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتى هى أحسن ، فأبوا ، وأعطاهم كتاب العهد المذكور ، إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ، ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت .

ولما استُخْلِفَ أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول ، مع أنه كان يرى فى وجودهم فى جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبىّ ﷺ ، فلم يسعه فى أمرهم إلا ما وسع الرسول ﷺ ، حتى إذا علم أنهم خانوا العهد ، وتعاملوا بالربا ، أمر فى حال مرضه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب ، دون أن يُفْتنوا فى دينهم .

ولما استُخْلِفَ عمر رضى الله عنه ، كان أول بعث بعثه ، بعث أبى عبيد إلى العراق ، وبعث يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، وأن يعاملهم بالرأفة ويشترى أموالهم ، ويخيرهم عن أرضهم فى أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام ، لا أن يعاملهم معاملة القوىّ الغالب ، للضعيف المغلوب ، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبعده ، حتى الآن ، فى معاملة الأمم التى تخالف مذهبها ، وتخضع لقوة سلطانها . فتفرقوا ، فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة ، وبهم سميت . ولم تقف العناية بهم فى إجلائهم ، والمحافظة على ما بيدهم من العهد ، وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد ، بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق . من ذلك أنهم شكوا مرة إلى عثمان رضى الله عنه ـ لما استخلف ـ ضيقَ أرضهم ، ومزاحمة الدهاقين لهم ، وطلبوا إليه

تخفيف جزيتهم ، فكتب إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، عامله على الكوفة ، كتاباً يوصيه بهم ، ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم، لوجه الله ، وعقبي لهم من أرضهم.

وروى البلاذري ؛ أنه لما ولي معاوية ، أو يزيد بن معاوية ، شكوا إليه تفرقهم، وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم منهم ، وأحضروه كتاب عثمان بن عفان ، بما حطهم من الحلل ، وقالوا : إنما ازددنا نقصاناً وضعفاً . فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة . فلما ولي الحجّاجُ العراق ، وخرج ابن الأشعث عليه ، اتهمهم والدهاقين بموالاته ، فردّ جزيتهم إلى ما كانت عليه . فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم ، فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم ، فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط . فلما ولي يوسف بن عمر العراق ، في خلافة الوليد بن يزيد الأموي ، ردّهم إلى ما كانوا عليه ، عصبيةً للحجاج . فلما انقضت دولة الأمويين واستخلف أبو العباس السفاح ، رفعوا إليه أمرهم ، وما كان من عمر بن عبد العزيز ويوسف بن عمر ، فردّهم إلى مائتي حلة . ولما استخلف هارون الرشيد شكوا إليه تعنت العمال معهم ، فأمر فكُتب لهم كتاب بالمائتي حلة ، وبالغ بالرفق بهم ، فأمر أن يعفوا من معاملة العمال ، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة ، كي لا يتعنتهم أحد من العمال .

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب . وقد رأيت مما مرّ مبلغ عناية عمر رضي الله عنه بهم ، لما لم ير بُدًّا من إجلائهم للأسباب التي مر ذكرها . وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام، ودخولهم فيه ، كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب ، وعامة سكان الجزيرة العربية ، طوعاً أو كرهاً . وإنما هو الشرع الإسلاميّ ، منع من إكراه غير مشركي العرب على الإسلام ، كما منع من نقض العهد، وخفر الذمة، إلا بسبب مشروع . لهذا ، لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا، وقد عاهدوا رسول الله ﷺ ألا يتعاملوا به في الجزيرة ،

ساغ لأمير المؤمنين إجلاؤهم إلى غيرها ، بعد أن عوّضهم عن المال والعقار بمثله . وما زال الخلفاء بعده ـ مبالغةً بالرفق بأهل الكتاب، وقياماً بواجب السيادة العادلة ، ووفاء بعهد الله والرسول ـ يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت .

ونتج من هذه القصة ثلاثة أمور :

الأمر الأول ـ عدم إكراه النجرانيين على الإسلام ، مع تمين الخطر من وجودهم فى جزيرة العرب ، لحداثة عهد أهلها بالإسلام . ذلك لأن عدم الإكراه من أصول الشريعة الإسلامية . والجهادُ الذى يعظم أمرَه أعداء المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة لا للإكراه ، إلا جهاد مشركى العرب يومئذ . فقد شرع لإرغامهم على الإسلام ، لأسباب حكيمة لا تخفى على بصير ، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية ، واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب ، التى كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب، من آسيا وأفريقيا وأوربا ، بل هى نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك ، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها ، يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً، وقد كان ذلك كما هو معلوم .

والأمر الثانى ـ عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود، وتأكيدهم لعهد النجرانيين ، الواحد تلو الآخر ، على ضعف هؤلاء وقلتهم ، وقوة الخلافة الإسلامية وسلطانها . وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة ، بل عن محض تمسك بالعهد ، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة ، وسلطان الإسلام ، من كل ملة ودين .

والأمر الثالث ـ حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قاعدة حماية الذمىّ فى نفسه وماله، بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم، لما قضت الضرورة بإجلائهم عن أرضهم، إلى غيرها من بلاد المسلمين: وقد ذُكر فى سيرة أبى بكر عن عمر رضى الله

عنهما، ما فعله من هذا القبيل من أهل عَرْبَسُوسَ من ثغور الروم، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ، ونكثهم عهد الأمانة والصدق ، أمر بأن يعوّضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين . وما زال الخلفاء فى أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت ، والملك القديم ، للأقوام المغلوبين للمسلمين ، الخاضعين لسلطانهم ، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم . ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم ، أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض . ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة ، فحادوا عن طريق الشرع ، فإنه قد يصيب أفرادَ المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم ، وليس فى هذا ما يقدح فى أصول الحكم الإسلامىّ الذى يأبى الظلم ، ويدعو إلى الرأفة والعدل . هذا شأن الإسلام فى المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة . وقد رأيت مما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التى ينتحلها الغالبون فى كل عصر ، إلا ما تدعو إليه الضرورة القصوى ، وتستلزمه سلامة الملك والدين ، لا ما تدعو إليه شهوات الملك ، ورغبات الأمة الغالبة . وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم، وأن لأهل الذمة مالهم ، وعليهم ماعليهم ، فبالغوا فى الرأفة بأهل جوارهم ، والداخلين فى ذمتهم من أرباب الملل الأخرى ، فتركوا لهم حرية التملك والدين ، لم ينازعوهم حقًّا من حقوق المواطنة والجوار ، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة ، وعضواً من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته فى العمل ، ومشاطرته أسباب السعادة المدنية ، والحياة الوطنية . يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى ترتيب دواوين الخراج . وترجمة علوم اليونان، وتقريب النابغين منهم فى علوم الهندسة والطب ، إليهم . واعتمادهم فى شفاء عللهم عليهم . بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيأتهم الاجتماعية ، لا يجوز فصله فى حال من الأحوال ـ أن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ،

ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ، ثم خضد المسلمون شوكة التتار فى الشام، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخُ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء فى عصره أميرَ التتار (قطلوشاه) بإطلاق الأسرى ،فسمح له بالمسلمين،وأبى أن يسمح له بأهل الذمة،فقال له شيخ الإسلام : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . فأطلقهم له ـ انتهى ـ .

ومنه يعلم شأن الحكم الإسلامىّ فى أهل الذمة ، ومبلغ عناية الخلفاء والعلماء بهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ » جملة مبتدأة ، سيقت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه ، وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين . وقرئ (عزيرٌ) بالتنوين على الأصل ، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفا . وهو مبتدأ وما بعده خبره ، ولهم أوجه أخرى فى إعرابه ، والوجه ما ذكرناه .

وليعلم أن الذى دعا الفريقين إلى مقاليهما هو الغلوّ فى التعظيم . فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم ، تكفل التنزيل الكريم بذكره مرارا ، ودحر شبهه . وأما اليهود فى (عزير) فغلاتهم أو جهلتهم يتفوهون بهذه الكلمة الشنعاء ، وأما بقيتهم فيعتبرونه فى مقام موسى ، ويحترمون دائما ذكره ، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع التوراة المبددة . ولتجديد الملة الموسوية،وإرجاعها إلى عهدها ، وإصلاح مافسد من آدابها وعوائدها ، بإلهام،

فإن نسخة التوراة الأصلية ، وبقية أسفارهم ، فقدت لما أغار أهل بابل ، جند (بخت نصّر) على بيت المقدس ، وهدموه ، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل ، وأقاموا هناك سبعين سنة ، ثم لما نبغ فيهم (عزير) واشتهر ، واستعطف أحد ملوكهم فى سراحهم ، فأطلق له الملك الإجازة ، فعاد من بابل بمن بقى من اليهود إلى بيت المقدس ، وجدد ما اندثر من الشريعة الموسوية .

قال بعض الكتابيين فى قاموس له : زعم اليهود أن أئمتهم عقدوا مجمعاً فى عهد (عزرا) ، وجمعوا الأسفار العبرانية فى قانون متعارف عندهم اليوم ، وضموا إليه مالم يكن فيه من قبل جلاء بابل .

وفى (الذخيرة) من كتبهم ما نصه : أجمع القوم على أن (عزرا) الذى كان خبيرا بآثار وطنه وقدمها ، وماهرا بمعرفة الطقوس اليهودية ، وبارعاً بالعلوم المقدسة ، هو أول من قرر هذا القانون ، وأثبت أجزاءه المختلفة ، بعد الأسر البابلىّ فى نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح، ولما تفرقت التوراة آن الجلاء ، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة ، وألف منها نسخة صححها ونقحها ما استطاع ، وبدل أسماء الأماكن التى انتسخ ثمّ استعمالها ، بأسماء أخرى أشهر فى عرفهم ، ونسق الكل نسقا محكما ، واتفق الجميع على أنه اعتاض فى كل الأسفار عن حروف الخط العبرانىّ بحروف كلدانية ، ألف استعمالها اليهود مدة أسرهم الذى استمر سبعين سنة . انتهى .

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (ابنا) . وفيه من الجراءة على المقام الربانىّ ما فيه . ولو زعموا إرادة المجاز فى ذلك ، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم ، فإنه يجب الاحتياط فى تنزيهه تعالى ، حتى بعفة اللسان، عن النطق بما يوهم نقصانًا فى جانبه ، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقاً ومن كل ماشا كله . هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من متقدميهم ، وقيل ناس من أهل المدينة فى عهد النبىّ ﷺ ولا دلالة فى الآية على واحد منهما بخصوصه ، ونسبة الشىء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل ، مما شاع .

لطيفة :

قرئ (عزيرٌ) بالتنوين على الأصل ، لأنه منصرف ، وقرئ بحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس ، لا لأنه أعجمىّ غير منصرف للعلمية والعجمة ، كما قيل ، لأن ذلك إنما يصح لو كان على لفظه الأصلىّ ، وهو (عزراء) أو (عزريا) ، لفظان عبرانيان، معنى الأول معين ، والثانى الله مساعد . أما وقد تصرفت فيه العرب بالتصغير ، فلا . وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة ، لانتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها ، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان، ما غير صيغتها الأصلية بعض التغيير . ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها ، إما منحوتة من القديمة ، أو محرفة منها ، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية ، إلا ما بقى على وضعه الأول .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين . وما فيه من معنى البعد ، للدلالة على بعد درجة المشار إليه فى الشناعة والفظاعة ـ قاله أبو السعود ـ « قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ » قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى (بِأَفْوَاهِهِمْ) ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما ـ أن يراد به أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحته ، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم ، لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثر فى القلب . وما لا معنى له ، مقول بالفم لا غير .

والثانى ـ أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم (قول أبى حنيفة) ، يريدون مذهبه ، وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم ، لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر فى القلوب . وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ، لم تبق شبهة فى انتفاء الولد . انتهى .

وثَمّتَ وجه ثالث شائع فى مثله ، وهو التأكيد لنسبة هذا القول إليهم ، مع التعجيب

من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة . قال بعضهم : القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة ، والأول أبلغ .

« يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أي يضاهئ قولهم قولَ الذين كفروا من قبلهم من الأمم ، فضلوا كما ضل أولئك . قيل : المراد بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا) مشركو مكة ، القائلون بأن الملائكة بنات الله ، وهـذا يتم إن أريد بـ (اليهود والنصارى) في الآية ، يهود المدينة ونصارى نجران في عهده ﷺ ، وهو وجه في الآية كما تقـدم ، فإنهم سُبِقوا من أهل مكة بالكفر به عليه الصلاة والسلام . وقيل : المراد بهم قدماؤهم ، يعني أن من كان في زمنه عليه الصلاة والسلام منهم، يضاهئ قولهم قول قدمائهم . والمراد عراقتهم في الكفر ، أي أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث .

قال أبو السعود : وفيه أنه لا تعدد في القول ، حتى يتأتى التشبيه ، وجعله بين قولي الفريقين ، مع اتحاد المقول ، ليس فيه مزيد مزية . وقيل : الضمير للنصارى ، أي يضاهئ قولهم (الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ) قولَ اليهود (عُزَيْرٌ ... الخ) لأنهم أقدم منهم .

قال أبو السعود : وهو أيضاً كما ترى ، فإنه يستدعي اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى (ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، بقول النصارى . انتهى .

والمضاهاة المشابهة ، يقال : ضاهيت ، وضاهأت ـ كما قاله الجوهريّ ـ وقراءة العامة (يضاهون) بهاء مضمومة بعدها واو . وقرأ عاصم بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة ، وهما بمعنى . من المضاهأة ، وهي المشابهة ، وهما لغتان . وقيل : الياء فرع عن الهمزة ، كما قالوا : قريت وتوضيت وأخطيت « قَاتَلَهُمُ اللهُ » أي لعنهم أو قتلهم، أو عاداهم أو تعجب من شناعة قولهم « أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك . والأحبار علماء اليهود جمع (حِبْر) بكسر الحاء وفتحها ، وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه ـ كذا ذكره أئمة اللغة ـ قال بعضهم : (الحبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين ، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله ، ومرتبة وراثية فى آل هارون ، يكون بكر أشيخ من فيها . انتهى .

و (الرهبان) جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد . وأصل الترهب عند النصارى ، التخلى عن أشغال الدنيا ، وترك ملاذّها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها . وفى الحديث[١] (لا رهبانية فى الإسلام) . وقوله تعالى (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) قال الرازىّ : الأكثرون

---

(١) لم أقف على هذا الحديث بهذا النص. وإنما أخرج الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) ضمن حديث طويل عن أبى سعيد الخدرىّ . . . وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام .

وبالصفحة ٢٦٦ من هذا الجزء عن أنس بن مالك « لكل نبىّ رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » .

وبالصفحة ٢٢٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) عن عائشة « يا عثمان ! إن الرهبانية لم تكتب علينا . . . » .

وجاء فى مسند الدارمىّ فى : ١١ ـ كتاب النكاح ، ٣ ـ باب النهى عن التبتل ، عن سعد بن أبى وقاص « يا عثمان ! إنى لم أومر بالرهبانية » :

من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم ، أى لما روى الترمذى[1] عن عدىّ بن حاتم قال: أتيت النبى ﷺ وفى عنق صليب من ذهب ، فقال : يا عدىّ ! اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ) قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

وروى الإمام أحمد والترمذى[2] وابن جرير[3] من طرق ، عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ رسول الله ﷺ ، على أخته ، وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ، فرغّبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدىّ المدينة ، وكان رئيساً فى قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائىّ المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدىّ صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ) قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال بلى : إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . وقال رسول الله ﷺ : يا عدىّ ! ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق .

---

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفىّ . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ سورة التوبة ، ١٠ ـ حدثنا الحسين بن مرثد الكوفىّ . (٣) تفسير الطبرىّ بالصفحة ١١٤ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال فلقد رأيت وجهه استبشر . ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية ، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدّىّ : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم .

وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً فى تفسير اتخاذهم أرباباً ، قال : بأن أطاعوهم بالسجود لهم .

قال الشهاب : والأول هو تفسير النبىّ ﷺ ، فينبغى الاقتصار عليه ، لأنه لما أتاه عدىّ ابن حاتم وهو يقرؤها قال له : إنا لم نعبدهم ، فقال : ألم تتبعوهم فى التحليل والتحريم ؟ فهذه هى العبادة ، والناس يقولون : فلان يعبد فلاناً ، إذا أفرط فى طاعته ، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة ؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة ، وهى طاعة مخصوصة على مطلقها ، والأول أبلغ . انتهى .

قال الرازىّ : قال الربيع : قلت لأبى العالية : كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل ؟ فقال : إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان ، فكانوا يأخذون بأقوالهم ، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى .

قال الرازىّ : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء ، قرأت عليهم آيات كثيرة فى كتاب الله تعالى فى بعض مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلىّ كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات ، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا . انتهى .

« وَمَا أُمِرُوا » أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابهم « إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً » أى يطيعوا أمره ، ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه ، وقوله « لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ » صفة ثانية لـ (إلهاً) ، أو استئناف مقرر للتوحيد « سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى به فى العبادة والطاعة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ »أى يخمدوا حجته الدالة على وحدانيته ، وتقدسه عن الولد ، أو القرآن ، أو نبوّة محمد ﷺ « وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ » أى بإعلاء التوحيد ، وإعزاز الإسلام « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى بدلائل التوحيد ، ذلك . قال أهل المعانى : نور الله استعارة أصلية تصريحية لحجته أو ما بعدها ، لتشبيه كل منها بالنور فى الظهور . والإطفاء ترشيح ، أو هو استعارة تمثيلية ، شبه حالهم فى محاولتهم إبطال النبوة بالتكذيب ، بحال من يطلب إطفاء نور عظيم ، منبث فى الآفاق ، يريد الله أن يزيده بنفخه .

لطائف :

الأولى ـ قال الشهاب : روعى فى كل من المشبه والمشبه به الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال بالإطفاء بالفم ، ونسب النور إلى الله . ومن شأن النور المضاف إليه أن يكون عظيماً ، فكيف يطفأ بنفخ الفم ، مع ما بين الكفر الذى هو ستر وإزالة للظهور ، والإطفاء من المناسبة .

الثانية ـ لا يخفى أن قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يُتِمَّ) استثناء مفرغ ، وهو فى محل نصب مفعول به ، والاستثناء المفرغ يكون فى الفعل المنفى لا الموجب ، إلا أن يستقيم المعنى . وهنا صح التفريغ من الموجب وهو (وَيَأْبَى اللهُ) لأنه نفى فى المعنى ، لأنـه وقع فى مقابلة (يُرِيدُونَ) وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الإرادة ، أى لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره ، فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلاً عن الإطفاء ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقال الزجاج : المستثنى منه محذوف تقديره (ويكره الله كل شيء إلا إتمام نوره) .

قال الشهاب : فالمعنى على العموم المصحح للتفريغ ، عنده ، فللناس فى توجيه التفريغ هنا مسلكان . والحاصل أنه إن أريد كل شيء يتعلق بنوره بقرينة السياق ، صح إرادة العموم ، ووقوع التفريغ فى الثابتات ، كما ذهب إليه الزجاج ، إذ ما من عامّ إلا وقد خُصِّص ، فكل عموم نسبيّ ، لكنه يكتفى به ، ويسمى عموماً . ألا ترى أن مثالهم (قرأت إلا يوم كذا) قد قدّروه كل يوم ، والمراد من أيام عمره ، لا من أيام الدهر . فإن نظر إلى الظاهر فى أمثاله كان عامًّا ، واستغنى عن النفى ، وإن نظر إلى نفس الأمر ، فهو ليس بعام ، فيؤول بالنفى ، والمعنى فيهما واحد وإنما أوّل به هنا عند من ذهب إلى تأويله ، لاقتضاء المقابلة له ، إذ ما من إثبات إلا ويمكن تأويله بالنفى ، فيلزمه جريان التفريغ فى كل شيء ، وليس كذلك ما صرح به الرضى . ولذا قيل : الاستثناء المفرغ ، وإن اختص بالنفى ، إلا أنه قد يقال مع المعنى بمعونة القرائن ، ومناسبة المقامات ، فيجرى بعض الإيجابات مجرى النفى فى صحة التفريغ معها ـ ذكره الشهاب أيضاً ـ .

الثالثة ـ قال أبو السعود : وفى إظهار (النور) فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره عز وجل ـ زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشارة بعلة الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى القرآن الذى هو هدى للمتقين « وَدِينِ الْحَقِّ » أى التوحيد الثابت الذى لا يزول « لِيُظْهِرَهُ » أى الدين الحق « عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » أى على سائر الأديان « وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » أى أن يكون ذلك .

وجواب (لو) فيهما محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وجملة (هُوَ الَّذِى) الخ بيان وتقرير لمضمون الجملة قبلها ، لأن المراد من إتمام نوره إظهاره ولكونه بحسب المآل بمعناه ، ذيله بما ذيله به بعينه ، لكنه عبر عن الكافرين بالمشركين تفادياً عن صورة التكرار ـ كذا فى العناية ـ .

وفى الصحيح[(١)] عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله زوى لى الأرض ، مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها .

وروى الإمام أحمد[(٢)] عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحىّ من محارب الصبح ، فلما صلّوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ١٩ (طبعتنا) عن ثوبان .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٤ ـ كتاب الفتن والملاحم ، ١ ـ باب ذكر الفتن ودلائلها ، حديث ٤٢٥٢ .

والإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وأخرج أيضا[١] عن تميم الدارىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزا ، ويذل ذليلا ، عزًّا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر .

وكان تميم الدارىّ يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعزّ . ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وأخرج أيضا[٢] عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام ، يعز عزيزا ، ويذل ذليلا ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم فيدينون لها .

وأخرج أيضا[٣] عن عدىّ بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدىّ ! أسلم تسلم . فقلت : إنى من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألست من الرَّكوسية[٤] ، وأنت تأكل مرباع[٥] قومك ؟ قلت : بلى ! قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يعد أن قالها ، فتواضعتُ لها . قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك عن الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها . قال : فوالذى نفسى بيده !

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٤) الركوسية بالفتح قوم لهم دين بين النصارى والصابئين . وروى عن ابن الأعرابىّ أنه قال : هذا من نعت النصارى ولا يعرب . اهـ قاموس وشرحه.

(٥) المرباع : الربع ، كالمشار بمعنى العشر ، ولم يسمع فى غيرها . وكان القوم يغزون بعضهم فى الجاهلية ، فيغنمون ، فيأخذ الرئيس ربع الغنيمة دون أصحابه خالصاً ، وذلك الربع يسمى المرباع . اهـ قاموس وشرحه.

ليتمنّ الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحـد ، ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ! كسرى ابن هرمز ، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد .

قال عديّ بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده ! لتكوننّ الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وروى [1] مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزّى ، فقلت : يا رسول الله ! إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ . . .) الآية ـ إن ذلك تامّ ! قال : إنه سيكون من ذلك ماشاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم .

قال فى (اللباب) : معنى الآية ليظهرن دين الأسلام على الأديان كلها ، وهو ألا يعبد الله إلا به . وكذا روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : هذا وعد من الله تعالى بأنه يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان ، وتمام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى . وكذلك قال الضحاك والسدّىّ : لا يبقى أحد إلا دخل فى الإسلام . وقال الشافعىّ : قـد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها ، بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق ، وما خالفه من الأديان باطل ، وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ، ودين الأميين ، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً ، وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام ، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين ، وجرى عليهم حكمه . قال : فهذا هو ظهوره على الدين كله . انتهى .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ٧٢ (طبعتنا) .

قلت : ما ذكره الشافعيّ هو من ظهوره ، والأدق ما تقدم ، من أنه سوف يعتنقه كل فرقة ، فإن ما تذهب إليه طوائف الإصلاح من الملل الأخرى لا يبعد الآن عن الإسلام إلا قليلًا .

ثم بيّن تعالى حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأراذلهم ، إثر بيان سوء حال الأتباع في اتخاذهم لهم أربابًا يطيعونهم في الأوامر والنواهي ، واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » أي بالطريق المنكر من الرّشا في الأحكام والتخفيف والمسامحة في الشرائع وغير ذلك . و (الأكل) مجاز عن الأخذ ، بعلاقة العلّية والمعلولية : لأنه الغرض الأعظم منه . وفيه من التقبيح لحالهم ، وتنفير السامعين عنه ما لا يخفى « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أي عن دين الإسلام وحكمه ، واتباع الدلائل ، إلى ما يهوون . أو عن المسلك المقرر في التوراة والإنجيل ، إلى ما افتروه وحرفوه .

ثم أشار إلى أن سبب ذلك هو إيثارهم حب المال وكنزه على أمر الله ، وتناسيهم وعيده في الكنز بقوله سبحانه « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » أي يحفظونهما حفظ المدفون في الأرض « وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي الذي هو الزكاة « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ)

« يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا » أى يوقد عليها « فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ » أى ويقال لهم ضمًّا إلى ما هم فيه ، هذا ما كنزتم « لِأَنفُسِكُمْ » أى لتتلذذوا به ، فكان سبب تعذيبها « فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » أى وباله ، وهو أله وشدته بالكيّ .

وفى هذه الآية فوائد :

الأولى : قال بعضهم فى قوله تعالى (لَيَأْكُلُونَ) دلالة على تحريم الرشا على الباطل ، وقد ورد[1] (لعن الله الراشى والمرتشى) . وكذا تحريم أخذ العوض على فعل الواجب . وفى جواز الدفع ليتوصل إلى حقه خلاف . رجح الجواز ليتوصل إلى الحق ، كالاستفداء . قال الحاكم يدخل فى تحريم الرشا الأحكام والشهادات والفتاوى وأصول الدين وفروعه ، وكل من حرّف شيئاً لغرض الدنيا . انتهى .

الثانية ـ فى الآية ـ كما قال ابن كثير ـ تحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفى الحديث الصحيح[2] (لتركبن سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ

(١) أخرجه الترمذى فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ٩ ـ باب ما جاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم .

(٢) نص الحديث فى البخارىّ فى ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، حديث ١٦٢٢ .

=

القذّة بالقـــذّة) قالوا: اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟ وفى رواية : فارس والروم ؟ قال : ومَن الناس إلا هؤلاء ؟ ثم أنشد لابن المبارك :

وهل أفسَدَ الدينَ إلا الملو كُ ، وأحبارُ سوء ورهبانُها

الثالثة ـ قوله تعالى (وَالَّذِينَ) مبتدأ ، والخبر (يَكْنِزُونَ) أو منصوب تقديره : بشر الذين يكنزون . والتعريف فى الموصول للعهد . والمعهود ، إما الأحبار والرهبان ، وإما المسلمون الكانزون ، لجرى ذكر الفريقين ، وإما ما هو أعم . والأول رُوِى عن معاوية ، والثانى عن السدّىّ ، والثالث عن ابن عباس وأبى ذرّ .

قال الزمخشرىّ : يجوز أن يكون الموصول إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل ، وكنز الأموال والضن بها عن الإنفاق فى سبيل الله . ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تغليظا ، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطى منكم طيب ماله ، سواء فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم . انتهى .

قال فى (الأنوار) : ويؤيد الثانى أنه لما نزل كبُر على المسلمين ، فذكر عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ـ رواه[1] أبو داود والحاكم وصححه ـ وقوله ﷺ ما أدى زكاته فليس بكنز ـ أخرجه الطبرانىّ والبيهقىّ ـ

= وفى مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث رقم ٦ (طبعتنا) نصه هكذا : عن أبى سعيد الخدرىّ : أن النبى ﷺ قال « لتتبعنّ سَنَن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه » ، قلنا : يارسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن »؟

أما الحديث الذى جاء فيه حذو القذة بالقذة فقد أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) ونصه عن شداد بن أوس : « ليحملنّ شرار هذه الأمة على سَنَن الذين خلوا من قبلهم ، أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة » .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٣٢ ـ باب فى حقوق المال، حديث ١٦٦٤

أى ليس بالكنز المتوعَّد عليه فى الآية ، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه. وأما قوله ﷺ : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه ، فالمراد منها : ما لم يؤد حقها ، لقوله عليه الصلاة والسلام ، فيما أورده الشيخان : البخارىّ فى تاريخه ، ومسلم[٢] فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره . انتهى .

وقد اشتهرت محاورة معاوية لأبى ذر فى هذه الآية .

روى البخارىّ[١] عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : كنت فى الشام ، فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ . . .) فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب ؛ فقلت : نزلت فينا وفيهم . فكان بينى وبينه فى ذلك كلام ، فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلىّ عثمان أن اقدم المدينة فقدمتها ، فكثر علىّ الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال : إن شئت تنحيت ، فكنت قريباً . فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أُمِّر علىّ عبد حبشىّ لسمعت وأطعت .

ولابن جرير[٣] فى رواية (بعد قول عثمان له : تنح قريباً) قلت : والله لن أدع ما كنت أقول .

وروى أبو يعلى أن أبا ذر كان يحدث ويقول : لا يبيتنّ عند أحدكم دينار ولا درهم ، إلا ما ينفقه فى سبيل الله ، أو يعدّه لغريم . فكتب معاوية إلى عثمان : إن كان لك بالشام

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ١٢ : ـ كتاب الزكاة حديث رقم ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدّى زكاته فليس بكنز ، حديث رقم ٧٤٩ . (٣) انظر تفسير الطبرىّ بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

حاجة ، فابعث إلى أبى ذرّ فكتب إليه عثمان أن اقدم علىّ ، فقدم .

قال ابن كثير : كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ فى خلافه . فنهاه معاوية فلم ينته . فخشى أن يضر بالناس فى هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم أنزله بالربذة ، وبها مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده ، هل يوافق عمله قوله ، فبعث إليه بألف دينار ، ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال : إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب . فقال : ويحك ! إنها خرجت ، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به .

وقال[1] الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش ، إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكانزين برَضْف[2] يحمى عليه فى نار جهنم ، ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ[3] كتفه ، ويوضع على نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه ، يتزلزل . قال : فوضع القوم رؤوسهم ، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً . قال : وأدبر واتبعتُه حتى جلس إلى معاوية فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً ، إنما يجمعون الدنيا ـ رواه مسلم ، وللبخارىّ نحوه ـ .

وفى الصحيح[4] أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدّى زكاته فليس بكنز ، حديث رقم ٧٥٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٣٤ (طبعتنا) .

(٢) الرضف : الحجارة المحماة على النار . واحدتها رَضْفة .

(٣) النغض : أعلى الكتف . وقيل : العظم الرقيق الذى على طرفه .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الاستقراض وأداء الديون ، ٣ ـ باب أداء الديون ، حديث رقم ٦٦٠ .

يمر عليّ ثلاثة أيام ، وعندى منه شىء ، إلا دينار أرصده لدين .

قال ابن كثير : فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا .

أى وما أخرجه الشيخان[١] أيضاً عنه ، قال : انتهيت إلى النبىّ ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة ! قال : فجئت حتى جلست ، فلم أتقارّ حتى قمت فقلت : يارسول الله ! فداك أبى وأمى ، من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، وقليل ما هم .

وروى الإمام أحمد[٢] عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه ، أنه كان مع أبى ذر ، فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضى حوائجه ، ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشترى به فلوسا . قال : قلت : لو ادخرته لحاجة بيوتك ، وللضيف ينزل بك . قال : إن خليلى عهد إلىّ أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل إفراغا .

قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة ، تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت ، وسداد العيش ، فهو كنز يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك ، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى[٣] حيث قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تَطَوّعَ . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٣ ـ باب كيف كانت يمين النبىّ ﷺ ، حديث ٧٧٥ . وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٣٠ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) يشير إلى حديث البخارىّ الذى رواه عن طلحة بن عبيد الله فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٣٤ ـ باب الزكاة من الإسلام ، حديث ٤٢ .

وبالجملة فالجمهور على أن الكنز المذموم مالم تؤدّ زكاته . وقد ترجم لذلك البخاري[١] في (صحيحه) فقال (باب ما أدّى زكاته فليس بكنز) . ويشهد له حديث أبي هريرة[٢] مرفوعا : إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك ـ حسنه الترمذي وصححه الحاكم ـ .

وعن ابن عمر : كلّ ماأديت زكاته ، وإن كان تحت سبع أرضين ، فليس بكنز وكلّ مالا تؤدي زكاته فهو كنز ، وإن كان ظاهرا على وجه الأرض ـ أورده البيهقيّ مرفوعا، ثم قال : المشهور وقفه ، كحديث جابر : إذا أديت زكاة مالك ، فقد أذهبت عنك شره . أخرجه الحاكم ، والمرجح وقفه .

هذا وذهب ابن عمر رضي الله عنهما ومن وافقه إلى أن الزكاة نسخت وعيد الكنز .

روى البخاريّ في (صحيحة)[٣] أن أعرابيا قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...) الآية ـ قال ابن عمر: من كنزها فلم يؤد زكاتها، فويل له . إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال : زاد ابن ماجة[٤]: ثم قال ابن عمر : ما كنت أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً ، أعلم عدده ، أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى . ورواه أبو داود في كتاب (الناسخ والمنسوخ) . فهذا يشعر بأن الوعيد على الاكتناز ـ وهو حبس مافضل عن الحاجة عن المواساة به ـ كان في أول الإسلام، ثم نسخ ذلك بفرض الزكاة ، لما فتح الله الفتوح ، وقدّرت نصب الزكاة . ويشعر أيضاً

---

(١) أخرجه في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز .

(٢) أخرجه الترمذيّ في : ٥ ـ كتاب الزكاة ، ٢ ـ باب ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك . (٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز ، حديث ٧٤٧ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٨ ـ كتاب الزكاة ، ٣ ـ باب ما أدى زكاته فليس بكنز ، حديث ١٧٨٧ (طبعتنا) .

بأن فرض الزكاة كان فى السنة التاسعة من الهجرة ، وجزم به ابن الأثير فى (تاريخه) : وقواه بعضهم بما وقع فى قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ، ففيها لما أنزلت آية الصدقة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عاملا فقال : ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية . والجزية إنما وجبت فى التاسعة .

وأقول : هذا الحديث ضعفوه . والأقوى منه كون هذه السورة التى فيها هذه الآية نزلت فى السنة التاسعة كما قدمنا . فإذا نسخت بالزكاة كانت الزكاة فى تلك السنة أو بعدها قطعاً .

قال ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن ذلك كان فى أول الأمر كما تقدم عن ابن عمر . واستدل له ابن بطال بقوله تعالى [1] (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) أى ما فضل عن الكفاية ، فكان ذلك واجبا فى أول الأمر ، ثم نسخ ـ والله أعلم ـ .

وفى المسند[2] من طريق يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال : كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة . ثم يخرج إلى قومه ، ثم يرخص فيه النبىّ ﷺ فلا يسمع الرخصة ، ويتعلق بالأمر الأول .

وما سقناه من مذهب أبى ذر ، هو ما ساقه المفسرون وشراح الحديث . وزعم بعضهم أن الذى حدا أبا ذر لذلك ما رآه من استئثار معاوية بالفىء حيث قال : الذى صح أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم كانوا يعتبرون الفىء لكافة المسلمين ، يستوى فيه المقاتلون وغيرهم ، ولعله باعتبار أن القتال فريضة على كل المسلمين ، فكلهم داخل تحت ذلك الحكم . قال : والذى يؤيد أنه لكافة المسلمين ، أن أبا ذر رضى الله عنه لما كان بالشام ، والوالى عليها ، من

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

قِبَل الخليفة عثمان ، معاوية رضي الله عنهما ، ورأى من معاوية ما يشعر بحرصه على ادخار المال في بيت المال ، لصرفه في وجوه المصالح التي يراها للمسلمين ، وكان أبو ذر مشهوراً بالورع شديد الحرص على حقوق المسلمين ، يقول الحق ولو على نفسه ـ أخذ يتكلم بهذا الأمر بين الناس واتخذ له حزباً من أهل الشام يساعده على مطالبة معاوية برد المال للمسلمين ، وبيان عدم الرضا بكنزه في بيت المال، لأي حال من الأحوال، إلا لتوزيعه على كافة المسلمين لاشتراكهم بما أفاء الله عليهم أجمعين وتابعه على قوله جماعة كثيرون ، كانوا يجتمعون لهذا القصد سرّاً وجهرا ، حتى كادت تكون فتنة ، فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان رضي الله عنهم أجمعين فنفاه إلى الربذة خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه . انتهى .

ونقل ما يقرب منه ابن حجر في (الفتح) حيث قال : والصحيح أن إنكار أبي ذر كان على السلاطين الذين يأخذون المال لأنفسهم ولا ينفقونه في وجهه .

الرابعة ـ إنما قيل (وَلَا يُنْفِقُونَهَا) بضمير المؤنث، مع أن الظاهر التثنية، إذ المذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة ، وذلك لأن الكثير منهما هو الذي يكون كنزاً ، فأتى بضمير الجمع للدلالة على الكثرة ، ولو ثنّى احتمل خلافه . وقيل : الضمير عائد على الكنوز أو الأموال المفهومة من الكلام ، فيكون الحكم عاماً ، ولذا عـدل فيه عن الظاهر . وتخصيصهما بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب في الأموال للتخصيص . وقيل : الضمير للفضة، واكتفى بها ، لأنها أكثر ، والناس إليها أحوج ، ولأن الذهب يعلم منها بالطريق الأولى ، مع قربها لفظاً .

الخامسة ـ في قوله تعالى (فَبَشِّرْهُمْ) تهكم بهم ، كما في قوله (1) :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ *

(1) من شواهد الكتاب (ج ١ ص ٣٦٥) وصدره * وخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بخَيْلٍ * قال الشنتمريّ : البيت لعمرو بن معدى كرب . والشاهد فيه جعل الضرب تحيةً ، على الاتساع . يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا ، بدلا من تحية بعضهم لبعض ، الضربَ الوجيعَ. ومعنى (دلفت) زحفت .

وقيل : البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة ، لتأثيره فى القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغم .

السادسة ـ قيل فى تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالكىّ دون غيرها : بأن جمع ذويها وإمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية ، والملابس البهية ، فلوجاهتهم ورئاستهم المعروفة بوجوههم ، كان الكىّ بجباههم . ولامتلاء جنوبهم بالطعام كووا عليها . ولما لبسوه على ظهورهم كويت وقيل: لأنهم إذا سألهم فقير تبدو منهم آثار الكراهة والمنع، فتكلح وجوههم ، وتقطب . ثم إذا كرر الطلب ازورّوا عنه وتركوه جانباً ، ثم إذا ألحّ ولّوه ظهورهم واستقبلوا جهة أخرى، وهى النهاية فى الرد ، والغاية فى المنع، الدال على كراهية الإعطاء والبذل . وهذا دأب مانعى البر والإحسان ، وعادة البخلاء ، فكان ذلك سبباً لكىّ هذه الأعضاء . وقيل : لأن هذه الأعضاء أشرف الأعضاء الظاهرة ، إذ هى المشتملة على الأعضاء الرئيسية التى هى الدماغ والقلب والكبد . أو لأنها أصول الجهات الأربع التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه ، فيكون كناية عن جميع البدن .

وقال القاشانىّ : جمع المال وكنزه مع عدم الإنفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح ، وحب المال. وكل رذيلة لها كيّة يعذب بها صاحبها فى الآخرة ويخزى بها فى الدنيا . ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هى ذلك المال ، كان هو الذى يحمى عليه فى نار جحيم الطبيعة ، وهاوية الهوى ، فيكوى به . وإنما خصت هذه الأعضاء ، لأن الشحّ مركوز فى النفس ، والنفس تغلب القلب من هذه الجهات ، لا من جهة العلوّ التى هى جهة استيلاء الروح وممرّ الحقائق والأنوار ، ولا من جهة السفل التى هى من جهة الطبيعة الجسمانية ، لعدم تمكن الطبيعة من ذلك ، فبقيت سائر الجهات ، فيؤذى بها من الجهات الأربع ويعذب ، كما تراه يعاب بها فى الدنيا ، ويخزى من هذه الجهات أيضاً ، إما بأن يواجه بها جهراً فيفتضح ، أو يسارّ بها فى جنبه ، أو يغتاب بها من وراء ظهره ـ انتهى ـ .

السابعة ـ قال أبو البقاء (يَوْمَ) من قوله تعالى (يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا) ظرف على المعنى . أى يعذبهم فى ذلك اليوم . وقيل : تقديره عذاب يوم ، وعذاب بدل من الأول ، فلما حذف المضاف أقام (اليوم) مقامه . وقيل : التقدير اذكروا ؛ و (عليها) فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . وقيل : القائم مقام الفاعل مضمر ، أى يحمى الوقود أو الجمر ، و (بها) أى بالكنوز . وقيل : هى بمعنى (فيها) أى فى جهنم وقيل : (يوم) ظرف لمحذوف تقديره : يوم يحمى عليها يقال لهم هذا ما كنزتم اهـ .

ولما بيّن تعالى فيما تقدم إقدام الأحبار والرهبان على تغيير أحكام الله تعالى إيثاراً لحظوظهم ، أتبعه بما جرأ عليه المشركون فى نظيره من تغيير الأشهر التى حرمها الله تعالى بغيرها . وهو النسىء الآتى ، وقوفاً مع شهواتهم أيضاً ، فنعى عليهم سعيهم فى تغيير حكم السنة بحسب أهوائهم وآرائهم مما أوجب زيادة كفرهم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » أى عددها « عِندَ اللَّهِ » أى فى حكمه « اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » وهى القمرية التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية « فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى اللوح المحفوظ ، أو فيما أثبته وأوجبه من حكمه . وقوله : « يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار . أراد بـ (الكتاب) على أنه مصدر ، والمعنى : أن هذا أمر ثابت فى نفس الأمر ، منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة . أفاده أبو السعود

« مِنْهَا » أى من تلك الشهور الاثنى عشر « أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ثلاثة سَرْدٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب « ذَٰلِكَ » أى تحريم الأشهر الأربعة المذكورة « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى المستقيم « فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ » أى بهتك حرمتها بالقتال فيها. وقال ابن إسحق : أى لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كما فعل أهل الشرك « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » أى جميعا « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى بالنصر والإمداد .

ثم بيّن تعالى ثمرة هذه المقدمة ، وهو تحريم تغيير ما عيّن تحريمه من الأشهر الحرم ، وإيجاب الحذو بها على ما سبق فى كتابه ، ناعياً على المشركين كفرهم ، بإهمالهم ذلك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« إِنَّمَا النَّسِيءُ » أى تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر . مصدر (نسأه) إذا أخره « زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ » لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما حلله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالله عن أحكامه إذ يجمعون بين الحلّ والحرمة فى شهر واحد « يُحِلُّونَهُ عَامًا » أى : يحلون النسيء من الأشهر الحرم سنة ، ويحرمون مكانه شهراً آخر « وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا » أى يتركونه على حرمته القديمة ، ويحافظون عليها سنة أخرى ، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ، والتعبير عن ذلك بالتحريم ، باعتبار إحلالهم له فى العام الماضى ، والجملتان تفسير للضلال ، أو حال .

قال الزمخشريّ : النسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام ، وهم محاربون ، شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه

ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من أشق شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله تعالى « لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أى ليوافقوا العدة التى هى الأربعـة ، ولا يخالفوها ، وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين ، وربما زادوا فى عدد الشهور ، فيجعلونها ثلاثة عشر ، أو أربعة عشر ، ليتسع لهم الوقت . ولذلك قال عز وعلا (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) يعنى من غير زيادة زادوها « فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » بتركهم التخصيص للأشهر بعينها « زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » فاعتقدوا قبيحها حسناً « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

اعلم أن فى هاتين الآيتين مسائل :

الأولى ـ أن الأحكام تعلق بالأشهر العربية ، وهى شهور الأهلة ، دون الشهور الشمسية. قيل : جعلُ أول الشهور الهلالية المحرم ، حَدَثَ فى عهد عمر رضى الله عنه ، وكان قبل ذلك يؤرخ بعام الفيل . ثم أرخ فى صدر الإسـلام بربيع الأول . وقد نقل ابن كثير هنا عن السخاوىّ وجوه تسمية الأشهر بمـا سميت به ، ونحن نورد ذلك مأثورا عن أمهات اللغة المعول عليها فنقول :

١ ـ المحرم : على زنة اسم المفعول ، هو أول الشهور العربية . أدخلوا عليه الألف واللام لمحًا للصفة فى الأصل، وجعلوها علما بهما ، مثل النجم والدبران ونحوهما، ولا يجوز دخولهما على غيره من الشهور عند قوم ، وعند قوم يجوز على صفر وشوال . وجمعُ المحرم محرمات . والمحرم شهر الله ، سمته العرب بهذا الاسم ، لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال ، وأضيف إلى الله تعالى إعظاماً له ، كما قيل للـكعبة (بيت الله) . وقيل : سمى بذلك ، لأنه من الأشهر الحرم . قال ابن سيده : وهذا ليس بقوىّ .

٢ ـ صفر : الشهر الذى بعد المحرم . قال بعضهم : إنما سمى لأنهم كانوا يمتارون الطعام فيه من المواضع . وقيل : لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا . وروى عن رؤبة أنه قال : سموا الشهر (صفراً) ، لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل ، فيتركون من لقوا صِفْرًا من المتاع ،

وذلك أن صفرا بعد المحرم ، فقالوا : صفر الناس منا صفراً . قال ثعلب : الناس كلهم يصرفون صفرا إلا أبا عبيدة ، فمنعه للعلمية والتأنيث ، بإرادة الساعة ، يعني أن الأزمنة كلها ساعات ، وإذا جمعوه مع المحرم قالوا : (صفران) ، ومنه قول أبي ذؤيب :

أَقَامَتْ بِهِ كَمُقَامِ الحَنِيـ ـفِ شَهْرَيْ جُمَادَى وَشَهْرَيْ صَفَرْ

(استشهد به في اللسان في مادة (ص ف ر) وليس في ديوان الهذليين) .

قال ابن دريد : الصفران من السنة شهران ، سمي أحدهما في الإسلام المحرم ؛ وجمعه أصفار ، مثل سبب وأسباب ، وربما قيل (صفرات) .

٣و٤ ـ الربيع شهران بعد صفر ، سميا بذلك لأنهما حُدًّا في هذا الزمن ، فلزمهما في غيره قالوا : لا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، بزيادة (شهر) وتنوين (ربيع) ، وجعل (الأول) و(الآخر) وصفاً تابعاً في الإعراب ، ويجوز فيه الإضافة ، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند بعضهم ، لاختلاف اللفظين ، نحو حبَّ الحصيد[١] ، وَلَدَارُ الآخرة[٢] ، وحق اليقين[٣] ، ومسجد الجامع[٤] . قال بعضهم : إنما التزمت العرب لفظ (شهر) قبل (ربيع) لأن لفظ (ربيع) مشترك بين الشهر والفصل ، فالتزموا لفظ شهر (في الشهر) وحذفوه في (الفصل) للفصل .

قال الأزهريّ أيضا : والعرب تذكر الشهور كلها مجردة من لفظ (شهر) إلا شهري ربيع ورمضان . ويثنّى الشهر ويجمع ، فيقال شهرا ربيع ، وأشهر ربيع ، وشهور ربيع .

٥و٦ ـ جمادى الأولى والآخرة (كحُبارى) الشهران التاليان لشهري ربيع . وجمادى

(١) [٤٠ / قٓ / ٩] . (٢) [١٢/ يوسف/ ١٠٩] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٩٥] و [٦٩ / الحاقة / ٥١] .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) ونصه : هشام عن محمد قال : دخلت مسجد الجامع ... الخ .

معرفة مؤنثة . قال ابن الأنباريّ : أسماء الشهور كلها مذكرة ، إلا جماديين ، فهما مؤنثان . تقول مضت جمادى بما فيها ؛ قال الشاعر[1] :

إذا جُمَادى مَنَعَتْ قَطْرَها زان جِنَانى عَطَنٌ مُغْضِفُ

ثم قال : فإن جاء تذكير جمادى فى شعر ، فهو ذهاب إلى معنى الشهر . كما قالوا : هذه ألف درهم ، على معنى هذه الدراهم . والجمع على لفظها جماديات ، والأولى والآخرة صفة لها . فالآخرة بمعنى المتأخرة . قالوا : ولا يقال جمادى الأخرى ، لأن الأخرى بمعنى الواحدة فتتناول المتقدمة والمتأخرة ، فيحصل اللبس . فقيل الآخرة لتختص بالمتأخرة . وإنما سميت بذلك لجمود الماء فيها ، عند تسمية الشهور ، من البرد . قال[2] :

فى ليلةٍ من جُمادَى ذاتِ أنديةٍ لا يُبْصِرُ الكلب من ظلمائها الطُّنُبَا

لا ينبح الكلبُ فيها غير واحدة حتى يَلُفَّ على خُرْطُومِهِ الذَّنبَا

٧ ـ رجب : سمى به لتعظيمهم إياه فى الجاهلية عن القتال فيه . يقال: رَجَبَ فلانا ، هابه وعظمه . كرجّبه . منصرف وله جموع: أرجاب وأرجبة وأرجُب ورجاب ورجوب وأراجب وأراجيب ورجبانات . وإذا ضموا له شعبان قالوا (رجبان) للتغليب . وفى الحديث[3] : رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . وقوله (بين جمادى وشعبان) تأكيد للشأن وإيضاح؛ لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر ، فيتحول عن موضعه الذى يختصّ به ، فبيّن لهم أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان ، لا ما كانوا يسمونه على حساب النسىء ، وإنما قيل: رجب

---

(١) استشهد به فى اللسان فى مادة (ج م د) قال : أراد بـ (العطن) هنا نخيله الراسخة فى الماء ، الكثيرة الحمل، وعطن مغضف: إذا كثر نَعَمُهُ. (٢) قائلهما مرّة بن محكان، الحماسة رقم ٦٧٥ . (٣) أخرجه البخاريّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة، ٨ ـ باب قوله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، الحديث رقم ٥٩ عن أبى بكرة .

مضر وأضافَهُ إليهم ، لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكأنهم اختصوا به ، وذكر له بعضهم سبعة عشر اسماً .

٨ ـ شعبان : جمعه شعبانات وشعابين . من (تشعب) إذا تفرق كانوا يتشعبون فيـه في طلب المياه . وقيل فى الغارات . وقال ثعلب : قال بعضهم : إنما سمى شعبان لأنه شعب أى ظهر بين شهر رمضان ورجب .

٩ ـ رمضان : سمى به لأن وضعه وافق الرَّمَض (بفتحتين) ، وهو شدة الحر ، وجمعه رمضانات وأرمضاء . وعن يونس أنه سمع رماضين ، مثل شعابين . وقيل : هو مشتق من (رمض الصائم يرمض) إذا اشتد حرّ جوفه من شدة العطش، وهو قول الفراء . قال بعض العلماء : يكره أن يقال جاء رمضان وشبهه ، إذا أريد به الشهر ، وليس معه قرينة تدلّ عليه. وإنما يقال : جاء شهر رمضان ، واستدل بحديث (لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، ولـكن قولوا شهر رمضان) وهذا الحديث ضعّفه البيهقىّ ، وضعفه ظاهر، لأنه لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء الله تعالى ، فلا يعمل به . والظاهر جوازه من غير كراهة ، كما ذهب إليه البخارىّ وجماعة من المحققين ، لأنه لم يصح فى الـكراهة شىء . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة ما يدل على الجواز مطلقاً ، كقوله[1] : إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلِّقت أبواب النار وصفِّدت الشياطين .

وحقق السهيلىّ أن لحذف (شهر) مقاماً يباين مقام ذكره ، يراعيه البليغ .

وحاصله أن فى حذفه إشعاراً بالعموم ، وفى ذكره خلاف ذلك ، لأنك إذا قلت شهر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٥ ـ باب هل يقال : رمضان أو شهر رمضان ، حديث ٩٦٤ .

ومسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث رقم ١ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

وفى البخارىّ : وسلسلت الشياطين ، وفى مسلم : صفِّدت .

كذا ، كان ظرفاً وزال العموم من اللفظ ، إذ المعنى فى الشهر ، ولذلك قال ﷺ[١] (من صام رمضان) ولم يقل (شهر رمضان) ليكون العمل فيه كله . انتهى . فليتأمل

١٠ ـ شوال : شهر عيد الفطر ، وأول أشهر الحج ، وجمعه شوالات وشواويل ، وقد تدخله الألف واللام . قال ابن فارس : وزعم نـاس أن الشوال سمى بذلك لأنه وافق وقتاً تشول فيه الإبل ، أى ترفع ذنبها للقاح ، وهو قول الفراء . وقال غيره : سمى بتشويل ألبان الإبل ، وهو تولّيه وإدباره، وكذلك حال الإبل فى اشتداد الحر ، وانقطاع الرطب وكانت العرب تتطيّر من عقد المناكح فيه وتقول : إن المنكوحة تمتنع من ناكحها، حتى تمتنع طروقة الجمل إذا لقحت وشالت بذنبها . فأبطل النبي ﷺ طيرتهم . وقالت عائشة رضى الله عنها[٢] : تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ، وبنى بى فى شوال ، وأىّ نسائه كان أحظى عنده منى؟

١١ ـ ذو القعدة : بفتح القاف ، والكسر لغة ، سمى به لأن العرب كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلأ ، ويحجون فى ذى الحجة : والجمع ذوات القعدة، وذوات القعدات ، والتثنية ذواتا القعدة وذواتا القعدتين، فثنوا الاسمين وجموعها، وهو عزيز، لأن الكلمتين بمنزلة كلمة واحدة ، ولا تتوالى على كلمة علامتا تثنية ولا جمع .

١٢ ـ ذو الحجة : الشهر الذى يقع فيه الحج سمى بذلك للحج فيه ، والجمع ذوات الحجة، ولم يقولوا(ذوو) على واحده ، والفتح فيه أشهر من الكسر ، و(الحجة) بالكسر المرأة الواحدة من الحج ، وهو شاذّ لأن القياس فى المرة الفتح ـ انتهى ـ .

وقد أوردنا هذا ملخصاً عن (المصباح) و (القاموس) و (شرحه) .

المسألة الثانية ـ قدمنا أن الأشهر الحرم الأربعة ، ثلاثة سَرْدٌ أى متتابعة ، وواحد فرد

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٦ ـ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية ، حديث رقم ٣٣ عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا) .

وكانت العرب لا تستحل فيها القتال ، إلّا حيّان : خثعم وطيّئ ، فإنهما كانا يستحلان الشهور . وكان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال فى هذه الشهور إلا دماء المحلين ، فكانت العرب تستحل دماءهم خاصة فى هذه الشهور . وكان لقوم من غطفان وقيس ، يقال لهم الهباآت ، ثمانية أشهر حرم، يقال لها (البَسْل)يحرمونها تشدداً وتعمقاً .

الثالثة : قال ابن كثير : إنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء المناسك ـ الحج والعمرة ـ فحرم ، قبل أشهر الحج ، شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال . وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك . وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين . وحرم رجب فى وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

الرابعة ـ قال النووىّ فى (شرح مسلم) : وقد اختلفوا فى كيفية عدتها على قولين حكاهما الإمام أبو جعفر النحاس فى كتابه (صناعة الكاتب) قال : ذهب الكوفيون إلى أنه يقال : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال: والكتاب يميلون إلى هذا القول ليأتوا بهن من سنة واحدة . قال : وأهل المدينة يقولون : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وقوم ينكرون هذا ويقولون : جاؤوا بهن من سنتين . قال أبو جعفر : وهذا غلط بيّن ، وجهل باللغة ، لأنه قد علم المراد ، وأن المقصود ذكرها ، وأنها فى كل سنة ، فكيف يتوهم أنها من سنتين ؟ قال : والأولى والاختيار ما قاله أهل المدينة ، لأن الأخبار قدتظاهرت عن رسول الله ﷺ كما قالوا ، من رواية ابن عمر وأبى هريرة وأبى بكرة رضى الله عنهم ، قال : وهذا أيضاً قول أكثر أهل التأويل .

الخامسة ـ استنبط بعضهم من قوله تعالى : (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ) أن الإثم

فى هذه الأشهر المحرمة آكد وأبلغ فى الإثم فى غيرها ، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف ، لقوله تعالى[1] : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عباس فيما رواه عنه علىّ ابن أبى طلحة : أنه تعالى اختص من الأشهر أربعة أشهر جعلهن حراماً ، وعظم حرماتهن ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم .

وقال قتادة : إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ، ولكن الله يعظّم من أمره ما يشاء . وقال : إن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر . فعظّموا ما عظّم الله ، فإنما تعظيم الأمور بما عظم الله به عند أهل الفهم ، وأهل العقل ـ نقله ابن كثير ـ ثم ذكر أن ابن جرير اختار فى قوله تعالى (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) ما قاله ابن إسحاق فيما تقدم .

أقول : وهو الظاهر المتبادر .

السادسة ـ قال المهايمىّ : إنما كان منها أربعة حرم ليكون ثلث السنة تغليباً للتحليل الذى هو مقتضى سعة الرحمة ، على التحريم الذى هو مقتضى الغضب فجعل أول السنة وآخرها وهو المحرم وذو الحجة . ولما لم يكن له وسط صحيح ، أخذ أول النصف الآخر وهو رجب ، فبقى من الثلث شهر ، فأخذ قبل الآخر وهو ذو القعدة ، ليكون مع آخر السنة المتصلة بأولها وتراً ، وبقى وترية رجب فتم السنة على التحريم باعتبار أولها وآخرها ، وأوسطها ، مع تذكر وترية الحق المؤكد للتحريم . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

السابعة ـ استدل جماعة بقوله تعالى[1] (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ) على أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ . وكذا بقوله تعالى[2] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) وبقوله تعالى[3] (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ..) الآية ـ وذهب آخرون إلى أن تحريم القتال فيها، منسوخ بآية السيف، يعنى قوله تعالى[4]: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) قالوا: ظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عامًّا ولو كان محرماً فى الشهر الحرام ، لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، وبأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام، وهو ذو القعدة ، كما ثبت فى الصحيحين[5] أنه خرج إلى هوازن فى شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلّهم ، لجؤوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوما ، وانصرف ولم يفتتحها ، فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام .

وأجاب الأولون بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم ، كما فى قوله تعالى[6] : (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ...) الآية ـ فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم، كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم، للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه. فقوله تعالى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ...) الآية ـ من باب التهييج والتحضيض ، أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا كذلك لهم. أو هو إذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام ، إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى[7]: (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) وقال تعالى[8] : (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] . (٣) [٩ / التوبة / ٥].

(٤) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٥) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف فى شوال سنة ثمان ، حديث رقم ١٩٢٨ عن عبد الله بن عمر . وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٢ (طبعتنا) .

(٦) [٩ / التوبة / ٥] . (٧) [٢ / البقرة / ١٩٤] (٨) [٢ / البقرة / ١٩١] .

الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ...) الآية ـ وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف ، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال ، وجمعوا الرجال ، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم . فلما تحصّنوا بالطائف، ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما ، ثم قفل عنهم ، لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر ، وله نظائر كثيرة . فالمحرم هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرام ، لا إتمامه ، وبهذا يحصل الجمع ، ولذا قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح ؛ ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ، ولا فى الأشهر الحرم ، وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها .

الثامنة ـ قال فى (الإكليل) فى قوله تعالى (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ...) الآية ـ إن الله وضع هذه الأشهر وسماها ورتبها على ماهى عليه ، وأنزل ذلك على أنبيائه ، فيستدل به لمن قال : إن اللغات توقيفية .

التاسعة ـ فى (الإكليل) أيضا : استدل بقوله تعالى (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) من قال إن الجهاد فى عهده ﷺ كان فرض عين .

العاشرة ـ قال ابن إسحاق(١) : كان أول من نسأ الشهور على العرب ، فأحل منها ما حرم الله ، وحرم منها ما أحل الله عزجل (القَلَمَّس) وهو حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدىّ بن عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ثم قام بعده على ذلك ابنه عبّاد، ثم ابنه قَلَع، ثم أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثُمامة جُنادة بن

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٣٠ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٤٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

عوف ، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب ، إذا فرغت من حجها ، اجتمعت إليه ، فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً ، وذا القعدة ، وذا الحجة . ويحل (المحرم) عاما ، ويجعل مكانه (صفر) ويحرمه عاماً ليواطئ عدة ما حرم الله ، فيحل ما حرم الله ، يعني ويحرم ما أحل الله . انتهى

و (القَلَمَّس) بقاف فلام مفتوحتين ثم ميم مشددة . قال فى (القاموس وشرحه): هو رجل كنانىّ من نَسَأَةِ الشهور على معدّ فى الجاهلية ، كان يقف عند جمرة العقبة ويقول : اللهم إنى ناسئ الشهور ، وواضعها مواضعها ، ولا أعاب ولا أجاب . اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين ، وحرمت صفر المؤخر ، وكذا فى الرجبين ، (يعنى رجباً وشعبان) ثم يقول: انفروا على اسم الله تعالى . قال شاعرهم :

* وفينا ناسئ الشهر القَلَمَّس *

وقال عمير بن قيس المعروف بِجَذْل الطِّعان[1] :

لقد علمت معدٌّ أنَّ قومى كرامُ الناس أنَّ لهم كراما
ألسنا الناسئين على معدّ شهورَ الحِلّ نجعلها حراما
فأى الناس فاتونا بِوِتْرٍ وأى الناس لم نُعْلِكْ لِجَاماً

وروى[2] أن أول من سن النسيء عمرو بن لُحَىّ ، والذى صح من حديث أبى هريرة

(١) فى سيرة ابن هشام ص ٣٠ و ٣١ (طبعة جوتنجن) و ٤٦و٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) أن لهم كراما : أى آباء كراما وأخلاقا كراما . والوِتر : طلب الثأر . لم نُعْلِك لجاما : يريد لم نقدعهم ولم نكفهم كما يقدع الفرس باللجام . تقول : أعلكت الفرس لجامَه ، إذا رددته عن تنزعه فمضغ اللجام كالعلك ، من نشاطه .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ٩ ـ باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٦ و ١٦٥٧ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٦١ـ كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا)

وعائشة ؛ أن عمرو بن لحيّ أول من سيّب السوائب ، وقال فيه النبيّ ﷺ (رأيت عمرو ابن لحيّ يجر قُصْبَهُ فى النار) .

ثم حرّض تعالى المؤمنين على قتال الكفرة ، إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ، وأشار إلى توجه العتاب والملامة إلى المتخلفين عنه ، بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ » أى تثاقلتم وتباطأتم . والاستفهام فى (مَا لَكُمْ) فيه معنى الإنكار والتوبيخ.

وقوله (إِلَى الْأَرْضِ) متعلق بـ(اثَّاقَلْتُمْ) على تضمينه معنى الميل والإخلاد ، أى اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل ، وكرهتم مشاقّ الغزو، المستتبعة للراحة الخالدة ، كقوله تعالى (١) : (أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) . أو مائلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم . وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف، استُنْفِرُوا لغزو الروم فى وقت عسرة وقحط وقيظ ، وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها ، مع بُعد الشقة ، وكثرة العدوّ ، فشق عليهم .

وقوله تعالى « أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى الحقيرة الفانية « مِنَ الْآخِرَةِ » أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم « فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أظهر فى مقام الإضمار لزيادة التقرير ، أى فما التمتع بلذائذها « فِي الْآخِرَةِ » أى فى جنب الآخرة أى إذا قيست إليها ، و(فى)

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٦] .

هذه تسمى (فى القياسية) لأن القيس يوضع بجنب ما يقاس به « إِلَّا قَلِيلٌ » أى مستحقر لا يؤبه له .

روى الإمام أحمد[1] ومسلم[2] عن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بم ترجع ـ وأشار بالسبابة ـ .

ثم توعد تعالى من لم ينفر إلى الغزو ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى لنصرة نبيه، وإقامة دينه « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » لأنه الغنيّ عن العالمين ، أى وإنما تضرون أنفسكم . وقيل : الضمير للرسول ﷺ ، أى ولا تضروه ، لأن الله وعده النصر ، وَوَعْدُهُ كائن لا محالة . « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من التعذيب والتبديل ونصرة دينه بغيرهم . وفى هذا التوعد ، على من يتخلف عن الغزو ، من الترهيب الرهيب ما لا يقدر قدره .

تنبيـه :

قال بعضهم : ثمرة الآية لزوم إجابة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا دعا إلى الجهاد ، وكذا يأتى مثله فى دعاء الأئمة ، ويأتى مثل الجهاد ، الدعاء إلى سائر الواجبات ، وفى ذلك تأكيد من وجوه :

الأول ـ ما ذكره من التوبيخ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا).

الثانى ـ قوله تعالى (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) وأن الميل إلى المنافع والدعة واللـذات لا يكون رخصة فى ذلك .

الثالث ـ فى قوله تعالى (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فهذا زجر .

الرابع ـ قوله تعالى (فَمَا مَتَاعُ ...) الآية ـ وهذا تخسيس لرأيهم .

الخامس ـ ما عقب من الوعيد بقوله (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ) .

السادس ـ ما بالغ فيه بقوله (عَذَابًا أَلِيمًا) .

السابع ـ قوله (وَيَسْتَبْدِلْ ...) الآية .

الثامن ـ قوله (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ففيه تهديد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ » أى بالخروج معه إلى تبوك « فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى كفار مكة حين مكروا به ، فصاروا سبب خروجه ، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه « ثَانِيَ اثْنَيْنِ » حال من ضميره عليه الصلاة والسلام . أى أحد اثنين « إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » بدل من (إِذْ أَخْرَجَهُ) بدل البعض ، إذ المراد به زمان متسع . والغار نقب فى أعلى ثور ، وهو جبل فى الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثا ، ليرجع الطلاب الذين خرجوا فى آثارهما ، ثم يسيرا إلى المدينة « إِذْ يَقُولُ » بدل ثان ، أى

رسول الله ﷺ « لِصَاحِبِهِ » أى أبى بكر « لَا تَحْزَنْ » وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما ، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى ، وطفق يجزع لذلك ، فقال له رسول الله ﷺ (لَا تَحْزَنْ) « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أى بالنصرة والحفظ .

روى الإمام أحمد [(١)] والشيخان [(٢)] عن أبى بكر رضى الله عنه قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار ، وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله ! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ! فقال : يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما « فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أى أَمَنَتَه التى تسكن عندها القلوب « عَلَيْهِ » أى على النبىّ ﷺ « وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا » يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه فى الغار ، أو ليعينوه على العدوّ يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجملة معطوفة على قوله (نَصَرَهُ اللَّهُ) . وقوّى أبو السعود الوجه الثانى بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم .

قلت : لا إباءة ، لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية فى كل حال ، وفى الثانى تفكيك فى الأسلوب لبعد المتعاطفين ، فافهم . والله أعلم .

« وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ » أى المغلوبة المقهورة ، و(الكلمة) الشرك ، أو دعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدهم الذى من شأنهم التكلم به على أنها الشرك ، أو هى بمعنى الكلام مطلقا على أنها دعوة الكفر « وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا » يعنى التوحيد ، أو دعوة الإسلام كما تقدم ، أى التى لا تزال عالية إلى يوم القيامة (وكلمةُ الله) بالرفع على الابتداء و(هِيَ الْعُلْيَا) مبتدأ وخبر . أو تكون (هى) فصلا . وقرىء بالنصب أى : وجعل كلمة الله ، والأول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١١ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٩ ـ باب ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، حديث ١٧١٦.

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

أوجه وأبلغ ، لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت . وإن الجمل لم يتطرق لها لأنها في نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها . وفي إضافة (الكلمة) إلى (الله) إعلاء لمكانها ، وتنويه لشأنها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أي غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » في حكمه وتدبيره .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : استدل على عظيم محل أبي بكر من هذه الآية من وجوه : منها : قوله تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ) ، وقوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقوله : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) قيل : على أبي بكر . عن أبي علي والأصم . قال أبو علي : لأنه الخائف المحتاج إلى الأمن ، وقيل : على الرسول ، عن الزجاج وأبي مسلم . قال جار الله : وقد قالوا : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر ، لأنه رد كتاب الله تعالى . انتهى .

وقال السيوطي في (الإكليل) : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: أنا ، والله ! صاحبه . فمن هنا قالت المالكية : من أنكر صحبة أبي بكر كفر وقتل ، بخلاف غيره من الصحابة ، لنص القرآن على صحبته ـ انتهى ـ .

وعن ابن عمر [1] أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أنت صاحبي على الحوض ، وصاحبي في الغار ـ أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ـ .

وقد ساق الفخر الرازي اثني عشر وجهاً من هذه الآية على فضل الصديق رضي الله تعالى عنه ، فأطال وأطاب .

ولما توعد تعالى من لا ينفر مع الرسول لتبوك ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظم مزدجر ، أتبعه بهذا الأمر الجزم ؛ فقال سبحانه :

(١) أخرجه الترمذي في : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ١٦ ـ باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، كليهما ، حدثنا يوسف بن يوسف القطان البغدادي .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا » حالان من ضمير المخاطبين ، أى على أى حال كنتم خفافاً فى النفور لنشاطكم له ، وثقالًا عنه ، لمشقته عليكم . أو خفافاً لقلة عيالكم وأذيالكم ، وثقالًا لكثرتها . أو خفافاً من السلاح وثقالًا منه . أو ركباناً ومشاة . أو شباباً وشيوخاً أو مهازيل وسماناً . واللفظ الكريم يعم ذلك كله . والمراد حال سهولة النفْر وحال صعوبته .

وقد روى عن ثلة من الصحابة أنهم ما كانوا يتخلفون عن غزاة قط ، ويستشهدون بهذه الآية .

ولما كانت البعوث إلى الشام ، قرأ أبو طلحة رضى الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ، فقال ، أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزونى يا بَنِىَّ ! فقال بنوه ؛ يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك فقال : ما سمع الله عذر أحد ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل .

وكان أبو أيوب الأنصارىّ رضى الله عنه يقرأ هذه الآية ، ويقول : فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاماً واحداً .

وقال أبو راشد الحرانىّ : وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وقد فَضَلَ عنها يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أتت علينا سورة البعوث (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا) .

وعن حيّان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص ـ فرأيت شيخاً كبيراً هِمًّا ، قد سقط حاجباه على عينيه ، من أهل دمشق ، على راحلته فيمن أغار ،

فأقبلت إليه فقلت : يا عم ! لقد أعذر الله إليك ، قال . فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخى ! استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ، أَلَا إنه من يحبه الله يبتليــه ، ثم يعيده الله فيبقيه ؛ وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل ـ روى ذلك كله[1] ابن جرير ـ .

فرحم الله تلك الأنفس الزكية ، وحيّاها من بواسل ، باعت أرواحها فى مرضاة ربها ، وإعلاء كلمته ، وأكرمت نفسها عن الاغترار بزخارف هذه الحياة الدنية .

ثم رغّب تعالى فى النفقة فى سبيله ، وبذل المهج فى مرضاته ، ومرضاة رسوله ، فقال : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ما فى اسم الإشارة إلى النفير والجهاد من معنى البعد ، للإيذان ببعد منزلته فى الشرف،والمراد بكونه خيراً ، أنه خير فى نفسه ، أو خير من الدعة ، والتمتع بالأموال .

تنبيه :

قال الحاكم : الجهاد بالمال ضروب : منها إنفاقه على نفسه فى السير فى الجهاد ، ومنهــا صرف ذلك إلى الآلات التى يستعان بها على الجهاد ، ومنها صرفه إلى من ينوب عنه أو يخرج معه .

وقال بعض مفسرى الزيدية : ذكر المؤيد بالله أن من له فضل مال، وجب عليه أن يدفعه إلى الإمام ، إن دعت إليه حاجة .

وذكر الراضى بالله وجوب دفع ما دعت الحاجة إليه من الأموال فى الجهاد ، قليلًا كان أو كثيراً ، ويتعين ذلك بتعيين الإمام . وأما من طريق الحسبة ، فقال الراضى بالله : يجب ذلك إن حصل خلل لا يسده إلا المال ، ويدخل فى هذا إلزامُ الضِّيفة ، وتنزيل الدور ، وقد قال الراضى بالله : للإمام أن يلزم الرعية على ما يراه من المصلحة .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة ١٣٨ و١٣٩ من الجزء العاشر (طبعة الحلبى الثانية) .

وعن المؤيد بالله : إن للإمام إنزال جيشه دور الرعية إذا لم يتم له الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالجند ، واحتاجوا إلى ذلك . كما يجوز دخول الدار المغصوبة لإزالة المنكر . وكذا ذكر أبو مضر أنه ينزل فى الزائد على حاجة أهل الدور . وأما من ينزل الدار من جيشه بظلم أو فساد ، فإن عُرِفَ ذلك عورض بين مطلب الإمام فى دفعه المنكر ، وبين هذا المنكر الواقع من الجند ، أيهما أغلظ . انتهى .

ثم صرف تعالى الخطاب عن المتخلفين ، ووجّه إلى رسول الله ﷺ ، معدّداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلاً ، مبيناً لدناءة هممهم فى هذا الخطب ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« لَوْ كَانَ » أى ما تدعوهم إليه « عَرَضًا قَرِيبًا » أى نفعاً سهل المأخذ « وَسَفَرًا قَاصِدًا » أى وسطاً « لَاتَّبَعُوكَ » أى لا لأجلك ، بل لموافقة أهوائهم « وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ » بضم الشين ، وقرئ بكسرها ، أى الناحية التى ندبوا إليها . وسميت الناحية التى يقصدها المسافر بذلك ، للمشقة التى تلحقه فى الوصول إليها . وقرئ (بعِدت) بكسر العين . قال الشهاب : بعِد يبعَد كعلم يعلم ، لغة فيه ، لكنه اختص ببعد الموت غالباً . و (لا تبعد) يستعمل فى المصائب للتفجع والتحسر كقوله[1] :

لا يُبْعِدِ اللهُ إخواناً لنا ذَهَبُوا أفناهم حَدَثَانُ الدهرِ والأَبَدُ

« وَسَيَحْلِفُونَ » أى هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك « بِاللَّهِ » متعلق بـ (سيحلفون) ،

(١) لم يعرف قائله ، الحماسية رقم ٢٩٨ .

أو هو من جملة كلامهم . والقول مراد فى الوجهين . أى سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك ، معتذرين بالعجز ، يقولون بالله «لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ» أى إلى تلك الغزوة .

ثم بيّن تعالى أن هذه الدعوى الكاذبة والحلف لا يفيدانهم ، بقوله سبحانه « يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ » أى بهذا الحلف والمخالفة ودعوى العجز « وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » لأنهم كانوا يستطيعون الخروج مع رسول الله ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)

« عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » أى لهؤلاء المنافقين بالتخلف حين اعتلّوا بعللهم « حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ » أى لمنع إيمانهم به من مخالفته ، مع القدرة « وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » لمنع إيمانهم به من ترك تعويض الثواب والحياة الأبديين إذا أُمروا «أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » أى لأنهم يودون الجهاد بها قربة ، فيبذلونها فى سبيله « وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » أى فيعطيهم من الأجر ما يناسب تقواهم . ففيه شهادة لهم بالانتظام فى زمرة الأتقياء ، وعِدَةٌ لهم بأجزل الثواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

« إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ » أى فى ترك الجهاد بهما « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إذ لا يرجون ثوابه ولا حياته ، وهم المنافقون ، ولذا قال « وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فيما تدعوهم إليه ، أى رسخ فيها الريب « فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » أى ليست لهم قدم ثابتة فى شىء ، فهم قوم حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

تنبيهات

الأول ـ اعلم أن فى تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو ، دون ما يوهم العتاب ، من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام ، وتعهده بحسن المفاوضة ، ولطف المراجعة ـ ما لا يخفى على أولى الألباب .

قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف : بدأ بالعفو قبل ذكر المعفوّ . قال مكّى. (عفا الله عنك) ، افتتاح كلام مثل (أصلحك الله وأعزك) . وقال الداودىّ : إنها تكرمة .

أقول : ويؤيد ذلك قول علىّ بن الجهم(١) يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفا الله عنك ألا حُرمةٌ　　تَعُوذُ بعفوك أن أُبْعَدَ

ألم ترَ عبداً عدا طورَهُ　　ومولًى عفا ، ورشيداً . هدَى

أقلنى ، أقالك من لم يَزَلْ　　يقيك ، ويصرفُ عنك الردى

وما اشتهر من كون العفو لا يكون إلا عن ذنب ـ غير صحيح ـ فالواجب تفسيره فى كل مقام بما يناسبه . .

(١) ديوانه ص ٧٧ و ٧٨ (المطبعة الهاشمية بدمشق) .

قال الشهاب : وهو يستعمل حيث لا ذنب ، كما تقول لمن تعظمه : عفا الله عنك ، ما صنعت فى أمرى ؟ وفى الحديث(١) : عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له .

وقال السخاوندىّ : هو تعليم لتعظيمه ﷺ ، ولولا تصدير العفو فى الخطاب لما قام بصولة العتاب .

وقال القاضى عياض فى (الشفا) : وأما قوله تعالى :(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) فأمر لم يتقدم للنبىّ ﷺ فيه من الله نهى ، فيعدّ معصية . ولا عدّه الله عليه معصية ، بل لم يعده أهل العلم معاتبة ، وغلّطوا من ذهب إلى ذلك .

قال نفطويه : وقد حاشاه الله من ذلك ، بل ما كان مخيراً فى أمرين . قالوا : وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه وحى ، وكيف ؟ وقد قال الله تعالى (فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم ، أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم ، وأنه لا حرج عليه فيما فعل ، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر ، بل كما قال النبىّ ﷺ(٢) : عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق . ولم تَجِبْ عليهم قط . أى لم يلزمهم ذلك .

ونحوه للقشيرىّ قال : وإنما يقول (العفو لا يكون إلا عن ذنب) من لم يعرف كلام العرب . قال : ومعنى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) أى لم يلزمك ذنباً . انتهى .

وقد عدّ ما وقع فى الكشاف هنا من قبيح سقطاته .

وللعلامة أبى السعود مناقشة معه فى ذلك . أوردُها لبلوغها الغاية فى البلاغة قال رحمه الله : ولقد أخطأ وأساء الأدب ، وبئسما فعل فيما قال وكتب ، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئسما فعلت ، هب أنه كناية ، أليس إيثارها على التصريح

---

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٨ ـ كتاب الزكاة ، ٤ ـ باب زكاة الورِق والذهب ، حديث رقم ١٧٩٠ (طبعتنا) عن علىّ ونصه : إنى قد عفوت عنكم عن صدقة الخيل والرقيق ... الخ .

بالجناية للتلطيف فى الخطاب ، والتخفيف فى العتاب ، وهب أن العفو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة ، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة (بئسما) المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها . ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين ، أو منفعة للمسلمين ، بل كان فيه فساد وخبال ، حسبما نطق به قوله عز وجل (لَوْ خَرَجُوا...) الخ ، وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى (وَلَـٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ . . .) الآية ـ نعم . كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير[1] ، ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم ، بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام ، وأرضوه بالأكاذيب . على أنه لم يهنأ لهم عيش ، ولا قرّت لهم عين ، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان ، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان . انتهى .

قال الخفاجىّ : وحاول بعضهم توجيه كلام الكشاف بأن مراده أن الأصل فيه ذلك ، فأبدله بالعفو تعظيما لشأنه ، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية ، فلا خطأ فيه .

قال رحمه الله : ولو اتقى هو والموجِّه موضع التهم ـ كان أولى وأحرى . انتهى .

الثانى ـ استدل بالآية على أن النبىّ ﷺ كان يحكم أحيانا بالاجتهاد ، كما بسطه الرازىّ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : واستدل بها من قال : إن اجتهاده قد يخطئ ولكن ينبَّه عليه بسرعة .

الثالث ـ قال الرازىّ : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد .

الرابع ـ قال أبو السعود : تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى

(١) أى أول كل شىء ـ قاموس .

صلته فعل دالّ على الحدوث ، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام ـ للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وأن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص ، لكنه أمر جارٍ على عادتهم المستمرة ، ناشىء عن رسوخهم فى الكذب . ودقق رحمه الله فى بيان لطائف أخر . فلتراجع .

الخامس ـ قيل: نفى الفعل المستقبل الدالّ على الاستمرار فى قوله تعالى (لَا يَسْتَأْذِنُكَ) يفيد نفى الاستمرار . وهذا معنى قول الزمخشريّ : ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك اهـ.

قال النحرير : ولا يبعد حمله على استمرار النفى كما فى أكثر المواضع ، أى عادتهم عدم الاستئذان .

قال الناصر : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقاً ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفاً ، ولا بالمُضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاماً . فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكرّه ، وصلوات الله على خليله وسلامه ، لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم . فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة ، والآداب الجليلة ، فقال تعالى(١) (فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) أى ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به . والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ، ربما يعدّ كالمستأذن له فى الضيافة ، فهذا من الآداب التى ينبغى أن يتمسك بها ذوو المروءة ، وأولو القوة . وأشد من الاستئذان فى الخروج للجهاد ونصرة الدين ، التثاقل عن المبادرة إليه ، بعد الحض عليه والمناداة . وأسوأ أحوال المتثاقل ، وقد دعى الناس إلى الغزاة ، أن يكون متمسكاً بشعبة من النفاق . نعوذ بالله من التعرض لسخطه .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

ثم بيّن تعالى جلية شأن أولئك المنافقين المستأذنين، بأنهم لم يريدوا الخروج للجهاد حقيقة، ولذلك خذلهم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً » بضم العين وتشديد الدال ، أى قوة من مال وسلاح وزاد ، ونحوها « وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ » أى نهوضهم للخروج « فَثَبَّطَهُمْ » أى فكسّلهم وضعّف رغبتهم « وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ » أى من النساء والصبيان .

تنبيهات

الأول ـ دلّ قوله تعالى (لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً) على أن عدة الحرب من الكُراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدوّ ، من جملة الجهاد . فما صرف فى المجاهدين ، صرف فى ذلك . وهذا جلىّ فيما يتقى به من العدة كالسلاح . فأما ما يحصل به الإرهاب من الرايات والطبول ونحو ذلك، مما يضعف به قلب العدوّ، فهو داخل فى الجهاد . وقد قال تعالى فى سورة الأنفال[1] : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) ويكون ذلك كلباس الحرير حالة الحرب ، وهذا جلىّ حيث لا يؤدّى إلى السرف .

الثانى ـ إن الفعل يحسن بالنية ، ويقبح بالنية ، وإن استويا فى الصورة . لأن النفير واجب مع نية النصر ، وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح . وذلك لأنه تعالى أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل منه من إرادة المكر بالمسلمين .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] .

الثالث ـ للإمام منع مَنْ يتهم بمضرة المسلمين ، أن يخرج للجهاد . فله نفي الجاسوس والمرجف والمخذّل . ذكر ذلك كله بعض مفسري الزيدية .

الرابع ـ ذكروا أن قوله تعالى : (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم. يعني نزّل خلق داعية القعود فيهم، منزلة الأمر ، والقول الطالب، كقوله تعالى(1) : (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) أي أماتهم . أو هو تمثيل لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود . أو هو حكاية قول بعضهم لبعض . أو هو إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : مامعنى قوله (مَعَ الْقَاعِدِينَ)؟ قلت : هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاق بالنساء والصبيان والزّمْنَى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف . ويبينه قوله تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) .

قال الناصر : وهذا من تنبيهاته الحسنة . ونزيده بسطاً فنقول : لو قيل (اقعدوا) مقتصراً عليه ، لم يُفِدْ سوى أمرهم بالقعود . وكذلك (كُونُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) . ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية . ولعن الله فرعون ، لقد بالغ في توعيد موسى عليه السلام بقوله (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)(2) ولم يقل : لأجعلنك مسجوناً ، لمثل هذه النكتة من البلاغة .

ثم بين تعالى سرّ كراهته لخروجهم بقوله :

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٤٣] . (2) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» أى فساداً وشرًّا «وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ» أى ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالفساد .

قال الشهاب : الإيضاع : إسراع سير الإبل . يقال : وضعت الناقة تضع إذا أسرعت ، وأوضعتها أنا . والمراد : الإسراع بالنمائم ، لأن الراكب أسرع من الماشى . فقيل : المفعول مقدّر ، وهو النمائم . فشبه النمائم بالركائب فى جريانها وانتقالها ، وأثبت لها الإيضاع . ففيه تخييلية ومكنية . وقيل : إنه استعارة تبعية ، شبه سرعة إفسادهم لذات البيْن بالنميمة ، بسرعة سير الركائب ، ثم استعير لها الإيضاع ، وهو للإبل . و (خلال) جمع خلل ، وهو الفرجة ، استعمل ظرفاً بمعنى (بين) .

واعلم أن قوله (وَلَأَوْضَعُوا) مرسوم فى الإمام بألفيْن ، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربىّ . والخط العربىّ اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من تلك الألف أثر فى الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه[1] (أولَأَذْبَحَنَّهُ) .

« يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ » أى يطلبون لكم ما تفتتنون ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم ، وإلقاء الرعب فى قلوبكم ، وإفساد نيّاتكم « وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ » أى منقادون لقولهم مستحسنون لحديثهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، لضعف عقولهم ، فيتوهمون منهم النصح والإعانة ، وهم يريدون التخذيل والفتنة ، فيؤدى إلى وقوع شرّ بين المؤمنين ، وفساد كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير . أى فيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

(١) [٢٧ / النمل / ٢١] .

قال ابن كثير : وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عامّ فى جميع الأحوال . والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

قال محمد بن إسحاق(١) : كان استأذن ، فيما بلغنى ، من ذوى الشرف منهم ، عبد الله ابن أبىّ ابنُ سلول والجدّ بن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم ، فثبطهم الله ، لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) انتهى . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) ولا يخفى عليه شىء من أمرهم . وفيه شمول للفريقين : القاعدين والسماعين .

ثم برهن تعالى على ابتغائهم الفتنة فى كل مرة بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

« لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ » أى طلبوا الشر بتشتيت شملك ، وتفريق صحبك عنك ، من قبل غزوة تبوك ، كما فعل عبد الله بن أبىّ ابنُ سلول حين انصرف بأصحابه يوم أُحُد عن المسلمين « وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ » أى دبروا لك الحيل والمكايد ودوّروا الآراء فى إبطال أمرك .

قال الشهاب : المراد من (الأمور) المكايد ، فتقليبها مجاز عن تدبيرها . أو (الآراء) فتقليبها تفتيشها وإجالتها .

« حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ » وهو تأييدك ونصرك وظفرك « وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ » أى علا دينه « وَهُمْ كَارِهُونَ » أى على رغم منهم .

قال ابن كثير : لما قدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها . فلما نصره الله يوم بدر ، وأعلى كلمته . قال ابن أبىّ وأصحابه : هذا أمر

(١) انظر سيرة ابن هشام . الصفحة رقم ٩٢٤ و ٩٢٥ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

قد توجّه (أى : أقبل) فدخلوا فى الإسلام ظاهراً . ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي » أى فى القعود « وَلَا تَفْتِنِّي » أى لا توقعنى فى الفتنة .

روى[١] عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت فى الجدّ بن قيس ، أخى بنى سلمة ، وذلك فيما رواه محمد بن[٢] إسحاق ؛ أن النبىّ ﷺ قال له ذات يوم وهو فى جهازه : هل لك ياجدّ فى جلاد بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ! أو تأذن لى ولا تفتنّى ؟ فوالله ! لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى ، إن رأيت نساء بنى الأصفر ، ألّا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك !

قال الشهاب: يعنى أنه يخشى العشق لهن ، أو مواقعتهن من غير حلّ . وبنات الأصفر: الروم ، كبنى الأصفر . وقيل فى وجه التسمية وجوه: منها أنهم ملكهم بعض الحبشة ، فتولد بينهم نساء وأولاد ذهبية الألوان . انتهى .

قال ابن كثير : كان الجدّ بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة .

وفى الصحيح[٣] أن رسول الله ﷺ قال لهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : الجدّ بن قيس ؟

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) انظر سيرة ابن هشام الصفحة رقم ٨٩٤ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ). (٣) ليس هذا الحديث فى الصحيح ولا فى السنن . ولكن رواه يعقوب بن سفيان فى (تاريخه) وأبو الشيخ فى (الأمثال) والوليد بن أبان فى كتاب (الجود) . انظر (الإصابة فى تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلانىّ رقم ٦٥١، ترجمة بشر بن البراء بن معرور ، على خلاف يسير فى اللفظ .

على أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ :وأى داء أدوأ من البخل ؟ ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض ، بشر بن البراء بن معرور .

وقوله تعالى : « أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » قال أبو السعود : أى فى عينها ونفسها. وأكمل أفرادها ، الغنى عن الوصف بالكمال ، الحقيق باختصاص اسم الجنس به ، سقطوا . لا فى شىء مغاير لها ، فضلا عن أن يكون مهرباً ومخلصا عنها . وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف ، والجرأة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ، ومن القعود بالإذن المبنى عليه ، وعلى الاعتذارات الكاذبة . وقرئ بإفراد الفعل ، محافظة على لفظ (من) . وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه، مع تقديم الظرف ، إيذان بأنهم وقعوا فيها ، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة ، زعماً منهم أن الفتنة إنما هى التخلف بغير إذن . وفى التعبير عن (الافتتان) بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترديهم فى درجات الردى أسفل سافلين . انتهى .

« وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » أى ستحيط بهم يوم القيامة ، فلا محيد لهم عنها ولا مهرب ، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا .

ثم بيّن تعالى عداوتهم ، زيادة فى تشهير مساوئهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

« إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ » أى من فتح وظفر وغنيمة « تَسُؤْهُمْ » أى تورثهم مساءة لفرط عداوتهم « وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ » أى من نوع شدة « يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا » أى بالحزم فى القعود « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إصابة المصيبة ، فيتبجحوا بما صنعوا حامدين :

لآرائهم « وَيَتَوَلَّوْا » أى عن مجتمعهم الذى أظهروا فيه الفرح برأيهم « وَهُمْ فَرِحُونَ » أى برأيهم وبما أصابكم وبما سلموا .

ثم أرشد تعالى إلى جوابهم ببطلان ما بنوا عليه مسرتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » أى ما أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الأخروية ، فلا وجه لهذا الفرح ، لرضانا بقضائه فى تلك المصيبة ، فلم يسوءنا بالحقيقة . كيف ؟ ولم يكتبها علينا ليضرّنا بها ، إذ « هُوَ مَوْلَانَا » أى يتولى أمورنا ، فإنما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها ، والرضا بها ، فيعطينا من الأجر ما هو خير منها « وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى لأنه لا ناصر ولا متولّى لأمرهم غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)

« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ » أى تنتظرون « بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ » أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب ، وهما النصر والشهادة « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ » أى إحدى السُّوأيين من العواقب إما « أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » أى كما أصاب من قبلكم من الأمم « أَوْ » بعذاب « بِأَيْدِينَا » وهو القتل على الكفر « فَتَرَبَّصُوا » أى بنا ما ذكر من عواقبنا « إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ » أى منتظرون ما هو عاقبتكم ،

فلا بدّ أن يلقى كلانا ما يتربصه ، لا يتجاوزه . فلا تشاهدون إلا ما يسرنا ، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم .

وقوله تعالى : ...

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« قُلْ أَنْفِقُوا » يعني أموالكم في سبيل الله ووجوه البرّ « طَوْعاً أَوْ كَرْهاً » مصدران وقعا موقع الفاعل ، أي طائعين من قِبَلِ أنفسكم ، أو كارهين مخافة القتل « لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ » أي ذلك الإنفاق . ثم بيّن سبب ذلك بقوله « إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ » أي عاتين . متمردين .

لطائف :

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ) ؟ قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى (١) « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . ومعناه : لن يتقبل منكم ، أنفقتم طوعاً أو كرهاً . ونحوه قوله تعالى (٢) (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) وقوله (٣) * أسيئى بنا أو أحسنى لاملومةً * أي لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . ولا نلومكِ ، أسأت إلينا أم أحسنتِ .

---

(١) [١٩ / مريم / ٧٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

(٣) قائله كثيّر عزّة . وعجز البيت * لدينا ولا مَقْلِيّةً إنْ تَقَلَّتِ * .

ومطلع القصيدة : خليليّ هذا ربعُ عَزَّةَ فَاعْقِلاَ قَلُوصَيْكُمَا ثم ابْكِيَا حيث حَلَّتِ

انظر الأمالي ج ٢ ص ١٠٧ (طبعة الدار) وقال في اللسان : تقلّى الشيء : تبغّض .

فإن قلت : متى يجوز هذا ؟ قلت : إذا دلّ الكلام عليه ، كما جاز عكسه فى قولك : رحم الله زيداً وغفر له . فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهى أن كُثيّرًا كأنه يقول لعزّة : امتحنى لطف محلك عندى ، وقوة محبتى لك ، وعامليني بالإساءة والإحسان ، وانظرى : هل يتفاوت حالى معك ، مسيئةً كنتِ أو محسنة ! وفى معناه قول القائل[1] :

أَخُوكَ الذى إن قُمْتَ بالسيف عامداً لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَغِشَّكَ فى الوُدِّ

وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا ، هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه ؟

فإن قلت : ماالغرض فى نفى التقبّل ، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبّله منهم ، ورده عليهم ما يبذلون منه ، أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى،ذاهباً هباء لا ثواب له ؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً . وقد روى أن الآية من تتمة جواب الجدّ بن قيس حيث قال للنبىّ ﷺ : هذا مالى أعينك به ، فاتركنى ولا تفتنّى . والله أعلم .

---

(١) استشهد به فى (الكشاف) وفيه : يستغشّك .

قال الشارح : يقول : أخوك الذى إن أسأت إليه أحسن إليك . حتى لو قمت تضربه بالسيف لا يجدك غشاً فىالمودة (وبرواية : لا يستغشك ، من الغش والخيانة) ولو جئته تطلب أن تقطع يده ، لبادر إليك فَرَقاً من الرد عليك .

ومع هذا الوفاء والجهد ، فى حفظ أسباب المودة ، يرى أنه مقصّر فى الود ، وإنٍ فيه . وهو من أبيات ثلاثة . وباقيها :

ولو جئتَ تبغى كفه لتُبِينَها لبادر إشفاقاً عليك من الردِّ

يرى أنه فى الودّ وانٍ مقصّرٌ على أنه قد زاد فيه عن الجَهْدِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

« وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » جمع كسلان ، أي متثاقلين ، إذ لا يرجون على فعلها ثواباً ، ولا يرهبون من تركها عقاباً « وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ » لأنهم يرون الإنفاق في سبيل الله مغرماً ، وتركه مغنماً . وفي الحديث[1] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، وابتغى به وجهه ـ رواه النسائيّ عن أبي أمامة . وقال تعالى[2] (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

ولما بيّن تعالى قبائح أفعال المنافقين ، وما لهم في الآخرة من العذاب المهين ، وعدم قبول نفقاتهم ، تأثره ببيان أن ما يظنونه من منافع الدنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم ، فيتجلى تمام الانجلاء أن النفاق مهواة الخسار ، لجلبه آفات الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ » أي لأن ذلك استدراج لهم ، كما قال: « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أي بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب . وقوله (لِيُعَذِّبَهُمْ) قيل: اللام زائدة . وقيل: المفعول

---

(١) رواه النسائيّ في: ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٤ ـ باب من غزا يلتمس الأجر والذكر .

(٢) [٥/ المائدة/ ٢٧] .

محذوف ، وهذه تعليلية ، أى يريد إعطاءهم لتعذيبهم « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » أى فيموتوا كافرين ، لاهين بالتمتع عن النظر فى العاقبة ، فيكون ذلك استدراجاً لهم . وأصل (الزهوق) الخروج بصعوبة ـ أفاده القاضى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)

« وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ » يعنى المنافقين « إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ » فى الدين ليدفعوا ، بدلالة اليمين ، دلائل النفاق « وَمَا هُمْ مِنْكُمْ » فى ذلك يعنى أنهم كاذبون « وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » أى يخافون القتل ، وما يُفعل بالمشركين ، فيتظاهرون بالإسلام تقية ، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة . ثم أشار إلى سبب الخوف ، وهو اضطرارهم إلى مساكنهم مع ضعفهم ، بقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)

« لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً » أى حصناً يلتجئون إليه « أَوْ مَغَارَاتٍ » يعنى غيراناً فى الجبال يسكن كل واحد منهم غاراً « أَوْ مُدَّخَلًا » يعنى موضع دخول يدخلون فيه ، وهو السرب فى الأرض « لَوَلَّوْا إِلَيْهِ » أى لأقبلوا نحوه « وَهُمْ يَجْمَحُونَ » أى يسرعون إسراعاً ، لا يردهم شىء ، كالفرس الجموح ، أى النفور الذى لا يرده لجام . أى لو وجدوا شيئاً من هذه الأمكنة التى هى منفور عنها ، مستنكرة ، لأتوه لشدة خوفهم ، وكراهتهم المسلمين ، وغمهم بعزّ الإسلام ، ونصر أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ » أى يعيبك « فِى الصَّدَقَاتِ » أى فى قسمتها . ثم بيّن فساد

لمزهم ، وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا بقوله « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا » أى قدر ما يريدون « رَضُوا » فجعلوه عدلًا « وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » فيجعلونه غير عدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ » أى كفانا فضله ، وما قسمه لنا « سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ » أى بعد هـذا ، حسبما نرجو ونؤمّل « إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ » أى فى أن يغنمنا ويخوّلنا فضله . والجواب محذوف بناء على ظهوره . أى لـكان خيراً لهم .

روى الشيخان[(١)] عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم فيئاً ، أتاه ذو الخويصرة ـ رجل من بنى تميم ـ فقال : يا رسول الله ! اعدل . فقال رسول الله ﷺ : ويلك . من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب : إيذن لى فيه فأضرب عنقه ! فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٩٥ ـ باب ما جاء فى قول الرجل : ويلك ، حديث ١٥٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ١٤٨ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » لما ذكر تعالى لمزهم فى الصدقات تأثره ببيان حقيّة ما فعله رسول الله ﷺ من القسمة ، إذ لم يتجاوز فيها مصارفها المشروعة له ، وهو عين العدل ؛ وذلك أنه تعالى شرع قسمها لهؤلاء ، ولم يكله إلى أحد غيره ، ولم يأخذ صلى الله عليه وسلم منها لنفسه شيئاً ، ففيم اللمز لقاسمها ، صلوات الله عليه ؟

روى البخارى[١] عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى .

وروى أبو داود[٢] عن زياد بن الحارث رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطنى من الصدقة . فقال له : إن الله تعالى لم يرض بحكم نبىّ ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك .

فالآية ردّ لمقالة أولئك اللمزة ، وحسم لأطماعهم ، ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق . وإعلام بأن إعطاؤهم عدل ، ومنعهم ظلم .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ١٣ ـ باب من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، حديث ٦٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٩ ـ كتاب الزكاة ، ٢٤ ـ باب من يُعطى من الصدقة ، وحدّ الغنى . الحديث رقم ١٦٣٠ .

والفقراء . جمع فقير ، فعيل ، بمعنى فاعل ، يقال فقر يفقر من باب تعب ، إذا قل ماله .

والمساكين : جمع مسكين ، من (سكن سكونا)، ذهبت حركته ، لسكونه إلى الناس، وهو بفتح الميم في لغة بني أسد ، وبكسرها عند غيرهم . قال ابن السكّيت : المسكين: الذي لا شيء له ، والفقير: الذي له بُلغة من العيش . وكذلك قال يونس ، وجعل الفقير أحسن حالا من المسكين . قال : وسألت أعرابيا : أفقير أنت؟ فقال : لا ، والله ! بل مسكين وقال الأصمعيّ : المسكين أحسن حالا من الفقير ، وهو الوجه؛ لأن الله تعالى قال[1]: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) وكانت تساوي جملة ، وقال[2] في حق الفقراء : (لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) وقال ابن الأعرابيّ : المسكين هو الفقير ، وهو الذي لا شيء له ، فجعلهما سواء . كذا في (المصباح) .

قال البدر القرافيّ : وإذا اجتمعا افترقا ، كما إذا أوصى للفقراء والمساكين ، فلا بد من الصرف للنوعين . وإن افترقا اجتمعا ، كما إذا أوصى لأحد النوعين ، جاز الصرف للآخر .

قال المهايميّ : ثم ذكر تعالى من يحتاج إليهم المحتاجون إلى الصدقات فقال: (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا) أي الساعين في تحصيلها : القابض والوازن والكيال والكاتب ، يعطون أجورهم منها . ثم ذكر من يحتاج إليهم الإمام فقال : (وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) .

وهم قوم ضعفت نيتهم في الإسلام ، فيحتاج الإمام إلى تأليف قلوبهم بالعطاء ، تقوية لإسلامهم ، لئلا يسري ضعفهم إلى غيرهم . أو أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم .

ثم ذكر تعالى من يعان بها في دفع الرقّ بقوله : (وَفِي الرِّقَابِ) .

أي وللإعانة في فك الرقاب ، فيعطى المكاتبون منها ما يستعينون به على

---

(١) [١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٣] .

أداء نجوم الكتابة ، وإن كانوا كاسبين ،وهو قول الشافعيّ والليث . أو : وللصرف فى عتق الرقاب ، بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق. قال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق . ولا يخفى أن (الرقاب) يعم الوجهين. وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة .

ثم ذكر تعالى مَن تفك ذمته فى الديون بقوله : « وَالْغَارِمِينَ » .

وهم الذين ركبتهم الديون لأنفسهم فى غير معصية ، ولم يجدوا وفاء . أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء .

ثم ذكر تعالى الإعانة على الجهاد بقوله « وَفِى سَبِيلِ اللهِ » .

فيصرف على المتطوعة فى الجهاد ، ويشترى لهم الكراع والسلاح . قال الرازىّ : لا يوجب قوله (فِى سَبِيلِ اللهِ) القصرَ على الغزاة . ولذا نقل القفّال فى (تفسيره) عن بعض الفقهاء جوازَ صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ، لأن قوله (وَفِى سَبِيلِ اللهِ) عامّ فى الكل . انتهى .

ولذا ذهب الحسن وأحمد وإسحاق إلى أن الحج من (سبيل الله) فيصرف للحجاج منه. قال فى (الإقناع) و(شرحه) : والحج من (سبيل الله) نصًّا، روى عن ابن عباس وابن عمر. لما روى أبو داود[1] ؛ أن رجلا جعل ناقة فى سبيل الله ، فأرادت امرأته الحج، فقال لها النبىّ ﷺ : اركبيها ، فإن الحج من (سبيل الله) . فيأخذ ، إن كان فقيرا ، من الزكاة ما يؤدى به فرض حج أو عمرة ، أو يستعين به فيه ، وكذا فى نافلتهما . لأن كلا من (سبيل الله) انتهى. قال ابن الأثير : و(سبيل الله) عامّ ، يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله عز وجل ، بأداء الفرائض والنوافل ، وأنواع التطوعات . وإذا أطلق فهو فى الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه . انتهى .

وقال فى (التاج) : كل سبيل أريد به الله عز وجل، وهو برّ ، داخل فى (سبيل الله).

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١١ـ كتاب المناسك ٧٩ـ باب العمرة ، حديث رقم ١٩٨٩ ، عن أم معقل .

ثم ذكر تعالى الإعانة لأبناء الطريق بقوله :

« وَابْنِ السَّبِيلِ » فيعطى المجتاز فى بلد ما يستعين به على بلوغه لبلده .

وقوله تعالى « فَرِيضَةً مِنَ اللهِ » ناصبُه مقدّر ، أى فرض الله ذلك فريضة . وقوله « وَاللهُ عَلِيمٌ » أى بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم . وقوله : « حَكِيمٌ » أى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى منها سوق الحقوق إلى مستحقيها .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف . ويؤيد هذا وجهان :

الأول ـ ما يقتضيه اللفظ اللغوىّ ، إن قلنا : الواو للجمع والتشريك .

والثانى ـ ما رواه أبو داود فى سننه من قوله ﷺ : إن الله لم يرض بحكم نبىّ ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء ... الحديث .

وقد ذهب ، إلى هذا ، الشافعىُّ وعكرمة والزهرىّ ، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى الآخرين ، بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد ، منهم عمر وابن عباس وحذيفة وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة ، والهادى والقاسم وأسباطهما ، وزيد . قال فى (التهذيب) : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر ، بوجوه :

الأول ـ أن الله تعالى قال فى سورة البقرة(١) (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها . الثانى ـ الخبر وهو قوله ﷺ(٢) لمعاذ : أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ فى فقرائهم . الثالث ـ حديث سلمة بن صخر . فإنه عليه الصلاة والسلام جعل له صدقة بنى زريق . الرابع ـ أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه . الخامس ـ المعارضة

(١) [٢ / البقرة / ٢٧١] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ١ ـ باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٠ عن ابن عباس .

للفظ بالمعنى . فإن المقصود سدّ الخلة . وقال صاحب (النهاية): وهذا أقرب إلى المعنى ، والأول أقرب إلى اللفظ . ويؤيد أنها مستحقة بالمعنى لا بالاسم ، أنا لو قلنا تستحق بالاسم لزم أن من كان فقيراً غازياً غارماً مسافراً ، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً ـ كذا في تفسير بعض الزيدية ـ .

وقال الناصر في (الانتصاف) : القول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف ، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار (اللام) بالتمليك ، كما ذهب إليه الشافعيّ ـ لا يسعده السياق ، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة ، وأنها مختصة بهم ، وأن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً . كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم ، فهذا هو الغرض الذي سيقت له الآية ، فلا اقتضاء فيها لما سواه . انتهى .

الثاني ـ قال بعضهم : لفظ (الصَّدَقَاتُ) بعمومه يجمع الصدقة الواجبة والنافلة . ثم إن الصدقة الواجبة تتنوّع أنواعاً ، منها الزكوات لما هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر ، وزكاة المواشي والفطرة والكفارات ، نحو كفارة اليمين والظهار والصوم ، وكذلك الهَدْي في الحج ، ومنها ما يؤخذ من أموال الكفار ورؤوسهم ، ولهذا سمى الله الغنائم صدقة في سبب نزول الآية ، وذلك في قسمة غنائم (حنين) ، فإذا كان اللفظ يعمّ ما ذكر ، فهل تحمل الآية على عمومها في قسمتها على ما ذكر ، أو يخصص البعض ؟

ثم قال : والعلماء قسموا الصدقات ، وجعلوا مصارفها مختلفة ، والكفارة لم يذكر أنها تصرف في الثمانية المصارف . وقد ورد قوله تعالى [1] (فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ) (فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً) [2] ، وفي الحديث : أطعم عن كل يوم مسكيناً ، وورد في الفطرة : أغنوهم هذا اليوم . وورد في الغنيمة [3] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ...) الآية ـ فهل هذه الأدلة مخصصة لعموم لفظ (الصدقات) ؟ فإن الزكوات مجمع عليها في أن مصرفها الثمانية الأصناف . أم كيف تنزل الآية على القواعد الأصولية ؟ . انتهى كلامه .

(١) [٥/ المائدة / ٨٩] . (٢) [٥٨/ المجادلة / ٤] . (٣) [٨ /الأنفال / ٤١]

ولا يخفى كونها مخصصة لعموم لفظ الصدقات ، لأن الخاص يقضى على العام - على أن المراد قصرها على هذه الأصناف ، فكل ما ذكر لم يخرج عنها ، لشمولها له . والله أعلم .

الثالث ـ (المؤلفة قلوبهم) حكمهم باق ، لأنه عليه الصلاة والسلام أعطى المؤلفة من المسلمين والمشركين ، فيعطون عند الحاجة . ويحمل ترك عمر وعثمان وعلىّ إعطاءهم ، على عدم الحاجة إلى إعطائهم فى خلافتهم ، لا لسقوط سهمهم ، فإن الآية من آخر ما نزل . وأعطى أبو بكر عدىّ بن حاتم والزبرقان بن بدر . ومنعُ وجود الحاجة على ممرّ الزمان ، واختلاف أحوال النفوس فى القوة والضعف ـ لا يخفى فساده . كذا فى (الإقناع) و (شرحه) .

والمؤلفة كما فى (الإقناع) هم رؤساء قومهم : من كافر يرجى إسلامه ، أو كف شره ، ومسلم يرجى بعطيته قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو نصحه فى الجهاد ، أو فى الدفع عن المسلمين ، أو كف شره كالخوارج ونحوهم ، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يعطيها . انتهى .

الرابع ـ قال فى (الإكليل) : استدل بعموم الآية من أجاز الدفع للفقير القادر على الاكتساب . وللذمىّ ، ولمن تلزمه نفقته ، ولسائر القرابة ، وللزوج ، ولآله ﷺ ، حيث حرموا حظهم من الخمس ، ولمواليهم ، ولمن جوّز نقلها .

وقال ابن الفرس : يؤخذ من قوله تعالى (وَالْعَامِلِينَ) جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بشىء من أعمال المسلمين . قال : وقد احتج به أبو عُبَيْد على جواز أخذ القضاة الرزقَ فقال : قد فرض الله للعاملين على الصدقة ، وجعل لهم منها حقاً بقيامهم فيها وسعيهم ، فكذلك القضاة يجوز لهم أخذ الأجرة على عملهم ، وكذا كل من شغل بشىء من أعمال المسلمين .

الخامس ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى (فى) فى الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (فى) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مظنة لها ومصبّاً . وذلك لما فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفى فك الغارمين من الغرم ـ من التخليص والإنقاذ .

ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال . وتكرير (فى) فى قوله تعالى (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فيه فضل ترجيح لهذين ، على الرقاب والغارمين . انتهى .

قال الناصر : وثَمَّ سر آخر هو أظهر وأقرب ، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملّاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لائقاً بهم وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن فى مصالح تتعلق بهم . فالمال الذى يصرف فى الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبّر عن ذلك بـ (اللام) المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محالّ لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به . وكذلك (الغارمون) إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم ، تخليصاً لذممهم ، لا لهم . وأما (سبيل الله) فواضح فيه ذلك . وأما (ابن السبيل) فكأنه كان مندرجاً فى سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور (باللام) ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب . والله أعلم . ثم قال : وكان جدى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً فى الاستدلال لمالك ، رحمه الله ، على أن الغرض بيان المصرف و (اللام) لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجارّ الواقع خبراً عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقديره ، فإما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك ، أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعىّ ، لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتفى به فى الحرفين جميعاً ، يصح تعلق (اللام) به و (فى) معاً ، فيصح أن نقول : هذا الشىء مصروف فى كذا ولكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فإنه إنما يلتئم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى (فى) يحتاج إلى تقدير : مصروفة ليلتئم بها . فتقديره من (اللام) عامّ التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، والله الموفق . انتهى .

السادس ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم ، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها . فما لهم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ، ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه . انتهى .

وتقدم بيانه أيضا .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« وَمِنْهُمْ » أي من الذين يحلفون بالله إنهم لمنكم ، من هو أشدّ من اللامز في الصدقات إذ هم « الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ » أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، يعنون إنه ليس ببعيد الغور ، بل سريع الاغترار بكل ما يسمع .

قال أبو السعود : وإنما قالوه لأنه صلوات الله عليه كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حلماً وكرماً ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قال اللغويون : (الأُذُن) الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الواحد والجمع ، فيقال : رجلٌ أذن ، ورجالٌ أذن ، وامرأةٌ أذن ، فلا يثنى ولا يجمع ، وإنما سموه باسم العضو تهويلًا وتشنيعاً ، فهو مجاز مرسل ، أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته ، لفرط استماعه ، آلةَ السماع ، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك ، ونحوُه :

إذا ما بدت ليلَى فكلِّيَ أعينٌ   وإن حدثوا عنها فكلِّي مسامعُ

وجعله بعضهم من قبيل التشبيه : بـ(الأُذُن) فى أنه ليس فيه وراء الاستماع تمييز حق عن باطل .

قال الشهاب : وليس بشىء يعتد به . وقيل إنه على تقدير مضاف ، أى ذو أذن .

قال الشهاب : وهو مُذْهِب لرونقه . وقيـل: هو صفة مشبهة من (أذن إليه وله) كفرح : استمع . قال عمرو بن الأهيم[1] :

فلما أنْ تَسَايَرْنَا قَلِيـلًا أَذِنَّ إِلَى الْحَدِيثِ فَهُنَّ صُورُ

ولِقَعنب بن أم صاحب[2] :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً منى ، وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرتُ بِهِ وإن ذُكِرْتُ بشرٍّ عندَهُمْ أَذِنُوا

وفى الحديث[3] ما أذن الله لشىء ما أذِن لِنبىّ يتغنى بالقرآن . قال أبو عبيد : يعنى ما استمع الله لشىء كاستماعه لمن يتلوه ، يجهر به . وقوله عز وجل[4]:(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أى استمعت . كذا فى (تاج العروس) .

وعلى هذا فـ(أُذن) صفة بمعنى سميع ولا تجوّز فيه ، ففيه أربعة أوجه .

وعطف قوله تعالى (وَيَقُولُونَ) عطف تفسير : لأنه نفس الإيذاء .

وقوله تعالى : « قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ » من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة ، كرجل صدق . تريد المبالغة فى الجودة والصلاح، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولـكن نِعْمَ الأذن أو إضافته على معنى (فى) أى هو أذن فى الخير والحق ، وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس

---

(١) استشهد به فى اللسان، ج١٣ ص١٠ (طبعة بيروت) . (٢) استشهد به فى اللسان، ج ١٣ ص ١٠ (طبعة بيروت) . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ١٩ ـ باب من لم يتغنّ بالقرآن ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٤) [٨٤/ الانشقاق / ٢و٥] .

بأذن فى غير ذلك . ودل عليه قراءة حمزة . (ورحمةٍ) بالجر عطفاً عليه ، أى هو أذن خير لكم ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله . ثم فسر كونه أذن خير بقوله : « يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » قال القاشانىّ : هو بيان لينه ﷺ وقابليته ، لأن الإيمان لا يكون إلا مع سلامة القلب ولطافة النفس ولينها « وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يصدق قولهم فى الخيرات ، ويسمع كلامهم فيها ويقبله ، « وَرَحْمَةٌ » أى وهو رحمة « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ » أى يعطف عليهم ، ويرقّ لهم ، فينجيهم من العذاب بالتزكية والتعليم ، ويصلح أمر معاشهم ومعادهم ، بالبر والصلة ، وتعليم الأخلاق من الحلم والشفقة والأمر بالمعروف ، باتباعهم إياه فيها ، ووضع الشرائع الموجبة لنظام أمرهم فى الدارين ، والتحريض على أبواب البر بالقول والفعل ، إلى غير ذلك . قاله القاشانىّ .

وقال غيره : أى هو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، معشر المنافقين ، حيث يقبله ، لا تصديقاً لكم ، بل رفقاً بكم ، وترحماً عليكم ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى تعالى من الحكمة فى الإبقاء عليكم .

قال الشهاب : والمعنى : هو أذن خير يسمع آيات الله ودلائله فيصدقها ويستمع للمؤمنين ، فيسلم لهم مايقولون ، ويصدقهم . وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر ، يسمعون آيات الله ولا يثقون بها ، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ، وأنه ﷺ لا يسمع أقوالهم إلا شفقة عليهم ، لا أنه يقبلها لعدم تمييزه ، كما زعموا .

وقال القاشانىّ فى (تفسيره) : كانوا يؤذونه ، صلوات الله عليه ، ويغتابونه بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع ، فصدقهم فى ذلك وسلّم وقال : هو كذلك ، ولكن بالنسبة إلى الخير ، فإن النفس الأبية والغليظة الجافية ، والكزة القاسية التى تتصلب فى الأمور ، ولا تتأثر ، غير مستعدة للكمال . إذ الكمال الإنسانىّ لا يكون إلا بالقبول والتأثر . فكلما كانت النفس ألين عريكة ، وأسلم قلباً ، وأسهل قبولا ، كانت أقبل للكمال ، وأشد استعداداً له . وليس هذا اللين هو من باب الضعف والبلاهة الذى يقتضي الانفعال من كل

ما يسمع ، حتى المحال ، والتأثر من كل ما يرد عليه ويراه ، حتى الكذب والشرور والضلال ، بل هو من باب اللطافة ، وسرعة القبول لما يناسبه من الخير والصدق ، فلذلك قال : (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ) إذ صفاء الاستعداد ، ولطف النفس ، يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات ، لا ما ينافيه من باب الشرور ، فإن الاستعداد الخيريّ لا يقبل الشر ، ولا يتأثر به ، ولا ينطبع فيه ، لمنافاته إياه ، وبعده عنه . انتهى .

لطائف :

الأولى ـ في قوله تعالى (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ) أبلغ أسلوب في الرد عليهم ، فإنه صدقهم في كونه أذنا ، إلا أنه فسره بما هو مدح له ، وثناء عليه .

قال الناصر : لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه ، لأنه ، في الأول ، إطماع لهم بالموافقة ، ثم كرّ على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه . ويضاهي هذا ، من مستعملات الفقهاء ، القول بالموجب ، لأن في أوله إطماعا للخصم بالتسليم، ثم بتًّا للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه . والله الموفق .

الثانية ـ (اللام) في قوله تعالى (لِلْمُؤْمِنِينَ) مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور ، وهو الاعتراف ، وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق ـ قاله أبو السعود تبعاً للقاضي ـ .

قال الشهاب : يعني أن الإيمان بالله بمعنى الاعتراف والتصديق ، يتعدى بالباء ، فلذا قال (بِاللَّهِ) والإيمان للمؤمنين بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم ، لما علم من خلوصهم ، متعد بنفسه ، فاللام فيه مزيدة للتقوية .

الثالثة ـ قال أبو السعود : إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل ، بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار ـ للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار .

وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ » أي بما نقل عنهم من قولهم (هُوَ أُذُنٌ) ونحوه « لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي بما يجترئون عليه من إيذائه .

قال أبو السعود : وهذا اعتراض مسوق من قِبَلِه عزّ وجل على نهج الوعيد ، غير داخل تحت الخطاب . وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل، لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل ، موجبة لكمال السخط والغضب . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

« يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ » قال الزمخشريّ : الخطاب للمسلمين ، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ، أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ، ويرضوا عنهم ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون ، فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق . انتهى .

ولما كان الظاهر بعد العطف بالواو التثنية ، وقد أُفرِدَ ـ وَجَّهُوهُ :

بأن إرضاء الرسول إرضاء لله تعالى لقوله تعالى[1] : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فلتلازمهما جعلا كشيء واحد ، فعاد عليهما الضمير المفرد ، و (أَحَقُّ) ، على هذا ، خبر عنهما من غير تقدير .

أو بأن الضمير عائد إلى الله تعالى ، و (أَحَقُّ) خبره ، لسبقه . والكلام جملتان ، حذف خبر الجملة الثانية ، لدلالة الأولى عليه . أي : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

---

(١) [٤ / النساء / ٨٠] .

وسيبويه جعله للثانى ، لأنه أقرب ، مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر كقوله[1] :

نَحْنُ بما عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـ ـدَكَ رَاضٍ والرأىُ مُخْتَلِفُ

أو بأن الضمير لهما بتأويل ما ذكر ، أو كل منهما ، وأنه لم يثن تأدباً لئلا يجمع بين الله وغيره فى ضمير تثنية ، وقد نهى عنه ، على كلام فيه .

أو بأن الكلام فى إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه ، فيكون ذكر الله تعظيماً له وتمهيداً . فلذا لم يخبر عنه ، وخص الخبر بالرسول . قال الشهاب : وفيه تأمل . انتهى .

وقد عهد لهم القول بمثله فى آيات كثيرة ، وجواب الشرط مقدر يدل عليه ما قبله ، وقراءة التاء على الالتفات ، للتوبيخ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا » أى أولئك المنافقون . قال أبو السعود : والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة ، مع علمهم بسوء عاقبتها . وقرئ بالتاء على الالتفات ، لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات « أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » أى من يخالف الله ورسوله. قال الليث : حاددته أى خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة ، واشتقاقه من (الحدّ)،

---

(١) من أبيات الكتاب (ج ١ ص ٣٨) وقائله قيس بن الخطيم .

قال الشنتمرىّ : استشهد به مقوّيا لما جاز من حذف المفعول الذى هو فضلة مستغنى عنها ، فى قولهم : ضربتُ وضربنى زيد .

بمعنى الجهة والجانب ، كما أن المشاقة من (الشق) بمعناه أيضاً ، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعاديين في حدّ وشقّ ، غير ما عليه صاحبه . فمعنى (يُحَادِدِ اللَّهَ) يصير في حدٍّ غير حدِّ أولياء الله ، بالمخالفة .

وقال أبو مسلم : المحادة مأخوذة من الحديد ، حديد السلاح .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » أي الذل والهوان الدائم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ » أي في شأنهم ، فإن ما نزل في حقهم ، نازل عليهم « سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ » أي من الأسرار الخفية ، فضلًا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق . ومعنى تنبئتها إياهم بما في قلوبهم ، مع أنه معلوم لهم ، وأن المحذور عندهم اطّلاع المؤمنين على أسرارهم ، لا اطّلاع أنفسهم عليها ـ أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم ، فتنتشر فيما بين الناس ، فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة ، فكأنها تخبرهم بها . والمراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على أسرارهم ، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه ، فتنبئهم بها ، وتنعى عليهم قبائحهم . وقيل : معنى (يحذر) ليحذر ، وقيل : الضميران الأولان للمؤمنين ، والثالث للمنافقين ، ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى إليه . أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين . أفاده أبو السعود .

فإن قلت : المنافق كافر ، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول ؟ أجيب : بأن القوم ، وإن كانوا كافرين بدين الرسول ، إلا أنهم شاهدوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم .

وقال الأصمّ: إنهم كانوا يعرفون كونه رسولًا صادقاً من عند الله ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً . وتعقبه القاضي بأن يبعد ، في العالم بالله وبرسوله وصحة دينه ، أن يكون محادًّا لهما . لـكن قال الرازيّ : هو غير بعيد ، لأن الحسد إذا قوي في القلب ، صار بحيث ينازع في المحسوسات . انتهى .

وقال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر كل شيء ، ويدعى أنه عن الوحي ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره . ولذلك قال تعالى : « قُلِ اسْتَهْزِئُوا » أى بالله وآياته ورسوله ، أو افعلوا الاستهزاء ، وهو أمر تهديد « إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » أى مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه من إنزال السورة ، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لـكم ، كقوله تعالى(١) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ... إلى قوله : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ . . . الآية) ـ ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ)

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ » أى عن إتيانهم بتلك القبائح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر «لَيَقُولُنَّ» أى فى الاعتذار إنه لم يكن عن القلب حتى يكون نفاقاً وكفراً بل « إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ » أى ندخل هذا الـكلام لترويح النفس « وَنَلْعَبُ » أى نمزح « قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » أى فى ترويحكم ومزاحكم ، ولم تجدوا لهما كلاماً آخر .

---

(١) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٢٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« لَا تَعْتَذِرُوا » أى لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة ، فالنهى عن الاستغال به وإدامته إذ أصله وقع « قَدْ كَفَرْتُمْ » أى أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه وباستهزائكم بمقالكم « بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بعد إظهاركم الإيمان .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال الكيا : فيه دلالة على أن اللاعب والجادّ فى إظهار كلمة الكفر سواء ، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر ـ انتهى ـ .

قال الرازىّ : لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف . والعمدةُ الكبرى فى الإيمان تعظيمُ الله تعالى بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

وقال الإمام ابن حزم فى (الملل) : كل ما فيه كفر بالبارئ تعالى ، واستخفاف به ، أو بنبيّ من أنبيائه ، أو بملك من ملائكته ، أو بآية من آياته عز وجل ، فلا يحلّ سماعه ، ولا النطق به ، ولا يحلّ الجلوس حيث يلفظ به . ثم ساق الآية .

وقوله تعالى : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ » أى لتوبتهم وإخلاصهم . أو تجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء « نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى مصرّين على النفاق ، أو مُقدِمين على الإيذاء والاستهزاء .

تنبيه :

روى فى صفة استهزاء المنافقين روايات عدة :

قال ابن إسحاق[١] : كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، أخو بنى عمرو بن

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٩٠١ و٩٠٢ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٨ و١٦٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخَشِّن بن حُمَيِّر ،(ويقال مَخْشِيّ) يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا . والله ! لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين ، فقال مخشن بن حمير . والله ! لوددت أن أقاضي على أن يُضْرَبَ كل منا مائة جلدة ، وأنا ننقلب أن ينزل فينا قرآن ، لمقالتكم هذه . وقد قال رسول الله ﷺ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر : أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا ، فقل : بلى ! قلتم : كذا وكذا . فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ـ ورسول الله ﷺ واقف على ناقته ـ : يارسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب،فأنزل اللهعزوجل فيهم(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) وقال مخشن بن حمير : يارسول الله ! قعد بي اسمي واسم أبي . وكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية مخشن ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر . انتهى .

وقال عكرمة : ممن إن شاء الله تعالى عفا عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها ، تقشعر منها الجلود ، وتوجَلُ منها القلوب . اللهم فاجعل وفاتي قتيلا في سبيلك ، لا يقول أحد : أنا غسلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة،فما من أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ ، غيره .

ومما روى في استهزائهم أن رجلا من المنافقين قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء ، أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى النبيّ صلوات الله عليه وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يارسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : أبالله ورسوله وآياته كنتم تستهزئون . . . الآية ـ وهو متعلق بسيف الرسول ، وما يلتفت إليه ﷺ .

قال الزجاج : (الطائفة) في اللغة أصلها الجماعة ، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء ، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة . انتهى .

وإيقاع الجمع على الواحد معروف في كلام العرب .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » أي متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أبعاض الشيء الواحد . والمراد الاتحاد في الحقيقة والصفة . فـ (من) اتصالية .

قال الزمخشريّ : أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وتقرير قوله (وما هم منكم) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله : « يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ » كالكفر والمعاصي « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ » كالإيمان والطاعات « وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ » أي بخلا بالمبرّات ، والإنفاق في سبيل الله ، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود ، لأن من يُعْطِي يمد يده ، بخلاف من يمنع « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » أي أغفلوا ذكره وطاعته ، فتركهم من رحمته وفضله .

قال الشهاب : معنى (نَسُوا اللَّهَ) أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ، لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم .

قال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه تعالى ، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر .

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى الكاملون فى الفسق ، الذى هو التمرد فى الكفر ، والانسلاخ عن كل خير . وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله به المنافقين حين بالغ فى ذمهم . وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول (كسلت) لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله[1] (كُسَالَى) فما ظنك بالفسق ؟ أفاده الزمخشرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

« وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا،هِيَ حَسْبُهُمْ » أى عقاباً وجزاء « وَلَعَنَهُمُ اللهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أنتم مثل الذين أو فعلتم مثلهم ، أى ممن أنعم عليهم

---

(١) [٤ / النساء / ١٤٢] و [٩ / التوبة / ٥٤] .

ثم عذبوا، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد « كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً » في أنفسهم « وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا » أي تفيدهم مزيد قوة ، ومنافع جمة « وَأَوْلَاداً » أي تفيدهم مزيد قوة لا تفوت بفوات المال ، ومنافع أخر « فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ » أي انتفعوا بنصيبهم ، ثم أعطاكم أيها المنافقون أقل مما أعطاهم « فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا » أي دخلتم في الباطل ، كالخوض الذي خاضوه ، أو كالفوج الذي خاضوا « أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أي لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ، أما في الآخرة فظاهر ، وأما في الدنيا فما لهم من الذل والهوان وغير ذلك « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أي الذين خسروا الدارين.

روى ابن جريج عن أبي هريرة قال(١) : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ! لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : فمن ؟ وفي رواية قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم القرآن : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . الآية (قال أبو هريرة: الخَلَاقُ : الدين) قالوا : يا رسول الله ! كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟ وهذا الحديث له شاهد في الصحيح ـ أفاده ابن كثير ـ.

لطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : أي فائدة في قوله (فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ)؟ وقوله (كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ) مغنٍ عنه ، كما أغنى قوله (كَالَّذِي خَاضُوا) عن

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ، بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وشاهده في الصحيح ما أخرجه البخاري في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٤ ـ باب قول النبي ﷺ « لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم » ، الحديث رقم ٢٥٨٩ .

أن يقال : وخاضوا نخضتم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الراضى به، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ، ويعذب ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله . وأما (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن ، باستناده إليه ، عن تلك التقدمة .

ثم وعظ تعالى المنافقين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« أَلَمْ يَأْتِهِمْ » أى بطريق التواتر « نَبَأُ » أى خبر « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وهو إهلاكهم بعد تنعيمهم لكفرهم « قَوْمِ نُوحٍ » أنعم عليهم بنعم ، منها تطويل أعمارهم ، ثم أهلكوا بالطوفان « وَعَادٍ » قوم هود ، أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم ، ثم أهلكوا بالريح « وَثَمُودَ » قوم صالح ، أنعم عليهم بنعم ، منها القصور ، ثم أهلكوا بالرجفة « وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ » أهلكوا بالهدم ـ كذا فى (التنوير) .

وقال المهايمى : أنعم عليهم بنعم منها عظم الملك ثم أهلك ملكهم نمرود بالبعوض الداخل فى أنفه « وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ » قوم شعيب ، أنعم عليهم بنعم ، منها التجارة ، ثم أهلكهم بإفاضة النار عليهم « وَالْمُؤْتَفِكَاتِ » قريات قوم لوط ، ائتفكت بهم ، أى انقلبت بهم ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل .

وقوله تعالى « أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » استئناف لبيان نبئهم . أن جاءتهم بالآيات الدالة على رسالتهم « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى بإهلاكه إياهم ، لأنه أقام عليهم الحجة، بإرسال الرسل ، وإزاحة العلل . والفاء للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام . أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى ، فما ظلمهم بذلك « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بالكفر والتكذيب، وترك شكره تعالى ، وصرفهم نعمه إلى غير ماأعطاهم إياها لأجله ، فاستحقوا ذلك العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فى مقابلة قوله فى المنافقين[(١)] (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) « يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى فلا يزالون يذكرونه تعالى ، فهو فى مقابلة ماسبق من قوله[(١)] (نَسُوا اللَّهَ) « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » بمقابلة قوله[(١)] (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) « وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل أمر ونهى ، وهو بمقابلة وصف المنافقين ، بكمال الفسق والخروج عن الطاعة « أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

---

(١) [٩ / التوبة / ٦٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومساكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً » أى منازل حسنة تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش « فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ » أى إقامة وثبات. ويقال (عَدْنٍ) علم لموضع معين فى الجنة ، لآثار فيه ، ولما كان (وَمَسَاكِنَ) معطوفاً على (جَنَّاتٍ) قيل : إن المتعاطفين إما أن يتغايرا بالذات، فيكونوا وُعِدُوا بشيئين، وهما الجنات بمعنى البساتين ومساكن فى الجنة ، فلكل أحد جنة ومسكن . أو الجنات المقصود بها غير عدن ، وهى لعامة المؤمنين ، و(عَدْنٍ) للنبيين عليهم الصلاة والسلام والشهداء والصديقين. وإما أن يتحدا ذاتاً . ويتغايرا صفة ، فينزل التغاير الثانى منزلة الأول ، ويعطف عليه ، فكل منهما عام ، ولكن الأول باعتبار اشتمالها على الأنهار والبساتين ، والثانى باعتبار الدور والمنازل .

قال القاضى : فكأنه وصف الموعود أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التى يعرفونها لتميل إليه طباعهم ، أول ما يقرع أسماعهم ، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، معرى من شوائب الكدورات التى لا تخلو عن شىء منها أماكن الدنيا ، وفيها ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العليين ، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيّر ، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة ، وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ، ولعل عدم نظمه فى

سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود ، ولأنه مستمر في الدارين. أفاده أبو السعود .

وإيثار رضوان الله على ماذكر ، إشارة إلى إفادة أن قدراً يسيراً منه خير من ذلك .

وقد روى الإمام مالك والشيخان[1] عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: ياأهل الجنة افيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب؛ وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

وروى المحامليّ والبزار عن جابر ، رفعه: إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله عزوجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا : يا ربنا ! ما هو خير مما أعطيتنا ؟ قال: رضواني أكبر .

« ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أي لاما يعدّه الناس فوزاً من حظوظ الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » قيل : مجاهدة المنافقين بالحجة لا بالسيف . قال في (العناية)ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين ، وهم غير مظهرين للكفر ، ونحن مأمورون بالظاهر ، فلذا فسر الآيةَ السلفُ بما يدفع ذلك ، بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى ، سواء كان بالقتال أو بغيره ، وهو إن كان حقيقة فظاهر ، وإلا

---

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار : حديث رقم ٢٤٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٩ (طبعتنا) .

حمل على عموم المجاز، فجهاد الـكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإلزامهم الحجج، وإزالة الشبه ونحوه . أو بإقامة الحدود عليهم ، إذا صدر منهم موجبها ، كما روى عن الحسن فى الآية . وقيل عليه بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً ، وأجيب بأنها فى زمنه ﷺ أكثر ما صدرت عنهم . انتهى .

قال ابن العربى[1] : هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصى بمنافق ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامنا ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

وقال ابن كثير : روى عن علىّ رضى الله عنه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين[2] : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) ؛ وسيف للـكفار أهل الـكتاب[3] : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...) الآية ـ ؛ وسيف للمنافقين[4] : (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ) وسيف للبغاة[5] : (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي . . .) الآية ـ وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . انتهى .

وفى (الإكليل) استدل بالآية من قال بقتل المنافقين . انتهى .

« وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » أى اشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

---

(١) أحكام القرآن : ص ٩٦٦ من القسم الثانى ، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى .
(٢) [٩ / التوبة / ٥] . (٣) [٩ / التوبة / ٢٩] .
(٤) [٩ / التوبة / ٧٣] و [٦٦ / التحريم / ٩] . (٥) [٤٩ / الحجرات / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا » أى فيك شيئاً يسوءك « وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ » قال قتادة[١] : نزلت فى عبدالله بن أبيّ ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهنىّ وأنصارىّ ، فعلا الجهنىّ على الأنصارىّ ، فقال عبدالله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ! والله ، ما مثلنا ومثل محمد إلّا كما قال القائل : (سمن كلبك يأكلك) . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبيّ ﷺ ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

وروى الأموىّ فى مغازيه عن ابن إسحاق أن الجلاس بن سويد بن الصامت ـ وكان ممن تخلف من المنافقين ـ لما سمع ما ينزل فيهم قال : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول ، لنحن شرٌّ من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد ، وكان فى حجره ، فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلىّ ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزهم علىّ أن يصله شىء تكرهه ، ولقد قلت مقالة ، فإن ذكرتها لتفضحنى ، ولئن كتمتها لتهلكنى ، ولإحداها أهون علىّ من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس ، أتى رسول الله ﷺ ، فحلف بالله ما قالها ، فأنزل الله عز وجل فيه (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ...) الآية ـ فوقفه رسول الله ﷺ عليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ، ونزع فأحسن النزوع .

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء العاشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وهاتان الروايتان وغيرها مما روى هنا ، كله مما يفيد تنوع مقالات وكلمات مكفرة لهم مما هو من هذا القبيل ، وإن لم يمكنا تعيين شيء منها فى هذه الآية .

وقوله تعالى : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » قال ابن كثير : قيل أنزلت فى الجلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل عمير ابن امرأته ، لما رفع كلمته المتقدمة إلى النبىّ صلوات الله عليه. وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبىّ ﷺ، وهو فى غزوة تبوك ، فى بعض تلك الليالى ، فى حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلا . قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية . قال الإمام أحمد فى مسنده(١) : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، أمر منادياً فنادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ،ويسوق به عمّار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، غشوا عمارا ، وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول ﷺ لحذيفة : قُدْ قُدْ . حتى هبط رسول الله ﷺ . فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ، ورجع عمار ! فقال : يا عمار ! هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الرواحل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدرى ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه . قال : فسابّ عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلا . فقال : إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعدّد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة ، قالوا : والله ما سمعنا منادىَ رسول الله ﷺ ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . « وَمَا نَقَمُوا » أى ما أنكروا وما عابوا « إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » فإنهم كانوا قبل مقدمه ﷺ المدينة فى ضنك من العيش ، فأثروا بالغنائم ، وقتل للجلاس

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى).

مولى ، فأمر له النبيّ ﷺ بديته فاستغنى . والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فجعلوا موضع شكر النبيّ ﷺ ما همّوا به ، ولا ذنب إلا تفضله عليهم ، فهو على حد قولهم : مالى عندك ذنب إلا أنى أحسنت إليك ، وقول ابن قيس الرقيّات[1] :

مَا نَقِمَ النَّاسُ من أُمَيَّةَ إِلا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

وقول النابغة[2] :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ويقال : نقم من فلان الإحسان (كعلم) إذا جعله مما يؤديه إلى كفر النعمة . كما فى (التاج) ـ ثم دعاهم تعالى إلى التوبة بقوله : « فَإِنْ يَتُوبُوا » أى من الكفر والنفاق « يَكُ خَيْراً لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا » أى بالقتل والهم والغم « وَالْآخِرَةِ » أى بالنار وغيرها « وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ » أى يشفع لهم فى دفع العذاب « وَلَا نَصِيرٍ » أى فيدفعه بقوته .

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ونصه فيه : ما نقموا من بنى أمية إلا ... الخ . قال شارح الشواهد : هو لابن قيس الرُّقيَّات . يعنى أنهم جعلوا أحسن الأشياء قبيحا ، وهو الحلم عند الغضب ، وذلك أصل الشرف والسيادة .

والبيت من قصيدة مطلعها :

عـاد له من كثيرةَ الطربُ ... فعينه بالدموعِ تَنْسَكِبُ

يمدح بها عبدالملك بن مروان (انظر : ص٤٠ ج٦) فى : رغبة الآمل من كتاب الكامل .

(٢) من شواهد الكشاف . قال شارحه : هـو للنابغة الذبيانىّ من قصيدته المشهورة التى أولها :

كِليني لهمٍّ يا أميـةُ ناصبِ ... وليـلٍ أقاسيه بطىء الكواكب

وفلول السيف كناية عن كمال الشجاعة ، فكونه من العيب محال .

ثم بيّن تعالى بعض مَنْ نقم لإغناء الله تعالى إياه بما آتاه من فضله ، ممن نكث فى يمينه ، وتولى عن التوبة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ » أى حلف به « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى بإعطاء كل ذى حق حقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ)

« فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا » أى من العهد « وَهُمْ مُّعْرِضُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

« فَأَعْقَبَهُمْ » أى فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك ، أو فأورثهم البخل « نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ » أى من التصدق والصلاح « وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » فى العهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين « وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى ما غاب عن العباد .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ فى (لباب النقول) : أخرج الطبرانيّ وابن مردويه وابن أبى حاتم والبيهقيّ فى (الدلائل) بسند ضعيف عن أبى أمامة ؛ أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله! ادع الله أن يرزقنى مالًا . قال : ويحك يا ثعلبة ! قليل تؤدى شكره ، خير من كثير لا تطيقه . قال : والله لئن آتانى الله مالًا لأوتين كل ذى حق حقه . فدعا له ، فاتخذ غنماً ، فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة ، فتنحى بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعى المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها ، ثم نمت ، فتنحى بها ، فترك الجمعة والجماعات . ثم أنزل الله على رسوله[1] (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، فاستعمل على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتاباً ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : انطلقا إلى الناس ، فإذا فرغتم فمروا بى ففعلا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ...) إلى قوله (يَكْذِبُونَ) الحديث .

وأخرج ابن جرير[2] وابن مردويه من طريق العوفيّ عن ابن عباس نحوه ، وفيه أنه جاء بعدُ إلى النبيّ ﷺ بصدقته فقال له : إن الله منعنى أن أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه . فقال : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى ، فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ، وكذا عمر وعثمان ، ثم إنه هلك فى أيام عثمان .

قال الشهاب : مجىء ثعلبة وحثوه التراب ، ليس للتوبة من نفاقه ، بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين . وقوله صلوات الله عليه : هذا عملك ، أى جزاء عملك ، وهو عدم إعطائه المصدقين ، مع مقالته الشنعاء .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٢) انظر تفسير ابن جرير ص ١٨٩ من الجزء العاشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته وهو مكلف بالتصدق ؟ أجيب : بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترئ الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، وردّ سعاة النبيّ ﷺ ، ويكون لطفاً فى ترك البخل والنفاق .

الثانى ـ قال بعض المفسرين من الزيدية : ثمرة الآية وسبب نزولها أحكام :

منها ـ أن الوفاء بالوعد واجب ، إذا تعلق العهد بواجب . والعهد إن حمل على اليمين بالله ، فذلك ظاهر ، وإن حمل على النذر ، ففى ذلك تأكيد لما أوجب الله .

ومنها ـ أن للإمام أن يفعل مثل ذلك لمصلحةٍ ، أى يمتنع من أخذ الواجب إذا حصل له وجه شابه الوجهَ الذى حصل فى قصة ثعلبة . انتهى .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق ، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان . وفيها المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه لقوله : (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً) واستدل بها قوم على أن من حلف إن فعل كذا فلله علىّ كذا ، أنه يلزمه . وآخرون على أن مانع الزكاة يعاقب بترك أخذها منه . كما فعل بمن نزلت الآية فيه . انتهى .

الرابع ـ قال الرازىّ : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ، وخلف الوعد ، يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به . ومذهب الحسن البصرىّ رحمه الله أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية ، وبقوله عليه السلام[1] : (ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان).

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ ـ ١١٠ (طبعتنا) .

الخامس ـ دل قوله تعالى : (إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) على أن ذلك المعاهد مات منافقاً . قال الرازيّ : وهذا الخبر وقع مخبره مطابقاً له ، فإنه روى أن ثعلبة أتى النبيّ ﷺ بصدقته فقال : إن الله تعالى منعنى أن أقبل صدقتك . وبقى على تلك الحالة . وما قَبِلَ أحدٌ من الخلفاء رضى الله عنهم صدقته حتى مات . فكان إخباراً عن غيب ، فكان معجزاً .

السادس ـ الضمير فى (يلقونه) للفظ الجلالة ، والمراد بـ (اليوم) يوم القيامة . وله نظائر كثيرة فى التنزيل . وأغرب بعض المفسرين حيث قال : الضمير في (يلقونه) إما لله ، والمراد باليوم وقت الموت ، أو للبخل والمراد يوم القيامة والمضاف محذوف ، وهو الجزاء . انتهى .

واللقاء إذا أضيف إلى الكفار كان لقاءً مناسباً لحالهم من وقوفهم للحساب مع حجبهم عنه تعالى ، لأنهم ليسوا أهلاً لرؤيته ، تقدس اسمه . وإذا أضيف إلى المؤمنين ، كما فى قوله تعالى (١) : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ، كان لُقْيا مناسباً لمقامهم من رؤيته تعالى . وذلك لِمَا أفصحت عنه آيات أخر من حال الفريقين ، مما يتنزل مثل ذلك عليها . فمن وقف فى بعض الآيات على لفظة ، وأخذ يستنبط منها ، ولم يراع من استعملت فيه ، وأطلقت عليه ، كان ذلك جموداً وتعصباً ، لا أخذاً بيد الحق . نقول ذلك ردًّا لقول الجبائيّ : إن اللقاء فى هذه الآية لا يفيد رؤيته تعالى ، للإجماع على أن الكفار لا يرونه تعالى ، فلا يفيدها أيضاً فى قوله تعالى : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) . وللرازيّ معه مناقشة من طريق أخرى . وما ذكرناه أمتن . والله أعلم .

السابع ـ قال الرازيّ : (السر) ما ينطوى عليه صدورهم ، و (النجوى) ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وهو مأخوذ من النجو ، وهو الكلام الخفيّ ، كأن المتناجيَيْن مَنَعَا إدخال غيرهما معهما ، وتباعدا من غيرهما .

ثم بين تعالى من مساوئ المنافقين نوعاً آخر ، وهو لمزهم المتصدقين بقوله سبحانه :

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ » أى يعيبون « الْمُطَّوِّعِينَ » أى المتبرعين « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ » فيزعمون أنهم تصدقوا رياءً « وَالَّذِينَ » أى ويلمزون الذين « لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » أى لا يجدون ما يتصدقون به إلا قليلًا ، وهو مقدار طاقتهم « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ » أى يهزؤون بهم ، ويقولون إن الله غنىّ عن صدقتهم « سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » أى جازاهم على سخرهم « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى البخارىّ[١] فى صحيحه عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة ، كنا نحامل[٢] فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا : مرائى . وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنىّ عن صدقة هذا ، فنزلت : (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ . . .) الآية ـ ورواه مسلم[٣] أيضاً .

وروى الإمام أحمد[٤] عن أبى السليل عن رجل حدثه عن أبيه أو عمه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من يتصدق بصدقة أشهدُ له بها يوم القيامة ؟ فجاء رجل لم أر رجلًا أشدّ منه سواداً ، ولا أصغر منه ولا أدمّ ، بناقة لم أر أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، دونك هذه الناقة . قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهى خير منه ! فسمعها رسول الله ﷺ فقال : كذبت ! بل هو خير منك ومنها (ثلاث مرات) . ثم قال : ويل لأصحاب الإبل إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٤ كتاب الزكاة ، ١٠ ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث رقم ٧٥٥ (٢) أى نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة . (٣) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث ٧٢ (طبعتنا) . (٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

قال ابن إسحاق[١] : كان المطّوّعون من المؤمنين فى الصدقات عبد الرحمن بن عوف ، وعاصم بن عدىّ أخا بنى عجلان . وذلك أن رسول الله ﷺ رغّب فى الصدقة ، وحضّ عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن عدىّ وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذى تصدق بجهده أبا عقيل ، أخا بنى أنَيْف ، أتى بصاع من تمر ، فأفرغها فى الصدقة فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لغنىّ عن صاع أبى عقيل .

وروى الحافظ البزار فى مسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثاً . فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ! عندى أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما لربى ، وألفين لعيالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت . وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله ! أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربى ، وصاع لعيالى . قال،فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله الآية . وقوله عليه الصلاة والسلام (أريد أن أبعث بعثاً) أى لغزو الروم ، وذلك فى غزوة تبوك .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية تحريم اللمز والسخرية بالمؤمنين، انتهى .

الثانى ـ فى (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ) وجوه من الإعراب : خبر مبتدأ بتقدير (هُمُ الَّذِينَ) أو مفعول أعنى أو أذم الذين ، أو مجرور بدل من ضمير (سِرَّهُم)، وجوّز أيضاً أن يكون

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة رقم ٩٣٦ (طبعة جوتنجن) وصفحة ١٩٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

مبتدأ خبره (سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ) ، وقيل : (فَيَسْخَرُونَ) ، ودخلت (الفاء) لما فى (الَّذِينَ) من الشبه بالشرط . وأما (الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ) . . . الخ فقيل : معطوف على (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ) وقيل : (علىالْمُؤْمِنِينَ) ، والأحسن أنه معطوف على (المطوعين) .

قال فى (الفتح) : ويكون من عطف الخاص على العام ، والنكتة فيه التنويه بالخاص ، لأن السخرية من المقلّ أشدّ من المكثر غالباً .

الثالث ـ قال فى (الفتح) : قراءة الجمهور (الْمُطَّوِّعِينَ) بتشديد الطاء والواو . وأصله المتطوعين ، أدغمت التاء فى الطاء . انتهى . أى لقرب المخرج . والتطوع التنفّل ، وهوالطاعة لله تعالى بما ليس بواجب . و (الجهد) ، قال الليث : هو شيء قليل يعيش به المقلّ ، وبضم الجيم قرأ الجمهور . وقرأ ابن هرمز وجماعة بالفتح ، فقيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : المفتوح بمعنى المشقة ، والمضموم بمعنى الطاقة . وقيل: المضموم قليل يعاش به ، والمفتوح: العمل . والمختار أنهما بمعنى ، وهو الطاقة وما تبلغه القوة . قال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغيرهم . والهزء والسخرية بمعنى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى لهؤلاء المنافقين « أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى فإنهما فى حقهما سواء . ثم بيّن استحالة المغفرة لهم وإن بولغ فى الاستغفار بقوله تعالى : « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ » أى عدم الغفران لهم « بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن حدوده .

تنبيهات :

الأول ـ جملة قوله تعالى (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الخ، إنشائية لفظاً،خبرية معنى. والمراد التسوية بين الاستغفار لهم، وتركه، في استحالة المغفرة. وتصويره بصورة الأمر، للمبالغة في بيان استوائهما. كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال ، بأن يستغفر تارة ، ويترك أخرى ، ليظهر له جلية الأمر ، كما مر في قوله تعالى[1] (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً » ،وقد وردت بصيغة الخبر في سورة «المنافقون» في قوله تعالى[2] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الثاني ـ قال الزمخشري : (السبعون) جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير . قال علي ابن[3] أبي طالب عليه السلام :

لَأُصْبِحَنَّ العاصَ وابن العاصِي   سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي .

أي فذكرها للمبالغة في حسم مادة الاستغفار لهم ، جريا على أساليب العرب في ذكرها للمبالغة لا للتحديد ، بأن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقال أبو السعود : شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير ، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنها العدد بأسره . وقيل : هي أكمل الأعداد ، لجمعها معانيها ، ولأن الستة أول عدد تامّ ، لتعادل أجزائها الصحيحة ، إذ نصفها ثلاثة ، وثلثها

(١) [٩ / التوبة / ٥٣] .   (٢) [٦٣ / المنافقون / ٥و٦] .

(٣) استشهد به في الكشاف قال شارح الشواهد : أي لأسقين الصّبوح . والعاص، إن روى بالكسر ، فعلى الوصف بالعصيان ، وإن روى بالفتح فكأنه أريد القبيلة ، وهو عمرو بن العاص . و(سبعين) ثاني مفعولي (لأصبحن) . والمراد الفرسان العاقدي نواصي الخيل من عادة العرب أن تستعمل مثل هذا العدد للكثرة ...

اثنان ، وسدسها واحد ، وجملتها ستة ، وهى مع الواحد سبعة ، فكانت كاملة؛ إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال . ثم السبعون غاية الكمال ، إذ الآحاد غايتها العشرات . والسبعمائة غاية الغايات ـ انتهى ـ .

الثالث ـ روى البخاريّ(١) وغيره أن النبيّ ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما أراد أن يصدّه عن الصلاة على عبد الله بن أبىّ : إنما خيّرنى الله فقال : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الآية وسأزيده على السبعين . فظاهر هذا أن (أو) للتخيير ، وأن السبعين له حدّ يخالفه حكم ما وراءه ، وهو من الإشكال بمكان . ولذا قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف خفى على رسول الله ﷺ ، وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ؟ والذى يفهم من هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا . . .) الآية ـ فبين الصارف عن المغفرة لهم ، حتى قال : قد رخص لى ربى فسأزيد على السبعين . ثم أجاب الزمخشريّ بقوله : قلت لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام (٢) : (وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)وفى إظهار النبىّ صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض . انتهى .

قال الشراح : يعنى أنه أوقع فى خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون التكثير ، فجوّز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة ، كما جعل إبراهيم ﷺ جزاء من عصانى أى لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام ، قوله (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) دون أن يقول : (شديد العقاب) نخيل أنه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم ، وحثًّا على الاتباع . وفهمُ المعنى الحقيقىّ من

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ٨ باب قوله : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم سَبْعِينَ مَرَّةً ، حديث ٧٢٢ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] .

لفظ اشتهر مجازه ، لا ينافي فصاحته ، ومعرفته باللسان ، فإنه لا خطأ فيه ، ولا بعد ، إذ هو الأصل . ورجحه عنده شغفه بهدايتهم ، ورأفته بهم ، واستعطاف من عداهم .

قال الناصر : وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الاستغفار ، ولم يصححه ، وتغالى قوم في قبوله ، حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ، ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم. وقيل : لما سوى الله بين الاستغفار وعدمه ، ورتب عليه عدم القبول ، ولم ينه عنه ، فهم أنه خير ومرخص فيه ، وهذا مراده ﷺ ، لا أنه فهم التخيير من (أو) ، حتى ينافي التسوية بينهما ، المرتب عليها عدم المغفرة ، وذلك تطييباً لخاطرهم ، وأنه لم يأل جهداً في الرأفة بهم .

قال الشهاب : والتحقيق أن المراد التسوية في عدم الفائدة ، وهي لا تنافي التخيير ، فإن ثبت فهو بطريق الاقتضاء ، لوقوعها بين ضدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما ، فلابد من أحدهما . فقد يكون في الإثبات كقوله تعالى[1] (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ) لأنه مأمور بالتبليغ ، وقد يكون في النفي كما هنا ، وفي قوله[2] : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ...) الآية ـ فهو محتاج إلى البيان . ولذا قال النبي ﷺ : (إنه رخص لي) ولعله رخص له في ابن أبيّ لحكمة ، وإن لم يترتب عليه فائدة القبول . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة قال: لما نزلت (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) قال النبي ﷺ : لأزيدنّ على السبعين ، فأنزل الله تعالى « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ثم قال: ويحتمل أن تكون الآيتان مما نزلتا في ذلك انتهى.

ثم أشار تعالى إلى نوع آخر من مساوئ المنافقين وهو جعلهم الفرح مكان الحزن ، والكراهة مكان الرضا بقوله سبحانه :

---

(١) [٢ / البقرة / ٦] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ » المخلفون : هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم فى التخلف كما قلنا ، أو لأنه خلفهم فى المدينة فى غزوة تبوك . وإيثار (الْمُخَلَّفُونَ) على (المتخلفون) ، لأنه ﷺ منع بعضهم من الخروج ، فغلب على غيرهم . أو المراد من خلفهم كسلهم أو نفاقهم . أو لأن الشيطان أغراهم بذلك ، وحملهم عليه . وقوله تعالى: (بِمَقْعَدِهِمْ) متعلق بـ (فرح) ، أى بقعودهم عن غزوة تبوك . فـ (مقعد) على هذا مصدر ميمىّ ، أو هو اسم مكان ، والمراد به المدينة . وقوله (خِلَافَ رَسُولِ اللهِ) أى خلفه ، وبعد خروجه ، حيث خرج ولم يخرجوا . فـ (خلاف) ظرف بمعنى خلف وبعد . يقال: فلان أقام خلاف الحىّ أى بعدهم ، ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ (خلف رسول الله) ، فانتصابه على أنه ظرف لـ (مقعدهم) ، إذ لا فائدة لتقييد فرحهم بذلك .

قال الشهاب : واستعمال (خلاف) بمعنى (خلف) لأن جهة الخلف خلاف الأمام ، وجوز أن يكون (الخلاف) بمعنى (المخالفة) ، فهو مصدر (خالف) ، كالقتال . ويعضده قراءة من قرأ (خُلف رسول الله) بضم الخاء ، وفى نصبه وجهان :

الأول ـ أنه مفعول له ، والعامل إما (فرح) أى فرحوا لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود . وإما (مقعدهم) أى فرحوا بقعودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام ، فهو علة إما للفرح أو للقعود .

والثانى ـ أنه حال، والعامل أحد المذكورين، أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام بالقعود، أو فرحوا بالقعود مخالفين له .

وقوله تعالى : (وَكَرِهُوا) الخ أى لما فى قلوبهم من مرض النفاق .

قال أبو السعود : وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : (وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو) إيذاناً بأن الجهاد فى سبيل الله ، مع كونه من أجلّ الرغائب ، وأشرف المطالب ، التى يجب أن يتنافس بها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله ﷺ .

قال الزمخشرىّ : فى قوله تعالى (وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) تعريض بالمؤمنين ، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض (أى الراحة والتنعم بالمآكل والمشارب) وكره ذلك المنافقون . وكيف لا يكرهونه ؟ وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعى الإيقان .

قال الشهاب : ووجه التعريض ظاهر ، لأن المراد كرهوه ، لا كالمؤمنين الذين أحبوه .

وقوله تعالى : « وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ » أى قالوا لإخوانهم لا تنفروا إلى الجهاد فى الحر ، فإنه لا يستطاع شدته . وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، وذلك تثبيطاً لهم على التخلف ، وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد . أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ، ونهياً عن المعروف ، وإظهاراً لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود . فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكراهية الجهاد ، ونهى الغير عن ذلك ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى : « قُلْ » أى ردًّا عليهم وتجهيلاً لهم « نَارُ جَهَنَّمَ » أى التى ستدخلونها

بما فعلتم « أَشَدُّ حَرًّا » أى مما تحذرون من الحرّ المعهود ، وتحذّرون الناس منه ، فما لكم لا تحذرونها ، وتعرضون أنفسكم لها ، بإيثار القعود على النفير .

وقوله تعالى : « لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » اعتراض تذييليّ من جهته تعالى ، غير داخل تحت القول المأمور به ، مؤكد لمضمونه . وجواب (لو) إما مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك ، أو كيف هى؛ أو أن مآلهم إليها ـ لما فعلوا ما فعلوا ، أو لتأثروا بهذا الإلزام . وإما غير منوىّ ، على أن (لو) لمجرد التمنى المنبئ عن امتناع تحقق مدخولها . أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقه ، كما فى قوله تعالى[1] (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) كذا فى (أبى السعود) ـ .

تنبيهان :

الأول ـ قال الزمخشرىّ : قوله تعالى (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ . .)الخ، استجهال لهم ، لأن من تصوّن من مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل . ولبعضهم[2] :

مَسَرَّةُ أحقابٍ تَلَقَّيْتَ بَعْدَهَا ۔۔۔ مساءةَ يوم ، أريُها[3] شَبَهُ الصَّابِ
فكيف بأَنْ تلقى مَسَرَّةَ ساعة ۔۔۔ وَرَاءَ تقضِّيهَا مَسَاءَةُ أَحْقَابِ

ـ انتهى ـ .

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) استشهد به فى الكشاف .

قال الشارح : قوله (مسرة أحقاب) مبتدأ، خبره (أَرْيُهَا شَبَهُ الصَّاب) والأحقاب: الأزمان الكثيرة ، واحدها : حُقُب. والأَرْىُ : العسل. والشبَه: المثل. والصاب : نبت مرّ، وقيل : الحنظل . يقول : مسرة أزمان كثيرة ، ترى بعدها مساءة يوم ، هى فى الحقيقة مثل الصاب مرارةً . فكيف بأن تلقى مسرة ساعة وتقع ، بسبب تلك المسرّة، فى مشقة الأبد ؟

(٣) الأرى ما لزق بأسفل القدر والعسل . والصاب : شجر مرّ (قاموس) .

أى فهم كما قال الآخر :

* كالمستجير من الرمضاء بالنار *

وقال آخر :

عمرك بالحِمية أفنيته خوفاً من البارد والحار
وكان أولى لك أن تتقى من المعاصى حَذَرَ النارِ

الثانى ـ روى الإمام مالك(١) والشيخان عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : نار بنى آدم التى يوقدون بها ، جزء من سبعين جزءاً ـ زاد الإمام أحمد : من نار جهنم .

وروى الشيخان(٢) عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لَمَنْ له نعلان وشرا كان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المِرجل. لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً .

ثم أخبر تعالى عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل ، والبكاء الطويل ، المؤدى إليه أعمالهم السيئة ، التى من جملتها ما ذكر من الفرح ، بقوله سبحانه .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٥٧ ـ كتاب جهنم ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .
وأخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٠ ـ باب صفة النار وأنها مخلوقة ، حديث رقم ١٥٤٥ .
وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٣٠ (طبعتنا).
(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار ، حديث ٢٤٦٥ .
وأخرجه مسلم فى : ١ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٣ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا » أى ضحكاً قليلًا ، أو زماناً قليلًا ، غايته مدة حياتهم « وَلْيَبْكُوا كَثِيراً » أى بكاء ، أو زماناً كثيراً ، بعد الموت ، أبد الآباد « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى بفرحهم بمخالفة الله ورسوله ، من الكفر والمعاصى العظائم .

لطائف :

الأولى ـ سرّ إخراج حالهم الدنيوىّ والأخروىّ على صيغة الأمر ، الدالة على تحتم وقوع المخبر به ، فإن أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به . فإن قيل : إنهم ذكروا أنه يعبر عن الأمر بالخبر للمبالغة ، لاقتضائه تحقق المأمور به ، فالخبر آكد ، فما باله عكس هنا ؟ فالجواب : لامنافاة بينهما ، لأن لكل مقام مقالاً ، والنكت لاتتزاحم ، فإذا عبر عن الأمر بالخبر ، لإفادة أن المأمور ، لشدة امتثاله ، كأنه وقع منه ذلك ، وتحقق قبل الأمر ـ كان أبلغ . وإذا عبر عن الخبر بالأمر كأنه لإفادة لزومه ووجوبه ، فكأنه مأمور به ـ أفاد ذلك مبالغة من جهة أخرى .

الثانية ـ الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله : (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) دلالة على الاستمرار التجددىّ ما داموا فى الدنيا .

الثالثة ـ (جزاءً) مفعول له للفعل الثانى . أى ليبكوا جزاء . أو مصدر حذف ناصبه . أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاءً .

ولما جلّى سبحانه ما جلى من أمرهم ، فرّع عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

« فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ » أى ردّك من غزوة تبوك « إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ » أى من المنافقين المتخلفين فى المدينة « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ » معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ، دفعاً للعار السابق « فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى نخذلكم الله ، وسقطتم عن نظره ، بل غضب عليكم ، وألزمكم العار « فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » أى من النساء والصبيان دائماً .

لطائف :

قوله تعالى : (لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) إخبار فى معنى النهى للمبالغة ، وذكر القتال لأنه المقصود من الخروج . فلو اقتصر على أحدهما كفى إسقاطاً لهم عن مقام الصحبة ، ومقام الجهاد ، أو عن ديوان الغزاة ، وديوان المجاهدين ، وإظهاراً لكراهة صحبتهم ، وعدم الحاجة إلى عدّهم من الجند . أو ذكر الثانى للتأكيد ، لأنه أصرح فى المراد ، والأول لمطابقته لسؤاله كقوله :

* أَقُولُ لَهُ ارْحَلْ لَا تُقِيمَنَّ عِنْدَنَا *

فهو أدل على الكراهة لهم ـ أفاده الشهاب ـ .

قال أبو السعود : فكان محوُ أساميهم من دفتر المجاهدين ، ولزّهم فى قرن الخالفين ، عقوبة لهم أىّ عقوبة . ثم قال : وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث ، هو الأكثر الدائر على الألسنة . فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول : هى كبرى امرأة ، أو أُولى مرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا » قال المهايمىّ : لأنها شفاعة ، ولا شفاعة فى حقهم « وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ » أى لا تقف عليه للدفن أو الزيارة والدعاء . قال الشهاب : القبر مكان وضع الميت ، ويكون بمعنى الدفن ، وجوّز هنا : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » فى الحياة فى الباطن « وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن الإيمان الظاهر ، الذى كانوا به فى حكم المؤمنين .

تنبيهات :

الأول ـ روى الشيخان[1] فى سبب نزول الآية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما توفى عبد الله بن أبىّ ، جاء ابنه عبدالله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيّرنى الله فقال[2] : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق . قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل آية (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم . . .) الخ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة، ١٣ ـ باب قوله: وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ، حديث رقم ٦٧٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٥ (طبعتنا) .

(٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

قال الحافظ أبو نعيم : وقع فى رواية فى قول عمر : (أتصلى عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين ؟ ولم يبيّن محل النهى . فوقع بيانه فى رواية أبى ضمرة عن العمرى : وهو أن مراده بالصلاة عليهم الاستغفار لهم ، ولفظه (وقد نهاك الله أن تستغفر لهم)انتهى. يعنى فى قوله تعالى[1]: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَىٰ) فإنها نزلت فى قصة أبى طالب حين قال ﷺ : لأستغفرنّ لك ، ما لم أُنهَ عنك. وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقا ، ووفاة عبد الله بن أبىّ فى ذى القعدة سنة تسع بعدقدوم النبىّ ﷺ من تبوك . كذا فى (فتح البارى) .

ووقع فى مسند الإمام أحمد ما تقدم من حديث عمر نفسه . قال عمر : لما توفى عبد الله ابن أبىّ دُعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف عليه يريدالصلاة عليه ، تحولتُ حتى قمتُ فى صدره فقلت : يا رسول الله ! أعلى عدوّ الله: عبد الله ابن أبىّ القائل يوم كذا ، كذا وكذا ؟ يعدّد أيامه ـ قال : ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : أَخِّرْ عنى يا عمر . إنى خيرت فاخترت . قد قيل لى : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . .) الآية ـ لو أعلم أنى لو زدت على السبعين ، غُفِرَ له ، لزدت. قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره ، حتى فرغ منه . قال: فعجبت من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ! ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا) الآية ـ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عز وجل .

---

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٦ من الجزءالأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٩٥ (طبعة المعارف) تحقيق شيخنا المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر .

ورواه البخارىّ [١] والترمذىّ [٢] أيضا .

وروى الإمام أحمد [٣] عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبىّ ، أتى ابنه النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنك إن لم تأته لم نزل نُعيَّر به ، فأتاه النبىّ ﷺ ، فوجده قد أدخل فى حفرته فقال : أَفَلاَ قَبْلَ أن تدخلوه ؟ فأخرج من حفرته ، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه [٤] . ورواه النسائىّ . وروى [٥] نحوه البخارىّ والبزار فى مسنده ، وزاد : فأنزل الله الآية . زاد [٦] ابن إسحاق فى المغازى بسنده قال : فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله ، ولا قام على قبره .

وقد روى [٧] الإمام أحمد عن أبى قتادة قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أُثْنِىَ عليها خير قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك ، قال لأهلها : شأنكم بها . ولم يصل عليها .

الثانى ـ إنما منع ﷺ من الصلاة على أحدهم إذا مات ، لأن صلاة الميت دعاء واستغفار واستشفاع له . والكافر ليس بأهل لذلك .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٢ ـ باب قوله : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ... » ، حديث رقم ٧٢٢ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٢ ـ حدثنا عبد بن حميد ، و١٣ ـ حدثنا محمد بن بشار . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) . (٤) أخرجه النسائىّ فى : ٢١ ـ كتاب الجنائز ، ٩٢ ـ باب إخراج الميت من اللحد بعد أن يوضع فيه . (٥) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٢٣ ـ باب الكفن فى القميص الذى يكفّ ، أو لا يكفّ ، ومن كفِّن بغير قميص ، حديث رقم ٦٧٦ . (٦) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٩٢٧ (طبعة جوتنجن) وصفحة ١٩٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

الثالث ـ قال: السيوطيّ في (الإكليل) : في قوله تعالى(وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ...) الآية ـ تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ، وأن دفنه جائز : ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ، ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له ، والاستغفار . انتهى .

قال عثمان رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسْأل ـ انفرد بإخراجه أبو داود (١) ـ .

الرابع ـ قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين ، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم: قال الواقديّ : انبأنا معمر عن الزهري قال : قال حذيفة : قال لي رسول الله ﷺ : إني مُسِرٌّ إليك سرًّا ، فلا تذكره لأحد . إني نهيت أن أصلّي على فلان وفلان ، رهطٍ ذوي عدد من المنافقين . قال ، فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى معه ، وإلا لم يصلِّ عليه .

ومن طريق أخرى ، عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً . وقال حذيفة مرة : إنه لم يبق منهم غير رجل واحد . ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك ، أن الله علم أنهم يموتون على الكفر ، بخلاف من سواهم ، فإنهم تابوا . انتهى .

ثم بين تعالى أن دوام غضبه عليهم لا ينافي إعطاءهم الأموال والأولاد ، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى .

[٨٥] (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ » أي لأنه لم يرد الله الإنعام عليهم بها ، ليدل على

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٠ـ كتاب الجنائز ، ٦٩ـ باب الاستغفار عند القبر للميت، حديث رقم ٣٢٢١ .

رضاه عنهم ، بل الانتقام منهم ، قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا » أى بالمشقة فى تحصيلها وحفظها والحزن عليها « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ »أى فيموتون كافرين غافلين عن التدبر فى العواقب . وقد تقدمت الآية فى هذه السورة مع تغاير فى ألفاظها.

قال الزمخشرى : أعيد قوله (وَلَا تُعْجِبْكَ) ، لأن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بالٍ من المخاطب لا ينساه ، ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم ، يفتقر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبه الشىء الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه . وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه . انتهى .

وقال الفارسى : ليست للتأكيد ، لأن تيك فى قوم ، وهذه فى آخرين . وقد تغاير نطقها ، فهنا : (وَلَا) ، بالواو لمناسبة عطف نهى على نهى قبله فى قوله : (وَلَا تُصَلِّ...)الخ فناسب الواو . وهناك بالفاء لمناسبة التعقيب لقوله قبله : (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) أى للإنفاق . فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد ، فنهى عن الإعجاب المتعقب له . وهنا : وأولادهم ، دون (لا) ، لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، وهناك بزيادة (لا)، لأنه نهى كل واحدٍ واحدٍ ، فدل مجموع الآيتين على النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين . وهنا (أَنْ يُعَذِّبَهُمْ) وهناك (لِيُعَذِّبَهُمْ) بلام التعليل . وحذف المفعول . أى إنما يريد اختبارهم بالأموال والأولاد وهنا المراد التعذيب ، فقد اختلف متعلق الإرادة فيهما ظاهراً ، وهناك (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، وهنا (فِي الدُّنْيَا) ، تنبيهاً على أن حياتهم كلا حياة فيها ، وناسب ذكرها بعد الموت ، فكأنهم أموات أبداً . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[٨٧] (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

« وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » .

« رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » إنكار وذم للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه ، مع وجود الطَّول الذى هو الفضل والسعة ، وإخبار بسوء صنيعهم ، إذ رضوا بالعار والقعود مع الخوالف ، لحفظ البيوت ، وهن النساء . وذلك لإيثارهم حب المال على حب الله ، وأنه بسبب ذلك « طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها ، « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » ، أى ما فى حب الله والتقرب إليه بالجهاد من الفوز والسعادة ، وما فى التخلف من الشقاء والهلاك .

فوائـــد

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : يجوز أن يراد السورة بتمامها ، وأن يراد بعضها ، فى قوله : (وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) كما يقع (القرآن) و (الكتاب) على كله وعلى بعضه . وقيل : هى (براءة) ، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد . انتهى .

وقيل : المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد .

قال الشهاب : وهذا أولى وأفيد ، لأن استئذانهم عند نزول آيات براءة علم مما مرّ .

وقد قيل : إن (إذا) تفيد التكرار بقرينة المقام لا بالوضع ، وفيه كلام مبسوط فى محله .

الثانية ـ إنما خص ذوى الطَّول ، لأنهم المذمومون ، وهم من له قدرة مالية ، ويعلم منه البدنية أيضاً بالقياس .

الثالثة ـ الخوالف : جمع (خالفة) ، وهى المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال ، والمراد ذمهم وإلحاقهم بالنساء ، كما قال[1] :

كُتِبَ القتلُ والقِتالُ علينا وعلى الغانيَات جرُّ الذيولِ

والخالفة تكون بمعنى من لا خير فيه ، والتاء فيه للنقل للاسمية ، فإن أريد هاهنا ، فالمقصود من لا فائدة فيه للجهاد . وجمع على فواعل على الوجهين : أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلتأنيث لفظه ، لأن (فاعلا) لا يجمع على (فواعل) فى العقلاء الذكور ، إلا شذوذا ، كنوا كس . أفاده الشهاب .

ثم بيّن تعالى ما للمؤمنين من الثناء الحسن ، والمثوبة الحسنى ضد أولئك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » أى فى سبيل الله ، لغلبة حب الله عليهم ، على حب الأموال والأنفس « وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ » أى منافع الدارين ، النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى العقبى « وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالمطلوب .

---

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة . انظر الكامل للمبرد ص ٩٨٦ (طبعة الحلبى) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى الذى لا فوز وراءه .

ثم بيّن تعالى أحوال منافقى الأعراب ، إثر بيان منافقى أهل المدينة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » أى فى ترك الجهاد ، وهم أحياء ممن حول المدينة . و (الْمُعَذِّرُونَ) فيه قراءتان ، التشديد والتخفيف ، والمشددة لها تفسيران : أحدهما ـ من (عذّر فى الأمر) إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ ، فتكلف العذر ، فعذره باطل .

والثانى ـ من (اعتذر) ، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلا وحقا . وأصله ، عليهما ، (معتذرون) نقلت فتحة التاء إلى العين ، وقلبت التاء ذالا ، وأدغمت فيها .

وأما التخفيف فهى من (أعذر) إذا كان له عذر ، وهم صادقون على هذا .

وقوله تعالى : « وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى دعوى الإيمان ، وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ، ولم يعتذروا ، بل قعدوا من قلة المبالاة بالله ورسوله .

ثم أوعدهم تعالى بقوله : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الضمير فى (مِنْهُمْ) إما للأعراب مطلقا ، فالذين كفروا منافقوهم ، أو أعم ، وإما للمعذرين ، فإن

منهم من اعتذر لكسله ، لا لكفره وجوّز أن يكون المعنى بالذين كفروا منهم ، المصرّون على الكفر .

ثم بيّن تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ماهو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وما هو عارض عنّ له بسبب مرض شغله عن الخروج فى سبيل الله ، أو بسبب أعجزه عن التجهز للحرب ، وبدأ بالأول فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ » وهم العاجزون مع الصحة ، عن العدوّ ، وتحمل المشاق ، كالشيخ والصبي والمرأة والنحيف « وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ » أى العاجزين بأمر عرض لهم ، كالعمى والعرج والزمانة « وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ » أى ولا على الأقوياء والأصحاء الفقراء والعاجزين عن الإنفاق فى السفر والسلاح « حَرَجٌ » أى إثم فى القعود . و(الحرج) أصل معناه الضيق، ثم استعمل للذنب، وهو المراد« إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » أى أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا ، ولم يثيروا الفتن ، وأوصلوا الخيرات للمجاهدين ، وقاموا بمصالح بيوتهم .

وقوله تعالى : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » استئناف مقرر لمضمون ما سبق . أى ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل ، و (مِنْ) مزيدة للتأكيد ، ووضع (الْمُحْسِنِينَ) موضع الضمير ، للدلالة على انتظامهم ، بنصحهم لله ورسوله ، فى سلك المحسنين ، أو تعليل لنفى الحرج عنهم ، أى ما على جنس المحسنين من سبيل ، وهم من جملتهم أفاده أبو السعود .

قال الشهاب : (ليس على محسن سبيل) ، كلام جارٍ مجرى المثل . وهو إما عامّ ، ويدخل فيه من ذكر ، أو مخصوص بهؤلاء . فالإحسان : النصح لله والرسول ، والإثم المنفيّ إثم التخلف ، فيكون تأكيداً لما قبله بعينه على أبلغ وجه ، وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليه ، أى لا يمرّ به العاتب ، ويجوز فى أرضه ، فما أبعد العتاب عنه ! فتفطن للبلاغة القرآنية كما قيل :

سُقْياً لأيامنا التى سَلَفَتْ إذ لا يَمُرُّ العذولُ فى بَلَدِى

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر ، مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة ، وإن كان تخلفهم بعذر ـ أفاده أبو السعود . أى لأن المرء لا يخلو من تفريط ما ، فلا يقال إنه نفى عنهم الإثم أولّا ، فما الاحتياج إلى المغفرة المقتضية للذنب ؟ أفاده الشهاب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) .

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » عطف على (الْمُحْسِنِينَ) ، أو على (الضُّعَفَاءِ) أى لتعطيهم ظهراً يركبونه إلى الجهاد معك « قُلْتَ » أى لهم « لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » أى إلى الجهاد . وقوله تعالى « تَوَلَّوْا » جواب (إذا) أى خرجوا من عندك « وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » أى فى الحملان ، فهؤلاء وإن كانت لهم قدرة على تحمل المشاق ، فما عليهم من سبيل أيضاً .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ في (الإكليل) : في قوله تعالى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . .) الخ رفع الجهاد عن الضعيف والمريض ، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملاً . انتهى .

وقال بعض الزيدية: هذه الآية الكريمة قاضية بنفي الحرج ، وهو الإثم ، على ترك الجهاد لهذه الأعذار ، بشرط النصيحة لله ولرسوله ، أي بأن يريد لهما ما يريد لنفسه ـ عن أبي مسلم ـ.

الثاني ـ قال الحاكم : في الآية دلالة على أن النصح في الدين واجب ، وأنه يدخل في ذلك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهادات والأحكام والفتاوى وبيان الأدلة .

الثالث ـ قال ابن الفرس : يستدل بقوله تعالى (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضمنها. وقال بعض الزيدية : يدل على أن المستودَع والوصيّ والملتقط لا ضمان عليهم مع عدم التفريط ، وأنه لا يجب عليهم الرد ، بخلاف المستعير .

الرابع ـ دل قوله تعالى : (وَلَا عَلَى الَّذِينَ . . .) الخ على أن العادم للنفقة ، الطالب للإعانة ، إذا لم تحصل له ، فلا حرج عليه. وفيه إشارة إلى أن المونة إذا بذلت له من الإمام، لزمه الخروج .

الخامس ـ دلت الآية على جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة ، وإن كان معذوراً .

السادس ـ قوله تعالى : (تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) أبلغ من (يفيض دمعها) ، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض . و (من) للبيان . كقولك : أفديك من رجل . ومحلّ الجار والمجرور النصب على التمييز ـ أفاده الزمخشريّ ـ .

السابع ـ روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، فكنت أكتب (براءة) فإني لواضع القلم على أذني ، إذ أمرنا بالقتال . فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . .) الآية ـ .

وروى العوفيّ عن ابن عباس فى هذه الآية ، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مغفل بن مُقَرِّن المزنيّ ، فقالوا : يا رسول الله ! احملنا . فقال لهم : والله ! لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون ، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقةً ولا محملًا ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم فى كتابه ، فقال : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ) .

وروى الإمام أحمد[1] عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لقد خلفتم بالمدينة رجالًا ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا أشركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض ـ ورواه مسلم[2] .

ثم رد تعالى الملامة على المستأذنين فى القعود وهم أغنياء ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنَّمَا السَّبِيلُ » أى بالعتاب والعقاب « عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ » أى قادرون على تحصيل الأهبة « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ » أى من النساء والصبيان وسائر أصناف العاجزين . أى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف . قال المهايميّ : وهذا الرضا ، كما هو سبب العتاب ، فهو أيضاً سبب العقاب ، لأنه لما كان عن قلة مبالاتهم بالله ، غضب الله عليهم « وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى ما يترتب عليه من المصائب الدينية والدنيوية ، أو لا يعلمون أمر الله فلا يصدقون .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٥٩ (طبعتنا) .

لطيفة :

قال الشهاب : اعلم أن قولهم (لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ) معناه : لاحرج ولا عتاب ، وأنه بمعنى لا عاتب يمر عليه ، فضلًا عن العتاب ، وإذا تعدى بـ (إلى) كقوله[1] :

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَىٰ أُمِّ سَالِمٍ سبيل ؟ فَأَمَّا الصبرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرُ

فبمعنى الوصول كما قال[2] :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

ونحوه ، فتنبه لمواطن استعماله ، فإنه من مهمات الفصاحة ـ انتهى ـ .

ثم أخبر تعالى عما سيتصدون له عند القفول من تلك الغزوة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى سدًّا للسبيل عليهم فى التخلف « قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا » أى لظهور كذبكم ، إذ لم يمنعكم فقر ولا مرض ، ولا يفيدكم الاعتذار « لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ » أى لن نصدق قولكم . وقوله تعالى : « قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ »

(١) البيت من شواهد الكتاب (ج ١ ص ١٩٣) ونصه فيه :

ألا ليت شعرى هل إلى أم معْمَرٍ سبيلٌ ، فأما الصبرُ عنها فلا صبْرَا

قال الشنتمرىّ : الشاهد فيه نصب (الصبر) على المفعول له . والتقدير : مهما ذكرت الصبر ، ومن أجله فلا صبرَ لى . ولو رفع بالابتداء لكان حسنا (كرواية المؤلف) وكان يكون التقدير : فأما الصبر عنها فلا صبر لى به . أى لا أحتمله .

(٢) انظر القصة فى ص ١٤٠ من الجزء الخامس من كتاب (رغبة الآمل من كتاب الكامل)

تعليل لانتفاء التصديق أي أعلمنا بالوحي من أسراركم ونفاقكم وفسادكم ماينافي التصديق « وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ » أي من الرجوع عن الكفر ، أو اثبات عليه ، علما يتعلق به الجزاء « ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أي للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضعُ المظهر موضع المضمر ، لتشديد الوعيد ، وأنه تعالى مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ، فيجازيهم على حسب ذلك .

قال في (النبراس) : المراد بالغيب ماغاب عن العباد ، أو مالم يعلمه العباد ، أوما يكون . وبالشهادة ما علمه العباد أو ما كان « فَيُنَبِّئُكُمْ » أي يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أي في الدنيا . قبل إعلامهم به . وذكره لهم للتوبيخ .

قال أبو السعود : المراد بالتنبئة بذلك ، المجازاة به . وإيثارها عليها ، لمراعاة ماسبق من قوله تعالى : (قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ . . .) الخ . فإن المنبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم . وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم ، وإنما يعلمونها حينئذ .

ثم أخبر تعالى عما سيؤكدون به معاذيرهم من أيمانهم الفاجرة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ » أي فلاتوبخوهم ولاتعاتبوهم « فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ » أي فأعطوهم طلبتهم « إِنَّهُمْ رِجْسٌ » تعليل لترك معاتبتهم ، يعني أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، وإنما يُعاتَب الأديمُ ذو البَشَرَةِ [1] . والمؤمن

(١) لسان العرب مجلد ٤ صفحة ٦٠ (طبعة بيروت) .

قال أبو حنيفة : معناه أن يعاد إلى الدباغ . يقول : إنما يعاتَبُ من يُرْجَى ، ومن له مُسْكَة عقل .

يوبّخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ـ أفاده الزمخشريّ ـ .

وقال الشهاب : يعنى أنهم يتركون ، ويجتنب عنهم كما تجتنب النجاسة ، وهم طلبوا إعراض الصفح ، فأُعطوا إعراض مقت .

وقوله تعالى : « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » من تمام التعليل ، فالعلة نجاسة جبلّتهم التى لا يمكن تطهيرها ، لكونهم من أهل النار . فاللوم يغريهم ولا يجديهم . والكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل . أو تعليل ثان . يعنى وكَفَتْهُمُ النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تتكلفوا عتابهم .

وقوله تعالى : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« يَحْلِفُونَ لَكُمْ » بدل مما سبق، وعدم ذكر المحلوف به لظهوره ، أى يحلفون به تعالى « لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ » أى باعتقاد طهارة ضمائرهم وإخلاصهم « فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » فيه تبعيد عن الرضا عنهم على أبلغ وجه وآكده ، فإن الرضا عمن لا يرضى الله تعالى عنه ، مما لا يكاد يصدر عن المؤمن .

ثم أشار تعالى إلى أن منافقى الأعراب أشد رجساً فلا يغتر بحلفهم ، وإن لم يكذبهم الوحى ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« الْأَعْرَابُ » وهم أهل البدو « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا » أى من أهل الحضر ، لجفائهم

وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم فى بعدٍ من مشاهدة العلماء ، ومعرفة الكتاب والسنة « وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ » أى وأحق بجهل حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر « حَكِيمٌ » أى فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ، مخطئهم ومصيبهم ، من عقابه وثوابه .

لطائف :

الأولى ـ قال الشهاب : العرب ، هذا الجيل المعروف مطلقاً ، والأعراب سكان البادية منهم ، فهو أعم . وقيل : العرب سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من العرب ، أو مواليهم ، فهما متباينان ، ويفرق بين جمعه وواحده بالياء فيهما .

الثانية ـ ما ذكر فى الآية من أجدرية جهل الأعراب من بُعدهم عن سماع الشرائع ، وملابسة أهل الحق ، يشير إلى ذم سكان البادية ، وهو يطابق ما رواه الإمام أحمد[1] ، وأصحاب السنن ، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : من سكن البادية جفا . وتتمته : ومن اتّبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن . وقوله ﷺ[2] : إن الجفاء والقسوة فى الفدادين. قال ثعلب : الفدادون أصحاب الوبر ، لغلظ أصواتهم ، وهم أصحاب البادية ويقال : من صحب الفدادين ، فلا دنيا نال ولا دين . مأخوذ من (الفديد) وهو رفع الصوت أو شدته .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٣٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ١٦ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٢٤ ـ باب فى اتباع الصيد ، حديث رقم ٢٨٥٩ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ٦٩ ـ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه النسائىّ فى : ٤٢ ـ كتاب الصيد ، ٢٤ ـ باب اتباع الصيد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ، ص ٢٥٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى ، لم يبعث الله منهم رسولًا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى[(١)] : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) . ولما أهدى ذلك الأعرابىّ تلك الهدية لرسول الله ﷺ ، فردّ عليه أضعافها حتى رضى قال : لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من قرشىّ أو ثقفىّ أو أنصارىّ أو دوسىّ ، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب ، لما فى طباع الأعراب من الجفاء .

الثالثة ـ روى الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابىّ إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) ، فقال الأعرابىّ : والله ! إن حديثك ليعجبنى وإن يدك لتريبنى ! فقال زيد : ما يريبك من يدى ، إنها الشمال ؟ فقال الأعرابىّ : والله ! ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ) .

ثم أشار تعالى إلى فريق آخر من منافقى الأعراب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٨] (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا » أى يعدّ مايصرفه فى سبيل الله ، ويتصدق به صورةً ، غرامة وخسراناً ، لأنه لاينفق إلا تقية من المسلمين ورياء .لالوجه الله عز وجل ، وابتغاء المثوبة عنده ، والغرامة والمغرم والغُرم (بالضم) : ماينفقه المرء من ماله وليس يلزمه ، ضرراً محضاً وخسرانا . وقال الراغب : الغرم ماينوب الإنسان فى ماله من

---

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٩] .

ضرر لغير جناية منه « وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ » أى ينتظر بكم دوائر الدهر ـ جمع (دائرة) وهى النكبة والمصيبة التى تحيط بالمرء ـ فتربص الدوائر ، انتظار المصائب ، لينقلب أمر المسلمين ويتبدل ، فيخلصوا مما عدّوه مغرماً « عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ » اعتراض بالدعاء عليهم ، بنحو ما يتربصونه ، أو إخبار عن وقوع مايتربصون عليهم .

قال الشهاب : (الدائرة) اسم للنائبة ، وهى بحسب الأصل مصدر ، كالعافية والكاذبة. أو اسم فاعل بمعنى عقبة دائرة . والعقبة أصلها اعتقاب الراكبين وتناوبهما . ويقال : للدهر عُقَب ونُوَب ودُوَل ، أى مرة لهم ومرة عليهم . و (السوء) يقرأ بضم السين وهو الضرر ، وهو مصدر فى الحقيقة . يقال : سؤته سوءا ومساءة ومسائية . ويقرأ بفتح السين وهو الفساد والرداءة ـ قاله أبو البقاء ـ « وَاللهُ سَمِيعٌ » أى لما يقولونه عند الإنفاق مما لا خير فيه « عَلِيمٌ » أى بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التى منها تربصهم الدوائر . وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى .

ثم نوّه تعالى بمؤمنى الأعراب الصادقين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ » امتثالا لأمره ، وترجيحا لحبّه ، وقطعاً لحب ماسواه. و(قُرُبَاتٍ) مفعول ثان لـ(يَتَّخِذُ) ، وجمعها باعتبار أنواعها ، أو أفرادها .

قال الشهاب : القُربة (بالضم) ما يتقرب به إلى الله ، ونفس التقرب . فعلى الثانى

يكون معنى اتخاذها تقرباً اتخاذَها سبباً له ، على التجوّز فى النسبة أو التقدير . و(عِندَ اللّهِ) صفة ا(قُرُبَاتٍ) أو ظرف لـ(يَتَّخِذُ) (وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أى سبب دعواته بالرحمة المكملة لقصوره . وكان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم . ومنه قوله ﷺ [1] : اللهم صل على آل أبى أوفى « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ » الضمير لما ينفق ، والتأنيث باعتبار الخبر ، والتنكير للتفخيم . أى قربة عظيمة جامعة لأنواع القربات ، يكملها الله بدعوة الرسول ، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله : « سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِى رَحْمَتِهِ » أى جنته « إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ » يستوعب الخلّ « رَحِيمٌ » يقبل جهد المقلّ .

قال الزمخشرىّ : قوله تعالى : (أَلَآ إِنَّهَا) شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقا لرجائه ، على طريق الاستئناف ، مع حرفى التنبيه والتحقيق ، المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه . وكذلك (سَيُدْخِلُهُمُ) وما فى (السين) من تحقيق الوعد . وما أدلّ هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها ! انتهى .

وفى (الانتصاف) : النكتة فى إشمار (السين) بالتحقيق أن معنى الكلام معها (أفعل كذا ، وإن أبطأ الأمر) أى لا بد من فعله . قال الشهاب : وفيه تأمل .

ولما بيّن تعالى فضيلة مؤمنى الأعراب بما تقدم ، تأثره ببيان من هم فوقهم بمنازل من الفضيلة والكرامة ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٢ ـ باب هل يصلّى على غير النبىّ ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » أى ممن تقدم بالهجرة والنصرة . وقيل : عنى بالفريق الأول من صلى إلى القبلتين ، أو من شهد بدراً ،أو من أسلم قبل الهجرة وبالثانى أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية ، وكانو سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير ، فعلمهم القرآن. واختار الرازىّ الوجه الأول. قال : والصحيح عندى أنهم السابقون فى الهجرة وفى النصرة ، والذى يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين ، ولم يبين أنهم سابقون فيماذا، فبقى اللفظ مجملا ، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارا ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارا ، وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه «السابقون الأولون» فى الهجرة والنصرة ، إزالة للإجمال عن اللفظ . وأيضا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة ، من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس ، ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولًا ، صار قدوة لغيره فى هذه الطاعة ، وكان ذلك مقوّياً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره . وكذلك السبق فى النصرة ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة ، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة فازوا بمنصب عظيم .

وقرئ (الأنصارُ) بالرفع ، عطفاً على « السابقون » .

« وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » أى سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » لأن الهجرة أمر شاقّ على النفس ، لمفارقة الأهل والعشيرة. والنصرة منقبة شريفة،

لأنها إعلاء كلمة الله ، ونصر رسوله وأصحابه . والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم ـ قاله المهايميّ ـ « وَرَضُوا عَنْهُ » بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان ، وما آتاهم من الثواب والكرامة « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ » وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهليهم ، وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم ، ولغرسهم جنات القرب فى قلوبهم، وإجرائهم أنهار المعارف فى قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان ـ قاله المهايميّ .

وقرأ ابن كثير (مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) كما هو فى سائر المواضع .

« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده ، إلى يوم القيامة ، والعمل بمقتضاه ، واختيار الباقى على الفانى « ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى الذى لا فوز وراءه .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة ، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم .

الثانى ـ قيل : المراد بـ(السابقين الأولين) جميع المهاجرين والأنصار ، فـ(من) بيانية لتقدمهم على من عداهم . وقيل : بعضهم ـ وهم قدماء الصحابة ـ و (من) تبعيضية . وقد اختار كثيرون الثانى ، واختلفوا فى تعيينهم على ما ذكرناه أولا . ورأى آخرون الأول . روى عن حميد بن زياد قال : قلت : يوماً لمحمد بن كعب القرظيّ : ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم ؟ وأردت الفتن ـ فقال لى : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه، محسنهم ومسيئهم. قلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ؟ فقال : سبحان الله ! ألا تقرأ قوله تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ . . . الآية) فأوجب للجميع الجنة والرضوان ، وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءاً .

أى لقوله تعالى[١] (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ . . .) الآية .

الثالث ـ قال الشهاب: تقديم المهاجرين لفضلهم على الأنصار كما ذكر فى قصة السقيفة[٢] ، ومنه علم فضل أبى بكر رضى الله عنه على من عداه ، لأنه أول من هاجر معه ﷺ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ » يعنى حول بلدتكم ، وهى المدينة « مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ » أى مرنوا ومهروا فيه . وقوله عز شأنه « لَا تَعْلَمُهُمْ » دليل لمرانتهم عليه ، ومهارتهم فيه ، أى يخفون عليك ، مع علوّ كعبك فى الفطنة وصدق الفراسة ، لفرط تأنقهم وتصنعهم فى مراعاة التقية ، والتحامى عن مواقع التهم .

قال فى (الانتصاف) وكأن قوله تعالى (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه ﷺ لما لهم من الخبرة فى النفاق والضراوة به . انتهى .

وقوله تعالى « نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ » تقرير لما سبق من مهارتهم فى النفاق ، أى لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر ، وإظهار الإخلاص .

وقوله تعالى « سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ » للمفسرين فى المرتين

---

(١) [٥٩ / الحشر / ١٠] . (٢) انظر قصة السقيفة فى البخاريّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣١ ـ باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت حديث رقم ١٢١٤

وجوه : إظهار نفاقهم وإحراق مسجد الضرار أو الفضيحة وعذاب القبر . أو أخذ الزكاة ، لما أنهم يعدّونها مغرماً بحتاً ، ونهك الأبدان ، وإتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب .

وقال محمد بن إسحاق[١] : هو ـ فيما بلغني عنهم ـ ما هم فيه من أمر الإسلام ، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذى يُرَدُّون إليه ، عذاب الآخرة ، ويخلدون فيه .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير . كما فى قوله تعالى[٢] : (فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) أى كرة بعد أخرى ، لقوله تعالى[٣] : (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ . . .) الآية .

تنبيه :

لا ينافى قوله تعالى : (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) قوله تعالى[٤] : (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يُعْرَفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب ، على التعيين . وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحا ومساء . وشاهد هذا بالصحة ، مارواه الإمام أحمد[٥] عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة . فقال: لتأتينكم أجوركم ، ولو كنتم

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٨ (طبعة جوتنجن) والصفحة ١٩٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) وتفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١١ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) . (٢) [٦٧ / الملك / ٣] . (٣) [٩ / التوبة / ١٢٦] .

(٤) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٣٠] . (٥) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

فى جحر ثعلب . وأصغى إلىّ رسول الله ﷺ برأسه فقال : إن فى أصحابى منافقين ، أى يرجفون ويتكلمون بما لا صحة له .

وروى ابن عساكر عن أبى الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبى ﷺ ، فقال : الإيمان هاهنا ، وأشار بيده ، إلى لسانه ، والنفاق هاهنا ، وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلا . فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبى وحب من يحبنى ، وصيّر أمره إلى خير . فقال : يا رسول الله ! إنه كان لى أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : من أتانا استغفرنا له ، ومن أصرّ على دينه ، فالله أولى به ، ولا تخرقنّ على أحد ستراً ـ ورواه الحاكم أيضاً ـ .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى هذه الآية قال : ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدرى ! لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك ! قال نبىّ الله نوح عليه السلام[1] : (وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، وقال نبىّ الله[2] شعيب عليه السلام : (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ). وقال تعالى لنبيه ﷺ (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

لطيفة :

قوله تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) عطف على (مِمَّنْ حَوْلَكُمْ) عطف مفرد على مفرد. وقوله تعالى : (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، مسوقة لبيان علوّهم فى النفاق . إثر بيان اتصافهم به ، وإما صفة للمبتدأ المذكور ، فصل بينها وبينه بما عطف على خبره . وإما صفة لمحذوف أقيمت هى مقامه ، وهو مبتدأ خبره (مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) والجملة عطف على الجملة السابقة . أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ـ . أفاده أبو السعود ـ .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٢] . (٢) [١١ / هود/ ٨٦] .

ولما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة ، رغبة عنها وتكذيباً وشكاً ، بيّن حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة ، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال عز شأنه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ » أى أقروا بها ، وهى تخلفهم عن الغزو ، وإيثار الدعة عليه ، والرضا بسوء جوار المنافقين . أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة ، كغيرهم « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا » كالندم وما سبق من طاعتهم « وَءَاخَرَ سَيِّئًا » كالتخلف عن الجهاد « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » أى يقبل توبتهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه .

تنبيهات :

الأول ـ أخرج ابن مردويه وابن أبى حاتم من طريق العوفىّ عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه. ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك ، وقالوا : نحن فى الظلال والطمأنينة مع النساء ، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه فى الجهاد ! والله ! لنوثقن أنفسنا بالسوارى ، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقها : ففعلوا ، وبقى ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال : من هؤلاء الموثقون بالسوارى ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم . فقال : لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، فأنزل الله (وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) ، فلما نزلت أطلقهم وعذرهم ،

وبقى الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم ، لم يذكروا بشىء ، وهم الذين قال الله فيهم : (وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ ...) الآية ـ فجعل أناس يقولون : هلكوا؛ إذ لم ينزل عذرهم ؛ وآخرون يقولون : عسى الله أن يتوب عليهم ، حتى نزلت[1] (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ...)

وأخرج ابن جرير[2] من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس نحوه ، وزاد : فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا ، فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا ، فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فأنزل الله : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ...)[3] الآية .

وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم .

وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت فى سبعة : أربعة منهم ربطوا أنفسهم بالسوارى ، وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة .

وأخرج أبو الشيخ وابن منده فى (الصحابة) من طريق الثورىّ عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ فى تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية . فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة ، فربطوا أنفسهم بالسوارى . وجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ! خذ هذا الذى حبسنا عنك . فقال: لا أحلهم حتى يكون قتال ، فنزل القرآن : « وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ...) الآية ـ إسناده قوىّ ، كذا فى (اللباب) ـ .

قال ابن كثير : هذه الآية ، وإن كانت نزلت فى أناس معينين ، إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين . وقد قال مجاهد : إنها نزلت فى أبى لبابة لما قال لبنى قريظة (إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه ، ثم نقل ما تقدم .

---

(١) [٩ / التوبة / ١١٨] . (٢) انظر تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١٢ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) . (٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

الثانى ـ روى البخارىّ[1] فى التفسير فى هذه الآية ، عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لنا : أتانى الليلة آتيان ، فابتعثانى ، فانتهيا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ، ولَبِن فضة ، فتلقانا رجال ، شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم :

اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى : هـذه جنة عدن ، وهذاك منزلك . قالا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، تجاوز الله عنهم .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً ، فما المخلوط به ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه ما ليس فى قولك (خلطت الماء باللبن) ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً ، واللبن مخلوطا به ؟ وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء .

وناقشه الناصر فى (الانتصاف) فقال : التحقيق فى هذا أنك إذا قلت (خلطت الماء باللبن) فالمصرح به فى هذا الكلام أن الماء مخلوط ، واللبن مخلوط به ، والمدلول عليه لزوماً ، لا تصريحاً ، كون الماء مخلوطًا به ، واللبن مخلوطًا . وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطًا . وأما ما خلط به كل واحد منهما ، فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما له مخلوط به ، يحتمل أن يكون قرينه أو غيره . فقول الزمخشرىّ :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٥ ـ باب وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، حديث رقم ٥٠١ .

إن قولك (خلطت الماء واللبن) يفيد ما يفيده مع الباء ، وزيادة ـ ليس كذلك . فالظاهر في الآية ـ والله أعلم ـ أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل عملوا صالحاً وآخر سيئاً ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط ، فعبر عنهما معاً به ـ انتهى ـ .

قال النحرير : يريد الزمخشريّ أن (الواو) كالصريح في خلط كلٍّ بالآخر ، بمنزلة ما إذا قلت : (خلطت الماء باللبن) ، و (خلطت اللبن بالماء) ، بخلاف الباء ، فإن مدلولها لفظاً ليس إلا خلط المـاء مثلاً باللبن . وأما خلط اللبن بالماء ، فلو ثبت لم يثبت إلا بطريق الالتزام ودلالة العقل ـ انتهى ـ .

وهو متجه ولا حاجة للتضمين المذكور .

ثم قال الزمخشريّ : ويجوز أن يكون من قولهم (بعت الشاء شاة ودرهما) بمعنى شاة بدرهم ، أي فـ (الواو) بمعنى الباء ، ونقل ذلك عن سيبويه . وقالوا : إنه استعارة ، لأن (الباء) للإلصاق ، و (الواو) للجمع ، وهما من وادٍ واحد . وقال ابن الحاجب في قولهم المذكور : أصله شاة بدرهم أي كل شاة بدرهم، وهو بدل من الشاء ، أي مع درهم ، ثم كثر ، فأبدلوا من (باء المصاحبة) (واواً) ، فوجب نصبه وإعرابه بإعراب ما قبله ، كقولهم : كل رجل وضيعته .

قال الشهاب : وهو تكلف ، ولذا قالوا : إنه تفسير معنى ، لا إعراب ـ انتهى ـ .

قال الواحديّ : العرب تقول : خلطت الماء باللبن ، وخلطت الماء واللبن ، كما تقول : جمعت زيداً وعمْرًا ، و (الواو) في الآية أحسن من (الباء) ، لأنه أريد معنى الجمع ، لا حقيقة الخلط . ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيِّيء كما يختلط الماء باللبن ، لكن قد يجمع بينهما ـ انتهى ـ .

وفي الآية نوع من البديع يسمى (الاحتباك) ، وهو مشهور ، لأن المعنى : خلطوا عملاً صالحاً بسيِّيء وآخر سيئاً بصالح .

الرابع ـ قال الرازيّ : هاهنا سؤال ، وهو أن كلمة (عسى) شك ، وهو في حق الله تعالى محال . وجوابه من وجوه :

الأول ـ قال المفسرون : كلمة (عسى) من الله واجب ، والدليل عليه قوله تعالى : (فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ) ، وفعل ذلك ، وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام . والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً ، فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة (عسى) أو (لعل) تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئاً ، وأن يكلفني بشيء ، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتطوّل . فذكر كلمة (عسى) ، الفائدة فيه هذا المعنى ، مع أنه يفيد القطع بالإجابة .

الوجه الثاني : أن المقصود بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق ، لأنه أبعد من الاتكال والإهمال .

الخامس ـ قال القاشانيّ : الاعتراف بالذنب هو إبقاء نور الاستعداد ، ولين الشكيمة ، وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه ، لأنه ملاك الرجوع والتوبة . ودليلُ رؤية قبح الذنب التي لا تكون إلا بنور البصيرة ، وانفتاح عين القلب ؛ إذ لو ارتكمت الظلمة ، ورسخت الرذيلة ، ما استقبحه ، ولم يره ذنباً ، بل رآه فعلاً حسناً ، لمناسبته لحاله ، فإذا عرف أنه ذنب . ففيه خير .

ثم أمر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن يأخذ من أموالهم التي تقدموا إليه ، أن يتصدق بها عنهم كفارة لذنوبهم ، كما تقدم في الروايات قبل ، بقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أي بعضها « صَدَقَةً » قال المهايميّ : لتصدق توبتهم إذ « تُطَهِّرُهُمْ »

أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف . وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه «وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» أى عن سائر الأخلاق الذميمة التى حصلت عن المال . قال الزمخشرىّ : التزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة فى المال « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » أى واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحّم « إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى تسكن نفوسهم إليها ، وتطمئن قلوبهم بها ، ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم .

وقال قتادة : (سكن) أى : وقار . وقال ابن عباس : رحمة لهم . وقد روى[1] الإمام أحمد عن حذيفة أن النبىّ ﷺ كان إذا دعا للرجل ، أصابته وأصابت ولده وولد ولده . وفى رواية : إن صلاة النبىّ ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده .

والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » أى يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم « عَلِيمٌ » أى بما فى ضمائرهم من الندم والغم ، لما فرط منهم .

تنبيهات :

الأول - (تطهرهم) قرئ مجزوماً على أنه جواب للأمر . وأما بالرفع ، فعلى أنه حال من ضمير المخاطب فى (خذ) . أو صفة لـ (صدقة) والتاء للخطاب أو للصدقة. والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده ، أى : بها . وقرئ تُطْهِرهم - من أطهره بمعنى طهّره - ولم يقرأ (وتزكيهم) إلا بإثبات الياء ، وهو خبر لمحذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكيهم بها، هذا على قراءة (تطهرهم) بالجزم . وأما على قراءة الرفع فـ (تزكيهم) عطف على (تطهرهم) حالاً أو صفة .

الثانى - قرئ (صلاتك) بالتوحيد ، و (صلواتك) بالجمع ، مراعاة لتعدد المدعوّ لهم . وقال الشهاب : جمع (صلاة) لأنها اسم جنس ، والتوحيد لذلك ، أو لأنها مصدر فى الأصل .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ).

الثالث ـ قال الشهاب : السكن :السكون ، ومايسكن إليه من الأهل والوطن ، فإن كان المراد الأول ، فجعلها نفس السكن والاطمئنان مبالغة ، وهو الظاهر . وإن كان الثانى فهو مجاز بتشبيه دعائه ، فى الالتجاء إليه بالسكن . انتهى .

قال أبو البقاء : سكن بمعنى مسكون إليهـا ، فلذلك لم يؤنثه ، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض .

الرابع ـ قيل : المأمور به فى الآية الزكاة . و (من) تبعيضية ، وكانوا أرادوا التصدق بجميع مالهم ، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم ، لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين ، فترتبط الآية بما قبلها وقيل : ليست هذه الصدقة المفروضة ، بل هم لما تابوا ، بذلوا جميع مالهم كفارة للذنب الصادر منهم ، فأمره الله تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث ، وهذا مروىّ عن الحسن ، وهو المختار عندهم . ونقل الرازىّ أن أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء ، إذ هى حجتهم فى إيجاب الزكاة ، ثم نظر فيه بأن حملها على ما ذكروه يوجب ألا تنتظم الآية مع سابقها ولاحقها .

وأقول : لاريب فى ارتباط الآية بما قبلها ، كما أفصحت عنه الرواية السابقة . وخصوصُ سببها لا يمنع عموم لفظها ، كما هو القاعدة فى مثل ذلك . ولذا رد الصدّيق رضى الله عنه على من تأول من بعض العرب هذه الآية ؛ أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات الله عليه ، لأنه المأمور بالأخذ ، وبالصلاة على المتصدقين ، فغيره لا يقوم مقامه ـ وأمر بقتالهم ، فوافقته الصحابة ، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ . فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام ، ومثله نائبه . وهؤلاء المتأولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنمـا أوجبها الله تعالى سدًّا لحاجة المعدم ، وتفريجًا لكربة الغارم ، وتحريرًا لرقاب المستعبَدين ، وتيسيرًا لأبناء السبيل ، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ، على من فضلوا عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمـة فى نفوس

هؤلاء على أولئك البائسين . فالإمام لا خصوصية لذاته فيها ، بل لأنه يجمع ما يرد منها لديه، فينفقها في سبلها المذكورة .

الخامس ـ استدل بقوله تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) على ندب الدعاء للمتصدق . قال الشافعيّ رحمه الله : السنة للإمام ، إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق، ويقول : آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهورا ، وبارك لك فيما أبقيت . وقال آخرون : يقول : اللهم ! صلّ على فلان. ويدل عليه ما روى عن عبدالله بن أبي أوفى ، وكان من أصحاب الشجرة قال : كان النبيّ ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال : اللهم ! صلّ عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم ! صلّ على آل أبي أوفى . أخرجاه في الصحيحين (١) .

قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله ! صلّ عليّ وعلى زوجي، فقال : صلى الله عليك وعلى زوجك .

أقول : وبهذين الحديثين يردّ على من زعم أن المراد بـ (صَلِّ عَلَيْهِمْ) الصلاة على الموتى حكاه السيوطيّ في (الإكليل) .

السادس ـ دلت الآية ، كالحديثين ، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً . قال الرازيّ : روى الكعبيّ في (تفسيره) أن عليًّا رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجّى : عليك الصلاة والسلام . ومن الناس من أنكر ذلك .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد ، إلا في حق النبيّ ﷺ . ثم قال الرازيّ : إن أصحابنا يمنعون من ذكر (صلوات الله عليه) ، و (عليه الصلاة والسلام) ، إلا في حق الرسول . والشيعة يذكرونه في عليّ وأولاده ،

(١) أخرجه البخاريّ في : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٢ ـ باب هل يصلّى على غير النبيّ ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠.

وأخرجه مسلم في : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ (طبعتنا) .

واحتجوا بأن نص القرآن دل على جوازه فيمن يؤدي الزكاة ، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله ؟ قال : ورأيت بعضهم قال : أليس أن الرجل إذا قال : سلام عليكم ، يقال له : وعليكم السلام ، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين ، فأوْلَى آل البيت ـ انتهى ـ .

وأقول : إن المنع من ذلك أدبيّ لا شرعيّ ، لأنه صار ، في العرف ، دعاءً خاصاً به ﷺ ، وشعاراً له ، كالعلَم بالغلبة ، فغيره لا يطلق عليه ، إلا تبعية له ، أدباً لفظياً .

السابع ـ قال الرازيّ : في سر كون صلاته عليه السلام سكناً لهم : أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة ، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير ، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم ، وصفت أسرارهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وإخبار بأن كل من تاب إليه ، تاب عليه . ومن تصدق ، تقبل منه .

تنبيهات :

الأول ـ الضمير في (يَعْلَمُوا) المتوب عليهم . فيكون ذكر قبول توبتهم ، مع أنه تقدم ما يشير إليه ، تحقيقاً لما سبق من قبول توبتهم ، وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم . وتقريراً لذلك ، وتوطيناً لقلوبهم ببيان أن المتولي لقبول توبتهم ، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه ، وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه ، عليه الصلاة والسلام .

قال أبو مسلم: المقصود من الاستفهام التقرير في النفس . ومن عادة العرب ، في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه ، أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشر تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ـ انتهى ـ .

ويجوز عود الضمير لغيرهم من المنافقين . فالاستفهام توبيخ وتقريع لهم على عدم التوبة وترغيب فيها ، وإزالة لما يظنون من عدم قبولها. وقرئ بالتاء . وهو ، على الأول ، التفات، وعلى الثاني بتقدير (قل) ، ويجوز أن يكون الضمير للمنافقين والتائبين معاً ، للتمكن والتخصيص .

الثاني ـ الضمير أعني (هو) إما للتأكيد ، أو لَهُ مع التخصيص . بمعنى أن الله يقبل التوبة لا غيره ، بمعنى أنه يفعل ذلك البتة ، لأن ضمير الفصل يفيد ذلك ، والخبر المضارع من مواقعه . وقيل : معنى التخصيص في (هو) أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها ، فاقصدوه بها ، ووجهوها إليه ، لأن كثرة رجوعهم إليه ، صلوات الله عليه ، مظنة لتوهم ذلك .

الثالث ـ تعدية القبول بـ(عن) لتضمنه معنى التجاوز ، والعفو عن ذنوبهم التي تابوا عنها ، وقيل : (عن) هنا بمعنى (من) كما يقال : أخذت هذا منك وعنك .

الرابع ـ الأخذ هنا استعارة للقبول والإثابة ، لأن الكريم والكبير إذا قبل شيئاً عوّض عنه . وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازاً مرسلًا . وقيل : في نسبة الأخذ إلى الرسول ﷺ في قوله (خُذْ) ثم إلى ذاته تعالى ـ إشارة إلى أن أخذ الرسول ﷺ ، قائم مقام أخذ الله ، تعظيماً لشأن نبيه ، كقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)(١) .

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] .

الخامس ـ جملة (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » تأكيد لما عطف عليه ، وزيادة تقرير لما يقرره ، مع زيادة معنى ليس فيه. كما أفادته صيغة المبالغة التي تفيد تكرر ذلك منه أي ألم يعلموا أنه المختص بقبول التوبة ، وأن ذلك سنة مستمرة له ، وشأن دائم ؟

لطيفة :

نقل ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر عن حوشب قال : غزا الناس في زمن معاوية ، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فغلّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم، وأتى الأميرَ،فأبى أن يقبلها منه ،وقال : قد تفرق الناس ، ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة ، فجعل الرجل يأتي الصحابة ، فيقولون له مثل ذلك . فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه ، فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع ، فمرّ بعبدالله ابن الشاعر السَّكسكيّ ، فقال له : مايبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له : أو مطيعي أنت ؟ فقال : نعم . فقال : اذهب إلى معاوية فقل له : اقبل مني خمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر إلى الثمانين الباقية ، فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل . فقال معاوية : لأن أكونَ أفتيت بها، أحب إليّ من كل شيء أملكه . أحسن الرجل . انتهى .

في هذه الرواية إثبات ولد لخالد، وفي ظني أن صاحب (أسد الغابة) ذكر أنه لم يعقب، فليحقق .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَقُلِ » أي لأهل التوبة والتزكية ، والصلاة ، لا تكتفوا بها بل « اعْمَلُوا » جميع

ما تؤمرون به «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» أى فيزيدكم قرباً على قرب «وَرَسُولُهُ» فيزيدكم صلوات «وَالْمُؤْمِنُونَ» فيتبعونكم ، فيحصل لكم أجرهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ـ هكذا قاله المهايمي ـ وهو قوى فى الارتباط .

وقال أبو مسلم : إن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة ، كما قال(1) (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ...) الآية ـ والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية ، فذكر تعالى أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم ، والمقصود التنبيه على أنهم يشهدون يوم القيامة ، عند حضور الأولين والآخرين، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد .

ونقل عن مجاهد أن الآية وعيد للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول والمؤمنين .

قال ابن كثير : وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال تعالى(2) (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ) . وقال تعالى(3) : (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) . وقال تعالى(4) : (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) . وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا ، كما روى الإمام أحمد(5) عن أبى سعيد مرفوعاً : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوّة، لأخرج الله عمله للناس كائناً من كان . وروى أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ ـ كما فى مسند أحمد(6) والطيالسى ـ .

«وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أى بالموت «فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى بالمجازاة عليه .

قال أبو السعود : فى وضع الظاهر موضع المضمر (أى حيث لم يقل : إليه) من تهويل

(1) [٢ / البقرة / ١٤٣] . (2) [٦٩ / الحاقة / ١٨] .
(3) [٨٦ / الطارق / ٩] . (4) [١٠٠ / العاديات / ١٠] .
(5) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى)
(6) انظر الصفحة ١٦٥ من الجزء الثالث من المسند (طبعة الحلبى) عن أنس .

الأمر ، وتربية المهابة ـ ما لا يخفى . ووجه تقديم (الغيب) في الذكر لسعة عالمه ، وزيادة خطره على الشهادة ـ غنيّ عن البيان .

وعن ابن عباس : الغيب ما يسرونه من الأعمال ، والشهادة ما يظهرونه . كقوله تعالى[1] : (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ، فالتقدم حينئذ لتحقق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة ، على أبلغ وجه وآكده . أو للإيذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن ، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو ، أو مبادئه القريبة ، أو البعيدة ، مضمر قبل ذلك في القلب . فتعلقُ علمه تعالى به في حالته الأولى ، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَءَاخَرُونَ » يعني من المتخلفين « مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ » أي مؤخرون أمرهم ، انتظاراً لحكمه تعالى فيهم، لتردّد حالهم بين أمرين « إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ » لتخلفهم عن غزوة تبوك « وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » يتجاوز عنهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أي بأحوالهم « حَكِيمٌ » أي فيما يحكم عليهم .

تنبيهات :

الأول ـ قرئ في السبعة (مُرْجَؤُونَ) بهمزة مضمومة ، بعدها واو ساكنة . وقرئ (مُرْجَوْنَ) بدون همزة . كما قرئ (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ) بهما ، وهما لغتان ، يقال : أرجأته وأرجيته ، كأعطيته . ويحتمل أن تكون الياء بدلًا من الهمزة ، كقولهم : قرأت وقريت ،

---

(١) [٢ / البقرة / ٧٧] و [١١ / هود / ٥] و [١٦ / النحل / ٢٣] .

وتوضأت وتوضيت ، وهو فى كلامهم كثير . وعلى كونه لغة أصلية فهو يائىّ . وقيل : إنه واوىّ كذا فى (العناية) ـ .

الثانى ـ روى عن الحسن أنه عنى بهذه الآية قوم من المنافقين . وكذا قال الأصم : إنهم منافقون أرجأهم الله ، فلم يخبر عنهم ما علمه منهم ، وحذرهم بهذه الآية ، إن لم يتوبوا ، أن ينزّل فيهم قرآنا ، فقال : (إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) .

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : إنهم الثلاثة الذى خلفوا ، أى عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا فى غزوة تبوك فى جملة من قعد ، كسلًا وميلًا إلى الدعة وطيب الثمار والظلال ، لا شكًّا ونفاقًا ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة . فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله تعالى(١) : (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ...) إلى قوله : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ...) الآية ـ .

قال فى (العناية) : وإنما اشتد الغضب عليهم مع إخلاصهم ، والجهادُ فرض كفاية ، لما قيل إنه كان على الأنصار خاصة فرضَ عين ، لأنهم بايعوا النبىّ ﷺ عليه . ألا ترى قول راجزهم فى(٢) الخندق :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... على الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وهؤلاء من أجلّهم ، فكان تخلفهم كبيرة .

الثالث ـ (إما) فى الآية ، إما للشك بالنسبة إلى المخاطب ، أو للإبهام بالنسبة إليه أيضاً ، بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أمرهم . والمعنى : ليكن أمرهم عندكم بين الرجاء

(١) [٩/ التوبة/ ١١٧] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٣٣ ـ باب التحريض على القتال ، حديث ١٣٥٨ عن أنس .

والخوف . والمراد تفويض ذلك إلى إرادته تعالى ومشيئته ، أو للتنويع ، أى أمرهم دائر بين هذين الأمرين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَالَّذِينَ » أى ومن المنافقين الذين « اتَّخَذُوا » أى بنوا « مَسْجِداً ضِرَاراً » أى مضارّة لأهل مسجد قباء « وَكُفْراً » أى تقوية للكفر الذى يضمرونه « وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى الذين كانوا يجتمعون بمسجد قباء اجتماعاً واحداً يؤدون أجلّ الأعمال ، وهى الصلاة التى يقصدبها تقوية الإسلام بجمع قلوب أهله على الخيرات ، ورفع الاختلاف من بينهم « وَإِرْصَادًا » أى إعداداً وترقباً وانتظاراً « لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ » أى كفر بالله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول الله ﷺ (فاسقاً) . وكانوا أعدوه له ليصلى فيه ، ويظهر على رسول الله ﷺ ـ كما سنفصله « وَلَيَحْلِفُنَّ » أى بعد ظهور نواياهم ومقاصدهم السيئة « إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ » أى ما أردنا ، ببناء المسجد ، إلا الخصلة الحسنى ، أو الإرادة الحسنى ، وهى الصلاة ، وذكر الله ، والتوسعة على المصلين « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى حلفهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)

« لَا تَقُمْ فِيهِ » أى لا تصلّ فى مسجد الشقاق « أَبَدًا » أى فى وقت من الأوقات ، لكونه موضع غضب الله ، ولذلك أمر بهدمه وإحراقه كما يأتى . وإطلاق (القائم) على المصلّى والمتهجد معروف ، كما فى قولهم : فلان يقوم الليل . وفى الحديث[1] (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا) . « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ » أى بنيت قواعده على طاعة الله وذكره ، وقصد التحفظ من معاصى الله ، بفعل الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهو مسجد قباء « مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ » أى من أيام وجوده « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ » أى تصلى « فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » أى المبالغين فى الطهارة الظاهرة والباطنة . ثم أشار إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ » أى مخافة منه « وَرِضْوَانٍ » أى طلب رضوان منه « خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا » أى طرف « جُرُفٍ » بضم الراء

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٧ ـ باب تطوّع قيام رمضان من الإيمان ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وسكونها أى مهواة « هَارٍ » أى مشرف على السقوط « فَانْهَارَ بِهِ » أى سقط معه « فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٠] (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ » أى لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم ، ولا يضمحلّ أثره « إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » أى قِطعاً ، وتتفرق أجزاء، فحينئذ يسلون عنه. وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وتمزيقها بالموت ، أو بعذاب النار. وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بنياتهم « حَكِيمٌ » أى فيما أمر بهدم بنيانهم ، حفظاً للمسلمين عن مقاصدهم الرديئة .

تنبيهات :

الأول ـ قال الزمخشريّ : فى مصاحف أهل المدينة والشام (الَّذِينَ اتَّخَذُوا) بغير (واو) ، لأنها قصة على حيالها ، وفى سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذى أحدثه المنافقون على سائر قصصهم .

الثانى ـ سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر فى الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ،

شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارًّا إلى كفار مكة يمالئهم على حرب النبيّ ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام (أُحُد) ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته . فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً ، يا فاسق ، يا عدو الله ! ونالوا منه وسبّوه. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرّد . فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هـذه الدعوة . وذلك أنه لما فرغ الناس من (أُحُد) ، ورأى أمر الرسول ﷺ فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ، من أهل النفاق والريب يمدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه . وكان أمرَهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه ، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك . فأتوه فقالوا : يا رسول الله ! إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه . فقال : إنى على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ، إن شاء الله تعالى ، أتيناكم ، فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذى أَوَانٍ ـ موضع على ساعة من المدينة ـ أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدىّ أو أخاه عامراً ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه . فخرجا سريعين ، حتى أتيـا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل أهله ، فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدّان ، حتى دخلا المسجد ، وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم ما نزل ـ ذكره ابن كثير ، وأسند أطرافه إلى ابن إسحاق وابن مردويه ـ .

وروى أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قبـاء أتوا عمر بن الخطاب فى خلافته ، فسألوه أن يأذن لمُجَمِّـع بن جارية أن يؤمهم فى مسجدهم فقال : لا ، ونعمة عين ! أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ قال مجمع : يا أمير المؤمنين ! لا تعجل علىّ ، فوالله ! لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون ، فصليت بهم ، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ، ولم أعـلم ما فى نفوسهم . فعذره عمر ، فصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء .

الثالث ـ ما قدمنـاه من أن المسجد فى الآية هو مسجد قباء ، لأن السياق فى معرضه ، وبيان أحقية الصلاة فيه من ذلك ، لأنه أسس على طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمع كلمة المؤمنين . ولما فى الآية من الإشعار بالحث على تعاهده بالصلاة فيه ، كان رسول الله ﷺ يزوره راكباً وماشياً ، ويصلى فيه ركعتين ـ كما فى الصحيح (١) ـ .

وقد روى عن عويم بن ساعدة الأنصارىّ أن النبىّ ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ فقالوا ، يا رسول الله ! ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو مقعدته بالماء ـ رواه الإمام أحمد (٢) وأبو داود والطبرانىّ ، واللفظ له ـ .

وقد روى أن النبىّ ﷺ سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجده ـ رواه الإمام أحمد (٣) ومسلم .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٤ ـ باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً ، حديث رقم ٦٤٧ عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) . عن أبى سعيد الخدرىّ .

ورواه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٤ (طبعتنا) .

قال ابن كثير : ولا منافاة . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ـ انتهى ـ .

ومرجعه إلى أن هـذا الوصف ، وإن كان يصدق عليهما ـ إلا أن الأحرى به بعد ، هو المسجد النبويّ ، أى فالحديث ليس فى معرض تعيين ما فى الآية ، بل فى بيان الأحق بهـذا الوصف الآن .

وقال السهروردىّ : كل منهمـا مراد ، لأن كلاًّ منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه .

والسر فى إجابته ﷺ السؤال عن ذلك ، دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء ، والتنويه بمزية هذا عن ذاك .

الرابع ـ قال السهيلىّ ، نور الله مرقده : فى الآية ـ يعنى قوله تعالى : من أول يوم ـ من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضى الله عنه حين شاورهم فى التاريخ ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة ، لأنه الوقت الذى عزّ فيـه الإسلام ، والحين الذى أمِنَ فيه النبىّ ﷺ ، وبنيت المساجد ، وعُبِد الله كما يحب ، فوافق رأيُهم هـذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذى يؤرخ به الآن . فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية ، فهو الظن بهم ، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما فى القرآن من الإشارات . وإن كان ذلك على رأى واجتهاد ، فقد علمـه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ، إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم ، أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم . وليس هاهنا إضافة فى المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم ، لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال ، فتدبره ، ففيه معتبرٌ لمن ادّكر ، وعِلْمٌ لمن رأى بعين فؤاده واستبصر .

الخامس ـ (التأسيس) وضع الأساس ، وهو أصل البناء ، وأوله ، وبه إحكامه ، فى

الآية شبَّه التقوى والرضوان تشبيهاً مكنيًّا مضمراً فى النفس ، بما يعتمد عليه أصل البناء . و (أسس بنيانه) تخييل ، فهو مستعمل فى معناه الحقيقىّ ، أو هو مجاز بناء على جوازه . فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه،أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة، بحال من بنى بناء محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن به . أو (البنيان) استعارة أصلية ، و (التأسيس) ترشيح أو تبعية : و (الشفا) : الحرف والشفير . و(جُرُف الوادى):جانبه الذى يتحفر أصله بالماء ، وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً . و(الهار) : الهائر ، وهو المتصدع الذى أشفى على التهدم والسقوط . قيل : هو مقلوب ، وأصله (هاور) أو (هاير) . وقيل : حذفت عينه اعتباطاً ، فوزنه (فال) . والإعراب على رائه كباب . وقيل : لا قلب فيه ولا حذف ، ووزنه فى الأصل (فعِل) بكسر العين ، ككتف ، وهو هَوِرٌ أوهيرٌ ، ومعناه ساقط أو مشرف على السقوط . وفاعل (انهار) إما ضمير البنيان ، وضمير (به) للمؤسس ، أى سقط بنيان البانى بما عليه . أو لـ (الشفا) ، وضمير (به) للبنيان . والظاهر فى التقابل أن يقال : أم من أسس بنيانه على ضلال وباطل وسخط من الله ، ولذا قال فى الكشاف : المعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة قوية،وهى الحق ، الذى هو تقوى اللهورضوانه، خير أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها ، وأقلها بقاء (وهو الباطل والنفاق) الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمساك . وضع (شفا الجرف) فى مقابلة (التقوى) ، لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى . يعنى أنه شبه الباطل بـ (شفا جرف هار) فى قلة الثبات، فاستعير للباطل بقرينة مقابلته للتقوى ، والتقوى حق ، ومُنَافِى الحق هو الباطل. وقوله (فانهار) ترشيح ، وباؤه للتعدية ، أو للمصاحبة . فـ (شفا جرف هار) استعارة تصريحية تحقيقية ، والتقابل باعتبار المعنى المجازىّ المراد منها .

فإن قلت : لماذا غاير بينهما حيث أتى بالأول على طريقة الكناية والتخييل ، وبالثانى على طريق الاستعارة والتمثيل ؟

قلت : التفنن في الطريق رعايةً لحق البلاغة ، وعدولاً عن الظاهر ، مبالغةٌ في الطرفين . إذ جعل أولئك مبنياً على تقوى ورضوان ، هو أعظم من كل ثواب ، وحال هؤلاء على فساد أشرف بهم على أشد نكال وعذاب . ولو أتى بـه على مقتضى الظاهر لم يفده ، ما فيه من التهويل .

وقولنا : (فانهار ترشيح) أوضحه الكشاف بقوله : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل ، قيل : (فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، فانهار به ذلك الجرف ، فهوى في قعرها .

السادس ـ دلت الآية على أن كل مسجد بني على ما بني عليه مسجد الضرار ، أنه لا حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضي بالله كثيراً من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة وسبل بعضها . نقله بعض المفسرين .

قال الزمخشري : قيل : كل مسجد بني مباهاة أو رياءً وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ـ فهو لاحق بمسجد الضرار . وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر ، فقيل له : مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلي فيه ، فإنه بني على ضرار ، وكل مسجد بني على ضرار ، أو رياء وسمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضرارا .

وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه ، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين ، يضارّ أحدهما صاحبه ـ انتهى ـ .

وقال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) في فوائد غزوة تبوك :

ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها ، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه . وهو مسجد يصلى فيه ، ويذكر اسم الله فيه . لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوى للمنافقين . وكل مكان هذا شأنه ، فواجب

على الإمام تعطيله ، إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له . وإذا كان هـذا شأن مسجد الضرار ، فمشاهد الشرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله ، أحق بذلك وأوجب . وكذلك محال المعاصى والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات وقد حرق عمر رضى الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفىّ وسماه (فويسقاً) ، وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية . وهمّ (١) رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة ، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك ـ انتهى ـ .

ثم قال ابن القيّم : ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة ، كما لم يصح وقف هذا المسجد . وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر ، كما ينبش الميت إذا دفن فى المسجد ـ نص على ذلك الإمام أحمـد وغيره ـ فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق ، فلو وضعا معاً لم يجز . ولا يصح هـذا الوقف ، ولا يجوز ، ولا تصحّ الصلاة فى هذا المسجد ، لنهى رسول الله ﷺ عن ذلك (٢) ، ولعنه من اتخذ القبر مسجداً ، أو أوقد عليه سراجاً .

قال ابن القيّم : فهذا دين الإسلام الذى بعث به رسوله ونبيه ، وغربته بين الناس كما ترى . انتهى .

السابع ـ قال بعض المفسرين اليمانيين : فى الآية دلالة على فضل المسجد الموصوف بهذه الصفة ، يعنى التأسيس على التقوى . وفيها : أن نية القربة فى عمارة المسجد شرط ، لأن

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارىّ فى صحيحه فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٢٩ ـ باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث رقم ٤٠٨ عن أبى هريرة .

(٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخـارىّ فى صحيحه فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث رقم ٢٨٥ و ٢٨٦ عن عائشة وعبد الله بن عباس .

النية هي التي تميز الأفعال . وفيها : أنه لا يجوز تكثير سواد الكفار ـ ذكر ذلك الحاكم ، لأنه قال تعالى (لا تقم فيه أبداً) وأراد بـ (القيام) الصلاة .

الثامن ـ قال ابن كثير : في الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابسة القاذورات .

وقد روى الإمام أحمد [١] أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأوهم فلما انصرف قال : إنه يلبس علينا القرآن ، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء . فدلّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ، ويعين على إتمامها وإكمالها ، والقيام بمشروعاتها .

التاسع ـ ذهب أبو العاليـــة والأعمش إلى أن المراد من الطهارة في الآية ، الطهارة من الذنوب ، والتوبة منها ، والتطهر من الشرك .

قال الرازيّ : وهذا القول متعيّن ، لأن التطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى ، واستحقاق ثوابه ومدحه ، ولأنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارّة المسلمين ، والكفر بالله ، والتفريق بين المسلمين ، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم ، وما ذاك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي انتهى .

أقول : لا تسلم دعوى التعيّن ، فإن اللفظ يتناول الطهارتين الباطنة والظاهرة : بل الثانية ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد [٢] وابن خزيمة في صحيحه أن النبيّ ﷺ قال لأهل قباء : قد أثنى الله عليكم في الطهور ، فماذا تصنعون ؟ فقالوا : نستنجي بالماء .

---

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث ، فمن وقف عليه فليرشدني إليه ، مشكوراً مأجوراً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) عن محمد بن عبد الله بن سلام .

وروى البزّار عن ابن عباس قال : هـذه الآية فى أهل قباء ، سألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نتبع الحجارة بالماء. فإن صح ذلك كان المرادَ من الآية . وتكون حثّاً على الطهارة المذكورة ، ومدحاً لها . وكون ذويها على الضد من صفات أولئك ، يستفاد من عموم هذا ، ومن قوله تعالى (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ...) الآية .

العاشر ـ قال القاشانىّ : لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت، وتسخيره ، لزم أن يكون لنيات النفوس وهيآتها تأثير فيما يباشرها من الأعمال ، فكل ما فعل بنية صادقة لله تعالى عن هيأة نورانية ، صحبته بركة ويمن وجمعية وصفاء ، وكل ما فعل بنية فاسدة شيطانية عن هيأة مظلمة ، صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم . الا ترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت متبركة لكونها مبنية على يدى نبىّ من أنبياء الله ، بنية صادقة ، ونفس شريفة صافية ، عن كمال إخلاص لله تعالى ؟ ونحن نشاهد أثر ذلك فى أعمال الناس ، ونجد أثر الصفاء والجمعية فى بعض المواضع والبقاع ، والكدورة والتفرقة فى بعضها . وما هو إلا لذلك ، فلهذا قال (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ ...) الآية ـ لأن الهيآت الجسمانية مؤثرة فى النفوس ، كما أن الهيآت النفسانية مؤثرة فى الأجسام ، فإذا كان موضع القيام مبنياً على التقوى وصفاء النفس ، تأثرت النفس باجتماع الهمة ، وصفاء الوقت ، وطيب الحال ، وذوق الوجدان . وإذا كان مبنيًّا على الرياء والضرار ، تأثرت بالكدورة والتفرقة والقبض . وفيه إشعار بأن زكاء نفس البانى ، وصدق نيته ، مؤثر فى البناء . وأن تبرّك المكان ، وكونه مبنيًّا على الخير ، يقتضى أن يكون فيه أهل الخير والصلاح ، ممن يناسب حاله حال بانيه، وأن محبة الله واجبة لأهل الطهارة لقوله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان ، والأنفس مفتونة بمحبة الأموال والأنفس، استنزلهم لفرط عنايته بهم ، عن مقام محبة الأموال والأنفس ، بالتجارة المربحة ، والمعاملة المرغوبة ، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم ، فعوض لهم خيرا مما أخذ منهم . فالآية ترغيب فى الجهاد ببيان فضيلته ، إثر بيان حال المتخلفين عنه .

قال أبو السعود : ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى ، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة، بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع ، الذى هو العمدة والمقصد فى العقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم . والثمن ، الذى هو الوسيلة فى الصفقة ، الجنة . ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : (إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم) ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إيذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم . ثم إنه لم يقل (بالجنة) بل (بأن لهم الجنة) مبالغة فى تقرر وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم. وكأنه قيل : (بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم).

وفى (الكشاف) و (العناية) ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية ، لأنه أبرزه فى صورة عقد عاقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء كلمته ، ونصر دينه،وجعله مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صك. وجعل وعده حقا ، ولا أحد أوفى من وعده ، فنسيئته أقوى من نقد غيره . وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم ، وهو استعارة تمثيلية، صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء ، وأتى بقوله (يقاتلون . . .) الخ بياناً لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله[1] ﷺ (الجنة تحت ظلال السيوف) ثم أمضاه بقوله:(وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . ولما فى هذا من البلاغة واللطائف المناسبة للمقام، لم يلتفتوا إلى جعل (اشترى) وحده استعارة أو مجازا عن الاستبدال ، وإن ذكروه فى غير هذا الموضع ، لأن قوله (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ) يقتضي أنه شراء وبيع ، وهذا لا يكون إلا بالتمثيل . ومنهم من جوز أن يكون معنى (اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ) بصرفها فى العمل الصالح ، (وَأَمْوَالَهُمْ) بالبذل فيها . وجعل قوله (يُقَاتِلُونَ) مستأنفا لذكر بعض ما شمله الكلام ، اهتماما به . انتهى .

وقوله تعالى : (وَعْدًا عَلَيْهِ) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا . وذكر كونه فى التوراة وما عطف عليها ، تأكيد له ، وإخبار بأنه منزل على الرسل فى الكتب الكبار . وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة فى شرع من قبلنا . وقد بقى فى التوراة والإنجيل الموجودين ، على تحريفهما ، مايشير إلى الجهاد والحث عليه،نقلها عنهما من ردّ على الكتابيين الزاعمين أن الجهاد من خصائص الإسلام ، فانظره فى الكتب المتداولة فى ذلك .

ثم وصف تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بقوله :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد، ٢٢ ـ باب الجنة تحت بارقة السيوف، حديث رقم ١٣٤٦ عن عبد الله بن أبى أوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٢] (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« التَّائِبُونَ » أى عن المعاصى ، ورفعه على المدح ، أى هم التائبون ، كما دل عليه قراءة (التائبين) بالياء إلى قوله و (الحافظين) نصبا على المدح ، أو جراً صفة للمؤمنين . وجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده ، أى التائبون من المعاصى حقيقة ، الجامعون لهذه الخصال «الْعَابِدُونَ» أى الذين عبدوا الله وحده،وأخلصوا له العبادة، وحرصوا عليها «الْحَامِدُونَ» لله على نعمائه ، أو على ما نابهم من السراء والضراء « السَّائِحُونَ » أى الصائمون ، أو الضاربون فى الأرض تدبراً واعتباراً . وسننبه عليه ، « الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ » أى المصلّون « الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ »أى فى تحليله وتحريمه « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » الموصوفين بالنعوت المذكورة. ووضع (المؤمنين) موضع ضميرهم ، للتنبيه على أنّ ملاك الأمر هو الإيمان ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم، أو للعلم به، لقوله فى آية الأحزاب[1]: وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا) .

تنبيهات :

الأول ـ ما قدمناه من تفسير (السائحين) بالصائمين . قال الزجاج : هو قول أهل التفسير واللغة جميعاً . ورواه الحاكم مرفوعاً ، وكذا ابن جرير[2] .قال ابن كثير[3] : ووقفه أصح.

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٧] . (٢) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) . (٣) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة رقم ٣٩٢ من الجزء الثانى (طبعة عام ١٩٣٧) .

وعن ابن عباس : كل ما ذكر الله فى القرآن من السياحة ، فهو الصيام .

وعن الحسن : السائحون الصائمون شهر رمضان .

قال الشهاب : استعيرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات ، كما أن السياحة تمنع عنها فى الأكثر .

ونقل الرازى عن أبى مسلم أن السائحين : السائرون فى الأرض، وهو مأخوذ من (السيح) سيح الماء الجارى، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً . وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين فى الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية فى بيان صفات المجاهدين، فينبغى أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات . وروى مثله ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن أنه قال : هم المهاجرون . وعن عكرمة أنهم المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير : جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى [1] أبو داود من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ! ائذن لى فى السياحة . فقال النبى ﷺ : سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله .

أقول : لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لاتفق مع كل ما روى عن السلف فيها، لأن الجهاد فى سبيل الله ، كما يطلق على قتال المشركين ، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس فى عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه فى الدين أو للاعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر . هـذا على إرادة التوفيق بين المأثورات . أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ، أعنى الضرب فى الأرض خاصة، الذى عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم ، لكان بمفرده كافياً فى المعنى ، مشيراً إلى وصف عظيم ، وهـذا ما حدا بأبى مسلم أن يقتصر عليه ، وهو الحق فى تأويل الآية .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ٦ـ باب النهى عن السياحة، حديث رقم ٢٤٨٦ .

وقد رأيت لبعض المحققين مقالة فى تأييده ، يجدر بالمحقق أن يقف عليها، وهاك خلاصتها:

قال : الكتاب الحكيم يأمر الإنسان كثيراً بأن يضحى قسما من حياته فى السياحة والتسيار، لأجل اكتشاف الآثار ، والوقوف على أخبار الأمم البائدة ، ليكون ذلك مثال عظة واعتبار، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد . ولا أريد أن أحشر للقارئ تلك الآيات ، فإن ذلك يؤدى إلى التطويل ، بل أريد أن أجتزىء منها بما يكفل ثبوت الدعوى ، وذلك فى قوله تعالى : (السَّائِحُونَ . . .) فى هذه الآية ، ولم يقع لفظ (سائحون) فى القرآن الكريم إلا هذه المرة الفذة . ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير ، فمنهم من قال هم الصائمون، ومنهم من قال غيره . والصحيح أن (السائحون) معناه السائرون ، مأخوذاً من السيح وهو الجرى على وجه الأرض ، والذهاب فيها ، وهذه المادة تشعر بالانتشار . يقال : ساح الماء أى جرى وانتشر . والسيح أيضاً الماء الجارى الذاهب بالأرض . ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد، وهو المائع المسفوح ، لأنه بانمياعه ينتشر فى وعائه . وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها ، وعلى معانيها الحقيقية ، اللهم ما لم يمنع مانع عقلىّ ، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة . وعليه فيجب حمل لفظ (السائحون) على معناه الظاهر الحقيقىّ ، وهو السائرون الذاهبون فى الديار ، لأجل الوقوف على الآثار ، توصلاً للعظة بها والاعتبار ، ولغير ذلك من الفوائد التى عرفها التاريخ . وكذلك عهدنا بالمعنى المجازىّ أنه لا تجوز إرادته إلا عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقىّ ، فى حال أن الأمر هنا بالعكس ، لكثرة القرائن التى تطالب بإرادة المعنى الحقيقىّ دون المجازىّ . وذلك مثل آية (سِيرُوا) [1] ،

(١) وردت لفظة (سِيرُوا) فى الكتاب الكريم فى خمسة مواضع . وهاكم بيان موضع كل منها :

[٦ / الأنعام / ١١] و [٢٧ / النمل / ٦٩] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] و [٣٠ / الروم / ٤٢] و [٣٤ / سبأ / ١٨] .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾[١] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾[٢] ، ﴿ فَسِيرُوا ﴾[٣] ، ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾[٤] ، ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾[٥] الآية ـ فهذه الآيات هي قرائن نيّرة تؤذن بأن السيح معناه السير . فإنها وإن تكن من مادة أخرى ، إلا أن معناها يلاقي معنى السيح . على أننا لا نعدم قرينة على ذلك من نفس المادة، وذلك كآية ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[٦] فكلمة (سيحوا) هنا تفسر ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ في الآية هذه ، وهم يقولون : خير ما فسرته بالوارد . وبالجملة ، فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل الأمة ، وتدبير على فتور همتها ، وضعف نشاطها ، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة ، ورؤية عمران المسكونة ، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين ، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم ألا يألوا جهدا في السير والسياحة ، وأن ينقب في البلاد أي تنقيب . وسيأتي تتمة لهذا في تفسير آية[٧] ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ في سورة التحريم إن شاء الله تعالى .

قال الرازيّ: للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس، لأنه يلقاه أنواع من الضرّ والبؤس،

---

(١) وردت ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ في الكتاب الكريم في ثلاثة موضع . وها كم بيان كل موضع منها :

[٣٠ / الروم ٩] و [٣٥ / فاطر / ٤٤] و [٤٠ / غافر / ٢١] .

(٢) وردت ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ في الكتاب الكريم في أربعة موضع . وها كم بيان كل موضع منها :

[١٢ / يوسف / ١٠٩] و [٢٢ / الحج / ٤٦] و [٤٠ / غافر / ٨٢] و [٤٧ / محمد / ١٠] .

(٣) وردت لفظة ﴿ فَسِيرُوا ﴾ في الكتاب الكريم في موضعين اثنين ، وها كم بيان موضعهما :

[٣ / آل عمران / ١٣٧] و [١٦ / النحل / ٣٦] .

(٤) [٧٣ / المزمل / ٢٠] . (٥) [٤ / النساء / ١٠٠] .

(٦) [٩ / التوبة / ٢] . (٧) [٦٦ / التحريم / ٥] .

فلا بد له من الصبر عليها ، وقد يلقى أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كلٍّ ماليس عند الآخر . وقد يلقى الأكابر من الناس ، فيحقر نفسه فى مقابلتهم . وقد يصل إلى المرادات الكثيرة ، فينتفع بها . وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم ، فتقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية فى الدين . انتهى .

وقال بعضهم : لا يعزب عنك أيها اللبيب أنه تعالى حث بنى الإنسان على السفر فى محكم كتابه العزيز ، وندد على من ارتدى منهم رداء الكسل ، وأوقع نفسه فى وهدة الخمول ، وتلذذ بالتقاعد عن جوْب البلاد ، وقطع الوهاد ، فقال تعالى[1] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) وقال[2] ﷺ : سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا .

وقد تكلم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السفر نظما ونثرا . ومن أجل فوائده زيادة علمه ، وانتفاع غيره بما يعلمه وما يكتسبه . ومنها ، وهو أعظمها ، رضا ربه ، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده ، وأحب[3] عباد الله إلى الله أنفعهم لعباده . وكذلك باتعاظه بأحوال الناس ، واعتباره بأمورهم ، واطلاعه فى ساحته على الأسرار المكنونة ، والحكم التى دبر الله بها أمر المخلوقات وأحكم بها صنع الكائنات . فمن وقف على سر الخالق زاد فى تعظيمه وتقرب إليه بالطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه ؛ وليس بخاف ما وقع للأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، من التنقلات والأسفار ، فى القرى والأمصار ، للنظر والاعتبار . اهـ .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) عن أبى هريرة . (٣) لم أقف على نص هذا الحديث . وإنما أخرج السيوطىّ فى (الجامع الصغير) قوله : إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده . وقال : حم ، فى زوائد كتاب الزهد ، عن الحسن البصرىّ ، مرسلا .

الثانى ـ قال القاضى : إنما جعل ذكر الركوع والسجود ، كناية عن الصلاة، لأن سائر أشكال المصلِّى موافق للعادة ، وهو قيامه وقعوده، والذى يخرج عن العادة فى ذلك هو الركوع والسجود ، وبه يتبين الفضل بين المصلى وغيره . ويمكن أن يقال : القيام أول مراتب التواضع لله تعالى ، والركوع وسطها، والسجود غايتها. فخص الركوع والسجود بالذكر؛ لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية ، تنبيها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم . ذكره الرازىّ .

الثالث ـ ذكروا فى سر العطف فى موضعين من هذه النعوت وجوها :

فأما الأول : أعنى قوله تعالى (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فقالوا : سر العطف فيه إما الدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة ، وصفة واحدة ، لأن بينهما تلازما فى الذهن والخارج ؛ لأن الأوامر تتضمن النواهى ومنافاةً بحسب الظاهر ، لأن أحدهما طلب فعل ، والآخر طلب ترك ، فكانا بين كمال الاتصال والانقطاع المقتضى للعطف ، بخلاف ما قبلهما . أو لأنه ، لما عدد صفاتهم ، عطف هذين ليدل على أنهما شىء واحد ، وخصلة واحدة ، والممدود مجموعهما ، كأنه قيل : الجامعون بين الوصفين . أو العطف لما بينهما من التقابل ، أو لدفع الإيهام ، وهذا معنى قول (المغنى) الظاهر أن العطف فى هذا الوصف إنما كان من جهة أن الأمر والنهى ، من حيث هما أمر ونهى ، متقابلان بخلاف بقية الصفات . أو لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو ترك المعروف . والناهى عن المنكر آمر بالمعروف. فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين ، وأنه لا يكفى فيه ما يحصل فى ضمن الآخر .

وأما الثانى : أعنى قوله تعالى : (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) فقيل : سر العطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع ، من حيث أن السبعة هو العدد التامّ ، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ، ولذلك تسمى (واو الثمانية) ونظر فيه بأن الدال على التمام لفظ

(سبعة) لاستعماله فى التكثير ، لا ممدوده . والقول بواو الثمانية ذكروه فى قوله تعالى[1] : (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) وضعّفه فى (المغنى) .

وقيل : سر العطف التنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها، لأنه شامل لما قبله وغيره . ومثله يؤتى به معطوفا، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء، فلمغايرته لماقبله، بالإجمال والتفصيل ، والعموم ، والخصوص ، عطف عليه .

وقيل : بقوة الجامع بالتلازم ، لأن من حصل الأوصاف السابقة ، فقد حفظ حدود الله .

وقيل : المراد بحفظ الحدود ظاهره ، وهى إقامة الحد ، كالقصاص على من استحقه . والصفات الأولى إلى قوله (الآمرون) صفات محمودة للشخص فى نفسه ، وهذه له باعتبار غيره، فلذا تغاير تعبير الصنفين ، فترك العاطف فى القسم الأول ، وعطف فى الثانى. ولما كان لا بد من اجتماع الأول فى شىء واحد ، ترك فيها العطف لشدة الاتصال ، بخلاف هذه، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به . وهذا هو الداعى لإعراب (التائبون) مبتدأ موصوفا بما بعده ، و (الآمرون) خبره . فكأنه قيل : الكاملون فى أنفسهم المكملون لغيرهم . وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملا حتى يكون كاملا فى نفسه، وبهذا انسق النظم أحسن نسق من غير تكلف ، والله أعلم بمراده . كذا فى (العناية) و (حواشى المغنى) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

[١١٤] (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ

---

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

« مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » لما بين تعالى فى أول السورة ومابعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بيّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً . حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شركهم وكفرهم ، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة ، حتى مع الأقرباء ، لأن قرابتهم ، وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم ، فلا تفيدهم قبول نور الاستغفار (إِنَّ[1] اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد الله ووعيده . ثم ذكر تعالى أن السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدم منه له ، بقوله[2] : (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) ، وقوله[3] : (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) ، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » ذلك « تَبَرَّأَ مِنْهُ » أى من أبيه بالكلية ، فضلًا عن الاستغفار له . وبيّن تعالى الحامل لإبراهيم على الاستغفار ، بأنه فرط ترحّمه وصبره بقوله : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ » أى كثير التأوه من فرط الرحمة ، ورقة القلب ، « حَلِيمٌ » أى صبور على ما يعترضه من الإيذاء ، ولذلك حلم عن أبيه ، مع توعده له بقوله[4] : (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) ، واستغفر له بقوله[5] : (سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وذلك قبل التبين ، فليس لغيره أن يأتسى به فى ذلك .

وفى الآية تأكيد لوجوب الاجتناب بعد التبين ، بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ من أبيه بعد التبين ، وهو فى كمال رقة القلب والحلم ، فلابد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٣) [٦٠ / الممتحنة / ٤] .
(٤) [١٩ / مريم / ٤٦] . (٥) [١٩ / مريم / ٤٧] .

تنبيهات :

الأول ـ ساق المفسرون هاهنا روايات عديدة فى نزول الآية . ولما رآها بعضهم متنافية، حاول الجمع بينها بتعدد النزول . ولا تنافى ، لما قدمناه من أن قولهم (نزلت فى كذا) قد يراد به أن حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أن نزولها يتناوله . وقد يراد به (أن كذا كان سبباً لنزولها) وما هنا من الأول . ونظائره كثيرة فى التنزيل ، وقد نبهنا عليه مراراً ، لا سيما فى المقدمة . فاحفظه .

الثانى ـ قال عطاء بن أبى رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنى ، لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، ثم قرأ الآية . وهذا فقه جيّد .

الثالث ـ قال بعض اليمانيين : استدل بالآية على أن من تأوه فى الصلاة لم تبطل . وهذا يحكى عن أبى جعفر : إذا قال (آه) لم تبطل صلاته ، لأنه تعالى مدح إبراهيم عليه السلام بذلك . ومذهب الأئمة بطلانها ، سواء قال (آه) أو (أوه) ، لأن ذلك من كلام الناس ، ولم يذكر تعالى أن تأوه إبراهيم كان فى الصلاة . انتهى .

الرابع ـ قال فى (العناية) : (أوّاه) فعّال للمبالغة من (التأوّه) وقياس فعله أن يكون ثلاثيا، لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه . وحكى قطرب له فعلا ثلاثيا وهو (آهَ يؤُوهُ) كقام يقوم ، أوْهًا . وأنكر عليه غيره بأنه لا يقال إلا أوّه وتأوّه، قال[1] :

إذا ما قمتُ أَرْحَلُهاَ بليــل   تأوَّهُ آهةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

(١) قائله المثقِّب العبدىّ ، من مفضليته رقم ٧٦ التى مطلعها :

أفاطمُ قبل بَيْنِك متِّعيني   ومنعُكِ ما سألتُ كأن تَبيني

ومعنى (أرحلها) فى البيت أى أضع عليها الرحْل .

وقد استشهد به فى اللسان ، بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت).

والتأوه قول (آه) ونحوه مما يقوله الحزين، فلذا كنى به عن الحزن ، ورقة القلب . انتهى .

و (أوّه) بفتح الواو المشدّدة ساكنة الهاء ، وأواه ، وأوه بسكون الواو والحركات الثلاث قال[1] :

فَأَوْهِ على زيارةِ أمّ عمـــرو فكيف مع المدا ، ومع الوُشاةِ ؟

وربما قلبوا الواو ألفاً ، فقالوا : آهٍ من كذا قال[2] :

آهِ من تَيَّاكِ آهَـا تَرَكَتْ قلبي مُتَاهـا

و (آهٍ) بكسر الهاء منونة. وحكى أيضاً آها وواها. وفيها لغات أخرى أوصلها(التاج) إلى اثنتين وعشرين لغة ، وكلها كلمات تقال عند الشكاية والتوجع والتحزن ، مبنيّات على ما لزم آخرها إلا (آها) فانتصابها لإجرائها مجرى المصادر ، كأنه قيل : أتأسف تأسفاً .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » هذا من تتمة ما تقدم من تأكد مباينة المشركين ، والبراءة منهم ، وترك الاستغفار لهم ، وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة ، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون ، ودلالته إياهم على الصراط السوىّ ، فضلّوا عنه ، فأضلهم الله ، واستحقوا عقابه .

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٤٧٢ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت) ولم يذكر قائله . (٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت) ولم يذكر قائله .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » تعليل لما سبق ، أى أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التى من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح مالا يستقل العقل بمعرفته ، فبين لهم ذلك ، كما فعل هنا .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٦] (إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم ، وإرشاد للمؤمنين بأن يتوكلوا على ربهم ، ولا يرهبوا من أولئك ، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم ، وتنبيه على لزوم امتثال أمره ، والانقياد لحكمه ، والتوجه إليه وحده ، إذ لا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى .

تنبيه :

وقف كثير من المفسرين بالآية هنا ،أعنى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا .) الآية ـ على ما روى فى الآية قبلها ؛ من نزولها فى استغفار وقع من المؤمنين للمشركين ، فربطوا هذه الآية بتلك ، على الرواية المذكورة ، ونزّلوها على المؤمنين ، فقالوا : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا) أى ليحكم عليهم باستغفارهم للمشركين بالضلال بعد إذ هداهم بالنبوة والإيمان ، حتى يتقدم الحكم بالنهى عنه ، فيتركوا ، فأما إذا لم يبين فلا ضلال ، إلى آخر ما قالوه ...

وما أبعده من تفسير وتأويل والرازى ذكره وجهاً ، وأشفعه بما اعتمدناه ، وهو الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس فى أيام غزوة تبوك ، مؤمنهم ومنافقهم ، والمنفق لها طوعاً أو كرهاً ، والمرغب فيها أو عنها ، والمتخلف نفاقاً أو كسلًا ، وأنبأ عما لحق كلاًّ من الوعد والوعيد ، وميز الصادقين من غيرهم ـ ختم بفرقة منهم كانوا تخلفوا ميلًا للدعة. وهم صادقون فى إيمانهم ، ثم ندموا فتابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم ، فقبلها ، ثم أنزل توبتهم فى هذه الآية ، وصدرها بتوبته على رسوله ، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويها لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبيّ والمهاجرين والأنصار ، كل على حسبه ، وإبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم بالصالحين ، ليظهر فضيلة الصلاح . والوصف المدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح الصفة ، وهذا من لطائف البلاغة ، وهو كما قال حسان رضى الله عنه(١) :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّداً بِمَقَالَتِي ... لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدِ

وفى الآية بيان فضل المهاجرين والأنصار .

---

(١) هذا البيت ليس فى ديوان حسان المطبوع فى ليدن عام ١٩١٠ ولا فى شرح البرقوقيّ المطبوع فى مصر عام ١٩٢٩ .

قال الحاكم : ودلت على فضل عثمان ، لأنه جهز جيش العسرة بمال لم يبلغ غيره مبلغه .

وقد جمع تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ، ووصفهم باتّباعه ، فوجب القطع بموالاتهم .

وقوله تعالى : (فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) أي في وقتها والساعة تستعمل في معنى الزمان المطلق ، كما تستعمل الغداة والعشية واليوم . والعسرة حالهم في غزوة تبوك . كانوا في عسرة من الظَّهْر ، يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفي عسرة من الزاد ، حتى إن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم ، يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها الآخر ، ثم يشرب عليها : وفي عسرة من شدة لَهَبَان الحرّ ومن الجدب . وفي عسرة من الماء ، حتى بلغ بأحدهم العطاش أن نحر بعيره ، فعصر فرثه فشربه ، وجعل ما بقي على كبده .

وقد حكى القالي في (أماليه) أن العرب كانوا إذا أرادوا توغل الفلوات التي لا ماء فيها ، سقوا الإبل على أتمّ أظمائها[1] ثم قطعوا مشافرها ، أو خزموها لئلا ترعى ، فإذا احتاجوا إلى الماء ، افتظوا كروشها ، فشربوا ثميلها ، وهو كثير في الأشعار . كذا في (العناية) .

ونقل الرازيّ عن أبي مسلم أنه يجوز أن يكون المراد بـ(ساعة العسرة) جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول ، وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها . وقد ذكر تعالى بعضها في كتابه كقوله سبحانه[2] : (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) . وقوله[3] (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ ...) الآية ـ والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في الأوقات الشديدة ، والأحوال الصعبة ، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم . انتهى .

---

(١) (أظمائها) الأظماء مفردها (ظِمء) وهو حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد . وفظّه وافتظّه : شق عنه الكرش أو عصره منها .

والثميلة : البقية تبقى من العلف والشراب في بطن البعير وغيره . فكل بقية ثميلة (لسان العرب) ولم أعثر على موقعها في (الأمالي) . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٥٢] .

أقول : هذا الاحتمال ، وإن كان مما يسعه اللفظ الكريم ، إلا أنه يبعده عنه سياق الآية وسباقها ، القاصران على غزوة تبوك . ولم يتفق فى غيرها عسر فى الخروج ، واتباعه عليه السلام ، بل وقع أحيانا فى مصاف القتال . وقد اتفق علماء الأثر والسير على تسميتها (غزوة العسرة) ، ومن خرج فيها (جيش العسرة) .

وقوله تعالى : « مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » أى عن الحق ، أو الثبات على الاتباع ، للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم . وفى تكرير التوبة عليهم بقوله تعالى: « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » تأكيد ظاهر ، واعتناء بشأنها ، هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق الثانى ، فلا تكرار .

قال بعضهم : ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب ، تفضلا منه ، وتطييباً لقلوبهم . ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم . ثم أتبعه بقوله : « إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » تأكيدا لذلك .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا » أى تركوا وأخروا عن قبول التوبة فى الحال ، كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . والثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبى ﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بتوبتهم .

وقوله تعالى :« حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أى مع سعتها، وهو مثل الحيرة فى أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه ، قلقا وجزعا مما هم فيه ، إذ لم يمكنهم

الذهاب لأحد ، لمنع النبيّ ﷺ من مجالستهم ومحادثتهم . و (إذا) يجوز كونها شرطية جوابها مقدر ، وأن تكون ظرفية غاية لما قبلها « وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ » أي قلوبهم من فرط الوحشة والجفوة والغمّ ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك لأنهم لازموا بيوتهم ، وهُجِروا نحوا من خمسين ليلة ، وفيه ترقّ من ضيق الأرض إلى ضيقهم في أنفسهم ، وهو في غاية البلاغة « وَظَنُّوا » أي علموا « أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ » أي لا مفرّ من غضب الله « إِلَّا إِلَيْهِ » أي إلى استغفاره « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » أي ليستقيموا على توبتهم ، ويستمروا عليها ، أو ليمدّوا من جملة التائبين . أو المعنى : قبل توبتهم ليتوبوا في المستقبل ، إذا صدرت منهم هفوة ، ولا يقنطوا من كرمه « إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » أي في إيمانهم ومعاهدتهم لله ولرسوله على الطاعة . من قوله تعالى(١) : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » أو هم الثلاثة ، أي كونوا مثلهم في صدقهم وخلوص نيتهم .

تنبيهات :

الأول ـ روى الإمام أحمد(٢) والشيخان حديث كعب وصاحبيه مبسوطاً بما يوضح هذه الآية : قال الزهريّ : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ـ وكان قائد كعب من بنيه ، حين عمي ـ قال : سمعت كعباً يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٣] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

وأخرجه البخاري في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٧٩ ـ باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث رقم ١٣٤٢ .

وأخرجه مسلم في : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٣ ، ٥٤ (طبعتنا) .

فى غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها قط ، إلا فى غزاة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ، ولم يُعاتَب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدرٌ أذكر فى الناس منها وأشهر . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة . والله ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما فى تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها ، إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدوًّا كثيراً ، فجَلَى للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر ـ أى أميل ـ فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ، ثم ألحقه ، فغدوت بعدُ لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم ـ وليتنى فعلت ـ ثم لم يقدّر ذلك لى . فكنت إذا خرجت فى الناس ، بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل . ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك . فقال (وهو جالس فى القوم بتبوك) : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه يا رسول الله بُرداه ، والنظر فى عطفيه ! فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت . والله ! يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ! فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك ، حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخطته غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً ، زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه . فأصبح رسول الله ﷺ ـ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ـ فلما فعل ذلك ، جاءه المتخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : تعال ! فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظَهْراً ؟ فقلت : يا رسول الله ! إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن أخرج من سخطه بعذر . لقد أُعطيتُ جدلًا ، ولكنى ، والله لقد علمت ، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ، ليوشكن الله أن يسخطك علىّ . ولئن حدثتك بصدق تجد علىّ فيه ، إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل . والله ما كان لى عذر ، والله! ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك ! فقمت ، وقام إلىّ رجال من بنى سلمة ، واتبعونى ، فقالوا لى : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك .

قال: فوالله ! مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى .

قال : ثم قلت لهم : هل لقى معى هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرىّ ، وهلال ابن أمية الواقفىّ ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لى فيهما أسوة .

قال : فمضيت حين ذكروها لى .

فقال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، أيها الثلاثة ، من بين من تخلف . فاجتنبنا الناسُ ، وتغيروا لنا،حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأسلم وأقول فى نفسى : أَحَرَّكَ شفتيه بردّ السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال علىّ ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىّ ؛ فسلمت عليه ، فوالله ! ماردّ علىّ السلام . فقلت له: ياأبا قتادة ! أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال : فسكت. قال : فعدت له فنشدته فسكت،فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينا أنا أمشى بسوق المدينة ، إذا أنا نبطى[1] من أنباط الشام ، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلىّ ، حتى جاء فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه :

(أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك بدار هوان ولا مضيعة[2] ، فالحق بنا نواسك) .

قال : فقلت ـ حين قرأته ـ : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فتيممت به التنور فسجرته به . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول :

(١) النبطى واحد (الأنباط) وهم الفلاحون والزارعون من العجم والروم .

(٢) المضيعة مفعلة من (الضياع) .

يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها . قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر مايشاء ! قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية ، رسولَ الله ﷺ فقالت : يارسول الله ! إن هلالاً شيخ ضعيف ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لايقربك ! قالت : وإنه ، والله ! مابه من حركة إلى شيء ، وإنه والله ! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . قال . فقلت : والله ! لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها إذا استأذنته ، وأنا رجل شابّ . قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح ،صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ،فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ! قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبَلَ صاحبيّ مبشرون ، وركض إليّ رجلٌ فرسا ،وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه .

والله ! ما أملك يومئذ غيرهما ـ واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤمّ رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئونني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ! حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس حوله ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صافحني وهنأني ـ والله ! ماقام إليّ رجل من المهاجرين غيره ـ قال :

فكان كعب لا ينساها لطلحة : قال كعب . فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (وهو يبرق وجهه من السرور) : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ! قال ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله . قال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أنخلع من مالي ، صدقةً إلى الله وإلى رسوله . قال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ! إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . قال ، فوالله ! ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

قال ، وأنزل الله « لَقَدْ تَابَ اللهُ . . . » إلى آخر الآيات .

قال كعب : فوالله ! ما أنعم عليّ من نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه ، حين أنزل الوحي ، شرّ ما قال لأحد . فقال الله تعالى(1) : « سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال تعالى : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه .

(1) [٩ / التوبة / ٩٥ و ٩٦] .

وفي رواية : ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن كلامي ، وكلام صاحبيّ ، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا ، فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر ، فما من شيء أهمّ إليّ من أن أموت ، فلا يصلّ عليّ النبيّ ﷺ . أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، ولا يصلّي عليّ ، ولا يسلّم عليّ .

قال : وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليـــل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني ، معتنية بأمري . فقال رسول الله ﷺ :يا أم سلمة تِيب على كعب بن مالك . قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال : إذاً يحطمكم الناس فيمنعونـكم النوم سائر الليل . حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر ، آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا ـ أخرجه البخاريّ ومسلم ـ .

قال ابن كثير : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها .

الثاني ـ قال بعض المفسرين : في الآية دليل على الشدة على من فعل الخطيئة ، وعلى قطع ما يلهي عن الطاعة .

الثالث ـ في الآية دلالة على التحريض على الصدق .

قال القاشانيّ : في قوله تعالى هنا (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ) أي في جميع الرذائل بالاجتناب عنها ، خاصة رذيلة الـكذب . وذلك معنى قوله (وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ) فإن الـكذب أسوأ الرذائل وأقبحها ، لـكونه ينافي المروءة . وقد قيل: (لا مروءة لـكذوب) إذ المراد من الـكلام الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان إخبار الغير عما لا يعلم ، فإذا كان الخبر غير مطابق ، لم تحصل فائدة النطق ، وحصل منه اعتقاد غير مطابق ، وذلك من خواص الشيطنة فالـكاذب شيطان . وكما أن الـكذب أقبح الرذائل ، فالصدق أحسن الفضائل ، وأصل كل حسنة ، ومادة كل خصلة محمودة ، وملاك كل خير وسعادة ، به يحصل كل كمال .

وأصله الصدق فى عهد الله تعالى الذى هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه ، كما قال[١] : (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) فى عقـد العزيمة ، ووعد الخليقة . كما قال فى إسماعيل[٢] : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) . وإذا روعى فى المواطن كلها ، حتى الخاطر والفكر والنية والقول والعمل ، صدقت المنامات والواردات ، والأحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات ، كأنه أصل شجرة الكمال ، وبذر ثمرة الأحوال . انتهى .

ولما أوجب تعالى الكون مع الصادقين ، أشار تعالى إلى أن النفْر مع رسول الله ﷺ واجب كفاية ، فلا يجوز تخلف الجميع ، ولا يلزم النفْر للناس كافة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ » أى المتيسر لهم ملازمة رسـول الله ﷺ وصحابته « وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ » أى عند توجهه إلى الغزو « وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » أى لا يضنوا بأنفسهم عما يصيب نفسه . أى لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه فى الشدائد .

قال الزمخشرىّ : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٣] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٤] .

رغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت ، مع كرامتها وعزتها ، للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيموا لها وزنا ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية . انتهى .

روى أن أبا ذر رضى الله عنه[1] ، أبطأ به بعيره ، فحمل متاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده : كن أبا ذر ! فقال الناس : هو ذاك ! فقال : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وروى أن أبا خيثمة[2] الأنصارىّ رضى الله عنه ، بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب ، والماء البارد . فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ فى الضحّ[3] والريح ، ما هذا بخير ! فقام فرحّل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومرّ كالريح . فمدّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب[4] ؛ فقال : كن أبا خيثمة ! فكانه ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له .

قال السهيلىّ فى (الروض) : كن أبا ذر ، كن أبا خيثمة ، لفظه لفظ الأمر ، ومعناه كما تقول : اسلم ، أى سلمك الله ــ انتهى ــ .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٩٠١ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٨٩٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) . (٣) الضح: بفتح الضاد المعجمة وتشديد الحاء المهملة : ضوء الشمس وحرّها . (٤) أى يرفع شخصه للناظر .

وكذا قال غيره من المتقدمين كالفارسيّ . وذكره المطرزيّ فى قول الحريريّ : كن أبا زيد .

وفى شعر ابن هلال :

ومعذّر قال الإلهُ لحسنه : كُنْ فتنةً للعالمين فكانها

ولم يزيدوا فى بيانه على هذا . وهو تركيب بديع غريب . ومعناه ساقه الله إلينا ، وجعله إياه ، ليكون هو القادم علينا . فأقيم فيه العلة مقام المعلول فى الجملة الدعائية الإنشائية ، على حد قوله فى الحديث(١) : أَبْلِ ، وأَخْلِقْ . أى عمرك الله ، ومتعك الله بلباسك لتبلى وتخلق. وقولهم : اسلم . أى سلمك الله لتسلم . ثم لما أقيم مقامه أبقى مسنداً إلى فاعله ، وإن كان المطلوب منه هو الله ، وهو قريب من قولهم (لا أرينَّك هاهنا) أى لا تجلس حتى أراك . وهو تمثيل أو كناية . كذا فى (العناية) .

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما دل عليه قوله (مَا كَانَ) من النهى عن التخلف أو وجوب المشابهة « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ » أى شىء من العطش « وَلَا نَصَبٌ » أى تعب من السير لا سيما مع العطش « وَلَا مَخْمَصَةٌ » أى مجاعة تضعفهم عن السير « فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا » أى لا يدوسون مكاناً « يَغِيظُ الْكُفَّارَ » أى الذين هم أعداء الله . وإغضابُ العدوّ يفيد رضا عدوّه « وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا » أى قتلاً أو هزيمة أو أسراً « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى على إحسانهم . وهو تعليل لـ (كُتِبَ) ، وتنبيه على أن تحمل المشاق إحسان ، لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى .

---

(١) الحديث أخرجه البخاريّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٨٨ ـ باب من تكلم بالفارسية والرطانة ، والحديث رقم ١٤٥٥ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً » أى لا يشق مثلها « وَلَا كَبِيرَةً » مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى غزوة تبوك ، وهو ألف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا » فى مسيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل . اسم فاعل من (ودى) إذا سال ، فهو السيل نفسه ، ثم شاع فى محله ، ثم صار حقيقة فى مطلق الأرض ، وجمعه (أودية) كناد ، بمجلس ، جمعه (أندية) ، وناج جمعه (أنجية) ولا رابع لها فى كلام العرب « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ » أى أثبت لهم به عمل صالح « لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى ليجزيهم على كل عمل لهم ، كاملٍ أو قاصرٍ ، جزاء أحسن أعمالهم . أى فإذا مالوا بأنفسهم فاتهم ذلك ، وكانت المؤاخذة عليهم أشد .

ولما بين تعالى ، فيما تقدم ، خطر التخلف عن الرسول فى الجهاد ، وشدد الوعيد على المتخلفين التاركين للنفير ، دفع ما يتوهم من وجوب النفر على الجميع ، وفيه ما فيه من الحرج ، والإخلال بأمر المعاش ، بأن وجوبه كفائى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » أى ما صح لهم ذلك ولا استقام ، بحيث تخلو بلدانهم عن الناس « فَلَوْلَا نَفَرَ » أى فحين لم يمكن نفير الكافة ، ولم يكن مصلحة ، فهلا نفر « مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » أى من كل جماعة كثيرة ، جماعة قليلة منهم

يكفونهم النفير « لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ » أي ليتعلموا أمر الدين من النبيّ ﷺ « وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ » أي يعلموهم ويخبروهم ما أمروا به ، وما نهوا عنه « إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » أي من غزوتهم « لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » أي فيصلحون أعمالهم .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ في (الإكليل) : في الآية أن الجهاد فرض كفاية ، وأن التفقه في الدين ، ونشر العلم ، وتعليم الجاهلين كذلك . وفيها الرحلة في طلب العلم . واستدل بها قوم على قبول خبر الواحد ، لأن الطائفة نفر يسير ، بل قال مجاهد : إنها تطلق على الواحد . انتهى .

وقال الجصّاص في (الأحكام) : في الآية دلالة على لزوم خبر الواحد في الديانات التي لا تلزم العامة ، ولا تعمّ الحاجة إليها ، وذلك لأن الطائفة لما كانت مأمورة بالإنذار انتظم فحوى الدلالة عليه من وجهين :

أحدها ـ أن الإنذار يقتضي فعل المأمور به ، وإلا لم يكن إنذاراً .

والثاني ـ أمره إيانا بالحذر عند إنذار الطائفة ، لأن معنى قوله :(لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ليحذروا . وذلك يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، لأن الطائفة تقع على الواحد ، فدلالتها ظاهرة . انتهى .

وفي القاموس : أن الطائفة من الشيء القطعة منه ، أو الواحدة ، فصاعداً ، أو إلى الألف ، أو أقلها رجلان ، أو رجل . فيكون بمعنى (النفس الطائفة) .

قال الراغب : إذا أريد بالطائفة الجمع ، فجمع (طائف) وإذا أريد به الواحد ، فيصح أن يكون جمعاً ، وكنى به عن الواحد ، وأن يجعل كـ (راوية) و (علّامة) ونحو ذلك .

الثاني ـ إن قيل : كان الظاهر في الآية (ليتفقهوا في الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يفقهون) فلِمَ وضع موضع (التعليم) الإنذار ، وموضع (يفقهون) يحذرون ؟

يجاب . بأن ذلك آذن بالغرض منه ، وهو اكتساب خشية الله ، والحذر من بأسه .

قال الغزالىّ رحمه الله: كان اسم الفقه فى العصر الأول ، اسماً لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدة الأعمال ، والإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب . ويدل عليه هذه الآية . كذا فى (العناية) .

قال الزمخشرىّ فى الآية : وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم فى التفقه ، إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم . لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة ، من التصدر والترؤس والتبسط فى البلاد ، والتشبه بالظلمة فى ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّ داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسةً لآخر ، أو شرذمة جثوا بين يديه . وتهالكه على أن يكون موطّأ العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل[1] : (لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) . انتهى .

الثالث ـ قال القاشانىّ فى الآية : يجب على كل مستعد من جماعةٍ ، سلوك طريق طلب العلم ، إذ لا يمكن لجميعهم . أما ظاهراً فلفوات المصالح، وأما باطناً فلعدم الاستعداد . ثم قال: والتفقه فى الدين هو من علوم القلب ، لا من علوم الكسب ، إذ ليس كل من يكتسب العلم يتفقه ، كما قال[2] : (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) والأكنة هى الغشاوات الطبيعية ، والحجب النفسانية . فمن أراد التفقه فلينفر فى سبيل الله ، وليسلك طريق التزكية والتصفية ، حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه . فالمراد من التفقه علم راسخ فى القلب ، ضارب بعروقه فى النفس ، ظاهر أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب ما يخالف ذلك العلم ، وإلا لم يكن عالما . الا ترى كيف سلب الله الفقه عمن لم تكن رهبة

(١) [٢٨ / القصص / ٨٣] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٥] و [١٧ / الإسراء / ٤٦] .

الله أغلب عليه من رهبة الناس بقوله[1] : (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) ، لكون رهبة الله لازمة للعلم ، كما قال[2] : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وسلب العلم عمن لم يعمل به في قوله[3] : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ، وإذا تفقهوا ، وظهر علمهم على جوارحهم ، أثر في غيرهم ، وتأثروا منه ، لارتوائهم به ، وترشحهم منه ، كما كان حال رسول الله ﷺ ، فلزم الإنذار الذي هو غايته . انتهى .

ولما أمر تعالى ، في صدر السورة ، بالبراءة من مشركي العرب وقتالهم ، ثم شرح أحوال المنافقين ومخازيهم ، أشار إلى خاتمتها بما يطابق فاتحتها بذلك ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ » أي يقربون منكم ، وهم مشركو جزيرة العرب ، كما قلنا .

وقوله تعالى : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » قالوا إنها كلمة جامعة للجرأة والصبر على القتال ، وشدة العداوة ، والعنف في القتل والأسر . وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة ، والمقصود أمر المؤمنين بالاتصاف بصفات كالصبر وما معه ، حتى يجدهم الكفار متصفين بها ، فهي على حدّ قولهم : لا أرينك ههنا . والغلظة هي ضد الرقة ، مثلثة الغين ، وبها قرئ . لكن السبعة ، على الكسر « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أي بالنصرة والمعونة .

(١) [٥٩ / الحشر / ١٣] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ » أى طائفة من القرآن المعجز المحيط بجملة من الحجج ورفع الشبه « فَمِنْهُمْ » أى من المنافقين « مَنْ يَقُولُ » بعضهم لبعض « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ » أى السورة « إِيمَانًا » إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين ، واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحى والعمل به « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا » لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر ، لكثرة الدلائل ، ورفع الشبه « وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى كفر وسوء عقيدة « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » أى كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها « وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » أى واستحكم ذلك الكفر فيهم ، بسبب الزيادة إلى موتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« أَوَلَا يَرَوْنَ » يعنى المنافقين « أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ » أى يبتلون بإظهار مكرهم وخيانتهم ،

أو بنقض عهدهم « فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ » أى من صنيعهم ونقض عَهْدِهِم « وَلَاهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى يتعظون بأنها آيات قاطعة ، وكون الابتلاء بسبب مخالفتها.

ثم بيّن أحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحى ، إثر بيان مقالتهم، وهم غائبون عنه بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » قال الزمخشرىّ: يعنى تغامزوا بالعيون إنكارا للوحى ، وسخرية به ، قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ، ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم .أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا . يقولون : هل يراكم من أحد « ثُمَّ انْصَرَفُوا » أى عن محفل الوحى خوفاً من الافتضاح « صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى عن الإيمان حسب انصرافهم عن حضرته عليه السلام . والجملة إخبارية أو دعائية « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى لا يتدبرون أمر الله حتى يفقهوا .

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية المتقدمة على زيادة الإيمان بما ذكر . وسواء قلنا بدخول الأعمال فى مسمى الإيمان ، وهو الحق ، أوْ لاَ ، وأنه مجرد التصديق القلبىّ ، فالزيادة مما يقبلها قطعاً ، والأول بديهىّ ، والثانى مثله ، إذ ليس إيمان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة رضى الله عنهم ، كإيمان غيرهم وهذا مما لا يُرتاب فيه .

الثانى ـ ذكر تعالى من مخازى المنافقين نوعين : عدم اعتبارهم بالابتلاء ، وتمكن الكفر

منهم ، وازدياده فى وقت يقتضى زيادة الإيمان ، وهو تكرير التنزيل . ولما كان القصد بيان إصرارهم على كفرهم ، وعدم نفع العظات فيهم ، ختم مخازيهم بذلك ، لأنه نتيجتها . وقدم عليه ما يصيبهم من الابتلاء ، لأن فيه ردعاً عظيما لو تذكروا .

وقد تلطف القاشانىّ فى إيضاح ذلك ، وجود التقرير فيه ، وعبارته :

البلاء قائد من الله تعالى يقود الناس إليه . وقد ورد فى الحديث (١) : (البلاء سوط من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه) ، فإن كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد ، يكسر سورة نفسه وقواها ، ويقمع صفاتها وهواها ، فيلين القلب ، ويبرز من حجابها ، وينزعج من الركون إلى الدنيا ولذاتها ، وينقبض منها ويشمئز ، فيتوجه إلى الله . وأقل درجاته أنه إذا اطّلع على أن لا مفر منه إلا إليه ، ولم يجد مهربا ومحيصا من البلاء سواه ، تضرع إليه وتذلل بين يديه ، كما قال (٢) : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِمًا) (٣) وبالجملة يوجب رقة الحجاب أو ارتفاعه ، فليغتنم وقته وليتعوّذ ، وليتخذ ملكة يعود إليها أبدا حتى يستقر التيقظ والتذكر ، وتتسهل التوبة والحضور ، فلا يتعوذ الغفلة عند الخلاص فتغلب ، وتتقوى النفس عند الأمان ، وينسبل الحجاب أغلظ مما كان ، كما قال (٤) : (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) (٥) انتهى :

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : أخذ ابن عباس من قوله (ثم انصرفوا) كراهية أن يقال : انصرفت من الصلاة ـ أخرجه ابن أبى حاتم ـ ومرجع هذا إلى أدب لفظىّ ، باجتناب ما يوهم ، أو ما نُعِىَ به على العصاة .

---

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [٣١ / لقمان ٣٢] .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] . (٤) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] .

(٥) [١٠ / يونس / ١٢] .

وقد عقد الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) فصلا فى هدى النبى ﷺ فى حفظ المنطق ، واختيار الألفاظ ، فليراجع .

ثم بيّن تعالى ما امتن به على المؤمنين من بعثة خاتم النبيين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى رسول عظيم من جنسكم ، ومن نسبكم ، عربىّ قرشىّ مثلكم ، كما قال إبراهيم عليه السلام[1] : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ) . وقال تعالى[2] : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) .

وكلّم[3] جعفرُ بن أبى طالب النجاشى ، والمغيرةُ بن شعبة رسولَ كسرى ، فقالا : إن الله بعث فينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته ... الحديث .

ثم ذكر تعالى مايتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » أى شديد عليه شاق ، لكونه بعضاً منكم ، عنتُكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع فى العذاب « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » أى على هدايتكم ، كى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه ، والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به « بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ » إذ يدعوهم لما ينجيهم من العقاب بالتحذير عن الذنوب والمعاصى ، لفرط رأفته « رَحِيمٌ » إذ يفيض عليهم العلوم والمعارف والكمالات المقربة بالتعليم والترغيب فيها ، برحمته[3] .

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] . (٢) ٣ / آل عمران / ١٦٤] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بك ، وناصبوك « فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » أى فاستعن به ، وفوض إليه، فهو كافيك وناصرك عليهم .

وقال القاشانىّ : أى لاحاجة لى بكم ، ولا باستعانتكم ، كما لاحاجة الإنسان إلى العضو المألوم المتعفّن الذى يجب قطعه عقلا . أى الله كافينى فلا مؤثر غيره ، ولا ناصر إلا هو كما قال : « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فوضت أمرى إليه ، وبه وثقت « وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » أى المحيط بكل شىء ، يأتى منه حكمه وأمره إلى الكل . وتخصيصه لكونه أعظم المخلوقات ، فيدخل ما دونه ، وقرىء (العظيم) بالرفع ، على أنه صفة الرب جل وعزّ .

تم ماعلقناه على سورة التوبة صباح الاثنين فى ٢٤ رجب سنة ١٣٢٢هـ
فى سدة جامع السنانية بدمشق الشام

اللهم يسر لنا بفضلك الإتمام . والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين
إلى يوم الدين.

ويليه الجزء التاسع وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد.

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء التاسع

وفيه تفسير سور: يونس وهود ويوسف والرعد

وقف على طبعه وتصحيحه، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسميّ »

جنيف. رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر، ولم يبلغ الخمسين من عمره. وندر جدًّا أن ترى كتاباً، فى خزانته الواسعة، مخطوطاً كان أو مطبوعاً، خالياً من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة.

ولقد كان، رحمه الله، آية فى المحافظة على الوقت، والمواظبة على العمل ».

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠ – سورة يونس

سميت به ، عليه السلام ، لتضمنها قوله[١] « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ففيه غاية ما يفيد فيه الإيمان ، وضرر تركه وتأخيره ، وهو المقصد الأعلى من إنزال الكتاب ـ قاله المهايميّ ـ .

وهذه السورة مكية ، واستثنى منها قوله تعالى[٢] : « فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ . . . » الآيتين . وقوله[٣] : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ . . . » الآية . قيل : نزلت في اليهود . وقيل : من أولها إلى رأس أربعين مكيّ ، والباقي مدنيّ ـ حكاه ابن الفرس والسخاويّ في (جمال القراء) ـ .

وآياتها مائة وتسعة .

---

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [١٠ /يونس / ٩٤، ٩٥] .
(٣) [١٠ / يونس / ٤٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓر ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

« الٓر » مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى . أو اسمٌ للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى هذه السررة مسماة بـ (الٓر). والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده ، صارت فى حكم الحاضر ، كما يقال : هـذا ما اشترى فلان . أو النصب بتقدير : اقرأ .

وكلمة « تِلْكَ » إشارة إليها ، أما على تقدير كون (الٓر) مسرودة على نمط التعديد ، فقد نزّل حضور مادتها ، التى هى الحروف المذكورة ، منزلة ذكرها فأشير إليها ، كأنـه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة ... الخ .

وأما على تقدير كونه اسماً للسورة ، فقد نوهت بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها، أو الأمر بقراءتها . وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ، للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة، ومحله الرفع على أنه مبتدأ ، خبره قوله تعالى :

« ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » ، وعلى تقدير كون (الٓر) مبتدأ ، فهو مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول . والمعنى : هى آيات مخصوصة منه ، مترجمة باسم مستقل . والمقصود ببيان بعضيتهامنه ، وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة ، والصفات الكاملة .

والمراد بـ (الكتاب) : إما جميع القرآن العظيم ، وإن لم ينزل الكل حينئذ ، لاعتبار تعينه وتحققه فى علم الله تعالى ؛ وإما جميع القرآن النازل وقتئذ ، المتفاهم بين الناس إذ ذاك .

و (الحكيم) أى ذو الحكمة ، وإنما وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ، ونطقه بها ، أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه ، أو من باب الاستعارة المكنيّة المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة ـ أفاده أبو السعود ـ .

وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هٰذا لَساحِرٌ مُبِينٌ)

« أَكانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب فى الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ماجاء به لما اعتقدوه و(القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و(العين) على الجاسوس ، و (الرأس) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوىّ إلى المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتبتين . أو (القدم) بمعنى المقام ، كـ(مَقْعَدِ صِدْقٍ)(١) بإطلاق الحالّ وإرادة المحلّ ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدمٌ صدقٌ) أى محققة مقررة. وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال فى (الانتصاف) : ولم يرد فى سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب فى الحقيقة .

« قالَ الْكافِرُونَ » وهم المتعجبون « إِنَّ هٰذا » أى الكتاب الحكيم « لَسِحْرٌ مُبِينٌ » أى ظاهر وقرئ (لَساحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه. وهو دليل عجزهم واعترافهم ، وإن كانوا كاذبين فى تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التكلم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المفحَم .

ثم بيّن تعالى بطلان تعجبهم ، وما بنوا عليه ، وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه ، وصحة ما أنكروه ، بالتنبيه على بعض ما يدل عليها من شؤون الخلق والتقدير ، ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير ، فقال سبحانه :

---

(١) [٥٤ / القمر / ٥٥] ،

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » قال البخارى[(١)] فى صحيحه فى الردّ على الجهمية :

قال أبو العالية : استوى إلى السماء ارتفع . وقال مجاهد : استوى على العرش علا ، أى بلا تمثيل ولا تكييف . والعرش : هو الجسم المحيط بجميع الكائنات ، وهو أعظم المخلوقات. و (الأيام) قيل : كهذه ، وقيل : كل يوم كألف سنة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى يقضى ويقدر ، على حسب مقتضى الحكمة أمرَ الخلق كله . و « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » تقرير لعظمته وعز جلاله، وردعلى من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ » إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم الموصوف بما وصف به هو « رَبُّكُمْ » أى الذى رباكم لتعبدوه « فَاعْبُدُوهُ » أى وحّدوه بالعبادة . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى تتفكّرون أدنى تفكّر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه .

---

(١) أخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً » أي بالموت أو النشور . أي لا ترجعون في العاقبة إلا إليه. فاستعدوا للقائه « وَعْدَ اللهِ حَقًّا » أي صدقا . ثم علل وجوب المرجع إليه بقوله سبحانه : « إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ » أي من النطفة « ثُمَّ يُعِيدُهُ » أي بعد الموت « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ » أي بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم، لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم ، وهو الأوجه لمقابلة قوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ » أي من ماء حارّ قد انتهى حره « وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » وجيع يخلص ألمه إلى قلوبهم « بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » تعليل لقوله ، لمقابلة قوله ، فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم ، وعذاب أليم ، بسبب كفرهم ، لكنه غيّر النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب بجعله حقا مقررا لهم ، كما تفيده (اللام) وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة . والعقاب واقع بالعرَض بكسبهم ، وعلى أنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما لا تحيط العبارة به لفخامته وعظمته ، ولذلك لم يعينه .

ثم نبه تعالى ، للاستدلال على وحدته في ربوبيته ، بآثار صنعه في النيرين ، إثر الاستدلال بما مرّ من إبداع السموات والأرض ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً » للعالمين بالنهار « وَالْقَمَرَ نُورًا » أى لهم بالليل : والضياء أقوى من النور . « وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ » الضمير لهما ، بتأويل كل واحد منهما ، أو للقمر ، وخص بما ذكر ، لكون منازله معلومة محسوسة ، وتعلق أحكام الشريعة به ، وكونه عمدة فى تواريخ العرب « لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » أى حساب الشهور والأيام ، مما نيط به المصالح فى المعاملات والتصرفات « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى يبين الآيات التكوينية أو التنزيلية المنبهة على ذلك لقوم يعلمون الحكمة فى إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على وحدة مبدعها .

قال السيوطىّ : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ .

ثم نبه للاستدلال على وحدانيته سبحانه أيضاً بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

« إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والجبال والبحار وغير ذلك « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ » أى لآيات عظيمة دالة على وحدة مبدعها ، وكمال قدرته ، وبالغ حكمته . وخص (المتقين) لأنهم المنتفعون بنتائج التدبر فيها ، فإن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقواه تعالى ، والحذر من العاقبة .

تنبيه :

فى هذه الآيات إشارة إلى أن الذى أوجد هذه الآيات الباهرة ، وأودع فيها المنافع الظاهرة ، وأبدع فى كل كائن صنعه ، وأحسن كل شىء خلقه ، وميز الإنسان ، وعلمه البيان ـ يكون من رحمته وحكمته اصطفاء من يشاء لرسالته ، ليبلغ عنه شرائع عامة ، تحدد للناس سيرهم فى تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى الآخرة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ)

[٨] (أُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[٩] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

[١٠] (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أى فلا يتوقعون الجزاء « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ » أى لا يتفكرون فيها « أُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » أى بسببه ، إلى مأواهم ، وهى الجنة ، وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها ، وانسياق النفس إليها ، لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ

النَّعِيمِ » أى من تحت منازلهم أو بين أيديهم . « دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ » أى دعاؤهم هذا الكلام ، لأن (اللهم) نداء ، ومعناه : اللهم إنا نسبحك ، كقول القانت : اللهم إياك نعبد . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى . ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره آية[1] (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » أى ما يحيي به بعضهم بعضاً ، أو تحية الملائكة إياهم ، كما فى قوله تعالى[2] : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) أو تحية الله عز وجل لهم ، كما فى قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِّنْ رَّبٍّ رَّحِيمٍ) . و (التحية) التكرمة بالحالة الجلية . أصلها : أحياك الله حياة طيبة . و (السلام) بمعنى السلامة من كل مكروه . « وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ » أى وخاتمة دعائهم هو التسبيح « أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى حمده تعالى : والمراد من الآية أن دعاء أهل الجنة وعبادتهم هو قولهم . سبحانك اللهم وبحمدك . وإيثار التعبير عن (وبحمدك) ، بقوله : (وَءَاخِرُ) الخ رعاية للفواصل ، واهتماماً بالحمد وما معه من النعوت الجليلة ، تذكيراً بعسماها . والآية تدل على سموّ هذا الذكر ، لأنه دعاء أهل الجنة وذكر الملائكة كما قالوا[3] : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)، ولذلك ندب قراءته بعد تكبيرة الإحرام .

قال الرازيّ لما استسعد أهل الجنة بذكر (سبحانك اللهم وبحمدك) ، وعاينوا ما فيه من السلامة عن الآفات والمخافات ، علموا أن كل هذه الأحوال السنية ، والمقامات القدسية ، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإتمامه ، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء .

ولما بيّن تعالى وعيده الشديد ، أتبعه بما دل على أن من حقه أن يتأخر عن هـــذه الحياة الدنيوية ، لأن حصوله فى الدنيا كالمانع من بقاء التكليف ، فقال تعالى :

---

(١) [١٩ / مريم / ٤٨] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣] .

(٣) [٣٦ / يس / ٥٨] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ » وهم الذين لا يرجون لقاءه تعالى لكفرهم « الشَّرَّ » أى الذى كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون[١] : (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ونحو ذلك « اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » أى تعجيلا مثل استعجالهم الدعاء بالخير « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » أى لأميتوا وأهلكوا « فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » أى فى ضلالهم وشركهم يترددون.

لطيفة :

زعم الزمخشرىّ أن معنى استعجالهم بالخير ، أى تعجيله لهم الخير . وضع الأول موضع الثانى إشعاراً بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم ، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم . وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع . ولا بلاغة فيه أيضاً ، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ليكونا من باب واحد ـ غير ضرورىّ فى العربية ، والشواهد كثيرة .

وجوز الرازىّ أن يكون (يعجل) أصله يستعجل . عدل عنه تنزيهاً للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة ، فوصف بتكوينها ، ووصف الناس بطلبها ، لأنه الأليق .

ولعل الأليق أن (استعجالهم) مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، والتقدير ، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم . وإنما حذف إيجازا ، للعلم به . ويوافقه قوله تعالى[٢] (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ)فإنه فى معنى ما هنا .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا » أى لكشفه وإزالته « لِجَنْبِهِ » حال من فاعل (دعا) واللام بمعنى (على) أى على جنبه ، أى مضطجعا « أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ » أى مضى على طريقته الأولى، « كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ » أى كشفه « مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الإعراض عن الذكر ، واتباع الشهوات . والآية سقيت احتجاجا على المشركين ، بما جبلوا عليه كغيرهم من الالتجاء إليه تعالى عند الشدائد ، علما بأنه لا يكشفها إلا هو ، ليطرحوا عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ويستيقنوا أنه الإله الأحد ، الذى لا يعبد سواه . وفيها نعى عليهم سوء منقلبهم ، إثر كشف كرباتهم ، وتحذير من مثل صنيعهم .

ثم ذكرهم تعالى بعظيم قدرته مما وصل إليهم من نبأ الأقدمين ليتقوه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا » أى بالتكذيب والكفر « وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » أى فقرر عليهم الحجة بالوجوه الكثيرة . وما كانوا ليؤمنوا بتلك البينات ولا بغيرها ، فجزاهم بالإهلاك المعروف فيهم . « كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » الخطاب للذين بعث إليهم النبىّ ﷺ ، أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر كيف تعملون من خير أو شر ، فنعاملكم حسب عملكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش ، بأنهم إذا قرأ عليهم النبىّ ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة ، قالوا له : ائت بقرآن غير هذا ، أى جئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر . قال تعالى لنبيه : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي) : أى ليس ذلك إلىّ ، إنما أنا مبلغ عن الله تعالى .

قيل : إنما اكتفى بالجواب عن التبديل ، للإيذان بأن استحالة ما اقترحوه أولًا ، من الظهور بحيث لا حاجة إلى بيانها . وأن التصدى لذلك ، مع كونه ضائما ، ربما يعدّ من قبيل المجاراة مع السفهاء ، إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء . ولأن ما يدل على استحالة

الثانى يدل على استحالة الأول بالطريق الأولى . فهو جواب عن الأمرين بحسب المآل والحقيقة وقوله : (إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى) أى بالتبديل والنسخ من عند نفسى .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) استدل به مَنْ منع نسخ القرآن بالسنة . اهـ .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت . فما كان غرضهم ، وهم أدهى الناس وأمكرهم ، فى هذا الاقتراح ؟ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك ، وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر . وأما اقتراح التبديل والتغيير فللطمع ، ولاختبار الحال ، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه ، أولا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه ، وتصحيحاً لا فترائه على الله ـ انتهى ـ .

ولما بيّن بطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته ، أشار إلى تحقيق حقية القرآن ، وكونه من عنده تعالى بقوله :

....

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

قُل « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم » .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أمىّ لم يتعلم ولم يستمع ، ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ، ولا نشأ فى بلد فيه علماء ، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ، يبهر كلّ كلام فصيح ، ويعلو على كل منثور ومنظوم ، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع ، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التى لا يعلمها إلا الله ، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطالعون على أحواله ، ولا يخفى عليكم شىء من أسراره ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه ، وألصقهم به .

«وَلَاأَدْرَاكُمْ بِهِ» أي ولا أعلمكم به على لسانى « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ » أى من قبل نزوله ، لا أتعاطى شيئاً مما يتعلق بنحوه ، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ، فتتهمونى باختراعه . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى فتعلموا أنه ليس إلا من الله ، لا من مثلى .

قال الزمخشرىّ : وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم (ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا) من إضافة الافتراء إليه .

تنبيه :

رأى أبو السعود أن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام ، لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم ، واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى ، وامتناع الاستبداد بالرأى ، من غير تعرض هناك ولا ههنا ، لكون القرآن فى نفسه أمراً خارجاً عن طوق البشر ، ولا لكونه عليه السلام غير قادر على الإتيان بمثله ، أن يستشهد ههنا على المطلوب مما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة ، من كمال نزاهته عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائناً من كان ، كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم المفترى على الله تعالى . والمعنى : قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى ، لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ، ولا أحوم حول مقال فيه شائبه شبهة ، فضلًا عما فيه كذب أو افتراء ، أفلا تعقلون أن من هذا شأنه المطّرد فى هذا العهد البعيد ، مستحيل أن يفترى على الله ، ويتحكم على الخلق كافة ، بالأوامر والنواهى الموجبة لسفك الدماء ، وسلب الأموال ، ونحو ذلك . وأن ما أتى به وحى مبين ، تنزيل من رب العلمين ـ انتهى ـ .

وما استنسبه رحمه الله ، اقتصر عليه ابن كثير ، ثم استشهد بقول [1] هرقل ملك الروم

(١) الحديث أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع .

لأبي سفيان ، فيما سأله من صفة النبيّ ﷺ ، قال هرقل له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت : لا ! وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ماشهدت به الأعداء * فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشيّ ملك الحبشة(١) : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

وعن ابن المسيّب : ثلاثاً وأربعين سنة . والصحيح المشهور الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » استفهام إنكاريّ معناه الجحد . أي لا أحد أظلم ممن تقوّل على الله تعالى ، وزعم أنه تعالى أرسله وأوحى إليه ، أو كفر بآياته ، كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن،وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام .

« إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ » أي لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب . ونظير هذه الآية قوله تعالى(٢) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ . وترتيب عدم الفلاح على من افترى الوحي ، وعدُه صادق بلا مرية ، فإن مفتريه يبوء بالخزى والنكال ، ولا يشتبه أمره على أحد بحال .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٠٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٧٤٠ (طبعة المعارف) .   (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

وقد ذكر أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب ـ وكان صديقاً له فى الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعدُ ـ فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ! وما ذا أنزل على صاحبكم ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ فى هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة . فقال . وما هى ؟ فقال[1] : وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ ... الخ ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل علىّ مثله ! فقال: وماهو ؟ فقال : ياوبر ياوبر . إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر !! كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله ! إنك لتعلم أنى أعلم أنك لكذاب !

وقال عبد الله بن سلام[2]: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل منه ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال : فكان أول ما سمعته : يقول : أيها الناس ! أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . قال حسان[3] :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » أى الأوثان التى هى جماد

---

(١) [١٠٣ / العصر / ١ ـ ٣] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٣٢ باب حدثنا محمد بن بشار .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب الإقامة ، ١٧٤ ـ باب ما جاء فى قيام الليل ، حديث رقم ١٣٣٤ (طبعتنا) . (٣) ليس فى ديوان حسان .

لا تقدر على نفع ولا ضرّ ، أى ومن شأن المعبود القدرة على ذلك . « وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ » أى أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له ـ وهو العالم المحيط بجميع المعلومات ـ لم يكن موجوداً ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه .

فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه .

وقوله : (فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) تأكيد لنفيه ، لأن مالم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ـ كذا فى الكشاف ـ « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم .

ثم أشار تعالى إلى أن التوحيد والإسلام ملة قديمة كان عليها الناس أجمع،فطرة وتشريعاً، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً » أى حنفاء متفقين على ملة واحدة ، وهى فطرة الإسلام والتوحيد التى فطر عليها كل أحد « فَاخْتَلَفُوا » باتباع الهوى وعبادة الأصنام ، فالشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة صرفاً للناس عن وجهة التوحيد ، ولذلك بعث الله الرسل بآياته وحججه البالغة، ليهلك[1] من هلك عن بيّنة ، ويحيي من حيّ عن بيّنة«وَلَوْلَا

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤٢] .

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » أى بتأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى عاجلاً فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » بتمييز الحق من الباطل ، بإبقاء المحق ، وإهلاك المبطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى من الآيات التى اقترحوها تعنتاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التى لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة فى الآيات . « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » أى هو المختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لأحد به . يعنى أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا يعلمه إلا هو .

« فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ » أى فيما يقضيه الله تعالى فى عاقبة تعنتكم ، فإن العاقبة للمتقين . وقد قال تعالى فى آية أخرى(١) (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) . وقال تعالى(٢) (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ) . وقال تعالى(٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا لمقترحهم ، لفرط عنادهم . ولا يخفى أن القرآن الكريم لما قام به الدليل القاهر على صدق نبوته ، عليه السلام ، لإعجازه ، كان طلب آية أخرى سواه من مقترحهم ـ مما لا حاجة له فى صحة نبوته ، وتقرير رسالته . فمثلها يكون مفوضاً إلى مشيئته تعالى ، فترد إلى غيبه ، وسواء أنزلت أوْ لا ، فقد ثبتت نبوته ، ووضحت رسالته ، صلوات الله عليه .

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] . (٢) [١٠ / يونس / ٩٦ و ٩٧] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

ثم أكد تعالى ما هم عليه من العناد واللجاج، مشيرا إلى أنهم لا يُذعنون ولو أجيبوا لمقترحهم، بما يعهد منهم من عدولهم عنه تعالى بعد كشفهم ضرهم ، إلى الإشراك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءايَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)

«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ» أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم «إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءايَاتِنَا» أى يتبين مكرهم ويظهر كامن شركهم ، فهم فى وقت الضراء فى الإقبال عليه تعالى لكشفها ، كالمخادع الذى يظهر خلاف ما يبطن ، ثم ينجلى أمره بعد : «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» أى عقوبة ، أى عذابه أسرع وصولا إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق . وتسمية العقوبة بالمكر ، لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً . «إِنَّ رُسُلَنَا» أى الذين يحفظون أعمالكم «يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» أى مكركم ، أو ما تمكرونه . وهو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما دبروا فى إخفائه غير خاف على الحفظة، فضلًا عن العليم الخبير .

ثم بين تعالى نوعا من أنواع مكرهم فى آية إنجائهم من لجج البحر بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ» أى السفن

« وَجَرَيْنَ » أي السفن « بِهِمْ » أي بالذين فيها « بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ » أي لينة الهبوب ، موافقة المرغوب « وَفَرِحُوا بِهَا » لأمن الآيات « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ » أي ذات شدة « وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » أي أحاط بهم أسباب الهلاك ، وهي شدة الموج والريح « دَعَوُا اللَّهَ » أي للتخلص منها « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » وهو الدعاء لأنهم حينئذ لا يدعون معه غيره « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أي العابدين لك شكراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

« فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أي يفسدون فيها ، ويسارعون إلى ما كانوا عليه من الشرك ونحوه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » أي الناسين نعمة الخلاص بالإخلاص واستجابة الدعاء « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » أي وباله عليكم . « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبر محذوف أو هو متاع . أو خبر ثان أو هو الخبر لـ (بغيكم)و(على) متعلق به . وقرئ بالنصب مصدر لمحذوف ، أي تتمتعكم . أو مفعول به له . أي تبغون . « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أي في الدنيا وهو وعيد بجزائهم على البغي .

ثم بيّن تعالى شأن الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى امتزج به لسريانه فيه ، فالباء للمصاحبة ، أو هى للسببية، أى اختلط بسببه حتى خالط بعضه بعضاً، أى التف بعضه ببعض ، والأول أظهر « مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ » من الزروع والثمار والكلأ والحشيش « حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا » أى حسنها وبهجتها «وَازَّيَّنَتْ» أى بأصناف النبات « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » أى متمكنون من تحصيل حبوبها وثمارها وحصدها « أَتَاهَا أَمْرُنَا » أى عذابنا « لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » أى كالمحصود من أصله « كَأَنْ لَمْ تَغْنَ » أى لم تنبت « بِالْأَمْسِ » أى قبيل ذلك الوقت . و (الأمس) مَثَلٌ فى الوقت القريب « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى بالأمثلة تقريباً « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى معانيها .

تنبيه :

قال القاشانىّ : البغى ضد العدل ، فكما أن العدل فضيلة شاملة لجميع الفضائل ، وهيأة وحدانية لها ، فائضة من نور الوحدة على النفس ، فالبغى لا يكون إلا عن غاية الانهماك فى الرذائل ، بحيث يستلزمها جميعاً ، فصاحبها فى غاية البعد عن الحق ، ونهاية الظلمة ، كما قال : الظلم ظلمات يوم القيامة (١) . فلهذا قال : (عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) لا على المظلوم ، لأن المظلوم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٨ ـ باب الظلم ظلمات =

سعد به ، وشقى الظالم غاية الشقاء ، وهو ليس إلا متاع الحياة الدنيا . إذ جميع الإفراطات والتفريطات المقابلة للعدالة تمتعات طبيعية ، ولذّات حيوانية ، تنقضى بانقضاء الحياة الحسّية التى مثلها فى سرعة الزوال ، وقلة البقاء ، هذا المثل الذى مثل به ، من تزيّن الأرض بزخرفها من ماء المطر ، ثم فسادها ببعض الآفات سريعا قبل الانتفاع بنباتها ، ثم تتبعها الشقاوة الأبدية ، والعذاب الأليم الدائم .

وفى الحديث[1] : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة، لأن صاحبه تتراكم عليه حقوق الناس ، فلا تحتمل عقوبته المهل الطويل الذى يحتمله حق الله تعالى .

وسمعت بعض المشايخ يقول : قلما يبلغ الظالم والفاسق أوان الشيخوخة، وذلك لمبارزتهما الله تعالى فى هدم النظام المصروف عنايته تعالى إلى ضطبه ، ومخالفتهما إياه فى حكمته وعدله . انتهى .

ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها ، رغّب فى الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أى من الآفات والنقائص ، لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضاً للآفات كما مرّ ، فقال سبحانه :

= يوم القيامة ، حديث ١٢٠٤ .

ومسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٢٣ ـ باب البغى ، حديث رقم ٤٢١٢ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[٢٦] (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ » أى يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته « وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى دين قيم يرضاه ، وهو الإسلام .

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » أى للذين أحسنوا النظر ، فعرفوا مكر الدنيا والشهوات ، فأعرضوا عنها ، وتوجهوا إلى الله تعالى ، فعبدوه كأنهم يرونه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، وزيادة على المثوبة ، وهى التفضل كما قال تعالى[١]: (وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) . وأعظم أنواعه النظر إلى وجهه تعالى الكريم . ولذا تواتر تفسيرها بالرؤية عن غير واحد من الصحابة والتابعين . ورفعها ابن جرير إلى النبيّ صلوات الله عليه ، عن أبى موسى وكعب ابن عجرة ، وأُبَىّ . وكذا ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد[٢] عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ...) الخ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ماهو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ! ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم . وهكذا رواه مسلم[٣] .

(١) [٤/النساء/١٧٣]و[٢٤/النور/ ٣٨]و[٣٥/فاطر/ ٣٠]و[٤٢/الشورى/ ٢٦].

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٧ (طبعتنا) .

« وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ » أى لايغشاها غبرة سوداء من أثر حب الدنيا والشهوات « وَلاَ ذِلَّةٌ » أى أثر هوان ، وكسوف بال ، من أثر الالتفات إلى ما دون الله تعالى .

قال الناصر : وفى تعقيب الزيادة بهذه الجملة مصداق لصحة تفسير الزيادة بالرؤية الكريمة ، فإن فيه تنبيها على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى ، فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ، ولا ذلة الحجاب ؛ عكس المحرومين المحجوبين ، فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد ، وذلة البعد .

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ » أى الذين أحسنوا « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أى الشرك والمعاصى « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى واق يقيهم العذاب « كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ » أى ألبست « وُجُوهُهُمْ قِطَعاً » أى أجزاء « مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً » لفرط سوادها وظلمتها . وذلك لارتكابهم الهيأة المظلمة من الميول الطبيعية ، والأعمال الردية والقصد الإخبار بأبدع تشبيه عن سواد وجوههم . وقد ذكر هذا المعنى فى غير ما آية « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم بين تعالى ما ينال المشركين يوم الحشر من التوبيخ والخزى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً » يعنى المشركين ومعبوداتهم للمقاولة بينهم « ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا » أى معبوديهم بالله ، مع توقعهم الشفاعة منهم « مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ » أى الزموا مكانكم ، لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم .

قال القاشانىّ : معناه قفوا مع ما وقفوا معه فى الموقف من قطع الوصل والأسباب التى هى سبب محبتهم وعبادتهم ، وتبرؤ المعبود من العابد لانقطاع الأغراض الطبيعية التى توجب تلك الوُصَل .

ومعنى قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » أى مع كونهم فى الموقف معاً ، فرقنا بينهم ، وقطعنا الوُصَل التى بينهم ، فلا يبقى من العابدين توقع شفاعة ، ولا من المعبودين إفادتها ، لو أمكنتهم « وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ » إذ لم تكن عبادتكم عن أمرنا ، بل عن أمر الشيطان ، فكنتم عابديه بالحقيقة ، بطاعتكم إياه ، وعابدى ما اخترعتموه فى أوهامكم من أباطيل فاسدة ، وأمانىّ كاذبة .

قيل : القول مجاز عن تبرئهم من عبادتهم ، وأنهم عبدوا أهواءهم وشياطينهم ، لأنها الآمرة لهم دونهم ، لأن الأوثان جمادات وهى لا تنطق . وقيل: ينطقها (اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) (١) ، فتشافههم بذلك ، مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)

« فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ » أى اننا « لَغَافِلِينَ » أى الله يعلم أنا ما أمرناكم بذلك وما أردنا عبادتكم إيانا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« هُنَالِكَ » أى فى ذلك المقام المدهش ، حين قطع المواصلة ، وإنكار الشركاء العبادة « تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ » أى تختبر وتذوق كل نفس ما أسلفت من العمل ، فتعاين أثره من قبح وحسن ، وردّ وقبول ، كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ، ليكتنه حاله . وهذا كقوله تعالى[١] : (يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) وقوله[٢] (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .

« وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » الضمير للذين أشركوا ، أى ردوا إلى الله المتولى جزاءهم بالعدل والقسط « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى ضاع عنهم ما افتروه من اختراعاتهم ، وأصول دينهم ومذهبهم ، وتوهماتهم الكاذبة ، وأمانيّهم الباطلة . أى ظهر ضياعه وضلاله ، فلم يبق له أثر فيهم .

وفى هذه الآية تبكيت شديد للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أراده ، بل تبرأ منهم ، أحوج ما يكونون إلى المعونة . والمشركون أنواع وأقسام ، وقد ذكرهم تعالى فى كتابه ، وبين أحوالهم ، ورد عليهم أتم رد .

ثم احتج على المشركين على وحدانيته باعترافهم بربوبيته وحده بقوله سبحانه وتعالى :

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [٨٦ / الطارق / ٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » بالإمطار والإنبات وهل يمكن إلا ممن له التصرف العام فيها « أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة ، كقوله تعالى(١) : (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .

« وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » يعنى النسمة من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو السنبلة من الحب ، (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) كأن يخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر . وقيل : المراد أن يخرج المؤمن من الكافر أو الكافر من المؤمن . « وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى ومن يلى تدبير أمر العالم كله ، بيده ملكوت كل شىء ، تعميم بعد تخصيص . « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ » إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه « فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى أفلا تخافون بعد اعترافكم ، من غضبه لعبادة غيره اتباعاً للهوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)

« فَذَٰلِكُمُ » إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله « اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » الثابت وحدانيته ثباتاً لا ريب فيه ، لمن حقق النظر « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما ، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال . أى فما بعد حقّيّة ربوبيته إلا بطلان ربوبية ما سواه ، وعبادة غيره ، انفراداً أو شركة « فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » أى عن الحق

(١) [٦٧ / الملك / ٢٣] .

الذى هو التوحيد ، إلى الضلال الذى هو الشرك ، وأنتم تعترفون بأنه الخالق كل شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى ثبت حكمه وقضاؤه على الذين تمردوا فى كفرهم ؛ وخرجو إلى الحد الأقصى فيه. وقوله (أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بدل من الكلمة ، أى حق عليهم انتفاء الإيمان . وعلم الله منهم ذلك . أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب ، و(أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) تعليل بمعنى (لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ـ أفاده الزمخشرىّ ـ أى كقوله تعالى[١] (قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله تعالى[٢]: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) قيل: (الَّذِينَ فَسَقُوا) مظهر وضع موضع ضمير المخاطبين للإشمار بالعلية ، و (الفسق) هنا التمرد فى الكفر ، فآل الكلام إلى أن كلمة العذاب حقت عليهم ، لتمردهم فى كفرهم ، ولأنهم لا يؤمنون ، وهو تكرار . وأجيب بأنه تصريح بما علم ضمناً من (الذين فسقوا) ، أو دلالة على شرف الإيمان بأن عذاب المتمردين فى الكفر بسبب انتفاء الإيمان .

ثم احتجّ أيضاً على حقيّة التوحيد وبطلان الشرك بما هو من خصائصه تعالى ، من بدء الخلق وإعادته ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٤] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أى من يبدؤه من النطفة ، ويجعل فيه الروح ليتعرف إليه ، ويستعمله أعمالا ، ثم يحييه يوم القيامة ، ليجزيه بما أسلف

(١) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٢) [٣٩ / الزمر / ١٩] .

فى أيامه الخالية . وإنما نظمت الإعادة فى سلك الاحتجاج ، مع عدم اعترافهم بها ، إيذاناً بظهور برهانها ، للأدلة القائمة عليها سمعاً وعقلاً ، وإن إنكارها مكابرة وعنادا لا يلتفت إليه ، وإشعاراً بتلازم البدء والإعادة وجوداً وعدما ، يستلزم الاعتراف به الاعترافَ بها . ثم أُمِر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك ، فقيل له : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » أى فكيف تصرفون إلى عبادة الغير، مع عجزه عمّا ذكر . ثم احتج عليهم أيضا ، إلخاما إثر إلخام ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » أى بوجه من الوجوه ، كبعثة الرسل، وإبقاء العقل ، وتمكين النظر فى آيات الكون ، والتوفيق للتدبر . « قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي لِلْحَقِّ » وهو تبارك وتعالى ـ « أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ » أى يعبد ويطاع « أَمَّنْ لَا يَهِدِّي » أى إلا أن يهديه الله تعالى ـ نزل منزلة من يعقل لإلخامهم ـ وقيل معناه : أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن ينقل . أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء ، إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيوانا مكلفاً ، فيهديه . وقد قرئ (أَمَّنْ لَا يَهَدِّي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله يهتدى ، أدغمت التاء فى الدال، ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء ؛ وقرئ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، لأنه لما نقلت الحركة التقى ساكنان ، فكسر أولهما للتخلص من التقائهما ، وقرئ بسكون

الهاء وبتخفيف الدال، على معنى (يهتدى) . والعرب تقول : يهدى بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى أى اهتدى .

وقوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار والتعجب . أى : أىُّ شىءٍ لكم فى اتخاذ هؤلاء العاجزين عن هداية أنفسهم ، فضلاً عن هداية غيرهم ، شركاء . وقوله : « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » مستأنف ، أى كيف تحكمون بالباطل ، حيث تزعمون أنهم أنداد الله ؟ !

....

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

« وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ » أى فى اعتقادهم ألوهية الأصنام « إِلَّا ظَنًّا » اعتقاداً غير مستند لبرهان ، بل لخيالات فارغة ، وأقيسة فاسدة . والمراد بـ (الأكثر) : الجميع . « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ » أى من العلم والاعتقاد الحق « شَيْئًا » أى من الإغناء . فـ (شيئاً) فى موضع المصدر ، أى غناء ما . أو مفعول لـ (يغنى) ، و (مِنَ الْحَقِّ) حال منه . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » وعيد على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

تنبيه :

قال الرازى فى هذه الآية :

اعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ، ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)(١) وعن موسى عليه السلام مثله فقال : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ)(٢) . وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٥٠]

فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)[١] . وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له جسد وروح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هـو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً، لما ذكر دليل الخلق فىالآية الأولى وهو قوله[٢]:(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية . والمقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى[٣] : (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، وهـذا كان كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنمـا أعطى الحواس ، لتكون آلة فى اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً ، فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، أولمس شيء من الـكيفيات الملموسة.أما الأحوال الروحانية، والمعارف الإلهية. فإنها كمالات باقية أبد الآباد ، مصونة عن الـكون والفساد . فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية . ولاضطراب العقول وتشعب الأفكار كانت الهداية وإدراك الحق بإعانته تعالى وحده . والهداية إماأن تـكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، أو عن تحصيل معرفتها . وعلى كلٍّ فقد بينا أنهـا أشرف المراتب ، وأعلى السعادات ، وأنها ليست إلا منه تعالى . وأما الأصنام فإنها جمادات لا تأثير لها فى الدعوة إلى الحق ، ولا فى الإرشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الـكمالات فى النفس والجسد ، وأن الأصنام لا تأثير لها فى شيء من ذلك، وإذا كان كذلك ، كانت عبادتها جهلاً محضاً ، وسفهاً صرفاً . فهذا حاصل الـكلام فى هذا الاستدلال . اهـ .

ثم بين تعالى حقيّة هذا الوحى المنزل ، رجوعاً إلى ما افتتحت به السورة من صدق نبوة المنزَل عليه ، ودلائلها فى آيات الله الـكونية ، والمنبئة عن عظيم قدرته ، وجليل عنايته ، بهداية بريته ، فقال تعالى :

(١) [٨٧ / الأعلى / ١ـ٣] . (٢) [١٧ / النمل/ ٦٤] . (٣) [١٦ / النحل /٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ » لامتناع ذلك؛ إذ ليس لمن دونه تعالى كمال قدرته التى بها عموم الإعجاز « وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » أى مصدقاً للتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد ، وصفة النبيّ ﷺ . و (تصديق) منصوب على أنه خبر (كان) أو علة لمحذوف ، أى أنزله تصديقَ الخ . وقرئ بالرفع خبراً لمحذوفٍ ، أى : هو تصديق الذى بين يديه . أى وبذلك يتعين كونه من الله تعالى ، لأنه لم يقرأها ، ولم يجالس أهلها ، « وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ » أى وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ، من قوله[١] (كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) كما قال علىّ رضى الله عنه[٢] : فيه خبر ماقبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم . « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منتفياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أخبار أخر لما قبلها .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، بعد المنع عن اتباع الظن ، لبيان ما يجب اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى بل أيقولون . فـ (أم) منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة) عند الجمهور ، والهمزة للإنكار . أى ما كان ينبغى ذلك . وقيل : متصلة ، ومعادلها

(١) [٤ / النساء / ٢٤] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٤ ـ باب ما جاء فى فضل القرآن .

مقدر . أى أيقرون به بعد ما بيّنا من حقيقته أم يقولون افتراء . « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ » أى إن كان الأمركما تزعمون ، فأتوا ، على وجه الافتراء ، بسورة مثله فى البلاغة ، وحسن الصياغة ، وقوة المعنى ، فأنتم مثل فى العربية والفصاحة ، وأشد تمرنا فى النظم « وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى ادعوا من دونه تعالى ، ما استطعتم من خلقـه ، للاستعانة به على الإتيان بمثله ـ إن صدقتم فى أنى اختلقته ـ فإنه لا يقـدر عليه أحد .

قال أبو السعود : وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء ، للتنصيص على براءتهم منه تعالى ، وكونهم فى عدوة المضادّة والمشاقّة ، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلِّفوه ، فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٩](بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » إضراب وانتقال عن إظهار بطلان ما قالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل. أى سارعوا إلى التكذيب به ، وفاجؤوه فى بديهة السماع ، وقبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ، ويقفوا على تأويله ومعانيه وما فى تضاعيفه من الشواهـد الدالة على كونه ليس مما يمكن أن يقدر عليه مخلوق ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم . كالناشىء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة ، وبيان الاستقامة ، أنكرها

فى أول وهلة ، واشمأز منها ، قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب . وسر التعبير (بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) الإيذان بكمال جهلهم به ، وأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به ـ كذا فى الكشاف وأبى السعود ـ .

« وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » أى بيان ما يؤول إليه ، مما توعدهم فيه . وهذا المعنى هو الصحيح فى الآية ، وقد مشى عليه غير واحد .

قال فى (تنوير الاقتباس) : أى عاقبة ما وعدهم فى القرآن .

وقال الجلال : أى عاقبة ما فيه من الوعيد .

وقال القاشانىّ : تأويله : أى ظهور ما أشار إليه فى مواعيده ، وأمثاله مما يؤول أمره وعلمه إليه ، فلا يمكنهم التكذيب ، لأنه إذا ظهرت حقائقه لا يمكن لأحد تكذيبه .

« كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى بآيات الرسل ، قبل التدبر فى معانيها .

« فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » أى من هلاكهم بسبب تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

[٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

[٤٢] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ » أى يصدق به فى نفسه ، ولكن يكابر بالتكذيب « وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » .

« وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن أصروا على تكذيبك ، فتبرأ منهم ، فقد أعذرت .

ثم أشار إلى أنهم ممن طبع على قلوبهم بقوله تعالى : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » أى إذا قرأت القرآن « أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ » أبرزهم فى عدم انتفاعهم بسماعهم ، لكونهم لا يعون ولا يقبلون ، بصورة الصم المتوهين : أى أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم ؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوىّ الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ)

« وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ » كذلك أبرزهم ، لعدم انتفاعهم بمشاهدة أدلة الصدق وأعلام النبوة ، بصورة العمى المضموم إلى عماهم فقد البصيرة . أى أتحب هداية من كان كذلك ؟ لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن ، أما مع الحمق فجهد البلاء . يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا ، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومن غير أن يكونوا سليمى الحواس والمدارك ، فإنه لعدله لا يفعل ذلك . « وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حاساتهم ومداركهم فيما خلقت له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ » أي شيئاً قليلاً « يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » أي يعرف بعضهم بعضاً ، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ » أي بالبعث بعد الموت « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » أي من الكفر والضلالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ)

[٤٧] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أي من العذاب « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أي قبل ذلك « فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أي فننجزهم ما وعدناهم كيفما دار الحال « ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » أي من مساوئ الأفعال .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ » أي منهم ، أرسل لهدايتهم ، وتزكيتهم بما يصلحهم « فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ » أي فبلغهم ما أرسل به فكذبوه « قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » أي بالعدل ، فأنجى الرسول وأتباعه ، وعذب مكذبوه « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أي في ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم ، لأنه من نتائج أعمالهم .

وقال القاشانيّ في قوله تعالى (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) : أي بهداية من اهتدى منهم ، وضلالة

من ضل ، وسعادة من سعد ، وشقاوة من شقى ، لظهور ذلك بوجوده ، وطاعة بعضهم إياه لقربه منه ، وإنكار بعضهم له لبعده عنه . أو قضى بينهم بإنجاء من اهتدى به وإثابته ، وإهلاك من ضل وتعذيبه ، لظهور أسباب ذلك بوجوده ـ انتهى ـ .

فالآية على هذا كقوله تعالى (١) : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وجوز أن يكون المعنى : لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه ، وتدعى به ، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان ، قضى بينهم بإنجاء المؤمنين ، وعقاب الكافرين . كقوله تعالى (٢) : (وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٤٩] (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ » استبعادا له ، واستهزاء به « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنه يأتينا . ولما فيه من الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبىّ صلوات الله عليه . قيل :

« قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى مع أن ذلك أقرب حصولا ، فكيف أملك لكم حتى أستعجل فى جلب العذاب لكم ، وتقديم الضر ، لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه . وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تعميما . والمعنى لا أملك شيئاً ما .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى أن أملكه . أو لكن ما شاء الله كائن ، فالاستثناء متصل أو منقطع . وصوب أبو السعود الثانى ، بأن الأول يأباه مقام التبرؤ من أن يكون ، عليه الصلاة والصلام ، له دخل فى إتيان الوعد . وَبَسَطَ تقريره .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

وأفاد بعض المحققين أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن الكريم للدلالة على الثبوت والاستمرار ، كما فى هذه الآية ، وقوله [1] : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قال : والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى ، لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل . اهـ . وهو نفيس جداً فليحرص على حفظه .

وقوله تعالى « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى لكل واحد من آحاد كل أمة أجل معين « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » . قال القاشانىّ : درّجهم إلى شهود الأفعال بسلب الملك والتأثير عن نفسه ، ووجوب وقوع ذلك بمشيئة الله ، ليعرفوا آثار القيامة . ثم لوح إلى أن القيامة الصغرى هى بانقضاء آجالهم المقدرة عند الله بقوله : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . .) الآية ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ » أى الذى تستعجلون به « بَيَاتًا » أى ليلا « أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ » أى ولا شىء منه بمرغوب البتة .

لطائف :

الأولى ـ (أرأيت) يستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية أو العلمية ، وهو أصل وضعه . ثم استعملوه بمعنى (أخبرنى) والرؤية فيه يجوز أن تكون بصرية وعلمية . فالتقدير : أأبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفتها ؟ فأخبرنى عنها . ولذا لم يستعمل فى غير الأمر العجيب . ولما كانت رؤية الشىء سبباً لمعرفته ، ومعرفته سببا للإخبار عنه ، أطلق السبب القريب

---

(١) [١١ / هود / ١٠٧] .

أو البعيد، وأريد مسببه ، وهل هو بطريق التجوز كما ذهب إليه كثير ، أو التضمين كما ذهب إليه أبو حيان ـ كذا في (العناية) .

الثانية ـ سر إيثار (بياتاً) على (ليلا) مع ظهور التقابل فيه ، الإشعار بالنوم والغفلة ، وكونه الوقت الذى يبيت فيه العدوّ ، ويتوقع فيه ، ويغتنم فرصة غفلته . وليس فى مفهوم الليل هذا المعنى ، ولم يشتهر شهرة النهار بالاشتغال بالمصالح والمعاش ، حتى يحسن الاكتفاء بدلالة الالتزام كما فى النهار . أو النهار كله محل الغفلة ، لأنه إما زمان اشتغال بمعاش أو غذاء، أو زمان قيلولة . كما فى قوله[1] (بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) بخلاف الليل ، فإن محل الغفلة فيه ما قارب وسطه ، وهو وقت البيات ، فلذا خص بالذكر دون النهار . و (البيات) بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ، لا بمعنى البيتوتة .

الثالثة ـ قيل : إن استعجالهم العذاب ، كان المقصود منه الاستبعاد والاستهزاء ، دون ظاهره ، فورود (ما) هنا فى الجواب على الأسلوب الحكيم . لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا الاستبعاد أن الموعود منه تعالى ، وأنه افتراء ، فطلبوا منه تعيين وقته تهكما وسخرية، فقال فى جوابهم هذا التهكم لا يتم إذا كنت مقرًّا بأنى مثلكم ، وأنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، فكيف أدعى ما ليس لى به حق؟ ثم شرع فى الجواب الصحيح،ولم يلتفت إلى تهكمهم واستبعادهم ـ أفاده الطيبى ـ .

الرابعة ـ سر إيثار (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) على (مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ) هو الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعاً من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلا عن أن يستعجله ـ كذا فى (الكشاف) ـ .

قال فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع البليغ نكتتان :

إحداها : وضع الظاهر مكان المضمر .

(١) [٧ / الأعراف / ٤] .

والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر .

وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة والمبالغة ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ، آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ).

« أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ » إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة، داخل مع ما قبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكما، تحت القول المأمور به . أى : أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، ءامنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد ، وإيذاناً باستتباعه للندم والحسرة ، ليقلعوا عما هم عليه من العناد ، ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الفوات ـ أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : «آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » على إرادة القول . أى : قيل لهم إذا ءامنوا بعد معاينة العذاب (آلْآنَ ءَامَنْتُمْ بِهِ) ؟ وذلك إنكارا للتأخير ، وتوبيخا عليه . وسر وضع (تستعجلون) موضع (تكذبون) الذى يقتضيه الظاهر ، الإشارة إلى أن المراد به الاستعجال السابق ، وهو التكذيب والاستهزاء ، استحضارا لمقالتهم فهو أبلغ من (تكذبون) .

وقيل : الاستعجال كناية عن التكذيب ، وفائدة هذه الحال استحضارها . هذا ما ذكروه ، ولا مانع من بقاء الاستعجال على حقيقته ، يدل عليه آية[1] : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ...) الخ فهم مع تهكمهم رضوا بأن يعاينوا آية يعذبون بها ، لما فى قلوبهم من مرض العناد العضال ، والجهل المصم المعمى ، ولذلك أجيبوا بأن العذاب هل فيه ما يستعجل منه . أى فمثل هذا الاستعجال لا يصدر ممن

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] .

له مسكة من عقل ، إذ لا يستعجل إلا ما يرجى خيره ، ثم أعلمهم بعدم فائدة إيمانهم وقتئذ ، وما يوبخون به ، إنكارا للتأخير ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أشركوا « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ » فى الآخرة « إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » أى تقولون وتعملون فى الدنيا .

« وَيَسْتَنْبِئُونَكَ » أى يستخبرونك « أَحَقٌّ هُوَ » أى الوعد بعذاب الخلد ، أو ادعاء النبوة أو القرآن « قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بفائتين العذاب . فهو لاحقٌ بكم لا محالة . من (أعجزه) الشيء إذا فاته . ويصح كونه من (أعجزه) بمعنى وجده عاجزاً . أى : ما أنتم بواجدى العذاب أو من يوقعه بكم عاجزاً عن إدراككم ، وإيقاعه بكم .

لطائف :

الأولى ـ دل سؤالهم هذا على محض جهلهم أو عنادهم ، لما ثبت من البرهان القاطع على نبوته بمعجز القرآن ، وإذا صحت النبوة لزم القطع بصحة كل ما ينبئهم عنه ، مما يصدعهم به .

الثانية ـ إنما أمر بالقسم لاستمالتهم ، وللجرى على ما هو المألوف فى المحاورة ، من تحقيق المدعى ، فإن من أقسم على خبر ، فقد كساه حلة الجد ، وخلع عنه لباس الهزل [1] (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) .

(١) [٨٦ / الطارق / ١٣و١٤] .

الثالثة ـ لما كانت الناس طبقات ، كان منهم من لايسلم إلا ببرهان حقيقىّ ، ومنهم من لا ينتفع به ، ويسلم إلا بالأمور الإقناعية ، نحو القسم ، كالأعرابىّ[١] الذى قدم على النبىّ ﷺ ، وسأله عن رسالته وبعثه ، وأنشده بالذى بعثه، ثم اقتنع بقوله صلوات الله عليه: اللهم نعم ، فقال : آمنت بما جئت به وأنا رسول مَن ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة ـ رواه البخارىّ فى أوئل كتاب العلم ـ.

الرابعة ـ قال ابن كثير : هذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ[٢] : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وفى التغابن[٣] (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)ـ انتهى ـ.

وقد استمد ابن كثير هذا مما ذكره شيخه الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) قال : وحلف ﷺ فى أكثر من ثمانين موضعاً ، وأمره الله سبحانه بالحلف فى ثلاثة مواضع ، ثم ذكر هذه الآيات ، ثم قال : وكان إسماعيل بن إسحاق القاضى يذاكر أبا بكر بن داود الظاهرىّ ولا يسميه بالفقيه ـ فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له فتوجهت اليمين على أبى بكر ابن داود ، فتهيأ للحلف ، فقال له القاضى إسماعيل : وتحلف ، ومثلك يحلف يا أبا بكر ؟ فقال : وما يمنعنى عن الحلف ، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف فى ثلاثة مواضع من كتابه ؟ قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر ، فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم . انتهى .

---

(١) إنه لحديث جليل وطويل فانظره فى صحيح البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٦ ـ باب ما جاء فى العلم وقوله تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، حديث رقم ٥٥ .

(٢) [٣٤/ سبأ / ٣] . (٣) [٦٤ / التغابن / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ » أى بالشرك بالله، أو التعدى على الغير ، أو مطلقاً « مَا فِي الْأَرْضِ » أى من الأموال « لَافْتَدَتْ بِهِ » أى لجملته فدية لها من العذاب « وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ » أى أخفوها أسفاً على ما فعلوا من الظلم . وضمير (أسروا) للنفوس ، المدلول عليها بـ (كل نفس) . والعدول إلى صيغة الجمع ، لتهويل الخطب ، بكون الخطب بطريق الاجتماع « لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ » أى عاينوه « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فيما فعل بهم من العذاب ، لأنه جزاء ظلمهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٦] (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إعلام بأن له الملك كله، وأنه المثيب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق ، وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به المغترون ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى تزكية لنفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة فى العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعملوا على الخوف والرجاء « وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ » أى القلوب من أمراضها ، كالشك والنفاق ، والغل والغش ، وأمثال ذلك ، بتعليم الحقائق ، والحكم الموجبة لليقين ، وتصفيتها بقبول المعارف ، والتنوّر بنور التوحيد « وهُدًى » أى لنفوسكم من الضلالة « وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى لمن آمن به ، بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ » يعنى القرآن الذى أكرموا به « وَبِرَحْمَتِهِ » يعنى الإسلام « فَبِذَٰلِكَ » أى فبمجيئهما « فَلْيَفْرَحُوا » أى لا بالأمور الفانية القليلة المقدار ، الدنيئة القدر والوقع ، « هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُون » أى من الأموال وأسباب الشهوات ، إذ لا ينتفع بجميعها ولا يدوم ، ويفوت به اللذات الباقية ، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون .

والفاء داخلة فى جواب شرط مقدر ، كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فبهما فليفرحوا . أو هى رابطة لما بعدها بما قبلها ، لدلالتها على تسبب ما بعدها عما قبلها . والفاء الثانية زائدة لتأكيد الأولى ، أو الزائدة الأولى ، لأن جواب الشرط فى الحقيقة (فليفرحوا) و (بذلك) مقدم من تأخير ، وزيدت فيه الفاء للتحسين . وكذلك جوز أن يكون بدلا من قوله (بفضل الله وبرحمته) .

ثم بين تعالى أن من فضله على الناس تبيين الحرام من الحلال على ألسنة الرسل، لئلا يفتروا عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه ، كما فعل المشركون ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ » أي ما خلق لكم من حرث وأنعام « فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا » أي أنزله تعالى رزقاً حلالا كله ، فبعضتموه ، وقلتم : هذا حلال وهذا حرام ، كقولهم [1] : (هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ) (مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا) [2] « قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ » في الحكم بالتحريم والتحليل ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه « أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ » أي تختلقون الكذب . ثم بين وعيد هذا الافتراء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أي فيما يفعل بهم ، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم ، حيث أبهم أمره « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » في إنزال الوحي وتعليم الحلال والحرام « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أي هذه النعمة ، فيستعملون ما وهب إليهم من الاستعداد والعلوم في مطالب النفس الخسيسة، ولا يتبعون ما هدوا إليه .

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٨] . (٢) ٦ / الأنعام / ١٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ » أى أمر ما « وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ » أى التنزيل « مِنْ قُرْآنٍ » أى سورة أو آية « وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » أى تخوضون وتندفعون فيه ، « وَمَا يَعْزُبُ » أى يغيب « عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » أى نملة أو هباء « فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى فى دائرة الوجود والإمكان .

وقوله تعالى : وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » كلام برأسه ، مقرر لما قبله ، أى مكتوب مبين ، لا التباس فيه . والمراد بالآية البرهان على إحاطة علمه تعالى بحال أهل الأرض ، بأن من لا يغيب عن علمه شيء كيف لا يعرف حال أهل الأرض ، وما هم عليه مع نبيه ﷺ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٣] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٦٤] (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ » جمع وليّ . وهو فى الأصل ضد العدوّ ، بمعنى المحب وجاز كونه هنا بمعنى الفاعل ، أى الذين يتولونه بالطاعة ، كقوله تعالى[١] : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) [٥ / المائدة / ٥٦] .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وبمعنى المفعول أى الذى يتولاهم بالإكرام كقوله تعالى[١] : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقوله[٢] : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . . .) الآية ـ وكلا المعنيين متلازمان : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » من لحوق مكروه ، « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى من الفزع الأكبر ، كما فى قوله تعالى[٣] : (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) .

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بكل ما جاء من عند الله تعالى « وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى يخافون ربهم ، فيفعلون أوامره ، ويتجنبون مناهيه ، من الشرك والكفر والفواحش . ومحلُّ الموصول الرفع على أنه خبر لمحذوف ، كأنه قيل : مَن أولئك وماسبب فوزهم بذاك الإكرام؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير ، المنجيين من كل شر . أو النصب بمحذوف .

وقوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (الْبُشْرَىٰ) مصدر إما باق على مصدريته ،والمبشر به محذوف ، أى لهم البشارة فيهما بالجنة ، وإنما حذف للعلم به من آيات أخر كقوله تعالى[٤] :(الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ...إلى قوله : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)،وقوله تعالى[٥] :(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) وإمامراد به المبشر به،وتعريفه للعهد . كقوله سبحانه[٦] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وقوله تعالى : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ » أى لمواعيده « ذَٰلِكَ »أى بشراكم ، وهى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٥٥] . (٣) [٢١/الأنبياء/١٠٣].
(٤) [٩/التوبة/٢٠و٢١] . (٥) [٤١/فصلت/٣٠] . (٦) [٥٧ / الحديد / ١٢].

الجنة ، « هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى المنال الجليل . الذى لا مطالب وراءه . كيف ؟ وقد فازوا بالجنة وما فيها ، ونجوا من النار وما فيها .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بيّن تعالى فى كتابه ، ورسولُهُ فى سنته ، أن لله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وللإمام تقيّ الدين بن تيمية ، عليه الرحمة ، كتاب فى ذلك سماه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) نقتبس منه جملة يهم الوقوف عليها ، لكثرة ما يدور على الألسنة من ذكر الوليّ والأولياء . قال رحمه الله :

إذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخاريّ وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال[1] : يقول الله : من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب[2]... الحديث ـ وهذا أصح حديث يروى فى الأولياء ، دل على أن من عادى وليا لله ، فقد بارز الله بالمحاربة .

وفى حديث آخر[3] : وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب . أى : آخذ ثأرهم ممن عاداهم ، كما يأخذ الليث الحرب ثأره. وهذا، لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب ، وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ، ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع .

والولاية ضد العداوة . وأصل الولاية المحبة والقرب . وأصل العداوة البغض والبعد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٦ ـ كتاب الفتن ، ١٦ ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن ، حديث رقم ٣٩٨٩ (طبعتنا) . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ، حديث رقم ٢٤٤٠ . (٣) هذا الحديث لم أهتد إليه .

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، الذى بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، فلا يكون وليًّا لله إلا من آمن به ، وبما جاء به ، واتبعه ظاهراً وباطناً . ومن ادعى محبة الله وولايته ، وهو لم يتبعه ، فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء الله ، وأولياء الشيطان . وإن كان كثير من الناس يظنون فى أنفسهم أو فى غيرهم أنهم من أولياء الله ، ولا يكونون من أوليائه . فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى (١)(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ . . .) الآية . وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله، لسكناهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، فأنزل تعالى (٢) : (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) . وكما أن من الكفار من يدعى أنه ولىّ الله ، وليس وليًّا لله ، بل عدوّ له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، يقرون فى الظاهر بالشهادتين ، ويعتقدون فى الباطن ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقروا باطناً برسالته عليه السلام ، وإنما كان ملكاً مطاعاً ، ساس الناس ، برأيه ، من جنس غيره من الملوك . أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين خاصة . أو يقولون إنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى . أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه ، وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة ، وهم موافقون له فيها. وأما الحقائق الباطنة ، فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها . أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . فهؤلاء كلهم كفار ، مع أنهم يعتقدون فى طائفتهم أنهم أولياء الله . وإنما أولياء الله : الذين وصفهم تعالى بولايته بقوله (٣) (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

---

(١) [٥ / المائدة/ ١٨] . (٢) [٨/ الأنفال/ ٣٤] . (٣) [١٠/ يونس /٦٢و٦٣].

ولا بد فى الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن . فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين . ومن آمن ببعض ما جاء به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن .

ومن الإيمان به ، الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه ، فى تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه . فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ ، فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل فى الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ ، فليس بمؤمن ، ولا ولىّ لله تعالى . كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبّادهم ، وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من مشركى العرب والترك والهند وغيرهم ، ممن كان من حكماء الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة فى دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاء به ، فهو كافر ، عدوّ لله ، وإن ظن طائفة أنه ولىّ لله . كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماء اليونان مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين ، يعبدون الأصنام والكواكب . وفى أصناف المشركين من هذه الطوائف من له اجتهاد فى العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمؤمن بالرسل ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء الله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين ، وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة

الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى[١] : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) . وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات ، وخوارق العادات ، إذا لم يكونوا متبعين للرسل ، فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون فى أعمالهم ما هو إثم وفجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع فى العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين ، واقترنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن .

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان . وفى صحيح مسلم[٣] : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

وإذا كان أولياء الله هم (المؤمنون المتقون) ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله ، بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق .

وأولياء الله على طبقتين : سابقون ومقربون وأصحاب يمين مقتصدون ، ذكرهم الله فى عدة مواضع من كتابه العزيز . فالأبرار أصحاب اليمين ، هم المتقربون إلى الله بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكفّ عن فضول المباحات . وأما السابقون المقربون ، فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ ـ ٢٢٣] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ . ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ و ١٠٨ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ١٠٩ و ١١٠ (طبعتنا) .

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم ، أحبهم الرب حبًّا تاماً ، كما قال تعالى(١) : (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ) يعنى الحب المطلق .

ثم إذا كان العبد لا يكون وليًّا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيًّا ، لهذه الآية ـ فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليًّا لله . وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته ، وإن قدر أنه لا إثم عليه ، مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يُرْسِل إليهم رسولا ، فلا يكونون من أولياء الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين . فمن يتقرب إلى الله ، لا بفعل الحسنات ولا بفعل السيئات ، لم يكن من أولياء الله .

وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبيّ ﷺ قال(٢) : رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبيّ حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث عائشة رضى الله عنها ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . ولكن الصبيّ المميِّز تصح عباداته، ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذى رفع عنه القلم، فلا يصحّ شيء من عباداته باتفاق العلماء ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو ، عند عامة العقلاء، لأمور الدنيا . كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعيّ، ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبيّ

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٨ ـ باب التواضع ، حديث ٢٤٤٠.

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٢ ـ باب لا يرجم المجنون والمجنونة، وقال عليّ لعمر : أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق وعن الصبيّ حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ (فى ترجمة الباب) .

المميز فإن له أقوالا معتبرة فى مواضع ، بالنص والإجماع ، وفى مواضع فيها نزاع وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون وليًّا لله ، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولىّ لله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوعاً من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع . فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعبّاد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًّا لله ، إن لم يعلم ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبىّ ﷺ ظاهراً وباطناً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر ، دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة العامة دون الخاصة ، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية . فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلًا عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم ، من خرق عادة ، على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى . وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات ، التى هى شرط فى ولاية الله . ومن كان يجن أحياناً ، ويفيق أحياناً ، إذا كان فى حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، ويؤدى الفرائض ، ويجتنب المحارم ، فهذا إذا جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه ، الذى أتى به فى حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون ، بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذى ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه فى حال جنونه .

فعلى هذا ، فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، بل قد يأتى بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا ولىّ لله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان

متولهاً من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ ، فهو كافر ؛ وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولىّ لله ، ولكن إن كان له حالة فى إفاقته كان فيها مؤمنا بالله متقيا ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له فى حال فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

فصل

وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره ، إذا كان كلاهما مباحاً ، كما قيل : كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عباء . بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون فى أهل القرآن ، وأهل العلم ، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون فى التجار والصناع والزراع . وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك . ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء واسم (الصوفية) ، نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح ، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء وقيل إلى (صوفة بن أد) قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفا ، وقيل إلى الصفوة ، وقيل إلى الصفة ، وقيل إلى الصف المقدم بين يدى الله تعالى . وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل : صفى ، أو صفائى ، أو صُفى ، ولم يقل صوفى . وصار أيضا اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث وقد تنازع الناس : أيما أفضل : مسمى الصوفى

أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً : أيما أفضل ؟ الغنيّ الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟ والصواب في هذا كله ما قاله تبارك وتعالى[١] : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . وفي الصحيح[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه سئل : أيّ الناس أفضل ؟ قال : أتقاهم . فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم . وفي السنن[٣] عن النبيّ ﷺ أنه قال : لا فضل لعربيّ على عجميّ ، ولا لعجميّ على عربيّ ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى . وعنه أيضاً ﷺ أنه قال[٤] : إن الله تعالى أذهب عنكم عُبِّيَّة[٥] الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس رجلان : مؤمن تقيّ ، وفاجر شقيّ .

فصل

وليس من شرط وليّ الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ، مما نهى الله عنه . ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان لبّسها عليه ، لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ــ كتاب الأنبياء ، ٨ ــ قول الله تعالى : وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ ــ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٦٨ (طبعتنا) .

(٣) لم أهتد إلى هذا الحديث في السنن . ولكن وجدته في مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) . (٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ــ كتاب الأدب ، ١١١ ــ باب في التفاخر بالأحساب ، حديث رقم ٥١١٦ .

(٥) العبية بضم العين وكسرها . الكبر والفخر والنخوة . اهـ قاموس.

وما استكرهوا عليه ولم يؤثم النبيّ ﷺ المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهاده ، وجعل خطأه مغفورا له . ولهذا لما كان وليّ الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله مَن هو وليّ الله ، إلا أن يكون نبيًّا ، بل ولا يجوز لوليّ الله أن يعتمد على ما يلقى إليه فى قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ ، فإن وافقه قَبِلَهُ وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط . فمنهم من إذا اعتقد فى شخص أنه وليّ الله وافقه فى كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله . ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها . وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئاً ، فلا يتبع فى كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده . والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله . وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع !

وفى الصحيحين(١) عن النبيّ ﷺ أنه قال : قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن كان فى أمتى أحد ، فعمر منهم . وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة . والمحدَّث الذى يأخذ عن قلبه أشياء، ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبيّ المعصوم ﷺ ولهذا كان عمر رضى الله عنه يشاور الصحابة ويناظرهم ويرجع إليهم فى بعض الأمور ، وينازعونه فى أشياء فيحتج عليهم ، ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقررهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدَّث ملهم

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشيّ العدويّ رضى الله عنه، حديث رقم ١٦٢٨، عن أبى هريرة. وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٢٣، عن عائشة (طبعتنا).

مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني . فأيّ من ادعى له أصحابه أنه وليّ الله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة ـ فهو وَهُمْ مخطئون . ومثل هذا من أضل الناس. فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقول ، هو وهم ، على الكتاب والسنة. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم . ولذا قال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال أبو عثمان النيسابوريّ : من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، لقوله تعالى[1] : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

فأولياء الله تعتبر بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة ، وشرائع الإسلام . فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان ؛ أو يأوي إلى الحمّامات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق . أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان . أو يدعو غير الله ، فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين . أو يلابس الكلاب أو النيران ، أو يأوي إلى المزابل ، والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ، لا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان ، على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن ـ انتهى ملخصا ـ

(١) [٢٤ / النور / ٥٤] .

والكتاب مما يلزم الوقوف عليه ، ومطالعته بالحرف . ففيه من الفوائد ما لا يوجد فى غيره، فرحم الله جامعه ، وجزاه خيراً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » تسلية للنبىّ ﷺ عما كان يسمعه من تآمرهم فى إيصال مكروه له ، ومجاهرتهم بتكذيبه ، ورميه بالسحر ونحوه أى : لا تتأثر بقولهم ، وشاهد عز الله وقهره ، لتنظر إليهم بنظر الفناء وترى أعمالهم وأقوالهم، وما يهددونك به كالهباء فمن شاهد قوة الله وعزته يرى كل القوة والعزة له ، لا قوة لأحد ولا حول . فقوله تعالى (١) (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف ، كأنه قيل : مالى لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله ، أى الغلبة والقهر فى ملكته وسلطانه ، لا يملك أحد شيئاً منها أصلا ، لا هم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم ، وينصرك عليهم (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) (٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) (٣) . وقوله (هُوَ السَّمِيعُ) أى لأقوالهم فيك ، فيجازيهم (الْعَلِيمُ) أى لما ينبغى أن يفعل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » أى كلهم تحت ملكته وتصرفه وقهره ، لا يقدرون على شيء بغير إذنه ومشيئته وإقداره إياهم . وقوله « وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » تأكيد

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٥٨ / المجادلة ٢١] .(٣) [٤٠ / غافر / ٥١].

لما سبق من اختصاص العزة به تعالى ، لتزيد سلوته صوات الله عليه وبرهان على بطلان ظنونهم وأقوالهم المبنية عليها . وفى (ما) من قوله (وما يتبع) وجهان :

أحدهما ـ أنها نافية ، و(شركاء) مفعول (يتبع) ومفعول (يدعون) محذوف لظهوره. أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، شركاء فى الحقيقة ، وإن سموها شركاء لجهلهم، فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر . ويجوز أن يكون (شركاء) مفعول (يدعون)، ومفعول (يتبع) محذوف ، لانفهامه ، من قوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) . أى ما يتبعون يقيناً ، إنما يتبعون ظنهم الباطل .

والوجه الثانى ـ أنها استفهامية ، منصوبة بـ (يتبع)،و (شركاء) مفعول (يدعون) . أى : أىّ شىء يتبع هؤلاء ؟ أى : إذا كان الكل تحت قهره وملكته فما يتبعون من دون الله ليس بشىء ، ولا تأثير له ولا قوة ، إن يتبعون إلا ما يتوهمونه فى ظنهم ، ويتخيلونه فى خيالهم ، وماهم إلّا يُقدِّرُون وجودَ شىء لا وجود له فى الحقيقة .

ثم نبه تعالى على انفراده بالقدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدل على توحده سبحانه باستحقاق العبادة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى خلقه لكم لتستقروا فيه من نَصَبِكم وكلالكم « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى مضيئاً ، تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم.

قيل : الآية من باب الاحتباك،والتقدير:جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه،والنهار مبصراً لتتحركوا فيه لمصالحكم ، فحذف من كل من الجانبين ماذكر فى الآخر ، اكتفاء بالمذكور عن المتروك ، وإسناد الإبصار إلى النهار مجازىّ ، كقوله : * ما ليل المحب بنائم *

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أي الجعل المذكور « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » أي هذه الآيات ونظائرها، سماع تدبر واعتبار .

ثم شرع في نوع آخر من أباطيلهم بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ » تنزيه له عن أن يجانس أحدا ، أو يحتاج إليه ، وتعجب من كلمتهم الحمقاء « هُوَ الْغَنِيُّ » أي الذي وجوده بذاته ، وبه وجود كل شيء ، فكيف يماثله شيء ؟ ومَنْ له الوجود كله ، فكيف يجانسه شيء ؟ والجملة علة لتنزيهه ، وإيذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة ، إما للتقوّي به، أو لبقاء نوعه « لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لغناه . أي فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً « إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا » أي : ما عندكم من حجة بهذا القول الباطن ، توضيح لبطلانه ، بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض . أي ليس بعد هذا حجة تسمع . والمراد تجهيلهم ، وأنه لا مستندلهم سوى تقليد الأوائل ، واتباع جاهل لجاهل .

تنبيه :

دلت الآية على تسمية البرهان سلطاناً .

قال الإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) : إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطاناً.

قال ابن عباس رضي الله عنه : كل سلطان في القرآن فهو حجة ، وهذا كقوله تعالى : (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا » ، يعني ماعندكم من حجة بما قلتم،إن هو إلا قول على الله بلا علم . وقوله تعالى[1]: (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) ، يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً ، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم . وقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ) ، يعنى حجة واضحة . إلا موضعاً واحداً اختلف فيه ، وهو قوله : (مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) ، فقيل : المراد به القدرة والملك ، أى ذهب عنى مالى وملكى ، فلا مال لى ولا سلطان . وقيل : هو على بابه ، أى انقطعت حجتى وبطلت ، فلا حجة لى . والمقصود : أن الله سبحانه سمى عِلْم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العِلْم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن. فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه ، إن لم يكن معه علم يساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة،ومن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حجته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل قاهرة له ـ انتهى ـ .

« أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ » توبيخ وتقريع على جهلهم . قال الزمخشرىّ : لما نفى عنهم البرهان ، جعلهم غير عالمين ، فدلّ على أن كل قول لا برهان عليه لقائله ، فذاك جهل وليس بعلم .

وقال أبو السعود : فيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها ، فهى جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعىّ ، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٩] (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[٧٠] (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » باتخاذ الولد ، وإضافة الشركاء « لَا يُفْلِحُونَ » أى لا يفوزون بمطلوب أصلا . « مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا » مبتدأ خبره محذوف ، أى لهم تمتع يسير فى الدنيا « ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ » أى بالموت « ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » أى بسبب كفرهم . والآية لبيان أن ما يتراءى من فوزهم بالحظوظ الدنيوية ، بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح . كأنه قيل : كيف لا يفلحون ، وهم فى غبطة ونعيم ؟ فقيل : هو متاع يسير فى الدنيا ، وليس بفوز بالمطلوب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ » أى خبره الذى له شأن وخطر ، مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان ، ليتدبروا ما فيه من صحة توكله على الله ، ونظره إلى قومه ، بعين عدم المبالاة بهم ، وبمكايدهم ، وزوال ما تمتعوا به من النعيم ، بإغراقهم بالطوفان ، فلعلهم يكفون عن كفرهم ، وتلين أفئدتهم ، ويستيقنون صحة نبوتك « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ » أى شق وثقل « عَلَيْكُمْ مَقَامِي » أى مكانى ، يعنى نفسه ، أو مكثى بين أظهركم مددا

طوالا،ألف سنة إلا خمسين عاما أو قيامى بالدعوة إلى الله،من رؤيتكم ذاتى بقلة الأموال والأعوان ، ومنع عزتكم بهما عن الانقياد لى « وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ » أى بحججه وبراهينه ، أو تخويفى بعذابه « فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ » أى اعتمدت فى دفع ما قصدتمونى به « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ » أى شأنكم فى إهلاكى « وَشُرَكَاءَكُمْ » يعنى آلهتهم . وهو تهكم بهم ، أو نظراءهم فى الشرك . و(الواو) بمعنى مع . أو معطوف على (أمركم) بحذف المضاف، أى : وأمر شركائكم . أو منصوب بمحذوف ، أى ادعو شركاءكم ، وذلك لأن (أجمع) يتعلق بالمعانى . يقال : (أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه) « ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » أى مستورا . من (غمه ، إذا ستره) بل مكشوفا تجاهروننى به « ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ » أى أدوا إلىّ ذلك الأمر الذى تريدون بى « وَلَا تُنْظِرُونِ » أى ولا تمهلونى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان بما جئتكم به « فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ » أى جُعْلٍ على عظتكم ، أى فلا باعث لكم على التولى والنفور « إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ » أى ماثوابى على التذكير إلا عليه تعالى،يثيبنى به،آمنتم أو توليتم « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى المستسلمين له وحده بالإيمان به ، ونبذ كل معبود دونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » يعنى نوحاً بما جاءهم ، عناداً بعد أن قامت عليهم الحجة ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وأرسل عليهم الطوفان ، « فَنَجَّيْنَاهُ » أى من الغرق « وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ » أى خلفاء عن المغرقين وعمّار الأرض « وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ » أى منتهى أمرهم . والمراد بـ (المنذرين) المكذبين . والتعبير به إشارة إلى إصرارهم عليه ، حيث لم يفد الإنذار فيهم . وقد جرت السنة الربانية أن لا يهلك قوم بالاستئصال إلا بعد الإنذار ، لأن من أنذر فقد أعذر . وفى الأمر بالنظر تهويل لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ ، وتسلية له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد نوح « رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ » يعنى هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ، « فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الآيات الدالة على صدقهم ، المفيدة هدايتهم « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ » أى بسبب تعوّدهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه . لأنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية ، مكذبين بالحق ، فحالهم بعدها ، كحالهم قبلها . هذا على أن ضمير (كانوا) و(كذّبوا) لقوم الرسل . وَجَازَ عَوْدُ ضمير (كانوا) لقوم الرسل ، و (كذّبوا) لقوم نوح . أى ما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح أى بمثله . « كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ » أى المجاوزين مقتضيات حقائق الأشياء ، بخذلانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء الرسل « مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا » يعنى التسع « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ » أى كفاراً ذوى آثام عظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)

« فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » يعنى الآيات المزيحة للشك «قَالُوا» يعنى من فرط التمرد « إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » أى تلبيس ظاهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)

«قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ» أى على وجه لم يترك لكم شبهة، مقالتكم الحمقى ، من أنه سحر، فحذف المحكىّ المقول لدلالة الكلام عليه . ثم قال : « أَسِحْرٌ هَـٰذَا » استفهام إنكار من قول موسى لا من قولهم . فهو مستأنف، لإنكار كونه سحراً ، وتكذيب لقولهم ، وتوبيخ لهم على ذلك إثر توبيخ . وليس (أَسِحْرٌ هَـٰذَا) مقولهم ، لأنهم بتّوا القول بأنه سحر ، فكيف يستفهمون عنه ؟ ـ كذا قيل ـ .

ولا أرى مانعاً من أن يكون مقولهم، والهمزة وسطت مزيدة لتكون مؤكدة لما قبلها من الاستفهام ، ومن لطائفها الاحتراس عن إيهام فاعلية سحر لـ (جَاءَكُمْ) بادئ بدء . وأسلوب القرآن فوق كل أسلوب . أو الهمزة ومدخولها من مقولهم الأول ، حين فوجئوا بخارقة موسى ، وقولهم المذكور قَبْلُ (إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ) حكاية لقولهم الذى بتّوا عليه أمرهم . ثم رأيت الناصر فى (الانتصاف) أشار لهذا حيث قال :

وأما القراءة الثانية ـ يعنى قراءة آالسحر ـ على الاستفهام ، ففيها ـ والله أعلم ـ إرشاد إلى أن قول موسى أوّلاً : (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا) حكاية لقولهم، ويكون

(أَسِحْرٌ هَٰذَا) هو الذى قالوه . ولا يناقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا « إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » ، وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدأوا بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكار له بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواطن أبتّ من الإخبار. ألا ترى أنهم يقولون فى قوله : * أأنتِ أمّ سالم * أبلغ فى البت من قوله مخبراً (أنت أم سالم) . ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببت الإنكار ، ودعوى أنه سحر ، فقالوا : (إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثانى، ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلهما واحد . وإما ألا يكونوا قالوا سوى : (أَسِحْرٌ هَٰذَا) على سبيل الإنكار حسبما تقدم ، فحكاه الله تعالى عنهم بمآله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار ، وبتّ القول أنه سحر ، وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوّة فى الكتاب العزيز بصيغ مختلفة ، لامحمل لها سوى أنهامعان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعانى.

وحاصل هذا البحث أن قول موسى عليه السلام (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) إنما حكى فيه قولهم ، ويرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهماً فقال : ما جئتم به آالسحر (على قراءة الاستفهام) قرضاً بوفاء على السواء . والذى يحقق لك أن الاستفهام والإخبار فى مثل هذا المعنى مؤداهما واحد ، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام ، على مااقتضته القراءتان وهو قول واحد ، دل أن مؤدى الأمرين واحد ، ضرورة صدق الخبر .

وإنما حمل الزمخشرىّ على تأويل القول بالتعييب، أو إضمار مفعول (تقولون) استشكالُ وقوع الاستفهام ، محكيًّا بالقول ، والمحكى عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافى بين الأمرين .

قال الناصر : فشدّ بهذا الفصل عرى التمسك ، فإنه من دقائق النكت ، والله الموفق .

وقوله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » من كلام موسى قطعاً ، أتى به تقريراً لماسبق، لأنه لما استلزم كونُ الحق سحراً ، كونَ من أتى به ساحراً ، أكد الإنكار السابق ، وما فيه من التوبيخ والتجهيل ، بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا » أى لموسى « أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا » أى لتصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءَنَا » يعنون عبادة الأصنام « وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ » أى الملك والسلطان « فِى الْأَرْضِ » أى أرض مصر « وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » أى لتبقى عزتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ » أى حفظاً لعزته،ودفعاً لتعزز موسى « ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » أى ماهر فى فنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ)

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَاأَنْتُمْ مُلْقُونَ » أى من أصناف السحر. قال بعضهم : جواز الأمر بالسحر لدحضه ، وكذلك طلب إيراد الشُّبه لتُحل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

« فَلَمَّا أَلْقَوْا » أى عصيّهم وحبالهم ليضاهوا معجزة موسى بعصاه « قَالَ مُوسَىٰ

مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ » أي هو السحر ، لا ماجئتكم به مما سميتموه سحراً « إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ » أي سيمحقه بالكلية بمعجزتي ، فلا يبقى له أثر « إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ » أي بل يسلط عليه الدمار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » أي يثبته ويقويه بها « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أي ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)

« فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ » معطوف على مقدر معلوم من مواقع أخر ، أي[1] (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) الخ . قيل : الضمير من (قومه) لفرعون ، وهم ناس يسير من قومه ، آمنوا به سراً . والأظهر أنهم قوم موسى ، وهم بنو إسرائيل ، الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب ، فهم الذين آمنوا به « عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ » أي يعذبهم « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ » أي مستكبر « فِي الْأَرْضِ » أي أرض مصر « وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ » أي المتجاوزين الحد بالظلم والفساد ، وبادعاء الربوبية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أي تطميناً لقلوبهم ، وإزالة للخوف عنهم « يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ

(١) [٢٦ / الشعراء / ٤٥] .

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا » أى فإليه أسندوا أمركم فى العصمة مما تخافون ، وبه ثقوا ، فإنه كافيكم (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)(١) وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أى مخلصين وجوهكم له .

قال القاشانىّ : جعل التوكل من لوازم الإسلام ، وهو إسلام الوجه لله تعالى ، أى إن كمل إيمانكم ويقينكم ، بحيث أثر فى نفوسكم ، وجعلها خالصة لله ، لزم التوكل عليه ؛ وإن أريد (الإسلام) بمعنى الانقياد ، كان شرطاً فى التوكل ، لا ملزوما له . وحينئذ يكون معناه : إن صح إيمانكم يقيناً فعليه توكلوا ، بشرط أن تكونوا منقادين . كما تقول : إن كرهت هذا الشجر فاقلعه إن قدرت ـ انتهى ـ .

وقال الكرخىّ : قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) أى منقادين لأمره . فقوله : (فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) جواب الشرط الأول . والشرط الثانى وهو (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) شرط فى الأول . وذلك أن الشرطين متى لم يترتبا فى الوجود ، فالشرط الثانى شرط فى الأول. ولذلك لم يجب تقديمه على الأول . قال الفقهاء : المتأخر يجب أن يكون متقدما ، والمتقدم يجب أن يكون متأخراً . مثاله: قول الرجل لامرأته : إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً. فمجموع قوله: (إن دخلت الدار فأنت طالق) مشروط بقوله (إن كلمت زيداً) والمشروط متأخر عن الشرط ، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ ، متقدماً فى المعنى ، وأن يكون المتقدم فى اللفظ ، متأخراً فى المعنى . فكأنه يقول لامرأته : حالَ ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق . فلو حصل هذا المعلق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق . فقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ ...) الخ يقتضى أن يكون كونهم مسلمين ، شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله (إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه: إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل. والأمر كذلك، لأن الإسلام عبارة عن الاستسلام،

(١) [٦٥ / الطلاق / ٣] .

وهو الانقياد لتكاليف الله ، وترك التمرد والإيمانُ عبارة عن معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه محدث تحت تدبيره وقهره . وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إليه تعالى ، ويحصل فى القلب نور التوكل على الله تعالى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى موضع فتنة لهم ، أى عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا . قال الحاكم : دلت على حسن السؤال بالنجاة من الظلمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » أى من كيدهم ، ومن شؤم مشاهدتهم والعبودية لهم .

قال القاضى : وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى له أن يتوكل أولا لتجاب دعوته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا » أى اتخذا بها بيوتاً مباءة تلازمونها لتجتمع كلمتكم فى شأنكم « وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً » أى مصلى « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فى بيوتكم . قال بعضهم : كانوا خائفين . وفى ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف . « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصرة فى الدنيا ، والجنة فى العقبى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ » أى يدعو الله تعالى فى إذهاب عزة فرعون « رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً » أى ما يتزين به من اللباس والمراكب والحلىّ « وَأَمْوَالًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ » أى بالتكبر عليك وعلى آياتك ورسلك . وقوله : (لِيُضِلُّوا) متعلق بـ (ءَاتَيْتَ) ، وأعيد (رَبَّنَا) توكيداً . و (لام) (لِيُضِلُّوا) لام العاقبة والصيرورة. أى: آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك ، فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك . وتجوزُ جعل اللام للعلة استدراجاً . أو لام الدعاء عليهم بذلك ـ توسع فى غير متسع ، ونبوّ عن لطف المساق وسره ؛ فإن موسى لما رأى القوم مصرين على الكفر والعناد أخذ فى الدعاء عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدم بين يدى دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال ، لتحق إجابته . ولذا ، بين أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم ، وعتوهم على المحسن بها تمهيدا لقوله : « رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ » أى أهلكها ، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك . وأصل (الطمس) محو الأثر والتغيير « وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى اجعلها قاسية ، واطبع عليها ، حتى لا تنشرح للإيمان « فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أى يعاينوه ويوقنوا به ، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك . وقوله : (فَلَا يُؤْمِنُوا) جواب للدعاء ، أو دعاء بلفظ النهى .

قال ابن كثير : هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذى تبين له أنه لا خير فيهم ، ولا يجىء منهم شىء . كما دعا نوح عليه السلام

فقال (١) : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) . ولهذا استجاب تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التى شركه فيها أخوه هارون ، كما أخبر بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٩] (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« قَالَ » تعالى « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » أى على أمرى ، ولا تعجلا ، فإن مطلوبكما كائن فى وقته لا محالة « وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى فى الاستعجال، أو عدم الوثوق بوعده تعالى ، أو يعنى فرعون وقومه ، بقوله سبحانه :

ثم أشار تعالى إلى إجابته دعاءهما فى إهلاك فرعون وقومه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ » أى لحقهم « فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا » أى لأجل البغى عليهم والاعتداء « حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ » يرجو النجاة من الغرق « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » وذلك أن موسى عليه السلام لما رغب إلى فرعون أن يطلق الإسرائليين من عبوديته ، ويأذن لهم بالسراح إلى فلسطين ليعبدوا ربهم ، أبى وتمرد ، فضربه الله وقومه بالآيات التسع ، كما

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٦ و ٢٧] .

تقدم في سورة (الأعراف) ، فأذن لموسى وشعبه بالخروج من مصر ، فارتحل بنو إسرائيل جميعاً بمواشيهم وأثاثهم ، ثم ندم فرعون وملؤه على إطلاقهم من خدمتهم ، فاشتد فرعون وجنوده في أثرهم ليردهم ، فأدركهم وهم نازلون عندالبحر ، فرهب الإسرائيليون من مقدمه، وضجوا إلى موسى ، فسكن روعهم ، وأعلمهم ما يشاهدون من نجاتهم ، وهلاك عدوّهم ، وأوحى تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانشق ودخل بنو إسرائيل في وسطه على اليبس الذي جعله تعالى آية كبرى ، ونفذوا منه إلى شاطئه ، وتبعهم فرعون وجنوده . حتى إذا توسطوا البحر ، مدّ موسى يده على البحر،فارتد إلى ما كان عليه ، وغرق فرعون ومن معه. ولما أحس بالغرق ، لاذ إلى الإيمان يبغي النجاة ، فقيل له :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

« آلْآنَ » أي تؤمن وتسلم لتنجوا من الغرق « وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ » أي كفرت بالله من قبل الغرق ، « وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » أي بالضلال والإضلال ، والظلم والعتوّ .

القول في تأويل قوله تعالى.

[٩٢] (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ)

« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » أي نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه . فرآه بنو إسرائيل ملقى على شاطىء البحر ميتاً وفي التعبير عن إخراجه من القعر إلى الشاطىء (بالتنجية) التي هي الخلاص من المكروه ، تهكم واستهزاء . « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ » من الأمم الكافرة « ءَايَةً » أي عبرة من الطغيان والتمرد على أوامره تعالى . « وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ » أي لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

تنبيه :

قال الشهاب الخفاجيّ فى (العناية) : لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار ، كما يدل عليه صريح الآية[1]: « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) . وأما ما وقع فى (الفصوص) من صحة إيمانه ، وأن قوله (ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ) إيمان بموسى عليه السلام ـ فمخالف للنص والإجماع ، وإن ذهب إلى ظاهره الجلال الدوانىّ رحمه الله . وله رسالة فيه طالعتها ، وكنت أتعجب منها حتى رأيت فى (تاريخ حلب) للفاضل الحلبىّ أنها ليست له ، وإنما هى لرجل يسمى محمد بن هلال النحوىّ . وقد ردها القزوينىّ ، وشنع عليه وقال : إنما مثاله مثال رجل خامل الذكر ، لما قدم مكة بال فى زمزم ليشتهر بين الناس ، كما فى المثل (خالف تعرف) وفى (فتاوى ابن حجر رحمه الله) أن بعض فقهائنا كفّر من ذهب إلى إيمان فرعون ولذا قيل . إن المراد بفرعون (فى كلامه) النفس الأمارة ، وهذا كله مما لا حاجة إليه ـ انتهى كلام الشهاب ـ .

أقول : ذكر شيخنا العطار رحمه الله فى كتابه (الفتح المبين فى رد اعتراض المعترض على محيي الدين) خاتمة فى بطلان ما نسب إلى هذا العارف من القول بصحة إيمان فرعون ونجاته ، قال رحمه الله :

ليعلم أنه شاع فيما بين أهل العلم بأن حضرة محيي الدين رضى الله عنه قال بإيمان فرعون ونجاته . والحال أنه ليس كذلك ، كما ستطلع عليه من النقل عنه . نعم ، بحث فى صحة القول بإيمان فرعون ، ونجاته وعدمها ، حيث الأخذ من الآيات القرآنية ، فكان ذلك منه مجرد بحث فى الدليل لا غير ، وما كان هذا قولا بإيمانه قطعياً . وقد بنى مسألة نجاة فرعون وإيمانه على أصلين من أصوله ، وافقه عليهما جم غفير من العلماء الأعلام .

الأصل الأول ـ فى بيان حقيقة إيمان اليأس ، فإيمان اليأس عنده ، وعند جم غفير من

(١) [٤٠ / غافر / ٨٥] .

العلماء هو ما كان عند مشاهدة العذاب البرزخيّ ، كحال المحتضر لا غير ، فني هذه الحالة لا ينفع الإيمان ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم . وذهب قوم إلى أن إيمان اليأس ما كان عند رؤية العذاب دنيويًّا أو أخرويًّا. فالإيمان فى أى حالة من الحالتين لا ينفع . وعند هذا العارف وجماعة : أن رؤية العذاب الدنيوىّ لا تمنع صحة الإيمان ، وإن أوجبت الهلاك فى الدنيا ، فإن سنة الله قاضية بأن يتحتم وقوع الهلاك الدنيوىّ لمن رأى هذا العذاب ، وإن آمن ونجا من عذاب الآخرة ، إلا قوم يونس ، فإنه تعالى نجاهم منه ، كما ذكره تعالى .

الأصل الثانى ـ من أصوله رضى الله عنه : أن من حقت عليه الكلمة لا يتلفظ بمادة الإيمان بقصد الإيمان ، وإن تلفظ بها لا يقصده ، فلابد من تكذيب الله تعالى له ، ولو بالحكاية عنه ، كما قال تعالى[١] : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) وكما قال[٢] : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا) فكذبهم تعالى فى دعواهم . وهذا الأصل مأخوذ من قوله تعالى[٣] : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فكلمة « حَتَّىٰ » للغاية . فغيّا تعالى إيمانهم إلى حين رؤية العذاب الأليم ، وهو الأخروىّ لا غير ، فإنه هو الذى يوصف بالأليم . ونفى تعالى عنهم وقوع الإيمان قبل ذلك ، فوقوعه منهم قبله قصدا ، محال بنص هذه الآية .

إذا تقرر هذان الأصلان ، فلنرجع إلى ما قاله هذا الحبر فى شأن فرعون فى (الفتوحات المكية) وفى (الفصوص) : فالذى ذكره فى (الفتوحات) عند ذكره طبقات أهل النار فيها : هو أن فرعون من أهل النار ، حيث قال فى هذا البحث : كفرعون وأضرابه ، نخص له ولهم من النار طبقة مخصوصة يؤبّدون فيها . وأشار إلى كفره فى موضع آخر منها عند ذكره هذا الحديث وهو[٤] : أعوذ بك منك ؟ قال : استعاذ رسول الله ﷺ من مقام

(١) [٢/البقرة / ١٤] .(٢) [٤٩ / الحجرات/١٤] .(٣) [١٠/يونس/٩٦و٩٧] .
(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٢٢ (طبعتنا) .

الاتحاد الذى كان عليه فرعون وهو قوله (١): (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) وعلى هذه الإشارة وما تقدم ، يكون فرعون كافراً عنده ، كما هو عند عامة الخلق . وعلى هذا لا إشكال ولا كلام .

بقى القول على إيمان فرعون ونجاته من حيث الدليل ، وهو مجرد بحث مع الذين ذهبوا إلى كفره قطعيا ، وليس لهم هذا القطع ، لما أن الدليل القرآنى يعطى خلافه؛ قال تعالى (فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ . . .) الآية ـ فذكر فرعون هنا الإيمان ثلاث مرات : اثنتان فى الجناب الإلهى ، والأخيرة تممه، والإيمان بموسى حيث قال : (وأنا من المسلمين) ولم يكن مسلما إلا من جمع بين الإيمان بالله ورسوله .

ثم قال شيخنا رحمه الله : وفى (الفتوحات) و (الفصوص) ما حاصله : أن إيمانه لم يكن عند اليأس ، لا على مذهبه ومذهب من وافقه ، ولا على مذهب غيره . أما الأول فلأن إيمانه كان عند رؤية العذاب الدنيوى ، لا عند احتضاره ، والإيمانُ عند رؤية العذاب الدنيوى لا يعد يأساً عنده ، وعند جمع . وأما على الثانى ، فلأن قول فرعون ما كان عند يأسه من الحياة الدنيوية ، فإنه علم أن من آمن بما آمن به قوم موسى كان له المشاركة فى الطريق اليبس التى كانت للمؤمنين ، وقد شاركهم فى إيمانهم ، فكان الغالب على ظنه أو يقينه المعاملة الخاصة بالمؤمنين ، المشاهدة له ، وما علم سنة الله فى خلقه بأنه لابد من الهلاك الدنيوى لمن كانت حالته كذلك . والهلاك فى الدنيا لا يدل على عدم النجاة فى الآخرة، وهو ظاهر . وعلى هذا فإيمانه لم يكن حال اليأس على المذهبين : فالأول بيقين ، والثانى بحسب ما يظهر ، ولا بعد بأنه كان طامعاً فى النجاة بيقين ، لعموم المشاركة . هذا ، وإن مذهب هذا العارف الخاص به هو البناء على اتساع الرحمة الإلهية، والأخذ بالظواهر من الآيات ، ومع ذلك فلما ذكر البحث فى شأن إيمان فرعون ونجاته ، مع من قال بخلافهما ، قال : إن الوقف فى شأن إيمان فرعون هو الأسلم ، لما شاع عند الخلق عامة من شقائه ، وهذا منه صريح فى أنه كان باحثاً فى إيمانه ونجاته من ظاهر اللفظ القرآنى بحثاً ، لا جازماً بهما ـ انتهى ملخصاً ـ .

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٤] .

ثم أنبأ تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل إثر نعمة إنجائهم من عدوّهم وإهلاكه ، وإخلالهم بشكرها وأداء حقوقها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ » أضيف المكان إلى الصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً ، أن تضيفه إلى الصدق . تقول : رجل صدق . وقدم صدق . وقال تعالى[1] : (مُدْخَلَ صِدْقٍ) و (مُخْرَجَ صِدْقٍ) إذا كان عاملاً فى صفة صالحاً للغرض المطلوب منه ، كأنهم لا حظوا أن كل ما يظن به فهو صادق .

وقوله تعالى « وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » وهى المنّ والسلوى فى التيه وبعده ، مما فاض عليهم من الأرض التى تدرّ لبناً وعسلاً « فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى ما تفرقوا على مذاهب شتى فى أمر دينهم ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحى ، الذى يتلونه . أى : وما كان حقهم أن يختلفوا ، وقد بيّن الله لهم ، وأزاح عنهم اللبس . ونظير هذه الآية ، فى النعى عليهم اختلافهم ، قوله تعالى[2] : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) . وقوله جل ذكره[3] (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) . وفيه أكبر زاجر وأعظم واعظ عن الاختلاف فى الدين ، والتفرق فيه .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٠] . (٢) [٩٨ / البينة / ٤] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ » من قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل « فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ » أى التوراة « مِنْ قَبْلِكَ » فإنه عندهم على نحو ما أوحى إليك « لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » أى الشاكين فى أنه منزل من عنده .

تنبيه :

لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه ، فإن صدق الشرطية لا يقتضى وقوعها ، كقولك · (إن كانت الخمسة زوجاً ، كانت منقسمة بمتساويين) . والسر فى مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر . ولذا أكثر تعالى فى كتابه من تقرير أدلة التوحيد والنبوة والرجعة . أو السر هو الاستدلال على تحقيق ماقص ، والاستشهاد بما فى الكتاب المتقدم ، وأن القرآن مصدق لما فيه . أو وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم ، بصحة ماأنزل إلى رسول الله ، صلوات الله عليه ، تعريضاً بالمشركين . أو تهييج الرسول ، صلوات الله عليه ، وتحريضه ليزداد يقيناً ، كما قال الخليل صلوات الله عليه[1] (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) . وقد روى أنه ﷺ قال حين نزول الآية : لا أشك ولا أسأل ـ أخرجه عبد الرازق وابن جرير[2] عن قتادة ـ أو الخطاب له ﷺ ، والمراد غيره ، على حد : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) . وفيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٠] . (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

مالو خاطب سلطان عاملاً له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة ، فيكون ذلك أفعل فى النفوس . أو الخطاب لكل من يسمع . أى : إن كنت أيها السامع فى شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك ... وأيد هذا بقوله تعالى بعد[1] : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي . . .) فكأنه أشار إلى أن المذكور فى أول الآية رمزاً ، هم المذكورون بعدُ صراحةً وفى الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بمقادحة العلماء المنبهين على الحق .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » هو أيضاً من باب التهييج والإلهاب والتثبيت . وأجرى بعضهم هاهنا قاعدة ، فقال : النهى عن كل شىء ، إن كان لمن تلبس به فمعناه تركه ، وإن كان لغيره فمعناه الثبات على عدمه ، والا يصدر منه فى المستقبل كما هنا ـ انتهى ـ أو يأتى الوجهان الأخيران قبل هنا أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٩٧] (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى قوله الكريم ، وأمره بعذابهم ، كما قال[2] : (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

« لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى كدأب آل فرعون وأضرابهم . أى : وعند رؤية العذاب يرتفع التكاليف ، فلا ينفعهم إيمانهم .

---

(١) [١٠ / يونس / ١٠٤] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ » أى فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته ، كما فعل فرعون . وفى هذا التخصيص معنى التوبيخ ، « فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا » بأن يقبله الله منها ، ويكشف عنها بسببه العذاب ، « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » أى لكنّ قومه « لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى إلى آجالهم .

هذا ، وقد يجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى ، لتضمن حرف التحضيض معناه ، فيكون الاستثناء متصلاً ، لأن المراد من القرى أهاليها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . ويؤيده قراءة الرفع على البدل .

روى أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى نينوى ، من أرض الموصل ، وكانت مدينة عظيمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، وهى قصبة بلاد الأشوريين ، بانيها أشور أو نينوس بن نمرود ، وكلاهما من أولاد بنى نوح ، وكانت من أقدم مدن العالم وأشهرها . والمؤرخون الوثنيون يصفونها بأن ارتفاع أسوارها كان مائة قدم ، ودائرتها ستون ميلاً ، وهى محصنة بألف وخمسمائة قلعة ، طول الواحدة منهن مائتا قدم . قيل : أهلها كانوا يبلغون نحو ستمائة ألف . وخلفاء نمرود فى هذه المدينة دأبوا على تحسينها ، وتوسيع بنائها . وقويت شوكة الأشوريين فى تلك الأيام حتى خضع لهم أكثر ممالك آسيا ، فتجبّروا وتمردوا . وكانوا كلما ظفروا فى غاراتهم يستغرقون فى النهب والمظالم ، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام ، واسمه فى العبرية (يونان) ، لينذرهم بأنهم لكفرهم واقترافهم الموبقات سيحل بهم العذاب بعد أربعين يوماً ، فتنقلب بهم نينوى . ثم خرج يونس من بينهم فأصحر . فلما فقدوه ، وبلغ أميرَهم قولُ يونس ،

تخوفوا نزول العذاب الذى أُنذروا به ، فقذف الله فى قلب أميرهم الإيمان والتوبة ، فنزل عن عرشه ، وألقى عنه حلته ، والتف بمسح،وجلس على التراب ، وآمن بالله ، وآمن أهل نينوى كلهم ، وأمر أن ينادى بنينوى بالصيام ، فلا يذوق أحدٌ طعاماً ولا شراباً ، وألا ترعى البهائم ولا تسقى ، وأن يلبس الناس المسوح ، صغيرهم وكبيرهم ، وأن يجتمعوا فى صعيد واحد ، يجهرون بتسبيح الله ، والإنابة إليه ، والاستغفار له ، والتوبة عما أسلفوا من الظلم والجـرم ، وأن يحضروا أطفالهم وذويهم ومواشيهم معهم . ففعلوا ، وتضرعوا إلى الله ، واستكانوا لجلاله ، وسألوه أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيّهم . فلما علـم منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف عنهم العذاب ورحمهم . وسيأتى فى (سورة الصافات) زيادة فى نبأ يونس عما هنا .

تنبيهات :

الأول ـ روى بعض المفسرين هنا أن العذاب تدلى عليهم ، وغشيهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، وغامت السماء غيماً أسود، ونحو هذا . وليس فى التنزيل بيان لهذا ، ولا فى صحيح السنة . وكأن من زعمه فهمه من لفظ (كشفنا) ، ولا صراحة فيه .

قال القرطبيّ : معنى (كشفنا عنهم عذاب الخزى) أى العذاب الذى وعدهم يونس أنه ينزل بهم لا أنهم رأوه حينئذ ، فلا خصوصية . أى كما روى عن قتادة أن هذا الـكشف لم يكن لأمة من الأمم إلا لقوم يونس خاصة ، فإنه لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا علامته .

الثانى ـ فى الآية إشارة إلى أنه لم يوجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، إثر بعثته وإنذاره ، إلاقوم يونس . والبقية دأبهم التـكذيب ، كلهم أوأ كثرهم ، كما قال تعالى(١) : (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] .

وفى الحديث الصحيح[(١)] : عرض علىّ الأنبياء ، فجعل النبىّ يمر ومعه الفئام من الناس، والنبىّ معه الرجل ، والنبىّ معه الرجلان ، والنبىّ ليس معه أحد) .

الثالث ـ أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ رضى الله عنه . قال : إن الحذر ، لا يرد القدر ، وإن الدعاء يرد القدر ، وذلك فى كتاب الله : (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا . . .) الآية ـ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الدعاء يرد القضاء ، وقد نزل من السماء . اقرؤوا إن شئتم : (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ...) الآية ـ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، مرفوعاً، فى قوله تعالى :(إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا) قال عليه السلام : دَعَوْا ـ كذا فى الإكليل ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ » أى بحيث لا يشذ عنهم أحد « جَمِيعاً » أى مجتمعين على الإيمان ، لا يختلفون فيه . أى : لكنه لا يشاؤه لمخالفته للحكمة التى بنى عليها أساس التكوين والتشريع « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ » أى على مالم يشأ الله منهم « حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، كقوله تعالى[(٢)] : (لَيْسَ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الطب، ٤٢ ـ باب من لم يَرْقِ ، حديث ١٦٠٥ ومسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ ، عن ابن عباس (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) . وفيه تسلية له ﷺ ، وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، كقوله تعالى[1] : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)[2] ولذا قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بإرادته وتوفيقه ، فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى الله ، « وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ » أى الخذلان « عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أى حججه وأدلته ، لما على قلوبهم من الطبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

« قُلِ انْظُرُوا » أى تفكروا « مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من الآيات الدالة على توحيده ، وكمال قدرته . قال السيوطىّ : فى الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد ، وترك التقليد فى الاعتقاد . « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى وما تنفع الآيات والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ، عمن لا يؤمن . و (ما) استفهامية أو نافية .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٣] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » أى وقائعه تعالى فيهم ، كما يقال (أيام العرب) لوقائعها ، من التعبير بالزمان عما وقع فيه ، كما يقال (المغرب) للصلاة الواقعة فيه . « قُلْ » أى تهديداً لهم « فَانْتَظِرُوا » أى ما هو عاقبتكم ، « إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)

« ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا » عطف على محذوف معلوم من السياق ، كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجى رسلنا المرسلة إليهم « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » أى من كل شدة وعذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ » إنما أوثر الخطاب باسم الجنس ـ أعنى الناس ـ مصدراً بحرف التنبيه ، تعميما للتبليغ ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم . وعبر عما هم فيه من القطع بالشك ، للإيذان بأنه أقصى ما يمكن خطوره ،

وإلا فإن وضوح صحته ، وبرهان حقيّته أوضح من الشمس فى رائعة النهار . وقدّم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى ، إيذاناً بمخالفتهم من أول الأمر. وفى تخصيص التوفى بالذكر، متعلقا بهم ـ ما لا يخفى من التهديد ، إذ لا شيء أشد عليهم من الموت. « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بأعلى مراتب التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً » أى مائلا عن الأديان الباطلة .

لطيفتان :

الأولى ـ إقامة الوجه للدين كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدين ، فاللام صلة .

الثانية ـ جملة (وأن أقم) عطف على (أن أكون) . وجاز حكاية صلة (أن) بصيغة الأمر ، لأنه لا فرق فى صلة الموصول الحرفىّ بين الطلب وبين الخبر ، لأن القصد وصلها بما يتضمن معنى المصدر ، وهو يحصل بكل فعل . وقال بعضهم : إن هنا فعلا مقدراً. أى وأوحى إلىّ أن أقم ، وأنه يجوز أن تكون (أن) مصدرية ومفسرة ، لأن فى المقدر معنى القول دون حرفه ، ثم رجحه بأنه يزول فيه قلق العطف ، ويكون الخطاب فى وجهك فى محله . وردّ بأن الجملة المفسّرة لا يجوز حذفها ، ولا قلق فى هذا العطف، وأمر الخطاب سهل، لأنه لملاحظة المحكىّ ، والأمر المذكور معه ـ كذا فى (العناية) .

وقوله تعالى : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تهييج وحث له على عبادة الله تعالى ، ومنع لغيره ، كما تقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا تَدْعُ » أى لا تعبد « مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ » أى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إن عبدته « وَلَا يَضُرُّكَ » إن لم تعبده « فَإِنْ فَعَلْتَ » أى عبدته « فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ » أى الضارّين لنفسك ، أو بوضع الأمر فى غير موضعه [١] (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » لما نهى تعالى عن عبادة الأوثان ، ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، بين أنه سبحانه هو الضار النافع ، الذى إن أصاب بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده ، دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذى لا شعور به . وكذلك إن أراد بخير ، لم يردّ أحد ما يريده من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق ، إذاً ، بأن توجه إليه العبادة دونها .

لطائف :

قيل : ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ، للإشارة إلى أنهما متلازمان ، فما يريده يصيبه ، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته . لكنه صرح فى كل منهما بأحد الأمرين ، إشارة إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى ، والضر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم ، وليس مقصوداً بالذات ، فلذا لم يعبر فيه بالإرادة .

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

وقيل : قصد الإيجاز ، فذكر فى كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله فى الأخرى ، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب ، وهو نوع من البديع يسمى احتباكاً .

قال أبوالسعود : على أنه قد صرح بالإصابة حيث قيل (يصيب به) إظهاراً لكمال العناية بجانب الخير ، كما ينبئ عنه ترك الاستثناء فيه . أى : يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير .

روى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمّن روعاتكم . ورواه عن أبى هريرة بمثله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

« قُلْ » أى لأولئك الكفرة الفجرة ، بعد ما بلغتهم دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنذرتهم ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » يعنى القرآن « فَمَنِ اهْتَدَىٰ » أى بالإيمان به ، « فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ » أى منفعة اهتدائه لها خاصة ، « وَمَنْ ضَلَّ » أى بالكفر به « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى فوبال الضلال عليها . والمعنى : لم يبق لكم بمجىء الحق عذر ، ولا على الله حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق ، فما نفع إلا نفسه ، ومن آثر الضلال ، فما ضر إلا نفسه . وفيه تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه عليه السلام ، من جلب نفع أو ضر ، كما يلوح به إسناد المجىء إلى الحق ، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته ـ أفاده أبو السعود ـ .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » أى بحفيظ موكول إلىّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير ـ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٩] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ » أى فى التبليغ ، وإن لم يهتدوا به ، « وَاصْبِرْ » أى على أذاهم فى الدعوة ، « حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ » أى لك بالنصرة عليهم والغلبة « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وله الأمر من قبل ومن بعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١ - سورة هود

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه ، وتمييزاً لها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وقال المهايمي : سميت به لقوله[١] : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الدال على توحيد الأفعال ، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المقتضية للأحكام والجزاء ، وهي من أعظم المقاصد . اهـ .

وهي مكية . واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فألحقت بها : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ)[٢] (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)[٣] ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ)[٤] .

وآياتها مائة وثلاث وعشرون .

روى الحاكم عن أبي بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ! قد شبتَ ! قال : قد شيبتني (هود) و (الواقعة) و (المرسلات) و (عمّ يتساءلون) و (إذا الشمس كورت) . ورواه هو والترمذيّ عن ابن عباس .

وروى أيضاً عن أنس وسهل وعمران . وفي رواية : شيبتني هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم . وفي رواية : شيبتني هود وأخواتها . وما فعل بالأمم .

---

(١) [١١ / هود / ٥٦] .
(٢) [١١ / هود / ١٢] .
(٣) [١١ / هود / ١٧] .
(٤) [١١ / هود / ١١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

« الر » تقدم الكلام على مثلها فى أول سورة البقرة فليتذكر .

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ » أى نظمت نظماً رصيناً محكماً معجزاً ، وأثبتت دائمة على حالها لا تتبدل ولا تتغير ولا تفسد ، محفوظة عن كل نقص وآفة « ثُمَّ فُصِّلَتْ » أى لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، كما تفصل القلائد بالفرائد . أو جعلت فصولًا سورة سورة ، وآية آية ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أى : بيّن ولخّص .

قيل : (ثم) هنا للتراخى فى الحكم ، أى الرتبة أو التراخى بين الإخبارين ، لاللتراخى فى الوقت ، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشىء واحد ، لا تنفك إحداها عن الأخرى ، فليس بينهما ترتب وتراخ . وهذا التكلف ، على أن (ثم) تقتضى الترتيب ، وقد خالف قوم فى اقتضائها إياه ، كما حكاه فى (المغنى) .

« مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » أى إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة ، لا يمكن أحسن منها ، وأشد إحكاماً . وخبير بتفاصيلها على ما ينبغى فى النظام الحكمىّ فى تقديرها وتوقيتها وترتيبها ـ قاله القاشانىّ ـ .

قال الزمخشرىّ : وفيه طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ، أى بيّنها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

« أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » قال القاشانىّ : أى تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة ، ألا تشركوا بالله فى عبادته ، وخصوه بالعبادة .

وقال الزمخشرىّ : « أَلَّا » مفعول له ، أى لئلا . أو (أن) مفسرة ، لأن فى تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله .

وقوله تعالى : « إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » كلام على لسان الرسول ، أى إننى أنذركم ، من الحكيم الخبير ، عقابَ الشركِ وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣] (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

« وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالطاعة . أو المعنى : ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله[١] : (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) .

« يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يطوّل نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعم متتابعة ، إلى وقت وفاتكم ، كقوله[٢] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

« وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » أى ويعط كل ذى فضل فى العمل الصالح فى الدنيا أجره ، وثواب فضله فى الآخرة .

« وَإِن تَوَلَّوْا » أى تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه « فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ » وهو يوم القيامة .

(١) [٤١ / فصلت/ ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف ١٣] . (٢) [١٦ / النحل/ ٩٧].

قال القاشانيّ : (كبير) أي شاق عليكم ، وهو يوم الرجوع إلى الله ، القادر على كل شيء ، أي يوم ظهور عجزكم ، وعجز ما تعبدون ، بظهوره تعالى في صفة قادريته ، فيقهركم بالعذاب ، ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٥] (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم بيّن تعالى إعراضهم بجسمهم أيضاً، إثر الإشارة إلى توليهم بقلبهم ، بقوله: « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أي يزورّون عن الحق واستماعه بصدورهم « لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أي في قلوبهم « وَمَا يُعْلِنُونَ » أي يجهرون بأفواههم « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أي بما في ضمائر القلوب . ونظير ما حكى هنا عن مشركي مكة من كراهتهم لاستماع كلامه تعالى ، ماقاله تعالى عن قوم نوح[١] (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً » . وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية ـ والله أعلم ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » أي ماتعيش به . وإنما جيء بـ(على)

(١) [٧١ / نوح / ٧] .

اعتباراً لسبق الوعد به ، وتحقيقاً لوصوله إليها البتة ، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب « وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » أى مسكنها فى الدنيا ، أو فى الصُّلْب « وَمُسْتَوْدَعَهَا » أى بعد الموت، أو فى الرحم « كُلٌّ » أى من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها « فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مسطور فى كتاب عنده تعالى ، مبين عن جميع ذلك .

ثم بين تعالى عظيم قدرته فى تكوينه وإبداعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » من الأحد إلى الجمعة « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » أى ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض ، وارتفاعه فوقها ، إلا الماء . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض ـ كذا فى الكشاف ـ .

وقال القاضى : أى لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى فى هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض .

روى الإمام أحمد[(١)] عن أبى رزين ـ واسمه لقيط بن عامر العقيلىّ ـ قال: قلت يارسول الله! أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ).

ثم خلق العرش بعد ذلك . ورواه الترمذيّ [1] وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقيّ فى كتاب (الأسماء والصفات) : (العماء) ممدود كما رأيته مقيدا كذلك، ومعناه السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب ، مدبراً له ، وعاليا عليه . كما قال تعالى [2] : (ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) . يعنى مَنْ فوق السماء . وقوله . (ما فوقه هواء) أى ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله (وما تحته هواء) أى ما تحت السحاب هواء .

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عمى عن الخلق ، فكأنه قال فى جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق، ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيهما نافية . أى : ليس فوق العمى ، الذى هو لا شيء موجود ، هواء . ولا تحته هواء . لأنه إذا كان غير موجود ، فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصا .

وقال ابن الأثير : العماء فى اللغة: السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب . وفى الحديث حذف، أى أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفَطِن .

وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء ! .

قال الأزهريّ : فنحن نؤمن به ولا نكيّف صفته .

وقوله تعالى : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى أخلصه ، متعلق بـ (خلق) أى : خلقهن لحكمة بالغة ، وهى أن يجعلهن مساكن لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ،

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١١ سورة هود ، ١ ـ حدثنا أحمد ابن منيع . (٢) [٦٧ / الملك / ١٦] .

فيعبدوه وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشبه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا ـ بمعاملة المختبر مع المختبَر ، ليعلم حاله ويجازيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل ، (ليبلوكم) موضع (ليعاملكم) . ويصحّ أن يكون مجازاً مرسلا ، لتلازم العلم والاختبار . أي : خلق ذلك ليعلم ، أي . ليظهر تعلق علمه الأزليّ بذلك .

قال القاشانيّ : جعل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أي : خلقناهم لنعلم العلم التفصيليّ التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ، أيّكم أحسن عملا ، فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق . والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم ـ انتهى ـ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى[1] : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) . وقوله[2] : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) . وقوله سبحانه[3] : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقوله تعالى « وَلَئِنْ قُلْتَ » أي لأهل مكة « إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ » أي مُحيَون « مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا » أي القول بالبعث ، أو القرآن المتضمن لذكره « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أي مثله في الخديعة والبطلان .

---

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ١١٥ و ١١٦] .
(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

« وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » أي جماعة من الأوقات محصورة . والعذاب هو عقاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا ببدر ، أو هلاك المستهزئين الذين ماتوا قبل بدر « لَيَقُولُنَّ » أي استهزاء « مَا يَحْبِسُهُ » أي عنا. « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ » أي دار ونزل بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون .

لطيفة :

(الأمة) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة . فيراد بها الأمد ، كما هنا وقوله في يوسف[١] : (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) . والإمام المقتدى به ، كقوله[٢] : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ) . والملة والدين كآية[٣] : (إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ) . والجماعة كآية[٤] : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) . وقوله تعالى[٥] : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) ـ أفاده ابن كثير ـ .

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان ، وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٠] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٢و٢٣] . (٤) [٢٨/ القصص / ٢٣] .
(٥) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ)

« وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً » أى نعمة « ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ » أى قنوط عن عَوْدِها ، قطوع رجاءه من فضله تعالى ، من غير صبر ولا تسليم لقضائه ، « كَفُورٌ » عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله ، كأنه لم ير خيراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » أى المصائب التى ساءتنى « إِنَّهُ لَفَرِحٌ » أى أشِر بطِر « فَخُورٌ » أى على الناس بما أذاقه الله من نعمائه ، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على الضراء ، إيماناً بالله ، واستسلاماً لقضائه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فى الرخاء والشدة ، شكراً لآلائه ، سابقِها ولاحقِها « أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ » أى لذنوبهم بتلك الشدة « وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » أى على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيه :

قال القاشانى قدس سره : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ، والمرض والصحة ، واثقاً بالله ، متوكلًا عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمة ، ولا بسميه

وتصرفه في الكسب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأشر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينساه فينساه الله بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره فإن أتاه رحمة من صحة أو نعمة ، شكره أولا برؤية ذلك منه . وشهود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح باستعمالها في مراضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستزيداً إياها ، اعتماداً على قوله تعالى[1] : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفّروا أقصاها بقلة الشكر ثم إن نزعها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد المشفق في تربيته إياه ، بل أرأف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يعلمه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القانط من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأي سبب يسوغ له نخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ، ومن الله .

وقوله تعالى : (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا) استثناء من (الإنسان) أي هذا النوع يؤوس كفور ، فرح فخور ، في الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، في حالة الضراء والنعماء والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضي الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالي أيهما أمتطي . انتهى .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » أي بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ، « أَنْ يَقُولُوا » أي مخافة أن يقولوا ، تعامياً عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة ، وتمادياً في العناد على وجه الاقتراح « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » أي هلّا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماً أن الرسول متبوع ، لابد له من الإنفاق على أتباعه ، ولا يتأتى مع عدم سلطنته إلا بإلقاء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الاقتراح « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أي فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فَكِلْ أمرك إليه ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

لطائف :

الأولى ـ قال القاشاني : لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقابلوه بالعناد والاستهزاء ، ضاق صدره ، ولم ينبسط للكلام ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبولُ المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقي كرباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيّج قوته ونشاطه بقوله : (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) ، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين : إما رفع الحجاب بأن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كِل الهداية إليه .

الثانية ـ لا يخفى أن (لعل) للترجى ، وهو ، وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ، لوجود ما يمنع منه . وتوقع مالا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهييج داعيته .

وقيل : (لعل) هنا للتبعيد لا للترجى ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالمعنى: لا تترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكارى كما فى الحديث(١) : لعلنا أعجلناك .

وقيل : هى لتوقع الكفار . فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ، لأن معانى الإنشاآت قائمة به ـ تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا . فالمعنى : إنك بلغت الجهد فى تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه ـ كذا فى العناية ـ .

الثالثة ـ إنما عدل عن (ضيّق) الصفة المشبهة إلى (ضائق) اسم الفاعل ، ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدراً . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحوّل إلى فاعل ، فيقولون فى سيد سائد وفى جواد جائد ، وفى سمين سامن . قال :

بمنزلة أمّا اللئيمُ فَسَامِنٌ بها ، وكرامُ الناس بادٍ شحوبُها

وظاهر كلام أبى حيّان أنه مقيس. وقيل إنه لمشابهة (تارك) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة ـ كذا فى العناية ـ .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٣٤ ـ باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين ، حديث ١٤٤ ـ عن أبى سعيد الخدرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى ما يوحى إليك . وفى (أم) وجهان منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة الإنكارية) أى : بل أيقولون . ومتصلة والتقدير : أيكتفون بما أوحينا إليك ، وهو ما فى الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا » أى للاستعانة « مَنِ اسْتَطَعْتُمْ » أى من الإنس والجن . وقوله : « مِنْ دُونِ اللهِ » متعلق بـ (ادعوا) ، أى متجاوزين الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنى افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلى ، لا سيّما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ)

« فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ » أى بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها « وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيده واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ، « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله ، بعد هذه الحجة القاطعة ؟

لطـائف :

الأولى ـ قيل : تُحُدُّوا أولا بعشر سور، فلما عجزوا تُحُدُّوا بسورة، وذهب المبرد إلى أن الأمر بالعكس ، ووجهه بأن ما وقع أولا هو التحدى بسورة مثله فى البلاغة والاشتمال على ما اشتمل عليه من الإخبار عن المغيبات والأحكام وأخواتها ، وهى الأنواع التسعة المنظومة فى قول بعضهم :

ألا إنما القرآنُ تسعـــةُ أحرفٍ سأنبيكَها فى بيت شعر بلاَمَلَلْ
حلال ، حرامٌ ، مُحْـكَمٌ مُتَشَابِهٌ بَشِيرٌ نَذِيرٌ ، قِصَّةٌ ، عِظَةٌ ، مَثَلْ

فلما عجزوا عن ذلك ، أمرهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم ، وإن لم تشتمل على ما اشتمل عليه ، ويشهد له توصيفها بـ (مفتريات) .

وقيل : إن التحدى بسورة وقع بعد إقامة البرهـان على التوحيد ، وإبطـال الشرك ، فتعين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهى السورة الفذة . والتحدى بعشر وقـع بعد تعنتهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غـير القرآن ، لزعمهم أنه مفترى . فمقامه يناسبه التـكثير ، لأنه أمر مفترى عندهم، فلا يعسر الإتيان بكثيرمثله ـ كذا فى العناية ـ .

الثانية : ضمير (لـكم) للنبىّ ﷺ ، وجمع للتعظيم ، كما فى قول من قال :

* وإن شئت حرمت النساء سواكم *

أوْله والمؤمنين ، لأنهم أتباعه فى الأمرٌ بالتحدى ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم ألا ينفـكوا عنه ، عليه الصلاة والسلام ، ويناصبوا معه لمارضة المعارضين ، كما كانوا يفعلونه فى الجهاد . وإرشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان ، والطمأنينـة فى الإيقان ، ولذلك رتب عليه قوله عز وجل : (فاعلموا . . .) الخ. وجوز أن يكون الخطاب فى الـكل للمشركين من جهته عليه السلام ، داخلا تحت الأمر بالتحدى ، والضمير فى (لم يستجيبوا) لـ (من استطعتم) أى : فإن لم يستجب لـكم سائر من تجأرون إليهم فى مهماتـكم إلى

المعاونة ، فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر ، وأنه منزل من خالق القُوى والقُدَر ـ كذا فى أبى السعود ـ .

ثم بين تعالى وعيد من آثر الحياة الدنيا على الآخرة ـ وهم الكفار ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ)

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ » أى نوصل إليهم جزاء أعمالهم فيها من الصحة والرزق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا » أى وحبط فى الآخرة ما صنعوه ، أى لم يكن لهم ثواب عليه . وجوز تعلق الظرف بـ (صنعوا) والضمير للدنيا ، كما عاد عليه فى قوله[١] : (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) ؛ « وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى كان عملهم فى نفسه باطلا ، لأنه لم يعمل لغرض صحيح .

ونظير هذه الآية قوله تعالى[٢] : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ

---

(١) [١١ / هود / ١٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٨ ـ ٢٠] .

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » . وقوله تعالى[1] : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ).

لطيفة :

فى إعراب « باطل » وجهان :

الأول ـ كونه خبراً مقدماً ، و(ما كانوا) مبتدأ مؤخراً : و(ما) مصدرية أو موصولة، والكلام من عطف الجمل .

والثانى ـ كونه عطفاً على الأخبار قبله أى: أولئك باطل ما كانوا يعملون . و (مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فاعل بـ (باطل) ورجح هذا بقراءة زيد بن علىّ رضى الله عنهما : (وَبَطَلَ) ماضياً معطوفاً على (حَبِطَ) .

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين ، فى مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » أى برهان نيّر ، عظيم الشأن ، يدل على حقيّة ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن « وَيَتْلُوهُ » أى يتبعه « شَاهِدٌ مِنْهُ » أى من القرآن نفسه ، يشهد له بكونه من عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت (البينة) أيضاً بالإسلام، سماه بينة لغاية ظهوره، إذ هو دين الفطرة، قبل تدنيسها برجس الوثنية و(الشاهدُ) بالقرآن،

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

فالضمير للرب تعالى . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « كِتَابُ مُوسَىٰ » وهو التوراة . أى : ويتلو تلك البينة من قبله كتاب موسى ، مقرراً لذلك أيضاً . وقوله تعالى : « إِمَاماً » أى مقتدى به فى الدين ، « وَرَحْمَةً » أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم الشرائع . « أُولَٰئِكَ » أى من كان على بينة « يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالقرآن ، فلهم الجنة ، « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى أهل مكة ، ومن ضامّهم من المتحزبين على رسول الله صلوات الله عليه « فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ » أى شك من القرآن أو من الموعد « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

أى به . إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

لطائف :

الأولى : (مَنْ) فى قوله تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) مبتدأ حذف خبره ، لإغناء الحال عن ذكره . وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم ـ كذا قال أبو السعود ـ.

وفى (شرح الكشاف) أن التقدير : أمن كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ، فمن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف ، لدلالة الفاء . أى : يعقبونهم أو يقربونهم . والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلًا عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من نحو قوله تعالى[1] : (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ، لَا يَسْتَوُونَ) .

الثانية : قرئ (كتابَ موسى) بالنصب عطفاً على الضمير فى (يتلوه) أى يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة من ربه . يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وشهادتهم على أنه حق لامفترى ، لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و(يتلو) من التلاوة ، فتكون الآية كقوله تعالى[2] . (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ـ والله أعلم ـ .

(١) [٣٢ / السجدة / ١٨] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

الثالثة ـ (الأحزاب) جمع حزب . والحزب جماعة الناس . ويطلق (الأحزاب) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ ، وكذا كل نبيّ قبله . وهو إطلاق شرعيّ . وعليه حمل الأكثر الآية ، لكون السورة مكية . إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفي صحيح مسلم[1] عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهوديّ أو نصرانيّ ، ثم لايؤمن بي ، إلادخل النار . قال سعيد : كنت لاأسمع بحديث من النبيّ ﷺ على وجهه ، إلاوجدت مصداقه في القرآن، فبلغني هذا الحديث، فجعلت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) قال : الملل كلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقوله للملائكة (بَنَاتُ اللَّهِ)،وللأصنام (شُفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ) « أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ » أي يساقون إليه سوق العبيد المفترين على ملوكهم ، « وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ » من الملائكة والنبيين والجوارح : « هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ،لظلمهم بالكذب على الله . قيل : ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفترى ،

---

(١) أخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، ٧٠ ـ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعتنا) .

فإن من يعلم حال من يفترى على الله كيف يرتكبه ، كما مرّ فى يونس فى قوله تعالى[١] : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

« الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه القويم ، كلّ من يقدرون على صده « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يطلبونها معوجّة بالكفر ، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ، « وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)

« أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى يعجزونه تعالى أن يعاقبهم فى الدنيا، « وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى يمنعونهم من عقابه ، « يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ » لتصامّهم عن الحق ، وبغضهم له ، « وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ » لتعاميهم عن آيات الله، وإعراضهم غاية الإعراض ، كما قال الله[٢] : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال تعالى[٣] : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ . . .) الآية.

(١) [٢٠ / طه / ٦٩] . (٢) [٦٧ / الملك / ١٠] .
(٣) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى سعادتها وراحتها، أو بتسليمها لعبادة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى ، وهذا الخسران فى النفس أعظم خسارة كما قيل :

إذا كان رأسُ المال عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإنفاق فى غيْرِ واجبِ

« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى غاب عنهم الآلهة وشفاعتها ، ولم تُجْدِهم شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ)

« لَا جَرَمَ » أى حقًّا ، أو لامحالة «أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » أى خشعوا له وحده ، « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ » أى الكفار والمؤمنين « كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ » مثل للكافر « وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ » مثل للمؤمنين « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » أى الفريقان « مَثَلًا » أى حالًا وصفة ، « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى بضرب الأمثال وتدبرها .

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده ، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم ، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه ، وأن سنة الله فيهم معروفة ، كما قال تعالى (١) (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » وكانت امتلأت الأرض من شركهم وشرورهم « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى بأنى . وقرئ بالكسر . أى : فقال إنى لكم نذير مبين ، أبيّن لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

« أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » (الباء) مقدرة هنا للتعدية . و (لا) ناهية . أى أرسلناه متلبساً بالنهى عن عبادة غير الله . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى السادة والكبراء ، « مَا نَرَاكَ إِلَّا

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] .

بَشَرًا مِثْلَنَا » أى لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا .

قال القاشانى : أى فقال الأشراف المليئون بأمور الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق : ماتراك إلا بشراً مثلنا ، لكونهم ظاهريين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، المتحير بالهوى ، الذى هو عقل المعاش ، لا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل ، غير مطلعين على مراتب الاستعدادت والكمالات ، طوراً بعد طور ، ورتبة فوق رتبة إلى ما لا يعلمه إلا الله ، فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها .

« وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا » أى فقراؤنا الأدنون منا ؛ إذ المرتبة الرفعة عندهم بالمال والجاه ، ليس إلا . كما قال تعالى : (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

وقوله تعالى : « بَادِيَ الرَّأْيِ » أى بديهة الرأى ، لأنهم ضعاف العقول ، عاجزون عن كسب المعاش ، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجابهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة ، والفضيلة المعنوية ، لقصر تصرفه على كسب المعاش ، والوقوف على حده . وأما أتباع نوح عليه السلام ، فإنهم أصحاب همم بعيدة ، وعقول حائمة حول القدس ، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه ، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحقروها .

تنبيه :

(بادى) قرأه أبو عمرو بالهمزة ، والباقون بالياء .

فأما الأول فمعناه أول الرأى . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل ، أولَ وهلة .

وأما الثانى فيحتمل أن أصله ما تقدم ، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو ، كعلا يعلو . والمعنى : ظاهر الرأى دون باطنه . ولو تُؤُمِّل لعرف باطنه ، وهو فى المعنى كالأول . وعلى كليهما ، هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما (نراك) أو (اتبعك)

قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجّوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدهما ـ أن المتبعين أراذل ، ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثانى ـ أنهم مع ذلك لم يتروّوا فى اتباعه ، ولا أمعنوا الفكرة فى صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به ـ انتهى ـ .

أى وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم : أما الأول فلا خفاء فى أنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه ، بل أتباعه هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأدنون ، ولو كانو أغنياء . وفى الغالب ، ما يتبع الحق ، إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى[1] : (وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) . ولما سأل[2] هرقل ، ملكُ الروم ، أبا سفيان عن نعوت النبيّ ﷺ ، قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ! فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وأما الثانى : فإن البدار لاعتناق الحق من أسمى الفضائل ، لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأى ولا للفكر مجال ، ولا بد من اتّباعه حالتئذ لكل ذى فطنة ، ولا يتردد إلا غبيّ أو عيّ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : « وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ » خطاب لنوح وأتباعه « عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ » أى تقدّم يؤهلكم للنبوة . واستحقاق المتابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالغنى والمال .

قال الزمخشريّ : كان الأشرف عندهم من لـه جاه ومال ، كما ترى أكثر المتّسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زلّ عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرّب أحداً من الله ، وإنما يبعده . ولا يرفعه ، بل يضعه . فضلاً عن أن يجعله سبباً فى الاختيار للنبوّة ، والتأهيل لها . على أن الأنبياء عليهم السلام بُعِثوا مرغِّبين فى طلب الآخرة ،

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] . (٢) انظر صحيح البخاريّ : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ .

مصغّرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخلد إليها . فما أبعدَ حالهم عليهم السلام من الاتّصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله !

وقوله تعالى : « بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أي فيما تدعونه من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

قَالَ » أي نوح « يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أي أخبروني « إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ » أي برهان « مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً » أي هداية خاصة كشفيّة « مِنْ عِنْدِهِ » أي فوق طور العقل من العلوم اللدنية ، ومقام النبوة « فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ » أي لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخليقة عن الحقيقة « أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ » يعني أنكرهكم على قبولها ، ونقسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ، ولا تختارونها ، و(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)(١) ، فالاستفهام للإنكار ، أي لا نقدر على ذلك ، والذي في وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطركم إليها ، فإن شئتم تلقيها فزكّوا نفوسكم ، واتركوا إنكاركم . وفي طيّ جوابه عليه السلام حثّ على تدبرها ، وردّ عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أي على تبليغ التوحيد « مَالًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

اللهِ » قال القاشانيّ : أى الغرض عندكم من كل أمر ، محصورٌ فى حصول المعاش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنبهوا لغرضى ، وأنتم عقلاء بزعمكم .

ثم لما بيّن أن لاوجه لكراهة دعوته ، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسّة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال « وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لأنهم أهل القربة والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مانعاً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدوّ لله مناوئ لأوليائه . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكايتهم ، وهذا معنى قوله : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟

ثم أشار إلى أن خسّتهم ليست مانعة من الإيمان ، إذ لا تلحقهم ، بقوله : « وَلَٰكِنِّىٓ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » أى فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم فى الإيمان من جهلكم؛ إذ الخسيس لاتترك مشاركته فى كل شيء . أو تجهلون ما يصلح به المرء للقاء الله، ولا تعرفون الله ولا لقاءه، لذهاب عقولكم فى الدنيا. أوتسفهون وتؤذون المؤمنين،وتدعونهم أراذل . أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى[(١)] : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوٓا أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) ؟

ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٠] (وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ » أى : فإن أفادكم طردُهم تعززكم ، فإنى أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عنى ؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنيّ عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

من كرامتهم بإيمانهم بالله واليـوم الآخر . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » تتعظون فتـنزجروا عما تقولون ؟

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً عادماً للجاه ، متعلقاً بالحرف الوضيعة ، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء ، لما طلبوا طرد من عدّوه من الأراذل . وهي نظير قوله تعالى[1] : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوثر بالوحي والرسالة فلا يدعي ما ليس له ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ » أي رزقه وأمواله «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » أي أنا أدعي الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالاطلاع على الغيب، ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ » أي تحتقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون « لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا » أي في الدنيا والآخرة، لهوانهم عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندي ما عند الله ، لا المال « اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » أي من الخير ، مني ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرهم ، وما يعلم أحد قدر خـيرهم لعظمه ـ

(١) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

قاله القاشانيّ ـ وحمل غيره هذا على تفويض ما فى أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد ألا يبتّ القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبني أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة . « إِنِّى إِذًا » أى إذا قلت ذلك « لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى لبخس حقهم ، وحطّ قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك ، الإيمانَ القلبيّ ، كما هو الظاهر منهم ، فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بعدم نيل الخير ، بعد ما آمنوا ، كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » أى أطلته ، أو أتيته بأنواعه ، « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أى من العذاب « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ » يعنى أنه ليس موكولاً إليّ ، وإنما يتولاه الله الذى كفرتم به « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أى بالهرب أو بدفعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »

أى أىّ شىء يجديه إبلاغى ونصحى ، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغواءكم ليدمّركم « هُوَ رَبُّكُمْ » أى مالك أمركم « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)

« أَمْ يَقُولُونَ » أى قوم نوح « افْتَرَاهُ » أى النصح ، فهو من تتمة نبأ نوح ، أو ضمير الجمع لكفار مكة،يعنون افتراء محمد صلوات الله عليه لنبأ نوح ، جىء به معترضاً فى تضاعيفه، تحقيقاً له ، وتأكيدا لوقوعه ، وتشويقا للسامعين إلى استماعه؛ إذ بقى منها الأهم وهو نتيجته. « قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي » أى إثم كسب ذنبى « وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ » أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إياهم « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ » أى لا تحزن « بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم،وحان وقت الانتقام منهم . وقيل: المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا محلا لشفقتك ولا لرحمتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

« وَاصْنَعِ الْفُلْكَ » أى للتخلص من عذابهم « بِأَعْيُنِنَا » أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن

معه من الله عزّ وجل حفاظاً وحراساً ، يكلأُونه بأعينهم من التعدى من الكفرة ، ومن الزيغ فى الصنعة « وَوَحْيِنَا » أى إليك ، كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا . قيل: لم يكن قبله سفينة . « وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا تدعنى ، فى استدفاع العذاب عنهم ، بشفاعتك « إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » أى محكوم عليهم بالطوفان ، وقد وجب ذلك ، فلا سبيل إلى كفه . كقوله تعالى[1] « يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة . وقيل : تقديره وأخذ يصنع الفلك ، « وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أى هزئوا به ، بمعالجة السفينة « قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا » أى فى صنع الفلك « فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ » أى لجهلكم « كَمَا تَسْخَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » أى فى الدنيا فيجعله محلا للسخرية « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى فى الآخرة ، يدوم معه الخزى .

وقوله تعالى :

---

(١) [١١ / هود / ٧٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ، وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى بإهلاك قومه . و (حَتَّىٰ) غاية لقوله (وَيَصْنَعُ) وما بينهما حال من الضمير فيه ، و (سَخِرُوا مِنْهُ) جواب (كُلَّمَا) . « وَفَارَ التَّنُّورُ » أى وجه الأرض أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادى ، أو عين ماء معروفة ، أو الكانون الذى يخبز فيه ، أو تنوير الفجر ـ أقوال حكاها اللغويون والمفسرون ـ زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر ، كما يقال : (حمى الوطيس) والوطيس التنور ، وهو من فصيح الكلام وبليغه ، وعندى أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها ، وإن حاول الرازىّ رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوى انهمار الماء ونبوعه . وهذا الإيجاز فى مجازه الرهيب ، قد بينته آيات أخر ، وهى[١]: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ...) الآيات ـ ومما يؤيده شموله لشدة الأمر من السماء والأرض ، فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط . وجلىّ أن الأمر كان أعم ـ والله أعلم ـ .

« قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا » أى فى السفينة « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » أى صنفين من البهائم والطيور وما يدب على وجه الأرض « اثْنَيْنِ » أى ذكراً وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ (كُلِّ) بالإضافة ، وفيه وجهان :

أحدهما ـ أن مفعول (احْمِلْ) (اثْنَيْنِ) و (مِنْ) حال .

والثانى ـ أن (مِنْ) زائدة ، والمفعول (كُلّ) ، و (اثْنَيْنِ) توكيد . ويقرأ مِنْ

(٤) [٥٤ / القمر / ١١و١٢] .

كُلٍّ (بالتنوين ، فـ (زَوْجَيْنِ) مفعول (احْمِلْ) ، و (اثْنَيْنِ) توكيد له ، و (مِنَ) متعلقة بـ (احْمِلْ) أو حال . انتهى .

« وَأَهْلَكَ » أي من يتصل بك في دينك وسيرتك من أقاربك، « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ » أي وجب عليه « الْقَوْلُ » أي بالإغراق بسبب ظلمه ، « وَمَنْ ءَامَنَ » أي احمله معك فيها.

قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الإفراد في (ءَامَنَ) محافظة على لفظ (مَنْ) للإذان بقلتهم ، كما أعرب عنه قوله ، عزّ قائلًا : « وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَقَالَ » أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين « ارْكَبُوا فِيهَا » أي السفينة « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » قال الزمخشريّ : يجوز أن يكون كلاماً واحداً ، وكلامين. فالكلام الواحد أن يتصل (بِسْمِ اللَّهِ) بـ (ارْكَبُوا » حالًا من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت ، وإما لأنهما مصدران، كالإجراء والإرسال، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم: (خفوق النجم) و (مقدم الحاج) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء . وانتصابهما ، بما في (بِسْمِ اللَّهِ) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أي : بسم الله إجراؤها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . ويجوز أن يقحم الاسم ، كقوله[1] : ثم اسم السلام عليكما . ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أي بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : (جملة

---

(١) تمام البيت :

إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكُمَا ومن يَبْكِ حَوْلًا كامِلًا فَقَدِ اعْتَذَرْ

وقائله لبيد ، يخاطب ابنتيه .

مقتضبة) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضبة ، بأن تكون في موضع الحال من ضمير (الفلك) كأنه قيل : اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله[1]: (فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ـ انتهى ـ .

تنبيهات :

الأول ـ قرأ الإخوان ـ حمزة والكسائيّ وحفص ـ (مَجْرَاهَا) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم (مرساها) . وقد قرأ ابن مسعود والثقفيّ (مَرْسَاهَا) بفتح الميم أيضاً . وقرئ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدها ، بلفظ اسم الفاعل . مجروري المحل ، صفتين لله .

الثاني ـ ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء ، التي للتأنيث ، أو للإلحاق ، أَمَالَهُ حمزة والكسائيّ وأبو عمرو ، ووافقهم حفص في إمالة (مَجْرَاهَا) هنا ، ولم يُمِلْ غيره .

الثالث ـ أخذ بعضهم من الوجه الأول في (بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أعني تقدير قائلين ، استحباب التسمية . وذكره تعالى عند ابتداء الجري والإرساء . وهو مؤيد بقوله تعالى في سورة المؤمنون[2]: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) . وقوله تعالى[3] : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا) الآية ـ وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه أيضاً .

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨ و٢٩] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ١٢ ، ١٣] .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنجاء ، أى لولا مغفرته ورحمته لغرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو تعليل لـ (ارْكَبُوا) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ؛ فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)

« وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ » متصل بمحذوف ، دل عليه (ارْكَبُوا) ، أى فركبوا مسمين وهى تجرى ، وهم فيها . « فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشامخة بخمسة عشر ذراعا ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .

« وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ » أى فى متنحى عن أبيه « يَا بُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا » أى ادخل فى ديننا ، واصحبنا فى السفينة « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى فى الدين والانعزال ، الهالكين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

« قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ » أى فلا أغرق « قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلّا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعنى السفينة . أو لا عاصم ،

بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو (إلا) منقطعة ، أى لـكن من رحمه فهو المعصوم .

قال الناصر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . أى : فيكون منقطعاً . أى لـكن المرحوم يعصم ، على الأول . ولـكن الراحم يعصم من أراد ، على الثانى .

وزاد الزمخشرىّ خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالنفى التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة . والـكل جائز وبعضها أقرب من بعض ـ انتهى ـ .

« وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ » أى صار حائلًا بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه فوقه « فَـكَانَ » أى ابنه مع كونه فوق الجبل « مِنَ الْمُغْرَقِينَ » أى الهالـكين بالغرق .

وفيه دلالة على هلاك سائر الـكفرة على أبلغ وجه ، فـكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ، غير مفتقر إلى البيان . وفى إيراد (كان) دون (صار) مبالغة فى كونه منهم ـ أفاده أبو السعود ـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق ممن كفر بالله ديّار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ، فنضب الماء ، وقضى أمر الله بإنجاء من نجا ، وإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتناقص وتتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤس الجبال، استقرت السفينة على الجودىّ ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .

و (بُعْدًا) مصدر منصوب بمقدر ، أى وبعدوا بعداً . يقال : بعد بعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء كـ(جَدْعًا) و(تَعْسًا) و (اللام) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ(قيل) أى قيل لأجلهم هذا القول .

والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعلّيته للهلاك ، ولتذكر ما سبق من قوله : (وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) .

تنبيه :

هذه الآية ، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها . ومن أوسعهم مجالاً فى مضمار معارفها ، الإمام السكاكىّ ، فقد أطال وأطاب فى كتابه (المفتاح) وتلطف فى التبيان بألطف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الألباب بعَرف مبتدئه ومسك ختامه . قال عليه الرحمة فى بحث (البلاغة والفصاحة) ، وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد . وإلى اللفظ ، وهو كونه عربياً أصلياً ، جارياً على قوانين اللغة ، أدْوَر على ألسنة الفصحاء ، أكثر فى الاستعمال ، ما صورته :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها ، عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك . ثم إن ساعدك الذوق ، أدركتَ منها ما قد أدرك من تُحُدُّوا بها ، وهى قوله ، علت كلمته : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ . . . إلى . . الظَّالِمِينَ) .

والنظر فى هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعانى ، وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه ، لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نَرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض ، وأن نقضى أمر نوح ، وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوّى السفينة على الجودىّ فاستوت . وأبقينا الظَّلَمَة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد [(١)] بالمأمور الذى لا يتأتى منه ، لكمال هيبته ، العصيان ، وتشبيه تكوين المراد [(٢)] بالأمر الجزم النافذ فى تكوّن المقصود ، تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته ، إيجاداً وإعداماً ، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً ، كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مواده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فعظمت مهابته فى نفوسهم ، وضربت سرادقها فى أفنية ضمائرهم . فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً . لا تَلَقِّىَ لإشارته

---

(١) أى المراد منه . أعنى الذى أريد منه أن يتعلق به فعل ، وهو ههنا الأرض والسماء ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير فاستتر فيه . كما فى لفظ (المشترك) فإن أصله المشترك فيه . والمعنى أنه شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه ، لكمال خوفه من الآمر ، العصيانُ ، وهذا التشبيه هو المصحح للنداء ، كما سيأتى . اهـ (سيد) قدس سره .

(٢) أرادبلفظ (المراد) هنامعناه الظاهر . أعنى ما أريدمن المرادمنه ، وهو الذىعبر عنه بالبلع والإقلاع. ولتخالف معنى (المراد) فى الموضعين أعاد الظاهر ، وهذا التشبيهالثانىمصحح لا يراد صيغة الأمر . اهـ (سيد) .

بغير الإمضاء والانقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هـذا[١] نظم الـكلام ، فقال جل وعلا : (وَقِيلَ) ، على سبيل المجاز ــ أى المرسل ــ عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو : يا أرض ويا سماء ! ثم قال كما ترى: يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور. ثم استعار لغؤور[٢] الماء فى الأرض البلع ، الذى هو إعمال الجاذبة فى المطعوم ، للشبه بينهما ، وهو الذهاب إلى مقرّ خفىّ . ثم استعار الماء للغذاء ، استعارة بالـكناية ، تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء فى الإنبات للزروع والأشجار ، تقوّىَ الآكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابْلَعِي) لـكونها موضوعة للاستعمال فى الغذاء دون الماء . ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم[٣] ذكره ، وخاطب فى الأمر ترشيحاً لاستعارة النـــداء . ثم قال : (مَاءَكِ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك. واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح . ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم ما كان . ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب فى الأمر قائلًا : (أَقْلِعِي) ، لمثل ما تقدم فى (ابْلَعِي) . ثم قال : (وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا) ، فلم يصرح بمَنْ غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوّى السفينة . وقال : (بُعْدًا) ، كما لم يصرح بقائل : يا أرض ويا سماء فى صدر الآية ، سلوكاً فى كل واحد من ذلك سبيل الـكناية ، أن[٤] تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذى قدرة

(١) يعنى التشبيهين المتقدمين .

(٢) قوله : (ثم استعار لغؤور المـاء فى الأرض البلع) ، جعله فى الـكشاف مستعاراً للنشَف ، لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن النشف فعل الأرض ، والغور فعل الماء . وهذا من دقائق الزمخشرىّ عليه الرحمة .

(٣) يعنى الثانى وهو تشبيه تـكوين المراد بالأمر الجزم .

(٤) بيان لسبيل الـكناية أو تعليل لـ (سلوكا) بتقدير اللام .

لا يُكتنه . قهّار لا يغالب . فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره ـ جلت عظمته ـ قائلَ يا أرض ويا سماء ، ولا غائض مثل ما غاض ، ولا قاضى مثل ذلك الأمر الهائل ، وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها، بتسوية غيره وإقراره . ثم ختم الكلام بالتعريض[1]، تنبيهاً لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ، ظلماً لأنفسهم لا غير ، خَتْمَ إظهارٍ ، لمكان السخط ، ولجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة ، ما كانت إلا لظلمهم[2] .

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى ، وهو النظر فى فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال ، وأنها دالة على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : يا أرضِ ! بالكسر لإمداد التهاون[3] ، ولم يقل : يا أيتها الأرض ! لقصد الاختصار مع الاحتراز عما فى (أيتها) من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام . واختير لفظ (الأرض) دون سائر أسمائها ، لكونه أخف وأدور[4] . واختير لفظ السماء[5] لمثل ما تقدم فى الأرض ، مع قصد المطابقة[6] . واختير لفظ (ابلعى) على (ابتلعى) لكونه أخصر ، ولمجىء خط التجانس بينه وبين (أقلعى) أوفر . وقيل : (ماءك) بالإفراد دون الجمع، لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها

(١) أى التعريض بدعاء الهلاك على قوم نوح . اه .

(٢) أى كما يشعر به تعليق الحكم بوصف يناسبه . اه .

(٣) أى لأن إضافة الأرض إلى نفسه تقتضى تشريفاً للأرض ، وتكريماً لها ، فتركها إمداد للتهاون . اه (سيد) . (٤) أى فى الاستعمال من الغبراء والمقلة . اه . (سيد) .

(٥) أى من الخضراء والمظلة . اه .

(٦) لأنها بهذا الاسم أشهر مقابلة للأرض . اه . (سيد) .

مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه فى إفراد (الأرض) و (السماء) . وإنما لم يقل : (ابلعى) بدون المفعول ، أنْ لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذى هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع (أَقْلِعِى) احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، وهو ـ أى الاختصار ـ الوجه فى أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعى ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلعى فأقلعت . واختير (غيضَ) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر ، وقيل (الماء) ، دون أن يقال : ماء طوفان السماء . وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل: سويت على الجودىّ ، بمعنى أقرّت ، على نحو : (قيل) و (غيض) و (قضى) فى البناء للمفعول ، اعتباراً[1] لبناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ)مع قصد الاختصار فى اللفظ . ثم قيل : (بُعْدًا لِلْقَوْمِ) ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد [2] مع الاختصار ، وهو نزول (بُعْدًا) وحده ، منزلة ليبعدوا بعداً ، مع فائدة أخرى : وهى استعمال اللام مع (بُعْدًا) الدال على معنى أن البُعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل :(يَا أَرْضُ ابْلَعِي ،وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي!) دون أن يقال: ابلعى يا أرض ،وأقلعى يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة ،من تقديم التنبيه، ليمكّن الأمر الوارد عقيبه فى نفس المنادى ، قصداً بذلك

(١) أى اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار ، أعنى الجريان ، منسوباً إلى السفينة على صيغة المبنى للفاعل . ا هـ (سيد) .

(٢) أى لتأكيد الفعل .

لمعنى الترشيح [١] . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها [٢] ، وبنزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : (وغيض الماء) لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها . ألا ترى أصل الكلام (قيل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ماءها ، ويا سماء أقلعى عن إرسال الماء ، فأقلعت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء ، فغاض) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) ، أى أنجز الموعود من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) [٣] . ثم ختمت القصة بما ختمت [٤] . هذا كله نظر فى الآية من جانبي البلاغة [٥] .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العَذَبات [٦] ، سلسة على الأَسَلات [٧] ، كلٌّ منها كالماء فى السلاسة ، وكالعسل فى الحلاوة ، وكالنسيم

---

(١) أى ترشيح المكنية فى الأرض والسماء ، حيث شبهتا بالمأمور ، ثم سلك معهما الطريقة التى تسلك معه . انتهى (سيد). (٢) أى من الأرض ، حيث فار تنورها انتهى.

(٣) أى لتأخره عنه فى الوجود . انتهى .(٤) أى بالتعريض الذى سبق تحقيقه . انتهى

(٥) أى علم المعانى الباحث عن خواص التراكيب ، وعلم البيان الكاشف عن أنواع التشبيه والمجاز والكناية . انتهى (سيد) . (٦) جمع عذبة بالتحريك : طرف اللسان.

(٧) جمع أسلة : المستدق من اللسان . انتهى .

فى الرقة . ولله در شأن التنزيل ! لا يتأمل العالم آية من آياته ، إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ماذكرت ، فلعل ماتركت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمى المعانى والبيان ، وأن لا علم فى باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطى تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذى يوفى كلام رب العزة من البلاغة حقه ، ويصون له فى مظان التأويل ماءه ورونقه؛ وَلَكَمْ من آية من آيات القرآن، تراها قد ضيمت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها فى مآخذ مردودة ، وحملوها على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فتلك الآى من مآخذهم فى عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ـ انتهى كلام السكاكىّ ـ .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً فى تفسيره المسمى بـ(النهر) للطائفها ، وساق أحداً وعشرين نوعاً من البديع . وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها (النهر المورود فى تفسير آية هود) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهى : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتراس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق، والإيجاز ، والتسهيم ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

« وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوّة، وتمطف الرحم والقرابة ، على طلب نجاته ، لشدة تملقه به ، واهتمامه بأمره . وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة ، وحسن السؤال فقال : « وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » ، ولم يقل : لا تخلف وعدك بإنجاء أهلى ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل ، لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه تعالى بقوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله : « وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ » إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى الموعود إنجاؤهم ، بل من المستثنين لكفرهم ، أو ليس منهم أصلاً، لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر .

قال القاشانىّ : أى أن أهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القرابة الدينية ، واللحمة المعنوية ، والاتصال الحقيقىّ لا الصورىّ . كما قال أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه : ألا وإن ولىّ محمد ، من أطاع الله ، وإن بعدت لحمته . ألا وإن عدوّ محمد ، من عصى الله ، وإن قربت لحمته .

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بيّن انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ، تنبيهاً على أن أهله

هم الصلحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد والغيّ ، كأنّ نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح ، لا قرابته منك بحسب الصورة ، فمن لا صلاح له، لا نجاة له . وهذا سر إيثار (غَيْرُ صَالِحٍ) على (عمل فاسد) .

وقد قرأ يعقوب والكسائيّ (عَمِلَ) بلفظ الماضي ، والباقون بلفظ المصدر ، بجعله نفس العمل ، مبالغةً ، كما بيّنا .

« فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أي لا تلتمس مني ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتى تقف على كنهه . قالوا : والنهي إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلاً ، إما لأنه لا يهم ، أو لأنه قامت القرائن على حاله ، كما هنا ، لا عن السؤال للاسترشاد .

« إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أي أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياي مالم تعلم . وقد تنبه ، عليه السلام، عند ذلك التأديب الإلٰهيّ، والعتاب الربانيّ، وتعوّذ بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي » أي ما فرط مني « وَتَرْحَمْنِي » أي بالوقوف على ما تحب وترضى « أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أي الذين خسروا أنفسهم ، بالاحتجاب عن علمك وحكمتك .

تنبيه :

ظاهر التنزيل أن ابنه المذكور لصلبه . ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امرأته ، ربيبه . وأيده بعضهم بقراءة عليّ : (ونادى نوح ابنها) ـ والله أعلم ـ .

ثم أنبأ تعالى عما قيل لنوح ، بعد أن أرست السفينة على الجوديّ ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ » أى انزل من السفينة « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى سلامة « وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ » أى فى السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان « وَأُمَمٌ » أى ومنهم أمم « سَنُمَتِّعُهُمْ » أى فى الحياة الدنيا لاحتجابهم بها « ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثرون على أنه عمّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جانح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقيّ الدين المقريزيّ فى (الخطط) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد (كيومرت) الذى هو عندهم (الإنسان الأول) ، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحقّ ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده ، فماتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح(١) : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) اهـ .

(١) [٣٧ / الصافات / ٧٧] .

ونحوه فى الكامل لابن الأثير .

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذى كان فى زمن نوح وبدعوته ، ذهب بعمران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ، وهلك الذين ركبوا معه فى السفينة ، ولم يعقبوا ، فصار أهل الأرض كلهم من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة ـ انتهى ـ .

قال بعضهم (فى تقرير عموم الطوفان ، مبرهناً عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة فى طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد فى أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى فى قمم الجبال ، ويرى فى السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف فى الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بعيدة الائتلاف ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأبادها ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادةً على ما كان ، بأمر الخالق تعالى ـ انتهى ـ .

وقد سئل مفتى مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب فى تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين. وأما المؤرخ، ومريد الاطلاع، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ، أو صاحب الرأى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية ، أو عدم الثقة بها، ولا يتخذ دليلا قطعيًّا على معتقد دينىّ. أما مسألة عموم الطوفان فى نفسها، فهى موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر فى طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان

عامًّا لـكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكوّن إلا فى البحر ، فظهورها فى رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًّا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينـكر قضية أن الطوفان كان عامًّا ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل فى آيات الـكتاب العزيز . بل على كل من يعتقد بالدين ، ألا ينفى شيئًا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقلىّ يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصولُ إلى ذلك فى مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شـديد ، وعلم غزير فى طبقات الأرض ، وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، نقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينىّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واستظهر بعضهم أن الطوفان كان عامًّا ، إذ لم يكن العمران قائمًا إلا بقوم نوح ، فـكان عامًّا لهم ، وإن كان من جهةٍ خاصًّا بهم ، إذ ليس ثَمَّ غيرُهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أممًا ، بل هو واحد تمضى عليه السنون ، بل القرون ، ونموّ عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقلص الظل قليلًا قليلًا . من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الذرية أضعافًا وآلافًا ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران فى تلك الأيام ، فتلك قضيـــة من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالمين ؟ أما تلك الجبال التى وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المـكان الخاص الذى سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت فى غير ذلك المـكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح

والكواسر لتلك المظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام ، تعلم أن الطوفان خاصّ عامّ : خاصّ بمكان ، عامّ سائر المكان ـ والله أعلم[١] ـ.

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَـٰذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى قصة نوح عليه السلام «مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » أى الإيحاء إليك ، والإخبار بها . وفى ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها؛ إذ لم يخالط غيرهم ، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها ، فكيف بواحد منهم ؟! « فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة،وأذى قومك ، كما صبر نوح . وتوقع فى العاقبة لك ، ولمن كذبك ، نحو ما قيض لنوح ولقومه ـ كذا فى الكشاف ـ « إِنَّ الْعَاقِبَةَ » أى فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالنعيم الأبدىّ ، « لِلْمُتَّقِينَ » أى عن الشرك والمعاصى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » عطف على قوله (نوحاً) . أى : وأرسلنا إلى عاد . و (أخاهم) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون : (ياأخا العرب) ! « قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ »

---

(١) ترك المؤلف رحمه الله بعد هذا البحث فراغاً قدره ثلاث صفحات وثلث الصفحة ، مما يدل على أنه كان يريد توسعاً فى دراسته ، وتعمقاً فى تحقيقه .

أى وحده ، « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » أى باتخاذ الأوثان شركاء ، وجعلها شفعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي » إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيضاً للنصيحة ، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع. «أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تتفكرون ، إذ تردّون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ، أو تتدبرون الصواب من الخطأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الوقوف مع الهوى بالشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى كثير الدرّ ، أى الأمطار . منصوب على الحال من (السماء) . ولم يؤنث ، مع أنه من مؤنث ، إما لأن المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كصبور ، أو الهاء حذفت من (مفعال) على طريق النسب ـ أفاده السمين ـ « وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » أى مضمومة إليها أو معها . أى شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استمالهم إلى الإيمان ، ورغّبهم فيه ، بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراصاً على التقوّى بما ذكر ، لثراء مالهم ،

وترهيب أعدائهم، وقد كانوا مثلًا فى القوة ، كما قالوا[١] : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) « وَلَا تَتَوَلَّوْا » أى تعرضوا عما أدعوكم إليه « مُجْرِمِينَ » أى مصرّين على إجرامكم وآثامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » أى بحجة تدل على صحة دعواك ، وذلك لقصور فهمهم، وعمى بصيرتهم عن إدراك البرهان ، لمكان الغشاوات الطبيعية ، وإذا لم يدركوه أنكروه بالضرورة « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا » أى عبادتها « عَنْ قَوْلِكَ » حال من ضمير (تاركى) أى تركا صادرا عن قولك . أو (عن) للتعليل، كهى فى قوله[٢] (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ) أى لأجلها ، فتتعلق (بتاركى) . والأول أبلغ ، لدلالته على كونه علة فاعلية ، ولا يفيده (الباء واللام) . وهذا كقولهم فى الأعراف[٣] (أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا) .

« وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى مصدقين . إقناط له من الإجابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)

[٥٥] (مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)

« إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ » أى مسّك « بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ » أى بجنون ، لسبّك

(١) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك ، بسوء الجزاء ، ومن ثم تتكلم بما تتكلم .

قال الزمخشريُ : دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد، لايبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد . وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا فى حجارة أنها تنتصر وتنتقم .

« قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ » أى عليّ « وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ » قال الزمخشريّ : من أعظم الآيات أن يواجه ، بهذا الكلام ، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقته بربه ، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه [1] : (ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أنى لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أنى لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أَمَرَهُمْ بالاحتشاد والتعاون فى إيصال الكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال بقوله : « فَكِيدُونِي جَمِيعاً » أى أنتم وآلهتكم « ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ » يعنى إن صح ما لوحتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير فى ضرّ ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أعجل ماتفعلون دون إمهال .

قال أبو السعود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ما قالوا، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردًا بين الجم الغفير ، والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقّرهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدى لأسباب المعازّة والمعارّة ، فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً . كيف لا ، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

(١) [١٠ / يونس/ ٧١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ » أى فلا تصلون إلىّ بسوء ، لتوكلى على الله « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها كيف شاء .

قال القاشانىّ : بيّن وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، أولا بأن ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن ربّ يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره وحفظه . ثم بأن كل ذى نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير فى يد تصرفه ومملكته وقدرته ، عاجز عن الفعل والقوة والتأثير فى غيره ، لا حراك به بنفسه ، كالميت فلا حاجة إلى الاحتراز منه ـ انتهى ـ .

والناصية : منبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية للحالّ باسم المحل . يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصيته .

وفى العناية : وقولهم : ناصيته بيده ، أى منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » تعليل لما يدل عليه التوكل ، من عدم قدرتهم على إضراره . أى هو على طريق الحق والعدل فى ملكه ، فلا يسلطكم علىّ ، إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظالم .

قال فى (العناية) : هو تمثيل واستعارة ، لأنه مطلع على أمور العباد ، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادّة لحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .

وهو كقوله(١) : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) والاقتصار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء ، لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به ، دونهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تتولوا ، بحذف إحدى التاءين « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ » أى فقامت الحجة عليكم «وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ» استئناف بالوعيد لهم . أى: فيهلككم، ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم « وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا » أى بتوليكم ، لاستحالته عليه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شىء. « إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ » أى رقيب عليه ، مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها . أو حافظ حاكم مستولٍ على كل شىء ، فلا يمكن أن يضره شىء.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، وهو الريح العقيم « نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» . وقد بيّن فى غير آية،منها قوله(٢) : (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [٦٩ / الحاقة / ٦و٧] .

فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ فالجواب : لا تكرير فيه ، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثانى بيان ما نجوا منه ، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل ، فهو للامتنان عليهم ، وتحريض لهم على الإيمان . أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا ، والثانى من عذاب الآخرة ، تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم ، فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ . ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ » تأنيث اسم الإشارة ، باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتنزيلهم منزلة البعيد ، لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهى للبعيد المحسوس . وتعدى الجحود بالباء حملا له على الكفر ، لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن (كفر) جرى مجرى (جحد) . فتعدى بنفسه فى قوله[1] : (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) . وقيل : (كفر) كـ (شكر) يتعدّى بنفسه وبالحرف . وظاهر كلام القاموس : أن (جحد) كذلك .

والمعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التى فى الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع (الرسل) ، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ، تفظيعاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له ، عليه الصلاة والسلام ، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد[2] (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) ـ كذا فى (العناية) وأبى السعود ـ .

---

(١) [١١ / هود / ٦٠] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

« وَاتَّبَعُوا » أى أطاعوا فى الشرك « أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

« وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى جعلت تابعة لهم فى الدارين ، أى لازمة .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم ، حيثما داروا . ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم . يعنى: أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء وفاقاً .

« أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ » إذعبدوا غيره ـ وتقدم تعدية (كفر) ـ « أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم، والمقت، ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبيه، وإعادة (عادٍ) للمبالغة فى تهويل حالهم، والحث على الاعتبار بنبئهم . و(قوم هود) عطف بيان لـ(عاد) فائدته النسبة بذكره عليه السلام، الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبوه . وتناسب الآى بذلك أيضاً ، فإن قبلها[1] (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ). وقبل ذلك(حفيظ) و(غليظ)، وغير ذلك مما هو على وزن (فعيل) المناسب لـ (فعول) فى القوافى ـ والله أعلم ـ .

---

(١) [١١ / هود / ٥٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ » عطف على ما سبق بيانه من قوله :(وَإِلَىٰ عَادٍ) أى وأرسلنا إلى ثمود، وهى قبيلة من العرب « أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى كوّنكم منها وحده ، فإنه خلق آدم ، وموادّ النطف التى خلق نسله منها، من التراب « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » أى عمّركم فيها، أو جعلكم عمّارها، أى جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى فى الأعراف[1] : (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) ، « فَاسْتَغْفِرُوهُ » أى من الشرك ، « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » بالتوحيد « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ » أى قريب الرحمة لمن استغفره، مجيب دعاءه بالقبول.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا » أى كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننتفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ، ومسترشداً فى التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك . كذا فى (الكشاف) .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٧٤] .

« أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا » أى من الأوثان « وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى من التوحيد « مُرِيبٍ » أى موقع فى الريبة، وهى قلق النفس، وانتفاء الطمأنينة :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ » أى حجة ظاهرة، وبرهان وبصيرة « مِنْ رَبِّى وَءَاتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً » أى هداية ونبوة ، « فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ » أى ينجينى من عذابه ، « إِنْ عَصَيْتُهُ » أى بالمجاراة معكم فى أهوائكم ، « فَمَا تَزِيدُونَنِى » أى باستتباعكم إياى ، « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » أى غير أن تجعلونى خاسراً بتعريضى لسخط الله . أو فما تزيدوننى ، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ » الإضافة للتشريف ، والإعلام بمباينتها لما يجانسها من حيث الخلقة والخلق « لَكُمْ ءَايَةً » أى معجزة دالة على صدق نبوتى « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ » من فرط غضب الله عليكم ، لاجترائكم على آياته المنسوبة إليه .

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله ، ولم يطيعوا ، بعد رؤية هذه الآية ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)

« فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » أى مردود .

قال فى (الإكليل) : استدل به فى إمهال الخصم ونحوه ثلاثة ؛ وفيه دليل على أن لـ (الثلاثة) نظراً فى الشرع ، ولهذا شرعت فى (الخيار) ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، وهو الصيحة ، كما سيبيّن « نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ » أى بسبب رحمة عظيمة « مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » وهو هلاكهم بالصيحة « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » أى القادر على كل شىء ، والغالب عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أى من جهة السماء ، فرجفوا لها رجفة الهلاك « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى هامدين موتى لا يتحركون . ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ)

« كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا » أى كأنهم لم يقيموا « فِيهَا » أى فى مساكنهم « أَلَا إِنَّ ثَمُودَ

كَفَرُوا رَبَّهُمْ » أى فأهلكهم. «أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ» أى هلاكا ولعنة ، لبعدهم عن صراطه. وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبئهم فى الأعراف[1] بما يغنى عن إعادته هنا ، فليراجع .

ثم أشار تعالى إلى نبأ لوط وهلاك قومه ، وهو النبأ الرابع من أنباء هذه السورة بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط « إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ » أى بولدٍ وولده . ثم بين أنهم قدّموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : « قَالُوا سَلَاماً » أى سلمنا عليك سلاما ، «قَالَ سَلَامٌ » أى عليكم سلام ، أو سلام عليكم . رفعه ، إجابة بأحسن من تحيتهم ، لأن الرفع أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله :« فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوىّ ، أوسمين يقطر وَدَكه ، لقوله[2] : (بِعِجْلٍ سَمِينٍ) .

وفى « ما » ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل (لبث) إما ضمير (إبراهيم) ، و (أَنْ جَاءَ) مقدر بحرف جر متعلق به ، أى · ما أبطأ فى ، أو بأن أو عن (أن جاء) . وإما (أن جاء) أى فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثانى الأوجه أنها مصدرية . وثالثها أنها بمعنى (الذى) . وهى فيهما مبتدأ ، و (أن جاء) خبره على حذف مضاف . أى : فلبثته ، أو الذى لبثه قدر مجيئه .

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ بالصفحة رقم ٢٧٨٢ (الجزء السابع) .
(٢) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٠] (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ » أى لا يمدون إليه أيديهم « نَكِرَهُمْ » أى أنكرهم ، « وَأَوْجَسَ » أى أحس « مِنْهُمْ خِيفَةً » لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضيف إذا همّ بفتك لا يأكل من الطعام ، فى عادتهم . «قَالُوا» أى له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما فى آية[1] (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ) كما قيل هنا « لَا تَخَفْ » أى إنا لا نأكل لأنا ملائكة ، ولم ننزل بالعذاب عليكم « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ » أى لإهلاكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

« وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ » أى سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » أى يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة ، أو أنهما حكيا بعد أن ولدا وسُمِّيَا بذلك . وفى توجيه البشارة إليها هنا، مع ورود البشارة إلى إبراهيم فى آية أخرى، كآية[2] (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)[3] إيذان بمشاركتها لإبراهيم فى ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والمقام أمسّ بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبئها فى ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لوّح به تعجبها فى قوله تعالى :

---

(١) [١٥ / الحجر / ٥٢و٥٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠١] .
(٣) [٥١ / الزاريات / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَتْ يَاوَيْلَتَا ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ)

« قَالَتْ يَاوَيْلَتَا » أى ياعجبى . وأصله للدعاء بالويل ونحوه ، فى جزع التفجع لشدة مكروه يَدْهَمُ النفس ، ثم استعمل فى التعجب . وألفه بدل من ياء المتكلم ، ولذلك أمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ، وبها قرأ الحسن (ياويلتى) . وقيل : هى ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاءالسكت .

« أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ » أى امرأة مسنّة ـ والأفصح ترك الهاء معها ـ وسمع من بعض العرب (عجوزة) ـحكاه يونس ـ « وَهَٰذَا بَعْلِى » أى زوجى إبراهيم « شَيْخاً إِنَّ هَٰذَا » أى التولّد من هرِمين « لَشَىْءٌ عَجِيبٌ » أى غريب ، لم تَجْرِ به العادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

« قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ » أى أتستبعدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟ قال الزمخشرىّ : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها مايزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوّة ، وأن تسبّح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة،صلوات الله عليهم، فى قولهم: «رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : (إياكِ والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم ـ انتهى ـ .

فالجملة خبرية ، وجوّز كونها دعائية . و (أهـلَ البيت) نصب على النداء أو التخصيص ، لأن أهل البيت مدح لهم ، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .

« إنّهُ حَمِيدٌ » أى مستحق للمحامد ، لما وهبه من جلائل النعم « مَجِيدٌ » أى كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطى الولد بعد الكبر . وهو تذييل بديع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجبَ الحمد المحسن إليها بما أحسن، وتمجده؛ إذ شرفها بما شرّف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ »أى خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم « وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ » أى بدل الروع « يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » أى فى هلاكهم ، استعطافاً لدفعه .

روى أنه قال : أتهلك البارّ مع الأثيم ، أتهلكها وفيهم خمسون بارًّا ؟ حاشا لك !

فقيل له : إن وجد فيهم خمسون بارًّا فنصفح عن الجميع لأجلهم !

فقال : أو أربعون ؟

فقيل: أو أربعون !

وهكذا إلى أن قال : أوعشرة ، فقيل له: لا نهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس فيها عشرة أبرار ، بل جميعهم منهمك فى الفاحشة . فقال : إن فيها لوطاً ! فقيل : نحن أعلم بمن فيها لننجينّه .

و (يُجَادِلُنَا) جواب (لمّا) جىء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن (لمّا) كـ (لَوْ) تقلب المضارع ماضياً ، كما أنّ (إنْ) تقلب الماضى مستقبلًا . أو الجواب محذوف ، والمذكور دليله أو متعلق به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ » أى غير عجول على الانتقام من المسىء « أَوَّاهٌ » كثير التأسف « مُنِيبٌ » أى راجع إلى الله فى كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة ، بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

« يَا إِبْرَاهِيمُ » أى قيل له : يا إبراهيم « أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا » أى الجدال « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى حكمه بهلاكهم « وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » أى بجدال، ولا بدعاء ، ولا بغيرها .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات : وهى أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فسِّرت بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية، وهى[١]: (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ . . .)الخ وفسِّرت بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول المبشِّر على المبشَّر ، لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشَّر تلقى ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بُشر به .

وحكى الأصمّ أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين.

ومنها :أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الردّ أفضل ، لقول إبراهيم: (سَلَامٌ) بالرفع ، كما تقدم سره انتهى .

(١) [١١ / هود / ٧١] .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ـ أى في خدمة أضياف إبراهيم . قال فى (الوجيز) : وكنّ لا يحتجبن ، كعادة العرب ونازلة البوادى ، أو كانت عجوزا ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .

ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجانب فى القول ، وأن صوتهـا ليس بعورة . كذا فى (الإكليل) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته . ويأتى ذلك أيضاً فى آية[1] : (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا » أى بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان مقيما فى (بلوط ممرا) التى بـ(حَبْرُونَ) ، المدينة المعروفة اليوم بـ (الخليل) ؛ «سِيءَ بِهِمْ » أى ساءه مجيئهم ، لأنهم أتوه على صورة مُرْدٍ ، حسانِ الوجوه ، فخاف أن يقصدهم قومه ، لظنه أنهم بشر « وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » يقال : ضاق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به ذرعاً ، أى ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهريّ : أصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدك إليه فلم تنله . وقيل : وجه التمثيل أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطيق طاقته ، فَضُرِبَ مثلًا للذى سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه .

وقال الأزهريّ : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه ، أن البعير يذرع بيديه

---

(١) [١١ / هود / ٨١] و [١٥ / الحجر / ٦٥] .

فى سيره ذرعاً ، على قدر سعة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ، طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه . فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .

و (ذرعاً) تمييز ، لأنه خرج مفسِّراً محوّلا . والأصل : ضاق ذرعى به . وشاهد الذراع قوله(١) :

وَإِنْ بَاتَ وَحْشاً ليلةً لم يَضِقْ بِهاَ ذِرَاعاً ولم يُصْبِحْ لَهاَ وَهْوَ خَاشِعُ

« وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » أى شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألمّ المحذور ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ » أى يسرعون كأنما يدفعون دفعاً . وقرئ مبنيا للفاعل. « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئهم « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » أى الفواحش ويكثرونها ،

---

(١) قائله هو حُمَيد بن ثور الهلالىّ . من قصيدة مطلعها :

تَرَى ربةُ البَهْمِ الفِرارَ عشيَّةً إذا ما عدا فى بَهْمِهَا وهو ضَائِعُ

البَهْم جمع بَهمَة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . يريد : هى ترى الهرب إذا رأت الذئب. وعدا ، يعنى الذئب . والضائع ، الجائع .

والبيت الشاهد ، هكذا رواه اللسان . وفى الديوان ص ١٠٤ . . وهو خاضع . وحشا: جائعا ، لا طعام له . وقوله (ذراعا) هو مثل قولهم : ضاق بالأمر ذرعا وذراعا ، إذا ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . أى مدّ يده إليه فلم ينله .

مرنوا عليها ، وقلّ عندهم استقباحها، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفّهم حياء. فالجملة معترضة لتأكيد ماقبلها . وقيل: إنها بيان لوجه ضيق صدره أى : لما عرف لوط عادتهم فى عمل الفواحش قبل ذلك «قَالَ » أى لوط « يَاقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » أراد أن يقى أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، أى فتزوجوهن. أو كان ذلك مبالغة فى تواضعه لهم، وإظهاراً لشدة امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً فى أن يستحيوا منه ، ويرقّوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا ضيوفه ـ هذا ملخص ما فى (الكشاف)ـ ومن تابعه ـ وظاهر أنه ، عليه السلام، كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجهٍ ما ، مهما أطرى وأطنب ، وشوّق ورغّب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وجزمه ـ مبالغة فى الاعتناء بحمايتهم ، وقياما بالواجب فى مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذى يدوم عاره وشناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن ، لكيلا ينسب إلى قصور . وليعلم أنْ لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات فى حيطتهم ووقايتهم .

وفى قوله : (هن أطهر لكم) من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية الذمام . وبالجملة فهو ترغيب بمُحَال الوقوع باطناً ، وإعذارٌ لنزلائه ظاهرا ـ والله أعلم ـ وفى هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق المسنونة ، وهى النكاح . وإشارة إلى تناهى وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتى .

« فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى أن تمصوه بما هو أشد من الزنى خبثا .

« وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي » أى ولا تهينونى وتفضحونى فى شأنهم ، فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره، فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة. و(تخزون) مجزوم بحذف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة . وقرئ بإثباتها على الأصل .

« أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ » أى فيرعوى عن القبيح ، ويهتدى إلى الصواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » أى حاجة ، إذ لا نريدهن . وفى تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أى : والله لقد علمت ـ إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان واثقاً وجازماً بعدم رغبتهم فيهن . وأيد ذلك قولهم : « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » استشهاداً بعلمه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٠] (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً » أى بدفعكم قوة ، بالبدن أو الولد « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة كثيرة،لأنه كان غريباً عن قومه ، شبهها بركن الجبل فى الشدة والمنعة. أى : لفعلت بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تنبيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الملل) :

ظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ[1] : (رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد) إنكارٌ على لوط عليه السلام . ولا تخالفَ بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوى من ربه تعالى إلى أمنع قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام فى طلب قوةمن

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٥ ـ باب: وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... الخ ونصه . عن أبى هريرة أن النبيّ ﷺ قال « يغفر الله للوط ، إنْ كان لَيَأوِى إلى ركن شديد » .

الناس، فقد قال تعالى [1] : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، فهذا الذى طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلّغ كلام ربه تعالى ، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله! ماأنكر ذلك رسول الله ﷺ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبيّ من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف، إذ من الممتنع أن يظن بربٍ أراه المعجزات ، وهو دائباً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

« قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » أى إلى إضرارك بإضرارنا « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى بطائفة من آخره . أى ببقية سواد منه عند السحَر ، وهو وقت استغراقهم فى النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ « فَأَسْرِ » بالقطع والوصل .

« وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لا ينظر إلى ورائه ، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم « إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » أى من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفت فهلكت .

قال فى (الإكليل) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥١] .

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » أى موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب ، أو ذكرت ليتعجل فى السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع فى الإسراء ، للتباعد عن موقع العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا « جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا » أى فقلبت تلك المدن ونبتها بسكانها جميعاً . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، كقوله[1] : (حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) ، « مَنْضُودٍ » أى يرسل بعضه فى إثر بعض متتابعاً .

قال المهايمىّ : اتصل بعضه ببعض ، ليرجموا رجم الزناة ، بما يناسب قسوتهم ورَيْنهم الذى اتصل بقلوبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)

« مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ » معلّمة عنده «وَمَا هِيَ » أى تلك الحجارة «مِنَ الظَّالِمِينَ » أى بالشرك وغيره « بِبَعِيدٍ » ، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملابسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أى هى قريبة من ظالمى مكة ، يمرون بها فى أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بحرماء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ(البحر الميت) ، لأن مياهه لا تغذى شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ(بحر الزفت) أيضاً ، لأنه ينبعث من عمق مقرّه إلى سطحه ، فيطفو فوقه ، وبـ(بحيرة لوط) والأرض التى تليها قاحلة ، لا تنبت شيئاً .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٣] .

قال أبو السعود : وتذكير (بعيد) على تأويل (الحجارة) بالحجر ، أو إجرائه على موصوف مذكر ، أي بشيء بعيد ، أو لأنه على زنة المصدر كـ (الزفير) و (الصهيل) . والمصادر يستوي في الوصف بها ، المذكر والمؤنث .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ » أي وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ما قبله . و (مدين) بلد بين الحجاز والشام ، على مقربة من (معان) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها . « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » أي لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل . « إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ » أي نعمة وثروة في رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع في وجودكم . يعني : فلا تتعرضوا لزوال ذلك عنكم بما تأتونه مما تُنهَوْنَ عنه ، كما قال سبحانه : « وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ » أي مهلك ، أو لا يشذ منه أحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أي العدل.

قال الزمخشريّ : فإن قلت : النهي عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله :(أَوْفُوا)؟

قلت : نهوا أولاً عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن فى التصريح بالقبيح نعياً على المنهىّ ، وتعييراً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذى هو حسن فى العقول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبعث عليه . وجىء به مقيداً (بالقسط) أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب. لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أن الموفى ، عليه أن ينوى بالوفاء القسط ، لأن الإيفاء وجهُ حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى .

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أى لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق،كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بعد تخصيص ، لأنه أعم من أن يكون فى المقدار وغيره . والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير(١) :

أفى كلِّ أسواقِ العراق إتَاوَةٌ ... وفى كلِّ ما باع امرؤٌ بَخْسُ دِرْهَمِ

ألا تَسْتَحِى منا مُلُوكٌ وَتَتَّقِى ... مَحَارِمَنَا . لا تَتَّقِى الدمَ بالدمِ

وروى (مكس درهم) . يريد زهير : أخذ الخراج ، وما هو اليوم فى الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون ، من كل شىء يباع ، شيئاً . كما تفعل السماسرة ،

(١) هذان البيتان ليسا فى (ديوان زهير) واستشهد فى (لسان العرب) فى مادة (ا ت و) بالبيت الأول ونسبه إلى حُنَىّ بن جابر التغلبىّ .

وأخطأ صاحب (اللسان) فى اسم الشاعر. وإنما هو : جابر بن حُنَىّ التغلبىّ ، صاحب المفضلية ٤٢ . والبيتان منها هما السابع عشر والتاسع عشر .

وروايتهما : وفى كلّ . . . . . . مَكْسُ دِرْهَمِ

. . . . . . لا يَبُوْءُ الدَّمُ بالدَّمِ

(لا يبوُء) من قولهم : باء فلان بفلان إذا كان كفءاً له ، أن يقتل به .

وقد صحح الأستاذ المرصفىّ اسمه كذلك فى (رغبة الآمل) بالجزء الخامس ص ٢٢٣ وكان المبرّد فى (الكامل) قد رواه خطأ ، فقال : عمرو بن حيىّ التغلبىّ .

أو كانوا يعكسون الناس ، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك ـ كذا فى (الكشاف) و (شرحه) .

قال القاشانىّ : لما رأى شعيب، عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجابهم عن الحق بالجبت ، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتماديهم فى الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال ـ نهاهم عن ذلك ، وقال : إنى أراكم بخير فى استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإنى أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ، لاحتجابكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات ، عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة، واعتزلوا عن الشرك، والظلم ، الذى هو جماع الرذائل، وأم الغوائل .

« وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تعملوا فيها بالفساد . يعمّ أيضاً تنقيص الحقوق وغيره ، كالسرقة والشرك ، والدعاء إليه ، والصدّ عن الإيمان ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

« بَقِيَّتُ اللهِ » أى ثوابه الباقى على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهما « خَيْرٌ لَكُمْ » أى فى دينكم ودنياكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن المؤمن يبارك له ، إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول .

وقال القاشانىّ : أى إن كنتم مصدقين ببقاء شىء ، فمايبقى لكم عند الله من الكمالات والسمادات الأخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التى تشقون بها ، وتشقّون على أنفسكم فى كسبها وتحصيلها، ثم تتركونها بالموت، ولا يبقى منها معكم شىء إلا وبال التبعات والعذاب اللازم ، لما فى نفوسكم من رواسخ الهيئآت .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» أى رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة. وإنما أنا مبلغ نذير .

القوله فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا أَوْأَنْ نَفعلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا » أى من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد ، على الاستهزاء والتهكم بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلىّ ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : (أصلاتك) بالإفراد ـ قاله القاضى ـ .

«أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَانَشَاءُ » من نقص ونحوه « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى الموصوف بالحلم والرشد فى قومك يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك، وما شهرت به ، كما قال قوم صالح عليه السلام[1] : (قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا) . أو قالوا ذلك تهكماً به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ، لأنه أنسب بتهكمهم قبله والأدقّ هو الأول لمماثلته لما خوطب به صالح ، وتعقيبه بمثل ما عَقَّب به ، وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى » أى أخبرونى إن كنت على برهان يقينىّ مما آتانى ربى من العلم والنبوة « وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً » أى مالًا حلالًا

(١) [١١ / هود / ٦٢] .

مكتسباً بلا بخس وتطفيف ، أو حكمة ونبوّة ، وكمالاً وتـكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد ، هل يصح لى أن أخون الوحى ، وأترك النهى عن الشرك والظـلم ، والإصلاح بالتزكية والتحلية . وهو اعتذار عما أنـكروه عليه من تغيير المألوف،والنهى عن دين الآباء . وحذف جواب (أرأيتم) لما دل عليه فى مثله ، كما مرّ فى نبأ نوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَـكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » أى وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه ، لأستبدّ به دونـكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهى عنه ـ أفاده القاضى ـ .

وفى (التاج): يقال : خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشانىّ : أى ما أقصد إلى جـرّ المنافع الدنيوية الفانية ، بارتـكاب الظلم الذى أنهاكم عنه .

« إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » أى إصلاح نفوسكم بالتزكية ، والتهيئة لقبول الحـكمة ، ما دمت مستطيعاً متمكناً منه . « وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ » أى وما كونى موفقاً للإصلاح إلا بمعونة الله وتأييده . « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى أعتمد « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى السراء والضراء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٩] (وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّـكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَـكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْـكُمْ بِبَعِيدٍ)

« وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّـكُمْ شِقَاقِى » أى لا يكسبنـكم عداوتى « أَنْ يُصِيبَـكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُـودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ » من الغرق والريح والصيحة « وَمَا

قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » فإن منازلهم قريبة منكم ، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض ، وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

« وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من عبادة الأصنام « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطفيف « إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ » أى للمستغفرين التائبين « وَدُودٌ » أى مبالغ فى المحبة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ » أى ما نفهم « كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ » كالتوحيد ، وحرمة البخس . يعنون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه : ما أدرى ماتقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا ينفعهم كثير منه . و(الكثير) مراد به الكل . أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أى : ما نفهم مرادك . وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن المفحَم المحجوج ، يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل مالا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من

المؤاخذة والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا :
« وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً » أي لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءا « وَلَوْلَا رَهْطُكَ » أي قومك وأنهم على ملتنا « لَرَجَمْنَاكَ » أي قتلناك برمى الأحجار، أو شر قتلة « وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » أي لا تعز علينا ولا تكرم ، حتى نكرمك ونمنعك من الرجم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ » أي من أمره ووحيه ودينه « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أي نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر ، لا يعبأ به . و (الظهريّ) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب ، كما قالوا : (إمسيّ) بالكسر فى النسبة إلى (أمس) . و (دُهريّ)، بالضم ، فى النسبة إلى (الدهر) « إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أي عالم ، لا يخفى عليه ، فيجازيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أي غاية تمكنكم واستطاعتكم، أو على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم « إِنِّي عَامِلٌ » أي على مكانتي التي كنت عليها من الثبات على الإسلام والمصابرة .

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ » أي منتظر لهلاككم . وفى زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره.

قال الزمخشريّ : فإن قلت : أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها وصل خفيّ تقديريّ بالاستئناف الذى هوجواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ، للتفنن فى البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف . اهـ - أى للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتنى به ، ولذا كان أبلغ فى التهويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا » إنما ذكره بالواو ، كما فى قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتى صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله[١] (وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) ، وقوله[٢] (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضى .

« وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أى بالعذاب « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى ميتين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)

« كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا » أى يقيموا « فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ » شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم فى المنزل ، نظراءهم فى الكفر، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم .

(١) [١١ / هود / ٦٥] . (٢) [١١ / هود / ٨١].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى التسع « وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ » وهو العصا . وكانت أبهر معجزاته ، فلذا خصت . أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ » أى بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشرىّ : هذا تجهيل لمتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

« وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » أى بمرشد ، أو ذى رشد ، وإنما هو غىّ وضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » أى يوردهم . وإيثار لفظ الماضى للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعونَ بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعَه بالواردة ، والنارَ بالماء الذى يردونه .

ثم قيل : « وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » أى بئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد ـ وهو النصيب من الماء ـ إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد الكبد ، والنار على الضد من ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)

« وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ » أى الدنيا « لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة ، فهى تابعة لهم ، أين كانوا . فـ (يوم) معطوف على محل (فى) هذه ، لا ابتداء كلام .

« بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى بئس العطاء المعطى ، وهى اللعنة فى الدارين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم « مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ » أى المهلكة « نَقُصُّهُ عَلَيْكَ » أى بالوحى « مِنْهَا قَائِمٌ » أى باق ينظر إليها ، قد باد أهلها « وَحَصِيدٌ » أى ومنها عافى الأثر كالزرع المحصود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » بإهلاكنا إياهم « وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتعريضها لما أوجبه من الشرك وعبادة الأوثان والظلم « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » أى إهلاك وتخسير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

« وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فيه

إشمار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى فى أخذ الظالمين ، التى لا تتبدل ، وإنذار كل ظالم ظَلَمَ نفسه أو غيره ، من سوء العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما قُصَّ فى هذه السورة ، أو فى أخذ الظالمين « لَآيَةً » أى لعبرة « لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ » فيعتبر بها عن موجباته « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » أى يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ)

« وَمَا نُؤَخِّرُهُ » أى ذلك اليوم « إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ » أى لمدة محدودة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى[1] : (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » الزفير إخراج النفَس مع صوت ممدود ، والشهيق : ردّه . كنى بهما عن الغم والكرب ، لأنه يعلو معه النفس غالباً . أو شبَّهَ صراخهم بأصوات الحمير .

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[١٠٨] (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » أى غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفى التوقيت بـ (السموات والأرض) وجهان :

أحدها : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع ، كقول العرب : (ما أقام ثبير)، و (ما لاح كوكب) و (ماطما البحر) ونحوها : لا تعليق قرارهم فى الدارين بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأبيد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سموات الآخرة وأرضها، إذ لا بد لأهلها من مظلّ ومقلّ. قال تعالى[١] : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ) وقوله[٢] : « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) .

فإن قلت : مامعنى الاستثناء بالمشيئة، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء؟

فالجواب : ما قدمناه فى قوله تعالى[٣] : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) يعنى أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن، للدلالة على الثبوت والاستمرار.

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٨] .

والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .

وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعنى أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكول إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذى ندب الشارع إلى استعماله فى كل كلام كقوله : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ)(١) فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

وللمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .

ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحله بهم من نقمة ، وما أعدّ لهم من عذابه قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ » أى فى شك من عبادتهم ، فى أنها ضلال مؤدّ إلى مثل ما حلّ بمن قبلهم . وفيه تسلية له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم . « مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ » أى فهم سواء فى الاشراك ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم ، فسيحلّ بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهى عن المرية . « وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ » أى من العذاب ، كما وفى لآبائهم « غَيْرَ مَنْقُوصٍ » .

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَاخْتُلِفَ فِيهِ » أى آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ » يعنى ما أشير إليه فى قوله تعالى[1] : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم . « وَإِنَّهُمْ » أى هؤلاء ، وهم كفار مكة « لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ » أى القرآن « مُرِيبٍ » أى موقع للناس فى الريبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فلا يخفى عليه شىء منه ، وسيجزيهم عليه . والتنوين فى (كُلًّا) عوض عن المضاف ، أى وإن كل المختلفين فيه .

تنبيه :

فى هذه الآية قراآت : قرئ (إن) و (لما) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف (إن) وتشديد (لما) ، وبعكسها . وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : ففيها إعمال (إن) المخففة ، وهى لغة ثابتة عن العرب ، واللام فى (لما) لأمر الابتداء ، داخلة فى خبر (إنْ) . و (ما) إما موصولة بمعنى (الذين) واقعة على من يعقل ، واللام فى (ليوفينهم) جواب قسم مضمر . أى : وإنْ كُلًّا للذين ، والله ! ليوفينهم . وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة (ما) . أى : وإن كُلًّا لخلق ، أو

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

لفريق ، والله ! ليوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان، واتفقا فى اللفظ ، فصل بينهما بـ (ما) ، فهى زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هى الفارقة بين المخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيداً .

وأما الثانية: وهى تشديدهما ، فـ(إن) على حالها، وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و(لمّا) بمعنى (إلّا) أو جازمة بمعنى (لم) ومجزومها محذوف . أى : لما يهملوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها.

وأما الثالثة : وهى تخفيف (إن) وتشديد (لما) ، فـ(إن) مخففة عاملة كما تقدم ، و(لما) بمعنى (إلّا) أو جازمة أيضاً . أو (إنْ) نافيه بمنزلة (ما) و (لما) بمعنى (إلا) و(كُلاًّ) منصوب بمضمر ، أى : وما أرى كُلاًّ إلا .

وأما الرابعة : وهى تشديد (إن) وتخفيف (لما) فواضحة . فـ (إن) هى المشددة عملت عملها.

والكلام فى (اللام) و (ما) مثل ما تقدم أولًا من الوجوه الأربعة فى (اللام) والثلاثة فى (ما) .

وثمّت قراءات أخر فلتراجع فى(السمين) وغيره .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (فَاسْتَقِمْ كَمَاَ أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« فَاسْتَقِمْ كَمَاَ أُمِرْتَ » أى فى القرآن ، و (الكاف) للتشبيه ، أو بمعنى (على) « وَمَنْ تَابَ مَعَكَ » أى من الشرك ، وهم المؤمنون . « وَلَا تَطْغَوْا »أى تجاوزوا حدود الله « إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان ، وهو البغى ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

« وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أنفسهم بالشرك والمعاصى . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ، لما يفضي الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . « فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ » أى أنصار يمنعون عذابه عنكم بركونكم إليهم . « ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ » أى لا تمنعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادّة المشركين المحادّين لله ولرسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة فى الصدّ عن سبيل الله ، لأن ذلك ينافى الإيمان .

قيل : الآية أبلغ مايتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن ينغمس فى حمأته ؟

تنبيه :

قال بعض المفسرين اليمانين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظّلمة محرّم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذى أراده تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟

فروى عن ابن عباس والأصمّ أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شيء من دينكم .

وقيل : ترضوا بأعمالهم ـ عن أبى العالية ـ .

وقيل : تلحقوا بالمشركين ـ عن قتادة ـ .

وقيل : تداهنوا الظلمة ـ عن السدّىّ وابن زيد ـ .

وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمةُ أولى .

قال الزمخشرىّ : النهى يتناول الانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيّى بزيهم ، ومدّ العين

إلى زهرتهم ، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : (وَلَا تَرْكَنُوا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : (إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشي عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ؟ ! انتهى .

قال اليماني : قد وسع العلماء في ذلك وشددوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استعانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء شرورهم فلا حرج في ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيناسهم وإقرارهم فلا . انتهى ـ .

وأقول : كل هذا مبنيّ على عموم الآية ، وأما إن كانت في مشركي مكة ، اعتماداً على سباق الآية وسياقها ، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً ـ والله أعلم ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ)

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » أي غدوة وعشية « وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ » أي وساعات منه ، وهي ساعاته القريبة من آخر النهار . من (أزلفه) إذا قربه ، وازدلف إليه . وصلاة الغدوة: الفجر . وصلاة العشية: الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال عشيّ ، وصلاة الزلف المغرب والعشاء ـ كذا في الكشاف ـ .

والآية كقوله تعالى (١): (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)

---

(١) [١٧ / الإسراء ٧٨] .

فى جمعهما للصلوات الخمس جمعا بالغا غاية اللطف فى بلاغة الإيجاز . وانتصاب (طرفى النهار) على الظرف لإضافته إليه . و (زلفا) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمهما ، إما على أنه جمع زلفة أيضا ، ولـكن ضمت عينه إتباعاً لفائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كرغيف ورغف .

وقرئ بإسكان اللام ، إما بالتخفيف ، فيكون فيها ما تقدم ، أو على أن السكون على أصله ، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ (زلفى) كحبلى ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية ، بعطفه على (طرفى النهار) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على (الصلاة) ، فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب ، أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أى اقترب . و (من الليل) صفة زلفا ـ كذا فى العناية ـ .

« إِنَّ الْحَسَنَاتِ » أى التى من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات « يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » أى التى قلما يخلو منها البشر ، أى يكفرنها . « ذَٰلِكَ » أى إقامة الصلوات فى الأوقات المذكورة ، « ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ » أى ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أن رجلا جاء إلى النبىّ ﷺ فقال : يارسول الله ! إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هـذا . فاقض فىّ ما شئت ! فقال له عمر رضى الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يردّ النبىّ ﷺ شيئاً . فقام الرجل ، فانطلق فأتبعه النبىّ ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) الخ .

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة ـ أخرجه البخاريّ[١] وغيره ـ .

وفي رواية عن أبي أمامة[٢] قال له ﷺ : أتممت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تَعُدْ . وقرأ الآية .

وفي رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لما وقع ، لأنها كانت سبباً في النزول ـ كما بيناه غير مرة ـ .

وفي الصحيح[٣] عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دونه شيء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا . ورواه البخاريّ أيضاً عن جابر ، ورُوِي نحوه عن عثمان وسلمان .

وللإمام أحمد[٥] عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

---

(١) أورده البخاريّ ، موجزاً ، في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١ ـ سورة هود ، ٦ ـ باب وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ، حديث رقم ٣٤٢ .

أما النص الذي ساقه المؤلف ، فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه في ٤٩ ـ كتاب التوبة ، ٧ ـ باب قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، حديث رقم ٤٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخاريّ في ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٦ ـ باب الصلوات الخمس كفارة ، حديث ٣٤٤ . (٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

وله عن أبى ذرّ[١] مرفوعاً (إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال (هى أفضل الحسنات) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البرّ .

لطيفة :

أشار القاشانىّ عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس فى أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يَرِدُ عليه من الهيآت الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية، وتحجبه عن النور والحضور، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجس ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والكدورة بالصفاء ـ فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يَرِد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغُرور ، وداراً للعين الغَرور ، التى تدخل بها الظلمة لِيُذْهِبَ النورُ الوارد آثارَ ظلماتها ، ويكسح غبارَ كدوراتها . وهذا معنى قوله : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) :

وقد ورد فى الحديث[٢] (إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر) وأمر بإقامتها طرفى النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيأة النورية ، فى أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ).

(٢) أجرجه مسلم فى . ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

وبقاء ذلك النور، ويكسح ويزيل فى آخره ماحصل فى سائر الأوقات من التفرقة والـكدورة. ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها فى الليل ، وهى تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحانىّ ، وتحجزها عن شأنها الخاص بها ، الذى هو مطالعة عـالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لعمارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتـكدرها بالغشاوة ـ احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : (وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْـلِ) . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَاصْـبِرْ » أى على مشاقّ ما أُمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو عـلى الصلاة كقوله[١] : (وَاصْطَـبِرْ عَلَيْهَا) ولا مانع من شموله للـكل .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى فى أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس . قال أبو السعود : وإنما عبر عن ذلك بنفى الإضاعة ، لبيـان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة ، مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب فى (العناية) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبىّ ﷺ ، وإن كانت عامة فى المعنى ، وفى المنهيات جمعت للأمـة .

وقوله تعالى :

---

(١) [٢٠ / طه / ١٣٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

« فَلَوْلَا كَانَ » أى فهلا وجد « مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ » أى بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ » استثناء منقطع . أى لكنّ قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهى .

لطيفة :

(البقية) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة . أو بقية من الرأى والعقل . أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالذبيحة . وأطلق على الفضل (بقية) استعارة من البقية التى يصطفيها المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفقه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : (فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا) ، و (فلان من بقية القوم) أى من خيارهم . وجوّز كون (البقية) مصدراً بمعنى (البقوى) ، كالتقية بمعنى التقوى . أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، وصيانة لها من سطخه تعالى وعقابه .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ » أى ماصاروا منعّمين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، واتباعه كناية عن الاهتمام به ، وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشيء . و (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركى النهى عنه . وقصره الزمخشرىّ على الثانى ، لأنهم المقصود بالنهى قبله ، حيث قال : أراد بـ (الذين ظلموا) تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا هممهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبذوه وراء ظهورهم .

«وَكَانُوا مُجْرِمِينَ » أى باتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضى : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتباعهم للهوى، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » أى بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و (بظلم) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، أى استحال فى الحكمة أن يهلك القرى ظالما لها ، وتنكيره للتفخيم ، والإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية ، والظلم : الشرك . أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون ، يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ، ومسامحته فى حقوقه تعالى . ولذا قيل : (يبقى المُلْكُ مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم) وهذا ، وإن كان صحيحا ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أوّلا ، ثم إلى الاستقامة فى المعاملات ثانياً ـ يقضى بحمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك ، وأصناف المعاصى . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه ، وبعضهم متجهين إلى الاتعاظ ، غير مصرّين على ما هم عليه من الشرك ونحوه ـ كذا أشار له أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى مجتمعة على الحق والإيمان والصلاح ، ولكنه لم يشأ ذلك « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » أى فى الحق ، منهم المؤمن به ، ومنهم الكافر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

« إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » أى لكنّ ناسا رحمهم بهدايتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ، فاتفقوا فى المذهب والمقصد ، ووافقوا فى السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والمحبة .

وقوله تعالى : « وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » فى المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه (مختلفين) . فالضمير حينئذ للناس ، أى لثمرة الاختلاف ، من كون فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، خلقهم . واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى [١] : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ولأنه لو خلقهم له ، لم يعذبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من (رحم) لتأويلها بـ (أن والفعل) أو كونها بمعنى الخير . وتكون الإشارة لاثنين ، كما فى قوله [٢] (عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ) . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ، خلقهم . وهذا معزوّ إلى ابن عباس رضى الله عنهما. وإن كان الضمير لـ (من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق ـ كذا فى العناية ـ .

وأشار القاشانىّ إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال : وللاختلاف خلقهم ليستعد كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمرا وصنعة ، ويستتب بهم نظام العالم ، ويستقيم أمر المعاش ، فهم محامل لأمر الله ، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق ، وما يتعيش به الناس ، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا ، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله ، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله ، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره .

---

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .   (٢) [٢ / البقرة / ٦٨] .

وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى أحكمت وأبرمت وثبتت وهى هـذه : «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » والمراد من (الْجِنَّةِ النَّاسِ) عصاتهما ، والتعريف للعهد ، والقرينة عقلية ، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم ، وأن الوعيد ليس إلا لهم ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل . بـ (أَجْمَعِينَ) حينئذ ظاهر ، وإن لم يحمل على العهد ، وأبقى على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين ، لا من أحدهما فقط ، ويكون الداخلوها منهما مسكوتاً عنه ، موكولًا إلى علمه تعالى ، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم . وبطلانُه معلوم بالضرورة . أما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فالمراد بلفظ (أَجْمَعِينَ) تعميم الأصناف ، وذلك لا يقتضى دخول جميع الأفراد ، كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام ، فإنه لا يقتضى ذلك إلا أن يكون فيه شىء من كل صنف من الأصناف ، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعـام . كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضى أن يكون فى المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ (أجمعين) إذ فيه ردّ على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار ـ كذا فى العناية ـ.

ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم ـ أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

«وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» أى نقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسل من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك ، كما كانت لهم . و (كلاًّ) مفعول (لنقصّ) و (من أنباء) بيان له . و (ما نثبت) بدل من (كلاًّ) أو خبر محذوف.

« وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ » أى السورة ، أو الأنباء المقتصّة « الْحَقُّ » أى القصص الحق الثابت « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجملوه طريقهم وسيرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ)

« وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحق ، ولا يتعظون ولا يتذكرون « اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالكم من اتباع الأهواء « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على حالنا من اتباع ماجاءنا والاتعاظ والتذكر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ)

« وَانتَظِرُوا » أى العواقب « إِنَّا مُنتَظِرُونَ » أى ما وُعدنا به من الفتح . وقد أنجز الله وعدَه . ونصر عبده ، فله الحمد وحدَه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم . « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » أى أمر العباد فى الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسلية للنبى ﷺ ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم . « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » فإنه كافيك « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » بالياء التحتية فى قراءة الجمهور ، مناسبة لقوله « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وفى قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أى أنت وهم . أى فيجازى كلاًّ بما يستحقه ـ والله أعلم ـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٢ — سورة يوسف

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .

قال الشهاب : لما ختمت السورة التي قبلها بقوله[١] : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبائهم . وقد ذكر أولًا ما لقي الأنبياء عليهم السلام من قومهم ، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ، ليعلم ماقاسوه من أذى الأجانب والأقارب ، فبينهما أتم المناسبة . والمقصود تسلية النبيّ ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد . انتهى .

و (يوسف) اسم عبرانيّ ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه (راحيل) كانت قعدت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات . ولما وهبها تعالى ، بعد سنين ، ولداً سمته (يوسف) وقالت : يزيدني به ربي ولداً آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .

وقد روى البيهقيّ في (الدلائل) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم .

---

(١) [١١ / هود / ١٢٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« الٓر » تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التمديد ، والإشارة فى قوله : « تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى آيات السورة ، نزّل ما بعده ، لكونه مترقباً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة فى (تلك) إليها . والمراد بـ (الكتاب) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و (المبين) بمعنى الظاهر أمرُها وإعجازُها ، إن أُخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أُخذ من المتعدى فالمفعول مقدّر ، أى أنها من عند الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » أى الكتاب المنعوت بما ذكر « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لكى تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى[١] : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ) . أو لتستعملوا فيه عقولكم ، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيحاء . أو (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بإنزاله عربيا ، ماتضمن من المعانى والأسرار ، التى لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات . وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وفى أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فكمل له الشرف من كل الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أى أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمعه حِكَماً وعِبَراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى بإيحائنا إليك « هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » أى عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبيّ ﷺ . وقد جوز فى هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلًا من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعنى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتمال ، أو مفعول لمحذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه .

قال القاشانيّ : هذه من المنامات التى تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيّلة من النفوس

الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى الكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . (يا أبت) أصله يا أبي ، فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرها لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان (يا أبتا) فحذف الألف ، وبقى الفتحة . وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعويض . وقوله : (رأيتهم) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيد للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله[1] : (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مُتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ) . وإنما أجريت مجرى العقلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود .

قال المهايمي : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أر مَنْ تعرض لهيأة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« قَالَ يَا بُنَيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولعذوبة المصغر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أي فيفعلوا لأجلك أو لإهلاكك تحيلا عظيما متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أي ظاهر العداوة ، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشاني : هذا النهي من الإلهامات المجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجردات الروحانية في الروح ، ويصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلا ،

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٣٥] .

حتى يقع العلم به كما هو، فيقع فى النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوبا . ويسمى هذا النوع من الإلهام، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) . قال الكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربىّ : فيه حكم بالعادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبال بذلك ، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب فى بعض الأوقات إخفاء فضيلة، تحرزا من الحسود. وهذا داخل فى قولنا : إن الحسن إذا كان سببا للقبيح قبح. ومنه آية الأنعام(١): (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إنى لأكتمُ من علمى جواهِرَهُ كى لا يَرَى الحقّ ذُوجهلٍ فَيَفتَتِنَا

الأبياتُ المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالىّ فى (منهاج العابدين) والديلمىّ فى كتاب (التصفية) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينكر ويزعم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى .

ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] .

قال السيد ابن المرتضى اليمانيّ في (إيثار الحق) : مما زاد الحق غموضاً وخفاءً خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء، وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقيّة عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح المحق عدوًّا لأكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبلُ في الاستدلال على التقية ؛ أنه تعالى أثنى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمّار به ، وتقريره عليه ، ونزلت فيه[1] : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) . وقد صح عن أبي هريره[2] أنه قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين ، أما أحدهما فبثثتهُ لكم ، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ لقطع هذا البلعوم . قال الغزاليّ في خطبة (المقصد الأسنى) : من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى . لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتمامى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ » أي مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، يصطفيك للنبوة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أي تعبير المنامات، وإنما سمي التعبير تأويلًا ، لأنه جعل المرئيّ آيلًا إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً إليه. والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث مَلَك أو نفس أو شيطان.

---

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٢ ـ باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » أى بماسيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه وحاشيتهم ، أى يسبغ نعمته عليهم بك « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتباء « حَكِيمٌ » فى صنعه .

تنبيهات :

الأول ـ قال أبو السعود : كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله: (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة. وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لابد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاقىّ منها ، مما هو أنفسىّ كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى وقوفاً على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لابد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجريان أحكامه ، فإن لكل نبىّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجرى أحكامه .

الثانى ـ استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : (يا ابن فلان) ! أنه لا يكون قذفاً .

الثالث ـ قال المهايمىّ : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بِمَيْنِهِ ، ومدح الشخص فى وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر ؛ وأن لكل حادث تأويلا عند الأولياء ، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال ، إذ تصور المخيلة معانى معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعانى ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فالأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعما ترتب عليها آيات .

بحث فى الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهانىّ فى كتابه (الذريعة) فى بحث (الفراسة) ما مثاله :

ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظّم الله تعالى أمرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال [1] لنبيه ﷺ: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلناسِ) . وقال [2] (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ . . .) الآية ـ وقال [3] فى قصة إبراهيم: (يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ) وقوله [4] : (يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) .

والرؤيا هى فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة فى الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهى ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموّج ، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأقل ، صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ،

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٨ / الأنفال / ٤٣] .
(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٤] .

ويفرق بين طبقات النـاس ، إذ كان فيهم من لا تصحّ له رؤيا ، وفيهم من تصحّ رؤياه . ثم من صحّ له ذلك ، منهم من يُرَشّح أن تلقى إليه فى المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحـكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظًّا من النبوّة . وقد قال عليه الصلاة والسلام[1] : (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحرّيه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه ورب نزر الحظ من الحـكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالعة النفس الناطقة ، فى ذاتها الروحانية ، لمحة من صور الواقعات . فإنها عند ما تـكون روحانية تـكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ماتتشوّف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغـير جلىّ بالمحاكاة ، والمثال فى الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبـــير . وقد يكون الاقتباس قويًّا يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب فى وقوع هذه اللمحة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستـكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلًا محضاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتـكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شىء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائـكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستـكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، حديث ٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت فى البدن . ومنه خاصّ ، كالذى للأولياء . ومنه عامّ للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً فى حالات الوحى ، وهى عند ما يعرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرويا بأنها (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) ـ وفى رواية (ثلاثة وأربعين) ، وفى رواية (سبعين) وليس العدد فى جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه ، وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم فى رواية (ستة وأربعين) من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ـ فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبى ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولّا ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرىّ لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو الاستعداد البعيد . وإن كان عامًّا فى البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، الذى هو جبلّىّ لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال[1] : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) ! قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ! قال (الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانىّ الجسمانىّ ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب ـ على ما فى كتب التشريح لجالينوس وغيره ـ وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنيـة ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده ، وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارىّ ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التـكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الـكثيف . ولمَّا لطف هذا الروح الحيوانىّ من بين المواد البدنية ، صار محلاًّ لآثار الذات المباينة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين: إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والفشل ، بمـا يدركها من التعب والـكلال ، وتغشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لهـا طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الـكاملة . وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانىّ من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتـكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانىّ ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفَّت عن النفس شواغل الحس وموانعه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثـل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تـكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك بإدراكها الروحانيّ ، لأنها مفطورة عليه . وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة فى القوالب المعهودة . والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير ، وتصرّفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى ـ أضغاث أحلام .

وفى الصحيح أن النبيّ ﷺ قال[1] : (الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملَك ، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجليّ من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملَك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان ، لأنها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل .

هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها ويشيعها من النوم . وهى خواص للنفس الإنسانية ، موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ، ولابد . وإذا جاز ذلك فى عالم النوم ، فلا يمتنع فى غيره من الأحوال ، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة فى كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث (علم تعبير الرؤيا) أن التعبير لها كان موجوداً فى السلف ، كما هو فى الخلف ، وأن يوسف الصديق ، صلوات الله عليه ، كان يعبر الرؤيا ، كما وقع فى القرآن ، وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبيّ ﷺ ، وعن أبى بكر رضى الله عنه . والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقليّ ، إذا أدرك مدركه ، وألقاه إلى الخيال فصوّره ، فإنما يصوّره فى الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء . ومن المرئيّ ما يكون صريحاً لايفتقر إلى تعبير ، لجلائها ووضوحها ، أولقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تتمة سابغة ، انظرها ثمة .

---

(١) أخرجه البخاريّ عن أبى هريرة فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢٦ ـ باب القيد فى المنام ، حديث ٢٥٣٩ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « ءَايَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلسَّائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوّته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقّ عن بشر أو أخذٍ عن كتاب .

وقال القاشانىّ : أى آيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أوّلًا : على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساعٍ ، ولا إرادة مريدٍ، فيعلمون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشرّ ، فيقوى يقينهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر. وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم، الذى هو الانتقال الذهنىّ ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتثير شوقهم وإرادتهم، وتشحذ بصيرتهم ، وتقوّى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بَنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقوياء ، أحق بالمحبة

من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال ـ عشرة فصاعداً ـ سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أي تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة العدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل في الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد في منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

« إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أي ذهاب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضول بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يحب يوسف لما يرى فيه من المخايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامينَ لكونه شقيقه وأصغرهم. ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)

« اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً » من مقول قولهم المحكيّ قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . ويروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا في كيده ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعدُ ما يكون من أحلامه ، سخرية واستهزاء. وتنكير (أرضاً)وإخلاؤها من الوصف، للإبهام . أي في أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : « يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ » جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه يدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف، فيشتغل بهم. «وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ » أي من بعد الفراغ من قتله أو طرحه « قَوْمًا صَالِحِينَ » أي تائبين إلى الله عما جنيتم ، فيكون صلاحكم فداء عن معصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنتظم أموركم بعده بخلوّ وجه أبيكم .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير ، الذى لاذنب له،وبالكبير الفانى ، ذى الحق والحرمة والفضل ،والده، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر اللهلهم!

الثانى ـ قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوّة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى[(١)]: (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَاأُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) وهذا فيه احتمال، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِنهُمْ » أى صريحاً ورَضِيَ به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أى لأن القتل من الكبائر التى يخاف معها سدّ باب الصلاح. وإنما أظهره فى مكان الإضمار استجلاباً لشفقتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » أى فى غوره . و (الجب): البئر التى لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى بعض الأقوام الذين يسيرون

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

فى الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه،فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سدّ باب الصلاح .

« إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصرّين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقدروى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رَؤُوبين) .

ولما تواطأوا على رأيه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم تخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته فى حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ـ كذا فى الكشاف ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب، والسعى والنشاط، حيث يكون الخضر والمياه والزروع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملاله القاطع انشاطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعني : وإن زعمتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشريّ : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ، ومفارقته إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه، برعيهم ولعبهم، أو قلّ به اهتمامهم، ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالما إليه عما قليل ، فأمر سهل . فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى ـ أي فيما حكى عنهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)

« قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أي جماعة أقوياء ، يمكننا أن ننزعه من يد الذئب « إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ » أي هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أي بعد مراجعة أبيهم في شأنه « وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ » فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا ما مكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا » أي أعلمناه بإلقاء في روعه ، أو بواسطة ملَك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك .

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إما متعلق بـ (أوحينا) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشعرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حال من الهاء فى (لتنبئنهم) ، أى : لتحدثنهم بذلك، وهم لايشعرون أنك يوسف ، لعلوّ شأنك، كما سيأتى فى قوله تعالى[1] : (فعرفهم وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه فى البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدُ ، يأكلون ويلهون إلى المساء .

وجواب (لما) فى الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل: الجواب (أوحينا) والواو زائدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم موته القاطع عنه متمناه ، لتنقطع محبته عنه،ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلىّ . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه فى الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا،ببكائهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه. ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ »أى فى العدْو والرمى بالنصْل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا » أى ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرها ليحفظه « فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » أى كما حذرتَ .

وقوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تلطف عظيم فى تقرير ما يحاولونه . يقولون : ونحن نعلم أنك لاتصدقنا فى هذه الحالة ، ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا ، وغير واثق بقولنا ؟ .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً ـ نقله ابن العربىّ ـ .

ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتمرين الأعضاء على التصرف ـ كذا فى الإكليل ـ .

قال بعض اليمانين : اللعب إن كان بين الصغار جاز بما لامفسدة فيه ، ولا تشبه بالفَسَقَة . وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون فى معنى القمار ، فلا يجوز .

الثانى : أن لا يكون فى معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالمناضلة بالقسىّ ، والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها . ففى ذلك قولان للشافعية . رجح الجوازُ ، إن كان بغير عوض ، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه ﷺ (١) صارع يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت (٢) : سابقت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقته فى المرة الأولى ، فلما بدنتُ سبَقنى وقال : هذه بتلك .

وفى الحديث (٣) : ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه . انتهى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٢١ ـ باب فى العمائم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٥٠ ـ باب حسن معاشرة النساء ، حديث رقم ١٩٧٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عقبة بن عامر ، فى : ١٥ ـ كتاب الجهاد ، ٢٣ ـ باب فى الرمى ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

« وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » بيان لما تآمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم أخذوا قميصه الموشي ، وغمسوه فى دم مَعزٍ كانوا ذبحوه . و (كذب) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و (على) ظرف لـ (جاءوا) مشعر بتضمنه معنى (افتروا) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تغيب يوسف ، وتفريقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقوّاه على اتهامهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولا ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) ، وكثيراً ما تتفق الأعذار الباطلة ، من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى (الإكليل) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : (بَلْ سَوَّلَتْ . . .) الآية .

لطائف :

قال المهايمىّ : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كالمال، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود، وبمن يراعيه، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكمل عقلاً من الممكور به. وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلًا، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلا يفعل الخيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبيًّا ، يُخلق أولًا على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغني من القدر .

قيل للهدهد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمي البصر .

و(التسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن .

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » (صبر) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفا ، أي فشأني صبر جميل . أوفصبر جميل أجمل . والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذاعرضت ، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى العبودية .

« وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أي المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ـ كذا قدروه ـ وحقق أبو السعود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه علَمٌ في الكذب . قال سبحانه[1] : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى[2] : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه ـ يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك، ولا تساعده الصيغة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى .

قال الرازيّ : لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهي قوية . والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إعانته تعالى،

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٨و٨٣].

لم تحصل الغلبة . فقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يجرى مجرى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) . وقوله : (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ) يجرى مجرى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . انتهى .

ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف فى الجب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَابُشْرَى هَـٰذَا غُلَامٌ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَى دَلْوَهُ » أى أرسلها فى الجب ليملأها ، فتعلق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » وقرئ (يَابُشْرَايَ) بالإضافة والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى . ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد القصة . فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و (الغلام) : الطارّ الشارب . أو من ولادته إلى أن يشبّ . والتنوين للتعظيم .

« وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه متاعاً للتجارة . ف (بضاعة) حال . وفى (الفرائد) : أنه ضمّن (أَسَرُّوهُ) معنى (جَعَلُوهُ) أى جعلوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو مفعول له . أى : لأجل التجارة . و (البضاعة) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة : « وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠] (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

فى (أَسَرُّوهُ)و (شَرَوْهُ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روى أنهم كانوا تجارا من بلدة مدين، فلما أصعدوا رادُهم يوسف ، وضمّوه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين درهما من الفضة ، ثم أتوا بيوسف إلى مصر . و (دراهم) بدل من الثمن . و (المعدود) ، كناية عن القليل ، لأن الكثير يوزن عندهم . و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه .

فوائد :

قال فى (الإكليل) ، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط ، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك . ومن قوله : (هذا غلام) أنه كان صغيراً، وأن الالتقاط خاص به، فلا يلتقط الكبير. وكذا قوله (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار. ومن قوله : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أن اللقيط يحكم بحريته . وأن ثمن الحرّ حرام . قال بعضهم : وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً ، وهو لا يملك ، إذ لو ملك استوفوا ثمنه .

قال بعض الزيدية ، وردّ هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة. وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية ، كما أن ظاهره الإسلام . اهـ .

قال المهايمىّ : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب. وأنه ينتظر للشدة. وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن فى خاطره . وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهوّنه . وأن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة ، وبالعكس . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسّر له من اشتراه فى مصر ، فاعتنى به ، وأوصى أهله ، وتوسّم فيه الخير والصلاح . ومعنى (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) اجعلى مقامه حسناً مرضيا . و(المثوى) محل الثواء ،وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرّة، واتخاذ الفراش ونحوه، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به . أو (المثوى) مقحم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر، فأقام فى بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه، والنجاح يحوطه. فكان يرى سيده أن كل ما يأتى به ينجحه الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيّما على كل ما يملكه ، وضاعف تعالى البركة فى زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهى ، ومكانة رفيعة فى أرض مصر ، ووجاهة فى أهلها ، ومحبة فى قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التى ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمنَع عما يشاء ، ولا يُنازَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذرون زعما أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ)

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعنى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك المحن ، وذخر له السيادة فى تلك العبودية . ومعنى (بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول: بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و (الحكم) إما الحكمة، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو الحكم بين الناس.

قال الزمخشرىّ : وفى قوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) تنبيه على أنه كان محسناً فى عمله ، متقياً فى عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه .

وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته ، آتاه الله الحكمة فى اكتهاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ماجرى على يوسف فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه ، من مراودتها له وإبائه .

والمراودة : المطالبة. أى : طلبت منه أن يواقعها. وتعديتُها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة. والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر . وإيراد الموصول دون امرأة العزيز، لتقرير المراودة ، فإن كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على مالا خير فيه ؟ قالت : قرب الوساد، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ـ كما سيأتى ـ.

و(هَيْتَ) قرئت كـ (لَيْتَ وقِيلَ وحَيْثُ) ، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها ، وفتح التاء وضمها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال) . واللام لتبيين المفعول أى المخاطب . ونقل عن الفرّاء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها .

قال ابن الأبيارىّ : هذا وِفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب والروم فى (القسطاس) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللهِ » منصوب على المصدر. أى : أعوذ بالله معاذاً مما تدعيننى إليه ، لكونه زنى وخيانة فيما اؤتمنت عليه ، وضرًّا لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .

قال أبو السعود : وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النيّر على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السّوء.

وقوله : (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ، مما عسى أن يكون مؤثراً عندها، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتىّ الذى تكاد تقبله لما سولته لها نفسها. والضمير للشأن. وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مثواى ، أى تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى ، فكيف يمكن أن أسىء إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بألطف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و (رَبِّي) خبر (إِنَّ) ، و (أَحْسَنَ مَثْوَايَ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعته إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلًا .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » تعليل للامتناع المذكور ، غِبّ تعليل . و (الفلاح) الظفر ، أو البقاء في الخير . ومعنى (أفلح) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ (الظالمين) كل من ظلم ، كائناً من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والعصاة لأمر الله تعالى ، دخولًا أوليًّا . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم، وللمزنيّ بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى ـ أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

الثانية ـ أن السيد والمالك يسمى (رَبًّا) .

الثالثة ـ أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال: التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب.

وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخلّ بالمكافأة عليه ، كان ظالمًا. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (الهم) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإزماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إمضائه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : الهم همان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهمّ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد فى الأعيان .

روى الشيخان[١] وأهل السنن عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبرانىّ عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أى بمخالطته ، أى قصدتها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها (هَيْتَ لَكَ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

ومعنى قوله (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهمّ بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعى . ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٦ ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠١و٢٠٢ (طبعتنا) .

قال أبو حيّان : ونظيره (قارفتَ الإثم لولا أن الله عصمك) . ولا نقول : إن جواب (لولا) يتقدم عليها ، وإن لم يقم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف فى الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلًا . وقيل : جواب (لولا) لغشيها ونحوه . فمعنى (الهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازى : من أنه خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطبع ، كالصائم فى الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالًا ، تتهيأ للشاب النامى القوى ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السعود : إن همه بها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلًا جبليًّا ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا أنه قصدها قصدًا اختياريًّا . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه ـ عليه السلام ـ تسجيلًا محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلَزّا فى قَرَنٍ واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة ، أو همّ كل منهما بالآخر . وصُدّر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمىّ ، وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عز وجل : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى

بموجب ذلك البرهان النيّر ، على ما هو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميلة الجبلّى ، ولكن حيث كان مشاهداً له من قبل، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلّية ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبلّية، لكانوا إما ملائكة أوعالماً آخر . وَلَمَا كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعاً . والعنّين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملًا ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسىّ .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبُعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرىّ .

هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات ، ما تلقفوه من أهل الكتاب، ومن المتصوفين ، من تلك الأقاصيص المختلقة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أنزه تأليفى عن نقلها ، بردّها ، وكلها ـ كما قال العلامة أبو السعود ـ خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردها العقول والأذهان ، ويل لمن لاكها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

الزمخشريّ ، فجوّد الكلام في ردها ، فلينظر ، فإنه مما يسر الواقف عليه .

و(السوء): المنكر والفجور والمكروه . (والفحشاء) : ما تناهى قبحه

قال أبو السعود : وفي قوله تعالى (لِنَصْرِفَ عَنْهُ . . .) الخ آية بينة ، وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه همّ بالمعصية ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقيل : لنصرفه عن السوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة . فتأمل .

و (المخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أي الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل: إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد الله تعالى بقوله (لِنَصْرِفَ ...) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله: (هِيَ رَاوَدَتْنِي)ونحوه ، وشهدت امرأة العزيز بقولها : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ، وسيدها بقوله : (إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وإبليس بقوله : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) فتضمن إخباره بأنه لم يُغْوِه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى . عفا الله عنهم !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ » متصل بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ...) الخ ، وقوله : (كَذَٰلِكَ)الخ ، اعتراف جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ، واستبقا الباب ، أي قصد كلٌّ سبْقَ الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهي لتمنعه من الخروج ووحّد (الباب) هنا مع جمعه أولًا ؛ لأن المراد بالباب البرانيّ الذي منه المخلص.

« وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى اجتذبته من خلفه فانقدّ ، أى انشق قميصه .

« وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » أى صادفا بعلها ثمت قادماً .

« قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة لساحتها ، وإغراء عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

« قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » لأن قدّه منه أمارة الدفع عن نفسها به ، أو تعثره فى مقادم قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدّ لإسراعه خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أمارة إدباره عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدّته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قدّه من قُبل ، على علم بأنه لم ينقدّ من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثمّ قدم أمارة على صدقها ، على أمارة صدقه فى الذكر ، إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها ـ والله أعلم ـ

هى التى راعاها مؤمن آل فرعون فى قوله[1] : (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، إزاحة للتهمة التى خشى أن تتطرق إليه فى حق موسى عليه السلام ، ووثوقًا بأن القسم الثانى وهو صدقه هو الواقع ، فلا يضره تأخيره فى الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال: (بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضًا بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه . وبنحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتى ذكره ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذى أمر بوضع السقاية فيه ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

« فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » يعنى بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيرًا فى النفس ، ولهن فيه نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

تنبيه :

قال ابن الفرس : يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البينات ، كاللُّقَطَة والسرقة والوديعة ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

« يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا » نودى بحذف حرف النداء ، لقربه وكمال تفطنه للحديث.

---

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] .

أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .

« وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برىءٌ منه .

« إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتعمدين للذنب . يقال : خطئ إذا أذنب متعمداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليباً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلًا حليماً ، إذ اكتفى من مؤاخذتها بهذا المقدار .

قال ابن كثير: أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال: إنه كان قليل الغيرة.

قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيّان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الخصب والجدب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها ـ أثراً فى أخلاق البشر وأبدانهم ـ انظر المقدمة الرابعة والخامسة من (مقدمة ابن خلدون) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة ـ وهى مصر ـ بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شَغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و (الشَّغاف) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

« فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتيابهن ، وسوء قالتهن . استعير (المكر) لـ(الغيبة) لشبهها له فى الإخفاء . أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لتريهن يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكراً بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيأت ، « لَهُنَّ مُتَّكَئًا » أى ما يتكئن عليه من الوسائد ، « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشرى : قصدت بتلك الهيأة ـ وهى قعودهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن ـ أن يدهشن ويُبْهَتْنَ عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتكئ إذا بُهِتَ لشىء وقعت يده على يده ، فتبكتهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى :

« فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمنه ، وهبن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبهـا قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما نفين عنه البشرية لغرابة جماله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر، بناء على ما ركز فى الطباع ألا أحسن من الملك، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان . ولذلك يشبه ، كل متناه فى الحسن والقبح ، بهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ)

« قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ » أى فى الافتتان به ،« وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ » أى امتنع ، طالباً للعصمة ، مستزيداً منها .

قال الزمخشرىّ : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهمّ والبرهان . انتهى .

« وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ » أى ليعاقبنّ بالسجن والحبس « وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .

ولما سمع يوسف تهديدها :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)

«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» أى من مواتاتها ، لأنه مشقة قليلة،

تعقبها راحات أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ» يعني : ما أردن مني « أَصْبُ إِلَيْهِنَّ » أي أملْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية « وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أي بسبب ارتكاب ما يدعونني اليه من القبيح .

قال أبو السعود : هذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى ألطاف الله تعالى ، جريا على سنن الأنبياء والصالحين ، في قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركني وإلا هلكت . لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة ، وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن . انتهى .

قال القاشاني : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أي أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أي أيده بالتأييد القدسي ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» أي لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أي بما يصلحهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

« ثُمَّ بَدَا لَهُمْ » أي ظهر للعزيز وأهله ، «مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ» أي الشواهد على براءته ، « لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » أي إلى مدة يرون رأيهم فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فكانا مع يوسف ، ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما ، فذكرا له أنهما رأيا رؤيا غمتهما ، وليس لهما من يعبرها . فقال لهما : أليس التأويل لله ؟ قصّا علىّ ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت فى المنام كأنّ بين يدىّ وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون فى يدى ، فأخذت العنب ، وعصرته فى الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال حُوّارى ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسى .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غمتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لهما بأن ما رأياه سهل التأويل ، لوجود مثاله فى المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لهما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتيهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الربانىّ لمن يصطفيه بالنبوّة ، وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

« قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا » أى قبل أن يصلكما . والمراد بالطعام مايبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت ، فيجدانه كذلك . وحقيقة (التأويل) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعيين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستعارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبيه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما : (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤيَيَيْن المتعلقتين بالشراب والطعام .

« ذَٰلِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحى والإلهام ، لا من التكهن والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سمعاه شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحى والإلهام،أى خصنى بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائى المرسلين. أو كلام مستأنف، ذكر تمهيداً للدعوة، وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه، والوثوق به . والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأسا، كما يفصح عنه قوله : (مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا، فضلاً عن الوقوع. وإنما عبر عنه بذلك، لكونه أدخل بحسابالظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام. والتخصيص بهم، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً، لأنه يثبت بالطريق الأولى. أو المراد نفى الوقوع منهم لعصمتهم. وتكرير (هُمْ) للدلالة على اختصاصهم، وتأكيد كفرهم بالآخرة. وزيادة (من) فى المفعول، أعنى (مِن شَىْءٍ) لتأكيد العموم، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء،قليلاًأو حقيراً، صنماً أو ملكاً أوجنياً أو غير ذلك.

وقوله : (ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) يعنى عدم الإشراك بالله، وهو التوحيد، من نعم الله العامة، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة،ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها .

ولما ذكر ،عليه السلام، ماهو عليه من الدين القويم، تلطف فى الاستدلال على بطلان ما عليه قومهما من عبادة الأصنام، فضرب لهما مثلاً يتضح به الحق حقاتضاح بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَءَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبىّ فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولًا به . أى : أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالب ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرّق الآلهة يفرّق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوّتهم ، وهى قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع فى أن معرفة الله بصفاته ، حسنة فى نفسها ، فهو ليس مُحْدِثَ الحسن . انتهى .

وفى قوله : (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهده عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت فى العلوم والسلطة ، كذلك فى عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم فى الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ » يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفقتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها « إِنِ الْحُكْمُ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بعبادتها، لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية العظمة ، « ذَٰلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبيه :

لا يخفى أن قوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالهما عن تعبير رؤياهما ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوهما إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بعظم شأنه، وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما ستعاجله منيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

قال الزمخشرى : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترص ذلك ، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استفتاه واحد منهم ، أن يقـدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولًا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليـه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته فى العلم ، فوصف نفسه بما هو بصدده ـ وغرضُه أن يقتبس منه ، وينتفع به فى الدين ـ لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتهما إليه ، وبيانه لهما مرتبة علمه ، شرع فى تفسير ما استفسراه . ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

« يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا » أى يخرج من السجن ، ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر ، « وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويعلق على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . يعنى : مآله ، وهو نجاة أحدهما ، وهلاك الآخر . والتعبير عنـه بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلًا لأمره ، وتفخيماً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون فى النوازل المشكلة الحكم ، المبهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما فى ذلك ، لما أنهما بصدده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساقى : (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وما جرى علىّ ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و (الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتعبير به إرخاء للعنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المعروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادىّ أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبيه :

دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى[1] : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) . وقوله حكاية عن عيسى[2] : (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) . وفى الحديث[3] : (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) . وجلىّ أن ذلك من نظام الكون ، والعمران البشرىّ ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل ـ يعنى يوسف ـ الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى ـ فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جدًّا ، وذكر من رجاله الضعفاء راويين سماهما . ثم قال :

(١) [٥ / المائدة / ٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٢] و [٦١ / الصف / ١٤] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلا عن الحسن وقتادة . قال: وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل، لو قُبِلَ المرسل من حيث هو ، فى غير هـذا الموطن . ـ والله أعلم ـ انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى : « فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » يعنى : فشغله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك . « فَلَبِثَ » أى مكث يوسف « فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها.

ولأهل اللغة أقوال فى (البضع) : ما بين الثلاث إلى التسع ، أو إلى الخمس ، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، يعنى ما بين الواحد إلى الأربعة ، وقيل غير ذلك .

ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام ، برحمته تعالى ، وما هيأه من الأسباب : رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التى أشار إليها تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى لملئه : « إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالكات من الهزال . جمع عجفاء ، بمعنى المهزولة ، ضد السمينة ، « وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعاً أخر يابسات دقيقة، أى نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الخضر الممتلئة وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطاب للأشراف من قومه ، وكان دعا ، إثر استيقاظه ، سحرة مصر وحكماءها ، وقص عليهم رؤياه هذه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ)

« قَالُوا » أى الملأ للملك « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع (ضغث) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُزِمَ ، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وتريها فى المنام . و(الأحلام) جمع (حلم) ، وهو ما يراه النائم ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشىء الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث [1] : الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشتىّ : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنها الشارع للفصل بين الحق والباطل، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للحالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى (الأحلام) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد، فالتمس للجمع نكتة فقال: إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

«وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» يحتمل أن يريدوا بـ (الأحلام) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يعترفوا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعبير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول يصيّره من وادى :

* على لا حبٍ لا يُهتدى بمناره *

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ١٠ ـ باب من رأى النبىّ ﷺ فى المنام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة ، فنكون به عالمين . وقول الملك لهم أولاً : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) دليل على أنهم لم يكونوا فى علمه عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصورمطابقاً لشك الملك الذى أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أَوْ لَا . وقول الفتى : (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ)إلى قوله(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) دليل أيضاً على ذلك ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)

« وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا » أى من صاحبى السجن ، وهوالساقى: « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى تذكر بعد مدة . وكان تذكره ، على ما روى ، بعد سنتين « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسى ، ولذلك لم يقل: أنا أفتيكم فيها ، وعقبه بقوله « فَأَرْسِلُونِ » أى فابعثونى إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ، ثقة بما سبق من التذكر ، ومالحق من قوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أى أرسل إليه ، فأتاه فقال : يا يوسف ! ووصفه بالمبالغة فى الصدق ، حسبما ذاق أحواله ، وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أوّل ، لكونه بصدد اغتنام معارفه ، فهو من باب براعة الاستهلال « أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى فى

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعبير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفى قوله : (أَفْتِنَا) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وأنه فى ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبتّ الكلام ، بل قال (لعلى) و (لعلهم) مجاراة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فربما اخترم دونه .

* لعل المنايا دون ما تمدانى *

ولا من علمهم بذلك ، فربما لم يعلموه ـ أشار إليه أبو السعود ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

[٤٨] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ)

[٤٩] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

« قَالَ » أى يوسف له فى تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدْتُمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أى فى تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صعاب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفعتم لهن من الحبوب

المتروكة فى سنابلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى فى الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئىّ فى المنام ، والمعبر به ، وهو تأويله . ولا يتعين المجاز العقلىّ ـ أى يؤكل فيها ـ كما فى : (نهاره صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ » أى تحرزون وتخبئون للزراعة .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدة ، وأكل الغلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ » أى يمطرون من الغيث ، أو يغاثون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث « وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » أى ما كانوا يعصرونه على عادتهم من عنب وزيتون ونحوهما .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر (العصر) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الغيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب ، إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أُخَرَ غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارة له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى (يَعْصِرُونَ) يحلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بعموم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدرّ .

قال الزمخشرىّ : تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحى .

تنبيه .

قال فى (الإكليل) : هذه الآية من أصول التعبير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عامًّا فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) ، ولم تسقط بقولهم ذلك ، فتخص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفى قوله : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ ...) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك فى تعبير الرؤيا والفتوى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملًا ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جرأة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشرى : إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلّماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها . قال عليه السلام[١] : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

مواقف التهم . ومنه قال[١] رسول الله ﷺ للمارّين به فى معتكفه ، وعنده بعض نسائه : هى فلانة ، اتقاء للتهمة .

وعن النبىّ ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : (ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ) ، ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان لحليماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق فى مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى فى المسند والصحيحين[٢] مختصراً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ـ مدحه النبىّ ﷺ على هذه الأناة ، وكان فى طىّ هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه همّ بامرأة العزيز همًّا يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له ألا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعى متوافرة على الخروج منه ، فَلَأَنْ يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجدر ـ أفاده الناصر .

قال أبو السعود : وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز ، مع ما لقى منها ما لقى ، من مقاساة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٨ ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبىّ ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) :

وأخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١١ ـ باب قوله عز وجل : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ (طبعتنا) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة المداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى ، ولم يصرح بمراودتهن له ، وقولهن (أطع مولاتك) واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ » يعنى ما كدنه به . وفى إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تتميم لقوله : (اسأل) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيه الوعيد لهن على كيدهن ، وأنه تعالى مجازٍ عليه . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ » استئناف مبنى على السؤال ، كأنه قيل : فماذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكن ـ أى شأنكن ـ إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعنى : هل وجدتن منه ميلاً إليكن ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » أى قبيح . بالَغن فى نفى جنسه عنه بالتنكير ، وزيادة (من) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أى فى قوله : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي .

قال الزمخشرى : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة ، والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يتعلق بشىء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق ، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى ـ * والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٢] (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

« ذَٰلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذى اعترفت به على نفسى « لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » أى ليعلم يوسف أنى لم أكذب عليه فى حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أنى بريئة .

« وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لا يرضاه ولا يسدّده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ، إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ » تريد : وما أبرئ نفسى مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته . أو تعنى : أنى ما أبرئ نفسى من الخيانة ، فإنى قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأمارة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالعصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ ...) الآية ـ على أنه حكاية قول امرأة العزيز ـ قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعانى الكلام . وقد حكاه الماوردىّ فى تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سواه . والمعنى : ذلك التثبت والتأنى والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب فى أهله ، أو ليعلم الله أنى لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أى : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها فى الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن مافيه من الأمانة ليس به وحده،وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أى لا أنزهها من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المساوئ .

هذا خلاصة ما قرروه على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك ـ والله أعلم ـ .

لطائف :

الأولى ـ محل قوله : (بِالْغَيْبِ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى ـ وأنا غائب أو غائبة عنه، أو وهوغائب عنى خفىّ عن عينى.أو هو ظرف ، أى بمكان الغيب ،وهوالخفاء والاستتار وراء الأبواب .

الثانية ـ قيل : معنى (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) أى : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهى واقعة عليهم تجوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لايهديهم فى كيدهم ، كقوله تعالى[1]:(يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى قولهم .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده .

الثالثة ـ قال فى (الإكليل) : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أصل فى التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة ـ قال الزمخشرىّ : لقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة ـ ثم ساقها ـ وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق فى التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة ـ رأيت لابن القيم فى (الجواب الكافى) فى عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعى من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة فى مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة: إنها أضعاف مايذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعى ، وزوال المانع ، وكان الداعى ههنا فى غاية القوة وذلك لوجوه :

أحدها ـ ما ركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان الى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالا بل يحمد .

الثانى ـ أن يوسف عليه السلام كان شابًّا ، وشهوة الشباب وحدّته أقوى .

الثالث ـ أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع ـ أنه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأتى لغيره فى وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس ـ أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس ـ أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل وغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها ، لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادنى كلَفــــاً فى الحب أن مُنِعَت　　　أحبُّ شىء إلى الإنسان ما مُنِعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، وتضمحل عند إبائها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشتد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع ـ أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن ـ أنه فى دارها، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ،من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرهبة.

التاسع ـ أنه لا يخشى أن تنمى عليه هى ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هى الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر ـ أنه كان مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعى، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت: قرب الوساد ، وطول السواد. تعنى: قرب وساد الرجل من وسادتى، وطول السواد بيننا .

الحادى عشر ـ أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأرته إياهن ، وشكت

حالها إليهن، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال[١] : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

الثانى عشر ـ أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة ، وداعى السلامة ، من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر ـ إن الزوج لم يُظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف[٢] : (أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا) ، وللمرأة[٢] : (اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعى فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال[١] : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه . وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتنّ به على يوسف من رفع قدره بصبره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » أى أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه، وكرم

(١) [١٢ / يوسف / ٣٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٩] .

نفسه ، وسعة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته ـ وجوّز أن يكون فاعل (كَلَّمَهُ) يوسف عليه السلام ـ « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أىذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شيء.

روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبّر له رؤياهابتهج بحديثه هووخاصته، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مَهبطاً للإمداد الربانىّ ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرّفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرشى ، وقد أقمتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعه فى إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب فى عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به فى شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يمضى أمر ، ولا ينفذ شأن فى مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوّجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة ـ والله أعلم ـ .

قال بعضهم : إن من أمعن النظر فى قصة يوسف عليه السلام ، علم يقيناً أن التقىّ الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده ويُنجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلماً وشرًّا ، ولا للتنكيل به ألماً وضرا ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ـ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثالا نقتفى أثره عند طروء التجارب، وملاذا نعوذ به فى المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت فى مواقف العثار ، وننهج منهاجه فى التقوى وطيب الإزار ، فننال فى الدنيا سمة المجد ، ونفوز فى الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ » أى يوسف للملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى ولّنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشريّ . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه .

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملا من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملا من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبيّ أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كالقضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ، وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصلحته ، وفى أن المتولى أمرا ، شرطه أن يكون عالما به ، خبيرا ، ذكيّ الفطنة ـ كذا فى (الإكليل) .

قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جعله على

خزائن الأرض ، إيذانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنيّ عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها ، من قوله : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) ، وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آلة في ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات . . . الخ .

ولم أر الآن مستنده في كون الأهرام كانت مجمع الغلات، ولم أقف عليه في كلام غيره.

و (الأهرام) بفتح الهمزة ، جمع هَرَم بفتحتين ، وهي مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقي منها الآن ثلاثة في الجيزة، بعيدة أميالاً عن القاهرة، معدودة من غرائب الدنيا. دعيتُ لرؤياها أيام رحلتي للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ وقد استقرّ رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن لملوكهم.

ففي كتاب (الأثر الجليل لقدماء وادي النيل) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية آثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم، وتوخّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخي العصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو)، والثاني للملك (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أي أرض مصر « يَتَبَوَّأُ مِنْهَا » أي ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما ولّاه النظر على خزائن مصر ، تجوّل في قطرها ، وطاف قراها، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال: « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا عملًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن مايدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكين فى الأرض والجاه والثروة والمُلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » إشارة إلى ماوقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين ، وأخرجت من بركاتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل فى كل مدينة غلال ما حولها من الحقول، ولما مضت هذه السبع ،دخلت السنون المجدبة، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما، فأخذ الناس ، من سائر البلاد،فى المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها. وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب، لتناول القحط بلادهم ـ فلسطين ـ فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ، وعدم استشعارهم فى أنفسهم أن يصير إلى ماصار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه

سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم متنكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد. قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، هلك منا واحد .قال: فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : لابد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندى رهينة، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلىّ ،ليتحقق صدقكم. ثم أخذ شمعونَ ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يعطوا زاداً للطريق ، وهذا ماأشير إليه فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

«وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ» بفتح الجيم ، وقرئ بكسرها،أىأوقر ركائبهم بالطعام والميرة. « قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ » أى أتمه « وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى المضيِّفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإتيان به ، لا امتنان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)

« فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » أى فيما تستقبلون ، «وَلَا تَقْرَبُونِ » أى ولا تقربونى بدخول بلادى مرة ثانية . فالياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

« قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ » أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في ذلك. وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله ـ قاله أبو السعود ـ « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أي ذلك. يعنون المراودة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المراودة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ » أي لخدامه الكيالين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » يعني ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روى أنها كانت فضة . أي اجعلوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أي لكي يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ » أي وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أي حسبما أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعي إلى الرجوع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أي أنذرنا بمنعه بعد هذا ، إن لم نأت بأخينا ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ » أي نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه ، وقرئ (يكتل) بالتحتية أي أخونا لنفسه مع اكتيالنا ، « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أي من أن يناله مكروه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ، فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ » أى من قبله ، يوسف . يعنى : هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم فى يوسف ، وقد قلتم[1] : (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ثم خنتم بضمانكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أثق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن فى إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ، هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ)

« وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم فى متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدابته ، فرأى فضته فى فم متاعه فقال لإخوته : قد ردت دراهمى وهاهى فى متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه فى وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإنزالنا عنده ، وردّ الثمن علينا . والقصد إلى

(١) [١٢ / يوسف / ١٢]

استنزاله عن رأيه . أو : لا نبغى فى القول ولا نـكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا. وقرئ على الخطاب . أى : أىّ شىء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟

« هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنـكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتيهم بميرة ، أى بطعام . يقال : (ماره) أتاه بطعام ومنه : (ما عنده خير ولا مير) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شىء مما تخافه « وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ » أى سهل على هـذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير. أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شىء يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتـكثر بمكيله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الـكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للـكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَ » أى لهم أبوهم « لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ » أى بهذه المقالة « حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ » أى عهداً منه ، ويميناً به ، لتردنّه علىّ « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ »أى

تغلبوا كلكم ، فلا تقدرون على تخليصه . وأصله من : (أحاط به العدوّ) سدّ عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّاءاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد حثهم على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاته تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدًّا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم : (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولًا فى حق يوسف[1] : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانياً : (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَقَالَ » أى أبوهم : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » أى لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يمسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزيّ متحد ، على بلدهم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبوّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،

(١) [١٢ / يوسف / ١٣] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع فى التنبه ، واتباع البصر . وقيل : نهاهم لئلا تصيبهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة ـ وسيأتى بيانه ـ .

« وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئا مما قضى عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا(١): (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وقال(٢) : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) . بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ، وهرب منه إليه . « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ».

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٨] (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ » أى ذلك الدخول « يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا » أى أبداها ، « وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحى ، ونصب الأدلة ، حيث لم يعتقد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد الجملة بـ (إن) و (اللام) وتنكير العلم ،وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧١و١٠٢] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلوّ مرتبة علمه ونخامته ، مالا يخفى ـ أفاده أبو السعود ـ. « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .

قال ابن حزم فى (الملل) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ، إشفاقاً عليهم ، إما من إصابة العين ، وإما من تعرض عدوّ ، أو مستريب بإجماعهم ، أو ببعض ما يخوّفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك ، لا يغنى عنهم من الله شيئاً يريده عز وجل بهم . ولـكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم قالوا[1] : (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا يغنى شيئاً ، كما كان عليه السلام[2] يحب الفأل الحسن .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية ـ على ماروى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ أن العين حق[3] ، وأن الحذر لا يردّ القدر . ومع ذلك لا بد من ملاحظة الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استحباب البعد عن مضارّ العباد ، والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا يغنى الحذر عنه . ثم قال : وفى (التهذيب) أن أبا علىّ أنكر الضرر بالعين ، وهو مروىّ عن جماعة من المتكلمين .

وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرهما جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ١١] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٤ ـ باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٣٦ ـ باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبى هريرة .

ثم قال : واختلف من أين أتت المضرة الحاصلة بالعين . فمن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضعفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اختص ببعض الأشيـاء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها فى بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل فى جسم آخر شيئاً إلا بمماسّته ، أو ما فى حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعلَه ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله العادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هـذا الحاكم ، وهو الذى ذكره الزمخشرىّ والأمير الحسين ، وهو قول أبى هاشم ، ذكره عنهمـا فى (التهذيب) انتهى .

وقد أوضحه الرازىّ بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخىّ : إنه لا يمتنع أن تـكون العين حقاً ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهـد الشىء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له فى تـكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشىء حتى لا يبقى قلب ذلك المـكلف متعلقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعدل عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعنده تتغيّن المصلحة . ولـما كانت هذه العادة مطّردة ، لاجرم قيل : العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) هـذا البحث بما يشفى ويكفى ، فى (بحث هديه ﷺ فى علاج العين) بعد إيراده ما روى فى الصحيحين وغيرهما من حقيّة العين ، وشهرة تأثيرها عند العرب ، قال :

فأبطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالهـا وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفـع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا فى

سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالمعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن.

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسامّ جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلا. وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات فى العالم. وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواصّ وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه . ويستحيي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هى الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيّناً، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره . وتأثير الحاسد فى أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا ، الأفعى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوّها انبعث منها قوة غضبية ، وتكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر فى إسقاط

الجنين ، ومنها ما يؤثر فى طمس البصر . كما قال ﷺ (١) فى الأبتر وذى الطفيتين من الحيات: إنهما يلتمسان البصر ، ويسقطان الحبل . ومنها ما يؤثر فى الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشىء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية » وقد قال الله تعالى لنبيه (٢) : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ وقال (٣) : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ . فكل عائن حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهى سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين ، تصيبه العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ، ولا بد . وإن صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على صاحبها . وهذا بمثابة الرمى الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشىء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنسانى . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عرف

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٢ ـ باب فى قتل الحيات ، حديث ٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٣) [١١٣ / الفلق / ١ ـ ٥] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى كلام ابن القيّم ، عليه الرحمة .

وقال الرازيّ : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة، أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانيًّا محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذى يدل عليه أن اللوح الذى يكون قليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عاليين لعجز الإنسان عن المشي عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل في قلبه غضب، ويسخن مزاجه جدًّا، فمبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفسانيّ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان، فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتعجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فعنده لا يبقى في وقوعه شك وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين، كلام حق لا يمكن ردّه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إما على الطعام ، أو فى المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أى لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإنزالهم فى بيته ، وحلولهم فى كرامته وضيافته ، وحضورهم معه فى غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه ـ كما ذكر فى الآية ـ ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتيانه ، إذ جهز إخوته ، أن يضعوا سقايته فى رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ » أى من الطعام « جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ » وهى جام فضة يشرب به يوسف ، وضعه فى ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وارتحلوا، أمهلهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسعى فى إثرهم ، ويؤذنوا بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ)

[٧٢] (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ » ؟

« قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى (أذّن) نادى . يقال : آذنه : أعلمه ، وأذّن أكثر الإعلامَ ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه . و(العير) : الإبل التى عليها الأحمال ، لأنها تمير ، أى تذهب وتجىء ، وهو اسم جمع للإبل ، لا واحد له ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة (عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، ومافيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربىّ : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر أقل منه .

وقوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » أصل فى الجعالة .

وقوله : (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما اتهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا للسرقة ، أو لمطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا بعلمهم على براءتهم ، لما تيقنوه من حالهم ، فى كرّتَىْ مجيئهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

[٧٥] (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم «جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ » أى جزاء سرقته، أخذ من وجد فى رحله رقيقاً. وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه، أى : فأخذه جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هى خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو .
« كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرقة ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَتِهِمْ » أى ففتشها« قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ »أى بنيامين، نفياً للتهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » أى دبرنا لتحصيل غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه . والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه فى قضاء الملك ، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلاً. وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور

فطنته ، وكمال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » يعني : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

« نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ » أي بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفي إيثار صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلٰهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أي من أولئك المرفوعين « عَلِيمٌ » أي فوقه أرفع درجة منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

« قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به . أي : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .

« فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » أي منزلة ، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البريء .

« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أي من أمر يوسف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » لما تعين أخذ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم ، طفقوا يعطّفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، فخذ أحدنا بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفي ما عزموا عليه لإنقاذ أخيهم من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشفّ عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، وبعرب عن أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بموثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البارّ برضاة أبويه .

وقولهم : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أي إلينا ، فأتم إحسانك بهذه التتمة . أو من المتعودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ)

« قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » أي إن أخذنا بريئاً بمتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد في العقل .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

« فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أي يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس . كما دل عليه (السين والتاء) فإنهما يزادان في المبالغة .

قال أبو السعود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوذه بالله لما طلبوه ، الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويعاذ بالله عز وجل ، ومن تسميته «ظلماً» بقوله : (إنا إذا لظالمون) . و (خلصوا) بمعنى اعتزلوا وانفردوا عن النـاس ، خالصين ، لا يخالطهم سواهم . و (نجيًّا) حال من فاعل (خلصوا) أي : اعتزلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجيّ (فعيل) بمعنى (مفاعل) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله (١) : (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) أي مناجياً ، وهذا في الاستعمال يفرد مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك ، أي مخالطوك ومعاشروك . وإما لأنه صفة على (فعيل) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحد لأنه بزنة المصادر ، كالصهيل والوجيف والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي ، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق : والمصدر ، ولو بحسب الأصـل ، يشمل القليل والـكثير . وتنزيل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشريّ : وأحسن منه ـ أي من تأويل (نَجِيًّا) بذوي نجوى أو فوجا نجيًّا أي مناجياً ـ أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ، وما يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ؟ كقوم تمايوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة :

ذكر القاضي عياض في (الشفا) في (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمـع رجلا يقرأ : فلمـا استيأسوا منه خلصوا نجيًّا ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هـذا الـكلام .

وقال الثعالبيّ في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول : من أراد أن يعرف

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٢] .

جوامع الـكلم،ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيماء ، ويفطن لـكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن ، وليتأمل علوّه على سائر الـكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله عز ذكره ، فى إخوة يوسف (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا)، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الـكلمات القصيرة معانى القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أى فى السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، (رَوْبِين)، « أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ » أى عهداً وثيقاً فى ردّ أخيكم ، وإنما جعل منه تعالى لـكون الحلف كان باسمه الـكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ » أى قصرتم فى شأنه و (ما) إما مزيدة ، و (من) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية فى موضع رفع بالابتداء و (من قبل) خبره . أو فى موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا) . وإما موصولة بالوجهين ، أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم[1] (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2] .

« فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ » أى : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي » أى فى الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي » أى بالخروج من مصر ، أو بخلاص أخى بسببٍ ما .

« وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

---

(١) [١٢ / يوسف / ١١] (٢) [١٢ / يوسف / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

«ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» أى: نُسِبَ إلى سرقة صواع الملك، « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » أى ما شهدنا عليه بالسرقة ، إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله .

تنبيه :

استنبط بعضهم من هذا عدم جواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به ـ كذا فى الإكليل ـ ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به فى مواقع الخلاف .

« وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » أى : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَسْأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » يعنون مصر . أى : أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة . « وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أى جئنا معها . وكان صحبهم قوم من كنعان « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى فيما أخبرناك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» معناه: فرجعوا إلى أبيهم، فقالوا له ما قال لهم أخوهم . فقال : بل سولت ، أى زينت وسهلت أنفسكم أمراً ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشريّ : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدْرَى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته ، لو لا فتواكم وتعليمكم .

قال الناصر : هذا من الزمخشريّ إسلاف جواب عن سؤال ، كان قائلا يقول : هم فى الوقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء ، وأما فى هذه الوقعة الثانية ، فلم يتعمدوا فى حق بنيامين سوءا ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) كما قال لهم أولا ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلابد من زبدِ بسط فى الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِنٌ باتهامه لما أسلفوه فى حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد نفى التهمة وتقوّيها ، وهى أخذ الملك له فى السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عادتهم. وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى(١) : (مَا كَانَ لِيَاخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) تنبيها من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمدا ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تتطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون الوجه الذى سوغ له هذا القول فى حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع فى رحل من يوجد فى رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقا بوجه معلوم. وهذا فى شرعنا لا يثبت السرقة عليه ـ والله أعلم ـ .

وقوله : (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) واقع بمكانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضى ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأول. اهـ.

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً » أى بيوسف وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحالى وحالهم ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدره الأجر ، ومن الأجر المعجل تعجيل الفرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض « عَنْهُمْ » أىعن بنيه كراهة لماجاءوا به « وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ » أى يا حزنى الشديد ! و (الألف) بدل من ياء المتكلم للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و (الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزأهما . والرزء الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثراً ـ لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ، ولأنه لم يزل عن فكره ، فكان غضًّا طريًّا عنده ، كما قيل[(١)] :

* ولم تُنْسِنِي أوفَى المصيباتِ بَعْدَهُ * وَكُل جَدِيدٍ يُذَكِّر بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقاً بحياتهما ـ دون حياته .

---

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

نَعَى الركبُ (أَوْفَى) حين آبت ركابُهُمْ ... لعمرى لقد جاءوا بشرٍّ فأوجعوا
نَعَوْا باسق الأخلاق لا يُخلفُونه ... تكاد الجبال الصمّ منه تَصَدَّعُ
فعزيت عن (أَوْفَى) بـ(غَيْلانَ) بَعْدَهُ ... عزاءً وجفْنُ العين بالماء مُتْرَعُ
ولم تُنْسِنِي (أَوْفَى) المصيباتُ بَعْدَهُ ... ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

وقائلها هشام،أخوذى الرّمة وغيلان هو ذوالرّمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ، من كامل المبرد (طبعة الحلبىّ) .

«وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ » وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشرىّ : إذا كثر الاستعبار محقت العَبرة سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر.

« فَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعيل) بمعنى (مفعول) كقوله[1] (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أو بمعنى شديد التجرع للغيظ أو الحزن ، لأنه لم يشكه إلى أحد قط . فهو بمعنى (فاعل) .

تنبيه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف جاز لنبىّ الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال[2] : إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصـدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره فقيل له فى ذلك ؟ فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب .

وقوله تعالى :

---

(١) [٦٨ / القلم / ٤٨] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٤٤ـ باب قول النبى ﷺ (إنّا بك لمحزونون) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، ١٥ ـ باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ)

« قَالُوا » أى أولاد يعقوب ، لأبيهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا » أى مريضاً مشفياً على الهلاك ، « أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ » أى بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف. واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزّلوه منزلة المنكر ، فلذا أكّدوه . و (تفتأ) مضارع فتئ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفى ملفوظاً أو منويًّا ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله [(١)] :

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرَحُ قاعداً ولو قطعوا رأسى لديكِ وأوصالى

أى : لا أبرح . ومعنى (تفتأ) : لا تزال ولا تبرح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتجئاً إليه ، نخلّونى وشكايتى .

« وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ » أى لمن شكا إليه من إزالة الشكوى، ومزيد الرحمة « مَا لَا تَعْلَمُونَ » ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوّى رجاءهم، وأمرهم أن يرحلوا لمصر، ويتطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

(١) قائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

ألا عِمْ صَبَاحًا أيها الطللُ البالِي وهل يَعِمَنْ مَنْ كان فى العُصُرِ الخالى؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعرّفوا من نبئهما ، وتخبروا خبرهما « وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » ـ لم يقل (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس ـ « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الرَّوح ، بعد مضيّ المدة فى الشدة ، وسنته فى إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيّما فى حق من أحسن الظن به .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولانفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » أى : الشدة من الجدب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ » أى : بدراهم قليلة فى مقابلة ما نمتاره . استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك ، واستجلاباً لرأفته وحنانه . وأصل معنى (التزجية) : الدفع والرمى ، فكنوا به عن القليل الذى يدفع ، رغبة عنه ، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة ، كما توفره بالدراهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : بردّ أخينا ، أو بالإيفاء ، أو بالمساحة وقبول ما لا يعد عوضاً . « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن المثوبة .

تنبيهات

الأول ـ فى الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتمسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ، ببعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة ـ كما قدمنا ـ ومن ثم ، رقّ لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه ، كما يأتى ـ .

الثانى ـ يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث ـ استدل بعضهم بقوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) على أن أجرة الكيال على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع ـ استدل بقوله تعالى : (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء ـ كذا فى الإكليل ـ وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف. وسيأتى فى التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس ـ فى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) حثّ على الإحسان ، وإشارة إلى أن المحسِن يجزى أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسَن إليه .

ثم بيّن تعالى رأفة يوسف بتعرفه إليهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

« قَالَ » أى يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أى شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدرى من عصيت

وهل تعرف من خالفتَ ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى [١] : (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

لطائف :

الأولى ـ أبدى المهايميّ مناسبة بديعة في قول يوسف لهم : (هَلْ عَلِمْتُمْ) إثر قولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) أنه يعطيهم في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيويّ ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تنكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية ـ قيل : من تلطفه بهم قوله : (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) ، كالاعتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يُلْفُوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال [٢] : (فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغمّ والثكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الذليل للعزيز ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا » أي : استغراباً وتعجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَإِنَّكَ لَأَنْتَ

---

(١) [١٢ / يوسف / ١٥] . (٢) ٢٦ / الشعراء / ٢٠] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ » أي : الذى فعلتم به مافعلتم ، « وَهَٰذَا أَخِي » أي من أبوىّ .

قال أبو السعود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخيما لشأن أخيه ، وتكملة لما أفاده قوله : (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) حسبما يفيده قوله :

« قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منّ الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذله ، والأنس بعد الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلىّ بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أى ربه فى جميع أحواله ، « وَيَصْبِرْ » أي : على الضراء ، وعن المعاصى ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أىأجرهم . وفى وضع الظاهر موضع الضمير ، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر ، موصوفون بالإحسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى فضلك بما ذكرت من التقوى والصبر ، وسيرة المحسنين، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أى : وإن شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين الذنب ، لم نتق ولم نصبر ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوثرت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ، ولذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ لَا تَثْرِيبَ » أى : لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع ، « عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » أى : وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم ، ولا إثم عليكم ، إذ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حق لرضاى عنكم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى : فكأنه لا خطأ منكم . و (اليوم) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر فى (عليكم) من معنى الاستقرار،والمعنى : ولا أثرّبكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ؟ ! فتمييره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب فى غيره ، لأن من لم يثرب أول لقائه واشتعال ناره ، فَبَعْدَهُ بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى فى (الدرر) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليومَ يرحَمُنَا مَن كان يَغْبِطُنَا   واليوم نَتْبَعُ من كانوا لنا تَبَعَا

ثم زادهم تكريماً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) .

وقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى بالعفو والرحمة لهم ، وبيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق (اليوم) بـ (يغفر) . والجملة خبرية سيقت بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .

والوجه الأول أظهر . والثانى من الإغراب فى التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاءه عليهم ، ومصافاته لهم ، تعلمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفى له الودّ ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا ، فيسبغ الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته فى هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف ويورثنا السعادة الأخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ، ويوردنا مورد الثبور ، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

ثم قال لهم يوسف :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ » أراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلة من حلله التى كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليكون فى مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة فى تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمّه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم فى صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جوّد الكلام فى ذلك الحكيم داود الأنطاكىّ فى (تذكرته) فى مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفى (الكنوز) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازىّ عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ، ولولا الوحى ، لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب . فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

ولعل الرازىّ عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً ولا يخفى أن أسلوب التنزيل فى كناياته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغى التفطن له .

وقد جوز فى قوله : (يَأْتِ بَصِيرًا) أن يكون معناه يصير بصيراً ، أو يجىء إلىّ بصيراً ، على حقيقة الإتيان . فـ (بصيراً) حال قيل : ينصره قوله : (وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى ، لا يدل على اتحادهما فى المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبدع ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعا لهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بعثنى أمامكم لأحييكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقى خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنجاة عظيمة . وقد جعلنى سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلمّ إلى ، فتقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، هاهنا ، فقد بقى خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسرَّ بذلك فرعون وخاصته وأمره أيضاً بأن يؤكد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، لئلا يأسفوا على ما خلّفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدراهم مقداراً وافراً ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأصحبهم عجلات لأطفالهم ونسائهم ، وأوصاهم ألا يتخاصموا فى الطريق ـ والله أعلم ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ)

« وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف، وانتظاره لرَوْح الله : « إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» الريح : الرائحة ، توجد فى النسيم . أى : لأتنسم رائحته مقبلة إلىّ . كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله فى روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه ، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرْف السراء ، يدرى ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس فى نهاية الشدة زهر الفرَج ، ولا يحنث إن آلى أنه يجد من نسيمه أزكى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة فى كلامهم : وفى حديثٍ عند الطبرانىّ : ريح الولد من ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبـــذا ريحُ الوَلَدْ ريحُ الخُزَامَى فِى البَـــلَدْ

وقوله : (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) بمعنى إلا أنكم تفندون. أو لولاه لصدقتمونى . و(فنّده) نسبه إلى الفَنَد بفتحتين ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال فى (العناية) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جعل حجراً لقلة فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تعشقْ ولم تَدْرِ مَا الْهَوَى فكن حَجَرًا من يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضعّف رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)

« قَالُوا » أى حفدته ومن عنده : « تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » أى لفى ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ، إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ » أى المخبر بما يسرّه من أمر يوسف « أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ » أى : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسُه على وجهه، « فَارْتَدَّ بَصِيرًا » أى عاد بصيراً لما حدث فيه من السرور والانتعاش . « قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج وجوّز كون (إِنِّى أَعْلَمُ) كلاماً مبتدأ . والمقول (لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) إن كان الخطاب لبنيه . أو (إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) إن كان لحفدته ومن عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفدته ومن عنده لقولهم : (إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدهم بذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم، فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المهايمىّ : صرّحوا بالذنوب دون الله ، لمزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التى ربّى بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : فى هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة فى الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه أخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف فى السنة ، ومنه شرع الاستغفار فى السحر ، وعقب الصلوات ، وقضاء الحج. وكان الدعاء فى السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب للإجابة مما عداه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تخلوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على العَجَل التي بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر ـ وروى أنهم كانوا سبعين نفساً ـ وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلوها . ثم خرج يوسف في مركبته ، فتلقى أباه في (جاسان) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً . والمراد بدخولهم على يوسف وصولهم لملتقاه خارج البلد ، وبإيواء أبويه ضمهما إليه، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهي نفساء بأخيه بنيامين . وتنزيل الخالة منزلة الأم ، لكونها مثلها في زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله[1] (وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ » أي من القحط وأصناف المكاره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ، إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ، إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ » أي أجلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » أي سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له . وكان السجود عندهم للكبير يجري مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا » أي السجود « تَأْوِيلُ » أي تعبير « رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ » أي

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

التى رأيتها أيام الصبا ، وهى سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع فى الحسّ ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجانى من العبودية ، وجعل الملك مطيعاً لى مفوضاً إلىّ خزائن الأرض . وفى الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، ونخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر. وفيه إشارة إلى النعمة فى الانطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان فى حبس الرشيد :

وَمحلةٍ شمل المكارهُ أهلَها ... وتقلَّدوا مشنوءَةَ الأسماءِ
دارٌ يُهابُ بها اللئامُ وتُتَّقَى ... وتَقِلُّ فيها هيبةُ الكرماءِ
ويقول عِلْجٌ ما أرادَ ، ولا ترى ... حرًّا يقول برقة وحياءِ
ورقّ عن مسِّ الملاحة وجهُهُ ... فيصونه بالصمت والإغضاءِ

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا من الدنيا ونَحْنُ منَ أهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتَى
إِذَا جَاءَنا السجّان يوماً لحاجــةٍ ... عَجِبْنَا وقلنا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم . فقال علىّ بن الجهم :

قالوا : حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى ... حبسى . وأىُّ مهنَّدٍ لا يُغْمَدُ ؟
أَوَ مَا رأيتَ الليثَ يألفُ غابَهُ ... كِبْرًا وأوباشُ السِّبَاعِ تَرَدَّدُ
والبدرُ يُدْرِكُهُ المحاقُ فَتَنْجَلِي ... أيَّامُهُ وكأنه مُتَجَدِّدُ
ولكل حالٍ مُعْقِبٌ وَلَرُبَّمَا ... أَجْلَى لك المكروهُ عَمَّا تَحْمَدُ
والسجنُ ، ما لم تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ ... شَنْعَاء ، نعم المنزل المتورَّدُ
بيت يُجَدِّدُ للكريمِ كَرَامَةً ... فيزَار فيه ولا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

وأحسن ما قيل فى تسلية المسجونين قول البحترىّ :

أمـا فى رسول الله يوسفَ أسوةٌ   لمثلك محبوسًا على الجَوْر والإفكِ
أقامَ جميلَ الصَّبْرِ فى السجن برهةً   فآلَ بِهِ الصبرُ الجميلُ إلى المُـلْكِ

ـ نقله الثعالبىّ فى (اللطائف واليواقيت) ـ .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ » أى أفسد «الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى »أى بالحسد. وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه . وفيه تفادٍ عن تثريبهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعاً .

« إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ » بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأقضيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ)

« رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيما ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبير الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما وخالقهما، « أَنْتَ وَلِيِّى » أى مالك أمورى، فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ » أى من النبيين والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما أتم عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجـله قبضه على الإسلام ، وألحقه بالصالحين . فليس فيه تمنٍّ للموت ، وطلب التـوفى منجزا كما قيـل .

روى الإمام أحمد والشيخان [١] عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلعله يستعتب : ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لى وفى رواية : وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى .

تنبيهان

الأول ـ فى فقه هذه الآيات : قال بعض اليمانين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعظيم باللقاء ، وكذا يأتى مثله فى التشييع ، ومنه ما روى فى تشييع الضيف . ويستدل مما روى أن المراد بأمه خالته ـ كما مر ـ أن من نسب رجلا إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعهما على العرش ـ وهو السرير الرفيع ـ جواز اتخاذه ، ورفع الغير ، تعظيما للمرفوع . ويستدل من قوله : (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف المعاشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى لجرير [٢] :

أرض الحِراثةِ لو أتاها جَرْوَلٌ أعنِى الحُطَيْئَةَ لاغتدى حَرّاثا
ما جئتها من أى وجهٍ جئتَها إلا حسبتَ بيوتها أجْدَاثا

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣٠ ـ باب الدعاء بالموت والحياة ، حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم فى . ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعتنا) .

والإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) البيتان لأبى تمام ونصهما كما فى الديوان :

لم آتها من أىّ وجه جئتها الا حسبتُ بيوتها أجداثا
بلد الفلاحة لو أتاها جرول أعنى الحطيئةَ لاغتدى حراثا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطئه . ومطلعها :

قِفْ بالطول الدارسات عُلاثا أمستْ حبالُ قطينهن رِثاثا

انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

وفى الحديث [١] : (من بدا جفا) أى : من حل البادية . وفى آخر [٢] : (إنّ الجفا والقسوة فى الفدادين) . ففى هذا دليل على حسن النقلة من البوادى إلى المدن . ا هـ زيادة .

الثانى ـ قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدوم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمه وكلمه حصة ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجود أرض فى مصر ، وهى أرض رعمسيس ، أى عين شمس ، وملكها إياهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فمثلهم بين يدى فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه ـ كما أوصاهم يوسف ـ : نحن وآباؤنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتى . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا فى أرض مصر بجاسان ، فتملكوا فيها ، ونموا وكثروا جدًّا . وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفنى بمصر إذا مت ، بل احملنى منها إلى مدفن آبائى ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فانتعش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناى رزقنيهما الله هاهنا . فقال : أَدْنِهِمَا منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعالهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أرانى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسفَ بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائه فى المغارة التى فى حبرون ، وهى المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ).

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١٥ ـ باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديثٍ ونصه : ألا إن القسوة وغلظ القلوب .. الخ
وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ (طبعتنا) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، ولياة امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعزية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملاً بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون فى موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه فى المغارة ـ كما أوصى ـ ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التى كتبها الله لآبائهم . ثم توفى يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ، وجعلوه فى تابوت بمصر .

هذا ما قصه قدماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإنما لم يذكر هذا ، القرآنُ الكريمُ ، لأن القرآن لم يبنَ على قانون التاريخ ، فليس فيه شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هى الآيات والعبر ، تجلت فى سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما سيأتى الإشارة إليه فى قوله تعالى(١) : (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ) ، وقوله(٢) : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) . ومضى فى المقدمة بسط هذا البحث ، فراجعه . وسنذكر إن شاء الله فى آخر السورة شيئاً . من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ماسبق من نبأ يوسف ، البعيد درجةً

---

(١) [١٢/ يوسف/ ١١١] . (٢) [١١ /هود / ١٢٠] .

كماله فى جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والاتعاظ.

وقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل على كونه نبأً غيبيًّا ووحياً سماويًّا . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحى ، لأنك لم تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيهم فى البئر ، وهم يمكرون به، إذحثوه على الخروج معهم ، يبغون له الغوائل ، وبأبيهم فى استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهدهم حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد إجماعهم ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة، وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله تعالى (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) . والخطاب ـ وإن كان لرسول الله ﷺ ـ لكن المراد إلزام المكذبين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر لا يشك فيه المكذبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالكفار ، فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم. وفيه أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه . يعنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى . ومثله قوله تعالى(١) : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) . وقوله(٢) : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) انتهى .

وقوله تعالى :

---

(١) [٣/ آل عمران / ٤٤] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ »أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالغت فى إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسل ، لميلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . يعنى : قد وضح بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحجة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى[١] : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) .

قال الرازىّ : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبىّ عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تعنتاً ، فكان يُظَنُّ أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصرّوا على كفرهم ، قيل له : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى[٢] : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ » أى على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، يعنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة . يعنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمراشد القويمة ، وأنت لا تطلب فى تلاوته عليهم مالاً ، ولا جعلاً . فلو كانوا عقلاء لقبلوا، ولم يتمردوا .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨و٦٧ و ١٠٣و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و١٧٤ و ١٩٠] .
(٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

قال بعض اليمانين : فى الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

«وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أى : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة، فى السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفى الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحيـاء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها .

قال الرازىّ : يعنى أنه لا عجب إذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد، والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ، ولايلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لابد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهى إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام العنصرية . أما الأجرام الفلكية فهى قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم ، فلابد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام الكوكبية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها فى حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية: فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهى عجائب البر والبحر ، وإما من المواليد وهى أقسام :

أحدها ـ الآثار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح

وثانيها ـ المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .

ثالثها النبات وخاصية الخشب والورق والثمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص ، وخاصية مخصوصة .

ورابعها ـ اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .

وخامسها ـ تشريح أبدان الناس ، وتشريح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة فيها .

فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا على الأرض وخربوا البلاد، وقهروا العباد ، ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقي الوزر والعقاب .

ولما كان العقل البشري لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر في الكتاب العزيز مجملا . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أي : الناس ، أو أهل مكة، « بِاللهِ » أي في إقرارهم بوجوده وخالقيته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أي : بعبادتهم لغيره ، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا ، وبقولهم باتخاذه تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً .

تنبيه :

كما تدل الآية على النعي عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأفئدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفيّ ، الذى لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن فى هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رئاء الناس ، وهو مشرك بعمله . يعنى : الشرك فى العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى ـ ولكن لا يخلص له فى عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فلله من عمـله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . وهـذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبيّ ﷺ ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصـة . قال تعالى[1] : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) ، فمن لم يخلص لله فى عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شىء غير المأمور ، فلا يقبل منه .

وروى مسلم[2] وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه .

وروى الإمام أحمد[3] عن محمود بن لبيد ، رفعه إلى النبيّ ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ! .

ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بأن يحب مخلوقاً كما يحب الله . فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه[4] : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا . . .) الآية ـ وقال أصحاب هذا الشرك

---

(١) [٩٨ / البينة / ٥] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعتنا) . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

لآلهتهم ، وقد جمعتهم الجحيم[١] : (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه فى الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به فى الحب والتأله ، والخضوع لهم والتذلل. وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوّى من خلق من التراب ، برب الأرباب ؟ وكيف يسوّى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنىّ بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أقبح من هذا وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القيّم فى (الجواب الكافى)

قال الحافظ ابن كثير : وثمّ شرك خفىّ لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفة أنه دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وفى الحديث[٢] : من حلف بغير الله فقد أشرك ـ رواه الترمذىّ عن ابن عمر وحسّنه.

وفى الحديث الذى رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤] وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، وعندى عجوز ترقينى

(١) [٢٦ / الشعراء / ٩٧و٩٨] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ١٨ ـ كتاب النذور والأيمان ، ٩ ـ باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٦١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ١٧ ـ باب فى تعليق التمائم ، حديث رقم ٣٨٨٣ .

من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنق خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط؟ قالت : قلت : خيط رقى لي فيه! فأخذه فقطعه ، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتِّوَلَةَ شرك . قالت: قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تقرف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهوديّ يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كفّ عنها ، كان يكفيك أن تقولى كما قال النبيّ ﷺ: أذهبِ الباسْ ، ربّ النـاسْ ، اشف وأنت الشافى . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد (١) عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمـة فقط أشرك !

وأخرج أيضاً (٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردته الطِّـيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك .

وبهاذ كريعلم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجود مسمى الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذه من الشفعاء ، ومايعبده من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرياء مثلا ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفيّ . وعلى هذا ، فالشرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية فى الشريعة لله عز وجل ولرسوله ، فلهما أن يوقعا أى اسم شاءا على أى مسمى شاءا . فكما أن الإيمان فى اللغة التصديق ، ثم أوقعه الله عز وجل فى الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصى ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبيّ). والحديث رقم ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شىء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك فى عبادته تعالى ، وفى خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الإلهٰية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، ولا موتا ولاحياة ولا نشوراً، فضلًا عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذ العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنىّ بالذات . ومن خصائص الإلهية الـكمال المطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تـكون العبادة كلها له وحـــــده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلًا وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . ويمنع عقلًا وشرعاً وفطرةً أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير، بمن لا شبيه له ، ولا ندّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عبـاده أنه لا يغفره . مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التى قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هـــذا تمام العبودية . وتفاوتُ منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال أن تأتى به شريعة من الشرائع ، وقبحُه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولـكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسنى . إذا عرف هــذا فمن خصائص الإلهٰية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيما وإجلالا . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . وأما فى جانب التشبه به ، فمن تعاظم وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه فى المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفا ، ورجاء ، والتجاء ، واستعانة ، فقد تشبه به ، ونازعه فى ربوبيته والهيته ، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل .

وفى الصحيح [(١)] عنه ﷺ قال : يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفى الصحيح [(٢)] عنه صلى الله عليه وسلم . أغيظ رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا مَلِكَ إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه فى الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتتمة هذا البحث فى (الجواب الكافى) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١١٤ ـ باب أبغض الأسماء إلى الله ، حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقمى ٢٠ و ٢١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٧] (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ » أى: عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى : بإتيانها . وهذا كقوله تعالى(١) : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) وقوله(٢) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيلى ، أى طريقى ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّثان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفته بصفات كماله ، و نعوت جلاله « عَلَىٰ بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عمياء . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللهِ » أى : وأنزهه

(٦) [١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧] . (٢)[٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩] .

وأجله وأقدسه عن أن يكون له شريك أو ندّ أو كفء أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : على دينهم .

تنبيهات :

الأول ـ قال السمين (أَدْعُو إِلَى اللهِ) يجوز أن يكون مستأنفا ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالا من الياء . و (على بصيرة) حال من فاعل (أَدْعُو) . أى : أدعو كائنا على بصيرة. وقوله : (وَمَنِ اتَّبَعَنِى) عطف على فاعل (أَدْعُو) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : ومن اتبعنى يدعو أيضاً . ويجوز أن يكون (عَلَى بَصِيرَةٍ) خبراً مقدما، و (أَنَا)مبتدأ مؤخراً ، و (مَنِ اتَّبَعَنِى) عطف عليه ومفعول (أَدْعُو) إما منوىّ ،أى الناس ، أو منسىّ .

الثانى ـ دل قوله تعالى (عَلَى بَصِيرَةٍ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ـ انظر (رسالة التوحيد) فى تتمة ذلك ـ .

الثالث ـ دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازىّ : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله. وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى .

ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والعقاب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها. ويزيد بياناً للأمور التى يعلم أنهم ملابسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شىء من العلم، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملا ، فلا ينبغى للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيعمّ الهلاك ، ويعظم البلاء . وقلما تختبر عامياً ـ وأكثر الناس عامة ـ إلا وجدته جاهلا بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التى لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشىء منها ، وإن لم يوجد جاهلا بالكل ، وجد جاهلا بالبعض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علما مسموعاً من ألسنة الناس ، لو أردت أن تقلبه له جهلا فعلت ذلك بأيسر مؤونة، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويبثوه لهم ، ويكون كلام العالم معهم فى بيان الأمر الذى جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمعاشرة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه فى صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الغش والخداع وهكذا . ولا ينبغى للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته فى غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويعم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » أى لا ملائكة

من أهل السماء. ردّ لقول المشركين[١] :(لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً). وهذا كقوله[٢] تعـالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) . وقوله[٣] : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) وقوله[٤] : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) الآية .

واحتج بقوله تعالى : (إِلَّا رِجَالًا) على أنه لم ينتظم في سلك النبوّة امرأة .

والقرى : جمع قرية ، وهى على ما فى (القاموس) : المصر الجامع . وفى (كفاية المتحفظ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قرارًا ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لا أنهم من أهل البوادى الذين هم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعهود المعروف : أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالًا من الذين يسكنون فى البوادى . ولهذا قال تعالى[٥] : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور .

وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذّبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذّبة . كقوله تعالى[٦] : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا . . .) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ، ولهذا قال تعـالى : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه .

---

(١) [٤١ / فصلت / ١٤] . (٢) [٢٥ / الفرقان/ ٢٠] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٨]
(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٥) [٩ / التوبة / ٩٧] . (٦) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

قال ابن كثير : أى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى (١) : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فتعلموا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أولئك .

ثم بيّن تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتيهم إذا تمادى تكذيبهم ، تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاةوالسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَظَنُّوا » أى : علموا وتيقنوا. يعنى: الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» يقرأ (كُذِّبُوا) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم. ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى (ظَنُّوا) ـ على ما اختاروه ـ للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ماوعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرا ، وتلا قوله تعالى (٢) : (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ)وقد استشكلوه على ابن‌عباس ، وتأوّلوا لكلامه وجوهاً :

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الزمخشرىّ : أراد بالظن ما يخطر بالبال ، ويهجس فى القلب ، من شبه الوسوسة ، وحديث النفس ، على ما عليه البشرية . انتهى .

وقيل : المراد بظنهم عليهم السلام ذلك ، المبالغة فى التراخى والإمهال ، على طريق الاستعارة التمثيلية ، بأن شبه المبالغة فى التراخى بظن الكذب ، باعتبار استلزام كل منهما، لعدم ترتب المطلوب ، فاستعمل ما لأحدها للآخر .

وقال الخطابىّ : لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكْذَبُ بالوحى ، ولا تشك فى صدق المخبر ، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم ، لطول البلاء عليهم ، وإبطاء النصر، وشدة استنجاز ما وعدوا به ـ توهموا أن الذى جاءهم من الوحى كان حسباناً من أنفسهم ، وظنوا عليها الغلط فى تلقى ما ورد عليهم من ذلك ، فيكون الذى بنى له الفعل أنفسهم ، لا الآتى بالوحى . والمراد بـ (الكذب) : الغلط ، لا حقيقة الكذب ، كما يقول القائل : كذبتك نفسك .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده قراءة مجاهد (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا) بفتح أوله مع التخفيف أى : غلطوا . ويكون فاعل (وظنوا) الرسل .

وقال أبو نصر القشيرىّ : ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل، فصرفوه عن أنفسهم. أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل ، إذا قربت منه .

وقال الترمذىّ الحكيم : وجهه: أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر، أن يتخلف النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثا ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال ، واشتد البلاء عليهم ، دخلهم الظن من هذه الجهة .

وحكى الواحدىّ عن ابن الأنبارىّ أنه قال : ما روى عن ابن عباس غير معوّل عليه ، وأنه ليس من كلامه ، بل تُؤُوِّل عليه .

قال ابن حجر : وعجبٌ لابن الأنباريّ فى جزمه بأنه لا يصح ثم للزمخشرى فى توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أى : فرواه البخاريّ(١) فى تفسير البقرة بلفظ: ذَهَبَ بها هناك ، وأشار إلى السماء ، وزاد الإسماعيليّ عنه : كانوا بشراً ضعفوا وأيسوا وظنوا أنهم قد كذبوا .

وروى البخاريّ(٢) أن عائشة كانت تقرأ (كذّبوا) مشددة ، وتتأوّلها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها (كذبوا) مخففة ، فقالت : معاذ الله !

قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر فى أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه فى ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القرّاء : عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائىّ . ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر بن القعقاع ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى عبد الرحمن السلمىّ والحسن البصرىّ ومحمد بن كعب القرظىّ فى آخرين .

وقوله تعالى : « فَنُجِّىَ مَنْ نَّشَاءُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ (فننجى) بالتخفيف والتشديد . وقرئ (فنجا) .

« وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا » أى عذابنا . « عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أى : إذا نزل بهم . وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٨ ـ باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣٨ ـ باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء وأممهم . ورجّح الزمخشرىّ الثانى بقراءة (قِصصهم) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مرّ فى (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) . وسنذكر وجوه العبر منها بعونه تعالى .

« مَا كَانَ » أى : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ » أى : يختلق . « وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » أى : من الكتب المنزلة ، فهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفى ماوقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .

قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهى وإن اختلفت قليلاً فى بعض التفاصيل والجزئيات ، عما يرويه الناس ، إلا أنها توافقها فى الجملة ، وتصدقها فى الجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن النبىّ اخترعها بعقله ، بل اسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم ، ومروية فى كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدقه ويؤيده ، لأن النبىّ صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل فى شىء ما ، كلا ! إذ لو صح

(١) [١٢ / يوسف / ٤٤] .

هذا لما قال تعالى (١) : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله. فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم فى الجملة ، ومخالفته لها فى بعض الجزئيات ـ كما قلنا ـ ويجوز أن يكون المراد بقوله: « تصديق الذى بين يديه » تصديق الحق الذى عندهم ، لا كلّ الذى عندهم ، وإلا لدخل فى ذلك عقائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها ، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه ، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » أى . تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، ووجوه العبر والعظات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغىّ إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتبتغى به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهُدًى » أى : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أى : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون به ، ويعملون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعَقْدٌ وعمل . وخصهم لأنهم المنتفعون به .

خاتمة فى مباحث مهمة

الأول ـ فيما قيل فى وجوه العبر فى هذا القصص .

قال فى (اللباب) : الاعتبار والعبرة : الحالة التى يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكر . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إخراج يوسف من الجبّ بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٧٦] .

وقال بعضهم : إن قصة يوسف الصديق ، جمة الفائدة ؛ وجليلة العائدة ، تحدو بكل امرئ أبىّ إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوَامَ الفكر فى حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغيدة ، وألفاها هنيئة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحميد سريرته ، وتمسكه بعرى التقوى والفضيلة ، ولاسيّما فضيلة العفة والطهارة ، التى ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فعلى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتسنم ذروة المجد فى هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة فى الآخرة . انتهى .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبىّ ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه التثبت المشار إليه فى قوله تعالى(١) : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ . . .) الآية . وإنما أفردت على حدتها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم فى سورة واحدة ، لمفارقة مضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فحاصلها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنيه وبصره ، وشتات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجبّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضرّ ، وقلة ذات اليد(٢) (مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ...) الآية . ثم تداركهم الله بالفهم ، وجمع شملهم ، وردّ بصر أبيهم ، وائتلاف قلوبهم ، ورفع ما نزغ به الشيطان . وخلاص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة ، وبراءته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجلالة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالى الامتحان ، وطول المدة . ثم انجرّ فى أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وشهادتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من النزاهة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [١١ / هود / ١٢٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٨٨] .

ما أنجرّ فى هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ماذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، وماجرى فى أممهم ، فلهذا فصلت عنهم. وقد أشار فى سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما فى طىّ ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة فى قوله[(١)] تعالى:(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ...) إلى قوله : (أَمْنًا) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجملتها أشبه شيء بحال المؤمنين فى مكابدتهم فى أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم[(٢)] : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص ـ والله أعلم ـ .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، فى صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر فى الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام فى مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوّه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلمته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمّل ذلك ! ويوضحه ختم السورة بقوله : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . .) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه ـ كذا فى تفسير البرهان للبقاعىّ ملخصاً ـ .

وجاء فى كتاب(النظام والإسلام) فى بحث التربية والآداب فى قصص القرآن ما مثاله:

طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما فى غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء فى مهام الأعمال . يا ليت شعرى ! ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنهـا أمور تاريخية لا تفيد إلا

(١) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٣] .

المؤرخين . القصص فى كل أمة ، عليها مدار ارتقائها ، سواء كانت وضعية أم حقيقية ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب (كليلة ودمنة) ، وما والاه من القصص الناسجة على منواله فى الإسلام، ككتاب (فاكهة الخلفاء) ، و (مقامات الحريرىّ) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهى ـ لا جرم ـ أعلى منالًا ، وأشرف مزية . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقدوة الحسنة للكمّل الخاصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها فى أنفسها، لوقوع مواردها ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة فى الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت فى سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان، ومرت كأمس الدابر؟! ومالنا ولها إذن ؟ ! تالله إن هذا لهو البوار ! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون فى كتبهم ، وماسطره الأقدمون على مباينتهم، وما يقوله القاصّون فى خرافتهم ، فتلك سبيل حائد عن الجادّة ، يضلّ فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول [1] : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . فانظر كيف أسند العلم لله، ولم يعوّل على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبيّن الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن فى التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة؛ وإن قال : أربعة، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف فى القصص، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها ، والعبر المبصرة للسامعين (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتمد إلا على البرهان . تأمّل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معوّل عليها . فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة ، ومحاورات جميلة تلذّ العقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن يوسف الصدّيق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدنية المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمرة . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له فى الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يختبرون أبناءهم ، ويتأمّلون ملامحهم ، ليعرفوا ما استعدوا له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمّل فى قصة الإخوة ، وحديث القميص والجبّ والذئب والدم ، لتعلم ما نشاهده كلّ يوم من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسىّ ، والخلق المرضىّ ، والجلال الظاهر على ملامحه. فيعيبونه بما يشينه فى نفسه أو عرضه أو خلقه، دلالة على أن هذه سنّة فى الكون لا تغادر نبيًّا ، ولا حكيماً ، ولا عالمًا مهما حسنت أخلاقه، وجمل ظاهره وباطنه . . !

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها   إلّا عداوة مَن عاداك من حسد

جرت تلك السنّة فى الأناسىّ : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبّوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر فى حديث قصة امرأة العزيز، وكيف عفّ مع الشباب، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه فى الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، واتّسم بالفضيلة ، فتوازى جماله الباطنىّ والظاهرىّ . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع فى الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والعفو والصفح ، التى تضمّنتها تلك القصّة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل فى كلام الحكماء ـ أولهم وآخرهم ـ

تجد إجماعهم على أنّ سياسة أخلاق النفس أوّلًا فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحقتها ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر إدارة منزله !

بايع الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ الخليفة الأول ، فأخذ قماشاً وذراعاً وذهب إلى السوق فى الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضعت أهلى ، فأنا للمسلمين أضيعُ ! ففرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر فى شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين ـ إذا وَلّوا رجلًا إدارة بلادهم ـ أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبىّ يوسف الصدّيق كيف ذكرت فى الكتب السماوية ، ورتبت فى القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبيهاً لبنى الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة فى عنفوان الشباب مع الصديق . وليت شعرى ! كيف حَفظَ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء فى وسط مدنية المصريين وزخرفهم وجمالهم ، وعَبَدَ اللهَ وحده ، ونسى ما يراه من أبى الهول وأبيس والأرباب المتفرقة .. ؟ ! يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كلّ جانب ، أن يحافظوا على أصول دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون فى أمور دنياهم . . !

ظهر صدق يوسف فى أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ، فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كلّ جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل أهل منزله ، وبثّ عقيدته بينهم ، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم(١) : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ...) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] .

لمذهبهم ، وبغضه لأصنام المصريين ، ونحوهم ، فقـــال[١] : (إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ . . .) الآية . ثم أخذ يذكّرهم أنّ تفرّق وجهة الأمة ضلال فى السياسة، وأنّ توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال[٢] : (يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تَسُدْ أمة فى الوجود إلّا برجالٍ يوحّدون وجهتها أيًّا كانت فيؤمّون مقصداً واحداً ! والتفصيل لا يخفى على أولى الألباب . . !

وفى (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابى اثنتا عشرة جامعة بكلٍّ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق ، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر . ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تمّ له ، عليه السلام ، الأمران ـ سياسة النفس والمشيرة ـ أخرج من السجن معظماً مبجلًا وترقى من تعليم الصعلوك فى السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يريهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبّر لهم السنبلات الخضر واليابسات والبقرات السمان والعجاف ، وأرشدهم إلى خزن البرّ وسنابله لئلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هى المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكياسة فى علوم العمران ، وتدبير أمر الأمة ، إمّا بوحىٍ وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإمّا بتعليمٍ وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحقير والعظيم والصغير والكبير ، وأن الإنسان لا يستحقر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكابر ، كما فى حديث[٣] هرقل مع أبى سفيان ، وتعليم الصدّيق من فى السجن . فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب الوحى ، ٦ ـ باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبى سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبيّ بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال فى سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة فى ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التى تتغير بها الأخلاق، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص!

وهذه قصة يوسف ـ الذى تربى فى مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة ـ جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعتلى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً! ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصّا بالآخرة، بل فى الدارين[١] : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

هذه هى الأخلاق الفاضلة ، ذكرت فى التنزيل نموذجاً، فى غضون هذه السيرة، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيّعوا الزمن فى أصلها وموردها فى التاريخ كما يجمد المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر فى أولها[٢] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسّكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصغ إلى ما فى هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أشرنا سابقا ، ولنزدك بياناً !

قال علماء الأخلاق والحكماء : لا ينتظم أمر الأمة إلّا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق معهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيًّا فله أربعون خصلة ذكروها. كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيساً فاضلا

---

(١) [١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء فى سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدًى لاختيار الأكفاء فى مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هى أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر فى القرآن ، وتنبيهاً للمتعلمين ـ العاشقين للفضائل ـ على نفائس الكتاب العظيم ، وحبًّا فى نظرهم فى القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت مالم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغنّى به ومجرّد اللهو واللعب .!

أهم ما شرطه الحكماء فى رئيس المدينة الفاضلة :

١ ـ العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(١) .

٢ ـ الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)(٢).

٣ـ وضع اللّين فى موضعه، والشدّة فى موضعها(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)(٣) ، والصدر للين والعجز للشدة .

٤ ـ ثقته بنفسه (اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)(٤) .

٥ ـ قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)(٥) .

(١) [١٢ / يوسف / ٢٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٧] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٥٩و٦٠] . (٤) [١٢ / يوسف / ٥٥] .
(٥) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

٦ — جودة المصوِّرة والقوة المخيِّلة حتى تأتى بالأشياء تامة الوضوح (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)(١) .

٧ — استعداده للعلم ، وحبّه له، وتمكّنه منه (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)(٢) ، (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)(٣)،(رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)(٤) .

٨ — شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه . فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ...)(٥) الآية ، وحادثهما فى أمور دينهما ودنياها ، فالأول بقوله : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ)(٦) ، والثانى بقوله : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ...)(٧) الآية،وشهدا له بقولهما: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)(٨) .

٩ — العفو مع القدرة (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)(٩) .

١٠ — إكرام العشيرة (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)(١٠) .

١١ — قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعى

(١) [١٢ / يوسف / ٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٨] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٢٢]. (٤) [١٢ / يوسف / ١٠١] .
(٥) [١٢ / يوسف / ٣٩] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٧] .
(٧) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٨) [١٢ / يوسف / ٣٦] .
(٩) [١٢ / يوسف / ٩٢] . (١٠) [١٢ / يوسف / ٩٣] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)(١) .

١٣ ـ حسن التدبير (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ...)(٢) الآية .

ثم تأمل فى اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ...)(٣) الآية ، ودبر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ . . . .)(٤) الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)(٥) الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)(٦) ، امتدح على حسن خطته فى السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه ـ وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر ـ فهى أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء !

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شعرى كيف يقول الله بعدها (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)(٧) ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

(١) [١٢ / يوسف / ٥٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٧] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٦٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٧٦] .
(٥) [١٢ / يوسف / ٧٤] . (٦) [١٢ / يوسف / ٧٦] .
(٧) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وضوحها وبساطتها لذوى النظر السطحى والبُلْه الغُفَّل ، ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته . !

ومن العجيب الغريب تدبير هـذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)(١) . وهذه : ـ وايم الله ـ هى بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف فى الأمور الخفية ، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولا للبيوت من أبوابها ؛ ولـكن بينهم وبين هذا النبى بون بعيد . . . ! فانظر كيف تعطى هذه القصة هـذه الأمور العجيبة !

لعمرى ! إن من طالع ما أمليناه بإمعان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والغابرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحـكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحـكمة والوعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله فى أول السورة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)(٢) ، ويقول فى آخرها : (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)(٣) ويقول : (: قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٤) ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغى له أن ييأس من روح الله فقال : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ . . .)(٥) الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص وثمراتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ . . .)(٦) الآية . وهذه ترشدك ـ إن كنت من ذوى الهمة العالية ـ أن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .
(٣) [١٢ / يوسف / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠٨] .
(٥) [١٢ / يوسف / ١١٠] . (٦) [١٢ / يوسف / ١١١] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمدا طويلا ، ولا تعجل بالرآسة حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنال حظًّا وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف ونفع الأمة مع دوام المثابرة على العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذاالنبيّ عليه السلام أياما وأياما ، ولبس للحوادث أثوابا وأثوابا ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون ، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارئ : سبحان من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها ! فقبُح الجهل . ! يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر فى السموات والأرض فيعرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا فى السموات والأرض ممـا ذرأ المبدع فى الكون ، وتلا القرآن ـ وهو كلام مبدع الكون ـ وتلطف فى تصوير المعانى ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلا عن العامة ! فما للعامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبيّنون ؟ وما للناس لا يكادون يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاطاً لهمم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفطن وعقول راجحة ـ على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب فى هذه القصص فأعرض ! وجلىّ أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفى كل واحدة منها ما ليس فى الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظهاوهم عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء فى شجرة الحنظل مرًّا . فيقصدها هذا للنغمات، وذلك لقصة بسيطة ، وآخر تسلية وتضييعاً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها ،

ولكن هذا أرقى مما قبله ـ فقد سار فى الطريق وهى الألفاظ ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحثَ فيه ! وآخرون يسممون الآيات فيمرضونها على التاريخ ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا . وما مثل هؤلاء فى سيرهم إلا كمثل رجل أوتى آلة بخارية ليسق بها الحرث من النهر ، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر : من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء ؟ وإلى أى مسافة يرتفع ، وماالعلة فيه، ومن أين يأتى الفحم الحجرىّ ، وفى أى الطرق يسير إلى أن يصل إلينا ؟ . فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه . ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب ! اللهم إلا قدرا يسيراً للفهم ! وهذا ـ لعمر الله ـ انتكاس على الرأس ، واتخاذ الوسيلة مقصدا ، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين فاختطفته المنون وفارق الحياة ولم يحج ! ذلك مثلهم . !! انتهى .

المبحث الثانى

احتج من جوز المعصية على الأنبياء ـ وهم الكرّاميّة والباقلانىّ ـ بما جرى من إخوة يوسف وبيعهم أخاهم وكذبهم لأبيهم ، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيحاشه أباه .

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله فى (الملل والنحل) :

ما احتجوا به لا حجة فيه : لأن إخوة يوسف ، عليه السلام ، لم يكونوا أنبياء ؛ ولا جاء قط ـ فى أنهم أنبياء ـ نصٌّ لا من قرآن ، ولا من سنة صحيحة ، ولا من إجماع ، ولا من قول أحد من الصحابة رضى الله عنهم ! فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن، قال عزوجل[1]: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ

(١) [٤٠ / غافر / ٣٤] .

بِهِ . . إلى قوله ـ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن المظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولين ـ أباهم وأخاهم ـ قد استغفرا لهم وأسقطا التثريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا ـ من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء ـ قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيهم أنه قال لهم : (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا)[1] ولا يجوز البتة أن يقوله لنبيّ من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ! ؛ إذ توقير الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًّا مكاناً ! وقد عقّ ابن نوح أباه بأكثر مما عقّ به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحلّ لمسلم أن يُدخل فى الأنبياء مَنْ لم يأت نصّ ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوّته ! ولا فرق بين التصديق بنبوّة من ليس نبيًّا ، وبين التكذيب بنبوّة من صحّت نبوّته منهم ! فإن ذكروا فى ذلك ماروى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : (إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبيّ بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء !) فهذه غفلة شديدة وزلّة عالمٍ ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دليل على صحتها !

وثانيها ـ أنه لو كان ماذكر لأمكن أن ينبأ إبراهيم فى المهد كما نُبِّئَ عيسى عليه السلام ، وكما أوتى يحيى الحكم صبيًّا ؛ فعلى هذا القول لعلّ إبراهيم كان نبيًّا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا ..!

وثالثها : أن ولد نوح كان كافراً بنصّ القرآن : عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا ، وحاشا لله من هذا ..!

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بدّ أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكلّ من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

أباهم نبيّ ، وأولاد أولادهم أنبياء أيضاً لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . .. أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفى هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجة وثبت عليه ـ مالا خفاء به.
وبالله تعالى التوفيق . . . !

ثم قال ابن حزم .

وذكروا ـ يعنى الكرّامية ومن وافقهم ـ أيضاً أَخْذَ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيحاشَه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدّة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقاسى به من الوجد عليه، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلّا عشر ليال ! وبإدخاله صواع الملك فى وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف[1] (أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى[2] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) ؛ وبخدمته لفرعون ، وبقوله للذى كان معه فى السجن[3] (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم فى شيء منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه أخاه وإيحاشه أباه منه فلا شك فى أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم فى مملكة أخرى، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذى أوتى العلم والمعرفة بالتأويل ـ إلّا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نصّ بخلاف ما ذكرنا. ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؛ وأما ظنّهم ـ أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل ـ فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب فى أرض كنعان من عمل فلسطين ، فى قومٍ رحّالين خصاصين فى لسان

(١) [١٢ / يوسف / ٧٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بعد فراقه أباه بما فعل ، ولا حيٌّ هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينبئهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذى ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأميرٍ واحد وملّة واحدة ، ولسانا واحدا وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والرفاق سائرة ومقبلة ، والبُرُد ناهضة وراجعة ، فظنّ كلّ بيضاء شحمة[1] ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك ، ولكن كما قدمنا! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه، وانقيادهم له للجوع الذى كان عمّ الأرض ، وامتيازهم عنده ، فانتظر وعد ربّه تعالى الذى وعده حين ألقوه فى الجبّ فأتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى فى رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذى كان قد أدخله فى وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال[2] : (نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) وهو فى ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقية وفى حقٍّ لاستنقاذ الله تعالى بحسن تدبيره ، ولعل الملك أو بعض خواصّه قد آمن به إلّا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مرية فى أن ذلك كان مباحًا فى شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى[3] : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً فى شريعتهما بل كان فعلًا حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى. ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل (ما كلّ بيضاء شحمةً ، ولا كل سوداء تمرةً) انظر : أمثال الميدانى ، بالصفحة ١٥٦ من الجزء الثانى (المطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ)

(٢) [١٢ / يوسف / ٧٢] . [٥ / المائدة / ٤٨] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلّا أن الذى لا شك فيه أنه لم يكن سجود عبادة ولا تذلل وإنما كان سجود كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذى كان معه فى السجن[١] (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) فما علمنا الرغبة فى الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس فى قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عزّ وجلّ . لكنه رغّب هذا الذى كان معه فى السجن فى فعل الخير وحضّه عليه ! وهذا فرضٌ من وجهين : أحدهما وجوب السعى فى كفّ الظلم عنه ، والثانى : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى[٢] (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) فالضمير الذى فى (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذى كان معه فى السجن ، أى : أن الشيطان أنساه أن يُذَكِّرَ ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجلّ لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عزّ وجلّ[٣] (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) فصحّ يقيناً أن الذّكّر بعد أمة هو الذى أنساه الشيطان ذكر ربّه حتى تذكّر . وحتى لو صحّ أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان فى ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء ! وأما قوله[٤] (هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فليس كما ظنّ من لم يمعن النظر حتى قال من المتأخرين من قال: (إنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة) ومعاذ الله من هذا أن يظنّ برجل من صالحى المسلمين أو مستوريهم! فكيف برسول الله ﷺ !! فإن قيل : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة فى قول أحدٍ إلّا فيما صحّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم فى تلك الرواية إنما هى بلا شك عمّن دون ابن عباس ، أو لعلّ ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذْ إنّما أخذه عمن لا يدرى من هو ، ولاشك فى أنه شيء سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يعدو أحد وجهين : إمّا أنه همّ بالإيقاع بها وضربها :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٢] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٢] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٤) [٢٢ / يوسف / ٢٤] .

كما قال تعالى[١] (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وكما يقول القائل: لقد هممت بك، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها. وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ماظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قدّ القميص .والوجه الثانى : أن الكلام تمّ عند قوله (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوّة وعصمة الله عزّ وجلّ إياه . ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة ، وهذا لاشك فيه ! ولعلّ من ينسب هذا إلى النبيّ المقدس يوسف، ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك. وقد خشى النبيّ ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأنصاريين حين لقيهما: هذه صفية[٢] ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همّ بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى[٣] (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ)! فنسأل من خالفنا عن الهمّ بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلابدّ أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاندَ الإجماع . فإذ هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهمّ بيقين ! وأيضاً فإنها قالت[٤] (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق[٥] (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فصحّ أنها كذبت بنص القرآن ، وإذ كذبت بنصّ القرآن فما أراد بها قط سوءًا ، فما همّ بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بيِّن جدًّا ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال[٦] (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) فصح عنه أنه قط لم يصبُ إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنما نقلت كلامه برمّته لأنه كما قيل :

(وما محاسن شيء كلّه حسن .. !!)

(١) [٤٠ / غافر / ٥]. (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣٣ ـ كتاب الاعتكاف ، ٨ ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث ١٠٣١. (٣) [١٢/يوسف/٢٤]. (٤) [١٢/يوسف/٣٥] . (٥) [١٢/يوسف/٢٦]. (٦) [١٢/يوسف/٣٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

١٣ ـ سورة الرعد

سميّت به لما فيها من قوله عز وجلّ[١] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الدالّ على الصفات السلبية والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن ـ قاله المهايميّ .

وللسلف رأيان في أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنيـة إلّا قوله[٢] (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . ويقال : من أوّلها إلى آخر[٣] (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً) مدنيّ وباقيها مكيّ . والله أعلم .

وآيها ثلاث وأربعون .

(١) [الرعد / ١٣] . (٢) [الرعد / ٣١] . (٣) [الرعد / ٣١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓر ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السعود : « الٓمٓر » اسم للسورة ، ومحله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى ، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فـ (تلك) مبتدأ كما إذا جعل (المر) مسروداً على نمط التعديد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « ءَايَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب العجيب الكامل الغنىّ عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذٍ . وقوله تعالى « وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكماله « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنىّ للمفعول ، والتعرّض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزّل التابعة لشأن جلالة المنزِل وتشريف المنزّل إليه ، والإيماء إلى وجه الخبر ـ ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

فى (الَّذِى أُنْزِلَ) وجهان : أحدهما هو فى موضع رفع ، و (الْحَقُّ) خبره ، أو الخبر (مِنْ رَبِّكَ) و (الْحَقُّ) خبرُ محذوفٍ ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما محله الجر بالعطف على (الْكِتَابِ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو فى الصفة ، و(الْحَقُّ) خبرُ محذوفٍ ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو فى الصفات. وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق، أى الجمع والاتصال. لأنها كما تجمع المعطوف بالمعطوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة، وتفيد أنّ اتصافه به أمر ثابت. وقوله تعالى «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى[1] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بقدرته رفع السموات ، أى خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أى أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إمّا استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : * أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ ترانى * أو صفة لـ (عَمَدٍ) جىء بها إيهاماً؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجّح ابن كثير

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى[١] (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والأكمل أيضاً فى القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره فى سورة الأعراف ، وأنه يُمَرُّ كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ذللهما لما أراد منهما من نفع العالم السفلىّ . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » أى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى[٢] (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى[٣] (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)[٤] والاقتصار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها فى قوله تعالى[٥] (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى : أمر العالم العلوىّ والسفلىّ ويصرّفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن عن شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » يعنى: الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعوته الجليلة . أى يبيّنها فى كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » أى : لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبّر والمفصل ، لا بدّ لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

---

(١) [٢٢ / الحج/ ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٣٨] (٣) [٨١ / التكوير / ١] .
(٤) [٨٢ / الانفطار / ٢] . (٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

لطائف

الأولى ـ جُوِّزَ فى قوله تعالى (اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) . ورجّح فى (الكشف) الأول ، بأن قوله الآتى[1] (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات. وفى المقابل الخبرية متعينة ، فكذا هذا ليتوافقا . والجملة مقررة لقوله[2] (وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جعله وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبرا مفصلا ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) . فالمعنى أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية ـ قال القاضى : قوله تعالى (رَفَعَ السَّمٰوَاتِ ... الخ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها فى حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لابدّ وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسمانى ، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة ـ (يدبِّر) و (يفصِّل) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنفان . أو الأول حال من ضمير (سخّر) والثانى من ضمير (يدبِّر) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة .

ولما قرر الشواهد العلوية ، أردفها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته . فقال تعالى:

---

(١) [١٣ / الرعد / ٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متسعة ممتدّة فى الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطيح الأرض وأنها غير كريّة بالفعل . وأن من أثبته أراد به أنه مقتضى طبعها وردّ بأنه ثبت كريّتها بأدلّةٍ عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطرٍ منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كريّتها إلّا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَاراً » متفجرة منها ، وذلك لتكثير النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبستانىّ والجبلىّ ...

قال المهايمىّ : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضارّ متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى : يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ! فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالآخر الربيع « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى : فى مدّ الأرض وما بعده « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى لآيات باهرة لقوم يتفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بدّ له من قادرٍ حكيم ! أو يتفكرون فيعلمون أن تكثير النعم لجلب محبة المنعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبّر ذلك لمعايشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

لطائف :

الأولى ـ قال الرازىّ : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض. وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة. ثم إنها لكثرتها وقوّتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فمنفعة الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . فى أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله(1) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ .

الثانية ـ أشار الرازىّ إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولًا من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة ـ فى قوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً ـ بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول ـ فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشى . وعدّ هذا فى تضاعيف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً ـ باعتبار أن ظهوره فى الأرض ـ

(1) [٧٧ / المرسلات / ٢٧] .

فإن الليل إنما هو ظلها . وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلًا . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .

وقرئ (يغشّى) من التغشية ـ أفاده أبو السعود .

ثم بيّن تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أي : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيّبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادرٍ مدبرٍ مريد حكيمٍ في صنعه « وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهي نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفي (القاموس) النخلتان ، فما زاد في الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو . ويضم أو عامّ في جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر في الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتيّة والفوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أي : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » فتتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحبّ . والمجرور إما ظرف لـ (نفضل) أو حال من بعضها ، أي : نفضل بعضها مأكولاً ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أي : الذي فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن مَنْ قَدَر على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها حدائق ذات بهجة ـ قادرٌ على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون في القياس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

«وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» خطاب للنبى ﷺ ، أى : إن تعجب من شىء فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما عدّد من الآيات العجيبة التى تدل على قدرةٍ يصغر عندها كل عظيم ـ أيقن بأن مَنْ قدر على إنشائها ولم يعى بخلقها ، كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره . فـكان إنـكارهم أعجوبة من الأعاجيب . وجوز أن يكون خطـاباً لـكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا مَنْ نظر فى هذه الآيات ، وعلم قدرة مَن هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر ، مع هذا ، قدرته على البعث ، وهو أهون من هذه !

قال أبو السعود : والأنسب بقوله(1) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) هو الأول و (عجب) خبر قدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً .

وقوله تعالى « أُولَٰئِكَ » أى المنكرون لقدرته على البعث « الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ » أى : تمادوا فى الـكفر ؛ فإن من أنـكر قدرته تعالى فقد أنـكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ، وفيه تـكذيب لخبره ولرسله عليهم السلام «وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» أى : السلاسل فى أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلّوا أفـكارهم عن النظر فى هذه الأمور كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحـكيم . « وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

---

(١) [١٣ / الرعد / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافيـة والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أنّ سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فما لهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التى يضرب بها المثل فى الشدة . والجملة حالية أومستأنفة. و(المثلات) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الثاء جمع مَثُلَة ـ كسمرة وسمرات ـ وهى العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة كقوله (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) ، أو هى مأخوذة من المثال بمعنى القصاص . يقال : أمثلته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هى من المثل المضروب لعظمها. وقرئ بفتح الميم وسكون المثلثة، وهى لغة أهل الحجاز . وقرئ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ » من الناس مَن حمل المغفرة على المتعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلّا حيث دلّ الدليل على التقييد فى غير الموحّد فإن ظلمه ـ أعنى شركه ـ لا يغفر . . وما عدا الشرك فغفرانه فى المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوىّ . وهو الستْر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقـاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفحٍ عظيمٍ لا يعاجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه[١] : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازيّ في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولاستعمال القرآن . وللزومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفاك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراده الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولاستعمال القرآن ، تحكّم بحت على أسلوب القرآن، بإرجاعه إلى ما أصّلوه . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد اللزوم وتهويل خطبه ـ فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعجالهم العذاب المذكور قبل ، فالتلازم صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الآية في معناها كآية (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ...) الخ . فما ذكر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتَفَطَّنْ ولا تكن أسير التقليد ..!

ولما بين تعالى سعة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه: « وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » أي : لمن شاء ، كما قال تعالى[٢] : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) . وقال تعالى[٣]: (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال سبحانه[٤] : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٧] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٦٧] . (٤) [١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستعجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمًّا لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخرّ لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لهـا رأسا ولم يعدّوها من جنس الآيات وقالوا عنادا :

« لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهباً ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجاً وأنهاراً « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ، وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلّا البلاغ ،لا إجابة المقترحات ! « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى: نبيّ داع إلى الحق مرشد بالآية التى تناسب زمنه كقوله تعالى(١) : (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) تعريض بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعاً من الرسل . فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله،عليهم السلام؛أو المعنى: لكل قوم هاد عظيم الشأن ،قادر على هدايتهم، هو الله سبحانه ، فما عليك إلّا إنذارهم لا هدايتهم . وإبقاؤهم الإيمان وصدهم عن الجحود . فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى(٢):(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ)؛ أو المعنى : (لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قائد يهديهم إلى الرشد . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى وتبصير سبله، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله . وقد

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

لا يفيد إنزالها هداية ! قال تعالى (١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) (٢) مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال ! (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) (٣) .

قال الشهاب : وجوّز عطف (هادٍ) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يجعل خبر مبتدأ مقدر ، أي : وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

[٩] (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

« اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حجتهم فلعلّهم يهتدون بأنه آمر مدبر عليم نافذ القدرة فعّال لمـــا تقتضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن (الهادى) بمعنى (الداعى إلى الحق) .
وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجمـلة تفسير لقوله (هَادٍ) أو مقررة مؤكدة لذلك ـ كذا في (العناية) .

وأشار الرازيّ إلى أن الآية : إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقتراحهم عناد وتعنت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلّا عنادًا ، فلذا لم يجابوا

---

(١) [١٧ / الإسراء/ ٥٩] .(٢) [٦ الأنعام/ ١٠٩] .(٣) [٣٣/ الأحزاب/ ٦٢] .

إليه . وإما متصلة بقوله (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ) يعني : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ (ما) في قوله تعالى (مَا تَحْمِلُ) مصدرية أو موصولة ، أي : حملها أو ما تحمله من الولد ، على أي حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة .

« وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ » أي : تنقص من الحمل « وَمَا تَزْدَادُ » أي : تأخذه زائدًا .

قال الزمخشريّ : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشتمل على واحد . وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه ، ومنه جسد الولد فإنه يكون تامًّا ومخدجًا . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر . وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقلّ ويكثر .

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» أي : بقدر وحدّ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى (١) : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقوله (٢) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وذلك أنه تعالى خص كل مكوّن بوقت وحال معينين ، وهيأ لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك :

« عَالِمُ الْغَيْبِ » أي ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أي ما شهده الحس «الْكَبِيرُ» أي العظيم الشأن الذي كل شيء دونه « الْمُتَعَالِ » أي المستعلي على كل شيء بقدرته . أو المنزّه عن صفات المخلوقين ، المتعالي عنها .

وأكثر القرّاء على حذف ياء (الْمُتَعَالِ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما على الأصل .

---

(١) [٥٤ / القمر / ٤٩] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

« سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ » أى فى نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أى: طالب الخفاء فى مختبأ بالليل فى ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب فى سربه ، أى فى طريقه يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن (سواء) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : (الأول) أن (سارب) معطوف على (من هو)لا على (مستخفٍ) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و (الثانى) أنه عطف على (مستخف) . إلا أن (من) فى معنى الاثنين كقوله(1) :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ *

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق الكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية؛ والمعنى: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذفُ الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

تَعَشَّ . فإن واثقتنِى لا تَخُوننى   نَكُنْ مِثلَ مَنْ ، ياذئبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وأطْلَسَ عَسَّالٍ وما كان صاحباً   دعوتُ بنارى مَوْهِناً فأتَانِى

تكرر الموصول فى الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى[١] (وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلّا كان حرف النفى دخيلاً فى غير موضعه . لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة فى صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفى موقع ؛ وإنما صحب فى الأول الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضى الله عنه[٢] :

فَمَنْ يَهْجُو رسول اللهِ منكم ويمدحُهُ وينصرُه سَوَاء !

أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر فى (الانتصاف) وهو وجيه جدًّا . وأما تضعيف غيره له ، بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النحاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن اجتماعهما منكر ـ فهو المنكر . لأن أسلوب التنزيل هو الحجة ، وإليه التحاكم فى كل فنٍّ ومحجّة ، والجمود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها ـ من التعصّب واللجاج ، والغفلة عن مقام التنزيل فى الاحتجاج !

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

« لَهُ مُعَقِّبَاتٌ » أى : لمن أسرّ أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٢) من قصيدته التى يهجو بها أبا سفيان . ومطلعها :

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلُها خَلَاء

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بريد من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعمـــاله ، ما قدم وأخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شرًّا ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فـ (من) تعليلية أو بمعنى باء السببيّة . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى (الصحيح)[١] : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون .

وفى الحديث الآخر[٢] : إن معكم من لا يفارقكم إلّا عند الخلاء ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرموهم !

و (المعقبات) جمع معقبة من (عقّب) مبالغة فى (عقَب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الفاعل ، لا للتعدية . لأن ثلاثيّه متعدّ بنفسه . وأصل معنى (العقب) مؤخر الرِّجْل . ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه . نحو دَبَرَهُ وَقَفَاهُ . وقيل : هو من (اعتقب) أدغمت التاء فى القاف ؛ وردّوه بأن التاء لا تدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرهما . والتاء فى (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لا للتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر ، حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ ـ باب فضل صلاتى الصبح والعصر ، والمحافظة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ (طبعتنا) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يدىّ من أصول السنّة .

أو هى صفة جماعة وطائفة . و (مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) ظرف مستقر صفة (مُعَقِّبَاتٌ) أو ظرف لغو متعلق بها . و (مِنْ) لابتداء الغاية أو حال من الضمير الذى فى الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله (وَمِنْ خَلْفِهِ). ويجوز أن يكون ظرفاً لـ (يَحْفَظُونَهُ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، أى تحفظ ما قدم وأخر من الأعمال، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون (يَحْفَظُونَهُ) صفة لـ (مُعَقِّبَاتٌ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

تنبيهات :

الأول ـ ما قدمناه فى معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذى له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشرىّ : أى يحفظونه فى توهمه وتقديره، من أمر الله . أى من قضاياه ونوازله. أو على التهكم به .

قال الرازىّ : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهانىّ . والمعنى : أنه يستوى فى علم الله تعالى السرّ والجهر ، والمستخفى بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت اللهَ أمره ، ومن سار نهـــاراً بالمعقبات ـ وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه ـ لم ينجه حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بدّ أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تخلّص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يعوّلوا فى دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعد : (وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا . . .) الآية .

الثاني : قدمنا أنّ الضمير في (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) لمن أسرّ أوجهر . . . الخ. وأرجعه بعضهم لله، وما بعده (لمنْ) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضمائر من غير داعٍ . وقيل : الضمير (لمن) الأخير ، وقيل : للنبيّ لأنه معلوم من السياق .

الثالث ـ أشار الرازيّ في معنى الآية الأشهر إلى سرّ اختصاص الحفظة ببني آدم، ما ملخَّصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يعتقد جلالة الملائكة وعلوّ مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يعظّمه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردعُ أكمل . !

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أي : من العافية والنعمة « حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » أي : من الأعمال الصالحة أو ملكاتها ، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أي : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أي : فلا ردّ لقضائه فيهم « وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أي : يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيّروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه ـ أفاده أبو السعود .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بآدابه وسنته القويمة ، حلّ بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا ، ويفرّق كلمتهم ، ويوهي قوّتهم ، ويسلط عدوّهم !

وفى حديث قدسيّ عند ابن أبى حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحوّلون منها إلى معصية الله ، إلّا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .

ولابن أبى شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت، كانوا على ما كرهت من معصيتى ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى، إلّا تحوّلت لهم عما يكرهون من عذابى، إلى ما يحبون من رحمتى.

وقال القاشانىّ : لابدّ فى تغيير النعم إلى النقم ، من استحقاق جلىّ أو خفىّ .

وعن بعض السلف : إن الفارة مزّقت خُفّى. وما أعلم ذلك إلّا بذنب أحدثته ، وإلّا ما سلطها الله علىّ ! وتمثّل بقول الشاعر (١) :

* لو كنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبلِى *

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلّا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام فى ذلك ، الإمامُ مفتى مصر فى (رسالة التوحيد) فى بحث الدين الإسلامىّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالَم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلٰهية التى قدّرها الله فى علمه الأزلىّ . لا يغيّرها شىء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها . بل ينبغى أن يحيي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبىّ ﷺ (٢) : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

(١) هذا مطلع الحماسية الأولى . وعجزه :

* بَنُو اللَّقِيطَةِ من ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا *

وقائله بعض شعراء بلعنبر ، واسمه قُرَيْط بن أُنَيْف .

قال المرزوقىّ : ومعنى البيت : لو كنتُ مازنيًّا لم تُغِرْ بنو اللقيطة على إبلى .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٦ ـ كتاب الكسوف ، ٢ ـ باب الصدقة فى الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله) وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد. لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها. ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزؤن بها. ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلًا لا مجال معه للخلط بينهما .

فأما النعم التى يمتّعُ الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة والضعف والفقد، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى! وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة ، عبّروا عن إخلاصهم فى التسليم بقوله : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ! فلا غضب زيدٍ ، ولا رضا عمروٍ ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا، ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهمّ إلّا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم . وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب . والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر . . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك ؛ فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم فى : ١٠ ـ كتاب الكسوف ، ٢ ـ باب ذكر عذاب القبر فى صلاة الخسوف ، حديث رقم ٨ (طبعتنا) .

إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشمار الأخوة ، والتعاون على البرّ ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدرحياة الأمم ، ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة[(١)] (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ! واستبدل[(٢)] الله عزة القوم بالذل ، وكُثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون[(٣)] (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشفَ لما نزل بهم إلّا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برُسُل الفكر والذكر والصبر والشكر[(٤)] (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)[(٥)] . . ! وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه[(٦)] . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة . . !

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٥] . (٢) الصواب فى استعمال الاستبدال والتبدّل ، أن تقرن الباء بالمبدّل منه (حاشية الطبعة الرابعة عشرة) . (٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] .

(٤) [١٣ / الرعد / ١١] . (٥) [٣٣/ الأحزاب/٦٢] .

(٦) جاء فى (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذى رواه البخارىّ ؛ أن عمر بن الخطاب، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ .

قال الشوكانىّ : وقد بيّن الزبير بن بكّار، فى الأنساب، صفة مادعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ .

انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ ، الطبعة الثانية) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماضٍ في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً ..!

ولما خوّف تعالى العباد بإنزال مالا مردّ له ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

[١٣] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً » أى من الصواعق « وَطَمَعاً » أى بالمطر أن يحيي النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أى يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أى: يضجون بـ (سبحان الله والحمد لله) فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازيًّا للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى دلالته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقته والتجوّز فى التسبيح والتحميد. إذ شبه دلالته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتنزيه اللفظىّ . ودلالته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازىّ: الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص. والتسبيح والتقديس ومايجرى مجراهما، ليس إلّا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً. وهو معنى قوله تعالى[1] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) .

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أي : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أي : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » يعني الكفرة المخاطبين في قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) وقد التفت إلى الغيبة إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته . ويعقلها من يعقلها من المؤمنين. أو الرعد نفسه والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى ، و (هم) أي الكفرة الذين حكيت هَنَاتُهُمْ مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم، يجادلون في شأنه تعالى، بإنكار البعث واستعجال العذاب، استهزاء واقتراح الآيات . فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُم) أفاده أبو السعود .

أي : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية. وأنتم تجادلون فيه و (الجدال) أشد الخصومة، من (الجدل) بالسكون ـ وهو فتل الحبل ونحوه، لأنه يقوى به وتشتد طاقاته . « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » أي : والحال أنه شديد المماحلة والمماكرة والمكايدة لأعدائه . يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون ، من (مَحَلَهُ) إذا كاده وعرّضه للهلاك ، ومنه (تمحّل لكذا) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تنبيه :

ذكر في العلم الطبيعيّ : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموّجات السحب

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٤] .

ومصادمتها لبعضها : فيحصل فى الهواء اهتزاز قوىّ ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب، يطول سماعنا الصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة، فقد تمت نتائج الصاعقة. فمتى مضت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمِن ضررها . فإن لم يمض بينهما شىء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق فى آن واحد، أمكن أن يصاب بالصاعقة فى مرورها . وأما سبب انفجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهربائية إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هى البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعقت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازىّ الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت فى العلم الطبيعىّ بما يدفع المنافاة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول فى الرياح وفى سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالعاقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لغيره. لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .

وفيها إيذان بملابستها للحق، واختصاصها به، وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى، فى عدم النفع والجدوى بقوله: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى: الأصنام الذين يدعوهم المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مدّ يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظمأه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، جمادٌ لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم ! والغرض نفى الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيهم ، أخيب ما يكون أحد فى سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آلهتهم ـ حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار فى عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة ، وبقائهم لذلك فى الخسران ـ بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك فى زيادة ظمأ وشدة خسران! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلىّ فى الأصل ، أبرز فى معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة فى التخسير والتحسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر، أى: لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير فى (هو) الماء و (بالغه) للفم ، وقيل : الأول للباسط والثانى الماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما فى قوله[1] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لو أنه أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أناملُهُ

« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم « إِلَّا فِى ضَلَالٍ » أى : فى ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه المكونات بأسرها من أهل الملإ الأعلى والأسفل ، طائعين وكارهين لا يقدرون أن يمتنعوا عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تتصرف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والفىء

---

(١) رواية البيت هكذا :

. . . . ثناها لقبض لم تطعه أناملهُ

انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ (طبعة بيروت) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أجلْ أيها الربعُ الذى خفَّ آهلُهُ لقد أدركت فيك النوى ما تحاولُهُ

يمدح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

والزوال! وقوله « بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (فى) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأبيد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو بقال التخصيص لأن امتدادها وتقلصها فيهما أظهر . هذا ماجرى عليه الأكثرفي معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسلاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى (تنوير الاقتباس) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجعل (طوعاً وكرهاً) نشراً على ترتيب اللف . قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و (كرها) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و (كرهاً) لأهل النفاق . ثم قال : (وظلالهم) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى (وَكَرْهاً) يخصون السجود به سبحانه. قال تعالى[1](فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله سبحانه، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى. كما قاله ابن الأنبارى . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها. وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] .

وهذه الآية كقوله تعالى[١] (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله[٢] : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ...) الآية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة ـ كذا فى (اللباب) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما « قُلِ اللَّهُ » أمرٌ بالجواب من قِبَلِهِ عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعينه للجواب ، فهو والخصم فى تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لا بدّ لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أى : إلزاماً لهم وتبكيتاً « أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أى : أَبَعْدَ أن علمتموه ربّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيرَه فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشريّ .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى : لا يقدرون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فإذن عبادتهم محض العبث والسفه ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لمّا بيّن ضلالهم وفساد

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

رأيهم فى الحجة المذكورة، بيّن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير ، والجهل بمثلها كالظلمات ، والعلم بها كالنور ! وكما أن كلّ أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحدٍ يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجعلوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله: « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ(شركاء) داخلة فى حكم الإنكار « فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر: وفى قوله تعالى : (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) فى سياق الإنكار ، تهكمٌ بهم . لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفى فى الإنكار عليهم ، أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء فى قوله تعالى (كَخَلْقِهِ) تهكم يزيد الإنكار تأكيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك فى الخلق ، فلا يكون له شريك فى العبادة! «وَهُوَ الْوَاحِدُ» أى . المتوحد بالربوبية «الْقَهَّارُ» الذى لا يغالَب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى المزن « مَاءً » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها فى الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : فحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عالياً على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك فى النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالآوانى وآلات الحرب والحرث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذى ينفيه الكير « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما ، أى : إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها ، مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقذوفاً مرمياً به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعاً به « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

تنبيهات

الأول ـ قدمنا أن هذه الآية مثل ضربه الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما . فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفة ، وأن ذلك ماكث فى الأرض باقٍ بقاء ظاهرا . يثبت الماء فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة متطاولة ؛ وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن . فإنه ـ وإن علا وارتفع وانتفخ ـ إلا أنه أخيرا يضمحل ؛

وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم . إلا أنهـا فى الآخرة تبطل وتضمحلّ وتزول ، ويبقى الحق ظاهرا لا يشوبه شيء من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . !

الثانى ـ قوله تعالى (بِقَدَرِهَا) صفة (أودية) ، أو متعلق بـ(سالت) أو (أنزل) . وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علىّ والأشهب وأبو عمرو ، فى رواية ، بسكونها .

الثالث ـ قوله تعالى (احْتَمَل) بمعنى حمل ، فالمزيد بمعنى المجرد ـ كذا قيل . ويظهر لى: أن إيثاره عليه لزيادةٍ فى معناه ، وقوة فى مبناه !

الرابع ـ الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبـال أو تلال أو آكام . والإسنـاد إليه مجاز عقلىّ ، كما فى (جرى النهر) .

قال السمين : وإنما نـكّر الأودية وعرّف السيل ، لأن المطر ينزل فى البقاع على المناوبة فيسيل فى بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (فسالت) ، وهو لو ذكر لـكان نـكرة . فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلا فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبى حيان حيث قال: عرّف السيل لأنه عنى به ما فهم من الفعل . والذى يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نـكرة ، إلّا أنه إذا عاد فى الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نـكرة . وكذا يضمر إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو :من كذب كان شرًّا له ، أى الـكذب . ولو جاء هنا مضمراً لـكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت). وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعرّف عين ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تـكلف ـ كما قيل ـ لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر. سواء كان حقيقيًّا أو مجازيًّا ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أي حدث في ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكروه أغلبيّ لا مختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما في قول بعضهم :

* أخت الغزالة إشراقاً وملتفتاً *

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله (أودية) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس ـ قوله تعالى (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . و (زبد) مبتدأ قدم عليه خبره ، و (مِن) في (ممّا) للابتداء أي : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعيض أي : هو بعضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخلّ بالتمثيل. وقوله (فِي النَّارِ) صفة مؤسسة ؛ لأن الوقد عليه يكون في النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : في زيادة النار إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول في قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ ..) الخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها، كأن أشرف الجواهر خسيس عنده تعالى ، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به، المشعر بأنه كالحطب الخسيس ، وصوّره بحالةٍ هي أحط حالاته . وهذا لا ينافي كونه ضرب مثلًا للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضي التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله (ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ) فوفّى كلًّا من المقامين حقه .

السادس ـ قدمنا أن قوله تعالى (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) على حذف مضاف ، أي مثلهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين الممثل والممثل به. كأن المثل المضروب عين الحق والباطل ! .

السابع : بدأ بالزبد فى البيان فى قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ) وهو متأخر فى الكلام السابق ، لأن فى التقسيم يبدأ بالمؤخر كما فى قوله[1] (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ . . .) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكتة فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أوّلا ، وغيره باقٍ متأخر فى الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصّله الطيبيّ ـ كذا فى (العناية)

الثامن ـ قوله تعالى (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول ، أو بجعل ذلك إشارة إليهما ـ كذا فى أبى السعود .

التاسع ـ أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية فى التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْن ـ نارىّ ومائىّ ـ وهو قوله[2] (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ . . .) الآية ، ثم قال[3] (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . .) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مَثَلَيْن أحدهما قوله[4] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ...) الآية ، والسراب إنما يكون فى شدة الحرّ ؛ ولهذا جاء فى (الصحيحين)[5] : (فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون؟ أى ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال: ألا تَرِدُونَ ؟ فيَرِدُونَ

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩] . (٤) [٢٤ / النور / ٣٩] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤ ـ سورة النساء ، ٨ ـ باب إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ (طبعتنا) .

النار، فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً) . ثم قال تعالى فى المثل الآخر [١] (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ . . .) الآية . وفى (الصحيحين) [٢] عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا . وأصابت طائفة منها أخرى. إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ! فذلك مثل من فقُه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى، ونفع به فعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفى (مسند الإمام أحمد) [٣] عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلى ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلمّ عن النار ! فتغلبونى فَتَقْتَحِمُونَ فيها . . . وأخرجاه فى (الصحيحين) [٤] أيضاً . فهذا مثل نارىّ . انتهى .

ولمّا بَيَّن سبحانه شأن كلٍّ من الحق والباطل حالاً ومآلاً ، تأثره ببيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً . ترغيبًا وترهيبًا ، بقوله :

---

(١) [٢٤ / النور / ٤٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢٠ ـ باب فضل من عَلِمَ وعلَّم ، حديث ٦٨.
وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
والحديث رقم ٧٣١٨ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٢٦ ـ باب الانتهاء عن المعاصى ، حديث رقم ١٦١٠ .
وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله، والمثوبةُ الحسنى كما قال تعالى(١) : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ)فالحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف الأموال، ليتخلّصوا عما بهم. وفيه من تهويل مايلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ » أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى: المستقر . وفى قوله (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانفهامها من مقابلتها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدّق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقبيح حاله فعبّر عنه بالأعمى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » أى : العقول المبرّأة عن مشايعة الإلف ومتابعة الوهم .

(١) [١٠ / يونس / ٢٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠] (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ » أى : مما كلفهم بـه « وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » أى : ماوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهوتعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ـ أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أى : من أرحامهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذبّ عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكفّ الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أى : يعملون له أو يخافون وعيده فلايعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أى : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيء إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى[١] : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...)الآية، أويتبعون

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦] .

السيئة الحسنة لتمحوها « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » أى: عاقبة الدنيا وهى الجنة لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للعهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ)

[٢٤] (سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووحّد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفى التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

وأصله للزجّاج حيث قال : بيّن تعالى أنّ الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلّا بالأعمال الصالحة .

وقرئ ـ شاذًّا ـ بضم لام (صَلُح) . قال الزمخشريّ : والفتح أفصح .

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بيّن تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » أى : عذاب جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى [1] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) . وتنكير (متاع) للتقليل كما فى آية [2] (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) وقال [3] : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم [4] : (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى أنه من باب العناد والاقتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يمهل أحد بعد مجيئها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب مِنْ مِثْلِهِ ، صلوات الله عليه ، آية ، فإنه آية الآيات . . ! ولكنهم قوم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧٧] .

(٣) [٨٧ / الأعلى / ١٦ و١٧]. (٤) [٢١ / الأنبياء / ٥] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاغوا عنه فأزاغ الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة، إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : (قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أي يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه . لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم في المكابرة ، والعناد ، والغلوّ في الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية . ثم قال : (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) أي : أقبل إلى الحق وتأمل في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابةِ الدخولُ في نوبة الخير . وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة ، كما في الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها ، والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتوّ والعناد . وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا » بدل من (من أناب) أي : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » أي تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً . والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أي : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاءً منه؛ وقدر بعضهم مضافاً . أي بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

(بذكر الله) القرآن، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى [1] : (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ) وقال سبحانه : [2] : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لأنه آية بيِّنة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله [3] : (لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أى: هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين. قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

« الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ » الموصول إما مبتدأ (وطوبى لهم) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمحذوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجملة (طوبى لهم) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشريّ : (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزلفى ، ومعنى (طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً . ومحلها النصب أو الرفع . كقولك طيباً لك وطيب لك ، وسلاما لك وسلام لك . والقراءة فى قوله (وحسن مآب) بالرفع والنصب تدلك على محليها ، واللام فى (لهم) للبيان مثلها فى (سقياً لك) ، والواو فى (طوبى) منقلبة عن ياء ، لضمة ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبًى لهم بالتنوين .

قال القاسمى : ومن نوّن (طوبى) جعله مصدراً بغير ألف كسقيا وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى (لسان العرب) عن قتادة ؛ أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطَّوْدَ بالقُرى ورِسْلًا بيَقْطِينِ العراقِ وفُومِهَا

الرسل اللبن ، والطود : الجبل ، والفوم : الخبز والحنطة ـ كذا فى (تاج العروس) .

(١) [٢١ / الأنبياء/٥٠] . (٢) [١٥ الحجر/٩] . (٣) [١٠/يونس ٢٠].

[٣٠] (كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)

« كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى: لتبلغهم هذا الوحى العظيم والذكر الحكيم، كما بلّغ من خلا قبلك من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى : يكفرون بالبليغ الرحمة، الذى وسعت رحمته كل شىء والعدول إلى المظهر الدال على الرحمة، إشارة إلى أن الإرسال ناشىء منها ، كما قال تعالى[١] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وإلى أنهم لم يشكروا نعمة هذا الوحى الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية[٢] أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم؟ كما فى الصحيح. وقد قال تعالى[٣] (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ) . وفى (صحيح مسلم)[٤] عن ابن عمر مرفوعا : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ » أى : توبتى وإنابتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار تعالى إلى عظمة هذا الوحى وتفضيله على ما سواه بقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارىّ فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و٨٨٢ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان، وهو حديث طويل جامع، فلا يفتك الاطلاع عليه . ففيه غنم كبير . (٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا » أى قرآنًا مّا « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإنزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارّها ، وزعزعت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شققت حتى تتصدع وتصير قطعاً « أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى: لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية فى الهداية والتذكير، ونهاية فى الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلىّ ولم يعدوه من قبيل الآيات . فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب (لما آمنوا به) كقوله :(١)(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ . . .) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء؛ أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ)وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بعضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى (كلم) لتغليب المذكر من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدماً ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته (لو) من معنى النفى ، أى : لو أن قرآناً فعل به ما ذكر لكان هذا القرآنَ .

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

ولكن لم يفعل بل فعل ماعليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ماشرح . أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح . كذا فى أبى السعود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » أى: أفلم يعلم ويتبين كقوله[1] :

أَلَمْ يَيْأَسِ الأقوامُ أَنِّى أنا ابْنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أَرْضِ العَشِيرَةِ نائِيَا

وقوله[2] :

أقول لهم بالشِّعْبِ إذ يَيْسِرُونَنى ... ألم تَيْأَسُوا أنى ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

أى : ألم تعلموا ! وييسروننى من إيسار الجزور ، أى يقسموننى ، ويروى : يأسروننى من (الأسر) . أى : أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم، لأن الأمر له. ولكن قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى : بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه. وعدم بيانه لتهويله أو استهجانه. والقارعة : الداهية التى تقرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .
ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و٢٩١ (طبعتنا) .

(٢) انظر مجاز القرآن،لأبى عبيدة،الصفحة رقم٣٣٢ من الجزء الأول،والبيت رقم٣٨٣.
وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم١٥٣ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبى الثانية).
وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ تَحُلُّ » أي : تلك القارعة « قَرِيباً » أي : مكانا قريباً « مِنْ دَارِهِمْ » فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها « حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ » أي : فتح مكة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أي : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (١) : (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) وفى الآية وجه آخر، وهو حمل (الذين كفروا) على جميع الكفار أي : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، تصيبهم القوارع فى الدنيا أو تصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى (٢) : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله (٣): (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أي : أمهلتهم وتركتهم ملاوة من الزمن ،في أمن ودعة ، كما يملى للبهيمة فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أي : عقابي إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .
(٣) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شرّ . فهو مجاز ، لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه ـ إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ـ وإنما حذف اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله: « قُلْ سَمُّوهُمْ » تبكيت لهم إثر تبكيت، أى: سمّوهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لا حقيقة لهم ! أوصفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ؟

وقال الرازىّ : إنما يقال ذلك فى الأمر المستحقر الذى بلغ فى الحقارة إلى ألا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت ، يعنى : أنه أخسّ من يسمّى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سمّوهم بالآلهة ، على سبيل التهديد، والمعنى : سواء سميتموهم بهذا الاسم أولم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشركاء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهم لا حقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفى أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

مجيء النفي على هذا السَّنَن المتلوّ بديعٌ لا تكتنفه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلّى بهذا التصريف البديع لكان :وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء. فلم يكن بهذا الموقع الذي اقتضته التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ » أى : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنجيّ كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى (١) : (ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) . (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا)(٢) وعن الضحاك : إنّ الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله (٣) :

وذلك عارٌ يا ابن رَيْطَةَ ظَاهِرُ . .

تنبيه :

قال الزمخشريّ : هذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها ، منادٍ على نفسه بلسان طلق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ) لما كان كافياً فى هدم قاعدة الإشراك مع السابق واللاحق وماضمن من زيادات النكت، وكان إبطالاً من طريق حق ، مذيلًا بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم ، وروعى فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلًا عن المسمى على الكناية الإيمائية . ثم بولغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على الكناية التلويحية استدلالًا بنفى العلم عن نفى المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئهال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبئوا عالم السرّ والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفى جعل اتخاذهم شركا.

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٠] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا مَن هو قائله ، ولم أهتد إليه فيما بين يديّ من الكتب. فمن داره فليثبته هنا مشكورًا مأجورًا .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباءً له تعالى ، نـكتة بل نـكت سرية . ثم أضرب عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لذى عينين وماتلك التسمية إلّا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حقّ التأمّل ، اعترف بأنه كلام خالق القُوَى والقُدَر، الذى تقف دون أستار أسراره أفهام البشر . . . !

وقوله تعالى : « بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم. كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينتفعون بهذه الدلائل .

وقوله تعالى :

« وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا الناسَ « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ،أويخذله « فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)

« لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »وهو ما نالهم على أيدى المؤمنين ، أو مافيه من عذاب الحيرة والضلّة . فإنّ نفس غير المؤمنين فى نـكد مستمر وداء دوىّ لا برء له إلّا الإيمان . كما فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كمّاً وكيفاً « وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ » أى : حافظ يعصمهم من عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصى « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ».

فى الآية وجوه من الإعراب :

(الأول) : أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف ، أى: فيما يقص ويتلى عليكم صفة الجنة ، وجملة (تجرى) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانيا أو حال من ضمير (وعد) أى : وعدها مقدرا جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع مافيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل . وقُدِّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لئلا يفصل به بينه وبين مايفسره، أو ما هو كالمفسّر له .

(الثانى) : أن خبره (تجرى) ـ على طريقة قولك : صفة زيد أسمر ـ قيل : هو غير مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار فى صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث الضمير العائد على المثل حملاً على المعنى .

(الثالث) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٦] (وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ)

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعانى والدلائل وكشف الشبهات مالم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عنى بهم الذين آمنوا بالنبى ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ،فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيته التى لا يمترى فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التى لا تحصى كما قال تعالى[١] : (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى بقية أهل الكتاب والمشركين « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم، وجوّز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لمجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا. و بـ(الأحزاب) المشركون،خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد .ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو»أى: لا إلى غيره « وَإِلَيْهِ مَآبِ » أى : مرجعى للجزاء ، لا إلى غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٧] (وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا» أى: حاكماً بالحق،أو حكمة عربيّة «وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِـــنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ » أى لئن تابعتهم على دين، ماهو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلّا فـكان رسول الله ﷺ من شدة الشـكيمة بمكان ـ كذا فى (الـكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أى : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهوردٌّ لقولهم: لو كان نبيًّا لـكان من جنس الملائكة كما قالوا[1] : (مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ، وإعلامٌ ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز فى حقهم لِمَ لا يجوز فى حقه ؟ وقد قال تعالى له[2] : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ). « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ » أى : ما صح له ولا استقام ولم يكن فى وسعه أن يأتى بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى فى وقته ، لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ، من غير تغيّرٍ وتبدّلٍ وتقدمٍ وتأخرٍ . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحـكم والمصالح التى عليها يدور أمر الـكائنات « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أى لـكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدّر معيّن أو مفروض فى ذلك الوقت على الخلق حسبما تقتضيه الحـكمة . فالشرائع معينة عندالله بحسب الأوقات، فى كل وقت يأتى ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسولٌ من عنده ، وكذا جميع الحوادث من الآيات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [١٨ / الـكهف / ١١٠] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره . وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

« يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَيُثْبِتُ » أى بَدَلَهُ ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ «وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازىّ : العرب تسمى كلّ ما يجرى مجرى الأصل للشيء أُمًّا له ، ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة . وكل مدينة فهى أمّ لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلًا لجميع الكتب . روى علىّ بن أبى طلحة[٢] عن ابن عباس فى الآية يقول : يبدل الله مايشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...) الآية .

تنبيه :

تمسّك جماعة بظاهر قوله تعالى : (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) فقالوا : إنها عامة فى كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يمحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازىّ : هو مذهب عمر وابن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

---

(١) انظر تفسير الطبرىّ ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية).

أشار بذلك إلى آثار أخرجها ابن جرير(١) عن عمر وابن مسعود . وليس فى الصحيح شيء منها .

ظهر لى* فى دمّر فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :

إنّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلبٍ ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ،فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظنّ ظانّ أنه يستدل بها فى بحثٍ آخر ، وقد يؤكده مايراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لك مثلًا قوله تعالى (يَمْحُو اللهُ مَا يَشاَءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلّق ، ومحو ما فى اللوح الذى يسمونه (لوح المحو والإثبات) ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمأنًّا .

مع أنّ هذه الآية ، لو تمعّن فيها القارئ ، لعلم أنها فى معنى غير مايتوهمون . وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ ، فى أوائل البعثة ، أن يأتى بآية كآية موسى وعيسى. توهماً أن ذلك هوأقصى مايدل على نبوة النبىّ فى كل زمان ومكان. فأعلمهم الله تعالى أنَّ دور تلك الآيات الحسّيّة انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعدّ البشر للتفنّبه إلى الآية العقلية،وهى آية الاعتبار والتبصّر. وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها.وقدأثبت تعالى غيرها ممّا هو أجلى وأوضح وأدلّ على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : (وَمَا كَانَ

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧و١٦٨من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)...

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

« وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ » أى: من إنزال العذاب فى حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحى « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى : حسابهم وجزاؤهم . قال أبو حيّان: جواب الشرط الأول (فذلك شافيك) والثانى (فلالوم عليك) وقوله تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ...) الخ دليل عليهما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى: أرض الكفرة . ننقصها عليهم بإظهار دين الإسلام فى أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس: أى : أو لم يروا أنا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعنى أن انتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينجز وعده ، ونظيره قوله تعالى(١) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

وقوله[1] : (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ...) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعني لم يؤخر عذابهم لإهمالهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلًا وتنبيهاً عن سِنةِ الغفلة . ومعنى (نأتي الأرض) يأتيها أمرنا وعذابنا . انتهى .

وقيل : ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم. فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبيه :

يذكرون ـ ها هنا ـ رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهريّ حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق[2] :

وَاسْأَلْ بِنَا وَبِكُمْ إذا وَرَدَتْ مِنًى أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيلَةٍ، مَنْ يَتبَعُ

يريد أشراف كل قبيلة . فمعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة، وذل بعد عزّ، ونقص بعد كمال! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ، فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفاك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلا لخطب موت العلماء بسبب

---

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٢) في الديوان (صفحة ٥٢٦) من يسمعُ عوضاً عن (من يتبع) .

ومطلع القصيدة :

بَنِيَّ إذا وردتْ عليك مُجَاشِعٌ أو نهشلٌ تَلِمَاتِكُمْ ما تَصْنَعُ ؟

أنهم أركان الأرض وصلاحها وكمالها وعمرانها ، فموتهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها   متى يمتْ عالم منها يمتْ طَرَفُ
كالأرض تحيي إذا ما الغيثُ حلّ بها   وإنْ أبَى عَادَ فى أكْنَافِهَا التَّلَفُ

ولذا قال الأزهرىّ كما فى (لسان العرب) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ، (وننقصها من أطرافها) أى نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا مَنْ فسر (نقصها من أطرافها) فتوحَ الأرضين . وأما من جعل (نقصها من أطرافها) موتَ علمائها فهو من غير هذا، قال: والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللهُ يَحْكُمُ » أى : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالعز والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى . وهى جملة اعتراضية جىء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض فى اعتراض . لبيان علوّ شأن حكمه تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ـ كما تقول : جاء زيد لا عمامة على رأسه ، أى حاسراً . و (المعقب) من يكرّ على الشىء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه ويقفّيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » أى فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً » إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يومئ إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أى فيوفيها جزاءها المعدّ لها على ما كسبت من فنون المعاصى التى منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أى العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى[1] : (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ...) الآية .

القول فى تأويل تعالى :

[٤٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتى ، من الحجج القاطعة والبينات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة (وهو فعل والشهادة قول) على سبيل الاستعارة ، لأنه يغنى عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعمّ من القول والفعل . على

(١) [٢٧ / النمل / ٥٠ ـ ٥٢] .

أن المراد من تلك الحجج هى آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهى كلامه تعالى ، وقد قال تعالى[١] : (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبيّ ﷺ ونعته فى كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى[٢] : (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ) وقال تعالى[٣] : (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) .

ويروى عن مجاهد أنه عنى بـ (مَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) عبد الله بن سلام . ونوقش بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المكية ربما وجد فيه مدنيّ وبالعكس ، وكأن هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهانىّ فى (دلائل النبوة) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

تم الجزء التاسع ، ويليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :

(١٤ـ سورة إبراهيم و ١٥ـ سورة الحجر و ١٦ ـ سورة النحل و١٧ـ سورة الإسراء)

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧] .

كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمّد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء العاشر

وفيه تفسير :

١٤ ـ سورة إبراهيم ، و١٥ ـ سورة الحجر ، و١٦ ـ سورة النحل ، و١٧ ـ سورة الإسراء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمّد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤ ـ سورة إبراهيم

سمّيت به لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كالحج وجعل الـكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعلى نبوّة نبيّنا عليه أكمل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده المهايميّ .

وهي مكية النزول ، قيل : إلّا قوله تعالى[1] « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّـهِ كُفْرًا ... » الآيتين . وهي اثنتان وخمسون آية ،

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓر ، كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)

« الٓر كِتَـٰبٌ » خبر لـ (الٓر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبرًا لمضمر، أو مسرودًا على نمط التعديد. وقوله تعالى : « أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ » صفة له « لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى : من الضلال إلى الهدى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى : أمره . وقوله تعالى : « إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ » بدل من قوله (إِلَى ٱلنُّورِ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل: إلى أى نور؟ فقيل: إِلَىٰ صِرَٰطِ ... الخ . و (ٱلْعَزِيزِ) الذى لا يغالَب ولا يمانع بل هو القاهر القادر. و (ٱلْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان لـ (ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) « وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ » أى : بما أنزلناه إليك « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » بتعويق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة، أو يبغون لها اعوجاجاً، أى يطلبون أن يروا فيها عوجًا قادحًا ، على الحذف والإيصال «أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ» أى : ضلّوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل، والبعد فى الحقيقة للضالّ نفسه، وصف به فعله للمبالغة، بجعل الضلال نفسه ضالًّا . وفى إيثار الظرف على (أولئك ضالّون ضلالًا بعيـــداً) دلالة على تمكّنهم فيه، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

«وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» أى: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به كما قال(١) (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ) . (فإن قلت): لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)(٢) بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة، فلغيرهم الحجة.

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قلت) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ؛ فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم فى تعلّم لفظه وتعلّم معانيه، وما يتشعّب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القُرَب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلًّا بصفة الإعجاز فى كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربىّ كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التى هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه ـ كذا فى (الكشاف) .

وقال بعض المحققين: يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبىّ ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعِدّها لتهذيب الأمم الأخرى. كما يعد فرداً واحداً منها لتهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هى المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل فى ذلك العالم المظلم ـ فقد وجب أن التهذيب الإلٰهىّ ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيّأ لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، ولله فى خلقه شؤون اهـ .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أنّ اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفيّة لم تعلم إلّا بعد مجىء الرسول ، والآية صريحة فى علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » أى لمباشرته أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة ، كأنه قيل : فبيّنوه ، فأضلّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كلّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنىّ عن الذكر والبيان « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى : فلا يغالَب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ما أجمل فى قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ) بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ » أى : أنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعماؤه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلاً لها . وقيل : هى أعمّ من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى ، فيما أراه ، لاختصاص كل آية بمقام ، والتأسيس خير من التأكيد . وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربىّ : هذه الآية أصل فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر على بلائه ويشكر نعماءه . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد (لكلّ مؤمنٍ) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصبّار) على (الشكور) لتقدم متعلق الصبر ـ أعنى الإيمان ـ على متعلق الشكر ـ أعنى النعماء ـ وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » أى : يبغونكم إياه « وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ » أى: المولودين صغارًا « وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ » أى: يبقونهن فى الحياة « وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبتُه إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيلَ : كونُ قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر. وأما استحياء النساء، وهن البنات أى استبقاؤهن، فلأنهم كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهُنّ دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظمِ الرُّزْءِ فيما أَرَى   بقاءُ البناتِ وموتُ البَنِينَا

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و (البلاء) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشريّ : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ، قال تعالى[(١)] : (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) . وقال زهير :

* فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو *   انتهى .

ولذا جوّز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ ، الشامل للنعمة والنقمة .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] .

لطيفة :

أشار أهل المعانى إلى نكتة مجىء (وَيُذَبِّحُونَ) هنا بالواو ، وفى سورة البقرة[١] (يُذَبِّحُونَ) وفى الأعراف[٢] (يُقَتِّلُونَ) بدونها . والقصة واحدة ـ بأنه حيث طرح الواو وقصد تفسير العذاب وبيانه، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال. وحيث عطف ـ كما هنا ـ لم يقصد ذلك. والعذاب، إن كان المراد منه الجنس، فالتذبيح، لكونه أشدّ أنواعه، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة، فهما متغايران والمحلّ محلّ العطف. وجوّز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير ـ لكونه أوفى بالمراد وأظهر ـ بمنزلة المغاير، فلذا عطف .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أى : آذن وأعلم إعلامًا بليغاً ـ من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِن شَكَرْتُمْ » أى : نعمه ، بصرفها إلى ما خُلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أى : من النعم « وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشدّ النقم .

---

(١) [٢ / البقرة / ٤٩] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٤١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ)

« وَقَالَ مُوسَىٰٓ » أى : لقومه « إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ » أى : غنىٌّ عن شكر عباده ، المحمود بأجلّ المحامد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب (إنْ) أى : إن تكفروا لم يرجع وباله إلّا عليكم . فإن الله لغنىّ عن شكر الشاكرين .

وفى (صحيح مسلم)[١] عن أبى ذرّ ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ ؛ أنه قال : « يا عبادى ! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . ياعبادى لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحدٍ فسألونى فأعطيت كل إنسان مَسْأَلَتَه ، ما نقص ذلك مما عندى إلّا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ » ، فسبحانه من غنىٍّ حميد . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذة من كفر « نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

---

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، ١٥ ـ باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) من حديث طويل عظيم جدًّا فاقرأه .

أى : مع كثرتهم « وَعَادٍ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم «وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّـهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير(١) : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم ، ولا شك حينئذٍ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى « وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّـهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف (الذين) على قوم نوح) ، و (لا يعلمهم . . .) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجمّ الغفير الذى لا يحصي كثرة فتعتبروا بها؟ إنّ فى ذلك لمعتبرًا . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :

أى : ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل، كقوله(٢) : (عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك. أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء: أن يكفّوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٣ / آل عمران / ١١٩] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و (فى) بمعنى (إلى) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بالغ فى منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع فى كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقرّرونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل : وهو أقوى الوجوه المتقدمة . لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا فى الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب . وفى تصديرهم الجملة بـ(أن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة فى التأكيد .

وفى الثانى ـ أعنى المعنى المجازىّ ـ وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يدًا ، يقال لفلان عندى يد إذا أولاه معروفاً ؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى[1] (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . فالبينات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نِعَمٌ وأيادٍ ، وأيضاً العهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أياد ؛ وجمع اليد فى العدد القليل هو الأيدى ، وفى العدد الكثير الأيادى . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدى . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى[2] : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ) ؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًّا فى الأفواه . انتهى .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

وفى (الرازىّ) تتمة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال فى (العناية) : فإن قلت : قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) جزم بالكفر لا سيما وقد أكّد بـ (إن) ، فقولهم (وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ) ينافيه . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو: إنا كفرنا جزمًا فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأيًّا ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافى الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلًا . انتهى .

أى : فلا ينافى شكّهم فى ذلك كفرهم القطعىّ بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٍ » بمعنى موقع فى الريبة ، من (أرابه) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة ، من (أراب) : صار ذا ريبةٍ وهى صفة مؤكدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى : وهو ممّا لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أفى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورىّ فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموٰات والأرض ـ أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق ـ فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلابدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلّا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثاني : أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولايستحق العبادة إلّا هو وحده لاشريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولـكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقرّبهم من الله زلفى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفتـه تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنـكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنـكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لايكاد يتوهم فيه الشك أصلًا ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الـكفرة بأن يقولوا : (أَأَنْتُمْ فِي شَكٍّ مُرِيبٍ مِنَ اللَّهِ) مبالغة فى تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول .

وقوله تعالى : «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَـكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ» أى: يدعوكم إلى الايمان بإرساله إيانا ، لا أنّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولـكم (مما تدعوننا إليـه) . ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعـالى وتقدّس ، أو للتعدية أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و (من) إمّا تبعيضيّة أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص) .

وادعى الزمخشريّ مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الـكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد .

قال فى (الـكشف) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى التفرقة بين الخطابين بالتصريح

بمغفرة الكل وإبقاء البعض فى حق الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتكلوا على الإيمان .

وقوله تعالى : « وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمّى « قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى : آية مما نقترحه تدل على فضلكم علينا بالنبوّة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

«قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ »أى: بالرسالة والنبوّة «وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى: بأمره وإرادته، وهو لم يرد ذلك، لقوله(١): (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ) .

«وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ: أمرٌ منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًّا وأمرُوها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله فى الصبر على معاندتكم وما يجرى علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ » ومعناه : وأىّ عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] .

« وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا » أي : أرشد كلاًّ منّا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمىّ ، مظهرين لكمال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السيّئ والأفعال السخيفة . وقوله « وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[١٤] (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ » .

« وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ » يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفى من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكونن أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد ـ كما قال الرازىّ ـ أن أهل الحقّ فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبلُ . أجيب : بأن (عاد) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسل ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسل ، وبشارة حقة . كما قال تعالى[1] : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى[2] : (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا) والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في (ذلك) إلى الموحَى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله (لِمَنْ خَافَ . . .) الخ أي : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله[3] (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). و (المقام) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أومصدر ميميّ ، بمعنى: حفظي وقيامي لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالي . وياء المتكلم في (وعيدِ) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين: أثبت الياءَ ـ هنا وفي (ق) في موضعين[4] : (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)[5] (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) ـ وصلًا ، وحذفها وقفاً ـ ورشٌ عن نافع . وحذفها الباقون وصلًا ووقفاً .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

«وَاسْتَفْتَحُوا» أي : سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم.

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] و ٢٨ / القصص / ٨٣] .

(٤) [٥٠ / ق / ١٤] . (٥) [٥٠ / ق / ٤٥] .

من (الفتاحة) وهى الحكومة كقوله(1) : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)؛ فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة ، وقيل: للفريقين. فإنهم سألوا أن ينصر المحقّ ويهلك المبطل. وقوله: «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أى: فنصروا وعند استفتاحهم وأفلحوا (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد . أو استفتحوا جميعاً فَنَصَرَ الرسلَ وأَنْجَزَ لَهُم الوعد ، وخاب أعداؤهم . و (الجبار) المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و (العنيد) المعاند للحقّ ، كخليط بمعنى مخالط .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ)

«مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ» جملة فى محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أى : من وراء حياته وانقضاء عمره . « وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ » وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

« يَتَجَرَّعُهُۥ » أى : يتكاف تجرعه لقهره عليه «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ» لخبثه«وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » أى : تحيط به أسبابه من الأهوال ، وما هو بمستريح مما نزل به « وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى : شديد متصل لا ينقطع .

(1) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ)

«مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ » المثل مستعار للصفة التى فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتى كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها ـ كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان ، فى حبوطها ـ لكونها على غير تقوى وإيمان ـ برماد طيرته الريح العاصف . وقوله تعالى (لَّا يَقْدِرُونَ ...) الخ مستأنف فذلكة للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه ، أى : لايقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها ، أى لايرون له أثرا من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير فى الريح ، على شيء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ، مع أن لها عقوبات هائلة ، للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم . وفى توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

(واشتد به) من (شدّ) بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة . أو من (الشدة) بمعنى القوة أى : قويت بملابسة حمله . و (العصف) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على الإسناد المجازىّ ك (نهاره صائم) . وخبر (مثل) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . وجملة (أعمالهم كرماد) مستأنفة جوابا لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل) و (كرماد) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى(١) : (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً) وقوله تعالى(٢) : (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)
وقوله تعالى[١] : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ، لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٢٠] (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ)

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته. أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) ، والرؤية رؤية القلب .

وفى الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سيقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس. أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها ومافيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها[٢] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى[٣] : (أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] .   (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .
(٣) [٣٦ / يس / ٧٧ـ٨١] .

مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ، قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ) .

الوجه الثانى : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره ، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى(١) : (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم) وقوله(٢) : (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) .

وقوله تعالى : « بِٱلْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله(٣) : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا) وقوله(٤) : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا) وقوله(٥) : (مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ، سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » أى : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض ،

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩١] .
(٤) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٥) [١٠ / يونس / ٥] .

وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهروا لذلك « فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ » أى : على الرسل وهم قادتهم ـ توبيخاً لهم ـ « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ » أى : بعض الإغناء . « قَالُواْ » أى : المستكبرون « لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ » إحالة ، لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، أولو هدانا باهتدائنا ، ولكن زغنا فأزاغنا كما قال تعالى[١] : (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) « سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ » أى : منجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى[٢] : (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها لآية[٣] : (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط ، كما ادّعاه. وربما كان قوله (وَبَرَزُواْ) يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِندَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِى ٱلنَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة. والمراد بـ (ٱلنَّارِ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأىّ عذاب !

---

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣١] .
(٣) [٤٠ / غافر / ٤٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ، مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ » وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء « إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ » أى : على ألسنة رسله بأن فى اتباعهم النجاة والسلامة، أى: فوفى به وأنجز « وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ » أى : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا بعث ولا جزاء . ولئن كان، فالأصنام شفعاؤكم. ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه، أو مشاكلة. وفى الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولًا (فوفى به) لدلالة قوله بعدُ (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة (وَعْدَ ٱلْحَقِّ) .

« وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ » أى حجة وبرهان « إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي » أى : أسرعتم لطاعتى بمجرد ذلك ، أى وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه « فَلَا تَلُومُونِي » أى : بوعدى إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر « وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم » أى : حيث استجبتم لى باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشانىّ : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنوّر بنوره، أسلم وأطاع وصار محقًّا عالمًا بأن الحجة للهِ فى دعوته للخلق إلى الحق، لا له . ودعوته إلى الباطل بتسويل الحطام

وتزيين الحياة الدنيا عليهم ـ واهية فارغة عن الحجة. وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقٌّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلّا الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلّا لمن قبلَ الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى (الإكليل) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هـذا إبطال التقليد فى الاعتقاد. قال : وهو انتزاع حسن. لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه، ولم يطلبوا منه برهاناً. فحـكى الله قوله تقبيحاً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِـكُمْ» أى : بمغيثـكم ومنجيكم من العذاب «وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ» أى : مما أنا فيه . قال ابن الأعرابىّ : الصارخ: المستغيث ، والمصْرِخ : المغيث، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته أغثته . فالهمزة للسلب . يعنى أزلت صراخه، وهو مدّ الصوت. «إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» أى: كفرت اليوم بإشرا كـكم إياى من قبل هذا اليوم ـ أى فى الدنيا ـ يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنـكم فلم يبق بينى وبينـكم علاقة كقوله تعالى[1]: (وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَـكْفُرُونَ بِشِرْكِـكُمْ) وقوله[2] (وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ) وقوله[3] : (كَلَّا سَيَـكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَـكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . « إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ابتداء كلام منه تعالى ، أو تتمة كلام الشيطان .

قال الزمخشرىّ: وإنما حكى الله عزّ وعلَا ماسيقوله فى ذلك الوقت، ليـكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لابدّ لهم من الوصول إليـه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا مايخلصهم منه وينجّيهم .

ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وماصاروا إليه من الخزى والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٤]. (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦]. (٣) [١٩ / مريم / ٨٢].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ)

« وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى : الطاعات « جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ » أى: من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن «خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» متعلق بـ (أدخل) أى: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ » أى : تحييهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى[1] : «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ» وقوله[2] (وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم) .

ولما بيّن تعالى ما أعدّ للمشركين والمؤمنين من المآل الأخرويّ ، ضرب مثلًا للشرك والإيمان ـ بأن مآل الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومآل الأول إلى الدمار والاندحار ـ فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ)

[٢٥] (تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها «وَفَرْعُهَا» أى أعلاها ورأسها « فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا»

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية « مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِن قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى الممثل به ـ أعنى الشجرة ـ أوصاف جليلة لتلاحظ فى جانب الممثل له . فمنها : كونها طيبة. أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله. ولا تخفى مطابقة هذا المثّل به للممثل له ـ أعنى الحق ـ وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلهما ، صرح بهما فذلكة له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ، وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ، وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ)

« يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و (بالقول) جوّزوا تعلقه بـ (يثبت) و (آمنوا). والمعنى على الأول: ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم فى سؤال القبر به ، وعلى الثانى فالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عمّا لا يليق بجنابه . و (فى الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزمخشرىّ وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به فى الدنيا ، أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلّوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيّرهم أهوال الحشر . وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سُئِل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . . .) الآية ، رواه الشيخان[1] وأهل السنن .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٤ ـ سورة إبراهيم ، ٢ ـ باب يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم فى: ٥١ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا).

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .

وقال فى أصحاب المثل الثانى :

« وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبّتَ المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء فى غير موضعه، أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ)

[٢٩] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ)

[٣٠] (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ، قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ)

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا » يعنى كفار مكة . أتتهم نعمة الله وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسولٍ من أنفسهم ، فبدلوا شكرها كفراً عظيماً وغمصاً لها « وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهـدى فتابعهم « دَارَ ٱلْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها «يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا» أى من الأوثان فعبدوها « لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديداً لأولئك الضالّين المضلين « تَمَتَّعُواْ » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣١] (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)

«قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ » وهو يوم القيامة « لَّا بَيْعٌ فِيهِ » أى : ليتدارك به التقصير ، أو يفتدى به « وَلَا خِلَالٌ » أى : مخالّة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدى به ، كما قال تعالى(١) : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قِبَل أن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات فيعطون بدلًا ليأخذوا مثله ، وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجرّوا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبعُثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالّة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن (من) متعلقة) بـ (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلًّا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما ـ من أقوى الدواعى إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق فى سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

(١) [٢ / البقرة / ١٢٣] .

ذلك فى الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيصُ التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به. ولا يبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث أن تركها ، كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالّات . كما فى قوله تعالى[1] : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى، وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لنعمه، شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثًّا للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المخلّين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ» أى المزن «مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ» أى تعيشون به «وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ» أى السفن «لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ» أى بإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ» أى فتجرى حيث تشاءون من شرب وسقى وسواها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ)

«وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ» أى يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفة ، لمعاشكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ، إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعايشكم به . فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال .

وقال القاشانىّ : (مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) بألسنة استعداداتكم . فإن كل شىء يسأله بلسان استعداده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » لعدم تناهيها « إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أوحق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن المنعم عليه بها ، واحتجابه بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ » أى اذكر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ماسلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فنٍّ آخر من جناياتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرّفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرمًا آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أندادًا وفعلوا ما فعلوا .

« رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « ءَامِناً » أى ذا أمن . أو آمناً أهله . « وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ » أى بعّدنى وإياهم « أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ، فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ » أى كنّ سبباً فى إضلالهم . كما يقال : فتنتهم الدنيا وغرّتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإنما صدره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَن تَبِعَنِي » أى على ملتى وكان حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي » أى نخالف ملتى « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الغنىّ عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

« رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولد منه

« بِوَادٍ » هو وادى مكة « غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع « عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » أى لكى يأتوا بعبادتك مقوّمة فى ذلك الموضع. وهو متعلق بـ (أَسْكَنتُ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقيموا الصلاة عندبيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك. وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً . فيأنسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع « وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى فتجلبها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » أى: نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاةفيها، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ)

« رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ » لأن الكل خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)(١).

قال الزمخشرىّ : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، منا. وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذللًا لعزتك ، وافتقارًا إلى ماعندك، واستعجالًا لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتملق العبد بين يدى سيده رغبة فى إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح. فأراد أن يذكّره فقال: مثلك لا يذكّر استقصارًا ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين . ولـكنّ ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتـكلم فيها . انتهى .

وجُوِّز فى قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ، إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابى « إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ » أى مجيبه .

قال الزمخشرىّ : وإنما ذكر حال الكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ،من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفرُ بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجلّ النعم وأحلاها فى نفس الظافر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ)

«رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » أى عبادتى . كذا فى (التنوير) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ)

« رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم. قرئ (ولوالدِى) . بالإفراد . وكأنّ هذا قبل تبين أمره له عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة .أى لا تحسبه، إذا أنظرهم وأجّلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم. بل هو يحصيه عليهم ويعدّه عليهم عدًّا . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى بإمهالهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يعجل عقوبتهم « لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرّ أعينهم فى أماكنها ولا تطرف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ)

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعِى الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية قيامهم من قبورهم ، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى[١] (مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ) وقوله[٢] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا) .

(١) [٥٤ / القمر / ٨] . (٢) ٧٠ / المعارج / ٤٣] .

« مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لا يطرفون. ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ » أى لاقوة فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشرىّ : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان هواء ، إذا كان جبانا لاقوة فى قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضا : قلبه هواء . والمعنى: أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء . من هول ذلك اليوم وشدته وخوف مايقع فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ، أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)

قوله « وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ » أى رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا « إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من الزمان قريب « نُّجِبْ دَعْوَتَكَ » أى إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنى . « وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : أولم تكونوا تحلفون « مِّن قَبْلُ » يعنى فى الدنيا « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » أى من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . كقوله تعالى[1] (وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ) .

---

(١) [١٦ / النحل /٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ » كعاد وثمود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُواْ » أى بالنبىّ صلوات الله عليه « مَكْرَهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ » أى مُسَوًّى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها ، لتناهى شدّته .

وجوّز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها. والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أن الجبال مثل (أى استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعه . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً . وينصره قراءة ابن مسعود : (وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ) . وقرئ (لَتَزُولُ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ)

« فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ » أى من نصرهم المبين فى قوله تعالى[١] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا) (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ)[٢] . (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ)[٣] الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنىّ بالوعد هنا عذابهم الأخروىّ المتقدم فى قوله تعالى[٤] (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين فى مثل الآية الأخيرة والأولين، فى معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوثر تقديم المفعول الثانى، أعنى (وعده)، على الأول وهو (رسله) للإيذان بالعناية به . فإن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على ألسنة الرسل . فالمهمّ فى التهديد ذكر الوعيد . كذا فى (الانتصاف) .

وفى (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وماذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقى كما فى قوله[٥] (رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى) . « إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ » أى غالب لايماكر « ذُو ٱنتِقَامٍ » من أعدائه ، نصراً لأوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ، وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ)

« يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوّى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وتبدل السموات

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .
(٣) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٤٢]. (٥) [٢٠ / طه / ٢٥].

بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و (يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ (اذكر) أو (لايخلف وعده) .

« وَبَرَزُواْ » أى الخلائق أو الظالمون من أجداثهم « لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من (يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلّاب ، كان فى غاية الشدة والصعوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ)

« وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ » جمع (مقرّن) وهو من جمع فى قَرَن (بفتحتين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى[1] : (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ) . وقال[2] : (وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو: قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى[3] : (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِى ٱلْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَد (بفتحتين) بمعنى القيد أو الغل . والقيدُ هو الذى يوضع فى الرجل . والغُل (بالضم) ما فى اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجارّ متعلق بـ (مُقَرَّنِينَ) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٢) [٨١ / التكوير / ٧] .
(٣) [١٩ / مريم / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

« سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره مايوجد منظرًا عند العرب. وهو الإبل الجربى التى تطلى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود منتن الريح .

قال الزمخشرىّ : تطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران ، وحرقته ، وإسراع النار فى جلودهم، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النـــارين . وكلُّ ما وعده الله وأوعد به فى الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لايقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم: مارواه الإمام أحمد(١) ومسلم(٢) عن أبى مالك الأشعرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركوهن : الفخر بالأحساب . والطعن فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت. والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلغاء الخوارزمىّ أنفذها لمن شكا إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة. كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة. وعلة تدل على تضييع واجب النفس من التعهد.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس(طبعة الحلبىّ).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ (طبعتنا).

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المُنّة فى التوقى . أسير فى يد الحرص والتشهى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تـكسب صاحبها خزيا وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء. ينظر إلى الناس بعين المريب. ويتستر عنهم كتستر المعيب. تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن مواكلته العيون . وأقل مايصيبه أنه يحرم آلة المطاعم وهى يداه . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتها . ومن عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان. وتجعله أمّيًّا بعد أن كان غير أمّىّ . وأعجميّا وليس بأعجمىّ . تنفر عن نفسه نفسُه . وتهرب من فراشه عرسُه . ويتباعد عنـه أقرب الناس منه . ثم هى رُبْع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذكَ الله من أشياءَ أربعةٍ : الموتُ والعشقُ والإفلاسُ والجَرَبُ

وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال . قال أبو تمام(١) :

لما رأت أختَها بالأمس قد خَرِبَتْ كان الخرابُ لها أعْدَى من الْجَرَبِ

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان (طبعة بيروت) .
والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .
والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدق إنباءً من الـكُتُبِ فى حَدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .
قال الخطيب التبريزىّ ، شارح الديوان :
الهاء فى (أختها) راجعة على عَمُّوريَّة . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خَرِبَتْ ، وهى أخت عموريَّة ، أعدتها بالجَرَب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد[١] :

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافِهِمْ وبقيتُ فى خلْف كجلْدِ الأَجْرَبِ

فجعله رأس الأدواء . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ » أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال[٢] (تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ) ولكونها مجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزمخشرىّ وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)

« لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام. أو عامّ للبرة والفاجرة. وعليه فيجوز تعلقه بقوله (وَبَرَزُوا۟) وما بينهما اعتراض أو بـ (ترى) « إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم. كقوله[٣] (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ) أو المعنى سريع حسابه أى مجيئه كقوله[٤] (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ). وقوله تعالى :

---

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضِّ اللُّبانةَ لَا أَبَا لَكَ واذهبِ والحق بأسرتِك الكرامِ الغُيَّبِ

يرثى بها أخاه لأمه ، أربد .

يقال : خلَف خير ، وخَلْف سوء .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ٧]. (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« هَـٰذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ » أى ليخوّفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو. وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به ، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشرىّ : (وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٥ ـ سورة الحجر

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى[1] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله، بأدنى وجوه المؤاخذة، مع غاية تحصنهم. ففيه غاية تعظيم الرسل والآيات. وهو من أعظم مقاصد القرآن: أفاده المهايميّ، وهى مكية وآياتها تسع وتسعون.

(١) [١٥ / الحجر / ٨٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ)

« الر » تقدم الكلام فى مثله « تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى (الر) لأنه اسم للسورة أى تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والغىّ . من (أبان) المتعدى . أو الظاهر معانيه أو أمْر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من (أبان) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير (قرآن) . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ)

« رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ » . تبشير للنبىّ ﷺ بظهور دينه . وأنه سوف يأتى أيام يتمنى الكافرون بها ، أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين . لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين . لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين (لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً)(١) وفيه تثبيت للنبىّ ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها ، لما أن العاقبة له . وإنما جىء بصيغة التقليل ، جرياً على مذهب العرب فى قولهم : لعلك ستندم على فعلك . ترفعاً واستغناءً عن التصريح بالغرض ، بناءً على ادعاء ظهوره .

---

(١) [٥٧ / الحديد / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ » أى بدنياهم وتنفيذ شهواتهم « وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ » أى يشغلهم عن التوبة والتذكر ، أملَ استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيرًا فى المآل « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشرىّ : فيه تنبيه .

ثم بيّن تعالى سر تأخير عذابهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ)

« وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ » أى أجل مقدّر ليتأمّل فى أسباب الهلاك ليتخلص عنها ، وذلك بما قام من الحجة عليها ، بتقدم الإنذار وتكرّره على سمعهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ)

« مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى لا تهلك قبله « وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ » أى عنه ، للزوم الحجة وارتفاع الأعذار . ثم أخبر تعالى عن عتوّهم فى كفرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)

« وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » أى يا أيها المدعى ذلك ! إنك لمجنون فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا . أو فى دعواك تنزيل الذكر . أو نادوه بذلك استهزاء وتهكما . أو هو من كلامه تعالى تبرئة له عما نسبوه إليه من أول الأمر.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[٨] (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ)

« لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » أى هلّا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك كقولهم[١] : (لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا) . وقول فرعون[٢] : (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) .

ثم أشار إلى جواب مقالهم ، وردّ مقترحهم بقوله تعالى : « مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ » أى عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الحكمة التى جرت بها السنّة الإلهية، وهو العذاب « وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ » أى مؤخّرين . كقوله تعالى[٣] : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) .

ثم أشار إلى ردّ إنكارهم التنزيل مع تسليةٍ وبشارة عظيمة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » أى مِن كل مَنْ بغى له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسرى ، وبحر هداه يجرى ، وظلال حقّيّته فى علومه تمتد على الآفاق ،

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٣] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٢١و٢٢] .

ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغما عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين[١] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ وفى إيراد الجملة الثانية اسمية ، دلالة على دوام الحفظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴾

[١١] ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا » أى رسلا « مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ » أى فرقهم وطوائفهم. جمع (شيعة) وهى الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة . و (الأولين) نعت لمحذوف . أى الأمم. أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف. « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى كما يفعله هؤلاء المشركون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

[١٣] ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

« كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ » أى الذكر المنزل « فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين . وقوله : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالذكر . حال من ضمير (نسلكه) أى مكذَّباً مستهزأً به غير مقبول .

قال الزمخشريّ : كما لو أنزلتَ بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام . تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوّز فى ضمير (نسلكه) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى :

(١) [٦١ / الصف / ٨] .

« وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ » استئناف جيء به تـكملة للتسلية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أى قد مضت السنة فيهم من هلاكهم . وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل ، وغلبة جنود المؤمنين عليهم ، واستعمارهم ديارهم . ثم بيّن تعالى أنهم لايتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتتهم الآيات التى تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ)

[١٥] (لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم » أى على هؤلاء المستهزئين « بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ » أى فصاروا طول نهارهم « فِيهِ يَعْرُجُونَ » أى يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب «لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا» أى حيّرت أوحبست من الإبصار، ومانراه شيء نتخايله لاحقيقة له « بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

قال الناصر فى (الانتصاف) : المراد ، والله أعلم ، يعنى من الآيتين ، إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائها. كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء . كلٌّ على علمٍ وفهمٍ(١) (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم مافهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم فى مهلة وإمكان ، أنهم ما كفروا إلا على علم. معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم. ولذلك عقبه تعالى بقوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم) الآية. أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك فى قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم

(١) [٨ / الأنفال/ ٤٢] .

أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهارا .

وإلى ذلك الإشارة بقوله (فَظَلُّواْ) لأن الظلول إنما يكون نهاراً . لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا) وسحرنا محمد. وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم فى التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين . لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدد والإصرار ، لاغير . والله أعلم .

ثم بنى تعالى دلائل وحدته وعظمته وقدرته الباهرة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ)

[١٧] (وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ)

[١٨] (إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا » جمع (برج) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثنى عشر التى تنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج فى الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها. فإن النجوم هيا كل نخيمة عظيمة « وَزَيَّنَّٰهَا » أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية « لِلنَّٰظِرِينَ » أى إلى حركاتها وأضوائها. أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته «وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ » أى اختلس « ٱلسَّمْعَ » أى من الملائكة السماوية « فَأَتْبَعَهُۥ » أى تبعه ولحقه « شِهَابٌ مُّبِينٌ » أى لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ)

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أى بسطناها « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أى جبالا ثوابت «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ» أى وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان . أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون .

وقد ذكر الشريف المرتضى فى (الدرر)[1] : أن العرب استعملته بهذا المعنى. كقول عمر ابن أبى ربيعة .

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مما تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ يُوزَنُ وَزْنَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)

[٢١] (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

« وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » أى ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورة الحياة «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ» أى من الأنعام والدواب وما أشبهها. قال القاضى : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين، مختلفة الأجزاء فى الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتناهى حكمته والتفرد فى الألوهية والامتنان على العباد ، بما أنعم عليهم فى ذلك ، ليوحّدوه ويعبدوه . ثم بالغ فى ذلك وقال : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

(١) انظر أمالى المرتضى (ج ١ ص ١٤ طبعة الحلبىّ) .
والبيت قائله مالك بن أسماء بن خارجة الفزارىّ . وفيه :
(ينعت الناعتون) عوضاً عن (تشتهيه النفوس) .

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ » أى وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبَّه اقتداره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدّة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجه إلا بقدر معلوم . استعارة تمثيلية . أو شبّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . استعارة مكنية . ومعنى (نُنَزِّلُهُۥٓ) أى نوجده ونخرجه فى عالم الشهادة . والقدر المعلوم الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ)

[٢٣] (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ)

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ » أى تلقح السحاب أى تجعلها حوامل بالماء . وذلك أن السحاب بخار يصير ، بإصابته الهواء البارد ، حوامل للماء . قاله المهايمىّ . فاللواقح ، عليه ، جمع (مقلح) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بِجَرْيِ مائها فيه أو تنميته ليثمر ويزهو . وجوّز كون اللواقح جمع (لاقح) وهى الناقة الحامل . فشبهت الريح التى تجيء بالمزن المطرة، بها . كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ (العقيم) فيقال : ريح عقيم . « فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ » أى بقادرين على إيجاده وإنزاله . و (الخزن) اتخاذ الخزائن ، يستعار للقدرة ، كما مرّ . أو بحافظين له فى أمكنة ينابيعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلكه ينابيع فى الأرض وجعله عذباً ورحم العباد بسقياه « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ » أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقى : وارث ، استعارة من (وارث الميت) لأنه يبقى بعد فنائه . ومنه قوله[١] صلوات الله عليه فى دعائه : واجعله الوارث منا . كذا فى (الكشاف) .

(١) لم أقف على هذا الحديث .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ)

[٢٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ، إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

« وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ » أى من تقدم ولادةً وموتاً . ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعدُ . أومن تقدم فى الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر . لا يخفى علينا شىء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته ؛ فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وفى تكرير قوله (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) من كمال التأكيد ما لا يخفى « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » أى الأولين والآخرين على كثرتهم « إِنَّهُۥ حَكِيمٌ » أى يدبر أمرهم فى الحشر على وفق الحكمة « عَلِيمٌ » أى بكل ما فيهم من خفايا الصفات الذميمة[١] (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

[٢٧] (وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ » يعنى آدمَ « مِن صَلْصَـٰلٍ » أى طين يابس مصوِّت « مِّنْ حَمَإٍ » صفة لصلصال . أى كائن من طين متغير مسود « مَّسْنُونٍ » أى مصوَّر من (سنة الوجه) وهى صورته . أومصبوب، من (سنّ الماء) صبَّه . أى مفرغ على هيئة الإنسان. كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل . ثم صيَّره جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه « وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ » أى من قبل الإنسان .

« مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ » أى من نار الريح الشديد الحرّ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٩] .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين . فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

[٢٩] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ » أي عدلت خلقته وأكملتها « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أي تحية له وتعظيماً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٣١] (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٢] (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)

[٣٣] (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)

« فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ».

يعني : وقد خلقتني من نار فأنا خير منه . كما صرح به في آية غيرها . وفي تكرير قوله : (مِنْ صَلْصَالٍ) الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ، ليكون كابحاً من جماح غوايته ، وشدة تمرده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

[٣٥] (وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ)

[٣٦] (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[٣٧] (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ)

[٣٨] (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ)

« قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا » أى من زمرة الملائكة المعززين « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرجم بالحجارة . أو شيطان يرجم بالشهب . وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون . أفاده أبو السعود .

« وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ » أى الجزاء. وهو يوم القيامة « قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ » وهو يوم البعث.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ)

« قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ » أى المعاصى « فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصتهم لطاعتك وجردتهم بالتوجه إليك . وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لك وأعمالهم من غير حظ لغيرك فيها .

« قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » أى حق نهجه ومراعاته لا اعوجاج فيه . وهو أن لاسلطان لك على عبادى المخلصين ، إلا الذين يناسبونك فى الغواية والبعد عن صراطى ، فيتبعونك كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٢] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ)

[٤٣] (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤٤] (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ » أى قهر على الإغراء .

« إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ » أى المطبوعين على الغواية « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » قال المهايمىّ : لأن غوايتهم إنما كانت بترك متابعة الدليل مع متابعة الأهوية الباطلة ، لغلبتها عليهم « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ » أى الغواة « جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » أى حزب معين مفرز من غيره ، حسبما يقتضيه استعداده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[٤٦] (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ)

[٤٧] (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ)

[٤٨] (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا » أى يقال لهم ادخلوها « بِسَلَٰمٍ » أى سالمين أومسلما عليكم « ءَامِنِينَ » أى من الآفات والزوال « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ

غِلٍّ » أى حقد كان فى الدنيا، لبعضهم على بعض « إِخْوَٰنًا » حال من فاعل (ٱدْخُلُوهَا) أو الضمير فى (آمنين) «عَلَىٰ سُرُرٍ» أى مراتب عالية «مُّتَقَٰبِلِينَ» لتساوى درجاتهم وتقارب مراتبهم ، فيتلذذ بعضهم برؤية وجه بعض « مُّتَقَٰبِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ » لسرمدية مقامهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

[٥٠] (وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ)

[٥١] (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ)

[٥٢] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ)

« نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً «وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ» أى لمن لم يتب من كفره. والجملة فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له . « وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ » أى عن نبئه . والضيف كالزَّور ، يقع على الواحد والجمع .

قال فى الكشاف : عطف (وَنَبِّئْهُمْ) على (نَبِّئْ عِبَادِىٓ) ليتخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط ، عبرة يعتبرون بها سخطَ الله وانتقامَه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم « إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ » أى خائفون . وذلك لما رأى أيديهم لاتصل إلى طعامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ)

[٥٤] (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ)

[٥٥] (قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ)

[٥٦] (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ)

«قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ» أى مع مسّ الكبر بأن يولد لى ، والكبر مانع منه « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » قال الزمخشرىّ : هى (ما) الاستفهامية دخلها معنى التعجب. كأنه قال: فبأى أعجوبة تبشرونى. أو أراد إنكم تبشروننى بما هو غير متصوَّر فى العادة . فبأى شىء تبشرون ؟ يعنى لا تبشرونى فى الحقيقة بشىء . لأن البشارة بمثل هذا ، بشارة بغير شىء .

«قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ» أى الآيسين من ذلك. « قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ » يعنى لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ، ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجراها الله تعالى. والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٥٨] (قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٥٩] (إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٦٠] (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ)

« قَالَ » أى إبراهيم ، بعد أن ذهب عنه الروع « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم الخطير

الذى لأجله أرسلتم ، سوى البشارة « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى إلى إهلاكهم . يعنون قوم لوط « إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » أى الباقين مع الكفرة ، لتهلك معهم . وإسناد التقدير لهم مجازىّ من باب قول خواصّ الملك (دبرنا كذا وأمرنا بكذا) وإنما يعنون دبر الملك وأمر . هذا إذا كان (قدرنا) بمعنى أردنا وقضينا . وإن كان بمعنى علمنا ، فلا غرو فى علم الملائكة ذلك ، بإخباره تعالى إياهم به .

ومن الناس من يجعل « قدرنا » من كلامه تعالى ، غير محكىّ عن الملائكة . قال فى (الانتصاف) وهو الظاهر لاستغنائه عن التأويل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٦٢] (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)

[٦٣] (قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٦٤] (وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)

« فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ » أى لا أعرفكم ولا أدرى من أى الأقوام أنتم وما أقدمكم .

وقال المهايمىّ : أى يخاف منكم تارة وعليكم أخرى . والظاهر أنه قال ذلك لهم ، بعد معاناته الشدائد من قومه لأجلهم. كما فصل فى سورة هود « قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ » أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به ، فيمرّون به ، ويكذّبونك « وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ » أى اليقين مع هلاكهم « وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)

[٦٦] (وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)

[٦٧] (وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ)

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » أى فاذهب بهم فى الليل « بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ » أى فى طائفة منه وهى آخره « وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ » أى كن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم « وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ » أى لينظر ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه « وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » أى يستأصلون عن آخرهم ، حال كونهم داخلين فى الصبح « وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ » أى مدينة لوط ، وهى سدوم « يَسْتَبْشِرُونَ » أى بأضيافه ، طمعاً فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ)

[٦٩] (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)

[٧٠] (قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٧١] (قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ)

[٧٢] (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[٧٣] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

[٧٤] (فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)

[٧٥] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)

[٧٦] (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

[٧٧] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ » أي بالإساءة إليهم . فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ » أي عن أن تجير أحداً منهم أو تدفع عنهم أو تمنع بيننا وبينهم . فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم ﷺ بالنهي عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرّض له . فأوعدوه وقالوا(١) : (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) أفاده الزمخشريّ .

« قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ » تقدم الكلام عليه في سورة هود ، مفصلاً « لَعَمْرُكَ » قسم بحياة النبيّ ﷺ ، اعترض به تعباً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب « إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ » أي غفلتهم التي ذهبت معها أحلامهم « يَعْمَهُونَ » أي يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم. ولما لم يسمعوا منه، النصيحة المبقية لهم، أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم . « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » أي صيحة العذاب « مُشْرِقِينَ » أي داخلين في وقت شروق الشمس « فَجَعَلْنَا » أي من تلك الصيحة المحرّكة للأرض « عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا » قال المهايميّ لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ » أي طين متحجر، لرجمهم على لواطهم « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » أي الناظرين بطريق في الآيات « وَإِنَّهَا » يعني

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٦٧] .

مدينة قوم لوط المدمَّرة « لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » أى ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعدُ ، وهم يبصرون تلك الآثار .

قال الزمخشريّ : وهو تنبيه لقريش، كقوله[1] (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى فى هلاكهم لعبرة لهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن القيّم : فى (أقسام القرآن) : أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا ـ أن هذا ، يعنى قوله تعالى (لَعَمْرُكَ) قسم من الله بحياة رسوله ﷺ . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الربُّ عز وجل بحياته . وهذه مزية لاتعرف لغيره. ولم يوفق الزمخشريّ لذلك . فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة. فقال : هو على إرادة القول . أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : (لعمرك ...) الآية وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن مافهمه السلف أطيب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لعمرك) أى حياتك . قال: وما أقسم الله تعالى بحياة نبيّ غيره . والعَمر والعُمر واحد . إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف ، لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضا فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم أهلٌ أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بنى آدم. ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات . فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم

(١) [٣٧ / الصافات / ١٣٧ و ١٣٨] .

قال ابن القيّم : وإنمـــا وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

سُكْرَانِ: سُكْرُ هَوًى وسُكْر مُدَامَةٍ   ومتى إفاقةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ ؟

الثانى ـ قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) .قال السيوطىّ فى (الإكليل): هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذىّ من حديث أبى سعيد مرفوعاً[1] : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة فى الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانىّ فى كتاب (الذريعة) حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله .

وربما يقال : هى صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله[2] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) ، وقوله[3] (تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ) وقوله[4] (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ولفظها من قولهم (فَرَسَ السبعُ الشاةَ) فكأنّ الفراسة اختلاس المعارف . وذلك ضربان: ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحى . وإياه عنى النبىّ ﷺ بقوله[5] (المؤمن

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل .   (٢) [١٥ / الحجر / ٧٥] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٧٣] .   (٤) [٤٧ / محمد ﷺ ٣٠] .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١٥ ـ سورة الحجر ، ٦ ـ باب حدثنا محمد بن إسماعيل ، عن أبى سعيد الخدرىّ ، من حديث .

ينظر بنور الله) وهو الذى يسمى صاحبه المروّع والمحدَّث . وقال عليه الصلاة والسلام[١] (إن يكن فى هذه الأمة محدَّث ، فهو عمر) .

وقيل فى قوله تعالى[٢] : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ) الآية : إنما كان وحيا بإلقائه فى الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل[٣] : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقد يكون بإلهام فى حال اليقظة وقد يكون فى حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام[٤] (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) .

والضرب الثانى من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل فى ذلك كتب . من تتبع الصحيح منها ، اطّلع على صدق ما ضمنوه . والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومَن قوى فيه نورُ الروح المذكور فى قوله تعالى[٥] : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) كان ممن وصفه بقوله[٦] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) وكان ذلك النور شاهدا ، أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام[٧] فى المتلاعنيْن (إن أمرهما بيّن ، لولا حكم الله) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ، أبى حفص القرشىّ ، العدوىّ ، رضى الله عنه ، الحديث رقم ١٦٢٨ عن أبى هريرة . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥١] . (٣) [٢٦/الشعراء / ١٩٣ و ١٩٤] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٢ ـ باب رؤيا الصالحين ، الحديث رقم ٢٥٣٦ ، عن أنس بن مالك . (٥) [١٥ / الحجر / ٢٩] و [٣٨ / ص / ٧٢] .

(٦) [١١/هود / ١٧] . (٧) لعله يشير إلى الحديث الذى رواه البخارىّ عن ابن عباس فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣١ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لو كنت راجماً بغير بينة ، حديث رقم ٢١٦٣ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ)

[٧٩] (فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ)

[٨٠] (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٨١] (وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

«وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ» (إِنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف . أى : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة . وهم قوم شعيب عليه السلام. كانوا يسكنون أيكة ، وهى بقعة كثيرة الأشجار، فظلموا بأنواع من الظلم، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه. «فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ» أى بعذاب الظلة ، وهى سحابة أظلتهم بنار تقاذفت منها ، فأحرقتهم « وَإِنَّهُمَا » يعنى قرى قوم لوط والأيكة « لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » أى طريق واضح. وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان . ولهذا لما أنذرهم شعيب قال[١] (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) .

« وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ » يعنى ثمود ، كذبوا صالحاً عليه السلام . ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ، فقد كذب الجميع . لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار . و (الحجر) واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه . معروف ، يجتازه ركب الحج الشامىّ .

« وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ » يعنى بالآيات ما دلهم على صدق دعوى نبيّهم . كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء . وكانت تسرح فى بلادهم .

---

(١) [١١ / هود / ٨٩] .

(لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)[١] فلما عتوا وعقروها ، قال[٢] (تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ)

[٨٣] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)

[٨٤] (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

[٨٥] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ ، فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ)

[٨٦] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ)

[٨٧] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ)

«وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ» أى من حوادث الدهر « فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» أى وقت الصباح من اليوم الرابع. وفى سورة الأعراف[٣] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) أى الزلزلة وهى من توابع الصيحة . أو هى مجاز عنها .

« فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم فى المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال لما جاء أمره تعالى «وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التى لا تقبل التغير . وهى الاستدلال بها على الصانع وصفاته

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] . (٢) [١١ / هود / ٦٥] .
(٣) [٧ / الأعراف / ٧٨] .

وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد . ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . « وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ » أى فيجزى كلًّا بما كانوا يعملون « فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ » أى عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله[1] (فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ » تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة. فإنه الخلّاق الذى لا يعجزه خلق شىء ، العليم بما تمزّق من الأجساد وتفرق فى سائر أقطار الأرض كقوله تعالى[2] (أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ) .

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ » قال الرازىّ : إنه تعالى لما صبّره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التى خصه بها . لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز .

(والسبع المثانى) هو القرآن كله كما قاله ابن عباس فى رواية طاوس . لقوله تعالى[3] (كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ) والواو فى قوله : (وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) لعطف الصفة كقول الشاعر[4] :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبة فى المُزْدَحَمْ

و (السبع) يراد بها الكثرة فى الآحاد . كالسبعين فى العشرات . و (المثانى) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء . فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز . أو مثن على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .
(٤) انظر معانى القرآن للفراء ، ج ١ ص ١٠٥ .
وانظر تفسير الطبرى ص ١٠٠ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد روى عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول، وهذا لم يقصد به. إلا أن اللفظ الكريم يتناولها ، لا أنها هى المَعْنيَّة . كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء. وأما حديث[1] (الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته) عند الشيخين ، فمعناه أنها من السبع ، لعطف قوله (والقرآن العظيم الذى أوتيته) ولو كان القصر على بابه ، لناقضه المعطوف . لاقتضائه أنها هو لا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل مافى القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التى وضعت فيها . كما بينه الإمام مفتى مصر فى (تفسير الفاتحة) فراجعه . هذا ما ظهر لى الآن فى تحقيق الآية .

وللأثَرىّ الواقف مع ظاهر ماصح من الأخبار ، الجازم بأن السبع فى الآية هى الفاتحة لظاهر الحديث ـ أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٨٩] (وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ)

[٩٠] (كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ)

«لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ» يعنى: قد أوتيت النعمة العظمى،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ١ ـ سورة الفاتحة ، ١ ـ باب ماجاء فى فاتحة الكتاب ، حديث ١٩٦١ ، عن أبى سعيد بن المعلّى .

التى كل نعمة وإن عظمت ، فهى إليها حقيرة . وهى القرآن العظيم . فعليك أن تستغنى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ، من زخارف الدنيا وزينتها ، أصنافاً من الكفار متمنيالها. فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته . وفى التعبير عما أوتوه (بالمتاع) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

« وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى لعدم إيمانهم ، المرجوّ بسببه تقوّى ضعفاء المسلمين بهم « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم . وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

« وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » أى المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن « كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » أى مثل ماأنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ماأنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فالاقتسام من (القسم) لامن القسمة .

وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْءَانَ عِضِينَ)

[٩٢] (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٩٣] (عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْءَانَ عِضِينَ » أى أجزاء جمع (عضة) يعنى كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره « فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى من التقسيم فنجازيهم عليه . وجوز تعلق (كَمَآ) بقوله:

(لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ) أى لنسألنهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون (كما) رأس آية و (المقتسمون) حينئذ ، إما مَن تقدم ، أو المشركون . ويعنى بالإنزال عليهم إنزال الهداية التى أبَوْها ، وجوّز جعل الموصول مفعولاً أول للنذير ، أو لما دلّ عليه من أنذر . أى النذير . أو أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوّز جعل (كما) متعلقاً بقوله تعالى (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ) أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزءوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أى قسموا ما قرءوا من كتبهم وحرفوه . فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[٩٥] (إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ)

[٩٦] (ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » أمر من (الصدع) بمعنى الإظهار والجهر ، من (انصداع الفجر) .أو من (صدع الزجاجة) ونحوها وهو تفريق أجزائها . أى: افرق بين الحق والباطل «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ» أى الذين يرومون صدك عن التبليغ، فلا تبال بهم «إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ » أى حَفِظْنَاكَ مِنْ شَرِّهم ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ،له صلوات الله عليه، لينهض بالصدع نهضةَ من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى[1]: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ) .

(١) [٥ / المائدة / ٦٧] .

« ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ » وصفهم بذلك، تسلية له عليه الصلاة والسلام، وتهوينا للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التى هى أكبر الكبائر ، التى سيخذلون بسببها . كما قال « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة أمرهم . وقد جوّز فى الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعا بتقدير (هم) . وفى الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى (إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ) عنى به ما عجله من إهلاكهم، كما روى ابن إسحق عن عروة: أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر . وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم : من بنى أسد أبو زمعة، كان النبىّ ﷺ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه . فقال: اللهم! أعم بصره وأثكله ولده . ومن بنى زهرة الأسود . ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم العاص بن وائل. ومن خزاعة الحارث. فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى[1]: (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) إلى قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) قال ابن إسحق عن عروة : إن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت . فقام وقام رسول الله إلى جنبه . فمر به الأسود فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين . فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت فى أخمص قدمه . ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .

ومثله ما رواه ابن مسعود[2] : قال : كنا مع رسول الله ﷺ نصلى فى ظل الكعبة .

(١) [١٥ / الحجر / ٩٤] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٦٩ـ باب إذا ألقى على ظهر المصلِّى قذر أو جيفة ، حديث ١٧٩ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، ٣٩ ـ باب مالقى النبىّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، حديث ١٠٧ (طبعتنا) .

وناس من قريش وأبو جهل قد نحروا جزوراً فى ناحية مكة: فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه . فلما انصرف قال : اللهم ! عليك بقريش وبأبى جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : فلقد رأيتهم قتلى فى قليب بدر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)

[٩٨] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ)

[٩٩] (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ)

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ » لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ، أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون. لأن الجبلّة البشرية والمزاج الإنسانىّ يقتضى ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن . وذلك بما أمره من التسبيح والتحميد والصلاة . كما قال تعالى(١) : (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ـ) وقال(٢) : (أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) ومعلوم أن فى الإقبال على ما ذكر ، استنزال الإمداد الربانىّ بالنصر والمعونة .لقوله(٣) : (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ).وقوله(٤): (فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ) وقوله(٥) (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) .

---

(٣) [٢ البقرة / ٤٥] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٥٣] و [٨ / الأنفال / ٤٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٥٢].

(٥) [١٦ / النحل / ١٢٨] .

وقدروى في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، تأويلا لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسلية . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلة الحكم ، أعني الأمر بالتسبيح والحمد. والمراد من (الساجدين) المصلين . من إطلاق الجزء على الكل . و (اليقين) : الموت . فإنه متيقن اللحوق بكل حيّ مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ، للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه. والمعنى دُمْ على العبادة ما دمت حيًّا. كقوله تعالى في سورة مريم[1] (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) .

وقيل : المراد بـ(اليقين) تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولاريب أنه من المتيقن. إلا أن إرادة الموت منه ، أولى . يدلّ له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : (قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ) وما في الصحيح[3] عن أم العلاء ، امرأة من الأنصار ؛ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك ، أبا السائب ! فشهادتي عليك ، لقد أكرمك الله! فقال رسول الله ﷺ: ومايدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير .

---

(١) [١٩ / مريم / ٣١] . (٢) [٧٤ / المدثر / ٤٣ ـ ٤٧] .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٢٣ـ كتاب الجنائز، ٣ ـ باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أُدرج في كفنه ، الحديث رقم ٦٦٦ (والحديث من إفراد البخاريّ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية الكريمة وهى قوله ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ على أن العبادة، كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً، كما فى صحيح البخارىّ(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال : صلِّ قائماً . فإن لم تستطع فقاعداً. فإن لم تستطع فعلى جنب . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة . فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا ، مع هذا ، أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة ، ١٧ ـ باب صلاة القاعد ، حديث رقم ٦١١ (والحديث من أفراد البخارىّ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦ - سورة النحل

سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى[١] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ) المشير إلى أنه لا يبعد أن يلهم الله عز وجل بعض خواص عباده، أن يستخرجوا الفوائد الحلوة الشافية من هـذا الـكتاب. بحمل كلماته على مواضع الشرف، وعلى المعانى المثمرة، وعلى التصرفات العالية. مع تحصيل الأخـلاق الفاضلة وسلوك سبيل التصفية والتزكية. وهذا أكمل ما يعرف به فضائل القرآن ويدرك به مقاصده. قاله المهايمىّ.

وقال بعضهم: تسمية السورة بذلك تسمية بالأمر المهمّ. ليتفطن الغرض الذى يرمى إليه. كـ(الجمعة) لأهمية الاجتماع الأسبوعىّ وما يَنْجِمُ عنه من مصالح الأمور العامة، والحديد لمنافعه العظيمة. و(النحل). و(العنـكبوت). و(النمل). للتفطن لصغار الحيوانات الحـكيمة الصنائع. وهكذا. وسيأتى طرف من حكمة النحل وأسراره عند آيته فى هذه السورة.

وهى مكية. واستثنى ابن عباس آخرها. وعن الشعبىّ إلا قوله تعالى[٢] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ) الآيات وعن الشعبىّ: إلا قوله تعالى[٣] (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ) الآيات. وآيها مائة وثمان وعشرون.

وعن قتادة: تسمى سورة النعم. وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده.

---

(١) [١٦ / النحل / ٦٨]. (٢) [١٦ / النحل / ١٢٦]. (٣) [١٦ / النحل / ٤١].

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

«أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تقرر فى غير ما آية، أن المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو إهلاكهم . كما فعل يوم بدر ، استهزاء وتكذيباً بالوعد . فقيل لهم (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ) أى ما توعدونه مما ذكر . والتعبير عنه بـ(أمر الله) للتفخيم والتهويل . وللإيذان بأن تحققه فى نفسه وإتيانه، منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب . وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه ، على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع. أو عن إتيان مباديه القريبة ، على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات . والآية كقوله تعالى[١] : (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) وقوله[٢] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ) وقوله[٣] : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ . وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ماسواه ، من الأوثان والأنداد ، الذى أفضى بهم إلى الاستهزاء والعناد ، واعتقاد أنها شفعاؤهم إذا جاء الميعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ)

«يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ

(١) [٢١ / الأنبياء / ١] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] . (٣) [٢٩/ العنكبوت/ ٥٣].

لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ » ردٌّ لاستبعادهم النبوة ، بأن ذلك سنة له تعالى. ولذا ذكر صيغة الاستقبال كقوله تعالى[1] (يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) وقوله[2] (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ)والروح هو الوحى، الذى من جملته القرآن. لقوله تعالى[3] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة . فإنه يحي القلوب الميتة بالجهل و(مِنْ أَمْرِهِۦ) بيان للروح، أو حال منه، أو صفة، أو متعلق بـ (ينزل) . و (من) للسببية و (أَنْ أَنذِرُوٓا۟) بدل من الروح . أى أخبروهم بالتوحيد والتقوى . فقوله (فَٱتَّقُونِ) من جملة المنذر به . أو هو خطاب للمستعجلين ، على طريقة الالتفات . والفاء فصيحة أى إذا كانت سنته تعالى ذلك ، فاتقون ، بما ينافيه من الإشراك وفروعه ، من الاستعجال .

قال الزمخشريّ : ثم دل على وحدانيته ، وأنه لا إله إلا هو ، بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره ، من خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ومايصلحه ، ومالا بد له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه ، وجر أثقاله وسائر حاجاته . وخلق مالا يعلمون من أصناف خلائقه. ومثله متعال عن أن يشرك به غيره ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٤٠ / غافر / ١٥] . (٢) [٢٢ / الحج / ٧٥] .
(٣) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٤] (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

[٥] (وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٦] (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة كما تقدم « تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ » أى مهينة ضعيفة « فَإِذَا هُوَ » بعد تكامله بشراً « خَصِيمٌ مُّبِينٌ » أى مخاصم لخالقه مجادل ، يجحد واحدنيته ويحارب رسله . وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا « وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ » أى لمصالحكم وهى الأزواج الثمانية المفصلة فى سورة الأنعام .

قال الزمخشرىّ : وأكثر ما تقع على الإبل .

« فِيهَا دِفْءٌ » أى ما يدفء أى يسخن به من صوف أو وبر أو شعر ، فيقى البرد « وَمَنَٰفِعُ » أى من نسلها ودرّها وركوب ظهرها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ » أى زينة « حِينَ تُرِيحُونَ » أى تردّونها من مراعيها إلى مراحها (بضم الميم) وهو مقرّها فى دور أهلها بالعشىّ « وَحِينَ تَسْرَحُونَ » أى تخرجونها بالغداة إلى المراعى .

قال الزمخشرىّ : منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها . لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها . لأن الرعيان ، إذا روحوها بالعشىّ ، وسرحوها بالغداة ، فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، أنست أهلها وفرحت أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه[١] (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)[٢] (يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشاً) .

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [٧ / الأعراف / ٢٦] .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . انتهى .

ثم أشار إلى فائدة جامعة للحاجة والزينة فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٨] (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

«وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ» أى أحمالكم «إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ بكسر الشين المعجمة وفتحها . قراءتان وهما لغتان فى معنى (المشقة) أى لم تكونوا بالغيه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم «إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ» أى حيث سخرها لمنافعكم . ثم أشار إلى ما هو أتم فى دفع المشقة وإفادة الزينة ، فقال « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » عطف على (الأنعام) « لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » عطف محل (لتركبوها) فهى مفعول له أو مصدر لمحذوف . أى وتتزينوا بها زينة . أو مصدر واقع موقع الحال من فاعل (تركبوها) أو مفعوله . أى متزينين بها . أو متزينا بها . وسر التصريح باللام فى المعطوف عليه ، دون المعطوف ، هو الإشارة إلى أن المقصود المعتبر الأصلىّ فى الأصناف ، هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل . تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين . وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم . كذا فى (الانتصاف) .

تنبيه :

استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل . قائلين بأن التعليل بالركوب يدل على

أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها . قالوا: ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعـــام . فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل . قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزا ، لـكان ذكرُهُ والامتنانُ به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه . وأجاب المجوّزون لأكلها ، بأنه لا حجة في التعليل بالركوب ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها ، لا ينافي غيره .

ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب . وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية . وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها ، عامَ خيبر. وقد قدمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل. فلو سلمنا أن هذه الآية متمسَّـكاً للقائلين بالتحريم ، لـكانت السنَّة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال. وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل ، أحاديث. منها ما في الصحيحين[1] وغيرهما، من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ، فأكلناه . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذيّ[2] وصححه والنسائيّ[3] وغيرهم من جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيـــل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية . وأخرج أبو داود

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٢٤ ـ باب النحر والذبح ، حديث ٢٢٠٢ .

وأخرجه مسلم في : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث ٣٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه الترمذيّ في: ٢٣ ـ كتاب الأطعمة، ٥ـ باب ما جاء في أكل لحوم الخيل.

(٣) أخرجه النسائيّ في : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٢٩ ـ باب الإذن في أكل لحوم الخيل .

نحوه . وثبت أيضاً في الصحيحين[١] من حديث جابر قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل .

وأما ما أخرجه أبو داود[٢] والنسائيّ[٣] وغيرهما من حديث خالد بن الوليد قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي إسناده صالح بن يحيي . فيه مقال . ولو فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحلّ . على أنه يمكن أن يكون متقدما على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً . كذا في (فتح البيان) .

وفي (الإكليل) : أخذ المالكية ، من الاقتران المذكور ، ردًّا على الحنفية في قولهم بوجوب الزكاة فيها . أي الخيل . وقوله تعالى :

« وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ » أي من المخلوقات في القفار والبحار . وصيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار . أو لاستحضار الصورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ، وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ » .

في الآية فوائد :

الأولى ـ قال ابن كثير : لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسّية ،

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٣٨ ـ باب غزوة خيبر ، حديث ١٩٠٩ وأخرجه مسلم في : ٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٦ ـ كتاب الأطعمة ، ٢٥ ـ باب في أكل لحوم الخيل ، حديث رقم ٣٧٨٨ .

(٣) أخرجه النسائيّ في : ٤٢ ـ كتاب الصيد والذبائح ، ٣٠ ـ باب تحريم أكل لحوم الخيل .

نبّه على الطرق المعنوية الدينية . وكثيراً ما يقع فى القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية الدينية . كقوله تعالى[١] : (وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ) وقال تعالى[٢] (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) .

ولما ذكر تعالى ، فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها ، التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه. فبيّن أن الحق منها موصلة إليه . فقال (وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ) . كقوله تعالى[٣] : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) وَقَالَ[٤] (هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ) انتهى. وقوله سبحانه : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) .

الثانية ــ قال أبو السعود : (القصد) مصدر بمعنى الفاعل . يقال سبيل قصد وقاصد . أى مستقيم. على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . أى : حقٌّ عليه سبحانه وتعالى ، بموجب رحمته ووعده المحتوم ، بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق، الذى هو التوحيد. بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه. أو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل . قاله أبو البقاء. أى عليه ، عز وجل، تقويمها وتعديلها . أى : جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق . لكن لا بعد ما كانت فى نفسها منحرفة عنه ، بل إبداعها ابتداء كذلك على نهج (سبحان من صغّر البعوض. وكبّر الفيل) وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدله . وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لا حبٌ يهتدى بمناره . وعلم يستضاء بناره . وأرسل

(١) [٢ / البقرة / ١٩٧] . (٢) [٧/ الأعراف / ٢٦] .
(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٣) [١٥ / الحجر / ٤١] .

رسلًا مبشرين ومنذرين . وأنزل عليهم كتباً من جملتها هـذا الوحى الناطق بحقيقة الحق . الفاحص عن كل ما جل من الأسرار ودق . الهادى إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى مَعالم الهدى . المنحّية عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى .

الثالثة ـ الضمير فى (وَمِنْهَا جَآئِرٌ) للسبيل . فإنها تؤنث . أى : وبعض السبيل مائل عن الحق ، منحرف عنه ، لا يوصل سالـكه إليه . وهو طرق الضلالة التى لا يكاد يحصى عددها، المندرج كلها تحت الجائر. كقوله تعالى(١) : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) .

قال أبو السعود، بعدما تقدم : أى: وعلى الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله، بما ذكر من نصب الأدلة ليسلـكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد ـ وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة . فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى . لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته . بل هو مخلّ بحكمته ، حيث يستدعى تسوية المحسن والمسيء ، والمطيع والعاصى ، بحسب الاستعداد . وإليه أشير بقوله تعالى : (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰـكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية موصلة إليه البتة ، مستلزمة لاهتدائـكم أجمعين ، لفعل ذلك . ولـكن لم يشأه . لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعيه إليها . ولا حكمة فى تلك المشيئة . لما أن الذى عليه يدور فلك التـكليف ، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيار ، الذى عليه يترتب الأعمال ، التى بها نيط الجزاء .

ولما كان أشرف أجسام العالم السفلىّ ، بعد الحيوان ، النباتُ ، تأثر ما مرّ من الإنعام بالأنعام والدواب ، التى يستدل بها على وحدته تعالى ، بذكر عجائب أحوال النبات ، للحكمة نفسها . فقال سبحانه :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)

[١١] (يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أي المزن « مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ » يسكن حرارة العطش « وَمِنْهُ شَجَرٌ » أي ومنه يحصل شجر. والمراد به ماينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا ، « فِيهِ تُسِيمُونَ » أي ترعون أنعامكم « يُنبِتُ » أي الله عز وجل « لَكُم بِهِ الزَّرْعَ » أي الذي فيه قوت الإنسان « وَالزَّيْتُونَ » أي الذي فيه إدامه « وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ » أي اللذين فيهما ، مع ذلك ، مزيد التلذذ «وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ» أي يخرجها بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها . ولهذا قال « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أي في إنزال الماء وإنبات ما فصّل « لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أي دلالة وحجة على وحدانيته تعالى . كما قال سبحانه(١) « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ، أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » .

قال أبو السعود ـ وأصله للرازيّ في شرح كون ماذكر حجة ـ : فإن من تفكر في أنّ الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذفيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع . ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر ، لا إلى نهاية .

(١) [٢٧ / النمل / ٦٠] .

مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الـكل ـ علم أن مَنْ هذه أفعاله وآثاره ، لايمكن أن يشبهه شيء ، فى شيء من صفات الـكمال . فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء فى أخص صفاته ، التى هى الألوهية واستحقاق العبادة. تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفـكرية، قطع الآية الـكريمة بالتفـكر . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَسَخَّرَ لَـكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَسَخَّرَ لَـكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ» أى لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها «وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ » لإصلاح مانيط بهما صلاحه من المـكونات « وَٱلنُّجُومُ » ليهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. وقوله تعالى: «مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ» حال من الجميع. على معنى جعلها مسخرات. لأن فى التسخير معنى (الجعل) فصحت على أنه تجريد . أو على أن التسخير لهم نفع خاص.

فمعناه نفعـكم حال كونها مسخرات لما خلقت له ، مما هو طريق لنفعـكم . فـ (سخر) بمعنى (نفع) على الاستعارة أو المجاز المرسل . لأن النفع من لوازم التسخير . أو على أن (مسخرات) مصدر ميمىّ ، منصوب على أنه مفعول مطلق . وسخرها مسخرات ، على منوال ضربته ضربات أو يجعل قوله : (مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ) بمعنى مستمرة على التسخير بأمره الإيجادىّ . لأن الإحداث لايدل على الاستمرار. وقرئ بنصب الليل والنهار وحدها. ورفع مابعدها على الابتداء والخبر . وقرئ (وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ) بالرفع مبتدأ وخبر ، وماقبله بالنصب. « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى تسخير ما ذكر « لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ولما نبه تعـالى على معالم السمٰوات ، نبه على ماخلق فى الأرض من الأمور العجيبة ،

والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

« وَمَا ذَرَأَ » عطف على قوله تعالى (وَٱلنُّجُومُ) رفعاً ونصباً، على أنه مفعول (الجعل) أى وما خلق «لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ» أى من حيوان ونبات « مُخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهُ وإِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ » .

ثم نبه تعالى ممتنا على تسخيره البحر ، وتعداد النعم به ، إثْرَ امتنانه بنعم البر ، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا » هو السمك .

قال الزمخشريّ : ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ، فيسارع إلى أكله ، خيفة الفساد عليه .

قال الناصر : فكأنَّ ذلك تعليم لأكله ، وإرشاد إلى أنه لاينبغى أن يتناول إلا طريًّا . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شىء يكون . والله أعلم . انتهى .

قال الشهاب : ففيه إدماج لحكم طبىّ . وهذا لاينافى تقديده وأكله مخلّلا ، كما توهم . انتهى .

أقول : الأظهر فى سر وصفه بالطراوة ، هو التنبيه على حسنه ولطفه ، وعلى التفكر فى باهر قدرته وعجيب صنعه ، سبحانه ، فى خلقه إياه، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر ، مع اشتراكهما فى الحيوانية .

« وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً » كاللؤلؤ والمرجان « تَلْبَسُونَهَا » أى تلبسها نساؤكم ، والإسناد إليهم لأنهن من جملتهم فى الخلطة والتابعية . ولأنهن إنما يتزيّن بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . أو معنى (تلبسون) تتمتعون وتلتذون . على طريق الاستعارة والمجاز . ولو جعل من مجاز البعض لصح . أى تلبسها نساؤكم .

قال الناصر : ولله درّ مالك رضى الله عنه ، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها . وذلك مقدر بالزائد على الثلث، لحقه فيه بالتجمل. فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له. فعبّر عن حظه فى لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء .

قال الشهاب : فإن قلت : الظاهر أن يقال تحلونهن أو تقلدونهن كما قال(١) :

تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وهى للنساء دون الرجال . قلت : أما الأول فسهل . لأن المراد لازمه . أى تحلونهن . والثانى ، على فرض تسليمه ، هم يتمتعون بزينة النساء ، فكأنهم لابسون . وإذا لم يكن تغليباً ، فهو مجاز ، بمعنى : تجعلونها لباساً لبناتكم ونسائكم . ونكتة العدول ، أن النساء

---

(١) البيت خامس خمسة أبيات قالها الشاعر المعروف بالمنازىّ . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ١٢٦) الترجمة رقم ٥٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مأمورات بالحجاب وإخفاء الزينة عن غير المحارم . فأخفى التصريح به ليكون اللفظ كالمعنى . انتهى .

وناقش صاحب (فتح البيان) ما قدروه فى الآية حيث قال : وظاهر قوله تعالى : (تَلْبَسُونَهَا) أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أى يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء . ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين فى تأويل قوله (تَلْبَسُونَهَا) بقولهم: تلبسها نساؤهم . لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم . وليس فى الشريعة المطهرة ما يقتضى منع الرجال من التحلى باللؤلؤ والمرجان ، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة . فإن ذلك ممنوع ، ورد الشرع بمنعه ، من جهة كونه تشبهاً بهنّ ، لا من جهة كونه حلية لؤلؤاً أو مرجانا . انتهى .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية دليل على إباحة لبس الرجال الجواهر ونحوها . واستدل بها من قال بحنث الحالف لا يلبس حلياً بلبس اللؤلؤ . لأنه تعالى سماه (حليا) واستدل بها بعضهم على أنه لا زكاة فى حلى النساء . فأخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر . أنه سئل : هل فى حلىّ النساء صدقة ؟ قال : لا . هى كما قال : (حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) . انتهى .

قال فى (فتح البيان) : وفى هذا الاستدلال نظر. والذى ينبغى التعويل عليه: أن الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها فى شىء من أنواع المال فتلزم. وقد ورد فى الذهب والفضة ما هو معروف . ولم يرد فى الجواهر ، على اختلاف أصنافها ، ما يدل على وجوب الزكاة فيها . وقوله تعالى : « وَتَرَى ٱلْفُلْكَ » أى السفن « مَوَاخِرَ فِيهِ » أى جوارى جمع (ماخرة) بمعنى جارية . وأصل معنى (المخر) الشق لأنها تشق الماء بمقدمها « وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ » عطف على محذوف . أى لتنتفعوا بذلك (لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ) أى من سعة رزقه ، بركوبها للتجارة « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى فتصرفون ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله .

قال أبو السعود : ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر، من حيث إن فيها قطعاً لمسافة طويلة ، مع أحمال ثقيلة ، فى مدة قليلة ، من غير مزاولة أسباب السفر . بل من غير حركة أصلًا. مع أنها فى تضاعيف المهالك . وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر ، للإيذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولها معاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[١٦] (وَعَلَـٰمَـٰتٍ ، وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ » أى جبالًا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِكُمْ » أى تضطرب « وَأَنْهَـٰراً » أى جعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى آخر ، رزقا للعباد « وَسُبُلًا » أى طرقا يسلك فيها من بلاد إلى غيرها ، حتى فى الجبال. كما قال تعالى[1] (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا) « لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بها إلى مآربكم « وَعَلَـٰمَـٰتٍ » أى دلائل يستدل بها المسافرون من جبل ومنهل وريح، برًّا وبحراً ، إذا ضلوا الطريق « وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » أى فى الظلام برًّا وبحراً . والعدول عن سنن الخطاب إلى الغيبة للالتفات . وتقديم (بالنجم) للفاصلة . وتقديم الضمير للتقوِّى . وهذا أولى من دعوى الزمخشرىّ ؛ أن التقديم للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة وسفر . وذلك لأن الخطاب فى الآيات السابقة عامًّا فكذا يكون فى لاحقها .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : هــذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[١٨] (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« أَفَمَن يَخْلُقُ » أى كل شيء ، لاسيما تلك المصنوعات العظيمة المذكورة ، وهو الله الواحد الأحد « كَمَن لَّا يَخْلُقُ » أى شيئاً ما ، وهو مايعبدون من دونه . وهذا تبكيت للمشركين وإبطال لإشراكهم بإنكار أن يساويه ويستحق مشاركته، مالا يقدر على خلق شيء من ذلك ، بل على إيجاد شيء ما .

وزعم الزمخشريّ ومتابعوه ؛ أن قضية الإلزام أن يقال : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ثم تكلموا فى سره . وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قوله تعالى[1] (وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ) فجدد به عهداً . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفوا فساد ذلك . فإنه لوضوحه لايفتقر إلى شيء سوى التذكر .

ثم نبه ، سبحانه وتعالى ، على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لايحصى، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور ، بقوله تعالى : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ » أى لاتضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر « إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى حيث يتجاوز عن التقصير فى أداء شكرها ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم . ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها . قاله الزمخشريّ .

ولحظ ابن جرير ؛ أن مغفرته تعالى ورحمته لهم ، إذا تابوا وأنابوا . أى فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقيّ . ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته .

لطيفة :

قال أبو السعود : كان الظاهر إيراد هذه الآية ، عقيب ماتقدم من النعم المعددة ، تكملة

(١) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

لها على طريقة قوله تعالى[1] (وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ) ولعلّ فصل مابينهما بقوله[2] (أَفَمَن يَخْلُقُ) الآية ، للمبادرة إلى إلزام الحجة ، وإلقاء الحجر، إثْرَ تفصيل مافصل من الأفاعيل ، التى هى أدلة الوحدانية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

[٢٠] (وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

[٢١] (أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

«وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» أى من أعمالكم وسيجزيكم عليه « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى فأنّى تستحق الألوهية ، وقد نفى عنها أخص صفاتها ؟ فإنها ذوات مفتقرة إلى الإيجاد. أوالمعنى : أن الناس يخلقونها بالنحت والتصوير ، وهم لايقدرون على نحو ذلك . فهم أعجز من عبدتهم . كما قال الخليل[3] عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم ما ينافى الألوهية بقوله « أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ » أى هى جمادات لاأرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل . وقوله (غَيْرُ أَحْيَآءٍ) تأكيد أو تأسيس . لأن بعض الأموات مما يعتريه الحياة ، سابقاً أو لاحقاً . كأجساد الحيوان، والنطف التى ينشئها الله تعالى حيواناً. فلذا احترز عنه بقوله (غَيْرُ أَحْيَآءٍ) أى لايعتريها الحياة أصلًا . فهى أموات على الإطلاق، حالًا ومآلًا « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى تلك الأصنام المعبودة « أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى يكون

(١) [١٦ / النحل / ٨] . (٢) [١٦ / النحل / ١٧] .
(٣) [٣٧ / الصافات / ٩٥و٩٦] .

بعثها . وقد رُوى ، أنها تبعث ، ويجعل فيها حياة ، فتبرأ من عابديها . ثم يؤمر بها وبهم جميعاً إلى النار .

وجوز عود الضمير إلى عابديها . أى : وما تشعر الأصنام متى يبعث عبدتهم . تهكما بحالها . لأن شعور الجماد محال . فكيف بشعور مالا يعلمه إلا الله ؟ وفيه إشعار بأن معرفته وقت البعث من لوازم الألوهية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٢] (إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ، فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)

[٢٣] (لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ)

« إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ » تصريح بالمدعي، وتمحيض للنتيجة ، غب إقامة الدليل. كماأفاده أبو السعود « فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ » أى لوحدانيته تعالى ، جاحدة لها ، كما أخبر عنهم ، متعجبين من ذلك بقوله[١] : (أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ) وقال تعالى[٢]: (وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وقوله تعالى«وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته تعالى « لَا جَرَمَ » أى حقا « أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ » أى عن التوحيد ، وهم المشركون . أو عن الحق مطلقاً فيتناول هؤلاء . وهذا كما قال تعالى[٣]: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

---

(١) [٣٨ / صٓ / ٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٤٥] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى لم ينزل شيئاً. إنما هذا الذى يتلى علينا أحاديث الأولين ، استمدها منها . كما قال تعالى(1) : (وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) « لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : قالوا ذلك ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم ، وهى أوزار ضلالهم فى أنفسهم ، وبعض أوزار من أضلوهم . كقوله تعالى(2) (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ) فاللام فى قوله (لِيَحْمِلُوٓا۟) لام العاقبة . لأن ما ذكر مترتب على فعلهم ولا باعثاً إما مجازاً . وإما حقيقة ، على معنى أنه قدّر صدوره منهم ليحملوا . وقد قيل : إنها للتعليل وإنها لام أمر جازمة . والمعنى : إن ذلك متحتم عليهم . فيتم الكلام عند قوله : (أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) كذا فى (العناية) . وقوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال الزمخشرىّ : حال من المفعول . أى : من لايعلم أنهم ضُلّال . وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه ، وإن لم يعلم ، لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل . فجهله لايعذره « أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ » أى : ألا بئس ما يحملون . ففيه وعيد وتهديد .

---

(1) [٢٥ / الفرقان / ٥] . (2) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

«قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى بأنبيائهم « فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ » أى قلع بنيانهم من قواعده وأُسُسِهِ ،فهدمه عليهم حتى أهلكهم و (الإتيان) يتجوز به عن (الإهلاك) كقوله تعالى[١] (فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟) ويقال أُتِىَ فلان من مأمنه . أى جاءه الهلاك من جهة أمنه. وأتى عليه الدهرُ: أهلكه وأفناه . ومنه الأَتُوُّ . وهو الموت والبلاء . يقال أتى على فلان أتوٌّ أى موت أو بلاء يصيبه . وقد جوز فى الآية إرادة حقيقة هلاكهم . كالمحكىّ عن قوم لوط وصالح ، عليهما السلام ، فيما تقدم . أو مجازه على طريق التمثيل، لإفساد ما أبرموه من هدم دينه تعالى. شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد ، للإيقاع بالرسل عليهم السلام ، وفى إبطاله تعالى تلك الحيل ، وجعله إياها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنياناً وعمَّدوه بالأساطين . فأتى ذلك من قِبَلِ أساطينه بأن ضعضعت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا . ووجه الشبه : أن ما عدوه سبب بقائهم ، عاد سبب استئصالهم وفنائهم . كقولهم : من حفر لأخيه جبًّا ، وقع فيه منكبًّا . وقوله (مِن فَوْقِهِمْ) متعلق بـ (خر) . و (من) لابتداء الغاية أو متعلق بمحذوف على أنه حال من (السقف) مؤكدة . وقيل : إنه ليس بتأكيد. لأن العرب تقول : خر علينا سقف ووقع علينا حائط : إذا انهدم فى ملكه وإن لم يقع عليه «وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ» أى الهلاك والدمار « مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ، قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

« ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ » أى يذلهم ويهينهم بعذاب الخزى، لقوله تعالى[١] : (رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ) « وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ » أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم . وفيه تقريع وتوبيخ بالقول ، واستهزاء بهم . إذْ أضاف الشركاء إلى نفسه لأدنى ملابسة ، بنـاءً على زعمهم ، مع الإهانة بالفعل المدلول عليهـا بقوله (يُخْزِيهِمْ) . أى مالهم لايحضرونكم ليدفعوا عنكم ! لأنهم كانوا يقولون : إن صح ماتقول فالأصنام تشفع لنا . فهو كقوله[٢] : (أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) وقيل: حكى عن المشركين زيادة فى توبيخهم. « قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » وهم الأنبياء أو العلماء ، الذين كانوا يدعونهم إلى الحق فيشاقونهم « إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ » أى الفضيحة والعذاب « عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ » أى المشركين به تعالى ، مالايضرهم ولا ينفعهم . وإنما قال (ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) هذا شماتة بهم، وزيادة إهانة بالتوبيخ بالقول، وتقريراً لما كانوا يعظونهم ، وتحقيقاً لما أوعدوهم به .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

«ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ، بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » هذا إخبار عن حال المشركين الظالمى أنفسهم بتبديل فطرة الله، عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم، بأنهم يلقون السلم، أى ينقادون ويسالمون ويتركون المشاقّة . والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع . وأصل الإلقاء فى الأجسام . فاستعمل فى إظهار الانقياد ، إشعارًا بغاية خضوعهم واستكانتهم . وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدَيِ القاهر الغالب ، على الاستعارة . وقوله تعالى (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ) منصوب بقول مضمر ، حال . أى قائلين ذلك . أو هو تفسير (للسلم) الذى ألقوه، لأنه بمعنى القول . بدليل الآية الآخرى(١) (فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ) كما يقولون يوم المعاد (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)(٢) . (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ)(٣) . ثم أخبر تعالى أن الملائكة تجيبهم بقوله (بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى فلا يفيد الإنكار والكذب على الأنفس (فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا) أى مقدرًا خلودكم .

قال ابن كثير: وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم. وينال أجسادهم، فى قبورها،

(١) [١٦ / النحل / ٨٦] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

من حرّها وسمومها . فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم ، وخلدت فى نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. كما قال تعالى(١) (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) وقوله (فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) أى بئس المقيل والمقام لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتباع رسله . فذكرهم بعنوان التكبر ، للإشعار بعليّته لثوائهم فيها. ولما أخبر عن الأشقياء بأنهم قالوا فى جواب (مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ) هو(أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) فجحدوا رحمته وكفروا نعمته ـ تأثره بالإخبار عن السعداء الذين اعترفوا بخيره ورحمته ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا۟ خَيْرًا ، لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ)

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ » وهم المؤمنون « مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا » أى أنزل خيرًا، أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبر سبحانه عما وعد به عباده بقوله « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ » أى لمن أحسن عمله، مكافأة فى الدنيا بإحسانهم . ولهم فى الآخرة ما هو خير منها. فقوله (فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا) متعلق بـ (حَسَنَةٌ) كتعلقه بـ (أَحْسَنُوا۟) . قال الشهاب : والحسنة التى فى الدنيا الظفر وحسن السيرة وغير ذلك. وهذه الآية كقوله تعالى(٢) (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وقوله(٣) (فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ) وقال تعالى(٤) (وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

---

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .
(٣) [٣ / آل عمران / ١٤٨] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٩٨] .

لِلْأَبْرَارِ) وقال(١) (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) ، ثم وصف تعالى الدار الآخرة بقوله « وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ، كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ)

[٣٢] (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ » كقوله تعالى(٢) : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) « كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ » ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، فى مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » أى طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى وكل سوء « يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لتدخل أرواحكم الجنة فإنها فى نعيم برزخىّ إلى البعث . أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى(٣) : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . . » الآيات .

ثم أشار إلى تقريع المشركين ، وتهديدهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا ، بقوله تعالى :

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٧١] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[٣٤] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ » أى لقبض أرواحهم بالعذاب «أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ » أى العذاب المستأصل . أو يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال « كَذَٰلِكَ » أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والاستهزاء « فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى فتمادوا فى ضلالهم حتى ذاقوا بأس الله « وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ » فيما أحلّ بهم فى عذابه الآتى بيانه . وذلك لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه « وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ » جزاء سيئات أعمالهم من الشرك وإنكار الواحدانية وتكذيب الرسل ونحوها « وَحَاقَ بِهِم » أى أحاط بهم « مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » من العذاب الذى توعدتْهم به الرسُل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

[٣٦] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ، فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)

«وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ، فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه واعتذارهم عنه بالاحتجاج بالقدر ، تكذيبا للرسول صلوات الله عليه، وطعنا فى الرسالة. وذلك قولهم (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ) أى من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مما لم ينزل الله به سلطانا ثم أعلم تعالى مشاكلتهم لمن تقدمهم ، بقوله (كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى من الشرك والتحريم ، متمسكين بمثل هذه الشبهة .

قال ابن كثير : مضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا ، لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه . قال الله تعالى رادًّا عليهم شبهتهم (فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم . بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهى ، وبعث فى كل أمة ، أى فى كل قرن وطائفة من الناس ، رسولا . وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ماسواه (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) وهو ما يعبد من دونه سبحانه . فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم ، من عهد نوح أول رسول إلى أهل الأرض، إلى زمن خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم . ودعوة الكل واحدة كما قال تعالى(١) (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وكما أخبر هنا فى هذه الآية . فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ)؟

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية . لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله . وأما مشيئته الكونية ، وهى تمكينهم من ذلك قدراً ، فلا حجة لهم فيها . أى لأنها من سر القدر الذى حُظِرَ الخوض فيه . ثم أنه تعالى أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا ، بعد إنذار الرسل ، بقوله . (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّـهُ) الآية . وقد تقدم لنا فى سورة الأنعام نقل ما للأئمة فى مثل هذه الآية . ونسوق هنا أيضا ما قرأته للإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى أول الجزء الثانى من (منهاج السنة) مما يتعلق بالآية، وإن يكن سبق لنا نقل عنه أيضا. فإن الآية من معارك الأفهام. فلا علينا أن نَجْلُوَ عن الشبه فيها صدأ الأوهام . قال عليه الرحمة : هذا مقام يكثر خوض النفوس فيه. فإن كثيراً من الناس ، إذا أُمِرَ بما يجب عليه تعلل بالقدر وقال: حتى يقدّر الله ذلك ، أو يقدّرنى الله على ذلك ، أو حتى يقضى الله ذلك . وكذلك إذا نُهِيَ عن فعل ما حرّم الله قال : اللهُ قضاه علىَّ بذلك ، ونحو هذا الكلام . والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة . باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين . والمحتجُّ به لا يقبل من غيره مثل هذه الحجة ، إذا احتج بها فى ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه . بل يطلب منه ماله عليه ، ويعاقبه على عدوانه عليه . وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التى تعرض فى العلوم . فكأنك تعلم فسادها بالضرورة . وإن كانت تعرض كثيراً للكثير من الناس . حتى قد يشك فى وجود نفسه . وغير ذلك من المعارض الضرورية . فكذلك هذا يعرض فى الأعمال حتى يظن أنها شبهة فى إسقاط الصدق والعدل الواجب ، وغير ذلك . وإباحة الكذب والظلم وغير ذلك . ولكن تعلمُ القلوبُ بالضرورة أن هذه شبهة باطلة . ولهذا لا يقبله أحد عند التحقيق ولا يحتج بها أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله . فإذا كان معه علم بأن مافعله هو المصلحة ، وهو المأمور وهو الذى ينبغى فعله ، ولم يحتج بالقدر . وكذلك إذا كان معه علم بأن الذى لم يفعله ليس عليه أن يفعله ، أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به ـ لم يحتج بالقدر . بل إذا كان متبعاً لهواه

بغير علم، احتج بالقدر . ولهذا لما قال المشركون(١) (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) قال الله تعالى : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)(٢)(قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) فإن هؤلاء المشركين يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة داحضة وباطلة . فإن أحدهم لو ظلم الآخرَ أو حرج فى ماله أو فرج امرأته أو قتل ولده أو كان مصرًّا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ـ لم يقبلوا منه هذه الحجة . ولا هو يقبلها من غيره . وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للَّوم بلا وجه . فقال الله تعالى : (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ) بأن هذا الشرك والتحريم من أمر الله ، وأنه مصلحة ينبغى فعله (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) فإنه لا علم عندكم بذلك ، إن تظنون ذلك إلا ظنًّا (وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وتفترون . فعمدتكم فى نفس الأمر ظنكم وخرصكم . ليس عمدتكم فى نفس الأمر كون الله شاء ذلك وقدّره . فإن مجرد المشيئة والقدرة لا تكون عمدة لأحد فى الفعل . ولا حجة لأحد على أحد ولا عذراً لأحد . إذ الناس كلهم مشتركون فى القدر . فلو كان هذا حجة وعمدة لم يحصل فرق بين العادل والظالم والصادق والكاذب والعالم والجاهل والبرّ والفاجر . ولم يكن فرق بين ما يصلح الناس من الأعمال لما يفسدهم وما ينفعهم وما يضرهم . وهؤلاء المشركون المحتجون بالقدر على ترك ما أرسل الله به رسله من توحيده ، والإيمان به ؛ لو احتج به بعضهم على بعض فى سقوط حقوقه ومخالفة أمره ، لم يقبله منه . بل كان هؤلاء المشركون يذم بعضهم بعضاً ويعادى بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضا على فعل من يريد تركاً لحقهم ، أو ظلماً . فلما جاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى حق الله على عباده وطاعة أمره ، واحتجوا بالقدر . فصاروا يحتجون بالقدر على ترك حقّ ربهم ومخالفة

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

أمره ، بما لا يقبلونه ممن ترك حقهم وخالف أمرهم . وفى الصحيحين[١] عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ بن جبل ! أتدرى ما حق الله على عباده ؟ حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ حقهم عليه أن لا يُعذِّبهم .

فالاحتجاج بالقدر حال الجاهلية الذين لا علم عندهم بما يفعلون ويتركون (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وهم إنما يحتجون به فى ترك حق ربهم ومخالفة أمره، لا فى ترك ما يرونه حقاً لهم ولا فى مخالفة أمرهم. ولهذا تجد المحتجين والمستندين إليه من النساك والصوفية والفقراء والعامة والجند والفقهاء وغيرهم ، يفرّون إليه عند اتباع الظن وما تهوى الأنفس . فلو كان معهم علم وهدى لم يحتجوا بالقدر أصلا . بل يعتمدون عليه ، لعدم الهدى والعلم . وهذا أصل شريف ، من اعتنى به علم منشأ الضلال والغىّ لكثير من الناس. ولهذا تجد المشايخ والصالحين المتبعين للأمر والنهى ، كثيراً ما يوصون أتباعهم بالعلم بالشرع . فإن كثيراً ما يعرض لهم إرادات فى أشياء ومحبة لها . فيتبعون فيها أهواءهم ظانين أنها دين الله تعالى . وليس معهم إلى الظن والذوق والوجدان الذى يرجع إلى محبة النفس وإرادتها . فيحتجون تارة بالقدر وتارة بالظن والخرص . وهم متبعون أهواءهم فى الحقيقة . فإذا اتبعوا العلم ، وهو ما جاء به الشارع صلى الله عليه وسلم ، خرجوا عن الظن وما تهوى الأنفس ، واتبعوا ما جاءهم من ربهم وهو الهدى . كما قال تعالى[٢] (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى عن المشركين فى سورة الأنعام والنحل والزخرف كما قال تعالى[٣] : (وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) فتبين أنه لا علم لهم بذلك ، إن هم إلا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث ١٣٧١ وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا) .

(٢) [٢٠ / طه / ١٢٣] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

يَخْرُصُونَ ، وقال فى سورة الأنعام[١] (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ) إرسال الرسل وإنزال الـكتب كما قال تعالى[٢] : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) ثم أثبت القدر بقوله: (فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) فأثبت الحجة الشرعية وبين المشيئة القدرية . وكلاهما حق . وقال فى النحل[٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ) فبيّن سبحانه وتعالى ـ أن هذا الـكلام تـكذيب للرسل فيما جاءوهم به . ليس حجة لهم . فلو كان حجة لاحتج به على تـكذيب كل صدق وفعل كل ظلم . ففى فطرة بنى آدم أنه ليس حجة صحيحة . بل من احتج به احتج لعدم العلم واتباع الظن . كفعل الذين كذبوا الرسل بهذه المدافعة . بل الحجة البالغة لله بإرسال الرسل وإنزال الـكتب . كما ثبت فى الحديث الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم[٤] أنه قال : لا أحد أحب إليه العذر فى الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فبين أنه سبحانه يحب المدح وأن يعذر ويبغض الفواحش ، فيحبّ أن يمدح بالعدل والإحسان . وألّا يوصف بالظلم . ومن المعلوم أنه من قدم إلى أتباعه بأنِ افعلوا كذا ولا تفعلوا . وبيّن لهم وأزاح علتهم ، ثم تعدَّوْا حدودَه وأفسدوا أمورهم ، كان له أن يعذبهم وينتقم منهم . فإذا قالوا : أليس الله قدّر علينا هذا ؟ لو شاء الله ما فعلنا هذا . قيل لهم : أنتم لا حجة لـكم ولا عندكم ما تعتذرون به ، يبيّن أن ما فعلتموه كان حسنا ، أو كنتم معذورين فيه . فهذا الـكلام غير مقبول منكم .

---

(١) [٦/ الأنعام/ ١٤٩] . (٢) [٤/ النساء/ ١٦٥] . (٣) [١٦/ النحل/ ٣٥] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٠ ـ باب قول النبيّ ﷺ : لا شخص أغير من الله ، حديث رقم ٢٥١٨ ، عن المغيرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٩ ـ كتاب اللعان ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .

وقد قامت الحجة عليكم بما تقدم من البيان والإعذار . ولو أن ولىّ أمر أعطى قوماً مالًا ليوصلوه إلى بلد ، فسافروا به وتركوه فى البرية ليس عنده أحد وباتوا فى مكان بعيد منه ، وكان ولىّ الأمر قد أرسل جنداً يغزون بعض الأعداء فاجتازوا تلك الطريق ، فرأوا ذلك المال فظنوه لُقَطَةً ليس له أحد فأخذوه وذهبوا ـ لكان يحسن منه أن يعاقب الأولين لتفريطهم وتضييعهم حفظ ما أمرهم به ، ولو قالوا له : أنت لم تعلمنا أنك تبعث بعدنا جنداً حتى يحترز المال منهم ، قال : هذا لا يجب علىّ ، ولو فعلته لكان زيادة إعانة لكم . لكن كان عليكم أن تحفظوا ذلك كما تحفظون الودائع والأمانات . وكانت حجته عليهم قائمة . ولم يكن يدعى فيهم ظالما . وإن كان لم يُعِنْهم بالإعلام بذلك الجند . لكن عمل المصلحة فى إرسال الأولين والآخرين . والله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى ، حَكَمٌ عدل فى كل ما جعله . ولا يخرج شىء عن مشيئته وقدرته . فإذا أمر الناس بحفظ الحدود وإقامة الفرائض لمصلحتهم ، كان ذلك من إحسانه إليهم وتعريفهم ما ينفعهم . وإذا خلق أموراً أخرى ، فإذا فرّطوا واعتدوا بسبب خلقه الأمور الأخرى ، كان عادلًا حكماً فى خلق هذا وخلق هذا ، والأمرِ بهذا والأمر بهذا . وإن كان لم يمدّ الأولين بزيادة يحترسون بها من التفريط والعدوان ، لا سيما مع علمه بأن تلك الزيادة ، لو خلقها الزم منها تفويت مصلحة أرجح ، فإن الضدين لا يجتمعان . والمقصود هنا أنه لا يحتج أحد بالقدر إلا حجة تعليل ، لعدم اتباع الحق الذى بيّنه العلم . فإن الإنسان حىٌّ حسّاس متحرك بالإرادة . ولهذا قال النبىّ ﷺ[1] : (أصدق الأسماء . الحارث وهمّام) فالحارث الكاسب العامل . والهمّام الكثير الهمّ . والهمّ مبدأ الإرادة والقصد . فكل إنسان حارث هام . وهو المتحرك بالإرادة . وذلك لا يكون إلا بعد الحس والشعور . فإن الإرادة مسبوقة بالشعور بالمراد . فلا يتصور إرادة ولا حب ولا شوق ولا

(١) قال فى الجامع الصغير : الشيرازىّ فى (الألقاب والكنى) والطبرانىّ فى الكبير) عن عبد الله بن مسعود .

اختيار ولا طلب إلا بعد الشعور وما هو من جنسه . كالحس والعلم والسمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحو هذه الأمور. فهذا الإدراك والشعور هو مقدمة الإرادة والحب والطلب. والحيّ مفطور على حب ما ينفعه ويلائمه ، وبغض ما يكرهه ويضره . فإذ تصوّر الشيء الملائم النافع ، أراده وأحبه . وإن تصور الشيء الضار أبغضه ونفر عنه . لكن ذلك التصوّر قد يكون علماً وقد يكون ظنًّا وخرصاً . فإذا كان عالماً بأن مراده هو النافع ، وهو المصلحة ، وهو الذى يلائمه ، كان على الهدى والحق . وإذا لم يكن معه علم بذلك ، كان متبعا للظن وما تهوى نفسه . فإذا جاءه العلم والبيان بأن هذا ليس مصلحة ، أخذ يحتج بالقدر ، حجة لَدَدٍ وتفريج ، لاحجة اعتماد على الحق والعلم . فلا يحتج أحد فى باطنه أو ظاهره بالقدر ، إلا لعدم العلم بما هو عليه الحق . وإذا كان كذلك كان من احتج بالقدر على الرسل مقرًّا بأن ما هو عليه ليس معه به علم . وإنما تكلم بغير علم . ومن تكلم بغير علم كان مبطلًا فى كلامه . ومن احتج بغير علم كانت حجته داحضة . فإما أن يكون جاهلًا ، فعليه أن يتبع العلم . وإما أن يكون قدعرف الحق واتبع هواه ، فعليه أن يتبع الحق ويدع هواه. فتبيّن أن المحتج بالقدر متبع لهواه بغير علم[1] ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ . انتهى .

وله تتمة سابغة الذيل لا بأس بالوقوف عليها .

وقال القاشانيّ فى هذه الآية : إنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عِنَادًا وَتَعَنُّتاً عن فرط الجهل وإلزاما للموحدين بناءً على مذهبهم . إذلو قالوا ذلك عن علم ويقين لكانوا موحدين لا مشركين بنسبة الإرادة والتأثير إلى الغير . لأن من علم أنه لايمكن وقوع شيء بغير مشيئة من الله ، علم أنه لو شاء كل من فى العالم شيئاً ، لم يشأ الله ذلك ، لم يمكن وقوعه . فاعترف بنفى القدرة والإرادة عما عدا الله تعالى ، فلم يبق مشركا ، قال الله تعالى[2] ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٢) [٦ /الأنعام / ١٠٧] .

مَآ أَشْرَكُواْ) وقوله تعالى[1] (كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى فى تكذيب الرسل بالعناد انتهى .

وقال الإمام مفتى مصر فى تفسير سورة العصر، من هذا البحث مامثاله :فالعقل والشرع والحسّ والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله . وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات ، إنما هو نسبتها إليه. ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه . مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البداهة كذلك . ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله تعالى . وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا . فهو أمر نشاهده كل يوم . ندبّر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . ونتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل . ولا شبهة فيه عند المليّين . فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه، وأن يقرّ بنسبة عمله إليه كما هو بديهىّ عنده . ويعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده من نفسه . وليس عليه بعد ذلك أن يرفع بصره إلى ما وراءه . فقد نعى الله على المشركين قولهم[2](لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) ووردت الأحاديث متواترة المعنى فى النهى عن الخوض فى القدر وسره . فلو صبر العبد حق الصّبر ، لوقف عند ما حد الله له ، ولم ينزع بنفسه إلى تعدى حدود الله التى ضربها لعباده . ولست أحب التكلم فى هذه المسألة بأكثر من هذا . وإلا خرجت من الصابرين ، وخضت فى القدر مع الخائضين . ومن ثار به الهوس فتوهم أن علينا أن نعتقد أن العبد لا فعل له ، فقد خالف كتاب الله وعصى رسول الله . وقد أقول (واعتمادى على الله فيما أقول) إن من يقول ذلك ، يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله ، فليحذر مؤمن بالله أن يقول ذلك . انتهى .

---

(١) [١٦ / النحل / ٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

وقال فى موضع آخر : الاحتجاج على ترك العمل بالقدَر من عقائد الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعى عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ)[1] فلا يسوغ لأحدٍ منا، وهو يدّعى أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كان يحتج به المشركون . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ)

[٣٨] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ » أى من يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره « وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ » أى ينصرونهم فى الهداية ، أو يدفعون العذاب عنهم . ثم بيّن تعالى نوعاً آخر من أباطيلهم، وهو إنكارهم البعث بقوله: « وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ » أى جاهدين فيها فـ(جهد) مصدر فى موقع الحال « لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ، بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى إنه يبعثهم ، فيبتّون القول بعدمه ! وإنه وعداً عليه حقّ ، فيكذبونه ـ وذلك لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ، وبما يجوز عليه ومالا يجوز . وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه . وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة . أفاده أبو السعود .

ثم ذكر حكمته تعالى فى المعاد ، وحشر الأجساد يوم التناد ، بقوله سبحانه :

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾

[٤٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

« لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ » وهو الحق ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ» أى فى أباطيلهم. لاسيما فى أيمانهم بعدم البعث . ولذا تقول لهم الزبانية يوم القيامة[١] ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ثم بيّن عظيم قدرته ، وأنه لايعجزه شىء مّا بقوله سبحانه « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد على ماشاء تكوينه كقوله تعالى[٢] ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وقوله[٣] ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

قال الزمخشرىّ : (قَوْلُنَا) مبتدأ و (أَنْ نَقُولَ) خبره و (كُنْ فَيَكُونُ) من (كان) التامة التى بمعنى الحدوث والوجود. أى إذا أردنا وجود شىء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك ، لايتوقف . وهذا مثل . لأن مراداً لايمتنع عليه . وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل . ولاقولَ ثمَّ . والمعنى : إن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة . فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو فى شق المقدورات . انتهى .

قال الشهاب : فسقط ما قيل : إنَّ (كن) إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال . وإن كان مع الموجود كان إيجاداً للموجود . وفى الآية كلام لطيف مضى فى سورة البقرة ، فارجع إليه .

ثم أخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين الذين فارقوا الدار والأهل والخلّان ، رجاءَ ثوابه وابتغاء مرضاته ، بقوله :

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٤] . (٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] . (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى اللَّهِ » أى مخلصين لوجهه، أو فى حقه، وهم إما مهاجرة الحبشة الذين اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبش بأمره ﷺ، وذلك مخافة الفتنة وفراراً إليه تعالى بدينهم، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا سوى صغار أبنائهم، وهى أول هجرة فى الإسلام . ويؤيده كون السورة مكية .

أوهم مهاجرة المدينة ، أخبر به قبل وقوعه أو بعده ، إلا أنها ألحقت بالمكية. وقوله تعالى « مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ » أى أوذوا وأريد فتنتهم عن الدين « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً » يعنى بالغلبة على من ظلمهم ، وإيراثهم أرضهم وديارهم « وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » يعنى مضطهديهم وظالميهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه ، يقول : خذ بارك الله لك فيه . هذا ما وعدك الله فى الدنيا . وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم وصفهم تعالى بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٤٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ ، فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٤٤] (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« الَّذِينَ صَبَرُواْ » أى على ماأوذوا فى سبيل الله « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فلا

يخشون أحدا غيره . والوصفان المذكوران : الصبر والتوكل، من أمهات الصفات التي يجب على الداعي إلى الحق ، والمدافع عنه ، أن يكونا خلقاً له . إذ لاظفر بغاية إلا بهما . ولما عجبوا من إيحاء الله لرسوله ، واصطفائه برسالته ، قيل في درء شبهتهم « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » يعني أهل الكتاب أو علماء الأخبار . ليعلموكم أنه لم يرسل للدعوة العامة ملك من أهل السماء . فالذكر ، إما بمعنى الكتاب لما فيه من الذكر والعظة ، كقوله[١] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) أو بمعنى الحفظ لأخبار الأمم السالفة . وفي الآية دليل على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم . واستدل بها بعضهم على جواز التقليد في الفروع للعاميّ . وفي ذلك بحث طويل في (إيقاظ الهمم) للفُلَّانِي فارجع إليه إن شئت . وأشار إلى طَرَف منه في (فتح البيان) .

وقوله تعالى : « بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ » أي بالآيات المبرهنة على صدقهم والكتب المرشدة إلى مصالح الخلق . والجارّ متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله ، أي أرسلناهم. أو بـ(ما أرسلنا) . أو بـ(نوحى) أو بـ(لاتعلمون) ، على أن الشرط للتبكيت والإلزام «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ» أي القرآن المذكّر والموقظ من سنة الغفلة « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » أي مما أمروا ونهوا ووعدوا وأوعدوا « وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين . أو يتأملون مافيه من العبر فيحترزون عما أصاب الأولين . ولذا تأثره بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أي المكرات السيئات التي قُصَّتْ عنهم . فهي

(١) [٣٦ / يس / ٦٩] .

صفة لمصدر محذوف أو مفعول لـ(مكروا) بتضمينه معنى (عملوا) « أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى من جهةٍ لايعلمون بها ، كما لايشعر الممكور بقصد الماكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)

[٤٧] (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

[٤٨] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ)

«أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ» أى سعيهم فى المعايش واشتغالهم بها «فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ» أى لايعجزون ربهم على أى حال كانوا « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ » أى توقع للهلاك ومخافةٍ له ، فإنه يكون أبلغ وأشد . أو تنقّص فى أبدانهم وأموالهم وثمارهم حتى يهلكوا . يقال : تخوفه : تنقصه وأخذ من أطرافه « فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم بالعقوبة . ثم أخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه بانقياد سائر مخلوقاته ، جمادات وحيوانات ومكلفين من الجن والإنس والملائكة له سبحانه ، بقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ » أى جسم قائم له ظلّ « يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ » أى يرجع شيئاً فشيئاً « عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ » أى عن جانبي كل واحد منها ، بُكْرَةً وَعَشِيًّا « سُجَّدًا لِّلَّهِ » أى منقادة له على حسب مشيئته فى الامتداد والتقلص وغيرها ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له « وَهُمْ دَٰخِرُونَ » أى صاغرون. وغلب فى جمعها من يعقل، فأتى بالواو . أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء . فهو إما تغليب أو استعارة : وكذا ضمير (هم) أيضاً لأنه مخصوص بالعقلاء . فيجوز أن يعتبر ماذكر فيه ، ويجعل مابعده جاريا على المشاكلة .

لطيفة : لابن الصائغ فى سر توحيد اليمين وجمع الشمائل توجيه لطيف . وملخصه أنه نظر إلى الغاية فيهما . لأن ظل الغداة يضمحلّ بحيث لا يبقى منه إلا اليسير . فكأنه فى جهة واحدة . وهو فى العشىّ على العكس ، لاستيلائه على جميع الجهات . فلحظت الغايتان . هذا من جهة المعنى .

وأما من جهة اللفظ فجمع ليطابق (سجداً) المجاور له . كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظلاله) وقدّم الإفراد لأنه أصل أخف . و (عَنِ ٱلْيَمِينِ) متعلق بـ(يتفيؤ) أو حال . كذا فى (العناية) .

ثم بين سجود سائر المخلوقات سواء كانت لها ظلال أم لا ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

﴿ سجدة ﴾ [٤٩] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ » أى الملائكة ، مع علوّ شأنهم « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن عبادته والسجود له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

« يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » أى من الطاعات والتدبير . واستدل بقوله (مِّن فَوْقِهِمْ) على ثبوت الفوقية والعلوّ ، له تعالى . وقد صنف فى ذلك الحافظ الذهبىّ كتاب (العلوّ) وابن القيم كتاب (الجيوش الإسلامية) وغيرهما . وأطنب فيها الحكيم ابن رشد فى (مناهج الدولة) فليرجع إليها . وكلهم متفقون على أنه علوّ بلا تشبيه ولا تمثيل . وانفرد السلف بحظر التأويل والتعطيل . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ، فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ)

« وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ » . إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك . وبأمره بعبادته وحده ، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة . فإن قيل : الواحد والمثنّى نص فى معناهما ، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد ، كما يذكر مع الجميع . أى فى نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص ، فلِمَ ذكر العدد فيهما ؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين : الجنسية والعدد المخصوص . فلما أريد الثانى صرّح به للدلالة على أنه المقصود الذى سيق الكلام وتوجه له النهى دون غيره . فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو : نعم الرجل زيد . وكذا المثنى كقوله[١] :

فإنّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وإنَّ الحربَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ

وقيل : ذكر العدد للإيماء بأن الاثنينيّة تنافى الألوهية . فهو فى معنى قوله[٢] (لَوْ كَانَ

---

(١) قائله نصر بن سيّار . من أربعة أبيات، يحسن الوقوف عليها، ومعرفة سبب قولها. قال ابن قتيبة فى (عيون الأخبار) بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثانى .

كان يزيد بن عمر بن هُبيرة يحب أن يضع من نصر بن سيّار . فكان لا يعدّه بالرجال ، ولا يرفع ما يرد من أخبار خراسان . فلما كثر ذلك على نصر ، قال :

أرى خَلَلَ الرماد وَمِيضَ جَمر ... ويوشِكُ أن يكون له ضِرَامُ

والبيت . . .

فإن لم يُطفِهَا عُقَلَاءُ قوم ... يكون وَقُودَهَا جُثَثٌ وهَامُ

فقلت من التعجب : ليت شعرى ! ... أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نيامُ

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فلذا صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التى هى من لوازم الألوهية .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام .

وقوله تعالى : (وَقَالَ ٱللَّهُ) معطوف على قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ) أو على قوله (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ) وقيل : إنه معطوف على (مَا خَلَقَ ٱللَّهُ) على أسلوب[1] * عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا * .

---

(١) وعجز البيت :

* حتى غَدَتْ هَمَّالةً عيناها *

الشاهد رقم ١١٥ من شرح شذور الذهب لابن هشام .

قال صاحب (منتهى الأرب) :

لم أقف لهـذا الشاهد على نسبة إلى قائل معيَّن . ويروى صدره عَجُزا فى بيت آخر ، هكذا :

لَمَّا حططتُ الرحلَ عنها وارداً   عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بارِدَا

الشاهد فيه قوله (وماءً) فإنه لا يمكن عطفه على ما قبله ، العامل فى المعطوف عليه ، لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معناه على حاله .

وللعلماء ثلاثة آراء فى تخريج هذا البيت ونحوه :

أحدها ـ أن قوله : (وماءً) لا يجوز أن يكون مفعولا معه، كما لا يجوز أن يكون معطوفا على ماقبله عطف مفرد على مفرد. بل هو مفعول لفعل محذوف يناسبه . وهذا الوجه هو الذى ذكره المؤلف ههنا .

وانظر مزيدا فى ذلك بالصفحة رقم ٢٤١ .

أى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ) ولم يسمعوا ماقال الله ؟ . ولا يخفى تكلفه . وفى قوله (فَإِيَّٰيَ فَارْهَبُونِ) التفات عن الغيبة، مبالغة فى الترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة ، أبلغ من ترهيب الغائب ، لاسيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ)

[٥٣] (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ)

[٥٤] (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٥٥] (لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا۟ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » معطوف على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) أوعلى الخبر، أومستأنف . «وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا» أى العبادةلازمة له وحده. ولزومها له ينافى خوف الغير ، إذ يقتضى تخصيصه تعالى بالرهبة والخشية ، وهذا كقوله(1) : (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

« أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ » أى وهو مالك النفع والضر . « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ » أى فمن فضله وإحسانه «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ» أى لاتتضرعون إلا إليه ، لعلمكم أنه لايقدر على كشفه إلا هو سبحانه . والجؤار : رفع الصوت . يقال : جأر إذا أفرط فى الدعاء والتضرع ، وأصله صياح الوحش .

« ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » أى بنسبة النعمة إلى غيره ورؤيتها منه . وكذا بنسبة الضر إلى الغير ، وإحالة الذنب فى ذلك عليه ،

(1) [٣ / آل عمران / ٨٣] .

والاستعانة فى رفعه به . وذلك هو كفران النعمة ، والغفلة عن المنعم المشار إليهما بقوله :
« لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ » أى من نعمة الكشف عنهم. واللام للعاقبة والصيرورة
« فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى وبال ذلك الكفر . وفيه إشعار بشدة الوعيد ، وأنه
إنما يعلم بالمشاهدة ، ولا يمكن وصفه ، فلذا أبهم .

وللقاشانىّ وجه آخر قال : أو فسوف تعلمون ، بظهور التوحيد ، أن لا تأثير لغير الله فى
شىء . ثم بيّن تعالى من مثالب المشركين قوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ)

[٥٧] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ)

«وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ». أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد «نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ» أى من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا إليها « تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ » أى : من أنها آلهة يُتقرب إليها . ومرّ نظير الآية فى سورة الأنعام فى قوله سبحانه(١) (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا) الآية، فانظر تفصيلها ثمّت «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ » هذا بيان لعظيمة من عظائمهم ، وهو جعلهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن بنات الله، فنسبوا له تعالى ولدا ولا ولد له. واجترءوا على التفوه بمثل ذلك وعلى نسبة أدنى القسمين له من الأولاد، وهو البنات. وهم لا يرضونها لأنفسهم لأنهم يشتهون الذكور، أى يختارونهم لأنفسهم ويأنفون من البنات. وقد نزه مقامه الأقدس عن ذلك بقوله(سُبْحَـٰنَهُۥ) أى عن إفكهم وقولهم . وفيه تعجيب من جراءتهم على التفوه بهذا المنكر من القول ، ومن مقاسمتهم لجلاله بالاستئثار كما قال سبحانه(٢) (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٦] . (٢) [٥٣ / النجم / ٢١و٢٢] .

قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ) وقال تعالى(١) (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ثم أشار إلى شدة كراهتهم للإناث ، بما يمثل عظم تلك النسبة إلى الجناب الأقدس وفظاعتها ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

[٥٩] (يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ، أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ، أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ » أى صار أو دام النهار كله « مُسْوَدًّا » أى متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التى حصلت له عند هذه البشارة . وسواد الوجه وبياضه يعبر به عن المساءة والمسرة ، كناية أو مجازاً . « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مشتد الغيظ على امرأته لأنه ، بزعمه ، حصل له منها مايوجب أشد الحياء حتى أنه « يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ » أى يستخفى منهم « مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ » أى من أجله وخوف التعيير به . ثم يفكر فيما يصنع به ، وهو قوله تعالى « أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ » أى محدثا نفسه متفكراً فى أن يتركه على هوان وذلّ ، لايورّثه ولا يعتنى به ، ويفضل ذكور ولده عليه « أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ » أى يخفيه ويدفنه فيه حيًّا « أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى حيث يجعلون الولد ، الذى هذا شأنه من الحقارة والهون عندهم ، لله تعالى وتقدس . ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف . وقوله تعالى :

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٥١ـ١٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » أى مثل من ذكرت مساوئهم «مَثَلُ السَّوْءِ» أى صفات الذل من الحاجة إلى الأولاد وكراهة الإناث ووأدهن ، خشية الإملاق ، المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشحّ البالغ . ووضع الموصول موضع الضمير ، للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ » أى الوصف العالى الشأن ، وهو الغنىّ عن العالمين . والكمال المطلق والتقدس عن سمات المخلوقين : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ثم أخبر تعالى عن حلمه بخلقه ، مع ظلمهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[٦٢] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ)

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم » أى بكفرهم ومعاصيهم التى منها ما عدد من المساوئ المتقدمة « مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا » أى على الأرض المدلول عليها بالناس ، وبقوله تعالى : « مِن دَابَّةٍ » أى لأهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين «وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى»

أى وقت معين تقتضيه الحكمة. يستغفر منهم من يستغفر فيغفر له، ويصرّ من يصرّ فيزداد عذاباً « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ » أى المسمى «لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ* وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ » أى ينسبون إليه « مَا يَكْرَهُونَ » أى من البنات ومن الشركاء . وهم يأنفون من الأولى كما يكرهون مشاركة أحد لهم فى مالهم . وهو تكرير لما سبق ، تثنيةً للتقريع وتوطئة لقوله تعالى :

« وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ » أى يجعلون لله ذلك، مع دعواهم أن لهم العاقبة الحسنى عند الله ، إن كان ثم معاد . كما قصه تعالى عنهم بقوله(١) (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ) يعنى جَمْعَ هؤلاء بين عمل السوء وتمنِّى المحال ، بأن يجازوا على ذلك حسناً .

وقد روى أنه وجد فى أحد أحجار الكعبة ، لما جدّدت ، مكتوبا (تَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وتُجْزَوْنَ الْحَسَنَاتِ. أجل. كما يجتنى من الشوك العنب) و(أَنَّ لَهُمُ)الخ بدل من (الكذب) أو بتقدير بأن لهم .

قال الشهاب : قوله تعالى (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) من بليغ الكلام وبديعه كقولهم : (عينها تصف السحر) أى ساحرة . وقدها يصف الهيف ، أى هيفاء .

قال أبو العلاء المعرّى(٢) :

سَرَى بَرْقُ المَعَرَّةِ بعد وَهْنٍ ... فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالَا

---

(١) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٢) البيت الأربعون من قصيدته التى مطلعها :

أعَنْ وَخْدِ القِلَاصِ كشفتِ حالَا ... ومِنْ عندِ الظَّلَامِ طلبت مالَا

(بعد وهن) أى بعد طائفة من الليل . و (معرّة النعمان) بالشام . و (رامة) موضع بعينه . يقول : لما حللنا برامة مغرباً ، نظرنا إلى برق سرى من جانب الشام من صوب =

ثم ردّ كلامهم وأثبت ضده بقوله سبحانه « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ » أى معجّلون إليها ومقدّمون . من (الفرط) وهو السابق إلى الورد . يقال: أفرطته فى طلب الماء إذا قدمته . أو متروكون منسيّون فى النار . من (أفرطته) بمعنى تركته ونسيته ، على ما حكاه الفراء . كقوله تعالى[1] : (فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) وقرأ نافع (مُفْرِطُونَ) بكسر الراء . اسم فاعل من (أفرط) إذا تجاوز أى متجاوزو الحدّ فى معاصى الله . وقرأ أبو جعفر بكسر الراء المشددة من (فرّط فى كذا) إذا قصر . ويقرب من الآية ما قص عنهم فى قوله تعالى[2] (وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وقال تعالى[3](وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا).

ثم ذكر تعالى نعمته فى إرسال الرسل وتكذيب أممهم ، ليتأسى صلوات الله عليه بهم بقوله سبحانه :

= معرّة النعمان ، حتى إذا بلغ رامة بات بها يصف الكلال ، أى يشكو ضعفه ، لأنه قطع شقة بعيدة ومسافة شاسعة .

انظر شرح التنوير على سقط الزند ، بالصفحة رقم ٢٣ من الجزء الأول (طبعة بولاق عام ١٢٨٦ هـ) .

(١) [٧/ الأعراف / ٥١] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٠] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٣٥ و ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦٤] (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ » أى من الكفر والتكذيب والعناد « فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ »أى قرينهم، يُغْوِيهم. أوالمراد باليوم يوم القيامة . والولىّ بمعنى الناصر . وجعله ناصراً فيه ، مع أنهم لا ينصرون ، مبالغة فى نفيه ، وتهكم،على حدّ (عتابه السيف)« وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ » أى فالقُرْآنُ هو الفُرْقَانُ الفاصل بين الحق والباطل ، وكل ما يتنازع فيه « وَهُدًى » أى للقلوب « وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ثم أشار إلى عظيم قدرته فى آياته الكونية الدالة على وحدانيته ، إثْرَ قدرته فى إحياء القلوب الميتة بالكفر ، بما أنزله من وحيه وهداه ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٦٦] (وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ)

« وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ » أى

بالنبات والزرع، بعد جدبها ويبسها «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أي هذا التذكير، ويعقلون وجه دلالته «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ» وهو ما في الكرش من الثفل «وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» أي سهل المرور في حلقهم.

بيّن تعالى آيته في الأنعام بما ذكر، ليستدل به على واحدانيته وانفراده بالألوهية. وليستدل به أيضاً على الحشر. فإن العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والتراب. فقَلْبُ الطين نباتاً وعشباً، ثم تبديلُه دماً في جوف الحيوان، ثم تحويله إلى لبَن، أعظم عبرة على قدرته تعالى على قلب هذه الأجسام الميتة من صفة إلى صفة. وإنما ذكّر الضمير في بطونه هنا، وأنثه في سورة المؤمنين، لكون الأنعام اسم جمع، فيذكر ويفرد ضميره، باعتبار لفظه. ويؤنث ويجمع باعتبار معناه. وقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٧] (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

«وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». بيان لآيته تعالى في الثمرات المذكورة، ومنّته في المشروب منها والمطعوم. و(السَّكَرُ) مصدر سمي به الخمر. فهو بمعنى السُّكْر كالرَّشَدِ وَالرُّشْدِ. قال الفراء: السَّكَر الخمر نفسها. والرزق الحسن الزبيبُ والتمر وما أشبههما، ولا يقال: الخمر محرمة، فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام؟ لأنَّ هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة. فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت الخمر فيه غير محرمة. وأجاب الرازيّ بجواب ثانٍ.

وهو : أنه لاحاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما فى هــذه الأشياء من المنافع . وخاطب المشركين بها . والخمر من أشربتهم . فهى منفعة فى حقهم .

قال : ثم إنه تعالى نبه فى هذه الآية أيضاً على تحريمها . وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر ، فوجب أن لا يكون السَّكَر رزقاً حسناً . ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة فوجب أن يقال : الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة . وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن كثير : دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور .

وفى (فتح البيان) : قد حمل السكر جماعة من الحنفية على مالا يسكر من الأنبذة ، وعلى ماذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر . كما فى (الكشاف) .

قالوا : إنما يمتن الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر . انتهى .

وليس هــذا موضع بسط ذلك . قال ابن كثير : وقد ناسب ذكر العقل ههنا فى قوله تعالى : (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإنه أشرف مافى الإنسان . ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها . انتهى .

ولما بين تعالى أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، دلائل قاهرة وبينات باهرة ، على أن لهذا العالم إلهاً واحداً قادرا مختاراً حكيما ـ أرشد إلى آيته الساطعة فى النحل أيضاً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[٦٩] (ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ، يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » المراد من الوحى الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة ، من أضلاع متساوية لايزيد بعضها على بعض ، ممـا لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات . وقد أرشدها تعالى إلى بنائها بيوتاً تأوى إليها فى ثلاثة أمكنة : الجبال . والشجر . وبيوت النـاس ، حيث يعرشون أى يبنون العروش ، جمع (عرش) وهو البيت الذى يستظل به كالعريش . وليس للنحل بيت فى غير هـذه الأمكنة : الجبال والشجر وبيوت الناس . وأكثر بيوتهـا ماكان فى الجبال وهو المتقدم فى الآية ثم فى الشجر دون ذلك ثم فى الثالث أقل .

فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن فى الجبال والفيافى لايتعهدها أحد من الناس . وأهلية تأوى إلى البيوت وتتعهد فى الخلايا. ومن بديع الإلهام فيها اتخاذهاالبيوت قبل المرعى. فهى تتخذها أوّلا . فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت . وأكلت من الثمرات . ثم أوت إلى بيوتها . وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : « ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى من كل ثمرة تشتهيها ، حـلوها ومرها . فالعموم عرفىّ ، أو لفظ (كُل) للتكثير . أو هو عام مخصوص بالعادة . ولو أبقى الأمر على ظاهره لجاز . لأنه لايلزم من الأمر بالأكل من جميع الثمرات ، الأكل منها . لأن الأمر للتخلية والإباحة .

لطيفة : إنما أوثر (مِنَ) فى قوله تعالى (مِنَ ٱلْجِبَالِ) الخ ، على (فى) دلالة على معنى التبعيض . وأن لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها . نبه عليه الزمخشرىّ .

قال الناصر : ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه فى تبعيض (من) المتعلقة باتخاذ البيوت . بإطلاق الأكل . كأنه تعالى وَكَلَ الأكل إلى شهوتها واختيارها . فلم يحجرْ عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض . لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت (ثم) لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها فى تناول الثمرات . كما تقول راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شىء شئت . فتوسط (ثم) لتفاوت الحجر والإطلاق . فسبحان اللطيف الخبير .

وقوله تعالى « فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا » أى الطرق التى ألهمك وأفهمك فى عمل العسل . فالسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أو على حقيقتها . أى إذا أكلت الثمار فى المواضع النائية فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها . و (ذللا) جمع ذلول ، حال من (السبل) أى مذللة ذللها الله لكِ وسهلها . فهى تسلك من هذا الجوّ العظيم . والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة . ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة . وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ » استئناف ، عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من عجيب صنعه تعالى ، تعديداً للنعم ، وتنبيها على العبر ، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة من هذا الحيوان الضعيف . وسمى العسل شراباً ، لأنه يشرب مع الماء وغيره « مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ » أى فمنه أبيض وأصفر وأحمر ، لاختلاف ما يؤكل من النَّور أو مزاجها « فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » لأنه من جملة الأشفية والأدوية فى بعض الأمراض . وله دخل فى أكثر ما به الشفاء والمعاجين . وقلّ

معجون من المعاجين ، لم يذكر الأطباء فيه العسل . وقد قام الآن مقامه السكر ، لكثرته بالنسبة إليه . وفى الصحيحين[1] عن أبى سعيد الخدرىّ ، رضى الله عنه ، أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : اسقه عسلا . فذهب فسقاه عسلاً فقال : يا رسول الله ! سقيته عسلًا ما زاده إلا استطلاقاً . قال : اذهب فاسقه عسلًا فذهب فسقاه عسلًا ثم جاء فقال : يارسول الله ! ما زاده إلا استطلاقاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلًا . فذهب فسقاه عسلًا فبرأ .

قال ابن كثير . قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات . فلما سقاه عسلًا وهو حارّ تحللت فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالًا ، فاعتقد الأعرابىّ أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع . ثم سقاه فكذلك . فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه الصلاة والسلام . انتهى .

وفى (العناية) للشهاب هنا ، قصة عن طبقات الأطباء ، فيها تأييد لقصة الأعرابىّ فانظرها .

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فيعتبرون ويستدلون على وحدانيته سبحانه، وانفراده بألوهيته. وأنه هو الذى ألهم هذه الدواب الضعيفة فعلمت مساقط الأنداء، من وراء البيداء ، فتقع على كل حرارة عبقة ، وزهرة أنقة، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضابا، وتلفظه شرابا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤ ـ باب الدواء بالعسل ، وقول الله تعالى : (فيه شفاء للناس) حديث ٢٢٥١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٩١ (طبعتنا) .

قال الحجة الغزالى (فى الإحياء) : انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل . وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها من النجاسات والأقدار ، وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكبرها شخصاً وهو أميرها ، ثم ما سخر الله لأميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل منها على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ـ لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيرا فى نفسك ، وفارغاً من هم بطنك وفرجك ، وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك ، وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنيانها بيتاً من الشمع ، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية فى الشكل المسدس ، يقصر فهم المهندس عن درك ذلك . وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير ومايقرب منه . فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة . وشكل النحل مستدير مستطيل . فترك المربع حتى لاتبقى الزوايا فارغة . ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة . ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير . ثم تتراصّ الجملة منه بحيث لاتبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس . وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل ، على صغر جرمه ، ذلك . لطفا به وعناية بوجوده فيما هو محتاج إليه . ليهنأ عيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . وفى طبعه أنه يهرب بعضه من بعض ويقاتل بعضه بعضا فى الخلايا ويلسع من دنا من الخلية . وربما هلك الملسوع . وإذا أهلك شىء منها داخل الخلايا أخرجته الأحياء إلى خارج . وفى طبعه أيضا النظافة . فلذلك يخرج رجيعه من الخلية لأنه منتن الريح . وهو يعمل زمانى الربيع والخريف . والذى يعمله فى الربيع أجود . والصغير أعمل من الكبير . وهو يشرب من الماء ما كان صافياً عذبا . يطلبه حيث كان . ولا يأكل من العسل إلا قدر شبعة . وإذا قلّ العسل فى الخلية ، قذفه بالماء ليكثر ، خوفا على نفسه من نفاده لأنه إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور . وربما قتلت ما كان منها هناك .

قال حكيم من اليونان لتلامذته : كونوا كالنحل فى الخلايا . قالوا : وكيف النحل فى الخلايا ؟ قال : إنها لا تترك عندها بطالًا إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية . لأنه يضيق المكان ، ويفنى العسل ، ويعلم النشيط الكسل .

والنحل يسلخ جلده كالحيات . وتوافقه الأصوات اللذيذة المطربة، ويضره السوس. ودواؤه أن يطرح له فى كل خلية كف ملح . وأن يفتح فى كل شهر مرة . ويدخن بأخثاء البقر . وفى طبعه أنه متى طار من الخلية ، يرعى ثم يعود، فتعود كل نحلة إلى مكانها لا تخطئه . كذا فى (حياة الحيوان) .

وذكر الإمام الغزالىّ أيضا فى كتاب (الحكمة فى خلق المخلوقات) : أن الله تعالى جعل للنحل رئيساً تتبعه وتهتدى به فيما تناله من أقواتها . فإن ظهر مع الرئيس الذى تتبعه رئيس آخر من جنسه ، قتل أحدهما الآخر . وذلك لمصلحة ظاهرة ، وهو خوف الافتراق. لأنهما إذا كانا أميرين ، وسلك كل واحد منهما فجّا، افترق النحل خلفهما . ثم إنها أُلهمت أن ترعى رطوبات مِن على الأزهار . فيستحيل فى أجوافها عسلا . فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد، من شراب فيه شفاء للناس . كما أخبر سبحانه وتعالى . وفيه غذاء وملاذ العباد . وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم . فهى مثل ما يفضل من اللبن الذى خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها . وما فضل من ذلك ففيه من البركة والكثرة ماينتفع به الناس . ثم انظر ماتحمله النحل من الشمع فى أرجلها ، لتوعى فيه العسل وتحفظه . فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع فى الأجناح . فانظر فى هذه الذبابة، هل فى علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل ؟ أوعندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره فى الشمع وصيانته فى الجبال والشجر فى المواضع التى تحفظه ولا يفسدفيها! ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت مايقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها فى ترتيب بيوتها من الحكمة فى بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ،

ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعدا عن مواضع العسل . وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه .

قال أبو السعود : ولما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ماذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل ، أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك. وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع : الأولى سنّ النشوء والنماء . والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب . والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة . والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سنّ الشيخوخة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

[٧١] (وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ، فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ » أى أنشأكُمْ من العدم « ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ » أى أضعفه وأردئه وهو الهرم. وقوله تعالى «لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا» اللام للصيرورة والعاقبة. أى فيصيرُ ، إن كان عالما ، جاهلًا. فيريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم إلى الجهل ، أنه قادر على إحيائه بعد إماتته .

قال فى (العناية) : وكونه غير عالم بعد علمه ، كناية عن النسيان . لأن الناسى يعلم الشىء ثم ينساه، فلا يعلم بعد ماعلم. أو العلم بمعنى الإدراك والتعقل، والمعنى لايترقى فى إدراك عقله وفهمه ؛ لأن الشاب فى الترقى ، والشيخ فى التوقف والنقصان .

وفى (الكشاف) : ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية فى النسيان. وأن يعلم شيئا ثم

يسرع فى نسيانه ، فلا يعلمه إن سئل عنه . وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً ، وقيل لئلا يعلم زيادةعلم على علمه الأول. و (شيئاً) منصوب على المصدرية أو المفعولية. وجوز فيهالتنازع بين (يعلم) و (علم) وكون مفعول (علم) محذوفاً لقصد العموم . أى لا يعلم شيئاً ما بعد علم أشياء كثيرة .

« إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ» أى : جعلكم متفاوتين فيه ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم ، وهم بشر مثلكم «فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ » أى فى الرزق ، وهم الملاك « بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ » أى بمعطيهم إياه « فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ » أى فيستووا مع عبيدهم فى الرزق .

والآية مثل ، ضرب للذين جعلوا له تعالى شركاء . أى أنتم لاتسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم . ولا تجعلونهم فيه شركاء. ولا ترضون ذلك لأنفسكم . فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء فى الإلهية والتعظيم؟ كما قال فى الأخرى[1] (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) الآية.

« أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ » أى فيشركون معه غيره وهو المنعم عليهم . أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ماأنعم بها عليهم . فإنه لا نعمة على العالم أجل من إقامة الحجج وإيضاح السبل بإرسال الرسل .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ، أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)

[٧٣] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٧٤] (فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا » أى فى جنسكم وشكلكم إناثا أزواجاً لتأنسوا بها وتحصل المودة والألفة والرحمة « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً » أى بنات وأولاد أولاد « وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ » وهو منفعة الأصنام وشفاعتها « وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ » أى فى إضافة نعمه إلى الأصنام، أو فى تحريم ما أحل لهم «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا» أى من مطر أو نبات و(شيئا) نصب على المفعولية من (رزق) إن كان مصدراً. وإن جعل اسماً للمرزوق فـ(شيئاً) بدل منه بمعنى قليلًا . و (من السموات) متعلق بـ(يملك) على كون الرزق مصدراً . أو هو صفة لـ (رزقاً) « وَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى أن يتملكوه . أو لا استطاعة لهم أصلًا . أو الضمير للمشركين . أى ولا يستطيعون ، مع أنهم أحياء متصرفون، فكيف بالجماد ؟

« فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ » أى فلا تجعلوا له أنداداً وأمثالًا . والضرب للمثل فيه معنى الجعل . والأمثال جمع (مثل) بكسر فسكون على هذا ، وقيل جمع (مَثَل) بفتحتين والآية استعارة تمثيلية للإشراك به . حيث جعل المشرك به الذى يشبهه بخلقه ، بمنزلة ضارب المثل .

فإن المشبه المخذول يشبه صفة بصفة ، وذاتاً بذات . كما أن ضارب المثل كذلك . فكأنه قيل : ولا تشركوا . وعدل عنه لما ذكر ، دلالة على التعميم فى النهى عن التشبيه وصفاً وذاتاً . وفى لفظة (الأمثال) لمن لا مثال له ، نعىٌ عظيم على سوء فعلهم . كذا فى (شرح الكشاف) .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى يعلم قبح ما تشركون وأنتم لا تعلمونه . ولو علمتموه لما جرأتم عليه ، فهو تعليل للنهى. أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لاتعلمونه . فدعوا رأيكم وقياسكم دون نصه . ولما نهاهم عن ضرب المثل الفعلىّ وهو الإشراك ، عقبه بالكشف لذى البصيرة ، عن حالهم فى تلك الغفلة ، وحال من تابعهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُۥنَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » يعنى أن مثل هؤلاء فى إشراكهم ، مثلُ مَن سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حرّ مالك يتصرف فى ماله كيف يشاء . ولا مساواة بينهما . مع أنهما سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى . فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات . وإيثار قوله: (وَمَن رَّزَقْنَٰهُ) الخ على (مالكاً) للتنبيه على أن ما بيده ، هو من فضل الله ورزقه ، وعلى تذكيره الإنفاق منه فى السر والجهر ، ليكون عاملا بأمر الله فيه .

وقوله تعالى (ٱلْحَمْدُ لِلَّـهِ) أى على ماهدى أولياءه وأنعم عليهم من التوحيد . أو الحمد كله له لايستحقه شيء من الأصنام . أو الحمد لله على قوة هـــذه الحجة وظهور المحجة . وأكثرهم لايعلمونها ، مع أنها فى غاية ظهورها ونهاية وضوحها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْـكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« وَضَرَبَ ٱللَّـهُ مَثَلًا » أى مثلًا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح « رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْـكَمُ » أى أخرس « لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ » أى مما يقدر عليه المنطيق المفصح عما فى نفسه « وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ » أى ثقيل على من يلى أمره ، لعدم اهتمامه بإقامة مصالح نفسه « أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ » أى حيث يرسله فى أمر لَا يَأْتِ بنجحه وكفاية مهمه « هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ » أى ومن هو بليغ منطيق ذو كفاية ورشد لينفع الناس ، بحثّهم على العدل الشامل لجميع الفضائل .

« وَهُوَ » أى فى نفسه مع ماذكر من نفعه العام « عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى على سيرة صالحة ودين قويم ، لايتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى وأسهله .

قال الأزهريّ : ضرب تعالى مثلًا للصنم الذى عبدوه وهو لايقدر على شيء ، فهو كَلٌّ على مولاه . لأنه يحمله إذا ظعن فيحوّله من مكان إلى مكان. فقال الله تعالى: هل يستوى هذا الصنم الـكل ، ومن يأمر بالعدل ؟ استفهام معناه التوبيخ ، كأنه قال لاتسووا بين الصنم الـكلّ وبين الخالق جل جلاله . انتهى .

وإليه أشار الزمخشريّ بقوله : وهذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولما يفيض على عباده ويشملهم مع آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لاتضر ولاتنفع . انتهى .

وناقش الرازيّ في حمله على الصنم بأن الوصف بالرجل وبالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع ، يمنع من حملها على الوثن . وكذا الوصف في الثاني بأنه على صراط مستقيم، يمنع من حمله على الله تعالى . انتهى .

وقد يقال في جوابه بأن الأوصاف الأول ، وإن كانت ظاهرة في الإنسان (والأصل في الإطلاق مايتبادر وهو الحقيقة) إلا أن المقام صرفها إلى الوثن. لأن الآيات في بيان حقارة ما يعبد من دونه تعالى ، وكونه لايصلح للألوهية بوجه ما ، لما فيه من صفات النقص. وأما الوصف في قوله (عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فكقوله تعالى[1] : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فصح الحمل .

ثم رأيت للإمام ابن القيّم في (أعلام الموقعين) ما يؤيد ما اعتمدناه حيث قال، في بحث أمثال القرآن ، في هذين المثلين ما صورته :

فالمثل الأول . يعني قوله تعالى (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا) الآية ، ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان . فالله سبحانه هو المالك لكل شيء . ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً وليلاً ونهاراً . يمينه ملأى لايغيضها نفقة . سحّاء الليل والنهار . والأوثان مملوكة عاجزة لاتقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إليّ ويعبدونها من دوني ، مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه حسناً فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهراً . والكافر بمنزلة عبد مملوك

(١) [١١ / هود / ٥٦] .

عاجز لايقدر على شيء. لأنه لاخير عنده . فهل يستوى الرجلان عند أحد من العقلاء؟ والقول الأول أشبه بالمراد . فإنه أظهر فى بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم فى إقامة الحجة وأقرب نسباً بقوله[١] : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ثم قال : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ) ومن لوازم هـذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً . والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء . فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس منبها على إرادته . لا أن الآية اختصت به. فتأمله فإنك تجده كثيراً فى كلام ابن عباس وغيره من السلف فى فهم القرآن . فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التى لا معنى لها غيره ، فيحكيه قوله .

وأما المثل الثانى ، فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضا. فالصنم الذى يعبدمن دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق . بل هو أبكم القلب واللسان. قد عدم النطق القلبىّ واللسانىّ ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة . وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير . ولا يقضى لك حاجة ، والله سبحانه حىٌّ قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد. فإن أمره بالعدل، وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له ، راض به آمر لعباده به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه والباطل . بل أمره وشرعه عدل كله. وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه. وهم المجاورون له عند يمينه ، على منابر من نور . وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعىّ الدينىّ والأمر القدرىّ الكونىّ . وكلاهما عدل لاجور فيه بوجه. كما فى الحديث الصحيح[٢] : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىَّ حكمك عدل فىَّ قضاؤك . فقضاؤه

---

(١) [١٦ / النحل/ ٧٣ و ٧٤] .(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) .

هو أمره الكونى[(١)] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فلا يأمر إلا بحق وعدل . وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان فى المقضى المقدّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقضىّ . والقدر غير المقدّر . ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم وهذا نظير قول رسوله شعيب[(٢)] : (إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وقوله (مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ) نظير قوله (نَاصِيَتِى بِيَدِكَ) وقوله (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) نظير قوله (عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ). فالأول ملكه. والثانى حمده . وهو سبحانه له الملك وله الحمد. وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل . فهو على الحق فى أقواله وأفعاله . فلا يقضى على العبد بما يكون ظالماً به ولا يأخذ بغير ذنبه . ولا ينقصه من حسناته شيئاً . ولا يحمل عليه من سيئات غيره التى لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً . ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة .فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله .

قال محمد بن جرير الطبرى[(٣)] : وقوله : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) يقول : إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن من خلقه بإحسانه والمسىء بإساءته . لا يظلم أحدا منهم ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به .

ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل بن أبى نجيح عنه (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) قال : الحق . وكذلك رواه ابن جريج عنه.

---

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء الثانى عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

وقالت فرقة : هى مثل قوله[١] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) وهذا اختلاف عبارة . فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

وقالت فرقة : فى الكلام حذف تقديره : إن ربى يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه . وهؤلاء إن أرادوا أنّ هذا معنى الآية التى أريد بها، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر. وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم. وإن أرادوا أنّ حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم ، فقد أصابوا .

وقالت فرقة أخرى : معنى كونه على صراط مستقيم أن مَرَدّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شىء منها . وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك . وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه ، فهو حق .

وقالت فرقة أخرى : معناه كل شىء تحت قدرته وقهره فى ملكه وقبضته . وهذا وإن كان حقا فليس هو معنى الآية. وقد فرق شعيب بين قوله[٢] : (مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ) وبين قوله[٢] : (إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فهما معنيان مستقلان .

فالقول قول مجاهد ، وهو قول أئمة التفسير . ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه.

وقال جرير[٣] يمدح عمر بن عبد العزيز :

أميرُ المؤمنين على صراطٍ ... إذا اعوجَّ المواردُ مستقيمِ

وقد قال تعالى[٤] : (مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

---

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [١١ / هود / ٥٦] .

(٣) من قصيدة مطلعها :

أَلُمْتِ وما رَفَقْتِ بأن تَلُومِى ... وقلتِ مقالةَ الخَطِلِ الظَّلُومِ

يمدح بها هشام بن عبد الملك .

انظر الصفحة رقم ٥٠٧ من الديوان . (٤) [٦ / الأنعام / ٣٩] .

وإذا كان سبحانه هو الذى جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم فى أقوالهم وأفعالهم ، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم فى قوله وفعله . وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره ، فصراطه الذى هو سبحانه عليه ، هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله ، وبالله التوفيق .

وفى الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء : إنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وقد تقدم مافى هذا القول وبالله التوفيق . انتهى بحروفه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

الآية إما جواب لاستعجالهم مايوعدون ، أو لاستبطائهم الساعة . أو لبيان كماله فى العلم والقدرة ، تعريضاً بأن معبوداتهم عرية منهما. فأشار إلى الأول بقوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى يختص به علم ماغاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه . أو غيبهما هو يوم القيامة. فإن علمه غائب عن أهلهما، لم يطلع عليه أحد منهم، وأشار إلى الثانى بقوله (وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) و (الساعة) الوقت الذى تقوم فيه القيامة . و(اللمح) النظر بسرعة. أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هوأقرب) من ذلك ، أى أسرع زماناً . بأن يقع فى بعض من زمانه . وفيه من كمال تقرير قدرته تعالى ما لايخفى . وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تعليل له ، إشارة إلى أن مقدوراته تعالى لاتتناهى ، وأن مايذكر بعض منها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٩] (أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا » عطف على قوله تعالى : (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا) منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى (وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) وقوله تعالى (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ) وقوله تعالى (وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أفاده أبو السعود . و (شَيْـًٔا) منصوب على المصدرية . أو مفعول (تعلمون) والنفى منصبّ عليه . أى لا تعلمون شيئاً أصلا من حق المنعم وغيره .

« وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ » أى فتدركون به الأصوات « وَٱلْأَبْصَٰرَ » فتحسون المرئيات « وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى العقول « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى لتصرفوها فيما خلقت له من التوحيد والاعتبار بها والمشى على السنن الكونية . ثم نبه تعالى على آيته فى خلقه الطير بقوله « أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ » أى مذللات « فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ » أى ما يمسكهن فى الجوّ من غير تعلق بمادة ولا اعتماد على جسم ثقيل ، إلا هو سبحانه . « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الحجة الغزالىّ فى الحكمة فى خلق المخلوقات ، فى حكمة الطير ، فى هذه الآية ، ما مثاله :

اعلم رحمك الله؛ أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضى الخفة للطيران . ولم يخلق فيه ما يثقله . وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه . فقسم لكل عضو منه ما يناسبه . فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك، انصرف إلى كل عضو من غذائه ماهو لائق به .

نخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له فى ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل ليثبت فى موطن على الأرض وهى خف فيه . أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه. وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جدًّا ليستغنى به عن الريش فى الحر والبرد . وكان من الحكمة ، خلقه على هذه الصفة . لأنه فى رعيه وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء. فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه . فأغناه سبحانه عن الريش فى موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران . وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها . إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعى فى البرارى ولا فى البحائر حتى ينكبّ على صدره . وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق، لتزداد مطلبه عليه سهولة. ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه . وخلق صدره ودائره ملفوفاً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق فى الهواء بغير كلفة ، وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يغتذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك . فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قوته اللحم . ومنه عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً . ومنه معتدل اللقط وأكل الخضر . ومنه طويل المنقار جعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ، ما هى فى العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله. وهو مقام الأسنان فى غير الطير من الحيوان . وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب فى الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش . وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد . ومعونة متخللة الهواء للطيران . وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه ، لكثرة دعاء الحاجة إليه . وحمل فى سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له . وجعل فى ريشه من الحكمة، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض

يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته . وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته. وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته فى طيرانه . فلولاه لمـــا مالت به الأجنحة فى حال الطيران يميناً وشمالاً . فـكان له بمنزل رَجُل السفينة الذى يعدل بها سيرها. وخلق فى طباعه الحذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ، جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية . وصار يزدرد ما يأ كله صحيحاً . وأعِين بفضل حرارة فى جوفه تطحن الطعام طحناً يستغنى به عن المضغ وثقل الأسنان . واعتبر ذلك بحبّ العنب وغيره . فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق فى أجواف الطير. ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران . فإنه لو خلقت فراخه فى جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بهـــا وتعوّق عن النهوض للطيران. أفلا ترى كيف دبر كل شىء من خلقه بما يليق به من الحـكمة؟ انتهى ملخصاً .

ثم بين تعـــالى نعمته على البشر ليستدل به على وحدانيتـه ، بقوله ، عطفاً على ما مرّ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا » أى موضعاً تسكنون فيه وتأوون إليـه لمـــا لايحصى من وجوه منافعـكم « وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا » أى بُيُوتاً أخرى وهى الخيـام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها ، أو من الوبر والصوف

والشعر أيضاً . فإنها من حيث كونها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها . أو الجلود مجاز عن المجموع « تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ » أى تجدونها خفيفة المحمل وقت ترحالكم ووقت نزولكم فى مراحلكم . لا يثقل عليكم ضربها . أو هى خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر جميعاً . قيل : والأول أولى. لأن ظهور المنة فى خفتها إنما يتحقق فى حال السفر. وأما المستوطن فغير مثقل «وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ» أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز « أَثَٰثاً وَمَتَٰعاً إِلَىٰ حِينٍ » الأثاث ما يتخذ للاستعمال بلبس أو فرش . والمتاع مايتخذ للتجارة . وقيل هما بمعنى . ومعنى (إِلَىٰ حِينٍ) أى إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى . أو إلى أن تموتوا .

تنبيه :

استدل بالآية على طهارة جلود المأكولات وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، إذا خرجت فى الحياة أو بعد التذكية . واستدل بعموم الآية من أباحها مطلقاً ولو من غير مذكاة . كذا فى (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)

«وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ» أى من الشجر والجبال والأبنية وغيرها «ظِلَٰلاً» أى أفياء تستظلون بها من حر الشمس «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰناً» أى بيوتاً ومعاقل وحصوناً تستترون بها « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ » جمع سربال وهو كل

ما يلبس من القطن والكتان والصوف ونحوها . وإنما خص الحرّ ، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر . أوْ لأن الوقاية من الحر أهم عند العرب ، لشدته بأكثر بلادهم ، وخصوصاً قُطَّان الحجاز وهم الأصل في هذا الخطاب . قيل : يبعده ذكر وقاية البرد سابقاً في قوله[1] : (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) وهو وجه الاقتصار على الحرّ هنا ، لتقدم ذكر خلافه « وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ » كالدروع من الحديد والزرد ونحوها . التي يتقى بها سلاح العدوّ في الحرب « كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » أي إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية ، فتسلموا وجوهكم إليه تعالى ، وتؤمنوا به وحده .

قال أبو السعود : وإفراد النعمة ، إما لأن المراد بها المصدر ، أو لإظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شيء قليل . وقرئ (تَسْلَمُونَ) بفتح اللام أي من العذاب أو الجراح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

[٨٣] (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ)

[٨٤] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« فَإِن تَوَلَّوْاْ » أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ » أي التي عددت ، وأنها بخلقه « ثُمَّ يُنكِرُونَهَا » أي بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هي من الله ، ولكنها بشفاعة آلهتنا « وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ » .

(١) [١٦ / النحل / ٥]

ثم أخبر تعالى عن شأنهم فى معادهم بقوله :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » وهو نبيّها يشهد عليها بما أجابته من إيمان وكفرفيما بلغها «ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله[1] : (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى لا يطلب منهم العتبى . أى إزالة عتب ربهم وغضبه . (والعتبى) بالضم الرضا وهو الرجوع عن الإساءة إلى مايرضى العاتب . يقال: استعتبه أعطاه العتبى بالرجوع إلى مسرته. والعتب لومك الرجل على إساءة كانت له إليك . والمرء إنما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع إلى الرضا عنه ، فإذا لم يطلب العتاب منه ، دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

[٨٦] (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ)

« وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يؤخرون «وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ » يعنى أوثانهم التى عبدوها «قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ » أى أربابا أونعبدها « فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى أجابوهم بالتكذيب فى تسميتهم شركاء وآلهة ، تنزيها لله عن الشرك . أو بالتكذيب فى دعواهم أنهم حملوهم على عبادتهم .

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : مقصود المشركين إحالة هذا الذنب على هذه الأصنام . وظنوا

(١) [٧٧ / المرسلات / ٣٥ و ٣٦] .

أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أوينقص من عذابهم . فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام. وهذه الآية كقوله تعالى(١) : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ) وقال تعالى(٢) (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

« وَأَلْقَوْاْ » أى وألقى الذين ظلموا « إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ » أى الاستسلام لحكمه بعد إبائهم فى الدنيا « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » .

أى مِنْ أَنَّ لله شركاء ، وأنهم يشفعون لهم عند الله تعالى . فإن قيل : قد جاء إنكارهم كقوله تعالى(٣): (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) والجواب: (كما قال القاشانىّ) : إن ذلك بحسب المواقف . فالإنكار فى الموقف الأول وقت قوة هيئات الرذائل وشدة شكيمة النفس فى الشيطنة وغاية البعد عن النور الإلهىّ ، للاحتجاب بالحجب الغليظة والغواشى المظلمة حتى لا يعلم أنه كان يراه ويطلع عليه . ونهاية تكدر نور الفطرة حتى يمكنه إظهار خلاف مقتضاه، والاستسلام فى الموقف الثانى بعد مرور أحقاب كثيرة من ساعات اليوم ، الذى كان مقداره خمسين ألف سنة ، حين زالت الهيئات ورقت ، وضعفت شراشر النفس فى رذائلها ، وقرب من عالم النور ، لرقة الحجب ولمعان نور فطرته الأولى ، فيعترف وينقاد . هذا إذا كان الاستسلام والإنكار لنفوس بعينها . وقد يكون الاستسلام للبعض الذين لم ترسخ هيئات رذائلهم ولم تغلظ حجبهم ولم ينطفئ نور استعدادهم.

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٥و٦] . (٢) [١٩ / مريم / ٨١و٨٢] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ١٨] .

والإنكار لمن رسخت فيه الهيئات وقويت وغلبت عليه الشيطنة واستقرت ، وكثف الحجاب وبطل الاستعداد ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ)

[٨٩] (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

« ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ » أى يضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا كفرهم بصدهم غيرهم عن الإيمان ، كقوله تعالى[١] (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ) وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم . كما قال تعالى[٢] : (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ) .

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ » وهو نبيهم « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ » أى اذكر ذلك اليوم ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع . وما يلحق الكافرين فيه من تمنى كونهم تراباً ، لهول المطلع .

وقد ذكر ذلك فى آية النساء فى قوله تعالى[٣] (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا* يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ

(١) [٦ / الأنعام / ٢٦] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .
(٣) [٤ / النساء / ٤١و٤٢] .

لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا) . وقوله تعالى «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » مستأنف . أو حال بتقدير (قد).

قال الرازىّ : وجه تعلق هذا الكلام بماقبله ، أنه تعالى لما قال (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ) بيّن أنه أزاح علتهم فيما كلفوا . فلا حجة لهم ولا معذرة .

وقال ابن كثير فى وجه ذلك : إن المراد، والله أعلم، إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك عن ذلك يوم القيامة (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ)(١) ، (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)(٢) ، (يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ . فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ، قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)(٣) وقال تعالى(٤) (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن . انتهى .

و (التبيان) من المصادر التى بنيت على هــذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه . أى تبييناً لكل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام، وما الناس محتاجون إليه فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وَهُدًى) أى هداية لمن استسلم وانقاد لسلامة فطرته إلى كماله (وَرَحْمَةً) أى له بتبليغه إلى ذلك الكمال بالتربية والإمداد ، ونجاته من العذاب ، وبشارة له بالسعادة الأبدية . وقوله تعالى :

---

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢ و ٩٣] .
(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . (٤) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ » أى فيما نزله تبياناً لكل شيء « بِٱلْعَدْلِ » وهو القسط والتسوية فى الحقوق فيما بينكم . وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه « وَٱلْإِحْسَٰنِ » أى التفضل بأن يقابل الخير بأكثر منه ، والشر بأن يعفو عنه «وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ» أى إعطاء القرابة ما يحتاجون إليه « وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ » أى عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى « وَٱلْمُنكَرِ » أى كل ما أنكره الشرع « وَٱلْبَغْىِ » أى العدوان على الناس « يَعِظُكُمْ » أى بما يأمركم وينهاكم « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون بمواعظ الله ، فتعملون بما فيه رضا الله تعالى .

روى ابن جرير عن ابن مسعود(١) : إن أجمع آية فى القرآن ، لخير وشر ، هذه الآية .

وروى الإمام أحمد(٢) : أن عثمان بن مظعون مرّ على النبيّ ﷺ وهو جالس بفناء بيته. فكشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . فجلس . ثم أوحى إليه هذه الآية فقرأها عليه . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان فى قلبى وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولما تليت الآية على أكثم بن صيفيّ قال لقومه(٣) : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣١٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٩٢٢ (طبعة المعارف) وانظر نص الحديث فإن فيه فوائد .

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٨٢ من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير (طبعة ١٩٣٧).

عن ملائمها . فكونوا فى هذا الأمر رؤساء ولاتكونوا فيه أذناباً . وعن عكرمة ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : ياابن أخى ! أعد علىّ . فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وماهو بقول البشر .

وقد نقل أن بنى أمية كانوا يسبّون عليًّا ، كرم الله وجهه ، فى خطبهم . فلما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أسقط ذلك منها وأقام هذه الآية مقامه . وهو من أعظم مآثره .

قال الناصر : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهنات، لاحظ التطبيق بين ذكر النهى عن البغى فيها، وبين الحديث الوارد فى أن المناصب لعلىّ باغ. حيث يقول عليه الصلاة والسلام (١) لعمار (وكان من حزب علىّ) : تقتلك الفئة الباغية . فقتل مع علىٍّ يوم صفين . انتهى .

ولما فيها أيضاً من العدل والإحسان إلى ذوى القربى، وكونها أجمع آية لاندراج ماذكر فيها . والله أعلم .

ثم بين تعالى أمره بالوفاء بالعهد والميثاق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

« وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَاوَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٣ ـ باب التعاون فى بناء المسجد ، حديث رقم ٢٩٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم ٧٠ (طبعتنا) .

روى ابن جرير عن بريدة قال[1] : نزلت فى بيعة النبيّ ﷺ . كان مَنْ أسلم بايع النبيّ على الإسلام ، فأمروا بالوفاء بهذه البيعة وأن لا ينقضوها بعد توكيدها بالأيمان . أى لا يحملنكم قلة المؤمنين وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام . وظاهر أن العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، مما يلتزمه المرء باختياره . كالمبايعة على الإسلام . وعهد الجهاد وما التزمه من نذر وما أكده بحِلْف . وعلى هذا ، فتخصيص اليمين بالذكر ، للتنبيه على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية. و(التوكيدوالتأكيد)، لغتان فصيحتان. والأصل الواو ، والهمزة بدل منها. والواو فى قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) للحال من فاعل (تَنقُضُواْ) أو من فاعل المصدر وإن كان محذوفاً . ومعنى (كَفِيلًا) شهيداً رقيباً . و (الجعل) مجاز . فإن من حلف به تعالى وهو مطلع عليه فكأنه جعله شاهداً . قال الشهاب : ولو أبقى (الكفيل) على ظاهره ، وجعل تمثيلًا لعدم تخلصهم من عقوبته ، وأنه يسلمهم لها كما يسلم الكفيل من كفله ، كما يقال (من ظلم فقد أقام كفيلا بظلمه) تنبيهاً على أنه لا يمكنه التخلص من العقوبة كما ذكره الراغب ـ لكان معنى بليغاً جدًّا . وقوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » كالتفسير لما قبله . وفيه ترغيب وترهيب .

تنبيه :

فى الآية الحث على البرّ فى الأيمان . وجليّ أنها فيما فيه طاعة وبرّ وتقوى. وأما فيما عدا ذلك ، فالخير فى نقضها . وقد دل عليه ماثبت عن النبيّ ﷺ فى الصحيحين[2] أنه قال : إنى ، والله ! إن شاء الله ، لاأحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذى هوخير وتحللتها . (وفى رواية : وكفَّرت عن يمينى) . فالحديث فى معنى ، والآية فى معنى آخر . فلا تعارض ، كما وهم . وقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٧ ـ كتاب الأيمان ، حديث ٧ـ١٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا » تأكيد لوجوب الوفاء وتحريم النقض. أى لا تكونوا فى نقض الأيمان كالمرأة التى أنحت على غزلها، بعدأن أحكمته وأبرمته ، فجعلته أنكاثاً ، أى أنقاضاً ، جنوناً منها وحمقاً .

ففى التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمّل ، داخل فى زمرة النساء. بل فى أدناهن ، وهى الخرقاء .

وقوله تعالى «تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ» حال من الضمير فى(ولا تكونوا) أى لا تكونوا مشابهين لامرأة هذا شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة بينكم «أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ» أى سبب أن تكون جماعة ، كقريش، هى أزيد عدداً وأوفر مالا من جماعة كالمؤمنين « إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ » أى يعاملكم معاملة من يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ ، أم تغترّون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم ، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ؟ « وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى فيتميز المحق من المبطل ، بما يظهر من درجات الثواب والعقاب . وهو إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

تنبيه :

قال أبو على الزجاجىّ ، من أئمة الشافعية : فى هذه الآية أصل لما يقوله أصحابنا ، من إبطال الدور . لأن الله تعالى ذم من أعاد على الشىء بالإفساد بعد إحكامه . نقله فى (الإكليل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى حنيفة مسلمة « وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا ، سؤال تبكيت ومجازاة ، لااستفسار وتفهم . وهو المنفيّ فى غير هذه الآية. أو فى موقف دون موقف كما مر. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ » تصريح بالنهى عنه ، بعد أن نهى عنه ضمناً ، لأخذه فيما تقدم قيداً للمنهيّ عنه، تأكيداً عليهم ومبالغة فى قبح المنهيّ « فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا » أى فتزل أقدامكم عن محجة الحق ، بعد رسوخها فيه « وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ » أى ما يسوءكم فى الدنيا « بِمَا صَدَدتُّمْ » أى بصدودكم عن الوفاء ، أو بصدكم غيركم « عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى فى الآخرة .

لطيفة :

تنكير (قدم) للإيذان بأن زلل قدم واحدة عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟. وأشار فى (البحر) إلى نكتة أخرى : قال : الجمع تارة يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموع فيؤتى بما هو له مجموعاً . وتارة يلاحظ فيه كل فرد فرد فيفرد ماله كقوله(١) : (وَأَعْتَدَتْ

(١) [١٢ / يوسف / ٣١] .

لَهُنَّ مُتَّـكَئًا) أى لـكل واحدة منهن متـكئاً . ولما كان المعنى : لا يفعل هـذا كل واحد منـكم ، أفرد (قَدَمٌ) مراعاةً لهذا المعنى . ثم قال (وَتَذُوقُواْ) مراعاة للفظ الجمع .

قال الشهاب : هذا توجيه للإفراد من جهة العربية ، فلا ينافى النـكتة الأولى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّـكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّـهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى لا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً من الدنيا يسيراً . وهو ما كانت قريش يَعِدُونهم ويمنّونهم، إن ارتدوا « إِنَّمَا عِندَ ٱللَّـهِ هُوَ خَيْرٌ لَّـكُمْ » أى من إظهاركم فى الدنيا وإثابتـكم فى الآخرة « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من ذوى العلم والتمييز . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّـهِ بَاقٍ » تعليل للخيرية بطريق الاستئناف . أى ما عندكم مما تتمتعون به ، يفرغ وينقص . فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناهٍ ، وما عنده تعالى من ثوابه لـكم فى الجنة باق لا انقطاع له . فإنه دائم لا يحول ولا يزول « وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم » أى على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام « بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى بجزاء أحسن من أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » هـذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحا . وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ، من ذكر أو أنثى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة .

قال المهايمىّ : أى فيتلذذ بعمله فى الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه ، ولا يبطل تلذذه إعسارُه . إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته . والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه؛ إذ يزداد حرصًا وخوف فوات. ويجزون بالأحسن فى الآخرة. فلا يقال لهم: أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا. بل يكمل جزاء أعمالهم الأدنى بحيث يلحق بالأعلى. انتهى.

وعندى أن الحياة الطيبة هى الحياة التى فيها ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة فى الموعود والرضا بالقضاء . وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له . والاستكانة إلى معبود واحد . والتنّور بسر الوجود الذى قام به ، وغير ذلك من مزاياه المقررة فى مواضعها . هذا فى الدنيا . وأما فى الآخرة ، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ)

[٩٩] (إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[١٠٠] (إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ)

« فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ».

لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين ، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن أو الإنس يثير الشبهات بوساوسه . ويفسد القلوب بدسائسه . أمر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجيء إليه ، عند تلاوة القرآن ، من وسوسته . لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة ، فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه. وقد بينت آية[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أن هذه عادة الشيطان، إثر ما يتلوه كل نبيّ على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحى بها لسعادة البشر ، أنه يحول عنها الأنظار ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله . وإن الله يحكم آياته وينسخ شبه الشيطان ، ليحق الحق ويبطل الباطل . فلما كانت هذه عادته ، ولها من الأثر ما لها ، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها ، عند قراءة الوحي ونشر تعاليمه .

ثم بين تعالى أن أثر وسوسته إنما يكون فيمن له سلطان عليهم . أي تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته . وأما الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم ، فصبروا على المكاره ولم يبالوا بما يلقون فى سبيل الجهاد بالحق من العثرات ، فليس له عليهم سلطان . فهم يضادون أمانيه ويهدمون كل ما يلقيه . لأن إيمانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره ، والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله ،فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره . و (الرجيم) من أوصاف الشيطان الغالبة . أى اللعون المرجوم باللعنة أو المطرود أو المرجوم بالكواكب . والضمير فى (بِهِ) لربهم والباء للتعدية. أو للشيطان والباء للسببية .أى بسببه وغروره ووسوسته. ورجح باتحاد الضمائر فيه. وأشار بعضهم إلى أن المعنى أشركوه فى عبادة الله تعالى ، وكله مما يحتمله اللفظ الكريم ويصح إرادته .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٥٢] .

تنبيه :

فى الآية مشروعية الاستعاذة قبل القراءة ، وهو شامل لحالة الصلاة وغيرها . وقال قوم بوجوبها لظاهر الأمر . وسرها فى غيره ﷺ التحصن به تعالى أن لا يلبس الشيطان القراءة وأن لا يمنع من التدبر والتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٠٢] (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

«وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» .

التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى. والأكثرون على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظاً أو حكما بآية أخرى غيرها ، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به . وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما، من الآيات الكونية الآفاقية، بآية أخرى نفسية علمية .وهى كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطريّ . وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ ، لأن يخاطب عقله ويستصرخ فهمه ولبه . فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف . فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبيٍّ أُمِّيٍّ لم يقرأ ولم

يكتب . وكون الكتاب بيّن الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتى العلم ورزق الفهم . وهذا التأويل الثانى يرجحه على الأول ، أن السورة مكية . وليس فى المكىّ منسوخ بالمعنى الذى يريدونه. وللبحث تفصيل فى موضع آخر. وقد أشرنا إلى ذلك فى آيتين من سورة البقرة فى قوله تعالى(١) (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا) الخ ، وقوله تعالى(٢) (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) والمقصود أنه تعالى ، لما رحم العالمين وجعل القرآن مكان ما تقدم ، نسبوا الموحى إليه به إلى الافتراء ، ردًّا للحق ، وعناداً للهدى ، وتوليا للشيطان ، وتعبّدا لوسوسته ، وما ذاك إلا لجهلهم المتناهى ، كما قال : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) واعتراض قوله (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالحق فى شأنه بقوله (قُلْ نَزَّلَهُۥ) أى القرآن المدلول عليه بالآية (رُوحُ ٱلْقُدُسِ) يعنى جبريل عليه السلام . أضيف إلى القدس وهو الطهر . كما يقال (حاتم الجود وزيد الخير وخبر السوء ورجل صدق) والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخيّر والخبر السيئ والرجل الصادق. وإنما أضافوا الموصوف إلى مصدر الصفة للمبالغة فى كثرة ملابسته له واختصاصه به . والمقدس المطهّر من الأدناس البشرية. وإضافة (الرب) إلى ضميره صلوات الله عليه فى قوله تعالى (مِن رَّبِّكَ) للدلالة على تحقيق إفاضة آثار الربوبية. وقوله (بِٱلْحَقِّ) أى متلبساً بالحق الثابت الموافق للحكمة التى اقتضاها دور عصره، وقوله تعالى (لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) أى على الحق ونبذ وساوس الشياطين . وفى قوله تعالى: (وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) تعريض بحصول أضداد هذه الصفات لغيرهم .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ)

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ).

يخبر تعالى عن المشركين فى قولهم غير ما نقل عنهم قبل من المقالة الشنعاء ، وكذبهم وبهتهم أن الرسول إنما يعلمه هذا الذى يتلوه من القرآن، بشر . يعنون رجلًا أعجميًّا كان بين أظهرهم يقرأ فى الكتب المتقدمة . ربما يتحدث معه النبىّ صلى الله عليه وسلم أحياناً . وإنما لم يصرح باسمه للإيذان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلم من شخص معين بل من البشر ، كائناً من كان . ثم أشار تعالى وضوح بطلان بهتهم ، بأن لسان الرجل الذى ينسبون إليه التعليم أعجمىّ غير بيّن . وهذا القرآن الكريم لسان عربىّ مبين . ذو بيان وفصاحة . ومن أين للأعجمىّ أن يذوق بلاغة هذا التنزيل ، وما حواه من العلوم ، فضلًا أن ينطق به ، فضلًا أن يكون معلماً له ! وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٠٥] (إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ، وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ)

«إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» تهديدلهم على كفرهم بالقرآن، بعدماأماط شبهتهم وردّ طعنهم فيه. وقوله تعالى: «إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ» ردّ لقولهم إنما أنت مفتر . وقلب للأمر عليهم ، ببيان

أنهم هم المفترون لاهوَ . يعنى إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه لايخاف عقاباً يردعه عنه، وقوله تعالى « وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ » إشارة إلى الذين لا يؤمنون، ويدخل فيهم قريش دخولًا أوليًّا . أى الكاذبون فى الحقيقة ونفس الأمر ، أو الكاملون فيه . لأنه لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى ، والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ولا يخفى مافى الحصر ، بعد القصر ، من العناية بمقامه صلوات الله عليه. وقد كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علماً وعملًا وإيماناً وإيقاناً . معروفاً بالصدق فى قومه ، لايشك فى ذلك أحد منهم . بحيث لايُدْعَىٰ بينهم إلا بـ(الأمين محمد) . ولهذا لما سأل هرقل ملكُ الروم[1] أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها ، من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله تعالى .

تنبيه :

فى هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة (إنَّمَا) للحصر . والمعنى أن الكذب والفرية لايقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله ، وإلا من كان كافراً . وهذا تهديد فى النهاية .

وروى[2] أن النبىّ ﷺ قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم قرأ هذه الآية . أفاده الرازىّ . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، والحديث طويل ينبغى الوقوف عليه .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٥٦ ـ كتاب ما يكره من الكلام، حديث ١٩ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[١٠٧] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾

[١٠٨] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ، وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾

[١٠٩] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾

« مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ، وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ » .

لما بيّن تعالى فضل من آمن وصبر على أذى المشركين ، فى المحاماة عن الدين ، تأثره ببيان ماللردة وإيثار الضلال على الهدى ، من الوعد الشديد، بهذه الآيات. واستثنى المكره المطمئن القلب بالإيمان بالله ورسوله . فإنه إذا وافق المشركين بلفظ ، لإيلامٍ قويٍّ وإيذاء شديد وتهديد بقتل ، فلا جناح عليه . إنما الجناح على من شرح بالكفر صدراً أى طاب به نفساً واعتقده ، استحباباً للحياة الدنيا الفانية ، أى إيثارا لها على الآخرة الباقية، فذاك الذى له

من الوعيد ما بينته الآيات الكريمة ، من غضب الله عليهم أولًا . وعذابه العظيم لهم ، وهو عذاب النار ثانياً . وعدم هدايتهم باختيارهم الكفر ثالثاً . ورابعاً بالطبع على قلوبهم بقساوتها وكدورتها . فلم ينفتح لهم طريق الفهم . وعلى سمعهم وأبصارهم بسدّ طريق المعنى المراد من مسموعاتهم وطريق الاعتبار من مبصراتهم إلى القلب . فلم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن من فيض العلم وإشراق النور . ولا من طريق الظاهر بطريق التعليم والتعلم والاعتبار من آثار الصنع . وخامساً بكونهم هم الغافلين ، بالحقيقة ، لعدم انتباههم بوجه من الوجوه . وامتناع تيقظهم من نوم الجهل بسبب من الأسباب . وجليٌّ ، أن كل نقمة من هذه الخمس ، على انفرادها ، من أعظم الحواجز عن الفوز بالخيرات والسعادات . فكيف بها كلها !

قال الرازيّ : ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشترى بطاعاته سعادات الآخرة . فإذا حصلت هذه الموانع عظم خسرانه . فلهذا قال : (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ) أى الذين ضاعت دنياهم التى استنفدوا فى تحصيلها وسعهم، وأتلفوا فى طلبها أعمارهم ، وليسوا من الآخرة فى شيء إلا فى وبال التحسرات .

تنبيهات :

الأول : (مَن) فى قوله تعالى (مَن كَفَرَ) موصول مبتدأ خبره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) وقوله (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ) استثناء مقدم من حكم الغضب . وقوله (وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا) رجوع إلى صدر الآية وحكمها ، بأسلوب مبيّن لمن كفر ، موضح له . بمثابة عطف البيان أو عطف التفسير . وهذا الوجه من الإعراب لم أره لأحد ، ولا يظهر غيره لمن ذاق حلاوة أسلوب القرآن .

الثانى : استدل بالآية على أن المكره غير مكلف . وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة

الكفر ، بشرط طمأنينة القلب على الإيمان . واستدل العلماء بالآية على نفي طلاق المكره وعتاقه ، وكل قول أو فعل صدر منه . إلا ما استثنى . أفاده السيوطيّ في (الإكليل) .

الثالث : روى عن ابن عباس[(١)] ؛ أنها نزلت في عمار بن ياسر حين عذّبه المشركون حتى يكفر بالنبيّ ﷺ . فوافقهم مكرهاً . ثم جاء معتذرًا . قال ابن جرير[(٢)] : أخذ المشركون عمارًا فعذّبوه . حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنًّا بالإيمان . قال ﷺ : إن عادوا فَعُدْ .

وقال ابن إسحاق[(٣)] : إن المشركين عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ . يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذي يصيبه . ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم . وكان بلال رضي الله عنه عبدًا لبعض بني جُمَح . يخرجه أمية بن خلف ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى . فيقول (وهو في ذلك البلاء) : أحدٌ . أحدٌ حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، رضي الله عنهم ،إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ . فيقول : صبرًا آل ياسر، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام .

---

(١) انظر تفسير الطبريّ ، الصفحة رقم ١٨١ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبيّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم . والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر على أن يستوى جالسًا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتى يقولوا له : اللات والعزّى إلٰهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له : هذا الجُعل إلٰهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداءً منهم ، مما يبلغون من جَهْده .

وقد ذكر ابن هشام[1] فى (السيرة) فى بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب فى هذا الباب ، فانظره .

قال ابن كثير : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى، إبقاء لمهجته . ويجوز له أن يأبى . كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم، وهم يفعلون به الأفاعيل، وهو يقول : أحدٌ . أحدٌ . ويقول : والله! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارىّ ، لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمىّ ، أحد الصحابة ؛ أنه أسرته الروم. فجاءوا به إلى ملكهم. فقال له : تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى . فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ، ما فعلت . فقال : إذًا أقتلك . فقال: أنت وذاك . فأمر به فصلب . وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى . ثم أمر به فأنزل .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٢٠٥ (طبعة جوتنجن) وصفحة ٣٣٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .

ثم أمر بقِدْرٍ فأُحميت . وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح . وعرض عليه فأبى . فأمر به أن يلقى فيها . فرفع بالبكرة ليلقى فيها فبكى . فطمع فيه ودعاه فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة . تلقى في هذا القدر الساعة . فأحببت أن يكون لي ، بعدد كل شعرة في جسدي ، نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات ؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً . ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه . ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما هو فقد حلّ لي . ولكن لم أكن لأُشمّتك فيّ . فقال له الملك : فقبِّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين . قال ، فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . وأنا أبدأ . فقام فقبل رأسه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

«ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

بيان للذين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين في قومهم ، وافقوهم على الفتنة ظاهراً ، ثم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهاليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وجاهدوا الكافرين وصبروا على مشاقّ الجهاد . أخبر تعالى أن هؤلاء من بعد الفتنة المذكورة ، أي إجابتهم إليها ، (لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) فيغفر لهم ما فرط منهم . ويرحمهم بالجزاء الحسن .

والجارّ في قوله (لِلَّذِينَ) متعلق بالخبر على نية التقديم والتأخير ، والخبر ا (إِنَّ) الأولى . والثانية مكررة للتأكيد . أو للثانية وخبر الأولى مقدر ، وشمل قوله (هَاجَرُواْ)

من هاجر إلى الحبشة من مكة فراراً بدينه من الفتنة . ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك . كما شمل قوله (جَـٰهَدُواْ) فى بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه . أو قاتلوا فى سبيل الله . ولأجل هذا الاحتمال فى الفعلين ، قيل : الآية مدنية ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا » منصوب بـ (رحيم) أو بـ (اذكر) ، واليوم يوم القيامة . ومعنى (تُجَـٰدِلُ) أى تحاجّ وتسعى فى خلاصها . لا يهمها إلا ذاتها وشأنها . ولا يغنى عنها مال ولا أب ولا ابن ولا شىء مَا « وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ » أى من خير وشر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » فى ذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

[١١٣] (وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ)

«وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ» اعلم أنه لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة ، أنذرهم بنقمته فى الدنيا أيضا بالجوع والخوف . ومعنى

قوله تعالى (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً) أى جعل القرية التى هـذه حالها مَثَلًا لـكل قوم أنعم الله عليهم . فأبطرتهم النعمة . فـكفروا وتولوا . فأنزل الله بهم نقمته . فيدخل فيهم أهل مكة دخولًا أوليًّا ، أو لقوم معينين ، وهم أهل مكة . والقرية إما مقدرة بهـذه الصفة غير معينة ، إذ لا يلزم وجود المشبه به . أو معينة من قرى الأولين . وقد ضمن (ضَرَبَ) معنى (جعل) و (مَثَلًا) مفعول ثانٍ و (قَرْيَةً) مفعول أول .

قال أبو السعود : وتأخير (قرية) مع كونها مفعولًا أول ، لئلا يحول المفعول الثانى بينهـا وبين صفتها وما يترتب عليها . إذ التأخير عن الـكل مخلّ بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها . ولأن تأخير ماحقه التقديم مما يورث النفس ترقبًا لوروده ، وتشوقاً إليه . لاسيما إذا كان فى المقدم مايدعو إليه . فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل . فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضـل تمـكن . والمراد بالقرية أهلها مجازا ، أو بتقدير مضاف . ومعنى كونها (ءَامِنَـةً مُّطْمَئِنَّةً) أنه لايزعجها خوف ، و (الرغد) الواسع . و (الأنعم) جمع نعمة .

وفى قوله تعالى : (فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررها المحيط بهم، باللباس الغاشى للابس. فاستعير له اسمه، وأوقع عليه الإذاقة المستعارة، لمطلق الإيصال ، المنبئة عن شدة الإصابة ، بما فيها من اجتماع إدراكى اللامسة والذائقة ، على نهج التجريد . فإنها لشيوع استعمالها فى ذلك ، وكثرة جريانها على الألسنة ، جرت مجرى الحقيقة .

قال ابن كثير : هـذا مثل أريد به أهل مكة . فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لايخاف. كما قال تعالى[1] (وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ

(١) [٢٨ / القصص / ٥٧] .

شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) وهكذا قال هٰهنا و(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أى هنيئاً سهلًا (مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أى جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم . كما قال تعالى(١) : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال : (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها من كل مكان . وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافه . فدعا(٢) عليهم بسبع كسبع يوسف . فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم . فأكلوا العلهز (هو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحر) . وقوله (وَالْخَوْفِ) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه . وجعل كل ما لهم فى دمار وسفال . حتى فتحها الله عليهم . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ . الذى بعثه الله فيهم منهم . وامتن به عليهم فى قوله(٣) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...) الآية ، وقوله تعالى(٤) : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا) ، وقوله(٥) : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) إلى قوله : (وَلَا تَكْفُرُونِ) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً . ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم . انتهى .

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨ و ٢٩] . (٢) أخرجه البخاريّ ، تعليقاً ، فى : ٨٠ كتاب الدعوات ، ٥٨ ـ باب الدعاء على المشركين ، عن ابن مسعود .

(٣) [٣ آل عمران / ١٦٤] . (٤) [٦٥ الطلاق / ١٠] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٥١] .

ثم بين تعالى ضلال المشركين فى تحريم ما أحل الله من البحائر والسوائب وغيرها ، مفصلا ما حرمه مما ليس فيه كانوا يحرمونه بأهوائهم ، وهو مأذون بأكله ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » أى من الحرث والأنعام « حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تريدون عبادته فاستحلوها ، فإن عبادته فى تحليلها . واشكروه فإنه المنعم المتفضل بذلك وحده .

ثم ذكر ما حرمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ » أى ذبح على اسم غيره تعالى : « فَمَنِ ٱضْطُرَّ » أى أجهد إلى ما حرم الله « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » أى متعدّ قدر الضرورة وسدّ الرمق « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فلا يؤاخذه بذلك .

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية ، فأغنى إعادته .

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، فى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها ، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه فى جاهليتهم ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[١١٧] (مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى لاتقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم ، بالحل والحرمة فى قولكم (مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله . فـ (الكذب) مفعول (تقولوا) وقوله: (هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ) بدل من (الكذب) واللام صلة للقول . كما يقال : لاتقل للنبيذ إنه حلال ، أى فى شأنه وحقه . فهى للاختصاص . وفيه إشارة إلى أنه مجرد قول باللسان ، لاحكم مصمم عليه. أو (هَٰذَا حَلَٰلٌ) مفعول (تقولوا) و (الكذب) مفعول (تصف) واللام فى (لِمَا تَصِفُ) تعليلية و (ما) مصدرية . ومعنى تصف تذكر . وقوله : (لِّتَفْتَرُواْ) بدل من التعليل الأول . أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل وصف ألسنتكم الكذب، أى لأجل قول تنطق بهألسنتكم من غير حجة . وليس بتكرارمع قوله : (لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ) لأن هذا لإثبات الكذب مطلقاً ، وذلك لإثبات الكذب على الله . فهو إشارة إلى أنهم ، لتمرنهم علىالكذب ، اجترءوا على الكذب على الله، فنسبوا ماحللوه وحرموه إليه. وعلى هذا الوجه ـ كون الكذب مفعول (تصف) ـ ففى وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، لجعله عين الكذب . ترقى عنها إلى أن خيل أن ماهية الكذب كانت مجهولة ،

حتى كشف كلامهم عن ماهية الكذب وأوضحها ، فـ (تصف) بمعنى توضح . فهو بمنزلة الحدّ والتعريف الكاشف عن ماهية الكذب. فالتعريف في الكَذِبِ للجنس. كأنَّ ألسنتهم إذا نطقت كشفت عن حقيقته . وعليه قول المعرّى[1] :

سَرَى بِرقُ المَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الكَلاَلاَ

ونحوه (نهاره صائم) إذا وصف اليوم بما يوصف به الشخص ، لكثرة وقوع ذلك الفعل فيه . و (وجهها يصف الجمال) لأن وجهها لما كان موصوفاً بالجمال الفائق ، صار كأنه حقيقة الجمال ومنبعه ، الذى يعرف منه . حتى كأنه يصفه ويعرّفه ، كقوله :

أضحتْ يمينُكَ من جودٍ مصوّرةً لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

فهو من الإسناد المجازىّ. أو نقول : إن وجهها يصف الجمال بلسان الحال. فهو استعارة مكنيّة. كأنه يقول : ما بى هو الجمال بعينه. ومثله وارد فى كلام العرب والعجم . هذا زبدة ما فى (شروح الكشاف) .

وما فى الآية أبلغ من المثال المذكور ، لماسمعت. أفاده فى (العناية). واللام فى (لِتَفْتَرُواْ) لام الصيروة والعاقبة المستعارة من التعليلية . إذ ماصدر منهم ليس لأجل هذا ، بل لأغراض أخر يترتب عليها ما ذكر . وجوز كونها تعليلية ، وقصدهم لذلك غير بعيد . وفى قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ...) الآية، وعيد شديد بعدم ظفرهم وفوزهم بمطلوب يمتد به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . أما فى الدنيا ، فلأن ما يفترون لأجله متاع قليل ينقطع عن قريب . وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال[2]: (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعىّ

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٣٨٢١ (هذا الجزء) .

(٢) [٣١ / لقمان / ٢٤] .

أو حلل شيئاً مما حرم الله . أو حرّم شيئاً مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهّيه .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآيةفى سورة النحل . فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا.

قال فى (فتح البيان) : صدق رحمه الله . فإن هذهالآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله ، أو فى سنةرسول الله ﷺ . كما يقع كثيراً من المُؤْثرين للرأى المقدّمين له على الرواية . أو الجاهلين بعلم الكتاب والسنة .

وأخرج الطبرانىّ عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا . فيقول الله عز وجل : كذبت . أو يقول : إن الله حرم كذا أو أحلّ كذا : فيقول الله له : كذبت .

قال ابن العربىّ : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هـذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه. ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا، ونحو ذلك .

ولماذكر تعالى ما حرمه علينا من الميتة والدم الخ، بيّن ما كان حرمه على اليهودفى شريعتهم مما ليس فيه أيضاً شىء مما حرمه المشركون ، تحقيقاً لافترائهم بأن ما حظروه لا سند له فى شريعة سابقة ولا لاحقة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١١٩] (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ » يعنى اليهود « حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ » أى

فى سورة الأنعام فى قوله تعالى(١) : (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ . . .) الآية «وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ» أى فيما حرمنا عليهم «وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فاستحقوا ذلك . كقوله(٢) (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا) وقد سلف لنا ما ذكروه فى تفسيرها مما يجىء هنا ، فتذكر . قالوا : فى الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم . فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلّا ما فيه مضرة لها . وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه ، عقوبة لهم بالمنع ، كاليهود . ثم بين تعالى عظيم فضله فى قبول توبة من تاب من العصاة بقوله : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ» أى العمل فيما بينهم وبين ربهم «إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا» أى التوبة «لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» ثم نوه تعـالى بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، دعاء لهم إلى سلوك طريقته فى التوحيد ، ورفض الوثنية ، وتبرئة لمقامه ، مما كانوا يفترون عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[١٢١] (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ، ٱجْتَبَـٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

«إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً» أى إماما يقتدى به ، كقوله تعالى(٣) : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو كان وحده أمةً من الأمم ، لاستجماعه كمالات لا توجد فى غيره «قَانِتًا لِّلَّهِ» أى خاشعاً مطيعاً له ، قائماً بما أمره «حَنِيفاً» أى مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق «وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ» أى قائماً بشكر نعم الله عليه ، مستعملاً لها على

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٠] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

الوجه الذى ينبغى ، كقوله تعالى[١] (وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ) أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به « ٱجْتَبَـٰهُ » أى اختاره واصطفاه للنبوّة « وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، على شرع مرضىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ)

[١٢٣] (ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

« وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً » أى من الذكر الجميل. كما قال[٢] (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) ومن الصلاة والسلام عليه ، كما قال[٣] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ) ومن تمتيعه بالحظوظ ليتقوى على القيام بحقوق العبودية « وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ » أى فى عالم الأرواح « لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ » أى المتمكنين فى مقام الاستقامة ، بإيفاء كل ذى حق حقه ، الذين لهم الدرجات العليا فى الجنة .

« ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » أى بعد هذه الكرامات والحسنات التى أعطيناهُ إياها فى الدارين ، شرفناه وكرمناه بأمرنا ، باتباعك إياه فى التوحيد وأصول الدين التى لاتتغير فى الشرائع . كأمر المبدأ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها . لا فى فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها . فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع ، وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق . قاله القاشانىّ.

وفى (الإكليل) استدل أصحابنا بهذه الآية على وجوب الختان ، وما كان من شرعه ، ولم يرد به ناسخ .

(١) [٥٣ / النجم / ٣٧] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٠] .
(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٨و١٠٩] .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : فى (ثُمَّ) هذه مافيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم ﷺ من الكرامة ، وأجلّ ما أولى من النعمة ، اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قِبَلِ أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها .

قال الناصر : وإنما تفيد ذلك (ثم) لأنها فى أصل وضعها لتراخى المعطوف عليه فى الزمان. ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علوّ المرتبة ، بحيث يكون المعطوف على رتبته وأشمخ محلًّا مما عطف عليه . فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام ، قال تعالى : وهٰهنا ماهو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبىّ ﷺ الأمىّ ، الذى هو سيد البشر ، متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، متلوًّا أمره بذلك فى القرآن العظيم . ففى ذلك تعظيم لهما جميعاً. لكن نصيب النبىّ ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر. على مامهدناه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ » يعنى اليهود ، فرض عليهم تقديسه وإراحة أنفسهم ودوابّهم فيه من الأعمال . فاعتدوا فيه واحتالوا لحله .

قال القاشانىّ : أى مافرض عليك ، إنما فرض عليهم. فلا يلزمك اتباع موسى فى ذلك، بل اتباع إبراهيم ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى بالمجازاة على اختلافهم ، يعنى إفسادهم وزيغهم عن طريق الحق . ثم بين تعالى أدب الدعوة إلى دينه الحق ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ » أى بالمقالة المحكمة الصحيحة . وهو الدليل الموضح للحق ، المزيح للشبهة « وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ » أى العبر اللطيفة والوقائع المخيفة ، ليحذروا بأسه تعالى « وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى جادل معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين وحسن الخطاب، من غير عنف. فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهبهم . وقوله تعالى «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ» أى عليك البلاغ والدعوة بالصفة المبينة فلا تذهَبْ نفسك، على مَنْ ضَلَّ منهم، حسرات، فإنه ليس عليك هُدَاهُمْ . لأنه هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى إليه . فيجازى كلًّا منهما بما يستحقه . أو المعنى : اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة . فإن الله تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب . وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلِّىّ . فما شرعه لك فى الدعوة ، هو الذى تقتضيه الحكمة . فإنه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين . أفاده أبو السعود .

تنبيه :

دلّ قوله تعالى : (وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) على الحث على الإنصاف فى المناظرة، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، وأن لا غرض سواه .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ)

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ» أى الزموا سيرة العدالة، لا تجاوزوها. فإنها أقل درجات كمالكم. فإن كان لكم قدم فى الفتوة، وعرق راسخ فى الفضل والكرم والمروءة ، فاتركوا الانتصار والانتقام ممن جنى عليكم ، وعارضوه بالعفو مع القدرة ، واصبروا على الجناية ، فإنه (لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) ألا تراه كيف أكده بالقسم واللام فى جوابه ، وترك المضمر إلى المظهر حيث ما قال (لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) بل قال (لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) للتسجيل عليهم بالمدح والتعظيم بصفة الصبر . فإن الصابر ترقى عن مقام النفس وقابل فعل نفس صاحبه بصفة القلب . فلم يتكدر بظهور صفة النفس. وعارض ظلمة نفس صاحبه بنور قلبه. فكثيراً مايندم ويتجاوز عن مقام النفس. وتنكسر سورة غضبه فيصلح . وإن لم يكن لكم هذا المقام الشريف ، فلا تعاقبوا المسىء بسورة الغضب ، بأكثر مما جنى عليكم ، فتظلموا ، أو تتورطوا بأقبح الرذائل وأفحشها . فيفسد حالكم ويزيد وبالكم على وبال الجانى . أفاده القاشانىّ .

تنبيهات :

الأول : فى (الإكليل) : قال ابن العربىّ : فى الآية جواز المماثلة فى القصاص . خلافاً لمن قال : لا قود إلا بالسيف . ويستدل بها لمسئلة الظفر . كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن سيرين والنخعىّ ؛ أنهما استدلا بها عليها . ولفظ النخعىّ : سئل عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له فى يده الدراهم ؟ قال : إن شاء ذهب من دراهمه بمثل ما خانه . ثم قرأ هذه الآية . ولفظ ابن سيرين : إن أخذ منكم رجل شيئاً ، فخذوا مثله .

قال ابن كثير: وكذا قال مجاهدوإبراهيم والحسن البصرىّ وغيرهم، واختاره ابن جرير. فعمومها يشمل العدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق .

الثانى ــ قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة . وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد ، حين قتل حمزة رضى الله عنه ومُثِّل به . فقال رسول الله ﷺ : لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلنّ بثلاثين رجلًا منهم . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله ! لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآية هذه ، إلى آخر السورة .

قال الحافظ ابن كثير : هذا مرسل وفيه مبهم لم يسمّ . ورواه الحافظ البزار من وجه آخر موصولًا عن أبى هريرة رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه، حين استشهد. فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه . وقد مُثِّلَ به. فقال: رحمة الله عليك . إن كنتَ لَما علمتُ، لوصولًا للرحم فعولًا للخيرات . والله لولا حزنٌ من بعدك عليك ، لسرّنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع (أو كلمة نحوها) . أما والله ! على ذلك لأمثلنّ بسبعين كمثلتك. فنزلت هــذه الآية . فـكفّر رسول الله ﷺ . يعنى عن يمينه ، وأمسك عن ذلك .

قال ابن كثير : وهذا إسناد فيه ضعف. لأن صالحًا (أحد رواته) هو ابن بشير المرىّ، ضعيف عند الأئمة . وقال البخارىّ : هو منــكر الحديث . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أُبىّ بن كعب ، قال : لما كان يوم أُحُد قتل من الأنصار ستون رجلًا ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هــذا من المشركين لنمثلن بهم . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لاتعرف قريش بعد اليوم . فنادى أن رسول الله ﷺ قد أَمَّن الأسود والأبيض إلافلانًا وفلانًاــ ناسًا سمّاهمــ فنزلت الآية. فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب .

أقول : بمعرفة ما قدمنا من معنى سبب النزول ـ فى مقدمة التفسير ـ يعلم أن لا حاجة إلى الذهاب إلى أنها مدنية ألحقت بالسورة ـ ولا إلى ردّ ماروى من هذه الآثار. إذ به يتضح عدم التنافى . والتقاء الآثار مع الآية . فتذكره .

الثالث : قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن . فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما فى قوله تعالى[1] (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا) ثم قال[1] (فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ) الآية . وقال[2] (وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ) ثم قال[2] (فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ) انتهى .

ثم أكّد تعالى الأمر بالصبر، ليقوى الثبات والاحتمال، لكل ما يلاقيه فى سبيل الحق، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ)

[١٢٨] (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ)

« وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ » أى بمعونته وتوفيقه « وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ » أى على الكافرين، أى على كفرهم وعدم هدايتهم « وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ » أى فى ضيق صدر مما يمكرون من فنون المكايد « إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ». تعليل لما قبله . أى فإنه تعالى كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك بهم . لأنه تعالى مع المتقين والمحسنين بالمعونة والنصر والتأييد ، فيحفظهم ويكلؤهم ويظهرهم على أعدائهم. قال ابن كثير:

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٠] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٥] .

هذه معية خاصة كقوله تعالى[(١)] (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) وقوله لموسى وهرون[(٢)] (لَا تَخَافَآ ، إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى[(٣)] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) وقوله[(٤)] (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ) .

قال أبو السعود : تكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداها تتمة للأخرى . وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث. كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة فيهم . وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين، وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولاً أوليًا. وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه. عبَّر عنهم بذلك ، مدحاً لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين . وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به، كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما ، عند التعزية بأبيه العباس :

اصبر نكُن بك صَابِرِينَ فَإِنَّمَا ... صبرُ الرَّعيةِ عندَ صَبْرِ الرَّاسِ

وبعد هذا البيت :

خيرٌ من العباسِ أجرُكَ بَعْدَهُ ... واللهُ خَيرٌ مِنْكَ للعبَّاسِ

قال ابن عباس : ما عزّانى أحد أحسن من تعزيته .

وعن هَرِم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار : أوص . قال : إنما الوصية من المال ، فلا مال لى . وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ...

---

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .
(٣) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٤) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٧ - سورة الإسراء

وتسمى سورة بني إسرائيل وسورة سبحان ، ولم يحك خلاف في كونها مكية. نعم استثنى بعضهم منها: [١](وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ)وآية[٢](وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ) إلى قوله تعالى (إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) وآية[٣] (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ) الآية وقوله[٤] (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ...) الآية ، وقوله[٥](إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ) لما ذكروه في أسباب نزولها . ويأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى ، وآياتها مائة وإحدى عشرة .

(١) [١٧ / الإسراء / ٨٥] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٨٨]. (٤) [١٧/ الإسراء/ ٦٠] . (٥) [١٧/الإسراء/١٠٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

يمجد تعالى نفسه بقوله (سُبْحَانَ) وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره. وقوله تعالى (الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى سيّره منه ليلًا . و (أسرى) بمعنى (سرى) يقال : أسراه وأسرى به وسرى به . فهمزة (أسرى) ليست للتعدية . ولذا عدى بالباء. وفرق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة فى (أسرى) لإفادة السرعة فى السير ولذا أوثر على (سرى) .

والإسراء سير الليل كله، كأسرى ، فقوله تعالى (لَيْلًا) للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود . مثل : أسعفت مرامه . مع أن الإسعاف قضاء الحاجة . أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر . وقد استظهره الناصر فى (الانتصاف) قال : ونظيره فى إفراد أحد مادل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره ، قوله تعالى[١] (لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد . فأريد التنبيه على أن أحد المعنيين ، وهو التثنية ، مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوحدانية هى المقصودة فى قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) ولو اقتصر على قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ) لأوهم أن المهم إثبات الإلهية له . والغرض من الكلام ليس إلا إثبات الوحدانية .

---

(١) [١٦ / النحل / ٥١] .

وقيل سرّ قوله (لَيْلًا) إفادة تقليل الوقت الذى كان الإسراء والرجوع فيه . أى أنه كان فى بعض الليل أخذا من تنكيره . فقد نقل عن سيبويه أن الليل والنهار إذا عُرِّفا كانا معياراً للتعميم ، فلا تقول أرقت الليل ، وأنت تريد ساعة منه ، إلا أن تقصد المبالغة . بخلاف المنكر فإنه لايفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا ، علم أنه لم يقصد استغراق السرى ، وهذا هوالمراد من البعضية. وجوز بعضهم أن يكون (أسرى) من (السراة) وهى الأرض الواسعة. وأصله من الواو . أسرى مثل أجبل وأتهم ، أى ذهب به فى سراة من الأرض ، وهوغريب. وفى تخصيص الليل إعلام بفضله لأنه وقت السر والنجوى والتجلى الأسمى ، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل . والمراد (بعبده) خاتم أنبيائه محمد ﷺ. وفى ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة ، من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عزّ وجلّ وانقياده لأوامره ـ ما لا يخفى .

والعبد ، لغةً ، الإنسان مطلقاً والمملوك والعبودية الذل والخضوع والرق والطاعة ، كالعبادة والعبودة .

قال ابن القيّم فى (طريق الهجرتين) : أكمل الخلق أكملهم عبودية . وأعظمهم شهودا . لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين . ولهذا كان من دعائه ﷺ: أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

ثم قال : ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر . وكان يقول : أيها الناس ! ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنَّما أنا عبد . وكان يقول[1] : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم. إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله . وذكره سبحانه بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : مقام

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٤٨ ـ باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ، حديث رقم ١٢١٤ .

الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى . فقال (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا) وقال[١] (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) وقال[٢] (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) وفى حديث الشفاعة : أنَّ المسيح يقول لهم : اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك بكمال عبوديته لله ، وبكمال مغفرة الله له . انتهى .

وقوله تعالى (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يعنى مسجد مكة المكرمة . سمى حراماً ، كبلده، لكونه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره ولا كلئه . وقوله سبحانه (إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا) هو مسجد بيت المقدس ، وكان يعرف بهيكل سليمان لأنه الذى بناه وشيده (والأقصا) بمعنى الأبعد . سمى بذلك لبعده عن مكة ، وقوله تعالى (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) أى جوانبه ببركات الدين والدنيا . لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار . فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها . فبركته إذن مضاعفة ، لكونه فى أرض مباركة ، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى . والمساجد بيوت الله . ولكونه متعبدَ الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم ، فبورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضاً .

وقد قيل فى خصائص (الأقصا) : إنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين ، ومعراجه إلى السموات العلى والمشهد الأسمى . بيت نوّه الله به فى الآيات المفصلة ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة . لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرُب . وهو قبلة الصلاة فى الملتين ، وفى صدر الإسلام بعد الهجرتين . وهو أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين . لا تشدّ الرحال[٣] بعد المسجدين إلا إليه ،

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣] .

(٣) حديث لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، الخ . أخرجه البخاريّ فى : =

ولاتعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه . انتهى . ومن فضائله مارواه الإمام أحمد[1] والنسائى والحاكم وصححه ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً . فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة .

سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه .

وسأله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه .

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ـ يعنى بيت المقدس ـ خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك .

وروى أن ابن عمر كان إذا دخله لا يشرب من مائه . تجريداً لقصد الصلاة .

وقال الشيرازىّ فى (عرائس البيان) : كان بداية المعراج الذهاب إلى الأقصى . لأن هناك الآيات الكبرى من أنوار تجليه تعالى لأرواح الأنبياء وأشباحهم . وهناك بقربه طورسينا وطورزيتا ومقام إبراهيم وموسى وعيسى فى تلك الجبال ، مواضع كشوف الحق . لذلك قال (بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ) . انتهى .

والالتفات فى (بَٰرَكْنَا) لتعظيم ماذكر. لأن فعل العظيم يكون عظيما . لاسيما إذا عبّر عنه بصيغة التعظيم . والنكتة العامة تنشيط السامعين.

= ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٦ـ باب مسجد بيت المقدس، حديث ٣٧٩ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعتنا) .

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٤٤ (طبعة المعارف) .

وأخرجه النسائىّ فى: ٨ـ كتاب المساجد ، ٦ـ باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه.

وقوله تعالى (لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ) إشارة إلى حكمة الإسراء. أى لكى نُرِى محمداً صلى الله عليه وسلم من آياتنا العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليـل ، مسيرةَ شهر ، ومشاهدةُ بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية .

قيل : أراد تعالى أن يريه صلى الله عليه وسلم من الآيات الحسية بعد ما أراه الآيات العقلية . لأن الآيات الحسية أكبر فى قطع الشبهة ودفع الوساوس من العقلية . إذ لا يشك أحد فيما كان سبيل معرفته الحس والعيان. وقد تعترض الشبهة والوساوس فى العقليات . لأنه لا يشك أحد فى نفسه أنه هو . فشاء عز وجل أن يرى رسوله آيات حسية فتدفع المنصفين إلى قبولها والإيمان بها والإقرار له بالرسالة . إذ ليس ذلك عمل سحر ولا افتراء ولا أساطير الأولين ، كذا يستفاد من (التأويلات) لأبى منصور .

وما أحسن ما قاله ابن إسحق[1] : كان فى مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه . فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين . فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد . حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التى يصْنع بها ما يريد . انتهى .

وقوله تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) أى السميع لأقوال عباده وأفعالهم فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

تنبيهات :

الأول : دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء ، وهو سير النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليلا . وأما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش فهذه الآية لا تدل عليه .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢٦٣ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم . والكلام عليه ثمة .

الثانية : ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهرىّ وابن سعد وغيرها . وبه جزم النووىّ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه. وقال: كان فى رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وفى (إنسان العيون) : أن تلك الليلة كانت ليلة سبع عشرة. وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الأول ، وقيل : ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان ، وقيل سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر ، وقيل : من رجب واختار هذا الأخير ، الحافظ عبد الغنىّ المقدسىّ قال : وعليه عمل الناس . والله أعلم .

الثالث : فى (زاد المعاد) لابن القيم : كان الإسراء مرة واحدة وقيل : مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأرباب هـذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك وقوله (ثم استيقظت) . وبين سائر الروايات . ومنهم من قال : بل كان هذا مرتين: مره قبل الوحى لقوله فى حديث شريك (وذلك قبل أن يوحى إليه) ومرة بعـد الوحى كما دلت عليه سائر الأحاديث. ومنهم من قال: بل ثلاث مرات : مرة قبل الوحى ومرتين بعده. وكل هذا خبط وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل ، الذين إذا رأوا فى القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات، جعلوه مرة أخرى. فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع . والصواب الذى عليه أئمة النقل : أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة . ويا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة تفرض عليه الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، ثم يقول أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى. ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشراً عشراً ؟ ! .

الرابع : قال القاضى عياض، عليه الرحمة ، فى (الشفا) : اختلف السلف والعلماء هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى . وإلى هـذا ذهب معاوية . وحكى عن

الحسن (والمشهور عنــه خلافه) وإليه أشار محمد بن إسحق . وحجتهم قوله تعالى[١] (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ) وما حكوا عن عائشة : مافقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله (بينا أنا نائم) . وقول أنس : (وهو نائم فى المسجد الحرام) وذكر القصة . ثم قال فى آخرها : (فاستيقظ وأنا بالمسجد الحرام) .

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة. وهذا هو الحق، وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبى هريرة ومالك بن صعصعة وأبى حبة البدرىّ وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيّب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج . وهو دليل قول عائشة. وهو قول الطبرىّ وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين . وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس . وإلى السماء بالروح : واحتجوا بقوله (سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ...) الآية فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبىّ وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ فى المدح.

ثم اختلفت هاتان الفرقتان: هل صلى ببيت المقدس أم لا؟ ففى حديث أنس وغيره صلاته فيه . وأنكر ذلك حذيفة وقال : والله ! ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا .

ثم قال القاضى عياض: والحق فى هذا والصحيح، إن شاء الله، أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل، إلا عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة. إذ لو كان مناماً لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده) وقوله[٢] (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) ولو كان

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٠] . (٢) [٥٣ / النجم / ١٧] .

مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة . ولما استبعده الكفار ولا كذبوه . ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به . إذ مثل هذا من المنامات لاينكر. بل لم يكن ذلك منهم إلا وقدعلموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر فى الحديث، من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس فى رواية أنس (أوفىالسماء) على ماروى غيره. وذكر مجىء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد . ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه فى فرض الصلاة ومراجعته مع موسى فى ذلك .

وفى بعض هذه الأخبار : فأخذ ، يعنى جبريل ، بيدى ، فعرج بى إلى السماء إلى قوله : ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . وأنه وصل إلى سدرة المنتهى ، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره . قال ابن عباس: هى رؤيا عين رآها النبىّ صلى اللهعليه وسلم ، لارؤيا منام .

وعن الحسن فيه بَيْنَا أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل فهمزنى بعقبه فقمت فجلست فلم أر شيئا . فعدت لمضجعى . ذكر ذلك ثلاثا ، فقال فى الثالثة: فأخذ بعضدى فجرنى إلى باب المسجد ، فإذا بدابة . وذكر خبر البراق .

وعن أم هانئ : ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى تلك الليلة . صلى العشاء الآخرة ونام بيننا . فلما كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسولُ الله ﷺ . فلما صلى الصبح وصلينا قال : يا أم هانئ ! لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون . وهذا بيّن فى أنه بجسمه .

وعن أبى بكر (من رواية شداد بن أوس عنه) أنه قال للنبىّ ﷺ ليلة أسرى به : طلبتك يارسول الله البارحة فى مكانك فلم أجدك . فأجابه : أن جبريل حمله إلى المسجد الأقصى .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بى فى مقدم المسجد ثم دخلت الصخرة ـ وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة . فتحمل على ظاهرها .

وعن أبي ذرّ رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ : فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ثم أخذ بيدى فعرج بى .

وعن أنس: أتيت فانطلقوا بى إلى زمزم. وعن أبى هريرة: لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى. فسألتنى عن أشياء لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه . ونحوه عن جابر .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث الإسراء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها .

ثم قال القاضى عياض (فى إبطال حجج من قال إنها نوم) . احتجوا بقوله (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا) فسماها (رؤيا) . قلنا : قوله (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ) يرده لأنه لا يقال فى النوم (أسرى) .

وقوله (فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) يؤيد أنها رؤيا عين وإسراء شخص . إذ ليس فى الحلم فتنة ولا يكذب به أحد . لأن كل أحد يرى مثل ذلك فى منامه من الكون فى ساعة واحدة فى أقطار متباينة . على أن المفسرين قد اختلفوا فى هذه الآية . فذهب بعضهم إلى أنها نزلت فى قصة الحديبية وما وقع فى نفوس الناس من ذلك . وقيل غير هذا .

وأما قولهم : إنه قد سمّاها فى الحديث مناماً ، وقوله فى حديث آخر : بين النائم واليقظان. وقوله أيضاً : وهو نائم . وقوله : ثم استيقظت ـ فلا حجة فيه . إذ يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم . أو أول حمله والإسراء به وهو نائم . وليس فى الحديث أنه كان نائما فى القصة كلها إلا ما يدل عليه (ثم استيقظت وأنا فى المسجد الحرام) فلعل قوله (استيقظت) بمعنى أصبحت . أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته . ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله . وإنما كان فى بعضه . وقد يكون قوله (استيقظت وأنا فى المسجد الحرام) لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض ، وخامر بطنه من

مشاهدة الملإ الأعلى ، وما رأى من آيات ربه الـكبرى . فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام . ووجه ثالث ؛ أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه. ولـكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر . ورؤيا الأنبياء حق . تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحوٍ من هذا . قال : تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله ، ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء ، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات .

ووجه رابع ، وهو أن يعبر بالنوم ههنا عن هيئة النائم من الاضطجاع . ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد عن همام : (بينا أنا نائم وربما قال مضطجع) وفي رواية هدبة عنـــه (بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع) . وقوله في الرواية الأخرى (بين النائم واليقظان) فيـكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً . وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من النوم وذكر شق البطن ودنو الرَّب ، الواقعة في هذا الحديث ، إنما هي من رواية شريك عن أنس . فهي منـكرة من روايته . انتهى كلام عياض . وبقيت له بقية من شاء فليراجعها .

الخامس : جملة الأقوال في الإسراء والمعراج ، على ما حكاه ابن القيم في (زاد المعاد) ، ستة : بروحه وجسده وهو الذي صححوه . وقيل : كان ذلك مناماً . وقيل بل يقال أسرى به ولا يقال يقظة ولا مناماً . وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة وإلى السماء مناماً ، وقيل: كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ومرة مناما . وقيل بل أسرى به ثلاث مرات . وكان ذلك بعد البعث بالاتفاق . وأما ما وقع في حديث شريك أن ذلك قبل أن يوحى إليه ، فقيل هو غلط ، وقيل : الوحي هنا مقيد وليس بالوحي المطلق الذي هو مبدأ النبوة . والمراد قبل أن يوحى إليه في شأن الإسراء ، فأسرى به فجأة من غير تقدم إعلام . وقد قدمنا أن عائشة ومعاوية والحسن ، نقل الأكثرون عنهم ؛ أنها رؤيا منام ، وكذا حكى ابن جرير عن حذيفة .

إلا أن ابن القيم نبه على دقيقة غريبة . قال رحمه الله : نقل ابن إسحق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده . ونقل عن الحسن البصريّ نحو ذلك. ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً وإنما قالا: أسرى بروحه ولم يفقد جسده . وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة . فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض . وروحه لم تصعد ولم تذهب . وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه . وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما . وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها وعرج بها حقيقة . وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدى الله عز وجل . فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . فالذى كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة . ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم . لكن لما كان رسول الله ﷺ فى مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حيّ لا يتألم ؛ كذلك عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة . ومَن سواه، ﷺ ، لا تنال ذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة . فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان . وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك فى حال الحياة ثم عادت . وبعد وفاته استقرت فى الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء . ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق وتعلق به . بحيث يرد السلام على من سلم عليه . وبهذا التعلق رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، ورآه فى السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم رد إليه ، وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها . فرآه يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة. كما أنه ﷺ فى أرفع مكان فى الرفيق الأعلى مستقراً هناك .

وبدنه فى ضريحه غير مفقود . وإذا سلم عليه المسلم ، ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى . ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هـذا ، فلينظر إلى الشمس فى علوّ محلها وتعلقها وتأثيرها فى الأرض ، وحياة النبات والحيوان بها . هـذا ، وشأن الروح فوق هذا . فلها شأن وللأبدان شأن. وهذه النار تـكون فى محلها ، وحرارتها تؤثر فى الجسم البعيد عنها . مع أن الارتباط والتعلق الذى بين الروح والبدن أقوى وأكمل من ذلك وأتم . فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف .

فقلْ للعيون الرُّمْدِ إياكِ أنْ تَرَىْ　　　سنا الشَّمسِ فاستغْشِي ظَلَامَ اللَّيَا لِيَا

انتهى كلام ابن القيم .

وقال العلامة سعدى فى (حواشى البيضاوىّ) : والمعراج بروحه فى اليقظة ـ وهو الذى أشار إليه ابن القيم ـ خارق أيضاً للعادة . انتهى .

وتعقب العلامة القنوى له: بأنه نوع مراقبة وانسلاخ، والذى ذهب إليه الصوفية ساقط. لأنه فوقه بكثير . بل غـيره كما تبين قبل . وبالجملة ، فالذى فهمه الأكثرون من قول عائشة ومعاوية وحذيفة والحسن ؛ أن ذلك رؤيا منام . وما ذكره ابن القيّم من أنه إسراء بالروح ـ فيحتمله اللفظ المأثور عنهم .

ونظـيره قول بعضهم : إن ذلك كان أمراً إعجازيًّا . والحقيقة أنه كشف روحانىّ . وقد قرروا فى عدم استحالة كونه يقظة بالروح والجسم ؛ أن خالق العالم قادر على كل الممكنات. وحصول الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد فى جسده ﷺ ممكن . فوجب كونه تعالى قادراً عليه . وغاية ما فى الباب أنه خلاف العادة . والمعجزات كلها كذلك . وفى (العقائد النسفية وحواشيها): الخرق والالتئام على السموات جائز. لأن الأجسام كلها متماثلة فى تركبها من الجواهر الفردة ، فيصح على كلٍّ ما يصح على الآخر . فالأجسام العنصرية قابلة للخرق والالتئام. وكذا الأجسام الفلـكية. والله تعالى قادر على الممكنات كلها. فيـكون قادراً على الخرق فى السموات ، لأنه ممكن فيها . وفى الرازىّ براهين أخر . فانظرها .

جاء في كتاب (إظهار الحق) أن بعض أهل الكتاب مارى في المعراج ، فبُكِّتَ بأن صعود الجسم العنصريّ إلى الأفلاك صرّحت به التوراة الموجودة لديهم في (أخنوخ) . وأنه نقل حيًّا إلى السماء لئلا يرى الموت . كما في الفصل الخامس من سفر التكوين . وصرّحت في صعود (إليا) في الفصل الثاني من سفر الملوك . وفي إنجيل مرقس في الفصل السادس عشر التصريح برفع المسيح عليه السلام إلى السماء . انتهى .

أقول : أخنوخ هو إدريس عليه السلام المنوّه به في قوله تعالى[1] (وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا) وإيليا نبيّ أرسل إلى آحاب أحد ملوك اليهود الكفرة ، الذين شهروا عبادة بعل وغيره من الأصنام بالسامرة . وتسمى الآن : سِبَسْطِيَّة : من قسم الأرض المقدسة . زعموا أنه ظهرت على يد إيليا خوارق باهرة . وأنه قتل سدنة بعل وهدم مذبحه . إلى أن ارتفع في مركبة نارية وخيل نارية نحو السماء . جانب نهر الأردن في بطاح أريحا . شاهده خليفته اليشاع النبيّ بعده . كذا في تاريخ الكتاب المقدس، و (إيليا) هو إلياس ، و (اليشاع) هو اليسع المذكوران في القرآن المجيد. وقد نوّه بالأول في سورة الصافات بقوله تعالى[2] (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ* أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ* ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ...) الآيات

السادس ـ قيل : إن المسجد الأقصى في زمن الإسراء كان خراباً . بشهادة التاريخ . وذلك لأن سليمان عليه السلام بناه على مكان الصخرة . ثم خرب وألقيت على الصخرة زبالة البلد عناداً لليهود . وبقي كذلك حتى فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس . انظر (تاريخ أبي الفدا) وغيره . فكيف أطلق عليه اسم المسجد ؟ وأجيب : بأن المسجد في حال هدمه يسمى مسجداً . باعتبار ما كان عليه وما وضع له . كما أطلق المسجد على حرم مكة . وهو لم يكن يومئذ مسجداً . وإنما كان بيتاً للأصنام .

(١) [١٩ / مريم / ٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٢٣ـ١٢٦] .

لـكن إبراهيم وإسماعيل ، لما بنيا الـكعبة للعبادة الصحيحة ، كما بنى سليمان هيكله هذا لها ، سمى مسجداً بهذا الاعتبار. أو يقال: إنه أطلق عليهما اسم المسجد للإشارة إلى مايؤول إليه أمرهما . وهو كونهما مسجدين للمسلمين .

السابع : فى التفاضل بين ليلة القدر وليلة الإسراء . سئل الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه ، عن رجل قال: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر ، وقال آخر: بل ليلة القدر أفضل . فأيهما المصيب ؟

فأجاب : أما القائل بأن ليلة الإسراء أفضل من ليـلة القدر ، إن أراد به أن تـكون الليلة التى أسرى فيها بالنبىّ ﷺ ونظائرها من كل عام أفضل لأمة محمد ﷺ من ليلة القدر ، بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل منه فى ليلة القدر . فهذا باطل لم يقله أحد من المسلمين ، وهو معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام . هذا إذا كانت ليلة الإسراء يعرف عينها . فـكيف ولم يقم دليـل معلوم لا على شهرها ولا عشرها ولا على عينها ؟ بل النقول فى ذلك منقطعة مختلفة ، ليس فيها ما يقطع به ، ولا شرع للمسلمين تخصيص الليلة ، التى يظن أنها ليلة الإسراء ، بقيام ولا غيره . بخلاف ليلة القدر فإنه قد ثبت فى الصحيحين[1] عن النبىّ ﷺ أنه قال : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه وفى الصحيحين[2] عنه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ١ ـ باب فضل ليلة القدر وقول الله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ... الخ ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، الحديث رقم ١٧٥ (طبعتنا).

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٣ ـ باب تحرّى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر ، حديث رقم ١٠٢٥ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ١٣ ـ كتاب الصيام ، حديث رقم ٢١٩ (طبعتنا) .

تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان . وقد أخبر سبحانه أنها خير من ألف شهر. فإنه نزل فيها القرآن .

وإن أراد أن الليلة المعينة التى أسرى فيها بالنبى ﷺ، وحصل له فيها مالم يحصل له فى غيرها، من غير أن يشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح. وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة فى مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكان أفضل من جميع الأمكنة والأزمنة . هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعام الله تعالى على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وغير ذلك من النعم التى أنعم عليه. والكلام فى مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأمور ومقادير النعم التى لا تعرف إلا بوحى. ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم.

ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه نقل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها. لا سيما على ليلة القدر . ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور ولا يذكرونها. ولهذا لا يعرف أى ليلة كانت. وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ. ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان ولا ذلك المكان بعبادة شرعية. بل غار حراء الذى ابتدئ فيه بنزول الوحى ، وكان يتحراه قبل النبوة ، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة ، مدة مقامه بمكة . ولا خص اليوم الذى أنزل فيه الوحى بعبادة ولا غيرها. ولا خص المكان الذى ابتدئ فيه الوحى ولا الزمان بشىء . ومَنْ خصَّ الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات ، لأجل هذا وأمثاله ، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مراسم وعبادات. كيوم الميلاد ويوم التعميد وغير ذلك من أحواله. وقد رأى عمر بن الخطاب جماعة يتبادرون مكاناً يصلّون فيه . فقال : ماهذا ؟ قالوا : مكان صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . فمن أدركته فيه الصلاة فليصل ، وإلا فليمض . وقد قال بعض الناس : إن ليلة الإسراء فى حق النبى ﷺ أفضل من ليلة القدر . وليلة القدر بالنسبة إلى الأمة أفضل من ليلة الإسراء. فهذه

الليلة فى حق الأمة أفضل لهم . وليلة الإسراء فى حق رسول الله ﷺ أفضل له . انتهى . نقله الشمس ابن القيم (فى زاد المعاد) .

الثامن : قال الشمس ابن القيم فى (زاد المعاد) . اختلف الصحابة : هل رأى النبيّ ﷺ ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصحّ عن ابن عباس أنه رأى ربه . وصحّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده . وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا : إن قوله تعالى[1] : (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصح عن أبى ذر أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنَّى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور . كما قال فى لفظ آخر : رأيت نوراً . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا . ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى . ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح . ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله وقال : نعم ، رآه حقاً . فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بدّ . ولكن لم يقل أحمد إنه رآه بعينى رأسه . ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه . ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده . فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعينى رأسه . وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين . فإن كان استناده إلى قوله تعالى[2] (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ) ثم قال[3] (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل . رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . وقول ابن عباس هذا ، هو مستند الإمام أحمد فى قوله : رآه بفؤاده . والله أعلم .

---

(١) [٥٣ / النجم / ١٣و١٤] . (٢) [٥٣ / النجم / ١١] .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣] .

التاسع : قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه (التنوير فى مولد السراج المنير) ـ بعد ذكره حديث الإسراء من طريق أنس ـ وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلىّ وابن مسعود وأبى ذرّ ومالك بن صعصعة وأبى هريرة وأبى سعيدوابن عباس وشداد بن أوس وأبىّ بن كعب وعبد الرحمن بن قُرْط وأبى حبَّةَ وأبى ليلى الأنصاريَّيْن وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدةوأبى أيوب وأبى أمامة وسمرة بن جندب وأبى الحمراء وصهيب الرومىّ وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ، أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره ، على ما وقع فى المسانيد . وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون . وأعرض عنه الزنادقة والملحدون . انتهى .

وقد نقل الرازىّ عن بعض المعتزلة رده لجمل فيه ـ ساقها ـ صعب عليهم دركها . ولا إشكال فيها فى الحقيقة بحمده تعالى . ولكن هم وأمثالهم ممن ضعفت عنايتهم بفن الحديث وغلب عليهم فنّ المعقول . وَلَقَدْ فاتهم بسبب ذلك خير كثير . وليس فى الأحاديث الصحيحة ما يناقض المعقول أو الواقع ، بوجهٍ ما ، يعلم ذلك الراسخون ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد بقى ممن رواه من الصحابة . غير من تقدم ـ سهل بن سعد وعبد الله بن حوالة الأزدىّ وعبد الله بن أسعد بن زرارة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمر . وأما من رواه من التابعين مرسلًا فكثير . منهم الحسن بن الحسين عليهما السلام وكعب ومحمد بن الحنفية وعروة وسفيان الثورىّ والوليد بن مسلم وعبد الرحمن بن أبى ليلى وآخرون . كما يعلم من مراجعة (الدرّ المنثور) للحافظ السيوطىّ .

وأما طرقه فى الصحيحين . فقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : إنها تدور على أنس بن مالك مع اختلاف أصحابه عنه . فرواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة . وليس فى أحاديث المعراج أصحّ منه . ورواه الزهرىّ عنه عن أبى ذر . ورواه شريك بن أبى نمر وثابت البنانىّ عنه عن النبىّ ﷺ بلا واسطة . وفى سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر . اهـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا)

[٣] (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

« وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » .

قال ابن كثير : لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه. فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن . وقال الرازيّ : لما ذكر الله تعالى فى الآية الأولى إكرامه محمداً ﷺ بأن أسرى به ، ذكر فى هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذى آتاه. وقال الشهاب فى (العناية) : عقبت آية الإسراء بهذه ، استطراداً بجامع أن موسى عليه الصلاة والسلام أعطى التوراة بمسيره إلى الطور وهو بمنزلة معراجه . لأنه صح ثمة التكليم ، وشرّف باسم الكليم مدمجاً فيه تفاوت ما بين الكتابين ومن أنزلا عليه. وإن شئت فوازن بين (أسرى بعبده) . و (آتينا موسى) . وبين (هدى لبنى إسرائيل) . و(يهدى للتى هى أقوم) . و (الواو) استئنافية أو عاطفة على جملة (سبحان الذى أسرى) الخ لا على (أسرى)، لبعده وتكلفه . وضمير (وجعلناه) للكتاب أو لموسى و (لبنى إسرائيل) متعلق بـ (هدى) أو بـ(جعلناه) ، وهى تعليلية .

وقوله : (أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا)أى وليًّا ومعبوداً تكلون إليه أموركم . لأنه تعالى أنزل على كل نبيّ أرسله ، أن يعبده وحده لا شريك له ، وقد قرئ (أَلَّا يَتَّخِذُواْ)

(١) [١٧ / الإسراء / ١] .

بالياء على الغيبة على حذف لام التعليل . والتقدير : جعلناه هدى لئلا يتخذوا . وقرئ بالتاء على الخطاب . وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن (أَنْ) بمعنى أى . وهى مفسرة لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهى .

الثانى : أن (أن) زائدة ، أى قلنا : لاتتخذوا .

الثالث : أن (لا) زائدة ، والتقدير : مخافة أن تتخذوا . والوكيل الموكول إليه . أى المفوض إليه الأمور ، وهو الرب . و(فعيل) بمعنى مفعول . و (دون) بمعنى غير . و (من) زائدة . أو تبعيضية . وقوله : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) نصب على الاختصاص أو النداء . وفيه تهييج وتنبيه على المنة . والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح فى السفينة . وإيماء إلى علة النهى . كأنه قيل : لاتشركوا به فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد . وأنهم ضعفاء محتاجون إلى لطفه . وفى التعبير بـ(الذرية) الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء ، مناسبة تامة لما ذكر . وذكر حملهم فى السفينة، للإشارة إلى أنه لم يكن لهم حينئذ وكيل يتكلون عليه سواه. وقوله (عَبْدًا شَكُورًا) أى لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينبغى . وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به . وقيل : إنه استطراد .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٥] (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا)

« وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ » أى كتاب اللوح المحفوظ ، أى حكمنا فيه « لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » يعنى أرض فلسطين بيت المقدس التى بارك الله حولها. والإفساد بالكفر والمعاصى .

قال السمين : فى تعدية (قضينا) بـ (إلى) تضمينه معنى أنفذنا . أى أنفذنا إليهم بالقضاء المحتوم . ومتعلق القضاء محذوف . أى بفسادهم . وقوله (لَتُفْسِدُنَّ) جواب قسم محذوف مؤكد لمعنى القضاء ، أو جواب لقوله : (وَقَضَيْنَآ) لأنه ضمن معنى القسم . ومنه قولهم (قضاء الله لأفعلن كذا) فيُجرون القضاء والقدر مجرى القسم ، فيتلقيان بما يتلق به القسم . و (مرتين) أى إفسادتين . منصوب على أنه مصدر (لتفسدن) من غير لفظه . وعدل عنه ، لأن تثنية المصدر وجمعه ليس بمطرد : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى ولتستكبرن وتتعظمُنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لتظلمن الناس « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا » أى موعود أولى المرتين ، أى وما وعدوا به فى المرة الأولى ، يعنى وعد المؤاخذة على أولى المفسدتين « بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى ذوى قوة وبطش فى الحرب ، شديد « فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ » ترددوا خلال أماكنكم ومحالكم للقتل والسبي والنهب « وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا » أى مَقْضِيًّا لا صارف له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)

[٧] (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا)

[٨] (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا . وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا)

« ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ » أى بعد هـذه المؤاخذة الشديدة ، رددنا ، عند توبتكم ، لكم الغلبة التى كانت لكم فى الأصل ، عليهم « وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا » أى قومًا ورهطاً . جمع (نفر) أو اسم جمع له . وأصله مَن ينفر مع الرجل من قومه . وقوله تعالى « إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » بمثابة التعليل لما قبله . أى فعلنا ذلك لتعلموا أنكم إن أحسنتم توبتكم وأعمالكم ، أحسنتم لأنفسكم ، بإبقاء الغلبة لها والإمداد بالأموال والبنين وتكثير النفير (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) أى فإساءتكم ضارة لها بغلبة الأعداء وسلب الأموال والبنين والنفير « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ » أى مؤاخذة المرة الآخرة وعقوبتها . وقوله تعالى « لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ » متعلق بجواب (إذا) المحذوف . أى بعثناهم ليسوءوا وجوهكم ، أى ذواتكم بالإذلال والقهر .

قال الشهاب: عديت المساءة إلى الوجوه، وإن كانت عليهم، لأن آثار الأعراض النفسانية إنما تظهر فى الوجه . كنضارة الوجه وإشراقه بالفرح . وكلوحه وسواده بالخوف والحزن .

فالوجه ، بمعنى الذات ، مجاز مرسل ، أو استعارة تبعية . وقيل : الوجوه بمعنى الرؤساء . وهو تكلف . واختير هذا على (لِيَسُوءُوكُمْ) مع أنه أخصر وأظهر ، إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن ، المدلول عليه بقوله (وَلِيُتَبِّرُوا) . انتهى .

وقوله تعالى «وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ» أي الأقصى « كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ » أي يدمروا « مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا » أي عظيماً فظيعاً ، والتتبير : التدمير . وكل شيء كسرته وفتته فقد تبرته . ثم أشار إلى أن فعله تعالى ليخلصوا توبتهم وأعمالهم بقوله « عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ » أي إذا أخلصتم للإنابة ، وأحسنتم الأعمال ، وأقمتم الكتاب وما نزل إليكم ، لأنكم علمتم من سنته تعالى أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفعه إلا بتوبة . ولذا قال « وَإِنْ عُدتُّمْ » أي بعد هذه التوبة والإنابة إلى الاستكبار « عُدْنَا » أي إلى تسليط الأعداء وسلب الأموال والأولاد في الدنيا .

« وَجَعَلْنَا » أي يوم القيامة « جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا » أي محبساً وسجناً يحصرهم في العذاب والحرمان عن الثواب .

قال الشهاب : إن كان ـ (حصيراً) ـ اسماً للمكان فهو جامد لا يلزم تذكيره وتأنيثه . وإن كان بمعنى حاصراً أي محيطاً بهم ، وفعيل بمعنى فاعل ، يلزم مطابقته . فإما لأنه على النسب . كلابن وتامر . أو لحمله على (فعيل) بمعنى (مفعول) . أو لأن تأنيث جهنم غير حقيقي أو لتأويلها بمذكر . انتهى .

وقيل : حصيراً ، أي بساطا كما يبسط الحصير . مثل قوله تعالى[1] : (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ) فهو تشبيه بليغ . والحصير بهذا المعنى بمعنى محصور لحصر بعض طاقاته على بعض . كما قاله الراغب .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤١] .

تنبيه :

روى أن بنى إسرائيل كان الأمر مستتباً لهم فى فلسطين إلى موت سليمان عليه السلام. فلما ملك ابنه بعده ، وذلك قبل المسيح بما ينيف على تسعمائة سنة ، وقع من الاختلال فى عهده ما أفضى إلى تقريره عبادة الأوثان . فعوجل ، بعد خمس سنين من ملكه بأخذ ملك مصر بيتَ المقدس وسلب كنوز هيكلها (المسجد الأقصى) ونهب ما فيها . ولما ساء تصرفه تمرد عليه شعبه وخلعوا طاعته . فانقسمت مملكته إلى قسمين : أحدهما دعى مملكة يهوذا وهى المؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ، بقيا خاضعين لابن سليمان .

وثانيهما : دعى مملكة إسرائيل وهى المؤلفة من بقية الأسباط العشرة . وكان أول ملك على مملكة إسرائيل رجل يقال له يربعام . خاف من رجوع رعاياه إلى طاعة ابن سليمان إذا صعدوا إلى أورشليم فى الأعياد الاحتفالية ليعبدوا الله فى الهيكل ويقربوا ذبائحهم هناك . فأقام فى مملكته عجلين من ذهب . وأمر رعيته بعبادتهما . ورتب لهم أعياداً احتفالية وكهنة. وقامت حروب هائلة بين ملوك هاتين الطائفتين . وكان يتخللهما من الملوك من ينزع عبادة الأوثان . إلا أنه لا يلبث الحال حتى يأتى ملك آخر فيعيد الوثنية . واستمرت مملكة إسرائيل نحواً من مائتين وخمسين سنة . وفى نهاية أمرهم عظمت خطيئاتهم فسلط عليهم ملك أَشُّور ، ففتح السامرة ـ بلدهم ـ وسباهم إلى أَشُّور وانقرضت مملكة العشرة الأسباط ولم يسمع ذكرهم بعد . ثم أرسل ملك أَشُّور قوماً من بلاده وأسكنهم مدن السامرة ليعمروها مع من بقى من أهلها . وأرسل معهم كاهنا من اليهود ليقيم لمن بقى طقوسهم . فعادوا إلى شركهم وعبادة الأوثان مع الله تعالى . وأما مملكة يهوذا فبقيت بعد انقراض مملكة إسرائيل ما ينيف على عشرين سنة . وفى أواخر أيامها قام فيها ملك شرير . فزحف إليه ملك بابل نبوخذناصر (بختنصر) فسبى قسماً من شعبه ، وكان السبى الأول .

ثم قام ، بعد ذلك الملك الشرير ، ابنُه . فسار على طريقة أبيه . فعاد إليه ملك بابل المذكور

واستأسره هو وآله ورؤساءه وقسما من الشعب . وسلب الهيكل . وكان هذا السبي الثانى بعد ثمانى سنين من الأول .

ثم قام فيهم ملك أَشَرُّ ممن تقدم ـ وهو آخر ملوكهم ـ وفى أيامه حاصر ملك بابل المذكور أيضا بيت المقدس ، وأسره إلى بابل ، وأحرق المدينة والهيكل ، وسبى كل شعب يهوذا ، ماعدا مساكين الأرض ، إلى بابل . وهذا هو السبي الثالث والأخير .

وهكذا انقرضت هذه المملكة . وكانت إقامتهم فى بابل سبعين سنة . ثم أطلقوا من الأسر فعادوا إلى بيت المقدس . وجددوا عمارتها وقيام الهيكل . وبقيت اليهود تحت تسلط ملوك فارس إلى أن ظهر الإسكندر الكبير . وغلبت اليونان الفرس وجاء الإسكندر إلى سورية فدخل بنو إسرائيل تحت حكم اليونان . وبعد وفاة الإسكندر انقسم ملكه إلى أربعة أقسام :

منها مملكة سورية ومصر . وكانت بينهما حروب متصلة . والإسرائيليون ، لما كانوا بينهما ، كانوا تارة تحت تملك مصر وأخرى تحت تسلط سورية . واتفق فى خلال ذلك أن رفض كثير من اليهود الديانة اليهودية ، وتمسكوا بديانة اليونانيين .

ثم استولى الرومانيين على فلسطين . وجرت حروب هائلة بينهم وبين اليهود ، أفضى الأمر إلى تسلط الرومانيين عليهم . وتملكوا بيت المقدس . وهدم تيطس ، أحد ملوكهم ، الهيكل إلى أساسه . وأحرق كتب اليهود وتشتت أمرهم، ولم يبق لهم ملك ولا رئاسة بعده. وزعموا أن ذلك بعد رفع المسيح بنحو أربعين سنة. وزعموا أن الهيكل تراجع للعمارة ورمم، إلى أن سارت هيلانة، أم قسطنطين، إلى القدس وبنت كنيسة على القبر، الذى يزعم النصارى أنه قبر المسيح . وخربت الهيكل وأمرت أن تلقى فيه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقى كذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح القدس . فأمر بتنظيفه وبنى فى قبلته مسجداً ، إلى أن ملك الوليد بن عبد الملك ، فجدد بناءه على أساسه القديم وبنى قبة الصخرة .

وتفصيل هذه الماجريات معروفة فى كتب التاريخ . ونحن لم نورد ما أوردناه على أنه تفسير للآية . لأنها بإيجازها غنية عنـه ، وفى تفسيرنا لألفاظها كفاية فى فهمها ، إلا أن أكثر المفسرين تطرفوا لبعض ماجريات اليهود هنا ، فنقحنا منها أحسن ماحرره المؤرخون المتأخرون ، إيضاحاً لأفاعيلهم التى أشارت إليها الآيات الكريمة .

وقد قدمنا فى سورة يوسف ؛ أنه ليس فى القرآن شئ من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات فى العبر تجلت فى سياق الوقائع . ولذلك لم تذكر قصة بتفاصيلها. وإنما يذكر موضع العبرة فيها ، كما قال تعـالى[1] (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ) .

ثم بيّن تعالى مزية التنزيل الكريم التى فاق بها سائر ما أنزل ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

« إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » أى للحـالة التى هى أقوم الحالات وأسدّها . أو للملة ، أو للطريقة .

قال الزمخشرىّ : وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف . لما فى إبهام الموصوف بحذفه ، من فخامة تفقد مع إيضاحه .

« وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » أى يبشر المخلصين فى إيمانهم، وهم الذين يعملون الصالحات كلها، ويجتنبون السيئات؛ أن لهم فى الدنيا والآخرة ثواباً وافراً .

---

(١) [١٢ / يوسف / ١١١].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

[١١] (وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ عَجُولًا)

« وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ » أى بالبعث والجزاء على الأعمال « أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً » أى فى الآخرة ، وهو عذاب النار .

«وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ» أى مثل دعائه بالخير « وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ عَجُولًا » قال أبو السعود : الآية بيان لحال المهدىّ إثر بيان حال الهادى . وإظهار لما بينهما من التباين . والمراد بالإنسان الجنس، أُسند إليه حال بعض أفراده. أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه . فالمعنى ، على الأول : أن القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذى لا خير فوقه من الأجر الكبير. ويحذره من الشر الذى لا شر وراءه من العذاب الأليم، وهو ـ أى بعض منه وهو الكافر ـ يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور، إما بلسانه حقيقة كدأب من قال[١] (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) ومَنْ قال[٢] (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ) إلى غير ذلك مما حكى عنهم ـ وإما بأعمالهم السيئة المفضية إليه ، الموجبة له مجازاً ، كما هو ديدن كلهم . وقوله (وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ عَجُولًا) يعنى بالإنسان من أسند إليه الدعاء المذكور من أفراده. عجولا يسارع إلى طلب ما يخطر بباله ، متعامياً عن ضرره . أو مبالغاً فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة . ففيه نوع تهكم به . وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال .

وعلى الثانى : أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير . وهو فى بعض أحيانه ، كما عند الغضب ، يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر. وكان الإنسان بحسب جبلّته عجولا ضجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه . أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيراً. وكان

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

الإنسان عجولاً غير متبصر لايتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به ، وما هو شر جدير بالاستعاذة منه . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى بعض وجوه الهداية فى القرآن ، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية ، التى كل منها برهان نيّر لاريب فيه . ومنهاج بيّن لايضل من ينتحيه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا)

« وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ » أى جعلناها ، بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر، علامتين تدلان على أن لهما خالقا حكيما. « فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ » أى بجعلها مظلمة « وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً » أى مضيئة لتمييز الأشياء المحسوسة. والإضافة فيهما إما بيانية ، أى الآية التى هى الليل، والآية التى هى النهار . وإما حقيقية. وآية الليل والنهار نيّراهما . والمراد بمحو القمر خلقه مطموس النور فى نفسه، أو نقص مااستفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق . وبجعل الشمس مبصرة إبداعها مضيئة بالذات. ذات أشعة تبصر بها الأشياء؛ فالإسناد فى (مبصرة) مجازىّ إلى السبب العادىّ ، أو تجوز بعلاقة السبب. وقوله تعالى « لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ » متعلق بـ(جعلنا) أى لتطلبوا فى النهار رزقاً منه سبحانه، بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار . « وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ » أى الحساب المتعلق بما فى ضمن السنين من الأشهر والليالى والأيام ، أو الحساب الجارى فى المعاملات ، كالبيوع والإجارات . وفى العبادات ، أى لتعرف مضىّ الآجال المضروبة لذلك . إذ لولاه لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : هذه الآية أصل فى علم المواقيت والهيئة والتاريخ . وفى الآية لف ونشر غير مرتب . انتهى .

وقوله تعالى : «وَكُلَّ شَيْءٍ» أى مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم «فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا» أى بيناه فى القرآن بيانا بليغاً لا التباس معه . كقوله تعالى[1] «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» فظهر كونه هادياً للتى هى أقوم ظهورا بيّنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا)

[١٤] (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

[١٥] (مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » أى ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيراً وشرًّا ، بحيث لا يفارقه أبداً . بل يلزمه لزوم الطوق فى العنق ، لا ينفكّ عنه بحال .

قال الطبرىّ[2] : المعنى : وكل إنسان ألزمناه ما قضى أنه عامله ، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله ،، فى عنقه لا يفارقه . وإنما قوله (أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) مثل لما كانت العرب تتفاءل به أو تتشاءم من سوانح الطير وبوارحها . اهـ .

---

(١) [١٦ / النحل / ٨٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال ؛ وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ ، اعتبروا أحوال الطير : وهو أنه يطير بنفسه أو يحتاج إلى إزعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متياسراً أو صاعداً إلى الجوّ ، إلى غير ذلك من الأحوال التى كانوا يعتبرونها ، ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم ، سمّى الخير والشر بالطائر ، تسمية للشىء باسم لازمه .

قال الطبرىّ[1] : فأعلمهم جل ثناؤه ، أن كل إنسان منهم قد ألزمه ربه طائره فى عنقه ، نحساً كان ذلك الذى ألزمه من الطائر وشقاء يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنان عدن. وإنما أضيف إلى العنق ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ، قيل لأن العنق هو موضع السمات وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين . فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة ببنى آدم وغيرهم من ذلك ، إلى أعناقهم . وكثر استعمالهم ذلك حتى أضافوا الأشياء اللازمةسائر الأبدان إلى الأعناق. كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا : ذلك بما كسبت يداه . وإن كان الذى جرّ عليه لسانه أو فرجه . فكذلك . قوله (أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) وحاصله ـ كما قاله الرازىّ ـ أن قوله : (فى عُنُقِهِۦ) كناية عن اللزوم. كما يقال (جعلت هذا فى عنقك) أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به . ويقال (قلدتك كذا وطوقتك كذا) أى صرفته إليك وألزمته إياك . ومنه (قلده السلطان كذا) أى صارت الولاية ، فى لزومها له ، فى موضع القلادة ومكان الطوق . ومنه يقال (فلان يقلد فلاناً) أى يجعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . وقوله تعالى « وَنُخْرِجُ لَهُۥ » أى نظهر له « يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى البعث للجزاء على الأعمال « كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا » أى يجده مفتوحًا فيه حسناته وسيئاته . ويقال له « ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » أى شهيداً بما عملت .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال القاشانىّ : (كِتَـٰبًا) هيكلا مصورًا يصوّر أعماله (يَلْقَـٰهُ مَنشُورًا) لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لامطويًّا كما كان عند كونها فيه بالقوة . يقال له (ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ) أى اقرأه قراءة المأمور الممتثل لأمر آمرٍ مطاع يأمره بالقراءة . أو تأمره القوى الملكوتية . سواء كان قارئًا أو غير قارئٍ . لأن الأعمال هناك ممثّلة بهيئاتها وصورها ، يعرفها كل أحد . لاعلى سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفها الأمىّ (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازمًا إياها ، نصب عينها ، مفصلا لا يمكنها الإنكار .

وقوله تعالى « مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ » قال أبو السعود : فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديًا لأقوم الطرائق، ولزوم الأعمال لأصحابها. أى من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نهاه عنه ، فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا تتخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى « وَمَن ضَلَّ » أى عن الطريقة التى يهديه إليها « فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أى وبال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشره . فقوله «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » مؤكد لماقبله للاهتمام به.

قال أبو السعود : أى لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى ، حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل (وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) وأما ما يدل عليه قوله تعالى[1] (مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ، وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا).وقوله تعالى[2](لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ)من حمل الغير وزر الغير، وانتفاعه بحسنته، وتضرره بسيئته ، فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه ، وتضرر بسيئته . فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له . وإنما الذى يصل إلى من يشفع، جزاء شفاعته ، لاجزاء

(١) [٤ / النساء / ٨٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٢٥] .

أصل الحسنة والسيئة . وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين. وما يحمله المضلون، إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال .

وإنما خصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للأطماع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » بيان للعناية الربانية ، إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها . أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنّتنا المبنية على الحكم البالغة ، أن نعذّب قوماً حتى نبعث إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، لإقامة الحجة وقطعاً للعذر . والعذاب أعمّ من الدنيوىّ والأخروىّ ، لقوله تعالى(١) (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) . وقال تعالى(٢) (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ) وكذا قوله(٣) (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) وقال تعالى(٤) (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لايعذب قوماً عذاب استئصال ، ولا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسل . قال قتادة :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٤] . (٢) [٦٧ / الملك / ٨و٩] .
(٣) [٣٩ / الزمر / ٧١] . (٤) [٣٥ / فاطر / ٣٧] .

إن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يتقدم إليه بخبر أو بيّنة . ولا يعذب أحـداً إلا بذنبه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذَآ أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا)

« وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا » بيان لوقوع التعذيب بعد الرسالة . وأنه إنما كان للتمرد على الرسل والتنكب عن منهجهم . وقد تدل الآية على أن التعذيب المتقدم مراد به الهلاك الدنيوىّ لانحصارها فيه . والمعنى : إذا أردنا أن نعذب قومًا عذاب استئصال (أمرنا مترفيها) يعنى متنعميها، بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم (ففسقوا فيها) بمخالفة أمره تعالى والخروج عن طاعته (فحق عليها القول) فوجب عليها ، بمعصيتهم وفسقهم وطغيانهم، وعيد الله الذى أوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج . (فدمرناها تدميراً) أى نخربناها تخريباً لا يكتنه كنهه ولا يوصف. وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا هائلا. كما جرى لبيت المقدس، لما انحرف اليهود عن شرعتهم، على ماقدمنا بيانه. وإنما خص المترفين ، وهم الجبارون والملوك والرؤساء ، بالذكر مع توجه الأمر إلى الكل ، لأنهم الأصل فى الخطاب والباقى تبع لهم . ولأن توجه الأمر إليهم آكد . وإنما حذف مفعول (أمرنا) لظهور أن المراد به الحق والخير . لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى إليه . وفى إيثار (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع ، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم ، وطمس أثرهم ، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدوّ . ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد فقال : (تَدْمِيراً) أى كليًّا بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع .

قال القاشانىّ : إن لكل شيء فى الدنيا زوالًا . وزواله بحصول استعداد يقتضى ذلك . وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال ، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته ، فكذلك هلاك المدينة وزوالها بحدوث انحراف فيهـا عن الجادة المستقيمة التى هى صراط الله وهى الشريعة الحافظة للنظام . فإذا جاء وقت إهلاك قرية ، فلابد من استحقاقها للإهلاك . وذلك بالفسق والخروج عن طاعة الله . فلما تعلقت إرادته بإهلاكها ، تقدمه أولا بالضرورة فسق مترفيها من أصحاب الترف والتنعم بطراً وأشراً بنعمة الله ، واستعمالًا لها فيما لاينبغى . وذلك بأمر من الله وقدرٍ منه ، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم . وحينئذ وجب إهلاكهم .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ » أى وكثيراً ما أهلكنا من الأمم الكافرة من بعد زمن نوح ، كعاد وثمود وفرعون ، ممن قصّت أنباؤهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص . و (القرون) جمع قرن يطلق على الزمن المعين وعلى أهله المقترنين فيه . وعلى كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد . وخص (نوح) ولم يقل (من بعد آدم) لأنه أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . ففيه تهديد وإنذار للمشركين .

« وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى لايخفى عليه شيء منها . فيدرك سرها وعلنها وسيجازى عليها .

والآية تدل ـ كما قال الزمخشرىّ : ـ على أن الذنوب هى أسباب الهلكة ، وذلك لأنه لما عقب إهلاكهم بعلمه بالذنوب علماً أتمّ ، دل على أنه جازاهم بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)

[١٩] (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)

« مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا » .

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى . لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ، عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد . أى مانشاؤه من بسط الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أراد الله أن يفعل به ذلك . أو من إهلاكه بما يشاء تعالى من عقوباته المعجلة . ثم يصلى جهنم فى الآخرة مذموماً على قلة شكره لمولاه ، وسوء صنيعه فيما سلف له . مدحوراً مطروداً من الرحمة ، مبعداً مقصيًّا فى النار . ومن أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها الذى هو طاعة الله وما يرضيه عنه، فأولئك كان عملهم مشكوراً بحسن الجزاء .

تنبيه :

قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلة فى معنى قوله (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ) فالآية الأولى تشير إلى من جعل طائر نفسه شؤماً . والثانية لمن جعله يمناً وخيراً. وفى قوله تعالى : (وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا) أى مايحق ويليق بها من الأعمال الصالحة، تبيين لقوله: (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ) بأن إرادتها هو بالسعى والنصَب فى مغالبة الباطل وإعلاء شأن الحق مع التلبس بالإيمان الصحيح ، بفعل المأمور واجتناب المنهىّ عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)

[٢١] (ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

[٢٢] (لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا)

« كُلًّا نُّمِدُّ » أى كل واحد من الفريقين. وقوله : « هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ » بدل من (كلا) « مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ » أى فضله . فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد واستيفائهما الأجل ، ما كتب لهما . ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات ، وتفترق بهما بعد الورود المصادرُ . ففريقُ مريدى العاجلة ، إلى جهنم مصدرهم. وفريقُ مريدى الآخرة ، إلى الجنة مآبهم « وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » أى ممنوعاً لا يمنعه من عاصٍ لعصيانه . والجملة كالتعليل لشمول الإمداد للفريقين « ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى فى الرزق فى الدنيا « وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » لأن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك ، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه ، بقوله « لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا » أى لا تجعل معه شريكا فى عبادته فتصير مذموماً ملوماً على الشرك ، مخذولًا من الله ، يكلك إلى ذاك الشريك ولا ينصرك (وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ)(١) .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[٢٤] (وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا)

«وَقَضَىٰ رَبُّكَ» أى أمر أمرا مقطوعا به «أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» أى : وبأن تحسنوا بالوالدين إحسانا . قال القاشانىّ : قرن سبحانه وتعالى إحسان الوالدين بالتوحيد وتخصيصه بالعبادة ، لكونهما مناسبين للحضرة الربوبية ، لتربيتهما إياك عاجزا صغيرا ضعيفا لا قدرة لك ولا حراك بك . وهما أول مظهر ظهر فيه آثار صفات الله تعالى من الإيجاد والربوبية . والرحمة والرأفة بالنسبة إليك ، ومع ذلك فإنهما محتاجان إلى قضاء حقوقهما ، والله غنىّ عن ذلك . فأهم الواجبات بعد التوحيد ، إذًا ، إكرامهما والقيام بحقوقهما ما أمكن «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا» فى هذا من المبالغة فى إكرام الوالدين وبرهما ما لا يخفى . و(إِمَّا) هى (إن) الشرطية زيدت عليها (ما) تأكيداً لها . و (أَحَدُهُمَآ) فاعل (يبلغن) و (كِلَاهُمَا) عطف عليه . ومعنى (عِندَكَ) هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كَلًّا على ولدهما ، لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه . وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبراً . وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه ، فى حال الطفولة . فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال . حتى لا يقول لهما ، إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما: (أف) فضلا عما يزيد عليه . أفاده الزمخشرىّ .

وقوله (وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أى تزجرهما عما لا يعجبك ، بغلظة (وَقُل لَّهُمَا) بدل التأفيف والنهر (قَوْلًا كَرِيمًا) أى حسناً كما يقتضيه حسن الأدب معهما . ومعنى قوله (وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ) تذلّلْ لهما وتواضع . وفيه استعارة مكنية وتخييلية . فشبه الذل بطائر تشبيها مضمرا ، وأثبت له الجناح تخييلا ، والخفض ترشيحاً . و (خفضه) ما يفعله إذا ضم أفراخه للتربية . أو استعارة تصريحية فى المفرد وهو الجناح ، والخفض ترشيح . و (الجناح) الجانب كما يقال (جناحا العسكر) وخفضه مجاز. كما يقال (ليّن الجانب) و (منخفض الجانب) وإضافة الجناح إلى الذل للبيان. لأنه صفة مبيّنة. أى جناحك الذليل . وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر . فكأنه جعل الجناح عين الذل . أو التركيب استعارة تمثيلية . فيكون مثلا لغاية التواضع . وسر ذكر الجناح وخفضه ، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس . و (مِن) من قوله تعالى (مِنَ ٱلرَّحْمَةِ) ابتدائية على سبيل التعليل . أى من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم ، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . وافتقارُ المرء إلى من كان مفتقراً له ، غايةٌ فى الضراعة والمسكنة . فيرحمه أشد رحمة . كما قال الخفاجىّ :

يا من أتى يسأل عن فاقتى ، ما حال من يسأل من سائله ؟

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله .

وقوله تعالى (وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) أى رب ! تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك، كما تعطفا علىّ فى صغرى، فرحمانى وربيانى صغيراً حتى استقللت بنفسى، واستغنيت عنهما.

قال الزمخشرىّ : أى لا تكتف برحمتك عليهما التى لا بقاء لها ، وادْعُ الله بأن يرحمهما رحمته الباقية . واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتهما لك. والكاف للتعليل. أى لأجل تربيتهما لى .

قال الطيبىّ : الكاف لتأكيد الوجود . كأنه قيل : رب ارحمهما رحمة محققة مكشوفة لا ريب فيها كقوله[1] (مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) . وهو وجه حسن .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٣] .

تنبيه :

استحب بعض السلف أن يدعو المرء لوالديه فى أواخر التشهد قبيل السلام ، لأنه وقت فاضل . وقد جمعتُ من الأدعية المأثورة للوالدين المتوفيين أو أحدهما ، جملة ضمنتها لكتابى (الأوراد المأثورة) . لا أزال أدعو لهما بها فى السحر أو بين أذان الفجر وإقامة صلاته ، لما أرى من مزية هذا الوقت على غيره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٥] (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا)

[٢٦] (وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا)

[٢٧] (إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ، وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا)

« رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ » أى ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين والعقوق « إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ »أى قاصدين للصلاح والبرّ دون العقوق « فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ » أى التوابين الرجّاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم ، والاستقامة على المأمور « غَفُورًا» أى لهم ما اكتسبوا . ولا يخفى ما فى صدر الآية من الوعد لمن أضمر البرّ . والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستثقال والعقوق .

قيل : الآية استئناف يقتضيه مقام التأكيد والتشديد . كأنه قيل : كيف يقوم بحقهما وقد تبدر بوادر ؟ فقيل : إذا بنيتم الأمر على الأساس ، وكان المستمر ذلك ، ثم اتفقت بادرة من غير قصد إلى المساءة، فلطف الله يحجز دون عذابه . ويجوز ـ كما قال الزمخشريّ ـ أن يكون هذا عامًّا لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها . ويندرج تحته الجانى على أبويه ، التائب من جنايته ، لوروده على أثره . ثم وصّى تعالى بغير الوالدين من الأقارب ، بعد الوصية

بهما ، بقوله سبحانه : « وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ » أى من صلته وحسن المعاشرة، والبرّ له بالإنفاق عليه .

قال المهايمىّ : لم يقل (القريب) لأن المطلق ينصرف إلى الكامل. والإضافة ، لما كانت لأدنى الملابسة، صدق (ذو القربى) على كل من له قرابة ما . « وَٱلْمِسْكِينَ » أى الفقير من الأباعد . وفى الأقارب مع الصدقة صلة الرحم . « وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ » أى المسافر المنقطع به . أى أعنه وقوّه على قطع سفره . ويدخل فيه مايعطاه من حمولة أو معونة أو ضيافة . فإن ذلك كله من حقه « وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا » أى بوجه من الوجوه ، بالإنفاق فى محرم أو مكروه ، أو على من لا يستحق، فتحسبه إحساناً إلى نفسك أو غيرك. أفاده المهايمىّ. وفى (الكشاف): كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها . فأمر الله بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف .

« إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ » أى أمثالهم فى كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغى . وهذا غاية المذمة لأنه لاشرّ من الشيطان . أو هم إخوانهم أتباعهم فى المصادقة والإطاعة . كما يطيع الصديق صديقه والتابع متبوعه ، أو هم قرناؤهم فى النار على سبيل الوعيد . والجملة تعليل المنهى عنه عن التبذير، ببيان أنه يجعل صاحبه مقروناً معهم. وقوله « وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا » من تتمة التعليل. قال أبو السعود: أى مبالغاً فى كفران نعمته تعالى . لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوَى ، إلى غير ما خلقت له من أنواع المعاصى ، والإفساد فى الأرض، وإضلال الناس ، وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم ، وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به . وتخصيص هذا الوصف بالذكر ، من بين سائر أوصافه القبيحة ، للإيذان بأن التبذير ، الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها ، من باب الكفران ، المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له . والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوّه . فإن

كفران نعمة الربّ ، مع كون الربوبية من أقوى الدواعى إلى شكرها ، غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان . انتهى .

وقد استدل بالآية من منع إعطاء المال كله فى سبيل الخير، ومن منع الصدقة بكل ماله.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا)

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا » أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل ، حياء من الردّ ، لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه ، فلا تؤيسهم وقل لهم قولًا ليناً سهلًا، وعدهم وعداً جميلًا.

قال فى (الكشف) : (ابتغاء) أقيم مقام فقدانه . وفيه لطف . فكأن ذلك الإعراض لأجل السعى لهم . وهو من وضع المسبب موضع السبب . فإن الفقد سبب للابتغاء .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية الأمر بالقول اللّين عند عدم وجود مايعطى منه . وفسّره ابن زيد بالدعاء . والحسن وابن عباس بالعدة . انتهى .

وظاهر ، أن القول الميسور يشمل الكل . وذهب المهايمىّ إلى أن الآية فى منعهم خوفا من أن يصرفوه فيما لاينبغى . قال : أى وإن تحقق إعراضك عمن تريد الإحسان إليهم ، طلب رحمة من ربك فى المنع عنهم لئلا يقعوا فى التبذير ، بصرف المعطى إلى شرب الخمر أو الزنى ، لما عرفت من عاداتهم ، فقل لهم فى الدفع قولا سهلًا عليهم ، إحساناً إليهم بدل العطاء . انتهى .

ولم أره لغيره . والنظم الكريم يحتمله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ » أى لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم ، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه ، الذى لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء « وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » أى بالتبذير والسرف . قال ابن كثير : أى لا تسرف فى الإنفاق فتعطى غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك « فَتَقْعُدَ » أى فتبقى « مَلُوماً » يلومك الفقراء والقرابة « مَّحْسُورًا » أى نادماً ، من (الحسرة) . أو منقطعا بك لا شىء عندك من (حسره السفر) إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه .

وفى النهيين استعارتان تمثيليتان . شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه ، بمن يده مغلولة لعنقه ، بحيث لا يقدر على مدها .

وفى الثانية ، شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً . وهو ظاهر . وجعل ابن كثير قوله تعالى (فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُورًا) من باب اللف والنشر المرتب . قال : أى فتقعد ، إن بخلت ، ملوماً يلومك الناس ويذمونك . ويستغنون عنك كما قال زهير[١] فى المعلقة .

ومَنْ كانَ ذَا مالٍ فيبخَلْ بمالِهِ   على قومِهِ يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

---

(١) الرواية فى (المعلقات) و (شرح ديوان زهير) هكذا :

* ومَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضْلِهِ *

وقال فى الحاشية (من شرح الديوان) : وفى شرح الأعلم :

ومَنْ يَكُ ذَا مَالٍ فَيَبْخَلْ بمَالِهِ *

وهو البيت الخمسون من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ   بحَوْمانةِ الدرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلاشيء تنفقه ، فتكون كالحسير . وهي الدابة التي عجزت عن السير ، فوقفت ضعفا وعجزاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا)

« إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أي يوسعه ويضيّقه ، حسب مشيئته وحكمته « إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أي خبيراً ببواطنهم ، بصيراً بظواهرهم .

قال المهايميّ : ولما وجب إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، لحفظ أرواحهم ، فالأولاد بحفظ الأرواح أولى ، لذلك قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا)

« وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » نهي لهم عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من قتلهم أولادهم. وهو وأْدهم بناتهم. أي دفنهن في الحياة . كانوا يئدونهن خشية الفاقة وهي الإملاق والفقر ، بالإنفاق عليهم إذا كبروا . فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم بقوله (نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ) أي نحن المختصون بإعطاء رزقهم في الصغر والكبر ، وقوله تعالى (وَإِيَّاكُمْ) أي الآن بإغنائكم . وقوله تعالى « إِنَّ قَتْلَهُمْ » أي للإملاق الحاضر والخشية في المستقبل « كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا » أي لإفضائه إلى تخريب العالم . وأي خطء أكبر من ذلك .

تنبيه:

دل قوله تعالى: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ على أن ذلك هو الحامل لهم على الوأد ، لا خوف العار كما زعموا . قال المبرّد في (الكامل) : كانت العرب في الجاهلية تئد البنات. ولم يكن هذا في جميعها . إنما كان في تميم بن مرّ ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل .

ثم قال : ودل على مامن أجله قتلوا البنات، فقال ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ وقال[١] ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ فهذا خبر بيّن أنّ ذلك للحاجة . وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفة . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنّى؛ أن تميماً منعت النعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، فاستاق النعم وسبي الذراريّ . فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البقيا . فأناب القوم وسألوه النساء. فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه. فكلهن اختار أباها إلا ابنة القيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج . فنذر قيس ألا تولد له ابنة إلا قتلها. فهذا شيء يعتلّ به من وأد، ويقول: فعلناه أنفة ، وقد أكذب ذلك بما أنزل الله تعالى في القرآن.

وقال ابن عباس رحمه الله (في تأويل هذه الآية) : وكانوا لا يورّثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم ، يريد الذكران . والخطء كالإثم ، لفظاً ومعنى . ولما نهى عن قتل الأولاد ، نهى عن قطع النسل بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

« وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً » أي فعلة قبيحة متناهية في القبح . توجب

---

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٢] .

النفرة عن صاحبه ، والتفرقة بين الناس « وَسَآءَ سَبِيلًا » أى بئس طريقا طريقه. فإنه غصب الأبضاع المؤدى إلى اختلاف أمر الأنساب ، وهيجان الفتن غصباً من غير سبب . والسبب ممكن . وهو الصهر الذى شرعه الله ، وقال المهايمىّ : (سَآءَ سَبِيلًا) لقضاء الشهوة التى خلقت لطلب النسل ، بتضييعه . ثم ذكر ما هو أعظم فى التنفير والتفرقة ، فقال تعالى مجده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ، إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا)

« وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ » أى قتلها وهى نفس الإنسان « إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى إلا بسبب الحق ، فيتعلق بـ (لا تقتلوا) أو حال من فاعل (لا تقتلوا) أو من مفعوله . وجوز تعلقه بـ(حرّم). أى حرّم قتلها إلا بالحق . وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قوداً بنفس «وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰناً فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا » أى ومن قتل بغير حق ، مما تقدم ، فقد جعلنا لوليّه ، الذى بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه . (سُلْطَـٰنًا) أى تسلطاً على القاتل فى الاقتصاص منه . أو حجة يثب بها عليه ، وحينئذ فلا يسرف فى القتل . أى فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين والقاتلُ واحد ، كعادة الجاهلية . كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة . وقوله : (إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا) تعليل للنهى . والضمير للولىّ . يعنى : حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص ، فلا يستزد على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ، وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ، إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا)

« وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى لاتتصرفوا فى ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتثميره وإصلاحه . وقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ » غاية لجواز التصرف على الوجه الحسن. أى حتى يبلغ وقت اشتداده فى العقل وتدبير ماله وصلاح حاله فى دينه « وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ » أى العقد الذى تعاقدون به الناس فى الصلح بين أهل الحرب والإسلام ، وفيما بينكم أيضا. والبيوع والأشربة والإجارات ونحوها «إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا» أى مطلوباً. يطلب من المعاهد الثبات عليه، وعدم إضاعته. أو: صاحبه مسئول عن نقضه إياه . والمعنى : لا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموهم ، فتخفروها وتغدروا بمن أعطيتموه إياها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

« وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ » أى أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه « وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوىّ ؛ بلا اعوجاج ولا خديعة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ » أى لكم فى معاشكم لانتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة ومآلا ؛ إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة . ثم أمر تعالى برعاية القسطاس المعنوىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ، إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا)

[٣٧] (وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا)

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ » أى لاتتبعه فى قول أو فعل ، تسنده إلى سمع أو بصر أو عقل . من (قفا أثره) إذا تبعه .

قال الزمخشرىّ : والمراد النهى عن أن يقول الرجل مالايعلم ، وإن يعمل بما لايعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولًا ظاهراً ، لأنه اتباع لمالا يعلم صحته من فساده . انتهى.

ولا يخفى ما يندرج تحت هذه الآية من أنواع كثيرة . كمذاهب الجاهلية فى الإلهيات والتحريم والتحليل. وكشهادة الزور والقذف ورمى المحصنات الغافلات والكذب وماشا كلها « إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » أى كان صاحبها مسئولًا عما نسب إليها يوم القيامة . أو تُسأل نفس الأعضاء لتشهد على صاحبها .

قال المهايمىّ : قدم السمع ، لأن أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه . وأخر الفؤاد ، لأنه منتهى الحواس . ولم يذكر بقيتها لأنه لايخالفها قول أو فعل .

« وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً » أى مختالًا . أى مشية المعجب المتكبر. إذ لايفيدك قوة ولا علوًّا، كما قال سبحانه « إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ » أى لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك « وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا » أى لن تحاذيها بتطاولك ومدّ قامتك، كما يفعله المختال تكلفاً . وفى هذا تهكم بالمختال ، وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها .

قال الناصر : وفى هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية، كفاية فى الانزجار عنها. ولقد حفظ الله عوامّ زماننا عن هذه المشية . وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا . بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدّ طرفا من رياسة الدنيا ، إذا هو يتبختر فى مشيه ، ويترجع ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون . وماذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يُقرَأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل ، والله ولى التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

[٣٩] (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)

« كُلُّ ذَٰلِكَ » أى المنهىّ عنه من قوله (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ) إلى هذه الغاية « كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا » قال المهايمىّ : أما الشرك فلإخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك . وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه المخصوص بذى الكمال المطلق فهو فى معنى الشرك. وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية، أحوج ما يكون المرء إليها . ومنع الحقوق بالبخل تفريط . والتبذير والبسط إفراط . وهما مذمومان ، والذميم مكروه . والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها . والزنى وإتلاف مال اليتيم فى معناه . ونقض العهد مخلّ بنظام العالم . وكذا اقتفاء ما لا يعلم . والتكبر من خواص الحق. وعادة الملوك كراهة أن يأخذ أحد من خواصه شيئاً . « ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ » أى مما يحكم العقل بصحته ، وتصلح النفس بأسوته .

قال المهايمىّ : أى من العلم المحكم الذى لا يتغير بشبهة « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا

ءاخَرَ » كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه . وأنه رأس كل حكمة وملاكها . ومَنْ عَدِمَهُ لم ينفعه علومه وحكمه .

قال أبو السعود : وقد رتب عليه ما هو عائدة الإشراك أوّلًا حيث قيل (فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولًا) ورتب عليه ههنا نتيجته في العقبى فقيل « فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً » أي بالجهل العظيم « مَّدْحُورًا » أي مبعدا مطروداً من الرحمة . وفي إيراد الإلقاء، مبنيًّا للمفعول، جرى على سنن الكبرياء ، وازدراء بالمشرك وجعلٌ له ، من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه ، فيطرحها في التنور . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)

« أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً » .

خطاب للذين قالوا من مشركي العرب (الملائكة بنات الله) . والهمزة للإنكار . قال الزمخشريّ: والمعنى: أفخصكم ربكم، على وجه الخلوص والصفاء، بأفضل الأولاد وهم الذكور، ولم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ، بل تئدونهن وتقتلونهن . فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات . وقوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً) أي بإضافة الأولاد إليه ، وهي خاصة المحدثات . ثم بإيثاركم أنفسكم عليه ، حيث تجعلون له ما تكرهون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[٤٢] (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ » أى كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبينا فيه من كل مثل « لِيَذَّكَّرُواْ » أى ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم « وَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التصريف المذكور « إِلَّا نُفُورًا » أى عن الحق وبعدا عنـه ، الذى يقربه وجوه البيان . وقوله تعالى «قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا » أى قل لهؤلاء المشركين (الزاعمين أن لله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى) : لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرّب إليه وتشفع لديه، لـكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه . ولا حاجة لـكم إلى معبود يكون واسطة بينـكم وبينه . فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه . بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه . هذا ما اختاره ابن كثير ، وسبقه إليه ابن جرير .

وحاصله : أن السبيل بمعنى الوسيلة الموصلة إليه . وفيه إشارة إلى قياس اقترانىّ تقريره هكذا : لو كان كما زعمتم معه آلهة لتقربوا إليه . وكل من كان كذلك ليس إلهاً ، فهم ليسوا بآلهة . وقيل : معنى (لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا) أى لطلبوا إليـه سبيلا بالمغالبة والممانعة ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، على طريقة قوله تعالى(١): (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) وهذا الوجه قدمه الزمخشرىّ على الأول . وقال أبو السعود : إنه الأظهر الأنسب لقوله :

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

[٤٤] (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

« سُبْحَانَهُۥ » فإنه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم، من حيث لايحتسبون . وأما ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرب ، فليس مما يختص بهذا التقرير ، ولا هو مما يلزمهم من حيث لايشعرون. بل هو أمر يعتقدونه رأساً. انتهى . ومعنى (سُبْحَانَهُۥ) أى تنزه عن الولد والشريك تنزها حقيقاً به « وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » أى تعاظم عن ذلك تعاظماً كبيراً . فإن مثل هذه الفرية والبهتان ، ممـا يتنزه عنه مقامه الأسمى .

قال الشهاب: وذكرُ العلوّ ، بعدعنوانه بـ(ذى العرش) ، فى أعلى مراتب البلاغة. وقوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »أى تُنزّهُ الله، وتقدسُه وتجلُّه السمواتُ والأرضُ ومن فيهن من المخلوقات عما يصفه به المشركون. وتشهد جميعهاله بالوحدانية فى إلهيته وربوبيته ، كما قال(١) (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا) وقوله تعالى:(وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أى لأنها بخلاف لغاتكم .

قال ابن كثير : وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، على أشهر القولين . ثم استدل بما صح من تسبيح الطعام والحصا، مِمَّا خرج فى الصحيحين والمسانيد، مما هومشهور.

(١) [١٩ / مريم / ٩٠و٩١] .

واختاره الراغب فى (مفرداته) وقال : إنه تسبيح على الحقيقة بدلالة قوله : (وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ودلالة قوله : (وَمَن فِيهِنَّ) بعد ذكر السموات والأرض ، لا يصح أن يكون تقديره (يسبح له من فى السموات ويسجد له من فى الأرض) لأن هذا من نفقهه ، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره ، ثم يعطف عليه بقوله : (وَمَن فِيهِنَّ) والأشياء كلها تسبح له وتسجد بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار . والآية تدل على أن المذكورات تسبح باختيار ، لما ذكر من الدلالة . انتهى .

وذهب كثيرون إلى أن التسبيح المذكور مجازىّ ، على طريقة الاستعارة التمثيلية أو التبعية . كـ (نطقت الحال) . فإنه استعير فيه للتسبيح للدلالة على وجود فاعل قادر حكيم واجب الوجود منزه عن الولد والشريك ، كما يدل الأثر على مؤثره . فجعلت تلك الدلالة الحالية كأنها تنزيه له عما يخالفه .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

قالوا : والخطاب فى قوله تعالى (وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) للمشركين . أى لإخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم تسبيحهم . وقد بالغ فى رد القول الأول واختيار الثانى ، الإمام ابن حزم فى كتابه (الملل والنحل) ولا بأس بإيراده ، لما فيه من الغرائب .

قال رحمه الله فى الرد على من قال : (إن فى البهائم رسلًا) : إنما يخاطب الله تعالى بالحجة من يعقلها . قال الله تعالى[1] (يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ) وقد علمنا بضرورة الحس ؛ أن الله تعالى إنما خص بالنطق ـ الذى هو التصرف فى العلوم ومعرفة الأشياء على ما هى عليه ، والتصرف فى الصناعات على اختلافها ـ الإنسانَ خاصة . وأضفنا إليهم ، بالخبر الصادق ، الجن والملائكة . ثم قال رحمه الله وقد قاد السخف بعضهم إلى أن جعل للجمادات تمييزاً لمثل قوله تعالى (وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ) ونحوه من الآيات . ولا حجة لهم فيه .

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

لأن القرآن واجب أن يحمل على ظاهره ، كذلك كلام رسول الله ﷺ . ومن خالف ذلك كان عاصياً لله عز وجل ، مبدلاً لكلماته ، مالم يأت نص فى أحدها ، أو إجماع متيقن ، أو ضرورة حسّ على خلاف ظاهره ، فيوقف عند ذلك . ويكون من حمله على ظاهره حينئذ ناسباً الكذب إلى الله عز وجل ، أو كاذبا عليه وعلى نبيّه عليه السلام ، نعوذ بالله من كلا الوجهين .

وإذ قد بينا قبلُ بالبراهين الضرورية ؛ أن الحيوان (غير الإنس والجن والملائكة) . لانطق له . نعنى أنه لا تصرف له فى العلوم والصناعات . وكان هذا القول مشاهداً بالحس معلوما بالضرورة ، لاينكره إلا وقح مكابر لحسّه ، وبيّنا أن كل ما كان بخلاف التمييز المعهود عندنا ، فإنه ليس تمييزا . وكان هذا إيضاً يعلم بالضرورة والعيان والمشاهدة ـ فوجب أنه بخلاف ما يسمى فى الشريعة واللغة نطقاً وقولاً وتسبيحاً وسجودا . فقد وجب أنها أسماء مشتركة اتفقت ألفاظها . وأما معانيها فمختلفة ، لا يحل لأحد أن يحملها على غير هذا . لأنه إن فعل كان مخبرا أن الله تعالى قال ما يبطله العيان والعقل الذى به عرفنا الله تعالى ، ولولاه ما عرفناه .

فاللفظ مشترك والمعنى هو ما قام الدليل عليه . بيان ذلك : أن التسبيح عندنا إنما هو قول (سبحان الله وبحمده) وبالضرورة نعلم أن الحجارة والخشب والهوامّ والحشرات والألوان لاتقول (سبحان الله بالسين والباء والحاء والألف والنون واللام والهاء) هذا ما لا يشك فيه من له مسكة عقل . فإذ لا شك فى هذا ، فباليقين علمنا أن التسبيح الذى ذكره الله تعالى هو حق وهو معنى غير تسبيحنا نحن بلا شك . فإذ لا شك فى هذا فإن التسبيح فى أصل اللغة هو تنزيه الله تعالى عن السوء . فإذ قد صح هذا ، فإن كل شىء فى العالم بلا شك منزّه لله تعالى عن السوء الذى هو صفة الحدوث . وليس فى العالم شىء إلا وهو دالّ (بما فيه من دلائل الصنعة واقتضائه صانعاً لايشبهه) على أن الله تعالى منزه عن كل

سوء ونقص . وهذا هو الذى لا يفهمه ولا يفقهه كثير من الناس كما قال تعالى (وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فهذا هو تسبيح كل شيء بحمد الله تعالى بلا شك . وهذا المعنى حق لا ينكره موحد . فإن كان قولنا هذا متفقاً على صحته . وكانت الضرورة توجب أنه ليس هو التسبيح المعهود عندنا ، فقد ثبت قولنا وانتفى قول من خالفنا بظنه .

وأيضاً فإن الله تعالى يقول « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » والكافر الدهرىّ شيء لا يشك فى أنه شيء وهو لا يسبح بحمد الله تعالى البتة فصح ضرورة أن الكافر يسبح؛ إذ هو من جملة الأشياء التى تسبح بحمد الله تعالى . وإن تسبيحه ليس هو قوله (سبحان الله وبحمده) بلا شك . ولكن تنزيه الله تعالى بدلائل خلقه وتركيبه عن أن يكون الخالق مشبها لشيء مما خلق . وهذا يقينىّ لا شك فيه .

فصح بما ذكرنا أن لفظة (التسبيح) هى من الأسماء المشتركة ، وهى التى تقع على نوعين فصاعدا . انتهى كلامه .

ومحصله نفى أن يكون للجمادات تسبيح وتمييز بالمعنى الموجود فى الإنسان . وهو حق لاشبهة فيه ولا يسوغ لأحد إنكاره . إلا أنه لا ينفى أن يكون له تسبيح وفيه تمييز يناسبه . فيرجع الخلاف لفظيًّا . وقد وافق العلم الحديث الآن ـ كما قاله بعض الفضلاء ـ على أن فى الجماد أثراً من الحياة . وأن فيه جميع الصفات الجوهرية التى تميز الأحياء . وأن ما فيه فى الجواهر الفردة ودقائق المادة ليست ميتة ، بل هى عناصر حية متحركة لها صورة من صور الحياة الدنيا المشاهدة فى جميع أنواع المادة مثل الجذب والدفع ، والتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وتغير قوة التوازن ، وتجمع الدقائق على أشكال منتظمة ، طبقاً لتراكيب محدودة . وإفراز مركبات كيماوية مختلفة . وبالجملة ؛ فما يقوله العلم الجديد عن مشابهة الأجسام غير الحية للأجسام الحية يطابق تصورات الأقدمين والشعراء فى ذلك . انتهى .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا » أى حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، مع كفرهم وقصورهم فى النظر . ولو تابوا لغفر لهم ما كان منهم .

ثم مثل تعالى حالة المشركين مع التنزيل الكريم ، حينما يقرؤه عليهم الرسول، صلوات الله عليه ، يدعوهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك وغير ذلك من ضلالهم ، بمن طمس على بصيرته وبصره وسمعه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا)

« وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ » أى على هؤلاء المشركين « جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ » أى لا يصدقون بالبعث ولا يقرّون بالثواب والعقاب ، جزاء على الأعمال « حِجَابًا مَّسْتُورًا » أى من الجهل وعمى القلب . فيحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منّا لهم على كفرهم .

ومعنى كون الحجاب مستوراً ، أى عن العيون ، فلا تدركه أبصارهم . وعن الأخفش: إن (مفعولا) يرد بمعنى (فاعل) كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم . كما أن (فاعلا) يرد بمعنى (مفعول) كماء دافق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا)

« وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً » أى أغطية كثيرة ، جمع (كنان) «أَن يَفْقَهُوهُ» أى كراهة أن يفقهوه « وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا »أى صمماً يمنعهم من استماعه . وذلك ما يتغشاها من خذلان الله تعالى إياها ، عن فهم ما يتلى عليهم والإنصات له .

قال أبو السعود : هـذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الـكريم ، ومجّ أسماعهم له ، جيء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال ، إثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال . وإيذاناً بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه، إلا لمانع قويّ يعترى المشاعر فيبطلها . تنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق .

« وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ » أى غير مشفوع بذكره ذكر شيء من آلهتهم «وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا» أى هرباً من استماع التوحيد. قال القاشانيّ : لِتَشَتُّت أهوائهم ، وتفرق هممهم فى عبادة متعبداتهم ، من أصنام الجسمانيات والشهوات . فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالـكثرة واحتجابها بها . ثم أخبر تعالى عما يتناجى به المشركون، رؤساء قريش ، بقوله متوعدا لهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)

[٤٨] (ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ » أى بسببه أو لأجله من الهزء والاستخفاف واللغو « إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا» أى سُحِر ، فجُنَّ فاختلط كلامه « ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ » أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون « فَضَلُّوا۟ » أى عن الحق والهداية بك « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه . وأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى فلا يستطيعون سبيلًا إلى طعن يمكن أن يقبله أحد ، بل يخبطون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد . كالمتحير فى أمره لا يدرى ماذا يصنع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

[٥٠] (قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)

[٥١] (أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ، قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا)

[٥٢] (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا» وهو مابلى وتفتت «أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا* قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ » أى يعظم فى نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم فى زعمكم على الخالق إحياؤه . فإنه يحييكم ولا يعجزه بعثكم. فكيف ، إذا كنتم عظاماً مرفوتة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل ، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد « فَسَيَقُولُونَ » أى بعد لزوم الحجة عليهم « مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » أى يحركونها برفع وخفض ، تعجباً واستهزاءً « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ » أى ما ذكرته من الإعادة « قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ » أى يوم يبعثكم فتنبعثون . قال القاضى : استعار لهما الدعاء والاستجابة ، للتنبيه على سرعتهما وتيسر أمرها . وإن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء . انتهى.

وقيل : إنهما حقيقة كما فى آية[1] (يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) وفى قوله

---

(١) [٥٠ / قٓ / ٤١] .

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) وجوه للمعربين . ككونه بدلًا من (قريباً) على أنه ظرف . أو منصوب بـ (يكون) أو بمقدر كـ(اذكر) أو (تبعثون) . وقوله تعالى « بِحَمْدِهِ » أى وله الحمد على ما أحضركم للجزاء وتحقق وعده الصدق « وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » أى تستقصرون مدة لبثكم فى القبور والمضاجع . لذهولكم عن ذلك الزمان . أو فى الحياة الأولى ، لاستقصاركم إياها ، بالنسبة إلى الحياة الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا)

[٥٤] (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)

« وَقُل لِّعِبَادِى » أى الذين آمنوا معك . إرادة تقريب أصحابهم إلى الصواب ، كأمر البعث « يَقُولُواْ » فى النصيحة ، الكلمة « ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى فلا يخاشنوا أحدا ولا يغلظوا بالقول « إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ » أى يفسد ويهيج الشر والمراء ، لتقع بينهم المضارّة « إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِيناً » وقوله تعالى « رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ » خطاب لهؤلاء المشركين من قريش . أى إن يشأ يرحمكم فيتوب عليكم برحمته وتنيبوا إليه . وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان ، فتموتوا على الشرك فيعذبكم عليه يوم القيامة .

وقوله تعالى : « وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » أى موكولًا إليك إليك أمرهم . تقسرهم على الإيمان . وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً ، تبلغهم رسالاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا)

« وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه شىء فيهما . فهو أعلم بهؤلاء ضرورة . وفيه إشارة إلى رحمته تعالى ببعثة الرسل ، لحاجة الخلق إليها . وإلى مشيئته فيمن يصطفى لرسالته ، ويختار لنبوّته ، ويعلمه أهْلًا لها . وقوله تعالى :

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى لاقتضاء علمه وحكمته ذلك . فإنه أعلم بمن فى السموات والْأَرْضِ وأحوالهم . فآتى موسى التوراة وكلمه ، وعيسى الإنجيل وداود الزبور . فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد آتى محمداً القرآن ففضله به على الأنبياء كافة . وقوله تعالى «وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا» أى يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب، ففضلناه به . قيل: الآية ردٌّ عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبيًّا، دون من يعدّونه عظيماً بينهم فى الغنى والجاه. وذكر من فى السموات لإبطال قولهم[1] (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) وذكر من فى الأرض لرد قولهم[2] (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ). وتخصيص داود بالذكر ، إشارة لتفضيل النبىّ ﷺ ، كما دل عليه ما كتب فيه من[3] (أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ) ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه . وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه ، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم ، لا بالملك والمال ، كذا قالوا . والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن فى نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ مابلغ فى الحكمة والملك . وقد اختصه الله بهماوميزه الله على أهل عصره. وإذ كان ذلك اختصاصاً ربانيًّا ، فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب ، مَن علم أنه أرجحهم عقلا ، وأكملهم فضلًا ، لختم نبوته ، وهداية بريته، بمنهاجه وشرعته. وقوله تعالى:

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢١] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .
(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٠٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)

[٥٧] (أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

« قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا* أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » .

أى قل لهؤلاء المشركين ، الذين يعبدون من دون الله مِن خلقه ، ادعوا من زعمتموهم أربابا وآلهة من دونه ، عند ضر ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم آلهة ؟ أى فإنهم لايقدرون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى الطبرىّ[١] عن ابن عباس ؛ أن الآية عنى بها قوم مشركون، كانوا يعبدون المسيح وعزيراً والملائكة . فأخبرهم الله تعالى أن هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه . ويتقربون إليه بالأعمال. ونظير هذه الآية فى النهى عن أن يشرك به تعالى الملائكة والأنبياء، قوله سبحانه[٢] (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ* وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا،

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٣ / آل عمران / ٧٩و٨٠] .

أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) وفى قوله تعالى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُو وَيَخَافُونَ عَذَابَهُو) إشارة إلى أن العبادة لاتتم إلا بالرجاء والخوف. فبالرجاء تكثر الطاعات وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : (مَحْذُورًا) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من حلوله . عياذاً بالله منه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا)

« وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ، كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا » .

إخبار بأنه حَتَمَ وقَضَى ؛ أنه مامن قرية يتمرد أهلها على نبيّهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده . وذلك لذنوبهم وخطيئاتهم وعدم استجابتهم لنبيهم، كما قال تعالى(1): (وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ) وقال تعالى(2) (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) وقال تعالى(3) (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ...) الآيات وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ، وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)

« وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ » أى التى يقترحها قريش: « إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا

---

(١) [١١ / هود / ١٠١] . (٢) [٦٥ / الطلاق / ٩]. (٣) [٦٥ / الطلاق / ٨].

ٱلْأَوَّلُونَ » أى إلّا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم . كعاد وثمود . وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك . فاستوجبوا الاستئصال . على ما مضت به السنّة الإلٰهية . وقد قضينا أن لا نستأصلهم ، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة ، فقال : « وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ » أى أعطينا قوم صالح الناقة بسؤالهم « مُبْصِرَةً » أى بينة، تبصر الغيْرَ برهانَها « فَظَلَمُواْ بِهَا » أى فكفروا بها وظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم «وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفاً » أى وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً للناس، ليعلموا السنّة الإلٰهية مع العاتين، فيتذكروا ويتوبوا .

روى الإمام أحمد[1] عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبيّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحّى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم . قال : لا . بل استأنى بهم ، وأنزل الله قوله تعالى : « وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ ... » . الآية. ورواه النسائىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ » أى علما ، فلا يخفى عليه شىء من كفرهم

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) .

وتكذيبهم . ومنه ماجرى منهم ، إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة، من الجحود والهزء واللغو. كما قال سبحانه « وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ » قال الأكثرون : يعني مارآه النبيّ ﷺ ليلة الإسراء من الآيات. فلما ذكرها النبيّ ﷺ للناس، أنكر بعضهم ذلك وكذّبوا. وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً للمخلصين. فكانت فتنة، أي اختباراً وامتحاناً. وتمسك بهذا من جعل الإسراء مناما ، لكون الرؤيا مخصوصة بالمنام . وأجيب بأن قوله تعالى (إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) يرده. لأن رؤيا المنام لايفتتن بها أحد ولا يكذّب . وجاء في اللغة (الرؤيا بمعنى الرؤية مطلقاً) وهو معنى حقيقيّ لها . وقيل : إنها حقيقة في رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلًا . وقد ذكر السهيليّ؛ أنه ورد في كلام العرب بهذا المعنى . وأنه كالقربى والقربة. وقيل : إنه مجاز ، إما مشاكلة لتسميتهم له رؤيا ، أو جارٍ على زعمهم . أو على التشبيه بها لما فيها من خرق العادة . أو لوقوعها ليلًا . أو لسرعتها . أفاده الشهاب .

وروى الطبريّ(١) عن الحسن في الآية هذه ؛ قال : أسرى به صلى الله عليه وسلم عشاءً إلى بيت المقدس فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات . ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس . فقالوا له : يامحمد ! ما شأنك ؟ أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ؟ فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وقال قوم(٢) : الآية في رؤياه ﷺ التي رأى أنه يدخل مكة . فروى البريّ عن ابن عباس . قال : يقال: إن رسول الله ﷺ أُرِيَ أنه دخل مكة هو وأصحابه. وهو يومئذ بالمدينة. فعجل رسول الله ﷺ السير إلى مكة. قبل الأجل : فرده المشركون . فقالت أناس : قد رُدَّ رسول الله ﷺ ، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها. فكانت رجعتهُ فتنتَهم. وذلك عام الحديبية. ثم دخل مكة في العام المقبل. وأنزل الله عزّ وجل (لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ) ولا يقال : إن السورة مكية وقصة الحديبية بعد الهجرة ، لاحتمال أنه رأى تلك الرؤيا بمكة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٠ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

ونزلت عليه هذه الآية . ولكنه ذكرها عام الحديبية ، لأنه كان إذ ذاك بمكة . فعلم أن دخوله بعد خروجه منها . كذا قيل .

وذهب بعضهم إلى أن كثيراً من السور المكية ضم إليها آيات مدنية، كما فى (الإتقان). والطبرىّ رجح الأول وفاقاً للأكثر . وقد قدمنا مراراً ؛ أن السلف قد يريدون بقولهم : (نزلت الآية فى كذا)، أن لفظ الآية مما يشمل ذلك. لا أنه كان سبباً لنزوله حقيقة. وعليه، فلا إشكال .

وقوله تعالى «وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ» عطف على الرؤيا، والأكثرون على أنها شجرة الزقوم المذكورة فى سورة الصافات فى قوله تعالى[1] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ...) الآيات ، وفتنتهم فيها مارواه الطبرىّ[2] عن ابن عباس وقتادة ؛ أن أبا جهل قال : زعم صاحبكم هذا ـ يعنى النبىّ صلوات الله عليه أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر ! فكذبوا بذلك . وفى رواية ؛ أن أبا جهل قال : أيخوفنى بشجر الزقوم ؟ ثم دعا بتمر وزبد وجعل يأكل ويقول : تزقموا ، فما نعلم الزقوم غير هذا . والمراد بلعنها فى القرآن ، لعن طاعمها فيه ، على أنه مجاز فى الإسناد . أو الملعون بمعنى المؤذى لأنها تغلى فى البطون كغلى الحميم . فهو إما مجاز مرسل أو استعارة . وقوله تعالى « وَنُخَوِّفُهُمْ » أى بذلك وبنظائره من الآيات « فَمَا يَزِيدُهُمْ » أى التخويف « إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا » أى تمادياً فيما هم فيه من الضلال والكفر .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٦٢ـ٦٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٦٣ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال المهايمىّ : أى فلو أرسلنا إليهم الآيات المقترحة ، لقالوا إنه أجلّ مَن أحاط بأبواب السحر . فلا فائدة فى إرسالها سوى تعجيل العذاب الدنيوىّ . لـكنه ينافى إظهار دينه على الدين كله . ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان من اتباع الشيطان. وأنه وحزبه، لعتوهم وتمردهم عن الحق ، فى النار ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)

[٦٢] (قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا)

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ» أى تحية وتكريماً «فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» كما قال فى الآية الأخرى[١] (أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ) «قَالَ» أى جراءة على الرب وكفرًا به «أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ» أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته علىّ بأن أمرتنى بالسجود له، لِمَ كرمته علىّ ؟ أو المعنى : أخبرنى أهـذا الذى كرمته علىّ «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا» أى لأعمّنّهم وأهلكنّهم بالإغواء ، إلا المخلصين .

---

(١) [٣٨ / ص / ٧٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا)

[٦٤] (وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا)

[٦٥] (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)

« قَالَ ٱذْهَبْ » أي امض لشأنك الذي اخترته « فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا » أي جزاء مكملًا « وَٱسْتَفْزِزْ » أي استخف وأزعج « مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم » أي أن تستفزه فتخدعه « بِصَوْتِكَ » أي بدعائك إلى الفساد . وعبّر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ » أي صح عليهم . من الجلبة (بفتحات) وهي الصياح . و (الخيل) الخيالة أي ركبان الخيل مجازاً . وأصل معنى الخيل الأفراس . (والرّجل) اسم جمع للراجل وهو خلاف الفارس ، والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه ، بمغوار ـ بكسر الميم، الكثير الغارة وهي الحرب والنهب ـ أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم. وأجلب عليهم بجنده من خيالة حتى استأصلهم ـ أي فالكلام استعارة تمثيلية مركبة . استعير فيه المجموع والهيئة للمجموع والهيئة . ووجهه ما ذكره من استئصالهم وإهلاكهم ، أو غلبته وتسخيره لهم . وجوز أن يكون التجوز في المفردات تجوزا بصوته عن دعائه إلى الشر بالوسوسة . وبخيله ورجله عن كل راكب وماش من أهل العيث

والفساد بإغوائه . « وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ » أى بحمله إياهم على إنفاقها فى المعاصى وجمعها من حرام والتصرف فيها تحريماً وتحليلًا بما لا يرضى « وَٱلْأَوْلَٰدِ » أى بالتفاخر فيهم وتضليلهم بصبغهم غير صبغة الدين ، وَوَأْدِهِمْ ونحو ذلك مما يعصى الله بسببه « وَعِدْهُمْ » أى المواعيد الباطلة والأمانىّ الكاذبة من سلامة العاقبة ودوام الغلبة «وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا » وهو تزيين الباطل بزينة الحق « إِنَّ عِبَادِى » أى المخلصين « لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ » أى تسلط بالإغواء « وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا » أى كفيلا لهم يتوكلون عليه ولا يلجؤون فى أمورهم إلا إليه ، وهو كافيهم .

وقد أشار القاشانىّ إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف. وعبارته: تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام . لأن الاستعدادات متفاوتة . فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه . أى استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة . ومن كان قوىّ الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية، فليس له إلى إغوائه سبيل كما قال (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ) وإلا فإن كان منغمسا فى الشواغل الحسية ، غارزاً رأسه فى الأمور الدنيوية، شاركه فى أمواله وأولاده، بأن يحرّضه على إشراكهم بالله فى المحبة . بحبهم كحب الله . ويسوّل له التمتع بهم، والتكاثر والتفاخر بوجودهم . ويمنيه الأمانىّ الكاذبة . ويزين عليه الآمال الفارغة . وإن لم ينغمس ، فإن كان عالماً بصيراً بتسويلاته، أجلب عليه بخيله ورجله. أى مكر به بأنواع الحيل. وكاده بصنوف الفتن . وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش. وغره بالعلم وحمله على الإعجاب . وأمثال ذلك حتى يصير ممن أضله الله على علم . وإن لم يكن عالماً بل عابداً متنسكا، أغواه بالوعد والتمنية . وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون . انتهى.

ثم بين تعالى بعضاً من آيات وحدانيته وألوهيته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)

« رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ » أى يُسَيِّر لكم السفن فى البحر « لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ » أى من رزقه. والآية صريحة فى ركوب البحر للتجارة « إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » حيث سهل لكم أسباب ذلك .

قال أبو السعود : وهذا تذكير لبعض النعم التى هى من دلائل التوحيد ، وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضرّ ، تكملة لما مرّ من قوله (فَلَا يَمْلِكُونَ ...) الآية ، وذلك قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا)

« وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ » أى خوف الغرق « ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ » أى ذهب عن أوهامكم وَخَوَاطِرِكُمْ كل من تدعونه وتعبدونه ، إلّا إياه وحده . فإنكم لاتذكرون سواه . فطرةً فطر الله الخلق عليها .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوّه ، والمعاد وغيرها . وقوله تعالى : « فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ » أى من الغرق: « إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » أى عن التوحيد: « وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا » أى بأنعم الله . والجملة كالتعليل للإعراض. قال الشهاب : وفيه لطف ، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم . وذكر أن جنس

الإنسان مجبول على هذا . فلما أعرضوا أعرض الله عنهم . ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا)

[٦٩] (أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا)

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ » أى يغوّره بكم « أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » أى ريحاً ترمى بالحصباء يرجمكم بها ، فيكون أشدَّ عليكم من الغرق : « ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا » أى من يتوكل بصرف ذلك عنكم « أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ » أى يقوّى دواعيكم لركوب البحر « تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ ٱلرِّيحِ » أى ريحاً شديدة لاتمر بشىء إلا قصفته ، فتكسر السفينة وسط البحر « فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعاً » أى مطالباً بما فعلنا. مثل من يطالب على مُغْرِقٍ سوانا . وهذا كقوله(١) : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ » أى بالنطق والتميز والعقل والمعرفة والصورة والتسلط على مافى الأرض والتمتع به « وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » أى يسرنا لهم أسباب المعاش والمعاد

(٣) [٩١ / الشمس / ١٥] .

بالسير فى طلبها فيهما، وتحصيلها «وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ» أى فنون المستلذات التى لم يرزقها غيرهم من المخلوقات «وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» أى عظيما. فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم، بأن يعبدوا المتفضل بها وحده ويقيموا شرائعه وحدوده.

تنبيه :

ظاهر قوله تعالى (على كثير) أن ثمة من لم يفضل البشر عليه. قيل وهم الذوات المقدسة من الملإ الأعلى، أعنى الملائكة.

قال القاشانىّ : وأما أفضلية بعض الناس، كالأنبياء على الملائكة المقربين، فليست من جهة كونهم بنى آدم. بل من جهة السر المودع فيهم المشار إليه بقوله[1] : (إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلـٰهية التامة. وحينئذ ليس هو بهذا الاعتبار من بنى آدم كما قيل[2] :

وإنى وإن كنتُ ابنَ آدم صورةً ... فلى فيه معنى شاهدٌ بأُبُوَّتِى

وذهب قوم إلى تأويل (الكثير) بـ(الكل) كما أوِّل (القليل) بمعنى (العدم) فى قوله تعالى[3] : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) والمعنى : وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِمَّنْ خَلَقْنَا. أى جميع المخلوقات.

قال القاشانىّ : على أن تكون (من) للبيان والمبالغة فى تعظيمه، بوصف المفضل عليهم بالكثرة وتنكير الوصف وتقديمه على الموصوف. أى كثير وأى كثير، وهو جميع

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٠].

(٢) قائله عمر بن الفارض من تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك. ومطلعها :

سقتْنِى حُمَيَّا الحبِّ راحة مُقْلَتِى ... وكأسى محيَّا مَنْ عن الحسن جَلَّتِ

(٣) [٢ / البقرة / ٨٨].

مخلوقاتنا . لدلالة (مَن) على العموم . ولا يخفى أنه لا يلزم من تفضيل جنس على جنس آخر تفضيل كل فرد منه على كل فرد من الآخر . والمسألة معروفة فى كتب الكلام .

وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

[٧٢] (وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

« يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ » أى بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدّم فى الدين أو كتاب أو دين. فيقال : ياأتباع فلان ! ياأهل دين كذا وكتاب كذا وقيل : بكتاب أعمالهم. فيقال : ياأصحاب كتاب الخير! وياأصحاب كتاب الشر! قالوا: وفيه شرف لأصحاب الحديث . لأن إمامهم النبيّ ﷺ.

وقال القاشانىّ : أى نحضر كل طائفة من الأمم مع شاهدهم الذى يحضرهم ويتوجهون إليه ويعرفونه ، سواء كان صورة نبيّ آمنوا به ، أو إمام اقتدوا به ، أو دين أو كتاب ، أو ما شئت . على أن تكون (الباء) بمعنى (مع) . أو ننسبهم إلى إمامهم وندعوهم باسمه، لكونه هو الغالب عليهم وعلى أمرهم ، المستعلى محبتهم إياه على سائر محباتهم .

ورجح ابن كثير، رحمه الله، القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال، لقوله تعالى[(١)] (وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ) وقال تعالى[(٢)] (وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..)الآية، وقال تعالى[(٣)] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

---

(١) [٣٦/ يس /١٢] . (٢) [١٨ /الكهف/ ٤٩] ، (٣) [٤٥/ الجاثية٢٨ ، ٢٩].

وما رجحه رحمه الله هو الصواب . لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً . وأول ما ينبغى الاهتمام به فى معانى الآيات ، هو الرجوع إلى نظائرها . وقوله تعالى « فَمَنْ أُوتِيَ » أى من هؤلاء المدعوّين « كِتَـٰبَهُۥ » أى كتاب أعماله « بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ » أى فرحا وابتهاجاً بما فيه من العمل الصالح « وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » أى لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو ما فى شق النواة ، أو ما تفتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء . فإن الفتيل مثل فى القلة ، كقوله تعالى[1] (وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا) .

«وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا» أى ومن كان فى هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق ، فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا . لأن له فى هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها . وهو فى مقام الكسب باقى الاستعداد . ولم يبق هناك شيء من ذلك . قيل : العمى حقيقة فيمن لا يدرك المبصرات ، لفساد حاسته . مجازٌ فى عمى البصيرة ، وهو عدم الاهتداء إلى طريق النجاة . وقيل : هو حقيقة فيهما . وعليه جوز أن يكون (أعمى) الثانى أفعل تفضيل . لأنه من عمى القلب لا عمى البصر . ويجوز أن يصاغ من العيوب الباطنة أفعل تفضيل كالأحمق والأبله .

لطيفة :

قال الناصر : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى . أى فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذى يبصره ويقرؤه . ومن كان فى الدنيا أعمى غير مبصر فى نفسه، ولا ناظر فى معاده، فهو فى الآخرة كذلك ، غير مبصر فى كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان فى الدنيا ، على اختلاف التأويلين . وقوله تعالى :

---

(١) [١٩ / مريم / ٦٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ، وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا)

[٧٤] (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا)

«وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ، وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا» إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وتولى أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم فى ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه . ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذى ثبت قدمه فى مثل مقامه فى الدعوة إلى الله الذى لا يثبت فيه أحد غيره .

وقد روى أن ثقيفاً قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا ننحنى فى الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فإن خشيت أن يسمع العرب (لِمَ أَعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا) ؟ فقل : الله أمرنى بذلك .

وروى أن قريشاً قالوا : لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا. وقالوا أيضاً : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبرىّ : يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر . وأن تكون غير ذلك. ولا بيان فى الكتاب ولا فى خبر يقطع العذر أىّ ذلك كان . فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتى ما يجب التسليم له ، ببيان ما عنى بذلك منه .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك . ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد . والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك . ويصرفوك عن القرآن أى عن حكمه . وذلك لأن فى إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن . وقوله : (لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ) أى غير ما أوحينا إليك وهو قولهم : قُلِ ٱللَّهُ أَمَرَنِى بِذَٰلِكَ

(وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) أى لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك خليلًا ، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم ، وراض بشركهم . ثم قال (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ) أى على الحق بعصمتنا إياك (لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) أى تميل إليهم (شَيْـًٔا قَلِيلًا) وقوله (شَيْـًٔا) عبارة عن المصدر ، أى ركونا قليلا .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين) . ثم توعده فى ذلك أشد التوعد ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)

« إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ » أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، ودل على إضمار العذاب ، وصف العذاب بالضعف فى كثير من الآيات. كقوله تعالى[١] (رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ) وقال[٢] (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ) .

والسبب فى تضعيف العذاب ؛ أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر . فكانت ذنوبهم أعظم. فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر. ونظيره قوله تعالى[٣] (يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) .

تنبيهات :

الأول : قال القفال رحمه الله (بعد ذكره ما روى فى سبب نزولها مما قدمناه) : ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه . لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون :

(١) [٣٨ / ص ٦١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٣٨] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] .

إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك . فأنزل الله تعالى(١) : (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله(٢): (وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة . فأنزل الله تعالى(٣) (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله(٤) : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم) فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب . وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ، وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم . وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة فى تفسير هذه الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم .

الثانى : قال القاضى : معنى قوله تعالى : (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ . . .) الآية ، إنك كنت على صدد الركون إليهم ، لقوة خدعهم وشدة احتيالهم . لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون ، فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهمّ بإجابتهم ، مع قوة الداعى إليها . ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه .

الثالث : قال الزمخشرىّ : فى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بيّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته . وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن ، إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها . فهى جديرة بالتدبر . وبأن يستشعر الناظرُ فيها الخشيةَ وازدياد التصلب فى دين الله .

الرابع : جاء فى (حواشى جامع البيان) ما مثاله بالحرف : من الفوائد الجليلة فى هذه الآية ، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها، يوماً. فإنها شعائر

---

(١) [١٠٩ / الكافرون / ١ و ٢] . (٢) [٦٨ / القلم / ٩] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٤) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

الـكفر والشرك . وهى أعظم المنـكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت ، تعبـــد من دون الله . والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض ، مع القدرة على إزالته . وكثير منها بمنزلة اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، وأعظم شرك عندها وبها . فإن اللات ـ على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد ـ رجل كان يلتّ لهم السويق فمات . فعـكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه . ولم يقولوا إن اللات خلقت السموات والأرض . بل كان شركهم باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ، كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها والشرك بها والتمسح بها وتقبيلها واستلامها. وما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مجرد مسّ آلهتهم . كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا . وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة ، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم .: فالرزية كل الرزية ما ابتلى به القبوريون من أهل هـذا الزمان . فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام ، إلا فعلوه بالقبور . فإنا لله وإنا إليه راجعون . بل كثير منهم، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه، حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك . أو بمعتقدك الولىّ الفلانىّ تلكأ وأبى واعترف بالحق. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال (ثالث ثلاثة) فيا علماء الدين ! ويا ملوك المسلمين ! أىّ رزء للإسلام أشد من الـكفر؟ وأىّ بلاء لهذا الدين أضرّ عليه من عبادة غير الله ؟ وأىّ مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه ؟ وأىّ منـكر يجب إنـكاره إن لم يكن إنـكار هذا الشرك البيّن واجباً ؟ فاللهم ! انصر من نصر الحق واهدنا إلى سواء السبيل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٧٧] (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا)

« وَإِن كَادُوا » أى أهل مكة « لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ » أى ليزعجونك بمعاداتهم من مكة « لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ » أى ولو خرجت لايبقون بعد خروجك « إِلَّا قَلِيلًا » أى زماناً قليلًا « سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا » يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة الله أن يهلكهم . ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى سنَّ الله ذلك سنة « وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » أى تغييراً . ولا يخفى أن المراد بعدم لبثهم ، إهلاكهم . سواء كان بالاستئصال، أوْ لا . قال ابن كثير : وكذلك وقع . فإنه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعد ما اشتد أذاهم له ، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد . فأمكنه منهم ، وسلطه عليهم ، وأظفره بهم . فقتل أشرافهم وسبى سراتهم . ولهذا قال تعالى (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم . يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب . ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة ، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به . كما قال تعالى(١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) .

وقوله تعالى :

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ، إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

« أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » لما ذكر تعالى ، قبلُ ، كيد المشركين وكيدودتهم استفزازه من الأرض ، أمره بأن يستعين بإقامة الصلوات والإقبال على عبادته تعالى ، والابتهال إليه على دفع كيدهم ومكرهم ، وتأييده عليهم . ونظيره قوله تعالى[١] (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ) وقوله[٢] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وقوله[٣] (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ) هـذا من حيث نظم الآية مع ما قبلها . وأما معناها ، فقوله (لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ) أى لزوالها . قال ابن تيمية : الدلوك الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب . واللام للتأقيت . أى بيان الوقت بمعنى (بعد) وتكون بمعنى (عند) أيضا . وقيل : للتعليل . لأن دخول الوقت سبب لوجوب الصلاة . وأما (غَسَقِ ٱلَّيْلِ) ، فهو اجتماع الليل وظلمته . وأما (قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ) . فهو صلاة الصبح . سميت قرآناً لأنه ركنها . كما سميت ركوعًا وسجودًا . فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهمّ . فيدل على وجوب القراءة فيها صريحاً ، وفى غيرها بدلالة النص والقياس . ومعنى (مَشْهُودًا) يشهده ملائكة الليل والنهار . ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء . فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة ! ومن حقه أن يكون مشهودًا بالجماعة الكثيرة . والأكثرون على أن قوله تعالى (وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ)

---

(١) [١٥ / الحجر / ٩٧ و ٩٨] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٠] .
(٣) [٢ / البقرة / ٤٥] .

منصوب بالعطف على (الصلاة) أى : وأقم صلاة الفجر . وجوّز بعض النحاة نصبه على الإغراء . أى : وعليك قرآن الفجر أو الزم .

تنبيهات :

الأول : هـذه الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها ، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر تناولا واحداً . وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء تناولا واحداً . وقرآن الفجر هى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر . قيل : هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركا بين الظهر والعصر . والغسق مشتركا بين المغرب والعشاء. فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين، وكذا بين الأخيرين . فالجواب: هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها. وأما فى غيرها فلا. وذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها ، إلا بعذر . قال الحافظ ابن كثير : قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفا عن سلف ، وقرنا بعد قرن ، كما هو مقرر فى مواضعه .

وقال العلامة أبو السعود : ليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار ، بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام . كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام. ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها ، لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة . فبعضها متصل ببعض، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ، ينقطع أحدهما عن الآخر . ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . انتهى.

والظاهر أن مستند من جوز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية ، مع أثر ابن عباس .

جاء فى (رحمة الأمة) ما مثاله :وعن ابن سيرين أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة . مالم يتخذه عادة. واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر ولا مرض . انتهى .

وقد روى الشيخان[١] وغيرهما عن ابن عباس قال: صلى النبيّ ﷺ بالمدينة سبعا وثمانيا: الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء .

ومن رواية لمسلم : صلى الظهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً ، من غير خوف ولا سفر . وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة . والمسألة شهيرة .

الثاني : قلنا إن هذه الآية إحدى الآيات التي جمعت الصلوات الخمس، ومنها قوله تعالى[٢]: (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ) فالطرف الأول صلاة الفجر فإن صلاة الفجر فى النهار . فإن الصائم يصوم النهار . وهو يصوم من طلوع الفجر. والوتر تصلى بالليل وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم[٣]: صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة. وإذا قيل : نصف النهار ، فالمراد به النهار المبتدئ من طلوع الشمس . فهذا فى هذا الموضوع ، ولفظ (النهار) يراد به من طلوع الفجر ، ويراد به من طلوع الشمس . لكن قوله (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ) أريد به من طلوع الفجر بلا ريب ، لأن ما بعد طلوع الشمس ليس على المسلمين فيه صلاة واجبة ، بل ولا مستحبة . بل الصلاة فى أول الطلوع منهيٌّ عنها حتى ترتفع الشمس . وهل تستحب الصلاة لوقت الضحى أولا تستحب إلا لأمر عارض ؟ فيه نزاع ليس هذا موضعه . فعلم أنه أراد بالطرف الأول من طلوع الفجر . وأما الطرف الثانى

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٢ ـ باب تأخير الظهر إلى العصر ، حديث رقم ٣٥٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا).

(٢) [١١ / هود / ١١٤] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى: ١٩ ـ كتاب التهجد، ١٠ ـ باب كيف كان صلاة النبيّ ﷺ، حديث رقم ٣١٤ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا).

فمن الزوال إلى الغروب . فجعل الصلاة فى هذا الوقت صلاة فى الطرف الثانى وأشرك بينهما فيه . ثم قال (وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ) فأجمل المغرب والعشاء فى (زلف من الليل) . وهى ساعات من الليل . فالمواقيت هنا ثلاثة .

وقال تعالى[1] (لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ) فذكر الفجر وذكر الظهر وذكر صلاة العشاء . فمن الظهيرة إلى ما بعد صلاة العشاء وقتان للصلاة . وقد ذكر الأول من هذا الوقت والآخر من هذا الوقت .

وقد دل على المواقيت فى آيات أخر كقوله تعالى[2] (فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) فتبين أن له التسبيح والحمد فى السموات والأرض ، حين المساء وحين الصباح وعشيًّا وحين الإظهار . فالمساء يتناول المغرب والعشاء ، والصباح يتناول الفجر ، والعشىّ يتناول العصر . والإظهار يتناول الظهر .

وقال تعالى[3] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) وفى الآية الأخرى[4] : (قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ) فقبل طلوع الشمس هى صلاة الفجر . وقبل غروبها هى العصر . وبذلك فسّرها النبىّ ﷺ فى الحديث[5] المتفق على صحته عن جرير بن عبدالله قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال:

(١) [٢٤/ النور/ ٥٨] . (٢) [٣٠/ الروم/ ١٧و١٨] . (٣) [٢٠ / طه / ١٣٠] .
(٤) [٥٠ / قٓ / ٣٩و٤٠] . (٥) أخرجه البخارىّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ ـ باب فضل صلاة العصر ، حديث ٣٥٨ .
وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٢١١ (طبعتنا) .

(إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا).وقوله تعالى (وَمِنَ ٱلَّيْلِ) (وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ) مطلق فى آناء الليل ، يتناول المغرب والعشاء . أفاد ذلك تقىّ الدين ابن تيمية فى فتواه فى (المواقيت الكبرى) .

الثالث : هذه الآية من الآيات التى أمر تعالى فيها بإقامة الصلاة لوقتها . قال ابن تيمية ، عليه الرحمة ، فى فتواه المتقدمة : وقت الصلاة وقتان . وقت الرفاهية والاختيار . ووقت الحاجة والعذر . فالوقت فى حال الرفاهية خمسة أوقات كما فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] (وقت الظهر ما لم يصر ظل كل شىء مثله . ووقت العصر ما لم تصفرّ الشمس . ووقت المغرب ما لم يغب نور الشفق . ووقت العشاء إلى نصف الليل . ووقت الفجر ما لم تطلع الشمس) . وقد روى هذا الحديث من حديث أبى هريرة فى السنن . ولم يرو عن النبى صلى الله عليه وسلم فى المواقيت حديث من قوله إلا هذا. وسائر ماروى فعل منه ، والأحاديث الصحيحة المتأخرة من فعله توافق هذا الحديث . ولهذا ما فى هذا الحديث من المواقيت هو الصحيح عند الفقهاء العارفين بالحديث . والنزاع بين العلماء فى آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر وآخره ، وآخر وقت المغرب ، وآخر وقت العشاء وآخر وقت الفجر . فالجماهير من السلف والخلف من فقهاء الحديث وأهل الحجاز ، وقت الظهر عندهم من الزوال إلى أن يصير ظل كل شىء مثله . سوى الفىء الذى زالت عليه الشمس ، وهذا مذهب مالك والشافعىّ وأحمد وأبى يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفة: إلى أن يصير ظلّ كل شىء مثليه ، ثم يدخل وقت العصر عند الجمهور . وعند أبى حنيفة إنما يدخل إذا صار ظل كل شىء مثليه ، ونقل عنه ، أن ما بين المثل إلى المثلين ليس وقتاً لا للظهر ولا

(١) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٣ (طبعتنا) .

للعصر . وعلى قول الجمهور ، فهل آخر هذا أول هذا أو بينهما قدر أربع ركعات مشترك ؟ فيه نزاع . فالجمهور على الأول ، والثانى منقول عن مالك . وإذا صار ظل كل شيء مثليه ، خرج وقت العصر فى إحدى الروايتين عن أحمد. وهو منقول عن مالك والشافعىّ مع خلاف فى مذهبهما . والصحيح أن وقتها ممتد بلا كراهة إلى اصفرار الشمس . وهو الرواية الثانية عن أحمد . كما نطق به حديث عبد الله بن عمرو[1] ، مما عمل به النبي ﷺ بالمدينة ، بعد عمله بمكة . وهذا قول أبى يوسف ومحمد . فلم يكن للعصر وقت متفق عليه . ولكن الصواب المقطوع به ، الذى تواترت به السنن واتفق عليه الجماهير ؛ أن وقتها يدخل إذا صار ظل كل شيء مثله . وليس مع القول الآخر نقل عن النبيّ ﷺ ، لاصحيح ولا ضعيف . ولكن الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة ، لمَّا اعتادوا تأخير الصلاة ، واشتهر ذلك ، صار يظن من يظن أنه السنة . وقد احتج له بالمثل المضروب للمسلمين وأهل الكتاب . ولا حجة فيه لاتفاق أهل الحساب على أن وقت الظهر أطول من وقت العصر ، الذى أوّله إذا صار ظل كل شيء مثليه .

وأما أوقات الحاجة والعذر فهى ثلاثة: من الزوال إلى الغروب. ومن الغروب إلى الفجر. ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فالأول وقت الظهر والعصر عند العذر . واتسع فيها وفيهما من وجهين : أحدها تقديم العصر إلى وقت الظهر ، كما قدمها النبيّ ﷺ يوم عرفة . وكما كان يقدمها فى سفرة تبوك . إذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس . وتقديم العشاء إلى المغرب فى المطر. فهذا جمع تقديم. والثانى جمع تأخير، العصر فيها إلى الغروب. لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح :[2] من أدرك ركعة من الفجر قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الفجر. ومن أدرك

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٣٩٦٣ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٨ ـ باب من أدرك من ركعة ، حديث رقم ٣٦٠ (عن أبى هريرة) . وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٥ (طبعتنا) .

ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر . مع قوله ﷺ فى الحديث الصحيح[١] : (وقت العصر مالم تصفرّ الشمس) . وأنه لم يؤخر الصلاة قط إلى الاصفرار . ويوم الخندق كان التأخير إلى بعد الغروب . وهو منسوخ فى أشهر قولى العلماء بقوله تعالى[٢] ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ وهذا مذهب مالك والشافعىّ ، وأحمد فى أشهر الروايتين عنه. وقيل : يخير حال القتال فى التأخير والصلاة فى الوقت بحسب الإمكان . وهو الرواية الأخرى عنه . وقيل: بل يؤخرها . وهو قول أبى حنيفة أيضاً. ففى الحديث الصحيح[٣] عنه ﷺ أنه قال (تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان ، قام فنقر أربعا ، لايذكر الله فيها إلا قليلا) فوصف صلاة المنافق بالتأخير إلى حين الغروب والنقر . فدل على المنع من هذا وهذا . فلما قال ﷺ هذا وهذا ، علم أن الوقت وقتان . فمن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك مطلقاً . وليس له أن يؤخر إلى ذلك الوقت ، مع إمكان الصلاة قبله. بخلاف من لا يمكنه الصلاة قبل ذلك . كالحائض إذا طهرت . والمجنون يفيق. والنائم يستيقظ . والناسى يذكر . ودل تقديم العصر يوم عرفة على أنها تفعل فى موضع مع الظهر عقيب الزوال . ودل هـذا الحديث على أنهـا يُدرك وقتها بإدراك ركعة منها قبل الغروب . مع أنه بيّن بقوله وفعله ؛ أن وقتها إذا صار ظل كل شىء مثله . ما لم تصفر الشمس . فدل ذلك على أن هذا الوقت المختص بها ، وقت مع التمكن والرفاهية . ليس لأحد أن يؤخرها عنه ولا يقدمها عليه . وقد عرف من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وأبى هريرة وابن عباس ؛ أنهم قالوا : (فى الحائض إذا طهرت قبل غروب الشمس) : تصلى الظهر والعصر . وإذا طهرت قبل طلوع الفجر ، صلت

---

(١) انظر الحاشية رقم (١) صفحة ٣٩٦٣ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٣٨] . (٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩٥ (طبعتنا) عن أنس .

المغرب والعشاء . ولم يعرف عن صحابيّ خلاف ذلك . وبذلك أخذ الجمهور كمالك والشافعيّ وأحمد . وهذا مما يدل على أنه كان الصحابة ترى أن الليل عند العذر مشترك بين المغرب والعشاء إلى الفجر . والنصف الثانى عند العذر مشترك بين الظهر والعصر من الزوال إلى الغروب . كما دل على ذلك السنة والقرآن ـ يعنى الآية المذكورة وأمثالها مما سقناه قبل ـ والذين ينازعون الجمهور فى الوقت المشترك ، ويقولون ليس لكل منهما إلا وقت يخصها ، يقولون : الفرض إنما ثبت بالقرآن . والقرآن أوجب مطلق الذكر فى قوله[1] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ) فلا موجب لخصوص التكبير عندهم . بل مطلق الذكر . وإن كان النبيّ ﷺ لم يصلّ قط إلا بتكبير . ولا أحد من خلفائه ولا أحد من أئمة المسلمين ولا آحادهم المعروفين يُعْرَف أنه صلى إلا بتكبير . ومع هذا فيجوزونه بمطلق الذكر . لأن القرآن مطلق فى الذكر . فيقال لهم : القرآن مطلق فى آناء الليل وفى غسق الليل . ومطلق فى الطرف الأول وفى الطرف الثانى ، فدل على جواز الصلاة فى هذا وهذا ، لو قُدّر أن النبيّ ﷺ داوم على التفريق ، فكيف إذا ثبت عنه أنه جمع بينهما فى الوقت غير مرة؟ وكذلك يقولون : قوله تعالى[2] (ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ)مطلق. فهو الفرض. والطمأنينة إنما جاء بها خبرُ واحدٍ . فيفيد الوجوب دون الفرضية . وكذلك يقولون فى الفاتحة : إن القرآن مطلق فى إيجاب قراءة ماتيسر منه، مع أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده لم يصلّوا إلا بالفاتحة . ومع قوله: (لا صلاة إلا بأمّ القرآن)[3] . و(إن كل صلاة لم يقرأ فيها

---

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٤] . (٢) [٢٢ / الحج / ٧٧] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها ، حديث رقم ٤٦٠ (عن عُبَادة بن الصامت) .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعتنا) .

بأمّ القرآن فهى خداج . فهى خداج . فهى خداج)[١] . ويقولون : هذا يفيد الوجوب دون الفرضية . أو هذا خبرُ واحدٍ فلا يقيد به مطلق القرآن . ومعلوم أن القرآن مطلق فى الوقت المشترك أعظم من هذا ، وليس معهم عن النبىّ ﷺ ما يوجب فعل كل واحدة من الأربع فى الوقت الخاص إلا فعله المتواتر ، وقوله الذى هو من أخبار الآحاد . مع مافيه من الإجمال، كقوله[٢] لمّا بين المواقيت الخمسة (الوقت ما بين هذين) وقوله[٣] (ما بين هذين وقت) دلالته على وجوب الصلاة فى هـذا الوقت دون دلالة قوله : (لا صلاة إلّا بأمّ الـكتاب) وقوله (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الـكتاب فهى خداج) وكذلك قوله[٤] ﷺ فى الحديث الصحيح (سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها . فصلوا الصلاة لوقتها. ثم اجعلوا صلاتـكم معهم نافلة) ولهذا احتج أحمد على وجوب فعلها فى الوقت عند الرفاهية بقوله ﷺ (فصلوا الصلاة لوقتها) وهو الوقت الذى بيّنه لهم. والأمراء لم يكونوا يؤخرون صلاة النهار إلى الليل ، ولا صلاة الليل إلى النهار . وإنمـــا كانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر والعصر إلى آخر النهار . ودل هذا على أن من فعل هذا لم يقاتل . لأنهم سألوه عن الأمراء ، أنقاتلهم ؟ قال : (لا . ما صلوا) وهذه كانت صلاتهم . ودل على أن هذه الصلاة لا تجوز بحال ، وتفويت يوم الخندق منسوخ . وأما الجمع بينهما فى الوقت المشترك فهو ثابت بالسنة فى مواضع متعددة . وبعضها مما أجمع عليه المسلمون ، والآثار المشهورة عن الصحابة تبيّن أن الوقت المشترك وقت فى حال العذر . كقول عمر بن الخطاب (الجمع بين

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٤٠ و ٤١ (طبعتنا) عن أبى هريرة.

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٨ (طبعتنا). عن أبى موسى . (٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١٧٧ (طبعتنا) عن بُرَيدة . (٤) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٣٩ (طبعتنا) عن أبى ذرّ .

الصلاتين ، من غير عذر ، من الكبائر) فدل على أن الجمع بينهما للعذر جائز. وقال عبدالرحمن ابن عوف وابن عباس وأبو هريرة (فيمن طهرت فى آخر النهار): إنها تصلى الظهر والعصر. (وفيمن طهرت فى آخر الليل) : إنها تصلى المغرب والعشاء. وهو قول الثلاثة: مالك والشافعيّ وأحمد ، وأما التفويت فلا يجوز بحال . فمن جوز التفويت فى بعض الصور ، فقوله ضعيف ، وإن جوز الجمع . وأما من أوجب التفويت ومنع الجمع، فقد جمع فى قوله بين أصلين ضعيفين: بين إباحة ماحرمه الله ورسوله ، وتحريمه ما شرعه الله ورسوله . فإنه قد ثبت أن الجمع خير من التفويت . فهذا الأصل ينظم كثيراً من المواقيت . وتفويت العصر إلى حين الاصفرار ، وتفويت العشاء إلى النصف الثانى أيضا ، لايجوز إلا لضرورة ، والجمع بين الصلاتين خير من الصلاة فى هذا الوقت ، بل الصلاة بالتيمم قبل دخول وقت الضرورة خير من الصلاة بالوضوء فى وقت الضرورة . وقد نص على ذلك الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره . وقالوا : لايجوز تأخيرها إلى الاصفرار . بل إذا لم يجد الماء إلا فيه ، فإنه يصلى بالتيمم قبل الاصفرار ، ولا يصليها حين الاصفرار بالوضوء . انتهى كلامه عليه الرحمة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ » أمرٌ له بصلاة الليل ، إثر أمره بالصلوات الخمس . وفى « مِنْ » وجهان : أحدهما أنها متعلقة بـ (تهجد) أى تهجد بالقرآن بعض الليل . والثانى أنها متعلقة بمحذوف عطف عليه (فتهجد) . أى قم من الليل أى فى بعضه فتهجد بالقرآن . والتهجد ترك الهجود وهو النوم، و(تفعّل) يأتى للسلب كـ(تأثّم وتحرّج)، بمعنى ترك الإثم والحرج . قال الأزهريّ : المعروف فى كلام العرب أن الهاجد النائم . وأما المتهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له (متهجد) لإلقائه الهجود عن نفسه. كما يقال للعابد (متحنث) لإلقائه الحنث عن نفسه . انتهى .

ونقل عن ابن فارس . أن معناه صلّ ليلا . وكذا عن ابن الأعرابيّ قال : هجد الرجل وتهجد ، إذا صلى بالليل . والمعروف الأول . والضمير فى (به) للقرآن من حيث هو ، لا بقيد إضافته إلى الفجر ، أو للبعض المفهوم من (من) والباء بمعنى (فى) أى تهجد فى ذلك البعض . وقوله تعالى (نَافِلَةً لَّكَ) أى عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس .

قال الزمخشريّ : وضع (نافلة) موضع (تهجدا) لأن التهجد عبادة زائدة . فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة ، فريضة عليك خاصة دون غيرك . لأنه تطوع لهم . انتهى .

قال أبو السعود : ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر ، مع تقدم وقتها على وقتها .

وقوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا » أى يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه . وهو مطلق فى كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات . والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى، للفصل بين الخلائق الذى يحمده فيه الأولون والآخرون . كما وردت به الأخبار الصحيحة[1] . ومعنى النظم الكريم على هذا : كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الأصغر ، بالصلاة والعبادة ، فسيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر ، مقامًا محمودًا ، عندك وعند جميع الناس . وفيه تهوين لمشقة قيام الليل . أشار له أبو السعود .

تنبيه :

قال ابن جرير[2] ذهب آخرون إلى أن ذلك المقام المحمود ، الذى وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبعثه إياه ، هو أن يجلسه معه على عرشه ، رواه ليث عن مجاهد . وقد شنع الواحدىّ على القائل به ، مع أنه رواه عن ابن مسعود أيضاً وعبارته ـ على ما نقلها الرازىّ ـ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٧ ـ سورة الإسراء ، حديث رقم ٧٨٧ ، عن ابن عمر .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وهذا قول رذل موحش فظيع ، ونص الـكتاب ينادى بفسادهذا التفسير ويدل عليه وجوه:

الأول أن البعث ضد الإجلاس ، يقال : بعثت النازل والقاعد فانبعث . ويقال : بعث الله الميت ، أى أقامه من قبره . فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد .

الثانى أنه تعالى قال (مَقَامًا مَّحْمُودًا) ولم يقل مقعداً . والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الثالث لو كان تعالى جالساً على العرش ، بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام ، لـكان محدوداً متناهياً . ومن كان كذلك فهو محدث .

الرابع يقال : إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز ، لأن هؤلاء الجهال والحمق يقولون (فى كل أهل الجنة) : إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وإذا كانت هـذه الحالة حاصلة عندهم لـكل المؤمنين ، لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة .

الخامس أنه إذا قيل: السلطان بعث فلانا ، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم. ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . فثبت أن هذا القول كلام رذل سقط ، لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين . انتهى كلام الواحدىّ .

وليته اطلع على ما كتبه ابن جرير[١] حتى يمسك من جماح يراعه ويبصر الأدب مع السلف مع المخارج العلمية لهم . وهاك ما قاله ابن جرير رحمه الله (بعد ما نقل عن مجاهد قوله المتقدم):

وأولى القولين بالصواب ، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه مقام الشفاعة ـ ثم قال ـ وهـــذا وإن كان هو الصحيح فى القول ، فى تأويل المقام المحمود ، لمـا ذكرنا من الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين . فإن ماقاله مجاهد من أن الله يقعد محمداً صلى الله عليه وسلم على عرشه ، قول غير مدفوع صحته . لا من جهة خبر ولا نظر . وذلك لأنه لا خبر

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الخامس عشر من تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبيّ الثانية).

عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أحد من أصحابه ، ولا عن التابعين ، بإحالة ذلك . فأما من جهة النظر فإن جميع من ينتحل الإسلام إنما اختلفوا فى معنى ذلك على أوجه ثلاثة : فقالت فرقة منهم: الله عز وجل وجل بائن من خلقه، كان قبل خلقه الأشياء، ثم خلق الأشياء فلم يماسّها، وهو كما لم يزل ، غير أن الأشياء التى خلقها ، إذا لم يكن هو لها مماسًّا ، وجب أن يكون لها مباينا. إذ لا فعّال للأشياء إلا وهو مماس للأجسام أو مباين لها، قالوا: فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله عز وجل فاعل الأشياء ، ولم يجز فى قولهم أنه يوصف بأنه مماس للأشياء ، وجب بزعمهم أنه لها مباين ـ فعلى مذهب هؤلاء سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على الأرض ، (إذ كان من قولهم إن بينونته من عرشه وبينونته من أرضه بمعنى واحد، فى أنه بائن منهما كليهما، غير مماس لواحد منهما) وقالت فرقة أخرى: كان الله تعالى ذكره قبل خلقه الأشياء، لا شىء يماسه ولا شىء يباينه ، ثم خلق الأشياء فأقامها بقدرته وهو كما لم يزل قبل خلقه الأشياء لا شىء يماسه ولا شىء يباينه . فعلى قول هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً ﷺ على عرشه أو على أرضه (إذ كان سواء على قولهم . عرشه وأرضه ، فى أنه لا مماس ولا مباين لهذا ، كما أنه لا مماس ولا مباين لهذه) .

وقالت فرقة أخرى: كان الله عز ذكره قبل خلقه الأشياء لا شىء يماسه ولا شىء يباينه. ثم أحدث الأشياء وخلقها، فخلق لنفسه عرشاً استوى عليه جالساً وصار له مماسًّا، كما أنه قد كان قبل خلقه الأشياء لا شىء يرزقه رزقاً ولا شىء يحرمه ذلك. ثم خلق الأشياء فرزق هذا وحرم هذا وأعطى هذا ومنع هذا . قالوا: فكذلك كان قبل خلقه الأشياء، لا شىء يماسه ولا يباينه. وخلق الأشياء فماسّ العرش بجلوسه عليه دون سائر خلقه. فهو مماسّ ماشاء من خلقه ومباين ماشاء منه: فعلى مذهب هؤلاء أيضاً سواء أقعد محمداً على عرشه أو أقعده على منبر من نور ، إذ كان من قولهم: أن جلوس الرب على عرشه ليس بجلوس يشغل جميع العرش، ولا فى إقعاد محمد ﷺ موجباً له صفة الربوبية ، ولا مخرجه من صفة العبودية لربه . كما أن مباينة محمد ﷺ ما كان

مباينا له من الأشياء ، غير موجبة له صفة الربوبية ولا مخرجته من صفة العبودية لربه . من أجل أنه موصوف بأنه مباين له ، كما أن الله عز وجل موصوف ـ على قول قائل هذه المقالة ـ بأنه مباين لها . هو مباين له . قالوا : فإذا كان معنى (مباين ومباين) لا يوجب لمحمد ﷺ الخروج من صفة العبودية ، والدخول فى معنى الربوبية ، فكذلك لا يوجب له ذلك قعوده على عرش الرحمن . فقد تبين إذاً بما قلنا أنه غير محال فى قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد ، من أن الله تبارك وتعالى يقعد محمداً على عرشه ، فإن قال قائل : فإنا لا ننكر إقعاد الله محمداً على عرشه، وإنما ننكر إقعاده معه «حدثنى» عباس بن عبد العظيم قال : حدثنا يحي ابن كثير عن الجريرى ، عن سيف السدوسىّ عن عبد الله بن سلام قال ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، على كرسى الرب ، بين يدى الرب تبارك وتعالى . وإنما ينكر إقعاده إياه معه قيل : أفجائز عندك أن يُقعده عليه لا معه ؟ فإن أجاز ذلك صار إلى الإقرار بأنه إما معه أو إلى أنه يقعده ، والله للعرش مباين ، أَوْلا مماسّ ولا مباين ، وبأىّ ذلك قال ، كان منه دخولًا فى بعض ما كان ينكره . وإن قال : ذلك غير جائز منه ، خروجاً من قول جميع الفرق التى حكينا قولهم ، وذلك فراق لقول جميع من ينتحل الإسلام : إذ كان لا قول فى ذلك إلا الأقوال الثلاثة التى حكيناها . وغير محال فى قول منها ما قال مجاهد فى ذلك . انتهى كلام ابن جرير رحمه الله .

وأقول : لك أن تجيب أيضا عن إيرادات الواحدىّ الخمسة ، التى أفسد بها قول مجاهد . أما جواب إيراده الأول ، فإن مجاهدا لم يفسر مادة البعث وحدها بالإجلاس . وإنما فسر بعثه المقام المحمود بما ذكر .

وعن الثانى : بأن المقام هو المنزلة والقدرة والرفعة ، معروف ذلك فى اللغة .

وعن الثالث : بدفع اللازم المذكور ، لأنه كما اتفق على أن له ذاتا لا تماثلها الذوات ، فكذلك كل ما يوصف به مما ورد فى الكتاب والآثار ، فإنه لا يماثل الصفات . ولا يجوز قياس الخالق على المخلوق .

وعن الرابع : بأنه مكابرة . إذ كل أحد يعرف ـ فى الشاهد ـ لو أن ملكاً استدعى جماعة للحضور لديه ، ورفع أفضلهم على عرشه ، أن المرفوع ذو مقام يفوق به الكل .

وعن الخامس : بأنه من واد آخر غير ما نحن فيه ، إذ لا بعث لإصلاح المهمات فى الآخرة ، وإنما معنى الآية : إنه يرفعك مقاماً محموداً . وذلك يصدق على ما قاله مجاهد . وما قاله الأكثر . فتأمل وأنصف . وقد أنشد الحافظ الذهبيّ فى كتابه (العلوّ لله العظيم) للإمام الدارقطنيّ فى ترجمته ، قولَه :

حديث الشفاعة فى أحمدٍ ... إلى أحمدِ المصطفى نُسْنِدُهْ
وأما حديثٌ بإقعاده ... على العرش أيضا فلانَجْحَدُهْ
أَمِرُّوا الحديثَ على وجههِ ... ولا تُدخلوا فيه ما يُفسِدُهْ

وقال الذهبيّ فى كتابه المنوه به، فى ترجمة (محمد بن مصعب) العابد شيخ بغداد ما مثاله: وقال المروذيّ : سمعت أبا عبد الله الخفاف . سمعت ابن مصعب وتلا (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا) قال : نعم يقعده على العرش ـ ذكر الإمام أحمدُ محمدَ بن مصعب فقال: قد كتبت عنه . وأيّ رجل هو ! قال الذهبيّ : فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت فى ذلك نص ، بل فى الباب حديث واهٍ . وما فسر به مجاهد الآية ، كما ذكرناه ، فقد أنكره بعض أهل الكلام . فقام المروذيّ وقعد بالغ فى الانتصار لذلك وجمع فيه كتاباً وطُرقَ قول مجاهد ، من رواية ليث بن أبى سليم ، وعطاء بن السائب ، وأبى يحي القتات وجابر ابن يزيد. وممن أفتى فى ذلك العصر ، بأن هذا الأثر يُسَلَّم ولا يعارض، أبو داود السجستانيّ صاحب السنن وإبراهيم الحربيّ وخلْق . بحيث إن ابن الإمام أحمد قال عقيب قول مجاهد : أنا منكرٌ على كل من رد هـذا الحديث . وهو عندى رجل سوء متهم . سمعته من جماعة . وما رأيت محدثاً ينكره . وعندنا إنما تنكره الجهمية . وقد حدثنا هرون بن معروف . ثنا محمد بن فضيل عن ليث ، عن مجاهد فى قوله (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا)

قال : يقعده على العرش . فحدثت به أبي رحمه الله فقال لم يُقدَّرْ لى أن أسمعه من ابن فضيل : بحيث إن المروذيّ روى حكايةً بنزولٍ، عن إبراهيم بن عرفة. وسمعت ابن عمير يقول: سمعت أحمد ابن حنبل يقول : هذا قد تلقته العلماء بالقبول . وقال المروذيّ: قال أبو داود السجستانيّ : ثنا ابن أبي صفوان الثقفيّ . ثنا يحيى بن أبي كثير . ثنا سلم بن جعفر ، وكان ثقة، ثنا الجريريّ . ثنا سيف السدوسيّ عن عبد الله بن سلام، قال : إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم ﷺ حتى يجلس بين يدى الله عزّ وجلّ على كرسيه . . الحديث . وقد رواه ابن جرير في تفسيره . (أعنى قول مجاهد) . وكذلك أخرجه النقاش في تفسيره . وكذلك رد شيخ الشافعية ابن سريج على من أنكره . بحيث إن الإمام أبا بكر الخلّال قال في كتاب (السنة) من جمعه : أخبرني الحسن بن صالح العطار . عن محمد بن عليّ السراج ، قال : رأيت النبيّ ﷺ في النوم فقلت : إن فلاناً الترمذيّ يقول : إن الله لا يقعدك معه على العرش ، ونحن نقول : بل يقعدك . فأقبل عليّ شبه المغضب وهو يقول: بلى، والله ! بلى، والله ! يقعدنى على العرش. فانتبهت . بحيث إن الفقيه أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد المحدّث قال (فيما نقله عنه القاضي أبو يعلى الفراء) : لو أن حالفاً حلف بالطلاق ثلاثاً ؛ إن الله يقعد محمداً ﷺ على العرش ، واستفتانى ، لقلت له : صدقت وبررت .

قال الذهبيّ : فأبصر ، حفظك الله من الهوى ، كيف آل الغلوّ بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر . واليوم يردّون الأحاديث الصريحة في العلوّ . بل يحاول بعض الطغام أن يرد . قوله تعالى(١) (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) انتهى . وقوله تعالى:

---

(١) [٢٠ / طه [٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)

[٨١] (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

« وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » أى مدخلًا حسناً مرضيًّا بلا آفة « وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ » أى مُخرجاً حسناً مرضيًّا من غير آفة الميل إلى النفس ، ولا الضلال بعد الهدى . « وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا » أى عزًّا ناصرًا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه .

وقد رأى المهايمىّ ارتباط الآية بما قبلها فى معناها حيث قال : (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي) أى فى هذه العبادات فإنها لا توصلك إلى المقام المحمود ، إلا إذا صدق دخولك فيها وخروجك عنها. ولا يتم إلا بإمداد الله بعد استمدادك منه . وقولك (رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى بمشاهدتك فى هذه العبادات ، وتخليتى عن الرياء والعجب ، وتصفيتى بإخلاص العمل ، وإخلاص طلب الأجر ، ورؤية المنة لله ، ورؤية التقصير فيها . (وَأَخْرِجْنِي) عنها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) فلا تستعملنى فيما يحبطها علىَّ ، ولا تردنى على نفسى . وإذا غلبنى الشيطان أو النفس أو الخلق ، أو وردت علىَّ شبهة ، فاجعل لى من لدنك ، لا من عند فكرى ، (سُلْطَانًا) أى حجة (نَّصِيرًا) ينصرنى على ما ذكر . ليبقى علىَّ عبادتى فيوصلنى إلى المقام المحمود . انتهى .

واللفظ الكريم محتمل لذلك . ويظهر لنا أنه إشارة للهجرة كما ستراه .

« وَقُلْ » أى استبشارًا بقرب الظفر والنصر ، وترهيباً للمشركين « جَاءَ الْحَقُّ » وهو الوعد بالسلطان النصير والإسلام ودولته « وَزَهَقَ الْبَاطِلُ » أى ذهب وهلك . وهو الشرك وجولته « إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » أى مضمحلًّا غير ثابت فى كل وقت .

تنبيه :

سياق هذه الآيات، مع سباقها أعنى قوله تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ) يدل على أن نزولها فى أوقات الاهتمام للهجرة إلى المدينة ، ومبارحة مكة ، وأنه تعالى أمر نبيّه بأن يبتهل إليه فى تيسير إدخاله لمهاجَره على ما يرضيه ، وإخراجه من بلده كذلك . وأن يجعل له حماية من لدنه ، تعزّ جانبه وتعصمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز فى مثل هذا الدعاء ، هو إرادة الخبر بحصول المدعوّ ، ومشيئة الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ) إعلاماً بأن الأمر تم ، والفرج جاء ، ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم .

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة . وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها . وقال (جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ورواه الشيخان وغيرها عن ابن مسعود ، بنحوه .

قال فى (الإكليل) فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر .

ثم بيّن تعالى خسار المشركين ، بإعراضهم عما يشفى أمراضهم المعنوية ، وهو القرآن الكريم ، ونجاح المؤمنين بالاستشفاء بهداه ورحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)

« وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » أى وننزل عليك من القرآن مايستشفى به من الجهل والضلالة . ورحمة ببيان الحقائق وإقامة البراهين للمؤمنين به ، دون الكافرين . لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله

وشرائعه . فيدخلهم الجنة وينجّيهم من العذاب . فهو لهم رحمة ونعمة . ولا يزيد الظالمين ، بكفرهم وشركهم ، إلا خسارًا . أى إهلاكا. لأنهم كلما جاءهم أمر من الله أو نهى، كفروا به، فزادهم خسارًا إلى ما كانوا فيه قبلُ ، ورجسًا إلى رجسهم .

قال الشهاب : (الشفاء) استعارة تصريحية أو تخييلية . بتشبيه الكفر بالمرض. و(مِن) بيانية . قدمت على المبيّن وهو (ما) اعتناء .

تنبيـه :

ذهب بعضهم إلى أن القرآن مما يستشفى به من الأمراض الحسّية لهـذه الآية . بحمل قوله (شِفَآءٌ) على معنيين من باب عموم المجاز . أو حمل المشترك على معنييه ، وممن قرر ذلك الرازىّ . وعبارته : اعلم أن القرآن شفاءمن الأمراض الروحانية. وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية . أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر . وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة . والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة ، فأشدها فساد الاعتقادات فى الإلـهيات والنبوّات والمعاد والقضاء والقدر . والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق فى هذه المطالب ، وإبطال المذاهب الباطلة فيها . لا جرم كان شفاء من هـذا النوع من المرض الروحانىّ . وأما الأخلاق المذمومة ، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد ، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة ، والأعمـال المحمودة . فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض. فثبت أن القرآن شفاءمن جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية ، فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض . ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التى لايفهم منها شىء، آثارا عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد ـ فَلَأَنْ تكونَ قراءة هذا القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين ، سبباً لحصول النفع فى الدين والدنيا ـ كان أولى . ويتأكد ما

ذكرنا بحديث[١] (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى) . وأما كونه رحمة للمؤمنين، فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة . والقرآن، منه ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات المبطلين ، وهو الشفاء . ومنه ما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة . ولما كانت إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة ، لاجرم بدأ الله تعالى ، في هذه الآية، بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة . انتهى .

وقال الإمام ابن القيّم في (زادالمعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة ، التي جاءت على لسانه ﷺ، في حرف القاف: (قرآن): قال الله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن (مِنْ) ههنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض. وقال تعالى[٢](يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ) فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية . وأدواء الدنيا والآخرة . وما كل أحد يؤهَّل ولا يوفق للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوي به ، ووضعه على دائه ، بصدق وإيمان وقبول تام ، واعتقاد جازم ، واستيفاء شروطه ـ لم يقاومه الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدواء كلامَ رب الأرض والسماء ، الذى لو أنزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها . فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفى القرآن سبيل للدلالة على دوائه وسببه والحِمْية منه ، لمن رزقه الله فهما فى كتابه . فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله . ومن لم يكفه فلا كفاه الله .

ثم قال فى (حرف الكاف): ورخص جماعة من السلف فى كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذى جعل الله فيه . ثم ذكر ما كان يكتبه شيخ الإسلام ابن تيمية للرعاف . فانظره .

(١) لم أقف على هذا الحديث . (٢) [١٠ / يونس / ٥٧] .

وذكر ، قبلُ ، فى فاتحة الكتاب ، من سرّ كونها شفاءً ، حقائق بديعة . وكذا فى بحث الرقى . وذكر أيضا أن من الأدوية التى تشفى من الأمراض ، ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدوية القلبية والروحانية ، وقوة القلب واعتماده على الله والتوكل عليه والالتجاء إليه . والانطراح والانكسار بين يديه ، والتذلل له والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار ، والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب . فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها . فوجدوا لها من التأثير فى الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربته ولا قياسه . وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرة . ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسّيّة . وهذا جارٍ على قانون الحكمة الإلهية ، ليس خارجاً عنها . ولكن الأسباب متنوّعة . فإن القلب متى اتصل برب العالمين ، وخالق الداء والدواء ، ومدبّر الطبيعة ومصرّفها على مايشاء ، كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التى يعانيها القلب البعيد منه ، المعرض عنه . وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة ، تعاوَنَا على دفع الداء وقهره . فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه ، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبّها له وتنعمها بذكره ، وانصراف قواها كلها إليه ، وجمعها عليه ، واستعانتها به ، وتوكلها عليه ـ أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية ، ويوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية . ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس وأعظمهم حجاباً وأكثفهم نفساً ، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية .

وقد أسهب ، عليه الرحمة ، أيضا فى كتاب (إغاثة اللهفان) فى بيان تضمن القرآن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ، بما تنبغى مراجعته ، ليزداد المريد علما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ، وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا)

« وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا » إشارة إلى السبب فى وقوع هؤلاء الضالين فى أودية الضلال . وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى ، وكفران نعمه تعالى . بالإعراض عن شكرها ، والجزع واليأس من الفرج عند مس شرٍّ قضى عليه . وكل ذلك مما ينافى عقد الإيمان . فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهد قدرة الله تعالى فى كلتا الحالتين . ويتيقن فى الحالة الأولى ؛ أن الشكر رباط النعم . وفى الثانية ؛ أن الصبر دفاع النقم . فيشكر ويصبر . ويعلم أن المنعم يقدر ، فلم يعرض عند النعمة بطرًا وأشرًا . ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعًا وضجرًا .

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة . كقوله تعالى(١) : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

قال الزمخشرىّ : (وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ) تأكيدٌ للإعراض . لأن الإعراض عن الشيء أن يُوَلّيه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره . أو أراد الاستكبار ، لأن ذلك من عادة المستكبرين .

وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٩ـ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ » أى على مذهبه وطريقته وخليقته وملكته الغالبة عليه ، الحاصلة له من استعداد حقيقته ، التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة . من قولهم (طريق ذو شواكل) وهى الطرق التى تتشعب منه لتشاكلها . أى تشابهها فى الشكل . فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله . والدليل عليه قوله تعالى « فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا » أى أسدّ مذهباً وطريقة ، من العاملين : عامل الخير بمقتضى سجية القلب الفاضلة ، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس ، فيجازيهما بحسب أعمالهما .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ، قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ » قال القاشانىّ : أى الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره « قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهريين البدنيين ، الذين لا يتجاوز إدراكهم الحس والمحسوس ، بالتشبيه ببعض ما شعروا به ، والتوصيف . بل من عالم الأمر ، أى الإبداع الذى هو عالم الذوات المجردة عن الهيولى ، والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين . فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون ، لقصور إدراككم وعلمكم عنه « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » هو علم المحسوسات . وذلك شىء نزر حقير بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين فى العلم ـ هذا ماقاله القاشانىّ ـ وحاصل الجواب عليه : أن الروح موجود محدَث بأمره تعالى بلا مادة ، وتولد من أصل كأعضاء الجسد ،

حتى يمكن تعريفه ببعض مبادئه ، بل هو من عالم الأمر لا من عالم الخلق . فيكون الاقتصار فى الجواب على قوله : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) كما اقتصر موسى فى جواب قول فرعون (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)[١] على قوله[٢] (رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) إعلاماً بأن إدراكه بالكُنْهِ على ما هو عليه ، لا يعلمه إلا الله تعالى . وأنه شيء بمفارقته يموت الإنسان . وبملازمته له يبقى . كما أومأ إليه قوله تعالى : (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى علماً قليلًا تستفيدونه من طرق الحواس . وهو هذا القدر الإجمالىّ .

قال الشهاب : والسؤال ـ على هذا ـ عن حقيقتها . والجواب إجمالىّ بأنها من المبدعات من غير مادة . ولذا قيل : إنه من الأسلوب الحكيم . كما فى قوله[٣] : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ) إشارة إلى أن حقيقتها لا تعلم ، وإنما يعلم منها هـذا المقدار . فالمراد بـ (الأمر) على هذا التفسير (قول كن) ولذا قالوا لمثله : عالم الأمر . انتهى .

قال أبوالسعود عليه الرحمة : وليس هذا من قبيل قوله سبحانه[٤] : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فإن ذلك عبارة عن سرعة التكوين . سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . بل إنه من الإبداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينىّ من غير تحصلٍ من مادة . وحكى ، عليه الرحمة ، قولًا آخر وهو : أن الأمر بمعنى الشأن . قال : والإضافة للاختصاص العلمىّ لا الإيجادىّ ، لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى . كما فى الإضافة الثانية من تشريف المضاف إليه . أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر . وعليه ، فـ (من) بيانية أو تبعيضية . ويكون نهياً لهم عن السؤال عنها ، وتركا للبيان . وهذا رأى كثيرين . أمسكوا عن الخوض فيها ، وقالوا : إنها شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع أحداً

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٤] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٩] . (٤) [٣٦ / يس / ٨٢] .

من خلقه . فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ، بل غلا بعضهم وقال : إن الإفاضة فى بحث الروح بدعة فى الدين . إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما فى الآية . فالاشتغال بالتفتيش عنه غلوّ فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وما كان كذلك فهو عناد .

وأجاب الخائضون فى بحثها ؛ بأن الآية لا يدل معناها على ما ذكر دلالة قطعية ، ولا دلالة فيها على المنع من الخوض فيها ، ولا على أنه ﷺ لم يكن يعلمها . وغاية الأمر أنه أمر بترك الجواب عنها تفصيلًا . إما لأن الإمساك عن ذلك كان عند اليهود السائلين عنها ، من دلائل نبوّته ﷺ ، أولأن سؤالهم كان تعنتاً . فإنها تطلق على معان : منها الراحة وبرد النسيم . وعلى جبريل والقرآن وعيسى عليه السلام والحياة والقلب والرحمة وغير ذلك . فأضمروا على أنه إذا أجاب بأحد هذه الأمور ، قالوا : لم نرده ، وإنما أردنا كذا .

ثم الأقاويل فيها من الحكماء والعلماء الأقدمين مختلفة . ولا يتم الجواب فى محل الخلاف . فأتى بالجواب مجملًا على وجه يصدق على كلٍّ من ذلك مرموزًا ، ليعلمه العلماء بالله . واقتضت المصلحة العامة منع الكلام فيه لغيرهم . لأن الأفهام لا تحتمله . خصوصًا على طريقة الحكماء . إذ من غلب على طبعه الجمود لا يقبله ولا يصدق به فى صفة البارى . فكيف يصدق به فى حق الروح الإنسانىّ . بل قال بعض المدققين : إن فى الآية الجواب ببيان حقيقتها ، وأنها من إبداعاته الكائنة بتكوينه ، من غير سبق مادة ـ وهو ما ذكرناه أولا ـ وفى الجواب بذلك ما فيه الكفاية لذوى البصائر والدراية . ومقنع لمن كان له فى النزاع ، إذا فُصِلَ ، مطمع . وقد استحسن بعضهم هذا الجواب وقال مذيلًا له : فيكون قوله (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) على أن السؤال عن حقيقتها ـ مطابقاً . إلا أنه إجمالىّ . أى من الممكنات التى يمكن الوقوف على حقائقها ، وإن كان بإعمال روية وإيقاظ فكر كباقى عالم الأمر . وعلى أن السؤال عن قدمها وحدوثها كذلك . إلا أنه تفصيلىّ . وأيًّا ما كان ، فلم يترك

بيانها . ولو كانت مما لا سبيل إلى معرفته لقيل : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي) كما قيل في الساعة، أو نحو ذلك. بل لو لم يكن السبيل لمعرفته، ولو بوجه ما، متيسّرًا لكثير من الناس، لم يكن لأمره بالتفكر فيها . والتبصر في أمرها ، للاستدلال بها عليه، والتوصل بواسطة معرفتها إليه ، الذي هو الغاية القصوى والثمرة العظمى – من فائدة . بل كان عبثاً . فدل قوله تعالى[١] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم) وقوله[٢] (وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ونحو ذلك ، أنها أمر تدركه العقول ، وبه يكون إليه تعالى الوصول .

ثم إن الذين خاضوا في البحث عنها، أُثِرَت عنهم أقوال شتى. وقد أفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة ، والذي يهمنا معرفته ما عول عليه الأئمة المدققون ، الذين نقبوا عن أقوال المتقدمين ، ونقدوها بمحك الكتاب والسنة ، فنبذوا ما يخالفهما وتمسكوا بما يوافقهما .

فمنهم الإمام ابن حزم . قال رحمه الله في كتابه (الملل والنحل) بعد سرد مذاهب شتى : وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرّة بالمعاد ، إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان . عاقلة مميزة مصرّفة للجسد . قال : وبهذا نقول . والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ، ومعناها واحد . ثم قال : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما ، فقولٌ يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة . فأما القرآن ، فإن الله عز وجل قال[٣] (هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ) وقال تعالى[٤] (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) وقال تعالى[٥] (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فصح أن النفس هي الفعالة الكاسبة المجزية المخطئة . وقال تعالى[٦] (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقال تعالى[٧] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) . وقال تعالى[٨] (وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ

(١) [٣٠ / الروم / ٨] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٢١] .
(٣) [١٠ / يونس / ٣٠] . (٤) [٤٠ / غافر / ١٧] .
(٥) [٥٢ / الطور / ٢١] . (٦) [١٢ / يوسف / ٥٣] .
(٧) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٨) [٢ / البقرة / ١٥٤] .

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ) وقال تعالى[١] (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ، بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) فصح أن الأنفس ، منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة ، فيعذب. ومنها مارزق وينعم فرحاً ، ويكون مسروراً قبل يوم القيامة. ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين فى سبيل الله ، قد تقطعت أوصالها وأكلها السباع والطير وحيوان الماء. فصحّ أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان. ولا شك فى أن العرَض لايلقى العذاب ولايحسّ ، فليست عرَضا . وصح أنها تنتقل فى الأماكن قائمة بنفسها ، وهـذه صفة الجسم لاصفة الجوهر عند القائل به ، فصح ، ضرورةً ، أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ[٢] (إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة) وقوله ﷺ[٣] ، إنه (رأى نَسَمَ بنى آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أن الأنفس مرئيّة فى أماكنها ، وقوله عليه السلام[٤] (إن نفس المؤمن إذا قبضت ، عرج بها إلى السماء وفعل بها كذا . ونفس الكافر إذا قبضت فعل بها كذا) فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة فى الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة .

وأما من الإجماع ، فلا اختلاف بين أحد من أهل الإسلام فى أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد ، إلى نعيم أو إلى صنوف ضيق وعذاب . وهذه صفة الأجسام .

ثم قال : ومعنى قول الله تعالى (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٩و١٧٠] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة، حديث رقم ١٢١ (طبعتنا) عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر حديث الإسراء الذى أخرجه البخاريّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ١ ـ باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء ، حديث ٢٣٥ (عن أبى ذر) . (٤) أخرجه ابن ماجه فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣١ ـ باب ذكر الموت والاستعداد له ، حديث ٤٢٦٢ ، عن أبى هريرة (طبعتنا) .

إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظماً ثم لحما ثم أمشاجاً . وليس الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمِرًا له بالكون (كن فكان) . فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد يقع الروح أيضا على غير هذا . فجبريل عليه السلام الروح الأمين . والقرآن روح من عند الله .

وقال ابن حزم أيضاً ، قبل ذلك ، فى بحث عذاب القبر : والذى نقول به فى مستقر الأرواح ، هو ما قاله الله تعالى ونبيه ﷺ لا نتعداه . فهو البرهان الواضح وهو أن الله تعالى قال[١] : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ وقال تعالى[٢] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ فصح أن الله عز وجل خلق الأرواح جملة ، وهى الأنفس . وكذلك أخبر عليه السلام[٣] (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) ـ وهى العاقلة ، الحساسة ـ وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها ـ وهى مخلوقة مصورة عاقلة ، قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، على جميعهم السلام . وقبل أن يدخلها فى الأجساد . والأجساد يومئذ تراب وماء . ثم أقرّها تعالى حيث شاء . لأن الله تعالى ذكر ذلك بلفظة (ثُمَّ) التى توجب التعقيب والمهلة . ثم أقرها عز وجل حيث شاء . وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت . لا تزال يبعث منها الجملة ، بعد الجملة . فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنىّ ، المنحدر من أصلاب الرجال وأرحام النساء . كما قال تعالى[٤] : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ

(١) [٧ / الأعراف / ١٧٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١١] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، حديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة . وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ ، عن أبى هريرة (طبعتنا) . (٤) [٧٥ / القيامة / ٣٧و٣٨] .

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ) وقال عز وجل(١) : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا) الآية وكذلك أخبر رسول الله(٢) ﷺ ؛ أنه (يجمع خلق ابن آدم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) فيبلوهم الله عز وجل فى الدنيا كما شاء . ثم يتوفاها فترجع إلى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا : أرواح أهل السعادة عن يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره عليه السلام . وذلك عند منقطع العناصر ، وتعجل أرواح الأنبياء عليهم السلام وأرواح الشهداء إلى الجنة .

وقد ذكر محمد بن نصر المروزىّ عن إسحق بن راهويه ؛ أنه ذكر هذا القول الذى قلنا بعينه ، وقال : على هذا أجمع أهل العلم .

ثم قال ابن حزم : ولا تزال الأرواح هنالك ، حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى أجسادها ثم برجوعها إلى البرزخ المذكور . فتقوم الساعة . ويعيد عز وجل الأرواح ثانية إلى الأجساد . وهى الحياة الثانية . ويحاسب الخلق : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، مخلدين أبداً . انتهى .

فصل :

ومنهم شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ، عليه الرحمة ، قال فى : (تفسير سورة الإخلاص) بعد أن ذكر نزاع المتكلمين المتفلسفة فى الملائكة . هل هى متحيزة أم لا ؟ وكذلك نزاعهم فى روح الإنسان التى تفارقه بالموت ، على قول الجمهور الذين يقولون : هى عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها . ولا جزءاً من أجزاء

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٢ ـ ١٤] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٤ ، عن عبد الله بن مسعود .

البدن كالهواء الخارج منه. فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن، أو جزء من أجزاء البدن . لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف . ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم . ومخالف للأدلة ، وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام .

قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض . وبهذا نقول ، إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنه قال: الروح الكائن في الجسد ضربان : أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفَس . والنفَس ريح ينبثّ به . والمراد بالنفس ، ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسامّ . وهذا قول الإسفرائينيّ وغيره . وقال ابن فورك : هو ما يجرى فى تجاويف الأعضاء . وأبو المعالى خالف هؤلاء وأحسن فى مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة . أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتُها لها . فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة . ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، وأن الروح عين قائمة بنفسها . تفارق البدن وتنعم ، وتعذب . ليست هى البدن ، ولا جزءاً من أجزائه كالنفَس المذكور .

ثم الذين قالوا : إنها عين ، تنازعوا : هل هى جسم متحيز ؟ على قولين : كتنازعهم فى الملائكة. فالمتكلمون منهم يقولون: جسم. والمتفلسفة يقولون: جوهر عقليّ ليس بجسم. وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات، هو مأخوذ من نفس الإنسان. فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت، وتتجرد عنه ، سموها مفارقة مجردة . ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها . مفارقات ومجردات . لمفارقتها المادة التى هى عندهم الجسم . وهذه المفارقات عندهم مالا يكون جسماً ولا قائما بجسم . لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير . والعقلُ لا تعلق له بالأجسام أصلًا . ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق .

والجمهور يسمون ذلك روحاً وهذا جسماً ـ لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين . بل الجسم هو الجسد . وهو الجسم الغليظ ، أو غِلَظُه . والروح ليست مثل البدن فى الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسماً . فمن جعل الملائكة والأرواح جسما بالمعنى اللغوىّ ، فما أصاب فى ذلك . وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة ، فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك . وهو ما أمكنت الإشارة الحسيّة إليه . وماقيل إنه هنا وهناك . وما قَبِل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك .

ثم قال عليه الرحمة : وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقة ، من أنهالايشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليس داخل العالم ولا خارجه ـ هو كلام باطل عند جماهير العقلاء . ولا سيما من يقول منهم ، كابن سينا وأمثاله : إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية . وإنماتعرف الأمور الكلية . فإن هذا مكابرة ظاهرة . فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مماتتصرف فيه بعلمها وعملها . فكيف يقال : إنها لاتعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أمورا كلية ! ؟ وكذلك قولهم : إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لملكته ـ من أفسدالكلام . فإن الملك يدبر أمر مملكته، فيأمر وينهى . ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته ، إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم .

والملك لايلتذ بلذة أحدهم ولايتألم بتألمه، وليس كذلك الروح والبدن . بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به . ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شيء من الأجسام المشهودة . فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات فى الأوعية . فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل فى الأوعية لابطونها ولاظهورها . وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها . وليس كذلك الروح والبدن . بل الروح

متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره . وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب فى بدن الآكل. فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته . ولا جريانها فى البدن كجريان الدم . فإن الدم يكون فى بعض البدن دون بعض . ففى الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شىء منه متعلقا بالآخر . بخلاف الروح والبدن . لكن هى مع هذا فى البدن قد ولجت فيه . وتخرج منه وقت الموت . وتسلّ منه شيئاً فشيئاً . فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً . لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبّرها . والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً ، عسر عليهم التعبير عن حقيقتها . وهذا تنبيه لهم على رب العالمين ، حيث لم يعرفوا حقيقته ، ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى . وإن مايضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح ، التى هى بعض عبيده ، توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان . وتسجد تحت العرش . وهى مع هذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية . والإنسان ، فى نومه ، يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر فى بدنه . فهذا الصعود الذى توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات . فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية . وحركتها إلى العلوّ حركة انتقال من مكان . وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك . انتهى .

فصل :

وكتب بعض المنقبين عن مباحث المدققين العصريين فى الروح ما مثاله : إن نظرية الروحيين التى يستدلون عليها فى أوربا بالحسّ فى هذه الأيام، هى أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملأ الأعلى . لايصل العقل إلى إدراك كنهها . وإنها متصلة بهذا الجسد الطينىّ ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه . وإنه كغلاف للسرّ الإلـهى المسمى روحاً . ولعل فى هذا ما يشبه قول الإمام مالك ابن أنس رضى الله عنه عن الروح (هى صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا

يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص، إلى عالم غير هذا العلم. ولكنهما لاينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا فى كل جهة . ولكنا لانراها بأعيننا ، لعدم استعداد أعيننا لِذَلِكَ . كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن) مع أنها موجود كما تدل عليه الآلة التى صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها فى علم الطب وأفادت العلم الطبيعىّ فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص. به يرون الأرواحرائحة غادية ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، رؤية حقيقية . انتهى . ملخصاً .

تنبيه :

جميع ما قدمناه ، بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان .

قال ابن القيم فى كتاب (الروح) : وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف . وأكثر السلف ، بل كلهم ، على أن الروح المسؤول عنها فى الآيةليست أرواح بنى آدم. بل هوالروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه ، أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة ، وهو ملك عظيم. وقدثبت فى الصحيح[1] عن عبد الله قال : بينا أنا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرّة المدينة ، وهو متكئ على عسيب ، فمررنا على نفر من اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لاتسألوه عسى أن يخبر فيه بشىء تكرهونه. وقال بعضهم: نسأله . فقامرجل فقال : ياأبا القاسم ! ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ . فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت. فلما تجلى عنه قال : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ...) الآية، ومعلومأنهم إنما سألوهعن أمر لايعرف إلا بالوحى . وذلك هو الروح الذىعند الله لايعلمها الناس. وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب . وقد تكلم فيها طوائف الناس من أهل الملل وغيرهم . فلم يكن الجواب

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٧ ـ باب قول الله تعالى : وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . حديث رقم ١٠٦ .

عنها من أعلام النبوة . فإن قيل : فقد روى أبو الشيخ عن السدّىّ عن أبى مالك ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن النبىّ ﷺ . فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبىّ . وليس على ديننا . ولا على دينكم . قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه . وأما أشراف قومه فلم يتبعوه . فقالوا : إنه قد أظلّ زمانُ نبىٍّ يخرج ، وهو على ماتصفون من أمر هذا الرجل ، فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال فأمركم بهن . فإن أخبركم بهن فهو نبىٌّ صادق . وإن لم يخبركم بهن فهو كذّاب . سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم . فإن قال لكم : هى من الله ، فقولوا : كيف يعذب الله فى النار شيئاً هو منه . ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله الآية . يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله .

قيل : مثل هـذا الإسناد لايحتج به . فإنه من تفسير السدىّ عن أبى مالك . وفيه أشياء منكرة . وسياق هذه القصة فى السؤال ، من الصحاح والمسانيد ، كلها تخالف سياق السدّىّ . وقد رواها الأعمش والمغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبىّ ﷺ على ملأ من اليهود . وأنا أمشى معه . فسألوه عن الروح ، قال فسكت . فظننت أنه يوحى إليه . فنزلت (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ) يعنى اليهود (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى . .) الآية . وكذلك هى فى قراءة عبد الله . فقالوا كذلك نجد مثله فى التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة . وروى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ، عن داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال: أتت اليهود إلى النبىّ ﷺ فسألوه عن الروح . فلم يجبهم النبىّ ﷺ بشىء . فأنزل الله عز وجل الآية . فهذا يدل على ضعف حديث السدّى ، وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود. ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة، لم يسكت

النبي ﷺ ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزل الله عليه . وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أعظم اضطراب . فإما أن تكون من قبل الرواة ، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها . ثم ساق ابن القيم الروايات عنه مسندة ، ثم قال : والروح فى القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحى ، كقوله تعالى[(١)] : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقوله[(٢)] (يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) وسمى الوحى روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثانى : القوة والثبات والنصرة التى يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال[(٣)] : (أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

الثالث : جبريل كقوله تعالى[(٤)] : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقال تعالى[(٥)] : (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وهو روح القدس ، قال تعالى[(٦)] : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ) .

الرابع : الروح التى سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة فى قوله تعالى[(٧)] : (يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ) وإنها الروح المذكورة فى قوله[(٨)] : (تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم) .

الخامس : المسيح عيسى ابن مريم . قال تعالى[(٩)] : (إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ١٥] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٩٣ ، ١٩٤] .
(٥) [٢ / البقرة / ٩٧] . (٦) [١٦ / النحل / ١٠٢] .
(٧) [٧٨ / النبأ / ٣٨] . (٨) [٩٧ / القدر / ٤] .
(٩) [٤ / النساء / ١٧١] .

رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ)أما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها بالقرآن إلا بالنفس ، قال تعالى(١)(يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ)وقال(٢)(وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ) وقال(٣): (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ) وقال(٤) : (أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ) وقال(٥):(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) وقال(٦) : (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ) .

وأما فى السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . انتهى .

قال ابن كثير : رواية عبد الله فى الصحيح المتقدمة ، تقتضى فيما يظهر ببادئ الرأى ، أن هذه الآية مدنية . وأنها إنما أنزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة . مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية . كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو إنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ) انتهى .

وقد روى ابن جرير(٧) عن قتادة : أن الروح فى الآية هو جبريل عليه السلام . وحكاه عن ابن عباس .

أقول : الذى أراه متعينا فى الآية ، لسابقها ولاحقها ، أن المراد بالروح الوحى بالقرآن، وهو قريب من قول قتادة . ووجه تعينه أن هذه الآية فى سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنّة بكونه شفاء ورحمة ، وقد سمى تعالى الوحى بالقرآن روحاً : قال تعالى(٨) (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

(١) [٨٩/ الفجر/ ٢٧] . (٢) [٧٥ / القيامة/ ٢] . (٣) [١٢/ يوسف / ٥٣] .
(٤) [٦/ الأنعام/٩٣]. (٥) [٩١/ الشمس/٧ و٨]. (٦) [٣/ آل عمران/١٨٥] .
(٧) انظر الصفحة ١٥٦ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبى الثانية) .
(٨) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) وقال[١] تعالى : (يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) فكانوا إذا سمعوا الروح ، وصدعوا بالإيمان به ، يتعنتون فى السؤال عنه ، استبعاداً لأن يكون من لدنه سبحانه ، ولأن يكون بشر مثله مبعوثاً بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحى أوحاه الله ، وأنه روح من لدنه ، وإلقاء من أمره . ونظير هذه الآية قوله تعالى[٢] : (وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ) وقوله تعالى[٣] : (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أى بعضهم ينكره وبعضهم يتردد فى صحته . وذلك لأنهم قوم جاهليون ، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف ، فضلاً عن الوحى وخصائص النبوة ، للأمّية والجهالة الفاشيتين فيهم . كما أشير إليه بقوله تعالى : (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أى مما تناله مشاعركم وتصل إليه فطنكم . وما هو فى جنب معلومات لا تحصى ، إلا كالقطرة من البحر والذرة من الكثيب . والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف ، يفسر بعضه بعضاً .

وجميع ما ذكره المتقدمون ، غير ما ذكرناه ، جرىٌ مع ما يحتمله نظم الآية الكريمة . وكذا رواية ابن مسعود أنه أجيب بها اليهود ، لأنها لما كان لها وجوه من المعانى ، ومنها ما سألوا عنه ، ألقموا بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم أشار تعالى إلى نعمته فيما أوحاه من هذا التنزيل والهداية به ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا)

« وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ » أى من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين : وإنما عبر عنه بالموصول ، تفخيما لشأنه ، ووصفاً له بما هو فى حيز الصلة ، وإعلاما بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق « ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا » أى من يتوكل علينا برده .

(١) [٤٠/غافر/ ١٥] . (٢) [١٠/يونس/ ٥٣] . (٣) [٧٨/النبأ/ ١ـ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولـكن رحمة مِنْ ربك تركته غير مُشَاءِ الذهاب به بل تولت حفظه .

قال الزمخشرىّ : وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنّتين والقيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ « إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا » أى تفضله بالإيحاء والتعليم الربانىّ ، والاصطفاء للرسالة ، ثم أمره تعالى أن يخاطب أولئك المشركين الذين لم يفقهوا قدر التنزيل ، وأنه وحى ربانىّ ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

« قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ » أى اتفقت « عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » أى معيناً . وفى تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك ، مع طول الزمن ، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا » أى رددنا وكررنا وبيَّنَّا « لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ »

أى من كل معنى ، هو كالمثل فى غرابته وحسنه ، ليتقرر ويرسخ فى نفوسهم ، ويزدادوا تدبراً وإذعاناً . فكان حالهم على العكس ، إذ لم يزدادوا إلا كفراً ، كما قال سبحانه « فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً .

ولما تبين إعجاز القرآن ، وأنه الآية الكبرى ، ولزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات ، فعلَ المبهوت المحجوج المتعثر فى أذيال الحيرة ، فيما حكاه تعالى عنهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا)

[٩١] (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا)

[٩٢] (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا)

[٩٣] (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا)

« وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا » أى تشقق لنا من أرض مكة عيوناً « أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ » أى بستان منهما « فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا » وإنما قدموا فى عنتهم هذا المقترح ، لأنهم كانوا يَرِدُونَ بلاد الشام والعراق ، ويرون ما فيها من البساتين والأنهار .

قال ابن جرير[١] فيما رواه ، إنهم قالوا للنبيّ ﷺ : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً . ولا أقل مالاً . ولا أشد عيشاً منا . فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسيّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا . وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق . ثم زادوا فى الاقتراح فقالوا: «أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا» أى قطعاً بالعذاب «أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا» أى كفيلا بما تقول، شاهداً بصحته « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ » أى ذهب : « أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ، وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ » أى وحده « حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ » أى كتاباً من السماء ، فيه تصديقك « قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى » أى تنزيها له . والمراد به التعجب من اقتراحاتهم « هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا » أى كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، حسبما يلائم حال قومهم . ولم يكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على الله بشىء منها .

تنبيه :

لايخفى ما فى اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله فى خلقه، وبحكمته وجلاله. وبيان ذلك ـ كما فى كتاب (لسان الصدق) ـ أن ما قترحه قريش فيها (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد مما يخالف حكمة الله تعالى المقتضية لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة والأنهار الجارية والجنان الناضرة دون بعض . وإرساء الجبال الشم فى موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو جلت عظمته . ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز فى شىء . مع أن مثله لاتثبت به النبوة . فإننا نعلم أن أناساقد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ونحتوا الجبال ولم يكونوا بذلك أنبياء (ومنه) ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) فإن إنزال السماء

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ ، ١٦٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قطعاً مقتضٍ لهلاك العالم بحذافيره . والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم (ومنه) ماهو مستحيل فى نفسه غير ممكن وقوعه أصلا وهو قولهم : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم مما لا يمكن أن يكون . فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز (ومنه) ما لا يصلح للأنبياء، ولو حصل لم يكن معجزاً وهو قولهم : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ فإن هذا غير صالح للأنبياء . وليس بمعجز ، لحصول مثله عند أشباه فرعون (ومنه) ماوعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وأردفوه بما لا يجوز وهوقولهم : ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ فيه ـ على ماذكر فى الرواية ـ من الله العظيم إلى فلان وفلان وفلان، لقوم من قريش بأسمائهم . أما بعد . فإن محمداً رسولى فآمنوا به. والصعود فى السماء لا مزية فيه، لأنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ فلو كان ، لكان عبثاً . وإنزال كتاب عليهم على المعنى المذكور يستلزم جعلهم أنبياء ، لأن ذلك وحى مثل التوراة والإنجيل . والوحى مختص بالأنبياء ، والكفارُ عنه معزولون . فلم يكن شيء مما اقترحوه فى الآيات معجزاً . وإنما هى أمور مستحيلة فى نفسها ، أو لأمر آخر . اقترحوها تكبراً وتعنتاً وجهلا . على أنهم بعد تلك الأقوال كلهاقال قائل منهم: وايم الله! لوفعلت ذلك لظننت أنى لاأصدقك. وقد قال تعالى(١): ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فكان الأولى فى جوابهم عما اقترحوه ، هو ماأجاب به ﷺ من قوله تعالى : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أى تنزه ربى عن فعل مااقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته. وما أنا إلا بشر رسول. علىّ أن أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم . وقد أتيتكم بما يدل على صدق رسالتى مما أوحاه إلىّ . وذلك ماتحديتكم بالإتيان

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

بسورة مثله فى الهداية والإصلاح . كما أمرنى ربى . ولا أقترح عليه ، سبحانه ، مالا يجوز أن يكون . أو ما يكون فعله عبثاً ، لخلوّه عن الفائدة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا)

«وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ» أى الذين حكى تعنتهم «أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا» أى إلّا تعجبهم من بعثة إنسان رسولا . بمعنى إنكارهم أن يكون الرسول من جنس البشر . كما قال تعالى[١] : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ) والآيات فى ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته . حتى لو كانت الأرض مستقرا لملائكته ، لكانت رسلهم منهم ، جرياً على قضية الحكمة .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا)

«قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ» أى على أقدامهم كما يمشى الإنس «مُطْمَئِنِّينَ» أى ساكنين فى الأرض قارّين «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا» أى من جنسهم ، ليعلمهم الخير ويهديهم المراشد . ولما كنتم أنتم بشراً ، بعثنا

(١) [١٠ / يونس / ٢] .

فيكم رسلا منكم . كما قال تعالى[1] : (كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ » .

تنبيه :

فى الآية إشارة إلى حاجة من يستقر فى الأرض إلى الرسالة . وقد قضت رحمة البارى تعالى وعنايته بذلك ، فمنّ على الخلق بالرسل وأتم حاجتهم بخاتم أنبيائه فأنقذهم من الحيرة ، وخلصهم من التخبط ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا)

« قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » أى على أنى بلغت ماأرسلت به إليكم ، وإنكم كذبتم وعاندتم . وقرر الرازىّ أن المعنىّ بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن . أى كفى بما أكرمنى به تعالى من هذا المعجز ، شاهداً على صدقى . ومن شهد تعالى على صدقه فهو صادق . فقولكم ، معشر المشركين ، بعد هذا ، يجب أن يكون الرسول ملكا ، تحكم فاسد . اه .

وناقشه أبو السعود بأن ماقرره لايساعده قوله تعالى (بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وما بعده من التعليل . ثم قال أبو السعود . وإنما لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة. وقوله تعالى: « إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا » أى عالما بأحوالهم . فهو مجازيهم . وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ، مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا)

« وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ » أى إلى الحق بما جاء من قبله إلى الهدى « فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ » أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، كهؤلاء المعاندين « فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ » أى أنصاراً يهدونهم ويحفظونهم من قهره ، وإنما أوثر ضمير الجماعة فى (لَهُمْ) حملًا على معنى (مَنْ) وأوثر فى ما قبله الإفراد ، حملًا على اللفظ . وسر الاختلاف فى المتقابلين الإشارة إلى وحدة طريق الحق ، وقلة سالكيه ، وتعدد سبل الضلال وكثرة الضُّلَّالِ « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يسحبون عليها كقوله[1] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) .

وقال القاشانىّ : أى ناكسى الرؤوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية ! وعلى وجوداتهم وذواتهم التى كانوا عليها فى الدنيا . كقوله (كَمَا تَعِيشُونَ تَمُوتُونَ وَكَمَا تَمُوتُونَ تُبْعَثُونَ) إذ (الوجه) يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها . أى على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان . وقوله تعالى « عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » أى كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامّون عن استماعه ـ فهم فى الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم[2] (وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ) ـ كذا فى (الكشاف) « مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ » أى سكن لهيبها ، بأن أكلت جُلُودَهُمْ ولحومهم « زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا » أى توقدا . بأن نبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٨] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٧٢] .

قال الزمخشريّ : كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها . ثم يعيدها . لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث . ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد . وقد دل على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)

« ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » أي لَمُحْيَوْنَ خلقاً جديداً ، بإعادة الروح فينا ، إذا تلف لحمنا وبقينا عِظاماً . بل رقت عظامنا فصارت رفاتاً . ثم احتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا)

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ » أي يعلموا « أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أي يوم القيامة . يُنشِئُهُمْ نشأة أخرى ويعيدهم كما بدأهم . والمعنى : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس . لأنهم ليسوا بأشد خَلْقاً منهن . كما قال(١) : (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ) ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء . بل هي أهون .

قال الشهاب : ولا حاجة إلى جعل (مثل) هنا كناية عنهم . كقوله : (مثلك لا يبخل) مع أنه صحيح . ولو جعل خلق مثلهم عبارة عن الإعادة ، كان أحسن « وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا

(١) [٧٩ / النازعات / ٢٧] .

لَّا رَيْبَ فِيهِ » أى جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها. كما قال تعالى[1] : (وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) ، « فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ » أى بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل: « إِلَّا كُفُورًا » أى جحوداً وتمادياً فى باطلهم وضلالهم.

لطيفة :

قال الشهاب : هذه الجملة ـ جملة وجعل الخ ـ معطوفة على جملة (أَوَلَمْ يَرَوْا۟) لأنها وإن كانت إنشائية ، فهى مؤولة بخبرية ـ كما فى (شرح الكشاف) إذ معناها : قد علموا بدلالة العقل أنه قادر على البعث والإعادة (وَجَعَلَ لَهُمْ) أى لإعادتهم (أَجَلًا) وهو يوم القيامة يعنى أنهم علموا إمكانها وإخبار الصادق بها وضربه لها أجلا . فيجب التصديق به . أو جعل لهم أجلًا ، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة . ولا يخفى على عاقل أنه لم يخلق عبثًا. فلا بد أن يجزى بما عمله فى هذا الدار . فلا معنى للإنكار . فظهر ارتباط المتعاطفين ، لفظًا ومعنى و (لَّا رَيْبَ فِيهِ) ظاهر على الثانى . وعلى الأول معناه : لا ينبغى إنكاره لمن تدبر . وقيل إنها معطوفة على قوله : (يَخْلُقَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا)

« قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ » أى رزقه وسائر نعمه على خلقه : « إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ » أى لبخلتم بها مخافة نفادها بالإنفاق . مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً . لأن هذا من طباعكم وسجاياكم . ولهذا قال سبحانه « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا » أى بخيلا .

(١) [١١ / هود/ ١٠٤] .

تنبيهات :

الأول : هذه الآية بلغت بالمشركين ، من الوصف بالشح ، الغاية التى لا يبلغها الوهم، كما قاله الزمخشرىّ .

الثانى : ما اقتضاه آخر الآية من بخل كل أحد فأما بالنسبة إلى الجواد الحقيق سبحانه؛ لأن المرء إما ممسك أو منفق . والثانى لا يكون إلا لغرضٍ للعاقل، إما دنيوىّ كعوض مالىّ ، أو معنوىّ كثناء جميل، أو خدمة واستمتاع، كما فى النفقة على الأهل . وما كان لعوض مالىّ كان مبادلة لا مباذلة . أو هو بالنظر إلى الأغلب ، وتنزيل غيره منزلة العدم كما قيل :

عَــدِّنَا فى زماننا عن حَدِيثِ المَكَارِمِ
مَنْ كَفَى الناس شَرَّهُ فهو فى جُودِ حَاتِمِ

أفاده الشهاب .

وقال ابن كثير : إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو . إلا من وفّقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له . كما قال تعالى[١] (إِنَّ ٱلإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز .

الثالث : ذكر هــذه الآية إثْرَ ما قبلها ، لتقرير انفراده تعالى بملك خزائن الرحمة ، وسعة كرمه وجوده وإحسانه . كما انفرد بتلك القدرة الباهرة من خلق السموات والأرض، كى تنجلى لهم قدرته العظمى ، وسعة خزائنه الملأى . فيصلوا بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه الرسول ﷺ ، وحقيةِ ما يدعوهم إليه .

وذكر هذ المعنى فى أسلوب بيان ما فطر عليــه الإنسان، تذكيراً له بنقصه وضعفه ، وإشفاقه وحرصه . ليعلم أنه غير مخلوق سدى ، يُخَلَّى بينه وبين ماتتقاضاه به نفسه وهواه . والمعنى : أفلا تعتبرون بسعة رحمته وعميم فضله ، ممــا يبرهن على وحدانيته فى ألوهيته ،

(١) [٧٠ / المعارج / ١٩ ـ ٢٢] .

ولا ترون ما أنتم عليه من أنكم لو ملكتم مالا نفاد له من خزائنه، لضننتم بها . مما يدلكم على أنه هو مالك الملك ، وأنكم مُسَخَّرُون لأمره . وهذه الآية كقوله تعالى[١] (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا) أى لو أن لهم نصيبًا فى ملك الله ، لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير . وقد جاء فى الصحيحين[٢] : (يَدُ اللهِ مَلأَى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض مافى يمينه) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ، فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » واضحات الدلالة على صحة ما أرسله الله به . وقد مضى الكلام عليها فى سورة الأعراف فى قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ..)الآية ، «فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أى عنها : فإنهم يعلمونها، مما لديهم من التوراة. فيظهر للمشركين صدقك ، ويزداد المؤمن بك طمأنينة قلب . لأن الأدلة إذا تظاهرت ، كان ذلك أقوى وأثبت « إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا » أى فذهب إلى فرعون وأظهر آياته ، ودعاه للإيمان به تعالى ولإرسال بنى إسرائيل معه . فقال له فرعون ما قال . وقوله (مَسْحُورًا) بمعنى سُحِرْتَ فخولط عقلك . أو بمعنى ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصا ثعباناً . وعلى الأول هو كقوله[٣] (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) .

---

(١) [٤ / النساء / ٥٣] .　　(٢) أخرجه البخارىّ فى:٩٧ ـ كتاب التوحيد، ١٩ ـ باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ٣٦ و ٣٧ (طبعتنا) .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا)

« قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ » أى يا فرعون « مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ » أى الآيات التسع « إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ » أى بيّنات مكشوفات لا سحر ولا تخيّل . ولكنك معاند مكابر . ونحوه[١] (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (والبصائر) جمع بصيرة بمعنى مبصرة أى بيّنة . أو المراد الحجج ، بجعلها كأنها بصائر العقول . وتكون بمعنى عبرة « وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » أى هالكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا)

[١٠٤] (وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)

« فَأَرَادَ » أى فرعون « أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » أى يفزعهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فرَقاً منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال . والضمير لموسى وقومه . و (الأرض) أرض مصر . أو الأرض التى أذن لهم بالمسير إليها وسكناها وهى فلسطين ، وقوله تعالى « فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا » أى فحاق به مكره . لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين، ليرجعهم إلى عبوديته ، فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق « وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد إغراقه « لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ » وهى أرض كنعان ، بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها .

(١) [٢٧ / النمل / ١٤] .

قال ابن كثير : فى هذا بشارة للنبيّ ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة . وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى[1] (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة ، على أشهر القولين، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرماً . كما أورث الله القوم ، الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال[2] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) وقال ههنا (وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ) وقوله تعالى (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ » أى قيام الساعة « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى جمعا مختلطين أنتم وعدوّكم . ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم . ثم نزه سبحانه ساحة القرآن أن يكون مفترى . وبيّن اشتماله على ما يلائم الفطر ويطابق الواقع ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[١٠٦] (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا)

« وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ » أى بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنّا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى[3] (لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ) « وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ » أى متلبسا بالحق الذى هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه . وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ماخالف الباطل . كقوله تعالى[4] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ) « وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ » أى نزلناه مفرقاً منجماً . وقرئ بالتشديد . والقراءتان

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٦] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .
(٣) [٤ / النساء / ١٦٦] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

بمعنى « لِتَقْرَأَهُو عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ » أى على مهل وتؤدة وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون فى الفهم « وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا » أى من لدنَّا على حسب الأحوال والمصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) ﴿سجدة﴾

[١٠٨] (وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا)

[١٠٩] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

« قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » .

قال الزمخشرىّ : أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه . وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيراً منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه . وثبت عندهم أنه النبىّ العربىّ الموعود فى كتبهم . فإذا تلى عليهم خرّوا سجداً وسبحوا الله تعظيما لأمره ، ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة ، وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه . وهو المراد بالوعد فى قوله (إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) .

فإن قلت (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ) تعليل لماذا ؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلًا لقوله (ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ) ، وأن يكون تعليلا لـ (قل) على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ وتطييب نفسه . كأنه قيل: تسلَّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء. وعلى الأول : إن لم تؤمنوا به

لقد آمن به من هو خير منكم . فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن ؟ قلت : السقوط على الوجه . وإنما ذكر الذقن ، وهو مجتمع اللحيين ، لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه، الذقن . فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى، إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام فى (خَرَّ لذقنه ولوجهه) قال : نخر صريعاً لليدين وللفم ؟ قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور . واختصه به . لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كرر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين ، وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين ، وخرورهم فى حال كونهم باكين . انتهى .

تنبيه :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين ، على استحباب البكاء والتخشع . فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التى وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده، يلزم الاتصاف بها . كما أن ما ذَمّ منها من مَقتَهُ منهم ، يجب اجتنابه .

وقد عدّ الإمام الغزالىّ فى (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة. قال رسول الله ﷺ(١) (اتلوا القرآن وابكوا. فإن لم تبكوا فتباكوا) وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم ، فليبك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل مافيه من التهديدوالوعيد والمواثيق والعهود . ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى. فإن لم يحضره حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء . فإن ذلك أعظم المصائب . انتهى .

وذكر السيوطىّ فى (الإكليل) أن الشافعىّ استدل بقوله تعالى (وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ) الآية ، على استحباب هذا الذكر فى سجود التلاوة . وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى: ٥ ـ كتاب الإقامة، ١٧٦ ـ باب فى حسن الصوت بالقرآن. حديث ١٣٣٧ (طبعتنا) عن سعد بن أبى وقاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)

[١١١] (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا)

«قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ» ردٌّ لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن، وإذنٌ بتسميته بذلك . أى سموه بهذا الاسم أو بهذا. و (أوْ) للتخيير. «أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى أىَّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله (فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه . إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين . فأُقيم فيه دليل الجواب مقامه ، وهو أبلغ .

ومعنى كونها أحسن الأسماء ، أنها مستقلة بمعانى الحمد والتقديس والتعظيم . وهذه الآية كآية[١] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا) « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » أى بقراءة صلاتك . بتقدير مضاف ، أو تسمية القراءة صلاة ، لكونها من أهم أركانها . كما تسمى الصلاة ركعة « وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » أى تسرّ وتخفى « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » أى بين الجهر والمخافتة ، أمراً وسطاً . فإن خير الأمور أوساطها .

قال أبو السعود : والتعبير عن ذلك بالسبيل ، باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمه المقتدون ، ويوصلهم إلى المطلوب .

روى الشيخان[٢] أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته . فإذا سمعها المشركون

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ــ كتاب التفسير، ١٧ سورة الإسراء، ١٤ ــ باب ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، حديث ٢٠٢٠ عن ابن عباس. وأخرجه مسلم فى : ٤ ــ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

لغوا وسبوا . فأمر بأن يتوسط فى صوته ، كيلا يسمع المشركون ، وليبلغ من خلفه قراءته .

ثم بيّن سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال ، بقوله تعالى « وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » أى لم يكن علةً لموجود من جنسه ، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكنا بالذات، معدوماً بالحقيقة. فكيف يكون من جنس الموجود حقًّا ، الواجب بذاته من جميع الوجوه ؟ « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ » أى من يساويه فى قوة القهر والمملكة من الشريك فى الملك. وإلا لكانا مشتركين فى وجوب الوجود والحقيقة. فامتياز كل واحد منهما عن الآخر، لا بدّ وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة. فلزم تركبهما ، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين . وأيضا فإن لم يستقلا بالتأثير، لم يكن أحدهما إلٰـها. وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه ، فلا شريك له . وإن استقلا جميعاً ، لزم اجتماع المؤثرين المستقلّين على معلول واحد، إن فعلا معا. وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر، رضى بفعله أو لم يرض . أفاده القاشانىّ .

« وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ » أى ناصر من الذل ومانع له منه ، لاعتزازه به . أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ، ليدفعها بموالاته « وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا » أى عظمه عن أن يلحقه شىء من هذه النقائص تعظيماً جليلًا .

تمّ ما علقناه على هذه السورة الكريمة ، ضحوة السبت فى ٢٦ شوال سنة ١٣٢٣ فى سدّة جامع السنانية بدمشق الشام . يسر الله لنا بعونه الإتمام ، والحمد لله وحده .

تم الجزء العاشر ، ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الحادى عشر ، وفيه تفسير :

(١٨ ـ سورة الكهف ، و ١٩ ـ سورة مريم ، و ٢٠ ـ سورة طه ، و ٢١ ـ سورة الأنبياء) .

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٦٢ / ١٩٦٩

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الحادي عشر

وفيه تفسير :

١٨ ـ سورة الكهف ، و ١٩ ـ سورة مريم ،
و ٢٠ ـ سورة طه ، و ٢١ ـ سورة الأنبياء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٨ - سورة الكهف

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمالها على قصة أصحابه الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلىّ عن الأعداء ، والإغناء الكلىّ عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية ، وقيل[1] إلا أولها إلى قوله (جُرُزًا) وقوله[2] (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ . . .) الآية[3] و (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلى آخر السورة . واختار الدانىّ أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى فى فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

(١) [١٨ / الكهف / ١ـ٨] . (٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .
(٣) [١٨ / الكهف / ١٠٧ـ١١٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ » قدَّمنا أن كثيراً ماتفتح السور وتختم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال (لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ)(١) وتعليما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذى بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى. وفى إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العليّة ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه. فإنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد ، والداعى إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شىء فى معناه يماثله . وفى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزَل والمنزَل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم فى سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام . وتعريفُ الكتاب للعهد . أى الكتاب الكامل الغنىّ عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخيره عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، ليتصل به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا » أى شيئاً من العوج ، باختلال فى نظمه وتناف فى معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيلًا للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [٢٨ / القصص / ٧٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)

[٣] (مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيِّماً » أى قيّماً بمصالح العباد وما لابد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بعد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قيماً على الكتب السالفة ، مهيمناً عليها . أو متناهياً فى الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نفى العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبئ عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره (جعله) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه أخر .

تنبيه :

ذهب القاشانىّ أن الضمير فى (لَّهُۥ) وما بعده لقوله (عَبْدِهِ) قال: أى لم يجعل لعبده زيغاً وميلاً . وجعله قيّماً ، يعنى مستقيما ، كما أُمِرَ بقوله[1] (فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ) أو قيّماً بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على الكمال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام، لما فُرِغ من تقويم نفسه وتزكيتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأُمِرَ بتقويمها وتزكيتها . ولهذا المعنى سمى إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القيّميّة أى القيام بهداية الناس ، داخلة فى الاستقامة المأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .

والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ » أى لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و (البأس) : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله (مِّن لَّدُنْهُ) إشارة إلى زيادة هَوْله. ولذلك عظمه بالتنكير . متعلق بـ (أَنزَلَ) أو بعامل (قَيِّمًا) « وَيُبَشِّرَ

(١) [١١ / هود / ١١٢] .

ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى به . وقال القاشانىّ: أى الموحدين، لكونهم فى مقابلة المشركين، الذين قالوا اتخذ الله ولداً . وقوله تعالى « ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى من الخيرات والفضائل « أَنَّ لَهُمْ » أى بأن لهم ، بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة « أَجْرًا حَسَنًا » وهو الجنة « مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا)

« وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب فى قولهم (الملائكة بنات الله) والنصارى فى (دعواهم المسيح ابن الله) وخصهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلقاً بهم، استعظاماً لكفرهم . وتركُ إجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى (وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة ، فى الكفر على أقبح الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

«مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ» أى مالهم بالولد، أو باتخاذه، أو بالقول، من علم . بل إنما يصدر عن جهل مفرط ، وتوهم كاذب ، وتقليد للآباء. لا عن علم يقين ، ويقين. ويؤيده قوله « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أى ما أكبرها كلمة « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ » وذلك لأن الولد مستحيل لا معنى له . إذ العلم اليقينىّ يشهد أن الوجود الواجبىّ أحدىّ الذات ، لا يماثله الوجود الممكن . والولد هو المماثل لوالده فى النوع ، المكافئ له فى القوة. وجملة (تخرج من أفواههم) صفة لـ(كَلِمَةً) تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم. قال الشهاب: لأن المعنى : كبر خروجها . أى عظمت بشاعته وقباحته ، بمجرد التفوه . فما بالك باعتقاده « إن

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » أى قولًا كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلًا . وذلك لتطابق الدليل القطعىّ ، والوجدان الذوقىّ على إحالته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦] (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا)

« فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ » أى مهلكٌ « نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه. أو متأسفاً عليهم. و(الأسف) فرط الحزن والغضب. وفى (العناية) : لعل للترجى. وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه. وهى هنا استعارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو آسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقته أحبته . فهمّ بقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك ـ كما قال القاشانىّ ـ أن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم من لوازم محبة الله ونتائجه . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله لقوله[1] (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ) وكلما كانت محبته للحق أقوى، كانت شفقته ورحمته على خلقه أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه . بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقىّ . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضاى ، وأقدر على مخالفتها لموافقتى .

---

(١) [٥ / المائدة / ٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

« وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى تراباً مستوياً لانبات فيه . بعد ما كان يبهج النظار ، لا شيء فيه يختلف ، رُبًى ووهاداً . أى نفنيها وما عليها ولا نبالى . وفى الآية تسلية له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نفنيها ، ولا حيف ولا نقص . أوْ لا تحزن فإنا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا)

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا » أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفاً بالمصدر مبالغة و (مِن ءَايَـٰتِنَا) حال منه و (أَمْ) للاستفهام التقريرىّ بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلُها منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار) ـ أى إنكار حسبانهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى ـ فيه بُعْدٌ . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلّا لتقرير التعجب منها . و (الكهف) الغار الواسع فى الجبل . و (الرقيم) اسم كلبهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

« إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ » أى خوفاً من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حالهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم « فَقَالُواْ رَبَّنَآ » أي من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً » أي من خزائنك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أي أنمناهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخبير ، ولا دعوة الداعي الخبير ، في الكهف سنين ذوات عدد . أي كثيرة أو معدودة. قال الشهاب : (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أنمناهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إمّا من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شُبِّه ، لاستغراقه في نومه حتى لا ينتبه بمنبه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا)

« ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ » أي أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا » أي لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع . وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أي إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدوّ ، فيتمّ لهم رشدهم في شكره ، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى)

«نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ »شروع فى تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و(الحق) الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ » أى بوحدانيته إيمانا يقينيا علميًّا على طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك «وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى» أى بترجيح جانب الله على جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية ــ وهم الشباب ــ أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد يروى عن هؤلاء الفتية روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحواريين . فاستجاب لذلك الفتيةُ المنوه بهم . وخلعوا الوثنية التى عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يفتنهم ملكهم عن دينهم أو يقتلهم . فاستخفوا عنه فى الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، . فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ،فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذى كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟ فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ (فَابْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى الْمَدِينَةِ) وكان ورِق ذلك الزمان لدولة أهله. فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام . فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر ما رأى. ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا؟ هذا من ورِق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره . فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريهم . فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ (قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولا ، وفيه كفاية عن غيره .

وسنذكر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم .

وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها من الآثار القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعماً متوارثاً ، أنه لأصحاب الكهف . والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أي قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناهم على محاربة الشيطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسّرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُوا۟ » أي بين يديه غير مبالين به . و (إذ) ظرف لـ(ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى الشدّ المعروف . أي استعارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القلق والخوف يزعج به القلب من محله، كما قال تعالى[١] : (وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ) فشبه القلب المطمئن لأمرٍ ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

بالحيوان المربوط فى محلٍّ . وعدَّى (ربط) بـ (على) وهو متعدٍّ بنفسه ، لتنزيله منزلة اللازم « فَقَالُواْ رَبُّنَا » الذى نعبده « رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَن نَّدْعُوَاْ » أى نعبد « مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا » أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ، لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)

« هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفى الإشارة تحقير لهم « لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم » أى على عبادتهم أو إلٰهيتهم أو تأثيرهم « بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ » أى حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشانىّ : دليل على فساد التقليد ، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلٰهية غير الله ، وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال(١) : (إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ) أى أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشىء « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له فى الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون فى حق الله ، لافترائهم عليه بأن فى رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . ثم خاطب بعضهم بعضًا بقولهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا)

«وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ» أى وإذ اعتزلتم القوم،

(١) [٥٣ / النجم / ٢٣] .

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو فى ضمن عبادتهم له ، فأووا إلى الكهف الذى لا يطلعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا ، من السكون فيه ، فواتَ الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد ما دعوتموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ » أى ما يغنى عن الطعام والشراب، بالإمدادات الملكوتية والتأييدات القدسية « وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مِّرْفَقًا » أى ما تنتفعون به . قال المهايمىّ : يرفق بنفوسكم فيعطيها من لذات عبادته ما ينسيها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالية عن الأذيات كلها . وجَزْمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تنبيه :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأسى بأهل الكهف فى الاعتزال ، إذا اضطُهد المرء فى دينه وأريد على الشرك . وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمامُ الغزالىّ حيث قال فى (إحيائه): وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أى ولا ريب فى مشروعيته فرارًا من الفتن .

فقول السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون الغيران والجبال عند فساد الزمان ـ كلام مجمل لابد من التفصيل فيه . وأى عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية فى الاضطهاد فحسبُ ، فافهم ولا تَغْلُ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ،

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا)

« وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت » أى صعدت عند طلوعها « تَّزَٰوَرُ » أى تميل « عَن كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ ٱلْيَمِينِ » أى يمين الكهف «وَإِذَا غَرَبَت » أى هبطت للغروب « تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس. وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال. فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله. فيقع شعاعها على جانبيه. يحلل عفونته ويعدل هواءه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم. قال الشهاب : (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع. أى قطع الاتصال بهم لئلا تغير أبدانهم . وقولُ الفارسيّ إنه من قرض الدراهم ، والمعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد ـ مردود، بأنه لم يسمع له ثلاثيّ.

وفى (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعدل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من (القرض) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم فيه، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَن يَهْدِ ٱللَّهُ » أى إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه « فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا » أى ناصرًا يلى أمره فيحفظه من الضلال « مُّرْشِدًا » أى يهديه إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ، لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يامخاطب ، أيقاظاً لا نفتاح أعينهم ، وهم رقود مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير: ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عينا . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

ينامُ بإحدى مقلتيه ويَتَّقِى بأخرى الرزايا فهو يقظانُ نائمُ

و (أَيْقَاظًا) جمع يَقِظ ويقظان . و (رُقُودٌ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود، لأن فاعلًا لا يجمع على فعول ـ مردود بما نص عليه النحاة كما صرّح به فى (المفصّل) و (والتسهيل) « وَنُقَلِّبُهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ » أى لئلا تتلف الأرض أجسادهم « وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » أى بفناء الكهف أو الباب . وقد شملت بركتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، قال ابن كثير : وهذا فائدة صحبة الأخيار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالغيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكلبٍ ، ليهابوهم مع هيبةٍ ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » أى خوفا يملأ صدرك، لما ألبسوا من الهيبة. فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك ـ كما قال ابن كثير ـ لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءها تبارك وتعالى فيهم . لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ » أي وكما أعنماهم تلك النومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيآتهم وأحوالهم شيئاً ، ادّكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً. قال ابن كثير : وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين. وقوله تعالى « لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ » أي ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرِّموا به . أفاده الزمخشريّ .

وبه يتبيّن أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لَحَظَ أن الغرض من فعله تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » أي رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهارٍ ، واستيقاظهم كان في آخر نهار. ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايميّ : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ، ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية، ظن أنهم لبثوا بعض يوم . فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالوليّ يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشريّ : جواب مبنيٌّ على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون خطأً .

« قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله أعلم بعدة لبثهم.

كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة ، أو بإلهام من الله ، أن المدة متطاولة ، وأن مقدارها مبهم . فأحالوا تعيينها على ربهم . « فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ » أى المأخوذة للتزود . و (الورق) الفضة « إِلَى ٱلْمَدِينَةِ » أى التى فررتم عنها « فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا » أى أطيب . « فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أى فى المبايعة واختيار الطعام . أوفى أمره بالتخفى ، حتى لا يشعر بحالكم ودينكم « وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا)

« إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ » يطلعوا على مكانكم « يَرْجُمُوكُمْ » أى يقتلوكم بالحجارة « أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ » أى يدخلوكم فيها بالإكراه العنيف « وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا » أى إذا صرتم إلى ملتهم. قال القاشانىّ: ظهور العوامّ، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين ، ورجمهم أهل الحق ، ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ـ ظاهر . كما كان فى أوائل البعثة النبوية .

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : كيف وصلوا قولهم (فَٱبْعَثُوٓاْ) بتذاكر حديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك . لا طريق لكم فى علمه . فخذوا فى شىء آخر مما يهمكم . انتهى .

ورأى المهايمىّ أن قولهم (فَٱبْعَثُوٓاْ) من تتمة حديث المدة. قصد به تفحصها. كأنهم لما أحالوا تعيينها على الله تعالى بقولهم (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) قالوا هذه الإحالة لا تمنع من طلب العلم بالمدة . ولو فى ضمن أمرٍ آخر ، فاطلبوه فى ضمن حاجةٍ لنا. وهى أن تبعثوا أحدكم

بورقكم هذه لئلا نحوج إلى السؤال عن المدة. لاسيا فى مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به، فيفضى إلى الهلاك .

الثانية ـ قال فى (الإكليل) : قوله تعالى (فَابْعَثُوٓاْ) الآية ، أصل فى الوكالة والنيابة.

قال ابن العربىّ : وهى أقوى آية فى ذلك .

قال الكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا فى الأكل .

الثالثة ـ دلّ قوله تعالى عنهم (فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا) على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طبًّا الاعتناء بجودته وتزكيته ، كما فصّل فى قوانين الصحة .

الرابعة ـ قال الرازىّ : (الرجم) بمعنى القتل، كثير فى التنزيل كقوله[1] (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ) وقوله[2] (أَن تَرْجُمُونِ) وأصله الرمى ، أى بالرجام وهى الحجارة . ولا يبعد إرادة الحقيقة فى موارده كلها ، زيادة فى التهويل . فإن الرجم أخبث أنواع القتل. وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)

« وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى كما أنمناهم وبعثناهم لما فى ذلك من الحكمة ، أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقادمة العهد « لِيَعْلَمُوٓاْ

(١) [١١ / هود / ٩١] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٠] .

أَنَّ وَعْدَ ٱللَّـهِ حَقٌّ » أى ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم، أن وعد الله بالبعث حق. لأن حالهم فى نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث « وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ » أى الموعود فيها بالبعث « لَا رَيْبَ فِيهَآ » إذ لا بد من الجزاء بمقتضى الحكمة . ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم ، وعناية قومهم بحفظ أجداثهم ، بقوله سبحانه « إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا » أى على باب كهفهم بنيانا عظيما. كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم و (إِذْ) على ما يظهر لى ، ظرف لـ (اذكر) مقدرًا . والجملة مستأنفة لبيان ختم نبئهم بما جرى بعد مماتهم ، إثْرَ ماأوجز من نبئهم بعد بعثهم والإعثار عليهم . وجعلُهُ ظرفاً لـ (أَعْثَرْنَا) أو لغيره مما ذكروا ـ ليس فيه قوة ارتباط ولا دقة معنى

وقوله تعالى (فَقَالُواْ) تفسير للمتنازع فيه . وقوله تعالى ، « رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جملة معترضة . إما من الله ، ردًّا على الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين فيهم على عهده ﷺ من أهل الكتاب، أوهى من كلام المتنازعين فى عهدهم. كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب وتحاوروا فى أحوالهم ومدة لبثهم . فلما لم يهتدوا أحالوا حقيقة نبئهم إليه تعالى « قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ » أى من المتنازعين ، وهم أرباب الغلبة ونفوذ الكلمة « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » أى نصلى فيه ، تبركا بهم وبمكانهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : حكى فى القائلين ذلك قولان (أحدها) أنهم المسلمون منهم (والثانى) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر. لأن النبيّ ﷺ قال[1] : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد) يحذّر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٥ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٥ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعتنا).

وعجيب من تردده فى كونهم غير محمودين ، مع إيراده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلـهىّ والمقت الربانى . والسبب فى ذلك أن البناء على قبر النبيّ والولىّ مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس فى قوله تعالى[1] (وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادى عليه الرحمة ، فى كتابه (الصارم المنكى) بعد إيراده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا فى زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام فى زيارة القبور . وتلقّاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبيّ ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج. ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيه عن الصلاة إليها ، ونهيه عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله ربه تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٣] .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غالط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيما . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرج ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، ونزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم ـ كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظّم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظَّم ويبغضه ، ويمقت فاعله ، فلم يعظمه فى الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فتعظيم الرسول ﷺ أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يُقدّم على ماجاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما مايحبه المعظَّم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله ، فهذا هو التعظيم فى الحقيقة . والثانى ما يكرهه ويبغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعليّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبيّ ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفى المسند[1] بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يامحمد! ياسيدنا! وابن سيدنا ! وخيرنا ! وابن خيرنا ! فقال رسول الله ﷺ (عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبدالله ، عبدُ الله ورسولُه . ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عزّ وجلّ) . وقال ﷺ[2] : (لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال[3] : (إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣١ ـ باب رجم الحبلى فى الزنى إذا أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة فى آخر حجة حجها .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ (طبعتنا) .

يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس فى تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوّ مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع . وللبحث تتمة مهمة فانظره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون فى قصتهم على عهد النبيّ ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظنًّا خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه «قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا » أى لا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ، إلا جدالًا ظاهراً ليناً غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالىّ ، وتفويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف بهم ، فى الرد عليهم كما قال[1] (وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) فإن الأمر

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

فى معرفة ذلك لايترتب عليه كبير فائدة . قيل : المماراة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة المحاجّة مطلقاً . والمماراة المحاجة فيما فيه مرية أى تردد ، لأنها من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجما بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ماعنده ، ينافى مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لامرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجما بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو فى قوله (وَثَامِنُهُمْ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لاعدد وراءه . كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدّة . وأقول : لايخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لايخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه فى الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية. فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء فى شىء . وجوابُ بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لقنهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية ـ بعيدٌ غاية البعد ، وتكلف ظاهر ، وإغراب فى القول .

ثم قيل : إن هذه الجملة لاتتعين للوصفية . لجواز كونها حالًا من النكرة، لأن اقترانها بالواو مسوّغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكروه لو لم يُتبع قولهم بقوله تعالى (قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) فإن فى تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهانا ظاهرا على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام ، ردّ العلم إليه تعالى . وإشارةً إلى أنه لااحتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلاعلم بيّن وبرهان نيّر . وإنه إذا أوقفنا على الفيصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده (مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إما نبيّ ، أو من كان فى مدتهم ، أو من نقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلق عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسدّ من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هـذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة ـ فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبيّ ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس فى عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازىّ نقل عن القاضى أنه قال : إن كان ـ ابن عباس ـ قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لى الآن .

وبعد كتابتى لما تقدم بمدة، وقفت على نبئهم فى (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما ستراه فى آخر الآيات فيهم . فسنح لى أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الأكثرون، ومن تواتر عدتهم من قومهم وممن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله، حيث قال فى (قاعدة له فى التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ـ مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا. فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته. إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما. ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال فى مثل هذا (قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال (فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه . أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل فى هذ المقام .

الثانى ــ قال الرازىّ : ذكروا فى فائدة الواو فى قوله (وَثَامِنُهُمۡ) وجوهاً :

الأول ــ ما ذكروه أنه يدل على أن هــذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

وثانيها ــ أن السبعة عند العرب أصل فى المبالغة فى العدد. وإذا كان كذلك، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف، فقالوا: وثمانية .فجاء هذا الكلام على هذا القانون. قالوا: ويدل عليه نظيره فى ثلاث آيات، وهى قوله[1] : (وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله[2] : (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله[3] : (ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا) لأن قوله : (وَأَبۡكَارٗا) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . (واو الثمانية) ومعناه ما ذكرناه .

---

(١) [٩ / التوبة / ١١٢] .(٢) [٣٩ / الزمر / ٧٣] .(٣) [٦٦ / التحريم / ٥] .

قال القفّال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى[1]: (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ) ولم يذكر الواو فى النعت الثامن . انتهى .

وقال فى (الانتصاف) : الصواب فى الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واوا لثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم . ويعدون مع هذه الواوَ فى قوله فى الجنة (وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن فى اللغة واوا تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد فى أبواب الجنة حتى ينتهى إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك (وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) وهو الثامن من قوله (ٱلتَّٰٓئِبُونَ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التى هى (ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما فى جميع مصادرها ومواردها؟ كقوله[2](يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)وكقوله[3] (وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)وربما عدّ بعضهم من ذلك ، الواوَ فى قوله:(ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فاحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول (ثَيِّبَٰتٍ أَبْكَارًا) لم يستدّ الكلام. فقد وضح أن الواو فى جميع هذه المواضع المعدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث : حكى فى (الإكليل عن مجاهد فى قوله تعالى : (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدّىّ : إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلاحجة ظاهرة . وقوله تعالى :

---

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٧١] .
(٣) [٣١ / لقمان/١٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا)

[٢٤] (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا)

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » فى هـذه الآية وجوه من المعانى . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك فى القول ، فتكون قائلا بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشىء لا تعلم إلا بإذنه فيه أى إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمت عليه من فعل، إنى فاعل ذلك غداً إلا قائلا معه إن شاء الله تبرؤا من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلًا بمشيئته . ولئلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لاتقولن ذلك قاطعاً بفعله وباتًّا له . لأنه(١) (وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) فلا ينبغى الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) أى أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : (وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وعلى هـذه الوجوه كلها فـ (لَا تَقُولَنَّ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ فى كتاب (الحيوان) : إنما ألزم جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليبقى عادة المتألى ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى، وعلى أن يكون عبده ذاكراً لله. لأنه عبد مدبَّر، ومقلَّب ميسَّر، ومصرَّف مسخَّر.

وبقى وجه آخر. وهو أن المعنى لاتقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لكل ما يعزم عليه ويقوله . كقوله تعالى(٢)

---

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣٠] .

(وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر ببادئ الرأى كما قاله فى (الانتصاف) وفى هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان همّ بأمرٍ مافى نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر فى غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم . فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولًا أوليًّا . أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله ، إذ شاء الله أن تقوله . فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب ، إثْرَ ما يومئ إليه النهى إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهى عن استفتائهم ، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسى ، أى نسى ما وصّى به . وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه .

فدعوى الناصر فى (الانتصاف) أنه ليس هو الغرض ، وأن الغرض النهى عن هذا القول إلا مقرونًا بمشيئته تعالى ـ قصرٌ للآية على أحد معانيها ، وذهاب إلى ما هو المشهور فى تأويلها ، وعدم تعمن فى مثل هذا المعنى الدقيق ، بل وفى بقية المعانى الأخر التى اللفظ الـكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقته لآية (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضا . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى «وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا» أى خيرًا ومنفعة. والإشارة ، للنبأ المتحاوَر فيه .

تنبيهات :

الأول ـ روى أنه صلوات الله عليه سُئل عن أصحاب الـكهف والروح وذى القرنين ، فقال : أجيبكم عنها غدًا ولم يستثن. فاحتبس الوحى خمسة عشر يومًا ، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية . وقد زيف هذه الروايةَ القاضى ـ كما حكاه الرازىّ ـ من أوجه . والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول . كما ساقه عنه ابن كثير وغيره ، والله أعلم .

الثانى ـ يشير قوله تعالى « وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى » الآية ، إلى أن هذا النبأ ليس مما تنبغى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه ، وابتغاء الرشاد فيه ، حتى يتكلف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمته آيات التنزيل في شأنها .

الثالث ـ اعترضت هذه الآداب أعني من قوله تعالى (فَلَا تُمَارِ) إلى هنا قبل تتميم نبئهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع ـ روى عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثن ، وذلك (كما قال القرطبي) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في (الانتصاف) : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكي عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . فقيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي (حصول المأمول) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في (مستدرك الحاكم) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثني إلى سنة) ومثله عند أبي موسى المديني وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجملة فالرواية عنه رضي الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القيم في (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئا ولم يستثن ، فله أن يستثني عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه. والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكر، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود[١] وغيره (والله ! لأغزونّ قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله) . ومنها حديث[٢] (ولا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر) . وهو فى الصحيح . ومنهـا قوله[٣] ﷺ فى صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا)

[٢٦] (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ، لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا)

« وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ » حكاية لقول أهل الكتاب فى عهده ﷺ ، فى مدة لبثهم نائمين فى كهفهم الذى التجأوا إليه ، ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ) وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضى الله عنـه (وَقَالُواْ وَلَبِثُواْ) قيل : وعليه فيكون ضمير (وَٱزْدَادُواْ) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه وجه العدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

(١) أخرجه أبوداود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ١٧ ـ باب الاستثناء فى اليمين بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٧ ـ باب الإذخر والحشيش فى القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ (طبعتنا) .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة. ولايخفى ركاكة ماذكر، فإن الضمير للفتية.ووجه العدول موافقة رؤوس الآى المقطوعة بالحرف المنصوب . ودعوى الأخصرية تدقيق نحوىّ لاتنهض بعثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأباها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربى يجد بينهما فى الطلاوة بعد المشرقين . ودعـوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الـكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، بيــانا للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين ــ دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الـكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية ، فلذلك قال : (وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً) لنقف على تحديد ماعنوه ، ومن أين يثبت ذلك؟ وما الداعى لهذا التعمق المشوش ؟ والآية جلية بنفسها فى دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية ، وبأى منها قالوا : فقد رد عليهم بقوله : (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ » أى بمقدار لبثهم . فلا تَقْفُوا ماليس لـكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما ، أى أنه هو وحده العالم به « أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ » أى ماأبصره لـكل موجود ! وأسمعه لـكل مسموع لايخفى عليه شىء ولا يحجب بصره وسمعه شىء .

قال الزمخشرىّ : جاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره فى الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرما ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ) المنتخبُ على جواز إطلاق صيغة التعجب فى صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى . يعنى

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما فى الآية . وقد يقال بالوقف . ينبغى التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُم » أى أهل السموات والأرض فى خلقه « مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ » أى يتولى أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦ » أى قضائه « أَحَدًا » أى من مكوناته العلوية والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتدبيرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .

قال المهايمىّ : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من قبيل المسموع ، فهو أسمع . أو من قبيل المبصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جدًّا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا)

« وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ » أى بتبليغ مافيه . ومنه ما أوحى إليك من نبأ الفتية ، فإنه الحق الذى لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشانىّ : يجوز أن تكون (من) لابتداء الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذى منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بيانا لما أوحى « لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ » أى لا مغيّر لها ولا محرّف ولا مزيل .

قال القاشانىّ : (كلماته) التى هى أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها . فأشار إلى أن النسخ إنما هو فى الفروع لا الأصول .

والأظهر فى معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله[1] (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ) وأما هو سبحانه فهو فعّال لما يريد « وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا) أى ملجأ .

(١) [١٣ / الرعد / ٤١] .

وذهب ابن جرير[1] فى تفسير هـذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركنّ تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين . وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ) يقول لامغير لما أوعد بكلماته التى أنزلها عليك، أهلَ معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك . وقوله (وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا) يقول وإن أنت لم تتل ماأوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتم به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله موئلًا تئل إليه ، ومعدلًا تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه، لايقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر فى تواريخ المسيحيين، وعيد سنوىّ يقام تذكاراً لهم ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم فى الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التى كانت عليها اليونان . وقد رأيت فى كتاب (الكنز الثمين فى أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) نقتطف منها مايأتى ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لايعرف أصلًا ، كما قرأته فى بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة: هؤلاء الشهداءالسبعة كانوا إخوة بالجسد. وأسماؤهم: مكسيميانوس ومالخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية . فى زمن الاضطهاد القاسى الذى صنعه ضد المسيحيين، الملك داكيوس.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقدأجلّهم المسيحيون كشهداءحقيقين. فيقامهم فى الكنائس مدائح تنشر فيها صفاتهم الفاضلةيوم استشهادهم ثمة، فى اليوم الرابع من شهر آب، المختص بتذكار الأعجوبةالتى بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة فى المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهادهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية فى سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة فى التواريخ الكنائسية المدققة . بل إن المؤكد عنهم أن استشهادهم كان فى زمن الملك دا كيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم فى مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال: فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتؤون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية فى تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان فى مدينة أفسس .وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت فى المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم فى المغارة المذكورة، ليموتوا برضاهم، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التى كان يتكبدها المسيحيون فى ذاك الاضطهاد الوحشىّ .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة ، فقد تحقق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك فى ٤ آب سنة ٤٤٧ فى زمن ولاية الملك (ثاوضوسيوش الصغير) .

ثم قال: ودرج على أفواه الشعوب؛ أن هؤلاء الفتية، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر دا كيوس الملك ،لم يموتوا ضمنها ، لاموتاً طبيعيا ولاقسريًّا . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتى سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعىّ سنة (٤٤٧) .

ثم قال: وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلَى ، بعد أن دفنوا فى ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً ، بواسطة خارقة مَّا ،

ونقلت من مدفنهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيّدوا حقيّة إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى (تاريخ الكنيسة) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً، اعتنى الروم واللاتيّون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يسلّمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة. التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ أكاذيب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته، واقتلعه من جذوره ، القرآنُ الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى[1] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف. وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذى بأيدينا. وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها

(١) [١٨ / الكهف / ٥٠] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه ومنكره وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوىّ والمقام المحمدىّ خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا)

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ» أى احبسها وثبتها « مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ » أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا » أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة . أو وجدناه غافلا عنه . وذلك لئلا يؤديك إلى الغفلة عنه « وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا » أى متروكا متهاونا به مضيّعاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهىّ عن إطاعتهم ، بالموصول ، للإيذان بعلّية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير[١] : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبىّ ﷺ جالساً مع خبّاب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يقيمهم عنه إذا حضروا . وفى رواية ابن زيد[١] : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ) . وروى مسلم[٢] عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبيّ ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبيّ ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع . فحدَّث نفسه . فأنزل الله عزّ وجل (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاريّ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ، بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا)

« وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلىّ منه تعالى « فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ » إمّا من تمام القول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ماقبلها ، بطريق التهديد . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلىّ حق لاريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليفعل . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم ، وجوداً وعدماً ــ ما لا يخفى . وإمّا تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ــ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٥و٤٦ (طبعتنا) .

والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل . أفاده أبو السعود. وفى (العناية) : الأمر والتخيير ليس على حقيقته. فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله[1] (أَسِيئِى بِنَا أو أَحْسِنِى لا مَلُومَةً) وهذا رد عليهم فى دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالى به حتى نطردهم لذلك ، بعد ماتبين الحق وظهر. وقوله تعالى : « إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا » وعيد شديد، وتأكيد للتهديدوتعليل لما يفيدهمن الزجر عن الكفر. أو لما يفهم من ظاهر التخيير، من عدم المبالاة بكفرهم وقلةالاهتمام بزجرهم عنه. فإن إعدادجزائه من دواعى الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدىّ . أى قل لهم ذلك (إنا أعتدنا للظالمين) أى هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم بـ(الظالمين) للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوزٌ عن الحد ووضع للشىء فى غير موضعه . أفاده أبو السعود. وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أى فسطاطها. وهى الخيمة. شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار فى الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط للمنع من الوصول إليه . شُبه ما يحيط بهم من جهنم بها . يقال بيت مسردَق ، ذو سرادق « وَإِن يَسْتَغِيثُواْ » أى من الظمأ لاحتراق أفئدتهم « يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ » أى كالحديدالمذاب وكعكر الزيت، وقال القاشانىّ: من جنس الغسَّاق والغِسْلين ، أى المياه المتعفنة التى تسيل من أبدان أهل النار ، مسودّة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة. ويؤيده قوله تعالى[2] (وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ) «يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ » أى إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثيّر عزّة . وعجزه: لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ .(٢) [١٤/إبراهيم/١٧]

« وَسَآءَتْ » أى النار « مُرْتَفَقًا » أى متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد. وذكره لمشاكلة قوله (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله[1].

إنى أَرِقْتُ فبتُّ الليلَ مرتفقاً كأن عَيْنِى فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

والصاب: شجرمرّ يحرق ماؤه العينَ . ومذبوح: مشقوق. وفى كتاب (تنزيل الآيات) فى الصحاح : بات فلان مرتفقاً، أى متكئاً على مرفق يده. وهو هيئة المتحزنين المتحسّرين. فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولا للتهكم، بل هو على حقيقته. كما يكون للتنعّم يكون للتحزن. وتعقبه فى (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخدّ للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يعرّجوا عليه . ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)

[٣١] (أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ، نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبى هذيل الهذلىّ . وهو فى اللسان فى مادة (ص و ب) .
وروايته هناك (مشتجرًا) بدل (مرتفقاً) .
وفى الديوان ١/١٠٤ (نام الخلىّ) عوضاً عن (إنِّى أرِقْتُ) .

ثِيَاباً خُضْرًا مِّن سُندُسٍ » وهو ما رقّ من الديباج « وَإِسْتَبْرَقٍ » وهو ما كثف منه « مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السرر على هيئـة المتنعمين « نِعْمَ ٱلثَّوَابُ » أى الجنات المذكورة « وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً » أى متـكأً . وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، لآية[1] (إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً) وآية[2] (حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

« وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى للمؤمن والـكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب « زَرْعًا » أى لحصل منهما الفواكه والأقوات ، فـكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ، وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا)

« كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا » أى ثمرها كاملة « وَلَمْ تَظْلِم » أى لم تنقص « مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا » أى فيما بينهما « نَهَرًا » أى يسقى الأشجار والزروع ، ويزيد فى بهجة مرآها ، تتميما لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)

« وَكَانَ لَهُۥ » أى لصاحب الجنتين « ثَمَرٌ » أى أنواع من المـال غير الجنتين . من

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٦] .   (٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٦] .

(ثمَّرَ ماله) إذا كَثَّره « فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ » أي يراجعه الكلام، تعييرًا له بالفقر ، ونخراً عليه بالمال والجاه « أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أي أنصاراً وحشماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا)

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ » أي بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها . كما يدل عليه السياق ومحاورته له . وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر ، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها ، وإما لاتصال إحداها بالأخرى ، وإما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة . وقيل: الإضافة تأتى لمعنى اللام . فالمراد بها العموم والاستغراق . أى كل ما هو جنة له يتمتع بها . فيفيد ما أفادته التثنية معزيادة . وهى الإشارة إلىأنه لا جنة له غير هذه « وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بما يوجب سلب النعمة ، وهو الكفر والعجب . وفى (العناية) ظُلْمُهُ لها إما بمعنى تنقيصها وضررها، لتعريض نعمتهللزوال ونفسه للهلاك، أو بمعنى وضعالشيء فيغيرموضعه. لأن مقتضى ما شاهده التواضع المبكى ، لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبداً . والكفر بإنكار البعث كما يدل عليه قوله « قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ » أى تهلك وتفنى « هَٰذِهِۦٓ » أىالجنة « أَبَدًا » لاعتقاده أبدية الدهر ، وأن لا كون سوى ماتقععليه مشاعره . ولذا قال:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)

« وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً » أى كائنة آتية ، وقوله « وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا » إقسام منه على أنه ، إن رد إلى ربه ، على سبيل الفرض والتقدير ، كما يزعم صاحبه ، ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا ، تطمعاً وتمنياً على الله ، وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده . وإنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله .

وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله[١] : (إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ)[٢] (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) و (مُنقَلَبًا) أي مرجعًا وعاقبة . أفاده الزمخشري .

قال المهايمي : فكفر بالقول بقدم العالم ونفى حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال (لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا) والقول بقدم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته . وبإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفي الحكمة الإلهية . ثم بيّن تعالى ماأجابه به صاحبه المؤمن ، واعظًا له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا)

« قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ » أي الذي عيّره بالفقر، تعييراً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ » أي يراجعه كلام التعيير على الكفر ، محاورته كلام التعيير على الفقر ، في ضمن النكر عليه « أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ » أي بجعل التراب نباتًا ثم جعله غذاء يتولد منه النطفة « ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا » أي عدّلك وكملك إنسانًا ذكراً بالغًا مبلغ الرجال .

قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعلّيّة ما في حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذي نطق به قوله تعالى عز من قائل[٣] : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ) الآية ، وكما قال تعالى[٤] (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ) الآية . قال ابن كثير : أي كيف تجحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء

(١) [٥١ / فصلت / ٥٠] . (٢) [١٩ / مريم / ٧٧] .
(٣) [٢٢ / الحج / ٥] . (٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

من المخلوقات ، لأنه بمثابته . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء.
ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا)

« لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا » أى لـكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحـداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر (لَّـٰكِنَّا) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا . والباقون بحذفها وصلًا ، وبإثباتها وقفًا . فالوقف وفاق . وأصله لـكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون فى مثلها فصار (لـكن) ثم ألحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن الوقف على (أنا) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لـكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لـكن) المشددة . قال الزمخشرىّ : ونحوه قول القائل(١) :

وتَرْمِينَنى بِالطرفِ أىْ أنْتَ مُذْنِبٌ ... وتقلينني لـكنَّ إيَّاكِ لَا أَقْلِى

أى لـكن أنا لا أقليك . ويقرب منه قول الآخر(٢) :

ولو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتى ... ولـكنّ زَنْجِىٌّ عظيمُ المَشَافِرِ

أى ولـكنك . وقوله تعالى :

---

(١) الأضداد لابن الأنبارىّ ص ١٦٣ والخزانة ٤/٤٩٠ وقال « لم أقف على تتمته وقائله ، مع أنه مشهور ، قلما خلا منه كتاب نحوىّ . والله أعلم » .
الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبرىّ (طبعة المعارف) .
(٢) أنشده سيبويه فى كتابه ١/٢٨٢ .
وقائله الفرزدق .
وأنشده فى اللسان فى مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولـكن زنجيًا ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ، إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا)

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا)

« وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ » أي هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشريّ. يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل، على أنها خبر مبتدأ محذوف. تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أي شيء شاء الله كان) ونظيرها في حذف الجواب (لو) في قوله[(١)] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ) والمعنى: ـهلا قلت عند دخولها، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها . وقلت « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونته وتأييده . إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده ، إلا بالله تعالى. والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ » أي في الدنيا أيضاً « خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أي مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية « مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا » أي تراباً أملس لا تثبت فيها قدم ، لملاستها

(١) [١٣ / الرعد / ٣١] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا » أى حيلة تدركه بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبيه :

كل من قوله تعالى (إِن تَرَنِ) وقوله (أَن يُؤْتِيَنِ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يثبتها وبعضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا)

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ » أى بإهلاكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزمخشرىّ : (أحيط به) عبارة عن إهلاكه . وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى[1] (إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) .

ومثله قولهم : (أتى عليه) إذا أهلكه . من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليا عليهم . يعنى إنه استعارة تمثيلية. شبه إهلاك جنتيه بما فيهما، بإهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضاً، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا» أى فعيّر نفسه أكثر من تعييره صاحبه وتعيير صاحبه إياه . قال الزمخشرىّ : تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كنى عن ذلك بِعَضّ الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدّى تعديته بـ (على) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أنفق فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفا لغوًا . ويجوز كونه ظرفاً مستقرًّا متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [١٢ / يوسف / ٦٦] .

ـ كما قال الراغب ـ الغم على مافات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها .
و (العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شيء . فإذا سقط سقط ماعليه . يعنى أن كرومها المعروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم، بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على (يقلب) « يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا» أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتِىَ من جهة شركه وطغيانه . فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)

« وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ » أى منعة وقوم « يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى يقدرون على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى ممتنعا بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

« هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك. (الولاية) بفتح الواو ، أى النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشفى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه المؤمن ، وصدّق قوله : (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه . فلا ينقص لمؤمنٍ درجة ، لدناءته فى الدنيا ، ولا يترك لكافرٍ عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك . لايغلب ولا يمتنع منه. أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى اللهَ ويؤمن به كلُّ مضطر. يعني أن[١] (يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) كلمة ألجئ إليها فقالها، جزعا مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى[٢] : (فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون[٣] «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ* ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ) أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله[٤] : (لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ) ويناسبه قوله[٥] : (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وخَيْرٌ عُقْبًا) . و (هنالك) على الأوجه المتقدمة ، خــبر مقدم و (الولاية) مبتدأ مؤخر . والوقف على (منتصراً) . وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولًا لـ(منتصراً) وإن الوقف عليه. أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة. أى وما كان منتصراً فى ذلك الموطن الزى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جدًّا ، مفـكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربيةً . وما كل جائز عربيــة رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشريّ ومن تابعه . و (الحق) قرئ بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بعامل مقدر. وبالجر صفة للفظ الجلالة . (عقبا) قرئ بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالعُشْر والعُشُر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيـه

---

(١) [١٨/ الكهف/ ٤٢] . (٢)[٤٠/ غافر/ ٨٤]. (٣) [١٠/ يونس/ ٩٠و٩١] .
(٤) [٤٠ / غافر / ١٦] . (٥) [١٨ / الكهف / ٤٤] .

كانا موجودين ولهما قصة . ولا دليل فى ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشىء لايقتضى وجوده . وجوّز فى هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقدعنى بأحد الرجلين فى التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر فى الآخرة أعلى[1] (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)

« وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه فى زهرتها وسرعة زوالها « كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتفّ بسببه وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنوْر والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزّهْو « هَشِيمًا » أى جافًّا يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ » أى تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النموّ . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المُثُل وأبدعها ، ضرب كثيراً فى التنزيل ، كقوله تعالى فى سورة

(١) [١٧ / الإسراء / ٢١] .

يونس[١] : (إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ . . .) الآية . وفى الزمر[٢] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ...) الآية . وفى الحديد[٣] : (ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ . . .) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » وذلك لإعانتهما فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروىّ ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » أى والأعمال التى تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، فى الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانىّ والنعيم الأبدىّ ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمسّ . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

---

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢١] . (٣) [٥٧ / الحديد / ٢٠] .

(٢) إفراد (الزينة) مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر فى الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية، لأن زينتها مختصة بها.

(٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة، لاسيما فى مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة[1] (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ) ـ للإيذان بأن بقــاءها أمر محقق لاحاجة إلى بيانه . بل لفظ (الباقيات) اسم لها لاوصف. ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التعرض له خيريتها .

(٤) تـكرير(خير)للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة. كذا يستفاد من أبى السعود، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير (الباقيــات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق وقول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والـكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرّج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيـل . وإن اللفظ الـكريم يتناولها لـكونها من أفراده .

ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ » أى اذكر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها فى الجوّ . كما

(١) [١٦ / النحل / ٩٦] .

ينبئ عنه قوله تعالى(١) : (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ) أونسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثاً « وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً » لبروز ماتحت الجبال ، أى ظهوره، بنسفهاوبروز ماعداه بزوال الجبال والكثب. حتى تبدو للعيان سطحاً مستوياً، لا بناء ولا شجر ولا معلم ولا ماسوى ذلك « وَحَشَرْنَـٰهُمْ » أى جمعناهم إلى موقف الحساب « فَلَمْ نُغَادِرْ » أى نترك « مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا صغيرا ولا كبيراً . كما قال(٢) (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) وقال(٣) (ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا)

«وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا» أى مصطفّين مترتبين فى المواقف، لا يحجب بعضهم بعضاً، كل فى رتبته ، قاله القاشانيّ .

وقال أبو السعود : (صَفًّا) أى غير متفرقين ولا مختلطين . فلا تعرّض فيه لوحدة الصف وتعدّده .

قال الزمخشريّ : شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ، مصطفين ظاهرين . يري جماعتهم كما يرى كل واحد. لا يحجب أحدٌ أحداً « لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ » أى بلا مال ولا بنين . أو لقد بعثناكم كما أنشأناكم . والكلام على إضمار القول . أى وقلنا . تقريعاً للمنكرين للمعاد ، وتوبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد « بَلْ زَعَمْتُمْ » أى بإنكاركم البعث « أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا » أى وقتاً لإنجاز ما وعدناكم من البعث

(١) [٢٧/ النمل/٨٨] . (٢) [٥٦/ الواقعة/٤٩و٥٠] . (٣) [١١/هود/١٠٣] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا مايزدادون به افتضاحاً . و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقالىّ ، لا إبطالىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ » أى صحائف الأعمال بين يدى الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يفتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا فى أعمارنا . قال القاشانىّ : يدعون الهلكة التى هلكوا بها، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة «مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا » أى أىُّ شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيرًا ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب فى إحصائه كل المعاصى ، وعدّه مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه فى شىء منها .

قال البقاعىّ عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة (يعنى فى الرسم العثمانىّ) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا » أى مكتوباً فى الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى[١] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) الآية . وقال[٢] (يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فيكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد فى عقابه. ثم أشار

(١) [٣ / آل عمران / ٣٠] .   (٢) [٧٥ / القيامة / ١٣] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ، بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ » أى العتاة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ » أى خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ » أى فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى ، وهم لكم عدوّ يبغون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ » أى الواضعين الشىء فى غير موضعه « بَدَلًا » بئس البدل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، فى سورة يس(١) (وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ) وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

« مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

(١) [٣٦ / يس / ٥٩ـ٦٢] .

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك، من خباثة المحتد والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ » أى وما أشهدت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفىُ الإشهاد كناية عن نفى الاعتضاد بهم والاستعانة على خلق ما ذكر ـ أبلغُ. إذ من لم يشهد فأنّى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكا ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا » أى وما كنت متخذهم أعوانا لخلق ما ذكر، بل تفردتُ بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاقُ العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المضلون ، فلا يكونون أربابا . وإنما وضع (المضلين) موضع الضمير ، ذمًّا لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى(١) (قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا)

«وَيَوْمَ يَقُولُ» أى الحق تعالى « نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى فى دار الدنيا، أنهم شركاء لينقذوكم مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريعاً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ » أى فلم

---

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٢ و ٢٣] .

يعينوهم ، لعجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفى إيراده، مع ظهوره، تهكم بهم وإيذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم» أى بين الكفار وآلهتهم «مَّوْبِقاً» أى مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه (لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً) ويؤيد هذا قوله تعالى[1] (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) قال ابن كثير : وأما إنْ جعل الضمير فى قوله (بَيْنَهُم) عائدا إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) ــ فهو كقوله تعالى[2] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) وقال[3] (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) وقال تعالى[4] (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) وقال تعالى[5] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) إلى قوله (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)

«وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ» أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم ، وذماً لهم بذلك «فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا» أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً» أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

---

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] (٢) [٣٠ / الروم / ١٤] .
(٣) [٣٠ / الروم / ٤٣] . (٤) [٣٦ / يس / ٥٩] .
(٥) [١٠ / يونس / ٢٨ ـ ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى نوّعنا فى هذا القرآن، الجامع للمهمات وأنواع السّعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل، ينبه على مراقى السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة ومخاصمة ومعارضة للحق بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا)

« وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شاكلهم « أَن يُؤْمِنُوٓا۟ » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح النيّر « وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ » أى عن المعاصى السالفة « إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى طلب إتيانها، أو انتظار إتيانها، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و (القبل) بضمتين بمعنى العيان كما فى قراءة (قِبلا) بكسر القاف وفتح الباء . أو (قُبُلًا) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحتين أى مستقبلًا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا)

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أى وما نرسلهم ، قبل إنزال العذاب ، إلا لتبشر من آمن بالزلفى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتيه سنة من مضى « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » كاقتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى ليزيلوا بالجدال ، الحقّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل (الإدحاض) إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحق المعقول .

قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره .

ثم أنشد لنفسه :

أتانا بوَحْلٍ لإنكارِهِ ... لِيُزْلِقَ أقدامَ هَذى الحُجَجْ

« وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا » أى وإنذارهم . أو والذى أنذروا به من العقاب « هُزُوًا » أى استهزاءً وسخرية وهو أشد التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى ما عمله من الكفر والمعاصى ، وصرف ما أنعم به ، إلى غير ماخلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ » أى جعلنا عليها حجباً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أى يقفوا على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى وجعلنا فيها ثقلاً يمنعهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى[١] : (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

« وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اهتداء ، البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا)

« وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى[٢] : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ) وقوله[٣] : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ) و (رَبُّكَ) مبتدأ و (ٱلْغَفُورُ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله عز وجل (لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ) والموعد المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والكل لاحق بهم . و (الموئل) الملجأ والمنجى . أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا)

« وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ »

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٣) [١٣ / الرعد / ٦] .

بالكفر والطغيان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » أى وقتاً معيَّناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على مافعل بقريش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يغتروا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يخفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .

فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا» أى اذكر وقت قول موسى لفتاه، لا أبرح، أى لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المهايمىّ أى اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولستُ أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوّة. وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومحبا له ، وذا غيرة على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . و صار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)

« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقد أمره ، وكانا تزوداه .

« فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » أى طريقه «فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» أى مثل السرب فى الأرض، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة المطلوب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا)

« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى مجمع بينهما، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا » أى ما نتغدى به « لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

«قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ» أى خبر الحوت. وإسناد النسيان إليهما، أولًا، إما بمعنى نسيان طلبه، والذهول عن تفقده، لعدم الحاجة إليه. وإما للتغليب، بناءً على أن الناسى إنما كان يوشع وحده. فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب، فيكون كقوله تعالى[1]: « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أى لك . و (أن أذكره) بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصلا ،

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

والباقون بكسرها « وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا » أى أمراً عجيباً ، إذ صار الماء عليه سرباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا)

« قَالَ » أى موسى « ذَٰلِكَ » أى المكان الذى اتخذ فيه سبيله هرباً « مَا كُنَّا نَبْغِ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أمارة المطلوب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بعد الغين، وصلا لا وقفاً. وبإثباتها فى الحالين. وبحذفها كذلك « فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعاً لئلا يفوتهما الموضع ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)

فَوَجَدَا » أى فأتيا الموضع المنسىّ فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ » التنكير للتفخيم، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر . وسنتكلم على جملة من نبئه، بعونه تعالى، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى آتيناه رحمة لدنّية، اختصصناه بها « وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا » أى علماً جليلا آثرناه . وهو علم لدنّىّ يكون بتأييد ربانىّ . وسنذكر إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنىّ فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

«قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ» أى أصحبك « عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علما ذا رشد. أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجهل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا)

[٦٨] (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا)

« قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل معتذراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا » أى من أمور ستراها ، إن صحبتنى ، ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا)

« قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا » أى لا أخالفك فى شىء.

قال الزمخشرىّ : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبىّ المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غميزة فى الدين . وأنه لا بد ، لما يستسمج ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

« قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى لا تفاتحنى بالسؤال عن شيء أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه . وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

« فَانطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » أى عظيماً من إتلاف السفينة وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » ذكّره الخضر بما تقدم من الشرط . يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً . وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها . لأنك لم تحط بها خبرا . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

« قَالَ » أى موسى « لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن المؤاخذة به تفضى

إلى العسر . والمراد التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع وهو النسيان « وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » أى لا تحمل عليّ من أمرى ، فى تحصيل العلم منك ، عسراً ، لئلا يلجئنى إلى تركه. أى لا تعسّر عليّ متابعتك ، بل يسّرها عليّ ، بالإغضاء وترك المناقشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)

« فَانْطَلَقَا » أى بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل « حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ » أى أنها لم تقتل نفساً فتقتل . بل هى زكية طاهرة من موجبات القتل « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا » أى منكراً . أو أنكر من الأول . لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجهٍ ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » تأكيد فى التذكار بالشرط الأول. ونكتة زيادة (لَكَ) هو ـ كما قال الزمخشريّ ـ زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه ، فلمته وعنفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد فى تعنيفه . قال فى (المثل السائر) : وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا)

« قَالَ » أى موسى « إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا » أى بعد هذه المرة « فَلَا تُصَاحِبْنِي

قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا » أي وجدت من جهتي عذرًا . إذْ أعذرتَ إليّ مرة بعد مرة ، فخالفتُك ثلاث مرات ، بمقتضى طبع الاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)

« فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف في تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : الخلاف فيها كالخلاف في مجمع البحرين . ولا يوثق بشيء منه « اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا » أي امتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذي هو حق ضيافتهما عليهم . وقرئ (يُضِيفُوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به، وأضافه وضيَّفه : أنزله ليطعمه في منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ » أي ينهدم بقرب . من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة المداناة والمشارفة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هي مجاز لغويّ مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشريّ ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُ » أي عمّره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أي لو طلبت على عملك جعلًا حتى تنتعش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)

« قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَاحِبْنِي) أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ

صَبْرًا » أى بمآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبعاقبته . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شرّه ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز .
قال أبو السعود : وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال (بتأويل مافعلتُ) أو (بتأويل مارأيتَ) ونحوهما، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر فى تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

« أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ » أى التى خرقتها « فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر، لنقل الناس من ساحل إلى آخر « فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلَمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصباً . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا)

[٨١] (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

« وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ » أى لو تركناه « أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه « فَأَرَدْنَآ » أى بقتله « أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)

« وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا » أى قوتهما بالعقل وكمال الرأى « وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا » ليتصرفا فيه « رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى تفضل بها عليهما . و (رحمة) مفعول له . أو مصدر مؤكد لـ (أراد) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُۥ » أى ما رأيت منى « عَنْ أَمْرِى » أى عن اجتهادى ورأيى ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى « ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى مآله وعاقبته. قال أبوالسعود (ذَٰلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها فى الفخامة . و (تَسْطِع) مخفف (تستطع) بحذف التاء .

تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لاينافى التوكل. ونسبة النسيان، ونحوه من الأمور المكروهة، إلى الشيطان، مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم المشيئة فى الأمر، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (للثلاث) اعتباراً فى التكرار ونحوه . وأنه لابأس بطلب الغريب الطعام والضيافة. وأن صنع الجميل لايترك ولو مع اللئام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال. وأن المسكين لايخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لايكفيه. وأن الغصب حرام. وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم. وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه. وأنه تجب عمارة مايخاف منه، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال فى الأرض . انتهى .

وقال البيضاوىّ : ومن فوائد هذه القصة أن لايعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار مالم يستحسنه ، فلعل فيه سرًّا لايعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للمعلم ، ويراعي الأدب فى المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية ـ كما فى (فتح البارى) ـ استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجشم المشاق فى ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ . وطواعية الخادم لمخدومه . وعذر الناسى . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة. وقيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالثانية. وفيها حسن الأدب مع الله وأن لايضاف إليه ما يستهجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه، لقول الخضر عن السفينة (فأردت أن أعيبها) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله[1] ﷺ (والخير بيديك والشر ليس إليك) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله: (أَهْلَ قَرْيَةٍ) ثم قوله : (لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من حديث طويل (طبعتنا) .

الثانى ـ ذكر الناصر فى (الانتصاف) : شذرات من لطائف بعض الآى المذكورة . فنأثرها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد فى الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، إلا منذ جاوز الموضع الذى حدّه الله تعالى له . فلعل الحـكمة فى إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام، لمنة الله تعالى على المسافر فى طاعةٍ وطلب علمٍ ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه. وتلك سنة الله الجاريةفى حق من صحت له نيةفى عبادة من العبادات، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتـكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيّناً، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمُر بها الناس ، ولـكن ليشمّرالخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلًا وآجلًا . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنـكار، الالتهابُ والحميّة للحق ، أنه قال حين خرق السفينة (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ، ولم يقل (لتغرقنا) فنسى نفسه واشتغل بغـيره ، فى الحالة التى كل أحد فيها يقول (نفسى نفسى) لايلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمـــة على قول الزمخشرىّ (فإن قلت قوله : (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) مسبب عن خوف الغصب عليها ، فـكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ (قلت) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولـكن مع كونها للمساكين . فـكان بمنزلة قولك . (زيد ظنى مقيم) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب فى إعابتها كونهـــا لمساكين. ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك فى غصب السفن . وهذا هو حد الترتيب فى التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جعله مقدماً ، والنية تأخيره . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآى ، والمخالفة بينها فى الأسلوب عجباً . ألا تراه فى الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) وأسنده فى الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه فى قوله : (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا) ، (فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا) ولعل إسنادالأول إلى نفسه خاصةمن باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإعابة إلى نفسه . وأما إسناد الثانى إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أمرَ الملكُ ودبَّرَ) ويدل على ذلك قوله فى الثالثة : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا) فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يمجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث ـ قال الخفاجىّ : فى إعادة لفظ (الأهل) هنا ، يعنى فى قوله تعالى : (أسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا) إثر قوله (أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ) سؤال مشهور . وقد نظمه الصلاح الصفدىّ سائلاً عنه السبكىّ فى قصيدة منها :

رأيت كتابَ الله أعظمَ معجزٍ ... لأفضل مَن يُهْدَى به الثَّقَلَانِ
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجاز ألفاظ وبسط معانى
ولـكننى فى(الـكهف) أبصرت آية ... بها الفـكر، فى طول الزمان عنانى
وما هى إلا (استطعما أهلها) فقد ... نرى (استطعماهم) مثله ببيان
فما الحـكمة الغراء فى وضع ظاهر ... مكان ضمير ؟ إن ذاك لِشانِ

يعنى أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة القرية .

أو (استطاعهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذى تحرر فيه أنه ذكر (الأهل) أولا ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز فى القرية ، كقوله(١) : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو (أتيت عرفات) ولمن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس مخلّ . فليس ماهنا نظير تلك الآية لامتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعمالها . وأما (الأهل) الثانى فأعيد لأنه غير الأول. وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه. لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فردا فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فُهِمَ غير المراد . أما لو قيل : (استطعامهم) فظاهر . وأما لو قيل (استطعماها) فإن النسبة إلى المحل تفيد الاستيعاب، كما أثبتوه فى محله. وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة فى الوصول إلى بعض منها . كما يقال : (زيد فى البلد) أو (فى الدار) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله(٢) :

ليت الغرابَ غداة ينعبُ بيننا كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِ

أو لكراهة اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وثمة أجوبة أخرى .

الرابع ـ أبدى بعضهم سرًّا للتعبير أولا (بتستطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال: لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل مالم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا . فقال : (سأنبئكَ بتأويل مالم تستطع عليه صبراً) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال(٣) : (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو الصعود إلى أعلاه ، (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) وهو أشق من ذلك .

(١) [١٢ / يوسف [٨٢] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح الحجاج ، ومطلعها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاجِ فانظر بتُوضِحَ ، باكرُ الأحداجِ

وفيه هناك (ينعب بالنوى) عوضاً عن (ينعب بيننا) . (٣) [١٨/ الكهف/ ٩٧] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر فى القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ مالقيه ببيان سببه ـ فيبعد أنه فى الحكاية ، لا المحكى . انتهى .

وما ألطف قول الشهاب فى مثله : هذه زهرة لاتحتمل هذا الفرك .

الخامس ـ قال الإمام السبكىّ رحمه الله : مافعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به. لأنه أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لايجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين. ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام، لم يجزله ذلك. وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحرورىّ : كيف قتله وقد نهى النبىّ ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ماعلمه عالم موسى ، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس المحاجّة والإحالة على مالم يمكن قطعاً ، لطمعه فى الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لايوصف بكفر حقيقىّ ولا إيمان حقيقىّ . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به. وهو نبىّ. وليس فى شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح. لكن فيما لايعارض منصوص الشرع. فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافراً) هو باعتبار مايؤول إليه أمره أن لوعاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لايعلمه إلا الله . ولله أن يحكم فى خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لاتفيده . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطارّ الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشبّ ، والكهل أيضاً. ومن الأخير قول موسى فى قصة الإسراء عن النبيّ[(١)] صلى الله عليه وسلم (أبكى لأن غلاما بعث بعدى) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاريّ[(٢)] : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما فذبحه قال موسى: أقتلت نفسا لم تعمل بالحنث . ولكن لا نصّ فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور فى الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالىّ ـ تابعى صدوق ابن امرأة كعب الأحبار أو ابن أخيه ـ إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما فى البخاريّ[(٣)] . ووقع فى رواية ابن إسحاق عن سعيد بن جبير ، عند (النسائىّ) قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ،ف قال بعضهم : ياأبا عباس ! إن نوفا يزعم عن كعب الأحبار أن موسى الذى طلب العلم إنما هو موسى بن منسا. أى ابن إفرائيم بن يوسف عليه السلام. فقال ابن عباس: أسمعت ذلك منه ياسعيد؟ قلت: نعم. قال: كذب نوف. وفى رواية البخاريّ: كذب عدو الله. وإنما قال ذلك مبالغة فى الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٤٤ ـ باب مايستحب للعالم إذا سئل أى الناس أعلم ، فيكل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبىّ بن كعب . (٣) انظر التخريج السابق .

قال الرازىّ : كان ليوسف ولدان إفرائيم . ومنسا . فولد إفرائيم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولىّ عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هـــذا العلم ليتعلم . والخضرُ هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود. واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميّزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فـكان سنده فى ذلك ، كما فى البخارىّ[1] ، ما حدثه به أُبَىٌّ بن كعب ورفعه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا. أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيـكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لـكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع : قال الأكثرون : إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ) هو الخضر . قالوا : سمى بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصن الفزارىّ فى صاحب موسى . فقال ابن عباس: هو خضر ، فمرّ بهما أُبَىٌّ بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال : إنى تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيه . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك ؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر . فقال موسى (ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم فى نسب الخضر وفى كونه نبيًّا وفى طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قابيل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك. وكله مما ليس فيه أثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبىٌّ بقوله تعالى (وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الواسطة . وقيل : كان وليًّا . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصِّديقيَّة فهو مقام برزخىّ ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أُنسئَ للخضر فى أجله حتى يكذب الدجال .

قال النووىّ فى (التهذيب) قال الأكثرون : هو حىّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم فى رؤيته ، والاجتماع به، والأخذ عنه، وسؤاله ، ووجوده فى المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر .

وقال البخارىّ وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبىّ ﷺ وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شىء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميعُ ما ورد فى حياته لا يصح منه شىء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقه ؟؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة، واستند إلى ماوقع من ذكرها فى صحيح البخارىّ

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٨ ـ سورة الكهف ، ٤ ـ باب قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبىّ بن كعب .

وجامع الترمذىّ . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان فى (تفسيره) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبى الفضل المرسىّ . لأنه لو كان حيا لزمه المجئ إلى النبيّ ﷺ والإيمان به واتّباعه .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حيّا ماوسعه إلا اتباعى . وبذلك جزم ابن المناوىّ وإبراهيم الحربىّ وأبو طاهر العبادىّ. وممن جزم بأنه غير موجود الآن، أبويعلى الحنبلىّ وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربىّ، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزىّ. واستدل على ذلك بأدلة. منها قوله تعالى[1] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) قال أبو الحسين ابن المناوى : بحثت عن تعمير الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ماروى فى ذلك. والأحاديثُ المرفوعة فى ذلك واهية. والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة . وخبر رياح كالريح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لايخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالًا ، أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

قال صاحب (فتح البيان) : والحق ما ذكرناه عن البخارىّ وأضرابه فى ذلك . ولا حجة فى قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد فى ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفى الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وهما قاضيان على غيرهما ولا يقضى غيرهما عليهما . ومن قال إنه نبىّ أو مرسل أو حىٌّ باق ، لم يأت بحجة نيّرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[2] . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد الله بن معبّر ابن حُرّاق .. الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان: المجلد الخامس ص ٣٢٣ (طبعة بيروت) .

وقال تقيّ الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه، في ترائي الجن للإنس في بعض البلاد ، مامثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى(١) (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنيٌّ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إنني) وكان ذلك جنيًّا لبّس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حيًّا على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتي إلى النبيّ ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبيّ أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه. كما قال الله تعالى(٢) (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) قال ابن عباس رضي الله عنه : لم يبعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لئن بُعث محمدٌ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبيّ ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرًا، من أن يلبّس الشيطان عليهم. ولكن لبّس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبيّ ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميته خرج ، وجاء إليه ، وكلمه في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع ـ دل قوله تعالى (وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) ، على أن من العلم علماً غيبيًّا وهو المسمى بالعلم اللدنّي . فالآية أصل فيه. وقد ألف حجة الإسلام الغزاليّ، عليه الرحمة، رسالة في إثبات هذا العلم . ردّ على من أنكر وجوده . وذكر عليه الرحمة أولا طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جوّد الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [٧٢ / سورة الجن / ٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ٨١] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانىّ يحصل من طريقين: أحدهما من التعليم الإنسانىّ والثانى من التعليم الربانىّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانىّ ، فطريق معهود مسلوك محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلّم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكر . والتفكر فى الباطن بمنزلة التعلم فى الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئىّ . والتفكر استفادة النفس من النفس الكلىّ . والنفس الكلىّ أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة . كالبذر فى الأرض والجوهر فى قعر البحر ، أو فى قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشىء الذى بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبّه بنفس العالم وتتقرب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزارع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذى هو بالقوة كالبذر . والذى هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم فى طول المدة . ويحمل التعب فى طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ، ما لا تجد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكر . ثم قال قدس سره : والطريق الثانى وهو التعليم الربانىّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحى وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانى الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتتمسك بجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليًّا ، وينظر إليها نظراً إلهيًّا ، ويتخذ منها لوحاً، ومن النفس الكلىّ قلماً وينقش فيها علومه. ويصير العقل الكلىّ كالمعلم والنفس القدسىّ كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنتقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصداق هذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ[١] : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد فى قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام. فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم المخلوقين وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالما . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفاخرت الملائكة عليه وتجبروا وتكبروا وقالوا[٢] (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات ، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال[٣] : (أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ) أو صغر حالهم عند آدم وقلَّ علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، فغرقوا فى بحر العجز[٤] : (قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ) فقال تعالى[٥]:(يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبيّ المتولد عن الوحى ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحى إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحى فى عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول[٦] : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وقال لقومه[٧] : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الربانىّ ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنسانىّ فقال تعالى[٨] : (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) .

---

(١) [٤ / النساء / ١١٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٠] .
(٣) [٢ / البقرة / ٣١] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٢] .
(٥) [٢ / البقرة / ٣٣] . (٦) قال فى (أسنى المطالب): سنده ضعيف ومعناه صحيح.
(٧) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [٥٣ / النجم / ٥] .

والوجه الثانى ـ هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس الكلىّ للنفس الجزئىّ على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحى. فإن الوحى هو تصريح الأمر الغيبىّ . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علماً نبوياً . والذى عن الإلهام يسمى علما لدنيًّا. والعلم اللدّنى هو الذى لاواسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصولة فى جوهر النفس الكلىّ الأوّلىّ الذى هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل الكلىّ أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارئ تعالى من النفس الكلىّ. والنفس الكلىّ أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات. فمن إفاضة العقل الكلىّ يتولد الإلهام. فالوحى حلية الأنبياء، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالولى دون النبىّ . وكذلك الإلهام دون الوحى. فهو ضعيف بنسبة الوحى ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهامُ علم الأنبياء والأولياء . فإنّ علم الوحى خاص بالرسل موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هى قبول النفس القدسىّ حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم اللدنىّ يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال[1] : (وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً) .

ثم قال عليه الرحمة: فإذا أراد الله بعبد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكلىّ الذى هو اللوح. فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات . وينتقش فيها معانى تلك المكونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

(١) [١٨ الكهف / ٦٥] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنيّ . ومالم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيما . لأن الحكمة من مواهب الله تعالى[١] : و (يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ) من عباده (وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) وهم الواصلون مرتبة العلم اللدنيّ ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلا .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدنيّ هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد التسوية . كما قال تعالى[٢] : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها ـ تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها . والثاني ـ الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبيّ ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال[٣] : (من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم) . والثالث ـ التفكر . فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها ، بشرط التفكر ، ينفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة ، ينفتح عليه أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران . فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً . كما قال ﷺ[٤] : (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) انتهى ملخصاً .

وفي خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأباها العقل

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] . (٢) [٩١ / الشمس / ٧] .

(٣) قال في (كشف الخفاء) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال في (كشف الخفاء) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره : الفاكهاني بلفظ (فكر ساعة) وقال : إنه من كلام سري السقطيّ .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها فى هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٣] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدونىّ وسنذكر وجه تلقيبه بذلك « قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله علىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا)

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

[٨٦] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

« فَأَتْبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بهمزة الوصل وتشديد التاء . فقيل هما بمعنى ويتعديان لمفعول واحد . وقيل : (أَتْبَعَ) بالقطع يتعدى لاثنين . والتقدير : فأتبع سبباً سبباً آخر . أو فأتبع أمره سبباً كقوله[1] : (وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً) .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٢] .

وقال أبو عبيدة : اتبع (بالوصل) فى السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله[1] : (فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث فى الطلب و (بالوصل) مجرد الانتقال . والفاء فى قوله : (فأتبع) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله ، لقوله « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة وهو الطين الأسود ، وقرئ (حامية) أى حارّة . وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ) يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الراغب « وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة فى شأنهم ، بقوله : « قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ » أى بالقتل وغيره « وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » بالعفو . ثم بيّن تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا)

« قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ » أى بالبغى والفساد فى الأرض بالشرك والضلال والإضلال « فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ » أى فى الآخرة « فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً لم يعهد مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

« وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ » أى فى الدارين « جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠] .

والإضافة. وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أى فله جزاء الخصلة الحسنى. ويقرأ بالرفع والتنوين و (ٱلْحُسْنَىٰ) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزاءً . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزيًّا بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزى بها جزاءً ، أو تمييز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٠] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المبانى والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف لـ (وجد) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تغرب فى عين حمئة . أو معمول (بلغ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطعت بهم الأرض . وفى التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العَدَد والعُدَد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سدّ ما بينهما « وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من ورائهما أمة من الناس « لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)

« قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جعلا نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه « عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيناً من المال والمُلك ، أجلُّ مما تريدون بذله. فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » أى بعَمَلَةٍ وصنّاع وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلمة بالحجارة ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ، حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)

[٩٧] (فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا)

[٩٨] (قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا)

« ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ » أى ناولونى قطعه « حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبى الجبلين «قَالَ ٱنفُخُواْ » أى فى الأكوار والحديد «حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ» أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإحماء « قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مُذاباً ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد «فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ » أى يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَـٰذَا» أى السد «رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى » على القاطنين عنده . لأمنهم من شر من سدّ عليهم به ، ورحمة على غيرهم، لسد الطريق عليهم« فَإِذَاجَآءَ وَعْدُ رَبِّى »بدحره وخرابه «جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ» بالمد أى أرضامستوية، وقرئ (دكًّا)أى مدكوكا مسوًّى بالأرض. « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » أى كائنا لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات، ومايستنبط من تلك الآيات. وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمِنْ فَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . لماله من خفى الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجرى وراء سنة الله فى الكون من الجد والعمل. وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ماقص عن الإسكندر من ضربه فى الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره ووجدانه اللذة فى مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذى لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها: تنشيط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغى أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر ، عذراً فى الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغى أن ينشط ويمثل فى مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالى الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان فى حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو فى ريعان الشباب وقوة الفتاء. فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم. ولم يقف فى وجهه عدد ولا عُدد. وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقىّ إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغى له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته . فإنما حكى عن الإسكندر من قوله[1] (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية فى العدل وغاية الإنصاف .

(١) [١٨ / الكهف / ٨٧] .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتكى إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه فى الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب التوحش والخراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العــدل بين العالمين . كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين فى بنـاء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد فى أخذ أجرة ، فى مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، ففى ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته . كما تأبّى الإسكندر تفضلًا وتـكرماً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام. كقول الإسكندر فى مقام تعففه عن أموالهم، والشفقة عليهم[1] (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) كقول سليمان[2] (فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم) وقد قيل : إن دخل الإسكندر من البلاد التى فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنـكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون فى الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم، صدقاً فى العمل ونصحاً فيه. لينتفع به على تطاول الأجيال. فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال فى الأعمال ومشاركتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحاً لقلوبهم. وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتعاب، ويدير العمل بنفسه ، كما بينه الذكر الحكيم فى قوله[3] (ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال[3] (هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى) .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥] . (٢) [٢٧/ النمل / ٣٦] . (٣) [١٨ / الكهف/٩٨].

ومنها : الإعلام بالدور الأخروىّ ، وانقضاء هذا الطور الأولىّ ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقى والنعيم السرمدىّ . ولذا قال (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى) .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه فى هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جليًّا حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلوّ الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشرىّ ، لاسيما فى زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمما متباينة . كما كان يرمى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيّش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المكدونىّ اليونانىّ . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولا طفلًا مرضَعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيقه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعى الممات ، وسرت بجسمه قوى الشبيبة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيما ظافرا بمنتهى أمله .

التنبيه الثانى ــ فى ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيلبس ، وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) فى الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدونىّ وهو ابن فيلبس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما فى الدين أعظم تباين . فذو القرنين كان رجـلًا صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائـكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يغزو عبّاد الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هـذا المقدونىّ ، فـكان مشركا يعبد الأصنام هو وأهل مملـكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركا يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع فى ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيلبس بانى الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة، وثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا. وأما دعوى أنه كان مشركا يعبد الأصنام، فغير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء فى ترجمته ـ كما فى طبقات الأطباء وغيرها ـ أنه كان لا يعظم الأصنام التى كانت تعبد فى ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الـكفر وأريد السعاية به إلى الملك. فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يبتلى أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم فى عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فثوّروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليـكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما فى (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافى أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه. كالنجاشىّ ملك الحبشة .فإنه جاهر بالإيمان بالنبىّ ﷺ . وشعبهُ وأهلُ مملـكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاذه والحـكماء قبله . فإن الممعن فى تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضى صاعد : كان فيثاغورس ـ أستاذ

سقراط ـ يقول ببقاء النفس و كونها، فيما بعد ، فى ثواب أو عقاب.على رأى الحكماء الإلهيين. فتأمل قوله (على رأى الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازىّ : (إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قويًّا . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابعاً لمذهب فمدح لأمر مّا يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه. وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حرًّا فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه (أعنى أرسطاطاليس) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لا سترة فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالًا . وللرازىّ فرص يغتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها ـ سامحه الله ـ فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبيه الثالث : اختلف فى سبب تلقيبه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا . يعنى جانبيها شرقها وغربها . أوْ لأنه كان له قرنان أى ضفيرتان. أو لأنه ملك الروم وفارس. قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشى أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع فى توراتهم فى نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان) ثم قوله : (وبينما كنت متأملًا إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التى هى إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعقبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم. بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التى سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبيه الرابع ـ قال الرازىّ : اختلفوا فى ذى القرنين . هل كان من الأنبياء أم لا ؟ منهم من قال : إنه كان نبيًّا . واحتجوا عليه بوجوه :

الأول ـ قوله : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ) والأولى حمله على التمكين فى الدين . والتمكين الكامل فى الدين هو النبوة .

الثانى ـ قوله : (وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ومن جملة الأشياء النبوة . فمقتضى العموم فى قوله : (وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) هو أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً .

الثالث ـ قوله تعالى : (قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) والذى يتكلم الله معه لابد وأن يكون نبيًّا .

ومنهم من قال : إنه كان عبداً صالحاً وما كان نبيًّا . انتهى .

ثم قال الرازىّ بعدُ : يدلّ قوله تعالى (قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ) على أنه تعالى تكلم معه

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبيًّا . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء ـ فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيص وتخصيص . وأما تعمق الجرى وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : (قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ) فقدمنا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم . لا أنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل فى الإطلاق الحقيقة . لأنا نقول به ، مالم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر فى بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين ـ ذهاباً فى النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لكان قريباً. فتكون نبوته من القسم الثانى وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء فى الحديث تسمية صاحبه[1] محدَّثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً فى الإسلام، إلا أنه كان معروفاً قبله فى العبادالأخيار.

التنبيه الخامس ـ حكى فى قوله تعالى : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ) قولان فى أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجّح الأول من وجهين :

أولهما ـ أن للإسكندر عند اليهود شأناً وقدراً . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس، خرج إليه رئيس أحبارها وقدم إليه الطاعة. فدخلها إسكندر وسمع نبوةالتوراة فسُرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة فى كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

---

(١) يشير إلى الحديث النبوىّ الشريف الذى أخرجه البخارىّ عن أبى هريرة فى: ٦٠ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبىّ ﷺ أنه قال: إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما ـ أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .

التنبيه السادس ـ قالوا: المراد بـ(العين الحمئة) البحر المحيط. وتسميته عينا لكونه بالنسبة لعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهى لا تفارق فلكها .

وللإمام ابن حزم عليه الرحمة ـ رأى آخر فى الآية. ذكره فى كتاب (الملل) فى بحث كروية الأرض قال : ذو القرنين هو كان فى العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك فى البحر) تريد أنك إذا رأيته كنت أنت فى البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشتوىّ إذا كانت من آخر رأس الجدى إلى آخر مغربها الصيفىّ إذا كانت من رأس السرطان ـ مرئىّ مشاهد. ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك . وهو يوازى من الأرض كلها بالبرهان الهندسىّ أقل من مقدار السدس . يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيّف . وهـذه المساحة لا يقع عليها فى اللغة اسم (عين) البتة. لا سيما أن تكون (عيناً حمئة) حامية. وباللغة العربية خوطبنا. فلما تيقنا أنها (عين) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير فى الجهة التى مشى فيها من المغارب إلى العين المذكورة. وانقطع له إمكان المشى بعدها لاعتراض البحار له هنالك. وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً أو مضطجعاً. ومن هذه صفته، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض، بمقدار مكان المغارب كلها، لو كان مغيبها فى عين من الأرض. كما يظن أهل الجهل. ولا بد من أن يلْقَى خَطُّ بصره من حدبة الأرض ، ومن نشز من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمادى ، إلا أن يقول قائل : إن تلك العين هى البحر. فلا يجوز أن يسمى البحر فى اللغة (عينا حمئة) ولا حامية. وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح فى الفلك . وأنها إنما هى من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذى لا يتناقض . فلو غابت فى عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أو فى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو فى العين الحمئة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر فى المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبيه السابع ـ قال الرازىّ : الأظهر أن موضع السدّين فى ناحية الشمال. وقيل: جبلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان فى منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبرىّ فى (تاريخه) أن صاحب أذربيجان، أيام فتحها، وجه إنسانا إليه من ناحية الخَزَر. فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد فى كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق بالله رأى فى المنام كأنه فتح هذا الردم، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه. فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه فى الربع الشمالىّ الغربىّ من المعمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازىّ .

وقال الإمام ابن حزم فى (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) فى تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التى أهبط منها آدم فى الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر فى القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف فى أقصى الشمال

فى آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج فى كتب اليهود التى يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوجَ ومأجوجَ والسدَّ أرسطاطاليسُ فى كتابه فى (الحيوان) عند كلامه على الغرانيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس فى كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان فى جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسىّ وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس. فهيهات خبر من خبر. وحتى لوخفى مكان يأجوج ومأجوج والسد، فلم يعرف فى شىء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو فى الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التى يوجد فيها النبات والتناسل. واعلموا أن كل ما كان فى عنصر الإمكان، فأدخله مدخل فى عنصر الامتناع بلا برهان ـ فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهل . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإنما الشأن فى المحال الممتنع الذى تكذبه الحواس والعيان أو بديهة العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر . ونعوذ بالله من البلاء. انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً مايحدث فى الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضى حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى فى زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذى القرنين المذكور فى هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد فى القرآن مايدل على بقائه إلى يوم القيامة . أما قوله تعالى: (هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ) فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لايمكن أن يقاوم مشيئة الله القوىّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السدّ ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جمعاء دكًّا فى لمح البصر. فمراد ذى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لاشىء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السدّ يبقى إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة فى أى وقت كان ، وكان هذا السدّ موجوداً ، دكه الله دكا. وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده. وكالثورات البركانية كما قلنا. وليس فى الآية ما ينافى ذلك. وأما قوله تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) فالمرادمنه خروجهم بكثرة وانتشارهم فى الأرض ، كما يخرج الشىء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع فى اللغة . ومنه قولك (فتحوا البلاد) وقوله تعالى(١) (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لاأبواب لهم . بل هم من كل حدب ينسلون. والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزْو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرىّ . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض، بعد أن انتشروا فيها، من الإفساد والنهب والقتل والسبى . والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتى دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ(السُّد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سدّ حديدىّ قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه فى نهاية الأرض . وذلك بحسب ماعرفوه منها. ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء فى (صفوة الاعتبار) أن السور الذى وصلوا إليه أيام الواثق من بنى العباس، هو

---

(١) [٦ / الأنعام / ٤٤] .

سور الصين الذى هو إحدى عجائب مملـكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلًا ، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفى أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إليه أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملـكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب فى جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد فى الآية، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤوّل صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولاشك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد فى الممالك . كما فى عهد جنـكزخان ، وما عثاه هو وأصحابه فى الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء فى الجغرافية العمومية ، فى المقـالة السابعة والأربعين فى تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أى أهالى كوه قاف ، أى جبل قاف : إن فى تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالمجاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذى كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والعجم . ثم إن الحصن الذى كان يسد هذا المجاز يسمى بأسمـاء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر .

ثم قال: وهناك حكاية مشهورة بين أهالى (كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدودا بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر ، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبيه الثامن ــ قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للعجمة

والتعريف . ويجوز همزها وترك همزها . وقيل: هماعربيان. فـ(يأجوج) يفعول مثل يربوع . (ومأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهمامن (أجّ الظليم) إذا أسرع . أومن (أجت النار) إذا التهبت . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث ـ أى للقبيلة كمجوس . فالكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . وعلى العجمة، لا يتأتى تصريفه . ولايعتبر وزنه إلابتقدير كونه عربيًّا ، كما فى (تذكرة أبى على).

قال الرازىّ : واختلفوا فى أنهما من أى الأقوام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب بـ(جبل قاف ، فى إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق) فعربهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما فى كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق فى روسيا وآسيا .

التنبيه التاسع ـ توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن فى مصنفاته من الرواة ، فى تخريج ماروى عن يأجوج ومأجوج. وكله إما من الإسرائيليات أوالمنكرات أو الموضوعات. ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربعمائة ألف أمة . لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكربين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدىّ فى (الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال: موضوع منكر، ومحمد بن إسحاق العكاشىّ كذاب يضع ، وقد أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير هٰهنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً، فى سير ذى القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم .

وروى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها . انتهى .

فجزى الله البخاريّ أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشتراطه الصحة فى المرويات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم صدق قوله : (أن راوى الضعاف غاش آثم مضلّ) وبالله المستعان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)

« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » أى نفخ فيه للبعث فى النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ فى الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحثُ وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم الغيب ، أى الأمور المغيّبة عنا ، التى لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذْ جمعنا الخلائق كافة « لِلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً « عَرْضاً » أى فظيعاً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفى عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ في تعجيل الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » تمثيل لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصامّهم عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) أبلغ من (وكانوا صمًّا) لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع . أفاده الزمخشريّ . وفي توصيفهم بالجملتين نكتة أخرى، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية عن الأولى ، كما زعم ، وذلك ـ كما حققه الشهاب ـ إن قوله تعالى : (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) لما أفاد أنهم كفاقدي حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة أو نحوها ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعني (الذين) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جيء به لذمهم بما في حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به في الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ، إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا)

« أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ» هذا رجوع إلى

طليعة السورة فى قوله تعالى[١] : (وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر فى البديع ، جيء بالاستفهام الإنكاري ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم. ومفعول (حسب) الثانى محذوف. أى أفحسبوا اتخاذهم نافعاً لهم؟[٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كما قالوا[٣] (سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) «إِنَّآ أَعْتَدْنَا» أى هيأنا « جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا » أى شيئاً يتمتعون به عند ورودهم. و(النزُلُ) ما يقام للنزيل أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به فى جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر ، جهنم عدة . وفى إيراد (النزل) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له . أى لأن الضيف لا يستقر فى منزل الضيافة . وينتقل إلى ما هو إهناء له فى دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيذوقون ما هو أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا)

[١٠٤] (ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا)

[١٠٦] (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا)

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»

(١) [١٨ / الكهف / ٤] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢]. (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسلهم « وَلِقَآئِهِۦ » أى بالبعث والحساب والجزاء «فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ» لكفرهم المذكور « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا » أى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرة « ذَٰلِكَ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو (ذلك) مبتدأ ، والجملة خبره ، والعائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا » أى مهزوءاً بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والنكال . ثم بين ما لمقابلهم من الحسنى بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[١٠٨] (خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحولاً ، لبلوغهم الكمال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبتهم فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمدىّ ، لا يختارون عن مقامهم متحوَّلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)

« قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى » أى لكتابتها « لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ » أى مع

كثرته ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى » أى لكونها غير متناهية، فلا تنفد نفاد المتناهى .

قال أبو السعود : وفى إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷺ فى الموضعين، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليهما ما لا يخفى . وإظهارُ (البحر) و(الكلمات) فى موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا » أى بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفد أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن ، جيء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى(١) : «وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

تنبيه .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لا نهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالهشامية والكرامية وأصحاب أبى معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهـذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حيّ وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لابد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص. ومن تكلم بمشيئة أكمل ممن لا يتكلم بمشيئة. فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته. بل كلامه مخلوق

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧] .

منفصل عنه. والكلابية يقولون: هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة، ولا يكون بمشيئته. والأشعرية يقولون : إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد . وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . مبتدعة مبنية على أصل واحد. وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل . والقرآن الكريم يدل على بطلانه فى أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها فى هذا الباب. والصواب فى هذا الباب وغيره ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها؟ أنه سبحانه لم يزل متكلما إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته . وأن كلماته لا نهاية لها. وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى. وإنما ناداه حين أتى، لم يناده قبل ذلك. وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم. وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس فى مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال ، باطلة. وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات والصفات، باطلة . هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان .

وقال أيضا فى قوله تعالى (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى) الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل فى المستقبل . فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له. فما من شيء إلا وبعده شيء بلا نهاية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا)

«قُلْ» أى لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب « إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ »أى خصصت بالوحى وتميزت عنكم به. (فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟

لِقَآءَ رَبِّهِۦ » أى يخاف المصير إليه ، أو يأمل لقاءه ورؤيته ، أو جزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا » أى فى نفسه ، لائقاً بذلك المرجوّ ، وهو ما كان موافقاً لشرع الله « وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا » أى من خلقه إشرا كًا جليًّا . كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه . ولا إشرا كًا خفيًّا . كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه.

قال أبو السعود : وإيثارُ وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين ، مع التعرض لعنوان الربوبيـــة ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلًا وتركًا .

ودلت الآية ـ كما قال ابن كثير ـ على أن للعمل المتقبَّل ركنين : كونه موافقاً شرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركا أصغر ، ثبت فى السنة ، وصح فيهـا حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلىّ ، للخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٩ - سورة مريم

سميت بها لاشتمالها على نبئها الخارق . وقال المهايميّ : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت . وتظهر له الكرامات العجيبة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية النزول . واستثنى بعضهم منها آية السجدة[١] وآية[٢] (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) .

وقد روى محمد بن إسحق[٣] ، فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشيّ وأصحابه . وآياتها ثمان وتسعون .

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٧١] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (كٓهيعٓصٓ)

[٢] (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ)

[٣] (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا)

« كٓهيعٓصٓ » سلف فى أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أى : هذا (كٓهيعٓصٓ) أى مسمى به ، وقوله تعالى « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ » مبتدأ خبره محذوف . أى فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أى هـذا المتلوّ ذكرها . و (زكريا) والد يحيي عليهما السلام . بدل من (عبده) أو عطف بيان له . قال المهايميّ : أى ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً فى باب النبـوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه . وذكرُها لنا كبير هبة لنا، فى تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته. « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا » ظرف لـ (رحمة) أو بدل اشتمال من (زكريا) والنداء فى الأصل رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل فى الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

« قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى » أى ضعف . قال الزمخشرىّ : وإنما ذكر العَظْم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد مافيه وأصلبه. فإذا وهن كان ماوراءه أوهن. ووحّده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفراده . وقرئ (وَهِنَ) بكسر الهاء وضمها « وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً » قال الزمخشرىّ : شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته ، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ ـ باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هـذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. وظاهره أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين: أولاهما تصريحية تبعية فى (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيضّ فى المسودّ باشتعال النار ، كما قال ابن دريد فى (مقصورته) .

إمَّا تَرَىْ رَأْسِىَ حَاكَى لَوْنُهُ ... طرّةَ صبحٍ تَحْتَ أذيَالِ الدجا
واشتعل المبيضُّ فى مسودِّهِ ... مثلَ اشتعالِ النَّارِ فى جَزْلِ الغضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، فى بياضه وإنارته، باللهب. وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخييلية ، وعليه المحققون من أهل المعانى . وقيل: إن الاستعارة هنا تمثيلية. فشبه حال الشيب بحال النار، فى بياضه وانتشاره « وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً فى وقت لم أعوّد منـك إلا الإجابة فى الدعاء ، ولم تردّنى قط . وهـذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعى

الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عوّد عبده بالإجابة دهراً طويلًا ، لا يكاد يخيبه أبداً . لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

استفيد من هذه الآيات آداب الدعاء وما يستحبّ فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله (خَفِيًّا) ومنها استحباب الخضوع فى الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله (وَلَمْ أَكُن) الخ كما قدمنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا)

[٦] (يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ، وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

« وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى » أى الذين يلون أمر رهطى من بعد موتى ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفنى فى القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين « وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا » أى لا تلد من حين شبابها « فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ » أى هب لى ولدا ، يلى من الأمر ما كنت إليه وارثاً ، لى ولآل يعقوب ، فى العلم والنبوة . وفى قوله (مِن لَّدُنكَ) إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتنويه به لكونه مضافاً إلى الله تعالى ، وصادراً من عنده . و (آل يعقوب) أولاده الأنبياء ، عليهم السلام .

« وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضياً عندك قولا وفعلًا .

ثم بيّن تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)

« يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا » أى مثلاً وشبيهاً . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروى أنه لم يعص ، ولم يهمّ بمعصية قط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا)

« قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا » أى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهى الحال المشار إليها بقول الشاعر :

* ومن العناء رياضة الهرم *

قاله الراغب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا)

« قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا » أى من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ طلب أولاً ، وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً، ويرتدع المبطلون . وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخراً ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنىّ عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السعود : إنما قاله عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمرآن ، استعظاماً لقدرة الله تعالى ، وتعجيبا منها ، واعتداداً بنعمته تعالى عليه فى ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله . مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له. وقيل : كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه . أى : أيكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل : كذلك . أى يكون الولد وأنتما كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً، قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

« قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً » أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحمل، ليطمئن قلبى « قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » أى: أن لاتقدر على تكليمهم، حال كونك سويا ، بلا مرض فى بدنك ، ولا فى لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر « الليالى » هنا ، و (الأيام) فى آل عمران ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها . والعرب تتجوز أو تكتفى بأحدهاعن الآخر. والنكتة فى الاكتفاء بـ (الليالى)هنا وبـ (الأيام) ثَمَّ ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول. وتلك مدنية. والليالى عندهم سابقة على الأيام. لأن شهورهم وسنيهم قمرية، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، فى التاريخ ، كما ذكره النحاة ، فأعطى السابق للسابق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

«فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ »أى مصلاه أوغرفته« فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ »أى أشار إليهم رمزاً « أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أى صلوا لله طرفى النهار . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٢] (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ، وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا)

«يَٰيَحْيَىٰ» استئناف ، طوى قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم[١] بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه. أى : قلنا (يايحيى) «خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ» أى تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد . «وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا» أى الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد فى الخير ، وهو صبىٌّ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ، وَكَانَ تَقِيًّا)

[١٤] (وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا)

«وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا» أى وآتيناه حناناً : وهو التحنن والتعطف والشفقة . وتنوينه للتفخيم . أى رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه «وَزَكَوٰةً» أى طهارة من الذنوب، وعصمة بليغة منها «وَكَانَ تَقِيًّا* وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا» أى متكبرا عاقًا لهما ، أو عاصياً لربه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

«وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ» أى من الله «يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» أى ليستقبل النعيم الأبدىّ . و (السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات. وفيه معنى التحية والتشريف.

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] .

وفى ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة فى العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ » أى القرآن « مَرْيَمَ » أى نبأها « إِذِ انْتَبَذَتْ » أى اعتزلت وانفردت « مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » أى شرقىّ بيت المقدس . لئلا يشغلوها عن العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)

« فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا » أى لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » أى جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله، لينفخ فيها « فَتَمَثَّلَ لَهَا » أى فتصور لرؤيتها « بَشَرًا سَوِيًّا » أى سوىّ الخلق ، كامل الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)

« قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ » أى أعتصم به منك . إنما خافته لانفرادها فى خلوتها، وظنها أنه يريدها على نفسها . وفى ذلك من الورع والعفاف مالا غاية وراءه « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » أى تتقى الله تعالى ، وتبالى بالاستعاذة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أى فإنى عائذة به . أو فلا تتعرض لى. وإنما ذكّرته بالله تعالى ، لأن المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . نخوفته أولًا بالله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)

« قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ » أى لا تخافى ولا تتوقعى ماتوهمت . فإنى رسول ربك

الذى استعذت به ، بعثنى إليك « لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا » أى لأكون سبباً فى هبته . و (الزكىّ) الطاهر من الذنوب أو النامى على الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

« قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » أى تعجبت من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام ، أى على أى صفة يوجدنى ، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور؟

قال الزمخشرىّ : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله تعالى[١] (مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ)[٢] (أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) والزنى ليس كذلك . إنما يقال فيه (فجر بها ، وخبث بها) وما أشبه ذلك. وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب. وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله[٣] (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) لكون هذه السورة متقدمة النزول عليها . فهى محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها. وقيل: جعل المس ثمّ ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . و (البغىُّ) الفاجرة التى تبغى الرجال . ووزنه (فعول) ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل كصبور . أو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا)

« قَالَ » أى الملك « كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ » أى

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .
(٣) [٣ / آل عمران / ٤٧] .

برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع خلقهم. فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه «وَرَحْمَةً مِّنَّا » أى عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله « وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » من تتمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كنى به عن النفخ فى فرجها . كما قال تعالى[١]: (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال[٢] (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا)

«فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا » أى لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها ، فراراً من القالة . وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها ، عن الله تعالى ، ماقال ، مما تقدم ، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها فنفخ فى جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بإذن الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)

« فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ » أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع

(١) [٦٦ / التحريم / ١٢] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٩١] .

لتعتمد عليه وتستتر به . و (أجاء) ـ قال الزمخشرىّ ـ منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ (المخاض) بكسر الميم وكلاهما مصدر (مخضت المرأة) إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج « قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا » أى الحمل « وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا » أى شيئاً تافها ، شأنه أن ينسى ولا يعتد به . منسيًّا لايخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة، وبضد ماقرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام ـ قال الزمخشرىّ ـ لأنه مقام دحض ، قلما تثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به ـ عيبا يعاب به ويعنف بسببه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)

« فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ » أى من مكان أسفل منها ، تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل: هو عيسى ، وقرئ (مَنْ) بفتح الميم موصولة « أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » أى سيداً نبيلًا رفيعا ، وقيل : نهراً يسرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)

«وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا» أى حضر أوان اجتنائه. قال الزمخشرىّ: فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلّى بالسرىّ والرطب! قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان

الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به، بمعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)

« فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً »أي بالكمال والولد المبارك ، الموجود بالقدرة ، الموهوب بالعناية. قال الزمخشريّ: أي جمعنالك فى السرىّ والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً) أى وطيبي نفسا ولا تغتمى . وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» أى من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، الذين لايفهمون قولك ولايصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألوك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » أى لا تكلميهم فى أمرك شيئاً . ولاتماديهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرتْ بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع فى براءة ساحتها ، فقوله (صَوْمًا) . أى صمتاً . وقوله (فَلَنْ أُكَلِّمَ) الخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ، قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا)

« فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا» أىعظيما منكراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

« يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا » استئناف لتجديد التعيير ، وتأكيد التوبيخ ، وتقرير لكون ما جاءت به فريا . و (هارون) هو النبيّ الشهير ، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله فى الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل بمعنى (المشابه) كثيرا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ، قَالُواْ » منكرين لجوابها « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا » ولم يعهد تكليم عاقل لصبيّ فى المهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾

[٣١] ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

« قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ » أنطقه الله بذلك . أولًا تحقيقاً للحق فى شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ، ردًّا على من يزعم ربوبيته ونبوّته « ءَاتَـٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ » أى الإنجيل « وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ » أى كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحى ربى لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ماسبق فى القضاء المحتوم، أو جعل الآتى، لا محالة ، كأنه وجد « وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » أى أمرنى بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا)

[٣٣] (وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)

[٣٤] (ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٣٥] (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ، سُبْحَـٰنَهُۥٓ ، إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

[٣٦] (وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

« وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا » أى مستكبراً عن طاعته وأمره « وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ » أى الذى فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة « عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ » أى لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم ، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانىّ . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه « قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى : ومَن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ وهذا كقوله تعالى(١) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ) ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه « وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلّ وغوى .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩و٦٠] .

تنبيهات فى فوائد هذه القصة

الأول ـ لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجته ، ولداً زكيًّا طاهراً مباركاً ، عطف بذكر قصة مريم فى إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرهما فى آل عمران ، وههنا ، وفى سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . و(مريم) هى بنت عمران . من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل . وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها فى سورة آل عمران . وأنها نذرتها محررة للعبادة . وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت فى كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقا . كما تقدم فى سورة آل عمران .

الثانى ـ استدل بقوله تعالى(١) : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا) من قال بنبوة مريم . واستُدل بقوله تعالى عنها(٢) . (يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا) على جواز تمنى المنون لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى(٣) . (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ) على التسبب فى الرزق ، وتكلف الكسب وإليه أشار القائل :

ألم تر أَنَّ اللهَ قال لمريمٍ وهُزِّى إليك الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرطَبْ
ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّهِ إليها . ولكن كلُّ شىء لَهُ سَبَبْ

وفى الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى : (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) بعدَ (فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا) على أن الحالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلانا) لا يحنث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفيه واجب ، كما استنبطه الزمخشرى ، قال :

(١) [١٩ / مريم / ١٧ . (٢) [١٩ / مريم / ٢٣] . (٣) ١٩ / مريم / ٢٥] .

ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها . وفى قوله تعالى (مَا كَانَ أَبُوكِ أمْرَأَ سَوْءٍ) معنى قولهم فى المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

الثالث ـ نقل الرازىّ عن القاضى فى قوله تعالى(١) : (وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ) الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة فى النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى . ولابد فى الأنبياء من أن يكونوا مستجابى الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هى هـذه الأحوال الثلاثة : وهى يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث . فجميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات فى كل الأحوال .

الرابع ـ قال القاشانىّ : وإنما تمثل لها بشراً سوىّ الخلق حسن الصورة، لتتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسرى الأثر من الخيـال فى الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتنزل كما يقع فى المنام من الاحتلام وتنقذف نطفتهـا فى الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مرّ أن الوحى قريب من المنامات الصادقة ، لهدء القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما فى النوم . فكل مايرى فى الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة فى اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التى لها بالأرواح القدسية ، يسرى فى النفس الحيونية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة . لأنه ثبت فى العلوم الطبيعية أن منىّ الذكر فى تكوّن الولد، بمنزلة الإنفحة فى الجبن . ومنى الأنثى بمنزلة اللبن، أى العقد من منىّ الذكر والانعقاد من منى الأنثى . لا على معنى أن منىّ الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنىّ الأنثى بالقوة المنعقدة ، بل على معنى أن القوة العاقدة فى منى الذكر أقوى . والمنعقدة فى منىّ الأنثى أقوى . وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئاً واحداً . ولم ينعقد منىّ الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا

(١) [١٩ / مريم / ٣٣] .

كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوّية القوى ، وكان مزاج كبدها حارًّا ، كان المنيُّ المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذى ينفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا فى الرحم ، كان مزاج الرحم قويًّا فى الإمساك والجذب ، قام المنفصل فى الكلية اليمنى ، مقام الذكر فى شدة قوة العقد . والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منىّ الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيتخلق الوالد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، ويغير المزاج ويمد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحانىّ ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس . والله أعلم .

ثم قال فى قوله تعالى : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) فى اللوح مقدراً فى الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأنت إليه بقوله : (إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا) فدنا منها فنفخ فى جيب الدرع ، أى البدن ، وهو سبب إنزالها على ماذكرنا . كالغلمة مثلا والمعانقة التى كثيرا ما تصير سبباً للإنزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعلىّ لوجوده كما قال : (لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا) . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة فى الرحم ، واستقرارها فيه ، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس ـ التمثّل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملَك يتشكل بشكل البشر .

قال إمام الحرمين : تمثلُ جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . ثم يعيده إليه بعدُ .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لايلزم أن يكون انتقالها

موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى فى الجسد حيًّا . لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلًا ، بل بعادة أجراها الله تعالى فى بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح فى الجنة .

وقال البلقينيّ : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتى جبريل بشكله الأصلىّ . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلًا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلًا ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسًا لمن يخاطبه. والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرائى فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر فى فتح البارى .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء مالم يحط بكنهه. فالخوض فيه عبث ينتهى خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذى لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك فى مواضع عديدة .

السادس ـ قال بعضهم : أصل كلمة (عيسى) يسوع . فحرفه اليهود إلى (عيسو) تهكما فحوله العرب إلى (عيسى) تشبها باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبنىّ على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

« فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ » أى اختلف قول أهل الكتاب فى عيسى، بعد بيان أمره

ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى فى أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر . وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنّه «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يعنى بالذين كفروا، المختلفين. عبّر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعارًا بعلة الحكم . وفى (مَشْهَدِ) ستة أوجه . لأنه مصدر ميمىّ أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من (الشهود) أى الحضور أو (الشهادة) . وهذا معنى قول الزمخشرىّ : أى فى شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل: معناه ماشهدوا به فى عيسى وأمه. فعظمه لعظم مافيه أيضاً . كقوله[1] (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا، لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صما عمياً . والآية كقوله تعالى[2] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) الآية أى يقولون ذلك حين لا يجدى عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى « لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ » أى فى الدنيا « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(١) [١٨ / الكهف / ٥] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشريّ : أوقع الظاهر أعنى (الظالمين) موقع الضمير، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر، حين يجدى عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أُوِّل التعجب فى الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ، لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام مالا يدرى سببه . ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وإبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك . فهى كقوله تعالى(1) (فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أفاده الشهاب .

وهذه طريقة المتكلمين فى تأويل ما يشترك فى الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية . وطريقةُ السلف المحققين إثباتُ ماورد به السمع مع نفى التشبيه. إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق. فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذى يجب أن يكون عليه جل جلاله. فما يقدر فى حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب أن يكون فى حقه تعالى مستلزماً لذلك. كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا، يستلزم من النقص والحاجة، ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا ، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين . والله منزه فى وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . فنحن وصفاتنا وأفعالنا . مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتىّ لا يمكن أن نخلو عنه . وهو سبحانه ، الغَنى له أمر ذاتىّ لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حىّ قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال، من العلم والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] .

ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا. فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه فى حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون فى حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ماقرره الإمام تقىّ الدين بن تيمية فى خلال بعض فتاويه. وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٠] (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ» أى فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ» أى وهم اليوم مستغرقون فى غفلة عما يفعل بهم فى الآخرة «وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أى لا يصدقون به اليوم وسيعاينونه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا فى توحيده الخالص ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)

[٤٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا)

«وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا» بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه «نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ» أى مُتَلَطِّفاً فى دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام «يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا» أى أى فلا يدفع ضرًّا ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل . واحتج عليه

أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل. لئلا يركب متن المكابرة والعناد. ولا ينكب، بالكلية، عن محجة الرشاد . حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلًا عن عبادته التي هى الغاية القاصية من التعظيم . مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام، والإنعام العام. الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب . ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل ، لداعية صحيحة وغرض صحيح . والشيء لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيرا ، قادرا على النفع والضر ، مطيقاً بإيصال الخير والشر ، لكن كان ممكنا ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته . وإن كان أشرف الخلائق. لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة . فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٣] (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل « فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا » أى معتدلًا لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق ، وكذا فى باب الأخلاق والأعمال . قال المهايميّ : أى وإن كان حق الابن اتباع الأب فى العرف ، لكنه باطل . لأن الحق اتباع الصواب .

قال الزمخشريّ : ثنّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً . فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ .فلا تستنكف. وهب أنى وإياك فى مسير، وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا » .

ثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة ، مستجلب لضرر عظيم ، فإنه فى الحقيقة عبادة الشيطان . لما أنه الآمر به والمسوّل له، وقوله : (إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ) الخ تعليل لموجب النهى وتأكيد له، ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم . ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص . والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير. والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته، لأنه ملاكها . والتعرض لعنوان الرحمانية ، لإظهار كمال شناعة عصيانه . أفاده أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ » لكونك عصيته وواليت عدوّه ، فيقطع رحمته عنك ، كما قطعها عن الشيطان « فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا » أى مقارناً له ومشاركاً معه فى عذابه .

قال الزمخشرىّ : ربّعَ عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال . ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرّح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال (أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ) فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب. وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب . وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يَـٰٓأَبَتِ) توسلًا إليه واستعطافاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا)

« قَالَ » أى أبوه ، مصرًّا على عناده لفرط غلوّه فى الضلال « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ » أى: أمعرض ومنصرف أنت عنها. وإنما قدم الخبر على المبتدأ، لأنه كان أهم عنده. وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب. كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلًا عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » تهديد متناه . أى لئن لم تنته عن القول فيها ، وعن نصحك ، لأرجمنك بالحجارة « وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » أى تباعد عنى زمانًا طويلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا)

« قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا » أى مبالغًا فى اللطف بى. وفى جوابه بقوله عليه السلام (سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ) مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى[1] (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا) أى لا أصيبك بمكروه بعدُ . ولكن سأدعو ربى أن يغفر لك . كما قال[2] (وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ) قال الزمخشرىّ : وفى الآية دليل على جواز متاركة المنصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفى (الإكليل) : استدل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٦] .

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام. وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحق فى قوله[1] (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك. حتى أنزل الله تعالى[2] (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) إلى قوله (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) يعنى إلا فى هذا القول ، فلا تتأسّوا به . ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى[3] (مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ) . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا)

« وَأَعْتَزِلُكُمْ » أى أتباعد عنك وعن قومك بالهجرة « وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من أصنامكم .

قال الزمخشريّ : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها . ومنه قوله ﷺ[4] : الدعاء هو العبادة . ويدل عليه قوله تعالى[5](فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)

---

(١) [١٤/ إبراهيم/ ٤١]. (٢) [٦٠/ الممتحنة/ ٤]. (٣) [٩/ التوبة/ ١١٣و١١٤].

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٦ ـ حدثنا هناد، عن النعمان بن بشير . (٥) [١٩ / مريم / ٤٩].

« وَأَدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده وحده « عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا » أى خائباً ضائع السعى . وفيـه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة (عَسَىٰٓ) ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

« فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » وذلك بالمهاجرة إلى الشام « وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » أى جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء ، قرّت عينه بهم فى حياته . بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٠] (وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا » أى ما عُرِف فيهم من النبوّة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» أى ثناءً حسناً . عبّر بـ(اللسان) عما يوجد باللسان . كما عبّر بـ (اليد) عما يطلق باليد وهى العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)

[٥٢] (وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا)

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا » بكسر اللام أى أخلص العبادة

عن الشرك ، وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتحه . أي أخلصه الله ، أي اصطفاه ، كما قال[١] (إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ) « وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ » أي من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدها فوجدها ثمة . فنودي عندها « وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا » أي مناجياً ، أي كليما . إذ كلمناه بلا واسطة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا » ليشد أزره في أداء الرسالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)

[٥٥] (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا)

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ » وهو ابن إبراهيم عليهما السلام . وإنما فَصَل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، بإيراده مستقلًّا . وقوله « إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ » تعليل للأمر . وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء ، تشريفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح ، فوفّى به حيث قال[٢] (سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ) وهذا أعظم ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة . ولذا كان ضدها نفاقاً ، كما صرّحت به الأخبار . «وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ» أي كان يبدأ أهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٤] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] .

ٱلْأَقْرَبِينَ)[١] (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ)[٢] (قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)[٣] ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الدينيّ أولى. أفاده الزمخشريّ . «وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا » أى لا تصافه بالنعوت الجليلة التى منها ما ذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)

[٥٧] (وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا)

«وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا» هو شرف النبوّة والزلفى عند الله تعالى . فالعلوّ معنوىّ . أو رفعه بجسده حياً إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثانى أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لاتكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

وكن فِى مَكانٍ إذَا مَا سَقَطْتَ   تَقُومُ وَرِجْلَاكَ فِى عَافِيَهْ

انتهى. ومما يؤيد الثانى ما روى فى الصحيحين[٤] عن أنس فى حديث المعراج؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس فى السماء الرابعة. وإدريس هو إلياس الآتى ذكره فى سورة الصافات . ويسمى فى التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب، قد يكون التنزيل الكريم فى هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .(٢) [٢٠ / طه / ١٣٢] .(٣) [٦٦ / التحريم / ٦]

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث رقم ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ ﴿ سجدة ﴾

« أُوْلَٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين فى السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل . وقوله تعالى : « ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم » أى بفنون النعم الدينية والدنيوية « مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ » أى هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا » أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علوّ الرتبة . وسموّ الزلفى عنده تعالى . وفى الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود هٰهنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير(١) وابن أبى حاتم: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ سورة مريم فسجد. وقال : هذا السجود فأين البُكِىّ .

ولما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم ، وما سينالهم ، بقوله سبحانه :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء السادس عشر من تفسير ابن جرير (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ » وقرئ (الصلوات) بالجمع أى المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد « وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ » أى فأتوا بما ينافى البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال ، من الانهماك فى المعاصى التى هى بريد الكفر « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى شرًّا . قال الزمخشرىّ : كل شر عند العرب غىّ ، وكل خير رشاد . قال المرقش[١] :

فمن يلقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَهُ ومن يَغْوَ لايَعْدَمْ على الغىّ لائِمَا

أى من يفعل خيراً، يحمد الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله. وقيل: أراد الشاعر بالخير المال ، وبالغىّ الفقر . أى ومن يفتقر . ومنه[٢] القائل :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى . ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

أى الثكل . ويجوز أن يكون المعنى جزاء غىّ. كقوله تعالى[٣] (يَلْقَ أَثَاماً) أى شرًّا وعقاباً . فأطلق عليه كما أطلق الغىّ على مجازاته المسببة عنه ، مجازا . أو (غَيًّا) ضلالاً عن طريق الجنة . فهو بمعناه المشهور .

---

(١) هذا هو البيت الثانى والعشرون من المفضلية السادسة والخمسين . ومطلعها :

أَلَا يا اسلمى . لا صُرْمَ لى اليومَ فاطِماَ ولا أبدًا ، ما دامَ وصلُكِ دائِمَا

(٢) قائله القطامىّ . أحد أصحاب المشوبات ، من قصيدته التى مطلعها :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ وإنْ بَلِيتَ ، وإن طالَتْ بِكَ الطِّوَلُ

وطال طولك ، أى عمرك . (٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا)

[٦١] (جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا)

« إِلَّا مَن تَابَ » أى عن ترك الصلوات واتباع الشهوات « وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من (عباده) أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أى غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار. أو بمضمر هو سبب للوعد . أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم، أفاده أبوالسعود « إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا » أى لا يخلفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

[٦٣] (تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)

« لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا » أى لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزمخشريّ رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه . حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . وما أحسن قوله[(١)] سبحانه: (وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا) (وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ)[(٢)] نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

ومعنى (إِلَّا سَلَـٰمًا) أي تسليماً . وهو تسليم الملائكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال[1] : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا) «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا» وهم المتصفون بشعب الإيمان ، المسرودة في مواضع شتى من آي القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم ـ عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردًّا لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلايزوره ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على مازعمه هؤلاء الخلف. فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »أي ينسى شيئاً ما، بل لا يفيض علماً ولاينزل ملكا إلا لحكمة يستعد لها الحال، أي فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك . وفي إعادة اسم (الرب) المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعلة الحكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا)

«رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أي من التوابع والنجيمات والسحب وغيره ذلك.

(١) [٥٦ / الواقعة / ٢٥ و ٢٦] .

قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه في البقرة ، من أن السموات عني بها الكواكب، والأرض كوكب منها .

قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من (ربك) . « فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ » أي اثبت لها على الدوام.

وقوله «هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا» أي مثلاً وكفوًا ، فتلتفت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك. والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أي إذا صح أن لا مثل له، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره ، والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقّها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

« وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » أي يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أأخرج حيًّا بعد ما لبثت في القبر مدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا)

« أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا » أي قبل جعله ترابًا ونطفة . وكان عدمًا صرفًا لا وجود له في الأعيان . فلا تبعد إعادته .

قال أبو السعود : وفي الإظهار موضع الإضمار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعي التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور . وهو السرّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أي ما أعجب الإنسان في إنكاره وعدم تذكره لما ذكر ، وهو الذي أعطى العقل لينظر في العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازي على فعله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ » أى لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغووهم وأضلوهم عن الحق « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » جمع (جاث) من (جثا) إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى[1] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا)

« ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا » أى لنخرجن إلى النار، من كل فرقة ، الذى هو أشد على الرحمن، الذى رحمه بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل، (عِتِيًّا) أى جراءة، بإيثار الشهوات على أمره وعدم مبالاته به.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا)

« ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا » وهم المنتزعون. فإنهم أولى الشيع. إذ ضلوا وأضلوا، لأجل لذّات الدنيا وشهواتها. فصاروا أولى بالصليّ بها. فيخصّون بعذاب مضاعف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)

« وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يردها. « كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا » أى حكماً جزماً مقطوعاً به .

---

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

« ثُمَّ » أى بعد الورود والإحضار للتعريف « نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » أى لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشرىّ : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجثوّ حوالها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجاثيهم . وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا » أى موضعاً ومكاناً « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظا من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأعمر نادياً وأكثر طارقاً ووارداً ، أى فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً[1] عنهم : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ) وقال قوم نوح[2] (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ) وقال تعالى[3] : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ، أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ) .

وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا » أى متاعاً « وَرِءْيًا » أى منظراً وهيئة ، من عظم الجاه ، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى[١] عن قوم فرعون المغرقين (كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) و(رِءْيًا) فِعل بمعنى مفعول كالطّحن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا)

« قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا » أى من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبلُ ، ومن شاكلهم، (فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ) أى يمدّ له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجُه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة ، لقطع المعاذير . كما ينبىء عنه قوله تعالى[٢] : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى[٣] : (إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا) وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال. أى فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بغتة . وقد بيّن سبحانه غاية المد بقوله :

«حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا » أى فئة وأنصاراً .

---

(١) [٤٤/ الدخان/ ٢٥و٢٦] . (٢) [٣٥/ فاطر/ ٣٧] . (٣) [٣/ آل عمران/ ١٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ، وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا)

« وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ، وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ » أى الأعمال التى تبقى فوائدها « خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا » أى مرجعا . وتكرير (الخير) لمزيد الاعتناء ببيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا)

« أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ » أى فى الآخرة « مَالًا وَوَلَدًا » أى انظر إلى هذا القائل المجترئ على الغيب ، ما أكفره !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا)

« أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا » أى بذلك، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا)

[٨٠] (وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

« كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » أى نحفظه عليه للمؤاخذة به « وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا » نضاعفته له ، جزاء لاستهزائه « وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ » أى ننزع عنه ما آتيناه من مال وولد ،

فلا يبقيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه «وَيَأْتِينَا فَرْدًا» أى فى الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فما يجدى عليه تمنّيه وتألّيه .

وقد روى البخارىّ[1] : عن خباب رضى الله عنه ، قال : كنت قينا ـ حدّادًا ـ فى الجاهلية بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفاً ، فجئت أتقاضاه فقال : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال . فذرنى حتى أموت، ثم أبعث فسوف أوتى مالًا وولداً فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : فضرب الله مثله فى القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا)

«وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا» أى ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عزّ وجلّ ، وشفعاء عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

« كَلَّا » أى ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا « سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » أى ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » أى يريدون إهلاكهم، إذ أوقعوهم فى هلاك دعوى الشرك . كما قال تعالى[2] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ) . وقال تعالى[3]: (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٢٩ ـ باب ذكر القين والحداد ، حديث رقم ١٠٦٠ . (٢) [٤٦/ الأحقاف / ٥و٦] . (٣) [١٦/ النحل / ٨٦] .

فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ) قيل : المراد بالآلهة من عُبِدَ من ذوى العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)

«أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ» أى بأن سلّطناهم عليهم ومكّنّاهم من إضلالهم . أو قيضناهم لهم يغلبون عليهم « تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » أى تغريزهم وتهيجهم على المعاصى، بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، تهيجاً شديداً .

قال الزمخشرىّ: الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهييج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ ، بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه، وانهماكهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسوّل لهم. فهذه الآية كالتذييل لما قبلها وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٤] (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)

« فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ » أى بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم .و (الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهىّ عنه ، محوجة إلى النهى . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى « إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » تعليل لموجب النهى ، ببيان اقتراب هلاكهم . أى إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى(1) (وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقلته لتقضّيه وفنائه ، كما قال المأمون (ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما نفد) ولا ينافى هذا ما مرّ من أنه يمد لمن كان فى الضلالة. أى يطوّل. لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم. وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله. ولله در القائل :

إن الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ ... لايمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ
وكيف يفرحُ بالدنيـــا ولذتِهَا ... فتى يُعَدّ عليه اللفظُ والنَفَسُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا)

« يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا » أى وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، المزورِ والزائرِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا)

«وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا» أى عطاشا. وفى ذكرهم بالسَّوْق إشعار بإهانتهم واستخفافهم. كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد: الذهاب إلى الماء، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا)

« لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا » الضمير لأصنامهم المتقـــدم ذكرها فى قوله(١) (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً) ردٌّ على عابديهم فى دعواهم

---

(١) [١٩ / مريم / ٨١] .

أنهم شفعاؤهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون (العهد) بمعنى الإذن والأمر. يقال: أخذت الإذن فى كذا واتخذته بمعنى. من باب (عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به . أى لايشفع إلا المأمور بالشفاعة، المأذون له فيها. وتعضده مواضع فى التنزيل[١] « وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ)[٢] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ)[٣] (يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا) ونحو هذه الآية قوله تعالى[٤] (وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ) ولما قرر تعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، عطف عليه حكاية جنايتهم من دعوى البنوّة له، مهولا لأمرها. وكذا جناية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمى بعض المخلوقات ابنا أو بنتا له ، تعالى وتقدّس ـ عطف قصته على قصته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا)

[٨٩] (لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا)

«وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا* لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا» أى عظيما منكراً. وفى ردمقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

---

(١) [٥٣ / النجم / ٢٦] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٣] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٠٩] . (٤) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٠] (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا)

[٩١] (أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا)

[٩٢] (وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا)

[٩٣] (إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا)

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ » أى يتشقّقن « وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن » أى لأن « دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا » وذلك لغيرتها على المقام الربانىّ الأحدىّ أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحىّ الذى له مزاج . وما له مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال « وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » أى مملوكا له يأوى إليه بالعبودية والذل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)

[٩٥] (وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا)

« لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » أى حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا » أى منفردا مجردا من الأتباع والأنصار ، وعمن زعم أنه له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . ولما فصل مساوئ الكفرة ، تأثره بمحاسن البررة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا » أى يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التى تكسب الود . كذا قالوا فى تأويله. وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون. قال: والود والمحبة سواء . آتيت فلانا محبته . وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده. ومن كلامهم: وددت لو كان كذا . أى أحببت. فمعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة . ثم قال أبو مسلم: وهذا القول الثانى أولى لوجوه : أحدها ـ كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين؟ وثانيها ـ أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين ؟ وثالثها ـ أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم . فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازىّ التمويه فى اختيار الأول والجواب عن الثانى . والحق أحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا)

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلنا هذا القرآن بلغتك « لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، بالجنة «وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا» أى تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بنى قريش. فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق (واللدد) شدة الخصومة . والباء فى قوله (بِلِسَانِكَ) بمعنى (على) . أى على لغتك . أو ضمّن (التيسير) معنى (الإنزال) أى يسرنا القرآن، منزلين له بلغتك، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه.

قال الزمخشرىّ :هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلّغ هذا المنزل، أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه الخ ، أى فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

وقال الرازيّ : بيّن به بهذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوّة ، والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسّر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سيء وهو اللدد . لأن الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ » أي قوم لُدٍّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكا عظيما « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ » أي تشعر به وتراه « أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » أي صوتاً خفيًّا. والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠ - سورة طه

وهى مكية . وقيل : إلّا قوله تعالى[١] (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) الآية . وقوله[٢] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) الآية ، وآياتها مائة وخمس وثلاثون .

(١) [٢٠ / طه / ١٣٠] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طه)

[٢] (مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ)

[٣] (إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ)

« طه » قدمنا أن الحق فى هــذه الحروف التى افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففى عجزهم عن محاكاتها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نـكتة أخرى فى (الـكافية الشافية) بقوله :

وانظر إلى السور التى افتتحت بأحْـــرفها ترى سرًّا عظيم الشان

لم يأت قط بسورة إلا أتى فى إثرها خــبر عن القرآن

إذ كان إخباراً به عنهـا . وفى هــذا الشفاء لطالب الإيمـان

ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيـان

فانظر إلى مبدا الـكتاب وبعدها الـ أعراف ثم كذا إلى لقمان

مع تلوها أيضاً ومع حمٓ مع يسٓ وافهم مقتضى الفــرقان

« مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ » أى لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا و (الشقاء) فى معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر .

وقوله تعالى : « إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ » أى تذكيراً له . أى (مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ) لتتعب بتبليغه ، ولـكن تذكرة لمن فى قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار . والقصد أنه ماعليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لامحالة . وقد جرت السنة الإلٰهية

فى خطاب الرسول فى مواضع من التنزيل ، أن ينهاه عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم، كقوله تعالى[١] : (فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ) (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ)[٢] (وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ)[٣] وهذه الآية من هذا الباب أيضاً . وفى ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة، ما لا يخفى . ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] (تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى)

[٥] (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)

« تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ » قرئ بالرفع على المدح. أى هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول. وقوله «عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ » أى علا وارتفع . قاله ابن جرير[٤] . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والسلطان . كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلًا .

وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً .

قال ابن كثير : والمسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل .

وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيقىّ موجود . وأنه مركز العوالم كلها . أى مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٢] . (٢) [١٨ / الكهف / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٦] . (٤) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس عشر من تفسير الطبرىّ (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ)

« لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ » .
بيان لشمول قهره وملكته للكل . أي كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره . لاتوجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى)

« وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى » .
بيان لكمال لطفه. أي علمه نافذ في الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر. فكذلك إن تجهر وإن تخفت، فيعلمه بجهر وخفت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ)

« ٱللَّهُ » أي ذلك المُنْزِل الموصوف بهذه الصفات هو الله « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أي الفضلى ، لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ)

[١٠] (إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى)

« وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ » من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر

التوحيد الذى انتهى إليه الآية قبله، ببيان أنه دعوى كل نبيّ لاسيما أشهرهم نبأ، وهو موسى عليه السلام. فقد خوطب بقوله تعالى[١] (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) وبه ختم تعالى نبأه فى هذه السورة بقوله[٢] (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) أو تقرير لسعة علمه المبين فى قوله تعالى[٣] (وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ) الخ لقوله بعدُ (وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا)[٤] أو لهما معا. أو لحمله، صلوات الله عليه، على التأسى بموسى فى الصبر والثبات. لكونه ابتلى بأعظم من هذا فصبر، وكانت العاقبة له. وقد أشير فى طليعة نبأ موسى عليه السلام، إلى كيفية ابتداء الوحى إليه، وتكليمه تعالى إياه. وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم. وسار بأهله قاصداً بلاد مصر، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته. فأضلّ الطريق. وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال فى برد وشتاء. وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، كما قصه تعالى بقوله «إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا» أى أبصرتها إبصاراً بيّناً لا شبهة فيه «لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ» أى بشعلة مقتبسةٍ تصطلون بها: «أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى» أى هاديا يدلنى على الطريق.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ)

[١٢] (إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ، إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى)

«فَلَمَّآ أَتَىٰهَا» أى النار «نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى» أى فيجب فيه رعاية الأدب، بتعظيمه واحترامه لتجلى الحق فيه، كما يراعى أدب القيام عند الملوك (وطُوًى) اسم للوادى.

---

(١) [٢٠/ طه/ ١٤]. (٢) [٢٠/ طه/ ٩٨].
(٣) [٢٠/ طه/ ٧]. (٤) [٢٠/ طه/ ٩٨].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ)

[١٤] (إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ)

[١٥] (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ)

« وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » أى اصطفيتك للنبوة « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ » أى للذى يوحى . أو للوحى . ثم بينه بقوله « إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى »أى خصنى بالعبادة « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ » أى لتذكرنى فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك ، بأن تجعل حركاتها دالة على ما فى القلب واللسان . قال أبو السعود : خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى (لِذِكْرِىٓ) أى لتذكرنى . فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى . أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى . لاترائى بها، ولا تقصد بها غرضاً آخر . أو لتكون ذاكراً لى ، غير ناس . انتهى .

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره ، بقوله « إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ » أى واقعة لا محالة « أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ » أى بسعيها عن اختيار منها. واللام متعلقة بـ (آتية) . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفى (كاد) معنى القرب من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها ـ أن (كَادَ) منه تعالى واجب. والمعنى أنا أخفيها عن الخلق. كقوله(١) (عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا) أى هو قريب .

ثانيها ـ قال أبو مسلم : (أَكَادُ) بمعنى أريد كقوله(٢): (كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ)

(١) [١٧ / الإسراء / ٥١] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

ومن أمثالهم المتداولة (لا أفعل ذلك ولا أكاد) أى ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير (أَكَادُ) بـ (أريد) هو أحد معانيها . كما نقله ابن جنى فى (المحتسب) عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله[1] .

كادتْ وكدتُ وتلك خيرُ إرادةٍ ... لو عاد من لَهْوِ الصَّبابةِ مَا مَضَى

بمعنى أرادت . لقوله (تلك خير إرادة).

ثالثها ـ أن (أَكَادُ) صلة فى الكلام . قال زيد الخيل[2] .

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سلاحُهُ ... فما إنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

رابعها ـ أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالا ولا أقول هى آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلاأن فى إجمال ذكرها حكمة، وهى اللطف بالمؤمنين، لحثهم على الأعمال الصالحة، وقطع أعذار غيرهم حتى لايعتذروا بعدم العلم . وثمة وجوه أخر لاتخلو من تكلف، وإن اتسع اللفظ لها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ)

« فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا » أى عن تصديق الساعة « مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ » أى ما تهواه نفسه من الشهوات وترك النظر والاستدلال . « فَتَرْدَىٰ » أى فتهلك .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شىء أطمّ على الكفرة، ولا هم أشد له نكيراً من البعث. فلا يهولنك وفور دهمائهم، ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك. واعلم أنهم، وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٥ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) ولم يسمّ قائله . وفيه (لو كان) عوضا عن (لو عاد) .

(٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

واتباعه . لا البرهان وتدابره . وفى هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ)

[١٨] (قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ)

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ » شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفى الاستفهام إيقاظ له وتنبيه على ما سيبدو له من عجائب الصنع « قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا » أى أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفتُ على رأس القطيع وعند الطفرة « وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى » أى أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله « وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ » أى حاجات أخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ)

[٢٠] (فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ)

[٢١] (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ)

« قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ » أى هيئتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل . أى ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ)

[٢٣] (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى)

«وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ» أى إبطك «تَخْرُجْ بَيْضَآءَ» أى نيِّرة «مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ» أى قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفر عنه . واعتمد الزمخشرىّ ؛ أن قوله تعالى (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) كناية عن البرص . كما كُنى عن العورة بالسوأة ، قال : والبرص أبغض شىء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه مجّاجة . فكان جديراً بأن يكنى عنه . ولا ترى أحسن ولا ألطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى . « ءَايَةً أُخْرَىٰ » أى معجزة أخرى غير العصا « لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى » متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أى أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرا بعد التحدى والمناظرة ، لنريك أولا بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)

« ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة . فُصِل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته . أى اذهب إليه بما رأيتَه من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ طَغَىٰ » أى جاوز الحد فى التكبّر والعتوّ ، حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية . فلابد من تنبيهه على طغيانه بالدلائل العقليـة ، التى صدقتها المعجزات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

[٢٦] (وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي)

[٢٧] (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)

[٢٨] (يَفْقَهُوا قَوْلِي)

« قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي » إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون فى القتيل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أطغى الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمَدّ بمنطق فصيح ، لما فى لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال[1] (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) وقول فرعون[2] (وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليكون له رِدْءًا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي)

[٣٠] (هَارُونَ أَخِي)

[٣١] (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)

« وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي » أى قوِّ به ظهرى .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٣٤] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى)

[٣٣] (كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)

[٣٤] (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)

[٣٥] (إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا)

« وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا » أى كى نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر « إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا » أى عالماً بأحوالنا ، وبأن المدعوّ به مما يفيدنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ)

[٣٧] (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ)

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ » أى أجيب دعاؤك . وقوله تعالى « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ » كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب ، فَلَأَنْ ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ، لكمال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « مَرَّةً أُخْرَىٰٓ » أى فى وقت آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ)

[٣٩] (أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ)

« إِذْ أَوْحَيْنَآ » أى ألقينا بطريق الإلهام « إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ » أى الصندوق « فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ » أى البحر، متوكلةً على خالقه « فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى » لدعواه الألوهية « وَعَدُوٌّ لَّهُۥ » لدعوته إلى نبذ ما يدعيه .

قال الزمخشرىّ : لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته ـ أن لا تخطئ جرية اليم، الوصولَ به إلى الساحل ، وإلقاءه إليه ـ سلك فى ذلك سبيل المجاز. وجعل اليم كأنه ذو تمييز أُمر بذلك، ليطيع الأمر ويمتثل رسمه . فقيل (فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ) أى على سبيل الاستعارة بالكناية . بتشبيه اليم بمأمور منقاد . وإثبات الأمر تخييل ، وقوله تعالى « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » أى : واقعة منى ، زرعتها فى قلب من يراك. ولذلك أحبك فرعون «وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ » أى ولتربَّى بيد العدوّ على نظرى بالحفظ والعناية . فـ(على عينى) استعارة تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى. قيل : و(على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى منى ، فى الأصل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ، فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ)

«إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ » أى يضمن حضانته ورضاعته.

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأباها كما قال تعالى[١] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ) فجاءت أخته فقالت[٢] (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ) فجاءت بأمه كما قال « فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ » أى مع كونك بيد العدوّ « كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيتك « وَلَا تَحْزَنَ » أى بفراقك . فهذه منن زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى ما منّ عليه بالنجاة من القتل الذى لا يدفع بتلبيس، بقوله « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » أى من آل فرعون ، وهو القبطىّ الذى استغاثه عليه الإسرائيلىّ ، إذ وكزه موسى فقضى عليه. أى : فاغتممت للقصاص «فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ »أى غم القتل بأن صرفنا عنك ما تخشاه. وذلك أنه عليه السلام فرّ من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)[٣] «وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا» أى ابتليناك ابتلاءً. على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروبا من الفتن على أنه جمع (فتنة) أى فجعلنا لك فرجًا ومخرجًا منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ » أى معزز الجانب مكفىّ المؤونة فى عشرة أتقى رجل منهم وأصلحهم، وهو نبيّهم عليه السلام « ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ » أى بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلمك وأستنبئك فى وقت بعينه قد وقّته لذلك. فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (يَٰمُوسَىٰ) تشريف له عليه الصلاة والسلام، وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولًا . وقوله تعالى :

(١) [٢٨/ القصص/ ١٢]. (٢) [٢٨/ القصص/ ١٢]. (٣) [٢٨/ القصص/ ٢٥].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى)

[٤٢] (ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى)

« وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى » تذكير لقوله تعالى (وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ) وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنيعة. يقال: اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أى جعله محلًّا لإكرامه باختياره وتقريبه منه ، بجعله من خواص نفسه وندمائه، فاستعير استعارة تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه. وهو جعله نبيًّا مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى (وَفَتَنَّـٰكَ) ونظيريه السابقين ، تمهيد لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام، فإنه أدخل فى تحقيق معنى (الاصطناع) و (الاستخلاص) . ثم بيّن ماهو المقصود بـ(الاصطناع) بقوله سبحانه « ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى » أى بمعجزاتى . كالعصا وبياض اليد وحل العقدة ، مع ما استظهره على يده « وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى » أى لا تفترا ولا تقصّرا فى ذكرى بما يليق بى من النعوت الجليلة، عند تبليغ رسالتى والدعاء إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)

[٤٤] (فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)

«ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ» أى عقابى. فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى[1] (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) وبمثل ذلك

(١) [٧٩ / النازعات / ١٨و١٩] .

أمر نبينا صلوات الله عليه في قوله[1] : (أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وظاهر أن الرجاء في (لعله) إنما هو منهما ، لا من الله . فإنه لا يصح منه . ولذا قال القاضي : أي باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما . فإن الراجي ، مجتهد والآيس متكلف . والفائدة في إرسالها والمبالغة عليهما في الاجتهاد ـ مع علمه بأنه لا يؤمن ـ إلزام الحجة ، وقطع المعذرة ، وإظهار ماحدث في تضاعيف ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ)

[٤٦] (قَالَ لَا تَخَافَآ ، إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)

« قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ » أي يبادرنا بالعقوبة «أَوْ أَن يَطْغَىٰ» أي يزداد طغياناً بالعناد، في دفع حججنا، ثم يأمر بقتلنا. أو بالتخطي إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي ، لجرأته وقسوة قلبه . واقتصر على الثاني الزمخشريّ . وأفاد ؛ أن في المجيء به هكذا على الإطلاق، وعلى سبيل الرمز، باباً من حسن الأدب، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة: «قَالَ لَا تَخَافَآ » أي من فرطه وطغيانه « إِنَّنِي مَعَكُمَآ » أي بالحفظ والنصرة «أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» أي ما يجري بينكما وبينه. فأرعاكما بالحفظ. فالمفعول محذوف للقرينة ، أو نزل منزلة اللازم تتميماً لما يستقل به الحفظ . كأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر ، سامع وبصير . وإذا كان الحافظ كذلك ، تمّ الحفظ والتأييد ، وذهبت المبالاة بالعدوّ .

---

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ)

« فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بإطلاقهم من الأسر والعبودية . وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين « وَلَا تُعَذِّبْهُمْ » أى بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل فى الأمور الشاقة « قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ » أى تحقق رسالتى إليك منه تعالى بذلك « وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ » أى فصدق بآيات الله المبينة للحق . وفيه من ترغيبه فى اتباعهما ، على ألطف وجه ، ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

« إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ » أى من ربنا « أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ » أى بآياته تعالى « وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض عنها . وفيه من التلطيف فى الوعيد ، حيث لم يصرح بحلول العذاب به ، ما لا مزيد عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ)

[٥٠] (قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ » أى منح كل شيء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواه بها وعدّله ، ثم هداه بأن وهبه العقل الذى يميز بين الخير والشر .

وهـذه الآية فى معناها كآية(١) (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) وآية(٢) (وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ)

[٥٢] (قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى » أى ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهـذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعنى ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعـلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخطئة والتـكذيب ، بالعناد واللجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب فى اللوح المحفوظ ، محصىّ غير منسىّ . ويجوز أن يكون (فِى كِتَٰبٍ) تمثيلًا لتمـكنه وتقريره فى علم الله عز وجل، بما استحفظه العالم وقيده بالـكتبة . قال فى العناية : فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه فى جريدته ، حتى لا يذهب أصلًا ، فيـكون قوله (لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) ترشيحاً للتمثيل، واحتراساً أيضاً . لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزه عنه . فـ (الـكتاب) على هذا بمعناه اللغوىّ . وهو الدفتر، لا اللوح المحفوظ . وقوله تعالى :

---

(١) [٩١ / الشمس / ٧و٨] . (٢) [٩٠ / البلد / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا » أى فراشاً « وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ » أى أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، فى الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزمخشريّ قوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا) من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد . يصرّف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون (عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) ثم قوله (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا) إلى قوله (فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) فإما أن يجعل من قول موسى ، فيكون من باب قول خواص الملك (أمرنا وعمرنا) وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله (وَلَا يَنسَى) ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب. وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وُقيفَة عند قوله (وَلَا يَنسَى) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجها آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة. فقال (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) فلما حكاه الله تعالى عنه ، أسند الضمير إلى ذاته. لأن الحاكى هو المحكىّ فى كلام موسى . فمرجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزمخشريّ لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ)

[٥٥] (مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ)

« كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ » حال من ضمير (فَأَخْرَجْنَا) على إرادة القول « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ * مِنْهَا » أى من الأرض « خَلَقْنَـٰكُمْ » أى خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، المتولدة من الأرض بوسائط « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » أى بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض « وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » أى بردّهم كما كانوا ، أحياء . ثم أشار تعالى إلى عتوّ فرعون وعناده ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)

[٥٧] (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ)

[٥٨] (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى)

« وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا » أى من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين « فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى » أى مستوياً واضحاً يجمعنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى)

[٦٠] (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ)

« قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ » وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه « وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى » أى ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه « فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ » أى انصرف عن المجلس « فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ » أى ما يكيد به موسى ، من السحرة وأدواتهم « ثُمَّ أَتَىٰ » أى الموعد ومعه ما جمعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ)

[٦٢] (فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ)

[٦٣] (قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ)

« قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ » أى مقدماً لهم النصح والإنذار ، لينقطع عذرهم « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتم على الله تعالى « فَيُسْحِتَكُم » أى يستأصلكم « بِعَذَابٍ » أى هائل لغضبه عليكم « وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ * فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ * قَالُوٓا۟ » أى بطريق التناجى والإسرار « إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ » أى بمذهبكم

الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهرون هو عزل فرعون عن ملكه ، بجعله عبدا لغيره ، واستقرارهما فى مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقتكم بسحرهما الذى يريدان إعجازكم به . و (الْمُثْلَىٰ) تأنيث الأمثل ، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطيفة :

فى قوله تعالى (إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ) قراءات .

الأولى ـ (إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ) بتشديد النون من (إِنَّ) و (هَٰذَيْنِ) بالياء وهى قراءة أبى عمرو ، وهى جارية على السَّنَنِ المشهور فى عمل (إِنَّ) .

والثانية ـ (إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ) بتخفيف (إنّ) وإهمالها عن العمل ، كما هو الأكثر فيها إذا خففت . وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية . ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى (إِلَّا) و (إِنْ) قبلها نافية ، واستدلوا على مجىء اللام للاستثناء بقوله(١) :

أمسى أبانُ ذليلًا بعد عِزَّتِهِ وما أبانُ لَمِنْ أعلاجِ سُودَانِ

والثالثة ـ (إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ) بتشديد (إِنَّ) و (هذان) بالألف . وخرّجت على أوجه :

أحدها ـ موافقة لغة من يأتى فى المثنى بالألف فى أحواله الثلاث . وهم بنو الحرث ابن كعب وخثعم وزَبيْد وكنانة وآخرون . قال قائلهم(٢) :

* تزَوَّدَ مِنَّا بين أُذْنَاهُ طَعْنَةً *

---

(١) انظر الشاهد رقم ٣٨٥ من (مغنى اللبيب لابن هشام) .

(٢) انظر الشاهد الرابع عشر من (شذور الذهب لابن هشام) وعجز البيت :

* دَعَتْهُ إلى هابِى الترابِ عَقِيمُ *

وقال آخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بَلَغَا فى الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

ثانيها ـ إنَّ (إنَّ) بمعنى (نعم) حكاه المبرد . واستدل بقول الراجز[٢] :

يا عمر الخيرِ جُزِيتَ الجَنَّهْ اكسُ بُنَيَّاتِي وَأُمَّهُنَّهْ

وَقُلْ لَهُنَّ : إنَّ أنَّ إِنَّهْ أُقْسِمُ باللهِ لَتَفعَلَنَّـهْ

وقول[٣] عبدالله بن قيس الرُّقيَّات :

وَيَقُلْنَ شيب قد عــلا كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إِنَّهْ

وردَّ على المبرد أبو على الفارسيّ ، بأنه لم يتقدم ما يجاب بـ (نعم) وأجاب الشمنّى ، بأن التنازع فيا بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب للاستخبار الضمنيّ . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيا بينهم ليس فى الاستخبار عن كونهما ساحرين، بل هم جزموا بالسحر فقالوا[٤]: (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ) ثم أسروا النجوى فيما يغلبان به موسى. إلا أن يقال: محطّ الجواب قوله (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ)الخ، وما قبـله توطئة . وقد رد فى (المغنى) هذا التخريج ؛ بأن مجىء (نعم) شاذ حتى نفاه بعضهم . ومنعه الدمامينىّ ؛ بأن سيبويه والحذّاق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام فى (لَسَاحِرَانِ) لام الابتداء ، زحلقت للخبر . وأبى البصريون دخولها على الخبر . وزعموا أنها فى مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع (إن) التى بمعنى (نعم) لشبهها بالمؤكدة لفظاً .

وأقول : فيه تـكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

---

(١) انظر الشاهد رقم ٥١ من (مغنى اللبيب لابن هشام) .

(٢) لم أهتد إليه الآن ، وخصوصا الشطر الثالث .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤٩ من (مغنى اللبيب لابن هشام) . (٤) [٢٠ / طه / ٥٧] .

وثالثها ـ أنه لما كان الإعراب لايظهر فى الواحد ، وهو (هذا) جعل كذلك فى التثنية، ليكون المثنى كالمفرد . لأنه فرع عليه . واختار هـذا القول الإمام العلامة تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، وزعم أن بناء المثنى ، إذا كان مفرده مبنياً ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفطن لذلك غير واحد من حذاق النحاة . ثم اعترض بأمرين :

أحدهما ـ أن السبعة أجمعوا على الياء فى قوله تعالى (١) : (إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ) مع أن هاتين تثنية (هاتا) وهو مبنى .

والثانى ـ أن (الذى) مبنى وقد قالوا فى تثنيته (ٱلَّذَيْنِ) فى الجر والنصب . وهى لغة القرآن ، كقوله تعالى (٢) : (رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا) وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء (هاتين) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة (ابنتى) قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء فى (إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَٰنِ) أفصح من الإعراب لمناسبة الألف فى (هذان) للألف فى (ساحران) . وأجاب عن الثانى بالفرق بين (اللذان) و (هذان) بأن (اللذان) تثنية اسم ثلاثى ، فهو شبيه (بالزيدان) و (هذان) تثنية اسم على حرفين . فهو عريق فى البناء لشبهه بالحروف . قال رحمه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إنّ هذان) لحن وإن عثمان رضى الله عنه قال (إن فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها) وهذا خبر باطل لايصح من وجوه .

أحدها ـ إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرون اللحن فى القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم فى إزالته ؟

والثانى ـ أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح فى الكلام ، فكيف لايستقبحون بقاءه فى المصحف ؟

---

(١) [٢٨ / القصص / ٢٧] . (٢) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والثالث ـ أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربىّ والعجمىّ .

والرابع ـ أنه قد ثبت فى الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوه) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضى الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ : عَتَّى حِين ، على لغة هذيل ، أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقىّ الدين ملخصاً .

هـذا حاصل ما فى (المغنى) و (الشذور) و (حواشيهما) وفى الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ)

« فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ » تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أى إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج ، والإذهاب ، فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا » أى مصطفين ، ليكون أهيب فى صدور الرائين « وَقَدْ أَفْلَحَ » أى فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملئه « ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ » أى علا وغلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ)

[٦٦] (قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)

« قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ » أى التى ألقوها « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ » أى حيّات تسعى على بطونها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ)

[٦٨] (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ)

[٦٩] (وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ، إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ)

« فَأَوْجَسَ » أى أحس « فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ » وذلك لما جُبِلَ عليه الإنسان من النفرة من الحيات . أو خاف من توهم الخلق المعارضة ، بأن لهم من حبالهم وعصيهم حيات. كما أن له من عصاه حيّة « قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ » أى تلتقطه بفمها « إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ » فى مقابلة آية ربانية « وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ » أى لا يفوز بمطلوبه ، أىَّ مكانٍ جاءَ لدفع الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ)

[٧١] (قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ)

« فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا » أى فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ، لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية ربانية « قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ

وَمُوسَىٰ قَالَ » أى فرعون « ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ » أى فاتفقتم معه ليكون لكم الملك « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى من جانبين متخالفين « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ » أى التى هى أقوى الأخشاب وأخشنها « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ » يعنى أنكم إنما آمنتم برب موسى خوفاً من شدة عذابه ، أو من تخليده فى العذاب (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ) فإن رب موسى لم يقطع من أحد يده ورجله من خلاف ، ولم يصلبه فى جذوع النخل ، ولم يبقه مصلوبا ، قاله المهايمى. وضعّفه الزمخشرىّ بأن فرعون يريد نفسه وموسى عليه السلام ، بدليل قوله (ءَامَنتُمْ لَهُۥ) أى لموسى . واللام مع الإيمان ، فى كتاب الله ، لغير الله تعالى كقوله تعالى (يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) وقصده إظهار اقتداره وبطشه ، وما ضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع موسى عليه السلام واستضعافه مع الهزء به ، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب فى شيء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ، فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ)

« قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ » أى نختارك بالإيمان والاتّباع « عَلَىٰ مَا جَآءَنَا » أى من الله على يد موسى « مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا » أى وعلى الذى خلقنا . واختيارُ هذا الوصف للإشعار بعلة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه ، سبحانه وتعالى . وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله (ءَامَنتُمْ لَهُۥ) وقيل هو قسم محذوف الجواب « فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ » أى اصنع ما أنت صانعه . وهذا جواب عن تهديده بقوله (لَأُقَطِّعَنَّ) الخ « إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ » أى فيها وهى لا بقاء لها ، ولا سلطان لك بعدها . وإنما البغية الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ، وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ)

« إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ » أى ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)

« إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا » أى فينقضى عذابه « وَلَا يَحْيَىٰ » أى حياة طيبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ)

« وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ » أى المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ)

« جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ » أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة .

لطائف :

من (الكشاف) و (حواشيه للناصر) .

الأولى ـ فى تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم، استعمال أدب حسن معه، وتواضع له

وخفض جناح . وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم . وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى ـ صلوات الله عليه ـ اختيار إلقائهم ، أوّلًا ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين . وعبرة بينة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ) ففوضوا ضرب الموعد إليه . وكما ألهم الله عز وجل موسى هٰهنا ، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا، بعدُ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم .

الثانية ـ جوز فى إيثار قوله تعالى (مَا فِي يَمِينِكَ) على (عَصَاكَ) وجهان : أحدهما ـ أن يكون تعظيما لها . أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وثانيهما ـ أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم . وألق العُوَيْد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك. فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها. وإنما المقصود بتحقيرها فى جنب القدرة، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى .لأنها إذا كانت أعظم مُنَّةً وهى حقيرة فى جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق فى علوّ المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها فى طرفة عين .

واعلم أنه لابد من نكتة تناسب الأمرين ـ التعظيم والتحقير ـ وتلك ، والله أعلم ،

هى إرادة المذكور مبهما . لأن (مَا فِى يَمِينِكَ) أبهم مِنْ (عَصَاكَ) وللعرب مذهب فى التنكير والإبهام ، والإجمال، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومرة لتعظيم شأنه، وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يغنى فيه الرمز والإشارة . فهذا هو الوجه فى إسعاده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو؛ أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سأله عنها بقوله تعالى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى (وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ) ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى (فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ) ؟ انتهى .

ولأبى حيان نكتة أخرى . وهى ما فى اليمين من الإشعار باليمن والبركة . ولا يقال جاء فى سورة الأعراف (أَلْقِ عَصَاكَ) والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجىّ: فيما ذكروه نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربىّ أو مرادفٍ له ، يجرى فيه ما يجرى فيه . والأول خلاف الواقع . والثانى دونه خرط القتاد ، فتأمل .

أقول إنما استبعد الثانى ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا فى اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتعين الثانى . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف . ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه ، من إنجائهم وإهلاك عدوهم ، وقد طوى هنا ما فصل فى آيات أخر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ)

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى» أى سر بهم من مصر ليلًا « فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » أى يابساً . فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجاوزه إلى ساحله « لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا » أى لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك « وَلَا تَخْشَىٰ » أى غرقاً من بين يديك ، ووحلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)

[٧٩] (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ)

« فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ » لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر ، وأنهم قهروه على قلتهم كما قال[١] (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ) فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم ، ونزلوا فى الطريق الذى سلكوه . ففاجأهم الموج كما قال تعالى « فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ » أى علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله « وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ » أى أوردهم الهلاك ، بعتوّه وعناده فى الدنيا والآخرة . وما هداهم سبيل الرشاد .

ثم ذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الكبرى ، وما وصاهم من المحافظة على شكرها ، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٤و٥٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ)

[٨١] (كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى، وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ)

« يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ » وهو فرعون وقومه . فقد كانوا يسومونكم سوء العذاب . يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وذلك بأن أقر أعينكم منهم، بإغراقهم، وأنتم تنظرون. « وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ » أى بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه . واليهود السامرية تزعم أن هذا الجبل فى (نابلس) ويسمونه (جبل الطور) ويذكر فى الجغرافيا بلفظ (عيبال) ولهم عيد سنوىّ فيه يصعدون إليه ، ويقربون فيه القرابين . والله أعلم .

قال الزمخشرىّ : وإنما عدّى المواعدة إليهم ، لأنها لابستهم واتصلت بهم ، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم . وإليهم رجعت منافعها التى قام بهم دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

و (جانب) مفعول فيه ، أو مفعول به على الاتساع . أو بتقدير مضاف . أى إتيان جانب . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ » أى من لذائذه . فإن المن كالعسل . والسلوى من الطيور الجيد لحمها « وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ » أى فيما رزقناكم ، بأن يتعدى فيه حدود الله ، ويخالف ما أمر به « فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ » أى هلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ)

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ » أى تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وعمل صالحا بجوارحه، ثم اهتدى ، أى استقام وثبت على الهدى المذكور . وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح . ونحوه قوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ) وفى الآية ترغيب لمن وقع فى وهدة الطغيان ، ببيان المخرج له منه ، كى لا ييأس . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ)

« وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ » أى أىُّ شىء عجّل بك عنهم ، على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور، على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)

« قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى » أى قادمون ينزلون بالطور ، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير . ولذا قال « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ » أى عنى ، بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك . واعتنائى بالوفاء بعهدك . وزيادة (رَبِّ) لمزيد الضراعة والابتهال ، رغبةً فى قبول العذر . أفاده أبو السعود .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول (طلبُ زيادة رضاك أو الشوقُ إلى كلامك) فالجوابُ . أن هـذا من الغفلة عن سرِّ الإنـكار . وذلك لأن الإنـكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم . فهو منصبّ على القيد . كما عرف فى أمثاله. فالسؤال فى المعنى عن الانفصال الذى يتضمنه (أعجلك) المتعدى بـ (عن) . وإنـكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب (هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) . وقوله (وَعَجِلْتُ) الخ تتميم . وقيل الجواب إنما هو قوله (وَعَجِلْتُ) الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغى تأخُّرُ رئيس القوم عنهم فى المسير، ليـكون نظره محيطا بطائفته، ونافذا فيهم ، ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لايحصل فى تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب، لوطا، فقال[1] (وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ) فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هـذا الأمر مبادرة إلى رضاء الله عز وجل ، ومسارعة إلى الميعـاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له ﷺ . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ)

« قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ » أى ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة « وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ » يعنى اليهودىّ الذى وسوس لهم أن يعبدوا عجلًا يتخذوه إلها ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . و (السامرى) فى لغة العرب ، بمعنى اليهودىّ . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود فى (نابلس) قليلة العدد تخالف بقية اليهود فى جلّ عاداتها .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٥] .

وقد تضمنت هذه الجملة ـ أعنى إخباره تعالى لموسى بالفتنة ـ الأمر ـ برجوعه لقومه ، وإصلاحه مافسد من حالهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى)

« فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا » أى حزيناً « قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإنزال التوراة علىَّ ، ورجوعى بها إليكم « أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ » أى زمان الإنجاز ، أو مجيئى « أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى » أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ)

[٨٨] (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ)

« قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا » قرئ بالحركات الثلاث على الميم .

قال الزمخشرىّ : أى ما أخلفنا موعدك ، بأن ملكنا أمرنا . أى لو ملكنا أمرنا ، وخليناوراءنا، لما أخلفناه. ولكن غلبنا من جهةالسامرىّ وكيده «وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ » بفتح الحاء مخففاً ، وبضمها وكسر الميم مشدداً « أَوْزَارًا » أى أثقالاً وأحمالاً « مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ »

أى من حلىّ القبط ، قوم فرعون ، وهو حلىُّ نسائهم « فَقَذَفْنَـٰهَا » أى فى النار لسبكها « فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ » أى كان إلقاؤه « فَأَخْرَجَ لَهُمْ » أى من تلك الحلىّ المذابة « عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ » أى صوت عجل . وقد قيل : إنه صار حيًّا ، وخار كما يخور العجل . وقيل: لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارق، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل . أفاده الرازىّ .

وقوله « فَقَالُواْ » أى السامرىُّ ومن افتتنوا به « هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ » أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور . ثم أنكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل ، مسفهاً، لهم فيما أقدموا عليه ، مما لا يشتبه بطلانه على أحد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ » أى العجل « إِلَيْهِمْ قَوْلًا » أى لا يردد لهم جواباً « وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى دفع ضرّ ولا جلب نفع ، أى فكيف يتخذ إلهاً ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى)

« وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ » أى قبل رجوع موسى إليهم « يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ » أى ضللتم بعبادته « وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى » فى عبادته سبحانه ، ونبذ العجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ)

[٩٢] (قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ)

[٩٣] (أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى)

« قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ » أى موسى « يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ » أى فى الغضب لله ، وشدة الزجر عن الكفر . و (لا) مزيدة . أو المعنى ماحملك على أن لا تتبعنى ، بحمل النقيض على النقيض . فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله . أو مامنعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم ، فتكون مفارقتك مزجرة لهم «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى» وهو ما أمره به من أن يخلفه فى قومه ، ويصلح مايراه فاسداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ، إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى)

« قَالَ » أى هرون « يَبْنَؤُمَّ » بكسر الميم وفتحها . أراد (أمى) وذكرها أعطف لقلبه « لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ » أى بشعره . وكان قبض عليهما يجره إليه من شدة غضبه : « إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بتركهم لا راعى لهم « وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى » أى لم تراعه فى الاستخلاف والوجود بين ظهرانيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ)

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ » أى ثم أقبل على السامرى وقال له منكراً : ما شأنك فيما صنعت ؟ وما دعاك إليه ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى)

[٩٧] (قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ، وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا)

« قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ » أى فطنت لما لم يفطنوا له « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا » أى فى الحلىّ المذاب حتى حَىَّ « وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى » أى حسَّنته وزينته «قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ» أى لعذابك «مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا » أى لنطيّرنّه رماداً فى البحر ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

تنبيهات

الأول ـ اعلم أن هرون عليه السلام ، سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه . لأنه زجرهم عن الباطل ، أوّلا بقوله (إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ) ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانياً بقوله (وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى (فَٱتَّبِعُونِى) ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله (وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى) وهذا هو الترتيب الجيّد . لأنه لا بد قبل كل شىء فى إماطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات . ثم معرفة الله تعالى ، فإنها هى الأصل . ثم النبوة ثم الشريعة . فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه . أفادة الرازىّ .

وقد برأ الله تعالى بهذه الآيات البينات، هرون عليه السلام مما افتراه عليه كتبة التوراة،

من أنه هو السامريّ الذى اتخذ العجل وأمر بعبادته ، كما هو موجود عندهم . وهو من أعظم الفرى ، بلا امترا .

الثانى ـ عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول فى قوله تعالى (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ) هو جبريل عليه السلام . وأراد بأثره ، التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته. ثم اختلفوا : أن السامرىّ متى رآه ؟ فقيل : إنما رآه يوم فلق البحر . وقيل : وقت ذهابه بموسى إلى الطور .

واختلفوا أيضاً فى: أن السامرىّ كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام، ومعرفته من بين سائر الناس ؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه فى صغره ، وحفظه من قتل آل فرعون له ، وكان ممن رباه. وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم. ولذا قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون . فههنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام. وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره، إذا كان يمتثل رسمه . والتقدير ، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرىّ باللوم ، والمسألة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم فى باب العجل ، فقال (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ) أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك . فقذفته ، أى طرحته . فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة. وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً ، مع جحده وكفره ، فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) وإن لم يؤمنوا بالإنزال . انتهى .

---

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال الرازىّ : ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون ، لوجوه :

أحدها ـ أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول . ولم يجر له فيما تقدم ذكر، حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه . فإطلاق لفظ (الرسول) لإرادة جبريل عليه السلام، كأنه تكليف بعلم الغيب .

وثانيها ـ أنه لابد فيه من الإضمار . وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول . والإضمار خلاف الأصل .

وثالثها ـ أنه لابد من التعسف فى بيان أن السامرىّ كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لِتُرَابِ حافر فرسه هذا الأثر؟ والذى ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذى رباه ، فبعيد . لأن السامرىّ، إن عرف جبريل حال كمال عقله ، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبىّ صادق . فكيف يحاول الإضلال ؟ وإن كان ماعرفه حال البلوغ، فأىّ منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له حال الطفولية، فى حصول تلك المعرفة ؟ انتهى .

التنبيه الثالث فى قوله تعالى (لَا مِسَاسَ) وجوه :

أحدها ـ إنى لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ .

وثانيها ـ المراد المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد ، عقوبة له .

ثالثها ـ ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز فى حمله (ما أريد مسى النساءَ) فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله . فلا يكون له ولد يؤنسه ، فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله(١) (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) أى لأن المسّ يكنى به عن النكاح كما فى آية(٢) (مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ) والله أعلم .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٤٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٧] .

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال ما دعا إليه السامريّ ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩٨] (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا)

« إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ » أي المستحق للعبادة والتعظيم « ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » أي أحاط علمه كل شيء . ثم أشار تعالى إلى فضله ، فيما قصه على خاتم رسله صلوات الله عليه ، من أنباء الأنبياء ، تنويهاً بشأنه ، وزيادة في معجزاته ، وتكثيرًا للاعتبار والاستبصار في آياته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩٩] (كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا)

« كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا » أي كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال ، وسمي القرآن (ذِكْرًا) لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم ، ومن ذكر آلاء الله ونعمائه . ففيه التذكير والمواعظ . ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات الله عليه ولقومه .

قال الرازيّ : وقد سمى تعالى كل كتبه (ذكراً) فقال[١] (فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ) .

ثم ، كما بيّن تعالى نعمته بذلك ، بيّن شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به ، بقوله :

---

(١) [١٦ / النحل / ٤٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٠] (مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا)

[١٠١] (خَـٰلِدِينَ فِيهِ ، وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا)

« مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا » أى إثماً . يعنى عقوبة ثقيلة. شبهت بالحمل الثقيل لثقلها على المعاقَب وصعوبة احتمالها « خَـٰلِدِينَ فِيهِ » أى فى احتماله المستمر « وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا » . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ، وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

[١٠٣] (يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا)

« يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ » بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق(١) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ المسلم . أفاده بعض المحققين .

« وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى نسوقهم إلى جهنم « يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » أى زرق الوجوه . الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية(٢) (وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف بصره ، يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو كقوله تعالى(٣) (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ) نقله الرازىّ . والأول أظهر.

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٦] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] .

« يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ » أي يتسارّون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين « إن لَّبِثْتُمْ » أي في الدنيا « إِلَّا عَشْرًا » أي عشر ليال. قال الزمخشريّ: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور، فيتأسّفون عليها ويصفونها بالقصر. لأن أيام السرور قصار. وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضّت. والذاهب، وإن طالت مدته، قصير بالانتهاء. ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: أطال الله بقاءك (كفى بالانتهاء قصرًا). وإما لاستطالتهم الآخرة، وأنها أبد سرمد، يستقصر إليها عمر الدنيا، ويتقالّ لبث أهلها فيها، بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقالًّا منهم، في قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا)

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً » أي أعدلهم رأيًا « إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » ونحوه قوله تعالى[1] (قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ) انتهى.

قال أبو السعود: ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، استرجاع منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدلّ على شدة الهول. أي: ولكونه منتهى الأعداد القليلة. وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمديّ، وإلى تقضّي الغائب الذي كأنْ لم يكن. ولا ينافي هذا ما جاء في آية[2] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ * يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ) لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل، فتصدق باليوم. كما أن المراد باليوم مطلق الوقت. ولذلك نكر، تقليلًا له وتحقيرًا.

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١١٢و١١٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال (عَشْرًا) أو (يَوْمًا) أو (سَاعَةً) حقيقة اختلافهم فى مدة اللبث ، ولا الشك فى تعيينه . بل المراد أنه لسرعة زواله ، عبّر عن قلّته بما ذكر . فتفنن فى الحكاية ، وأتى فى كل مقام بما يليق به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا)

[١٠٦] (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

[١٠٧] (لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ » أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول « فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا » أى يزيلها عن مقارّها . فيسيّرها مقذوفة فى الفضاء . وقد تمرّ على الرءوس مرّ السحاب . حتى تتساوى مع سطح الأرض . كما قال « فَيَذَرُهَا » أى فيذر مقارّها ومراكزها . أو الأرض المدلول عليها بقرينة الحال « قَاعًا » أى سهلًا مستويًا « صَفْصَفًا » أى أملس « لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا » أى نتوءًا يسيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ، وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

« يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ » أى يجيبون الداعى إلى المحشر ، فينقلبون من كل صوب إليه « لَا عِوَجَ لَهُۥ » أى لا يعوج له مدعوّ ، ولا ينحرف عنه . بل يستوون إليه ، متبعين لصوته ، سائرين بسيره .

فى شروح (الكشاف) : هذا كما يقال (لا عصيان له) أى لا يعصى . و (لا ظلم له) أى لا يظلم . وضمير (له) للداعى . وقيل : للمصدر . أى لا عوج لذلك الاتباع « وَخَشَعَتِ

ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ » أى انخفضت لهيبته ولهول الفزع « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » أى صوتاً خفيًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا)

« يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا » أى قبل قوله . والمعنى : يومئذ لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد ، إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب .

قال بعض المحققين : وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم ، لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء . ولا أثر له فيما أراد الله البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا » أى بمعلوماته ، أو بذاته العلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)

« وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ » أى ذلت وخضعت خضوع العناة ، أى الأسارى . لأنها فى أسر مملكته وذلّ قهره وقدرته . لا تحيا ولا تقوم إلا به .

ولما كانت الوجوه يومئذ ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة ، أشار إلى ما يجزى به الكل ، بقوله سبحانه « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أى خسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)

« وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا » أى نقص ثواب « وَلَا هَضْمًا » أى ولا كسرًا منه ، بعدم توفيته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٣] (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ » أى بعبارات شتى ، تصريحًا وتلويحًا ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» أى الكفر والمعاصى بالفعل « أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » أى اتعاظًا واعتبارًا ، يؤول بهم إلى التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)

« فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ » أى تناهى فى العلوّ والعظمة ، بحيث لا يقدر قدره ، ولا يقدر أمره فى ملكه الذى يعلو كل شيء ، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته . وفى عدله الذى يوفى كل أحد حقه بموجب حكمته « وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ » أى: بل أنصت. فإذا فرغ المَلَك من قراءته فاقرأه بعده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقّنه جبريل الوحىَ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ. فأرشد إلى أن لا يساوقه فى قراءته ، وأن يتأنَّى عليه ريثما يسمعه ويفهمه . ثم ليقبل عليه

بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله « وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » أى سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناهٍ.

وهذا ـ كما قال الزمخشريّ ـ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له ، عندما علم من ترتيب التعلم . أى علمتنى يا رب لطيفة فى باب التعلم ، وأدباً جميلًا ما كان عندى، فزدنى علماً إلى علم. فإن لك فى كل شيء حكمة وعلماً . قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شيء إلا فى العلم.

ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بنى آدم ، من اتّباعهم كل هدى يأتيهم منه سبحانه ، وترتب الفوز عليه . وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان، العدوّ لهم ولأبيهم قبلهم. وترتب الشقاء عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٥] (وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا)

« وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هـذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة « فَنَسِىَ » أى العهد « وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا » أى تصميما فى حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّه . كما بيّنه الله تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ)

[١١٧] (فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦ـ١٩] .

إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ » أى بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته فى الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ، مع المحافظة على الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾

[١١٩] ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

« إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » أى لا تتصوّن من حرّ الشمس .

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهى . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجدِّ فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها . والعدولُ عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم .من المآكل والمشارب، وتمتعاً بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ، ما لا يخفى . إلى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها، ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير . وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها :ولو قرن كلًّا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكندىّ الأول[1] :

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ولم أَتبطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخَالِ

ولم أسبأ الزِّقَّ الروىّ ولم أَقُلْ لخيلىَ : كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقطع ركوب الجواد عن قوله (لخيلى كرى كرة) وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدّد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .

على أن فى هذه الآية سرًّا لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل . ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ، لانتثر سلك رؤوس الآى . وأحسنْ به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذى سمّاه (قطع النظير عن النظير) يسمى بالوصل الخفىّ . ومما قيل فى وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأوليْن ، أعنى الشبع والكسوة أصلان . وأن الأخيرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل (إنَّ لكَ) و (أنَّكَ) وأيضاً روعى مناسبة الشبع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام لحما . وأما الظمأ والضحى فمن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن كل بما يشاكله ، لتوهم المقرونان نعمة واحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)

[١٢١] (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ)

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ » أى من أكل

(١) البيتان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون من قصيدة امرئ القيس التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالِى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالِى؟

منها خلد ولم يمت « وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا » أى يلزقان « مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ » أى فحصل لها هذا الخزى ، بدل عزّ الملك المخلد. وهذه الأوراق الفانية، بدل نفائس الملابس الخالدة « وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ » أى بارتكاب النهى ، وترك العزم فى حفظ العهد « فَغَوَىٰ » أى عن المأمور به . حيث اغتر بقول العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ)

[١٢٣] (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)

« ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ » أى اصطفاه ووفّقه للإنابة « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ » أى بعد قبول توبته « اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » أى انزلا من الجنة إلى الأرض « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى متعادين .

قال المهايمىّ : فالمرأة عدوّة الزوج ، فى إلجائه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوّها فى إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما ، ويدعوهما إلى أنواع المفاسد التى لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماوىّ . « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى » أى من كتاب ورسول . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » أى لا فى الدنيا ولا الآخرة . قال أبوالسعود : ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله (هُدَاىَ) مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ)

[١٢٥] (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا)

[١٢٦] (قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ)

[١٢٧] (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ، وَلَعَذَابُ الْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ)

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ الْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ » اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه فى معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، من شقائه فى الدنيا والآخرة. وهذا الشقاء بقسميه، هو نوع من أفانين العـذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذى بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمرَ ربه . وفى الآية مسائل :

الأولى ـ قال الرازىّ فى قوله تعالى (عَن ذِكْرِى) : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيّم فى (مفتاح دار السعادة) : أى عن الذكر الذى أنزلته . و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . كـ (قيامى وقراءتى) لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء، لا إضافة

المصادر إلى معمولاتها . والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه ، فإن القرآن يسمى ذكراً. قال تعالى(١) (وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ) وقال تعالى(٢) (ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ) . وقال تعالى(٣) (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ) . وقال تعالى(٤) (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ) . وقال تعالى(٥) (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ) ، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل(٦) (غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد ، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم . ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى(٧) (تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ) الآية .

الثانية ـ قرئ (ضَنكًا) بالتنوين على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

وَنَعَتُوا بمصــدرٍ كثيرَا فالتزَمُوا الإفرادَ والتذكيرَا

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضَنُكَ ككرم ، ضنكا وضناكة وضنوكة ، ضاق . وقال السمين : (ضنكا) صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور (ضنكا) بالتنوين وصلًا ، وإبداله ألفاً وقفاً ، كسائر المعربات . وقرأت فرقة (ضنكى) بألف كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان : فإما أن تكون بدلًا من التنوين ، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التأنيث بنى المصدر على (فعلى) نحو دعوى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٨] .
(٣) [٦٨ / القلم / ٥٢] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤١] .
(٥) [٣٦ / يس / ١١] . (٦) [٤٠ / غافر / ٣] . (٧) [٤٠ / غافر / ٢و٣] .

الثالثة ـ ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالًا : إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخرويّ . قال ابن كثير : أي ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره . بل صدره ضيّق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك . فلا يزال في ريبه يتردد . فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء واللذات والمآرب . فالضنك المعنيّ بها ، إذن هو الضنك الحيويّ والقلق الدنيويّ ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيّم الذي هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخارج إلا به ولا يرتاب في ذلك إلا من كابر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذي تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدي به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمي هدًى ونورًا وشفاءً ورحمةً . ألق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هـذه اليهودية ، يرى في اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود في المأكل والمشرب . وحجر في المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يَلْمسون ولا يُلْمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء في التشريعات وتشعبها في الأهواء إلى شعب تتباين في العبادات .

وهذه النصرانية ، الذي أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ،

ومضىّ عصر الحواريين . فأطلقوا لأتباعهم كل قيدفى اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكاية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس مالا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى . فإنه عليه السلام قال (ما جئت لأهدم الناموس ـ التوراة ـ بل لأتممه) . فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقادا وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدى الكهنة حلًّا وإبراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يتضجر منه كل مسيحىّ ذاق جوهر الدين المسيحىّ حقًّا . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفى نقيض،فأنّى لا يضيق ذرعه ولاتضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصارى بالمسلمين فى الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ماقلد جيدهم مننا لا تنكر ، أخذوا يقاومون الكنيسة فى حظرها على المعارف والفنون، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزابا . ولا يزالون يتقربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ماورثوه . ولذا تراهم فى عيشة ضنك يسعون لأرقى مماهم عليه ، علما بأن الدخائل والبدع فى دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقىّ إلابالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسعون إليه ، وإن كانوا لايشعرون ، أويشعرون ويتجاهلون . هذهرشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين ، وهماتنتميان إلى كتابين منزلين .. فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التى لاتحصى . ولايزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالاً وعرضاً . فأهلها فى شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء، الطائفة المسماة بالماديين . وهم الدهريون والطبيعيون. فإنهم بلا ريب أضيق صدراً وأضنك معيشة وأشد اضطراباً وأعظم فرقة فلا يمكن أن يوجد اثنان على رأى واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيِّلُهُ لهرغائبه وشهواته . قال بعضهم: هؤلاء الذين يحصرون دينهم فى أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيما فى أعماله، إذا سئلوا:

ما هو الدين الطبيعيّ الذى تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو الذى يرشد إليه العقل عريًّا عن الوحى . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ، ضعيف متغيّر قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه فى الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غدًا أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلذّ له وتجعله مستنفرًا مما يضادّ أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيما فى أعماله ؟ وما هى القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكلٌّ يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصينيّ مثلا يرى نفسه مستقيما ولو باع أو قتل أولاده . والهنديّ يرى هذه الاستقامة فى نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثنيّ يرى نفسه مستقيما ، ولو ارتكب الفحشاء تكرمة للزهرة .

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا فى موادّ ما يشرعون . ولم يهتدوا لجادّة الاستقامة الحقة . فأنَّى يمكن لعامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعيّ يقلبه كيف شاء ، ويجعله كشىء مرن ، يمده إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمى شريعة ثابتة عامة ، ما كان وقفاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجاراة ، أنه يوجد من كان ميّالا طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة ، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبًّا للانتقام والاعتداء والشهوات . لاسيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء . فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصى والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضى بإلزامه شريعة يخضع لها . فهى ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينة على ملازمة الشريعة طبعَ الإنسان ، ما يجده فى نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظريًّا . حتى لا يمكنه أن يجرّد نفسه . مثلا ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تعامى فى الشر ، أن يجرّد نفسه عن تصور

أنه خاضع لشريعة تنهاه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليـــه بأىّ نوع كان ؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا فى ألواح لحمية . ومن بحث عن عموم سكان البسطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت فى بعض موادها . والحرية التى منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهى دمار لنظام العالم ، وجائحة للأدب ، وآفة لما غرس البارئ فى عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هـــذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنسانىّ ، والإجحاف بالشرائع الأدبيـــة . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفساد ، واطّرح العذار فى مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هـذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنسانىّ والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بعـد الله ذمة بين الملأ ، ولا حرمة للسنن والشرائع ، ولا برّ بالملوك ، ولاعدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضرورىّ بالذات لقيام الألفة البشريه ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظنن أحد أن العالم يدوم أويبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيّدين بشريعة إلهية، تصدّ الفاجر عن الفجور . فكما أن الهواء ضرورىّ للحياة الطبيعية ، فكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فكذا لا انتظام ولا هيئة فى العالم دون الشريعة . انتهى .

وقال إمام مدقق ، فى بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينـة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولايلتذون بملذة . كأن لهم فى لذة ألماً ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم . فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لاتزايلهم إلا بزوال عقولهم

عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدى الـكلف به كثيرى التحرق لفقدانه ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية، وهما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافى للناس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السرىّ على أن النفس تائقة لأمر ما، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد دله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيدان ، ولا مغازلة الغيد . بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء . . ماهو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شىء من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا لنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الـكثيفة ، لتشرف على حضرة القدس المنيفة ، وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجلّ من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية ، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فمهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ، ليهتدى إلى وَضَحِ المحجة . فإن تبصر فى أمره ، واكتنه حقيقة سره ، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجوّ لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل

السليم . العقل فى النوع الإنسانىّ خصيصة من أجلّ خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده . ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائعه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية . فيرى نواميس رقيّها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعتها . ويتبصر فى أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاءوا به ، وفى الآثار التى تركوها ، على معنى النبوّة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى فى اختلاف المدارك والإحساسات ، وفى تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضى والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويعثر بتعضيد العلم والبدائه ، على الديانة التى يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها ، وباقية ببقاء النوع الإنسانىّ ، وهى شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

الرابعة ـ رأيت للإمام ابن القيّم، رحمه الله ، كلاماً على هذه الآية فى كتابيه : (الجواب الكافى) و (مفتاح دار السعادة) فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك . قال فى (الجواب الكافى) فى فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصى : ومنها المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتّب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره. فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأوصاف النعم . ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب، والأمانىّ الباطلة

والعذاب الحاضر مافيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لايصحو صاحبه إلا إذا سكر فى عسكر الأموات . فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى الدنيا وفى البرزخ ويوم المعاد. ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولاتطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين. ومن لم تقر عينه بالله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى(١) (مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح، الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين. ونظيرهذا قوله تعالى(٢) (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ) ونظيرها قوله تعالى(٣) (وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هوالنعيم على الحقيقة . ولانسبة لنعيم البدن إليه، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٠] .
(٣) [١١ / هود / ٣] .

طيّب . وقال آخر : إن فى الدنيا جنة، هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة. من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد(١) أشار النبيّ ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال(٢): ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة) ولا تظن أن قوله تعالى(٣) (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ) يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة . وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة . وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال(٤) (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) وقال حاكياً عنه أنه قال(٥) (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تزاحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ وفى جنة يوم المعاد . انتهى ملخصاً .

---

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨٢ ـ باب حدثنا يوسف بن حماد البصريّ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٢٠ ـ كتاب الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٥ ـ باب فضل ما بين القبر والمنبر ، حديث ٦٤٨ ، عن عبد الله بن زيد المازنيّ .

(٣) [٨٢ / الانفطار / ١٣و١٤] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٨٣و٨٤] .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٨٨و٨٩] .

وقال رحمه الله فى (مفتاح دار السعادة) : فسَّرَ غير واحد من السلف قوله تعالى (فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا) بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) أى تترك فى العذاب كما تركت العمل بآياتنا. فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار. ونظيره قوله تعالى فى حق آل فرعون[1] (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) فهذا فى البرزخ (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) فهذا فى القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ، ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ) فقول الملائكة (ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ) المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت. ونظيره قوله تعالى[3] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ) فهذه الإذاقة فى البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ) وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كنظائره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

وفى الصحيح[4] ، عن البراء بن عازب فى قوله[5] (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ) قال : نزلت فى عذاب القبر . والأحاديث فى عذاب

---

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] .
(٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .
(٣) [٨ / الأنفال / ٥٠] .
(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٤ ـ سورة إبراهيم ، ٢ ـ باب يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، حديث ٧٢٥ .
(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٧] .

القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكا، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحيه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال[1] تعالى (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً فى العاجلة بالحياة الطيبة ، وفى الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بعكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ، ونسيانه فى العذاب فى الآخرة . وقال سبحانه[2] (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله. فكان عقوبة هذا الإعراض، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه. وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه قال[3] (يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ) وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحى الذى هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر فى ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى[4] (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) ؟ قيل : لا عذر لهذا وأمثاله فى الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعى الهدى . فإذا ضل فإنما أُتىَ من تفريطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثانى فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦ و ٣٧] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٨] . (٤) [٤٣ / الزخرف / ٣٧] .

الحجة عليه كما قال تعالى[١] (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقال تعالى[٢] (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) وقال تعالى فى أهل النار[٣] (وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ) وقال تعالى[٤] (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ) وهذا كثير فى القرآن .

الخامسة ـ قال ابن القيم : اختلف فى قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ) هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر ؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة ، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى[٥] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقوله[٦] (لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) وقوله[٧] (يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ) وقوله[٨] (لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية فى الآخرة لقوله[٩] (وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ) وقوله[١٠] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) وقوله[١١] (وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .
(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .
(٤) [٣٩ / الزمر / ٥٦ـ٥٩] .
(٥) [١٩ / مريم / ٣٨] .
(٦) [٥٠ / ق / ٢٢] .
(٧) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .
(٨) [١٠٢ / التكاثر / ٦و٧] .
(٩) [٤٢ / الشورى / ٤٥] .
(١٠) [٥٢ / الطور / ١٣ـ١٥] .
(١١) [١٨ / الكهف / ٥٣] .

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) وهو لم يكن بصيراً فى كفره قط ، بل قدتبين له حينئذ أنه كان فى الدنيا فى عمى عن الحق . فكيف يقول (وقد كنت بصيراً) وكيف يجاب بقوله (كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا) ؟ بل هـذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذى بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه فى العذاب ، كما ترك الذكر فى الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره فى الآخرة. وعلى تركه ذكره، تركه فى العذاب. وقال تعالى[١] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) وقد قيل فى هـذه الآية أيضاً : إنهم عمى وبكم وصم عن الهدى. كما قيل فى هذه الآية[٢] قوله (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ) قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون .

ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم ، المضادّ للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق .فهو عمى عن رؤية مايسرهم وسماعه. وهذا قد روى عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسرهم . وقال آخرون : هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة ، يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروىّ عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى[٣] (اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فَيُبْصَرُون بأجمعهم ، عمياً بكماً صماً ، لا يبصرون

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٧] . (٢) [٢٠ / طه / ١٢٤]. (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨]

ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهـذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لاحجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً ، هم عُمْىٌ عنها، بل هم عُمْىٌ عن الهدى كما كانوا فى الدنيا. فإن العبد يموت على ماعاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهـذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقرّ بما كان يجحد فى الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب ؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم(١) (إنكم محشورون إلىّ حفاة عراة) وكقوله تعالى(٢) (وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ) وكقوله تعالى(٣) (وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا(٤) (يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ) ثم قال تعالى(٥) (ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ...) الآية وهذا الحشر الثانى . وعلى هذا فهم مابين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثانى، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثانى يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما . ولكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً(٦) (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا) . انتهى .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا ، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس .
(٢) [٨١ / التكوير / ٥] .
(٣) [١٨ / الكهف / ٤٧] .
(٤) [٣٧ / الصافات / ٢٠ و ٢١] .
(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢] .
(٦) [٤ / النساء / ٨٢] .

السادسة ـ قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك[١] (فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا) فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلا فى هذا الوعيد الخاص. وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى. فإنه قد وردت السنة بالنهى الأكيد والوعيد الشديد فى ذلك .

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال[٢] (مامن رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقى الله يوم يلقاه ، وهو أجذم) ؟

السابعة ـ قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ...) الآية، أى وهكذا نجزى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضنك العيش فى الدنيا . لكونه دائما . ثم أشار تعالى إلى تقرير ماتقدم من لحوق العذاب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ)

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى لهؤلاء المكذبين « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أى الأمم المكذبة للرسل « يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ » يريد قريشا ، أى يتقلّبون فى بلاد عاد وثمود ولوط ويعاينون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » أى العقول السليمة . كما قال تعالى[٣] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) . (٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى)

« وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . .) الآية ، بإهلاكهم مثل هلاك (أولئك) . والكلمة السابقة ، قال القاشانيّ : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هـذه الأمة بالدمار والعذاب فى الدنيا، لكون نبيّهم نبيّ الرحمة. وقوله سبحانه(١) (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) .

وقال الزمخشريّ : الكلمة السابقة هى العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة . و (اللزام) إما مصدر (لازم) كالخصام، وصف به مبالغة . أواسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب، واسمُ الآلة يوصف به مبالغة أيضاً، كقولهم : مِسْعَرُ حَرْبٍ، ولِزَازُ خَصْمٍ بمعنى مُلِحّ على خصمه . من (لزّ) بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع (لازم) . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) عطف على (كلمة) أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه، للإشعار باستقلال كل منهما، بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

وقد جوز عطفه على المستكن فى (كان) العائد إلى الأخذ العاجل، المفهوم من السياق، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم . كدأب عاد وثمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ)

« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ » أى إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال ، فاصبر على مايقولون من كلمات الكفر . فالفاء سببية. والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة .

وفى التسبيح المأمور به وجهان :

الأول ـ أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص ، حامدا له على ما ميزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة (سبحان الله وبحمده) . وعليه فسرّ تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثانى ـ أنه الصلاة وهو الأقرب لآية[1] (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ) والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى: صلّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، قبل طلوع الشمس، يعنى صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعنى صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها (وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ) أى من ساعاته ، يعنى المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيهما ، لاختصاصهما بمزيد الفضل . وذلك

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرِّجْلِ والخلوّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

وقوله تعالى (وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ، إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ (ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ) أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار . أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار .

وقال الرازيّ : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت: وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى (لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) أي رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك ، ونقهرك على عدوك وبلوغ أمنيتك من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى[1] (عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) وقوله تعالى[2] (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ) .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغي الرغبة فيه ، وإن ما أوتيه أجل وأسمى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ » أي أصنافاً من الكفرة

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٩] . (٢) [٩٣ / الضحى / ٥] .

« زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى زينتها . منصوب على البدلية من (أَزْوَاجًا) أو بـ (مَتَّعْنَا) على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم . فإن ذلك فانٍ وزائل وغرور وخدع تضمحل .

قال أبو السعود : (لِنَفْتِنَهُمْ) متعلق بـ (مَتَّعْنَا) جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا ، إثر إظهار بهجته حالًا . أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » أى ثوابه الأخروىّ خير فى نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى[1] (ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا) أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبقى ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذى تتبعه السعادة فى الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تذبل وتفنى . وفى التعبير بـ (الزهرة) إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية ماقاله الزمخشرىّ رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانًا للمنظور إليه ، وإعجابًا به وتمنيًا أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا[2] (يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) حتى واجههم أولو العلم والإيمان[3] بـ (وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا) .

وفيه : أن النظر غير الممدود معفوّ عنه . وذلك مثل نظر من بَادَهَ الشيء بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئًا أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه ، قيل : ولا تمدنّ عينيك . أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة ، وعُدَد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ،

(١) [٢٨ / القصص / ٨٠] . (٢) [٢٨ / القصص / ٧٩] .
(٣) [٢٨ / القصص / ٨٠] .

فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغرى لهم على اتخاذها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ)

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ » يعنى (بأهله) أهل بيته أو التابعين له . أى مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله « وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » أى على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملـكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التى ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الآمر بها نفع مّا ، لتعاليه وتنزهه بقوله « لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ » أى لا نسألك مالاً . بل نـكلفك عملا ببدنك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلا . ومعنى: نحن نرزقك ، أى نحن نعطيك المال ونـكسبك ولا نسألـكه . قاله ابن جرير[(١)] .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منـــه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى[(٢)] : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) وقال بعض المفسرين: معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتـكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفىّ من عندنا، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيــه حض على القعود عن الـكسب ، ومستند للـكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعى المأمور به. وقد قال تعالى[(٣)] : فى وصف المتقين (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٥٦و٥٧] . (٣) [٢٤ / النور / ٣٧] .

تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ) إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين . (رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً)(١) .

وقوله تعالى « وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » أى والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ، أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ)

« وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ » يعنون ما تعنتوا فى اقتراحه مما تقدم ، فى سورة بنى إسرائيل ، من قوله تعالى(٢) (وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ . . .) الآية .

وقوله تعالى « أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ » أى : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب التى قبل هذا الكتاب ، من أنباء الأمم من قبلهم ، التى أهلكناهم لما سألوا الآيات ، فكفروا بها لما أتتهم ، كيف عجلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها . يقول : فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية ، أن يكون حالهم حال أولئك . هذا ما قاله ابن جرير(٣) .

وذهب غيره إلى أن المعنى : أو لم يأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها ، وهى معجزة القرآن المبينة لما فى الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور . مع أن الآتى بها أمىّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها . فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه ، وعلى الباطل المحرف ففنّده .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠١] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٠و٩١] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وفيه إشعار بكفاية التنزيل فى الإعجاز والبرهان كما قال تعـالى[١] فى سورة العنكبوت (وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته إلى التصديق برسالة النبىّ ﷺ هو الخارق الذى تواتر خبره ولم ينقطع أثره . وهو الدليل وحده. وماعداه مما ورد فى الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد فى مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله ، وفضلٌ من التأكيد لمن سلمه من أهله . ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين ، هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ، هو أنه جاء على لسان أمىّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضال مقوماً للمعوج كافلًا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه . وهلاك كانوا أشرفوا عليه . وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على مالم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ، أن يعارضوه بشىء من مثله ، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف ، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به ، إلى أن ألجاؤهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها فى جوائها . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم . وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم ، فإما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لايصلح دليلًا على المدعى، فعليهم أن يأتوا به، قال تعالى[٢] (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ) وقال[٣]

(١) [٢٩/ العنكبوت/ ٥٠و٥١].(٢) [٢/ البقرة / ٢٣].(٣) [٤/ النساء/ ٨٢].

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم. فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها . ونشر ماانطوى فى أثنائها . وله منها حظه الذى لاينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها . ولـكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها. أمامعجزة موت حىّ بلاسبب معروف للموت، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنـده العقل ويجمد لديه الفهم. وإنمـا يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضئ عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات.

وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جل شأنه أن يكوّن الأكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ، ينطق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفـكر ، ويحبب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتى للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هـذا ، ولا ننـكر أنه قدمضى على النوع الإنسانىّ زمن كان فيه العقل فى دور الطفولية . وكان يكفيه فى الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً مّا . وكان الله سبحانه وتعـالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن، حيث بلغ العقل أشده، والنوع الإنسانىّ رشده، فلا تجدى فيه معجزة ، ولا تنفع فيه غريبـة . لأن الشـكوك قد كثرت مع كثرة الموادّ العلمية. فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أوّلا، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن طائفة الاسبيريت

الروحيين فى أوربا ، تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات، مع أن القوم لا يدّعون النبوة، ولا يزعمون الرسالة. نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها فى نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهورا منهم ، إلا أنهم مصيبون فى قولهم إننا فى زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلىّ والدليل العلمىّ . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق، ببدائه العقل، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى منته فى إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾

[١٣٥] ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾

« وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ » أى من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام « لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ» أى بالعذاب الدنيوىّ «وَنَخْزَىٰ» أى بالعذاب الأخروىّ. أى ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها.

فانقطعت معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء «قُلْ» أي لأولئك الكفرة المتمردين «كُلٌّ» أي منا ومنكم «مُّتَرَبِّصٌ» أي منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم «فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ» أي عن قرب «مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ» أي المستقيم «وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ» أي من الزيغ والضلالة . أي هل هو النبيّ وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقّق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد في الأولى والآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١ - سورة الأنبياء

سميت بذلك لاشتمالها على فضائل جليلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهي مكية . واستثنى منها بعضهم آية[1] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) وهي مائة واثنتا عشرة آية . وروى البخاريّ عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادي .

قال ابن الأثير : أي من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالد : المال القديم الذي ولد عندك ، وهو نقيض الطارف .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ)

« اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخروىّ وهو عذابهم « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذّبون به . وإنما كان مقترباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى(١) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) وقال تعالى(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا يخفى ما فى عموم (الناس) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، فنى العنوان مايرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدنيوىّ والأخروىّ لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانتصاف منهم والانتصار عليهم، كما أشير إليه فى آية(٣) (فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ) ووعد به النبىّ وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخروىّ ، حمل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(١) [٧٠ / المعارج / ٦و٧] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .
(٣) [٥ / المائدة / ٥٢] .

« مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقريع لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكمل تذكير ، وينبه على الغفلة أتم تنبيه ، أن تخشع له القلوب وتستخذى له الأنفس .

قال الزمخشريّ : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون. فما يزيدهم استماع الآى والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التى هى أحق الحق وأجد الجد ، إلا لعبا وتلهيا واستسخاراً . و (الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع. وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية. فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثا لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف. فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات فى الجسم. كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبيّ عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدالّ والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلًّا للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلوّ دال على الصفة القديمة النفسية ، التى هى الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلّغوها إلى أممهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التى هى تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرة ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته فى كتابه (مطابقة المنقول للمعقول) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم. والحدوث فى لغة العرب العام ليس هو الحدوث فى اصطلاح أهل الكلام. فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً، وماتقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن. كقوله تعالى[1] (كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ) وقوله تعالى[2] عن إخوة يوسف (تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ) وقوله تعالى[3] (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) وقوله تعالى عن إبراهيم[4] (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ) انتهى .

وقال العارف ابن عربىّ فى الباب التاسع والستين والثلاثمائة من (فتوحاته) فى هذه الآية: المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سمعوه . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتى . وكذلك القرآن جاء فى مواد حادثة تعلق السمع بها. فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات. فله الحدوث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذن الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسما (إِنَّهُۥ) يعنى القرآن[5] : (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فأضاف الكلام إلى الواسطة

(١) [٣٦ / يس / ٣٩] . (٢) [١٢ / يوسف / ٩٥] .
(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١١] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ٧٥و٧٦] .
(٥) [٦٩ / الحاقة / ٤٠] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله(١) : (فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السماعين بعد المشرقين . فإن الذى يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالمذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية فى (منهاج السنة) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعيّن قديماً .

وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذى دل عليه الشرع والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويجئ ـ فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى فى الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول(٢) (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ) وقال(٣) (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال

ثم قال رحمه الله : قالوا ـ يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعىّ وأحمد وغيرهما ـ وبالجملة فكل مايحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شىء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما ردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

(١) [٩ / التوبة / ٦] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨] . (٣) [٣٦ / يس / ٨٢] .

أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . ولفظ (الحوادث) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزه عن ذلك . ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلما ودوام كونه فاعلًا بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاريّ وعثمان بن سعيد الدارميّ وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهي وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات منقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزليًّا لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلما . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلًّا للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)

«لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على الذم « أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ » أى تنقادون له وتتبعونه . وقوله « وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشرىّ رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا ملكا ، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر .

قال أبو السعود : وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

« قَالَ رَبِّى » حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم . وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه « يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ » أى لما أسروه « ٱلْعَلِيمُ » أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم فى فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ)

« بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ » أى أخلاط رآها فى النوم «بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ» أى اختلقه « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيل للناس معانى لاحقيقة لها . وهكذا شأن المبطل المحجوج ، لايزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ » أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون. أى حتى نؤمن له. ثم أشار تعالى إلى كذبهم فى دعوى الإيمان بمجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله سبحانه وتعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

«مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ» أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات. أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا، وأعطوا ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقدمنا أن رقىّ النوع البشرىّ فى العهد النبوىّ ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية. فتذكر

ثم أوضح جواب شبهتهم فى منافاة البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيَ إِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء «فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ» أى العلماء بالتوراة والإنجيل «إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفى الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحجّ الخصم وإقناعه .

تنبيه :

قال الرازىّ : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعامىّ أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر ـ فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى .

ثم بيّن تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ)

« وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ » أى جسداً مستغنياً عن الطام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قال تعالى(١) (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ) وفى هذا التعريف الربانىّ عن حال المرسل ، أكبر رادع لأولئك المزوين عن الناس المتصيّدين به قلوب الرعاع والعامة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى المجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم، وهو السنة. ومن المشى بالأسواق، وهو المأذون فيه. ومن إجابة الدعوة، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها. ومحافظة على السمعة حموا جانبها.

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] .

فتبًّا لهم من قوم مبتدعين ، يعبــدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا لله . فما أجرأهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار !

وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى[١] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل . تنزل عليهم الملائـكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنـه . وكونهم بشراً من تمام النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن المرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ)

« ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم[٢] (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ) « فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحـكمة بإبقائه « وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الـكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن، محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» أى شرفـكم وحديثـكم الذى تذكرون به فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى[٣] (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ » وقيل : معنى (ذِكْرُكُمْ) موعظتـكم

(١) [٢١/ الأنبياء/ ٣٤] . (٢) [٥٨/ المجادلة/ ١٢] . (٣) [٤٣/ الزخرف/ ٤٤] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) إنكار توبيخيّ ، فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب ، والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له، بقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)

[١٢] (فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ)

[١٣] (لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ)

«وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ » أى عذابنا النازل بهم « إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ » أى يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءًا بلسان الحال أو المقال «لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» أى من التنعم والتلذذ و (فى) ظرفية أو سببية « وَمَسَٰكِنِكُمْ » أى التى كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ » أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

[١٥] (فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ)

[١٦] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ)

« قَالُواْ » أى لما أيقنوا بنزول العذاب «يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ » أى تلك الكلمة وهى (يا ويلنا) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق «حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا» أى كنبات محصود « خَٰمِدِينَ » أى هالكين بإخماد نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ » أى بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشرىّ عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للّهو واللّعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التى لاتعد والمرافق التى لا تحصى . وقال أبو السعود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلىأن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة . وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم، ومتفرعاتها. عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه. وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباًمثل ذنوبهم. أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع، خالية عن الحكم والمصالح. وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل (لَٰعِبِينَ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه. ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى(١) (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقوله تعالى (٢) (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧] . (٢) [٥١/الذاريات/ ٥٦].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ)

« لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ » استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أى لو أردنا أن نتخذ مايتلهى به ويلعب لاتخذناه منعندنا . كديدنالجبابرة فى رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزيينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة. فيستحيل اتخاذنا له قطعاً. وقوله تعالى « إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ » جوابه محذوف دلعليه ما قبله . أى لاتخذناه . وقيل : إنَّ (إن) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لاتخاذ اللهو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ » إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب أو نريده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُۥ » أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالكلية . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل (القذف) الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولمحقه للباطل (الدمغ) الذى هو كسرالشيء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلا لغلبة الحق علىالباطل حتى يذهبه ، برمى جرمصلب على رأسدماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيح المجاز. لأن من رمى فدمغ تزهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفى الآية إيماء إلى علوّ الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثانى فانٍ « وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تتنزه عظمته عنه . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلًا ونهاراً ، وبراءتهم من البُنُوَّة المفتراة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

«وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أى ملكاً وتدبيراً « وَمَنْ عِندَهُۥ » وهم الملائكة « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعْيون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)

« يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة ـ فإن ما سلف من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ)

« أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟

قال الزمخشريّ رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض[1] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث . ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم[2]؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم . فكيف يدّعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .

قلت: الأمر كما ذكرت. ولكنهم بادعائهم لها الإلٰهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار. لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإنشار من جملة المقدورات . انتهى.

قال فى (الانتصاف) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ فى الإنكار.

ثم قال الزمخشريّ : وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلٰهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . انتهى.

لطيفة:

سر قوله تعالى (مِنَ ٱلْأَرْضِ) هو التحقير ، أى تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية . وجوز إرادة التخصيص . أى الآلهة التى من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضيّ مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفائه ، بل على استحالته ، بقوله سبحانه :

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

«لَوْ كَانَ فِيهِمَآ» أى يتصرف فى السموات والأرض «ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ» أى غيره «لَفَسَدَتَا» أى لبطلتا بما فيهما جميعاً، واختل نظامهما المشاهد، كما قال تعالى فى سورة (المؤمنون)[1] (وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قال أبو السعود : وحيث انتفى التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً. بيان الملازمة ؛ أن الإلٰهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجادا وإعداماً وإحياء وإماتة . فبقاؤهما على ماهما عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقى بمعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تعدد الإله ، فإن توافق الكل فى المراد ، تطاردت عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى (المقاصد) أنه لو وجد إلٰهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أوْ لَا . وكلاهما محال. أما الأول فلأنه لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال، لاستلزامه اجتماع الضدين. أَوْ لا يقع مراد واحد منهما، وهو محال لاستلزامه عجز الإلٰهين الموصوفين بكمال القدرة على ماهو المفروض ، ولاستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلوّ المحل عنهما ، كحركة جسم وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع . وإليه الإشارة بقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] .

التكوّن ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخران فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عما هما عليه من النظام ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العادىّ . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذى باعتباره صار الكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذى به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانىّ ، والمشار إليه فى الآية إقناعىّ . ولا يفيد العلم اليقينىّ فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب، وممن فصل ذلك التفتازانىّ فى (شرح العقائد النسفية) قادحا لما أشار إليه نفسه فى (شرح المقاصد) من كون الآية برهاناً، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام،أى بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعددُ التمانعَ بالفعل بل بالإمكان.والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادهما . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل فى كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلًا . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فإما بمجموع القدرتين ، فيلزم عجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالعادة القاضية التى لم يوجد أخرمها قط فى ملكين مقتدرين فى مدينة واحدة ، أن يطلب كلٌّ الانفرادَ بالملك والعلوّ على الآخر وقهره ، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله (وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) ؟ وهذا إذا تؤمل لا تكاد النفس تخطر نقيضه بالبال، فضلا عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر.

فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعىّ . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى. وقد شنع عليه فى مقالته المتقدمة غير واحد . وبالغ معاصره عبد اللطيف الكرمانىّ فى الانتقاد .

قال العلامة المرجانىّ : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفىّ فى كتابه (التبصرة) وتابعه صاحب (الكشف) حيث شنع على أبى هاشم الجبائىّ تشنيعاً بليغاً . حتى نسبه إلى الكفر بقدحه فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لاتقف عند حد . ولاتزال تتباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولاتضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه الملازمة العلامة مفتى مصر فى رساله (التوحيد) إيضاحاً ما عليه من مزيد، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاًووصفاً ووجوداً وفعلًا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلًا . وأما الوحدة فى الصفة،أى أنه لايساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بيّنّا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات مايساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلايساويه فيمايتبع الوجود من الصفات . وأماالوحدة فى الوجود وفى الفعل، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجودومايتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة،لأن الصفةإنماتتعين وتنال تحققها الخاص بها، بتعين مايثبت لهبالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتىّ ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كماسبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعلُ كلٍّ صادراً على حكم يخالف

الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات . فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته. ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى. فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإراداتهم ، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات . لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال ف(لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا) لكن الفساد ممتنع بالبداهة. فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لاشريك له في وجوده ولا في أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالىّ في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لاأبين منها في برهان التوحيد، وأنه لامزيد على بيان القرآن. قال الكلنبوىّ: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكونهما في الأصل كما قالوا. ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهي بعبارتها تنفى آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدلالتها تنفى تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من وجود شرك له فيهما. والفاء لترتب ما بعدها على ماقبلها من ثبوت الوحدانية بالدليل المتقدم . أى فسبحوه سبحانه اللائق به ، ونزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لايقدر على شيء البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ)

«لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ» أى هو الحاكم الذى لامعقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ » الضمير للعباد . أى يسئلون عما يفعلون كقوله(١) (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قال الزمخشريّ : إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لايسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيباً وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم، أولى بأن لايسئل عن أفعاله ، مع ماعلم واستقرفى العقول من أن مايفعله كله مفعول بحكمة، ولايجوز عليه خطأ، ثم قال (وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون . فماأخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ فى كل شيء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى(٢) (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) .

تنبيه

قال الإمام الغزاليّ فى (المضنون بهعلى غيرأهله) : وأما معنى قول الله تعالى (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ) وقوله تعالى(٣) : (لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار، كما يسأل التلميذ أستاذه . والله تعالى لايتوجه عليهالسؤال بمعنى الإلزام. وهو المعنيّ بقوله (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ) إذ لايقال (لِمَ) قولَ إلزام . فأما أن لايستخبر ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله (لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ، قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ، هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٨٨] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٢٥] .

« أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » كرره استعظاماً لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، مع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى « قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ » أي دليلكم على ما تفترون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

قال أبو السعود : وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهكم بهم . وقوله تعالى « هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقليّ ، ذكر أمتي أي عظتهم ، وذكر الأمم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم المحاجّة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ » أي عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبيّ ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ » وقرئ (يُوحَىٰٓ) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ » . كما قال(١) (وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال(٢) (وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له . والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . ثم بين تعالى بطلان ما يفتريه بعض المشركين من أن الملائكة بناته ، تعالى علوًّا كبيراً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)

[٢٧] (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى مقربون « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » أى يتبعون قوله : فلا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين « وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فلا يعصونه فى أمر . إشارة إلى مراعاتهم فى أدب العبودية فى الأفعال أيضاً ، كالأقوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى مما قدموا وأخروا . فهو المحيط بهم علما[1] (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) فكيف يخرجون عن عبوديته ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ » أى أن يشفع له ، مهابة منه تعالى .

قال المهايمى : كيف يخرجون عن عبوديته ولا يقدرون على أدنى وجوه معارضته . لأنهم لا يشفعون

(١) [٢ البقرة / ٢٥٥] .

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله[1] (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) كقوله[2] (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) وقوله[3] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ)

« وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ » الضمير فى (منهم) للملائكة . لتقدم ذكرهم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ فى الرد والتهديد .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال[4] (وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) قصد بذلك تفظيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفى قوله (كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ) إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلٰهية وجاوز بها مقامها الأسمى .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٢) [٢ / البقرة/ ٢٥٥] . (٣) [٣٤ / سبأ/ ٢٣].
(٤) [٦ / الأنعام / ٨٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كَلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع فى آياته الكونية ، الدالة على وحدته فى ألوهيته، التى عمى عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقاً » أى لا تمطر ولا تنبت (فَفَتَقْنَٰهُمَا) أى بالمطر والنبات. فالفتق والرتق استعارة. ونظيره قوله تعالى[١] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ) و (الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات لأنه يصدع الأرض أى يشقها . وقوله تعالى[٢] (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ) أى كيف انفردنا فى إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته[٣] (أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا) أى من المزن بعد أن لم يكن[٤] (ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقًّا مرئيًّا مشهوداً ، كما تراه فى الأرض بعد الرىّ . أو شقًّا بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهانىّ : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى[٥] (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وكقوله[٦] (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ (الفتق) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ (الرتق) .

قال الرازىّ : وتحقيقه أن العدم نفى محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة. بل

(١) [٨٦/ الطارق / ١١و١٢]. (٢) [٨٠ / عبس / ٢٤] .
(٣) [٨٠ / عبس / ٢٥] . (٤) [٨٠ / عبس / ٢٦] .
(٥) [٦ / الأنعام / ١٤] . (٦) [٢١ / الأنبياء / ٥٦] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن. جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى (كَانَتَا رَتْقاً) أى شيئاً واحداً . ومعنى . (فَفَتَقْنَـٰهُمَا) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه . أى أنها إحدى هذه السيارات . وهى مثلها فى المادة و كيفية الخلق و كونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى . و كونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهى مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اهـ كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول فى تفسير الآية لقوله تعالى بعده (وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية فى قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ) بصرية . وعلى قول أبى مسلم وما بعده ، علمية . على حد قوله تعالى لنبيّه صلوات الله عليه[1] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ) مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما تيقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحجة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمه .

ومعنى قوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ) صيّرنا كل شيء حيّ بسبب من الماء ، لا يحيا دونه. فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنَّور والثمر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف فى آيات شتى . كقوله تعالى[2] (وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ) وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لآية[3]

(١) [١٠٥ / الفيل / ١] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٩] . (٣) [٢٤ / النور / ٤٥]

(وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة ، وأبلغ في الخطاب ، وألطف في المعنى .

وقوله تعالى (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور مايوجبه حتما من الآيات الظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ » أي جبالا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِهِمْ » أي لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب مما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير في (فيها) للأرض. وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسي لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثاني اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى (وَسُبُلًا) بدل من (فِجَاجًا) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خاق ووسع لأجل السابلة . ومعنى (يهتدون) أي إلى مصالحهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٢] (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ)

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا » أي على الأرض كالقبة عليها «مَّحْفُوظًا» أي عاليا محروسا أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى(١) (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا) « وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومسايرها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ماأودعها مما لايعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ ؟

وقرئ (عن آيتها) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَٱلنَّهَارَ » ليتحركوا لمعاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ » أى ضياء وحسباناً « كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالسابح فى الماء . و (الفلك) فى اللغة كل شىء دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية(٢) (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اهـ . وقوله تعالى :

(١) [٧٨ / النبأ / ١٢] . (٢) [٨١ / التكوير / ١٥و١٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ)

«وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ» نزلت حين قالوا (نتربص به ريب المنون) فكانوا يقدّرون أنه سيموت، فيشمتون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد فى الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله[1] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحىٍّ إلى الآن . لأنه بشر سواء كان وليًّا ، أو نبيًّا أو رسولًا . انتهى .

وتقدم بسط ذلك فى سورة الكهف فتذكر . وفى معنى الآية قول عروة الصحابىّ[2] رضى الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ ... كَلَاكِلَهُ أناخَ بآخرينا
فقل للشَّامتينَ بنا : أفيقُوا ... سيلقى الشامِتُونَ كما لقِينا

وقول الشافعىّ :

تَمَنَّى أُناسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فقل للَّذِى يَبْغِى خلافَ الَّذِى مضى : ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا ، وَكَأَنْ قَدِ

(١) [٢٥ / الحجر / ٩] . (٢) قال صاحب (رغبة الآمل ، من كتاب الكامل): قائلهما هو فَرْوَةُ بن مُسَيْك المُرَادِىّ انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ » أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب ، وما يجب فيه الشكر من النعم « فِتْنَةً » أى اختباراً . وهو مصدر مؤكد (لنبلوكم) من غير لفظه « وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » أى فنجازيكم على حسب مايوجد منكم من الصبر أو الشكر . قال الزمخشريّ : وإنما سمى ذلك ابتلاء ، وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم ، لأنه فى صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضى : وفى الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريرا لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ)

« وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ » عنى بهذه الآية مستهزئو قريش ، كأبى جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيظ لسبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى[1] (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وإضافة ذكر (للرحمن) من إضافة المصدر لمفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ، أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن . هم كافرون ، أى فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

« خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى[1] (وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك (خلق زيد من الكرم) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ماطبع هو منه من الأركان ، إيذاناً بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه. فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بمادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن (عجلته) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد «سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى» أى نقماتى فى الدنيا كوقعة بدر. وفى الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الموعود من العذاب الأخروىّ ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لا لتعيين وقته « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشرىّ : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه ، وأن عجلتهم لجهلهم بغبته ، بقوله تعالى :

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٠] (بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

« لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ » أى لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » أى بدفع أحد عنهم . وجواب (لو) محذوف أى: لما استعجلوا . وقيل (لو) للتمنى . لا جواب لها « بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » أى فجأة فتحيّرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردّها « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا » أى بسبب من الأسباب « وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤١] (وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ » أى نزل « بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى عذابه أو جزاؤه ،على وضع السبب موضع المسبب، إيذاناً بكمال الملابسة بينهما، أو عين استهزائهم ،إن أريد بذلك العذاب الأخروىّ، بناء على تجسم الأعمال.

فإن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز فى النشأة الأخرى بصور جوهرية، مناسبة لها فى الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ، بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ)

« قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم » أى يحفظكم « بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم (الليل) لما أن الدواهى فيه أكثر وقوعا وأشد وقعاً . وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته. كغضب الحليم . وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايمىّ : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومَن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يغترون فى ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعها عن ذلك « بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ » أى لا يخطرونه ببالهم، فضلا أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسْألوا عن الكالئ « أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجلى ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دُوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هى به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التى يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهى لا تستطيع نصر أنفسها ولا هى بمصحوبة منا بالنصر والتأييد . أفاده

ابن جرير[1] . ف (فيصحبون) بمعنى يجارون يقال (صحبك الله) أى أجارك وسلمك، كما فى (الأساس) . قال[2] ابن جرير : أى لا يصحبون بالجوار لأن العرب محكىٌّ عنها (أنا لك جار من فلان وصاحب) بمعنى أجيرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجوار ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ، أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)

« بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ » إضراب عما توهموا، ببيان أن الداعى إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ونعّموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لاتأتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لايغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ » أى ننقص أرض الكفر فنخربها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلائهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذى قدأنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف. أفاده[3] ابن جرير. وهذا كقوله تعالى[4] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله تعالى «أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ»

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب، الغالبون لنا، وقدرأوا قهرنا مَن أحللنا بساحته بأسَنا فى أطراف الأرض ؟

وفى التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ، وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ)

« قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ » أى تنزيل الله الذى يوحيه إلىّ من عنده وأخوفكم به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون، لأن ذلك ليس إلىّ، على مافيه من الحكمة فى هذهالبعثة التى بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم وعنادهم، بأنهذا الإنذار لايجديهم، بقولهتعالى «وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ» أى فهم لايصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر مافى وحىالله من المواعظ والذكرى، فيتذكرونها ويعتبرون فينزجرون إذا تلى عليهم، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه، فعل الأصم الذى لايسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله (إِذَا مَا يُنذَرُونَ) مع أنهم لايسمعون نذارة ولا بشارة، إما لأن المقام مقام إنذار، أو لأن من لايسمع إذا خوف، كيف يسمع فى غيره ، فهو أبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ)

« وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى ولئن أصابهم أدنى شيء من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم فى التصامّ والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

فى صدر الآية مبالغات. ذكر المس. ومافى النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء. والبناء الدال على المرة. والتنكير. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ)

« وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه. أى نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال. وقيل : وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوىّ والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم مثقال ذرة. وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد، لأنه مصدر وصف به للمبالغة. كأنها فى نفسها قسط. أو على حذف المضاف أى ذوات القسط. وقيل إنه مفعول له. واللام فى (ليوم القيامة) للتعليل أو بمعنى (فى) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا » أى من حقوقها. أى شيئاً ما من الظلم. بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِن كَانَ » العمل أو الظلم « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل. للوزن. وأنث لإضافته إلى الحبة « وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ » أى وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين. لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سيء، منا. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع فى قصص الأنبياء ، تسلية له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ) إلى قوله (ٱلْمُسْرِفِينَ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم . وتصديره بالتوكيد القسمىّ لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه . والمراد بـ(الفرقان) التوراة وكذا بـ(الضياء) و(الذكر) . أى وبالله لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل . وضياءً يستضاء به فى ظلمات الجهل وذكراً يتعظ به الناس . وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . « ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ » أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم . وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون فى الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التى تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم ، قد فرّطوا فى الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] (وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ)

« وَهَـٰذَا » أى القرآن الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ » أى مع ظهور كون إنزاله كإيتاء

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧ ـ ٩] .

التوراة . وفى الاستفهام الإنكارىّ توبيخ لهم بأنه لا ينبغى لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم (لَهُ) للفاصلة أو للحصر. لأنهم معترفون بغيره مما فى أيدى أهل الكتاب.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتيناه . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناه إياها ، فأهّلناه لخلتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ » أى ما هذه الصور الحقيرة التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ)

[٥٤] (قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوًى متَّبَع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ (فى) الظرفية دلالة على تمكنهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من (ضالين) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)

« قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ » قال الزمخشرىّ رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتماثيل. وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلالته صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالتهم فى اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفصح عنه قولهم[1] (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَّبُّكُمْ ...) الآية . أو إضراب عن كونه لاعبا بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) أى المبرهنين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاطل منها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ)

« وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم » لأحتالن لفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧١] .

« فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لاتتحلم إلى هذا الحدّ . فهو عجّزهم فى الدفع عن أنفسهم . فتوقعُ عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » أى فيسألونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فمن دونه أعجز منه فى ذلك . فضلًا عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى لجرأته على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالتعظيم . أو لإفراطه فى التجذيذ والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ)

[٦١] (قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

« قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضرا ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شىء من ذلك ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ)

«قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله « فَسْـَٔلُوهُمْ » أى يجيبوكم « إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ » أى والأظهر عجزهم الكلىّ المانع من القول بإلٰهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضىّ يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة ، وتبكيتهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارته : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى[1] (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه، قصدا إلى تحقيق ذلك . وجليّ أن مراده عليه السلام ، على كلٍّ ، إنما هو توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله (فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا . قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأنّ عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)

« فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أى فراجعوا عقولهم . ومراجعة العقل مجاز عن التفكر والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر «فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ» أى بهذا السؤال أو بعبادة من لاينطق ولايضر ولا ينفع، لا مَن كسرها ، فَلِمَ تنسبوه إلى الظلم بقولكم (إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ)

« ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياءً من نقصهم ، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم ، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ » أى ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ)

[٦٧] (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى قبح صنيعكم فى عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر فى الكشاف فى قوله تعالى (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) أربعة أوجه. وحاصلها كما فى العناية ـ أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة فى تظليم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة فى تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها فى معرض الألوهية . فقوله (لَقَدْ عَلِمْتَ) معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله (أَفَتَعْبُدُونَ) الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق فى قولهم (لَقَدْ عَلِمْتَ) لأنه نفى لقدرتها واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية، وسمى (نكسا) وإن كان حقًّا، لأنه ما أفادهم مع الإصرار. ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة فى إطراقهم خجلا وقولهم (لَقَدْ عَلِمْتَ) لحيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم. أو النكس مبالغة فى الحيرة وانقطاع الحجة . و (أف) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كما فى كتب اللغة. قال الزمخشرىّ: أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم. ولما عجزوا عن المحاجّة أخذوا فى المضارّة ، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من المحقّ . ولم يبق له مفزع إلا مناصبته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ)

« قَالُواْ حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به « وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ » أى بالانتقام لها « إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة، فلا يليق به غيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ)

« قُلْنَا » أى تعجيزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له فى إنجاء من آمن به « يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ » أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه ، بل كونى غير ضارة . وجوز كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما فى قوله[١] (كُونُواْ قِرَدَةً) ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بمأمور مطيع ، وتخييلها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم : المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً، كقوله[٢] (أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) أى فيكونه . فإن النار جماد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازىّ : لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها ـ أن الله تعالى أزال عنها مافيها من الحرّ والاحتراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شىء قدير.

وثانيها ـ أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه . كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار .

(١) [٢ / البقرة / ٦٥] .   (٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

وثالثها ـ أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار إليه .

قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله (يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا) أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ)

[٧١] (وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ)

« وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشرىّ : غالبوه بالجدال فغلّبه الله ولقنه بالمبكّت . وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقوّاه « وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التى هى طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنىّ والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم. ثم بين بركته تعالى على إبراهيم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ » أى بدعوته[١] (رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ) « وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً » أى زيادةً وفضلًا من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ » بالاستقامة والتمكين فى الهداية .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)

« وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله[1] (وَمِن ذُرِّيَّتِى) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذننا . قال الزمخشرىّ : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يخلّ بها ويتثاقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدىّ أميل « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

[٧٥] (وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغى علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ» أى من عذابها « الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ»

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

يعنى اللواطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطىّ منكساً من مكان عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ » أى فى أهلها « إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ)

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ » أى دعا ربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله(١) (أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ) (٢)(رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا) « فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستتبعاً للانتصار والانتقام من قومه « ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيّهم .

(١) [٥٤ / القمر / ١٠] . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾

« وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » أى رعته ليلًا « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

« فَفَهَّمْنَاهَا » أى الفتوى أو الحكومة، المفهومين من السياق «سُلَيْمَانَ» أى فكان القضاء فيها قضاءه ، لاقضاء أبيه. روى[1] عن ابن عباس أن غنما أفسدت زرعاً بالليل، فقضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويبذر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لامرفوعاً. والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً » أى وكل واحد منهما آتيناه حكمة وعلما كثيراً ، لاسليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داوُد عليه السلام حكما شرعيًّا .

(١) انظر ابن كثير . الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

تنبيهات :

الأول ـ استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله فى هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بيّن فى الأصول. وردّ بأن مفهوم قوله (فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام، يدل على أنه المصيب للحق عند الله. ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى. والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه، دل على أن كلا منهما مصيب. وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داوُد عليه السلام، لجواز كون كلٍّ مصيباً. ولكن هذا أرفق وذاك أوفق، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدل بهذه الآية كلٌّ . فكما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا فى (العناية) .

وجاء فى (فتح البيان) مامثاله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيبا فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين[1] وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماه النبيّ ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين. وإلا لزم توقف حكمه عزوجل على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله. وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف فيها اجتهاد المجتهدين، بالحلّ والحرمة، حلالا وحراما فى حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله. وأيضا يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد، له اجتهاد فى تلك

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ـ ٢١ ـ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث رقم ١٥ (طبعتنا) .

الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانقطاع المجتهدين . واللازم باطل فالملزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق فى كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب .

قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثانى ـ دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان بوحى لما أوثر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى[1] (عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) فعاتبه على ماوقع منه . ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . ومنه ماصح عنه صلوات الله عليه من قوله[2] (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدْى) ومثل ذلك لايكون فيما عمله بالوحى، ونظائر ذلك كثيرة فى الكتاب والسنة. وأيضا ، فالاستنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب .

قال الرازىّ : إذا غلب على ظن نبىٍّ أن الحكم فى الأصل معلل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معا ، وهو محال، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلوّ عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو

(١) [٩ / التوبة / ٤٣] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ٨١ ـ باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، حديث ٨٢٦، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ١٤١ (طبعتنا) .

باطل ببديهة العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس ـ وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس . وهى قائمة أيضا فى حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بها على جواز الاجتهاد فى الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثنى عليهما . وقد تقدم أولًا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمين أرباب المواشى ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفش لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبى حاتم عن شريح والزهرىّ وقتادة . ومن عمم الضمان فسره بالرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدرّها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان فى هذه الواقعة . إذ لم يرد فى شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى[1] ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياه هـذا قطعت غزلا لى . فقال شريح : نهاراً أم ليلًا ؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه . وإن كان ليلًا فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه[2] الإمام أحمد وأبو داود[3] وابن ماجة[4] من حديث الليث بن سعد عن الزهرىّ عن حرام بن محيّصة ، أن ناقة البراء بن عازب

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٩٠ ـ باب المواشى تفسد زرع قوم ، حديث رقم ٣٥٧٠ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ١٣ ـ باب الحكم فيما أفسدت المواشى ، حديث رقم ٢٣٣٢ (طبعتنا) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلّل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضى أتاه الحسن ، فبكى . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصريّ : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ . . .) الآية . فأثنى الله على سليمان ، ولم يذمّ داود .

ثم قال (يعني الحسن) : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثا : لا يشتروا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا[1] (يَٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ)وقال[2] (فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ) وقال[3] (وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) .

ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح[4] البخاريّ عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فهذا الحديث يردّ نصًّا ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار .

وفي السنن[5] : (القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار . رجل علم الحق

(١) [٣٨ / ص / ٢٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٤٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود في : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ٢ ـ باب في القاضي يخطئ ، حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بُرَيْدة .

وأخرجه ابن ماجه في : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ، حديث رقم ٢٣١٥ (طبعتنا) .

وقضى به فهو فى الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار) .

ثم بيّن سبحانه ماخص كلًّا من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ » أى سخرنا الجبال والطير يقدسن الله معه ، بصوت يتمثل له أو يُخْلَقُ فيها . قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه (الزبور) وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه . وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مرّ[1] النبىّ ﷺ على أبى موسى الأشعرىّ وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيّب جداً ، فوقف واستمع لقراءته وقال : لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود . قال : يا رسول الله ! لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيرا .

وقال أبو عثمان الهندىّ : ماسمعت صوت صنج ولا بربط ولامزمار مثل صوت أبى موسى رضى الله عنه . انتهى .

وتقديم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل فى الإعجاز . لأنها جماد . والتذييل بقوله (وَكُنَّا فَٰعِلِينَ) إشارة إلى أنه ليس ببدع فى جانب القدرة الإلهية ، وإن كان عند المخاطبين عجيباً . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة (ص)[2] (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٣١ ـ باب حسن الصوت بالقراءة ، حديث رقم ٢٠٩٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٣٦ (طبعتنا) .

(٢) [٣٨ / ص / ١٧ ـ ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ)

« وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع الملبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفائح ، فخلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها فى بعض كما قال تعالى(١) (وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ) أى لا توسع الحلقة فتقلق المسمار . ولا تغلظ المسمار فتقدّ الحلقة . ولهـذا قال « لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ » أى لنعم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم فى المعامع حياتكم . وفى إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة فى التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيماء إلى التقصير فى الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ)

« وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا »،وهى بيت المقدس «وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ» أى ماتقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى(٢) (فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ) .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيّه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال(٣) (غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠و١١] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٦] . (٣) [٣٤ / سبأ / ١٢] .

أن تكون رخاء فى نفسها ، وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال فى (الانتصاف) : وهـذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافى منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت فى خفتها وفى سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت فى عظم خلقها كالثعبان ، ففى كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ)

«وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ » أى فى البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى[1] (يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ) « وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ » أى مؤيدين ومعينين .

تنبيه :

الشياطين المذكورون ، إما مردة الإنس وأشداؤهم ، وإما مردة الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائىّ : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لايقدرون على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثّف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد فى عظمهم، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

[٨٤] (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ)

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ » .

أى اذكر أيوب وماأصابه من البلاء ودعاءه ربه فى كشف مانزل به، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه فى رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر، وأن عاقبة العسر اليسر. وأن لك الأسوة بمثل هذا النبىّ الصبور، فيما ينزل أحياناً بك من ضرّ . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاءً . كما فى الحديث[١] (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل) .

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لايدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء فى هذا العالم لايترتبان على صالح الأعمال وسيئها. لأن الدنيا ليست دار جزاء. وإن عاقبة الصدق فى الصبر، هى توفية الأجر ومضاعفة البر. وقدروى أن أيوب عليه السلام، لما امتحن بما فقدمعه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعانى من قروح جسده آلاما، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتى أضعاف مافقده . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلًا أبصر أولاد أولاده إلى الجيل الرابع . ولذا قال تعالى (وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ) أى تذكرة لغيره

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٣٤ ـ كتاب الزهد، ٥٧ ـ باب ماجاء فى الصبر على البلاء، عن سعد.

من العابدين ليصبروا كما صبر ، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة . وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات ، بأسانيد واهيات ، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن . ولا تعار من الثقة أدنى نظر . نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره ، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته ، وبنزول مرض شديد به ، عدم معه الراحة ولذة الحياة ، غرائب . إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها . لما داخلها من المزيج ، وتوسع بها في الدخيل ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش . ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم ، لتفضل علينا بتفصيله . ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل ، وتفصيله فيما فصّل .

تنبيه .

قال بعضهم : أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام . وأنه كان غنيًّا من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً في قومه . وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت . ومن جبل سعير بين بلاد أدوم وصحراء العربية . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

[٨٦] ﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ، إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

« وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ » أي على القيام بأمر الله ، وعلى شدائد النوب ، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى ، ففيهم أعظم أسوة « وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ » أي في النبوة أو في نعمة الآخرة « إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ » أي الكاملين في الصلاح .

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره في سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبيّ .

وقال آخرون : إنما كان رجلًا صالحًا ، وكان ملكًا عادلًا وحكمًا مقسطًا ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٨٨] (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ » أي اذكر ذا النون يعني صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليتثبت في نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على مايقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة هٰهنا وفي سورة (الصافات) وفي سورة (ن) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى ـ من أرض الموصل ، كرسيّ سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . نخشي أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقيم فيها . فأرسل الله ريحًا شديدة على البحر ، أشرفت السفينة معه على الغرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يفد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فاقترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فقذفوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهيأ الله حوتاً ليونس فابتلعه ، فمكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى[1] (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

تنبيهات :

الأول ـ يونس عليه السلام يسمى في التوراة (يونان) وهو عبرانيّ . ويقال إنه من جَت حافر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نُبِّئَ قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثاني ـ أكثر المفسرين (كما حكاه الرازيّ) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإباقه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولا ، أن يترك ولا يقاصّ . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولًا الأمر الإلهيّ وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبيّ كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في (مغاضباً) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضي بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد (مفاعلة) وقد استدل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول الكرامية في المرجئة (كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد)

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] .

وقول الباقلانىّ من الأشعرية: (على ماحكاه ابن حزم فى الملل) . وأما الجمهور المانعون من ذلك، فلهم فى هذه الآية وأشباهها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم فى هذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله (بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجاريّة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبىّ معصية بعمد ، لا صغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذى ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . ونقول: إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلا ، بل ينبههم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه فى الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا فى هذا . فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدنا به وجه الله عز وجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال (فى الكلام على يونس عليه السلام) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم يغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلا على الله الكذب ، وزائداً فى القرآن ماليس فيه . هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبىٌّ من الأنبياء ؟ فعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء الله عز وجل . وأما قوله تعالى (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذى لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبىّ مفضل على الناس فى العلم ؟ ومن المحال المتيقن أن يكون نبيّ يظن أن الله تعالى الذى أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه . ولا شك فى أن من نسب هذا للنبىّ ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذى يقول فيه

رسول الله ﷺ[1] (لاتفضلونى على يونس بن متى) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك،وصح أن معنى قوله (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى[2] (وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَـهُۥ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لايضيق عليه فى مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن فى فعله ذلك : وإنما نهى الله عزوجل ، محمدا ﷺ عن أن يكون كصاحب[3] الحوت، فنعم، نهاه الله عزوجل عن مغاضبة قومه،وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التى تداركه بها،للبث معاقباً فى بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشيء فى غير موضعه . فلما وضع النبيّ صلى الله عليه وسلم المغاضبة فى غير موضعها ، اعترف فى ذلك بالظلم . لاعلى أنه قصده وهو يدرى أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذى يفتح باب الإشكالات هو التعمق فى الألفاظ . والتنطع فى شرحها وتوليد معانى ولوازم لها، والتوسع فى وجوهها توسعاً يميت رونق التركيب ونصاعة بلاغته. ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آيه تأخذ بمجامع القلوب رقة وانسجاما . وبلاغة وانتظاما . فلا ترى فى كلمه إلا المختارات لطفا ، ولا فى جمله إلا الفخيمات تركيبا ، ولا فى إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا فى كناياته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته فى الملام والوعيد من إفراغ القول فى أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب، وقوة العتب وذلك لعزة الجناب الإلٰهىّ والمقام الربانىّ . فالعربىّ البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلى عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام فى هذه الآية ، يدهش لما ترى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٣٥ ـ باب قول الله تعالى وإن يونس لمن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠، عن ابن عباس، ونصه : ماينبغى لعبد أن يقول : إنى خير من يونس بن متى . (٢) [٨٩ / الفجر / ١٦] . (٣) [٦٨ / القلم / ٤٨] .

إليه من قوة العتب والملام، وأنه بإباقه غاضب مولاه ، غضباً لايماثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ . ويفلت فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع فى شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقته الرحمة . هذا مجمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

الثالث : عدّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحَالًا . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذى له فى خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر ، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذى ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين ، من النوع المعروف عند بعضهم (بالزفا) وهو من كبار الحيتان يكون فى بحر الروم ، واسع الحلقوم ، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى فى الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاؤه ثلاثة أيام فى جوف هذا الحوت ، ولبث مالكا رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع فى قوله (فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ) إما على حقيقته ، وهى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . أو هو مجاز ، يجعل الظلمة لشدتها وتكاثفها فى بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزمخشريّ ونظره بآية[1] (ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ) .

الخامس : قوله تعالى (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ) أى دعاؤه (وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ) يعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل (فنجيناه) كما قال فى قصة أيوب عليه السلام[2] (فَكَشَفْنَا) لأنه دعا بالخلاص من الضر . فالكشف المذكور يترتب على استجابته .

(١) [٢ / البقرة / ١٧] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨٤] .

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب فى استجابته . وردّ بأن (الفاء) فى قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيريّ . والتفنن طريقة مسلوكة فى علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب فى سر الإتيان بالفاء ثمة، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف فى السؤال . فلما أجمل فى الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنبا . كما أشار إليه بقوله (مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعده تفسيرا له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله (وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ) أى إذا كانوا فى غموم ، وأخلصوا فى أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى فى الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذيّ (دعوة[1] ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط ، إلا استجاب له) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ)

« وَزَكَرِيَّآ » أى واذكر خبره « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبيّا ، ولا يتركه فرداً وحيدا بلا وارث، وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة مريم وفى سورة آل عمران أيضا. وقوله «وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ»

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٤٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذيّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨١ ـ باب حدثنا محمد بن يحيي .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزالىّ فى (شرح الأسماء الحسنى) : الوارث هو الذى ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقى بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شىء ومصيره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ)

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ » أى دعاءه « وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ » أى أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له. وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ » تعليل لما فصّل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أى كانوا يبادرون فى كل باب من الخير . وإيثارُ (فى) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير . لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشىء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أى ذوى رغب ورهب ، أو راغبين فى الثواب راجين للإجابة « وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ » أى مخبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)

« وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى اذكر نبأ التى أحصنته إحصانًا كليًا ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت[١] (وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ) والتعبير عنها بالموصول ، لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعموه فى حقها ، بادئ بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا » أى نفخنا

(١) [٣ / آل عمران / ٤٧] و [١٩ / مريم / ٢٠] .

الروح في عيسى فيها . أي أحييناه في جوفها . فنزّل نفخ الروح في عيسى، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أي أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بعض روحنا ، أي بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذي نفخه في رحمها « وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ » أي نبأهما « ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ » أي في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه . وتثمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها في المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هلا قيل (ءَايَتَيْنِ) كما قال[1] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ) ؟ قلت : لأن حالها بمجموعهما آية واحدة. وهي ولادتها إياه من غير فحل. انتهى. وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً وابنها آية . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة، بقوله سبحانه وتعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ)

« إِنَّ هَٰذِهِۦٓ » أي ملة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لا شريك له «أُمَّتُكُمْ» أي ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَٰحِدَةً » أي غير مختلفة . بل هي ملة واحدة . أي أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد. كما قال تعالى[2] (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ) «وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ» أي لا إله لكم غيري « فَٱعْبُدُونِ » أي ولا تشركوا بي شيئاً .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩] .

تنبيه :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما فى قوله(١) (إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ » أى على دين يجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير من المفسرين فى هذه الآية ، وفى آية(٢) (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ) وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة ، كما هى فى قوله تعالى(٣) (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ) أى جماعة . وكما فى قوله(٤) (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هى بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السنين كما فى قوله تعالى(٥) (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) وفى قوله (وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به، كما فى قوله(٧) (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله(٨) (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وهذا المعنى الأخير لايخرج عن معنى الجماعة ، على ماذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله فى تفسير آية(٩) (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] .
(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥١و٥٢] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨١] .
(٤) [٣ / آل عمران / ١٠٤] .
(٥) [١١ / هود / ٨] .
(٦) [١٢ / يوسف / ٤٥] .
(٧) [١٦ / النحل / ١٢٠] .
(٨) [٣ / آل عمران / ١١٠] .
(٩) [٢ / البقرة / ٢١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ)

« وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ » أى تفرق النـاس فى دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال الزمخشرىّ رحمه الله : والأصل (وتقطعتم) إلا أن الـكلام صرف إلى الغيبـة على طريقة الالتفات . كأنه ينعى عليهم ماأفسدوه، إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتـكب هؤلاء فى دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشيء ويقتسمونه. فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلًا لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزابا شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٤] (فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ)

« فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ » أى فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا فى دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه فى أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله ، مصدق وعده ووعيده، متبرئ من الأندادوالآلهة، فلا كفران لسعيه، بل يشكر الله عمله هذا، ويثيبه ثواب أهل طاعته. وقوله تعالى(وَإِنَّا لَهُۥ) أى لسعيه المشكور (كَٰتِبُونَ) أى مثبتوه فى صحيفة أعماله، ولا نضيعه .

تنبيه :

الـكفران مصدر من (كفر فلان النعمة كُفرا وكفراناً) وأوثر (لا كفران) على (لا نـكفر) للمبالغة . لأن نفى الجنس مستلزم له وأبلغ فى التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل

بالسعي لإظهار الاعتداد به . والآية كقوله تعالى(١) (وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحوق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله(٢) تعالى (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) وقوله(٣) (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) وزيادة (لا) هنا لتأكيد معنى النفى من (حرام) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية فى الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوّعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهم الكبرى ، وهى حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها ، و (لا) فيها على بابها . وهى مع (حرام) من قبيل نفى النفى . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القريه المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ماتقدم أنه لا كفران لسعى أحد . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآى أولى . وأما ما ذكر سواها، فلا يدل عليه السياق ولا النظير . وفيه مايخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [١٧/ الإسراء/ ١٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٣١] . (٣) [٣٦/ يس / ٥٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ)

« حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة مِنْ أَجْنَاسٍ شتى « وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ » أى من كل نشز من الأرض يسرعون ، متجندين لقهر أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر « فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ، قائلين « يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ » أى لأنفسنا، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد . ثم أشار إلى شأنهم فى الآخرة بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ)

[٩٩] (لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

[١٠٠] (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ » أى ما يرمى به إليها « أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : لِمَ قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب. ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أى ترديد نفس تنتفخ منه الضلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أى من الهول وشدة العذاب . ثم بيّن تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع الترهيب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

[١٠٢] (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ)

[١٠٣] (لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

«إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ » أى الخصلة الحسنى، وهى السعادة أو التوفيق « أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم فى غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أى صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعما يفزعهم « وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ* لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ » أى للحشر كما قال تعالى (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ) « وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ » أى تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ، وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [٢٧ / النمل / ٨٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ، وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ)

[١٠٥] (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ)

[١٠٦] (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ)

[١٠٧] (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)

« يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ » أى اذكره . أو ظرف لـ (لا يحزنهم) أو لـ (تتلقاهم) . والطىّ ضد النشر. وقوله « كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب. واللام فى (للكتب) لام التبيين . ولذلك قرئ (الكتاب) بالإفراد . أو بمعنى (من) وفيه قرب من الأول ، أو (الكتب) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها . فاللام بمعنى (على) وهو ما اختاره ابن جرير(١) .

تنبيه :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبىّ صلوات الله عليه ، كما رواه أبو داود والنسائىّ وغيرهما ، فأثر منكر لا يصح .

قال ابن كثير(٢) : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبى داود . منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزىّ .

وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير(٣) وقال : لا يعرف فى الصحابة أحد اسمه السجل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .
(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وكُتّابُ النبيّ صلوات الله عليه ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .

وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .

وأما من ذكره في أسماء الصحابة، فإنما اعتمد على هذا الحديث. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية(١) (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطي السماء كناية عن انكدار نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أي منجزين إياه. ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز النبي عنه ، وإيراثه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أي العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . و(الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام، ويقال: المراد به كل كتاب منزل . والذكر ـ قالوا ـ التوراة أو أم الكتاب. يعني اللوح الذي كتب فيه كل شيء قبل الخلق، والله أعلم. وقوله تعالى « إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة. أو إلى العبرة في إيراث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) أي يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » أي وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطريّ ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية . وجوز كون (رحمة) مفعولا له . أي للرحمة، فهو نبيّ الرحمة.

---

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

تنبيه :

قال الرازىّ : إنه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا . أما فى الدين فلأنه بعث والناس فى جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب. فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريناً له. قال الله تعالى[1] (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ) إلى قوله تعالى (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) وأما فى الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة فى بعثته صلوات الله عليه ، فى (الشذرة) التى جمعتها فى سيرته الزكية ، فى بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين، وأكبر منة الله به على العالمين، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل، وإخافة للسبل ،وانتشار من الأهواء، وتفرق من الملل، مابين مشبه لله بخلقه، وملحد فى اسمه، ومشير إلى غيره، كفر بواح،وشرك صراح،وفساد عام، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق،وشن للغارات،ووأد للبنات وأكل للدماء والميتات، وقطع للأرحام،وإعلان بالسفاح، وتحريف للكتب المنزلة،واعتقاد لأضاليل المتكهنة ، وتأليه للأحبار والرهبان، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور، ظلمات بعضها فوق بعض، وطامات طبقت أكناف الأرض،استمرت الأمم على هذه الحال، الأجيال الطوال، حتى دعا داعى الفلاح، وأذن الله تعالى بالإصلاح. فأحدث بعد ذلك أمراً، وجعل بعد عسر يسراً . فإن النوائب إذا تناهت انتهت، وإذا توالت تولّت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولًا ليعتقهم من أسر الأوثان ،

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق . قال تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ) وقال تعالى[1] (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ) انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)

[١٠٩] (فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ، وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ)

[١١٠] (إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

[١١١] (وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

[١١٢] (قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

« قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ » أى ما يوحى إلىّ ، إلّا استئثاره تعالى بالوحدانية فى الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه وغير منظور إليه فى جنبه . فهو قصر دعائىّ « فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ » أى منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِن تَوَلَّوْا۟ » أى عن التوحيد « فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » أى أعلمتكم وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، نؤمن بها ونجنى ثمرات سعادتها فى الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك ، لأن الله تعالى لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه كما قال « وَإِنْ أَدْرِىٓ » أى وما أدرى « أَقَرِيبٌ

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ » أى من الفتح عليكم ، وإيراث أرضكم غيركم ، ولحوق الذل والصغار بعصيانكم « إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ » أى فسيجزيكم على ذلك « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ » أى وما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم ، وزيادة فى افتتانكم . أو ابتلاء لينظر كيف تعملون . و(الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب ، أو هو بمعناه الأصلىّ . فهو استعارة مصرحة . وقوله تعالى « وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ » أى تمتيع لكم إلى أجل مقدور . والتمتيع بمعنى الإبقاء والتأخير « قَٰلَ »وقرئ (قُل) « رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ » أى افصل بيننا وبينهم بالحق . وذلك بنصر من آمن بما أنزلت ، على من كفر به ، كقوله تعالى[1] (رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ) « وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أى من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه . وقد أجاب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد فى الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

قال الرازىّ : قال القاضى : إنما ختم الله هذه السورة بقوله (قل رب احكم بالحق) لأنه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان لهم الغاية . وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه . فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم . فإذا أبوا إلا التمادى فى كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك، ليحكم بينك وبينهم بالحق . إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره. وإما بتأخير ذلك . فإن أمرهم ، وإن تأخر فما هو كائن قريب. وما روى أنه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه ، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول ، كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق .

تم الجزء الحادى عشر ويليه ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر، وفيه تفسير سور: ٢٢ـ سورة الحج ، و ٢٣ ـ سورة المؤمنون و ٢٤ ـ سورة النور و ٢٥ ـ سورة الفرقان

---

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٢١٩٧

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الثاني عشر

وفيه تفسير :

٢٢ ـ سورة الحج ، ٢٣ ـ سورة المؤمنون ، و٢٤ ـ سورة النور و٢٥ ـ سورة الفرقان

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)
محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
المؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٢ - سورة الحج

سميت به لاشتمالها على أصل وجوبه والمقصود من أركانه ، وهو الطواف ، إذ الإحرام نية ، والوقوف بعرفات من استعداده ، والسعي من تتمته ، والحلق خروج عنه . وذكر فيها منافعه وتعظيم شعائره وغير ذلك ، مما يشير إلى فوائده وأسراره . أفاده المهايمي .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس : أنها مكية سوى ثلاث آيات[1] (هَـٰذَانِ خَصْمَانِ) إلى تمام الآيات الثلاث ، فإنهن نزلن بالمدينة . وفي آثار أخرى أنها كلها مدنية ، كما في الإتقان . وآياتها ثمان وسبعون آية .

(١) [٢٢ / الحج / ١٩ ـ ٢٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

« يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » يأمر تعالى عباده بتقواه التى هى من جوامع الكلم ، فى فعل المأمورات واجتناب المنهيات .

قال المهايمىّ : أى احفظوا تربيته عليكم ، بصرف نعمه إلى ما خلقها لأجله ، لئلا تقعوا فى الكفران الموجب لانقلاب التربية عليكم ، بالانتقام منكم . انتهى .

أى فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ، لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترغيباً وترهيباً . أى احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم ، وقوله تعالى (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) تعليل لموجب الأمر ، بذكر بعض عقوباته الهائلة . فإن ملاحظة عظمها وهولها ، وفظاعة ما هى من مبادئه ومقدماته ، من الأحوال والأهوال ، التى لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى ، مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة . و (الزلزلة) التحريك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارّها ويخرجها عن مراكزها . وإضافتها للساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله مجازاً ، كأنها هى التى تزلزل . أو إلى ظرفه . وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى [١] (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) وفى التعبير عنها بـ(الشيء) ، إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبارة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام . أفاده أبو السعود .

وقد وصف عظمها فى كثير من السور والآيات . كسورة التكوير وسورة الانفطار

(١) [٩٩ / الزلزلة / ١] .

وسورة الانشقاق وسورة الزلزال وغيرها . وقد أشير إلى شيء من بليغ هولها بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

« يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ » أي عن إرضاعها . أو عن الذي أرضعته وهو الطفل « وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » أي ما في بطنها لغير تمام « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ » أي كأنهم سكارى « وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ » أي على التحقيق « وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » أي ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذي أذهب عقولهم ، وطيّر تمييزهم ، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . قاله الزمخشري .

لطيفة :

قال الناصر في (الانتصاف) : العلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك (زيد حمار) إذا وصفته بالبلادة . ثم يصدق أن تقول (وما هو بحمار) فتنفى عنه الحقيقة . فكذلك الآية . بعد أن أثبت السكر المجازيّ نفى الحقيقيّ أبلغ نفي مؤكّد بالباء . والسر في تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ، ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله . والاستدراك بقوله (وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) راجع إلى قوله (وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ) وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازيّ . كأنه قيل إذا لم يكونوا سكارى من الخمر ، وهو السكر المعهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : سببه شدة عذاب الله تعالى . انتهى .

ثم أشير لحال المنكرين للساعة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يخاصم فى شأنه تعالى بغير علم . فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلى وصار ترابا ، ونحو ذلك من الأباطيل « وَيَتَّبِعُ » أى فى جداله « كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ » أى عات متمرد . كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق . ثم أشار لوصف آخر لهذا الشيطان المتبع ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى قضى على الشيطان أنه يضل من تولاه بأن اتخذه وليا ، وتبعه ، ولا يهديه إلى الحق ، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة . وسوقه إياه إليه ، بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن .

تنبيه :

قيل : نزلت الآية فى النضر بن الحارث ، وكان جدلاً .

قال الزمخشرىّ : وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم ، ولا يعض فيه بضرس قاطع . وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل . انتهى .

ثم بين تعالى الحجة القاطعة لما يجادلون فيه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ » أى من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى . أو من وقوعه « فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أى خلقنا أول آبائكم ، أو أول موادّكم ، وهو المنىّ ، من تراب . إذ خلق من أغذية متولدة منه . وغاية أمر البعث أنه خلق من التراب « ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » أى تولدت من الأغذية الترابية « ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ » أى قطعة من الدم جامدة « ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ » أى قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ « مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » أى مصورة وغير مصورة . والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شىء من الأعضاء. ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً « لِنُبَيِّنَ لَكُمْ » أى بهذا التدريج، قدرتنا وحكمتنا ، وأن ما قَبِلَ التغير والفساد والتكوّن مرة ، قَبِلَها أخرى . وأن من قدر على تغييره وتصويره أولا ، قدر على ذلك ثانياً . « وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى » وهو وقت الوضع .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان حالهم ، بعد تمام خلقهم . وعدم نظم هذا وما عطف عليه فى سلك الخلق المعلل بالتبيين ، مع كونهما من متماته ، ومن مبادئ التبيين أيضاً . لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات ، التى من جملتها البعث

المبحوث عنه ، أجلى وأظهر . أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها إلى أجل مسمى .

« ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ » أى كمال قوتكم وعقلكم . قال أبو السعود علة لـ(نُخْرِجُكُمْ) معطوفة على علة أخرى مناسبة لها . كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً . ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والتمييز «وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ» أى بعد بلوغ الأشد أو قبله « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ » وهو الهرم والخرف . والأرذل الأردأ « لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا » أى من بعد علم كثير ، شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من العلم ، مبالغة فى انتقاص علمه وانتكاس حاله والللام لام العاقبة .

قال البيضاوىّ : والآية ـ يعنى ثم نخرجكم الخ ـ استدلال ثان على إمكان البعث ، بما يعترى الإنسان فى أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة . فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره .

ثم أشار تعالى إلى حجة أخرى على صحة البعث ، بقوله «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» أى ميتة يابسة « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ »أى المطر «اهْتَزَّتْ» أى تحركت بالنبات «وَرَبَتْ» أى انتفخت وعلت ، لما يتداخلها من الماء ويعلو من نباتها « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف « بَهِيجٍ » أى حسن رائق يسر ناظره وهذه الحجة الثالثة ، لظهورها وكونها مشاهدة معاينة ، يكررها الله تعالى فى كتابه الكريم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٧] (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » أى ذلك الذى ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه فى أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق

وحده فى ذاته وصفاته وأفعاله . المحقق لما سواه من الأشياء . فهى من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده؛ وما سواه مما يعبد باطل ، لايقدر على شىء من ذلك «وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ» أى يقدر على إحيائها ، إذ أحيي النطفة والأرض الميتة « وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فإن القدرة التى جعل بها هـذه الأشياء العجيبة ، لا يمتنع عليها شىء « وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا » أىْ لاقتضاء الحـكمة إياها . فهى فى وضوح دلائلها التـكوينية ، بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب فى إتيانها « وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » أى من الأموات، أحياء إلى موقف الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ، بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

[٩] (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)

[١٠] (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ » أى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بعلم ضرورىّ ، ولا باستدلال ونظر صحيح ، يهدى إلى المعرفة . ولا بوحى مظهر للحق . أى بل بمجرد الرأى والهوى . وهذه الآية فى حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الـكفر المقلدَين ـ بفتح اللام ـ كما أن ما قبلها فى حال الضُّلّال الجهال المقلدِين ـ بكسر اللام ـ فلا تـكرار . أو أنهما فى الدعاة المضلين . واعتبر تغاير أوصافهم فيهما ، فلا تـكرار أيضا .

قال فى (الـكشف) : والأول أظهر وأوفق بالمقام . وكذا اختاره أبو مسلم فيما نقله عنه الرازىّ ، ثم قال : فإن قيل كيف يصح ما قلتم ، والمقلد لا يكون مجادلا ؟ قلنا : قد يجادل تصويبا لتقليده . وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمـكن منها . وإن كان معتمده الأصلىّ هو التقليد .

وقوله « ثَانِيَ عِطْفِهِ » حال من فاعل (يجادل) أى عاطفا لجانبه إعراضاً واستكباراً عن الحق، إذا دعى إليه .

قال الزمخشرىّ : ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء . كتصعير الخدّ ولىّ الجيد .

وقوله « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » أى ليصد عن دينه وَشرعه، متعلق بـ(يجادل) علة له « لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أى إهانة ومذلة ، كما أصابه يوم بدر من الصغار والفشل « وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ » أى النار المحرقة « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ » على الالتفات ، أو إرادة القول . أى : يقال له يوم القيامة : ذلك الخزى والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال والإضلال . وإسنادُه إلى (يديه) ، لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدى. « وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى بل هو العدل فى معاقبة الفجار ، وإثابة الصالحين .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ » شروع فى حال المذبذبين ، إثر بيان حال المجاهرين . أى ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين ، لا فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم ، لا على سكون وطمأنينة . كالذى ينحرف إلى طرف الجيش . فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرّ وإلّا فرّ « فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ »أى دنيوىّ من صحة وسعة « اطْمَأَنَّ بِهِ » أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً « وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ » أى ما يفتتن به من مكروه ينزل به « انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ » أى رجع إلى ما كان عليه من الكفر « خَسِرَ » أى بهذا الانقلاب «الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» أى ضيّعهما بذهاب عصمته، وحبوط عمله، بالارتداد «ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » أى الواضح الذى لا يخفى على ذى بصيرة .

تنبيه :

قال ابن جرير [1] : يعنى جل ذكره بقوله (وَمِنَ النَّاسِ) الخ أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجرين من باديتهم. فإن نالوا رخاء ، من عيش بعد الهجرة ، والدخول فى الإسلام ، أقاموا على الإسلام . وإلا ارتدوا على أعقابهم . وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل . ثم أسنده من طرق .

وهذا مما يؤيد أن السورة مدنية كما قاله جمع . وتقدم ذلك .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

« يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ » أى حال ثابتة من فاعل (انقلب) والأولى (خسر) ولذلك قرئ (خاسر) أى ارتد عن دين الله يدعو من دونه آلهة لا تضره ، إن لم يعبدها فى الدنيا ، ولا تنفعه فى الآخرة إن عبدها . وقال أبو السعود (يدعو) استئناف مبين لعظيم الخسران « ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » أى عن الحق والهدى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ)

« يَدْعُو » أى هذا المنقلب على وجهه ، إذا أصابته فتنة «لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» أى وثناً أو صنماً ، ضره فى الدنيا بالذل والخزى وفى الآخرة بالعذاب ، أسرع إليه من نفعه الذى يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل به إلى الله تعالى . فاللام زائدة فى المفعول به ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

وهو (مَنْ) كما زيدت فى قوله تعالى[1] (رَدِفَ لَكُمْ) فى وجه . وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه (يَدْعُو مَنْ ضَرُّهُ) بغير لام . وهى مؤيدة للزيادة . و (ضره) مبتـدأ ، و (أقرب) خبر . وفى الآية وجوه كثيرة هذا أظهرها . وإثبات الضرر له هنا ، باعتبار معبوديته . ونفيُه قبلُ ، باعتبار نفسه . والآية بمثابة الاستدراك أو الإضراب عما قبلها ، بإثبات ضر محقق لاحق لعابده، تسفيها وتجهيلا لاعتقاده فيه أنه يستنفع به حين يستشفع به. وإيراد صيغة التفضيل ، مع خلوه عن النفع بالمرة ، للمبالغة فى تقبيح حاله ، والإمعان فى ذمه « لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ » أى الناصر له « وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ » أى المصاحب له .

ولما بين سوء حال الكفرة من المجاهرين والمذبذبين ، أعقبه بكمال حسن حال المؤمنين ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » أى من الأفعال المبنيّة على الحكمة ، التى من جملتها إثابة من أطاعه وتعذيب من عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ »

---

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

أى بحبل إلى مايعلوه « ثُمَّ لْيَقْطَعْ » أى ليختنق « فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » أى غيظه . والمعنى من استبطأ نصر الله وطلبه عاجلًا ، فليقتل نفسه . لأن له وقتاً لا يقع إلا فيه . فالآية فى قوم من المسلمين استبطئوا نصر الله ، لاستعجالهم وشدة غيظهم ، وحنقهم على المشركين . وجوز أن تكون فى قوم من المشركين ، والضمير فى (ينصره) للنبىّ صلى الله عليه وسلم . والمعنى : من كان منهم يظن أن لن ينصر الله نبيه ، فليختنق وليهلك نفسه ، ثم لينظر فى نفسه ، هل يذهبن احتياله هذا فى المضارّة والمضادّة ، ما يغيظه من النصرة ؟ كلا . فإن الله ناصر رسوله لا محالة . قال تعالى(١) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ)

[١٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ » أى القرآن الكريم « ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة ، أنه يقضى بينهم فى الآخرة بالعدل . فيدخل من آمن منهم به وعمل صالحا ، الجنة . ومن كفر به ، النار . فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم وما تكنه ضمائرهم . وتقدم فى سورة البقرة التعريف بـ (الصابئين) والمراد بـ (الذين) أشركوا

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] .

كفار العرب خاصة . لأن المشركين فى إطلاق التنزيل ، بمثابة العلَم لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَاب وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » بيان لعظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته ، بانقياد هذه العوالم العظمى له ، وجريها على وفق أمره وتدبيره . فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف ، لمطاوعة الأشياء له تعالى ، فيما يحدث فيها من أفعاله ، ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها . ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيهما . وقوله (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) إما معطوف على ما قبله ، إن جوز استعمال اللفظ المشترك فى مفهوميه جميعاً ، فيكون السجود فى الجمادات الانقياد ، وفى العقلاء العبادة . أو مبتدأ خبره محذوف . أو فاعل لمضمر، إن لم يجوز ذلك . وقوله تعالى:

« وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ » أى من الناس . أى بكفره واستعصائه « وَمَنْ يُهِنِ اللهُ » أى بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر « فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ » أى يكرمه بالسعادة « إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)

« هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ » يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنقسم

إلى الفرق الخمس المبينة فى الآية قبل . و (الخصم) فى الأصل مصدر . ولذا يوحّد ويذكر غالباً . ويستوى فيه الواحد المذكر وغيره ومعنى (اختصموا فى ربهم) أى فى دينه وعبادته. والاختصام يشمل ما وقع أحياناً من التحاور الحقيقىّ بين أهل الأديان المذكورة، والمعنوىّ. فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقيّة ما هو عليه ، وبطلان ما عليه صاحبه ، وبناء أقواله وأفعاله عليه ، خصومة للفريق الآخر. وإن لم يجز بينهما التحاور والخصام . ثم أشار إلى فصل خصومتهم المذكور فى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) بقوله سبحانه :

« فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ » أى قدرت « لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » أى الماء الحارّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)

[٢١] (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)

[٢٢] (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

[٢٣] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

[٢٤] (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)

« يُصْهَرُ » أى يذاب « بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ » أى من الأمعاء والأحشاء « وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ » أى سياط يضربون بها « مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ » كما قال تعالى[(١)] : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) وقولهم[(٢)] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) «وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» أى المحمود ، وهو الجنة. أو الحق تعالى، المستحق لغاية الحمد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى مكة «الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ » أى المقيم « فِيهِ وَالْبَادِ » أى الطارئ « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ » أى بميل عن القصد « بِظُلْمٍ » أى بغير حق « نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على هتكه حرمته . ويشمل الإلحاد الإشراك ومنع الناس من عمارته، واقتراف الآثام . وتدل الآية على أن الواجب على من كان فيه ، أن يضبط نفسه ، ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهمّ به ويقصده. وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة فى الحرم أعظم منها فى غيره ، وأنها تضاعف فيه . وإن همّ بها فيه أخذ بها . ومفعول (يرد) إما محذوف ، أى يرد شيئاً أو مرادا ما ، والباء للملابسة . أو هى زائدة و (إلحاداً) مفعوله . أو للتعدية لتضمينه معنى (يتلبس) . و (بظلم) حال مرادفة . أو بدل مما قبله، بإعادة الجار . أو صلة له . أى ملحداً بسبب الظلم. وعلى كلّ ، فهو مؤكد لما قبله . ومن قوله (نُذِقْهُ) الخ يؤخذ خبر (إنّ). ويكون مقدراً بعد قوله (وَالْبَادِ) مدلولا عليه بآخر الآية، كما ارتضى ذلك أبو حيان فى (البحر) .

---

(١) [١٠ / يونس ١٠ / و [١٤ / إبراهيم / ٢٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .

ثم أشار تعالى إلى تقريع وتوبيخ من عبد غيره وأشرك به فى البقعة المباركة ، التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ » أى واذكر إذ عيّنّاه وجعلناه له مباءة ، أى منزلا ومرجعاً لعبادته تعالى وحده و(أنْ) فى قوله تعالى (أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) مفسرة لـ(بَوَّأْنَا) من حيث إنه متضمن لمعنى (تعبدنا) لأن التبوئة للعبادة . أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى شيئاً « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ » أى من الأصنام والأوثان والأقذار « لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » أى لمن يطوف به ويقيم ويصلّى . أو المراد بالقائمين وما بعده (المصلين)، ويكون عبّر عن الصلاة بأركانها ، للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك ، فكيف وقد اجتمعت ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

[٢٨] (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ » أى نادِ فيهم به، قال الزمخشرى : والنداء بالحج أن يقول : حجّوا ، أو عليكم الحج « يَأْتُوكَ رِجَالًا » أى مشاة ، جمع (راجل) « وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ »

أى ركباناً على كل بعير مهزول ، أتعبه بُعد الشقة فهزله . والعدول عن (ركباناً) الأخصر ، للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة ، وقوله تعالى « يَأْتِينَ » صفة لكل ضامر ، لأنه فى معنى الجمع . وقرئ (يأتون) صفة للرجال والركبان . أو استئناف ، فيكون الضمير للناس « مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » أى طريق واسع بعيد « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » أى ليحضروا منافع لهم دينية ودنيوية « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » أى على ما ملكهم منها ، وذللها لهم ، ليجعلوها هدياً وضحايا . قال الزمخشرى كنى عن النحر والذبح ، بذكر اسم الله . لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلىّ فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه ـ زاد الرازىّ ـ وأن يخالف المشركون فى ذلك . فإنهم كانوا يذبحونها للنصُب والأوثان ، قال القفال : وكأن المتقرب بها وبإراقة دمائها متصوّر بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها . فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته ، طلباً لمرضاة الله تعالى ، واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته . والأيام المعلومات أيام العشر . أو يوم النحر وثلاثة أيام أو يومان بعده . أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده . أقوالٌ للأئمة .

قال ابن كثير : ويعضد الثانى والثالث قوله تعالى (عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) يعنى به ذكر الله عند ذبحها . انتهى .

أقول ـ لا يبعد أن تكون (على) تعليلية ، والمعنى : ليذكروا اسم الله وحده فى تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه ، لأجل ما رزقهم من تلك البهم . فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها : ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة . وقد امتن عليهم بها فى غير موضع من تنزيله الكريم . كقوله سبحانه(١) (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(١) [٣٦/ يس / ٧١ و ٧٢] .

والسرّ فى إفراده هذه النعمة ، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه ، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم . إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم . فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم ، لما قامت لهم قائمة . لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وماهم بأهل صناعة مشهورة ، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة . ومن كانوا كذلك ، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم ، ويشكروه ويعرفوا له حقه . من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره . فالاعتبار بها من ذلك ، موجب للاستكانة لرازقها ، والخضوع له والخشية منه . نظير الآية ـ على ما ظهر لنا ـ قوله تعالى[1] (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) هذا أولا . وثانياً قد يقال : إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل . وهو مواساة البؤساء منها . فإن ذلك من أجلّ ما يرضيه تعالى ، ويثيب عليه . والله أعلم .

« فَكُلُوا مِنْهَا » أى من لحومها . والأمر للندب . وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه . وقد ثبت[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه ، أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

وعن إبراهيم قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم . فرخص للمسلمين . فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

قال فى (الإكليل) . والأمر للاستحباب حيث لم يكن الدم واجباً بإطعام الفقراء . وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب ، إلا جزاء الصيد والأذى والنذر ، وأباحه أحمد ، إلا من جزاء الصيد والنذر . وأباح الحسن الأكل من الجميع تمسكا بعموم الآية . وذهب قوم إلى أن

---

(١) [١٠٦ / قريش / ٣ و ٤] .

(٢) الحديث انفرد به مسلم . أخرجه فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) عن جابر بن عبد الله . والحديث فى بيان حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، مفصلة أتم تفصيل ، فيحسن دراسته .

الأكل من الأضحية واجب ، لظاهر الأمر . وقومٌ إلى أن التصدق منها ندب ، وحملوا الأمر عليه . ولا تحديد فيما يؤكل أو يتصدق به ، لإطلاق الآية . انتهى .

« وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ » أى الذى أصابه بؤس أى شدة « الْفَقِيرَ » أى الذى أضعفه الإعسار ، والأمر هنا للوجوب . وقد قيل به فى الأول أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

[٣٠] (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

[٣١] (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

« ثُمَّ » أى بعد الذبح « لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ » أى ليؤدوا إزالة وسخهم من الإحرام ، بالحلق والتقصير وقصّ الأظفار ولبس الثياب « وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ » أى ما ينذرونه من أعمال البر فى حجهم « وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى طواف الإفاضة . وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج . ويقع به تمام التحلل . و (العتيق) القديم . لأنه أول بيت وضع للناس . أو المعتق من تسلط الجبابرة « ذَٰلِكَ » خبر محذوف . أى الأمر ذلك . وهو وأمثاله من أسماء الإشارة ، تطلق للفصل بين الكلامين ، أو بين وجهى كلام واحد . قال الشهاب : والمشهور فى الفصل (هَٰذَا) كقوله[1] (هَٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ).

---

(١) [٣٨ / ص / ٥٥] .

واختيار (ذلك) هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته . وهو من الاقتضاب القريب من التخلص، لملاءمة مابعده لما قبله ، كما هنا «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ» أى أحكامه . أو الحرم وما يتعلق بالحج من المناسك . و (الحرمات) جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه ، بل يحترم شرعاً « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ » أى ثواباً . و (خير) اسم تفضيل حذف متعلقه . أى من غيره ، أو ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقدير، قاله الشهاب . والثانى هو الأظهر ، لأنه أسلوب التنزيل فى مواضع لايظهر التفاضل فيها . وإيثاره ، مع ذلك ، لرقة لفظه ، وجمعه بين الحسن والروعة «وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» أى آية تحريمه . وذلك قوله فى سورة المائدة[1] (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ) والمعنى: أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها ، إلا ما استثناه فى كتابه . فحافظوا على حدوده . وإياكم أن تحرموا مما أحل لكم شيئاً . كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك . وأن تحلوا مما حرم الله . كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك . أفاده الزمخشرىّ . « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » تفريع على ما سبق من تعظيم حرماته تعالى . فإن ترك الشرك واجتناب الأوثان من أعظم المحافظة على حدوده تعالى . و (من) بيانية . أى فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان، كما تجتنب الأنجاس . وهو غاية المبالغة فى النهى عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها . قال الزمخشرىّ : سمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعنى أنكم، كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله[2] (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب . وقوله تعالى « وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » تعميم بعد تخصيص . فإن عبادة الأوثان رأس الزور . كأنه لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبعه ذلك ، ردًّا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب . وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك،

(١) [٥ / المائدة / ٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٩٠] .

وإعلاماً بأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، وصدق القول ، أعظم الحرمات وأسبقها خطواً « حُنَفَاءَ لِلَّهِ » مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق « غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » أى شيئا من الأشياء . ثم ضرب للمشرك مثلاً فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال تعالى « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ » أى سقط منها فقطعته الطيور فى الهواء « أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ » أى تقذفه « فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ » أى بعيد مهلك لمن هوى فيه . و(أو) للتخيير أو التنويع . قال الزمخشرىّ : يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق . فإن كان تشبيها مركباً ، فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية . بأن صور حاله بصورة حالِ مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعاً فى حواصلها . أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفرقاً ، فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله ، بالساقط من السماء . والأهواء التى تتوزع أفكاره ، بالطير المختطفة . والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة ، بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة . فكتب الناصر عليه : أما على تقدير أن يكون مفرّقاً فيحتاج تأيل تشبيه المشرك بالهاوى من السماء ، إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الإشراك المراد ردّته ، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده وإما أن يكون الإشراك أصليا ، فيكون قد عدّ تمكن المشرك من الإيمان ومن العلوّ به ثم عدوله عنه اختياراً ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى[1] « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وفى تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر ، بالطير المختطفة ، وفى تشبيه تطويح الشيطان بالهوىّ مع الريح فى مكان سحيق ـ نظر . لأن الأمرين ذكرا فى سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين . فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء

---

(١) [٢ / البقرة [٢٥٧] .

والأفـكار ، والثانى مثلا لنزغ الشيطان ، فقد جعلهما شيئاً واحداً . لأن توزع الأفـكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذى يظهر فى تقرير التشبيهين غير ذلك . فنقول : لما انقسمت حال الـكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما المتذبذب والمتمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة . فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته ، فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب . لا يلوح له خيال إلا اتّبعه ونزل عما كان عليه . والثانى مشرك مصمم على معتقد باطل . لو نشر بالمنشار لم يكع ولم يرجع . لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع فى نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج بضلالاته . فهذا مشبه فى إقراره على كفره ، باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقرّ فيه . ويظهر تشبيهه بالاستقرار فى الوادى السحيق ، الذى هو أبعد الأحياء عن السماء ، وصف ضلاله بالبعـد فى قوله تعـالى[١] : (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) و[٢](ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا) أى صمموا على ضلالهم فبعُد رجوعهم إلى الحق فهذا تحقيق القسمين والله أعلم . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن فى النظم الـكريم مساغاً له . إلا أنه لا قاطع به . نعم ، هو من بديع الاستنباط ، ورقيق الاستخراج . فرحم الله ناسجه .

قال ابن كثير[٣] وقد ضرب تعالى للمشركين مثلا آخر فى سورة الأنعام . وهو قوله تعالى[٤] (قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى) الآية .

---

(١) [١٤/ إبراهيم / ٣] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٧] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٢١٩ من الجزء الثالث . (٤) [٦ / الأنعام / ٧١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

« ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ » أى علائم هدايته ، وهو الدين . أو معالم الحج ومناسكه . أو الهدايا خاصة ، لأنها من معالم الحج وشعائره تعالى . كما تنبىء عنه آية[١] (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) وهو الأوفق لما بعده . وتعظيمها أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً ، غالية الأثمان . ويترك المكاس فى شرائها . فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون المكاس فيهن : الهدى والأضحية والرقبة .

وعن سهل[٢] : كنا نسمن الأضحية فى المدينة وكان المسلمون يسمنون. رواه البخارىّ.

وعن أنس[٣] : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين . رواه البخارىّ . وعن البراء[٤] مرفوعاً . أربع لا تجوز فى الأضاحى ، العوراء البيّن عورها ، والمريضة البيّن مرضها ، والعرجاء البيّن ظلعها ، والكسيرة التى لا تُنْقِى : رواه أحمد وأهل السنن . « فَإِنَّهَا » أى فإن تعظيمها « مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » أى من أفعال ذوى التقوى . والإضافة إلى القلوب ، لأن التقوى وضدها تنشأ منها .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٣٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ تعليقا فى : ٧٣ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٧ ـ باب فى أضحية النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بكبشين أقرنين ، ويذكر (سمينيْن) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٣٧ ـ كتاب الأضاحىّ ، ٧ ـ باب فى أضحية النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بكبشين أقرنين . ويذكر (سمينين) حديث رقم ٢٢١١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٥ ـ كتاب الأضاحىّ ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه النسائىّ فى : ٤٣ ـ كتاب الضحايا ، ٥ ـ باب ما نهى عنه من الأضاحىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

« لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى لكم فى الهدايا منافع درّها ونسلها وصوفها وظهرها إلى وقت نحرها . وقد روى فى الصحيحين[١] عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة قال: اركبها . قال : إنها بدنة قال: اركبها ، ويحك . فى الثانية أو الثالثة . وقوله (ثُمَّ مَحِلُّهَا) أى محل الهدايا وانتهاؤها إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى[٢] (هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) وقال[٣] (وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) .

قال فى (الإكليل) : فيه أن الهدى لا يذبح إلا بالحرم . وقيل: المعنى : محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق . فيقتضى أن الحاج بعد طواف الإفاضة . يحل له كل شىء . وكذا روى عن ابن عباس : ما طاف أحد بالبيت إلا حل ، لهذه الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١٠٣ ـ باب ركوب البدن ، حديث رقم ٨٧٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٣٧٣ (طبعتنا) .

(٢) [٥ / المائدة / ٩٥] . (٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] .

أى شرعنا لكل أمة أن ينسكوا . أى يذبحوا لوجهه تعالى ، على وجه التقرب . وجعل العلة ، أن يذكر اسمه . تقدست أسماؤه ، على النسائك . فـ(منسكا) مصدر ميمىّ على أصله . أو بمعنى المفعول . وفى الآية تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً .

« فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا » أى أخلصوا له الذكر خاصة ، لا تشوبوه بإشراك . « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

[٣٦] (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى خافت لتأثرهم عند ذكره مزيد تأثر «وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا » أى فى ذبحها تضحية « خَيْرٌ » من المنافع الدينية والدنيوية « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ » أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن . وعن ابن عباس : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى . يقول: بسم الله ، والله أكبر ، لا إله إلا الله: اللهم منك ولك . وفى الصحيحين(١) عن ابن عمر ؛ أنه أتى على رجل قد أناخ

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الحج ، ١١٨ ـ باب نحر الإبل مقيدة ، حديث ٨٨٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث ٣٥٨ (طبعتنا) .

بدنة وهو ينحرها . فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم : وفي صحيح مسلم(١) عن جابر في صفة حجة الوداع ، قال فيه : فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثاً وستين بدنة . جعل يطعنها بحربة في يده « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » أي سقطت على الأرض، وهو كناية عن الموت « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ » أي السائل « وَالْمُعْتَرَّ » أي المتعرض بغير سؤال . أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، والمعتر المتعرض بسؤال وقد استنبط من الآية أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : فيأكل ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث .

« كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أي ذللناها لكم ، لتشكروا إنعامنا. والشكر صرف العبد ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ، كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)

« لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » أي لن يصيب رضاءه لحومها المتصدق بها ، ولا دماؤها المهراقة ، من حيث أنها لحوم ودماء . ولكن بمراعاة النية والإخلاص ، ابتغاء وجهه الأعلى ، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى(٢) (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ) إلى آخرها « كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ » أي لتعرفوا عظمته فتوحدوه بالعبادة على ما أرشدكم إلى طريق تسخيرها ، وكيفية التقرب بها على لسان أكرم رسله المبعوث بسعادة الدارين . وإنما كرره تذكيراً للنعمة وتعليلا بما بعده .

---

(١) انفرد به مسلم . أخرجه في : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

وفى التعليل المذكور شاهد لما قدمناه أولا فى معنى قوله تعالى[١] (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) فتذكر . وقوله تعالى « وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ » أى المخلصين فى أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

« إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » كلام مستأنف، مسوق لتوطين قلوب المؤمنين، ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم ، بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ، ليتفرغوا إلى أداء مناسكه . كذا قاله أبو السعود . وسبقه الرازىّ إليه . والأولى أن يقال : إنه طليعة لما بعده من الإذن بالقتال ، مبشرة بغاية النصرة والحفظ والكلاءة والعاقبة للمؤمنين . تشجيعاً لهم على قتال من ظلمهم ، وتشويقاً إلى استخلاص بيته الحرام، ليتسنى لهم إقامة شعائره وأداء مناسكه . وقوله تعالى « إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ » أى فى أمانة الله « كَفُورٍ » أى لنعمته بعبادته غيره ، فلا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم . وصيغة المبالغة فيهما ، لأنه فى حق المشركين، وهم كذلك ولأن خيانة أمانة الله وكفران نعمته لا يكون حقيرا، بل هو أمر عظيم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)

[٤٠] (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(١) [٢٢ / الحج / ٢٨] .

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ » أى يقاتلهم المشركون . والمأذون فيه محذوف ، لدلالة المذكور عليه . وقرئ بكسر التاء . « بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » أى بغير حق سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمكين ، لا موجب الإخراج والتسيير . ومثله[1] (هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ) وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » أى لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها. قال ابن جرير[2] : ومنه كفه تعالى ببعضهم التظالم . كالسلطان الذى كف به رعيته عن التظالم بينهم . ومنه كفه تعالى لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق . ونحو ذلك . وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض . لولا ذلك لتظالموا . فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم، وما سمى جل ثناؤه . و (الصوامع) مبانى الرهبانية لخلوتهم . (والبيع) معابد النصارى . و (الصلوات) روى عن ابن عباس أنه عنى بها كنائس اليهود . سميت بها لأنها محلها . وقيل هى بمعناها الحقيقى . و (هدمت) بمعنى عطلت. أو فيه مضاف مقدر « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » أى ينصر دينه وأولياءه . قال القاضى : وقد أنجز الله وعده ، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم . « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤١] (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

---

(١) [٥ / المائدة / ٥٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٥ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم . ثم أشار تعالى إلى تسلية نبيّه صلى الله عليه وسلم ، عما يناله من أذى المشركين ، وحاضًّا له على الصبر على ما يلحقه منهم من التكذيب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ)

[٤٣] (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ)

[٤٤] (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَثَمُودُ » وهم قوم صالح « وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » وهم قوم شعيب « وَكُذِّبَ مُوسَىٰ » وإنما لم يقل (وقوم موسى) كسابقه ، لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر كأنه قيل ، بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) مع وضوح آياته وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره ؟ أفاده الزمخشريّ .

قال الناصر : ويحتمل عندى ، والله أعلم ، أنه لما صدّر الكلام بحكاية تكذيبهم ، ثم عدّد أصناف المكذبين وطوائفهم ، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليلى قوله (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) فيتصل المسبب بالسبب ، كما قال فى آية (قٓ) بعد تعديدهم[1] (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) فربط العقاب والوعيد ، ووصلهما

(١) [٥٠ / قٓ / ١٤] .

بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره . والله أعلم .

وإيراد من زعم بأن موسى كذبه قومه بعبادة العجل ، إيراد من لم يفهم معنى التكذيب الذى هو ردّ دعوة النبيّ وعدم الإيمان به والإصرار على الكفر بوحيه ، والقيام فى وجهه وصد الناس عن اتباعه . وما وقع من قوم موسى هو تخليط ، وخطأ اجتهاد ، وتعنت ولجاج مع الاستظلال بظل دعوته ، والانتظام فى سلك إجابته . وقوله تعالى « فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ » أى أمهلتهم « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ » أى بالعقوبة « فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أى إنكارى عليهم بالإهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ)

« فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ » أى فكم من أهالى قرية « أَهْلَكْنَاهَا » أى بالعذاب « وَهِيَ ظَالِمَةٌ » أى مشركة كافرة « فَهِيَ خَاوِيَةٌ » أى ساقطة « عَلَىٰ عُرُوشِهَا » أى سقوفها « وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ » اى وكم من بئر متروكة لا يستقى منها ، لهلاك أهلها « وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ » أى مرفوع . من (شاد البناء) رفعه . أو معناه مطلىّ ومعمول بالشيد ، بالكسر ، وهو الجص ، أى مجصص ، أخليناه عن ساكنيه ، ومن شواهد الأول قول عدىّ بن زيد[1] :

شَادَهُ مَرْمَراً وجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً ، فللطير فى ذُرَاهُ وُكُورُ

---

(١) هذا البيت من إحدى قصائده الأربع الغرر . ومطلع القصيدة :

أيها الشامتُ المعيّرُ بالدهـ ـرِ أأنت المُبَرَّأُ المَوْفُورُ

انظر (الشعر والشعراء) لابن قتيبة . ج ١ ص ١٧٦ ، تحقيق شيخنا المغفور له الشيخ أحمد محمد شاكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى أهل مكة فى تجارتهم « فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ » أى بما يشاهدونه من مواد الاعتبار « قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » أى ما يجب أن يعقل من التوحيد « أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » أى ما يجب أن يسمع من الوحى والتخويف « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » الضمير فى (فإنها) للقصة . أو مبهم يفسره (الأبصار) . والمعنى : ليس الخلل فى مشاعرهم ، وإنما هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة . وفائدة ذكر (الصدور) هو التأكيد مثل[1] (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ) و(طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)[2] إلا أنه لتقرير معنى الحقيقة ، وهنا لتقرير معنى المجاز . وقال الزمخشرى : الفائدة زيادة التصوير والتعريف وعبارته : الذى قد تعورف واعتقد ؛ أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله فى القلب استعارة ومثل . فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار . كما تقول (ليس المضاء للسيف ، ولكنه للسانك الذى بين فكيك) ، فقولك (الذى بين فكيك) تقرير لما ادعيته للسانه ، وتثبيت . لأن محل المضاء هو هو لا غير . وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف . وأثبته للسانك ، فلتة ولا سهوا منى ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] . (٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى المبين فى آية[1] (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) « وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ » أى فيصيبهم ما أوعدهم به ، ولو بعد حين « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » أى هو تعالى حليم لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة إلى حلمه . لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شىء . وإن أنظر وأملى . ولهذا قال بعده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا » أى أمهلتها « وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ » إلى حكمى مرجع الكل فأجزيهم بأعمالهم . فتأثر هذه الآية ما قبلها صريح فى بيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ، ببيان كمال سعة حلمه تعالى ، وإظهار غاية ضيق عطنهم ، المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى ، مُدداً طوالاً عندهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى[2] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) ولذلك يرون مجيئه بعيداً ، ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ، ويجترئون على الاستعجال به ، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها، وقوعاً وإخباراً ، ما عنده تعالى من المقدار . أفاده ابن كثير وأبو السعود .

وفى (العناية) : لما ذكر استعجالهم ، وبيّن أنه لا يتخلف ما استعجلوه ، وإنما أخر

---

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] .   (٢) [٧٠ / المعارج / ٦و٧] .

حلما ، لأن اليوم ألف سنة عنده . فما استطالوه ليس بطويل بالنسبة إليه ، بل هو أقصر من يوم . فلا يقال : إن المناسب حينئذ أن ألف سنة كيوم ، والقلب لا وجه له .
وقال الرازيّ : لما حكى تعالى من عظم ما هم عليه من التكذيب ، أنهم يستهزئون باستعجال العذاب ، بيّن أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عـذاب الآخرة فقال (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ) يعنى فيما ينالهم من العذاب وشدته (كألف سنة) لو عُدّ فى كثرة الآلام وشدّتها . فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة ، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه .

قال الرازيّ : وهذا قول أبى مسلم ، وهو أولى الوجوه . انتهى .

وقد حكاه الزمخشريّ بقوله : وقيل معناه : كيف يستعجلون بعذاب مَنْ يومٌ واحد من أيام عذابه ، فى طول ألف سنة من سنيكم . لأن أيام الشدائد مستطالة ، أى تعدّ طويلة . كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ فإنهَا قِصَارٌ . وأيامُ الهُمُومِ طِوَالُ

أو كان ذلك اليوم الواحد ، لشدة عذابه ، كألف سنة من سنى العذاب . انتهى .

واعتمد الوجه الأول أبو السعود . وناقش فيما بعده ؛ بأنه لايساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه . فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيويّ . وأن الزمان الممتد هو الذى مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال . لا الزمان المقارن له . ألا يرى إلى قوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) الخ ، فإنه صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد ، بعد الإملاء المديد . انتهى . وفيه قوة . فالله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[٥٠] (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[٥١] (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهى الجنة « وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أى والذين سعوا فى ردّ آياتنا ، وصدّ الناس عنها مشاقّين . فالمعاجزة مستعارة للمشاقة مع المؤمنين ومعارضتهم . فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله . كما يقال (جاراه فى كذا) . قال تعالى[1] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا) وقرئ (معجّزين) بتشديد الجيم . بمعنى أنهم عجّزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالقرآن . وكلتا القراءتين متقاربة المعنى . وذلك أن من عجّز عن آيات الله ، فقد عاجز الله . ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله ، والعمل بمعاصيه ، وخلاف أمره . وكان من صفة القوم الذين نزلت فيهم الآيات أنهم كانوا يبطّئون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله . ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه . وقد ضمن الله له نصره عليهم . فكان ذلك معاجزتهم الله . كذا فى الشهاب وابن جرير . ثم أشار تعالى إلى تسلية رسوله صلوات الله عليه ، عما كان يلاقيه من صدّ شياطين قومه عن سبيل الله ، بأن تلك سنة كل رسول ، وأن العاقبة له ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ » أى رغب فى انتشار

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤] .

دعوته ، وسرعة علوّ شرعته « أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ » أى بما يصدّ عنها ، ويصرف المدعوّين عن إجابتها « فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ » أى يبطله ويمحقه « ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَاتِهِ » أى يثبتها (١)(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ) « وَاللهُ عَلِيمٌ » يعلم الإلقاءات الشيطانية ، وطريق نسخها من وجه وحيه . « حَكِيمٌ » يحكم آياته بحكمته . ثم أشار إلى أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانىّ فتنة للشاكّين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاءً لهم ليزدادوا إثماً. ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتاً واستقامة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

« لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى شك وارتياب « وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » وهم العتاة المتمردون «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ» أى خلاف للحق « بَعِيدٍ » عن موافقته جدا ، بسبب ظلمهم وشركهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ له قُلُوبُهُمْ » أى بالانقياد ، والخشية . والضمير للقرآن أو لله تعالى « وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] .

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أى إلى طريق الحق والاستقامة، فلا تزلّ أقدامهم بقبول مايلقى الشيطان ، ولا تقبل قلوبهم إلا مايلقى الرحمن ، لصفائها . هذا هو الصواب فى تفسير الآية . ولها نظائر تظهر المراد منها كما أشرنا إليه ، لو احتاجت إلى نظير . ولكنها بيّنة بنفسها ، غنية عن التطويل فى التأويل ، لولا ما أحوج المحققين إلى ردّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل . ونحن نسوق ماقيل فيها من ذلك ، ثم نتبعه بنقد المحققين ، لئلا يبقى فى نفس الواقف حاجة .

قال ابن جرير الطبرىّ: قيل[1] إن السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه ، فى بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ، مالم ينزل الله عليه. فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به ، فسلّاه الله مما به من ذلك، بهذه الآيات . ثم ذكر من قال ذلك . فأسند عن محمد بن كعب القرظىّ ومحمد بن قيس وغيرهما ؛ أن رسول الله ﷺ جلس فى ناد من أندية قريش ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شىء فينفروا عنه . فأنزل الله عليه[2] (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ[3] (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) ألقى عليه الشيطان كلمتين (تلك الغرانيق العلى * وإن شفاعتهن لترتجى) فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة كلها . فسجد فى آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورضوا بما تكلم به .

قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة . فلما بلغ الكلمتين المذكورتين قال : ما جئتك بهاتين . فحزن رسول الله ﷺ . فأنزل الله تبارك وتعالى عليه يعزيه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ » الآية .

وقال القاضى عياض فى (الشفا) : اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء السابع عشر .

(٢) [٥٣ / النجم / ١و٢] . (٣) [٥٣ / النجم / ١٩و٢٠] .

أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكيّ حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفاسير. وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف بعض نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته . ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب. وأكثر الطرق عنهم فيها ، واهية ضعيفة ، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب (الشك فى الحديث) أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة .

قال أبو بكر البزّار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل ، يجوز ذكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد . وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبيّ ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا . وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيما ذكرناه ، الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبيّ فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره ، لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البزار رحمه الله : والذى منه فى الصحيح ؛ أن النبيّ ﷺ قرأ سورة (والنجم) وهو بمكة . فسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن .

هذا توهينه من طريق النقل .

وأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته عليه السلام ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح غير الله وهو كفر ، أوأن يتسوّر عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ماليس منه ، حتى ينبهه عليه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع فى حقه عليه السلام . أو يقول ذلك النبيّ ﷺ من

قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر . أو سهواً وهو معصوم من هذا كله . ووجه ثان ـ وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفاً . وذلك أن الكلام ، لو كان كما رُوِيَ ، بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف . ولَمَا كان النبيّ ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل . فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟ ووجه ثالث ـ أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين ، نفورهم من أول وهلة ، وتخليط العدوّ على النبيّ ﷺ لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشُّمَّات بهم الفينة بعد الفينة . وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل . ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوه مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردّة . وكذلك ما روى في قصة القضية . ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت . فما روى عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فدل على بطلها ، واجتثاث أصلها . ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن ، على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع ـ ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت(١) ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآيتين . وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذي رووه . لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبّته لكاد يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه ، أن الله تعالى عصمه من أن يفتري ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً ، فكيف كثيراً ؟ وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم . وهذا ضد مفهوم الآية ، ويضعّف الحديث ، لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ وأما المأخذ الثاني فهو مبنيّ على تسليم الحديث ، لو صح . وقد أعاذنا الله من صحته . ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .

أئمة المسلمين بأجوبةٍ منها الغث والسمين . فمنها ما رواه قتادة ومقاتل أن النبي ﷺ أصابته سِنة عند قراءة هذه السورة . فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم . وهذا لا يصح . إذ لا يجوز على النبيّ ﷺ مثله فى حالة من أحواله . ولا يخلقه الله على لسانه ولا يستولى الشيطان عليه فى نوم ولا يقظة ، لعصمته فى هذا الباب من جميع العمد والسهو . وقد قال عليه السلام[1] (إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي). وفى حديث الكلبيّ؛أن النبيّ ﷺحدّث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه . وفى رواية ابن شهاب عن أبى بكر بن عبد الرحمن قال : ومنها لما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان . وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه السلام لا سهواً ولا قصداً . ولا يتقوّله الشيطان على لسانه . وقيل : لعلّ النبيّ ﷺ قاله أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار . كقول إبراهيم[2] (هَٰذَا رَبِّي) على أحد التأويلات . وكقوله[3] (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا) بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين . ثم رجع إلى تلاوته. وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينةٍ تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلوّ . وهو أحد ما ذكره القاضى أبو بكر .

ومما يظهر فى تأويله ، إن سلمنا القصة ، أن يراد بالغرانيق الملائكة . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . فلما تأوّله المشركون على أن المراد بها آلهتهم ، ولبّس عليهم الشيطان ذلك وزينّه فى قلوبهم ، وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين . انتهى كلام القاضى ملخصاً .

وقال أبو بكر الباقلانيّ : وقيل : كان ﷺ يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان فى سكتة

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٦ ـ باب قيام النبيّ ﷺ بالليل فى رمضان وغيره ، حديث رقم ٦٣١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٢٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٧٧] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣] .

من السكتات . ونطق بتلك الكلمات ، محاكياً نغمته ، بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قوله تعالى وأشاعها .

قال : وهذا أحسن الوجوه . ويؤيده ماروى عن ابن عباس من تفسير (تمنى) بـ (تلا) وكذا استحسن ابن العربىّ هذا التأويل . وقال قبله : إن هذه الآية نص فى براءة النبىّ ﷺ مما نسب إليه ، وأن الشيطان زاده فى قوله صلوات الله عليه ، لا أنه عليه السلام قاله .

قال: وقد سبق إلى ذلك الطبرىّ فصوب هذا المعنى وحوّم عليه. واستحسان ابن العربىّ ذلك، على فرض صحة القصة، وإلا فقد قال: ذكر الطبرىّ فى ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها.

وقال تقى الدين بن تيمية(١): فى الآية قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة فى سورة النجم بقوله (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) وقالوا: إن هذا لم يثبت. ومن علم أنه ثبت قال: هذا ألقاه الشيطان فى مسامعهم ، ولم يلفظ به الرسول ﷺ . ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضا .

وقالوا فى قوله (إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ): هو حديث النفس وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف، فقالوا : هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه. وقالوا : الآثار فى تفسير هذه الآية معروفة ثابتة فى كتب التفسير والحديث . والقرآن يوافق ذلك . فإن نسخ الله لما يلقى الشيطان، وإحكامه آياته، إنما يكون لرفع ماوقع فى آياته ، وتمييز الحق عن الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها . وجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، إنما يكون ذلك ظاهراً يسمعه الناس ، لا باطنا فى النفس . والفتنة التى تحصل بهذا النوع من النسخ ، من جنس الفتنة التى تحصل بالنوع الآخر من النسخ . وهذا النوع أدلّ على صدق الرسول ﷺ ، وبعده عن الهوى ، من ذلك النوع . فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله، وهو مصدق فى ذلك ، فإذا قال عن نفسه أن الثانى هو الذى

(١) فى شرح دعوة ذى النون . كذا فى هامش جامع البيان ، صحيفة ٢٩٥ .

من عندالله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذى نسخه الله ليس كذلك ، كان أدل على اعتماده للصدق وقول الحق. وهذا كما قالت عائشة[1] رضى الله عنها: لو كان محمد كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ألا ترى أن الذى يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ . فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان ، هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب . وهذا هو المقصود بالرسالة . فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليما . انتهى .

وفى كلامه رحمه الله نظر من وجوه :

أولا ـ دعواه أن المأثور يوافق القرآن . فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء إلقاء فى الآيات . ولا تدل الآية عليه ، لا مطابقة ولا التزاماً . بل القول بذلك ينافى التنزيل والوحى منافاة النار للماء ، كما ستراه .

وثانيا ـ دعواه أن تلك الرواية نقلها ثابت لا يمكن القدح فيه . فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين . ويكفى أن تلميذه الحافظ ابن كثير قال : قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق. وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركى قريش أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح . وتعداد طرقها ، بعد ضعف أصلها ، لا يفيد . وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات . يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى . والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء . وقد سرت هذه الشبهة للحافظ ابن حجر . فأخذ يقوى بعض طرقها ويصححها من جهة الإسناد . كما ستمر بك مناقشته . ولو كان لها أدنى رائحة من الصحة لأخرجها البخارىّ معلقة أو موقوفة ، أو أرباب السنن .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٩ ـ حدثنا علىّ بن حجر .

وثالثا ـ اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها ، وإلقاء الشيطان ذلك فى مسامعهم، مما يبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول ، كما نبذتها صحة النقول .

فصل .

وقال الفخر الرازىّ فى (تفسيره) : هذه الرواية باطلة موضوعة ، عند أهل التحقيق. واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فوجوه : (أحدها) قوله تعالى[1] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) .

(وثانيها) قوله[2] (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) .

وثالثها ـ قوله[3] (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .

ورابعها ـ قوله تعالى[4] (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) وكلمة (كاد) عند بعضهم معناها أنه لم يحصل .

وخامسها ـ قوله[5] (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) وكلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره . فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل .

وسادسها ـ قوله[6] (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) .

وسابعها ـ قوله[7] (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ) .

وأما السنة فهى ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة ، أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا وضع من الزنادقة . وصنف فيه كتاباً ،

---

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ ـ ٤٦]. (٢) [١٠ / يونس / ١٥] .
(٣) [٥٣ / النجم / ٣و٤] . (٤) [١٧ / الإسراء / ٧٣].
(٥) [١٧ / الإسراء / ٧٤] . (٦) [٢٥ / الفرقان / ٣٢] .
(٧) [٨٧ / الأعلى / ٦] .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقىّ : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. وأيضاً فقد روى البخارىّ[1] فى صحيحه أن النبىّ عليه السلام قرأ سورة (والنجم) وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن. وليس فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق .

وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها ـ أن من جوّز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان ، فقد كفر . لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان فى نفى الأوثان .

وثانيها ـ أنه عليه السلام ما كان يمكنه فى أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له . حتى كانوا ربما مدّوا أيديهم إليه . وإنما كان يصلى ، إذا لم يحضروها ، ليلًا ، أو فى أوقات خلوة . وذلك يبطل قولهم .

وثالثها ـ أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة ، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر . فكيف أجمعوا على أنه عظّم آلهتهم حتى خروا سجدا ؟ مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم .

ورابعها ـ قوله (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ) وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول ، أقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها . فإذا أراد الله إحكام الآيات ، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلًا ، أولى .

وخامسها ـ وهو أقوى الوجوه ، أنا لو جوّزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه. وجوّزنا

---

(١) [أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ٤ ـ باب فاسجدوا لله واعبدوا ، حديث رقم ٥٩٠ .

فى كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك، ويبطل قوله تعالى (يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى ، وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال ، أن هذه القصة موضوعة .

أكثر ما فى الباب أن جمعاً من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة .

ثم أطال الرازىّ فى تفصيل المباحث . ونقل عن أبى مسلم الأصفهانىّ ما توسع به البحث فانظره إن شئت .

فصل .

وكتب الأستاذ الإمام مفتى مصر ، الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فى هذه الآية مقالة بديعة ، نقتبس منها شذرات .

قال : يعلم كل ناظر فى كتابنا الإلهىّ (القرآن) ما رفع الإسلام من شأن الأنبياء والمرسلين ، والمنزلة التى أحلهم من حيث هم حملة الوحى وقدوة البشر ، فى الفضائل وصالح الأعمال . وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه إليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى على أحد من أهل النظر ، فى هذا الدين القويم ، أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل فى التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التى وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل . وخص خاتمهم محمداً ﷺ فوق ذلك بمزايا فصلت فى ثنايا الكتاب العزيز . وعصمة الرسل فى التبليغ عن الله ، أصل من أصول الإسلام . شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق ، فإنما هو فى غير الإخبار عن الله وإبلاغ وحيه إلى خلقه . ذلك الأصل الذى اعتمدت عليه الأديان ، حق لا يرتاب فيه مِلِّىٌّ يفهم ما معنى الدين . ومع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه . أولئك عشاق الرواة

وعبدة النقل. نظروا نظرة فى قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآية وفيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية القراءة) فعمى عليهم وجه التأويل ، على فرض صحة الرواية عن ابن عباس . فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل فى زعمهم . فقيض لهم من يروى فى ذلك أحاديث تختلف طرقها وتتباين ألفاظها وتتفق فى أن النبى ﷺ عندما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ ، وأعرضوا عنه ، وجفاه قومه وعشيرته ، لعيبه أصنامهم وزرايته على آلهتهم ، أخذه الضجر من إعراضهم. ولحرصه على إسلامهم تمنى ألا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم . فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم) إلى آخر ما رواه ابن جرير أولا . وقد شايعه عليه كثير من المفسرين ، وفى طباع الناس إلف الغريب ، والتهافت على العجيب . فولعوا بهذه التفاسير ، ونسوا مارآه جمهور المحققين فى تأويلها . وذهب إليه الأئمة فى بيانها .

جاء فى صحيح البخارى [1] : وقال ابن عباس فى (إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيَّته) . إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال (أمنيته قراءته) (إلَّا أمانىَّ) يقرؤن ولا يكتبون . انتهى .

فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس . وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين . فما يدعيه الشراح أن الحديث فى رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة. ثم حكاية تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده . وسيأتى أن المراد بالحديث حديث النفس .

وقال صاحب الإبريز : إن تفسير (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية) بمعنى (القراءة) مروىّ عن ابن عباس فى نسخة علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . ورواها علىّ بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس . وقد علم ما للناس

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ٢٢ ـ سورة الحج ، فى الترجمة .

فى ابن أبى صالح كاتب الليث ، وأن المحققين على تضعيفه . انتهى .

هذا ما فى الرواية عن ابن عباس وهى أصل هذه الفتنة. وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها. وأما قصة الغرانيق ، فمع ما فيها من الاختلاف، فقد طعن فيها غير واحد من الأئمة، حتى قال ابن إسحق : إنها من وضع الزنادقة . كما تقدم عن الرازى ، ونحوه عن القاضى عياض رحمه الله ، من وهنها وسقوطها من عدة أوجه .

وأما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من طرق على شرط الصحيح ، وأنه يحتج بها من يرى الاحتجاج بالمرسل ، فقد ذهب عليه كما قال فى الإبريز ؛ أن العصمة من العقائد التى يطلب فيها اليقين . فالحديث الذى يريد خرمها ونقضها ، لا يقبل على أى وجه جاء . وقد عدّ الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة ، من الأخبار التى يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؟ وإنما الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به ، فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام، لا فى أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالمرسل وما جاءوا به . فهى هفوة من ابن حجر يغفرها الله له .

هذا ما قاله الأئمة ، جزاهم الله خيراً ، فى بيان فساد هذه القصة ، وأنها لا أصل لها . ولا عبرة برأى من خالفهم. فلا يعتد بذكرها فى بعض كتب التفسير . وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل فى بطله ، لا تنفخ القوة فى قوله . ولا تحمل على الأخذ برأيه .

ثم قال الأستاذ رحمه الله: والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذى تحتملها ألفاظها وتدل عليه عباراتها . والله أعلم :

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية ، وقرأ شيئاً من القرآن ، أن قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)الآيات ، يحكى قدرا قدّر للمرسلين كافة، لا يعدونه ولا يقفون دونه . ويصف شنشنة عرفت فيهم ، وفى أممهم . فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى : أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط فى الوحى المنزل

إليهم . ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ، وهذا من أقبح ما يتصور متصور فى اختصاص الله تعالى لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه! فلندع هذا الهذيان ، ولنعد إلى ما نحن بصدده .

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ، ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد بعد أن قال[1] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ) إلى آخر الآيات ثم قال[2] « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ » الخ ، فالقصص السابق كان فى تكذيب الأمم لأنبيائهم . ثم تبعه الأمر الإلهىّ بأن يقول النبى ﷺ لقومه : إننى لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ، ولأبشر المؤمنين بالنعيم . وأما الذين يسعون فى الآيات والأدلة التى أقيمها على الهدى وطرق السعادة، ليحوّلوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار، ويفسدوا أثرها الذى أقيمت لأجله ، ويعاجزوا بذلك النبىّ ﷺ والمؤمنين ، أى يسابقوهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك . وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها ، كما يقع عادة من أهل الجدل والماحكة ـ هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتُلى به النبىّ ﷺ من المعاجزة فى الآيات ، قد ابتلى به الأنبياء السابقون. فلم يبعث نبى فى أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ، ويضادّون أمانيه ، ويحولون بينه وبين ما يبتغى ، بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً ، يجب أن تفسر الآية . وذلك يكون على وجهين :

الأول ـ أن يكون (تمنَّى) بمعنى (قرأ) و(الأمنية) بمعنى (القراءة) وهو معنى قد يصح . وقد ورد استعمال اللفظ فيه ؛ قال حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

(١) [٢٢ / الحج / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٩ ـ ٥٢] .

تَمَنَّى كِتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وآخِرَه لاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ[(١)]

وقال آخر :

تَمَنَّى كِتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه ، بل على المعنى المفهوم من قولك (ألقيتُ فى حديث فلان) إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ، ولا يكون قد أراده . أو نسبت إليه ما لم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدى إليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل مايصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه . ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا حدّث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل إليه فى هدى لهم ، قام فى وجهه مشاغبون ، يحوّلون ما يتلوه عليهم عن المراد منه . ويتقوّلون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ، ليبعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل . وما زال الأنبياء يصبرون على ما كذّبوا وأوذوا ، ويجاهدون فى الحق ، ولا يعتدّون بتعجيز المعجّزين ، ولا بهزء المستهزئين إلى أى يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة . فينسخ الله تلك الشبه ويجتثها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها . وقد وضع الله هذه السنّة فى الناس ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن الذين فى قلوبهم مرض ، وهم ضعفاء العقول ، بتلك الشبه والوساوس ، فينطلقون وراءها . ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة ، فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها فى جدلهم . ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه ، فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به ، فتخبت وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى

(١) استشهد بهما فى اللسان، بالصفحة رقم ٢٩٤ من المجلد الخامس عشر (طبعة بيروت)

يستقرّ بالعقل فى قرارة اليقين . وبين المغالطات وضروب السفسطة التى تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين . وسواء أرجعت الضمير فى (أنه الحق) إلى ما جاءت به الآيات المحكمات من الهدى الإلهىّ أو إلى القرآن ، وهو أجلّها ، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكين . هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا . وهم الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم . ولم يجعل للوهم عليها سلطانا،فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم . وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب ، أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع، الذين لا تلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون فى ريب فى الحق أو الكتاب . لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون فى متصرفات شئونهم إليه . حتى تأتى ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقوا حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، ومادّهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء العذاب، القتل أوالأسر . ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون إلى مصارع الهلكة . وهذا هو العقم فى أتم معانيه وأشأم درجاته . ما أقرب هذه الآيات فى مغازيها ، إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران[(١)] (هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ) وقد قال بعد ذلك[(٢)] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) ثم قال[(٣)] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) الخ الآيات .

(١) [٣ / آل عمران / ٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٦] .
(٣) [٣ / آل عمران / ١٢] .

وكأن إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون فى العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم . فيقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاديهم إلى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل ، ويشتغلون بقال وقيل بما يلقى إليهم الشيطان ، ويصرفهم عن مرامى البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكثرون عليه من الأموال والأولاد ، لن يغنى عنهم من الله شيئاً . فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم أعمالهم . فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم . فسيغلبون فى هراشهم . وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم أن رفع الله الإنسان إلى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكما لا مدخل لقصة الغرانيق فى آيات آل عمران ، لا مدخل لها فى آيات سورة الحج ، هذا هو الوجه الأول فى تفسير آيات (وَمَا أَرْسَلْنَا) إلى آخرها ، على تقدير أن (تمنّى) بمعنى (قرأ) وأن (الأمنية) بمعنى (القرءاة) والله أعلم .

الوجه الثانى فى تفسير الآيات ـ أن التمنى على معناه المعروف . وكذلك الأمنية . وهى أفعولة بمعنى المُنْية . وجمعها أمانىّ كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيى : التمنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال : والتمنى سؤال الرب . وفى الحديث (إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه) وفى رواية (فليكثر) قال ابن الأثير : (التمنى) تشهِّى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وقال أبو بكر : تمنيت الشىء إذا قدرته وأحببت أن يصير إلىّ . وكل ما قيل فى معنى التمنى على هذا الوجه ، فهو يرجع إلى ما ذكرناه ويتبعه معنى الأمنية . ما أرسل الله من رسول ولا نبىّ ليدعو قوماً إلى هَدْى جديد ، أو شرع سابق شرعه لهم ، و يحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولاً ، أو جاء به غيره إن كان نبيا بُعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه ، إلا وله أمنية فى قومه . وهى أن يتبعوه

وينحازوا إلى ما يدعوهم إليه ، ويستشفوا من دائهم بدوائه ، ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه. وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته . وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه الذى يطعم ، وشرابه الذى يشرب ، وسكنه الذى يسكن إليه . ويغدو عنه ويروح علينا . وقد كان نبينا ﷺ من ذلك فى المقام الأعلى ، والمكان الأسمى . قال الله تعالى[1] : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)وقال[2] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال[3] (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وفى الآيات ما يطول سرده ، مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه ، وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه ، إلى نور ماجاء به . ومامن رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس فى صدور الناس. وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس،فثاروا فى وجهه ، وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه،وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه . فإذا ظهروا عليه ، والدعوة فى بدايتها ، وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار ، ظنوا الحق من جانبهم، وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ماعمد إليه ، فتنة لهم .

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أواسط قومهم ، أو من المستضعفين فيهم ، ليكون العامل فى الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان . وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله . ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله ، أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله . أنصار الباطل فى كل زمان ، هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان ، والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف .

---

(١) [١٨ / الكهف / ٦] . (٢) ١٢ / يوسف / ١٠٣] .
(٣) [١٠ / يونس / ٩٩] .

وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها فى الرؤساء وذوى المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم . فإذا دعا إلى الحق داع ، عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن، وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله، بخلوصها من هذه الشواغل. وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعى وظافروه على دعوته ، قام أولئك المغرورون يقولون[1] (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) فإذا استدرجهم الله على سنته ، وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالاً ، افتتن الذين فى قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر فى دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره . فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها ، وينشىء من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الشيطان هى السفلى[2] (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) وفى حكاية هذه السنة الإلهية التى أقام عليها الأنبياء والمرسلين ، تسلية لنبينا ﷺ عما كان يلاقى من قومه ، ووعد له بأنه سيكمل له دينه ، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع استلفاتهم إلى سيرة من سبقهم[3] (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[4] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

هذا هو التأويل الثانى فى معنى الآية. ويدل عليه ما سبق من الآيات ، ويرشد إلى سياق

---

(١) [١١ / هود / ٢٧ .

(٢) [١٣ / الرعد / ١٧] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٢].

(٤) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

القصص السابق فى قوله(١) (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) الخ. وأنت ترى أن قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح .

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الإبريز . وإنى أنقله بحروفه ، وماهو بالبعيد عن هذا بكثير . قال (بعد ذكر أمانىّ الأنبياء فى أممهم ، وطمعهم فى إيمانهم ، وشأن نبينا ﷺ فى ذلك ، على نحو يقرب مما ذكرناه فى الوجه الثانى) :

ثم إن الأمة تختلف كما قال تعالى(٢) (وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له فى الرسالة، الموجبة لكفره. وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب، وإن كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات إذا تقرر هذا فمعنى (تمنى) أنه يتمنى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبىّ . وإلقاء الشيطان فيها ، يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به . نخرج من هذا أن الوساوس تلقى أولا فى قلوب الفريقين معاً ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين ، وتدوم على الكافرين . انتهى .

وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ماسبقه، تتبين الأحق بالترجيح. ولو صح ماقاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحى وانتقض الاعتماد عليه، كما قاله القاضى البيضاوىّ وغيره . ولكان الكلام فى الناسخ كالكلام فى المنسوخ. يجوز أن يلقى فيه الشيطان مايشاء، ولانهدم أعظم ركن للشرائع الإلٰهية وهو العصمة. ومايقال فى المخرج عن ذلك، ينفر منه الذوق ولا ينظر إليه العقل. على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا فى نظمهم ولا فى خطبهم. ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم. إلا ماجاء فى معجم ياقوت غير مسند

(١) [٢٢ / الحج / ٤٢] . (٢) [٢ / البقرة ٢/٥٣] .

ولامعروف بطريق صحيح وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق. وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت. ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف فى اللغة إلا اسماً لطائر مائىّ أسود أو أبيض. أو هو اسم الكركىّ أو طائر يشبهه. والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل وَسَمَوْأَل وفردوس وقرطاس وعُلَابط) معناه الشاب الأبيض الجميل. وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة (الغرنوق) كما يسمى به ضرب من الشجر. ويطلق الغرنوق والغرانيق على ما يكون فى أصل العوسج اللين النبات. ويقال (لمة غرانقة) و(غرانقية) أى ناعمة تفيئها الريح. أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ. ولا شىء فى هذه المعانى يلائم الآلهة والأصنام، حتى يطلق عليها فى فصيح القول الذى يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام. فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين، ممن لا يميز بين حر الكلام، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام. فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية، عما تقتضيه الدراية[1] (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) . انتهى كلام الأستاذ رحمه الله .

وممن جزم بوضع هذه القصة جزماً باتًّا ، الإمام ابن حزم رحمه الله . حيث قال فى كتابه (الملل فى الرد على من لم يوجب العصمة على الأنبياء ما مثاله : استدلوا بالحديث الكاذب الذى لم يصح قط فى قراءته عليه السلام فى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) وذكروا تلك الزيادة المفتراة التى تشبه مَنْ وَضَعَهَا من قولهم (وإنها لهى الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجى) ثم قال بعد : وأما الحديث الذى فيه (الغرانيق) فكذب بحت موضوع. لأنه لم يصح قط من طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد . وأما قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) الآية ، فلا حجة لهم فيها . لأن الأمانىّ الواقعة فى النفس لا معنى لها . وقد تمنى النبىّ صلى الله عليه وسلم إسلام عمه أبى طالب ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ٨] .

ولم يرد الله عز وجل كون ذلك . فهذه الأمانيّ التي ذكرها الله عز وجل لاسواها ، وحاشا لله أن يتمنى نبيّ معصية . وبالله تعالى التوفيق .

وهذا الذي قلناهو ظاهر الآية دون مزيد تكلف ، ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر وبالله تعالى التوفيق . انتهى ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

«وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» أي في شك وجدال من التنزيل الكريم، لما طبع على قلوبهم «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» أي القيامة « بَغْتَةً » أي فجأة «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » أي يوم لا يوم بعده . كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيما . والمراد به الساعة أيضاً . كأنه قيل (أو يأتيهم عذابها) فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل. أفاده أبو السعود . أي لأنه بمعنى (شديد) لا مثل له في شدته. وتقدم فيما نقلناوجه آخر وهو أن المعنى :لا يزال الذين كفروا في ريب من الحق أو الكتاب ، لا تستقر عقولهم عليه حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، وما دهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة. بل يسلبون ما كان لديهم، ويساقون إلى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

« الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ » أي يوم تزول مريتهم « لِلَّهِ » أي وحده، بحيث لا يكون لأحد تصرف لا حقيقة ولا صورة « يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » أي بالمجازاة، ثم فسر الحكم بقوله تعالى « فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٥٩] (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا » أي في الجهاد « أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا » أي من الجنة ونعيمها « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ »

قال في الإكليل : استدل بقوله تعالى (ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) فَضَالَةُ بن عبيد الأنصاري الصحابي على أن المقتول والميت في سبيل الله سواء في الفضل. أخرجه ابن أبي حاتم وهو رأي قاله جماعة. وخالفه آخرون ففضلوا المقتول. وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (فمن مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأمر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين. واقرءوا ما شئتم (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إلى (حَلِيمٌ)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

« ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ » أى ومن جازى ظالماً بمقدار ظلمه ، ولم يزد فى الاقتصاص منه ، ثم تعدى عليه الظالم ثانياً ، لينصرن الله ذلك المظلوم. وإنما سمى الابتداء بالعقاب، الذى هو الجزاء، للازدواج والمشاكلة. أو لأنه سبب الجزاء وفى قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ » تعريض بالحث على العفو والمغفرة . فإنه تعالى مع كمال قدرته ، لما كان يعفو ويغفر ، فغيره أولى بذلك . وتنبيه على قدرته على النصر . إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده . فظهر سر مطابقة (العفو الغفور) لهذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٦٢] ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى ذلك النصر بسبب أنه قادر . ومن آيات قدرته البالغة ، إيلاج أحد الملوين فى الآخر ، بزيادته فى أحدهما ما ينقص من ساعات الآخر « وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » أى ذلك الصنع الباهر بأنه المعبود الحق الذى لا مثل له ولا ندّ . وأن الذى يدعوه المشركون هو الباطل الذى لا يقدر على صنعة شيء . بل هو المصنوع . أى فتتركون عبادة من منه النفع وبيده الضر ، وتعبدون الباطل الذى لا تنفعكم عبادته . وأن الله هو ذو العلوّ على كل شيء ، والعظيم الذى كل شيء

دون عظمته ، فلا أعلى منه ولا أكبر . ثم أشار إلى آية من آيات صنعه الباهر ، تقريرا لألوهيته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[٦٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

[٦٥] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » أي جعلها معدّة لمنافعكم « وَالْفُلْكَ » أي وسخر لكم البحر، حتى أن الفلك « تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » أي بتيسيره لمنافعكم «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أي بمشيئته وقدرته. أي ما يمسكها ويحفظها إلا ذلك ، رحمة بكم ، فاشكروا آلاءه وحده « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أي في آلائه وآياته المذكورة ، وما أبان فيها من طرق الاستدلال على وحدانيته ، لا إله إلا هو . وكذلك من آيات ألوهيته ما تضمنه قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

« وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » أى جحود للنعم ، بعبادة غير بارئها . أو إشراكه معه ، مع أنه هو الخالق لكل ذلك ، والقادر عليه ، وغيره لا يملك شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا » أى وضعنا « مَنْسَكًا » أى شريعة ومتعبداً « هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ » أى فى ذلك الجعل والوضع والحوار فى تنوعه فى كل أمة ، وعدم وحدته . أو فى أمر ما جئتهم به ، زعماً بأنه يستغنى عنه بما شرع قبله . لأنه جهل بحكمته تعالى فى تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمنها ومكانها ، وحياتها ومنشئها . ولذلك كانت هذه الشريعة أهدى الشرائع للامتنان بها ، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه « وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ » أى اثبت على دينك ثباتاً لايطمعون أن يخدعوك عنه . أو معناه : ثابر على الدعوة إلى ماأمرت به . فلا تضرك منازعتهم . وعلى الكل اتباعك وعدم مخالفتك ، لاستقرار الأمر على شرعتك . لأنها الطريق القويم .

هذا، وقال ابن جرير[١]: أصل المنسك فى كلام العرب، الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل ويألفه ، لخير أو شر . يقال (إن لفلان منسكاً يعتاده) يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شر. وقد اختلف أهل التأويل فى معنى (النسك) هنا ، فقيل : عيداً . وقيل : إراقة الدم (ثم استظهر) أن المعنى إراقة الدم أيام النحر بمنى . لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ ، كانت إراقة الدم فى هذه الأيام، أى فلا ينازعك هؤلاء المشركون فى ذبحك ومنسكك بقولهم (أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التى قتلها الله) ؟ انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٨ من الجزء السابع عشر .

وعليه ، فيكون المراد بالجعل فى قوله تعالى (جَعَلْنَا) الجعل القدريّ لا التشريعيّ . كما قال(١) (وَلِـكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) أى هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته. فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق . وهذا كقوله تعالى(٢) (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ » أشار له ابن كثير . ونقل الرازيّ عن ابن عباس ، فى رواية عطاء ، أن المراد بالمنسك الشريعة والمنهاج . قال : وهو اختيار القفال ، لقوله تعالى(٣) (لِـكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْـكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) وهو الذى آثرناه أولاً لظهوره فيه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[٦٩] (اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

[٧٠] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ)

[٧١] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

« وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى من أمر الدين « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً » أى حجة « وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ » أى من ضرورة العقل أو استدلاله « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » أى يدفع عنهم ما يراد بهم .

---

(١) [٢ / البقرة / ٤٨] . (٢) [٢٨ / القصص/٨٧] . (٣) [٥ / المائدة / ٤٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[٧٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

[٧٤] (مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ » أى حال كونها واضحة الدلالة على حقيتها وما تضمنته « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ » أى الإنكار أو الفظيع من التجهم والبسور . أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله « يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا » أى يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب . قال فى (فتح البيان) : وكذلك أهل البدع المضلة ، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليه ، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة ، مخالفاً لما اعتقده من الباطل ، رأيت فى وجهه من المنكر ، مالو تمكن من أن يسطو بذلك لفعل به مالا يفعله بالمشركين والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذاهو زاهق « قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ « أى بُيِّنَ » « مَثَلٌ » أى حال مستغرب « فَاسْتَمِعُوا لَهُ » أى تدبروه حق تدبره . فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » يعنى الأصنام « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » أى لخلقه متعاونين . وتخصيصه الذباب ، لمهانته

وضعفه واستقذاره . وهذا من أبلغ ما أنزل فى تجهيل المشركين. حيث وصفوا بالإلهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ، صوراً وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ماخلقه الله تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا لذلك « وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » أى هـذا الخلق الأقل الأذل ، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه،لم يقدروا « ضَعُفَ الطَّالِبُ » أى الصنم يطلب ماسلب منه « وَالْمَطْلُوبُ » أى الذباب بما سلب . وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف . فإن الذباب حيوان وهو جماد . وهو غالب وذلك مغلوب . وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم ، وبالمطلوب معبوده . قيل : وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم . فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل . واختار الوجه الأول الزمخشرىّ . لما فيه من التهكم، بجعل الصنم طالباً على الفرض تهكماً . وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجماد ، وذاك حيوان بخلافه .

وهذه الجملة التذييلية إخبار أو تعجب . وقوله تعالى « مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى ما عرفوه حق معرفته ، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه « إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » أى قادر وغالب . فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به . أو لقوىّ بنصر أوليائه ، عزيز ينتقم من أعدائه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٥] (اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٧٦] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« اللهُ يَصْطَفِى » أن يختار « مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ » أى فلا نكران لاصطفائه من البشر من شاء لرسالته . ولا وجه لقولهم(١) : (أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » قال

(١) [٣٨ / ص / ٨] .

أبوالسعود : كأنه تعالى . لما قرر وحدانيته ، فى الألوهية ، ونفى أن يشاركه فيها شىء من الأشياء بيّن أن له عباداً مصطفيْن للرسالة ، يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم ، إلى عبادته عز وجل . وتقدمه بنحوه البيضاوىّ « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى ما عملوه وما سيعملونه « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى لأنه مالكها . فلا يسئل عما يفعل، من الاصطفاء وغيره ، وهم يسألون.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [سجدة]

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » أى صلّوا . وعبر عن الصلاة بهما ، لأنهما أعظم أركانها . أو اخضعوا له تعالى، وخروا له سجداً، لا لغيره « وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ » أى تحرّوه . كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والحض على الإطعام والاتصاف بمكارم الأخلاق « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

تنبيهات

الأول لم يختلف العلماء فى السجدة الأولى من هذه السورة . واختلفوا فى السجدة الثانية ـ هذه ـ فروى عن عمر وعلىّ وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبى الدرداء وأبى موسى ؛ أنهم قالوا: فى الحج سجدتان . وبه قال ابن المبارك والشافعىّ وأحمد وإسحاق، يدل عليه ما روى[1] عن عقبة ابن عامر قال. قلت يارسول الله أفى الحج سجدتان ؟ قال: نعم

(١) أخرجه أبو داود فى: ٧ـ كتاب سجود القرآن ، ١ـ باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة فى القرآن ، حديث رقم ١٤٠٢ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٥٤ ـ باب ما جاء فى السجدة فى الحج ،

ومن لم يسجدها فلا يقرأها . أخرجه الترمذيّ وأبو داود . وعن عمر بن الخطاب[1] أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال : إن هذه السورة فضلت بسجدتين . أخرجه مالك فى (الموطأ) وذهب قوم إلى أن فى الحج سجدة واحدة ، وهى الأولى ، وليست هذه بسجدة . وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوريّ وأبى حنيفة ومالك . بدليل أنه قرن السجود بالركوع . فدل ذلك أنها سجدة صلاة ، لا سجدة تلاوة ـ كذا فى (لباب التأويل) أى لأن المعهود فى مثله من كل آية ، قرن الأمر بالسجود فيها بالركوع ، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة ، بالاستقراء نحو[2] (وَاسْجُدِي وَارْكَعِي) وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال .

وما روى من الحديث المذكور ، قال الترمذيّ رحمه الله : إسناده ليس بالقويّ . وكذا قال غيره . كما فى (شرح الهداية) لابن الهمام .

قال الخفاجيّ : لكن يرد عليه ما فى (الكشف) أن الحق أن السجود حيث ثبت ، ليس من مقتضى خصوص فى تلك الآية . لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة . بل إنما ذلك بفعل رسول الله ﷺ أو قوله . فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة . ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها ، لما ثبت من الرواية فيه . اهـ .

الثانى ـ قال فى (اللباب) اختلف العلماء فى عدّة سجود التلاوة . فذهب الشافعيّ وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة . لكن الشافعيّ قال : فى الحج سجدتان . وأسقط سجدة (ص) . وقال أبو حنيفة : فى الحج سجدة . وأثبت سجدة (ص) . وبه قال أحمد ، فى إحدى الروايتين عنه . فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة . وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود . يروى ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس . وبه قال مالك .

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ١٥ ـ باب الأمر بالوضوء لمن مسّ القرآن ، حديث رقم ١٣ (طبعتنا) . (٢) [٣ / آل عمران / ٤٣] .

فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة . يدل عليه ماروى عن أبي الدرداء(١) ؛ أن النبيّ ﷺ قال : فى القرآن إحدى عشرة سجدة . أخرجه أبو داود وقال : إسناده واه .

ودليل من قال (فى القرآن خمس عشرة سجدة) ما روى عن عمرو بن العاص قال : أقرأنى رسول الله ﷺ فى القرآن خمس عشرة سجدة . منها ثلاث فى المفصل . وفى سورة الحج سجدتان . أخرجه أبو داود(٢) . وصح من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (اقرأ) و (إذا السماء انشقت) أخرجه مسلم (٣) . انتهى .

والخمس عشرة : فى الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، والحج ، والفرقان ، والنمل ، والم تنزيل ، وص ، وحم ، السجدة ، والنجم ، والانشقاق ، واقرأ .

والمفصل من سورة الحجرات إلى آخر القرآن ، فى أصح الأقوال . سمى مفصلا لكثرة الفصل بين سورة .

الثالث سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع . وبه قال مالك والشافعيّ وأحمد . لقول ابن عمر : كان النبيّ ﷺ يقرأ علينا السورة فيهاالسجدة ، فيسجد ونسجد معه، حتىما يجد أحدنا موضعاً لجبهته . رواه الشيخان (٤) .

(١) أخرجه الترمذىّ (لا أبو داود) فى : ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٤٧ ـ باب ما جاء فى سجود القرآن .

(٢) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب السجود ، ١ ـ باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدة فى القرآن ، حديث رقم ١٤٠١ .

(٣) أخرجه الترمذىّ (لا مسلم) فى : ٤ ـ كتاب الجمعة ، ٥٠ ـ باب ما جاء فى السجدة فى (اقرأ باسم ربك الذى خلق) و (إذا السماء انشقت) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ٨ ـ باب من سجد لسجود القارئ ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٣ (طبعتنا) .

وقال عمر [١] : إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء. رواه البخاريّ. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ » عامٌّ في جهاد الكفار والظلمة والنفس . و (حق) منصوب على المصدرية . والأصل (جهاداً فيه حقا) فعكس، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة ، ليدل على أن المطلوب القيام بمواجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة . وعن الرضيّ : إن (كلّ) و (جدّ) و (حقّ) إذا وقعت تابعة لاسم جنس ، مضافة لمثل متبوعها لفظاً ومعنى ، نحو (أنت عالم كلّ عالم) أو (جدّ عالم) أو (حق عالم) أفادت أنه تجمع فيه من الخلال ما تفرّق في الكل . وأن ما سواه باطل أو هزل . وقوله تعالى « هُوَ اجْتَبَاكُمْ » أي اختاركم لدينه ولنصرته . وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعي إليه . لأن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته . وهي بما ذكر . ولأن من قرّبه العظيمُ ، يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه ، بترك ما لا يرضاه . « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » أي في جميع أمور الدين من ضيق ، بتكليف ما يشق القيام به . كما كان على من قبلنا . فالتعريف في (الدين)

(١) أخرجه البخاريّ في : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ١٠ ـ باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ، حديث رقم ٥٩٣ ونصه :«يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود ، فمن سجد فقد أصاب . ومن لم يسجد فلا إثم عليه » .

للاستغراق . قال فى (الإكليل) : هذا أصل القاعدة (المشقة تجلب التيسير) « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » منصوب على المصدرية ، بفعل دل عليه ما قبله من نفى الحرج . بعد حذف مضاف أى وسع دينكم توسيع ملة أبيكم إبراهيم . أو على الإغراء بتقدير (اتبعوا أو الزموا) أو الاختصاص بتقدير (أعنى) ونحوه . أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله . فيكون مجروراً بالفتح ، أفاده الشهاب. قال القاضى ؛ وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ ، وهو كالأب لأمته ، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية . أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته . فغلبوا على غيرهم .

وقال القاشانىّ : معنى أبوّته كونه مقدماً فى التوحيد ، مفيضاً على كل موحد ، فكلهم من أولاده . وقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل نزول القرآن فى الكتب المتقدمة . والجملة مستأنفة . وقيل : إنها كالبدل من قوله (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) ولذا لم يعطف « وَفِي هَٰذَا » أى القرآن . أى فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم وقيل : الضمير لـ (إبراهيم) عليه السلام .

قال القاضى : وتسميتهم بـ (مسلمين) فى القرآن ، وإن لم يكن منه ، كان بسبب تسميته من قبل ، فى قوله (١) (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) أى لدخول أكثرهم فى الذرية . فجعل مسمياً لهم مجازاً . « لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ) أى بأنه قد بلغكم رسالات ربكم « وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » أى بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ » أى : وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ، فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وثقوا به ، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٣ — سورة المؤمنون

سميت بهم لاشتمالها على جلائل أوصافهم ونتائجها، فى أولها وفى قوله [١] (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) إلى قوله (سَابِقُونَ) أفاده المهايمىّ. وهى مكية. واستثنى بعضهم منها آية [٢] (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ) إلى قوله (مُبْلِسُونَ) وآيها مائة وثمانى عشرة. وقد روى الإمام أحمد ومسلم [٣] وغيرهما عن عبد الله بن السائب قال : صلى النبىّ ﷺ بمكة الصبح . فاستفتح سورة المؤمنين . حتى إذا جاء ذكر موسى وهرون ، أو ذكر عيسى ، أخذته سعلة فركع .

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٧] . (٢) ٢٣ / المؤمنون / ٦٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

وأخرجه البخارىّ تعليقا فى ١٠ ـ كتاب الأذان، ١٠٦ ـ باب الجمع بين السورتين فى الركعة

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة، حديث رقم ١٦٣ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

[٢] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[٣] (وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[٤] (وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ)

[٥] (وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

[٦] (إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[٧] (فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ)

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » أى دخلوا فى الفوز الأعظم «الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» أى متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ » . أى عن الفضول وما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، معرضون فى عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد « وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ » أى للتجرد عن رذيلة البخل .

قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذى فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع فى أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» لأنه الحق المأذون فيه

« فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » أى الكاملون فى العدوان المرتكبون له على أنفسهم .

تنبيهات :

الأول ـ دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من الملومين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع فى اللوم . فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضّه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فينبغى للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فمنها يدخل عليه العدوّ ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيراً .

الثانى ـ روى عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى . واحتج بحديث عبدالله[1] بن مسعود أنه قال : يارسول الله أىّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك . قال قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . والنبىّ ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب تفسير القرآن ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٣ ـ باب قوله تعالى : لا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، حديث ١٩٦٢ .

فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نِدًّا. وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى أن يزنى بحليلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق . فالزنى بالمرأة التى لها زوج ، أعظم إثمًا وعقوبة من الزنى بالتى لا زوج لها . إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثمًا وجرمًا من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق. وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه[(١)] . ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان الجار أخا له ، أو قريبًا من أقاربه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائبًا فى طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تضاعف الإثم. فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها . فإن اتفق أن يكون الزانى محصنًا ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخًا كان أعظم إثمًا وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم

وعلى هذا ، فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الإثم والعقوبة. والله المستعان .

الثالث ـ أجمع المسلمون على أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره . ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى[(٢)] (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) وقاس ذلك على أمته المملوكة ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد. فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره ، فى الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم فى (الجواب الكافى) . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٣٩ ـ باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، حديث رقم ٢٣٢٦ ، عن أبى شُرَيْح .(٢)[٦ / الأنعام/ ٢٣] و [٧٠/المعارج/٣٠]

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٩] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[١٠] (أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ)

[١١] (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » أى قائمون عليها بحفظها وإصلاحها . والآية تحتمل العموم فى كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا ، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم. ولذا عدت الخيانة فى الأمانة من آيات النفاق فى الحديث المشهور[1] « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى يحافظون عليها. وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها فى أوقاتها ، ويقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أوصافها. وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولا. فإن الخشوع فى الصلاة، غير المحافظة عليها . وتقديم الخشوع اهتماماً به . حتى كأن الصلاة ، لايعتد بها بدونه ، أو لعموم هذا له . وفى تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة ، تعظيم لشأنها « أُولَٰئِكَ » أى الجامعون لهذه الأوصاوف «هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ» أى الجنة «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» أى لا يخرجون منها أبداً .

ثم أشار تعالى إلى مبدإ خلقه الإنسان وتقليبه فى أطوار شتى ، حتى نما كاملاً ، وإلى ما خلقه من عالم السماء والأرض ، وسخره لمنافعه ، ليشكر مولاه ويعبده ، كما أمره وهداه ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ)

[١٣] (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ » أى ابتدأنا خلقه « مِنْ سُلَالَةٍ » أى خلاصة « مِنْ طِينٍ » أى تراب خاط بماء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً » أى بأن خلقناه منها . أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية « فِي قَرَارٍ » أى مستقر ، وهو رحم المرأة الذى نقل إليه « مَكِينٍ » أى متمكن لا يمجّ ما فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

« ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً » أى بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدم الجامد « فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً » أى قطعة لحم بقدر ما يمضغ « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً » أى بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئات وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة « فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً » أى جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ » أى بتمييز أعضائه وتصويره ، وجعله فى أحسن تقويم « فَتَبَارَكَ اللَّهُ » أى تعاظم قدرة وحكمة وتصرفاً « أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » أى المقدّرين . فـ (الخلق) بمعنى التقدير كقوله(١) :

وَلَأَنْتَ تَفْرِى ما خلقتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

(١) قائله زهير بن أبى سلمى من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بقُنَّـةِ الْحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ

يمدح هَرِمَ بن سنان .

لا بمعنى الإيجاد . إذ لا خالق غيره ، إلا أن يكون على الفرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ)

[١٦] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)

[١٧] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكمالات « لَمَيِّتُونَ » أى لصائرون إلى الموت .

قال المهايمىّ : والحكيم لا يتلف ما استكمله بأنواع التكميل ، ولذلك سيبعثه كما قال « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » أى من قبوركم للحساب والمجازاة « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ » أى سبع سمٰوات هى طرق للملائكة والكواكب فيها مسيرها .

قال بعض علماء الفلك (فى تفسير هذه الآية) : أى سبعة أفلاك ، للسبع سموات ، لكل سماء طريق تجرى بما معها من الأقمار . قال: فبذلك دلنا الله سبحانه بأن العالم الشمسىّ ينقسم إلى سبع طرائق ، خلاف طريق الأرض الذى يعيّنه قوله تعالى (فَوْقَكُمْ) فالمسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريباً ، إلى منتهى فلك نبتون ، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار . كل قسم تجرى فيه سماء بما معها . ويسمى هذا الطريق فلكاً . اهـ . « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » أى عن ذلك المخلوق ، الذى هو السمٰوات ، أو جميع المخلوقات . فالتعريف على الأول ، عهدىّ . وعلى الثانى استغراقىّ . أى ما كنا مهملين أمر الخلق، بل نحفظه وندبر أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال، حسبما اقتضته الحكمة ، وتعلقت به المشيئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم « فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » أى جعلناه قارًّا فيها ، يتفجر من الأماكن التى أراد سبحانه إحياءها كقوله[1] (فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ) « وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » أى إزالته بالتغوير وبغيره ، كما قدرنا على إنزاله . ففى تنكير (ذهاب) إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة فى الإبعاد به .

قال الزمخشرىّ : فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ، ويقيّدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها ، إذا لم تشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٠] (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

« فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا » أى فى الجنات « فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً » بالنصب عطف على (جنات) وقرئت مرفوعة على الابتداء . أى ومما أنشىء لكم شجرة « تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ » وهو جبل بفلسطين ، أو بين مصر وأيلة (بفتح الهمزة) محل معروف يسمى اليوم (العقبة) وهو على مراحل من مصر . قاله الشهاب و (الشجرة) شجرة الزيتون ، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها . أو لكثرتها فيه

(١) [٢٩ / الزمر / ٢١] .

« تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ » أى ملتبسة بالدهن المستصبح به « وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ » أى وبإدام يغمس فيه الخبز فـ (الصبغ) كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام . ويختص بكل إدام مائع ، يقال (صبغ اللقمة : دهنها وغمسها) وكل ما غمس فقد صبغ . كذا فى (المصباح) و (التاج) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٢] (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً » أى تعتبرون بحالها وتستدلون بها « نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا » أى من الألبان « وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ » أى فى ظهورها وأصوافها وشعورها ونتاجها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » أى بخلقه وتسخيره وإلهامه . فله الحمد .

قال الزمخشرىّ : والقصد بالأنعام أى الإبل ، لأنها هى المحمول عليها فى العادة . وقرنها بالفلك التى هى السفائن ، لأنها سفائن البر .

قال ذو الرمة :

* سفينةُ بَرٍّ تحت خَدِّى زِمامُها *

قال الشهاب : وجعلُ الإبل سفائن البر معروف مشهور . وهى استعارة لطيفة . وقد تصرفوا فيها تصرفات بديعة . كقول بعض المتأخرين :

لِمَنْ شجرٌ قد أثقلَتْها ثمارُها ... سفائنُ بَرٍّ والسَّرابُ بحارُها

ولما بيّن تعالى دلائل التوحيد ، تأثره بقصص بعثة الرسل لعلوّ كلمته ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[٢٤] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

[٢٥] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا » أى الداعى إلى عبادة الله وحده ، بدعوى الرسالة منه « إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » أى أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم ، كقوله تعالى(١) (وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ) « وَلَوْ شَاءَ اللهُ » أى إرسال رسول «لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » أى من السماء « مَاسَمِعْنَا بِهَٰذَا » أى بمثل ما يدعو إليه « فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ » أى لعله يرجع أو يفيق من جنته أو يتمادى فنكيد له . قال الرازىّ : واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عن شبههم هذه الخمسة ، لركاكتها ووضوح فسادها . وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولًا إلا لأنه من جنس الملك . وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات . فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر ، فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولًا . بل جعلُ الرسول من جملة البشر أولى . لما مرّ بيانه فى السور المتقدمة . وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة . وأما قولهم (يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ

(١) [١٠ / يونس / ٧٨] .

عَلَيْكُمْ) فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله ، حتى يلزمهم الانقياد لطاعته ، فهذا واجب على الرسول . وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد ، فالأنبياء منزّهون عن ذلك . وأما قولهم (مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا) فهو استدلال بعدم التقليد ، على عدم وجود الشيء . وهو في غاية السقوط . لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء . فعدمه من أين يدل على عدمه ؟ وأما قولهم (بِهِ جِنَّةٌ) فقد كذبوا . لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله . وأما قولهم (فَتَرَبَّصُوا بِهِ) فضعيف . لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوّته وهي المعجزة ، وجب عليهم قبول قوله في الحال ، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته . لأن الدولة لا تدل على الحقيقة . وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله ، سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر . ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور ، لا جرم تركها الله سبحانه . انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

[٢٧] (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

[٢٨] (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٩] (وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

[٣٠] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

« قَالَ » أي بعد ما أيس من إيمانهم « رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا » أى ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا ، لاتلحقها آفة ولا يعترضها نقص. عبر بكثرة آلة الحس التى بها يحفظ الشيء ، ويراعى من الاختلال والزيغ ، عن المبالغة فى الحفظ والرعاية ، على طريق التمثيل ، وقيل : المعنى بمرأى منا ومشهد فى حفظنا وكلاءتنا. بناء على أن المراد بالعين البصر ، وأنه يسمى البصر عينا لأجل أنه مما يتعلق به ويقوم به . من باب تسمية الشيء باسم محله . وباسم ما هو قائم به .

قال الإمام ابن فورك فى (متشابه الحديث) ـ بعد حكاية نحو ما تقدم ـ : وقد اختلف أصحابنا فيما يثبت لله عز وجل من الوصف له بالعين . فمنهم من قال : إن المراد به البصر والرؤية . ومنهم من قال : إن طريق إثباتها صفة لله تعالى بالسمع . وسبيل القول فيها كسبيل القول فى اليد والوجه . انتهى .

ومذهب السلف ؛ أن الصفات يحتذى فيها حذو الذات . فكما أنها منزهة عن التشبيه والتمثيل والتكييف ، فكذلك الصفات إثباتها منزه عن ذلك وعن التحريف والتأويل . وقوله تعالى « وَوَحْيِنَا » أى أمرنا وتعليمنا كيف تصنع « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا « وَفَارَ التَّنُّورُ » كناية عن الشدة . كقولهم (حمى الوطيس) . و (التنور) كانون الخبز حقيقة . وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء ، للآية مجازاً « فَاسْلُكْ فِيهَا » أى فأدخل فى الفلك « مِنْ كُلٍّ » أى من كل أمة « زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى فى الدعاء لهم بالنجاة ، عندمشاهدة هلاكهم « إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » أى فى بحر الهلاك ، كما غرقوا فى بحر الضلال وظلمهم أنفسهم ، بعد أن أملى لهم الدهر المتطاول « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي » أى فى السفينة أو منها « مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى لمن أنزلته منزل قربك « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما فعل بنوح وقومه « لَآيَاتٍ » أى يستدل بها ويعتبر أولو الأبصار « وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ »

أي مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويدّكر . كقوله تعالى[1] ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ و (إن) مخففة على الأصح ـ وقيل نافية . واللام بمعنى (إلا) والجملة حالية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » هم عاد أو ثمود . قال الشهاب : ليس في الآية تعيين لهؤلاء . لكن الأول مأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما . وأيده في (الكشف) بمجيء قصتهم بعد قصة نوح في سورة الأعراف وهود وغيرها . وعليه أكثر المفسرين . ومن ذهب إلى أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام، استدل بذكر الصيحة لأنهم هم المهلكون بها. كما صرح به في هذه السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

[٣٣] ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾

[٣٤] ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

[٣٥] ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾

(١) [٥٤ / القمر / ١٥] .

[٣٦] (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

[٣٧] (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

[٣٨] (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)

[٣٩] (قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

[٤٠] (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

[٤١] (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ » أي نعّمناهم « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » أي لعزة أنفسكم ، بالتذلل لمثلكم « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ » أي من الأجداث أحياء كما كنتم « هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ » تكرير لتأكيد البعد. أي بَعُدَ الوقوعُ أو الصحةُ لما توعدون من البعث « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا » أي يموت بعض ويولد بعض . لينقرض قرن ويأتي قرن آخر . « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » أي العقوبة الهائلة ، أو صيحة ملك « بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً » أي كغثاء السيل « فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أي هلاكا لهم . إخبار أو دعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ)

[٤٣] (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

[٤٤] (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٥] (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى وقتها الذى عين لهلاكها « وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى » أى متواترين ، واحداً بعد واحد « كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا » أى فى الإهلاك « وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » أى أخباراً يُسمر بها ويُتعجب منها . يعنى أنهم فنوا ولم يبق إلا خبرهم ، إن خيراً وإن شرًّا .

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

« فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ » أى حجة واضحة ملزمة للخصم . والمراد به الآيات نفسها . عبر عنها بذلك على طريقة العطف ، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ)

[٤٧] (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

[٤٨] (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا » أى عن الانقياد وإرسال بنى إسرائيل مع موسى لأرض كنعان ، وتحريرهم من تلك العبودية لهم « وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ » أى متمردين « فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » أى المغرقين فى البحر .

فائدة :

قال الزمخشرى : البشر يكون واحداً وجمعاً[1] (بَشَرًا سَوِيًّا)[2] (لِبَشَرَيْنِ) (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ)[3] و (مثل) و(غير) يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ)[4] (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)[5] ويقال أيضاً : هما مثلاه وهم أمثاله[6] (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

[٥٠] (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « لَعَلَّهُمْ » أى قومه « يَهْتَدُونَ » أى إلى طريق الحق ، بما فيها من الشرائع والأحكام « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » أى دلالة على قدرتنا الباهرة . لأنها ولدته من دون مسيس . فالآية أمر واحد نسب إليهما . أو المعنى: وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق ، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها « وَآوَيْنَاهُمَا » أى جعلنا مأواهما أى منزلهما « إِلَىٰ رَبْوَةٍ » أى أرض مرتفعة « ذَاتِ قَرَارٍ » أى مستقر من أرض منبسطة مستوية . وعن قتادة: ذات ثمار

---

(١) [١٩ / مريم / ١٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٤٧] .
(٣) [١٩ / مريم / ٢٦] . (٤) [٤ / النساء / ١٤٠] .
(٥) [٦٥ / الطلاق / ١٢] . (٦) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

وماء . يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها « وَمَعِينٍ » أى وماء معين ظاهر جارٍ . من (معن الماء إذا جرى) أو مدرك بالعين (من عانه) إذا أدركه بعينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » نداء وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كلٍّ وعهده . فدخل فيه عيسى دخولاً أوليًّا . أو يكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة . وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم . واحتجاجاً على الرهابنة فى رفض الطيبات . وقوله (وَاعْمَلُوا صَالِحاً) أى عملاً صالحاً . فإنه الذى به سعادة الدارين . وقوله (إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) أى ذو علم لا يخفى علىّ منها شىء . فأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا فى صالحات الأعمال واجتهدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٢] (وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

« وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ » أى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها « أُمَّةً وَاحِدَةً » أى ملة واحدة ، وهى شريعة الإسلام . إسلام الوجه لله تعالى بعبادته وحده . كقوله(١) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ (فالأمة) هنا بمعنى الملة والدين « وَأَنَا رَبُّكُمْ » أى من غير شريك « فَاتَّقُونِ » أى فخافوا عقابى ، فى مفارقة الدين والجماعة . قيل : إنه اختير على قوله (فَاعْبُدُونِ) الواقع فى سورة الأنبياء ، لأنه أبلغ فى التخويف لذكره بعد إهلاك الأمم ، بخلاف ما ثمة . وهذا بناء على أنه تذييل للقصص السابقة ، أولقصة

(١) [٣ / آل عمران / ١٩] .

عيسى عليه الصلاة والسلام ، لا ابتداء كلام . فإنه حينئذ لا يفيده . إلا أن يراد أنه وقع فى الحكاية لهذه المناسبة . كذا فى (العناية) .

ثم قص ما وقع من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٣] (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

[٥٤] (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً » أى جعلوا دينهم بينهم قطعاً وفرقاً منوعة « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ، فرح بباطله ، مطمئن النفس ، معتقد أنه على الحق « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ » أى فى جهالتهم ، ومشيهم مع هواهم ، ونبذهم كتاب الله « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى وقت يستفيقون فيه من سباتهم ، بظهور دين الله وعلو كلمته وهزم عدوه . وشبه جهالتهم بالماء الذى يغمر القامة ، لأنهم مغمورون فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ)

[٥٦] (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ » أى نعطيهم إياه ، ونجعله مدداً لهم « مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » أى كلّا . لا نفعل ذلك . بل هم لا يشعرون أصلًا . كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ، ليتأمّلوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الإثم . وهم يحسبونه معاجلة فيما لهم فيه إكرام . ثم بين سبحانه من له المسارعة فى الخيرات من أوليائه وعباده ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٧] (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

[٥٩] (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ)

[٦٠] (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

[٦١] (أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » أى من خوف عذابه حذرون « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ » أى شركاً جلياً ، ولا خفياً « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءَاتَوْا » أى يعطون ما أعطوه من الصدقات « وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ » أى خائفة « أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » أى من رجوعهم إليه تعالى ، فتخشى أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق ، أو غفلت عنه من الآدب « أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » أى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة . كما فى قوله تعالى[(١)] « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » وقوله تعالى[(٢)] (وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) فقد أثبت لهم مانفى عن أضدادهم ، خلا أنه غيّر الأسلوب ، حيث لم يقل (أُولَٰئِكَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ) بل أسند المسارعة إليهم ، إيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم . وإيثار كلمة (فى) على كلمة (إلى) للإيذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات . لا أنهم خارجون عنها ، متوجهون إليها ، بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى[(٣)] (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ..) الآية أفاده أبو السعود.

(١) [٣/آل عمران/١٤٨] . (٢) [٢٩/العنكبوت/٢٧] . (٣) [٣/آل عمران/١٣٣] .

« وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » أى إياها سابقون . أى ينالونها قبل الآخرة ، حيث عجلت لهم فى الدنيا ، فتكون اللام لتقوية العمل . كما فى قوله تعالى(١) (هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) وقيل : المراد (بِالْخَيْرَاتِ) الطاعات . والمعنى : يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة . وهم لأجلها فاعلون السبق ، أو لأجلها سابقون الناس ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[٦٣] (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا » جملة مستأنفة ، سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة . أى سنتنا جارية على ألا نكلف نفساً من النفوس إلا ما فى وسعها . أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم . فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم ، أفاده أبو السعود .

« وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ » وهو كتاب الأعمال . كقوله تعالى(٢) (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا » أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين « وَلَهُمْ أَعْمَالٌ » أى سيئة كثيرة « مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ » أى الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم « هُمْ لَهَا عَامِلُونَ » أى معتادون لا يزايلونها .

(١) [٢٣ / المؤمنون/٦٣] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] .

تنبيه :

أغرب الإمام أبو مسلم الأصفهانى فيما نقله عنه الرازى ، فذهب إلى أن قوله تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا . . .) إلى آخر الآية ، من تتمة صفات المؤمنين المشفقين . كأنه سبحانه قال بعد وصفهم (ولا نكلف نفساً إلا وسعها) ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون، ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ، (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) هو أيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال : وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين فى جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ، ولهم أعمال من دون ذلك . أى لهم أيضاً من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه. إما أعمالاً قد عملوها فى الماضى أو سيعملونها فى المستقبل . ثم إنه تعالى رجع .

قال الرازى وقول أبى مسلم أولى لأنه إذا أمكن ردّ الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين ، كان أولى من رده إلى ما بعد منه . وقد يوصف المرء لشدة فكره فى أمر آخرته ، بأن قلبه فى غمرة ، ويراد أنه قد استولى عليه الفكر فى قبول عمله أو ردّه ، وفى أنه هل أداه كما يجب أو قصر . انتهى .

وبعدُ فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك . ولكن لم يرد وصف الغمرة فى حق المؤمنين أصلاً بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين . كما تراه فى الآيات أولاً . فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات ، يأبى ما أغرب به أبو مسلم أشد الإباء . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ » أى متنعميهم « بِالْعَذَابِ » أى بالانتقام ، مثل أخذهم يوم بدر « إِذَاهُمْ يَجْأَرُونَ » أى يصرخون باستغاثة أو الآية . كقوله

تعالى[١] . (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ)

[٦٦] (قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ)

[٦٧] (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ)

« لَا تَجْأَرُ الْيَوْمَ » أى يقال لهم تبكيتاً لهم : لا تجأروا ، فإن الجؤار غير نافع لكم « إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ » أى تعرضون عن سماعها أشد الإعراض « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ » أى بالبيت الحرام. والذى سوغ الإضمار ، شهرتهم بالاستكبار به ، وأن لا مفخر لهم إلا أنهم قوّامه . وجوز تضمين (مستكبرين) معنى (مكذبين) والضمير للتنزيل الكريم . أى مكذبين تكذيب استكبار . ولم يذكروا احتمال إرجاع الضمير (للنكوص) إشارة إلى زيادة عتوهم ، وأنهم يفتخرون بهذا الإعراض ولا يرهبون مما ينذرون به ، كقوله[٢] (وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا » وليس ببعيد . فتأمل . « سَامِرًا تَهْجُرُونَ » يعنى أنهم يسمرون ليلاً بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وتسميته سحراً وشعراً ونحو ذلك . وهو معنى (تهجرون) من (الهجر) بالضم ، وهو الفحش فى القول . أو معناه تعرضون . من (الهجر) بالفتح .

تنبيه :

قال أبو البقاء : (سامراً) حال أيضا وهو مصدر . كقولهم (قم قائماً) وقد جاء من المصادر على لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والعافية . وقيل : هو واحد فى موضع الجميع . انتهى

(١) [٧٣ / ١١ ـ ١٣] . (٢) [٣١ / لقمان / ٧] .

فيكون واحدا أقيم مقام الجمع . وقيل هو اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب . قال الشهاب : وعلى كونه مصدراً فيشمل القليل والكثير أيضا ، باعتبار أصله . ولكن مجيء المصدر على وزن (فاعل) نادر . وقرئ (سُمَّرًا) بضم وتشديد . (سُمَّار) بزيادة ألف.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ » أى القرآن ، ليعلموا أنه الحق المبين ، فيصدقوا به وبمن جاء به « أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » أى من الهدى والحق ، فاستبدعوه واستبعدوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . مع أن المجيء بما لم يعهد ، لا يوجب النفرة . لأن المألوف قد يكون باطلاً ، فتقتضى به الحكمة التحذير منه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٩] (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

[٧٠] (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » أى جاحدون بما أرسل به . وهذا توبيخ آخر يشير إلى عظيم جهالتهم ، بأنهم ماعرفوا شأنه ولا دروا سر مابعث به مما يؤسف له. كما قال[1] (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) « أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون ، أو جن يخبلونه . وهذا توبيخ آخر ، فيه تعجيب من تلونهم فى الجحود، وتفننهم فى العناد . ثم أشار إلى أنه لم يحملهم على ذلك إلا أنفتهم للحق كبراً وعتوًّا بقوله « بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » أى لما فيهم من الزيغ والانحراف.

(١) [٣٦/ يس / ٣٠] .

قال القاشانيّ : ولما أبطلوا استعداداتهم وأطفأوا نورها بالرين والطبع ، على مقتضى قوى النفس والطبع ، واشتد احتجابهم بالغواشي الظلمانية عن نور الهدى والعقل ، لم يمكنهم تدبر القول ولم يفهموا حقائق التوحيد ، والعدل فنسبوه إلى الجنة ولم يعرفوه ، للتقابل بين النور والظلمة ، والتضادّ بين الباطل والحق ، وأنكروه وكرهوا الحق الذي جاء به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾

[٧٢] ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

[٧٣] ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[٧٤] ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾

« وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » أي ولو كان ما كرهوه من الحق الذي هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عليه ، موافقا لأهوائهم المتفرقة في الباطل ، الناشئة من نفوسهم الظالمة المظلمة ، لفسد نظام الكون لانعدام العدل الذي قامت به السموات والأرض ، والتوحيد الذي به قوامهما . فلزم فساد الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك . وفيه من تنويه شأن الحق ، والتنبيه على سموّ مكانه ، ما لا يخفى « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ » إضراب عن توبيخهم بكراهته ، وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها . أي ليس هو مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا . أو فخرهم أو متمناهم لأنهم كانوا يقولون[1] ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ « فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » أي بالنكوص عنه . وأعاد الذكر تفخيماً . وأضافه لهم لسبقه . وفي سورة الأنبياء[2] ﴿ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ لاقتضاء ما قبله له « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا »

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٨و١٦٩] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٢] .

أى جعلا على أداء الرسالة ، فلأجل ذلك لا يؤمنون «فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ» أى عطاؤه « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ » أى منحرفون . قال القاشانىّ : الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه ، هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ، ووجود المحبة فى القلب . وشهود الوحدة . والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات ، وعن القدس بالرجس ، إنما هم منهمكون فى الظلم والبغضاء والعداوة ، والركون إلى الكثرة . فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده . فهو فى واد وهم فى واد . وقال الزمخشرىّ : قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات ، وقطع معاذيرهم وعللهم ، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلنه ، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم ، واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام ، الذى هو الصراط المستقيم . مع إبراز المكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلّال من غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون ، بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

« وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قال ابن جرير[١] : أى ولو رحمنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجدب ، وضر الجوع والهزال (لَلَجُّوا فى طغيانهم) يعنى فى عتوّهم وجرأتهم على

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

ربهم (يَعْمَهُونَ) يعني يترددون . وأشار ابن كثير[١] إلى معنى آخر فقال : يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم ، بأنه لو أزاح عنهم الضر ، وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم . كما قال تعالى[٢] (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) وقال[٣] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) الآية . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، لو كان كيف يكون . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » .

قال ابن جرير[٤]: أي ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا ، وأنزلنا بهم بأسنا وسخطنا، وضيقنا عليهم معايشهم ، وأجدبنا بلادهم ، وقتلنا سراتهم بالسيف فما استكانوا لربهم . أي فما خضعوا لربهم ؛ فينقادوا لأمره ونهيه ، وينيبوا إلى طاعته . وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشا بسني الجدب ، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ . وعن الحسن قال : إذا أصاب الناسَ من قبل الشيطان بلاء ، فإنما هي نقمة . فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية . ولكن استقبلوها بالاستغفار ، وتضرعوا إلى الله . وقرأ هذه الآية (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥١ من الجزء الثالث .

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٣] . (٣) [٦ / الأنعام / ٢٧ و ٢٨] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ » يعنى ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر ، أو باب المجاعة والضر ، وهو ما روى عن مجاهد واختاره ابن جرير [1] « إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى حزنى نادمون على ما سلف منهم ، فى تكذيبهم بآيات الله ، فى حين لا ينفعهم الندم والحزن . ثم أشار تعالى إلى قدرته على البعث بآياته المبصرة فى الأنفس والآفاق ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا « قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله فى ذلك ، بصرفها لما خلقت له . وهو أن يدرك

وفى كل شىء لَهُ آيةٌ تَدلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الواحِدُ

والقلة فى الآية هذه ونظائرها ، بمعنى النفى ، فى أسلوب التنزيل الكريم . لأن الخطاب للمشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٨٠] (وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٨١] (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

« وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ » أى خلقكم وبثكم بالتناسل فيها « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى تجمعون يوم القيامة، بعد تفرقكم إلى موقف الحساب «وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي» أى خلقه ، أى يجعلهم أحياء، بعد أن كانوا نطفا أمواتا، ينفخ الروح فيها، بعد الأطوار التى تأتى عليها « وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى بالطول والقصر . فهو متواليه ولا يقدر على تصريفهما غيره « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : إن من أنشأ ذلك ابتداء من غير أصل ، لا يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم . ثم بين تعالى أنهم لم يعتبروا بآياته ، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء ، بقوله « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » أى من الأمم المكذبة رسلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٨٣] (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَـٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ » أى أحياء ، كهيئتنا قبل الممات « لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَـٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطروه فى كتبهم ، مما لا حقيقة له :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٨٥] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعلمون أن من ابتدأ ذلك ، قدر على إعادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

[٨٧] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أى عقابه على شرككم به ، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[٨٩] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)

« قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ » أى يغيث من أراد ، ممن قصد بسوء « وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء ، فيدفع عنه عذابه وعقابه « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ » أى تخدعون عن توحيده وطاعته ، مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة فـ (السحر) مستعار للخديعة . وتكرير (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) لاستهانتهم ، وتجهيلهم ، لكمال ظهور الأمر .

قال فى (الإكليل) : قال مكىّ : فى هذه الآيات دلالة على جواز محاجة الكفار والمبطلين ، وإقامة الحجة وإظهار الباطل من قولهم ومذهبهم ، ووجوب النظر فى الحجج على من خالف فى دين الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[٩١] (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[٩٢] (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٩٣] (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

[٩٤] (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى دعواهم أن له ولداً ومعه شريكا «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » لأنه يجب أن يتخالفا بالذات، وإلا لما تُصُوِّر العدد ـ والمتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا فى الأفعال. فيذهب كل بما خلقه، ويستبد به، ويظهر بينهم التحارب والتغالب، فيفسد نظام الكون ، كما تقدم بيانه فى آية[1] (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ » أى من العذاب . أى إن كان لا بد من أن تريني . لأن (ما) و(النون) للتأكيد « رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى نجنى من عذابهم. وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب ، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يمكن أن يحيق به . وردّ لإنكارهم إياه واستعجالهم به ، استهزاء . وتكريرُ النداء ، لإظهار زيادة الابتهال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٢] .

[٩٦] (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

[٩٧] (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)

[٩٨] (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)

[٩٩] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

[١٠٠] (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ » أي من العذاب « لَقَادِرُونَ » أي: وإنما نؤخره لحكمة بلوغ الكتاب أجله « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أي بالخلة التي هي أحسن الخلال ، وهو العفو والصفح « السَّيِّئَةَ » يعني أذى المشركين « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أي فسيرون جزاءه « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » أي وساوسهم المغْرية على الباطل والشرور والفساد ، والصدّ عن الحق « وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » أي يحضرونى فى حال من الأحوال « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ » أي حتى إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب، وعاين وحشة هيئات السيئات، تمنى الرجوع ، وأظهر الندامة ، ونذر العمل الصالح فى الإيمان الذى ترك. وقوله تعالى « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ » يعني قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) الخ « هُوَ قَائِلُهَا » أي لا يجاب إليها ولا تسمع منه ، يعني أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة ، والتلفظ بألفاظ التحسر والندم ، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة . والآية نظيرها قوله تعالى[1] (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) « وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أي حائل يحول بينهم وبين الرجعة ، يلبثون فيه إلى يوم القيامة .

(١) [٦٣ / المنافقون / ١٠] .

لطيفة :

الواو فى (ارجعون) قيل لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى ، وردَّه ابن مالك بأنه لا يعرف أحداً يقول (رب ارحمونى ، ونحوه) لما فيه من إيهام التعدد . مدفوع بأنه لا يلزم من عدم صدوره عنا كذلك ، ألا يطلقه الله تعالى على نفسه. كما فى ضمير المتكلم . وقيل إنه لتكرير قوله (ارجعنى) كما قيل فى (قفا)و(أطرقا) إن أصله (قف قف) على التأكيد،وبه فسر قوله تعالى[١] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) قال الشهاب : فيكون من باب استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة ، بقطع النظر عن معناه،وهو كثير فى الضمائر. كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر فى(كفى به) حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى،ومن لفظ إلى آخر. وما نحن فيه من هذا القبيل . فإنه غيِّر الضميران المستتران إلى ضمير مثنى ظاهر . فلزم الاكتفاء بأحد لفظى الفعل ، وجعل دلالة الضمير على المثنى على تكرير الفعل ، قائماً مقامه فى التأكيد،من غير تجوز فيه. ولابن جنى فى(الخصائص)كلام يدل على ماذكرناه . انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ » أى لشدة الهول من هجوم ماشغل البال حتى زال به التعاطف والتآلف ، إذ[٢] (يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) ونفىُ نفع النسب ، إذا دهم مثل ذلك معروف .

كما قال :

لا نَسَبَ اليومَ وَلَا خُلَّةٌ   اتَّسَعَ الخرقُ عَلَى الراقِعِ

---

(١) [٥٠ / قٓ / ٢٤] .   (٢) [٨٠ / عبس / ٣٤ـ٣٧] .

« وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضاً ، لعظم الفزع وشدة مابهم من الأهوال، وذهولهم عما كان بينهم من الأحوال ، فتنقطع العلائق والوُصَل التى كانت بينهم،وجلىّ أن نفى التساؤل إنماهو وقت النفخ ، كما دل عليه قوله (فَإِذَا) أى فوقت القيام من القبور وهول المطلع يشتغل كل بنفسه . وأما مابعده فقد يقع التساؤل ، كما قال تعالى[1] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) لأن يوم القيامة يوم ممتد . ففيه مشاهد ومواقف . فيقع فى بعضها تساؤل وفى بعضها دهشة تمنع منه .

تنبيه :

روى هنا بعض المفسرين أخباراً فى نفع النسب النبوىّ . وحبذا لو روى شيء منها فى الصحيحين ، أو فى مسانيد من التزم الصحة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٢] (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[١٠٣] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[١٠٤] (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » أى رجحت حسناته « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ » أى بتضييع مامنحت من الاستعداد لأن تربح فى تجارة الكمال ، بفطرة الإيمان وصالح الأعمال ، ولله در القائل :

إذا كان رأسَ المال عمرُكَ ،فاحترس   عليه مِنَ الإنفاق فى غَيْرِ واجبِ

« فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تحرقها.وتخصيص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء . فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار « وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » أى مشوهون ، قبيحو المنظر . ويقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٧] و [٥٢ / الطور / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[١٠٦] (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)

« أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا » أى ملكتنا « شِقْوَتُنَا » أى التى اقترفناها بسوء اختيارنا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » أى عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب . قال أبو السعود: وهذا، كما ترى، اعتراف منهم ، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم. وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية ، فمع أنه باطل فى نفسه ، لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم ـ يردّه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)

[١٠٨] (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

[١٠٩] (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

« رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » أى أخرجنا من النار ، وارجعنا إلى الدنيا . فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى ، فإنا متجاوزون الحدّ فى الظلم . ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم ، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ، ولما وعدوا الإيمان والطاعة « قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا » أى ذلوا فيها كخسء الكلاب « وَلَا تُكَلِّمُونِ »

أى فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . ثم أشار إلى علة ذلك بقوله تعالى « إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي » وهم المؤمنون « يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ » أى بتشاغلكم بهم على تلك الصفة « ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ » .

ثم أشار تعالى لبيان حسن حالهم ، وأنهم انتفعوا بما آذوهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[١١٢] (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

[١١٣] (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)

[١١٤] (قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ » أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى شيئاً ما . أو لو كنتم من أهل العلم . والجواب محذوف ، ثقة بدلالة ما سبق ، عليه . أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها ، كما علمتم اليوم . ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا إليها .

قال الرازىّ : الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ ، فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلا ، ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا . ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ، ولا إعادة . فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون ، سألهم : كم لبثتم فى الأرض ؟ تنبيهاً لهم على أن ما ظنوه دائماً طويلا ، فهو يسير ، بالإضافة إلى ما أنكروه . فحينئذ تحصل

لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه فى الدنيا . من حيث أيقنوا خلافه . فليس الغرض مجرد السؤال ، بل ما ذكر .

قال الزمخشريّ : استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا ، بالإضافة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها . لأن الممتحَن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها . أو لأنهم كانوا فى سرور . وأيام السرور قصار . أو لأن المنقضى فى حكم ما لم يكن . وصدّقهم الله فى تقالّهم لسنى لبثهم فى الدنيا، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها . وقرئ (فَسَلِ الْعَادِّينَ) والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين، إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم . لما نحن فيه من العذاب ، وما فينا أن نعدها ، فسل من فيه أن يعدّ ، ويقدر أن يلقى إليه فكره. وقيل: فسل الملائكة الذين يعدون أعمار العباد ويحصون أعمالهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[١١٦] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

[١١٧] (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » أى بغير حكمة، حتى أنكرتم البعث «وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » أى للجزاء « فَتَعَالَى اللَّهُ » أى تعاظم عما تصفون ، لأنه « الْمَلِكُ الْحَقُّ» أى المتصرف وحده ، الذى قصد بالخلق معرفته وعبادته . والذى لا يترك الجزاء بل يحق الحق « لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » أى العظيم المجيد . وقرئ بالرفع « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

قال ابن جرير[(١)] : أى : ومن يدع مع المعبود الذى لا تصلح العبادة إلا له ، معبوداً آخر لا حجة له بما يقول ولا بينة . فإنما حساب عمله السيئ عند ربه . وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه . فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله ، عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء فى النعيم ، قال الزمخشرى : وقوله (لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) كقوله[(٢)] (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) وهى صفة لازمة ، نحو قوله[(٣)] (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) جىء بها للتوكيد ، لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان . ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء . كقولك (من أحسن إلى زيد ـ لا أحق بالإحسان منه ـ فالله مثيبه) .

قال فى (الانتصاف) : إن كان صفة ، فالمقصود بها التهكم بمدعى إله مع الله ، كقوله[(٢)] (بَلْ أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) فنفى إنزال السلطان به ، وإن لم يكن فى نفس الأمر سلطان ، لا منزل ولا غير منزل .

وقال الرازى : نبه تعالى بالآية ، على أن كل ما لا برهان فيه ، لا يجوز إثباته ، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد . انتهى .

ثم أمر تعالى نبيه بالابتهال إليه واستغفاره والثناء عليه ، بقوله « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » أى خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٥١] . (٣) [٦ / الأنعام / ٣٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٤ — سورة النور

سميت به لاشتمالها على ما أمكن من بيان النور الإلهيّ ، بالتمثيل المفيد كمال المعرفة الممكنة لنوع الإنسان ، مع مقدماتها ، وهى أعظم مقاصد القرآن ـ قاله المهايميّ ، وهى مدنية . وقال القرطبيّ : إن آية[1] « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ » الخ مكية. وهى أربع وستون آية .

(١) [٢٤ / النور / ٥٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

«سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا» خبر محذوف . أى هذه السورة . والتنكير للتفخيم «وَفَرَضْنَاهَا» أى أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً «وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أى تتذكرونها فتعملون بموجبها . قال الإمام ابن تيمية رحمه الله ، فى تفسير هذه الآيات : هذه السورة فرضها تعالى بالبينات والتقدير والحدود ، التى من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه . ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود . وبيّن فيها فرض العقوبة وآية الجلد وفريضة الشهادة على الزنى وفريضة شهادة المتلاعنيْن . كل منهما يشهد أربع شهادات بالله . ونهى فيها عن تعدى حدود الله فى الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذى السلطان . سواء كان فى منزله أو ولايته . ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه . إذ الحقوق نوعان : نوع لله فلا يتعدى حدوده ، ونوع للعبادة فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك ، فليس لأحد أن يفعل شيئاً فى حق غيره إلا بإذن الله . وإن لم يأذن المالك ، فإذن الله هو الأصل ، وإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه . ولهذا ضمنها الاستئذان فى المساكن والمطاعم وفى الأمور الجامعة . كالصلاة والجهاد ونحوها . ووسطها بذكر النور الذى هو مادة كل خير وصلاح كل شىء . وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وعن الصبر على ذلك . فإنه ضياء . فإن حفظ الحدود بتقوى الله ، يجعل لصاحبه نورا . كما قال تعالى[1] (اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...) . الآية فضدّ النور الظلمة ، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين بأعمال الكفار . وأهل البدع والضلال .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٨] .

فقال[(١)] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ)الآية ، إلى قوله[(٢)](أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ...) الآية وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة. وظلم العبد نفسه من الظلم. فإن للسيئة ظلمة فى القلب ، وسوادا فى الوجه ، ووهنا فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضاً فى قلوب الخلق. كما روى ذلك عن ابن عباس . يوضحه أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ، وأعمال الكفار بالظلمة . والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله . والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه ، وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصى . كما لا يصير مؤمناً إذا كان معه بعض فروع الإيمان . ولغضّ البصر اختصاص بالنور. كما فى حديث أبى هريرة الذى صححه الترمذى[(٣)] : إن العبد إذا أذنب ... الحديث . وفيه : فذلك الرّان الذى ذكر الله . وفى الصحيح[(٤)] : إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة. والغين حجاب رقيق أرقّ من الغيم ، فأخبر أنه يستغفر ليزيل الغين، فلا يكون نكتة سوداء . كما أنها إذا أزيلت لا تصير ريناً . وقال حذيفة : إن الإيمان يبدو فى القلب لمظة بيضاء . فكلما ازداد العبد إيماناً ، ازداد قلبه بياضاً ، وفى خطبة الإمام أحمد ، فى الرد على الزنادقة: الحمد لله الذى جعل فى كل زمانِ فترة من الرسل ، بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى . يُحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصّرون بنور الله أهل العمى..الخ. وقد قرن الله سبحانه بين الهدى والضلال بما يشبه هذا . كقوله تعالى[(٥)] (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) وقال[(٦)] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ)وقال[(٧)](مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا)الآيات

(١) [٢٤ / النور ٣٩] . (٢) [٢٤ / النور / ٤٠] .
(٣) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨٣ ـ سورة المطففين ، حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث . (٤) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٤١ (طبعتنا) . (٥) [٣٥ / فاطر / ١٩و٢٠] . (٦) [١١ / هود / ٢٤] .
(٧) [٢ البقرة / ١٧].

وهذا النور الذى يكون للمؤمن فى الدنيا على حسن عمله واعتقاده ، يظهر فى الآخرة ، كما قال تعالى[١] (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ...) الآية ، فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة ، كما فى سورة النور عقيب أمره بغض البصر والتوبة . وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج ومايتعلق بالنساء . وقال فى سورة الحديد[١] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) إلى قوله (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذى كان المؤمنون يمشون به ، ويطلبون الاقتباس من نورهم، فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم . كما أنهم فى الدنيا لما فقدوا النور[٢] (كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا) الآية . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢] (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها . أى كل من زنى من الرجال والنساء ، فأقيموا عليه هذا الحد . وهو أن يجلد ، أى يضرب على جلده مائة جلدة، عقوبة لما صنع « وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ » أى رقة ورحمة فى طاعته فيما أمركم به ، من إقامة الحد عليهما، على ما ألزمكم به « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »أى تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر، وأنكم مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب . فإن من كان بذلك مصدقاً ، فإنه لايخالف الله فى أمره ونهيه ، خوف عقابه على معاصيه « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

---

(١) [٥٧ / الحديد / ١٢و١٥] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

أى وليحضر جلدهما طائفة من أهل الإيمان بالله ورسوله . قال ابن جرير[١] : العرب تسمى الواحد فما زاد طائفة .

قال ابن تيمية عليه الرحمة : فأمر تعالى بعقوبتهما بحضور طائفة من المؤمنين . وذلك بشهادته على نفسه أو شهادة المؤمنين عليه . لأن المعصية إذا ظهرت كانت عقوبتها ظاهرة. كما فى الأثر[٢] (من أذنب سرا فليتب سرا . ومن أذنب علانية فليتب علانية) وليس من الستر الذى يحبه الله ، كما فى الحديث[٣] (إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها . فإذا أعلنت ولم تنكر، ضرت العامة) فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن .و لهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة . كما روى عن الحسن وغيره . لأنه لما أعلن استحق العقوبة. وأدناها أن يذم عليها لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته . ولو لم يذكر إلا بما فيه لاغتر به الناس . فإذا ذكر انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته . قال الحسن: أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ اذكروه بما فيه كى يحذره الناس . و (الفجور) اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح ، يدل السامع له على فجور قلب قائله . ولهذا استحق الهجرة، إذا أعلن ببدعة أو معصية ، أو فجور أو تهتك أو مخالطة لمن هذا حاله . بهذا لا يبالى بطعن الناس عليه . فإن هجره نوع تعزير له . فإذا أعلن السيئات ، أُعْلِنَ هجره ، وإذا أسر أُسِرَّ هجره ، إذ الهجرة هى الهجرة على السيئات وهجرة السيئات، كقوله[٤] (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) وقوله[٥] (وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) وقوله[٦] (فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ) وقد روى عن عمر ؛ أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر وذهب به

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) جاء فى حاشية تفسير سورة النور لابن تيمية ، بالصفحة رقم ٦ ، ما يأتى :

قيل: هذا من كلام عمر بن الخطاب . قال فيه: فإن من أبدى لنا عورته ، نقم عليه حد الله تعالى . انتهى من هامش الأصل . (٣) لم أعثر على هذا الحديث .

(٤) [٧٤ / المدثر / ٥] . (٥) [٧٣ / المزمل / ١٠] . (٦) [٤ / النساء / ٤٠] .

أخوه إلى أميرها عمرو بن العاص ليحده ، جلده سرا . فبعث إليه عمر ينكر عليه. ولم يعتد بذلك حتى أرسل إلى ابنه ، فأقدمه المدينة وجلده علانية، وعاش ابنه مدة ثم مرض ثم مات . ولم يمت من الجلد ، ولا ضرب به بعد الموت ، كما يزعمه الكذابون .

وقوله تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ) نهى تعالى عما يأمر به الشيطان في العقوبات عموماً وفي الفواحش خصوصاً . فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة، والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة في الدياثة، إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به ،أو يعاشره عشرة منكرة ولو كان ولده ، رقّ به وظن أن هذا من رحمة الخلق. وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين وإعانة على الإثم والعدوان . وترك للتناهي عن المنكر . وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم من الدياثة كما دخلت عجوز السوء مع قومها، في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك. وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط ، وفي الباطن منافقة على دين قومها. لا تقلي عملهم كما قلاه لوط . وكما فعل النسوة بيوسف. فإنهن أعنّ امرأة العزيز على ما دعته إليه من فعل الفاحشة معها ولهذا قال[1] (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وذلك بعد قولهن (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب . فإن الشهوة توجب السكر كما قال تعالى[2] : (إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) وفي الصحيحين[3] من حديث أبي هريرة(العينان تزنيان)إلخ فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع كالنظر والاستمتاع والمخاطبة . ومنهم من يرتقي إلى المس والمباشرة . ومنهم من يقبل وينظر . وكل ذلك حرام . وقد نهانا الله سبحانه أن تأخذنا بالزناة رأفة ، بل نقيم عليهم الحد ، فكيف بما دونه من هجر ؟ ونهى

---

(١) [١٢ / يوسف ٣٣] . (٢) ١٥ / الحجر / ٧٢] .

(٣) أخرجه أبو هريرة في : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٢ ـ باب زنى الجوارح دون الفرج ، حديث ٢٣٧٢ .

وأخرجه مسلم في ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

وتوبيخ وغير ذلك ؟ بل ينبغى شنآن الفاسقين وقِلَاهم على مايتمتع به الإنسان من أنواع الزنى المذكورة فى الحديث . والمحب ، وإن كان يحب النظر والاستمتاع بصورة المحبوب وكلامه ، فليس دواؤه فى ذلك ، لأنه مريض . والمريض إذا اشتهى مايضره أو جزع من تناول الدواء الكريه، فأخذتنا به رأفة، فقد أعناه على مايهلكه ويضره . وقال تعالى(١) (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) أى فيها الشفاء والبرء من ذلك . بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً ، مثل الصلاة ومافيها من الأذكار والدعوات. وأن يحمى عما يزيد علته. ولا يظن أنه إذا استمتع بمحرم يسكن بلاؤه . بل ذلك يوجب له زيادة فى البلاء . فإنه وإن سكن مابه عقيب استمتاعه ، أعقبه ذلك مرضاً عظيماً لا يتخاص منه . بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء . ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر من ألم المرض الباقى. وبهذا يتبين أن العقوبات الشرعية أدوية نافعة . وهى من رأفة الله بعباده، الداخلة فى قوله تعالى(٢) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) فمن ترك هذه الرحمة النافعة ، لرأفة بالمريض، فهو الذى أعان على عذابه ، وإن كان لا يريد إلا الخير . إذ هو فى ذلك جاهل أحمق، كما يفعله بعض النساء بمرضاهن وبمن يربينهن من أولادهن فى ترك تأديبهم على مايأتونه من الشر ويتركونه من الخير. ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم فى ذلك المرض وبرودة القلب والدياثة . وهو فى ذلك من أظلم الناس وأديثهم فى حق نفسه ونظرائه . وهو بمنزلة جماعة مرضى قد وصف لهم الطبيب ماينفعهم ، فوجد كبيرهم مرارته ، فترك شربه . ونهى عن سقيه للباقين . ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانيين محبوباً له ، إما لقرابة أو مودة أو إحسان، أو لما يرجوه منه ، أو لما فى العذاب من الألم الذى يوجب رقة القلب . ويتأول(٣) (إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ : يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه ، حديث رقم ٦٨٢ ، عن أسامة بن زيد .

الرُّحَماء) وليس كما قال. بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه. بل قد ورد(١) (لا يدخل الجنة ديوث) فمن لم يكن مبغضاً للفواحش كارها لها ولأهلها ، ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها ، لم يكن مريداً للعقوبة عليها ، فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ) الآية ، فى دين الله هو طاعته وطاعة رسوله . المبنىّ على محبته ومحبة رسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله مالم تكن مضيعة لدين الله . فالرحمة مأمور بها بخلاف الرأفة فى دين الله . والشيطان يريد من الإنسان الإسراف فى أموره كلها . فإنه إن رآه مائلًا إلى الرحمة ، زيّن له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار . وإن رآه مائلًا إلى الشدة ، زيّن له الشدة فى غير ذات الله، فيزيد فى الذم والبغض والعقاب على ما يحبه . ويترك من اللين والصلة والإحسان والبر ما يأمر الله به . فالأول مذنب والثانى مسرف . فليقولا جميعاً(٢) (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) الآية . وقوله (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فالمؤمن بذلك يفعل ما يحبه الله ، وينهى عما يبغضه الله . ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه . فتارة تغلب عليه الشدة(٣) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ) والنظر والمباشرة ، وإن كان بعضه من اللمم ، فإن دوام ذلك وما يتصل به ، من المعاشرة والمباشرة قد تكون أعظم بكثير من فساد زنى لا إصرار فيه . بل قد ينتهى النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك . كما قال تعالى(٤) (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ) الآية . ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان . والله تعالى إنما ذكره عن امرأة العزيز

(١) أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٩ ـ باب المنان بما أعطى ، عن ابن عمر ، ونصه : ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث .. الخ . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٧] .
(٣) [٢٨ / القصص / ٥٠] . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

المشركة وعن قوم لوط. وقد جمع النبيّ ﷺ الحدود. فيما رواه أبو داود من حديث ابن عمر[١] (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضادَّ الله في أمره. ومن خاصم في باطل، وهو يعلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع ومن قال في مسلم ما ليس فيه، حبس في ردغة الخبال حتى يخرج مما قال). فالشافع في الحدود مضادٌّ لله في أمره. فلا يجوز أن يأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي. وجماع ذلك كله قوله[٢] (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقوله[٣] (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر كما في الصحاح[٤] (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الخ. ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرأفة بهم. ولا منافاة بين كون الواحد يحب من وجه ويبغض من وجه، ويثاب من وجه ويعاقب من وجه. خلافاً للخوارج والمعتزلة. ولهذا جاء في السنة أن من أقيم عليه الحد، يرحم من وجه آخر، فيحسن إليه ويدعى له. وهذا الجانب أغلب في الشريعة، كما في صفة الرب سبحانه وتعالى. ففي الصحيح[٥] (إن رحمتي تغلب غضبي) وقال[٦] (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) وقال[٧] (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١٤ ـ باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ، حديث رقم ٣٥٩٧ .

(٢) [٥ / المائدة / ٥٤] . (٣) [٤٨ / الفتح / ٢٩]

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٣٠ ـ باب النهي بغير إذن صاحبه ، حديث رقم ١٢٢٠ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٠ (طبعتنا)

(٥) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ، حديث ١٥٠٩ ، عن أبي هريرة .

(٦) [١٥ / الحجر / ٤٩و٥٠] . (٧) [٥ / المائدة / ٩٨] .

الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فجعل الرحمة صفة له مذكورة فى أسمائه . وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته . ومن هذا ما أمر الله تعالى به من الغلظة على الكفار والمنافقين . وقال تعالى[1] (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ) الآية ، وفى الحديث[2] بيان السبيل الذى جعله الله لهن وهو جلد مائة وتغريب عام فى البكر ، وفى الثيب الرجم . لكن الذى فى الحديث الجلد والنفى للبكر من الرجال . وأما الآية ففيها ذكر الإمساك فى البيوت للنساء إلى الموت ، والسبيل للنساء خاصة . ومن الفقهاء من لا يوجب مع الحد تغريباً . ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة . كما أن أكثرهم لا يوجبون الجلد مع الرجم . ومنهم من يوجبهما جميعاً . كما[3] فعل عليٌّ بشُراحة الهَمْدانية ، حيث جلدها ثم رجمها . وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة نبيه . رواه البخارىّ . والله سبحانه ذكر فى سورة النساء ما يختص بهن من العقوبة . ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال[4] (وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً) فإن الأذى يتناول الصنفين . وأما الإمساك فيختص بالنساء ، لأن المرأة يجب أن تصان بما لا يجب مثله فى الرجل ولهذا خصت بالاحتجاب وترك الزينة وترك التبرج ، لأن ظهورها يسبب الفتنة ، والرجال قوامون عليهن ، وقوله[5] (فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ) دل على شيئين : على نصاب الشهادة وعلى أن الشهداء على نسائنا منا . وهذا لا نزاع فيه . وأما شهادة الكفار بعضهم على بعض ففيها روايتان عن أحمد . الثانية أنها تقبل . اختارها أبو الخطاب . وهو قول أبى حنيفة . وهو أشبه بالكتاب والسنة . وقوله[6] صلى الله عليه وسلم : (لا تجوز شهادة أهل ملة

---

(١) [٤ / النساء / ١٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث ١٢ (طبعتنا) .

(٣) الحديث أخرجه البخارىّ فى : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢١ ـ باب رجم المحصن ، حديث رقم ٢٥١٣ ، عن علىّ . وهو مطول فى المسند رقم ٨٣٩ (طبعة المعارف) .

(٤) [٤ / النساء / ١٦] . (٥) [٤ / النساء / ١٥] . (٦) لم أقف على هذا الحديث.

على ملة ، إلا أمتى) فمفهومه جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضهم على بعض. ولكن فيه : أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم ، لقوله تعالى[(١)] (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وفى آخر الحج مثلها وفى البخارى[(٢)] من حديث أبى سعيد (يدعى نوح) الحديث. وكذلك فيهما[(٣)] من حديث أنس، شهادتهم على الجنازتين خيراً وشراً، فقال (أنتم شهداء الله فى أرضه) الحديث . ولهذا ، لما كان أهل السنة والجماعة لم يشوبوا الإسلام بغيره ، كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة ، بخلاف أهل البدع والأهواء ، كالخوارج والروافض ، فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن هذه الحقية التى جعلها الله لأهل السنة ، قال فيهم[(٤)] (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) واستدل من جوّز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية[(٥)] (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) الآية ، قالوا : دلت على قبول شهادتهم على المسلمين . ففيه تنبيه على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى . ثم نسخُ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى ، والتنبيه على الأقوى . كما نص عليه أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف . ولهذا يجوز فى الشهادة للضرورة مالا يجوز فى غيرها . كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال . حتى نص أحمد على قبول شهادتهن فى الحدود التى تكون فى مجامعهن الخاصة .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] . و [٢٢ / الحج / ٧٨].

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٣ ـ باب قول الله عز وجل : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، حديث رقم ١٥٧٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٦ ـ باب ثناء الناس على الميت ، حديث رقم ٧٢٣ . وأخرجه مسلم فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٤) لم أعثر على هذا الحديث . (٥) [٥ / المائدة / ١٠٦] .

فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى،والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي ﷺ[١] رجم الزانيين من اليهود ، ومن غير سماع إقرار منهما ولاشهادة مسلم . ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك.وفى تولى بعضهم مال بعض ، نزاع،فهل يتولى الكافر العدل فى دينه،مال ولده الكافر ؟ على قولين . والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت السنة بذلك وسنة خلفائه. وقوله تعالى (فَآذُوهُمَا) أمر بالأذى مطلقاً.ولم يذكر صفته ولا قدره. ولفظ (الأذى) يستعمل فى الأقوال كثيرا. كقوله[٢] (لَنْ يَضرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى)والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء . فالمذنب لايزال يؤذى وينهى ويوبخ إلا أن يتوب. وأدنى ذلك هجره. فلا يكلم بالكلام الطيب . وهذه محكمة.فمن أتى الفاحشة وجب إيذاؤه بالكلام الزاجر إلى أن يتوب . وليس ذلك محدودا بقدر ولا صفة . إلا ما يكون زاجراً له داعيا إلى حصول المقصود ، وهو توبته وصلاحه . وعلّقه تعالى على التوبة والإصلاح ، فإذا لم يوجدا ،فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً . فأما من تاب بترك الفاحشة ولم يصلح ، فتنازعوا :هل من شرط التوبة صلاح العمل ؟ على قولين. وهذه تشبه قوله[٣] (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) فعلق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح . مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكفّ عنهم . ثم إن صلوا وزكوا، وإلا عوقبوا على ترك الفعل. لأن الشارع فى التوبة شرع الكف عن أذاه . ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام . وكذلك التائب من الفاحشة . وهذه الآية مما يستدل به على التعزير بالأذى . والأذى، وإن كان كثيراً يستعمل فى الكلام ، فليس مختصًّا به . كقوله لمن بصق فى القبلة[٤] (إنك قد آذيت الله

(١) الحديث أخرجه البخاريّ فى: ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب الرجم فى البلاط، حديث رقم ٧٠٤ ، عن ابن عمر .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١١] . (٣) [٩ / التوبة / ٥] .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٢٢ ـ باب فى كراهية البزاق فى المسجد ، حديث رقم ٤٨١ عن أبى سهلة السائب بن خلّاد .

ورسوله) وكذا قوله فى حق فاطمة [(١)] (ويؤذيني ما آذاهـا) وقوله [(٢)] لمن أكل البصل (إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) وهل يكون من توبته اعترافه بالذنب ؟ فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد وكذب الشهود أو ثبت بشهادة شهود . فيه نزاع . فذكر أحمد أنه لا توبة لمن جحد . واستدل بقصة عليّ بن أبي طالب : أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتابوا . فقبل توبتهم . وجحد جماعة فقتلهم . وقال ﷺ لعائشة [(٣)] (فإن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه) فمن أذنب سراً فليتب سراً ، كما فى الحديث [(٤)] (ومن ابتلى بشيء من هذه القاذروات فليستتر) الخ ، وفى الصحيح [(٥)] (كل أمتى معافى إلا المجاهرون) الحديث . فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة . ومع الجحود لا تظهر التوبة . فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب . ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجوراً . فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم . ومن أذاه منعه ، مع القدرة ، من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة . وأما بدون القدرة ، فليفعل المقدور عليه . ولم يعلق الأذية على استشهاد أربعة ، وليس هذا من حمل المطلق على المقيد .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٩ ـ باب ذب الرجل عن ابنته فى الغيرة والإنصاف ، حديث رقم ٥٣٨ عن المسور بن مخرمة .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ باب حديث الإفك ، حديث ١٢٦٦ ، عن عائشة .

(٤) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى ٤١ ـ كتاب الحدود ، رقم ١٢ (طبعتنا) ، عن زيد بن أسلم .

(٥) أخرجه البخاريّ فى ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٦٠ ـ باب ستر المؤمن على نفسه ، حديث رقم ، ٢٣٣٥ ، عن أبى هريرة .

لأن ذلك لا بد أن يكون فيه الحكم واحداً ، مثل الإعتاق . فإذا كان متفقاً فى الجنس دون النوع كإطلاق الأيدى فى التيمم ، وتقييدها إلى المرافق فى الوضوء ، فلا يحمل . ولم يحمل الصحابة والتابعون المطلق على المقيد فى قوله تعالى (١) (وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) وقوله تعالى (٢) (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) قالوا : الشرط فى الربائب خاصة . قالوا: أبهموا ما أبهم الله . والمبهم هو المطلق . والمشروط فيه هو المقيد. لكن تنازعوا: هل الموت كالدخول ؟ على قولين . وذلك لأن الحكم مختلف ، والقيد ليس متساوياً فى الأعيان. فإن تحريم جنس ، ليس مثل تحريم جنس يخالفه . كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير ، لما كان أجناساً ، فليس تقييد الدم بالمسفوح موجباً تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحاً . وهذا القيد قيد الربيبة بدخول أمها . والدخول بالأم لا يوجد مثله فى حليلة الأب وأم المرأة . إذ بالدخول فى الحليلة ، بها نفسها . وفى أم المرأة ببنتها . وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد فى نصاب الشهادة . بل لما ذكر الله فى آية الدين (٣) (رجلا وامرأتين) وفى الرجعة (٤) (رجلين) أقروا كلا منهما على حاله . لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع . كما أن إقامة الحد فى الفاحشة والقذف بها اعتبر فيه أربعة ، فلا يقاس بذلك عقود الأثمان والأبضاع ، وذكر فى حد القذف ثلاثة أحكام : جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبدا ، وأنهم (٥) فاسقون ، إلا الذين تابوا ، الآية . والتوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف ، وترفع الفسق بلا تردد . والأكثر قالوا : ترفع المنع من قبول الشهادة . وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة لم يرجم ، كما فى الصحيح (٦)

(١) [٤/النساء/٢٣]. (٢) [٤ / النساء / ٢٢] . (٣) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .
(٤) [٦٥ / الطلاق / ٢] . (٥) [٢٤ / النور / ٤ و ٥] .
(٦) أخرجه البخارى فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٤ـ سورة النور ، ٣ ـ باب ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، حديث رقم ١٢٩٦ ، عن ابن عباس .

(إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها . وإن جاءت به يشبه الرجل الذى رماها به، فقد صدق عليها) فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبى ﷺ (لولا الأيمان لكان لى ولها شأن) فقيل لابن عباس : هذه التى قال فيها (لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها) فقال : لا . تلك امرأة كانت تعلن السوء فى الإسلام فقد أخبر أنه لا يرجم أحداً إلا ببينة . ولو ظهر على الشخص السوء . ودل الحديث على أن الشبه له تأثير فى ذلك ، ولم تكن بينة . وكذلك ثبت عنه فى الجنازة لما أثنوا عليها شرًّا ، والأخرى خيراً . فقال[1] (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ) وفى المسند عنه[2] أنه قال (يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) قالوا يا رسول الله ! وبم ذاك ؟ قال بالثناء الحسن وبالثناء السيء فقد جعل الاستفاضة حجة وبينة فى هذه الأحكام . ولم يجعلها حجة فى الرجم . وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين فى الوصية فى السفر . وكذلك تقبل شهادة الصبيان فى الجراح إذا أدّوها قبل التفرق ، فى إحدى الروايتين . وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة أو الصبى فى لحاف ، أو بيت مرحاض ، أو محلولى السراويل ، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك ، من وجود اللحاف فقد خرج عن العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره ، فرآه فأطفأه فإن إطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل . فإن لم يكن ما يستخفى به إلا ما شهد به الشاهد ، كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به فهذا باب عظيم النفع فى الدين . وهو مما جاءت الشريعة التى أهملها كثير من القضاة والمتفقهة ، زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع . وهذا خلاف ما تواترت به السنّة وسنة الخلفاء الراشدين . وما فطرت عليه القلوب التى تعرف المعروف وتنكر المنكر . ويدل عليه قوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) الآية . ففيها دلالات : إحداها أنه لم يأمر بالتبين عند مجىء كل فاسق بكل نبأ ؛ إذ من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين . ومنها ما يباح فيه ترك التبين . ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس ، لأنه علل بخشية الإصابة ،

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤٣٣ ، حاشية رقم ٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤١٦ ـ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

بجهالة . فلو كان كل ما أصيب بنبإ كذلك ، لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق. بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ كذلك لم تحصل التفرقة بين العدل والفاسق ، بل هذه دلالة واحدة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنه مطلقاً . وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات. فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك . فإنها نزلت بإخبار واحد. أن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقض العهد . وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت. فيجوز إصابة القوم إذاً . فكيف خبر العدل مع دلالة أخرى؟ ولهذا كان أصح القولين ، أن مثل هذا لَوْثٌ في القسامة فإذا انضاف أيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه . وقوله (بِجَهَالَةٍ) جعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم. فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور . وهذا هو المناط الذى دل عليه القرآن كما قال[1] (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وقال[2] (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وأيضاً علل بخوف الندم. وهو إنما يحصل على عقوبة البرىء من الذنب كما فى السنن[3] (ادرأوا الحدود بالشبهات. فإن الإمام ، أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة) فإذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنبا ، فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ . وقد ذكر الشافعىّ وأحمد أن التغريب جاء فى السنة فى موضعين : أحدهما الزنى ، والثانى المخنث[4] ، فيما روت أم سلمة أن النبىّ ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها : إن فتح الله لكم الطائف غداً ، أدلك على ابنة غيلان . فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . فقال رسول الله ﷺ : (أخرجوهم من بيوتكم) . أخرجاه. وفى لفظ (لا يدخل هؤلاء عليكم) وفى رواية (أرى هذا يعرف مثل هذا. لا يدخلن عليكم بعد اليوم) وقال ابن جريج : هوهيت . وقال غيره : هنب . وقيل : ماتع . وذكر

(١) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٣٦] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢ ـ باب ما جاء فى درء الحدود ، عن عائشة ونصه : ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم . الخ .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٦٢ ـ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت حديث رقم ١٩٢٧ .

بعضهم أنهم ثلاثة : نهم وهيت وماتع . ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى . إنما كان تخنيثهم لينا فى القول ، وخضاباً فى الأيدى والأرجل ، ولعباً كلعب النساء . وفى السنن : أنه أمر بمخنث فنفى إلى النقيع . فإذا كان الله أمر بإخراج هؤلاء من البيوت ، فمعلوم أن الذى يمكن الرجال من نفسه، شر من هؤلاء: وهو أحق بالنفى. فإن المخنث فيه فساد للرجال والنساء . لأنه إذا تشبه بالنساء ، فقد يعاشرنه وهو رجل ، فيفسدهن . ولأنها إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل وتعاشر الصنفين. وقد تختار مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال . وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به ، بمشاهدته وعشقه فإذا خرج إلى بلد ووجد هناك من يفعل به ، فهنا يكون نفيه بحبسه فى مكان ليس معه غيره فيه . وإن خيف خروجه، قيد؛ إذ هذا هو معنى نفيه. ولهذا تنازع العلماء فى نفى المحارب: هل هو طرده بحيث لا يأوى إلى بلد ، أو حبسه ، أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا؟ فمن أحمد ثلاث روايات: الثالثة أعدل وأحسن . فإن نفيه بحيث لا يأوى إلى بلد لا يمكن ، لتفرق الرعية واختلافهم واختلاف هممهم . وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤونة . وروى أن هنباً لما اشتكى الجوع أمره النبى ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته ، والذى جاءت به الشريعة من النفى هو نوع من الهجرة وليس كنفى الثلاثة[1] الذين خلفوا ، ولا هجرهم . فإنه لم يمنعهم من مشاهد الناس وحضور مجامعهم فى الصلاة وغيرها . وذلك أن الله خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً. فمن كانت مخالطته تضر ، استحق الإخراج من بينهم، لأنه مضرة بلا مصلحة. فإن الصبيّ إذا رأى صبيا يفعل شيئاً تشبه به . والاجتماع بالزناة واللوطية : فيه أعظم الفساد والضرر على الرجال والنساء والصبيان . فيجب أن يعاقب اللوطيّ والزانى بما فيه تقريعه وإبعاده . وجماع الهجرة هى هجرة السيئات وأهلها . وكذلك هجران الدعاة إلى البدع وهجران الفساق وهجران من

(١) يشير إلى حديث كعب بن مالك الذى رواه البخاريّ فى : ٦٥ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٨ ـ باب : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث ١٣٢ .

يخالط هؤلاء كلهم ويعاونهم . وكذلك من يترك الجهاد الذى لا مصلحة لهم بدونه . فإنه يعاقب بهجرهم له ، لما لم يخالطهم فى البر . فمن لم يهجر هؤلاء كان تاركا للمأمور فاعلاً المحذور. فهذا ترك المأمور من الاجتماع . وهذا فعل المحذور منه . فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه. وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير ذلك ، يفعل بحسب الاستطاعة . فإن لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين ، جاهد من يقدر على جهاده. وإذالم يقدر على عقوبة جميع المعتدين ، عاقب من يقدر على عقوبته . فإذا لم يكن النفى والحبس عن جميع الناس ، كان النفى والحبس على حسب القدرة . ويكون هو المأمور به ، فالقليل من الخير، خير من تركه . ودفع بعض الشر خير من تركه كله . وكذلك المتشبهة بالرجال تحبس ، كحالها إذا زنت فإن جنس الحبس مما شرع فى جنس الفاحشة . ومما يدخل فى هذا : أن عمر نفى نصر ابن حجاج من المدينة إلى البصرة ، لما شبب به النساء. وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الفاتن ، فلما رآه من أحسن الناس وجنتين ، غمه ذلك فنفاه إلى البصرة . فهذا لم يصدر منه ذنب يعاقب عليه ، لكن كان فى النساء من يفتتن به ، فأمر بإزالة جماله الفاتن. فإن انتقاله من وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب . وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه . وليس من باب المعاقبة . وقد كان عمر ينفى فى الخمر إلى خيبر ، زيادة فى عقوبة شاربها. ومن أقوى ما يهيج الفاحشة ، إنشاد أشعار الذين فى قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ، وإن كان القلب فى عافية ، جعل فيه مرضاً ، كما قال بعض السلف: الغناء رقية الزنى. ورقية الحية هى التى تستخرج بها الحية من جحرها . ورقية العين والحمة ورقية الزنى. أى تدعو إليه وتخرج من الرجل الأمر الخبيث . كما أن الخمر أم الخبائث. قال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق فى القلب ، كما ينبت الماء البقل . وقال تعالى[1] ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء ، كما قاله من قاله من السلف ، وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك. فإن هذه الأصوات توجب

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٤] .

انزعاج القلوب والنفوس الخبيثة إلى ذلك ، وتوجب حركتها السريعة واضطرابها . حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة . والنفس متحركة . فإن سكنت فبإذن الله ، وإلا فهى لا تزال متحركة. وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس ، لا تزال تتحرك عليه . وفى [١] الحديث المرفوع (القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً) وفى الحديث الآخر[٢] (مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض ، تحركها الريح) وفى البخارىّ عن ابن عمر[٣]: كانت يمين رسول الله ﷺ (لا ، ومقلب القلوب) ولمسلم[٤] عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول(اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا إلى طاعتك) وفى الترمذىّ[٥] : كان ﷺ يكثر أن يقول (يامقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك) قيل: يارسول الله! آمنا بك وبما جئت به . فهل تخاف علينا ؟ فقال (نعم . القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء) انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا) الآية ، وجوب الحد على الزانى والزانية ، وأنه مائة جلدة . أى فى البكر كما بينته السنة . واستدل بعمومه من أوجب المائة على العبد والذمىّ وعلى المحصن، ثم يرجم . فأخرج[٦] أحمد عن علىّ أنه .

(١) لم أقف عليه . (٢) أخرجه أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٠٨ ـ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) عن أبى موسى .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٣ ـ باب كيف كانت يمين النبىّ ﷺ ، حديث رقم ٢٤٨٧ .

(٤) أخرجه فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث ١٧ (طبعتنا) عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدر ، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، عن أنس . (٦) انظر الصفحة رقم ٤٤٣٢ ؛ حاشية رقم ٣ .

أتى بمحصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ . واستدل الخوارج بالآية على أن حد المحصن الجلد دون الرجم. قالوا : لأنه ليس في كتاب الله . واستدل أبو حنيفة بها على أنه لا تغريب ، إذ لم يذكره. وفي الآية رد على من قال : إن العبد إذا زنى بحرة يرجم . وبأمة يجلد. وعلى من قال : لا تحد العاقلة إذا زنى بها مجنون، والكبيرة إذا زنى بها صبي ،أو عكسه، لا يحدّ .وعلى من قال: لا حد على الزاني بحربية أو بمسلمة في بلاد الحرب أو في عسكر أهل البغي . أو بنصرانية مطلقاً . أو بأمة امرأته . أو محرم . أو من استدخلت ذكر نائم. واستدل بعمومها من أوجبه على المكره والزاني بأمة ولده والميتة .

قال ابن الفرس : ويستدل بقوله (فَاجْلِدُوا) على أنه يجرد عن ثيابه . لأن الجلد يقتضي مباشرة البدن . وبقوله (مِائَةَ جَلْدَةٍ) على أنه لا يكتفى بالضرب بها مجموعة ضربة واحدة ، صحيحاً كان أو مريضاً . وفي قوله تعالى (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ) الحث على إقامة الحدود والنهي عن تعطيلها . وأنه لا يجوز العفو عنها للإمام ولا لغيره . وفيه ردّ على من أجاز للسيد العفو . فاستدل بالآية من قال : إن ضرب الزنى أشد من ضرب القذف والشرب. وفي قوله تعالى (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا) الخ استحباب حضور جمع ، عند جلدها . وأقله أربعة عدد شهود الزنى . وقيل : عشرة . وقيل ثلاثة وقيل : اثنان . انتهى.

وتقدم عن ابن جرير أن الطائفة تصدق بالواحد ، لغة . فتذكر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

« الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

لما أمر الله بعقوبة الزانيين ، حرم منا كحتهما على المؤمنين ، هجراً لهما ولما معهما من الذنوب كقوله[١] (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) وجعل مُجالس فاعل ذلك المنكر ، مثلَه بقوله[٢] (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) وهو زوج له قال تعالى[٣] (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) أى عشراءهم وأشباههم . ولهذا يقال: (المستمع شريك المغتاب) ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر . وكان فيهم جليس لهم صائم، فقال: ابدءوا به فى الجلد. ألم يسمع قول الله تعالى[٤] (فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ) فإذا كان هذا فى المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم المنكر، يكون مجالسهم مثلا لهم ، فكيف بالعشرة الدائمة : (والزوج) يقال له : العشير . كما فى الحديث[٥] (ويكفرن العشير) وأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك. أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها . وأما الزانى ففجوره يدعوه إلى ذلك ، وإن لم يكن مشركاً . وفيها دليل على أن الزانى ليس بمؤمن مطلق الإيمان . وإن لم يكن مشركا كما فى الصحيح (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح الزانية إلا زان أو مشرك . ثم قال تعالى (وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) فعلم أن الإيمان يمنع منه . وأن فاعله إما مشرك وإما زان، ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك . وذلك أن المزاناة فيها فساد فراش الرجل وفى مناكحتها معاشرة الفاجرة دائماً . والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا عليه . وهذا موجود فى الزانى . فإنه إن لم يفسد فراش امرأته كان قرين سوء لها ، كما قال الشعبي: من زوج كريمته من فاسق، فقد قطع رحمها . وهذا مما يدخل على المرأة ضراراً فى دينها ودنياها . فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش. ونكاح الزانى أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم . فتبقى المرأة الحرة العفيفة فى أسر الفاجر الزانى الذى يقصّر فى حقوقها، ويعتدى عليها، ولهذا اتفقوا على اعتبار الكفاءة فى الدين، وعلى

(١) [٧٤/المدثر / ٥] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٠] . (٣) [٣٧ / الصافات / ٢٢] .
(٤) [٤ / النساء / ١٤٠] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى: ٦ ـ كتاب الحيض، ٦ ـ باب ترك الحائض الصوم ، حديث ٢١٥ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة . واختلفوا فى صحة النكاح بدون ذلك. فإن من نكح زانية فقد رضى لنفسه بالقيادة والدياثة . ومن نكحت زانيا فهو لا يحصن ماءه ، بل يضعه فيها وفى غيرها من البغايا . فهى بمنزلة المتخذة خدناً . فإن مقصود النكاح حفظ الماء فى المرأة. وهذا لا يحفظ ماءه . والله سبحانه شرط فى الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين، فقال[1] (وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وهذا مما لا ينبغى إغفاله . فإن القرآن قد قصّه وبينه بياناً مفروضاً . كما قال تعالى (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا) فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء . وفيه آثار عن السلف . وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه . وقد ادعى بعضهم أنها منسوخة بقوله[1] (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) وزعموا أن البغىّ من المحصنات . وتلك حجة عليهم ، فإن أقل ما فى الإحصان العفة . وإذا اشترط فيه الحرية ، فذاك تكميل للعفة والإحصان . ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرقّ ولده ، فكيف يبيح البغىّ الذى يلحق به من ليس بولده ؟ وأين فساد فراشه من رقّ ولده؟ وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء وهذا حجة عليهم. فمن وطئ زانية أومشركة بنكاح ، فهو زان . وكذلك من وطئها زان. فإن ذم الزانى بفعله الذى هو الزنى.حتى لو استكرهها أواستدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزانى دون قرينه.والمقصود أن الآية تدل على أن الزانى لا يتزوج إلا زانية أو مشركة . وأن ذلك حرام على المؤمنين . وليس هذا مجرد كونه فاجراً ، بل لخصوصية كونه زانياً . وكذلك فى المرأة . ليس بمجرد فجورها ، بل لخصوص زناها ، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً كما جعله زانياً إذا تزوج زانية. وهذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنى . وإلا إن كانا مشركين ، فينبغى أن يعلم ذلك . ومضمونه أن الزانى لا يجوز إنكاحه حتى يتوب . وذلك يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة الزانية لا تحصن فرجها . ولهذا يجب عليه نفى الولد الذى ليس منه . فمن نكح زانية

---

(١) [٤ / النساء/٢٤].

فهو زان ، أي تزوجها . ومن نكحت زانياً فهي زانية ، أي تزوجته . فإن كثيراً من الزناة قصروا أنفسهم على الزواني ، فتكون خدناً له لا يأتي غيرها ، فإن الرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته فتتشوق إلى غيره فتزني كما هو الغالب على نساء الزاني ومن يلوط بالصبيان . فإن نساءهم يزنين ليقضين أربهن ، وليراغمن أزواجهن . ولهذا يقال : عفوا تعف نساؤكم . وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم . فكما تدين تدان ، والجزاء من جنس العمل ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها . فإن الرجل إذا رضي أن ينكح زانية ، رضي بأن تزني امرأته . والله سبحانه قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة . فأحدهما يحب لنفسه ما يحب للآخر . فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله ، وكذلك الرجل . ومن رضي بالزنى فهو بمنزلة الزاني ، فإن أصل الفعل هو الإرادة . ولهذا في الأثر [١] من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها . وفي الحديث [٢] (المرء على دين خليله) وأعظم الخلة خلة الزوجين . وأيضاً ، فإن الله تعالى جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف . فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته ، أعظم من غيرته على نفسه أن يزني . فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغياً وهو ديوث ، كيف يكره أن يكون هو زانياً ؟ ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنى ، فإن الزنى له شهوة في نفسه . والديوث له شهوة في زنى غيره . فإذا لم يكن معه إيمان يكره من زوجته ذلك ، كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنى ؟ فمن استحل أن يترك امرأته تزني ، استحل أعظم الزنى . ومن أعان على ذلك فهو كالزاني . ومن أقر عليه ، مع إمكان تغييره ، فقد رضيه . ومن تزوج غير تائبة فقد رضي أن تزني . إذ لا يمكنه منعها . فإن كيدهن عظيم . ولهذا جاز له ، إذا أتت بفاحشة مبينة ، أن يعضلها لتفتدي . لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه . فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب . ولا يسقط المهر بمجرد زناها . كما دل عليه قوله [٣] ﷺ للملاعن (لما قال مالي) قال : لا مال لك عندها

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٦ ـ كتاب الملاحم ، ١٧ ـ باب الأمر والنهي ، حديث ٤٣٤٥ عن العرس بن عميرة الكندي . (٢) أخرجه الترمذيّ في : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٤٥ ـ باب حدثنا محمد بن بشار عن أبي هريرة . (٣) أخرجه البخاريّ في : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ٥٣ ـ باب المتعة التي لم يفرض لها ، عن ابن عمر ، حديث ٢١٦٤ .

إن كنت صادقاً فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كاذباً عليها فذاك أبعد وأبعد لك منها؛ لأنها إذا زنت قد تتوب. لكن زناها يبيح إعضالها حتى تفتدي إن اختارت فراقه، أو تتوب . وفى الغالب أن الرجل لا يزنى بغير امرأته ، إلا إذا أعجبه ذلك الغير . فلا يزال يزنى بما يعجبه ، فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة . لا هى أيم ولا ذات زوج . فيدعوها ذلك إلى الزنى ، ويكون الباعث لها مقابلة زوجها على وجه القصاص . فإذا كان من العادين لم يكن قد أحصن نفسه . وأيضا فإن داعية الزانى تشتغل بما يختاره من البغايا، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة. ولا غيرته كافية فى إحصانه المرأة، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً ، وهذه معان شريفة لا ينبغى إهمالها. وعلى هذا ، فالمساحِقة زانية ، كما فى الحديث [1] : (زنى النساء سحاقهن) والذى يعمل عمل قوم لوط زان ، فلا ينكح إلا زانية أو مشركة . ولهذا يكثر فى نساء اللوطية من تزنى ، وربما زنت بمن يتلوط به مراغمة له وقضاء لوطرها. وكذلك المتزوجة بمخنث ينكح كما تنكح، هى متزوجة بزان ، بل هو أسوأ الشخصين حالاً . فإنه مع الزنى صار ملعونا على نفسه للتخنيث ، غير اللعنة التى تصيبه بعمل قوم لوط. فإن النبى ﷺ لعن من يعمل عمل قوم لوط. وفى الصحيح [2] أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء . وكيف يجوز لها أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره ؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة . وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزانى بغير امرأته عنها . فإذا لم يكن له غيرة على نفسه ، ضعفت غيرته على امرأته وغيرها . ولهذا يوجد من كان مخنثا ليس له كبير غيرة على ولده ومملوكه ومن يكفله . والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطى ، كانت على دينه ، فتكون زانية ، وأبلغ . فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه . فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها .

لـشف الخفاء ١/٤٥٠ ← (١) لم أقف عليه . (٢) أخرجه البخارى فى: ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٣٣ ـ باب نفى أهل المعاصى والمخنثين ، حديث ٢٢٨٩ ، عن ابن عباس .

ولفظ الآية (الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) يتناول هذا كله بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبيه . وفحوى الخطاب الذى هو أقوى من مدلول اللفظ . وأدنى من ذلك أن يكون بطريق القياس ، كما بيناه فى حد اللوطى وغيره . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله . وكله تأييد لما ذهب إليه الإمام أحمد من أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغىّ ، ما دامت كذلك ، فإن تابت صح العقد عليها ، وإلا فلا . وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة . لقوله تعالى (وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) كما فصّله تقىّ الدين .

وقد روى هنا الحافظ ابن كثير آثاراً مرفوعة وموقوفة ، كلها مؤكدة لهذا . ثم قال بعدها : فأما الحديث الذى رواه النسائى(١) عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن عندى امرأة من أحب الناس إلىّ ، وهى لا تمنع يد لامس . قال. (طلقها) قال : لا صبر لى عنها . قال (استمتع بها) . فقال النسائىّ : هذا الحديث غير ثابت . وعبدالكريم أحد رواته ضعيف الحديث ليس بالقوىّ . وقال الإمام أحمد : هو حديث منكر . وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاه النسائىّ فى سننه عن بعضهم . فقال: وقيل: سخية تعطى . وردّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا ترد يد ملتمس . وقيل : المراد أن سجيتها لا ترد يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة . فإن رسول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها ، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد ، أمر رسول الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح البقاء معها . لأن محبته لها محققة . ووقوع الفاحشة منها متوهم ، فلا يصار إلى الضرر العاجل للتوهم الآجل . والله أعلم . انتهى .

(١) أخرجه فى : ٢٦ ـ كتاب النكاح ، ١٢ ـ باب تزويج الزانية .

لطيفة :

سر تقديم (الزانية) فى الآية الأولى و (الزانى) فى الثانية : أن الأولى فى حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع . والثانية فى نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة . والأصل فى النكاح الذكور ، وهم المبتدئون بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم ، لهذا . وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفّاء من الذكور والإناث ، من مناكحة الزناة ذكوراً وإناثاً ، زجراً لهم عن الفاحشة ، ولذلك قرن الزنى والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة . وقد نقل أصحابه الإجماع فى المذهب على أن للمرأة أو لمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق . ومالكٌ أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا فى الدين . وأما فى النسب فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى ، فاستعظمه وتلا[1] (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) انتهى كلام الناصر فى (الانتصاف) ومراد السلف بالكراهة ، ما تعرف بالكراهة التحريمية . فيقرب بذلك مذهب المالكية .

ثم بيّن تعالى حكم جَلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[٥] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ » أى يقذفون بالزنى «الْمُحْصَنَاتِ» أى المسلمات الحرائر العاقلات

---

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] .

البالغات العفيفات عن الزنى «ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أي يشهدون على مارموهن به (فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) أي كل واحد من الرامين . وتخصيص النساء لخصوص الواقعة ، ولأن قذفهن أغلب وأشنع . وإلا فلا فرق فيه بين الذكر والأنثى « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً » أي في أي واقعة كانت ، لظهور كذبهم « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أي لخروجهم عما وجب عليهم من رعاية حقوق المحصنات « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أي القذف « وَأَصْلَحُوا » أي أعمالهم « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أي بقبول توبتهم وعفوه عنهم .

تنبيهات :

الأول : قال ابن تيمية : ذكر تعالى عدد الشهداء وأطلق صفتهم ولم يقيدهم بكونهم (منا) ولا (ممن نرضى) ولا (من ذوى العدل) ولهذا تنازعوا: هل شهادة الأربعة التي لا توجب الحد مثل شهادة أهل الفسوق ؟ هل تدرأ الحد عن القاذف ؟ على قولين : أحدهما تدرأ كشهادة الزوج على امرأته أربعاً . فإنها تدرأ حد القذف ولا توجب الحد على المرأة . ولو لم تشهد المرأة ، فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاعن ، أو يخلى سبيلها ؟ فيه نزاع . فلا يلزم من درء الحد عن القاذف، وجوب حد الزنى فإن كلاهما حد. والحدود تدرأ بالشبهات. وأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ، ولو اعترف المقذوف مرة أو مرتين أو ثلاثا درئ الحد عن القاذف ولم يجب الحد عليه عند أكثر العلماء ولو كان المقذوف غير محصن ، مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة ، لم يحد قاذفه حد القذف . ولم يحد هو حد الزنى بمجرد الاستفاضة . وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد . ولا يقام حد الزنى على مسلم إلا بشهادة مسلمين . لكن يقال لم يقيدهم بالعدالة، وقد أمرنا الله أن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهم الممتثلون ما أمر الله به بقوله[1] (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ) الآية ، وقوله[2] (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٥٢] .

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) وقوله[١] (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ) وقوله[٢] (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا) وقوله[٣] (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) فهم يقومون بها بالقسط لله ، فيحصل مقصود الذى استشهدوه .

والوجه الثانى ـ كون شهادتهم مقبولة لأنهم أهل العدل والرضا . فدل على وجوب ذلك فى القبول والأداء . وقد نهى الله سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله[٤] (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) الآية . لكن هذا نص فى أن الفاسق الواحد يجب التبين فى خبره. وأما الفاسقان فصاعدا . فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى ، وماذكره من عدد الشهود لا يتعين فى الحكم باتفاق العلماء فى مواضع. وعند الجمهور يحكم بلا شهود فى مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك . ويحكم بشاهد ويمين كما مضت بذلك السنة . ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هذا القيد ، لا فى آية الزنى ، ولا فى آية القذف . بل قال (فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ) وإنما أمر بالتثبت عند خبر الفاسق الواحد ، ولم يأمر به عند خبر الفاسقين . فإن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد مالا يوجبه خبر الواحد. ولهذا قال العلماء : إذا استراب الحاكم فى الشهود ، فرقهم وسألهم عما تبين به اتفاقهم واختلافهم . انتهى .

الثانى : قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : ذهب الجمهور إلى أن شهادة القاذف بعد التوبة تقبل . ويزول عنه اسم الفسق . سواء كان بعد إقامة الحد أو قبله ، لقوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) روى البيهقى عن ابن عباس فى هذه الآية : فمن تاب فشهادته فى كتاب الله تقبل . وتأولوا قوله تعالى (أَبَداً) على أن المراد مادام مصرًّا على قذفه. لأن (أبد كل شيء) على مايليق به . كما لو قيل : لاتقبل شهادة الكافر أبدا، فإن المراد مادام مصرًّا على الكفر . وبالغ الشعبى فقال : إن تاب القاذف قبل إقامة الحد عليه ، سقط عنه . وذهبت الحنفية إلى

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .
(٣) [٧٠ / المعارج / ٣٣] . (٤) [٤٩ / الحجرات / ٦] .

أن الاستثناء يتعلق بالفسق خاصة . فإذا تاب سقط عنه اسم الفسق ، وأما شهادته فلاتقبل أبداً . وقال بذلك بعض التابعين . انتهى .

قال الزمخشريّ : والذى يقتضيه ظاهر الآية ونظمها،أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط . كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهم ، وردّوا شهادتهم وفسّقوهم . أى فاجمعوا لهم الجلد والردوالتفسيق ، إلا اللذين تابوا عن القذف وأصلحوا ، فإن الله يغفر لهم ، فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسَّقين . انتهى .

وأخرج البخاريّ فى صحيحه فى (كتاب الشهادات) فى باب شهادة القاذف والسارق والزانى ، عن عمر رضى الله عنه ؛ أنه جلد أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً ، بقذف المغيرة بالزنى ، لما شهدوا بأنهم رأوه متبطن المرأة . ولم يبتّ زيادٌ الشهادة . ثم استتابهم وقال : من تاب قبلتُ شهادته . وفى رواية قال لهم : من أكذب نفسه قبلتُ شهادته فيما يستقبل . ومن لم يفعل ، لم أجز شهادته . فأكذب شبل نفسه ونافع . وأبى أبو بكرة أن يرجع .

قال المهلب : يستنبط من هذا ؛ أن إكذاب القاذف نفسه ليس شرطاً فى قبول توبته . لأن أبا بكرة لم يكذب نفسه ، ومع ذلك فقد قبل المسلمون روايته وعملوا بها .

الثالث : قال الرازيّ : اختلفوا فى أن التوبة عن القذف كيف تكون ؟

قال الشافعيّ رحمه الله : التوبة منه إكذابه نفسه ، واختلف أصحابه فى معناه . فقال الاصطخريّ : يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله. وقال أبو إسحاق : لايقول كذبت لأنه ربما يكون صادقاً فيكون قوله (كذبت) كذباً ، والكذب معصية . والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى ، بل يقول : القذف باطل . ندمت على ماقلت ، ورجعت عنه ، ولا أعود إليه .

الرابع : قال الرازيّ فى قوله تعالى : (وَأَصْلَحُوا) قال أصحابنا: إنه بعد التوبة، لا بدّ من مضىّ مدة عليه فى حسن الحال، حتى تقبل شهادته وتعود ولايته . ثم قدّروا تلك المدة بسَنة

حتى تمرّ عليه الفصول الأربعة ، التى تتغير فيها الأحوال والطباع . كما يضرب للعنّين أجل سنة . وقد علق الشرع أحكاماً بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما . انتهى .

وقال الغزالىّ فى (الوجيز) : يكفيه أن يقول : تبت ولا أعود . إلا إذا أقر على نفسه بالكذب، فهو فاسق ، يجب استبراؤه كـكل فاسق يقول: تبت . فإنه لا يصدق حتى يستبرأ مدة فيعلم بقرائن الأحوال صلاح سريرته . انتهى .

وبه يعلم أن التقدير بسنة لا دليل عليه ، بل المدار على علم صلاحه وظهور استقامته ، ولو على أثر الحدّ .

قال الحافظ ابن حجر : روى سعيد بن منصور من طريق حصين بن عبد الرحمن قال : رأيت رجلا جُلد حدًّا فى قذف بالزنى . فلما فرغ من ضربه أحدث توبة . فلقيت أبا الزناد فقال لى : الأمر عندنا بالمدينة ؛ إذا رجع القاذف عن قوله ، فاستغفر ربه ، قبلت شهادته . وعلقه البخارىّ .

الخامس : ننقل هنا ما أجمله السيوطىّ فى (الإكليل) مما يتعلق بأحكام الآية . قال رحمه الله : فى هذه الآية تحريم القذف ، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته ، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أى عفيفة . ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنى لا يحد للقذف . ويصرح بذلك قوله (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ) وفيها أن الزنى لا يقبل فيه إلا أربعة رجال ، لا أقل . ولا نساء . وسواء شهدوا مجتمعين أو متفرقين . واستدل بعموم الآية من قال : يحدّ العبد أيضا ثمانين . ومن قال : يحد قاذف الكافر والرقيق وغير البالغ والمجنون وولده . واحتج بها على أن من قذف نفسه ثم رجع لا يحدّ لنفسه . لأنه لم يرم أحداً. واستدل بها من قال : إن حد القذف من حقوق الله ، فلا يجوز العفو عنه . انتهى .

ثم رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، تحقيقاً فى بحث قبول الشهادة بعد التوبة، جديراً بأن يؤثر . قال رحمه الله : وقوله تعالى (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا) نصٌّ فى أن هؤلاء القذفة لا تقبل شهادتهم أبداً. واحداً كانوا أو عدداً . بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل

الجمع والبدل ، لأنها نزلت فى أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير . وكان الذين قذفوا عائشة عدداً ، ولم يكونوا واحداً لما رأوها قدمت صحبة صفوان بن المعطل ، بعد قفول العسكر ، وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها فُقدت ، فرفعوا هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها ، ولم تكن فيه . فلما رجعت لم تجد أحداً فمكثت مكانها . وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش . فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأناخ راحلته حتى ركبتها . ثم ذهب إلى العسكر. فكانت خلوته بها للضرورة . كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة كسفر الهجرة. مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة مهاجرة ، وقصة عائشة .

ودلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقين. ودلت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور . فإنه كان من جملتهم مسطح وحسان وحمنة. ومعلوم أنه ﷺ لم يردّ شهادة أحد منهم، ولا المسلمون بعده لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها. ومن لم يتب حينئذ ، فإنه كافر مكذب بالقرآن. وهؤلاء ما زالوا مسلمين . وقد نهى الله عن قطع صلتهم . ولو ردت شهادتهم بعد التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر شهادة أبى بكرة . وقصة عائشة أعظم من قصة المغيرة . لكن من رد شهادة القاذف بعد التوبة يقول: أرد شهادة من حُدّ فى القذف. وهؤلاء لم يحدوا . والأولون يجيبون بأجوبة : أحدها ـ أنه قد روى فى السنن أنهم حدوا . الثانى أن هذا الشرط غير معتبر فى ظاهر القرآن، وهم لا يقولون به. الثالث ـ أن الذين اعتبروا الحد اعتبروه وقالوا: قد يكون القاذف صادقاً وقد يكون كاذباً. فإعراض المقذوف عن طلب الحد قد يكون لصدق القاذف . فإذا طلبه ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه . ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم من ظهور كذب كل أحد . فإن الله عز وجل هو الذى برأها بكلامه الذى أنزله من فوق سبع سموات يتلى ، فإذا كانت شهادتهم مقبولة ، فغيرهم أولى . وقصة عمر التى حكم فيها بين المهاجرين والأنصار ، فى شأن المغيرة ، دليل على الفصلين جميعاً . لما توقف الرابع لجلد الثلاثة دونه وردّ شهادتهم . لأن اثنين من الثلاثة تابا فقبل شهادتهما. والثالث وهو أبو بكرة، مع كونه من أفضلهم، لم يتب.

فلم يقبل المسلمون شهادته . وقد قال عمر : تب أقبل شهادتك . لكن إذا كان القرآن قد بين أنهم إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبداً ، ثم قال بعد ذلك (وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) فمعلوم أن قوله (هُمُ الْفَاسِقُونَ) وصف ذم لهم زائد على رد الشهادة .

وأما تفسير العدالة فإنها الصلاح فى الدين والمروءة . وإذا وجد هذا فى شخص كان عدلًا فى شهادته وكان من الصالحين . وأما أنه لا يستشهد أحد فى وصية ولا رجعة فى جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة ، فليس فى كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك ، بل هذا صفة المؤمن الذى أكمل إيمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها . ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين .

ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها ، بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصيه إلا الله ، مما يكون تركه أعظم إثماً من شرب الخمر والزنى ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً فى عدالته ، إما لعدم استشعار كثرة الواجبات ، وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات ، وليس الأمر كذلك فى الشريعة . وبالجملة ، فهذا معتبر فى باب الثواب والعقاب والمدح والذم والموالاة والمعاداة ، وهذا أمر عظيم . وباب الشهادة مداره على أن يكون الشهيد مرضيًّا ، أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل فى أقواله وأفعاله . والصدق فى شهادته وخبره . وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات . كما أن الصفات التى اعتبروها كثيرا ما توجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً . لكن يقال : إن ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودليل عليها وعلامة لها . فإن النبى ﷺ قال فى الحديث[1] المتفق على صحته (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٦٩ ـ باب قول الله تعالى : يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، حديث ٢٣٤٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم ١٠٥ (طبعتنا)

إلى الجنة ..) الحديث . فالصدق مستلزم للبر ، كما أن الكذب مستلزم للفجور . فإذا وجد الملزوم ، وهو تحري الصدق ، وجد اللازم وهو البر . وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق . وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم . وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب ، ولهذا يستدل بعدم بر الرجل على كذبه . وبعدم فجوره على صدقه . فالعدل الذي ذكروه ؛ من انتفى فجوره . وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة . وإذا انتفى ذلك فيه ، انتفى كذبه الذي يدعوه إلى الفجور . والفاسق هو من عدم بره ، وإذا عدم بره عدم صدقه . ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعي إلى البر يستلزم البر ، والداعي إلى الفجور يستلزم الفجور . فالخطأ كالنسيان والعمد كالكذب . انتهى .

ثم بين تعالى حكم الرامين لأزواجهم خاصة ، بعد بيان حكم الرامين بغيرهن ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَالذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

[٧] (وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » أي بالزنى « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أي فيما رماها به من الزنى « وَالْخَامِسَةُ » أي والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة « أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » أي فيما رماها به من الزنى . فيسقط عنه حد القذف ، ويجب عليها الحد وهو الرجم . إلا إن لاعنت أيضاً . كما قال سبحانه :

---

[٨] ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

[٩] ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

[١٠] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

« وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ » أي الدنيويّ وهو الرجم « أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » أي فيما رماها به من الزنى « وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ » أي الزوج « مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ » أي لحرجتم وشق عليكم كثير من أموركم . ولكن لرحمته ولطفه ، شرع لكم من الفرج والمخرج ، ما أنزله وأحكمه .

تنبيهات

الأول ـ قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل . وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعى عليها بما رماها به . فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين . أي فيما رماها به من الزنى . والخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعيّ وطائفة كثيرة من العلماء . وحرمت عليه أبداً . ويعطيها مهرها . ويتوجه عليها حد الزنى . ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . أي فيما رماها به . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

الثاني ـ روى في الصحيح[1] أن ذلك وقع في عهد النبيّ ﷺ . وأن رجلاً قال للنبيّ ﷺ :

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٣٠ ـ باب التلاعن في المساجد ، حديث ٢٧٩ ، عن سهل بن سعد .

أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً ، أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يفعل؟فقال له رسول الله ﷺ: قد قضى الله فيك وفى امرأتك . وتلا عليه ما نزل من هذه الآية . فتلاعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصح أيضا أنها قد وقعت لرجلين سمِّيا . وقد اختلف شراح الصحيح فى معنى ماروى من أنها نزلت فيهما معاً .

وإذا راجعت ما كتبناه فى (المقدمة) فى معنى سبب النزول ، زال الإشكال . فارجع إليه.

الثالث ـ قال السيوطىّ فى(الإكليل):هذه الآية أصل فى اللعان.ففيها أن شرطه سبق قذف. وأنه إنما يكون بين الزوجين لا بين الرجل وأجنبية ولا السيد وأمته.واستدل بعمومها من قال بلعان الكفار والعبيد والخصىّ والمجبوب والمحدود فى القذف والأعمى والأخرس،ومن الصغيرة التى لا تحمل والآيسة . واستدل بقوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ)من قال لا لعان إذا أقام البينة على زناها وبقوله (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ) من قال:إن اللعان شهادة لا يمين. وقوله (أربع شهادات بالله) الخ فيه أن صيغته أن يقول: أشهد بالله إنى لمن الصادقين، أربعاً والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فاستدل به من لم يجز إبدال أشهد(بأحلف أو أقسم ونحوه) أو اللهِ (بالرحمن ونحوه) أو زاد (يعلم الله ونحوه) ومن لم يوجب زيادة (الذى لا إله إلا هو) ومن لم يجز إسقاط (إنى لمن الصادقين) ولا إبدالها (بما كذبت عليها ونحوه) ولا الاكتفاء بدون أربع ،خلافاً لأبى حنيفة،فى اكتفائه بثلاث شهادات.ولا تقديم اللعنة على الشهادة ، أو توسطها، أو إبدالها بالغضب.وقوله تعالى (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ)الآية،فيه أن لعانه يوجب على المرأة حد الزنى وأن لها دفعه بأن تقول أربع مرات . أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها الخ . وفيه أيضاً أنه لا يجوز لها أن تبدل أشهد (بأحلف) أو الغضب (باللعنة) إلى آخر ما تقدم واستدل به على أنه لا يجوز تقديم لعانها على لعانه . انتهى .

الرابع : اعلم أن الحد الواجب بالزنى نوعان : جلد ورجم . فالجلد حد البكرين الحرّين إذا زنيا . فيجلد كل واحد منهما مائة جلدة . وفى تغريبهما سَنَة ، وتغريب الزانى وحده كذلك ، خلاف . نعم ، إذا رآه الإمام مصلحة فلا خلاف فى إمضائه . والرجم حد الزانيين المحصنين . والإحصان عبارة عن البلوغ والعقل والحرية والدخول فى النكاح الصحيح . فلا يقتل بالسيف ، بل ينكل بالرجم ، لا بصخرة تدفف ، ولا بحصيات تعذب ، بل بحجارة معتدلة ، كما فى (الوجيز) وقد اعترض جماعة الخوارج على تشريع الرجم فى الإسلام وقالوا: إن الله لم يأمر به فى كتابه العزيز. فالذى ورد فى عقاب الزنى فى القرآن حكمان. أحدهما قوله[(١)] تعالى (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا. وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا » وهذا الحكم قد نسخ ـ أى بيّن ـ بالحكم الثانى وهو قوله تعالى[(٢)] (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) هذه حجة الخوارج . أما حجة الإجماع فهى ورود الآثار الصحيحة الدالة على أن النبىّ ﷺ أمر برجم المحصن . وفعلَه . وروى لذلك جملة أحاديث وأحكام عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، كذا فى كتاب (المقابلات) وسبقه الرازىّ فى (تفسيره) فطوّل النفس فى سوق شبهة الخوارج، وأجاب عنها بما ملخصه: أن الآية المذكورة مخصوصة بالبكر ، خصصها الخبر المتواتر بالرجم ، وتخصيص القرآن الكريم بخبر الواحد جائز . فأولى بالمتواتر . وثانيا ـ قال ـ إنه لا يستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح . فلعل المصلحة التى تقتضى وجوب الرجم ، حدثت بعد نزول تلك الآيات . انتهى.

قال صاحب (المقابلات) : إن الشريعة الإسلامية متفقة مع الشرع العبرىّ فى أغلب أحكام الزنى، ولم يرد فى الديانة المسيحية نص صريح ينسخ حكم اليهودية فى الزنى . ولكن يروى

(١) [٤ / النساء / ١٥ و١٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٢] .

عن عيسى عليه السلام ، ما يؤخذ منه ضمناً ، عدم إمكان إقامة حدالرجم . لأنه اشترط براءة الراجمين من كل عيب ، وأمر الزانية ، التي اعترفت بين يديه ، بالتوبة والاستغفار . أما حكم الزنى فى القوانين الحديثة فيخالف مخالفة كلية لحكم الشريعة الغراء ، وحكم التوراة والإنجيل انتهى كلامه .

وفقنا الله لحفظ حدوده ، وجنبنا محارمه بمنه وكرمه .

التنبيه الرابع : من مباحث اللفظ فى الآية أن يقال : قد وردت الفاصلة فى غير هذا الموضع بـ(تواب رحيم) فعلام فصلت هنا بـ(تواب حكيم) مع أن التوبة مع الرحمة ، فيما يظهر ؟ (والجواب) أن الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التى أمر بها . وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده . وذلك حكمة منه . ففصلت هذه الآية بـ(تواب حكيم) إثر بيان الحكم . جمعاً بين التوبة المرجوّة من صاحب المعصية ، وبين الحكمة فى سترها على تلك الصورة . فافهم ذلك . أشار له ابن الأثير فى (المثل السائر) .

ثم أشار تعالى إلى نبأ الإفك ، وتبرئة عائشة رضى الله عنها ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ » أى بأبلغ ما يكون من الكذب ، وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك . والمراد به ما أفك به الصديقة ، أم المؤمنين رضى الله عنها ؟ فاللام للعهد ويجوز حمله على الجنس . قيل : فيفيد القصر ، كأنه لا إفك إلا هو . وفى لفظ (المجىء) إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل (عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) أى جماعة منكم . خبر (إن) و (منكم) نعت لها . وبه أفاد الخبر . وقوله تعالى « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ »

مستأنف ، والهاء ضمير الإفك أو القذف . والخطاب لرسول الله صلوات الله عليه ، ولآل الصديق رضي الله عنهم ، ولمن ساءه ذلك من المؤمنين . تسلية لهم من أول الأمر . وقوله تعالى « بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » زيادة في التسلية والتكريم . أي لا تظنوه يلحق تهمة بكم ، أو يوقع نقيصة فيكم ، بل قد جرّ لكم خيراً عظيماً .

قال الزمخشريّ : ومعنى كونه خيراً لهم ، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم . لأنه كان بلاءً مبيناً ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة ، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه . وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها . « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ » أي جزاؤه ، وذلك الذم في الدنيا إلى يوم القيامة ، والجلد ثمانين . ولعذاب الآخرة أشد « وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أي قام بعظمه وإشاعته ، بعد ابتدائه بالخوض فيه ، وهو رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ ، وانتهازه الفرص ، وطلبه سبيلا إلى الغميزة .

روى[1] الطبريّ عن ابن زيد قال : أما الذي تولى كبره فعبد الله بن أُبيّ ابن سلول الخبيث . هو الذي ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقود بها . والعذاب العظيم يعم عذابي الدارين ، كما قلنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

« لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا » أي بالذين منهم من

(١) انظر الصفحة رقم ٨٩ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

المؤمنين والمؤمنات، كقوله تعالى(١) (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) قال الشهاب : وهذا من بديع الكلام . وقد وقع فى القرآن كثيرا . وهو بحسب الظاهر يقتضى أن كل واحد يظن بنفسه خيراً، وليس بمراد. بل أن يظن بغيره ذلك. وتوجيهه أنه مجاز، لجعله اتحاد الجنس كاتحاد الذات ولذا فسر قوله (٢)(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) :(لا تقتلوا من كان من جنسكم) أو بجعلهم كنفس واحدة ، فمن عاب مؤمناً فكأنما عاب نفسه ، ويجوز أن يقدر فيه مضاف . أى : ظن بعض المؤمنين والمؤمنات بأنفس بعضهم الآخر . وقال الكرمانىّ فى حديث (أموالكم عليكم حرام) إنه كقولهم (بنو فلان قتلوا أنفسهم) أى قتل بعضهم بعضاً، مجازاً أو إضماراً للقرينة الصارفة عن ظاهره . و (لولا) تحضيضية بمعنى (هلا) « وقالوا هـذا إفك مبين » أى هذا الذى سمعناه ، من رمى أم المؤمنين ، إفك مبين جلىّ لمن عقل وفكر فيه . قال العلامة الزمخشرىّ: فإن قلت : هلا قيل (لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم) ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ؟ وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات . وليصرح بلفظ (الإيمان) دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ ألا يصدق مؤمن على أخيه ، ولا مؤمنة على أختها ، قولَ عائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن ، إذا سمع قالةً فى أخيه ، أن يبنى الأمر فيها على الظن ، لا على الشك . وأن يقول بملء فيه ــ بناءً على ظنه بالمؤمن الخير ــ : هذا إفك مبين . هكذا باللفظ المصرح ببراءة ساحته . كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال . وهـذا من الأدب الحسن الذى قلّ القائم به والحافظ له . وليتك تجد من يسمع فيسكت ، ولا يشيع ما سمعه بأخواتٍ ! انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

(١) [٤٩ / الحجرات / ١١] . (٢) [٤ / النساء / ٢٩] .

« لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِنْدَ اللهِ » أى فى حكمه وشريعته المؤسسة على الدلائل الظاهرة المستيقنة « هُمُ الْكَاذِبُونَ » أى الكاملون فى الكذب ، المشهود عليهم بذلك . قال الزمخشرىّ : وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدّوا فى دفعه وإنكاره . واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع ، من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل به ، إذا قذف امرأة محصنة من عُرْضِ نساء المؤمنين . فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ، حرمة رسول الله ﷺ ، وحبيبة حبيب الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٤] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » أى لعوجلتم بالعقاب ، بسبب ما خضتم فيه من الإفك . ولكنه واسع الفضل والرحمة ، يمهل المذنب للتوبة ، ويحلم عنه للأوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ)

« إِذْ تَلَقَّوْنَهُ » أى وقت تلقّى بعضكم من بعض « بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا » أى لا تبعة له ولا عقوبة على مشيعه « وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ » أى والحال أنه عظيم فى الوزر واستجرار العذاب. قال المهايمىّ: لأن الجراءة على رسول الله وعلى أوليائه، تشبه الجراءة على الله تعالى. قال الزمخشرىّ: فإن قلت: ما معنى قوله (بِأَفْوَاهِكُمْ)

والقول لا يكون إلا بالفم ؟ قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ، فيترجم عنه اللسان . وهذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألسنتكم ، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب. كقوله تعالى[١] (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)انتهى. أي فالقيد ليس تأكيداً صرفاً ، (كنظر بعينه) بل ليفيد نفيه عما عداه . وقيل إنه توبيخ، كما تقول (قاله بملء فيه) فإن القائل ربما رمز ، وربما صرح وتشدق . وقد قيل هذا في قوله[٢] (بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) وقيل : فائدته ألا يظن أنه كلام نفسي . فهو تأكيد لدفع المجاز . والسياق يقتضى الأول . كذا في (العناية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

« وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ » أي تكذيباً لمشيعيه « مَا يَكُونُ لَنَا » أي ما يصح لنا بوجه ما « أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » أي تنزيهاً لك ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء. فإنه بهتان عظيم يستحيل صدقه. قال الزمخشري: كلمة (سبحانك)للتعجب من عظم الأمر . فإن قلت : مامعنى التعجب في كلمة التسبيح؟قلت:الأصل في ذلك،أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه . ثم كثر حتى استعمل في كل متعجَّب منه . أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيّه عليه السلام فاجرة . انتهى .

فعلى الأول ، هو من المجاز المتفرع على الكناية ، وهو كثير . وقد ذكره النووي في (الأذكار) وكذا (لا إله إلا الله) تستعمل للتعجب أيضاً . وأما الصلاة على النبي ﷺ في مقام التعجب فلم ترد ولم تسمع في لسان الشرع . وقد صرح الفقهاء بالمنع . وإنما وقع من العوام وبعض المحدثين كقوله :

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٨] .

فمن رأى حُسْنَهُ المفدّى في الحالِ ، صَلّى عَلَى مُحَمَّدْ

وعلى الثاني ، هو حقيقة . كذا في العناية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٨] (وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الاتّصاف بالإيمان يصدّ عن كل مقبح « وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ » أي الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ، دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها . أي ينزلها كذلك مبينة ، ظاهرة الدلالة على معانيها « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

ثم أشار تعالى إلى تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فعلق بذهنه منه شيء ، ألا يتكلم به ولا يذيعه ، بقوله سبحانه متوعدا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ » أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح ، وهي الفرية والرمي بالزنى ونحوه ، كاللواط وما عظم فحشه « فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا » أي من الحدّ وغيره ، مما يتفق من البلايا الدنيوية « وَالْآخِرَةِ » أي من عذاب النار «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» أي ما في القلوب من الأسرار والضمائر «وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» يعني أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقِبُهُ عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » تكرير للمنّة ، بترك المعاجلة بالعقاب ، للدلالة على عظم الجريمة . وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة . وهو (لمسّكم) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[٢٢] (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » أى بإشاعة الفاحشة « وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى » أى ما طهر من دنسها « مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » من عباده بإلهامه التوبة والإنابة « وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال الزمخشري (يأتل) من (ائتلى) إذا حلف، افتعال من الأليّة وهو القَسَم وقيل من قولهم (ما ألوت جهداً) إذا لم تدخر منه شيئاً . ويشهد للأول قراءة الحسن (ولا يتألّ) والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان . أو لا يقصّروا فى أن يحسنوا إليهم ، وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح . وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم وسيأتى سبب نزولها فيمن عنى بها .

ثم بين تعالى وعيد القاذفين للبريئات ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ » أى العفائف عن الفاحشة ، النقيات القلوب عنها « الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا » بالذم والحد وردّ الشهادة إلا إذا تابوا «وَالْآخِرَةِ» أى حيث يلعنهم ثمة الملائكة ومن شاء الله « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها أو بظهور آثار ما عملوه عليها . بحيث يعلم من يشاهدهم ما عملوه . وذلك بكيفية يعلمها الله . فهو استعارة . ورجح الأول لقوله[1] (قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) فظاهره الحقيقة ، وحمله على الثانى بعيد . قيل : سيأتى فى (يس)[2] (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) والختم على الأفواه

---

(١) [٤١ / فصلت/٢١] . (٢) [٣٦ / يس / ٦٥] .

ينافى شهادة الألسنة . والجواب أن الختم على الأفواه معناه المنع عن التكلم بما يريده وينفعه ، بحسب زعمه ، اختياراً . كالإنكار والاعتذار . أو أن هذا فى حال ، وذلك فى حال . أو كل منهما فى حق قوم غير الآخرين ، أو هذا فى حق القذفة ، وذاك فى حق الكفرة ـ وليس بشىء ـ إذ لا منافاة ، فالسر فى التصريح بالألسنة هنا ، وعدم ذكرها هناك ، أن الآية لما كانت فى حق القاذف بلسانه ، وهو مطالب معه بأربعة شهداء ، ذكر هنا خمسة أيضا ، وصرح باللسان الذى به عمله ليفضحه ، جزاءً له من جنس فعله . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)

« يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ تشهد عليهم بما ذكر « يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ » أى جزاءهم « الْحَقَّ » أى الواجب الثابت « وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » أى المظهر للأمور كما هى فى أنفسها . ثم أشار تعالى إلى ما يؤكد التبرئة من شاهد العرف والعادة ، فى أنه لا يضم الشكل إلا إلى شكله ، ولا يساق الأهل إلا إلى أهله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« الْخَبِيثَاتُ » أى من النساء « لِلْخَبِيثِينَ » أى من الرجال « وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » أى بحيث لا يكاد يتجاوز كلٌّ واحد إلى غيره. و(الطيب) ضد الخبيث وهو الأفضل من كل شىء والأحسن والأجود . قال أبو السعود : وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، تبين كون الصدّيقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة . واتضح بطلان ما قيل فى حقها من الخرافات ،

حسبما نطق به قوله تعالى « أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة . وبهذه الآية تم نبأ أهل الإفك .

واعلم أن ما اشتملت عليه هذه الآيات من الأحكام والفوائد والمطالب والآداب ، لا تفى بها مجلدات . إلا أنا نشير إلى شىء من ذلك ، نقتبسه من أهم المراجع ، تتميما لما أجملناه فى تأويلها .

فالأول: أن نبأ الإفك كان فى غزوة المريسيع (تصغير مرسوع ، بئر أو ماء لخزاعة) وكانت فى شعبان سنة خمس . وسببها أنه ﷺ بلغه أن الحارث بن أبى ضرار ، سيد بنى المصطلق سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريد حرب رسول الله ﷺ . فخرج رسول ﷺ بمن معه من أصحابه . وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها ، فأغار عليهم . فسبى ذراريهم وأموالهم . وكانت عائشة رضى الله عنها قد خرجت معه ، عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الغزوة ، بقرعة أصابتها . وكانت تلك عادته مع نسائه . فلما رجعوا من الغزوة ، نزلوا فى بعض المنازل . فخرجت عائشة لحاجتها . ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه . فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها . فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها ، فظنوها فيه ، فحملوا الهودج ، ولا ينكرون خفته ، لأنها رضى الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذى كان يثقلها . وأيضا ، فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج ، لم ينكروا خفته . ولو كان الذى حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال . فرجعت عائشة إلى منزلهم وقد أصابت العقد ، فإذا ليس لها داع ولا مجيب . فقعدت فى المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون فى طلبها . والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل (بفتح الطاء المشددة سلمى ذكوانى صحابى فاضل متقدم الإسلام) : إنا لله وإنا إليه راجعون . زوجة رسول الله ﷺ . وكان صفوان قد عرس فى أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم كما جاء عنه فى صحيح أبى حاتم وفى السنن . فلما رآها عرفها . وكان يراها قبل نزول الحجاب . فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليها . فركبتها . وما كلمها كلمة واحدة . ولم

تسمع منه إلا استرجاعه . ثم سار بها يقودها حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش فى نحر الظهيرة فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به . ووجد الخبيث عدو الله ابن أبيّ متنفساً . فتنفس من كرب النفاق والحسد الذى بين ضلوعه . فجعل يستحكى الإفك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه . وكان أصحابه يتقربون إليه . فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم . ثم استشار أصحابه فى فراقها ، فأشار عليه علىّ رضى الله عنه أن يفارقها ويأخذ غيرها ، تلويحاً لا تصريحا . وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء . فعلىّ ، لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين ، ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذى لحقه من كلام الناس فأشار بحسم الداء . وأسامة لما علم حب رسول الله ﷺ لها ولأبيها ، وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ، ما هى فوق ذلك وأعظم منه ، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه ومنزلته عنده ودفاعه عنه ؛ أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته، من النساء وبنت صديقه بالمنزل الذى أنزلها به أرباب الإفك . وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيا . وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أكرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة وهى تحت رسوله . ومن قويت معرفة الله ومعرفة رسوله وقدره عند الله فى قلبه ـ قال كما قال أبو أيوب وغيره من سادات الصحابة ، لما سمعوا ذلك: (سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)وتأمل ما فى تسبيحهم لله وتنزيههم له فى ذلك المقام ، من المعرفة به وتنزيهه عما لا يليق به أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه ، امرأة خبيثة بغيا . فمن ظن به سبحانه هذا الظن ، فقد ظن به السوء . وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله ، أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها . كما قال تعالى (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) فقطعوا قطعا لا يشكون فيه ، أن هذا بهتان عظيم وفرية ظاهرة .

فإن قيل : فما بال رسول الله ﷺ توقف فى أمرها وسأل عنها وبحث واستشار وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده فيما يليق به . وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟

فالجواب : أن هذامن تمام الحكم الباهرةالتى جعل اللههذه القصةسببا لها، وامتحاناً وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة . ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين . ويزيد اللهالذين اهتدوا هدى وإيماناً ، ولايزيد الظالمين إلاخساراً . واقتضى تمامالامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحى شهراً فىشأنها . لا يوحى إليه فى ذلكبشىء ليتم حكمته التى قدّرها وقضاها ، ويظهر على أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنون الصادقونإيماناً وثباتاً على العدل والصدقوحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده. ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً . ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبوديةالمرادة منالصدّيقة وأبيها . وتتم نعمة الله عليهم ، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبيها ، والافتقار إلى الله ، والذل له ، وحسن الظن به ، والرجاء له . ولينقطع رجاؤها من المخلوقين ، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق . ولهذا وفّت لهذا المقام حقه ، لما قال لها أبوها : قومى إليه ، وقد أنزل الله عليه براءتها ، فقالت : والله ! لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله الذى أنزل براءتى .

وأيضاً ، فكان من حكمة حبسالوحى شهراً، أن القضيةنضجت وتمخضت واستشرفت قلوبالمؤمنينأعظم استشراف، إلىمايوحيه اللهإلى رسوله فيها . وتطلعتإلى ذلكغاية التطلع . فوافى الوحى أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته ، والصديق وأهله وأصحابه ، والمؤمنون . فورد عليهم ورود الغيث على الأرض ، أحوج ما كانت إليه . فوقع منهم أعظم موقع وألطفه . وسروا بهأتم السرور، وحصللهم بهغاية الهناء. فلو أطلع اللهرسوله علىحقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحى علىالفور بذلك، لفاتت هذهالحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها .

وأيضاً ، فإن اللهسبحانه أحبأن يظهر منزلة رسولهوأهل بيته عندهم، وكرامتهمعليه . وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسهالدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه ،

وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه ، بل يكون هو وحده المتولى لذلك ، الثائر لرسوله وأهل بيته .

وأيضاً ، فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى . والتي رميت زوجته . فلم يكن يليق أن يشهد ببراءتها . مع علمه ، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها ، ولم يظن بها سوءاً قط ، وحاشاه وحاشاها . ولذلك لما استعذر من أهل الإفك ، قال : من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ والله ! ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلي إلا معي . فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين . ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه وحسن ظنه بربه ، وثقته به ، وفّى مقام الصبر والثبات وحسن الظن بالله حقه . حتى جاءه الوحي بما أقرّ عينه وسر قلبه وعظم قدره وظهر لأمته احتفال ربه به واعتناؤه بشأنه .

ولما جاء الوحي ببراءتها أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك ، فحدوا ثمانين ثمانين . ولم يحد الخبيث عبد الله ابن أبيّ ، مع أنه رأس الإفك . فقيل : لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة . والخبيث ليس أهلا لذلك . وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد . وقيل : بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه وقيل : الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بينة . وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد . فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه . ولم يكن يذكره بين المؤمنين وقيل : حد القذف حق الآدميّ ، لا يستوفى إلا بمطالبته . وإن قيل إنه حق لله فلابد من مطالبة المقذوف وعائشة لم تطالب به ابن أبيّ . وقيل : بل ترك حدّه لمصلحة هي أعظم من إقامته . كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً . وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام . فإنه كان مطاعاً فيهم رئيساً عليهم . فلم يؤمن إثارة فتنة في حده ، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها . فجلد مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش . وهؤلاء من المؤمنين الصادقين ، تطهيراً لهم وتكفيراً . وترك عدو الله ابن أبيّ إذا فليس هو من أهل

ذاك ـ هذا ما أفاده الإمام ابن القيم رحمه الله فى (زاد المعاد) وهو خلاصة الروايات فى هذا الباب.

ثم قال رحمه الله : ومن تأمل قول الصديقة، وقد نزلت براءتها، فقال لها أبوها : قومى إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ـ علم معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها ، وإفراده بالحمد فى ذلك المقام ، وتجريدها التوحيد ، وقوة جأشها وإدلالها ببراءة ساحتها ، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها فى مقام الراغب فى الصلح الطالب له. ولثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها، قالت ما قالت . إدلالا للحبيب على حبيبه ، ولاسيما فى مثل هذا المقام الذى هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعته موضعه. ولله! ما كان أحبها إليه حين قالت : لا أحمد إلا الله فإنه هو الذى أنزل براءتى ولله! ذلك الثبات والرزانة منها ، وهو أحب شىء إليها، ولا صبر لها عنه . وقد تنكر قلب حبيبها لها شهراً . ثم صادفت الرضاء منه والإقبال، فلم تبادر إلى القيام إليه ، والسرور برضاه وقربه ، مع شدة محبتها له . وهذا غاية الثبات والقوة. انتهى .

وطرق حديث الإفك متعددة عن أم المؤمنين عائشة وعن ابن الزبير وأم رومان وابن عباس وأبى هريرة وأبى اليسر. ورواه من التابعين عشرة كما فى (فتح البارى) وذلك فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها. ما بين مطول وموجز. ومن الثانى ما أخرجه الإمام[(١)] أحمد عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بابنها وفعل. فقالت عائشة : ولم ؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث. قالت: وأىّ حديث ؟ قالت: كذا كذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت : نعم. قالت وبلغ أبا بكر ؟ قالت: نعم. فخرت عائشة رضى الله عنها مغشيا عليها .فما أفاقت وإلا وعليها حمى بنافض. قالت : فقمت فدثرتها. قالت: فجاء النبىّ ﷺ قال: فما شأن هذه ؟ فقلت: يارسول الله أخذتها حمى بنافض . قال: فلعله فى حديث تحدث به؟ قالت: فاستوت عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقونى،

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

ولئن اعتذرت إليكم لا تعذرونى . فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال[١] (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عذرها . فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر . فدخل فقال : يا عائشة ! إن الله تعالى قد أنزل عذرك . فقالت: بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول ﷺ ؟ قالت : نعم .

قالت: وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل يعوله أبو بكر . فحلف ألّا يصله . فأنزل الله تعالى[٢] (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) إلى آخر الآية . فقال أبو بكر : بلى، فوصله . تفرد به البخارى[٣] .

المطلب الثانى : قال فى (الإكليل) فى قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ) نزلت فى براءة عائشة مما قذفت به . فاستدل بها الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن قال العلماء: قذف عائشة كفر . لأن الله سبح نفسه عند ذكره . فقال[٥] (سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) كما سبح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد . وفى قوله تعالى[٦] (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) تحريم ظن السوء ، وأنه لا يحكم بالظن . وأن من عرف بالصلاح لا يعدل به عنه لخبر مخبر . وأن القاذف مكذب شرعاً ، ما لم يأت بالشهداء . وفى قوله تعالى[٧] (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ) الآية ، الحث على ستر المؤمن وعدم هتكه . أخرج ابن أبى حاتم عن خالد ابن معدان، قال: من حدث بما أبصرت عيناه وسمعت أذناه فهو من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا ، وأخرج عن عطاء قال : من أشاع الفاحشة فعليه النكال وإن كان صادقاً .

(١) [١٢ / يوسف / ١٨] . (٢) [٢٤ / النور / ٢٢] .

(٣) الحديث لم ينفرد به البخارىّ . بل هو مما اتفق عليه الشيخان .

فقد أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٤ـ سورة النور : حديث ١٢٦٦، عن عائشة وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٦ (طبعتنا) .

(٤) [٢٤ / النور / ١١] . (٥) [٢٤ / النور / ١٦] .

(٦) [٢٤ / النور / ١٢] . (٧) [٢٤ / النور / ١٩]

وأخرج عن عبد الله بن أبى زكريا ، أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو الرجل يتكلم عنده فى الرجل ، فيشتهى ذلك ولا ينكر عليه .

وفى قوله تعالى[١] (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) الآية ، النهى عن الحلف ألا يفعل خيراً . وأن من حلف عن يمين فرأى غيرها خيراً منها ، يستحب له الحنث . وفيه الأمر بالعفو والصفح .

واستدل من ذهب إلى أن قوله تعالى[٢] « إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، نزلت فى أزواج النبى ﷺ خاصة، يقتل قاذفهن، إذا لم يذكر له توبة ، كما ذكرت فى قاذف غيرهن فى أول السورة انتهى .

وقال ابن كثير : ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضى الله عنها . والصحيح أن الآية عامة لكل المؤمنات . ويدخل فيهن أمهات المؤمنين دخولًا أوليًا ، لا سيما من كانت سبب نزولها ، وهى عائشة .

قال ابن كثير : وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة ، على أن من سبها بعد هذا الذى ذكر فى هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى . والله أعلم .

الثالث : قال الإمام ابن تيمية فى قوله تعالى[٣] (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) الآية : أخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين . فلا تكون خبيثة لطيّب . فإنه خلاف الحصر . وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون طيّب لخبيثة . فإنه خلاف الحصر . إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين . فلا يبقى خبيثة لطيّب ولا طيّب لخبيثة . وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين . فلا يبقى طيّبة لخبيث . فجاء الحصر من الجانبين ، موافقاً لقوله[٤] (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) الآية . ولهذا قال من قال من السلف (ما بغت امرأة نبىّ قط) فإن السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك . ولهذا لما صارت شبهة، استشار النبى ﷺ

(١) [٢٤ / النور / ٢٢] . (٢) [٢٤ / النور / ٢٣] .
(٣) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٤) [٢٤ / النور / ٣] .

فى طلاقها . إذ لا يصلح له أن تكون امرأته غير طيبة . وقد روى[١] أنه (لا يدخل الجنة ديوث) وهو الذى يقر السوء فى أهله. ولهذا كانت الغيرة على الزنى مما يحبها الله وأمر بها. حتى قال النبى ﷺ[٢] : أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منى . من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن. ولهذا أذن الله للقاذف إذا كان زوجاً ، أن يلاعن، لأجل ماأمر به من الغيرة ، ولأنها أفسدت فراشه، وإن حبلت من الزنى ، فعليه اللعان ، لئلا يلحق به من ليس منه . ومضت السنّة بالتفريق بينهما ، سواء حصلت الفرقة بالتلاعن أو بحاكم أو عند انقضاء لعان الزوج . لأن أحدهما ملعون أو خبيث. فاقترانهما يقتضى مقارنة الخبيث للطيّب . وفى صحيح مسلم من[٣] حديث عمران فى الناقة التى لعنتها المرأة ، أنه أمر فأخذ ما عليها وأُرسِلَتْ . وقال : لا تصحبنا ناقة ملعونة . ولما اجتاز بديار ثمود قال[٤] : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين . لئلا يصيبكم ما أصابهم . فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب . وهكذا السنة فى مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصى . لا ينبغى لأحد أن يقارنهم ويخالطهم إلا على وجهٍ يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقتاً لهم شانئاً ماهم فيه بحسب الإمكان . كما فى قوله[٥] : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده الخ. وقال تعالى[٦] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ) الآية . وكذلك ما ذكره عن يوسف وعمله لصاحب مصر لقوم كفار . وذلك أن مقارنة الكفار إنما يفعلها المؤمن فى موضعين : أحدهما . أن

(١) أخرجه النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٩ ـ باب المنان بما أعطى .
(٢) أخرجه البخارىّ تعليقا فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١٠٧ ـ باب الغيرة .
(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٨٠ (طبعتنا)
(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٥٣ ـ باب الصلاة فى مواضع الخسف والعذاب ، حديث ٢٨٤ ، عن ابن عمر . (٥) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان . حديث ٧٨ عن أبى سعيد (طبعتنا) . (٧) [٦٦ / التحريم / ١١] .

يكون مكرهاً عليها . والثانى أن يكون فى ذلك مصلحة دينية ، راجحة على مفسدة المقارنة . أو أن يكون فى تركها مفسدة راجحة فى دينه. فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة . وفى الحقيقة : المكره هو من يدفع الفساد باحتمال أدناهما . وهو الأمر الذى أكره عليه . قال تعالى(١) (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) وقال تعالى(٢) (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) الآية وقال تعالى(٣) (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » إلى قوله (غَفُوراً) وقال(٤) (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ)الآية . فقد دلت الآية على النهى عن مناكحة الزانى ، والمناكحة نوع خاص من المصاحبه . والمناكحة فى أصل اللغة المجامعة . فقلوبهما تجتمع إذا عقد النكاح بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف ما لم يكن قبل ذلك . حتى يثبت ذلك حرمة المصاهرة فى غير الربيبة ، بمجرد ذلك فى التوارث وعدة الوفاة وغير ذلك. وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين فى مكان واحد، وهو المعاشرة المقررة للصداق، كما أفتى به الخلفاء. وآخر ذلك اجتماع المباضعة. وهذا، وإن اجتمع بدون عقد نكاح، فهو اجتماع ضعيف، بل إجتماع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البدنين بالسفاح ودل قوله تعالى (الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ) على ذلك من جهة المعنى ومن جهة اللفظ. ودل أيضا على النهى عن مقارنة الفجار ومزاوجتهم. كما دل على هذا غير ذلك من النصوص . مثل قوله تعالى(٥) : (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) أى نظراءهم وأشباههم . والزواج أعمّ من النكاح المعروف . قال(٦) تعالى (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً) وقال(٧) (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)وقال(٨) (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) وقال(٩) (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وقال(١٠) (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً)

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٣] .
(٣) [٤ / النساء / ٩٧] . (٤) [٤ / النساء / ٧٥] . (٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢] .
(٦) [٤٢ / الشورى / ٥٠] . (٧) [٢٢ / الحج / ٥] . (٨) [٨١ / التكوير / ٧] .
(٩) [٥١ / الذاريات / ٤٩] . (١٠) [٧٨ / النبأ / ٨] .

وقال[1] (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ) وإن كان فى الآية نصّ فى الزوجة التى هى الصاحبة وفى الولد منها . فمعنى ذلك : فى كل مشابه ومقارن فى كل نوع وتابع [2](وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ)الآية[3](تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) الآيتين. فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع طاعة الله على مراد الله . ويدل عليه الحديث[4] الذى فى السنن (لاتصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقىّ) وفيها[5](المرء على دين خليله،فلينظر أحدكم من يخالل)وفى الصحيحين[6] من حديث أبى هريرة (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد) إلى قوله (ثم إن زنت فليبعها ولو بضفير) والضفير الحبل وهذا أمر ببيعها ولو بأدنى مايقابله . قال أحمد : إن لم يبعها كان تاركا لأمر النبيّ ﷺ . والإماء اللاتى يفعلن هذا ، يكون عامّتهن للخدمة . فكيف بأمة التمتع ؟ وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه ، فكيف بالزوجة الزانية ؟ والعبد نظير الأمة ، بدليل قوله[7] ﷺ (لعن الله من آوى محدثاً) فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثاً .

(١) [٦٤ / التغابن / ١٤] . (٢) [١٧/الإسراء/١١١] . (٣) [٢٥ / الفرقان / ١].

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٥٦ ـ باب ماجاء فى صحبة المؤمن ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

(٥) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٤ ـ كتاب الزهد ، ٤٥ـ باب حدثنا محمد بن بشار ، عن أبى هريرة .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ١٧ ـ باب كراهية التطاول على الرقيق ، حديث رقم ١٠٨٨ و ١٠٨٩ ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد .

وأخرجه مسلم فى : ٢٩ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٢و٣٣ (طبعتنا) .

(٧) أخرجه البخارىّ فى : ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة ، ١ـ باب حرم المدينة،حديث رقم ٩٥ ، عن علىّ بن أبى طالب .

سواء كان إحداثه بالزنى أو السرقة ، أو غير ذلك . وسواء كان الإيواء بملك اليمين ، أو نكاح ، أو غير ذلك . لأن أقل ما فيه ترك إنكار المنكر . والمؤمن يحتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه ، بالنكاح وغيره . قال تعالى[1] (إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) وكذلك المرأة التي زنى بها الرجل ، فإنه لا يتزوجها إلا بعد التوبة في الأصح . كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار . لكن إذا أراد أن يمتحنها ، هل هي صحيحة التوبة ؟ فقال ابن عمر : يراودها . فإن أجابته لم تصح توبتها . وإن لم تجبه فقد تابت . ونص عليه أحمد . وقيل : هذا فيه طلب الفاحشة . وقد تنقض التوبة . وقد تأمره نفسه بتحقيق ذلك . ويزين لهما الشيطان ، لاسيما إن كان يحبها وتحبه ، وقد ذاقته وذاقها . ومن قال بالأول قال : الأمر الذي يقصد به امتحانها ، لا يكون أمراً بما نهى الله عنه . ويمكنه أن لا يطلب الفاحشة بل يعرّض . والتعريض للحاجة جائز . بل واجب في مواضع كثيرة . وأما نقضها ، فإذا جاز أن تنقض التوبة معه ، جاز أن تنقضها مع غيره والمقصود أن تكون ممتنعة ممن يراودها . وأما تزيين الشيطان له الفعل ، فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه محنة . فإذا أراد المؤمن أن يصاحب أحدا ، وقد ذكر عنه الفجور ، وقيل إنه تاب ، أو كان ذلك مقولاً صدقاً أو كذباً ، فإنه يمتحنه بما يظهر به بره وفجوره ، وكذلك إذا أراد أن يولّيَ أحداً ولاية ، امتحنه . كما أمر عمر بن عبد العزيز غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى ، لما أعجبه سمته . فقال له : قد علمتَ مكاني عند أمير المؤمنين . فكم تعطيني إذا أشرت عليه بولايتك ؟ فبذل له مالاً عظيما . فعلم أنه ليس ممن يصلح للولاية . وكذلك في المعاملات . وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا ، أو قيل عنهم الفجور ، وأراد الرجل أن يشتريه فإنه يمتحنه . ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس ، وتارة بالجرح والتعديل ، وتارة بالاختبار والامتحان .

ثم قال ابن تيمية رحمه الله وكما عظّم الله الفاحشة ، عظم ذكرها بالباطل ـ وهو القذف . فقال[2] بعد ذلك (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ٤] .

ثَمَانِينَ جَلْدَةً) الآية. ثم ذكر رمي الرجل امرأته وما أمر فيه من التلاعن. ثم ذكر قصة أهل الإفك وبيّن ما في ذلك من الخير للمقذوف، وما فيه من الإثم للقاذف، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم من المؤمنين الخير ، ويقولون : هذا إفك مبين . لأن دليله كذب ظاهر. ثم أخبر أنه قول بلا حجة فقال[1] (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ . فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لعذبهم بما تكلموا به . وقوله[2] (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ) فهذا بيان لسبب العذاب . وهو تلقي الباطل بالألسنة ، والقول بالأفواه . وهما نوعان محرمان : القول بالباطل والقول بلا علم . ثم قال سبحانه[3] (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) فالأول تحضيض على الظن الحسن ، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف . ففي الأول قوله[4] (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) وقوله ﷺ[5] (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) وقوله[6] (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به. وفي الصحيح قوله[7] لعائشة (ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً)؟ فهذا يقتضي جواز بعض الظن ، كما احتج البخاريّ بذلك . لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الرادع له عن فعل الفاحشة ، يجب أن يظن به الخير دون الشر . وفي الآية نهي عن تلقي مثل هذا باللسان ، ونهي عن قول الإنسان ما ليس له به علم . لقوله تعالى[8] (وَلَا تَقْفُ

(١) [٢٤ / النور / ١٣] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

(٣) [٢٤ / النور / ١٦] . (٤) [٤٩ / الحجرات / ١٢] .

(٥) أخرجه البخاريّ تعليقا في : ٥٥ ـ كتاب الوصايا ، ٨ ـ باب قول الله تعالى: من بعد وصية توصون بها أو دين . (٦) [٢٤ / النور / ١٢] .

(٧) أخرجه البخاريّ في : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٥٩ ـ باب ما يكون من الظن ، حديث رقم ٢٣٣٤ ، عن عائشة . (٨) [١٧ / الإسراء / ٣٦] .

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) والله جعل فى فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ، ما لم يجعله فى شىء من المعاصى . لأنه جعل فيه الرجم وقد رجم قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط. وجعل العقوبة على القاذف بها ثمانين جلدة ، والرمى بغيرها فيه الاجتهاد . ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين ، كما قال علىّ : لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى. وكما قال عبد الرحمن بن عوف : إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى . وحد الشرب ثمانون، وحد المفترى ثمانون . وقوله تعالى(١) (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وهذا ذم لمن يحب ذلك . وذلك يكون بالقلب فقط ، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح . وهو ذم لمن يتكلم بها أو يخبر بها . محبة لوقوعها فى المؤمنين ، إما حسدا أو بغضا ، أو محبة للفاحشة . فكل من أحب فعلها ، ذكرها . وكره العلماء الغزل من الشعر الذى يرغب فيها . وكذلك ذكرها غيبة محرم ، سواء كان بنظم أو نثر . وكذلك التشبه بمن يفعلها ، منهىّ عنه مثل الأمر بها . فإن الفعل يطلب بالأمر تارة وبالإخبار تارة . فهذان الأمران للفجرة الزناة واللوطية ؛ مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين المؤمنين . أولئك يعتبرون من الغيرة بهم ، وهؤلاء من الاغترار يعتبرون . فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيه قدوة . ومن ذلك قوله تعالى(٢) (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) الآية . قيل : أراد الغناء . وقيل: أراد قصص ملوك الكفار . وبالجملة كل مارغب النفوس فى الطاعة ونهاها عن المعصية ، فهو من الطاعة . ومارغب فى المعصية ونهى عن الطاعة ، فهو من المعصية. فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب فى الشريعة ، مثل النهى عنها وعنهم ، والذم لها ولهم وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك فى وجوههم ومغيبهم ــ فهذا حسن يجب تارة ويستحب أخرى . كما قص الله قصص المؤمنين والفجار ليعتبروا بالأمرين . وقد ذكر الله

(١) [٢٤ / النور / ١٩] . (٢) [٣١ / لقمان / ٦] .

عن أنبيائه وعباده الصالحين، من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة. فقال تعالى[١] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) الخ فى مواضع ، وهذا فيه من التوبيخ ما فيه ، وليس من باب القذف واللمز . ثم توعدوه بإخراجه من القرية. وهذا حال أهل الفجور ، إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا إخراجه . وقد عاقب الله على الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى. حيث أمر بنفى الزانى والمخنث . فمضت السنة بنفى هذا وهذا . وهو سبحانه وتعالى أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب . وكذلك ما ذكره تعالى فى قصة يوسف فى قوله[٢] (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) إلى قوله[٣] (فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وما ذكر بعده من قول يوسف[٤] (مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) الآية، وهذا من باب الاعتبار الذى يوجب النفور عن المعصية والتمسك بالتقوى. وكذلك ما بينه فى آخرها بقوله تعالى[٥] (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) الآية. ومع هذا، فمن الناس من يحب سماعها لما فيه من ذكر العشق وما يتعلق به، لمحبته لذلك ولرغبته فى الفاحشة . حتى إن منهم من يُسمعها النساء لمحبتهم للسوء ، ولا يختارون أن يسمعوا ما فى سورة النور من العقوبة والنهى عن ذلك . حتى قال بعض السلف : كل ما حصلته فى سورة يوسف أنفقته فى سورة النور . وقد قال تعالى[٦] (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) وقال[٧] (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا) الآيات . فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة، ويبغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة، فهو مذموم. ومن هذا ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب فى المعصية وصدّ عن سبيل الله ، ومنه سماع كلام أهل البدع ، والنظر

(١) [٢٧ / النمل / ٥٤]. (٢) [١٢ / يوسف / ٢٣] . (٣) [١٢ / يوسف /٣٤].
(٤) [١٢/ يوسف/ ٥٠] . (٤) [١٢/ يوسف/١١١]. (٦) [١٧/ الإسراء/٨٢] .
(٧) [٩/ التوبة / ١٢٤] .

فى كتبهم لمن يضره ذلك. فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات . والله تعالى ذم هؤلاء فى مثل قوله(١)(يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)وقوله(٢)(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)وقوله(٣)(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ) وما بعدها، وقوله(٤) (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ) الآية، وقوله(٥) (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) وقوله(٦) (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) وقوله(٧) (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ) الآية ، ومثل هذا كثير فى القرآن. فأهل المعاصى كثير فى العالم، بل هم أكثر، كما قال تعالى(٨)(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الآية . وفى النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولًا وعملًا ما يعلمه إلا الله . وأهلها يدعون الناس إليها ويقهرون من يعصيهم ، ويزينونها لمن يطيعهم. فهم أعداء الرسل وأندادهم . فالرسل يدعون إلى الطاعة بالرغبة والرهبة . ويجاهدونهم عليها. وينهون عن المعاصى ويحذرون منها بالرغبة والرهبة. ويجاهدون من يفعلها. قال تعالى(٨) (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) الآية ، ثم قال(٩) (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية، وقوله تعالى(١٠)(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) ومثل هذا فى القرآن كثير والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته . فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر مسبوق بمعرفته. فمن لا يعلمه لا يمكنه النهى عنه. وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر . فإن حب الشيء وفعله ، وبغض ذلك وتركه

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢].(٢) [٢٦/ الشعراء/ ٢٢٤] . (٣) [٢٦/ الشعراء/٢٢١].
(٤) [٣١ / لقمان /٦] . (٥) [٢٣/ المؤمنون/ ٦٧] . (٦) [٧ / الأعراف / ١٤٦].
(٧) [٦ / الأنعام/ ١١٦] . (٨) [٩ / التوبة / ٦٧] . (٩) [٩ / التوبة / ٧١] .
(١٠)[٤ /النساء/ ٧٦] .

لا يكون إلا بعد العلم بهما ، حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر . فإن ذلك مسبوق بعلمه ، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض ، ولا فعل ولا ترك . لكن فعل الشيء والأمر به يقتضي أن يعلمه علماً مفصّلًا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصّلًا . ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا أمر بأوصاف فلابد من العلم بثبوتها . فكما أنّا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة ، فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها . بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها . وكل منهما معصية . فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية . وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفى بمعرفته في بعض المواضع مجملًا . فإن الإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره . وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك ، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها ، وإلى دفع أهوائهم . وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك . ولا يكون ذلك إلا بالصبر ، كما قال تعالى[(١)] ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهي عنها . وبيان ما فيها من الفساد . فإن الإنكار بالقلب واللسان ، قبل الإنكار باليد . وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والعصاة ، كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان على وجه المدح والحب وبيان منفعته والترغيب فيه ، نحو قوله تعالى[(٢)] ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ الآيات . وهذا كثير جدًّا . فالذي يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم . إما كافر وإما فاجر . وليس منهم من هو بعكسه . لكن لا يثاب على مجرد عدم ذلك . وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته ، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله . وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذي يثاب عليه ، وهو أدنى الإيمان ، كما قال ﷺ[(٣)] (من رأى منكم منكراً) إلى قوله

(١) [١٠٣ / العصر / ١ـ٣] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٨و٨٩] .

(٣) أخرجه مسلم في ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٧٨ ، عن أبي سعيد الخدريّ (طبعتنا).

(وذلك أضعف الإيمان) وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته . وذلك لا يكون إلا بعد العلم به وبقبحه . ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد . والنبى ﷺ قال : (وذلك أضعف الإيمان) فيمن رأى المنكر . فأما إذا رآه ولم يعلم أنه منكر ، ولم يكرهه ، لم يكن هذا الإيمان موجوداً فى القلب فى حال وجوده ورؤيته ، بحيث يجب بغضه وكراهته. والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا . وإذ لم يكن المنكر موجوداً لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ، ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره وكذلك ما يدخل فى ذلك من الأقوال والأفعال والمنكرات ، قد يعرض عنها كثير من الناس ، إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين . وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات، فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون فى إزالتها. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فتدبر هذا فإنه كثيراً ما يجتمع فى كثير من الناس هذان الأمران : بغض الكفر وأهله ، وبغض الفجور وأهله ، وبغض نهيهم وجهادهم، كما يحب المعروف وأهله، ولا يحب أن يأمر به ، ولا يجاهد عليه بالنفس والمال . وقد قال تعالى[1] : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقال تعالى[2] (قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ) الآية، قال[3] (لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) الآية ، وكثير من الناس ، بل أكثرهم، كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات، ولاسيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات. فربما مالوا إليها تارة، وعنها أخرى. فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة.

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٤] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] .

ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى فى هجر السيئات ، وصارت نفسه مطمئنة ، تاركا للمنكرات والمكروهات ، لا تحب الجهاد ومصابرة العدوّ على ذلك، واحتمال مايؤذيه من الأقوال والأفعال. فإن هذا شيء آخر داخل فى قوله[1] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) إلى قوله[2] (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا) والشفاعة : الإعانة . إذ المعين قد صار شفيعاً للمعان . فكل من أعان على برّ أو تقوى كان له نصيب منه . ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كِفل منه . وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم، من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان . ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين. كما قال تعالى قبل ذلك[3] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ) إلى قوله[4] (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) ومن هٰهنا يظهر الفرق فى السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره. والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر الفاجر. فإن المؤمنين يسمعون إقبال أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم ، كرؤية الصحابة النبيّ ﷺ وسمعهم لما بلغهم عن الله . والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال تعالى[5] (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)الآية، وقال[6] (فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) وقال[7] (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) وقال[8] (فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ) وقال تعالى[9] فى حق المؤمنين (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

---

(١) [٤ / النساء / ٧٧] . (٢) [٤ / النساء / ٨٥] . (٣) [٤ / النساء / ٧١] .
(٤) [٤ / النساء / ٧٦] . (٥) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٦) [٤٧ / محمد / ٢٠] .
(٧) [١١ / هود / ٢٠] . (٨) [٥ / المائدة / ٧١] . (٩) [٢٥ / الفرقان / ٧٣].

عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) وقال فى حق الكفار[١] (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) والآيات فى هذا كثيرة جدًّا . وكذلك النظر إلى زينة الدنيا فتنة . قال تعالى[٢] « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) وفى آخر الحجر. وقوله[٣] (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)الآية ، وقال[٤] (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) الآية ، وقال[٥] (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية ، وقال[٦] (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، وقال[٧] (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية وقال[٨] (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الآية . وكذلك قال الشيطان[٩] (إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ) وقال[١٠] (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ) الآيات . وقال[١١] (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا) الآيات . فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها ، منهىّ عنه . والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه الاعتبار مأمور به . وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لدفع شر أولئك، فمأمور به . وكذلك رؤية الاعتبار شرعا فى الجملة . فالعين الواحدة ينظر إليها تارة نظرا مأمورا به . إما للاعتبار وإما لبغض ذلك . والنظر إليه لبغض الجهاد منهى عنه . وكذلك الموالاة والمعاداة . وقد يحصل للعبد فتنة بنظر منهى عنه ، وهو يظن أنه نظر عبرة . وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة ، كالذين قال الله فيهم[١٢] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي) فإنها نزلت فى الجدّ بن قيس لما أمره النبىّ ﷺ أن يتجهز لغزو الروم فقال: إنى مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم . فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول. وأما

(١) [٧٤ / المدثر / ٤٩] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٣) [٩/ التوبة / ٥٥] .
(٤) [٢٤ / النور / ٣٠] . (٥) [١٨/الكهف/٢٨] . (٦) [٨٨/الغاشية/١٧].
(٧) [١٠/يونس/١٠١] . (٨) [٣٤ / سبأ / ٩] . (٩) [٨/الأنفال/ ٤٨] .
(١٠) [٢٦/الشعراء/٦١] . (١١) [٨/ الأنفال/ ٤٣] . (١٢) [٩/ التوبة/ ٤٩].

ما يكون من الفعل بالجوارح ، فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا ، داخل فى هذا . بل يكون عذابه أشد . فإن الله قد توعد بالعذاب على مجرد المحبة . وهذه قد لا يقترن بها قول ولا فعل . فكيف إذا اقترن ؟ بل على الإنسان أن يبغض ما أبغضه الله تعالى من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها فى الذين آمنوا . ومن رضى عمل قوم حشر معهم. كما حشرت امرأة لوط معهم . ولم تكن تفعل فاحشة اللواط . فإنه لا يقع من المرأة. ولكن لما رضيت فعلهم ، عمَّها معهم العذاب . فمن هذا الباب قيل : من أعان على الفاحشة وإشاعتها ، مثل القواد. لما يحصل له من رياسة أو سؤدد أو سحت يأكله . وكذلك أهل الصناعات التى تنفق ، مثل المغنين وشَرَبَة الخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها ، فإنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . فإنها إذا شاعت تمكنوا من أغراضهم من الرياسة والمال وفعل الفاحشة ، وتمكنوا من دفع من ينكرها . بخلاف ما إذا كانت قليلة . ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته ، منهيٌّ عنه محرّم . كما قال(١) تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) أى ما فيها من ذكر الله وطاعته وامتثال أمره أكبر من ذلك . وقال فى الخمر والميسر(٢) (وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ) أى يوقعهم ذلك فى معصيته التى هى العداوة والبغضاء ، وهذا من أعظم المنكرات التى تنهى عنه الصلاة ، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر ، كما هو الواقع . فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالًا كان أو حراماً ، فإن الله سبحانه لم يذكر الجماع ، لأن الخمر لا يدعو إلى الحرام بعينه من الجماع. والسكر يزيل العقل الذى يميز به بين الحلال والحرام ، والعقل الصحيح ينهى عن مواقعة الحرام . ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقعة الفواحش ، ما لا يكثر من غيرها . حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه . وقد يستغنى بالحلال إذا أمكنه . ويدعو شرب الخمر

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٥] . (٢) [٥ / المائدة / ٩١] .

إلى أكل أموال الناس بالسرقة والمحاربة وغير ذلك. لأنه يحتاج إلى الخمر ومايستتبعه من مأكول وغير ذلك من فواحش وغناء . وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال، حتى يتكلم شاربه بما فى باطنه وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما فى قلوب الرجال من الأسرار، سقوهم الخمر. وربما يشربون معهم مالا يسكرون به. وأيضاً فالخمر تصدّ الإنسان عن علمه وتدبيره. فجميع الأمور التى تصد عنها وتوقعها من المفاسد داخل فى قوله تعالى[1] (وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ) وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هو منتهى قصد الشيطان ولهذا قال النبى ﷺ[2] (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : (إصلاح ذات البين. فإن فساد ذات البين هى الحالقة. لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) وقد ذكرنا فى غير هذا أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب يوقع العداوة والبغضاء . وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من المعصية. والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيما هو أعظم منها ولا يرضى إلا بغاية ما قدر على ذلك . وأيضاً، فالعداوة والبغضاء شر محض ، لا يحبهما عاقل . بخلاف المعاصى فإن فيها لذة . والنفوس تريدها ، والشيطان يدعو إليها ، ليوقعها فى شرٍ لا تهواه . والله سبحانه قد بيّن ما يريد الشيطان بالخمر والميسر، ولم يذكر ما يريده الإنسان. ثم قال[3] فى سورة النور (لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وكذلك فى البقرة[4] ، نهى عن اتباع خطواته. وهو اتباع أمره بالاقتداء والاتباع. وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم. وقال[5] فيها (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) فذكر أن الشيطان يأمر بذلك وبعد هذا[5] (وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) وقال[6] (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) [٥/المائدة / ٩١] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٥٦ ـ باب حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم البندارى ، عن أبى الدرداء .
(٣) [٢٤ / النور / ٢١] . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٨] .
(٥) [٢ / البقرة / ٢٦٨] . (٦) [١٦ / النحل / ٩٠] .

وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ)وقال عن نبيّه[1] (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)الآية.وقال عن أمته[2](يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)وذكر مثل ذلك فى مواضع كثيرة.فتارة يخص اسم المنكر بالنهى ، وتارة يقرنه بالفحشاء ، وتارة يقرن معهما البغى . وكذلك المعروف ، تارة يخصه بالأمر ، وتارة يقرن به غيره . كقوله[3](لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . وذلك أن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها بحسب الإفراد والتركيب . كلفظ (الفقير والمسكين) . إذا عرف هذا فاسم المنكر يعمّ كل ما كرهه الله ونهى عنه . واسم المعروف يعم كل ما يحبه الله ويرضاه . وإذا قرن المنكر بالفحشاء ، فالفحشاء مبناها على المحبة . والمنكر هو الذى تنكره القلوب . فقد يظن أن ما فى الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول فيه . فإن الفاحشة وإن كانت مما تنكره القلوب فإنها تشتهيها النفوس . وكذلك البغى ، قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس . ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء . ومنشؤه من قوة الغضب . ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها . فالفواحش والبغى مقرونان بالمنكر . وأما الإشراك والقول على الله بلا علم ، فإنه منكر محض . ليس فى النفوس ميل إليهما . بل إنما يكونان عن عناد وظلم . فهما منكر محض بالفطرة[4] (وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان أو إلى المتّبِع . فإن من أتى ذلك ، فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه عابد له . وإن كان الآتى هو الآمر ، فالأمر بالفعل أبلغ من فعله . فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه .

ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان. والمغنّى هو مؤذنه الذى يدعو إلى طاعته. فإن الغناء رقية الزنى. وكذلك من اتباع خطوات الشيطان، القول على الله بلا علم. كحال أهل

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٤] .
(٣) [٤ / النساء / ١١٤] . (٤) ٢٤ / النور / ٢١] .

البدع والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمرد وإحضارهم فى سماع الغناء ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك ، مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين. ثم إنه سبحانه نهى المظلوم بالقذف ، أن يمنع ماينبغى فعله من الإحسان إلى القرابة والمساكين وأهل التوبة. وأمره بالعفو . فإنه كما يحب أن يُغفر له فليغفِر . ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة ، وإيتاء المساكين واجب ، ومعونة المهاجرين واجبة ، فلا يجوز ترك مايجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه : كما لا يمنع ميراثه وحقه من الصدقات والفىء ، بمجرد ذنب من الذنوب وقد يمنع من ذلك لبعض الذنوب .

وفى الآية دليل على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوى الأرحام الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب .

فإنه قد ثبت فى الصحيح[1] عن عائشة فى قصة الإفك ، أن أبا بكر الصديق حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة . وكان أحدَ الخائضين فى الإفك فى شأن عائشة . وكانت أم مسطح بنت خالة أبى بكر . وقد جعله الله من ذوى القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم . والنهى يقتضى التحريم . فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل ، كان الفعل واجباً ، لأن الحلف على ترك الجائز جائز . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

الرابع ـ قال الزمخشرىّ : لو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة ، لم تر الله تعالى قد غلّظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة ، رضوان الله عليها . ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما رُكِبَ من ذلك واستفظاع ما أُقْدِمَ عليه ـ ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة وأساليب مفتنّة . كل واحد منها

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١٥ ـ باب تعديل النساء بعضهن بعضا ، حديث ١٢٦٦ ، من حديث الإفك الطويل .

كان فى بابه ولو لم ينزّل إلا هذه الثلاث يعنى قوله تعالى[١] (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ) إلى قوله (هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) لكفى بها . حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا . وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة .وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا. وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله ، حتى يعلموا عند ذلك ، أن الله هو الحق المبين . فأوجز فى ذلك وأشبع وفصّل وأجمل وأكد وكرر ، بما لم يقع فى وعيد المشركين ، عبدة الأوثان ، إلا ما هو دونه فى الفظاعة . وما ذاك إلا لأمر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة . وكان يُسأل عن تفسير القرآن . حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته ، إلا من خاض فى أمر عائشة .وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك . ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بلسان الشاهد[٢] (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) وبرأ موسى[٥] من قول اليهود فيه ، بالحجر الذى ذهب بثوبه . وبرأ مريم[٤] بإنطاق ولدها حين نادى فى حجرها (إِنِّى عَبْدُ اللهِ) وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله ﷺ ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين .

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فَلْيَتَلَقَّ ذلك من آيات الإفك . وليتأمل كيف غضب الله له فى حرمته ، وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه.

---

(١) [٢٤ / النور / ٢٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٦] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٥ ـ كتاب الغسل ، ٢٠ ـ باب من اغتسل عريانا وحده فى الخلوة ، حديث رقم ٢٠١ ، عن أبى هريرة . (٤) [١٩ / مريم / ٣٠] .

(فإن قلت) إن كانت عائشة هى المرادة ، فكيف قيل : المحصنات ؟ (قلت) : فيه وجهان : أحدهما ـ أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ وأن يخصصن بأن من قذفهن، فهذا الوعيد لاحق به . وإذا أردن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله ﷺ ، كانت المرادةُ أولًا والثانى ـ أنها أم المؤمنين ، فَجُمِعَتْ . إرادةً لها وابناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان انتهى .

قال الناصر : والأظهر أن المراد عموم المحصنات . والمقصود بذكرهن على العموم، وعيد من وقع فى عائشة، على أبلغ الوجوه ، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر ﷺ ؟ على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه. وهذا معنى قول زليخا[1] (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فعمّمت وأرادت يوسف ، تهويلًا عليه وإرجافاً . والمعصوم من عصمه الله تعالى . انتهى .

الخامس : قال الإمام ابن تيمية فى (منهاج السنة) ذهب كثير من أهل السنة إلى أن عائشة رضي الله عنها أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام واحتجوا بما فى الصحيحين[2] عن أبى موسى وعن أنس رضى الله عنهما ، أن النبىّ ﷺ قال : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . والثريد هو أفضل الأطعمة ، لأنه خبز ولحم . كما قال الشاعر[3] :

إذا ما الخبزُ تأدِمُهُ بلحمٍ فذاكَ أمانةَ اللهِ الثَّريدُ

وذلك أن البُر أفضل الأقوات . واللحم أفضل الإدام . كما فى الحديث الذى رواه

(١) [١٢ / يوسف / ٢٥] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ ـ باب فضل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٦٠٦ عن أبى موسى الأشعرىّ، حديث ١٧٦٨ عن أنس بن مالك.

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٧٠ ، عن أبى موسى . وحديث ٧٩ ، عن أنس بن مالك (طبعتنا).

(٣) من أبيات الكتاب. وقد قال عنه سيبويه : (ويقال وضعه النحويون) ج ١ ص ٤٣٤

ابن قتيبة وغيره، عن النبيّ ﷺ أنه قال (سيد إدام أهل الدنيا والآخرة اللحم) فإذا كان اللحم سيد الإدام ، والبر سيد الأقوات ، ومجموعهما الثريد ، كان الثريد أفضل الطعام .

وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال [(١)] (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) وفى الصحيح [(٢)] عن عمرو بن العاص قال: قلت : يارسول الله ! أى النساء أحب إليك ؟ قال (عائشة) قلت : ومن الرجال ؟ قال (أبوها) قلت : ثم من ؟ قال : (عمر) وسمى رجالا . وهؤلاء يقولون : قوله عليه الصلاة والسلام لخديجة: ما أبدلنى الله خيراً منها : إن صح معناه ما أبدلنى خيراً لى منها ، فإن خديجة نفعته فى أول الإسلام نفعاً لم يقم غيرها فيه مقامها . فكانت خيرا له من هذا الوجه ، لكونها نفعته وقت الحاجة ، وعائشة صحبته فى آخر النبوة وكمال الدين . فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول النبوة . فكانت أفضل لهذه الزيادة . فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها ، وبلغت من العلم والسنن مالم يبلغه غيرها فخديجة كان خيرها مقصوراً على نفس النبيّ ﷺ لم تبلغ عنه شيئاً ، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة . ولأن الدين لم يكن قد كمل حتى تعلمه ، ويحصل لها من كمالاته ما حصل لمن علم وآمن به بعد كماله ، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد ، كان أبلغ فيه ممن تفرق همه فى أعمال متنوعة . فخديجة رضى الله تعالى عنها خير له من هذا الوجه. لكن أنواع البر لم تحصر فى ذلك . ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيمانا ، وأكثر جهادا بنفسه وماله ، كحمزة وعليّ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم ، هم أفضل ممن كان يخدم النبيّ ﷺ وينفعه فى نفسه أكثر منهم . كأبى رافع وأنس ابن مالك وغيرهما . وفى الجملة ، الكلام فى تفضيل عائشة وخديجة ليس هذا موضع استقصائه . لكن المقصود هنا أن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها. وإن نساءه ﷺ أمهات المؤمنين

(١) أخرجه البخاريّ فى ٧٠ ـ كتاب الأطعمة، ٢٥ ـ باب الثريد ، حديث ١٦٠٦ ، عن أبى موسى الأشعريّ . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبيّ ﷺ (لو كنت متخذا خليلا) حديث رقم ١٧٢٢ .

اللواتى مات عنهن ، كانت عائشة أحبهن إليه وأعظمهن حرمة عند المسلمين . وقد ثبت فى الصحيح (١) أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة ، لما يعلمون من محبته إياها . حتى أن نساءه غرن من ذلك ، وأرسلن إليه (٢) فاطمة رضى الله عنها تقول له : نساؤك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة : فقال لفاطمة : أى بنية أما تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى . قال: فأحبي هذه ، الحديث فى الصحيحين (٣) وفى الصحيحين أيضاً أن النبىّ ﷺ قال: ياعائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام قالت : وعليه السلام ورحمة الله . ترى ما لا نرى . ووهبت (٤) سودة بنت زمعة يومها لعائشة رضى الله عنهما ، بإذنه ﷺ . وكان فى مرضه (٥) الذى مات فيه يقول: أين أنا اليوم؟ استبطاء ليوم عائشة . ثم (٦) استأذن نساءه أن يمرّض فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فمرض

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ ـ باب فضائل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٢٥٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٨٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٥١ ـ كتاب الهبة ٨ باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض ، حديث ١٢٥٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، حديث رقم ٨٣ (طبعتنا)

(٣) أخرجه البخارىّ فى:٦٢ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ، ٣٠ـ باب فضل عائشة رضى الله عنها ، حديث ١٥١٩ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٩٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٦٨ من الجزء السادس ، عن عائشة.

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ ، ٣٠ ـ باب فضائل عائشة رضى الله عنها ، حديث ٥٢١ ، عن عائشة .

(٦) أخرجه البخارىّ فى : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ٤ باب ما جاء فى بيوت أزواج النبىّ ﷺ حديث ١٥٢ ، عن عائشة .

فيه . وفى[١] بيتها توفى بين سحرها ونحرها وفى حجرها . وكانت[٢] رضى الله عنها مباركة على أمته . حتى قال أسيد بن حضير ، لما أنزل الله آية التيمم بسببها : ماهى بأول بركتكم يا آل أبى بكر . ما نزل بك أمر قط تكرهينه إلا جعل الله فيه للمسلمين بركة . وقد كانت[٣] نزلت آية براءتها قبل ذلك ، لما رماها أهل الإفك . فبرأها الله من فوق سبع سموات، وجعلها من الصيّنات . وبالله التوفيق . انتهى .

وأغرب الإمام ابن حزم، فذهب إلى أن أفضل الناس بعد الأنبياء ، نساؤه ﷺ . ومعلوم أن عائشة فضلاهن . وقد أسهب فى ذلك فى كتابه (الملل) فارجع إليه .

السادس ـ قال القاشانىّ رحمه الله تعالى : إنما عظم تعالى أمر الإفك وغلّظ فى الوعيد عليه ، بما لم يغلظ فى غيره من المعاصى، وبالغ فى العقاب عليه بما لم يبالغ به فى باب الزنى وقتل النفس المحرمة ، لأن عظم الرذيلة وكبر المعصية، إنما يكون على حسب القوة التى هى مصدرها. وتتفاوت حال الرذائل فى حجب صاحبها عن الحضرة الإلهية والأنوار القدسية ، وتوريطه فى المهالك الهيولانية . والمهاوى الظلمانية ، على حسب تفاوت مبادئها . فكلما كانت القوة التى هى مصدرها ومبدؤها أشرف. كانت الرذيلة الصادرة منها أردأ . وبالعكس. لأن الرذيلة ما قابل الفضيلة . فلما كانت الفضيلة أشرف، كان ما يقابلها من الرذيلة أخسّ. والإفك رذيلة القوة الغضبية.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٧ـ كتاب فرض الخمس ، ٤ـ باب ماجاء فى بيوت أزواج النبىّ ﷺ ، حديث ٥٢١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٤٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧ ـ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى : فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، حديث ٢٣٠ ، عن عائشة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٤ ـ حديث الإفك، حديث رقم ١٢٦٦ ، عن عائشة .

فبحسب شرف الأولى على الباقيتين ، تزداد رداءة رذيلتها . وذلك أن الإنسان إنما يكون بالأولى إنسانا ، وترقيه إلى العالم العلوىّ ، وتوجهه إلى الجناب الإلهىّ وتحصيله للمعارف والـكمالات ، واكتسابه للخيرات والسعادات ـ إنما يكون بها . فإذا فسدت بغلبة الشيطنة عليها ، واحتجبت عن النور باستيلاء الظلمة ، حصلت الشقاوة العظمى ، وحقت العقوبة بالنار . وهو الرين والحجاب الـكلىّ .

ألا ترى أن الشيطنة المغوية للآدمى أبعد عن الحضرة الآلهية ، من السبعية والبهيمية ؟ وأبعد بما لا يقدر قدره. فالإنسان برسوخ رذيلته النطقية يصير شيطاناً ، وبرسوخ الرذيلتين الأخريين ، يصير حيواناً كالبهيمة أو السبع . وكل حيوان أرجى صلاحاً ، وأقرب فلاحاً من الشيطان . ولهذا قال تعالى[1] (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) ونهى هاهنا عن اتباع خطوات الشيطان . فإن ارتـكاب مثل هـذه الفواحش لا يكون إلا بمتابعته ومطاوعته . وصاحبه يكون من جنوده وأتباعه . فيـكون أخس منه وأذل ، محروماً من فضل الله الذى هو نور هدايته ، محجوباً من رحمته التى هى إفاضة كمال وسعادة، ملعوناً فى الدنيا والآخرة ، ممقوتاً من الله والملائـكة . تشهد عليه جوارحه بتبدّل صورها وتشوّه منظرها . خبيث الذات والنفس . متورطا فى الرجس . فإن مثل هذه الخبائث لا تصدر إلا من الخبيثين . كما قال تعالى (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ) وأما الطيبون المنزهون عن الرذائل ، فإنما تصدر عنهم الطيبات والفضائل . انتهى .

السابع ـ فى سر قَرْن الزنى بالشرك فى قوله تعالى[2] (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) وتحقيق القول فى الآية . قال الإمام ابن القيم رحمه الله فى (إغاثة اللهفان) : نجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات . من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً . ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة ، أكثرهم شركا . فـكلما كان الشرك فى العبد أغلب ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢١ و ٢٢٢] . (٢) [٢٤ / النور / ٣] .

كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى(١) عن يوسف الصديق عليه السلام (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبّد لها . بل هو من أعلى أنواع التعبّد. ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه ، صار تتيّماً . والتتيّم التعبد . فيصير العاشق عابداً لمشوقه . وكثيراً مايغلب حبه وذكره والشوق إليه والسعى فى مرضاته وإيثار محابّه ، على حب الله وذكره والسعى فى مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور . كما هو مشاهد . فيصير المعشوق هو إلٰهه من دون الله عز وجل . يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه . ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله . وينفق فى مرضاته مالا ينفقه فى مرضاة الله . ويتجنب سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى . فيصير آثر عنده من ربه حبًّا وخضوعاً وذلًّا وسمعاً وطاعةً . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين. وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة . فكلما قوى شرك العبد بُلِى بعشق الصور وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزنى واللواطة كمال لذته ، إنما يكون من العشق . ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد . بل ينقسم على سهام كثيرة لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده . فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين. ولهما خاصية فى تبعيد القلب من الله . فإنهما من أعظم الخبائث . فإذا انصبغ القلب بهما بَعُد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب . وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً . ولهذا قال المسيح ، فيما رواه الإمام أحمد فى (كتاب الزهد) لا يكون البطالون من الحكماء . ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى كان قريباً للشرك فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى(٢) (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) والصواب القول بأن هذه الآية محكمة . يعمل بها لم ينسخها شيء . وهى مشتملة على خبر وتحريم . ولم يأت من ادعى نسخها بحجةٍ البتة.

---

(١) [١٢/ يوسف / ٢٤] . (٢) [٢٤ / النور / ٣] .

والذى أشكل منها على كثير من الناس ، واضح بحمد الله تعالى. فإنهم أشكل عليهم قوله[1] (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) هل هو خبر أو نهى أو إباحة؟فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة . وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزانى أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة ، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف ، وإباحةً له نكاح المشركات والزوانى . والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً . فلما أشكل عليهم ذلك ، طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه . فقال بعضهم : المراد من النكاح الوطء والزنى . فكأنه قال : الزانى لا يزنى إلا بزانية أو مشركة . وهذا فاسد . فإنه لا فائدة فيه . ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك . فإنه من المعلوم أن الزانى لا يزنى إلا بزانية . فأى فائدة فى الإخبار بذلك . ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه . ثم قالت طائفة : هذا عام اللفظ خاص المعنى. والمراد به رجل واحد[2] وامرأة واحدة . وهى عناق وصاحبها . فإنه أسلم واستأذن رسول الله ﷺ فى نكاحها فنزلت هذه الآية . وهذا أيضاً فاسد. فإن هذه الصورة المعينة ، وإن كانت سبب النزول ، فالقرآن لا يقتصر به على محالّ أسبابه . ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها . وقالت طائفة : بل الآية منسوخة بقوله[3] (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ) وهذا أفسد من الكل . فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين . ولا تناقض إحداهما الأخرى . بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى ، وحرم نكاح الزانية ، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم . فأين الناسخ والمنسوخ فى هذا ؟ (فإن قيل) : فما وجه الآية ؟ قيل : وجهها ، والله أعلم ، أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة . وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط. كما ذكر ذلك سبحانه فى سورتى النساء والمائدة . والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه. والإباحة قد علقت على شرط الإحصان . فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به .

(١) [٢٤/النور/٣] . (٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ـ كتاب التفسير ، ٢٤ـ سورة النور ، ١ ـ حدثنا عبد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو . (٣) [٢٤ / النور / ٣٢] .

فالمتزوج، إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه . فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله ، وإن التزمه وخالفه ، ونكح ما حرم عليه ، لم يصح النكاح. فيكون زانياً. فظهر معنى قوله « لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً » وتبين غاية البيان . وكذلك حكم المرأة . وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه، فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل . فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرناناً ديوثاً زوج بغىّ . فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه. ولهذا إذا بالغوا فى سبّ الرجل قالوا (زوج قحبة) فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك . فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية . والله الموفق .

ومما يوضح التحريم ، وأنه هو الذى يليق بهذه الشريعة الكاملة ، أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج ، وفساد النسب الذى جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم . وعدّوه من جملة نعمه عليهم . فالزنى يفضى إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب ، فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتستبرأ . وأيضاً ، فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة . والمودة خالص الحب ، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب ، زوجاً له ؟ والزوج سمى زوجاً من الازدواج . فالزوجان، الاثنان المتشابهان والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقدراً . فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتوادّ . فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب ، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة . فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة ، وقد وطئها الزانى البارحة؟ وقال: ماء الزانى لا حرمة له . فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج له حرمة. فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزانى فى رحم واحد ، والمقصود أن الله سبحانه سمى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات . وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالا. وسمى فاعله جنباً لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد. فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراماً يبعد القلب عن الله تعالى وعن الدار الآخرة . بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهراً

كاملًا بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقولُ اللوطية[1] (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود[2] (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وقوله سبحانه[3] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ) وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك ، وهكذا المبتدع إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول وأنه لم يَشُبْهَا بآراء الرجال ولا بشيء مما خالفها . فَصَبْر الموحد المتبع للرسول ، على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه ، من صبره على ما ينقمه الله ورسوله ، عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة .

إذا لَمْ يَكُنْ بدٌّ من الصبرِ ، فاصْطَبِرْ ... على الحقِّ . ذاكَ الصبرُ تُحْمَدُ عُقْباهُ

لطيفة :

كتب ابن القاضي شرف الدين ابن المقري ، صاحب (الروض) إلى أبيه ، وقد قطع نفقته :

لا تقطعنْ عادةَ برٍّ ، ولا ... تجعلْ عقابَ المرءِ في رزقِهِ
فإن أمرَ الإفكِ مِنْ مِسْطح ... يحُط قدر النَّجْم من أُفْقِهِ
وقد جرى منه الذي قد جرى ... وعُوتِبَ الصدّيق في حقِّهِ

فأجابه أبوه شرف الدين بقوله :

قَدْ يُمْنَعُ الْمُضْطَرُّ مِن مَيْتَةٍ ... إذا عَصَى بالسَّيْرِ في طُرْقِهِ
لأنه يَقْوَى عَلَى تَوْبَةٍ ... تُوجِبُ إيصالًا إلى رزقِهِ
لَوْ لَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبه مِسْطَحٌ ... ما عُوتِبَ الصِّدِّيقُ في حقِّهِ

ولما فصّل تعالى الزواجر عن الزنى ، وعن رمي العفائف عنه ، بيّن من الزواجر ما عسى يؤدي

(١) [٧/ الأعراف/ ٨٢] . (٢) [٨٥/ البروج/ ٨] . (٣) [٥/ المائدة/ ٥٩] .

إلى أحدهما . وذلك فى مخالطة الرجال بالنساء ، ودخولهم عليهن ، فى أوقات الخلوات ، وفى تعليم الآداب الجميلة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[٢٨] (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا » أى تستعلموا وتستكشفوا الحال . هل يراد دخولكم أم لا ؟ من (الاستئناس) وهو الاستعلام . من (آنس الشىء) إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . أو المعنى : حتى يؤذن لكم فتستأنسوا . من (الاستئناس) الذى هو خلاف الاستيحاش . لما أن المستأذن مستوحش من خفاء الحال عليه . فيكون عبر بالشىء عما هو لازم له ، مجازاً أو استعارة . وجوّز أن يكون من (الإنس) والمعنى : حتى تعلموا هل فيها إنسان ؟ . « وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا » أى ليؤمنهم عما يوحشهم « ذَٰلِكُمْ » أى الاستئذان والتسليم « خَيْرٌ لَكُمْ » أى من الدخول بغتة « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى فتتعظوا وتعملوا بموجبه « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا » أى من الآذنين « فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أى واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم . ويحتمل: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ، ولكم فيها حاجة ، فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها.

قال الزمخشرىّ : وذلك لأن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الداخل على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة عن غيرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها . ولأنه تصرف فى ملك غيرك . فلا بد من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب . انتهى .

« وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا » أى إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع ، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أو لا ، كالنساء والولدان ، فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان . لأن هذا مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس . ولذا قال تعالى « هُوَ » أى الرجوع « أَزْكَىٰ لَكُمْ » أى أطهر مما لا يخلو عنه الإلحاح والوقوف على الأبواب ، من دنس الدناءة . وأنمى لمحبتكم .

قال الزمخشرىّ : وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة ، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إليها من قرع الباب بعنف ، والتصييح بصاحب الدار ، وغير ذلك مما يدخل فى عادات من لم يتهذب من أكثر الناس .

لطيفة :

قال ابن كثير : قال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن على بعض إخوانى، فيقول لى : ارجع. فأرجع وأنا مغتبط . انتهى. « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » أى فيجزيكم على نيتكم الحسنة فى الزيارة ، أو المكر والخيانة بأهل المزور أو ماله .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير ، ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له ، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد . ويستفاد من هذا تحريم دخول ملك الغير ، والكَوْن فيه ، وشغله بغير إذن صاحبه . فيدخل تحته من المسائل والفروع ما لا يحصى . واستدل بالآية الأكثرُ على الجمع بين الاستئذان والسلام . والأقلُّ على تقديم الاستئذان على السلام بتقديمه فى الآية . وأجاب الأكثرون ، بأن الواو لا تفيد ترتيباً . واستدل بها من قال : له الزيادة فى الاستئذان على ثلاث ، حتى يؤذن له أو يصرح بالمنع . وفهم من الآية أن الرجل لا يستأذن عند دخول بيته على امرأته . انتهى .

وقال ابن كثير : ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره . وفى الصحيحين [١] عن رسول الله ﷺ أنه قال (لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن، فخذفته بحصاة، ففقأت عينه، ما كان عليك من جناح) وأخرج [٢] الجماعة عن جابر قال: أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى دين كان على أبى. فدققت الباب، فقال (من ذا) فقلت: أنا قال (أنا، أنا) كأنه كرهه. وإنما كرهه، لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها، حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها . وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بـ(أنا) فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية . وعن ابن مسعود قال : عليكم الإذن على أمهاتكم. وعن طاووس قال : ما من امرأة أكره إلىّ أن أرى عورتها من ذات محرم . وكان يشدد النكير فى ذلك . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا . قال ابن كثير : وهذا محمول على عدم الوجوب . وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ، ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبدالله إذا جاء من حاجة ، فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه . ولهذا جاء فى [٣] الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٧ــ كتاب الديات ، ٢٣ ـ باب من اطلع فى بيت قوم ففقأوا عينه ، فلا دية له ، حديث ٢٥٢٦ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٤٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ١٧ ـ باب إذا قال من ذا ؟ فقال أنا ، حديث ١٠٧٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب ، حديث رقم ٣٨ و ٣٩ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٢٦ ـ كتاب العمرة ، ١٦ ـ باب لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة ، حديث ٢٩٢ ، عن جابر .

ثم بيّن تعالى ما رخص فيه عدم الاستئذان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا » أى بغير استئذان « بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ » أى غير معدة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل ليتمتع بها كائناً من كان ، كالخانات والحمامات وبيوت الضيافات « فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ » أى منفعة وحاجة « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » وعيد لمن يدخل مدخلًا من هذه المداخل ، لفسادٍ ، أو اطلاع على عورات . أفاده أبو السعود .

ثم أرشد سبحانه إلى آداب عظيمة تتناول المستأذنين عند دخولهم وغيرهم، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » أى مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه « وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » أى عن الإفضاء بها إلى محرم ، أو عن الإبداء والكشف « ذَٰلِكَ » أى الغض والحفظ « أَزْكَىٰ لَهُمْ » أى أطهر للنفس وأتقى للدين « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى بأفعالهم وأحوالهم . وكيف يجيلون أبصارهم ، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم . فعليهم ، إذ عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على تقوى وحذر ، فى كل حركة وسكون . أفاده الزمخشرىّ .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ في (الإكليل): في الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها . أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كل شيء في القرآن من (حفظ الفرج) فهو من الزنى ، إلا هذه الآية والتي بعدها ، فهو أن لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة . انتهى .

وليس بمتعيّن . وعليه فيكون النهي عن الزنى يعلم منه بطريق الأولى . أو الحفظ عن الإبداء يستلزم الحفظ عن الإفضاء .

الثاني ـ إن قيل : لِمَ أتى بـ (مِن) التبعيضية في غض الأبصار وقيّدها به دون حفظ الفروج؟ مع أنه غير مطلق ومقيد في قوله تعالى[1] (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) لأن المستثنى في الحفظ هو الأزواج والسراري، وهو قليل بالنسبة لما عداه . فجعل كالعدم ولم يقيد به . مع أنه معلوم من الآية الأخرى . بخلاف ما يطلق فيه البصر . فإنه يباح في أكثر الأشياء ، إلا نظر ماحرم عن قصد . فقيّد (الغض به) ومدخول (من) التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي . وقيل : إن الغض والحفظ عن الأجانب . وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم ، وبعضه جائز . بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول (من) فيه . كذا في (العناية) .

الثالث ـ سر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج ، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور . كما قال الحماسيّ[2] :

وكنتَ ، إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لقلبك يوماً ، أتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

(١) [٢٣/المؤمنون/٥] . (٢) ديوان الحماسة الحماسية رقم ٤٦٥ . لم يعلم قائله . وثانيه:

رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه ، ولا عن بَعْضِهِ أنت صابرُ

والرائد الذي يتقدم الواردة ، ليتأمل حال الماء والكلإ لهم .

ولأن البلوى فيه أشد وأكثر . ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه . فبودر إلى منعه . ولأنه يتقدم الفجور في الواقع ، فجعل النظم على وفقه .

الرابع : غض البصر من أجلّ الأدوية لعلاج أمراض القلوب . وفيه حسم لمادتها قبل حصولها . فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . ومن أطلق لحظاته ، دامت حسراته .

كلّ الحوادثِ مبداها من النظرِ ومعظمُ النّارِ من مستصغَرِ الشّرَرِ

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في (الجواب الشافي) : في غض البصر عدة منافع :

أحدها ـ امتثال أمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده . وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى . وماسعد من سعد في الدنيا والآخرة، إلا بامتثال أوامر ربه . وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثاني ـ أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم ، الذي لعل فيه هلاكه ، إلى قلبه .

الثالث ـ أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعيّة على الله . فإن إطلاق البصر يفرّق القلب ويشتّته ويبعده من الله . وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر . فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع ـ أنه يقوى القلب ويفرحه . كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس ـ أنه يكسب القلب نورا . كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، فقال[1] (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) ثم قال[2] إثر ذلك (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن ، الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه . وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب . كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان . فما شئت من بدعة وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراضٍ عن أسباب السعادة ، واشتغال

(١) [٢٤ / النور / ٣٠] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

بأسباب الشقاوة . فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب . فإذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادس ـ أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب. وكان شاه بن شجاع الكرمانيّ يقول: من عمر ظاهره باتّباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد أكل الحلال ـ لم تخطئ له فراسة .

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة ، والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . فإذا غض بصره عن محارم الله ، عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصرَه لله . ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة، والفراسة الصادقة المصيبة، التي إنما تنال ببصيرة القلب. وضد هذا ماوصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة، فقال تعالى(١) (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) فوصفهم بالسكرة التي هى فساد العقل ، والعمه الذى هو فساد البصيرة. فالتعلق بالصور يوجب إفساد العقل ، وعمه البصيرة يسكر القلب ، كما قال القائل :

سُكرانِ : سكر هوًى وسُكرُ مُدامةٍ ومتى إفاقَةُ مَنْ بِــه سُكْرَانِ ؟

وقال الآخر :

قالوا : جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم : العشقُ أعظمُ ممــا بالمجانينِ
العشق لا يستفيقُ الدهرَ صاحبُه وإنما يُصرَع المجنونُ فى الحينِ

السابع ـ أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة . ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة. كما فى الأثر (الذى يخالف هواه يَفرَق الشيطان من ظله). وضد هذا تجده فى المتبع هواه، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها .

(١) [١٥ / الحجر / ٧٢] .

وماجعل الله سبحانه فيمن عصاه . كما قال الحسن : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، فإن المعصية لا تفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى(١) (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى(٢) (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) والإيمان قول وعمل ظاهر وباطن . وقال تعالى(٣) (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره ، من الكلم الطيب . والعمل الصالح . وفى دعاء القنوت(٤) (إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت) ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه . وله من العز بحسب طاعته . ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه . وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن ـ أنه يسدّ على الشيطان مدخله من القلب . فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب ، أسرع من نفوذ الهوى فى المكان الخالى . فيمثل له صورة المنظور إليه ، ويزينها ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب . ثم يعده ويمنيه . ويوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليه حطب المعاصى . التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة . فيصير القلب فى اللهب . فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار . وتلك الزفرات والحرقات . فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب . فهو فى وسطها كالشاة فى وسط التنور . ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة ، أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه ، إلى حشر أجسادهم . كما أراها الله نبيه ﷺ فى المنام فى(٥) الحديث المتفق على صحته.

(١) [٦٣ / المنافقون / ٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٣٩] .

(٣) [٣٥ / فاطر / ١٠] . (٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٥ ـ باب القنوت فى الوتر ، حديث رقم ١٤٢٥ . (٥) يشير إلى حديث رؤياه ﷺ الذى أخرجه البخارىّ فى: ٩١ ـ كتاب التعبير ، ٤٨ ـ باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، عن سمرة بن جندب ، حديث رقم ٥٠١ .

التاسع ـ أنه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها . وإطلاقُ البصر يشتّت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها . فتنفرط عليه أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن أمر ربه ، قال تعالى(١) (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر ـ أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب انفعال أحدهما عن الآخر . وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . فإذا فسد القلب فسد النظر . وإذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك فى جانب الصلاح . فإذا خربت العين وفسدت ، خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ . فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه . وإنما يسكن فيه أضداد ذلك . فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر ، تطلعك على ما وراءها . انتهى .

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال . وزاد فى أمرهن ، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبلُ لهن ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ

(١) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » أى بالتستر والتصون عن الزنى كما تقدم . قال الزمخشرىّ : النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار . ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبيّ إلى ما تحت سرته إلى ركبته . وإن اشتهت غضت بصرها رأساً . ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك . وغض بصرها من الأجانب أصلا ، أولى بها وأحسن. ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة[1] رضى الله عنها قالت : كنت عند النبيّ ﷺ وعنده ميمونة . فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أُمِرْنا بالحجاب . فدخل علينا . فقال : احتجبا . فقلنا: يا رسول الله ! أليس أعمى لا يبصرنا ! قال: أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه؟ وهذا الحديث رواه أبو داود والترمذيّ وصححه « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » قال الزمخشرىّ : الزينة ما تزينت به المرأة من حليّ أو كحل أو خضاب . فما كان ظاهراً منها، كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب ، فلا بأس بإبدائه للأجانب . وما خفى منها كالسوار والخلخال، والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط ، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها ، للمبالغة فى الأمر بالتصون والتستر . لأن هذه الزِّيَن واقعة على مواضع من الجسد ، لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء . وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن . فنهى عن إبداء الزِّيَن نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع ، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها ، لا مقال فى حله ـ كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً فى الحظْر ثابت القدم فى الحرمة ، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها ويتقين الله فى الكشف عنها .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣١ ـ كتاب اللباس ، ٣٤ ـ باب وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، حديث رقم ٤١١٢ .

وأخرجه الترمذىّ فى : ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٢٩ ـ باب ما جاء فى احتجاب النساء من الرجال .

(فإن قلت) : لم سومح مطلقاً فى الزينـة الظاهرة ؟ قلت : لأن سترها فيه حرج . فإن المرأة لا تجد بدًّا من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والنكاح . وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها . وخاصة الفقيرات منهن . وهذا معنى قوله (إِلا مَاظَهَرَ مِنْهَا) يعنى : إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره ، والأصل فيه الظهور . انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فسر ابن عباس قوله تعالى (إِلَّا مَاظَهَرَ مِنْهَا) بالوجه والكفين ، كما أخرجه ابن أبى حاتم . فاستدل به مَن أباح النظر إلى وجه المرأة وكفيها ، حيث لافتنة . ومن قال : إن عورتهـا ما عداها . وفسره ابن مسعود بالثياب ، وفسر الزينة بالخاتم والسوار والقرط والقلادة والخلخال . أخرجه ابن أبى حاتم أيضاً . فهو دليل لمن لم يجز النظر إلى شيء من بدنها ، وجعلها كلها عورة (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ) أى وليسترن بمقانعهن ، شعورَهن وأعناقهن وقرطهن وصدورهن ، بإلقائها على جيوبهن أى مواضعها ، وهى النحر والصدر .

قال الزمخشرىّ : كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها . وكنّ يسدلن الخمر من ورائهن ، فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها . ويجوز أن يراد بالجيوب الصدور ، تسمية بمـا يليها ويلابسها ، ومنه قولهم (ناصح الجيب) .

لطيفة :

قال أبو حيان : عدّى (يضربن) بـ (على) لتضمنه معنى الوضع . وجعله الراغب مما يتعدى بها دون تضمين . و (الخمر) جمع خمار يقال (لغة) لما يستتر به . وخصصه العرف بما تغطى به المرأة رأسها . ومنه (اختمرت) المرأة و(تخمرت) . و(الجيب) ماجيب ، أى قطع من أعلى القميص . وهو ما يسميه العامة طوقاً . وأما إطلاقه على ما يكون فى الجنب لوضع الدراهم ونحوها ، فليس من كلام العرب . كما ذكره ابن تيمية . كذا فى (العناية) ثم كرر النهى عن

إبداء الزينة لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه ، باعتبار الناظر بعد ما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور ، بقوله تعالى «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ» أى فإنهم المقصودون بالزينة . ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، لكن بكراهة على المشهور.

وقال الإمام أبو الحسن بن القطان فى كتاب (إحكام النظر) : عن أصبغ ، لا بأس به ، وليس بمكروه . وروى عن مالك لا بأس أن ينظر إلى الفرج فى الجماع . ثم ذكر أن ما روى من أن ذلك يورث العمى ، فحديث لا يصح . لأن فيه (بقية) وقد قالوا (بقية أحاديثه غير نقية) ولم يؤثر عن العرب كراهة ذلك . وللنابغة والأعشى وأبى عبيد وابن ميادة وعبد بنى الحساس والفرزدق ، فى ذلك ما هو معروف .

وقوله تعالى (أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ » أى لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم. فإن آباءهن أولياؤهن الذين يحفظونهن عما يسوءهن . وآباء بعولتهن يحفظون على أبنائهم ما يسوءهم . وأبناؤهنّ شأنهم خدمة الأمهات ، وهم منهن . وأبناء بعولتهن شأنهم خدمة الآباء وخدمة أحبابهم . وإخوانهن هم الأولياء بعد الآباء . وبنوهم أولياء بعدهم . وكذا بنو أخواتهن ، هم كبنى إخوانهن فى القرابة فيتعيرون بنسبة السوء إلى الخالة . تعيرهم بنسبته إلى العمة . هذا ما أشار له المهايمىّ .

وأجمل ذلك الزمخشرىّ بقوله : وإنما سومح فى الزينة الخفية أولئك المذكورون ، لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم . ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما فى الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب . وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك . وقوله تعالى « أَوْ نِسَائِهِنَّ » قيل : هن المؤمنات . أخذاً من الإضافة. فليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدى مشركة أو كتابية . وقيل : النساء كلهن . فإنهن سواء فى حل نظر بعضهن إلى بعض .

قال فى (الإكليل) : فيه إباحة نظر المرأة إلى المرأة كمحرم . وروى ابن أبى حاتم عن عطاء ؛

أن أصحاب النبيّ ﷺ لما قدموا بيت المقدس ، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات.

وقال الرازيّ : القول الثاني هو المذهب . وقول السلف الأول محمول على الاستحباب والأَوْلى .

وقوله تعالى « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » أي لاحتياجهن إليهم . فلو منع دخولهم عليهن اضطررن. قاله المهايميّ . وظاهر الآية يشمل العبيد والإماء . وإليه ذهب قوم . قالوا : لا بأس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن. واحتجوا أيضاً بما رواه أبو[1] داود عن أنس أن النبيّ ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال: وعلى فاطمة ثوب ، إذا قنعت به رأسها ، لم يبلغ رجليها . وإذا غطت به رجليها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبيّ ﷺ ما تلقى قال : إنه ليس عليك بأس . إنما هو أبوك وغلامك .

وجاء في (تاريخ ابن عساكر) أن عبد الله بن مسعدة كان أسود شديد الأدمة . وقد كان وهبه النبيّ صلوات الله عليه لابنته فاطمة . فربّته ثم أعتقته . ثم كان ، بعدُ مع معاوية على عليّ . نقله ابن كثير ، فاحتمل أن يكون هو هو . والله أعلم .

وذهب قوم إلى أنه عني بذلك الإماء المشركات، وأنه يجوز لها أن تظهر زينتها إليهن وإن كن مشركات. قالوا : وسرّ إفراد الإماء مع شموله قوله (أَوْ نِسَائِهِنَّ) لهن الإعلام بأن المراد مَنْ في صحبتهن من الحرائر والإماء لظهور الإضافة في (نسائهن) بالحرائر . كقوله[2] (شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) فعطفن عليهن ليشاركنهن في إباحة النظر عليهن ، والقول الأول أقوى . لأن الأصل هو العمل بالعامّ حتى يقوم دليل على تخصيصه . لا سيما والحكمة ظاهرة فيه وهي رفع الحرج . وهذا الذي قطع به الشافعيّ وجمهور أصحابه .

قال في (الإكليل) : وعلى الأول استدل بإضافة اليمين على أنه ليس لعبد الزوج النظر.

---

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٢ ـ في العبد ينظر إلى شعر مولاته ، حديث ٤١٠٦

(٢) [٢ / البقرة / ٢٨٢] .

واستدل من أباحه بقراءة (أو ما ملكت أيمانكم) .

وقوله « أَوِ التَّابِعِينَ » أي الخدام لأنهن في معنى العبيد « غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ » أي الحاجة إلى النساء « مِنَ الرِّجَالِ » كالشيخ الهرم والبله . واستدل بهذا من أباح نظر الخصيّ .

وقوله تعالى « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » أي لم يفهموا أحوالهن ، لصغرهم . فيستدل به على تحريم نظر المراهق الذي فهم ذلك كالبالغ . كما في (الإكليل) .

قال الزمخشريّ : (يظهروا) إما من (ظهر على الشيء) إذا اطلع عليه ، أي لا يعرفون ما العورة ، ولا يميزون بينها وبين غيرها . وإما من (ظهر على فلان) إذا قوي عليه و (ظهر على القرآن) أخذه وأطاقه . أي لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء . و(الطفل) مفرد وضع موضع الجمع بقرينة وصفه بالجمع . ومثله (الحاج) بمعنى الحجاج . وقال الراغب : إنه يقع على الجمع .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدل بعضهم بقوله تعالى (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا) الخ على أنه لا يباح النظر للعم والخال ، لعدم ذكرهما في الآية . أخرج ابن المنذر عن الشعبيّ وعكرمة ، قالا : لم يذكر العم والخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال .

وقال الرازيّ : القول الظاهر أنهما كسائر المحارم في جواز النظر . وهو قول الحسن البصريّ . قال : لأن الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب . وقال في سورة الأحزاب[1] (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ) الآية ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم . وقد ذكروا هاهنا . وقد يذكر البعض لينبه على الجملة .

ثم قال : في قول الشعبيّ من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٥] .

ثم أشار تعالى إلى أن الزينة ، كما يجب إخفاؤها عن البصر ، يجب عن السمع ، إن كانت مما تؤثر فيه ميلًا ، بقوله سبحانه :

« وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ » أى الأرض « لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ » أى عن الأبصار « مِنْ زِينَتِهِنَّ » كالخلخال . وهذا نهى عما كان يفعله بعضهن . وذلك من ضرب أرجلهن الأرض ليتحرك خلخالهن فيعلم أنهن متحلين به . فإن ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن ، ويوهم أن لهن ميلًا إليهم .

قال الزمخشريّ : وإذ نهين عن إظهار صوت الحليّ بعد ما نهين عن إظهار الحليّ ، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحليّ أبلغ وأبلغ . قيل : وإذا نهى عن استماع صوت حليهن ، فمن استماع صوتهن بالطريق الأولى . وهذا سدّ لباب المحرمات ، وتعليم للأحوط الأحسن ، لا سيما فى مظانّ الريب وما يكون ذريعة إليها .

تنبيـه :

قال ابن كثير : يدخل فى هذا النهى كل شىء من زينتها كان مستورا ، فتحركت بحركة ، لتظهر ما خفى منها . ومن ذلك ما ورد من نهيها عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها . فروى الترمذيّ[1] عن أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : كل عين زانية . والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا . يعنى زانية .

قال : ومن الباب عن أبى هريرة . وهذا حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود والنسائىّ . وروى الترمذيّ[2] أيضا عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : الرافلة فى الزينة فى

(١) أخرجه الترمذيّ فى : ٤١ ـ كتاب الأدب ، ٣٥ ـ باب ما جاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة . (٢) أخرجه الترمذيّ فى : ١٠ ـ كتاب الرضاع ، ١٣ ـ باب ما جاء فى كراهية خروج النساء فى الزينة .

غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة ، لا نور لها . ومن ذلك أيضا ، نهيهن عن المشى فى وسط الطريق لما فيه من التبرج . فروى أبو[(١)] داود عن أبى أسيد الأنصارى أنه سمع النبىّ ﷺ وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ الطريق . عليكن بحافات الطريق . فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى أن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به . وقوله تعالى: « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ » أى ارجعوا إليه بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، فإن مقتضى إيمانكم ذلك « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى لكى تفوزوا بسعادة الدارين . ولما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة ، أمر بالنكاح . فإنه ، مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع ، خير مزجرة عن ذلك . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ » أى زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر ، ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريكم . والخطاب للأولياء والسادات و (الأيامى) جمع أيّم . من لا زوجة له أو لا زوج لها . يكون للرجل والمرأة . يقال : آم وآمَتْ وتَأَيَّماً ، إذا لم يتزوجا ، بكرين كانا أو ثيبين .

قال أبو السعود : واعتبار الصلاح فى الأرقاء ، لأن من لا صلاح له منهم ، بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتنى مولاه بشأنه ، ويشفق عليه ، ويتكلف فى نظم مصالحه بما لا بد منه شرعاً وعادة ، من بذل المال والمنافع . بل حقه ألا يستبقيه عنده . وأما عدم اعتبار الصلاح

(١) أخرجه أبوداود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٦٨ ـ باب فى مشى النساء مع الرجال فى الطريق ، حديث ٥٢٧٢ .

فى الأحرار والحرائر ، فلأن الغالب فيهم الصلاح . على أنهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بأنفسهم وأموالهم . فإذا عزموا النكاح ، فلا بد من مساعدة الأولياء لهم ؛ إذ ليس عليهم فى ذلك غرامة ، حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة إليهم . عاجلة أو آجلة : وقيل : المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه . وقوله تعالى « إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » إزاحة لما عسى يكون وازعاً من النكاح من فقر أحد الجانبين . أى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة . فإن فى فضل الله عز وجل غنية عن المال . فإنه غاد ورائح . يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب . أو وعد منه سبحانه بالإغناء . لكنه مشروط بالمشيئة . كما فى قوله تعالى[1] (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ) « وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » أى غنىّ ذو سعة ، لا يرزؤه إغناء الخلائق ، إذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته . « عَلِيمٌ » يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة . انتهى كلام أبى مسعود .

تنبيهات

الأول — الأمر فى الآية للندب . لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه . وقد يكون للوجوب فى حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك .

وفى (الإكليل) : استدل الشافعىّ بالأمر على اعتبار الولىّ . لأن الخطاب له ، وعدم استقلال المرأة بالنكاح . واستدل بعموم الآية مَنْ أباح نكاح الإماء بلا شرط ، ونكاح العبد الحرة . واستدل بها من قال بإجبار السيد على نكاح عبده وأمته .

الثانى — قدمنا أن قوله تعالى (يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) مشرط بالمشيئة . فلا يقال إنه تعالى لا يخلف الميعاد ، وكم من متزوج فقير . والتقييد بالمشيئة بدليل سمعىّ ، وهو الآية المتقدمة . أو إشارة قوله تعالى (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) لأن مآله إلى المشيئة . أو عقلىّ وهو أن الحكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة .

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ولقائل أن يقول : إذا كانت المشيئة هى المعتبرة فى غنى المتزوج ، فهى أيضاً المعتبرة فى غنى الأعزب ، فما وجه ربط وعد الغنىّ بالنكاح ، مع أن حال الناكح منقسم فى الغنى على حسب المشيئة . فمن مستغن به ، ومن فقير . كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم ؟

فالجواب ، وبالله التوفيق : إن فائدة ربط الغنى بالنكاح ، أنه قد ركز فى الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، والغفلة عن المسبِّب ، جل وعلا . حتى غلب الوهم على العقل فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتما ، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً . وأن كل واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به . فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع ، بالإيذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه ، مع كثرة العيال التى هى سبب فى الأوهام ، لنفاد المال . وقد يقدر الإملاق مع عدمه ، الذى هو سبب فى الإكثار عند الأوهام. والواقع يشهد لذلك بلامراء . فدل ذلك قطعاً على أن الأسباب التى يتوهمها البشر ، مرتبطات بمسبباتها ، ارتباطاً لا ينفك ـ ليست على ما يزعمونه . وإنما يقدر الغنى والفقرَ مسببُ الأسباب. غير موقوف تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة . وحينئذ لا ينفر العاقل المتيقظ من النكاح . لأنه قد استقر عنده أن لا أثر له فى الإقتار . وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه ، ولا يؤثر أيضاً الخلوّ عن النكاح لأجل التوفير . لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه ، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتّر عليه . وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ، ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس . فمعنى قوله حينئذ (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) الآية ، أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله . فعبر عن نفى كونه مانعاً من الغنى ، بوجوده معه . ولا يبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ، ولو فى صورة من الصور على أثر ذلك . فمن هذا الوادى أمثال قوله تعالى(١) (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) فإن ظاهر

(١) [٦٢ / الجمعة / ١٠] .

الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة ، وليس ذلك بمراد حقيقة . ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة ، وبيان أن الصلاة متى قضيت ، فلا مانع . فعبّر عن نفي المانع بالانتشار ، بما يفهم تقاضي الانتشار مبالغة في تحقيق المعنى عند السامع . والله أعلم .

فتأمل هذا الفصل واتخذه عضداً حيث الحاجة إليه . انتهى .

الثالثة ـ (في الإكليل) : استدل بعضهم بهذه الآية على أنه لا يفسخ النكاح بالعجز عن النفقة ، لأنه قال (يغنهم الله) ولم يفرق بينهم .

ثم أرشد تعالى العاجزين عن أسباب النكاح ، إلى ما هو أولى لهم ، بعد بيان جواز مناكحة الفقراء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » أي وليجتهد في العفة الذين لا يجدون نكاحا ، أي أسبابه ، أو استطاعة نكاح أي تزوج . فهو على المجاز ، أو تقدير المضاف . أو المراد (بالنكاح) ما ينكح به .

قال الشهاب : فإن (فِعالًا) يكون صفة بمعنى مفعول . ككتاب بمعنى مكتوب . واسم آلة كركاب لما يركب به . وهو كثير . كما نص عليه أهل اللغة . وقوله تعالى (حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ، ليكون انتظار ذلك

وتأميله ، لطفاً لهم فى استعفافهم ، وربطاً على قلوبهم . وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفاء . وأدنى من الصلحاء . وما أحسن ما رتب هذه الأوامر . حيث أمر أوّلا بما يعصم من الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر . ثم بالنكاح ، الذى يحصن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام . ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء ، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح ، إلى أن يرزق القدرة عليه . أفاده الزمخشرىّ .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية استحباب الصبر عن النكاح لمن لا يقدر على مؤنته . واستدل بعضهم بهذه الآية على بطلان نكاح المتعة .

ولما أمر تعالى السادة بتزويج الصالحين من عبيدهم وإمائهم ، مع الرق ، رغّبهم فى أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ، ليصيروا أحراراً ؛ فيتصرفوا فى أنفسهم كالأحرار : فقال تعالى : « وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ » أى الكتابة « مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ » حرصاً على تحريرهم الذى هو الأصل فيهم ، وحبا بتحقيق المساواة فى الأخوة الجنسية . والمكاتبة أن يقول السيد : كاتبتك . أى جعلت عتقك مكتوباً على نفسى ، بمال كذا تؤديه فى نجوم كذا . ويقبل العبد ذلك ، فيصير مالكاً لمكاسبه ولما يوهب له ، وإنما وجب معه الإمهال ، لأن الكسب لا يتصور بدونه . واشترط النجوم لئلا تخلو تلك المدة عن الخدمة وعوضها جميعاً . وقوله تعالى « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً » أى كالأمانة ، لئلا يؤدوا النجوم من المال المسروق . والقدرة على الكسب والصلاح ، فلا يؤذى أحداً بعد العتق . وقوله تعالى « وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى ءَاتَاكُمْ » أمر للموالى ببذل شىء من أموالهم . وفى حكمه ، حط شىء من مال الكتابة . ولغيرهم بإعطائهم من الزكاة إعانة لهم على تحريرهم .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية مشروعية الكتابة . وأنها مستحبة . وقال أهل الظاهر :

واجبة لظاهر الآية . وأن لندبها أو وجوبها ، شرطين : طلب العبد لها وعلم الخير فيه . وفسره مجاهد وغيره بالمال والحرفة والوفاء والصدق والأمانة .

ثم نهى تعالى عن إكراه الجوارى على الزنى كما اعتادوه فى الجاهلية ، بقوله سبحانه « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ » أى إماءكم ، فإنه يكنى بالفتى والفتاة ، عن العبد والأمة ، وفى الحديث[1] (ليقل أحدكم : فتاى وفتاتى ، ولا يقل . عبدى وأمتى) وقوله تعالى « عَلَى الْبِغَاءِ » أى الزنى . يقال : بغت بغياً وبغاء ، إذا عهرت . وذلك لتجاوزها إلى ماليس لها . وقوله تعالى « إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً » ليس لتخصيص النهى بصورة إرادتهن التعفف عن الزنى ، وإخراج ماعداها من حكمه ، بل للمحافظة على عادتهم المستمرة ، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه ، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور ، وقصورهن فى معرفة الأمور ، الداعية إلى المحاسن ، الزاجرة عن تعاطى القبائح ، انتهى كلام أبى السعود . أى وحينئذ فلا مفهوم للشرط ، وهذا كجواب بعضهم : إن غالب الحال أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة التحصن . والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب . كما أن الخلع يجوز فى غير حالة الشقاق . ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع فى حالة الشقاق ، لا جرم لم يكن لقوله تعالى[2] (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) مفهوم . ومن هذا القبيل قوله[3] (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) والقصر لا يختص بحال الخوف . ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب . فكذا هاهنا انتهى .

قال أبو السعود : وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح ، مالا يخفى . فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من إمائه ، فضلاً

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ١٧ ـ باب كراهية التطاول على الرقيق ، حديث ١٢٥١ ، عن أبى هريرة (٢) [٢ / البقرة / ٢٢٩] . (٣) [٤ / النساء / ١٠١] .

عن أمرهن به ، أو إكراههن عليه . لا سيما عند إرادتهن التعفف . وإيثار كلمة (إنْ) على (إذا) مع تحقق الإرادة فى مورد النص حتما ، للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه ، عند كون إرادة التحصن فى حيز التردد والشك . فكيف إذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع ؟ وقوله تعالى « لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » قيد للإكراه ، لكن لا باعتبار أنه مدار للنهى عنه، بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم، كما قبله. جىء به تشنيعالهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير ، لأجل النزر الحقير . أى لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال ، الوشيك الاضمحلال . يعنى من كسبهن وأولادهن .

وقوله تعالى « وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ » جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارةً ، ورجوع غائلة الإكراه إلى المكرهين إشارةً ، أى (وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ) على ما ذكر من البغاء . « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لهن . كما وقع فى مصحف ابن مسعود . وعليه قراءة ابن عباس رضى الله عنهم. وكما ينبىء عنه قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ) أى كونهن مكرهات. على أن الإكراه مصدر من المبنىّ للمفعول فإن توسيطه بين اسم (إن) وخبرها، للإيذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة . وكان الحسن البصرىّ رحمه الله تعالى، إذا قرأ هذه الآية يقول : لهن، والله! لهن، والله! وفى تخصيصهما (بهن) وتعيين مدارهما، مع سبق ذكر المكرهين أيضاً فى الشرطية، دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية ، كأنه قيل: لا للمكره . ولظهور هذا التقدير، اكتفى به عن العائد إلى اسم الشرط . فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالاً، أو معهن، إخلالٌ بجزالة النظم الجليل ، وتهوين لأمر النهى فى مقام التهويل . وحاجتهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم ، إما باعتبار أنهن وإن كن مكرهات ، لا يخلون فى تضاعيف الزنى عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية . وإما باعتبار أن الإكراه قد يكون قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرة . وإما لغاية تهويل أمر الزنى ، وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه، والتشديد فى تحذير المكرهين ، ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة ، لولا أن تداركهن

المغفرة والرحمة ، مع قيام العذر فى حقهن . فما حال من يكرههن فى استحقاق العذاب ؟ انتهى كلام أبى السعود . وقد أجاد فى تحقيق المرام رحمه الله تعالى :

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية النهى عن إكراه الإماء على الزنى . وأن المكرَه غير مكلف ولا آثم . وأن الإكراه على الزنى يتصور . وإن مهر البغىّ حرام . وفيه رد على من أوجب الحد على المكره له .

ثم حذّر سبحانه من مخالفة ما نهى عنه ، مما بينه أشد البيان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

« وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ » أى واضحات أو مفسرات لكل ماتهمّ حاجتكم إليه من عبادات ومعاملات وآداب . ومنه ماذكر قبلُ، من النهى عن الإكراه . فلا يخفى المراد منها « وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ » أى خبرا عظيما عن الأمم الماضية وما حل بهم، بظلمهم وتعدّيهم حدود الله تعالى « وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » أى فيتعظون به وينزجرون عما لاينبغى لهم . كما قال تعالى(١) (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) أى عبرة يعتبرون بها . وإيثار (المتقين) لحث المخاطبين على الانتظام فى سلكهم ، فإنهم الفائزون . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٦] .

مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى منوّرها بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار . فهو مجاز من إطلاق الأثر على مؤثّرة . كما يطلق السبب على مسببه . أو مدبرها ، من قولهم للرئيس الفائق فى التدبير (نور القوم) لأنهم يهتدون به فى الأمور فيكون مجازاً . أو استعارة استعير (النور) بمعنى المنور ، للمدبر ، لعلاقة المشابهة فى حصول الاهتداء . أو موجدها . فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره ـ كما قاله الغزالىّ ـ فيكون أطلق عليه تعالى مجازاً مرسلاً باعتبار لازم معناه .

قال أبو السعود : وعبر عن المنوّر بالنور ، تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير . وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره . كما أن النور نيّر بذاته وماعداه مستنير به . وأضيف (النور) إلى (السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) للدلالة على سعة إشراقه . أو المراد بهما العالم كله « مَثَلُ نُورِهِ » أى صفة نوره العجيبة الشأن . قال أبو السعود : أى نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين . كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال والتبيين . وقد صرح بكونه نوراً أيضاً فى قوله تعالى(١) (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما، والحسن ، وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى « كَمِشْكَاةٍ » أى كصفة كوّة ـ طاقة ـ غير نافذة فى الجدار، فى الإنارة والتنوير « فِيهَا مِصْبَاحٌ » أى سراج ضخم ثاقب ـ شديد الإضاءة ـ وقيل : المشكاة الأنبوبة فى وسط القنديل ، والمصباح الفتيلة المشتعلة « الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ » أى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر « الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » أى متلألئ وقّاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » أى كثيرة المنافع ، بأن رويت فتيلته بزيتها « زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ »

(١) [٤ / النساء / ١٧٤] .

أى لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط، ولا غربية تقع عليها عند الغروب. ولا تصيبها فى الغداة. بل فى مكان عليها الشمس مشرقة من أول طلوعها إلى آخر غروبها. كصحراء أو رأس جبل. فزيتها أضوأ « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » أى يكاد يضيء بنفسه من غير نار لصفائه ولمعانه « نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ » أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن ، ومثلت صفته العجيبة بما فصل عن صفة المشكاة . نور عظيم كائن على نور كذلك. فـ (نور) خبر مبتدأ محذوف ، والجار متعلق بمحذوف صفة له مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، والجملة فذلكة للتمثيل ، وتصريح لما حصل منه ، وتمهيد لما يعقبه . وليس معنى (نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ) نور واحد فوق آخر مثله ، ولا مجموع نورين اثنين فقط ، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف مامثل به من نور المشكاة بما ذكر . فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة ، كان أضوأ له وأجمع لنوره . بخلاف المكان الواسع ، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر . والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة . وكذلك الزيت وصفاؤه . وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقاً ، مرتبة أخرى عادة . « يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » أى لهذا النور الثاقب العظيم الشأن ، بأن يوفقهم للإيمان به وفهم دلائل حقيته .

قال أبو السعود : وإظهاره فى مقام الإضمار . لزيادة تقريره ، وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » أى ليدنو لهم المعقول من المحسوس ، توضيحاً وبياناً . ولذلك مثل نوره المعبر عنه بالقرآن ، بنور المشكاة « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فلا يخفى عليه شيء . وفيه وعد ووعيد . لأن علمه تعالى ، عبارة عن مجازاته فى أمثال هذه الآى .

تنبيه :

هذه الآية الكريمة ـ آية النور ـ من الآيات التى صنفت فيها مصنفات خاصة . منها (مشكاة الأنوار) للإمام الغزالىّ ، وقد نقل عنه الرازىّ فى (تفسيره) هنا جملة سابغة الذيل . ورأيت

للإمام ابن القيم فى كتابه (الجيوش الإسلامية) ما يجمل إيراده ، تعزيزاً للمقام واستظهاراً بزيادة العلم .

قال رحمه الله : سمى الله سبحانه وتعالى نفسه نوراً وجعل كتابه نوراً ورسوله ﷺ نوراً ودينه نوراً . واحتجب عن خلقه بالنور وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ ، قال الله تعالى[(١)] (اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقد فسر بكونه منوّر السموات والأرض ، وهادى أهل السموات والأرض . فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى . والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين . إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله . فالأول كقوله[(٢)] عزوجل (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى ، إذا جاء لفصل القضاء . ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى الدعاء المشهور : أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلنى لا إله إلا أنت . وفى الأثر الآخر : أعوذ بوجهك ـ أو بنور وجهك ـ الذى أشرقت له الظلمات . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم . أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله . كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

وفى (معجم الطبرانىّ)و(السنة)له و(كتاب عثمان الدارمىّ) وغيرها ، عن ابن مسعود رضى الله عنه . قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه . وهذا الذى قاله ابن مسعود رضى الله عنه أقرب إلى تفسير الآية ، من قول من فسرها بأنه هادى أهل السموات والأرض . وأما من فسرها بأنه منوّر السموات والأرض ، فلا تنافى بينه وبين قول ابن مسعود . والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها . وفى صحيح[(٣)] مسلم وغيره من حديث أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله

(١) [٢٤ / النور / ٣٥] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .
(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٣ (طبعتنا) .

ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل . حجابه النور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وفي صحيح[1] مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال : نور ، أنّى أراه . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : معناه كان ثمة نور ، وحال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً . وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال : نورانيٌّ أراه . على أنها ياء النسب ، والكلمة كلمة واحدة . وهذا خطأ لفظاً ومعنى . وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه ، وكان قوله (أنّى أراه) كالإنكار للرؤية ، حاروا في الحديث ، ورده بعضهم باضطراب لفظه ، وكل هذا عدول عن موجب الدليل . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب (الرؤية) له إجماع الصحابة على أنه لم يرَ ربَّه ليلة المعراج . وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك . وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف في الحقيقة . فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه ، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال : إنه ﷺ رآه عز وجل . ولم يقل بعيني رأسه . ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنهما . ويدل على صحته ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه : قوله ﷺ في الحديث الآخر (حجابه النور) فهذا النور ، والله أعلم . النور المذكور في حديث أبي ذرّ رضي الله عنه (رأيت نوراً) .

ثم قال ابن القيم : وقوله تعالى (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن . كما قال أُبيّ بن كعب وغيره : وقد اختلف في الضمير في (نوره) فقيل هو النبي ﷺ . أي مثل نور محمد ﷺ . وقيل : مفسره المؤمن . أي مثل نور المؤمن .

(١) أخرجه مسلم في ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ (طبعتنا) .

والصحيح أن يعود على الله تعالى . والمعنى : مثل نور الله سبحانه فى قلب عبده . وأعظمُ عباده نصيباً من هذا النور رسول الله ﷺ . فهذا ، مع ما تضمنه عود الضمير المذكور ـ وهو وجه الكلام ـ يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظاً ومعنى . وهذا النور يضاف إلى الله تعالى . إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد . إذ هو محله وقابله . فيضاف إلى الفاعل والقابل . ولهذا النور فاعل وقابل ، ومحل وحامل ، ومادة . وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل . فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار . الهادى لنوره من يشاء . والقابل: العبدالمؤمن. والمحل:قلبه. والحامل:همتهوعزيمتهوإرادته. والمادة: قوله وعمله. وهذا التشبيه العجيب الذى تضمنته الآية ، فيه من الأسرار والمعانى وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن ، بما أناله من نوره ، ماتقرُّ به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان : إحداهما طريقة التشبيه المركب وهى أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف. وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن ، من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به . وعلى هذا عامة أمثال القرآن . فتأمل صفة المشكاة وهى كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء ، قد وضع فيها مصباح ، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرىّ فى صفائها وحسنها . ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً ، من زيت شجرة فى وسط القراح ، لا شرقية ولا غربية ، بحيث تصيبها الشمس فى إحدى طرفى النهار ، بل هى فى وسط القراح ، محميّة بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها . فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها ، يكاد يضىء من غير أن تمسه نار . فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذى وضعه فى قلب عبده المؤمن وخصه به . والطريقة الثانية، طريقة التشبيه المفصل . فقيل : المشكاة صدر المؤمن ، والزجاجة قلبه . شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها . وكذلك قلب المؤمن . فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة . فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه . تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ماهى عليه . ويتباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء . وبصلابته يشتد فى أمر الله تعالى ، ويتصلب

فى ذات الله تعالى ، ويغلظ على أعداء الله تعالى . ويقوم بالحق لله تعالى . وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف : القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها. والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه . والشجرة المباركة هى شجرة الوحى المتضمنة للهدى ودين الحق . وهى مادة المصباح التى يتّقد منها . والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح ، ونور الوحى والكتاب. فينضاف أحد النورين إلى الآخر ، فيزداد العبد نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة، قبل أن يسمع مافيه بالأثر. ثم يبلغه الأثر بمثل ماوقع فى قلبه ونطق به . فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحى . فيريه عقله وفطرته وذوقه الذى جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة. بل يتصادقان ويتوافقان . فهذا علامة النور على النور . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

[٣٧] (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[٣٨] (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » أى أمر أن تعظم عن اللغو ، أو ترفع بالبناء قدراً . ويتلى فيها اسمه ، ولا يعبد فيها غيره، لأنها شيدت على اسمه جل شأنه. والظرف صفة (لمشكاة) أو (لمصباح) أو (لزجاجة) أو متعلق بـ (توقد) أو بمحذوف . أى سبحوه فى بيوت . أو بـ(يسبح) . ولفظ (فيها) تكرار للتوكيد .

قال أبو السعود : لما ذكر شأن القرآن الكريم فى بيانه للشرائع والأحكام ، ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب،وأشير إلى كونه فى غاية ما يكون من التوضيح، حيث مثل بنور المشكاة ـ عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم فى الاعتداء وعدمه ، والمراد بالبيوت ، المساجد كلها « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ)يعنى قبل طلوع الشمس « وَالْآصَالِ » جمع أصيل وهو العشىّ قبل غروب الشمس « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ »أى بالتسبيح والتحميد« وَإِقَامِ الصَّلَاةِ »أى إقامتها لمواقيتها من غير تأخير « وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » أى المال الذى يتزكى مُؤْتيه من دنس الشح ورذيلة البخل،وتطهر نفسه ويصفو سره « يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع . كما فى قوله تعالى[1](وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) « لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » اللام متعلقة بـ(يسبح) أو (لا تلهيهم) أو بمحذوف يدل عليه السوق.أى يفعلون مايفعلون مما ذكر،ليجزيهم . وفى آخر الآية تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ، ونفاذ المشيئة ، وسعة الإحسان،لأن (بغير حساب) كناية عن السعة . والمراد أنه لا يدخل تحت حساب الخلق وعدّهم .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهها عن اللغو والقاذورات . وفيها استحباب ذكر الله والصلاة فى المساجد . وفى قوله (رِجَالٌ) إشارة إلى أن الأفضل للنساء الصلاة فى قعر بيوتهن . كما صرح به الحديث ، إلا فى نحو العيدين لحديث[2] : ليشهدن الخير ودعوة المسلمين ، وقوله (لَا تُلْهِيهِمْ) الآية ، فيه أن التجارة

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦ ـ كتاب الحيض ، ٢٣ ـ باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى ،حديث ٢٢٣،عن أم عطية.

لا تنافى الصلاة. لأن مقصود الآية أنهم يتعاطونها ، ومع ذلك لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة. أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه كان فى السوق،فأقيمت الصلاة،فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد . فقال ابن عمر : فيكم نزلت (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ) الآية . وأخرج عن الضحاك والحسن وسالم وعطاء ومطرف مثل ذلك. انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا » عطف على ما ينساق إليه ما قبله . كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالاً ومآلاً كما وصف ، والذين كفروا « أَعْمَالُهُمْ » أى التى يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم من العذاب « كَسَرَابٍ » وهو ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة،يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى « بِقِيعَةٍ » بمعنى القاع ، وهو المنبسط من الأرض . أو جمع قاع (كجيرة) فى (جار) « يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أى لا محققاً ولا متوهماً. كما كان يراه من قبل، فضلاً عن وجدانه ماء، وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل . وقوله تعالى « وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ »أى وجد عقاب الله وجزاءه عند السراب، أو العمل.وفى التعبير بذلك زيادة تهويل.وقيل:المعنى وجده محاسباً إياه . فالعندية بمعنى الحساب ، على طريق الكناية ، لذكر التوفية بعده . قيل : هذه الجملة معطوفة على (لَمْ يَجِدْهُ) ولا حاجة إلى عطفه على ما يفيده من نحو (لم يجد ما عمله نافعاً) .

قال الشهاب: ويحتمل أن يكون بياناً لحال المشبه به، الكافر. فيعطف بحسب المعنى على التمثيل بتمامه . ولو قيل على الأول إنه من تتمة وصف السراب . والمعنى : وجد مقدوره تعالى من الهلاك بالظمأ عند السراب ، فوفاه ما كتب له،من لا يؤخر الحساب- كان الكلام

متناسباً . واختار الثانى أبو السعود حيث قال : هو بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك، بطريق التكملة، لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط، كما هو شأن الظمآن . ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال مالا قدر عنده للخيبة أصلا. فليست الجملة معطوفة على (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً) بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل ، من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عيناً ولا أثراً. كما فى قوله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) فإن قيل : لِمَ خص (الظمآن) بالذكر، مع أنه يتراءى لكل أحد كذلك ؟ فكان الظاهر (الرائى) بدله. وأجيب بأنه إنما قيده به ولم يطلقه لقوله (وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ) الخ، لأنه من تتمة أحوال المشبه به . وهو أبلغ . لأن خيبة الكافر أدخل وأعرق . ونحوه[1] (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الخ ، فإن الكافرين هم الذين يذهب حرثهم بالكلية . يعنى أنه شبه أعمال الكفار التى يظنونها نافعة ، ومآلها الخيبة ، برؤية الكافر الشديد العطش فى المحشر ، سراباً يحسبه شراباً ، فينتظم عطف (وجد الله) أحسن انتظام كما نوّروه . كذا فى (الكشف) الثالثة ـ قال الشهاب : وهذا تشبيه بليغ وقع مثله فى قول مالك بن نويرة :

لَعَمْرِىَ إنى وابن جارود كالّذى ... أَرَاقَ شُعَيْبَ الماءِ والآلُ يَبْرُقُ
فلمـــا أتاه ، خَيَّبَ اللهُ سعيَهُ ... فأمسى يَعَضّ الطرفَ عيانَ يَشْهَقُ

ثم أشار تعالى إلى تمثيلهم بنوع آخر ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٠] (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(١) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ » أي عميق كثير الماء « يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ » أي متراكم بعضه على بعض « مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ » أي متكاثفة متراكمة. وهذا بيان لكمال شدة الظلمات « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ » أي وجعلها بمرأى منه، قريبة من عينه لينظر إليها « لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » أي: ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن ، فما له هداية ما. وهذا في مقابلة قوله تعالى في مثل المؤمنين (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) والجملة تقرير للتمثيل قبلُ ، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم ، إذ لم يجاهدوا لنيل ذلك، قال تعالى[1] (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .

لطيفة :

قال ابن كثير : هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار . كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين: ناريًّا ومائيًّا . وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم ، في سورة الرعد ، مثلين مائيًّا وناريًّا .

ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شيء . فمثلهم كالسراب . والثاني لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم ، الذين لا يعقلون . فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدري أين يذهب . بل كما يقال في المثل للجاهل (أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري) انتهى .

وما ذكره مما يحتمله اللفظ الكريم ، وليس بمتعين . ومستنده في ذلك ما ذكره شيخه الإمام ابن القيم ، عليهما الرحمة والرضوان ، في (الجيوش الإسلامية) ولا بأس بإيرادها لما اشتملت عليه من بدائع الفوائد . قال : انظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٩] .

انتظام ، واشتملت عليه أكمل اشتمال. فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه وتعالى ، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها ، فيظنها شيئاً له حاصل فينتفع به . وهى كسراب بقيعة الخ، وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول ﷺ فى أخباره، ولم يعارضوها بالشبهات. وأطاعوه فى أوامره ولم يضيعوها بالشهوات. فلاهم فى علمهم من أهل الخوض الخراصين[1] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ) ولاهم فى عملهم من المستمتعين بخلاقهم ، الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون . أضاء لهم نور الوحى المبين، فرأوا فى نوره أهل الظلمات فى آرائهم يعمهون. وفى ضلالهم يتهوكون. وفى ريبهم يترددون . مغترين بظاهر السراب ، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب[2] (إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ)أوجبه لهم اتباع الهوى ، وهم لأجله يجادلون فى آيات الله بغير سلطان .

القسم الثانى ـ أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم. الذين قال الله[3] تعالى فيهم (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) وهؤلاء قسمان : أحدهما ، الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال . فهؤلاء أهل الجهل المركب ، الذين يجهلون الحق ويعادونه ، ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله . وهم يحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون . فهم لاعتقادهم الشىء على خلاف ما هو عليه ، بمنزلة رائى السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . وهكذا هؤلاء . أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذى يخون صاحبه أحوج ماهو إليه ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال مَنْ أَمَّ السراب فلم يجده ماء . بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين . سبحانه وتعالى . فحسب له ما عنده من العلم والعمل، فوفاه إياه بمثاقيل الذر . وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه

(١) [٥١/ الذاريات / ١١]. (٢) [٤٠ / غافر / ٥٦]. (٣) [٥٣ / النجم / ٢٣].

فجعله هباءً منثوراً . إذ لم يكن خالصاً لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ . وصارت تلك الشبهات الباطلة التى كان يظنها علوماً نافعة ، كذلك هباءً منثوراً . فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه . و (السراب) ما يرى فى الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى و (القيعة) و (القاع) هو المنبسط من الأرض الذى لا جبل فيه ولا فيه واد . فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحى وأعماله، بسراب يراه المسافر فى شدة الحر ، فيؤمّه ، فيخيب ظنه ويجده ناراً تلظى . فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش ، بدت لهم كالسراب . فيحسبونه ماء . فإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فعتلوهم إلى نار الجحيم فسُقُوا ماء حميماً ، فقطع أمعاءهم . وذلك الماء الذى سقوه هو تلك العلوم التى لا تنفع ، والأعمال التى كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميا سقاهم إياه . كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التى كانت فى الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغنى من جوع وهؤلاء هم الذين قال الله[1] فيهم (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وهم الذين عنى بقوله[2] (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا) وهم الذين عنى بقوله[3] تعالى (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

والقسم الثانى من هذا الصنف ، أصحاب الظلمات . وهم المنغمسون فى الجهل . بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلا . فهؤلاء أعمالهم التى عملوها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى . (كظلمات) جمع ظلمة وهى ظلمة الجهل وظلمة الكفر وظلمة الظلم واتباع الهوى وظلمة الشك والريب وظلمة الإعراض عن الحق الذى بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم . والنور الذى أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور . فإن المعرض عما بعث الله به تعالى محمداً ﷺ

(١) [١٨/الكهف/ ١٠٣و١٠٤] . (٢) [٢٥/ الفرقان/ ٣٣] . (٣) [٢/البقرة/١٦٧] .

من الهدى ودين الحق ، يتقلب فى خمس ظلمات : قوله: ظلمة . وعمله ظلمة . ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى ظلمة . وقلبه مظلم ووجهه مظلم وكلامه مظلم . وحاله مظلم . وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور ، جدّ فى الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره ، فهرب إلى ظلمات الآراء التى هى به أنسب وأولى كما قيل :

خفافيش أعشاها النهارُ بضَوْئه ووافقها قِطْعٌ من الليل مُظْلِمُ

وقوله تعالى (فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ) اللجىّ العميق . منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه . وقوله تعالى (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ) تصوير لحال المعرض عن وحيه . فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل فى صدره ، بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنها أمواج بعضها فوق بعض. والضمير الأول فى قوله (يَغْشَاهُ) راجع إلى البحر ، والضمير الثانى فى قوله (مِنْ فَوْقِهِ) عائد إلى الموج . ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب . فههنا ظلمات : ظلمة البحر اللّجىّ ، وظلمة الموج الذى فوقه، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك كله (إِذَا أَخْرَجَ) مَن فى هذا البحر (يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) واختلف فى معنى ذلك . فقال كثير من النحاة : هو نفى لمقاربة رؤيتها . وهو أبلغ من نفيه الرؤية . وإنه قد ينفى وقوع الشىء ولا تنفى مقاربته . فكأنه قال لم يقارب رؤيتها بوجه .

قال هؤلاء : (كاد) من أفعال المقاربة . لها حكم سائر الأفعال فى النفى والإثبات. فإذا قيل : كاد يفعل ، فهو إثبات مقاربة الفعل . وإذا قيل : لم يكد يفعل ، فهو نفى لمقاربة الفعل

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دالّ على أنه إنما يراها بعد جهد شديد . وفى ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر ، لأجل تلك الظلمات : قالوا: لأن (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال . فإنها إذا أثبتت نفت . وإذا نفت أثبتت . فإذا قلت (ما كدت أصل إليك) فمعناه: وصلت إليك بعد الجهد والشدة . فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت (كاد زيد يقوم) فهى نفى لقيامه . كما قال تعالى[1] (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(١) [٧٢ / الجن / ١٩] .

ومنه قوله تعالى(١) (وَإِنْ يَـكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) وأنشد بعضهم في ذلك لغزاً :

أنحويَّ هذا العصر ! ما هي لفظةٌ جرت في لسـانَيْ جرهم وثمودِ؟
إذا استعملت في صورة النفي أثبتَتْ وإن أثبتَتْ قامت مقـام جُحُودِ

وقالت فرقة ثالثة ، منهم أبو عبدالله بن مالك وغيره : إن استعمالها مثبتة ، يقتضي نفي خبرها. كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الأولى ، فهي عنده تنفي الخبر. سواء كانت منفية أو مثبتة . (فلم يكد زيد يقوم) أبلغ عنده في النفي من (لم يقم) واحتج بأنها إذا نفيت ـ وهي من أفعال المقاربة ـ فقد نفيت مقـاربة الفعل . وهو أبلغ من نفيه . وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه . واعتذر عن مثل قوله تعالى(٢) (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) وعن مثـل قوله (وصلت إليـك وما كدت أصل) و (سلمت وما كدت أسلم) بأن هذا وارد على كلامين متباينين . أي : فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له ، فالأول يقتضي وجود الفعل ، والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه . فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها . فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل . سواء كانت بصيغة الماضي أو المستقبل . وإن كانت في طرف النفي ، فإن كانت بصيغة المستقبل ، كانت لنفي الفعل ومقاربته . نحو قوله (لَمْ يَـكَدْ يَرَاهَا) وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات نحو قوله (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضي المقاربة . ولها حكم سائر الأفعال . ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها . فإنها لم توضع لنفيه . وإنما استفيد من لوازم معناها . فإنهـا إذا اقتضت

(١) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٧١] .

مقاربة الفعل ، لم يكن واقعاً ، فيكون منفياً باللزوم . وأما إذا استعملت منفية ، فإن كانت في كلام واحد ، فهي لنفي المقاربة . كما إذا قلت (لا يكاد البطال يفلح) و (لا يكاد البخيل يسود) و (لا يكاد الجبان يفرح) ونحو ذلك . وإن كانت في كلامين ، اقتضت وقوع الفعل ، بعد أن لم يكن مقارباً . كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق في أمرها .

والمقصود إن قوله (لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر . فإذا كان لا يقارب رؤيتها ، فكيف يراها ؟ قال ذو الرمة :

إذا غَيَّرَ النأيُ المحبينَ لم يَكَدْ رسيسُ الْهَوَى في حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

أي لم يقارب البراح . وهو الزوال ، فكيف يزول ؟ فشبه سبحانه أعمالهم أولا ، في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم ، بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد . فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه . وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها ، لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان ، بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج : الذي قد غشيه السحاب من فوقه. فياله تشبيهاً ما أبدعه ! وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال ! وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسول الله ﷺ وأنزل به كتابه ! وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم . وكل واحد من السراب والظلمات ، مثل لمجموع علومهم وأعمالهم . فهي سراب لا حاصل لها، وظلمات لا نور فيها . وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه ، التي تلقاها من مشكاة النبوة . فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد . ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة . ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع ، لأوليائه وأعدائه . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

ثم أشار تعالى إلى تعديل الدلائل على ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته ، وظهور أمره وجلالته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى ينزهه ويقدسه وحده، أهلوهما « وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ » أى يصففن أجنحتهن فى الهواء « كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » أى كل واحد مما ذكر ، قد هدى وأرشد إلى طريقته ومسلكه،فى عبادة الله عز وجل . فالضمير فى (علم) لـكل . أو للفظ الجلالة ،كالضمير فى صلاته وتسبيحه .

قال الزمخشرىّ : ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه ، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

وتقدم فى سورة الإسراء كلام فى تسبيح الجمادات ، فارجع إليه « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ »أى هو الإله الحاكم المتصرف فيهما ، الذى لا تنبغى العبادة فيهما إلّا له،وإليه يوم القيامة ، مصير الخلائق ، فيحكم بينهم، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً » أي يسوقها برفق . ومنه البضاعة المزجاة ، يزجيها كل أحد . أي يدفعها لرغبته عنها ، أو لقدرته على سوقها وإيصالها « ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ » بضم بعضه إلى بعض . فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة « ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً » أي متراكماً بعضه فوق بعض « فَتَرَى الْوَدْقَ » أي المطر « يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » وهي فرجه ومخارج القطر منه « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ » قال ابن كثير : يحتمل المعنى : فيصيب بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد رحمة بهم ويصرفه عن آخرين حكمة وابتلاء . ويحتمل المعنى : فيصيب بالبرد من يشاء نقمة لما فيه من نثر الثمار وإتلاف الزروع . ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . انتهى .

وخلاصته أن الضمير إما للأقرب ، على الثاني ، أوله ولما قبله ، على الأول .

لطيفة :

قد ذكرت (من) الجارّة في الآية ثلاث مرات . فالأولى ابتدائية اتفاقاً . والثانية زائدة أو تبعيضية أو ابتدائية ، على جعل مدخولها بدلاً مما قبله بإعادة الجار . والثالثة فيها هذه الأقوال . وتزيد برابع ، وهو أنها لبيان الجنس . والتقدير : ينزل من السماء بعض جبال ، التي هي البرد .

« يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ » أي لمعانه « يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » أي يخطفها لشدته وقوته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

« يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أي يأتي بكل منهما بدل الآخر خلفاً له . أو يأخذ من طول أحدهما فيجعله في الآخر رحمة بالعباد ، لانتظام معايشهم « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٦] لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » أى كل حيوان يدب على الأرض من ماء ، وهو جزء مادته . أو ماء مخصوص هو النطفة ، فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لأن من الحيوانات مالا يتولد من نطفة . وقيل : (مِنْ مَاءٍ) متعلق بـ(دابة) وليست صلة (لخلق) « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ » كالحياة . وتسمية حركتها مشيا ، مع كونها زحفاً ، بطريق الاستعارة أو المشاكلة « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى مما ذكر وغيره ، على من يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والحركات « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو صراط تلك الآيات ، صراط الحق والهدى والنور . وهم المؤمنون الصادقون الذين استجابوا لله والرسول ، وإذا دعوا إلى حكمهما استكانوا .

ثم أشار إلى ما كان يقع من المنافقين من أثر النفاق ، تحذيراً من صنيعهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

[٤٨] (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)

[٤٩] (وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)

[٥٠] (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ » أى دعوى الإيمان « وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » أى فى قلوبهم . ثم برهن عليه بقوله « وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ » أى كتابه « وَرَسُولِهِ » أى سنته وحكمه « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ » أى عن المجيء إليه « وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ » أى الحكومة لهم ، لا عليهم « يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ » أى مسرعين طائعين . وقوله تعالى « أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ » أى فى الحكم فيظلموا فيه . قال أبو السعود : إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور . وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم ، والمتوقعة منهم . وترديد المنشئية بينها . فمدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة و (أم) من الأمور الثلاثة ، بل هو منشئيتها له . كأنه قيل : أذلك ، أى إعراضهم المذكور ، لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم ، أم لأنهم ارتابوا فى أمر نبوته عليه السلام ، مع ظهور حقيتها ؟ أم لأنهم يخافون الحيف ممن يستحيل عليه ذلك ؟ إشارة إلى استجماعهم تلك الأوصاف الذميمة ، التى كل واحد منها كفر ونفاق.

ثم بيّن اتصافهم مع ذلك بالوصف الأسوأ وهو الظلم ، بقوله تعالى « بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين رسخ فيهم خلق الظلم لأنفسهم ولغيرهم . فالإضراب انتقالىّ . والمعنى : دع هذا كله ، فإنهم هم الكاملون فى الظلم ، الجامعون لتلك الأوصاف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٥٢] (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيها وجوب الحضور على من دعى لحكم الشرع ، وتحريم الامتناع ، واستحباب أن يقول : سمعنا وأطعنا . انتهى .

ثم أشير إلى حكاية شىء من أحوال أولئك المنافقين الممتنعين عن قبول حكمه ، وذلك إقسامهم الكاذب ، ليستدل به على إيمانهم الباطن ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ » أى بالخروج من ديارهم وأموالهم وأهليهم «لَيَخْرُجُنَّ» أى مجاهدين . و(جهد) منصوب على الحالية . أو هو مصدر (لأقسموا) من معناه . وهو مستعار من (جهد نفسه) إذا بلغ وسعها . أى أكدوا الأيمان وشددوها « قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ » أى لا تقسموا على ذلك وتشددوا لترضونا . فإن الأمر المطلوب منكم طاعة معروفة ، لا تنكرها النفس . إذ لا حرج فيها . فأطيعوا بالمعروف من غير حلف ، كما يطيع المؤمنون . وقيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة . أى أنها قول بلا عمل .

إذ عرف كذبكم فى أيمانكم . كما قال تعالى(١) (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ) الآية وقال تعالى(٢) (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) الآية فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى(٣) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الأعمال الظاهرة والباطنة، التى منها الأيمان الكاذبة، وما تضمرونه من النفاق ومخادعة المؤمنين ، التى لا تخفى على من يعلم السر وأخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تولوا عن الإطاعة « فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ » أى كلفه من أداء الرسالة . فإذا أدى فقد خرج من عهدة تكليفه . « وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ » أى ما أمرتم به من الطاعة والتلقى بالقبول والإذعان والقيام بمقتضاه « وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » أى لأنه يدعوكم إلى الصراط المستقيم . فإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى . وإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى التبليغ البيّن بنفسه ، أو الموضح لما أمرتم به .

---

(١) [٩/التوبة/٩٦] . (٢) [٥٨/المجادلة/١٦] . (٣) [٥٩/الحشر/١١و١٢] .

ولما تضمن قوله تعالى (تَهْتَدُوا) إشارة إلى وعد كريم ومستقبل فخيم ، استأنف التصريح به تقريراً له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أي يورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم . أو خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة « كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المؤمنة برسلها . التى أهلك الله عدوّها ، وأورثها أرضها وديارها . كما فعل ببنى إسرائيل حين أورثهم فلسطين ، بعد إهلاك الجبابرة « وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ » أى فليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً ، مرفوع اللواء ، ظاهراً على غيره ، قاهراً لمن ناوأه .

قال أبو السعود : وفى إضافة (الدين) إليهم . وهو دين الإسلام ، ثم وصفه بارتضائه لهم ، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه ، وفضل تثبيت عليه « وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى بعد هذا الوعد الكريم الموجب لتحصيل ما تضمنه من السعادتين « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى الكاملون فى فسقهم . حيث كفروا تلك النعمة العضيمة . وجسروا على غمطها .

تنبيه :

فى هذه الآية من الدلالة على صحة النبوة للإخبار بالغيب على ماهو عليه قبل وقوعه ـ مالا يخفى . فقد أنجز الله وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعدُ بلادَ المشرق والمغرب . ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملـكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا،وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٥٧] (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ » معطوف على (أطيعوا الله) وما اعترض بينهما كان تأكيداً ، أو على مقدر يستدعيه السوق . أى : فآمنوا واعملوا صالحاً وأقيموا . أو فلا تـكفروا وأقيموا . الخ . ثم كرر طاعة الرسول ، تأكيداً لوجوبها ، بقوله « وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ »أى معجزين لله تعالى ، بل مدركون « وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

ثم أشير إلى تتمة الأحكام السابقة ، إثر تمهيد مايجب امتثاله من الأحكام،ومن الترغيب والترهيب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ

تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » أى من العبيد والجوارى « وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ » أى هى ثلاث عورات لكم. إشارة إلى علة وجوب الاستئذان بأنهن أوقات يختلّ فيها التستّر عادة، ويكون النوم فيها مع الأهل غالباً . فالهجوم على أهل البيت فى هذه الأحوال، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الإباء والكراهة « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ » أى ليس عليكم جناح فى ترك نهيهم عن الدخول بلا إذن . ولا عليهم جناح من الدخول بدونه ، بعد هذه الأوقات ، وإن احتمل فيها الإخلال بالتستر لندرته . وذلك لأنهم طوافون عليكم ، فيعسر عليهم الاستئذان فى كل مرة « بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » أى بعضكم طائف على بعض طوافاً كثيراً . أو بعضكم يطوف على بعض .

قال الزمخشرىّ : يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام . فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدّى إلى الحرج . « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » يشرع ما فيه الحكمة وصلاح الحال وانتظام الشأن .

تنبيه :

فى الآية إقرارُ ماجرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ووقت الظهيرة. وقد يستدل بها على أن كشف العورة فى الخلوة جائز . كذا فى (الإكليل) .

وقال الرازىّ : الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل فى الأحكام إذا أمكن. لأنه تعالى نبه على العلة فى هذه الأوقات الثلاثة من وجهين: أحدهما بقوله تعالى (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ) والثانى بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ماعداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف فى هذه الأوقات الثلاثة، وانه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ماعدا هذه الأوقات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ » أى الذين رخص لهم فى ترك الاستئذان فى غير الأوقات المذكورة « مِنْكُمْ » أى من الأحرار ، دون المماليك ، فإنهم باقون على الرخصة « الْحُلُمَ » أى حدّ البلوغ بالاحتلام ، أو بالسنّ الذى هو مظنة الاحتلام « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » أى فى سائر الأوقات أيضاً « كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله[1] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا) .

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن، إلا فى العورات الثلاث . فإذا اعتاد الأطفال ذلك ، ثم خرجوا عن حدّ الطفولة ، بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التى يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

وهذا مما الناس منه فى غفلة . وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن عباس : آيةٌ لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن . وإنى لآمر جارتى أن تستأذن علىّ .

(١) [٢٤ / النور / ٢٧] .

وسأله عطاء : أستأذنُ على أختي ؟ قال : نعم ، وإن كانت في حجرك تمونها . وتلا هذه الآية .

وعنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله . وقوله[(١)] (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) فقال ناس : أعظمكم بيتاً . وقوله[(٢)] (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ) . كذا في (الكشاف) .

تنبيه :

قال في (الإكليل) : في الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ . وأن البلوغ يكون بالاحتلام . وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا بالاستئذان ، كالأجانب . انتهى .

وقال التقيّ السبكيّ في (إبراز الحكم ، في شرح حديث رفع القلم) : أجمع العلماء على أن الاحتلام يحصل به البلوغ في حق الرجل . ويدل لذلك قوله تعالى[(٣)] (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا) وقوله ﷺ في هذا الحديث[(٤)] (وعن الصبيّ حتى يحتلم) وهي رواية ابن أبي السرح عن ابن عباس . قال : والآية أصرح . فإنها ناطقة بالأمر بعد الحلم . وورد أيضاً عن عليّ رضي الله عنه ، رفعه (لا يُتم بعد احتلام ، ولا صمات يوم إلى الليل)[(٥)] رواه أبو داود . والمراد بالاحتلام خروج المنيّ . سواء كان في اليقظة أم في المنام ، بحلم أو غير حلم . ولما كان في الغالب لا يحصل إلا في النوم بحلم ، أطلق عليه الحلم والاحتلام . ولو وجد الاحتلام من غير خروج منيّ ، فلا حلم له .

ثم قال : وقوله في الحديث (حتى يحتلم) دليل البلوغ بذلك . وهو إجماع . وهو

(١) [٤٩ / الحجرات / ١٣] . (٢) [٤ / النساء / ٨] .

(٣) [٢٤ / النور / ٥٩] . (٤) أخرجه البخاريّ في : ٨٦ ـ كتاب الحدود ، ٢٢ ـ باب لا يرجم المجنون . من قول عليّ لعمر (من ترجمة الباب) .

(٥) أخرجه أبو داود في : ١٧ ـ كتاب الوصايا ، ٩ ـ باب ما جاء متى ينقطع اليتم ، حديث رقم ٢٨٧٣ .

حقيقة فى خروج المنىّ بالاحتلام ، ومجاز فى خروجه بغير احتلام يقظة أو مناماً . أو منقول فيما هو أعم من ذلك . ويخرج منه الاحتلام بغير خروج منىّ ، إن أطلقناه عليه منقولاً عنه . ولكونه فرداً من أفراد الاحتلام . انتهى .

وفى (القاموس) : الحُلْمُ (بالضم) والاحتلام : الجماع فى النوم . والاسم الحلم كعنق . انتهى .

وقال الراغب : سمى البلوغ حلماً ، لكون صاحبه جديراً بالحلم : أى الأناة والعقل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ » أى اللاتى قعدن عن الحيض والولد، لكبرهن «اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا » أى لا يطمعن فيه ، لرغبة الأنفس عنهن « فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ » أى الظاهرة مما لا يكشف العورة ، لدى الأجانب . أى يتركن التحفظ فى التستر بها . فلا يلقين عليهن جلابيبهن ولا يحتجبن « غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ » أى مظهرات لزينة خفية . يعنى الحلىّ فى مواضعه المذكورة فى قوله تعالى[١] (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ) أوالمعنى غير قاصدات بالوضع ، التبرج . ولكن التخفف إذا احتجن إليه «وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ » أى من وضع تلك الثياب « خَيْرٌ لَهُنَّ » لأنه أبلغ فى الحياء وأبعد من التهمة والمظنة . ولذا يلزمهن ، عند المظنة ، ألا يضعن ذلك . كما يلزم مثله فى الشابة « وَاللَّهُ

---

(١) [٢٤ / النور / ٣١] .

سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فيسمع مقالهن مع الأجانب ، ويعلم مقاصدهن من الاختلاط ووضع الثياب . وفيه من الترهيب ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فى القعود عن الغزو ، لضعفهم وعجزهم . وهذه الآية كالتى فى سورة الفتح وكآية براءة[1] (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) وهذا ما ذهب إليه عطاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وزَعْمُ أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده ، مردود بأن المراد أن كلا من الطائفتين منفىّ عنه الحرج . ومثال هذا ــ كما قال الزمخشرىّ ــ أن يستفتيك مسافر عن الإفطار فى رمضان . وحاجّ مفرد عن تقديم الحلق على النحر . قلت له : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك ، يا حاجّ أن تقدم

(١) [٩ / التوبة / ٩١] .

الحلق عن النحر . يعني أنه إذا كان في العطف غرابة ، لبعد الجامع في بادئ النظر ، وكان الغرض بيان حكم حوادث تقاربت في الوقوع ، والسؤال عنها والاحتياج إلى البيان لكونها في معرض الاستفتاء والإفتاء ، كان ذلك جامعاً بينها ، محسناً للعطف ، وإن تباينت .

قال الشهاب : وبهذا يظهر الجواب عن زعم أنه لا يلائم ما قبله ولا ما بعده . لأن ملاءمته لما بعده قد عرف وجهها . وأما ملاءمته لما قبله فغير لازمة ، إذ لم يعطف عليه . انتهى.

وقيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها . فخالج قلوبَ المطعِمين والمطعَمين ريبة في ذلك . وخافوا أن يلحقهم فيه حرج . وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، لقوله تعالى(1) (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) فقيل لهم : ليس على الضعفاء ، ولا على أنفسكم ، يعني عليكم ، وعلى مَن في مثل حالكم من المؤمنين ، حرج في ذلك .

وقيل : كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومواكلتهم ، لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم . ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر . والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه ، فيضيق على جليسه. والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم . فكانوا يتحرجون . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكروه . ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفي الحرج عنه كله . ولا يستلزم نفي الحرج عن مؤاكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيله الصحيح في غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه . بل يراد به حضوره مع

(١) [٢ / البقرة / ١٨٨] .

الصحيح على مائدة ، واختصاصه بقصعة على حدة . وما أحسن عادة الانفراد بالقصاع ، مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء فى الاجتماع . وقوله تعالى « وَلَا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ » أى بيوت أزواجكم وعيالكم . أضافه إليهم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفرّاء .

وقال ابن قتيبة : أراد بيوت أولادهم . فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الولد كسب والده ، وماله كماله . قال عليه الصلاة والسلام [1] (إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه) .

قال: والدليل على هذا ، أنه تعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد . لأنه إذا كان سبب الرخصة هو القرابة ، كان الذى هو أقرب منهم أولى . انتهى .

وعليه ، فلا يقال إنه ليس فى أكل الإنسان من بيت نفسه حرج ، فما فائدة ذكره بأن المراد بالأنفس من هو بمنزلتها من العيال والأولاد ، كما فى قوله [2] (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ).

وفى (الكشف) : فائدة إقحام النفس، أن المراد به ليس على الضعفاء المطعمين، ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات ، أو مَن هو فى مثل حالهم وهم الأصدقاء ـ حرج .

وقيل إنه على ظاهره . والمراد إظهار التسوية بينه وبين قرنائه .

قال الشهاب : وهو حسن . ولا يرد عليه أنه حينئذ لم يذكر فيه الأكل من بيوت الأزواج والأولاد ، لأنه داخل فى قوله (مِنْ بُيُوتِكُمْ) . انتهى .

« أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ » يعنى أموال المرء ، إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له ، أن

(١) أخرجه النسائىّ فى: ٤٤ـ كتاب البيوع، ١ ـ باب الحث على الكسب، عن عائشة

(٢) [٤ / النساء / ٢٩] .

يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته . وملك المفاتح كونها فى يده وحفظه « أَوْ صَدِيقِكُمْ » أى أو بيوت أصدقائكم . والصديق يكون واحداً وجمعاً . وكذلك الخليط والقطين والعدوّ . كذا فى (الكشاف) .

قال الناصر : وقد قال الزمخشرىّ : إن سرّ إفراده فى قوله تعالى [1] (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) دون الشافعين ، التنبيه على قلة الأصدقاء ، ولا كذلك الشافعون فإن الإنسان قد يحمى له ، ويشفع فى حقه من لا يعرفه ، فضلا عن أن يكون صديقاً .

ويحتمل فى الآيتين ، أن يكون المراد به الجمع . فلا كلام . ويحتمل أن يراد الإفراد ، فيكون سرّه ذلك . والله أعلم .

قال الزمخشرىّ : يحكى عن الحسن أنه دخل داره . وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره ، فيها الخبيص وأطايب الأطعمة ، وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سروراً ، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم . يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضى الله عنهم .

وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب ، فيسأل جاريته كيسه ، فيأخذ منه ما شاء . فإذا حضر مولاها فأخبرته ، أعتقها سروراً بذلك .

وعن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما: من عظم حرمة الصديق، أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة ، بمنزلة النفس والأب والأخ والابن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الصديق أكبر من الوالدين. إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات . فقالوا [1] (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) . وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك، قام ذلك مقام الإذن الصريح. وربما سمج الاستئذان وثقل . كمن قدم إليه طعام ، فاستأذن صاحبه فى الأكل منه . انتهى .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٠ و ١٠١] .

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً » أي مجتمعين أو متفرقين . روى أن قوماً من الأنصار إذا نزل بهم ضيف ، لا يأكلون إلا مع ضيفهم . وإن قوماً كانوا تحرجوا من الاجتماع على الطعام ، لاختلاف الناس في الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض . فأبيح لهم ذلك .

وقال قتادة : كان هذا الحيّ من بني كنانة ، يرى أحدهم ؛ أن مخزاة عليه ، أن يأكل وحده في الجاهلية . حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه . واشتهر هذا عن حاتم لقوله[1] :

إذا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فالْتَمِسِي لَهُ أكيلًا فإني لستُ آكِلَهُ وَحْدِي

قال الشهاب : وفي الحديث[2] (شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده) والنهي في الحديث لاعتياده بخلًا بالقرى ، ونفي الحرج عن وقوعه أحياناً ، بيان لأنه لا إثم فيه ، ولا يذم به شرعاً ، كما ذمّت به الجاهلية .

« فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » أي إذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت لتأكلوا ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ، قرابة وديناً . قاله الزمخشريّ .

أشار رحمه الله ، إلى أن المراد بالأنفس من هم بمنزلتها ، لشدة الاتصال كقوله[3] (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ويحتمل أن المسلم ، إذا ردت تحيته عليه ، فكأنه سلم على نفسه . كما أن القاتل لاستحقاقه القتل بفعله ، كأنه قاتل نفسه . وأما إبقاؤه على ظاهره ؛ لأنه إذا لم يكن في البيت أحد ، يسره أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . كما روى عن ابن عباس — فبعيد غير مناسب لعموم الآية . كذا في (الشهاب) .

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أَيَا ابنةَ عبد الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنةَ ذي البُرْدَيْنِ والأَسَدِ الوَرْدِ

(٢) لم أقف عليه . (٣) [٤ / النساء / ٢٩] .

وقال الناصر : فى التعبير عنهم ، بالأنفس ، تنبيه على السر الذى اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان ، لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه ، لاتحاد القرابة . . فليطب نفساً بانبساطٍ فيها « تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أى ثابتة بأمر ، مشروعة من لدنه « مُبَارَكَةً » أى مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها « طَيِّبَةً » أى تطيب بها نفس المستمع « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ما فيها من الأحكام أو الآداب القائدة إلى سعادة الدارين .

ولما أمر تعالى بالاستئذان عند الدخول ، أرشد إلى الاستئذان عند الانصراف من مجلسه صلوات الله عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال الزمخشرى : أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية ذهاب الذاهب من مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه . فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ، ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله . وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره . وذلك مع تصدير الجملة (بإنما) وإيقاع المؤمنين مبتدأ

مخبراً عنه بموصول ، أحاطت صلته بذكر الإيمانين . ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً، حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)وضمنه شيئاً آخر. وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ،وعرّض بحال المؤمنين وتسللهم لواذاً . ومعنى قوله (لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ) لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ، ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استوصوب أن يأذن له . والأمر الجامع : الذى يجمع له الناس. فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز . وذلك نحو مقاتلة عدوّ ، أو تشاور فى خطب مهم ، أو تضامّ لإرهاب مخالف ، أو تسامح فى حلف وغير ذلك . أو الأمر الذى يعم بضرره أو بنفعه وقرئ (أمر جميع) . وفى قوله(وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ) أنه خطب جلل ، لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوى رأى وقوة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم ، فى كفايته . فمفارقة أحدهم فى مثل تلك الحال ، مما يشق على قلبه ، ويشعّث عليه رأيه فمن ثم غلّظ عليهم وضيق عليهم الأمر فى الاستئذان ، مع العذر المبسوط ، ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله (لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) وذكرُ الاستغفار للمستأذنين ، دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدّثوا أنفسهم بالذهاب ، ولا يستأذنوا فيه .

وقيل : نزلت فى حفر الخندق . وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغى أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدمهم فى الدين والعلم ، يظاهرونهم ولا يخذلونهم فى نازلة من النوازل ، ولا يتفرقون عنهم ، والأمر فى الإذن مفوض إلى الإمام . إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن . على حسب ما اقتضاه رأيه . اه

تنبيه :

استدل بالآية على أن بعض الأحكام مفوّضة إلى رأيه عليه الصلاة والسلام . وتسمى هذه المسألة مسألة التفويض . وهى مبسوطة فى الأصول ، وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٣] لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » أى إذ احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر ، فدعاكم ، فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه . ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعى ، قال الزمخشرىّ .

وكذا قال ابن الأثير فى (المثل السائر) أى إذا حضرتم فى مجلسه ، فلا يكن حضوركم كحضوركم فى مجالسكم . أى لا تفارقوا مجلسه إلا بإذنه ، والزموا معه الأدب .

وذهب قوم إلى أن المراد بالدعاء الأمر. منهم ابن أبى الحديد حيث قال فى (الفلك الدائر): إن المعنى المتقدم ، وإن دلت عليه قرينة متقدمة ، كما قال ابن الأثير ـ ففى الآية قرينة أخرى متأخرة تقتضى حمله على محمل آخر غير هذا . ولعله الأصح . وهى أن يراد بالدعاء الأمر. يقال: دعا فلان قومه إلى كذا ، أى أمرهم به وندبهم إليه. وقال سبحانه(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) أى ندبكم . وقال سبحانه(٢) (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ) أى أمرتهم وندبتهم، والقرينة المتأخرة قوله(٣) (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) انتهى . وكذا قال المهايمىّ : أى لا تجعلوا أمره بينكم كأمركم بينكم يجاب تارة دون أخرى . لأنه واجب الطاعة . لا يسقط بالانسلال عن جملة المدعوّ .

« قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا » أى ينسلون قليلًا قليلًا . (واللواذ) الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا . يعنى ينسلون عن الجماعة فى الخفية على سبيل الملاوذة ، واستتار بعضهم ببعض . و (لواذًا) حال. أى ملاوذين .

(١) [٨ / الأنفال / ٢٤] . (٢) [٧١ / نوح / ٧] . (٣) [٢٤ / النور / ٦٣] .

هذا ، وقيل معنى الآية : لا تجعلوا نداءه وتسميته ، كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به ، والنداء وراء الحجرة . ولكن بلقبه المعظم . مثل : يانبيّ الله! ويا رسول الله! مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

وضعف بأنه لا يلائم السياق واللحاق. وتكلف بعضهم لربطه بما قبله، بأن الاستئذان يكون بقولهم : يا رسول الله ! إنا نستأذنك . ولأن من معه في أمر جامع يخاطبه ويناديه . والأول أظهر وأولى كما في (العناية) .

نعم ، في التنزيل عدة آيات ، في إيجاب مشافهته صلوات الله عليه بالأدب ومخاطبته بالتوقير ، وجعله من ضرورة الإيمان ومقتضاه . كآية [1] (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا) الآية[2] و(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) إلى قوله [3] (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أي يعرضون عنه ولا يأتون به. فضمن (المخالفة) معنى الإعراض والصدّ . أو عن صلته . وقيل : إذا تعدى (خالف) بـ (عن) ضمن الخروج . وأصل معنى المخالفة أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، كما قاله الراغب « أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ » أي محنة في الدنيا « أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أي في الآخرة أو فيهما .

تنبيه :

استدل به على وجوب وزن الأمور بميزان شريعته وسنته، وأصول دينه . فما وافق قبل ، وما خالف رد على قائله وفاعله ، كائناً من كان . كما ثبت في الصحيحين [4] عنه صلوات الله

(١) [٢ / البقرة / ١٠٤] . (٢) [٤٩ / الحجرات/ ٢] .(٣) [٤٩ / الحجرات/ ٤]

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٠ ـ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (في ترجمة الباب) .

عليه وسلامه (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) واستدل بالآية أيضاً أن الأمر للوجوب . فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين . قيل : هذا إنما يتم إذا أريد بالأمر الطلب لا الشأن كما فى قوله (عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ) وقد جوّزا فيه ، مع إرادتهما معاً . وتفصيل البحث فى (الرازىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » أيها المكلفون من المخالفة والموافقة ، والنفاق والإخلاص . وإنما أكد علمه بـ (قد) لتأكيد الوعيد . « وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فلا يخفى عليه خافية . لأن الكل خلقه وملكه . فيحيط علمه به ضرورة . (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(١) .

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٥ – سُورَة الفُرْقَان

الجمهور على أنها مكية . وعن الضحاك : مدنية . وعن بعضهم : مكية إلا ثلاث آيات[١] (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ) إلى (رَحِيماً) .

قال المهايمىّ : سميت بالفرقان لاشتمالها على أنه ظهر كثرة خيرات الحق بالفرقان ، الذى هو التمييز بين الحق والباطل . والأظهر أنه لذكره فيها بمعانيه الآتية المتسع لها اللفظ لا خصوص ما ذكره ، وآياتها سبع وسبعون .

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨ـ٧٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

« تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً » .

يحمد تعالى نفسه الكريمة ويثنى عليها ، لما أنزله من الفرقان ، كما قال(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » الآية .

قال الزمخشريّ : (البركة) كثرة الخير وزيادته . ومنها (تَبَارَكَ اللَّهُ) وفيه معنيان : تَزَايَدَ خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه ، في صفاته وأفعاله . و(الْفُرْقَانَ) مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما . وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ، ولكن مفروقاً مفصلا بعضه عن بعض في الإنزال . ألا ترىٰ إلى قوله(٢) (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) انتهى .

قال الناصر : والأظهر هٰهنا هو المعنى الثاني. لأن في أثناء السورة بعد آيات(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) قال الله تعالى (كَذَٰلِكَ) أى أنزلناه مفرقاً كذلك (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة ـ والله أعلم ـ . كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد . انتهى .

قال أبو السعود : وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان ، لتشريفه والإيذان بكونه في أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسل ؛ ردًّا على

(١) [١٨/الكهف/١و٢] . (٢) [١٧/الإسراء/١٠٦] . (٣) [٢٥/الفرقان/٣٢] .

النصارى ، والكناية فى (ليكون) للعبد أو للفرقان . و (النذير) صفة بمعنى منذر ، أو مصدر بمعنى الإنذار ، كالنكر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) أى أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية لما أريد منه . كخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المفيدة . وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة . بأمثلة الحكمة والتدبير لأمرما ، ومصلحته مطابقاً لما قدر له ، غير متجاف عنه .

ولما تضمن هذا إثبات التوحيد والنبوة ، تأثره بالبرهنة عليهما ، وتضليل المخالفين فيهما ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا)

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً) أى لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أوّلا وبعثه ثانياً . ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهية ، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها . وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء . أفاده القاضى .

قال الشهاب : قدم الموت لمناسبته للضر المتقدم . وفسر الموت والحياة بالإماتة والإحياء والإنشار ، إما بياناً لحاصل المعنى ، لأن مالك الموت له القدرة على الإماتة ، أو إشارة إلى أنه بمعنى الأفعال . كما في قوله[1] (أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)

[٥] (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا » أي بجعل الصدق إفكاً ، والبريء عن الإعانة معيناً « وَزُورًا » أي باطلا لا مصداق له ، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » أي ما سطروه ، كتبها لنفسه وأخذها « فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ » أي تلقى عليه ليحفظها « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أي دائما .

قال ابن كثير : وهذا الكلام ، لسخافته وكذبه وبهته منهم ، يعلم كل أحد بطلانه . فإنه قد علم بالضرورة : أن محمدا رسولَ ﷺ ، لم يكن يعاني شيئا من الكتابة ، لا في أول عمره ولا في آخره . وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده ، إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته . وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الردية ، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث با(لأمين) لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التي يعلم كل عاقل براءته منها . وحاروا بما يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر . وتارة يقولون: شاعر . وتارة يقولون: مجنون . وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى[2] (انْظُرْ

(١) [٧١ / نوح / ١٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٤٨] و [٢٥ / الفرقان / ٩].

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) وقال تعالى فى جواب ما افتروه هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الخفىّ فيهما . إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى. ومن مقتضاه رحمته إياهم بإنزاله ، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره . وفى طيّه ترهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبىّ عليه الصلاة والسلام، مع ما يتقولونه ويفترونه، لا يعزب عن علمه . فسيجزيهم عليه بزهوق باطلهم ومحو أثرهم ، وسموق حقه وظهور أمره « إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » تعليل لما هو مشاهد من تأخير عقوبتهم، مع استيجابهم إياها . أى فهو يمهل ولا يعاجل لمغفرته ورحمته. أو الوصفان كناية عن كمال قدرته على الانتقام منهم . لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر . هذا ما يستفاد من (الكشاف) ومن تابعه، لبيان مطابقة ذلك لما قبله .

وقال ابن كثير : قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً) دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة،وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم و كفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا،يدعوهم سبحانه إلى التوبة ، والإقلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى . كما قال تعالى(١) (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى(٢) (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ

---

(١) [٥ / المائدة / ٧٣و٧٤] . (٢) [٨٥ / البروج / ١٠] .

جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) قال الحسن البصريّ : انظروا إلى هذا الكرم والجود . قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

ثم أشار تعالى إلى تعنتهم بخصوص المنزل عليه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)

« وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » أى كما نأكل « وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » أى يتردد فيها لشؤونه كما نمشى . قال الزمخشريّ : يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش . أى فيخالف حاله حالنا . قال أبو السعود : وهل هو إلا لعمههم وركاكة عقولهم ، وقصور أنظارهم على المحسوسات . فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأمور نفسانية . كما أشير إليه بقوله تعالى[(١)] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ) ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا ، إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك حتى يتساندا فى الإنذار فقالوا «لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا» ثم نزلوا أيضاً إلى اقتراح أن يرفد بكنز ، إن لم يرفد بملك ، فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا)

« أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ » أى من السماء يستظهر به ، ولا يحتاج إلى طلب المعاش ، ويكون دليلا على صدقه . ثم نزلوا فاقتنعوا باقتراح ماهو أيسر منه ، فقالوا « أَوْ تَكُونُ لَهُ

(١) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » أى بستان يرتزق منه « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً » أى مغلوباً على عقله . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالُ » استعظام للأباطيل التى اجترأوا على التفوّه بها . والتعجب منها . أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقوال الخارجة عن العقول « فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى القدح فى نبوّتك ، بأن يجدوا قولاً يستقرّون عليه . أو فضلّوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه .

قال ابن كثير : كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال ، حيثما توجه . لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

ثم نبه تعالى على أنه إن شاء آتاه خيراً مما يقترحون ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً » أى إن شاء جعل لك خيراً مما قالوا . وهو أن يعجل لك مثل ماوعدك فى الآخرة من الجنات والقصور . ولكن قضت حكمته ذلك ليكون الرضوخ للحق لا للمال . وليصدع بأن الأمر مبنىّ على النظر والاستدلال ، لا ما يلهى المشاعر والخيال . مما يتطرق إلى الشغب فيه الجدال ، فسبحان الحكيم المتعال . وقوله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا)

« بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ » إضراب انتقالىّ عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة ، وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جناياتهم الأخرى ، للتخلص إلى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها ، من فنون العذاب ، بقوله « وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » أى نارا شديدة الاستعار ، أى التوقد والالتهاب .

وقيل : هـذا الاضراب عطف على ما حكى عنهم وهو (وقالوا ما لهذا الرسول) على معنى : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تـكذيبهم بالساعة . والحال أنا قد أعتدنا لـكل من كذب بها سعيراً . فإن جراءتهم على التـكذيب بها ، وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها ، أعجب من القول السابق .

ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قيل : بل كذبوا بالساعة ، فـكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ؟ وكيف يصدقون بتعجيل ما وعدك الله فى الآخرة وهم لا يؤمنون بها ؟

ثم وصف تعالى السعير بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا)

« إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » أى إذا كانت بمرأى منهم (أى قريبة منهم) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم ، للإيذان بأن التغيظ والزفير منهـا ، لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ، حقيقة أو تمثيلًا . و (من) فى قوله (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) إشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة ، حين رأتهم ، خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة . وفيه مزيد تهويل لأمرها . أفاده أبو السعود . و (التغيّظ)

إظهار الغيظ وهو أشد الغضب ، وقد يكون مع صوت كما هنا . شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره ، وهو صوت يسمع من جوفه ، تصريحاً أو مكنيا أو تمثيلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا)

[١٤] (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا)

« وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ » أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا » أى هلاكاً . أى نادوه نداء المتمنى الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه . كما قيل : أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت . فيقال لهم « لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » لكثرة أنواعه المتوالية . فإن عذاب جهنم ألوان وأفانين . أو كثرته باعتبار تجدد أفراده وإن كان متحداً . أو كثرته كناية عن دوامه . لأن الكثير شأنه ذلك كما قيل فى ضده[1] (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) وقيل : وصف الثبور بالكثرة ، لكثرة الدعاء أو المدعوّ به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا)

[١٦] (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا)

« قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا » أى حقيقا أن يسئل ويطلب ويتنافس فيه . وما فى (على) من معنى الوجوب ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٣٢و٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ، أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)

[١٨] (قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ » أى الله تعالى للمعبودين، تقريعاً لعبدتهم « ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » أى عن السبيل بأنفسهم ، لإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن المرشد « قَالُوا سُبْحَانَكَ » تعجباً مما قيل لهم . لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شيء . أو تنزيها له عن الأنداد « مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى نعبدهم . فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ وليًّا غيرك ، أو (من أولياء) أى أتباعاً للعبادة « وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ » استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالّون ، بعد بيان تنزههم عن إضلالهم . وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة . أى ما أضللناهم . ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ، ليعرفوا حقها ويشكروها . فانهمكوا فى الشهوات حتى نسوا الذكر ، أى ذكرك . أو التذكر فى آلائك ، والتدبر فى آياتك ، فجعلوا أسباب الهداية ، بسوء اختيارهم ، ذريعة إلى الغواية ـ أفاده أبو السعود « وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا » أى هالكين . ثم أشار تعالى لاحتجاجه على عبدتهم وإلزامهم ما يبكتهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)

«فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ» أى المعبودون ، أيها الكفرة « بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة.أو فى قولكم هؤلاء أضلونا «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ» أى ماتملكون(صَرْفاً) أى دفعاً للعذاب عنكم بوجهٍ ما « وَلَا نَصْراً » أى لأنفسكم من البوار « وَمَنْ يَظْلِمْ مِّنْكُمْ » أيها المكلفون ، كدأب هؤلاء « نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً » . ثم أجاب عن شبههم السابقة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ،وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ،وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» أى ليحتاجون إلى التغذى بالطعام ويتجولون فى الأسواق للتكسب والتجارة . وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم . فإنه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة،على صدق ماجاءوابه من الله.ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى[١] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) وقوله[٢](وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الصلاح، خلافاً لمن كرهها لهم .

---

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨] .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً » قال الزمخشرى : هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ماقالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه فى الأسواق . بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل . يقول : وجرت عادتى وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم ، أيها الناس ، ببعض . والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم . وبمناصبتهم لهم العداوة . وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف،وأنواع أذاهم،وطلب منهم الصبر الجميل. ونحوه[1] (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وفى قوله تعالى(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً » زيادة تسلية وعدة جليلة . أى هو عالم فيما يبتلى به وغيره ، فلا يضق صدرك . فإن فى صبرك سعادةً وفوزاً فى الدارين .

ثم أشار إلى نوع آخر من أقاويلهم الباطلة ، وإبطالها ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا »أى الرجوع إليه بالبعث والحشر « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ » أى للرسالة ، أو لتخبرنا بصدق محمد صلوات الله عليه « أَوْ نَرَى رَبَّنَا » أى فيخبرنا بذلك « لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ » أى فى شأنها حتى تفوّهوا بمثل هذه العظيمة « وَعَتَوْا » أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان « عُتُوًّا كَبِيراً » أى بالغاً أقصى غايته . حيث أملوا رتبة التكليم الربانىّ من غير توسط الرسول والملك . ولم يكتفوا بهذا الذكر الحكيم والخارق العظيم .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا)

« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ » أى عندالموت أو فى القيامة « لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً » أى كما كانوا يقولون عند لقاء العدوّ وشدة النازلة (حجراً) أى أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً و(محجوراً) تأكيد ا(حجراً) وقيل هو من قول الملائكة . ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى جعل الله ذلك حراماً عليكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

« وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ » أى مما كانوا يراءون به ابتغاء السمعة والشهرة ، ويرونه من مكارمهم « فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً » أى مثل الغبار المنثور فى الجوّ، فى حقارته وعدم نفعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)

[٢٥] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا)

« أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » أى ينصدع نظامها فلا يبقى أمر مافيها من الكواكب على ما يرى اليوم . فيخرب العالم بأسره . و(الباء) بمعنى (مع) أى مع السحب الجوية . أو بمعنى (عن) أى تنفطر عن الغمام الذى يسوّد الجو ويظلمه ، ويغم القلوب مرآه « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » فيحيطون بالخلائق فى المحشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)

[٢٧] (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

[٢٨] (يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

[٢٩] (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا)

«الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ »أى فلايدعيه ثَمَّ غيره . ويكون له سبحانه السلطة القاهرة الشاملة «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا*وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ »أى تشتد حسراته وتتصاعد زفراته « يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » يعنى من أضلّه عن الذكر ،وصده عن سبيل الله «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ» أى القرآن ، أوموعظة الرسول « إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا »أى مبالغاً فى إضلاله ، يعده ويمنيه فى الدنيا ، ما يحسّره عليه فى العقبى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)

« وَقَالَ الرَّسُولُ » أى إثر ماشاهد من عتوهم وعنادهم « يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» أى متروكا ،معرضاً عنه . وجملة (وقال الرسول) عطف على (وقال الذين لا يرجون) وما بينهما اعتراض،سيقت لانتظام ماقالوه وطلب النصر عليهم واستنزال الفرج الإلٰهى مما أضاقوا به الصدور ، وجلبوه من الكدور ، وللإشارة إلى مايحيق بهم من شقاء الدارين .

تنبيه :

الآية ، وإن كانت في المشركين ، وإعراضُهم هو عدم إيمانهم ، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل به ، والأخذ بآدابه . الذى هو حقيقة الهجر . لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك . إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها . ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ويتمسك بأحكامها .

ومن (فوائد) الإمام ابن القيم رحمه الله . قوله فى هذه الآية : هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه .

والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس . هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها . فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به .

قال : وكل هذا داخل فى هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض . انتهى .

وفى (الإكليل) : إن فى الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه . وكذا قال أبو السعود : فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن ، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم . ثم قال : وفيه من التحذير ما لا يخفى . فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم ، عجل لهم العذاب ولم يُنظروا . ثم ذكر تعالى ما يكون أسوة لنبيه ، وتسلية له ، ووعداً بالنصرة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا » أى إلى ما يبلغك ما تتمناه « وَنَصِيرًا » أى لك على كل من يناوئك . ثم أشار تعالى إلى مقترح خاص بالتنزيل الكريم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)

[٣٣] (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » أى دفعة واحدة فى وقت واحد . وقد بين سبحانه بطلان هذه المماراة الحمقاء بقوله « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » أى نقوّيه به على القيام بأعباء الرسالة، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة . فإن ما يتواتر إنزاله لذلك ، أبعث للهمة وأثبت للعزيمة وأنهض للدعوة ، من نزوله مرة واحدة « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » أى فصلناه تفصيلا بديعاً ، لا يلحق شأوه ولا يدرك أمده .

قال القاشانىّ : الترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر ، مدّة يمكن فيها ترسخه فى قلبه ، وأن يصير ملكة لا حالا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى بصفة عجيبة من باطلهم فى قدح أو مقترح « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى الذى يقمع تلك الصفة . كما قال [١] (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى بياناً وهداية ، عناية بك

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٨] .

وبما أرسلت من أجله ، وخذلاناً لأعداء الحق وخصوم الرشاد .

تنبيه :

يذكر المفسرون هاهنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة ، كنزول بقية الكتب جملة . ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة ، صحيح . فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التنزيل له . والحال أن القول بنزولها دفعةواحدة لا أصل له ، وليس عليه أثارة من علم ، ولا يصححه عقل . فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهيّ الثبوت . لمقدار مكث النبيّ . إذ ما دام بين ظهراني قومه ، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة . ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحاً لا مرية فيه . وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك . وما كل كلام معرّض به . وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ، وتعنت متفنن فيه . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

[٣٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)

[٣٦] (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)

« الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » وهم فرعون وقومه . والآيات الخوارق التسع . أي فذهبا إليهم . فأرياهموها فكذبوها « فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا » أي بالإغراق في البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا)

[٣٩] (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا)

« وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ » يعنى نوحاً . وجُمِع تعظيماً لرسالته . أو هو ومن تقدمه عليهم السلام « أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا » يعنى قوم هود « وَثَمُودَ » بالصرف وعدمه . قراءتان . على معنى الحى أو القبيلة « وَأَصْحَابَ الرَّسِّ » اسم بئر . ونبيهم قيل : شعيب ، وقيل : غيره . ويروى هنا بعضهم آثاراً منكرة لا تصح . كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمه الله . فلا يحل الجراءة على روايتها ، ولا تنزيل الآية عليها . لأنه من قَفْو ما ليس للمرء به علم . ومثله يحظر الخوض فيه . « وَقُرُونًا » أى أقواماً « بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ » أى الأنباء التى تزجر عن الكفر والفساد « وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا » أى إهلاكا عظيما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا)

« وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ » أى أهلكت بالحجارة . وهى قرى قوم لوط « أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا » أى فى مرورهم ، ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ؟ وفيه توبيخ لهم على تركهم الذكر ، عند مشاهدة ما يوجبه « بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا » أى كفرة ، لا يتوقعون عاقبة وجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)

[٤٢] إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا » أى يستهزئون قائلين ذلك . والإشارة للاستحقار . لأن كلمة (هذا) تستعمل له . وعائد الموصول محذوف . أى بعثه . و(رسولًا) حال منه « إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا » أى أنه كاد لَيصرفنا عن عبادتها صرفاً كليًّا ، لولا أن ثبتنا عليها .

قال الزمخشرىّ : فيه دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ فى دعوتهم ، وبذل قصارى الوسع والطاقة فى استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم ، حتى شارفوا بزعمهم ، أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا » جواب منه تعالى لآخر كلامهم . وفيه وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهـــال . ولا بد للوعيد أن يلحقهم ، فلا يغرنهم التأخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا » تعجيب للنبىّ صلوات الله عليه من شناعة حالهم ، بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشرىّ : من كان فى طاعة الهوى فى دينه ، يتبعه فى كل ما يأتى ويذر ، ولا يتبصر دليلًا ، ولا يصغى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه . فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى لا يرى معبوداً إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفتتوكل عليه وتجبره

على الإسلام؟ وتقول لا بد أن تسلم، شئت أو أبيت . ولا إكراه في الدين . وهكذا كقوله[١] (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) [٢](لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

«أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» أي منهم . لأن الأنعام تصرف قواها إلى طلب ماينفعها ، والنفرة مما يضرها . وهؤلاء عطّلوا قواهم وهي العقول التي يهتدى بها للحق ، ويميز بها بين الخير والشر . ثم أشار تعالى إلى بعض دلائل التوحيد ، ومافيها من النعم العظمى الجديرة بأن تتلقى بالشكر لا بالكفر ، كحال هؤلاء الكفرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » أي عجيب صنعه أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » أي ثابتاً على حاله ، من الطول والامتداد . من (السكنى) أو غير متقلص من (السكون) بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فلم ينتفع به أحد « ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا » أي علامة يستدل بأحوالها في مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتاً في مكان ، زائلا ومتسعاً ومتقلصاً . فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه ، على حسب ذلك .

---

(١) [٥٠ / ق / ٤٥] . (٢) [٨٨ / الغاشية / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)

[٤٧] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)

« ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا » أى أزلناه بعد ما أنشأناه ممتداً ، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه « قَبْضاً يَسِيراً » أى على مهل ، قليلًا قليلًا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها . وفى هـذا القبض اليسير ، شيئاً بعد شيء ، من المنافع مالا يعدّ ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً ، « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً » أى ساتراً كاللباس « وَالنَّوْمَ سُبَاتاً » أى راحة للأبدان تستعيض به ماخسرته من قواها «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً» أى زمان انتشار لطلب المعاش .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)

[٤٩] (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشْراً » أى ناشرات للسحاب وفى قراءة (بشراً) بضم الموحدة بدل النون وسكون الشين ، أى مبشرات « بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » أى قدام المطر . وهى استعارة بديعة . استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت. كقوله[1] (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) وجعلها بين يديه تتمة لها . لأن البشير يتقدم المبشّر به . ويجوز أن تكون تمثيلية . و (بشرا) من تتمة الاستعارة ، داخل فى جملتها . ومن قرأ (نشراً) كان تجريداً لها .

(١) [٩/ التوبة / ٢١] .

لأن النشر يناسب السحاب « وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » أي مطهراً ؛ لقوله[١] (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) . وهذه الآية أصل فى الطهارة بالماء .

قال القاضي : وتوصيف الماء به إشعار بالنعمة فيه ، وتتميم للمنة فيما بعده . فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها ، فبواطنهم بذلك أولى « لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا » أى بإنبات النبات « وَنُسْقِيَهُ » أى ذلك الماء « مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا » قال الكرخيّ : خص الأنعام بالذكر ، لأنها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر . ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض . فإنها سبب لحياتها وتعيشها ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

[٥١] (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا)

[٥٢] (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ » أى كررنا هذا القول الذى هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر « بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا » أى ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا « فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى كفران النعمة وجحودها « وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » أى نبيًّا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة . لكن لم نشأ ذلك ، فلم نفعله . بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى[٢] (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا). إجلالًا لك وتعظيما ، وتفضيلا لك على سائر الرسل .

وقال المهايميّ : أى لكن لم نشأ . لأنه يقتضى تفرق الأمم ، وتكثر الاختلافات .

---

(١) [٨ / الأنفال / ١١] .   (٢) [٢٥ / الفرقان / ١] .

فجعلنا الواحد نذيراً للكل ليطيعوه أو يقاتلهم . والكفار يريدون أن يطيعهم الرسل أو يتركوهم على ما هم عليه « فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ » أي فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق والتشدد والتصبر . ولا تطعهم فيما يريدونك عليه . وأراد بهذا النهي ، تهييجه وتهييج المؤمنين ، وتحريكهم . أي إثارة غيرته وغيرتهم . وإلا فإطاعته لهم غير متصوّرة .

وقال أبو السعود : كأنه نهي له، عليه الصلاة والسلام، عن المداراة معهم ، والتلطف معهم. أي لأن في ذلك إضعافاً للحق وتغشية عليه ، وطول أمد في سريانه . ولذا قال «وَجَاهِدْهُمْ بِهِ» أي بالقرآن وما نزل إليك من الحق « جِهَاداً كَبِيراً » أي لا يخالطه فتور ، بأن تلزمهم بالحجج والآيات ، وتدعوهم إلى النظر في سائر الآنات ، لتتزلزل عقائدهم ، وتسمج في أعينهم عوائدهم . وهذه الآية من أصرح الأدلة في وجوب مجادلة المبطلين ، ودعوتهم إلى الحق بقوة ، والتفنن في محاجتهم بأفانين الأدلة . فإن الحق يتضح بالأدلة . كما أن الشهور تشتهر بالأهلّة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا)

« وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أرسلهما متجاورين متلاصقين ، بحيث لا يتمازجان « هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أي شديد العذوبة قامع للظمأ « وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » أي بليغ الملوحة « وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً » أي حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر « وَحِجْراً مَّحْجُوراً» أي منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به ، حتى بعد دخول أحدهما في الآخر مسافة .

لطيفة :

تلطف هنا المهايميّ في تأويل الآية ، بمعنى يصلها بالآية قبلها ، في أسلوب غريب . قال

رحمه الله (فى قوله تعالى وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) : يؤثر فى بواطنهم فيكون (كَبِيراً) يفوق مايؤثر فى الظواهر (و) إن زعموا أنه كيف يجاهد بالدلائل من يوردشبهات تجاورها ؟ قيل : غاية أمرها أن يكونا كالبحرين المختلفين المتجاورين . وقدرفع الله الالتباس بينهما بعد ماجاور بينهما وهامحسوسان ، فكيف لا يرفع الالتباس بين البحرين المعقولين إذ (هُوَ الَّذِى مَرَجَ) أى جاور (الْبَحْرَيْنِ) اللذين بينهما غاية الخلاف إذ (هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) أى قاطع للعطش وهومثل بحر الدلائل المفيدة للذوق ، القاطعة عطش الطلب (وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) أى مبالغ فى الملوحة . وهو مثل بحر الشبهات الموجبة للنفرة جدًّا لأهل الذوق (و) أما لأهل النظر فقد (جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً) أى مانعاً من الخلط . وهو النظر فى مواد المقدمات وصورها ليعلم بذلك صحة الدلائل (و) أما فساد الشبهات فيعلم بالاعتراضات التى لاجواب عنها ، كما أنه جعل بينهما (حِجْراً) أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر (مَحْجُوراً) أى ممنوعاً أن يمنع . وإن زعموا أن كل فرقة ترى ممسكاته تفيده الذوق وتقطع عنه الطلب وينفر عن متمسكات صاحبه أشد من التنفر عن الملح الأجاج ، قيل : ليس هـذا بالنظر إلى نفس الدلائل ، بل بواسطة التعصب من جهة الآباء والمشايخ والأصحاب . وقد أوجد الله لإزالة العذر عنه مثالا ، فى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً » أى كما أخرج من المقدمات نتائج العلوم « فَجَعَلَهُ » أى البشر « نَسَباً » أى أصلا أو فرعاً أو حاشية لقوم « وَصِهْراً » أى لآخرين يتعصب من أجل نسبه وصهره ، فيعتقد باطلهم حقًّا . كذلك أهل الشغب يتعصبون لآبائهم ومشايخهم « وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً » أى وهو وان صعب إزالته ، فإن ربك الذى أمرك بالجهاد الكبير ، قدير على إزالتـه . كما قدر فى النسب والصهر . فلا يبالى المؤمنون لهما . انتهى كلام المهايمىّ رحمه الله .

وهو منزع فى باب الإشارة غريب ، أثرناه عنه للطافته . وأما معنى الآية فى عظيم اقتــداره سبحانه ، حيث خلق البشر وقسمهم من نطفة واحدة قسمين ذوى نسب ، أى ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان . وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن ، فظاهر . ونظيره قوله تعالى[1] (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا)

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا » أى معيناً للشيطان على عصيان ربه . والمراد بالـكافر الجنس . فهو إظهار فى مقام الإضمار ، لنعى كفرهم عليهم ، ولرعاية الفواصل الـكريمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٥٧] (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ الرسالة المفهوم من (أَرْسَلْنَاكَ) « مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى يتقرب إليه بالإيمان والطاعة . أى إلى رحمته أو جنابه . فاتخاذ السبيل ، مراد به لازم معناه . لأن من سلك طريق شىء ، قرب إليه ، بل وصل .

قال الزمخشرىّ : مثال (إِلَّا مَن شَاءَ) والمراد : إلّا فعل من شاء . واستثنائه عن الأجر

(١) [٧٥ / القيامة / ٣٩] .

قولُ ذى شفقة عليك ، قد سعى لك فى تحصيل مالٍ : (ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه) فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب . ولكن صوّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين : إحداهما ـ قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله . كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثواباً ، فإنى أطلب الثواب .

والثانية ـ إظهار الشفقة البالغة ، وأنك إن حفظت مالك اعتدّ بحفظك ثواباً ورضى به ، كما يرضي المثاب بالثواب .

ولعمرى إن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه . انتهى . والاستثناء على هذا متصل ادعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ » أى فى دفع شرهم ومكرهم « وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا » أى عليماً لا يعزب عنه منها شىء ، فيجزيهم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

« الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى من أيامه تعالى ، أو أيام الخلق ، قولان للسلف « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » أى علا فوقه علوًّا يليق بجلاله المقدس . وتقدم تفسيره « الرَّحْمَٰنُ » مرفوع على المدح . أى هو الرحمن ، وهو فى الحقيقة وصف آخر للحىّ ، كما قرئ بالجرّ . وقيل : الموصول مبتدأ والرحمن خبره . وقيل : الرحمن

بدل من المستكن فى «اسْتَوَى» وقوله تعالى «فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا» فيه أوجه: منها (الباء) فى (به) صلة (اسأل) ومنها أنها صلة (خبيراً)و(خبيراً)مفعول (اسأل) أى فسل عنه رجلًا عارفاً يخبرك برحمته . أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته . وعليه ففائدة سؤاله هو تصديقه وتأييده .

قال الشهاب: ويصح تنازعهما ـ أى اسأل وخبيراً ـ فى الباء. وفيه حينئذ نوع من البديع غريب يسمى المتجاذب . وهو كون لفظ واحد بين جملتين يصح جعله من الأولى والثانية . وقد ذكره السعد فى أواخر (شرح المفتاح) وهذا مما غفل عنه أصحاب البديعيات . انتهى . ومنها أن الباء للتجريد. كقولك رأيت به أسداً. أى برؤيته. أى اسأل بسؤاله خبيراً والمعنى: إن سألته وجدته خبيراً .

قال فى (الكشف):وهو أوجه، ليكون كالتتميم لقوله (الَّذِى خَلَقَ)، الخ فإنه لإثبات القدرة ، مدمجاً فيه العلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) [سجدة]

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ » أى من المسمى به ؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه . أو الاستفهام للتعجب والاستغراب، تفننا فى الإباء . أى وما هذه الأسماء والأعلام التى تصدعنا بها ، وتقرع آذاننا بالإذعان لها . « أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ » أى الأمر بالسجود ، المراد به الإذعان بالإيمان « نُفُورًا» أى استكباراً عن الإيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً » أي نجوماً أو هي البروج الاثنا عشر، التي ترى صورها في الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة ، وتنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية . « وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً » وهي الشمس « وَقَمَراً مُنِيراً » أي مضيئاً بالليل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً » أي ذوي عقبة يعقب كل منهما الآخر « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ » أي يتفكر فيستدل بذلك على عظم قدرته « أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » أي يشكر على النعمة فيهما ، من السكون بالليل والتصرف بالنهار . ويكون فيهما بما يقتضيه ما خلقا له .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)

[٦٤] (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)

« وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » أي هينين . أو مشياً هيناً . أي بسكينة وتواضع . لا يضربون بأقدامهم ، ولا يخفقون تبعاً لهم أشراً وبطراً . « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً » أي إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيء لم يقابلوهم بمثله ، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم . سواء كان بصيغة السلام كقولهم (سلام عليكم)،

أو غيرها مما فيه لطف فى القول أو عفو أو صفح . وكظم للغيظ . دفعاً بالتى هى أحسن « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » أى يكون لهم فى الليل فضل صلاة وإنابة ، كما قال تعالى(١) (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وقوله(٢) (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) الآية وقوله(٣) (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) و(البيتوتة) لغةً ، الدخول فى الليل . يقال: بات يفعل كذا يبيت ويبات، إذا فعله ليلًا . وقد تستعار البيتوتة للكينونة مطلقاً . إلا أن الحقيقة أولى ، لكثرة ما ورد فى معناها مما تلونا . ولذلك قال السلف : فى الآية مدح قيام الليل والثناء على أهله . وفى قوله (لِرَبِّهِمْ) إشارة إلى الإخلاص فى أدائها وابتغاء وجهه الكريم . لما أن ذلك هو الذى يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله و(قياماً) جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

[٦٦] (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً » أى هلاكا دائما . والمراد من قولهم ذلك ، فزعهم منها ، ووجلهم الشديد المستتبع لتمسكهم بالتقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى . لا مجرد قلقلة اللسان ، بلا تأثر من الجنان . فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ، ويتعوذوا به من سعيرها ، إلا لعلمهم بسوء حالها . ومقتضى العلم بالشيء إيفاؤه حقه والعمل بموجبه . ولذا قال تعالى « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » أى موضع استقرار وإقامة .

---

(١) [٥١/الذاريات/١٧و١٨] . (٢) [٣٢/السجدة/١٦] . (٣) [٣٩/الزمر/٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا)

«وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً» أى لم يجاوزوا الحدّ فى الإنفاق ، ولم يضيّقوا على أنفسهم وأهليهم وما يعروهم بخلًا ولُؤْماً . بل كانوا فى ذلك متوسطين ، وخير الأمور أوسطها .

قال الزمخشريّ : وصفهم الله بالقصد الذى هو بين الغلوّ والتقصير . وبمثله أمر رسول الله ﷺ[١] (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) . وروى الإمام أحمد[٢] عن أبى الدرداء عن النبيّ ﷺ قال (من فقه الرجل رفقه فى معيشته) وأخرج أيضاً عن ابن مسعود[٣] قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وروى البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة) .

وعن الحسن : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف . وسمع رجل رجلًا يقول : لا خير فى الإسراف . فقال: لا إسراف فى الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)

[٦٩] (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا)

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤٢٦٩ (طبعة المعارف) .

[٧٠] (إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ » أى لا يشركون بعبادة ربهم أحداً ، فالدعاء بمعنى العبادة « وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى حرمها بمعنى حرّم قتلها . ومنه الوأد وغيره « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى المزيل لحرمتها وعصمتها « وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ » أى ما ذكر من هذه القبائح العظام « يَلْقَ أَثَامًا » أى يجد فى الآخرة جزاء إثمه « يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا » أى ذليلًا محتقراً جامعاً لعذابى الجسم والروح « إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

قال الحافظ ابن كثير : وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وآية النساء[١] (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) الآية ، فإن هذه ، وإن كانت مدنية ، إلا أنها مطلقة. فتحمل على من لم يتب . لأن هذه مقيدة بالتوبة. ثم قال تعالى[٢] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) الآية ، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . كما ذكر مقرراً من قصة الذى[٣] قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث . ثم قال: وفى معنى قوله تعالى (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) قولان : أحدهما ـ أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى هذه الآية : هم المؤمنون. كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات . فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وكذا قال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ،

(١) [٤ / النساء / ٩٣] . (٢) [٤ / النساء / ٤٨] و [٤ / النساء / ١١٦] .
(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٤ ـ باب حدثنا أبو اليمان ، حديث رقم ١٦٢٩ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .
وأخرجه مسلم فى : ٤٩ ـ كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٦ (طبعتنا) .

وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين. وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات. وكذا قال الحسن : أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح. وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وبالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً .

والقول الثانى : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح ، حسنات . وما ذاك إلا أنه كلما تذكر مامضى، ندم واسترجع واستغفر. فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. انتهى .

ولابن القيم رحمه الله تعالى فى (طريق الهجرتين) فى هذا المقام بسط حسن وتناظر متقن ، لا بأس بإيراده ، لعظم فائدته .

قال رحمه الله (بعد شرحه لحديث فرح الله بتوبة عبده ما مثاله) : وهاهنا مسألة، هذا الموضع أخص المواضع ببيانها. وهى أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً ، فهل تمحى تلك السيئات وتذهب ، لا له ولا عليه ، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه ، من المفسرين وغيرهم، قديماً وحديثا. فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة قال ابن عطية: يجعل أعمالهم، بدل معاصيهم الأولى طاعة . فيكون ذلك سببا لرحمة الله إياهم ، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن. ورد على من قال هو فى يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث فى كتاب مسلم [(١)] من طريق أبى ذر يقتضى أن الله سبحانه يوم القيامة ، يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، بدل سيئاته حسنات . وذكره الترمذىّ والطبرىّ . وهذا تأويل سعيد بن المسيب فى هذه الآية .

قال ابن عطية : وهو معنى كرم العفو . انتهى .

وسيأتى ذكر الحديث والكلام عليه .

وقال الثعلبىّ: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) يبدلهم الله تقبيح أعمالهم فى الشرك ، محاسن الأعمال فى الإسلام . فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين ، قتل المشركين . وبالزنى ، عفة وإحصاناً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ (طبعتنا) .

وقال آخرون : يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم ، حسنات يوم القيامة . وأصل القولين ، أن هـذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة ؟ فمن قال إنه في الدنيا ، قال هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها . وهي حسنات ، وهذا تبديل حقيقة . والذين نصروا هـذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها ، فأما أن تنقلب حسنة فلا . فإنها لم تكن طاعة ، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب ، فكيف تنقلب محبوبة مرضية ؟

قالوا : وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، كقوله [١] (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا) وقوله [٢] (وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ) وقوله [٣] (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيح [٤] من حديث قتادة عن صفوان ابن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال : سمعته يقول (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف؟ فيقول: ربِّ! أعرف قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته) .

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل .

فهذا الحديث المتفق عليه، والذي تضمن العناية بهذا العبد ، إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة. ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة. فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها .

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٣] .(٢) ٤٢ / الشورى / ٢٥] .(٣) [٣٩/الزمر/٥٣] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٤٦ ــ كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ألا لعنة الله على الظالمين ، حديث رقم ١٢٠١ .

وأخرجه مسلم في : ٤٩ ــ كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

وقد قال الله فى حق الصادقين (١) (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) فهؤلاء خيار الخلق . وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها . وأما السيئات ، أن تلغى ويبطل أثرها. قالوا : وأيضاً، فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات فى حق التائب، لكان أحسن حالا من الذى لم يرتكب منها شيئاً. وأكثر حسنات منه . لأنه إذا أساء شاركه فى حسناته التى فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات، ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه . وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له ؟ قالوا: وأيضاً فكما أن العبد ، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها ، فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه ، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها . فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها ، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم: وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته، لم ننازعكم فى هذا . وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضى ثواباً وجودياً . واحتجت الطائفة الأخرى التى قالت : هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة ، بأن قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون فى السيئة المحققة . وهى التى قد فعلت ووقعت . فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة .قالوا : ولهذا قال تعالى (سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فأضاف السيئات إليهم، لكونهم باشروها واكتسبوها. ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم، لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هى مجرد فضل الله وكرمه قالوا: وأيضاً، فالتبديل فى الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم . فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات. والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها ، كما قال تعالى (٢): (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ) وأما ما كان من غير الفاعل ، فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال تعالى (٣)(فَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) فلما أخبر سبحانه أنه هو الذى يبدل سيئاتهم حسنات ، دل على أنه شىء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لا أنهم فعلوه من تلقاء

(١) [٣٩ / الزمر ٣٥] . (٢) ٢ / البقرة ٥٩] . (٣) [٣٤ / سبأ ١٦] .

أنفسهم . وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح .

قالوا : ويدل عليه مارواه (مسلم)[١] فى صحيحه عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ (إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة . وآخر أهل النار خروجاً منها . رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه . فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة)
قالوا : وهؤلاء هم الأبدال فى الحقيقة . فإنهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة ، بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التى عملوا حسنات .

قالوا : وأيضا فالجزاء من جنس العمل . فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة ، بدلها الله من صحف الحفظة ، حسنات جزاء وفاقاً .

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبى ذر ، على صحة قولكم ، وهو صريح فى أن هذا الذى قد بدلت سيئاته حسنات ، قد عذب عليها فى النار ، حتى كان آخر أهلها خروجاً منها فهذا قد عوقب على سيئاته . فزال أثرها بالعقوبة . فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير ما نحن فيه . فإن الكلام فى التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصرّاً عليها غير تائب . فأين أحدهما من الآخر ؟ .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة ، فحق . وكذلك نقول : إن الحسنة المفعولة صارت فى مكان السيئة ، التى لولا الحسنة لحلت محلها .

قالوا : وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم ، وذلك يقتضى أن تكون هى السيئات الواقعة وتنكير الحسنات وهو يقتضى أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب . ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها ، مقارناً لكسبهم إياها بفضله ؟ .

قالوا : وأما قولكم إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم ، وذلك يقتضى أنه هو الذى بدلها من الصحف ، لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها ، فهذا لا دليل لكم . فإن الله خالق

(١) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ (طبعتنا) .

أفعال العباد . فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً ، وهم المبدلون لها فعلا وكسباً .

قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم أبدلها الله كذلك فى صحف الأعمال . فهذا حق ، وبه نقول ، وإنه بدلت السيئات التى كانت مهيأة ومعدة أن تحل فى الصحف ، بحسنات جعلت موضعها . فهذا منتهى إقدام الطائفتين ، ومحط نظر الفريقين . وإليك أيها المنصف الحكم بينهما. فقد أدلى كل منهما بحجته، وأقام بينته . والحق لا يعدوها ولا يتجاوزهما . فأرشد الله من أعان على هدى ، فنال به درجة الداعين إلى الله ، القائمين ببيان حججه ودينه . أو عذر طالبا منفرداً فى طريق مطلبه ، قد انقطع رجاؤه من رفيق فى الطريق . فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وألا يقطع عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه، فقد رضى بالدون . وحصل على صفقة المغبون . ومن شمر إليه ورام ألا يعارضه معارض ، ولا يتصدى له ممانع ، فقد منى نفسه المحال. وإن صبر على لأوائها وشدتها، فهو والله الفوز المبين، والحظ الجزيل وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فالصواب ، إن شاء الله فى هذه المسألة ، أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة . والحسنة إنما هى أمر وجودى يقتضى ثواباً ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن موافقة المنهى . وذلك الكف والحبس أمر وجودى وهو متعلق الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلا ، ولم يحدث به نفسه، فهذا كيف يثاب على تركه ؟ ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب ، لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التى لا تخطر بباله وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى . فإن الترك مستصحب معه ، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ وهذا مما لا يتوهم . وإذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمرا وجوديا ، فالتائب من الذنوب التى عملها ، قد قارن كل ذنب منها ، ندماً عليه، وكف نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب ، وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة ، قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض

المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة. والحسنة مع التوبة . فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبته منها حسنة حلت مكانها. فهذا معنى التبديل. لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة.

وقال بعض المفسرين فى هذه الآية : يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة. وعلى هذا ، فقد زال بحمد الله الإشكال. واتضح الصواب . وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة .

وأما حديث أبى ذر ، وإن كان التبديل فيه فى حق المصرّ الذى عذب على سيئاته ، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته. فإن الذنوب التى عذب عليها المصرّ، لما أزال أثرها بالعقوبة، بقيت كأن لم تكن، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة. لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها، مع العقوبة ، لا يقتضى زوال أثرها وتبديلها حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح ، أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة ، حسنات ، فلأنْ تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات ، أولى وأحرى . وتأثيرُ التوبة فى هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبه . لأن التوبة فعل اختيارىّ أتى به العبد طوعا ومحبة لله وفرقا منه. وأما العقوبة، فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التى تصيبه بغير اختياره ، بل بفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التى يحبها الله ويرضاها فى محو الذنوب، أعظم من تأثير المصائب التى تناله بغير اختياره . انتهى كلامه رحمه الله. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴾

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً » أى ومن يترك المعاصى ويندم عليها ويدخل فى العمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضيًّا عنده ، مكفراً للخطايا ، محصلاً للثواب . قرره الزمخشرىّ .

والآية صريحة فى أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلاً، شرط فى صحة التوبة وقبولها. وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح . فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان ، أو تخشع بأركان ، ولا عمل صالح له يرضى الرحمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)

[٧٣] (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)

«وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» أى لا يحضرون الباطل. يقال (شهد كذا) أى حضره. فـ (الزور) مفعول به بتقدير مضاف أى محالّه. و(يشهدون) من الشهادة. فالزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أى شهادة الزور أو بالزور. وقد أشار الزمخشرىّ للوجهين بقوله : يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين، فلا يحضرونها ولا يقربونها، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه. لأن مشاهدة الباطل شركة فيه. ولذلك قيل فى النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة (هم شركاء فاعليه فى الإثم) لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه. لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم فى النظر إليه. ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور. انتهى. وهى الكذب متعمداً على غيره

قال المبرد فى (الكامل) : ويروى عن ابن عباس فى هذه الآية (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) قال : أعياد المشركين. وقال ابن مسعود: الزور الغناء. فقيل لابن عباس: أو ما هذا فى الشهادة بالزور؟ فقال: لا، إنما آية شهادة الزور (١) (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً» أى اتفق مرورهم بأهل اللغو، وهو كل ما ينبغى أن يلغى ويطرح، مرّوا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله تعالى (٢) (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) ويدخل فى ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن (كراماً) جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه «وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» أى وعظوا بها وخوفوا «لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً» أى بل أكبّوا عليها سامعين بآذان واعية، مجتلين لها

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

بعيون راعية . وإنما عبر بنفي الضد ، تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة، المستعار لها (الخرور) على تلك الحالة استعارة بديعة. لما فيها من إسقاطهم عن الإنسانية إلى البهيمية ، بل إلى أدنى منها ، لأنها تسمع وتبصر ، وقد نفيا عنهم .

وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره تعالى ، وزيادة إيمانهم إذا تلي عليهم الذكر الحكيم، آيات عديدة. ولذا قال قتادة فيهم: هم قوم عقلوا عن الله، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. ويرحم الله الحسن البصريّ، فقد قال: كم من رجل يقرؤها، ويخر عليها أصم أعمى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) أي أولاداً وحفدة ، تقر بهم العيون وتسر بمكانهم الأنفس ، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشمائل . و (قرة العين) إما من القر وهو البرد . لأن دمعة السرور باردة، ولذا قيل في ضده (أسخن الله عينه) أو من القرار لعدم النظر لغيره ، وجوز في (من) أن تكون بيانية وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات. وقوله تعالى « وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً » أي أئمة . اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس، مع رعاية الفواصل. أي يقتدى بنا في الخير. أو هداة دعاة إلى الخير. فإن ذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً . قال في (الإكليل) : في الآية طلب الإمامة في الخير . وفي (العجائب) للكرمانيّ : قال القفال وغيره من المفسرين : في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب . انتهى .

وكذا قال الزمخشريّ ، عن بعضهم : إن فيها ما يدل على أن الرياسة في الدين ، يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)

[٧٦] (خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

[٧٧] (قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المتصفين بما ذكر . خبر لـ (عباد الرحمن) أو مبتدأ خبره « يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » أى على مشاق المجاهدات فى الدعوة إلى الخيرات ، والدأب على الخيرات ، واجتناب المحظورات . و (الغرفة) الدرجة العالية من المنازل فى الجنة « وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا » أى تحييهم الملائكة وتسلم عليهم . أو يحيّي بعضهم بعضاً ويسلم عليه . والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » لسلامة أهلها عن الآفات ، وخلودهم أبد الآباد .

« قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » أى لا يبالى بكم ولا يبقيكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده . فالدعاء بمعنى العبادة ، كما مرّ .

ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم ، أو يتصور ، وقد وجد منهم ما ينافيه ، بقوله تعالى « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » أى بما جاءكم من الحق . أى وقد تلى عليكم سنة من كذب وأصرّ « فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » (اللزام) مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة . أى فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم ، أو الأمر الجليل ، أمر الرسالة ، لازماً وثابتاً . يفتح من الحق رتاجاً . وتدخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولقد صدق الله وعده . ونصر عبده وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . نسأله تعالى خير ما عنده .

تم هذا الجزء بحمده تعالى ، ضحوة السبت فى ٨ صفر الخير ، فى سدة جامع السنانية ، بدمشق عام ـ ١٣٢٥ ـ بيد جامعه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح ، القاسمىّ الدمشقىّ عفا عنه مولاه . آمين .

تم الجزء الثانى عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى ، الجزء الثالث عشر ، وفيه تفسير : (٢٦ ـ الشعراء ، ٢٧ ـ النمل ، ٢٨ ـ القصص ، ٢٩ ـ العنكبوت ، ٣٠ ـ الروم ، ٣١ ـ لقمان ، ٣٢ ـ السجدة ، ٣٣ ـ الأحزاب) .

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الثالث عشر

وفيه تفسير : (من ٢٦ - سورة الشعراء إلى ٣٣ - سورة الأحزاب)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا، فى خزانته الواسعة، مخطوطا كان أو مطبوعا، خاليا من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان، رحمه الله، آية فى المحافظة على الوقت، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٦ - سورة الشعراء

هى مكية، إلا قوله تعالى[(١)] «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ» إلى آخرها. وقوله[(٢)] «أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة ، رضى الله عنهم .

وقال الدانى: رُوِىَ بسند صحيح أنها نزلت فى شاعرين تهاجيا فى الجاهلية ،مع كل واحد منهم جماعة . فالسورة على هذا كلها مكية . انتهى .

وقال المهايمىّ : سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء ، لأن الشاعر ، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية ، وإن كان صادقاً لا يتصور منه الافتراء على الله تعالى ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ، انتهى .

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها ، لبيان أنهم فى معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه ، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًّا لفريتهم.

ولما كان لفظ (الشعراء) عامًّا ، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له ، لا أنه نزل فيه خاصة دون غيره . وسيأتى ، إن شاء الله تعالى ، إيضاح ذلك . وهى مائتان وسبع وعشرون آية .

قال ابن كثير : وقع فى تفسير مالك المروىّ عنه ، تسميتها (الجامعة) .

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ ـ ٢٢٧] .   (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طسٓمٓ)

« طسٓمٓ » سبق فى سورة البقرة الأقوال فى هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فمحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

« تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتفخيم ، ومحله الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو بدل مما قبله . والمراد بـ(الكتاب) القرآن . وبـ(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من (أبان) بمعنى بان - أو المبين للحق من الباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ)

« لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ » أى قاتل « نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ » أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ)

« إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً » أى ملجئة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه « فَظَلَّتْ

أَعْنَـٰقُـهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ » أى منقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الـكلام من النهى عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما ، فلا وجه للطمع فيه ، والتألم من فواته . قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

«وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ» أى مكذبين، استهزاء وإصرارا على ما كانوا عليه من الـكفر . وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء ، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه ، وبقاء أيامه. وفيه وعيد لهم بحلول الذل بهم، ونزول الصَّغار وقتئذ بدارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

«أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» أى صنف مرضىّ كثير المنافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » لصرفهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم فى هذه الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع ، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي » أى فى أداء الرسالة ، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ » أى ليوازرنى ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أي ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ » وهو قتل القبطىّ ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ » مزيد تسلية لهما ، بكمال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم، ليمد أولياءه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .

ولو قيل هو كناية عن ذلك، كان أولى. لجواز بقاء المعنى الحقيقىّ معها، وهو هنا كذلك. فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

[١٩] (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ » يعنى قتل القبطىّ . « وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

« قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل . أو الذاهبين عن صواب الحلم والعفو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ ، فنجانى الله منكم ، وزادنى إنعاماً « فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال دعواك الربوبية ، واستئصال شُبَه ما عليه قومك من الوثنية . وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ، ببيان أنها فى الحقيقة نقمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبيداً مسخرين فى شئونه ، مذللين لأموره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام ، وإن لم ينله من ذلك مانالهم ، إلا أنه لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلَّ به ، كما قيل (وظلم الجار إذلال المجير) أى لا يفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى فحواها تقريعه بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة الغالية التى من ورائها الفرج القريب ، والمخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٢٤] (قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ)

[٢٥] (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبأ العجيب ، وهو توحيد المعبود. وإنما عدّه جديراً بأن يتعجبوا منه، لأنهم، على ماحققه المؤرخون، غلوا فى عبادة الأصنام وتعديد الآلهة غلوًّا أربوا على كل من سواهم فى الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوامّ ، وأدنى حشرات الأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[٢٨] (قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ماعقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئاً ما، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون .

تنبيه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة، لا يقر بخالق، ولا يعترف بمعبود.

لظاهر قوله[1] (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .

قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن مقرًّا بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر . انتهى .

وقدمنا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين . وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ، من طلب الاكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لعدوله عن الكنه إلى الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته فى ربوبيته التى ادعاها موسى ، وأن تعجبه لما شاهد من الجد فى الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمته ، ويغمز جبروته ؛ وهذا هو الذى أذهب إليه ، فإن القوم بمعزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا يأباه . وقد عول عليه كثير من أهل النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازىّ : السؤال بـ(ما) طلب لتعريف حقيقة الشىء . وتعريف حقيقة الشىء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشىء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن المعرف معلوم قبل المعرف . فلو عرف الشىء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمور الداخلية فيها ، فهاهنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمور الداخلة ، لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فما ليس بممكن يستحيل أن

(١) [٢٨ / القصص / ٣٨] .

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية. وأظهر آثار ذات واجب الوجود،هو هذا العالم المحسوس ، وهو السمٰوات والأرض ومابينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) فمعناه إن كنتم موقنين باستنادهذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السمٰوات والأرض ومابينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لاجواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب

ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعنى أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأنا إذا قلنا فى الشيء أنه الذى يلزمه اللازم الفلانىّ ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرّفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزوميّة والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثانى محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلانىّ ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة ، لأنه لا يمتنع فى العقل اشتراك

الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجى ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة، فلم يكن كونه ربًّا للسموٰات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ) وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها، فهى غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحال وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعنى المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذى يدعي الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثانى ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر فى أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت، لأنك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته.

ثم قال الرازىّ : وقد بينا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله تعالى[1] :(وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ

(١) [٦ / الأنعام / ١٨] .

فَوْقَ عِبَادِهِۦ) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هى ، هى غير معقولة للبشر . انتهى .

وقال الإمام ابن حزم فى (المِلَل والنِّحَل) فى الكلام فى المائية : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو ، إلى أن الله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره. قال ابن حزم : والذى نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائية هى إنيّته نفسها ، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو البارئ ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سأله فرعون (ومارب العالمين) ؟ ونقول أنه لا جواب هٰهنا لا فى علم الله تعالى ولا عندنا ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تامًّا لا نقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : هٰهنا نقف ولا نعلم أكثر . ولا هٰهنا أيضا شىء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .

قال تعالى [1]: (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْماً) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفىّ عن الله عز وجل ، وواجب فى غيره ، لوقوع العدد المحاط به فى أعراض كل مادونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصح يقيناً أننا نعلم الله عزوجل حقًّا ، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف ، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ)

[٣٠] (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ)

[٣١] (قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)

(١) [٢٠ / طه / ١١٠] .

[٣٢] (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

[٣٣] (وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ)

[٣٤] (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ)

[٣٥] (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

[٣٦] (قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ)

[٣٧] (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)

[٣٨] (فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٣٩] (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ)

« قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » قرئ بهمز وبدونه ، وهما لغتان . يقال أرجأته وأرجيته إذا أخرته . والمعنى أخرهما ومناظرتهما لوقت اجتماع السحرة « وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ » أى شرطا يحشرون السحرة ، أى يجمعونهم عندك « يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ » أى لرؤية ما يعارض معجزة موسى . وكان خامر فؤادهم عجب منها واندهاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ)

[٤١] (فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ)

[٤٢] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

[٤٣] (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ)

[٤٤] (فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)

[٤٥] (فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

[٤٦] (فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ)

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موّهوا به إفكا وزورا « فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن مثله لايتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وترويق يخيل شيئًا لاحقيقة له، وأن التبحر فى كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية، فإن هؤلاء السحرة، لتبحرهم فى علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضى والشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٤٨] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)

[٤٩] (قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٠] (قَالُواْ لَا ضَيْرَ ، إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ)

[٥١] (إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ » أى فعلمكم شيئا دون شيء ، ولذلك غلبكم. أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبيس على قومه؛ كى لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حقّ .

« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى جانبين متخالفين . « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ » أى لا ضرر علينا فى ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع ، لأنا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيّته ، إلى ثوابه ورحمته راجعون، فننقلب خير منقلب، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن » أى لأن « كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من أظهر الإيمان كفاحا، مجاهرة بالحق بلا تقية. ثم أشار تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيحائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلٰهيّ به ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ» أى سِرْ بهم ليلًا، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تتقدمونه ولا يدرككم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ)

« فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ » أى حين أخبر بسراهم « فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ » أى جامعين لعسكره ، قائلين ما يقلل به الأعداء فى أعين الجنود :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ)

[٥٦] (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ » أى بنى إسرائيل الخارجين « لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ » أى يفعلون أفعالًا تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ » أى من مكرهم وسعيهم بالفساد فى الأرض « فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« كَذَٰلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو فى محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمحذوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه ، والجملة معترضة حينئذ كالتى بعدها . « وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تمليك الإرث بعد زمان . وكأن العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ)

« فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[٦٢] (قَالَ كَلَّآ ، إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ)

[٦٣] (فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ، فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ)

« فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى لملحقون « قَالَ كَلَّآ » أى لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ » أى فضرب به فانفلق « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ »
أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ)

[٦٥] (وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ)

[٦٦] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ)

[٦٧] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[٦٨] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« وَأَزْلَفْنَا » أى قرّبنا « ثَمَّ » أى حيث انفلق البحر « ٱلْآخَرِينَ » يعنى قوم فرعون ، أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ » أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ » أى بإطباقه عليهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ما جاء به . منهم من بقى على كفره كبقية القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسلية للنبىّ صلوات الله عليه . ووعد له ووعيد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ)

[٧٠] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ)

[٧١] (قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ)

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على مشركى العرب « نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ » أى ماالذى تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم ، أن مايعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شيء « قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ » أى مقيمين على عبادتها لا نتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » أى مثل عبادتنا يعبدون ، فقلدناهم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمعزل مماذكر من السمع والمنفعة والمضرّة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أن لاسندلهم سوى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٧٨] (ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ » أى أفأبصرتم ، أو أتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم . فإنهم بغضائى « إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، فإنه ولي فى الدنيا والآخرة ، لا أعبد غيره. ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله « ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ » أى إلى كل ما يهمنى من أمور الدين والدنيا ، فإنه تعالى وحده يهدى كلا لما خلق له . والموصول صفة ا (رب) وجعله مبتدأ وما بعده خبراً ـ غيرُ حقيق بجزالة التنزيل . قاله أبو السعود .

« وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ » أى يرزقنى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيي به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسيّ كثيراً .

« وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » أى إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما قدره من الأسباب الموصلة إليه . وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما منه ، لمراعاة حسن الأدب معه تعالى . بتخصيصه بنسبة الشفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه تعالى كما قال الخضر[1] (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) وقال[2] (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا) وكقول الجن فى آية[3] (أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ولأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم .

« وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ » فإنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا يقدر على ذلك أحد سواه . فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه تعالى إلى نفسه، فما الفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب ؟ أجيب كما فى (الانتصاف) : بأن الموت

(١) [١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٠] .

قدعلم به بأنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عامٌّ لا يخص ، ولا كذلك المرض فكم من معافى منه قد بغته الموت ؛ فالتأسى بعموم الموت لعله يُسقط أثر كونه بلاء ، فيسوغ فى الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققاً . فاقتضى العلوّ فى الأدب مع الله تعالى، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، باعتبار ذلك السبب الذى لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتًّا وجزماً ، لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بشرط إذا فقال (وَإِذَا مَرِضْتُ) وكان ممكناً أن يقول والذى يمرضنى فيشفينى ، كما فى غيره. فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإماتة ، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٢] (وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ)

«وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ » أى الجزاء . وخطيئته ما كان يراها هو صلوات الله عليه ويعدّها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغائر، وتنبيهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها، فإن حاله عليه السلام، مع كونه فى طاعة الله تعالى وعبادته، فى الغاية القاصية، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر، وفنون المعاصى والخطايا؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر فى الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبيّن ، ولأن فى ذلك تهويلًا له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ، إن لم تغفر. وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه ، حمله ذلك على مناجاته، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٣] ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

[٨٤] ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكما بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة. « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقنى لأنتظم فى سلكهم، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكمال الخلق . «وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» أى ذكراً جميلًا بعدى ، أذكر به ويُقتدى بى فى الخير كما قال تعالى[١]: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

قال القتيبيّ : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى[٢] :

إنِّى أَتَتْنِى لسانٌ لا أُسَرُّ بها   من عُلْوَ ، لاعَجَبٌ منها ولاسَخَرُ

وجوّز أن يكون المعنى: واجعل لى صادقاً من ذريتى، يجدّد أصل دينى ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد. وهو النبيّ ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم[٣] (أنا دعوة

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٨ ـ ١١٠] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثى بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) عن العرباض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ: إنى عبد الله لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك. دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبي إبراهيم) ، فالـكلام بتقدير مضاف. أي صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الـكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ)

[٨٦] (وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ)

« وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ » أي بهدايته وتوفيقه للإيمان . كما يلوح به تعليله بقوله « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ » أي طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ) الخ.. كقوله(١):(رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى(٢) (وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ)وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال تعالى(٣) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ) إلى قوله (وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

[٨٨] (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[٨٩] (إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أي لا تلحق بي ذلًّا وهوانًا يومئذ « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية في القوة . فإن الأمر ثمـة ليس كما يعهدون

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٩ / التوبة/ ١١٤] . (٣) [الممتحنة /٥].

فى الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والخصال المذمومة والملكات المشئومة .

قال الزمخشرىّ :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تبصر ولاتسمع . وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة، فضلاً أن يكون حجة. ثم صور المسألة فى نفسه[1] دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه، إلى حين وفاته، مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ويغتبطون

---

(١) أى بقوله(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي) على معنى أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدوّ وهو الشيطان . فاجتنبتها وآثرت عبادةَ مَن الخير كله فى يده. وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه. فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدوٌّ لكم) لم يكن بتلك المثابة، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى، وبهذه الآيات الكريمة وأمثالها ردّ على أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمىّ فى زعمه أن القرآن خال من التخلص، وهو زعم فاسد. لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطيفة تلائم بين الكلام الذى أخرج منه والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه ابن الأثير فى (المثل السائر) فراجعه . اهـ مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٩١] (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

[٩٢] (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٩٣] (مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ)

[٩٤] (فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ)

« وأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ » أى الضالّين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار. وهو قوله تعالى « فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَٱلْغَاوُونَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشرىّ : والكبكبة تكرير الكب ـ وهو الإلقاء على الوجه ـ جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

[٩٦] (قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

[٩٧] (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[٩٨] (إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَجُنُودُ إِبْلِيسَ » أى متبعوه من العصاة «أَجْمَعُونَ* قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »أى فى العبادة، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ »أى رؤساؤهم، كما فى آية(١) (رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ)

[١٠١] (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

« فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »أى من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء. لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئاً . كما قال تعالى(٢) (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) قال الزمخشرىّ: و(الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذى يهمه ما يهمك. أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتدّ

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .   (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

ويحمى ، لحماية خليله ورعايته ، والقيام بمهماته . وهذا هو الذى قيـــل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَوْ أَنَّ لنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٠٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر. وتقدم ماقاله الزمخشرىّ فى بديع سياقها « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم » أى أكثر قوم إبراهيم « مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٠٦] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٠٧] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٠٨] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٠٩] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١١١] (قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم فى أصول الشرائع . وهو نفى الشريك وإثبات البارىء وتوحيده. أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ » يعنون من كان وضيع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنشب. والحسب والنسب، لابالأخلاق الفاضلة. والملكات الكاملة . التى تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق فى مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لامال يطغيهم . ولا جاه يلهيهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشرىّ : وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (مازالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أى وما علىّ إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ)

[١١٤] (وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١١٥] (إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[١١٦] (قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ)

[١١٧] (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ)

[١١٨] (فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى » أى ماحسابهم على أعمالهم، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم «لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ » أى المشتومين أو المرميين بالحجارة « قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشرىّ : الفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كما سمى فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات . وفى (التهذيب) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك . قال الأشعر الجُعْفِىّ(١) .

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عمراً رسولًا فَإِنى عن فُتَاحَتِكُمْ غَنِىُّ

« وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ)

[١٢٠] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ)

[١٢١] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى (طبعة بيروت)

[١٢٢] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٢٣] (كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٢٥] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٢٦] (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٢٧] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[١٢٨] (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ)

« فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً » أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « ءَايَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى ببنائها لا للحاجة إليها. بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهـذا أنـكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف الأموال فى غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

« وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

فى الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدّين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

«وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» أى تأخذون بالعنف والشدة ، كبرا وعتوًّا . يقال (بطش به) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٣٢] (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)

[١٣٣] (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)

[١٣٤] (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

«فَاتَّقُوا اللَّهَ» أى فيما آمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» أى فاشكروا نعماءه ، وارعوا بتقواه آلاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ» أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» أى فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ)

« قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ » أى : فإنا لن نرعوى عما نحن عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« إِنْ هَٰذَآ » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذى جئتنا به إلا عادة الأولين . كانوا يلفقون مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٨] (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

[١٣٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٤٠] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٤١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٤٢] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٤٣] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٤٤] (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٤٥] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٤٦] (أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ)

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى على مانحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ » أى بريح صرصر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ » أى من الموت والزوال والعذاب .

قال الزمخشرىّ : يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يُزالون عنه . وأن يكون تذكيراً بالنعمة فى تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدعة . وقوله تعالى (فِى مَا هَٰهُنَآ) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[١٤٨] (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

[١٤٩] (وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ)

[١٥٠] (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٥١] (وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ)

[١٥٢] (ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

[١٥٣] (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ)

« فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » أى لطيف لين « وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ » أى بطرين . وقرئ (فرهين) وهو أبلغ . وقيل : فاره من (فرُه) بالضم ، بمعنى حذق . وفَرِهٌ صفة من (فرِه) كفرح ، بمعنى أشِر وبطر « فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ » أى الذين سُحِروا حتى غلب على عقولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

[١٥٥] (قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[١٥٦] (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٥٧] (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ)

[١٥٨] (فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٥٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٦٠] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٦١] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٦٢] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٦٣] (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٦٤] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٦٥] ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

[١٦٦] ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾

« مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ » أي نصيب من الماء « وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أي فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها « وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أي لعظم ما تسيئون .

قال الزمخشريّ: عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب. لأن الوقت إذا عظم بسببه ، كان موقعه من العظم أشد « فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ » أي الموعود ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » أي مجاوزون حدّ الحكمة في ترك محل الحرث، الحافظ للنسل، الذي به حفظ النوع البشريّ ، وإيثار ما لم يخلق لذلك، شرهاً في الشهوة الحيوانية، ومكافحة لتغيير الأوضاع الربانية .

ونقل السيوطيّ في (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظيّ، أن معنى الآية: تذرون مثله من المباح . فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة في دبرها . انتهى.

وخالفه غيره . فاستدل بها على حظره . وبيانه كما في (الكشاف) و(حواشيه) أنّ (مِنْ) إمّا تبيين لما خلق ، أو للتبعيض . ويراد به العضو المباح منهن ، تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم. ومن الوجه الثاني يستدل على حظر إتيان المرأة في غير المأتى. وتقريره في (الانتصاف) أن (مِنْ) لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج. ولا شك أن ترك الأزواج

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر . ولو كان الأمر كذلك ، لكان النصب في الثانى متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفصح أو المتعين . وقد اجتمعت العامة ـ عامة القراء ـ على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له فى الفصاحة، أو فى الجواز أصلًا . فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد . فتعين حمل (مِنْ) على البعضية . فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار : أحدهما إتيان الذكران . والثانى مجانبة إتيان النساء فى المأتى ، رغبة فى إتيانهن فى غيره . وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول ، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير . انتهى .

ومثله من دقيق الاستنباط الذى يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً ، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية فى الملام لهم ، أعمّ مما ذكره ومن غيره . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ)

« قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ » أى عن تقبيح أمرنا « لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ » أى من قريتنا عنفاً ، إذ لا تجانسنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ)

[١٦٩] (رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ)

«قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ» أى المبغضين غاية البغض. أى فأنا أرغب فى الخروج عن دياركم ، والراحة من مجاورتكم ، لبغضى لعملكم ، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار . ولذا أتبعه بقوله « رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ) أى من شؤمه وغائلته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ)

[١٧١] (إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ)

[١٧٢] (ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ)

« فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته . كما بينت فى آيات « فِى ٱلْغَٰبِرِينَ » أى مقدّراً كونها من الباقين فى العذاب . لأنها كانت راضية بعمل قومها .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : كثيراً ماورد فى القرآن، خصوصاً فى هذه السورة ، العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة. ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول فرعون(١) (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) وقولهم(٢) (سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ) وقولهم(٣) (لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ) وقوله(٤) (إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ) وقوله تعالى(٥) فى غيرها (رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ) وكذلك(٦) (ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ) وأمثاله كثيرة . والسر فى ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل، إنما يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يُفهم أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة، كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به. كأنها لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان فى ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير.

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٣٦] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١١٦] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .
(٥) [٩ / التوبة / ٨٧] . (٦) [٩ / التوبة / ٨٦] .

وانظر إلى المساق وهو قوله (رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ) كيف ألحقهم لقبا رديئا، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام فى جميع مايرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ)

[١٧٤] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٧٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٧٦] (كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا »أى عظيما غير معهود، هلكوا به «فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ » وهم أهل مدين . ووهِمَ من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ماحوتها من الأيكة ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد .

قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (ليكة) فى الشعراء و(ص) ، بلام من غير ألف قبلها. وفى الحجر وقٓ (الأيكة) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقون (الأيكة) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وحمزة وصلا ووقفا على أصله . وقراءة الأولين استشكلها أبو على الفارسيّ وغيره، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضى تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح. أى فإن العرب تقول فى الأحمر (الحمر ولحمر) وإثبات الألف واللام فى (الأيكة) فى سائر القرآن يدل ـ كما قال الزجاج ـ على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (لحمر) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع. لكن قال الزمخشريّ : هو الوجه. ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليكة، بوزن ليلة ، اسم بلد، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف. وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ. كما يكتب أصحاب النحو ـ لأن ولولى ـ على هذه الصورة، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن (ليكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٧٨] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٧٩] (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[١٨٠] (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[١٨١] (أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ)

« إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ » أى أتموه « وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ » أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ)

[١٨٣] (وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

«وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ» أى بالميزان السوىّ «وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ» أى لا تنقصوهم حقوقهم. قال الزمخشرىّ : وهو عام فى كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعيًّا . «وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» أى بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٨٥] (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ)

[١٨٦] (وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)

«وَٱتَّقُواْ» الله «ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ» أى : وذوى الجبلة الأولين ، وهم من تقدمهم من الخلائق «قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ» أى فيما تدّعيه من النبوّة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٧] (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

[١٨٨] (قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ» قطعا منها . قرىء (كسفاً) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع (كسفة) « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى لحلول العقاب فيهم ، من جنس ما سألوه من إسقاط السماء قِطَعاً عليهم. فقد أظلتهم سحابة أطبقت عليهم ، وأظلمت الجوّ فوقهم، وغشيهم العذاب وأحاط بهم . و (الظلة) بالضم لغةً ، الغاشية ، وما أطبق وستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق. ففى (الأعراف)ذكر أنهم[١] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ) وذلك لأنهم قالوا[٢] (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) فأرجفوا نبيّ الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال[٣] (وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبى الله فى قولهم[٤] (أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ) قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ) وههنا قالوا (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) الآية، على وجه التعنت والعناد. فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ).انتهى

---

(١) [٧ / الأعراف / ٩١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٨] .
(٣) [١١ / هود / ٩٤] . (٤) [١١ / هود / ٨٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)

[١٩١] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً» أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة.

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف كرر فى هذه السورة، فى أول كل قصة وآخرها، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به . ولأن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس ، وتثبيتا لها فى الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب، وأرسخ فى الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وُقْرٌ عن الإنصات للحق، وقلوب غُلْفٌ عن تدبره ، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتق ذهنا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩٢] (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٩٣] (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[١٩٤] (عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[١٩٥] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)

« وَإِنَّهُۥ » أى ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها « لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى منزل منه حقا « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ » أى جبريل عليه السلام « عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك المزية الجليلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنذار ، إزالة للأعذار « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » أى واضح المعنى جلىّ المفهوم ، ليكون قاطعا للعذر ، مقيما للحجة ، دليلا إلى المحجة . والجار متعلق بـ(نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٩٧] (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم. مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها. فكفى بذلك شهيدا على صدقه « أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً » أى علامة على تنزيله الحق « أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها، كما قال تعالى(١) (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ)

[١٩٩] (فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ)

[٢٠٠] (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٢٠١] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)

(١) [٢٨ / القصص / ٥٣] .

[٢٠٢] (فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٢٠٣] (فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ)

[٢٠٤] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[٢٠٥] (أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ)

[٢٠٦] (ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ)

[٢٠٧] (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ)

[٢٠٨] (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ)

[٢٠٩] (ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ » أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعاجم الذى لايحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفتق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا . ولتمحّلوا لجحودهم عذرا . ولسموه سحراً ، لفرط عنادهم « كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى مكّنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ماهو ، عياذا به منه «أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ*ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ* مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعايش « وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل ينذرونهم لأجل الموعظة والتذكرة « وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾

[٢١١] ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

[٢١٢] ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

[٢١٣] ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » ردّ لمازعمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ماتلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعْزُولُونَ » لانتفاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

[٢١٥] ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[٢١٦] ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[٢١٧] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

[٢١٨] ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

[٢١٩] ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ » أى الأدنين . وإنه لايخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل. وقد قال عليه الصلاة والسلام[1] لما نزلت عليه: (يافاطمة ابنة محمد! ياصفية ابنة عبد المطلب ! يابنى عبد المطلب ! لاأملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجعه . وقوله تعالى « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى لين جانبك لهم. مستعار من حال الطائر. فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجد « وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ » أى المصلين. أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود، إذا أممتهم . يعنى: يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلًا وجمعا وفرادى. أو معنى الآية: لايخفى عليه حالك ، كلما قمت وتقلبت مع الساجدين، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى[2] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٢٢١] (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ)

[٢٢٢] (تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » أى لما تقوله وبما تنويه « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ » أى (تتنزل) وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع تنزلهم بالقرآن « تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالى بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٦ ـ سورة الشعراء ، ٢ ـ باب وأنذر عشيرتك الأقربين، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨].

وحيث كان المقام النبويّ منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزلهم عليه .

قال القاشانيّ : لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة فى الخبث والكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل. فمن تجرد عن صفات النفس، وترقى إلى جناب القدس ، وتنورت نفسه بالأنوار الروحية ومصابيح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) تقرير لقوله تعالى (وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَايَسْتَطِيعُونَ) لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ)

[٢٢٤] (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ)

[٢٢٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

[٢٢٦] (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

« يُلْقُونَ » أى الأفاكون « ٱلسَّمْعَ » أى إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم « وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ » أى فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى «وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا فى حق القرآن الكريم ، من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادّة لأحواله عليه الصلاة والسلام. والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون المخيلات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم (أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم) الغاوون الضالون عن السنن ، لا غيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه . قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون ، وتقرير له . أى ألم تر أنهم فى كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم ، لا يقفون عند حدّ معيّن ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . ديدنهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيب[1] بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلوّ فى الثناء والهجاء .

لطيفة :

فى ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم فى شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعار الأودية للفنون والأغراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها ـ لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم ، من تنزّهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسيب : ذكر محاسن الحسان ، وإظهار التعشق والهيام بها . والغزل : التغزل وذكر صفات النساء ، وذكر الميل لهن . والابتهار : الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته . اهـ . خفاجى .

الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وفاز بجملة الملكات الأَنْسية ، مستقرًّا على المنهاج القويم ، مستمرًّا على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائق ، أعجز كل منطيق ماهر ، وبكّت كل مفلق ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدًّا . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ـ على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد[1] في (الطبقات) والزبير بن بكار في كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عَدِيّ بن نَضْلة على مَيْسان، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَحْثُو عَلَى كُلِّ مَنْسِمِ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي ... وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال: إي والله! إنه ليسوؤني ذلك . ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته . وكتب إليه عمر (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) . أما بعد فقد بلغني قولك :

لعلَ أميرَ المؤمنين يَسُوؤهُ ... تَنَادُمُنَا بالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت) في ترجمة عديّ بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتك) .

فلما قدم على عمر . بكّته بهــذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ماشربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك . ولـكن ، والله ! لاتعمل لى عملا أبدا ، وقد قلتَ ما قلتَ .

فلم يذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمّنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولـكن ذمّه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشرىّ عن الفرزدق[1] أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَبِتْنَ بِجَانِبَىَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحدّ . فقـال : ياأمير المؤمنين ! قد درأ الله عنى الحدّ بقوله (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ، وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ)

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا » أى فى شعرهم، بأن كان غالبه فى توحيد الله والثناء عليه والحـكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَٱنتَصَرُوا۟ » أى بشعرهم على عدوّهم بأن هجوه « مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ » أى فـكان هجاؤهم على سبيل

---

(١) انظر فى ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك ، ومطلعها :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الانتصار ممن يهجوهم ، جزاءً وفاقاً . قال الله[1] (لَّا يُحِبُّ ٱللَّـهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ) وقال تعالى[2] (فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) قال ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان[3]: (اهجهم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك) وروى الإمام أحمد[4] عن كعب بن مالك أنه قال للنبىّ ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبىّ ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذى نفسى بيده ! لكأن ماترمونهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) الآية ، ذم الشعر ، والمبالغة فى المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه فى الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشرىّ عن عمرو بن عبيد ، أن رجلا من العلوية قال له : إن صدرى ليجيش بالشعر . فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام .

الثانى ـ ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ يبكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل

(١) [٤ / النساء / ١٤٨] .   (٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٦ ـ باب ذكر الملائكة ، حديث رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ)

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبيّ ﷺ (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) قال : أنتم .

قال ابن كثير: لكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات فى شعراء الأنصار ؟ وفى ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيء . فإن الحسنات يذهبن السيئات. وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كان يذمه . كما قال[1] عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، لما أسلم :

يارسولَ المليكِ إنّ لسانى ... رَاتِقٌ مافتَقْتُ ، إذْ أَنَا بُورُ
إذْ أُجارى الشيطانَ فى سَنَنِ الغَىّ ... وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحٰرث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبيّ ﷺ فهو ابن عمّه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ. انتهى. وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعيد أكيد، لما فى (سيعلم) من تهويل متعلقه. وفى (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه . وفى (أى منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ)

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٧ – سُورَةُ النَّمْلِ

قال المهايميّ : سميت بها ، لاشتمالها على مقالتها ، الدالة على علم الحيوان بنزاهة الأنبياء وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طسٓ ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)

[٢] (هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« طسٓ ، تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلوّ الشأن. وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار . « هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى (الكشاف) .

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة) ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به، فوقع فاصلا بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلى المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما ، فطرّى ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى على حاله مقدما : ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية . فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجِّلْ ذَا وَأَلْحِقْنَا بِذَا الـ ... الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلِلْنَاهُ بَجَلْ

والأصل (وألحقنا بذا الشحم) فوقع منتصف الرجز أو منتهاه (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام. وبنى الشاعر على أنه لابد، عند المنتصف أو المنتهى، من وقيفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعْدًا بين المعرّف وآلة التعريف . فطرّاها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

[٥] (أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ)

[٦] (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

[٧] (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٨] (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

«إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ »أى مددنالهم فى غيّهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم. وكان هذا جزاءً على ما كذّبوا به من الدار الآخرة والجزاء على الأعمال كما قال[1] تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ) « أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ» أى أشد الناس

(١) [٦ الأنعام / ١١٠] .

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقنه من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليّها وخفيها . فخبره هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كما قال(١) (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً) والجملة مستأنفة، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجليلة. وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذلّ معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ » أى حين قفل من مدين إلى مصر، وأَضَلَّ الطريق « إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا » أى رأيتها « سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »أى عن الطريق «أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة« لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أى تتدفئون به «فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا» أى بورك مَن فى مكان النار ومَن حول مكانها. ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أُبىّ (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه : بوركت النـــار . والذى بوركت له البقعة، وبورك من فيها وحواليها، حدوث أمر دينىّ فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاصيها ويبثّ آثار يمنـــه فى أباعدها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة ؟ كذا فى (الكشاف) .

وقال السمين : (بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول: باركك الله، وبارك عليك، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بـ (من) إما البارى تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله (وَمَنْ حَوْلَهَا) وقيل المراد بـ (من) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشرىّ : والظاهر أنه عامّ فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

(١) [٦/ الأنعام/ ١١٥] .

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة فى قوله[١] (وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ) وحقت أن تكون كذلك. فهى مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحى إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا .

ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه، هى بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه فى أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبىّ : هذا تحية من الله تعالى لموسى، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا[٢] (رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) .

وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نوراً يتوهج .

وعنه : هى نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجابه النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من فى النار ومن حولها .

قال ابن كثير: وأصل الحديث مخرج فى صحيح مسلم[٣] من حديث عمرو بن مرّة «وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ» أى الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شىء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته ، وهو العلىّ العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام مالا يليق من التشبيه. ثم إن موسى عليه السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لا ملك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية المستحقة للألوهية والنعوت القدسية ، فقال سبحانه :

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٧٣] .
(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[١٠] (وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ)

[١١] (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

[١٢] (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ، فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

« يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » وفى إيثار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع. وهو الإشارة الجُمْلية إلى روح إرساله عليه السلام. أى: أنا الله لا تلك المعبودات التى عكف عليها قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرد، الحكيم فى البعثة والإرسال، والتفضل والإفضال . ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلًا واضحا على أنه القادر على كل شىء، بقوله « وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ » هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة وأكثره اضطرابا « وَلَّىٰ » أى من الخوف « مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع على عقبه من شدة خوفه « يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى لحفظى لهم وعنايتى بهم وعصمتى إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، مالم يزل خوفه من المرسل إليه . وقوله تعالى « إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ » استثناء منقطع. استدرك به ماعسى يختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم . مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما ، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم وإن صدر عنهم شىء من ذلك ، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة. وقد قصد به التعريض بما وقع من

موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطيّ والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشريّ حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها، وسماه ظلما كما قال موسى (رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى) ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آتاه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ » أى آفة كبرص « فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ » أى غيرها تؤتاها، إذا جحد فرعون رسالتك . وهى ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دما . وإصعاد الضفادع على أرض مصر . وضرب التراب فتمتلئ الأرض قملا . وإرسال الجراد عليهم . والوباء الشديد . وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتغشيتهم بظلام كثيف، على ماروى. وفى (تسع) أوجه: أحدها أنها حال ثالثة. أى تخرج آية فى تسع آيات. والثانى أنها متعلقة بمحذوف ، أى اذهب فى تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (وَأَدْخِلْ يَدَكَ) أى فى جملة تسع آيات. و(فى) بمعنى (مع) « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » أى مرسلا بها إلى فرعون « وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ » أى خارجين عن الحدود، فى الكفر والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

[١٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ، وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١٦] (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً » أي ظاهرة بينة « قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا » أي كذبوا بها بألسنتهم « وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ » أي عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا، لاسيما عند إلقاء السحرة ساجدين « ظُلْماً » أي للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله[١] (بِمَا كَانُوا بِـَٔايَاتِنَا يَظْلِمُونَ) ولقد (ظلموا بها) « وَعُلُوًّا » أي تكبراً عن الانقياد لموسى « فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أي من إهلاكهم بالإغراق ، لغرقهم في بحر الفساد والإفساد « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً » أي بالقضاء بين الناس ، وحكمة باهرة « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ » أي العلم والحكمة والنبوة أو الملك « وَقَالَ » أي تحدثا بنعمة الله وتنويها بمنته « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » أي فهم صوته « وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » أي البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال رسول الله ﷺ[٢] (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) أي أقول هذا القول شكرا ، ولا أقوله فخراً.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[١٨] (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٩] . (٢) أخرجه أبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنة، ١٣ ـ باب في التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

[٢٠] (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ)

[٢١] (لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٢٢] (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ
بِنَبَإٍ يَقِينٍ)

[٢٣] (إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)

[٢٥] (أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ » أي جمع له عساكره « مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ » أي رأتهم متوجهين إلى واديها « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أي بمكانكم « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا » أي تعجبا من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التي هي أبعدها من إدراك أمثال هذه

الأمور ، وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها . قاله أبو السعود « وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ » أي ألهمني شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »أي بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ »أي فلبث في الغيبة أمداً غير طويل « فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ »وهي مدينة « بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ »أي سرير تجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا » أي هلّا يسجدون . كما قرىء بذلك . وجوّز بعضهم أن يكون معمولا لما قبله. أي فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة، والمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ »أي يظهر ما هو مخبوء فيهما من نبات ومعادن وغيرها « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرئ بالتاء والياء على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إما مستأنفة من كلامه تعالى، أو محكيّة عن قول الهدهد. واستظهر الزمخشريّ الثاني . قال : لأن في إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد، لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض، جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة النّظار بنور الله، مخايل كل مختص بصناعة أو فن من العلم ، في روائه ومنطقه وشمائله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ)

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ » أى المحيط بالشمس وسائر الكواكب وكل شىء. فما أصغر عرشها فى جنب عظمته ! وما أضعف معبودها ـ الشمس ـ فى جانب قدرته!

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجدات . قال الزمخشرىّ : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها. وإحدى القراءتين أمر بالسجود، والأخرى ذم للتارك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)

[٢٨] (ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)

[٢٩] (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ)

[٣٠] (إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

[٣١] (أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ)

« قَالَ » أى سليمان « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ » أى حسن مضمونه وما فيه « إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » أى لا تتكبروا علىّ ، وأتونى منقادين لأمرى « قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » أى لا أبتّ

أمراً إلا بحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[٣٤] (قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)

[٣٥] (وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ)

« قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ »أى فى العَدد والعُدد « وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ »أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظرى ما هو أبقى لشرفك وملكك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسالمة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومركزها وضعفها أمام عدوّها، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدوّ فى قرية العدوّ . وألا تعيّن الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً »أى عنوة وقهرا « أَفْسَدُوهَا » أى أخربوها « وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيد لما وصفت من حالهم، وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة. وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى وإنى سأرسل إلى سليمان وملئه رسلا بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد. من غير اختلال لشرفنا. ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[٣٧] (ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ)

[٣٨] (قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ)

[٣٩] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ)

[٤٠] (قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)

«فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ» أى المرسلون منها «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ» أى من الملك والحكمة والنبوة «خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم» أى فلا أبالى بجميع ما عندكم فضلا عن الهدية «بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ» أى إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتم مثلها ، تفرحون استكثاراً أو افتخاراً «ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ» أى مهانون «قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » أى ليختبرنى أأشكر بالطاعة والعمل بالشريعة ، أم أكفر بالمعصية والمخالفة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » كقوله(١) (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا) وكقوله(٢) (وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ)

[٤٢] (فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ، وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

«قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا» أى اجعلوه متنكراً متغيرا عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس « نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » أى لمعرفته « فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ » قال المهايمىّ : لم تقل (هو هو) خوفا من التكذيب ، مع نوع من التغيير . ولا (لا) خوفا من التجهيل .

وقال الزمخشرىّ : لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من رجاحة عقلها . حيث لم تقطع فى المحتمل . أى : فأتت بـ (كأن) الدالة على غلبة الظن .

قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن (كأن) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك، وهو مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقا بين (كأن) و (هكذا) فى التشبيه. وعبارته:

---

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] و [٤٥ / الجاثية / ١٥] . (٢) [٣٠/ الروم / ٤٤].

وفى قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو)ـ نكتة حسنة . ولعل قائلا يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعا، وإن كانت فى إحداها داخلة على اسم الإشارة ، وفى الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما (أعنى اسم الإشارة والمضمر) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان فى المعنى . ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال . فلابد فى اختيار (كَأَنَّهُو هُوَ) من حكمة . فنقول: حكمته، والله أعلم، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين . فكاد يقول (هو هو) وتلك حال بلقيس . وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لاغير . فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » هـذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذى أومأ إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة فى وصفها برجاحة الرأى فى الهداية للإسلام .والتقدير : أصابت فى جوابها وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله. وأوتينا العلم إلخ. وقيل : إنه من كلام بلقيس ، موصولا بقولها (كأنه هو) ، لا من كلام سليمان . كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم الخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار .

قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ » أى القصر، أو صحن الدار وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعا من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره الله به «فَلَمَّا رَأَتْهُ» أى صحنه« حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيما «وَكَشَفَتْ» أى للخوض فيه « عَن سَاقَيْهَا، قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى مملّس « مِّن قَوَارِيرَ » أى من الزجاج «قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول ـ روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصحّ سندا ولا مخبراً . وما هـذا سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبى شيبة عن عطاء مستحسنا له ، ما مثاله : قلت: بل هو منكر غريب جدا. ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم . كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب. مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ.

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

الثانى ـ أشير فى (التوراة) فى الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وسلطانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطا على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أى أنها تؤدّى له الجزية ، وإن كان ملكه محصورا فى فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكيا جدا ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتكلم فى الشجر ، من الأرز الذى على لبنان إلى الزوفى التى تخرج فى الحائط . وتكلم فى البهائم والطير والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه فى الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه فى ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازَرَ وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر فى أرض البرية . وجاء فى الفصل العاشر من هذا السفر أيضا قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رأته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ماتقدم سوق مؤرخ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق مابين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث ـ مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة، أن فى قوله تعالى (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفى قوله تعالى (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ) استحباب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأنشد :

تفقدُ الإخوانِ مُسْتَحْسَنُ ... فمن بَدَاهُ نِعْمَ مَاقَدْ بَدَا
سَنَّ سليمانُ لنا سُنَّةً ... وكان فيما سنه مقتدَى
تفقدَ الطير على مُلْكِهِ ... فقال : مَالِى لَا أَرَ الْهُدْهُدَا

وأن في قوله تعالى (لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا) الآية، دليلا على أن العذاب على قدر الذنب، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك. وأن في قوله تعالى (قَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبوع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ) قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى (ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى (كِتَٰبٌ كَرِيمٌ) استحباب ختم الكتب ، لقول السّدّي : كريم بمعنى مختوم . وأن في قوله تعالى (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى) المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى (أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في (الإكليل) بزيادة .

ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيّها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

[٤٦] (قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٤٧] (قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ، قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ »

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له. كقوله تعالى[1] (قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) « قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ » أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة. أى لم تدعون بحضور العقوبة ولا تطلبون من الله رحمته بالإيمان « لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا » أى تطيرنا أى تشاءمنا « بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقائهم ، إذا أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وصحبه « قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ » أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . قاله الزمخشرىّ .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سانحا ، وهو ما وليه بميسرته ، أو بارحا وهو ما وليه بميمنته ـ تيمنوا بالأول وتشاءموا بالثانى . ونسبوا الخير والشر إلى الطائر. ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائرك) « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون بضلالكم وكفركم. لا ترون حسنا إلا ما يوافق هواكم، ولا شؤما إلا يخالفه. ثم أخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وتكذيب صالح عليه السلام، وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

---

(١) [٧/ الأعراف / ٧٥ و ٧٦] .

[٤٩] (قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)

[٥٠] (وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥١] (فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٢] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

«وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أى شأنهم وعادتهم الإفساد ، كما يفيده المضارع وتأكيده بقوله (فِى ٱلْأَرْضِ) الدال على عموم فسادهم. وهو صفة (رهط) أو (تسعة) « قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ » أى ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين، بالله الذى هو أعظم المعبودين « لَنُبَيِّتَنَّهُۥ » أى لنقتلنّه ليلا . وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض « وَأَهْلَهُۥ » أى من آمن معه . «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ » أى الطالب ثأره علينا «مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ » أى ما حضرنا مكان هلاك الأهل، مع تفرقهم فى الأماكن الكثيرة، فضلا عن مكانه ، فضلاً عن مباشرته « وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ » أى ونحلف إنا لصادقون . أو : والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا «وَمَكَرُواْ مَكْرًا »أى بهذه الحيلة «وَمَكَرْنَا مَكْرًا» أى بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ » أى خالية ساقطة .لم تعمر بعدهم لأنهم استؤصلوا « بِمَا ظَلَمُوٓاْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أى بأنهم ما أخذوا إلا لظلمهم . وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

[٥٤] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)

[٥٥] (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

[٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا، فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ)

[٥٩] (قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ، ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » يعنى صالحاً عليه السلام ومن معه « وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » أى قبحها ومضادتها لحكمه تعالى وحكمته « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ » أى متجاوزين النساء اللاتى هن محالّ الشهوة « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن العاقبة « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » أى يتنزهون عن أفعالنا ويرونها رجساً. قالوه استهزاء « فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » أى الباقين فى العذاب « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا » أى هائلا غير معهود « فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشرىّ: أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شىء وحكمته. وأن يستفتح بتحميده، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يلقى إلى السامعين، وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المُسْمِع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب. فحمدوا الله عز وجل، وصلوا على رسول الله ﷺ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفى مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه . وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء ، إلا لداع يدعوه إلى إيثاره ، من زيادة خير ومنفعة. فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثاً، لينبّهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورّط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه[1] عن فرعون (أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ » مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التى كانت تجرى تحته.

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله، كما عددها فى موضع آخر. ثم قال (هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ) .

لطيفة:

قال ابن القيم فى (طريق الهجرتين) فى هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتمل أن تكون داخلة فى حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية، وهى (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها النصب محكيّة بالقول .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمراً بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر مابينهما . فلا يحسن أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرجْ وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لايمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى[1] (قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) .

فقوله (وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ) ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى[2] (قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) وقوله[3] (وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ) .

والمقصود أنه على هـذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلّم على المصطفين من عباده ، والرسلُ أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

(١) [١٠ /يونس/ ١٠١] .(٢) [٢١ /الأنبياء/ ١١٢] . (٣) [٢٣ /المؤمنون/١١٨] .

[٦١] (أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٢] (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ » إضراب وانتقال، من التبكيت تعريضاً، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السمٰوات والأرض، وأودع فيهما من المنافع مالا يحصي «وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ» أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظار « مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ » أى : أءله آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لايكاد يقدر عليها غيره، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى، فى ضمن النفى الكلىّ على الطريقة البرهانية، بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد. قاله أبو السعود « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . « أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا » أى قارة لاتنكفئ بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها « وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » أى برزخاً مانعاً من الممازجة « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ » أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً من الأشياء . ولذلك لايفهمون بطلان ماهم عليه من الشرك، مع كمال ظهوره « أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ » وهو الذى أحوجه مرض أوفقر أو نازلة من نوازل الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من (الاضطرار) الذى هو افتعال من

(الضرورة) وهى الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : ينبّه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد ، الموجود عند النوازل ، كما قال تعالى[1] « وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ » وقال تعالى[2] (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ » وهكذا قال هٰهنا (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟

وقال ابن القيم فى (الجواب الكافى): إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدى الرب وذّلا له وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولاسيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبيّ ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

ثم ساقها ابن القيم مسندة .

ثم قال : وكثيراً مانجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته . فيظن الظانّ أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده ، كاف فى حصول المطلوب ، كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس. ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى « وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ » أى كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكناها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن.

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزمخشريّ « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » أي بالنجوم في السماء ، والعلامات في الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر « وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ » وهي المطر « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ».

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٦٥] (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

« أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أي بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتمكنهم من معرفتها ـ فلم يبق لهم عذر في الإنكار. فلا حاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أي مما ينزله من مائها وما يخرجه من نباتها « أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت. أي هاتوا برهاناعقليا أو نقليا، يدل على أن معه تعالى إلهاً. لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى، فإنهم لا يدعونه صريحا . وفي إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهانا . وأنّى لهم ذلك؟ قاله أبو السعود «قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ» أي فإنه المتفرد بذلك وحده، كما قال(١) (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ) في آيات

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] .

لا تحصى. والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن فى السماء والأرض. أو متصل، على أن المراد ممن فى السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلا أو استعارة . فإنه يعمّ الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى ينشرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ)

« بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما ـ أن (فى) على بابها ، و (ادّارك) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعا . كقوله[1] « أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ) .

وعلى هذا فـ(فى) متعلق بـ(ادّارك) .

والثانى ـ أن (فى) بمعنى الباء . أى بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك (علمى بزيد كذا) انتهى .

والوجه الثانى على الاستفهام . أى بل هل ادّارك علمهم فيها ، أى بلغ وانتهى ؟ كلا . وقد قرىء (بل أءدرك) بهمزتين و (بل آءدرك) بألف بينهما و (أم أدرك)و(أم تدارك)

قال الرازىّ : وهى (أم) التى بمعنى (بل) والهمزة . فالمعنى على الاستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا فى حضيض الجهالة بحقيتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطىّ والمهايمىّ . وذهب غيرهما إلى إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقالىّ. وقرروه بما فيه خفاء ودقة. ويبعده ما ذكرنا

(١) [١٦ / النحل / ١] .

من القراءات الصريحة فى الاستفهام. وهى مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر فى قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عماية وجهل كبير .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث . ثم بأنهم لايعلمون أن القيامة كائنة. ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم ، لا يشخص به طلب التميز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخْطِر بباله حقا ولا باطلا ولا يفكر فى عاقبة . وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه . فلذلك عداه بـ(من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

[٦٨] (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٦٩] (قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٧٠] (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطروها بعبارة مموّهة « قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ

عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ » بإنـكاره . وهى دمارهم وهلاكهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتـكذيبهم. فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالى معهم بهؤلاء، كقوله تعالى(١) (فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا) «وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك. ولا تبال بذلك، فإن الله يعصمك من النـاس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٧٢] (قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ)

[٧٣] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٥] (وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)

[٧٦] (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى بالعذاب « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم » أى لحقكم أودنا لـكم « بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب، فحصل لهم القتل ببدر . ولعذاب الآخرة أمرّ . قال الزمخشرىّ : و(عسى) و(لعلّ) و(سوف) فى وعد الملوك ووعيدهم ، يدل على صدق الأمر وجدّه ، وما لا مجال للشك بعده. وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ، ووثوقهم أن عدوّهم لا يفوتهم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده. انتهى. أى لأن حقيقة الترجّى محال فى حقه تعالى. فهو على هذا استعارة تمثيلية. قاله

(١) [١٨ / الـكهف / ٦] .

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المكايد له. وهو معاقبهم على ذلك «وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ » أى ومامن خافية فيهما، إلا وقدعلمها الله وأحاط بها وأثبتها فى اللوح البيّن ، المثبت فيه مقدوراته تعالى . أو المراد بالكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق . فالمعوّل من أنبائهم عليه ، ومردّ ما اختلفوا فيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٨] (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ)

[٧٩] (فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ)

[٨٠] (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)

[٨١] (وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ، إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

« وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التى يعقلها المؤمنون المنصفون المصدقون بالحق، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ » أى بين مَنْ آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى فلا يردّ قضاؤه الغالب

فى انتقامه من المبطلين «ٱلْعَلِيمُ» أى بالفصل بينهم وبين المحقّين . ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالمضيّ فى دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله «فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ » أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشريّ : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل. ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه ، وإلى أن الكل لا يرجى منهم الهداية، كآية[1] (وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) تسلية عما كان يهمه من إيمانهم ، بقوله سبحانه « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ *وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » قال الزمخشريّ : شبّهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقماع القول ، لا تعيه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم ، لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء ، إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله(إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ)؟ قلت : هو تأكيد لحال الأصمّ. لأنه إذا تباعد عن الداعي ، بأن يولّى عنه مدبرا ، كان أبعد عن إدراك صوته . انتهى .

وإيراد قوله (وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ) إثر ما تقدم ، للمبالغة فى نفى الهداية . وقوله تعالى (إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا ، إلّا من شأنه الإيمان بها . وقوله (فَهُم مُّسْلِمُونَ) تعليل لإيمانهم بها . كأنه قيل : فإنهم منقادون للحق . وقيل : معناه مخلصون ، من قوله[2] (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ) يعنى جعله سالمًا لله خالصا له .

---

(١) [١٢ / يوسف/١٠٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١١٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن فى هذا الوعيد وجوها من التأويل :

الأول ـ أنه دنيوىّ ، عنى به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعى وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئيهم. ويظهروا على عدوّهم . وذلك بأن تدبّ إليهم من المؤمنين دابة عظمى تملأ السهل والربى ، تزلزل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتدكّ أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد . وسعيهم فى الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثانى ـ أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوبخ الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه فى ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَآبَّةً) الفرد، بل النوع. كما فى قولك (أرسل الله عليهم دودة أتلفت زرعهم) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . ا هـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخارىّ منها شيئا، لاضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثل مأثورها ما أخرجه مسلم(١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريبا) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعيّ الثبوت .

الوجه الثالث ـ نقله الراغب في مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب. فتكون الدابة جمعا، اسما لكلّ ما يدبّ. نحو (خائنة) جمع خائن. انتهى.

ولعل الآية كقوله تعالى(٢) (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ) فإن يأجوج ومأجوج كالدابة ، لما يغطى بدبيبه وجه الأرض ـ فهو مثل في الكثرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[٨٤] (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ »أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه. كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فَوْجًا) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشريّ « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو » أي إلى المحشر « قَالَ » أي ليفضحهم في هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١١٨ (طبعتنا)

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٦و٩٧] .

« أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى » أى الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه. ومؤكدة للإنكار والتوبيخ. أى أكذبتم بها بادئ الرأى، غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتما؟ وهذا نص فى أن المراد بالآيات ، فيما سلف فى الموضعين ، هى الآيات القرآنية . لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بهـا علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لا نفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود «أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى بها . أو ماذا كان عملكم ؟ هل هو إلا الفساد والإفساد ؟ وصد السبيل عن العباد ؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ)

[٨٦] (أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٨٧] (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ)

[٨٨] (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ، صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ، إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[٨٩] (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ)

« وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ » أى مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ* أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا »أى ليبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب فى أمور المعاش « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* وَيَوْمَ

يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ » أى حضروا الموقف بين يديه «دَٰخِرِينَ» أى صاغرين «وَتَرَى ٱلْجِبَالَ» عطف على (ينفخ) داخل فى حكم التذكير «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى ثابتة فى أماكنها «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ» أى فى تخلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى(١) (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) « صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ » أى فيجازيهم عليه .

تنبيه :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبيد الله تعالى العوالم ، كما قال(٢) (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال(٣) (وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ) وقال(٤) (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :

الأول ـ أن قوله تعالى (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله(٥) (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن حمل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى إرادة الحال ، شيء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى ـ أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق وهذا شيء لا يراه أحد من البشر كما قال(٦) (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ) أى من الملائكة . فما معنى قوله(٧) إذن (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) ؟

---

(١) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٢) [٧٨ / النبأ / ٢٠] . (٣) [٧٧ / المرسلات / ١٠] .
(٤) [١٠١ / القارعة / ٥] . (٥) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .
(٧) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثالث ـ أن تسيير الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا ينافى قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) أى ثابتة . أما فى الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفاً . وهذا شىء يراه كل واقف عندها .

الرابع ـ ورود هذه الآية فى سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها فى نفس هذا السياق، والمراد بهما ذكر شىء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها فى هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلا على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه. ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء فى هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع المدلول ، أو الحجة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شىء مشاهد فى القرآن من أوله إلى آخره . اهـ كلامه .

وقال العلامة المرجانىّ فى مقدمة كتابه (وفيّة الأسلاف ، وتحيّة الأخلاف) فى بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيذان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره فى هذه الرؤية. وحسبان جمود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة فى الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب فى سرعة السير والحركة . قال : وقوله (صُنْعَ ٱللَّهِ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى(١) (وَعْدَ ٱللَّـهِ)(٢) (صِبْغَةَ ٱللَّـهِ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعدتدرّب فيه وتروٍّ وتحرى إجادة . ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وقوله (ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) كالبرهان على إتقانه ، والدليل على إحكام خلقته ، وتسوية مروره على ما ينبغي . لأن إتقان كل شيء ، يتناول إتقانه . فهو تثنية للمرادوتكرير له ، كقوله تعالى(٣) (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّـهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد ، وأنحاء من المبالغة . فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذى هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة . وإضافته إليه تعالى ، تعظيما له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله . ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء، ومن جملته هذا المرور. ثم إيراده بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور. ثم التقييد بالحال، لتدل على أنها لاتنفك عنها دائماً . فإن قوله تعالى (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ) حال من المفعول به، وهو الجبال . ومعمول لفعله الذى هو رؤيتها على تلك الحال .

فهذه الآية صريحة فى دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها فى هذه النشأة .

وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع فى النشأة الآخرة ، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام . وأن حسبانها جامدة لعدم تبين حركة كبار الإجرام إذا كانت فى سمت واحد . فإن ذلك لايلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير . على أن ذلك نقض وإهدام ، وليس من صنع وإحكام . قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى ، مع ظهوره واشتمال الكتب الحكمية على قول بعض القدماء. مع أنه أولى وأحق من تنزيل محتملات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم. وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى ، ولا بعيد عن حكمته ، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقة ، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقه بالاختيار، كائنا ما كان ، وهو العليّ الكبير ، وعلى مايشاء قدير .

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٨] (٣) [٣ / آل عمران / ٩٧]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ) الآية ، اعتراض فى تضاعيف ماساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأهوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه فى تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزيز فى القرآن .

وفائدته هنا، التنبيه على سرعة تقضّى الآجال ومضىّ الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارّة على هـذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصرا محسوسا ، لـكن ماينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصَر[1] (فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ) فيكون هذا معجزة للنبىّ ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) فى شىء . بل هو إفساد أحوال الـكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بنى آدم . اه . كلام المرجانىّ .

«مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ» أى لايعتريهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فَزَعِ يَوْمِئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منوناً وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين فى (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أى يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

(١) [٥٩ / الحشر / ٢] .

[٩٢] (وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ)

[٩٣] (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا، وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

«وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والمعاصى «إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ» أى مكة «ٱلَّذِي حَرَّمَهَا» أى جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها. وفيه تعريض بجحدهم نعمته تعالى فى ذلك، حيث آمنهم من خوف، وأجلّهم فى أعين القبائل، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم، إجلالاً لهذا البيت. وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها، من عبادته تعالى وحده، وسعيهم بالإصلاح «وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ» أى خلقا وملكا. فهو خالق كل شىء ومليكه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أى ممن أسلم وجهه لله، لا لغيره «وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ» أى عليكم، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين «فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ» أى فمن اتبع ما فيه من توحيد الله، ونفى الأنداد عنه، والدخول فى الملة الحنيفية، واتباع ما أنزل علىّ من الوحى، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه، لا إلىّ «وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ» أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزيغه طريق الهدى، ولم يتبعنى، فلا علىّ. وما أنا إلا رسول منذر، وما على الرسول إلا البلاغ المبين «وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أى على ما هدانا لهذا الدين، ومنّ علينا بصراطه المستقيم «سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا» كقوله تعالى[1] (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ) وقوله[2] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ) «وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والتكذيب ونصب المكايد. بل هو شهيد رقيب، جل جلاله وعظم نواله، ولا إله غيره.

---

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص ٨٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٨ – سورة القصص

سميت به لاشتمالها على قوله تعالى[١] (فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء ـ أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتمالها على مالايشتمل عليه غيرها من أنباء موسى، أفاده المهايميّ .

والسورة مكية كلها . وقيل إلّا من قوله تعالى[٢] (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ) إلى قوله (ٱلْجَـٰهِلِينَ) فقد أخرج الطبرانيّ عن ابن عباس أنها نزلت هى وآخر الحديد فى أصحاب النجاشيّ الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحُد .

وقوله تعالى[٣] (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ) الآية لما روى من نزولها بالجُحْفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهى ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٢٥] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٢ـ٥٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طسٓمٓ)

[٢] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

[٣] (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٤] (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ)

«طسٓمٓ» تقدم الكلام على هذه الحروف غير مامرة «تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة ملتبسة بالحق . كما قال تعالى[1] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) ثم استأنف ما يجرى مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر « وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا » أى فرقا وأصنافا فى استخدامه وطاعته « يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ » وهم بنو إسرائيل « يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ » وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلا لعددهم ، كيلا يكثروا فينازعوه الملك « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذى جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

(١) [١٢ / يوسف / ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ)

[٦] (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ)

[٧] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ، إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٨] (فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ)

« وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ » أى نتفضل « عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً » أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ » أى : لملك عدوّهم . كما قال تعالى[1] (وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ) إلى قوله (يَعْرِشُونَ) « وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالتصرف فيها تصرف الملوك « وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم » أى من أولئك المستضعفين « مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم وذهاب ملكهم ، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطغيانهم « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ » أى إثر ولادته فى تلك الشدّة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين بأيديهم الشفار المرهفة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ » أى فى البحر ، وهو النيل « وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَٱلْتَقَطَهُۥٓ

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » أي في هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة. أبرز مدخولها في معرض العلة، لالتقاطهم. تشبيها له في الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ » أي مجرمين فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم ، ومَنْ هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[١٠] (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ، إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١١] (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ » أي لفرعون ، حين أخرجته من التابوت « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أي بما سيكون « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا » أي خاليا من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه في يد فرعون « إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ » أي بأمره وقصته، وأنه ولدها « لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أي لولا أن ألهمناها الصبر . شبه بربط الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن . ومعنى (من المؤمنين) أي المصدقين بوعد الله . وهو قوله(١) (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ) .

قال الزمخشريّ : ويجوز، وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبنّاه . إن كادت لتبدى بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أنّا

(١) [٢٨ / القصص / ٧] .

طامنا قلبها وسكنا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله ، لابتبنّى فرعون وتعطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ » أى اتبعى أثره لتنالى خبره « فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ » بضم النون وسكونها . أى : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى أنها تتعرف حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ)

[١٣] (فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٤] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

[١٥] (وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ، فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ، إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

[١٦] (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٧] (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ » أى من قبل قصّها أثره. و (المراضع) جمع مرضع

بضم الميم وكسر الضاد . وهى المرأة التى ترضع . وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء . أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميميّ ، جمع لتعدد موادّه . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدى «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ» أى فى رضاعه وتربيته «فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا» أى برؤيته «وَلَا تَحْزَنَ» أى بفراقه «وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ» أى كمال قوته ، «وَٱسْتَوَىٰٓ» أى اعتدل مزاجه «ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ» أى فى أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ماقدّر له من الرسالة ، بقوله سبحانه « وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ » أى مصر آتياً من قصر فرعون « عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا » قيل وقت القيلولة . وقيل بين العشاءين «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ» أى يتنازعان « هَٰذَا» أى أى الواحد «مِن شِيعَتِهِۦ » أى ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل «وَهَٰذَا» أى الآخر «مِنْ عَدُوِّهِۦ » أى ممن خالفه فى دينه وهم القبط « فَٱسْتَغَٰثَهُ» أى سأله الإغاثة «ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ » لكونه مظلوماً «عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ » لكونه ظالماً . وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين «فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ» أى ضربه بجُمع كفِّه « فَقَضَىٰ عَلَيْهِ » أى فقتله « قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه ، من قتله . وسماه ظلماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه « قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى» أى بقتله « فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ» يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف . أى أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة ، لأتوبنّ ولا أظاهر المجرمين. وأن يكون استعطافا كأنه قال : رب! اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة . فلن أكون ، إن عصمتنى ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرتهم ، إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثير سواده ، وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلىّ المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له . قاله الزمخشرىّ .

قال الناصر : لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده.

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلماً ، فيجعلون فى تابوت من حديد ويلقى بهم فى النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ، قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ)

[١٩] (فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ)

[٢٠] (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ)

[٢١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٢٢] (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ)

[٢٣] (وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

« فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ » أى الاستقادة أو الأجناد . « فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ » أى استعانه فقتل من أجله منازعه القبطىّ « يَسْتَصْرِخُهُۥ » أى يستغيثه من قبطىّ آخر « قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرّك إليهم مالا تحمد عقباه « فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا » أى لموسى وللإسرائيلىّ ، وهو القبطىّ « قَالَ » أى ذلك العدوّ وهو القبطىّ ، لا الإسرائيلىّ كما وهم « يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزمخشرىّ: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى أحسن. « وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ » أى يسرع لفرط حبه لموسى «قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ» أى يتشاورون بسببك « لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ» أى من حدّ مملكتهم «إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ* فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ» أى لحوق الطالبين «قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ*وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه «تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ » أى فلا يلحقنى فيه الطالبون«وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيهم « وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ » أى تمنعان مواشيهما عن المــاء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقى « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى ما شأنكما فى الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ » أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن المـاء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقى . أى ما لنا رجل يقوم بذلك إلا هو، وقد أضعفه الـكبر، فاضطرنا الحال إلى ما ترى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[٢٥] (فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« فَسَقَىٰ لَهُمَا » أي فسق غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ » أي الذي كان هناك، من شدة الحر « فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أي محتاج. والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام. وعلى الأخير حمله الأكثرون بمعونة المقام « فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ » أي أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أي بالخروج عن حدّ ولا يتهم، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ)

[٢٧] (قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ)

[٢٨] (قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ » أي اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق بذلك « إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ » أي خير من أردت جعله أجيراً، القويّ على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشريّ : وقولها (إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ) كلام حكيم جامع لا يزاد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة، أن تقول : استأجره لقوّته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجمل فى مدح النساء للرجال، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة. وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوىّ . ففى مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أمينا : يستعين به على ما كان بصدده رضى الله عنه . انتهى . «قَالَ إِنِّي أُرِيدُ» أى لقوتك وأمانتك، ما يقوّى المودة ويجذب القلوب «أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ» أى على أن تكون أجيرى لرعي المواشى بأجرة على ابنتى ، هى مهرها عليك ، ثمانى سنين « فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإيجابه « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد « قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » أى ذاك الذى عاهدتنى عليه ، لانخرج عنه جميعا « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » أى أتممت « فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ» أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٩] (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٣٠] (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٣١] (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أي أتم « مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ »أي من الطريق ، من ضوئها ، أو ممن عندها «أَوْ جَذْوَةٍ» مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أي عود فيه شيء « مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أي تستدفئون « فَلَمَّآ أَتَىٰهَا » أي قرب منها « نُودِيَ مِن شَٰطِىِٕ » أي جانب « ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ »أي المبارك. يقال: يمن فهو ميمون وأيمن. وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد. لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء في غير آية توصيف الوادي بالمقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد. وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببديع تلك المباني «فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ »أي التي بورك مكانها بالتجلي الإلٰهيّ « مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ *وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ »أي تتحرك « كَأَنَّهَا جَآنٌّ » أي حية صغيرة ، في سرعة الحركة « وَلَّىٰ مُدْبِرًا» أي أعرض بوجهه عنها ، جاعلاً ظهره إليها «وَلَمْ يُعَقِّبْ »أي لم يرجع « يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ» أي من المخاوف.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ، فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ، إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ)

« اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » أي أدخلها فيه « تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أي عيب « وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أي يدك « مِنَ الرَّهْبِ » أي الخوف. قرئ بفتحتين، وضمتين، وفتح وسكون ، وضم وسكون . قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا. وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء، أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه مايجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك، على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه مايجد أو يخفّ إن شاء الله تعالى . وبه الثقة. « فَذَانِكَ » إشارة إلى العصا واليد « بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » أي فيكون أحسن بيانا . ولا يتحمل ذلك مالم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا » أي معينا « يُصَدِّقُنِي » أي لنشاط قلبي « إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ » أي يتفقوا على تكذيبي المؤدى إلى أنواع الأذيات .

قال الزمخشريّ : فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك. لا لقوله صدقت. فإن سحبان وباقلا يستويان فيه. أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذى يخاف تكذيبه . فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه ، إسنادا مجازيا . انتهى . « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أي سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب: والشد التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشتد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية . شبّه حال موسى فى تقويته بأخيه عليهما السلام ، بحال اليد فى تقويتها بيد شديدة . « وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا » أى غلبة ومهابة فى قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا » أى بإيذاء ، فضلا عن القتل « بِآيَاتِنَا » متعلق بمحذوف أى اذهبا بآياتنا. أو بـ(نجعل) أى نسلطكما بها أو بمعنى (لايصلون) أى تمتنعون منهم بها . أو قسم جوابه (لايصلون) مقدر . أو صلة لـ(الغالبون) فى قوله « أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » وتقدمه ، إما للفاصلة أو للحصر . أى الغالبون عليهم ، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

[٣٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[٣٨] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

«فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تفتريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلها أرسل الرسل

بالآيات « فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ » أي كائناً في أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أولأنهم لم يؤمنوا به أيضاً «وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ» قال المهايمي: معناه: كفى دليلا على كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو في العموم إلى هدى. فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار. وهي العاقبة المحمودة. والمراد بـ(الدار) الدنيا. وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان. وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت. وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال «إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ» أي بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدراجاً، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة. وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم. وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة. ونهاية أعدائه وضيعة «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي» هذا حكاية لتمرده وعتوّه وطغيانه في تفوهه بتلك العظيمة. كما واجه موسى عليه السلام بها في قوله[1] (لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) وكما قال تعالى[2] عنه (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ) يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر «فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ» أي ناراً، فأتخذ منه آجرًّا.

قال الزمخشري: ولم يقل (اطبخ لي الآجرّ واتخذه) لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته، وأشبه بكلام الجبابرة. وهامان وزيره ومدبّر رعيته «فَٱجْعَل لِّي» أي من الآجرّ «صَرْحًا» أي قصراً رفيعاً إلى السماء «لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ»

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩]. (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٣ و ٢٦].

يعنى العلىّ الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية، والعلوّ لبارى الأرض والسموات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٤١] (وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ)

[٤٢] (وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ)

[٤٣] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه، وادعاء العلم الكلىّ لنفسه مع جهله بربه «وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أى بل بالفساد وردّ الحق، والصدّ عن سبيل الله «وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الياء وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً » أى يلعنهم كل مؤمن يسمعهم «وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ » أى من المطرودين، المبعدين «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ » أى أنواراً للقلوب « وَهُدًى » أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها « وَرَحْمَةً » أى بالإرشاد إلى العمل الصالح « لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى فيتعظون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيا من علام الغيوب، ببيان أنه ما فصّل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)

[٤٥] (وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٤٦] (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

«وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ» أى الوادى الغربىّ الذى كوشف فيه موسى عن المناجاة «إِذْ قَضَيْنَآ» أى قدرنا وأنهينا «إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ» أى أمر الإرسال والإنباء «وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا» أى بين زمانك وزمان موسى «فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ» أى أمد انقطاع الوحى، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغى والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور «وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا» أى مقيما «فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» أى لك، وموحين إليك تلك الآيات . أى ما كان الإنباء بها إلا وحيا مصدره الرسالة «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا» أى وقت ندائنا موسى «وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ» أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره، لرحمةٍ عظيمة كائنة منّا لك وللناس «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ» أى من نذير فى زمان الفترة ، بينك وبين عيسى «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» أى يتعظون بإنذارك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٤٨] (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ، قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ)

«وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ» أى عقوبة «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أى من الكفر والفساد «فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ» أى بها. وجواب (لولا) الأولى محذوف، ثقة بدلالة الحال عليه. أى ماأرسلناك. لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم .

قال الزمخشرىّ : ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدى، وتقديم الأيدى، وإن كان من أعمال القلوب. وهذا من الاتساع فى الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل « فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ » أى من قلب العصا حية، وفلق البحر، وغيرهما من الآيات. تعنتاً وعناداً، كما قالوا[1] (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ) وما أشبه ذلك. وقوله « أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ » رد عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أى أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومَنْ مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أوتى موسى من الكتاب «قَالُواْ» أى فى موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) « تَظَٰهَرَا » أى تعاونا. وقرئ « سِحْرَانِ » أى ذوا سحرين؛ أوجعلوهما

(١) [١١ / هود / ١٢] .

سحرين مبالغة « وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبيّ صلوات الله عليه ، هى الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التى كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنسانيّ كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لابد له فى هذا الطور من معلّم ومرشد ، كما فى الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم . فكانت عمدته ﷺ فى الاستدلال على نبوّته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذى يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما يبديه من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا فى مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٥٠] (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)

[٥٥] ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين. والذكرى التى تزع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنين ، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعْهُ » أى ولا أعاندكم مثل ما تعاندوننى « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلقان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بيّن الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام . انتهى .

أى لا للشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدلّ : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم، نوع تهكم بهم « فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ » أى الزائغة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ » الاستفهام إنكاريّ للنفى .أى لا أحد أضل منه. كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ» أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

قال الرازيّ: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لابد من الحجة والاستدلال . انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى أنزلنا عليهم القرآن متواصلا، بعضه إثر بعض، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ (وصَلنا) بالتشديد والتخفيف « ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ » أى القرآن « هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ » وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم «وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ» أى القرآن «قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ »أى من قبل نزوله«مُسْلِمِينَ» أى منقادين له، لما عندنا من المبشِّرات به. أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه لله تعالى بدون شرك «أُو۟لَـٰٓئِكَ» أى الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ » يعنى مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُوا۟ » أى بصبرهم وثباتهم على الإيمانيْن . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم «وَيَدْرَءُونَ» أى يدفعون« بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ » أى بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ » أى للبؤساء والفقراء ، وفى سبيل البرّ والخير ، فراراً عن وصمة الشحّ ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ » أى من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ » أى تكريماً للنفس عن ملابسة الأدنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُوا۟ » أى لهم « لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ » أى بطريق التوديع والمتاركة ؛ وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ » أى لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازيّ : قال قوم : نسخ ذلك بالأمر بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجبا .

تنبيه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت فى سبعين من القسيسين. بعثهم النجاشيّ.

فلما قدموا على النبيّ ﷺ قرأ عليهم[١] (يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ)حتى ختمها . فجعلوا يبكون وأسلموا .

وقال محمد بن إسحق فى (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد . فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه . ورجال من قريش فى أنديتهم . حول الكعبة . فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش . فقالوا لهم : خيّبكم الله من ركب . بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل. فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيماقال . ما نعلم ركبا أحمق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قال: ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهرىّ عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشىّ وأصحابه رضى الله عنهم . والآيات اللاتى فى سورة المائدة[٢] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا) إلى قوله[٣] (فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ) .

---

(١) [٣٦ / يس / ١و٢] . (٢) [٥ / المائد / ٨٢] .
(٣) [٥ [المائدة / ٨٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)

[٥٧] (وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ)

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لاتقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ » أى أن يهديه فيدخله فى الإسلام بعنايته « وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارىّ[(١)] فى (صحيحه) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص ، ١ ـ باب قوله إنك لاتهدى من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنّ لك مالم أنْهَ عنك. فأنزل الله[١] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ) وأنزل الله فى أبى طالب، فقال لرسول الله ﷺ[٢] (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ) .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم[٣] فى صحيحه والترمذىّ[٤] أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم، عن أبى هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا. وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبىّ وقتادة: إنها نزلت فى أبى طالب حين عرض عليه الإسلام. انتهى.

وقال ابن حجر فى (فتح البارى) : لم تختلف النقلة فى أنها نزلت فى أبى طالب. انتهى.

وقدمنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية فى كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

ثم ذكر تعالى من تعنتهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائىّ، بقوله سبحانه «وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ» أى ونخالف العرب «نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ» أى مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا » أى : ألم نعصمهم من عدوّهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمنٍ ، لحرمة البيت الحرام، الذى تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا » أى كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ (طبعتنا)

(٤) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص

لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » أى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف (قليلا) المستثنى ، إما (زمان) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارّة يوما أو بعض يوم . وإما (مكان) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندثر الباقى . أو (مصدر) أى سكنا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

[٦٠] (وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٦١] (أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[٦٢] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعيا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد «وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا» أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ » أى متاعا وزينة فى نفسه ، لخلوّه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰ » لأنه أبدىّ لا يزول «أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ » أى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ (المحضر) فى القرآن فى المعذَّب. وإليه أشار الزمخشرىّ، وصرح به فى البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ، مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

[٦٤] (وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ)

[٦٥] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٦٦] (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ)

[٦٧] (فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ)

[٦٨] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم. والمراد بهم ، رؤساء الضلال، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ »أى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون مايقولون بمحضر منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أى أضللناهم بالوسوسة والتسويل، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار مايفنى على مايبقى « تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ » أى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم ومما اختاروه « مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أى بل كانوا يعبدون

أهواءهم وشهواتهم «وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ » ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعُمْى عليهم لا تهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب: ففيه استعارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدّى بـ (على) . ففيه أنواع من البلاغة : الاستعارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أوما يعمّها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به « فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله فى العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم مختوما على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحقٌ للمصرّ « فَأَمَّا مَن تَابَ» أى من الشرك «وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ » أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه. كأنه قال: فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشرىّ « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ » أى بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد « مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ» أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

قال الزمخشرىّ : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى المتخير . كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراده بالألوهية وحده . ولذا قال « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئا ولا تختار .

تنبيه :

للإمام ابن القيّم فى مقدمة (زاد المعاد) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات. قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وليس المراد ههنا بالاختيار، الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل في قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . وداخل في قوله تعالى (مَا يَشَاءُ) فإن المشيئة هي الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ) ويكون (ما كان لهم الخيرة) نفيا . أي ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده. فكما أنه هو المتفرد بالخلق، فهو المتفرد بالاختيار منه. فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) في قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) موصولة وهي مفعول (يختار) أي ويختار الذي لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها ـ أن الصلة حينئذ تخلو من العائد. لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذي كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفا ، ويكون التقدير : ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه . أي ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره. قيل: هذا يفسد من وجه آخر. وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجرورا إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى (يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءني الذي مررت، ورأيت الذي رغبت ، ونحوه . الثاني ـ أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهـذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير . الثالث ـ أن الله سبحانه يحكى عن الكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبيِّن تفرده بالاختيار ، كما قال تعالى(١) ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ،وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال(٢) ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ . ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أى الله أعلم بالمحل الذى يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة ، دون غيره .

الرابع ـ أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال« مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإثبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمله فإنه فى غاية اللطف .

الخامس ـ إن هذا نظير قوله فى الحج(٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ثم قال(٤) ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .
(٣) [٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤] . (٤) [٢٢ / الحج / ٧٥و٧٦] .

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ، إِنَّ ٱللَّـهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى ٱللَّـهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ) وهذا نظير قوله فى القصص[١] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) ونظير قوله فى الأنعام[٢] (ٱللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) فأخبر فى ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالّ اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق فى هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دائراً عليه . والله أعلم .

السادس ـ إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله[٣] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ * فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. وأنه الله الذى لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص ، المشهور أثره فى هذا العالم ، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله. فنشير منه إلى شىء يسير يكون منبهاً على ما وراءه، دالاً على ما سواه . فخلق الله السموات سبعاً. فاختار العليا منها فجعلها مستقرّ المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيّه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات. ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوى

---

(١) [٢٨ / القصص / ٦٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .
(٣) [٢٨ / القصص / ٦٥ ـ ٦٨] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق مايشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولي العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمدا صلى الله عليهم وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمة. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بني هاشم. ثم اختار من بني هاشم، سيد ولد آدم محمدا ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهي البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيّه، وجعله مناسك لعباده. وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه، ولا يلتقط لقَطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجوّد الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ» أي تنزيهاً لله الذي لا يزاحم اختياره اختيارٌ «وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٠] (وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ، وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٧١] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من الكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ ٱلْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته. ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ » أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٧٣] (وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

[٧٥] (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ)

[٧٦] (إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ)

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ »أى فى الليل«وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ » أى فى النهار « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة، والجسمانية والروحانية، باستعمالها فيماوجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » أى نبيًّا يشهد عليهم بما كانوا عليه. كقوله تعالى[1](فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ) «فَقُلْنَا» أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم. وظهر برهان النبيّ، كما قال تعالى«فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ» أى فى الألوهية، لا يشاركه فيها أحد « وَضَلَّ عَنْهُم » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة، والطرق المتشعبة المتفرقة «إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ» أى من شا كلتهم فى الكفر والطغيان . وقوم موسى ، جماعته الذين أرسل إليهم، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه « وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

المدخرة « مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ » أى مفاتيح صناديقه. على حذف مضاف. أو الإضافة لأدنى ملابسة. وقيل خزائنه « لَتَنُوٓأُ » أى تثقل « بِٱلْعُصْبَةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال « أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح، لما فيه من إيثارها عن الآخرة، والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا، وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ)

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك، بعد الفاقة « ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب. وتجعله زادك إلى الآخرة «وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا» وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفهك «وَأَحْسِن» أى إلى الناس . أو افعل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » أى بطرق التجارة أو المكاسب «أَوَلَمْ يَعْلَمْ» أى مما سمع بالتواتر «أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ» أى الكثيرة، بحيث صارت سنة له «مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً» أى بالأموال والأتباع «وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

ٱلْمُجْرِمُونَ » أى لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ، ليعتذروا عنها. بل متى حق عليها القول بفسقهم ، أهلكهم بغتة بلامعاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ، ولا بنصيحة قومه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ، قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[٨٠] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ، وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ)

[٨١] (فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ)

[٨٢] (وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ)

« فَخَرَجَ » أى قارون باغيا « عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ » أى مُغْتَرًّا بالنظر فيها « قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى جريا على سنن الجبلة البشرية ، من الرغبة فى السعة واليسار « يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ » أى مما تتمنونه « لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ » أى هذه الكلمة التى فاه بها الذين أوتوا العلم . أو الجنة . أو السيرة والطريقة ، وهى الإيمان والعمل الصالح « إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ » أى على الطاعات عن الشهوات ، وعلى زمام النفس أن

تجرى فى أعقاب المزخرفات . و(ويلك) فى الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمنى، مجازا. وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ » أى المشتملة على أمواله « ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى بدفع العذاب عنه « وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ » أى بقوة نفسه وماله « وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ » أى من شقىّ وسعيد « وَيَقْدِرُ » أى يقبض. فلا دلالة فى البسط على السعادة . ولا فى القبض على الشقاوة. بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقَدْر بمحض مشيئته، لا لكرامة توجب البسط، ولا لهوان يقتضى القبض « لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا » أى بعدم إيتائه متمنانا « لَخَسَفَ بِنَا » أى كما خسف به « وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ » أى لنعمة الله، فى صرفها فى غير سبيلها . أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

فى (ويكأن) مذاهب :

الأول ـ أن (وى) كلمة برأسها . وهى اسم فعل ، معناها أعجب . أى أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما فى حيزها مجرورة بها . أى أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على (وى) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائىّ .

الثانى ـ أنه مركب من (وى) للتعجب (وكأن) للتشبيه. والمعنى: ما أشبه الأمر أن الله يبسط. أى ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقا إلى آخرٍ ، أمرَ قارون وما شوهد من قصته. والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال، أنه لتحققه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شيء . كما أشار إليه فى الكشف .

الثالث ـ قال بعضهم : (كأن) هنا للتشبيه. إلا أنه ذهب منها معناه. وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضا يناسبه الوقف على (وى) .

الرابع ـ زعم الهمدانيّ في (الفرائد) أن مذهب سيبويه والخليل أن (وى) للتندم. و(كأنّ) للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ .

قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .

الخامس ـ ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) مخفف بحذف اللام. والعامل في (أن) اعلم ، المقدر. والكاف على هذا ضمير في محل جرّ. وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .

السادس ـ أن (ويك) كلمة برأسها. والكاف حرف خطاب. ويقرب هذا مما قبله. قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما ـ أن معنى الخطاب هنا بعيد. والثاني ـ أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .

السابع ـ أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفرّاء والكسائيّ أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين . فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائيّ وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .

هذا ما يستفاد من حواشي القاضي والسمين . وعندي أنها مركبة من (وى) للتعجب و (كأن) التي للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة ـ كما قال ابن كثير ـ أمر وضعيّ اصطلاحيّ ، والمرجع إلى اللفظ العربيّ .

وقد اتفق اللغويون على أن (وى) كلمة تعجب. يقال (ويك) و (وى لزيد) وتدخل على (كأن) المخففة والمشددة . ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَالَتَانِي الطلاقَ أَنْ رَأَتَانِي   قَلَّ مالي . قد جئتماني بنُكْرِ
ويْ كأنْ من يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ   بَبْ ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بله الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسينا به ، بل فقفاه في الإضراب عن كثير من مرويه ، الموقوف والضعيف الذي سوّدت به الصحف.

ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٨٤] (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ » أي غلبة وتسلطاً بسوء وتكبّر « وَلَا فَسَادًا » أي بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى « وَٱلْعَـٰقِبَةُ » أي النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أي الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشريّ ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال[1] (وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟) فعلق الوعيد بالركون . وعن عليّ رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه. فيدخل تحتها .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانيّ هٰهنا. وعن عمر بن عبد العزيز، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطُّمَّاع من يجعل العلوّ لفرعون، والفساد لقارون، متعلقاً بقوله[2]: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ)[3](وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ)ويقول: من لم يكن

(١) [١١ /هود / ١١٣]. (٢) [٢٨ / القصص /٤]. (٣) [٢٨ / القصص/ ٧٧].

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) كما تدبره عليّ والفضيل وعمر رضى الله عنهم. «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) معناه : فلا يجزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامين. ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) أى مثله .وهذا من فضله العظيم و كرمه الواسع ، أن لايجزى السيئة إلا بمثلها. ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعمائة . وهو معنى قوله (فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا) كذا فى الكشاف .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٥] (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[٨٦] (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم، وصدعهم به «لَرَآدُّكَ» أى بعد الموت «إِلَىٰ مَعَادٍ» أى مرجع عظيم. وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتنوينه للتعظيم . ووجهه ـ كما فى (العناية) ـ أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيما لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة . كما قال تعالى[١] (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى[٢] (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ) وقال(١)(وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة. إلى الموت. إلى الجنة أخرجت عنه من طرق. كما أسنده ابن كثير.

والذى رواه البخارىّ والنسائىّ وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرادك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبىّ ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيّا ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح، الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبىّ ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم. ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت. وتارة بالجنة التى هى جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ » يعنى نفسه الكريمة . أى بما يستحقه من المثوبة « وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » يعنى المشركين . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق «وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ » أى ما كنت تظن، قبل إنزال الوحى إليك ، أن الوحى ينزل عليك «إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ » أى معينا لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرمانىّ فى (الغرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرانيهم ، وأنه أمر بالهجرة .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[٨٨] (وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ، لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعْلٍ كلمتك ومؤيد دينك. ولذاقال «وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ» أى إلى عبادته وحده لاشريك له «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه لايتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لى كالشرك . فلا تكن ممن يفعله. أو المراد نهى أمته، وإن كان الخطاب له ﷺ. كذا فى (العناية) .

« لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ » أى إياه و(الوجه) يعبر به عن الذات كماقال[١] « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » وفى قوله تعالى (هَالِكٌ) وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالا . والمراد بالمعدوم ماليس له وجود ذاتى. لأن وجود غيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل للعدم. وعن مجاهد والثورى (إلا وجهه) أى ماأريد به وجهه. حكاه[٢] البخارى فى (صحيحه).

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦و٢٧] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص .

قال ابن جرير(١) : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفرُ اللهَ ذنباً ، لست مُحْصِيَهُ رَبُّ العبادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهـذا القول لاينافى القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ماأريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .

وفيـه بُعد وتـكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيا وآى التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التى ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لاتحتمل ذاك المعنى ، فـكذا هذه « لَهُ ٱلْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزيكم بأعمالـكم ، إن خيرا فخير وإن شرّا فشر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين (طبعة الحلبى الثانية)

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ – سُورَةُ العَنكبُوت

سميت بها لاشتمالها على آية[١] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ) الآية ، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتمّ فى الدعوة إلى التوحيد الذى هو أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايمىّ .

وهى مكيّة . واستثنى من أولها إلى قوله تعالى[٢] (وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ) وقوله[٣] : (وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ) الآية ويقال إنها آخر ما نزل بمكة . وآيها تسع وستون . قال الدانى : متفق عليه .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .
(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[٣] (وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ)

« الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » أى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمتحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال(١) (لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وكقوله(٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ) وقوله تعالى(٣) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ، مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ، أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة فى تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم، كما دوّن التاريخ اضطهادهم. أى فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ » أى فى قولهم (ءَامَنَّا) « وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشىء قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه .

وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم هٰهنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم) .

وقال المهايمىّ : (فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ) أى يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ) فيه، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلَيَعْلَمَنَّ) أى وليظهر علمه بكذب دعوى (ٱلْكَٰذِبِينَ لئلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب فى تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بصحبة الصادقين ، ويستظهروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[٥] (مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٦] (وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٧] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

«أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا» أى يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم « سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى بئس الذى يحكمونه حكمهم « مَن كَانَ يَرْجُواْ

لِقَآءَ ٱللَّهِ » أى فى الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته « فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ وهو الموت « لَأَتٍ » أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ، فاعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلا وغاية لظهور النصر والفتح وعلوّ الحق وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنّه. فإنه آت بوعد الله الحق وقوله الصدق. ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق. والله أعلم «وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم « وَمَن جَٰهَدَ » أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء « فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ » أى لأنه يجهد لنفسه ، ما يجنى به ثمرة غرسه « إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ، إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ)

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا » أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلا ذا حسن عظيم «وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ » أى فى الشرك ، إذا حملاك عليه . ومعنى (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) أى لا علم لك بإلٰهيته . قال القاضى: عبر عن نفيها بنفى العلم بها ، للإيذان بأن ما لا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه. فكيف بما علم بطلانه؟ «إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلىّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازيكم حق جزائكم. فيه التحذير من متابعتهما على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة فى الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبى وقاص الزهرىّ رضى الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغنى أنك قد صبأت . فو الله! لايظلنى سقف بيت من الضحّ والريح. وإن الطعام والشراب علىّ حرام، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها. فأبى سعد. وبقيت ثلاثة أيام كذلك. فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتى فى لقمان ، والتى فى الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذى عن سعد(١) قال : نزلت فىّ أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها . فنزلت هذه الآية

قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائىّ أيضاً .

وقال الترمذىّ : حسن صحيح «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال .

قال الزمخشرىّ : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله .قال الله(٢) تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ) وقال(٣) فى إبراهيم عليه السلام (وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) أو المعنى : فى مدخل الصالحين وهى الجنة . وهذا نحو قوله(٤) تعالى (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم) الآية .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٢٩ ـ سورة العنكبوت ، حدثنا محمد ابن بشار ومحمد بن المثنى .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٩] . (٣) [١٦/ النحل/ ١٢٢]و [٢٩/ العنكبوت /٢٧].

(٤) [النساء / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ،

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ » أى جعل ما يصيبه فى الصرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه ، مثل عذاب الله فى الشدة والهول . فيرتد عن الدين. مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يناله فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والمحنة منحة . فإن العاقبة للتقوى وسعادة الدارين لأهلها «وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ» أى من التلبيس والإخلاص. وهذه الآية كقوله تعالى[١] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ إلى قوله[٢] (ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ) وكقوله سبحانه[٣] (ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى[٤] (فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ)

---

(١) [٢٢ / الحج / ١١] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٢] . (٣) [٤ / النساء / ١٤١].
(٤) [٥ / المائدة / ٥٢] .

[١٢] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)

[١٣] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

« وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ » ثم بين تعالى حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ » أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فتبعتها علينا وفى رقابنا .

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك فى رقبتى. قال الله تعالى تكذيباً لهم «وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ »وهى أوزار أنفسهم« وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ »أى وأوزاراً أخر مع أوزار أنفسهم. يعنى أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصدّ عن سبيل الله . كما قال تعالى[١](لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى الصحيح[٢](من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا) «وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ »أى من الأكاذيب والأباطيل. ثم بين تعالى افتتان الأنبياء بأذية أممهم، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار، تأكيدا للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثًّا لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ)

[١٥] (فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ)

[١٦] (وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٧] (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٨] (وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً » أى هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِّلْعَـٰلَمِينَ * وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أى كذبا ، فى تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ» أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه « أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ » إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ) عطف على (أو لم يروا) لا على (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء مايشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب . فيصحّ حينئذ العطف.

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال: وبهذا التقرير سقط ماقيل: إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم. وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين. مع أنه يجوز أن يجعل ماأخبر به الله تعالى لتحققه، كأنه مشاهد«إِنَّ ذَٰلِكَ» أى ماذكره ، وهو الإعادة « عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ، ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[٢٢] (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[٢٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٤] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتّى. فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض، مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » أى بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى بالتوارى فى الأرض ، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها، لو استطعتم الرقىّ فيها. أو القلاع الذاهبة فيها. فيكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل : المعنى (ولا من فى السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير (ولا من فى السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعىّ « وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراد بكم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ)

[٢٦] (فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ، وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٢٧] (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ، وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ)

[٢٨] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[٢٩] (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)

« وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها «ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا» أى تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعون الأتباعَ . كما قال تعالى[1] : (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا) وقال تعالى[2] (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) « وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ » .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٨] .   (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

تنبيه :

قال السمين : فى (ما) من قوله تعالى(إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم) ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أنها موصولة بمعنى (الذى) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و (أَوْثَانًا) مفعول ثان . والخبر (مودة) فى قراءة من رفع . والتقدير : إن الذى اتخذتموه أوثانا مودة ، أى ذو مودة ، أوجعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذى اتخذتموه أوثانا لأجل المودة لاينفعكم ، أويكون عليكم ، لدلالة قوله (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) .

والثانى ـ أن تجعل (ما) كافة و (أوثانا)مفعول به . و(الاتخاذ) هٰهنا متعد لواحد. أو لاثنين ، والثانى هو (من دون الله) فمن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمر ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لِـ (أوثانا) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار (أعنى) .

الثالث ـ أن تجعل (ما مصدرية ، وحينئذ يجوزأن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أوثانا مودة ، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لايقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع(مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منوّنة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم). فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوّز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع فى الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف . وإنما بنى لإضافته إلى غير متمكن . ا هـ .

وأشار العلامة القاشانىّ إلى جواز أن يكون قوله تعالى (فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) خبراً لِـ (ما) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له المعْرِبون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودودا فيما بينكم (فى الحياة الدنيا) أو: إن كل مااتخذتم من دون الله ، شيئاً مودودا فيما بينكم فى الحياة الدنيا ، أو : إن كل مااتخذتم أوثانا مودود فى هذه الحياة الدنيا . أو لمودة بينكم فى هذه ، على القراءتين .

ثم قال : والمعنى أن المودة قسمان : مودة دنيوية ، ومودة أخروية . والدنيوية منشؤها النفس ، والأخروية منشؤها الروح. فكل مايحب ويودّ من دون الله ، لا لله ولا بمحبة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية . وهو هوى زائل ، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات ، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج . فإذا انحلّ التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقى التضادّ والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) الآية . ولهذا شبهها ببيت العنكبوت فى الوهن .

وأما الأخروية فمنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هى التى تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات ، وتجانس الذوات ، لاتتصفى غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب . فيصير يوم القيامة محبة صرفة صافية الهيئة ، بخلاف تلك . انتهى .

« فَـَٔامَنَ لَهُۥ » أى صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ » أى من أرض قومى « إِلَىٰ رَبِّىٓ » أى لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده «إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ» أى لإبراهيم «إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ» أى ولدا ونافلة، بمباركة الذرية «وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا» أى بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه «وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ » أى الفعلة المتناهية فى القبح «مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ» أى لتحاشى الطباع عنها. ثم فصّلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ » أى سبيل النسل بإتيان ماليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ » أى مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ)

[٣١] (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ)

[٣٢] (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ)

[٣٣] (وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلىّ ونقلىّ ، وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ » أى بالبشارة بالولد والنافلة ، وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه « قَالُوٓا۟ » أى لإبراهيم عليه السلام « إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ » أى بتنزيلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف « قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ » أى الباقين فى العذاب أو القرية « وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام « لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ » أى اعترته المساءة بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرْعاً » أى ضاق بشأنهم ذرعه ، أى طاقته « وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ » أى مِمَّا يصيبهم من العذاب « إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

[٣٥] (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٣٦] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[٣٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ)

« إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى عذابا عظيما من جهتها « بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » يعنى قصتها العجيبة، أو آثارها الخربة « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ » أى توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال « وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالبغى على أهلها، كنقص المكيال والميزان، وقطع الطريق على الناس، فإن عاقبة ذلك الدمار « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى الصيحة التى هى منشأ الزلزلة الشديدة « فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ » أى بلدهم أو منازلهم « جَـٰثِمِينَ » أى هلكى ميتين « وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ » أى عقلاء متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن لهم فى ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عناداً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾

[٤٠] ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

« وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ » أى فائتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميرا. ولذا قال « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم لوط « وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ » كمدين وثمود « وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ » كقارون « وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل مايوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ، ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

[٤٢] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[٤٣] ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

[٤٤] ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا » أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم « لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » أى شيئا مّا. أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنتزعة، فدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت فى ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد. وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ) تذييل يعرّف الغرض من التشبيه . وقوله (لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) إيغال فى تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة .وإما أن يكون من تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود. وفى الآية لطائف بيانية ذكرت فى المطولات. وقوله « إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ » بالياء والتاء فى (تدعون) قراءتان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ(يدعون) و (من) الثانية للتبيين . أو نافية و(من) مزيدة . و(شىء) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شىء) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول لـ(يعلم) ومفعول (يدعون) عائده المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضى « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ » يعنى هذا المثل ونظائره فى التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعانى المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَآ » أى يدرك حسنها وفوائدها « إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » أى الراسخون فى العلم الكاملون فيه. وعن عمرو بن مرة قال: مامررت بآية من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحزننى . لأنى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) « خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى محقًّا مراعياً للحكم والمصالح، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال . وهذا كقوله تعالى[1] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ) « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[٤٦] (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

«اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ » أى تقربا إلى الله تعالى بقراءته، وتحفظاً لألفاظه، واستكثاراً لما فى تضاعيفه من المعانى. فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار مالم ينكشف له أول ما قرع سمعه . وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ» أى تكون سببا للانتهاء عن ذلك. ففيه تجوز فى الإسناد. فإن قلت: كم من مصلّ يرتكب ولا تنهاه صلاته ! قلت : الصلاة التى هى الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب، أن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا ، لقوله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصليها ، فلا يحبطها ، فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا .

عن الحسن رحمه الله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهى وبال عليه. أفاده الزمخشرىّ. وقوله تعالى «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» قال الزمخشرىّ : أى : وللصلاةُ أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله، كما قال[1]

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] .

(فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ)وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: ولَلصلاةُ أكبر، لأنها ذكر الله. أو: ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن يَنْهَى من اللطف الذى فى الصلاة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، ولذكر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. انتهى. فـ(ذكر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدهما مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه فى الأولين غيره من الطاعات. وفى الأخير قوله (من ذكركم).

وقال الرازىّ: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بيّن ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشّون لذلك وتذكرونهم بملء أفواهكم وقلوبكم. لكن ذكر الله أكبر، فينبغى أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن الله يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغى أن يكون على وجه التعظيم. وفى قوله (وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهى أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هـذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذكر الله له الكبر لا لغيره) وهذا كما يقال فى الصلاة (الله أكبر) أى له الكبر لا لغيره. انتهى.

ولما بيّن تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بيّن طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» أى بالخصلة التى هى أحسن. وهى اللين والأناة «إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ» أى بالاعتداء، بأن أفحشوا فى المقال وأقذعوا فى الجدال، فلا حرج فى مقابلتهم بالعنف، لتنكبهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى(1) (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ)وهذه الآية أصل فى آداب المناظرة والجدل «وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

(1) [٤ / النساء / ١٤٨].

وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعني إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا مؤوّلا . وروى البخاريّ(١) عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخاريّ .

وروى الإمام أحمد(٢) عن أبي نملة الأنصاريّ مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقًّا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخاريّ(٣) عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يُشَبْ . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيّروا ، وكتبوا بأيدهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

(١) أخرجه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٥ ـ باب قول النبيّ ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ـ كتاب الشهادات، ٢٩ ـ باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلا . ألا ينها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

وقال البخارىّ(1) : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهرىّ . أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كانَ من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً علم بذلك . كل بحسبه . ولله الحمد والمنة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ، فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ » أى: مثل ذلك الإنزال، أنزلنا إليك الكتاب. أى أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية « فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ » أى العرب « مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ » أى فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضاياه ، على أميّ لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة . وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفيّ ، ونفي للتجوز في الإسناد « إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ » أي لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتب مأثورة عن الأنبياء.

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته في الكتب المتقدمة . كما قال تعالى[١] (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ » الآية. وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده. بل كان له كتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم، من متأخري الفقهاء، كالقاضي ابن الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية[٢] في صحيح البخاري (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي ، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم. وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه. أنه كتب ذلك على وجه المعجزة. لا أنه كان يحسن الكتابة. وما أورده بعضهم من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروي وأبو الفتح النيسابوريّ وأبو الوليد الباجي من المغاربة . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمي بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة

(١) [٧/ الأعراف / ١٥٧] .

(٢) أخرجه في : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١و٨٨٢ عن المسوّر بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميّته لاتنافى المعجزة . بل هى معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح[1] (إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب) وقال : كل ماورد فى الحديث من قوله (كتب) فمعناه أمر بالكتابة. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ)

[٥٠] (وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ هُوَ » أى القرآن « ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » أى العلماء به وحفاظه . وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا فى الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء فى صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا فى الكشاف. «وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ » يعنون ما كانوا يقترحونه فى تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ » أى هو يملك إنزالها ، ولو شاء لفعل « وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى ليس من شأنى إلا الإنذار وإبانته، لاالإتيان بما تقترحونه. ثم أشار إلى أن فى آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ ـ كتاب الصوم، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لانكتب ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٥٢] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥٤] (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[٥٥] (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٦] (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » أى آية مغنية عما اقترحوه « أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أى وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أى لنعمة عظيمة فى هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى تذكرة لقوم، همهم الإيمان دون التعنت « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا » أى إنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتمونى بالجحد والتكذيب. يعنى. كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق بالتأييد والحفظ ، أى هو شاهد على ما جئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محقّ ، لانتقم منى، كما قال تعالى[1] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به. ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . انتهى « يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكم «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم، وهو وقته المعين له فيهما « لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ » أى عاجلا « وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً » أى فجأة فى الدنيا. كوقعة بدر . فقد كانوا لغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين . أو فى الآخرة عند نزول الموت بهم (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » أى ستحيط بهم . أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة . أو هى كالمحيطة بهم . لأن كل آت قريب.

« يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لإيذائه فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد مّا ، يقدّر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وآمن نفسا . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لاينبغى الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريده . كما قيل : * وكل مكان ينبت العز طيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى ، وكلّ العالمين أقاربى

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ ـ ٤٧] .

وقد روى الإمام[1] أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله . فحيثما أصبت خيرا فأقم. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها، عند ملكها النجاشيّ رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملا بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[٥٨] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ)

[٥٩] (ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٦٠] (وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٦١] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى. أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٤٢٠ (طبعة المعارف) .

الموت بأمر كريه الطعم، مرّه « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ »أى على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّن » أى: وكم « مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا »أى لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى يقيّض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو الميسّر والمسهّل لكل مخلوق من رزقه مايصلحه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عامّ وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنّى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد فى سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد مرفوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقىّ « وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم » يعنى هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ » أى اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها مالا يضر ولا ينفع . وكثيرا مايقرر تعالى مقام الإلٰهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

«اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أي فيفعل بعلمه، ما تقتضيه حكمته. «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أي على أن جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده. وأنه أظهر حجتك عليهم. والمعنى: احمد الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نعم لا تحصى «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أي فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه، ويعبدون غيره. وقوله «وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ» إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها، وكونها في سرعة زوالها، وتقضّي أمرها، كما يلهى ويلعب به الصبيان، ثم يتفرقون عنه. ولا ثمرة إلا التعب. ففي الحصر تشبيه بليغ «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» أي دار الحياة الخالدة. ففيه مضاف مقدر. و(الحيوان) مصدر سمي به ذو الحياة، في غير هذا المحل. وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة. لأن (فعلان) بالفتح في المصادر الدالة على الحركة «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أي لم يؤثروا عليها الدنيا التي حياتها عارضة. وهذا جواب الشرط المقدر، لعلمه من السياق. وكونها للتمني بعيد.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

[٦٦] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٦٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

«فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» أي الدعاء. لعلمهم أنه لا ينجيهم من الغرق سواه «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» أي من

نعمة النجاة وربح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون «أَوَلَمْ يَرَوْاْ » أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا » أى لا يُغْزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم و كثرة العرب « وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهبا وسبيا « أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفبعدهذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، يكفرون خيره ، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ)

[٦٩] (وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» بأن زعم أن له شريكا «أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ » يعنى الرسول أو الكتاب « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ » أى موضع إقامة ، جزاء افترائهم وكفرهم . بلى « وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا » أى جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَآ » أى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا. وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى: أعمالهم بالنصر والمعونة .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٠ - سورة الروم

قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد المؤمنين فرحا عظيما ، بعد ترح يسير . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهـذا من أعظم مقاصد القرآن .

وهى مكية . وآيها ستون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (غُلِبَتِ ٱلرُّومُ)

[٣] (فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[٤] (فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

[٥] (بِنَصْرِ ٱللَّهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[٦] (وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين ـ فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون. وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهرنّ عليكم . فنزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضُهم . وتراهن مع الصديق رضى الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها . فلم يمض من البضع ـ وهو ما بين الثلاث إلى التسع ـ سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوّخها ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشراقه. وفى ضمنه،أن سائرغيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلوّ الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوّهم، إلى غير ذلك . وما ألطف ماقال الزبير الـكلائىّ: رأيت غلبةفارس الرومَ. ثم رأيت غلبةالروم فارسَ . ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم. كل ذلك فى خمس عشرة سنة ــ من أواخرغلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين ــ والأرض (كما قال الزمخشرىّ) أرض العرب . لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا فى أدنى أرض العرب أى أقربها منهم ، وهى أطراف الشام « لِلَّـهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ» أى من قبل غلبة فارس على الروم «وَمِنۢ بَعْدُ»أى من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولًا ، وغالبين آخرا ، ليس إلا بأمره وقضائه، وعلمه ومشيئته . كماقال تعالى[1] (وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ) «وَيَوْمَئِذٍ» أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ، ويحل ماوعده الله تعالى من غلبتهم « يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّـهِ » أى تغليبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . وغيظ من شمت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنصُرُ مَن يَشَآءُ »أى من عباده على عدوّه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ» أى القاهر الغالب على أمره ، لايعجزه من شاء نصره «ٱلرَّحِيمُ»أى فى نصره وتغليبه من يشاء«وَعْدَ ٱللَّـهِ ،لَا يُخْلِفُ ٱللَّـهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى بحكمته تعالى ، فى كونه وأفعاله المحكمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] (يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ)

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم، مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)

« يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم « وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ » أى التى هى المطلب الأعلى « هُمْ غَافِلُونَ » أى لا يُخطرونها ببالهم . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشرىّ : قوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفى هـذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظَاهِرًا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. انتهى.

وناقش الكرخىّ فى إبدال (يَعْلَمُونَ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت، من فعل منفىّ لايصح. واستظهر قول الحوفىّ؛ أن (يَعْلَمُونَ) استئناف فى المعنى.

وأشار الناصر إلى جوابه بأن فى تنكير (ظَاهِرًا) تقليلا لمعلومهم. وتقليلُه يقربه من النفى. فيطابق المبدل منه .

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشرىّ (وفى تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر) .

وأما قول أبى السعود : وتنكير (ظَاهِرًا) للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم ، فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذى به يطابق البدل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم) أى يحدثوا التفكر فى أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكر . فالمجرور ظرف للتفكر ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا فى النفس . والتفكر لا متعلق له ، لتنزيله منزلة اللازم. وجوز كون المجرور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ(فى) أى : أو لم يتفكروا فى أمر أنفسهم . فالمعنى حثهم على النظر فى ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » متعلق بقول أو علم ، يدل عليه السياق. أى: ألم يتفكروا فيقولوا أو فيعلموا . وقال السمين : (ما) نافية . وفى هذه الجملة وجهان : أحدها ـ أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها . والثانى ـ أنها معلقة للتفكر . فيكون فى محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء فى قوله (بِٱلْحَقِّ) للملابسة . أى ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وبتقدير أجل مسمى، لا بدّ لها من أن تنتهى إليه. وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

«أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ » أي قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرقى فيه من أهل مكة « وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا » أي بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العَدد والعُدد ، وتنظيم الجيوش والتزيّن بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبهتها. ففسدت ملكاتهم ، وطغت شهواتهم، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم، كما قال «وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ»أي الآيات الواضحات على حقية مايدعونهم إليه « فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أي فيكذبوهم فأهلكهم . فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم « وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ » أي عملوا السيئات « ٱلسُّوٓأَىٰٓ » أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة ، وهي جهنم . و(ٱلسُّوٓأَىٰٓ) تأنيث (الأسوأ)، وهو الأقبح. كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى «أَن» أي لأن « كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ* ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ » أي ينشئهم « ثُمَّ يُعِيدُهُۥ » أي بعد الموت بالبعث « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أي إلى موقف الحساب والجزاء « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ » أي يسكتون متحيرين يائسين . يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾

[١٤] ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

[١٥] ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

[١٦] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

[١٧] (فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

[١٨] (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

«وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ» أي يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون «وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ» أي بإلهيتهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنه أمرهم «وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ» أي يتميز المؤمنون والكافرون في المحالّ والأحوال «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أي يسرّون «وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» أي لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم «فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ» لما ذكر الوعد والوعيد، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به، والثناء عليه بصفاته الجميلة، وأداء حق العبودية. و(الفاء) للتفريع فكأنه قيل : إذا صحّ واتضح عاقبة المطيعين والعاصين، فقولوا : نسبح سبحان إلخ. والمعنى فسبحوه تسبيحا دائما. و (سبحان) خبر في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحمده. أي الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته، وتتجدد فيها نعمته. وقوله تعالى (وَعَشِيًّا) معطوف على (حِينَ) وتقديمه على (حِينَ تُظْهِرُونَ) لمراعاة الفواصل. وقوله (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ) معترض بينهما. والمراد بثبوت حمده فيهما، استحقاقه الحمد ممن له تميز من أهلهما. قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض، في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده. وتوسيطه بين أوقات التسبيح، للاعتناء بشأنه، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما. كما ينبئ عنه قوله تعالى(١) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى(٢) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن الآية جامعة للصلوات الخمس :(تمسون) صلاة المغرب والعشاء .و(تصبحون)

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٨] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(تظهرون) صلاة الظهر. فإن قيل: لم غيّر الأسلوب في (عشيا) ؟ أجيب (كما قال أبو السعود) بأن تغير الأسلوب لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشيّ. كالمساء والصباح والظهيرة. ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا . أما في المساء والصباح فظاهر . وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة . كما مرّ في سورة النور . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)

[٢٠] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ » أي كالإنسان من النطفة، والطائر من البيضة «وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ » كالنطفة والبيضة من الحيوان « وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ » أي بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَا » أي يبسها « وَكَذَٰلِكَ » أي : ومثل ذلك الإخراج « تُخْرَجُونَ » أي من قبوركم .

وقال المهايميّ : أي : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها . ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . اهـ وآثر هذا المعنى، على بعده ، مراعاة لسياق الآية، من طريق الإشارة « وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ » أي

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشارا ملأ البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء المدائن والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء، ومكر وعلم، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة. كل بحسبه. فسبحان من خلقهم وسيّرهم، وصرّفهم فى فنون المعايش وفاوت بينهم فى العلوم والمعارف، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى جنسكم « أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضامّ والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادًّا وتراحما بعصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أورحم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ)

[٢٣] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٢٤] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٥] ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

«وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ» أى أولى العلم كما قال[١] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ «وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ» أى لاستراحة القوى وردّ ما فقدته «وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ» أى بالسعى فى الأسباب، والأخذ فى فضل الاكتساب «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى سماع تفهم واستبصار «وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا» أى من الصاعقة «وَطَمَعًا» أى فى الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا فى عظيم إحسانه «وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ» أى بالنبات «بَعْدَ مَوْتِهَآ» أى يبسها «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ» أى إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤها. لأنه قد بيّن حاله بقوله تعالى[٢] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تمات إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى[٣] ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه ، إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل[٤] ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة، متصلة بالبعث فى الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضاً، فقيل : «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ» فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٢] .
(٣) [٣١ / لقمان / ١٠] . (٤) [٣٠ / الروم / ٨] .

مترتب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم فى سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما. ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم فى قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى[1] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) انتهى .

لطائف :

الأولى ـ الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبّه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تجشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعى المطاع على دعائه. أو هو مكنية وتخييلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يتهيئون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قرينتها .

الثانية ـ قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) متعلق بـ (دعا) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلىّ ، لا بـ (تخرجون) لأن مابعد (إذا) لايعمل فيما قبله .

الثالثة ـ قال الكرخىّ: قال هنا (إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) وقال فى خلق الإنسان[2] (ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدريج، حتى يصير التراب قابلا للحياة، فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما فى الإعادة فلا يكون تدريج . بل يكون بدء وخروج. فلم يقل هنا : (ثم). انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ)

[٢٧] (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) [٢٠ / طه / ١٠٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٠] .

«وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أي خلقاً وملكاً وتصرفاً «كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ» أي منقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه «وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ» أي بعد موتهم . قال أبو السعود : وتكريره لزيادة التقرير ، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» أي من البدء. أي بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين. لأن من أعاد منهم صنعة شيء، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها. وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة.

لطائف :

الأولى ـ تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ (أن يعيد) .

الثانية ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : لِمَ أخرت الصلة في قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقدمت في قوله[(١)] (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)؟ قلت: هناك قصد الاختصاص، وهو محزّه. فقيل (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمّ وعاقر. وأما هٰهنا، فلامعنى للاختصاص كيف؟ والأمر مبنيّ على ما يعقلون، من أن الإعادة أسهل من الابتداء. فلو قدمت الصلة، لتغيّر المعنى . اهـ .

قال الناصر: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر، لا بالحبر . وإنما يلقي الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة ـ قال الزمخشريّ: فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله[(٢)] (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السمٰوات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر: إنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ(ثم) إيذانا بتغاير مرتبتها وعلوّ شأنها. وقوله (في الجواب): إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء، لا يخلص .فإن الإعادة ذكرت هٰهنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة .فيلزم

---

(٣) [١٩ / مريم / ٩ و ٢١] . (٢) [٣٠/ الروم / ٢٥] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص، والله أعلم، جعل (ثم) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب . وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب . فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضي : إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها. أو لعظم ما في المعطوف من إحياء الموتى، فتكون للتفاوت في الرتبة لا للتراخي الزماني. والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه. فلا ينافي قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبةُ المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثري لا كلي . كما صرح به الطيبي هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهي فائدة نفيسة. ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزماني والرتبي كما في (شرح الكشاف) وقوله تعالى « وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيهما. كالقدرة العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة. فكل شيء بدءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداماً ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج: المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولا ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على ألسنة الدلائل ولسان كل قائل . اهـ (وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ) أي الغالب على أمره، الذي لا يعجزه بدء ممكن وإعادته « ٱلْحَكِيمُ » الذي يجري أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[٢٩] ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

« ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا » أى يتبيّن به بطلان الشرك « مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى منتزعا من أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا « هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم » أى من العبيد والإماء « مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر (أنتم) « كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى كما يخاف بعضكم بعضا من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نفى مضمون مافصّل من الجملة الاستفهامية . أى: لاترضون بأن يشاركم فيما هو معار لكم مماليككم، وهم أمثالكم فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية ، التى هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه؟ أفاده أبو السعود « كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضح الآيات « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان « فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » أى بسبب صرف اختياره إلى كسبه. أى: لايقدر على هدايته أحد « وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذابا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[٣١] (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[٣٢] (مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقوّمه له، واجعله مستقيما متوجهاً له. وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية ، بتشبيه المأمور بالتمسك بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له، لمراعاته والاهتمام بحفظه «حَنِيفاً» أى مائلا عن كل ماسواه، إليه. قال المهايمىّ: ولا يعسر الرجوع إليه لكونه « فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث يفتقر إلى محدث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً. فالقول بتعدده تغيير للفطرة. لكن « لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ » أى لاتغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال «ذَٰلِكَ» أى الدين المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة « ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ » أى المستقيم الذى لاعوج فيه. قال المهايمىّ: وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنه مقتضى الفطرة. وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب. لأنها من الأمور التى لاتدخل تحت الكسب والاختيار. وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه بالتوبة والإنابة[١](وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ) وهو حال من فاعل (الزموا) المقدَّر ناصباً لـ(فطرة) أو من فاعل (أقم) على المعنى . إذ لم يرد به واحد بعينه . أو لأن الخطاب له ﷺ ولأمته. أو على أنه على حذف المعطوف عليه. أى: أقم أنت وأمتك. والحال من الجميع

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٥] .

« وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ » أى جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم «وَكَانُواْ شِيَعاً» أى فرقاً« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقا .

قال القاشانىّ: يعنى المفارقين الدين الحقيقىّ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدّر الفطرة، وتكاثف الحجاب، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اه .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائما ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٣٤] (لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٣٥] (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ)

[٣٦] (وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ » أى شدة « دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه وحده دون شركائهم «ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً »أى خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ* لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ » أى بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة. وقيل : للأمر التهديدىّ كقوله تعالى «فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ » أى عاقبة تمتعكم ووباله « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا » أى حجة واضحة قاهرة « فَهُوَ يَتَكَلَّمُ » أى تتكلم دلالة . كما فى قوله(١) تعالى (هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ) « بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ » أى بإشراكهم . وهذا استفهام إنكار . أى : لم يكن شىء من ذلك « وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً » أى نعمةً من صحة وسعة « فَرِحُوا۟ بِهَا » أى بطراً وفخراً ، لا حمدا وشكرا « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ » أى شدة « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والآثام « إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » أى ييأسون من روح الله . قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى ووفقه. فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال(٢) (ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) أى يفرح فى نفسه، يفخر على غيره. وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى(٣) (إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) أى : صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء. كما ثبت فى الصحيح(٤) : عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له. إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض . فما لهم

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] .(٢) [١١ / هود / ١٠] . (٣) [١١ / هود / ١١] .
(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا)

يقنطون من رحمته ، ومالهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بيّن تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

[٣٩] ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ، وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

« فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ » أي من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. لأن (آتِ) أمر للوجوب. والظاهر من (الحق) بقرينة ماقبله أنه مالي، وهو استدلال متين «وَٱلْمِسْكِينَ» وهو الذي لا شيء له ينفق عليه . أو له شيء لا يقوم بكفايته « وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ » أي السائل فيه، والذي انقطع به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ » أي النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى. أو يريدون ذاته بمعروفهم لا رياء ولا سمعة، ولا مكافأة يد . كما قال تعالى[1] (ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ)«وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أي في الدنيا والآخرة«وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا»أي مال ترابون فيه « لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ » أي لتزيد في أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ » أي لا يزكو ولا ينمو

(١) [٩٢ / الليل / ١٨ـ٢٠] .

ولا يبارك فيه . بل يمحقه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنكال . وذكر فى تفسيرها معنى آخر ، وهوأن يهب الرجل للرجل، أو يهدى له ليعوّضه أكثر مماوهب أوأهدى. فليست تلك الزيادة بحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قال الضحاك، واستدل بقوله تعالى(١) ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أى لاتعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لايصح ، يعنى ربا البيع ، وربالابأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : فى ذلك كله نظر من وجوه :

الأول ـ أن هذه الآية شبيهة بآية(٢) ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثيرمن البؤساء، مماخرج عن طورالرحمة والشفقة والكمال البشرىّ . فنعى عليهم حالهم، طلباً لتزكيتهم بتوبتهم منه . ثم أكّد ذلك فى مثل هذه الآية . مبالغة فى الزجر .

الثانى ـ أن الربا ، على ماذكر ، مجاز . والأصل فى الإطلاق الحقيقة، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لاموجب له .

الثالث ـ دعوى أن الهبة المذكورة مباحة، لابأس بها بعد كونها هى المرادة من الآية ـ بعيدة غاية البعد. لأن فى أسلوبها من الترهيب والتحذير مايجعلها فى مصافّ المحرمات. ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية، كما تقرر فى موضعه .

الرابع ـ زعمُ أن المنهىّ عنه هو الحضرة النبوية خاصة، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب. وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لايوجب اختصاص الحكم على التحقيق. لايقال الأصل وجوب

---

(١) [٧٤ / المدثر / ٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٦] .

حمل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفتقر إلى دليل ـ لأنا نقول: الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيصٌ مرادٌ به التعميم إجماعاً . كآية[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ) وأمثالها .

الخامس ـ أن في هـذا المنهيّ عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفّاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم، ما يبيّن أنه شامل لسائرهم. لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم. بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي ـ لم يبعد .لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق، في سيرته الزكيّة. وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعوّل . والله أعلم « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ » أى مال تتزكون به من رجس الشح ودنس البخل « تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » أي ذوو الأضعاف من الثواب . جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف، (بكسر فسكون) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا. على أنه من (أضعف) والهمزة للتعدية ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » قال القاضي : أثبت له

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها . مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ، كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)

«ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» أي كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن في لجج البحر « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ » أي من الآثام والموبقات ففشا الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا « لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » اللام للعاقبة . أي ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجدب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ، لعلهم يرجعون عماهم عليه . كقوله تعالى(١) (وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ » أى فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ » أى لا يقدر أحد على ردّه. وقوله « مِنَ اللَّهِ » متعلق بـ(يأتى) أو بـ(مردّ) لأنه مصدر على معنى لا يرده تعالى، لتعلق إرادته بمجيئه . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهانىّ . وقيل عليه، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل فى ترك تنوينه . كما فى الحديث (لا مانع لما أعطيت) « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » أى يتفرقون كالفَراش المبثوث ، أو فريق فى الجنة وفريق فى السعير كقوله[1] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

[٤٥] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

« مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » أى وبال كفره . قال الزمخشرىّ : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضارّ. لأن من كان ضارّه كفره، فقد أحاطت به كل مضرة «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » أى يسوّون منزلا فى الجنة . أى يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٤٧] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(١) [٣٠ / الروم / ١٤] .

«وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ» أى بالمطر «وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ» أى فى البحر عند هبوبها «وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ» أى بتجارة البحر «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» هذه تسلية له ﷺ بمن قبله على وجهٍ يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه.

قال الزمخشريّ : فى قوله تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) تعظيم للمؤمنين، ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

[٤٩] (وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ)

[٥٠] (فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ» إما سائرا وواقفا، مطبقا وغير مطبق، من جانب دون جانب، إلى غير ذلك «وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا» أى قطعا تارة أخرى «فَتَرَى ٱلْوَدْقَ» أى المطر «يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم» أى المطر

«مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ» أى لآيسين. قال الزمخشرىّ: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى[1] (فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا) ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم. فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلاس إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب. لأن المتبادر من القبلية الاتصال. وتأكيده دال على شدة اتصاله «فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ» أى أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار «كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ» أى العظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤونه «لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ)

[٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ)

[٥٣] (وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ)

«وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا» على الزرع «فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» أى من تأثيرها فيه «لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ» أى من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم ـ ما لا يخفى .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ١٧] .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتى ، بقوله سبحانه «فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ» أى لما أن هؤلاء مثلهم، لانسداد مشاعرهم عن الحق «وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ» قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء ، نبوّ أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداها ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوها؟ «وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ» أى ما تسمع «إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ» أى منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية[1] (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) على توهيم[2] عبد الله بن عمر فى رواية مخاطبة النبيّ ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! ماتخاطب من قوم قد جيّفوا؟ فقال : والذى نفسى بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول ، منهم. ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته ، تقريعا وتوبيخاً ونقمة .

ثم قال ابن كثير: والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه فى الدنيا، فيسلّم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالًا بهذه الآية ونحوها .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٥٢] . (٢) الحديثان أخرجهما البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و ٧٢٧

ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر . وقالوا : لوحلف لايكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لايحنث . وأورد عليهم قوله ﷺ فى أهل القليب (ماأنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكرته. وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له. أوأنه تمثيل. كما روى عن على كرم الله وجهه. وأورد عليه مافى مسلم[1] من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا. إلاأن يخص بأول الوضع فى القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين مافى القرآن. نقله الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٤] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ)

[٥٥] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها. أى من أصل ضعيف هو النطفة « ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتهال وبلوغ الأشدّ « ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة والهرم « يَخْلُقُ مَايَشَآءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان « وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا الترديد فى الأحوال المختلفة والتغيير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستتبع انفراده بالألوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا أو القبور . وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون « كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشاف .

---

(١) أخرجه فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعتنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا فعلوا مافعلوا من عبادة الأوثان . وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فمنه إقسامهم بالله أنهم مالبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله[1] (كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ) تشابه حالهم فى الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل. والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى فى الباطل ، والكذب الذى ألفوه . انتهى .

وقيل : كان قسمهم استقلالًا لأجل الدنيا ، لما عاينوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضاعوا فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ، فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[٥٧] (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ » ردًّا لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق، لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة، أو شىء مما يجب الإيمان به « مَعْذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم فى إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

(١) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما ، وإن كانتا ماحيتين للكفر والمعاصي ، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)

[٥٩] (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٠] (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أي من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق يجري مجرى المثل في الظهور « وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ » أي مما اقترحوه أو غيرها « لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أي لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أي لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها . فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق . قاله أبو السعود « فَٱصْبِرْ » أي على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أي في قوله[1] (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ » أي لا يحملنك على الخفة والقلق « ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أي بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اعتصم بما جئت به من المؤمنين .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٣١ - سُورَة لِقمان

سميت به لاشتمالها على قصته التى تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهى عن الذميمة . وهى معظمات مقاصد القرآن . قاله المهايمى . وهى مكية . ويقال : إلا قوله تعالى[1] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ . . .)الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتى الكلام على لقمان والخلاف فيه.

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ)

[٣] (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)

[٤] (ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

[٥] (أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

[٦] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة الناطق بها « هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بيان لإحسانهم، يعنى ماعملوه من الحسنات. أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه، لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها . والمراد بالزكاة، على أنها مكية، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه، وتزكية للنفس بإيتائه، من وصمة البخل والشح المردى لها. لا أنصباؤها المعروفة. فإنها إنما بيّنت بالمدينة «أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » تعريض بالمشركين. وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة، مايُلهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم. ليضلّوا أتباعهم عن الدين الحق. قال الزمخشرىّ: و(اللهوُ) كل باطل ألهَى عن الخير، وعما يعنى. ولهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التي لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام . وما لا ينبغى، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه. ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى بما هى الكمالات ومنافعها ، والنقائص ومضارّها « وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث. « أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٨] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ)

[٩] (خَٰلِدِينَ فِيهَا ، وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[١٠] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ» أى أعرض عنها «مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا» أى ثقلا مانعا من السماع « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » الضمير للسموات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر، صفة للعمد. أو بغير عمد مرئيّة. يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى

وهى إمساكها، بقدرته. كذا فى (الكشاف) «وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ» أى جبالًا ثوابت «أَن تَمِيدَ بِكُمْ» أى تميل بكم فتهلككم لما فى جوفها من قوة الجيشان «وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ» أى من كل نوع من أنواعها «وَأَنزَلْنَا» أى لحفظكم وحفظ دوابكم ، وللرفق بكم وبدوابكم «مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ» أى صنف من الأغذية والأدوية «كَرِيمٍ» أى كثير المنافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[١٢] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ)

«هَٰذَا» أى ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة «خَلْقُ ٱللَّهِ» أى مخلوقه «فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ» أى مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة «بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ» إضراب عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّن المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً ، فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه . ووضعُ الظاهر موضع ضميرهم ، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشىء فى غير موضعه. ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة . كيف لا؟ والتوحيد أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ» يعنى استكمال النفس بالعلوم النظرية ، وملكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، آمرين له على لسان نبىّ أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحى (على قول عكرمة أنه نبىّ) « أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ » أى على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيرا . كذا قاله المهايمىّ . والأظهر أن (أنْ) مفسرة . فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول. والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه «وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى غنىّ عن كل شىء . فلا يحتاج إلى الشكر . وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف فى لقمان. هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة، على قولين : الأكثرون على الثانى . ويقال إنه كان قاضيا على بنى إسرائيل ، فى زمن داود عليه السلام . وما روى من كونه عبدا مسّه الرق ، وينافى كونه نبيا . لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما يُنقل كونه نبيا عن عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه[1] رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبيا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفىّ . وهو ضعيف. والله أعلم . انتهى.

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور فى التوراة ، وكان حكيم شعب وثنىّ . وكان منبأ عن الله تعالى . وأغرب فى تقريبه ، بأن الفعل العربىّ وهو (لقم) معناه بالعبرىّ بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطىّ من اختلف فى نبوته ، فقال :

واختلفت فى خضر أهل النقولْ   قيل نبيّ أوْ ولىٌّ أو رسولْ
لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم   والوقف فى الجميع رأى المعظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبى الثانية)

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين، كما قال تعالى[1] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) وكثيرا مايقرن تعالى بين ذلك فى القرآن الكريم . وقال ههنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ، إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[١٤] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ)

«وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ» أى بالإحسان إليهما ، لاسيما الوالدة . لأنه « حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ » أى ضعفا فوق ضعف إلى الولادة. و(وهنا) حال من (أمه) أى ذات وهن . أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال. أى: تهن وَهْنًا. وقوله (عَلَىٰ وَهْنٍ) صفة للمصدر. أى كائنا على وهن . أى تضعف ضعفا فوق ضعف . فإنها لاتزال يتزايد ضعفها . لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلا وضعفا « وَفِصَٰلُهُۥ » أى فطامه « فِى عَامَيْنِ » ثم فسّر الوصية بقوله سبحانه « أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ » أى بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره. قال فى (البصائر) : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له . واعترافه بنعمته . والثناء عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره. هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناؤه عليها . فإن عدم منها واحدة، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر. وكل من تكلم فى الشكر، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] .

وقوله تعالى « إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ » تعليل لوجوب الامتثال . أى إلىّ الرجوع ، لا إلى غيرى، فأجازيك على ماصدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت: قوله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ماتكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا، وتذكيرا بحقها العظيم مفردا. ومن ثم قال رسول الله ﷺ[1] (لمن قال له من أبرّ؟) : أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك : ثم أباك . وعن بعض العرب[2] أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول فى حدائه بنفسه .

أَحْمِلُ أُمِّى وَهِىَ الْحَمَّالَهْ * تُرْضِعُنِى الدِّرَّةَ وَالْعُلَالَهْ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهْ

الثانى ـ قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى(وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ) كقوله[3] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال فى الآية الأخرى[4] (وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلا ونهارا، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى[5] (وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢ ـ باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ).

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .(٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .(٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤].

الثالث ـ قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التي لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تفطمه . ويدل عليه قوله تعالى[1] (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ).

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أي في إشراك ما لا تعلمه مستحقا للعبادة ، تقليدا لهما .

وقال الزمخشريّ : أراد بنفي العلم به نفيه ، أي لا تشرك بي ما ليس بشيء ، يريد الأصنام . كقوله[2] (مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ) .

قال في (الكشف) : ليس هذا من قبيل نفي العلم لنفي وجوده . كما مر في القصص . وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بولغ في نفيه حتى جعل كلا شيء . ثم بولغ في سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة « وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » أي صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : في الآية أن الوالد لا يطاع في الكفر . ومع ذلك يصحب معروفا « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » أي بالتوحيد والإخلاص في الطاعات ، وعمل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] .

الصالحات « ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضى : والآيتان ، يعنى (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ إلى قوله ـ تَعْمَلُونَ) معترضتان فى تضاعيف وصية لقمان ، تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة فى ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو البارئ تعالى فى استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا فى الإشراك . فما ظنك بغيرهما ؟ انتهى .

ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[١٧] (يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ)

« يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ » أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان، إن تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل « فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر ، فى أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة. أو حيث كانت فى العالم العلوىّ أو السفلىّ « يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ » أى يحضرها ويحاسب عليها « إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ » أى ينفذ علمه وقدرته فى كل شىء « خَبِيرٌ » أى يعلم كنه الأشياء، فلا يعسر عليه. والآية هذه كقوله تعالى(١) (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

شَيْئًا) الآية ، وقوله[1] (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ) .

لطيفة :

قوله تعالى (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ) الآية، من البديع الذى يسمى التتميم. فإنه تمم خفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها[2] (كأنه علم فى رأسه نار). « يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك «وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ» لتكميل غيرك «وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ» أى من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الداعى إلى الحق معرّض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية[3] (وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ) « إِنَّ ذَٰلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

---

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨] .

(٢) قائلته الخنساء ، ترثى أخاها صخرا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزنَكِ أم بالعين عُوّارُ أم ذرّفت ،أم خَلَتْ من أهلها الدارُ

وصدر البيت :

* أغرّ أبلجُ تأتمّ الهداةُ بهِ *

(٣) [١٠٣ / العصر / ٣] .

[١٩] (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ)

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء فى الحديث[١] (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط) «وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا» أى خيلاء متكبرا «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» أى معجب فى نفسه «فَخُورٍ» أى على غيره «وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ» أى توسط بين الدبيب والإسراع «وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ» أى انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال «إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ» معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و (أنكر) بمعنى أوحش . من قولك (شىء نكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال فى العرف للقبيح (وحش) وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزمخشرىّ : الحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكره مجردا ، وتفاديهم من اسمه ، أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستقذرة . وقد عُدّ فى مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا ـ مبالغة

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٤٥ ـ باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة فى الذم والتهجين . وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان فى أحاديث مرفوعة. منها ما رواه الإمام أحمد[١] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبى حاتم عن القاسم بن مخيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بنىّ إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبى حاتم عن السرىّ بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يابنىّ إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بنىّ ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعنى السلام) ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم . وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انفراده بالألوهية، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ)

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ)

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى من النجوم والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى. وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له . وكذا ماأوجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً » أى محسوسة ومعقولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ النَّاسِ » يعنى الجاحدين نعمته تعالى « مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ » أى فى توحيده وإرساله الرسل « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبيّ « وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ » أى لمن يجادل. والجمع باعتبار المعنى « اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ» أى يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب. كأنه يدعوهم إلى عين العذاب. فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنّى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ)

[٢٣] (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[٢٤] (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

[٢٥] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٢٦] (لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ)

[٢٧] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

[٢٨] (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ)

[٢٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ » أي في أعماله « فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ » أي تعلق بأوثق مايتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن، بحال من أراد رقيّ شاهق ، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلّى منه « وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ » أي من الأعمال الظاهرة والباطنة « إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » أي على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لايكاد ينكرها المكابرون أيضا « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي شيئاً ما . فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم « لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أي فلا يستحق العبادة فيهما غيره « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ » أي عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا « ٱلْحَمِيدُ » أي المحمود فيما خلق وشرع، بلسان الحال والمقال « وَلَوْ أَنَّمَا

فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد نفاده « سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّـهِ » أى التى أوجد بها الكائنات، وسيوجدها مالاغاية لحصره ومنتهاه. والسبعة ، إنما ذكرت ، على سبيل المبالغة لاالحصر . « إِنَّ ٱللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ »أى إلا كخلقها وبعثها فى سهولته « إِنَّ ٱللَّـهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّـهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى أمد قدره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة « وَأَنَّ ٱللَّـهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بما يأتى ويذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ)

[٣١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[٣٢] (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارئ بها « بِأَنَّ ٱللَّـهَ هُوَ ٱلْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّـهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّـهِ » أى بإحسانه فى تهيئة أسبابه « لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ » أى عظيم الصبر على البأساء والضراء « شَكُورٍ » أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها « وَإِذَا غَشِيَهُم » أى علاهم وأحاط بهم « مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ » أى كالسحب والحجب « دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى التجئوا إليه تعالى وحده، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد، بما دهاهم من الضر «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ »قال ابن كثير: قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى[١] (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل. وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله[٢] تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) الآية ، فالمقتصد هنها هو المتوسط فى العمل . ويحتمل، أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك، كان مقصرا والحالة هذه . والله أعلم . انتهى «وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ » أى غدّار، ناقض للعهد الفطرىّ ولعقد العزيمة وقت الهول البحرىّ « كَفُورٍ » أى مبالغ فى كفران نعمه تعالى. لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا » أى ليس يغنى أحدهما عن الآخر شيئا ، لانقطاع الوُصَل فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٢] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم ـ فى الثانية ـ للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلافه « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » أى الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ)

« إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » أى علم وقت قيامها « وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ » أى فى وقته الذى قدره ، وإلى محله الذى عينه فى علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ » أى من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقى « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » أى من خير أو شر « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أى فى بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء فى الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتح الغيب « إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ » أى بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٢ — سُورَةُ السَّجْدَة

سميت بها ، لأن آية السجدة منها، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تخرّ وجوه الكل ، لسماع مواعظها ، وتنزه منزلها عن أن يعارض فى كلامه . وبشكره على كمال هدايته. وهذا أعظم مقاصد القرآن ، أفاده المهايمىّ . وهى مكية ، وآيها ثلاثون .

روى البخارىّ[(١)] فى (كتاب الجمعة) عن أبى هريرة قال: كان النبىّ ﷺ يقرأ فى الفجر، يوم الجمعة ، آلم * تنزيل السجدة ، وهل أتى على الإنسان .

ورواه مسلم[(٢)] أيضا .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبىّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم. تنزيل السجدة، وتبارك الذى بيده الملك .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ١٠ ـ باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ، حديث ٥٢٢.

(٢) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٥و٦٦ (طبعتنا)

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٣] (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ، بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« الٓمٓ » تقدم أن هذه الفواتح أسماء للسور « تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى كونه منزلا « مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ » أى اختلقه من تلقاء نفسه « بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى يتبعون الحق . وذلك أن قريشا لم يبعث إليهم رسول، قبله ﷺ . فلطف تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[٥] (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

ٱلْعَرْشِ » تقدم الكلام فى ذلك « مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ » أى ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق « أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » أى تتعظون بالقرآن فتؤمنوا « يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ » أى يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ » أى يصعد إليه ، أى مع الملك للعرض عليه « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » أى مقدار صعوده على غير الملك ، ألف سنة من سنى الدنيا .

قال ابن كثير : أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين . كما قال تعالى(١) (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

[٧] (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ)

[٨] (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ)

[٩] (ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى المدبر « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ » أى ما غاب عن العباد وما يكون « وَٱلشَّهَٰدَةِ » أى ما علمه العباد وما كان « ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب على أمره « ٱلرَّحِيمُ » أى بالعباد فى تدبره « ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ » أى أحكم خلق كل شىء . لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة « وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ » يعنى آدم « مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] .

نَسْلَهُۥ » أى ذريته « مِن سُلَـٰلَةٍ » أى من نطفة « مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ » أى ضعيف ممتهن . والسلالة الخلاصة . وأصلها مايسلّ ويخلص بالتصفية « ثُمَّ سَوَّىٰهُ » أى قوّمه فى بطن أمه « وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ » أى جعل الروح فيه، وأضافه إلى نفسه تشريفاًله « وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى خلق لكم هذه المشاعر ، لتدركوا بها الحق والهدى « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى بأن تصرفوها إلى ما خلقت له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ، بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ)

[١١] (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

« وَقَالُوٓا۟ » أى كفار مكة « أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب الأرض لا نتميز منه ، أو غبنا فيها « أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ » أى نجدد بعد الموت « بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ » أى بالبعث بعد الموت للجزاء والحساب « كَـٰفِرُونَ » أى جاحدون . قال أبو السعود : إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعا « قُلْ » أى بياناً للحق وردّاً على زعمهم الباطل « يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ » أى يقبض أرواحكم « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للحساب والجزاء .

فائدة :

قال ابن أبى الحديد فى (شرح نهج البلاغة) فى هذه الآية : مذهب جمهور أصحابنا

أن الروح جسم لطيف بخاريّ يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية ، ينفذ فى العروق ، حالّة فيها . وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن لملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه . لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين فى وقت واحد فى المشرق والمغرب، لأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين . فى وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج المَلَك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائىّ ، لا يتعذر عليه النفوذ فى المخارق الضيقة، فيخالط الروح، التى هى كالشبيهة بها، لأنها بخارىّ. ثم يخرج من حيث دخل ، وهى معه .

وإنما يكون ذلك فى الوقت الذى يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل .

فألزموا على ذلك أن يغوص المَلَك فى الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء . فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل المَلَك الماء فى مسامّ الماء ، فإن فيه مسامّ ومنافذ وفى كل جسم . على قاعدتهم فى إثبات المسامّ فى الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسامّ فيه ، لم يبعد أن يلجه المَلَك فيوسع لنفسه مكانا، كما يلجه الحجر والسمك ، وغيرهما . وكالريح الشديدة التى تقرع ظاهر البحر فتقعره وتحفره . وقوة المَلَك أشدّ من قوة الريح . انتهى .

والأوْلى الوقوف، فيما لم تعلم كيفيته، عند متلوّه وعدم مجاوزته، أدباً عن التهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة ما لا يُبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

«وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ» وهم القائلون تلك المقالة الشنعاء «نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ» أى مطأطئوها من الحياء والخزى، لما قدمت أيديهم «رَبَّنَآ» أى يقولون ربنا «أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا » أى علمنا ما لم نعلم ، وأيقنا بما لم نكن به موقنين « فَارْجِعْنَا » أى إلى الدنيا « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أى مقرّون بك وبكتابك ورسولك والجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٤] (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » أى تقواها «وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي » أى فى القضاء السابق « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى سبق القول حيث قلت لإبليس، عندقوله[١] (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[٢] (فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) أى فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم . بل منعناه من أتباع إبليس الذين هؤلاء من جملتهم حيث صرفوا اختيارهم إلى الغىّ والفساد . ومشيئته تعالى لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها . فلما لم يختاروا الهدى ، واختاروا الضلالة ، لم يشأ إعطاءه لهم . وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البرّة ، وهم المعنيّون بما سيأتى من قوله تعالى[٣] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الآية.فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى ، فى الحقيقة ، سوء اختيارهم ، لا تحقق القول . أفاده أبوالسعود . « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » أى تركتم الإقرار به ، والإيمان بصدق موعوده ، وعاملتموه معاملة المنسىّ المهجور « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » أى جازيناكم جزاء

---

(١) [١٥ / الحجر / ٣٩ و ٤٠] . (٢) [٣٨ / ص/٨٤ و ٨٥] .
(٣) [٣٢ / السجدة / ١٥] .

نسيانكم. أو تركناكم في العذاب ترك المنسيّ «وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أي من الموبقات. والتكرير للتأكيد والتشديد. وتعيينُ الفعل المطويّ، للذوق.

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٥] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [سجدة]

[١٦] (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ)

«إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا» أي وعظوا «خَرُّواْ سُجَّدًا» لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام «وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» أي عن الانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة. قال تعالى[١] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) «تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ» أي ترتفع وتتنحى عن الفرش ومواضع النوم. والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم، وهم المتهجدون بالليل «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ» أي داعين له «خَوْفًا» من عذابه «وَطَمَعًا» في رحمته «وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ» أي من المال «يُنفِقُونَ» أي في وجوه البرّ والحسنات.

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٧] (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

[١٨] (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا، لَّا يَسْتَوُۥنَ)

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠].

[١٩] (أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

[٢٠] (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ، كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ)

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم » أى ماذخر وأعدّ أى لهؤلاء الذين عددت مناقبهم « مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » أى مما تقرّ به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة فى الجنة « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من الأعمال الصالحة « أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا » أى كافرا جاحدا « لَّا يَسْتَوُۥنَ » أى فى الآخرة بالثواب والكرامة. كما لم يستووا فى الدنيا بالطاعة والعبادة. ثم فصّل مراتب الفريقين بقوله « أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا » أى ثوابا « بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا » وكقوله[١] تعالى (كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا » كناية عن دوام عذابهم واستمراره « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم ، وتقريعا وتوبيخا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٢٢] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ، إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)

---

(١) [٢٢ / الحج / ٢٢] .

« وَلَنُذِيقَنَّهُم » أى أهل مكة « مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ » أى عذاب الدنيا والجدب والقتل والأسر « دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ » يعنى عذاب الآخرة « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يتوبون عن الكفر أى يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى، قبل الرين بكثافة الحجاب «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ »أى جحدها وكفر بها « إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » أى بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ، وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

[٢٤] (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ، وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة « فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ »أى لقاء الكتاب الذى هو القرآن . وعودُ الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أى تلقى مثله ، أى فلا تكن فى مرية من كونه وحيا متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب . ولقّيناه من الوحى مثل مالقيناك . فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله . ونهيُه ﷺ عن الشك ، المقصود به نهى أمته . والتعريض بمن صدر منه مثله « وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى من الضلالة « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا « لَمَّا صَبَرُواْ » أى على العمل به والاعتصام بأوامره « وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ » أى يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى : كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتينا كه، هدى لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية. ويؤخذ من فحوى الآية، أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقيّة الإيمان ، فغيروا وبدلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وأُديل عليهم انتقاما منهم . وتلك سنته تعالى[1] (إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) ففى طىّ هذا الترغيب ، ترهيب وأى ترهيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

[٢٦] (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

[٢٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ » أى يقضى « بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من الباطل ، بتمييز المحق من المبطل « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى يتبين لكفار مكة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أى الماضية بعذاب الاستئصال « يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ » أى منازلهم. كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام. فلا يرون فيها أحداً ممن كان يعمرها ويسكنها. ذهبوا كأن لم يغنوا فيها. كما قال[2] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟) « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فيما فعلنا بهم « لَـَٔايَـٰتٍ » أى عبرا ومواعظ ودلائل متناظرة « أَفَلَا يَسْمَعُونَ » أى أخبار من تقدم، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل، وبغيهم الفساد فى الأرض، فيحملهم ذلك على الإيمان « أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ » وهى التى جزر نباتها، أى قطع « فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ » يعنى العشب والثمار والبقول « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أى فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب

(١) [١٣ / الرعد / ١١] .
(٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] .

انفراده بالإلهية . وهـــذا كآية(١) (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٢٩] (قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)

« وَيَقُولُونَ » أى كفار مكة « مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ » أى الانتصار علينـــا . استعجال لوقوع البأس الربانىّ عليهم ، الذى وعدوا به ، واستبعاد له « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ» لحلول ما يغشى الأبصار ويعمى البصائر . وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الـكافر .

قال ابن كثير : أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا والأخرى ، لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى(٢) (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح، قد قبل رسول الله ﷺ إسلامَ الطلقاء وقد كانوا قريبا من ألفين . ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى(٣) (قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله(٤) (فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) وكقوله(٥) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ) الآية وقال تعالى(٦) (وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وقال تعالى(٧) (إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ) .

---

(١) [٨٠ / عبس / ٢٤ و ٢٥] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٣] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٢٦] . (٦) [١٤ / إبراهيم / ١٥] .

(٧) [٨ / الأنفال / ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ)

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك « وَانتَظِرْ » أى النصرة عليهم . فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد « إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ » أى ما فى نفوسهم . كقوله تعالى[١] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)[٢] (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ) أى وسيجدون مغبة انتظارهم من وبيل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم .

(١) [٥٢ / الطور / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ٩٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

٣٣ ـ سُورَةُ الأَحزَابِ

سميت بها ، لأن قصتها معجزة لرسول ﷺ . متضمنة لنصره بالريح والملائكة . بحيث كفى الله المؤمنين القتال . وقد ميز بهم بين المؤمنين والمنافقين. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايميّ .

وهي مدنية . وآياتها ثلاث وسبعون آية . وروى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب قال: لقد رأيتها وإنها تعادل سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم) .

قال ابن كثير : وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً . والله أعلم . انتهى .

قلت : كان يصح هذا الاقتضاء، لو كان هذا الأثر صحيحاً . أما ولم يخرجه أرباب الصحاح، فهو من الضعف بمكان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ » نودى صلوات الله عليه بوصفه دون اسمه ، تعظيما له . وباب المخاطبة يعدل فيها عن النداء بالاسم تكريماً المخاطب. ولا كذلك باب الأخبار فقد يصرح فيها بالاسم، والتعظيم باق كآية[١] ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به . وأمره عليه السلام بالتقوى تفخيما وتعظيما للتقوى نفسها، حيث أمر بها مثله . فإن مراتبها لا تنتهى . مع أن المقصود الدوام والثبات عليها. ولم يجعل الأمر لأمته كما فى نظائره ، لأن سياق ما بعده لأمر يخصه . كقصة زيد رضى الله عنه « وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ » أى لا توافقهم على أمر . ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم . فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين . لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً » أى فهو أحق بأن تتبع أوامره ويطاع ، لأنه العليم بعواقب الأمور وبالمصالح من المفاسد . والحكيم الذى لا يفعل شيئاً ، ولا يأمر به ، إلا بداعى الحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

[٣] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

[٤] ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ، وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾

«وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» أى فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا » أى أسند أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره . فكفى به حافظاً موكولا إليه كل أمر «مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ » قال الزمخشرىّ : أى ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوّة ودعوة فى رجل . والمعنى : إن الله سبحانه ، كما لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب ، فأحدهما فضلة غير محتاج إليها ـ وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها ، عالماً ظاناً ، موقناً شاكاً ، فى حالة واحدة ـ لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمًّا لِرَجُلٍ زوجا له . لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره ، كالمملوكة . وهما حالتان متنافيتان . وأن يكون الرجل الواحد دعيًّا لرجل ، وابناً له . لأن البنوة أصالة فى النسب ، وعراقة فيه . والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير . ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل . وهذا مثل ضربه الله فى (زيد بن حارثة) وهو رجل من كَلْبٍ سبي صغيراً . وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابّون . فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة . فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له . وطلبه أبوه وعمه فَخُيِّرَ . فاختار رسولَ الله ﷺ فأعتقه . وكانوا يقولون (زيد بن محمد) فأنزل الله

هذه الآية . وقوله[١] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) .

والتنكير في (رجل) وإدخال (من) الاستغراقية على (قلبين) تأكيدانِ لما قصد من المعنى. كأنه قال : ما جعل الله لأمة الرجال ، ولا لواحد منهم ، قلبين البتة في جوفه .

وفائدة ذكر (الجوف) كالفائدة في قوله[٢] (ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصوّر والتجلّي للمدلول عليه. لأنه إذا سمع به ، صوّر لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار . ومعنى (ظاهر من امرأته) قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي . وكان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها ، كما يتجنبون المطلقة . وهو في الإسلام يقتضي الطلاق والحرمة إلى أداء الكفارة .

قال الأزهريّ: وخصوا (الظَّهر)، لأنه محل الركوب. والمرأة تركب إذا غشيت. فهو كناية تلويحية ، انتقل من الظهر إلى المركوب، ومنه إلى المغشيّ. والمعنى: أنت محرمة عليَّ لا تركبين، كما لا تركب الأم . كذا في (الكشف) .

وقوله تعالى« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى كل ما ذكر. أي من كونه ليس لأحد قلبان، وليست الأزواج أمهات ، ولا الأدعياء أبناء. أو إلى الأخير فقط وهو الدعوة «قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ» أي لا حقيقة له فلا يقتضي دعواكم ذلك ، أن يكون ابناً حقيقياً. فإنه مخلوق من صلب رجل آخر فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان« وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ» أي الثابت المحقق في نفس الأمر « وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ » أي سبيل الحق .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥] (ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ » أى انسبوهم إليهم . وهو إفراد للمقصود من أقواله تعالى الحقة « هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ » أى أعدل وأحكم .

قال ابن كثير: هذا الأمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء. فأمر تبارك وتعالى بردّ نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة. وأن هذا هو العدل والقسط والبر. روى البخارىّ[1] عن ابن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضى الله عنه، مولى رسول الله ﷺ، ما كنا ندعوه إلا (زيد بن محمد) حتى نزل القرآن (ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ) وأخرجه مسلم[2] وغيره. وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك. ولهذا قالت سهلة[3] بنت سهيل ، امرأة أبى حذيفة رضى الله عنها: يارسول الله! إنا ندعو سالما ابنا . وإن الله قد أنزل ما أنزل . وإنه كان يدخل علىّ. وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا. فقال ﷺ: أرضعيه تحرمى عليه.. الحديث. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعىّ . وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه. وقال عز وجل[4] (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا) وقال تبارك وتعالى[5] فى آية التحريم (وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ) احترازاً عن زوجة الدعىّ، فإنه ليس من الصلب .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٢ ـ باب ادعوهم لآبائهم، حديث ٢٠٣٠

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا)

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا)

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٥) [٤ / النساء / ٢٣] .

فأما الابن من الرضاعة ، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ﷺ فى الصحيحين[١] : حرموا من الرضاعة مايحرم من النسب .

فأما دعوة الغير ابنا ، على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ماروواه الإمام أحمد وأهل السنن . إلا ـ الترمذىّ ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما[٢] : قال : قدّمنا رسول الله ﷺ أغيلمةَ بنى عبد المطلب على جمرات لنا من (جَمْع) فجعل يلطح أفخاذنا ويقول : أُبَيْنِىَّ ! لاترموا الجمرة حتى تطلع الشمس .

قال أبوعبيدةوغيره (أُبَيْنِىَّ) تصغير (ابنى) وهذا ظاهر الدلالة. فإنهذا فى حجةالوداع سنة عشر .

وفى مسلم[٣] عن أنس قال : قال لى رسول الله ﷺ : يابنىّ . ورواه أبو داود والترمذىّ . انتهى كلام ابن كثير . وفى ذهابه إلى أن الأمر فى الآية ناسخ ـ نظر ، لأن الناسخ لابد أن يرفع خطابا متقدما . وأما ما لاخطاب فيه سابقاً ، بل ورد حكما مبتدأ رفع البراءة الأصلية ، فلا يسمّى نسخاً اصطلاحاً . فاحفظه . فإنه مهم ومفيد فى عدة مواضع .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ٧ ـ باب الشهادة على الأنساب والرضاع ، حديث رقم ١٢٨٥ عن عائشة

وأخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث رقم ١ (طبعتنا)

(٢) أخرجه النسائىّ فى : ٢٤ ـ كتاب المناسك ، ٢٢٢ ـ باب النهى عن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الشمس

وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٥ ـ كتاب المناسك ، ٦٢ ـ باب من تقدم من جمع إلى منى لرمى الجمار ، حديث رقم ٣٠٢٥ (طبعتنا)

(٣) أخرجه فى : ٣٨ ـ كتاب الآداب حديث رقم ٣١ (طبعتنا)

ولما أمر تعالى بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، أشار إلى دعوتهم بالأخوّة والمولوية إن لم يعرفوا، بقوله سبحانه «فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ» أي فتنسبوهم إليهم «فَإِخْوَانُكُمْ» أي فهم إخوانكم «فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ» أي أولياؤكم فيه. أي فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي. ويا أخي ويا مولاي «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» أي إثم «فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ» أي فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان. أو سبق اللسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه «وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» أي ففيه الجناح، لأن من تعمد الباطل كان آثماً «وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا» أي لعفوه عن المخطئ.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ، وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ، كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا)

«ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» أي في كل شيء من أمور الدين والدنيا. فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها . وأن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ، ووقاءه إذا لقحت حرب. وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه . ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه . لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين. وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار . أفاده الزمخشريّ .

وهذا كما قال تعالى[1] (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

(١) [٤ / النساء / ٦٥].

لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) وفى الصحيح: والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين « وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ » أى فى وجوب تعظيمهن واحترامهن ، وتحريم نكاحهن. وفيما عدا ذلك كالأجنبيات، ولذا قال ابن كثير : ولكن لا تجوز الخلوة بهن . ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع. وإن سمى بعض العلماء بناتهن، أخوات المؤمنين. كما هو منصوص الشافعىّ رضى الله عنه فى (المختصر) وهو من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله، خال المؤمنين، فيه قولان: وعن الشافعىّ أنه يقال ذلك. وهل يقال له ﷺ : أبو المؤمنين، فيه قولان : فصح عن عائشة المنع ، وهو أصح الوجهين للشافعية لقوله تعالى (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وروى عن أبىّ بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما، أنهما قرآ : النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم. وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن . واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم . فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه . أفاده ابن كثير.

«وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ »أى ذوو القرابات« بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ »أى فيما فرضه، أوفيما أوحاه إلى نبيّه عليه السلام « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ » بيان لأولى الأرحام، أو صلة لـ (أَوْلَىٰ) « إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم » أى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين غير الرحم « مَّعْرُوفًا » أى من صدقة ومواساة وهدية ووصية . فإن بسط اليد فى المعروف مما حث الله عباده عليه ، ويشارك فيه مع ذوى القربى غيرهم .

---

(١) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الطهارة ٤ ـ باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، حديث رقم ٨

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ) الآية ، من ورّث ذوى الأرحام . انتهى .

وهو استدلال متين. وليس مع المخالف ما يقاومه . بل فهم كثيرون أن المعنىّ بها ، أن القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وأنها ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة ، التى كانت بينهم . ذهابا إلى ما روى عن الزبير وابن عباس: أن المهاجرىّ كان يرث الأنصارىّ ، دون قراباته وذوى رحمه . للأخوّة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ. حتى أنزل الله الآية . فرجعنا إلى مواريثنا .

إلا أن الاستدلال بذلك هو من عموم الأولوية . لا أنها خاصة بالمدعى فيها ، كما أسلفنا بيانه مرارا « كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا » أى فى القرآن. أو فى قضائه وحكمه وما كتبه وفرضه ، مقررا لا يعتريه تبديل ولا تغيير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا)

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ » أى أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه. كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) .قال أبو السعود : وتخصيصهم بالذكر ، يعنى قوله (وَمِنكَ) الخ مع اندراجهم

فى النبيين ، للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم . وتقديمُ نبينا عليهم ، عليهم الصلاة والسلام ، لإبانة خطره الجليل . انتهى .

وقال فى (الانتصاف) : وليس التقديم فى الذكر بمقتض لذلك . ألا ترى إلى قوله :

بهاليل منهم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِّهِ عليٌّ ومنهم أحْمَدُ المُتَخَيَّرُ

فأخّر ذكر النبيّ ﷺ ليختم به تشريفاً له .

وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر ، والله أعلم فى سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده فى الذكر ، أنه هو المخاطَب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المتلوّ ، فكان تقديمه لذلك .

ثم لما قدم ذكرهعليه الصلاة والسلام ، جرى ذكر الأنبياء، صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم . والله أعلم . انتهى .

وقدصرح بأولىالعزم هناوفى آية(١)(شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ) . قال ابن كثير : فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها . «وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا» أى عهداً عظيم الشأن . وكيف لا؟ وقد يعترضه من الماكرين والحادّين والمشاقّين ، ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[٩] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

«لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ» أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء. ووضع

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] .

الصادقين موضع ضميرهم، للإيذان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه. وإنما السؤال لحكمة تقتضيه . أي ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم. أو عن تصديقهم إياهم تبكيتاً لهم. كما في قوله تعالى(١)(يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ)أو المصدقين لهم عن تصديقهم. أفاده أبو السعود « وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا » أي لمن كفر من أممهم عذاباً موجعاً. ونحن ـ كما قال ابن كثير ـ نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحو لهم عن الحق المبين الواضح الجليّ، الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء. وإنْ كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين. فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال. انتهى. « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ » أي ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق « إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ » وهم الأحزاب « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا » وهم الملائكة. أو ما أتى من الريح من طيور الجوّ وجراثيمه ، المشوشة للقارّ المقلقة للهادئ « وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠)

[١١] (هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا)

[١٢] (وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا)

[١٣] (وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ،

(١) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ » أى من أعلى الوادى وأسفله ، بقصد التحزب على أن يكونوا جملة واحدة على استئصال النبى ﷺ وصحبه « وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى مالت عن سنبها ومستوى نظرها، حيرة وشخوصاً « وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ » أى منتهى الحلقوم لأن بالفزع تنتفخ الرئة فترتفع. وبارتفاعها ترتفع القلوب . وذلك من شدة الغم. أو هو مثل فى اضطراب القلوب « وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا » أى أنواع الظنون المختلفة « هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ » أى اختبروا ليتميز الثابت من المتزلزل، والمؤمن من المنافق « وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا » أى أزعجوا أشـــد الإزعاج من شدة الخوف والفزع ، أو من كثرة الأعداء .

فائدة :

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنونا) بإثبات ألف بعد النون، وبعد لام الرسول ، فى قوله[1] (وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا) ولام السبيل، فى قوله[2] (فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا) وصلًا ووقفاً، موافقة للرسم. لأن هذه الثلاثة رسمت فى المصحف، كذلك. وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة . وهاء السكت تثبت وقفاً للحاجة إليها. وقد ثبتت وصلا إجراء للوصل مجرى الوقف، فكذلك هذه الألف . وقرأ أبو عمرو وحمزة بحذفها فى الحالين . لأنها لا أصل لها . وقولهم (أجريت الفواصل مجرى القوافى) غير معتدّ به. لأن القوافى يلزم الوقف عليها غالبا. والفواصل لا يلزم ذلك فيها ، فلا تشبه بها . والباقون بإثباتها وقفاً ، وحذفها وصلا ، إجراء للفواصل مجرى القوافى ، فى ثبوت ألف الإطلاق . ولأنها كهاء السكت . وهى تثبت وقفاً ، وتحذف وصلا . أفاده السمين .

ثم أشار تعالى إلى ما ظهر من المنافقين فى تلك الشدة ، بقوله سبحانه : « وَإِذْ يَقُولُ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٦] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى شبهة . تنفساً بمـا يجدونه من الوسواس فى نفوسهم ، وفرصة لانطلاق ألسنتهم ، بما تـكنّ صدورهم . لضعف إيمانهم وشدة ما هم فيه من ضيق الحال، وحصر العدوّلهم «مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ »أى من النصر «إِلَّا غُرُورًا» أى باطلا « وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ » أى المنافقين « يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ » وهى أرض المدينة « لَا مُقَامَ لَكُمْ » بضم الميم وفتحها، قراءتان . أى لا إقامة لـكم بعداليوم بالمدينة أونواحيها لغلبة الأعداء « فَٱرْجِعُوا۟ » أى إلى منازلـكم من المدينة هاربين . أو فارجعوا عن الإسلام كفاراً ليمـكنكم المقام .

فائدة :

(يثرب) من أسماء المدينة . كما فى الصحيح[1] : أريت فى المنام دارَ هجرتـكم . أرض بين حرتين . فذهب وَهَلى أنها هَجَر . فإذا هى يثرب (وفى لفظ : المدينة) .

قال ابن كثير: فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد[2] عن البراء قال:قال رسول الله ﷺ من سمى المدينة (يثرب) فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة . تفرد به الإمام أحمد ، وفى إسناده ضعف . انتهى : « وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ » أى فى الرجوع « يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى غير حصينة يخشى عليهـا « وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا)

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦١ـ كتاب المناقب، ٢٥ـ باب علامات النبوة فى الإسلام ، حديث رقم ١٧٠٣ .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

[١٥] (وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا)

[١٦] (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَلَوْ دُخِلَتْ » أى يثرب « عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا » أى بأن دخل عليهم العدوّ من سائر جوانبها ، وأخذ فى النهب والسلب « ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ » أى الرجعة إلى الكفر « لَأَتَوْهَا » أى لفعلوها « وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا » أى وما توقفوا بإعطائها إلا ريثما يكون السؤال والجواب. أى فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به ، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. ثم ذكّرهم تعالى بما كانوا عاهدوه من قبل بقوله « وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هذا الخوف « لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا » أى عن الوفاء به « قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ » أى لأنه لا يؤخر آجالهم ولا يطوّل أعمارهم . بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرة انتقاماً منهم . ولهذا قال : « وَإِذًا » أى إن فررتم « لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى فى الدنيا بعد فراركم . أو لأنهم فقدوا بذلك حظهم الأخروىّ . فمهما متعوا فى الدنيا ، فإنه قليل بجانب نعيم الآخرة للصابرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[١٨] (قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا)

[١٩] ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ، أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾

« قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم » أى يجيركم « مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا » أى هلا كا أوهزيمة «أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» أى مجيرا ولا مغيثا يدفع عنهم الضر « قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ » أى المثبطين عن رسوله الله ﷺ . وهم المنافقون . قال الشهاب : و(قد) للتحقيق ، أو لتقليله باعتبار متعلقه ، وبالنسبة لغير معلوماته . انتهى . « وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ » أى من سا كنى المدينة «هَلُمَّ إِلَيْنَا » أى أقبلوا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار « وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ » أى القتال «إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إتيانا قليلا . لأنهم يتثبطون ما أمكن لهم « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » أى بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم ، أو أضنّاء بكم ظاهرا، إن لم يحضر خوف « فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » أى فى أحداقهم « كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ » أى كنظره أو كدورانه « فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » أى بالغوا فيكم بالكلام طعنا وذما. فأحرقوكم وآذوكم. وأصل (السلق) بسط العضو ومدّه للقهر. سواء كان يدا أو لسانا. ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية، ويثبت له السلق وهو الضرب تخييلا « أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ » أى على فعله « أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ، وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا)

[٢١] (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا)

« يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ » أى لم ينهزموا بما أرسل عليهم من الريح والجنود. وأن لهم عودة إليهم لخورهم واضطرابهم « وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ » أى مرة أخرى « يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ » أى فلا يذهبون إلى قتالهم ، ولا يستقرّون فى المدينة ، بل يتمنون أنهم خارجون إلى البدو بين الأعراب ، وإن لحقهم عار جبنهم « يَسْـَٔلُونَ » أى القادمين « عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ » أى عما جرى لكم . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة ، لو أتى الأحزاب ، بقوله « وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم » أى فى حدوث واقعة ثانية « مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا » أى رياء وخوفا من التعيير « لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » أى فى أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة ، إذ كان منها ثباته فى الشدائد وهو مطلوب. وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب. ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يخور فى شديدة ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة. وقد لقى بمكة من قريش ما يشيب النواصى ، ويهدّ الصياصى. وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى. ومن صبر على هذه الشدائد فى الدعاء إلى الله تعالى ، وهو الرفيع الشأن ، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان « لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ » أى رضوان الله ورحمته وثواب اليوم الآخر ونجاته . فإنه يؤثرهما على الحياة الدنيا ، فلا يجبن . إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتداؤه برسول الله ﷺ ، لغاية قبحه « وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا » أى وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة . أى ذكر أمره

ونهيه ووعده ووعيده. فأدرك مواطن السعادة ومهاوى الشقاوة. وعلم أن فى الثبات على قتل العدوّ ، تطهير الأرض من الفساد ، وتزيينها بالحق والصلاح والسداد . مما جزاؤه سعادة الدارين ، والفوز بالحسنيين . ثم بيّن تعالى ما كان من المؤمنين المخلصين فى تلك الشدة ، بعد بيان ما كان من غيرهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا)

[٢٣] (مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا)

«وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ» أى لأنه تعالى وعدهم أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه ، فى قوله[1] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم) وكذلك حدثهم الرسول صلوات الله عليه بالابتلاء والامتحان الذى يعقبه النصر والأمان «وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ» أى ظهر صدقهما فيما وعدانا به «وَمَا زَادَهُمْ» أى هذا الخطب والبلاء، عند تزلزل المنافقين وبث أراجيفهم «إِلَّآ إِيمَٰنًا» أى بالله ورسوله ومواعيدهما «وَتَسْلِيمًا» أى لأمر الله ومقاديره «مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ» فى الصبر والثبات ، والقيام بما كتب عليهم من القتال ، لإعلاء كلمة الحق ، ومن العمل بالصالحات ، ومجانبة السيئات «فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ» أى أدّى ما التزمه ووفى به ، فقاتل مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، صادقا حتى قتل شهيدا .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الشهاب : أصل معنى (النحب) النذر . وقضاؤه الوفاء به . وقد كان رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا شهدوا معه ﷺ حربا ، قاتلوا حتى يستشهدوا . وقد استعير (قضاء النحب) للموت ، لأنه لكونه لا بد منه ، مشبّه بالنذر الذى يجب الوفاء به . فيجوز أن يكون هنا حقيقة ، أو استعارة مع المشا كلة فيه . انتهى .

« وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ » أى ما وعد الله به من نصره والشهادة على ما مضى عليه أصحابه « وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا » أى ما غيروا شيئا من العهد ، ولا نقضوه كنقض المنافقين فى قولهم (وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّـهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ)[1] ففيه كناية تعريضية تفهم من تخصيصهم به . والتصريح بالمصدر لإفادة العموم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)

[٢٥] (وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ، وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

« لِّيَجْزِىَ ٱللَّـهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ » أى فى عهودهم « بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّـهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً * وَرَدَّ ٱللَّـهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ » أى مع كمال غضبهم بما أرسله من الريح والجنود ، بفضله ورحمته « لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا » أى نصراً ولا غنيمة « وَكَفَى ٱللَّـهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ » أى فلم يحوجهم إلى مبارزتهم ليجلوهم عن المدينة . بل تولى كفاية ذلك وحده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده « وَكَانَ ٱللَّـهُ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥] .

قَوِيًّا » أى فلا يعارض قوته قوة شيء « عَزِيزًا » أى غالبا على أمره

(ذكر تفصيل نبأ الأحزاب المسمى بغزوة الخندق)

قال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : كانت غزوة الخندق فى سنة خمس من الهجرة ، فى شوّال على أصح القولين. إذ لا خلاف أن أُحُداً كانت فى شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ فى العام المقبل وهى سنة أربع . ثم أخلفوه لأجل جدب السنة ، فرجعوا . فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه . هذا قول أهل السير والمغازى . وخالفهم موسى بن عقبة وقال : بل كانت سنة أربع . قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذى لاشك فيه . واحتج عليه بحديث ابن عمر فى الصحيحين[1] أنه عرض على النبيّ ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه . ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . قال: وصحّ أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة . وأجيب عن هذا بجوابين: أحدهما ـ أن ابن عمر أخبر أن النبيّ ﷺ ردّه لما استصغره عن القتال ، وأجازه لما وصل إلى السن التى رآه فيها مطيقا . وليس فى هذا ما ينفى تجاوزها بسنة أو نحوها . والثانى ـ أنه لعله كان يوم أُحُد فى أول الرابع عشرة . ويوم الخندق فى آخر الخامس عشرة .

ثم قال ابن القيّم رحمه الله : وكان سبب غزوة الخندق ، أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد، وعلموا بميعاد أبى سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل ، خرج أشرافهم كسلام بن أبى الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة. يحرّضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوالونهم عليه. ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم. فأجابتهم قريش. ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم . ثم طافوا فى قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك . فاستجاب لهم من استجاب . فخرجت

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٢٩٥ وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث رقم ٩١ (طبعتنا) .

قريش وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف . ووافاهم بنو سليم بمرّ الظهران . وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة . وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن . وكان قد وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف . فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسىّ بحفر خندق يحول بين العدوّ وبين المدينة . فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون . وعمل بنفسه فيه وبادروا . وهجم الكفار عليهم . وكان فى حفره من آيات نبوّته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به . وكان حفر الخندق أمام سلع . وسلع جبل خلف ظهور المسلمين . والخندق بينهم وبين الكفار . وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين . فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم .

وقال ابن إسحاق : خرج فى سبعمائة . (وهذا غلط من خروجه يوم أُحُد) .

وأمر النبىّ ﷺ بالنساء والذرارىّ فجعلوا فى آطام المدينة. واستخلف عليها ابن أم مكتوم وانطلق حيىّ بن أخطب إلى بنى قريظة . فدنا من حصنهم . فأبى كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل عليه قال : لقد جئتكم بعزّ الدهر . جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها ، لحرب محمد . قال : قال كعب: جئتنى ، والله! بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه . فهو رعد وبرق . فلم يزل به حتى نقض العهد الذى بينه وبين رسول الله ﷺ . ودخل مع المشركين فى محاربته ، فسرّ بذلك المشركون . وشرط كعب على حيىّ أنه ، إن لم يظفروا بمحمد ، أن يجىء حتى يدخل معه فى حصنه ، فيصيبه ما أصابه . فأجابه إلى ذلك ، ووفى له به . وبلغ رسول الله ﷺ خبر بنى قريظة ونقضهم للعهد .فبعث إليهم السعدين وخَوّات ابن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أو قد نقضوه . فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون ، وجاهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ . فانصرفوا عنهم ، ولحنوا لرسول الله ﷺ لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا . فعظم ذلك على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين .

واشتدالبلاء وتجهر النفاق. واستأذن بعض بنى حارثة رسول الله ﷺ فى الذهاب إلى المدينة وقالوا : بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً . وهمّ بنو سلمة بالفشل. ثم ثبّت الله الطائفتين . وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً . ولم يكن بينهم قتال . لأجل ما حال الله به من الخندق. بينهم وبين المسلمين. إلاأن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدودّ وجماعة معه ، أقبلوا نحو الخندق . فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكانا ضيقـــا من الخندق فاقتحموه . وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع . ودعوا إلى البراز . فانتدب لعمروٍ علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فبارزه فقتله الله على يديه. وكان من شجعان المشركين وأبطالهم . وانهزم الباقون إلى أصحابهم . وكان شعار المسلمين يومئذ (حم لا ينصرون) ولما طالت هذه الحال على المسلمين ، أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُيَيْنة بن حصن والحارث بن عوف ، رئيسىْ غطفان على ثلث ثمار المدينة ، وينصرفا بقومهما. وجرت المراوضة على ذلك. فاستشار السعدين فى ذلك فقالا: يارسول الله! إن كان الله أمرك بهذا ، فسمعاً وطاعة . وإن كان شىء تصنعه لنا ، فلا حاجة لنا فيه . لقد كنا نحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أوبيعا . فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا؟ والله ! لا نعطيهم إلا السيف . فصوّب رأيهما وقال : إنما هو شىء أصنعه لـكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل ، وله الحمد ، صنع أمرا من عنده . خذل به بين العدوّ وهزم جموعهم، وفلَّ حَدّهم . فـكان مما هيأ من ذلك ، أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر، رضى الله عنه ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنى قد أسلمت. فمرنى بمـــا شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد . فخذّل عنا ما استطعت : فإن الحرب خدعة . فذهب من فوره ذلك إلى بنى قريظة ، وكان عشيراً لهم

فى الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بنى قريظة! إنكم قد حاربتم محمدا. وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمدا، فانتقم منكم . قالوا : فما العمل ؟ يا نعيم ! قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى . ثم مضى على وجهه إلى قريش . قال لهم : تعلمون ودّى لكم ونصحى لكم . قالوا : نعم قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه . وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم . فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوّال، بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخفّ . فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا ، فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت قريش صدقكم ، والله ! نعيم . فبعثوا إلى يهود : إنا ، والله ! لا نرسل إليكم أحدا . فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا. فقالت قريظة: صدقكم، والله ! نعيم. فتخاذل الفريقان: وأرسل الله عز وجل على المشركين جندا من الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قِدْرا إلا كفأتها، ولا طُنُباً إلا اقلعته ، ولا يقر لهم قرار. وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف . وأرسل رسولُ الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم برحيل القوم. فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ردّ الله عدوّه بغيظه ، لم ينالوا خيرا وكفى الله قتالهم . فصدق وعده . وأعز جنده ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده .

ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدا منصورا والمسلمون معه، ووضعوا السلاح، وكانت الظُّهر، أتى جبريلُ النبيّ ﷺ فقال: إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ـ وهم قبيلة من يهود خيبر ـ فإنى عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا فأذن فى

الناس : من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . وقدّم رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، برايته إلى بنى قريظة. وابتدرها الناس. فسار عليّ ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ. فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق . فقال : يارسول الله ! لاعليك أن لاتدنو من هؤلاء الأخابث . قال : لِمَ ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى . قال : نعم . يارسول الله ! قال : لورأونى لم يقولوا من ذلك شيئا. وتلاحق به الناس، وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب . ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس فقالوا : يارسول الله! صلى الله عليك وسلم. إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت .

وقد كان رسول الله ﷺ ، قبل بنى قريظة ، قد حاصر بنى قينقاع وهم شعب من اليهود كانوا بالمدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أُبىّ ابن سلول فوهبهم له .

فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون، يامعشر الأوس! أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رُفيدة فى مسجده، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه فى خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكّمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار .

وكان رجلا جسيما جميلا . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم . فقاموا إليه فأنزلوه .

قال ابن كثير : إعظاماً وإكراماً ، واحتراماً له ، في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس ، قال له رسول الله ﷺ : إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك. فاحكم فيهم بما شئت. وصارت تعرّض له الأوس أن يحسن إليهم، وتقول : ياأبا عمرو! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال رضي الله عنه : عليكم عهد الله وميثاقه ، أنّ الحكم فيهم لما حكمتُ . قالوا : نعم . قال : وعلى من هٰهنا (في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالًا له) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسبى الذراريّ والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وفي رواية: لقد حكمت بحكم الملك (أي لأن هذا جزاء الخائن الغادر) وكان سعد أصيب يوم الخندق. رماه رجل من قريش يقال له ابن العَرِقة . رماه في الأكحل .

فكواه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكحله . وقال سعد: اللهم ! إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها : فإنه لاقوم أحب إليّ أن أجاهد ، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعل لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم ، طلباً من تلقاء أنفسهم .

ثم لما استنزلوا من حصونهم ، حبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دارٍ. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حُيَيّ بن أخطب وكعبُ ابن أسد رأسُ القوم . وهم ستمائة أو سبعمائة . وسُبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا ماذكره تعالى من أمر بني قريظة ، إثر أمر الخندق بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)

[٢٧] (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا)

[٢٨] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

« وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم » أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم « مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى قريظة . وهم طائفة من اليهود ، كان نزل آباؤهم الحجاز لما فرّوا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات فى أطراف البلاد «مِن صَيَاصِيهِمْ» أى حصونهم وآطامهم التى كانوا فيها «وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ» أى الخوف، جزاء وفاقاً.

قال ابن كثير : لأنهم كانوا مالئوا المشركين على حرب النبيّ صلى الله عليه وسلم ـ وليس من يعلم كمن لا يعلم ـ وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا فى الدنيا . فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم القتال ، لما انشمر المشركون وراحوا بصفقة المغبون . فكما راموا العز ذلوا . وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا . ولهذا قال تعالى « فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا » يعنى قتل الرجال المقاتلة ، وسبى الذراريّ والنساء .

روى الإمام أحمد[1] عن عطية القرظىّ قال: عُرِضتُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكّوا فىّ. فأمر بى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينظروا: هل أنبتّ بعد؟ فنظرونى فلم يجدونى أنبتّ . فخلّى عنى ، وألحقنى بالسبى .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ)

وكذا رواه أهل السنن كلهم : وقال الترمذىّ : حسن صحيح « وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ » حصونهم «وَأَمْوَٰلَهُمْ» أى نقودهم وأثاثهم ومواشيهم «وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا» أى أرضا لم تقبضوها بعد ، يعنى خيبر ، وقيل مكة . رواه مالك عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم، وقال[1] ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مرادا. قال الزمخشرىّ: ومن بدع التفاسير أنه أراد نساءهم . وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها ، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب . قال بعضهم : يالله ! ماأسوأ عاقبة الطيش ! فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح. فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم . وهذا ما حصل لليهود فى الحجاز. فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر . ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسداً منهم وبغياً . فتمّ عليهم ماتم. سنة الله فى المفسدين. فإن الله لايصلح أعمالهم «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا » أى وقد شاهدتم بعض مقدوراته فاعتبروا بغيرها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى السعة والتنعم فيها «وَزِينَتَهَا» أى زخارفها « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ » أى أعطكن المتعة وأطلقكن. والمتعة ما يعطى للمرأة المطلّقة على حسب السعة والإقتار . من ثياب أو دراهم أو أثاث ، تطوعا لا وجوبا. وقوله تعالى« سَرَاحًا جَمِيلًا » أى طلاقا من غير ضرار ولا بدعة . وقد روى أنهن سألن النبىّ ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة مما ليس عنده . فنزلت الآية . ولما نزلت ، بدأ ﷺ بعائشة رضى الله عنها . وكانت أحبهن إليه . فخيّرها وقرأ عليها القرآن ، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة . ثم اختار جميعُهن اختيارها . قيل : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن. ثم صفية بنت حُيَىّ النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن.

(١) انظر الصفحة ١٥٥ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

لطيفة :

قال الرازيّ: وجه التعلق، وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين : التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله . وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : الصلاة وما ملكت أيمانكم . ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيّه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله، بقوله[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّـهَ) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة . وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولذا قدمهن في النفقة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

[٣٠] (يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا)

«وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّـهَ وَرَسُولَـهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ» أي تردن رسوله . قال أبو السعود: وذكر الله عز وجل، للإيذان بجلالة محله عليه السلام ، عنده تعالى « فَإِنَّ ٱللَّـهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً » أي لا يقدر قدره. ولما خيّرهن النبيّ ﷺ ، واخترن الله ورسوله، أدبهن الله وهددهن ، للتوقي عما يسوء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويقبح بهن من الفاحشة. وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى « يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ» أي بيّن الشرع والعقل قبحها . إن قرئ بالفتح . أو مبيِّنة قبحها بنفسها من غير تأمل ، إن قرئ بالكسر « يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » أي ضعفي عذاب غيرهن. قال القاضي: لأن الذنب منهن أقبح . فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ، ولذلك جعل حدّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

الحرّ ضعف حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم « وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا »
لعموم قدرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

[٣٢] (يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ، إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)

[٣٣] (وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ، وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

« وَمَن يَقْنُتْ » أى يدم مطيعا « مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى فى إتيان الواجبات وترك المحرمات والمكروهات « وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » أى مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة « وَأَعْتَدْنَا لَهَا » أى زيادة على أجرها المضاعف فى الجنة ، أو فيها وفى الدنيا « رِزْقًا كَرِيمًا » أى حسنا مرضيًا « يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ » أى عند مخاطبة الناس . أى فلا تجبْنَ بقول لكن لينا خنثا ، مثل كلام المريبات والمومسات « فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ » أى ريبة وفجور « وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا » أى بعيدا من طمع المريب بجدّ وخشونة ، من غير تخنيث . أو قولا حسنا مع كونه خشنا « وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ » أى اسكنّ ولا تخرجن منها . من (وقر يقر وقارا) إذا سكن . أو من (قرّ

يقر من باب ضرب) حذفت الأولى من راءى (اقررن) ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغنى عن همزة الوصل . ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح . من (قررت أقر) من باب علم . وهى لغة قليلة « وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ » أى تبرج النساء أيام جاهلية الكفر الأولى. إذ لا دين يمنعهم ولا أدب يزعهم . والتبرج ، فسّر بالتبختر والتكسّر فى المشى . وبإظهار الزينة ومايستدعى به شهوة الرجل. وبلبس رقيق الثياب التى لا توارى جسدها. وبإبداء محاسن الجيد والقلائد والقرط . وكل ذلك مما يشمله النهى، لما فيه من المفسدة والتعرّض لكبيرة.

فائدة ـ قيل (الْأُولَى) بمعنى القديمة مطلقا من غير تقييد بزمن . فيستدل بذلك لمن قال: إن الأول لا يستلزم ثانيا .

قال فى (الإكليل) : وهو الأصح عند العلماء . فلو قال : أول ولد تلدينه فأنت طالق ، لم يحتج إلى أن تلد ثانيا . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : الأولى هى القديمة التى يقال لها الجاهلية الجهلاء . من الزمن الذى ولد فيه إبراهيم ، أو ما قبله، إلى زمن عيسى . والجاهلية الأخرى مابين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام . ويعضّده ما روى[1] أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذرّ ، لما عيّر رجلا بأمه وكانت أعجمية : إنك امرؤ فيك جاهلية . والمعنى نهيهن عن إحداث جاهلية فى الإسلام ، تشبه جاهلية الكفر قبله « وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ » أى بموافقة أمرهما ونهيهما. ثم أشار إلى أن مخالفتهما رجس لا يناسب فضل أهل البيت بقوله « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » أى ما أمركنّ ونهاكنّ ، ووعظكنّ، إلا خيفة مقارفة المآثم والحرص على التصوّن عنها بالتقوى. فالجملة تعليلية لأمرهنّ ونهيهن على سبيل الاستئناف .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٢ ـ باب المعاصى من أمر الجاهلية، حديث رقم ٢٨ .

قال الزمخشريّ . استعار للذنوب (الرجس) وللتقوى (الطهر) . لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات فالعرض معها نقيّ مصون كالثوب الطاهر . وفى هذه الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه . ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به . و (أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) نصب على النداء أو على المدح . والمراد بهم مَن حواهم بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير : وهـــذا نص فى دخول أزواج النبيّ ﷺ فى أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا . إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وأما قول عكرمة، إنها نزلت فى نساء النبيّ ﷺ خاصة، ومن شاء باهلته فى ذلك ، فإن كان المراد أنهن كنّ سبب النزول دون غيرهن ، فصحيح . وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففى هذا نظر. فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك. وأنه ﷺ[1] جمع عليّا وفاطمة والحسن والحسين ، ثم جللهم بكساء كان عليـــه . ثم قال : هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس . وقد ساق ابن كثير طرق هذا الحديث ومخرجيه . إلا أن الشيخين لم يصححاه، ولذا لم يخرجاه. وأما ما رواه مسلم[2] عن حصين بن سبرة، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، أيها الناس ! إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولها كتاب الله ، فيه الهدى والنور .فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغّب فيه. ثم قال: وأهل بيتى . أذكّركم الله فى أهل بيتى . قالها ثلاثا . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولـكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضى الله عنهم ـ

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٦٠ ـ باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا)

فإنما مراد زيد، آله الذين حرموا الصدقة. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله.

قال ابن كثير : وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بين القرآن والأحاديث المتقدمة، إن صحت. فإن فى بعض أسانيدها نظراً. انتهى .

وقال أبو السعود : وهذه كما ترى آية بينة ، وحجة نيرة ، على كون نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعليّ وابنيهما رضوان الله عليهم. وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته صلى الله عليه وسلم الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتدّ بها ، لكونها فى مقابلة النص . انتهى .

بقى أن الشيعة ، تمسكوا بالآية أيضا على عصمة عليّ رضى الله عنه ، وإمامته دون غيره .

قال ابن المطهر الحلى منهم : وفى هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ (إنما) وإدخال اللام فى الخبر ، والاختصاص فى الخطاب بقوله (وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) وغيرهم ليس بمعصوم الخ . وأجاب ابن تيمية رحمه الله فى (منهاج السنة) بقوله : ليس فى هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك فى مقامين: أحدهما ـ أن قوله[1] (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) كقوله[2] (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) وكقوله[3] (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وكقوله[4] (يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) فإن إرادة الله فى هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد ورضاه به، وأنه شرعه

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٦] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٥] . (٤) [٤ / النساء / ٢٦و٢٧] .

للمؤمنين وأمرهم به . ليس فى ذلك أنه خلق هذا المراد ، ولا أنه قضاه وقدّره، ولاأنه يكون لامحالة. والدليل على ذلك، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيةقال (اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير. فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، لم يحتج إلى الطلب والدعاء .

وهذا على قول القدرية أظهر . فإن إرادة الله عندهم لاتتضمن وجود المراد ، بل قد يريد مالا يكون ويكون مالا يريد . فليس فى كونه تعالى مريداً لذلك ، ما يدل على وقوعه .

وهـذا الرافضيّ وأمثاله قدرية ، فكيف يحتجون بقوله (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ) على وقوع المراد ؟ وعندهم أن الله قد أراد إيمان مَن على وجه الأرض. فلم يقع مراده. وأما على قول أهل الإثبات، فالتحقيق فى ذلك أن الإرادة فى كتاب الله نوعان : إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه . وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره. الأولى مثل هؤلاء الآيات. والثانية مثل قوله تعالى[1] (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) وقول نوح[2] (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) وكثيرمن المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعا واحدا، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحدا. ثم القدرية ينفون إرادته لما بيّن أنه مراد فى الآيات التشريع. فإنه عندهم كل ماقيل إنه مراد. فلا يلزم أن يكون كائناً، والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم. وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب. وفيهم من تطهر وفيهم من لم يتطهر. وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه . ومما يبيّن ذلك، أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم مذكورات فى الآية. والكلام فى الأمر بالتطهير بإيجابه

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٥] . (٢) [١١ / هود / ٣٤] .

ووعد الثواب على فعله والعقاب على تركه . قال تعالى[١] (يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا) إلى قوله[٢] (وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فالخطاب كله لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعهن الأمر والنهي والوعد والوعيد. لكن لما تبيّن ما فى هذا من المنفعة التى تعمّهن وتعمّ غيرهن من أهل البيت ، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصا بأزواجه . بل هو متناول لأهل البيت كلهم. وعليّ وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك. ولذلك خصهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالدعاء لهم. وهذا كما أن قوله[٣] (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) نزلت بسبب (مسجد قباء) لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك ، وهو (مسجد المدينة) وهذا يوجه ما ثبت فى الصحيح[٤] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجدى هذا . وثبت عنه فى الصحيح[٥] أنه كان يأتى قباء كل سبت ماشيا وراكبا. فكان يقوم فى مسجده يوم الجمعة ويأتى قباء يوم السبت. وكلاهما مؤسس على التقوى. وهكذا أزواجه . وعليّ وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أخص بذلك من أزواجه. ولهذا خصهم بالدعاء . وقد تنازع الناس فى آل محمد من هم ؟ فقيل : أمته . وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم . وقيل : المتقون من أمتة . ورووا حديثا (آل محمد كل مؤمن

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٨] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٤ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه البخاريّ فى : ٢٠ ـ كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٣ ـ باب من أتى مسجد قباء كل سبت ، حديث ٦٤٧ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعتنا) .

تقى) رواه الخلال ، وتمام فى (الفوائد) له . وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم . وهو حديث موضوع . وبنى على ذلك طائفة من الصوفية . أن آل محمد هم خواص الأولياء . كما ذكر الحكيم الترمذىّ . والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته . وهذا هو المنقول عن الشافعىّ وأحمد . وهو اختيار الشريف أبى جعفر وغيرهم . لكن هل أزواجه من أهل بيته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . أحدهما ـ أنهن لسن من أهل البيت. ويروى هذا عن زيد ابن أرقم . والثانى ـ وهو الصحيح أن أزواجه من آله . فإنه قد ثبت فى الصحيحين[1] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه علمهم الصلاة عليه: اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته. ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته . وامرأة لوط من آله وأهل بيته . بدلالة القرآن . فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته ؟ ولأن هذه الآية تدل على أنهن من أهل بيته ، وإلا لم يكن لذكر ذلك فى الكلام معنى. وأما الأتقياء من أمته فهم أولياؤه. كما ثبت فى الصحيح[2] أنه قال : إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء ، وإنما ولي الله وصالح المؤمنين . فبيّن أن أولياءه صالح المؤمنين . وكذلك فى حديث آخر : إن أوليائى المتقون حيث كانوا وأين كانوا . وقد قال تعالى[3] (وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّـهَ هُوَ مَوْلَـٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وفى الصحاح[4] عنه أنه قال : وددت أنى رأيت إخوانى . قالوا : أو لسنا إخوانك ؟ قال :

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٠ ـ باب حدثنا موسى بن إسماعيل حديث ١٥٩٠ ، عن أبى حميد الساعدىّ .

ومسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٦٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ١٤ ـ باب يبلّ الرحم ببلالها ، حديث ٢٣١٥ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم فى ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٦ .

(٣) [٦٦ / التحريم / ٤] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا) .

بل أنتم أصحابى ، وإخوانى قوم يأتون من بعدى يؤمنون بى ولم يرونى . وإذا كان كذلك ، فأولياؤه المتقون ، بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى . وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية . والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان . ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون . وأما أقاربه ففيهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر . فإن كان فاضل منهم ، كعلىّ رضى الله عنه وجعفر والحسن والحسين ، ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى . وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لابمجرد النسب . فأولياؤه أعظم درجة من آله . وإن صلى على آله تبعا ، لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه . الذين لم يصلّ عليهم . فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه . وهم أفضل من أهل بيته . وإن لم يدخلوا فى الصلاة معه تبعا ، فالمفضول قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل. ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلى عليه كما ثبت ذلك فى الصحيحين . وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهن كلهن . فإن قيل : فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس ، لكن دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على وقوعه . فإن دعاءه مستجاب . قيل : المقصود أن القرآن لايدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس ، فضلا عن أن يدل على العصمة والإمامة. وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر. ثم نقول فى المقام الثانى: هب أن القرآن دلّ على طهارتهم وعلى ذهاب رجسهم، كما أن الدعاء المستجاب لابد أن يستحق معه طهارة المدعوّ لهم وإذهاب الرجس عنهم . لكن ليس فى ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ. والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم أن لايصدر من واحدة منهن خطأ. فإن الخطأ مغفور لهن ولغيرهن. وسياق الآية يقتضى أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذى هو الخبث . كالفواحش ويطهرهم تطهيرا من الفواحش وغيرها من الذنوب. والتطهير من الذنب على وجهين، كما فى قوله(١) (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) وقوله(٢) (إِنَّهُمْ

(١) [٧٤ / المدثر / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٢] و [٢٧ / النمل / ٥٦] .

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فإنه قال فيها[1] (مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) والتطهير من الذنب إما بأن لا يفعله العبد ، وإما بأن يتوب منه كما فى قوله[2] (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة . فإنه يتضمن نهيه عن الفاحشة ، لا يتضمن الإذن فيها بحال . لكن هو سبحانه ينهى عنها ، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها . وفى الصحيح[3] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم ! باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب . واغسلنى بالثلج والبرَد والماء البارد . اللهم ! نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . وبالجملة ، لفظ (الرجس) أصله القذر . ويراد به الشرك . كقوله[4] (فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ) ويراد به الخبائث المحرّمة ، كالمطعومات والمشروبات كقوله[5] (قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا) وقوله[6] (إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ) وإذهاب ذلك إذهاب لكله . ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث . ولفظ (الرجس) عامّ يقتضى أن الله يذهب جميع الرجس . فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم دعا بذلك . وأما قوله (وطهرهم تطهيرًا) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة . وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق فيكتفى فيه بفرد من أفراد الطهارة . ويقول مثل ذلك فى قوله[7] (فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٨٩ ـ باب مايقول بعد التكبير ، حديث ٤٥٤ ، عن أبى هريرة

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا)

(٤) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٥) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٦) [٥ / المائدة / ٩٠] . (٧) [٥٩ / الحشر / ٢] .

ٱلْأَبْصَٰرِ) ونحو ذلك. والتحقيق أنه أمر بمسمى الاعتبار الذى يقال عند الإطلاق . كما إذا قيل: أكرم هذا ، أى افعل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً . وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً . والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر فى قصةٍ ، وترك ذلك فى نظيرها . وكذلك لا يقال (هو طاهر) أو (متطهر) أو (مطهر) إذا كان متطهراً من شىء ، متنجساً بنظيره. ولفظ (الطاهر) كلفظ (الطيب) قال تعالى[1] (وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ) كما قال[1] (ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ) وقد روى أنه قال لعمّار : ائذنوا له. مرحبا بالطيب المطيب . وهذا أيضاً كلفظ (المتقى) و (المزكى) قال تعالى[2] (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا *وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)وقال[3](خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) وقال[4] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) وقال[5] (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ)وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب ، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب. فإن هذا، لوكان كذلك، لم يكن فى الأمة متّقٍ، بل من تاب من ذنوبه دخل فى المتقين . كما قال[6] (إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) فدعاء النبىّ صلى الله عليه وسلم بأن يطهرهم تطهيراً ، كدعائه بأن يزكيهم ويطيبهم ويجعلهم متقين، ونحو ذلك ومعلوم أن من استقرّ أمره على ذلك ، فهو داخل فى هذا . لا تكون الطهارة التى دعا بها لهم بأعظم مما دعا به لنفسه . وقد قال[7]: اللهم ! طهرنى من خطاياى بالثلج والبرَد والماء البارد.

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩ ، ١٠] .
(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٤) ٨٧ / الأعلى ١٤] .
(٥) [٢٤ / النور / ٢١] . (٦) [٤ / النساء / ٣١] .
(٧) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٤ (طبعتنا) عن عبد الله بن أبى أوفى .

فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً ، فقد طهره الله منـــه تطهيراً . ولـكن من مات متوسخاً بذنوبه ، فإنه لم يطهر منها فى حياته . وقد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة التى هى أوساخ الناس . والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ، إذا دعا بدعاء ،أجابه الله بحسب استعداد المحل . فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، لم يلزم أن لايوجد مؤمن مذنب ، فإن هذا، لوكان واقعا، لما عُذِّبَ مؤمن، لافى الدنيا ولا فى الآخرة . بل يغفر الله لهذا بالتوبة، ولهذا بالحسنات الماحية. ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة، وإن واحدة بأخرى ، وبالجملة، فالتطهير الذى أراده الله والذى دعابه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ليس هو العصمة بالاتفاق، فإن أهل السنة عندهم ، لامعصوم إلا النبي صلى الله عليه وسلم . والشيعةُ يقولون : لامعصوم غير النبىّ صلى الله عليه وسلم والإمام. فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبىّ صلى الله عليـه وسلم والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعوّ به للأربعة ، متضمنا للعصمة التى يختص بها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والإمام عندهم . فلا يكون دعاء النبىّ صلى الله عليه وسلم له بهذا، العصمة، لا لعلىّ ولا لغيره . فإنه دعا لأربعة مشتركين،لم يختص بعضهم بدعوة، وأيضا فالدعاء بالعصمة من الذنوب ممتنع على أصل القدرية . بل وبالتطهير أيضاً. فإن الأفعال الاختيارية التى هى فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غـير مقدورة للرب . ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصيا . ولا متطهراً من الذنوب ولا غير متطهر . فامتنع على أصلهم أن يدعو لأحد بأن يجعله فاعلا للواجبات تاركا للمحرمات . وإنما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر . كالسيف الذى يصلح لقتل المسلم والـكافر . والمـــال الذى يمكن إنفاقه فى الطاعة والمعصية، ثم العبد يفعل باختياره، إما الخير وإما الشر بتلك القدرة . وهذا الأصل يبطل حجتهم، والحديث حجة عليهم فى إبطال هذا الأصل، حيث دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم بالتطهير . فإن قالوا : المراد بذلك أنه يغفر لهم ولا يؤاخذهم ، كان ذلك أدل على البطلان من دلالته على العصمة . فتبيّن أن الحديث لاحجة لهم فيــه بحالٍ على ثبوت العصمة . والعصمةُ

مطلقا التى هى فعل المأمور وترك المحظور ، ليست مقدورة عندهم لله، ولا يمكنه أن يجعل أحدا فاعلا لطاعةٍ ولا تاركا لمعصيةٍ . لا لنبيّ ولا لغيره . ويمتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش يطيعه باختيار نفسه ، لا بإعانة الله وهدايته. وهذا مما يبين تناقض قولهم فى مسائل العصمة. كما تقدم . ولو قدر ثبوت العصمة ، فقد قدمنا أنه لايشترط فى الإمام العصمة ، والإجماع على انتفاء العصمة فى غيرهم . وحينئذ تبطل حجتهم بكل طريق . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)

«وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ» أمر لهنّ بأن يذكرن ولا يُغفلن ما يقرأ فى بيوتهن من آيات كتابه تعالى ، وسنة نبيّه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتها وقوام الآداب والأخلاق . وذكر ذلك مستوجب لتصوّر عظمته ومكانته وثمرة منفعته . وذلك يجرّ إلى العمل به . فمن تأوّل (اُذْكُرْنَ) باعملن به ، أراد ذلك تعبيراً عن المسبب باسم السبب . وجوّز أن يكون المعنى : اذكرن هـذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوّة ومهبط الوحى، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة، حثًّا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه. قال أبو السعود: والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها، مع كونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير. بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلاوتهن وتلاوة غيرهن، تعليما وتعلما « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا» أى يعلم ويدبر مايصلح فى الدين . ولذلك أمر ونهى .

[٣٥] (إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ » أى المنقادين فى الظاهر لحكم الله من الذكور والإناث « وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى المصدقين بما يجب أن يصدق به فى القلب « وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ » أى بإدامة شغل الجوارح فى الطاعات « وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ » فى القول بمجانبة الكذب والعمل بتجريد الإخلاص لوجهه تعالى فلا يكون فى طاعتهم رياء « وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ » أى على البأساء والضراء والنوائب، وعلى القيام بالعبادة والثبات عليها « وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ » أى المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم . و (الخشوع) السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف منه تعالى ومراقبته « وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ » أى بالإحسان إلى الفقراء والبؤساء الذين لا كسب لهم ولا كاسب. فيعطون من فضول أموالهم طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وإتماماً للخشوع « وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ » أى الآتين بما طلب منهم من الصيام المورث للتقوى والرحمة على من يتضور جوعا ويتصبر فقراً « وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ » أى عن إبدائها وإراءتها ، حياء وكفًّا عن مثار الشهوة المحرمة أو عن الحرام والفجور « وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ » أى بقلوبهم وألسنتهم « أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً » أى بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفراناً لما اقترفوا من الصغائر لأنها مكفرة بذلك « وَأَجْرًا عَظِيماً » أى ثواباً وافراً فى الجنة ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا)

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » أى ما صح لهما « إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» أى قضى الله ورسوله فى أنفسهم قضاء، أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قضى فيهم ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما ويعصوهما ، لما فى ذلك من المأثم ، كما قال تعالى « وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فيما أمرا أو نهيا « فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا » أى جار عن قصد السبيل ، وسلك غير الهدى والرشاد . وقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة. فأبت لكونه مولى لا يماثلها فى الشرف . فنزلت الآية فرضيت وتزوجها .

قال المهايمىّ : الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب . ويحتمل أن تكون لا بطريق الوجوب ، لكن اعتبار العار فى مقابلة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية ، لما فيه من ترجيح قول أهل العرف على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه قول الله بالحقيقة . اهـ .

وقال بعضهم : إنما عدّ التنزيل إباءها عصيانا ، وكأنه أرغمها على زواجه ، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك . وهو هدم تحريم زوجة المتبنّى، الفاشى فى الجاهلية . كما سيأتى سياقه .

وذكر أيضاً أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وكانت أول من هاجر من النساء ـ بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فزوجها زيدا ـ أى بعد فراقه زينب ـ فسخطت ، فنزلت الآية ، فرضيت . وروى الإمام أحمد[١] عن أنس قال :

(١) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

خطب النبيّ صلى الله عليه وسلم على جليبيب رضى الله عنه ، امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستأمر أمها . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : نعم إذاً . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فأبت أشد الإباء. فقالت الجارية : أتريدون أن تردّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم، فأنكحوه . قال : فكأنها جلت عن أبويها وقالا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنتَ رضيتَه فقد رضيناه . قال ﷺ : فإنى قد رضيته. قال: فزوجها . ثم ذهب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غزاة، فقتل. ورُئِيَ حوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس : فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت فى المدينة (وفى رواية : فما كان فى الأنصار أيّم أنفق منها) .

وذكر الحافظ ابن عبد البرّ فى (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت فى خدرها : أتردّون على رسول الله ﷺ أمره ، نزلت هذه الآية[1] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) الخ .

ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره ، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه ، الآتية ، يؤيد أنها نزلت فى زوجه زينب، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجليلة .

وقد قدمنا مراراً أن معنى قولهم (نزلت الآية فى كذا) أنها مما تشمله لعموم مساقها . ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ له هذه الآية .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول . كما قال تبارك وتعالى[2] : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفى الحديث : والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . ولهذا شدّد فى خلاف ذلك فقال[3] (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ و

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . (٢) [٤ / النساء / ٦٥] .
(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا) كقوله تعالى[١] (فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

لطائف :

الأولى ـ قالوا على الروايات السالفة : إن ذكر الله فى الآية ، مع أن الآمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، للدلالة على أنه بمنزلة من الله ، بحيث تعد أوامره أوامر الله تعـالى . أو أنه لمـا كان ما يفعله بأمره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، ذكرت الجلالة وقدمت للدلالة على ذلك . انتهى .

وهـذا وقوف مع ما روى . وإلا فظاهر الآية يعم ما إذا قضى الله فى كتابه ، ورسوله فى سنّته .

الثانية ـ (ٱلْخِيَرَةُ) هنا مصدر ، وذكروا أنه لم يجئ من المصادر على وزنه غير (طِيَرَة)

الثالثة ـ جمع الضمير الأول ـ وهو لهم ـ لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إنهما فى سياق النفى . قال الشهاب : واعتبر عمومه ، وإن كان سبب نزوله خاصا ، دفعا لتوهم اختصاصه بسبب النزول . أو ليؤذن أنه كما لا يصح ما اختاروه مع الانفراد ، لايصح مع الجمع أيضا كيلا يتوهم أن للجمعية قوة تصححه . انتهى .

وجمع الثانى ـ وهو ضمير من أمرهم ـ مع أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو له ولله تعالى ، للتعظيم . هذا ما أشار له القاضى وغيره . مع أنه لايظهر امتناع عوده على ماعاد عليه الأول ، مع ترجيحه بعدم التفكيك فيه ، على أن يكون المعنى : ناشئةً من أمرهم . والمعنى دواعيهم السابقة إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . أو المعنى الاختيار فى شيء من أمرهم ، أى دواعيهم . وردّ هـذا ، بأنه قليل الجدوى ، ضرورةَ أن الخيرة ناشئة من دواعيهم .. أو واقعة فى أمورهم . وهو بيّن مستغن عن البيان . بخلاف ما إذا كان المعنى بدل

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

أمره الذى قضاه صلى الله عليه وسلم . أو متجاوزين عن أمره لتأكيده وتقريره للنفى . فهذا هو المانع من عوده إلى ما عاد عليه الأول .

قال الشهاب : وهو كلام حسن . ثم أشار تعالى إلى ما منّ به على المسلمين من هدم تحريم زوجة الدعىّ والمتبنَّى الذى كان فاشيا فى الجاهلية ، بما جرى بين زيد متبنَّى النبىّ صلى الله عليه وسلم وزوجه من الفراق . ثم تزويجه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إياها ، رفعاً للحرج فيه . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا)

[٣٨] (مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا)

[٣٩] (ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا)

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإسلام ومتابعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة « وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » أى بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة ، وتزويجه بنت عمتك زينب بنت جحش .

قال ابن كثير : كان سيداً كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقال له (الحِب) ويقال لابنه أسامة (الحِب ابن الحِب) قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية إلا أمّره عليهم . ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه الإمام أحمد[1] . « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » أى لا تطلقها « وَاتَّقِ ٱللَّهَ » أى اخشه فى أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذى قلبها وارعَ حق الله فى نفسك أيضا . فربما لا تجد بعدها خيراً منها . وكانت تتعظم عليه بشرفها، وتؤذيه بلسانها. فرام تطليقها متعللا بتكبرها وأذاها فوعظه صلى الله عليه وسلم وأرشده إلى الصبر والتقوى « وَتُخْفِى » أى تضمر « فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ » أى من الحكم الذى شرعه . أى تقول ذلك ، وأنت تعلم أن الطلاق لابد منه ، وأن لا منتدح عن امتثال أمر الله بنفسك ، لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك . وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه . وهذا معنى قوله تعالى « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ » أى قالتهم وتعييرهم الجاهلىّ «وَٱللَّهُ » أى الذى ألهمك ذلك وأمرك به « أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ » أى فكان عليك أن تمضى فى الأمر من أول وهلة تعجيلا بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه ، ثم زاده بيانا بقوله «فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا » أى حاجةً بالزواج « زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ » أى ضيق من العار فى نكاح زوجات أدعيائهم « إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا » أى بموت أو طلاق أو فسخ نكاح . « وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا » أى قضاؤه واقعا ، ومنه تزويجك زينب «مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ » أى مأثم وضيق « فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ » أى كتبه له من التزوج وأباحه له وسن شريعة مُثْلى فى وقوعه « سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ » أى الرسل عليهم السلام . وهو أن لا حرج عليهم فى الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره . فإنه كان لهم الحرائر والسرارى وتناول المباحات والطيبات وبهداهم

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

القدوة « وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّـهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا» أى قضاء مقضيًّا . أى لا حرج على أحد فيما أحل له . ثم وصف شأنهم بقوله « ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّـهِ » أى أحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها « وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّـهَ » أى لا يخافون قالة الناس ولا تبعتهم ولا يبالون بها فى تشريعه ولا ريب أن سيّد الناس فى هذا المقام، بل وفى كل مقام، حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام . كما علم من قيامه بالتبليغ بالقول والفعل أبلغ قيام «وَكَفَىٰ بِٱللَّـهِ حَسِيباً » أى حافظا لأعمال خلقه . وكافيا للمخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا)

« مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ» هذا دفعٌ لتعيير من جهل ، فقال: تزوج محمد زوج ابنه زيد. فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أبا لزيد على الحقيقة، لكنه ليس أبا لأحد من أصحابه، حتى يثبت بينه وبينه ، ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيدٌ واحد منهم، الذين ليسوا بأولاده حقيقة . فكان حكمه حكمهم . والادعاء والتبنى من باب الاختصاص والتقريب لا غير « وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّـهِ » أى ولكن كان رسول الله مبلغا رسالاته « وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ » بفتح التاء وكسرها ، قراءتان . أى فهذا نعته وهذه صفته . فليس هو فى حكم الأب الحقيقىّ ، وإنما ختمت النبوة به، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس فى كل زمان وكل مكان . لأن القرآن الكريم لم يدع أمًّا من أمهات المصالح إلا جلّاها، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها. فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من ادعي النبوة بعده، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين «وَكَانَ ٱللَّـهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً » أى فلا يقضى إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته .

تنبيهان فى لطائف هذه القصة وفوائدها الباهرات :

الأول ـ لم تختلف الروايات أنها نزلت فى قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش . ورواه البخارىّ[1] عن أنس فى التفسير . ورواه عنه فى التوحيد قال : جاء زيد بن حارثة يشكو . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك . وأخرجه[2] أحمد بلفظ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة . فجاءه زيد يشكوها إليه. فقال له : أمسك زوجك واتق الله . فنزلت .

وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة من طريق السّدّىّ . فساقها سياقاً حسناً واضحا ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عزوجل نبيّه صلى الله عليه وسلم بعدُ، أنها من أزواجه . فكان يستحيي أن يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب مايكون من الناس ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقى الله . وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه . وكان قد تبنى زيدا .

وعنده ، من طريق على بن زيد بن جدعان عن علىّ بن الحسين بن علىّ ، قال : أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما أتاه زيد يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال الله تعالى : قد أخبرتك أنى مزوجكها ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٦ ـ باب قوله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، حديث رقم ٢٠٣٢ .

وأخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد، ٢٢ ـ باب : وكان عرشه على الماء ، حديث رقم ٢٠٣٢

(٢) أخرجه بالصفحة ١٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) بعد نقل ماتقدم : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرىّ ، ونقلها كثير من المفسرين ، لاينبغى التشاغل بها . والذى أوردته منها هو المعتمد . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ههنا آثارا ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها ، فلا نوردها . انتهى .

الثانى ـ قال القاضى عياض رحمه الله فى (الشفا) فى بحث أقواله صلى الله عليه وسلم الدنيوية : ولايجوز عليه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أحداً بشىء أو ينهى أحدا عن شىء ، وهو يبطن خلافه وقد قال عليه السلام(١) : ما كان لنبىّ أن تكون له خائنة الأعين ، فكيف أن تكون له خائنة قلب ؟ فإن قلت : فما معنى قوله فى قصة زيد (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّـهُ عَلَيْهِ) الآية . فاعلم أكرمك الله ولا تسترب فى تنزيه النبىّ عليه السلام عن هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما فى هذا ماحكاه أهل التفسير عن علىّ بن حسين . أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه . فلما شكاها إليه زيد، قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى منه فى نفسه ماأعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها .

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهرىّ قال : نزل جبريل عليه السلام على النبىّ صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش . فذلك الذى أخفى فى نفسه ، ويصحح هذا قول المفسرين فى قوله بعد هذا (وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّـهِ مَفْعُولاً) أى لابد لك أن تتزوجها . ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها . فدل أنه الذى أخفاه عليه السلام ، مما كان

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ١ ـ باب الحكم فيمن ارتد ، حديث ٤٣٥٩ .

أعلمه به تعالى ، وقوله تعالى فى القصة (مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ) دل على أنه لم يكن عليه حرج فى الأمر. ولو كان على ماقيل من وقوعها فى قلبه، ومحبة طلاق زيد لها ، لكان فيه أعظم الحرج . وكيف يقال : رآها فأعجبته وهى بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجبن منه عليه السلام، وهو زوّجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم إياها، لإزالة حرمة التبنى وإبطال سببه. كما قال[1] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وقال (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ) قال ابن فورك : وليس معنى الخشية هنا الخوف . وإنما معناه الاستحياء . أى يستحيى منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء ، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو نزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلّه له. كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه فى سورة التحريم[2] بقوله (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) الآية. كذلك قوله هٰهنا. انتهى ملخصا .

الثالث ـ قال الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) ردّ على من استدل بمثل هذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء، ما مثاله: وأما قوله تعالى (وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ) الآية فقد أنفنا من ذلك . إذ لم يكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله تعالى به وأن ما كان أراده زواج . مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره . وإنما خشى النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس فى ذلك خوف أن يقولوا قولا ويظنوا ظنا، فيهلكوا . كما قال عليه السلام[3] للأنصاريين : إنها صفية . فاستعظما ذلك، فأخبرهما النبى صلى الله عليه وسلم أنه إنما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٩٣ ـ كتاب الأحكام ، ٢١ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء ، حديث رقم ١٠٣١

يخشى أن يلقى الشيطان فى قلوبهما شيئاً. وهذا الذى خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم ، بظن يظنونه به عليه السلام ، هو الذى يحققه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا فى هذا الباب. وكان مراد الله عز وجل أن يبدى مافى نفسه، لما كان سلف فى علمه من السعادة لأمنا زينب رضى الله عنها . انتهى .

الرابع ـ للإمام مفتى مصر رحمه الله مقالة على هذه الآية. رأيت نقلها هنا تعزيزاً لما سلف، وإيقافا من أسرار الآية على نخب ما وصف .

قال رحمه الله: نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش. وهى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة . فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ، فلما نزلت الآية قالا: رضينا يارسول الله. فأنكحها إياه. وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخماراً وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مُدًّا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر . كذا روى .

فنحن من جهة، نرى أن زينب كانت بنت عمة النبىّ صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته مايشمل البنت مع والدها لأول الأمر . حتى أنه اختارها لمولاه زوجة. مع إبائها وإباء أخيها. وعدّ إباءها هذا عصيانا. ولازالت كذلك حتى نزل فى شأنها قرآن. فكأنه أرغمها على زواجه ، لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم، لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر فى روائه، ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب . ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة. ولكنه لم يرغبها لنفسه، ورغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ لم يُعْرف فيما يغلب على مألوف البشر، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب، إلى أن تبلغ حد العشق، خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره. بل

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦]

المألوف زهادة الأقرباء بعضهم فى بعض . متى تعوّد بعضهم النظر إلى بعض ، من بداية السن إلى أن يبلغ حدًّا منه يجول فيه نظر الشهوة . فكيف يظن أو يتوهم أن النبىّ الذى يقول الله له[1] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله فى ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة ، يغلب عليه سلطان شهوةٍ فى بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟ ومن جهة أخرى نرى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو الرؤوف الرحيم ، لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة . فما كان له ـ وهو سيد المصلحين ـ أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهى لا ترضاه ، مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لا ريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق فى فهم الآية التى نحن بصدد تفسيرها . ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ، كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلا يرجع إليه فى الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعىّ جميع حقوق الابن ، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التى يعتبرونها للابن ، حتى فى الميراث وحرمة النسب وهى عقيدة جاهلية رديئة . أراد الله محوها بالإسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح . لهـــذا أنزل الله[2] (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ) ثم قال[3] (ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ) الخ فهذا العدل الإلهىّ ، أن لا ينال حقّ الابن إلا من يكون ابنا . أما المتبنَّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ فى الدين . فحرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ لمن تبناه . وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئا من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا . وشدّد الأمر حتى قال[4] (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم

(١) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] .
(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابنى . أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك . لا عن قصد التبنّى . ولـكنه لا يعفو عن العمد من ذلك ، الذى يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفا من قبل . مضت سنة الله فى خلقه ، أن ما رسخ فى النفس بحـكم العادة ، لا يسهل عليها التفصّى منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات، وأعتقه من رق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات . فلا يُطْبيه (أى يستميله) إلا الحق . ولا يحكم عليه إلف ، ولا يغلبه عرف . ذلك هو النبىّ صلى الله عليه وسلم، ومن يختصه الله بالتأسى به. لهذا، كان الأمر ، إذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه، أو أحل شيئا كانت الجاهلية تحرّمه ، بَادَرَ النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى امتثال النهى بالـكف عن المنهىّ عنه ، والإتيان بضده . وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان المأمور به ، حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخفّ وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة. نادى صلى الله عليه وسلم[1] فى حجة الوداع بحرمة الربا . وأول ربا وضعه ربا عمه العباس. حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك مالهم، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم، على هذا السنن الإلٰهىّ كان عمل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أمر زينب، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من أدعيائهم كما دل عليه قوله تعالى[1] (وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ) الخ فعمد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه . وما كان ينبغى له ، ولا من مقتضى الحـكمة، أن يكاف أحد الأدعياء الأباعد عنه، أن يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقته . فى ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشمئزاز من النفوس، ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه، لتسقط العادة بالفعل . كما ألغى حكمها بالقول الفصل. لهذا أرغم النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

زينب أن تتزوج بزيد ، وهو مولاه وصفيّه . والنبيّ يجد فى نفسه أن هـذا الزواج مقدمة لتقرير شرع، وتنفيذحكم إلهيّ. وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يَلِنْ إباؤها الأول، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها، وبأنها أكرم منه عِرْقاً وأصرح منه حرية . لأنه لم يجر عليها رقّ كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرة بعد المرة . وهو عليه السلام مع علوّ مقامه يغلبه الحياء فيتّئد ويتمكّث فى تنفيذ حكم الله ولا يعجل، فكان يقول لزيد[1] (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) إلى أن غلب أمر الله على أمر الأنفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضّه العيش معها . ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمزّق حجاب تلك العادة، ويكسر ذلك الباب الذى كان مغلقا دون مخالفتها كما قال[1] (لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأكّد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله[2] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . هذه هى الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ثم قال : وأما ماروره من أن النبيّ مرّ ببيت زيد وهو غائب، فرأى زينب، فوقع منها فى قلبه شىء، فقال : سبحان مقلب القلوب! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد، فوقع فى قلبه أن يطلقها الخ. ماحكوه ـ فقد قال الإمام أبو بكر بن العربيّ إنه لا يصح. وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم فى فهم الآية ، لم يقدروا مقام النبوّة حق قدره ، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها . وأطال فى ذلك ، وأذكر من كلامه مايؤيد ماذكرنا فى شأن هذه الروايات .

قال، بعد الكلام فى عصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب فى زمن الجاهلية. وبعد أن جاء الإسلام: وقد مهّدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد. وإنما الصحيح[3]

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

منها ماروى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبيّ صل الله عليه وسلم كاتماشيئاً من الوحي لكتم هذه الآية[١] (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ) يعنى بالإسلام (وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) فأعتقته (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) إلى قوله (وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا) وأن رسول الله لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله[٢] (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلا ، يقال له (زيد ابن محمد) . فأنزل الله[٣] (ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ) يعنى أنه أعدل عندالله قال القاضي : وما وراء هذه الآية غير معتبر . فأما قولهم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم رآها ، فوقعت فى قلبه، فباطل. فإنه كان معهافى كل وقت وموضع. ولم يكن حينئذ حجاب. فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها فى كل ساعة ولاتقع فى قلبه ، إلا إذا كان لها زوج ؟ وقد وهبته نفسها و كرهت غيره . فلم يخطر بباله. فكيف يتجدد هوى لم يكن! حاشا لذلك القلب المطهر من هـذه العلاقة الفاسدة . وقد قال سبحانه وتعالى[٤] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)والنساءأفتن الزهرات،وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا فى المطلقات . فكيف فى المنكوحات المحبوسات ؟؟

ثم ساق الكلام فى نفس الآية على حسب ماصح فى الواقعة. ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه . سبحان الله! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات، وقد علموا أن الله لم يدع لنبيّه أن يعرض عن ابن أم مكتوم، ويتصدى لصناديد قريش طمعا فى إسلامهم، حتى عاتبه على ذلك فى قوله[٥] (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ) إلى آخر الآيات، مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعدّه فى نفسه خيرا للدين ، ولم يكن رغبة فى جاه ، ولاشرها إلى مال ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .
(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٢٠ / طه / ١٣١] .
(٥) [٨٠ / عبس / ١] .

ولا طموحا إلى لذة . فلو صحّت الرواية التى زعموها فى شأن زينب ، لـكان العتاب على تلك التسبيحة ، بمسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق ، كما أشار إليه فى قصة دواد عليه السلام . وما كان محمد ﷺ فى علوّ مقامه ورفعة منزلته من النبوّة ، لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد يعلّل شهوته ، ويرقّه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذى نهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علوًّا كبيرا . أما والله ! لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلّسون من مثل هذه الرواية ، ما خطر ببال مطلع على الآية الـكريمة شىء مما يرمون إليه . فإن نص الآية ظاهر جلىّ لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهل فى الأمر ، والتريث به . وأن الذى كان يخفيه فى نفسه هو ذلك الأمر الإلـهىّ الصادر إليه ، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة فى نفوس العرب ، وأن يتناول المعْوَل لهدمها بنفسه. كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة. وكما هو شأنه فى جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهـــذا الذى كان يخفيه فى نفسه كان الله مبديه بأمره الذى أوحاه إليه فى كتابه ، وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابنا له ، كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعــه عن إبداء ما أبدى الله ، إلّا حياء الـكريم ، وتؤدة الحـكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة ، لـكن مع معاونة الزمان .

ثم قال الإمام رحمه الله : أذكر لطيفة لبعض الأذكياء جرت بمحضر منى لدى أحد الأساتذة الأمير كانيين ، فجاء فى الحديث ذكر قوله تعالى[1] (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) فقال الأميركىّ : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة . يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة ، ويعرض بعشقه ﷺ لزينب على ما زعموا ، فقال له صاحبى : سبحان الله ! إنـكم تشتغلون بعلوم السموات

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] .

والأرض ، ولا تستعملون عقولكم فى أقرب الأشياء إليكم. مع أنكم ، فى المشهور عنكم ، من أشدّ الناس ولعاً بالبحث فى الأديان . إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابنا له ، ليبيّن للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابنا ، فإن كان المسيح قد دُعِى فى لسان الإنجيل بـ (الابن) فليس هذا على الحقيقة ، وإنما (الابن) الحقيقىّ من ولد من أبيه ولادة صحيحة ، إن فى ذلك لذكرى للعالمين . والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

الخامس ـ روى الإمام أحمد[1] ومسلم[2] والنسائىّ عن أنس قال : لما انقضت عِدّة زينب رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها علىّ . فانطلق حتى أتاها وهى تخمّر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى وقلت : يا زينب ! أبشرى . أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا ، حين دخلت على النبىّ ﷺ ، أطعمنا عليها الخبز واللحم .

قال الحافظ ابن حجر : : وهذا أيضا من أبلغ ما وقع فى ذلك : وهو أن يكون الذى كان زوجها هو الخاطب . لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرا بغير رضاه . وفيه أيضا اختبار ما كان عنده منها . هل بقى منه شىء أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة . وأن من وَكَلَ أمره إلى الله عز وجل ، يسّر الله له ما هو الأحظّ له والأنفع دنيا وأخرى . انتهى . أى فقد حفظ الله شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى . فاختار لها ما شرّفها به وأسمى مكانتها ، عنايةً منه ورحمة للأمة أيضا .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .
(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح حديث رقم ٨٩ (طبعتنا) .

السادس ـ روى[١] ابن جرير عن الشعبيّ قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبيّ ﷺ : إنى لأُدِلّ عليك بثلاث ، مامن نسائك امرأة تدل بهن : إن جدّى وجدّك واحد : وإنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء . وإن السفير لجبريل عليه السلام .

وروى[٢] البخاريّ بعضه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب كانت تفخر على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات .

قال ابن القيّم فى (زاد المعاد) : ومن خصائص زينب أن الله سبحانه كان هو وليّها الذى زوجها لرسوله من فوق سمواته . وتوفيت فى أول خلافة عمر بن الخطاب . وكانت أولا عند زيد بن حارثة . وكان رسول الله ﷺ تبناه ، فلما طلقها زوجه الله إياها ، لتتأسى به أمته فى نكاح أزواج من تبنّوه . انتهى .

السابع ـ قالوا : لاينقض عموم قوله تعالى (مِّن رِّجَالِكُمْ) بكونه عليه الصلاة والسلام أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم ، لأنهم لم يبلغوا الحلم . ولو بلغوا لكانوا رجالا له ، عليه الصلاة والسلام ، لالهم . انتهى .

وهذا من التعمق فى البحث . وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة .

قال ابن كثير : لم يعش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر ، حتى بلغ الحلم . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضى الله عنها. فماتوا صغارا، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية . فمات أيضا رضيعا . وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رضى الله عنهن أجمعين. فمات فى حياته ﷺ ثلاث. وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٢٢ ـ باب وكان عرشه على الماء ، حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره ، والعناية بشكره لما منّ به من هدايته، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

[٤٢] (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ » أى بما هو أهله من صنوف التحميد والتمجيد « ذِكْرًا كَثِيرًا » أى يعمّ الأوقات والأحوال . قال ابن عباس رضى الله عنهما . إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة ، إلا جعل لها حدًّا معلوما؛ ثم عذر أهلها فى حال العذر . غير الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حدًّا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوباً على عقله ، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال تعالى[(١)] (فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) وقال[(٢)] (ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال « وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى فى أول النهار وآخره ، ليسرى أثر التسبيح فيهما بقية النهار والليل . لأن ذكره وتسبيحه ، يفيدان تنوير القلوب وقت خلوّها عن الأشغال .

قال الزمخشرىّ : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، ليبيّن فضله على سائر الأذكار، لأن معناه تنزيه ذاته، عمّا لا يجوز عليه من الصفات والأفعال . ومثالُ فضله على غيره من الأذكار ، فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصى، والطهر من أرجاس المآثم، على سائر أوصافه، من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره ، تكثير الطاعات

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] .

والإقبال على العبادات . فإن كل طاعة وكل خير، من جملة الذكر. ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا . وهى الصلاة فى جميع أوقاتها . لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين . لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

« هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ » استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من الأمرين . فإن صلاته تعالى عليهم ، مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين ، مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه . أفاده أبو السعود .

وقال ابن كثير : هذا تهييج إلى الذكر . أى أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم . كقوله عزوجل[1] (كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ) . انتهى .

والصلاة: الرحمة والعطف . والمعنى : هوالذى يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار الذكر ، والتوفر على الصلاة والطاعة « لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ » أى ظلمة الكفر والمعاصى والشبهات ومساوئ العادات « إِلَى ٱلنُّورِ » أى نور الإيمان والسنّة والطاعة ومحاسن الأخلاق « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » أى حيث لم يتركهم يتخبطون فى عمياء الضلالة والجهالة ، بل أنار لهم السبل وأوضح لهم المعالم . وذكر الملائكة تنويها بشأنهم وشأن المؤمنين . وأن للملأ الأعلى عناية وعطفا وترحما ، بالاستغفار والدعاء

(١) [٢ / البقرة / ١٥١و١٥٢] .

والثناء على الجميل. كقوله تعالى(١) (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

[٤٥] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٤٦] (وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا)

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ » أي يحيّون يوم لقائه، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة، بسلام، تبشيراً بالسلامة من كل مكروه وآفة، والإضافة إما من إضافة المصدر إلى المفعول، والمحيي لهم، إما الله جل جلاله، لقوله(٢) (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) تعظيما لهم وتفضلا منه عليهم ، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام، وإما الملائكة لآية(٣) (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ) أو من إضافة المصدر لفاعله. أي تحية بعضهم بعضا بالسلام. وقد يستدل له بآية(٤) (دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ) « وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا » يعني الجنة وما حوته ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا » أي على من بعثت

---

(١) [٤٠ / غافر / ٧ـ٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٥٨] .
(٣) [١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤] . (٤) [١٠ / يونس / ١٠] .

إليهم بالبلاغ « وَمُبَشِّرًا » أى بالثواب لمن آمن « وَنَذِيرًا » أى من النار لمن كفر «وَدَاعِياً إِلَى ٱللَّهِ »أى إلى دينه وطاعته والإقرار بوحدانيته « بِإِذْنِهِۦ »أى بأمره ووحيه «وَسِرَاجاً مُّنِيرًا » أى يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)

[٤٨] (وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا)

[٤٩] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

«وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا»أى ثواباً عظيما وأجراً جزيلا«وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ» أى فيما يرجفون به ويعيبون من جاهليتهم وعوائدهم ، بالإلانة الجانب فى التبليغ ، والمسامحة فى الإنذار والتمهل فى الصدع بالحق «وَدَعْ أَذَىٰهُمْ» أى إيصال الضرر إليهم ، مجازاةً لفعلهم . بل اعف واصفح . أو معناه : دع ما يؤذونك به بسبب صدعك إياهم. فالمصدر مضاف إلى الفاعل على الأول ، وإلى المفعول على الثانى « وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا »أى موكولا إليه، وكفيلا فيما وعدك من النصر ، ودحر ذوى الكفر « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى تزوجتموهن « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ»أى تجامعوهن «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا »أى تستوفون عددها من إحصاء أقراء ، ولا أشهر تحصونها عليهن « فَمَتِّعُوهُنَّ» أى أعطوهن ما يستمتعن به من عرض

أو عين مال «وَسَرِّحُوهُنَّ» أى خلّوا سبيلهن بإخراجهن من منازلكم . إذ ليس لكم عليهن عدّة « سَرَاحاً جَمِيلًا » أى من غير ضرار ولا منع حق .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها إطلاق النكاح على العقد وحده . وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها . وقد اختلفوا فى النكاح: هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال . واستعمال القرآن ، إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية. فإنه استعمل فى العقد وحده لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى (ٱلْمُؤْمِنَاتِ) خرج مخرج الغالب . إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك ، بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما ، وابن المسيّب والحسن البصرىّ وزين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية ، على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ) فعقب النكاح بالطلاق . فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعىّ وأحمد وطائفة كثيرة من السلف والخلف . وأيّده ما روى مرفوعا[1] (لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك) رواه أحمد وأبو داود والترمذىّ وابن ماجة . وقال الترمذىّ : هذا حديث حسن . وهو أحسن شىء روى فى هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجة[2] عن علىّ والمِسْوَر بن مخرمة رضى الله عنهما، عن النبىّ ﷺ : لا طلاق قبل النكاح .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ٧ ـ باب فى الطلاق قبل النكاح ، حديث ٢١٩٠ .

(٢) أخرجه فى : ١٠ ـ كتاب الطلاق ، ٧ ـ باب لا طلاق قبل النكاح، حديث ٢٠٤٩ و٢٠٤٨ (طبعتنا).

وقوله تعالى (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا) هـذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها ، لا عدة عليها . فتذهب فتتزوج فى فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى زوجها . فإنها تعتدّ منه أربعة أشهر وعشرا . وإن لم يكن دخل بها ، بالإجماع أيضا . وقوله تعالى (فَمَتِّعُوهُنَّ) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها . قال تعالى(١) (وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) وقال عزّ وجل(٢) (لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ) .

وعن ابن عباس : إن كان سمّى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف . وإن لم يكن سمى لها صداقا ، فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل . انتهى .

وعليه ، فالآية فى المفوضة التى لم يسمّ لها . وقيل : الآية عامة . وعليه ، فقيل الأمر للوجوب ، وأنه يجب مع نصف المهر المتعة أيضا . ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشىء .

لطيفة:

قال الرازىّ : وجه تعلق الآية بما قبلها ، هو أن الله تعالى فى هـذه السورة ، ذكر مكارم الأخلاق ، وأدّب نبيّه على ما ذكرناه . لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيّه المرسل ، فكلما ذَكَرَ للنبىّ مكرمةً ، وعلّمه أدباً ، ذَكَرَ للمؤمنين ما يناسبه . فكما بدأ الله فى تأديب النبىّ ﷺ بذكر ما يتعلق بجانب الله، بقوله(٣) (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ) وثنّى بما يتعلق بجانب العامة بقوله(٤) (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا) كذلك بدأ

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] .
(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٥] .

في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال(١) (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) ثم ثنى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت أيديهم بقوله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ) ثم ، كما ثلث في تأديب النبيّ بجانب الأمة ، ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيّهم، فقال بعد هذا(٢) (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ) وبقوله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ » أى مهورهن فإنها أجور الأبضاع . وإيتاؤها ، إما إعطاؤها معجلة، أو تسميتها في العقد. وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ، وما لا يعرف بينهم غيره .

قال ابن كثير : كان مهر النبيّ ﷺ لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونشًّا. وهو نصف أوقية. فالجميع خمسمائة درهم . إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشيّ رحمه الله تعالى أربعمائة دينار. وإلا صفية بنت حُيىّ فإنه اصطفاها من سبى خَيْبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها.

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها. رضى الله عنهن . انتهى .

وتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام بإعطاء المهور، ليس لتوقف الحل عليه. ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية . ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه . بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام . كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبيّة ، فى قوله تعالى « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ » فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها .

قال ابن كثير : أى وأباح لك التسرّى مما أخذت من المغانم . وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكانتا من السرارى، رضى الله عنهما «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ» أى من مكة ، إلى المدينة . والتقييد لبيان الأفضل كما تقدم . ولهم فى إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة ، عدة أوجه . فيها اللطيف والضعيف . وعندى أن الإفراد والجمع تابع لمقتضى السبك والنظم ورقة التعبير ورشاقة التأدية. كما يدريه من يذوق طعم بلاغة القول ، ويشرب من عين فصاحته . فالإفراد فيهما هنا أرق وأعذب من الجمع . كما أن فى آية[1] (بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ) أمتن وأبلغ من الإفراد . ولكل مقام مقال . ولكل مجال حال « وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا » . أى يتزوجها ويرغب فى قبول هبة نفسها بدون مهر . وقد سمى من الواهبات ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضى الله عنهن .

(١) [٢٤/ النور / ٦١] .

وفى البخارىّ[١] عن عائشة قالت : كنت أغار من اللائى وهبن أنفسهن للنبىّ ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى[٢] (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ) الآية ـ قلت ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك .

وعن ابن عباس ، أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له . أى أنه لم يقبل ذلك وإن كان مباحا له . لأنه مردود إلى إرادته . والله أعلم .

قال ابن القيم : وأما من خطبها ﷺ ولم يتزوجها ، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها ، فنحو أربع أو خمس . وقال بعضهم : هن ثلاثون امرأة . وأهل العلم بالسيرة وأحواله ﷺ ، لا يعرفون هذا بل ينكرونه .

قال أبو السعود : وإيراده عليه الصلاة والسلام فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات ، للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه السلام حسب اختصاصها به كما ينطبق به قوله تعالى « خَالِصَةً لَّكَ » أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصا ، فهى مصدر مؤكد ، أو صفته أى هبة خالصة « مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى فإنهم لا تحل لهم الموهوبة إلا بولىّ ومهر ، خوف أن يستسرى النساء وينتشر الفحش بدعوى ذلك . قال قتادة : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل ، بغير ولىّ ولا مهر إلا للنبى ﷺ « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ » أى على المؤمنين « فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ » أى فى حلها من الولىّ والشهود والمسمى « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ » أى فى حلها من توسيع الأمر فيها .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فسر بالاستبراء . وليس له فى القرآن ذكر إلا هٰهنا . « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » أى ضيق . واللام متعلقة بـ (خالصة) أو بفعل يفهم

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٧ ـ باب قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث ٢٠٣٣ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥١] .

ممـا قبله . أى قد علمنا ما فرضنا عليهم ، وأسقطناه عنك لرفع الحرج عنك والضيق ، فيما اقتضته الحـكمة والعناية بك « وَكَانَ ٱللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيماً » أى يغفر مايعسر التحرز عنه، ويرحم فيما يوسع فى مواقع الحرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ، وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَاجُنَاحَ عَلَيْكَ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَافِى قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

«تُرْجِى» بهمز وغير همز . أى تترك وتؤخر «مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ» أى من هؤلاءالنساء اللاتىأحللناهن لك، فلا تتزوج بهن « وَتُـْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ » أى تضم من تشاءمنهن بالتزوج « وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » أىاخترت تزوجهابعد إرجائها « فَلَاجُنَاحَ عَلَيْكَ» أى فى أن تضمها إليك . ومن رأى بعضهم أن الضمير فى (منهن) يعود إلى الواهبات . قال الشعبيّ: كن نساء وهبن أنفسهن للنبى ﷺ : فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن . لم ينـكحن بعده . منهن أم شريك . واستؤنس بحديث عائشة عند أحمد ؛ أنها كانت تعيّر النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول : ألا تستحيي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فلما أنزل الله (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ) الآية قالت : إنى أرى ربك يسارع لك فى هواكَ . ورواهالبخاريّ[(١)] أيضا كماتقدم. وذهب آخرون إلى أنمعنىالآية: تطلّق وتخلّى سبيل من شئت من نسائك ، وتمسك من شئت منهن فلا تطلق. وعن قتادة؛ أنها فى القَسْم، وأنله أن يقسم لمن شاء، ويدعه لمن شاء . مع هذا فلم يكن ﷺ يدع القسم . وقد احتج بالآية من ذهب إلى

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٧ ـ باب قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث رقم ٢٠٣٣ ، عن عائشة.

أن القسم لم يكن واجبا عليه ﷺ . والتحقيق أن الآية عامة فى ذلك كله . وأن ماروى مما ذكر ، فمن باب الاكتفاء من العام على بعض أفراده ، أو من رأى ذهب إليه قائله . وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك ورفع الحرج عنك فيه « أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » أى تطيب أنفسهن ، إن علمن أن ذلك من الله تعالى «وَلَا يَحْزَنَّ» لمخالفة الإرجاء « وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ » أى لأنه حكم ، كلهن فيه سواء ، فإن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا . وإلا علمن أنه بحكم الله تعالى. فتطمئن به نفوسهن « وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ » أى من الميل إلى البعض منهن دون البعض بالمحبة «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا » أى بذات الصدور «حَلِيمًا » أى ذا حلم عن عباده فيعفو ويغفر. وروى الإمام أحمد(١) وأهل السنن(٢) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل . ثم يقول : اللهم ! هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا)

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ)

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ٣٨ ـ باب فى القسم بين النساء ، حديث رقم ٢١٣٤

وأخرجه الترمذىّ فى : ٩ ـ كتاب النكاح، ٤٢ ـ باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر، حديث رقم ١١٤٠

وأخرجه النسائى فى: ٣٦ ـ كتاب عشرة النساء، ٢ ـ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض

وأخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ٤٧ ـ باب القسمة بين النساء ، حديث رقم ١٩٢١ (طبعتنا)

« لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ » أى من بعد النساء اللاتى نصّ إحلالهن لك فى الآية قبلُ . وانظر إلى تكريمه تعالى لنبيّه صلوات الله عليه حيث لم يقل له (وحرم عليك ما وراء ذلك) كما خاطب المؤمنين بنظيره ، لتعلم كيف تتفاوت النـــاس بالخطاب تفاوتهم فى رفيع الدرجات .

ولم أر أحداً نبه على ذلك ، فاحرص عليه فيه وفى أمثاله .

قال مجاهد فى الآية : أى لا يحل لك يهودية ولا نصرانية ولا كافرة « وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » أى فلك التسرّى بهن وإن كن كتابيات أومشركات، لأنه ليس لهن ما للحرائر « وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً » أى حيث أحل ما أحل وحظر ما حظر للنبيّ وللأمة، فى بيانٍ لاخفاء معه وحكمة لاحيف معها. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية هو حظر نكاح ما بعد التسع اللاتى عنده ﷺ. وأن التسع نصابه كالأربع لغيره ، وأن ذلك جزاء لاختيارهن إياه لما خيّرهن . كما تقدم فى الآية . ثم قالوا إنه تعالى رفع الحرج عنه فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، لـكنه لم يفعله إتماما للمنّة عليهن . ومنهم من قال إنها محكمة . وكل ذلك لا برهان معه، وتفكيك للمعنى، وغفلة عن سر تكريمه صلوات الله عليه بمقصود الخطاب . وقد وهم فى هذا المعنى زياد ـ رجل من الأنصار ـ فرده أُبىّ رضى الله عنه، إلى صواب المعنى. وذلك فيما رواه عبد الله بن أحمد وابن[1] جرير ؛ أن زياداً قال لأُبىّ بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبىّ ﷺ تُوُفِّين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قوله تعالى (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ) فقال له: إنما أحل الله له ضربا من النساء . فقال تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ، ـ إلى قوله ـ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ) ثم قيل له (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وروى الترمذيّ[١] عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى (لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ) الآية . فحرم كل ذات دين غير الإسلام .

والمطلع على ما كتبوه هنا ، يأخذه العجب من البعد عن مقصدها . فالحمد لله على إلهام الحق وتعليمه .

تنبيه :

قال في (لباب التأويل) : في قوله تعالى (وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ) دليل على جواز النظر من الرجل إلى التي يريد نكاحها من النساء . ويدل عليه ما روى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل . أخرجه أبو داود[٢] .

وروى[٣] مسلم عن أبي هريرة ؛ أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا. قال الحميديّ: يعني هو الصِّغَر.

وعن المغيرة بن شعبة قال : خطبتُ امرأةً . فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل نظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه الترمذيّ[٤] وحسنه .

---

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٣٣ـ سورة الأحزاب ، ١٨ـ حدثنا عبد . حدثنا روح عن عبد الحميد .

(٢) أخرجه في : ١٢ ـ كتاب النكاح ، ١٨ ، ـباب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها ، حديث ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه في : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في : ٩ـ كتاب النكاح، ٥ باب ماجاء في النظر إلى المخطوبة، حديث رقم ١٠٨٧

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ » هذا خطاب لبعض الصحب، وحظر عليهم أن يدخلوا منازله ﷺ بغير إذن. كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام . و(إلى) متعلق بـ(يؤذن) بتضمين معنى الدعاء ، للإشعار بأنه لا ينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة ، وإن تحقق الإذن . كما يشعر به قوله تعالى (غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ) أى غير منتظرين وقته ، وإدراكه .

قال ابن كثير : أى لا ترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول. فإن هـذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفل . وهو الذى تسميه العرب الضيفن . وقد صنف الخطيب البغدادىّ فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها . انتهى .

وأقول : قد يكون معنى قوله (غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ) نهيا لهم أن يدخلوا ـ مع كونهم مأذونا لهم ومدعوين ـ قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه ، عجلة وانتظاراً لنضج الطعام.

فإن ذلك مما يؤذى قلب صاحب الدعوة ، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة ، إلا ضيق صدر الداعى وأهله، وشغل وقته وتوليد حديث، وتكلفاً لكلام لاضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه . وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت . ولذلك قال تعالى « وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ » أى إذا دعيتم إلى الدخول فى وقته. فادخلوا فيه لاقبله ولا بعده. فـ(لكن) استدراك من النهى عن الدخول، مع الإذن المطلق الذى هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم ، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حينا ووقتا يجب أن يراعى زمنه . وهذا المنهىّ عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شاكلهم من غلظاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم والسنة المطهرة . وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المجىء قبل وقته بساعات ، مما يغمّ نفس الداعى وأهله . ويذهب لهم جانبا من عزيز وقتهم عبثا إلا فى سماع حديثهم البارد . وخدمتهم المستكرهة كما قدمنا . فعلى ماذكرناه يكون فى الآية فائدة جميلة ، وحكم مهم. وهو حظر المجىء قبل الوقت المقدّر . وحينئذ فكلمة (غير) حال ثانية من الفاعل مقيّدة للدخول المأذون فيه . وهو أن يكون وقت الدعوة ، لاقبله . والتقدير (إِلَّا مَأْذُونِينَ فى حال كونكم غير ناظرين إناه) ولذا قيل : إنها آية الثقلاء . إذا علمت هذا ، فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدر الآية ، وهو (لَاتَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ) ومن قوله (وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ) لامن قوله(غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ) لأنه فى معنى خاص . وهو ماذكرناه والله أعلم .

فائدة :

(الإنى) مصدر . يقال أنى الشىء يأنى أنيا بالفتح . و(أنى) مفتوحا مقصوراً . (وإنى) بالكسر مقصوراً . أى حان وأدرك . قال عمرو بن حسان :

تَمَخَّضَتِ ٱلْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ ... أنى ولكل حاملة تمامُ

ثم أشار سبحانه إلى أدب آخر بقوله تعالى « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ » أى تفرقوا ولا

تمكثوا «وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ» أي لحديث بعضكم بعضا، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له. عطف على (ناظرين) أو مقدر بفعل . أي لا تمكثوا مستأنسين « إِنَّ ذَٰلِكُمْ » أي المنهيّ عنه في الآية « كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ » أي لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه « فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ » أي من الإشارة إليكم بالانتشار « وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ » يعني أن انتشاركم حق. فينبغي أن لا يترك حياء ، كما لا يتركه الله ترك الحييّ، فأمركم به . ووضع الحق موضع الانتشار، لتعظيم جانبه . وقرىء (لَا يَسْتَحِي) بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ » الضمير لنساء النبيّ ، المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام « مَتَاعًا » أي شيئا يتمتع به « فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ » أي ستر « ذَٰلِكُمْ » أي ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن ، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول ، وسؤال المتاع من وراء حجاب « أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » أي من الخواطر الشيطانية، في الميل إليهن وإليكم . يعني ويجب التطهر عنه ، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ . ولذا قال « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ » أي أن تفعلوا فعلا يتأذى به في حياته « وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ » أي من بعد وفاته لا إلى انقضاء العدة بل « أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا » أي أمرا عظيما وخطبا هائلا ، لا يقادر قدره. لما فيه من هتك حرمة حبيبه صلى الله عليه وسلم .

قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم، وإيجاب حرمته حيًّا وميتا ، مالا يخفى . ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا » أي مما لا خير فيه ، كنكاحهن على ألسنتكم، على ما روى عن بعض الجفاة « أَوْ تُخْفُوهُ » أي في نفوسكم « فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » أي فيجازيكم

بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود، مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد .

قال ابن كثير : أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه ، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده. لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته . هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين. مأخذها هل دخلت هذه في عموم قوله (مِنۢ بَعْدِهِۦٓ) أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه نزاعا والله أعلم . انتهى .

تنبيه :

في (الإكليل) : هذه آية الحجاب التي أمر بها أمهات المؤمنين . بعد أن كان النساء لا يحتجبن. وفيها جواز سماع كلامهن ومخاطبتهن . وفيها تحريم أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم بسائر وجوه الأذى . انتهى .

وقال ابن كثير : هذه آية الحجاب . وفيها أحكام ، وآداب شرعية . وهي مما وافق تنزيلها قول عمر رضي الله عنه ، كما روى البخاريّ[1] عنه أنه قال : يا رسول الله ! يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ! فأنزل الله آية الحجاب.

وكان يقول لو أطاع فيكن ، ما رأتكن عين .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، التي تولى الله تزويجها بنفسه تعالى . وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة (في قول قتادة والواقديّ وغيرهما) وزعم أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط ؛ أن ذلك كان في سنة ثلاث . فالله أعلم .

---

(١) أخرجه في: ٦٥ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٨ـ باب قوله لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٦٧ .

وروى البخاريّ(١) عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون. فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر . فجـاء النبيّ ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس . ثم إنهم قاموا فانطلقوا . فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل . فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ) الآية .

ورواه مسلم(٢) أيضاً والنسائيّ .

وعن أنس أيضا قال : بنى على النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش، بخبز ولحم. فأُرسلت على الطعام داعيا. فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو . فقلت : يا رسول الله ! ما أجد أحدا أدعوه . قال : ارفعوا طعامكم . وبقى ثلاثة رهط يتحدثون في البيت. فخرج النبيّ ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. كيف وجدت أهلك ؟ يارسول الله ! بارك الله لك .

فتقرّى حجر نسائه كلهن. يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبيّ ﷺ فإذا ثلاثة رهط فى البيت يتحدثون. وكان النبيّ ﷺ شديد الحياء. فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة. فما أدرى آخبرتُهُ أو أُخْبِرَ، أن القوم خرجوا. فرجع، حتى إذا وضع رجله فى أسكفّة الباب داخلة ، والأخرى خارجة ، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاريّ(١) .

وأخرج نحوه مسلم والترمذيّ . كما بسطه ابن كثير .

(١) أخرجه فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب، ٨ ـ باب قوله لا تدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٠٣٥

(٢) أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث ٨٧ م (طبعتنا)

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح): قال عياض: فرض الحجاب مما اختصصن به. فهو فرض عليهن بلا خلاف، فى الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك فى شهادة ولا غيرها. ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستترات، إلا مادعت إليه ضرورة من براز. ثم استدل بما فى (الموطأ) أن حفصة لما توفى عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها. وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها يُستر شخصها . انتهى .

وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن. وقد كن بعد النبىّ ﷺ يحججن ويطفن. وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. وقد تقدم فى الحج قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال قد أدركت ذلك بعد الحجاب . انتهى .

ومما يؤيده ما رواه البخارىّ[1] فى التفسير عن عائشة رضى الله عنها . قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها . وكانت امرأة جسيمة ، لا تخفى على من يعرفها . فرآها عمر بن الخطاب . فقال : ياسودة ! أما والله ! ماتخفين علينا . فانظرى كيف تخرجين .

قالت : فانكفأت راجعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى، وإنه ليتعشى وفى يده عَرْقٌ ، فدخلتْ فقالتْ : يارسول الله! إنى خرجت لبعض حاجتى، فقال لى عمر كذا وكذا. قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه ، وإن العَرْقَ فى يده ماوضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجنّ لحاجتكن .

قال الكرمانىّ : فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ماضرب الحجاب وفى الوضوء ـ أى من البخارىّ ـ أنه كان قبل الحجاب . فالجواب لعله وقع مرتين .

---

(١) أخرجه فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب، ٨ ـ باب قوله لا تدخلوا بيوت النبىّ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام حديث رقم ١٢٣

قال ابن حجر : قلت بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثانى .

والحاصل أن عمر رضى الله عنه وقع فى قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبوىّ ، حتى صرح بقوله له عليه الصلاة والسلام : احجب نساءك ، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب . ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدين أشخاصهن أصلا ، ولو كن مستترات ، فبالغ فى ذلك فمنع منه ، وأذن لهن فى الخروج لحاجتهن ، دفعا المشقة ، ورفعا للحرج ، انتهى بحروفه . وإنما نقلنا الجمع بين الروايتين ، مع أن الأمس به شرح الصحيح ، لما اتفق من نقل كثير من المفسرين إحدى الروايتين ونقل آخرين الثانية ، مما يوقع الواقف فى شبهة الاختلاف ، فآثرنا توسيع الكلام لتحقيق المقام . زادنا الله من فضله علما ، إنه هو العليم العلام .

ثم بين تعالى من لا يجب الاحتجاب منهم من الأقارب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ، وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا)

« لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ » أى لا حرج ولا إثم عليهن ، فى أن لا يحتجبن من هؤلاء المسمّين .

قال الطبرىّ[1] : وعُنِى بـ(إخوانهن وأبناء إخوانهن) إخوتهن . وأبناء إخوتهن . وخرج معهم جمع ذلك ، مخرج جمع فتى إذا جمع (فتيان) فكذلك جمع أخ إذا جمع (إخوان) وأما إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع (فتية) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات

الأول ـ قيل : إنما لم يذكر العم والخال ، لأنهما بمنزلة الوالدين . ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى[١] (وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ) أولأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات. فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين، عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة . لما أنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات لأبناء الأخوات . وقيل : لأنه كره ترك الاحتجاب منهما ، مخافة أن يَصِفَاهُنَّ لأبنائهما .

وهو رأى عكرمة والشعبيّ . كما أخرجه الطبريّ[٢] من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة والشعبيّ أنه قال لهما : ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قالا : لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

قال الشهاب : لكنه قيل عليه ، إن هذه العلة ، وهو احتمال أن يَصِفَا لأبنائهما وهما يجوز لهما التزوج بها ، جار فى النساء كلهن ، ممن لم يكن أمهات محارم . فينبغى التعويل على الأول . انتهى .

والتحقيق فى رده ما رواه البخارى[٣] فى التفسير من طريق عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: استأذن عليّ أفلح أخو أبى القعَيْس، بعد ما أنزل الحجاب، فقلت: لا آذن له حتى أستأذن فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم. فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعنى ، ولكن أرضعتنى امرأة أبى القعيس. فدخل عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقلت له: يا رسول الله! إن أفلح أخا أبى القعيس

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٣) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٩ ـ باب قوله إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، حديث ١٢٨٣ .

استأذن . فأبيت أن آذن حتى أستأذنك، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: وما منعك أن تأذنى؟ عمك . قلت: يارسول الله! إن الرجل ليس هو أرضعنى، ولكن أرضعتنى امرأة أبى القعيس، فقال : ائذنى له فإنه عمك ، تربت يمينك .

قال عروة: فلذلك كانت عائشة تقول: حرموا من الرضاعة ماتحرمون من النسب انتهى فبقوله صلى الله عليه وسلم[1] (ائذنى له فإنه عمك) مع قوله فى الحديث الآخر[2] (العم صنو الأب) يرد على عكرمة والشعبيّ .

الثانى ـ قيل: أريد بقوله تعالى (وَلَا نِسَآئِهِنَّ) المسلمات، حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل هو عامّ فى المسلمات والكتابيات. وإنما قال (وَلَا نِسَآئِهِنَّ) لأنهن من أجناسهن .

الثالث ـ استدل بعموم قوله تعالى (وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ) مَنْ ذهب إلى أن عبد المرأة مَحْرم لها . وذهب قوم إلى أنه كالأجانب . والآية مخصوصة بالإماء دون العبيد، وتقدم تفصيل ذلك فى سورة النور .

الرابع ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل الحسن والحسين بعدم ذكر أبناء العمومة فيها، على تحريم نظرهما إليهن، فكانا لا يدخلان عليهن «وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ» أى أن تتعدين ماحدّ لكنّ ، فتبدين من زينتكن ماليس لكن ، أو تتركن الحجاب فيراكن أحد غير هؤلاء . وقال الرازىّ : أى واتقينه عند المماليك. قال، ففيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله تعالى «إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا» أى فهو

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ٩ ـ باب قوله إن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ، حديث رقم ١٢٨٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٧ ـ كتاب الرضاع ، حديث ٣ـ٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١١ (طبعتنا) .

شاهد على ماتفعلنه من احتجابكن وتركـكنّ الحجاب لمن أبيح لـكن تركه ، وغير ذلك من أمور كن ، فاحذرن أن تلقينه . وهو شاهد عليـكن بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلـكن . قال الرازىّ : هذا التذييل فى غاية الحسن فى هذا الموضع، لأن ماسبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال : إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض . فخلوتـكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)

« إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا » قال الرازىّ: لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً، كمّل بيان حرمته. وذلك لأن حالته منحصرة فى اثنتين: حالة خلوته وذكر مايدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله[1] (لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ) وحالة يكون فى ملأ. والملأ إما الملأ الأعلى وإما الملأ الأدنى ، أما فى الملأ الأعلى فهو محترم. فإن الله وملائـكته يصلون عليه. وأما فى الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) انتهى .

وقد روى البخارىّ[2] عن أبى العالية قال: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائـكة. وصلاة الملائـكة الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون يُبَرِّكون. اه. أى يدعون له بالبركة. فيوافق قول

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ١٠ ـ باب إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ .

أبي العالية، لكنه أخص منه. وبالجملة، فالصلاة تكون بمعنى التمجيد والدعاء والرحمة، على حسب ما أضيفت إليه في التنزيل أو الأثر . وقد أطنب الإمام ابن القيّم في (جلاء الأفهام) في مبحث معنى الصلاة ، وأطال فأطاب . فلينظر .

وفي البخاريّ[1] عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، أنه قيل : يارسول الله ! أما السلام عليك فقد عرفناه. فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللهم! صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ! بارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وروى الإمام أحمد[2] وأبو داود والنسائيّ وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه، عن أبي مسعود البدريّ ؛ أنهم قالوا : يا رسول الله ! أما السلام فقد عرفناه . فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : قولوا: اللهم! صلّ على محمد وعلى آل محمد . وذكره . ورواه الشافعيّ في مسنده عن أبي هريرة بمثله .

ومن ههنا ذهب الشافعيّ رحمه الله ، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير . فإنْ تركه لم تصح صلاته . ووافقه الإمام أحمد في روايةٍ . وقال به إسحق ابن راهويه والإمام ابن المواز المالكيّ وغيرهم. كما بسطه ابن القيم في (جلاء الأفهام) وابن كثير في (التفسير) وقد تقصّيا ، عليهما الرحمة ، أيضا الروايات في الأمر بالصلاة وكيفيتها . فأوسعا . فليرجع إليهما .

تنبيهات :

الأول ـ تدل الآية على وجوب الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم مطلقا . لأن الأصل في الأمر للوجوب . فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة . ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس.

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ـ كتاب التفسير ، ٣٣ ـ سورة الأحزاب ، ١٠ـ باب إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ، حديث رقم ١٥٩١ .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الرابع من المسند (طبعة الحلبي) .

وآخرون إلى وجوبها فى العمر مرة واحدة. ثم هى مستحبة فى كل حال. وآخرون إلى وجوبها كلما ذكر . وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب . قال ابن كثير : وهذا قول غريب . فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة . فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه . فمنه بعد النداء للصلاة ، لحديث(١) (إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ) الحديث ومنه عند دخول المسجد لحديث(٢) (كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم . ثم قال: اللهم ! اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك. وإذا خرج صلى على محمد وسلم. ثم قال: اللهم ! اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك. ومنه الصلاة، فتستحب على قول الشافعىّ فى التشهد الأول منها، وتجب فى الثانى. ومنه فى صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية، لقول أبى أمامة: من السنة ذلك . وهـــذا من الصحابىّ فى حكم المرفوع ، على الصحيح . ومنه ختم الدعاء . فيستحب الصلاة فيه على النبىّ ﷺ ، ومن آكد ذلك دعاء القنوت. ومنه يوم الجمعة وليلتها. فيستحب الإكثار منها فيهما ، ومنه فى خطبة يوم الجمعة . يجب على الخطيب فى الخطبتين الإتيان بها . وهو مذهب الشافعىّ وأحمد . ومنه عند زيارة قبره ﷺ لحديث (ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام) تفرد به أبو داود(٣) وصححه النووىّ فى (الأذكار) . وعن الحسن بن الحسن بن علىّ ؛ أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبرى عيدا. ولا تتخذوا بيوتكم قبورا. وصلوا علىّ حيثما كنتم . فإن صلاتكم تبلغنى .

قال ابن كثير : فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة ، فنهاهم . وقد

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٧ ـ باب ما يقول إذا سمع المنادى ، حديث ٣٩٠ ، عن أبى سعيد الخدرىّ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى . ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١١٧ ـ باب ما جاء ما يقول عند دخول المسجد ، حديث ٣١٤ .

(٣) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب المناسك ، ٩٦ ـ باب فى زيارة القبور ، حديث ٢٠٤١

روى أنه رأى رجلا ينتاب القبر . فقال : ياهذا ! ماأنت ورجل بالأندلس ، منه إلا سواء . أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين . وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم كلما كتبه. وقد روى فى حديث (من صلى علىّ فى كتاب لم تزل الصلاة جارية له ، مادام اسمى فى ذلك الكتاب) .

قال الحافظ ابن كثير : وليس هذا الحديث بصحيح. بل عدّه الحافظ الذهبىّ موضوعا. وقد ذكر الخطيب البغدادىّ أنه رأى بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، كثيرا اسم النبىّ ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظا .

الثانى ـ الصلاة على غير الأنبياء ، إن كانت على سبيل التبعية ، كنحو : اللهم صل على محمد وآله وأزواجه ، فهذا جائز إجماعا . وأما استقلالا فجوّزه قوم لآية[(1)] (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ) وآية[(2)] (أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) وآية[(3)] (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) والحديث[(4)] (كان ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم! صل عليهم. فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال: اللهم! صل على آل أبى أوفى. وكرهه قوم، لكون صيغة الصلاة صارت شعاراً للأنبياء إذا ذكروا. فلا يلحق بهم غيرهم. فلا يقال : قال عمر صلى الله عليه . كما لايقال قال محمد عز وجل . وإن كان عزيزاً جليلا . لكون هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد من ذلك فى الكتاب والسنة على الدعاء لهم .

وقال ابن حجر : إن ذلك وقع من الشارع. ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بماشاء وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه . ولم يثبت عنه إذن فى ذلك . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٥٧] .
(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .
(٤) أخرجه البخارىّ فى: ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٦٤ ـ باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة ، حديث ٨٠٠ ، عن عبد الله بن أبى أوفى .

وقد يقال : كفى فى المرويّ المأثور المتقدم إذناً .

والاستدلال بأن ذلك من حقه فيه مصادرة على المطلوب . على أن المرجح أن الأصل الإباحة حتى يرد الحظر . ولا حظر هنا . فتدبر .

وأما السلام ، فقال الجوينيّ : هو فى معنى الصلاة . فلا يستعمل فى الغائب. ولا يفرد به غير الأنبياء . فلا يقال : عليّ عليه السلام. وسواء فى هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به . فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم. أو السلام عليك أو عليكم. وقد غلب ـ كما قال ابن كثير ـ على كثير من النساخ للكتب، أن يفرد عليّ رضى الله عنه بأن يقال (عليه السلام) من دون سائر الصحابة .

قال : والتسوية بينهم فى ذلك أولى . انتهى .

والخطب سهل. ومن رأى المرويّ فى هذا الباب، علم أن الأمر أوسع من أن يحرّج فيه. على أن هذه المسألة من فروع تخصيص العرف ، وفيه بحث فى الأصول .

الثالث ـ قال النوويّ: إذا صلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فليجمع بين الصلاة والتسليم. فلا يقتصر على أحدهما . فلا يقول (صلى الله عليه) فقط . ولا (عليه السلام) فقط .

قال ابن كثير : وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً) فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليما . انتهى .

الرابع ـ قال الرازيّ : إذا صلى الله وملائكته عليه ، فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول : الصلاة عليه ليس لحاجته إليها . وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ، ولا حاجة له إليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه منا، رحمة بنا، ليثيبنا عليه. ولهذا جاء فى الحديث (من صلى عليّ مرة، صلى الله عليه بها عشرا) . انتهى .

وكان سبق لى، من أيام معدودات أن كتبت فى مقدمة مجموعة الخطب فى سر الصلاة عليه، مامثله: ويُسَنُّ يوم الجمعة إكثار الصلاة على النبيّ ﷺ . ليذكر الرحمة ببعثته ، والفضل بهدايته

والمنة باقتفاء هديه وسنته ، والصلاح الأعظم برسالته ، والجهاد للحق بسيرته ، ومكارم الأخلاق بحكمته ، وسعادة الدارين بدعوته ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ما ذاق عارفٌ سرَّ شريعته . وأشرق ضياء الحق على بصيرته ، فسعد فى دنياه وآخرته .

الخامس ـ قال الرازىّ : ذكر (تسليما) للتأكيد ليكمل السلام عليه. ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد، لأنها كانت مؤكدة بقوله (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ) انتهى.

وقيل: إنه من الاحتباك . فحذف (عليه) من أحدهما . و (المصدر) من الآخر .

قال القاضى : قيل معنى (وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً) أى انقادوا لأوامره . فالسلام من التسليم والانقياد .

السادس ـ قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : سئلتُ عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام ، وأمر المؤمنين بها وبالسلام ، فقلت : يحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانقياد . فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم . والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد ، فلم يضف إليهم ، دفعا للإيهام . والعلم عند الله . انتهى .

وقال الشهاب : قد لاح لى فى تخصيص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته ، نكتة سرية . وهى أن السلام تسليمه عما يؤذيه . فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والأذية إنما هى من البشر وقد صدرت منهم ، فناسب التخصيص بهم والتأكيد . انتهى .

ولما أمر تعالى بالصلاة على نبيّه صلى الله عليه وسلم التى هى الثناء عليه وتمجيده وتعظيمه ، بيّن وعيد مَن لا يرعاها ، بأن يجرؤ على ضدها بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّـهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا » أى ينالون فيه الهوان والخزى . والمقصود من الآية الرسول ﷺ . وذكر الله تعالى إنما هو لتعظيمه ، ببيان قربه ، وكونه حبيبه ، حتى كأنّ ما يؤذيه يؤذيه . كما أن من يطيعه يطيع الله. وقد روى(١) الطبرىّ عن ابن عباس؛ أنها نزلت فى الذين طعنوا على النبىّ ﷺ ، حين اتخذ صفية بنت حيىّ . وهذا فى الحقيقة من أفراد ما تشمله الآية . بل لو قيل إنها عنى بها مَنْ خاض فى مسألة زينب ، لـكان أقرب ، لتقارب الآيات فى الباب الواحد ، وتناسقها كسلسلة واحدة ، فى تلك المسألة التى كانت المقصود الأعظم من السورة بتمامها . كما لا يخفى على من تدبرها . وبالجملة ، فاللفظ عامٌّ فى كل ما يصاب به ﷺ من أنواع المكروه . فيدخل المقصود من التنزيل دخولا أوليًّا . وعلى هذا ، فالأذية على حقيقتها . وقيل المراد بأذية الله ورسوله ، ارتـكاب ما لا يرضيانه ، مجازا مرسلا . لأنه سبب ، أو لازم له . وإن كان بالنسبة إلى غيره ، فإنه كان فى العلاقة وذكر الله والرسول على ظاهره . ومَنْ جوّز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين ، كاستعمال اللفظ المشترك فى معنييه ، أو فى حقيقته ومجازه ، فسر الأذية بالمعنيين باعتبار المعمولين . فتـكون بالنسبة إليه تعالى ، ارتـكاب ما يكره مجازا ، وإلى الرسول على ظاهره . فإن تعدد المعمول بمنزلة تـكرر لفظ العامل . فيجىء فيه الجمع بين المعنيين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)

« وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ » أى بقول أو فعل « بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ » أى بغير جناية يستحقون بها الأذية « فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا » أى ظاهرا بيّنا .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال الزمخشريّ : أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدا . وأما أذى المؤمنين والمؤمنات ، فمنه ومنه .

تنبيه :

في (الإكليل) : في هذه الآية تحريم أذى المسلم ، إلا بوجه شرعيّ . كالمعاقبة على ذنب . ويدخل في الآية كل ماحرم للإيذاء . كالبيع على بيع غيره ، والسوم على سومه ، والخطبة على خطبته . وقد نص الشافعيّ على تحريم أكل الإنسان مما يلي غيره ، إذا اشتمل على إيذاء .

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عائشة مرفوعا (أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم) ثم قرأ هذه الآية. وأخرج عن قتادة في هذه الآية: إياكم وأذى المؤمن ، فإن الله يحوطه ويغضب له . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم، فأفزعه ذلك. حتى ذهب إلى أُبيّ بن كعب. فدخل عليه فقال: ياأبا المنذر! إني قرأت آية من كتاب الله فوقعت مني كل موقع (وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) الآية . والله ! إني لأعاقبهم وأضربهم . فقال له : إنك لست منهم . إنما أنت مؤدِّب ، إنما أنت معلِّم . انتهى .

قال الزمخشريّ : وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذي كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف ؟

وكان ابن عون لا يكري الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كرّ الحول. فرحمه الله ورضي عنه .

ولما بيّن تعالى سوء حال المؤذين، زجرًا لهم عن الإيذاء، أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم، بما يدفع إيذاءهم في الجملة من الستر والتميز، عن مواقع الإيذاء، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ » جمع (جلباب) كسرداب ، وهو الرداء فوق الخمار ، تتغطى به المرأة . وهو معنى قول بعضهم : جلبابها ملاءتها تشتمل بها . وقيل هو الخمار . قالت[(١)] جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه :

تمشى النسورُ إليـه وهى لَاهِيَةٌ مَشْىَ الْعَذَارَى، عليهن الْجَلَابِيبُ

وقال آخر[(٢)] يصف الشيب :

حتّى اكْتَسَى الراسُ قِنَاعاً أشهبَا أكْرَهَ جلبابٍ لمن تَجَلْبَبَا

وقال الزمخشرىّ : الجلباب ثوب واسع ، أوسع من الخمار ، ودون الرداء . تلويه المرأة على رأسها ويبقى منه ماترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الرداء الذى يستر من فوق إلى أسفل. ثم قال: ومعنى (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ) يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن. يقال إذا زلّ عن وجه المرأة: أدنى ثوبك على وجهك. وذلك أن النساء كن فى أول الإسلام على هجّيراهن فى الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة فى درع وخمار، لا فضل بين الحرة والأمة . وكان الفتيان وأهل الشطارة[(٣)] يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل ، إلى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان . وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة . يقولون حسبناها أمة. فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء، بلبس الأردية والملاحف وستر الرءوس والوجوه

(١) استشهد فى اللسان بالصفحة رقم ٢٧٢ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٢) استشهد فى اللسان بالصفحة رقم ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٣) الشاطر : من أعيى أهله ومؤدبه خبثا ومكرا . مولدة ، كما فى القاموس وشرحه.

ليحتشمن ويُهبن ، فلا يطمع فيهن طامع، وذلك قوله «ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ» أي أولى وأجدر بأن يعرفن أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن. ثم قال الزمخشريّ: فإن قلت : ما معنى (من) في (من جلابيبهن) قلت: هو للتبعيض. إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين : أحدهما ـ أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب. والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع وخمار كالأمة والماهنة، ولها جلبابان فصاعدا في بيتها. والثاني ـ أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها ، لتتقنع حتى تتميز من الأمة . انتهى .

ومن الآثار في الآية ، ما رواه الطبريّ(١) عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة ، أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة . وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من السكينة. وعليهن أكسية سود يلبسنها. وأخرج عن يونس بن يزيد أنه سأل الزهريّ: هل على الوليدة خمار، متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب. لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : روى عن سفيان الثوريّ أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة . وإنما نهي عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهن . واستدل بقوله تعالى (وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) . انتهى .

الثاني ـ قال السبكيّ في (طبقاته): استنبط أحمد بن عيسى، من فقهاء الشافعية، من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات ، من تغيير لباسهم وعمائمهم، أمر حسن. وإن لم يفعله السلف. لأن فيه تمييزاً لهم حتى يُعرفوا ، فيعمل بأقوالهم . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية).

الثالث ـ قال الشهاب : قوله تعالى (يُدْنِينَ) يحتمل أن يكون مقول القول . وهو خبر بمعنى الأمر ، أو جواب الأمر ، على حدّ[1] (قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ) انتهى « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا » أي لما سلف منهنّ من التفريط « رَّحِيمًا » أي بعباده ، حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا)

[٦١] (مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا)

« لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ » أي عن نفاقهم « وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أي ضعف إيمان ، عن مراودة النساء بالفجور « وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ » أي بأخبار السوء اللاتي يفترونها وينشرونها . كمجيء عدوّ وانهزام سريّة . وهكذا مما يكسرون به قلوب المؤمنين . وأصله التحريك . من (الرجفة) وهي الزلزلة. يسمى به الخبر المفترى، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت . أو لاضطراب قلوب المؤمنين به « لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ » أي لنسلطنك عليهم بما يضطرهم إلى الجلاء « ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ » أي في المدينة من قوة بأسك عليهم « إِلَّا قَلِيلًا » أي زمناً قليلا ريثما يستعدون للرحلة « مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ » أي مبغضين لله وللخلق. لا يستريحون بالخروج. للصوق اللعنة بهم أينما وجدوا. «أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا» أي أسروا وبولغ في قتلهم لذلتهم وقلتهم . ثم أشار تعالى إلى أن ذلك ليس ببدع ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا)

« سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ » أي في المفترين والمؤذين الذين مضوا ، إذا

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣١] .

تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا ، أن يسلّط عليهم أهل الإيمان فيقهرونهم . «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّـهِ تَبْدِيلًا» أى لأنه لا يبدلها ، أو لا يقدر أحد أن يبدلها .

تنبيهات :

الأول ـ قال الشهاب : إما أن يراد بالمنافقين والمراض والمرجفين ، قوم مخصوصون ، ويكون العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات ، على حدّ (إلى الملك القرم وابن الهمام) أو يراد بهم أقوام مختلفون فى الذوات والصفات .فعلى الأول، تكون الأوصاف الثلاثة للمنافقين. وهو الموافق لما عرف من وصفهم بالذين فى قلوبهم مرض ، كما مرّ فى البقرة . والأراجيف بالمدينة أكثرها منهم . لكنه لا يوافق ما ذيل به من الوعيد بالإجلاء والقتل . فإنه لم يقع للمنافقين . وعلى الثانى ، هم المنافقون وقوم ضعاف الدين . كأهل الفجور . والمرجفون اليهود الذين كانوا مجاورين لهم بالمدينة . وقد وقع القتال والإجلاء لمن لم ينته منهم . وهم اليهود . انتهى .

الثانى ـ ذكروا أن معنى قوله تعالى (أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا) أنهم إذا خرجوا لا ينفكّون عن الذلّة ، ولا يجدون ملجأ . بل أينما يكونون ، يطلبون ويؤخذون ويقتلون . وعليه ، فالجملة خبريّة . وانظر هل من مانع أن تكون الجملة دعائيّة كقوله(١) (عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ) وقوله(٢) (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) كأنه قيل : أخذهم الله. أى أهلكهم وقتلهم أبلغ قتل وأشدّه . ولم أر أحداً تعرّض له . وقد أفاد ابن عطية ، أن كل ما كان بلفظ الدعاء من الله تعالى ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء . لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهى فى قبضته ، أى لاستحالة حقيقة الدعاء وهو الطلب من الغير .

الثالث ـ فى (الإكليل): فى الآية تحريم الأذى بالإرجاف. وأخرج ابن أبى حاتم عن السّدّىّ

---

(١) [٩ / التوبة / ٩٨] و [٤٨ / الفتح / ٦] .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

فى قوله: (وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) هم قوم كانوا يجلسون على الطريق ، يكابرون المرأة مكابرة. فنزلت فيهم الآية إلى قوله (أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا) قال : هذا حكم فى القرآن ، ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها، كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم . انتهى .

وهذا وقوف مع وجه تحتمله الآية . كما قدمنا . على أن للحاكم أن يفعل ذلك ، إذا رأى فى ذلك مصلحة ودرء مفسدة .على قاعدة رعاية المصالح التى هى أم الباب. كما بسط ذلك النجم الطوفىّ فى (رسالته) وأيدناه بما علقناه عليها .

الرابع ـ كتب الناصر فى (الانتصاف) على قول الكشاف فى قوله (إِلَّا قَلِيلًا) أى زمنا قليلا ريثما يرتحلون ويتلقطون أنفسهم وعيالاتهم، ما مثاله : فيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعىّ ، يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتحصل له منزل آخر ، على حسب الاجتهاد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)

« يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا » أى يسألونك عن وقت قيامها . وكان المشركون فى مكة يسألونه صلى الله عليه وسلم، عنها استعجالًا على سبيل الهزء . وكذلك اليهود فى المدينة أو غيرهم . لأن هذه السورة مدنية ، وقد أرشده تعالى أن يردّ علمها إليه لاستئثاره تعالى به. فلم يطلع عليه نبيا ولا ملكا، وأن يبين لهم أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين وإسكاتا للممتحنين .

لطيفة :

تذكير (قريبا) باعتبار موصوفه ، الخبر ، أى شيئا قريبا . أو لأن الساعة فى معنى اليوم

أو الوقت . أو أن (قريبا) ظرف منصوب على الظرفية ، فإن (قريبا) و (بعيدا) يكونان ظرفين . فليس صفة مشتقة ، حتى تجرى عليه أحكام التذكير والتأنيث .

قال أبو السعود : والإظهار فى حيز الإضمار ، للتهويل وزيادة التقرير . وتأكيد استقلال الجملة . يعنى أن قوله (وَمَا يُدْرِيكَ) خطاب مستقل له عليه السلام، غير داخل تحت الأمر، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق ، مرجوة المجىء عن قريب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)

[٦٥] (خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٦٦] (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا)

« إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ » أى أبعدهم من رحمته « وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » أى ناراً شديدة الاتقاد فى الآخرة « خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا » أى حافظا يتولاهم «وَلَا نَصِيرًا» أى يخلصهم «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ» أى تصرف من جهة إلى جهة، تشبيه بقطعة لحم فى قدرٍ تغلى . ترامى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو المعنى : من حال إلى حال . فالمراد تغيير هيآتها من سواد وتقديد وغيره .

قال الزمخشرىّ : وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة . وناصب الظرف (يقولون) أو (اذكر) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيراً) « يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا» أى فكنا ننجو من هذا العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ)

[٦٨] (رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)

[٦٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا)

«وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا» وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه « فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ » أى بما زينوه لنا . قال الزمخشريّ : وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف «رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ» أى مثلى العذاب الذى آتيتناه ، لأنهم ضلوا وأضلوا « وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » أى لعنا هو أشد اللعن وأعظمه . وقرئ (كثيرا) تكثيرا لأعداد اللعائن « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا» لما بين تعالى وعيد من يؤذى نبيه ﷺ ، من استحقاقه اللعنة فى الدارين ، تعريضا بمن صدر منهم شيء من الأذى فى قصة زيد وزينب، التى سيقت السورة لأجلها، ختمها أيضا بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيذاء لموسى عليه السلام، بتنقصه تارة، وقلة الأدب معه طورا ، ونسبته إلى ما ينافى الرسالة آونة . كما يعرِّ كثير من ذلك بقارئ توراتهم. مما ينبئ عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها ، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته . فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورماهم بأفانين العقوبات ، ولحقتهم المخازى ، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم ، ونزه مقامه عن تنقيصهم ، بأن حقق فضله ، وأسمى منزلته ، وآتاه الوجاهة ـ وهى العظمة والقرب ـ عنده . وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزى على مؤذى رسول الله ﷺ ،

ولحقهم الدمار ، وشرح لنبيه صدره، ورفع له ذكره، وأعلى منزلته، ونفخم وجاهته ، ماتعاقبت الأدوار. ويقرب من هذه الآية، في المعنى والإشارة، قوله تعالى[1] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ) وفيهما كلتيهما تسلية للنبيّ ﷺ بتأسّيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما . وكثيرا ما كان يقول ﷺ في جواب جفاة الأعراب حين ما يبلغه أو يسمع ما يكره : رحمة الله على موسى . لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وقد روى المفسرون ههنا آثارا. أحسنها ما أخرجه البزار عن أنس مرفوعا : كان موسى رجلا حييًّا. وأنه أتى الماء ليغتسل . فوضع ثيابه على صخرة. وكان لايكاد تبدو عورته. فقال بنو إسرائيل إن موسى آدَرُ[2] أوبه آفة . يعنون أنه لايضع ثيابه . فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء بني إسرائيل . فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال . أو كما قال . فذلك قوله (فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا) ورواه[3] البخاريّ في صحيحه عن أبي هريرة أيضا .

قال الرازيّ: وحديث إيذاءموسى مختلف فيه ـ أى لكثرة الروايات فيه ـ مع أن الإيذاء المذكور في القرآن كاف كقولهم[4] (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ) وقولهم[5] (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً) وقولهم[6] (لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ) إلى غير ذلك . فقال للمؤمنين : لاتكونوا أمثالهم . انتهى .

(١) [٦١ / الصف / ٥] .

(٢) أى به أدرة ، بضم فسكون ، وهى انتفاخ الخصيتين وكبرهما جدا

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٥ ـ كتاب الغسل ، ٢٠ ـ باب من اغتسل عريانا وحده في الخلوة ، حديث رقم ٢٠١

(٤) [٥ / المائدة / ٢٤] . (٥) [٢ / البقرة / ٥٥]

(٦) [٢ / البقرة / ٦١] .

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون كل ماروى مرادا. وأن يكون معه غيره . انتهى. أى لعموم المعمول المحذوف . وما بيناه أولًا ، هو الأقرب . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول ـ (الوجيه) لغة بمعنى السيد ، كالوجه . يقال : هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه . أى أشرافه. وبمعنى ذى الجاه ـ والجاه القدر والمنزلة. مقلوب عن (وجه) فلما أخرت (الواو) إلى موضع (العين) وصارت جَوَها ، قلبت (الواو) ألفا . فصارت (جاها) . كذا فى القاموس وشرحه .

الثانى ـ قال الزمخشرىّ : (وجيهاً) أى ذا جاه ومنزلة عنده . فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة . كما يفعل الملك بمنزله عنده قربة ووجاهة . وقال ابن جرير[1] : أى كان موسى عند الله مشفّعا فيما يَسأل ، ذا وجه ومنزلة عنده ، بطاعته إياه . أى مقبولا ومجابا فيما يطلب لقومه من الله تعالى ، عناية منه تعالى وتفضيلا .

الثالث ـ اتخذ العامة ، وكثير من المتعالمين ، وصف الوجاهة للأنبياء ، ذريعة للطلب والرغبة منهم، ممالا ينطبق على عقل ولا نقل، ولا يصدق على المعنى اللغوىّ بوجهٍ ما. وقد كتب فى ذلك الإمام الشيخ محمد عبده فتيا ، أبان وجه الصواب فيما تشابه من هذه المسألة . وذلك أنه سئل ، رحمه الله ، عمن يتوسل بالأنبياء والأولياء ، معتقداً أن النبىّ أو الولىّ يستميل إرادة الله تعالى عما هى عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام . وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام .

فقال امرؤ: إن هذا مخلّ بالعقيدة وإن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال . وإن عقيدة التوحيد أن لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى . وإنه لا يدعى معه

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

أحد سواه . كما قال تعالى[١] (فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّـهِ أَحَدًا) وإن النبيّ ﷺ، وإن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر ، وأعظم الناس جاها ومحبة ، وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضرًّا ولا نفعا ولا رشدا ولا غيره . كما فى نص القرآن . وإنما هو مبلّغ عن الله تعالى . ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته . وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضارّ إلا ما هدى الله الناس إليه . ولا معنى للتوسل بنبيّ أو وليّ إلا باتباعه والاقتداء به . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة فى القرآن العظيم ، كقوله تعالى[٢] (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّـهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّـهُ) (وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ)[٣] إلى غير ذلك من الآيات. هذا هو اعتقادى وهو الذى قلته للناس . فإن كنتم ترون فيهْ خطأ فأرجو بيانه. وإن كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة، لأدافع بذلك من أساء بى الظن .

فأجاب رحمه الله، بعد البسملة والحوقلة :اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح . ولا يشوبه شوب من الخطأ . وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتقده. فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبيّ محمد ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد . كما قال الله تعالى[٤] (قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ * ٱللَّـهُ ٱلصَّمَدُ) و (ٱلصَّمَدُ)هو الذى يقصد فى الحاجات، ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون ، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم . والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر . كما هو معروف عند أهل اللغة . فلا صَمَدَ إلا هو . وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة فى قوله[٥] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

(١) [٧٢ / الجن / ١٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ٣١].
(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١١٢ / الإخلاص / ١ و ٢] .
(٥) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وقد قال الشيخ محي الدين بن العربيّ، شيخ الصوفية، فى صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من (فتوحاته) عند الكلام على هذه الآية: إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه. بل لله الحجة البالغة. فلا يتوسل إليه بغيره. فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه. وقد أخبرنا الله أنه قريب. وخبره صدق. انتهى ملخصا.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم فى هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقا من التأويل لا تنطبق على ما فى نفوس الناس. ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له فى مخيلات المعتقدين. فأيّ حالة تدعوهم إلى ذلك؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه (بدعة) فى الدين وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار. وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراك بالله تعالى وسوء الظن به. كهذه البدع التى نحن بصدد الكلام فيها، وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن فى ذلك تعظيما لقدر النبيّ ﷺ، أو الأنبياء أو الأولياء. مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عند ما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظنُّ هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم، وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم، واختراع شئون لهم مع الله، لم ترد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن. لأنهم شبهوهم فى ذلك بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت، وليس يخطر بالبال أن جبارا لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه، يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله. فكيف بالأنبياء والصديقين؟ إن لفظ (الجاه) الذى يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل، مفهومه العرفيّ هو السلطة. وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال فلان خلص فلانا

من عقوبة الذنب بجاهه، لدى الأمير أو الوزير مثلا. فزعمُ زاعم أن لفلان جاها عند الله بهذا المعنى ، إشراكٌ جليّ لاخفيّ . وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغويّ ، وهو المنزلة والقدر . على أنه لامعنى للتوسل بالقدر والمنزلة فى نفسها. لأنها ليست شيئا ينفع. وإنما يكون لذلك معنى، لوأُوِّلَتْ بصفةمن صفات الله، كالاجتباء والاصطفاء، ولا علاقة لها بالدعاء ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها فى دعائه . وإن كان (الآلوسيّ) بنى تجويز التوسل بجاه النبيّ خاصة على ذلك التأويل . وما حمله على هذا إلّا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهّال . وهو مما لاقيمة له عند العارفين . فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاثة . وفيـــه شبهة الشركـ والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فَلِمَ الإصرارعلى تحسين هذه البدعة ؟

يقول بعض الناس : إن لنا على ذلك حجة لاأبلغ منها. وهى مارواه الترمذيّ[1] بسنده إلى عثمان بن حنيف رضى الله عنه قال: إن رجلا ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال: ادع الله أن يعافينى. فقال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك . قال : فادعه . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة. يامحمد ! إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى . اللهم فشفعه فىّ . قال الترمذيّ: وهوحديث حسن صحيح غريب ، ونقول أولًا : قدوصف الحديث بالغريب، وهومارواه واحد. ثم يكفى فى لزوم التحرز عن الأخذ به، أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك . ولا وجه لابتعادهم عن العمل به، إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراكـ فى الدعاء من الحى. كما قال عمر[2] رضى الله عنه، فى حديث الاستسقاء: إنا كنا نتوسل

(١) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ١١٨ ـ باب حدثنا محمود بن غيلان

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٣ ـ باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء ، إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢

إليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس فاسقنا، قال ذلك ، رضى الله عنه ، والعباس بجانبه يدعو الله تعالى ، ولو كان التوسل مازعم هؤلاء الزاعمون ، لكان عمر يستسقى ويتوسل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يقول (كنا نستسقى بنبيك) وطلب الاشتراك فى الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه، بل ويكون من الأعلى للأدنى، كما ورد فى الحديث. وليس فيه مايخشى منه، فإن الداعى ومن يشركه فى الدعاء وهو حيّ، كلاهما عبد يسأل الله تعالى، والشريك فى الدعاء شريك فى العبودية ، لا وزير يتصرف فى إرادة الأمير كما يظنون[1] (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ثم المسألة داخلة فى باب العقائد، لا فى باب الأعمال. ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال (هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله فى قضاء حاجاتنا أو لا يجوز)؟ أما الكتاب فصريح فى أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم فى قوله[2] (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ) سورة يونس، وقد جاء فى السورة التى نقرؤها كل يوم فى الصلاة (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضرًّا ، وهذا هو التوحيد الذى كان أساس الرسالة المصطفوية كما بيّنا. ثم البرهان العقلىّ يرشد إلى أن الله تعالى فى أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم فى التحول عن إرادتهم ، بما يتخذه أهل الجاه عندهم، لتنزّهه جل شأنه عن ذلك. ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة ، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصل إلى اليقين، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة . ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الآحاد دليلا على العقيدة مهما قوى سنده . فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن . (وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا)[3] انتهى كلامه رحمه الله .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٠ / يونس / ١٨] .
(٣) [٥٣ / النجم / ٢٨] .

ثم راجعت (اقتضاء الصراط المستقيم) للإمام العلَم تقيّ الدين ابن تيمية رضي الله عنه . فرأيته ذكر نحوا من ذلك ، وعبارته : فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها ، تعمّ الوسيلة في عبادته وفي مسألته . فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته . ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبيّ ﷺ يوم القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعوَ لهم في الاستسقاء وغيره : وقول عمر رضي الله عنه (إنا كنا ، إذا أجْدَبْنَا ، توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله، ونحن نتوسل إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته . ليس المراد به، إنا نقسم عليك به. أوما يجري هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه. كما يقوله بعض الناس : أسألك بجاه فلان عندك . ويقولون : إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه، ويروون حديثا موضوعا (إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ،فإن جاهي عند الله عريض) فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضي الله عنه، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس. مع علمهم أن السؤال به والإقسام به ، أعظم من العباس . فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه ، هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات . وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم . فإن الحيّ يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء ، لا دعاء ولا غيره . وكذلك حديث الأعمى . فإنه طلب من النبيّ ﷺ أن يدعوله ليردّ الله عليه بصره . فعلّمه النبيّ ﷺ دعاءً أمره فيه ، أن يسأل الله قبول شفاعة نبيّه فيه . فهذا يدل على أن النبيّ ﷺ شفع فيه ،وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله (أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة) أي بدعائه وشفاعته . كما قال عمر: كنا نتوسل إليك بنبينا . فلفظ (التوجه) و (التوسل) في الحديثين بمعنى واحد . ثم قال (يا محمد ! يا رسول الله! إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها . اللهم ! فشفعه فيّ) فطلب من الله أن يشفّع فيه نبيّه . وقوله (يا محمد ! يانبي الله !) هذا وأمثاله نداء ، يطلب به استحضار المنادى في القلب.

فيخاطب المشهود بالقلب . كما يقول المصلّى : السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته . والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا . يخاطب من يتصوره فى نفسه . وإن لم يكن فى الخارج من يسمع الخطاب . فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به ، فيه إجمال واشتراك. غلط بسببه من لم يفهم مقصد الصحابة، يراد به التشبث به (فى الأصل التسبب به) لكونه داعيا وشافعا مثلا . أو لكون الداعى محبّا له ، مطيعا لأمره ، مقتديا به . فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته . فلا يكون التوسل، لاشىء منه ولاشىء من السائل ، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله . فهذا الثانى هو الذى كرهوه ونهوا عنه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أى فى كل ماتأتون وماتذرون . لاسيا فى ارتكاب ما يكرهه، فضلًا عما يؤذى رسوله صلى الله عليه وسلم « وَقُولُوا۟ » أى فى كل شأن من الشئون «قَوْلًا سَدِيدًا» أى قويما حقا صوابا . قال القاشانىّ : (السداد) فى القول ، الذى هو الصدق والصواب ، هو مادة كل سعادة ، وأصل كل كمال . لأنه من صفاء القلب وصفاؤه يستدعى جميع الكمالات. وهو وإن كان داخلا فى التقوى المأمور بها ، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب ، مندرج تحت التزكية التى عبر عنها بالتقوى. لكنه أفرد بالذكر للفضيلة. كأنه جنس برأسه . كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

«يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» أى بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم. لأنه لا يصح عملٌ ما بدون الصدق أصلا . وبه يصلح كل عمل « وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل . فإن الحسنات يذهبن السيئات « وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فى الأوامر والنواهى التى من جملتها هذه التشريعات « فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً » أى فى الدارين .

وقال القاشانىّ : أى فاز بالتحلية والاتّصاف بالصفات الإلهية ، وهو الفوز العظيم .

تنبيه :

قال الزمخشرىّ : المراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول . والبعثُ على أن يَسِدّ قولُهم فى كل باب . لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . وهذه الآية مقررة للتى قبلها . بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ، ليترادف عليهم النهى والأمر ، مع إتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام . وإتباع الأمر الوعد البليغ ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . انتهى .

ولك أن تضم إلى المراد من الآية الذى ذكره ، مراداً آخر . وهو نهيهم أيضا عما خاض فيه المنافقون من التعويق والتثبيط وبث الأراجيف فى غزوة الأحزاب ، المتقدمة أوائل السورة وبالجملة ، فالسياق يشمل ذينك وغيرهما . إلا أن الذى يراعى أولًا ، هو ما كان التنزيل لأجله ، وذلك ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ، إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

« إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا » قال أبو السعود : لما بيّن عظم شأن طاعة الله ورسوله، ببيان مآل الخارجين عنهما من العذاب الأليم ، ومثال المراعين لهما من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل ـ مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها ، صدر عنهم بعد القبول والالتزام . وعبر عنها بـ (الأمانة) تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين، وائتمنهم عليها . وأوجب عليهم تلقّيها بحسن الطاعة والانقياد . وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها ، من غير إخلال بشيء من حقوقها . و عبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها ، بالعرْض عليهنّ، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهنّ لها ـ وعن عدم استعدادهنّ لقبولها ، بالإباء والإشفاق منها ، لتهويل أمرها وتربية فخامتها ـ وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها، بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية، التي أشدها وأعظمها ما فيهنّ من القوة والشدة. والمعنى :أن تلك الأمانة في عظم الشأن ، بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام ، التي هي مثل في القوة والشدة ، مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك، لَأَبَيْنَ قبولها وأشفقن منها. ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق، رَوْماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه. وقوله تعالى (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ) أي عند عرضها عليه . إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق ـ أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ـ وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطريّ ، أو عن اعترافه بقوله (بلى) . وقوله تعالى (إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ـ أي أنه كان مفرطا في الظلم، مبالغا في الجهل .أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة . أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا . وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ » أى حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة . على أن اللام للعاقبة . فإن التعذيب وإن لم يكن غرضا له من الحمل ، لـكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ، ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها ، أبرز فى معرض الغرض ـ أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالـكلية . وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى « وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ » أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده . أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة . وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات . قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلّته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة . والالتفات إلى الاسم الجليل أولًا ، لتهويل الخطب وتربية المهابة . والإظهارُ فى موضع الإضمار ثانيا ، لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لـكل من مقامى الوعيد والوعد حقه « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » أى مبالغاً فى المغفرة والرحمة . حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم . انتهى ملخصا مما حرره أبو السعود . وقد آثرت نقله بحروفه لتجويده الـكلام ، وإجادته فى المقام . وهكذا عادتنا فى كل مجوّد ، أن ننقله ولا نتصرف فيه .

بقى فى الآية لطائف نشير إليها :

الأولى ـ فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة ، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين . وبعضهم بمعرفته تعالى. قال ابن كثير: وكل هذه الأقوال لا تنافىَ بينها، بل هى متفقة وراجعة

إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها. وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب . انتهى .

وقيل : المراد بالأمانة الطاعة التي تعمّ الطبيعية والاختيارية، لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وبعرضها، استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار، وإرادة صدوره من غيره ـ وبحملها، الخيانة فيها والامتناع عن أدائها، فيكون الإباء امتناعا عن الخيانة وإتيانا بالمراد . فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها ، أَبَيْنَ الخيانة وانقدن لأمره تعالى انقياد مثلها. حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا وتكوينا وتسوية، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة . كما قال(1) (قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) وخانها الإنسان حيث لم يأت ـ وهو حيوان عاقل صالح للتكليف ـ بما أمرناه به؛ إنه كان ظلوما جهولا . وإرادة الخيانة من حملها، هو بتشبيه الأمانة قبل أدائها بحمل يحمله . كما يقال (ركبته الديون) وقرره الزمخشريّ بقوله: وأما حمل الأمانة فمن قولك (فلان حامل للأمانة ومحتمل لها) تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، ويخرج عن عهدتها . لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها . ألا تراهم يقولون (ركبته الديون) و (لي عليه حق) فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها . ومنه قولهم (أبغض حق أخيك) لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤدّه. وإذا أبغضه أخرجه وأداه فمعنى (فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان) فأبين إلا أن يؤدينها. وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه . وهو أداؤها . انتهى ملخصا .

الثانية ـ نقل ابن كثير آثارا عن بعض التابعين ؛ أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقيا. وأنه قيل لها : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فقلن: يارب ! إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليس بنا قوة . ولكنا لك مطيعين . قال الشراح : ولا بُعْد ، أن يخلق الله فيها فهماً لخطابه ، وأنه كان على سبيل التخيير لهـــا . ولذا عبر بالعرض ، لا تكليفا حتى يلزم عصيانها . انتهى .

(1) [٤١ / فصلت / ١١] .

قال الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) فى الردّ على من جعل للجمادات تميزا، مامثاله : وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وإبايةِ كل واحد منها، فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك. وهذا نص قوله[1](مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ») فمن تـكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق ، وأن له مبدأً لايشبهه البتة ، فأراد معرفة كيف كان ، فقد دخل فى قوله تعالى[2](وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ) .

إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة ، إلا وقدجعل فيها تميزاً لما عرض عليها . وقوة تفهم بها الأمانة فيا عرض عليها. فلما أبتها وأشفقت منها، سلبها ذلك التمييز وتلك القوة ، وأسقط عنها تـكليف الأمانة .

قال : هذا ما يقتضيه كلامه عز وجل ، ولا مزيد عندنا على ذلك . انتهى .

وذهب جمع إلى أن ذلك من باب المجاز ، كما بينه ابن أبى الحديد فى (شرح نهج البلاغة) وسبقه الزمخشرىّ حيث قال : ونحو هذا من الـكلام كثير فى لسان العرب . وماجاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم (لوقيل للشحم أين تذهب ، لقال أسوّى العوج) وكم وكم لهم من أمثالٍ على ألسنة البهائم والجمادات . وتصوُّرُ مقاولة الشحم محال . ولـكن الغرض أن السِّمَن فى الحيوان مما يحسّن قبيحه . كما أن العجف مما يقبح حسنه . فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع فى نفس السامع ، وهى به آنس، وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف. وكذلك تصوير عظم الأمانة ، وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها . انتهى .

الثالثة ـ قال الرازىّ : إن قال قائل: لم قدم التعذيب على التوبة ـ فى آخر الآية؟ نقول: لما سمى التـكليف أمانة، والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن، وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة ، فـكان التعذيب على الخيانة كاللازم ، والأجر على الحفظ إحسان ، والعدل قبل الإحسان .

الخامسة ـ ورد فى تعظيم الأمانة عدة أحاديث. منها عن أبى هريرة مرفوعا : أدّ الأمانة

(١) [١٨ / الـكهف / ٥١] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك. رواه أبو داود[٢] والترمذيّ[١]. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعا : أربع، إذا كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة فى طعمة. رواه الإمام أحمد[٣] والطبرانىّ. وعن أبى هريرة[٤] قال: قال رسول الله ﷺ ، لمن سأل عن الساعة : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ يارسول الله ! قال : إذا وسّد الأمر إلى غير أهله ، فانتظر الساعة .

السادسة ـ قال ابن كثير : روى عبد الله بن المبارك فى كتاب (الزهد) أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع عن بريدة: من حلف بالأمانة فليس منا ، تفرد به أبو داود[٥] . أى لأن الحلف لا يكون إلا باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته . وأما بغير ذلك فمكروه أو حرام . كما تقرر فى موضعه . والله أعلم .

السابعة ـ سبق لى أن كتبت فى الآية شيئا . فى منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٤ ، فى قرية ضمّت حفلة من أهل العلم . فسأل بعض الناس عن تفسير الآية . ولم يكن ثمة تفسير . فاستعنتُ بالله تعالى ، وقرأت السورة من أولها إلى آخرها مرات ثم كتبت ماتراه.

أردت إثباته هنا تعزيزاً للمقام ، ونصه: فى ختم السورة بهذه الآية من البدائع مايسميه علماء البديع (ردّ العجز على الصدر) ذلك أن طليعة هذه السورة كانت فى ذم المنافقين وقصّ

(١) رواه فى : ٢٢ ـ كتاب البيوع ، ٧٩ ـ باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده ، حديث ٣٥٣٥

(٢) أخرجه فى : ١٢ ـ كتاب البيوع ، ٣٨ ـ باب حدثنا أبو كريب، حديث ١٢٦٤

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٥٢ (طبعة المعارف)

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢ ـ باب من سئل علما وهو مشتغل فى حديثه ، حديث ٥٢

(٥) أخرجه فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان، ٥ ـ باب كراهية الحلف بالأمانة، حديث ٣٢٥٣

مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه فى غزوة الأحزاب، وهى غزوة الخندق. أبان الحق تعالى أثر ما ذكر من الأمر بالتقوى وعدم إطاعة المنافقين ، وما كانوا يخوضون فيه من قصة التبنّى ونحوها، أنهم كانوا أعطوا العهود والمواثيق أنهم إن قاتلوا لا يفروا وذلك فى قوله تعالى[1] (وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّـهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّـهِ مَسْـُٔولًا * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فلما خانوا أماناتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم ، والتثبيط لهم ، وما كان من شنائعهم فى تلك الغزوة، بين الله تعالى فى خاتمة السورة، شأن الأمانة وعظم خطرها ، وأنها عند الله بمكان عظيم. وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقا ، عاهد الله عليه فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركنت إليه وأدرجته فى عداد من يشدّ أزرها ، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب، يتخذ عهود الله هزؤا ولعبا ، فيخذل من وثق به ، ويمالئ العدوّ عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة ، ويوقع الأراجيف ليوهى العزائم ويضعف الهمم ، فتكثر القالة وترتبك العامة . فما أسوأ ما يأتى به وما أفظع ما ارتكب وما أعظم جريمته ! وجلىّ أن عظم الجريمة بقدر عظم آثارها ، وما ذكر بعض من آثارها . ففى أى مرتبة تكون الخيانة ؟ لا جرم أنها فى أحط المهاوى الدنيئة. كما أن مرتكبها فى الدرك الأسفل من النار. فالأمانة المذكورة فى الآية باعتبار سياقها وسباقها، هى الأمانة التى خان فى تحملها المنافقون، ونقضوا بها عهدهم فى هذه الواقعة . وكان من أثرها السيئ فى المدينة وأهلها ما كان ـ وإن كان لفظها يعم ما ذكر وغيره، والإنسان هنا ، المعنىّ به جنس المنافق الذى قصّ من نبئه ما قصّ. والقصد لومه على كونه تحمل ما تحمل، ثم نقض ذلك عن عمد وقصد، ظلما لنفسه وجهلا بالعاقبة وباللوم الذى يتبعه، وبالعذاب الذى سيلقاه، وبكون هذا الأمر أمراً ربّانيا وعزيمة إلهية ما هى بالهزل . والمراد بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، هو ظهور خطرها لهذه المكونات ، وفظاعة الخيانة فيها، وإشفاق كلّ من خطر تحملها . وإباؤهن ذلك لو كن مما يعقلن. مع أنهن أقوى أجساما وأعظم ثباتا وأصبر على

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥ و ١٦] .

طوارئ الحدثان ، تخوفا من أن يطغين فى أمرها أو يعصين فى شأنها . وإن الإنسان ، مع ضعفه بالنسبة لهن ، حملها وما حفظها ولا رعاها . واجترأ مع ضعفه على ما أشفق منه ما هو أقوى منه . فما أظلمه وما أجهله ! والقصد رميه بالظلم والجهل . وجراءته على الخيانة وعدم مبالاته بما ترهب منه السموات والأرض والجبال . فيالله ما أطغاه ! فذكر هذه الأجرام الكبيرة تهويل لخطر الأمانة ، وأنهن لو عقلن لكان منهن ما كان . ونظير هذه الآية فى ذكر هؤلاء الثلاثة قوله تعالى[1] (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا) وحقا أن سبك المعنى المذكور فى قالب هذا النظم البديع لمعجزة من معجزات التنزيل ، وخارق من خوارقه فى باب البلاغة . فإن أسلوبه فى إفراغ المعانى فى أرق الألفاظ وأفخم التراكيب ، أسلوب انفرد به عن كل كلام . وبه يعلم أن من بحث فى كيفية العرض عليهن ، هل كان بإيداع عقل فيهن أولا ، وفى تعيين زمانه وفى كيفية إبائهن وإشفاقهن ، وفى معنى لوم الإنسان ورميه بالظلم والجهل ، بعد ما عرضت عليه ، وأن ظاهره التخيير إلى غير ذلك ـ كله فلسفة لفظية ، ولَّدها عشاق الظواهر والألفاظ ، الولعون فى الغلوّ بمفرداتها ، وصرف الوقت فيها جعل ذلك منتهى قصدهم ومبلغ علمهم . فضاع عليهم المعنى ولم يهتدوا إليه ـ ولن يجدوا إليه سبيلا ما دام هذا سبيلهم ـ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

تمّ الجزء الثالث عشر . ويليه إن شاء الله الجزء الرابع عشر ، وفيه تفسير : (٣٤ ـ سورة سبأ ، و ٣٥ ـ سورة فاطر ، و٣٦ ـ سورة يس ، ٣٧ ـ سورة الصافات ، و ٣٨ ـ سورة ص ، و٣٩ ـ سورة الزمر ، و ٤٠ ـ سورة غافر ، و٤١ ـ سورة فصلت ، و ٤٢ ـ سورة الشورى ، و ٤٣ ـ سورة الزخرف ، و٤٤ ـ سورة الدخان و ٣٥ ـ سورة الجاثية)

---

(١) [١٩ / مريم / ٨٨ ـ ٩١] .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٣٩٤٥

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء الرابع عشر

وفيه تفسير سور : (من سبأ إلى الجاثية)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٤ – سورة سبأ

سميت بها لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة في السعة وعدم الكلفة والخلوّ عن الآفة، وتبدّلها بالنقم، لمن كفر بالمنعم.. وهذا من أعظم مقاصد القرآن. قاله المهايميّ. وهي مكية. واستثنى منها[١] (وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) الآية. وروى الترمذيّ[٢] عن فروة بن مسيك المراديّ قال: أتيت النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألا أقاتل من أدبر من قومي؟ الحديث. وفيه: وأنزل في سبأ ما أنزل. فقال رجل: يا رسول الله! وما سبأ؟ الحديث.

قال ابن الحصار: هذا يدل على أن هذه القصة مدنية. لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع.

قال: ويحتمل أن يكون قوله (وأنزل) حكاية عما تقدّم نزوله قبل هجرته. أفاده في (الإتقان) وآيها أربع وخمسون.

---

(١) [٣٤/ سبأ / ٦].

(٢) أخرجه في: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٣٤ ـ سورة سبأ، ١ ـ حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » خلقاً وملكا ، وتصرفا بما شاء « وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ » أى فى النشأة الآخرة. قال الشهاب: السموات والأرض عبارة عن هذا العالم بأسره . وهو يشتمل على النعم الدنيوية. فعلم من التوصيف بقوله (ٱلَّذِى) الخ ، أنه محمود على نعم الدنيا . ولما قيّد الثانى بكونه فى الآخرة، علم أن الأول محله الدنيا فصار المعنى : أنه المحمود على نعم الدنيا فيها ، وعلى نعم الآخرة فيها . أو هو من باب الاحتباك . وأصله : الحمد لله الخ فى الدنيا ، وله ما فى الآخرة والحمد فيها . فأثبت فى كل منها ماحذف من الآخرة . وقوله (وَلَهُ ٱلْحَمْدُ) معطوف على الصلة ، أو اعتراض ، إن كانت جملة (يَعْلَمُ) حالية (وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ) أى الذى أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته «ٱلْخَبِيرُ» أى بخلقه وأعمالهم وسرائرهم ، ثم ذكر مما يحيط به علماً قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ)

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ » أى من الأمطار والمياه والكنوز والدفائن والأموات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب «وَمَا يَنزِلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والمقادير « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة وأعمال العباد « وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ » أى لمن تاب من المؤمنين وقام بواجب شكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » يعنى مشركى مكة « لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ » أى ساعة الجزاء ، إنكاراً لها « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ » أى الساعة . رد لكلامهم وتأكيد لما نفوه ، باليمين بالله عزّ وجلّ « عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ » بالجرّ صفة ، والرفع خبر محذوف . وقرئ (علّامِ) بالجرّ . وفى هذا التوصيف تقوية للتأكيد . لأن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به ، يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته . لما أن فى حكم الاستشهاد على الأمر . لا سيما إذا خص من الأوصاف ماله اختصاص بهذا المعنى . فإن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها فى الخفية ، وأولها مسارعة إلى القلب ، إذا قيل عالم الغيب « لَا يَعْزُبُ » أى لا يغيب بضم الزاى وكسرها « عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » أى فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء وإن تناهى فى الصغر . فالعظام وأجزاء البدن ، وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرّقت . ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، لسعة علمه وعظم قدرته ، جلّ شأنه .

لطائف :

الأولى ـ عامة القرّاء على رفع (أَصْغَرُ) و (أَكْبَرُ) وفيه وجهان : أحدهما الابتداء

والخبر (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ)والثانى النسق على (مثقال). وعلى هذا فيكون قوله (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) تأكيداً للنفى فى (لَا يَعْزُبُ) كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين . ويكون فى محل الحال . وقرأ بعض السلف بفتح الراءين . وفيه وجهان : أحدهما ـ أن (لا) هى لا التبرئة. بنى اسمها معها . والخبر قوله (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) . والثانى ـ النسق على (ذَرَّةٍ) لامتناعه من الصرف .

الثانية ـ يشير قوله تعالى (وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ) إلى أن (مِثْقَالَ) لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً .

الثالثة ـ قال الكرخىّ : فإن قيل فأىّ حاجة إلى ذكر (الأكبر) فإن من علم الأصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت فيه الصغائر لكونها محل النسيان. وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فأعلم أن الإثبات فى الكتاب ليس كذلك . فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » علة لقوله تعالى (لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وبيان لما يقتضى إتيانها من جزاء المحسن والمسىء « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى عيش هنىء فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا » أى بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك « مُعَٰجِزِينَ » أى مقدرين الغلبة والعجز فى زعمهم الفاسد وظنهم الباطل « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ » وهو أسوأ العذاب و (مِّن) للبيان « أَلِيمٌ » بالرفع صفة (عذاب)،

وبالجرّ صفة (رجز). قراءتان. وقد جوّز في قوله (وَالَّذِينَ سَعَوْ) أن يكون مبتدأ، وجملة (أُوْلَـٰئِكَ..الخ) خبره وأن يعطف على (الَّذِينَ) قبله . أي ويجزي الذين سعوا . ويكون جملة (أُوْلَـٰئِكَ) التي بعده مستأنفة ، والتي قبله معترضة . وفي التعبير عن طعنهم وصدّهم بالسعي ، تمثيل لحالهم . فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعي العظيم والجدّ البليغ، ليروّج كذبه لعله يعجز المتمسك به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

[٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٨] (أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)

« وَيَرَى » أي يعلم « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » أي دينه وشرعه « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي من قريش « هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ » يعنون النبيّ ﷺ « يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أي فرقتم كل تفريق ، بحيث صرتم تراباً ورفاتاً « إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أي فيما قاله « أَم بِهِ جِنَّةٌ » أي جنون تخيل به ذلك. فرد تعالى عليهم مانعى به سوء حالهم بقوله « بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ » أي المتناهي أمره . فإن من يدعى إلى الصلاح والرشاد، ونبذ الهوى والفساد، فيرمي الداعي بالفرية والجنون ، لَمُغرِق في الجهالة. ومبعد أيّ بعد في الضلالة. ثم أشار إلى تهويل تلك العظيمة التي تفوهوا بها ، وإنها موجبة لنزول أشد العذاب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ » أى : أعَمُوا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارها وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بالرسول ﷺ وبما جاء به ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . أفاده الزمخشريّ . و (الكسف) بسكون السين ، بمعنى القطع ، إما جمع كسفة ، أو فعل بمعنى مفعول ، أو مخفف من المصدر . وقرأ حفص (كسفاً) بالفتح « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله « لَآيَةً » أى دلالة واضحة « لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى راجع إلى ربه مطيع له . فإن شأنه لا يخلو من الاعتبار فى آياته تعالى ، على أنه قادر على كل شىء من البعث ونشر الرميم كما قال تعالى[١] (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ) وقال تعالى[٢] (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ثم أخبر تعالى عما آتى داود وسليمان من الفضل والملك وسعة السلطان ووفرة الجند وكثرة العدد والعدد ، ببركة إنابتهما وقيامهما بشكر الرب تعالى ، عِدَةً للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المنيبين الشاكرين بنيل مثل ذلك ، وتذكيراً بقدرته على كل شىء ، فقال تعالى :

---

(١) [٣٦ / يس / ٨١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا، يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ، وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ)

[١١] (أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ، وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا، إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ » أى رجّعى معه التسبيح و (يَـٰجِبَالُ) بدل من (فَضْلًا) أو من (ءَاتَيْنَا) بتقدير قولنا ، أو قلنا يا جبال أوّبى معه « وَٱلطَّيْرَ » بالرفع والنصب ، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها . وجوز انتصابه مفعولًا معه وأن يعطف على (فَضْلًا) بمعنى وسخرنا له الطير . قال الزمخشرىّ : فإن قلت أىّ فرق بين هذا النظم وبين أن يقال وآتينا داوود منا فضلًا، تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما ! ألا ترى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته . انتهى . « وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ » أى دروعا واسعات « وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ » أى اقتصد فى نسج الدروع لتتناسب حلقها « وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا » أى وقلنا له ولأهله ذلك « إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فأجازيكم به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ، وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ)

«وَلِسُلَيْمَـٰنَ» أى وسخرنا له «ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » أى جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشىّ كذلك. والريح الهواء المسخر بين السماء والأرض. ويطلق بمعنى

النصرة والدلالة والغلبة والقوة، كما في القاموس « وَأَسَلْنَا لَهُو عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » أي النحاس المذاب. أي أجرينا له ينبوعه لكثرة ماتوفر لديه منه من سعة ملكه « وَمِنَ ٱلْجِنِّ » أي الشياطين الأقوياء « مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ » أي من رفيع المباني وإشادة القصور وغيرها « بِإِذْنِ رَبِّهِۦ » أي بأمره تعالى « وَمَن يَزِغْ » أي يعدل « مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ » أي النار.

ثم فصل ماذكر من عملهم بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَعْمَلُونَ لَهُو مَايَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ، ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ)

« يَعْمَلُونَ لَهُو مَايَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ » أي مساكن ومجالس شريفة أو مساجد « وَتَمَٰثِيلَ » أي صور ونقوش منوعة على الجدر والسقوف والأعمدة، جمع (تمثال) وهو كل ماصوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان . ولم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

قال السيوطيّ في (الإكليل) : قال ابن الفَرَس : احتجت به فرقة في جواز التصوير، وهو ممنوع فإنه منسوخ في شرعنا « وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ » أي وصحاف كالجوابي وهي الحياض الكبار . و (الجفان) جمع جفنة وهي كالصحفة والقصعة ، مايوضع فيه الطعام مطلقا . وقيل الجفنة أعظم القصاع . ثم يليها القصعة وهي ماتشبع عشرة . ثم الصحفة وهي ماتشبع خمسة. ثم الميكلة وهي ماتشبع ثلاثة أو اثنين . ثم الصحيفة « وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ » أي ثابتات على الأثافي ، لاتنزل عنها لعظمها « ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا » أي قيل لهم : اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه . وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لاللرجاء والخوف . كما أن فيه وجوب الشكر . وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان . لأن حقيقته صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ماخلق لأجله . وداود عليه السلام قد يدخل هنا في (آله) فإن آل الرجل قد يعمه « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ » أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ، أكثر أوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ)

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ » أى على سليمان « ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ » وهى الأرضة « تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ » أى عصاه التى ينسأ بها ، أى يطرد ويؤخر « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ » أى الشديد من الجرى على رسمه لهم ، والدأب عليه ، لظنهم إياه حيًّا .

ثم بين تعالى من أخبار بعض الكافرين بنعمه، إثر بيان أحوال الشاكرين لها، ما فيه عظة واعتبار ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ » اسم لأبى قبيلة . وقد قرئ بمنع الصرف على أنه اسم لها « فِى مَسْكَنِهِمْ » أى فى مواضع سكناهم ، وهى باليمن يقال لها (مأرب) كمنزل من بلاد الأزد ، فى آخر جبال حضرموت . وكانت فى الزمن الأول قاعدة التبابعة ، فإنها مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل . وقرئ (مَسَاكِنِهِمْ)« ءَايَةٌ »على قدرته تعالى ومجازاته المسىء « جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ » أى جماعتان من البساتين عن يمين بلدهم وشمالها . أو لكل واحد جنتان عن يمين مسكنه وشماله: قيل لهم « كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ » أى بصرف ما أنعم به عليكم إلى ما خلق لأجله . ثم بين ما يوجب الشكر المأمور به ، بقوله سبحانه « بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ » أى لطيفة جميلة مباركة لا عاهة فيها « وَرَبٌّ غَفُورٌ » أى لمن شكره.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)

« فَأَعْرَضُوا » أى عن الشكر « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ » أى سيل الأمر العرم، أى الصعب والمطر الشديد ـ أو الوادى ـ أو السَّكْر الذى يحبس الماء ـ أو هو البناء الرصين المبنىّ بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها . وقد ترك فيه أنقاب على مقدار ما يحتاجون إليه فى سقيهم. فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم . واضطر من نجا منهم للنزوح عنها . كما قال تعالى « وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ » أى ثمر مرّ ، أو بشع لا يؤكل « وَأَثْلٍ » شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له « وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » وهو شجر النبق . أى قلة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فهذا تبديل النعم بالنقم ، لمن لم يشكر النعم، كما قال تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧] (ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

« ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ » أى بشكر النعم ، أو باتباع الرسل وتكذيب الحق والعدول إلى الباطل . ثم بين تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنىّ والبلاد الآمنة والقرى المتواصلة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ)

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» أى بالزروع والثمار وحسن العمران وهى

قرى بصنعاء كما قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومالك وغيرهم «قُرًى ظَاهِرَةً» أى متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها . فهى ظاهرة لأعين الناظرين . أو ظاهرة للمسافرين لا تبعد عن مسالكهم «وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ» أى جعلنا بين قراها مقادير متساوية . فمن سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة . ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ، ولا يخاف من عدوّ ونحوه «سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ» أى لا تخافون فى الليل أو النهار . أو وإن تطاول أمد سفركم فيها وامتد، فلا ترون إلا الأمن . والأمر على تقدير القول بلسان المقال بواسطة نبيّ ونحوه، أو بلسان الحال . كأنهم لما تمكنوا منه جعلوا مأمورين به . فالأمر للإباحة . وفى (فى) إشعار بشدة القرب ، حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« فَقَالُواْ » أى بلسان الحال والميل إلى المهالك الشيطانية « رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» أى فاستعدوا لضلالهم وكفرهم لأن تجعل أمكنتهم تعمل فيها المطيّ والرواحل ، لتباعد ما بينها وبين ما يسيرون إليه . وحصل ذلك بما بدلوا به من بلادهم الحسنة « وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ» أى حتى حل بهم ما حل « فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ » أى يتحدث الناس بهم ويتعجبون من نبئهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والعيش الهنىّ « وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أى فرّقناهم كل تفريق ، حتى اتخذه الناس مثلا مضروباً . يقولون (تفرقوا أيادى سبا ، وذهبوا أيدى سبا) بألف مقصورة . قال الأزهريّ : العرب لا تهمز سبأ فى هذا الموضع ، لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا فيه الهمز ، وإن كان أصله مهموزاً . والذهاب معلوم. والأيادى جمع أيد . والأيدى جمع يد. وهى بمعنى الجارحة ، وبمعنى النعمة، وبمعنى الطريق، وهو المراد.

قال فى التهذيب : قولهم ذهبوا أيدى سبا ، أى متفرقين . شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله فى الأرض كل ممزق . فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة . و (اليد) الطريق . يقال : أخذالقوم يد بحر .. فقيل للقوم إذا ذهبوا فى جهات مختلفة (ذهبوا أيدى سبا) أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها ، كما تفرق أهل سبا فى مذاهب شتى .

قال ابن مالك : إنه مركب تركيب خمسة عشر ، مبنيًّا على السكون . وفى (زهر الأكم ، فى الأمثال والحكم) أن سبا كانت أخصب بلاد الله . كما قال تعالى (جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) قيل كانت مسافة شهر للراكب المجدّ . يسير الماشى فى الجنان من أولها إلى آخرها لايفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الأنهار واتساع الفضاء . فمكثوا مدة فى أمن لايعاندهم أحد إلا قصموه . وكانت فى بدء الأمر تركبها السيول . فجمع لذلك حميرُ أهلَ مملكته وشاورهم . فاتخذوا سدًّا فى بدء جريان الماء ورصفوه بالحجارة والحديد ، وجعلوا فيه مخارق للماء . فإذا جاءت السيول انقسمت على وجه يعمهم نفعه فى الجنات والمزروعات . فلما كفروا نعم الله تعالى ، ورأو أن ملكهم لا يبيده شىء ، وعبدوا الشمس ، سلط الله على سدّهم فأرة نخرقته . وأرسل عليهم السيل فمزقهم الله كل ممزق . وأباد خضراءهم . وتبددوا فى البلاد . فلحق الأزد بعمان . وخزاعة ببطن مرّ . والأوس والخزرج بيثرب . وآل جفنة بأرض الشام . وآل جذيمة الأبرش بالعراق .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ أرجل أم امرأة ؟ أم أرض ؟ قال ﷺ : بل هو رجل ولد له عشرة . فسكن اليمن منهم ستة . وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان . قال ابن كثير : وإسناده حسن إلا ابن لهيعة .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن فروة بن مسيك رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فقاتل بمقبل قومك مدبرهم . فلما وليت دعانى فقال : لاتقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام . فقلت :

يا رسول الله ! أرأيت سبأ ؟ أوادٍ هو أو جبل أو ما هو ؟ قال ﷺ : لا ، بل هو رجل من العرب ولد له عشرة . فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة . تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار ــ الذين يقال لهم بجيلة ــ وخثعم . وتشاءم لخم وحذام وعاملة وغسان .

قال ابن كثير : حديث حسن . وإن كان فيه أبو حباب الكلبيّ ، وقد تكلموا فيه .

ورواه الحافظ ابن عبد البرّ في كتاب (القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) عن تميم الداريّ ؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ؟ فذكر مثله .

وقال ابن كثير : فقوى هذا الحديث وحسن .

وذكر علماء النسب ، منهم محمد بن إسحق اسم سبأ ، عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له الرائش . لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه . فسمى الرائش . والعرب تسمى المال ريشاً ورياشاً . وذكروا أنه بشَّر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدّم . وقال في ذلك شعرا :

سيملكُ بعدنا مَلِكٌ عظيمٌ ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرامِ
ويملك بعده منهم ملوكٌ ... يدينوه القيادَ بكل رامى
ويملك بعدهم منا ملوكٌ ... يصير الملك فينا بانقسامِ
ويملك بعد قحطانٍ نبيٌّ ... تَقِى مُتَحَنِّثٌ خيرُ الأنامِ
يسمّى أحمدًا . ياليت أنى ... أعمّر بعد مبعثه بعامِ
فأعضده وأحبوه بنصرى ... بكل مُدَجَّج وبكل رام
متى يظهرْ فكونوا ناصريه ... ومن يَلْقَهْ يبلِّغْهُ سلامِى

ذكر ذلك الهمدانيّ في كتاب (الإكليل) . واختلفوا في قحطان . فقيل : إنه من سلالة إرم بن سام نوح . وقيل : من سلالة عابر وهو هود عليه السلام . وقيل : إنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام . وقد ذكر ذلك مستقصًى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ النمريّ في كتاب (الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه) .

قال ابن كثير : ومعنى قوله ﷺ فى سبأ : كان رجلا من العرب ، يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث . كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم . والله أعلم .

ولكن فى صحيح البخارى[1] أن رسول الله ﷺ مرّ بنفر من أسلم ينتضلون فقال : ارموا ، بنى إسماعيل ! فإن أباكم كان راميا . وأسلم قبيلة من الأنصار . والأنصار أوسها وخزرجها من عرب اليمن ، من سبأ ، نزلت يثرب ، لما تفرقت ، كما مر .

(ثم قال) : ومعنى قوله ﷺ : ولد له عشرة أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن . لا أنهم ولدوا من صلبه . بل منهم من بينه وبينه ، الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر . كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من قصتهم ، وما حل بهم من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية على ما ارتكبوه من الكفر والآثام « لَأَيَٰتٍ » أى لعبرا عظيمة « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى شأنه الصبر عن الشهوات والهوى والآثام ، والشكر على النعم . قال الأعشى من قصيدة .

فَفِى ذاكَ للمؤتسى أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَفَّى عليها العَرِمْ
رُخَامٌ بنته لهم حِمْيَرٌ ... إذا جاء موّاره لم يَرِمْ
فأروى الزروعَ وأعنابَها ... على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أَيادِىَ ما يقدرو ... ن منه على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) أخرجه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ٧٨ـ باب التحريض على الرمى ، حديث رقم ١٣٨٧ عن سلمة بن الأكوع .

[٢١] (وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ)

« وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ » قال الزمخشرى : قرئ (صدق) بالتشديد والتخفيف. ورفع لفظ (إبليس) ونصب (الظن) فمن شدد ، فعلى : (حقق عليهم ظنه ، ووجده ظنه صادقا) أى صدّق بمعنى حقق مجازا . لأنه ظن شيئا فوقع فحققه . وقوله (أووجده ظنه صادقا) فإن العرب تقول صدّقك ظنك . والمعنى أن إبليس كان يسوّل له ظنه شيئا فيهم . فلما وقع جعل كأنه صدقه . اه شهاب .

ومن خفف فعلى (صدق فى ظنه، أوصدق يظن ظنا) نحو فعلته جهدك . أى فـ(ظنه) منصوب على الظرفية بنزع الخافض. وأصله (فى ظنه) أى وجد ظنه مصيبا فى الواقع ، فـ(صدق) حينئذ بمعنى أصاب ، مجازا . أو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدّر . كفعلته جهدك ، أى وأنت تجهد جهدك . فالمصدر وعامله فى موقع الحال . اه شهاب .

وبنصب (إبليس) ورفع (الظن) فمن شدد فعلى (وجد ظنه صادقا) . ومن خفف ، فعلى (قال له ظنه الصدقَ حين خيله إغواؤهم) برفع (إغواؤهم) على الفاعلية . أو نصبه على الحذف والإيصال ، وفاعله وضمير الظن . أى خيـــل له إغواءهم . اه شهاب . يقولون صدقك ظنك .

وبالتخفيف ورفعهما ، أى على إبدال الظن من إبليس ، بدل اشتمال . اه شهاب . على (صدق عليهم ظن إبليس) . انتهى .

وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهما كهم فى الشهوات ، أوببنى آدم حينما رأى ما ركب فيهم من الشهوة والغضب .

« فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ » أى ما كان له عليهم من تسليط واستيلاء

بالوسوسة والاستغواء ، إلا لغرض صحيح وحكمة بينة . وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها. وعلل التسليط بالعلم. والمرادماتعلق به العلم. قاله الزمخشريّ. يعني أن العلم المستقبل المعلل به هنا ، ليس هو العلم الأزليّ القائم بالذات المقدس ، بل تعلقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذي يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب . فالمعنى ماسلطناه عليهم إلاليبرز من كمون الغيب ما علمناه ، فتظهر الحكمة فيه ويتحقق ما أردناه من الجزاء أو لازمه ، وهو ظهور المعلوم .

ويجوز أن يكون المعنى : لنجزى على الإيمان وضده . كذا في (العناية) « وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » أي رقيب قائم على أحواله وأموره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ)

« قُلِ » أي للمشركين، إظهاراً لبطلان ماهم عليه وتبكيتا لهم «ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم» أي زعمتموهم آلهة « مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » أي من خيروشر ونفع وضر « فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ » أي شركة، لاخلقا ولا ملكا ولا تصرفا « وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ » أي معين يعينه على تدبير خلقه ، قال الزمخشريّ : يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية. فكيف يصح أن يُدْعَوا كما يدعى ، ويرجَوْا كما يرجى ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ، حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُواْ ٱلْحَقَّ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ)

« وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ » أي من المستأهلين لمقام الشفاعة،

كالنبيين والملائكة . وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله « حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ » أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة ، فى إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك « قَالُواْ » أى سائلا بعضهم بعضا « مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ » أى قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى «وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ» أى ذو العلوّ والكبرياء . ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى .

قال ابن كثير : هذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة ، حتى يلحقهم مثل الغشي . قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرهما .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : بم اتصل قوله (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) ولأى شيء وقعت (حتى) غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا يؤذن . وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملىّ من الزمان وطول من التربّص . ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل [1] (رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) أى : وإذا كانت الشفاعة لمن أذن له بهذا الحال ، عظمة وسموًّا من ذى الجلال ، فأنّى ينالها جماد لا يعقل ، لا سيما وهو عدوّ للكبير المتعال ، فتبين كذبهم فيهم أنهم شفعاء ، وحرمانهم من مقامها ، بأجلى بيان وأفصح مقال .

وفى الآية تأويل آخر . وهو أن معنى قوله تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أى عن قلوب المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا تنبهوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) أى كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : أى كشف عما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٧و٣٨] .

هذا عند الموت ، أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار . واختار ابن جرير[١] القول الأول ، وهو أن الضمير عائد إلى الملائكة .

قال ابن كثير : وهذا هو الحق الذى لا مرية فيه . لصحة الأحاديث فيه والآثار ، أى ولورود مايؤيده فى آية أخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضا وذلك فى قوله تعالى[٢] (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ) نعم ، النظم الكريم لا يأبى ما ذكروه، إلا أن مراعاة الأشباه والنظائر هو العمدة فى باب فهم التأويل ، ما وجد إليها سبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، قُلِ ٱللَّهُ ، وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أمر بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما . وقوله « قُلِ ٱللَّهُ » أى الذى تعترفون بأنه هو الخالق . كما قال تعالى[٣] (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ) أى فحينئذ قامت الحجة عليهم منهم .

«وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى وإن أحد الفريقين من الموحدين، الرازق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة على ذرة ، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .   (٣) [١٠ / يونس / ٣١] .

قال الزمخشريّ : وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من مُوالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك . وفى دَرْجِهِ بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ ، دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو فى الضلال المبين . ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك . وإن أحدنا لكاذب . ومنه بيت حسان (١) :

أتهجوه ولستَ له بكفء   فشرُّكما لِخَيْرِكُما الفِدَاءُ

انتهى .

قال الناصر : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعى فزاد رونقاً بالترديد . واستعاده الخاطر ، كأنى بطئ الفهم حين يفيد . ولا ينبغى أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التى أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء فى مجادلاتهم ومحاوراتهم . وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإبهام . فهذا المسلك من هذا الوادى غير بعيد ، فتأمله ، والله الموفق . انتهى .

قال الشهاب : وهذا فن من فنون البلاغة يسمى (الكلام المنصف) . وقيل إن الآية على اللف والنشر المرتب . ونظر فيه بأنه لو قصد اللف بأن يكون على هدى راجعا لقوله (وَإِنَّآ) و (أَوْ فِي ضَلَٰلٍ) راجعا لـ (إياكم) كان العطف بالواو لا بأو . وكونها بمعنى الواو كما فى قوله :

سِيّانِ كسرُ رَغِيفِهِ   أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

عَفَتْ ذات الأصابع فالجِواءُ   إلى عذراء منزلها خَلاءُ

يهجو بها أبا سفيان ، وكان هجا النبيّ ﷺ قبل إسلامه .

(ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق . وعذراء : موضع على بريد من دمشق . وعفت : درست) .

بعيد جداً . إلّا إنه قيل : لو جعل فيه إيماء لذلك لم يبعد . وإيثار (على) فى الهدى و(فى) فى مقابله ، للدلالة على استعلاء صاحب الهدى وتمكنه واطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال ، أو الراكب على جواد . وانغماس الضال فى ضلاله حتى كأنه فى مهواة مظلمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى قل لهؤلاء المشركين : لا تسئلون عما أجرمنا من جرم وركبنا من إثم ، ولا نسئل نحن عما تعملون من عمل .

قال ابن كثير : معناه التبرى منهم . أى لستم منا ولا نحن منكم . بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفرادِ العبادة له . فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا . كما قال تعالى[1] (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) وكقوله[2] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) السورة . انتهى .

وما ذكره معنى دقيق ، قلَّ من يتفطن له ، أسميه التفسير بالأشباه والنظائر . وهو حمل آية موجزة أو مجملة على آية تشبهها مطولة أو مبينة . ولا يدرك هذا إلا الراسخ فى فن التأويل ، الولع بتدبر التنزيل ، ومن لطائف الآية ما ذكره الزمخشرىّ والمنتصف ، من أن هذا القول أدخل فى الإنصاف من الأول . حيث أسند الإجرام إلى النفس ، وأراد به الزلات والصغائر التى لا يخلو عنها مؤمن . وأسند العمل إلى المخاطبين ، وأراد به الكفر والمعاصى والكبائر . فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم . وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاماً للإنصاف . وزيادة على ذلك ، أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضى ، الذى يعطى تحقيق المعنى . وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك . والله أعلم .

---

(١) [١٠ / يونس / ٤١] . (٢) [١٠٩ / الكافرون / ١ ـ ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)

« قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا » أي يوم القيامة في صعيد واحد . « ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أي يقضي بالعدل . لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال . فيتبين يومئذ المهتدي منا من الضالّ ، ويجزى كلا بعمله ، كما قال تعالى[1] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) ولهذا قال سبحانه « وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » أي الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه ، لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يحتاج إلى شهود تعرّفه المحق من المبطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ » أي جعلتموها لله أنداداً ، وصيرتموها له عدلاً . قال أبو السعود : أريد بأمرهم بإراءة الأصنام ، مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام . إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان رأيهم . أي أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة . وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم . وقد جوّز المعرِبُ في (رأى) هنا أن تكون علمية متعدية بهمزة النقل ، إلى ثلاثة مفاعيل : ياء المتكلم والموصول وشركاء . وعائد الموصول محذوف . أي ألحقتموهم. وأن تكون بصرية تعدت بالنقل لاثنين : ياء المتكلم والموصول ، و (شركاء) حال . ولا ضعف

(١) [٣٠ / الروم / ١٤ ـ ١٦] .

فى هـــذا كما قاله ابن عطية . بل فيه توبيخ لهم ، إذ لم يرد حقيقته . لأنه كان يراهم ويعلمهم . فهو مجاز وتمثيل . والمعنى : مازعمتموه شريكا إذا برز للعيون وهو خشب وحجر ، تمت فضيحتكم . وقوله تعـــالى « كَـلَّا » ردع لهم عن المشاركة ، بعد إبطال المقايسة « بَلْ هُوَ ٱللَّـهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَـكِيمُ » أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحـكمة الباهرة. فأين شركاؤكم التى هى أخسّ الأشياء وأذلها ، من هذه الرتبة العالية. والضمير إما لله عز وعلا، أو للشأن. قاله أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

«وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أى وما أرسلناك إلا إرسالة عامة لجميع الخلائق من المـكلفين . تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذرمن عصاك بالنار ، كقولهتبارك(١) وتعالى (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّـهِ إِلَيْـكُمْ جَمِيعًا) (٢)(تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَـكُونَ لِلْعَـٰلَمِـينَ نَذِيرًا).

(وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى فيحملهم جهلهم على ماهم فيه من الغىّ والضلال كقوله عز وجـــل(٣) (وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (٤)(وَإِن تُطِـعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّـهِ) قال ابن عباس ـ فيما رواه ابن أبى حاتم ـ إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس! فَبِمَ فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال(٥) (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

---

(١) [٧/ الأعراف/ ١٥٨]. (٢) [٢٥/ الفرقان/ ١]. (٣) [١٢/ يوسف/ ١٠٣].
(٤) [٦ / الأنعام / ١١٦] . (٥) [١٤ / إبراهيم / ٤] .

بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، وقال للنبيّ ﷺ (١) (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير : وهـذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما قد ثبت فى الصحيحين . رفعه عن جابر رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ (٢): أعطيت خمساً لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ. وأحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبيّ يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة. وفى الصحيح أيضاً (٣) ؛ أن رسول الله ﷺ قال : بعثت إلى الأسود والأحمر . قال مجاهد : يعنى الجن والإنس . وقال غيره : يعنى العرب والعجم اهـ . والتحقيق فى معنى عموم إرساله وشمول بعثته ، هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأىّ زمان وجدوا ، مما لم يتفق فى شرع قبله قط . ولهذا ختمت النبوّات بنبوّته ﷺ ، كما تقرر فى موضعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٣٠] (قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٨] .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٧ كتاب التيمم ، ١ ـ باب قول الله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا ، حديث رقم ٢٣١ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ عن جابر ابن عبد الله (طبعتنا) .

لَّا تَسْتَئْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ » يعنون بالوعد المنذر به استهزاء ، كقوله تعالى[1] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) وقوله[2] (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ » وهو ما نزل قبل القرآن من كتبه تعالى « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم . ثم أبدل من (يَرْجِعُ) قوله « يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا » وهم الأتباع « لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » وهم قادتهم وسادتهم « لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ)

« قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ » أى نحن مافعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك.

(١) [٤٢ / الشورى / ١٨] .   (٢) [١١ / هود / ١٠٤و١٠٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ، وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ » أى مكركم فيهما وإغراؤكم وتعنيتكم لنا « إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا » أى نظراء وآلهة معه « وَأَسَرُّواْ » أى الجميع من السادة والأتباع « ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم كلٌّ بحسبه . للقادة عذاب بحسبهم . وللأتباع بحسبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

[٣٥] (وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » أى زعماً أنه أكرمهم الله بذلك فى الدنيا ، فلا يعذبهم فى الآخرة على تقدير وقوعها . وتوهما بأنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم . ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم . وقد أبطل الله تعالى حسبانهم ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيئته فى عباده ، من يحب ومن لا يحب ، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه . فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب ، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها . ولذا قال « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ذلك . فيزعمون أن مدار البسط الكرامة ، والتضييق الهوان . ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى ، إنما هو الكمالات النفسية . وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ)

« وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ » أى بالمزية التى تقربكم قربة . فـ (زُلْفَىٰٓ) محلها النصب « إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ » أى الثواب المضاعف « بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ » أى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن نظائر الآية قوله تعالى[١] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وقوله سبحانه[٢] (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥و٥٦] . (٢) [٩ / التوبة / ٥٥] .

وَهُمْ كَـٰفِرُونَ) . وروى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

« وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا » أى بالصدّ عنها والطعن فيها « مُعَـٰجِزِينَ » أى قاصدين المعاجزة والمغالبة والقهر « أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » أى فى عذاب جهنم محضرون يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ، وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ)

« قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ، وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ » أى يعوضه . فإن ينابيع خزائنه لا تنضب . وسحائب أرزاقه سحّاء الليلَ والنهارَ « وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » أى أعلاهم . لأنه خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق . روى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض . يعض الموسر على ما فى يده حذار الإنفاق . ثم تلا هذه الآية (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) وقال مجاهد : لا يتأولنّ أحدكم هذه الآية (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) .

(٢) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ)

[٤١] (قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ، بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر (إياك أعنى واسمعى ياجارة) ونحوه قوله تعالى[١] (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ) وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزّهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير. والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا. فيكون تقريعهم أشد، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وهوانهم ألزم . ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجراً لمن اقتص عليه . انتهى .

وتخصيص الملائكة ، لأنهم أشرف الأنداد عند مشركى العرب . ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله . لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة . فتكون شفعاء لهم . وقوله تعالى (أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ) أى: أبإذنكم كان ذلك. كما قال تعالى[٢] (ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ) وكما يقول تعالى لعيسى عليه السلام[٣] (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ) وهكذا تقول

(١) [٥ / المائدة / ١١٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١٧] .
(٣) [٥ / المائدة / ١١٦] .

الملائكة (سُبْحَانَكَ) أى تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) أى أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم . فنبرأ إليك منهم. بينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار، براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم. وقولهم (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم. والضمير الأول فى قولهم (أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) الإنس أو المشركين . والأكثر بمعنى الكل . والثانى للجن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

« فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لأن الأمر كله فيه لله. لأن الدار دار جزاء وهو المجازى وحده . قال أبو السعود : وهذا من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة . يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية «وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» وهم المشركون «ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ» ثم بين جملة أخرى من كفرانهم بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا» يعنون رسول الله ﷺ « إِلَّا رَجُلٌ

يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ » أي القرآن الكريم « إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ)

« وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ » أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا. فلما منّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه . ثم هددهم سبحانه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

« وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أي من الأمم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا « وَمَا بَلَغُوا۟ » أي هؤلاء « مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ » يعني أولئك، من المال وبسطة الملك والعمران والمدنية « فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أي عقابي ونكالي وانتقامي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ، أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

« قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ » أي بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وقد فسرها بقوله « أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ » أي قياماً خالصاً لله بلا محاباة

ولا مراءاة، اثنين اثنين وواحدا واحدا «ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ» أي في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى والإصلاح وتهذيب الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر الأرض والسموات، واتباع الأحسن، ونبذ التقاليد، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة في الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى «مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ» أي جنون. مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف في ترجح صدقه. فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق وثوق ببرهان. فيفتضح على رؤوس الأشهاد، ويلقي نفسه إلى الهلاك. فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة؟ وجوّز كون الجملة معلقا عنها. لقول ابن مالك: إنّ (تفكر) يعلّق حَمْلا على أفعال القلوب. والتعبير عنه ﷺ ب(صاحبهم)، للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم. لأنه نشأ بين أظهرهم معروفا بقوة العقل ورزانة الحلم وسداد القول والفعل. «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» وهو عذاب الآخرة والمآل.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[٤٨] (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)

[٤٩] (قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

«قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» أي أيّ شيء سألتكم من أجر على الرسالة فهو لكم. والمراد نفي السؤال رأساً. وإمحاض النصح كناية، لأن ما يسأله السائل، يكون له. فجعله للمسئول عنه، كناية عن أنه لا يسأل أصلا. و (ما) على هذا شرطية. وجوز كونها

موصولة مرادا بهـا ماسألهم[1] (مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) وقوله[2] (قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى . وقرباه عليه السلام قرباهم . وجوّز أيضاً كونها نافية . وقوله (فَهُوَ لَكُمْ) جواب شرط مقدر . أى فإذا لم أسألكم فهو لكم « إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ » أى يرمى به الباطلَ فيدمغه ويزهقه. أو يرمى به فى أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق «عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ » أى ظهر، وهو الإسلام ومحاسنه «وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ » كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره . مأخوذ من هلاك الحىّ . فإنه مادام موجودا، إما أن يبدىء فعلا أو يعيده. فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة. ثم شاع ذلك فى كل ماذهب ، وإن لم يبق له أثر، وإن يكن ذا روح. وجوز كون (ما) استفهامية منتصبة بما بعده. أى : أى شىء يقدر عليه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا القول عند إزالة المنكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ، وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى ، إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)

« قُلْ إِن ضَلَلْتُ » أى عن الطريق الحق « فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى » أى لأن وبال ذلك عائد عليها، أو على ذاتى، لا على غيرى « وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ » أى من الرشاد والحق المبين « إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » فإن قيل: مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال (وإن

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

اهتديت فإنما أهتدى لها) فلِمَ عدل عنها إلى ماذكر ؟ قيـــل : إن المقابلة تــكون باللفظ وتــكون بالمعنى . وما هنا من الثانى . بيانه أن النفس كل ماعليها فهو بها ، أى : كل ماهو وبال عليها ، وضارّ لها، فهو بسببها، ومنها. لأنها الأمارة بالسوء. وكل ماهو لها مما ينفعها، فبهداية ربها وتوفيقه إياها .

وهذا حكم عام لـكل مكلف . وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه . لأن (الرسول) إذا دخل فى عمومه، مع علوّ محله وسداد طريقته ، كان غيره أولى به. أشار لهذا، الفاضل ابن الأثير فى (المثل السائر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ » أى هؤلاء الـمكذبون عنــد الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه ، ودخولهم تحت أسره « فَلَا فَوْتَ » أى لهم ، بهرب أو التجاء . إذ لا وزر لهم ولا ملجأ « وَأُخِـــذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » أى من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)

« وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ » أى بمحمد ﷺ ، أو القرآن « وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ » أى: ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء ، لا دار الابتلاء . أو : لأنهم آمنوا بلسانهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، أى (على تفسير (إِذْ فَزِعُواْ) بظهور الحق عليهم فى حياتهم . اهـ منه) قال الزمخشرىّ : التناوش والتناول ، أخوان . إلا أن التناوش ، تناول سهل لشىء قريب.

يقال : ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال تناوشوا فى الحرب . ناش بعضهم بعضا . وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون . وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع ، تناولا سهلا لا تعب فيه . انتهى . أى ففيه استعارة تمثيلية . شبه إيمانهم حيث لا يقبل ، بمن كان عنده شىء يمكن أخذه . فلما بعد عنه فرسخا ، مد يده لتناوله . وقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٣] (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ » حال أو معطوف أو مستأنف . والأول أقرب . « وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى يرجمون بالظن فيتكلمون بما لم ينشأ عن تحقيق من أقوالهم الباطلة . كقولهم : ساحر وشاعر ومجنون وما نحن بمبعوثين . ونحو ذلك . فكله مقذوف من جهة بعيدة ، لا قرب لمصداقها بوجهٍ ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ)

« وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ » أى من نفع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النار . أو من أن يدال لهم الأمر . لأنه جاء نصر الله والفتح « كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ » أى بأشباههم من كفرة الأمم « إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ » من (أرابه) أوقعه فى ريبة وتهمة . فالهمزة للتعدية . أو من (أراب الرجل) أى صار ذا ريبة . وهو مجاز ، إما بتشبيه الشك بإنسان ، على أنه استعارة مكنية وتخييلية . أو على أنه إسناد مجازىّ ، أسند فيه ما لصاحب الشك ، للشك ، للمبالغة . أفاده الشهاب .

تنبيه :

فى الإكليل ؛ قال ابن الفرَس : احتج بهذه الآية بعض المفسرين ، على أن الشاك كافر . وردَّ بها على من زعم أنه ليس بكافر ، وأن الله لا يعذب على الشك . انتهى .

وعن قتادة : إياكم والشك والريبة . فإن من مات على شكٍّ بُعث عليه . ومن مات على يقين بعث عليه .

أحيانا الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، وولىّ المؤمنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٥ — سورة فاطر

سميت بذلك لما جاء فيها من خلق الملائكة ، وجعلهم ذوى أجنحة متنوعة فى العدد ، الدالّ على عجيب صنعه تعالى وباهر قدرته .

وقال المهايمىّ: سميت بها لاشتمالها على بيان تفصيل رسالتهم ، من جهة أخذهم الفيض عن الله ، وإيصاله إلى خلقه ، من جهة أو جهتين أو ثلاث أو أكثر . ليشعر أن الرسالة العامة لهم ، إذا كانت كذلك ، فكيف الرسالة الخاصة ؟ مثل إنزال القرآن . فيجوز أن يكون له جهات كثيرة .

وقد روى أنه كان لجبريل ستمائة جناح . انتهى .

وتسمى هذه السورة سورة (فاطر) لذكر هذا الاسم الجليل والنعت الجميل فى طليعتها . وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد، التى فصلت فيها النعم الأربع، التى هى مجامع النعم. لأن نعم الله تعالى قسمان : عاجلة وآجلة . والعاجلة وجود وبقاء ، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى . كما بينه الرّازى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ، يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

[٢] (مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أي مبتدئها ومبدعها من غير سبق مثـل ومادة « جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ » أي ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد ، حسب تفاوت ما لهم من المراتب . ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها. وفي الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة أسرى به، وله ستمائة جناح . ولهذا قال سبحانه « يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ » أي يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته « إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ » أي نعمة سماوية كانت أو أرضية « فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » أي لا أحد يقدر على إمساكها « وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أي من بعـد إمساكه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » الغالب على كل ما يشاء « ٱلْحَكِيمُ » أي في أمره وصنعه .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ٧ ـ باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ، حديث ١٥٢٦ ، عن ابن مسعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ » أى إنعامه لتستدلوا بها على وحدته فى ألوهيته . لأنه المنفرد بإرسالها وحده . ولا يصح لمن انفرد بالإنعام أن يشرك معه غيره . لأنه كفران له موجب لغضبه . وهذا ما أشار له بقوله تعالى « هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى المطر والنبات « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أى تصرفون عن التوحيد الواجب ـ لأنه مقتضى شكر المنعم ـ إلى الشرك والكفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ)

« وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » فيجازى المكذب وشيعته بالخزى وظهور الحق عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى ما وعد به من جزائه بالثواب إن صدقتم فى الاتباع . وبالعقاب ، إن عصيتم « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا » أى بأن يذهلكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها ، عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله « وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » أى الشيطان . وقرئ بالضم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

« إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أى باتباع الهوى والركون إلى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

[٨] (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا، فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ)

« ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا » أى: فمن حسّن له عمله السيء ، بأن غلب هواه على عقله ، حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقا والقبيح حسنا ، كمن لم يزين له ، بل هدى فعرف الحق وميز الحسن من السيء ؟ فحذف الجواب لدلالة قوله :

« فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » أى إلى الإيمان واتباع الحق. وجوّز أن يكون تقديره : أفمن زين له سوء عمله ، ذهبت نفسك عليهم حسرة ، بقوله تعالى « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ » أى فلا تهلك نفسك حزنا على ضلالهم وعدم اتباعهم لك « إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ » أى فيجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ » أى مثل إحياء الموات ، إحياء الأموات . وكثيرا مايستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، ليعتبر المرتاب فى هذا . فإنه من أظهر الآيات وأوضحها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ، وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ)

« مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ » أى الشرف والرفعة « فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا » أى فليطلبها من عنده ، باتباع شريعته ، وموالاة أنبيائه ورسله ، والتأسى بهم فى الصلاح والإصلاح ، والصبر والثبات ، واطّراح كل ملامة رغبة فى الحق وعملا بالصدق . وهذا كآية[1] (ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) وكآية[2] (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) « إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ » وهو الداعى إلى الحق والإصلاح ، والمنبه على سبل الضلال والفساد « وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ » أى يرفع الكلمُ العملَ الصالحَ ، على أن يكون المستكن للكلم . إشارة إلى أن العمل لا يقبل إلا بالكلم المؤثر فى إبلاغ دعوة الخير . والضمير المستتر للعمل ، والبارز للكلم . أى يكون العمل

(١) [٤ / النساء / ١٣٩] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٨] .

الصالح موجبا لرفعها وقبولها لأنه يحققها ويصدقها ، كما قال تعالى عن شعيب عليه السلام[١] (وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ « وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى الأعمال السيئة المفسدة لصلاح الأمة وقيام عمرانها « لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ » أى يضمحلّ . لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ، وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

«وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا» أى ذكرانا وإناثا ، لطفا منه ورحمة « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ » أى من أحد . وإنما سمى معمرا لما يؤول إليه. أى وما يعدّ فى عمر أحد «وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ » وهو علمه تعالى الذى سبق ، ببلوغ أصله إليه « إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أى : الحفظ والزيادة أو النقص ، سهل . لشمول علمه وعموم قدرته .

لطيفة :

الضمير فى (عمره) للمعمر قبله . باعتبار الأصل المحوّل عنه . لأن الأصل (وما يعمر من أحد) كما ذكرنا . أوهو على التسامح المعروف فيه ، ثقة فى تأويله بأفهام السامعين : كقولهم (له علىّ درهم ونصفه) أى نصف درهم آخر . أو للمنقوص من عمره لا للمعمر، كما فى الوجه السابق . وهو وإن لم يصرح به فى حكم المذكور ، كما قيل (وبضدها تتبين الأشياء) فيعود

(١) [١١ / هود / ٨٨] .

الضمير على ما علم من السياق . وقد أطال بعضهم الكلام فى ذلك . ومحصله ، كما ذكره الشهاب، أنه اختلف فى معنى (مُّعَمَّرٍ) فقيل: المزاد عمره. بدليل ما يقابله من قوله (يُنقَصُ) الخ. وقيل (من يجعل له عمر) . وهل هو واحد أو شخصان ؟ فعلى الثانى هو شخص واحد . قالوا مثلا : يكتب عمره مائة ثم يكتب تحته مضى يوم، مضى يومان، وهكذا . فكتابة الأصل هى التعمير . والكتابة بعد ذلك هو النقص . كما قيل :

حياتك أنفاسٌ تعَدُّ فكلما　　　مضى نَفَسٌ منها انتقصتَ به جُزْءا

والضمير فى (عمره) حينئذ راجع إلى المذكور . والمعمّر هو الذى جعل الله له عمراً طال أو قصر . وعلى القول الأول هو شخصان . والمعمر الذى يزيد فى عمره . والضمير حينئذ راجع إلى (معمر آخر) إذ لا يكون المزيد من عمره منقوصاً من عمره . وهذا قول الفرّاء وبعض النحويين . وهو استخدام أو شبيه به . انتهى .

ثم أشار تعالى لآيات أخرى من آيات قدرته ووحدانيته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة « سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » أى قوىّ الملوحة « وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا » يعنى السمك « وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » أى زينة تتحلّون بها . كما قال تعالى[(١)] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) . « وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ » أى تمخر الماء وتشقه بجريها « لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ » أى بالتنقل فيها « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ)

« يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » يعنى مدة دوره ، أو منتهاه، أو يوم القيامة « ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ، وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ »أى فأنّى يستأهلون العبادة. و (القطمير) لفافة النواة . وهو مثل فى القلة والحقارة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

« إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ » لأنهم جماد « وَلَوْ سَمِعُوا۟ » أى على الفرض «مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ» أى لعدم قدرتهم على النفع «وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» أى يقرون ببطلانه ، وأن لا أمْرَ لهم فيه « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » أى لايخبرك بالأمر مخبر ، مثل خبير عظيم أخبرك به . وهو الحق سبحانه . فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين . والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفى مايدعون لهم من الإلهية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ » أى رحمته وعنايته ولطفه وإمداده فى كل

لمحة ونفس . وسرّ وصل الآية بما قبلها من التهكم بالأنداد ، لتذكيرهم الالتجاء إليه تعالى ، والتضرع والابتهال إذا مسهم الضر وأخذت البأساء بخانقهم . فإنهم يشعرون من أنفسهم دافعا إلى سؤاله لا مردّ له . وحاثًّا إلى اللجإ إليه لا صادّ عنه . كما بين فى غير آية . مما يدل على أنه تعالى هو الحقيق بالعبادة ، لغناه المطلق ، كما قال « وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ » أى المحمود لنعمه التى لا تحصى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[١٧] (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ » أى بممتنع . قال الزمخشريّ : وهـذا غضب عليهم ، لاتخاذهم له أنداداً ، وكفرهم بآيه ، ومعاصيهم . كما قال[١] (وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ، إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ، وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ، وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ)

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل نفس آثمة « وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى إثم نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها الذى اقترفته ، لا تؤخذ نفس بذنب نفس . كما تأخذ جبابرة الدنيا الولىّ بالولىّ والجار بالجار ، ولا يرد آية[٢] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) لأنها فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم . وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شىء من وزر غيرهم .

(١) [٤٧ / محمد / ٣٨] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١٣] .

« وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ » أى نفس أثقلتها الأوزار «إِلَىٰ حِمْلِهَا» أى إلى حمل بعض أوزارها ليخفف عنها « لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ » أى لم تجب ولم تغث بحمل شيء « وَلَوْ كَانَ » أى المدعوّ المفهوم من الدعوة « ذَا قُرْبَىٰٓ » أى ذا قرابة من الداعى ، من أب أو ولد أو أخ . وهذا قطع لأطماع انتفاعهم بقرابتهم وغنائهم عنهم . وأنه لا تملك نفس لنفس شيئاً ، وأن كل امرئ بما كسب رهين . ثم بين من يتعظ ويتذكر ، فقال سبحانه « إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ » أى تطهر من أوضار الأوزار « فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ » مثل للكافر والمؤمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ)

« وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ » مثل للحق والباطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ)

« وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ » مثل للثواب والعقاب و (ٱلْحَرُورُ) الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ، وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ » تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أى: مايستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة تنزيله ، وأموات القلوب. لغلبة الكفر عليها حتى صارت لاتعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال « إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ» أى يوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته «وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ» أى: كما لا يقدر أن يسمع من فى القبور كتاب الله ، فيهديهم به إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لايقدر أن ينتفع بمواعظ الله وبيان حججه ، مَن كان ميت القلب عن معرفة الله وفهم كتابه وواضح حججه. وهذا ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات ، وإشباع فى إقناطه عليه الصلاة والسلام، من إيمانهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ)

« إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ماعليك إلا أن تبلغ وتنذر. فإن كان المنذَر ممن يسمع الإنذار نفع . وإن كان من المصرّين فلا عليك .

القول فى تأيل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

«إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » أى ومامن أمة من الأمم الدائنة بملة ، إلا مضى فيها نذير من قبلك ينذرهم على كفرهم بالله ، ويزيح عنهم العلل كما قال تعالى[1] (إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) وكقوله سبحانه[2] (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ) .

(١) [١٣ / الرعد / ٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ)

«وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ» أى : وإن يكذبوك ولم يستجيبوا لك ، فلا تبال بهم وتأس بمن كذب من الرسل السالفة . فقد جاءوهم بالآيات والخوارق المحسوسة على صحة نبوتهم ، وبالصحف المرشدة لهم إلى مسالك الفلاح والنجاح، وبالكتاب المنير لمن تدبره وتأمله، أنه الحق الناطق بالصواب والصدق . وليس المراد أن كل رسول جاء بجميع ماذكر ، حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب ، بل المراد أن بعض الرسل جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا. وجوز أن يراد بالجميع واحد ، والعطف لتغاير الأوصاف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

«ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى إنكارى بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ» قرأ الجمهور (جدد) بضم الجيم وفتح الدال ، جمع (جدة) بالضم، وهى الطريقة من (جدّه) إذا قطعه ، أى ومن الجبال

ذووجدَد ، أى طرائق بيض وحمر . وإنما قدر المضاف ، لأن الجبال ليست نفس الطرائق . و (غرابيب) جمع (غربيب) وهو الأسود المتناهى فى السواد . يقال: أسود غربيب، كما يقال : أحمر قان ، وأصفر فاقع ، تأكيدا . وإنما قدم هنا، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد للمبالغة ورأى بعضهم أنه مقدم من تأخير ، ذهابا إلى جواز تقديم الصفة على موصوفها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ » أى اختلافاً كذلك، أى كاختلاف الثمرات والجبال . وقوله تعالى « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ » تكملة لقوله تعالى[١] (إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ) بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم . أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل . وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح، توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان . أى إنما يخشاه تعالى بالغيب ، العالمون به عز وجل ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة. لما أن مدار الخشية معرفة المخشيّ والعلم بشؤونه . فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه عز وجل . كما قال[٢] عليه الصلاة والسلام: أنا أخشاكم لله وأتقاكم له . ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته . وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة ، امتنع إنذارهم بالكلية . أفاده أبو السعود .

وقال القاشانيّ : أى ما يخشى اللهَ إلا العلماء العرفاء به . لأن الخشية ليست هى خوف العقاب، بل هيئة فى القلب خشوعية انكسارية عند تصوّر وصف العظمة واستحضاره لها .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٨] . (٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٧ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، حديث رقم ٢٠٩٩ عن أنس بن مالك ، قطعه من حديث طويل .

فمن لم يتصوّر عظمته لم يمكنه خشيته . ومن تجلى الله له بعظمته ، خشيه حق خشيته . وبين الحضور التصوّريّ الحاصل للعالم غير العارف، وبين التجلّي الثابت للعالم العارف ـ بون بعيد. ومراتب الخشية لاتحصى بحسب مراتب العلم والعرفان . انتهى .

ويذكر بعض المفسّرين هنا القراءة الشاذة. رفع الاسم الجليل ونصب العلماء. ويتأوّلون الخشية بالتعظيم استعارة . وربما استشهدوا بقوله :

أَهَابُكِ إجلالًا وما بكِ قُدْرَةٌ ۞ عليّ ولـكن مِلْءُ عَينٍ حَبِيبُهَا

وقد طعن فى (النشر) فى هذه القراءة . والحقُّ له . لمنافاتها للسياق والسباق . وما أغنى المنقحين عن تسويد الصحف بمثل هذه الشواذ ! وبالله التوفيق .

« إِنَّ ٱللَّـهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ »أىغالب على كل شىء بعظمته، غفورلمن تاب وأناب وعمل صالحا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّـهِ » أى يداومون على تلاوته وتدبره ، للأخذ بما فيه « وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ » أى أجراً وفضلًا لايفنى ، والتجارة استعارة لتحصيل الثواب بالطاعة . والبوار بمعنى الـكساد والهلاك ترشيح للاستعارة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ)

« لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ » أى لأعمالهم . والشـكر مجاز عن الإثابة والجزاء بالإحسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ)

[٣٢] (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ)

« وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » أى : ثم ، بعد أخذ الذين كفروا ، أورثنا الكتاب الذى هو أعظم فضل وعناية ورحمة ، المصطفين من الموحدين . ثم بيّن انقسامهم فى العمل به إلى ثلاثة ، بقوله تعالى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بالإثم والعصيان « وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » أى فى العمل ، ليس من المجرمين ولا من السابقين « وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

[٣٤] (وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

« جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

« ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ » أى الإقامة « مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ » أى تعب « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » أى كلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ)

[٣٧] (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ، فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » أى : أو ماعشتم فى الدنيا أعمارا ينتفع فيها من يتذكر ويتبصر ؟ قال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة . فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر . قد نزلت هذه الآية ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، إِنَّـهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

[٣٩] (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَـكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ، فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ، وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا، وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا)

« إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّـهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَـكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى مستخلفين فيها . أباح لـكم منافعها لتشـكروه بالتوحيد والطاعة « فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا » أى بغضاً شديداً « وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ ، مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا)

« قُلْ » أى تبـكيتاً لهم « أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ » أى شركة فى خلقها « أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ » أى حجة وبرهان ، بأنه أذن لهم فى الإشراك « بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا » أى فى قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ، وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

[٤٢] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا)

[٤٣] (ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ، وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا)

« إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا » أى ما أمسكهما « مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ » يعنى إنزال العذاب على الذين كذبوا رسلهم من الأمم قبلهم « فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا » وفى معنى الآية قوله تعالى[١] (أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) وقوله تعالى[٢] (وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٥٦و١٥٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٦٧ـ١٧٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

[٤٥] (وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا)

« أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ » أى بما اقترفوا من معاصيهم « مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ » أى من نسمة تدب ، لشؤم معاصيهم . والضمير للأرض لسبق ذكرها . « وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا » أى فإذا جاء أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيراً بمن يستحق أن يعاقب ، وبمن يستوجب الكرامة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٣٦ - سُورَةُ يسٓ

هى مكية . واستثنى منها بعضهم قوله تعالى[١] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ) الآية لما أخرجه الترمذيّ[٢] والحاكم عن أبى سعيد قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة . فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفى نظائرها. لأن ذلك مبنىّ على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها ، مع أن النزول فى الآثار يشمل ذلك ، وكل ما تصدق عليه الآية ، كما بيناه مرارا . لاسيما فى المقدمة . يؤيده أنه جاء فى هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية . كما فى رواية الصحيحين[٣]. وهكذا يقال فيما روى أن آية[٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ) من هذه السورة نزلت فى المنافقين . فإن المراد ماذكرناه . ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشى هنا ، فاحفظه . وآيها ثلاث وثمانون آية . ومما روى فى فضلها ما أخرجه[٥] الترمذىّ عن أنس رفعه : إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يسٓ ، وفى إسناده ضعف.

---

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه فى: ٤٤ـ كتاب التفسير، ٣٦ـ سورة يس، ١ـ حدثنا محمد بن وزير الواسطى

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٣ ـ باب احتساب الآثار، حديث ٤١٥ ، عن أنس ، وليس فى مسلم .

(٤) [٣٦ / يس / ٣٧] .

(٥) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٧ ـ باب ما جاء فى فضل يس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يس)

« يس » تقدم الكلام فى مثل هذه الفواتح مرارا . وحاصله ـ كما قاله أبو السعود ـ أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حَظَّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه . وعليه الأكثر . فمحله الرفع على أنه خبر محذوف . أو النصب ، مفعولا لمحذوف ، وعليهما مدار قراءة (يس) بالرفع والنصب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)

« وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل ، أُوثِرَتْ فى القَسَمِ به دون بقية صفاته ، لذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٤] (عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الموصل إلى المطلوب بدون لغوب. والتنكير للتفخيم والتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ)

« تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ » بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر لمحذوف . أو خبر لـ (يٓس) إن كان اسماً للسورة . أو مؤولا بها . والجملة القسَمية معترضة . والقسَم لتأكيد المقسَم عليه والمقسَم به ، اهتماماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ)

« لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ » أى برسول ولا كتاب « فَهُمْ غَـٰفِلُونَ » أى عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ » أى استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفرا وكبرا وعنادا. وبغيا فى الأرض بغير الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ)

« إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ » أى اللحى . أى واصلة إليها وملزوزة إليها « فَهُم مُّقْمَحُونَ » أى ناصبو رؤوسهم ، غاضّو أبصارهم . يقال : أقمح الرجل ، رفع رأسه وغض بصره . وأقمح الغلّ الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه ، فهو مقمح . وذلك إذا لم يتركه عمود الغلّ الذى ينخس ذقنه ، أن يطأطئ رأسه . قال ابن الأثير : هى فى

قوله تعالى (فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ) كناية عن الأيدى لاعن الأعناق . لأن الغلّ يجعل اليد تلى الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهرىّ : أراد عز وجل أن أيديهم لمـا غلّت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُدًا ، كالإبل الرافعة رؤوسها . وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل فى العنق ، عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، لما دل السياق عليه . فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

« وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » قال الزمخشرىّ : مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لاسبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين ، فى أنهم لايلتفتون إلى الحق ولايعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له. وكالحاصلين بين سدّين . لا يبصرون ماقدامهم ولاماخلفهم ، فى أن لاتأمل لهم ولا تبصر . وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله. انتهى. أى فالمجموع استعارة تمثيلية. وفى (الانتصاف) للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال . وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبها بالإقماح . لأن المقمح لا يطأطئ رأسه . وقوله (فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ) تتمة للزوم الإقماح لهم . وكان عدم الفكر فى القرون الخالية مشبها بسدّ من خلفهم ، وعدم النظر فى العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتمثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء فى (فهم مقمحون) للتعقيب ، كالفاء الأولى . أو للتسبّب. ولا شك أن ضغط اليد مع العنق فى الغلّ يوجب الإقماح. فإن اليد، والعياذ بالله، تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من وطأتها. ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير. فإن

اليد متى كانت مرسلة مخلاة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها . ولعله يتحيّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ماذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم فى الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم ، مشبها بغلّ الأيدى . فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

وإنما اختير هذا ، لأن ماقبله وما بعده فى ذكر أحوالهم فى الدنيا . وجعله أبو حيان لبيان أحوالهم فى الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه . فورد عليه أن يكون أجنبياً فى البين . وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله[1] (حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ) والأول أدق ، وبالقبول أحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ » أى خوفتهم بالقرآن « أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا . ولما صدقت الآية على مثل أبى جهل وأصحابه من كفرة قريش ، الذين هلكوا فى بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّمَا تُنذِرُ » أى الإنذار المترتب عليه النفع « مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن بالتأمل فيه والعمل به « وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه « فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ » أى لذنوبه فى الدنيا « وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » أى ثواب حسن فى الجنة .

(١) [٣٦ / يس / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ)

«إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ» أى للبعث «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ» أى نحفظ عليهم ماأسلفوا من الخير والشر «وَءَاثَٰرَهُمْ» أى ماتركوه من سنة صالحة، فعمل بها بعد موتهم. أوسنة سيئة فعمل بها بعدهم «وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ» أى فى اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

«وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا» أى مثّل لأهل مكة مثلًا «أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ» أى اذكر لهم قصة عجيبة ، قصة أصحاب القرية «إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ» أى الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ)

«إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ» أى فقوّيناهما برسالة ثالث «فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)

[١٦] (قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

[١٧] (وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

«قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ» أى التبليغ عن الله ظاهراً بيّناً لا سترة فيه ، وقد خرجنا من عهدته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» أى تشاءمنا بكم . فكان إذا حدث فى البلد ما يسيء من حريق أو بلاء ، نسبوه إليهم . وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم . وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه ، وآثروه وقبلته طباعهم . ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه . فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط[١] (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ) وعن مشركى مكة[٢] (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ) أفاده الزمخشرىّ «لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ» أى عن دعوتكم إلى التوحيد «لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ، أَئِن ذُكِّرْتُم ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

«قَالُواْ» أى الرسل «طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ» أى سبب شؤمكم معكم، وهو الكفر والمعاصى «أَئِن ذُكِّرْتُم» أى وعظتم بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف، ثقة بدلالة ما قبله عليه . أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» أى فى الشؤم والعدوان.

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] .   (٢) [٤ / النساء / ٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى المشى ، حيث سمع بالرسل « قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى بالإيمان بالله وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)

« ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا » أى جُعْلًا ولا مالًا على الإيمان « وَهُم مُّهْتَدُونَ » أى فى أنفسهم بالكمالات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة . أى فيجدر أن يُتَأَسَّى بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى » أى خلقنى . وهذا تلطُّف فى الإرشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه . والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبئ عنه قوله « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ)

« ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » أى فأضرع إليها وأعبدها ، وهى فى المهانة والحقارة بحيث « إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ » أى من ذلك الضر ، بالنصر والمظاهرة . وفيه تحميق لهم ، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[٢٥] (إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ)

« إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ » أى فاسمعوا إيمانى واشهدوا به . قال السمين : الجمهور على كسر النون . وهى نون الوقاية ، حذفت بعدها ياء الإضافة . مجتزى عنها بكسرة النون ، وهى اللغة العالية . وقرأ بعضهم بفتحها وهى غلط . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ، قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ)

« قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ » أى ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة « قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ » أى ليقبلوا على ما أقبلت عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفيس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ)

« وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد موته بالشهادة « مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى لإهلاكهم « وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » قال الرازىّ : إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ)

« إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » أى ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها « فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » ميتون كالنار الخامدة. رمزاً إلى أن الحيّ كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد . كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ ... يَحُورُ رمادًا بعد إذْ هو ساطِعُ

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : روى عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيسى عليه السلام . كما نص عليه قتادة وغيره . وهو الذى لم يذكر عن أحد من متأخرى المفسرين ، غيره . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها ـ أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام . كما قال تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ولو كان هؤلاء من الحواريين، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام . والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا .

الثانى ـ أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم. وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح. ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللائى فيهن بطاركة . وهن : القدس لأنها بلد المسيح . وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها. والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطرك من

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا ومَا تَبْلَى النجومُ الطوالعُ ... وَتَبقى الجبالُ بعدنا والمَصَانعُ

يحور: يرجع ويتغير. وكل شيء تغير من حال إلى حال، فقد حار (الشعر والشعراء ص ٢٣٦)

رومية إليها ـ كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم ـ كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ـ فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم .

الثالث ـ أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة . وقد ذكر أبو سعيد الخدريّ رضى الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم. بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تعالى(1) (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ) فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة فى القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية ـ إن كان لفظها محفوظاً فى هذه القصة ـ مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة . فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

وأقول : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز فى الأنباء التى يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصا على الثمرة من أول الأمر ، واقتصارا على موضع الفائدة ، وبعدا عن مشرب القصاص والمؤرخين . لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى . ومامن حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت . ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوا بالبحث والأخذ والتلقى . فكان من سلف منهم يَرَوْنَ فيما يَرَوْنَ أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهماته . حتى جعل ذلك فناً برأسه وألف فيه مؤلفات . ولا بأس فى التوسع من العلم والازدياد منه بأى طريقة كانت . لاسيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بنى إسرائيل. إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما، إن كان جزمه من غير طريق القواطع.

(1) [٢٨ / القصص / ٤٣] .

فإن القاطع هو ماتواتر أو صحّ سنده إلى المعصوم، صحة لامغمز فيها. وهذا مفقود فى الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روى موقوفا ومنقطعا، وفى بعض إسناده متهمون . ولذا قد يرد على من يقطع بذلك ما لامخرج له منه. فالمفسر أحسن أحواله أن يمشى مع التنزيل ، إجمالا فيما أجمله وتفصيلًا فيما فصله . ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح . وإلافليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك ، بل عن تشويهها . والذى حمل السلف على قص ما نحن فيه ، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب ، وموافقة من فى طبقتهما لهما فيه . هــذا أولا ، وثانيا شهرة بلدة أنطاكية فى ذلك العهد ، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحدُ رسل عيسى عليه السلام . ثالثا ما جرى فى أنطاكية لما قدم ملك الرومان وتهدد كل من أبى عبادة الأوثان بالقتل . وكان فى مقدمة الآبين رجل مقدم فى المؤمنين . فأراده على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد . فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش : فألقى فى رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه . ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة فى سبيل الله . وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين فى عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجوب عبادة الإله الواحد ، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع . فهدده بأن يضربه من الرأس إلى القدم . فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية . ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقته . والشواهد فى هذا الباب لا تحصى . معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب فى تواريخ مبدأ ظهور الأديان ، وما كان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه . فللقصة الكريمة هذه مصدقات لا تحصى . رابعا شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام ، وكانوا انبثوا فى البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبائر والشرور التى كانت عليها دولة الرومان وقتئذ . هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع . وإلا ، فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها . والصيحةُ

أعم من أن تكون صيحة سماوية أو صيحة أرضية. وهى صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ومحا من الوجود سلطانهم. وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول . وبالجملة فنحن يكفينا من النبإ الاعتبار به وفهمه مجملا ، وأما تعيينه ، بوقت ما ، وفئة ما، فهو الذى ينشأ منه ما ينشأ. وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار، وتخصيص ما لا قاطع عليه .

الثانى ـ ذكر الرازىّ فى قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَآ) لطيفة، إن صح أن الرسل المنوه بهم هم رسل عيسى عليه السلام . وهى أن إرساله لهم كإرساله تعالى . لأنه بإذنه وأمره . وبذلك تتمة التسلية للنبىّ صلوات الله عليه ، لصيرورتهم فى حكم الرسل .

ثم قال : وهذا يؤيد مسألة فقهية . وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل . حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم كما فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» أى يا ندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم فى الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية . أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين . أو التحسر منه تعالى مجازا . وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم

حتى يبقى حسيرا . وهو لايليق به تعالى . فيجعل استعارة ، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضا ، فيقول ، ياحسرة على عبادى . قيل : وهو نظير قوله تعالى[(١)] (بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ) على القراءة بضم التاء ، فالنداء للحسرة تعجب منه . والمقصود تعظيم جنايتهم . أى عدّها أمرا عظيما يتعجب منه . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« أَلَمْ يَرَوْا » أى يخبروا « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أى من الأمم الخالية « أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« وَإِن كُلٌّ » أى من هؤلاء المتفرقين « لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى إلا جميعهم محضرون للحساب والجزاء ، وإنما أخبر عن (كل) بجميع ومعناهما واحد ، لأن (كلا) تفيد الإحاطة حتى لاينفلت عنهم أحد . و (جميع) تفيد الاجتماع ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وبينهما فرق . ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعا (لكل) ، لأنه أخص منه وأزيد معنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)

[٣٤] (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ)

[٣٥] (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ » أى عبرة لأهل مكة عظيمة « ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا » أى بالنبات

(١) [٣٧ / الصافات / ١٢] .

لتدل على إحياء الموتى « وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » أى: وليأكلوا مما عملته أيديهم ، وهو مايتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما ، على ما استظهره القاضي . وقال الزمخشريّ : أى عملته بالغرس والسقي والآبار . قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر . أى لاحتياجه إلى تجوز . إلا أن فيه تذكيرا بلذة ثمرة العمل وسرور النفس بعده . وفى الحديث (أفضل الكسب بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده) رواه الإمام[1] أحمد عن أبى بردة . وجوّز أن تكون (ما) نافية، والمعنى: أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» أى خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده . وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا » أى الأصناف كلها « مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ » أى مما ذكر وغيره « وَمِنْ أَنفُسِهِمْ » يعنى الذكر والأنثى « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » أى من الأصناف والأنواع الموجودة فى البر والبحر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ)

«وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ» بيان لقدرته تعالى فى الزمان، إثر ما بيّنها فى المكان. أى نزيله ونكشفه عن مكانه. استعير لإزالة الضوء، السلخ الذى هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ. وفيه إشارة إلى أن النهار طارىء على الليل، كما أن المسلوخ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٦٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

منه قبل المسلوخ ، الذي هو كالغطاء الطارئ على المغطى . قال الشهاب : لأن الليل سابق عرفا وشرعا . ومعنى (مظلمون) داخلون في الظلام . يقال (أظلمنا) كما يقال: أعتمنا وأدجينا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ)

« وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا » أي لحدّ لها مؤقت مقدر ينتهي إليه دورها اليوميّ أو السنويّ . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره . فالمستقر اسم مكان تقطعه في حركتها الدائمة ثم تعود . ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين ، واللام تعليلية أو بمعنى (إلى) . وقيل مستقرها منقطع جريها عند خراب العالم . ومستقر، عليه، اسم زمان « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » أي ذلك الجري المتضمن للحكم والمصالح والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ)

« وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ » أي صيرنا له منازل ينزل كل ليلة في واحد منها « حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ » أي حتى إذا كان في آخر منازله ، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس ، إذا حال عليه الحول . فالعرجون هو الشمروخ ، وهو العنقود الذي عليه الرطب ، ويسمى العذق ، بكسر العين . والقديم: العتيق ، وإذا قدم دق وانحنى واصفرّ . فشبه به من ثلاثة أوجه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ » أى تجتمع معه فى وقت واحد، وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره « وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ » أى يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيّه . أو المراد بالليل والنهار آيتاهما . أى ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول . أى ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لايدخل على الآخر فى سلطانه ، فيطمس نوره ، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى ، وعليه فسر إيثار (سابق) على (مدرك) كما قبله ، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر . إذ السبق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطء . وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلكها فى سنة . والقمر يقطعه فى شهر . فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك . والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف)) : يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل، وهو المذهب المعروف للفقهاء . وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل .

وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس . فإنه . لا يقال (أدرك السابقُ اللاحق) ولكن (أدرك اللاحقُ السابق) وبحسب الإمكان توقيع النفى . فالليل إذاً متبوع والنهار تابع . فإن قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منفىّ بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً . لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن المتأخر إذا نفى إدراكه

كان أبلغ من سابقه ، مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله (لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ . فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة ، فضلا عن أن تكون سابقة . فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن المنفيّ السبقية الموجبة لتراخى النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما . وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله[1] (هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) فقدقربهم منه عذراً عن قوله تعالى[2] (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ) فكأنه مهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم فى عقبه لايتخلل بينهم وبينه مسافة ، فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لايعد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفا صدر الآية على وجه لايقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين السبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية. فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك، ولا يبلغ به عدم السبق. ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن . وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

« وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل مما ذكر يجرون فى مدار عظيم كالسابح فى الماء. وتقدم لنا فى سورة الأنبياء ، ماقاله بعض علماء الفلك فى مثل هذه الآية . فراجعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ)

«وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ»أى حملنا أولادهم الذين يرسلونهم

---

(١) [٢٠ / طه / ٨٤] . (٢) [٢٠ / طه / ٨٣].

فى تجاراتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبته لقوله قبله (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وذكر (المشحون) أقوى فى الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهو مفرد ، وتعريفه للعهد . والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لما عمّ الطوفان ، ونجوا مع نوح فى السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدور كبير . وآثر البعض الوجه الأول ، لأن الثانى محتاج للتأويل . وأرى جدارة الثانى بالإيثار لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر، ماوجد له سبيل. لأنه أقرب وأسدّ. وقد جاء نظيره آية(١) (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) وإن ورد فى نظير الأول آية(٢) (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وأشباهها ، إلا أن لفظ الحمل اتحد فى الآيتين ، فقارب ما بينهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

« وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ » أى مثل الفلك « مَا يَرْكَبُونَ » أى من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل (سفائن برٍّ والسراب بحارها) أوما يركبون ، أى من السفن والزوارق على الوجه الثانى . وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ)

« وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ » أى لامغيث لهم ، أولا مستغيث منهم ، أولا استغاثة . وذلك لأن الصريخ يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ . ومصدرا للثلاثىّ

---

(١) [٦٩ / الحاقة / ١١،١٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٤] .

كالصراخ ، يتجوزبه عن الإغاثة ، لأن المغيث ينادى من يستغيث به ويصرخ له، ويقول . جاءك العون والنصر . أنشد المبرد[١] فى أول الكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ　　كان الصراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ

أى إذا أتانا مستغيث ، كانت إغاثته الجد فى نصرته .

« وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ » أى ينجون من الموت به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » أى لكن رحمناهم ومتعناهم إلى زمن قدر لهم ، يموتون فيه بعد النجاة من موت الغرق . ومن هنا أخذ أبو الطيّب قوله[٢] :

وإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبقَى ولكن　　سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع الخالية فى الأمم المكذبة للرسل « وَمَا خَلْفَكُمْ » أى من العذاب المعدّ فى الآخرة ، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

---

(١) قائله سلامة بن جندل السعدىّ . وهو البيت السادس والثلاثون من المفضلية الثانية والعشرين ، التى مطلعها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ　　أَوْدَى وذلك شأوٌ غيرُ مطلوبِ

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

مَلُومكما يجلّ عن الملامِ　　ووقعُ فعالِهِ فوقَ الكلامِ

قالها لما نالته بمصر حمّى . فقال يصفها ويعرّض بالرحيل عن مصر .

أو عكسه ، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أي باتقائكم وشكركم. وجواب (إِذَا) محذوف دل عليه قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ » أي الدالة على صدق الرسل « إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ » بالتكذيب والصدّ عن الإيمان بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » أي تصدقوا على الفقراء من مال الله الذي آتاكم « قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أي حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله . وقولهم هذا، إما تهكم أو عن اعتقاد . وجوز أن يكون (إِنْ أَنتُمْ) جواباً من الله لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين. وفي هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، في اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه . فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع . وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب . كما فعل الجاحظ سامحه الله في كتاب (البخلاء) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » يعنون وعد البعث .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

« مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم . أى أنها تبغتهم وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها . و (يخصمون) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنيْن . والصاد على الأصل ، وأصله (يختصمون) سكنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » أى أن يوصوا فى شيء من أمورهم توصية « وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى لا يقدرون على الرجوع إلى أهليهم ، ليروا حالهم . بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ)

« وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ » أى للبعث « فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى من القبور « إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ » أى يعدون مسرعين. كما فى قوله تعالى(١) (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا) ولا منافاة بين هـذا وما فى آية(٢) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) لأنهما فى زمان واحد متقارب .

---

(١) [٧٠ / المعارج / ٤٣] .
(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ، هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ)

« قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا » أى رقادنا أو مكانه . فيقال لهم « هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ » أى المخبرون عن ذلك الوعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى بمجرد تلك الصيحة . وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٥] (إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ)

« فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ » أى متنعمون متلذذون ، وفى تنكير (شُغُلٍ) تعظيمُ ما هم فيه وتفخيمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ)

[٥٧] (لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ)

« هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ » أى فى ظلال الأشجار ، أو فى مأمن من الحرور

« عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السُّرُر المزينة « مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ » أى يطلبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ)

« سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » أى ولهم سلام يقال لهم قولًا كائنا منه تعالى . فيكون (سَلَـٰمٌ) مبتدأً محذوف الخبر . أو هو بدل من (مَّا) أو خبر محذوف ، أى : هو سلام . أو مبتدأ خبره الناصب لـ (قَوْلًا) أى : سلام يقال لهم قولا . أو مبتدأ وخبره (مِّن رَّبٍّ) و (قَوْلًا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة . وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر . والمعنى أنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم . كقوله(١) (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ » أى عن المؤمنين فى موقفهم . كقوله تعالى(٢) (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) وقوله(٣) (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) (٤)(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) أى يصيرون صدعين فرقتين (٥)(ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ) .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] .
(٢) [١٠ / يونس / ٢٨] .
(٣) [٣٠ / الروم / ١٤] .
(٤) [٣٠ / الروم / ٤٣] .
(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢ ، ٢٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ، إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » تقريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاما للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة ، كما قاله القاشانىّ . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية ، الآمرة بعبادته وحده ونبذ عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

« وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى : وأن أفردونى بالعبادة فإنه السبيل السوىّ . وفى تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ فى استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه . وأصلٌ لمرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَضَلَّ » أى الشيطان وأغوى بالشرك « مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى خلقا كثيرا قبلكم ، فحاق بهم سوء العذاب « أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ » أى من أولى العقل . إنكار لأن يكونوا منهم . وقد قامت البراهين والإنذارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

[٦٤] (ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

« هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » أى ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ)

« ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » أى عندما يجحدون مااجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازىّ : وفى الختم على الأفواه وجوه . أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيـه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركه بها ، جاز تحرك غيره بمثلها . والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لايتكلمون بشىء ، لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم . فيقفون ناكسى الرؤوس وقوف القنوط اليئوس ، لايجد عذراً فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر . وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لايسع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدى والأبصار . كما يقول القائل (الحيطان تبكى على صاحب الدار) إشارة إلى ظهور الحزن . والأول الصحيح . انتهى . أى لإمكانه وعدم استحالته . فلا تتعذر الحقيقة . ويؤيده آية[١] (وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) .

(١) [٤١ / فصلت / ٢١] .

ومن لطائف بعض أدباء العصر مانظمه فى الفونغراف ، مستشهداً به فى ذلك ، فقال :

بنطق الفونغراف لنا دليلٌ على نطق الجوارح والجمادِ
وفيه لكل ذى نظرٍ مثالٌ على بدء الخليقة والمعادِ
يدير شئونه فرد بصُورٍ به الأصوات تجرى كالمدادِ
فيثبت رسمها قلم بلوح على وفق المشيئة والمرادِ
وبعد فراغها تمضى كبرقٍ ولا أثر لها فى الكون بادِى
تظن بأنها ذهبت جفاء كما ذهبت بريحٍ قوم عادِ
وأحلى رنّها فيه لتبقى كأرواح تجرد عن موادِّ
متى شاء المدير لها معاداً ورام ظهورها فى كل نادِ
يدير الصور بالآلات قسرا فينشر ميتها بعد الرقادِ
وهذى آلة من صنع عبدٍ فكيف بصنع خلّاق العبادِ ؟
تبارك من يعيد الخلق طرًّا بنفخة صوره يوم التنادِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ » أى لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلوك لهم لم يقدروا ، لعماهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ » أى بتغيير صورهم وإبطال قواهم « عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ » أى مكانهم « فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا » أى ذهاباً « وَلَا يَرْجِعُونَ » أى ولا رجوعاً . أى أنهم لا يقدرون على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل . وإذا كان بمعنى (لا يرجعون عن

تكذيبهم) فهو معطوف على جملة (ما استطاعوا) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ماعهد إليهم ، أحِقَّاء بأن يفعل بهم ذلك . لكنا لم نفعل لشمول الرحمة، واقتضاء لحكمة إمهالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَن نُّعَمِّرْهُ » أى نطل عمره « نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ » أى بتناقص قواه وضعف بنيته حتى يرجع فى حال شبيهة بحال الصبيّ فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم ، كما قال عز وجل(١) (وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا) (ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ)(٢) « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » أى من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسخ ، وأن يفعل ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ)

« وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ » أى حتى يأتى بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها . وكيف يشابه ما نزل عليه الشعرَ ، وليس منه لا لفظاً لعدم وزنه وتقفيته ، ولا معنى لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق .

« وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ » أى وما يصح لمقامه . لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه . لما يرمى به الشعراء كثيراً من الكذب والمين ومجافاة مقاعد الحقيقة . ولذا قال تعالى: « إِنْ هُوَ » أى القرآن الذى يتلوه « إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة وإرشاد منه تعالى « وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ » أى كتاب سماوىّ بيّن أمره وحقائقه . فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجهٍ ما .

(١) [٢٢ / الحج / ٥] .   (٢) [٩٥ / التين / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

« لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا » أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت « وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ » أى وتجب كلمة العذاب « عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ » أى المعرضين عن اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ)

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ » أى مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر على إحداثه غيرنا . « أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ » أى متصرّفون فيها تصرّف الملاك . أو ضابطون قاهرون لها كما قال[١] :

أصبحتُ لا أحمِلُ السلاحَ وَلا أَمْـلِكُ راسَ البعيرِ إنْ نفَرَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ » أى صيّرناها منقادة غير وحشية « فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ » أى مركوبهم « وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ » أى ينتفعون بأكل لحمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

«وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ» أى من الجلود والأصواف والأوبار «وَمَشَارِبُ» أى من ألبانها « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى فيعبدوا المنعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

---

(١) قائله الربيع بن ضبع الفزاريّ . من قصيدته التى أولها :

أَقْفَرَ من ميّةَ الجريبُ إلى الـــزُّجَّيْنِ إلا الظباءَ والبَقَرَا

انظر ص ١٥٨ من (نوادر أبى زيد)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ)

« وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ » أى ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ)

« لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ » أى لآلهتهم « جُندٌ مُّحْضَرُونَ » أى معدّون لخدمتهم والذب عنهم . فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أى بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم فى النار . وَجَعْلُهُمْ ـ على هذا ـ جندا ، تهكم واستهزاء . وكذا لام (لَهُمْ) الدالة على النفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

« فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ » أى فى الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو فى حقك بالتكذيب والإيذاء « إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له . إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوّه الكافر ، مقتضٍ لمجازاته وانتقامه . وتقديم السرّ ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلا الاهتمام بإصلاح الباطن ، فإنه ملاك الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

« أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ » أى جدل بالباطل

بيّن الجدال ، وهـذه تسلية ثانية ، بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنـكارهم الحشر . تأثرت الأولى وهي قوله (فَلَا يَحْزُنكَ) الآية ، عناية بشأنه صلوات الله عليه .

قال الطيبيّ : هذا معطوف على (أولم يروا) قبله. والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس. فإنه خلق له ماخلق ليشكر ، فـكفر وجحد النعم والمنعم . وخلقه من نطفة قذرة ليـكون منقاداً متذللا ، فطغى وتـكبر وخاصم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » أي في استبعاد البعث وإنـكاره « وَنَسِيَ خَلْقَهُ » أي خلقنا إياه « قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أي بالية أشد البلى ، بعيدة عن الحياة غاية البعد . وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام . جامد غير صفة ، كالرمة والرفات. أو مشتق، فعيل بمعنى فاعل . إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، ألْحِق بالأسماء فلم يؤنث . أو بمعنى مفعول . من (رمّه) بمعنى أبلاه . وأصله الأكل . من (رمت الإبل الحشيش) فـكأن ما بلى أكلته الأرض . وقال الأزهري : إن (عظاما) لـكونه بوزن المفرد، كـكتاب وقراب، عومل رميم معاملته . وذكر له شواهد .

قال الشهاب : وهو غريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » أي فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين. وإنما تقاس إعادته على إبدائه « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » أي فلا يمتنع عليه جمع الأجزاء بعد تفرقها، لعلمه بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ » أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا فأثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد . لا يمنعه شيء . قال قتادة: الذى أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار (من شجر البادية) فى أرض الحجاز . فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . والعَفار الزند وهو الأعلى . والمرخ الزندة وهو الأسفل . بمنزلة الذكر والأنثى . وعكس الجوهرىّ فجعل المرخ ذكراً والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر [١] :

إذا المرخُ لم يُورِ تحت العَفَارِ   وضُنَّ بِقِدْرٍ فلم تُعْقَبِ

وقال أبو زياد : ليس فى الشجر كله أورى ناراً من المرخ. وربما كان المرخ مجتمعا ملتفا، وهبت الريح ، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادى . ولم نر ذلك فى سائر الشجر .

وقال الأزهرىّ : العرب تضرب بالمرخ والعفار ، المثل فى الشرف العالى . فتقول : (فى كل شجر نار . واستمجد المرخ والعفار) أى كثرت فيهما على ما فى سائر الشجر . و (استمجد) استكثر واستفضل . وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً . وزنادها أسرع الزناد وريا . وفى المثل : اقدح بعفار أو مرخ ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ . ويقال (فى كل شجر نار إلا العُنّاب) .

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أنشد لنفسه :

أيا شجر العُنّاب نارك أوقدت بقلبي . وما العُنّاب من شجر النار

انتهى .

والمقصود أنه تعالى لايمتنع عليه إعادة المزاج الذى به تعلق الروح بعد انعدامه بالكلية . لأن الذى يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهى حارة يابسة بالفعل ، مع ما فى الشجر من المائية المضادّة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضًّا ، تطرأ عليه اليبوسة والبلى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ)

« أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ » أى مع كبر جرمهما « بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم » أى فى الصغر والضعف ثانيا ، بعد ما خلقهم أولا « بَلَىٰ » أى هو القادر « وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ » أى الكثير الخلق مرة بعد أخرى « ٱلْعَلِيمُ » أى الواسع المعلومات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ » أى شأنه الأعلى أو قوله النافذ « إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا » أى إذا تعلقت إرادته بإيجاد شيء « أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى فيوجد عن أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ » تنزيه له مما وصفه به المشركون ،

وتعجيب من أن يقولوا فيه ماقالوا . وهو مالك كل شيء والمتصرِّف فيه بلا وازع ولا منازع .
« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

فائدة :

قال ابن كثير : الملك والملكوت واحد فى المعنى . كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن المُلك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح. والصحيح الأول . وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى .

ولبعضهم : إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك . فهو بمعنى الملك التام ، والله هو العليم العلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٧ – سورة الصافات

سميت بها لاشتمال الآية التي هي فيها على صفات للملائكة تنفي إلٰهيـة الملائكة من الجهات الموهمة لها فيهم . فينتفي بذلك إلٰهية ما دونهم ، فيدل على توحيـد الله ، وهو من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ .

وهي مكية اتفاقا ، وآيها مائة واثنتان وثمانون . روى النسائيّ عن عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمّنا بالصافات .

قال ابن كثير : تفرّد به النسائيّ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا)

[٢] (فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا)

[٣] (فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا)

[٤] (إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ)

« وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ » افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها وكبر فوائدها . وتنبيها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سِمَتها . و (الصافات) جمع صافة ، أى طائفة صافة ، أو جماعة صافة . فيكون فى المعنى جمع الجمع . أو على تأنيث مفرده باعتبار أنه ذات ونفس ، والمراد بالصافات الملائكة . لقيامها مصطفة فى مقام العبودية لمالك الملك . من قوله تعالى(١) (وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ) أو لصفها أجنحتها فى الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى . و (الزاجرات) أى : الناس عن المعاصى ، بإلهام الخير . من (الزجر) بمعنى المنع والنهى. أو الزاجرات الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به . من (الزجر) بمعنى السوق والحث. و (التاليات) أى : آياته تعالى على أنبيائه عليهم السلام ، وقيل : الصافات الطير . من قوله تعالى(٢) (وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ) و(الزاجرات) ، كل ما زجر عن معاصى الله . و(التاليات) كل من تلا كتاب الله . أوهم العلماء الصافون فى العبادات أقدامهم ، الزاجرون عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح ، التالون آيات الله وشرائعه . أوهم الغزاة الصافون فى الجهاد، والزاجرون الخيل أو العدوّ ، التالون لذكر الله ، لا يشغلهم فيها عنه مبارزة العدوّ . وقد ذكر

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٥] . (٢) [٢٤ / النور / ٤١] .

غير هذا ، مما يشمله اللفظ ولا يأباه . وبالجملة ، فالعطف إما لاختلاف الذوات أو الصفات . وإيثارُ الفاء على (الواو) لقصد الترتيب والتفاضل طرداً أو عكسا . أما الأول فاعتناءً بالأهم فالأهم . وأما الثانى فالترقى إلى الأعلى . و (صفا) و (زجرا) مصدر مؤكد . وكذا (ذكرا) ويجوز فيه كونه مفعولًا به . قال الناصر : وفى هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل فى مثل[1] (وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ) فإنهما يقولان: الواو الثانية ومابعدها عواطف . وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم . فوقوع الفاء فى هـذه الآية موقع الواو . والمعنى واحد . إلا أن ماتزيده الفاء من ترتيبها، دليل واضح على أن الواو الواقعة فى مثل هذا السياق ، للعطف لاللقسم . انتهى .

وقوله تعالى (إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ) جواب للقسم . وفى تأكيد المقسم عليه بتقديم الإقسام وتوكيد الجملة ، اهتمام به بتحقيق الحق فيه الذى هو التوحيد ، وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به، وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ)

« رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ » فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع ، من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأعدل شواهد وحدته. أى مالك السموات والأرض ومابينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها إلى كمالاتها. والمراد بالمشارق مشارق الشمس . وإعادة ذكر الرب فيها ، لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم. فإنها ثلاث مائة وستون مشرقا. تشرق كل يوم من مشرق منها. وبحسبها تختلف المغارب، وتغرب كل يوم فى مغرب منها . وأما قوله تعالى (رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ) فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباها . أفاده أبو السعود .

---

(١) [٩٢ / الليل / ١و٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ)

« إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا » أى الجهة العليا القربى من كرة الأرض « بِزِينَةٍ » أى عجيبة بديعة « ٱلْكَوَاكِبِ » بالجر، بدل من (زينة) . وقرئ بالإضافة، على أنها بيانية، أو على معنى مازينت هى به، وهو ضوؤها. والمراد التزيين فى رأى العين. فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] (وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ)

« وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ » أى خارج عن الطاعة، بقذفه بشهبها، كيما يتطاول إلى استراق السمع من جهتها و (حفظاً) إما منصوب بإضمار فعــله . أى حفظناها حفظاً . أو بعطفه على (زينة) من حيث المعنى . أى خلقنا الكواكب للسماء زينة وحفظاً . أو على المفعول لأجله بزيادة الواو . والعامل فيه (زينّا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ)

« لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ » قرئ بالتخفيف والتشديد. وأصله (يتسمعون) أى يتطلبون السماع . والضمير لكل شيطان . لأنه فى معنى الشياطين ، والجملة مستأنفة لبيان ما عليه حال المسترقة للسمع من أنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة الخ. أو هى علة للحفظ . أى لئلا يسمعوا . فحذفت اللام ثم (أَنْ) وأهدر عملها . وضعفوه بلزوم اجتماع حذفين، وهو منكر. كما ذكروه فى قوله تعالى[1] (يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟) أى لئلا

(١) [٤ / النساء / ١٧٦] .

تضلوا ، وقد يقال : إنما ينكر حذف شيئين فيما يخلّ بانسجام الكلام . أما فى تقدير أمرٍ له نظائر ، ومرجعه إلى تحليل معنى ، لا يأباه اللفظ ـ فلا وجه للتعصب فى رده ، لمجرد أن الكوفيين ، مثلًا ، ذهبوا إليه أو غيرهم . وشاهد المعنى أعدل من حكم القواعد وتحكيمها «وَيُقْذَفُونَ» أى يرمون «مِن كُلِّ جَانِبٍ» أى من جميع جوانب السماء ، إذا قصدوا الصعود إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)

«دُحُورًا» أى للدحور وهو الطرد «وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ» أى شديد غير منقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

«إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ» أى اختلس الكلمة «فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ» أى لحقه شعلة نارية تنقضّ من السماء «ثَاقِبٌ» أى مضيء . كأنه يثقب الجوّ بضوئه .

تنبيه :

ذكر المفسرون أن الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء . فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب . فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب . فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم .

قال ابن كثير : يعنى إذا أراد الشيطان أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه . ولهذا قال جل جلاله (لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ) أى: لئلا يصلوا إلى الملإ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره.

كما وردت الأخبار بذلك في تفسير قوله تعالى[1] (حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُواْ ٱلْحَقَّ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ) انتهى .

قال بعض علماء الفلك : كما أن العرش تحفّه الأرواح الغيبية ـ حسبما تقدم بيانه في آية[2] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) في الأعراف ـ فكذلك الكواكب الأخرى مسكونة مع الحيوانات والدواب بأرواح، منها الصالح (الملَك) ومنها الطالح (الشيطان) وكذلك أرضنا هذه. ففيها من الملائكة ومن الشياطين مالا نبصره[3] (إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) ولا يخفى أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. فعدم إدراكنا لهذه الأرواح لا يدل على عدم وجودها . كما أن عدم معرفة القدماء للميكروبات وللكهرباء التي تشاهد الآن آثارها العظيمة ، لم يكن يدل على عدم وجودها إذ ذاك في العالم . فمن الجهل الفاضح إنكار الشيء لعدم معرفته أو العثور عليه. على أن لنا الآن من مسألة استحضار الأرواح أكبر دليل على وجود أرواح في هذه الأرض، لا نبصرها ولا نشعر بها. وقد قدّر الله تعالى أن الحيوانات في هذه الأرض ، إذا خرجت عنها إلى حيث ينقطع الهواء ويبطل التنفس ، تموت في الحال. وكذلك قدر أن الأرواح الطالحة التي في أرضنا هذه، إذا أرادت الصعود إلى السماء والاختلاط بالأرواح التي في الكواكب الأخرى، انقضّ عليها، قبل أن تخرج من جوّ الأرض، شهاب من هذه الكواكب أو من غيرها ، فأحرقها وأهلكها ، بإفساد تركيبها ومادّتها . حتى لا يحصل اتصال بين هذه وتلك ، ولا تطلع على أسرار العوالم الأخرى . وهذه الشهب التي تنقضّ ، إن كانت صادرة من أجرام ملتهبة ، كانت ملتهبة . وإن كانت صادرة من أجرام غير ملتهبة ، التهبت فيما بعد لشدة سرعتها واحتكاكها بالغازات التي تمر فيها في جوّنا هذا . ولعل في مادة الشياطين ما يجتذب إليه هذه الشهب ويتّحدُ بها. كما تجتذب العناصر الكيماوية

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ٢٧] .

بعضها بعضا (مثال ذلك عنصر الصوديم فإنه يجتذب إليه الأكسجين من الماء فيحلله) ولا نقول إن جميع الشهب تنقضّ لهذا السبب، بل منها ماينقضّ لأسباب أخرى . كاجتذاب بعض الأجرام السماوية له. ومنها ما ينقض لإهلاك الشياطين، كما بينّا هنا. والشياطين مخلوقة من مواد غازية كانت ملتهبة[١] (وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ) والمراد (بالسماء الدنيا) فى هذه الآية الفضاء المحيط بنا القريب منا. أى هذا الجوّ الذى نشاهده وفيه العوالم كلها. أما ماوراءه من الجواء البعيدة عنا ، التى لايمكن أن نصل إليها بأعيننا ولا بمناظيرنا ، فهو فضاء محض لاشىء فيـــه . فلفظ (السماء) له معان كثيرة كلها ترجع إلى معنى السموّ . وتُفَسَّرُ فى كل مقام بحسبه .

ثم قال : فـكل مسألة جاء بها القرآن حق ، لايوجد فى العلم الطبيعىّ ما يكذبها . لأنه وحى الله حقا ، والحق لايناقضه الحق[٢] (سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) اهـ .

وقال أيضا : يعتقد الآن علمـــاء الفلك أن أكثر الشهب تنشأ من ذوات الأذناب . ويحتمل أن بعضها ناشىء من بعض الشموس المنحلّة ، أو الباقية الملتهبة ، أو من براكين بعض السيارات ، أو مما لم ينطفىء من السيارات للآن . ومتى علمنـــا أن ذوات الأذناب والسيارات جميعا مشتقة من الشموس ، كان مصدر جميع الشهب هو الشموس أو النجوم .

(قال) : وهذا يفهمنا معنى هذه الآية . اهـ كلامه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى[٣] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ) وقوله عزوجل[٤](وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ

(١) [١٥ / الحجر / ٢٧] . (٢) [٤١ / فصلت / ٥٣] .
(٣) [٦٧ / الملك / ٥] . (٤) [١٥ / الحجر / ١٦ـ١٨] .

فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ) وقوله سبحانه إخبارا عن الجن[١] (وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا*وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ، إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)

« فَٱسْتَفْتِهِمْ » أى فاستخبر مشركى مكة « أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا » أى أقوى خلقة وأمتن بنية « أَم مَّنْ خَلَقْنَآ » أى من السموات والأرض والجبال. كقوله تعالى[٢] (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ) الآيةوقوله[٣] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ)وفى اضطرارهم إلى الجواب بصغر خلقهم وتضاؤله عما ذكر ، اعتراف بأنه لا يتعالى عليه أمر بعد هذا . كشأن البعث وغيره . وإليه الإشارة بقوله تعالى « إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ » أى لزج ضعيف لا قوة فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ)

« بَلْ عَجِبْتَ » أى من إنكارهم للبعث بعد اضطرارهم للاعتراف بما يحققه «وَيَسْخَرُونَ» أى من تقرير أمر البعث والاحتجاج عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ)

« وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ » أى بما يؤيده ، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة « لَا يَذْكُرُونَ » أى مايقتضيه ؟ لتعنتهم وعنادهم . أو لا يخافون ولا يتعظون .

---

(١) [٧٢ / الجن / ٨و٩] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٧] . (٣) [٤٠/ غافر / ٥٧].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً » أى برهاناً واحتجاجاً على مصداقه، من آيات الكائنات فى أنفسهم أو فى الآفاق « يَسْتَسْخِرُونَ » أى يبالغون فى السخرية، بدل الاعتبار والتدبر والتفكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَقَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ » أى ادعاء ماذكر ، والاستدلال عليه والصدع بشأنه ، والقراع فيه « إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[١٧] (أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ)

[١٨] (قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ)

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ » أى تبكيتاً لهم . « نَعَمْ » أى تبعثون « وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ » أى ذليلون ، لاجدل منكم يدفعه ولا قدرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ)

« فَإِنَّمَا هِىَ » أى البعثة « زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ » أى صيحة واحدة « فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ » أى قيام من مراقدهم أحياء ، أولو قوة مدركة ، بها يبصرون . أو ينتظرون مايفعل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ)

« وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ » أى الجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ)

[٢٢] (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ)

« هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى أنفسهم بالكفر والمعاصى والسعى بالفساد « وَأَزْوَٰجَهُمْ » أى وأشباههم من الفجرة . أو نساءهم الكافرات « وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ)

« مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الأصنام وغيرها ، زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم « فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ » أى فعرفوهم طريقها ليسلكوها . والتعبير بـ (الهداية) و (الصراط) للتهكم بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ)

« وَقِفُوهُمْ » أى احبسوهم فى الموقف « إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ » أى عن عقائدهم وأعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » أى لا ينصر بعضكم بعضاً ، وقد كان شأنكم التعاضد فى الحياة الأولى . وهو توبيخ لهم وتقريع .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٦] (بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)

« بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ » أى منقادون مخذولون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ)

[٢٨] (قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ)

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ » أى عن القهر والغلبة . أى كنتم تضطرونا إلى ما تدعونا إليه . كما فى آية[1] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا) وقيل عن الحلف والقسم . وقيل عن جهة الخير وناحية الحق . من (اليمن) ضد الشؤم . أى توهمونا وتخدعونا أن ما أنتم عليه أمر ميمون فيه الخير والفوز . فأين مصداقه وقد نزل ما نزل ؟

(١) [٣٤ / سبأ / ٣٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)

[٣٠] (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ، بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ)

[٣١] (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ، إِنَّا لَذَآئِقُونَ)

[٣٢] (فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ)

[٣٣] (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

[٣٤] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ)

[٣٥] (إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

« قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الاستجابة للداعى إليها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ)

« وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ » أى لقول من يقول بالمقدمات الخيالية عن الجنون . فرد عليهم بأنه لم يأت بكلام مخيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى الذين هم أعقل الأمم وأحكم الحكماء . فمتى يتفقون على قول مصدره الجنون ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ)

[٣٩] (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٤٠] (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ)

[٤١] (أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ)

[٤٢] (فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ)

[٤٣] (فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)

[٤٤] (عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ)

« إِنَّكُمْ » أى بافترائكم « لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ » أى فى الصف متراثين ، لا يحجب بعضهم عن بعض ، ولا يتفاضلون فى المقاعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

« يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى شراب معين ، جارٍ كالنهر لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ)

[٤٧] (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ)

« بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ » أى ما يغتال العقل ، ولا فساد من فساد خمر الدنيا « وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ » أى تذهب عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ)

[٤٩] (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)

« وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى على أزواجهن أو مبيضّاته تشبيها بالثوب المقصور، وهو المحوّر . « عِينٌ » أى كبار الأعين « كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ » أى بيض نعام فى الصفاء ، مستور لم يركب عليه غبار .

قال الشهاب : وهذا على عادة العرب فى تشبيه النساء بها. وخصت ببيض النعام، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائره . ولأنها تبيض فى الفلاة وتبعد ببيضها عن أن يمس . ولذا قالت العرب للنساء (بيضات الخدور) ولأن بياضه يشوبه قليل صفرة مع لمعان، كما فى الدرّ. وهو لون محمود جدا . إذ البياض الصرف غير محمود . وإنما يحمد إذا شابَهُ قليلُ حمرة فى الرجال ، وصفرة فى النساء . انتهى .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه عنى بالبيض المكنون (اللؤلؤ) .

ثم قال : والعرب تقول لكل مصون (مكنون) لؤلؤا كان أو غيره . كما قال أبو دهبل[(١)] :

وهى زهراء مثلُ لؤلؤةِ الغوّاصِ مِيزَت مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

طال ليلى وبتّ كالمحزونِ ومَلِلْتُ الثَّواءَ فى جَيْرُونِ

جيرون : حصن فى دمشق ، وقيل : هى دمشق نفسها .

قالها فى عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان .

انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع من الأغانى (طبعة دار الكتب) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ)

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ » معطوف على (يطاف) والمعنى، يشربون فيتحادثون على الشراب ، كعادة أهل الشرب ، عما جرى لهم وعليهم .

وقال القاشانىّ : أى يتحادثون أحاديث أهل الجنة والنار ، ومذاكرة أحوال السعداء والأشقياء ، مطلعين على كلا الفريقين وما هم فيه من الثواب والعقاب ، كما ذكر فى وصف أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ)

[٥٢] (يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ)

[٥٣] (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ)

« قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ » أى فى المحادثة « إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ » أى جليس فى الدنيا « يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ » أى لمبعوثون فمجزيّون . أى يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب . والمعنى : فهنا قد صدقنا ربنا وعده، وأحل بالقرين وعيده ، كما أشار له بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ)

« قَالَ » أى ذلك القائل « هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ » أى إلى أهل النار من كوى الجنة ومطالّها ، لأريكم ذلك القرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ)

[٥٦] (قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ)

[٥٧] (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ)

« فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ » أى وسطه « قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ » أى لتهلكنى بالإغواء « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى » أى بالهداية واللطف بى « لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ » أى معك فى النار . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ)

[٥٩] (إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

« أفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » من تتمة كلامه لقرينه ، تقريعاً له . أو معاودة إلى محادثة جلسائه ، تحدثاً بنعمة الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[٦١] (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ)

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ » أى لنيل مثله ، فليجدّ المجدّون .

ولما وصف ملاذّ أهل الجنة ، تأثره بمطاعم أهل النار ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ)

« أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ » وهى شجرة كريهة المنظر والطعم ، كما ستذكر صفتها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ)

[٦٤] (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ)

[٦٥] (طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ)

« إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً » أى محنــة وعذابا « لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا »أى حملها« كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ » أى مثل مايتخيل ويتوهم من قبح رؤوس الشياطين . فهى قبيحة الأصل والثمر والمنظر والملمس . قال الزمخشرىّ : وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر . لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لايخلطه خير. فيقولون فى القبيح الصورة (كأنه وجه شيطان) (كأنه رأس شيطان) وإذا صوره المصوّرون جاءوا بصورته على أقبح مايقدر وأهوله . كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خــير محض لاشر فيه . فشبهوا به الصورة الحسنة. قال الله تعالى(١) (مَاهَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) وهذا تشبيه تخييلىّ. انتهى . أى لأمر مركوز فى الخيال . وبه يندفع مايقال إنه تشبيه بما لا يعرف ، وذلك لأنه لايشترط أن يكون معروفا فى الخارج . بل يكفى كونه مركوزا فى الذهن والخيــال ،

(١) [١٢ / يوسف / ٣١] .

ألا ترى امرأ القيس[٣] ـ وهو ملك الشعراء ـ يقول :

* ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوال *

وهو لم يرَ الغول . والغول نوع من الشياطين ، لأنه فى خيال كل أحد مرتسم بصورة قبيحة ، وإن كان قابلًا للتشــكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

« فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا » أى من طلعها « فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » أى لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ)

« ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ » أى لشراباً كالصديد أو الغساق ، ممزوجاً من ماء متناه فى الحرارة ، يقطع أمعاءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)

« ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ » أى مصيرهم « لَإِلَى الْجَحِيمِ » أى إلى دركاتها . أو إلى نفسها

---

(١) البيت :

أيقتلنى والمشرفىُّ مُضَاجِعِى ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ !

من قصيدته التى مطلعها :

ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالِى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالى

انظر الصفحة رقم ٢٧ من الديوان (طبعة دار المعارف) .

لامفر لهم منها ولا محيص كيفما تحولوا . قال ابن كثير : أى ثم إن مردّهم بعد هـذا الفصل لإلى نار تتأجج وسعير تتوهج . فتارة فى هذا وتارة فى هذا . كما قال تعـالى[1] (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ) هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هــذه الآية . وهو تفسير حسن قوىّ . انتهى .

ومن لطائف الإشارات فى هذه الآية، ماقاله القاشانىّ . وعبارته : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ) وهى شجرة النفس الخبيثة المحجوبة النابتة فى قعر جهنم الطبيعة المتشعبة أغصانها فى دركاتها القبيحة الهائلة ثمراتها من الرذائل والخبائث كأنها من غاية القبح والتشوّه والخبث بالتنفر (رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ) أى تنشأ منها الدواعي المهلكة والنوازع الردية الباعثة على الأفعال القبيحة والأعمال السيئة . فتلك أصول الشيطنة ومبادىء الشر والمفسدة، فكانت رؤوس الشياطين (فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا) يستمدون منها ويغتذون ويتقوّون. فإن الأشرار غذاؤهم من الشرور ولا يلتذون إلا بها (فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ) بالهيئات الفاسقة والصفات المظلمة، كالممتلىء غضبا وحقدا وحسدا وقت هيجانها (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) الأهواء الطبيعية والمُنىَ السيئة الرديئة ، ومحبات الأمور السفلية، وقصور الشرور الموبقة ، التى تـكسر بعض غلة الأشرار (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ) لغلبة الحرص والشره، بالشهوة والحقـد والبغض والطمع وأمثالها . واستيلاء دواعيها مع امتناع حصول مباغيها . انتهى .

وهذه الإشارات من المجازات التى تتسع لها اللغة، لأنها لاتنحصر فى الحقيقة، ولا يقال إنها المرادة هنا ، لنبوّها عن نظائرها من آيات الوعيد . والله أعلم . وقوله تعالى :

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ)

[٧٠] (فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ)

« إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ » تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء فى الضلال. و(الإهراع) الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم . وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث ، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل . قال الرازىّ : ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد ، لكفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٧٢] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ)

« وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ » أى أنبياء حذروهم العواقب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ)

« فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ » أى الذين أُنذروا وخوِّفوا. فقد أهلكوا جميعاً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى الذين أخلصوا دينهم لله . أو الذين أخلصهم تعالى لدينه . على القراءتين . أى فإنه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم . ثم أشار تعالى إلى أنبائهم ، تثبيتاً لفؤاده صلوات الله عليه ، وتبشيراً لأتباعه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ)

[٧٦] (وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ)

[٧٧] (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ)

« وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ » أى بقوله[1] (رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا) « فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ » أى نحن بهلاك قومه . لأنه لا يجيب المضطر غيره « وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ » أى من الغرق والطوفان . والمراد بأهله ، من آمن معه « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ » أى فى الأرض بعد هلاك قومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ)

[٧٩] (سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ » أى أبقينا عليه فى الأمم بعده ثناء حسنا ، فمفعول (تركنا) محذوف ، أو ما حكاه تعالى بقوله « سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ » أى أن يسلموا عليه إلى يوم القيامة . أى أن يقولوا هذه الجملة . قال السمين : قوله (سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ) مبتدأ وخبر . وفيه أوجه : أحدها أنه مفسر لـ (تركنا) والثانى أنه مفسر لمفعوله . أى تركنا عليه شيئاً وهو هذا الكلام . أو ثَمَّ قول مقدر . أى فقلنا سلام . أو ضمن (تركنا) معنى (قلنا) أو سلط (تركنا) على ما بعده . وقرئ (سلاما) وهو مفعول به لـ (تركنا).

---

(١) [٧١ / نوح / ٢٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

« إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » تعليل لما أثيب به من التكرمة ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، وهو مجاهدته فى إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهاراً ، سرًّا وجهاراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى المصدقين . وتعليل إحسانه بالإيمان ، إظهار لفضل الإيمان ومزيته . حيث مدح من هو من كبار الرسل به . فالمقصود بالصفة مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها . وذلك لأن الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك خاتمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ)

« ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ » أى من كفار قومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ)

« وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ » أى ممن شايعه وتابعه فى الإيمان والدعوة القوية إلى التوحيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى أقبل إلى توحيده بقلب خالص من الشوائب ،

باق على الفطرة ، سليم عن النقائص والآفات ، محافظ على عهد التوحيد الفطريّ ، منكر على من غيّر وبدّل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ » أى من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ)

« أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ » أى أتريدون بطريق الكذب ، آلهة دون الله ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى بمن هو الحقيق بالعبادة ، لكونه ربًّا للعالمين ، حتى تركتم عبادته وأشركتم به غيره . والمعنى : لايقدّر فى وهم ولا ظن ما يصد عن عبادته. لأن استحقاقه للعبادة أظهر من أن يختلج عرق شبهة فيه . فأنكر ظنهم الكائن فى بيان استحقاقه للعبادة . وهو الذى حملهم على عبادة غيره . أو المعنى : فما ظنكم به ؟ ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟ وعلى كلٍّ ، فالاستفهام إنكاريّ . والمراد من إنكار الظن إنكار ما يقتضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ)

« فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ » أى ليريهم على أنه يستدل بها على شىء لأنهم كانوا منجّمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ)

« فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ » أى مريض لا يمكننى الخروج معكم إلى معيّدكم . ترخص عليه السلام بذلك ، ليتخلص من شهود زورهم ومنكراتهم وأفانين شركهم ، مما تجوزه المصلحة . أو عَنَى أنه سقيم القلب ، تشبيها لغمه وحزنه بالمرض ، على طريق التشبيه . أو أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض . فهو استعارة أو مجاز مرسل .

قال الزمخشرىّ : والذى قاله إبراهيم عليه السلام ، معراض من الكلام . ولقد نوى به أن مَن فى عنقه الموت ، سقيم . ومنه المثل (كفى بالسلامة داء) وقول لبيد[١] :

فدعوتُ رَبِّى بالسلامة جاهدا ليُصِحَّنى ، فإذا السلامةُ دَاءُ

ومات رجل فجأة ، فالتفّ عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابىٌّ : أصحيحٌ مَن ِالموت فى عنقه ؟ انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية استعمال المعاريض والمجاز للمصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)

« فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أى إلى معيّدهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

« فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ » أى ذهب إليها فى خفية « فَقَالَ » أى للأصنام استهزاء « أَلَا تَأْكُلُونَ » .

(١) رواه المبرد فى الكامل غير منسوب .

وقال فى (رغبة الآمل ج ٣ ص ٣٥) : ينسب إلى عبد الرحمن بن سويد المرّىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ)

[٩٣] (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)

[٩٤] (فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ)

[٩٥] (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)

[٩٦] (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

« مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ » أى بإيجاب ولا سلب « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ » أى هجم عليهم «ضَرْبًا بِالْيَمِينِ» أى التى هى أقوى الباطشتين، فكسرها . « فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ » أى إلى إبراهيم بعد ما رجعوا « يَزِفُّونَ » أى يسرعون لمعاتبته على ما صدر منه . فأخذ عليه السلام يبرهن لهم على فساد عبادتهم « قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ » أى من الأصنام « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » أى وما تعملونه من الأصنام المنوعة الأشكال ، المختلفة المقادير . ولما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)

[٩٨] (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)

« قَالُوا ابْنُوا لَهُ » أى لإحراقه « بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ » أى الأذلّين بإبطال كيدهم . جعل النار عليه بردا وسلاما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

« وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي » أى مهاجر إلى بلد أعبد فيه ربى ، وأعصم فيه دينى .

قال الرازيّ : فيه دليل على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء ، تجب مهاجرته . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام ، مع ماخصه تعالى به من أعظم أنواع النصرة ، لما أحسّ من قومه العداوة الشديدة ، هاجر . فَلَأَنْ يجب على غيره ، بالأولى. وقوله « سَيَهْدِينِ » أى إلى مافيه صلاح دينى ، أو إلى مقصدى. وإنما بتّ القول لسبق وعده تعالى. إذ تكفل بهدايته. أولأن من كان مع الله كان الله معه[1] (احفظ الله يحفظك) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١٠١] (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » أى متسع الصدر حسن الصبر والإغضاء فى كل أمر . والحلم رأس الصلاح وأصل الفضائل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ » أى السنّ الذى يقدر فيه على السعى والعمل « قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ » أى: إنى أمرت فى المنام بذبحك ـ ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ـ فانظر هل تصبر على إمضائى أمر الرؤيا والعمل بظاهرها؟

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٥٩ ـ باب حدثنا بشر بن هلال .

« قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » ، أى يأمرك الله به . فإن كان ذاك أمراً من لدنه فأمضه . قال القاضى : ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأمورا به. أوعلم أن رؤيا الأنبياء حق، وأن مثل ذلك لايقدمون عليه إلا بأمر ، ثم قال : ولعل الأمر فى المنام دون اليقظة ، لتكون مبادرتهما إلى الامتثال، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . انتهى .

قال الرازىّ : الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب ، أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم، حيث يراه قد بلغ فى الحِلْم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية . ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة ، والثناء الحسن فى الدنيا . وقوله « سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ » أى على الذبح، أو على قضاء الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ)

« فَلَمَّآ أَسْلَمَا » أى استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء، واستلّ إبراهيم السكين، « وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ » أى صرعه على شقه ، فوقع جبينُه على الأرض وهو أحد جانبى الجبهة . و (تله) أصل معناه : رماه على التلّ ، وهو التراب المجتمع . كـ (تربه) . ثم عم لكل صرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ)

[١٠٥] (قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

«وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ » أى لاتذبحه وقدقمت بمصداقها فى بذل الوسع من الأخذ بإمضاء ماتشير إليه وكمال الطاعة فى هذا الشاقّ ، وأوتيت أجر الامتثال والصبر والثبات . وفى جواب (لما) ثلاثة أوجه ، أظهرها أنه محذوف. أى نادته الملائكة.

أو ظهر صبرهما . أو أجزلنا لهما أجرهما . الثانى فى أنه (وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ) بزيادة (الواو) وهو رأى الكوفيين والأخفش . الثالث أنه (وَنَٰدَيْنَٰهُ) والواو زائدة أيضا . « إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » أى باللطف والعناية والنداء والوحى والفرج بعد الشدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ)

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ » أى الاختبار البيّن الذى يتميز فيه المخلص من غيره . إشارة إلى أن هذا الأمر كان ابتلاء وامتحاناً لإبراهيم فى صدق الخلة لله ، وتضحية أعز عزيز لديه ، وأحب محبوب عنده ، لأمر ربه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

« وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أى رزقناه ما يذبح بدلّا عنه وفداء له ، منة وتطولّا . وقد روى أنه عليه السلام لما نودى ، حانت منه التفاتة إلى ماحوله ، فأبصر كبشاً قد انتشب قرناه فى شجرة . فتم به المرئىّ فى المنام المقصود به القربان لله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ)

[١٠٩] (سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ)

[١١٠] (كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

[١١١] (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١١٢] (وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)

[١١٣] ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ » أى مثل ماتركنا على نوح . كما تقدم بيانه وإعرابه « كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إبراهيم « وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ » أى : بتكثير الذرية وتسلسل النبوة فيهم ، وجعلهم ملوكا ، وإيتائهم مالم يؤتَ أحد « وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ » أى فى عمله « وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ » أى بالكفر والمعاصى « مُبِينٌ » أى ظاهر الظلم .

تنبيهات :

الأول ـ يروى المفسرون هٰهنا فى قصة الذبح روايات منكرة لم يصحّ سندها ولامتنها . بل ولم تحسن ، فهى معضلة تنتهى إلى السّدّىّ وكعب . والسدّىّ حاله معلوم فى ضعف مروياته . وكذلك كعب .

قال ابن كثير رحمه الله : لما أسلم كعب الأحبار فى الدولة العمرية ، جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً : فربما استمع له عمر . فترخص الناس فى استماع ما عنده عنه ، غثها وسمينها . وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده . انتهى .

ولقد صدق رحمه الله . ولذا لا نرى التزيد على أصل ماقص فى التنزيل من الضرورىّ له ، إلا إذا صح سنده ، أو اطمأن القلب به . وقد وَلِعَ الخطباء فى دواوينهم برواية هذه القصة فى خطبة الأضحى من طرقها الواهية عند المحدثين . ويرونها ضربة لازب على ضعف سندها وكون متنها منكراً أيضاً أو موضوعا . ولما صنفتُ مجموعة الخطب حذفتُ هذه الرواية من خطبة الأضحى ككل مروىّ ضعيف فى فضائل الشهور والأوقات ، واقتصرتُ على جياد الأخبار والآثار . وذلك من فضل الله علينا فلا نحصى ثناء عليه . وأمثل ماروى فى هذا النبأ من

الآثار ما أخرجه الإمام أحمد[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا، قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعى . فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة . فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات . ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل عليه السلام قميص أبيض . فقال له : يا أبت ! إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه : فعالجه ليخلصه ، فنودى من خلفه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتُنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحى، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن ، وتقديم المشيئة فى كل قول . واستدل بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة .

ثم قال السيوطىّ : فسّر الذِّبح العظيم فى الأحاديث والآثار بكبش . فاستدل به المالكية على أن الغنم فى التضحية أفضل من الإبل . انتهى .

الثالث ـ استدل بالآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ـ كما ذكره الرازىّ ـ وذلك فى باب الابتلاء . أى ابتلاء المأمور فى إخلاصه وصدقه ، فيما يشق على النفس تحمله .

الرابع ـ يذكر كثير الخلافَ فى الذبيح . قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم . فإن فيه إن الله أمر

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٠٧ (طبعة المعارف) .

إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) . وفى لفظ (وحيده) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده . والذى غرّ وأصحاب هذا القول إن فى التوارة االتى بأيديهم (اذبح ابنك إسحاق) قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم . لأنهم تناقض قوله (بكرك) (وحيدك) ولكن يهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ، ويختارونه دون العرب. ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله . وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق ، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى[1] (لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ*وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه . ولاريب أن يعقوب داخل فى البشارة . فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب فى اللفظ الواحد . وهذا ظاهر الكلام وسياقه . فإن قيل ، لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجرورا عطفا على إسحٰق ، فكانت القراءة (ومن وراء إسحٰق يعقوب) أى ويعقوب من وراء إسحٰق . قيل لايمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به . لأن البشارة قول مخصوص : وهى أول خبر سارّ صادق . وقوله (ومن وراء إسحٰق يعقوب) جملة متضمنة بهذه القيود ، فيكون بشارة بل حقيقة البشارة هى الجملة الخبرية . أو لما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول . كأن المعنى: وقلنا لها من وراء إسحٰق يعقوب والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه ، وثقله فى أثره ، لم يعقل منه إلا بشارة بالأمرين جميعاً . هذا مما لايستريب ذوفهمٍ فيه البتة . ثم يضعف الجر أمر آخر . وهو ضعف قولك (مررت بزيد ومن بعده عمرو) لأن العاطف يقوم حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور: كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور ، ويدل عليه أنه سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه فى هذه السورة، قال[2] (فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ *وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ *قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا

(١) [١١ / هود / ٧٠و٧١] . (١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ ـ ١١١] .

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ) ثم قال[1] (وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ) فهذا بشارة من الله له، شكراً على صبره على ماأمر به. وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول. بل هو كالنص فيه . فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوّته . أى لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك، بأن أعطاه النبوة . قيل: البشارة وقعت على المجموع، على ذاته ووجوده وأن يكون نبيًّا . ولهذا ينصب (نبيًّا) على الحال المقدر أى مقدراً نبوته . فلا يمكن إخراج البشارة أن يقع على الأصل، ثم يخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة . هذا محال من الكلام . بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى ، وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر . كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار ، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامةً لذكر الله . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحٰق وأمه . ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل . وكان النحر بمكة، من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانا ومكانا . ولو كان الذبح بالشام ، كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة . وأيضا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليما لأنه لاأحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحٰق سماه عليما فقال[2] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ) إلى أن قال[3] (قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ) وهذا إسحٰق بلا ريب ، لأنه من امرأته وهى المبشرة به. وأما إسماعيل فمن السرية. وأيضاً فإنهما بشّرا به على الكبر واليأس

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١١٢]. (٢) [٥١ / الذاريات / ٢٤ و ٢٥] .
(٣) [٥١ / الذاريات / ٢٨].

من الولد . وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك ، وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده . وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعـالى قد اتخذه خليلا . والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها . فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل. فأمره الجليل بذبح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة . إذْ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه . فقد حصل المقصود ، فنسخ الأمر ، وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب . ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار ، إنما حصل عند أول مولود . ولم يكن ليحصل فى المولود الآخردون الأول . بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ، مايقتضى الأمر بذبحه . وهذا فى غاية الظهور . وأيضا فإن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة . فإنها كانت جارية . فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة . فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ، ليبرّد عن سارة حرارة الغيرة . وهذا من رحمته ورأفته . فـكيف يأمره سبحانه بعد هذا ، أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحالههذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وخيرته لها . فـكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ؟ بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، فحينئذ يرق قلب الست على ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لهـا بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع بيتاً ، هذه وابنها منهم . ويرى عباده جبره بعد الـكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم ، إلى ذبح الولد ، آلت إلى ما آلت إليه ، من جعل آثارها وموطئ أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة . وهذا سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله

وانكساره . قال تعالى(١) (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ) (٢)(ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) انتهى .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : واستدل بقوله تعالى بعد(٣) (وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ) من قال إن الذبيح إسمعيل . وهو الذى رجحه جماعة . واحتجوا له بأدلة . منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحق بعده . والبشارة بيعقوب من وراء إسحق . وغير ذلك . وهى أمور ظنية لاقطعية. ثم قال: وتأملت القرآن فوجدت فيه مايقتضى القطع أو يقرب منه ـ ولم أرمن سبقنى إلى استنباطه ـ وهو أن البشارة وقعت مرتين. مرة فى قوله(٤) (إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ) فهذه الآية قاطعة فى أن هذا المبشر به هو الذبيح. ومرة فى قوله(٥) (وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) الآية . فقد صرح فيها أن المبشر به إسحق. ولم يكن بسؤال من إبراهيم. بل قالت امرأته إنها عجوز ، وإنه شيخ . وكان ذلك فى الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو فى آخر أمره . أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام ، حين كان سنه لايستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله . فعلمنا بذلك أنهما بشارتان فى وقتين ، بغلامين. أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحق صريحا . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره. فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح . انتهى .

---

(١) [٢٨/ القصص/ ٥]. (٢) [٥٧/ الحديد/ ٢١]. (٣) [٣٧/ الصافات/ ١١٢].
(٤) [٣٧ / الصافات / ٩٩ـ١٠٢] . (٥) [١١ / هود / ٧١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ » أى بالنبوة والرسالة ، والاصطفاء على عالَمَىْ زمانهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

« وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ » وهوقهر فرعون لهم، بذبح الأولاد ونهاية الاستعباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾

« وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ » أى مع ضعفهم وقوة فرعون وقومه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾

« وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ » أى البليغ فى بيانه للأحكام والتشريعات ، والآداب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

« وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ » أى فى باب الاعتقاد والمعاملات الموصل رعايته والسلوك عليه ، إلى السعادة .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ)

[١٢٠] (سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)

[١٢١] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

[١٢٢] (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١٢٣] (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » وهو من أنبياء بنى إسرائيل من بعد زمن سليمان . أرسله الله لما انتشرت الوثنية فى الإسرائيليين ، وساعد على انتشارها بينهم ملوكهم ، وبنوا لها المذابح وعبدوها من دون الله تعالى ، ونبذوا أحكام التوراة ظهريا . فقام إلياس عليه السلام يوبخهم على ضلالهم ويدعوهم إلى التوحيد ، ويسمى فى التوراة (إيليا) وله نبأ فيها كبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ)

« إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ » أى عذاب الله ونقمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ)

« أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أى تعبدونه أو تطلبون الخير منه ؟ وهو صنم من أصنام الفنيقيين ، أقاموا له ولغيره من الأوثان معابد ومذابح وكهنة ، يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والأعياد الحافلة . ويقدمون لهم ضحايا بشرية « وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ » أى تتركون عبادته . قال القاضى : وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار، المعنىّ بالهمزة . ثم صرح به بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٢٧] (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

« ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى فى العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ)

[١٢٩] (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ)

[١٣٠] (سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى الذين آمنوا به واتبعوه « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ » بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بـ (ياسين) . وقرئ آل ياسين بإضافة آل (بمعنى أهل) إليه . وكله من التصرف فى العَلَم الأصلىّ ، الذى هو (إيليا) على قاعدة العرب فى الأعلام العجمية ، إذا أرادت أن تلطفها فى الاستعمال ، وتخففها على الألسنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

[١٣٢] (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١٣٣] (وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[١٣٤] (إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ)

« إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى للدعاء إلى الله والنهى عن الفواحش « إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ » أى من عذاب قومه المنذرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ)

« إِلَّا عَجُوزًا » وهى امرأته ، فإنها وإن خرجت عن مكان عذابهم ، كانت « فِى ٱلْغَٰبِرِينَ » أى فى حكم الباقين فى العذاب ، لكونها على دين قومها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ)

« ثُمَّ دَمَّرْنَا » أى أهلكنا « ٱلْأَخَرِينَ » بجعل قريتهم عاليها سافلها ، وإمطار حجارة من سجيل عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ)

[١٣٨] (وَبِٱلَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[١٣٩] (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَإِنَّكُمْ » أى ياأهل مكة « لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ » أى فترون دائما علامات مؤاخذتهم « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى إلى أهل نينوى للتوحيد ، والزجر عن ارتكاب المآثم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ)

« إِذْ أَبَقَ » أى : بغير إذن ربه عن قومه المرسل إليهم « إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ »

أى السفينة المملوءة ، ليركب منها إلى بلد آخر . روى أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس . فهبت ريح شديدة كادت تغرقهم . فاقترعوا ليعلموا بسبب مَن ، أصابهم هذا البلاء . فوقعت على يونس . فألقوه فى البحر . وهو معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ)

« فَسَاهَمَ » أى قارع « فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ » أى المغلوبين بالقرعة . وأصله الزلق عن الظفر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ » أى ابتلعه « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ)

« فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ » أى الذاكرين الله بالتسبيح والإنابة والتوبة ، فى بطن الحوت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى لكان بطنه قبراً له إلى يوم القيامة . أى لكن رحمناه بتسبيحه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)

« فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ » أى حملنا الحوت على طرحه باليبس من الشط « وَهُوَ سَقِيمٌ » أى مما ناله من هذا المحبس الذى يأخذ بالخناق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٤٦] (وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ)

« وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ » أى لتقيه من الذباب والشمس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)

«وَأَرْسَلْنَـٰهُ» أى بعد ذلك ، بأن أمرناه ثانية بالذهاب «إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» وهم قومه المرسل إليهم ، الذين أبق عن الذهاب إليهم أوّلا . و (أو) للإضراب . أو بمعنى الواو أو للشك بالنسبة إلى مرأى الناظر . أى إذا رآها الرائى قال : هى مائة ألف أو أكثر . والغرض الوصف بالكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

« فَـَٔامَنُواْ » أى فسار إليهم ودعاهم إلى الله ، وأنذرهم عذابه إن لم يرجعوا عن الكفر والغى والضلال والفساد والإفساد . فأشفقوا من إنذاره واستكانوا لدعوته وآمنوا معه « فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » أى حين انقضاء آجالهم بالعيش الهنىّ والمقام الأمين، ببركة الإيمان والعمل الصالح . وإنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص من قوله (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ) إلخ اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ)

« فَٱسْتَفْتِهِمْ » أى قريشاً المنذَرين بأنباء الرسل وقومهم « أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ » أى سلهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها . جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم (الملائكة بنات الله) مع كراهتهم الشديدة لهن ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ)

« أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ » أى حاضرون ، حتى فاهوا بتلك العظيمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ)

[١٥٢] (وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)

« أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ » أى صدر منه الولد . مع أن الولادة من خواص الأجسام القابلة للفساد « وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى فى مقالتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٣] (أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ)

« أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ » أى اختار الإناث « عَلَى ٱلْبَنِينَ » أى الذكور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

« مَا لَكُمْ » أى : أىّ شىء عرض لعقولكم « كَيْفَ تَحْكُمُونَ » بنسبة الناقص إلى المقام الأعلى ، وتخيّركم الكامل .

لطيفة :

قال الزمخشريّ : قال قلت: (أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ) بفتح الهمزة، استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جعله من كلام الكفرة، بدلا عن قولهم (وَلَدَ ٱللَّهُ) وقد قرأبها حمزة والأعمش رضي الله عنهما. وهذه القراءة، وإن كان هذا محملها، فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها . وذلك قوله (وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ) و (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فمن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى أنه منزه عن ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ)

« أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ » أى حجة واضحة وبرهان قاطع. ثم لا يجوز أن يكون ذلك عقليا ، لاستحالته عند العقل . فغايته أن يكون مأثورا عن أسفار مقدسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ » أى المسطور فيه ذلك عن وحى سماويّ « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى فى دعواكم. وهذا كقوله تعالى[(١)] (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ) وفيه إشعار بأن المدار فى الدعوى على البرهان البين. وأنها بدونه لا يقام لها وزن.

(١) [٣٠ / الروم / ٣٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا، وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)

«وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً» أى قربا منه. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى . فقال أبو بكر رضى الله عنه : فَمَنْ أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة وابن زيد . ثم أشار إلى أن لا نسبة تقتضى النسب بوجه ما. عدا عن استحالة ذلك عقلا ، بقوله « وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ » أى المنسوب إليهم هـذا النسب « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » أى فى النار يوم القيامة . لـكون الجنة كالجن ، علما فى الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين. أى: فالمنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فما بال هؤلاء المشركين يهرفون بما لا يعرفون ؟ وفسر بعضهم (الجنة) بالملائكة المحدّث عنها قبلُ . والضمير فى (إنهم) للكفرة. ولعل ما ذكرناه أولى، لخلوّه عن تشتيت الضمائر، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة . وذلك فيما عدا الملائكة . وقلنا (الأغلب) لما سمع من إطلاق الجن فى الملائكة . قال الأعشى(١) يذكر سليمان عليه السلام :

وسخّر من جنّ الملائك تسعةً ... قياما لديْهِ يعملون محاربا

وقال الراغب : الجن يقال على وجهين : أحـدهما للروحانيين المستترة عن الحواس كلها، بإزاء الإنس. فعلى هذا تدخل فيه الملائكة. وقيل: بل الجن بعض الروحانيين. وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة. وأشرار وهم الشياطين. وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى(٢) (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ) إلى قوله تعالى(٣) (وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ) انتهى. وردّ إطلاق الجن على الملائكة العلامةُ الفاسى فى شرحه على (القاموس) فقال : تفسير الجن بالملائكة مردود . إذ خلق الملائكة من نور لا من نار كالجن . والملائكة معصومون . ولا يتناسلون ولا يتّصفون بذكورة وأنوثة ، بخلاف

(١) أنشده فى اللسان (مجلد ١٣ ص ٩٧ ، طبعة بيروت) هكذا ... يعملون بلا أجر.

(٢) [٧٢ / الجن / ١] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٤] .

الجن. ولهذا قال الجماهير: الاستثناء في قوله تعالى[1] (إِلَّآ إِبْلِيسَ) منقطع أو متصل. لكونه كان مغمورا فيهم، متخلقا بأخلاقهم . انتهى. وهو يؤيد ماذهبنا إليه. وبيت الأعشى لا يصلح حجة ، لفساد مصداقه . لأن سليمان لم تسخَّر الملائكة لتشييد له المبانى. وليس ذلك من عملهم عليهم السلام . وقد مر الكلام على ذلك فى تفسير سورة (سبأ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَـٰنَ ٱللَّـهِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الولد والنسب . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦٠] (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ)

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّـهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » استثناء من (المحضرين) الذين هم الجنة، متصل على القول الأول ، أى المؤمنين منهم . ومنقطع على الثانى. أو استثناء منقطع من (واو) يصفون. هذا، وبقى وجه فى الآية لم يذكروه . وهو أن يراد بالنسب المناسبة والمشاكلة فى العبادة . ويراد بالجنة الملائكة . ويكون المراد من الآية الإخبار عمن عبد الملائكة من العرب وجعلوهم ندًّا ومثلا له تعالى ، وحكاية لضلال آخر لهم ، غير ضلال دعواهم ، أنهم بنات الله سبحانه ، من عبادتهم لهم . مع أنهم عليهم السلام يعلمون أن هؤلاء الضالين محضرون فى العذاب. والآية فى هذا كآية[2] (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ* قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم، بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) وكان السياق من هنا إلى آخر ، كالسياق فى طليعة السورة. كله فى تقرير عبودية الملائكة له تعالى، وكونها من مخلوقاته الصافّة لعبادته، فأنّى تستحق الربوبية؟ والله أعلم. وقوله:

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٤] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٤٠ و٤١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦١] ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾

« فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » عود إلى خطابهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴾

« مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ » أى مفسدين أحداً بالإغواء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

« إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ » أى ضالّ مثلكم ، مستوجب للنار ، قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره: فإنكم أيها المشركون بالله (وَمَا تَعْبُدُونَ) من الآلهة والأوثان (مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ) أى ما أنتم على ماتعبدون من دون الله بمضلين أحداً ، (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ) أى مَن سبق فى علمى أنه صال الجحيم . وقد قيل: إن معنى (عليه) به. انتهى.

ثم بين تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية ، للرد على عبدتهم ، بقوله حاكيا عنهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾

« وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » أى فى العبودية وتسخيره فيما يريده تعالى منه. لا يتعدى فيه طوره ، ولا يجاوز منه قدره .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ)

« وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ » أى فى أداء الطاعة ومنازل الخدمة التى نؤمر بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ)

« وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ » أى المنزهون الله عما يصفه به الملحدون . أو المصلون له خشوعاً لعظمته ، وتواضعاً لجلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ)

« وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ » أى مشركو قريش .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

« لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى كتاباً من الكتب التى نزلت عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ)

« لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ » أى لأخلصنا العبادة له . فجاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار ، والكتاب الذى هو أهدى الكتب والمعجز من بينها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

« فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة كفرهم . وهـذا كقوله تعـالى(١) (وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) الآية . وقوله تعالى(٢) (أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ » أى وعدنا لهم الأزلىّ ، وهو :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ)

[١٧٣] (وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)

« إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا » أى الرسل ومن آمن معهم « لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ » أى الظاهرون على أعدائهم ، والمالكون لنواصيهم كقوله تعالى(٣) (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عنهم إعراض الصفوح الحليم عمن ينال منه .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٥٦و١٥٧] .
(٣) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .

كقوله تعالى[١] (وَدَعْ أَذَاهُمْ) وقوله[٢] (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى استقرار النصر لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَأَبْصِرْهُمْ » أى بصرهم وعرفهم عاقبة البغى والكفر ، ومانزل بمن أُنذر قبلهم ، أو أوضح لهم الدلائل والحجج فى مجاهدتك إياهم بالقرآن والوحى . فإن لم يبصروا الآن ، « فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » أى ماقضينا لك من التأييد والنصرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى قبل حلول أجله ، وإنه لآت ، لأنه يوم الفتح الموعود به.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)

« فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » أى بقربهم وفنائهم « فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » أى فبئس الصباح صباح من أنذرتهم بالرسل فلم يؤمنوا . لأنه يوم هلاكهم ودمارهم . قال الزمخشرىّ : مثّل العذاب النازل بهم ، بعد ماأنذروه فأنكروه ، بجيش أنذر بهجومه بعضُ نصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولادبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة ، وقطع دابرهم . وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا . فسميت الغارة (صباحا) وإن وقعت فى وقت آخر . وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل . انتهى . أى فهى استعارة تمثيلية . أو فى الضمير استعارة مكنية ، والنزول تخييلية .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [١٥ / الحجر / ٨٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ)

[١٧٩] (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)

« وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » قال الزمخشرىّ : إنما ثنى ذلك ليكون تسلية على تسلية ، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة . وهى إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول . وإنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به من الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة . وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ » أى المنعة والقدرة والغلبة « عَمَّا يَصِفُونَ » أى من الشريك والولد ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ » أى سلام وأمان وتحية على المرسلين المبلغين رسالات ربهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى على نعمه ، التى أجلّها إرسال الرسل لإظهار أسمائه الحسنى وشرائعه العليا ، وإصلاح الأولى والأخرى .

فوائد فى خواتم هذه السورة

الأولى ـ روى ابن جرير عن الوليد بن عبد الله قال : كانوا لا يصفّون فى الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ) فصفوا . وقال أبو نضرة: كان عمر رضى الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استقيموا قياما، يريد الله بكم هدى الملائكة. ثم يقول (وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ) تأخرْ يافلان ، تقدم يافلان. ثم يتقدم فيكبر. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير(١) .

وفى صحيح مسلم(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا الأرض مسجداً . وتربتها لنا طَهوراً .

الثانية ـ روى الشيخان(٣) عن أنس رضى الله عنه قال : صبّح رسول الله ﷺ خيبر . فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله! محمد والخميس. فقال النبىّ ﷺ : الله أكبر خربت خيبر (إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) . دَلّ تمثله ﷺ بالآية على شمولها لعذاب الدنيا ، أولا وبالذات .

الثالثة ـ قال ابن كثير : لما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص ، بدلالة المطابقة . ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال المطلق مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما فى هذا الموضع ، وفى مواضع كثيرة من القرآن . ولهذا قال تبارك وتعالى « سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ » الآيات .

---

(١) انظر الصفحة رقم **١١٢** من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٤ (طبعتنا)

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٦ ـ باب مايحقن بالأذان من الدماء، حديث ٢٤٦

وأخرجه مسلم فى : ١٦ ـ كتاب النكاح حديث رقم ٨٧ (طبعتنا)

الرابعة ـ روى ابن أبى حاتم عن الشعبيّ مرسلا : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه، حين يريد أن يقوم : (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ) الآيات .

وروى أيضاً عن عليّ موقوفاً .

وأخرج الطبرانىّ عن زيد بن أرقم مرفوعا : من قال دبر كل صلاة (سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ) الآيات ، ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر .

وقد بيّن الرازىّ أن خاتمة هذه السورة الشريفة جامعة لكل المطالب العالية . فارجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٨ – سورة صٓ

مكية . وقيل : مدنية وضُعِّفَ وآياتها ثمان وثمانون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (صٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ)

« صٓ » بالسكون على الوقف . وقرئ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا فيه وفى نظائره . لما قدمنا غير ما مرة . وقيل : قسم رمزىّ ، وإليه نحا المهايمىّ. قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد ﷺ الذى اعترف به الكل فى غير دعوى النبوة، حتى صدقه أهل الكتابين فى إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق فى دعوى النبوّة . أو بصفائه عن رذائل الأخلاق وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب . أو بصعوده فى مدارج الكمالات ، الدال على صعوده فى مدارج القرب من الله ـ أو بصبره الكامل الذى هو لوازم الرسالة على أنه رسوله . انتهى .

«وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ» أى الشرف الدال على حقيقته وصدقه. أو التذكير، كآية[١] (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) والجواب محذوف لدلالة السياق عليه . أى إنه لحق. وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ » أى كبر « وَشِقَاقٍ » أى عداوة للحق والإذعان له. إضراب عما قبله . كأنه قيل : لا ريب فيه قطعا . وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريبٍ مّافيه . بل هم فى حميّة جاهلية وشقاق بعيد لله ولرسوله. ولذلك لايذعنون له. وقيل: الجواب مادل عليه الجملة الإضرابية. أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه. بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

« كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ » أى لكبرهم عن الحق، ومعاداتهم لأهله « فَنَادَوا » أى فدعوا واستغاثوا « وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى وليس الحين حينَ فرار ومهرب ومنجاة . والكلام على (لات) وأصلها وعملها والوقف عليها، ووصل التاء بها أو فصلها عنها، مبسوط فى مطولات العربية ، وفى معظم التفاسير هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)

[٥] (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)

« وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ » أى رسول « مِّنْهُمْ » أى من أنفسهم . يعنى النبىّ ﷺ « وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » أى بليغ فى العجب . وذلك لتمكن تقليد آبائهم فى نفوسهم ، ورسوخه فى أعماق قلوبهم . ومضىّ قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ، وغشى على أبصارهم ، ونسى باب النظر والاستدلال . بل محى بالكلية من بينهم . وصار عندهم من أبطل الباطل وأمحل المحال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

« وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى الأشراف من قريش يحضّون بعضهم على التمسك بالوثنية،

ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين « أَنِ امْشُوا » أى فى طريق آبائكم « وَاصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ » أى عبادتها مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا وتفنيد مزاعمنا «إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » تعليل للأمر بالصبر . أى يراد منا إمضاؤه وتفنيذه لامحالة . أى يريده محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لاقول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد منا . أى بنا . فلا انفكاك لنا عنه . وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى .

[٧] (مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ)

« مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ » أى ماسمعنا بهذا التوحيد الذى ندعى إليه فى ملة النصارى . لأنهم مثلثة غير موحدة. أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا « إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ » أى ماهذا التوحيد إلا فرية محضة ، لامستند له سوى هذا الذكر بزعمهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ، بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)

« أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا » أى مع أن فينا من هو أثرى وأعلى رياسة . قال الزمخشرى : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم كما قالوا[١] (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد ، على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي » إضراب عن مقدّر . أى : إنكارهم للذكر ليس عن علم ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] .

بل هم فى شك منه . يقولون فى أنفسهم : إمّا وإمّا « بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ » أى على الإنـكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد ، وصدّقوا . وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر فى (الانتصاف) : ويؤخذ منه أن (لما) لائقة بالجواب . وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده . كما يقول سيبويه . وفرق بينها وبين (لم) بأن (لم) نفىٌ لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته (قد) . و (لما) نفى لما يتوقع وجوده أُدخل على مثبته (قد) .

وقال : وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى قوله عليـه الصلاة والسلام : الشفعة فيما لم يقسم . فإنى استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . فقيـل لى : إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة . فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلتُ ذلك بأن آلة النفى المذكورة (لم) ومقتضاها، قبول المحل الفعل المنفىّ وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتـكلم . ولو قلت : الحجر لم يتـكلم ، لـكان ركيـكاً من القول ، لإفهامه قبوله للـكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ)

« أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ » أى حتى يتخيروا للنبـوة ما تهوى أنفسهم . كلا [(١)](وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ) [(٢)](ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ)

« أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ » أى فليصعدوا

(١) [٢٨ / القصص / ٦٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

فى المراقى التى توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا فى الأمور الربانية والتدابير الإلٰهية ، إن قدروا .

روى ابن جرير[١] بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر وأشدّ من الحديد . وهو بكل مكان . غير أنه لا يرى . انتهى .

وهذا البيان ينطبق على ما يعرّف به الأثير الموجود فى أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة. فتأمل .

ثم قال ابن جرير[١] : وأصل السبب عند العرب، كل ماتسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة ، أو رحم أو قرابة أو طريق أو محجة ، وغير ذلك . انتهى .

وقال المهايمىّ : أى فليصعدوا فى الأسباب التى هى معارج الوصول إلى العرش ، ليستووا عليه ، فيدبروا العالم وينزلوا الوحى على من شاءوا . وأنَّى لهم ذلك ؟؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ)

« جُندٌ مَّا » أى هم جند حقير « هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ » أى الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك. وأولئك قد قهروا وأهلكوا. وكذا هؤلاء. فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون . و (هُنَالِكَ) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ، أنه سيهزم جندا من المشركين . فجاء تأويلها يوم بدر. وقال ابن كثير: هذه الآية كقوله جلت عظمته[٢] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ *سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ) وكان ذلك يوم بدر . وفى الآية أوجه من الإعراب أشار لها السمين

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٠ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).
(٢) [٥٤ / القمر / ٤٤و٤٥] .

بقوله : (جُندٌ) يجوز فيه وجهان : أحدهما ـ وهو الظاهر ـ أنه خبر مبتدأ . أى هم جند . و (ما) فيها وجهان ، أحدهما ـ أنها مزيدة . والثانى أنها صفة لـ(جند) على سبيل التعظيم، للهزء بهم، أو للتحقير . فإن (ما) إذا كانت صفة تستعمل لهذين المعنيين. و (هُنَالِكَ) يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها ـ أن يكون خبراً ل(جند) و (ما) مزيدةو (مَهْزُومٌ) نعت ل(جند). الثانى ـ أن يكون صفة ل(جند) الثالث ـ أن يكون منصوبا .بـ(مهزوم) . و (مَهْزُومٌ) يجوز فيه أيضاًوجهان: أحدهما ـ أنه خبر ثان لذلك المبتدأ المقدر ،والثانى أنه صفة ل(جند) .و(هُنَالِكَ) مشارٌ به إلى موضع التقاول والمحاورة بالـكلمات السابقة ، وهو مكة . أى سيهزمون بمكة . وهو إخبار بالغيب . وقيل: مشارٌ به إلى نصرة الإسلام . وقيل: إلى حفر الخندق ، يعنى إلى مكان ذلك . الثانى من الوجهين الأولين أن يكون (جند) مبتدأ و (ما) مزيدة و (هُنَالِكَ) نعت و (مَهْزُومٌ) خبره . وفيه بعد ، لتفلّته عن الـكلام الذى قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس فى هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل . فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول . فلو بعثت إليه فنهيته ! فبعث إليه . فجاء النبيّ ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل . قال فخشى أبو جهل لعنه الله ، إن جلس إلى جنب أبى طالب ، أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس فى ذلك المجلس. ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه. فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب :أى ابن أخى !ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول. قال، وأكثروا عليه من القول . وتـكلم رسول الله ﷺ فقال : ياعم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها . تدين لهم بها العرب . وتؤدى إليهم بها العجم الجزية . ففزعوا لـكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشرا . فقالوا : وما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال ﷺ : لا إله إلا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون :

(أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ونزلت الآية . رواه ابن جرير[1] والإمام أحمد والنسائيّ ، والترمذيّ وحسّنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ » أى الملك الثابت . وأصله البيت المطنّب ، أى المربوطة أطنابه ـ أى حباله ـ بأوتاده . استعير للملك استعارة تصريحية . وصف به فرعون مبالغة بجعله عين ملكه . أوشبه فرعون فى ثبات ملكه بذى بيت ثابت أقيم عموده وثبتت أوتاده . على طريق الاستعارة المكنية . وأثبت له ما هو من خواصه تخييلا ، وهو قوله (ذُو ٱلْأَوْتَادِ) فإنه لازم له . أو هو كناية . حيث أطلق اللازم وأريد الملزوم وهو الملك الثابت . وقد جاء هذا فى قول الأسود[2] من شعراء الجاهلية :

ولقد غَنُوا فيها بأنعمِ عيشةٍ   فى ظل مُلْكٍ ثابتِ الْأَوْتَادِ

أو المعنى : ذو الجموع الكثيرة . سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضا ، كالوتد يشد البناء . فالاستعارة تصريحية فى الأوتاد . أوهو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند . أوهو على حقيقته والمراد المبانى العظيمة والهياكل الثابتة الفخيمة . واللفظ صادق فى الكل .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت رقم ١٢ من المفضلية رقم ٤٤ لصاحبها الأسود بن يعفر النهشليّ . وأول القصيدة :

نام الخليُّ وما أُحسّ رقادِى   والهمُّ محتضِرٌ لدىَّ وِسَادِى

غنوا : أقاموا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ، أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ)

«وَثَمُودُ» وهمقومصالح «وَقَوْمُ لُوطٍوَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ» أى الغيضة ، وهم قوم شعيب «أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ» أى الكفار المتحزبون على رسلهم، الذين جعل الجند المهزوم منهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

«إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ» أىفوجبتعليهم عقوبتى. قال الشهاب: (إن) نافية و (كُلٌّ) محذوف الخبر . والتفريغ من أعمّ العام . أى ما كل أحد مخبر عنه بشىء، إلا مخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل. لأن الرسل يصدق كلٌّ منهم الكل. فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل . أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع . فيكون كل كذب رسوله. أو الحصر مبالغة . كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه ، بمنزلة العدم . فهم غالون فيه . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا ، وبالاستثنائية ثانيا ، وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص ـ أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه .

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير . وهى أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ماحاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليلىَ قوله تعالى (فَحَقَّ عِقَابِ) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام . وهو كما قدمته فى قوله(١)(وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله (١)(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ). انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ)

«وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ» أى أهل مكة «إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً» أى أخذة واحدة بعذاب

(١) [٢٢ / الحج / ٤٤] .

بئيس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا . كما قال :

صاح الزمانُ بآل برمكَ صيحةً   خرّوا لشدّتها على الأذقانِ

وأصله من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم « مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ » أى من توقف مقدار فواق . وهو ما بين الحلبتين . أو رجوع وترداد. فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ف (فواق) إما بحذف مضافين أو مجاز مرسل بذكر الملزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم . وهما لغتان. وقيل: المفتوح اسم مصدر من (أفاق المريض) إفاقة وفاقة، إذا رجع إلى الصحة. والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ)

« وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا » أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته . كقوله[(١)] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ) « قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ » أى الجزاء . وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية . كما قص عنهم نظائره فى عدة آيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى فقد وعدت بالنصر والظفر والملك والتأييد ، كما أوتى داود عليه السلام، مما سارت به الأمثال[(٢)] ولذا قال تعالى «وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ »

---

(١) [٢٢ / الحج / ٤٧] و [٢٩ / العنكبوت / ٥٣و٥٤] .

(٢) ما ذكرناه هنا من وجه الارتباط بين نبأ داود وما قبله من الوعد بإيتائه ما أوتى ، هو مايظهر من السياق ويشعر به نظائره فى قصص الأنبياء عليهم السلام .

وما ذكره الزمخشرىّ وتابعه عليه البيضاوىّ وغيرهما فى وجه الاتصال ، فما تقشعر من ذكره الأبدان. ولا علاقة له فى الوصلة ولا المناسبة أصلاً. نخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين لله رب العالمين . انتهى مؤلفه .

أى : القوة . أى : الاجتهاد فى أداء الأمانة والتشدد فى القيام بالدعوة ومجانبة إظهار الضعف والوهن « إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ » أى رجّاع إليه تعالى بالإنابة والخشية والعبادة والصيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ)

[١٩] (وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ » أى تبعاً لتسبيحه « بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً » أى مجموعة عنده يسبحن معه « كُلٌّ لَّهُۥٓ » أى لله تعالى « أَوَّابٌ » أى مطيع منقاد . يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه .

قال ابن كثير : أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل[١] (يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه ، إذا مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أى بأن خلق فيها حياةً ونطقاً . أو كان له عليه السلام من شدة صوته الحسن دوىّ فى الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع . وقد عهد من الطير القمرىّ أنه ينتظر سكتة المصوّت والقارئ بصوت حسن أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ)

« وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ » أى قويناه بوفرة العدَد والعُدَد ونفوذ السلطة وإمداده بالتأييد والنصر « وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ » أى النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال

(١) [٣٤ / سبأ / ١٠] .

والحضّ على الآداب ومكارم الأخلاق . وكان زبوره عليه السلام ، كله حكما غررا « وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ » أى فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ، ورفع الشبه ، وإقامة الدلائل . وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ، ولا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب . ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل ، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك ، ما قصه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ)

« وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ » أى وجوه . و (المحراب) مقدم كل بيت وأشرفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ، فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ)

« إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ » أى منا . فلسنا فاتكين وإنما نحن « خَصْمَانِ » أى شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك « بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ » أى تعدى « فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ » أى بما يطابق أمر الله « وَلَا تُشْطِطْ » أى ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه « وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ » أى بحيث لا تميل عن الحق أصلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ)

« إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » أى أنثى من الضأن « وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ »

أى فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقارى إليها، بل أراد التغلب علىّ «فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا» أى : ملكنيها . بمعنى اجعلنى كافلها كما أكفل ما تحت يدى . أو بمعنى اجعلها كفلى أى نصيبى «وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ» أى غلبنى فى المكالمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)

[٢٥] (فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

«قَالَ» أى داود «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ» أى طلب نعجتك التى أنت أحوج إليها ليضمها «إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ» أى مع استغنائه عن هذا الضم «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ» أى الإخوان الأصدقاء المتخالطين فى شئونهم «لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ» أى بغى الأعداء. مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار «إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ» أى فإنهم لا يبغون «وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» أى وهم قليل . و (ما) مزيدة للإبهام والتعجيب من قلتهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقلة ، وتنكير (قليل) وزيادة (ما) الإبهامية . والشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .

وفى قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين المغبون. ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع. فجهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة فأقر عين المظلوم . وعرف الباغى ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس عن قلب المظلوم البائس، وروّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة ـ خلة البغى

وعدم الإنصاف ـ مع الخلطة والخلة ، ليتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسى روح كل حزين) ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم؟ وكلها حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون المحبة، والصداقة. ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى آدابها علماء الأخلاق، إسهابا نوعوا فيه الأبواب ، ولونوا فيه الفصول . ومع ذلك لاتزال الشكوى عامة. وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . وبالله التوفيق « وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ » أى ابتليناه بتلك الحكومة « فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ* فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ » أى ما استغفر منه « وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربا « وَحُسْنَ مَـَٔابٍ » أى مرجعاً حسناً وكرامة ، فى الآخرة .

تنبيهات :

الأول ـ للمفسرين فى هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألمّ به داود عليه السلام ثم غفر له. ومذهب من يرى أنها حكومة فى خصمين لا إشعار لها بذلك . فمن ذهب إلى الأول ابن جرير[1] . فإنه قال : هذا مَثَل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه . وذلك أن داود كانت له، فيما قيل، تسع وتسعون امرأة . وكانت للرجل الذى أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قُتِل نكح، فيما ذكر ، داوُد امرأتَه . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلى . فسأل غفران ذنبه وخرّ ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته. هذا ما قاله ابن جرير[1]. ثم أسند قصته مطولةمن رواياتٍعن ابن عباس والسّدّىّ وعطاء والحسن وقتادة ووهب ومجاهد . ومن طريقٍ عن أنس مرفوعا . ويشبه سياق بعضها ما ذكر فى التوراة المتداولة الآن .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة ، وأنها أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا .

(١) انظر الصفحة ١٤٣ وما يتبعها من الجزء الثالث والعشرين .

وفى إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشيّ وهو ضعيف .
وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبيّ ﷺ فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع رضي الله عنهم، فمعوّلهم فى ذلك ماذكر فى التوراة من هذا النبأ، أو الثقة بمن حكى عنها . وينبنى على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . وقد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب فى التبليغ . كما فصّل فى مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : وهو قول الكرامية من المرجئة ، وابن الطّيب الباقلانيّ من الأشعرية ، ومن اتبعه . وهو قول اليهود والنصارى . ثم رد هـذا القول ، رحمه الله ، ردًّا متينا .

وأما المذهب الثانى ، فهو ما جزم به ابن حزم فى (الفِصَل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لايدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافاتٍ ولّدها اليهود . وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بنى آدم ، بلاشك ، مختصمين فى نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدهما على الآخر على نصّ الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرّضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عزوجل، وقوّله مالم يقل ، وزاد فى القرآن ماليس فيه ، وكذّب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذّب الملائكة . لأن الله تعالى يقول (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ) فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له أكفلنيها . فاعجبوا . لِمَ يقحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجرّدة . وتالله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشّق امرأة جاره، ثم يعرّض زوجها للقتل عمدا، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر رآه . هذه أفعال السفهاء المتهوّكين الفسّاق المتمردين . لا أفعال

أهل البرّ والتقوى . فكيف برسول الله داود ﷺ الذى أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزّهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً ، ومغفرة الله له ، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة . والاستغفار فعل خير لا ينكر من مَلَكٍ ولا من نبيّ . ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنبيّ يستغفر الله لمذنبى أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى[1] (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاْغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ) وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُو ذَٰلِكَ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله ﷺ[2] يدعو فى أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجرداً عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعىّ فى (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود .

ثم قال : وأخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود عليه السلام . لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه . انتهى .

ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُو ذَٰلِكَ) أى الوقوع فى الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام فى الأحكام . وذكرها للنبىّ ﷺ تدريب له فى الأناة فى جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئاً فى مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله[3] (وَإِنَّ لَهُو عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ) فالقصة لم يجر ذكرها

(١) [٤٠ / غافر / ٧] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٠ ـ كتاب القدَر ، ٧ ـ باب ماجاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن . (٣) [٣٨ / صٓ / ٤٠] .

إلا للترقية فى رتب الكمال . وأول دليل على ماذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هى بالتدريب فى الحكم ، لابامرأة ولا غيرها . وأن ماذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فكم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون هٰهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشىّ عن أنس رضى الله عنه . ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل. فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضاً . انتهى .

وقال القاضى عياض فى (الشفا) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين . ولم ينص الله على شىء من ذلك، ولا ورد فى حديث صحيح. والذى نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وقوله فيه(أَوَّابٌ) فمعنى(فَتَنَّاهُ) أى اختبرناه. و (أَوَّابٌ) قال قتادة: مطيع. وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود: مازاد داود على أن قال للرجل: انزل عن امرأتك وأكفلنيها. فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه. وأنكر عليه شغله بالدنيا. وهذا هو الذى ينبغى أن يعوّل عليه من أمره. وقد قيل خطبها على خطبته، وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقندىّ أن ذنبه الذى استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل : بل لما خشيه على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفى ما أضيف فى الأخبار إلى داود من ذلك ـ ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداودىّ : ليس فى قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبىّ محبة قتل مسلم. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه، رجلان فى نتاج غنم على ظاهر الآية . وقيل : بل لما خشى على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

وقال ابن القيم فى أواخر كتابه (الجواب الكافى) فى مباحث العشق: وقد أرشد ﷺ المتحابين إلى النكاح. كما فى سنن ابن ماجه[1] مرفوعاً: لم يُرَ للمتحابَّين مثل النكاح. ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله دواءه شرعاً وقدَراً . وبه تداوى نبيّ الله داود ﷺ ولم يرتكب نبىّ الله محرما. وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها. وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلوّ مرتبته . ولا يليق بنا المزيد على هذا . انتهى .

وهذا منه تسليم ببعض القصة لا بتمامها . وهو من الأقوال فيها .

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكا حكيما، لا نبيا، بدليل ذكره فى أسفار الملوك منها ، وما فيها من أنه بعث إليه نبىّ يقال له ناشان ، ضرب له المثل المذكور ـ فدعوى مردودة من وجوه: منها أن الاستدلال بالتوراة التى بين أيديهم فى إثباتٍ أونفى لا يعول عليه. كيف لا ؟ وقد أوتينا بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى . ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين ، فلا عبرة بخلاف غيرهم . ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أراده الله واصطفاه . وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام . ومنها أنه لا حاجة فى كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء فى غيره ، أو يحاول رده إلى سواه من الكتب ، أو هى إليه ، لاستغنائه بنفسه . بل وكونه مهيمناً على سائر الكتب ، كما أخبر الله تعالى عنه . فليتأمّل ذلك . والله أعلم .

وقد روى أن عمر بن عبد العزيز حُدِّث بنبأ داود على ما يرويه القصاص ، وعنده رجل من أهل الحق . فكذَّب المحدِّث به، وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله، فما ينبغى أن يلتمس خلافها . وأَعْظِمْ بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرتَ وكفّ الله عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغى إظهارها عليه. فقال عمر: لَسَماعى هذا الكلام، أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس . نقله الزمخشرىّ .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١ ـ باب ما جاء فى فضل النكاح ، حديث ١٨٤٧ (طبعتنا).

قال الناصر فى (الانتصاف) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، داود وغيره ، منزهون من الوقوع فى صغائر الذنوب، مبرءون من ذلك، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثانى ـ قال ابن الفرَس : فى هذه القصة دليل على جواز القضاء فى المسجد (أى لظاهر المحراب . إلا أنه ليس نصًّا فى محراب المسجد) والتلطف فى ردّ الإنسان عن المكروه صنعه . وأنه لا يؤاخذ بمنفٍ ما أمكن . وجواز المعاريض من القول .

قال الزمخشرىّ : وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض ، دون التصريح ، لكونها أبلغ فى التوبيخ . من قِبَل أن المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به ، كان أوقع فى نفسه ، وأشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يبادَه به صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا فى سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكرة ، بأن يعرّض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح . وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية ، فاستسمج حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ، ومقياسا لشأنه . فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة .

الثالث ـ قال ابن مسعود فى قوله تعالى (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى) : أى على دينى . أخرجه ابن أبى حاتم . ففيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسب . واستدل بقوله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ) على جواز الشركة . أفاده فى (الإكليل) .

الرابع ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَخَرَّ رَاكِعًا) من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن

السجود . لأنه ، لإفضائه إليه ، جعل كالسبب ، ثم تجوّز به عنـــه . أو هو استعارة له ، لمشابهته له فى الانحناء والخضوع .

الخامس ـ قال ابن كثير : اختلف الأئمة فى سجدة (صٓ) هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين : أحدهما أنها ليست من العزائم ، بل هى سجدة شكر . لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رســول الله ﷺ يسجد فيها ، رواه أحمد والبخاريّ[1] وأصحاب السنن . وعنه أنه قال : إن النبيّ ﷺ سجد فى (صٓ) وقال : سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكراً ، تفرد به النسائيّ[2] . وعن أبى سعيد الخدريّ رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (صٓ) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قرأها . فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود . فقال ﷺ : إنما هى توبة نبيّ . ولكن رأيتكم تشزنتم ، فنزل وسجد . تفرّد به أبو داود[3] . وإسناده على شرط الصحيح ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ)

« يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ » أى استخلفناك على الملك فى الأرض

(١) أخرجه البخاريّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ٣ ـ باب سجدة صٓ ، حديث ٥٨٩ .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٤٨ ـ باب سجود القرآن، السجود فى صٓ .

(٣) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب السجود ، ٥ ـ باب السجود فى صٓ، حديث رقم ١٤١٠ .

كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ، ومنه قولهم : خلفاء الله في أرضه « فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ » أي هوى النفس، من الميل إلى مال أوجاهٍ أوقريب أوصاحب « فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » أي صراطه الموصل إلى الكمالات، كحفظ الملك والنصر على الأعداء ، والنجاة في الآخرة ورفع الدرجات فيها « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » أي بسبب نسيانهم، وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى .

تنبيه :

في الآية بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء أو سبب يقتضي الميل . واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله . كذا في (الإكليل) .

وقال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى . ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله . وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . روى ابن أبي حاتم عن أبي زرعة ؛ أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أقول ؟ قال : قل في أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ! أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة . ثم توعده في كتابه قال تعالى (يَٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) الآية .

وقال الرازيّ : اعلم أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع . لأن الإنسان الواحد لاتنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة . حتى هذا يحرث وذاك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج والآخر يخيط . وبالجملة ، فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهمّ . وينتظم من أعمال الجميع

مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدنيّ بالطبع . وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات . ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل . فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق . فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه. وذلك يفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج فى الخلق. وذلك يفضى بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك . أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه : فهذا هو المراد من قوله (فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ) يعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق . فكن أنت ذلك . ثم قال (وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ)

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا » أى خلقا باطلا ، لا حكمة فيه . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى(١) (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ) وهو أن تقوم الناس بالقسط فى المعتقدات والعبادات والمعاملات « ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ، ولذا أنكروا البعث والجزاء على الأعمال . وأخذوا يصدّون عن سبيل الله ويبغون فى الأرض الفساد .

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨و٣٩] .

قال الزمخشريّ : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها . ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره . فكان إقراره بكونه خالقاً ، كلا إقرار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ)

« أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » قال المهايميّ: أي : أنترك البعث بالكلية ، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب . وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل والأعضاء إلى غير ما خلقت له ؟ « أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ » أي مخالفةَ أمر الله رعايةً لمحبته « كَٱلْفُجَّارِ » أي الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بعداوته . أي لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله .

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة ، على أنه لابدّ من معاد وجزاء . فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده . فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا . وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ » أي كثير الخير « لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ » قال المهايميّ: أي لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها. فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال.

وقال الزمخشريّ : تدبر الآيات : التفكر فيها والتأمل الذى يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعانى الحسنة . لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلَ منه بكثير طائل ، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله . حفظوا حروفه وضيعوا حدوده . حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد ، والله ! أسقطه كله . ما يُرى للقرآن عليه أثر فى خُلُق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده . والله ! ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة . لا كثّر الله فى الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ)

« إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ » أى من الخيل ، جمع (صافن) وهو الذى يقوم على طرف سنبك يدٍ أو رِجْل ، « الْجِيَادُ » جمع (جواد) وهو الذى يسرع فى جريه أو بمعنى الحسان جمع (جيّد) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي » أى آثرته عليه . عدل عنه للمناسبة

اللفظية وقصد التجنيس . وفائدة التضمين إشارة إلى عروضه ، و (ذِكْرِ رَبِّى) إما مضاف لفاعله أو لمفعوله . .

قال الزمخشرىّ : و (الخير) المال كقوله[1] (إِن تَرَكَ خَيْرًا) وقوله[2] (وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والمال : الخيل التى شغلته ، أو سمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها ، قال رسول الله ﷺ[3] : الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وقال فى زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : ماوصف لى رجل فرأيته، إلا كان دون ما بلغنى ، إلا زيد الخيل ، وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالًا رضى الله عنه عن قوم يستبقون ، مَن السابق؟ فقال: رسول الله ﷺ . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال: وأنا أردت الخير. « حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ » أى غربت الشمس . متعلق بقوله (أَحْبَبْتُ) وفيه استعارة تصريحية أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك. وباء (بِٱلْحِجَابِ) للظرفيّة ، أو الاستعانة أو الملابسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (رُدُّوهَا عَلَىَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ)

« رُدُّوهَا عَلَىَّ » يعنى الصافنات . وهذا من مقول القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر « فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ » أى فجعل يمسح مسحا ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى يقطعها .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل

(١) [٢ / البقرة / ١٨٠] . (٢) [١٠٠ / العاديات / ٨] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٨ ـ باب حدثنى محمد بن المثنى ، حديث رقم ١٣٦٨ ، عن أنس .

بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبيّ ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاها بعد الغروب . وذلك ثابت فى الصحيحين[١] من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو، والقتال . والخيلُ تُراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة حتى لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود . كما فعل الصحابة رضى الله عنهم فى فتح (تستر) وهو منقول عن مكحول والأوزاعىّ وغيرهما، والأول أقرب. لأنه قال بعد(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) قال الحسن البصرى : قال : لا ، والله ! لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما عليك. ثم أمر بها فعقرت . وكذلك قال قتادة .

وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها . وهذا القول اختاره ابن جرير[٢]. قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذى رجح ابن جرير ، فيه نظر . لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا . ولا سيما إذا كان غضبا لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة . ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها . وهو الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوّها شهر ورواحها شهر . فهذا أسرع وخير من الخيل . روى الإمام أحمد[٣] عن ابن قتادة وأبى الدهماء،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٢٩ ـ باب غزوة الخندق ، حديث رقم ١٤٠٠ ، عن علىّ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٠٢ (طبعتنا)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الثالث والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية . فقال لنا البدوىّ ، أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى ممـا علمه الله عز وجل . وقال : إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيرا منه . انتهى ماذكره ابن كثير .

وقال القاشانىّ : أى طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرقب بعضها وينحر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التى تعبدها بهواها ، وقمعا لسورتها وقواها ، ورفعا للحجاب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإنابة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازىّ إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم . كما أنه كذلك فى دين الإسلام . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجــل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله (عَن ذِكْرِ رَبِّي) ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره . ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور : الأول ـ تشريفا لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدوّ . والثانى ـ أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث ـ أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقا . ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات .

قال : وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة . مع أن العقل والنقل ردها . وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلا عن حجة فإن قيل : إن الجمهور فسّروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لناههنا مقامان : المقام الأول ـ أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها . وقد ظهر، والحمد لله ، أن الأمر كما

ذكرناه، وظهوره لايرتاب العاقل فيه. المقام الثانى ـ أن يقال : هب أن لفظ الآية لايدل عليه، إلا أنه كلام ذكره الناس. فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام. ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات. ورواية الآحاد لاتصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لايبالى بهم ولايلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم. انتهى كلام الرازىّ.

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة، خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة. قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لاذنب لها، والتمثيل بها. وإتلاف مال منتفع به بلا معنى. ونسبة تضييع الصلاة إلى نبيّ مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها. وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير. من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها. ثم أمر بردها. فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده، برًّا بها وإكراما لها، هذا هو ظاهر الآية الذى لايحتمل غيره. وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة. وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين. فكيف ولا حجة فى قول أحد دون رسول الله ﷺ ؟ انتهى كلام ابن حزم.

وأقول : الذى يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم. لأن التنزيل الكريم مصدق الذى بين يديه. إلا أن له الهيمنة عليه. فما وقف فيه على حدّ من أنباء مابين يديه، يوقف عنده ولا يتجاوز. وحينئذ، فالقصة المعروفة عندهم هى التى أشير إليها. لكن مع الهيمنة عليها، إذ لا تقبل على علاّتها. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ » أى ابتليناه « وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا » أى جسما مجسدا كناية عن صنم ـ على مارووه ـ وإنما أوثر الجسد عليه ـ إجلالا لسليمان عليه السلام، وإشارة

إلى أن قصته ـ إن صحت ـ كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى « ثُمَّ أَنَابَ » أى إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾

« قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ » أى غيرى ، لفخامته وعظمته ، هبة فضل وإيثار امتنان « إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

« فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ » أى فذللناها لطاعته إجابة لدعوته « تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً » أى لينة سهلة ، مع شدة وقوة ، ولذا وصفت فى الآية الأخرى بـ (عَاصِفَةً) « حَيْثُ أَصَابَ » أى أراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾

« وَٱلشَّيَٰطِينَ » عطف على الريح « كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ » أى فى قعر البحر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

« وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ » أى مسلسلين فى الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ » أى على من شئت من القرنين وغيرهم «أَوْ أَمْسِكْ» أى امنع « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى غير محاسب على المنّ والإمساك ، فيكون حالًا من المستكن . أو هو حال من العطاء ، أو صلة له ، وما بينهما اعتراض . والمعنى : إنه عطاء جمٌّ لا يكاد يمكن حصره . فقد يعبر عن الكثير بـ (لا يعدّ) و (لا يحسب) ونحوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

« وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ » أى لقربى فى الدرجات ، « وَحُسْنَ مَـَٔابٍ » أى مرجع فى الآخرة .

تنبيه :

روى الأثريّون هٰهنا قصصا مطولة ومختصرة ، مؤتلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام . فالظاهر أنهم يكذبون عليه ولهذا كان فى سياقها منكرات . وتقويةُ ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائىّ بإسناد قوىّ ـ لا عبرة له . فليس المقام قاصرا على صحة السند فحسب ، لو كان ذلك فى الصحيحين ، فأنّى بمرویّ غیرها ؟؟

وذكر الرازىّ أن القصص المروية هناهى لأهل الحشو من تأويلهم . وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى (فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ) أى آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته ، كما قال تعالى مصدقا لموسى عليه السلام فى قوله[1] (إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٥] .

تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ) إذ من الفتنة ما يهدى الله بها من يشاء وقال تعالى[١] (الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ) فهذه الفتنة هى الاختبار حتى يظهر المهتدى من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هى اختباره حتى ظهر فضله فقط . وما عدا هذا لخرافات ولّدها زنادقة اليهود وأشباههم . وأما الجسد الملقى على كرسيّه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . نؤمن بهذا كما هو، ونقول (صدق الله عز وجل، كل من عندالله ربنا) ولو جاء نص صحيح فى القرآن أو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ماهو، لقلنا به، فإذا لم يأت بتفسيره ماهو نص ولا خبر صحيح، فلا يحل لأحد القول بالظن الذى هو أكذب الحديث فى ذلك، فيكون كاذبا على الله عز وجل، إلا أننا لا نشك البتّة فى بطلان قول من قال إنه كان جنيا تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب. والله تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك ، وكذلك نبعد فى قول من قال إنه كان ولداً له ، أرسله إلى السحاب ليربيه . فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربى ابنه بغير ماطبع الله عز وجل بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشانىّ أن حكاية الجنىّ والخاتم مع سليمان ، هى من موضوعات حكماء اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء فى تمثيلاتهم من حكايات أبسال وسلامان[٢] .

ثم أخذ القاشانىّ فى تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبلُ: إن صحت الحكاية فى مطابقتها للواقع، كان قد ابتلى بمثل ماابتلى به ذوالنون وآدم عليهما السلام ، انتهى والله أعلم .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ـ٣] .

(٢) انظر المراد منها فى شرح (الإشارات) لابن سينا فى أول النمط التاسع من مقامات العارفين وأمثالها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)

« وَاذْكُرْ » أى فى باب الابتلاء وحسن عاقبة الصبر عليه « عَبْدَنَآ » أى الكامل فى التحقق بالعبودية « أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ » أى دعاه وابتهل إليه قائلا « أَنِّى مَسَّنِىَ » أى أصابنى « ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ » أى مشقة (بضم النون وفتحها مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما) « وَعَذَابٍ » أى ألم شديد. وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)

« ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام. أى: فاستجبنا له وقلنا : اركض برجلك . أى اعدُ بها وامش ، فقد برأت وشفيت من مرضك . وقوى جسمك وصح بدنك « هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » أى ماء تغتسل به وتشرب منه. والإشارة إلى عين أو نهر أو نحوهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ)

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ » بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم « وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا » أى ترحما منا عليه بهذا الإضعاف والمباركة « وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ » أى وتذكيرا لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتكال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ، نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ، إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ)

« وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا » أي حزمة صغيرة « فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا » أى فى كل ما ابتليناه به « نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ » أى كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإنابة والابتهال والعبادة .

تنبيهات

الأول ـ كان أيوب عليه السلام نبيا غنيا من أرباب العقار والماشية. وكان أميراً فى قومه. وكانت أملاكه ومنزله فى الجنوب الشرقىّ من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية. وكانت إذ ذاك خصيبة رائعة التربة كثيرة المياه المتسلسلة. وكان زمنه بعد زمن إبراهيم وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثانى ـ يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصا إسرائيلية فى ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله . وهو ماأشار له التنزيل الكريم؛ لأنه المتيقن . وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة فى نفسه وماله وأهله . وأنه صبر على ذلك صبرا صار يضرب به المثل لثباته وسعة صـــدره وشجاعته . وأنه جوزى بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم نسب المسَّ إلى الشيطان ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضى من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه . وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسّه الله به من النصب والعذاب ـ نسبه إليه . وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجميل . انتهى .

الرابع ـ دلّ قوله تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً) الآية ، على تقدم يمين منه عليه السلام . وقد رووا هنا آثارا فى المحلوف عليه ، لم يصح منها شيء . فالله أعلم به ولا ضرورة لبيانه . إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهى الدلالة إلى المخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج . ونحن نورد هنا أمثل ما كتب فى الآية ، إيقافا للقارئ عليه ، قال السيوطىّ فى (الإكليل) : أخرج ابن أبى حاتم من طريق ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم؛ أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثا فيضربها به . فأخذ شماريخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهى لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضا عن عطاء قال : هى للناس عامة . وعن مجاهد قال : كانت لأيوب خاصة قال الكيا الهراسىّ : ذهب الشافعى وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ فى يمينه . وخالف مالك ورآه خاصا بأيوب .

قال : وفى الآية دليل على أن للزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثنى . انتهى .

واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال . إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث . واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ؛ أن رجلا قال له : إنى أردت أن لا أكسى امرأتى ذراعا حتى تقف بعرفة . فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة . فقال : إنما عنيت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثا فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عِبَرٌ . انتهى كلام (الإكليل) .

وقد رد الإمام ابن القيّم فى كتابه (إغاثة اللهفان) الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة . وعبارته: وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ) فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول: إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها

ضربة واحدة لم يبرّ في يمينه، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد. وقال الشافعيّ: إن علم أنها مسته كلها ، برّ في يمينه. وإن علم أنها لم تمسه، لم يبر. وإن شك لم يحنث. ولو كان هذا موجبا لبرّ الحالف ، لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة . وهـذا إنما يجرى في المرض كما قال الإمام أحمد ، في المريض عليه الحدّ ، ويضرب بعثكال يسقط عنه الحد . واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل ، عن سعيد بن سعد بن عبادة[1] قال: كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف ، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمةٍ من إماء الدار يخبث بها . وكان مسلما . فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ . فقال : اضربوه حده ، قالوا : يارسول الله ! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلناه . فقال : خذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة ، وخلوا سبيله .

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق . فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه ، تلتمس له الدواء بما تقدر عليه ، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال ، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك ، فقال : إنه الشيطان . ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة في شأنه ، ولم يكن في شرعهم كفارة . فإنه لو كان في شرعهم كفارة، لعدل إلى التكفير ، ولم يحتج إلى ضربها . فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود . وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة . وامرأة أيوب كانت معذورة ، لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان. فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة المعذورة ، التي لا تستحق العقوبة . فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام، لنص السنة، في شأن الضعيف الذي زنى . فلا يتعدى بهما عن محلهما .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

فإن قيل : فقولوا هـذا فى نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أَمَتَهُ مائة ، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما، إنه يبرّ بجمع ذلك فى ضربها بمائة شمراخ . قيل: قد جعل الله له مخرجا بالكفارة، ويجب عليه أن يكفر يمينه، ويقضى الله بالبر فى يمينه هٰهنا، ولا يحل له أن يبرّ فيها، بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة . ولا يحل له أن يضربها لا مفرقا ولا مجموعا .

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجبا كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل: إما أن يكون العذر مرجوّ الزوال كالحر والبرد الشديد ، والمرض اليسير، فهذا ينتظر زواله. ثم يحدّ الحد الواجب . كما روى مسلم[1] فى صحيحه عن عليّ رضى الله عنه ، أن أمة لرسول الله ﷺ زنت. فأمرنى أن أجلدها . فأتيتها فإذا هى حديثة عهد بنفاس . فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أحسنت . اتركها حتى تماثَلَ . انتهى كلام ابن القيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾

« وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ » أى ذوى القوة فى العبادة والأفكار فى معرفة الله تعالى . قال القاشانىّ : أى العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدى، والثانى إلى البصر والنظر، وهم أرباب الكمالات العملية والنظرية.

قال الشهاب : (الأيدى) مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . و (الأبصار) جمع بصر بمعنى بصيرة . وهو مجاز أيضا ، لكنه مشهور فيه . وإذا أريد بـ (الأيدى) الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب . و (الأبصار) بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من المعارف كالأول أيضا . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لا جارحة له ولا بصر . انتهى .

---

(١) أخرجه فى : ٢٩ ـ كتاب الحدود ، حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾

« إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم » أي صفيناهم عن شوب صفات النفوس وكدورة حظوظا . وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية « بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ » أي الباقيـة والمقر الأصليّ ، أي استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم لعالم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرفين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا وظلماتها أصلا .

لطيفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : (بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ) بالإضافة . وفيها أوجه : أحدها ـ أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان. لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كما في قوله[1] (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) لأن الشهاب يكون قبسا وغيره . الثاني ـ أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدرا مضافا لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أي بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا . وقد جاء المصدر على (فاعلة) كالعاقبة . أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار .

وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة . وفيها أوجـه : أحدها ـ أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون (ذكرى) منصوبا به ، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون (ذكرى) مرفوعا به ، والمصدر يعمل منوّنا كما يعمل مضافا . أو يكون (خالصة) اسم فاعل على بابه . و (ذكرى) بدل أو بيان لها أو منصوب بإضمار (أعني) أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و (الدار) يجوز أن يكون مفعولا به بـ (ذكرى) وأن يكون ظرفا إما على الاتساع وإما على إسقاط الخافض . و (خالصة) إن كانت صفة ، فهي صفة لمحذوف . أي بسبب خصلة خالصة . انتهى .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ)

[٤٨] (وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ)

« وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ » أى المختارين من أبناء جنسهم لقربنا « ٱلْأَخْيَارِ » أى المنزهين عن شوائب الشرور . على أنه جمع (خير) مقابل (شر) الذى هو أفعل تفضيل . أو هو جمع (خيّر) المشدد أو المخفف منه « وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ » أى بالنبوة والرسالة ، للهداية والإصلاح . و (اليسع) خليفة إلياس وكان خادمه . ويقال له بالعبرانية (اليشاع) كما يسمى إلياس فيها (إيليا) ، وفى التوراة نبأ طويل عن اليسع ونبوته ومعجزاته صلوات الله عليه . وتقدم علم أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، فى سورة الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (هَٰذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ)

[٥٠] (جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ)

« هَٰذَا ذِكْرٌ » أى شرف لهم . و (الذكر) يتجوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس ، فتجوّز به عنه بعلاقة اللزوم. فيكون المعنى : أى فى ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزمخشريّ أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن . أى فالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر .

قال الزمخشريّ : لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه ، وهو باب من أبواب التنزيل ، ونوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، قال (هَٰذَا ذِكْرٌ)

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ * جَنَّٰتِ عَدْنٍ » أى إقامة وخلود « مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ » أى متى جاءوها يرونها فى انتظارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)

« مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا » أى على الأرائك « يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ » أى مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ)

« وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى لا ينظرن إلى غير أزواجهن . أو يمنعن طرف الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع (أحور) والثوب المقصور يشبه بالحوارىّ فى بياضه ونصاعته « أَتْرَابٌ » أى متساوية فى السن والرتب ، لا عجوز بينهن . جمع (ترب) بكسر فسكون . وهو من يولد معه فى وقت واحد . كأنهما وقعا على التراب فى زمان واحـــد . فـ (ترب) فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وكمثل بمعنى ، مماثل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ)

« هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ » أى لوقت جزائه . واللام تمليلية . فإن ما وعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة . وهى تظهر بالحساب وتقع بعده . فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه . فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جعلت اللام بمعنى (بعـــد) كما فى (كتب لخمس) سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ)

« إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ » أى انقطاع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (هَـٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ)

[٥٦] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ)

« هَـٰذَا » أى باب فى وصف الجنة وأهلها . فهو مبتدأ خبر مقدر . أو الأمر هذا . فهو خبر لمحذوف . أو مفعول لمحذوف « وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » أى الفراش . مستعار من فراش النائم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ)

« هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » وهو ما يغسق من صديد أهل النار . أى يسيل . وجملة (فَلْيَذُوقُوهُ) معترضة بين المبتدأ وخبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ)

« وَءَاخَرُ » أى ومذوق ، أو عذاب آخر « « مِن شَكْلِهِۦٓ » أى مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والهوان « أَزْوَٰجٌ » أى أجناس وأصناف . ثم بيّن ما يقال للرؤساء الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ، لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ)

« هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ » أى هــذا جمع كثيف من أتباعكم وأشباهكم ، أهل طبائع السوء والرذائل المختلفة ، مقتحم معكم فى مضايق المذلة ومداخل الهوان . والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها . وقوله « لَا مَرْحَبًا بِهِمْ » دعاء من الرؤساء على أتباعهم . أوصفة لـ(فوج) . أو حال. أى مقولا فيهم (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ) أى ماأتوا رحبا وسعة، لشدةعذابهم وكونهم فى الضيق والضنك، واستيحاش بعضهم من بعض، لقبح المناظر وسوء المخابر « إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ » أى داخلوها بأعمالهم مثلنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ، أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ)

« قَالُوا۟ » أى الأتباع للرؤساء « بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » أى بل أنتم أحق بما قلتم، لتضاعف عذابكم بضلالكم وإضلالكم « أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا » أى قدمتم العــذاب بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشانىّ : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال وقد تكون بلسان الحال. أى لأن الوضع لا يختص بالحقيقة. إلا أن الأظهر الأول. ويؤيده قوله تعالى بعدُ (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ) « فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ » أى المستقر جهنم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦١] (قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ)

«قَالُوا۟ » أى الأتباع أيضا « رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ » كقوله[١] تعالى (رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ) .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ)

« وَقَالُواْ » أى الطاغون أو الأتباع « مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ » يعنون فقراء المسلمين الذى يسترذلونهم ويسخرون بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ)

« أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا » قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة ا (رجالا) . وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم . وقوله تعالى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى مالت عنهم كبرا ، وتنحّت عنهم أنفةً . والمعنى أىّ الفعلين فعلنا بهـــم ، السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنـكار الأمرين على أنفسهم ، تحسرا وندامة على مافعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب ، وقيل (أم) بمعنى (بل) أى بل زاغت عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا فى النار . كأنهم يسلّون أنفسهم بالمحال ، يقولون: أو لعلهم معنا فى جهنم ولـكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل(١) (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، قَالُواْ نَعَمْ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ) إلى قوله(٢) (ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ) الآية. وقيل : (أم) بمعنى (بل) أيضا، أى بل زاغت عنهـــم أبصارنا لـكونهم فى دار أخرى وهى دار النعيم . وقرئ (سُخْرِيًّا) بضم السين وكسرها .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ)

« إِنَّ ذَٰلِكَ » أى الذى حكى عنهم « لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ » أى لواقع وثابت . و (تَخَاصُمُ) بدل من (حَقٌّ) أو خبر لمحذوف . وقرئ بالنصب على البدل من (ذَٰلِكَ) قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب ، بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك. ولأن قول الرؤساء (لَامَرْحَبًا بِهِمْ) وقول أتباعهم (بَلْ أَنتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ) من باب الخصومة . فسمى التقاول كله تخاصما ، لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الناصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله (لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ) من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى (بَلْ أَنتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ) من قول الأتباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافا لمن قال إن الأول من كلام خزنة جهنم والثانى من كلام الأتباع . فإنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ » أى رسول مخوف « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ » أى بلاولد ولا شريك « ٱلْقَهَّارُ » أى الغالب على خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ)

« رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » أى من الخلق والعجائب « ٱلْعَزِيزُ » أى الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة « ٱلْغَفَّٰرُ » أى لمن تاب وأناب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ)

« قُلْ هُوَ » أى الذى أنذرتكم به من التوحيد ومن البعثة به « نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)

« أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » لتمادى غفلتكم . فإن العاقل لا يعرض عن مثله . كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة . أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع. وأما على بعثته ﷺ به ، فقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى فإن إخباره عن محاورة الملائكة وما جرى بينهم ، على ما ورد فى الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحى .

قال القاشانىّ : وفرق بين اختصام الملإ الأعلى واختصام أهل النار بقوله فى تخاصم أهل النار (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ) وفى اختصام الملإ الأعلى (إِذْ يَخْتَصِمُونَ) لأن ذلك حقيقىّ لا ينتهى إلى الوفاق أبداً . وهذا عارضىّ نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذى هو فوق كمالاتهم . وانتهى إلى الوفاق عند قولهم(١) (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) وقوله تعالى(٢) (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) على ما ذكر فى البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٣] .

وبالجملة، فالاختصام المذكور فى الآية، هو المشار إليه فى قوله تعالى[1] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) قال الرازىّ: وهو أحسن ما قيل فيه.

ثم قال: ولو قيل: كيف جازت مخاصمة الملائكة معه تعالى؟ قلنا: لاشك أنه جرى هناك سؤال وجواب. وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة. والمشابهة علة لجواز المجاز. فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه. انتهى.

وملخصه: أن (يَخْتَصِمُونَ) استعارة تبعية لـ (يتقاولون). وقيل: معنى الآية نفى علم الغيب عنه ﷺ وردّ اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث فى الملأ الأعلى من التخاصم، كقوله تعالى[2] (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ) وقوله[3] (قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ولذا قال بعد:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٠] (إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

«إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» وقُرِئ (إِنَّمَا) بالكسر على الحكاية.

تنبيهات:

الأول ـ قال الرازىّ: واعلم أن قوله (أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) ترغيب فى النظر والاستدلال، ومنع من التقليد. لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق، يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل، وقع فى أعظم أبواب الشقاوة. فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية. وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام، وأن لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة.

الثانى ـ قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصام بالتقاول فى شأن آدم عليه السلام

(١) [٢ / البقرة / ٣٠]. (٢) [٦ / الأنعام / ٥٠]. (٣) [٦٧ / الملك / ٢٦].

مع الملائكة . وقيل : مخاصمتهم مناظرتهم بينهم في استنباط العلم . كما تجرى المناظرة بين أهل العلم في الأرض . حكاه الكرمانى في (عجائبه) .

وذهب ابن كثير إلى أنه عنى به ما كان في شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد[1] (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) تفسير له . ولم أره مأثورا عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس وغيره ما تقدم ، من أنه في شأن آدم والملائكة . وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحى . بتقدير (ما كان لى من علم لولا الوحى) ولا تنس القول الآخر . والنظم الكريم يصدق على الكل بلا تناف . والله أعلم .

وقد جاء ذكر تخاصم الملإ الأعلى في حديث أخرجه الإمام أحمد [2] عن معاذ رضى الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح . حتى كدنا أن نتراءى قرن الشمس . فخرج ﷺ سريعا . فثوّب بالصلاة . فصلى وتجوز في صلاته . فلما سلّم قال ﷺ : كما أنتم . ثم أقبل إلينا فقال : إنى قمت من الليل فصليت ما قدّر لى . فنعست في صلاتى حتى استيقظت . فإذا أنا بربى عز وجل في أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى ، يارب ! أعادها ثلاثا . فرأيته وضع كفه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين صدرى . فتجلى لى كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفرلى وترحمنى . وإذا أردت

---

(١) [٢ البقرة / ٣٠] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

فتنةً بقوم، فتوفنى غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك.
وقال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها وتعلموها .

قال ابن كثير : هذا حديث المنام المشهور . ومن جعله يقظة فقد غلط . وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذىّ(1) من حديث جهضم بن عبدالله اليمامىّ به ، وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصام المذكور فى القرآن . فإن هـذا قد فسّر . وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ)

[٧٢] (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ » أى نخرّوا له ساجدين تعظيما وتكريما ، إذا عدلت خلقته وأحييته بنفخ الروح فيه . (فإذا) بدل من (إذ) الأولى مفصل لما أجمل قبلها من الاختصام ، وهذا ما رآه الزمخشرىّ وتابعه ابن كثير . وقدّر أبو البقاء (اذكر) وهو الأظهر عندى ، ويعضده القول الثانى فى الآية المتقدمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)

[٧٤] (إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ » أى تعظم

(1) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة ص ، ٤ ـ حدثنا محمد بن بشار .

« وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ » أى باستكباره أمرَ الله تعالى ، واستكباره عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ)

« قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » أى بنفسى من غير توسط ، كأب وأم «أَسْتَكْبَرْتَ» أى : أعرض لك التكبر والاستنكاف «أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ» أى عليه زائداً فى المرتبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ)

« قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ » يعنى أن الروح الحيوانىّ النارىّ أشرف من المادة الكثيفة البدنية . وغاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلٰهية، واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى اللهَ تعالى فى السجود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)

« قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا » أى من الجنة أو السماء « فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » أى مطرود من الرحمة ومحل الكرامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ)

« وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ » قال القاشانىّ : الرجيم واللعين مَنْ بَعُدَ عن

الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانغماس فى الغواشى الطبيعية ، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية . ولهذا وقّت اللعن بيوم الدين . وحدد نهايته به ، لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البـدن ومواده . وحينئذ لا يبقى تسلطه على الإنسان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[٨٠] ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

[٨١] ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

[٨٢] ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[٨٣] ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

« قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ » وهو القيامة الكبرى « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ » وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصفّى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾

« قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ » جملة معترضة ، للتأكيد ، أى ولا أقول إلا الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٨٦] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ)

« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » أى تبعك فى التعزز والاستكبار والإباء عن الحق والمحاجة فى الباطل « قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ » أى على القرآن أو الوحى . قال القاشانىّ : أى لا غرض لى فى ذلك . فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلولة بالغرض « وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ » قال الزمخشرىّ : أى المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعيا ما ليس عندى ، حتى أنتحل النبوة وأدّعى القرآن .

تنبيه :

فى الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان[1] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ[2] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ)

[٨٨] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ)

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٨ ـ سورة صٓ ، ٣ ـ باب وما أنا من المتكلفين ، حديث ٥٧٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ و ٤٠ (طبعتنا) .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٨٦] .

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أي عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله[1] (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ) وقوله سبحانه[2] (وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ) « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ » أي عند ظهور الإسلام وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهـذا من أجلّ معجزات القرآن ، لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها ، إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين . فلم يمض ردح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوّة، وخوفهم أمناً، وكمونهم ظهورا وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيّه الـكريم ، وحقت كلمة الله على الـكافرين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] . (٢) [١١ / هود / ١٧] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٩ – سورة الزمر

سميت بها لاشتمالها على الآية التي ذكر فيها زمر الفريقين ، المشيرة إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة . وهـذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايمي . وهي مكية ، واستثنى بعضهم ثلاث آيات[١] (قُلْ يَـٰعِبَادِيَ) الخ ذهابا إلى أنها نزلت في وحشيّ قاتل حمزة على ماروى . قيل، ورابعة وهي[٢] (ٱللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ) حكاه ابن الجوزيّ، وتقدم الـكلام في مثل هذا . وآياتها خمس وسبعون .

أخرج النسائيّ[٣] عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم .

وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٥٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

(٣) أخرجه في : ٢٢ ـ كتاب الصيام، ٣٤ ـ باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

« تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ » أى هذا تنزيل . أو تنزيله كائن من الله. وقرئ (تَنزِيلَ) بالنصب على إضمار فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ » أى عن شوب الشرك والرياء ، بإمحاض التوحيد وتصفية السر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ، وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ)

« أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ » أى الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة ، لانفراده بالألوهية « وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى بالمحبة ، للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ » أى يقولون ذلك احتجاجا على ضلالهم « إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلا منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود . ويدخل المبطل النار

مع المبطلين ، كما يدخل المحق الجنة مع المحقين «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ» لا يوصله إلى النجاة ومقرّ الأبرار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، سُبْحَٰنَهُۥ ، هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ)

« لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ » أى نزهه عن المماثلة والمجانسة ، واصطفاء الولد . لكون الوحدة لازمة لذاته ، وقهره بوحدانيته لغيره . فلا تماثل فى الوجود ، فكيف فى الوجوب ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ)

[٦] (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ » أى بإذهاب أحدهما وتغشية الآخر مكانه . كأنما ألبسه ولفّ عليه «وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته « أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا » أى من نفسها ونوعها

« زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ » أى ذكراً وأنثى . من الإبل والبقر والضأن والمعز « يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ » أى متقلبين فى أطوار الخلقة « فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ » يعنى البطن والرحم والمشيمة « ذَٰلِكُمُ » أى الخالق لصوركم ، المكوّر أى المصرف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشىء للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته « ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » أى عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ، وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

« إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ » أى عن إيمانكم « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ » أى لأنه سبب هلاكهم « وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ » أى وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ، لأنه دينه . ويثيبكم ثوابا حسنا لطاعتكم .

تنبيه :

فى الإكليل : استدل بقوله تعالى (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) على أنه تعالى لا يرضى الكفر والمعاصى . وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولى أهل السنة . والقول الثانى وحكاه الآمدىّ عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سيان ، وحملوا (العباد) فى الآية على المخلصين. « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تحمل حاملة حمل أخرى ، أى ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، بل كلٌّ مأخوذ بذنبه « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ » أى بعد الموت « فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بما فى القلوب من الخير والشر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ)

[٩] (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ)

«وَإِذَا مَسَّ» أى أصاب «ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ» أى شدة وبلاء «دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ» أى ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلا إليه بالدعاء والتضرع «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ» أى أعطاه «نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ» أى نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه . فـ (ما) بمعنى (من) أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفىّ ، ولما فى (ما) من الإبهام والتفخيم ، «وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ» أى يصد الناس عن دينه وطاعته «قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ» أى عش به «قَلِيلًا» أى يسيراً فى الدنيا «إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ * أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا» أى متعبداً فى ساعاته يقطعها فى السجود والقيام «يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ» أى عقابها «وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ» أى جنته ورضوانه ، أى : أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد الناسى لربه ؟ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ» أى توحيده وأمره ونهيه فى الثواب والطاعة «وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» أى لا يستويان .

تنبيهات :

الأول ـ فى الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : آناء الليل: جوف الليل. وقال الحسن : ساعاته أوله ووسطه وآخره .

الثانى ـ فى قوله تعالى (يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ) ردّ على من ذمّ العبادة خوفا من النار أو رجاء الجنة . وقال ﷺ(١) (حولها ندندن) .

الثالث ـ فى قوله تعالى (هَلْ يَسْتَوِى) الآية مدح العلم ورفعة قدره . وذمّ الجهل ونقصه. وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم، أفاده فى (الإكليل) .

وفى الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولا بـ(القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العامل كأن ليس بعالم .

قال القاشانىّ : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذى رسخ فى القلب وتأصل بعروقه فى النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم، فظهر أثره فى الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم فى حيز التخيل، بحيث يمكن ذهول النفس عنه وعن مقتضاه ، فليس بعلم . إنما هو أمر تصورىّ وتخيل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعا ، لا يغذو القلب ولا يسمن ولا يغنى من جوع « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ » أى يتعظ بهذا الذكر « أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ » أى العقول الصافية عن قشر التخيّل والوهم، لتحققها بالعلم الراسخ الذى يتأثر به الظاهر . وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى: ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٢٤ ـ باب فى تخفيف الصلاة، حديث رقم ٧٩٢ ، عن بعض أصحاب النبىّ ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ » أى للذين أحسنوا بالطاعات فى الدنيا ، مثوبة حسنة فى الآخرة ، لا يكتنه كنهها « وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ » أى بلاده كثيرة . فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان فى وطنه ، فليهاجر إلى حيث يتمكن منه . قال الشهاب : وجه إفادة هذا التركيب هذه المعانى الكثيرة ، أوضحه شراح الكشاف بأن قوله (للذين أحسنوا) مستأنف لتعليل الأمر بالتقوى ، ولذا قيد بالظرف . لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فينبغى أن يلقى فى حرثها بذر المثوبات . وعقب بهذه الجملة لئلا يعتذر عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويتعلل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثا على اغتنام فرصة الأعمار ، وترك مايعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكلُّها بلادِى وكُلُّ العالَمين أَقَارِبى

انتهى . « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ » أى على مشاقّ الطاعة من احتمال البلاء ، ومهاجرة الأوطان لها « أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير مكيال . تمثيل للكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ)

« قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ » أى عن الالتفات إلى غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

« وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ » أى وأمرت بذلك ، لأجل أن أكون مقدمهم

فى الدنيا والآخرة . لأن إخلاصه عليه الصلاة والسلام أتمّ من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية فى الشرف والرتبة . أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية على ظاهرها . ويجوز أن تجعل اللام مزيدة. كما فى (أردت لأن أفعل) فيكون أمرا بالتقدم فى الإخلاص .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٤] (قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى)

« قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى » أى بترك الإخلاص له « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ » أى أخصه بالعبادة « مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى » عن شوب الغير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ، قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ)

« فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى أهلكوا أنفسهم بالضلال ، وأهليهم بالإضلال . أو خسروا أنفسهم بالهلاك وأهليهم به أيضا ، إن كانوا مثلهم، أو بفقدهم فقداً لا اجتماع بعده، إن كانوا من أهل الجنة « أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ، يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ)

« لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » أى أطباق من النار « ذَٰلِكَ »

أى العذاب المتوعد به « يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ » أى بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشريّ : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ، فَبَشِّرْ عِبَادِ)

[١٨] (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)

[١٩] (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ)

« وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا » يعنى الأوثان . و (فعلوت) للمبالغة « وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ » أى بالثواب « فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ » أى إيثارًا للأفضل واهتماما بالأكمل . قال الزمخشريّ: أرادأن يكونوا نقادا فى الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل . ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأبينها دليلا وأمارة . وأن لا تكون فى مذهبك كما قال القائل(١):

* ولا تَكن مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا *

يريد المقلد . انتهى . ويدخل تحته أيضا إيثار الأفضل من كل نوعين، اعترضا . كالواجب مع الندب . والعفو مع القصاص . والإخفاء مع الإبداء فى الصدقة ، وهكذا « أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ » أى أفأنت تنقذه منها ؟ أى : لا يمكن إنقاذه أصلًا .

(١) صدره كما فى الشواهد : * شَمِّرْ وكن فى أمورِ الدِّينِ مجتهدا *

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ، وَعْدَ ٱللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ)

[٢١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ)

« لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ » أى يتم جفافه « فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا » أى فتاتاً « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ » أى لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لابد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلا للدنيا كقوله تعالى[١] (إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) [٢](وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) أفاده الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ، أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ » أى وسعه لتسليم الوجه إليه وحده، ولقبول دينه وشرعه بلطفه وعنايته وإمداده سبحانه « فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ » أى على بينة ومعرفة،

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] .　　(٢) [١٨ / الكهف / ٤٥] .

واهتداء إلى الحق . واستعارةُ النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لضد ذلك . وخبر (من) محذوف دلّ عليه قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّـهِ » أى من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن الكمالات القدسية. أو من أجل ذكره . فـ(من) للتعليل والسببية . وفيها معنى الابتداء لنشئها عنه. قال الشهاب : إذا (قيل قسا منه) فالمراد أنه سبب لقسوةٍ نشأت منه . وإذا قيل (قسا عنه) فالمعنى أن قسوته جعلته متباعدا عن قبوله. وبهما ورد استعماله . وقد قرئ بـ(عن) فى الشواذ. لكن الأول أبلغ . لأن قسوة القلب تقتضى عدم ذكر الله. وهو معناه إذا تعدى بـ (عن) . وذكره تعالى مما يلين القلوب ، فكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذى جعل سبب الرقة ، سبباً لقسوته « أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » أى عن طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ)

« ٱللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا » أى يشبه بعضه بعضا ، فى الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ووجوه الإعجاز « مَّثَانِىَ » جمع (مُثَنًّى) بمعنى مردّد ومكرر ، لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » تمثيل لإفراط خشيتهم . أو حقيقة لتأثرهم عند سماع آياته وحكمه ووعيده ، بما يردعلى قلوبهم منها «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّـهِ » أى بالانقياد والطاعة والسكينة لأمره « ذَٰلِكَ » أى الكتاب، أوالكائن من الخشية والرجاء«هُدَى ٱللَّـهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ» أى من زاغ قلبه « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ، وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

« أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أى قائما مقامها فى أنه أول مايمسه المؤلم له . لأن مايتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ، لأنه أعز أعضائه . وقيل : الاتقاء بالوجه كناية عن عدم مايتقى به ، لأن الوجه لايتّقى به . وخبر (من) محذوف كنظائره . أى : كمن أمن العذاب « وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » أى : وباله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)

« كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » أى لا يحتسبون أن الشر يأتيهم منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى الذل والصغار « وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى بيّنا لهم فى هذا القرآن ، الذى هو دليل فى نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه .

من يستدل بنظره على حقيته وأحقيته « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى به مايهمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم ، فيفسروا المعقول بالمحسوس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ » أى مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف « لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى العذاب والخزى يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجلّ تلك الأمثال ، ما مثل به ليتقى من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا » أى للمشرك والموحد رجلين مملوكين « رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ » أى سيئو الأخلاق ، يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المختلفة ، لايزال متحيراً متوزع القلب ، لايدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجته « وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ » أى : خلص ملكه له ، لايتجه إلا إلى جهته . ولا يسير إلا لخدمته، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع « هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا » أى : صفة وحالًا . أى فى حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى . لايزال متحيراً خائفاً لايدرى أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحدا . فهمّه واحد . ومقصده واحد . ناعم البال . خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام[1] (ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

ٱلْقَهَّارُ) « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » قال أبوالسعود : تقرير لماقبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى. وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء، صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته. وقوله تعالى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره . فيبقون فى ورطة الشرك والضلال . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » تمهيدلما يعقبه من الاختصام يوم القيامة . وقرئ (مائت ومائتون) وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته . أى إنكم جميعاً بصدد الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

« ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ » أى مالك أموركم « تَخْتَصِمُونَ » أى فتحتج أنت عليهم بأنك بلّغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات . واجتهدت فى الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجّوا فى المكابرة والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ » أي افترى عليه بنسبة الشريك والولد « وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ » أي بالأمر الذي هو عين الحق « إِذْ جَآءَهُۥٓ » أي حضر عنده دليله وبرهانه ، فرفضه ورده على قائله . أي لا أحد من المتخاصمين أظلم ممن حاله ذلك . لأنه أظلم من كل ظالم « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ » أي لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ)

« وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ » أي جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يعتقد بشبهة تقابله ، يعني النبيّ ﷺ ومن تبعه « أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » أي الموصوفون بالتقوى التي هي أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ)

[٣٥] (لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٣٦] (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ)

[٣٧] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ، أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ)

« لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ » أي الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها « لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى

كَانُواْ يَعْمَلُونَ* أَلَيْسَ ٱللَّـهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ » أى نبيّه ﷺ أن يعصمه من كل سوء، ويدفع عنــه كل بلاء فى مواطن الخوف « وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ » يعنى الأوثان التى عبدوها من دونه تعالى . وهــذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها لعيبك إياها. كما قال قوم هود(١) (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ) « وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ » أى من غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلًا « فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ*وَمَن يَهْدِ ٱللَّـهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ » أى يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه . إذ لا راد لفضله ولا معقب لحـكمه « أَلَيْسَ ٱللَّـهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ » أى ينتقم من أعدائه لأوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ، قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّـهُ » لمــا تقرر فى الفطر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليــه « قُلْ » أى تبـكيتا لهم « أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّـهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ » أى نفعه وخيره . كلا . فإنها لا تضر ولا تنفع « قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّـهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » أى فى جميع أمورهم ، لا على غيره . لعلمهم بأن كل ماسواه تحت قهره .

(١) [١١ / هود / ٥٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٤٠] (مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)

« قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالتكم التى أنتم عليها ، من العداوة ومناصبة الحق « إِنِّى عَـٰمِلٌ » أى على مكانتى. فحذف للاختصار، والمبالغة فى الوعيد، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأييده . ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم فى الدارين ، بقوله تعالى « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى دائم. وقد أخزاهم الله يوم بدر[1] (وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ » أى لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه وافتقارهم إلى بيان مراشدهم « فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ » أى بدلائله « فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ » أى لتجبرهم على الهدى . إذ ما عليك إلا البلاغ[2] (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(١) [٢٠ / طه / ١٢٧] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٤] .

« ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » أى مفارقتها لأبدانها ، بإبطال تصرفها فيها بالكلية « وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا » أى ويتوفى التى لم يحن موتها فى منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة « فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ » أى فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة «وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وهو نوم آخر أوموت «إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين « لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفيها عنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ، قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ)

[٤٤] (قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا، لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٤٥] (وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

«أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ* قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا » أى هو مالكها لايستطيع أحد شفاعةً ما، إلاأن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذونا له ، وكلاهما مفقود ههنا « لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ » أى دون آلهتهم « ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ » أى فرادى، أو مع ذكر الله تعالى « إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى يفرحون بذلك . لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى. ولقد بولغ فى الأمرين حيث بيّن الغاية فيهما. فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه . والاشمئزاز أن يمتلىء غما حتى ينقبض أديم وجهه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

« قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى التجىء إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم . والمقصود بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم . وأن جدّه وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى. وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء بأسمائه الحسنى ، والاستعانة بالتضرّع والابتهال على دفع كيد العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾

[٤٨] ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

«وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ* وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى نزل بهم جزاؤه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[٥٠] ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

« فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ » أى منى بوجوه الكسب والتحصيل « بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ » أى ابتلاء له ، أيشكر تلك النعمة، فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى كما قال قارون[1] (إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ) « فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » أى فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ، وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)

[٥٢] (أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته فى ذلك ـ كما قال المهايمى ـ أنه تعالى قوى بذاته ، له تقوية من يشاء وتضعيف من يشاء . ومنها أنه فيّاض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب وواسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

(١) [٢٨ / القصص / ٧٨] .

[٥٤] ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

[٥٥] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

[٥٦] ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾

« قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أي جنَوْا عليها بالإسراف في المعاصي والكفر « لَا تَقْنَطُواْ » قرئ بفتح النون وكسرها « مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ » أي لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف « إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا » أي لمن تاب وآمن . فإن الإسلام يجبّ ما قبله « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أي توبوا إليه « وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ » أي استسلموا وانقادوا له . وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه « مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ » أي قصرت « فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ » أي في جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل « وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ » أي المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و (أَن تَقُولَ) مفعول له بتقدير مضاف . أي : فتداركوا كراهة أن تقول . أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله . أي أنذركم وآمركم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله في شروح (الكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ)

« أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي » أى للإسلام « لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ » أى : من هذا الكفر . أى تقول هذا النوع من التحسر والتعلل بما لا يجدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً » أى رجعة إلى الدنيا « فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى فى الإيمان والعمل الصالح . ثم ردّ تعالى على تلك النفس بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)

[٦٠] (وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)

« بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ » أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد والشريك ، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم « وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » أى لما ينالهم من الشدة التى تغير ألوانهم . فالسواد حقيقىّ . أو لما يلحقهم من الكآبة، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسانية فى ذواتهم . فالسواد مجاز بالاستعارة « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » أى عن الإيمان والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[٦٢] (ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ)

«وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ» أى بفوزهم وفلاحهم لإتيانهم بأسباب الفوز، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة «لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ» أى يتولى التصرف فيه كيف شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

[٦٤] (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ)

[٦٥] (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ)

[٦٦] (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ)

«لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أى هو وحده يملك أمرها وخزائن غيوبها وأبواب خيرها وبركتها «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ» أى خصّه بالعبادة «وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ» أى الصارفين ما أنعم به عليهم، إلى ما خلق لأجله .

فإن قيل : كان الظاهر (لو أشركت) لأن (أن) تقتضى احتمال الوقوع . وهو هنا

مقطوع بعدمه . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية قبح الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلة للعمل مطلقا، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيدا بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو الحبط في الحقيقة . وأنه إنما ترك التقييد به اعتمادا على التصريح به في آية أخرى ، وهي قوله تعالى[1] (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ، سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أي ماقدروا عظمته تعالى حق عظمته، ولا عرفوا جلاله حق معرفته . حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة. مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام. فإن تبديل الأرض غير الأرض، وطيّ السموات كطي السجل ، أهون شيء عليه . وفي (القبضة واليمين) مذهبان معروفان. مذهب السلف، وهو إثبات ذلك من غير تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل . يجرون على الظاهر ويكلون علمه إليه تعالى ويقرون بأن تأويله (أي ما يؤول إليه من حقيقته) لايعلمه إلا الله . وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢١٧] .

المذهب الثانى ـ القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره فى كلام العرب. وإن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز فى المفردات، استعيرت (القبضة) للملك أو التصرف و(اليمين) للقدرة . وذاهب إلى أنه فى المركب ، بتمثيل حال عظمته ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السموات . وهذا ما عول عليه الزمخشرىّ وبسطه أحسن بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى، أنه جعل النفخ فى الصور سبب موت الكل تارة، وحياتهم أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ)

« وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ » أى هلك « مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ » أى من خواص الملائكة. أو من الشهداء. روى ذلك عن بعض التابعين. وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صارت ثُنْيَتُهُ . وهذا هو الوجه . إذ لا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ» أى وقوف ، يقلّبون أبصارهم دهشا وحيرة . أو ينتظرون ما يحل بهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » أى لأنه يتجلّى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء « وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ » أى عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرأ كل واحد عمله فى صحيفته.

أو (ٱلْكِتَـٰبُ) مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه. أو هو تمثيل. وجوه نقلها الشهاب «وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ» أى الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الحفظة والأخيار المطلعين على أحوالهم. أى أحضروا للشهادة لهم أو عليهم لاطّلاعهم على أحوالهم . وجوّز إرادة المستشهدين فى سبيل الله تعالى، تنويهاً بشأنهم ، وترفيعاً لقدرهم ، بضمهم إلى النبيين فى الموقف . ولا يبعد « وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفّون جزاء أعمالهم ، لاينقص منها شىء ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

[٧١] (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ، قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

[٧٢] (قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

[٧٣] (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ)

« وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا » أى أفواجا متفرقة بعضها فى أثر بعض، على تفاوت ضلالهم وغيهم، رعاية للعدل فى التقديم والتأخير «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا» أى ليدخلوها، ولكل فريق باب

« وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ » أى الموكلون بتعذيبهم «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» أى من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم « يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» أى وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم « قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ » أى وجبت « كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » أى حكمه عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار « قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ *وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ » أىْ مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة « زُمَرًا » أى متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » أى من دنس المعاصى، وطهرتم من خبث الخطايا « فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ » قال السمين : فى جواب (إِذَا) ثلاثة أوجه: أحدها ـ قوله (وَفُتِحَتْ) والواو زائدة . وهو رأى الكوفيين والأخفش . وإنما جيء هنا بالواو دون التى قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه . فناسب ذلك عدم الواو فيها . بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها . والثانى ـ أن الجواب قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) على زيادة الواو أيضا. الثالث ـ أن الجواب محذوف. قال الزمخشرى : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أى لأنه يجئ بعد متعلقات الشرط ماعطف عليه . والتقدير : اطمأنوا . وقدره المبرد : سعدوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله (وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) فى محل نصب على الحال ، والواو واو الحال . أى جاءوها مفتحة أبوابها. كما صرح بمفتحة حالا من (جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ) وهو قول المبرد والفارسىّ وجماعة . وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية. لأن أبواب الجنة ثمانية . وردّه فى (المغنى) بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تكن الآية منها . إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب. وهى جمع لا يدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلة عليه ، بل على جملة هو فيها . انتهى .

أى وهى ـ على قول مثبتها ـ الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد. ذهابا إلى أن بعض

العرب إذا عدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذانا بأن السبعة عدد تامّ ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ)

[٧٥] (وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ » أى بإيصالنا إلى ما وعدنا وأنبأنا عنه على ألسنة رسله « وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ » أى أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم من آبائهم . فكأن الأعمال آباؤهم . كما قيل : * وأبى الإسلامُ لا أَبَ لِي سِوَاهُ * وكما يقال (الصدق يورث النجاة) « نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ » أى يتبوأ كل من جنته الواسعة ، أىّ مكان أراده « فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ » أى الذين عملوا بما علموا « وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ » أى الملائكة السماوية حافين فى جنة الفردوس حول عرش الرحمن ، محدقين به . وتقدم فى تفسير آية[1] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فتذكره « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم » أى بين الخلائق « بِٱلْحَقِّ » أى بالعدل « وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى على ماقضى بينهم بالحق ، وأنزل كلا منزلته التى هى حقه . والقائل : إما الحق جل جلاله ، أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضى بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) فقال (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ) وختم بالحمد فقال (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٠ - سورة غافر

وسميت (المؤمن) قال المهايمىّ : سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون ، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها ، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه . وعما أخذوا به ، وهى من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة غافر وسورة الطَّول . وهى مكية وآيها ثمانون وخمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » الكلام فى مفتتح هذه السورة وتاليه ، كالذى سلف فى (الم السجدة) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)

[٤] (مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ)

« غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ » أى المن والفضل « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى المرجع والجزاء « مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ما يخاصم فى حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده . قال الزمخشريّ : سجل على المجادلين فى آيات الله بالكفر . والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله(١) (وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ » فأما الجدال فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم فى استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقوله ﷺ(٢) (جدال فى القرآن كفر) وإيراده منكرا ، تمييز

(١) [٤٠ / غافر / ٥] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٧٤٩٩ (طبعة المعارف) .

منه بين جدال وجدال . انتهى « فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ » أى للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فمآلهم إلى الزوال والنفاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ » أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم « مِنۢ بَعْدِهِمْ » أى من بعد سماع أخبارهم ومشاهدة آثارهم « وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ » أى ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . من (الأخذ) بمعنى الأسر . والأخيذ الأسير « وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ » أى قابلوا حجج الرسل بالباطل من جدالهم « لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ » أى ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة . لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه . لما أنه الثابت فى نفسه المتقرر بذاته « فَأَخَذْتُهُمْ » أى بالعذاب الدنيوىّ المعروف أخباره ، المشهود آثاره « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى فى هذه الدار . فيعتبر به عقاب تلك الدار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ)

« وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ » قال[1] ابن جرير : أى وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، التى قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها ، وحل بها عقابى . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله . لأنهم أصحاب النار . ثم نوّه بالمؤمنين ، وبما أعدّ لهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[٨] (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٩] (وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ، وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[١٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ)

«ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ» أى من الملائكة. وقد سبق فى تفسير آية[1] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فى الأعراف ، كلام فى حملة العرش ، فراجعه «وَمَنْ حَوْلَهُۥ» يعنى الملائكة المقرّبين « يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ » أى: ويقرّون بأنه لا إله لهم سواه. ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته . وفائدة التصريح بإيمانهم، مع جلائه، هو إظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين. حسبما ينطق به قوله تعالى « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » فإن المشاركة فى الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعى إلى النصح والشفقة . وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم ، إيذان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

فى موقع القبول « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا « وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً » أى شملت رحمتك وأحاط بالكل علمك « فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى صراطك المستقيم بمتابعة نبيّك فى الأقوال والأعمال والأحوال « وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى عمل صالحاً منهم ، ليتم سرورهم بهم « إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ » أى : عقوبتها وجزاءها « وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ » أى : لَبُغْضُهُ الشديد لكم ، أعظم من بغض بعضكم لبعض . وتبرؤ كل من الآخر ولعنه حين تعذبون كما قال تعالى(١) (يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم . فقد يمقتون أنفسهم حين تظهر لهم هيآتها المظلمة وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش وقبح المنظر المنفر « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » أى تدعون على ألسنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتوًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)

« قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » أى أنشأتنا أمواتا مرتين . وأحييتنا فى النشأتين كما قال تعالى(٢) (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) قال قتادة : كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله فى الدنيا . ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها . ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان « فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا » أى : فأقررنا

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٨] .

بما عملنا من الذنوب فى الدنيا . وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع المحيص عنه « فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ » أى : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل. قال الزمخشرىّ: وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط. وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ، وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ، فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ)

[١٣] (هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)

« ذَٰلِكُم » أى ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب، وأن لا سبيل إلى خروج قط « بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ » أى بسبب إنكاركم أن الألوهة له خالصة ، وقولكم[1] (أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا) وإيمانكم بالشرك « فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ » أى فالقضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوّه وكبريائه . فلا يمكن أحدا ردّ حكمه وعقابه « هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ » أى من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها « وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا » أى مطرا. وإفراده بالذكر من بين الآيات، لعظم نفعه، وتسبب حياة كل شىء عنه « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ » أى. وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

---

(١) [٣٨ / ص / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ)

[١٥] (رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ)

« فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى فاعبدوه مخلصين له الدين، عن شوب الشرك « وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ » أى غاظهم ذلك « رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ » أى رفيع درجات عرشه كقوله[1] (ذِى ٱلْمَعَارِجِ) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهى دليل على عزته وملكوته . أو هو عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه وكمالاته ، غير المتناهية «ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ» أى الوحى والعلم اللدنّى الذى تحيا به القلوب الميتة «مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ » أى أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة « لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ» أى يوم القيامة الكبرى ، الذى يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ، لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ)

[١٧] (ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)

« يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ » أى من قبورهم . أو ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو بناء «لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ» أى من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم. وقوله « لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » ينادى به الحق سبحانه ، عند فناء الكل . أو وقت التلاقى والبروز . فيجيب هو

(١) [٧٠ / المعارج / ٣] .

وحده « لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ » أى المتفرد بالملك « ٱلْقَهَّارِ » أى الذى قهر بالغلبة كل ما سواه « ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » أى بإيصال ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ، مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

« وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ » أى الواقعة القريبة « إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ » أى من أهواله ترتفع القلوب عن مقارّها ، فتصير لدى الحلوق « كَٰظِمِينَ » أى ممتلئين غمّا ، بما أفرطوا من الظلم « مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ » أى قريب يهتمّ لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم « وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » أى من يشفع فى تخفيفها عنهم . إذ لا تقبل شفاعة فيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ)

[٢٠] (وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

[٢١] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ)

[٢٢] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ)

[٢٤] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ)

[٢٥] (فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ)

« يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ » أي نظراتها الخائنة. وهي الممتدة إلى مالا يحلّ « وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ » أي تكنّه من الضمائر والأسرار « وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ » أي بالعدل « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ » أي لأنهم لا يقدرون على شيء « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ » يعني حصونهم وقصورهم وعددهم « فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ » أي بآيات نبوته « مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ » أي : قالوا أعيدوا عليهم القتل ، كالذى كان أوّلا. واستبقوا نساءهم للخدمة «وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ » أي: وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا في ضياع . إذ هو كالغثاء الذى يقذفه تيار الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ »

أي ماأنتم عليه من عبادة الأصنام «أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ» أي فساد مملكتي. إذ يتفق الكل على متابعته وإجراء أحكامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ)

«وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ» أي التجأت إليه وتوكلت عليه ، فهو ناصر دينه ومعزّ أهله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ، وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)

«وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ» أي من فرعون وملئه «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ» أي من عذاب الدنيا إن تعرضتم له. وقد أشار الزمخشريّ إلى مافي طيّ هذا القول من اللطائف والأسرار، بماملخصه: إن هذا المؤمن استدرجهم في الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من عند مَنْ تنسب إليه الربوبية، ببينات عدة لا ببينة واحدة. وأتى بها معرّفة. معناه البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم . ثم أخذهم

بالاحتجاج بطريق التقسيم، فقال : لايخلو من أن يكون صادقا أو كاذبا. فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه . أو صادقا فيصبكم ، إن تعرضتم له، بعض الذى يعدكم. وإنما ذكر (بعض) فى تقدير أنه نبي صادق ، والنبيّ صادق فى جميع ما يَعِدُ به ، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداراة. فجاء بما هوأقرب إلى تسليمهم، وأدخل فى تصديقهم له، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته . وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق فى جميع مايَعِدُ . ولكنه أردفه (يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ) ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلا عن أن يكون متعصبا له . وتقديم (الكاذب) على (الصادق) من هذا القبيل .

قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا ، قوله تعالى[1] (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ*وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف ، دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ولايضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، مافى قصة يوسف مع أخيه . إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى . « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » قال الزمخشرىّ : يحتمل أنه إن كان مسرفا كذابا، خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فتتخلصون منه. وأنه لوكان مسرفا كذابالما هداه الله للنبوة، ولما عضده بالبينات.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ، قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)

---

(١) [١٢ / يوسف / ٢٦و٢٧].

« يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » أي عالين وقاهرين، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى « فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ » أي ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله. إذ البأس السماوىّ من أجل قتله ، أمر متوهم . فاتباعه غلط « وَمَآ أَهْدِيكُمْ » أي بإراءة رأى قتله « إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ » وهو دفع تبدل دينكم وإظهار الفساد فى الأرض ، بإظهار أحكامه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ)

[٣١] (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم » أي من قتله « مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ » أي الطوائف الهالكة بالتكذيب « مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ » أي جزائهم من الغرق « وَعَادٍ » أي من الريح العقيم « وَثَمُودَ » أي من الصيحة «وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ» أي من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ، إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجبه « وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ » أي فلا يعاقبهم بغير ذنب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ)

« وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ » يعنى يوم القيامة ، أي عذابه . سمى بذلك لما جاء فى حديث[1] (إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ،

(١) لم أعثر على هذا الحديث .

فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا) أى : من هول فزع النفخة .
وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم . ينادى أهلُ الجنة أهلَ الجنة وأهلُ النار أهلَ النار .
وقيل لمناداة أهل الجنة أهل النار[1] (أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم
مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ) ومناداة أهل النار أهل الجنة[2] (أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا
مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) . واختار
البغوىّ وغيره ؛ أنه سُمِّى لمجموع ذلك . أى لوقوع الكل فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

« يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » أى ذاهبين فرارًا من الفزع الأكبر[3](كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) « مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ » أى من عذابه، من مانع، لتقرر الحجة عليكم « وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ » أى يزيغه عن صراط ربه « فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » أى من حجة ولا مرشد إلى النجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ)

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ» أى من قبل مجىء موسى بالحجج البينة

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٠] .
(٣) [٧٥ / القيامة / ١١و١٢] .

والبراهين النيّرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله(١) (ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ) « فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ » أى مع ظهور استقامته الكافية فى الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها « حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ » أى مات « قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا » أى يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك فى إرسال من أعطاه البينات ، من فرط ضلالكم « كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ » أى فى التشكيك عند ظهور البراهين القطعية « مُّرْتَابٌ » أى شاكّ مع ظهور لوائح اليقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

« ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ » أى برهان « أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » أى بطر للحق ، لا يقبل الحجة . جبار فى المجادلة . ألدّ فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف والارتياب والمجادلة فى الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ)

[٣٧] (أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ)

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا » أى قصرًا عاليًا ظاهرًا لكل أحد

(١) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

« لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى طرقها « فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ » أى لأسأله عن إرساله ، أو لأقف على كنهه « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا » قال ابن جرير[1] : أى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدّعى ، من أن له فى السماء ربًّا أرسله إلينا « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ » أى سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره وتجبّره وإسرافه وارتيابه « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » أى خسار وهلاك ، لذهاب نفقته على الصرح سدى ، وعدم نيله ، مما أراده من الاطلاع ، شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ » أى طريق الصواب الذى ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ)

« يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ » أى تمتع يسير ، لسرعة زوالها « وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ » التى يوصل إليها سبيلى « هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ » أى الاستقرار والخلود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير تقدير وموازنة بالعمل . بل أضعافاً مضاعفة . قال الزمخشريّ : قوله (بِغَيْرِ حِسَابٍ) واقع فى مقابلة (إِلَّا مِثْلَهَا) يعنى أن جزاء السيئة له حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق. فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والـكثرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَيَـٰقَوْمِ مَالِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ)

[٤٢] (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ)

«وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ*تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ » أى بوجوده علم، إذ لاوجود له «وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ » أى الغالب الذى يقهر من عصاه « ٱلْغَفَّـٰرِ » أى الذى يستر ظلمات نفوس مَن أطاعه، بأنواره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ)

[٤٤] (فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ)

« لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ » أى الذى تدعوننى إلى عبادته ، ليس له دعوة فى الدنيـــا لدفع الشدائد والأمراض ونحوها ،

ولا فى الآخرة لدفع أهوالها ، على ماقاله المهايمىّ . أو لا دعوة له فى الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيهما ، على ما قاله القاشانىّ. وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارة عن جماديتها وأنها غير مستحقة لذلك . وسياق (لَا جَرَمَ) عند البصريين أن يكدن (لَا) ردًّا لما دعاه إليه قومه و (جَرَمَ) بمعنى كسب . أى وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته . أى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته . ويجوز أن يكون (لَاجَرَمَ) نظير (لابد) من الجرم وهو القطع . فكما أنك تقول (لابد لك أن تفعل) والبد من التبديد الذى هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل كذا ، فكذلك (لَا جَرَمَ) معناه لاانقطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هى باطلة أبدا . هذا مايستفاد من (الكشاف) .

وفى (الصحاح) : قال الفرّاء : (لَا جَرَمَ) كلمة كانت فى الأصل بمنزلة (لامحالة، ولابد) فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة (حقا) فلذلك يجاب عنها باللام . ألا تراهم يقولون (لاجرم لآتينك) وقد حقق الكلام فيها ابن هشام فى (المغنى) فى بحث . والجلال فى (همع الهوامع) أثناء بحث إن والقسم، فانظرها . «وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّـهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ » أى فى الضلالة والطغيان وسفك الدماء « هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ» أى من النصح عند معاينة الأهوال ومايحيق بكم «وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّـهِ » أى وأسلم أمرى إليه وأجعله له وأتوكل عليه، فإنه الكافى من توكل عليه « إِنَّ ٱللَّـهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ » أى فيعلم المطيع منهم والعاصى، ومن يستحق المثوبة والعقوبة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ، وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ)

« فَوَقَىٰهُ ٱللَّـهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ » أى فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروهَ ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه، من العذاب والبلاء، فنجاه منه « وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ » أى بفرعون وقومه « سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ » يعنى الغرق أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ)

[٤٧] (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ)

[٤٨] (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ)

«ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» جملة مستأنفة مبينة لكيفية نزول العذاب بهم. على أن (ٱلنَّارُ) مبتدأ وجملة (يُعْرَضُونَ) خبره . وعلى الثانى ، فالنار خبر لمحذوف وهو خبر العذاب السيء . أو هى بدل من (سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ) . والمراد عرض أرواحهم عليها دائما. واكتفى بالطرفين المحيطين ـ الغدوّ والعشيّ ـ عن الجميع. وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ. وقاناه الله تعالى ، بمنه .

قال السيوطىّ : وفى (العجائب) للكرمانىّ: فى هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر. لأن المعطوف غير المعطوف عليه . يعنى قوله تعالى « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ » أى هذا العرض مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم « أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ » وهو عذاب جهنم . لأنه جزاء شدة كفرهم « وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ » أى يتخاصمون فيها ، الأتباع والمتبوعون «فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» أى أتباعاً كالكرهين « فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ » أى نحن وأنتم . فكيف نغنى عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا «إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ » أى بأن أدخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النار النارَ، ولا معقب لحكمه. أو بأن قدّر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه، ولا يتحمله عنه غيره . قال الشهاب : وهذا أنسب بما قبله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ » أى لما أيسوا من التخفيف عند الحاجة « ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ » أى يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألمَ يوم وشدّته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ، قَالُواْ بَلَىٰ، قَالُواْ فَٱدْعُواْ، وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ)

«قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ » أى المتكاثرة على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة « قَالُواْ بَلَىٰ » أى جاءوا بها وأخبروا مع البينات « قَالُواْ فَٱدْعُواْ » أى إن كان ينفعكم ، وهيهات « وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ » أى فى ضياع لا يجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ)

« إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ » أى لننصرهم فى الدارين . أما فى الدنيا ، فبإهلاك عدوّهم واستئصاله عاجلا ، أو بإظفارهم بعدوّهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم والعافية لأتباعهم . وأما فى الآخرة ، فبالنعيم الأبدىّ والحبور السرمدىّ . و (ٱلْأَشْهَٰدُ) جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلما . أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ)

« يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ » قال ابن جرير[1] : ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إن اعتذروا إلا بباطل. وذلك أن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم فى الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ، بأن يقولوا[1] (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ولذا كانت لهم اللعنة، وهى البعد من رحمة الله وشر ما فى الدار الآخرة من العذاب الأليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ » . أى ما يهتدى به . فكذب به فرعون وقومه كما كذبت قريش « وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ » أى وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« هُدًى » أى بيانا لأمر دينهم وما ألزمناهم من شرائعها « وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى لذوى الحجى والعقول منهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .
(٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ)

« فَٱصْبِرْ » أى إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين واصدع بما تؤمر « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى بنصرك على من خالف، لاخلف له وهو منجزه. واذكر نبأ موسى وفرعون « وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ » أى سله غفرانه وعفوه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ » كقوله تعالى[١] « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ، فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ » أى يدفعون الحق بالباطل، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله « إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى : إلا تكبّر عن الحق وتعظم عن التفكر، وغمط لمن جاءهم به، حسداً منهم على الفضل الذى آتاك الله ، والكرامة التى أكرمك بها من النبوّة « مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ » قال ابن جرير[٢] : أى الذى حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه. لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وليس بالأمر الذى يدرك بالأمانىّ . وقد قيل : إن معناه إن فى صدورهم إلا عظمة ، ما هم ببالغى تلك العظمة ، لأن الله مذلّهم « فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ » قال ابن جرير[٣] :

(١) [٥٠ / ق / ٣٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٧٧ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أى فاستجر بالله يامحمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان، ومن الـكبر أن يعرض فى قلبك منه شيء « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » أى لما يقولون وبما يعملون، فسيجازيهم.

تنبيه :

قال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود . وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملـكون به الأرض . فأمر ﷺ أن يستعيذ بالله من فتنته. قال ابن كثير: وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد. وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم . ولم يذكره ابن جرير، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفى (الإكليل) : ليس فى القرآن الإشارة إلى الدجال إلا فى هذه الآية ، أى على صحة هذه الرواية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ » أى : لإنشائهما وابتداعهما من غير شيء ، أعظم من خلق البشر « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا ينظرون ولا يتأمّلون لغلبة الجهل عليهم . ولذا يجعلون إعادة الشيء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ، قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ » أى مايستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، وهو

مثل الكافر الذى لايتأمّل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ماشاء ، ويؤمن به ـ والبصير الذى يرى بعينيه ما شخص لها ويبصره . وذلك مثل للمؤمن الذى يرى بعينيه حجج الله فيتفكر فيها ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه وعظيم سلطانه « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى ولا يستوى أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم « وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ » وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف أمره « قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ » أى حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون . أى لو تذكّروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن قبح الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

« إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا » أى فأيقنوا بمجيئها وأنكم مبعوثون ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لايصدقون بمجيئها . يعنى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أى اعبدونى أثبكم . قال الزمخشرى : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير فى القرآن . ويدلّ عليه قوله تعالى « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له. لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق . وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة ، مجازا أو مشاكلة . وإنما أوّل به لأن ما بعده يدل عليه . والمقام يناسبه

الأمر بالعبادة . وقد جوّز أن يراد بالدعاء والاستجابة ظاهرهما . ويراد بالعبادة الدعاء مجازا ، لأنه باب من العبادة عظيم، وفرد من أفرادها فخيم. قال الشهاب: ولو قيل لا حاجة إلى التجوّز، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوّز ـ لكان أحسن . انتهى .

وعلى الوجه الثانى ـ وهو أن المراد بالدعاء السؤال ـ اقتصر كثير من المفسرين . قال المهايميّ (أَسْتَجِبْ لَكُمْ) لأن الدعاء من العبد غاية فى التذلل لربه ، وهو محبوب لربه . فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة. وإذا لم يستجب له فى الدنيا عوّضه فى الآخرة. ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال. اه . وقال القاشانىّ: الآية فى دعاء الحال. لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعوّ به خير له أم لا، دعاء المحجوبين. وأما الدعاء الذى لا تتخلف عنه الاستجابة، فهو دعاء الحال بأن يهيئ العبد استعداده لقبول مايطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتاب إلى الله، وأناب بالزهد والطاعة . انتهى .

وتقدم فى آية[1] (أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) فوائد تناسب هذا المقام، فلتراجع. ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته، وقد أنعم عليهم بما يقتضى شكره بالعبادة، مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

[٦٢] (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ،فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ» أى الله الذى لا تصلح الألوهية إلا له، ولا تنبغى عبادة غيره ، هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه، فتستردوا بالراحة فيه،

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

ما فاتكم من القوى في العمل بالنهار « وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا » أي أن يبصر فيه أو به لتتحركوا لتحصيل الأكساب الدينية والدنيوية . فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما « إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ » أي ليشكروه بعبادته « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ » أي عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)

« كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ » أي من الأمم المتقدمة الهالكة. أي فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم ، وركبتم محجتهم في الضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا » أي تستقرون عليها وتسكنون فوقها « وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً » أي مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم. وقد فسّر (البناء) بالقبة المضروبة. لأن العرب تسمّي المضارب (أبنية) ، فهو تشبيه بليغ ، وهو إشارة إلى كريّتها. قاله الشهاب « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » أي بجعل كل عضو في مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته « وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ » أي لذيذات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده « ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أي الذي لا تصلح الربوبية إلا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« هُوَ ٱلْحَىُّ » أى الذى لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شيء سواه فمنقطع الحياة غير دائمها « لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى مفردين له الطاعة ، لا تشركوا فى عبادته شيئاً « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس الخلق ، لا للأوثان التى لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضر ولا نفع .

قال ابن جرير(١) : وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال (لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) أن يتبع ذلك (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) تأولا منهم هـذه الآية ، بأنها أمر من الله بقيل ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس وابن جبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من الآلهة والأوثان « لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى » أى الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته وتفرده بالعبادة « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى أخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ » أى مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه « ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ » أى يبقيكم لتبلغوا أشدكم ، فتتكامل قواكم « ثُمَّ لِتَكُونُواْ » أى إذا تناهى شبابكم وتمام خلقكم « شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ » أى من قبل أن يصير شيخا «وَلِتَبْلُغُوٓاْ » أى ونفعل ذلك لتبلغوا « أَجَلًا مُّسَمًّى » أى ميقاتا محدودا لحياتكم ، وهو وقت الموت . أو لجزائكم وهو يوم القيامة « وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى ولكى تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتتدبروا آياته ، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى يكوّنه من غير كلفة ولا معاناة . وقد تقدم فى (البقرة) الكلام على هذه الآية مطوّلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ)

[٧٠] (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٧١] (إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ)

[٧٢] (فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ » أى عن الرشد إلى الغىّ

« ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ » أي بكتاب الله ، وهو القرآن « وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ » أي الماء الحارّ . قال المهايميّ : لدفعهم برْد اليقين من دلائل الكتاب والسنة « ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ » أي يحرقون . قال المهايميّ : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ)

[٧٤] (مِن دُونِ ٱللَّهِ ، قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ)

« ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا » أي غابوا فلم نعرف مكانهم . وهذا قبل أن يقرنوا معهم . أو ضلالهم استعارة لعدم نفعها لها . فحضورهم كالعدم « بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا » أي ما كنا مشركين . وإنما كذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشانيّ : لاطلاعهم على أن ما عبدوه وضيعوا أعمارهم في عبادته ، ليس بشيء ، فضلا عن إغنائه عنهم شيئاً « كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ » أي أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ)

« ذَٰلِكُم » أي العذاب « بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ » أي بسبب فرحكم في الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصي ، وبمرحكم فيها . و (المرح) هو الأشر والبطر والخيلاء . وبين (الفرح) و (المرح) تجنيس بديع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)

« ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » أى منزل المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

« فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين فى آيات الله ، وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت « فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ » أى من العذاب والنقمة « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ » أى قبل أن يحل بهم ما يحل « فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » أى فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود فى النار ، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية ، البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ » أى لتقف على ما وفينا لهم من وعد النصر إياهم فى الدنيا « وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » أى لمكان الطول . مع أن فى نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين . والشىء يعتبر بشكله « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن

يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم فى طلب ماقص عنهم من آية[1] (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) الآية ، بأن الإتيان بذلك مردّه مشيئة الله تعالى وإرادته به . وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات وأحسنها وأقوم المعجزات وأمتنها . كما قال تعالى[2] (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) وقال تعالى[3] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ) « فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ » أى عند عدم الإيمان بالآية المقترحة، بعد إتيانها « قُضِيَ بِٱلْحَقِّ » أى من المؤاخذة، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى فى دعواهم الشريك ، وافترائهم الكذب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٨٠] (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

[٨١] (وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ)

[٨٢] (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« ٱللَّهُ » أى الذى لاتصلح الألوهية إلا له « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ » أى مسخرة

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠] . (٢) [٢ / البقرة / ١٠٦] .
(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٥١] .

« لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ » من الجلود والأوبار والأصواف « وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ » أي بالمسافرة عليها « وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ » أي في طريق البحر « تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ » أي دلائله الدالة على فرط رحمته وكمال قدرته « فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ » أي من الحصون والقصور والمباني والعدد والعدد « فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أي مما لا يدفع به العذاب الأرضيّ ولا السماويّ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨٤] (فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ)

[٨٥] (فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ، سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ)

« فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » أي الخالي عن نور الهداية والوحي ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ومعارفهم . واستهزأوا برسلهم لاستصغارهم بما جاءوا به ، في جنب ما عندهم من العلم الوهميّ « وَحَاقَ بِهِم » أي من عذاب الله « مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أي جزاؤه « فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ » أي مضت في خلقه ، أن لا يقبل توبة ولا إيمانا في تلك الحال « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ » أي وهلك ، عند مجيء بأسه تعالى ، الكافرون بربهم الجاحدون توحيد خالقهم . ففاتهم سعادة الأبد ، والعيش الرغد . نسأله تعالى المعافاة من غضبه وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبابه . آمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١ - سورة فصلت

(حمٓ السجدة)

سميت بها لاشتمالها على آية سجدة . تدل على بطلان عبادة الظاهر بالكلية . وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ . وهي مكية . وآيها أربع وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

« حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » قال أبوالسعود : إن جعل (حمٓ) اسماً للسورة، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره (تَنزِيلٌ) * وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسرودا على نمط التعديد . وقوله تعالى (مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) متعلق به ، مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو (تَنزِيلٌ) مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« كِتَٰبٌ » وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر لمحذوف . ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى(١) (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ) « فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ » أى بينت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية « قُرْءَانًا عَرَبِيًّا » أى بلسان عربىّ يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر فى غيره . وانتصاب (قُرْءَانًا) على المدح ، أو الحالية من (كِتَٰبٌ) لتخصصه بالصفة ، أو من (ءَايَٰتُهُۥ) « لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى مقداره ومعانيه . أو لأهل العلم والنظر .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« بَشِيرًا » أى للعاملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه، بالنعيم المقيم «وَنَذِيرًا» أى للمعرضين عنـــه بخلود الأبد فى نار جهنم « فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هـذا القرآن بشيرا ونذيرا لهم ، فلم يتدبروه « فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى لا يصغون له ، عتوًّا واستكبارا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى أغطية متكاثفة ، لا يصل إليها شىء مما تدعونا إليه، من التوحيد وتصديق ما فى هذا القرآن من الأمر والنهى والوعد والوعيد « وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ » أى صمم ، لا نسمع ذلك، استثقالا له وكراهية «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » أى فلا تواصل ولا تلاقى على ماندعى إليه « فَاعْمَلْ» أى على ماتدعو إليه، وانصب له « إِنَّنَا عَامِلُونَ » أى على ما ألفينا عليه آباءنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

[٧] (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ » أى بالتوحيد وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة « وَٱسْتَغْفِرُوهُ » أى بالتوبة من الشرك « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ » أى لا يزكون أنفسهم بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا مارجحه ابن جرير[١] ، ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضميمة الإيتاء . وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتكابه. وعن قتادة : إن الزكاة قنطرة الإسلام . فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير[٢] : وقد كان أهل الردّة ، بعد نبيّ الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة، فوالله ! لا تغْصَب أموالنا. قال فقال أبو بكر : والله ! لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . والله! لو منعونى عقالاً مما فرض الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه « وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ » أى بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة « هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى عليهم . أو غير منقوص . أو غير منقطع . أو غير محسوب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ، ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٠] (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ)

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ » أى فى مقدارها .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وعلمهم بصلة الموصول ، إما لما تلقوه خلفا عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السالفة ، كالتوراة ، فأذعنت بذلك نفوسهم ، حتى صار معهودا لها « وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا » أى أكفاء (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ) « ذَٰلِكَ » أى الذى خلق الأرض فى يومين « رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ » أى جبالا ثوابت « مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا » أى أكثر خيرها «وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ »أى مستوية بالامتزاج والاعتدال ، للطالبين للأقوات والمعايش . أى قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذى خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسى والبركة ، وتقدير الأقوات. فحدّه ، كما أخبر تعالى ، أنه أربعة أيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ)

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ » أى قصد إلى إيجادها . و (ثم) للتفاوت بين الخلقين فى الإحكام وعدمه ، واختلافهما فى الجهة والجوهر ، لا للتراخى فى الزمان ، إذ لا زمان هناك. قاله القاشانىّ .

وقال ابن جرير[١] : أى ثم ارتفع إلى السماء، أى بلا تكييف ولا تمثيل «وَهِىَ دُخَانٌ » قال القاشانىّ : أى جوهر لطيف بخلاف الجواهر الكثيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضى: (دخان) أمر ظلمانىّ . ولعله أراد به مادتها . أو الأجزاء المصغرة التى ركبت منها . وأصله للرازىّ حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقمرا، وأحدث صفة

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الضوء فيها ، فحينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان . لأنه لامعنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال: فهذا ماخطر بالبال فى تفسير الدخان. والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك فى تفسير هذه الآية (وَهِيَ دُخَانٌ) : أى ذرات ، أى غازات أى سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقا لقوله تعالى[(١)] (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقا لقوله تعالى (فَفَتَقْنَاهُمَا) أى فصلناها ، فصارتا كرات من الماء فى يومين . أى ألفى سنة . لقوله تعالى[(٢)] (وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وفى هذا الوقت كان عرشه على الماء . أى كان ملكه وسلطانه على الماء ، والله أعلم . انتهى والله أعلم «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » قال القاشانى : أى تعلق أمره وإرادته بإيجادهما ، فوجدتا فى الحال معا . كالمأمور المطيع ، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع لم يلبث فى امتثاله . وهو من باب التمثيل . إذ لاقول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير[(٣)] : أى قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئا بما خلقت فيكما . أما أنت ياسماء ، فأطلعى ماخلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم . وأما أنت ياأرض فأخرجى ماخلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات . وتشقق عن الأنهار (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أى جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك، لانعصى أمرك. انتهى. يعنى أن إثبات المقاولة مع السماء والأرض من المجاز. إما بالاستعارة المكنية، كماتقول (نطقت

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

الحال) فتجعل الحال كإنسان يتكلم فى الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذى هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالةالسماء والأرض التى بينهما وبين خالقهما ، فى إرادة تكوينهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذى جبروت له نفاذ فى سلطانه ، وإطاعة مَن تحت تصرفه من غير تردد . وقدردّ غير واحد قول من ذهب إلى أن فى الجمادات تمييزا ونطقا على ظاهر أمثال هذه النصوص . منهم ابن حزم . قال فى (الفِصَل) : وأما قوله تعالى (قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول فى اللغة التى نزل بها القرآن ، إنما هودفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفتين والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذ لاشك فى هذا ، فكل من لا لسان له ولا شفتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق ، فلا يكون منه القول المعهود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذ هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عمن ليست هذه صفته ، فإنه ليس هو القول المعهود عندنا . لكنه معنى آخر . فإذ هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صحّ أن معنى قوله تعالى (أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال فى (ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) فإنهما لما نزلا ـ وهما من الجمادات ـ منزلة العقلاء ، إذ أُمرا وخوطبا على طريق المكنية أوالتمثيلية ، أثبت لهما ماهو من صفات العقلاء من الطوع والكره ترشيحا . وهما مؤولان بـ (طائع وكاره) لأن المصدر لايقع حالا بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولا مطلقا . وإنما قال (طَآئِعِينَ) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور . وكان مقتضى الظاهر (طائعات) أو (طائعتين) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ)

« فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » أي أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان . قال المهايمي : ولم يجعل لمادتها يوما . لأنها كادة الأرض . فدخلت في يومها « وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » أي ما أمر به فيها ودبّره من الملائكة والخلق الذي فيها ، وما لا يعلم « وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ » فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به ، مما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته « وَحِفْظًا » أي من الشياطين أن تسترق أخبارها « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا » أي عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل شيء ، الذي اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور « فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » لأنكم مثلهما في العناد ، ومثل عاد في الاستكبار ، ومثل ثمود في استحباب العمى على الهدى .

قال ابن جرير[١] : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشيء وغيّره عن هيئته . وقيل في هذا الموضع : عُنِيَ بها وقعة من الله وعذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٦] ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾

* إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » قال الزمخشريّ : أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتوّ والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان(١) (لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة . وتقول (استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة) . وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، على ماعرف فى مثله. والمراد بإتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع فى دعوتهم على طريق الكناية . ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضى ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس، كما ذكر فى آية الكرسىّ «أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا» أى إرسال رسول « لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً » أى من السماء بما تدعوننا إليه « فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ » أى من عبادة الله وحده « كَٰفِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » أى حتى نخاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره « أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » أى فيجب أن يحذر عقابه ويتقى عذابه « وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا » أى التى هى أقوى الدلائل « يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ » أى لعتوّهم بالقوة « رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الصوت فى هبوبها « فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ » أى مشؤومات عليهم « لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » أى فى الأخرى . كما لم ينصروا فى الدنيا .

تنبيه :

قال الرازىّ : استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون

(١) [٧ / الأعراف / ١٧] .

نحساً وبعضها قد يكون سعدا . لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافى . ثم أطال الرازىّ فى الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافىّ لا ذاتىّ . وإلا لكان اليوم الذى يراه المنجمون نحسا ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس . وكذا ما يرونه سعدا . والواقع بخلاف ذلك . إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعدا عند بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فأين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدّة والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد. فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ » أى بيّنّا لهم سبيل الحق وطريق الرشد . ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة . وأمرناهم أن يقتفوا الهدى « فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى من الآثام ، بكفرهم بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)

« وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ » أى يخشون ربهم ويخافون وعيده . وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يوم يجمع، لمزيد الفضيحة،

بين الأولين والآخرين، أعداء الله المشركون والجاحدون، إلى النار فيجيء أولهم على آخرهم، ليتم إلزام الحجة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا » أي فبالغوا في إنكار المخالفة « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ » أي بأنهم سمعوا الحجج فأعرضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها «وَأَبْصَـٰرُهُمْ» أي بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبائح فاختاروها «وَجُلُودُهُم» أي بأنهم باشروا المعاصي ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء « بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ، قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

«وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ» أي المدركة ألم العذاب الذي لا يدركه السمع والبصر « لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا» أي بما يوجب إيلامكم «قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ» أي بهذه الشهادة «ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ» أي أنطق كل شيء من الحيوان. فهو من العامّ الذي خصه العقل، كقوله تعالى[١] (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أي كل شيء من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته. وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به في الدنيا ، بتغير أشكالها ونحوه . مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ، لارتفاع الغطاء في الآخرة . فالنطق مجاز

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٤] .

عن الدلالة . قال القاشانيّ : معنى (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم) أي غيرت صور أعضائهم ، وصُوِّرت أشكالها على هيئة الأعمال التي ارتكبوها ، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون . ولنطقها بهذا اللسان قالت (أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) إذ لا يخلو شيء ما من النطق . ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى . لكن قال الرازيّ : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البينة ليست شرطا للحياة ، ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة . فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، والله أعلم .

تنبيه :

قال الرازيّ : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب الكنايات كما قال[1] (وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا) وأراد النكاح . وقال[2] (أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ) والمراد قضاء الحاجة . فتكون الآية وعيدا شديدا في الزنى . انتهى .

وقد أشار الإمام ابن الأثير في (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية في الترجيح الذي يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة في أحدهما ، مجازا في الآخر . وعبارته : الجلود ههنا تفسّر حقيقة ومجازا . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغيّ الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف الكناية عن المكني عنه . وقد يسأل ههنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغيّ .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] .   (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

ويقال : مابيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عامّ ، فلا يخلو إماأن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة . ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ، لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة ، شهادة باطلة . إذهي شهادة غير شاهد. والشهادة هنايرادبها الإقرار . فتقول اليد : أنافعلت كذا وكذا . وتقول الرِّجل : أنامشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقرّة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أوالبعض . فإن أريد به الكل ، دخل تحته السمع والبصر . ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريدبه البعض ، فهو بالفرْج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين : أحدهما ـ أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرْج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع . الآخر ـ إنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرْج . فكنى عنه بالجلد ، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى (١) (فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) والنخل والرمان من الفاكهة ، قلت في الجواب : هذا القول عليك لالك . لأن النخل والرمان إنما ذكرا لتفضيلٍ لهما في الشكل أوفي الطعم ، والفضيلة ههنا في ذكر الشهادة ، إنما هي تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم في المعصية. لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة ، أو في سماع صوت مزمار أو وتر ، أو ماجرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم : وكلتا المعصيتين لاحدّ فيها . وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع . ومعصية الفرج توجب جلد مائة أوالرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغي أن تخص بالذكر دون

(١) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .

السمع والبصر . وإذا ثبت فساد ماذهبت إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبى الحديد فى (الفلك الدائر) بما محصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين، إذا كان بين لفظتى الجلد والفرج أو معناهما مناسبة . ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج ، فعبر عن الكل بالبعض ، وهو بعيد جدا . انتهى .

وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأهم والأقوى . وذلك لأن الجلود تصدق على ماحواه الجسم من الأعضاء والعضلات التى تكتسب الجريمة . ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولاها بالإرادة هو الفروج . لأن معصيتها تربى على الجميع . وقد عهد فى مفسرى السلف اقتصارهم فى التأويل من العامّ على فرده الأهم . كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد ، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل مافيه خير وقربة ونفع ومعونة ، على الطاعة . إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفى غيره . وهذه فائدة ينبغى أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة . وينحلّ بها إشكالات ليست بالقليلة ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كلٍّ ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » أى وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخافة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أى ليس استتارهم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . فـ (أَن يَشْهَدَ) مفعول له ،

بتقدير مضاف . أو من أن يشهد أو عن أن يشهد . أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو فى محل نصب. وفى الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغى أن يتحقق ، أنه لايمر عليه حال إلاوعليه رقيب، كما قال أبو نُوَاس[1] :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوما ، فلا تقُلْ   خلوتُ . ولكن قل : علىّ رقيبُ
ولا تحسبنّ اللهَ يغفلُ ساعــةً   ولا أن ما يَخفَى عليك ، يغيبُ

« وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّـهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ » أى ما ظننتم أن الله يعلم فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لايعلم كثيرا ، وهو ما عملتم خفية . فما استترتم عنها واجترأتم على المعاصى . وإذا كان (أن يَشْهَدَ) مفعولا له ، فالمعنى ما استترتم بالحجب ، لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح . فلذا ما استترتم عنها . لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا ، فلذا سعيتم فى الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ)

« وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ » أى أهلككم بالجراءة على مخالفته فى الدنيا ، ومجادلته فى القيامة « فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ » أى لأعمال النجاة والدرجات فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ، وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ)

« فَإِن يَصْبِرُواْ » أى على النار « فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى منزل ومسكن « وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ » أى يسألوا العتبى وهى الرجعة إلى الذين يحبون « فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ » أى المجابين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب .

(١) انظر الصفحة رقم ٦١٥ من ديوانه (طبعة ١٩٥٣) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)

[٢٦] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

« وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » أى بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم « فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى حسّنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلة . فالطرفان كناية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم، كالشيء الذى بين يديك تقلّبه كيف تشاء . والآخرة بما خلفهم، لعدم مشاهدتها ، كالشيء الذى خلفك، أو لكونها ستلحق بهم . وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلة ، وما خلفهم الدنيا لمضيّها وتركها ، كما مرّ قريباً .

وقال القاشانىّ فى تفسير الآية: أى قدرنا لهم أخداناوأقرانا من شياطين الإنس أو الجن، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغماسهم فى المواد الهيولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فناسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرة المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحجبوا عن نور الملكوت (فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما بحضرتهم من اللذات البهيمية والسبعية، والشهوات الطبيعية (وَمَا خَلْفَهُمْ) أى من الآمال والأمانىّ التى لايدركونها « وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى فى القضاء الإلٰهىّ ، بالشقاء الأبدىّ « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم » من المكذّبين

بأنبيائهم، الضالين المضلين « مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أي ستروا زينة أدلة القرآن عن أتباعهم ، الذين زينوا لهم شبهاتهم الواهية « لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ » أي إذا قرأه ، ولا تصغوا له ، كيلا يؤثر عليكم وعظه « وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ » أي ائتوا باللغو عند قراءته ، ليختلط . فلا يمكنه القراءة . والمراد باللغو ما لا أصل له . أو ما لا معنى له « لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » أي تصدّون من أراد استماعه ، عن استماعه ، فلا يسمعه . وإذا لم يسمعه ، ولم يفهمه ، لم يتبعه . فتغلبون بكيدكم هذا حججه ، التي يغلب بها عقولكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[٢٨] (ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ، جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ)

« فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ » أي المكث الأبديّ . وفي النظم الكريم من البديع ، التجريد . وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة ، آخر مثله ، مبالغة فيها . لأنها نفسها دار الخلد . وبجعله للظرفية الحقيقية، تكلفٌ لا داعي له . مع أن المذكور أبلغ. قاله الشهاب « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ » أي ينكرون أو يلغون . وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا » أى ندوسهما انتقاما منهما « لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ » قال القاشانىّ : أى حنق المحجوبون واغتاظوا على مَنْ أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتمنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران، بسببهم. وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم، وأنزل مراتبهم . كما ترى مَن وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرّد عليه ويتغيّظ ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيبته ويتحرّق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ » أى وحّدوه بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته « ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ، والثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ » أى فى الدنيا ، بإلهامهم. أو عند الموت، أو حين البعث « أَلَّا تَخَافُواْ » أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « وَلَا تَحْزَنُواْ » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فإنا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفزع الأكبر وهوله ، فإنكم آمنون لآية[1]

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) والتنزيل يفسر بعضه بعضا . أوالآيتان فى مقامين وبشارتين . وفضله تعالى أوسع، وجوده أعم وأشمل. قال القاشانيّ: وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم فى التوحيد الحقيقىّ ، والإيمان اليقينىّ ، والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة فى الطريقة إليه. غير نا كثين فى عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين فى عمل . كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ، بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فتنزلت عليهم . انتهى. وقوله تعالى «وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ، حال الإيمان بالغيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

[٣٢] (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

«نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ» أى أحباؤكم فى الدارين. للتناسب بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة فى الظلمة والكدورة . قال ابن كثير : أى تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا قرناءكم فى الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم فى الآخرة . نؤنس منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور . ونجاوزكم الصراط المستقيم. ونوصلكم إلى جنات النعيم. وقال الرازىّ : معنى كونهم أولياء للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات فى الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية . كما أن للشياطين تأثيرات فى الأرواح، بإلقاء الوساوس فيها، وتخييل الأباطيل إليها. وبالجملة، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة، حاصل من جهات كثيرة معلومة، لأرباب

المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا ، فهى تكون باقية فى الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبق . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة . وهى كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر . والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة. كما قال ﷺ [1]: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمانية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس . انتهى .

وهو مشرب صوفىّ ومنزع فلسفىّ ، فيه شية من الرقة « وَلَكُمْ فِيهَا » أى فى الآخرة « مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ » أى من الروح والريحان والنعيم المقيم « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » أى تتمنون « نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ » أى إكراما معدًّا لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

---

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بى ، لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال ، فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات . فقلت : ماهذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أى لاأحد أحسن مقالًا ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤتمرين، والمسلمين وجوههم إليه تعالى فى التوحيد .

لطائف :

الأولى ـ قال القاشانىّ : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل، لكونه أشرف المراتب، ولاستلزامه الكمال العلمىّ والعملىّ . وإلا لما صحت الدعوة . انتهى .

الثانية ـ فى الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ فى الإعراض عن المشركين ، وعما كانوا يقولونه من اللغو فى التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ، والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات. فهذا هو سر انتظام هذه الآية فى إثر ماسبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : كامل وأكمل . أما الكامل فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة مالأجلها يصير كاملا فى ذاته. فإذا فرغ من هذه الدرجة، اشتغل بعدها بتكميل الناقصين . فقوله تعالى(١) (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ) إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهى الانتقال بتكميل الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق . وهو المراد من قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا) الآية .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ، ونصيبا وافيا من العلوم الإلهية ، عرف أنه لاترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازىّ .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

الثالثة ـ يدخل فى الآية كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل المأثورة . لأن الدعوة الصحيحة هى الدعوة النبوية . ثم ما انتهج منهجها فى الصدع بالحق ، وإيثاره على الخلق .

الرابعة ـ فى الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعالى ـ على ما قرره الرازىّ ـ لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال . وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة ـ احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة، بهذه الآية . وقال: إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأوْلى . والمسألة معروفة بسطها الغزالىّ فى (الإحياء) .

وللإمام ابن حزم فى (الفِصَل) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلف الناس فى قول المسلم (أنا مؤمن) فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول (أنا مؤمن إن شاء الله) وقال بعضهم : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

ثم قال ابن حزم : والقول عندنا فى هذه المسئلة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام . وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذ قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ولا نعمة أوْكد، ولا أفضل ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام. فواجب عليه أن يقول (أنا مؤمن مسلم قطعا عند الله تعالى، فى وقتى هذا) ولا فرق بين قوله(أنا مؤمن مسلم) وبين قوله (أنا أسود وأنا أبيض) وهكذا سائر صفاته التى لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والتعجب فى شيء . لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى[1] (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) وقول ابن مسعود عندنا صحيح. لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما فى اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه (مسلم مؤمن) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هـــذا فقد كذب بلا شك . وما منع رضى الله عنه من أن يقول المرء (إنى مؤمن) بمعنى مصدق . كيف ؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسله) أى صدقت. وأما من قال فقل إنك فى الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن متنا على ما نحن عليه الآن ، فلابد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ماجاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه فى الجنة . إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا فى الدنيـــا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان . ولا ندرى ماذا نـكسب غدا . ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ، ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)

«وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ» أى لـكون الأولى من مقام العقل تجرّ صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائـكة. والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتى هى أحسن منها، وهى الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا . أو بأحسن مايمـكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل عن مقتضى الظاهر وهو (ادْفَعْ بالحسنة) إلى الأبلغ ـ لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الـكلام أبلغ فى الحمل والحث على ماذكر. لأنه يومئ إلى أنه

مهم ينبغى الاعتناء به والسؤال عنه . قال القاشانىّ : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التى هى أحسن ، فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لاتندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالحطب . فإن قابلتها بمثلها كنت منحطا إلى مقام النفس ، متبعا للشيطان ، سالكا طريق النار ، ملقيا لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلا له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسببا لازدياد الشر ، معرضا عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكّنت شرارته ، وأزلت عداوته ، وتثبت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وانخرطت فى سلك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله « فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ » أى صديق أو قريب « حَمِيمٌ » أى شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولىّ المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

« وَمَا يُلَقَّىٰهَآ » أى هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان « إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ » أى على تجرع الشدائد . أو على طاعته تعالى وأمره ، تخلقا بالعلم والعفو « وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » أى من الخير وكمال النفس . ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه . ومن الثواب وكمال العقل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » أى وإما

يلقين الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، والانتقام منه ، فاستجر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنابه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره ووسوسته ونزغه . قال ابن كثير: قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف وهو قوله تعالى(١) (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وفي سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه(٢) (ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [سجدة]

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِ » أي حججه تعالى على خلقه ، ودلالاته على وحدانيته وعظيم سلطانه « ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ » أي اختلافهما ، ومعاقبة كل واحد منهما صاحبه « وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ » أي نورها وإشراقهما وتقدير منازلها ، واختلاف سيرهما في سمائهما ، لبقاء صلاح الكون « لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليم، فهما مخلوقان « وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أي تفردونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشركوا في طاعته أحدا . لأنها لا تنبغي لأحد سواه .

تنبيه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحق في (المهذب) على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها . وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لكونها في القرآن ، بخلافها . كذا في (الإكليل) .

(١) [٧ / الأعراف / ١٩٩و٢٠٠] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦ـ٩٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)

« فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا » أى عن عبادته كبرا وعتوا « فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » أى من الملائكة « يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » أى لا يملّون عبادته ، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[٤١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى ساكنة لا حركة لعشب فيها ولا نبات ولا زرع « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » أى اهتزت بالنبات وتحركت بزينته ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أى صارت ربوة مرتفعة « إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا » أى هذه الأرض الدارسة، فأخرج منها النبات، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها « لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى يميلون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيغون عنها تكذيباً لها وجحوداً لها « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » أى لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيجزيهم .

تنبيه :

شملت الآية من يضع الكلام فى الآيات على غير مواضعه ، كما فسّرها ابن عباس . قال فى (الإكليل) : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة « أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ » أى بهذا القرآن « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى فهم هالكون . فالخبر محذوف . أو الجملة بدل من جملة (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا) « وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ » أى منيع محمىّ عن التغيير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

« لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ » أى لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات .

قال القاشانىّ : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إحكاما فى كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد فى تأويله ، ويغيّرونه بالتحريف لكونه ثابتا فى اللوح محفوظا من جهة الحق. كما قال[1] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمى من جميع جهاته . فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه فى حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن ما بين يديه وما خلفه ، كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل فى كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية ما بين يديه ، والآتية ما خلفه. أو العكس

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

كما مرّ « تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » قال ابن جرير(١) : أى هو تنزيل من عند ذى حكمة ، بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

« مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ » أى ما يقول لك كفار قومك ، إلّا مثل ما قال للرسل كفارُ قومهم ، من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة . أى فاصبر كما صبروا « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ » أى لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم « وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى لمن أصرّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ، ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ، وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ)

« وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ » أى بيّنت أدلته وما فيه ، بلسان نعرفه لنفهم ما فيه . قال الزمخشرىّ : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أى بيّنت ولخصت بلسان نفقهه « ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ » الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمىّ ورسول عربىّ ؟ أو مرسَل إليه عربىّ ؟ والمعنى : إن آيات الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

على أى طريقة جاءتهم ، وجدوا فيها متعنتا . لأن القوم غير طالبين للحق . وإنما يتبعون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجميّ أصله (أعجم) . ومعناه من لا يفهم كلامه للكنة أو لغرابة لغته. وزيدت الياء للمبالغة . كما فى أحمرىّ . ويطلق على كلامه مجازا . لكنه اشتهر حتى أُلحق بالحقيقة . وأما العجمىّ فالمنسوب إلى العجم . وهم مَنْ عدا العرب . وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضا . فبين الأعجمىّ والعجمىّ عموم وخصوص وجهىّ . انتهى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ » أى: هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصّرهم بالمعرفة . وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك . أى تبصّرهم بطريق النظر والعمل، فتعلمهم وتزكيهم «وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » أى لا يسمعونه ولا يفهمونه . بل يشتبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها. فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتيقظوا «أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى مثلهم فى عدم قبولهم الحق، واستماعهم له، مثل من يُصَيَّحُ به من مسافة شاطة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذى يدرك به الحق ويرى . وانهماكهم فى ظلمات الهيولى. قال الشهاب: وجعل النداء من مكان بعيد، تمثيلًا لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له. يقال: أنت تُنَادَى من مكان بعيد، أى لا تفهم ما أقول. وقيل : إنه على حقيقته، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك، تفضيحًا لهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ» قال ابن جرير[1]: أى فاختلف فى العمل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أى كذّب وأوذى، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ » وهى العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ. أى لولا أنه تعالى قدر الجزاء فى الآخرة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بتعجيل العذاب(١) (بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا)(٢)(بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) « وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم. وإلا فالحق أجلى من أن يخفى. وقال ابن كثير : أى وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم ، لما قالوا . بل كانوا شاكّين فيما قالوه ، غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجّهه ابن جرير . وهو محتمل . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ)

« مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ » أى من عمل بطاعة الله، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه، فلنفسه نفعه . لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن « وَمَنْ أَسَآءَ » أى عمل السيء وعصى « فَعَلَيْهَا » ضرّه . لأنه جنى على نفسه بذلك ، ما أكسبها سخط الله تعالى والعقاب الأليم « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » أى لايعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ)

(١) [١٨ / الكهف / ٥٨] . (٢) [٥٤ / القمر / ٤٦] .

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » أى لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها « وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا » أى أوعيتها « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ » أى مقروناً بعلمه . قال الزمخشرىّ : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى » أى الذين كنتم تشركونهم فى عبادتى «قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ» أى أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ (شَهِيدٍ) فعيل من الشهادة . ونفى الشهادة كناية عن التبرؤ منهم. أو هومنهم إنكار لعبادتها. فيكون كذبا، كقولهم[1] (وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

« وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ » أى يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً « وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ » أى وأيقنوا يومئذ مالهم من ملجأ يلجأون إليه من عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ)

« لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ » أى لا يمل من مسألته ربه بالخير ، كالمال وصحة الجسم « وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ فى نفسه من سقم أو جهد فى معيشته « فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ » أى من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزمخشرىّ : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء (فعول) ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ » أى بتفريجها عنه « لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي » أى حق نلته بعملى ، لا بفضل من الله . جحدا للمنعم « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ » أى للحالة الحسنى من الكرامة . تخرصا ورجما بالغيب ، وتلاعبا بما شاء الهوى « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا » أى فلنخبرنّ هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل، بحقيقة أعمالهم. ولنبصرنّهم عكس ما اعتقدوا فيها « وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وهو تخليدهم فى النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى إذا كشفنا ما به من ضر، ورزقناه غنى وصحة وسعة ، أعرض عما دعى إليه من الطاعة ، وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » أى كثير . يديم تضرعه ، ويستغرق فى الابتهال أنفاسه . وقد استعير (العرض) لكثرة الدعاء . كما يستعار له (الطول) أيضا . فيقال : أطال فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ » أى القرآن « مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ » أى من غير نظر واتباع دليل « مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ » أى من أضل منكم . فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم . والشقاق الخلاف . لكون المخالف فى شق وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين. وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل ، واستدراجٌ للإقرار. مع مافيه من سحر البيان . وحديثُ الساعة وقع فى البين تتميا للوعيد. وتنبيها على ما هم عليه من الضلال البعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

« سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ » يعنى وقائع النبىّ ﷺ بنواحى بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقاً للوعد « وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ » أى من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم . كما وقع فى بدر وفتح مكة « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ » أى أن هذا القرآن ، بوعده ووعيده ، هو الحق الثابت ، إذ لا برهان بعد عيان . فقد نصر اللهُ رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى لا يخفى عليه شئ ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه . ففيه وعد ووعيد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ، أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ)

« أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ » أى فى شك عظيم من البعث بعد الممات ، ومعادهم إلى ربهم « أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ » أى فلا يخرج عن إحاطته شىء[١] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ) .

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٢ — سُورَة الشُّورَى

سميت بالشورى ؛ لإشعار آياتها بذلة الدنيا وعزة الآخرة ، وصفات طالبيها ، مع اجتماع قلوبهم بكل حال . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهايميّ : وهي مكية . وقيل إن فيها مدنيا . ومرّ مرارا تحقيق ذلك ، وآيها ثلاث وخمسون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (عٓسٓقٓ)

« حمٓ * عٓسٓقٓ » قد روى بعض المفسرين ها هنا ، فى تفسير (حمٓ * عٓسٓقٓ) آثارا واهية جدا لا يعول عليها . بل هى ، كما قال ابن كثير منكرة ، وقد قدمنا أن الصواب أن هذه الحروف ، أوائل السور الكريمة ، أسماء لها . و (حمٓ * عٓسٓقٓ) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما ، وعُدًّا آيتين . وقيل اسم واحد ، والفصل ليناسب سائر الحواميم ، فيكون آية واحدة . وهو الوجه عندى لاشتهارها بهما معا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » كلام مستأنف، وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق . أو أن إيحاءها مثل إيحائها ، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها . والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول لـ (يُوحِيٓ) على الأول ـ وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له ، على الثانى . و(ذَٰلِكَ) على الأول إشارة إلى مافيها. وعلى الثانى إلى إيحائها . وما فيه من معنى البعد ، للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل . أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى ، أوحى إليك فى سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم. على أن مناط المماثلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد

إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد . أو مثل إيحائها ، أوحى إليك عند إيحاء سائر السور. وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم. لا إيحاء مغايرا له. كما فى قوله تعالى[1] (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ) الآية . على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك . وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية ، للإيذان باستمرار الوحى، وأن إيحاء مثله عادته . وفى جعل مضمون السورة أو إيحائها مشبها به ، من تفخيمها مالا يخفى . وكذا فى وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة . وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل، مع ما فيه من التشويق . وقرئ (يوحى) على البناء للمفعول ، على أن (كذلك) مبتدأ (ويوحى) خبره المسند إلى ضميره . أو مصدر و (يوحى) مسند إلى (إليك) . و (الله) مرتفع بما دل عليه (يوحى) كأنه قيل : من يوحى؟ فقيل: الله . (ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) صفتان له ، أو مبتدأ ، كما فى قراءة (نوحى) . والعزيز وما بعده خبران له . أو العزيز الحكيم صفتان له . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ)

« لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ » خبران له . وعلى الوجوه السابقة ، استئناف مقرر لعزته وحكمته . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

[٦] (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ)

(١) [٤ / النساء / ١٦٣] .

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ » أي يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته، ويتلاشين من علوّ قهره وسلطنته ، يدل عليه مجيئه بعد (ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ) أو من دعائهم له ولدا ، كما فى سورة مريم « وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ » أى يسألون المغفرة لذنوب من فى الأرض من المؤمنين به « أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى شركاء وأندادا « ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ » أى رقيب على أفعالهم يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ » أى بموكل لحفظ أعمالهم . وإنما أنت منذر[1] (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ)

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ » أى أهلها ، وهى مكة « وَمَنْ حَوْلَهَا » أى من العرب وسائر الناس « وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ » أى يوم القيامة الذى تكون فيه الفضيحة أعظم ، لأنه يجمع فيه الخلائق « لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ » أى منهم فريق فى الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ . وفريق فى السعير ، أى النار الموقدة المسعورة على أهلها . وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ، وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

---

(١) [١٣ / الرعد / ٤٠] .

« وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى أهل دين واحد وملة واحدة « وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ » أى ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة ، لمنافاة ذلك مايقتضيه حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم . ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم . فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون . فأدخل من شاء فى رحمته وهم المؤمنون ، وفى عذابه ، الكافرين . قال أبو السعود : ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله « وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى والكافرون بالله مالهم من ولىّ يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه ، لأنه يدخلهم فى قهره . وتوصيفهم بالظالمين ، إشارة إلى عدل المؤمنين فى باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال ، وأنه تعالى يواليهم وينصرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

[١٠] (وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى يتولونهم. مع أنه لا ولاية لهم فى الحقيقة، إذ لاقدرة ولا قوة « فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ » أى هو الذى يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد دون غيره ، لتوليه سبحانه كل شىء ، وسلطانه وحكمه . والفاء جواب شرط مقدر . كأنه قيل بعد إنكار كل ولىّ سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولىّ بالحق ، لا ولىّ سواه « وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » أى هو الحي القادر ،

فكيف تستقيم ولاية غيره. وقوله «وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» تمهيد لما يأتى بعد ، من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، الذى هو وصية الله تعالى لأنبيائه ، وشرعته لخلقه . وتنبيه على أن خلاف من خالف من المشركين والكافرين ، إنما مردّه إلى الله تعـالى وحكمه وقضائه . وأنه لا دين إلا دينه ، ولا عبادة إلا عبادته، ولا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ماحرمه. والقصد الرد على مشركى مكة وأمثالهم ، فى تشريعهم مالم يأذن به الله ، وتحكيمهم اتباع الآباء وأفانين الأهواء. فإن السورة مكية . ومع ذلك، فتدل الآية على أن ما اختلف فيه المختلفون وتنازعوا فى شيء من الخصومات، يجب أن يكون التحاكم فيه إلى رسول الله ﷺ ، وأن لا يؤثر على حكومته حكومة غيره. كقوله تعالى[1] (فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ) وتدل أيضا على الرجوع إلى الحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة رسول الله ﷺ ، إذا اختلفوا فى تأويل آية واشتبه عليهم . وعلى تفويض مالم تصل إلى دركه العقول ، إلى الله تعالى، بأن يقال: الله أعلم . كما فى قوله[2] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وقوله «ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى» بتقدير (قل) أو هو حكاية لقوله ﷺ . أى الذى هذه الصفات صفاته ، ربّى لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، التى لا تقدر على شيء « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فى أمورى كلها « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى المعاد ، أو من الذنوب ، أو فى الأمور المعضلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)

« فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى من جنسكم « أَزْوَٰجًا »

---

(١) [٤ / النساء / ٥٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٥] .

أى نساء «وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا» أى أصنافا مختلفة ، أو ذكورا وإناثا « يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » أى يكثركم . من (الذرء) وهو البث . يقال : ذرأ الله الخلق ، بثهم كثّرهم . وفسر بـ (يخلقكم) . وضمير (فِيهِ) للبطن أو الرحم . وقال الزمخشرىّ : أى فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير فى (يَذْرَؤُكُمْ) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيّب مما لا يعقل . فإن قلت : ما معنى يذرؤكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذرؤكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير . انتهى .

وقيل (فى) مستعارة للسببية « لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » قال ابن جرير[1] : فيه وجهان : أحدهما أن يكون معناه : ليس هو كشىء . وأدخل المثل فى الكلام، توكيدا للكلام ، لكونهما بمعنى واحد . والآخر أن يكون معناه : ليس مثله شىء . وتكون الكاف هى المدخلة فى الكلام . انتهى .

وبقى ثالث وهو أن المثل بمعنى الصفة . أى ليس كصفته صفة . ورابع ـ وهو ما عول عليه المحققون ـ أن المراد من (مِثْلِهِ) ذاته . كما فى قولهم : مثلك لا يبخل ، على قصد المبالغة فى نفيه عنه . فإنه إذا نفى عمن يناسبه . كان نفيه عنه أولى . ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له سبحانه . ووجه المبالغة أن الكناية من باب دعوى الشىء ببيّنة . وقد بينت الكناية فى الآية بوجه آخر أشار إليه الشُّمُنّىّ . وهو أنه نفى للشىء بنفى لازمه . لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم . كما يقال : ليس لأخى زيد أخ . فأخو زيد ملزوم . والأخ لازمه . لأنه لا بد لأخى زيد من أخ هو زيد . فنُفِىَ هذا اللازم . والمراد نفى ملزومه . أى ليس لزيد أخ. إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ . هو زيد . فكذا نفى أن يكون لمثل الله مثل . والمراد نفى مثله تعالى ـ إذ لو كان له مثل ، لكان هو تعالى مثل مثله ، لتحقق المماثلة من الجانبين .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فلا يصح نفى مثله (أى نفى مثل ذلك المثل) وبالجملة ، فأطلق نفى مثل المثل ، وأريد لازمه من نفى المثل. قال بعض الأفاضل: طالما كنت أجد فى نفسى من هذا شيئاً. وذلك أن محصل هذا أن نفى المثل لازم لحقيقة الآية . وقد تقرر أولا أنها تقتضى إثباته . ولذا أوّلوها بالأوجه المذكورة . فكيف يعقل أن إثبات الشيء ونفيه يلزمان معاً لشيء واحد ؟ مع تصريحهم بأن تنافى اللوازم يقتضى تنافى الملزومات . وبفرض صحة أن كلا منهما لازم لها ، فقصرها على هذا دون ذاك تحكم. مع أن القصد إبطال دلالتها على المحال . ولا يكفى فيه قولنا إنه غير مراد كما لا يخفى . ثم ظهر أن إثبات المثل ليس لازما لحقيقة الآية قطعا . بل هو محتمل فقط . كما تحتمل نفيه . وإن كان الأول أقرب ، لكن عارضه فى خصوص هذه المادة ، أنه لو كان له مثل الخ . فبطل ذلك الاحتمال من أصله . فالتعويل فى نفى المثل على هذه المقدمة القطعية بخلاف المثال، فافهم ذلك . وقال العصام : هذا ـ أى كون الآية من باب الكناية ـ وجه تلقاه الفحول بالقبول. ورجّحوه بأن الكناية أبلغ من التصريح. وعدم الزيادة أحق بالترجيح . وفيه بحث، وهو أن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل . لأن الشيء ليس مثل مثله . بل المثل المشارك للشيء فى صفةٍ ، مع كون الشيء أقوى منه فيها وبمنزلة الأصل . والمثل بمنزله الملحق به المتقارب منه . انتهى .

ورده السيلكوتىّ فقال : ما قيل إن نفى مثل المثل لا يستلزم نفى المثل لأن مثل الشيء أضعف منه ، فتوهم محض .لأن المماثلة هى الشركة فى أخص الصفات والمساواة فى جميع الوجوه مما به المماثلة . صرّح به فى (شرح العقائد النسفية) انتهى . ومثل هذه اللطائف الأدبية مما تتحلى به أجياد الأفهام . وتتشعب فى أودية بدائعه عيون محاسن الكلام .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية ردّ على المشبهة . وأنه تعالى ليس بجوهر ولا بجسم ولا عرض ولا لون ولا حالّ فى مكان ولا زمان . انتهى .

وكان حقه أن يتم الاستنباط . فكما أن صدر الآية فيه رد على المشبهة ، فكذا تتمتها وهو قوله تعالى (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) رد على المعطلة . ولذا كان أعدل المذاهب مذهب السلف . فإنهم أثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه . وذلك أن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل . فمثلوا أولًا وعطلوا آخراً . فهذا تشبيه وتمثيل منهم ، للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم . فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عز وجل. بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة. فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به نبيّه ﷺ . من غير تحريف ولا تشبيه. قال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) فرد على المشبهة بنفى المثلية . ورد على المعطلة بقوله (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) قال الحافظ ابن عبد البرّ : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة فى الكتاب والسنة، وحملها على الحقيقة لا على المجاز. إلا أنهم لم يكيّفوا شيئاً من ذلك. وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئاً على الحقيقة. ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عند من أقرّ بها نافون للمعبود . انتهى .

قال الذهبيّ : صدق والله ! فإن من تأول سائر الصفات، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أدّاه ذلك السلب إلى تعطيل الرب وأن يشابه المعدوم . كما نقل عن حماد بن زيد أنه قال: مثل الجهمية كقوم قالوا : فى دارنا نخلة . قيل : لها سعف ؟ قالوا : لا . قيل لها كَرَب ؟ قالوا : لا. قيل لها رطب؟ قالوا : لا. قيل : فلها ساق ؟ قالوا : لا. قيل : فما فى داركم نخلة. قلت : كذلك هؤلاء النفاة قالوا إلهنا الله تعالى . وهو لا فى زمان ولا فى مكان ولا يرى ولا يسمع ، ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يرضى ولا يريد ، ولا ولا . وقالوا : سبحان المنزه عن الصفات . بل نقول : سبحان الله العليّ العظيم السميع البصير المريد ، الذى كلم موسى تكليما ، واتخذ إبراهيم خليلا ، ويُرى فى الآخرة ، المتصف بما وصف به نفسه ، ووصفه به

رسله ، المنزه عن سمات المخلوقين وعن جحد الجاحدين . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال الذهبيّ رحمه الله أيضا : مقال متأخرى المتكلمين ، أن الله تعالى ليس فى السماء ولا على العرش ولا على السموات ولا فى الأرض ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا هو بائن عن خلقه ولا متصل بهم . وقالوا: جميع هذه الأشياء صفات الأجسام والله تعالى منزه عن الجسم. قال لهم أهل السنة والأثر : نحن لا نخوض فى ذلك ونقول ما ذكرناه اتباعا للنصوص ولا نقول بقولكم . فإن هذه السلوب نعوت للمعدوم . تعالى الله جل جلاله عن العدم . بل هو موجود متميز عن خلقه ، موصوف بما وصف به نفسه ، من أنه فوق العرش بلا كيف . انتهى .

وقال الإمام ابن تيمية فى (الرسالة التدمرية) فى القاعدة الأولى: إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفى . فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك . والنفى كقوله (لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) وينبغى أن يعلم أن النفى ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا . وإلا فمجرد النفى ليس فيه مدح ولا كمال. لأن النفى المحض عدم محض . والعدم المحض ليس بشيء . وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء ، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا . ولأن النفى المحض يوصف به المعدوم والممتنع . والمعدومُ والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال . فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفى متضمنا لإثبات مدح ، كقوله(1) (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) إلى قوله (وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا) فنفى السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحىّ القيوم وكذلك قوله (وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا) أى لا يكرثه ولا يثقله . وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها . بخلاف المخلوق القادر ، إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة

---

(1) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

ومشقة ، فإن هـذا نقص فى قدرته وعيب فى قوته . وكذلك قوله[١] ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فإن نفى العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة فى السموات والأرض. وكذلك قوله[٢] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فإن نفى مس اللغوب ، الذى هو التعب والإعياء ، دل على كمال القدرة ونهاية القوة. بخلاف المخلوق الذى يلحقه من التعب والـكلال مايلحقه. وكذلك قوله[٣] ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ إنما نفى الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية. لأن المعدوم لا يرى، وليس فى كونه لا يرى مدح. إذ لو كان كذلك لـكان المعدوم ممدوحا . وإنما المدح فى كونه لا يحاط به ، وإنْ رُئِىَ . كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فـكما أنه إذا علم لا يحاط به علمـا ، فـكذلك إذا رُئى لا يحاط به رؤية . فـكان فى نفى الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحا وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها . لـكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفى لا يستلزم ثبوتا، هو مما لم يصف الله به نفسه. فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب، لم يثبتوا فى الحقيقة إلها محمودا ، بل ولا موجودا. وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك . كالذين قالوا لا يتـكلم أو لا يُرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش. ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له، إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست هى صفة مستلزمة صفة ثبوت . ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق : ميّز لنا بين هذا الرب الذى نثبته وبين المعدوم. وكذلك كونه لا يتـكلم أو لا ينزل ، ليس فى ذلك صفة مدح ولا كمال . بل هـذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات. فهذه الصفات منها مالا يتصف به إلا المعدوم ومنها مالا يتصف به إلا الجمادات والناقص. فمن قال لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم، فهو بمنزلة

(١) [٣٤ / سبأ / ٣] . (٢) [٥٠ / قٓ / ٣٨] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٣] .

من قال لاهو قائم بنفسه ولا بغيره ولا قديم ولا محدث ولا متقدم على العالم ولا مقارن له . ومن قال إنه ليس بحيّ ولا سميع ولا بصير ولا متكلم، لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم. فإن قال العمى عدم البصر عما من شأنه أن يقبل البصر، ومالم يقبل البصر كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له هذا اصطلاح اصطلحتموه . وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة . وأيضا فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها . فإن الله قادر على جعل الجماد حيا كما جعل عصا موسى حية ابتلعت الحبال والعصيّ . وأيضا فالذى لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقصا مما يقبل الاتصاف بها مع اتصافه بنقائضها. فالجماد الذى لا يوصف بالبصر ولا العمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقصا من الحى الأعمى الأخرس . فإن قيل إن البارئ لا يمكن اتصافه بذلك ، كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس والعمى والصمم ونحو ذلك . مع أنه إذا جعل غير قابل لها كان تشبيها له بالجماد الذى لا يقبل الاتصاف بواحد منها . وهذا تشبيه بالجمادات لا بالحيوانات . فكيف من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه بالحى . وأيضا فنفس نفى هذه الصفات نقص ، كما أن إثباتها كمال . فالحياة من حيث هى هى ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف بها ، صفة كمال . وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والعقل ونحو ذلك . وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق أن يتصف به من المخلوقات . فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق به ، لكان المخلوق أكمل منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

[١٣] (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ، أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)

« لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أي مفاتيح الأرزاق وخزائن الملك والملكوت « يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أي يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه ، ويقتّر على آخرين « إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ » اعلم أنه تعالى لما عظّم وحيه إلى النبيّ ﷺ بقوله[1] (كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك ، وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له كما قال[2] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وفي الحديث[3]: نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد . يعني : عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم. كقوله تعالى[4] (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا). وتخصيص هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم عليهم السلام ، بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . ولاستمالة قلوب الكفرة ، لاتفاق الكل على نبوّة بعضهم. وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل. والمعنى : شرع لكم من الدين

(١) [٤٢ / الشورى / ٣] .   (٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٣) أخرجه البخاريّ في: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٤٨ ـ باب واذكر في الكتاب مريم، حديث رقم ١٦١٧ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٤٥ (طبعتنا) .

(٤) [٥ / المائدة / ٤٨] .

ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا عليه الصلاة والسلام . والتعبير بالتوصية فيهم والوحى له ، للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هى الشريعة الكاملة . ولذا عبر فيه بـ (ٱلَّذِى) التى هى أصل الموصولات . وإضافه إليه بضمير العظمة، تخصيصاً له ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن وكمال الاعتناء . وهو السر فى تقديمه على مابعده مع تقدمه عليه زمانا « كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » أى من إخلاص العبادة لله وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الأوثان « ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ » وهو من صرف اختياره إلى ما دعى إليه « وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ » أى يوفق للعمل بطاعته واتباع رسله من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه . ثم أشار إلى حال أهل الكتاب ، إثر بيان حال المشركين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

« وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ » أى فى دينهم وصاروا شيعاً « إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ » أى الدلائل الصحيحة والبراهين اليقينية على حقية ما لديهم « بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ » أى ظلما وتعديا وطلباً للرئاسة « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو تأخير العذاب إلى يوم القيامة « لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم ، لاستيجاب جناياتهم لذلك « وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » وهم أهل مكة الذين مَنّ الله عليهم بالكتاب العزيز « لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع لأتباعهم فى الشك ، لكثرة ما يبثونه من الوساوس الصادّة عن سبيل الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ، وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ » أى فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فادع الناس كافة إلى إقامة الدين لمقاومة الباطل ودحره ، وهتك وساوسه « وَاسْتَقِمْ » أى على الدعوة إليه والصدع به « كَمَآ أُمِرْتَ » أى أوحى إليك «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ » أى : أىّ كتاب كان ، لا كالذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم . أفاده أبو السعود « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ » أى لأسوّى بينكم فى دعوة واحدة كما قال تعالى[١] (قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا) الآية. ثم أشار إلى أن ما وراء الأمر المذكور والتبليغ به من الحساب ، فهو إليه تعالى . فقال « اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ » أى لا خصومة ولا محاجة بعد هذا. لأن الحق قد ظهر. ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة. والحجة فى الأصل مصدر بمعنى الاحتجاج. كما ذكره الراغب . وتكون بمعنى الدليل . والمراد هو الأول دون الثانى . وهو ظاهر « اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا » أى يوم القيامة ، فيقضى بالحق فيما اختلفنا فيه « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى المعاد والمرجع للجزاء .

---

(١) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

تنبيهان :

الأول ـ تفسير العدل بما ذكرناه، لأنه الذى يقتضيه سياق الكلام لاسيما والسورة مكية. ولم يكن مظهره صلوات الله عليه بها فصل الخصومات والقضاء فى الحكومات. نعم من ذهب إلى ذلك فإنما وقف مع عمومها . ومنه قول قتادة : أُمِر النبيّ ﷺ أن يعدل حتى مات . والعدل ميزان الله فى الأرض . به يأخذ للمظلوم من الظالم. وللضعيف من الشديد . وبالعدل يصدق الله الصادق ويكذب الكاذب . وبالعدل يرد المعتدى ويوبخه .

الثانى ـ قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات. كل منها منفصلة عن التى قبلها. حكم برأسها . قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسيّ. فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

« وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ » أى يخاصمون فى دينه الذى ابتعث به خاتم أنبيائه ، وهم الذين أورثوا الكتاب، المذكورون قبل ، ليصدوا عن الهدى طمعاً فى عود الجاهية « مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ » أى استجاب له الناس. أى بالاستسلام والانقياد لدينه حسبما قادهم إليه العقل السليم والنظر الصحيح وسيرة الداعى وهديه وحسن دعوته وتصديق الكتب المنزلة له وسلامة الفطرة « حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ » أى زائلة لأنها فى باطل . والباطل لا بقاء له مع قوة الحق « عِندَ رَبِّهِمْ » أى فى حكمه وقضائه وتقديره. قال أبو السعود: وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل « وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ » أى عظيم، لمكابرتهم الحق بعد ظهوره « وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ » أى متلبساً به فى أحكامه وأخباره «وَٱلْمِيزَانَ» أى وأنزل الميزان وهو العدل الذى يوزن به الحقوق ويسوّى به الخلاف « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ » قال أبو السعود : أى شىء قريب . أو قريب مجيئها . أو الساعة بمعنى البعث . والمعنى أنها على جناح الإتيان . فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ، أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا » أى خائفون منها . قال ابن جرير[(١)] : لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها « وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ » أى المتحقق وجوده لا محالة « أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ » أى لإنكارهم عدل الله وحكمته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ)

[٢٠] (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

«ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ » أي يلطف بهم في تدبير إيصال ما يفتقرون من خير الدين والدنيا « يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ». قال الزمخشريّ : سمى مايعمله العامل مما يبتغي به الفائدة والزكاء ، حرثاً على المجاز ـ أي بتشبيهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا . ولذلك قيل (الدنيا مزرعة الآخرة) وفرق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة ، وفِّق في عمله وضوعفت حسناته . ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها ، لا ما يريده ويبتغيه ، وهو رزقه الذى قسم له وفرغ منه ، وما له نصيب قط في الآخرة. ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له، واصلٌ إليه لا محالة ـ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب . انتهى . وهذه الآية كآية[1] (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ) الخ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٢] (تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ، لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ)

[٢٣] (ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ، قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)

(١) [١٧ / الإسراء / ١٨] .

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّـهُ» (أَمْ) منقطعة، فيها معنى (بل والهمزة) ولابد من سبق كلام ، خبراً أو إنشاء ، يضرب عنه ويقرر مابعـده . وما سبق قوله[١] (شَرَعَ لَـكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا) الخ فهو معطوف عليه ، وما بينهما من تتمة الأول . والمراد بشركائهم ، إما شياطينهم لأنهم شاركوهم فى الـكفر وحملوهم عليه . وإما أوثانهم . وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء وإن لم تـكن كذلك فى الحقيقة . وعلى الثانى ، فإسناد الشرع إليها ، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم بما تدينوا به . أو لأنها على صورة المشرّع الذى سنّ هذا الضلال لهم . ويجوز كون الاستفهام المقدّر حينئذ للإنـكار . أى ليس لهم شرع ولا شارع. كما فى قوله[٢] (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) « وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ » أى القضاء السابق بأن الجزاء فى القيامة لا فى الدنيا . أو لولا ما وعدهم الله به من أنه يفصل بينهم ويبيّن فى الآخرة. فالفصل بمعنى البيان « لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ » أى لفرغ من الحـكم بين الـكافرين والمؤمنين ، بتعجيل العذاب للـكافرين «وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى يوم البعث « مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ » أى من السيئات « وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ» أى نازل بهم لامحالة «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْـكَبِيرُ * ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّـهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُـكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لاأسألـكم على دعايتكم إلى ماأدعوكم إليه من الحق الذى جئتكم به، والنصيحة التى أنصحكم ، ثوابا وجزاء وعوضا من أموالـكم تعطونيه « إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ » أى أن تودونى فى القرابة التى بينى وبينكم ، وتصلوا الرحم التى بيننا. ولا يكن غيركم، يامعشر قريش، أولى بحفظى ونصرتى ومودتى منـكم .

قال الشهاب : المودة مصدر مقدر بـ (أن والفعل) . والقربى مصدر كالقرابة. و (فى)

(١) [٤٢ / الشورى / ١٣] .	(٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

للسببية . وهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة . والخطاب ، إما لقريش أو لجميع العرب ، لأنهم أقرباء فى الجملة . انتهى. والاستثناء منقطع. ومعناه نفى الأجر أصلا. لأن ثمرة مودتهم عائدة إليهم ، لكونها سبب نجاتهم . فلا تصلح أن تكون أجراً له . وقيل : المعنى أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم . وقيل (ٱلْقُرْبَىٰ) التقرّب إلى الله تعالى . أى إلا أن تتوددوا إلى الله فيما يقربكم إليه . والمعنى الأول هو الذى عوّل عليه الأئمة . ولم يرتض ابن عباس رضى الله عنه ، غيره. فى البخارىّ[1] عنه ، رضى الله عنه ؛ أنه سئل عن قوله تعالى (إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) فقال سعيد بن جبير : القربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت. إن النبىّ ﷺ ، لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

قال ابن كثير : انفرد به البخارىّ ـ أى عن مسلم ـ ورواه الإمام أحمد . وهكذا روى الشعبىّ والضحاك وعلىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس، رضى الله عنهما ، مثله . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسّدّىّ وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانىّ عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله ﷺ : لاأسألكم عليه أجراً إلا أن تودونى فى نفسى ، لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم. وروى الإمام أحمد[2] عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ قال: لاأسألكم على ماآتيتكم به من البينات والهدى أجرا ، إلا أن تودّوا الله تعالى، وأن تقرّبوا إليه بطاعته. وهكذا روى عن قتادة والحسن البصرىّ مثله . وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٢ ـ سورة الشورى ، ١٠ ـ باب قوله إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ، حديث رقم ١٦٤٣ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
والحديث رقم ٢٤١٥ (طبعة المعارف) .

العباس من الأنصار ، فإسناده ضعيف . على أن السورة مكية . وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية فى هذا السياق مناسبة . وكذا ما رواه ابن أبى حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : فاطمة وولدها رضى الله عنهم ، فإن فى إسناده مبهمالا يعرف، عن شيخ شيعىّ، وهو حسين الأشقر، فلا يقبل خبره فى هذا المحل وذكر نزول الآية فى المدينة بعيد . فإنها مكية. ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضى الله عنها أولاد بالكلية . فإنها لم تتزوج بعلىّ رضى الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة . والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، كما رواه عنه البخارىّ . ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا . ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية . كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه وعلىّ وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين وقد ثبت فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته: إنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتى. وإنهما لم يفترقا حتى يردا علىّ الحوض . وروى الإمام أحمد[2] عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ! إن قريشاً إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن. وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . قال فغضب النبىّ ﷺ غضبا شديدا وقال: والذى نفسى بيده! لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله . هذا ملخّص ما أورده ابن كثير رحمه الله تعالى ، وسبقه فى الإيساع فى ذلك تقىّ الدين ابن تيمية فى (منهاج السنة) من أوجه عديدة . قال فى الوجه الثالث : إن هذه الآية فى سورة الشورى. وهى مكية باتفاق أهل السنة.

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) .
والحديث رقم ١٧٧٢ (طبعة المعارف) .

بل جميع آل حم مكيات . وكذلك آل طس . ومن المعلوم أن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر . والحسن ولد فى السنة الثالثة من الهجرة . والحسين فى السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة . فكيف يفسر النبى ﷺ الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق .

ثم قال: الوجه الرابع ـ إن تفسير الآية الذى فى الصحيحين عن ابن عباس يناقض ذلك. فهذا ابن عباس ترجمان القرآن وأعلم أهل البيت ، بعد علىّ ، يقول : ليس معناها مودة ذوى القربى. ولكن معناها لا أسألكم يامعشر العرب ويا معشر قريش عليه أجرا. لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التى بينى وبينكم. فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أوّلا ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلّغ رسالة ربه. الوجه الخامس ـ أنه قال : (لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) لم يقل إلا المودة للقربى ولا المودة لذوى القربى. فلو أراد المودة لذوى القربى لقال المودة لذوى القربى كما قال[١] (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ) وقال[٢] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ) وكذلك قوله[٣] (وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ) وقوله[٤] (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ)وهكذا فى غير موضع. فجميع ما فى القرآن من التوصية بحقوق ذوى قربى النبى ﷺ ، وذوى قربى الإنسان ، إنما قيل فيها (ذوى القربى) . لم يقل (فى القربى). فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم، دل على أنه لم يرد (ذوى القربى) .الوجه السادس ـ أنه لو أريد المودة لهم لقال : المودّة لذوى القربى، ولم يقل فى القربى .فإنه لا يقول من طلب المودة لغيره: أسألك المودة فى فلان، ولا فى قربى فلان. ولكن أسألك المودة لفلان، والمحبة لفلان . فلما قال المودة فى القربى، علم أنه ليس المراد لذوى القربى.

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٩ [الحشر / ٧] .
(٣) [١٧ / الإسراء / ٢٦] . (٤) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

الوجه السابع ـ أن يقال إن النبيّ ﷺ لايسأل على تبليغ رسالة ربه أجرا البتة . بل أجره على الله كما قال[١] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُـكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَـا مِنَ ٱلْمُتَـكَلِّفِينَ) وقوله[٢] (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) وقوله[٣] (قُلْ مَا سَأَلْتُـكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَـكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّـهِ) ولـكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال[٤] (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُـكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا) ولا ريب أن محبة أهل بيت النبيّ ﷺ واجبة . لـكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية ، ولا محبتهم أجر للنبيّ ﷺ . بل هو مما أمرنا الله به كما أمرنا بسائر العبادات . وفى الصحيح[٥] عنه أنه خطب أصحابه بغدير يدعى (خما) بين مكة والمدينة فقال (أذكركم الله فى أهل بيتى) وفى السنن[٦] عنه أنه قال (والذى نفسى بيده ! لايدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتى) فمن جعل محبة أهل بيته أجرا له يوفيه إياه ، فقد أخطأ خطأً عظيما . ولو كان أجرا له لم نُثَبْ عليه نحن ، لأنا أعطيناه أجره الذى يستحقه بالرسالة . فهل يقول مسلم مثل هذا ؟؟؟

الوجه الثامن ـ إن (القربى) معرفة باللام. فلابد أن يكون معروفا عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم (لَّآ أَسْـَٔلُـكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) وقد ذكر أنها لما نزلت، لم يكن قد خلق الحسن والحسين ، ولا تزوج عليّ بفاطمة . فالقربى التى كان المخاطبون يعرفونها ، يمتنع أن تـكون هذه . بخلاف القربى التى بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول (لاأسألك إلا المودة فى الرحم التى بيننا) وكما تقول (لاأسألك إلا العدل بيننا وبينـكم) (ولا أسألك إلا أن

(١) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٠] و [٦٨ / القلم / ٤٦] .
(٣) [٣٤ / سبأ / ٤٧] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٥٧] .
(٥) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ). والحديث رقم ١٧٧٧ (طبعة المعارف) .

تتق الله فى هذا الأمر) . انتهى « وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » أى يكتسب طاعة « نَّزِدْ لَهُو فِيهَا حُسْنًا » أى بمضاعفته « إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ » أى لمن تاب وأناب « شَكُورٌ » لسعيهم بتضعيف جزاء حسناته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ، فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

« أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى بدعوى النبوة والوحى « فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ » قال ابن كثير : أى : لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، يختم على قلبك. أى : يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن. كقوله[1] جل جلاله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ) أى لا نتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. انتهى .

وهذا تفسير بالأشباه والنظائر من الآيات، يؤثره كثير من الأئمة، ما وجد إليه سبيلا. فإن التنزيل يفسّر بعضه بعضا. ومآل الآية على هذا المعنى، كما أوضحه أبو السعود، هو الاستشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى، لمنعه من ذلك قطعا، بختم على قلبه بحيث لم يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه. وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحى حينا فحينا ، تبين أنه من عند الله تعالى .

وقال الزمخشرىّ: فإن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفترى عليه الكذب. فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله ، إلا من كان فى مثل حالهم . وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وإنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى الجملة المختوم على

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ـ٤٧] .

قلوبهم . ومثل هذا أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلني . لعل الله أعمى قلبي . وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب . و إنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه رُكِب من تخوينه أمرٌ عظيم . انتهى .

قال الشهاب : فمعناه ؛ إن يشأ الله يختم على قلبك كما فعل بهم . فهو تسلية له صلوات الله عليه ، وتذكير لإحسانه إليه وإكرامه ، ليشكر ربه ويترحم على من ختم على قلبه ، فاستحق غضب ربه ، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر . ولذا أتى (بأن) في موضع (لو) إرخاء للعنان ، وتلميحا للبرهان. على أنه لا يتصور وصفه بما ذكروه . فالتفريع بالنظر للمعنى المكنيّ عنه . وحاصله أنهم اجترؤوا على هذا المحال، لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى «وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ» استئناف مقرر لنفي الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لمحقه . إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه . فليس (يمح) مجزوما بالعطف على الجزاء ، بل معطوف على مجموع الجملة والكلام السابق . ولذا أعيد لفظ الجلالة ورفع (يحق) . قال الزمخشريّ : ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ ، بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن ، وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم . إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

«وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ» أي يقبل رجوعه إذا راجع توحيد الله وطاعته، من بعد كفره « وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ » أي معاصيه التي تاب منها «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» أي من خير أو شر ، وهو مجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ، وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

[٢٧] (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

«وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى يستجيب لهم . فحذف اللام كما حذف فى قوله تعالى[1] (وَإِذَا كَالُوهُمْ) أى يثيبهم على طاعتهم «وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ» أى على ثوابهم ، منةً منه وطَوْلًا «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» أى تجاوزوا الحدّ الذى حدّه لهم إلى غيره ، بركوبهم ما حظره عليهم . لأن الغنى مَبْطَرَة مَأْشَرَة[2] (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) «وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ» أى ولكن ينزل من رزقه ما يشاؤه بقدرٍ ، لكفايتهم «إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» قال الزمخشرىّ : أى يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيُفقر ويُغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)

«وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ» أى بركات الغيث

---

(١) [٨٣ / المطففين / ٣] .   (٢) [٩٦ / العلق / ٦و٧] .

ومنافعه وآثاره من الخصب والرخاء «وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ» أى الذى يتولى الخلق بإحسانه ، والمحمود على أياديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ)

«وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ» أى حشرهم يوم القيامة «إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ» أى متمكن منه، لا يتعذر عليه وإن تفرقت أوصالهم.

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى معنى آخر فى هذه الآية . وعبارته : يفهم من هذه الآية أن الله تعالى خلق فى السموات دواب ، ويستدل من قوله تعالى[1] (وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ) أن هذه الدواب ليست ملائكة كما قال المفسرون ، بل حيوانات كحيوانات الأرض . ولا يبعد أن يكون بينهم حيوان عاقل كالإنسان ، ويلزم لحياة تلك الحيوانات أن يكون فى السموات نباتات وأشجار وبحار وأنهار كما تحقق فى هذا العصر لدى علماء الرصد .

ثم قال: لعمرى، إن هذه الآية التى نزلت على محمد ﷺ قبل ألف وثلاثمائة وعشرين سنة، لآية لأهل هذا العصر وأيّة آية ، آية لأهل العلم والفلسفة الذين يبذلون الأموال والأرواح بلا حدّ ولا حساب ، ليتوصلوا إلى معرفة سر من أسرار الكائنات . ومع هذا الجدّ العنيف والجهد المتواصل منذ ثلاثمائة سنة ، لم يتوصلوا إلا بالظن إلى ما أنبأت به هذه الآية .

(١) [٢٤ / النور / ٤٥] .

وجل ما توصلوا إليه بالبرهان العقلىّ ، إن الأرض أصغر من الشمس وأنها تدور حولها .وإن الـكواكب السيارات كريّات . وأن النجوم الثوابت شموس، ولها سيارات تدور حولها. ولما ثبت لديهم جميعا وجود الماء والهواء، وحصول الصيف والشتاء فى هذه السيارات ، ظنوا أنه يوجد فيها عالم كعالم الأرض . وبدأ البعض منهم يفـكرون بإيجاد الوسائل للمخابرة بالـكهربائية مع سكان المريخ الذى هو أقرب السيارات إلينا . وليس ذلك بالمستحيل فناًّ . ويستدل على إمكانيته من آخر الآية نفسها وهو قوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ)فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فـكرا ، إذا لم يجتمعا جسما . فلينظر الفلـكيون إلى ما حوته هذه الآية المـكنوزة فى القرآن . وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية ، الضاربون صفحا عن العلوم الإسلامية ، ما فى كتاب الله من الحـكمة والبيان .

وقال أيضا : لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين، أولا وبالذات . لـكن، تمهيدا لهذه السبيل، أتى بشذرات من العلوم الفلـكية والطبيعية ، وصرف بصائر الناس إلى التفكر فى خلق السموات والأرض ، وما هن عليه من الإبداع . فوجه أبصارهم إلى التأمّل فى خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب ، إلى غير ذلك من الأمور الفلـكية والطبيعية فى أكثر من ثلاثمائة آية. فالمفسرون رحمهم الله ، لما فسروا هذه الآيات، شرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلـكية والطبيعية . ولا يخفى ما كانت عليه هـــذه الآلات فى زمنهم من النقصان . لا سيما علم الفلك . فهم معذرون إذا لم يفهموا معانى هـذه الآيات التى تحيّر عقول فلاسفة هذا العصر ، المتضلعين بالعلوم العقلية. لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها ، بل أوّلوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى المجاز أو الـكناية . انتهى كلامه.

وقال عالم فلـكىّ أيضا : يقول العلماء إنه من المحقق أن هذه السيارات مسكونة بحيوانات تشبه الحيوانات التى على أرضنا هذه ، ويكون كل كوكب منها أرضا بالنسبة لحيواناته. وباقى الـكواكب سماوات بالنسبة لها .

قال : والظاهر أن القول بوجود الحيوانات فى هذه الكواكب صحيح . لأن الله تعالى يقول فى كتابه[1] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) ويقول[2] (يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)

« وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » أى فبسبب معاصيكم وما اجترمتم من الآثام . « وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ » أى من الذنوب فلا يعاقب عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجزين ربكم إن أراد عقوبتكم ، لأنكم فى قبضة تصرّفه « وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى إذا أراد عذابكم . فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ)

[٣٣] (إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ » أى السفن الجارية « فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ » أى الجبال

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٩] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٩] .

« إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ » أى فيبقين ثوابت على ظهر البحر « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فى جرى هذه الجوارى فى البحر ، بتسخير الله تعالى الريح لجريها « لَأَيَٰتٍ » أى لعبرة وعظة وحجة بيّنة على القدرة الأزلية « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى لكل مؤمن . وإنما آثر وصفيه المذكورين ، تذكيراً بما ينبغى أن يكون المؤمن عليه من وفرة الصبر وكثرة الشكر . إذ لا يكمل الإيمان بدونهما (والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ)

[٣٥] (وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)

« أَوْ يُوبِقْهُنَّ » أى أو يهلكهن بالغرق « بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ » وقوله تعالى « وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ » عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم (وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ) أى يخاصمون الرسول فى آياته على توحيده أنهم ما لهم من محيد عن عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٣٧] (وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ)

[٣٨] (وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)

«فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ» أى مما زيّن للناس حبه من الشهوات « فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» أى فهو متاع لـكم ، تتمتعون به فى الدنيا . وليس من الآخرة «وَمَا عِندَ ٱللَّـهِ» أى من ثوابه الأخروىّ «خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى فى أمورهم وقيـامهم بأسبابهم « وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ » أى يصفحون عمن أساء إليهم « وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ» أى حينما دعاهم إلى توحيده، والبراءة من عبادة غيره «وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » أى لاينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليـه . وذلك من فرط تدبّرهم وتيقظهم، وصدق تآخيهم فى إيمانهم وتحابّهم فى الله تعالى «وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ » أى فيؤدّون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها ، من زكاة ونفقة . وما ندبوا إليه من مواساة وصدقة ومعونة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ)

«وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ» أى بالعدالة. احترازاً عن الذلة والانظلام، لـكونهم فى مقام الاستقامة ، قائمين بالحق والعدل الذى ظلّه فى نفوسهم . قاله القاشانىّ . وقال ابن جرير(١) : اختلف أهل التأويل فى الباغى الذى حمد تعالى ذكره ، المنتصر منه بعد بغيه عليه . فقال بعضهم : هو المشرك إذا بغى على المسلم . وقال آخرون: بل هو كل باغ بغى فحمد المنتصر منه . وإليه ذهب السّدّىّ حيث قال : ينتصرون ممن بغى عليهم من غـير أن يعتدوا .

قال ابن جرير : وهذا القول الثانى أولى فى ذلك بالصواب. لأن الله لم يخصص من ذلك معنى دون معنى . بل حمد كل منتصر بحقٍّ ممن بغى عليه . فإن قال قائل : وما فى الانتصار

(١) انظر الصفحة رقم ٢٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

من المدح ؟ قيل : إن في إقامة الظالم على سبيل الحق ، وعقوبته بما هو له أهل ، تقويما له . وفي ذلك أعظم المدح . انتهى . وكذا قال الزمخشريّ . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار؟ قلت : نعم . لأن من أخذ حقه غير متعد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل ، إن كان وليّ دم ، أو ردّ على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود . قال النخعيّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق . ثم أشار تعالى إلى أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

[٤١] (وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ)

[٤٢] (إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا» أي وجزاء سيئة المسيء ما ماثلها . إذ النقصان حيف والزيادة ظلم . ثم بيّن تعالى أن العفو أولى ، فقال « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ » أي بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء « فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ » أي ثوابه عليه . وفي إبهامه ، ما يدل على عظمه . حيث جعل حقا على العظيم الكريم « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أي البادئين بالسيئة والمعتدين في الانتقام « وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ » أي بعد ما ظلم . فالمصدر مضاف لمفعوله ، أو هو مصدر المبنيّ للمفعول « فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ » أي للمعاقب ، ولا للعاتب والعائب . لأنهم انتصروا منهم بحق . ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه ، ولم يتعد ولم يظلم ، فكيف يكون عليه سبيل؟ « إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ » أي يبدءوهم بالظلم والإضرار ،

أو يعتدون فى الانتقام « وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أى يتكبرون فيها ويفسدون « أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : بسبب ظلمهم وبغيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ)

« وَلَمَن صَبَرَ » أى على الأذى « وَغَفَرَ » أى لمن ظلمه ولم ينتصر « إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » أى التى ندب الله عباده ، وعزم عليهم العمل بها .

تنبيه :

نقل السيوطىّ فى (الإكليل) عن الكيا الهراسىّ أنه قال : قد ندب الله إلى العفو فى مواضع من كتابه ، وظاهر هذه الآية (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ » أن الانتصار أفضل . قال ، وهو محمول على من تعدى وأصرّ ، لئلا يتجرأ الفساق على أهل الدين . وآيات العفو فيمن ندم وأقلع . انتهى . وعجيب فهمه الأفضلية من الآية ، فإنها لا تدل عليه ، عبارة ولا إشارة . فإنه تعالى لم يرغب فى الانتصار . وإنما بين أنه مشروع لهم إذا شاءوا . ثم بين بعده أن مشروعيته بشرط رعاية المماثلة . ثم بين أن العفو أولى ، وهو الذى انتهى إليه الكلام ، ، وتم به السياق . وكذلك لا حاجة إلى حمل الانتصار على من تعدى . وذلك لأن الانتصار بالمثل من فروع علم العقوبات والجزاء المشروعة لإقامة الحق والعدل ، ودفع الظلم عن النفس والصغار ، ورفع الأحقاد والأضغان . وأما العفو والصفح ، فذاك من فروع علم الأخلاق وتهذيب النفوس . لأنه من باب المسامحة بالحق وإسقاط المستحق ، رغبة فى تزكية النفس وهضما لها وحرصا على خير الأمرين وأوفر الأجرين . وكلاهما من محاسن الشريعة الحنيفية ، وتوسطها بين الاقتصاص البتة والعفو كليًّا ؛ لأن العقل السليم يرى فيهما إفراطا وتفريطا . والدين دين الفطرة . وهى تتقاضى القصاص بالمثل ، وتراه حقا لها بجبلّتها والقضاء الأدبىّ والوازع الرحمانىّ يرشدها إلى ما هو أمثل إن شاءت ، ويبرهن لها أمثليته ،

مما لا يبعد، إذا راجعت نفسها وثابت إلى رشدها، أن تؤثره ولا تؤثر عليه . كيف ؟ وقد دل قوله تعالى (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ) كما قال الزمخشريّ ، على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتـداء ، خصوصا فى حال الحرد والتهاب الحمية . فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ، وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)

« وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ » أى : ومن خذله عن الرشاد ، فليس له من ولىّ يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه « وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ » أى رجعة إلى الدنيا . وذلك استعتاب منهم فى غير وقته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ)

[٤٦] (وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ)

[٤٧] (ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ)

« وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى النار « خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ » أى من طرف قد خفى من ذله وصغاره « وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى بالتعريض للعذاب المخلد، وتفويت النعيم المؤبد «أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ *وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ * ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم » أى أجيبوا أيها الناس داعى الله وآمنوا به « مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ » أى لا يرده الله بعد ما حكم به . فـ « من » صلة (مَرَدَّ) أو هى صلة (يَأْتِىَ) أى من قبل أن يأتى يوم من الله لا يمكن ردّه « مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ » أى إنكار لما اقترفتموه ، لأنه محصىّ عليكم . أو نكير ينكر على الله فى مؤاخذتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ، وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » أى رقيباً تحفظ عليهم أعمالهم وتحصيها « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ » أى إبلاغهم ما أرسلت به ، فإذا فعلت فقد قضيت ما عليك « وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ » أى جحودٌ نعمَ ربه ، فلا يذكر إلا البؤس والبلاء ، ولا يتفكر إلا فيما أنزله به من الفساد والشقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ)

[٥٠] (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا، وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا، إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)

« لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » أى إنه تعالى يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة . وتقديمُ الإناث ، إما لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن، تنبيهاً بأنهن سبب لتكثير مخلوقاته، فلا يجوز الحزن من ولادتهن وكراهتهن ، كما يشاهد من بعض الجهلة . وقال الثعالبىّ : إنه إشارة إلى ما فى تقدم ولادتهن من اليمن (ومن يمن المرأة تبكيرها بأنثى) .

قال الشهاب : والضمير فى (يُزَوِّجُهُمْ) للأولاد ، وما بعده حال منه ، أو مفعول ثان إن ضمّن معنى التصيير. يعنى يجعل أولاد من يشاء ذكورا وإناثا مزدوجين. كما يفرد بعضهم بالذكور وبعضهم بالإناث . ويجعل بعضهم لا أولاد له أصلا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ، إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ)

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا» أى إلهاما وقذفا فى القلب منه، بلا واسطة « أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ » أى يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى عليه السلام «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا » أى من ملائكته كجبريل «فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ» أى فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه، ما يشاء إيحاءه، من أمر ونهى وغير ذلك، على سبيل

الإلقاء والنفث فى الروع والإلهام ، أو الهتاف أو المنام « إِنَّهُۥ عَلِيٌّ » أى من أن يواجه ويخاطب . بل يفنى ويتلاشى من يواجهه ، لعلوّه من أن يبقى معه غيره ، أو يحتمل شيء حضوره . قاله القاشانىّ .

وقال المهايمىّ : أى لا يبلغ البشر حد مكالمته شفاها ، ولا يحتمل سماع كلامه مع رؤيته . انتهى. « حَكِيمٌ » أى يدبر بالحكمة وجوه التكليم ، ليظهر علمه فى تفصيل المظاهر ، ويكمل به عباده ، ويهتدوا إليه ويعرفوه . وقال المهايمىّ : أى حكيم فى تبليغ كلامه العلىّ إلى البشر الضعيف .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلت بالآية ، عائشة رضى الله عنها ، على أن النبىّ ﷺ لم ير ربه . واستدل مالك بقوله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) على أن من حلف لا يكلم زيدا ، فأرسل إليه رسولا أو كتابا ، أنه يحنث . لأنه تعالى استثناه من الكلام ، فدل على أنه منه . انتهى . وفيه بعد . إذ لا يقال لمن ألهمه الله ، إنه كلمه إلا مجازا . فلا يكون الاستثناء متصلا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٥٣] (صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ)

« وَكَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإيحاء على الطرق الثلاثة « أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » أى وحيا من أمرنا . وسمّاه روحا لأنه تحيا به القلوب الميتة . قال الشهاب : فهو استعارة أو مجاز مرسل ، لما فيه من الهداية والعلم الذى هو كالحياة . وقيل : هو جبريل .

و (أَوْحَيْنَآ) مضمن معنى (أَرْسَلْنَا) . والمعنى : أرسلناه إليك بالوحى « مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ » أى الروح أو الكتاب أو الإيمان « نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا » أى بالتوفيق للقبول والنظر فيه « وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقا وملكا « أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ » أى فى الآخرة . فيقضى بينهم بالعدل . إذ لا حاكم سواه ، فيجازى كلا بما يستحقه من ثواب أو عقاب . نسأله تعالى أن يحسن لنا المآب . إنه الكريم الوهاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٣ - سورة الزخرف

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا في غاية الخسة في نفسها ، وغاية العداوة مع ربّها ، بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايميّ . وهي مكية . قيل : إلا آية[1] (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ) وآيها تسع وثمانون .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى معانيه ومواعظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ)

« وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ » أى رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها « حَكِيمٌ » أى ذو الحكمة الجامعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)

« أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ » أى أنهملكم ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتيج إلى التذكير . بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء فى زمان الفترة . قاله القاشانىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ)

[٧] (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨] (فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا » أى قوة « وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم فى تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم . أى فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حلّ بسلفهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ)

[١٠] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا » أى مهادا تستقرون عليها « وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا » أى طرقا تتطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعايشكم ومتاجركم « لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)

«وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ» أى بمقدار الحاجة إليه. فلم يجعله طوفانا يهلك،

ولا رذاذا لا ينبت، بل غيثا مغيثا « فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أحيينا به بلدة ميتا من النبات، قد درست من الجدب وعفت من القحط « كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ » أى من بعد فنائكم ومصيركم بالأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ)

[١٣] (لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ)

[١٤] (وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ)

« وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا » أى خلق كل شىء فزوّجه، فجعل منه الذكر والأنثى « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ » أى من السفن والبهائم ما تركبونه « لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين « وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ » أى لصائرون إليه ، وراجعون بعد مماتنا .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة. وكان ﷺ يقوله كلما استوى على راحلته أو دابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ، إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)

« وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا » أى جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا. وذلك

قولهم للملائكة (هم بنات الله) قال القاشانيّ : أى اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرهما . وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له، الذى هو بعض من الوالد ،مماثل له فى النوع ، لكونهم ظاهريين جسمانيين ، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال،ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات ، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة ، فضلا عن ذات الله تعالى . فكل ماتصوروا وتخيلوا ، كان شيئاً جسمانيا . ولهذا كذبوا الأنبياء فى إثبات الآخرة والبعث والنشور ، وكل مايتعلق بالمعاد . إذ لايتعدى إدراكهم الحياة الدنيا ، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية ، أمورَ المعاش . فلا مناسبة أصلا بين ذواتهم وذوات الأنبياء ، إلا فى ظاهر البشرية . فلا حاجة إلى ما وراءها . انتهى « إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » أى لجحودٌ نعمَ ربه ، التى أنعمها عليه . يبين كفرانه لمن تدبر حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ)

« أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ » أى : بل اتخذ . والهمزة للإنكار تجهيلا لهم . وتعجيبا من شأنهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور . على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث ، وأمقتهم لهن . ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن . كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة ، فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما ، وترك له شرهما وأدناهما ؟ قاله الزمخشريّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا » أى من البنات « ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا » أى من الكآبة والغم والحزن « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء قلبه من الكرب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

« أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ » أى تربى فى الزينة ، يعنى البنات « وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ » أى فى المجادلة « غَيْرُ مُبِينٍ » أى لمن خاصمة ببرهان وحجة ، لعجزه وضعفه . والمعنى :أومن كان كذلك جعلتموه جزءا لله من خلقه ، وزعمتم أنه نصيبه منهم ؟

تنبيه :

قال إلكيا الهراسى : فيه دليل على إباحة الحلى للنساء . وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء ، فلم ير به بأسا ، وتلا هذه الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ)

« وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا » أى جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ويقدسونه ، إناثا . فقالوا (هم بنات الله) جهلا منهم بحق الله سبحانه ، وجراءةً منهم على قيل الكذب .

قال القاشانى : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء فى إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية ـ توهموا أنوثتها فى الحقيقة ، التى هى بإزاء الذكورة فى الحيوان مع اختصاصها بالله . فجعلوها بنات . وقلما يعتقدها العامى إلا صوراً إنسية لطيفة فى غاية الحسن . انتهى . « أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ » أى أحضروا خلق الله إياهم فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم « سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ » أى على الملائكة بما هم مبرءون عنه « وَيُسْـَٔلُونَ » أى عنها يوم القيامة ، بأن

يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا . وفيه من الوعيدما فيه. لأن كتابتها، والسؤال عنها ، يقتضى العقاب والمجازاة عليها ، وهو المراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ، مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[٢١] (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ)

«وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ* أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ» هذا بيان لضلالهم آخر، فى جدلهم وخصامهم وتعنتهم . وقد استدل المعتزلة بظاهر الآية فى أنه تعالى لايشاء الشرور والمعاصى. وأهل السنة تأوّلوا الآية بما يلاقى العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شىء ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هـذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا ، آثرت أن أنقل هنا مالمحقق المفسرين ، جرياً على قاعدتنا فى التقاط نفائس ما للمتقدم، وتحلية مصنفاتنا بها ، فنقول : قال القاشانىّ : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى، افترضوه وجعلوه ذريعة فى الإنكار . وقالوا ذلك لاعن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردّهم الله تعالى بقوله (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسعهم إلا عبادته دون غيره . إذ لا يرون حينئذ لغيره نفعا ولا ضرًّا (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لتكذيبهم أنفسهم فى هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم وخوّفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود[١] (إن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ) ولمّا خوّفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم، أجاب بقوله[٢] (وَلَآ

(١) [١١ / هود / ٥٤] .   (٢) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا) إلى قوله[1] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ) انتهى .

وفى البيضاوىّ وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهى عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة . ويمتنع كونها منهيا عنها أو قبيحة . وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض ، حسنا كان أو قبيحا . ولذلك جهلهم فى استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جهلهم ذلك دليلا على امتناع النهى عن عبادتهم، أو على حسنها : لا إلى هذا القول. فإنه كلمة حق أريد بها باطل . انتهى.

وقال الناصر فى (الانتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول: إن كل شىء بمشيئته تعالى، حتى الضلالة والهدى ، اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل . فى أمثال قوله تعالى[2] (يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا . فنقول : إذا قال الكافر (لو شاء الله ما كفرت) فهذه كلمة حق أراد بها باطلا ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلا، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهما أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل ، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته .

ثم قال : فإذا وضح ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه. لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حجتهم ، وأكذب أمنيتهم ، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال[3] (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) و(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير . وذلك قوله تعالى

---

(١) [٦ / الأنعام / ٨١] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٣] و [٣٥ / فاطر / ٨] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

فى سورة الأنعام[١] (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل ، والإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم[١] (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا) فشبه تعالى حالهم فى الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلّب وخيال مكذب ، فقال[١] (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ثم لما أبطل أن يكون لهم فى مقالتهم حجة على الله ، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله[٢] (فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا فى احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة فى نفسها كذب . فقال[٢] (فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) وهو معنى قولهم (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم . بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا . فهذا هو الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والنور اللائح والمنهج الواضح . والذى يدحض به حجة هؤلاء ، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم ، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها . من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف . لأنها اختيارية . يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية . فهذه الآية أقامت الحجة . ووضحت ، لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة ، المحجة . ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم فى سلك الأفهام الكثيفة . فلا جرم أن أفهامهم تبددت . وأفكارهم تبدلت . فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه . وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار . وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب . أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطا .

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى . فانتهجوا سبل السلام . وساروا ورائد التوفيق لهم إمام . مستضيئين بأنوار العقول المرشدة ، إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته . ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة . لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة . لكنها قدرة تقارن بلا تأثير . وتميز بين الضروريّ والاختياريّ في التصور . فهذا هو التحقيق . والله ولي التوفيق : انتهى .

وقد سبق في آية (الأنعام) نقولٌ عن الأئمة في الآية مسهبة : فراجعها إن شئت . وقوله تعالى (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ) أي من قبل هذا القرآن (فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ) أي يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك . نظير قوله تعالى في الآية الأخرى[1] (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ) يعني بالعلم كتابا موحى فيه ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ)

«بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ» أي لا حجة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجهلة مثلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ)

«وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ» أي كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل مَن قبلهم من أهل الكفر بالله .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

قال القاضي : وفيه تسلية له ﷺ ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضا لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَٰلَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ، قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

« قَٰلَ » وقرئ قل « أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ » أي جاحدون منكرون، وإن كان أهدى. إقناطا للمنذر من أن ينظروا أو يتفكروا فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)

« فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ » أي بعذاب الاستئصال « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أي آخر أمرهم ، مما أصبح مثلا وعبرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ » قال القاضي : أي اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرّأ عن التقليد وتمسّك بالدليل . أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بدٌّ من التقليد، فإنه أشرف آبائهم « لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ » أي بريء من عبادتكم أو معبودكم . و (بَرَآءٌ) بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعتاق ، أريد به معنى الوصف مبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة مبالغة، كطوال و كرام، بضم الطاء والكاف . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ)

« إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى » استثناء منقطع أو متصل . على أن (ما) يعمّ أولى العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. أو (إلا) بمعنى (غير) صفة لـ(ما). أى إننى برىء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى . أى خلقنى « فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ » أى للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء (يَهْدِينِ) بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع فى الموضعين للاستمرار. وإما للتسويف والاستقبال، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولًا . فيتغاير ما فى الآيتين من الحكاية أو المحكىّ ، بناء على تكرر قصته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَجَعَلَهَا » أى شهادة التوحيد « كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ » أى موصى بها ، موروثة متداولة محفوظة. كقوله تعالى(١) (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى لكى يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيده فى سائر شؤونهم . أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ » يعنى أهل مكة « وَءَابَآءَهُمْ » أى من قبلهم بالحياة، فلم أعاجلهم على كفرهم « حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ » أى دعوة التوحيد أو القرآن « وَرَسُولٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التى يحتج بها عليهم فى دعوى رسالته .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

«وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ» أى جاحدون . فازدادوا فى ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

« وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ » أى من إحداها ، مكة والطائف . فالتعريف للعهد «عَظِيمٍ» أى بالجاه والمال . فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم . قال القاضى : ولم يعلموا أنهـــا رتبة روحانية . تستدعى عظم النفس ، بالتحلّى بالفضائل والـكمالات القدسية ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٢] (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» إنـكار، فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم فيما لا يتولّاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوّة « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى فجعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ» أى بالغنى «فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم » يعنى الغنى « بَعْضًا » يعنى الفقير « سُخْرِيًّا » أى مسخرا فى العمـــل ، وما به قوام المعايش ، والوصول إلى المنافع . لا لـكمالٍ فى الموسّع عليه ، ولا لنقص فى المقتّر عليه. بل لحاجة التضامّ والتآلف ، التى بها ينتظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم اللدنية ،

فليست مما يستدعي سعة ويسارا . لأنها اختصاص إلهيّ ، وفيض رحمانيّ، يمنّ به على أنفس مستعدّيه ، وأرواح قابليه . و (السخريّ) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن (غرفة) وهي الاستخدام والقهر على العمل. « وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » يعني أن النبوّة خير مما يجمعون من الحطام الفاني . أي : والعظيم من أعطيها وحازها ، وهو النبيّ ﷺ . لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة . ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[٣٤] (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ)

[٣٥] (وَزُخْرُفًا ، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أي متفقة على الكفر بالله تعالى . أي لولا كراهة ذلك « لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ » أي لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالمنعم فيزداد عذابا « لِبُيُوتِهِمْ » بدل من (لِمَن) «سُقُفًا» بفتح السين وسكون القاف، وبضمهما، جمعا « مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ » أي مصاعد من فضة «عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» أي يرتقون «وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا » أي من فضة « وَسُرُرًا » أي من فضة « عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفًا » أي : ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفا ، أي زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة . ثم أشار إلى أن لا دلالة في ذلك على فضيلتهم بقوله « وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أي : وما كل هذه الأشياء التي ذكرت، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة، والزخرف، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا « وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » أي: وزين الدار

الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين ، أى الذين اتقوا الله نخافوا عقابه . فجدّوا فى طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايمىّ : يعنى لاخصوصية فى ذاك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإنما الذى يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه . سواء كانت عنده الدنيا أم لا . وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق . بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أى أن كراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور ـ هو ماذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا . والدخولُ فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين. فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء . وغلب الفقر على الغنى . هذا ما قاله الزمخشرىّ .

وعندى أن لا حاجة لتقدير الكراهة . وأن معنى الآية غير ماذكروه . وذلك أن المعنى: لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للترافد والتعاون والتضامّ ، ومابه قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ماذكر من الزين والحلىّ لدخوله تحت القدرة الكاملة . إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود . وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها . وحطًّا لقدر الدنيا وتصغيرا لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة . والأخس قدرا . وخلاصة المعنى : أن خلقهم

أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى (لولا) المطرد ، أن مابعدها أبدا مانع من جوابها . ولذلك يقولون (حرف امتناع لوجود) .

فليس المعنى على ما ذكروه أبدا كما يظهر واضحا لمن أنعم النظر . وبالجملة ، فالآية هـذه تتمة لما قبلها ، في جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة . فبين تعالى حكمته في تفاوت الخلق في الآية الأولى . وهي التسخير . وفي الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة في الإعلام بضعتها . وهذا مصداق ماورد من أن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

« وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ » أي يعرض عنه ، فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه « نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ » أي نجعل له شيطانا يغويه ويضله عن السبيل القويم دائما ، لمقارنته له . قال القاشاني : قرئ (يعش) بضم الشين وفتحها : والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العَشَى لعارض أو متعمدا ، من غير آفة في بصره . وعَشِيَ إذا إيف بصره . فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صافٍ وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن ، أي القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقا ، فتعامى عنه لغرض دنيوي وبغي وحسد ، أو لم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشي الطبيعية ، واشتغاله باللذات الحسية عنه ، أو لاغتراره بدينه وماهو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل (نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا) جنيًا فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف . أو بالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه . أو إنسيا يغويه ويشاركه في أمره ويجانسه في طريقه ويبعده عن الحق . وعلى الثاني معناه . ومن إيف استعداده في الأصل ، وشقي في الأزل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصّر عن فهم معناه (نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا) من نفسه أو جنسه ، يقارنه في ضلالته وغوايته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ » قال ابن جرير[1] : أى : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته. « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » أى يظن هؤلاء المشركون بالله، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ)

« حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا » أى العاشى « قَالَ » أى لشيطانه « يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ » أى بعد المشرق من المغرب . فغلب المشرق على المغرب ، ثم ثنى . وقيل المراد مشرقاالصيف والشتاء . والتقدير من المغربين، فاختصر. « فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ » قال القاشانىّ : أى حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذى أضله عن الحق ، وزيّن له ماوقع بسببه فى العذاب، واستوحش من قرينه واستذمه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

« وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » قال القاشانىّ : أى لن ينفعكم التمنى وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب . إذا ثبت وصح ظلمكم فى الدنيا، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله . لأنكم مشتركون فى العذاب لاشتراككم فى سببه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب من شدته وإيلامه . أى كما ينفع الواقعين فى أمر صعب ، معاونتهم فى تحمل أعبائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)

« أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرر فى التنزيل التعبير عنهم بالصم العمى الضلال ، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه . إذ سلبوا استماعَ حجج الله وهداه ، كالأصم . وإبصارَ آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصدَ السبيل الأمم ، كالضالّ الحائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ)

« فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ » أى نقبضك قبل أن نظهرك عليهم « فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ » أى بالعذاب الأخروىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ)

« أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ » وهذا كقوله تعالى[١] (فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) وفى تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان . إذ لم يفلت أحد من صناديدهم ، إلا من تحصّن بالإيمان .

(١) [٤٠ / غافر / ٧٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » يعنى دين الله الذى أمر به وهو الإسلام . فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسلية له ﷺ وأمر لأمته أو له ، بالدوام على التمسّك . والفاء فى جواب شرط مقدّر . أى إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة ، فاستمسك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ)

« وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » أى وإن الذى أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قريش . لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه. أى تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان . وجوّز أن يراد بالذكر الموعظة « وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ » أى عما عملتم فيــه ، من ائتماركم بأوامره ، وانتهائكم عن نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ)

«وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ» أى : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت فى ملة من مللهم ؟ قال القاضى : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه ، فيكذب ويعادى له . انتهى .

والذين أمر بمسألتهم الرسول ﷺ ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل . فالكلام بتقدير مضاف . أى أممهم المؤمنين . أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم . لأنهم إنما يخبرونه عن كتب الرسل . فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ » أى المصدقة له « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » لينهاه عن الاستعباد « وَمَلَإِيْهِۦ » أى لينهاهم عن التعبّد له « فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى فأبان أنه لا يستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ)

« فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ » فلما أتاهم بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك ، إذا فرعون وقومه يضحكون . أى كما أن قومك ، مما جئتهم به من الآيات والعبَر ، يسخرون . وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيّه ﷺ ، عما كان يلقى من مشركى قومه . وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله . وندب منه نبيّه ﷺ إلى الاستنان بهم ، بالصبر عليهم ، بسنن أولى العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبى مردّتهم إلى البوار والهلاك . كسنته فى المتمردين عليهم قبله ، وإظفاره بهم ، وإعلائه أمره . كالذى فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير[(١)] .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

ثم أشار إلى أن موجب الهزء لم يكن إلا لعنادٍ ، لا لقصورها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٩] (وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)

[٥٠] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)

« وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا » أى السابقة عليها « وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ » أى الدنيوىّ كالسنين ، مما يلجئ إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ » أى من أنه لا يعذّب مَن آمن بك ليكشف عنا العذاب « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » أى بما تزعم أنه الهداية « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » أى العهد الذى عاهدوا عليه ، ويتمادون فى غيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٥٢] (أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)

[٥٣] (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

« وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ » يعنى أنهار النيل « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر « أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ » أى ضعيف لا شىء له من المُلك

والأموال « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » أي الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية « فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » أي يعينونه ويصدقونه.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

[٥٥] (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ)

« فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ » أي فاستفزهم بهذه المغالطات، وحملهم على أن يخفّوا له ويصدقوه « فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا » أي أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، وندائه بالساحر ، ونكث العهود « ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ » وذلك لاستغراقهم في بحر الضلال، الأجيال الطوال، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ)

[٥٧] (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)

[٥٨] (وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

« فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا » أي حجة للهالكين بعدهم « وَمَثَلًا » أي عبرة « لِّلْءَاخِرِينَ » أي الناجين « وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » أي في كونه كآدم ، كما أشارت له آية[1] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) والمعنى: لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ » أي من مَثَلَه المضروب ووصفه المبين « يَصِدُّونَ » أي يعرضون ولا يعون «وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم،

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩] .

زعما منهم أنهم بنات الله تعالى . كما ذكر عنهم ذلك فى أول السورة . أى أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملأ الأعلى والنوع الأسمى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقررون على شركهم أصولا صحيحة . ويبنون على تمسكهم أقيسة صريحة . وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان المقيس والمقيس عليه . وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد فى ذاته العلية . وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشاغبة بالجدال . كما قال تعالى « مَاضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » أى ماضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لا عن اعتقادٍ ، لظهور بطلانه « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » أى شديدو الخصومة بالباطل تمويها وتلبيسا . وفى الحديث[1] (ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) وماذكرناه فى تفسير هذه الآية ، هو الجلىّ الواضح ، لدلالة السياق والسباق . فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف . ثم جلى شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ » أى بالنبوة والرسالة « وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيّد نبوته ورسالته وصدق دعواه

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم » أى بدلكم « مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ » أى يكونون مكانكم . إيعاد لهم بأنهم فى قبضة المشيئة فى إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤٣ ـ سورة الزخرف ، عن أبى أمامة .

كما فى قوله تعالى(١): (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم) وقيل معنى (لَجَعَلْنَا مِنكُم) لولدنا منكم ملائكة، كما ولدنا عيسى من غير أب، لتعرفوا تميزنا بالقدرة. واللفظ الكريم يحتمله. إلا أن الأظهر هو الأول، لما جرت به عادة التنزيل، من خواتم أمثال ما تقدم، بنظائر هذا الوعيد، والله أعلم. وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦١] (وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

[٦٢] (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ، إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

«وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ» الضمير إما للقرآن كما ذهب إليه قوم، أى وإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها. وفى جعله عين العلم، مبالغة. والعلم بمعنى العلامة. وقيل الضمير لعيسى عليه السلام. أى إن ظهوره من أشراط الساعة. ونزوله إلى الأرض فى آخر الزمان دليل على فناء الدنيا. وقال بعضهم: معناه أن عيسى سبب للعلم بها. فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث. فالآية مجاز مرسل علاقته المسببية. إذ أطلق المسبب وهو العلم، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته. كقولك (أمطرت السماء نباتا) أى مطرا يتسبب عنه النبات. وقرئ (وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ) بفتحتين. أى أنه كالجبل الذى يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه. فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها. انتهى. وهو جيد «فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ» أى اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى. أو هو أمر للرسول أن يقوله «هَٰذَا» أى القرآن، أو ما أدعوكم إليه «صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ» أى عن الاتباع «إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

(٢) [٤٧/ محمد/ ٣٨].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[٦٤] (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

«وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ » أى من أحكام التوراة وغيرها. كاختلاف اليهود فى القيامة، لعدم صراحتها فى كتبهم . وقد جاء فى نحوها آية(1) (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وقد وضع عن اليهود شيئاً من إصْر التوراة وأغلال الناموس ، كما فعل فى يوم السبت . خفف شدّة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل (ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه) لأنه لم يفعل ذلك . بل ترك بيان كثير من الأشياء، كالفساد الذى دخل فى أغلب كتبهم للفارقليط (محمد ﷺ) الذى يأتى بعده ، لعدم استعداد الناس فى زمنه لقبول كل شىء منه . كما قال هو نفسه فى (إنجيل يوحنا) فى الإصحاح السادس عشر . وخصوصاً إذا تعرّض للطعن فى كتبهم ، وهى رأس مالهم الوحيد وتراث أجدادهم . ولو فعل ذلك لشكّ فيه الكثيرون منهم وكذّبوه ، ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضيع الفائدة من بعثته التى بيناها فى المتن . وهى التى بعث من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه(1) (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ) فالمراد بمثل هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة (التوراة) تطلق على كتب العهد القديم . فالمعنى أن مجىء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ، فإنها لاتنطبق إلا عليه . وليس المراد أن

(1) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

عيسى يقرّ كل ما فى التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية. وإلا لما قال بعدها مباشرة[١] (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخا لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لايعرفون . ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جدا .

« فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ » قال ابن جرير[٢]: أى إن الله الذى يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له ، ربى وربكم جميعا . فاعبدوه وحده لاتشركوا معه فى عبادته شيئا . فإنه لايصح ولا ينبغى أن يعبد شىء سواه « هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى هذا الذى أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعتى ، وإفراد الله بالألوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

« فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ » أى الفرق المتحزبة اختلافاً نشأ « مِنۢ بَيْنِهِمْ » أى لا من قوله تعالى، ولا من قول عيسى. بل ظلما وعنادا « فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفضائح، وظلمهم بترك النظر فى الدلائل العقلية والنقلية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٦٧] (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)

---

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« هَلْ يَنظُرُونَ » أى قريش « إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ » أى المتخالون على المعاصى والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة « بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى معادٍ ، يتبرأ كل من صاحبه « إِلَّا الْمُتَّقِينَ » أى المتصادقين فى طاعة الله ومحبته . قال القاشانىّ : الخلة إما أن تكون خيرية ، أوْ لا . والخيرية إما أن تكون فى الله أو لله ومحبته . وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلىّ . والقسم الأول هو المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل، التى قال[1] فيها (فما تعارف منها ائتلف) فهم إذا برزوا فى هـذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرجس ، فلما تلاقوا تعارفوا، وإذا تعارفوا تحابوا، لتجانسهم الأصلى ، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة، وتشابههم فى السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية، التى هى سبب العداوة . وانتفع كل منهم بالآخر فى سلوكه وعرفانه . والتذ بلقائه ، وتصفى بصفائه ، وتعاونوا فى أمور الدنيا والآخرة . فهى الخلة التامة الحقيقية التى لا تزول أبدا كمحبة الأنبياء والأصفياء والأولياء والشهداء . والقسم الثانى هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف والأخلاق والسير الفاضلة . ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة. كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم . ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أممهم . والقسم الثالث هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية والأغراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة . ومحبة الفجار والفساق المتعاونين فى اكتساب الشهوات واستلاب الأموال . والقسم الرابع هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية . كمحبة التجار والصناع . ومحبة المحسَن إليه للمحسن . فكل ما استند إلى غرض فانٍ وسبب زائل ، زال

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، الحديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ (طبعتنا).

بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة المعهودة والنفع المألوف . وامتناعه لزوال سببه . ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الأخيرين، أطلق الكلام وقال (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) لانقطاع أسباب الوصلة بينهم، وانتفاء الآلات البدنية عنهم، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسماني وانقلابهما حسرات وآلاما وضررا وخسرانا. قد زالت اللذات والشهوات، وبقيت العقوبات والتبعات. فكل يمقت صاحبه ويبغضه. لأنه يرى ما به من العذاب، منه وبسببه. ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم ، كما قال[1] (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)[2] (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ) ولعمرى، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر. وهم الكاملون فى التقوى، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويليهم القسم الثانى . وكلا القسمين ، لاشتراكهما فى طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه ، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

« يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ » أى لأمنهم من العذاب « وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أى على فوات لذات الدنيا . لكونهم على ألذّ منها وأبهج ، وأحسن حالا وأجمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ)

«ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا» أى صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم « وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ » أى أهل خضوع لله بقلوبهم ، وقبول منهم لما جاءتهم به رسلهم عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان .

(١) [٣٨ / ص ٢٤] . (٢) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ)

« ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ » أى تُسَرُّون سرورا يظهر حَبَاره ، أى أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى(١) (تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ، وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

[٧٢] (وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » الصحاف جمع (صحفة) وهى آنية الأكل . والأكواب جمع (كوب) وهو ما يشرب منه كالكوز . إلا أن الكوب ما لا عروة له . قال الشهاب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذنا . ولذا قال من ألغز فيه :

وذى أُذُنٍ بلا سمعٍ ... له قلبٌ بلا قَلْبِ
إذا استولى على صَبٍّ ... فقل ما شئتَ فى الصبِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أوانى المأكولات أكثر بالنسبة لأوانى المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثانى جمع قلة . « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ » أى بمشاهدته « وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الخيرات والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة ، من الجنة ونعيمها الباقى لهم ، بما يخلفه المرء لورّاثه من الأملاك والأرزاق . ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورِّث (على صيغة اسم الفاعل) فهو استعارة تبعية أو تمثيلية .

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ)

« لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ » أى ما اشتهيتم . و (من) إما ابتدائية أو تبعيضية . ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزينة بالثمار أبدا ، موقرة بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ)

[٧٥] (لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى الذين اجترموا الكفر والمعاصى فى الدنيا « فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ » أى لا يخفف ولا ينقص « وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى مستسلمون يائسون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

« وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ » أى بهذا العذاب « وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى بكفرهم الله وجحودهم توحيده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ)

[٧٨] (لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ)

« وَنَادَوْا۟ » أى بعد إدخالهم جهنم « يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أى ليمتنا . أى سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطل الحواس وعدم الإحساس ، لشدّة التألم بالعذاب الجسمانىّ .

« قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ » أى لابثون « لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ » أى لاتقبلونه وتنفرون منه . وعبّر (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليدا .

لطيفة :

قال القاشانىّ : سمى خازن النار (مالكا) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها . لقوله تعالى[1] (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ) كما سمى خازن الجنة (رضوانا) لاختصاصه بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

« أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » اى أم أبرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ، يكيدون به الحق الذى جاءهم ، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم ، من النكال . كقوله تعالى[2] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ، بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم » أى ما أخفوه من تناجيهم بما يمكرون ، فلا نجازيهم عليه لخفائه علينا « بَلَىٰ » أى نسمعهما ونطّلع عليهما « وَرُسُلُنَا » يعنى الحفظة « لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ » أى ما تكلموا به ولفظوا من قول . ثم أشار إلى ردّ إفكهم فى أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختما للسورة مما بدئت به ، المسمى عند البديعيين (رد العجز على الصدر) فقال سبحانه :

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٧ـ٣٩] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)

« قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » أى لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدمهم . قال الشهاب : ولو أبقى على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارعة ، جاز . انتهى .

قال القاشانىّ : وهذا إما أن يدل على نفى الولد عن الله سبحانه بالبرهان ، وإما أن يدل على نفى الشرك عن الرسول بالمفهوم . أما دلالته على الأول ، فلما دلّ قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » على نفى التالى . وهو عبادة الولد . أى أوحّده وأنزّهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلًا لشىء . لكونه ربًّا خالقًا للأجسام كلها . فلا يكون من جنسها . فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهانىّ . وأما دلالته على الثانى فإذا جعل قوله (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ) الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ، (أى نزّه رب السموات عما يصفونه) فيكون نفيا للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال. والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال فى استبعاد الرؤية[1] (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

« فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا » أى فى باطلهم « وَيَلْعَبُوا » أى فى دنياهم « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

(١) [٧/ الأعراف / ١٤٣] .

ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » قال ابن جرير(١) : وذلك يوم يُصْلِيهم الله بفريتهم عليه ، جهنم ، وهو يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ » أى المعبود فيهما بلا شريك « وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » أى فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٨٦] (وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ » أى الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء « إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى من آمن بالله وأقرّ بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده . أى وحّدوه وأخلصوا له على علم منهم ويقين ، كقوله(٢) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) قال ابن كثير : هـذا استثناء منقطع . أى لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له . ا هـ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٤ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

تنبيه :

قال الشهاب : استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفى (الإكليل) قال إلكيا : يدل قوله تعالى (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) على معنيين : أحدهما ـ أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى ـ أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها، أن يكون الشاهد عالما بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره « فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ)

« وَقِيلِهِ » أى قيل محمد صلوات الله عليه، شاكيا إلى ربه تبارك وتعالى، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم « يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ » أى الذين أمرتنى بإنذارهم، وأرسلتنى إليهم لدعائهم إليك « قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ » أى بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر . كقوله تعالى[١] (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٠] .

« فَٱصْفَحْ » أى أعرض « عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ » أى لـكم أو عليكم . أو أمرى سلام . أى متاركة ، فهو سلام متاركة لا تحية .

وقال الرازىّ : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الـكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الاقتصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال المؤمن (سلام عليـكم) والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والـكافر . اه .

وفيه نظر ، لأنه جمود على الظاهر البحت هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول[1] إبراهيم عليه السلام لأبيه (سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ) وآية[2] (سَلَٰمٌ عَلَيْـكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ) على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أى (عليكم) والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعلة كالثابت . فالصواب أن السلام للمتاركة . والله أعلم « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى حقية ما أرسلت به ، بسموّ الحق وزهوق الباطل .

تنبيه :

قرئ (وقيلَه) بالنصب عطفا على (سرّهم ونجواهم) وضعّف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضا . أو على محل (الساعة) لأنه فى محل نصب ، لأنه مصدر مضاف لمفعوله . أو بإضمار فعله . أى وقال قيله . وقرئ بالجر عطفا على (الساعة) أو الواو للقسم والجواب محذوف . أى لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) وقرئ بالرفع عطفا على (علم الساعة) بتقدير مضاف . أى وعنده علم قيله . أو مرفوع بالابتداء ، وجملة (يارب) الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف . أى وقيله كيت وكيت ، مسموع أو متقبل . وفى (الحواشى) مجازيات جدلية . فازدد بمراجعتها علما .

---

(١) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٢) [٢٨ [القصص / ٥٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٤ ــ سورة الدخان

قال المهايمىّ : سميت به لدلالة آيته على أنه جزاء غشيان أدخنة النفوس الخبيثة ، بصائرَ قلوب أهلها وأرواحهم. ولذلك رأوا الدلائل شبهات الشياطين. وجعلوا المميز بينهما مجنونا. وإن القرآن كاشف عنه كـكشف الدخان المحسوس عنهم ، وهى مكية . وآيها خمسون وتسع. روى[1] الترمذىّ مرفوعا : من قرأ (حمٓ الدخان) فى ليلة ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غريب . وعمرو بن أبى خثعم راويه ، يضعّف . قال البخارىّ : منكر الحديث. أفاده ابن كثير .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٨ ـ باب ماجاء فى فضل (حمٓ الدخان).

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حم)

[٢] (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ)

« حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » يعنى ليلة القدر التى قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت فى رمضان . كما قال سبحانه[1] (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان، فقد أبعد النجعة . فإن نص القرآن أنها فى رمضان . وما روى من الآثار فى فضلها ، فمثله لا تعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهى ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأيمنها على العالمين، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشانىّ : ووصفها بالمباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة فى العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكماله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكماله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » أى من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المذامّ وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أى يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

وجه متين محمود عند الكمل تقتات به أرواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٦] (رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

« أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لمسيس الحاجة إليه . كما قال تعالى[1] (وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ) وجوز كون (رحمة) علة للإنزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإنزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « ٱلْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإنزال . قاله المهايمى .
وقال القاشانى : أى : السميع لأقوالهم المختلفة فى الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، (العليم) أى بعقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلة ومعايشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الناظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧]

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ)

[٨] (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٩] (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

« رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أي إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم (فلان منجد متْهم) أي يريد نجدا وتهامة . اهـ . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع وخالقه « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أي بل ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيته . لأن الإيقان يستتبع قبول البرهان . وإنمـا هو قول ممزوج بلعب ، لغشيان أدخنة أهوية نفوسهم ، بصائرَ قلوبهم وأرواحهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)

[١١] (يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٢] (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

« فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أي انتظر لمجازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل (الارتقاب) إلا في أمر مكروه . وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول ـ قال بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسني يوسف . فأخذوا بالمجاعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ في أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهيئة الدخان . روى ابن جرير[١] عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن: إن قاصّا عند أبواب كندة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عز وجل يقول[٢] لنبيّه ﷺ (قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) إن النبيّ ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال : اللهم سبعا كسبع يوسف. فأخذتهم سَنَةٌ حصّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف. ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم . قال الله عز وجل[٣] (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) إلى قوله[٤] (إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) قال : فكشف عنهم[٥] (يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر. وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة واللزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[٦] ورواه الإمام أحمد[٧] فى مسنده

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٣٨ / صٓ / ٨٦] . (٣) [٤٤ / الدخان / ١٠] .

(٤) [٤٤ / الدخان / ١٥] . (٥) [٤٤ / الدخان / ١٦] .

(٦) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٤ ـ سورة الدخان ، ٢ ـ باب يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم فى: ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٣٩ (طبعتنا).

(٧) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٣٦١٣ (طبعة المعارف) .

وهو عند الترمذيّ[١] والنسائيّ في تفسيرها، وعند ابن جرير[٢] وابن أبي حاتم من طرق متعددة
وقد وافق ابنَ مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى، جماعةٌ من
السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعيّ والضحاك وعطية العوفيّ، وهو اختيار ابن جرير.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : والظاهر أن مجيء أبي سفيان كان قبل الهجرة .
لقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر . وعلى هذا فيحتمل
أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك . فلذلك قال[٣] :

* وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجْهِهِ * البيت .

لكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعدد ،
وإلا فهو مشكل جدًّا . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان على هـذا معنيين : أحدهما ـ أن في سنة القحط يعظم
يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير، ويظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان.
ولهذا يقال لسنة المجاعة (الغبراء) ثانيهما ـ أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان. فيقولون
(كان بيننا أمر ارتفع له دخان) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه ، أظلمت
عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هـذه التسمية استعارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق
على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

تريد مهذَّبا لا عيبَ فيهِ وهـل عودٌ يفوحُ بلا دُخَانِ

(١) أخرجه في : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٤٤ ـ سورة الدخان، ١ ـ باب حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٣) وعجز البيت : * ثِمَالُ اليتامى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ *

وهذا البيت من قصيدة أبي طالب ، عمّ مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خليليّ ما أذْني لِأولِ عاذلٍ بصَغْوَاءَ في حقٍّ ولا عند باطلِ

الوجه الثانى فى الآية ـ أنه دخان يظهر فى العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعدُ ، وهو آت وهو قول حذيفة . ويروى عن علىّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازىّ : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول ـ أن قوله (يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع ، فذاك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز . الثانى ـ أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث ـ أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التى ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع ـ ماروى عن النبىّ ﷺ من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة.

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز. وذلك لا يجوز إلاّ عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ماذكروه مشكلاً جدا. فإن قالوا : الدليل على أن المراد ماذكرناه، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم، ووعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصحّ ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) والجواب: لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، فى أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق. وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقالوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازىّ .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثانى، ذهابا إلى ماصح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرها ، التى أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى بيّن واضح يراه كل أحد . وعلى مافسر به ابن مسعود رضى الله عنه ، إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى (يَغْشَى ٱلنَّاسَ) أى يتغشاهم ويعمّهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى يقال لهم ذلك، تقريعا وتوبيخا. كقوله عز وجل[1] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم . كقوله جلت عظمته[2] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وكذا قوله جل وعلا[3] (وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

---

(١) [٥٢ / الطور / ١٣و١٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] .
(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ)

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ » أى كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بيّن الرسالة والنذارة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته[١] (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ) الآية . وكقوله عز وجل[٢] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ)

« إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما ـ أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى[٣] (وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ) وكقوله جلت عظمته[٤] (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ) والثانى ـ أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى[٥] (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم .

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٥١] .
(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٧٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٢٨] .
(٥) [١٠ / يونس / ٩٨] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام ؛ أنه قال لقومه حين قالوا[1] (لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ* قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : (إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ)

« يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسّر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم. وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفيّ عنه وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير[2] : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذّاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصريّ وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم المجاعة والشدة مجازا ، بذكر المسبّب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذي يستدعيه

(١) [٧ / الأعراف [٨٨و٨٩] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية).

مساق النظم الكريم قطعا . فإن قوله تعالى (أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ) الخ ، ردّ لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم فى الوعد بالإيمان ، المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتّعاظ ماهو أعظم منه فى إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبيّن لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، تخرّ لها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ريثما يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُواْ) فى حقه (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يعلّمه غلام أعجمىّ لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . ومابينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل فى الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبىّ ﷺ . فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعناد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث فى الآية ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحيي بن حسان . حدثنا ابن مهيعة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج فى قوله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) قال: كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير : وهذا القول غريب جدًّا بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يروَ مرفوعا ولا موقوفا على ابن عباس، ترجمان القرآن. أو غيره من الصحب. إلا أن عدم كونه مأثورا لا ينافى احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى فى آخر السورة (فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم. وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فمعنى قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأسر عنهم . ومعنى (عَآئِدُونَ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف فى هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان، اهتماما فى معناها ، وعناية فى البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرًّا على وجهٍ، وعليّ وابن عباس وحذيفة على وجهٍ آخر. على ما أسند عنهم من طرق . ولعمر الحق! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازا أخرى . هذا أولا . وثانيا ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما. لما تقرر من شرح السنة للكتاب. وهذا ما درج عليه المحدّثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى فى خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتعده . وأما من فتح للتدبر بابا ومهد للنظر مجالا ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

---

(١) [٤٤ / الدخان / ٥٩] .

فذاك وسّع للسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورقاه من حظيرة النقل إلى فضاء العقل . ولكلٍّ وجهة .

إذا علمت ذلك، رأيت أن من فسر هذه الآية بالمجاعة التى حصلت لقريش، أمكنه تطبيق الآية عليها مجازا فى بعض مفرداتها، وحقيقة فى بقيتها وفى وقوع مصداقها، فى رأيه. ومن فسرها بالدخان المنتظر ، المرويّ من أشراط الساعة ، وقف مع المرويّ ورأى أنه تفسيرها . لأن الأصل التوافق والحمل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرها بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بليغ المجاز وبديع الكناية فى ذلك . وأن الوعد بالارتقاب . كثر أشباهه ونظائره فى غير ما آية ، مرادا به الفتح . كآية[1] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) فهذا وأمثاله يبين مآخذ الأئمة ومداركهم فى التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأى عن التشيع لمدرك دون آخر . ما لم يكن ثمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازيّ المتقدّم ، واحتجاجه للوجه الثانى بما أطال به ، أن لا منتدح ، بعد، عنه. مع أن للذاهب إلى غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوّته هنا. لأن المقام مقام إنذار وإيعاد . والذوق أكبر حاكم وإليه مردّ البلاغة . ولا يلزم المتأوّلَ نكرانُه للدخان المنتظر. كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظىّ اتحاد المتلوّ والمرويّ. وبالجملة، فاللفظ الكريم يتناول المعانى الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تعيين واحد منها للمراد ، فصعب جدّا فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن. والله العليم . وقوله تعالى:

---

(١) [٣٢ / السجدة / ٢٨ ـ ٣٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أى ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أى على الله والمؤمنين . أو فى نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرّم أى معظّم. وعلى الثانى ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسبا ونسبا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

«أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ» أى أرسلوا معى بنى إسرائيل، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى. وأطلقوهم من أسركم وحبسكم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضيم ، هذه الديار « إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ » أى على وحيه ورسالته ، التى حملنيها إليكم ، لأنذركم بأسه إن عصيتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

« وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ » أى بإنكار ربوبيته، ودعوى الربوبية لأنفسكم، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفى ربوبيتكم . وعلى رسالتى . وعلى أن بنى إسرائيل عباده الخاصة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ)

«وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ» أى اعتصمت به من رجمكم. يعنى القتل، فعصمنى ، فلا ينالنى منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افترى عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته فى موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزلّ الأقدام ، خوفا ورعبا . وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة الله وتأييده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ)

« وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ » أى فكونوا بمعزل عنى . فلست بموالٍ منكم أحدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ » أى لما تابوا عن إجابته « أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون مفسدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ)

« فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم ليرجعوكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ، إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ)

[٢٥] (كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

« وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله التى كان عليها حين دخلته ، ولا تضرب بعصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا۟ » أى بعد هلاكهم بالغرق « مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يسقى منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا فى التفكه والتنزّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾

«وَزُرُوعٍ » أى قائمة فى مزارعهم للقوت «وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾

« وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ » أى متنعمين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى من المشتهيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾

« كَذَٰلِكَ » أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقرير « وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ » يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾

«فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ» قال الزمخشرىّ: إذا مات رجل خطير، قالت العرب فى تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض. وبكته الريح وأظلمت له الشمس. قال جرير[1]:

* تَبْكِى عليكَ نجومُ الليلِ والقَمَرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فالشمسُ كاسفةٌ ليستْ بِطالِعَةٍ *

(الديوان ج ١ ص ٣٠٤)

وقالت الخارجية[1] :

أيا شَجَرَ الخابورِ مالَكَ مُورِقاً كأنك لمَ تَجْزَعْ على ابنِ طَرِيفِ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلّى المؤمن وآثاره فى الأرض ، ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء : تمثيل . ونفيُ ذلك عنهم فى قوله تعالى[2] (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ) فيه تهكم بهم وبحالهم ، المنافية لحال من يعظم فقده. فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . يعنى : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض « وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ » أى مؤخّرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ)

«وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ» يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (مِن فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ)

« مِن فِرْعَوْنَ » بدل من العذاب ، على حذف مضاف. أو جعله عذابا، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من (المهين) بمعنى واقعا من جهته «إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا» أى متكبّرا على الناس « مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ » أى المتجاوزين الحدّ ، فى العتوّ والشرّ .

---

(١) البيت لليلى بنت طريف الشيبانىّ . ترثى أخاها الوليد ، وكان يزيد بن مَزْيَد قتله . والقصيدة مطلعها :

بِتَلِّ نُبَاتَا رسمُ قبر كأنه على عَلَمٍ فوق الجبالِ مُنِيفِ

(الأغانى ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار) . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ)

«وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ» أي فضّلناهم لأجل علمٍ معهم، على عالمي زمانهم، أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ)

« وَءَاتَيْنَـٰهُم » أي زيادة على اختيارهم وتفضيلهم « مِّنَ ٱلْأَيَـٰتِ » أي المعجزات والكرامات « مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ » أي نعمة ظاهرة، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ)

[٣٥] (إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ)

« إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ » أي مشركي قريش « لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ » أي المتعقبة للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه. وليس القصد إلى إثبات ثانية. قال الإسنويّ في (التمهيد) : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول: هذا أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم الواحديّ في تفسيره، والزجاج. ومن فروع المسألة، مالو قال: إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنت طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو عليّ : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولا ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .

وما ذكر أظهر مما للزمخشريّ هنا « وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ » أي مبعوثين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلائنا فى قبورنا. قال ابن كثير: وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة. فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا فى دار الدنيا . بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا. ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا. ثم أنذرهم تعالى بأسه الذى لا يردّ ، كما حلّ بأشباههم من المشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« أَهُمْ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنعة « أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى أهلكناهم بجرمهم. وهو كفرهم وفسادهم. وهم ماهم. فما بال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ. أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة (سبأ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربا من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان. وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا. كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم. و (فرعون) لمن ملك مصر كافرا. و (النجاشىّ) لمن ملك الحبشة. وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند. واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه. واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصّر الحيرة . فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل . فاستحيا منهم وكفّ عنهم. واستصحب معه حبرين من أحبار يهود، كانا قد نصحاه وأخبراه أن لا سبيل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبيّ يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن. فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة. فنهياه عن ذلك أيضا، وأخبراه بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبيّ المبعوث فى آخر الزمان . فعظمها وطاف بها وكساها المُلاء والوصائل والحبر . ثم كرّ راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى التهوّد معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فتهوّد معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه (السيرة) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ماروى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين الكليم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرهميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والحبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة ، عن أُبىّ بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد ابن إسحاق فى (السيرة) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبّع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبيّ ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبيّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفًا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمــدٍ أنه رسولٌ من الله بارِى النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْرِى إلى عُمْرِهِ لـكنتُ وَزِيراً لَهُ وابنَ عَمْ
وجاهدتُ بالسيف أعداءَهُ وفرَّجْتُ عن صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

ثم ساق ابن كثير آثارا فى النهى عن سبه : وبالجملة فإن قصته المذكورة والمروىّ فى شأنه ، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لـكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعىّ . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من فخامة نبئه المروىّ لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، إحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لاقصّ ذلك خبرا من الأخبار ، وسمرا من الأسمار ، كما هو السر فى أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ)

[٣٩] (مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٢] (إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ » أى فصل الله بين الخلائق وقضاءه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرّ « مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا » أى من إثابة أو تحمّل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ » أى بأن وفّقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « ٱلرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ)

« إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ)

« طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ)

[٤٦] (كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ)

« كَٱلْمُهْلِ » وهو درديّ الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الحارّ الذى انتهى غليانه . وقوله (فِي ٱلْبُطُونِ) كقوله[١] (نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ) وهذه الآية كآية الصافات[٢] (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) .

(١) [١٠٤ / الهمزة / ٦و٧] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٦٢ـ٦٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ)

« خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ » أى ادفعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ)

« ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ)

« ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهكم ، فيتم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسىّ ، العذابُ العقلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ)

« إِنَّ هَـٰذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ » أى تشكّون ، مع ظهور دلائله . أو تمارون وتتلاحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٣] ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾

« فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارقّ من الحرير وكثُف « مُّتَقَـٰبِلِينَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصفيف منازلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

« كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » أى قرنّاهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ » أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ، وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

[٥٧] ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[٥٨] ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[٥٩] ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ » قال ابن جرير[١] : أى لا يذوق هؤلاء المتقون فى الجنة ، الموت بعد الموتة الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إلَّا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى . يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلناه حيث أنزلناه بلغتك ، وهو فذلكة للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بعبره وعظاته وحججه ، فينيبوا إلى طاعة ربهم ويذعنوا للحق « فَٱرْتَقِبْ » أى ما يحل بهم من زهوق باطلهم « إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم (نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ) وهذا وعد له ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسلية ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه[1] (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ) وقوله تعالى[2] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ) .

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] . (٢) [٤٠ / غافر / ٥١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٥ – سورة الجاثية

سميت بها لتضمن آيتها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة . لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى الله تعالى ، وفصله بينهم يوم القيامة . وهى من المطالب الشريفة فى القرآن . وتسمى (سورة الشريعة) لتضمن آيتها وجه نسخ هذه الشريعة ، سائر الشرائع ، وفضلها عليها . وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه . قاله المهايمى .

وهى مكية . واستثنى بعضهم منها آية[1] (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ) فإنه قيل إنها مدنية ، نزلت فى شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتى ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ » قال المهايمىّ : فعزّته تقتضى إفاضة الحجج التى بها الغلبة على الخصوم . وإفاضة الكمالات التى يعسر الوصول إليها . وأنواعُ السعادات ، وحدة النظر ، والحكمةُ تقتضى محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزّله من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليتوسل بها إلى الكمالات الحقيقية ، من الإيمان والإيقان والعقل . وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ، ورفع الشبه . فمنها آيات الأجسام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٤] (وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٥] (وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ » أى مطر . سمى رزقا لأنه سببه « فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى عن الله ، ما وعظهم به ودعاهم إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ)

« تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ » أى الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته « نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ » أى بعد آياته ودلائله الباهرة . وتقديمُ اسم الله للمبالغة والتعظيم . كما فى قولك (أعجبنى زيد وكرمه) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ » أى كذاب يتكلم فى حق الله وصفاته على خلاف الدليل « أَثِيمٍ » أى بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يتركه عن غفلة ، بل مع كونه ،

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٩] (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[١٠] (مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١١] (هَٰذَا هُدًى، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)

[١٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » أى لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل « تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ » أى على إنكارها « مُسْتَكْبِرًا » أى عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلا « كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا » استهانة بها « أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ » أى من بعد انقضاء آجالهم ، عذابها « وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ » أى من الأموال والأولاد « شَيْـًٔا » أى من عذاب الله « وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ » يعنى آلهتهم التى عبدوها ، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم فى الكفر واتخذوهم نصراء فى الدنيا « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَٰذَا » أى القرآن « هُدًى » أى بيان ودليل على الحق، يهدى إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه « وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ » أى بتسخيره « وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ » أى باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة، وجهاد وهداية وغوص فيه ، لاستخراج لآليه ، وصيد منه « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمة هذا التسخير . فتعبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى آيات الله وحججه وأدلته . فيعتبرون بها ويتفكرون . قال المهايمىّ : منها أن ربط بعض العالم بالبعض دليل توحيده . وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته . وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم وجوه الانتقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ »أى صدّقوا بالله واتبعوك « يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ » أى لا يخافون بأس الله ونقمه ووقائعه بأعدائه « لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى من عملهم . ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش . وقد روى أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهمّ أن يبطش به . فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية ، من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم . والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح . وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، ليُثاب عليه . مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم . فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها فى عمر ـ إن صح ـ صدقها على قضيته . والاستشهاد بها لسماحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

«مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ » أى لكونه افتكّها من العذاب «وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا» أى أساء عمله بمعصية ربه ، فعلى نفسه جَنَى ، لأنه أوبقها بذلك «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» أى تصيرون . فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ» أي التوراة «وَٱلْحُكْمَ» أي الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي لم تنزل بالكتاب «وَٱلنُّبُوَّةَ» أي جعلنا منهم أنبياء ورسلا إلى الخلق «وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ» يعني المنّ والسلوى «وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ» أي عالمي أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ، فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات ، تأبى الاختلاف ، ولكن أبَوْا إلا الاختلاف «فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ» أي ظلماً وتعدياً منهم ، لطلب الحظوظ العاجلة «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أي بالمؤاخذة والمجازاة . قال ابن كثير : وهذا فيه تحذير لهذه الأمة ، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال جل وعلا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

«ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أي على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين ، الذي أمرْنا به مَن قبلك من رسلنا «فَٱتَّبِعْهَا» أي تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يعني المشركين وما هم عليه من الأهواء التي لا حجة عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ، وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ)

«إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما، «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» أى أعوان وأنصار على المؤمنين وأهل الطاعة . أو فى التحزّب والتقوّى. ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تخلّت عناية الله ونصرته عنهم ؟ «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» أى من اتقاه بعبادته وحده، وخشيته بكفايته من بغى عليه، وكاده بسوء. والأظهر تفسير الآية بآية[1] «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٢١] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

«هَٰذَا» أى القرآن «بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» أى يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد. قال الزمخشرىّ : جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل روحا وحياة . أى فهو تشبيه بليغ «وَهُدًى» أى من الضلالة «وَرَحْمَةٌ» أى من العذاب لمن آمن وأيقن «لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» أى يطلبون اليقين «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ» أى اكتسبوا سيئات الأعمال «أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» أى من عدم التفاوت. قال الزمخشرىّ: والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتا . لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . ومماتا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . انتهى .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمأنينة القلب ، وأولئك على الضلال والجهل والعيث بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية[1] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة والصواب. قال ابن جرير[2] : أى للعدل والحق، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من التسوية بين الأبرار والفجار. لأنه خلاف العدل والإنصاف « وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ » قال الزمخشرىّ : معطوف على (بالحق) لأن فيه معنى التعليل . أو على معلل محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته، ولتجزى كل نفس «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى فى جزاء أعمالهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[٢٤] (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ » أى من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى . فكأنه يعبده . فجعله إلها تشبيه بليغ أو استعارة . قال القاشانىّ : الإله المعبود، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلها . إذ كل مايعبده الإنسان بمحبته وطاعته ، فهو إلهه ولو كان

(١) [٢٠ / طه / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

حجرا ! « وَأَضَلَّهُ ٱللَّـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » ، أى عالما بحاله ، من زوال استعداده، وانقلاب وجهه، إلى الجهة السفلية . أو مع كون ذلك العابد للهوى عالما بعلم ما يجب عليه فعله فى الدين . على تقدير أن يكون (عَلَىٰ عِلْمٍ) حالا من الضمير المفعول فى (أَضَلَّهُ ٱللَّـهُ) لا من الفاعل. وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتخلف القدم عن النظر ، لتشرب قلبه محبة النفس وغلبة الهوى . أو على علم منه غير نافع . لكونه من باب الفضول . ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ » أى بالطرد عن باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لمكان الرَّين وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئاً « وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً » أى عن رؤية حجج الله وآياته « فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّـهِ » أى فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا» أى ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التى نحن فيها « نَمُوتُ » أى بالموت البدنىّ الطبيعىّ ، «وَنَحْيَا» أى الحياة الجسمانية الحسية ، لا موت ولا حياة غيرها «وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ» أى مرّ الليالى والأيام وطول العمر « وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أى : وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين . و (ذلك) إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الزمخشرىّ : كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله . وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان . وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[1] (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابىّ ، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى تنسبونها إلى الدهر . فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . وإنما الدهر

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) عن أبى قتادة .

زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا (بؤسا للدهر) و (تبا للدهر) . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن نحا نحوه من الظاهرية ، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تنبيه :

في هذه الآية ردّ على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتخمين . لم يشم رائحة اليقين . وماهذا سبيله ، فباب القبول في وجهه مسدود[1] (إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا)

قال الشهرستانيّ في معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد[2] (وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفليّ . وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها . فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، في كم آية وكم سورة فقال تعالى[3] (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)[4] (أَوَ لَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال[5] (أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ) وقال[6] (قَالَ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) وقال[7] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ) فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداءً وإعادة . انتهى .

ولي في الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون ، كتاب وسمته (دلائل التوحيد) فليرجع إليه المريد ، فليس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

(١) [١٠ / يونس / ٣٦] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٤] . (٤) [٧ / الأعراف / ١٨٥] .
(٥) [١٦ / النحل / ٤٨] . (٦) [٤١ / فصلت / ٩] . (٧) [٢ / البقرة / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ » أى بأن الله باعث خلقه يوم القيامة « مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى انشروهم أحياء ، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا . وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكما بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة . وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

« قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى قل لهم فى جواب قولهم ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾: قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات . أو قل لهم (فى جواب إنكارهم البعث) : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة . والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مرّ مرارا.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى الذين أتوا بالباطل فى أقوالهم وأفعالهم ، وهم عبدة غيره تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٣٠] (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

[٣١] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

«وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً» أى باركة، مستوفزة على الركب لاحراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره. وذلك عند الحساب أو فى الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء « كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا » أى اللوح الذى أثبت فيه أعمالها . ويعطى بيمين من كان سعيداً . وشمال من كان شقيا «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ» أى يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ »أى نستكتب الملائكة «مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى ما صلح به حالهم فى المعاد الجسمانى «فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ »أى فى جنته « ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » أى فيقال لهم «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى بكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بمعاد ، ولا الإيمان بثواب وعقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ » أى : أىّ شىء هى ؟ أى : لانستيقن بها « إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ » أى أنها كائنة وآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٣٤] (وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ)

[٣٥] (ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ » أى قبائح أعمالهم، أو عقوبات أعمالهم السيئات « وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » يعنى الجزاء « وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » أى نترككم فى العذاب، ترك ما يُنسى، كما تركتم التأهب له. فـ (نَنسَىٰكُمْ) استعارة أو مجاز مرسل « وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ * ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا » أى خدعتكم حتى آثرتموها على الآخرة وزعمتم أن لا حياة سواها « فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا » أى من النار « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه. من (الإعتاب) وهو إزالة العتب، كناية عن الإرضاء . أو : لاهم يردّون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٣٧] (وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ » أى الثناء الكامل . قال ابن جرير[1] : أى فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه . فإياه فاحمدوا أيها الناس. فإن كل ما بكم من نعمة فمنه، دون ماتعبدون من دونه، من آلهةووثن «رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى الاستعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شيء . وغاية العلوّ والعظمة باستغنائه عنه وافتقاره إليه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ القاهر لكل شيء « ٱلْحَكِيمُ » قال القاشانىّ : أى المرتب لاستعداد كل شيء ، بلطف تدبيره ، المهيء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته ، وخفىّ حكمته (لا إله إلا هو رب العالمين) .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمنزلنا بدمشق الشام. بقلم جامعه جمال الدين القاسمىّ . وهذا آخر الجزء العاشر. ويليه الجزء الحادى عشر . وأوله سورة الأحقاف . والحمد لله وحده .

تم الجزء الرابع عشر . ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الخامس عشر . وفيه تفسير:
٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ٤٧ ـ سورة محمد ، ٤٨ ـ سورة الفتح ، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٥٠ ـ سورة قٓ ، ٥١ ـ سورة الذاريات ، ٥٢ ـ سورة الطور ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٥٤ ـ سورة القمر ، ٥٥ ـ سورة الرحمن .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥٢٧٣

كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الخامس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، وينتهي بتفسير ٥٥ ـ سورة الرحمن

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٦ ـ سورة الأحقاف

قال المهايمىّ : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العـذاب فيه ، كالدليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كالدلائل على أنفسها . ثم فى قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة المرجوّ مخوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهى مكية . واستثنى بعضهم منها (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ...)[١] الآيتين . وقوله[٢]: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ...)[٣] الأربع الآيات . (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)[٤] الآية ، فهى مدنية ـ كذا قيل . وتقدم فى طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] .
(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .
(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .
(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ » أى : من هول ذلك اليوم « مُعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ، ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضىّ بالاستقلال ، أو شىء سماوىّ بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ » تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلىّ ، بعد تبكيتهم بالتعجيز

عن الإتيان بسند عقليّ . أى : ائتونى بكتاب إلٰهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقليّ ، أو سلطان نقليّ . وحيث لم يقم عليها شيء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ » أى : دعاءه لعجزه عنها « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخّرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المغيّا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه ـ والله أعلم ـ أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها ، وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما، كالشيء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تزيد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

فى سورة الزخرف فى قوله[١] (بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ)

« وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُوا۟ » أى : آلهتهم « لَهُمْ أَعْدَآءً » أى : لتبرّئهم منهم. قال الشهاب: أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضارّ . «وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ» قال ابن جرير[٢] :أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا، بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرّأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصدًا إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانىّ : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانىّ . وكذا استعباد الموالى لخدمهم . فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله[٣] (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُوا۟) فى الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر: لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .
(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفراً ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية[1] (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» أى : بادهوه بالجحود أول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ، ولا إعمال روية . واللام فى (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ، وعدّى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه، وهو الإيمان ، فإنه يعدى بها نحو[2] (أَنُؤْمِنُ لَكَ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى: لاتقدرون أن تدفعوا عنى سوءاً ، إن أصابنى به. و (أم) ـ على ما قالوا ـ منقطعة مقدرة بـ(بل) الإضرابية وهمزة الاستفهام ، المتجوز به عن الإنكار والتعجيب. ووجه كون الافتراء أشنع من السحر، حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد معرفته من السمات المرغوبة .

---

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الناصر : هذا الإضراب فى بابه مثل الغاية التى قدمتها آنفاً فى بابها ، فإنه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفى والإثبات اللذين يضرب عن أحدها للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون فى حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد لى بالصدق بما يؤيدنى به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى : لمن راجع منكم الكفر وتاب وآمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التى أرسلها إلى خلقه. قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم، فلِمَ تستنكرون بعثى، وتستبعدون رسالتى ، كقوله [١] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير [٢] : ومن البدع قول عدىّ بن زيد [٣] :

فَلَا أَنَا بِدْعٌ من حَوَادِثَ تَعْتَرِى رجالًا عَرَتْ من بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْعُدِ

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من الجمهرة ومطلعها :

أتعرفُ رسمَ الدارِ من أم مَعْبَدٍ نَعَمْ . وَرَمَاكَ الشوقُ قبل التجلُّدِ

تعترى : أى تتعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص [١] :

فَخَرَتْ فَانْتَمَتْ فقلتُ : ذَرِينى ۔ لَيْسَ جهلٌ أُتِيتِهِ ببديعِ

« وَمَآ أَدْرِى مَا يُفعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أىّ شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدّر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدرى ما يصير إليه أمرى ، وأمركم فى الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة . والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع فى الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحى الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو ﷺ جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما فى الدنيا ، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشركى قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذى رواه الإمام [٢] أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

(١) كان الأحوص يوما عند سُكَينة . فأذّن مؤذّن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله) فخرت سكينة بما سمعت . فقال الأحوص :

فخرت فانتمتْ . . . .

فأنا ابن الذى حمت لحمَهُ الدَّبْـ ۔ رُ ، قتيلِ اللَّحْيَانِ يوم الرجيعِ

غَسَّلت خالىَ الملائـكة الأبْـ ۔ رار ميتا طُوبَى له من صريعِ

قال أبو زيد : وقد ، لعمرى فخر بفخر ، لو على غير سكينة ، فخر به ! وبأبى سكينة ﷺ ، حمتْ أباهُ الدَّبْرُ ، وغسلت خالَه الملائـكة .

(الأغانى ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

النبيّ ﷺ ، قالت : (طار لنا في السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضناه . حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك،أبا السائب! شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أماهو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير. والله! ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بي! قالت: فقلت : والله ! لاأزكي أحداً بعده أبداً وأحزنني ذلك. فنمت ، فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخاريّ[1] دون مسلم ، وفي لفظ له : ما أدري ـ وأنا رسول الله ﷺ ـ ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزنني ذلك . وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة ، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايميّ : (وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) أي : فيما لم يوح إليّ . والوحي ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقي . ولم يكن لي أن أضمّ إلى الوحي كذباً من عندي .

« إِنْ أَتَّبِعُ »أي: في تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ »أي منذر عقاب الله على كفركم به، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى ما فيه صلاحكم وسعادتكم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

---

(١) أخرجه في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣ـ باب الدخول على الميّت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ »أى :القرآن منزلًا من لدنه،على .لاسحراًولامفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أى :من الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة «عَلَىٰ مِثْلِهِۦ »أى مثل القرآن، وهو مافى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى[1] (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) وقوله[2] (إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ) أو على مثل ماذكر من كونه من عندالله تعالى.أوعلى مثل شهادة القرآن، فجعل شهادته على أنه من عندالله، شهادة على مثل شهادة القرآن، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله، أو (المثل) صلة و (الفاء) فى قوله تعالى « فَـَٔامَنَ » للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن، لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق « وَٱسْتَكْبَرْتُمْ » أى: عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » استئناف مشعر بأن كفرهم، لضلالهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألستم ظالمين) أو (فمن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى[3] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) .

قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم، لظلمهم.

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشىّ ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله[4] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ) . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلًا ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] .   (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .

(٣) [٤١ / فصلت / ٥٢] .   (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها. هذا ما حققوه. ويقرب مما نذكره كثيرًا من المرادمن سبب النزول فى مثل هذا، وأنه استشهادعلى مايتناوله اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم فى التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ » أى : الإيمان، أو ما أتى به الرسول «خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ » أى: لوكان من عندالله لكنا أولى به، كسائرالخيرات من المال والجاه.

قال ابن كثير: يعنون بلالًا وعمارًا وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيّناً ، كما قال تعالى[(١)] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ) أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا[(٢)] (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ) وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم : هو بدعة . لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. انتهى. «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ »أى: بالقرآن«فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ» أى : كذب قديم، كما قالوا (أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال[(٣)] رسول الله ﷺ : بطر الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البرّ والصلة ، ٦١ ـ باب ماجاء فى الكبر =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

«وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً» أى: قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . «وَهَٰذَا» أى الذى يقولون فيه ما يقولون «كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ» أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه «لِّسَانًا عَرَبِيًّا» أى : بيّناً واضحاً . وفى تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . «لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[١٤] (أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

«إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ» أى : لا غيره. «ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟» أى: على العمل الصالح. قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أى : من هول يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر. «أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ».

= ونصه : عن عبد الله، عن النبى ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجمال . ولكن الكبر مَنْ بَطَرَ الحقَّ وغَمَصَ الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ، إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا » وقرئ (حُسْنًا) وهـذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما فى الإيمان المذكور ، فى قوله[1] تعالى (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ...) الآية .

« حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْه ، أو حملًا ذا كُرْهٍ ، وهو المشقة . « وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ » أى : حمله جنيناً فى بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاناة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأنا نقول : إن الحولين أمَدُ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنه قوله[2] تعالى (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون فى الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم فى ذلك ، كما ذكروه فى حديث أنس فى وفاته ﷺ على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفى عن ثلاث وستين ، كما بين فى شرح الشمائل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدل عليّ رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان[1] (وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى[2] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قويّ صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

«حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ» أي : استحكم قوته وعقله «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ » أي : ألهمني « أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ » أي : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . « وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ » أي : واجعل الصلاح سارياً في ذريتي ، راسخاً فيهم « إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ » أي : من ذنوبي التي سلفت مني « وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ » أي: المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ)

« أُوْلَٰٓئِكَ » أي الموصوفون بالتوبة والاستقامة « ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ » أي : من الصالحات فنجازيهم عليها « وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ » أي : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم « فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ » أي : معدودين في زمرتهم ثواباً ومقاماً .

قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل[3] (وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ) ليدل على المبالغة بعلوّ منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبيّنوه هٰهنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فِىٓ) بمعنى (مع) . انتهى .

---

(١) [٣١/ لقمان / لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعدَ الحق فى الدنيا ، وهو موفيه لهم فى الآخرة ، كما قال(١) (وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ) .

ثم بيّن تعالى نعت من عصى ما وصَّى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاقّ كافر ، وما له فى مآله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ » أى حين دعَوَاه إلى الإيمان والاستقامة « أُفٍّ لَّكُمَآ » أى : من هذه الدعوة « أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبرى بعد فنائى « وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستعظامه ، كأنهما لجآ إلى الله فى دفعه ، كما يقال (العياذ بالله) ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدّق بوعد الله ، وأقرّ أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيْلَكَ) فى الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعلٍ أو تركٍ ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ماهو فيه ، وأخذ ما ينجيه « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى لخلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، ورادًّا عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التى كتبوها .

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ)

« أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى : الإلهىّ ، وهو العذاب « فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ » أى : ببيعهم الهدى بالضلال ، والباقى بالفانى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلٍّ » أى من الفريقين « دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيء « وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى ابنٍ لأبى بكر الصديق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّىّ قال : نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال لأبويه ـ وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعدُ ، فحسن إسلامه ـ فنزلت توبته فى هذه الآية (وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ) .

قال الحافظ ابن حجر: لكن نفيُ عائشة أن تكون نزلت فى عبدالرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول. وذلك مارواه البخارىّ[١] والإسماعيلىّ والنسائىّ وأبو يعلى؛ أن مروان

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ١ ـ باب والذى قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملًا على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس نخطبهم ، فذكر يزيدَ ، ودعا إلى بيعته وقال: إن الله أرى أمير المؤمنين فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: ماهى إلا هرقلية! فقال مروان : سنة أبى بكر وعمر . فقال عبد الرحمن: هرقلية! إن أبا بكر، والله ! ماجعلها فى أحد من ولده، ولا فى أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه. فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه (وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ) فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروانُ فى صلبه .

ومما يؤيده أن (ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ) هم المخلدون فى النار فى علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وحاول بعضهم عدم التنافى بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه، ثم يسلم بعد ذلك. ومعلوم أن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن معنى الوعيد فى الآية إنما هو للمصرّين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد فى العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد فى أول البعثة آيات لا تحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنئذ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أنَّ فيها ما يحط من أقدارهم، ويجعلها مغمزًا لهم ، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة ، وقالةٍ يلوكها الرعاع ، وهم الذين يهمه أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن! فقد شفى الغلة، وصدع بالحق ، فى حين أن لا ظهير له ولا نصير ـ والله أعلم ـ .

قال ابن قتيبة فى (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ فى نسق : أبو قحافة، وابنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن .

وقال أيضاً: قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش، ويكنى أبا محمد، وله عقب بالمدينة،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، نسب إليه زورًا. وما أكثر المزوّرات في المزارات، كما يعلمه من دقّق في الوفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أي يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أي فما بقي لكم من اللذائذ شيء لاستيفائكم إياها « فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ » أي الهوان « بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أي بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ » أي عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ » يعني هودًا « إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع. قال قتادة : ذكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن ، أهل رمل، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ » أي : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ » أي لا تشركوا مع الله شيئًا

فى عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

«قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» أى لتصرفنا «عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لا محالة . « قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له «وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرى[١] : أى مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية)

فرأوه عارضاً فى ناحية من نواحى السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ » أى سحاب عارض « مُّمْطِرُنَا » أى بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أى قال هود بل هو « مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ » أى من العذاب « رِيحٌ » أى هى ريح . أو بدل من (ما) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ » أى تهلك « كُلَّ شَىْءٍۭ » أى من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أى إذنه الذى لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلهتهم ، بل دمّرتهم « فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ » أى بيوتهم .

ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شا كلتهم من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين إذا تمادوا فى غيهم ، وطغوا على ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ) أى مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا . على أنّ (إن) نافية ، أوثرت على (ما) لئلا توجب شبه التكرير الثقيل. وقيل (إن) شرطية محذوفة الجواب. والتقدير: ولقد مكناهم فى الذى ، أو فى شيء ، إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هى صلة كما فى قوله[1] .

يرجّى المرء ما إنْ لَا يَرَاهُ ويَعْرِضُ دونَ أَدْنَاهُ الخطوبُ

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ، قاله إياس بن الأرتّ . وقبله .

فإنْ أُمْسِكْ فإن العيشَ حُلْوٌ إلىّ كأنه عَسَلٌ مَشُوبُ =

قال الزمخشريّ : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه في غير آية في القرآن[١] (هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا)[٢] (كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا) وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى[٣] (وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)وقوله[٤] (مَكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ) أي: والأصل توافق المعاني في الآي الواردة في نبأ واحد، على ما فيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً » قال الطبريّ[٥] : أي جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ، «فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ» أي لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل في خلافه « إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أي من العذاب .

قال الطبري[٦] : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم: فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدري الحريصُ علامَ يلقى شَراشِرَهُ ، أيخطىءُ أم يصيبُ

ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطماعه إلى الأمور المغيبة التي لا يراها ، ويعترض الموت عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولا ، الأمورُ الشديدة التي تقطع رجاءه ، فما ظنك بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .
(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ الأنعام / ٦] .
(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الساس والعشرين(طبعة الحلبيّ الثانية).
(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله ، وتكذيبكم رسله ، ماحلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة .

لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع في النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ، وتعددت مدركات غيره ، ولأنه في الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم » أي ما حول قريتكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أي كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أي وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أي عن الكفر بالله ورسله . قال الطبريّ : وفي الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتمادي على غيهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

« فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » أي : فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أوثانهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم عند ربهم ، كما قالوا[1] (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

---

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم، وامتنع أن يستمدوا بهم، امتناع الاستمداد بالضالّ ففى (ضَلُّواْ) استعارة تبعية « وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » أى وإثر افترائهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ، أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ » أى أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ » أى ليتم التدبر والتفكر «فَلَمَّا قُضِىَ» أى فرغ من قراءته ، كمل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْاْ » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فُضّل عليها إذ « يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير : أى يهدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار ، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى[١] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى[٢] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ) فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : يهدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

« يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ » أى رسول الله محمدًا إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله ، « وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجز ربه ، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته ، لأنه فى قبضته وسلطانه ، أنّى اتجه . « وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ » أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . « أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول ـ روى الإمام مسلم[٣] عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراءَ . قال : فقلنا : يارسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطَلَقَ بنا ، فأرانا آثارهم .

وروى الإمام أحمد[٤] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحى ،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٤٨٢ (طبعة المعارف) .

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشراً . فيكون ما سمعوا حقًّا ، وما زادوا باطلًا . وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رُمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبثّ جنوده ، فإذا بالنبيّ ﷺ يصلّى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . ورواه الترمذىّ [١] والنسائىّ فى كتابى التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصرىّ : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظىّ قصة خروج النبىّ ﷺ إلى الطائف ، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعته الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضى الله عنهما المذكور . وخروجُه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبىّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه [٢] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ . . .) الآية . قال ابن كثير : فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا : قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم [١] جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى يقول: سألت مسروقاً : من آذن النبيّ ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثنى أبوك - يعنى ابن مسعود رضى الله عنه ـ أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفى ابن عباس رضى الله عنهما ، ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أى أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقىّ : وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما إنما هو أول ماسمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم . ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ـ كما رواه ابن مسعود رضى الله عنه ـ .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضى الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبىّ ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقىّ . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى ـ والله أعلم ـ كما روى ابن أبى حاتم فى تفسير (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجن نصيبين . وتأوّل البيهقى قوله (فبتنا بشرّ ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعْدٍ

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ ـ باب ذكر الجن وقول الله تعالى: قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

وبالجملة ، فقد روى مايدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولًا من وجه جيّد عند ابن جرير[(١)] فى هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم ، فهذا يدلّ على أنه قد روى القصتين. وذكر أبو حمزة الثمالىّ أن هذا الحىّ من الجن كانوا أكثر الجن عددًا ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدلّ على ذلك مارواه البخارىّ[(٢)] فى صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشىء قط يقول : إنى لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . علىّ الرجلَ . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنَهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لاأبرح حتى أعلم ماوراء هذا . ثم نادى : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . فقمت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبىّ ـ هذا سياق البخارىّ ـ وقد رواه البيهقىّ من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ ـ باب إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدلّ على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ـ والله أعلم ـ .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقىّ : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك، إذ طلع سواد بن قارب. قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان . قال سواد : فإنى كنت نازلا بالهند ، وكان لى رَئِىٌّ من الجن . قال ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا جاءنى فى منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤىّ بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنّ وتَحْسَاسِهاَ ... وشــدِّها العيسَ بأحْلَاسِهاَ
تَهـوى إلى مكةَ تبغى الهُدَى ... ما خيِّرُ الجنِّ كأَنْجَاسِهاَ
فانهَضْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ ... واسمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسِهاَ

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى وقال : ياسواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبيًّا، فانهض إليه تهتدِ وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول :

عِجبتُ للجن وتَطـلَابِهاَ ... وشــدِّها العيسَ بأَقْتَابِهاَ
تَهـوى إلى مكة تبغى الهدى ... وليسَ قُدْمَاهَا كأَذْنَابِهاَ
فانهض إلى الصَّفْوَةِ من هاشم ... واسمُ بعينيــك إلى قَابِهاَ

فلما كان فى الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عجبتُ للجن وتَخْبَارِهَـا ... وشدِّها العيسَ بِأَكْوَارِهَا
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ليس ذَوُو الشَّرِّ كأَخْيَارِهَا
فانْهَضْ إلى الصَّفوةِ من هاشم ... ما مُؤْمِنُو الجنِّ ككُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ،وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلى ، فشددته على راحلتى ، فما حللت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآنى النبىّ ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يارسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه منى ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَانِى رَئِـيِّي بعد لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ ... ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبِ
ثلاثَ ليالٍ ، قولُه كلَّ ليلة : ... أتاكَ رسول من لُؤَىِّ بْنِ غالب
فشمَّرْتُ عن ساقى الإزارَ وَوَسَّطَتْ ... بى الدِّعْلِبُ الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله ، ياابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مُرْسَلٍ ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذَّوائبِ
وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواكَ بمُغْنٍ عن سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال : فضحك النبىّ ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لى : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضى الله عنه : هل يأتيك رئيّك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتنى ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن. ثم أسنده البيهقىّ من وجهين آخرين. انتهى(١) كلام ابن كثير.

وقد ساقه الإمام الماوردىّ فى (أعلام النبوة) مع نظائر له ، فى الباب السادس عشر ، فى هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخبارَ آحاد ، عمن لايرى شخصه ، ولا يحج قوله، لخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره فى النفوس بشير، وقد قبلها السامعون. وقبولُ الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلاً على صحة الكهانة ، فعنه جوابان :

أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هى من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثانى : أن الكهانة عن مغيّب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثانى :

قال الماوردىّ : فى صرف الجن المذكور فى قوله تعالى(١) (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) وجهان :

أحدهما ـ أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث فى السماء، إلا لحادث فى الأرض، وتخيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ ببطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلى الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلى ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضى الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) فى (إليك) بمعنى لام التعليل . وذُكر فى (المغنى) أنها تأتى مرادفة اللام، نحو(٢) (والأمر إليكِ) . وفيه تكاف وبُعدٌ ، لنبوّه عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردىّ : وحكى عكرمة أن السورة التى كان يقرؤها(٣) (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) .

أقول : سيأتى مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردىّ :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل/ ٣٣] . (٣) [٩٦ / العلق / ١] .

والوجه الثاني ـ أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبيّ الله ببطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : فخط عليّ خطًّا وقال : لا تجاوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه. وعلى الوجه الثاني، أعلمه جبريل قبل إتيانهم. واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يرهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن .

أقول : تقدم لابن كثير مافيه كفاية ـ .

ثم قال الماوردىّ : وفي قوله(١) (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ) وجهان :

أحدها ـ فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا ـ أي قولهم أنصتوا ـ أدب منهم . وقد روى البيهقيّ عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم ردا . ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد. ورواه الترمذيّ(٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث ـ دل قوله تعالى(٣) (يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان عامّ الرسالة إلى الإنس والجن .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذيّ في: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥٥ ـ سورة الرحمن، باب حدثنا عبد الرحمن ابن واقد .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهى سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ).

قال الماوردىّ: لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولًا من الإنس، واختلفوا فى جواز بعثة رسول منهم، فجوّزه قوم لقول الله تعالى[1] (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه. وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوْا إلى قومهم منذرين . انتهى .

أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلًا فى آية[2] (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ) .

الرابع ـ استدل بقوله (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .

قال الماوردىّ : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا فى دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم. فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم، يدخلون الجنة. وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق ـ كما قال ابن كثير ـ أن مؤمنهم كمؤمن الإنس ، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل[3] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ) وفى هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا[4] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٣٦ / يس / ١٤] .
(٣) [٥٥ / الرحمن / ٥٦و٧٤] . (٤) [٥٥ / ٤٦و٤٧] .

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فقد امتنّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولىّ أبلغ من الإنس، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم. وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلأَن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على عموم ذلك قوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار. فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه[2] (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى)ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون فى ربضها وحولها وفى أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس ـ قيل : سر التبعيض فى قوله (مِّن ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربىّ لو نهب الأموال المصونة، وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه، جبّ الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال.

---

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ماوعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مبعضة، والسر فيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاؤه كما في حق المؤمن ـ أفاده الناصر ـ .

السادس ـ قال ابن كثير: جمعوا في دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع ـ قال الماوردىّ : الجن من العالم الناطق المميز، يأكلون ويتنا كحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية .

وقال القاشانىّ :الجن نفوس أرضية تجسدت في أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر، سماها حكماء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة في أبدان عنصرية، ومشاركتها الإنس في ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناسَ التهدّى بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع،وأوضح من أن يقبل التأويل. انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ » أى بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كهيأتهم قبل وفاتهم .

وفي ابن جرير[1] بحث نحوىّ في دخول الباء في (بِقَٰدِرٍ) بديعٌ . ويذكر في مباحث زيادة الباء ، في مطولات العربية .

« بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » أى من إعادة المعدوم ، ولو فنى الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ، قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا » أى الإحياء إحياء « بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَٱصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم ـ فى اللغة ـ كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشيء والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون، المجدّون، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) بيانية لا تبعيضية، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلابد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها ـ أنهم جميع الرسل . والثانى ـ أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث ـ أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزمِ نوحٌ والخليلُ الممجَّدُ ... وموسَى وعيسَى والنبيُّ محمــدُ

والرابع ـ أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس ـ أنهم سبعة بزيادة آدم . والسادس ـ أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزاد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام فى دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحمى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو لملك جبار فى عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كنمروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكالابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره ـ أفاده الشهاب ـ « وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ » أى ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أو فى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ » أى لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلَـٰغٌ » قال ابن جرير[1] : فيه وجهان :

أحدها ـ أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر ـ أن يكون معناه: هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية، إن فكروا واعتبروا، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايمىّ إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلَكُ » أن بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٧ – سورة محمد ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدلالتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على القتال وكثرة فوائده – قاله المهايميّ – .

وهي مدنية . وحكى النسفيّ قولًا غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ)

«ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» أى: جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره «وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ» أى : أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. « أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى ورشاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم .

وقوله « وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ » أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بعطفه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله « وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ » أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ » أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح، ما كان منهم من الكفر والمعاصى، لرجوعهم عنها وتوبتهم «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ » أى حالهم وشأنهم، وعملهم فى الدنيا بالتأييد والتوفيق.

قال الشهاب : (البال) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم، كقوله ﷺ[1] (كل أمر ذى بال) . ويكون بمعنى الخاطر القلبيّ، ويتجوز به عن القلب . ولو فسر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب خطبة النكاح ، حديث ١٨٩٤ (طبعتنا) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسره السفاقسيّ بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير(١) : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لايعرف منه فعل، ولا تكاد العرب تجمعه إلا فى ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : (بالات) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ)

« ذَٰلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين مافعله كائن « بِأَنَّ ٱلَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشباه، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار. واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو فى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ، وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ)

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

فى قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملًا بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتمييزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة. ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب مافى حيزها من الأمر على ماقبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين مايليق به من الأحكام. أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم فى المحاربة ، فضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضرباً. فحذف الفعل، وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيد بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم ، فصاروا فى أيديكم أسرى « فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ » بفتح الواو ، وقرىء بكسرها . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيد والحبل . أى فأمسكوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سبعيّتهم ، وإما تفدون فداءً ، فتطلقونهم بعوض مال، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايمىّ : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مرمن قوله[1] (مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال. ولم يذكر الاسترقاق، لأنه فى معنى استدامة الأسر، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية. ولا تزالوا كذلك «حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أى: إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى. استعير لآلات الحرب التى لاتقوم إلا بها، استعارة تصريحية أو مكنية، بتشبيهها بإنسان يحمل حملًا على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخييلًا . وقد جاء ذكرها فى قول الأعشى[2] :

وأعددتَ للحرب أوزارَها : رماحاً طِوالًا وخيلًا ذُكوراً

(١) [٨ / الأنفال / ٦٧] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التى مطلعها:

غَشِيتَ لِلَيْلَى بِلَيْلٍ خُدُورَا وَطَالَبْتَهَا ونذرتَ النُّذُورَا

يمدح بها هوذة بن علىّ الحنفىّ .

وقيل : أوزارها آثامها . يعني : حتى يترك أهل الحرب ـ وهم المشركون ـ شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول ـ قال في (الإكليل) : في الآية بيان كيفية الجهاد .

الثاني ـ للسلف قولان في أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّيّ أنها منسوخة بقوله تعالى (1) (فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمر وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادىء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهي المطلقة .

ومدرك الثاني أن الأمر بقتلهم المجمل في آيات ، محمول على المفصل في مثل هذه الآية . أي إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصلحة في القتل ، فتلك من باب آخر .

وثم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافي جواز القتل ، لعلمه من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذي أختاره . وإذا دار الأمر في الآي بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذاهب إلى الإحكام ، لما قدمناه في مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين في النسخ .

(1) [٩ / التوبة / ٥] .

ثم رأيت ابن جرير (١) سبقني في ترجيح ذلك ، وعبارته :

والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، أنه مالم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أوما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً في هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى ، وذلك قوله تعالى (٢) (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) الآية . بل ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً ، ويفادي ببعض ، ويمن على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أتى به أسيراً . وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلماً ، وهو على فدائهم والمنّ عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفيّ ، وهو أسير في يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره في أهل الحرب ، من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى ، فخص ذكرها فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه بذلك ، قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلَمَ نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث ـ من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ، وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرائهم من غير تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبيّ صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم مشركون ، فتفهّم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يخيّر ،بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة فى الأسراء المقاتلين ، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين ، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر ، فلم يجز له ترك ما فيه الحظ ، كولىّ اليتيم ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح فى بعض الأسرى . فإن منهم من له قوة ونكاية فى المسلمين ، فقتله أصلح . ومنهم الضعيف ذو المال الكثير ، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى فى المسلمين ، يرجى إسلامه ، فالمنّ عليه أولى . ومن ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه ، استرقاقه أصلح ـ كما فى (شرح الإقناع) ـ .

الرابع ـ تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة ، قطعاً لحجته . ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة ، لحديث(١) بُرَيْدَة بن الحُصَيْب قال : كان النبىّ ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوجيش، أمره بتقوى الله تعالى فى خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين . وقال : إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ـ رواه مسلم ـ .

وقيد الإمام ابن القيّم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصدهم المسلمون . أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة ، دفعاً عن نفوسهم وحريمهم وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدوّ، ونكايتهم وقربهم وبعدهم ـ كما فى (شرح الإقناع) ـ .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » خبر لمحذوف . أى الأمر ذلك . أو مفعول لمقدّر «وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ » أى : لانتقم منهم بعقوبة عاجلة ، وكفاكم ذلك كله. « وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

بَعْضَكُم بِبَعْضٍ » أى ليختبر كم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق . « وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ » أى استشهدوا . وقرئ (قاتلوا) « فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[٦] (وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى بيّنها لهم فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أى الظفر والتمكين فى الأرض ، وإرث ديار العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ)

[٩] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ » أى خزياً وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالكبّ . « وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » أى من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل . « فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذّبة رسلها ، الرادة نصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمّره بمعنى أهلكه . ودمّر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم، لجعل مفعوله نسياً منسيًّا ، فيتناول نفسه وكل مايختص به . والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَالُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ)

[١٢] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)

«ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ» أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » أى غير مفكّرين فى المعاد، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح، فلا همّ لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم)

« وَكَأَيِّن » أى : وكم « مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبده على بصيرة منه . « كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » أى فأراه إياه الشيطان حسنا ، فهو مقيم عليه . « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

« مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ » أى متغيّر الريح « وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

(مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ) مبتدأ خبره (كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ، وإن كان فى صورة الإثبات ، هو فى معنى الإنكار والنفى ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : (أَفَمَن كَانَ ...) الخ، وليس فى اللفظ قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أعاريب أخر، هذا أمتنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ)

« وَمِنْهُم » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّن » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه من المتلوّ، وتهاوناً به « مَاذَا قَالَ ءَانِفًا » أى الساعة. هل فيه هدى؟ فإن بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً . « أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ » أى آراءهم ، لا مايدعو إليه البرهان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ)

« وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ » أى باتباع الحق ، والمشى مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً لحقيقة ماجاءهم « وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بيّن لهم مايتقون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ)

« فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير : أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى[١] (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ) وكقوله جلت عظمته[٢] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ) وقوله سبحانه وتعالى[٣] (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقوله جل وعلا[٤] (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبىّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرىّ : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبىّ التوبة ، ونبىّ الملحمة ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى .

روى البخارىّ[٥] عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا ـ بالوسطى والتى تليها ـ : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ » أى ذكرى ماقد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

---

(١) [٥٣ / النجم / ٥٦ و ٥٧] .
(٢) [٥٤ / القمر / ١] .
(٣) [١٦ / النحل / ١] .
(٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .
(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٩ ـ باب قول النبىّ ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) حديث رقم ٢٠٦٨

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

«فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ» قال ابن جرير[١]: أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغى أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذى هو خالق الخلق، ومالك كل شىء. يدين له بالربوبية كل ما دونه. والفاء فصيحة فى جواب شرط معلوم، مما مر من أول السورة إلى هنا، من حال الفريقين.

قال السيوطىّ: وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد فى العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات، المعرفةُ قبل الإقرار.

«وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» قال ابن جرير[٢]: أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

قال الشهاب: وإنما أعيد الجار، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبىّ ﷺ، فإن ذنوبهم معاص كبائر وصغائر، وذنبه ترك الأَوْلى.

وقال السيوطىّ: استدل بالآية من أجاز الصغائر على الأنبياء. انتهى.

والمسألة مبسوطة بأقوالها، وما لها وما عليها فى (الفِصَل) لابن حزم. فارجع إليه.

وفى الصحيح[٣] أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٨٠ـ كتاب الدعوات، ٦٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ (اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤، عن أبى موسى الأشعرىّ.

فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطاياى وعمدى ، وكل ذلك عندى .

وفى الصحيح(١) أنه كان يقول فى آخر الصلاة : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى . أنت إلهى لا إله إلا أنت .

وفى الصحيح(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ » أى متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ)

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أى تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار. « فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ » أى مبيّنة لا تقبل نسخاً ولا تأويلا ، « وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ » أى الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى : شك فى الدين وضعف فى اليقين « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ » أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذى لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١ ـ باب التهجد بالليل ، حديث رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣ ـ باب استغفار النبىّ ﷺ فى اليوم والليلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبى هريرة .

« فَأَوْلَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أي : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولى ، بمعنى القرب. وقال أبو عليّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل (أويل) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فَعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و (لهم) خبره . وقد سمع فيه (أولاة) بتاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فُعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمى بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه (أولاةٌ) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظاً آخر بمعناه ، فلا يرد شيء منـــه عليهم أصلًا ، كما جاء (أوّل) أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ (قبل) وسمع فيه (أوّلة) ـ كما نقله أبو حيان ـ فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى .

قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها ـ أنه مبتدأ ، و (لهم) خبره ، تقديره : فالهلاك لهم .

والثاني ـ أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أي أقرب وأدنى ، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أي أولى وأحق بهم .

الثالث ـ أنه مبتدأ ، و (لهم) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و (طاعة) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى

[٢١] (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ)

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر (أولى) على ما تقدم .

الثانى ـ أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكىّ وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث ـ أنها مبتدأ ، و (قول) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكىّ : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع ـ أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس ـ أن (لهم) خبر مقدم و (طاعة) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل ـ أفاده السمين ـ .

« فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله [1] تعالى (إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتخلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلو جئتنى لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجبه « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَّهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأيًّا ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ)

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، وما جاء به رسوله « أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالتغاور والتناهب « وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ »

(١) [٣١ / لقمان / ١٧] .

أى تعودوا لما كنتم عليه فى جاهليتكم من التشتت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٣] ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾

« أُوْلَـٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين « ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامّهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ » أى لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ » قال ابن جرير[١] : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى يعظهم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ماهم عليه مقيمون . «أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتنكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها ، كأنها مبهمة منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم » أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر « مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ » أى الحق بواضح الحجة .

« ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ » أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه « وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » أى ومدّ لهم فى الآمال والأمانىّ ، أو أمهلهم الله تعالى ، فمد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى: الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَالُواْ » أى المنافقون « لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ » أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ « سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ » أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى[1] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ)

[٢٨] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ)

« فَكَيْفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَٰرَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَٰلِكَ » أى التوفى الهائل « بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه، « وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ)

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَن لَّن يُخْرِجَ » أى يظهر « ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله والمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ)

[٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ)

«وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ» أى لعرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ » أى بعلامتهم التى نسمهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانىّ : علمُ الله تعالى قسمان : سابقٌ على معلوماته إجمالًا فى لوح القضاء ، وتفصيلًا فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فمعنى (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) حتى يظهر علمنا التفصيلىّ فى المظاهر الملكوتية والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تثمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ)

[٣٤] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ » أى لـكن يعذبهم ويعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

« فَلَا تَهِنُواْ » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ » أى الصلح والمسالمة « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامنتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَٱللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره ماتمسكتم بحبله « وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد «وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ» أى ثواب إيمانكم وتقواكم «وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ» أى لأنه غنىّ عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لايسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لايسألكم الجميع ، أى : لايأخذه منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله (يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ) أى يعطكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال ـ هذا ماقاله الشهاب ـ .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ)

« إِنْ يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويلح عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشرىّ : الإحفاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شىء ، يقال (أحفاه فى المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و (أحفى شاربه) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ » أى أحقادكم ، وكراهتكم لدينٍ يذهب بأموالكم . وضمير (يخرج) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ (يخرج) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ، وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ، وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ، وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾

« هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه، ونصرة دينه « فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ » أى يمسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكلٌّ شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ » أى بالذات إليه . فوصفُه بالغنى وصف لازم له ، ووصفُ الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيلَ من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر ، وجزئيّه الأهم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه .

« وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلًا منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه .

« ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُمْ » أى لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على مايؤمرون به .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٨ - سورة الفتح

سميت به لدلالتهـا على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هـذه أمور جليلة ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وآيها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عِدَةً له بالفتح . قال أنس: لما رجعنا من الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والـكآبة، فنزلت. واختلف فى المـكان الذى نزلت فيه، فوقع عند محمد بن سعد (بضَجْنان) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى ـ الإكليل ـ بكراع الغميم . وعن أبى معشر (بالجحفة) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ـ وهو فى بعض أسفاره ـ لعمر : لقد أنزلت علىّ الليلةَ سورة، لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفّل قال : قرأ النبىّ صلى الله عليـه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجّع فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيناً » قال الرازىّ : فى الفتح وجوه :

أحدها ـ فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها ـ فتح الروم وغيرها .

وثالثها ـ المراد من الفتح ، صلح الحديبية .

ورابعها ـ فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها ـ المراد منه الحكم ، كقوله (١) (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) ، وقوله (٢) (ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانىّ ، وجميعها مما تحقق مصداقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تكرّه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أُحْصِرَ ورجع، أنزل الله عز وجل

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً ، باعتبار مافيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . وروى البخارىّ [١] عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبىّ ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت علىّ آية أحب إلىّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجاه فى الصحيحين [٢] من رواية قتادة به ـ .

وروى الإمام أحمد [٣] عن مجمّع بن جارية الأنصارىّ رضى الله عنه ـ وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن ـ قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباعر. فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسولَ الله ! أو فتح هو؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود فى الجهاد.

ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) ـ أى بينا ظاهراً ـ هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٤ ـ كتاب المغازى، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية، حديث ١٦٨٦
(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ (طبعتنا) .
(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) فى الكلام على ما فى غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، أَمِنَ الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً ، وناظره فى الإسلام ، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً فى قوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) نزلت فى الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله! أو فتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدى قصة المسيح وخلقه من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيرًا ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدى نسخ القبلة ، قصة البيت وبنائه وتعظيمه والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه . ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له . وهكذا ما قدم بين يدى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك . وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدى الوحى فى اليقظة . وكذلك الهجرة ، كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد . ومن تأمّل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولى الألباب . انتهى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)

« لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام فى إعلاء كلمة الله تعالى ، بمكابدة مشاقّ الحروب ، واقتحام موارد الخطوب .

« مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع مافرط منك ، من ترك الأَوْلى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التى لايشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهـذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولا من الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله، وأشدهم تعظيما لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده ! لايسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها، فلما أطاع الله فى ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوّك ، ورفعه ذكرك . « وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه. قال أبو السعود: أصل الاستقامة، وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لـكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبلُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

« وَيَنصُرَكَ ٱللَّـهُ نَصْرًا عَزِيزًا » أى قويًّا منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ » أى يقينا منضما إلى يقينهم .

قال القاشانىّ : السكينة نور فى القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدانٌ يقينىّ معه لذة وسرور .

« وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه . « وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتدبيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)

واللام فى قوله تعالى « لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبّر ما دبّر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ (فَتَحْنَا) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله (لِيَزْدَادُوٓا۟) . « وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيماً » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ، وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَآءَتْ مَصِيرًا)

« وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ » أى بالتعذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع ، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ (دَآئِرَةُ ٱلسُّوءِ) بالضم ، وهما لغتان من (ساء) كالكُرْه والكَرْه . « وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالقهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكرير : إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله (عَلِيمًا حَكِيمًا) ، وهنا أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المنتقم ، فلذا ذيله بقوله (عَزِيزًا حَكِيمًا) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرّض لوصف العزة . وقال القاشانىّ : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما فعل بالمؤمنين . وبدّل (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه « وَتُوَقِّرُوهُ » أى تعظّموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا ـ على ظاهره ـ أو دائما ، بجعل طرفى النهار كناية عن الجميع ، كما يقال (شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها ـ على ما ذكرنا ـ لله ، وجوّز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدوّ ، ولا يولوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهيه. « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيّه ﷺ . وقال القاشانىّ : أى قدرته البارزة فى يد الرسول، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرهم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَن نَّكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هى بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح ـ على ما قاله ابن كثير ـ وقد اقتص سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها فى شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبيّ ﷺ فى ذى القعدة معتمرًا ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدُّوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيّم : قصة الحديبية كانت سنة ست فى ذى القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا فى الصحيحين [١] عن جابر . وفيهما [٢] عن عبد الله بن أبى أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما [٣] : كانوا ألفاً وأربعمائة ـ والقلب إلى هذا أميل ـ وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب بن لؤىّ ، قد جمعوا لك الأحابيش [٤] ، وجمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نميل إلى ذرارىّ هؤلاء

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين[١] محزونين ، وإن نجوا يكن عُنُق[٢] قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجيء لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: إن خالد بن الوليد بالغميم[٣] ، فى خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين، فو الله! ماشعر بهم خالد حتى إذا هو بقترة الجيش. فانطلق يركض نذيرا لقريش. وسار النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنيَّة التى يهبط عليهم، بركت راحلته. فقال الناس: حَلْ حَلْ[٤]، فألحّت[٥] : فقالوا : خلأت[٦] القصواء! خلأت القصواء ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء ، وماذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذى نفسى بيده ! لايسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها. ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[٧] قليل الماء إنما يتبرضه[٨] الناس تبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته[٩]، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فو الله ! ما زال يجيش لهم بالرىّ[١٠] ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يارسول الله! ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسلْ عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُنُق : الجماعة من الناس .
(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .
(٥) أى لزقت مكانها . (٦) أى حرَنت .
(٧) الثمد : بالتحريك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .
(٨) أى يأخذونه قليلًا قليلًا . (٩) وعاء من جلد يكون فيه النشاب .
(١٠) أى يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمّارا ، وادعهم إلى الإسلام . وأَمَرَه أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهرٌ دينَه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح[1] ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمّاراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذاك ظنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بى ! والذى نفسى بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الحرّ بن قيس ،

(١) موضع قرب مكة .

وكان معقل بن يسار آخذا بغصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من بايعه أبو سنان الأسديّ ، وبايعه سَلَمة بن الأكوع ثلاث مرات ، فى أول الناس وأوسطهم وآخرهم . فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعيّ فى نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح[١] رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤىّ وعامر بن لؤىّ نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[٢] ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجىء لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شاؤوا أماددهم ويخلّوا بينى وبين الناس . وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جمّوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولًا ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء . وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفىّ : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعونى آته . فقالوا : ائته . فأتاه ، فجعل يكلمه . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ! أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن أخرى ، فوالله إنى لأرى وجوهاً ، وأرى أوشابا من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك ! فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده ! لولا يد كانت لك عندى لم أجْزِك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

---

(١) يعنى : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التى هى مواضع النصح ، تشبيها لها بالعياب التى يستودع فيها الثياب .

(٢) أى الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه السيف، وعليه المغفر. فكلما أهوى عروة إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخِّر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى غُدَر ! أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ . فو الله ! ما تنخم النبيّ ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشيّ ، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدًا . والله ! إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظّمون البُدْن ، فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدْن قد قُلّدت وأُشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام مكرز بن حفص، فقال: دعونى آته . فقالوا : ائته. فلما أشرف عليهم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا هو يكلّمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا الكاتب، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ماندرى ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبيّ ﷺ : اكتب : باسمك اللهم . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : فوالله ! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبيّ ﷺ : إنى رسول الله وإن كذبتمونى ! اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبيّ ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أُخِذْنا ضغطةً ، ولكن لك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ ! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف فى قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين . فقال سهيل : هذا يامحمد أول من قاضيتك عليه أن ترده ، فقال النبيّ ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : فوالله ! إذن لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبيّ ﷺ : فأجره لى قال : ما أنا بمجيره لك ، قال : بلى ، فافعل . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزناه لك. فقال أبو جندل : يامعشر المسلمين ! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون مالقيت ـ وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله ـ قال عمر بن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : يارسول الله ! ألست نبيّ الله ؟ قال : بلى ! قلت : ألسنا على الحق ، وعدوّنا على الباطل؟ قال : بلى ! فقلت : على مَ نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إنى رسول الله، وهو ناصرى، ولست أعصيه. قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ! أفأخبرتك أنك تأتيه العامَ ؟ قلت : لا ! قال : فإنك آتيه ، وتطوف به ! قال فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ ، وردّ عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالًا . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ماقام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سَلَمة ، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة : يارسول الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عزوجل:(١)(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ) حتى بلغ (بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفى مرجعه أنزل الله عليه : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .) الآيات . فقال عمر : أفتحٌ هو يارسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئاً لك يارسول الله ! فمالنا ! فأنزل الله عزوجل(٢) (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر، فقال : أجل ! والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبى ، وإنى لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يانبىّ الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتنى إليهم ، فأنجانى الله منهم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٤٨ / الفتح / ٤] .

ويل أمّهِ ! مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلّت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبى بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فو الله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم. وأرسلت قريش إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لمّا أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله عز وجل(١) (وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . .) الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلّوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثا ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عَيْبَةً مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال. فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجا .

هذا ولينظر تتمة ما فى فوائد هذه الغزوة ولطائفها فى (زاد المعاد) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا » قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه، فقتلوا أصحابه، فنقاتلهم. فاعتلوا بالشغل. أى سيقولون لك

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٤] .

إذا عاتبتهم على التخلف عنك : شغلتنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معايشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم فى اعتذارهم ، وأن الذى خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك فى الله، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادر عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد يمنعه تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قال الناصر : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل ـ والله أعلم ـ : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل فى الضر . وكذلك ورد فى الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله[1] (فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ)[2] (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا)[3] (فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض الحديث[4] : إنى لا أملك لكم شيئاً ـ يخاطب عشيرته ـ وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان

(١) [٥ / المائدة / ١٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٨]

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ (طبعتنا) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لا له . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان فى أن كل واحد منهما نفى لدفع المقـدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما فى عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية فى سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله(1) (قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فإن العصمة إنما تـكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يراماان فى التقرير الذى ذكرته ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا)

[١٣] (وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا)

« بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . «وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ» أى حسّن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حبب لـكم التخلف. « وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ » وهو عدم نصر الرسول، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا » هالـكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالـكم ونياتـكم .

«وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا» أى: من النار تستعر عليهم .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٧].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » قال ابن جرير[١] : هذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥] (سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ، قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ » أى بعذر الاشتغال بأموالهم وأهليهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَىٰ مَغَانِمَ » أى أماكنها . قال ابن جرير[١] : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذَرُونَا » أى اتركونا فى الانطلاق إليها « نَتَّبِعْكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم فى الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير[٢] : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عنى بقوله (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) إرادتهم الخروج مع نبيّ الله صلى الله عليه وسلم في غزوة. وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة[1]: (فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا) والأكثرون على الأول . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذى الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحي . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفى منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى[1] (فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ . . .) الآية . فكيف يحمل على ما كان فى غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ ـ والله أعلم ـ .

« قُل لَّن تَتَّبِعُونَا » أى إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفى فى معنى النهى . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهى الإنشائىّ ، وهو أبلغ .

« كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ » قال ابن جرير[2]: أى من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمتها لغيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أى أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم. قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله. أى بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ » أى عن الله تعالى مالهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

---

(١) [٩ / التوبة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أى فهماً قليلاً ، وهو ما كان فى أمور الدنيا ، كقوله تعالى(١) (يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ » أى عن المسير معك « سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصلح والأمن فيه ، بل « تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » أى يدخلون فى الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذا (أو يسلموا) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . « فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » يعنى الغنيمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة « وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ » أى عن الحديبية « يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار ، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

« لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ » قال المهايمىّ : وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشى

(١) [٣٠/ الروم / ٧] .

العدوّ ، ومشى فرسه ، لـكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ » أى وإن أمكنه القتال قاعداً، لـكن لايمكنه الـكرّ والفرّ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له فى دفع العدوّ ، فضلًا عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلىأن هؤلاء، وإن فاتهم الجهاد، لاينقص ثوابهمإذا أطاعوا الله ورسوله، بقولهسبحانه «وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ » أى عن إطاعتهما ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضا « يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين هم (أُولو بأْس شديد) ــ على أقوال :

أحدها ــ أنهم هوازن .

الثانى ــ ثقيف، وكلاهما غزاه النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالث ــ بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلمة الـكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع ــ أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مصداقها لـكل الغزوات المذكورة. ولوعدّ من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ، فإن هذه السورة نزلت عِدَةً بفتح مكة ، منصرفَه ﷺ من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التى لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبىّ ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا ، فـكان ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً ــ والله أعلم ــ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ » يعنى بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب ، وعلى أن لا يفرّوا ، ولا يولوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة فى الصحاح على أن الشجرة لم تُعْلَمْ بعدُ . ففى الصحيحين(١) من حديث أبي عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال: كان أبى ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين، نخفى علينا مكانها، وإن كان بينت لكم، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا فى موضعها .

وروى ابن جرير(٢) عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال: كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأتيناها من قابل ، فعُمِّيَتْ علينا .

ثم قال ابن جرير(٣) : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلّف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شيء سوى ذلك . انتهى .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى: ٦٤ـ كتاب المغازى، ٣٥ـ باب غزوة الحديبية، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوعّدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت !

ولا ينافى ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهّموها ، فاتخذوها مسجداً ، ومكاناً مقدساً ، فقطعها عمر حالتئذ ، صوناً لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضى إلى عبادتها بعدُ ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال فى (الفتح) أيضا فى شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله :

وقد وافق المسيّب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة فى ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهّال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أى كان خفاؤها عليهم، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .

« فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ » أى من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أى الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير[1] : أى وعوّضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فَتْحًا قريباً ، وذلك ـ فيما قيل ـ فتح خيبر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهى مغانم خيبر ، وكانت أرضًا ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى ذا عزة فى انتقامه من أعدائه ، وحكمة فى تدبير خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)

« وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعنى ما يفىء عليهم من غنائم الكفار فى سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ » يعنى غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هى صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها . « وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ » أى أيدى أهل خيبر، فانتصرتم عليهم، أو أيدى المشركين من قريش عنكم فى الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال: لأن الثانى سيذكر فى قوله تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . . .) الآية . أى والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسيما فى مقام التذكير بالنعم ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها ـ والله أعلم ـ .

« وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً » أى ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا)

«وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا» معطوف على (هَٰذِهِۦ) أى فعجّل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال (لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها. وقال الحسن: هى فارس والروم. قال القرطبيّ: وكونها معجلة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير[1] : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدروا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم. فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه، خيبرَ لحرب، ولا وجّه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية ، عُلم أن المعنى بقوله (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا) غيرها ، وأنها هى التى عالجها ورامها فتعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيّه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبيّ: معنى (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت . فأنتم ، وإن لم تقدروا عليها فى الحال، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : (أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) علم أنها ستكون لكم ، كما قال (وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .

وقد جوّز فى (أُخْرَىٰ) أن تكون معطوفة على (مَغَانِمَ) المنصوب بـ (وَعَدَكُمْ) وأن تكون مرفوعة بالابتداء و (لَمْ يَقْدِرُواْ عَلَيْهَا) صفتها و (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) خبر. وأوجه أخر .

« وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا » أى : لا يبعد عليه إذا شاءه .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٢٣] (سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا)

« وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ » أى بعد هذا الفتح والنصر المعجل « ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ » أى ولوكم أعجازهم فى الحرب ، فعل المنهزم من قرنه فى الحرب . « ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى من يواليهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .

« سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ » أى مضت فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها .

« وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا » أى تغييراً .

قال ابن جرير(١) : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر العقاب والنكال .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المُكَافَّةَ والمحاجزة ، بعد ماخولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته فى الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففى ذلك قال (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير[١] عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ، لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله « وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ » أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو مايهدى إلى مكة من النعم « مَعْكُوفًا » أى محبوساً . قال السمين: يقال : عكفت الرجل عن حاجته، إذا حبسته عنها. وأنكر الفارسىّ تعدية (عكف) بنفسه، وأثبتها ابن سيدة والأزهرىّ وغيرهما، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ » قال ابن جرير(١) : أى محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم . « أَن تَطَـُٔوهُمْ » أى تقتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح بدل الصلح . قال السمين: (أَن تَطَـُٔوهُمْ) يجوز أن يكون بدلًا من (رِجَال وَنساء) غلب الذكور ، وأن يكون بدلًا من مفعول (تَعْلَمُوهُمْ) . فالتقدير على الأول (ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

رجال ونساءً غير معلومين) . وتقدير الثانى (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة) . انتهى .

« فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ » أى إثم وغرامة . من (عرّه) إذا عراه مايكرهه . وقوله « بِغَيْرِ عِلْمٍ » حال من الضمير المرفوع فى (تَطَـُٔوهُمْ) أى تطؤوهم غير عالمين بهم . وفى جواب (لَوْلَا) أقوال :

أحدها ــ أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرانى المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لكم فى دخول مكة مقاتليهم .

والثانى ــ أنه مذكور ، وهو (لَعَذَّبْنَا) وجواب (لو) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث ــ أن قوله (لَعَذَّبْنَا) جوابهما معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .

وذكر الزمخشرىّ قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون (لَوْ تَزَيَّلُواْ) كالتكرير لـ (لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ) لمرجعهما لمعنى واحد ، ويكون (لَعَذَّبْنَا) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ماتعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى ــ أفاده السمين ــ .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعهما هٰهنا واحداً ، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ، لأن (لولا) هٰهنا دخلت على وجود ، و (لو) دخلت على قوله (تَزَيَّلُواْ) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدّى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتييج إلى ردّ الآخر على الأول ، فمرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك. وهو مذهب الشافعيّ . وذهب غيرهما إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير [1] حيث قال : (المعرة) هي كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين. قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذين قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب ـ إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه ـ الكفارةَ دون الدية فقال (فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم ، ليدخلكم في رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون (مَن يَشَآءُ) عبارة عمن رغب في الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير [1] ، قال : أي ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه ، يأباه .

« لَوْ تَزَيَّلُواْ » أي لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أي بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهرّاسي : في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمي الحصون إذا كانو بها ، والكفار إذا تترسوا بهم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا)

« إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ » قال ابن جرير[1] : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو فى قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب فى كتاب المقاضاة الذى كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) ، وأن يكتب فيه (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك. والعامل فى الظرف إما (لعذبنا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدراً ، فيكون مفعولاً به . و (الحمية) الأنفة ، وهى الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من (حمى من كذا) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوىّ. أى : فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويقاتلوا عليه، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. يعنى : الوقار والتثبت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم .

« وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا. وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها. « وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شىء ، فيسوقه إلى مستحقه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه، ومحلقاً بعضهم. ثم روى عن مجاهد أنه قال : أُرِىَ بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبىّ ﷺ : إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون فى ذلك فقالوا : أين رؤياه؟ فقال الله (لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ...) الآية ، إنى لم أُرِه يدخلها هذا العام ، وليكونن ذلك . و (ٱلرُّءْيَا) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه فى رؤياه. أى حقق صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرمانىّ ، وعبارته : (كذب) يتعدى إلى مفعولين ، يقال : كذبنى الحديث ، وكذا (صدق) كما فى الآية . وهو غريب لتعدى المثقل لواحد ، والمخفف لمفعولين .

وقوله (بِٱلْحَقِّ) حال من الرؤيا. أى متلبسة بالحق، ليست من قبيل أضغاث الأحلام. وقوله (لَتَدْخُلُنَّ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقوله (إِن شَآءَ ٱللَّهُ) تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العبـــاد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو فى معنى : ليدخلنّه من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبىّ ﷺ لأصحابه .

وقوله (مُحَلِّقِينَ) حال مقدرة ، لأن الدخول فى حال الإحرام ، لا فى حال الحلق والتقصير . وفى الكلام تقدير ، أوهو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصرًا آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلابد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت فى الصحيح(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى (لَا تَخَافُونَ) حال مؤكدة لقوله (ءَامِنِينَ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان فى عمرة القضاء ، فى ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبىّ ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة، رجع إلى المدينة، فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهى إقليم عظيم ، كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعريّ وأصحابه رضى الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر فى موضعه . ثم رجع المدينة ،

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ (طبعتنا) .

فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مرّ الظهران، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسىّ والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة فى قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان فى أثناء الطريق ، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ؛ فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسىّ والرماح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبرّ والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضى الله عنه ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقته القصواء ، التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارىّ آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

باسمِ الذى لا دينَ إلا دينُهْ ... باسمِ الذى محمد رسولُهْ

خلوا بنى الكفار عن سبيلِهْ ... اليومَ نضربكم على تأويلِهْ

كما ضربناكم على تنزيلِهْ ... ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيلِهْ

ويُذهل الخليلَ عن خليلِهْ ... قد أنزل الرّحمنُ فى تنزيلِهْ

فى صحف تُتْلَى على رسولِهْ ... بأنّ خير القتل فى سبيلِهْ

يا رب ! إنى مؤمن بقيلِهْ

وروى الإمام أحمد [١] من طريق أبى الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته ، بلغ أصحابَ رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: مايتباعثون من العَجَف! فقال أصحابه : لو انتحرنا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحَسَوْنا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جَمَامَةٌ . قال صلى الله عليه وسلم : لاتفعلوا، ولكن اجمعولى من أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحثا كل واحد منهم فى جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد،وقعدت قريش نحو الحِجْر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غميزَة ، فاستلم الركنَ ، ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : مايرضون بالمشى إنهم لَيَنْقِزُونَ نقْزَ الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنّة .

قال أبو الطفيل : فأخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك فى حجة الوداع .

وروى أحمد [٢] من طريق سعيد بن جبير عن بن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جَلَدَهُم . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين ، حيث لايراهم المشركون . وفى رواية : ولم يمنع النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٨٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٦٨٦ (طبعة المعارف) .

وفى ابن كثير زيادة من الأحاديث فى هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .

وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُواْ » أى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها ، عامكم ذلك .

قال ابن جرير [١] : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها فى ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرَّجل ، فأصابتهم منهم معرة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . وليدخل فى رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .

« فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبىّ صلى الله عليه وسلم « فَتْحاً قَرِيباً » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركى قريش ، أو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. وإلى الأول ذهب الزهرىّ ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، وضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلَّم أحد بالإسلام ، يعقل شيئاً ، إلا دخل فيه . فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ ٱلْحَقِّ » أى الإسلام .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال المهايمىّ : (بِٱلْهُدَىٰ) أى الدلائل القطعية (وَدِينِ ٱلْحَقِّ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل. فالعلم الشرعىّ صحيح ، والعمل الشرعىّ مقبول، فإخباراتها حق،وإنشاءاتها عدل .

« لِيُظْهِرَهُۥ » أى ليعليه « عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ » قال ابن جرير(١) : أى ليبطل به الملل كلها ، حتى لايكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فحينئذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لايقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ماوعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير(١) : وهـــذا إعلام من الله تعالى نبيّه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلّيهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ، وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا)

« مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ » أى أصحابه « أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادّين عن سبيل الله ، وعندهم تراحُم فيما بينهم ، كقوله تعالى[١] (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) .

لطائف

الأولى ـ جوز فى (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون (رَّسُولُ ٱللَّهِ) صفة ، أو عطف بيان، أو بدلًا ، (وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ) عطف عليه . وخبرهما (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ) .

الثانية ـ قال الشهاب : قوله تعالى (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية فى كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما فى الآية المتقدمة، فإنه لما قيل (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

(١) [٥ / المائدة / ٥٤] .

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ) فهو كقوله :

حليمٌ إذا ماالحلمُ زَيَّنَ أهلَهُ على أنه عنـــد العدوِّ مَهِيبُ

الثالثة ـ قال المهايميّ : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر فى أصحابه صلوات الله عليـه ، إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفـكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الـكفار ، لرسوخهم فى صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحماء بينهم ، لعدم ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأنت « تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّـهِ وَرِضْوَٰنًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة الصلاة ، وهى خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعـالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا[1] (وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّـهِ أَكْبَرُ) انتهى .

« سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم » مبتدأ وخبر ، أى علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ » بيان للسيما ، كأنه قيل : سيماهم التى هى أثر السجود . أو حال من المستكنّ فى (وجوههم) .

قال الشهاب : وهى على ماقبله خبر مبتدأ تقديره : هى من أثر السجود . انتهى .

وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ فى معناها تأويلان للسلف، فعن ابن عباس (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم) يعنى السمت الحسن . وقال مجاهد وغـير واحد ، يعنى الخشوع والتواضع. وقال منصور لمجاهد: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال مجاهد، ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار. وقد رفعه ابن ماجه. والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة لنوراً فى القلب،

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] .

وضياء فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه . وروى الطبرانىّ مرفوعاً : ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ـ وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزرمىّ وهو متروك ـ .

وروى الإمام أحمد[1] عن أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وأخرج أيضاً[2] عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال: إن الهدى الصالح، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ثرى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوىّ، حيث لا فراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من (سِيمَاهُمْ) رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » أى الوصف « مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ » أى صفتهم العجيبة فيها «وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ» أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَـَٔازَرَهُۥ» أى قوّاه « فَٱسْتَغْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتد. فالسين للمبالغة فى الغلظ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ » أى استقام على قصبه. و (السوق) جمع ساق «يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ » أى يعجب هذا الزرعُ الذى استغلظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعوه . وقوله تعالى « لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ » تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوّاهم وكثّرهم ليغيظ بهم الكفار .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٦٩٨ (طبعة المعارف) .

لطائف :

الأولى : يجوز فى قوله تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) وجهان :

أحدهما ـ أنه مبتدأ ، وخبره (كَزَرْعٍ) فيوقف على قوله (فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ) فهما مثلان، وإليه ذهب ابن عباس .

والثانى ـ أنه معطوف على (مَثَلُهُمْ) الأول ، فيكون مثلًا واحدًا فى الكتابين ، ويوقف حينئذ على (فِى ٱلْإِنجِيلِ) ، وإليه نحا مجاهد والفرّاء ، ويكون قوله (كَزَرْعٍ) على هذا فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر مبتدأ مضمر . أى مثلهم كزرع ، فسر به المثل المذكور فى الإنجيل.

الثانى ـ أنه حال من الضمير فى (مَثَلُهُمْ) أى مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث ـ أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلًا كزرع ـ ذكره أبو البقاء ـ .

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يكون (ذَٰلِكَ) إشارة مبهمة أوضحت بقوله (كَزَرْعٍ) كقوله[1] (وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ) ـ أفاده السمين ـ .

الثانية ـ قال السمين : الضمير المستتر فى (فَـَٔازَرَهُۥ) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس النسفىّ ، فجعل المستتر للشط ، والبارز للزرع . أى فقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفى أنسب ، فإن العادة أن الأصل يتقوّى بفروعه ، فهى تعينه وتقوّيه .

الثالثة ـ قال السمين : (يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل.

الرابعة ـ قال الزمخشرىّ : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقّيه فى الزيادة ، إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبىّ ﷺ قام وحده ، ثم قوّاه الله بمن آمن معه ، كما يقوّى الطاقةَ الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٦] .

وهذا ما قاله البغوىّ من أن (الزرع) محمد ، و (الشطء) أصحابه والمؤمنون ، فجعلا التمثيل للنبىّ ﷺ وأمته .

وأما القاضى فجعله مثالًا للصحابة فقط. وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة، قلّوا فى بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس .

قال الشهاب : ولـكل وجهة .

الخامسة ـ قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، فى رواية عنه، تـكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضى الله عنهم. قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك ـ انتهى كلام ابن كثير ـ.

ولا يخفاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط فى كتب العقائد ، وأوضحه النووىّ فى شرح (مقدمة مسلم)، وقبله الإمام الغزالىّ فى كتابه (فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء فى القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتـكفير والزندقة . وكم أريقت دماء فى سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقارئ التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى فى أصغر كتاب فى الأصول كمثل (جمع الجوامع) . نعم ، إن التطرف والغلوّ فى المباحث ليس من شأن الحـكماء المنصفين . وإذا اشتد البياض صار بَرَصًا .

«وَعَدَ ٱللَّـهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» أى صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً» أى عفواً عما مضى من ذنوبهم، وسيئ أعمالهم، بحسنها . « وَأَجْرًا عَظِيمًا» أى ثواباً جزيلًا، وهو الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٩ – سورة الحجرات

قال المهايمي: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لايعظم رسول الله غاية التعظيم ، ولا يحترمه غاية الاحترام . وهو من أعظم مقاصد القرآن .

وهي مدنية ، وآيها ثمان عشرة .

وقد انفردت هذه السورة بآداب جليلة ، أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيّه ﷺ ، من التوقير والتبجيل .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » قال ابن جرير(١): أى يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله ، ونبوّة نبيّه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر فى حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضىَ الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله . محكيّ عن العرب : فلان يقدم بين يدى إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهى دونه . انتهى .

و (تُقَدِّمُواْ) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبيّن ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبيّن .

وفى هذه الجملة تجوّزان :

أحدهما ـ فى (بين اليدين) ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورها ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعته ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله ـ هذا محصل ما فى (الكشاف) و (شروحه) .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا فى الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبىّ ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيى ! فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد[(١)] وأبو داود[(٢)] والترمذىّ[(٣)] وابن ماجة[(٤)] . والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدى رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هـذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التـاء من قوله (لَا تُقَدِّمُواْ) قرأ قراءة الأمصار ، وهى القراءة التى لا أستجيز القراءة بخلافها، لإجماع الحجة من القراء عليها. وقد حكى عن العرب : قدّمت فى كذا وتقدمت فى كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لا تقدموا) بفتح التاء ، كان جائزاً. انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١١ ـ باب اجتهـاد الرأى فى القضاء ، حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرجه ابن ماجه .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّـهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ماتقدم ، بمنزلة قولك للمقارف بعض الرذائل : لاتفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك. فتنهاه أولاً عن عين ماقارفه، ثم تعمّ وتأمره بمالو امتثل أمرك فيه، لم يرتكب تلك الفعلة، وكل مايضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها ـ أشار له الزمخشريّ ـ .

« إِنَّ ٱللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فحقيق أن يُتّقى ويُراقب .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قال الكيا الهراسيّ: قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شيء. وربما احتج به نفاة القياس، وهو باطل منهم. ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ » أى: إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحدّ الذى يبلغه صوته ، ليكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسماع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين، القريب من الهمس، الذى يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم . وروى عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه ، أى لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً : يامحمد ! يامحمد ! بل يانبى الله ! يا رسول الله! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض، كما مر فى قوله(١)(لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا) انتهى .

ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروىّ عن مجاهد فى قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل فى إيثار أرق الألفاظ والجمل، وألطفها فى ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب. وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن المذكور فى الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هى للتعريض بالمنافقين القاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع فى ذلك من إيذاء النبىّ عليه الصلاة والسلام. والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبىّ عليه الصلاة والسلام، سواء وجد هذا المعنى أوْ لا، حماية للذريعة، وحسماً للمادة. ثم لما كان هذا المنهىّ عنه ـ وهو رفع الصوت ـ منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولا، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوّف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه فى كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على ما تعتقده المعتزلة، لم يكن لقوله (وَأَنتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَشْعُرُونَ) موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاليه ، الإحباط به محقق، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الشعور ثابت مطلقاً ـ والله أعلم ـ .

ثم قال : وهذا التقرير الذى ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاهما صحيحة :

إحداهما ـ أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى ـ أن إيذاء النبيّ ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا ـ يعنى المالكية ـ وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى فى مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ » أى يبالغون فى خفضها « عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير(١) : أى اصطفاها وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

يعنى لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِن وَرَآءِ » أى خارج « ٱلْحُجُرَٰتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالًا لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محتشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يغضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم « وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمىّ ، فيما أورده غير واحد .

روى الإمام أحمد[1] عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

يارسول الله ! إن حمدى لزين ، وإن ذمّى لشين ، فقال : ذاكـ الله عز وجل .

وروى ابن إسحاق ، فى ذكر سنة تسع ، وهى المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسولَ الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم . ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال: وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثانى ـ (ٱلْحُجُرَٰتِ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً : جمع (حجرة) . وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها . فُعْلَة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة .

قال الزمخشرىّ : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لكل واحدة منهن حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التى كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمته . والفعل ـ وإن كان مسنداً إلى جميعهم ـ فإنه يجوز أن يتولّاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : ورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها ـ مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .

ومنها ـ لفظ (ٱلْحُجُرَٰتِ) وإيقاعها، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها ـ المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم .

ومنها ـ التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها ـ أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد. ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأول بساط للثانى، ووطاء لذكره . ثم ذكر ماهو ثناء على الذين تحاموا ذلك، فغضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم، من الصياح برسول الله ﷺ ، فى حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبى عبيد ـ ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى ـ أنه قال: ما دققت باباً على عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خروجه . انتهى .

الرابع ـ قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره فى حياته ، لأنه محترم حيًّا ، وفى قبره ﷺ . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما، فحصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس ـ روى البخارى[(١)] عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بنى تميم على

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٢ ـ باب إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ، حديث ١٩٤٢

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمّر الأقرع ابن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ! فقال عمر : ما أردت خلافك ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .) حتى انقضت الآية .

وفى رواية : فأنزل الله فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ ...) الآية .

قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استُشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذى يتعلق بقصة الشيخين فى تخالفهما فى التأمير هو أول السورة (لَا تُقَدِّمُوا۟) ولـكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوٓا۟) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذى يختص بهم ، وقوله (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله، بأن قولهم: نزلت الآية فى كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية: قولهم نزلت هذه الآية فى كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه، فإنه من المضنون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخارىّ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، فى قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ »أى: فاستظهروا صدقه من كذبه، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ » أى قوماً براءً مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم «فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التى تصيبونهم بها، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم فى العواقب .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق. ومن أحسنها مارواه الإمام أحمد[1] فى مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعىّ رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يارسول الله ! أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ، ويرسل إلىّ يارسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبّان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأته ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّت لى وقتاً يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة. فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إن الحارث منعنى الزكاة ، وأراد قتلى . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. فأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل من المدينة، لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذى بعث محمدًا بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعتَ الزكاة ، وأردت قتل رسولى ؟! قال : لا ، والذى بعثك بالحق ! ما رأيته بتة ، ولا أتانى ، وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسولِ الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال: فنزلت الحجرات (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبّت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلًا، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه، فرأى الذى يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبُّت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبى ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم فى هذه الآية ، أنها نزلت فى الوليد بن عقبة ـ والله أعلم ـ انتهى .

قال ابن قتيبة فى (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كريز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بنى المصطلق ، فأتاه فقال : منعونى الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولّاه عمر على صدقات بنى تغلب ، وولّاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربعاً ، وقال : أزيدكم ؟! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فعزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع علىّ ، فخرج إلى الرقّة فنزلها ، واعتزل عليًّا ومعاوية . ومات بناحية الرقّة .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة فى المخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه فى نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبُّت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث ـ فى قوله تعالى (فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ) فائدتان :

إحداهما ـ تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فماذا علىّ ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

والثانية ـ مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها ـ أفاده الرازىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾

« وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير(١) : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبيّ الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوّمه على الصواب فى أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » قال الطبريّ(١) : أى لو كان رسول الله ﷺ يعمل فى الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنتٌ ـ يعنى الشدة والمشقة ـ فى كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ فى أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله فى بنى المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فغزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما فى حيزها سادة مسدَّ مفعولى (ٱعْلَمُوٓاْ) باعتبار ماقيد به من الحال ، وهو قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور فى (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهى أنكم تودّون أن يتبعكم فى كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع فى بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هــذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزمخشرىّ منع هذا الاحتمال، قال : لأدائه إلى تنافر النظم، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ . . .) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ فى قوله : (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم ، وفى أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف ، والوقف على (رَسُولَ ٱللَّهِ) .

« وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ » أى فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتمّوا به ، فيقيكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ » أى بالله « وَٱلْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَٱلْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .

« أُوْلَٰٓئِكَ » أى الموصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه فى قلوبهم ، وكراهتهم المعاصى « هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانىّ : كان فضلًا بعنايته بهم فى الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات فى الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانته بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكراهة المعصية . وهو تعليل لـ (حبّب) و (كرّه) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلًا ، أو يبتغون فضلًا .

« وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسىء ، وحكمة فى تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ، فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ، فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ » أى تقاتلوا « فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا » قال ابن جرير(١) : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ، « فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى » أى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ » أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِن فَآءَتْ » أى رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ » أى بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلًا بين خلقه « وَأَقْسِطُوٓا۟ » أى اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول ــ قال القاشانىّ : الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

لزوم العدالة فى النفس التى هى ظل المحبة، التى هى ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغى إحداهما ، حتى ترجع. لـكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا فى بعض ما تنازعتا فيه بالنعال والأيدى ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح. روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذى نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال ـ فيما رواه الطبرىّ [1] عنه ـ : كانت تـكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحـكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِن طَآئِفَتَانِ) إلى قوله (فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي ...) الآية . يقول: ادفعوا إلى الحـكم ، فـكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلًا . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتـكون الفائدة أشمل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغى، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّىٰ تَفِيٓءَ) . انتهى.

وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلىّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يغنم لهم مال ، ولا تسبى لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

---

(١) انظو الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

البغى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل فى قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الـكفار .

وإن أظهر قوم رأىالخوارج . مثل تـكفيرمن ارتـكب كبيرة، وترك الجماعة، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا لحرب ، لم يتعرّض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حدًّا، أقامه عليهم .

وإن اقتتلت طائفتان لعصبية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى .

هذه شذرة مما جاء فى (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث ـ قال فى (شرح الإقناع) : فى الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه فى قتالهم . وإجازة كل من منع حقًّا عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى المنشط والمـكره ، وأن لاننازع الأمر أهله (متفق عليه) [1] . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعى الزكاة ، وعليًّا قاتل أهل الجمل ، وأهل صفِّين . انتهى .

وتدل الآية أيضا على وجوب معاونة من بغى عليه ، لقوله (فَقَٰتِلُواْ) ، وعلى وجوب تقديم النصح ، لقوله (فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى فى المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع ـ وجه الجمع فى (اُقْتَتَلُواْ)، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هوالحمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فىمعنىالقوم والناس . والنكتة فى اعتبار المعنى أولا ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم (سترون بعدى أموراً تنـكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٤١و٤٢ (طبعتنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور فى الاستعمال ، ما قيل إنهم أولًا فى حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم ، وفى حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً . وسرُّ قَرْنِ الإصلاح الثانى بالعدل، دون الأول، لأن الثانى لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس ـ (أقسط) الرباعىّ همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثىّ ، فمعناه جار . قال[1] تعالى : (وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور ـ خلافاً للزجاج ـ فى جعلهما سواء ـ أفاده الكرخىّ ـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب: وتسمية المشاركة فى الإيمان أُخوّة تشبيه بليغ، أو استعارة. شبه المشاركة فيه بالمشاركة فى أصل التوالد ، لأن كلًّا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدىّ فى الجنان .

« فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله.

قال القاشانىّ : بيّن تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقرابة الفطرية ، التى تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقتضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

(١) [٧٢ / الجن / ١٥] .

التناسب فى اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذى هو من لوازم العدالة ، وأحد خصالها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكدروا بغواشى النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة فى التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد فى شقاق الجمع ، أكثر منه فى شقاق الاثنين ـ أفاده القاضى والزمخشرىّ ـ .

وفى معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث[1] (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث[2] (والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) . وحديث[3] (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) . وحديث[4] (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبّك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ـ وكلها فى الصحاح ـ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٣ ـ باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسْلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبى موسى .

« وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ، بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين، ليس مايظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنىّ للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبرىّ(١) : والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميعَ معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركبه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد عدّ الغزالىّ فى (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لامطلب وراءه فننقله هنا تتميماً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة ـ السخرية والاستهزاء : وهـــذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . .) الآية . ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت ، فقال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم: والله ما أحب أنى حاكيت إنساناً ، ولى كذا وكذا .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى[1] (يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك .

وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به، والاستصغار له. وعليه نبه قوله تعالى (عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أى لاتستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنمـــا المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] .

وعلى صنعته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القوّام على النساء (والأحسن المهمات) وهو فى الأصل إما جمع قائم كصَوْم وزَوْر فى جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع . وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب، أو لأنهن توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أى لا يعيب بعضكم على بعض ولا يطعن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوٓاْ) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما فى قوله[1] (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وقوله[2] (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففى اللفظ الكريم تجوّز ، وتقدير مضاف . والنهى على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية، كالإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلمزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لمز نفسه .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) [٤ النساء / ٢٩] .

قال الشهاب : فـ (أَنفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوّز فى قوله (تَلْمِزُوٓاْ) . فهو مجاز ذكر فيه المسبّب ، وأريد السبب . والمراد : لاترتكبوا أمرًا تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُواْ)، كما فى (الكشف)، وكونه من التجوّز فى الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكلف ظاهر . وكذا كونه كالتعليل للنهى السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لاتتسببوا فى الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما فى الحديث [1] (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسِّر بأنه إذا شتم والدى غيره ، شتم الغيرُ والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ » أى ولا تداعوا بالألقاب التى يكره النبزَ بها الملقب فقد روى أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء فى الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يغضبون من الدعاء بها رواه أحمد [2] وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية ـ كما قال ابن جرير [3] ـ : تشمل ذلك كله . قال : لأن التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ » قال الزمخشرىّ : (ٱلِٱسْمُ) هٰهنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفى قوله (بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعتنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أحدها ـ استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة ، الصبوة .

والثانى ـ أنه كان فى شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودىّ ! يا فاسق ! فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنابز .

والثالث ـ أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير[1] الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته : يقول تعالى ذكره: ومن فعل ما نهينا عنه، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق (بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ) يقول: فلاتفعلوا فتستحقوا، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقا، بئس الاسم الفسوق. وترك ذكر ماوصفنا من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى وقال[2] : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاه قبل توبته ، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ، أو بالقبيح . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَمَن لَّمْ يَتُبْ » أى من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب ، أو لمزه إياه، أو سخريته منه « فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءًا، فإن الظانّ غير محقق . وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لاداعية تدعو المؤمن للمشى وراءه، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن. قال تعالى[1] (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له. ولذا قال الزمخشرىّ : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريَب ، والمجاهرة بالخبائث .

« إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

(١) [٢٤ / النور / ١٢] .

قال حجة الإسلام الغزاليّ فى (الإحياء) فى بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير ، فليس لك أن تحدّث نفسك ، وتسىء الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفوّ عنه ، بل الشك أيضا معفوّ عنه . ولكن المنهىّ عنه أن يظن . والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال تعالى « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ » . قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع فى قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذّبه فإنه أفسق الفساق . إلى أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعينٍ مشاهدة ، أو بينة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، ذكر سبحانه النهى عنه ، إثر سوء الظن لذلك ، فقال تعالى « وَلَا تَجَسَّسُواْ » قال ابن جرير (١) : أى لا يتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتلمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب ، لأن من يطلب الشيء يمسه ويجسه ، فأريد به ما يلزمه . واستعمل التفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالىّ : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله . فيتوصل إلى الاطلاع ، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث(١) أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح(٢) عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود(٣) ؛ أن ابن مسعود رضي الله عنه أتى برجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمراً ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به ـ والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود(٤) عن معاوية قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد(٥) عن دجين ، كاتب عقبة، قال : قلت لعقبة: إنا لنا جيراناً يشربون

---

(١) أخرجه الترمذيّ في: ٢٥ـ كتاب البرّ والصلة، ٨٥ ـ باب ماجاء في تعظيم المؤمن، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ـ كتاب النكاح : ٤٥ـ باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهي عن التجسس ، حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهي عن التجسس، حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

الخمر ، وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم ! قال: ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشُّرَط فتأخذهم! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤودة من قبرها !

وروى أبو داود (١) عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعيّ : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .

« وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا » أي لا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله، إذا ذكره بسوء في غيبته. « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغي أن تكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثّل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشريّ : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها ـ الاستفهام الذى معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقةً أو ادعاءً) ومنها ـ جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة . ومنها ـ إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك .

ومنها ـ أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا.

ومنها ـ أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

---

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهى عن التجسس ، حديث حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير فى (المثل السائر) فى بحث الـكناية : فمن ذلك قوله تعالى (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ماهو الغاية من الـكراهة موصولاً بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هى ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الـكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استـكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عنـــد إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو فى الغاية من الـكراهة موصولاً بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الـكناية تجدها من أشد الـكنايات شبهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها ، وجدتها مناسبة لما قصدت له . انتهى.

الثانية ـ الفاء فى قوله تعالى (فَـكَرِهْتُمُوهُ) فصيحة فى جواب شرط مقدّر . والمعنى : إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضى ، كما فى قوله تعالى(١) (فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ)وضمير(فَـكَرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه . والمعنى: فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضى للمبالغة ، فإذا أوِّل بما ذكر يكون إنشائيًّا غير محتاج لتقدير (قد) ـ أفاده الشهاب ـ .

الثالثة ـ قال ابن الفرَس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمىّ ،

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل فى تحريم الغيبة، ولم يضرب بميتة سائر الحيوان. فدل على أنه فى التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه (بالإحياء) للغزالىّ ، فإنه جمع فأوعى .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهى. « إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه ، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى، بعد نهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض، على تساويهم فى البشرية، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ » أى من آدم وحواء . أو من ماء ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أى : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل مايدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل فى النسب .

« وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ » قال ابن جرير (١) : وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً فى قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم فى ذلك ، وقربة تقربكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لا أعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

« إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم ، وبالأتقى والأكرم ، وغير ذلك ، لا تخفى عليه خافية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات :

الأول ـ حكى الثعالبيّ في (فقه اللغة) في تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبيّ عن أبيه : أن الشَّعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّى : الصحيح في هذا مارتبه الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهي الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حيّ   عدداً في الحواء ثم القبيله
ثم يتلوها العِمارة ثم الْـ   بَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيله
ثم من بعدها العشيرة لكن   هي في جنب ما ذكرنا قليله

فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصيّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكريّ في (شرح نوادر أبي على القالي) : كل الناس حكي الشعب في القبيلة بالفتح ، وفي الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس . نقله الزبيديّ في (تاج العروس) .

الثاني ـ في الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقيّ غير النسيب ، يقدم على النسيب غير التقيّ ، فيقدم الأورع في الإمامة على النسيب غيرهما.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط فى الكفاءة الحرية ـ نقله فى (الإكليل) ـ .

وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة فى النكاح لاتشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لِتَعَارَفُوٓاْ) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت فى معرض البيان .

وقال القاشانىّ : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل فى البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى. والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لاتكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله، وأجل قدراً . فالمتقى عن المناهى الشرعية، التى هى الذنوب، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع ـ روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارىّ[1] عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أىّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٨ ـ باب قول الله تعالى (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم[١] عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام[٢] أحمد عن أبي ذر قال : إن النبيّ ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبيّ ﷺ : كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان .

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر ؛ أن النبيّ ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برٌّ تقيّ كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقيّ ، هين على الله تعالى. إن الله عز وجل يقول : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . .) الآية .

وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري[٣] عن عطاء قال : قال ابن عباس: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب، والإنكار على مساوئ أخلاقهم، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولًا وبالذات، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان، ثم بيان مَن المؤمن حقًّا، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون، فقال سبحانه وتعالى :

---

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم فى أول السورة « ءَامَنَّا » أى بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعماً أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا» أى انقدنا ودخلنا فى السلم خوف السباء والقتل «وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ» أى لأنه لو حل الإيمان فى القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة، والبعد من ركوب المناهى ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد. فإن قيل : فى قوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) بعد قوله (قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ) شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَّمْ تُؤْمِنُواْ) تكذيب دعواهم ، وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قُولُوٓاْ) . وما فى (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . هـذا ما أشار له الزمخشرىّ ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

وأهل الحجاز ـ لأنه ليتاً ـ وحكى الأصمعيّ عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين (لَا يَلِتْكُمْ) و (لا يألتكم). ونحوه فى المعنى(١) (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوّة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ـ قاله ابن جرير(٢) : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى : بذلوا الجهد . أو مفعوله مقدر ، أى العدوّ أو النفس والهوى .

« أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ » أى الذين صدقوا فى ادّعاء الإيمان ، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض بكذب أولئك الأعراب فى ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر . أى : هم الصادقون ، لا هؤلاء ، أو إيمانهم إيمان صدق وجد .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان . وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف ، وليراجع فى ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله فى (الفِصَل).

الثانى ـ قال القاشانىّ: فى قوله تعالى (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ..) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقىّ، وهو اليقين الثابت فى القلب المستقر الذى لا ارتياب معه ، لا الذى يكون على سبيل الخطرات ، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم ، ونورتها بأنوارها ، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهيأتها ، وذلك معنى قوله (وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّـهِ) بعد نفى الارتياب عنهم ، لأن بذل المال والنفس فى طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره فى الظاهر . انتهى .

الثالث ـ قال فى (الكشاف) : فإن قلت : ما معنى (ثم) ههنا ، وهى للتراخى . وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ، لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقين :

أحدهما ـ أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين ، بعد ثلج الصدر ، فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه . أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك ، راكباً رأسه ، لا يطلب له مخرجاً . فوصف المؤمنون حقًّا بالبعد عن هذه الموبقات . ونظيره قوله (ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ) .

والثانى ـ أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان، أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخى ، إشعارًا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًّا جديدًا . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفى الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولًا لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخىّ زمانىّ لا رتبىّ على ما مرّ فى قوله: (ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائـكة ، تنبيهاً على أصالته فى الإيمان ، حتى كأنه شىء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتُعَـلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْـلَمُ مَافِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءَامَنَّا) . «أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّـهَ بِدِينِكُمْ» أى أتخبرونه بقولـكم (ءَامَنَّا) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثانى بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءَامَنَّا) إن كان إخبارًا للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه، وهو العالم بكل شىء، كما قال « وَٱللَّـهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّـهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير(١) : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهى عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه فى دينهم . يقول : الله محيط بكل شىء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم ، فينالـكم عقوبته ، فإنه لايخفى عليه شىء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مختوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ، قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ، بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ » أى انقادوا وكثّروا سواد أتباعك . « قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم » أى بإسلامكم ، إذ لا ثمرة منه إلىّ[١] (مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ) « بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى قولكم (ءَامَنَّا) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير[٢] يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ، فلا تعلّمونا دينكم وضمائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شيء فى خبايا السموات والأرض.

تنبيهات :

الأول ـ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ـ ونزلت هذه الآية ـ .

وقال ابن زيد : هـذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون المحدث عنهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

فى آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنيّين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم فى غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى قوله تعالى (بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...) الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل فى الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبىّ ﷺ للأنصار يوم حنين[1] : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بى . وكنتم عالة فأغناكم الله بى ؟ ـ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ .

وما ألطف قول أبى إسحاق الصابى فى طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى :

وبعث إليهم رسلًا منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم فى الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجحهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبعدهم فى الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى اتخذه صفيًّا وحبيباً ، وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم فى المعاصى حمية ، ونفوسهم فى غير ذات الله أبية ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً . فلم يزل ﷺ يقذف فى أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدًا ، وبالعنف لمّا وجد أنصارًا وجنودًا . لا يرى للكفر أثرًا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضاحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلّاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف ، حديث رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتوادعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، رائحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث ـ قال الرازىّ : هـذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهى إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين فى رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل فى طائفتهم، السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضراً عندهم، أوغائباً عنهم، فهذه خمسة أقسام :

أحدها ـ يتعلق بجانب الله .

وثانيها ـ بجانب الرسول .

وثالثها ـ بجانب الفسّاق .

ورابعها ـ بالمؤمن الحاضر .

وخامسها ـ بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى فى هذه السورة خمس مرات (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) ، وأرشد فى كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولًا (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

وقال ثانياً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ) لبيان وجوب احترام النبىّ ﷺ .

وقال ثالثاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبيّن ذلك عند تفسير قوله (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟) .

وقال رابعاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَنَابَزُواْ) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين فى حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُواْ) وقال (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذى . وهو فى غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارًا للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن إلى حدٍّ يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبإ الفاسق ، آية الاقتتال فقال (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ) ؟ انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٠ – سورة قٓ

وتسمى سورة (الباسقات) . وهى مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .

قال ابن كثير: وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام أنه من (عمّ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم . والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل وحده . فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (قٓ) بيانه :

ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .

وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .

وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل .

وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .

وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وألم السجدة وسبأ وفاطر ويس .

وثلاث عشرة : الصافات وصٓ والزمر وغافر وحمٓ السجدة وحمٓ عسٓقٓ والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ، فتعيّن أن أوّله سورة (قٓ) .

وروى الإمام أحمد[1] ومسلم[2] وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثىّ : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد ؟ قال : بـ (قٓ) و (اقتربت) .

وروى مسلم[3] وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت (قٓ) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفى رواية : كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤و١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث ٥١و٥٢ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ)

« قٓ » هو حرف من حروف التهجى المفتتح بها أوائل السور ، مثل : صٓ ، ونٓ ، والٓم ، وحمٓ ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : (قٓ) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له (جبل قاف) . وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصَدَّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتُرِىَ فى هذه الأمة، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها، أحاديثُ عن النبىّ ﷺ ، وما بالعهد من قدم. فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفّاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله(١) (وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوّزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عَمْرو .

ثم ردّ ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من (قٓ) قضى الأمر والله ! كقول الشاعر(١) :

* قلت لها قفى فقالت قاف *

أى : إنى واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .

« وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ)

« بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ » أى : لأنْ جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود ـ إضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب اقتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ، ولكن لجهلهم .

« فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لمحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولا ، للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

---

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بموجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار . والعامل فى (إذا) مضمر غنىّ عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمنذر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَٰلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌۢ بَعِيدٌ » أى : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو ردّ لاستبعادهم، وإزاحة له . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى. وتأكل من لحومهم وعظامهم، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن فى الأرض منهم . « وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ » قال أبو السعود: أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد: إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم مَن عنده كتاب محيط ، يتلقى منه كل شىء . أو تأكيد لعلمه تعالى بها ، بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

« بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى من غير تأمّل وتفكّر.

قال الزمخشريّ : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذى هو النبوّة الثابتة بالمعجزات ، فى أول وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر. وكونه أفظع ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه. « فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقالتهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تعنتاً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ)

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ » أى هؤلاء المكذّبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّـٰهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » . قال ابن جرير[(١)] : يعنى وما لها من صدوع وفتوق . كقوله تعالى[(٢)] (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ » أى جبالًا ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان فى جوفها ، « وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يبتهج به لحسنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٦٧ / المُلك / ٣و٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكّر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفكّر فى بدائع صنعه . و (تَبْصِرَةً) و (ذِكْرَىٰ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ)

[١٠] (وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ)

[١١] (رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً مُّبَٰرَكًا » أى كثير المنافع، « فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ » أى أشجارًا ذوات أثمار ، « وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء، النخل طوالًا ، أو حوامل. من (أبسقت الشاة) إذا حملت ، فيكون من (أفعل) فهو (فاعل) . والقياس (مفعل) فهو من النوادر كالطوائح واللواقح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى (جَنَّٰتٍ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيـه من مراعاة الفواصل . « لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » أى متراكم بعضه فوق بعض . « رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى (فَأَنۢبَتْنَا) . وفى تعليله بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : (رِّزْقًا) مصدر من معنى (أَنۢبَتْنَا) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ » أي بذلك الماء « بَلْدَةً مَّيْتًا » أي أرضاً جدبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار . « كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » أي خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، فـ (كَذَٰلِكَ) خبر (ٱلْخُرُوجُ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى (مثل) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ)

[١٣] (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ)

[١٤] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أي قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقية البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده . يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم في سورة الفرقان . «وَثَمُودُ» وهم الذين جادلوا صالحا ، وقتلوا الناقة. « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هوداً في أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذي جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازيّ : ولم يقل (وقوم فرعون) لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه في إتيان الرجال . « وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ » أي أي الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً في الكيل والوزن . (وَقَوْمُ تُبَّعٍ) قال المهايميّ : المجادلون إمامهم وعلماءهم في الدين . ومضى الكلام على ذلك في الحجر والدخان . « كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ » أي كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسولهم ،

ومن كذب رسولًا ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى[١] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم فى نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ـ أفاده ابن كثير ـ وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير (كَذَّبَ) مراعاة للفظ (كُلٌّ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَحَقَّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به مَن كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير[٢] : إنما وصف تعالى فى هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ أنه مُحِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسلية للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

« أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العىّ هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائىّ : تقول (أعييت) من التعب و (عييت) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و (الخلق الأول) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية[٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ . . .) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثانى، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة ما مات وتفرق أجزاؤه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلٰهية ، وسهولة ذلك فى المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عرَّف الخلق الأول ، ونكَّر اللبس ، والخلق الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور فى قوله[1] (وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلًا على إمكان الخلق الثانى بطريق الأولى . أى إذا لم يَعْيَ تعالى بالخلق الأول، على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرةً يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث ما فيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة . ومرةً يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول [2] (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) وقوله [3] (لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ، و [4] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثانى : هو الأصل فى التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتنكير (اللبس) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : فى لبس أىّ لبس . وتنكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٥] . (٣) [٥ / المائدة / ٩] و [٤٩ / الحجرات / ٣] .

(٤) [٥٢ / الطور / ١٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ » أى تحدّث به نفسه، وهو مايخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوىّ ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذلك القرب أتم من غاية القرب الصورىّ ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوّز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتنزّهه عن القرب المكانىّ ، إما تمثيلًا ، وإما من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن القرب من الشىء سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيّها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقى الحبل على حقيقته، فإضافته كلجين الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل (نحن) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرّ لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل (وأنا أقرب إليه) وإنما قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) كما قال فى المحتضر[١] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) يعنى: ملائكته . وكما قال

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥].

تبارك وتعالى : (١)(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عزوجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمَّـة من الإنسان، كما أن للشيطان لمة . ولذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ماذكره ، بماورد فى الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتناهى سعة العلم، مع التعريف بجلالة المقام الربانىّ ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل مَنْ تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إيثار (نحن) على (أنا) لايحسم ما نفاه ، لاحتمال إرادة التعظيم بـ (نحن) كما هوشائع، فلايتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ماذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيما للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه، مع ماعرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عنى رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، مَن قال فى تفسير الآية كالقاشانىّ ـ ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشىء يشهد بالبينونة والاثنينية الراجعة للاتحاد الحقيقىّ . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة فى هويته وتحققه ليست غيره، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التى هى الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدما صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام القاشانىّ . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحالتهما ، فى كتاب (دلائل التوحيد) الذى طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدُ ، مسبوقا بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله فى كتابه (شرح حديث النزول) : ليس فى القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

من كل شيء أصلا ، بل قربه الذى فى القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى[١] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما فى الصحيحين[٢] عن أبى موسى الأشعرىّ ؛ أنهم كانوا مع النبىّ ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : (أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، وإنما تدعون سميعاً قريبا . إن الذين تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) . فقال : إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام[٣] (فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) ومعلوم أن قوله (قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوما تعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) فالمراد به قربه إليه بالملائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) بالعلم . وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس فى الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

---

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ ـ ٤٧ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود / ٦١] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولـكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب ، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في آية[١] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) هو معهم بعلمه ، مع علوّه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال[٢] (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) وقال[٣] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله! أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبيّ ﷺ ، فأنزل الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . .) الآية . ولا يقال في هذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكّوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لـكونه هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده . وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول ، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لـكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهـذا المعنى يقرّ به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال: وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من

(١) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٦] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، فسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما فى لفظ المعية . ولا حاجة إلى هـذا ، فإن المراد بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) أى بملائكتنا ، فى الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشىء أعلم من غيره ، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره ، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه . ثم إنه سبحانه عالم بما يُسَرُّ من القول ، وما يجهر به ، وعالم بأعماله ، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى[(١)] (يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم ، سياقُ الآية ، فإنه قال[(٢)] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) فأثبت العلم ، وأثبت القرب ، وجعلهما شيئين ، فلا يجعل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله (إِذْ يَتَلَقَّى . . .) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا فى غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه فى كل مكان ، وإنه قريب من كل شىء بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شىء ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم فى جميع بدن الإنسان ، وهو فى أهل الميت ، كما

(١) [٢٠ / طه / ٧] . (٢) [٥٠ / قٓ / ١٦] .

هو فى الميت ، فكيف يكون (أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة، فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ...) الآيتين. فقيدالقرب بهذا الزمان، وهو زمان تلقى المتلقيين ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال(١) (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ...) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعيدين الرقيب والعتيد معنى مناسب. وكذلك قوله فى الآية الأخرى(٢) (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ* وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر فى بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى فى هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده فى هذه الحال. وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هى فى مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شىء من شىء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخاص ، كما فى قوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ) فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى(٣)(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ* وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ* فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ* وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ). ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقربه منه، دون من حوله، وقد يكون حوله قوله مؤمنون. وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى(٤)(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ) وقال

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٨٣ـ٨٥] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٨٨ـ٩٤] . (٤) [٤ / النساء / ٩٧] .

تعالى(١) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ) وقال(٢) (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى(٣) (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقال تعالى(٤) (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) وهذا كقوله(٥) سبحانه (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال(٦) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ) وقال(٧) (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى فى كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة. فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع المعظم الذى له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين(٨) عن النبىّ ﷺ أنه قال : إذا هم العبد بحسنة كتبت

(١) [٨ / الأنفال / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٦١] . (٤) [٣٢ / السجدة / ١١] .

(٥) [٢٨ / القصص / ٣]. (٦) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٧) [٧٥ / القيامة / ١٧ـ١٩] . (٨) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذى اختص الله به .

ثم قال : وقوله [١] (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال [٢] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا [٣] : (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى [٤] (إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ) وأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصَّل فى تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) مثل قوله (نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ) لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال [٥] تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة فى النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٦] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٨٠] .
(٣) [٥٠ / قٓ / ١٨] . (٤) [٣٦ / يس / ١٢] .
(٥) [٤٢ / الشورى / ٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾

« إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلق الملكان الحفيظان مايتلفظ به . فـ (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنيّ عن استحفاظ الملكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على مايخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى مارغبه ورهبه فى الأولى .

وقال القاشانيّ : بين تعالى بهذه الآية أقربيّته لينتفى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقيين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقيهما للحجة عليه ، وإثباتُ الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلق القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقول الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلق القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الخسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيّرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشرورُ إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهيآته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكلما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة منع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح ، أى التنزيه عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصلىّ ، وسنخه

الحقيقيّ ، وحاله الغريزيّ، لينمحى أثر ذلك الأمر العارضيّ، بالنور الأصليّ والاستغفار ، أى التنوّر بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية، لينمحى أثر تلك الظلمة العرضية، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر فى كلام القاشانىّ رحمه الله تأويل الملَك بالقوة الحاثة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هـذا الشيء الذى أودع فينا ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزالىّ إلى هذا المعنى ، وعبّر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكاً ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً . . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته .

لطيفة : (قَعِيدٌ) كجليس ، بمعنى مجالس ، لفظاً ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله[1] :

* فإنى وقيّارٌ بها لغريبُ *

(١) قائله ضابئ بن الحارث البرجمىّ . وصدره : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ *
و (قيّار) اسم جَمَلِهِ .
وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرّد فى الكامل ، ص ١٨١ (طبعة أوربا) .

وقيل : يطلق (فعيل) للواحد والمتعدد ، كقوله[١] (وَالْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ)، وضعّف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان (فعيل) بمعنى (مفعول) بشروطه ، وهذا بمعنى (فاعل) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على (فعيل) بمعنى (مفعول) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

« مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

« وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ » أى شدته المحيّرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِٱلْحَقِّ » أى بالموعود الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلًّا منهما مذهب للعقل، فالاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإثبات السكرة لها ، تخييل . « ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفرّ . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيته هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفعك الهرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [٦٦ / التحريم / ٤] .

قال الطيبيّ : إن اتصل قوله (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ . .) الخ بقوله (فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أى جاءك أيها الفاجر الحق الذى أنكرته . وإن اتصل بقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ...) الخ ، فالمشار إليه الموت. والالتفات لا يفارق الوجهين . والثانى هو المناسب ، لقوله (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) بعده ، وتفصيله[1] (أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)[2] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ)

[٢١] (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ)

« وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ » يعنى : نفخة البعث « ذَٰلِكَ » أى النفخ « يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ » أى وقت تحقق الوعيد، بشهود ما قدم من الأعمال وما أخر « وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير[3] : أى سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثانى الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال :

وقال القاشانىّ : أى سائق من علمه ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذى يسوقه إلى ذلك الشيء إنما نشأ من شعوره بذلك الشيء ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سفلياً جسمانياً بعثه عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقوّاه ؛ أو أمراً علوياً روحانياً بعثه عليه عقله ، ومحبته الروحانية ، وحرّضه عليه قلبه وفطرته الأصلية . فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيـه ،

(١) [٥٠ / قٓ / ٢٤] . (٢) [٥٠ / قٓ / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

والعمل المكتوب فى صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عليه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيآت أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ)

« لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ » فى المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها ـ أنه النبيّ ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة فى خلال أمر النبأ الأخرويّ ، تنويهاً بمنة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلوّ الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قويّ ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية[1] (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ) .

وثانيها ـ أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت فى غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأهوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جلينا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيته وعاينته ، فزالت الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية[2] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وآية[3] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) .

وثالثها ـ أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) ، والمقصود أنه كشف الغطاء عن البرّ والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .
(٢) [١٩ / مريم / ٣٨] .
(٣) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

وعوّل ابن جرير(١) في الأولوية على الثالث .

قال الزمخشريّ : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطي به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاشانيّ في تأويل الآية : (لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن (فَكَشَفْنَا عَنكَ) بالموت (غِطَآءَكَ) المادىّ الجسمانىّ ، الذى احتجبت به (فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوىّ تعاينه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ)

« وَقَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الذى جيء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه في الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قيض له مقارناً له يغويه ، وهو الأظهر ـ كما اعتمده الزمخشريّ ـ لآية(٢) « نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ) ويشهد له قوله تعالى(٣) (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) « هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ »أى هذا شيء لدىّ حاضر مُعَدّ محفوظ . والإشارة على الأول لما في صحفه، وعلى الثاني للشخص نفسه . أى هذا ما لدىّ عتيد لجهنم هيأته بإغوائي لها .

وقال القاشانيّ : (وَقَالَ قَرِينُهُۥ) أى من شيطان الوهم الذى غرّه بالظواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) مهيأ لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه في التوجه إلى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦] . (٣) [٥٠ / ق / ٢٧] .

الجهة السفلية ، وأنه ملكه ، واستعبده فى طلب اللذات البدنية ، حتى هيأه لجهنم فى قعر الطبيعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق، ألق ، ثم حذف الفعل الثانى، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، فثنى الضمير للدلالة على ماذكر . أو الألف بدل من نون التأكيد، لأنها تبدل ألفاً فى الوقف ، فأجرى الوصل مجراه ـ أوجه ذكروها ـ .

وقال ابن جرير[1] : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين. وفى ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما ـ أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذى يكون بلفظ الواحد فى الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله (أَلْقِيَا) إلى المعنى .

والثانى ـ أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلاها ، وازجراها ، كما قال[2] :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْبِسَانَا ... بِنَزْعِ أصولِهِ واجْتَزَّ شِيحا

وقال أبو ثَرْوَان[3] :

فإن تَزجرانى يا ابنَ عفانَ أنْزَجِرْ ... وإن تَدَعَانِى أَحْمِ عِرْضا ممنَّعاً

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربعىّ الفقعسىّ .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلىّ . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفىّ ليلى : ألا ترَى ... إلى ابن كراع لا يزال مُفزَّعَا

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه فى إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلا : ياصاحبىّ ، ياخليلىّ . انتهى .

و (الـكَفَّار) المبالغ فى جحده وحدانيةَ الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه .

و (العَنِيد) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلا فى مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ)

« مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ » أى الـكلىّ ، وهو الإسلام . أو المال . واستصوب ابن جرير[1] أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمىّ فى ماله ، لأنه لم يخصص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد فى الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش فى المنطق ، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً ، كما قال قتادة : معتد فى منطقه وسيرته وأمره .

« مُرِيبٍ » أى شاكّ فى الحق ، أو موقع صاحبه فى الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشانىّ : الخطاب فى (أَلْقِيَا) للسائق والشهيد اللَّذَين يوبقانه ويلقيانه ويهلكانه فى أسفل غياهب مهواة الهيولى الجسمانية ، وغيابة جب الطبيعة الظلمانية ، فى نيران الحرمان . أو لمالك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألق ، ألق ، لاستيلائه عليهم فى الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوّى الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة ، التى أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقوعهم فى نيران الجحيم ، وبيّن أنها من باب العلم والعمل . والـكفرانُ ومنعُ الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كما فى لذاتها ، واستعمالها نعم الله تعالى فى غير مواضعها من المعاصى والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها ، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقيها. وذكرُها على بناء المبالغة ، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه ، وغلبتهما عليه ، وتعمقه فيهما ، الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة فى قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء ، كلاهما من إفراط القوة الغضبية ، واستيلائها ، لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة . والأربعة من باب فساد العمل . والريب والشرك . كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة ، بتفريطها فى جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة . وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ » أى : عبد معه معبوداً آخر من خلقه « فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ » أى عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره (فَأَلْقِيَاهُ) أو مفعول لمضمر يفسره (فألقياه) أو بدل من (كل كفار) فيكون (فألقياه) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعانى من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد، والمفسِّر والمفسَّر ؛ منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابىّ . ولو جعل (العذاب الشديد) نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب [1] (وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ) كان حسناً .

قال الشهاب (بعد نقله ما ذكر) : قال ابن مالك فى (التسهيل) : فصلُ الجملتين فى التأكيد بـ (ثم) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

---

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] .

الزمخشريّ فى (الجاثية) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحىّ ، وكلام أهل المعانى فى إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكلًا به فى الدنيا ، متبرئًا منه « رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ » أى بالإرابة ومنع الإسلام، وجعل إله آخر معك « وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاشانىّ : وقول الشيطان (مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ...) الخ كقوله[١] (إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالغواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك. فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير[٢] : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرّؤ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ)

«قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ » أى لا تختصموا اليوم فى دار

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الجزاء ، وموقف الحساب ، فلا فائدة فى اختصامكم ، وقد قدمت إليكم فى الدنيا بالوعيد لمن كفر بى وعصانى ، وخالف أمرى ونهيى فى كتبى ، وعلى ألسن رسلى .

قال القاشانىّ : النهى عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لااختصام مسموع عندى . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة فى نفوسكم ، ورانت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، ورد عليهم قولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ)

« مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ » قال ابن جرير[1] : أى مايغير القول الذى قلته لكم فى الدنيا وهو قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، ولا قضائى الذى قضيته فيهم فيها .

« وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » أى فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

وقال القاشانىّ : (وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ) حيث وهبت الاستعداد ، وأنبأت على الكمال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفسكم باكتساب ماينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور فى الظلمة ، واستبدال مايفنى بما يبقى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآيات أن هذا التقاول على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشانيّ : هذه المقاولات كلها معنوية، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى في القلب ، عند ارتسام مثاله في الخيال . فادعاء الكافر الإطغاء على الشيطان، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيه : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالغضبية والشهوية مثلًا . ولهذا قال : (لَا تَخْتَصِمُواْ) ولما كان الأمران في وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاوضين في أمر ، لتوقع نفع أولذة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا، فإذا حرما أوقعا بسعيهما في خسران وعذاب ، تدارءا ، أو نسب كل منهما التسبب في ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضي الله عنه للنبيّ عليه السلام : ورأيت أهل النار يتعاورون . وصوّب عليه السلام قوله . انتهى .

الثاني إن قلت : لم طرحت الواو من جملة (قَالَ قَرِينُهُۥ) وذكرت في الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول ، كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقاولة ؟ قلت : لما قال قرينه (هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) وتبعه قوله (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) وتلاه (لَا تَخْتَصِمُواْ) ـ علم أن ثمّ مقاولة من الكافر، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لديّ عتيد ، قال الكافر : ربِّ هو أطغاني ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أطغيته ، فلما حكى قول القرين والكافر، كأن قائلًا يقول : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال لا تختصموا لديّ . وذكر الواو في الجملة

الأولى لأنها أول المقـاولة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ماقبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملـكين ، وقول قرينه ما قال له ـ هذا ملخص ما فى الـكشاف ـ .

الثالث ـ جوز قوله تعالى (بِٱلْوَعِيدِ) أن تـكون الباء زائدة فى المفعول ، وأن يكون حالًا من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لـكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من (لَا تَخْتَصِمُواْ) على تأويل تقـديم الوعيد بالعلم به . أى : لا تختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع ـ دل قوله تعالى (مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ) على أنه لاخلف فى إيعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف فى ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة ، حيث قالوا : ماورد فى القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الـكريم إذا وعد أَنْجَزَ ووفّى ، وإذا أوعد أخلف وعفا ـ أفاده الرازيّ ـ .

ووجه الاستدلال أنه لوصح ما ذكروه للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف فى أخباره ـ تقدس عن ذلك ـ مع أن طبيعة الذنب تقتضي العقوبة ، إلا أن يتاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس ـ ذكروا فى سر المبالغة فى (بِظَلَّٰمٍ) وجوهاً :

منها ـ أن (فعّالا) قد ورد بمعنى (فاعل) ، فهذا منه .

ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها ـ أن المنسوب فى المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم ، وإن قليلًا فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملـكه ، قدس ذاته عما يتوهم مخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٠] ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ » قال ابن جرير[١] : فيه لأهل التأويل قولان :

الأول ـ أن معناه : مامن مزيد. فعن مجاهد قال: وعدها الله ليملأنها فقال: هلاوفيّتكِ؟ قالت : وهل من مسلك ؟ !

الثانى ـ معناه : زدنى .

أى : فالاستفهام على الأول إنكارىّ . معناه النفى ، وأيد[٢] بآية ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وعلى الثانى تقريرىّ ، دلالة على سعتها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله ﴿ لَأَمْلَأَنْ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لايخلو طبقة منها عمن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية .أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقاولة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة .

وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

(٢) [١١ / هود / ١١٩] و [٣٢ / السجدة / ١٣] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نفرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجاج الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها فى نفَسين. وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ، مالم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوّز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوّزه العقل . وقد وقع مثل هـذا قطعاً فى الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسبيح الحصى فى كف النبيّ ﷺ ، وفى يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر فى تفاصيل المقالة، لاتسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة فى الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب: وهو كلام حسن، وأمور الآخرة لاينبغى أن تقاس على أمور الدنيا. انتهى

ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر فى الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة، كما أوضحه السيوطىّ فى (المزهر) والجرجانىّ فى (أسرار البلاغة) . وفى شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها ـ والله أعلم ـ .

و (يوم) منصوب بـ(ظلّام) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و (المزيد) إما مصدر كالمحيد ، أو اسم مفعول كالمبيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

« وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ » أى قربت وأدنيت « لِلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « غَيْرَ بَعِيدٍ » أى مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أو لكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعومل معاملته ، وأُجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لايحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

« هَـٰذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا تُوعَدُونَ » أيها المتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيظٍ » أى حافظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه .

وقال القاشانىّ : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلىّ ، كى لايتكدر بظلمة النفس . و (لكل) بدل من (للمتقين) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ)

« مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى خاف الله فى سره. وقال القاشانىّ : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و (من) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعده بتأويل (يقال لهم ادخلوها ... الخ) « وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ)

[٣٥] (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

« ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ » أى يقال لهم ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم «وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يخطر على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم » أى قبل هؤلاء المشركين من قريش « مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا » أى قوة، كعاد وفرعون وثمود «فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ» أى فضربوا فيهاوساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس(١) :

لقـد نقَّبتُ فى الآفاق حتى   رَضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

« هَلْ مِن مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتنقيبهم فى البلاد، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء المشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير(٢) : وقرأت القراء قوله (فَنَقَّبُوا۟) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أرانا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غيبٍ   ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان (طبعة المعارف) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت) طَوَّفت : أكثرت الطواف والمشى فى نواحى الأرض حتى شق علىّ ذلك . وصرت أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإياب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الخبر عنهم . وذُكر عن يحيي بن يعمر أنه كان يقرأ (فنقِّبوا) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا فى البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قريش « لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ » أى لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه .

« وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه . على أن (شهيد) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : المتفطن ، لأن غير المتفطن كالغائب، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو (شهيد) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن ـ نقله الشهاب ـ .

لطيفة :

قيل : (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تنكير (القلب) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ» أى إعياء .

قال قتادة : أكذب الله اليهود وأهل الفرى على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ)

[٤٠] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ)

«فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ» يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ، «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ» أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره، وهو قرين التحميد، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشاآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

[٤٢] (يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ)

«وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أى استمع، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء .

قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير (كن) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تبيينه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ » أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء « بِٱلْحَقِّ » قال ابن جرير[1] : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ » أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ » أى فى الدنيا بإفاضة نور الحياة أو قطعه « وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ » أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)

« يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » أى فيخرجون منها مسرعين « ذَٰلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

عَلَيْنَا يَسِيرٌ » أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعد به من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بارّ يا رحيم !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١ – سُورَةُ الذَّارِيات

قال المهايمىّ : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهى مكية . وآيها ستون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا)

« وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرواً . أى نوعاً من الذرو ليعقدها سحباً . أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بمايتطاير من الرياح . أو الأسباب التى تذرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ، شبهت الأشياء المعدة للبروز من كمون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .

و « الذَّٰرِيَٰتِ » اسم فاعل (ذرا) المعتل بمعنى فرّق وبدّد مارفعه عن مكانه . ويقال : أذرى أيضاً . وأما (ذرأ) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا)

فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا » أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل (١) :

وأسلمتُ نفسى لمن أَسْلَمَتْ له المزنُ تحمل عَذْباً زُلَالَا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أوالنساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و (الوِقر) بكسر الواو ، كالحمل وزناً ومعنى . وقرئ بفتح الواو على أنه مصدر سمى به المحمول .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء النصرانية (صفحة رقم ٦٢٢) . والرواية هناك :

* وأسلمت وجهى . . . *

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا ﴾

[٤] ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴾

« فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلًا. أو الرياح الجارية فى مهابها. أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و (يُسْرًا) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذا يسر «فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا» أى الملائكة التى تقسّم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو مايعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب .

تنبيهات :

الأول ـ ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن علىّ رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن، والمقسمات هى الملائكة. واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى: فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .

واستظهر الرازىّ أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك .

واللفظ متسع بجوهره للكل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فائدة (الفاء) إن قيل إنها صفات الرياح ، فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشئ السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرىّ أو الرتبىّ .

الثالث ـ ذكر الرازىّ فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها ـ أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبىّ ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف فى نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لابصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبنى لعلمه بطريق الجدل، وعجزى عن ذلك. وهو يعلم فى نفسه أن الحق بيدى ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الأول، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل، فلا يبقى إلا السكوت، أو التمسك بالأيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها ـ أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبىّ ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً . وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الأيمان، ولناله المكروه فى بعض الأزمان.

ثالثها ـ أن الأيمان التى أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهى سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القَسَم. كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل: فلِمَ أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول: لأن المتكلم إذا شرع فى أول كلامه بحلف، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل فى صورة اليمين، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين، فى صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾

[٦] ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » جواب القسم . و (ما) موصولة أو مصدرية . والموعود

هو قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدق . فوضع الاسم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية) . « وَإِنَّ ٱلدِّينَ » أى الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر «لَوَاقِعٌ » أى لحاصل. قال قتادة : وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ)

[٨] (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ)

[٩] (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ » أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير الكواكب.

و (الحبك) أصل معناها ما يرى كالطريق فى الرمل والماء ، إذا ضربته الريح. وكذلك حبك الشَّعر : آثار تثنّيه وتكسّره . و(الحبك) بضمتين جمع حِباك ، كمثال ومثل وكتاب وكتب . أو حبيكة كطريقة وطرق . قال زهير يصف غديراً[١] :

مكللٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ريحٌ خَرِيقٌ لضاحى مائِه حُبُكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزوّدوك اشتياقاً ، أية سلكوا .

قال الأصمعىّ : النجم : النبت الذى يقال له الثِّيلُ . وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم . وهو كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل .

ويقال : نَجَمَ البقلُ : إذا طلع . ومنه : نجم قرن الظبية إذا طلع .

ريح خارق ، يقال : هبت الشِّمالُ خَرِيقا ، إذا هبت هبوبا شديدا .

لضاحى مائه : ما ضحا للشمس من الماء ، برز للشمس .

وحُبُك : طريق الماء . الواحد حَبِيك .

يقول : إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء . ونسْجُها إياه : مرُّها عليه.

(انظر شرح الديوان ، صفحة ١٧٦ ، طبعة الدار) .

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .

وعن الحسن(١) : (ذات الحبك) أي النجوم . قال : حُبِكَتْ بالْخَلْقِ الحسن ، حُبِكَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشيّ تحبيكه، فشبهت النجوم بطرائق الوشي مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أي : مربوطة . فمعنى (ذَاتِ ٱلْحُبُكِ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية ، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى الجاذبية التي يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه، فهي إحدى معجزات القرآن العلمية . انتهى.

« إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ » أي متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرصون يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) «يُؤْفَكُ» أي يصرف «عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » أي صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضي في مناسبة المقسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم في اختلافها ، وتنافي أغراضها ، بالطرائق للسموات في تباعدها ، واختلاف غاياتها.

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل، بل لأخذهم بالخرص والتخمين، بقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ)

[١١] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

[١٢] (يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٣] (يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ)

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبريّ ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

« قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون ، أو هو يوم هم .. الخ وفتح (يومَ) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ)

« ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ » أى مقولاً لهم : ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه ، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[١٦] (ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ)

[١٧] (كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[١٨] (وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[١٩] (وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالحرص والتخمين فى الأمور الاعتقادية . « فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » قال ابن جرير (١) : أى عاملين ما أمرهم به ربهم، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخروىّ ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذى فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى (ءَاخِذِينَ) حال من قوله (فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ) فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ » يعنى : فى الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها فى أفعالهم وأقوالهم، كما بينه بقوله سبحانه « كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » أى كانوا يهجعون هجوعاً قليلًا ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير (١) عن أنس فى الآية ؛ أنهم كانوا يصلّون ما بين هاتين الصلاتين، ما بين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن علىّ : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرّف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى (كَانُوا۟ قَلِيلًا) أى أن المحسنين كانوا قليلًا . ثم ابتدئ فقيل (مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) . و (ما) نافية . أى لا يهجعون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

لطيفة :

فى هذه الجملة الكريمة مبالغات فى وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذى هو وقت النوم ، والهجوع الذى هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، فى الآية استحباب قيام الليل، وذم نومه كله. والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال القاضى : أى أنهم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم، إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار ، كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم.

قال الرازىّ : فى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجّدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ، ويمنّ به . وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بيّن أنهم يهجعون قليلًا ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال (يَسْتَغْفِرُونَ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبّينها فى جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلًا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار، فى وجوه الأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار. يأتون بفعل آخر طالباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر ، والثانى عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثانى الإشارة إلى الزكاة فى الآية بعدها. والزكاة قرينة الصلاة فى كثير من الآيات. وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم فى التهجد، بل وفى غيره،

فيكون من إطلاق الجزء على الكل . وقد ذكر فى أذكار الصلاة الاستغفار فى مواضع منها. كالركوع والسجود وبين السجدتين وآخر الصلاة، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن ـ وكان ﷺ يطيل الركوع والسجود والتهجد لذلك .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ فى (أساس البلاغة) إنما سمى (السحر) استعارة ، لأنه وقت إدبار الليل ، وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح . انتهى .

« وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » أى الفقير المتعفف الذى يُظَن غنيًّا ، فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل فى كفه ، وفقير متعفف، ولكليهما عليك حق ، يا ابن آدم .

وفى الصحيح(١) عن النبىّ ﷺ : ليس المسكين الذى تردّه اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه .

وروى الإمام(٢) أحمد عن الحسين بن علىّ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسنده عن علىّ كرم الله وجهه .

ويدخل فى (المحروم) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق واحتاج ، إلا أن أهم أفراده المتعفف . ولذا عوّل عليه الأكثر .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : فى أموالهم حق سوى الزكاة يَصِلون بها رحماً، أو يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كَلًّا .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٨ ـ باب لا يسألون الناس إلحافا ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٧٩٠ (طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لاحاجة إلى الخرص والتخمين فى باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾

« وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ماتطمئن به النفس ، وينثلج له الصدر ، فيرون فيها ممـــا ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظاماً، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

« وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى فى حال ابتدائها وتنقلهـا من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات، وما بينها من التفاوت فى العقول والأفهام ، وما فى تراكيب أعضائها من الحكم فى وضع كل عضو منها ، فى المحل المفتقر إليه ، إلى غير ذلك ممالا يحصيه قلم كاتب، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبى الدنيا فى كتابه (التفكر والاعتبار) لشيخه أبى جعفر القرشىّ :

وإذا نظرتَ تريد معتبَراً ... فانظر إليك ، ففيك معتبرُ
أنت الذى تُمسى وتُصْبِحُ فى الـ ... دُّنْيـا وكلُّ أمورِهِ عِبَرُ
أنت المصرّف كان فى صغر ... ثم استقلّ بشخصك الكِبَرُ
أنت الذى تنعاه خلقتُهُ ... ينعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنت الذى تعطَى وتسلَب، لا ... ينجيه من أن يُسلَب الحَذَرُ
أنت الذى لاشىء منـه له ... وأحقُّ منـه بما له القَدَرُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى بـ (السماء) المزن ، وبـ (الرزق) المطر ، فإنه سبب الأقوات . والمراد بـ (مَا تُوعَدُونَ) العذاب السماوىّ ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

« فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» أى مثل نطقكم . والضمير فى (إنه) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبىّ ﷺ ، أو إلى (مَا تُوعَدُونَ) ويؤيد الأخير ما تأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبأ قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للاتجار ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ، قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ » يعني: الملائكة الذين دخلوا عليه في صورة ضيف . قال الزمخشريّ : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحي . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القِرى ، أو أنهم في أنفسهم مكرمون .

« إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ » أي سلام عليكم « قَوْمٌ مُّنكَرُونَ أي أنتم قوم لا أعرفكم . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ، ليعرفهم . فإن قولك لمن لقيته : أنا لا أعرفك ! في قوة قولك : عرف لي نفسك وَصِفْهَا .

« فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أي ذهب إليهم في خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يكفّه ويعذره ـ قاله الزمخشريّ ـ وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد : أنه لا يقال راغ ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال روّغ اللقمة إذا غمسها فرويت سمناً . قال الناصر : وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفي . ومن مقلوباته (غوّر الأرض) والجرح . وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

« فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ » أي قد أنضجه شيًّا « فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ » أي بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » أي منه . قال القاضي : وهو مشعر بكونه حنيذاً. والهمزة فيه للعرض ، والحث على الأكل على طريقة الأدب، إن قاله أول ماوضعه . وللإنكار، إن قاله حينما رأى إعراضهم .

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أي أضمرها ، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ » أي يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ » أي صيحة «فَصَكَّتْ » أي لطمت « وَجْهَهَا » أي تعجباً ، على عادة النساء في كل غريب عندهن ،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك ،فإنما نخبرك عن الله. فاقبلى قوله،ولا تتوهمى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٣٢] (قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ)

[٣٤] (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[٣٥] (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٣٦] (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

[٣٧] (وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ » أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة « مُّسَوَّمَةً » أى مرسلة ، أومعلّمة « عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » أى المتعدّين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بإيحاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . «فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» يعنى بيت لوط عليه السلام «وَتَرَكْنَا فِيهَآ» أى فى تلك القرية « ءَايَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدنيوىّ الدال على الأخروىّ « لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« وَفِي مُوسَىٰٓ » عطف على (فيها) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور . أى وتركنا فى قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آيةً وحجة تبين لمن رآها حقية دعواه .

« إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ » أى ببرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ » أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فـ (ركنه) جانب بدنه . فالتولى به كناية عن الإعراض . والباء للتعدية ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ سَـٰحِرٌ » أى هو ساحر « أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ » أى فأغرقناهم فى البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ)

[٤٢] (مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ)

« وَفِى عَادٍ » أى وتركنا فى عاد ، قوم هود عليه السلام آية « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك . « مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ » أى الشيء الهالك . وأصل الرميم : البالى المفتت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ)

[٤٤] (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ)

[٤٥] (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ)

« وَفِي ثَمُودَ » أى وتركنا فى ثمود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُوا » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى : ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى . « فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ » يعنى العذاب الحالّ بهم ، المعهود « وَهُمْ يَنظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهارًا .

« فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلًا عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على (وَفِي ثَمُودَ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولًا لمضمر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول (فَأَخَذْنَاهُ) أو على محل (وَفِي مُوسَىٰ) . « مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[٤٨] (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا بناءها . « وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا » أى مهدناها ليتمتعوا بها « فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ » أى لهم . وفى إيثار صيغة فاعل من (مهد على فرش) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلاً واسماً ، فيكون فى أحدها أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف، ويؤثر عليه غيره فى آخر. والمرجع الذوق ـ كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكراً وأنثى ، أو نوعين متقابلين .

قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . وليل ونهار . وشمس وقمر . وبر وبحر . وضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجاهد ، وعبارة ابن جرير(١) :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ماخلق من خلقه ثانياً له ، مخالفاً فى معناه. فكل واحدمنهما زوج للآخر، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما نبه جل ثناؤه بذلك من قوله (خَلْقِهِ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كل ماصفتهفعل نوع واحد دون ماعداه، كالنار التىشأنها التسخينولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذى شأنه التبريدولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ماشاء فعلَه من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير(٢) : أى لتذكروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ » أى فِرُّوا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فر لمأمنه . فهو استعارة تمثيلية . « إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذيقهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

«وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى قد أبان النذارة. قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير ـ كما قيل ـ بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[٥٣] (أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٥٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ)

« كَذَٰلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

« مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » يعنى تقليداً لآبائهم، واقتداءً لآثارهم ، فمورد جهالتهم مؤتلف ، ومشرع تعنتهم متحد . وقوله تعالى « أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ » إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلًا عن التفوّه بها. أى أأوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه. وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدالّ على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية مَن قبلهم بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى(١) (وَدَعْ أَذَىٰهُمْ) وقوله(٢) (وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). « فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ » أى فى إعراضهم، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شىء .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا ـ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة ـ بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأمورًا بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى(٣) (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا).

وكذا قول البعض فى قوله تعالى (فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكرى بعد . فالصواب ماذكرناه فى تفسير الآية، لأنه المحاكى لنظائرها. وأقعد التفاسير ما كان بالأشباه والنظائر ـ كما قيل ـ : وخير ما فسرته بالوارد .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [٨٣ / المزمل / ١٠] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَكِّرْ » أى عظهم « فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من قدّر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا مَن سواهم ، إذ هم العابدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

« وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لا يتم صلاح ، ولا تنال سعادة فى الدارين، إلا بها . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)

[٥٨] (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ)

« مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » بيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم ، قدّر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ)

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبغي والفساد، « ذَنُوبًا »أى نصيباً وافراً من العذاب« مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية . وأصل (الذنوب) الدلو العظيمة المملئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء . وهى تذكّر وتؤنّث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً،شرًّا كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيرًا كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس (١) :

وفى كل حيٍّ قد خبطتَ بنعمة فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .

« فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و (اليوم) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر .

قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأوفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدنيوىّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) قائل البيت هو علقمه الفحل . من المفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :

طَحَا بِكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .

وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .

والذَّنوب الدلو . أراد حظًّا ونصيبا .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٢ ـ سورة الطور

قال المهايميّ : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحي ، فالوحي أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

وهي مكية ، وآيها تسع وأربعون .

روى الشيخان(١) ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبيّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخاريّ(٢) عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إني أشتكي ! فقال : طوفي من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالطُّورِ)

[٢] (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ)

[٣] (فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ)

[٤] (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ)

[٥] (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)

[٦] (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

« وَالطُّورِ » أي طور سينين ، جبل بمَدْيَنَ ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ » أي مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .

« فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أي وكتاب سطِّر في ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذي يكتب فيه .

« وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ » أي الذي يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمّار والطائفين والعاكفين والمجاورين. وروى أنه بيت في السماء بحيال الكعبة من الأرض. يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ماجاء في سورة (التين) من عطف (الْبَلَدِ الْأَمِينِ) على (طُورِ سِينِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايميّ : أورده بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجلّ الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية[١] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وآيات أخر .

« وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسماء البيت الذى هو سقفه .

« وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله[٢] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال ابن[٣] جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجْر) الإيقادأو الامتلاء. فإذا كان البحر غير موقد اليوم، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء، لأنه كل وقت ممتلئ. ولاتنس ماقدمنا فى أوائل (الذَّارِيَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ)

[٨] (مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ)

[٩] (يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا)

[١٠] (وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا)

[١١] (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[١٢] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ)

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] . (٢) [٨١ / التكوير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩و٢٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

[١٣] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)

[١٤] (هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[١٥] (أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)

[١٦] (ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا » أى تضطرب. « وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباء منثورًا « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق، الجاحدين له « ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دععت فى قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لا تبصرون فى الدنيا . قال الزمخشرىّ : يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقريع وتهكم . « ٱصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار « فَٱصْبِرُوٓاْ » أى على ألمها، « أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران: الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لا تعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لربكم ، وكفركم به .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ...) الخ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة « وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ » جمع (عيناء) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ، كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ » أى اقتفت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً « وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ » أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً « كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » أى بما عمل من خير أو شر مرتهن به ، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

[٢٣] ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾

[٢٤] ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾

« وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر . « يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون مايؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنّ ، فهو أنقى له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

[٢٦] ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾

[٢٧] ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾

[٢٨] ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا . « قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (ٱلسَّمُومِ) الريح الحارّة التى تدخل المسامّ ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لكنه

فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « ٱلرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رئىّ من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب فى بعضهم ، ولكنك رسول الله حقًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وريبه صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للتهكم بهم والتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ » أى عقولهم بهذا التناقض فى القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد،مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ » أى اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، « بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً،فلذلك يرمونه بتلك الفرى. « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ » أى فى الهداية بذاك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله[1] (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ) . « إِن كَانُوا صَادِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[٣٦] (أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ)

[٣٧] (أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ)

[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ)

[٤٠] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤١] (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ » قال ابن جرير[2] : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ » أى بوعيد الله ، وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أى مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحى ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم، الملائكة إناثاً ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه (١) (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) « أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا » أى أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله تعالى، « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُّثْقَلُونَ » أى من أدائه، حتى زهدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ» أى المكور بهم دونك ، فثق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١) [١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم[١] (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا).

قال الزمخشريّ: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرْهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلههم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا » أى لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إما عذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم ـ أقوال للسلف ـ واللفظ صادق بالجميع « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته.

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠ـ٩٢] .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير [١] : أي بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعني أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة، استعيرت لذلك، وللحافظ نفسه ، كما تسمى (الربيئة) عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونكتة جمع (العين) هنا وإفرادها في قصة الكليم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد، هو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » أي من منامك .

روى الإمام أحمد [٢] عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال: رب اغفر لي (أو قال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضأ ثم صلى، قبلت صلاته . وأخرجه البخاريّ [٣] في صحيحه وأهل السنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك . اللهم زدني علماً . ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ـ روى مسلم [٤] في صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول في

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .
(٣) أخرجه في : ١٩ ـ كتاب التهجد، ٢١ ـ باب حدثنا عليّ بن عبد الله، حديث رقم ٦٣٤
(٤) أخرجه في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبيّ ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة [١] عن النبي ﷺ أنه قال : من جلس في مجلس، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك ـ رواه الترمذيّ وصححه، وكذا الحاكم.

وأخرج أبو داود [٢] والنسائيّ والحاكم عن أبي برزة الأسلميّ قال : كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يارسول الله ! إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون في المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ، وعلّله ، فرحمه الله .

ولايخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى [٣] ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب في كفارة المجلس، حديث ٤٨٥٩

(٣) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وقد روى فى أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف فى كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معرّى عن أسانيدها فى كتابى (الأوراد المأثورة) .

« وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ » أى : وسبحه وقت إدبارها ، وذلك بميلها إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عنى بذلك إما فريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كنا نحدَّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتى الفجر . وفى لفظ لمسلم[2] : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزمخشرىّ : وقرئ (وَأَدْبَٰرَ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت.

تنبيه :

قال فى (الإكليل) عن الكرمانىّ : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدبار لها ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٧ ـ باب تعاهد ركعتى الفجر ، حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٤ و ٩٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٣ — سورة النجم

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخاريّ[(١)] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد مَن خلفه ، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع فى رواية غيره ، تسمية غير أمية ـ كما بسطه ابن حجر فى (الفتح) ـ .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ٤ ـ باب فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ، حديث ٥٨٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)

[٢] (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)

« وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقضّ . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًّا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغىّ . وذكره ﷺ بعنوان (صاحبهم) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بمحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ)

[٤] (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ)

« وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحيه إليه . وجملة (يُوحَىٰ) صفة مؤكدة لـ (وَحْىٌ) رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجددىّ . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحى ، وقوّاه بما فى (مراسيل) أبى داود عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها، كما يعلمه القرآن. واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعنى: كون مرجع الضمير للقرآن، لماذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (ٱفْتَرَىٰهُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلىّ أنه ﷺ كثيراً مايقول بالرأى فى أمور الحرب، وأمور أخرى. فلابد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لاقوة فى المراسيل ، لما تقرر فى الأصول . وبأن الآية لاتدل على منع الاجتهاد المذكور، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً. لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد، كان الاجتهاد ومايستند إليه كله وحياً، لانطقاً عن الهوى. لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ (متى ماظننتَ كذا فهو حكمى) أى كل ماألقيته فى قلبك فهو مرادى، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجه تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراده . فما قيل عليه من أن الوحى الكلام الخفىّ المدركُ بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادىّ إلا بعموم المجاز. مع أنه يأباه قوله[1] (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) غير وارد عليه ، بعدماعرفت من تقريره ـ نقله فى (العناية) عن (الكشف) ـ وتفصيل المسألة فى مطولات الأصول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ)

«عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ» أى علم محمداً ﷺ ملَكٌ شديد قواه، يعنى جبريل عليه السلام. كما قال[2] (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ) و (ٱلْقُوَىٰ) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسرها كالرِّشا بكسر الراء فى جمع رشوة بضمها ، والحِبا فى جمع حُبوة ـ نقله ابن[3] جرير .

---

(١) [٥٣ / النجم / ٥] . (٢) (٨١ / التكوير / ١٩و٢٠) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ)

[٧] (وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ)

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه. والعرب تقول لكل قوىّ العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من (أمررت الحبل) إذا أحكمت فتله « فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ » قال الزمخشرىّ : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء ـ كما قال شراحه ـ سببية ، لأن تشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على (عَلَّمَهُو) أى علمه على غير صورته الأصية ، ثم استوى على صورته الأصلية .

وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرته من الأمور ـ حكاه القاضي ـ.

قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر، لا مصطلح أهل الهيأة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى (فَٱسْتَوَىٰ) يعنى جبريل عليه السلام ـ قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير(١) ههنا قولًا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد. وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء ـ كذا قال ـ ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ماقاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله(٢) (أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٧] .

وَءَابَآؤُنَا) فعطف بالآباء على المكنيّ فى (كُنَّا) من غير إظهار (نحن) فكذلك قوله (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ ولا يستوى والْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (اقْرَأْ) ثم فترة الوحى فترة ذهب النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقًّا، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه اليه . انتهى.

أقول : قد وافق القاشانيّ ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

(فَاسْتَوَىٰ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبيّ بالأفق الأعلى، لأنه حين كَوْن النبيّ بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية الكلبيّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر، لم يفهم القلب كلامه، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبيّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايمىّ وافقهما وعبارته :

(فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار (بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ) الروحانىّ . انتهى .

وكذا الفخر الرازىّ وعبارته :

المشهور أن (هو) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقىّ ، فسدّ المشرق لعظمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

(فإن قيل : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول[1] (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ) إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول : فوق السطح . أى : إن الرأى فوق السطح ، لا المرئىّ . و (المبين) هو الفارق ، من (أبان) أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحى فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) إلى غير ذلك ، وقوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبيّن موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى مواضعه ، عند ذكر تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل عليه السلام أرى النبىّ ﷺ نفسه على صورته ، فسدّ المشرق . فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

(١) [٨١ / التكوير / ٢٣] .

وليس فى الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبيّ ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرقى وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازىّ .

وفى القرطبىّ حكاية أقوال أخر ، وعبارته :

(فَٱسْتَوَىٰ) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه فى السماء ، بعد أن علّم محمدًا ﷺ ـ قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير ـ .

وقيل : (فَٱسْتَوَىٰ) أى قام وظهر فى صورته التى خُلِق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَٱسْتَوَىٰ) أى استوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان:

أحدهما ـ فى صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثانى ـ فى صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى (فَٱسْتَوَىٰ) فاعتدل . يعنى محمدًا فى قوّته ، والثانى فى رسالته ـ ذكره الماوردىّ ـ .

وعلى الأول يكون تمام الكلام (ذُو مِرَّةٍ) ، وعلى الثانى (شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما ـ أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثانى ـ أنه النبىّ ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : (فَٱسْتَوَىٰ) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش ـ على قول الحسين ـ انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال فى الآية ، وسيأتى فى أول التنبيهات إيضاح ما اخترناه منها ، وإنما أخرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ)

[٩] (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ)

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّىٰ » أى إليه .

قال ابن جرير[١] : هذا من المؤخر الذى معناه التقـديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله (دَنَا) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلىّ فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبيّ بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل بـ (أراد الدنو) ـ كما فى الإيضاح ـ .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » أى كأن مسافة مابينهما مقدار قوسين . أى بقدرها إذا مُدَّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيبه : مابين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدّر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابىْ قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحـداهما بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم ينزعانهما معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه ـ كذا قال مجاهد ، وارتضاه عامة المفسرين ـ انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال السمين : وقوله تعالى (أَوْ أَدْنَىٰ) كقوله[١] : (أَوْ يَزِيدُونَ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى لتقارب مابينهما ، يشك الرائى فى ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه فى رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر فى (أَوْ يَزِيدُونَ) فإن المعنى : إذا رآهم الرائى يقول هم مائة ألف أو يزيدون .

وقيل : (أَوْ) بمعنى (بَلْ) أى بل أدنى .

و (أَدْنَىٰ) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ)

« فَأَوْحَىٰٓ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِۦ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبىّ ﷺ . وإنما أضمر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإبهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ)

« مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ مارآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . يعنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق وصدق. وقرئ (ما كذّب) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملَك ربانىّ ، لا خيال شيطانىّ ، كما قال[٢] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية فى أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] . (٢) [٨١ / التكوير / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ)

« أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانىّ : أى أفتخاصمونه على شيء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبىّ ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصحّ المجادلة فى المرئىّ ، لأنه لا يجوز الجدال فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ)

[١٤] (عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ)

[١٥] (عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ)

[١٦] (إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ)

[١٧] (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

[١٨] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ)

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرّة أخرى من النزول ، وتأكيد الخبر عن الرؤية

الثانية هـــذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه .
«عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . ف(المنتهى) : اسم مكان، أومصدر ميمىّ . وقد جاء فى الصحيح[1] أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبهت بالسدرة ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عنـدها الملائـكة ، فشبهت بها ، وسميت (سدرة) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لـكن ورد فى الحديث[2] أن كل نبقة فيها كقلة من قلال هجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر ـ قاله الشهاب ـ .

« عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ » أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . « إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ » قال القاشانىّ : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائـكة تغشاها، وتهبط عليها ، وتحف من حولها.
« مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ » أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . « وَمَا طَغَىٰ » أى ما تجاوز مرئيّه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمـكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . « لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ » يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالته . وفيه غاية التفخيم لمقامه ، وأنه من الآيات الـكبر .

قال الناصر : ويحتمل أن تـكون (ٱلْكُبْرَىٰٓ) صفة لآيات ، ويكون المرئىّ محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ أمورًا عظامًا لايحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ (طبعتنا) .
(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

تنبيهات :

الأول ـ قدمنا فى تفسير قوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) ما قاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى ما فى بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازىّ ومن وافقهما، وبعض أقوال حكاها القرطبىّ . والأقرب فى معنى الآية ما ذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك. ونحن نقول فى تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما فى سورة التكوير تمام المشابهة، فقد قال تعالى(١) ثمة: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنوّ واقتراب لم يذكر فى (التكوير) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبىّ ﷺ فى معارج الكمالات وقتاً فوقتاً. وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه فى (الإتقان) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان فى (النجم) زيادة هذا التكريم والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ما ينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم، جمّ المناقب، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى. ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيّه تنزل من الأفق ، ودنا إليه، وكان فى غاية القرب منه، والتمكن من رؤيته، وتلقى الوحى عنه. وذلك كله حق وصدق لا مرية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره ما يصدقه فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى فى مكان معين لا يشتبه على رائيه، وهو سدرة المنتهى. وبالجملة، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لا خفاء به عند المتدبر ، وكله رد على المشركين المفترين، وإقسام على حقيقة الوحى والتنزيل ، وصدق ما يخبر به، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه. فما بقى بعد التعنت

(١) [٨١ / التكوير / ١٩ـ٢٣] .

والجحد إلا انتظار سنة الله فى أمثالهم من الأمم الـكافرة الجاحدة ، كما أشار له فى آخر السورة.

هذا ملخص معنى الآيات ، وما عداه فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوّزه مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد ـ والله الموفق ـ .

الثانى ـ ما قدمناه من رجوع الضمائر فى قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ... » الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنوّ والتدلّى فى سورة النجم هو دنوّ جبريل وتدلّيه ـ كما قالت عائشة وابن مسعود ـ والسياق يدل عليه ، فإنه قال (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوَى ، وهو ذو المرة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلّى ، فـكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .

وروى البخارىّ [١] فى هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح.

وروى الترمذىّ [٢] عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره فى صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة فى جياد ـ مكان بمكة ـ له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع فى حديث شريك فى البخارىّ [٣] من قوله (ودنا الجبّار رب العزة فتدلّى،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيى بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٣ ـ حدثنا ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٧ ـ باب قوله وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منـه قاب قوسين أو أدنى) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما فى سورة النجم ، نؤمن به . ونفوِّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تـكلّم كثير من الناس فى رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هـذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) ، فهذه هى ليلة الإسراء ، والأولى كانت فى الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقىّ : وقع فى حديث شريك فى الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذى قاله البيهقىّ رحمه الله فى هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذرّ قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنَّى أراه . وفى رواية : رأيت نورًا ـ أخرجه مسلم [(١)] ـ .

وقوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة [(٢)] وعن ابن مسعود [(٣)]. وكذلك هو فى صحيح مسلم [(٤)] عن أبى هريرة، ولا يعرف لهم

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ (طبعتنا) .

مخالف من الصحابة فى تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القيم فى (زاد المعاد) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصحَّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصحَّ عن أبى ذرّ أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنّى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما فى لفظ آخر : رأيت نورًا .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا، ولا قوله رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال: نعم رآه حقًّا ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد. وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين. فإن كان استناده إلى قوله تعالى (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) ثم قال: (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل ، رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : رأيت ربى عز وجل، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد[١] أيضاً عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة (أحسبه ، يعنى فى النوم) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٤٨٤ (طبعة المعارف) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديىّ (أو قال نحرى) فعلمت ما فى السموات ومافى الأرض . ثم قال: يامحمد! هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال قلت: نعم ! يختصمون فى الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء فى المكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يامحمد إذا صليت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضنى إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

ثم قال ابن كثير: وقوله تعالى(١) (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) كقوله(٢) (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع. لأنه قال (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث ـ ذهب بعضهم إلى أن هـذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوىّ ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقاءه إلى مافوق السموات السبع ، كما ذكر فى أحاديث المعراج من سدرة المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبىّ : لما كان الإسراء مقدماً فى الوجود على المعراج، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج ومافيه . وكان مافى المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ مالا يجوز عليه ، فقال « وَٱلنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

---

(١) [٥٣ / النجم / ١٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٢٣] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحى، بأنه تعليم ملك كريم ، مرئىّ للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس ، لا لإثبات المعراج .

ثم من الغرائب أيضاً هنا ، قول بعضهم محاولًا سرّ إفراد الإسراء عن المعراج ، وذكر كلٍّ فى سورةٍ ، ما مثاله : إن الإسراء أنزل أولًا وحده ، حملًا للمشركين على تسليم ما وضح صدقه ﷺ فيه، توصلًا للتصديق بما وراءه فإنه ﷺ أرشد أن يخبر المشركين أولًا بالإسراء إلى المسجد الأقصى ، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه ، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط ، فتقوم الحجة عليهم . وكذلك وقع ، كما ذكر فى الروايات . وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺ أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام ، وأنزل الله تصديقه فى سورة النجم . انتهى . فكل هـذا مما لا سند له ، نعم ! روى البيهقىّ وابن أبى حاتم وابن جرير فى حديث مطول ؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب . إنى أتيت البارحة بيت المقدس ، وعرج بى إلى السماء ورأيت كذا وكذا . إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين ، ولا حجة فى الأخبار إلا مرويّهما . وبالجملة ، فالمعوّل عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر فى القرآن مطلقاً ، وما ورد فى هذه السورة وسورة التكوير ، فلا علاقة له بالمعراج ، وإنما هى رؤية النبىّ صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم . وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية . لصريح حديث البخارىّ فى ذلك من طرقه التى عن أنس ومالك بن أبى صعصعة . قال بعضهم ولذلك لم يذكر فى حديث المعراج، بحسب رواية البخارىّ التى هى أصح الروايات بالإجماع ، أن النبىّ ﷺ سار أولا إلى بيت المقدس ، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه، ثم ظهر له عند سدرة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة ، وذلك يدل على أن ما ذكر فى القرآن مما وقع يقظة، هو غير ما ذكر فى الحديث، مما وقع مناماً فى وقت آخر،

وإلا لذكرا معا فى سياق واحد ، إما فى القرآن ، وإما فى أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذى لم يحصل إلا فى بعض روايات لا يعوَّل عليها ، وهى من خلط بعض الرواة الحوادثَ بعضها ببعض . انتهى ـ والله أعلم ـ .

ثم قال تعالى منكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لهـا البيوت ، مضاهاة للـكعبة التى بناها خليل الرحمن لعبادته تعالى وحده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ)

[٢٠] (وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ)

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ » قال ابن كثير : هى صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فِناء معظَّم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير(١) : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا (ٱللَّٰتَ) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشرىّ : هى فعلة من (لوى) لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة، أو يلتوون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا (اللاتّ) بتشديد التــاء ، وفسروه بأنه كان رجلًا يلتّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه.

« وَٱلْعُزَّىٰ » وهى شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى (العزيز) وقال الزمخشرىّ : أصلها تأنيث الأعز .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظّمونها ، ويهلون منها للحج إلى الـكعبة .

روى البخاريّ عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير[1]: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللّات والعُزّى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الـكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول ـ قال القاضى : (مناة) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عنـدها القرابين . ومنه سميت (منى) لأنه يمنى فيها القرابين ، أى ينحر .

وقال الزمخشريّ : وكأنها سميت (مناة) لأن دماء المناسك كانت تمنى عندها ، أى تراق . وقرئ (مناءة) مفعلة من (النوء) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .

فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .

وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو (ٱلثَّالِثَةَ) للتأكيد ، و (ٱلْأُخْرَىٰٓ) بيان لها، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : (ٱلْأُخْرَىٰٓ) ما يثبت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجوديّ ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجوديّ ، إلى الاستعمال ، حيث يتقـدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصليّ ، بخلاف (آخر) و (آخرة) ، على وزن فاعل وفاعلة، فإن إشعارها بالتأخير الوجوديّ ، ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجوديّ ، لأن (الأفعل) و(الفعلى) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني ـ قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكانت لقريش ولبني كنانة (الْعُزَّىٰ) بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

ياعُزَّ كفرانَكِ لا سُبْحانَكِ إني رأيتُ اللهَ قد أهَانَكِ

روى النسائيّ عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال : ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتها ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : ياعزى ! ياعزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب. وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على صاحل البحر ، من ناحية المشلّل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : عليّ بن أبي طالب . انتهى .

الثالث ـ قال ابن جرير[1] : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحويّي البصرة يقول : إذا سكتَ قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللاتّ ، فجعله من اللتّ الذى يلت. ولغة العرب يسكتون على ما فيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحويّي الكوفة يقف على (اللات) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل مالم يضف ، أن يكون بالهاء[2] (رَحْمَةً مِّن رَّبِّى)[3] (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ) . وما كان مضافاً فجائز بالهاء والتاء، فالتاء للإضافة، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثاني، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها في العرب، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ)

[٢٢] (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ)

« أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ » قال الزمخشريّ : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، مع وأدهم البنات، فقيل لهم: (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث،

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٩٨] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٠] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهنّ آلهة ؟ انتهى.

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام فى (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرنى) وفى كيفية دلالتها على ذلك، واختلاف النحاة فى فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرىّ ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضىّ . أو علمية ، فتكون فى محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها فى تأويل : أهى بنات الله ؟

قال السمين : وكأنّ أصل التركيب : ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام. وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ » أى جائرة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير[1] : والعرب تقول (ضِزْتُهُ حقَّه) بكسر الضاد ، و (ضُزته) بضمها، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير (ضئزى) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن على (ضَيْزَىٰ) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من (ضازه يضيزه) إذا ضامه وجار عليه ، فمعنى (ضيزى) جائرة. وعلى هذا فتحتمل وجهين:

أحدهما ـ أن تكون صفة على (فُعلى) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء. كبيض .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء، ولم لا قيل (فِعلى) بالكسر؟ .

فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد فى الصفات (فِعلى) بكسر الفاء ، وإنما ورد بضمها ، نحو حبلى وأنثى ورُبَّى وما أشبهه، إلاأن غيره حكى فى الصفات ذلك . حكى ثعلب: مشية حيكى ، ورجل كيسى ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى ، وهذا لاينقض على سيبويه لأنه يقول فى (حيكى و كيسى) كقوله فى (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسعلى فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة .

والوجه الثانى ـ أن تكون مصدراً كذكرى . قال الكسائىّ : يقال ضاز يضيز ضيزى، كذكر يذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من (ضأزه) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياءً ، لكنها لغة التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه يضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من الأول . و (ضيزى) فى قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصليًّا ، لما تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل فى (ضئزى) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء الساكنة وسمع منهم (ضؤزى) بضم الضاد مع الواو والهمزة .

وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

« إِنْ هِيَ » أى الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها « إِلَّآ أَسْمَآءٌ » أى محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الألوهية ، شيء ما أصلًا . أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لانصيب لها أصلًا ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشيء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَآ » أى جعلتموها أسماء مع خلوها عن المسميات « أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبوع « مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ » أى برهان يتعلق به « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ » أى إلا توهم أن ماهم عليه حق « وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ » أى تشتهيه أنفسهم .

قال ابن جرير [١] : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحى جاءهم من الله، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه «وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحى ؛ أن عبادتها لا تنبغى وأنه لا تصلح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أو اعتراض . وأيًّا ما كان، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

---

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و٦٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : استدل بقوله (إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ . . .) الخ على أن اللغات توقيفية. ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم .

واستدل بقوله تعالى (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ . . .) الخ على إبطال التقليد فى العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .

أخرج ابن أبى حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأى على الدين ، فإنما كان الرأى من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ)

« أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ » أى ليس له ما يشتهيه من الأمور التى منها طمعه الفارغ فى شفاعة الأنداد ، وتعنته فى دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمن يزعه . فإن ذلك من المحالات فى نظر العقل السليم ، كقوله[1] (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ)

« فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ » أى فمصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ماتسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال[2] (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ

(١) [٤ / النساء / ١٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١]

وَٱلْأَرْضُ . . .) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الـكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبل السعادة التي لا تخفى على بصير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ)

« وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان، بإقناطهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأنّى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصغار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ » أى تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الـكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائـكة فى معنى استغراق المفرد ، أى ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهى تسمية الأنثى ، على وزان (كسانا الأمير حلة) أى كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا)

[٢٩] (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا)

« وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدًّا به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم التنعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من (الإعراض) هجرهم هجراً جميلًا ، وترك إيذائهم . وقولُ الزمخشريّ : أى أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله ... الخ ـ لايصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله[1] تعالى (وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التنزيل ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ)

« ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

و (مبلغ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء ـ كما حققه الشهاب ـ والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ » أي : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقديم العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى)

« وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ » تنبيه على سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يعجزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى » أي بالمثوبة الحسنى ، وهي الجنة .

ثم بيّن صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ)

« ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ » يعنى ما كبر الوعيد عليه من المناهى « وَٱلْفَوَٰحِشَ » يعنى مافحش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا ٱللَّمَمَ » أي الصغائر من الذنوب . ومثّله أبو هريرة بالقبلة والغمزة والنظرة ـ فيما رواه ابن جرير[1] ـ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وأصل معناه : ماقل قدره. ومنه : لمة الشَّعر، لأنها دون الوفرة. وقيل: معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ماذكر. أى إلا اللمم بما دون الكبائر والفواحش، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلًا، و(إلا) صفة بمعنى غير ــ وتفصيله فى (العناية) ــ .

وحكى ابن جرير[١] عن ابن عباس وغيره؛ أن معنى (اللمم) ماقدسلف لهم مما ألموا به من الفواحش والكبائر فى الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .

وعن ابن عباس أيضاً قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأىّ عبد لك لا ألمّا

وقال الحسن : (اللمم) أن يقع الوقعة ثم ينتهى . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى فى معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر ، كما قال تعالى[٢] (إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) .

« إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير[٣] : أى واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » قال[٤] ابن جرير: أى أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها «وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» أى حينما يصوركم فى الأرحام « فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أى تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصى . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ» أى بمن اتقاه

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح. وهذا كقوله تعالى[١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

وفى الصحيحين[٢] عن أبى بكرة قال: مدح رجل رجلًا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لامحالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ)

[٣٤] (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ)

[٣٥] (أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ)

« أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى[٣] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) « وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ » أى قطع العطاء بخلًا وشحًّا « أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٩] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٩٥ ـ باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٥و٦٦ (طبعتنا) .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١و٣٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ)

« أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ » أى بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال(١) (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)

« أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آثمة ، فإن إثمها عليها .

قال القاشانىّ : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت فى النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التى هى الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)

« وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول ـ قال(٢) ابن جرير : إنما عنى بقوله (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الذى

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول: ألم يخبر قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان ، بالذى فى صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ) أى: وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شرًّا . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردًّا على ما كانوا يتخرصونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجاجاً وجهلًا . ومع ذلك فمفهومها الشمولىّ جلىّ .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به على عدم دخول النيابة فى العبادات عن الحىّ والميت . واستدل به الشافعىّ على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى.

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعىّ رحمه الله ومن تبعه؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه. وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به ـ فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكدّه وعمله، كما جاء فى الحديث(٢): إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقةُ الجارية ـ كالوقف

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .
(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٤ ـ كتاب البيوع ، ١ ـ باب الحث على الكسب ، عن عائشة .

ونحوه ـ هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال (١) تعالى (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ . . .) الآية . والعلم الذى نشره فى الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت فى الصحيح (٢) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام فى قوله تعالى (لِلْإِنسَانِ) فإن اللام لعود المنافع ، و(على) لعود المضار . تقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه، فى المنافع والمضارّ . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل، كجموع السلامة تذكّر، إذا اجتمعت الإناث مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) و (الأوفى) لا يكون إلا فى مقابلة الحسنة ، وأما فى السيئة فالمثل أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)

[٤١] (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ)

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » أى يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من (أريت الشىء) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من (رأى) المجرد . أى يراه ، كقوله تعالى (٣) (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) .
(٣) [٩ / التوبة / ١٠٥] .

ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ) « ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، فـ (الجزاء منصوب بنزع الخافض ، و (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يتعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه ـ كما فى (الكشاف) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ)

[٤٣] (وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ)

[٤٤] (وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

[٤٥] (وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ)

[٤٦] (مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ)

[٤٧] (وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ)

[٤٨] (وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ)

[٤٩] (وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ)

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عامّ ، أى أيها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعيد ؛ أو خاصّ بالنبىّ صلوات الله عليه ، ففيه تسلية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالألوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَىٰ » أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعمّ .

قال الرازىّ : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعلل بأمر ، فلابد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أمات من شاء من خلقه ، وأحيى من شاء . قال ابن جرير[1] : وعنى بقوله (أَحْيَا) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصييره الروح فيها « وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لا تعلم، كما قال[2] (وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ » أى أغنى من شاء بالمال . و (أقناه) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ » وهو نجم مضىء خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ)

[٥١] (وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ)

[٥٢] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٦١] .

[٥٣] ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾

[٥٤] ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾

[٥٥] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾

[٥٦] ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾

« وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت (ٱلْأُولَىٰ) لتقدمها فى الزمان. « وَثَمُودَاْ » أى قوم صالح « فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ » أى أشد فى كفرهم « وَأَطْغَىٰ » أى أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمّرها . « فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوىّ الذى صب عليها. « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتاب وتشكّ وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغناء والإقناء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم. « هَـٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾

[٥٨] ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾

« أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام فى (ٱلْأَزِفَةُ) للعهد . وقيل : الآزفة علم بالغلبة للساعة هنا، لئلا يلزم وصف القريب بالقريب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة فى قربه، كما يدل عليه الافتعال فى (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله[1] (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ) و (كَاشِفَةٌ) صفة محذوف، أى نفس كاشفة، أو حال كاشفة. أوالتاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التأنيث و (مِن دُونِ ٱللَّهِ) بمعنى غير الله، أو إلا الله. وقيل : الكشف بمعنى الإزلة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من (كشف الغماء) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ)

[٦٢] (فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ) (سجدة) (لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر «تَعْجَبُونَ» أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيقته الدمع المدرار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أى مما فيه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكراه كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية[2] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) «وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ» أى لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبيّ ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شامخين .

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٩] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهى لغة أهل اليمن. يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال فى (الإكليل) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله (سَٰمِدُونَ) وفسره السدّىّ بالاستكبار .

« فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لاينبغى أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً فى عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَٱلنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم فى أول السورة .

وروى الإمام أحمد[1] عن المطّلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد ـ ولم يكن أسلم يومئذ المطّلب ـ فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه ـ ورواه النسائىّ ـ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

٥٤ – سُورَة القَمَر

وتسمى سورة (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ) وهى مكية . وآيها خمس وخمسون .

قال ابن كثير : ورد فى حـديث أبى واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ (قاف) و (وَٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ) فى الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ)

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة. كما قال(١) (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّـهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال(٢) (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .

قال ابن جرير(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداد لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون .

« وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)

« وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم ، أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سَحَرَنَا محمد. ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

---

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابيّ أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذّبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبيّ ﷺ بعث رحمة ، وأمّن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحـــد . والطبائع حريصة على إشاعة مالم يعهد مثله، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يُرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى.

وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظّام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزمخشريّ والبيضاويّ ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة إذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قويّ ، من (مررت الحبل) إذا أحكمت فتله. أو مارّ ذاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانيّ الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً.

وجملة (وإن يروا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد ـ كان منتظماً أتم انتظام، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولي ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهي أن الرمي بالإلحاد لمنكرٍ حديثٍ غير مجمع على تواتره ، جنـــاية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالىّ كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرمى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرّق الكلمة، ونفّر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجاً، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فماذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه، وأشاروا له فى مواضع ، فقرروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفنارىّ فى (فصول البدائع): ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح، كما كانت الصحابه ترده، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالىّ فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها ـ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هـذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها ـ أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لـكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول علىّ رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون له فى الشيء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبيساً على خصمه ، وكالجاهل المتقحّم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما ـ أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرها بعض السلف بشيء ، أو روى فيها ما أنـكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام ـ وبالله التوفيق ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

« وَكَذَّبُوا۟ » أى بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ » أى مازين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ » أى كل أمر لابد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لابد أن يستقر إلى غايةٍ، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾

[٥] ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾

« وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتى به أمىّ غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عماهم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة. وهو بدل من (ما) أوخبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أىّ غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير. وعبارته : (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ) يعنى أى شيء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه. فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى(١) (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى(٢) (وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) .

---

(١) [١٦ / النحل / ٩] . (٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ)

[٧] (خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ)

[٨] (مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ، يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال : « يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر فى قوله (كُن فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ » أى فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ » أى من الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ » أى فى الكثرة والتموج والانتشار . والجرادُ مثل فى الكثرة «مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ » أى مسرعين. مادّى أعناقهم إليه . «يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ) ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ » أى زجر عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افتعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا۟) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد. وهو كقوله فى السورة[1] (فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

---

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . فالتكذيب المخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ » أي غلبني قومي تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا مني . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم .

ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

« فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ » أي مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا » أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر . « فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » أى على حال قدَّره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام ـ كما بسطه فى (الكشاف) ـ .

(ودُسُرٍ) جمع دِسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ،وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . «جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة . « وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ » أى قصة نوح « ءَايَةً » أى جعلناها عِبْرَة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذتكر) . «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ» أى عذابى لهؤلاء الكفرة، قوم نوح، وإنذاراتى بما أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ » أى سهلناه للادّكار والاتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[١٩] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾

[٢١] ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾

[٢٢] ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيّهم هوداً عليه السلام ، بمثل ما كذّبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً » أى شديدة الهبوب، لها صرير ، أو باردة ، « فِى يَوْمِ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُّسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه . « تَنزِعُ ٱلنَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ » أى أصول نخل منقلع عن مغارسه . وأصل (مُّنقَعِرٍ) ما أخرج من القعر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » كرّره للتهويل وللتنبيه على فرط عتوّهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾

[٢٤] ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾

[٢٥] ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾

[٢٦] ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾

[٢٧] ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾

[٢٨] ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾

[٢٩] ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٣١] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ » أى جنون، أوعناء. فهواسم مفرد. وقيل: جمع سعير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مارتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشريّ قالوا : (أَبَشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِّنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى . وقالوا (وَٰحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلًا واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا » يعنون : الوحى والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالًا ونفراً « بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استتباعنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ » أى المتكبر عن الحق، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَٱرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ماهم صانعوه بها «وَٱصْطَبِرْ» أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم «قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ» أى مقسوم بينهم، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ » فتناول الناقة بيده «فَعَقَرَ» أى فعقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذه

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها. أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا ، كما يهمد وييبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفيان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شىء كان رطباً فيبس ، هشيماً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ)

[٣٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لوطٍ ، نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة. أو ريحاً تحصبهم بالحجارة، أى ترميهم « إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ » أى

فى سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبيّ الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسسهم سوء « نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا، وهو علة لـ(نجينا) « كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيه . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنذَرَهُم » أى لوط « بَطْشَتَنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ » أى بإنذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ » أى طالبوه بإتيان الفاحشة معهم، وهم الملائكة الذين وردوا عليه فى صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا يخزوه فى ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم، كما قال «فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ* وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » قال الزمخشريّ : فإن قلت : مافائدة تكرير قوله (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله(١) (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها فى سورة (الرحمن) . وقوله(٢) (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردها فى

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديد لا يغالَب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)

« أَكُفَّارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النقمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرٌ) مراعاة للفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ)

« سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ » يعنى جمع كفار قريش « وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ » أى يولّون أدبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم. وإفراد (الدبُر) لإرادة الجنس، أو رعاية الفواصل، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوّة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير(1): ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لايبعثون بعد مماتهم، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب. « وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لايهتدى لدوائه . وأمرّ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ)

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة. وقال القاشانىّ : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرّون عليها . « ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ » أى حرّها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى (سَقَرَ) مكنية، وفى (المسّ) تخييلية.

(1) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببيّة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ » أي بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبّباتها. ومنه خلق دار العذاب، لما كسبت الأيدى، وإذاقة ألمها جزاء الزيغ عن الهدى . وهذه الآية كآية[1] (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا)، وآية[2] (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أي قدّر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته، وأن من كانت له تلك النعوت المثلى لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهب بأسه ، ويتّقى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعى بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ)

« وَمَآ أَمْرُنَآ » أي الذى به الإيجاد «إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ » أي كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشانيّ : (إِلَّا وَٰحِدَةٌ) أي تعلّق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معيّن ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمّى في الشرع بـ (كُن) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى[3] (وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ) .

---

(١) [٢٥/ الفرقان/ ٢] . (٢) [٨٧/ الأعلى/ ١ـ٣] . (٣) [١٦/ النحل/ ٧٧].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .

قال الشهاب : أصل معنى (الأشياع) جمع شيعة ، وهم من يتقوّى بهم المرء من الأتباع. ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى متعظ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُّسْتَطَرٌ » أى مسطور لا يمحى ولا ينسى ، كما قال تعالى[١] (وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه[٢] (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد[٣] عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣و١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

يا عائشة ! إيَّاكِ ومحقَّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً .

قال ابن كثير : ورواه النسائىّ وابن ماجة من طريق سعيد بن مسلم بن ماهك المدنىّ ، وثّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سعيد : فحدَّثت بهـذا الحديث عامر بن هشام فقال لى: ويحك ياسعيد ! لقد حدَّثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آتٍ فى منامه ، فقال له : يا سليمان !

لاتحقِرَنَّ من الذُّنوبِ صَغيرًا إنَّ الصغيرَ غَـدًا يعودُ كَبيرًا
إنَّ الصغيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، عنـد الإلٰه مُسَطَّرٌ تسطيرًا
فازجُرْ هواكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لاتـكن صعبَ القِيَادِ وشَمِّرَنْ تَشْمِيرًا
إنَّ المُحِبَّ إذا أَحَبَّ إِلٰهَهُ طارَ الفؤادُ وأُلْهِمَ التفـكيرًا
فاسْأَل هِدايتك الإلٰه ، فَتَتَّئِدْ فَـكَفَىٰ بِرَبِّـكَ هَادِياً وَنَصِيرًا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، « فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهـار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ » قال ابن جرير(١) : أى فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشرىّ : فى مكان مرضىّ . قال شرّاحه : فالصدق مجـاز مرسل فى لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو استعارة . وقيـل : المراد صدق المبشِّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِندَ مَلِيكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هى صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشانىّ : أى يقدر على تصريف جميع ما فى ملـكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : فى تنـكير الاسمين الـكريمين إشارة إلى أن ملـكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم منـه بمنزلة من السعادة والـكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجل عن البيان ، وتـكلّ دُونه الأذهان .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٥ - سورة الرحمن

قال المهايميّ : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجليلة ، وهى راجعة إلى هذا الاسم .
وهى مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .
وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (ٱلرَّحْمَٰنُ)

[٢] (عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ)

« ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ » أى بصّر به ما فيه رضاه، وما فيه سَخطه، برحمته ليطاع باتباع ما يرضيه ، وعمل ما أمر به ، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعد عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضى : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدّرها بـ (الرحمٰن) وقدم ماهو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحى ، وأعز الـكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصداق لها .

ثم أتبعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ)

[٤] (عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ)

« خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ـ وهو التعبير عما فى الضمير ، وإفهام الغير ـ لما أدركه لتلقى الوحى ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أى فإذا كان خلقهم إنما هو فى الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذى هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشريّ : وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا ـ كما قال الشهاب ـ مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلًّا منها نعمة مستقلة تقتضي الشكر . ففيه إيماء إلى تقصيرهم فى أدائه . ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصفهانىّ فى (الذريعة) : لما كان للنطق أشرف ماخص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التى بها باين سائر الحيوان . قال عز وجل (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ) ولم يقل (وعلمه) إذ جعل قوله (عَلَّمَهُ) تفسيراً لقوله (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذى لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرتفعة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

قال الشاعر(١) :

لسان الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدّمِ

أى إذا توهم ارتفاع النطق الذى هو باللسان ، والقوة الناطقة التى هى بالفؤاد ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم. فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظًّا كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلًا عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسىء فى الكلام ، فيقع منه جنايات عظيمة فى أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فمحال أن يقال فى الصمت فضل ، فضلًا أن يخاير بينه وبين النطق. وسئل حكيم عن فضلهما فقال: الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

---

(١) هو زهير بن أبى سُلْمى ، من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الخنا ، أفضل من الـكلام بالخطا . وعنـــه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أَلْيَقُ بالفَتَى   من منطقٍ فى غَيْرِ حِينِهْ

انتهى . وقد جوّز ـ كما حكاه الشهاب ـ أن يكون (ٱلرَّحْمَٰنُ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعديد نعمه . ثم قال : و (عَلَّمَ) من التعليم ، ومفعوله مقدر . أى علّم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس (من العلامة من غير تقدير) كما قيل . أى جعله علامة وآية لمن اعتبر ـ لبُعْدِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[٦] (وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

[٧] (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ)

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجريان بحساب معلوم مقدّر فى بروجهما ومنازلهما، به تتسق أمور الـكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنون والحساب . « وَٱلنَّجْمُ » أى النبات الذى ينجم ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَٱلشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى ينقادان لله فيما يريد بهما طبعاً، انقياد الساجد من المـكلّفين طوعاً . فهو استعارة مصرّحة تبعيّة. شبّه جريهما على مقتضى طبيعته، بانقياد الساجد لخالقه والجملة ـ إن كانت خبرًا عن الرحمن لعطفها على الخبر ـ فالرابط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانه ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لغرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويّان ، والنجم والشجر أرضيّان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الـكل لإرادته . « وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشانىّ : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولمّا استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاه لفسد ـ أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدّة العناية به ، وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[٩] (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » أى بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و (أَنْ) مصدرية على تقدير الجارّ . أى لئلا تطغوا فيه ، أو مفسرة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحى ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » قال القاشانىّ : أى بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى .

وممن فسّر (الْمِيزَانَ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية[1] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . وجوّز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥]

بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب ـ كذا ارتآه القاضي ـ والله أعلم .

وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عامًّا أولى وأفيد .

ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازيّ : (ٱلْمِيزَانَ) ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول . قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى(١) (فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ)؛ وبمعنى المقروء في قوله (٢) (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ)؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى(٣) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ)، فكأنه آلة ومحل له ؛ وفي قوله تعالى(٤) (ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ). ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[١١] (فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ)

[١٢] (وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ)

[١٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهّدها للخلق « فِيهَا فَـٰكِهَةٌ » أي صنوف مما يتفكّه به « وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه العنقود ،

---

(١) [٧٥ / القيامة / ١٨] . (٢) [٧٥ / القيامة ١٧] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٤) [١٥ / الحجر / ٨٧] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطبا . ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه . وإنما أفردها بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة، على ماعرف من اتخاذ الظروف منها، والانتفاع بجمّارها وبالطلع والبسر والرطب وغيرذلك . فثمرتها فى أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة، فهى أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها فى عين ثمارها . « وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ » أى وفيها الحَبّ . وهو حَبّ البرّ والشعير ونحوهما (ذُوٱلْعَصْفِ) أى الورق اليابس كالتبن . « وَٱلرَّيْحَانُ » أى الورق الأخضر . تذكير بالنعمة به وبورقه فى حالتيه . هذا على (قراءة) (الريحانِ) بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمى به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية فى نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبيّ : الريحان ، إمافيعلان، من (روح) ،فقلبت الواو ياء، وأدغم ثم خفف، أو فعلان ، قلبت واوه ياء للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى [1] (لِلْأَنَامِ) ، وسينطق به قوله تعالى [2] (أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ) . والفاء لترتيب الإنكار، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما . والتعرّض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة فى نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالا ، أو اشتراكاً صريحاً، أو دلالة، فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٠] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .

من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر، شهادة منها بذلك. فكفرهم تكذيب بها لامحالة . أي فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأي فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلًّا منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ)

[١٥] (وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ)

[١٦] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتي كل واحد من الثقلين . و (الصلصال) الطين اليابس الذي له صلصلة . و (الفخار) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً . فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين. « وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ » أي الجن، أو أبا الجن، « مِن مَّارِجٍ » أي لهب صاف « مِّن نَّارٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النِّعَم . ومما أظهره لكما بالقرآن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ)

[١٨] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ » أي مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما أو مشرق الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما فيهما من النعم

والفوائد التى لاتحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدوث ماينأسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التى بها قوام العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

[٢٠] (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ)

[٢١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من (مَرَجَ فلان دابته) إذا خلّاها وتركها . والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَّا يَبْغِيَانِ » أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر، قد يجرى فيه فراسخ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لايتجاوزان حديهما بإغراق مابينهما ـ وهو مروى عن قتادة والحسن ـ قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لايوافق قوله تعالى (مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...) الآية(١) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

واختار ابن جرير(٢) ماروى عن ابن عباس وغيره؛ أنه عنى به بحر السماء وبحر الأرض. وذلك أن الله قال(٣) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى.

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

وفيه ما فى الذى قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل فى الآى التشابه . زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى هو الأول . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فى البحرين وخلقهما من الفوائد ، وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ)

[٢٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ » أى كبار الدر وصغاره . أو (المرجان) الخرز الأحمر المعروف . وإنما قيل (مِنْهُمَا) مع أنه يخرج من أحدهما ، وهو الملح ، لأنه لامتزاجهما يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله(١) (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال: هو من أهل مصر ، وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير (مِنْهُمَا) لبحرى فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متكون فيهما ، بل أنهما يحصلان فى جانب من البحار انصبّت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .

ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحلّيهم بهما ، كما تشير له آية(٢) (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) قال سبحانه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)

[٢٥] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلَهُ الْجَوَارِ » يعنى السفن ، جمع جارية « الْمُنشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتى تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتى تقبل بهن وتدبر . و (الأعلام) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى نعمه التى أنعم بها فى هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

[٢٧] (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[٢٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » أى : مَن على ظهر الأرض هالك « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » أى ذاته الكريمة « ذُو الْجَلَالِ » أى العظمة والعلوّ والكبرياء « وَالْإِكْرَامِ » أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية[١] (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) .

(١) [٢٨ / القصص / ٨٨] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لبعثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها المحق من المبطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويبوء الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها العدل الإلهيّ المكلفين ـ قال سبحانه « فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وقد أشار الرازيّ إلى ما في قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) من الفوائد ، بقوله : فيه فوائد :

منها ـ الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة .

ومنها ـ المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول ـ إذا كان في نعمة ـ إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملكه .

ومنها ـ الأمر بالصبر إن كان في ضر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضر زائل .

ومنها ـ ترك اتخاذ الغير معبوداً، والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها ـ حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفيّ جميعاً، لأن الفاني لا يصلح لأن يعبد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[٣٠] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أي يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفقرهم الذاتيّ ، وغناه المطلق . « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أي كل وقت يحدث أموراً ، ويجدّد أحوالاً .

قال مجاهد : يعطي سائلاً ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً .

وروى ابن جرير[(١)] أن النبيّ ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يارسول الله ! وماذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وقال القاشانيّ : المراد يسأله كلُّ شيء ، فغلب العقلاء ، وأتى بلفظ (مَنْ) أى كل شيء يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت فى كل خلق شأن ، بإفاضة مايستحقه ويستأهله باستعداده . فمن استعدّ بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والرذائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشرور والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره ـ كابن كثير والقاضي ـ رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو مايتبادر باديْ بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولا « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما يسعف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فآناً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ)

[٣٢] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ » قال القرطبيّ : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغا . وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه . وإنما المعنى : سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك ، أى أقصدك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وقال الزجّاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أى قد زال شغلى به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجعله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تدبيره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ فى الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين ، بعد تدبيره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهى ، والإماتة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن ـ بحال مَن إذا كان فى شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع فى آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب (المفتاح) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعاراً للأخذ فى الجزاء وحده .

لطيفة :

ترسم (أَيُّهَ) بغير ألف . وأما فى النطق فقرأ أبو عمرو والكسائىّ (أيها) بالألف فى الوقف ، ووقف الباقون على الرسم (أيه) بتسكين الهاء ، وفى الوصل قرأ ابن عامر (أيهُ) برفع الهاء ، والباقون بنصبها .

و (الثقلان) تثنية (ثَقَل) بفتحتين ، فَعَل بمعنى مفعل ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أُثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب فى (لكم) قيل للمجرمين ، لكن يأباه قوله (أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع ـ كما أفاده الشهاب ـ ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جلىّ . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من ثوابه أهلَ طاعته ، وعقابه أهلَ معصيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ)

[٣٤] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم، أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَٱنفُذُوا۟ » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ) أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنّى لكم ذلك ؟ ونحوه[1] (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، يعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى الآية الأولى أنه لا محالة مُجاز للعباد ، عقبه بقوله (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ . . .) الخ ، لبيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه، إذا أراده . « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[2] : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ)

[٣٦] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ » أى من لهب « مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ » أى صُفر مذاب يصبّ

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

على رؤوسهم « فَلَا تَنتَصِرَانِ » أي تمتنعان وتنقذان منه . يعني : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أمامكم في الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .

وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة في الآخرة ، وعبارته :

هذا في مقام الحشر، والملائكة محدقة بالخلائق، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان، أي بأمر الله[1] (يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ) وقال تعالى[2] (وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ) والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك، الإمامُ ابن القيّم رحمه الله، فقد قال رحمه الله في أواخر كتابه (طريق الهجرتين) في تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين في تأويل قوله تعالى (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟) ما مثاله :

وفي الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً، كما قال تعالى[3](وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ* يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ)قال مجاهد: فارّين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندُّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك

(١) [٧٥ / القيامة / ١٠ـ١٢] . (٢) [١٠ / يونس / ٢٧] .
(٣) [٤٠ / غافر / ٣٢و٣٣] .

قوله[١] (وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا) وقوله[٢] (يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ..) الآية. وهذاالقول أظهر ـ والله أعلم ـ فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لايقدرعلى عذابكم ، فافعلوا. وكأن ماقبل هذه الآية وما بعدها يدلعلى هذا القول ، فإن قبلها (سَنَفْرُغُ لَكُمْ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها[٣] (فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ...) الآية، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله (يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ) فلابد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر . وقال تعالى (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل: إن استطعتما، لإرادةالجماعة، كما فى آية أخرى[٤] (يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال[٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين، أى لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله[٦] (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ) فخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسَّن الخطاب بالتثنية فى قوله (عَلَيْكُمَا) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما ـ والله أعلم ـ انتهى كلام ابن القيّم .

وأنت ترى أن لاقرينة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد بهمن الآيات لايؤيده، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ماذكرناه .

(١) [٦٩ / الحاقة / ١٧] .
(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٣].
(٣) [٥٥ / الرحمن / ٣٧].
(٤) [٦ / الأنعام / ١٣٠].
(٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥].
(٦) [٥٥ / الرحمن / ٣٣].

« فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ)

[٣٨] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ » أي انفطرت فاختل نظامها العلويّ « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أي كلون الورد الأحمر « كَٱلدِّهَانِ » أي كالدهن الذي هو الزيت ، كما قال[1] (يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ) وهو درديّ الزيت ، يعني في لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما يحله بكم بعد ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ)

[٤٠] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ » أي لا يفتح له باب المعذرة ، كقوله[2] (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فنفي السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار . فهو من باب نفي السبب لانتفاء المسبب . وأخذ كثيرٌ السؤالَ على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه .

قال القاشانيّ : وأما الوقف والسؤال المشار إليه في قوله[3] (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ) ونظائره ، ففي مواطن أخر من اليوم الطويل الذي كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الموطن قبل الموطن الأول في ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

(١) [٧٠/ المعارج/ ٨]. (٢) [٧٧/ المرسلات/ ٣٦] . (٣) [٣٧/ الصافات/ ٢٤].

وكذا قال ابن كثير : إن هذه الآية كقوله[1] تعالى (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فهذا فى حال . وثمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى[2] (فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وفى الآية تأويل آخر . قال مجاهد: لايسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيّم فى (طريق الهجرتين) اختلف فى هـذا السؤال المنفىّ ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لايسألون حينئذ ، ويسألون بعـد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل المنفىّ سؤال الاستعلام والاستخبار ، لاسؤال المحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[3] : أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ)

[٤٢] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٣] (هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ)

[٤٤] (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ)

[٤٥] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ » أى بما يعلوهم من الكآبة والحزن والذلة . وقيل :

(١) [٧٧ / المرسلات / ٣٥و٣٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أي فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها. والباء للآلة ، كأخذت بالخطام، أو للتعدية . و (الناصية) مقدم الرأس . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[1] : أي من تعريفه ملائكته ، أهلَ الإجرام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أي ماء حار « ءَانٍ » أي انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أَنَىٰ . ومنه قوله[2] (غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ) يعني إدراكه وبلوغه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به .

ثم تأثر ماعدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدنيوية بتعداد ما أفاض عليهم في الآخرة، بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ)

[٤٧] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٨] (ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ)

[٤٩] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٠] (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

[٥١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٢] (فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

[٥٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٤] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)

[٥٥] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٦] (فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ)

[٥٧] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٨] (كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ)

[٥٩] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقود الحلب ، أى رقود عند الحلب . أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهانىّ بليغ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، فخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّتَانِ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإيثار التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثابته المحسن ما وصف « ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع (فن) بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع (فَنَن) وهو ما دقّ ولان من الغصن « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج. نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟!

« وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أي وثمرها المجنيّ داني القطوف « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أي منكسرات الجفن ، خافضات النظر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لا يتجاوزها ، كقول المتنبّي :

وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيهِ كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطَاقَا

فالمراد: قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن. أو المعنى: شديدات بياض الطرف، كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوّاري .

وجليّ أن المعاني ههنا لا تتزاحم لتحقق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ » أي لم يمسهن . وأصله خروج الدم، ولذلك يقال للحيض (طمث) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عمّ كل جماع . وقد يقال: إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكراً كلما جومعت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمثن ويدخلن الجنة . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ » أي في الحسن والبهجة، أو في حمرة الوجنة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ)

[٦١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٢] (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

[٦٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٤] (مُدْهَآمَّتَانِ)

[٦٥] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٦] (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ)

[٦٧] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٨] (فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)

[٦٩] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٧٠] (فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ)

[٧١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٧٢] (حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ)

[٧٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٧٤] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ)

[٧٥] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٧٦] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ)

[٧٧] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٧٨] (تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ)

« هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ » أى فى العمل « إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا » أى دون تينك الجنتين المنوّه بهما « جَنَّتَانِ » أى بستانان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف فى مناظرها « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ » أى خضراوان من الرىّ ،

تضربان إلى السواد من شدة الخضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لا إلى نهاية (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) أى فوّارتان بالماء « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية ، جنسان آخران « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ » جمع (خيّرة) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل. أى فاضلات الأخلاق. وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده «حِسَانٌ » أى حسان الوجوه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ » الحور : جمع (حوراء) وهى البيضاء النقية . ومعنى (مَّقْصُورَٰتٌ) قصرن أنفسهنّ على منازلهنّ ، لا يهمهنّ إلا زينتهنّ ولهوهنّ . وفيه المعانى المتقدمة أيضاً . و (ٱلْخِيَامِ) قال ابن جرير[1] : يعنى بها البيوت . وقد يسمّي العرب هوادج النساء خياماً ، ثم أنشد له . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ » يعنى بهنّ حور الجنتين اللتين من دون الأولين . أو تكرير لما سبق ، للتنويه بهذا الوصف ، وكونه فى مقدمة المشتهيات ، وطليعة الملذات : « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ » أى سرر أو مساند أو وسائد « خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ » أى طنافس وبُسُط « حِسَانٍ » أى جياد . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبير : (العبقرىّ) عتاق الزرابىّ ، أى جيادها . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من إكرامه أهل طاعته منكما هذا الإكرام . « تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » أى ذى العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و (الاسم) هنا كناية عن الذات العليّة ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كآية[2] (تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا) ، وآية (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) ونحوهما . وسر إيثار الاسم

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦١] . (٣) [٦٧ [الملك / ١] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أسماؤه الحسنى ، لاستحالة اكتفاه الذات المقدسة . فما عرف اللهَ إلا اللهُ . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ (اسم) مقحم ، كقوله[1] :

* إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلام عليكُما *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقته . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل (تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ)فحقّ . ومعنى (تَبَٰرَكَ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذى هو كلمة مؤلّفة من حروف الهجاء. ونحن نتبرّك بالذكر له وبتعظيمه ونجلّه ونكرّمه، فله التبارك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حيثما كان من قرطاس ، أو فى شيء منقوش فيه ، أو مذكور بالألسنة . ومَنْ لم يجلّ اسم الله عز وجل

(١) وعجزه: * ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فقدِ اعْتَذَرْ *

وقائله لبيد بن ربيعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تمنَّى ابنتاىَ أن يعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ

ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فقوما فقولَا بالذى قد علمتما ... ولا تَخْمِشاَ وَجْهاً ولا تَحْلِقاَ شَعَرْ

وقولا : هو المرء الذى لا خليلَهُ ... أضاعَ، ولا خان الصديقَ ، ولا غَدَرْ

فقوله (إلى الحول) أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول. والحول: السنة كاملة بأسرها .

وقوله(اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية فى العذر .

(تفسير الطبرىّ ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩) (فى الحاشية) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها. انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة

فيما قاله الأئمة فى سر تكرير (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (١) .

قال السيوطى فى (الإتقان) فى بحث التكرير :

قد يكون التكرير غيرَ تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فإنها ، وإن تكررت نيفاً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائدا إلى شىء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها ـ قاله ابن عبد السلام وغيره ـ انتهى .

وفى (عروس الأفراح) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هى ألفاظ كلٌ أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكون نصًّا فيما يليه ، ظاهراً فى غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزاد به عن ثلاثة ، لأن ذاك فى التأكيد الذى هو تابع . أما ذكر الشىء فى مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يمتنع. انتهى .

وقال العز بن عبد السلام فى آخر كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) وأما قوله (فَبِأَيِّ

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التى قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ماتقدم على الأولى والثانية وبالرابعة ماتقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ) نعمة ، وقوله (يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ) نعمة، وكذلك قوله(هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ وقوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) وقوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين مافيها من الأذى ، وحث على طريق السلامة، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله[(١)] هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام . وأما قوله [(٢)] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب فى الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوىّ : كررت هذه الآية فى أحـــد وثلاثين موضعا تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نبههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقررهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه،وتابع إليه بالأيادى، وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب . انتهى .

---

(١) [٣٦ / يس / ٥٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

وقال السيد مرتضى فى (الدرر والغرر) : التكرار فى سورة الرحمن، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعدّدة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، وبّخ على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك فى الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثى كليباً[1] :

على أنْ ليس عدلًا من كُلَيْبٍ ... إذا ما ضِيمَ جيرانُ المُجيرِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا رجف العِضَاهُ من الدَّبُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خَرَجَتْ مُخَبَّأةُ الخُدُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا ما أُعْلِنَتْ نَجْوَى الأمُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خِيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... غداة تَلَاتِلِ الأمرِ الكبيرِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا ما خَارَ جارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام فى (متشابه القرآن) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنتين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها فى الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين ، أخذاً من قوله (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطّلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلئ فرقانك العظيم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالى المرتضى (طبعتنا) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :
٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ٥٨ ـ سورة المجادلة ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٦٠ ـ سورة الممتحنة ، ٦١ ـ سورة الصف ، ٦٢ ـ سورة الجمعة ، ٦٣ ـ سورة المنافقين ، ٦٤ ـ سورة التغابن ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٦٧ ـ سورة الملك ، ٦٨ ـ سورة القلم ، ٦٩ ـ سورة الحاقة ، ٧٠ ـ سورة المعارج ، ٧١ ـ سورة نوح ، ٧٢ ـ سورة الجن ، ٧٣ ـ سورة المزمل ، ٧٤ ـ سورة المدثر ، ٧٥ ـ سورة القيامة .

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الإيداع بدار الكتب رقم ٤٢٤٠/١٩٧٠

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء السادس عشر

ويبتدىء بتفسير : ٥٦ ـ سورة الواقعة ، وينتهي بتفسير ٧٥ ـ سورة القيامة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتابا ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطا كان أو مطبوعا ، خاليا من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦ – سُورَةُ الوَاقِعَة

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التي هى الواقعة العظمى ، لوقوعها فى أشد الأحوال ـ قاله المهايمىّ ـ .

وهى مكية . وآيها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شبتَ ! قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت ـ رواه الترمذىّ[1] وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الصلوات كنحوٍ من صلاتكم التى تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ فى الفجر الواقعة ونحوها من السور .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٦ ـ حدثنا أبو كريبٍ . حدثنا معاوية بن هشام .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ)

[٢] (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

[٣] (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أومنقول، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لابد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضىّ ، للدلالة على ماذكر . « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة (فاعلة) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعتها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت .

قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم . وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ » أى تخفض الأشقياء إلى الدركات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا)

[٥] (وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا)

[٦] (فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا)

« إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضِ رَجًّا » أى زلزلت زلزالا شديداً « وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا »

أى فتّتت، أو سيقت وأذهبت، كقوله(١) (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ) «فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا» أى متفرقاً . قال قتادة : الهباء ماتَذْرُوهُ الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو مايرى من الكوة كهيأة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً)

[٨] (فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ)

[٩] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ)

[١٠] (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ)

[١١] (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ)

[١٢] (فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)

« وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا » أى أصنافاً « ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها. وإطلاق (الميمنة) و(المشأمة) اللتين هما الجهتان المعروفتان، على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار والمفسدون من الناس ـ أصله من تيمُّنِ العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السانح والبارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوّزًا به ، أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشأمة بمعنى اليمن والشؤم، فليس بمعنى الجهة، بل بمعنى البركة وضدها،

(١) [٧٨ / النبأ / ٢٠] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفى جملتى الاستفهام إشارة إلى ترقّى أحوالها فى الخير والشر ، تعجُّباً منه .

« وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين فى السابقين ، وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (ٱلسَّـٰبِقُونَ) أبلغ من قرينه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيـــه مشهور . وأما المذكور فى قوله (وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق. ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله (ٱلْمُقَرَّبُونَ) معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) ـ أفاده الناصر ـ .

و (ٱلسَّـٰبِقُونَ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدّ (وشِعرى شعرى) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقرّبهم الله منه بإعلاء منازلهم « فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٤] (وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ)

« ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التى كانت ملكات لهم. « وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ » أى الذين جاءوا من بعدهم فى الأزمنة التى حدثت فيها الغيَر، وتبرّجت الدنيا لخطّابها، ونسى معها سر البعثة، وحكمة الدعوة . فما أقلّ الماشين على قدَم النبىّ صلوات الله عليه وصحابه ! لاجَرَم أنهم وقتئذ الغُرَباء، لقلّتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ)

[٢٠] (وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَحُورٌ عِينٌ)

[٢٣] (كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا)

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أى مصفوفة، أو مشبكة بالدرّ والياقوت أو الذهب. و(الوَضْنُ)

التشبيك والنسج . « مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلاً . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى مبقون على سنّ واحدة لا يموتون . « بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و(الكوب)إناء لا عروة ولا خرطوم له . و(الإبريق) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية .

ثم أشار إلى أنها لَذَّة كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمور الدنيا . والصداع: وجع الرأس. وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُنزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لهـا ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبيّ ﷺ بثريد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه، فقبض النبيّ ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كلْ من موضع واحد، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كلْ من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد ـ رواه الترمذيّ (١) واستغربه ـ .

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى وأزواج بيض واسعة الأعين . عطف على (وِلْدَانٌ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرّ عطف على (بِأَكْوَابٍ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله(٢) :

* وزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا *

---

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأطعمة ، ٤١ ـ باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد (وكحّلْنَ العيونا) .

أو يبقى على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالحور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح ، كما تأتى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضونهن عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوّز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على (جَنَّٰتِ) بتقدير مضاف . أى هم فى جنات، ومصاحبة حور ـ فقال أبو حيّان : هو فهم أعجمىّ ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومَن عصّبه فقد تعصّب .

« كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ » أى صفاؤهنّ كصفاء الدّرّ فى الأصداف الذى لا تمسّه الأيدى . وأصل (ٱلْمَكْنُونِ) الذى صِينَ فى كِنّ . « جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد، باطلًا من القول . « وَلَا تَأْثِيمًا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا » قال القاشانىّ : أى قولًا هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص، مبرّأ عن الفضول والزوائد . أو قولًا يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبيّن كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَٰمًا) بدلا من (قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقرأت النحو باباً باباً ، فيدلّ على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ)

[٢٨] (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ)

[٢٩] (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ)

[٣٠] (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)

[٣١] (وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ)

[٣٢] (وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ)

[٣٣] (لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)

[٣٤] (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ)

[٣٥] (إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً)

[٣٦] (فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا)

[٣٧] (عُرُبًا أَتْرَابًا)

[٣٨] (لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٣٩] (ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ)

[٤٠] (وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ)

« وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ » أى: أىّ شىء هم! أى هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتعجب من أوصافهم فى السعادة « فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » أى لا شوك له . أو موقر بالثمار « وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ » يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوجّ ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيذة لا نوى لها «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ» أى ممتد منبسط لا يتقلّص « وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ » أى مصبوب دائم الجريان« وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ» أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها، لكونها غير متناهية، «وَلَا مَمْنُوعَةٍ» أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحيانا لعزتها أو جدبها « وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » أى مرتفعة فى منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاجعهن

فيها . وهو قولهتعالى « إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً » أى بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها. وقيل: على طريق الحقيقة. أى مرفوعة على الأرائك، كآية(١) (هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ) « فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا » أى لم يطمثن . « عُرُبًا » جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعلها « أَتْرَابًا » أى على سن واحدة « لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ » متعلق بـ (أَنشَأْنَا) أو (جَعَلْنَا) أو صفة لـ (أَبْكَارًا) أو خبر لمحذوف ، مثل هن . « ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ » أى جماعة وأمة من المتقدمين فى الإيمان، وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة. والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ)

[٤٢] (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

[٤٣] (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ)

[٤٤] (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

[٤٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ)

[٤٦] (وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ)

[٤٧] (وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٤٨] (أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ)

(١) [٣٦ / يس / ٥٦] .

« وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ » أىّ حر نار ينفذ فى المسامّ « وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيآت نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيآت السود الرديئة « لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليه الناس من الروح، ونفع من يأوى إليه بالراحة، بل له إيذاء وإيلام وضرّ، بإيصال التعب واللهب والكرب « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين فى اللذات والشهوات، منغمسين فى الأمور الطبيعية ، والغواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيآت الموبقة ، والتبعات المهلكة . « وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره (السبكىّ) بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى[1] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ) . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله فى عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ)

[٥٠] (لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٥١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ)

[٥٢] (لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ)

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

[٥٣] (فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ)

[٥٤] (فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ)

[٥٥] (فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ)

[٥٦] (هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ)

« قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرّون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ » وهو من أخبث شجر البادية فى المرارة ، وبشاعة المنظر ، ونتن الريح « فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيئة البشعة المحرقة « فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حره وغليانه . قال الزمخشرىّ : وأنّث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ فى قوله (مِنْهَا) و (عَلَيْهِ) « فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا ريّ معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلاً إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلاً ، مع أنه ما يكرم به النازل ، متهكماً ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافنَا جعلنا القنَا والمُرْهَفَاتِ له نُزْلَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

[٥٨] (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ)

[٥٩] (ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ)

[٦٠] (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)
[٦١] (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)
[٦٢] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)

« نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ » أي معشر قريش ، والمكذبين بالبعث ، فأوجدنا كم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أي بالخلق . وهم، وإن كانوا مقرين به لقوله[1] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقترن بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لايعد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ » أي ماتقذفونه في الرحم من النطف. « ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ » أي بجعله بشراً سويًّا «أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ» أي بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ » أي كتبنا على كل نفس ذوقه . أي: ومن كان سبيله ذلك، فشأنه أن يرهب من نزوله، ويتأهب لما يخوف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيذان أنهم في قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ماقدره عليهم من الموت . وفي قوله تعالى (بينكم) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أي بمغلوبين « عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ » أي بعدمهلككم، فنجيء بآخرين من جنسكم «وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ» من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله (وَنُنشِئَكُمْ) المراد به إذا بدلنا كم بغيركم ، لا في الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى[2] (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ » أي أنه أنشأكم بعدأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أي فتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة ، وهي البداءة ، قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة، وأنها أهون عليه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ)

[٦٤] (ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ)

[٦٥] (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

[٦٦] (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ)

[٦٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ » أى ماتحرثون الأرض لأجله، وهو الحب . و(الحرث): شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ » أى تنبتونه « أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ » أى المنبتون. وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول: بل أنت يارب ! « لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا » أى أيبسناه قبل استوائه واستحصاده. وأصل (الحطام) ماتحطم وتفتت لشدة يبسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تعجبون من هلاكه ويبسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهادكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكهون) على ماأصبتم لأجله من المعاصى ، فتتحدثون فيه . و(التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مقول قولٍ مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون . أى ملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الغرام) بمعنى الهلاك ، قال[1] :

إن يعذِّب يكن غراماً وإن يعـط جزيلًا فإنه لايُبالِى

« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمنا رزقنا .

---

(١) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى، ومطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟

والرواية فى الديوان (إن يعاقبْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ)

[٦٩] (ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ)

[٧٠] (لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ » يعنى العذب الصالح للشرب. « ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسماء فى غير ما آية « أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ » أى لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه ينابيع فيها . « لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليكم فى جعله عذباً فراتاً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معايشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، فى بحث ورود لام التوكيد فى الكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، فى سر مجىء اللام فى قوله تعالى (لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا) دون قوله (جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا) ما مثاله :

أدخلت اللام فى آية المطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً فى العرف والعادة . والموجودُ من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة ، أحالتها إلى الملوحة . فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق. وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة فى تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧١] ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾

[٧٢] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾

[٧٣] ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

[٧٤] ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونهامن الزند، وهوالعود الذى تقدح منه . « ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فَحُكَّ أحدهما بالآخر ، تباين من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكيراً لنار جهنم . « وَمَتَـٰعًا » أى منفعة « لِّلْمُقْوِينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصحر إذا دخل الصحراء، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : (المقوين) المستمتعين ، المسافر والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقويت منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكر مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى سبح اسمه. قال الزمخشريّ : بأن تقول: سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم فى غمط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التى عدها ونبه عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ)

[٧٦] (وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[٧٧] (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)

[٧٨] (فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ)

[٧٩] (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة فى السماء . أو بمساقطها ومغاربها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم القيامة . و (لا) فى (لا أقسم) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها فى كلامهم ، كما أوضحه فى (فقه اللغة) . وإما (لا أقسم) بتمامها صيغة من صيغ القسم ، على ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ » أى له كرم وشرف وقدر رفيع ، لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن ترداد الأيدى عليه ، كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ » اعلم أن فى الآية أقوالًا عديدة ، مرجعها إلى أن المسّ مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد للكتاب بمعنى الوحى المتلقَّى ، أو المصحف ، وأن (المطهرون) هم الملائكة ، أو المتقون ، أو المتطهرون من الأحداث والأخباث . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهاك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عنى بالآية الملائكة . فنفيُ مسّه كناية عن لازمه، وهو نفي الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ (المطهرين) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، ودنس الهيولى، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) كما قال[1] (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) انتهى. قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفرّاء : لايجد طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لايقرؤه إلا الموحدون .

فنفيُ مسّه كناية عن ترك تقبّله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشيء سبب حب الملموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هي نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عنى بـ (المطهرين) المتطهرون من الجنابة والحدث. قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهي ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائعه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ (الكتاب) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك في موطئه عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم، أن لايمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطنيّ في قصة إسلام عمر؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) إلا أن فيهما مقالا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ ـ ٢١٢] .

بيّنه الحافظ ابن حجر فى (تلخيص الحبير) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكانىّ فى (نيل الأوطار) وعبارته :

(الطاهر) يطلق بالاشتراك على المؤمن ـ والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر ـ ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى[1] : (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقوله ﷺ لأبى هريرة[2] : المؤمن لاينجس . وعلى الثانى[3] (وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟) وعلى الثالث: قوله[4] ﷺ فى المسح على الخفين: دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين. وعلى الرابع : الإجماع على أن الشىء الذى ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهراً. وقد ورد إطلاق ذلك فى كثير . فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حمله عليها هنا . والمسألة مدونة فى الأصول ، وفيها مذاهب . والذى يترجح أن المشترك مجمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لايجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف فى ذلك داود . استدل المانعون للجنب بقوله تعالى : (لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وهو لايتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة. ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائما ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أومتنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حمله على من ليس بمشرك ، كما فى قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) لهذا الحديث ، ولحديث النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدوّ. ولو

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الغسل ، ٢٣ ـ باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [٥ / المائدة / ٦] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٤٩ ـ باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا فى معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، لحديث (المؤمن لا ينجس) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحاً بلا مرجح، وتعيينه لجميعها استعمالا للمشترك فى جميع معانيه، وفيه الخلاف. ولوسلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشترك فى جميع معانيه، لما صح، لوجود المانع، وهوحديث: المؤمن لاينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة، وفى رجال إسناده خلاف شديد، ولو سلم صلاحيته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق فى لفظ (طاهر) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير: إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذى ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لايصح لاحقيقة ولا مجازاً ولا لغة. صرح بذلك فى جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناوله الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ماتريد من حمل (الطاهر) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيماثبت فى المتفق عليه من حديث ابن عباس[1] أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين. و[2] (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ..) إلى قوله : (مُسْلِمُونَ) مع كونهم جامعين بين نجاستى الشرك والاجتناب ووقوع اللمس منهم له معلوم ؟

قلت : أجعله خاصاً بمثل الآية والآيتين ، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره

(١) أخرجه البخاريّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع ، حديث رقم ٧ . (٢) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

لايحرم لمسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك . وقد عرفت الخلاف فى الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبيّ والضحاك وزيد بن علىّ والمؤيد بالله والهادوية وقاضى القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيي : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكانىّ .

تنبيه :

فى لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون

قال الإمام ابن القيّم فى (أعلام الموقعين) فى مباحث أمثال القرآن الكريم، ما مثاله : الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعانى ، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصّر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط فى كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعانى والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر مايصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لايصح، هذا الذى يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهرىّ: الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعانى والأشباه والنظائر ، ومقاصد المتكلم. والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذى من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول[1] علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ـ كتاب الجهاد، ١٧١ـ باب فكاك الأسير، حديث٩٥

يؤتيه الله عبداً فى كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد المتكلم بكلامه ، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شىء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى(١) : (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبىّ ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذى جاء به روح مطهرة ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله(٢) (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخارىّ من الآية ، فقال فى صحيحه فى باب(٣) (قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ) : (لَّا يَمَسُّهُۥٓ) لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله(٤) (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا) وتجد تحته أيضاً : لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغى ، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه . فتأمل هذا السبب القريب ، وعَقْدَ هذه الأخوة بين هذه المعانى وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعانى كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذى أشار إليه علىّ رضى الله عنه . انتهى .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩] . (٢) [٢٦ الشعراء / ٢١٠] .
(٣) [٣ / آل عمران / ٩٣] . (٤) [٦٢ / الجمعة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٨١] (أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ)

[٨٢] (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

« تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات، وهداهم إليها بتنزيلها منه. « أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم فخامة شأنه ، وعظمة مقداره . « أَنتُم مُّدْهِنُونَ » . قال ابن جرير[١] : أى تلينون القول للمكذبين ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل (الإدهان) ـ كما قال الشهاب ـ جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن . ولما كان ذلك ملينا له محسوسًا ، أريد به اللين المعنوىّ . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مداهنة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضًا ، لأن المتهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفراً لنعمته ، وجحداً لمنته .

قال ابن جرير[١] : أى وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول القائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إلىّ .

وقد ذكر عن الهيثم بن عدىّ : أن من لغة أزدشنوءة (مارزق فلان) بمعنى ما شكر. انتهى .

وقد حمل بعضهم (الرزق) هنا على النعمة مطلقًا ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال القاشانيّ : أي وتجعلون قُوتَكُمُ القلبيّ ورزقكم الحقيقيّ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصوريّ . أي لمداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ)

[٨٤] (وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ)

[٨٥] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ)

« فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ » أي النفس ، لدلالة الكلام عليها « ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ » أي حالة نزعه ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعني ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول في تفسير آية[١] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) في سورة (ق) فارجع إليه فإنه مهم .

وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتي قبلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

[٨٧] (تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٦] .

[٨٨] (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

[٨٩] (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)

[٩٠] (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٩١] (فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

[٩٢] (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ)

[٩٣] (فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ)

[٩٤] (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)

[٩٥] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ)

[٩٦] (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ)

« فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من (دانه) أذله واستعبده . « تَرْجِعُونَهَآ » أى تردّون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ماتكرهون أشد الكراهية ، وهو الموت. « فَأَمَّآ إِن كَانَ » أى الميت « مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفيأ ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتنعم فيها مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم: سلام لك، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائـكة الله، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائـكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول الله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . .) الآيات . انتهى .

وقال الرازيّ : فى السلام وجوه :

أولها ـ يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى[2] من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا) .

ثانيها ـ (فَسَلَٰمٌ لَّكَ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبُكَ منه ، فإنه فى أعلى المراتب . وهـــذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك ، فإنه فى راحة .

ثالثها ـ أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان . إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازيّ : والخطاب بقوله (لَّكَ) يحتمل أن يكون للنبيّ ﷺ ، وحينئذ فيه وجه ، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبيّ ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شىء من الشفاعة وغيرها . فسلام لك يامحمد منهم ، فإنهم فى سلامة وعافية ، لا يهمك أمرهم .أو فسلام لك يامحمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

« وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله «ٱلضَّآلِّينَ » أى الجائرين عن سبيله. « فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ » أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه « وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » أى إحراق بالنار « إِنَّ هَٰذَا» أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم « لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ »

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٢٥] .

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيـــه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس، أى اليقين الحق. أو من إضافة العام للخاص، أى كعلم الأمر اليقين. فالإضافة حينئذ لامية، أو بمعنى (من) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن، منعّمة أو معذّبة، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الـكافرين فى النار .

« فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولًا وعملًا .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٧ — سورة الحديد

سميت به لأنه ناصر لله ولرسوله فى الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ولرسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للمنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وهى مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .

وآيها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد(١) عن عرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذىّ والنسائىّ . قال ابن كثير : والآية المشار إليها فى الحديث هى ـ والله أعلم ـ قوله تعالى (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ . . .) الآية ، لما سيأتى بيانه ـ والله أعلم ـ .

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ، وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ » أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد ، وكل ما لا يليق به ، وآذن بانفراده فى ألوهيته ، وتدبيره وعلمه وقدرته . فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على حال من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لاتنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غاياته ـ فبالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد ، مدبر لنظامه ، مريد لسيره فى سننه ، كما بسطناه فى (دلائل التوحيد) . « وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يقهر كل ما فى السموات والأرض « ٱلۡحَكِيمُ » أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكمىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ، يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ)

« لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ » أى سلطانهما ، ونفوذ الأمر فيهما « يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ » أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء ، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ » أى تام القدرة ، فلا يتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ ٱلۡأَوَّلُ » أى السابق على كل موجود، من حيث إنه موجده ومحدثه «وَٱلۡأٓخِرُ»

أى الباقى بعدفناء كل شىء « وَٱلظَّـٰهِرُ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير[١]. أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه «وَٱلْبَاطِنُ» أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير[١] : أى الباطن جميعَ الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال[٢] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .

وقد روى الإمام أحمد[٣] عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء. وأنت الآخر فليس بعدك شىء. وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن ليس دونك شىء . اقض عنـا الدين ، وأغننا من الفقر ـ ورواه مسلم[٤] وغيره ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانىّ : أى من الأيام الإلهية ، وقيل : المعهودة ـ والله أعلم ـ . « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » قال ابن جرير[٥] :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٥٠ / قٓ / ١٦] .
(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .
(٤) أخرجه فى: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٦١ (طبعتنا).
(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبّرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبذور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرَد والأقدار والأحكام « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرهما . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ » قال ابن جرير[1] : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلمكم ويعلَم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة، فى آيتيهما، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا :هو معهم بعلمه. وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتدّ بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عمن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى (الرد على الجهمية) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصًّا كما فى قوله تعالى[2] (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) وقوله[3] (إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) وقوله[4] (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء، لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله (لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) أراد به تخصيصه وأبا بكر، دون عدوّهم من الكفار .وكذلك قوله (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)، خصهم بذلك دون الظالمين والفجار. وأيضاً ، فلفظ المعية، ليست فى لغة العرب، ولا شىء من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] . (٣) [٢٠ / طه / ٤٦] .
(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما فى قوله[١] ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ وقوله[٢] ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله[٣] ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وقوله[٤] ﴿ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ ﴾ ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله[٥] ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بُسِط الكلام عليه فى موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية فى اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد، لم ينافِ ذلك علوّه على عرشه، ويكون حكم معيته فى كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسيّ رضى الله عنه فى كتاب (ذم التأويل) :

فإن قيل :فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم فى قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ أى بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم ما لزمنا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً، وحملُ هذه اللفظات على هذه المعانى ليس بتأويل، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعانى هى الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية، المجاز دون الحقيقة، كاسم الراوية والظعينة وغيرهما من الأسماء العرفية، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلًا يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التى لها عرف شرعىّ ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعىّ دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالمتبادر

---

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٦] .
(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] . (٤) [٨ / الأنفال / ٧٥] .
(٥) [٥٧ / الحديد / ٤] .

إلى الفهم من قولهم (إن الله معك) أى بالحفظ والكلاءة . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيّه[(١)] (إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا)،وقال لموسى[(٢)] (إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده فى حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفى الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلا . ثم لو كان تأويلا فما نحن تأوّلناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم، ووجب اتباعهم، هم الذين تأوّلوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا فى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف؛ أن الله تعالى فى السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها، وهو قوله[(٣)] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) ثم قال فى آخرها (إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها مايخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لايخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبيّناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شيء ، فإنه لايلزم أحداً الكلام فى التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ)

[٦] (يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) .

« لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . « يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ » أى يدخل ما نقص من ساعات أحدهما فيجعله زيادة فى الآخر بحكمته وتقديره . « وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

« ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» أى آمنوا الإيمان اليقينىّ ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذى موّلكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرُّف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرُّف إنما هو بحكمه فى شريعته ـ أفاده القاشانىّ ـ .

وقال الشهاب : الخلافة إمّا عمّن له التصرُّف الحقيقىّ ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله (لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ، أو عمّن تصرّف فيها قبلهم ممن كانت فى أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ، ففيه حثٌّ على الإنفاق ، وتهوينٌ له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له فى الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثانى أيضاً، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولابدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ(١)

« فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » أى وما يصدّكم عنه، وقد ظهرت دواعيه، واتضحت سبله لذويه كما قال « وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر والتفكُّر إلى الإيمان بالذى ربَّاكم بنعمه، وصرّفكم بآلائه، فوجب عليكم شكره. « وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ » أى بالإيمان، إذ ركّب فيكم العقول، ونصب الأدلّة، ومكّنكم من النظر، بل أودع فى فطركم ما يضطركم لذلك إذا نُبهتم، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول، فما عليكم إلا أن تأخذوا فى سبيله. « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » قال القاشانىّ : أى إن بقى نور الفطرة والإيمان الأزلىّ فيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » أى حُجَجًا واضحات، وبراهين قاطعات، « لِّيُخْرِجَكُم » أى الله، أو عبده بآياته « مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبيد، من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينا وما تبلَى النجومُ الطوالعُ وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانعُ

(الشعر والشعراء ص ٢٣٦).

الجهل والكفر والأهواء المتضادّة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب. « وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى فى إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .

ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإنفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ، أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدر أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذه ذخراً يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإنفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أولًا لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإنفاق فى سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه. وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فرده الأكمل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العامّ على أهم أفراده وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثـانى لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لايتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة فى التنويه بهم: « أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ » أى لعظم موقع نصرة الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإنفاق المال فى تلك الحال ، وفى المسلمين قلة ، وفى الكافرين شوكة وكثرة عدد . فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار فى ذلك الوقت قويًّا ، والكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى[(١)] (وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ) وقوله عليه الصلاة والسلام [(٢)] : لاتسبوا أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ ـ أفاده الرازىّ ـ .

وفى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَ ٱللَّـهُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَٱللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة فى سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وماذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التامّ ، وإنفاقه فى حال الجهد

---

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ (طبعتنا) . عن أبى هريرة .

والقلة والضيق . وفى الحديث[1]: سبق درهم مائة ألف . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصدّيق أبا بكر رضى الله عنه ، له الحظّ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

« مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً فى أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز فى الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصريحية ، أو فى مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة فى القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكلّ من أنفق فى سبيل الله بنيّة خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية .

وهو جلىّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ » أى يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة ، « وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كمُّه ، زاد كيْفُه .

---

[1] أخرجه النسائىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٤٩ ـ باب جهد المقلّ ، عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

« يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم » أى : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و (النور) إما حقيقىّ حسىّ ، على ما روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل: وإنما خصصت تلك الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال، فجعل الله معها نوراً يعرف بهأنهم من أصحاب اليمين وإما مجازىّ معنوىّ مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير[(١)] ، وأيده بقوله : لوعنى بذلك النور ، الضوءَ المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعى بين الأيدى والأَيمان ، دون الشمائل ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضىء لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمائل ، ما يدل على أنه معنىّ به غير الضياء وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: وكلاًّ وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمانهم كتب أعمالهم تَطَايَرُ . ويعنى بقوله (يسعى) يمضى والباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (فى) وكان بعض نحويى البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (على أيمانهم)وقوله « يوم ترى » من صلة (وَعَدَ) . انتهى .

« بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

المبشَّر به جنات أو بشرا كم دخول جنات . وقد قيل: إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ)

« يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ » أى: نُصِبْ منه . يقال : اقتبس ، أى : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال، لأن النظر بمعنى مجرد الرؤية، يتعدى بـ (إلى) فإن أريد التأمل تعدى بـ (فى). وقولهم ذلك، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً، والمنافقون فى العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم فى ضوضائهم وجلبتهم فى جهنم، كقوله تعالى[(١)] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ...) الآية . وقيل: (انظرونا) بمعنى انتظرونا، وهو الذى عول عليه ابن جرير[(٢)] . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً فى غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أى : قالت الملائكة أو المؤمنون ، « ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا » قال الزمخشريّ : طردٌ لهم ، وتهكم بهم . أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور

(١) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

فالتمسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لانور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا إيماناً وعملاً طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدى فى الظلمات، على طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الزمخشرىّ رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم؛ أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستضاءة. كقول الرجل لمن يريد القرب منه: وراءك أوسع لك. قال الرازىّ: فعلى هذا القول، المقصودُ من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لاسبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب، لأنه أمرهم بالرجوع. انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين فى المنازل وتباينهما فيها، بقوله سبحانه: « فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين، لتتم ظلمتهم « لَّهُۥ » أى: لذلك السور « بَابُۢ » أى: لأهل الجنة يدخلون منه، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطِنُهُۥ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ » يعنى: الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَٰهِرُهُۥ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ » أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ)

[١٥] (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

«يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ» يريدون موافقتهم فى الظاهر «قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ» أى محنتموها بالنفاق وأهلكتموها «وَتَرَبَّصْتُمْ» أى بالمؤمنين الدوائر، ليظهر الكفر فتظهروا ما فى أنفسكم «وَارْتَبْتُمْ» أى فى توحيد الله ، ونبوّة نبيّه ، أو فى البعث بعد الموت ، أو فى قوله[1] (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ووعده بنصر المؤمنين، أو فى جميع ذلك . «وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ» أى طول الآمال، والطمع فى امتداد الأعمار. أو قولهم: (سيغفر لنا) . «حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» يعنى: الموت، أو مصداق وعده بنصره رسوله، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار «وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» أى الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغُرور) بالضم . «فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ» هذا من تتمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أى فاليوم لا يقبل منكم مايفتدى به ، بدلًا من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم «وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعنى المجاهرين بالكفر من المحادّين لله ولرسوله «مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ» أى أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها فى الدنيا «وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أى النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصدق فى سبيل الله، بأن ذلك من أثر قلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً بالمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى الكمال ، فقال سبحانه :

---

(١) [٩ / التوبة / ٣٣] و [٤٨ / الفتح / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)

« أَلَمْ يَأْنِ » أى ألم يحن . من (أنى الأمر) يأنى ، إذا جاء إناه ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ » أى أن تلين وترقّ وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبه من الوجل منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ماسبق وما لحق من الإنفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل: إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله كلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا مانزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتيهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلًا، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقست قلوبهم ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شىء من

الأمور الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى[1] (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ...) إلى آخرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو محييكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغبة القسوة والفسق . «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ» أى الحجج وضروب الأمثال « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[١٩] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ)

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ » أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ، وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصديقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] و [٥ / المائدة / ١٣] .

أحدهما ـ أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثاني ـ أن يكون مبتدأ ، خبره (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) . و (ٱلشُّهَدَآءُ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا فى سبيل الله . واختار الوجه الثانى ابن جرير[1] ، قال : لأن الإيمان غير موجب فى المتعارف للمؤمن اسم (شهيد) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل[2] فتأويل قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ، أو هلكوا فى سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله فى الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيّم فى (طريق الهجرتين) بسطاً لهذين الوجهين فى بحث الصديقية . ننقله لنفاسته . قال رحمه الله فى مراتب المكلفين فى الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة ـ ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى[3] (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقاً) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أى كقوله : (شهداء على الناس) .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] .

الحق ، لايضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. وقال تعالى[١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) قيل : إن الوقف على قوله (هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ) ثم يبتدئ (وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملتين ، أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين، هنا، وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء فى كلام النبي[٢] فى قوله : (اثبت أُحُدُ فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيد) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هـذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهى قوله[٣]: (لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ) وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة (المؤمنين الصديقين) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله . وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله (وَٱلشُّهَدَآءُ) مبتدأ خبره مابعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله . ويرجحه أيضاً أنه لو كان (الشهداء) داخلاً فى جملة الخبر ، لكان قوله (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلاً أيضاً فى جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ، ٥ ـ باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً ، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

أحدها ـ أنهم هم الصدّيقون .

والثانى ـ أنهم هم الشهداء .

والثالث ـ أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثانى على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن فى هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعا ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله ! ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون فى الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل فى قوله تعالى (١) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة فى سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار ومنافقون ، فقال (٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا .. ﴾ الآية. وذكر المنافقين فى قوله (٣) ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلّط صاحب الشائبتين، على طريق القرآن فى ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرٍّ اقتضته حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لاضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا ييأس من روح الله، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعوه إلى موجبه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا فى تخليده فى النار ، ولو نزلوه بين المنزلتين ، ووكلوه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير فى الآية .

---

(١) [٥٧ الحديد / ٢٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١٣] .

ولما ذكر تعالى السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ » أى تفريح نفس « وَلَهْوٌ » أى باطل «وَزِينَةٌ» أى منظر حسن « وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ » أى فى الحسب والنسب « وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ » أى مطر « أَعْجَبَ الْكُفَّارَ » أى الزراع «نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ» أى يجفّ بعد خضرته ونضرته « فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا » أى من اليبس « ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا » أى هشيماً متكسراً ، وكذلك الدنيا لاتبقى كما لايبقى النبات «وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ» أى لمن ترك طاعة الله، ومنع حق الله « وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ » أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله. «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» قال المهايميّ : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاذ الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء، دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ، ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ)

« سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم «وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ » أى الإيمان اليقينىّ . « ذَٰلِكَ » أى المغفرة والجنة «فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ » أى ممن كان أهلًا له« وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ »قال ابن جرير[١] أى بما بسط لخلقه من الرزق فى الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرّفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ)

[٢٣] (لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ)

[٢٤] (ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ)

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ » أى من قحط وجدب ووباء وغلاء « وَلَا فِيٓ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أَنفُسِكُمْ » أى من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال « إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ » أى إلا فى علم أزلىّ من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه فلابد من حصوله « إِنَّ ذَٰلِكَ » أى حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، « عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أى لسعة علمه وإحاطته « لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ » أى تحزنوا « عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ » أى من عافية ورزق ونحوها « وَلَا تَفْرَحُواْ » أى تبطروا « بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ » أى من نعم الدنيا . والمعنى : أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشانىّ : أى لتعلموا علماً يقينيًّا أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير . ولا لعجزكم وإهمالكم وغفلتكم وقلة حيلتكم ، وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل . فلا تحزنوا على فوات خير ، ونزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير . وزوال شر ، إذ كلها مقدرة « وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى متبختر من شدة الفرح بما آتاه « فَخُورٍ » أى به على الناس ، لعدم يقينه ، وبعده عن الحق ، بحب الدنيا ، واحتجابه بالظلمات عن النور « ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ » أى بالإنفاق فى سبيل الله ، لشدة محبة المال « وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ » أى لاستيلاء الرذيلة عليهم . والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أى لهم وعيد شديد ، أو خبر ومبتدؤه محذوف ، أى هم الذين ، أو بدل من (كل) . « وَمَن يَتَوَلَّ » أى يعرض عن ذكر الله ، وما أمر به « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ » أى عنه ، لاستغنائه بذاته « ٱلْحَمِيدُ » أى لاستقلاله بكماله . وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه الغنىّ المطلق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة مايدعون إليه « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ » أى التامّ فى الحكم والأحكام « وَالْمِيزَانَ » أى العدل ـ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ـ قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه. فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق، كما قال[1] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلًا فى الأوامر والنواهى ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات[2] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه « وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فما من صناعة إلا وللحديد يدٌ فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إنزال الحديد مع ما قبله ؟

فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة، لأن المقصود ذكر مايتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا، حتى ينالوا السعادة فى الأخرى . ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة. ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم. ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الرادّ لكل مَريد . وإلى الأولين أشار بقوله[3]

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٣] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

(وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ) لجمعهم وأتباعهم فى جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله (١) (وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواصّ ، وما يهتدى به أتباعهم ، ومايهتدى به من لم يتبعهم ، فهى حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعى له ، وليس فى الكلام مايقتضيه ، بل فيه ما ينافيه .

قال العتبيّ فى أول (تاريخه) : كان يختلج فى صدرى أن فى الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً ، وسألت عنه فلم أحصل على مايزيح العلة وينقع الغلة ، حتى أعملت التفكر ، فوجدت (الكتاب) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم ، ودفع التباغى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع (ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو (الحديد) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع ـ نقله الشهاب ـ .

وأوّل القاشانىّ (البينات) بالمعارف والحكم ، و (الكتاب) بالكتابة ، و (الميزان) بالعدل ، لأنه آلته ، و (الحـــديد) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعيّ ، وينضبط النظام الكلىّ ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه فى العمل ، والاستقامة فى طريق الكمال ، هو العدل . ثم لاينضبط النظام ، ولايتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون (البينات) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و (الكتاب) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و (الميزان) إلى العمل بالعدل والسوية و (الحديد) إلى القهر ودفع شرور

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

البرية . وقيل : (البينات) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هى النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة فى الكتب الحكمية . أى الشرع ، والدينار المعدل للأشياء فى المعاوضات ، والملك. وأيًّا ما كان فهي الأمور المتضمنة للكمال الشخصيّ والنوعيّ فى الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنىّ بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع. والنفوسُ إما خيّرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيها فى السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللطف وسياسة الشرع . والثانية لابدّ لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة فى معنى نزول القرآن ولفظ النزول، حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، بيّن فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول فى مواضع من القرآن بغير ماهو معناه المعروف، لاشتباه المعنى فى تلك المواضع. وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولًا إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق فى المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة ــ فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبيّ عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأنزل الحديد والماء والنار والملح ــ حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .

وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة فى هذا لسائر الناس ؟ ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه ، الذى به يُنصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل: نزلت الآلة التي يطبع بها. قيل: فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة، والآلة وحدها لا تكفى ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم صنعته ، فإن الحديد إنما يخلق فى المعادن ، والمعادن إنما تكون فى الجبال . فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » أى باستعمال الحديد فى مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دلّ عليه ما قبله . أى لينتفعوا به ويستعملوه فى الجهاد ، وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر، وهذا المقصود منه. أواللام متعلقة بمحذوف . أى أنزله ليعلم. . . الخ والجملة معطوفة على ماقبلها . فحذف المعطوف، وأقيم متعلقه مقامه. وقيل عطف على (لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ » أى على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أى غالب قاهر لمن شاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ، فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)

[٢٧] (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم » أى من الذرية « مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ » أى خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه وتحريفها ، وإيثار آراء الأحبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أى أتبعنا « عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أى حناناً ورقَّة على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان فى عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة : اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما فى العقوبات . فقد كان لهم أفانين فى تعذيب النوع البشرىّ بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتربيتها لذلك ، مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت فى مطاردتها ، وصبرت على منازلتها ، حتى ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره ـ كما بيّنه آخر سورة الصف ـ . « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ » أى ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ » استثناء منقطع . أى ولكنهم ابتدعوها طلبَ مرضاة الله عنهم . « فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أى ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهّد ، والتخلّى

للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم . « فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعني الذين آمنوا الإيمان الخالص عن شوائب الشرك والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، المبشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ » أي خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبيهات

الأول ـ (الرهبانية) هي المبالغة في العبادة والرياضة ، والانقطاع عن الناس ، وإيثار العزلة والتبتل . وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرّهبان ، وهو الخائف . (فعلان) من رهب ، كـ (خشيان) من خشى .

الثاني ـ قال ابن كثير في قوله تعالى : (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) : ذمٌّ لهم من وجهين :

أحدهما ـ في الابتداع في دين الله مالم يأمر به الله .

والثاني ـ في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث ـ رأيت في كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة (الرهبنة) وما كان لتأثيرها في النفوس والأخلاق من المفاسد والأضرار . فقد قال صاحب (ريحانة النفوس) منهم ، في الباب السابع عشر ، في الرهبنة :

إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية ، هي ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم في الكتب المقدسة لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ، لكي يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم ، يعلّمون وينصحون . ونحن نقول بكل جراءة : إنه لا يوجد في جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم بها . بل بالعكس ، فإن روح الكتاب وفحواه يضادّ كل دعوى مبنية على العيشة المنفردة المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد

ظهر الميل الشديد إليها فى الـكنيسة ، فى أواخر الجيل الثانى وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين. فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأموراً أخرى مقرونة بخرافات .

ثم قال: ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء، امتدت وانتشرت فى المسكونة. وكان ابتداؤها فى مصر فى الجيل الرابع ، على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذى أصابه ، وآثر لأجله الطواف فى البرارى، فراراً من أيادى مضطهديه. ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها، وذلك فى الجيل الثالث. ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات. توهما بأن رسم المسيحية الـكاملة لايوجد إلا فى العيشة الضيقة القشفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال فى الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضادّ للـكتب المقدسة . ولمـــا كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هـــذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيراً .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت مِنْ حَضّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه فى آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب (ريحانة النفوس) أيضا : إن هذه العادة لايوجد لها برهان فى الـكتاب المقدس . وإنمـا دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحاً بالغاً النهاية فى الإطراء، فحسبوها من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها فى الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغـــايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الـكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنهـا فى بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفى كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانو ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاؤه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لا بل من الباباوات المدعين بالعصمة ، قد تكردسوا فى هوة الزنا ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعىّ . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط فى الزنا ، ويفتح باباً واسعا لدخول الشيطان . وكأن الراهب ينذر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هى اختراع شيطانىّ قبيح ، لم يكن له رسم فى الكتب المقدسة ، ولا فى أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا نفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وحدهم فى أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطّالون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرد عن العالم فى مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب . إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصى بأن الذى لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما فى الآية التى فى (القصص) وكما فى حديث(١) الشعبيّ عن أبى بردة ، عن أبيه أبى موسى الأشعرىّ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، فله أجران. وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ـ أخرجاه فى الصحيحين ـ ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاكُ وعتبة بن أبى حكيم وغيرهما . وهو اختيار ابن جرير(٢) .

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية فى حق هذه الأمة . والظاهر أن لفظها أعم ، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبىّ ﷺ على الثبات فى الإيمان والرسوخ فيه ، والانصياع لأوامره . ومنه ماحرض عليه فى الآيات قبلها من الإنفاق فى سبيله ، وسخاوة النفس فيه . وأن لهم فى مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال فى أول السورة: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فآخر السورة ، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به ، وماسبق نزولها لأجله .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣١ ـ باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ، حديث رقم ٨٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وأصل (الكفل) الحظ . وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط . والتثنية في مثله إما على حقيقتها ، أو هي كناية عن المضاعفة . و (النور) هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه(١) (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

« لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فضلًا عن أن يتصرفوا في أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون غيرهم من الخلق ، يؤتيه من يشاء من عباده .

و (لا) في (لئلا) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢٩] .

وقال ابن جرير(١) : وذكر أنّ فى قراءة عبد الله (لكى يعلم) . قال : لأن العرب تجعل (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحدٌ غير مصرح كقوله فى الجحد السابق الذى لم يصرح به(٢): (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) وقوله(٣) : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) . وقوله(٤) : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ...) الآية. ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبىّ فى (فقه اللغة) زيادتها فى عدة شواهد . فى فصل الزوائد والصلات التى هى من سنن العرب . فانظره ، تزدد علماً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٩] .
(٤) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٨ — سورة المجادلة

سميت بها ، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب ، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن ، ولذلك سمع الله لصاحبها ـ قاله المهايميّ ـ .

وهي مدنية ، وآيها اثنتان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ)

«قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ» روى الإمام أحمد[١] عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادِلة إلى النبيّ ﷺ تكلمه، وأنا فى ناحية البيت، ماأسمع ماتقول! فأنزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ...) إلى آخر الآية. ورواه البخاريّ معلقاً. وفى رواية لابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء . إنى أسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول: يارسول الله ! أكل شبابى ، ونثرتُ له بطنى ، حتى إذا كبرت سنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ! اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت، حتى نزل جبريل بهذه الآية (قَدْ سَمِعَ ...) الخ. قال ابن كثير : ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقد تصغر فيقال (خويلة) . ولامنافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب .

وفى (العناية) . المرادمن قوله (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ) الخ قَبِل قولَها وأجابه. كما فى: سمع الله لمن حمده ، مجازاً بعلاقة السببية أو كناية . انتهى .

وقوله : (وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ) أى تشتكى المجادِلةمالديها من الهم، بظهار زوجهامنها، إلى الله ، وتسأله الفرج .

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

ومعنى (تَحَاوُرَكُمَآ) ترجيعكما الكلام فى هذه النازلة . وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته فى الجاهلية ، فإذا تكلم به لم يرجع إلى امرأته أبداً. وقد طمعت المشتكية أن يكون غير قاطع علقة النكاح، والنبىّ ﷺ لم يبت لها فيه الأمر، حتى ينزل الوحى الذى يردّ التنازع إليه . ثم أنزل تعالى فيه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ)

« ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم » يعنى قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها: أنت علىّ كظهر أمى ، يعنى : فى حرمة الركوب . « مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ » أى ما نساؤهم اللاتى ظاهروا منهن بأمهاتهم . أى يصرن بهذا القول كأمهاتهم فى التحريم الأبدىّ .

قال المهايمىّ : ماهن أمهاتهم بالحقيقة، ولا فى حكمهن بالمجاز، إذ لا يقتضى المجاز أن يكون فى حكم الحقيقة ، إلا بقلب الحقائق ، لكنها لا تنقلب .

« إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ » أى فلا يشبه بهن فى الحرمة الأزواج «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ » أى قولًا تنكره العقلاء ، وتتجافاه الكرماء. « وَزُورًا » أى باطلًا لا حقيقة له، لأنه يتضمن إلحاقها بالأمّ المنافى لمقتضى الزوجية . « وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ » أى لذنوب عباده ، إذا تابوا منها وأنابوا ، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[٤] (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ، فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ » أى يرجعون إلى لفظ الظهار ثانية ، فالقول على حقيقته ، أو يعزمون على غشيانهن ووطئهن رغبة فى تحليلهن ، بعد تحريمهن ، فالقول بمعنى المقول فيه « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى الإمام أحمد(١) عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فىّ والله ! وفى أوس بن صامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه وضجر . فدخل علىّ يوماً فراجعته بشىء ، فغضب فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل علىّ ، فإذا هو يريدنى على نفسى . قالت : قلت : والذى نفس خويلة بيده ! لا تخلص إلىّ وقد قُلتَ ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى ،

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤١٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا خويلة ! ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه . قالت : فو الله ! ما برحت حتى نزل فىّ القرآن ، فتغشى رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرِّى عنه ، فقال لى : ياخويلة ! قد أنزل الله فيك وفى صاحبك . ثم قرأ على : (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ..) إلى قوله تعالى: (وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قالت: فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة . قالت : فقلت : يا رسول الله ! ماعنده ما يعتق! قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت : فقلت : والله ! إنه لشيخ كبير ، مابه من صيام . قال: فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر. قالت : فقلت: والله ! يارسول الله ما ذاك عنده . قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنا سنعينه بفرق من تمر. قالت : فقلت : يارسول الله! وأنا سأعينه بفرق آخر . قال : قد أصبت وأحسنت ، فاذهبى فتصدق بهعنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود : وعنده (خولة بنت ثعلبة) ، ولا منافاة كما تقدم ، فإن العرب كثيراً ما تصغِّر الأعلام .

وروى ابن جرير(١) عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية: أنت علىّ كظهر أمى، حرمت فى الإسلام . فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها ، فأسقط فى يديه ، وقال : ماأراك إلا قد حرُمت علىّ ، وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتت رسول الله ﷺ ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فأخبرته فقال : يا خويلة ! ما أُمِرْنا فى أمرك بشىء . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ياخويلة ! أبشرى . قالت خيراً. قال فقرأ عليها (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ . . .) إلى قوله : (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) . قالت :

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وأىّ رقبة لنا ؟ والله ! ما نجد رقبة غيرى! قال : (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) قالت : والله ! لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره . قال: (فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً) . قالت : من أين ؟ ماهى إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فرعاه بشطر وسق ثلاثين صاعاً ، والوَسق ستون صاعاً ، فقال : ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك . قال ابن كثير : إسناده جيّد قوىّ ، وسياق غريب . وقد روى عن أبى العالية نحو هذا .

تنبيهات :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية حكم الظهار ، وأنه من الكبائر ، وأنه خاص بالزوجات ، دون الأجنبيات ، وأن فيه بالعود كفارة ، وأنه يحرم الوطء قبلها ، وأنها مرتبة : العتقُ ، ثم صوم شهرين متتابعين ، ثم إطعام ستين مسكيناً . واستدلّ مالك بقوله (مِنكُم) على أن الكافر لايدخل فى هذا الحكم . وبقوله (مِّن نِّسَآئِهِم) على صحته من الزوجات والسرارىّ ، لشمول النساء لهنّ .

واستدلّ ابن جرير وداود وفرقة بقوله (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ) على أن العود الموجب للكفارة ، أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرر .

واستدلّ بإطلاق الرقبة من جوّز فى كفارة الظهار عتق الكافرة .

واستدلّ بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا فى التشبيه بظهر الأمّ خاصّة، دون سائر الأعضاء، ودون الاقتصار على قوله (كأمى) ، وبالأم خاصة دون الجدّات وسائر المحارم من النسب أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك. ومن قال لاحكم لظهار الزوجة من زوجها، لأنه تعالى خص الظهار بالرجل . ومن قال بصحة ظهار العبد لعموم (ٱلَّذِينَ) له . ومن قال بإباحة الاستمتاعات بناء على عدم دخولها فى لفظ المماسّة . ومن قال يجوز الوطء ونحوه قبل الإطعام إذا كان يكفر به ، لأنه لم يذكر فيه (مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) .

وفى الآية ردٌّ على من أوجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، ولم يعتبر العود . ووجه ما قاله أنه جعل العود فعله فى الإسلام بعد تحريمه .

وفيها رد على من اكتفى بإطعام مسكين واحد ، ستين يوما . انتهى .

وقوله تعالى (ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ) أى الحكم بالكفارة العظمى المذكورة ، تزجرون به .

وقوله تعالى (ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) أى ذلك البيان أو التعليم للأحكام، لتصدّقوا بالله ورسوله فى قبول شرائعه ، والانتهاء عن قول الزور الجاهلىّ .

والمراد بقوله تعالى (وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الجاحدون لفرائضه وحدوده التى بيّنها. فالكفر على حقيقته ، أو المتعدّون لها ، وعنوان (الكفر) تغليظا لزجرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ، وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فى مخالفة حدوده وفرائضه . وأصله من المحادّة ، بمعنى المعاداة ، لأن كُلًّا من المتعادِيَين فى حدّ غير حدّ الآخر. « كُبِتُوا۟ » أى أُخْزُوا « كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » يعنى كفار الأمم الماضية. « وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ » قال ابن جرير[(١)] : أى دلالات مفصّلات ، وعلامات محكمات ، تدلّ على حقائق حدود الله. « وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ » يعنى منكرى تلك الآيات وجاحديها .

تنبيه :

فسّر بعضهم (يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) بمعنى يضعون أو يختارون حدودًا غير حدودهما.

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال محشّيه : ففيه وعيد عظيم للملوك ، وأمراء السوء ، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع، وسموها قانوناً .

وقال : وقد صنّف العارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين، قدّس الله روحه، رسالة فى كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ، إذا قابل بينهما، وقد قال الله تعالى[1] (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لاتقبل التكميل . وإذا جاء نهر الله، بطل نهر معقل[2] . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل، فيه نظر . لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء ، الذين زيّف أقوالهم فى التكفير كثير من العلماء النحارير ، فإن التكفير ليس بالأمر اليسير . والحق فى ذلك أن القانون الذى يهدم نصوص الشرع التى لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها ، فإنه كفر وضلال . لايقول به ، ولا يعول عليه، إلا المارقون الجاحدون. وأما غير المنصوص عليه ، أعنى ما لم يكن قاطعاً فى بابه ، من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو إجماع من الفروع النظرية، والمسائل الاجتهادية المدوّنة ، فمخالفتها إلى قانون عادل لايعدّ ضلالًا ولا كفرا ، لأنه ليس من مخالفة الشرع فى شىء ، إذ الشرع ما شرعه الله ورسوله ، وأحكم الأمر فيه ، وبين بيانا رفع كل لبس ، لا ما تخالف فيه الفقهاء ، وكان مأخذه من الاجتهاد ، وإعمال الرأى ، فإن ذلك ، لا عصمة فيه من الخطأ، مهما بلغ رائيه من المكانة ، إذ لا عصمة إلا فى نص الله ورسوله ﷺ . وكثيراً ما تتشابه فروع الفقهاء بمواد القانون ، ولذا ألف بعض المتأخرين كتابا فى مطابقة المواد النظامية للفروع الفقهية . وذلك لأن مورد الجميع واحد ، وهو الرأى والاجتهاد ورعاية المصلحة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب فى هذا المعنى سماه (السياسة الشرعية)، وكذا لتلميذه

---

(١) [٥ / المائدة / ٣] .

(٢) هو نهر معروف بالبصرة ، فمه عند فم نهر الإجّانة .

الإمام ابن القيّم ، وهو أوسع . ولنجم الدين الطوفى أيضا رسالة فى المصالح المرسلة ، جمعناها من شرحه للأربعين النووية . وقد أرجع العز بن عبد السلام فروع الفقه فى قواعده إلى قاعدتين : اعتبار المصالح ، ودرء المفاسد .

قال القاضي زكريا : وبحث بعضهم رجوع الجميع إلى جلب المصالح .

وقال الشاطبىّ فى (الموافقات) : إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية ، وبأن تكون مصالح على الإطلاق ، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبديًّا وكليًّا وعامًّا فى جميع أنواع التكليف والمكلفين من جميع الأحوال .

وقال نجم الدين الطوفى : إن قول النبىّ صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)[1] يقتضى رعاية المصالح إثباتاً ونفيا ، والمفاسد نفيا، إذ الضرر هو المفسدة، فإذا نفاها الشرع لزم إثبات النفع الذى هو المصلحة ، لأنهما نقيضان ، لا واسطة بينهما . ثم إن أقوى الأدلة النص والإجماع ، وهما إما أن يوافقا رعاية المصلحة ، أو يخالفاها ، فإن وافقاها ، فبها ونعمتْ ، ولا تنازع . إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهى النص والإجماع ، ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام (لا ضرر ولا ضرار) ، وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما ، والتعطيل لهما، كما تُقَدَّم السنّة على القرآن ، بطريق البيان . انتهى . وتتمة كلامه جديرة بالمراجعة ، هى وتعليقاتنا عليها ، فابحث ولا تكن أسير التقليد ، بل ممن ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٣ـ كتاب الأحكام، ١٧ ـ باب من بَنَى فى حقه مايضرّ جاره ، حديث رقم ٢٣٤٠ ، عن عبادة بن الصامت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَاهُ اللَّهُ » أى أحاط به علماً ، ولم يذهب عنه شىء « وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى رقيب ، يعلمه ولا يغيب عنه. و (يَوْمَ) منصوب بـ (اذكر) مضمراً . وتقدمة الإخبار بسعة علمه سبحانه ، تمهيدٌ لما بعده من النهى عن النجوى بالإثم ، تحذيراً وتنفيراً . وقد أكّد ذلك بتفصيل علمه عناية بالمنهىّ عنه ، والمحذّر منه ، فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . (النجوى) مصدر ، معناها التحدث سرًّا ، مأخوذة من (النجوة) ، وهى ما ارتفع من الأرض ، لأن السر يصان عن الغير ، كأنه رفع من حضيض الظهور ، إلى أوج الخفاء ، على التشبيه .

قال الشهاب وأقرب منه قول الراغب، لأن المتسارّين يخلوان بنجوة من الأرض . أوهو من (النجاة) وتخصيص العددين ، إما لخصوص الواقعة ، فكان قوم من المنافقين ، على هذا العدد اجتمعوا مغايظة للمؤمنين ، أو لأن التناجي للمشاورة ، وأقله ثلاثة ، لأن التشاور لابد له من اثنين يكونان كالمتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما . ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة ، كون الخمسة أول مراتب مافوقها في الوترية ، فذكرا ليُشار بهما للأقل والأكثر . على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله : (وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ) أى : كالاثنين (وَلَآ أَكْثَرَ) أى : كالستة وما فوقها (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ) أى : يعلم ما يكون بينهم فى أى مكان حلّوا ، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكانىّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة .

روى ابن جرير[1] عن الضحاك فى الآية قال : هو فوق العرش، وعلمه معهم أينما كانوا .

وقال ابن كثير : حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى . ولا شك فى إرادة ذلك .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الله تعالى فى كل مكان ، فرد عليهم الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) بأن قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر ، أو إجماع، أو ضرورة حس . وقد علمنا أن كل ما كان فى مكان، فإنه شاغل لذلك المكان ومالئ له ، ومتشكل بشكل المكان ، أو المكان متشكل بشكله . ولا بد من أحد الأمرين ضرورة . وعلمنا أن ما كان فى مكان ، فإنه متناه بتناهى مكانه، وهو ذو جهات ست أو خمس متناهية فى مكانه . وهذه كلها صفات الجسم . فلما صح ما ذكرنا ، علمنا أن قوله تعالى[2] :

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) ، [١](وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) ، وقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) إنما هو التدبير لذلك ، والإحاطة به فقط ضرورة ، لانتفاء ما عدا ذلك . وأيضاً فإن قولهم (فى كل مكان) خطأ ، لأنه يلزم ، بموجب هذا القولِ ، أنه يملأ الأماكن كلها ، وأن يكون ما فى الأماكن فيه ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا محال . فإن قالوا : هو فيها ، بخلاف كون المتمكن فى المكان . قيل لهم : هذا لا يعقل ، ولا يقوم عليه دليل . انتهى .

وقد تقدم فى قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) كلام فى المعية لابن تيمية ، فارجع إليه فى سورة الحديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ » قال مجاهد : هم اليهود . « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ » أى : بما هو إثم وتعدّ على المؤمنين ، وتواصٍ بمخالفة النبىّ ﷺ .

قال أبو السعود : وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه ، لزيادة تشنيعهم ، واستعظام معصيتهم .

« وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ » أى من قولهم : (السام عليك) ، أو مما نسخه الإسلام من تحايا الجاهلية ، فإن الله تعالى يقول[٢] : (وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ)

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٨١] .

« وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ » أى : من التناجى المذموم ، أو من التحريف فى التحية ، استهزاء وسخرية . أى : هلّا يعجل عقوبتنا بذلك ؟ لو كان محمد رسوله ، قال تعالى : « حَسْبُهُمْ » أى : يكفى قائلى ذلك فى تعذيبهم « جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

ثم نهى تعالى المؤمنين وحذّرهم أن يجترموا فى النجوى ما اجترمه أولئك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[١٠] (إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ » أى : بطاعة الله ، وما يقربكم منه ، « وَٱلتَّقْوَىٰ » أى : اجتناب ما يؤثم ، « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : فيجزيكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم .

ثم شجع تعالى المؤمنين فى قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم ، وأنها لا تضرهم ما داموا مثابرين على وصاياه ، متكلين عليه ، بقوله « إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ » أى : النجوى التى ذمها . فاللام للعهد . أى المزين لهذه النجوى بالشر ، والحامل عليها الشيطان . « لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ » أى الشيطان ، أو التناجى المذكور « شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بمشيئته « وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » أى بالمضى فى سبيله ، والاستقامة على أمره ، وانتظار النصر على أثره .

لطيفة :

قال القاشانىّ : إنما نهوا عن النجوى لأن التناجى اتصال واتحاد بين اثنين فى أمر يختص بهما ، لا يشاركهما فيه ثالث . وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر ، يتقوى ويتأيد بعضها بالبعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهيأة الاجتماعية التى لا توجد فى الأفراد. فإذا كانت شريرة يتناجون فى الشر ، ويزداد فيهم الشر ، ويقوى فيهم المعنى الذى يتناجون به بالاتصال والاجتماع، ولهذا ورد بعد النهى قوله: (وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ) الذى هو رذيلة القوى البهيمية «وَٱلْعُدْوَٰنِ» الذى هو رذيلة القوى الغضبية، « وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ » التى هى رذيلة القوة النطقية، بالجهل وغلبة الشيطنة. ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجى بهذه الرذائل المذكورة، وأمرهم بالتناجى بالخيرات، ليتقووا بالهيأة الاجتماعية، ويزدادوا فيها فقال : (وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ) أى : الفضائل التى هى أضداد تلك الرذائل ، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث، (وَٱلتَّقْوَىٰ) أى: الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة . انتهى .

قال ابن كثير: وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى، حيث يكون فى ذلك تأذٍّ على مؤمن. روى الإمام أحمد[1] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه ـ أخرجاه[2] ـ .

---

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٣٧٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٥٦٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٤٦ ـ باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارّة والمناجاة ، حديث رقم ٢٣٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٣٧ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه ـ انفرد بإخراجه مسلم[1] ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ » تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان فى أدب المجالس ، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحّى توسعة له .

قال الشهاب : وارتباطه بما قبله ظاهر . لأنه لما نهى عن التناجى والسرار ، علم منه الجلوس مع الملأ، فذكر آدابه. ورتب على امتثالهم فسحهلهم فيما يريدون التفسح، من المكان والرزق والصدر .

قال ابن كثير : وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح[2] : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة . ومن يسَّرَ على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ولهذا أشباه كثيرة .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنُّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٦٥ ـ باب من بنى مسجدا ، حديث رقم ٢٩٧ ، عن عثمان بن عفان .

وأخرجه مسلم فى: ٥ ـ كتاب المساجدومواضع الصلاة، حديث رقم ٢٤و٢٥ (طبعتنا).

« وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ » أى انهضوا للتوسعة ، أو ارتفعوا فى المجالس ، أو انهضوا عن مجلس الرسول، إذا أُمِرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوه بالارتكاز فيه . « فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » أى يرفع المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله ، والعالمين بها ، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم ، درجات دنيوية وأخروية.

قال الناصر : لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم ، وعند الناس ، ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة فى المجلس ، تواضعاً لله تعالى . انتهى .

وهذا ـ كما قال الشهاب ـ من مغيبات القرآن ، لما ظهر من هؤلاء فى سائر الأعصار من التنافس فى رفعة المجالس ، ومحبة التصدير .

وفى كلام الزمخشرىّ ما يشير إلى أنه من عطف الخاص على العام ، تعظيماً له ، بعدّه كأنه جنس آخر ، كما فى[1] (وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ) ، ولذا أعاد الموصول فى النظم. والمراد بالعلم علم ما لابد منه من العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة .

تنبيهات :

الأول ـ فى (الإكليل) : فى الآية استحباب التفسح فى مجالس العلم والذكر ، وكل مجلس طاعة .

الثانى ـ يفهم من الأمر بالتفسح النهى عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا ـ رواه الإمام أحمد والشيخان[2] ـ .

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤٦٥٩ (طبعة المعارف) .

وأخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٣١ ـ باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، حديث رقم ٥٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ٢٧ (طبعتنا) .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : لايقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولـكن افسحوا يفسح الله لـكم ـ رواه الإمام أحمد ـ وفى رواية بلفظ : لايقوم الرجل للرجل من مجلسه ، لـكن افسحوا يفسح الله لـكم ـ تفرد به الإمام أحمد ـ

قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال : فمنهم من رخص بذلك محتجا [(١)] بحديث : قوموا إلى سيدكم .

ومنهم من منع ذلك محتجا[(٢)] بحديث: من أحب أن يتمثل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار .

ومنهم من فصّل فقال يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبىّ صلى الله عليه وسلم حاكما فى بنى قريظة ، فلما رآه مقبلا قال للمسلمين : قوموا إلى سيدكم . وما ذاك إلا ليـكون أنفذ لحـكمه ـ والله أعـلم ـ فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ . وكان إذا جاء لايقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، فى فتوى له فى ذلك : لم يكن من عادة السلف على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أن يعتادوا القيام ، كما يفعله، كثير من الناس. بل قد قال أنس بن مالك رضى الله عنه : لم يـكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك . ولـكن ربما قاموا للقادم من مغيبه، تلقياً له ، كما روى عن النبىّ ﷺ أنه قام لعكرمة ، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم ، وكان سعد متمرضا بالمدينة ، وكان قد قدم إلى بنى قريظة شرقىّ المدينة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٩ ـ كتاب الاستئذان ، ٢٦ ـ باب قول النبىّ ﷺ (قوموا إلى سيدكم) ، حديث رقم ١٤٤٤ ، عن أبى سعيد .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٢ ـ باب فى قيام الرجل للرجل، حديث رقم ٥٢٢٩ ، عن معاوية .

والذى ينبغى للناس ، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبيّ ﷺ . فإنهم خير القرون . وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فلا يعدل أحد عن هدى خير الخلق ، وهدى خير القرون، إلى ما هو دونه. وينبغى للمطاع أن يقرر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له، ولا يقوم لهم، إلا فى اللقاء المعتاد . فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك ، تلقياً له ، فحسن . وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائى بالقيام ، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بخس فى حقه ، أو قصد لخفضه ، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة ـ فالأصلح أن يقام له، لأن ذلك إصلاح لذات البين ، وإزالة للتباغض والشحناء . وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة ، فليس فى ترك ذلك إيذاء له . وليس هذا القيام هو القيام المذكور فى قوله ﷺ : من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد . ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء . ولهذا فرقوا بين أن يقال (قمت إليه) و (قمت له) . والقائم للقادم ساواه فى القيام، بخلاف القيام للقاعد. وقد ثبت فى صحيح مسلم[(١)] أن النبيّ ﷺ لما صلى بهم قاعداً فى مرضه ، وصلّوا قياماً، أمرهم بالقعود ، وقال : لا تعظّمونى كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً . فقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لئلا يشبهوا الأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود . وجماع ذلك أن الذى يصلح ، اتباع عادة السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد بحسب الإمكان . فمن لم يعتد ذلك ، أو لم يعرف أنه العادة ، وكان فى ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما ، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما . انتهى كلام شيخ الإسلام ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

الثالث ـ قال ابن كثير : روى عن ابن عباس والحسن البصريّ وغيرهما ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى (إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ) يعنى فى مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله (وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ) أى انهضوا للقتال .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٥٢ ـ باب قيام الرجل للرجل ، حديث ٥٢٣٠ .

وقال قتادة : (وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا) أى إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبيّ ﷺ فى بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده . فربما يشق ذلك عليه ، عليه السلام ، وقد تكون له الحاجة. فأمروا أنهم إذا أُمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله تعالى(1) (وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا) انتهى .

ولا تنافى بين هذه الأقوال ، لأن كلّاً منها تفسير للفظ العام ببعض أفراده . وما يصدق عليه إشارة إلى تناوله لذلك ، لاأن أحدها هو المراد دون غيره ، فذلك ما لا يتوهم . وقد كثر مثل ذلك فى تفاسير السلف لكثير من الآى ، وكله مما لا اختلاف فيه ــ كما بيّنّاه مراراً ــ .

الرابع ــ فى (الإكليل) قال قوم : معنى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يرفع الله المؤمنين منكم العلماءَ درجات على غيرهم ، فلذلك أمر بالتفسّح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء فى المجالس ، والتفسّح لهم عن المجالس الرفيعة . انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » أى تصدّقوا قبل مناجاته ، أى مسارّته فى بعض شأنكم . « ذَٰلِكَ » أى التقديم . « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى لأنفسكم ، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب ، والقيام بحق الإخاء ، بالعود على ذوى بالمسكنة بالمواساة والإغناء . « وَأَطْهَرُ » أى لأنفسكم من رذيلة البُخل

(1) [٢٤ / النور / ٢٨] .

والشح ، ومن حب المال وإيثاره الذى قد يكون من شعار المنافقين . وكأن الأمر بالتصدق المذكور، نزل ليتميز المؤمن من المنافق ، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإنفاق كيفما كان ، والثانى يغصّ به ، ولو فى أضرّ الأوقات. ومعظم أوامر السورةهو التصدّق، حثًّا للباخلين، وسوقاً للمؤمنين . « فَإِن لَّمْ تَجِدُوا » أى ما تتصدّقون به أمام مناجاتكم الرسول صلوات الله عليه. « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن لم يجده، إذ لم يحرجه ولم يضيّق عليه، رحمةً منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ، وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ » أى أخفتم، من تقديم الصدقات، الفاقةَ والفقر ؟ توبيخ بأن مثله لا ينبغى أن يشفق منه ، للزوم الخلف للإنفاق ، لزوم الظل للشاخص ، بوعد الله الصدق . « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ » أى ما ندبتم إليه من تقديم الصدقة ، وشقّ عليكم ، « وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ » بأن رخّص لكم أن لا تفعلوا ، رفعاً للحرج حسبما أشفقتم، « فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلا تفرّطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة. « وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجزيكم بحسبه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قوله تعالى (إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ) الآية منسوخة بالتى بعدها، وفيه دليل على جواز النسخ بلا بدل، ووقوعه ، خلافا لمن أبى ذلك . انتهى .

والظاهر أن مستند شهرة النسخ ما رواه ابن جرير(١) عن مجاهد قال: قال عليّ رضى الله عنه: إن فى كتاب الله عز وجل لآية ماعمل بها أحد قبلى، ولايعمل بها أحد بعدى « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ... » الخ قال: فرضت، ثم نسخت. وعنه أيضا قال(١): نهوا عن مناجاة النبيّ ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه، قدم ديناراً فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة فى ذلك.

وعن قتادة(١) أنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار.

وعنه أيضا(١) قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فوعظهم الله بهذه الآية، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبيّ الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك (فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وعن الحسن(٢) وعكرمة قالا: (إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ..) الآية، نسختها التى بعدها (ءَأَشْفَقْتُمْ ..) الآية.

هذه الآثار وأمثالها هى مستند مدعى النسخ، وقوفاً مع ظاهرها. وقد أسلفنا فى مقدمة التفسير، ومواضع أخرى؛ أن النسخ فى كلام السلف أعم منه باصطلاح الخلف، كما أن المراد من سبب النزول أعم مما يتبادر إليه الفهم. ومنه قول قتادة هنا: فأنزل الله الرخصة بعد ذلك. فإن مراده إبانة أن الأمر ليس بعزيمة فى الآية الثانية، لا أن نزولها كان متراخياً عن الأولى، فإن ذلك مستحيل على رونق نظمها الكريم. والأصل فى الآى المقررة لحكم ما، هو اتصال جملها، وانتظام عقدها، إذ به يكمل سحر بلاغتها وبديع بيانها، وتمام فقهها. والذين ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ فى التنزيل، لهم فى الآية وجوه:

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية).

أحدها ـ قول أبى مسلم : إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وأن قوماً من المنافقين تركوا النفاق ، وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقيًّا ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليتميز هؤلاء الذين آمنو إيماناً حقيقيًّا عمن بقى على نفاقه الأصلىّ . وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لاجرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

قال الرازىّ : وحاصل قول أبى مسلم أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسن ، ما به بأس . انتهى .

ثانيها ـ قول بعضهم : إن شبهة مدعي النسخ ذهابهم إلى أن الأمر بتقديم الصدقة للوجوب . وتأكد ذلك بقوله بعده : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فإن ذلك لايقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه . والجواب : أن لاقاطع فى كون الأمر للوجوب ، بل الظاهر أنه للندب : ويدل عليه أمور :

الأول ـ أنه تعالى قال : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وهذا إنما يستعمل فى التطوع لا فى الفرض .

والثانى ـ أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ . . . ﴾ إلى آخر الآية .

والثالث ـ أن قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴾ الخ معناه إن لم تفعلوا ما ندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم ، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يعنتكم بشىء مما أوجبه عليكم ، فلذا ندبكم إلى هذا الأمر ، ولم يجعله عليكم فرضاً ، كما هى سنته فى معاملتكم بالرأفة والرحمة ، فأقيموا الصلاة ... الخ . فقوله ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾

قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هــذه الأمة ، والعدول عن معاملتها كسابقيها ، لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب. وقد ورد بذلك المعنى أيضا فى آية أخرى فى سورة المزمل ، وهى قوله تعالى[(١)] (عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى رجع إليكم بالتخفيف ، ورفع عنكم مايشقّ عليكم. وليس معناه فى هاتين الآيتين العفو عن الذنوب، إذ لا ذنب هنا صدر منهم .

هذا ملخص ماحققه من ذهب إلى امتناع النسخ . والحق لا تخفى قرته، وسكون النفس إليه ـ وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

«أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم» يعنى المنافقين الذين كانوا يتولّون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، كما بينته آية[(٢)] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ...) الآية « مَّا هُم مِّنكُمْ » أى من أهل دينكم وملتكم ، معشر المسلمين « وَلَا مِنْهُمْ » أى من اليهود كقوله تعــالى[(٣)] (مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ) «وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ» قال ابن جرير[(٤)]: وذلك قولهم لرسول الله ﷺ (نشهد أنك رسولُ اللهِ) وهم كاذبون غير مصدقين به . « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى المحلوف عليه كذب بحت .

---

(١) [٧٣ / المزمل / ٢٠]. (٢) [٥٩ / الحشر / ١١]. (٣) [٤ / النساء / ١٤٣].

(٤) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

[١٦] (ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً » أي وقاية وعصمة لأنفسهم « فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أي فحالوا بأيمانهم عن حكم الله في أمثالهم ، وهو القتل ، إراحة للمؤمنين من فسادهم . أو فصدّوا الناس في خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وتبطوهم عنه . « فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » أي مذلّ لهم في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ)

[١٨] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ، أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ)

[١٩] (ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

« لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا » أي من عذابه شيئاً ما ، كما كانوا يفتدون بذلك في الدنيا « أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » أي في الدنيا كاذبين مبطلين، إشارة إلى مرونهم على النفاق ، ورسوخهم فيه ، حتى لدى من لا تخفى عليه خافية . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ » أي من النفع أو من الحق « أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ » أي فيما يحلفون عليه

فى الدارين « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم « فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ » أى بتسويل اللذات الحسيّة ، والشهوات البدنية لهم ، وتزيين الدنيا وزبرجها فى أعينهم . « أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى أتباعه فى الفساد والإفساد . « أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ » أى للسعادة فى الدارين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ » أى فى أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ولرسوله ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ)

« كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ » أى حزب الشيطان المحادّين « إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ » أى قوىّ على إهلاك من حادّه ورسله ، عزيز فلا يغلب فى قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

«لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ» أى شاقّهما وخالف أمرهما . أى لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين موادّة أعداء الله ورسوله . والمراد بنفى الوجدان نفى الموادّة ، على معنى أنه لا ينبغى أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة فى النهى عنـــه ، والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : «وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ» أى آباء الموادّين . والضمير فى (كَانُوٓاْ) لمن حاد الله ورسوله . والجمع باعتبار معنى (مَن) كما أن الإفراد فيما قبله ، باعتبار لفظها . « أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » أى فإن قضية الإيمان هجر المحادّين «أُوْلَـٰٓئِكَ» إشارة إلى الذين لا يوادّونهم « كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ » أى أثبته فيهـــا « وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ » أى بنور وعلم ولطف حَيَّت به قلوبهم فى الدنيا . وأشار إلى مالهم فى الآخرة بقوله «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى الناجحون الفائزون بسعادة الدارين .

تنبيهات :

الأول ـ من أشباه هذه الآية قوله تعالى(١) (لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَـٰةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ) الآية . وقال تعـالى(٢) (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ) .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٤] .

الثانى ـ قال ابن كثير : قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية (لَّا تَجِدُ قَوْمًا ...) إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر . وفى أبى بكر الصديق ، همّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن . وفى مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير . وفى عمر قتل قريباً له من عشيرته يومئذ أيضا . وفى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . انتهى.

وقد بينا مراراً ؛ أن المراد بسبب النزول فى مثل ذلك ، صدق الآية على هؤلاء ، وما أتوا به من التصلب فى دين الله ، فى مقابلة المفسدين ، ولو كانوا من أقرب الأقربين .

قال ابن كثير : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يُفادَوْا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ! هل تمكننى من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين ؟ .

الثالث ـ قال ابن كثير : فى قوله تعالى (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) سر بديع . وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الرابع ـ يفهم من قوله تعالى (حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) وقوله فى آية[1] أخرى (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادّون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة والبغضاء . وهم الذين أخبر عنهم قبلُ بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحادّين لنا ، أى الذين

(١) [٦٠ /الممتحنة / ١] .

على حدٍّ منا ، ومجانبة لشؤوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصداً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذى ذكرناه ، ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم . فقد عاد النبيّ ﷺ يهوديًّا ، وعرض عليه الإسلام فأسلم ـ كما رواه[1] البخاريّ ـ .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك ، كما لزم المسلمين ـ كما فى (الإقناع) و (شرحه) ـ .

وقال ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) فى الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبيّ ﷺ كان يجيب من دعاه ، فيأكل طعامه . وأضافه يهوديّ بخبز شعير وإهالة سنخة . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب . وشرط عمر رضي الله عنه ضيافة من مرّ بهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذلك فى كتابه . ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو؟ قالوا فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعليّ رضى الله عنه : اذهب بالناس . فذهب عليّ بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل عليّ رضيّ الله عنه ينظر إلى الصورة . وقال : ما على أمير المؤمنين ، لو دخل وأكل ! انتهى .

والأصل فى هذا قوله تعالى[2] ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

(١) أخرجه فى : ٧٥ ـ كتاب المرضى ، ١١ ـ باب عيادة المشرك ، حديث رقم ٧١٤ ، عن أنس . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨ و ٩] .

قال السيد ابن المرتضى اليمانىّ فى (إيثار الحق) : عن الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر عليه السلام ؛ أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى أن تحب الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتى فى أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٩ ـ سورة الحشر

قال المهايمي : سميت به لدلالة إخراج اليهود عنده ، على لطف الله وعنايته برسوله وبالمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .

وكان ابن عباس يقول : سورة بني النضير .

روى البخاري[1] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير . وهم قوم من اليهود . وهي مدنية . وآيها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

(١) أخرجه في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ١ ـ باب الجلاء من أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٢] (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ، وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » تقدم القول فى تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعزة القاهرة ، والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير من اليهود « مِن دِيَٰرِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم تعالى بقهره لأول ماحُشِر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانىّ لهم ، وقوة البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ » أى من بأسه « فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُوا » أى لم يظنوا « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » أى أنزله إنزالًا شديداً فيها ، لدلالة مادة (القذف) عليه ، كأنه مقذوف الحجارة .

قال القاشانيّ : أى نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك فى قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينة من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب فى قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ » أى كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله فى وعده ووعيده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

[٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ » أى الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا » أى بالقتل والسبى ، كما فعل بإخوانهم بنى قريظة . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَٰلِكَ » أى الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا » أى خالفوا « اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى له فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ)

« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ » أى نخلة من نخيلهم إغاظة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلُّب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى لما فيه من إهانة العدوّ ، وإضعافه ونـكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيّم : لمـا قدم النبىّ ﷺ المدينة ، صار الـكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم. ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه ـ تبارك وتعالى ـ فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فـكانت بنو قينقاع أول من نقض مابينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصرهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول ﷺ خرج إليهم يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم، فتآمروا على قتله ﷺ، وأن يعلو رجل فيلقى صخرة عليه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، وصعد ليلقى عليه صخرة، ونزل الوحى على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزول بهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجْلِيهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجَاف(٢) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما همّ به من شأنى ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيما ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما عمل به . فيهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ » أى أعاد عليه من أموال بنى النضير « فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أى فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعبتم فى القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و (الإيجاف) من الوجيف ، وهو سرعة السير . و (الركاب) : ما ركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَٰكِنَّ

(١) العتبة التى بأعلى الباب .

ٱللَّـهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ » أى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط . « وَٱللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

قال الزمخشرىّ : المعنى أن ماخوّل الله رسوله من أموال بنى النضير ، شىء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لا يقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ، وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّـهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ » أى من أموال محاربيها ، وهو بيان للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ » أى الفىء الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ » أى من قسمة غنيمة أو فىء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّـهَ إِنَّ ٱللَّـهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل بالآية على أن (الفىء) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و (الغنيمة) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم فى[1] قوله : (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ...) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكأن الذى زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيَّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال ـ فيما رواه عنه ابن جرير[2] ـ : كان الفىء فى هؤلاء ثم نسخ ذلك فى سورة الأنفال فقال : (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ) وجعل الخمس لمن كان له الفىء فى سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها، ويقسم الخمس الثانى على خمسة أخماس : فخمس لله وللرسول ، وخمس لقرابة رسول الله ﷺ فى حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوطة فى مطولات الفروع .

الثانى ـ قال الزمخشرىّ: الأجود أن يكون قوله تعالى (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية ـ عامًّا فى كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر الفىء داخل فى عمومه .

وفى (الإكليل) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ماثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه فى القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١].

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وهذا الأخير من غلوّ الأثريين ، والإغراق فى الاستنباط .

ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ » أى من مواطنهم ومألوفاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ » أى من العلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَٰنًا » أى منه ، وهو أعظم مايرغب فيه ، « وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ » أى ببذل النفوس لقوة اليقين « أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ » قال القاشانىّ : أى فى الإيمان اليقينىّ لتصديق أعمالهم دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لاتمكن حركاتها إلا على مقتضى شاهدهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إيثار هؤلاء بالعطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطنوها « وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من قبل مجىء المهاجرين إليهم . وعطف (الإيمان) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوّؤ فى لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزموا الدار والإيمان. وجوّز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذى يتمكّن فيه، على أنه استعارة بالكناية، ويثبت له التبوّؤ على طريق التخييل .

« يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية فى الصفاء، والموافقة فى الدين والإخاء.

قال الشهاب : المراد بمحبتهم المهاجرين هنا، مواساتهم، وعدم الاستثقال والتبرّم منهم، إذا احتاجوا إليهم ، فالمحبة كناية عما ذكر ، كما قيل :

يا أخى ! واللبيب، إن خانَ دهرٌ ، يستبين العدوَّ ممن يحبُّ

« وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِّمَّآ أُوتُوا۟ » أى مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواعى الحرص . « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .

قال القاشانىّ : لتجرّدهم وتوجّههم إلى جناب القدس ، وترفّعهم عن موادّ الرجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتيًّا ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوّة ، وكمال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى .

وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى[1] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)، وقوله[2] (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ) فإن هؤلاء تصدّقوا ، وهم يحبون ما تصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تَصَدُّق الصِّدِّيق

---

(١) [٧٦ / الإنسان / ٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليَرْموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى المـاء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشرب به أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

«وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ » أى فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق. « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشُّحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشانىّ من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردىء ، وموطن كل رجس وخُلُق دنىء . والشح من غرائزها المعجونة فى طينتها ، لملازمتها الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفى منها إلا عند انتفائها . ولـكن المعصوم من تلك الآفات والشرور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير(١) : الشح فى كلام العرب البُخل، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : ياأباعبد الرحمن ! إنى أخشى أن تـكون أصابتنى هذه الآية (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدى شىء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما . ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عنى بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسّر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تزهيد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل ، فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وعن ابن زيد فى الآية قال : من وُقِىَ شح نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً ، ولم يقربه ، ولم يدعه الشح أن يحبس من الحلال شيئاً ، فهو من المفلحين .

وروى ابن جرير[١] عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : برئ من الشح من أدّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائبة .

وروى الإمام أحمد[٢] عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم : أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا .

وعن أبى هريرة[٣] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

« وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) . والحديث رقم ٦٤٨٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه النسائى فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨ ـ باب فضل من عمل فى سبيل الله على قدمه .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » يعني بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجين من ديارهم . فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والمجيء حسيّ . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة. فالمجيء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة[1] : (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جعل الزمخشريّ قوله (وَٱلَّذِينَ) عطفاً على (ٱلْمُهَٰجِرِينَ) كالموصول قبله في قوله : (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ...) الخ ، فيكون قوله (يُحِبُّونَ) وقوله (يَقُولُونَ) حالين .

وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره .

وعندي أن هذا هو الوجه ، وماقبله تكلف ، وأن الموصولين مستأنفان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال الكاملة . وما حمل الزمخشريّ ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفيء من فقراء كلّ ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا ...)الخ، (وَ)للفقراء(ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...)الخوللفقراء الذين جاءوا مِن بَعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها، والمهاجرون في جهد ، والأنصار في سعة ورغد ـ يقضي بأن المقصود منها للفيء ، هو فقراء المهاجرين خاصة، وأن الذين تبوءوا الدار في غنى عنه وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم في إيثارهم . ثم بين تعالى حال من يجيء بعدهم بأنه يثني على من سبقه ، ويدعو له ابتهاجاً بما

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

أتوا ، واغتباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة فى الله ورسوله ، وبين محب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشفّ عن قوة الإيمان ، والإخلاص فى تدعيم روابط الإيقان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات الكريمة ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من الفىء قياساً على الصنف الأول ، لاشتراكهم فى الفقر. إلا أنه فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار فى تلك الواقعة فقراً، إلا سهلاً وأبا دجانة ـ كما تقدم ـ فأعطاها صلى الله عليه وسلم. وأما فى غيرها من الوقائع التى كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين فى آيات أخر ، فإن التنزيل الكريم بيّن مقاسم الأموال لذويها فى عدة آيات .

روى ابن جرير(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ(٢) (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ) حتى بلغ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ(٣) (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ . . .) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ(٤) (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ) حتى بلغ(٥) (وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق. ثم قال لئن عشت ليأتين الراعى ، وهو بسرْو حِمْيَرَ ، نصيبَه ، لم يعرق فيها جبينه !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] . (٥) [٥٩ / الحشر / ١٠] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم. وأخوّتهم معهم أخوّة دين واعتقاد ، أو أخوّة صداقة وموالاة لأنهم كانوا معهم سرًّا على المؤمنين « لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ، والمؤمنين « وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ » أى لنعاونكم .

قال ابن جرير[1] : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ووُدَيعة ومالك ابنا نوفل ، وسُوَيد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة، كما تقدم.

« وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ)

« لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ » أى بنوعٍ مّا من أنواع النصر . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣] (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ)

« لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

هم يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستَخْفوا بمعاصيه ، ويستَخِفُّوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ، بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)

« لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم «جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ» أى بالحصون، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ » أى من خلف حيطان، لفرط رهبتهم منكم. « بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشرىّ : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزيز يذلّ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرّقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرّقها عن الحق بالباطل .

« ذَٰلِكَ » قال المهايمىّ : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلىّ . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم، والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بنى النضير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيهم من قبلهم ، وهم كفار قريش فى وقعة بدر ، أو بنو قينقاع . قال ابن كثير : والثانى أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحُد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام ـ والتفصيل فى السير ـ .

وقال ابن جرير (١) : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مذيقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكهم بسخطه . وأمر بنى قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بنى النضير . وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخصص الله عز وجل منهم بعضاً فى تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فمن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٧] (فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى مثل المنافقين فى إغراء بنى النضير على القتال، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم ، ومثل انخداع بنى النضير بوعد أولئك الكاذب ، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعده على اتباعه و كفره بالله ، النصرة عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله ، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه فى عذابه ، مسلماً له وخاذلًا « إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ» أى فلا أعينك «إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ» أى فى نصرتك فلم ينفعه التبرؤ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة «فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى فى حق الله تعالى ، وحق العباد . أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين ، الذين وعدوهم النصرة. وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به . إنهم فى النار مخلدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أى بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

قال المهايمىّ : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله ، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليغويكم بالكفر ، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ » قال ابن جرير[١] : أى لا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانىّ : (نَسُوا اللَّهَ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسمانية ، والاشتغال باللذات النفسانية (فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيّم فى (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيما. وهوأن من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه، فى معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تكمل به ، وتزكو به ، وتسعد به فى معاشها ومعادها . قال تعالى[٢] (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) فغفل عن ذكر ربه ، فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله، وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدى سبيلا . فالعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها، وما تزكو به وتفلح به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

« أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيّم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ، أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَـآئِزُونَ)

« لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ » وهم المؤمنون المتقون الموفون بعهدهم . « أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَـآئِزُونَ » أى : بالنعيم المقيم .

تنبيهان

الأول ـ قال الزمخشرى : استدل أصحاب الشافعىّ رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

وردّ الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى (تفضيل السلف على الخلف) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمىّ . وهذا فى غاية الضعف ، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوهٍ ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواءً ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواءً . فهذا كلام مَنْ ضعف نظره فى مورد الانتزاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى ـ قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابليهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى[١] (هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

---

(١) [١٣ / الرعد / ١٦] .

وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله(١) تعالى (هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فلعل تقديم الفاضل فيه ، لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ، وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَىٰ جَبَلٍ » قال المهايمىّ أى بتفهيمه له ؛ وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والمحركة « لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا » أى متذللا لعظمة الله « مُّتَصَدِّعًا » أى متشققاً « مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانىّ : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهىّ بلغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلابد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا، ولينهم فقست قلوبهم « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشرىّ : الآية تمثيل كما مرّ فى(٢) قوله (إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ) وقد دل عليه قوله (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجره .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] .   (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٧٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ، هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ)

[٢٣] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٢٤] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له . « عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شوهد « هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ » أى المنعم بالنعم العامة والخاصة . ومن كان مطلعاً على الأسرار يجب أن يخشع له ، ويخشى منه ، لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له، ويخشى أن تسلب نعمه «هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ » أى الغنىّ المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شىء ، المدبر للكل فى ترتيب نظامٍ لا أكمل منه «ٱلْقُدُّوسُ» أى المنزه عما لا يليق بجلاله، تنزهاً بليغاً «ٱلسَّلَـٰمُ» أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « ٱلْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين بإنزال السكينة ، ومن فزع الآخرة «ٱلْمُهَيْمِنُ» أى الرقيب على كل شىء باطلاعه واستيلائه وحفظه « ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يَغلب ولا يُغلب « ٱلْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته ــ قاله الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) ــ .

وقال الإمام ابن القيّم فى (الكافية الشافية) :

وكذلك (الجبارُ) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منه داني
والثانِ جبر القهر بالعزّ الذى لا ينبغى لسواه من إنسانِ
وله مسمًّى ثالثٌ وهو العلو فليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم (جبّارةٌ) للنخلة الـ عليا التى فاتَتْ بكل بَنَانِ

«ٱلْمُتَكَبِّرُ» أى الذى يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى من الأوثان والشفعاء . « هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ » أى المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته . «ٱلْبَارِئُ» أى الموجد لها بعد عدم . «ٱلْمُصَوِّرُ» أى الكائنات كما شاء . « لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى الدالة على محاسن المعانى ، وأحاسن المادح . « يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لابد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذاتٍ لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمعاً فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفى ، والجحد المحض ، وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله[1] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ) . وقال سبحانه وتعالى[2] (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ). فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذمٍّ لله سبحانه . وما كان فى الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً فى صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجلّ من أن يسمىّ باسمٍ لم يُتحقق أنه تسمّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدّثين أن يوردوا جميع ما ورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخاريّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوّله . واتفاقُهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولـكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماؤها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعـالى أكثر من ذلك المرويّ بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله فى ذلك وأطاب . فليرجع إليه النهِمُ بالتحقيقات .

الثانى ـ قال الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) ـ وهو من أنفس ما ألف فى معانى الأسماء الحسنى ـ : هل الصفات والأسامى المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذى مال إليه القاضى أبو بكر الباقلانىّ أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما مالا مانع فيه فإنه جائز . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ ، رحمة الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق فى حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والمختار عندنا أن نفصل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لايقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الـكاذب .

ثم جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث ـ قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، الكمال الذى لايحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولابد من الإشارة هنا إلى أمر جلىّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع (الأحسن) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن (الحسن) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعانى . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على (حُسْنَىٰ)، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم بيّن مثال ذلك فانظره .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٠ – سورة الممتحنة

بفتح الحاء ، وقد تكسر . فعلى الأول هى صفة المرأة التى نزلت فيها . وعلى الثانى صفة السورة ، كما قيل لبراءة (الفاضحة) ـ كما فى (الأعلام) ـ .

قال المهايمى : سميت بها لدلالة آية الامتحان على أنه لايكتفى فى باب الصحة بظواهر الأدلة كالهجرة ، بل لابد من اختبار البواطن . فدلائل الاعتقادات أولى بذلك . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وفى (جمال القراء) أنها تسمى سورة الامتحان ، وسورة المودة . وهى مدنية . وآيها ثلاث عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ » أى أنصاراً . نهىٌ لأصحاب النبيّ صلوات الله عليه ، عن موالاة مشركى مكة المحاربين لله ولرسوله وقتئذ، لما فيها من الفتنة بالدين وأهله كما يأتى . « تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ » أى صميم المحبة ، والباء زائدة فى المفعول « وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ » أى من الإيمان بالله ورسوله و كتابه، الذى هو نهاية الهدى ، وغاية السعادة .

ثم أشار إلى أنه لم يكفهم ذلك حتى آذوا المؤمنين ، بما يقطع العلائق معهم رأساً ، بقوله « يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ » أى من أرضكم ودياركم « أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ » أى يخرجونكم لإيمانكم بالله ، الجامع للكمالات المقتضية انقياد الناقص له ، لاسيما باعتبار اتصافه بوصف كونه ربّاكم بالكمالات ، فهى بالحقيقة عداوة مع الله .

قال ابن كثير: هذامع ماقبله من التهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده. ولهذا قال تعالى : (أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ) أى لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم

بالله رب العالمين كقوله تعالى[(١)] (وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وكقوله تعالى[(٢)] (الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ) وقوله تعالى « إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ » أي هاجرتم « جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي » أي للجهاد في طريق الذي شرعته لكم ، وديني الذي أمرتكم به ، والتماس رضائي عنكم الذي لا ثواب فوقه ، والشرط متعلق بـ (لَا تَتَّخِذُواْ) أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي « تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ » أي من المودة معهم وغيرها « وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ » أي اتخاذهم أولياء « فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ » أي جار عن السبيل السويّ الذي جعله الله هدى ونجاة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ)

« إِن يَثْقَفُوكُمْ » أي يظفروا بكم « يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً » أي حرباً ، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم «وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ» أي بما يسوؤكم كالقتل والشتم ، « وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ » أي بما جاءكم من الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ » أي قراباتكم « وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » أي بإثابة المؤمنين ، ومعاقبة العاصين .

---

(١) [٨٥/ البروج / ٨] . (٢) [٢٢ /الحج / ٤٠] .

وقال القاشانىّ : أى لا نفع لمن اخترتم موالاة العدوّ الحقيقىّ لأجله، لأن القيامة مفرقة. وهـذا معنى قوله (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَـكُمْ) أى يفصل الله بينـكم وبين أرحامكم وأولادكم كما قال[١] (يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ) انتهى ، وهو تأويل جيد .

لطيفة :

قال السمين : يجوز فى (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) وجهان :

أحدهما ـ أن يتعلق بما قبله ، أى لن تنفعكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بـ « يَفْصِلُ بَيْنَـكُمْ » .

والثانى ـ أن يتعلق بما بعده أى يفصل بينـكم يوم القيامة ، فيوقف على (أولادكم) ، ويبتدأ بـ (يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) .

« وَٱللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

تنبيهات

الأول ـ قال ابن جرير[٢] : ذكر أن هذه الآيات، من أول هذه السورة، نزلت فى شأن حاطب بن أبى بلتعة ، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله ﷺ قد أخفاه عنهم ـ ثم ساق الروايات ـ .

وأما رواية البخارىّ[٣] فعن علىّ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فذهبنا تعادَى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الـكتاب ،

---

(١) [٨٠ / عبس / ٣٤ ـ ٣٦] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) أخرجه فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٤١ ـ باب الجاسوس ، حديث رقم ١٤٢٩

فقالت : مامعى من كتاب ! فقلنا : لتخرجنّ الكتاب ، أو لنُلقينّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه :

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم .

فقال النبىّ ﷺ : ما هذا ياحاطب؟ قال: لاتعجل علىّ يارسول الله! إنى كنت امرءًا من قريش ، ولم أكن من أنفسهم. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتى . ومافعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن دينى. فقال النبىّ ﷺ : إنه قد صدقكم. فقال عمر : دعنى يارسول الله فأضرب عنقه ! فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم !

قال عمرو بن دينار ـ راوى الحديث ـ ونزلت فيه (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى ...) الآيات .

قال ابن كثير : كان حاطب هذا رجلًا من المهاجرين ، ومن أهل بدر . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ، لمّا نقض أهلها العهد ، فأمر النبىّ ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال: اللهم عمّ عليهم خبرنا . فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ـ كما ذكر فى الحديث ـ .

الثانى ـ قال ابن كثير : يعنى تعالى بقوله (لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) المشركين والكفار ، الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء ، كما قال تعالى[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) [٥ / المائدة / ٥١] .

لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ) ، وهـذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . وقال تعالى[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). وقال تعالى[2] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا). وقال تعالى[3] (لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ) ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد . انتهى .

أى أنه قبل عذره فيما قام فى ظنه من كون ذلك ليس بكبيرة، وإن أخطأ . والمجتهد المخطئ معذور . وقد تبيّن خطؤه بصريح النهى عن معاودة مثله الذى لأجله نزلت السورة . ولذا قال الإمام إلْكِيَا الهرّاسى : يؤخذ من الآية أن الخوف على المال والولد لا يبيح الفتنة فى دين الله . وهو ظاهر، وليس هذا من التقية ، لأنها فى موضوع آخر. وقد بسط الكلام على الولاء والبراء السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) فى المسألة الثامنة. قال (بعد أن أورد الآيات والأحاديث) : هذا كله فى الحب الذى هو فى القلب، والمخالصة لأجل الدين، وذلك للمؤمنين المتقين بالإجماع ، وللمسلمين الموحّدين ، إذا كان لأجل إسلامهم وتوحيدهم عند أهل السنة . وأما المخالقة والمنافعة ، وبذل المعروف، وكظم الغيظ، وحسن الخلق، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، فيستحب بذله لجميع الخلق ، إلا ما كان يقتضى مفسدة كالذلة ، فلا يبذل للعدو فى حال الحرب ، كما أشارت إليه الآية (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

(١) [٥ / المائدة / ٥٧] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٤] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٢٨] .

مْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ) ـ كما يأتى ـ وأما التقية ، فتجوز للخائف من الظالمين القادرين . وأما الفرق بين ما يجوز من المنافعة والمداهنة وما لا يجوز من الرياء ، فما كان من بذل المال والمنافع فهو جائز ، وهو المنافعة ، وربما عبروا عنه بالمداهنة والمداراة والمخالقة . وما كان من أمر الدين فهو الرياء الحرام .

ومن كلام الإمام الداعى إلى الله تعالى ، يحي بن المحسن عليه السلام فى (الرسالة المحرسة ، لأهل المدرسة) : لا يجوز أن تكون الموالاة هى المتابعة فيما يمكن التأويل فيه ، لأن كثيراً من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك ، فتولّى الناصر الكثير منهم ، وصلى بهم الجمعة جعفرُ الصادق ، وصلى الحسن السبط على جنائزهم .

وذكر الإمام المهدىّ محمد بن المطهّر عليهما السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هى موالاة الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته ، ونحو ذلك .

قال السيد : وهو كلام صحيح ، والحجة على صحة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة ، منها قوله[١] تعالى فى ٱلْوَالِدَيْنِ ٱلْمُشْرِكَيْنِ بالله (وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً) ومنها قوله[٢] تعالى (لَّا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّـهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ . . .) الآيتين . وفى الحديث أنها نزلت فى قتيلة أم أسماء ، بعد آيات التحريم ، رواه أحمد والبزار والواحدىّ ، وتأخرها واضح فى سياق الآيات ، وقرينة الحال مع هذا الحديث . ولو لم يصح تأخر ذلك ، فالخاص مقدم على العام عند جهل التاريخ عند الجمهور . ورجحه ابن رُشْد فى (نهايته) بالنصوصية على ما هو خاص فيه . ويدل عليه ماثبت فى القرآن والسنة الصحيحة المتفق عليها من حديث علىّ عليه السلام فى قصة حاطب ، على ماذكره الله تعالى فى أول سورة الممتحنة ـ هذه ـ وذكره أهل الحديث وأهل التفسير جميعاً ، فإن رسول الله ﷺ عذره بالخوف على أهله فى مكة ، والتقية فيما لا يضر فى ظنه .

---

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] .　　(٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨] .

فإن قيل : القرآن دال على أنه قد أذنب لقوله (وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) فكيف يقبل ماجاء من قبول عذره ؟

قلت : إنما قبل عذره فى بقائه على الإيمان ، وعدم موالاة المشركين لشركهم ، ولذلك خاطبه الله بالإيمان فقال (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) والعموم نص فى سببه . فاتفق القرآن والحديث . وأما ذنبه فإنه لايحل مثل مافعله لأحد من الجيش إلا بإذن أميرهم، لقوله تعالى[1] (وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ...) الآية . ولأن تحريم مثل ذلك بغير إذن الأمير إجماع ، ومع إذنه يجوز ، فقد أذن فى أكثر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيلة فى حفظ المال . فلو كان مثل ذلك موالاة لم يأذن فيه صلى الله عليه وسلم . فدل على أن ذنب حاطب هو الكتم ، لما فيه من الخيانة ، لانفس الفعل ، لو تجرد من الكتم والخيانة ـ والله أعلم ـ انتهى .

ويضاف إلى الكتم والخيانة ما أفادته الآية من التودّد بذلك إليهم ، والمناصحة لهم ، مما يشفّ عن كون الآتى بذلك متزلزلًا فى عقده ، مضطرباً فى حقه، فيصبح عمله حجة على دينه، ويكون ذلك سبباً لافتتان المشركين المفسدين بصحيح الدين القويم . وهذا هو السر فى الحقيقة ، كما بينه آية[2] (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ) وسيأتى بيانه .

ثم علّم تعالى عباده المؤمنين التأسى بإبراهيم عليه السلام فى البراءة من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم ، بقوله سبحانه :

---

(١) [٤ / النساء / ٨٣] . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ» أى قدوة «حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ» أى أتباعه الذين آمنوا معه ، كلوط عليه السلام « إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ » يعنى الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت «إِنَّا بُرَآءُ» جمع برىء ، كظريف وظرفاء «مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » أى بدينكم ومعبودكم . قال ابن جرير[١] : أى أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم ماتعبدون من دون الله أن يكون حقاً «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ » أى لا صلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده . أى توحدوه وتفردوه بالعبادة « إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ » استثناء من قوله (أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) قال ابن جرير[١] : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور التى ذكرناها ، من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم ، إلا فى قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه . يقول تعالى ذكره : فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، تبرءوا من أعداء الله المشركين به،

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويتبرءوا عن عبادة ما سواه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال فى الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، فيستغفروا للمشركين .

«وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ» أى وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن أراد عقابك . والجملة من تمام المستثنى ، إلا أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء عموم أفراده . ولذا قال الزمخشرىّ : القصد إلى موعد الاستغفار وما بعده مبنىّ عليه ، وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما فى طاقتى إلا الاستغفار .

وقوله تعالى « رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ » متصل بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، أو أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ذلك ، تتميما لما وصّاهم به من قطع الصلات المضرّة بينهم وبين المحاربين لهم . ومعنى (إِلَيْكَ أَنَبْنَا) أى إليك رجعنا بالتوبة مما تكره ، إلى ما تحب وترضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » قال مجاهد : أى لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . انتهى .

ومآل هذا الدعاء هو التعوذ من مثل ما صنع حاطب ، مما يورث افتتان المشركين بالدين إذ يكون ذلك مدعاة لقولهم لو كان هؤلاء على حق ، وما يوعدون به من الظفر حق ، لما

صانعنا مؤمنهم ، فإذن ما هم عليه أمانىّ . فيتزلزل من كان فى نفسه الانتظام فى سلكهم ، والاستسعاد بحقهم . ففى الآية معنى كبير ، وتأديب عظيم . أى : ربنا لا تجعلنا نهمل من ديننا ما أمرنا به ، أو نتساهل فيما عزم علينا منه ، حتى لا تنحل بذلك قوتنا ، ويتزلزل عمادنا ، ويفتح لعدو الدين الافتتان به ، لأن المؤمنين ما داموا متمسكين بآداب الدين ، محافظين عليها ، قائمين بها حق القيام، فإن النصر قائدهم والظفر رائدهم. ولذا أصبح المسلمون فى القرون الأخيرة بحالهم، حجة على دينهم أمام عدوهم. ولا مسترد لقوتهم، ومستعاد لمجدهم، إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم ، والعمل بآدابه ، والمحافظة على أحكامه ، ونبذ ما ألصق به ، مما يحرف كلمه ، ويجافى حقيقته . وللحكماء فى هذا الموضوع مقالات معروفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ)

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ » تكرير لوجوب التأسى بإبراهيم وأصحابه ، لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين ، والاسترسال إليهم . فإن محبة المفسدين فيها تخريب لمبانى الحق ، وتوهين لقوى أهله ، وتشكيك لضعفاء القلوب ، مما يفسد عمل المصلحين ، ويزلزل مساعيهم ، ويفتن أعداءهم بهم ، لذلك كان البغض فى الله من شُعَب الإيمان ، لأن الحق لا يقوى إلا باعتصاب أهله على كلمته ، ورمى أعدائه عن قوس واحدة . وفى إبدال (لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ) من (لكم) دلالة على أنه لا ينبغى لمؤمن أن يترك التأسى بهم ، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة . ولذلك عقبه بقوله (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ) أى من يتولّ عما أُمِر به ، ويوالى أعداء الله ، ويلقى إليهم بالمودّة ، فإنه لا يضرّ إلا نفسه ، والله هو الغنىّ عن إيمانه به وطاعته ، المحمود على كل حال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ، وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » هذا وعد منه تعالى، وقد أنجزه بأن أسلم كثير منهم بعدُ، وصاروا لهم أولياء وأحزاباً . والآية من معجزات القرآن ، لما فيها من الإخبار عن مغيبٍ ، وقع مصداقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)

[٩] (إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)

« لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ » هذا ترخيص من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . فهو فى المعنى تخصيص لقوله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى ...) الخ . أى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، أى تفضوا إليهم بالبرّ ، وهو الإحسان . والقسط وهو العدل . فهذا القدر من الموالاة غير منهيّ عنه ، بل مأمور به فى حقهم . والخطاب،

وإن يكن فى مشركى مكة ، إلا أن العبرة بعموم لفظه . وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه ، فردّ ذلك الإمام ابن جرير[١] بقوله :

والصواب قول من قال : عنى بقوله تعالى (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ) من جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ، فإن الله عز وجل عمّ بقوله (ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ) جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب، غير محرم ولا منهىّ عنه ، إذا لم يكن فى ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح . وقد بين صحة ما قلناه الخبر فى قصة أسماء وأمها . انتهى .

وذلك أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش ، إذ عاهدوا . فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : يارسول الله ! إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم ! صلى أمك . رواه أحمد[٢] والشيخان[٣] ، ورواه أيضاً الإمام أحمد[٤] عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا : ضباب، وقرظ، وسمن ، وهى مشركة. فأبت أسماء أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها . فسألت عائشةُ النبيّ ﷺ.

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٢٩ ـ باب الهدية للمشركين ، حديث رقم ١٢٧٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ ـ كتاب الزكاة ، حديث رقم ٤٩و٥٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

فأنزل الله تعالى (لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...) إلى آخر الآية. فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

قال الرازيّ : وقوله تعالى (أَن تَبَرُّوهُمْ) بدل من (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ) وكذلك (أَن تَوَلَّوْهُمْ) بدل من (الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ) . والمعنى : لاينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء . وهذا رحمة لهم ، لشدتهم فى العداوة . وهذه الآية تدل على جواز البرّ بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت الموالاة منقطعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ، ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ» أى من مكة إلى المدينة ، «فَامْتَحِنُوهُنَّ» أى فاختبروهن بما يغلب على ظنكم صدقهن فى الإيمان «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ» أى المطلع على قلوبهن ، لا أنتم ، فإنه غير مقدور لكم ، فحسبكم أماراته وقرائنه .

وقد روى ابن جرير[١] عن ابن عباس قال: كانت المرأة إذا أتت رسول الله ﷺ ، حلّفها

(١) انظر الصفحة رقم ٦٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بالله، ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله.

وقال مجاهد: أى سلوهن ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره، ولم يؤمنّ، فارجعوهن إلى أزواجهن.

« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ » قال الزمخشرىّ: أى العلم الذى تبلغه طاقتكم، وهو الظن الغالب بالحلف، وظهور الأمارات. وإنما سماه علماً، إيذاناً بأنه كالعلم فى وجوب العمل به. « فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ » أى فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين، إذ لا حِلّ بين المؤمنة والمشرك، لأن إيمانها قطع عصمتها من المشرك المعادى لله ولرسوله.

قال ابن جرير[1]: وإنما قيل ذلك للمؤمنين. لأن العهد كان جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش فى صلح الحديبية، أن يردّ المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً، فأبطل ذلك الشرط فى النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات، فامتُحنّ فوجدهن المسلمون مؤمنات، وصح ذلك عندهم مما ذكرنا، وأمروا أن لا يردوهن إلى المشركين، إذا علم أنهن مؤمنات. « لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » أى لانقطاع النكاح بينهنّ.

قال ابن كثير: هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين. وقد كان جائزاً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. ولهذا كان أمر أبى العاص بن الربيع، زوج ابنة النبىّ ﷺ زينب رضى الله عنها. وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه. فلما وقع فى الأسارى يوم بدر، بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة. فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا، ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى بذلك، وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضى الله عنه. فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد سنتين ، وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . انتهى «وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ» قال ابن جرير[١]: أى وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، إذا علمتموهن مؤمنات ، فلم ترجعوهن إليهم، ما أنفقوا فى نكاحهم إياهن من الصداق « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ » أى هؤلاء المهاجرات اللاتى لحقن بكم من دار الحرب ، مفارقات لأزواجهن ، وإن كان لهن أزواج ، « إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» أى مهورهن . قال ابن زيد: لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأت أرحامهن .

ثم أشار إلى أنه ، كما بطل نكاح المؤمنة عن الكافر ، بطل نكاح الكافرة عن المسلم ، بقوله : « وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ » أى بعقودهن التى يتمسك بها فى الاستحلال .

قال ابن جرير[٢] : يقول جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ : لا تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن . و (الكوافر) جمع كافرة . و(العصم) : جمع عصمة ، وهى ما اعتصم به من العقد والسبب . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان، وأمر لهن بفراقهن. ثم روى عن مجاهد قال: أمر أصحاب محمد بطلاق نسائهم كوافر بمكة قعدن مع الكفار .

وعن الزهرىّ : لما نزلت هذه الآية (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلى قوله (وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ) ، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأتين كانتا له بمكة : ابنة أبى أمية ، وابنة جرول . وطلحة بن عبيد الله بنت ربيعة ، ففرق بينهما الإسلام ، حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، وكان ممن فرّ إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ممن لم يكن بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فحبسها وزوّجها رجلًا من المسلمين ، أميمة بنت بشر الأنصارية . كانت عند ثابت بن الدحداحة ، ففرّت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلى رسول الله ﷺ ، فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، أحد بنى عمرو بن عوف. فولدت عبد الله ابن سهل .

«وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ» أى اطلبوا أيها المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتى لحقن بهم ، من الصداق ، مَن تزوجهن منهم « وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ » أى وليسألكم المشركون منهم، الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات، إذا تزوجن فيكم، مَن تزوجها منكم، ما أنفقوا عليهن من الصداق «ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى هذا الحكم الذى حكم به من أمر المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا، وأمر المشركين بمثل ذلك. حكم الله الحق الذى لا يعدل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾

« وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ » أى وإن ارتدت منكم امرأة فلحقت الكفار، فلم يردّوا مهرها « فَعَاقَبْتُمْ » أى فغزوتموهم فوجدتم منهم غنيمة « فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم » أى من المسلمين « مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ » أى فى مهورهن .

قال مجاهد : مهر مثلها يدفع إلى زوجها .

وقال قتادة : كن إذا فررن من أصحاب النبىّ ﷺ إلى الكفار ، ليس بينهم وبين نبىّ الله عهد ، فأصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة ، أعطى زوجها ما ساق إليها من جميع الغنيمة ، ثم يقتسمون غنيمتهم .

« وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِىَ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ » أى فإن الإيمان به يقتضى أداء أوامره ، واجتناب نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ » قال ابن كثير : أى أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج معسراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ماجرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علمه ، عملاً بحديث هنـــد بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، فهـــل علىّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : خـــذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك ـ أخرجاه فى الصحيحين(١) ـ « وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ » قال الزمخشرىّ : يريد وأد البنات.

وقال ابن كثير : هذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعمّ قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجاهلات من النساء، تطرح نفسها، لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٩٥ ـ باب من أجرى أمر الأنصار على ما يتعارفون بينهم فى البيوع والإجارة ، حديث رقم ١١٠٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ ـ كتاب الأقضية ، حديث رقم ٧ (طبعتنا) .

«وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ» قال ابن عباس: أى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وأوضحه الزمخشرىّ بقوله: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها. هو ولدى منك . كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ، فهو غير الزنا ، فلا تكرار فيه .

وقال الشهاب : فى شرح البخارىّ للكرمانىّ معناه : لا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم . واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما . ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية : هذا ما كسبت يداك . أو معناه : لاتنشئوه من ضمائركم وقلوبكم ، لأنه من القلب الذى مقره بين الأيدى والأرجل . والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم ، والثانى عن كونه من دخيلة قلوبهم المبنية عن الخبث الباطنىّ .

وقال الخطابىّ : معناه لا تبهتوا الناس كفاحاً ومواجهة ، كما يقال للآمر بحضرتك : إنه بين يديك . وردّ بأنهم ، وإن كنوا عن الحاضر بكونه بين يديه ، فلا يقال : بين أرجله. وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها . أما مع الأيدى تبعاً فلا . فالمخطئ مخطئ وهو كناية عن خرق جلباب الحياء . والمراد: النهى عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة . انتهى.

« وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ » أى من أمر الله تأمرهن به .

قال فى النهاية : المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الشرع ، ونهى عنه .

«فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فبايعهن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها .

تنبيهات :

الأول ـ روى البخاريّ[١] عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ، كلاماً . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط فى المبايعة . ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك .

قال ابن حجر : أى لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة .

ثم قال: وروى النسائىّ والطبرىّ أن أميمة بنت رقيقة أخبرته أنها دخلت فى نسوة تبايع. فقلن : يا رسول الله ! ابسط يدك نصافحك . فقال : إنى لا أصافح النساء . ولكن سآخذ عليكن . فأخذ علينا حتى بلغ (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) فقال : فيما أطقتنّ واستطعتن ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ـ وفى رواية الطبرىّ : ماقولى لمائة امرأة إلا كقولى لامرأة واحدة ـ وقد جاء فى أخبار أخرى أنهن كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب ـ أخرجه يحيي ابن سلام فى تفسيره عن الشعبىّ ـ .

وفى المغازى لابن إسحاق عن أبان بن صالح أنه كان يغمس يده فى إناء، فيغمسن أيديهن فيه . انتهى .

والمعول على رواية البخارىّ الأولى لصحتها ، وضعف ما عداها .

الثانى ـ روى مسلم[٢] عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) كان منه النياحة .

---

(١) أخرجه فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٢٠ ـ باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمىّ والحربىّ ، حديث رقم ١٣١٠ .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث رقم ٣١ (طبعتنا) .

ولفظ البخاري[(١)] عنها قالت : بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا (أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا) ونهانا عن النياحة .

وأخرج الطبريّ بسنده إلى امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه في شيء من المعروف ، ولا نخمش وجهاً ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ أخذ عليهن يومئذ أن لا يَنُحْنَ ، ولا يحدّثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبيّ الله ! إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نسائنا ؟ ! فقال ليس أولئك عنيت .

الثالث ـ قال إلكيا الهراسيّ : يؤخذ من قوله تعالى (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) أنه لاطاعة لأحد في غير المعروف . قال وأمر النبيّ ﷺ لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه في الطاعة ، لئلا يترخص أحد في طاعة السلاطين .

وأصله مما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد . قال في هذه الآية : إن رسول الله ﷺ نبيه ، وخيرته من خلقه . ثم لم يستحل له أمر إلا بشرط . لم يقل (ولا يعصينك) ويترك حتى قال (في معروف) فكيف ينبغي لأحد أن يطاع في غير معروف ، وقد اشترط الله هذا على نبيه ؟

ثم نبه تعالى في آخر السورة بما نبّه به في فاتحتها ، من النهي عن موالاة محاربي الدين ، تحذيراً من التهاون في ذلك ، وزيادة اعتناء به ، فقال سبحانه :

---

(١) أخرجه في : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٤٦ ـ باب ما ينهى عن النوح والبكاء ، حديث ٦٩٤ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى مسخوطاً عليهم لمعاداتهم الحق ، ومحاربتهم الصلاح ، وعيثهم بالفساد . وهو عام فى كل محارب . ومنهم من خصه باليهود ، لأنه عبر عنهم فى غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، واقتصر عليه الزمخشرىّ. قال الناصر : قد كان الزمخشرىّ ذكر فى قوله(١) (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ) إلى قوله (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) أن آخر الآية استطراد . وهو فن من فنون البيان، مبوّب عليه عند أهله . وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدًّا ، فإنه ذم اليهود ، واستطرد ذمهم بذم المشركين ، على نوع حسن من النسبة . وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء فى الاستطراد أحسن ولا أمكن منه . ومما صدروا به هذا الفن قوله :

إذا ما اتقى اللهَ الفتى وأطاعه ... فليس به بأس، وإن كان من جُرْمِ

وقوله (٢) :

إن كنتِ كاذبَة الذى حدثتِنى ... فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ

وقوله (٢) :

ترك الأحبة أنْ يقاتِلَ دونهم ... ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

انتهى .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

(٢) قائلهما حسّان بن ثابت ، من قصيدته التى مطلعها :

تبلتْ فؤادَكَ فى المنام خريدةٌ ... تسقِى الضجيعَ ببارِدٍ بسَّامِ

(شرح الديوان للبرقوقىّ ص ٣٦٢) .

وكان وجه إيثاره الفرار من التأكيد إلى التأسيس ، مع أن إرادة ما أريد بأول السورة منه ، فيه من المحسنات البديعية ردّ العجز على الصدر ، تذكيراً به وتفخيماً ، للعناية بشأنه . ولكل وجهة .

« قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ » أي من جزائها لجحدهم بها ، ولذلك طغوا وبغوا وعاثوا . والجملة صفة ثانية « كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ » أي كما يئس من سلفهم من إخوانهم الكفار المقبورين . أي أنهم على شاكلة من قبلهم ، وكلٌّ مؤاخَذ بكفره . وقيل : المعنى كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ، تسجيلاً لكفرهم ، وبياناً لما اقتضى الغضب عليهم ، ولما آيسهم . والأول أظهر

بسم الله الرحمن الرحيم

٦١ ـ سورة الصف

وتسمّى سورة (الحواريين) . وهى مدنية . ولا عبرة بقول إنهـا مكية ، لأن آياتها المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا فى المدينة . وآيها أربع عشرة آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى أذعن لله كل خلقه العلوىّ والسفلىّ ، وانقاد لتسخيره ، ودلّ على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[٣] (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال القاشانىّ : من لوازم الإيمان الحقيقىّ الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيهما . وقوله (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادّعى الإيمان وجب عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافى المروءة التى هى من مبادئ الإيمان ، فضلًا عن كماله . إذ الإيمان الأصلىّ هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ، والدين القيّم . وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها، التى أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ. والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره، هى النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع، فدخل فى حد الشيطنة، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الـكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التى هى إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها. فإذا انتفت انتفى الإيمانالأصلىّ بانتفاء ملزومه، فثبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : هذا من أفصح كلام وأبلغه فى معناه . قصد فى (كَبُرَ) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين . وأسند إلى (أَن تَقُولُواْ) ، ونصب (مَقْتاً) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لايفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمـكن المقت منه . واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأفحشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تـكراره لقوله : (مالا تفعلون) وهو لفظ واحد ، فى كلام واحد . ومن فوائد التـكرار التهويل والإعظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ)

« إِنَّ ٱللَّـهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ » قال القاشانىّ : لأن بذل النفس فى سبيل الله لايـكون إلا عند خلوص النفس فى محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غـير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئا من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس فى الله وفى سبيله لاللنفس ، كما قال ـ ترك الدنيا للدنيا ـ كانت

محبة الله في قلبه راجحة على محبة كل شيء ، فكان من الذين قال فيهم :[١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم محبة الله إياهم ، لقوله :[٢] (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ) انتهى.

تنبيهات :

الأول ـ في ذكر هذه الآية عقيب مقت الخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى[٣] : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ) فالنهي العام ورد أولًا . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا تفعل ما يلصق العار بك، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم، النهي عن الشيء الواحد مرتين ، مندرجاً في العموم، ومفرداً بالخصوص. وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في حيز التكرار، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل. انتهى

الثاني ـ في (الإكليل) : قال إلكيا الهراسيّ ، يحتج بقوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) في وجوب الوفاء بالنذر ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولًا ، لا يفي به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين[٤] ؛

(١) [٢/ البقرة/ ١٦٥]. (٢) [٥ / المائدة/ ٥٤]. (٣) [٤٩ / الحجرات/ ١و٢] .

(٤) أخرجه البخاريّ في : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ (طبعتنا) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان. ولهذا أكّد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وقد روى الإمام أحمد(١) وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبيّ ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : ياعبد الله ! تعال أعطك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً . فقال : أما إنك لو لم تفعلي ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به. كما لو قال لغيره : تزوّج ولك عليّ كل يوم كذا . فتزوّج . وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض، نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) . وقال تعالى(٣) (وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ . .) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) [٤ / النساء / ٧٧] . (٣) [٤٧ / محمد / ٢٠] .

دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ).

وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناه ، ولو ذهبت فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبيّ ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ) روى ذلك عن مقاتل بن حيّان.

وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا فى نصركم ، وفى وفى . . . روى ذلك عن ابن زيد.

وكلّ المرويّ هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد(١) عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلًا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ـ يعنى سورة الصف ـ كلها . ولفظ ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن سلام ؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهِبْنَا أن نسأله عن ذلك. قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر رجلًا رجلًا ، حتى جمعهم، ونزلت فيهم هذه السورة ـ الصف ـ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها.

وفى رواية ابن أبى حاتم هذه فائدة جليلة: وهى أن قول الصحابيّ نزلت هذه السورة، بمعنى قرئت فى الحادثة، كما تبيّنتهُ الرواية قبله. والروايات يفسر بعضها بعضاً. وقد نبهنا على ذلك مراراً.

الثالث ـ فى (الإكليل) فى قوله (كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ) : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفاً كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف،

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .

قال ابن أبي الفرَس : واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان. لأن التراصّ إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .

وفى التشبيه وجهان آخران :

أحدهما ــ أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام فى الموقف ، تنبيهاً على أن المتزلزل القدم، والمضطرب فى الموقف ــ دع من يعزم على الفرار ــ ممن يمقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .

ثانيهما ــ أن يكون المعنىّ به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدوّ ، حتى يكونوا فى الاتحاد وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهذين الوجهين الرازىّ . وهما أقرب من الأول ، لتقويتهما لمعنى طليعة السورة، من الثبات على الوعد والوفاء به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ » أى لم توصلون إلىّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمى وإطاعتى ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظَّم رسوله ، لأن تعظيمه فى تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه[1] : رحمة الله على موسى ! لقد أوذى بأكثر

(١) أخرى البخارىّ فى : ٥٧ ــ كتاب فرض الخمس ، ١٩ ــ باب ما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلَّفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى[١] : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا) انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و (إذ) منصوب على المفعولية بمضمر. خوطب به النبيّ ﷺ بطريق التلوين. أى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة ، بقوله[٢] (يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ) فلم يمتثلوا أمره، وعصوه أشد عصيان، حيث قالوا[٣]: (يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ) إلى قوله[٤] (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ) وأصروا على ذلك وآذوه، عليه الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق السليم . وأما ماقيل بصدد بيان أسباب الأذية، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من انتقاصه وعيبه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ـ فما لاتعلق له بالمقام. انتهى ملخصاً. وملخصه: أن المقام يعيّن نوع الأذية ويخصصها، والقرينة إحدى مخصصات العامّ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى، وحب الدنيا «أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ» أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الغىّ والضلال . « وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرّين على الغواية .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٩] . (٢) [٥ / المائدة / ٢١] . (٣) [٥/ المائدة / ٢٢] (٤) [٥ / المائدة / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام. «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الدلالات التى آتاها الله إياه ، حججًا على نبوّته ، « قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى بيّن .

والإشارة إلى ماجاء به أو إليه، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة. يريد عليه السلام : أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول ـ نقل الرازىّ وغيره مصداق هـذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم . وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ـ كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١و١٨٣١و١٨٣٣ بمدينة لندن ـ وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصلىّ (بيركلوط) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب (إظهار الحق) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لايعدم الإسلام منصفاً) :

وقال مسيو مارسيه من (مدرسة اللغات الشرقية) مايأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامىّ ، واسم محمد جاء من مادة حمد. ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسما من نفس المادة يقرب فى المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكلية به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهـذا مادعا علماء الدين الإسلامىّ أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجىء النبىّ محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هـذا بقوله عن المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) .

وقد قال اسبرانجيه : إن هذه الآية تشير إشارةخاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الضافية الذيول ، التى يذكر فيها اسم محمد فى عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزىّ أنه رأى فى دار الكتب البابوية فى الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبةبالقلم الحميرىّ قبل بعثة النبىّ ﷺ ، وفيها يقول المسيح: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) فى المطبوعات الأخيرة بـ(المعزّى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجية القوم فى كتبهم المقدسة .

* سجيةٌ تلك فيهم غير محدَثةٍ *

(١)

الثالث ـ قال الإمام ابن القيّم فى (جلاء الأفهام) : الفرق بين محمدوأحمد من وجهين :

أحدها ـ أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذى

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدرهصفحة وثلث الصفحة، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثانى ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يملأه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فمحمد زيادة حمد فى الـكمية ، وأحمد زيادة فى الـكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثانى ـ أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ كونه محموداً . ودل الاسم الثانى ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لايُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لاالمتعدّى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : (ما أشغله بالشىء) .

إلى أن قال: والمقصود أنه ﷺ سمى محمداً وأحمد. لأنه يحمد أكثر مايُحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقمان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ فى مدحه، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى (الحمّاد) وهو كثير الحمد ، كما سمى محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لـكان الأوْلَى أن يسمّى حماداً ، كما أن اسم أمته الحمادون. وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمّى محمداً وأحمد ، فهو الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلـكثرة خصائله التى تفوت عدّ العادّين سمى باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ »أى: لاأحد أظلم وأشد عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته، المسعد له فى الدارين، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى (سحر) ولرسوله (ساحر) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبيّ ﷺ ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال (الإسلام) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغويّ . وقد كثر ذلك فى آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ» أى : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ)

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ» قال ابن جرير[(١)] . أى يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ هذا ساحر ، ليبطلوا الحق الذى جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

و(نور الله) استعارة تصريحية لدينه ، و (الإطفاء) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم فى اجتهادهم فى إبطال الحق، بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه، تهكماً وسخرية بهم ، كما يقول الناس: هو يطين عين الشمس . والثانى أبلغ وألطف، وهو مختار الزمخشريّ .

وفى لام (ليطفئوا) مذاهب للنحاة مقررة فى المطولات، ومن أشهرها أنها مزيدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما فى لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ » يعنى محمداً ﷺ « بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ » قال ابن جرير[١] : أى على كل دين سواه. وذلك عند نزول عيسى بن مريم، وحين تصير الملة واحدة ، فلا يكون دين غير الإسلام .

وقال الزمخشرىّ : أى ليعليه على جميع الأديان المخالفة له . ولعمرى لقد فعل، فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام . وتقدم فى آخر سورة الفتح فى مثل هذه الآية تحقيق آخر ، فليراجع .

« وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ » أى لما فيه من محض التوحيد ، وإبطال الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[١١] (تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٢] (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[١٣] (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى إيمانا يقينيًّا لا يشوبه أدنى شك « وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم . أو أنه خير . فإن قيل : إن ذلك خير بنفسه علموا أولا ، وأيضاً أن علمهم محقق ، إذ الخطاب مع المؤمنين . فالجواب ماقاله الناصر : أن الشرط ليس على حقيقته، بل هو من وادى قوله تعالى[1] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) والمقصود بهذا الشرط التنبيه على المعنى الذى يقتضى الامتثال ، وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه: إن كنت حرًّا فانتصر. تريد أن تثير منه حمية الانتصار لاغير. انتهى وقوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، أو لشرط أو استفهام ، دل عليه الكلام تقديره : إن تؤمنوا وتجاهدوا . أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم « وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ » أى بساتين إقامة لاظعن عنها « ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » أى النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها ، « وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » أى عاجل . وهو فتح مكة . وهذا يدلّ على أن السورة نزلت قبل فتح مكة بقليل . وكان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم ، والثبات أمامه، والتحذير عن الزيغ عن ذلك، والترغيب فى السخاوة ببذل الأنفس والأموال ، فى سبيل الحق ، لإعلاء شأنه ، وإزهاق الباطل .

و (أُخْرَىٰ) مفعول لمقدر معطوف على الجوابين قبله ، وهو جواب ثالث. أى ويؤتكم أخرى أو صفة لمبتدأ مقدّر ، وخبره محذوف ، وهو (لكم) . أى ولكم إلى هذه النعمة المذكورة ، نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهى نصر من الله لكم على أعدائكم ، وفتح قريب يعجّله لكم .

« وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بنصره تعالى لهم وفتحه. ومن منع من النحاة عطف الإنشاء

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٨] .

على الخبر يقول (وَبَشِّرِ) معطوف على (تُؤْمِنُونَ) ، لأنه بمعنى آمنوا. وضعّف بأن المخاطب بـ (تُؤْمِنُونَ) المؤمنون ، و بـ (بَشِّرِ) النبيّ ﷺ . ثم إن (تُؤْمِنُونَ) بيان لما قبله ، و (بَشِّرِ) لايصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب (الكشف) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَـٰٓأَيُّهَا) . وجعل (بَشِّرِ) أمراً بمعنى الخبر ، كما فى قوله : أبطئى أو أسرعى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ، قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ، فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به، « كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ؟ » أى من معى وجندى متوجّهاً إلى نصرة الله، « قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ » أى ننصر دينه، ومامأمر به، وندعو إليه ، ونضحّى لأجله حياتنا، « فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بعيسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعث به ، وتنشر دعوته ، « وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ » أى برسالته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة . وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الربانىّ لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم. اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرّقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول ، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى ، إما على تقدير : قل لهم ، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟

قال الشهاب : فـ (ما) مصدرية ، وهى مع صلتها ظرف . والأصل: ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى . ثم حذف المظروف ، وأقيم ظرفه مقامه . وقد جعلت الآية من الاحتباك . والأصل : كونوا أنصار الله حين قال لكم النبيّ : من أنصارى إلى الله ؟ كما كان الحواريون أنصار الله ، حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟ فحذف من كل منهما ، ما دل عليه المذكور فى الآخر . وهو كلام حسن . انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٢ - سورة الجمعة

مدنية . وآيها إحدى عشرة .

روى مسلم[١] فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين .

(١) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٢] (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ» أى: العرب «رَسُولًا مِّنْهُمْ» أى من أنفسهم، أميًّا مثلهم، «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» أى: مع كونه أميًّا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، «وَيُزَكِّيهِمْ» أى: من خبائث العقائد والأخلاق، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» أى: القرآن والسنة «وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى: جَوْر عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشد. وهو بيان لشدة افتقارهم إلى نبيّ يرشدهم.

قال ابن كثير: فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدّلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله. وكذلك أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل، شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع مايحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى مايقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهى عما يقربهم إلى النار، وسخط الله تعالى. حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، فى الأصول والفروع،

وجمع له تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه مالم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه فى الأميين ، لأنهم أحدُّ الناس أذهاناً ، وأقواهم جناناً ، وأصفاهم فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بغواشى المتحضرين، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك. وإيثار البعثة فيهم ـ بمعنى إظهارهافيهم ـ لاينافىعموم الرسالة، كماقالسبحانه(1) (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّـهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) وقوله(2) (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ) وهو ظاهر . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

«وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ» معطوفعلى (الأميين) . يعنى : أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم ، من كل من دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسره مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازىّ : فالمراد بالأميين العرب ، وبالآخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم . قال تعالى(3) : (وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ) انتهى .

---

(1) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (2) [٦ / الأنعام / ١٩] .
(3) [٩ / التوبة / ٧١] .

تنبيه :

قال بعض المحققين : فى الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك فى الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب فى الإسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التى أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة[1] (وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً) فصدق الله العظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ)

« ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ » يعنى بعثته تعالى رسولاً فى الأميين ، وفى آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . والآيات هذه رد على من أنكر نبوته ﷺ من يهود المدينة ، حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا » قال

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٢] .

الزمخشري : شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها . وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ ، والبشارة به، ولم يؤمنوا به- بالحمار حمل أسفاراً، أي : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشي بها ولايدري منها إلا مايمرّ بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! « بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى (حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ) كلفوا علمها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيّم في (أعلام الموقعين) : قاس من حمّله سبحانه كتابَهُ ليؤمن به ويتدبّره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبّر ولا تفهّم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه ـ كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره . فهذا المَثَل ، وإن كان قد ضُرِب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى .

« وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أي الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحبّاؤه ، فقيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يميتكم، وينقلكم سريعا

إلى الآخرة ، فإن الحبيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[٨] ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

« وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والسيئات والكفر « وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ » أى فيجازيهم على أعمالهم . وتقدم فى البقرة نظير الآية[١] ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ... ﴾ الآية « قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ » أى تخافون أن تتمنوه بلسانكم ، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا بأعمالكم « فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الأعمال ، حسنها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[١٠] ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ » أى عند جلوس الإمام

(١) [٢ / البقرة / ٩٤] .

على المنبر ، لأنه لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ نداء سواه . كان إذا جلس على المنبر ، أذّن بلال رضى الله عنه « فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى الخطبة والصلاة « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أى فى ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون فى بقيع الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودى للصلاة يوم الجمعة ، فنزلت « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ » أى سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفعه يسير ، وربحه مقارب « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » أى أدّيت وفرغ منها « فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفلحوا بسعادة الدارين .

قال ابن جرير(١) : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد فى جنانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً » أى عِير تجارة « أَوْ لَهْوًا » أى ماتلهو به النفس عن الحق والجد والنافع « انفَضُّوا إِلَيْهَا » أى أسرعوا إلى التجارة خشية أن يُسبقوا إليها . وإنما أوثر ضميرها لأنها الأهم المقصود « وَتَرَكُوكَ قَائِمًا » أى على المنبر « قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ » أى من الثواب المرجوّ بسماع الخطبة والعظة بها « خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ » أى لأن الثواب مخلد نفعه ، بخلاف ما يتوهمونه منها .

قال الشهاب : وتقديم (اللهو) لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه فى مقام الذم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ » أى : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندكم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله . فإنه خير الرازقين .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازىّ : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله : (فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) أى إلى ماينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى[1] : (وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) . ووجه آخر فى التعلق . قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله[2] : (فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) . وبأنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً . وبالسبت، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة . انتهى .

وقال المهايمىّ فى وجه المناسبة : بيّن تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الإنسانية ، لئلا تنقلب حمارية أو بهيمية ، فى مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذى جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ) مشروعية صلاة الجمعة، والأذان لها، والسعى إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعى ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال لا تجب على النساء لعدم دخولهن فى خطاب الذكور . انتهى .

---

(١) [٨٧/ الأعلى / ١٧] .   (٢) [البقرة / ٩٤] .

الثالث : فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ) إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .

وظاهره أنه لايشرع بعد أدائها صلاة ما. غير أنه كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها فى فى بيته ركعتين . وفى رواية أربعاً . وأما اعتقاد فرضية الظهر بعدها إذا تعددت ، فتعصب مذهبيّ لا برهان له . وقد قلت فى مقدمة مجموعة الخطب[1] ، فى الفائدة الرابعة ، ما مثاله :

الحاجة فى هذه البلاد فى هذه الأوقات ، تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسعهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلًا . إلا أن خروجها إلى حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات فى كثير من المساجد الصغيرة التى لم تشيد لمثلها ، قد هول فيه السبكىّ فى فتاويه ، لأنه مما تأباه مشروعيتها ، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة ، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة (فُعُلَة) فى اللغة للمبالغة . وبالجملة فالجوامع الكبار التى تؤمها الأفواج يوم الجمعة ويحتاج لإقامتها فيها حاجة بينة لمجاوريها ، هى التى لا خلاف فى جوازها مهما تعددت ، والتى لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطناه فى كتابنا (إصلاح المساجد من البدع والعوائد)[2] .

الرابع ـ يدل قوله تعالى : (وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب فى تعطيل يومى السبت والأحد ، وردّ على ما ابتدع فيه من الوظائف مايدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل مالم ينص عليه الكتاب الحكيم ، ولا الهدى النبوىّ ، من خبر قويم ، فهو تشريع مالم يأذن به الله . وإذا رفع الله بفضله عنا الإصر والأغلال التى كانت على من قبلنا ، فما بالنا نستجرّها إلينا بالأسباب الضعيفة ، فاللهم غفراً .

---

(١) مجموعة للمؤلف رحمه الله بدمشق .

(٢) طبعه فى المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤١ هـ .

الخامس ـ قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة فى الصلاة، وسماعهم الخطبة ، وتحريم الانفضاض . انتهى .

وفى الصحيحين(١) عن جابر قال : قدمت عيرٌ مرةً المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس . وبقى اثنا عشر رجلًا ، فنزلت (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وروى ابن جرير(٢) عن جابر قال : كان الجوارى إذا نكحوا يمرون بالكبَر والمزامير، ويتركون النبىّ ﷺ قائماً على المنبر ، وينفضون إليها ، فأنزل الله (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وعن مجاهد : اللهو الطبل .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١١ ـ كتاب الجمعة ، ٣٨ ـ باب إذا نفر الناس عن الإمام فى صلاة الجمعة ، حديث ٥٤٤ .

ومسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٣ — سورة المنافقون

مدنية وآيها إحدى عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

[٢] (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ » أى أن الأمر كما قالوه « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » أى فى قولهم (نَشْهَدُ) وادعائهم فيه مواطأة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ » أى حَلِفَهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد « جُنَّةً » أى وقاية من القتل والسبى ، « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى دينه الذى بعث به رسوله صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها لخلقه « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى اتخاذهم أيمانهم جُنة ، وصدهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدل بالآية أبو حنيفة على أن (أشهد بالله) يمين ، وإن لم ينو معه ، لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه (أيمانًا) انتهى .

قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) غايته أن ماذكره يسمى يمينًا ، وليس الخلاف فى تسميته يمينًا ، وإنما الخلاف : هل يكون يمينًا منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل مايسمى حلفًا أو قسمًا يوجب حكمًا . ألا ترى أنه لو قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفًا لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)

[٤] (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ، قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى ما نُعى عليهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُوا۟ » أى سرًّا « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مرنوا عليه من التلوّن والتذبذب ورسوخ الهيآت المنكرة ، فحجبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ » أى فى الخلوّ عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء ، أو دعامة لشىء آخر .

قال القاشانىّ : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه، فاستنطقه لظنه ذكاءه وفطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ) أى أجرام خالية عن الأرواح، لا نفع فيها ولا ثمر، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استعداد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابتها .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير (١) : أى يحسب هؤلاء المنافقون، من خبثهم، وسوء ظنهم، وقلة يقينهم، كلَّ صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبي ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحي على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعَطَبِهم .

وقال القاشانيّ : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، فلذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ » قال القاشانيّ : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أي كيف يصرفون عن الحق، مع وضوح مناره . و (قاتل) بمعنى لعن وطرد ، وهو دعاء أو خبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » أي : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير[١] أي: حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّوْاْ) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها وأكثروا . إلا نافعاً ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أي يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » أي : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشانيّ : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكمالات البهيمية والسبعية ، فلا يألفون النور ، ولا يشتاقون إليه ، ولا إلى الكمالات الإنسانية ، لمسخ الصورة الذاتية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)

«سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ» قال القاشانىّ لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخروجهم عن دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ، وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

« هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ » أى : حتى تصيبهم مجاعة ، فيتفرقوا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشانىّ : لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله، وبما فى أيديهم عما فى خزائن الله، فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

« وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » أى : من بيده خزائنهما ، رازقهم منها ، وإن بخل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى (هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ . . .) الخ تعليل لرسوخهم فى الفسق ، لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ) الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة ، فغيّرها الله إجلالاً لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لمكان غرورهم وجهلهم وشدة ارتيابهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن جرير[١]: عنى بهذه الآيات كلها ـ فيما ذكر ـ عبدالله بن أبىّ ابن سلول. وذلك أنه قال لأصحابه : لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لوأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ، ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات فى ذلك . وتقدمه الإمام البخارىّ ، فأسندها من طرق . ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق فى غزوة بنى المصطلق : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) وأظفره الله بهم . قال : فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه . فازدحم جهجاه وسنان الجهنىّ حليف بنى عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنىّ :

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدَث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله ! ما أعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أذِّن بالرحيل، فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان فى قومه شريفاً عظيما . فقال من حضر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ـ حدَبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ! والله لقد رحتَ فى ساعة منكرة ، ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال: عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلّ ! قال : فأنت يا رسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملـكا، ثم مشى رسول صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك، حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض، فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ. ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، وقدم المدينة، ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين، فى ابن أبيّ، ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هـذا الذى أوفى لله بأذنه اه.

وكانت غزاة بنى المصطلق هذه، فى شعبان سنة خمس، كما فى (زاد المعاد).

وزعم قوم أن هذه المقالة كانت فى غزوة تبوك. قال الحافظ ابن حجر: وقع فى رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائى) أنها غزوة تبوك. ويؤيده قوله فى رواية زهير: فى سفر أصاب الناس فيه شدة. وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلا، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلًا لم يرتحل منه حتى يصلى فيه. فلما كان غزوة تبوك، نزل منزلًا، فقال عبد الله بن أبيّ: فذكر القصة.

والذى عليه أهل المغازى أنها غزوة بنى المصطلق. ويؤيده قول جابر، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر: (دعه لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد. فهذا مما يوضح وهم من قال: إنها كانت بتبوك، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جدا. وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح فى غزوة تبوك، فـكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى.

وسبقه ابن كثير حيث قال: وقوله ـ أى ابن جبير ـ إن ذلك كان فى غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيد، فإن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لم يكن ممن خرج فى غزوة تبوك، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازى والسير ، أن ذلك كان فى غزوة المريسيع ، وهى غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثانى ـ قال الزمخشرىّ: معنى قوله تعالى: (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ) الخ أى: الغلبة والقوة، ولمن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات ـ وكانت فى هيئة رثة ـ ألستُ على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لافقر معه ؟

وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما ؛ أن رجلًا قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازىّ : قال بعض العارفين فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة . والكبر مذموم ، والعزة محمودة . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى[1] (بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنصوب على نار الكبر .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾

[١٠] ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾

[١١] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ» أى: لا يشغلكم الاغتباط بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده، أو ذكر ماأنزله وأوحى به. ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالى المؤمن بعزة المال والولد، مع عزة الله «وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» أى المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته، كما قال سبحانه[1] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ . «وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ» أى أتصدق وأخرج حقوق مالى «وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا» أى لن يؤخر فى أجل أحد إذا حضر ، ولكن يخترمه .

قال القاشانىّ : معنى قوله ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إن صدقتم فى الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شىء، فلا تكن محبتهم ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة فى قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطرىّ بإضاعته فيما يفنى سريعاً ، وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة فى أنفسكم ،

(١) [٥٩ / الحشر / ١٩] .

وهيأة نورية لها، فإن الإنفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيأة التجرد فى النفس. فأما عند حضور الموت ، فالمال للوارث لا له ، فلا ينفعه إنفاقه ، وليس له إلا التحسر والتندم ، وتمنى التأخير فى الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً فى دعوى الإيمان ، وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموت ضروريّ ، وأنه مقدر فى وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا يمكن تأخره .

« وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى: بأعمالكم ونياتكم. فلا ينفع الإنفاق فى ذلك الوقت ولا تمنى التأخير فى الأجل ، ووعد التصدق والصلاح ، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء ، ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ، وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيأة المنافية للتصدق والصلاح فى النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى[1] (وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الإمام إلكيا الهرّاسى: يدلّ قوله تعالى (وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ...) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها .

وأخرج الترمذيّ[2] عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٢) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٦٣ ـ سورة المنافقين، ٥ ـ حدثنا عبد بن حميد،

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٤ — سورة التغابن

مكية ، على ما يظهر من أمثالها لمن سبر . وقيل : مدنية . وآيها ثمان عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢] (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ » أي ملك السموات والأرض، ونفوذ الأمر فيهما « وَلَهُ ٱلْحَمْدُ » أي الثناء الجميل، لأنه مولى النعم وموجدها « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ » أي هو الذي انفرد بإيجادكم في أحسن تقويم ، قابل للكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر ، جاحد للحق ، كاسب له على خلاف ماتستدعيه خلقته . ومنكم مختار للإيمان ، كاسب له ، حسبما تقتضيه خلقته . وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم . فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم فرقاً . وتقديم الكفر ، لأنه الأغلب فيما بينهم ، والأنسب بمقام التوبيخ ـ أفاده أبو السعود ـ « وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فيجازيكم به ، فآثروا مايجديكم ، وجانبوا مايرديكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة التى ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ » أى حيث برأكم فى أحسن تقويم . وذلك أنه تعالى جعل الإنسان معتدل القامة على أعدل الأمزجة . وآتاه العقل وقوة النطق ، والتصرف فى المخلوقات ، والقدرة على أنواع الصناعات « وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » أى مرجعكم للجزاء .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] (يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

«يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بخفاياها ، وما تنطوى عليه . وفيه تقرير لما قبله ، كالدليل عليه . لأنه إذا علم السرائر ، وخفيات الضمائر ، لم يخف عليه خافية من جميع الكائنات .

قال الزمخشرىّ : نبه بعلمه ما فى السموات والأرض ، ثم بعلمه مايسرّه العباد ويعلنونه، ثم بعلمه ذوات الصدور، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ، ولا عازب عنه؛ فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأ على شىء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم ، فى معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى : (فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) كما ترى ، فى معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ، ولا تشكر نعمته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ، وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى معشر الكفرة الفجرة « نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ » أى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط « فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ » من عذاب الاستئصال . و (الوبال) الثقل ، والشدة المترتبة على أمر من الأمور . و (أمرهم) كفرهم ، عبر عنه بذلك ، للإيذان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا » أى ذلك المذكور من ذوقهم وبال أمرهم فى الدنيا ، وما أعد لهم من عذاب الأخرى ، بسبب أنه أتتهم رسلهم بالواضحات من الأدلة والأعلام ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فنبذوها ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزأوا برسلهم ، وقالوا : أبشر يهدوننا ؟

قال ابن جرير[1] : استكباراً منهم أن تكون رسل الله إليهم بشراً مثلهم ، واستكباراً عن اتباع الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه . وجمع الخبر عن البشر فقيل (يهدوننا) ، ولم يقل (يهدينا) ، لأن (البشر) وإن كان فى لفظ الواحد ، فإنه بمعنى الجميع . انتهى .

وقال القاشانىّ . لما حجبوا بصفات نفوسهم عن النور الذى هو به يفضل عليهم بما لا يقاس ، ولم يجدوا منه إلا البشرية ، أنكروا هدايته . فإن كل عارف لا يعرف معروفه إلا بالمعنى الذى فيه ، فلا يوجد النور الكمالىّ إلا بالنور الفطرىّ ، ولا يعرف الكمال إلا الكامل ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ولهذا قيل : لا يعرف الله إلا الله . وكل طالب وجد مطلوبه بوجهٍ ما دالًا لما أمكن به التوجه نحوه . وكذا كل مصدق بشيء ، فإنه واجد للمعنى المصدق به، بما في نفسه من ذلك المعنى . فلما لم يكن فيهم شيء من النور الفطريّ أصلًا ، لم يعرفوا منه الكمال فأنكروه، ولم يعرفوا من الحق شيئاً ، فيحدث فيهم طلب ، فيحتاجوا إلى الهداية ، فأنكروا الهداية .

« فَكَفَرُواْ » أي : بالحق والدين والرسول « وَتَوَلَّواْ » أي عن التدبر في الآيات البينات ، « وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ » أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه تعالى عنهم لما فعل ذلك . فـ (استغنى) معطوف على ماقبله ، وجوز جعله حالًا بتقدير (قد) . أي : وقد استغنى بكماله ، عرفوا أو لم يعرفوا .

« وَٱللَّهُ غَنِيٌّ » أي : بذاته عن العالمين، فضلًا عن إيمانهم، لايتوقف كمال من كمالاته عليهم ، ولا على معرفتهم له . « حَمِيدٌ » أي: يحمده كل مخلوق، أو مستحق للحمد بنفسه، وإن لم يحمده حامد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ » أي من قبوركم « ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ » أي في الدنيا « وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » أي هين لقبول المادة، وثبوت القدرة الكاملة .

قال ابن كثير: وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل، على وقوع المعاد ووجوده . فالأولى في يونس[١] : (وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُۥ لَحَقٌّ) والثانية في سبأ[٢]: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) والثالثة هذه الآية .

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » أى إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بالله وحده وبرسوله فيما يخبركم به من البعث والجزاء وغيره « وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا » يعنى القرآن الحكيم. والالتفات إلى نور العظمة ، لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال « وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ » ظرف لـ (تُنَبَّؤُنَّ) أو لـ (خَبِيرٌ) لما فيه من معنى الوعيد . كأنه قيل : والله مجازيكم يوم يجمعكم ، أو مفعول لـ (اذكر) « لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ » أى ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون . أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء « ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ » قال الزمخشرىّ : التغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن . انتهى .

ومما حسن إطلاق التغابن على ما ذكر ، وورود البيع والاشتراء فى حق الفريقين. فذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، واشتروا الضلالة بالهدى، وذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ، فكأنهم غبنوا أنفسهم . ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال(١) (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ...) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة . فخسرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين .

(١) [٦١ / الصف / ١٠] .

وقال القاشانيّ : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورية الفناء ، لا يبقى شيء منها لأحد . فإن فات شيء من ذلك ، أو أفاته أحد ، ولو كان حياته ، فإنما فات أو أُفيت ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاتة شيء لو لم يفته لبقى دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمالىّ والاستعدادىّ ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك ، فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة ، كما قال[1] (فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ) فمن أضاع استعداده ونور فطرته ، كان مغبونا مطلقا ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة . ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعداده ، أو اكتسب منه شيئاً ، ولم يبلغ غايته ، كان مغبوناً بالنسبة إلى الكامل التام ، فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه ، وبقى هذا متحيراً فى نقصانه . انتهى « وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

[١١] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى بقدره ومشيئته، كقوله فى آية الحديد[2] (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ

(١) [٢ / البقرة / ١٦] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

أن نبرأها) . « وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ » أي إلى العمل بمقتضى إيمانه، ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أي فيعلم مراتب إيمانكم، وسرائر قلوبكم ، وأحوال أعمالكم وآفاتها ، وخلوصها من الآفات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[١٣] (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أي لما أرسل به ، والله سبحانه وليّ الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال ابن كثير: الأول خبر عن التوحيد ، ومعناه طلب . أي وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه، كما قال[1] (رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » خطاب لمن آمن بالنبيّ ﷺ، وكان له من أزواجهم وأولادهم من يعاديهم لإيمانهم، ويؤذيهم بسببه . فكان ذلك يغيظهم ، وربما يحملهم على البطش بهم . فأمروا بالحذر من فتنتهم

(١) [٧٣ / المزمل / ٩] .

وشركهم فحسب ، وأن يظهروا فيهم بمظهر أولى الفضل. كما قال : « وَإِن تَعْفُواْ » أى: عن ذنوبهم ، « وَتَصْفَحُواْ » أى : بترك التثريب والتعيير « وَتَغْفِرُواْ » أى جناياتهم بالرحمة لهم ، « فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى يعاملكم بمثل ماعملتم .

روى ابن جرير[١] عن إسماعيل بن أبى خالد قال : كان الرجل يُسلم فيلومه أهله وبنوه ، فنزلت الآية .

وعن ابن عباس[٢] قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده ، ولم يألوا يثبطونه عن ذلك ، فقال الله : إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا ، وامضوا لشأنكم . فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط ، مرّ بأهله وأقسم ليفعلن وليعاقبن أهله فى ذلك ، فقال الله جل ثناؤه: (وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ) ، الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ » أى : تفتتن بهما النفس، ويجرى عليها البلاء بهما ، إذا أوثرا على محبة الحق .

« وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر طاعة الله ومحبته عليهما .

روى ابن جرير[٣] عن الضحاك قال : هذا فى أناس من قبائل العرب. كان يسلم الرجل أو النفر من الحىّ ، فيخرجون من عشائرهم ، وَيَدَعُون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم فيناشدونهم الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن لايفارقوهم ، ولا يؤثروا عليهم غيرهم ، فمنهم من يرقّ ويرجع إليهم ، ومنهم من يمضى حتى يلحق بنبىّ الله ﷺ .

وعن مجاهد : يحمل الرجل ماله وولده على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه به . فلذلك وعد فى إيثار طاعة الله، وأداء حق الله فى الأموال، الأجر العظيم، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى جهدكم ووسعكم ، أى ابذلوا فيها استطاعتكم ، « وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » أى افهموا هذه الأوامر واعملوا بها « وَأَنفِقُوا » أىأموالكم التى ابتلاكم الله بها فى مراضيه « خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ » أى وائتوا خيراً لأنفسكم . أى اقصدوا فى الأموال والأولاد ماهو خير لكم . فـ (خيراً) مفعول بمقدر ، وهذا قول سيبويه ، كقوله تعالى(١) (انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ) وقيل: تقديره يكن الإنفاق خيراً، فهوخبر (يكن) مضمراً، وهو قول أبى عبيد . وقيل: مفعول لـ (أنفقوا) وهو رأى(٢) ابن جرير . قال : أى وأنفقوا مالًا من أموالكم لأنفسكم تستنقذوها من عذاب الله، والخير فى هذا الموضع ، المال « وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ » أى بالعصمة منه « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم .

---

(١) [٤ / النساء / ١٧١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾

[١٨] ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

« إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً » أى بالإنفاق فى سبيله، ماتحبون من غير منّ ولا أذى. قال الزمخشرىّ : ذكر (القرض) تلطف فى الاستدعاء « يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ » أى يضاعف جزاءه وخلفه « وَيَغْفِرْ لَكُمْ » أى ذنوبكم بالصفح عنها « وَٱللَّهُ شَكُورٌ » أى ذو شكر لأهل الإنفاق فى سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا « حَلِيمٌ » أى عن أهل معاصيه، بترك معاجلتهم بعقوبته. « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ » أى ما يغيب عن أبصار عباده وما يشاهدونه « ٱلْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه « ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٥ – سورة الطلاق

قال المهايميّ : سميت به لبيانها كيفية الطلاق السنّيّ ، وما يترتب على الطلاق من العِدّة والنفقة والسكنى .

وتسمّى سورة النساء القُصْرَى . مدنية . وآيها اثنتا عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ، لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » أى فى وقتها ، وهو الطُّـهْر . فاللام للتأقيت .

وقال الناصر : جعلت العدة ، وإن كان فى الأصل مصدراً ، ظرفاً للطلاق المأمور به . وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً ، مثل خفوق النجم ، ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفاً للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر ، فالطهر عدة إذًا .

قال ابن جرير[١] : أى إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذى يحصينه من عدتهن طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهن بحيضهن الذى لايعتددن به من قُرْئهن . ثم روى عن قتادة قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، تطليقة واحدة .

قال ابن كثير : ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنّة ، وطلاق بدعة . فطلاق السّنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملًا قد استبان حملها . والبدعيّ هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا سنّة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها . وسيأتى فى التنبيهات زيادة على هذا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ » أى اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء « وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ » أى : اتقوه فى تعدّى حدوده فى المطلقات ، فلا تخرجوهن من بيوتهن التى كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، غضباً عليهن ، وكراهة لمسا كنتهن ، لأن لهن حق السكنى ، حتى تنقضى عدتهن .

« وَلَا يَخْرُجْنَ » أى : باستبدادهن من تلقاء أنفسهن .

قال الناصر : قوله تعالى (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ) توطئة لقوله (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ) حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

« إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ » أى : فإنهن يخرجن . و (الفاحشة) الزنا ، أو أن تبذو المطلقة على أهلها ، أو هى كل أمر قبيح تعدّى فيه حده ، فيدخل فيه الزنا والسرقة والبذاء على الأحماء ونحوها ، والأخير مختار ابن جرير ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ » أى : بتعريضها للعقاب بما أكسبها من الوزر . أو أضرَّ بها بما اكتسب من قوة النفار ، وشدة البغضة التى قد تتفاقم فتعسر الرجعة ، مع أن الأَوْلى تخفيف الشنآن ، وتلافى الهجران ـ وهو الأظهر ـ ولذا قال سبحانه : « لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا » فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية .

قال أبو السعود: وقد قالوا إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى، أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه ، فلابد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوىّ يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه. أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوىّ والأخروىّ. ويخص التعليل بالدنيوىّ لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى .

وقوله تعالى (لَا تَدْرِى) خطاب للمتعدى بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى ، لا للنبىّ ﷺ ، كما توهم ، فالمعنى : ومن يتعد حدد الله فقد أضرّ بنفسه ، فإنك

لاتدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر ، لعل الله يحدث فى قلبك، بعد ذلك الذى فعلت من التعدى، أمراً يقتضى خلاف ما فعلته ، فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ، ويتسنى تلافيه رجعة ، أو استئناف نكاح . انتهى .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فسر النبيّ ﷺ قوله تعالى (لِعِدَّتِهِنَّ) بأن تطلق فى طهر لم يجامع فيه ـ أخرجه البخاريّ ومسلم[1] ـ وفى لفظ مسلم[2] أنه قرأ (فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن) ، فاستدل الفقهاء بذلك على أن طلاق السنة ماذكر ، وأن الطلاق فى الحيض أو طهر جومعت فيه بدعيّ حرام . واستدل قوم بالآية على عدم وقوعه فى الحيض .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ) وجوب السكنى لها مادامت فى العدة، وتحريم إخراجها وخروجها (إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) كسوء الخلق ، والبذاءة على أحمائها . فتنتقل .

الثالث ـ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) من لم يوجب السكنى بغير الرجعة. أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وعكرمة قال: المطلقة ثلاثاً، والمتوفى عنها ، لاسكنى لها ولانفقة، لقوله: (لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) فما يحدث بعد الثلاث .

الرابع ـ قال ابن المنذر : أباح الله الطلاق بطليعة هذه السورة . انتهى .

وذلك ـ كما قال بعض الحكماء ـ إذا استحال الوفاق بين الزوجين ، ولم يبق فى الإمكان

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ١ ـ باب قول الله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ، حديث رقم ٢٠٦٠ ، عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث ١ ـ ١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

إصـــلاح ، وصمم الزوج عليه ، لأن وجود شخصين متنافرى الطباع ، متباغضين ، لاينظر أحدهما إلى الآخر إلا ويحسّ فى نفسه بالنفور ، وفى قلبه بالعداوة ، يسعى كل منهما فى أذى صاحبه ـ شرٌّ وفساد يجب محوه وقطعه . انتهى .

وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) : إن الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من كسر الزوجة ، وموافقة رضا عدوّه إبليس ، حيث يفرح بمفارقة طاعة الله بالنكاح الذى هو واجب أو مستحب ، وتعريض كل من الزوجين للفجور والمعصية ، وغير ذلك من مفاسد الطلاق ؛ وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، وتكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة، وحرمه على غير ذلك الوجه، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طلقة واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها . فإن زال الشر بينهما ، وحصلت الموافقة ، كان له سبيل إلى لمّ الشعث ، وإعادة الفراش كما كان ، وإلا تركها حتى انقضت عدتها . فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها ، وتجديد العقد عليها برضاها . وإن لم تتبعها نفسه ، تركها فنكحت من شاءت .

وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذى شرعه وأذن فيه ، ولم يأذن فى إبانتها بعد الدخول إلا بالتراضى بالفسخ والافتداء . فإذا طلقها مرة بعد مرة بقى له طلقة واحدة . فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه ، عقوبة له ، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق . فإذا علم أن حبيبه يصير إلى غيره ، فيحظى به دونه ، أمسك عن الطلاق . انتهى .

ومباحث الطلاق وفروعه تجدر مراجعتها من (إغاثة اللهفان) و (زاد المعاد) لابن القيم ، و (فتاوى ابن تيمية) شيخه . ومن لم يقف على ما حرراه وجاهدا فى الصدع به ، فاته علم غزير ، وفرقان منير ، وبالله التوفيق .

الخامس ـ استدل بهذه الآيات من قال : إن جمع الطلاق في دفعة واحدة غير مشروع. قال الإمام ابن القيّم في (إغاثة اللفهان) : ووجه الاستدلال بالآية من وجوه :

أحدها ـ أنه تعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ، أي لاستقبال عدّتها ، فيطلق طلاقاً يتعقبه شروعها في العدة ، ولهذا أمر عليه السلام عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، لما طلق امرأته ، أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة . وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : أنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر لأنه غير مطلق للعدة ، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى ، فلا تكون الثانية للعدة ، فلا يكون مأذوناً فيها ، فإن العدة إنما تحسب من الطلقة الأولى ، لأنها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة . ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتمام العدة ، والطلاق لتمامها كالطلاق لاستقبالها . وكلاهما طلاق للعدة . وأصحاب القول الأول يقولون: المراد بالطلاق للعدة ، الطلاق لاستقبالها ، كما في القراءة الأخرى التي تفسر القراءة المشهورة (فطلقوهن في قبل عدتهن) قالوا فإذا لم يشرع إرداف الطلاق للطلاق ، قبل الرجعة ، أو العقد ، فأن لا يشرع جمعه معه أولى وأحرى. فإرداف الطلاق أسهل من جمعه ، ولهذا شرع الإرداف في الأطهار من لا يجوّز الجمع في الطهر الواحد.

وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية . قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادّها . ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول : ياابن عباس ! وإن الله عز وجل قال : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) ، فما أجد لك مخرجاً . عصيتَ ربك ، وبانت منك امرأتك ، وإن الله عز وجل قال : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ في قبل عدتهن) . وهذا حديث صحيح[1] .ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاث محرم، وهذا فَهْمُ مَنْ دعاله

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ ـ كتاب الطلاق ، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

النبيّ ﷺ أن يفقّهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، وهو من أحسن الفهوم كما تقرر .

الوجه الثانى: من الاستدلال بالآية قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ) وهذا إنما هو فى الطلاق الرجعىّ ، فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة ، لسنة رسول الله ﷺ الصحيحة التى لا يُطعن فى صحتها، الصريحة التى لا شبهة فى دلالتها، فدل على أن هذا حكم كلّ طلاق شرعه الله تعالى ، ما لم تسبقه طلقتان قبله . ولهذا قال الجمهور : إنه لا يُشرع له ، ولا يملك إبانتها بطلقة واحدة بدون العوض . وأبو حنيفة قال : يملك ذلك ، لأن الرجعة حقه ، وقد أسقطها . والجمهور يقولون : ثبوت الرجعة ، وإن كان حقاً له، فلها عليه حقوق الزوجية فلا يملك إسقاطها إلا بمخالعة ، أو باستيفاء العدد ، كما دل عليه القرآن .

الوجه الثالث: أنه قال : (وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ) فإذا طلقها ثلاثاً جملة واحدة ، فقد تعدى حدود الله ، فيكون ظالماً .

الوجه الرابع : أنه سبحانه قال : (لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) وقد فهم أعلم الأمة بالقرآن ، وهم الصحابة ، أن الأمر ههنا هو الرجعة . قالوا : وأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟

الوجه الخامس ـ قوله تعالى : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) فهذا حكم كل طلاق شرعه ، إلا أن يسبق بطلقتين قبله . وقد احتج ابن عباس على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فى قبل عدتهن) كما تقدم ـ وهذا حق، فإن الآية إذا دلت على منع إرداف الطلاق فى طهر أو أطهار، قبل رجعة أو عقد ـ كما تقدم ـ لأنه يكون مطلقاً فى غير قبل العدة ـ فلأنْ تدل على تحريم الجمع ، أولى وأحرى .

قالوا : والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة ، لئلا يتسارع العبد فى وقوعه ومفارقة حبيبه ، وقد وقّت للعدة أجلًا لاستدراك ألفاظه بالرجعة ،

فلم يبح له أن يطلق المرأة فى حال حيضها ، لأنه وقت نفرته عنها ، وعدم قدرته على استمتاعه بها ، ولا عقيب جماعها ، لأنه قد قضى غرضه منها ، وربما فترت رغبته فيها ، ويزهد فى إمساكها لقضاء وطره، فإذا طلقها فى هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا، مع مافى الطلاق من تطويل العدة ، وعقيب الجماع من بعلها ، لأنه ربما قد اشتمل رحمها على ولدٍ منه ، فلا يريد فراقها . فأما إذا حاضت ، ثم طهرت ، فنفسه تتوق إليها ، لطول عهده بجماعه ، فلا يقدم على طلاقها فى هذه الحالة إلا لحاجة إليه . فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا فى هذه الحال ، أو فى حال استبانة حملها ، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها فى هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبىّ ﷺ هـذا بمنعه لعبد الله بن عمر أن يطلق فى الطهر الذى يلى الحيضة التى طلق فيها، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، إن بداله أن يطلقها فليطلقها. وفى ذلك عدة حكم :

منها ـ أن الطهر المتصل بالحيضة، هو وهى حكم القرء الواحد ، فإذا طلقها فى ذلك الطهر، فـكأنه طلقها فى الحيضة ، لاتصاله بها ، وكونه معها ، كالشىء الواحد .

الثانية ـ أنه لو أذن له فى طلاقها فى ذلك الطهر، فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق، وهذا ضد مقصود الرجعة . فإن الله تعالى إنما شرعها للإمساك ولمنفعة النكاح ، وعود الفراش ، فلا يكون لأجل الطلاق ، فيكون كأنه راجع ليطلق . وإنما شرعت الرجعة ليمسك . وبهذا بعينه أبطلنا نـكاح المحلل ، فإن الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للإمساك والمعاشرة، والمحلل تزوج ليطلق ، فهو مضاد لله تعالى فى شرعه ودينه .

الثالثة : أنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، زال مافى نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق ، وربما صلحت الحال بينهما ، وأقلعت عما يدعوه إلى الطلاق، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها . وإذا كان الشارع ملتفتاً إلى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج ، وشرع الطلاق على هـذا الوجه الذى هو أبعد شىء عن الندم ، فـكيف يليق

بشرعه أن يشرع إبانتها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً ، بحيث لا يكون له سبيل إليها . وكيف يجتمع فى حكمة الشارع ، وحكمة هذا وهذا ؟

فهذه الوجوه ونحوها مما بيّن بها الجمهور أن جمع الثلاث غير مشروع ، هى بعينها تعيّن عدم الوقوع ، وأنه إنما يقع المشروع وحده ، وهى الواحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

« فَإِذَا بَلَغْنَ » أى : المطلقات اللواتى فى عدة « أَجَلَهُنَّ » يعنى آخر العدة . أى : إذا قرب انقضاؤه وشارفنه « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى. فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق التى أوجبها الله لهن من النفقة والكسوة والمسكن وحسن الصحبة «أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» أى : اتركوهن حتى تنقضى عددهن فيبنّ منكم بمعروف ، وهو إيفاؤهن مالهن من حق ، كالصداق والمتعة ، على ما أوجب عليه لهن .

« وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ » أى: أشهدوا عند الرجعة والفرقة من يرضى دينهما وأمانتهما .

قال ابن عباس : فإن راجعها فهى عنده على تطليقتين . وإن لم يراجعها ، فإذا انقضت عدتها ، فقد بانت منه بواحدة ، وهى أملك بنفسها ، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره .

وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليهما ، ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجبه فيها ، وبين الطلاق فاستحبه . وظاهر الأمر فى الآية الوجوب فيهما، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح . ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر فى الآية كلها ، قبل وبعد ، للوجوب إجماعاً، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره، فبقى

كسابقه ولاحقه ، وإن كان القرآن لايفيد المشاركة فى الحكم ، إلا أنه عاضد ومؤيد ، إذا لم يوجد صارف . ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق ، يدل على أن الحلف بالطلاق ، أو تعليق وقوعه بأمر ، كله مما لا يعدّ طلاقاً فى الشرع ، لأن ما طلب فيه الإشهاد ، لا بد أن ينوى فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتهيأ له . وجدير بعصمة ينوى حلها ، وكانت معقودة أوثق عقد ، أن يشهد عليه ، بعد أن يسبقها مراجعة من حكَمين من قبل الزوجين ، كما أشارت إليه آية الحكم . فليتدبر الطلاق المشروع ، والطلاق المبتدع ، وبالله التوفيق .

قال الزمخشريّ : قيل فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

« وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ » أى : لوجهه خالصاً ، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ، ولا للمشهود عليه ، ولا لغرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق ، ودفع الظلم ، كقوله تعالى[1] : (كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ) انتهى .

وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة ، ويؤيده قوله تعالى : « ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ » فإن المشار إليه هو الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ، ولأجل القيام بالقسط ، ويحتمل عوده على جميع ما فى الآية .

« وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ، قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا)

« وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » قال الزمخشريّ : يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن ، والأبعد من الندم .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] .

ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلّق للسنّة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما فى شأن الأزواج من الغموم ، والوقوع فى المضايق ، ويفرج عنه وينفس ، ويعطه الخلاص ، ويرزقه من وجه لايخطره بباله ولا يحتسبه ، إن أوفى المهر وأدّى الحقوق والنفقات ، وقلّ ماله . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : (ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ) يعنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن الفَرَسِ : قال أكثر المفسرين : معنى الآية فى الطلاق أى : من لا يتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث يجعل له مخرجاً إن ندم فى الرجعة . قال : وهذا يستدل به على تحريم جمع الثلاث ، وأنها إذا جمعت وقعت ـ نقله فى (الإكليل) .

وقال ابن القيم فى (الإغاثة) : اعلم أنه من اتقى الله فى طلاقه ، فطلّق كما أمره الله ورسوله وشرعه له ، أغناه عن الحيل كلها . ولهذا قال تعالى ، بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) . فلو اتقى اللهَ عامةُ المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال ، والمكر والاحتيال ، فإن الطلاق الذى شرعه الله سبحانه : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ويطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها ، فإن بداله أن يمسكها فى العدة أمسكها . وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر . وإن لم يكن له غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره ، فمن فعل هذا لم يندم ، ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل . ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك ، وفارقت امرأتك ، لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً .

وقال سعيد بن جبير : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إنى طلقت امرأتى ألفاً . فقال : أما ثلاث ، فتحرم عليك امرأتك ، وبقيتهن وزر ، اتخذت آيات الله هزوًا .

وقال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت

حتى ظننت أنه رادّها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة، ثم يقول: يابن عباس! يا ابن عباس! وإن الله تعالى قال: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك ـ ذكره أبو داود[1] ـ والبحث طويل الذيل لا يستغنى عن مراجعته.

« وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ » أى من يتوكل على ما شرعه، ويفوّض أمره إلى ماجعله المخرج، فهو كافيه، لأنه لا دواء أنجع منه « إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ » قرىء بالإضافة، أى يبلغ ما أراد من أمره، فمن تيقن ذلك فوض أمره إليه، وعول عليه. وقرئ (إن الله بالغٌ أمرُه) أى تام وكامل أمره وحكمه وشرعه، لما فيه من الحكم والرحمة. «قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا» أى حدًّا وتقديراً، حسبما تقتضيه الحكمة. ومنه تقديره ما قدر فى أمر الطلاق، مما بينه فى شأنه وتوقيته، ومعرفة المخرج منه.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] (وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ، وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا)

« وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ » أى أشكل عليكم حكمهن، أو شككتم فى الدم الذى يظهر منهن لكبرهن، أمن الحيض أو هو من الاستحاضة؟ « فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ » أى من الجوارى لصغرهن إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول، فعدتهن ثلاثة أشهر. فحذف لدلالة المذكور عليه «وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ

---

[1] أخرجه أبو داود فى: ١٣ ـ كتاب الطلاق، ١٠ ـ باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث، حديث رقم ٢١٩٧.

أَجَلُهُنَّ »في انقضاء عِدَدهن «أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» أى ما فى بطنهن . والآية عامة فى المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن .

ويروى عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما أن الآية خاصة فى المطلقات . وأما المتوفى عنها فعدتها آخر الأجلين .

قال ابن جرير[١] : والصواب أنه عام فى جميع أولات الأحمال ، لأنه تعالى عَمَّ القول بذلك ، ولم يخصص الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها .

فإن قيل : إن سياق الخبر فى أحكام المطلقات . يجاب : بأن نظمها خبر مبتدأ عن أحكام عِدَد جميع أولات الأحمال ، المطلقات وغير المطلقات .

وفى الصحيحين[٢] عن أم سلمة أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها .

«وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ » أى فلم يخالف إذنه فى طلاق امرأته « يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا» وهو تسهيل الرجعة ما دامت فى عدتها ، والقدرة على خطبتها ، إن انقضت ودعته نفسه إليها بسبب التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا)

« ذَٰلِكَ » أى ما ذكر من حكم الطلاق والرجعة والعدة « أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ »

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٨ـ كتاب الطلاق ، ٣٩ـ باب وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث رقم ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

أى لتأتمروا له وتعملوا به . «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا» أى بالمضاعفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ، وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ، وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ)

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ » أى من سعتكم التى تجدون، وطاقتكم ومقدرتكم « وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ » أى لا تستعملوا معهن الضرار « لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ » أى فى المسكن ببعض الأسباب ، من إنزال من لا يوافقهن ، أو بشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل): فى الآية وجوب السكنى للمطلقات كلهن ، وللبوائن ، لتقدم سكنى الرجعيات ، ولقوله بعده (وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ) فإنه خاص بالبوائن . وفيه أن الإسكان يعتبر بحال الزوج ، وتحريم المضارة بها ، وإلجائها إلى الخروج . « وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » قال ابن جرير[١] أى وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل ، وكن بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن فى عدتهن منكم حتى يضعن حملهن .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

فعن ابن عباس فى الآية قال : هذه المرأة يطلقها زوجها ، فيبتّ طلاقها وهى حامل ، فيأمره الله أن يسكنها ، وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت فحتى تفطم ، وإن أبان طلاقها ، وليس بهــا حبل ، فلها السكنى حتى تنقضى عدتها ، ولا نفقة . وكذلك المرأة يموت عنها زوجها فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذى بطنها إذا كان ميراث ، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها ، كما قال الله عز وجل[1] : (وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ) . فإن لم تــكن حاملاً فإن نفقتها كانت من مالها .

ثم قال ابن جرير[2] : وقال آخرون عنى بقوله: (وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) كل مطلقة ، ملك زوجها رجعتها أو لم يملك . وممن قال ذلك عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما .

فعن إبراهيم قال : كان عُمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثاً ، السكنى والنفقة والمتعة . وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس ، أن النبى ﷺ أمرها أن تعتد فى غير بيت زوجها . قال : ما كنا لنجيز فى ديننا شهادة امرأة .

ثم قال ابن جرير[3] : والصواب من القول فى ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تــكون حاملاً ، لأن الله جل ثناؤه جعل النفقة بقوله : (وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ) للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن ، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل فى الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء ، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر فى هذا الموضع وجه مفهوم ، إذ هن وغيرهن فى ذلك سواء . وفى خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدلّ الدليل على أن لا نفقة لبائن ، إلا أن تــكون حاملاً . وبالذى قلنا صح الخبر عن رسول الله ﷺ .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : حدثتنى فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن أبا عمرو المخزومىّ طلقها ثلاثاً ، فأمر لها بنفقة فاستقلتها . وكان رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن . فانطلق خالد بن الوليد فى نفر من بنى مخزوم إلى رسول الله ﷺ وهو عند ميمونة ، فقال : يارسول الله ! إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثاً ، فهل لها من نفقة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس لها نفقة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن انتقلى إلى بيت أم شريك ، وأرسل إليها أن لاتسبقينى بنفسك . ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون ، فانتقلى إلى ابن مكتوم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك . فزوجها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : لا يخفى على المتأمل لهذه الآى أن المبتوتة غير الحامل ، لا نفقة لها ، لأن الآى سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ، ولم يوجب سواها . ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن . وليس بعد هذا البيان بيان . والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة ، حاملًا أو غير حامل ، لايخفى منافرته لنظم الآية . والزمخشرىّ نصر مذهب أبى حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر أن الحمل ربما طال أمده ، فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله فخصت بالذكر تنبيهاً على قطع هذا الوهم . وغرض الزمخشرىّ بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة كيلا يكون له مفهوم فى إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع فى وجوب النفقة . انتهى .

وفى (الإكليل) : فى الآية وجوب الإنفاق على البائن الحامل حتى تنقضى عدتها . ومفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها . واستدل بعموم الآية من أوجبها للحامل المتوفى عنها . انتهى .

« فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ » يعنى : نساءكم البوائن منكم « فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » أى : على رضاعهن « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ » أى ليقبل بعضكم من بعض ما أمر به من معروف ، ، يعنى : المجاملة والمسامحة فى الإرضاع والأجر . والخطاب للآباء والأمهات .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فيها أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل ، وجب على الأب دفعها إليها ، وليس له أن يسترضع غيرها . وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة .

قال إلْكِيا : وفيها دلالة على أن الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل . انتهى .

وفى قوله : (بمعروف) طلب أن لا يماكس الأب ، ولاتعاسر الأم ، لأنه ولدهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفى وجوب الإشفاق عليه ـ قال الزمخشرىّ ـ .

« وَإِن تَعَاسَرْتُمْ » أى ضيّق بعضكم على الآخر بالمشاحّة فى الأجرة ، أو طلب الزيادة ونحوه ، « فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ » قال ابن جرير(١) : أى فلا سبيل له عليها ، وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبيّ مرضعة غير أمه البائنة منه .

وقال الزمخشرىّ : أى فستوجد ، ولاتعوز مرضعة غير الأم ترضعه . وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم . انتهى .

قال الناصر : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبذل من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متموّل ولا مضنون به فى العرف ، وخصوصاً فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة . فالأم ، إذاً ، أجدى باللوم ، وأحق بالعتب . انتهى .

وفيه أيضاً إشارة إلى معاتبة الأب أيضا ، كما حققه بعضهم ، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب ، وبين أن معاسرته لاتجدى ، إذ لابد من مرضعة أخرى بأجر ، وهذه أشفق منها ، كان فى حكم المعاتب المذكور فى الجواب . وبه يندفع ما يقال : إن المعاسرة فعل الأب والأم ، فكيف يخص الأم بالذكر فى الجزاء . وحاصله أنهما مذكوران فيه ، إلا أن الأم مصرح بها ، والأب مرموز إليه . وتقدير ابن جرير يشير إليه أيضاً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : تدل على أن الأم لا تجبر على الرضاع حيث وجد غيرها، وقبل الصبىّ ثديها . وإلا أجبرت عليه .

قال ابن العربىّ : والآية أصل فى وجوب نفقة الولد على الأب ، خلافاً لمن أوجبها عليهما معاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ، وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا، سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)

« لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ » أى من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة فى أجر رضاع ولده منها ، وعلى ولده الصغير « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ » أى ضيق عليه « فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ » أى على قدر ماله وطاقته «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا» يعنى: وسعها وطاقتها، فلا يكلف الفقير نفقة الغنىّ ، ولا أحداً إلا فرضه الذى وجب عليه «سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » أى سيؤتى المقلّ بعد ضيق فرجاً ، وبعد فقر غنى ، تسلية للمعسرين من فقراء الأزواج ، وتصبير لمطلقاتهن ، وتطييب لقلوب الجميع ، وتبشّر عام .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فيه أن النفقة يراعى فيها حال المنفق يساراً وإعساراً ، وإن نفقة المعسر أقل من نفقة الموسر، لاحال المنفق عليه. واستدل بقوله (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا) من قال : لافسخ بالعجز عن الإنفاق على الزوجة. وفى الآية استحباب مراعاة الإنسان نفسه فى النفقة والصدقة . فى الحديث : إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً : إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر .

روى ابن جرير[١] أن عمر بن الخطاب سأل عن أبى عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا هو أخـــذها ، فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال رحمه الله : تأول هذه الآية (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ » .

ثم حذر تعالى من عصيانه وتعدى حدوده فيما شرعه ، عناية بما مرّ من الأحكام ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا)

[٩] (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

« وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا » أى أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ، « وَرُسُلِهِۦ » أى وعن أمر رسله كذلك « فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا » أى على ماقدمت ، فلم نغادر لها منه شيئاً « وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا » أى منكراً « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا » أى عاقبة ما اكتسبت وجزاءه « وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » قال ابن جرير[٢] : أى غبناً ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[١٠] ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ، قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » يعنى عذاب النار المعدّ فى القيامة « فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى خافوه واحذروا بطشه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى العقول « ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى صدقوا الله ورسله. نعت للمنادى، أو عطف بيان له «قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾

«رَّسُولًا » يعنى محمداً ﷺ، وجعله نفس الذكر مبالغة، لذلك أُبدل منه « يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ » أى لمن سمعها وتدبرها أنها حق من عند الله « لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى من الضلال إلى الهدى «وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا » أى طيّبه ، وفيه تعجيب له وتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » أى : المعبود المستحق للعبادة ، مَن هذا خلقه . لا ما يشرك معه . وههنا .

لطائف

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : قيل ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . انتهى .

قال بعض علماء الفلك : أما كون الأرضين سبعاً كالسموات ، فهو أمر نجهله ولا نفهمه إلا إذا أريد به أن للأرض سبع طبقات . قال: والحق يقال أن كون الأرضين سبعاً ، هو كما يظهر لنا وهم من أوهام القدماء ، ولذلك لم يرد فى القرآن الشريف لفظ الأرض مجموعاً ـ أى أرضين ـ ولم يرد فيه مطلقاً أن الأرضين سبع ، مع أنه ذكر أن السموات سبع، مراراً عديدة وفى كل مرة يذكر معها الأرض بالأفراد . نعم ! ورد فيه قوله تعالى :
(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وهى الآية الوحيدة التى فهموا منها أن الأرضين سبع . وهى كما لا يخفى لا تفيد ذلك مطلقاً .

قال : ولنا فى تفسيرها وجهان :

إما أن تكون (مِن) فى قوله تعالى (وَمِنَ الْأَرْضِ) زائدة ، وإما أن تكون غير زائدة .

أما على الوجه الأول : فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات والأرض خلقها مثلهن . وعلى تفسيرنا هذا تكون هذه الآية دالة على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه . أى : أنها إحدى السيارات، وهو أمر ما كان معروفاً فى زمن النبىّ ﷺ ، وما كان يخطر ببال أحد من العرب ، وذلك من دلائل صدق القرآن. والأرض مثل السيارات الأخرى فى المادة ، وكيفية خلقها ، وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى، وكونها كروية الشكل. فالسيارات أو السماوات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ،

وهى مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة . قال الله تعالى[1] ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أى شيئاً واحداً ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أى فصلنا بعضهما عن بعض ، فالأرض خلقها الله تعالى مثل السموات تماماً .

وأما على الوجه الثانى : وهو أن (مِنْ) غير زائدة، فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات وخلق من الأرض أرضاً مثلهن ، فالآية واردة على طريقة التجريد ، كقولك : اتخذت لى سبعة أصدقاء ، ولى من فلان صديق مثلهم. أى مثلهم فى الصداقة . أو التقدير : وبعض الأرض مثلهن فى مادتها وعناصرها . وعليه ، فليس فى القرآن الشريف أدنى دليل على أن الأرضين سبع كما يزعمون . انتهى.

الثانية ـ ذكر ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع السادس، فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها وتفاوتها فى الحسن فيه ، ما مثاله :

وفى صدد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ، ولم يرد مجموعاً ، كلفظة الأرض ، فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة . فإذا ذكرت السماء مجموعة . جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن . ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ . انتهى .

الثالثة ـ قرئ (مِثْلَهُنَّ) بالنصب ، عطفاً على (سبع) وبالرفع على الابتداء ، وخبره (من الأرض) .

« يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن، وملكه ينفذ فيهن . وقوله: « لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » علة لـ (خلق) أو لـ (يتنزل) أو لمضمر يعمهما ، كفَعَلَ ما فعل لتعلموا . . . الخ ، فإن كلًّا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] .

قال ابن جرير(١) : أى نخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم ، عقوبته . فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع . وهو على ذلك قادر ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلا يخفى عليه منها خافٍ ، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

٦٦ ـ سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية ، وآيها اثنتا عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » . قال المهايمىّ : ناداه ليُقْبِل إليه بالكلية ، ويُدْبِر عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن . وعبّر عنه بالمبهم إشعارًا منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لا يعلم كنهه . وأتى بلفظ (ٱلنَّبِىُّ) إشعارًا بأنه الذى نبىء بأسرار التحليل والتحريم الإلهىّ . والمراد بتحريمه ما أحلّ له ، امتناعه منه ، وحظره إيّاه على نفسه . وهذا المقدار مباح ، ليس فى ارتكابه جناح . وإنما قيل له (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) رفقاً به ، وشفقة عليه ، وتنويهاً لقدره ولمنصبه ﷺ ، أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشقّ عليه ، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيّه ، ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، ومن أجله خُلقوا ، ليظهر الله كمال نبوّته ، بظهور نقصانهم عنه ـ كما أفاده الناصر ـ .

تنبيهان :

الأول : للأثريين فى هذا الذى حرمه ، صلوات الله عليه ، على نفسه ، روايات .

فروى البخارىّ ومسلم[١] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يشرب عسلًا عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ١ ـ باب يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ، حديث رقم ٢٠٦٣

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢٠ (طبعتنا) .

فلتقل له : إني أجد منك ريح مغافير ، أكلتَ مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال: بل شربت عسلًا عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفتُ ! لا تخبرى بذلك أحداً ، فنزلت الآية .

وروى الشيخان[1] أيضاً عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه ، فيدنو من كل واحدة منهن . فدخل على حفصة بنت عمر ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس . فسألتُ عن ذلك ، فقيل لى : أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة ، فقلت : والله لنحتالنّ له ! فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك ، ودنا منك ، فقولى له : يارسول الله ! أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك : لا ! فقولى له : وما هـذه الريح ؟ وكان ﷺ يكره أن يوجد منه الريح الكريه ! فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل ، فقولى له : أكلت نحله العرفطَ ، حتى صار فيه ـ أى فى العسل ـ ذلك الريح الكريه . وإذا دخل علىّ فسأقول له ذلك . وقولى أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت له مثل ما علمتها عائشة ، وأجابها بما تقدم . فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك . فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك . فلما كان اليوم الآخر ودخل على حفصة قالت له : يارسول الله ! ألا أسقيك منه ؟ قال . لاحاجة لى به ! قالت : إن سودة تقول : سبحان الله، لقد حرمناه منه ، فقلت لها : اسكتى!

و (المغافير) صمغ حلوٌ له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له (العرفط) بضم العين المهملة والفاء .

وفى هذه الرواية أن التى شرب عندها العسل حفصة ، وفى سابقتها أنها زينب . والاشتباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٨ ـ كتاب الطلاق ، ٨ ـ باب لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث رقم ٢٠٦٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢١ (طبعتنا) .

وروى ابن جرير[١] عن ابن عباس قال : كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتى النبىّ ﷺ ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبىّ ﷺ إلى جاريته ، فظلت معه فى بيت حفصة ، وكان اليوم الذى يأتى فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها فى بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتنى ! فقال النبىّ ﷺ : والله لأرضينك ، فإنى مسرّ إليك سرًّا فاحفظيه ! قالت : ما هو ؟ قال : إنى أشهدك أن سريتى هذه علىّ حرام ، رضا لك . وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبىّ ﷺ . فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأسرت إليها أن أبشرى ، إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته . فلما أخبرت بسر النبىّ ﷺ ، أظهر الله عز وجل النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ . . .) الآيات .

وروى أيضاً[٢] عن الضحاك قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتاة يغشاها ، فبصرت به حفصة ، وكان اليوم يوم عائشة ، وكانتا متظاهرتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتمى علىّ ، ولا تذكرى لعائشة ما رأيتِ ، فذكرت حفصة لعائشة ، فغضبت عائشة ، فلم تزل بنبىّ الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها أبداً ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يكفر يمينه ويأتى جاريته .

وروى النسائىّ عن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرمها ، فأنزل الله هذه الآية .

ولم يرجح ابن جرير أحد السببين المرويين فى نزولها على الآخر ، بل وقف على إجمال الآية ، على عادته فى أمثالها ، ولذا قال : الصواب أن يقال : كان الذى حرمه النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

على نفسه شيئا كان الله قد أحله له . وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون شراباً من الأشربة ، وجائز أن يكون غير ذلك . غير أنه ، أى ذلك كان، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالًا ، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وبين له تحلة يمينه . انتهى .

والذى يظهر لى ، هو ترجيح روايات تحريم الجارية فى سبب نزولها ، وذلك لوجوه :

منها ـ أن مثله يبتغى به مرضاة الضرات ، ويهتم به لهن .

ومنها ـ أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن ، بل فيه أنه حلف لايشربه أنفة من ريحه ، ثم رغب إلى عائشة أن لاتحدث صاحبته به شفقة عليها . إلا أن يكنَّ عاتبنه فى ذلك ، ولم يحتمل لطف مزاجه الكريم ذلك ، فحرمه . ولكن ليس فى الرواية مايشعر به . وما زاد على ذلك فمن اجتهاد الرواة .

ومنها ـ أن الاهتمام بإنزال سورة على حدة ، لتقريع أزواجه صلى الله عليه وسلم وتأديبهن فى المظاهرة عليه ، وإيعادهن على الإصرار على ذلك ، بالاستبدال بهن ، وإعلامهن برفعة مقامه ، وأن ظهراءه مولاه وجبريل والملائكة والمؤمنون ، كل ذلك يدل على أن أمراً عظيما دفعهن إلى تحريمه ما حرم وما هو إلا الغيرة من مثل ما روى فى شأن الجارية ، فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على مايقطع وصلة الضرة الضعيفة ويبترها من عضو الزوجية . هذا ما ظهر لى الآن .

وأما تخريج رواية العسل فى هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عرف من عادة السلف فى قولهم : نزلت فى كذا، كما نبهنا عليه مراراً . وكأنه عليه السلام كان حرم ذلك الشراب ، ثم أخبر الرواة بأن مثله فرضت فيه التحلة ، فلا مانع من العود إلى شربه ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى (الإكليل) : استدل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعاماً أو زوجة، لم تحرم عليه ، وتلزمه كفارة يمين .

وروى البخاريّ [١] عن ابن عباس قال : فى الحرام يكفِّر . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

وذهب ابن جرير [٢] إلى أنه كان مع التحريم يمين ، ورد كون التحريم بمجرده يميناً ، وفيه نظر ، لأن اليمين فى عرفهم أعم من القسم بالله ، كما ذهب إليه ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم .

قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم حرمها ، يعنى جاريته ، فكانت يميناً ـ رواه ابن جرير ـ وسيأتى ما يؤيده . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢] (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ، وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ)

« قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ » أى : شرع تحليلها ـ وهو حل ماعقدته ـ بالكفارة . والتحلة ، مصدر بمعنى التحليل . « وَٱللَّهُ مَوْلَـٰكُمْ » أى: متولى أموركم « وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ » أى بمصالحكم « ٱلْحَكِيمُ » أى : فى تدبيره إياكم بما شرعه وحكم به .

تنبيهات

الأول : قال ابن قدامة فى (الروضة) . دلت الآية على أن حكم خطابه صلى الله عليه وسلم لا يختص به ، لأنه لما عاتبه فى تحريم ما أحل له قال عقيبه : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ١ ـ باب يا أيها النبىّ لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث ٢٠٧٢ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ ـ كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٨ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أَيْمَـٰنِكُمْ) وابتدأ الخطاب بمناداته وحده ، ثم تممه بلفظ الجمع بقوله : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) . والمسألة طويلة الذيل فى الأصول .

الثانى ـ قال تقىّ الدين ابن تيمية : التحلة مصدر حللت الشىء تحليلاً وتحلة ، كما يقال : كرمته تكريماً وتكرمة ، وهذا المصدر يسمى به المحلل نفسه، الذى هو الكفارة . فإن أريد المصدر ، فالمعنى : فرض الله لكم تحليل اليمين ، وهو حلها الذى هو خلاف العقد .

ولهذا استدل مَن استدل من أصحابنا وغيرهم كأبى بكر عبدالعزيز، بهذه الآية على التكفير قبل الحنث ،لأن التحلة لاتكون بعد الحنث، فإنه بالحنث ينحل اليمين ، وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لينحل اليمين ، وإنما هى بعد الحنث كفارة ، لأنها كفرت ما فى الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله . فإذا تبين أن ما اقتضت اليمين من وجوب الوفاء بها ، رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التى جعلها بدلاً من الوفاء فى جملة ما رفعه عنها من الآصار .

الثالث ـ شمل قوله تعالى (أَيْمَـٰنِكُمْ) تحريم الحلال المذكور قبل ، وهو الزوجة، لدخوله فيه دخولاً أوليًّا ، بل كل يمين .

قال تقىّ الدين ابن تيمية فى فتاويه : قوله تعالى (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) نصٌّ عام فى كل يمين يحلف بها المسلمون ، أن الله قد فرض لها تحلة . وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة ، بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبيّ ﷺ ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى : فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة ، لكان مخالفاً للآية . كيف وهذا عام لم تخص فيه صورة واحدة ، لا بنص ولا بإجماع ، بل هو عام عموماً معنوياً ، مع عمومه اللفظىّ ؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل . فشرعُ التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وهذا موجود فى اليمين بالعتق والطلاق ، أكثر منه فى غيرها من أيمان نذر اللجاج والغضب : فإن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقتلن النفس ، أو ليقطعن رحمه ، أو ليمنعن الواجب عليه من أداء أمانة ونحوها ، فإنه يجعل الطلاق عرضة ليمينه ،

أن يبرّ ويصلح بين الناس ، أكثر مما يجعل الله عرضة . ثم إن وفى بيمينه ، كان عليه من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه. وإن طلق امرأته، ففى الطلاق أيضاً من ضرر الدين والدنيا ما لا خفاء به . وأيضاً فإنه تعالى قال : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وذلك يقتضى أنه ما من تحريم لما أحل الله ، إلا والله غفور لفاعله ، رحيم به ، وأنه لا علة تقتضى ثبوت ذلك التحريم ، لأن قوله لأى شيء استفهام فى معنى النفى والإنكار . والتقدير : لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم . فلو كان الحالف بالنذر والعتاق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له ، لكان هنا سبب يقتضى تحريم الحلال ، ولا يبقى موجب المغفرة والرحمة على هذا الفاعل .

ومما يوضح عمومه أنهم قد أدخلوا الحلف بالطلاق فى عموم حديث(١) : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . فأدخلوا فيه الحلف بالطلاق والعتاق والنذر والحلف بالله . وهذه الدلالة تنبيه على أصول الشافعىّ وأحمد ومن وافقهما فى مسألة نذر اللجاج والغضب . فإنهم احتجوا على التكفير فيه بهذه الآية ، وجعلوا قوله (تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ) كفارة أيمانكم عامًّا فى اليمين بالله واليمين بالنذر . ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب فى الحج والعتق ونحوهما ، سواء .

فإلى قيل : المراد بالآية اليمين بالله فقط ، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين ، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة فى قوله(٢) (عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ) و (تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ) منصرفاً إلى اليمين المعهودة عليهم ، وهى اليمين بالله ، وحينئذ فلا يعلم من اللفظ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور ، ٩ ـ باب الاستثناء فى اليمين ، حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

(٢) [٥ / المائدة / ٨٩] .

إلا المعروف عندهم ، والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم ، ولو كان اللفظ عامًّا ، فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة ، كاليمين بالمخلوقات ، فلا يدخل الحلف بالطلاق ونحوه ، لأنه ليس من اليمين المشروعة، لقوله(١): مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ . وهذا سؤال من يقول : كل يمين غير مشروعة، فلا كفارة لها ولا حنث .

فيقال : لفظ اليمين شمل هذا كله ، بدليل استعمال النبيّ ﷺ والصحابة والعلماء اسم اليمين فى هذا كله ، كقوله ﷺ : النذر حلف . وقول الصحابة لمن حلف بالهدى بالعتق : كفر يمينك . وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبيّ ﷺ . ولإدخال العلماء ذلك فى قوله ﷺ(٢) : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . ويدل على عمومه فى الآية أنه سبحانه قال : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّـهُ لَكَ) ثم قال : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّـهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) فاقتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين ، كما استدل به ابن عباس .

وسبب نزول الآية إما تحريمه العسـل ، وإما تحريمه مارية القبطية . وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية ، وليس يميناً بالله . ولهذا أفتى جمهور الصحابة ، كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس وغيرهم؛ أن تحريم الحلال يمين مكفرة، إما كفارة كبرى كالظهار ، وإما كفارة صغرى كاليمين بالله. وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً.

وأيضاً فإن قوله (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّـهُ لَكَ) إما أن يراد به لم تحرم بلفظ الحرام ، وإما لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها ، وإما لم تحرمه مطلقاً. فإن أريد الأول والثالث، فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله تعالى، ثم فيعم . وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله ، فقد سمى الله الحلف بالله تحريماً للحلال . ومعلوم أن اليمين بالله لم يوجب الحرمة الشرعية. لـكن لما أوجبت

(١) أخرجه البخاريّ فى ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٤ ـ باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأوّلا ، حديث رقم ١٢٩٨ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود فى ٢١ ـ كتاب الأيمان والنذور . ٩ ـ باب الاستثناء فى اليمين، حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

امتناع الحالف من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل تحريماً شرطيًّا ، لاشرعيًّا . فكلٌّ يوجب امتناعه من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل فيدخل فى قوة قوله: « لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ » وحينئذ فقوله : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) لابد أن يعم كل يمين حرمت الحلال ، لأن هذا حكم ذلك الفعل ، فلابد أن يطابق صوره ، لأن تحريم الحلال هو سبب قوله : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ) وسبب الجواب إذا كان عامًّا كان الجواب عامًّا ، لئلا يكون جواباً عن البعض دون البعض ، مع قيام السبب المقتضى للتعميم .

وقال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) الذين أوجبوا كفارة اليمين بالتحريم أسعد بالنص من الذين أسقطوها . فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) . وهذا صريح فى أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان ، إما مختصا به ، وإما شاملًا له ولغيره ، فلا يجوز أن يخلى سبب الكفارة المذكورة فى السياق عن حكم الكفارة ، ويتعلق بغيره ، وهذا ظاهر الامتناع .

وأيضاً فإن المنع من فعله بالتحريم ، كالمنع منه باليمين ، بل أقوى . فإن اليمين، إن تضمن هتك حرمة اسمه سبحانه ، فالتحريم تضمن هتك حرمة شرعه وأمره ، فإنه إذا شرع حلالًا فحرمه المكلف ، كان تحريمه هتكاً لحرمة ماشرعه .

ونحن نقول : لم يتضمن الحنث فى اليمين هتك حرمة الاسم ، ولا التحريم هتك حرمة الشرع ، كما يقوله من يقوله من الفقهاء ، وهو تعليل فاسد جدًّا ، فإن الحنث إما جائز ، وإما واجب ، أو مستحب . وما جوز الله لأحد البتة أن يهتك حرمة اسمه ، وقد شرع لعباده الحنث مع الكفارة .

وأخبر النبىّ ﷺ (١) أنه إذا حلف على يمين، ورأى غيرها خيراًمنها كفرعن يمينه، وأتى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور، ١٨ ـ باب اليمين فيما لايملك وفى المعصية وفى الغضب ، حديث ١٤٧٦ ، عن أبى موسى الأشعرىّ . ونصه : أتيت =

المحلوف عليه . ومعلوم أن هتك حرمة اسمه تبارك وتعالى، لم يبح في شريعة قط، وإنما الكفارة كما سماها الله تعالى ، تحلة . وهي تفعلة من (الحل) ، فهي تحل ما عقد به اليمين ليس إلا . وهذا العقد ، كما يكون باليمين ، يكون بالتحريم . وظهر سر قوله تعالى : (قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ) ، عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) .

وقال رحمه الله فيه ، قبلُ : أما من قال إنه يمين مكفرة بكل حال ، فمأخذ قوله أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة ، فإن الله سبحانه قال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ...) الآية . ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض ، لأنه سببه ، وتخصيص محل السبب من جملة العامّ ، ممتنع قطعاً ، إذ هو المقصود بالبيان أولًا ، فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان ، وهو ممتنع . وهذا استدلال في غاية القوة . فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فقال : نعم ! التحريم يمين كبرى في الزوجة ، كفارتها كفارة الظهار ، ويمين صغرى فيما عداها ، كفارتها كفارة اليمين بالله . قال وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم : إن التحريم يمين يكفّر .

وقال رحمه الله في (أعلام الموقعين) : لا يجوز أن يفرق بين المسلم وبين امرأته بغير لفظ لم يوضع للطلاق ولا نواه ، وتلزمه كفارة يمين حرمه لشدة اليمين ، إذ ليست كالحلف بالمخلوق التي لا تنعقد ، ولا هي من لغو اليمين ، وهي يمين منعقدة ، ففيها كفارة يمين .

ثم قال في المذهب الثالث عشر : إنه يمين يكفره ما كفر اليمين على كل حال . صح ذلك أيضاً عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وزيد بن ثابت وابن مسعود وعبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن والشعبيّ وسعيد ابن المسيّب وسليمان بن يسار وجابر بن زيد وسعيد بن جبير ونافع والأوزاعيّ وأبي ثور ، وخلق

= رسول الله ﷺ في نفر من الأشعريين ، فوافقته وهو غضبان . فاستحملناه . فحلف أن لا يحملنا . ثم قال : والله ! إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير ، وتحللتها .

سواهم رضى الله عنهم . وحجة هذا القول ظاهر القرآن ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناوله يقيناً ، فلا يجوز جعل تحلة الأيمان لغير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التى قصد ذكرها لأجله .

وقال فى (زاد المعاد) : لا فرق بين التحريم (فى غير الزوجة) بين الأَمَة وغيرها عند الجمهور ، إلا الشافعىّ وحده ، فإنه أوجب فى تحريم الأَمَة خاصة ، كفّارة اليمين ، إذ التحريم له تأثير فى الأبضاع عنده ، دون غيرها : وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية ، فلا يخرج محل السبب عن الحكم ، ويتعلق بغيره . ومنازعوه يقولون : النص علق فرض تحلة اليمين بتحريم الحلال ، وهو أعمّ من تحريم الأَمَةِ وغيرها ، فتجب الكفار حيث وجد سببها . وقد تقدّم تحريره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ، قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

« وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ » يعنى محمداً ﷺ « إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ » هى حفصة فى قول الرواة : ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والشعبىّ والضحاك ـ كما نقله ابن جرير ـ « حَدِيثاً » وهو تحريم فتاته فى قولهم . قال ابن جرير(١) : أو ماحرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد أحلّه له ، وقوله : لاتذكرى ذلك لأحد .

« فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ » أى أخبرت بالسرّ ، صاحبتَها كما تقدم ، « وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ » أى أطلعه على تحديثها به ، « عَرَّفَ بَعْضَهُۥ » أى عرّفها بعض ماأفشته مُعاتِباً « وَأَعْرَضَ

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

عَنۢ بَعْضٍ » أى بعض الحديث تكرّماً ، « فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ » أى الذى لا تخفى عليه خافية .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمانه . وفيها حُسْن المعاشرة مع الزوجات ، والتلطّف فى العتب ، والإعراض عن استقصاء الذَّنْب .

وحكى الزمخشرىّ عن سفيان قال : ما زال التغافل من فعل الكرام .

ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيّه، صلوات الله عليه، مما أتت به من إفشاء السرّ إلى صاحبتها، ومن مظاهرتهما على ما يقلق راحته ، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ)

« إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » أى إلى الحق . وهو ماوجب من مجانبة ما يسخط رسوله . وقد صح[١] عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن المتظاهرتين على رسول الله ﷺ فقال : عائشة وحفصة .

وفى خطابهما ، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة ، فإن المبالغ فى العتاب يصير المعاتب مطرودًا بعيدًا عن ساحة الحضور. ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد. «وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ »أى تتظاهرا وتتفقا على ما يسوؤه ، « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٢ ـ باب تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ، حديث رقم ٧٦ ، وهو حديث طويل ممتع كل الإمتاع .

وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ » أى متظاهرون على من أراد مساءته ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه ؟ ولما كانت الملائكة أعظم المخلوقات وأكثرهم ، ختم الظهراء بهم ليكون أفخم فى التنويه بالنبيّ صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هى هنا بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، يتأثر أميره وقائده ، ليحمل على عدوّه ومناوئه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا)

« عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ » أى خاضعات لله بالطاعة « مُّؤْمِنَٰتٍ » أى مصدّقات بالله ورسوله « قَٰنِتَٰتٍ » أى مطيعات لما يؤمرن به « تَٰٓئِبَٰتٍ » أى من الذنوب لا يصررن عليها « عَٰبِدَٰتٍ » أى متعبّدات لله ، كأن العبادة امتزجت بقلوبهن ، حتى صارت ملكة لهن « سَٰٓئِحَٰتٍ » قيل : معناه صائمات ـ وسننبه على ما فيه ـ « ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا » .

اعلم أن فى توصيف المبدلات بهذه الصفات ، تعريضاً بوجوب اتصاف الأزواج بها ، لا سيما أزواج النبيّ ﷺ .

تنبيه :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من (سائحات) صائمات أو مهاجرات . وقد قدمنا فى سورة التوبة فى تفسير (السائحون) أن الحق فيه هو المعنى الحقيقىّ ، لعدم مايمنع منه ، ولا يصار إلى المجاز إلا لمانع . ولذا قال بعض المحققين : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء ، كما هى كذلك للرجال ، فمعنى قوله تعالى (سَٰٓئِحَٰتٍ) مسافرات ، سواء كان السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة . وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهن ، حفظاً لهن .

• ثم قال: كأن الذى دعا البعض لتفسير (السائحات) بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أن السياحة فى البلاد لا تناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب ، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التى ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد ؟! وأما قوله تعالى[١] : (خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً) فكأنه مخصوص بالرجل ، أو كأن الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة ، نازلة من السماء ليس للأمة جميعاً ، بل للنصف منها، وهو الرجال. وحاشا أن يكون ذلك ! أين هديه ﷺ فى سفره مع أزواجه ؟ فقد كان يقرع بينهن ، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها ، وسافرت معه . وقد صار ذلك شريعة معمولاً بها فى الدين . وهكذا صح[٢] أنه ﷺ لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب .

وبالجملة فالسياحة فى القرآن الكريم ليست ترمى إلى غاية واحدة ، بل إلى عدة غايات وفوائد .

أولاً ـ إدراك المعقولات ، والإحاطة بعظات المسموعات، كما نتعلمه من آية[٣] : (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) .

ثانياً ـ الوقوف على أحوال الأمم البائدة ، ومالهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار ، كما نتعلمه من قول الكتاب الحكيم[٤] : (أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٩] . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ١٠٤ ـ باب قول الرجل جعلنى الله فداك ، حديث رقم ٢٤٦ ، عن أنس بن مالك .

(٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٤) [٤٠ / غافر / ٢١] .

بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ) وقوله[١] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

ثالثاً ـ البحث والتنقيب فى أنحاء المسكونة بالنظر فى الكون، وفى الفنون، للوصول إلى معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما يحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالى بقوله[٢] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ).

رابعاً ـ الحصول على ربح التجارة كما نتعلم ذلك من قول الكتاب الكريم[٣] (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ).

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصًّا بالرجل ؟ كلا ! وقد امتن الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله[٤]: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ، وَأَيَّامًا آمِنِينَ). وامتن على جميع عباده بقوله[٥]: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) وقال تعالى[٦] (مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) فهل يجوز أن نذهب إلى أن هذه المنن هى من مخصوصات الرجل دون النساء ؟ كلا ! بل الكل مغمور بهذه المنات ، كما هو مقتضى عموم الآيات . انتهى ملخصاً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» أى سببها. وذلك بترك المعاصى،

---

(١) [٣٠ / الروم / ٩] .
(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠] .
(٣) [٧٣ / المزمل / ٢٠] .
(٤) [٣٤ / سبأ / ١٨] .
(٥) [١٠ / يونس / ٢٢] .
(٦) [٥ / المائدة / ٩٦] .

وفعل الطاعات، والقيام على تأديب الأهل، وأخذهن بما تأخذون به أنفسكم « وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ » أى تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب « عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ » أى تلى أمرها وتعذيب أهلها ، زبانية « غِلَاظٌ شِدَادٌ » أى جفاة قساة « لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » قال الزمخشريّ . وليست الجملتان فى معنى واحد . فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية: أنهم يؤدون مايؤمرون به ، لا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . انتهى .

وقيل : الجملة الأولى لبيان استمرار إتيانهم بأوامره ، والثانية لأنهم لا يفعلون شيئاً مالم يؤمروا به ، كقوله[1] تعالى (وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ) فإن استمرارهم على فعل ما يؤمرون به يفيده ، فلا تكرار . وقيل : إنه من الطرد والعكس ، وهو يكون فى كلامين ، يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر ، وبالعكس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى يقال لهم ذلك عند دخولهم النار . فالمراد بـ (اليوم) وقت دخولهم إياها ، فتعريفه للعهد ، والنهى عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم ، أو العذر لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا » أى توبة ترقع الخروق، وترتق الفتوق ، وتصلح الفاسد ، وتسد الخلل . من (النصح) بمعنى الخياطة . أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذى تاب عنه ، والنظر إليه بعدم الالتفات ، وقطع النظر عنه . من (النصوح) بمعنى الخلوص « عَسَىٰ رَبُّكُمْ » أى بمناصحة أنفسكم بالتوبة النصوح « أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ » أى لا يذلّهم . تعريض لأعدائهم بالخزى والصغار « نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا» أى أدمه أو زده « وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ » أى بالسنان والبرهان «وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى فيما تجاهدهم به ، لتنكسر صلابتهم، وتلين شكيمتهم وعريكتهم ، فتنقهر نفوسهم وتذل وتخضع . « وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ)

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ » أي حالها « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا » أي بالمظاهرة عليهما والكفر والعصيان ، مع تمكنهما من الطاعة والإيمان « فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ » أي من عذابه « شَيْـًٔا وَقِيلَ » أي لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة : « ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ » أي مع سائر الداخلين من الفجرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[١٢] (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ)

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أي من عملهم وعذابهم « وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أي حفظته وصانته « فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا » يعني: جبريل عليه السلام، أو من روح خلقناه بلا توسط، وهو عيسى عليه السلام « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا » أي بصحفه المنزلة من عنده « وَكُتُبِهِۦ » أي الموحاة. والعطف للتفسير ، أو الكلمات أعم من المكتوب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب خاصة بالمخطوط من الأسفار . « وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ » أي من المواظبين على الطاعة لله، والخضوع لأحكامه . والتذكير للتغليب .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشريّ : مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم

وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، لأن عدواتهم لهم ، وكفرهم بالله ورسوله، قطع العلائق ، وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر ، نبيًّا من أنبياء الله ـ بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما ، بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج ، إغناءً ما من عذاب الله . ومثل حال المؤمنين فى وصلة الكافرين لاتضرهم ، ولاتنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله ـ بحال امرأة فرعون ، ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، الناطق بالكلمة العظمى . ومريم ابنة عمران ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفى طىّ هذين التمثيلين تعريض بأمّى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ ، بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما فى التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه فى التغليظ قوله تعالى[1] : (وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتيْن ، وأن لاتتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ ، فإن ذلك الفضل لاينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله . وأسرارُ التنزيل ورموزه فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء حدًّا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

الثانى : قال الإمام ابن القيم فى (أعلام الموقعين) اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين .

فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أو وصلة صهر ، أو سبب من

---

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] .

أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح ، مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما . فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله، وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبى، ولو كان بينهما فى الدنيا أشد الاتصال. فلا اتصال فوق اتصال البنوّة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال تعالى(1) : (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ، يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) : وقال تعالى(2) : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا) وقال تعالى(3) (وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا) وقال(4) (وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ، إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة ؛ أن من تعلقوا به من دون الله، من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة ، أو يجيرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله. وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم وهو الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الذى بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه ، بإبطاله ، ومحاربة أهله ومعاداتهم .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه فى كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة، وإن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتى عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما ، وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثانى للمؤمنين : مريم ، التى لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر .

(1) [٦٠ / الممتحنة / ٣] . (2) [٨٢ / الانفطار / ١٩] .
(3) [٢ / البقرة / ٤٨ و ١٢٣] . (4) [٣١ / لقمان / ٣٣] .

فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد . فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبيّ ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما ، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة . ثم ضرب لها المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة . وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم اعتبار آخر : وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً ، قذفُ أعداء الله اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه . وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها . كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتاه في حق النبيّ ﷺ . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن ، والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون . انتهى .

الثالث ـ قال القاشانيّ : بيّن تعالى أن الوصل الطبيعية، والاتصالات الصورية غير معتبرة في الأمور الأخروية . بل المحبة الحقيقية ، والاتصالات الروحانية ، هي االمؤثرة فحسب . والصورية التي بحسب اللحمة الطبيعية والخلطة والمعاشرة لا يبقى لها أثر فيما بعد الموت ، ولا تكون إلا في الدنيا ، بالتمثيلين المذكورين . وإن المعتبر في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح ، والاعتقاد الحق ، كإحصان مريم ، وتصديقها بكلمات ربها ، وطاعتها المعدة إياها

لقبول نفخ روح الله فيها . وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التى لاتفى بالطاعة ، ولا تحفظ الأسرار ، وتبيح المخالفة ، داخلة فى نار الحرمان ، وجحيم الهجران مع المحجوبين، ولا تغنى هداية الروح عنها شيئاً من الإغناء فى باب العذاب . وأن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة الفرعونية ، الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق الذى قويت فيه قوة محبة الله لصفائه، وضعفت قوة قهره للنفس والشيطان لعجزه وضعفه ، لايبقى فى العذاب مخلدا ويخلص إلى النجاة ، ويبقى فى النعيم سرمدا ، وإن تعذب بمجاورتها حيناً ، وتألم بأفعالها برهة . وأن النفس المتزينة بفضيلة العفة المشار إليها بإحصان الفرج ، هى القابلة لفيض روح القدس المتنورة بنور الروح المصدقة بكلمات الرب ، من العقائد الحكمية ، والشرائع الإلهية، المطيعة لله مطلقاً ، علما وعملا ، سرًّا وجهراً . انتهى ملخصاً .

الرابع ـ فى (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) على صحة أنكحة الكفار . أقول: ويستدل بقوله تعالى (ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ إلى قوله : فَخَانَتَاهُمَا) على جواز استدامة الرجل الصالح نكاح امرأته الفاسقة العاصية ، وعلى أن استبقاءها بدون مفارقة لايعد من قلة التورع . وهو جلىّ . ويستدل بذلك أيضاً على أن نكاح المشركات كان جائزاً فى شرع من قبلنا ، وقد حظره الإسلام أشد الحظر ، كما مرّ فى آيات عديدة .

الخامس : قال ابن كثير فى قوله تعالى عن حكاية امرأة فرعون (رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ) قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شىء من ذلك فى حديث مرفوع .

السادس ـ قال الزمخشرىّ : فى دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستعاذة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين [1] (فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ)[2] .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] . (١) [١٠ / يونس / ٨٥و٨٦] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٧ – سورة الملك

قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على كثير مما ينبغي أن يكون عليه الملك من كثرة الخيرات ، وعموم القدرة ، والإحياء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والغفران ، ورفع الأبنية لخدامه وعدم التفاوت في رعاياه ، وتزيين بلاده ، والقهر على الأعداء ، والترحم على الأولياء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا يقدر أحد على نصر من عاداه ، ولا على رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة (تبارك) . وهي مكية . وآيها ثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

« تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » قال ابن جرير[1] : أى تعاظم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانىّ : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلوّ والبركة . وباعتبار تسخيره عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذى هو التنزيه ، كقوله[2] (فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) كلاًّ بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام، والتنزه يناسب المجردات عن المادة .فمعنى (تبارك) تعالى وتعاظم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ماوجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدها على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ)

« ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى:قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٣] .

فأمات من شاء وما شاء ، وأحيي من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسبما قدّره .

قال القاشانيّ : الموت والحياة من باب العدم والملكة. فإن الحياة هي الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له. وعدم الملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود. والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجوديّ، فلذلك صح تعلق الخلق به، كتعلقه بالحياة،وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان في حسن العمل وقبحه، أي العلم التابع للمعلوم الذي يترتب عليه الجزاء، وهو العلم الذي يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع المعلوم ، فإنه ليس إلا علم الله الكامن في الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم، لأن الحياة هي التي يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعي إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها، وبهما تتفاضل النفوس في الدرجات، وتتفاوت في الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت في عالم الملك ذاتيّ ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقديمه لأن فيه عظة وتذكرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصي .

« وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أي : الغالب الذي يقهر من أساء العمل « ٱلْغَفُورُ » أي لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ، مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ)

« ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير[١] : طبقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وقال المهايمىّ : أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليتم أمر الحكمة فى الكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ (السماء) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان، فإنه من السموّ ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى[١] (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ) أى فليمدد بحبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللانهائىّ سماء . ومنه قوله تعالى[٢] : (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ) . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى[٣] (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) والكواكب سماوات. فالسموات السبع المذكورة كثيراً فى القرآن الشريف ، هى هذه السيارات السبع ، وهى طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب فى رعاية الحكمة ، بل راعاها فى كل خلقه .

« فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى إن شككت، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ؟ » أى: خلل . وأصل (الفطور) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هى متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم فى سورة (ق) فى آية[٤]: (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) .

---

(١) [٢٢ / الحج / ١٥] . (٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٤] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢٢] . (٤) [٥٠ / قٓ / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

« ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ » أى كرره « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والعبث . والمراد بالتثنية التكرير . « يَنقَلِبْ » أى: يرجع « إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا » أى : مطروداً عن إصابة المطلوب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معيي كالٌّ .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب الزمخشرىّ إلى أن قوله تعالى (مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) صفة ثانية لقوله : (سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ) وضع فيها ـ خَلْق الرحْمَٰن ـ موضع الضمير للتعظيم ، والأصل (فِيهِنَّ) وتابعه القاضى والقاشانىّ ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك فى خلق السموات ، لاترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها. وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادىء سائر النعم الدنيوية ، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لايفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : (مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) مستأنفاً ، مقرراً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله ـ لكان أولى من تخصيصه بوصفية ماقبله ، ويكون كآية[1] : (أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ)وآية[2]: (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) وتلطف بعضهم فقال : فى الآية إشارة إلى قياس تقديره : ماترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى فى خلقه من تفاوت .

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثانى ـ للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب (الفِصَل) ساقه فى مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نفاه الله تعالى عن خلقه ، فإذن ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نفاه الله تعالى عما خلق هو شىء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لـكذب قول الله عز وجل (مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر، فبطل ظن المعتزلة أن الـكفر والظلم والـكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئىّ فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود فى العالم أصلًا ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعـالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى، وهو كله مخلوق لله تعالى، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستوياً فى تفضيل أجناسه وأنواعه، بحدودها المميزة لها، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهيأة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لا تفاوت فى شىء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شىء منه أصلًا . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الـكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضا نعلم أن الـكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفة ، وتحت اسم العرض ، وقوعا حقا مستويا لاتفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول فى الظلم والإنصاف ، وفى العدل والجور ، وفى الصدق والكذب ، وفى الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما فى العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التى ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهى الجوهر والكم والكيف والإضافة . فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لامنفك لهم عنها ، وهى أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً فى خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهى أن يرى فى خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث ـ قال الناصر : فى قوله تعالى (يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا) وضع للظاهر موضع المضمر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذى يرجع خاسئاً حسيراً غير مدرِكٍ الفطورَ ، هو الآلة التى يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شىء ، دل على أنه لا شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ)

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » قال ابن جرير [(١)] : وهى النجوم . وجعلها (مَصَابِيحَ) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذى يضىء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ » قال ابن كثير : عاد الضمير فى قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(وَجَعَلْنَـٰهَا) على جنس المصابيح ، لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ـ والله أعلم ـ .

وقال القاضى : أى وجعلنا لها فائدة أخرى هى رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس ـ وهم المنجمون ـ .

قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و (الرجم) يكون بمعنى الظن، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات(1) (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ» أى فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ)

[٧] (إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ)

[٨] (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ، كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

[٩] (قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ)

[١٠] (وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

[١١] (فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ)

(1) [٣٧ / الصافات / ٦ ـ ١٠] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً .

« إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسيّ ، أو لأنفسهم . فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله (١) (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . أولها نفسها، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِىَ تَفُورُ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ » أى تتفرق أجزاؤها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله. شبهت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ ـ كما فى شرح المفتاح الشريفى ـ وأما ثبوت الغيظ الحقيقىّ لها ، بخلق الله فيها إدراكا ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن (تكاد) تأباه ، كما فى قوله (٢) : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ) وقد صرح به علماء المعانى فى بحث المبالغة والغلوّ . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازىّ ، أو على تقدير مضاف ـ كما فى (العناية) ـ .

« كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال فى (الإكليل) : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

---

(١) [١١ / هود / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

« قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ » أى : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا فى التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا فى نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أى : من النُّذُر ما جاءت به ، سماعَ طالب الحق ، وعقلَ مَن نبذ الهوى « مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أى : فى عداد أهل النار .

تنبيهان :

الأول ـ قال الناصر : لو تفطن نبيهٌ لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثانى ـ قال ابن السمعانىّ فى (القواطع) : استدل به من قال بتحكيم العقل .

وقال الزمخشرىّ : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » أى : فأقروا بجحدهم الحق ، وتكذيبهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ » أى يخافونه أو يخافون عذابه، وهم لم يروه « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

« وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » أى بضمائرها، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر، مَن خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » أى اللطيف بعباده ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة فـ(من) مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزالىّ : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، ومالطف منها ، ثم يسلك فى إيصال مايصلحها سبيل الرفق، دون العنف. و (الخبير) هو الذى لايعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك فى الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى العليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ)

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير(١) : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه .

« وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ » أى التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره . فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

« وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ) الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير : فى الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه فى تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى : سافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ، فى أنواع المكاسب والتجارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ)

[١٧] (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

« ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أأمنتم العلىّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِىَ تَمُورُ » أى : تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

« أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً » وهو التراب ، فيه الحصباء الصغار ، « فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ » قال ابن جرير[١] : أى عاقبة نذيرى لكم ، إذا كذبتم به ، ورددتموه على رسولى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وقد بيّن تعالى نذيره لهم فى غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصرُّوا، ونصر رسوله، وغلبة جنده ، كما قال تعالى[1] (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۢ) .

قال الشهاب : (النذير) مصدر ، والياء محذوفة ، والقرّاء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وَصْلًا ، وأثبتها وَقْفاً ، ومنهم من حذفها فى الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال فى (نـكير) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨] (وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ، إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ)

«وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عَدَدًا وعُدَدًا «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نـكيرى تـكذيبهم . وذلك بإنزال العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسلية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ » أى باسطات أجنحتهن فى الجوّ عند طيرانها ، « وَيَقْبِضْنَ » أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار . ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل فى بعض الأحيان للتقوّى بالتحريك . كما يفعله السابح فى الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت فى حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

« مَا يُمْسِكُهُنَّ » أى فى الجو « إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ » أى المفيض لـكلٍّ ما قُدّر له ، حسب استعداده بسعة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى فى الجوّ .

« إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ » قال القاشانىّ : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسوّيه بحسب

(١) [٣٨ / ص / ٨٨] .

مشيئته ، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .

ثم بكّت تعالى المشركين ، بنفي أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ، إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ » أي معشر المشركين « يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ » أي إن أراد بكم سوءًا ، فيدفع عنكم بأسه. « إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » أي من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضرّ . أو أنها تقرّبهم إلى الله زلفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ، بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ » يعني المطر ونحوها « بَل لَّجُّواْ » أي تمادوْا « فِي عُتُوٍّ » أي عناد وطغيان « وَنُفُورٍ » أي شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصرُّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ، ويُرْزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعنادًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

« أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و (المكب) هو المتعثر الذى يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذى يمشى سويًّا هو القائم السالم من العثار، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضى : والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما فى المكبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه المشرك لايستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فلذلك ذكر المسلك فى الثانى دون الأول .

القول فى تأويل قولة تعالى :

[٢٣] (قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

[٢٤] (قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٢٥] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

[٢٦] (قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبدوه، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن الحجة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً، أو ذا زلفة ، أى قُرْب «سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ » أى ظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيتا « هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ » أى تطلبون وتستعجلون به، من الدعاء ، أو تدّعون أن لا بعث ، من (الدعوى).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »كان كفارمكة يتربصون بالنبىّ ﷺ ريب المنون، تخلصاً من دعوته وانتشارها، فأمر أن يقول لهم ذلك. أى أخبرونى إن أماتنى الله ومن معى من المؤمنين، أو رحمنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ماتتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنىّ بالعذاب : إما الدنيوىّ ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الأخروىّ ، وهو أشد وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تتكلون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا، ونشأته الثانية فى الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا» أى غائراً لاتناله الدلاء، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازىّ: المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى، ليريهم قبح ماهم عليه من الكفر. أى: أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ فلابد وأن يقولوا : هو الله . فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلا، شريكاً له فىالعبودية . وهو كقوله تعالى(١) : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ؟) أى بل هو الذى أنزله وسلكه ينابيع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٦٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهى مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (نٓ ، وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

[٢] (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

[٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« نٓ » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف، قصد به التحدى. أو اسم للسورة، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبراً لمحذوف « وَٱلْقَلَمِ » أى الذى يخط به «وَمَا يَسْطُرُونَ» أى يكتبون . و(مَا) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية[1] : (وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) .

قال الزجاج : (أَنتَ) هو اسم (ما) ، و (بمجنون) الخبر . وقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه. فالباء فى (بِنِعْمَةِ) متعلقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ (ما) والباء فى (بِمَجْنُونٍ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال ابن جرير[١] : من قولهم (حبل منين) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة فى العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير[١] : أى أدب عظيم. وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .

قالت عائشة[٢] : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .

قال الرازيّ: وهذا كالتفسير لقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه. وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

[٦] (بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ)

[٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة .

« بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهابا ، إلى أن المصدر يجىء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى). أى: من كوشف بأسرار العلوم، وأوتى جوامع الكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) ، وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ، « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيجزى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)

[٩] (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[١٠] (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)

[١١] (هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ)

[١٢] (مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ)

[١٤] (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

[١٥] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[١٦] (سَنَسِمُهُۥ عَلَى الْخُرْطُومِ)

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشريّ : تهييج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلهتهم ، وتترك ما أنت عليه من الحق ، فيمالئونك ـ رواه ابن جرير[١] عن مجاهد ـ ثم قال : أى : لو تلين لهم فى دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلٰهك، كما قال جل ثناؤه[٢] . (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا* إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٧٤،٧٥] .

وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين فى القول بتليين الدهن .

« وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشرىّ : وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف، ومثله قوله تعالى[1] (وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ) . « مَّهِينٍ » أى : حقير الرأى والتميز .

« هَمَّازٍ » أى : عيّاب طعان : قال ابن جرير[2] : والهمز أصله الغمز . فقيل للمغتاب : هماز ، لأنه يطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ » أى نقّال لحديث الناس بعضهم فى بعض ، للإفساد بينهم .

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صادّ عن الإسلام .

« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز فى ظلمهم . « أَثِيمٍ » كثير الآثام .

« عُتُلٍّۭ » أى جاف غليظ . دعىّ « بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ » أى: دعىّ ملصق فى النسب، ليس منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير[3] : ومعنى (بعد) فى هذا الموضع معنى (مع).

وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على أن ما بعده أعظم فى القباحة . فـ (بعد) هنا كـ (ثم) الدلة على التفاوت الرتبىّ ، كما مر فى قوله[4] (بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) .

« أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشرىّ : متعلق بقوله (وَلَا تُطِعْ) يعنى : ولا تطعه مع هذه المثالب ، لِأَنْ كان ذا مال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهراً بالبنين ، كذب بآياتنا .

« إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ »

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٤) [٦٦ / التحريم / ٤] .

أي : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .

وقوله: « سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ » عِدَةٌ منه تعالى بغاية إذلاله ، بعد تناهي كبره وعجبه وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسمته بميسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا يفارقه . قال جرير [1] :

لما وضعتُ على الفرزدقِ ميسمى ... وعلى البعيثِ، جدعتُ أنفَ الأخطلِ

قال الزمخشريّ : الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ، لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه (الأنفة) وقالوا : الأنف في الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا في الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره في وجوهها ، فقال له رسول الله ﷺ: أكرموا الوجوه ، فوسمها في جواعرها . وفي لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل . وقيل : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عني بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير [2] : وأصله من ثقيف ، وعداده في بني زهرة . أي : لأنه التحق بهم حتى كان منهم في الجاهلية . ولذا سمي زنيما للصوقه بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده .

---

(١) من قصيدته التي مطلعها :

لِمَنِ الديارُ كأنها لم تُحْلَلِ ... بين الكِناس وبين طَلْحِ الأعزلِ

الكناس : ببلاد غني . والأعزل : لبني كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر من العضاه . (شرح ديوان جرير ص ٤٤٢) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

[١٨] (وَلَا يَسْتَثْنُونَ)

« إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاختبرنا بهـذا التنزيل الحـكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تـكذيبه ، فلا تـكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببلية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، (كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ) وهم قوم من أهل الـكتاب ـ على ماروى عن ابن عباس ـ أو ناس من الحبشة ـ فى قول عكرمة ـ أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا محبة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى: ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لايعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَثْنُونَ » قال المهايمىّ: أى: ولا يخرجون شيئاً من حق المساكين ، واقتصر عليه . وحكاه الرازىّ والقاضى قولًا ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله ـ واقتصر عليه ابن جرير[١] والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسىّ ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ)

[٢٠] (فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله لتدميرها .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال ابن جرير[١] : ولا يكون الطائف فى كلام العرب إلا ليلًا ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أطفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده[٢] :

أَطَفْتَ بها نهَارًا غيرَ لَيْـلٍ ... وَأَلْهَى رَبَّهَا طَلَبُ الرِّخَالِ

و (الرخال) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى مستغرقون فى سباتهم ، غافلون عما يمكر بهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » أى كالبستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شىء. أو كالليل الأسود لاحتراقها. وأنشد فى ذلك ابن جرير لأبى عمرو[٣] ابن العلاء :

ألا بَكَرَتْ وعَاذِلَتِى تَلُومُ ... تهجّدنى وما انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (الورقة ٣٩٣) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ. قال: لا يكون الطائف إلا ليلا، ولا يكون نهارا. وقد تكلّم به العرب فيقولون : أطفت به نهارا ، وليس موضعه بالنهار، ولكنه بمنزلة قولك: لو ترك القطا ليلا لنام . لأن القطا لا يسرى ليلا .

قال : أنشدنى أبو الجراح العقيلىّ : (أطفت بها نهارا ...) البيت اه .

والرخال جمع رخل (بكسر الراء وفتحها) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حمل. والجمع أرخل ورخال (بكسر الراء وضمها) ورخلان أيضا (حاشية ابن جرير) .

(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبى عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو . يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظنى حين هبت عاذلتى تلومنى . قال فى اللسان : هجد (قال ابن بزرج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجدته) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل . =

وقال أيضاً(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجَوْنُ الْبَهِيمُ   فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحٍ صَرِيمُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾

[٢٢] ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾

[٢٣] ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾

[٢٤] ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾

[٢٥] ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾

[٢٦] ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾

[٢٧] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

« فَتَنَادَوْا۟ » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفرّاء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصريم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل المسود اه . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصريم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اه . ويقال : كالشىء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهرىّ : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصريم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصريم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل «أَنِ اغْدُوا» أى اخرجوا غدوة «عَلَىٰ حَرْثِكُمْ» أى زرعكم «إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ» أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها «فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ» أى يكتمون ذهابهم ويتسارّون فيما بينهم «أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ» أى فقير . فالجملة مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزمخشريّ : والنهي عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أَرَيَنَّكَ ههنا .

«وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ» أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجدّ من أمرهم ، أو على منع وغضب «قَٰدِرِينَ» أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . «فَلَمَّا رَأَوْهَا» أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقاً حرثها «قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» أى أنكروها وشكوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم، لضالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ)

«قَالَ أَوْسَطُهُمْ» أى أعدلهم وخيرهم رأياً «أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» أى :

تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيّرهم . « قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ » أى يلوم بعضهم بعضاً . « قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفريطنا وعزمنا السيّئ « عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

« كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبغى الفساد فى الأرض . « وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنابوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيداً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال ابن الفرَس : استدل بهذه القصة عبدالوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم. وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزمخشريّ عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأُبدلوا خيراً منها ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)

[٣٥] (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ)

[٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)

[٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)

[٣٩] (أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)

[٤٠] (سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ)

[٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

[٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٤٣] (خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ)

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ » أى فى الكرامة والمثوبة الحسنى ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأنفسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله[1] : (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل،

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٠] .

ويتمنون من الأمانيّ الكاذبة «أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ» أى تقضون من أمانيّكم ومزاعمكم.

قال الزمخشريّ: يقال: لفلان علىّ يمين بكذا، إذا ضمنته منه، وحلفت له على الوفاء به. يعنى: أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. و(إنّ لكم لما تحكمون) جواب القسم، لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم. فـ(بالغة) ـ كما قال الشهاب ـ معناه المراد منه، متناهية فى التوكيد. وأصله بالغة أقصى ما يمكن، فحذف منه اختصاراً، وشاع فى هذا المعنى.

«سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ» أى: الحكم «زَعِيمٌ» أى كفيل به، يدعيه ويصححه. «أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ» أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم، ويوافقونهم عليه. «فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ» أى: فى دعواهم.

قال الزمخشريّ: يعنى أن أحدا لا يسلّم لهم بهذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به. ففيه تنبيه على نفى جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل.

«يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ» قال ابن عباس: أى عن أمر شديد مفظع من هول يوم القيامة. ألا تسمع العرب تقول: شالت الحرب عن ساق؟ ـ رواه ابن جرير(١).

«وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ» أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الحائل. «خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» أى: تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم. «وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ» أى: لا مانع يمنعهم منه. والمراد من السجود: عبادة الله وحده، وإسلام الوجه له، والعمل بما أمر به من الصالحات.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

تنبيه :

ما أثرناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى (عَن سَاقٍ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية، وعليه اقتصر الزمخشرىّ، وعبارته: الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم[1] :

أخو الحرب ، إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا   وإن شَمَّرَتْ عن ساقِهاَ الحربُ شَمَّرَا

وقال ابن الرقيات[2] :

تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه ، وتُبْدِى   عن خِدَامِ العقيلةِ العذراءِ

وجاءت منكّرة للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة، منكر خارج عن المألوف كقوله[3]: (يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنتُ إلى الأَجْبَالِ ، أجبال طيءٍ   وحنَّت قَلُوضى أن رأت سَوْطَ أحْمَرَا

ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان :   * عن بُرَاها العقيلةُ العذراءُ *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أقفرت بعد عبد شمسٍ كُدَاءُ   فكُدَىٌّ فالركن فالبطحاءُ

كداء : جبل بمكة وهو عرفة . كدىّ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليمانىّ ، ركن البيت الحرام . البطحاء : بطحاء مكة (الديوان ص ٨٧) .

وقال شارح شواهد الكشاف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفرط محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شيء أكرمه. ورفع الشعواء فى البيت قبله، وخفض العذراء، إقواء . يتساهل الشعراء فيه .   (٣) [٥٤ / القمر / ٦] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استعارة من ساق الشجر ، وفى (الكشف) تجوّز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الفِصَل) : ما صح عن النبيّ ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير[1] :

ألا ربَّ سامى الطرفِ من آل مازنٍ إذا شَمَّرَتْ عن ساقها الحربُ شَمَّرَا

والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصًّا . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به . وقد عاب الله هذا فقال[2] (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهانىّ إلى أن الآية وعيد دنيوىّ للمشركين ، لا أخروىّ . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم[3] : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى[4] : (يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ) ثم إنه يرى الناس يدعون

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لمن رسمُ دارٍ همَّ أن يتغيرا تَرَاوَحُهُ الأرواح والقَطْرُ أَعْصُرَا

أى أن القطر يتراوحه مرة ، والرياح تتراوحه أخرى . والأعصر : الدهور (شرح ديوان جرير ص ٢٤٠) .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٩] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤٢] .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لايستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذى لاينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله[1] (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ) انتهى .

قال الرازىّ : واعلم أنه لانزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لايمكن حمله على القيامة، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل هٰهنا، والتكاليف زائلة يوم القيامة، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بعظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفى قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهذَا ٱلْحَدِيثِ » أى كِلْهُ إلىّ فإنى أكفيكه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تكل أمره إلىّ ، وتخلّى بينى وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لايعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورّطه فيه .

---

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأُمْلِي لَهُمْ » أى أمهلهم وأنسئ فى آجالهم ملاوةً من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوىّ .

قال الزمخشرىّ : الصحة والرزق والمدّ فى العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سبباً فى الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل: كم من مستدرَج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسمى إحسانه وتمكينه (كيداً) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه فى صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط فى الهلكة . ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه فى التسبب للهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)

[٤٩] (لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

[٥٠] (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمهالهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنينّك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغمًّا . والمعنى : لا يوجدْ منك ما وجد منه من الضجر والونَى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشرىّ : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى برحمته . قال القاشانىّ : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعداده ، وعدم رسوخ الهيأة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى لمقام النبوة والرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

[٥٢] (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ » قال الزمخشرىّ : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون المداوة والبغضاء ، يكادون يُزلّون قدمك، أو يهلكونك . من قولهم (نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلنى) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال[1] :

يتقارضون ، إذا التقوا فى موطن ، نظراً يُزِلّ مواطئ الأقدام

وأنشد ابن عباس ـ وقد مرّ بأقوام حددوا النظر إليه ـ :

نظروا إلىّ بأعين محمرةٍ نظر التيوس إلى شِفَارِ الجازِرِ

وبيّن تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم فى حال قراءة النبيّ ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى: « لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن، معاداة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ » أى من الهذيان الذى يهذى به فى جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه. « وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم ، على ما فى عقولهم وفطرهم من التوحيد . فكيف يجنّن من جاء بمثله ؟ ـ وبالله التوفيق ـ .

---

(١) قال شارح شواهد الكشاف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا فى موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى يكاد يصرعه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٦٩ — سُورَة الحَاقّة

مكية . وآيها إحدى وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلْحَآقَّةُ)

[٢] (مَا ٱلْحَآقَّةُ)

[٣] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ)

« ٱلْحَآقَّةُ » أى الساعة الحاقة التى تحق فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال . من قولهم : حق عليه الشىء ، إذا وجب. وقوله : « مَا ٱلْحَآقَّةُ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ » قال بعضهم : من عوائد العرب فى محاوراتهم اللطيفة، إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شىء ودرايته، أَتَوْا بإجمال وتفصيل . أى : أىّ شىء أعلم المخاطب ماهى ؟ تأكيداً لتفخيم شأنها ، حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب . على معنى: أن عظم شأنها ، وما اشتملت عليه من الأوصاف، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين، ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين، ولا أدركه وهمه، وكيفما قدر حالها، فهى وراء ذلك وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه، من أنها لاتعلم ، ولا يصل إليها دراية دارٍ ، ولا تبلغها الأفكار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ)

[٥] (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ)

[٦] (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

[٧] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

[٨] ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ » أى بالساعة التى تقرع الناس بأهوالها وهجومها عليهم. قال الزمخشرىّ: ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع فى الحاقة، زيادة فى وصف شدتها. ولمّا ذكرها ونخمها، أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم.

« فَأَمَّا ثَمُودُ » وهم قوم صالح عليه السلام « فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ » أى بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة، أو بطغيانهم. و (الطاغية) مصدر كالعافية.

« وَأَمَّا عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ » أى : شديدة العصوف والبرد « عَاتِيَةٍ » أى : متجاوزة الحد المعروف فى الهبوب والبرودة.

« سَخَّرَهَا » أى: سلطها « عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعات من (حسمت الدابة)، إذا تابعت بين كيّها. شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكىّ القاطع للداء. أو معناه : نحسات، حسمت كل خير واستأصلته. أو قاطعات، قطعت دابرهم. هذا على أن (حُسُومًا) جمع حاسم، كشهود وقعود. فإن كان مصدراً فنصبه بمضمر. أى تحسم حسوماً، أو بأنه مفعول له. أى سخرها عليهم للحسوم، أى الاستئصال. وقد قيل: إن تلك الأيام هى أيام العجز. والعامة تقول : (العجوز) وهى التى تكون فى عجز الشتاء، أى آخره.

« فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ » أى هلكى، جمع صريع « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » أى ساقطة مجتثة من أصولها كآية[1] : (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)

« فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ » أى : بقاء. أو نفس باقية، أو بقية.

(١) [٥٤ / القمر / ٢٠].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ)

[١٠] (فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً)

[١١] (إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ)

[١٢] (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ)

« وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ » أى : من الأمم المكذبة ، كقوم نوح وعاد وثمود « وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ » وهى قرى قوم لوط « بِٱلْخَاطِئَةِ » أى : بالخطأ ، أو الأفعال الخاطئة ، على المجاز فى النسبة. « فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً » أى: زائدة فى الشدة. « إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ » أى: كثر وتجاوز حده المعروف ، بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصى، وتكذيبه، عليه السلام « حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ » أى السفينة التى تجرى فى الماء.

قال ابن جرير(١) : خاطب الذين نزل فيهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده، لأن الذين خوطبوا بذلك ، ولد الذين حُملوا فى الجارية، فكان حملُ الذين حملوا فيها من الأجداد، حملًا لذريتهم .

« لِنَجْعَلَهَا » أى تلك الفعلة التى هى إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين « لَكُمْ تَذْكِرَةً » أى : آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده فى نصر رسله ، وتدمير أعدائه .

« وَتَعِيَهَآ » أى تحفظها « أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ » أى حافظة لما سمعت عن الله، متفكرة فيه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ)

[١٤] (وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً)

[١٥] (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ)

[١٦] (وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

[١٧] (وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ » أى : لخراب العالم .

قال أبو السعود : هذا شروع فى بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها .

« وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً » أى : رفعتا وضربتا ببعضهما من شدة الزلازل . وفى توصيفها بالوحدة تعظيم لها ، وإشعار بأن المؤثر لدكّ الأرض والجبال وخراب العالم ، هى وحدها ، غير محتاجة إلى أخرى .

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ » أى : نزلت النازلة ، وهى القيامة .

« وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ » أى : انصدعت « فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » متمزقة .

« وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا » أى : جوانبها وأطرافها حين تشقق . « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ » أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها « يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ » أى : من الملائكة أو من صفوفها .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش (العرش العظيم) ، أو العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة ، لفصل القضاء ، ـ والله أعلم ـ انتهى .

ومثله ، من الغيوب التى يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهها . وتقدم فى سورة الأعراف،

فى تفسير آية[١] (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) كلام لبعض علماء الفلك على هذه الآية، فتذكره.

وذهب بعض منهم إلى أن المراد بالعرش ملكه تعالى للسموات والأرض ، وبـ (الثمانية) السموات السبع والأرض . وعبارته : (وَيَحْمِلُ) بالجذب (عَرْشَ رَبِّكَ) أى : ملك ربك للأرض والسموات (فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ) أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة ، (ثَمَـٰنِيَةٌ) أى : السموات السبع والأرض .

قال : وهـذا يدل على أن (السبع) ليس للكثرة ، بل المراد به الحقيقة . فهم ثمانية يحملون العرش ، أى : ملك الأرض والسموات السبع بالجذب ، كما هو حاصل اليوم . ولكن ذلك يكون بشكل عظيم جدًّا .

ثم قال : ولا وجه لمعترض يقول : إن حملة العرش مسبحة ، لقوله تعالى[٢] : (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) فكيف تسبح السموات والأرض؟ لأنه يجاب بقوله تعالى[٣] : (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ)

[١٩] (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ)

[٢٠] (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ)

[٢١] (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)

[٢٢] (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[٢٣] (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[٢٤] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ)

(١) [٧/ الأعراف / ٥٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٧] . (٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ » أى : على ربكم للحساب والمجازاة « لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ » أى سريرة كانت تخفى فى الدنيا بستر الله .

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » أى : علامة لفوزه « فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ » أى : تعالوا ، أو خذوا . والهاء للسكت ، لا ضمير غيبة .

قال الشهاب : حقها أن تحذف وصلا ، وتثبت وقفاً ، لتصان حركة الموقوف عليه ، فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها فى الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل بنيّة الوقف . وإثباتها وصلًا قراءة صحيحة ، ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن .

« إِنِّي ظَنَنتُ » أى : علمت « أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » أى جزائى يوم القيامة . أى : فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح .

« فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ » أى : ذات رضا ، ملتبسة به ، فيكون بمعنى (مرضية) . أو الأصل : راض صاحبها ، فأسند الرضا إليها ، لجعلها ، لخلوصها عن الشوائب ، كأنها نفسها راضية مجازاً . ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية ، كما فصل فى (المطول) .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا » جمع قِطْف بكسر القاف ، وهو ما يقطف من ثمرها « دَانِيَةٌ » أى قريبة سهلة التناول .

« كُلُوا » أى: يقال لهم كلوا « وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » أى : الماضية فى الحياة الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)

[٢٦] (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ)

[٢٧] (يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)

[٢٨] (مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ)

[٢٩] (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ)

[٣٠] (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

[٣١] (ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

[٣٢] (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ)

[٣٣] (إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ)

[٣٤] (وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)

[٣٥] (فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ)

[٣٦] (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ)

[٣٧] (لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ)

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ » أى : عندما يلاقى العذاب « يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ » أىْ : أىُّ شىء حسابى .

« يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ » قال ابن جرير(١) : أى ياليت الموتة التى متُّها فى الدنيا كانت هى الفراغ من كل مابعدها ، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث . و (القضاء) هوالفراغ .

وقيل : إنه تمنى الموت الذى يقضى عليه ، فتخرج منه نفسه .

« مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ » أى : ما دفع من عذاب الله شيئاً .

« هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ » أى ملكى وتسلطى على الناس . أو حجتى ، فلا حجة لى أحتج بها .

« خُذُوهُ » أى : يقال لخزنة النار : خذوه بالقهر والشدة « فَغُلُّوهُ » أى : ضموا يده إلى عنقه ، إذ لم يشكر ما ملكته .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ » أى : أدخلوه ليصلَىٰ فيها ، لأنه لم يشكر شيئاً من النعم ، فأذيقوه شدائد النقم .

« ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ » أى حلقة منتظمة بأخرى ، وهى بثالثة ، وهلم جرا .

« ذَرْعُهَا » أى : مقدارها « سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ » فأدخلوه فيها . أى : لفّوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً ، لا يقدر على حركة .

قال القاشانىّ : والسبعون فى العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعيّن ثم علل استحقاقه ذلك، على طريقة الاستئناف ، بقوله : « إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ » أى : المستحق للعظمة وحده ، بل كان يشرك معه الجماد المهين .

« وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أى : إطعامه ، فضلًا عن بذله ، لتناهى شحه.

« فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ » أى : قريب تأخذه الحمية له .

« وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » أى : من غسالة أهل النار وصديدهم .

قال ابن جرير(١) : كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شىء فهو (غسلين) ـ فعلين ـ من الغسل من الجراح والدَّبَر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين.

« لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ » أى . الآثمون، أصحاب الخطايا . يقال : خطىء الرجل، إذا تعمد الخطأ . قال الرازىّ : الطعام ما هيّئ للأكل . فلما هيّئ الصديد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم . ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم مقام الطعام ، فسمى طعاماً . كما قال(٢):

* تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضرب وجيعُ *

---

(١) انظر الصفحة رقم ٦٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) صدره : * وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ *

وقائله عمرو بن معدى كَرِبَ (نوادر أبى زيد ص ١٤٩) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)

[٣٩] (وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[٤٠] (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٤١] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ)

[٤٢] (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٤٣] (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » أى: بالمشاهدات والمغيبات . وهذا القسم ـ كما قال الرازىّ ـ يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والعالم العلوىّ والسفلىّ ، وهكذا . وتقدم فى (الواقعة) الكلام على كلمة (لا أقسم) فتذكر .

« إِنَّهُۥ » أى : القرآن « لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » وهو محمد ﷺ ، يبلغه عن الله تعالى ، لأن الرسول لا يبلغ عن نفسه .

« وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » أى : كما تزعمون ، فإن بين أسلوبه وحقائقه ، وبين وزن الشعر وخيالاته ، بعد المشرقين .

« قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ » . تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه ، عناداً وعتوًّا . والقلة كناية عن النفى والعدم . ونصب (قَلِيلًا) على أنه نعت لمصدر ، أو زمان مقدر . أى إيمانًا وزمانًا . والناصب (تُؤْمِنُونَ) أو (تَذَكَّرُونَ) . و (مَا) زائدة ـ هـذا ما قاله ابن عادل ـ وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون نافية ومصدرية .

« وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ » أى كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان « قَلِيلًا

مَّا تَذَكَّرُونَ » أى تتعظون وتعتبرون . قيل : نفى الإيمان فى الأول ، والذكرى فى الثانى ، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن ، لاينكره إلا معاند . فلا عذر لقائله فى ترك الإيمان ، وهو أكفر من حمار . وأما مباينته للكهانة ، فيتوقف على تذكّرٍ ما ، لأن الكاهن يأخذ جُعْلًا ، ويجيب عما سئل عنه ، ويتكلف السجع ، ويكذب كثيراً ، وإن التبس على الحمق لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور ، فتأمّل .

« تَنزِيلٌ » أى هو تنزيل « مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى ممن ربّاهم بصنوف نعمه ، ومنها ما نزله وأوحاه ليهتدوا به إلى سبل السعادة ، ومناهج الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ)

[٤٥] (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ)

[٤٦] (ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ)

[٤٧] (فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ)

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ » أى افترى علينا . وسمى الكذب تقوّلا ، لأنه قول متكلف ، كما تشعر به صيغة التفعّل . و (ٱلْأَقَاوِيلِ) إما جمع (قول) على غير القياس ، أو جمع الجمع كالأناعيم ، جمع أقوال وأنعام . قيل: تسمية الأقوال المفتراة (أقاويل) تحقيراً لها، كأنها جمع أفعولة من القول ، كالأضاحيك .

« لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ » قال ابن جرير[1] : أى لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة ، ثم لقطعنا منه نياط القلب . وإنما يعنى بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخّره بها . وقد قيل: إن معنى قوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ) لأخذنا منه باليد اليمنى

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

من يديه . قال : وإنما ذلك كقول ذى السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض مَن بين يديه لبعض أعوانه : خذ بيده، فأقمه ، وافعل به كذا وكذا: قالوا : وكذلك معنى قوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) أى لَأَهَنَّاهُ . كالذى يفعل بالذى وصفنا حاله . انتهى .

وقال الزمخشرىّ : المعنى لو ادّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاجلة بالسخط والانتقام . فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول . وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه . فمعنى (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا بيمينه . كما أن قوله (لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) لقطعنا وتينه ، وهذا بيّن . انتهى .

وما قرره الزمخشرىّ أبلغ فى المراد ، وهو بيان المعاقبة بأشد العقوبة ، إذ على الأول يفوت التصوير والتفصيل والإجمال ، لأن قوله (بِالْيَمِينِ) بعد (لَأَخَذْنَا مِنْهُ) بيان بعد الإبهام ، ويصير قوله (مِنْهُ) زائداً من غير فائدة ، ويرتكب المجاز من غير فائدة أيضاً ـ كما فى (العناية) ـ .

« فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » أى ليس أحد منكم يحجزنا عنه ، ويحول بيننا وبين عقوبته ، لو تَقَوَّلَ علينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ)

[٥٠] (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٥١] (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)

[٥٢] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« وَإِنَّهُۥ » أى القرآن « لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ » أى عظة لمن يتقى عقاب الله بالإيمان به وحده ، وما نزل من عنده . « وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ » أى له ، إيثاراً للدنيا والهوى . أى فنجازيكم على إعراضكم . « وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » أى ندامة عليهم ، إذا رأوا ثواب المؤمنين به . « وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ » أى للحق اليقين الذى لا ريب فيه . « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » أى دُمْ على ذكر اسمه ، وادأب على الدعوة إليه وحده ، وإلى ما أوحاه إليك . فالعاقبة لك ، ولمن اتبعك من المؤمنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٠ — سُورَةُ المَعَارِج

وتسمى سورة « سَأَلَ سَآئِلُ » . وهى مكية . وآيها أربع وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

[٢] (لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ)

[٣] (مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ)

« سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَـٰفِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع فى الآخرة، وهو قولهم(١) (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة ـ فيما رواه النسائىّ عن ابن عباس ـ وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففى الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و (لِّلْكَـٰفِرِينَ) صفة ثانية لـ (عذاب) ، أو صلة لـ (واقع) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ » أى رادّ يرده من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ) .

وقوله تعالى « ذِى ٱلْمَعَارِجِ » قال الرازىّ : المعارج جمع معرج ، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى(٣) (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) .

والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها ـ قال ابن عباس فى رواية : أى ذى السموات . وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] .

وثانيها ـ قال قتادة : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوده إنعامه مراتب ، وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها ـ أن المعارج هى الدرجات التى يعطيها أولياءه فى الجنة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » قال ابن جرير(١) : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، فى يوم كان مقدار صعودهم ذلك ، فى يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ، كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن (فى يوم) متعلق بـ (واقع) . والمراد به يوم القيامة .

فعن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة . والمقدار المذكور إما حقيقىّ ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ ، فإنها قِصارٌ ، وأيامُ الغُمُومِ طِوَالُ

ونقل الرازىّ عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ماخلق الله إلى آخر الفناء . فبين تعالى أنه لابدّ فى يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة . ثم لايلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأنا لا ندرى كم مضى وكم بقى . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية(٢) (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٥] .

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا منافاة فى التقدير ، لأن المعنىّ به الاستطالة ، لشدته على الكفار ، أو لكثرة مافيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)

[٦] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا)

[٧] (وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا)

[٨] (يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ)

[٩] (وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ)

[١٠] (وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)

[١١] (يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ)

[١٢] (وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ)

[١٣] (وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ)

[١٤] (وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ)

« فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى: على مايقولون. ولا يضق صدرك ، فقدقرب الانتقام منهم. « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ » أى : العذاب الدنيوىّ أو الأخروىّ « بَعِيدًا » أى: وقوعه، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا » أى قريب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ » أى كالشيء المذاب، أو دردىّ الزيت. و(يوم) إما ظرف لـ(قريبا) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » أى : كالصوف .

« وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .

« يُبَصَّرُونَهُمْ » أى يعرّفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .

« يَوَدُّ الْمُجْرِمُ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ » أى الذين هم محل شفقته .

« وَصَاحِبَتِهِ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .

« وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « الَّتِي تُؤْوِيهِ » أى تضمه إليها عند الشدائد .

« وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض. عطف على (يفتدى) . و (ثم) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ)

[١٦] (نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ)

[١٧] (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٨] (وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ)

« كَلَّا » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار الموعود بها المجرم « لَظَىٰ » أى لهب خالص . « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع (شواة) وهى جلدة الرأس . « تَدْعُوا » أى إلى صليّها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّىٰ » أى عن الطاعة. « وَجَمَعَ » أى المال « فَأَوْعَىٰ » أى جعله فى وعاء وكنزه ، ومنع حق الله منه ، فلم يزكّ، ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾

[٢٠] ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾

[٢١] ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيّنه بقوله : « إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى «مَنُوعًا» أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾

[٢٣] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾

[٢٤] ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾

[٢٥] ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

[٢٦] وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

[٢٧] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾

[٢٨] ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾

[٢٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾

[٣٠] ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

[٣١] ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

[٣٢] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٣٣] (وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

[٣٤] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[٣٥] (أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيّعون منها شيئاً . « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى المتعفّف الذى أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل[1] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) . واللفظ أعمّ من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقا سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحماً ، أو يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كلًّا ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبىّ : أن فى المال حقًّا سوى الزكاة .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » أى الجزاء . « وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ » قال ابن جرير[2] : أى وَجِلون أن يعذبهم فى الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيّعون له فرضاً ، ولا يتعدّون له حدًّا . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » أى لغلبة ملكة الصبر ،

(١) [٦٨ / القلم / ٢٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وامتلاك ناصيته . « إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ » قال ابن جرير[1] : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . . « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم، إلى ما حرّمه عليهم. «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ » قال ابن جرير[1]: أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه . «وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ» أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولـكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيّرة ولا مبدّلة . « وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لا يضيّعون لها ميقاتاً ولا حدًّا . قيل: الحفظ عن الضياع، استعير للإتمام والتـكميل للأركان والهيئات. ولذا قال القاضى: وتـكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولًا وآخرًا ، باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإنافتها على غيرها . « أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

[٣٧] (عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ)

[٣٨] (أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[٣٩] (كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ)

«فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ» أى مسرعين للحضور، ليظفروا بما يتخذونه هزؤاً .

وعن ابن زيد : (المهطع) الذى لا يطرف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتّصف بصفات أهلها المنوّه بها قبل . « كَلَّآ » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع فى غير مطمع . « إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يعجزه إهلاكهم ، فليحذروا عاقبة البغى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ)

[٤١] (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٤٢] (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)

[٤٣] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ)

[٤٤] (خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و (النصب) الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجند إلى راية الأمير . « خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ » أى من الخزى والهوان . « تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ماحاق بهم . « ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧١ - سورة نوح

عليه السلام

قال المهايميّ : سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهي مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[٢] ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

[٣] ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

[٤] ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ » أى يعفو عنها . و (مِّن) إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم والنظر لآمنتم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا)

[٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا)

[٧] (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا)

[٨] (ثُمَّ إِنِّىٓ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)

[٩] (ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)

[١٠] (فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا)

[١١] (يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا)

[١٢] (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا)

[١٣] (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)

[١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضاقت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ، «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى» أى إلى التوحيد والعمل الصالح «لَيْلًا وَنَهَارًا» أى دائماً بلا فتور ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه «جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ» أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة «وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ» أى تغطوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى الدين «وَأَصَرُّوا۟» أى على الشر والكفر «وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا» أى تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ

جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» أى دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة ، مابين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيمابيني وبينهم فى خفاء . وهذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر . « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح «إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا» أى لذنوب من تاب وأناب . «يُرْسِلِ السَّمَاءَ» أى المطر «عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» أى متتابعاً . « وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندكم «وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفى لازمه ، وهو الاعتقاد، مبالغةً . وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تخافون عظمة الله. ومنه قوله[1] :

* إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

---

(١) قائله أبو ذؤيب الهذلىّ ، من قصيدته التى مطلعها :

أساءلتَ رسمَ الدار أم لم تُسَائلِ عن السَّكْن أم عن عهده بالأوائلِ ؟

السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى ـ أى يرتفع إليهم ويريدهم ، ومنه قوله تعالى: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ ـ والمسكن : المنزل نفسه .

ويروى بيت الشاهد هكذا :

إذا لسعته الدَّبْرُ لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وحالفها * وقوله : لم يرج لسعها أى لم يخش لسعها . والنوب : التى تنوب ، تجىء وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أي تارات ، تراباً ثم نطفاً ثم عَلَقاً ثم مضغاً ثم أجِنَّة ، وهكذا طوراً بعد طور . أي ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته. هذا في أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

[١٧] (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » أي يزيل ظلمة الليل، وينير وجه الأرض. « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » أي أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أي للحساب والجزاء. « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا » أي تستقرون عليها وتمهدونها. « لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أي طرقاً مختلفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)

[٢٣] ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

[٢٤] ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾

[٢٥] ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾

« قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا علىّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد، «وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا »أى رؤساءهم المتبوعين، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

«وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا»أى متناهياً كبره ، فإن (الكبّار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) لكلب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث) لبنى غطيف من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى الكلاع من حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا ـ أى كلٌّ منها ـ خشبة أو طينة أو حجراً .

وقال ابن جرير[(١)] : كان من خبرهم ـ فيما بلغنا ـ من محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وروى البخاريّ [1] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، بعدُ : أما (ود) ، فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبنى غُطَيف بالجرف عند سبا ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لحمير لآل ذى الكَلَاع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخَ العلمُ ، عبدت.

تنبيهات :

الأول ـ قال الرازىّ : فى انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها فى السفينة سعياً منه فى حفظها؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهىّ ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرحّل والسمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم فى العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلىّ أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخاريّ : حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم ، عبدت . وعجيب من الرازىّ أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثُّمَام .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧١ ـ سورة نوح ، ١ ـ باب وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثانى ـ قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : حكى الواقدىّ قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يغوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها . انتهى .

الثالث ـ قال ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) أول ما كاد به الشيطان عبّاد الأصنام ، من جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه فقال: (وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن[1] النبىّ ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل[2] ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً، وقال[3] : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله ، إما جهلًا ، وإما عناداً لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئاً .... إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٦٢ ـ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .

وإلى الحديث الذى أخرجه كذلك فى: ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧١ ـ باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز، حديث رقم ٩٢ عن فَضالة بن عُبَيْد ، و ٩٣ عن علىّ بن أبى طالب .

وقوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّواْ» أى : الرؤساء «كَثِيرًا» ، أى خلقاً كثيراً ، أو الأصنام كقوله تعالى(١) : (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ) . «وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا» أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به «مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ» أى من أجلها «أُغْرِقُواْ» أى بالطوفان «فَأُدْخِلُواْ نَارًا» أى أذيقوا به عذاب النار «فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا» .

قال الزمخشرىّ : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله، كقوله تعالى(٢) : (أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا) .

وقال الرازىّ : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)

«وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا» أى أحداً .

قال ابن جرير(٣): يعنى بـ(الديّار) من يدور فى الأرض فيذهب ويجىء فيها، وهو(فيْعال) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة، وأدغمت الواو فيها، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول: مابها ديّار ولاعريب ولا دَوِىّ ولاصافر ولا نافخ ضَرَمة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهيآتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبذر الذى لا ينبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ » قال ابن جرير(١) : أى رب اعف عنى، واستر علىّ ذنوبى وعلى والدىّ ، « وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا » قال ابن جرير(١) : أى ولمن دخل مسجدى ومصلاى، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل: بيتى منزلى . «وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا » أى هلاكاً وخساراً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٢ ــ سورة الجن

قال المهايمي : سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم فى تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا فى قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .

وهى مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)

[٢] (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

«قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ» أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهط ـ كما فى (المجمل) ـ .

قال القاشانىّ : قد مرّ أن فى الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا فى غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيآت النفوس الإنسانية واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة ، الغالب عليها الأرضية، ولا فى صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوىّ ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، غلبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقى إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوى فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبيّنا محمدا ﷺ . انتهى .

وفى الآية ـ كما قال القاضى ـ دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .

« فَقَالُوٓاْ » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا » قال المهايمى أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين . « عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم .

« يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا » أى من خلقه ، فى العبادة معه .

تنبيهات

الأول ـ هذا المقام شبيه بقوله تعالى[1] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) الآية . وقد روى البخارى[2] عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ياقومنا ! إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ) وإنما

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ـ سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم[1] أيضاً وزاد فى أوله : ماقرأ رسول ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثانى ـ قال الماوردىّ : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول . أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبىّ المبشر به ، وكلا الأمرين فى الجن محتمل . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : فى الآية فوائد :

إحداها ـ أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .

وثانيها ـ أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول .

وثالثها ـ أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

ورابعها ـ أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .

وخامسها ـ أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .

وفى كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .

ولما سمعوا القرآن ، ووفِّقوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذه صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، ونزهوه عنه ، فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

« وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أى تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

---

(١) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ (طبعتنا) .

قال ابن جرير [(١)]: الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جَدّ فى هـذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذى يقال له بالفارسيّة (البخت) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تـكون له صاحبة ولا ولد ، لأن الصاحبة إنما تـكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذى يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شيء يكون منه ولد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا)

[٥] (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)

[٦] (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

« وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلّهم ومغويهم « عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا » أى قولاً ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة الحدّ . والمراد منه نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى فى نسبة ما ليس بحق، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم السفيه فى ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبيّن لهم بالقرآن كذب السفيه وافتراؤه. « وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » روى ابن جرير [(٢)] عن ابن عباس قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادى ، فزادهم ذلك إثماً . ففى الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

فى الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرًّا ولا نفعاً .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفرَق .

وقال ابن زيد : كان الرجل فى الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال: إنى أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكار الاستعاذات المأثورة، فإنها للإرشاد لذلك.

روى مسلم (١) عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلًا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : فى الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفى الآية تأويل غريب نقله الرازىّ . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلًا . انتهى.

والضمير المرفوع فى (فزادوهم) . للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غيًّا وإثماً وضلالًا . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوًّا .

و (الرهق) فى الأصل غشيان الشيء ، نخص بما يعرض من الكبر أو الضلال .

---

(١) أخرجه فى مسلم : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٥٤ و ٥٥ (طبعتنا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾

[٨] ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾

[٩] ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلىّ أن الجن « ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ » أى فى جاهليتكم « أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا » أى رسولًا إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده ومافيه سعادتهم. أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل: الضمير فى (وَأَنَّهُمْ) للإنس، ذهاباً إلى أن قوله (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ) (وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ » أى تطلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا » أى حفظة ورواجم . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْأَنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ، وما يكون فيها، فمن يستمع الآن فيها يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشرىّ : وفى قوله (مُلِئَتْ) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة . وكذلك قوله (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب . والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

« وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أراده الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك ببعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب فى ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ، كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾

[١٢] ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾

[١٣] ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ، فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

[١٤] ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾

[١٥] ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾

[١٦] ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾

[١٧] ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾

« وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ » أى قوم دون ذلك، وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه، أو الكافرون « كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى . وهذا بيان للقسمة قبلُ . أى كنا مثلها أو ذويها . و (الطرائق) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه . و (القدد) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع (قدّة) كالقطعة .

« وَأَنَّا ظَنَنَّآ » أى علمنا « أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءًا « وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشرىّ : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لايفوته مطلب ، ولا يُنْجِى عنه مهرب .

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِۦ » أى صدّقنا بأنه حق من عندالله، « فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلّة ، وتلحقه هيأة معذبة موجبة للخسوء والطرد . يعنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له فى العز العاقبة الحسنى . « وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ » أى الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، « فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخوا رشداً عظيما ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ ..) الخ من كلام الله أو الجن. قال الزمخشرىّ: وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً، أن الله تعالى أوعد قاسطيهم، وماوعد مسلميهم، وكفى به وعداً أن قال (فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا) فذكر سبب الثواب وموجبه. والله أعدل من أن يعاقب القاسط، ولا يثيب الراشد . « وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم، كما توقد بكفار الإنس. « وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ » أى طريقة الحق والعدل « لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق، وهو الكثير، عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه بالأولى. « لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ماخولوا منه. « وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ » أى عبادته أو موعظته « يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقًّا .

قال الزمخشريّ : الصعد : مصدر صعد. يقال : صعد صَعَدًا وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

« وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام، ونصبهم فيه التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لايجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾

« وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بعضها فوق بعض ، تعجُّباً مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى (كَادُواْ) للجن . وقد بيّن ذلك حديث البخاريّ كما تقدم . وجوّز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى: لما قام رسولًا يعبد الله وحده، مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين ـ حكاه الزمخشريّ ـ ثم قال : (لِبَدًا) جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ (قال) « إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا » أى فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقتى . « قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلونى بالعذاب .

قال الشهاب فى توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضرّ الغىّ ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر فى الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا غيًّا ولا رشداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ، وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

« قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءًا « وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا » أى ملتجأً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ » استثناء من قوله (لَآ أَمْلِكُ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحى ، وأحكام الحق . « وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلم يسمع ما جاء به، ولم يقبل ما يبلغه « فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ » أى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخروىّ . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » أى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا)

[٢٦] (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢٧] (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا)

« قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا » أى غاية تطول مدتها. «عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا» أى حرسًا من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانىّ : (رصداً) أى حفظة إما من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية . وإما من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيآت النورية الحاصلة من هيا كل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخلط كلامهم من الوساوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشرىّ : يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين،

فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جلية الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أي إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التي أمر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم، وأجزيتها المترتبة عليها في الآخرة ، وما تتوقف هي عليه من أحوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التي من جملتها قيام الساعة، فلا يظهر عليه أحداً أبدا . على أن بيان وقته مُخِلّ بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل، لا يستلزم عدم حصول مرتبةٍ ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح . انتهى

وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحا النسفيّ في الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أي إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان لـ (من ارتضى) . والوليّ إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر بناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للوليّ فهي معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازيّ : وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه ـ يعني الزمخشريّ ومن تابعه ـ والذي تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لايظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذى يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله: (إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا) يعنى : لاأدرى وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لايظهره الله لأحد . وبالجملة فقوله : (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) مع أنه لايظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال(١) (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا) ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً، كأنه قال: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به، والاستحقار لدينه ومقالته . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك .

وناقشه فى العناية بأن المرضىّ حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه .

هذا ، ونقل النسفى عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم: فى هذه الآية تكذيب المنجمة، وليس كذلك، فإن فيهم من يصدق خبره، وكذلك المتطببة فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لايعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره، وبقى علمه فى الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقهة زعماً بأن معرفة مواقيت الكسوف، وخواص المفردات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

مما يشمله علم الغيب. والصواب عدم شموله لمثله، لأنه مما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب فى شيء. ولذا قال بعض الحكماء: لو كان من وظيفة النبيّ أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل ، وينزع الاستقلال من الإنسان ، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم ، ولوجب أن يكون عدد الرسل فى كل أمة كافيا لتعليم أفرادها فى كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم. وإن شئت فقل: لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه. نعم، إن الأنبياء ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم ، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد فى العبرة . وقد أرشدنا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه فى مسائل دنيانا فى واقعة تأبير النخل إذ قال[1] (أنتم أعلم بأمور دنيا كم) انتهى . فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا)

« لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (يَسْلُكُ) غاية له . والضمير إما لـ (الرصد) ، وإما لـ (مَنِ ارْتَضَىٰ) . والجمع باعتبار معنى (من) . أى ليبلغوا ، فيظهر متعلق علمه . وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة فى الحث عليه ، والتحذير عن التفريط فيه . « وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ » أى بما عند الرصد ، أو الرسل عليهم السلام. حال من فاعل (يَسْلُكُ) جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى فى العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد . « وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا » أى فردًا فردًا لسعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه ، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه مسلم فى: ٤٣ ـ كتاب الفضائل، حديث ١٤١ (طبعتنا).

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٣ – سُورَةُ المزمل

قال المهايميّ : سميت به لدلالته على عظم أمر الوحي ، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيتزمل .

وهي مكية ، قيل : إلا قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ » إلى آخر السورة ، وآيها عشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ)

[٢] (قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٣] (نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا)

[٤] (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ » أى المتزمل . من (تزمل) بثيابه إذا تلفف بها . فأدغم التاء فى الزّاى خوطب ﷺ بحكاية حاله وقت نزول الوحى ، ملاطفةً وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل ، وقيل : معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزمل الزِّمْلَ ، إذا تحمل الحمل . ففيه استعارة . شبَّهَ إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل ، بجامع المشقة .

قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقىّ ، واعتضاده بالأحاديث الصحيحة ، لا وجه لادعاء التجوز فيه .

وقد يجاب بأن الأحاديث رويت فى نزول سورة (المدثر) لا فى هذه السورة ، كما سيأتى إن شاء الله ، إلا أن يقال : هما بمعنى واحد .

« قُمِ ٱلَّيْلَ » أى : فيه للصلاة ، ودع التزمل للهجوع « إِلَّا قَلِيلًا » أى بحكم الضرورة للاستراحة ، ومصالح البدن ومهماته التى لا يمكن بقاؤه بدونها .

ثم بيّن تعالى قدر القيام مخيراً له بقوله : « نِّصْفَهُۥٓ » أى نصف الليل بدل من الليل . « أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ » أى من النصف « قَلِيلًا » أى إلى الثلث .

« أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » أى النصف إلى الثلثين ، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه . ولا يقال : كيف يكون النصف قليلًا وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى الكل ، لا إلى عديله .

« وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا » أى بيّنه تبييناً ، وترسّل فيه ترسلًا .

قال الزمخشريّ : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة ، بتبيين الحرف ، وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهذّه هذًّا ، ولا يسرده سرداً .

تنبيه :

قال السيوطيّ : فى الآية استحباب ترتيل القراءة، وأنه أفضل من الهذّ به، وهو واضح. وقد ثبت فى السُّنَّة أنه ﷺ كان يقطع قراءته آية آية ، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً، وأنه كان يقف على رؤوس الآى .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبُّر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبُّره ، والفقه فيه ، والعمل به .

قال ابن مسعود : لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل. قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » أى رصيناً ، لرزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عداه . ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوّز بالثقيل عنه . أو ثقيلًا على المتأمّل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر ، وتجريد للنظر . أو ثقيلًا تلقيه ، لقول عائشة[1] رضى الله عنها : رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وعلى كل فالجملة معللة للأمر بالترتيل ، وأن ثقله مما يستدعيه .

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخاريّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا)

« إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ » أى نشأته وطبيعة خلقه ومظهره « هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا » أى موافقة لما يراد منها من جمع الهم ، وهدوء البال . « وَأَقْوَمُ قِيلًا » أى أسدّ مقالًا وأصوبه .

قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، ويخلص القول، ولا يكون دون تسمّعه وتفهمه حائل .

ونقل السيوطىّ عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هى المعانى المستنبطة من القرآن بالليل ، أشد وطأً أبين أثراً . وأقوم قيلًا ، أصحّ مما تخرجه الأفكار بالنهار ، لخلوّ السمع والبصر عن الاشتغال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا)

[٨] (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)

[٩] (رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

« إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » أى تقلباً فى مهماتك ، واشتغالًا بها، فلذا أمرت بقيام الليل . « وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » أى دم على ذكره ليلًا ونهاراً . قال الزمخشرىّ : وذكرالله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيدوصلاة وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره. « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » أى أخلص إليه ، بتجريد النفس عن غيره ، إخلاصاً عظيما . « رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا » أى تـكل إليه مهامك، فإنه سيكفيكها.

قال ابن جرير[١] : أى فيما يأمرك ، وفوض إليه أسبابك .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)

[١١] (وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)

[١٢] (إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا)

[١٣] (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)

[١٤] (يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)

« وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى من الأذى والفرْى « وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى بالإعراض عن مكافأتهم بالمثل ، كما قال تعالى[١] (وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ) « وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ » أى دعنى وإياهم، وكِلْ أمرهم إلىّ، فإن بى غنية عنك فى الانتقام منهم . « أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ » أى التنعم ، يريد صناديد قريش ومترفيهم . « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » أى تمهل عليهم زماناً ، أو إمهالًا قليلًا . « إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا » أى قيودًا «وَجَحِيماً» أى ناراً شديدة الحرّ والاتّقاد « وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ » أى يغصُّ به آكله فلا يسيغه ، « وَعَذَاباً أَلِيماً » أى ونوعاً آخر من أنواع العذاب مؤلماً لايعرف كنهه . أى فلا ترى موكولًا إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . « يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ » أى تضطرب وترتجّ بالزلزال ، « وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلًا » أى رملًا متفرقاً منثوراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)

[١٦] (فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨].

« إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ » أى بإجابة من أجاب وإباء من أبى
« كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » أى يدعوه إلى الحق. « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا » أى ثقيلا ، وذلك بإهلاكه ومن معه ، غرقاً فى اليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا)

[١٨] (ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ، كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا)

[١٩] (إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا)

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيباً » أى كيف تقون أنفسكم إن بقيتم على كفركم ، ولم تؤمنوا بالحق ، يوم القيامة ، وحاله فى الهول ما ذكر .

قال ابن أبى الحديد : يقال فى اليوم الشديد : إنه ليشيب نواصى الأطفال ، كلام جار مجرى المثل. وليس ذلك على حقيقته، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير حُلاهم فى الآخرة إلى الشيب . والأصل فى هذا أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شاب سريعاً . قال أبو الطيب(١) :

والهم يخترم الجسيم نحافةً ويشيب ناصية الصبيّ ويُهرِمُ

« ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ » قال الزمخشريّ : وصف لليوم بالشدة أيضاً. وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟

قال السمين : وإنما لم تؤنث الصفة لأحد وجوه : منها ـ تأويله بالمشتق . ومنها ـ أنها على النسب ، أى ذات انفطار ، نحو : مرضع وحائض . ومنها ـ أنها تذكر وتؤنث .

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لِهوَى القلوب سريرة لا تعلَمُ عرَضاً نظرتُ وخِلْتُ أنّى أسْلَمُ

الديوان ص ٢١٨ (طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤) .

ومنها ـ أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، فيقال : سماءة ، وفى اسم الجنس التذكير والتأنيث . والباء فى (بِهِ) سببية أو للاستعانة ، أو بمعنى (فى) .

« كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا » أى لأنه لا يخلف وعده ، فاحذروا ذلك اليوم . « إِنَّ هَٰذِهِۦ » أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد « تَذْكِرَةٌ » أى موعظة لمن اعتبر بها واتّعظ ، « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا » أى بالإيمان به ، والعمل بطاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ، وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ، عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ)

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ » أى تتهجد فيه هذه التارات المختلفة ، وتتشمر للعبادة فيه هذا التشمر امتثالا لأمره وتبتلا إليـه ، « وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ » أى يعلمهم كذلك ، « وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » أى أن يجعلهما على مقادير يجريان عليها ، فتارة يعتدلان ، وتارة يزيد أحدهما فى الآخر ، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم ـ أشار إليه ابن كثير ـ . أو المعنى : يقدر فيهما ما شاء من الأوامر . ومنه تقديره فى قيام الليل ما قدره ، مما أمر به أول السورة من التخيير ، ترخيصاً وتيسيراً . « عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ » أى قيام الليـل ، على النحو الذى

دأبتم عليه ، أو قيام الليل كله ، للحرج والعسر « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى عاد عليكم باليسر ورفع الحرج . « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ » أى فى صلاة الليل بلاتقدير . أو المراد : لاتتجاوزوا ماقدره لكم، رحمة بأنفسكم . وفيه رد من غلوهم فى قيام الليل كله، أو الحرص عليه ، شوقاً إلى العبادة ، وسبقاً إلى الكمالات .

قال مقاتل : كان الرجل يصلى الليل كله ، مخافة أن لايصيب مما أمر به من قيام مافرض عليه ـ نقله الرازىّ ـ .

« عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ » أى يضعفهم المرض عن قيام الليل « وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » أى للتجارة وغيرها ، فيقعدهم ذلك عن قيام الليل « وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى لنصرة الدين ، فلا يتفرّغون للقيام فيه « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أى من القرآن. ولا تحرّجوا أنفسكم، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

تنبيهات :

الأول ـ ذهب كثير من السلف إلى وجوب قيام الليل المفهوم من الأمر به طليعة السورة ، منسوخ بهذه الآيات .

روى ابن جرير[١] عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ وسلم حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع به الناس فاجتمعوا ، فخرج كالمغضب ـ وكان بهم رحيما ـ فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فقال : ياأيها الناس ؟ اكلفوا من الأعمال ماتطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب ، حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال مادمتم عليه . ونزل القرآن . (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ...) الآية، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله مايبتغون من رضوانه فرحمهم ، فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل

قال ابن كثير : والحديث فى الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة . وهذا السياق قد يوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هى مكية . انتهى كلامه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أقول : وبمثل هـذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم : (ونزلت الآية) الاستشهاد بها فى قضية تنطبق عليها ـ كما بيناه مراراً ـ .

وأخرج أيضاً [١] عن ابن عباس قال : أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلًا . فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف عنهم فرحمهم ، وأنزل الله بعد هذا (عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم . . .) الآية . فوسع الله ـ وله الحمد ـ ولم يضيق .

وعن أبى عبد الرحمن قال : لما نزلت (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ) قاموا بها حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت (فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) فاستراح الناس .

وهكذا روى عن سعيد والحسن وعكرمة وقتادة .

قال ابن حجر فى (شرح البخارىّ) : ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً ، ثم نسخ بالخمس . وأنكره المروزىّ . وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة .

وقال السيوطىّ فى (الإكليل) : قوله تعالى (قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) هو منسوخ بعد أن كان واجباً ، بآخر السورة . وقيل : محكم ، فاستدل به على ندب قيام الليل . واستدل به طائفة على وجوبه على النبىّ ﷺ خاصة . وآخرون على وجوبه على الأمة أيضاً، ولكن ليس الليل كله ، بل صلاة مّا فيه . وعليه الحسن وابن سيرين . انتهى .

أقول : من ذهب إلى أن الأمر محكم وأنه للندب، يرى أن آخر السورة تعليمٌ لهم الرفقَ بأنفسهم ، لأنه تاب عليهم باليسر ، ورفع عنهم الآصار . وفيه مايدل على عنايتهم بالمندوب ، وحرصهم عليه ، حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم فيه . ويدل عليه أثر عائشة فى ربطهم الحبل للتعلق به ، استعانة على قراءة القرآن ، وكثرة تلاوته .

الثانى ـ قال ابن كثير : فى قوله تعالى (فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ) تعبير عن

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان [١] (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك .

وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه . واعتضدوا بحديث (المسىء صلاته) الذى فى الصحيحين [٢] : ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين [٣] أيضاً ، أن رسول الله ﷺ قال : لا صلاة إلا أن تقرأ بفاتحة الكتاب . انتهى .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) علم من أعلام النبوّة .

قال ابن كثير : هذه الآية ، بل السورة كلها ، مكية . ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوّة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة .

الرابع ـ قال ابن الفرس : فى قوله (وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) فضيلة التجارة ، لسوقها فى الآية مع الجهاد .

أخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتينى عليه الموت بعد الجهاد فى سبيل الله ، أحب إلىّ أن يأتينى وأنا ألتمس من فضل الله . ثم تلا هذه الآية .

وقال السيوطىّ : هذه الآية أصل فى التجارة .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦١ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٤٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٥ ـ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦٠ .

وأخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، حديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعتنا) .

« وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ » أى زكاة أموالكم .

قال ابن كثير : وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة .

«وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » يعنى به بذل المال فى سبيل الخيرات على أحسن وجه ، كأن يكون من أطيب المال ، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير ، واتقاء المنّ والأذى . وسر الأمر بـ (الحسن) أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ ، لا يبالى بأى شىء وأى مقدار يعطى منه ، فأشير إلى إيثار المقام الأرفع . ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به على تحقق العوض هنا . « وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ » أى فى الدنيا من صدقة أو نفقة فى وجوه الخير ، أو عمل بطاعة الله ، أو غير ذلك من أعمال البر « تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » أى ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا . « وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ » أى سلوه غفران ذنوبكم ، « إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »أى ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأناب ، ورحمة أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٤ – سورة المدثر

مكية . وآيها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت فى صحيح البخارىّ عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولًا قوله تعالى (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) كما سيأتى بيان ذلك هنالك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخارىّ(١) عن يحيي بن كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول مانزل من القرآن فقال : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) . قلت: يقولون (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا علىّ ماءً بارداً . قال ، فدثرونى وصبوا علىّ ماءً بارداً . فنزلت (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ) .

وروى الشيخان أيضاً(١) عن الزهرىّ قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٧٤ ـ سورة المدثر، ١ ـ حدثنى يحيي حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ (طبعتنا) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبيّ ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، فجُئِثْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى . فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذى جاءنى بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعدُ . هذا وجه الجمع : أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة .

وروى الطبرانىّ عن ابن عباس؛ أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هـــذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ)

[٢] (قُمْ فَأَنذِرْ)

[٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)

[٤] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)

[٥] (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ)

[٦] (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ)

[٧] (وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » أي المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذي يلي الجسد . وأصله (المتدثر) فأدغم . خوطب بذلك لحالته التي كان عليها وقت نزول الوحي . أو لقوله : دثروني ـ كما تقدم ـ . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم . ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالدثار واللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلي بها والمتزين ، كما أن اللباس الذي فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى (خلة) . والتشبيه بالدثار في ظهورها ، أو في الإحاطة . والأول أتم .

« قُمْ » أي من مضجعك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ « فَأَنذِرْ » أي فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل (وَبَشِّرْ) لأن كان فى ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذ ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير.

« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير[1] أى فعظم بعبادته ، والرغبة إليه فى حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشانىّ : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير، لا يعظم فى عينك غيره ، ويصغر فى قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .

«وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى: بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستقذر من الآثام .

قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدرة . ثم أنشد لغيلان بن سلمة[2] الثقفىّ :

وإنى ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجر لبستُ ، ولا مِنْ غَدْرَةٍ أتقنَّعُ

وفى الوجه الأول بقاء لفظى الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفى الثانى تجوّز بهما . وبقى وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرّون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقفىّ .

قال فى اللسان (ث و ب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجورٍ كفرٍ . واحتجّ بقول الشاعر :

إنى بحمد الله ، لا ثوب غادر لبستُ ولا عن خَزْيَةٍ أتقنَّعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنترة (١) :

* فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابَهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بِمُحَرَّمِ *

واستصوب ابن الأثير فى (المثل السائر) الوجه الأول . قال فى الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل فى المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا الملبوس . وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لا يقع فى تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون فى هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بعبارته قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه (٢) :

إن السيوفَ مع الذين قلوبهم ... كقلوبهن ، إذا التقى الجمعانِ
تلقى الحسامَ على جراءة حدِّه ... مثلَ الجبان بكفِّ كل جبانِ . انتهى

ويكفى دليلًا ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر فى الحقيقة . نعم ، المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

---

(١) من معلقته التى أولها :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ ... أم هل عرفتَ الدار بعد توهمِ ؟

المتردَّم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهى .

(٢) قائله أبو الطيّب المتنبي ، من قصيدته التى مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجعانِ ... هو أولٌ ، وهى المحل الثانى

الديوان (ص ٤١٢) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ » أى اتركه . و (الرجز) بكسر الراء كالرجس والسين والزاى يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و (الرجس) اسم للقبيح المستقذر . كنى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله [١] : (فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق. والجملة من جوامع الكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهجر الجفا والسفه وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر مايؤدى إليه من الشرك والمعاصى. فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سببه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرئ بضم الراء ، وهو لغة فى المكسور ، وهما بمعنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره.

« وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ » أى لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال [٢] : (هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد منّ ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة . وجوّز القفّالُ أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء. فسمى طلب الثواب استكثاراً حملًا للشىء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تتزوج أمه ، كبيراً .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] .   (٢) [٣٨ / ص / ٣٩].

وسر النهى أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض، والتفات النفس إليه تعففاً وكمالًا وعلوّ همة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاء مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ، وإن كان كثيراً ، فالسين للمدّ والوجدان . وسبق فى سورة الروم فى قوله تعالى[1] : (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ) كلام فى هذه الآية أيضاً فارجع إليه .

« وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

« فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ » أى نفخ فى الصور. و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت . وأصله القرع الذى هو سبب الصوت . ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .

« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » أى هيّن ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفى قوله (غَيْرُ يَسِيرٍ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

[١٢] (وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا)

[١٣] (وَبَنِينَ شُهُودًا)

[١٤] (وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا)

[١٥] (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

[١٦] (كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا)

[١٧] (سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا)

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا » أى مبسوطاً كثيراً ، أو ممدوداً بالنماء .

« وَبَنِينَ شُهُودًا » أى رجالًا يشهدون معه المحافل والمجامع، أو حضوراً معه يأنس بهم، لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخروىّ . وهذا أظهر لقوله « كَلَّآ » أى لا يكون مايأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون ، لا هو ، « إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ـ قاله الزمخشرىّ ـ .

قال الشهاب: ومعنى كونه مثلًا ، أنه شبه مايسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

فى الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .

ثم علل إرهاقه ذلك بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

[١٩] (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[٢٠] (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

« إِنَّهُۥ فَكَّرَ » أى ماذا يقول فى هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ » أى فى نفسه ما يقوله وهيأه .

« فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلاق ما يكذبه وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرير للمبالغة فى التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و (ثُمَّ) للدلالة على الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى للعطف بـ (ثُمَّ) الدالة على تفاوت الرتبة . فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشده . ولذا ساغ العطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشرىّ فى هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجيبا من تقديره وإصابته فيه المحزّ ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ثُمَّ نَظَرَ)

[٢٢] (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[٢٣] (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

[٢٤] (فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)

[٢٥] (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

« ثُمَّ نَظَرَ » أى فى ذلك المقدّر . أى تروّى فيه . قال الرازىّ : وهـذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : (ثُمَّ نَظَرَ) أى فى وجوه القوم .

« ثُمَّ عَبَسَ » أى قطب وجهه كبراً وتهيوءًا لقذف تلك الكبيرة « وَبَسَرَ » أى كلح وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته ومخاتلتـه ، والحسود فى آثار حقده على صفحات وجهه . « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَاسْتَكْبَرَ » أى عن الإيمان به . « فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يأثره عن غيره . « إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومىّ ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره مارواه ابن إسحاق؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذاسن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس !

فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا، والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قالو : ما هو بساحر . لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال: والله ! إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم . لا يمرّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة، وفى ذلك ، من قوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات ـ رواه بن جرير (١) ـ .

وثم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكى الثعلبيّ عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر فى (الإصابة) : والصواب خالد وهشام واليد . فأما عمارة ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشا بعثوه للنجاشيّ ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله . وقد ثبت أنه ممن دعا النبيّ ﷺ عليهم من قريش ، لما وضع عقبة بن أبى معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلّى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[٢٧] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ)

[٢٨] (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ)

[٢٩] (لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ)

[٣٠] (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم. وهو بدل من (سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا) بدل اشتمال، لاشتمال (سَقَرَ) على الشدائد . « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ » قال الزمخشرىّ : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شىء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ » أى محرقة للجلود ، من (لوّحته الشمس) إذا سوّدت ظاهره وأطرافه . و (البَشَر) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد. أو اسم جنس بمعنى الناس. وجوّز أن يكون المعنى: لائحة للناس، من (لاح) بمعنى ظهر ، والبَشَر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة المتولِّين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخروىّ ، تفوق زبانية الجبابرة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ)

« وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ » أى خزنتها « إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً » أى وهم أقوى الخلق بأسًا، وأشدهم غضباً لله ، ليباينوا جنس المعذبين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى من مشركى قريش . أى إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والهزء .

قال الجبائىّ : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوّى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبىّ : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من المتشابه الذى أمروا بالإيمان به .

« لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ » أى رسالة النبىّ صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين المفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ (جَعَلْنَا) الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم فى نفس الأمر على هذا العدد ، معللًا باستيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس إيجادهم تسعة عشر سبباً لشىء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟

والجواب : أن الجعل يطلق على معنيين :

أحدهما ـ جعل الشىء متصفاً بصفة فى نفس الأمر .

وثانيهما ـ الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجعل بالقول . أى وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عددًا يقتضى فتنتهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أى وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان. . . الخ. وعبر عن الإخبار بالجعل ، لمشاكلة قوله (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ . . . الخ ـ هذا ما قرّره شرّاح القاضى ـ .

«وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا» أى حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت: كيف ذكر الذين فى قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون فى مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلًا . وليس فى ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالغيوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازىّ : إن قيل : لم سموه مثلًا ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجيباً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مرادُ الله منه ما أشعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشىء آخر ، وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

« كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق . « وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » قال الزمخشرىّ : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما فى اختصاص كل جند بعدده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال فى تنزيله، وإلا فلا يعلم جنوده التى يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر ، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أى عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » أى عظة يرهبون منها عذاب النار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ (سقر) . وقيل : للآيات . والأقرب عندى هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأييده لما قبله بالمعنى الذى ذكرناه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (كَلَّا وَالْقَمَرِ)

[٣٣] (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ)

[٣٤] (وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)

[٣٥] (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

[٣٦] (نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ)

[٣٧] (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » أى ولى ذاهباً بطلوع الفجر .

« وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » أى أضاء. ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها، والاستدلال بآياتها ، كما تقوم فى سورة (الصافات) :

« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم، فنصبه على أنه تمييز عن (إحدى) لماتضمنه من معنى التعظيم ، كأنه قيل: أعظم الـكبر إنذاراً. ف(نذيراً) بمعنى الإنذار، كنـكير بمعنى الإنـكار. أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة. أى كبرت منذرة ، ف(نذيراً) مصدر مؤول بالوصف، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف. و (لمن) بدل من (للبشر) أى منذرة لمن شاءوا التقدم والفوز، أو التأخر والهلاك. أو خبر مقدم ، و (أَن يَتَقَدَّمَ) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضأ أن يصلى ، كآية[1] (فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) وفى الثانى بُعْدٌ . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[٣٩] (إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ)

[٤٠] (فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ)

[٤١] (عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ)

[٤٢] (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ)

[٤٣] (قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ)

[٤٤] (وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ)

[٤٥] (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ)

(١) [١٨ / الـكهف / ٣٩] .

[٤٦] (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ)

[٤٧] (حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ)

[٤٨] (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ)

« كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق. « فِى جَنَّٰتٍ » أى هم فى جنات لايدرك وصفها « يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه (دعوته وتداعيناه) .

وقال القاشانىّ : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأنا سألناهم عن حالهم بقولنا :

« مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ » أى بلسان الحال أو المقال « لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحات البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية، والخوض فى الباطل، والهزء والهذيان، والتكذيب بالجزاء، وإنكار المعاد. « حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ » أى من نبيّ أو ملَك ، لو قدر على سبيل فرض المحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير[1] : أى فما يشفع لهم الذين شفعهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد، فتنفعهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفِّع بعض خلقه فى بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾

[٥٠] ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾

[٥١] ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾

[٥٢] ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾

[٥٣] ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾

[٥٤] ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾

[٥٥] ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾

[٥٦] ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعظوا ويعتبروا . « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة النفار . « فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصبة قنص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبىّ ﷺ . ونحوه آية(١) ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ وآية(٢) ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ وآية(٣) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . . ﴾ الآية .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٣] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

« كَلَّآ » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال : « بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ، لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان بتنزيله . « كَلَّآ » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ » أى فاتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ » أى ذكرهم واتعاظهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ، مما كان يخامره من إعراضهم، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ » أى حقيق بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

٧٥ – سورة القيامة

قال المهايميّ : سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهى ثوابه وعقابه ، بحيث تتحسّر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت .

وهى مكية . وآيها أربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ)

[٢] (وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ)

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ » قال القاشانىّ : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، فى القسم بهما ، تعظيما لشأنهما ، وتناسبًا بينهما . إذ النفس اللوامة ، هى المصدقة بها ، المقرة بوقوعها ، المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبداً فى التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة فى الخير ، وأعمال البر ، تيقنًا بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانا .

ومر الكلام على (لَآ أُقْسِمُ) فى مواقعه قبل هـذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ)

[٤] (بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ)

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ » عليه ، وهو لتبعثُنّ . قال القاشانىّ : المراد بالقيامة ، ههنا ، الصغرى ، لهذه الدلالة بعينها .

« بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ » أى بلى ! نجمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التى هى أطراف خلقته وتمامها ، على صغرها ولطافتها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟ !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ)

« بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ » أى ليدوم على الفجور، فيما يستقبله من الزمان، ولا يثنيه عنه شيء ، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب : (أَمَامَهُۥ) ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار . والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام والاستمرار ، لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر فى المستقبل . على أن إرادته وحسبانه هما عين الفجور . وفى إعادة المظهر مالا يخفى من التهديد ونعى قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه. وقيل: حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر على فجوره ، ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

وقال القاشانىّ : أى ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية، غارزا رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلًا عنها ، متعنتاً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ)

[٧] (فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ)

[٨] (وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ)

[٩] (وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ)

[١٠] (يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ)

[١١] (كَلَّا لَا وَزَرَ)

[١٢] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

[١٣] (يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

« يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » أي متى يكون ؟ استبعاداً وهزؤاً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله (يفجر) ، أو بدل منه والاستئناف بيانيّ ، كأنه قيل: لِمَ يريد الدوام على الفجور ؟ قيل: لأنه أنكر البعث واستهزأ به « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ » أي تحير ودهش. أي لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أي عند الموت . « وَخَسَفَ الْقَمَرُ » أي ذهب ضوؤه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أي جمع بينهما في ذهاب الضوء ، فلاضوء لواحد منهما . وقيل: إنهما يجمعان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه[١] (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال ابن زيد : جمعا فرمى بهما في الأرض . « يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » أي الفرار . أي يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقوله قول الآيس لعلمه بأنه لا قرار حينئذ . « كَلَّا » ردع له عن طلب المفر ، « لَا وَزَرَ » أي لا ملجأ . « إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » أي مستقر العباد، من نار أو جنة . أي مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم « يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ » أي من عمله الذي يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، « وَأَخَّرَ » أي منه ففرط وقصر فيه ولم يعمله .

قال الشهاب : (مَا قَدَّمَ) كناية عما عمل ، و (ما أخر) ما تركه ولم يعمله . وهو مجاز مشهورفيما ذكر. أو ماقدمه، ماعمله، وماأخره، عمل من اقتدى به بعده عملًا له، كأنه وقع منه .

---

(١) [٨١ / التكوير / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ)

[١٥] (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ)

« بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ » قال القاشانىّ : أى حجة بينة ، يشهد بعمله ، لبقاء هيآت أعماله المكتوبة عليه فى نفسه ، ورسوخها فى ذاته ، وصيرورة صفاته صور أعضائه ، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب : (بَصِيرَةٌ) مجاز عن الحجة الظاهرة . أو (بَصِيرَةٌ) بمعنى بينة ، وهى صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فالإسناد مجازىّ . أو هى بمعنى دالة مجازًا . أو هو استعارة مكنية وتخييلية . و (ٱلْإِنسَٰنُ) مبتدأ ، و (بَصِيرَةٌ) خبره ، و (عَلَىٰ) متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة (حجة) .

« وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ » أى ولو ألقى أعذاره مجادلًا عن نفسه بكل معذرة . وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تنكره قلوبهم ، وأنهم فى دفاعهم يجادلون بالباطل . ولا غرو أن ينكر القلب ما تدفعه الفطرة السليمة ، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجىء بالعذر بإلقاء الدلو فى البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المروىّ للعطش .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ)

[١٧] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ)

[١٨] (فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ)

[١٩] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ)

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ » أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلت منك . « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ » أى فى صدرك ، وإثبات حفظه فى قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شىء. « وَقُرْءَانَهُۥ » أى أن تقرأه بعدُ فلا تنسى « فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ » أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام، « فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ » أى كن مقفياً له ولا تراسله . « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ » أى بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، أو أن نبيِّنه على لسانك .

تنبيهات :

الأول ـ ماذكرناه فى تأويل الآية هو المأثور فى الصحيحين وغيرهما. ولفظ البخاريّ(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه إذا أُنزل عليه ، فقيل له (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) يخشى أن يتفلت منـه (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ) أن نجمعه فى صدرك (وَقُرْءَانَهُۥ) أن تقرأه (فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ) يقول أنزل عليه (فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) أن نبيّنه على لسانك. زاد فى رواية : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبيّ ﷺ كما قرأه .

قال ابن زيد : أى لا تكلم بالذى أوحينا إليك ، حتى يقضى إليك وحيه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتكلم به . يعنى : أن هـذه الآية نظير قوله تعالى(٢) (وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا) .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث رقم ٥ .
(٢) [٢٠ / طه / ١١٤] .

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبيّ والحسن البصريّ وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد؛ أن هذه الآية نزلت في ذلك، وأنها تعليم من الله عز وجل لرسوله، كيفية تلقيه الوحي.

الثاني ـ ذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة ـ على تأويلهم المتقدم ـ وجوهاً :

منها ـ تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان ـ والمرء مفتون بحب العاجل ـ حتى جعل مخلوقاً من عجل . ومن محبة العاجل ، وإيثاره على الآجل ، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذي هو منشأ الكفر والعناد، المؤدي إلى إنكار الحشر والمعاد. فالنهي عن العجلة في هذا يقتضي النهي فيما عداه ، على آكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه. قاله الشهاب .

ومنها ـ أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال في الكهف[(١)] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ إلى أن قال[(٢)] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية . وقال في طه[(٣)] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ إلى أن قال[(٤)] ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ .

ومنها ـ أن أول السورة لما نزل إلى قوله ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ صادف أنه ﷺ في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرّك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازيّ : ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له : ألق إليّ بالك ، وتفهّم ما أقول . ثم كمل المسألة . فمن لا يعرف

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٩] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٠٢] . (٤) [٢٠ / طه / ١١٤] .

السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك ــ قاله الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) ــ .

الثالث ــ استدلوا على التأويل السابق بقوله تعالى (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه (ثم) من التراخى . وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضى أبو بكر بن الطيب، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان، فلا ! .

قال الآمدىّ : يجوز أن يراد بالبيان الإظهار ، لا بيان المجمل . يقال (بان الكوكب إذا ظهر) قال : ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن ، والمجمل إنما هو بعضه ، ولا اختصاص بالأمر المذكور دون بعض .

وقال أبو الحسين البصرىّ : يجوز أن يراد البيان التفصيلىّ ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالىّ ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين: الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله (بيانه) جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك ــ قاله الحافظ فى (الفتح) ــ .

وجوز القفال أن تكون (ثم) للترتيب فى الإخبار . أى ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب. وضعفه الرازىّ بأنه ترك للظاهر من غير دليل.

الرابع ــ ما قدمناه من معنى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) الخ ، وما استفيد منه ، وما قيل فى مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول القفال معنى فقال كما نقله عنه الرازى ــ: إن قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) ليس خطاباً مع الرسول ﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله[1] (يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له[2] (ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) . فإذا أخذ فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٤] .

وسرعة القراءة ، فيقال له (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ) فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته . وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ؛ أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد فى الدنيا ، وأشد التهويل فى الآخرة .

ثم قال القفّال : فهذا وجه حسن ، ليس فى العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق .

وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة . أى ولما بيّن الأئمة المناسبة التى أثرناها عنهم ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه ـ هو فيما يظهر ـ فيه غاية القوة والارتباط بما قبله وما بعده ، مما يؤثره على المأثور ، الذى قد يكون مدركه الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيده ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبىّ ﷺ فى تلك الحال ، لأن الظاهر أن ذلك كان فى مبدأ البعث النبوىّ ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع ـ كما قال ابن حجر ـ أن يخبر النبىّ ﷺ بذلك بعدُ ، فيراه ابن عباس، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ)

[٢١] (وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ)

[٢٢] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ)

[٢٣] (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[٢٤] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ)

[٢٥] (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

« كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » أى الدنيا العاجلة ، بإيثار شهواتها . « وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » أى بالإعراض عن الأعمال التى تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها . « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ » أى حسنة جميلة من النعيم « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » أى مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه . « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ » أى كالحة ، لجهامة هيآتها ، وهول ما تراه هناك من الأهوال ، وأنواع العذاب والخسران . « تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » أى داهية تفصم فقار الظهر ، لشدتها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن فى عود الضمير من (بها) إلى الوجوه ـ مراداً بها الذوات ـ شبه استخدام . ولم أر من نبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)

[٢٧] (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)

[٢٨] (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ)

[٢٩] (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)

[٣٠] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

« كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أعالى الصدر . وإضمارها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

أماويّ ما يُغْنِى الثَّراء عَنِ الْفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

قال الرازيّ : يكنى ببلوغ النفس التراقى ، عن القرب من الموت ، ومنـه قول دريد ابن الصمة :

ورب عظيمة دافعتُ عنها ... وقد بلغَتْ نفوسُهُمُ التَّراقِى

ونظيره قوله تعالى [١] : (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ) . « وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ » قال [٢] ابن جرير : أى وقال أهله : مَنْ ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذى قد نزل به شيئاً . أى فالاستفهام بمعنى الطلب لراقٍ أوطبيب. وجوز كونه بمعنى الإنـكار ، يأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .

لطيفة .

قال الواحديّ : إن إظهار النون عند حروف الفم لحن . فلايجوز إظهار نون (مَنْ)فى قوله (مَنْ رَاقٍ) . وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (مَنْ رَاق) و (بَلْ رَانَ) قال أبو على الفارسيّ : ولا أعرف وجه ذلك . قال الواحديّ : والوجه أن يقال قصد الوقف على (مَنْ) و (بَلْ) فأظهرهما . ثم ابتدأ بما بعدها . وهـذا غير مرضيّ من القراءة . انتهى نقله الرازيّ .

« وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ » أى وأيقن الذى قد نزل ذلك به، أنه فراق الدنيا والأهل والمال. « وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ » أى التوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما ساقاه ، إذا التفتا فى الـكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر فى سورة (القلم) . والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الـكشف عن الساق، ووجهه ظاهر، لأن المصاب يكشف عن ساقه ، فـكيف ينزل هذا عليه ؟

قلت : الأمر كما ذكرت ، لـكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من الساق وحـده ، حتى صار

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٩٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

عبارة عن كل أمر فظيع ـ كما أشار إليه الراغب ـ انتهى .

« إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ » أي سوقه إلى حكمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ)

[٣٢] (وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[٣٣] (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ)

[٣٤] (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ)

[٣٥] (ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ)

[٣٦] (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

[٣٧] (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ)

[٣٨] (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣٩] (فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ)

[٤٠] (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ)

« فَلَا صَدَّقَ » أي بالدين والكتاب . أو صدق ماله ، أي ما زكاه « وَلَا صَلَّىٰ » أي الصلاة التي هي رأس العبادات ، التي سها عنها . « وَلَـٰكِن كَذَّبَ » أي بدل التصديق « وَتَوَلَّىٰ » أي بدل الصلاة التي بها كمال التوجه إلى الله تعالى « ثُمَّ » أي مع هـــذه التقصيرات في جنب الله تعالى « ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ » أي يتبختر في مشيته . وأصله (يتمطط) أي يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

تنبيهات

الأول ـ الضمير في الآيات للإنسان المتقـــدم في قوله تعالى (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ) .

الثانى ـ قال الرازىّ : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ماصدق بالدين ، ولـكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى ، ولـكنه تولى ، وأعرض . وأما مايتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال فى مشيته .

الثالث ـ دلت الآية على أن الـكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع ـ قال الرازىّ : قال أهل العربية : (لا) ههنا فى موضع (لم) فقوله : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) أى لم يصدق ولم يصلّ ، وهو كقوله (١) (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) أى لم يقتحم . وكذلك ما روى (٢) : أرأيت من لا أكل ولا شرب ولا استهل . قال الـكسائىّ : لم أر العرب قالت فى مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى، إما مصرحاً بها ، أومقدراً . أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا ولا فلان ، ولايقولون مررت برجل لايحسن ،حتى يقولوا ولا يجمل . وأما المقدرفهو كقوله (فَلَااقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) ثم اعترض الـكلام فقال (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ) وكان التقدير : لافك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير فى قوله (فَلَا اقْتَحَمَ) أى أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم . انتهى « أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ » أى ويل

(١) [٩٠ / البلد / ١١] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٦ ـ باب الـكهانة ، حديث رقم ٢٢٦٩ ، عن أبى هريرة ، ونصه : أن رسول الله ﷺ قضى فى امرأتين من هذيل اقتتلتا ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهى حامل ، فقتلت ولدها الذى فى بطنها . فاختصموا إلى النبىّ ﷺ فقضى أن دية ما فى بطنها غرةٌ : عبد أو أَمَةٌ . فقال ولىّ المرأة التى غرمت : كيف أغرم يارسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ ، ومثل ذلك بطل ؟ فقال النبىّ ﷺ : إنما هذا من إخوان الـكهّان .

لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاءً متكرراً متضاعفاً .

وقيل : المعنى بُعْدًا لك . فبعداً في أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً في أمر أخراك ـ حكاه الرازيّ عن القاضي ـ ثم قال : قال القفال : هذا يحتمل وجوهاً :

أحدها ـ أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثاني ـ أنه شيء قاله النبيّ ﷺ لعدوه ـ يعني أبا جهل ـ فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث ـ أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يامحمد : أولى لك فأولى ، أى احذر ، فقد قرب منك ما لاقبل لك به من المكروه . انتهى والأظهر هو الأول ـ .

لطيفة :

تفسير (أَوْلَىٰ لَكَ) بـ (ويل لك) قال الشهاب : هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمعيّ أنها تكون للتحسر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد بها . وأما الكلام في لفظها فقيل : هو فعل ماض دعائيّ من (الولى) واللام مزيدة . أى أولاك الله ما تكرهه . أو غير مزيدة ، أى أدنى الهلاك لك . وقريب منه قول الأصمعيّ : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

وقيل : إنه اسم وزنه (أفعل) من الويل ، فقلب . وقيل فَعْلَىٰ ، ولذا لم ينون . ومعناه ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و (لك) الخبر . وقيل : إنه اسم فعل مبنيّ ، ومعناه وَلِيَك شر بعد شر .

ونقل الزمخشريّ عن أبي عليّ أنه عَلَمٌ لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل . وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل (يوم أيوم) غير منقاس ، ولا يفرد عن الموصوف . وادعاء القلب من غير دليل ، لايسمع ، وعلم الجنس خارج عن القياس . فما ذكر بعيد من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه . فالتقدير هنا :

النار أولى لك . يعني : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى » أي : هملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ، مع أنه الإنسان الذي أودع العقل وعلِّم البيان ، وغرز في طبعه أن يعيش مجتمعاً ، وخص من المواهب ما فضل على غيره. فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته، وإعلامه بسبيل هدايته، وأن لا يترك خابطاً في متاثه جهالته، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله:

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ » أي يصبّ في الرحم .

« ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً » أي دماً « فَخَلَقَ » أي قدّر أعضاءه « فَسَوَّىٰ » أي سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّلها .

« فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ » أي الصنفين « ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ » أي لبقاء نوعه ، يعمر الدنيا إلى الأجل الذي كتبه وقدره .

«أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ» أي فيوجدهم بعدمماتهم لعمارة الآخرة. وقد روى أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأها قال: سبحانك ، فبلىٰ ــ رواه أبو داود عن رجل من الصحابة. ورواه أيضاً عن أبي هريرة بلفظ: من قرأ (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) فانتهى إلى (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ) فليقل : بلىٰ . ورواه الإمام أحمد والترمذي أيضاً ــ والله أعلم ــ .

بحمده تعالى وعونه ، كمل هذا الجزء في أوائل محرم سنة ١٣٢٧

بمنزلنا في زقاق الكتبي ، في خط قصر حجاج

ظاهر باب الجابية . على يد جامعه وكاتبه

الحقير محمد جمال الدين القاسميّ

الدمشقيّ

تمّ الجزء السادس عشر، ويليه إن شاء الله ، الجزء السابع عشر،

وفيه تفسير ما بقي من سور الكتاب الكريم

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٩٤/١٩٧٠

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمّد جمال الدّين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤م

الجزء السابع عشر

وفيه تفسير : ٧٦ ـ سورة الإنسان ، وما بعدها ، إلى ١١٤ ـ سورة الناس

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمّد فؤاد عبد الباقي

عيسى البابي الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها ، وتنعقد عليه خناصرها ، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام ، ونادرة الأيّام ، والمجدّد لعلوم الإسلام ، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف ، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلَّف زُهاء مائة مصنَّف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جدًّا أن ترى كتاباً ، فى خزانته الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٦ - سورة الإنسان

وتسمى سورة (الدهر) و (الأمشاج) و (هل أتى) وهى مكية وآيها إحدى وثلاثون .

رَوَى الإمام مسلم[1] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ : كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ـ الم تنزيل السجدة ـ و ـ هل أتى على الإنسان .

(١) أخرجه فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)

« هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا » أى فى ذلك الحين ، بل كان شيئاً منسياً ، نطفته فى الأصلاب . والاستفهام للتقرير .

قال الشهاب : أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه ، والمقرر به من ينكر البعث . وقد علم أنهم يقولون : نعم ، قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه . فيقال لهم : فالذى أوجدهم بعد أن لم يكونوا ، كيف يمتنع عليه إحياؤهم بعد موتهم ؟ والمراد بالإنسان جنس بنى آدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)

« إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ » أى ذات أخلاط ، وهى موادّها المؤلفة منها . جمع مَشَج أو مشيج . كسبب وأسباب ، ونصير وأنصار . أو مفرد ، كبرمة أعشار (البرمة القدر . وأعشار أى منكسرة كأنها صارت عشر قطع) انتهى « نَّبْتَلِيهِ » أى نختبره . والجملة فى موضع الحال أى خلقناه مبتلين له ، أى مريدين ابتلاءه ، لا عبثا وسدى « فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » أى لننظر هل يصرف سمعه وبصره إلى استماع آيات الله والنظر فيها . ولما كان تمام المنّة بهما بهبة العقل ، أشار إليه بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » أى سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك . أى عرّفناه وبينا له

ذلك، بأدلة العقل والسمع « إِمَّا شَاكِرًا » أى بالاهتداء والأخذ فيه « وَإِمَّا كَفُورًا » أى بالإعراض عنه . ونصبهما بـ (يكون) مقدرة . أى ليكون إما شاكراً وإما كفوراً . أى ليتميز شكره من كفره، وطاعته من معصيته. كقوله(١) (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) .

(قال الرازىّ) قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل: قد نصحت لك ، إن شئت فاقبل وإن شئت فاترك . أى فإن شئت فتحذف الفاء . فكذا المعنى (إنا هديناه السبيل) فإما شاكرا وإما كفوراً. فتحذف الفاء. وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد . أى إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر ، وإن شاء فليشكر . فإنا أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا. كقوله(٢) (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ) انتهى .

لطيفة :

قال فى (النهر) : لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال (شاكراً) ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر قال « كَفُورًا » بصيغة المبالغة . انتهى .

وهذا ألطف من القول بمراعاة رؤوس الآى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا)

« إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ » أى ليقادوا بها ويستوثق بها منهم شدًّا فى الجحيم « وَأَغْلَٰلًا » أى لتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم « وَسَعِيرًا » أى نارا تسعر عليهم فتتوقد .

(١) [٦٧ / الملك / ٢] . (٢) [١٨ / الكهف / ٢٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)

[٦] (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ » أى الذين برّوا بطاعتهم ربهم فى أداء فرائضه واجتناب معاصيه « يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ » أى خمر ، أطلقت عليها للمجاورة « كَانَ مِزَاجُهَا » أى ماتمزج به « كَافُورًا » قال ابن جرير[١] : يعنى فى طيب رائحتها كالكافور . ولما كان الكافور من أطيابهم كان كناية عما يطيب به مما له عرف ذكىّ « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » أى يثيرونها من منابعها فى روض الجنة ، إثارة مبهجة، تفنناً فى النعيم . و(عيناً) منصوب بنحو (يؤتون) . والباء فى (بها) بمعنى من . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا)

« يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ » استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم ، مشتمل على نوع تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار إجمالًا . كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟ « وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ » أى عذابه « مُسْتَطِيرًا » منتشراً ظاهراً للغاية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ » أى مع حب الطعام، كقوله[٢] (حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ » أو على حب الله تعالى ، لما سيأتى من قوله[٣] (لِوَجْهِ ٱللَّهِ) « مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٣ / آل عمران / ٩٢] . (٣) [٧٦ / الإنسان / ٩] .

وَأَسِيرًا » أى مأسوراً من حرب أو مصلحة . وإنما اقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم . فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه . واليتيم مات من يعوله ويكتسب له ، مع نهاية عجزه بصغره . والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة .

قال فى (الإكليل) : والآية تدل على أن إطعام المشرك مما يتقرب به إلى الله تعالى ، أى لقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا)

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ » أى قائلين ذلك بلسان الحال أو المقال، إزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة وتوقع المكافأة . أى لا نقصد بإطعامكم إلا ثوابه تعالى والقربة إليه والزلفى عنده . وإطلاق (الوجه) على الذات مجاز مشهور « لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً » أى مكافأة « وَلَا شُكُورًا » أى ثناء ومديحاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)

« إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً » أى عذاب يوم « عَبُوسًا » أى شديدا مظلما . أو تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه وطول بلائه « قَمْطَرِيرًا » أى شديد العبوسة والكرب . وخوفهم من اليوم كناية عن عمل ما يؤمنهم فزعه وهوله ، من الصالحات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)

[١٢] (وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا)

[١٣] (مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ، لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا)

«فَوَقَـٰهُمُ ٱللَّـهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ » أى بسبب ما ذكر من خوفهم منه «وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً » أى فى الوجوه « وَسُرُورًا » أى فى القلوب « وَجَزَـٰهُم بِمَا صَبَرُواْ » أى على طاعة الله واجتناب محارمه والدعوة لسبيله واحتمال الأذى « جَنَّةً وَحَرِيرًا » أى يلبسونه ويتزينون به « مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السُّرُرِ « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا» أى لاحرًّا ولا بردًا . من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا)

[١٥] (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠)

[١٦] (قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)

« وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا » أى ظلال أشجارها . أى قريبة منهم، مظلة عليهم، زيادة فى نعيمهم « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » أى سهلت ثمارها لمتناولها . فلا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك . « وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ » جمع كوب ، وهو كوز لاأذن له « كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ» قال أبو البقاء : حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلهما . ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية ، لشدة اتصال الصفة بالموصوف « قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا » أى فى أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم . فجاءت كما قدّروا . أو قدرها لهم السقاة على قدر ريّهم . لايزيد ولا ينقص . وهو ألذّ للشارب ، لكونه على مقدار حاجته ، لايفضل عنها ولا يعجز .

قال أبو حيان : أقرب من هذا ما نحاه أبو حاتم. وهو أن أصله قدر ريّهم منها تقديراً . والريّ العطش ، فحذف المضاف وحرف الجر وأوصل الفعل له بنفسه .

قال الشهاب : وفى كونه أقرب ، نظر . فإنه أكثر تكلفاً . ولكن كل حزب بما لديهم فرحون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا)

[١٨] (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا)

« وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا » أى ما يشبهه فى الطعم . وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به « عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا » وهى شديدة الجرية المنسابة بنوع خاص بهيج . ونصب (عَيْنًا) بنحو (يؤتون) أو (ينظرون) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا)

« وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ » أى لا يموتون . أو دائم شبابهم لايتغيّرون عن تلك السن . أو مسوّرون . أو مقرّطون . « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا » أى لحسنهم وكثرتهم فى منازلهم ، وانبثاثهم فى مغازه أماكنهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)

[٢١] (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)

« وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ » أى نظرت فى الجنة ، ورميت بطرفك ما أوتى الأبرار « رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا » أى واسعاً لاينفذه البصر « عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ » وهو ما رقّ من الحرير « خُضْرٌ » قرئ بالرفع صفة لـ (ثِيَابُ) وبالجر لـ (سُندُسٍ) « وَإِسْتَبْرَقٌ » وهو ماغلظ من الديباج . وفيه القراءتان، رفعاً وجرًّا « وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ

رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » أي ليس برجس كخمر الدنيا. أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة، وتدوسه الأقدام الدنسة ، ولم يجعل في الدنان التي لم يُعْنَ بتنظيفها . والآية مما يستروح بها في نجاسة الخمر ، لما فيها من التعريض بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا)

« إِنَّ هَٰذَا » أي ما عدّ من ثوابهم « كَانَ لَكُمْ جَزَآءً » أي على ما قدمتم من الصالحات « وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا » أي مجازًى عليه غير مضيَّع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا » أي عظيماً لا يقدر قدره . أي فأمره الحق ووعده الصدق. والقصد تثبيت قلبه صلوات الله عليه، وشرح صدره وتحقيق أن المنزل وحي. وعدم المبالاة برميهم له بالسحر والكهانة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا)

« فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أي من الصدع به ، والتبليغ لآيه ، والعمل بأوامره « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا » أي ولا تطع في معصيته تعالى من مشركي مكة، من ركب الإثم وجاهر بالكفر ، ممن يريدك عن الرجوع عن دعوتك ، بما شئت من مال أو مطلب . و (أو) إما على بابها . أي لا تطع من كان فيه أحد هذين الوصفين ، فالنهي عمن اجتمعا فيه يعلم بالطريق الأولى. وإما بمعنى الواو .

قال الفرّاء : (أو) ههنا بمنزلة الواو. وفى الجحد والاستفهام والجزاء يكون بمعنى (لا) فهذا من ذلك مع الجحد . انتهى .

وإما بمعنى (بل) إضراب إلى وصف هو به أخلق وأجدر . وإما للتخيير فى التسمية . أى من شئت تسميه بالآثم أو الكفور ، لتحقق مفهومهما فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

[٢٦] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا)

« وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » أى بدعائه وتسبيحه والصلاة له « بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ » أى بالتهجد فيه « وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » أى مقدارًا طويلًا ، نصفه أوزيادة عليه. وفى هذه الأوامر ، مع الأمر فى أول (المزمل) وأمثالها، مايدل على العناية بقيام الليل والحرص عليه .

ويأتى البحث المتقدم هنا أيضاً ، فى أن الأمر خاص به صلوات الله عليه بناء على أنه للوجوب ، أو يشمل غيره تبعاً وهو للقدر المشترك ، قولان معروفان فى نظيره. والقصد حثه ﷺ أن يستعين فى دعوة قومه والصدع بما أمر به ، بالصبر على أذاهم والصلاة والتسبيح . وقد كثر ذلك فى مواضع من التنزيل كقوله(١) (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ) وقوله(٢) (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ) وأمثالها .

---

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] . (٢) [٥٠ / ق / ٣٩و٤٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)

« إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ » أى المشركين « يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ » أى اللذات العاجلة ، فيسعون لها جهدهم ، وإن أهلكوا الحرث والنسل « وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » أى شديداً ، لثقل حسابه وشدته وعسره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ، وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا)

« نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ » أى خلقهم وأعضاء بناهم .

قال الشهاب : الأسر ، معناه ، لغةً ، الشد والربط . ويطلق أيضاً على مايشد ويربط به . ولذا سمى الأسير أسيراً بمعنى مربوط . فشبهت الأعصاب بالحبال المربوط بها ، ليقوى البدن بها . أو لإمساكها للأعضاء . ولذا سموها رباطات أيضاً .

« وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا » أى بإهلاكهم والإتيان بآخرين . وهذا محط الترهيب ، وما قبله كالتعليل له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا)

« إِنَّ هَٰذِهِۦ » أى السورة ، أو الآيات القريبة « تَذْكِرَةٌ » أى عظة لمن تذكّر واتّعظ « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا » أى بالطاعة الموصلة لقربه ، إيصال السبيل للمقاصد . فهو تمثيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

[٣١] (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ، وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ » قال ابن جرير[1] : أى وما تشاءون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله ذلك لكم ، لأن الأمر إليه لا إليكم . أى لأن مالم يشأ الله وقوعه من العبد ، لا يقع من العبد . وما شاء منه وقوعه ، وقع . وهو رديف (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) هذا تأويل السلف . وقالت المعتزلة : أى وما تشاءون الطاعة إلا أن يشاء الله بقسرهم عليها . والمسألة مبسوطة فى الكلام . وقد لخصناها فى (شرح لقطة العجلان) فارجع إليه . « إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا » أى بأحوالهم وما يكون منهم « حَكِيمًا » أى فى تدبيره وصنعه وأمره « يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ » قال أبو السعود : بيان لإحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته . أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها . وهو الذى يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى ، حيث يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة . « وَٱلظَّٰلِمِينَ » وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » يعنى عذاب النار . وقانا الله بمنه وكرمه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٧ – سورة المرسلات

وتسمى سورة العرف وهى مكية وآيها خمسون .

روى البخارى[١] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غارٍ بمنى ، إذ أُنزلت عليه (والمرسلات) فإنه ليتلوها ، وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حيّة . فقال النبى ﷺ : اقتلوها . فابتدرناها فذهبت . فقال النبىّ ﷺ : وقيت شركم كما وقيتم شرها . وأخرجه مسلم[٢] أيضاً .

وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عباس عن أمّه ؛ أنها سمعت النبىّ ﷺ يقرأ فى المغرب بالمرسلات عرفاً . ورواه الشيخان[٤] أيضاً .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧٧ ـ سورة والمرسلات ، ١ ـ باب حدثنى محمود ، حدثنا عبيد الله ، حديث رقم ٩٢٧ .

(٢) أخرجه فى : ٣٩ ـ كتاب السلام ، حديث رقم ١٣٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٣٣٨ من الجزء السادس .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٨ ـ باب القراءة فى المغرب ، حديث رقم ٤٦٣ ، عن أم الفضل .

وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٣ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا)

[٢] (فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا)

[٣] (وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا)

[٤] (فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا)

[٥] (فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا)

[٦] (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا)

[٧] (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ)

« وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا » إقسام بالرياح المرسلة متتابعة كشعر العرف . أو بالملائكة المرسلة بأمر الله ونهيه . وذلك هو العرف . أو بالمرسل من بنى آدم المبعوثة بذلك « فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا » أى الرياح الشديدات الهبوب ، السريعات المرّ « وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا » أى الرياح التى تنشر السحاب والمطر، كما قال(١) (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ) وقوله(٢) (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ) أو الملائكة التى تنشر الشرائع والعلم والحكمة والنبوّة والهداية فى الأرض « فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا » أى الملائكة التى تفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال الوحى والتنزيل . أو الآيات القرآنية التى تفرق كذلك . أو السحب التى نشرن الموات ففرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر

(١) [٧ / الأعراف / ٥٧] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٨] .

كقوله(١) ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ « فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا » أي الملائكة الملقيات ذكر الله إلى أنبيائه ، المبلغات وحيه « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » أي إعذاراً من الله لخلقه ، وإنذاراً منه لهم . مصدران بمعنى الإعذار والإنذار . أي الملقيات ذكراً للإعذار والإنذار . أي لإزالة إعذارهم ، وإنذارهم عقاب الله تعالى إن عصوا أمره « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ » جواب القسم . أي : إن الذي توعدون به من مجيء يوم القيامة والجزاء ، لكائن نازل ، كقوله(٢) ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ أو من زهوق ما أنتم عليه من الباطل ، وظفر الحق بقرنه ، أو ما هو أعم . والأول أولى ، لإردافه بعلاماته ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾

[٩] ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾

[١٠] ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾

[١١] ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾

[١٢] ﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾

[١٣] ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾

[١٤] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾

[١٥] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

« فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ » أي محقت أو ذهب ضياؤها ، كقوله(٣) ﴿ ٱنكَدَرَتْ ﴾ و(٤) ﴿ ٱنتَثَرَتْ ﴾

(١) [٧٢ / الجن / ١٦] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٦] .
(٣) [٨١ / التكوير / ٢] . (٤) [٨٢ / الانفطار / ٢] .

« وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ » أى شققت وصدعت « وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ » أى اقتلعت من أماكنها بسرعة. فكانت هباء منبثا « وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ » أى أجلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة للشهادة على أممهم والفوز بما وعدوه من الكرامة. والهمزة من (أُقِّتَتْ) مبدلة من الواو.

قال ابن جرير [1] وقرأه بعض قراء البصرة بالواو وتشديد القاف. وأبو جعفر بالواو وتخفيف القاف. وكل ذلك قراءات معروفات ولغات مشهورات بمعنى واحد. فبأيتها قرأ القارئ فمصيب. غير أن من العرب من يستثقل ضمة الواو ـ كما يستثقل كسرة الياء فى أول الحرف، فيهمزها.

« لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ » أى أخرت عن معاجلة الثواب والعقاب. أى يقال لأى يوم أجلت فالجملة مقول قول مضمر، هو جواب (إذا) أو حال من مرفوع (أقتت) والمعنى ليوم عظيم أخرت أمور الرسل. وهو تعذيب الكفرة وإهانتهم، وتعظيم المؤمنين ورعايتهم، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أحوال الآخرة وأهوالها، ولذا عظم شأن اليوم، وهوّل أمره بالاستفهام. وقوله تعالى « لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ » بدل مما قبله، مبين له. أو متعلق بمقدر. أى أجلت ليوم الفصل بين الخلائق. وقد قيل: لامه بمعنى (إلى) « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ » أى بين السعداء والأشقياء. والاستفهام كناية عن تهويله وتعظيمه. « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بيوم الفصل. كما قال فى سورة المطففين [2] (ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ) والتكذيب به، إنكار البعث له والحشر إليه.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية).

(٢) [٨٣ / المطففين / ١١].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ)

[١٧] (ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ)

[١٨] (كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ)

[١٩] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ » أى الأمم الماضين المكذبين بالرسل والجاحدين بالآيات ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود . « ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ » أى من قوم لوط ، وموسى . فنسلك بهم سبل أولئك . وهو وعيد لأهل مكة « كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الأخذ العظيم . « نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ » أى بكل من أجرم وطغى وبغى « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » .

قال ابن جرير[1] : أى بأخبار الله التى ذكرها فى هذه الآية ، الجاحدين قدرته على ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ)

[٢١] (فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ)

[٢٢] (إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[٢٣] (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ)

[٢٤] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ » أى من نطفة ضعيفة « فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ »

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

أى رحم استقرفيها فتمكن « إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ » أى وقت معلوم لخروجه من الرحم « فَقَدَرْنَا » قرئ بالتخفيف والتشديد . أى فقدرنا على ذلك أو قدّرناه « فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بقدرته تعالى على ذلك ، أو على الإعادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا)

[٢٦] (أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا)

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا » قال ابن جرير[1] : أى وعاء . تقول هذا كِفْتُ هذا وكَفِيتُهُ إذا كان وعاءه . والمعنى ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم ، تكفت أحياءكم فى المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم ، وأمواتكم فى بطونها فى القبور فيُدفنون فيها ؟ وجائز أن يكون عنى بقوله (كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا) تَكْفِتُ أذاهم فى حال حياتهم ، وجِيَفَهُمْ بعد مماتهم . انتهى .

و (الكفات) إما اسم جنس لما يضم ويقبض . يقال : كَفَتَهُ الله إليه أى قبضه . ولذلك سميت المقبرة كَفْتَةً وكِفَاتًا . ومنه الضمام والجماع ، لما يضم ويجمع . يقال هذا الباب جِماع الأبواب . وإما اسم آلة ، لأن فِعالًا كثر فيه ذلك . أو مصدر كقتال . أُوِّل بالمشتق ونعت به ، كرجل عدل . أو جمع كافت كصائم وصيام . أو كِفْت بكسر فسكون كقدح وقداح . و (كِفَاتًا) منصوب على أنه مفعول ثان لـ (نَجْعَلِ) لأنها للتصيير ، و (أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا) منصوبان على أنهما مفعولان به لـ (كِفَاتًا) .

قال الشهاب : وهذا ظاهر على كون (كفاتا) مصدراً أو جمع كافت . لا على كونه اسم آلة فإنه لا يعمل ، كما صرح به النحاة . وحينئذ فيقدر فعل ينصبه من لفظه ، كما صرح به ابن مالك فى كل منصوب بعد اسم غير عامل . وثمة وجوه أخر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

تنبيه :

فى (الإكليل) قال إلكيا الهراسىّ : عنى بالكفات الانضمام . ومراده أنها تضمهم فى الحالتين . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت فلا يرى منه شىء . وقال ابن عبد البرّ : احتج ابن القاسم فى قطع النباش بهذه الآية . لأنه تعالى جعل القبر للميت كالبيت للحىّ ، فيكون حرزاً . انتهى .

ونقله القفّال عن ربيعة . وعندى أن مثل هذا الاحتجاج من الإغراق فى الاستنباط وتكلف التماس مايؤيد المذهب المتبوع كيفما كان، مما يعد تعسُّفاً وتعصُّباً . وبين فحوى الآية وهذا الاستنباط ما بين المنجد والمتهم . ومثله أخذ بعضهم من الآية السابقة (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) تأجيل القضاة الخصوم فى الحكومات ، ليقع فصل القضاء عند تمام التأجيل . كما نقله فى (الإكليل) عن ابن الفرَس . ومآخذ الدين والتشريع ليست من الأحاجى والمعميات . وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا)

[٢٨] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ » أى جبالًا شاهقات « وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا » أى عذباً « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)

« انطَلِقُوا » أى يقال لهؤلاء المكذبين بهذه النعم والحجج التى احتج بها عليهم يوم القيامة : انطلقوا « إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ » أى من عذاب الله للكفرة الفجرة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾

[٣١] ﴿ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾

[٣٢] ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾

[٣٣] ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾

[٣٤] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

[٣٥] ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾

[٣٦] ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾

[٣٧] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

[٣٨] ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ، جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾

[٣٩] ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾

[٤٠] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

« انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » أى فِرَق . وذلك دخان جهنم المرتفع من وقودها ، إذا تصاعد تفرّق شعباً ثلاثاً ، لعظمه .

قال الشهاب : فيه استعارة تهكمية لتشبيه ما يعلو من الدخان بالظل . وفيه إبداع ، لأن الظل لا يعلو ذا الظل . وقوله تعالى « لَا ظَلِيلٍ » تهكم بهم . لأن الظل لا يكون إلا ظليلًا أى مظللًا . فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلًّا تهكم بهم، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم، فنفى هذا الاحتمال بقوله (لَا ظَلِيلٍ) « وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ » أى لا يردّ عنهم من لهب

النار شيئاً. والمعنى أنه لايظلهم من حرّها ولا يكنّهم من لهبها «إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ» أى تقذف كل شررة كالقصر فى عظمها . والقصر واحد القصور .

قال ابن جرير(١) : العرب تشبّه الإبل بالقصور المبنيّة ، كما قال الأخطل فى صفة ناقة :

كأنها بُرْجُ رُومِيّ يُشَيِّدُهُ   لُزَّ بِجِصٍّ وَآجُرّ وأَحْجَارِ

ثم قال : وقيل (بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) ولم يقل كالقصور . والشرر جمع . كما قيل (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) ولم يقل الأدبار لأن الدبر بمعنى الأدبار . وفعل ذلك توفيقاً بين رؤوس الآى ومقاطع الكلام . لأن العرب تفعل ذلك كذلك . وبلسانها نزل القرآن .

« كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ » وقرئ (جِمَالَاتٌ) جمع(جمال)جمع(جمل). أوجمع(جمالة)جمع(جمل) أيضاً . ونظيره : رجال ورجالات ، وبيوت وبيوتات ، وحجارة وحجارات . « صُفْرٌ » أى فى لونها . فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر . وقيل : صفر أى سود .

قال قتادة وغيره: أى كالنوق السود، واختاره ابن جرير(٢) زاعماً أنه المعروف من كلام العرب « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ » أى بحجة. أو فى وقت من أوقاته. لأنه يوم طويل ذو مواقف ومواقيت . أو جعل نطقهم كلا نطق ، لأنه لاينفع ولا يسمع ، فلا ينافى آية(٣) (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) وآية(٤) (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً) وآية(٥) (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» أى لايعهد لهم الإذن فى الاعتذار ، لعدم قبول معذرتهم بقيام الحجة عليهم . وإنما لم يقل (فيعتذروا) محافظة على رؤوس الآى . وقيل : هو معطوف على (يؤذن) منخرط معه فى سلك النفى. والمعنى ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له، من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ » أى الحق بين العباد «جَمَعْنَاكُمْ» أى

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
(٣) [٦ / الأنعام / ٢٣] .   (٤) [٤ / النساء / ٤٢] .
(٥) [٣٩ / الزمر / ٣١] .

حشرناكم فيه « وَٱلْأَوَّلِينَ » أى من الأمم الهالكة « فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ » أى احتيال للتخلص من العذاب « فَكِيدُونِ » أى فاحتالوا له .

قال الزمخشري : تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى فإنه لاحيلة لهم فى دفع العقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ)

[٤٢] (وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ)

[٤٣] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٤٤] (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

[٤٥] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[٤٦] (كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « فِى ظِلَـٰلٍ » أى كنان من الحر والقر « وَعُيُونٍ » أى أنهار تجرى خلال أشجار « وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ » أى يرغبون، مقولا لهم: « كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ » أى فى طاعتهم وعبادتهم وعملهم « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ » أى حظكم حظ من أجرم، وهو الأكل والتمتع أياماً قلائل ، ثم البقاء فى الهلاك أبداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[٤٨] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ)

[٤٩] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[٥٠] (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا » أى اخضعوا لهذا الحق الذى نزل ، وتواضعوا لقبوله ، واخشعوا لذكره « لَا يَرْكَعُونَ » أى لا يخضعون ولا ينقادون ولا يقبلون ، تجبراً واستكباراً « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى الذين كذبوا رسل الله ، فردوا عليهم ما بلغوا من أمر الله إياهم ونهيه لهم . وتكرير آية (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) للتأكيد . وهو من المقاصد الشائعة . وقيل : لا تكرار ، لاختلاف متعلق كل منها . وتقدم تمام البحث فى سورة (الرحمن) فارجع إليه فى خاتمتها « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » أى بعد هـذا القرآن ، إذا كذبوا به ، مع وضوح برهانه وصحة دلائله ، فى أنه حق منزل من عنده تعالى . وفيه تنبيه على أنه لا حديث يساويه فى الفضل أو يدانيه ، فضلا عن أن يفوقه ويعلوه ، فلا حديث أحق بالإيمان منه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٨ - سُورَةُ النَّبَأ

وتسمى سورة (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) . وهى مكية ، وآيها أربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ)

[٢] (عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ)

[٣] (ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)

«عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ» أى هؤلاء المشركون بالله ورسوله. قال ابن جرير(١) وذلك أن قريشا جعلت ، فيما ذكر عنها ، تختصم وتتجادل فى الذى دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، من الإقرار بنبوته ، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى ، والإيمان بالبعث. فقال الله تعالى لنبيه : فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون ؟ . و (فى) و (عن) فى هذا الموضع بمعنى واحد . انتهى.

والاستفهام للتفخيم أو للتبكيت. والتفاعل إما على بابه، أو هو بمعنى (فعل). والمعنى على الأول يتساءلون فيما بينهم. وعلى الثانى يسألون الرسول صلوات الله عليه وسلامه، أو المؤمنين. قيل مجىء تفاعل بمعنى فعل إذا كان فى الفاعل كثرة ، مراعاة لمعنى التشارك بقدر الإمكان . ونوقش بأن (تفاعل) يكون بمعنى (فعل) كثيراً وإن لم يتعدد فاعله . كتوانى زيد وتدانى الأمر . بل حيث لا يمكن التعدد نحو(٢) (تَعَـٰلَى ٱللَّـهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وقوله :

« عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ » بيان للمفخم شأنه ، أو للمبكت من أجله « ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » أى منقسمون ، بعضهم يجحده وآخر يرتاب فيه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

[٥] (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)

« كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ » ردع للمتسائلين ووعيد لهم . والتكرير للمبالغة لحذف مفعول العلم . فإما أن يقدر سيعلمون حقيقة الحال وما عنه السؤال . أو سيعلمون ما يحل بهم من العقوبات والنكال . فتكريره مع الإبهام ، يفيد مبالغة . وفى (ثُمَّ) إشعار بأن الوعيد الثانى أشد . لأنها هنا للبعد والتفاوت الرتبىّ . فكأنه قيل : ردع وزجر لكم شديد ، بل أشد وأشد . وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله . ولذا خص عطفه بـ (ثُمَّ) غالباً . هذا ملخص ما فى (العناية) .

ثم ذكّرهم تعالى بدلائل قدرته وآيات رحمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا)

[٧] (وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا)

[٨] (وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا)

[٩] (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا)

[١٠] (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا)

[١١] (وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا)

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا » أى فراشاً وموطئاً تمهدونها وتفترشونها « وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا » أى للأرض . أى أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد ، حتى لا تميد بأهلها فيكمل

كون الأرض مهاداً بسبب ذلك . قال الإمام مفتى مصر : وإنما كانت الجبال أوتاداً لأن بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها، ولأنها فى تثبيت الأرض ومنعها من الميدان والاضطراب ، كالأوتاد فى حفظ الخيمة من مثل ذلك . كأن أقطار الأرض قد شدت إليها. ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما فى جوفها من الموادّ الدائمة الجيشان .

« وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا » أى ذكوراً وإناثاً . قال الإمام : ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية .

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا » أى راحة ودعة ، يريح القوى من تعبها ويعيد إليها ما فقد منها . إطلاقاً للملزوم وهو (السبات) بمعنى النوم ، وإرادة للازم وهو (الاستراحة) . وقيل : السبات هو النوم الممتد الطويل السكون . ولهذا يقال فيمن وصف بكثرة النوم : إنه مسبوت وبه سبات . ووجه الامتنان بذلك ظاهر ، لما فيه من المنفعة والراحة ، لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبان شيئاً من الراحة . وقد أفاض السيد المرتضى فى أماليه فى لطائف تأويل هذه الآية .

« وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا » أى كاللباس بإحاطة ظلمته بكل أحد ، وستره لهم .

قال الرازىّ : ووجه النعمة فى ذلك ، أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدوّ أو بياتاً له ، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه . قال المتنبي :

وكم لِظَلَامِ الليلِ عَنْدِيَ مِنْ يَدٍ　　تخبِّر أن المانوية تَكْذِبُ

وأيضا ، فكما أن الإنسان ، بسبب اللباس ، يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد فى جمال الإنسان وفى طراوة أعضائه وفى تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسمانىّ وأذى الأفكار الموحشة .

« وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا » أى وقت معاش . إذ فيه تتقلب الخلق فى حوائجهم ومكاسبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)

[١٣] (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا)

[١٤] (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)

[١٥] (لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا)

[١٦] (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)

« وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا » قال الرازىّ : أى سبع سموات شدادًا جمع (شديدة) يعنى محكمة قوية الخلق لايؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج .

وقال الإمام : السبع الشداد الطرائق السبع ، وهى ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة . وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها . « وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً » أى متلألئاً وقادًا . يعنى الشمس « وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ » أى السحائب إذا أعصرت ، أى شارفت أن تعصرها الرياح «مَاءً ثَجَّاجًا» أى منصباً متتابعاً « لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنبَاتاً» قال ابن جرير[١] : الحب كل ما تضمنه كمام الزرع التى تحصد . والنبات الكلأ الذى يُرْعَى من الحشيش والزروع .

وقال الزمخشرىّ : يريد مايتقوّت من نحو الحنطة والشعير ، ومايعلف من التبن والحشيش . كما قال[٢] (كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ) .

« وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً » أى حدائق ملتفة الشجر ، مجتمعة الأغصان .

قال الرازىّ : قدم الحب لأنه الأصل فى الغذاء . وثنى بالنبات لاحتياج الحيوانات إليه.

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٢٠ / طه / ٥٤] .

وأخر الجنات لأن الحاجة إلى الفواكه ليست بضرورية . ثم قال: وكان الكعبيّ من القائلين بالطبائع. فاحتج بقوله تعالى (لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا) الخ على بطلان قول من قال: إنه تعالى لا يفعل شيئاً بواسطة شيء آخر . أي لأن ارتباط المسببات بالأسباب مما بنى عليه سبحانه ، بحكمته الباهرة ، نظام العمران .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا)

[١٨] (يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)

« إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ » أي يوم يفصل بين الناس ويفرق السعداء من الأشقياء ، باعتبار تفاوت الأعمال ، وهو يوم القيامة « كَانَ » أي عند الله وفي علمه وحكمه «مِيقَـٰتًا» أي حدًّا معيناً ، ووقتاً موقتاً ، ينتهي الخلق إليه ليرى كلٌّ جزاء عمله « يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ » بدل من (يَوْمَ ٱلْفَصْلِ) أو عطف بيان . كناية عن اتصال الأرواح بالأجساد ، ورجوعها بها إلى الحياة والحشر في الآخرة . كما قال القاشانيّ والشهاب .

وقال الإمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق[1] (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور. وليس علينا أن نعلم ماهي حقيقة ذلك الصور : « فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » أي فرقاً مختلفة ، كل فرقة مع إمامهم ، على حسب تباين عقائدهم وأعمالهم وتوافقها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا)

[٢٠] (وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

« وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا » قال ابن جرير[١] : أى وشققت السماء فصدعت ، فكانت طُرُقًا ، وكانت من قبل شِدَادًا لافطور فيها ولا صدوع .

وقال القاضى فيما نقله الرازىّ : وهـذا الفتح هو معنى قوله[٢] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) و[٣] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ) إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب، وهذا ، كما قاله ابن جرير، متين للغاية . وتعقبُ الرازىّ له ، وقوف مع الألفاظ لا يفيد . لاسيما والأصل هو التفسير بالنظائر والأشباه .

« وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » أى رفعت من أماكنها فى الهواء . وذلك إنما يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاء متصاعدة كالهباء . وفى الآية تشبيه بليغ . والجامع أن كلا منهما يرى على شكل شىء، وليس به. فالسراب يرى كأنه بحر وليس كذلك . والجبال إذا فتتت وارتفعت فى الهواء ، ترى كأنها جبال وليست بجبال. بل غبار غليظ متراكم، يرى من بعيد كأنه جبل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)

[٢٢] (لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا)

[٢٣] (لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا)

[٢٤] (لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا)

[٢٥] (إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)

[٢٦] (جَزَآءً وِفَاقًا)

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٨٤ / الانشقاق / ١] . (٣) [٨٢ / الانفطار / ١] .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » أى موضع رصد ، يرصد فيه خزنتها من كان يكذب بها وبالمعاد . على أن (مِرْصَادًا) اسم مكان . أو مجدّة فى ترصدهم وارتقاب مقدمهم . على أنه صيغة مبالغة « لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا » أى للذين طغوا فى الدنيا ، فتجاوزوا حدود الله استكباراً على ربهم ، منزلا ومرجعاً يصيرون إليه « لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا » أى دهوراً متتابعة إلى غير نهاية . كقوله[1] (خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا) « لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا » أى روحاً وراحة « وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا » أى ماء حارًّا انتهى غليانه « وَغَسَّاقًا » أى صديداً . وهو مايخرج من جلودهم مما تصهرهم النار ، فى حياض يجتمع فيها، فيسقونه « جَزَآءً وِفَاقًا » أى : جوزوا بذلك جزاء موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال ، وقدموه من العقائد والأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا)

[٢٨] (وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا)

[٢٩] (وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا)

« إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا » قال القاشانىّ : أى ذلك العذاب ، لأنهم كانوا موصوفين بهذه الرذائل من عدم توقع المكافآت والتكذيب بالآيات. أى لفساد العمل والعلم . فلم يعملوا صالحاً رجاء الجزاء ، ولم يعلموا علماً فيصدقوا بالآيات .

« وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا » قال القاشانىّ : أى كل شىء من أعمالهم ضبطناه بالكتابة عليهم فى صحائف نفوسهم .

وقال الرازىّ : المراد من قوله (كِتَـٰبًا) تأكيد ذلك الإحصاء والعلم . وهذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر . فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال ، لأنه واجب لذاته . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٥] .

وهو بمعنى ما نقله الشهاب ؛ أنه تمثيل لإحاطة علمه بالأشياء ، لتفهيمنا . وإلا فهو تعالى غنيّ عن الكتابة والضبط . ومذهب السلف الإيمان بهذه الظواهر وتفويض تأويلها إلى الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)

[٣١] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)

[٣٢] (حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا)

[٣٣] (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا)

[٣٤] (وَكَأْسًا دِهَاقًا)

[٣٥] (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا)

[٣٦] (جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا)

« فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » أى يقال لهم ذلك ، تقريعاً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب ، وإعلاماً بمضاعفته .

ولما ذكر وعيد الكفار ، تأثره بوعد الأبرار ، بقوله سبحانه « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » أى فوزاً بالنعيم . ونجاة من النار ، التى هى مآب الطاغين « حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا » الحدائق جمع حديقة وهى البستان فيه أنواع الشجر المثمر المحوط بالحيطان المحدقة به . والأعناب معروفة . قال ابن جرير(١) : أى وكروم وأعناب ، فاستغنى بالأعناب عنها .

« وَكَوَاعِبَ » أى بنات فلكت ثديّهن ، أى استدارت مع ارتفاع يسير «أَتْرَابًا» أى

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

متساويات فى السن « وَكَأْسًا دِهَاقًا » أى ملأى من خمر لذة للشاربين « لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا » أى فى الجنـــة « لَغْوًا » أى باطلًا من القول « وَلَا كِذَّابًا » أى مكاذبة . أى لا يكذب بعضهم بعضاً .

قال الإمام : اللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين ، بل هو من أشد الأذى لقلوبهم. فأراد الله إزاحة ذلك عنهم «جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً» أى جزاء لهم على صالح أعمالهم، تفضُّلًا منه تعالى بذلك الجزاء « حِسَابًا » أى كافياً ، أو على حسب أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا)

« رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » .

قال ابن جرير[١] : أى لا يملكون أن يخاطبوا الله . قال : والمخاطب المخاصم الذى يخاصم صاحبه . وقال غيره: أى لا يملكهم الله منه خطاباً فى شأن الثواب والعقاب. بل هو المتصرِّف فيه وحده . وهـــذا كما تقول (ملكت منه درهما) فـ (من) ابتدائية متعلقة بـ(يملكون) وعلى ما ذكره ابن جرير من أن المعنى لايملكون أن يخاطبوه بشىء من نقص العذاب ، فـ (منـه) صلة (خطاباً) كما تقول (خاطبت منك) على معنى خاطبتك . كـ (بعت زيدا) أو (بعت من زيد) فـ (منه) بيان مقدم على المصدر لا صلة (يملكون) . وقد قرئ (رب) و (الرحمن) بالجر وبالرفع . وقرئ بجر الأول ورفع الثانى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ، لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا)

[٣٩] (ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ، فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا)

« يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ » أى جبريل عليه السلام وهو المعبّر عنه بروح القدس فى آية أخرى وفيه أقوال أُخَر نقلها ابن جرير[1] . وما ذكرناه أصوبها . والتنزيل يفسر بعضه بعضاً .

ثم رأيت الرازىّ نقل عن القاضى اختياره ، قال : لأن القرآن دل على أن هـذا الاسم اسم جبريل عليه السلام . وثبت أن القيام صحيح من جبريل ، والـكلام صحيح منه ، ويصح أن يؤذن له . فـكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه ، أو إلى القرآن الذى لا يصح وصفه بالقيام ؟ وقوله تعالى « وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا » قال القاشانىّ : أى صافّين فى مراتبهم ، كقوله تعالى[2] (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) . انتهى .

وقال الرازىّ : يحتمل أن يكون المعنى صفًّا واحداً . ويحتمل أنه صفان . ويجوز صفوفاً . والصف فى الأصل مصدر ، فينبئ عن الواحد والجمع . ورجح بعضهم الأخير ، لآية[3] (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) انتهى .

وقوله تعالى « لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » أى لا يتكلمون فى الشفاعة ، كقوله[4] (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) والضمير للملائكة أو أعمّ كقوله[5] (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٦٤] .

(٣) [٨٩ / الفجر / ٢٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٥٥] .

(٥) [١١ / هود / ١٠٥] .

قال الزمخشريّ : هما شريطتان : أن يكون المتكلّم منهم مأذوناً له فى الكلام ، وأن يتكلّم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى(١) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) .

« ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ » أى الواقع الذى لا يمكن إنكاره و (ٱلْحَقُّ) صفة أو خبر . « فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا » قال ابن جرير(٢) : أى فمن شاء اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق ، والاستعداد له والعمل بما فيه ، النجاةَ له من أهواله ، مرجعاً حسناً يؤوب إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا)

« إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا » يعنى عذاب الآخرة وقربه . لأن مبدأه الموت « يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى من خير أو شرّ . أى ينظر جزاءه « وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا » أى مثله . لم أُصب حظًّا من الحياة ، لما يلقى من عذاب الله الذى أعدّ لأمثاله . وقاناه الله بمنه وكرمه .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٩ - سُورَةُ النَّازِعَات

وتسمى سورة الساهرة . والطامّة . وهي مكية . وآيها ست وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا)

[٢] (وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا)

[٣] (وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا)

[٤] (فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا)

[٥] (فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا)

« وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا » يعنى الغزاة أو أيديهم . يقال للرامى (نزع فى قوسه) إذا مدها بالوتر . و (نزع فى قوسه فأغرق) و (أغرق النازع فى القوس) إذا استوفى مدّها . ويضرب مثلًا للغلوّ والإفراط . و (غَرْقًا) بمعنى إغراقاً كالسلام بمعنى التسليم ، وهو الإغراق بحذف الزوائد. أو (وَالنَّٰزِعَٰتِ) الكواكب . من (نزع الفرس سنناً) جرى طلقاً ، أى الجاريات على السير المقدر ، والحدّ المعين ، مجدّة فى السير ، مسرعة للغاية . « وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا » أى الخيل لأنها تخرج من دار إلى دار . من قولهم (ثور ناشط) إذا خرج من بلد إلى بلد . أو هى السهام . يعنى خروجها عن أيدى الرماة ونفوذها . وكل شىء حللته ، فقد نشطته . ومنه (نشاط الرجل) وهو انبساطه وخفته . أو الكواكب تنشط من برج إلى برج . « وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا » أى الخيل تسبح فى عَدْوها فتسبق إلى العدوّ . وهو مستعار من (سبح فى الماء) لكنه ألحق بالحقيقة لشهرته . أو هى الكواكب تسبح فى الفَلَك . لأن مرورها فى الجو كالسبح، كما قال تعالى[1] (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) . « فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا »

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] .

أى الخيل تسبق إلى العدوّ فى حومة الوَغَى . أو الـكواكب السيارة تسبق غيرها فى السير، لـكونها أسرع حركة . « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » أى الخيل . أسند إليها أمر تدبير الظفر مجازاً، لأنها سببه . أو المدبرات مثل المعقبات . أى أنه يأتى فى أدبار هذا الفعل الذى هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها ، الأمر الذى هو النصر . أو هى الـكواكب تدبر أمراً نيط بهـا . كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، مجازاً أيضاً . لأنها سببه . أو هى الملائـكة تدبر ما نيط بها من أمر الله تعالى . وقد جوّز فيما قبلها أن تـكون الملائـكة أيضاً . واللفظ الـكريم متسع لما ذكر من المعانى بلا تدافع . ولا إمكان للجزم بواحد، إذ لا قاطع . ولذا قال ابن جرير[1]: الصواب عندى أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة . فـكل نازعة غرقاً، فداخلة فى قَسَمِهِ ، مَلَـكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . وكذا عم القَسَم بجميع الناشطات من موضع إلى موضع . فـكل ناشط فداخل فيما أقسم به ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها ، بأن المعنىّ بالقَسَم من ذلك، بعض دون بعض . وهكذا فى البقية . وكلامه رحمه الله متجه للغاية . إذ فيه إبقاء اللفظ على شموله، وهو أعم فائدة وعدم التكلف للتخصيص بلا قاطع . وإن كانت القرائن واستعمال موادها فى مثلها وشواهدها، مما قد يخصص الصيغ . إلا أن التنزيل الـكريم يُتَوَقّى فى التسرُّع فيه مالا يُتَوَقّى فى غيره .

لطائف :

قال أبو السعود: العطف مع اتحاد الـكل ، بتنزيل التغاير العنوانىّ منزلة التغاير الذاتىّ ، كما فى قوله [2] :

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ … ولَيْثِ الـكتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور، حقيق بأن يكون على حياله،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) ورد هذا البيت فى الخزانة (١ / ٢١٦) غير منسوب .

وكذلك هو فى (معانى القرآن) للفرّاء (١ / ١٠٥) .

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام، بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه. والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة . و (غَرْقاً) مصدر مؤكد بحذف الزوائد . وانتصاب (نَشْطاً) و (سَبْحاً) و (سَبْقاً) أيضاً على المصدرية . وأما (أَمْرًا) فمفعول للمدبرات . وتنكيره للتهويل والتفخيم . والمقسم عليه محذوف، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ، ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه، وهو (لتبعثن) وبه تعلق قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ)

[٧] (تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ)

[٨] (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)

[٩] (أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ)

[١٠] (يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ)

« يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ » أي الواقعة التي ترجف عندها الأجرام الساكنة. أي تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة. فالإسناد إليها مجازيّ لأنها سببه . أو التجوز في الطرف بجعل سبب الرجف راجفاً . أو الراجفة الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ ، كالأرض والجبال . فتسميتها راجفة باعتبار الأول . قال الشهاب : ولو فسرت الراجفة بالحركة جاز ، وكان حقيقة . لأن (رجف) يكون بمعنى حرّك وتحرّك .

« تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ » أي السماء ومافيها . تردفها فتنشق وتنتثر كواكبها . ولوقوع ذلك فيها بعد الرجفة الأولى ، جعلت رادفة لها . أو الرادفة النفخة الثانية لبعث يوم القيامة .

قال الحسن : هما النفختان. أما الأولى فتميت الأحياء . وأما الثانية فتحيي الموتى. ثم تلا الحسن[١] (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

اللَّـهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) « قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ » أى شديدة الاضطراب، خوفا من عظيم الهول النازل « أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ » أى أبصار أهلها ذليلة، مما قد علاها من الكآبة والحزن ، من الخوف والرعب . وقوله تعالى « يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ » قال ابن جرير[1] : أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركى قريش ، إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات، فراجعون أحياء كما كنا ؟ وقال أبو السعود : حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به ، إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسميّ، وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أى يقولون، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، منكرين له متعجبين منه: أئنا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة ؟ أى فى الحالة الأولى . يعنون الحياة . من قولهم (رجع فلان فى حافرته) أى فى طريقته التى جاء فيها فحفرها. أى أثر فيها بمشيه. وتسميتها (حافرة) مع أنها محفورة كقوله تعالى[2] (فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى منسوبة إلى الحفر والرضا. أو كقولهم (نهاره صائم) على تشبيه القابل بالفاعل . أى شبه القابل للفعل بمن يفعله ، لتنزيله منزلته . فالاستعارة فى الضمير المستتر ، وإثبات الحافرية له ، تخييل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً)

[١٢] (قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)

[١٣] (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ)

[١٤] (فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٢١] .

« أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً » أى بالية . وقرئ نَاخِرَةً . من (نخر العظم) بلى . فصار يمرّ به الريح فيسمع له نخير ، وقوله تعالى « قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » أى ذات خسر . أو خاسرة أصحابها . أى إن صحت فنحن إذاً خاسرون . قال ابن زيد : وأى كرة أخسر منها؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت كرة سوء .

وقال أبو السعود : هـذا حكاية لـكفر آخر لهم ، متفرع على كفرهم السابق . ولعل توسيط (قالوا) بينهما للإيذان بأن صدور هذا الـكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار ، مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنها فى كافة أوقاتهم . حسبما ينبيء عنه حكايته بصيغة المضارع . أى قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، مشيرين إلى ما أنـكروه من الردة فى الحافرة . وقوله تعالى « فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » تعليل لمقدر يقتضيه إنـكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالـكرّة . فإن مداره لما كان استصعابهم إياها ، رد عليهم ذلك ، فقيل : لا تستصعبوها فإنمـا هى صيحة واحدة . أى حاصلة بصيحة واحدة . وهى النفخة الثانية . وفيـه تهوين لأمر الإعادة ، على وجه بليغ لطيف « فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ » أى على ظهر الأرض أحياء .

قال ابن جرير[1] : والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة (قال) وأراهم سموا ذلك بها لأن فيه نوم الحيوان وسهرها . فوصف بصفة مافيه . وقيل لأن السراب يجرى فيها . من قولهم (عَيْنٌ سَاهِرَة) للتى يجرى ماؤها ، وفى ضدها نائمة . والسهر على الأول بمعناه المعروف ، والتجوز فى الإسناد .

وفى الثانى مجاز على المجاز ، لشهرة الأول التى ألحقته بالحقيقة. ثم ذكَّر سبحانه الـكفرة ما حل بمن هو أشد منهم قوة ، لما طغوا ، ترهيباً وإنذاراً ، بقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ)

[١٦] (إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ » أى خبره حين ناجاه ربه تعالى . قال أبو السعود : ومعنى (هَلْ أَتَىٰكَ) إن اعتبر هذا أول ماأتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام، ترغيب له فى استماع حديثه . كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به . وإن اعتبر إتيانه ، قبل هذا ، وهو المتبادر من الإيجاز فى الاقتصاص ، حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقرّ بأمر يعرفه قبل ذلك . كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه ؟ .

وقال الشهاب : المقصود من الاستفهام التذكير لا التقرير ، كما قيل . ولا مجافاة فى المعنى على كلٍّ ، كما لا يخفى « إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » إلى حين ناداه بالوادى المطهر المبارك . وهو واد فى أسفل جبل طورسيناء من برية فلسطين. و (إِذْ) ظرف للحديث لا للإتيان ، لاختلاف وقتيهما و (طُوًى) اسم لذلك الوادى . أو مصدر لنادى. أو المقدس. أى ناداه نداءين . أو المقدس مرة بعد أخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)

[١٨] (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ)

« ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ » أى عتا وتجاوز حدّه فى العدوان على بنى إسرائيل، وانتحال صفات الربوبية ، ونسبتها إلى نفسه « فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ » أى تتزكى

وتتطهر من دنس الشرك والطغيان . و (إِلَىٰٓ) متعلقة بمبتدأ محذوف . أى هل لك سبيل أو رغبة إلى أن تتزكى ؟

وقال أبو البقاء : لما كان المعنى أدعوك ، جيء بـ (إِلَىٰٓ) فجعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه « وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى أرشدك إلى علم ما يرضيه عنك . وذلك الدين القيم « فَتَخْشَىٰ » أى عقابه من سلب الملك وإذاقة البأس مكان النعم . وذلك بأداء ما ألزمك من فرائضه واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه . وفيه إشارة إلى أن الخشية مسببة عن العلم ، كما فى آية[1] (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟) أى العلماء به .

قال الزمخشرىّ : ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر . من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر . وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض . كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق ، ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوّه . كما أمر بذلك فى قوله[2] (فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ)

[٢١] (فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ)

[٢٢] (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ)

[٢٣] (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ)

[٢٤] (فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ)

[٢٥] (فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ)

[٢٦] (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ)

---

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٤٤] .

« فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ » أى الدلالة الكبرى على أنه لله رسول أرسله إليه. والفاء فصيحة، تفصح عن جمل قد طويت، تعويلاً على تفصيلها فى السور الأخرى. أى فذهب وبلغ ورجع وتُحُدِّىَ ، فأراه الآية الكبرى . وهى على ما قاله مجاهد ، عصاه ويده . أى عصاه إذ تحولت ثعبانا مبينا . ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين . وإفرادهما لأنهما كالآية الواحدة فى الدلالة . أو هى العصا لأنها كانت المقدمة والأصل . والبقية كالتبع . قيل : وكونها كبرى باعتبار معجزات مَن قبله من الرسل . أو هو للزيادة المطلقة «فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ» أى فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة ، ودعاها سحراً، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه وخشيته إياه « ثُمَّ أَدْبَرَ » أى أعرض عما هدى إليه. أو انصرف عن المجلس كبراً «يَسْعَىٰ» أى يجدّ فى معارضة الآية بالمكايد الشيطانية والحيل النفسانية. أو أدبر بعد ما رأى الثعبان، مرعوباً مسرعاً فى مشيه « فَحَشَرَ » أى جمع السحرة ، أو قومه وأتباعه « فَنَادَىٰ » أى فى المجمع بنفسه أو بمناد «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ» أى على كل من يلى أمركم. وفى (التنوير): أى أنا ربكم ورب أصنامكم الأعلى فلا تتركوا عبادتها .

قال القاضى : وقد كان الأليق به ، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول . لأن، عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) ؟ فدلت هذه الآية على أنه فى ذلك الوقت صار كالمعتوه الذى لا يدرى ما يقول . انتهى .

وهذا على أنه أراد بالرب الخالق والموجد. والظاهر أن مراده ذو السلطان الأعلى والنفوذ الأقوى . وأنه الذى يستأهل الطاعة دون غيره . ولا يخفى ما فيه من جحود قدرة الله تعالى التى هى فوق قدرته ، والكفر بآية موسى والصد عن دعوته . ولذا أخذ أشد الأخذ . فإنه لم يزل فى عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر ، عند خروجهم من مصر ، فأغرقه الله تعالى فى البحر. وهو معنى قوله تعالى« فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ » أى عذبه عذابهما. أى أن أخذه لم يكن مقصوراً على الإغراق وحده، بل نكل به وعذبه عذاب يوم القيامة . و (نكال) مفعول مطلق لـ (أخذ) بتأويل فى الأول أو فى الثانى، والإضافة من قبيل إضافة

الموصوف إلى الصفة . وقيل الآخرة هى قوله (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) والأولى هى تكذيبه موسى حين أراه الآية

قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر. لأنه تعالى قال (فَأَرَاهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ* فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ* فَحَشَرَ فَنَادَىٰ* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) فذكر المعصيتين ثم قال (فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ) فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين. انتهى.

وما ذكره القفّال كان وقع فى قلبى قبل أن أراه . وأرانى فى إيثار له . ثم ختم تعالى القصة بقوله « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ » أى فى أخذه وما أحل به من العذاب والخزى ، عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه، ويعلم أن هذه سنته فى كل من يقاوم الحق ويحاربه. فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا)

[٢٨] (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا)

[٢٩] (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا)

[٣٠] (وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا)

[٣١] (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا)

[٣٢] (وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا)

[٣٣] (مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ)

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ » خطاب للمكذّبين بالبعث من قريش ، المتقدم قولهم أول السورة ، بطريق التبكيت ، لتنبيههم على سهولته فى جانب القدرة الربانية . فإن من رفع السماء على عظمها ، هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم ، وإحياؤهم بعد مماتهم .

كما قال سبحانه (١) (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ) . وقوله تعالى (٢) (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم) ثم بيّن كيفية خلقها بقوله « بَنَىٰهَا » قال ابن جرير (٣) : أى رفعها فجعلها للأرض سقفاً . وقال الإمام : البناء ضم الأجزاء المتفرّقة بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة . وهكذا صنع الله بالكواكب . وضع كلًّا منها على نسبة من الآخر ، مع ما يمسك كلًّا فى مداره ، حتى كان عنها عالم واحد فى النظر ، سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا . وهو معنى قوله « رَفَعَ سَمْكَهَا » أى أعلاه و(السمك) قامة كل شيء وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا « فَسَوَّىٰهَا » عدلها بوضع كل جرم فى موضعه « وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا » أى جعله مظلماً . قال ابن جرير (٣) : أضاف الليل إلى السماء ، لأن الليل غروب الشمس ، وغروبها وطلوعها فيها ، فأضيف إليها لما كان فيها ، كما قيل (نجوم الليل) إذ كان فيه الطلوع والغروب . « وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا » أى أبرز نهارها . و (الضحى)انبساط الشمس وامتداد النهار . وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها . « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ » أى بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإبراز الأضواء « دَحَىٰهَا » أى بسطها ومهدها لسكنى أهلها، وتقلبهم فى أقطارها « أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا » أى بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً « وَمَرْعَىٰهَا » أى رعيها وهو النبات .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الإنسان . فأريد به هنا ، مجازاً ، مطلق المأكول للإنسان وغيره . فهو مجاز مرسل .

وقال الطيبيّ : يجوز أن يكون استعارة مصرحة . لأن الكلام مع منكرى الحشر بشهادة قوله (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً) كأنه قيل : أيها المعاندون الملزوزون فى قرن البهائم ، فى التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] . (٢) [٣٦ / يس / ٨١] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

«وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا » أى أثبتها فيها «مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» أى انتفاعاً إلى حين. قال أبو السعود : ونصبه إما على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم ، لأن فائدة ماذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى، واصلة إليهم وإلى أنعامهم. فإن المراد بالمرعى مايعم ما يأكله الإنسان وغيره ـ كما تقدم ـ وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر. أى متعكم بذلك متاعاً. أو مصدر من غير لفظه، فإن قوله تعالى (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) فى معنى متع بذلك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ)

[٣٥] (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ)

[٣٦] (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ)

[٣٧] (فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ)

[٣٨] (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

[٣٩] (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

[٤٠] (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ)

[٤١] (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ » أى الداهية العظمى التى تطمّ على كل هائلة من الأمور ، فتغمر ماسواها بعظيم هولها . وهى القيامة للحساب والجزاء « يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ » أى ما عمل من خير أو شر . وذلك بعرضه عليه « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ » أى أظهرت نار الله لأبصار الناظرين « فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ » أى أفرط فى تعديه ومجاوزته حد الشريعة والحق، إلى ارتكاب العصيان والفساد والضلال « وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى متاعها وشهواتها، على كرامة الآخرة وما أعد فيها للأبرار « فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» أى

مأواه ومرجعه « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ » أى مقامه بين يديه للسؤال، أو جلاله وعظمته. أى اتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه « وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ » أى فيما يكرهه الله ولا يرضاه منها ، نخالفها إلى ما أمره به « فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ » أى مصيره يوم القيامة. وجواب (إذا) محذوف لدلالة التقسيم عليه . تقديره: ظهرت الأعمال . أو انقسم الناس قسمين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا)

[٤٣] (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ)

[٤٤] (إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ)

[٤٥] (إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا)

[٤٦] (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا)

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا » أى إقامتها . أى متى يقيمها الله ويكوّنها . قال الناصر : وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله[1] (وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل ، كمرسى السفينة وإرساء الجبال « فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ » أى فى أى شىء أنت من ذكر ساعتها لهم . أى ليس إليك ذكرها لأنها من الغيوب، فلا معنى لسؤالهم إياك عنها. ولذا قال « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ » أى منتهى علمها « إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا » أى ما بعثت إلا لإنذار من يخاف حسابها ، وعقاب الله على إجرامه . ولم تكلف علم وقت قيامها « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا » أى كأن هؤلاء المكذبين بها ، وبما فيها من الجزاء والحساب، يوم يشاهدون وقوعها ، من عظيم هولها ، لم يلبثوا فى الدنيا أو فى القبور إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشية أو ضحاها . وإضافة الضحى إلى العشية ، لما بينهما من الملابسة ، لاجتماعهما فى يوم واحد .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٢٧] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٠ – سُورة عَبَسَ

وتسمى الصاخبة . مكية وآيها اثنتان وأربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ)

[٢] (أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ)

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ » .

روى ابن جرير [١] : وابن أبى حاتم : عن ابن عباس ، قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم ، يمشى وهو يناجيهم . فجعل عبدالله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن وقال: يارسول الله ! علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه . وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ) الآيات . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه ، وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شىء ؟ .

قال ابن كثير : وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة . والضحاك . وابن زيد . وغير واحد من السلف والخلف ؛ أنها نزلت فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله . ويقال عمرو . والله أعلم . انتهى .

وقال الرازىّ : أجمع المفسرون على أن الذى عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه . وأجمعوا أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . قال الشهاب : وهو مكىّ قرشىّ من المهاجرين الأولين .

(١) انظر الصفحة رقم ٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وكان النبيّ ﷺ يستخلفه على المدينة فى أكثر غزواته . وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

قيل: عمى رضى الله عنه بعد نور. وقيل : ولد أعمى. ولذا لقّبت أمه أم مكتوم. والتعرض لعنوان عماه ، إما لتمهيد عذره فى الإقدام على قطع كلامه ﷺ وتشاغله بالقوم : وإما لزيادة الإنكار . كأنه قيل: تولى لكونه أعمى . وكان يجب أن يزيده لعماه ، تعطفاً وترؤفاً وتقريبا وترحيباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾

[٤] ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾

[٥] ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾

[٦] ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾

[٧] ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

[٨] ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾

[٩] ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾

[١٠] ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾

« وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ » أى يتطهر ـ بما يتلقن منك ـ من الجهل أو الإثم. وفى الالتفات إلى الخطاب إنكار للمواجهة بالعتب أوّلا ، إذ فى الغيبة إجلال له ﷺ ، لإيهام أن من صدر منه ذلك غيره ، لأنه لا يصدر عنه مثله . كما أن فى الخطاب إيناساً بعد الإيحاش ، وإقبالا بعد إعراض .

وقال أبو السعود : وكلمة (لعل) مع تحقق التزكى ، واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام . للتنبيه على أن الإعراض عنه ، عند كونه مرجوّ التزكى ، مما لا يجوز . فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكى ؟ كما فى قولك (لعلك ستندم على ما فعلت) وفيه إشارة إلى أن إعراضه كان لتزكية غيره . وأن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلًا « أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ » أى يعتبر ويتعظ فتنفعه موعظتك . وتقديم التزكية على التذكر ، من باب تقديم التخلية على التحلية .

« أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ » أى بماله وقوته عن سماع القرآن والهداية والموعظة « فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ » أى تتعرض بالإقبال عليه ، رجاء أن يسلم ويهتدى « وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ » أى وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام . إنْ عليك إلا البلاغ . قال الرازىّ : أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم، إلى أن تعرض عمن أسلم، للاشتغال بدعوتهم «وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى طلب الخير « وَهُوَ يَخْشَىٰ » أى يخاف الله ويتقيه « فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ » أى تعرض وتتشاغل بغيره .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هـذه الآيات حث على الترحيب بالفقراء والإقبال عليهم فى مجالس العلم وقضاء حوائجهم، وعدم إيثار الأغنياء عليهم. وقال الزمخشرىّ: لقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدباً حسناً . فقد روى عن سفيان الثورىّ رحمه الله أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .

الثانى : فى هذه الآيات ونحوها ، دليل على عدم ضنه ﷺ بالغيب. قال ابن زيد : كان يقال : لو أن رسول الله ﷺ كتم من الوحى شيئاً ، كتم هذا عن نفسه .

الثالث : قال الرازىّ : القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام ، تمسكوا

بهذه الآية وقالوا : لما عاتبه الله فى ذلك الفعل، دل على أن ذلك الفعل كان معصية. وهذا بعيد. فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين ، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد . وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء . وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه السلام . وإذا كان كذلك ، كان ذلك جاريا مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً البتة .

وأجاب الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) بقوله: وأما قوله (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ) الآيات فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش، ورجا إسلامه. وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين. وعلم أن هذا الأعمى الذى يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته ، وهو حاضر معه . فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير ، عما لا يخاف فوته. وهذا غاية النظر فى الدين والاجتهاد فى نصرة القرآن فى ظاهر الأمر ونهاية التقرب إلى الله ، الذى لو فعله اليوم منا فاعل ، لأُجرَ . فعاتبه الله عز وجل على ذلك ، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقىّ ، وهذا نفس ماقلناه ! انتهى .

وقال القاشانىّ: كان ﷺ فى حجر تربية ربه، لكونه حبيباً. فكلما ظهرت نفسه بصفة حجبت عنه نور الحق، عوتب وأدب. كما قال[1]: (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) إلى أن تخلق بأخلاقه تعالى . انتهى . وقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

[١٢] (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ)

[١٣] (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ)

---

(١) فى كشف الخفاء (١٦٤) : رواه العسكرىّ عن علىّ رضى الله عنه .

[١٤] (مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ)

[١٥] (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

[١٦] (كِرَامٍ بَرَرَةٍ)

[١٧] (قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ)

« كَلَّآ » ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله . قال أنس رضى الله عنه: كان النبيّ ﷺ بعد ذلك يكرمه. رواه أبو يعلى. وقوله تعالى « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » أى إن المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

قال الشهاب : وكون عتابه على ماذكر عظة ، لأنه مع عظمة شأنه ومنزلته عند الله إذا عوتب على مثله . فما بالك بغيره ؟ وجوّز عود الضمير للآيات وللسورة، وللوصية بالمساواة بين الناس ، ولدعوة الإسلام. وقوله تعالى « فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ » أى حفظه. على أنه من (الذكر) خلاف النسيان : أو اتعظ به ، من (التذكير) .

قال الزمخشريّ : وذكّر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وقيل: الضمير للقرآن، والكلام استطراد « فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ » يعنى صحف آيات التنزيل وسوره « مَّرْفُوعَةٍ » أى عالية المقدار « مُّطَهَّرَةٍ » من التغيير والنقص والضلالة « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ » جمع سافر بمعنى سفير. أو هو الذى يسعى بين قومه بالصلح والسلام. يقال : سفر بين القوم، إذا أصلح بينهم. ومنه قوله(١) .

وما أدعُ السفارةَ بين قومى   وما أَمْشِى بِغشٍّ ، إن مَشَيْتُ

(١) قال فى حاشية ابن جرير (٣٠/٥٤) : البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (٣٥٨) قال : وقوله بأيدى سفرة وهم الملائكة، واحدهم سافر. يقال: سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم . فجعلت الملائكة ، إذ نزلت بوحى الله وتأديته ، كالسفير الذى يصلح بين القوم .

والسفرة ، إما الملائكة لأنهم يسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسله ، كأنه محمول بأيديهم . وإما الأنبياء لأنهم وسائط في الوحي يبلغونه للناس « كِرَامٍ » أي عنده تعالى ، لاصطفائهم للرسالة « بَرَرَةٍ » أي أخيار ، جمع (بارّ) وهو صانع البر والخير .

« قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ » قال الرازيّ: اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين، عجّب عباده المؤمنين من ذلك. فكأنه قيل: وأي سبب في هذا العجب والترفع ؟ مع أنّ أوله نطفة قذرة وآخره جيفة مذرة . وفيما بين الوقتين حمال عذرة . فلا جرم ، ذكر تعالى مايصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم . فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع وعلى القول بالبعث والحشر والنشر . ومرجعه إلى أن المراد بالإنسان من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به . وجوز أن يراد بالإنسان الجنس المنتظم للمستغني ، ولأمثاله من أفراده ، لا باعتبار جميع أفراده .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشريّ : (قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ) دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم . لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها .

الثانية : قال ابن جرير[1]: في قوله (مَآ أَكْفَرَهُۥ) وجهان أحدها التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده . والآخر ما الذي أكفره ؛ أي أيُّ شيء أكفره . وعلى الثانية، فالهمزة للتصيير كـ(أَغَدَّ البعيرُ) .

الثالثة : قال الزمخشريّ في هذه الآية : ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن متناً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة ، مع تقارب طرفيه ولا أجمع لِلَائمةٍ ، على قصر متنه . وسره ما أشار له الرازيّ من أن قوله (قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ) تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب . وقوله (مَآ أَكْفَرَهُۥ) تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

الرابعة : أفاد فى (الـكشف) أن الدعاء ليس على حقيقته ، لامتناعه منه تعالى . لأن منشأه العجز . فالمراد به إظهار السخط باعتبار جزئه الأول، وشدة الذم باعتبار جزئه الثانى. أى لاستحالة التعجب بمعناه المعروف أيضاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ)

[١٩] (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ)

[٢٠] (ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ)

[٢١] (ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ)

« مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ » شروع فى بيان إفراطه فى الـكفر، بتفصيل ماأفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره ، من فنون النعم الموجبة لقضاء حقها بالشكر والطاعة، مع إخلاله بذلك . وفى الاستفهام عن مبدأ خلقه ، ثم بيانه بقوله تعالى « مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ » تحقير له . أى من أى شىء حقير مهين خلقه ؟ من نطفة مذرة خلقه « فَقَدَّرَهُۥ » أى فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال . أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه «ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ» أى سهله . وهو مخرجه من رحم أمّه بعد اجتنانه وتعاصيه . أو سبيل الإسلام .

قال ابن زيد هداه للإسلام الذى يسره له وأعلمه به . أى بما غرز فى فطرته من الخير ، وأودع فى غريزته من وجدان معرفة الخالق . وقال مجاهد: يعنى سبيل الشقاء والسعادة وهو كقوله(١) (إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ) واختاره أبو مسلم قال : المراد من هذه الآية هو المراد من قوله(٢) (وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ) فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين . أى جعلناه متمكناً من سلوك سبيل الخير والشر . والتيسير يدخل

(١) [٧٦/ الإنسان/ ٣] . (٢) [٩٠/ البـلد/ ١٠] .

فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب . نقله الرازى . « ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ » أى جعله ذا قبر يوارَى فيه ، تكرمةً له ، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض للطير والسباع ، كالحيوان .

قال الفراء : ولم يقل (فقبره) لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله تعالى . يقال (قبر الميت) إذا دفنه . و (أقبر الميت) إذا أمر غيره بأن يجعله فى القبر .

وقال ابن جرير(١) : القابر هو الدافن الميت بيده كما قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها　　عاش ولم ينقل إلى قابر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ)

[٢٣] (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ)

[٢٤] (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ)

[٢٥] (أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا)

[٢٦] (ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا)

[٢٧] (فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا)

[٢٨] (وَعِنَبًا وَقَضْبًا)

[٢٩] (وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا)

[٣٠] (وَحَدَآئِقَ غُلْبًا)

(٣) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

[٣١] (وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا)

[٣٢] (مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ)

« ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ » أى بعثه بعد مماته وأحياه. وإنما قال (إِذَا شَآءَ) لأن وقت البعث غير معلوم لأحد. فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى. متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم.

قال الشهاب : وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار، لأن وقتهما معين إجمالًا، على ماهو المعهود فى الأعمار الطبيعية.

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ » قال ابن جرير[1]: أى ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، من أنه قد أدى حق الله عليه، فى نفسه وماله، فإنه لما يؤد مافرَضَ عليه من الفرائض، ربُّهُ.

وقال القاشانيّ : لما بين أن القرآن تذكرة للمتذكرين، تعجب من كفران الإنسان واحتجابه حتى يحتاج إلى التذكير. وعدد النعم الظاهرة التى يمكن بها الاستدلال على المنعم بالحس، من مبادئ خلقته، وأحواله فى نفسه، وماهو خارج عنه مما لايمكن حياته إلا به. وقرر أنه مع اجتماع الدليلين، أى النظر فى هذه الأحوال الموجب لمعرفة الموجد المنعم والقيام بشكره، وسماع الوعظ والتذكير بنزول القرآن، لما يقض فى الزمان المتطاول ما أمره الله به من شكر نعمته، باستعمالها فى إخراج كماله إلى الفعل، والتوصل بها إلى المنعم. بل احتجب بها وبنفسه عنه. انتهى.

ولما فصل تعالى النعم المتعلقة بحدوثه، تأثرها بتعداد النعم المتعلقة ببقائه. فقال سبحانه « فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ » أى فإن لم يشهد خلق ذاته، وعمى عن الآيات فى نفسه، وأصر على جحوده توحيدَ ربه، فلينظر إلى طعامه ومأكله الذى هو أقرب الأشياء لديه. ماذا صنعنا فى إحداثه وتهيئته لأن يكون غذاء صالحاً. وقوله تعالى « أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ » أى من

(١) انظر الصفحة رقم ٥٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية).

المزن « صَبًّا » أى شديداً ظاهراً . وقد قرىء بكسر همزة (إنا) على الاستئناف المبين لكيفية حدوث الطعام ، وبالفتح على البدلية ، بدل اشتمال . بمعنى سببية الأول للثانى . أوتقوم الثانى بالأول. فهومن اشتمال الثانى عليهأو بدل كلّ ، ادعاء «ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا» أى صدعناها بالنبات . أو شققنا أجزاءها بعد الريّ ليتخلل الهواء والضياء فى جوفها « فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا » يعنى حب الزرع . وهو كل ماحصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب « وَعِنَبًا وَقَضْبًا » وهو كل ماأكل من النبات رطباً، كالقثاء والخيار ونحوهما. سمى قضباً لأنه يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى « وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ » جمع حديقة وهى البساتين ذوات الأشجار المثمرة ، عليها حوائط تحيط بها « غُلْبًا » جمع غلباء أى ضخمة عظيمة . وعظمها إما لاتساعها البالغ حد البصر ، أو لغلظ أشجارها وتكاثفها والتفافها «وَفَـٰكِهَةً» أى مما يؤكل من ثمار الأشجار « وَأَبًّا » وهو المرعى الذى تأكله البهائم من العشب والنبات « مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ » أى تمتيعاً . مفعول له لـ (أنبتنا) أو مصدر حذف فعله وجُرّد من الزوائد . أى متعكم بذلك متاعاً ، وجعلكم تنتفعون به أنتم وأنعامكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ)

[٣٤] (يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

[٣٥] (وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ)

[٣٥] (وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ)

[٣٧] (لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

[٣٧] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ)

[٣٩] (ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ)

[٤٠] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ)
[٤١] (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)
[٤٢] (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ)

« فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ » يعنى الداهية الشديدة ، وهى صيحة القيامة وصوت زلزالها الهائل المصمّ للآذان . يقال صخّه يصخه ، ضرب أذنه فأصمها . وصاح بهم صيحة تصخ الآذان ، وقد صخ صخيخاً ، وهو صوته إذا قرع . وصخ لحديثه إذا أصاخ له ، بمعنى استمع كما فى (الأساس) ويجوز على الأخير أن تجعل بمعنى المستمعة ، مجازاً فى الإسناد . وجواب (إذا) محذوف يدل عليه مابعده . كيشتغل كل بنفسه ، أو افترق الناس « يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ » أى زوجته «وَبَنِيهِ» أى لاشتغاله بنفسه، وعلمه بأنهم لا ينفعونه .

قال الشهاب : يعنى أن الإقبال عليهم إما للنفع أو للانتفاع ، وكلاهما منتف لاشتغاله بنفسه عن نفس غيره ، وعلمه بعدم نفعه . وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة . فهو للترقى. كذا قيل .

قال الشهاب : والظاهر أنه لم يقصد ذلك لاختلاف الناس والطباع فيه « لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » أى يكفيه فى الاهتمام به. كأن ذلك الهم الذى نزل به، قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصار شبيها بالغنى « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ » أى مضيئة « ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ » أى مسرورة بنيل كرامة الله والنعيم المتزايد، وهى وجوه المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقدموا من الخير والعمل الصالح ماملأوا به صحفهم « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ » أى غبار وكدورة « تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » أى تغشاها ظلمة « أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ » أى الفسقة الذين لايبالون ما أتوا به من معاصى الله ، وركبوا من محارمه ، فجوزوا بسوء أعمالهم وخبث نياتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨١ – سورة التكوير

وتسمى سورة (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وهى مكية وآيها تسع وعشرون . روى الإمام أحمد[1] عن ابن عمر : قال قال رسول الله ﷺ : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة ، كأنه رأى عين فليقرأ (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ . وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) وهكذا رواه الترمذىّ[2] .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) ، والحديث رقم ٤٨٠٦ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٨١ ـ سورة إذا الشمس كورت .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

[٢] (وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ)

[٥] (وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[٦] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ)

[٧] (وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ)

[٨] (وَإِذَا ٱلْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ)

[٩] (بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ » أى أزيلت من مكانها ، وأُلقيت عن فلكها ، ومُحى ضوؤها «وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ» أى تناثرت وانقضّت «وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ» أى رُفعت عن وجه الأرض، ونسفت . من أثر الرجفة والزلزال الذى قطع أوصالها «وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ» أى تركت مهملة لا راعى لها ولا طالب . والعشار جمع عُشَرَاء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر . وخصها ، لأنها أنفس أموالهم . أى فإذا هذه الحوامل التى يتنافس فيها أهلها أهملت ، فتركت من شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ « وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ » أى جمعت من كل جانب واختلطت، لما دهم أوكارها ومكامنها من الزلزال والتخريب، فتخرج

هائمة مذعورة من أثر زلزال الأرض وتقطع أوصالها «وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ» أي : ملئت بتفجير بعضها إلى بعض ، حتى تعود بحرا واحداً . من (سجر التنور) إذا ملأه بالحطب . كقوله (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ) وقيل : المعنى تأججت ناراً . قال القفال : يحتمل أن تكون جهنم في قعور البحار ، فهي الآن غير مسجورة لقوام الدنيا . فإذا انتهت مدة الدنيا ، أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار ، فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك . وأوضحه الإمام بقوله : وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً . فإن ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا ، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ولا يبقى في البحار إلا النار . أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد ورد به بعض الأخبار . ورد أن البحر غطاء جهنم ، وإن لم يعرف في صحيحها . ولكن البحث العلمي أثبت ذلك . ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال النار . انتهى .

قال الرازي : واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا . ويمكن وقوعها أيضا بعد قيام القيامة . وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين . أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة . انتهى .

« وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ » أي قرنت الأرواح بأجسادها . أوضمت إلى أشكالها في الخير والشر ، وصُنِّفَتْ أصنافاً ليحشر كل إلى من يجانسه من السعداء والأشقياء .

« وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ » يعني البنات التي كانت طوائفُ العرب يقتلونهن . قال السيد المرتضى في (أماليه) : الموءودة هي المقتولة صغيرة . وكانت العرب في الجاهلية تئد البنات ، بأن يدفنوهن أحياء ، وهو قوله تعالى(١) (أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ) وقوله تعالى(٢) (قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ) . ويقال إنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين : أحدهما أنهم كانوا يقولون إن الإناث بنات الله . فألحقوا البنات بالله فهو أحق بها منا . والأمر الآخر أنهم كانوا يقتلونهن خشية الإملاق . قال الله(٣) تعالى (وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ) الآية : قال المرتضى : وجدت أبا علي الجبائيّ

(١) [١٦/ النحل/ ٥٩] . (٢) [٦/ الأنعام/ ١٤٠] . (٣) [٦/ الأنعام/ ١٥١] .

وغيره يقول : إنما قيل لها موءودة لأنها ثقلت بالتراب الذى طرح عليها حتى ماتت. وفى هذا بعض النظر . لأنهم يقولون من الموءودة ـ وَأَدَ (يَئِدُ) (وَأْدًا) والفاعل (وَائِد) والفاعلة (وَائِدَة) ومن الثقل يقولون آدنى الشىء يؤودنى ، إذا أثقلنى ، أَوْدا . انتهى .

وإنما قال (بعض النظر) لأن القلب معهود فى اللغة ، فلا يبعد أن يكون (وأد) مقلوباً من (آد) . وقال المرتضى : فإن سأل سائل ، كيف يصح أن يسئل من لاذنب له ولا عقل، فأىّ فائدة فى سؤالها عن ذلك ، وما وجه الحكمة فيه ؟ والجواب من وجهين : أحدها أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة فى قتلها، وسئل عن قتله لها بأى ذنب كان، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة . فالقتلة ههنا هم المسئولون على الحقيقة ، لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسئول عنها. ويجرى هذا مجرى قولهم (سألت حقى) أى طالبت به ومثله قوله تعالى[(١)] (وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا) أى مطالباً به مسئولًا عنه . والوجه الآخر أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة ، على سبيل التوبيخ له ، والتقريع له ، والتنبيه له ، على أنه لاحجة له فى قتلها . ويجرى هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام[(٢)] (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ) على طريق التوبيخ لقومه ، وإقامة الحجة عليهم . فإن قيل على هـذا الوجه : كيف يخاطب ويسئل من لاعقل له ولا فهم ؟ فالجواب أن فى الناس من زعم أن الغرض بهذا القول ، إذا كان تبكيت الفاعل وتهجينه وإدخال الغمّ عليه فى ذلك الوقت على سبيل العقاب ، لم يمتنع أن يقع . وإن لم يكن من الموءودة فهم له . لأن الخطاب، وإن علق عليها، وتوجه إليها، والغرض فى الحقيقة بغيرها. قالوا وهذا يجرى مجرى من ضرب ظالم طفلًا من ولده فأقبل على ولده يقول له: ضربتَ ماذنبك وبأى شىء استحل هذا منك ؟ فغرضه تبكيت الظالم لاخطاب الطفل . والأوْلى أن يقال فى هذا : إن الأطفال ، وإن كانوا من جهة العقول لايجب فى وصولهم إلى الأغراض المستحقة ،

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٤] . (٢) [٥ / المائدة / ١١٦] .

أن يكونوا كاملى العقول ، كما يجب مثل ذلك فى الوصول إلى الثواب . فإن كان الخبر متظاهراً والأمة متفقة على أنهم فى الآخرة ، وعند دخولهم الجنان يكونون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وأن عقولهم تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجه الخطاب إلى الموءودة ، لأنها تكون فى تلك الحال ممن تفهم الخطاب وتعقله . وإن كان الغرض منه التبكيت للقاتل وإقامة الحجة عليه . انتهى .

قال الشهاب : والتبكيت قرره الطيبى ، بأن المجنى عليه إذا سئل بمحضر الجانى ونسبت له الجناية دون الجانى ، بعث ذلك الجانى على التفكر فى حاله وحال المجنى عليه . فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب . وهذا استدراج على طريق التعريض ، وهو أبلغ من التصريح . والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له . حتى يبين من صدر عنه ذلك . كما سئل عيسى دون الكفرة ، وهو فن من البديع ، بديع . انتهى .

وقال الزمخشرى : وإنما قيل (قُتِلَتْ) بناء على أن الكلام إخبار عنها .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية تعظيم شأن الوأد ، وهو دفن الأولاد أحياء . وأخرج مسلم(١) أنه ﷺ سئل عن العزل فقال : الوأد الخفى . وهى : وإذا الموءودة سئلت . انتهى .

وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب فى هذه الآية قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! إنى وأدت بنات لى فى الجاهلية . قال : أعتق عن كل واحدة منهن رقبة . قال : يارسول الله ! إنى صاحب إبل . قال : فانحر عن كل واحدة منهن بَدَنَة .

(١) الحديث أخرجه فى : ١٦ ـ كتاب النكاح ، حديث رقم ١٤١ (طبعتنا) عن جُدَامة بنت وهب الأسدية .

وروى الدارمى[(١)] فى أوائل مسنده أن رجلًا أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان . فكنا نقتل الأولاد . وكانت عندى ابنة لى . فلما أجابت ، وكانت مسرورة بدعائى إذا دعوتها . فدعوتها يوماً فاتبعتنى فمررت حتى أتيت بئراً من أهلى غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها فى البئر . وكان آخر عهدى بها أن تقول يا أبتاه يا أبتاه . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه . فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ : أحزنت رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : كف . فإنه يسأل عما أهمه . ثم قال له : أعد علىّ حديثك . فأعاده . فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته . ثم قال له : إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف عملك .

وكان للعرب تفنن فى الوأد . فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها : طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها . وقد حفر لها بئراً فى الصحراء . فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظرى فيها . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض .

ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع ، حفر حفرة لتتمخّض على رأس الحفرة . فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة . وإن ولدت ابناً حبسته . وقد اشتهر صعصعة بن ناجية ابن عقال ، جد الفرزدق بن غالب ، بأنه كان ممن فدى الموءودات فى الجاهلية ، ونهى عن قتلهن . قيل إنه أحيا ألف موءودة ، وقيل دون ذلك . وقد افتخر الفرزدق بهذا فى قوله[(٢)] :

ومنا الذى منع الوائِدَاتِ   وأحيا الوئيدَ فَلَمْ يُوأَدِ

---

(١) أخرجه فى مقدمة مسنده فى : ١ ـ باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبىّ ﷺ من الجهل والضلالة .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

عرفت المنـــازلَ من مَهْدَدِ   كوحى الزبور لدى الغرقدِ

الوحى : الـكتاب . والغرقد : ضرب من الشجر دائم الاخضرار .

(الديوان ١/٢٠٢) .

وفى قوله أيضاً[١] :

أنا ابنُ عِقالٍ وابن ليلى وغالبٍ ... وفكّاكُ أغلال الأسير المكفَّرِ[٢]
وكان لنا شيخانِ ذو القبر منهما[٣] ... وشيخٌ أجار الناسَ من كل مَقْبَرِ
على حينِ لاتُحْيي البناتُ وإذ همُ ... عُكوف على الأصنام حولَ المدوَّرِ
أنا ابن الذى ردّ المنيةَ فضلُهُ ... وما حسبٌ دافعتُ عنه بِمُعْوِرِ
أَبِى أَحَدُ الغَيْثَيْن صعصعةُ الذى ... متى تُخْلِفِ الجوزاء والنجمُ يُمْطِرِ
أجارَ بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ ... على القبر ، يعلمْ أنه غير مُخْفِرِ
وفارق ليلٍ[٤] من نساء أتت أبى ... تُعالج ريحاً ليلها غير مُقْمِرِ
فقالت أجِر لى ما ولدتُ فإننى ... أتيتك من هَزْلى الحمولةِ مُقْتِرِ
رأى الأرض منها راحة فرمى بها ... إلى خُدَدٍ منها وفى شر مَحْفَرِ
فقال لها نامى فأنت بذمتى ... لبنتك جارٌ من أبيها القَنَوَّرِ[٥]

وروى أبو عبيدة : أن صعصعة ـ هذا ـ وفد على رسول الله ﷺ فى وفد بنى تميم . قال : وكان صعصعة منع الوأد فى الجاهلية ، فلم يدع تميما تئدوهو يقدر على ذلك . فجاء الإسلام وقد فدى فى بعض الروايات أربعمائة موءودة ، وفى أخرى ثلاثمائة ، فقال للنبيّ ﷺ : بأبى

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بنى نهشل أبقوا عليكم ولم تروا ... سوابقَ حامٍ للذِّمار مُشَهَّرِ

(الديوان ٢/٤٧٤) .

(٢) المكفر : هو الذى كفر وكبل بالحديد .

(٣) ذو القبر : غالب كان يستجار بقبره . والذى أجار الناس من القبر وأحيا الوئيدة صعصعة .

(٤) فارق ـ يعنى امرأة ماخضاً . شبهها بالفارق من الإبل وهى الناقة التى يضربها المخاض فتفارق الإبل وتمضى على وجهها حتى تضع .

(٥) القنور : السيء الخلق .

أنت وأمى ! أوصنى . فقال : أوصيك بأمك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك أدانيك . فقال : زدنى . فقال عليه الصلاة والسلام: احفظ مابين لحييك ورجليك. ثم قال عليه الصلاة والسلام: ماشيء بلغنى عنك فعلته ؟ فقال : يارسول الله ! رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب. غير أنى علمت أنهم ليسوا عليه. فرأيتهم يئدون بناتهم، فعرفت أن ربهم عز وجل لم يأمرهم بذلك . فلم أتركهم . ففديت ما قدرت عليـه . ويقال إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عنـد سليمان بن عبد الملك فافتخرا . فقال الفرزدق : أنا ابن محيي الموتى . فقال له سليمان : أنت ابن محيي الموتى ؟ فقال : إن جدى أحيا الموءودة، وقد قال الله تعالى(١) (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) وقد أحيا جدى اثنتين وتسعين موءودة، فتبسم سليمان . وقال : إنك مع شعرك لفقيه . نقله المرتضى فى (أماليه) . وبالجملة، فكان الوأد عادة من أشنع العوائد فى الجاهلية ، مما يدل على نهاية القسوة وتمام الجفاء والغلظة .

قال الإمام : انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار ، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة . انتهى .

ومن أثر نعمته أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون فى مدحهن ماهو أبهى من عقود الجمان ؛ فمن ذلك قول معن بن أوس(٢) :

رأيت رجالًا يكرهون بناتِهمْ ... وفيهن ، لا نُكْذَبْ ، نساء صوالحُ
وفيهن والأيام يعـثرن بالفتى ... خوادِمُ لا يَمْلَلْنَهُ ونوائحُ

وقال العلويّ الجمانيّ، فى صديق له ولدت له بنت فسخطها ، شعراً .

قالوا له ماذا رُزِقْتَا ... فأصاخ ثُمَّتَ قال : بنتا

(١) [٥ / المائدة / ٣٢] .

(٢) انظر أمالى القالى ، الصفحة رقم ١٩٠ من الجزء الثانى (طبعة الدار) .

وأجلّ من ولد النساء أبو البنات . فلمْ جزعتا
إن الذين تودّ من بين الخلائق ما استطعتا
نالوا بفضل البنت ما كَبَتُوا به الأعداء كبتا

وحكى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته. فقال : من هذه يا معاوية؟ فقال: هـذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف . فقال . أمِطْها عنك . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء ، ويُورِثْن الشحناء ، ويُثِرنَ البغضاء . قال : لا تقل ذلك يا عمرو ! فوالله ما مرّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الزمان ، ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن ، وإنك لواجدٌ خالًا قد نفعه بنو أخته ،وأبا قد رفعه نسل بنيه . فقال: يامعاوية! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إلىّ منهن. وإنى لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إلىّ منهن. وفى رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلًا وسهلًا بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون(١)

فلو كان النساء كمن وَجَدْنا لفُضِّلَتِ النساء على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عَيْبٌ وما التذكيرُ فَخْرٌ للهلالِ

والله تعالى يعرفك البركة فى مطلعها ، والسعادة بموقعها ، فادّرع اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً . فالدنيا مؤنثة. والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية . وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ، ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون . فهنيئاً لك هنيئاً بما أُوتيت،وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

(١) قائله المتنبى ، من قصيدته التى مطلعها :

نعدّ المشرفيةَ والعوَالِي وتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلَا قِتَالِ

انظر الصفحة رقم ٢٥٣ من الديوان (طبعة لجنة التأليف) .

ونسخت رقعة لأبى الفرج الببغاء : اتصل بى خبر المولودة المسعودة كرم الله عرقها ، وأنبتها نباتاً حسناً . وما كان من تغيرك عنـــد اتصال الخبر وإنـكارك ما اختاره الله لك فى سابق القدر . وقد علمت أنهن أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهن فى الترتيب فقال عز من قائل(١) : (يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ) وما سماه الله تعالى هبة ، فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى . فهنأك الله بورود الكريمة عليك وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك .

والنوادر فى هذا لا تحصى . وكلها من بركة الإسلام وفضله ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ)

[١١] (وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ)

[١٢] (وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)

[١٣] (وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)

[١٤] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ)

« وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ » قال ابن جرير(٢) : أى صحف أعمال العباد نشرت لهم ، بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات « وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ » أى قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى(٣) (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ) « وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ » أى أوقد عليها فأحميت .

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .
(٢) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] .

قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . « وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » أى قربت للمتقين « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ » أى علمت كل نفس عند ذلك ، ما قدمت من خير فتصير به إلى الجنة ، أو شر فتصير به إلى النار . أى تبيّن لها عند ذلك ما كانت جاهلة به ، وما الذى كان فيه صلاحها من غيره . و (عَلِمَتْ) جواب لجميع ما سبق من الشروط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ)

[١٦] (ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ)

[١٧] (وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

[١٨] (وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)

[١٩] (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٢٠] (ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ)

[٢١] (مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ » أى الرواجع من النجوم . من (خنس) إذا رجع وتأخر . قال الزمخشرىّ: بينا ترى النجم فى آخر البرج، إذ كرّ راجعاً إلى أوله «ٱلْجَوَارِ» جمع جارية ، من الجرى « ٱلْكُنَّسِ » أى الغيّب التى تدخل فى بروجها ، فى رأى العين . من (كنس الوحش) إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر . فهو فى الأصل مجاز بطريق التشبيه ، ثم صار بالغلبة فى الاستعمال ، حقيقة « وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » أى أدبر ولم يبق إلا اليسير، وذلك وقت السحر «وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» أى أقبل وتبيّن. أو هبّ نسيمه اللطيف أو انجابت عنه غمة الليل و كربته . تشبيها بمن نفس عنه كربه . قال الإمام : أقسم الله تعالى

بهذه الدرارىّ ليُنوه بشأنها من جهة ما فى حركاتها من الدلائل على قدرة مصرّفها ومقدّرها، وإرشاد تلك الحركات إلى ما فى كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعتها، فى القسم، بما يبعدها عن مراتب الألوهية ، من الخنوس والكنوس ، تقريعاً لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أرباباً . وفى الليل إذا أدبر زوال تلك الغمة التى تغمر الأحياء بانسدال الظلمة بعدما استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها . وفى الصبح إذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة فى النهار الجديد ، تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت . انتهى .

وجواب القسم قوله تعالى « إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » يعنى روح القدس الذى ينفث فى روعه ﷺ وهو جبريل عليه السلام . والضمير إما للبعث والجزاء ، المفهوم من قوله تعالى (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ) أو للمذكور وهو هذا أو للقرآن « ذِى قُوَّةٍ » أى على تحمل أعباء الرسالة ، وعلى كل ما يؤمر به ، كما تقدم فى قوله[1] تعالى (شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) « عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ » أى صاحب مكانة وشرف ومنزلة لديه تعالى « مُّطَاعٍ ثَمَّ » أى فى الملأ الأعلى « أَمِينٍ » أى على وحيه تعالى ورسالته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ)

[٢٣] (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ)

[٢٤] (وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ)

[٢٥] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ)

« وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ » أى ليس ممن يتكلم عن جِنَّةٍ ويهذى هذيان المجانين .

(١) [٥٣ / النجم / ٥] .

[١](بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ) وهذا نفى لما كان يبهته به أعداؤه، صلى الله عليه وسلم ، حسداً ولؤماً .

قال الشهاب : وفى قوله (صَاحِبُكُم) تكذيب لهم بألطف وجه . إذ هو إيماء إلى أنه نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن، فأنتم أعرف به وبأنه أتم الخلق عقلاً وأرجحهم نبلاً وأكملهم وأصفاهم ذهناً. فلايسند له الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون . ولله در البحترى [٢] فى قوله :

إذا مَحَاسِنِىَ ٱللَّاتى أُدِلُّ بها كانت ذُنوبى، فقل لِى كَيْفَ أَعْتَذِرُ

« وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ » أى ولقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق الأعلى، المظهر لما يرى فيه .

قال ابن كثير : والظاهر ، والله أعلم ، أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى . وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله تعالى[٣] (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ) فتلك إنما ذكرت فى سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

والقصد من بيان رؤيته لجبريل عليهما السلام، متمثلاً له، هو التحقيق الموحى به، وأن أمره مبنىّ على مشاهدة وعيان، لا على ظن وحسبان . وماسبيله كذلك فلا مدخل للريب فيه « وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ » أى ببخيل .

قال مجاهد : ما يضن عليكم بما يعلم . أى لا يبخل بالتعليم والتبليغ . وقال الفراء :

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٣٧] .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

فى الشَّيْبِ زجرٌ له لوكان ينزجرُ وبالغٌ منه لولا أنه حَجَرُ

انظر الصفحة رقم ٦٧٣ من الديوان (طبعة بيروت) .

(٣) [٥٣ / النجم / ١٣ ـ ١٥] .

يأتيه غيب السماء، وهو شيء نفيس، فلا يبخل به عليكم. وقال أبو عليّ الفارسيّ: المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه ، كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً . وقرئ (بظنين) بالظاء : أي ما هو بمتهم على ما يخبر به من الغيب .

قال القاشانيّ : لامتناع استيلاء شيطان الوهم وجنّ التخيل عليه ، فيخلط كلامه ويمتزج المعنى القدسيّ بالوهميّ والخياليّ ، لأن عقله صفّى عن شوب الوهم . والمعنى أنه صادق فيما يخبر به من الوحي واليوم الآخر والجزاء، ليس من شأنه أن يتهم فيه. كما قال هرقل[1] لأبي سفيان : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمتَ أن لا . فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

تنبيه :

قال ابن جرير[2]: وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به ، وذلك (بِضَنِينٍ) بالضاد . لأن ذلك كله كذلك في خطوطها . فأولى التأويلين بالصواب في ذلك ، تأويل من تأوّله (وما محمد، على ما علمه الله من وحيه وتنزيله، ببخيل بتعليمكموه أيها الناس. بل هو حريص على أن تؤمنوا به وتتعلموه) انتهى . واختار أبو عبيدة القراءة بالظاء لوجهين :

أحدهما أن الكفار لم يبخلوه ، وإنما اتهموه ، فنفي التهمة أولى من نفي البخل .

وثانيهما قوله (عَلَى ٱلْغَيْبِ) ولو كان المراد البخل لقال (بالغيب) لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

وقال الشهاب : قال في (النشر) : هو بالضاد في جميع المصاحف ، ولا ينافي هذا قول أبي عبيدة . إن الضاد والظاء في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى،

(١) من حديث طويل أخرجه البخاريّ عن أبي سفيان بن حرب ، في : ١ ـ كتاب بدء الوحي ، ٦ ـ حدثنا أبو اليمان حديث رقم ٧ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

زيادة يسيرة ، قد تشتبه . وهو كما قال . ويعرفه من قرأ الخط المسند . وليس فيه اتهام لنقلة المصاحف كما توهم ، لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة . ولابد مما ذكره أبو عبيدة ، لأنهم اشترطوا فى القراءات موافقة الرسم العثمانىّ ، ولولاه كانت قراءة الظاء مخالفة له . انتهى .

قال ابن كثير : وكلتا القراءتين متواترة ومعناها صحيح كما تقدم « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ » أى من إلقاء الشيطان المطرود عن بلوغ هذا المقام . وهو نفى لقولهم إنه كهانة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)

[٢٧] (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ)

[٢٨] (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ)

[٢٩] (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ » أى أىّ مسلك تسلكون، وقد قامت عليكم الحجة ؟ لا جرم أنكم تنحون الضلال بعد هذه المزاعم فى الوحى ومبلغه . فمن سلك طرقها فقد بعد عن الصواب ، بما لا يضبط ولم يتقرّب إليه بوجه . كمن سلك طريقاً يبعده عن سمت مقصده ، فيقال : أين تذهب .

قال الزمخشرىّ : استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنيّات الطريق : أين تذهب ؟ مثلت حالهم بحاله ، فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل « إِنْ هُوَ » أى القرآن المتلوّ عليكم « إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ » أى تذكرة وعظة لهم .

قال الإمام : موعظة يتذكّرون بها ما غرز الله فى طباعهم من الميل إلى الخير . وإنما أنساهم ذكره ماطرأ على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع . وقوله تعالى « لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ » بدل من (العالمين) . أى إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه . أما من أعرض ونأى ،

فمن أين تنفعه الذكرى ، وقد زاده الران عمى ؟ وقوله تعالى « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى وما تشاءون شيئاً من فعالكم ، إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم ، وإقداركم عليها ، والتخلية بينكم وبينها . وفائدة هذا الإخبار ، هو الإعلام بالافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل . فهو خاضع لسلطان مشيئته ، مقهور تحت تدبيره وإرادته .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٢ — سورة الانفطار

وهى مكية . وآيها تسعة عشر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ)

[٢] (وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[٥] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ » أى انشقت كما فى آية[(١)] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ) « وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ » أى تساقطت . والانتثار استعارة لإزالة الكواكب ، حيث شبهت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهى مصرحة أو مكنية « وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى فتح بعضها إلى بعض، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجافها « وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » أى بحثت وأُخرج موتاها .

قال الشهاب : يعنى أزيل التراب التى ملئت به ، وكان حتى على موتاها فانفتحت وخرج من دفن فيها . وهذا معنى البعثرة . وحقيقتها تبديد التراب أو نحوه. وهو إنما يكون لإخراج شيء تحته فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجوّز به عن البعث والإخراج كما فى سورة العاديات. والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . وثَمَّ ، لما فيها ، فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزمخشريّ والسهيليّ إلى أنه مركب من كلمتين اختصاراً. ومثله كثير فى لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله (بعث) و(أثير) أى حرك وأخرج . وله نظائر كبسمل ، وحوقل ، ودمعز . أى قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

وأدام الله عزه. فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً . ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة ، كما توهمه أبو حيان، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين ، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة، كما فصّله فى (المزهر) نقلاً عن أئمة اللغة .

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ » أى لذلك اليوم من عمل صالح أو سيئ « وَأَخَّرَتْ » أى تركت من خير أو شر. أو المعنى : ماقدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أى قصرت فيه . والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير ، وجدان الجزاء عليهما، وتحقق مصداق الوعد عليهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ)

[٧] (ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ)

[٨] (فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ » أى: أىّ شىء خدعك وجرّأك على عصيانه والانحراف عن فطرته. وذكر (ٱلْكَرِيمِ) للمبالغة فى المنع عن الاغترار. لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل فى نعوته . ومن كان كذلك فجدير بأن يرهب عقابه ويخشى انتقامه وعذابه . لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد فى الرهبة ، كما قال « ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ » أى جعلك سويًّا متساوى الأعضاء والقوى. وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء. فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تم به « فَعَدَلَكَ » أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق ، معتدل القامة . لا كالبهائم . وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى المشدّد، أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة، مزتَ بها على سائر الحيوان «فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ » أى : فى أىّ صورة شاءها ركبك عليها . يعنى أنه ركّبك فى صورة هى أبدع الصور وأعجبها. فـ (أَىِّ) استفهامية. والمجرورمتعلق بـ (رَكَّبَكَ) و (ما) زائدة ،

وجملة (شَآءَ) صفة (صورة) . والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسوّاه وعدله بقدرته وتقديره، حتى أحكم صورته فى ذلك التركيب، لَجَدِيرٌ بأن يُتّقى بأسه و يُحذر بطشه ويُرهب أشد الترهيب .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيّم فى (الجواب الكافى) فى بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحا فى ترتيب الجزاء بالخير والشر ، والأحكام الكونية، على الأسباب، ماتتمته: فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب ـ وهذا من أهم الأمور ـ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له فى دنياه وآخرته ، ولابدّ . ولكن تغالطه نفسه .

ثم ذكر من أنواع المغترّين من يغترّ بفهمٍ فاسدٍ ، فَهِمَهُ هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنّة فاتكلوا عليه . قال : كاغترار بعض الجهّال بقوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ) فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإنما غرّه بربه الغَرور ، وهو الشيطان، ونفسه الأمّارة بالسوء ، وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ (ٱلْكَرِيمِ) ، وهو السيدالعظيم المطاع الذى لاينبغى الاغترار به ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر (الغرور) فى غير موضعه، واغترّ بمن لاينبغى الاغترار به. انتهى .

وفى مثل هذا الغرور يجب ـ كما قال الغزالىّ ـ على العبد أن يستعمل الخوف . فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه ، مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب. وإنه ، مع أنه كريم ، خلد الكفار فى النار أبد الآباد . مع أنه لم يضرّه كفرهم . بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا . وهو قادر على إزالتها . فَمَنْ هذه سنته فى عباده ، وقد خوّفنى عقابه، فكيف لاأخافه؟ و كيف أغترّ به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل. فما لا يبعث على العمل فهو تمنٍّ وغرور.

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعى للآخرة، فذلك غرور. وقد روى أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك . فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله، يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين . مع إكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى . زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته . كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينا ، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف . لايتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ، إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذّونه هذًّا. يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب. لايهمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه . وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)

[١٠] (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

[١١] (كِرَامًا كَاتِبِينَ)

[١٢] (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

« كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ » قال الإمام : أى لا شىء يغرك ويخدعك . بل إن

سعة عطاء ربك وحكمته فى كرمه، تدلك وتوحى إلى نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر، لثواب أو عقاب. وإنما الذى يقع منك، أيها الإنسان، هو العناد والتكذيب بالدين. أى الجزاء، أى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو إليه الشعور الأول، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل، والحجة التى يأتى بها الأنبياء. مع أن الله تعالى لم يترك عملا من أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه، كما قال « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ » أى رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم « كِرَامًا كَـٰتِبِينَ » أى يكتبون ما تقولون.

« يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » أى من خير أو شر. أى يحصونه عليكم، فلا يغفلون ولا ينسون

قال الرازىّ : إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم. لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم. ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة إخراج كتاب بشهود، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة. فيخرج لهم كتب منشورة، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره. فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا، وفعل بك كذا وكذا، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا. فكذا هاهنا. والله أعلم بحقيقة ذلك. انتهى.

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعملهم، من الغيب الذى لا يمكن اكتناهه. فيجب الإيمان به، كما ورد. مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى. ومن الفضول فى العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها. وبالله سبحانه التوفيق.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ)

[١٤] (وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ)

[١٥] (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ)

[١٦] (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ)

[١٧] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٨] (ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٩] (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ، وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ)

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ » قال ابن جرير(١) : أى إن الذين برّوا بأداء فرائض الله ، واجتناب معاصيه ، لفى نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع (برّ) بفتح الباء وهو المتصف بالبرّ (بكسرها) أى الطاعة . قال الأصفهانىّ : وقد اشتمل عليه قوله تعالى(٢) (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ، وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) . وقوله تعالى: « وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ » أى الذين فجروا عن أمر الله . أى انشقوا عنه وخالفوه . وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة فى الآية قبل « يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى يوم يدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها « وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ » أى بخارجين ، لأنهم مخلدون فى صليّها . وقوله تعالى « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ » تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه . أى أىُّ شىء أعلمك به ؟ أى أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ما تهمّ درايته والبحث عنه .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

والخطاب للإنسان المتقدم أول السورة . ثم فسّر تعالى بعض شأنه بقوله « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا » أى من دفع ضُرّ أو كشف هَمّ « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ » أى أمر الملك الظاهر ، ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله وحده . لاضمحلال المهالك وذهاب الرياسات .

قال الرازيّ : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرّفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغنى عنهم فى الدنيا ، من مال وولد وأعوان وشفعاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٣ – سورة المطففين

قال المهايمىّ : سميت به دلالة على أن من أخلّ بأدنى حقوق الخلق ، استحق أعظم ويل من الحق . فكيف من أخل بأعظم حقوق الحق ، من الإيمان به وبآياته ورسله ؟ وهى مكية على الأظهر . فإن سياقها يؤيد أنها كأخواتها اللائى نزلن بمكة ، لاسيما خاتمتها . فإنها صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة . وحملها على المنافقين بالمدينة بعيد ، إذ لم يبلغ بهم الحال ذلك . وأما ما رواه النسائىّ وابن ماجه[1] ـ كما فى ابن كثير عن ابن عباس ، لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا ، فأنزل الله (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكيل ـ فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإنزال ، فى إطلاق السلف ، لا يكون مقصوراً على أن كذا سبب النزول . بل إن كذا مما نزل فيه ذلك . كأنّ أهل المدينة تلى عليهم ما سبق إنزاله فى مكة . وقيل لهم : أنزل الله حظر ما أنتم عليه والوعيد فيه . فأقلعوا . وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملكة فيه . ومنه يعلم أن قول بعضهم : نزلت بمكة إلا قصة التطفيف . وقول آخر : إن كل نوع من المكىّ والمدنىّ منه آيات مستثناة ـ منشؤه الحيرة فى المطابقة بين ظاهر ما يتبادر من المأثور فى سبب النزول ، وبين ما يدل عليه السياق من خلافه . وبالوقوف على عرف السلف يزول الإشكال ويتضح الحال .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ١٢ ـ كتاب التجارات ، ٣٥ ـ باب التوقى فى الكيل والوزن ، حديث ٢٢٢٣ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

[٢] (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[٣] (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى هلاك لهم . قال الأصفهانىّ : ومن قال : (وَيْلٌ) وادٍ فى جهنم ، فإنه لم يرد أن (ويلًا) فى اللغة هو موضوع لهذا . وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق مقرًّا من النار .

ثم بيّن تعالى المطففين بقوله « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » أى إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافياً وزائداً . على إيهام أن بذلك تمام الكيل . وإذا فعلوا ذلك فى الكيل الذى هو أجلّ مقداراً ، ففى الوزن بطريق الأولى . وإيثار (على) على (من) للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر . شأن المتغلب المتحامل المتسلط ، الذى لا يستبرئ لدينه وذمته « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتمام . ففيهما حذف وإيصال .

قال ابن جرير[١] : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقك ، وكِلتك طعامك ، بمعنى وزنت لك وكلت لك .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية ذم التطفيف والخيانة فى الكيل والوزن . أى لأنه من المنكر

(١) انظر الصفحة رقم ٩١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل فى الأخذ والدفع ، ولو فى القليل . لأن من دَنُوَتْ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعده عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير[١] : وأصل التطفيف من الشيء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : المقلل حق صاحب الحق عما له من الوفاء والتمام فى كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء فى حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء . وقد أمر تعالى بالوفاء فى الكيل والميزان . فقال تعالى فى عدة آيات : [٢](وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) . وقال تعالى[٣] (وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ) وقص تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال . ثم قال سبحانه متوعداً لهم :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ)

[٥] (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

[٦] (يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ » أى من قبورهم بعد مماتهم « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » أى عظيم الهول جليل الخطب كثير الفزع ، مَن خسر فيه أدخل نارا حامية « يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون، فى موقف يغشى المجرم فيه من الهول ، مايود الافتداء بكل مستطاع. وفى تأثر الويل للمطففين بما ذكر فى هاتين الآيتين،

(١) انظر الصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .
(٢) [١٧ / الإسراء / ٣٥] . (٣) [٥٥ / الرحمن / ٩] .

مبالغات فى المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه . ووجه ذلك ، كما لخصه الشهاب ، أن فى ذكر الظن من التجهيل مع اسم الإشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً ـ ووصف يوم قيامهم بالعظمة ـ وإبدال (يَوْمَ يَقُومُ) منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه . والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان (رب العالمين) للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوىّ ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف ـ وفى تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا ، كيف يهمل تعطيل قانون عدله فى عباده ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة. فتأمّل هذا المقام ، ففيه ما تتحيّر فيه الأوهام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ)

[٨] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ)

[٩] (كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ)

[١٠] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)

[١١] (ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ)

« كَلَّآ » ردع عن التطفيف الذى يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به « إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ » أى ما كتب فيه من عملهم السيء وأحصى عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانٍ، وهو الفجور، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل « لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ » أى مسطور بيّن الكتابة . أو معلّم برقم ينبىء عن قبحه . سمى سجيناً ـ فِعِّيلا من السجن وهو الحبس والتضييق ـ لأنه سبب الحبس والتضييق فى جهنم . فهو بمعنى (فاعل) فى الأصل . أو لأنه مطروح فى أسفل

مكان مظلم . فهو بمعنى (مفعول) كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده . والتقدير: ما كتاب سجين أو محل كتاب مرقوم؟ فحذف المضاف. وقيل إنه مشترك بين المكان والكتاب. وقال الأصفهانيّ: السجين اسم لجهنم بإزاء عِلّيِّين. وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه . وقيل : هو اسم للأرض السابعة .

ثم قال : وقد قيل إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله (وَمَآ أَدْرَىٰكَ) فسّره . وكل ما ذكره بقوله (وَمَا يُدْرِيكَ) تركه مبهماً. وفي هذا الموضع ذكر (وَمَآ أَدْرَىٰكَ) وكذا في قوله (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ) ثم فسّر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفي هذه الطبقة موضعها الكتب التي يتبع هذا الكتاب ، لاهذا . انتهى .

وقال القاشانيّ : (لَفِي سِجِّينٍ) في مرتبة من الوجود مسجون أهلها في حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخساء في أسفل مراتب الطبيعة ودركاتها . وهو ديوان أعمال أهل الشرّ . ولذلك فسّر بقوله (كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ) أي ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم ، كتاب مرقوم برقوم هيئات رذائلهم وشرورهم «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ» أي بيوم الحساب والمجازاة. وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف. لأن إصرارهم على التعدي والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث . كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ » أي مجاوز طور الفطرة الإنسانية ، بتجاوزه حد العدالة، إلى الإفراط في أفعاله بالبغي والعدوان « أَثِيمٍ » أي مبالغ في ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصي «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» أي ماسطروه من الأحاديث والأخبار . يريد أنه ليس بوحي ربانيّ ، ولا تنزيل إلهيّ. مع نصوع بيانه وشواهد برهانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« كَلَّا » أى ليست هذه الآيات بأساطير الأولين . بل هى الحق المبين ، والشفاء لما فى الصدور « بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غطّى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدّر جوهرها وصار صدأ عليها بالرسوخ فيها . و (الرين) أصل معناه الصدأ والوسخ القارّ ، شبه به حب المعاصى الراسخ فى النفس . وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكة راسخة لاتقبل الزوال ، وصفة للنفس قارّة فيها . فبكثرة المعاصى يرسخ حبها فى القلب بحيث لا يزول ، كالصدأ الذى لايزول بسهولة . قال فى (الأساس) : الران ماغطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب. من قولهم (ران عليه الشراب والنعاس) و (ران به) إذا غلب على عقله. و (رين بفلان) ونظيره الغين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)

« كَلَّآ » ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم . أو بمعنى حقاً « إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ » قال ابن جرير(١) : أى فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضى أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو الساتر من ستارة بزّ وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب. وتارة للإهانة ، لأن الحقير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء . ولذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أى معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف به الله . فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به . وإنما يوصف به الخلق ، كما فى هذه الآية . فإذا أجرى على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سببىّ لا حقيقىّ . بل التشبيه للخلق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ)

[١٧] (ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ)

« ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ » أى محترقون بها . وقد أشار القاشانىّ إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ماا كتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدّر جوهرها وغيّرها عن طباعها . فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب المغفرة، ولذلك قال: (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) لامتناع قبول قلوبهم للنور، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطرىّ . كالماء الكبريتىّ مثلا ، إذ لو روّق أو صعّد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة، لاستحالة جوهرها . بخلاف الماء المسخن الذى استحالت كيفيته دون طبيعته. ولهذا استحقوا الخلود فى العذاب، وحكم عليهم بقوله (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ) انتهى .

قال ابن القيم فى (بدائع الفوائد) فى هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار . فألم الحجاب يفعل فى قلوبهم وأرواحهم ، نظير ماتفعله النار فى أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه فى الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لاغنى لها عنه، وهى ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها ، مع توارى المحبوب عنها وطول احتجابه ، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأى نسبة لألم البدن إلى هـذا الألم الذى لايتصوره إلا من بلى به أو بشىء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما فى احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب. وأنت ترى المحبين فى الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجّون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة ، كما(١) قال :

وكنتُ أرَى كالموتِ من بَينِ لَيْلَةٍ ... فـكيفَ بِبَيْنٍ كان ميعادَه الحشرُ

(١) من الحماسية رقم ٣٨٥ لسَلَمة الجعفىّ يرثى أخاه لأمه. وأولها : =

وإنما يتبين الحال فى هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لاسعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته فى أن يحصل فيه ماخلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشى والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره . وجعل هذا كمالها وغايتها. فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالًا من العين والأذن واللسان واليد والرجل، التى تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه. بل لانسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة. بل ألمها أشد الألم. وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لاحياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذى لا تقرّ عينها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة فى الدنيا . فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب

= أقول لنفسى فى الخلاء ألومها : لكِ الويل! ما هذا التجلدُ والصبرُ

قال الشارح المرزوقىّ :

قوله (كالموت) جعل الكاف وحده اسماً . وسيبويه لايرى ذلك إلا فى الضرورة . كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يمتنع أن يكون (كالموت) صفة لموصوف محذوف . كأنه قال : وكنتُ أرى شيئاً أو أمراً مثل الموت .

وقوله (من بين ليلة) من، دخل للتبيين. والمعنى : كنت أعدّ مفارقتى له فى ليلة كالموت، أو أقاسى مثل الموت من أجل مفارقة ليلة منه ، فكيف يكون حالى وقد فرّق بينى وبينه بَيْنٌ ، موعدُ الالتقاء بعده يومُ القيامة .

الذى كان يحجبها فى الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه . وفى حديث الرؤية[١] : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعى النعيم نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما فى الجنة ، فى قوله[٢] (وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) الآيات اه .

« ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ » أى فى الدنيا . قال الإمام: تبكيتاً لهم وزيادة فى التنكيل بهم . فإن أشد شىء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه ، أن يذكر وهو يتألم له ، بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها . وأسباب التفصّى عنه كانت فى مكنته فأغفلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ)

[١٩] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ)

[٢٠] (كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ)

[٢١] (يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ)

« كَلَّآ » ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقاً « إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ » قال القاشانىّ : أى ما كتب من صور أعمال السعداء وهيآت نفوسهم النورانية وملكاتهم الفاضلة ، فى عليين . وهو مقابل للسجين ، فى علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير . كما قال « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ » أى محل شريف

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٦ ـ كتاب الجنة ، ١٦ ـ باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى . (٢) [٧٦ / الإنسان / ١١].

رقم بِصُوَرِ أعمالهم « يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى يحضره المقربون من حضرة ذى الجلال ، كما فى آية[1] (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

والمقربون هم الأبرار . أعاد ذكرهم ، بوصفٍ ثان ، تنويهاً بهم وتعـديداً لصفاتهم . أو هم الملائـكة إجلالًا لهم وتعظيماً لشأنهم .

ولما عظم تعالى كتابهم ، تأثره بتعظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[٢٣] (عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ)

[٢٤] (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ)

[٢٥] (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ)

[٢٦] (خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ، وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ)

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » أى عظيم دائم ، وذلك نعيمهم فى الجنان « عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ » أى على الأسرة والمتكآت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الـكرامة وأفانين النعيم « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ » أى بهجته ورونقه، كما يرى على وجوه المترفهين ماؤه وحسنه «يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ » أى خمر، إلا أنه خص بالخالص الذى لا غش فيه، كما قال حسان[1] :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ[2] عليهم بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيـق السَّلْسَلِ

(١) [٥٤/القمر/٥٥] . (٢) البريص: نهر بدمشق . وبَرَدَى: نهر آخر بدمشق. وقوله (بردى) أى ماء بردى . ويصفّق أى يمزج . والرحيق الخمر البيضاء . والسلسل اللينة السهلة الدخول فى الحلق . وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أسألتَ رسم الدار أم لم تسأل ؟ بين الجوابى فالبُضَيْعِ فحَوْمَلِ

(شرح البرقوقىّ ص ٣٠٧) .

ومنه قولهم . مسك رحيق لاغش فيه ، وحسب رحيق لاشوب فيه .

وقوله تعالى : « مَّخْتُومٍ » أى ختم على أوانيه تكريما له لصيانته عن أن تمسه الأيدى على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان « خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ » . قال القفال : أى الذى يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق، هو المسك، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير فكأن ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

وعن بعض السلف واللغويين: المختوم الذى له ختام أى عاقبة، وقد فسرت بالمسك. أى من شربه كان ختم شربه على ريح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرجها ، على خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة «وَفِى ذَٰلِكَ» أى النعيم المنوه به وما تلاه «فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ » أى فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى .

قال ابن جرير : التنافس أن ينفس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه . وهو مأخوذ من الشيء النفيس ، وهو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه . وكأن معناه فى ذلك: فليجدّ الناس فيه وإليه، فليستبقوا فى طلبه ولتحرص عليه نفوسهم . وقال الرازىّ : إن مبالغته تعالى فى الترغيب فيه تدل على علوّ شأنه . وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا فى النعيم الذى هو مكدر سريع الفناء . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ)

[٢٨] (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ)

« وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ » عطف على (ختامه) صفة أخرى (لرحيق) ومابينهما اعتراض مقرر لنفاسته. أى مايمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم. والتسنيم فى الأصل مصدر سنمه بمعنى

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

رفعه ، ومنه السنام . سمى الماء به لارتفاعه وانصبابه من علوّ. وقد بينه بقوله « عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ » أى يشربون بها الرحيق ، والكلام فى الباء، كما فى آية[1] (يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ) من كونها زائدة ، أو بمعنى (من) أو صلة الامتزاج أو الالتذاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ)

[٣٠] (وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

[٣١] (وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ » يعنى كفار قريش « كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ » أى استهزاء بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه، ونبذهم ما ألفوا عليه آباءهم .

قال الإمام : الذين أجرموا هم المعتدون الأئمة الذين شَرِيَتْ نفوسهم فى الشر ، وصمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق . هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا . ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثة النبيّ ﷺ ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء وفى ضلال العامة. وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه . ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيلَ الحق إلى قلوبهم فَيُسِرُّ بهَا إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القويّ المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة من قريش، كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم. وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع، وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل، وجهل معنى الدين، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه، ولم يبق إلا ظواهر

(١) [٧٦ / الإنسان / ٦] .

لاتطابقها البواطن ، وحركات أركان لاتشايعها السرائر . وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل ، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب . وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب . وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل . وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل . واستوى فى ذلك الكبير والصغير ، والأمير والمأمور ، والجاهل والملقب بلقب العالم . إذا صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعى إليه . وانطبق عليهم نص الآية الكريمة . انتهى .

« وَإِذَا مَرُّواْ » أى الذين آمنوا « بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » أى يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية . والغمز : الإشارة بالجفن والحاجب .

قال السيوطىّ : وفى هذا دلالة على تحريم السخرية بالمؤمنين ، والضحك منهم ، والتغامز عليهم «وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ » أى هؤلاء المجرمون من مجالسهم «إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَـكِهِينَ » أى متلذذين بالسخرية وحكاية مايعيبون به أهل الإيمان . أو بما هم فيه من الشرك والطغيان والتنعم بالدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ)

[٣٣] (وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ)

[٣٤] (فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْـكُفَّارِ يَضْحَـكُونَ)

[٣٥] (عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ)

[٣٦] (هَلْ ثُوِّبَ ٱلْـكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْهُمْ » أى رأوا المؤمنين «قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ» أى لتركهم ما عليه العامة ، والاعتصام بغيره. وقوله تعالى « وَمَآ أُرْسِلُواْ » أى هؤلاء المجرمون القائلون ماذكر

« عَلَيْهِمْ » أى على المسلمين « حَـٰفِظِينَ » أى لأعمالهم . جملة حالية من (واو قالوا) أى قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم ، يحفظون عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوّز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين . كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام. وإنما قيل (عَلَيْهِمْ) نقلًا له بالمعنى كما فى قولك (حلف ليفعلنّ) لا بالعبارة ، كما فى قولك (حلف لأفعلنّ) أفاده أبو السعود « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » تفريع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخريتهم فى الدنيا. و (اليوم) يوم الدين والجزاء. وضحكهم من الكفار ضحك المسرور بما نزل بعدوّه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر . « عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ » إلى ما أوتوا من النعيم ، وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم «هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ » أى جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون فى الدنيا .

والجملة متعلقة بـ (يَنظُرُونَ) فى محل نصب بعد إسقاط الجار . أو مستأنفة. والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيما لهم وتكريما وزيادة فى مسرتهم. أى هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أى أنه فعل . و (ما) مصدرية أو موصولة .

وثوّبه وأثابه بمعنى جازاه . وهو من (ثاب) بمعنى رجع. فالثواب ما رجع على العبد فى مقابلة عمله . ويستعمل فى الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى[1] (ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ* إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ* فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ* إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) .

---

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨ـ١١١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

٨٤ - سورة الانشقاق

وتسمى سورة إذا السماء انشقت . وهى مكية . وهى خمس وعشرون آية . قيل ترتيب هذه السور الثلاث ظاهر . لأن فى (انفطرت) تعريف الحفظة الكاتبين وفى (المطففين) مقرّ كتبهم . وفى هذه عرضها للقيامة . روى الإمام مالك(١) عن أبى سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: إذا السماء انشقت . فسجد فيها. فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. ورواه مسلم(٢) والنسائىّ(٣). وأخرج البخارىّ(٤) عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة . فقرأ (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) فسجد . فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبى القاسم ﷺ . فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . وفى رواية للنسائى(٥) عن أبى هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) و (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ١٥ ـ كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٥١ ـ باب السجود فى إذا السماء انشقت .

(٤) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ١١ ـ باب من قرأ السجدة فى الصلاة فسجد بها . حديث رقم ٤٦٦ .

(٥) أخرجها فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٥١ ـ باب السجود فى إذا السماء انشقت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ)

[٢] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ)

[٤] (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

[٥] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ » أى انصدعت وتقطعت كما تقــدم فى قوله[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى سمعت له فى تصدعها وتشققها . وهو مجاز عن الانقياد والطاعة . والمعنى أنها انقادت لتأثير قدرته ، حين أراد انشقاقها ، انقياد المطواع الذى يستمع للآمر ويذعن له . قال ابن جرير[٢] : العرب تقول (أذن لك فى هـذا إذناً) بمعنى استمع لك . ومنه الخبر الذى روى[٣] عن النبىّ ﷺ : ما أذن الله لشىء ما أذن لنبىّ يتغنى بالقرآن . يعنى ما استمع الله لشىء كاستماعه لنبىّ يتغنى بالقرآن . ومنه قول الشاعر[٤] :

صُمٌّ إذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكرتُ به ... وإن ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عندهم أَذِنُوا

(١) [٨٢ / الانفطار / ١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٢ ـ باب قول الله تعالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٤) الحماسية رقم ٦٠٦ لقعنب بن أم صاحب . وأولها :

إن يسمعوا رِيبةً طارُوا بها فرَحاً ... منى ، وما سَمِعوا من صَالحٍ دَفَنُوا

أذنوا : استمعوا ، يقال : أذن لـكذا وكذا ، يأذن إذنا .

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأُذُن ، الحاسّة .

ومعنى قوله تعالى (وَحُقَّتْ) أى : حق لهـا ووجب أن تنقاد لأمر القادر ولا تمتنع . وهى حقيقة بالانقياد لأنها مخلوقة له فى قبضة تصرفه . قال المعرب : الأصل حق الله طاعتها . ولما كان الإسناد فى الآية إلى السماء نفسها ، والتقـــدير : وحقت هى ، كان أصل الـكلام على تقدير مضاف فى الضمير المستكنّ فى الفعل . أى وحق سماعها وطاعتها . فحذف المضاف، ثم أسند الفعل إلى ضميره ، ثم استتر فيه «وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ» أى بسطت وجعلت مستوية . وذلك بنسف جبالها وآكامها كما قال[1] (قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا) ولذا قال ابن عباس : مدت مد الأديم العكاظىّ . لأن الأديم إذا مدّ ، زال كل انثناء فيه واستوى « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا » أى ما فى جوفها من الـكنوز والأموات « وَتَخَلَّتْ » أى : وخلت غاية الخلوّ ، حتى لم يبق شىء فى باطنها ، كأنها تـكلفت أقصى جهدها فى الخلوّ « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى انقادت له فى التخلية ، وحق لها ذلك ، وإعادة الآية للتنبيه على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلٰهىّ وقهره ومشيئته . وجواب (إِذَا) محذوف للتهويل بالإبهام . أى : كان ما كان مما لا يفى به البيان . أو لاقى الإنسان كدحه ، كما قال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ)

[٧] (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ)

[٨] (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)

[٩] (وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ » قال ابن جرير[2] : أى

(١) [٢٠ / طه / ١٠٦و١٠٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

إنك عامل إلى ربك عملًا فملاقيه به ، خيراً كان أو شرًّا . والمعنى : فليكن عملك مما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك . وقال القاشانيّ : أى إنك ساع مجتهد فى الذهاب إليه بالموت . أى تسير مع أنفاسك سريعاً . كما قيل : أنفاسك خطاك إلى أجلك ؛ أو مجتهد مجدٌّ فى العمل، خيراً أو شرًّا، ذاهب إلى ربك فملاقيه ضرورة. قال : والضمير إما للرب وإما للكدح . وأصل الكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه ، حتى يؤثر فيها . من (كدح جلده) إذا خدشه . فاستعير للجد فى العمل والتعب ، بجامع التأثير فى ظاهر البشرة « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ » وهم من آمن وعمل صالحًا واتصف بما وصف به الأبرار، فى غير ما آية «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» قال ابن جرير[(١)]: بأن ينظر فى أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها . وقال القاشانيّ : بأن تمحى سيئاته ويعفى عنه ويثاب بحسناته دفعة واحدة ، لبقاء فطرته على صفائها ونوريتها الأصلية « وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أى : زوجته وأقاربه . أو قومه ممن يجانسه ويقارنه من أصحاب اليمين « مَسْرُورًا » أى بنجاته من العذاب ، أو بصحبتهم ومرافقتهم ، وبما أوتى من حظوظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ)

[١١] (فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا)

[١٢] (وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا)

[١٣] (إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا)

[١٤] (إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ)

[١٥] (بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا)

(١) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ » أى أعطى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره، وهو على هيئة المغضوب عليه، أمام الملك المنصرف به عن ذاك المقام إلى دار الهوان[1] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ، وَلِلَّـهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)«فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا » أى ينادى بالهلاك وهو أن يقول : واثبوراه ! وواويلاه ! وهو من قولهم دعا فلان لهفه ، إذا قال والهفاه « وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا » أى يدخل ناراً يحترق بها « إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا » أى منعماً مستريحاً من التفكر فى الحق والدعاء إليه والصبر عليه . لا يهمه إلا أجوفاه، بطراً بالنعم، ناسياً لمولاه « إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ » أى لن يرجع إلى ربه، أو إلى الحياة بالبعث. لاعتقاده أنه يحيي ويموت ولا يهلكه إلا الدهر. فلم يك يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ولا يبالى ما ركب من المآثم، على خلاف ما قيل عن المؤمنين[2](إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)[3](إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ) « بَلَىٰٓ » أى ليحورن وليرجعن إلى ربه حيًّا كما كان قبل مماته « إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا » أى بما أسلف فى أيامه الخالية ، فيجازيه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ)

[١٧] (وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

[١٨] (وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ)

[١٩] (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ)

[٢٠] (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٢١] (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ)

---

(١) [١٦/ النحل/ ٦٠] . (٢) [٥٢/ الطور / ٢٦] . (٣) [٦٩/ الحاقة / ٢٠].

« فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ » وهى الحمرة فى الأفق من ناحية مغرب الشمس «وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » أى جمع وضمّ مما سكن وهدأ فيه من ذى روح كان يطير أو يدب نهاراً كذا قاله ابن جرير(١)، والأظهر أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها ، لاشتمال الليل عليها. فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال(٢) (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) « وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ » أى اجتمع وتم نوره وصار كاملًا « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ » أى حالًا بعد حال. والمعنىّ بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال. وبالثانية الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها . فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة ، وإن خفى اكتناهها. وجوز أن يكون (طَبَقًا) جمع طبقة وهى المرتبة . أى لتركبن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من مواطن البعث والنشور .

قال الشهاب : الطبق معناه ما طابق غيره مطلقاً فى الأصل، ثم إنه خص بما ذكر، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدة المتعاقبة .

و (عن) للمجاوزة أو بمعنى (بعد). والبعدية والمجاوزة متقاربان، لكنه ظاهر فى الثانى « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحديث. وقد أقام لهم الحجة على التوحيد والبعث « وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ » أى لا يخضعون ولا يستكينون ولا ينقادون .

قال فى (الإكليل) : وقد استدل به على مشروعية سجدة التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ)

[٢٣] (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ١١٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٣٨و٣٩] .

[٢٤] (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٢٥] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ » أى بآيات الله وتنزيله ، المبين لما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقيق موجبات تصديقه ، والإضراب عن محذوف تقديره كما قال الإمام ، لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم . بلى، قد بلغ وأقنع فيما بلغ. ولـكن العناد هو الذى يمنعهم عن الإيمان ، ويصدهم عن الإذعان، فليس منشأ التـكذيب قصور الدليـــل . وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته ، فالإضراب يرمى إلى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ» أى بما يسرون فى صدورهم من حقية التنزيل ، وإن أخفوه عناداً . أو بما يضمرون من البغى والمـكر ، فسيجزيهم عليه . ولذا قال « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على تـكذيبهم وإعراضهم وبغيهم « إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء منقطع أو متصل ، على أن المراد بمن آمن من أسلم منهم فآمنوا باعتبار ما مضى أو بمعنى (يؤمنون) وكونه منقطعاً أظهر لمجىء (لهم أجر) بغير فاء . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٥ — سورة البروج

مكية . وآيها اثنتان وعشرون . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ)

[٢] (وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ)

[٣] (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)

[٤] (قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ)

[٥] (ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ)

[٦] (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)

[٧] (وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

[٨] (وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)

[٩] (ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ)

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ » أى الكواكب والنجوم. شبهت بالبروج ، وهى القصور ، لعلوّها . أو البروج منازل عالية فى السماء .

قال ابن جرير[١] : وهى اثنا عشر برجاً . فمسير القمر فى كل برج منها يومان وثلث فذلك ثمانية وعشرون منزلا . ثم يستسر ليلتين . ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج ـ كما قال الشهاب ـ الأمر الظاهر من التبرج . ثم صار حقيقة فى العرف للقصور العالية . لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لما ارتفع من سور المدينة (برج) أيضا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فشبه ـ على هذا ـ الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج « وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ » أى الذى وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة « وَشَاهِدٍ » وهو كل ماله حس يشهد به « وَمَشْهُودٍ » وهو كل مُحَسّ يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها ه وتخصيصُ بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله لفظهما ، لعله لأنه الأهم . أو الأَولى أوالأعرف والأظهر ، لقرينةٍ عنده . وإلا فاللفظ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

« قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ » أى: قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هى جواب القسم . أو دليل جوابه إن كانت دعائية . والتقدير : لتبلون كما ابتلى من قبلكم ، ولينتقمن ممن فتنكم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين فى الأخدود .

قال الزمخشرىّ : وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم (قتلت قريش) كما قيل (قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ) والأخدود : الحفرة فى الأرض مستطيلة. وقوله تعالى « ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ » بدل من (الأخدود)و(الوقود) بالفتح الحطب الجزل الموقد به وأما (الوقود) بالضم فهو الإيقاد « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا » أى على حافات أخدودها «قُعُودٌ»أى قاعدون يتشفون من المؤمنين « وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » أى حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . لا يرقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم

« وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ »أى : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نقمت من الشىء ونقمته إذا أنكرته ؛ إما باللسان وإما بالعقوبة ، ومنه الانتقام « ٱلْعَزِيزِ » أى الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام « ٱلْحَمِيدِ »أى المحمود على إنعامه

وإحسانه « ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » أى على كل شىء من أفاعيل هؤلاء الفجرة ، أصحاب الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفى توصيفه تعالى بما ذكر من النعوت الحسنى ، إشعار بمناط إيمانهم . فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر . وهو عليم بأفعال عبيده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المصائر ، وفى الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم . وهو معروف فى كتب المعانى .

تنبيه :

روى ابن جرير(1) عن ابن عباس فى أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالًا ونساءً ، فعرضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بنى إسرائيل أخذوا رجالًا ونساء فخدّوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم فى النار .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنجران . كانوا يعذبون فيها الناس ـ وتفصيل النبأ ـ على ما فى كتاب (الكنز الثمين) ـ إن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العَرِيّة عن شوائب الإلحاد ، لما دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان فى مقدمة تلك البلاد بلدة نجران . وكان أقام عليها ملك الحبشة أميراً من قبله نصرانيًّا مثله . وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع . ثم إن اليهود الذين كانوا فى تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تنصر ، بغضاً فى المسيحية وكراهة لسلطانٍ مسيحىّ يملكهم . فأقاموا رجلًا يهوديًّا منهم عند موت ذلك السلطان أو قتله . فأشهر ذلك اليهودىّ نفسه ملكا على بلاد سبأ . وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة

(1) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

والخيانة . ولما دخلها قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالًا ونساء . كانت عدتهم ـ فيما يقال ـ ثلاثمائة وأربعين شهيداً. وأتى بذلك الراهب محمولا يحف به الجنود. وكان هرماً لايقوى على المشي . فسئل عن عقيدته فأقر بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام. فأمر بسفك دمه فقتل . وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جبن ولا تهيب ، بل بشجاعة وصبر على مايشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران . ثم ألقت امرأة بنفسها في النار وتبعها طفل لها في الخامسة من عمره. وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى، والفرح بالشهادة، ماأضحوا مثالًا وعبرة لكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعته عن يقينه . سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لاجرم أن من تلا ماورد في الوعد الصادق لكل مفتون في الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أراثا ورفقته . ويؤرخونها بعام (٥٢٤) من التاريخ المسيحيّ ، وقد علمت أن في كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أي بلوهم بالأذى ليرجعوا عن إيمانهم . قال أبو السعود: والمراد بهم، إما أصحاب الأخدود خاصة، وبالمفتونين المطروحون في الأخدود، وإما الذين بلوهم في ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق. وهم داخلون في جملتهم دخولًا أوليًّا «ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا» أي عن كفرهم وفتنتهم « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أي عذابان منوّعان على الكفر وعلى الفتنة . أوهما واحد . أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه . لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما . والأظهر أنهما واحد ، وإنه من عطف التفسير والتوضيح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أي من هؤلاء المفتونين وغيرهم « لَهُمْ » أي في نشأتهم الأخرى « جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ » أي التام الذي لا فوز مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

[١٣] ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾

[١٤] ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾

[١٥] ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾

[١٦] ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » قال أبو السعود : استئناف خوطب به النبيّ ﷺ ، إيذانا بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و (البطش) الأخذ بعنف . وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم . وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام . كقوله تعالى[1] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ « إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ » أي يبدئ الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو في كل يوم

(١) [١١ / هود / ١٠٢] .

يبدئ خلقاً من نبات وحيوان وغيرها . ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذي يعلمه « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ » أي لمن يرجع إليه بالتوبة « ٱلْوَدُودُ » أي المحب لمن أطاعه وأخلص له « ذُو ٱلْعَرْشِ » أي الملك والسلطان أو السماء « ٱلْمَجِيدُ » أي العظيم في ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجده : علوه وعظمته «فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ» أي لا يريد شيئاً إلا فعله. فلا يحول بينه وبين مراده شيء. فمتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين ، فعل ، لأن له ملك السموات والأرض. ولذا تأثره بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ)

[١٨] (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

[١٩] (بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ)

[٢٠] (وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ)

[٢١] (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ)

[٢٢] (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۢ)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ » أي الذين تجندوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير(١) : أي قد أتاك ذلك ، وعلمته ، فاصبر لأذى قومك إياك ، لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسلي. ولا يثنينّك عن تبليغهم رسالتي. كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء . فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم، إلى عطب وهلاك. كالذي كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة ـ كما قال أبو السعود ـ استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة . وكونه (فعالا لما يريد) متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود .

وقوله تعالى « فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ » بدل من (الجنود) لأن المراد بفرعون هو وقومه، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ » أى للحق والوحى، مع وضوح آياته وظهور بيناته، عناداً وبغياً .والإضراب انتقالىّ للأشد، كأنه قيل ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك. فإنهم ، مع علمهم بما حل بهم، لم ينزجروا . وفى جعلهم (فِى تَكْذِيبٍ) إشارة إلى تمكنه من أنفسهم ، وأنه لشدته أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق فيه ، مع ما فى تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

« وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ » أى محص عليهم أعمالهم . لا يخفى عليه منها شىء وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهربا . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخىّ لهم بأنهم نبذوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه أنهما كهم ، وقوله تعالى « بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ » أى سام شريف لا يماثل فى أسلوبه وهدايته « فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۢ » قرئ بالرفع صفة (لقرآن) والجر صفة للوح . قال ابن جرير[1]: والمعنى على الأولى محفوظ من التغيير والتبديل فى لوح . وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبته الله فيه . و (بل) إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لاريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء . فإنه تعالى تولى حفظه وظهوره أبد الآبدين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية).

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٦ - سورة الطارق

هى مكية . وآيها سبع عشرة . -

روى الإمام أحمد[١] : عن عبد الرحمن بن خالد بن أبى حبل العدوانى عن أبيه؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ فى مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغى عندهم النصر. فسمعته يقرأ (وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ) حتى ختمها : قال فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك . ثم قرأتها فى الإسلام . قال فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم. فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا . لو كنا نعلم ما يقول حقًّا لاتبعناه. وروى النسائى[٢] عن جابر ، قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء، فقال النبى ﷺ : أفتان أنت يامعاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا ؟

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٣٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

(٢) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ)

[٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ)

[٣] (ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ)

[٤] (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)

« وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ » أى المضىء . كأنه يثقب ظلمة الليل وينفذ فيه ، فيبصر بنوره ويهتدى به . وسمى طارقاً لأنه يطرق ليلا . أى يبدو فيه .

قال الشهاب : الطارق من (الطرق) وأصل معناه الضرب بوقعٍ وشدة يسمع لها صوت. ومنه المطرقة والطريق ، لأن السابلة تطرقها . ثم صار فى عرف اللغة اسما لسالك الطريق ، لتصور أنه يطرقها بقدمه . واشتهر فيه حتى صار حقيقة . وتسمية الآتى ليلًا (طارقاً) لأنه فى الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها .

والتعريف فى (النجم) للجنس . وأصل معنى (الثقب) الخرق . فالثاقب الخارق . ثم صار بمعنى المضىء ، لتصور أنه ثقب الظلام أو الفلك . وفى إبهامه ثم تفسيره ، تفخيم لشأنه وتنبيه على الاعتبار والاستدلال به .

« إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى مهيمن عليها رقيب . وهو الله تعالى ، كما فى آية(١) (وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً) فيحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٢] .

وقد قرئ (لَمَا) بالتخفيف فـ (إن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ـ و (كُلُّ نَفْسٍ) مبتدأ و (عَلَيْهَا حَافِظٌ) خبره . و (ما) صلة واللام هى الفارقة . وقرئ (لما) بالتشديد على أنها بمعنى (إلّا) الاستثنائية و (إن) نافية والخبر محذوف . أى ما كل نفس كائنة فى حال من الأحوال، إلا فى حال أن يكون عليها حافظ ورقيب. و (كل) على هذا مؤكدة[٢] لأن (نفس) حينئذ نكرة فى سياق النفى ، فتعم .

قال ابن جرير[١] : والقراءة التى لا أختار غيرها فى ذلك ، التخفيف . لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب، وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب. غير أن الفرّاء كان يرى أنها لغة فى هُذَيل . يجعلون (إلا) مع (إن) المخففة لمّا . فإن كان صحيحاً ما ذكر الفراء فالقراءة بها جائزة صحيحة . وإن كان الاختيار مع ذلك قراءة التخفيف . لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب . ولا ينبغى أن يترك الأعرف إلى الأنكر . انتهى .

وقد صحح غير واحد ثبوتها. وبها قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة . واستشهد ابن هشام لها فى (المغنى) فراجعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ)

[٦] (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ)

[٧] (يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ)

[٨] (إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ)

[٩] (يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ)

[١٠] (فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ » جواب لمقدر . والفاء فصيحة. أى : إن ارتاب مرتاب فى كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، فلينظر الخ .

قال الإمام : قوله (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ) بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها ، زيادة فى التأكيد . ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذى لاتصوير فيه ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها . ثم إن هـــذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان ، مملوءًا بالحياة والعقل والإدراك، قادراً على القيام بخلافته فى الأرض. فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية ، وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله فى البدن ، ثم منح قوة الإدارك والعقل ، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره، وهو الله جل شأنه . ويجوز أن يكون قوله (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ) من قبيل التفريع على ما ثبت فى القضية الأولى . كأنه يقول: فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه ، وأن يتفكر فى خلقه. وكيف كان ابتداء نشئه ليصل بذلك إلى أن الذى أنشأه أول مرة ، قادر على أن يعيده . فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق . ويعدل بها عن سبل الشر . فإن عين الرقيب لا تغفل عنها فى حال من الأحوال . انتهى .

و (دَافِقٍ) من الدفق . وهو صبٌّ فيه دفع . وقد قيل إنه بمعنى مدفوق ، وإن اسم الفاعل بمعنى المفعول . كما أن المفعول يكون بمعنى الفاعل(١) كـ (حِجَابًا مَّسْتُورًا) .

والصحيح أنه بمعنى النسبة كـ (لابن وتامر) أى ذى دفق ، وهو صادق على الفاعل والمفعول . أو هو مجاز فى الإسناد . فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة . أو هو استعارة مكنية أو مصرحة بجعله دافقاً . لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أى يدفعه . أو دافق بمعنى منصب من غير تأويل ، كما نقل عن الليث . أقوال .

وقوله تعالى « يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ » أى من بين صلب الرجل ونحر المرأة .

---

(١) [١٧/ الإسراء / ٤٥] .

قال الإمام : الصلب هو كل عظم من الظهر فيه فقار . ويعبر عنه فى كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقا لاسم الجزء على الكل و (الترائب) موضع القلادة من الصدر، وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة. أى أن ذلك الماء الدافق، إنما يكون مادة لخلق الإنسان، إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع فى المحل الذى جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رحم المرأة . فقوله (يخرج) الخ وصف لابد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفى شرائط صحة الخلق منه .

وقال بعض علماء الطب: الترائب جمع تريبة وهى عظام الصدر فى الذكر والأنثى. ويغلب استعمالها فى موضع القلادة من الأنثى ، ومنها قول امرئ القيس (١) :

* ترائبُها مَصْقولة كالسَّجَنْجَل *

قال : ومعنى الآية أن المنىّ باعتبار أصله وهو الدم ، يخرج من شىء ممتد بين الصلب ـ أى فقرات الظهر فى الرجل ـ والترائب أى عظام صدره . وذلك الشىء الممتد بينهما هو الأبهر (الأورطى) وهو أكبر شريان فى الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويمتد إلى آخر الصلب تقريباً . ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة . ومنها شريانان طويلان يخرجان منه

---

(١) صدر البيت : * مهفهفة بيضاء غيرُ مُفاضَةٍ *

وقائله امرؤ القيس من معلقته التى مطلعها :

قِفَا نَبْـكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

المهفهفة : اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن .

المفاضة : المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم .

الترائب : جمع التريبة ، وهى مواضع القلادة من الصدر .

السقل والصقل (بالسين والصاد) : إزالة الصدأ والدنس وغيرهما .

السجنجل : المرآة . لغة روميّة عرّبتها العرب ، وقيل بل هو قطع الذهب والفضة .

بعد شريانى الـكليتين ، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين ، فيغذيانهما . ومن دمهما يتـكون المنىّ فى الخصيتين ويسميان شريانى الخصيتين ، أو الشريانين المنويين فلذا قال تعالى عن المنىّ (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ) لأنه يخرج من مكان بينهما وهو الأورطى أو الأبهر. وهذه الآية، على هذا التفسير، تعتبر من معجزات القرآن العلمية. وهذا القول أوجه وأدق من التفسير الأول . انتهى .

وقوله تعالى : « إِنَّهُۥ » أى الحافظ سبحانه ، المتقدم فى قوله (لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) أو الخالق المفهوم من خلق « عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ » أى رجع الإنسان وإعادته فى النشأة الثانية، لقادر . كما قدر على إبدائه فى النشأة الأولى « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ » أى تظهر وتعرف خفيات الضمائر .

قال الزمخشرىّ : السرائر ما أسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها تعرّفها وتصفّحها، والتميز بين ماطاب منها وما خبث « فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » أى من قوة يمتنع بها من عذاب الله وأليم نـكاله . ولا ناصر ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه . يعنى أنه فقد ما كان يعهده فى الدنيا إذ يرجع إلى قوة بنفسه أو بعشيرته ، يمتنع منهم ممن أراده بسوء . وناصر حليف ينصره على من ظلمه واضطهده . ولم يبق له إلا انتظار الجزاء على ما قدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

[١٢] (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)

[١٣] (إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)

[١٤] (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)

[١٥] (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا)

[١٦] (وَأَكِيدُ كَيْدًا)

[١٧] (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » أى المطر . يسمى رجعاً لأنه تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً إلى العباد ، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » أى النبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها . أو الانشقاق بالنبات . فهو علم أو مصدر « إِنَّهُ » أى القرآن الكريم « لَقَوْلٌ فَصْلٌ » أى حق فارق بين الحق والباطل «وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ» أى بالكلام الذى ليس له أصل فى الفطرة ولا معنى فى القلب ، بل هو جدّ الجدّ « إِنَّهُمْ » أى المكذبين به ، الجاحدين لحقه « يَكِيدُونَ كَيْدًا » أى يمكرون مكراً لإبطال أمر الله وإطفاء نوره «وَأَكِيدُ كَيْدًا » قال ابن جرير[1] أى وأمكر مكراً . ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به. يعنى أن الكيد هنا استعارة تبعية أو تمثيلية. بتشبيه إمهال الله لهم ليستدرجهم، بالكيد. وبهذا يظهر تفريع أمره بإمهالهم فى قوله « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ » أى لاتستعجل عقابهم . وقوله « أَمْهِلْهُمْ » بمعنى (مهلهم) فهو بدل منه للتأكيد . أوتكرير بلفظ آخر للتأكيد . وقوله « رُوَيْدًا » أى قليلا .

قال الإمام : وفى ذلك وعيد شديد لهم بأن مايصيبهم قريب ، سواء كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبيّ ﷺ بل لكل داع إلى الحق الذى جاء به، أنه سيبلغ من النجاح مايستحقه عمله ، وأن المناوئين له هم الخاسرون .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٧ - سورة الأعلى

مكية وآيها تسع عشرة: قال ابن كثير: والدليل على أنها مكية مارواه البخاري[١] عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. فجعلا يُقرئاننا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به. حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء. فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى، في سور مثلها.

وعن عليّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » تفرد به الإمام أحمد[٢]، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. وعن النعمان ابن بشير[٣] أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية. وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. رواه مسلم وأهل السنن. وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين.

---

(١) أخرجه في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٨٧ ـ سورة الأعلى، ١ ـ حدثنا عبدان، حديث رقم ١٨٣١. (٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٤٢ (طبعة المعارف). (٣) أخرجه مسلم في: ٧ ـ كتاب الجمعة، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا).

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾

[٢] ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾

[٣] ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾

[٤] ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾

[٥] ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » أى نزه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوهما، كقوله[1] ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فالاسم صلة . وسِرُّ إيراده أن المنوه به إذا كان فى غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره . كما يقال سلام على المجلس العالى . هذا ما ذكروه . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيها على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا : سبحان ربى الأعلى ، كما رواه ابن جرير[2] وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شىء سواه، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير[2] فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمده الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) حيث رد على من استدل بهذه الآية

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فى أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره .
فقال ابن حزم رحمه الله :

وأما قوله تعالى (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فهو على ظاهره دون تأويل. لأن التسبيح فى اللغة التى بهـا نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشىء عن السوء . وبلاشك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه، الذى هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به ، ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعـالى (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)ومعنى قوله تعالى[1] (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) معنى واحد . وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعـالى، ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه . فـكلا الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعـالى (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وبين قوله[2] (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) .

والحمد بلاشك هو غير الله . وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق . فبطل تعلقهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال فرق بين الآيتين . فإن الباء فى (بحمد ربك) للملابسة ، ولا كذلك هى فى (باسم ربك) ومع اتساع اللفظ الـكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لمـا أيده من الأخبار ، ولآية (فَسَبِّحْهُ) وآية (سُبْحَانَ رَبِّكَ) والله أعلم .

و (الأعلى) هو الأرفع من كل شىء، قدرة وملـكاً وسلطاناً. واستدل السلف بظاهره فى إثبات العلوّ بلا تـكييف . والمسألة معروفة .

« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ » قال الزمخشرىّ : أى خلق كل شىء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولـكن على إحكام واتساق، ودلالة على أنه صادر عن عالم، وإنه

(١) [٥٦ / الواقعة / ٩٥و٩٦] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨و٤٩].

صنعة حكيم . « وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ » أى قدر لكل حيوان مايصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به « وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ » أىأخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات «فَجَعَلَهُۥ» أى بعد خضرته ونضرته «غُثَآءً» أى جافًّا يابسا تطير به الريح «أَحْوَىٰ» أى أسود ، صفة مؤكدة (لغثاء) لأن النبات إذا يبس تغير إلى (الحوّة) وهى السواد .

قال ابن جرير[1] : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام: والذى أخرج المرعى أحوى أى أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون ماشتدت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندى بخلاف تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره . فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبى عبيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ)

[٧] (إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ)

[٨] (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ)

[٩] (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ)

[١٠] (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ)

[١١] (وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى)

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

[١٢] (ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ)

[١٣] (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)

« سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ » أى سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه . والمعنى نجعلك قارئاً للقرآن فلا تنساه .

قال الزمخشرىّ : بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى ، وهو أمىّ لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :

أحدهما ـ إنه كان رجلًا أمياً لحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما ـ إن هذه السورة من أوائل مانزل بمكة. فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .

الثانى ـ قيل (لاتنسى) نهى والألف للإطلاق فى الفاصلة وهو جائز مثل[(١)] (ٱلسَّبِيلَا) والمعنى لاتغفل قراءته وتكريره فتنساه . فالنهى عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازىّ : والقول المشهور إن هذا خبر. والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لاتنسى وتأمن النسيان. كقولك (سأكسوك فلاتعرى) أى فتأمن العرى، قال: واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لايتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية . منها أن النسيان لايقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهى به . فلابد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان. مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

ومنها أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضا خلاف الأصل .

ومنها أنا إذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأني أجعلك بحيث لاتنساه . وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي الدراسة والقراءة . وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول. ولأنه على خلاف قوله[1] ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ انتهى .

الثالث : قال البرهان الشافعيّ في كتاب (تفضيل السلف على الخلف) .

إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ) وتحقيق معنى النسخ هنا في غاية الإشكال، لأن قوله (وَلَا تَعْجَلْ) نهي عن العجلة، وقوله (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ) ليس بأمر بها ليكون ناسخاً للنهي عنها. بل هو خبر عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

وفحواه مؤكد لمعنى الخطاب الآخر . لأن تأويله إنا نحفظك تحفيظاً لاتخاف معه النسيان . فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخا، لغة لاحقيقة، على معنى تبدل الحال عنده . فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى «إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ» استثناء مفرغ من أعم المفاعيل. أي لاتنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء ، إلا ماشاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجبلة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ماشاء الله أن ينسى فإنه ينسى . ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً كليًّا دائماً . وذلك لأن ما بالجبلة لايتغير . وإلا لكان الإنسان عالماً آخر .

وقد روى البخاريّ[2] عن عائشة أن النبيّ ﷺ قال: رحم الله فلاناً. لقد أذكرني كذا وكذا آية ، كنت أسقطتهن . وروى أنسيتهن .

---

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦] .

(٢) أخرجه في : ٥٢ ـ كتاب الشهادات ، ١١ ـ باب شهادة الأعمى ، حديث رقم ١٢٩٢

وقال ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى. رواه الشيخان(١) عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازيّ بمعنى القلة المراد بها النفى، وذلك أن المخرج فى الاستثناء أقل من الباقى . ولأن (ماشاء الله) فى العرف يستعمل للمجهول . فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم . فإذا دل مثله على القلة عرفا ، والقلة قد يراد بها النفى فى نحو (قلّ من يقول كذا مجازا) أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزمخشريّ بقوله: (أو قال إلا ماشاء الله) والغرض نفى النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه (أنت سهمى فيما أملك إلا فيما شاء الله) ولا يقصد استثناء شيء . وهو من استعمال القلة فى معنى النفى .

وقال الفراء ـ فيما نقله الرازيّ ـ : إنه تعالى ماشاء أن يُنسى محمداً عليه السلام شيئاً، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه، كما قال(٢) ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرّفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ أى ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله (سَنُقْرِئُكَ) مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إقرائه الوحى وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا القُرْآ الموحى به للعمل. ليس فيه حرج وعسر، بقوله تعالى ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أى نوفقك للطريقة اليسرى ، أى الشريعة السمحة السهلة ، التى هى أيسر

(١) أخرجه البخارى فى: ٨ ـ كتاب الصلاة، ٣١ ـ باب التوجه نحو القبلة حيث كان حديث رقم ٢٦٦

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٨٩ (طبعتنا)

(٢) [١٧ / الإسراء / ٨٦] .

الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر «فَذَكِّرْ» أى عبادَ الله عظمتَه، وعظهم وحذرهم عقوبته « إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ » أى الموعظة. و(إن) إما بمعنى (إذ) كقوله تعالى(١) (وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أو بمعنى (قد) على ماقاله ابن خالويه . ويؤيده قوله تعالى(٢) (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقيل: (إن)شرطية. والمعنى ذم المذكَّرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، تسجيلا بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ: (عظ المكّاسين إن سمعوا منك) قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون «سَيَذَّكَّرُ» أى يقبل التذكّرة وينتفع بها «مَن يَخْشَىٰ» أى يخاف العقاب على الجحود والعناد، بعد ظهور الدليل «وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى* ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ» أى العظمى ألما وعذابا «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ» أى لا يهلك فيستريح، ولا يحيي حياة تنفعه. قيل: إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة قالوا (لا هو حي ولا ميت) فجاء على مألوفهم في كلامهم . و (ثم) هنا للتفاوت الرتبيّ ، إشارة إلى أن خلوده أفظع من دخوله النار ، وصليّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ)

[١٥] (وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ)

[١٦] (بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا)

[١٧] (وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ)

[١٨] (إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ)

[١٩] (صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ)

« قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ » أى فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي ، وعمل

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٩] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٥].

بما أمره الله به «وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ» أى تذكر جلال ربه وعظمته، فخشع وأشفق وقام بما له وعليه ، كقوله تعالى[١] (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) وجوز أن يحمل (تزكى) على إيتاء الزكاة و(صلى) على إقامة الصلاة، كآية[٢] (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى) لما عهد فى كلامه تعالى من الجمع بينهما فى عدة آيات، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه، بأن المعهود فى التنزيل الكريم تقديم الصلاة. وأجيب بأنه لاضير فى مخالفة العادة، مع أن الجارى تقديمها إذا ذكرت باسمها. أما إذا ذكرت بفعل مأخوذ منها، فلا . كقوله[٣] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) والأول أظهر، لأنه أشمل وأعم. وهو أكثر فائدة.

« بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام . كأنه قيل، إثر بيان مايؤدى إلى الفلاح : لاتفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما فى قوله تعالى[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا) الآية. أو للكل، فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر، ومالا يخلو عنه الإنسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة، فى السعى وترتيب المبادئ. والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ. وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة، وتشديد العتاب فى حق المسلمين . وقرئ (يؤثرون) بالياء «وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ» أى أفضل ، لخلوصها عما يكدر. وأدوم لعدم انصرام نعيمها. والجملة حال من فاعل (تؤثرون) مؤكدة للتوبيخ والعتاب « إِنَّ هَٰذَا » أى ما ذكر فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) أو ما فى السورة كلها « لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ » أى ثابت فيها معناه « صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » بدل من (الصحف الأولى) وفى إبهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لايخفى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٢].
(٢) [٢٠ / طه / ١٤].
(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١].
(٤) [١٠ / يونس / ٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٨ — سورة الغاشية

مكية . وآيها ست وعشرون . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ (سبح اسم ربك الأعلى والغاشية) فى صلاة العيد ويوم الجمعة . وروى الإمام مالك[1] أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : هل أتاك حديث الغاشية (رواه مسلم[2] وأبو داود وغيرهما) .

---

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٥ ـ كتاب العمل فى غسل يوم الجمعة ، حديث رقم ١٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)

[٢] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ)

[٣] (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)

[٤] (تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً)

[٥] (تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ)

[٦] (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ)

[٧] (لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

[٨] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ)

[٩] (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » أى خبرها وقصتها ، وهى القيامة . وأصل الغاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائدها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما فى حيزه ، مع تقريره « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ » أى ذليلة . وهى وجوه أهل الكفر بالحق والجحود له . والمراد بالوجوه الذوات « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » قال القاشانىّ : أى تعمل دائبا أعمالًا صعبة تتعب فيها ، كالهوىّ فى دركات النار ، والارتقاء فى عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة ، من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها فى أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التى ضريت بها فى الدنيا ، وأتعابها فيها من غير منفعة لهم منها إلا التعب والعـــذاب .

وجوز أن يكون (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) إشارة إلى عملهم فى الدنيا . أى عملت ونصبت فى أعمال لا تجدى عليها فى الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثورًا كما يدل عليه آيات أخر، ويؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله فى أهل الجنة (لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) وذلك السعى هو الذى كان فى الدنيا . والله أعلم . « تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً » أى تدخل نارًا متناهية فى الحرارة . قال القاشانىّ : أى مؤذية مؤلمة بحسب ما تزاولها فى الدنيا من الأعمال « تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ » أى بلغت غايتها فى شدة الحر « لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ » وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطبًا . فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل . قال ابن جرير[٢]: الضريع عند العرب نبت يقال له الشبرق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية[٣] (وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع . وقيل الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التى تلتذ برعى الشوك ، فلا ينافى كونه زقومًا أو غسلينا « لَّا يُسْمِنُ » أى لا يخصب البدن « وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ » أى لا يسكن داعية النفس ولا نهمها من أجله « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ » أى ذات حسن ، على أنه من النعومة ، كناية عن حسن المنظر . أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم « لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ » أى لعملها الذى عملته فى الدنيا ، وجدّها فى طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكرة لا تندم ولا تتحسر .

---

(١) [٨٨ / الغاشية / ٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٣٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[١١] (لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)

[١٢] (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ)

[١٣] (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ)

[١٤] (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ)

[١٥] (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ)

[١٦] (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » أى مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علوّ المكانة .

« لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً » أى لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفساً تلغو . لأن كلامهم الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد « فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ » أى لا انقطاع لها « فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة ليروا ، إذا جلسوا عليها ، جميع ما خولوه من النعيم والملك « وَأَكْوَابٌ » جمع كوب، وهو إناء لاأذن له « مَّوْضُوعَةٌ » أى بين أيديهم لايعوزهم تفقدها « وَنَمَارِقُ » أى وسائد « مَصْفُوفَةٌ » أى فوق الأسرة أو فى جوانب المساكن للاستناد إليها « وَزَرَابِيُّ » أى بسط « مَبْثُوثَةٌ » أى مفروشة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[١٨] (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

[١٩] (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)

[٢٠] (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية ، وماهو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام . وكلمة (كيف) منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة فى حيز الجر على أنها بدل اشتمال من (الإبل) أى أينكرون ماذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات ، فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة بتأتى مايصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنوء بالأوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة. وفى صبرها على الجوع والعطش، حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً . واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم . وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير « وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ » التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار « كَيْفَ رُفِعَتْ » أى رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى ، وأمسك كل منها فى مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا يفسد نظامه « وَإِلَى ٱلْجِبَالِ » أى التى ينزلون فى أقطارها « كَيْفَ نُصِبَتْ » أى أقيمت منتصبة لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان « وَإِلَى ٱلْأَرْضِ » أى التى يضربون فيها ويتقلبون عليها « كَيْفَ سُطِحَتْ » أى بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

قال الزمخشرىّ : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .

لطيفة :

ذكر السكاكىّ فى (المفتاح) فى بحث الجامع الخيالىّ ؛ أن جمعه على مجرى الإلف والعادة

بحسب ما تنعقد الأسباب فى استيداع الصور خزانة الخيال . وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام رب العزة مع أهل الوبر ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات ، لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ، ثم لبعده فى خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها . وكذا البواقى . لكن إذا وفاه حقه بتيقظه لما عليه تقلبهم فى حاجاتهم ، جاء الاستحلاء . وذلك إذا نظر أن أهل الوبر ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ، كانت عنايتهم مصروفة لامحالة إلى أكثرها نفعاً ، وهى الإبل . ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يُؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

(١) لنا جبلٌ يحتلُّه مَن نجيرهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم فى منزل ــ ومَن لأصحاب مواش بذاك ــ كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور . فعند نظره هذا ، أيرى البدوىّ إذا أخذ يفتش عما فى خزانة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك ، أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدها ، أو لا تَنِصّ إليه صورة الأرض تليها بعدهن ؟ لا . وإنما الحضرىّ ، حيث لم تتآخذ عنده تلك الأمور ، وما جمع خياله تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجهله معيباً ، للعيب فيه . انتهى .

---

(١) قائله السموءل من قصيدته التى مطلعها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللؤم عرضُهُ فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

نجيره : نحميه . منيع : حصين . الطرف : البصر . كليل : تعب قاصر النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ)

[٢٢] (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ)

[٢٣] (إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ)

[٢٤] (فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ)

[٢٥] (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ)

[٢٦] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليه بآياته تعالى ، التى تسوق إلى الإيمان بخالقها الفطرةُ « إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ » أى مبلغ ما نسى من أمره تعالى « لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » أى بمتسلط تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين « إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ » وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع . أى لكن من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق « إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ » أى رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى (مَن) كما أن إفراده قبل باعتبار لفظها « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم » أى فنجازيهم بالعذاب الأكبر . فإن القهر والغلبة له تعالى وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

٨٩ – سورة الفجر

مكية . وآيها تسع عشرة روى النسائي[١] عن جابر قال : صلى معاذ صلاة . فجاء رجل فصلى معه ، فطول . فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف . فبلغ ذلك معاذا ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى فقال : يا رسول الله ! حيث أصلى معه يطول علىّ . فانصرفت وصليت فى ناحية المسجد فعلفت ناقة ، فقال رسول الله ﷺ : أفتانا يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى ؟

(١) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْفَجْرِ)

[٢] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[٣] (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[٤] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)

[٥] (هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)

« وَالْفَجْرِ » أى الصبح كقوله تعالى[١] (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم تعالى بآيته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضَّوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، لطلب الأرزاق. وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل « وَلَيَالٍ عَشْرٍ » هى ، على قول ابن عباس ومجاهد ، عشر ذى الحجة ، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفى البخارىّ[٢] عن ابن عباس مرفوعاً : ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام . يعنى عشر ذى الحجة .

وحكى ابن جرير[٣] أنه قيل عنى بها عشر المحرم . والرازىّ ، قولاً أنها العشر الأواخر من رمضان ، لما فيه من ليلة القدر ، ولما صح[٤] أنه صلوات الله عليه كان إذا دخل العشر الأخير

(١) [٨١ / التكوير / ١٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٦ ـ كتاب الصوم ، ٥٢ ـ باب ما جاء فى العمل فى أيام العشر ، حديث رقم ٧٥٧ .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثلاثين ، (طبعة الحلبى الثانية) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر ، ٥ باب العمل فى العشر الأواخر من رمضان ، حديث رقم ١٠٢٧ ، عن عائشة .

من رمضان شدّ مئزره وأحيي ليله وأيقظ أهله . وثمة وجه آخر فى العشر . وهو أنها الليالى التى يحلو لك فيها الليل ويشتد ظلامه ويغشى الأفق سواده. وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة (عَشْرٍ) بمثابة قوله فى السور الآتيــة (إِذَا يَغْشَىٰ) (إِذَا سَجَىٰ) مما يبيّن وجه العبرة ويجليها أتم الجلاء ، ولا بعد فى هذا المعنى. بل فيه توافق لبقية الآيات. وبالجملة فأوضح المخصصات ما عضده دليل أو أيدته قرينة أو حاكى نظائره . والله أعلم .

« وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » يعنى الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيــه كما فى قوله تعالى(١) (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . قال مجاهد : كل خلق الله شفع . السماء والأرض . والبر والبحر . والجن والإنس . والشمس والقمر . والكفر والإيمان . والسعادة والشقاوة . والهدى والضلالة . والليل والنهار .

(وَالْوَتْرِ) هو الله تعالى لأنه من أسمائه . وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقه . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعانى . لأنها لا تخلو من شفع ووتر .

قال القاضي: ومن فسرها بالبروج والسيارات أو شفع الصلوات ووترها أو بيومى النحر وعرفة ، فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ، مارآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلًا فى الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير(٢) : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعاً من الشفع ولا من الوتر، دون نوع ، بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل فى قسمه هــذا ، لعموم قسمه بذلك .

وقد قرئ (الوتر) بفتح الواو وكسرها . وهما لغتان .

(١) [٥١ / الذاريات / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

« وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ » أى إذا يمضى ، كقوله[١] (وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) والتقييد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة . فنى الليل الراحة التى هى من أعظم النعم . وفى النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف ولتتوافق رؤوس الآى . ومن القراء من حذفها وصلا ووقفا . ومنهم من خصه بأحدهما ، كما فصل فى كتب الأداء .

« هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ » قال ابن جرير[٢] : أى هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذى حجر . وإنما عُنى بذلك : أن فى هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه فى الأقسام .

وقال الرازىّ : المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذا لُبّ علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه . أى على طريقة قوله تعالى[٣] (وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) وإنما أوثرت هذه الطريقة هضما للخلق ، وإيذاناً بظهور الأمر . و (الحجر) العقل . لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من ارتكاب مالا ينبغى . والمقسَم عليه محذوف . وهو (ليعذبن) كما ينبىء عنه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[٧] (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ)

[٨] (ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » أى ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ،

(١) [٧٤ / المدثر / ٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٧٦] .

فيعذب هؤلاء أيضا ، لاشتراكهم فيما يوجبه من جحود الحق والمعاصي. و (عَادٍ) قبيلة من العرب البائدة . وتلقب بإرم أيضا . وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام . فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية. فقوله تعالى « إِرَمَ » عطف بيان لعاد «ذَاتِ ٱلْعِمَادِ» أي ذات الخيام المعمّدة ؛ لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان . ثم يرجعون إلى منازلهم في الأحقاف في حضرموت . وقيل : كنى بالعماد عن العلوّ والشرف والقوة. إلا أن الأشبه ـ كما قال ابن جرير(١) ـ بظاهر التنزيل هو الأول. وهو أنهم كانوا أهل عمد سيارة . لأن المعروف في كلام العرب من العماد ، ما عُمد به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وُجدَ إلى ذلك سبيل ، دون الأنكر. « ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ » أي في العظم والبطش والأيدي .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً . ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم. فقال(٢) (وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ، فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال تعالى(٣) (فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) .

تنبيه :

قال الإمام الدرّاكة ابن خلدون في (مقدمة) تاريخه في سياق الأخبار الواهية للمؤرخين ما مثاله : وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة (والفجر) في

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .
(٢) [٧ / الأعراف / ٦٩] . (٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

قوله تعالى (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) فيجعلون لفظه (إِرَمَ) اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين، وينقلون أنه كان لعادبن عوص بن إرم ابنان . هما شديد وشداد . ملكا من بعده. وهلك شديد فخلص الملك لشداد . ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأَبنينَّ مثلها. فبنى مدينة (إرم) فى صحارى عدن فى مدة ثلثمائة سنة . وكان عمره تسعمائة سنة . وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبرىّ والثعالبىّ والزمخشرىّ وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبدالله بن قلابة، من الصحابة ، أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هى (إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ) وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج فى طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ فى شىء من بقاع الأرض . وصحارى عدن التى زعموا أنها بنيت فيها هى فى وسط اليمن ومازال عمرانه متعاقباً . والأدلاء تقص طرقه من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخبار يين ولا من الأمم ، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب فى لفظة (ذات العماد) أنها صفة (إرم) وحملوا العماد على الأساطين . فتعين أن يكون بناء . ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى أشبه

بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات . وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم . لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما في قراءة ابن الزبير ، على إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول: قريش كنانة وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال: ومن زعم أن المراد بقوله (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) مدينة إما دمشق أو إسكندرية ، ففيه نظر . فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ، إن جعل (إرم) بدلا أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذٍ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم

قال : وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها (إرم ذات العماد) ، مبنية بلبن الذهب والفضة الخ . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ؛ إن صدقتهم في جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها . ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات . ويطنزون بهم . والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ)

[١٠] (وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ)

[١١] (ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ)

[١٢] (فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ)

[١٣] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

[١٤] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ)

« وَثَمُودَ » وهم قوم صالح عليه السلام « ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ » أى قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما فى قوله(١) (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً ءَامِنِينَ) والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ (جابوا) أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرئ بالياء وبإسقاطها . كما فى (يَسْرِ) والوادى هو وادى القرى . كانت منازلهم فيه . كما قاله ابن إسحق « وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ » أى الجنود الذين يشدون له أمره . أو هى أوتاد يشد بها من يعذّبه . أو القوى والعَدد والعُدد التى تم له بها ملكه ، ورسخ بطشه وسلطانه ، ومنه قولهم ، لمن تمكن فى أرضٍ ما : ضرب بها أوتاداً « ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ » صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . أى تجاوزوا ماوجب عليهم إلى ماحظر من الكفر بالحق والعتوّ والتمرّد والبغى فى بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان « فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ » أى الضرر والإيذاء وهضم الحقوق « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى أنزل بهم عذابه ، وأحلّ بهم نقمته ، بما طغوا فى البلاد وأفسدوا فيها . وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً

(١) [١٥ / الحجر / ٨٢] .

فى غير ما سورة وآية . و (السوط) إما مصدر (ساطه) أى خلطه كما فى قول كعب[١] :

لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دَمِهَا فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

أريد به المفعول هنا . أى أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبها ذكر سميت الآلة المعروفة، وهى الجلد المضفور الذى يضرب به، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض . وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة . استعيرت لعذاب أدون من غيره . وهو ما اختاره الزمخشرىّ حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم ، بالقياس إلى ما أعدّ لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وقيل : هو من قبيل (لجين الماء) أى عذاباً كالسوط فى شدته ، وهو ما يقتضيه كلام الطبرىّ ، حيث زعم أن السوط مَثَل لشدة العذاب .

قال الشهاب: وأما استعارة الصبّ للعذاب فشائعة، كالإذاقة. يقال: صبّ عليه السوط، وقنّعه به وغشّاه . وهو تمثيل وتصوير لحلوله أو تتابعه عليه وتكرره . « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » أى لهؤلاء الذين قصّ نبأ هلاكهم ، ولضربائهم من الكفرة بالحق والعاثين بالفساد . و (المِرصاد) اسم مكان للذى يترقب فيه الرصد ـ جمع راصد ـ أو صيغة مبالغة . كمطعام ومطعان . فالباء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد، مترقباً لها ومجازياً على نقيرها وقطميرها . بحيث لا ينجو منه أحد ـ بحال من قعد على الطريق مترصّدا لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر .

ثم أشار إلى غفلة الإنسان فى حالى غناه وفقره . ونعى عليه شأنه فيهما، بما يقرر ما تقدم من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى :

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بانَتْ سعادُ فقلبى اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها ، لم يُفْدَ ، مَكْبُولُ

سيط : خُلِطَ . الفجع : المصيبة . الولع : الكذب ، والإخلاف فى الموعد ، وتبديل خليل بآخر .

انظر شرح السكّرى ص ٨

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ)

[١٦] (وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ)

« فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ » أى بالغنى واليسار « فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ » أى فضّلنى ، لما لى عنده من الكرامة « وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ » أى ضيّقه عليه وقتّره ، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه « فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ » أى أذلنى بالفقر. وذلك لسوء فكره وقصور نظره فى الحالين . فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه . وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بخلق الصبر على الكفاف . ففى كلٍّ ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب . ونظير الآية ، آية[١] (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً) وآية[٢] (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وآية[٣] (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ)

[١٨] (وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)

[١٩] (وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا)

[٢٠] (وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

« كَلَّا » ردع عن قوليه فى حاليه . أعنى اعتقاد الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع،

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥و٥٦] .
(٣) [٧٠ / المعارج / ١٩ـ٢٢] .

بل لطلب الشكر . وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال « بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ » وهو من فقد كافله ومربيه . فإن من آكد الواجبات القيام على تأديبه وكفالته، صونا له إذا أهمل من فساد طبيعته وعيثه بالضرر في أهل جبلته . ومثله التحاضّ على مواساة البؤساء. وهؤلاء المنعى عليهم ضلالهم في غفلة عنه، كما قال « وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أي لا يحض بعضكم بعضاً عليه ولا يتواصى به.

قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام فيقول (ولم تطعموا المسكين) ليصرح لك بالبيان الجليّ أن أفراد الأمة متكافلون . وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشانيّ ، في دلالة قوله تعالى (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ) الخ : أي الإنسان يجب أن يكون في مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان، لحديث (الإيمان نصفان . نصف: صبر، ونصف شكر) لأن الله تعالى إما إن يبتليه بالنعم والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغي من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مراضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : إن الله أكرمني لاستحقاقي وكرامتي عنده . ويترفه في الأكل ويحتجب بمحبة المـال ويمنع المستحقين . أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول: إن الله أهانني. فربما كان ذلك إكراماً له . بأن لا يشغله بالنعمة عن المنعم ، ويجعل ذلك وسيلة له في التوجه إلى الحق والسلوك في طريقه لعدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدراجاً منه . انتهى .

« وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا » قال ابن جرير[1] : أي تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم (لممت ما على الخوان أجمع فأنا ألمه لمًّا) إذا أكلت ما عليه فأتيت على جميعه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قال ابن زيد : كانوا لا يورّثون النساء ولا يورّثون الصغار ، وقرأ[1] (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ، قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ) أي لا تورثونهن أيضا . وقال بكر بن عبد الله : اللمّ : الاعتداء في الميراث . يأكل ميراثه وميراث غيره « وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا » أي جمعه وكنزه ، حبًّا كثيراً شديداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)

[٢٢] (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

[٢٣] (وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ)

[٢٤] (يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[٢٥] (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ)

[٢٦] (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ)

« كَلَّآ » ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعلهم . وما بَعْدَهُ وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا ينفعهم الندم « إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا » أي دكا بعد دك حتى عادت هباءً منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثاني تأكيدا ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب . كقرأت النحو باباً باباً . وجاء القوم رجلًا رجلًا ، و(الدك) قريب من الدق، لفظاً ومعنى «وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » قال ابن كثير : أي وجاء الرب، تبارك وتعالى، لفصل القضاء، كما يشاء. والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة

---

(١) [٤ / النساء / ١٢٧] .

والضحاك فى نزوله تعالى من السماء يومئذ فى ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها . ومذهبُ الخلف فى ذلك معروف ، من جعل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل . أى جاء أمره وقضاؤه . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه .

قال الزمخشريّ : مثلت حاله فى ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عسا كره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . انتهى .

وكأنَّ الخلاف بين المذهبين لفظىّ ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ماللخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ماللخلق . بل هو مايتبادر إلى فهم المؤمن الذى يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لاتشبه الذوات ، فكذلك صفاته لاتشبه الصفات . لأنها لا تكيف ولا تعلم بوجهٍ ما . فهى حقيقة النسبة إليه سبحانه ، على مايليق به . كالعلم والقدرة . لا تمثيل ولا تعطيل .

قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل . فإن قوله (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين . مثل أن يراد بكون الله قِبلَ وجه المصلِّى ، أنه مستقر فى الحائط الذى يصلى إليه ، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب فى المعنى ، لكن أخطأ فى إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ماقد بيناه فى غير هذا الموضع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً فى هذا الإطلاق . فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك فى (الرسالة المدنية) وأوضح أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقال رحمه الله فى بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذى قام دليله. وبالتأويل الجارى على نهج السبيل . ولم يوجد فى شىء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل . والله عند لسان كل قائل. ولكن ننكر من ذلك ماخالف الحق والصواب، ومافتح به الباب، إلى هدم السنة والكتاب واللحاق بمحرّفة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه ؛ أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص فى هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كأبى بكر بن أبى داود ، وأبى الحسن الخرزىّ ، وأبى الفضل التميمىّ ، وابن حامد، فيما أظن ، وغيرهم، إلى إنكار أن يكون فى القرآن مجاز. وإنما دعاهم إلى ذلك مارَأَوْهُ من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز. فقابلوا الضلال والفساد ، بحسم الموادّ . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

«وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍم بِجَهَنَّمَ» أى أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيره إليها. فمجيئها متجوز به عن إظهارها. كما صرح به آية(١) (وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ) «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ» تفريطه فى الدنيا فى طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال « وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ » أى منفعتها. فالمراد بتذكره ندامته على تفريطه فى الصالحات من الأعمال التى تورثه نعيم الأبد ، كما فسره بقوله تعالى « يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى » أى أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتى هذه . فاللام للتعليل . أو : قدمت وقت حياتى . فاللام بمعنى وقت . والحياة هى التى فى الدنيا « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ » أى لا يعذب كعذاب الله، أحدٌ فى الدنيا « وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ » أى لا يوثق كوثاقه يومئذ أحد فى الدنيا. وقرئ (يُعَذَّبُ وَيُوثَقُ) على بناء المجهول .

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٩] .

قال السمين : وعذاب ووثاق فى الآية ، واقعان موقع تعذيب وإيثاق . والمعنى لايعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الـكافر . ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال . فالوثاق فى الآية بمعنى الإيثاق . كالعطاء بمعنى الإعطاء .

ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، فى مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ)

[٢٨] (ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

[٢٩] (فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى)

[٣٠] (وَٱدْخُلِى جَنَّتِى)

« يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ » أى الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن . وهى التى كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب « ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ » أى وعده وثوابه « رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » أى راضية بما أوتيت ، مرضية عند ربها « فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى » أى فى زمرتهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون « وَٱدْخُلِى جَنَّتِى » أى معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنـة . ومن غرائب المأثور هنا ، تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها . أى ارجعى إلى جسد صاحبك إيذاناً بأن الأرواح المطمئنة تردّ يوم القيامة فى الأجساد ، وأن لها مقرّاً قبل تعلقها بالبدن فى عالم الملـكوت . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ، يظهر بُعد هذا التأويل .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٠ — سورة البلد

مكية وهى عشرون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ)

[٢] (وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ)

[٣] (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

«لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ» تقدم فى مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير (لَآ أُقْسِمُ) و (البلد) هو مكة . وقيد القسم بقوله تعالى « وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ » عناية بالنبىّ صلوات الله عليه. فكأنه إقسام به لأجله، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة، وأنهم جهلوا جهلاً عظيما ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب: و(الحل) صفة أو مصدر بمعنى الحالّ على هذا الوجه. ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته فى كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، ويتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حالهم فى عداوته، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لا يستحل فيه الحمام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟؟

وقيل : معناه وأنت حل به فى المستقبل. تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر . مع أنها مافتحت على أحد قبله ، ولا أحلت له . ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه. و (الحل) على هذين الوجهين ضد (الحرمة) وفيهما ـ كما قالوا ـ بُعْدٌ . لا سيما إرادة الاستقبال فى الوجه الأخير، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتشريفه عليه السلام ، بجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب، بذكر بعض موادّ المكابدة، على نهج

براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق، ولاقى من الشدائد، فى سبيل الدعوة إلى الله، مالم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » عطف على (هَٰذَا ٱلْبَلَدِ) داخل فى المقسم به . قيل : عنى بذلك آدم وولده . وقيل : إبراهيم وولده . والصواب ـ كما قال ابن جرير[1] ـ أن المعنىّ به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومه كما عمه .

وإيثارُ (ما) على (من) لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم فى مقام المدح . وإنه مما لا يكتنه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استفهاماً كما فى قوله تعالى[2] (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) أى أىُّ مولود عظيم الشأن وضعته. وهذا على كون المراد إبراهيم والنبيّ عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر. أما على أن المراد به آدم وذريته، فالتعجب من كثرتهم ، أو مما خص به الإنسان من خواص البشر. كالنطق والعقل وحسن الصورة. حكاه الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ)

[٥] (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)

[٦] (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا)

[٧] (أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ » أى فى شدة، يكابد الأمور ويعالجها فى أطواره كلها، من حمله إلى أن يستقر به القرار. إما فى الجنة وإما فى النار .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ٣٦] .

قال الزمخشريّ : (الـكبد) أصله من قولك (كبد الرجل كبدا) فهو أ كبد، إذا وجعت كبده وانتفخت. فاتسع فيه حتى استعمل فى كل تعب ومشقة،ومنه اشتقت المـكابدة. كما قيل : (كبته) بمعنى أهلـكه . وأصله كبده إذا أصاب كبده . قال لبيد[١] :

يَا عينُ هَلَّا بَـكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الخُصومُ فِى كَبَدِ

أى فى شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسلية للنبيّ صلوات الله عليه ، مما كان يكابده من قريش ، من جهة أن الإنسان لم يخلق للراحة فى الدنيا . وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قالوه .

وقال القاشانيّ : (فى كبد) أى مكابدة ومشقة من نفسه وهواه . أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب . إذ (الـكبد) فى اللغة غلظ الـكبد الذى هو مبدأ القوة الطبيعية . وفساده وحجاب القلب وفساده من هذه القوة . فاستعير غلظ الـكبد لغلظ حجاب القلب ومرض الجهل .

« أَيَحْسَبُ » أى لغلظ حجابه ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة « أن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » أى أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته . مع أن ما هو فيه من المـكابدة يكفى لإيقاظه من غفلته واعترافه بعجزه .

« يَقُولُ أَهْلَـكْتُ مَالًا لُّبَدًا » أى كثيراً . من (تلبد الشىء) إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم (خسرت عليه كذا وكذا) إذا أنفق عليه . يتفضل على الناس بالتبذير والاسراف، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال « أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ » أى: أيحسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته، حين ينفق ماله فى السمعة والرياء والمباهاة لا على ما ينبغى فى مراضى الله ، وهى رذيلة على رزيلة ، فـكيف تـكون فضيلة ؟

---

(١) من كلمة قالها يرثى بها أرْبَدَ ، أخاه لأمه ، وأولها :

ما إنْ تُعرِّى المَنُونُ من أحَدٍ لا وَالدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلَدِ

انظر (رغبة الآمل) ج ٨ ص ١٦٧

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ)

[٩] (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ)

[١٠] (وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ)

[١١] (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ)

[١٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ)

[١٣] (فَكُّ رَقَبَةٍ)

[١٤] (أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ)

[١٥] (يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ)

[١٦] (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » قال القاشانىّ : أى ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التى يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليبصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به عللهم فى تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التى يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم . لأن الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة . فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما فى الفم ، والنطق أيضا . وقوله تعالى « وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ » أى طريقى الخير والشر . قال الإمام: النجد مشهور فى الطريق المرتفعة والمراد بهما طريقا الخير والشر . وإنما سماها نجدين ، ليشير إلى أن فى كل منهما وعورة وصعوبة

مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظَن ، وإلى أنهما واضحان جليان لايخفى واحدمنهما على سالك . أى أودعنا فى فطرته التميز بين الخير والشر . وأقمنا له من وجدانه وعقله أعلاما تدله عليهما . ثم وهبناه الاختيار . فإليه أن يختار أى الطريقين شاء . فالذى وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لايمكن للإنسان أن يفات من قدرته ، ولايجوز أن يخفى عليه شىء من سريرته . « فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ » أى فلم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و (الاقتحام) الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . و (العقبة) الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتى ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ » أى أى شىء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفى الاستفهام زيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة « فَكُّ رَقَبَةٍ » أى عتقها . أو المعاونة عليه . وتخليصها من الرق وأسر العبودية ، رجوعا به إلى ما فطرت عليه من الحرية « أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ » أى مجاعة « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ» أى قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حض على تقديم ذوى النسب والقربى المحتاجين ، على الأجانب فى الإفضال .

قال : وقد يمكن فى (مقربة) أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من (القُرْب) الذى هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرَتُهُ لصقت من شدة الجوع والضر . وهذا أشبه بقوله تعالى (ذَا مَتْرَبَةٍ) لأن كل ذلك مبالغة فى وصفه بالضر . وليس من المبالغة فى الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ »أى فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال (ترب) كأنه لصق بالتراب ، ويقال (فقر مدقع) و (فقير مدقع) بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهى التراب .

لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن (لا) من قوله (فَلَا) نافية . وإنما لم تكرر ، مع أن العرب لاتكاد تفردها ، كما جاء فى آية[1] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) .[2] (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) [٧٥ / القيامة / ٣١] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٨] .

يَحْزَنُونَ) استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن (لَا اقتحم) لما فسر بما بعده كان فى قوة (لا فك رقبة ولا أطعم مسكينا) وفى الآية أجوبة أخرى . منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفى أيضاً. فكأنها كررت . وقيل (لا) للدعاء . كقولهم (لا نجا ولا سلم) وقيل مخففة من (ألا) التى للتحضيض . وقيل : إنها للنفى فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن (لا) إذا دخلت على الماضى وجب تكرارها ، ولم تكرر فى الآية ، فذلك لا يلتفت إليه . لأن الكتاب نفسه حجة فى الفصاحة . وقد ورد فى كلامهم عدم تكرارها .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ)

[١٨] (أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ)

« ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بالحق الذى جاءهم . عطف على المنفىّ بـ (لا) وهو (اقتحم) أو على (فك) « وَتَوَاصَوْاْ » أى أوصى بعضهم بعضاً « بِٱلصَّبْرِ » أى على ما نابهم فى سبيل الدعوة إلى الحق « وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ » أى بالرحمة على بعضهم . كقوله(١) (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصدع به وعمل الصالحات « أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ » أى اليمين ، أو جهة اليمين التى فيها السعداء .

تنبيه :

قال القاشانىّ : يشير قوله تعالى (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ) الآيات ، إلى قهر النفس بتكلف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها، حتى يصير التطبع طبعا . ثم قال: فإن الإطعام، خصوصا وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذى هو وضع فى موضعه ، من باب فضيلة العفة

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

بل أفضل أنواعها ـ والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلميّ اليقينيّ ـ والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة ـ . وأخّره عن الإيمان ، لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و (المرحمة) أي التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة . فانظر كيف عدَّدَ أجناس الفضائل الأربع التي يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعفة التي هي أولى الفضائل . وعبر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذي هو السخاء . ثم أورد الإيمان الذي هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة (ثم) لبعد مرتبته عن الأولى في الارتفاع والعلوّ . وعبر عن الحكمة به لكونه أمّ سائر مراتبها وأنواعها . ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وأخر العدالة التي هي نهايتها ، واستغنى بذكر المرحمة ، التي هي صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها . كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾

[٢٠] ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التي بكل يرتقى إلى معرفة الصراط التي تجب الاستقامة عليه في الاعتقاد والعمل ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي الشؤم على أنفسهم ، أو جهة الشمال التي فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل اليمين ، في لسان الدين الإسلاميّ ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها . أجارنا الله بفضله وكرمه منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩١ — سورة الشمس

مكية ، وآيها خمس عشرة .

وقد تقدم حديث جابر الذى فى الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : هلّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائىّ فى: ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلشَّمْسِ وَضُحَـٰهَا)

[٢] (وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا)

[٣] (وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّـٰهَا)

[٤] (وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا)

[٥] (وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا)

[٦] (وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا)

[٧] (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا)

[٨] (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا)

« وَٱلشَّمْسِ وَضُحَـٰهَا » أى ضوئها إذا أشرقت . قال الراغب : (الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار، وبه سمى الوقت . وحقيقته ـ كما قال الشهاب ـ تباعد الشمس عن الأفق المرئىّ وبروزها للناظرين. ثم صار حقيقة فى وقته . وقال الإمام: يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم . ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية فى عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر نامياً، أو هل كنت تجد نفسك، لولا ضياء الشمس، جل مبدعه؟

« وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا » أى تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك فى الليالى البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربه مع الامتلاء . إذ يضىء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم فى الحقيقة بالضياء فى طور آخر من أطواره . وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

« وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا » أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه . لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وفي هذه الأقسام كلها ـ كما قاله الإمام ـ إشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، ولفت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وفي قوله (إِذَا جَلَّاهَا) بيان للحالة التي ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة . وهي حالة الصحو . أما يوم الغيم الذي لا تظهر فيه الشمس ، فحاله أشبه بحال الليل الذي يقسم به في قوله « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا » أي يغشي الشمس ويعرض دون ضوئها فيحجبه عن الأبصار . وذلك في ليالي الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله في الآية المتقدمة [1] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) على القول الأخير . قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة، عبر في جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلي الشمس دائماً من أوله إلى آخره . وذلك شأن له في ذاته . ولا ينفك عنه إلا لعارض . كالغيم أو الكسوف قليل العروض . ولهذا عبر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله، بدون إفادة أنه مما ينفك عنه .

« وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » أي ومن رفعها ، وصيّرها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحكمة المزينة المحيطة بنا . فـ (ما) موصولة بمعنى (من) أوثرت لإرادة الوصفية. أي والقادر الذي أبدع خلقها .

قالوا : وذكر (مَا بَنَاهَا) مع أن في ذكر (السَّمَاءِ) غنية عنه ، للدلالة على إيجادها وموجدها صراحة (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا » أي بسطها من كل جانب ، لافتراشها وازدراعها والضرب في أكنافها .

قال الإمام : وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين. أي بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه . « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا » أي خلقها فعدل خلقها

(١) [٨٩ / الفجر / ٢] .

ومزاجها ، وأعدها لقبول الـكمال « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا » أي أفهمها إياهما، وأشعرها بهما، بالإلقاء الملـكيّ والتمـكين من معرفتهما، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيولانيّ.

لطيفة :

جوز في (ما) كونها مصدرية في الـكل، ولا يضره خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفي لصحة الإضمار دلالة السياق. وهي موجودة هنا . وأن العطف على صلة (ما) لا عليها مع صلتها . فـكأنه قيل : ونفس وتسويتها ، فإلهامها الخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم في الوجه الأول توافق القرائن وهو أسدّ. وأما الثاني فوجه يتسع النظم الـكريم له . وأما تنكير (نفس) فللتكثير أو التعظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا)

[١٠] (وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)

[١١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ)

[١٢] (إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا)

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا » أي زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام. أو نمّاها بالعلم والعمل والوصول إلى الـكمال وبلوغ الفطرة الأولى «وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا» أي أخملها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله تعالى . هذا ما قاله ابن جرير[١]. وقال غيره: أي نقص تزكيتها وأخفى استعدادها وفطرتها التي خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من (دس الشيء في التراب) أي أدخله فيه وأخفاه. وأصل (دسّى) دسّسَ . كتقضّى البازي ، وجملة (قَدْ أَفْلَحَ) الخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قال القاضي : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذى هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظائم الإله ليحملهم على الاستغراق فى شكر نعمائه الذى هو منتهى كمالات القوة العملية .

وذهب الزمخشرىّ إلى أن هذه الجملة كلام تابع لقوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : ليُدَمْدِمَنّ الله عليهم . أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ . كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام. وقد دل عليه قوله تعالى « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا » أى بسبب طغيانها ومجاوزتها الحدّ فى الفجور . و(الطغوى) مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه، على حذف مضاف أو بدونه، مبالغة. كما يوصف بغيره من المصادر. أى كذبت بما أوعدت به من عذابها ذى الطغوى، كقوله (فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ) فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحدّ والزيادة من العذاب . والباء صلة (كذبت) . وقوله تعالى « إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا » ظرف لـ(كذبت) أو (طغوى) أى حين قام أشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسّها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا)

[١٤] (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا)

[١٥] (وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا)

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » يعنى صالحاً عليه السلام لقومه ـ « نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا » أى احذروا واتقوا ناقة الله التى جعلها آية بينة وشربها، الذى اختصه الله به فى يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر، غير يوم الناقة.

كما بينته آية الشعراء . قال[1] (هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها « فَكَذَّبُوهُ » أى فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها .

قال فى النهاية : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى استعمل فى القتل والهلاك . وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها . ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم « فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ » أى أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته، استهانة به واستخفافا بما بعث به . وقيل: دمدم أطبق عليهم العذاب. وقيل: الدمدمة حكاية صوت الهدة « فَسَوَّىٰهَا » أى فسوى الدمدمة عليهم جميعا ، فلم يفلت منهم أحد . بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود . أى جعلها عليهم سواء « وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا » أى لا يخشى تبعة إهلاكهم لأنه العزيز الذى لا يغالب .

قال الشهاب : أى لا يخاف عاقبتها كما يخاف الملوك عاقبة ما تفعله . فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير فى (يخاف) لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول ﷺ . أى أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل: الضمير للأشقى أى أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو الحال أو الاستئناف .

تنبيه :

قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين . ولهذا ، والله أعلم، ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة (وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا) لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ،

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ، ١٥٦] .

وإلى الفاجرة الضالة الغاوية . وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع . فقال[١] (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال[٢] (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) فهذا أمره ودينه . وثمود ، هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم .

---

(١) [٩١ / الشمس / ٨] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩] .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٢ - سورة الليل

مكية ، وآيها إحدى وعشرون . وقد تقدم قوله ﷺ لمعاذ[1] : هلّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائيّ في : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ)

[٢] (وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ)

[٣] (وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ)

[٤] (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ)

« وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ » أى يغشى الشمس أو النهار بظلمته ، فيذهب بذاك الضياء « وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ » أى ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين بطلوع الشمس .

قال الإمام : والتعبير فى الغشيان بالمضارع ، لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور الذى هو أكمل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما تجلى النهار فهو لازمله . لهذا عبر عنه بالماضى كما سبق بيانه « وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ » أى والقادر الذى خلق صنفى الذكر والأنثى من كل نوع له توالد . فـ (ما) موصولة بمعنى (من) أوثرت لإرادة الوصفية ، كما تقدم .

قال الإمام : وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان ، لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والإشارة إلى الإبداع فى الصنع . إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى ، فى الحيوان ، يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ، كما يزعم بعض الجاحدين . فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكرا وتارة أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع . انتهى .

وقوله « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ » جواب القسم. أو هو مقدر ، كما مر تفصيله . أى مختلف فى جزائه ، ومفرّق فى عاقبته . فمنه ما يسعد به الساعى ومنه ما يشقى به ، فشتان ما بينهما ، كما فصله بعد . و(شتى) إما جمع شتيت أو شت ، بمعنى متفرق ، والمصدر المضاف يفيد العموم. فيكون جمعاً معنى . ولذا أخبر عنه بـ (شتى) وهو جمع . وفيه وجه آخر وهو أنه مفرد مصدر مؤنث. كذكرى وبشرى . فهو بتقدير مضاف ، أو مؤوّل، أو بجعله عين الافتراق، مبالغة.

قال الرازىّ : ويقرب من هذه الآية قوله[1] (لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ) وقوله[2] (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ، لَّا يَسْتَوُۥنَ) وقوله[3] (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ)

[٦] (وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ)

[٧] (فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ)

[٨] (وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ)

[٩] (وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ)

[١٠] (فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ)

[١١] (وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ)

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ » تفصيل لتلك المساعى الشتى ، وتبيين لمآلها كما تقدم .

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٠] .
(٢) [٣٢ / السجدة / ١٨] .
(٣) [٤٥ / الجاثية / ٢١] .

قال الرازيّ : وفى « أَعْطَىٰ » وجهان :

أحدها ـ أن يكون المراد إنفاق المال فى جميع وجوه الخير من عتق الرقاب ، وفك الأسارى، وتقوية المسلمين على عدوّهم. كما كان يفعله أبو بكر، سواء كان ذلك واجباً أو نفلًا . وإطلاق هذا كالإطلاق فى قوله[1] (وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ) فإن المراد منه كل ما كان إنفاقاً فى سبيل الله، سواء كان واجباً أو نفلا. وقد مدح الله قوماً فقال[2] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وقال فى آخر هذه السورة[3] (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ) الآية .

وثانيهما ـ أن قوله (أَعْطَىٰ) يتناول إعطاء حقوق المال، وإعطاء حقوق النفس فى طاعة الله تعالى . يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة . انتهى .

إلا أن الأول هو المناسب للإعطاء . لأن المعروف فيه تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع فى مقابلة ذكر البخل والمال « وَٱتَّقَىٰ » أى ربه فاجتنب محارمه « وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ » أى بالمثوبة الحسنى . قال قتادة: أى صدق بموعود الله الحسن . وهو بمعنى قول مجاهد، إنها الجنة كما قال تعالى[4]: (وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا) فسمى مضاعفة الأجر (حسنى) وقال القاشانىّ : أى صدق بالفضيلة الحسنى التى هى مرتبة الكمال بالإيمان العلمىّ ، إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقى . «فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ» أى فسنهيئه ونوفقه للطريقة اليسرى ، التى هى السلوك فى طريق الحق ، لقوة يقينه .

قال الشهاب : ولما كانت مؤدية إلى اليسر ، وهو الأمر السهل الذى يستريح به الناس، وصفت بأنها يسرى ، على أنه استعارة مصرحة أو مجاز مرسل أو تجوّز فى الإسناد .

وأمَّا مَنْ بَخِلَ » أى بالنفقة فى سبيل الله ، ومنع ماوهب الله له من فضله من صرفه فى الوجوه التى أمر الله بصرفه فيها « وَٱسْتَغْنَىٰ » أى عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له

(١) [٢ / البقرة / ٣] .　　(٢) [٧٦ / الإنسان / ٨] .
(٣) [٩٢ / الليل / ١٧و١٨] .　　(٤) [٤٢ / الشورى / ٢٣] .

بطاعته بالزيادة فيما خوّله ، أو استغنى بماله عن كسب الفضيلة ، وعمه به عن الحق « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ » أي بوجود المثوبة للحسنى ، لمن آمن بالحق ، لاستغنائه بالحياة الدنيا واحتجابه بها عن عالم الآخرة . « فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ » أي للطريقة العسرى المؤدية إلى الشقاء الأبديّ.

قال الإمام : الخطة العسرى هي الخطة التي يحط فيها الإنسان من نفسه ، ويغض من حقها وينزل بها إلى حضيض البهيمية ، ويغمسها في أوحال الخطيئة . وهي أعسر الخطتين على الإنسان ، لأنه لا يجد معيناً عليها ؛ لا من فطرته ولا من الناس « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ » أي وما يفيده ماله الذي تعب في تحصيله ، وأفنى عمره في حفظه وبطر الحق لأجله ، إذا هلك ، من قولهم (تردى من الجبل وفي الهوة) وفي التعبير به إشارة إلى أنه بما قدمه من أعماله الخبيثة ، هو المهلك والموقع لنفسه . وهو الحافر على حتفه بظلفه و (ما) نافية أو استفهام في معنى الإنكار . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ)

[١٣] (وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ)

[١٤] (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ)

[١٥] (لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا الْأَشْقَى)

[١٦] (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٧] (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى)

[١٨] (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ)

[١٩] (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ)

[٢٠] (إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ)

[٢١] (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ)

إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ » استئناف مقرر لماقبله . أى علينا بموجب قضائنا المبنىّ على الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للإصلاح فى الأرض ، أن نبين لهم طريق الهدى ليجتنبوا مواقع الردى . وقد فعل سبحانه ذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والتمكين من الاستدلال والاستبصار ، بخلق العقل وهبة الاختيار .

« وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ » أى ملكا وخلقاً . فلايضرنا توليكم عن الهدى . وذلك لغناه تعالى المطلق ، وتفرده بملك ما فى الدارين ، وكونه فى قبضة تصرفه . لايحول بينه وبينه أحد ، ولا يحصله أحد، حتى يضر عدم اهتدائه أو ينفع اهتداؤه . وفيه إشارة إلى تناهى عظمته وتكامل قهره وجبروته . وإن من كان كذلك ، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته . ولذا رتب عليه قوله « فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ » أى تتلظى وتتوهج . وهى نار الآخرة « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ » أى بالحق الذى جاءه « وَتَوَلَّىٰ » أى عن آيات ربه وبراهينها التى وضح أمرها وبهر نورها ، عناداً وكفراً « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ » أى ينفق ماله فى سبيل الخير ، يتزكى عن رجس البخل ودانس الإمساك « وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ » أى من يد يكافئه عليها . أى لا يؤتيه للمكافأة والمعاوضة « إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ » أى لكن يؤتيه ابتغاء وجه ربه وطلب مرضاته . لالغرض آخر من مكافأة أو محمدة أو سمعة . وفى حصر (الأتقى) بالمنفق، على الشريطة المذكورة ، عناية عظيمة به ، وترغيب شديد فى اللحاق به، كيف لا ؟ وبالمال قوام الأعمال، ورفع مبانى الرشاد وهدم صروح الفساد . وقوله تعالى: « وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » قال ابن جرير[1] : أى ولسوف يرضى هذا المؤتى ماله فى حقوق الله عز وجل ، يتزكى بما يثيبه الله فى الآخرة عوضا مما أتى فى الدنيا فى سبيله إذا لقى ربه تبارك وتعالى . ففيه وعد كريم بنيل جميع مايبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا . وهذا على، إن ضمير (يرضى) لـ (للأتقى) لا للرب . قال الشهاب : وهو الأنسب بالسياق واتساق الضمائر .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

وذهب بعضهم إلى الثانى ، ومنهم الإمام، قال : أى ولسوف يرضى الله عن ذلك الأتق. الطالب بصفةرضاه (ثم قال) : والتعبير بـ(سوف) لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهىّ .

تنبيه :

قال ابن كثير: ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها. فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى[1] (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى*ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ* وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة. فإنه كان صدّيقاً تقيًّا كريما جواداً بذّالا لأمواله فى طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ . فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم. ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها. ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود ، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله! لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ وفى الصحيحين[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة: ياعبدالله هذا خير. فقال أبو بكر: يارسول الله! ماعلى من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . انتهى .

---

(١) [٩٢ / الليل / ١٧ـ١٩] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٣٠ ـ كتاب الصوم ، ٤ ـ باب الريان للصائمين ، حديث رقم ٩٦٣ ، عن أبى هريرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٣ - سورة الضحى

مكية وآيها إحدى عشرة .

لطيفة :

قال ابن كثير : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد. فلما بلغت (والضحى) قال لي : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة. فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب فأمره بذلك. وأخبره أُبيّ أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي ، من ولد القاسم بن أبي بزة . وكان إماماً في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازيّ وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيليّ ، قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشاطبية) عن الشافعيّ أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر (والليل إذا يغشى) . وقال آخرون: من آخر (والضحى) وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول (الله أكبر) ويقتصر، ومنهم من يقول (الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر) وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى، أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ، وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك فأوحى إليه (وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . فالله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾

[٢] ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾

[٣] ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

[٤] ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾

[٥] ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾

« وَالضُّحَىٰ » تقدم في سورة ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً «وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ» أي اشتد ظلامه. وأصله من التسجية وهي التغطية، لستره بظلمته . كما في آية(1) ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ » جواب القسم . أي : ما تركك وما قطعك قطع المودّع .

قال الشهاب في (العناية) : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا . وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى . فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزّ مفارقته . كما قال المتنبي:

حشاشةُ نفس وَدَّعت يوم وَدَّعوا   فلم أَدْرِ أيَّ الظاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

وقال في (شرح الشفاء) : الوداع له معنيان في اللغـة : الترك وتشييع المسافر . فإن فسر بالثاني هنا على طريق الاستعارة ، يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلاً . فإنه معه أينما كان. وإنما الترك ، لو تصور في جانبه ، ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع. فالتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده . وإليه أشار الأرجاني بقوله :

(1) [٧٨ / النبأ / ١٠] .

إذا رأيت الوداعَ فاصبرْ ولا يُهمنَّك البعادُ
وانتظر العَوْدَ عن قريبٍ فإن قلب الوداع (عَادُوا)

فقوله (وَمَا قَلَىٰ) مؤكد له . (قال) : وهذا، لم أر من ذكره مع غاية لطفه . وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه . فيقتضى الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة فى النفى لا فى المنفىّ فتركه لحكم عليه ، لا لضرره بهجره . أو لنفى القيد والمقيد . وقرئ (مَا وَدَعَكَ) بالتخفيف . وورد فى الحديث[1] شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه . وورد فى الشعر ، كقوله[2] :

فَكَانَ مَا قدّموا لأنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نفعاً من الذى وَدَعُوا

ولهذا قال فى (المصباح) بهذا : اعلم أن قولهم ، فى علم التصريف ، أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ . وجعله استعارة من الوديعة تعسّف . انتهى .

وكذا قال فى (المستوفى) : أنه كله ورد فى كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وإن كان نادر . انتهى .

وقوله تعالى «وَمَا قَلَىٰ» أى: وما أبغضك . والقالى : المبغض . يعنى ما هجرك عن بغض . قال الشهاب : وحذف مفعول (قلى) اختصاراً للعلم به، وليجرى على نهج الفواصل التى بعده ، أو لئلا يخاطبه بما يدل على البغض .

تنبيه :

روى ابن جرير[3] عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٤٨ ـ باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ، حديث رقم ٢٣٣٠ ، عن عائشة .

(٢) أنشده فى اللسان (مجلد ٨ ص ٣٨٤) الطبعة البيروتية .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فمُيِّر بذلك . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله هذه الآية،وفى رواية : إن قائل ذلك امرأة أبى لهب ، وفى أخرى أنها خديجة رضى الله عنها . ولا تنافى، لاحتمال صدوره من الجميع . إلا أن قول المشركين وقول خديجة ـ إن صح ـ توجع وتحزن ـ وفى رواية إسمعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحى حتى شق ذلك على النبىّ ﷺ وأحزنه . فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبى قلانى . فجاء جبريل بسورة والضحى « وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ » قال ابن جرير[1]: أى وللدار الآخرة ، وما أعدالله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا ومافيها. يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذى لك عندالله خير لك منها . وقال القاضى : أو : لَنِهَايَةُ أمرك خير من بدايته . فإنه ﷺ لايزال يتصاعد فى الرفعة والكمال« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ » أى يعطيك من فواضل نعمه فى العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدَةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفشوّ دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخر له من الكرامات التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملة ، فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين ، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهـذا غاية الإحسان والإكرام .

تنبيه :

قال فى (المواهب اللدنية) : وأما ما يغترّ به الجهال من أنه لا يرضى واحدا من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم . فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة . وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراة تغريراً للجهال وتزيينا لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ)

[٧] (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ)

[٨] (وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ)

[٩] (فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[١٠] (وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[١١] (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَـَٔاوَىٰ » قال أبو السعود : تمديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت ، من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود . فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفىّ على أبلغ وجه. كأنه قيل: قد وجدك الخ . والوجود بمعنى العلم .

روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر . وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطّفه الله عليه فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه « وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ » أى غافلًا عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما فى آية(١) (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ) .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من (ضل فى طريقه) إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب « وَوَجَدَكَ عَآئِلًا » أى فقيراً « فَأَغْنَىٰ » أى فأغناك بمال خديجة الذى وهبته إياه . أو بما حصل لك من ربح التجارة « فَأَمَّا

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » فلا تغلبه على ماله فتذهب بحقه، استعطافاً منك له « وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » قال ابن جرير(١) : أى وأما من سألك من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته . أى لأن للسائل حقا، كما قال تعالى(٢) (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

وقد ذهب الحسن ـ فيما نقله الرازى ـ إلى أن المراد من السائل من يسأل العلم. فيكون فى مقابلة قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) وهكذا قال ابن كثير: أى وكما كنت ضالا فهداك الله، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال الإمام: ويؤيد هذا المعنى ماورد فى أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان مايشتبه عليهم. فمنهم أهل الكتاب المهارون . ومنهم الأعراب الجفاة . ومنهم من كان يسأل عما لا يسأل عنه الأنبياء . فلا غرو أن يأمره الله تعالى بالرفق بهم ، وينهاه عن نهرهم ، كما عاتبه على التولى عن الأعمى السائل ، فى سورة عبس . انتهى .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » أى بشكرها وإظهار آثارها ، فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر المحاويج عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها. وفى الآية تنبيه على أدب عظيم . وهو التصدى للتحدث بالنعمة وإشهارها، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذى رائده كتم النعمة والتمسكن والشكوى .

قال الإمام: من عادة البخلاء أن يكتموا مالهم، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل. فلا تجدهم إلا شاكين من القل. أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين. فهذا هو قوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى إنك

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .
(٢) [٧٠ / المعارج / ٢٤و٢٥] .

لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع فى البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفجفجة التى يتنزه عنها النبىّ ﷺ . ولم يعرف عنه فى امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض . ولكن الذى عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً . وقد يقال : إن المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ عَآئِلًا) فتكون النعمة بمعنى الغنى . ولو كانت بمعنى النبوة ، لكانت مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا) وقد علمت الحق فى مقابله . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٤ - الشرح

مكية . وقيل : مدنية ، وهو الأقوى عندي . فإن استقرار هذه النعم المعدودة فيها ، إنما كان بالمدينة المنورة ، كما لا يخفى . وآيها ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[٢] (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ)

[٣] (الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ)

[٤] (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » أى : ألم نوسعه بإلقاء مايسره ويقويه ، وإظهار ماخفى عليه من الحكم والأحكام ، وتأييده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم وصار مستقرّ الحكمة ووعاء حقائق الأنباء ، والهمزة لإنكار النفى . ونفى النفى إثبات . ولذا عطف المثبت عليه . وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه ، وما خفى منه . استعمل فى القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده . فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيعاً . وذلك لأنه بالإلهام ونحوه ، مما ينفس كربه ويزيل همه ، بظهور ما كان غائباً عنه وخفياً عليه ، مما فيه مسرته. كما يقال (شرح الكتاب) إذا وضحه. ثم استعمل فى الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه . لأن اتساع الشىء يتبعه اتساع ظرفه. ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً . ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً . وهو من المجاز المتفرع على الكناية بوسائط ، وبعد الشيوع زال الخفاء وارتفعت الوسائط ـ هذا ماحققه الشهاب. «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ» قال الشهاب : الوزر الحمل الثقيل . ووضعه: إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ (على) كان بمعنى التحميل . وإذا تعدى بـ (عن) كان بمعنى الإزالة . والإنقاض: حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر. وقيل: صوت الجمل أو الرحل

أو المركوب إذا ثقل عليه . فالإنقاض، التثقيل في الحمل حتى يسمع له نقيض، أي صوت، كما قاله الأزهريّ .

وقال ابن عرفة: هو إثقال يجعل ما حمل عليه نقضا . أي مهزولًا ضعيفاً. وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه ، مما كان يثقل عليه ويغمه من قلة المستجيبين لدعوته، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال في جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضعه عنه هو كثرة من آمن بعدُ ، ودخولهم في دين الله أفواجاً ، وقوة أتباعه وانمحاء الشرك والجاهلية من الجزيرة، وذل أهلها بعد العز، وانقيادهم بعد شدة الإباء. وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله[1] (لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ).

والوجه الأول أقوى ، وفي الآية ، على كلٍّ ، استعارة تمثيلية . والوضع ترشيح لها «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» أي بالنبوة وفرض الاعتراف برسالته وجعله شرطاً في قبول الإيمان وصحته. وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة. فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد: أي لا أذكر إلا ذكرت معي. قال الشهاب وهذا ـ أي المأثور عن مجاهد ـ إن أخذ كلية خالف الواقع . فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عين موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح . وإن جعلت القضية مهملة ، فلا يخفى ما في الإهمال من الركاكة .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلج الصدر ، ويردّ السائل غير صفر ، حتى لاح لي أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذكر في مجامع العبادة ومشاهدها. فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره فيها في الواقع في الصلوات والخطب. فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام

(١) [٤٨/ الفتح / ٢] .

إلا وهو كذلك. فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى فى يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالى بل ولا فى وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه الـكاية. فإن قلت: من أين لك هذا التقييد، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح ؟ قلت : المقام ناطق بهذا القيد. فإن المراد التنويه بذكره ﷺ وإشاعة قدره، الدال على قربه ﷺ من ربه، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره فى المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد. وأى إشاعة أقوى من الأذان؟ لا فى الأسواق والطرق التى يطرح فيها كل ذكر .

ثم قال : واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعىّ فى أول (رسالته الجديدة) وبينه السبكىّ فى تعليقة على الرسالة فقال رحمه الله تعالى :

قال الإمام رضى الله تعالى عنه عن مجاهد فى تفسير الآية : لا أذكر إلا ذكرت معى : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله. وأشهد أن محمدا رسول الله. قال الشافعىّ: يعنى ذكره عند الإيمان بالله والأذان ، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

قال السبكىّ : هذا الاحتمال من الشافعىّ جيد جدًّا . وهو مبنى على أن المراد بالذكر ، الذكر بالقلب ، وهو صحيح . فعلى هـذا يعم . لأن الفاعل للطاعة أو الـكافّ عن المعصية امتثالًا لأمر الله تعالى به ، ذاكرٌ للنبىّ ﷺ بقلبه ، لأنه المبلغ لها ، عن الله . وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والتشهد والخطبة ونحوها . قال الشافعىّ : فلم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت ولا بطنت ، نلنا بها حظًّا فى دين أو دنيا . أو رفع عنا بها مكروه فيهما أو فى واحد منهما ، إلا ومحمد ﷺ سببها . فعلم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره ، حمل الذكر على الذكر القلبىّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة ، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله ، تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته ، وهو رسول الله ﷺ ، كما قيل :

فأنت باب الله . أىّ امرئ   أتاه من غيرك لا يدخل ؟

ولك أن تقول: المراد برفع ذكره تشريفه ﷺ ، بمقارنته لذكره فى شعائر الدين الظاهرة، وأولها كلمتا الشهادة، وهما أساس الدين ثم الأذان والصلاة والخطب. فالحصر إضافىّ . انتهى كلام الشهاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا)

[٦] (إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا)

[٧] (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ)

[٨] (وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب)

« فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا» إشارة إلى أن الذى منحه، صلوات الله عليه، من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب فى أول السير، كان على ما جرت به سنته تعالى فى هذا النوع من الخليقة . وهو أن مع العسر يسراً . ولهذا وصل العبارة بالفاء التى لبيان السبب. (وأل) فى (العسر) للاستغراق ولكنه استغراق بالمعهود عند المخاطبين من أفراده أو أنواعه . فهو العسر الذى يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدوّ ، وقلة الوسائل إلى المطلوب . ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعدّ لذلك فى معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لاتضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الأولى ، فلا ريب فى أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبىّ ﷺ . فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك، وهو الوحى والنبوة . ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئاً من عزمه. بل مازال يلتمس

الغنى فى الفقر، والقوة فى الضعف، حتى أوتى من ذلك مازعزع أركان الأكاسرة والقياصرة، وترك منه لأمته ما تمتعت به أعصاراً طوالًا . أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تنكير (يسراً) للتعظيم . والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفى كلمة (مع) إشعار بغاية سرعة مجئ اليسر، كأنه مقارن للعسر. فهو استعارة، شبه التقارب بالتقارن، فاستعير لفظ (مع) لمعنى (بعد) . وقوله تعالى « إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا » تكرير للتأكيد، أو عِدَةٌ مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة . وعليه أثر[(١)] : (لن يغلب عسر يسرين) فإن المعرّف إذا أعيد يكون الثانى عين الأول، سواء كان معهودا أو جنساً. وأما المنكّر فيحتمل أن يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالأول « فَإِذَا فَرَغْتَ » أى من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمتك « فَٱنصَبْ » أى خذ فى عمل آخر واتعب فيه . فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام « وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب » أى فى الدعوة إليه . أى لاترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشانىّ .

وقال ابن جرير[(٢)]: اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه . إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم فى حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد ، والأظهر عندى ، اعتماداً على ماصححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل ـ أن يكون معنى قوله تعالى

(١) هذا الأثر أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى: ٢١ـ كتاب الجهاد، حديث ٦ (طبعتنا) ونصه : عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم . فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة ، يجعل الله بعده فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ... الخ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ) أى فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ، بمجىء نصر الله والفتح ، فانصب فى العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ، وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته . فتكون الآيتان بمعنى سورة (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ) ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثرناه جميعه . إلا أن السياق والنظائر ـ وهو أهم ما يرجع إليه ـ يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٥ — سورة التين

مكية ، ويقال : مدنية . وأيد الأول بقوله (وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ) وآيها ثمان . روى عن البراء بن عازب[٢] أن النبيّ ﷺ كان يقرأ فى سفره فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون . فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٢ ـ باب قول النبيّ ﷺ « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وزينوا القرآن بأصواتكم » ، حديث رقم ٤٦٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ)

[٢] (وَطُورِ سِينِينَ)

[٣] (وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ)

اعلم أن المفسرين لم يختلفوا فى أن البلد الأمين مكة المشرفة ، الآمن أهلها أن يحاربوا . كما قال تعالى[١] (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وأما المقسمات بها قَبْلُ ، ففيها أقوال للسلف لاحتمال موادها لكل منها . فعن مجاهد والحسن وغيرهما أن (التين) الذى يؤكل و (الزيتون) الذى يعصر . قالوا : وخصهما لكثرة فوائدهما وعظم منافعهما . وعن قتادة (التين) الجبل الذى عليه دمشق و(الزيتون) الذى عليه بيت المقدس . وعن كعب وابن زيد : (التين) مسجد دمشق و(الزيتون) بيت المقدس وعن ابن عباس : (التين) مسجد نوح الذى بنى على الجوديّ و (الزيتون) بيت المقدس . فظهر أنهما الشجران المعلومان أو جبلان أو مسجدان . وصوب ابن جرير الأول منها ، وعبارته [٢] : والصواب من القول فى ذلك عندنا ، قول من قال (التّين) هو التين الذى يؤكل و(ٱلزَّيْتُونِ) هو الزيتون الذى يعصر منه الزيت . لأن ذلك هو المعروف عند العرب . ولا يعرف جبل يسمى تيناً ولا جبل يقال له زيتون ، إلا أن يقول قائل : أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون ، والمراد من الكلام ، القسم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة فى ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوِّز خلافه ، لأن دمشق بها منابت

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

التين ، وبيت المقدس منابت الزيتون. انتهى كلامه . وفيه نظر، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . كيف وجبل الزيتون هو من جبال فلسطين ، معروف ذلك عند علماء أهل الكتاب والمؤلفين فى تقويم البلاد .

قال صاحب (الذخيرة) فى تعداد جبال فلسطين : ويتصل بجبال إسرائيل جبل الزيتون. قال: وقد دعى كذلك لكثرة الزيتون فيه، وهو قريب المسافة من أورشليم، وفيه صعد المسيح لكى يرتفع إلى السماء . انتهى .

ويسمى أيضا طور زيتا إلى الآن . على أن فيما صوبه ابن جرير، تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما فى نسق واحد ـ غير مفهومة. كما قاله الإمام. فالأرجح أنهما موضعان أو موضع واحد معظم ، ويكون المقسم به ثلاثة مواضع مقدسة .

قال ابن كثير: وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبيًّا مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذى بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران .

والثالث: مكة وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمناً، وهو الذى أرسل فيه محمد ﷺ . وفى التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء : يعنى الذى كلم الله عليه موسى . وأشرق من ساعير : يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله عنه عيسى . واستعلن من جبال فاران : يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمدا ﷺ . فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودىّ بحسب ترتيبهم فى الزمان . ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما. انتهى كلام ابن كثير .

ومراده ببعض الأئمة، شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان. فإنه ذكر ذلك فى كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ونحن ننقلها زيادة فى إيضاح المقام، واهتماماً بتحقيقه.

قال رحمه الله (فصل شهادة الكتب المتقدمة بنبوته ﷺ) : وذلك مثل قوله في التوراة ماقد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء . وبعضهم يقول في الترجمة : تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران . قال كثير من العلماء (واللفظ لأبي محمد بن قتيبة) : ليس بهذا خفاء على من تدبره . ولا غموض . لأن مجيء الله من طور سيناء ، إنزاله التوراة على موسى بطور سيناء . كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا . وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير ، إنزاله على المسيح الإنجيل . وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها تسمى من اتبعه نصارى . وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران، إنزاله القرآن على محمد ﷺ في جبال فاران . وهي جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة . فإن ادعوا أنها غير مكة ـ وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم ـ قلنا أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران ، والنبيّ الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما : ظهر وانكشف . فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوّه ؟؟

وقال أبو هاشم بن طفر : ساعير جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح عليه السلام . قلت : وبجانب بيت لحم ـ القرية التي ولد فيها المسيح ـ قرية تسمى إلى اليوم ساعير . ولها جبال تسمى جبال ساعير ، وعلى هذا فيكون ذكر الثلاثة الجبال : جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ، وفيه كان أول نزول الوحي على النبيّ ﷺ ، وحوله من الجبال جبال كثيرة. وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم . وفيه كان ابتداء نزول القرآن. والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران . ولا يمكن أحدا أن يدعى أنه بعد المسيح، نزل كتاب

فى شىء من تلك الأرض ، ولا بعث نبىّ . فعلم أن ليس المراد باستعلانه من جبال فاران، إلا إرسال محمد ﷺ . وهو سبحانه ذكر هـــذا فى التوراة على الترتيب الزمانىّ . فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن . وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال فى الأول : جاء أو ظهر . وفى الثانى : أشرق . وفى الثالث : استعلن. وكان مجئ التوراة مثل طلوع الفجر أو ماهو أظهر من ذلك . ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى. وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس فى السماء. ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران . فإن محمدا ﷺ ظهر به نور الله وهداه فى شرق الأرض وغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت فى مشارق الأرض ومغاربها. ولهذا سماه الله سراجاً منيراً . وسمى الشمس سراجاً وهاجاً . والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج. فإن الوهاج يحتاجون إليه فى وقت دون وقت. بل قد يتضررون به بعض الأوقات . وأما السراج المنير فيحتاجون إليه فى كل وقت، وكل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سرًّا وعلانية . وقد قال ﷺ[(١)] : زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها . وهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم الله بها فى القرآن فى قوله (وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ) فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل . وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذى كلم الله موسى وناداه فيه، من واديه الأيمن، فى البقعة المباركة من الشجرة ـ وأقسم بهـذا البلد الأمين وهو مكة الذى أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل ، وأمه هاجر فيه. وهو الذى[(٢)] جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله. وجعله آمناً خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم ١٩ (طبعتنا) عن ثوبان .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة رقم ٦٧ من سورة العنكبوت .

ثم قال (ابن تيمية) : فقوله تعالى (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة . التى ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . كما ذكر الثلاثة فى التوراة بقوله : جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران .

ولما كان مافى التوراة خبرا عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزمانىّ ، فقدم الأسبق فالأسبق. وأما فى القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها . وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله . فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة . نختمها بأعلى الدرجات . فأقسم أولا بالتين والزيتون ، ثم بطور سينين ، ثم بمكة . لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل . وكذلك الأنبياء ، فأقسم بها على وجه التدريج كما فى قوله(1) (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة . فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً ، وقد قيل إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة فى قوله(2) (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) فسماها جوارى كما سمى الفلك جوارى فى قوله(3) (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) والكواكب فوق السحاب ثم قال(4) (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) وهى الملائكة التى هى أعلى درجة من هذا كله .

واستظهر بعض المعاصرين أن قوله تعالى (وَالتِّينِ) يعنى به شجرة (بوذا) مؤسس الديانة البوذية ، التى تحرفت كثيراً عن أصلها الحقيقىّ . لأن تعاليم بوذا لم تكتب فى زمنه. وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية . ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها .

ثم قال : والراجح عندنا ، بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية ، أنه كان نبيًّا صادقاً

---

(1) [٥١ / الذاريات / ١ـ٤]. (2) [٨١ / التكوير / ١٥و١٦] .

(3) [٤٢ / الشورى / ٣٢] . (4) [٥١ / الذاريات / ٤] .

ويسمى (سكياموتى)أو (جوناما) وكان فى أول أمره يأوى إلى شجرة تين عظيمة وتحتها نزل عليه الوحى . وأرسله الله رسولًا . فجاءه الشيطان ليفتنه هناك فلم ينجح معه . ولهذه الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين ، وتسمى عندهم (التينة المقدسة) وبلغتهم (أجاپالا) .

قال : ففى هذه الآية ذكر الله تعالى أعظم أديان البشر الأربعة الموحاة منه تعالى لهدايتهم ونفعهم فى دينهم ودنياهم . فالقسم فيها كالتمهيد لقوله بعده (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) إلى آخر السورة .

قال : ولا يزال أهل الأديان الأربعة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاهم . والترتيب فى ذكرها فى الآية ، هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى . فبدأ تعالى بالقسم بالبوذية لأنها أقل درجة فى الصحة وأشد الأديان تحريفاً عن أصلها . كما يبدأ الإنسان بالقسم بالشىء الصغير ، ثم يرتقى للتأكيد إلى ما هو أعلى . ثم النصرانية وهى أقل من البوذية تحريفاً . ثم اليهودية وهى أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهى أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل . بل إن أصولها ، الكتاب والسنة العملية المتواترة ، لم يقع فيها تحريف مطلقاً . ومن محاسن هذه الآية الشريفة غير ذلك ، ذكر دينى الفضل (البوذية والمسيحية) أولًا ثم دينى العدل (اليهودية والإسلامية) ثانيا للإشارة إلى الحكمة بتربية الفضل والمسامحة مع الناس أولًا . ثم تربية الشدة والعدل . وكذلك بدأ الإسلام باللين والعفو ثم بالشدة والعقاب . ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينهما . وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينيهما . فلذا جمع الأولان معاً والآخران كذلك . وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى . كما قدم الموسوية على المحمدية لهذا السبب بعينه . ومن محاسن الآية أيضا الرمز والإشارة إلى دينى الرحمة بالفاكهة والثمرة ، وإلى دينى العدل بالجبل والبلدة الجبلية (مكة) وهى البلد الأمين . ومن التناسب البديع بين ألفاظ الآية أن التين والزيتون ينبتان كثيراً فى أودية الجبال ، كما فى جبل الزيتون بالشام وطور سيناء ، وهما مشهوران بها .

فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحى ، وأكرم أماكن التجلّى الإلٰهىّ على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم فى أحسن تقويم . انتهى بحروفه . والله أعلم .

لطيفة :

لم ينصرف (سينين) كما لا ينصرف (سيناء) لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض . فهو علم أعجمىّ . ولو جعل اسماً للمكان أو المنزل ، أو اسماً لمذكر لانصرف ، لأنك سميت به مذكراً . وقرأ العامة (سينين) بكسر السين . وقرأ بعض السلف بفتحها . وآخرون (سيناء) بالكسر والفتح ممدوداً . قال السمين : وهذه لغات اختلفت فى هذا الاسم السريانىّ ، على عادة العرب فى تلاعبها بالأسماء الأعجمية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[٥] (ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ)

[٦] (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

[٧] (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ)

[٨] (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ)

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » أى فى أحسن تعديل خلقاً ، وشكلاً ، صورة ومعنى . قال الشهاب : الظرف فى موضع الحال من الإنسان . والتقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوام أو المقوم ، أو فيه مضاف مقدر . أى قوام أحسن تقويم ، أو (فى) زائدة والتقدير : قومناه أحسن تقويم .

« ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ » أى جعلناه أسفل من سفل ، وهم أصحاب النار ، لعدم جريانه

على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، و (رد) بمعنى جعل التي تنصب مفعولين . قال الشهاب : و(السافلين) العصاة وغيرهم ، وأسفل سافل للمتعدد المتفاوت . و (ثم) للتراخي الزماني أوهو رتبي ، وجوز نصب (أسفل) بنزع الخافض صفة لمحذوف . أي إلى مكان أسفل سافلين . أي محل النار . أو النار بمعنى جهنم . وهذا ماقاله مجاهد حيث قال : (في النار) وفي رواية (إلى النار) والسافلين ، على هذا ، الأمكنة السافلة. وهي دركاتها . وجمعها للعقلاء للفاصلة ، أو للتنزيل منزلة العقلاء . كذا قالوا . ولو أريد بهم أهل النار والدركات ، لأنهم أسفل السفل كالأول ، لكان أولى .

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أي غير مقطوع أو غير منقوص أو غير محسوب أوغير ممنون به عليهم . والاستثناء متصل من ضمير (رددناه) فإنه في معنى الجمع ؛ لأن المكني عنه وهو الإنسان ، في معنى الجنس .

هذا ، وقد اعتمد ابن جرير في تأويل الآية ، ماروي عن ابن عباس من أن المعنى (ثم رددناه إلى أرذل العمر . وأن من كان يعمل بطاعة الله في شبيبته كلها ، ثم كبر حتى ذهب عقله، كتب له مثل عمله الصالح الذي كان يعمل في شبيبته ، ولم يؤاخذ بشيء مما عمل في كبره وذهاب عقله، من أجل أنه مؤمن وكان يطيع الله في شبيبته) .

وعبارة ابن جرير[1] : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة، وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال معناه : ثم رددناه أي إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخرفي الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو في أسفل من سفل في إدبار العمر، وذهاب العقل . (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) في حال صحتهم وشبابهم (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) بعد هرمهم ، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم ، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل .

---

(١) انظر الصفحه رقم ٢٤٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال : وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب فى ذلك ، لأن الله تعالى ذكرُه أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه فى الأحوال ، احتجاجاً بذلك على منكرى قدرته على البعث بعد الموت . ألا ترى أنه يقول (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) يعنى بعد هذه الحجج . ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعانى بما كانوا له منكرين. وإنما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على دفعه مما يعاينونه ويحسونه، أو يقرون به وإن لم يكونوا له محسين. وإذ كان ذلك كذلك ، وكان القوم ، للنار التى كان الله يتوعدهم بها فى الآخرة منكرين ، وكانوا أهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين ، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين من تصريفه خلقه ونقله إياهم من حال التقويم الحسن ، والشباب والجلد إلى الهرم والضعف وفناء العمر وحدوث الخرف . انتهى كلامه .

وعليه فيكون الاستثناء منقطعاً ، استدراكًا لدفع مايتوهم من أن التساوى فى أرذل العمر يقتضى التساوى فى غيره ، ويكون (الذين) حينئذ مبتدأ ، والفاء داخلة فى خبره . وأما على الوجه الأول ، فالفاء للتفريع ، ومدخولها جملة مترتبة عليه ، ومؤكدة له . وقوله تعالى :

«فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ» خطاب للإنسان على طريق الالتفات، لتشديد التوبيخ والتبكيت ، أى فما يحملك على التكذيب بالدين ، أى الجزاء بعد البعث ، وإنكاره بعد هذه الدلائل . والمعنى: إن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشرا سويًّا، وتحويله من حال إلى حال، كمالًا ونقصانًا، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فأى شىء تضطرك إلى التكذيب به ؟ وجوز أن يكون الخطاب للنبىّ ﷺ ومعنى (يُكَذِّبُكَ) إما ينسبك إلى الكذب (كفسقته إذا قلت له إنه فاسق) والباء فى (بالدين) بمعنى (فى) أى يكذبك فى إخبارك به . أو سببية أى بسبب إخبارك به وإثباته . أو المعنى ما يجعلك مكذباً بالدين . على أن الباء صلته .وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذبين، والمعنى إنه لا يكذبك شىء ما بعد هذا البيان بالدين .لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله ولا يرفعون لها رأساً .والاستفهام للإنكار والتعجب .

واستصوب ابن جرير[1] قول من قال (ما) بمعنى (من) أى فمن يكذبك يا محمد بعد الذى جاءك من هذا البيان من الله بالدين .

قال الشهاب : (فما) استفهام عمن يعقل ، وفيه نظر ، لأنه خلاف المعروف ، فلا يرتكب مع صحة بقائها على أصلها ، كما بيناه لك . والداعى لارتكاب هذا ، أن المعنى عليه أظهر إذا كان المخاطب النبيّ ﷺ فإنه إنكار توبيخيّ المكذبين له ﷺ ، بعد ما ظهر لهم من دلائل صدقه وصحة مدعاه « أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ » أى بأحكم من حكم فى أحكامه . قال أبو السعود : أى أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . فالجملة تقرير لما قبلها . وقيل : الحكم بمعنى القضاء ، فهى وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . و (أحكم) من الحكم أو الحكمة . قيل : والثانى أظهر . وكان النبيّ ﷺ إذا قرأها قال : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . أرسله قتادة ، ورفعه أبو هريرة إلى النبيّ ﷺ .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٦ – سورة العلق

سورة العلق . وهى مكية بالإجماع . وصدرها أول آية نزلت من القرآن ، كما صحت بذلك الأخبار . وأما أول سورة نزلت كاملة فهى الفاتحة . ويروى فى الأوائل غيرها . ولا منافاة . لأن الأولية حقيقية ونسبية . روى الشيخان[1] وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد . ويتزوّد لذلك . ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال (اقْرَأْ) قال : ما أنا بقارئ . قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ) فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ) ، فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٣ ـ باب حدثنا يحي بن بكير ، حديث رقم ٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعتنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[٢] (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

[٣] (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[٤] (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

[٥] (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » أى اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى . أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية ، والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية ، بإنزال الوحى المتواتر . ووصف الرب بقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ) لتذكير أول النعماء الفائضة عليه ﷺ منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر الكمالات ، قادر على تعليم القراءة للحىّ العالم المتكلم ــ أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شىء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التى قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكوينىّ . فإن النبىّ ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً . ولذلك كرر القول مراراً : ما أنا بقارئ . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهىّ بأن يكون قارئاً وإن لم يكن

كاتباً . فإنه سينزل عليه كتاب يقرؤه . وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذى خلق ، أى الذى أوجد الكائنات التى لا يحيط بها الوصف ، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها . لأنك لم تكن تدرى ما الكتاب . فكأنّ الله يقول : كن قارئاً بقدرتى وبإرادتى . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق فى (سورة سبح) دال على ما تعرف به الذات ، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً . لأن القراءة علم فى نفس حية . فهى تخطر ببالك من الله وجودَه وعلمه وقدرته وإرادته . أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله ، وهو خلاف المتبادر ، فيكون معنى ذلك : إذا قرأت فاقرأ دائماً على أن تكون قراءتك عملا تنفذه لله لا لغيره فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله . وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير فى بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله فى ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد « خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ » أى دم جامد . وهى حالة الجنين فى الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيما لشأنه . إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة ، وإنما قال (علق) دون (علقة) كما فى الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن (الإنسان) مراد به الجنس . فهو فى معنى الجمع . فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر ، من المضغة . مع استلزامه لما تقدمه . ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام : أى ومن كان قادرا على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحىّ الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ؛ يقدر أن يجعل من الانسان الكامل مثل النبىّ ﷺ قارئاً . وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقتها ، ليزيد المعنى تأكيداً . كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد

صرت قارئاً بإذن ربك الذى أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها . والذى أنشأ الإنسان خلقاً كاملًا من دم جامد لا شكل فيه ولاصورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الإنسان الكامل. فهى أولى بسهولة الإيجاد، ولما كانت القراءة من الملكات التى لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعوّد على ما جرت به العادة فى الناس ، ناب تكرار الأمر الإلهىّ عن تكرار المقروء ، فى تصييرها ملكة للنبىّ ﷺ . فلهذا كرر الأمر بقوله « ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ » وجملة (وَرَبُّكَ) الخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الإعطاء . فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة ، من بحر كرمه. ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف مانحها بأنه « ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ » أى أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلمُ آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها فى ذاتها الإفهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يجعل منك قارئا مبيّنا وتاليا معلماً وأنت إنسان كامل ؟؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال « عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أى إن الذى صدر أمره بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الإنسان جميع ماهو متمتع به من العلم، وكان فى بدء خلقه لا يعلم شيئا، فهل يستغرب من هذا المعلِّم الذى ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرة، أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟؟ انتهى .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) فى مباحث عجائب الإنسان وما فى خلقه من الحكم: ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين . البيان النطقىّ والبيان الخطىّ وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمة على العبد . فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ *

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فتأمل كيف جمع فى هذه الـكلمات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه . فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى . ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة . والآية فيه عظيمة . ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم . وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة . وفى سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها . أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهين . وذكر فى هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة . فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة . ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمه على عباده . إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين . ولولا الـكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم ، إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم . فجعل لهم الـكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع ، كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان . فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن ، من أجلّ النعم . والتعليم به ، وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة ، فإن الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه ، وفضل أعطاه الله إياه ، وزيادة فى خلقه وفضله . فهو الذى علمه الـكتابة ، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم . فإنه علمه فتعلّم . كما أنه علمه الـكلام فتـكلم . هذا ، ومن أعطاه الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به ، والبنان الذى يخطّ به ، ومن هيأ ذهنه لقبول هـذا التعليم دون سائر الحيوانات ، ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ، ومن الذى دعم البنان بالـكف ، ودعم الـكف بالساعد . فـكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم . فقف وقفة فى حال

الـكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ، ووضعته على القرطاس وهو جماد ، فتولد من بينهما أنواع الحـكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل . فمن الذى أجرى فلك المعانى على قلبك ، ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً ، معناه أعجب من صورته ، فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة ، فيقوم مقامك ، ويترجم عنك . ويتـكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله ، سوى من علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ؟ والتعليمُ بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة : مرتبة الوجود الذهنىّ والوجود اللفظىّ والوجود الرسمىّ . فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب . ودل قوله (خَلَقَ) على أنه يعطى الوجود العينىّ . فدلّت هذه الآيات ، مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليما . وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا . وتعليماً خاصًّا وتعليما عاما . وذكر من صفاته ههنا اسم (الأكرم) الذى هو فيه كل خير وكل كمال . فله كل كمال وَصْفا ، ومنه كل خير فعلًا . فهو (الأكرم) فى ذاته وأوصافه وأفعاله . وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه ، لا من حاجة دعته إلى ذلك ، وهو الغنىّ الحميد .

الثانى : قال الإمام : لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والـكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات . فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبهم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها فى ظلمات من الجهل ، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الـكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهـذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله أبداً .

الثالث : قال الرازىّ : فى قوله (بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ) إشارة

إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفي قوله (ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع . فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثاني إلى النبوّة . وقدم الأول على الثاني تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ)

[٧] (أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ)

[٨] (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ)

« كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ » أي حقًّا إن الإنسان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغنت . فـ (كلا) بمعنى (حقًّا) لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله ـ على ما تقدم في المأثور ـ أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان . فإذا قيل (كَلَّآ) يكون ردعاً للإنسان الذي قابل تلك النعم بالكفران والطغيان . أي ما هكذا ينبغي أن يكون الإنسان . ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه مالم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفء له ، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال الكرخيّ ، ومذهب أبي حيان أن (كلا) بمعنى (ألا) الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة (إن) بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفي (الكواشي) : يجوز في (كلا) أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعا ، فيقف عليها .

تنبيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة فى باب التموّل المحمود ، قررها الحكماء المصلحون . وهو أن لايتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الإنسان ، كما نطقت به الآية الكريمة .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط . وإلا كان حرص التمول من أقبح الخصال .

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال. أى إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو فى مقابل عمل .

والشرط الثانى : أن لا يكون فى التمول تضييق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحات . مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته . وهى أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتؤويهم فى حضن أجزائها .

الشرط الثالث لجواز التمول : هو أن لايتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا . وذلك لقصد حفظ التساوى والتقارب بين الناس فى القوة المالية . لأن الربا كسب بدون مقابل مادىّ ، ففيه معنى الغصب . وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق . وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك . دع أن بالربا تربو الثروات، فيختل التساوى بين الناس ، كما تقدم بيانه فى أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى « إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ » أى المرجع فى الآخرة. قال أبو السعود: تهديد للطاغى وتحذير له من عاقبة الطغيان. والالتفات للتشديد فى التهديد، و (الرجعى) مصدر بمعنى الرجوع. وتقديم الظرف لقصره عليه. أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث، لا إلى غيره، استقلالًا ولا اشتراكًا. فسترى حينئذٍ عاقبة طغيانك . وقد جوز كون الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والتهديد والتحذير بحاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ)

[١٠] (عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ)

[١١] (أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ)

[١٢] (أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ)

[١٣] (أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ)

[١٤] (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ)

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ » أى يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهى ، إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك . قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون فى أن الناهى أبو جهل والعبد المصلى النبيّ ﷺ . كما روى فى الصحيحين . ولفظ البخاريّ عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبيّ ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة . وفى الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر ، وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب . ولفظ (العبد) وتنكيره ، لتفخيمه عليه السلام ، واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان فى الكلام المنصف ، إذ قال (ينهى) ولم يقل (يؤذى) و (عبداً) دون (نبيّا) والرؤية ههنا بصرية ، وفيما بعدها قلبية . معناه : أخبرنى . فإن الرؤية لما كانت سببا للإخبار عن المرئىّ ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها . قاله أبو السعود .

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٦ ـ سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق ، حديث رقم ٢٠٧٢ .

وقال الإمام : كلمة (أرأيت) صارت تستعمل فى معنى (أخبرنى) على أنها لا يقصد بها فى مثل هـــذه الآية الاستخبار الحقيقىّ ، ولـكن يقصـــد بها إنـكار المستخبر عنها وتقبيحها . فـكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذى يطغى به الـكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو فى حالة أدائها . وقوله « أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ » أى أرأيت إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يعتقد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده . أى ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه ، فالضمائر كلها ا (لذى ينهى) وجوز عود الضمير المستتر فى (كان) للعبد المصلى . وكذا فى (أمر) أى أرأيت الذى ينهى عبداً يصلى ؟ والمنهىّ على الهدى آمر بالتقوى . والناهى مكذب متول ، فما أعجب من هذا !

وذهب الإمام رحمه الله ، فى تأويل الآية إلى معنى آخر . وعبارته : أما قوله (أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ) فمعناه أخبرنى عن حاله إن كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟ وقوله أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ » أى نبئنى عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون . وتولى أى أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله مالا قِبَلَ له باحتمال ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت فى تفسير المعنى . وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ » أى أجهل أن الله يطلع على أمره ؟ فإن كان تقيًّا على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته . ثم إن ما يطيل به المفسرون فى المفعول الثانى لفعل (أرأيت) الأولى ومفعوليها فى الثانية والثالثة ، فهو مما لا معنى له ؛ لأن القرآن قدوة فى التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحـــد وبلا مفعول أصلًا بمعنى (أخبرنى) . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ)

[١٦] (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

[١٧] (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)

[١٨] (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)

[١٩] (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب)

« كَلَّا » ردع عن النهى عن الصلاة « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ » أى عن هذا الطغيان ، وعن النهى عن الصلاة ، وعن التكذيب والتولى « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » أى لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنه بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا ، مَثَلٌ فى القهر والإذلال والتعذيب والنكال . وقوله تعالى « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » بدل من (الناصية) ولم يقتصر على إحدى الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهى والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازىّ ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأولى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب . وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله[(١)] (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) و (وجهها يصف الجمال) ـ والتجوز بإسناد ما للكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئىّ فى قولهم (بنو فلان قتلوا قتيلًا) والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال فى (البحر) : كتبت نون (لَنَسْفَعًا) بالألف باعتبار الوقف عليها بإبدالها ألفاً . وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيها لها بالتنوين . وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف

(١) [١٦ / النحل / ٦٢] .

لأن قاعدة الرسم مبنية على حال الوقف والابتداء «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُو» أي أهل مجالسه، ليمنع المصلين ويؤذى أهل الحق الصادقين ، اتكالاً على قوتهم وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف، أو على الإسناد المجازيّ من إطلاق اسم المحل على من حلّ فيه. والنادى المجلس الذى ينتدى فيه القوم، أى يجتمعون « سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ » أى زبانية العذاب من جنوده تعالى فيهلكونه فى الدنيا ، أو يردونه فى النار فى الآخرة وهو صاغر ، ولم يرسم (سندع) بالواو فى المصاحف باتباع الرسم للفظ ، أو لمشاكلة قوله (فليدع) وقيل إنه مجزوم فى جواب الأمر وفيه نظر « كَلَّا » ردع للناهى بعد ردع ، وزجر إثر زجر « لَا تُطِعْهُ » أى لا تطع ذاك الطاغى إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزمخشريّ : أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله[1] (فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ) « وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب » أى صل لربك وتقرب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفى صحيح مسلم[2] عن أبى هريرة مرفوعا: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثروا من الدعاء .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت فى أبى جهل ، على ما صح فى الأخبار ، قال الإمام: ولا مانع من أن يكون فى الآيات إشارة إليه، ولكنها عامة فى كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبيّ ﷺ . والله أعلم .

الثانى: قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) : إنما شدد الأمر ـ أمر الوعيد ـ فى حق أبى جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبى معيط ، حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلى ـ لأنهما وإن اشتركا فى مطلق الأذية حال صلاته ، لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفى ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل

(١) [٦٨/ القلم / ٨] .

(٢) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٢١٥ (طبعتنا) .

العقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ وعلى من شاركه فى فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبى جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة فى السورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة . فقد كان للنبىّ ﷺ وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال فى (اللباب) : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعىّ . فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روى عن أبى هريرة[1] قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ) و (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) : أخرجه مسلم فى صحيحه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٥ ـ كتاب الإقامة ، ٧١ ـ باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٨ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٧ – سورة القدر

قال السيوطىّ : فيها قولان ، والأكثر أنها مكية ، وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ)

[٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ)

[٣] (لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[٤] (تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ)

[٥] (سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ » أى أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . وقد وصفت بالمباركة فى قوله تعالى[١] : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وكانت فى رمضان ، لقوله تعالى[٢] (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ) .

قال الإمام : سميت ليلة القدر، إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم (فلان له قدر) أى له شرف وعظمة. لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظّمه بالرسالة، وقد جاء بما فيه الإشارة، بل التصريح، بأنها ليلة جليلة، بجلالة ماوقع فيها من إنزال القرآن . فقال «وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ» أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها « لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ » فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدالّ

(١) [٤٤ / الدخان / ٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال (إنها خير من ألف شهر) لأنه قدمضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يختبطون فى ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف فى التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، فى تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى . فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجرى الكلام على عادتهم فى التخاطب . وذلك فى الكتاب كثير . ومنه الاستفهام الواقع فى هذه السورة (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ) فإنه جار على عادتهم فى الخطاب . وإلا فالعليم الخبير لايقع منه أن يستفهم عن شيء . فيكون التحديد بالألف لامفهوم له ، بل الغرض منه التكثير . وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة . فإذا قلت (إخفاء الصدقة خير من إظهارها) لم تعين درجة الأفضلية . وهى درجات فوق درجات وقد جاء فى الكتاب فى واقعة واحدة ، هى واقعة بدر ، أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، أو بثلاثة آلاف ، أو بخمسة آلاف ، كما تراه فى الأنفال وآل عمران . فالعدد هناك لامفهوم له ، كما هو ظاهر . فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال « تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا » يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبىّ ﷺ بشهود الملائكة ، كان فى تلك الليلة . تنزلت من عالمها الروحانىّ الذى لايحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره ﷺ ، والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى ، وهو الذى سُمِّىَ فى القرآن بجبريل . وإنما تظهر الملائكة والروح « بِإِذْنِ رَبِّهِم » أى إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة ، بعد أن هيأها الله لقبول تجليها . وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم . فذلك فضل الله يختص به من يشاء . واختصاصه هو إذنه ومشيئته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام . لأن الله يجلى الملائكة على النفوس ، لإيحاء مايريده منها . ولهذا قال « مِّن كُلِّ أَمْرٍ » أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى .

والأمر هٰهنا هو الأمر في قوله[1] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام ، لا في شيء آخر سواها . ولهذا قال بعضهم : إن (من) هٰهنا بمعنى الباء ، أي بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع في قوله (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ) وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن ـ لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضي لعظمته على نحو ما في قوله[2] (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ) فإن المضارع بعد الماضي يزيد الأمر تصوراً . والثاني : لأن مبدأ النزول كان فيها. ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد . فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى « سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أي أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلام نفسه ـ وهو الأمن والسلامة ـ للمبالغة في أنه لم يَشُبْها كدر ، بل فرج الله فيها عن نبّيه كل كربة ، وفتح له فيها سبل الهداية، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها ، الأيامَ والشهور الطوال.

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التي ابتدئ فيها نزول القرآن كانت في رمضان لآية (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ولا إجماع في تعيين تلك الليلة . بل في صحيح البخاريّ[3] أنها رفعت . أي رفع العلم بتعيينها . وفي رواية فيه : نسيتها أو أنسيتها . من قوله صلوات عليه . ولذا رغب في قيام رمضان كله رجاء موافقتها في ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها في العشر الأخير من رمضان لما كان من اهتمامه ﷺ بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله. وقد ذهب ابن مسعود والشعبيّ والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين .

(١) [٤٤ / الدخان / ٤و٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

(٣) أخرجه في : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر، ٢ ـ باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر ، حديث رقم ٤١٩ ، عن أبي سعيد الخدريّ .

قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها . صحابة ومن بعدهم . حتى أنافت على أربعين قولًا .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنه فى شهر رمضان . ولا نعيّنها من بين لياليه . فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيما . وكتاب الله لم يعينها . وماورد فى الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ، شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله إفاضته فيهم، فى أثنائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات. فمن رجح عنده خبر فى ليلة أحياها، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات فى الشهر كله . وهذا هو السر فى عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه . فهى ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء، يتسابق إليها المنافقون . ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون . كما جرى عليه عمل المسلمين فى هذه الأيام . فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه . ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه . بل إن أَصْغَوْا إليه، فإنما يصغون لنغمة تاليه . ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد فى الآخرين ولا الأولين أثره . ولهم خيالات فى ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال ، فضلًا عن الراشدين من الرجال . انتهى.

وقال الطبرىّ : إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر فى تلك الليلة للعيون ، مالا يظهر فى سائر السنة . إذ لو كان ذلك حقًّا، لم يخفَ على كل من قام ليالى السنة، فضلًا عن ليالى رمضان .

الثانى : حكى الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) قولًا عن بعض العلماء ؛ أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت فى زمان النبىّ ﷺ . ولعل مستنده ما صح أنها رفعت . وقد قدمنا معناه . ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندى أن لا تنافى . لأن المراد بالأول هو ليلة نزول

القرآن وما كان فيها من التجلّى الخاص التى انفردت به ـ وبالثانى أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هى ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ فى قيام رمضان والتماسها فى العشر الأواخر منه . أعنى إحياء ماماثلها من الليالى ، تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية . فالقائم فى ليالى العشر الأخير ، أو فى رمضان ، مصادفٌ البتة لما ماثل تلك الليلة . لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام فى تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسماً للعبادة ، ما ابتدعه رؤساء الأديان الأخر فى تذكاراتهم وجعلها أعياداً، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو، مما ينافى حكمة ذكراها . فتأمّل الفرق ، واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليله المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، هى ليلة النصف من شعبان، وأن الأمور التى تفرق فيهاهى الأرزاق والأعمار، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم ﷺ . ومثل ذلك لم يرد، لاضطراب الروايات، وضعف أغلبها، وكذب الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به فى باب العقائد . ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة . فإنه لا يجوز أن يدخل فى عقائد الدين . لعدم تواتر خبره عن النبىّ ﷺ . ولا يجوز لنا الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه . وإلا كنا من الذين (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعَدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٥ — سورة البينة

ويقال سورة القيمة . وسورة المنفكين . وسورة البرية . وعدد آياتها ثمان وهى مدنية على الأصح . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَىّ بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) قال: وسمّانى لك، قال: نعم .فبكى. ورواه البخارىّ ومسلم[١] . وفى رواية الإمام أحمد[٢] عن أبى حبّة البدرىّ قال : لما نزلت (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) قال جبريل : يا رسول الله! إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبيًّا . فقال النبىّ ﷺ لأُبَىٍّ : إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة . قال أُبَىّ : وقد ذُكِرْتُ ثمّ يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فبكى أُبَىّ .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٨ ـ سورة لم يكن ، ١ ـ حدثنا محمد بن بشار ، حديث رقم ١٧٨٤ ، عن أنس .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٩ من الجزء الثالث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)

[٢] (رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً)

[٣] (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوة النبىّ صلوات الله عليه بعنادهم ، بعد ماتبينوا الحق منها « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » أى اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم «وَالْمُشْرِكِينَ» أى وثنيّي العرب «مُنفَكِّينَ» أى عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ماقلدوا فيه آباءهم ، لايعرفون من الحق شيئاً « حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » أى الحجة القاطعة المثبتة للمدعى ، وهى هنا النبىّ ﷺ . فمجيئه هو الذى أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع . فإن ماهم فيه أجمل وأبدع . ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التى تعرفهم وجه الحق هى « رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ » أى محمد ﷺ « يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً » وهى صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلّسين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معا « فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » أى مستقيمة لاعوج فيها . واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذى لايميل إلى باطل[١] (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ

(١) [٤١ / فصلت / ٤٢] .

حَكِيمٍ حَمِيدٍ) والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هى ماصح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرها ، مما حكاه الله فى كتابه عنهم . فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوى سليم. وقد ترك حكاية مالبّس فيه الملبّسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه. ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلا إلى إنكار الحق. وإنما فضلوا عليه سواه . أو هى سور القرآن . فإن كل سورة من سوره ، كتاب قويم . فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سور من القرآن هى كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، قد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ماعرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذى جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذى لايختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم . وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم فى معرفة سبيله حتى لاينحرفوا عنه . فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع فى كشفها إلى العارف بمعانى الكتب. ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لايضللهم فيها مضلل . لكن هذه البينة لم تفدهم شيئاً فإنهم اختلفوا فى التأويل وتفرقوا فى المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ماعند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغيا منهم ، واستمراراً فى المراء ، وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ)

[٥] (وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ)

«وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ» أى على السنة

أنبيائهم. فهكذا كان شأنهم فى النبى ﷺ . جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم ، بتفرقهم فيها ، وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها . فإن كان هذا شأن أهل الكتاب فى بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق فى الجهالة وأسلس قياداً للهوى ، منهم؟؟ وقوله تعالى « وَمَآ أُمِرُوٓاْ » أى والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم « إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » أى الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شىء . لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه « حُنَفَآءَ » أى متبعى إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع (حنيف) بمعنى المائل المنحرف . سمى به إبراهيم عليه السلام لانحرافه عن وثنية الناس كافة « وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » أى الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع . لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة . فإن ذلك ليس من الصلاة فى شىء ، البتة « وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ » أى بصرفها فى مصارفها التى عينها الله تعالى « وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ » أى الكتب القيمة . أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية : إن أهل الكتاب قد افترقوا ، ولعنت كل فرقة أختها . وكان افتراقهم فى العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم . فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى . وأن يخشعوا لله فى صلاتهم ، وإن يَصِلُوا عباد الله بزكاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذى يرجع إليه فى الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويَحُلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكم الإخلاص فى الأنفس ، تسلط الإنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة . هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول فى حالنا ؟ أفما ينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، فى افتراقنا فى الدين ، وأن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذى تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبى ﷺ عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به . وإن (من) فى قوله (مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ) للتبعيض . وأن معنى (لم يكونوا منفكين) :

أى لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال فى عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التى كانوا فيها، حتى تأتيهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من (الذين كفروا) والله أعلم، أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عند ما جاءهم . ولم ينظروا فى دليله . أو أعرضوا عنه بعد ما عرفوا دليله سواء كانوا من مشركى العرب أو من أهل الكتاب . وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر منته على من آمن من هؤلاء . فبين أن الذين كفروا، أى جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركى العرب ، لم يكونوا براجعين عن كفرهم وجحودهم هذا ، حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم فى إرسال رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذى قدمناه فى معنى الذين كفروا وانفكاكهم . وبذلك أوهذا ظهر معنى (حتى) وبطل جميع مايهذى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد ، عن الرأى السديد ، فصعّبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفاسته ، ولكونه أحسن ما فُسِّرَت به . وقاعدتنا التى انتهجناها فى هذا التفسير أن نؤثر فى معانى آياته ، أحسن ما قيل فيها . فلذلك سميناه (محاسن التأويل) هدانا الله إلى أقوم السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى بالله ورسوله محمد ﷺ فجحدوا نبوّته « مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ » أى شر من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق ، بعد معرفته وقيام الدليل عليه ، منكر فى الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

لطائف

الأولى ـ دلت هذه الآية والتى قبلها على أن عنوان (المشركين) لا يتناول أهل الكتاب فى عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين . أعنى من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب، فأهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل فى عقائدهم الشرك . لأنه دخيل لا أصيل. ولذلك ينفرون من وصمة الشرك، وبسببه حل النكاح منهم دون الوثنيين.

الثانية ـ قال ابن جرير : العرب لا تهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم . فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها. وذهب بها إلى إلى قول الله [1] (مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ) وأنها فعيلة من ذلك . وأما الذين لم يهمزوها، فإن لتركهم الهمز فى ذلك وجهين : أحدهما أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك، وهو مفعل ، من (ألك) أو (لأك) ومن (يرى) و (ترى) و (نرى) ، وهو (تفعل) من رأيت. والآخر أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعيلة من (البراء) وهو التراب . حكى عن العرب سماعاً فقيل (بفيك البراء) يعنى به التراب . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ)

[٨] (جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ، رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بالله ورسوله محمد ، صلوات الله عليه « وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى من بذل النفس فى سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال فى أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص فى سائر ضروب المعاملات . لأن إذعانهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق، ملكت الحق قيادهم . فعملوا الأعمال الصالحة، قاله الإمام. «أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

ٱلْبَرِيَّةِ » أى أفضل الخليقة . لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التى شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذى جعله الله قوام الوجود الإنسانىّ ، وهَدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ماهُدوا إليه من الخير والسعادة . فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام « جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ » أى بساتين إقامة ، لا ظعن فيها ، تجرى من تحت أشجارها وغرفها الأنهار « خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا » أى ماكثين على الدوام ، لايخرجون عنها ولايموتون فيها « رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ » أى بما أطاعوه فى الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه فى ذلك « وَرَضُوا۟ عَنْهُ » لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به فى الدنيا. فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نعيم الآخرة ، وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله فى كل حال . أفاده الإمام .

« ذَٰلِكَ » أى هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء « لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ » أى خاف الله فى الدنيا، فى سره وعلانيته، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية.

قال الإمام: أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذى وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك . وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة ، وتقليد الأبوين، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفى فى نيل ماأعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء. وأفواههم ملؤها الكذب والنميمة والافتراء، وتهز أعطافهم رياحُ العجب والخيلاء . وسرائرهم مسكن العبودية والرق للأمراء . بل ولمن دون الأمراء. خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء ـ كلا لا ينالون حسن الجزاء . فإن خشية ربهم لم تحلّ قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم. ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشى ربه ، وأشعر خوفُه قلبه . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٩ ـ سورة الزلزلة

قال ابن كثير : مكية . ورجّح السيوطىّ أنها مدنية . وآيها ثمان . روى الترمذىّ[١] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (إِذَا زُلْزِلَتِ) تعدل نصف القرآن . و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن . و (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) تعدل ربع القرآن . وسيأتى سر ذلك فى تفسير سورة الكافرين والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٠ ـ باب ما جاء فى (إِذَا زُلْزِلَتِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

[٢] (وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أي أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب . فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص، بمعنى الزلزال المخصوص بها. وهي الرجة التي لا غاية وراءها. والأقرب الأول ، لآية[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) وقرئ بفتح الزاي . وقد قيل هما مصدران . وقيل المفتوح اسم والمكسور مصدر . وهو المشهور « وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أي قذفت ما في باطنها من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك ، لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله[٢] (وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) والأثقال جمع (ثقل) بفتحتين . وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً . لأن الحمل يسمى ثقلا كما في قوله تعالى[٣] (فَلَمَّآ أَثْقَلَت) قاله الشريف المرتضى في (الدرر) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا)

[٤] (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[٥] (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا)

(١) [٢٢ / الحج / ١] .
(٢) [٨٤ / الانشقاق / ٣و٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٩] .

[٦] (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ)

[٧] (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ)

[٨] (وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ)

« وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا » أى قال من يكون من الإنسان شاهداً لهذا الزلزال ، الذى فجأه ودهشه ، ولم يعهد مثله : مالهذه الأرض رجّت هذه الرجة الهائلة ، وبعثر ما فيها من الأثقال المدفونة « يَوْمَئِذٍ » بدل من (إذا) أى فى ذلك الوقت « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » أى تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك . وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أى يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله . فكأنها حدثت بذلك . كقولك (الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة، تحدث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » الباء سببية متعلق بـ(تحدث) أى تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه . وهو إحداث ماتدل به على خرابها .

وقال القاشانىّ : أى أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال . يعنى الأمر التكوينىّ . وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا » أى ينصرفون عن مراقدهم إلى مواطن حسابهم وجزائهم، متفرقين سعداءوأشقياء « لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى ليريهم الله جزاء أعمالهم «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ» أى فمن عمل فى الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر . وقيل الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة « وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ » أى ومن كان عمل فى الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

تنبيهات :

الأول ـ دل لفظ (من) على شمول الجزاء بقسميه ، للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أي من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره، فإنه يراه ويجد جزاءَهُ . لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء . والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار، وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ماذكرنا. أي أن عملاً من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء . كيف لا ، والله جل شأنه يقول[1] (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ) فقوله (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا) أصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء . وإن كلًّا يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن حاتماً يخفف عنه لكرمه . وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبيّ ﷺ . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئةٍ ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم . على أن كلمة (الإجماع) كثيراً مايتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحجرا يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لايعرفون للإجماع الذي تقوم به الحجة معنى ، فبئس مايصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب في (حواشيه) على القاضي ، حيث ناقش صاحب المقاصد في دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية ، وهو مخالف لما صرح به في الآية ؟ والذي يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبي طالب كعذاب أبي جهل. ولا

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهيّ . انتهى .

الثانى ـ قال فى (الإكليل) : فى هاتين الآيتين ، الترغيب فى قليل الخير وكثيره . والتحذير من قليل الشر وكثيره . أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية فى القرآن . وفى لفظ (أجمع) .

وسمّى[1] رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفاذة ، حين سئل عن زكاة الحمير فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُو * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُو) . وروى الإمام أحمد[2] عن صعصعة بن معاوية . عم الفرزدق ، أنه أتى النبيّ ﷺ فقرأ عليه (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُو) إلخ . قال : حسبي . لا أبالى أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائىّ فى تفسيره .

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٩ ـ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، ١ ـ باب قوله فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُو ، حديث رقم ١١٨٥ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الخامس من المسند .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٠ — سورة العاديات

مكية أو مدنية . وآيها إحدى عشرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا)

[٢] (فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا)

[٣] (فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا)

[٤] (فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا)

[٥] (فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا)

« وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا » إقسام بخيل الغزاة التى تعدو نحو العدوّ ، فتضبح . و(الضبح) صوت أنفاسها إذا عَدَتْ . وليس المراد بالصوت الصهيل . بل قولها (اح . اح) كما قاله ابن عباس . ونصب (ضَبْحاً) إما بفعله المحذوف ، أو بالعاديات لإفادته معناه ، أو بالحالية « فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحاً » أى تورى النار بحوافرها . والقدح هو الضرب لإخراج النار ، والإيراء يترتب عليه . لأنه إخراج النار وإيقادها . فإيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة . وتسمى نار الحباحب . ولما كان مرتباً على عَدْوها ، عطفه بالفاء . وكون المراد به الحرب ـ بعيد . وفى إعرابه الوجوه السابقة .

« فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحاً » أى تغير على العدوّ فى وقته . يقال (أغار على العدوّ) إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله .

قال الإمام: وهو وصف عرض للخيل من الغاية التى أجريت لها . أى أنها تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها ، لتهجم على عدوّ وقت الصباح ، وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة « فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعاً » أى فأهجن ، بذلك الوقت ، غباراً من الإثارة . وهى

التهييج وتحريك الغبار ونحوه ليرتفع. والنقع: الغبار كما ذكرنا، وورد بمعنى الصياح . فجوّز إرادته هنا بمعنى صياح من هجم عليه ، وأوقع به . لا صياح المغير المحارب ، وإن جاز على بُعْدٍ فيه . أى هيجن الصياح بالإغارة على العدوّ، وضمير (به) للوقت والباء ظرفية. وفيه احتمالات أخر . ككونه للعدو أو للإغارة ، لتأويلها بالجرى. فالباء سببية أو للملابسة. ويجوز كونها ظرفية أيضا . والضمير للمكان الدال عليه السياق، للعلم بأن الغبار لا يثار إلا من موضع . وهو الذى اختاره ابن جرير .

قال الشهاب : وذكر إثارة الغبار ، للإشارة إلى شدة العَدْوِ وكثرة الكرّ والفرّ . وتخصيص الصبح ، لأن الغارة كانت معتادة فيه . أى لمباغتة العدوّ . والغبار إنما يظهر نهاراً و (أثرن) معطوف على ما قبله .

قال الناصر : وحكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم ، الذى هو العاديات أو مابعده ، لأنها أسماء فاعلين تعطى معنى الفعل . وحكمة مجىء هذا المعطوف فعلا عن اسم فاعل ، تصوير هذه الأفعال فى النفس . فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف . وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة . وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضى .

وقوله تعالى « فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعاً » أى فتوسطن ودخلن فى وسط جمع من الأعداء، ففرقنه وشتتنه . يقال : (وسطت القوم) بالتخفيف و(وسطته) بالتشديد و (توسطته) بمعنى واحد . وفى الضمير الوجوه المتقدمة .

قال الإمام رحمه الله : أقسم تعالى بالخيل متصفة بصفاتها التى ذكرها، آتية بالأعمال التى سردها لينوه بشأنها ويعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين أهل العمل والجد . ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر ، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل ، والإغارة بها . ليكون كل واحد منهم مستعداً فى أى وقت كان ، لأن يكون جزءاً من قوة الأمة إذا اضطرت إلى صدّ عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته . وكان فى هذه

الآيات القارعات ، وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله[١] (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّـهِ وَعَدُوَّكُمْ) وفيما ورد من الأحاديث التى لاتكاد تحصر ـ مايحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل . ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها . وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً . أفليس من أعجب العجب أن ترى أمما ، هذا كتابها ، قد أهملت شأن الخيل والفروسية ، إلى أن صار يشار إلى راكبها بينهم بالهزؤ والسخرية ؟ وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى .

ثم قال : يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التى رفع ذكرها ، ليؤكد الخبر الذى جاء فى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ)

[٧] (وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)

[٨] (وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

«إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ» أى لكفور . يكفر نعمه ولا يشكرها . أى لا يستعملها فيما ينبغى ليتوصل بها إليه .

قال المهايمىّ : أى لكفور ، فيوجب قتاله بهذه الخيول وقهره بهذا الغضب . وعن أبى أمامة : الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده «وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ» أى وإن الإنسان على كنوده ، لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه . فالشهادة مستعارة لظهور آثار كفرانه وعصيانه بلسان حاله .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] .

قال القاشانىّ : لشهادة عقله ونور فطرته إنه لايقوم بحقوق نعم الله ، ويقصر فى جنب الله بكفرانه « وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » أى وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها ، لقوىّ . ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس وإنه لحب الخير الموصل إلى الحق ، شديد منقبض ، غير هش منبسط . أو اللام للتعليل . أى إنه لأجل حب المال بخيل . فلذلك يحتجب به غارزاً رأسه فى تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه ، مشغولاً به عن الحق ، معرضاً به عن جنابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ)

[١٠] (وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ)

[١١] (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ)

« أَفَلَا يَعْلَمُ » أى أبعد هذا الاحتجاب ومخالفة العقل ، لايعلم بنور فطرته وقوة عقله « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ » أى بعث وأثير ما فى القبور وإخراج موتاها « وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ » أى أظهر وأبرز ما فى صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها ، من خير أو شر « إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ » أى عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم . فيجازيهم على حسبها يومئذ . وتقديم الظرف ، إما لمكان نظم السجع ورعاية الفواصل ، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته . وهى إنما تكون يومئذ .

قال الرازىّ : وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح ، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب . فإنه لولا البواعث والإرادات فى القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح . ولذلك جعلها تعالى الأصل فى الذم فقال(١) (ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ) والأصل فى المدح فقال(٢) (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٣] . (٢) [٨ / الأنفال / ٢] و [٢٢ / الحج / ٣٥] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١٠١ — سُورَة القَارِعَة

مكية وآيها إحدى عشرة .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱلۡقَارِعَةُ)

[٢] (مَا ٱلۡقَارِعَةُ)

[٣] (وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ)

[٤] (يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ)

[٥] (وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ)

« ٱلۡقَارِعَةُ * مَا ٱلۡقَارِعَةُ » قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، وهى القيامة . سميت بها لأنها تفزع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال . وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانفطار ، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار ، والأرض بالزلزال والتبديل والجبال بالدك والنسف . وهى مبتدأ خبره قوله تعالى (ما القارعة) على أن (ما) الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ ، لا بالعكس . لأن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ . ولا ريب فى أن مدار إفادة الهول والفخامة ههنا ، هو كلمة (ما) لا (القارعة) ، أى أىّ شىء عجيب هى فى الفخامة والفظاعة ؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل . وقوله تعالى « وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ » تأكيد لهولها وفظاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها ، بحيث لا تكاد تناله دراية أحد ، حتى يدريك بها . أى : وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ولما كان هذا منبئاً عن الوعد الكريم بإعلامها ، أنجز ذلك بقوله تعالى « يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ » أى هى يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث فى الكثرة

والانتشار ، والضعف والذلة والاضطراب ، والتطاير إلى الداعى ، كتطاير الفراش إلى النار .

ف (يوم) خبر محذوف بنى على الفتح ، لإضافته إلى الفعل ، أو هو منصوب . بإضمار (اذكر) . كأنه قيل ، بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها : اذكر يوم يكون الناس « وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ » أى كالصوف المندوف فى تفرق أجزائها وتطايرها فى الجو . ولما كان من المعلوم أن ذلك اليوم هو اليوم الذى تبتدئ فيه الحياة الآخرة ، وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء ، رتب عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ)

[٧] (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)

[٨] (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ)

[٩] (فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ)

[١٠] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ)

[١١] (نَارٌ حَامِيَةٌۢ)

« فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ » قال ابن[1] جرير : أى فأما من ثقلت موازين حسناته ، يعنى بالموازين الوزن . والعرب تقول (لك عندى درهم بميزان درهمك) ويقولون (دارى بميزان دارك ووزن دارك) يراد حذاء دارك . قال الشاعر[2] :

قد كنتُ قبل لقائكم ذا مِرَّة عندى لكلِّ مخاصم ميزانُهُ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٨٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .
(٢) أنشده ثعلب فى اللسان (ج ١٣ ص ٤٤٧) طبعة بيروت .

يعنى بقوله (ميزانه) كلامه وما ينقض عليه حجته . وكان مجاهد يقول : ليس ميزان . إنما هو مثل ضرب . انتهى .

وعليه ، فالموازين جمع ميزان . وجوز كونه جمع موزون ، وهو العمل الذى له خطر ووزن عند الله تعالى . ومعنى قوله (فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى فى عيشة قد رضيها فى الجنة . فـ (راضية) بمعنى مرضية ، على التجوز فى الـكلمة نفسها أو فى إسنادها . أو استعارة مكنية وتخييلية « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى وزن حسناته « فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ » أى فمأواه ومسكنه الهاوية التى يهوى فيها على رأسه فى جهنم .

قال الشهاب : فسمى المأوى (أمّا) على التشبيه تهكماً . لأن أم الولد مأواه ومقره . وفى (التأويلات) : قيل المراد أم رأسه . أى يلقى فى النار منكوساً على رأسه . انتهى . والأول هو الموافق لقوله « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ » فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتهويل . وأصل (مَاهِيَه) ماهى ، كناية عن الهاوية . فأدخل فى آخرها هاء السكت وقفاً ، وتحذف وصلا . وقد أجيز إثباتها مع الوصل .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٢ - سُورَة التكاثُر

وهي مكية وآيها ثمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾

[٢] ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾

[٣] ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

[٤] ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

[٥] ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

[٦] ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾

[٧] ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾

[٨] ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى شغلكم التباهى بالكثرة فى المال والولد ونحوها . فيقول هذا : أنا أكثر منك مالًا ، والآخر : أنا أكثر منك ولداً . وهكذا مما يصرف عن الجد فى العمل ، ويطفىء نور الاستعداد وصفاء الفطرة والعقل والكمالات المعنوية الباقية . ذهب بكم التفاخر والتباهى بهذه الأمور الفانية ، من كثرة الأموال والأولاد ، وشرف الآباء والأجداد كل مذهب « حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » أى حتى هلكتم ومتم وصرتم من أصحاب القبور ، فأفنيتم عمركم فى الأعمال السيئة وما تنبهتم طولَ حياتكم إلى ما هو سبب سعادتكم ونجاتكم . وزيارةُ القبور عبارة عن الموت .

روى الزمخشريّ شواهد لها . قال الشهاب : وفيها إشارة إلى تحقق البعث . لأن الزائر لابد من انصرافه عما زاره . ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها : بعثوا ، ورب الكعبة ! وقال ابن عبد العزيز : لابد لمن زار ، أن يرجع إلى جنة أو نار . وسمى بعض البلغاء المقبرة ، دهليز

الآخرة « كَلَّا » ردع عن الاشتغال بالتكاثر، وتوهم أن الفوز بالتفاخر. فإن الفوز بالتناصر على الحق والتحلي بالفضائل « سَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى مغبة ما أنتم عليه ، فى الآخرة ، من وخامة عاقبة الاشتغال بهذه الشهوات السريعة الزوال ، العظيمة الوبال ، لبقاء تبعاتها .

« ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » تكرير للتأكيد. و (ثم) للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول . أو الأول عند الموت ، والثانى عند النشور « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ » أى لو تعلمون ما بين أيديكم من الجزاء، علم الأمر اليقين، لكان مالا يدخل تحت الوصف من الندم والتحسر على فوات العمر العزيز فى التكاثر، والذهول عن الحق به. واليقين بمعنى المتيقن، صفة لمحذوف، أو صفة للعلم، على أنه من إضافة الصفة للموصوف، وحذف جواب (لو) ليطلبه العقل من الشرط وماسبقه، ليستحكم فيه فضل استحكام. وقوله تعالى « لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ » جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد ، وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أنذروه تفخيما « ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ » أى الرؤية التى هى نفس اليقين ، فالعين هنا بمعنى النفس ، كما فى (جاء زيد عينه) أى نفسه . وإنما كانت نفس اليقين ، لأن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة ، فوق سائر الانكشافات . فهو أحق بأن يكون عين اليقين . والتكرير للتأكيد .

قال الإمام: وكنى برؤية الجحيم، عن ذوق العذاب فيها. وهى كناية شائعة فى الكتاب العزيز.

« ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ » أى عن النعيم الذى ألهاكم التكاثر به والتفاخر فى الدنيا. ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ ويدخل فى ذلك ما أنعم عليهم من السمع والبصر وصحة البدن .

قال ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار . قال : يسأل الله العباد فيم استعملوا وهو أعلم بذلك منهم . وهو[1] قوله (إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا) قال ابن جرير[2]: لم يخصص فى خبره تعالى نوعاً من النعيم دون نوع. بل عمّ . فهو سائلهم عن جميع النعيم . ولذا قال مجاهد : أى عن كل شىء من لذة الدنيا . وقال قتادة : إن الله عز وجل سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه .

(١) [١٧/الإسراء/٣٦] . (٢) انظر الصفحة رقم ٢٨٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية).

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٣ — سورة العصر

مكية ، وقيل مدنية ، وآيها ثلاث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلْعَصْرِ)

[٢] (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ)

[٣] (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ)

« وَٱلْعَصْرِ » أى الدهر . أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة . ولذا قيل له (أبو العجب) . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبّه الإنسان على أنه مستعد للخسران والسعادة. وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

يَعيبونَ الزمانَ وليسَ فيهِ معايبُ غير أهلٍ للزمانِ

وجوّز أن يراد بالعصر ، الوقت المعروف الذى تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا فى شؤونهم . وقد يكون فى حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسبّ ، كما اعتاد الناس أن يقولوا (زمان مشؤوم) و (وقت نحس) و (دهر سوء) وما يشبه ذلك . بل هو عادّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم مايقع فيه من الأفاعيل الممقوتة.

« إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ » أى خسران ، لخسارته رأس ماله الذى هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقى فى الفانى « إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » أى بالله وبما أنزل من الحق ، إيمانا ملك إرادتهم

فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم . كما قال « وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » قال القاشانىّ : أى من الفضائل والخيرات. أى اكتسبوها فربحوا زيادة النور الـكمالىّ على النور الاستعدادىّ الذى هو رأس مالهم .

« وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ » أى أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله فى كتابه من أمره، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه « وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ » أى على ما يبلو الله به عباده . أو على الحق، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذلك الذى يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات

الأول ـ قال الإمام ابن القيّم فى (مفتاح دار السعادة) قال الشافعىّ رضى الله عنه : لو فكر الناس كلهم فى هذه السورة ، لـكفتهم . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها معرفة الحق. الثانية عمله به. الثالثة تعليمه من لا يحسنه. الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة فى هذه السورة . وأقسم سبحانه فى هذه السورة بالعصر أن كل أحد فى خسر ، إلا الذين آمنوا. وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، فهذه مرتبة ثالثة. وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة . وهذا نهاية الـكمال. فإن الـكمال أن يكون الشخص كاملا فى نفسه، مكملًا لغيره . وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية . فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات . وتكميله غيره ، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة ، على اختصارها ، هى من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره . والحمد لله الذى جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير . انتهى .

الثانى : قال الرازىّ : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة . وهى : الإيمـان . والعمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر . فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المـكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فـكذلك يلزمه فى غيره أمور . منها الدعاء إلى الدين . والنصيحة . والأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر . وأن يحب له مايحب لنفسه . ثم كرر التواصى ليتضمن الأول الدعاء إلى الله، والثانى الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف، والثانى النهى عن المنكر . ومنه قوله تعالى[1] (وَأْنَهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ) وقال عمر : رحم الله من أهدى إلىّ عيوبى .

الثالث : قال الرازىّ : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه . فلذلك قرن التواصى بالصبر .

الرابع : تخصيص التواصى بالحق والصبر ، مع اندراجهما فى الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر . لـكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة . وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران ، أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل النـاس بعضهم بعضاً عليه ، بأن يدعو كلٌّ صاحبَه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة ، التى لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل . وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات ، التى لا قَرَارَ للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها . ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفـكر وإجادة النظر فى الأكوان ، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام . وهـذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق فى النظر . لا الذهاب مع الطيش والانخداع

(١) [٣١ / لقمان / ١٧] .

للمادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كما ترى فى الآية بالنص الصريح الذى لايقبل التأويل . والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة فى العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان فى نيلها مايخالف حقاً أو ما لاتأذن به الشريعة الصحيحة التى لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج فى دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصى غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التى هى أم الفضائل بأسرها ، ولايمكنك حمله على ذلك ، حتى تكون بنفسك متحلياً بهـا . وإلا دخلت فيمن يقول ، ولا يفعل كما يقول . فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس ـ قال الإمام: إنما قال (وَتَوَاصَوْا) ولم يقل (وأوصوا) ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى (أن يوصى به قومه ومن يهمه أمر الحق، ليوصى صاحبه بطلبه ، يهمه أن يرى الحق فيقبله . فكأن فى هذه العبارة الجزلة ، قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس ـ قال ابن كثير : ذكر الطبرانىّ من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيدالله ابن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ ، إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها. ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك . وهو خطأ . وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها . خصوصاً من التواصى بالحق والتواصى بالصبر . حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقدفسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره، فعلى من أراد التوسع فى أسرارها ، أن يرجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٤ — سُورَة الهُمَزة

مكية ، وآيها تسع .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ)

[٢] (ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ)

[٣] (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ)

« وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ » أى لكل من يطعن فى أعراض الناس ويغتابهم . أصله من الهمز بمعنى الكسر ، ومن اللمز بمعنى الطعن ، الحقيقيين . ثم استعيرا لذلك . ثم صارا حقيقة عرفية فيه . قال زياد الأعجم[١] :

تُدْلى بوُدّى إذا لاقيتنى كَذِباً وإن أُغَيَّبْ فأنت الهامِزُ اللُّمَزَهْ

وبناء (فُعَلَة) يدل على أن ذلك عادة منه قد ضَرِىَ بها ، لأنه من صيغ المبالغة . والآية عنى بها من كان مع المشركين بمكة ، هازاً لمازاً . كما فى قوله[٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . .) الآيات ، وقوله[٣] (هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ..) الآيات ، فالسبب ، وإن يكن خاصًّا ، إلا أن الوعيد عام، يتناول كل من باشر ذلك القبيح . وسرّ وروده عامًّا ، ليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه .

« ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ » أى أحصى عدده ولم ينفقه فى وجوه البر .

قال الإمام: أى أن الذى يحمله على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده . أى عده مرة بعد أخرى، شغفاً به وتلذذًا بإحصائه. لأنه لا يرى عزًّا ولا شرفاً ولا مجداً فى سواه.

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٧٥ من إصلاح المنطق لابن السكيت .

(٢) [٨٣ / المطففين / ٢٩و٣٠] . (٣) [٦٨ / القلم / ١١] .

فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه . فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه . ثم لايخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض . لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المآل فهو « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ » أى يظن أن ماله الذى جمعه وأحصاه ، وبخل بإنفاقه ، مخلده فى الدنيا ، فزيل عنه الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ)

[٥] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ)

[٦] (نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ)

[٧] (ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ)

[٨] (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ)

[٩] (فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ)

« كَلَّا » أى فليرتدع عن هذا الحسبان ، فإن الأمر ليس كما ظن . بل لا بد أن يفارق هذه الحياة إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال ، كما قال « لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ » أى ليلقين وليقذفن يوم القيامة فى النار التى من شأنها أن تحطم كل مايلقى فيها . أى تكسره ، وكلمة (النبذ) تفيد التحقير والتصغير « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ » استفهام عنها لتهويل أمرها . كأنها ليست من الأمور التى تدركها العقول « نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ » أى هى النار التى لاتنسب إلا إليه سبحانه ، لأنه هو مُنشِئُها فى عالم لايعلمه سواه .

قال أبوالسعود : وفى إضافتها إليه سبحانه ، ووصفها بالإيقاد ، من تهويل أمرها مالامزيد عليه « ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ » قال ابن جرير[1] : أى التى يطلع ألمها ووهجها على القلوب .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى . حكى عن العرب سماعا (مَتى طَلَعْتَ أرضَنَا) . و (طلعتُ أرضي) بلغتُ .

وقال الزمخشريّ : يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب . ولاشيء في بدن الانسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألمًا منه بأدنى أذى يمسه . فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه !! ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . أو تطالع ، على سبيل المجاز معادن موجبها « إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ » أي مغلقة مطبقة لامخلص لهم منها « فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » صفة لمؤصدة، أوحال من الضمير المجرور. وإلى الوجهين أشار الزمخشريّ بقوله: والمعنى أنه يؤكد يأسهم من الخروج ، وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب ، وتمدد على العمد ، استيثاقاً في استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة ، موثقين في عمد ممددة ، مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص .

و (المقاطر) جمع (مقطرة) بالفتح ، وهي جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم (وتقطر) أي يجعل كلّ بجنب آخر و (عمد) قرئ بضم العين والميم وفتحهما .

قال ابن جرير[1]: وهماقراءتان معروفتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء . ولغتان صحيحتان . والعرب تجمع العمود عُمُداً وعَمَدا ، بضم الحرفين وفتحهما ، كما تفعل في جمع إهاب تجمعه أُهُبا وأَهَبا .

تنبيه

قال القاشانيّ في بيان آفات رذيلتي الهمز واللمز اللتين نزلت في وعيدهما السورة ، ما مثاله : الهمز أي الكسر من أعراض الناس واللمز أي الطعن فيهم ، رذيلتان مركبتان من الجهل والغضب والكبر . لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس . وصاحبهما يريد أن

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

يتفضل على الناس ، ولا يجد فى نفسه فضيلة يترفع بها . فينسب العيب والرذيلة إليهم ، ليظهر فضله عليهم . ولا يشعر أن ذلك عين الرذيلة . فهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتى القوة النطقية والغضبية .

ثم قال : وفى قوله تعالى (وَعَدَّدَهُو) إشارة أيضاً إلى الجهل . لأن الذى جعل المال عدة للنوائب ، لايعلم أن نفس ذلك المال يجر إليه النوائب . لاقتضاء حكمة الله تفريقه فى النائبات، فكيف يدفعها ؟ وكذا فى قوله (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُو أَخْلَدَهُو) أى لا يشعر أن المقتنيات المخلدة لصاحبها هى العلوم والفضائل النفسانية الباقية ، لا العروض والذخائر الجسمانية الفانية. ولكنه مخدوع بطول الأمل ، مغرور بشيطان الوهم عن بغتة الأجل . والحاصل أن الجهل الذى هو رذيلة القوة الملكية ، أصل جميع الرذائل ، ومستلزم لها . فلا جرم أنه يستحق صاحبه المغمور فيها ، العذاب الأبدىّ المستولى على القلب المبطل لجوهره .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٥ - سورة الفيل

مكية ، وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[٢] (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

[٣] (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ)

[٤] (تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ)

[٥] (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ » يعنى الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشىّ الأشرم . كما سيأتى .

قال أبو السعود : الخطاب لرسول الله ﷺ . والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها . والرؤية علمية . أى ألم تعلم علما رصينا متاخما للمشاهدة والعيان، باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الآثار الظاهرة . وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه ، بأن يقال ألم تر ما فعل ربك الخ ـ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام. فإن ذلك من الإرهاصات . لما روى أن القصة وقعت فى السنة التى ولد فيها النبىّ عليه الصلاة والسلام، كما سنأثره. وقوله تعالى « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » بيان إجمالىّ لما فعل بهم . أى لم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة فى تضييع وإبطال لما حاولوا ، وتدميرهم أشد تدمير .

قال الرازىّ : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية (إن قيل) لم سماه

كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ (قلنا) نعم لكن الذى كان فى قلبه شر مما أظهر . لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى بلدته « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » أى طوائف متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . و(أبابيل) جمع لا واحد له، على ماحكاه أبو عبيدة والفراء . وزعم أبو جعفر الرؤاسى ـ وكان ثقة ـ أنه سمع واحدها إبّالة بكسر الهمزة وتشديد الموحدة . وهى حزمة الحطب . استعير لجماعة الطير . وحكى الكسائىّ عن بعض النحويين فى مفردها (أبول) وعن آخرين (أبيل) سماعاً كما أثره ابن جرير[١] . والتنكير فى (طيرا) إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر . أو للتفخيم ، كأنه يقول وأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل . أفاده الرازىّ .

« تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ » أى من طين متحجر. وروى ابن وهب عن ابن زيد أن المعنىّ بالسجيل السماء الدنيا لأن اسمها سجيل .

قال ابن جرير[٢] : وهذا القول الذى قاله ابن زيد لانعرف لصحته وجها فى خبر ولا عقل ولا لغة . وأسماء الأشياء لاتدرك إلا من لغة سائرة أو خبر من الله تعالى ذكره « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ » قال ابن جرير[٣] : كزرع أكلته الدواب فراثته ، فيبس وتفرقت أجزاؤه . شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التى نزلت بهم ، وتفرق آراب أبدانهم بها ، بتفرق أجزاء الروث ، الذى حدث عن أكل الزرع .

قال الشهاب : ولم يذكر الروث لهجنته . فجاء على الآداب القرآنية . وفيه إظهار تشويه حالهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣٠٤ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال أبو مسلم : (العصف) التبن، لقوله(١) (ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ...) لأنه تعصف به الريح عند الذرّ ، فتفرقه عن الحب وهو إذا كان مأكولًا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه . انتهى .

ومن الوجوه فى الآية أن يكون المعنى : كزرع قد أكل حبه وبقى تبنه ، والتقدير كعصف مأكول الحب . كما يقال فلان حسن أى حسن الوجه . فأجرى (مأكول) على (العصف) من أجل أنه أكل حبه . لأن هذا المعنى معلوم . ومنها أيضا أن معنى (مأكول) مما يؤكل ، يعنى تأكله الدواب . يقال لكل ما يصلح للأكل (هو مأكول) والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب فى التفرق والتفتت والهلاك . أشار له الرازىّ

تنبيهات :

الأول : كان السبب الذى من أجله حلت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل ، مسير أبرهة الحبشىّ بجنده مع الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه . وواقعة الفيل فى ذاتها معروفة متواترة الرواية . حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث . فيقولون : ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك . وتفصيل نبئها على ما أثره ابن هشام : أن أبرهة الحبشىّ كان أمير صنعاء للنجاشىّ . وكان ذادين فى النصرانية . فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها فى زمانها . ثم كتب للنجاشىّ : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها الملك كان قبلك . ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشىّ غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها (أى أحدث فيها) ثم خرج فلحق بأرضه . فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك (أصرف إليها حج العرب) غضب فجاء فقعد فيها . أى أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت . ثم سار وخرج معه بالفيل .

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٢] .

وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفْر . فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه . فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفْر وأصحابه وأتى به أسيراً . فلما أراد قتله قال له ذو نفْر: أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي . فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق . وكان أبرهة رجلا حليما . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له . حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل بن حبيب الخثعميّ في قبيلي خثعم : شهرانَ وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب . فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً . فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك ! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب . وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم: شهران وناهس، بالسماع والطاعة . فخلى سبيله وخرج به معه يدله . حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعود بن معتب الثقفيّ في رجاله ثقيف . فقالوا له: أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم ـ واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ـ فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس . فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك : فرجمت قبرَه العرب . فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس . فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مفصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة . فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به . فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميريّ إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له: إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم . إنما جئت لهدم هذا البيت . فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب ، فلا حاجة لي في دمائكم .

فإن هو لم يرد حربى فأتنى به . فلما دخل حناطة مكة سأل من سيد قريش وشريفها . فقيل له عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ! ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام (أو كما قال) فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه . وأن يخل بينه وبينه ، فو الله ! ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فانطلق معى إليه ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر . فسأل عن ذى نفر وكان له صديقا حتى دخل عليه وهو فى مَحْبَسه. فقال له : ياذا نفر! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشيًّا . ماعندى غناء فى شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى . فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير، إن قدر على ذلك. فقال: حسبى . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة . يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل، والوحوش فى رؤوس الجبال . فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته . قال فأذن له أبرهة . قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته. وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه: قل له : ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان. فقال : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئتُ لهدمه لا تكلمنى فيه قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : وما كان ليمتنع منى . قال :

أنت وذاك . وكان ، فيما يزعم أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة ـ يعمر بن نفاثة سيد بنى بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل . فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم . والله أعلم ، أكان ذلك أم لا.

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له . فلما انصرفوا عنه، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة . وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إن العبدَ يمنع رَحْلَهُ ، فامنع حِلالكْ

لا يغلبنَّ صَليبُهُمْ ومحالُهُم ، عَدْوًا مِحَالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا ، فَأَمْرٌ ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وعبّى جيشه ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه . فقال له : ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل. وخرج نفيل يشتد حتى أصعد فى الجبل. وضربوا الفيل ليقوم. فضربوا رأسه ليقوم فأبى. فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ـ أى أدموه ـ ليقوم فأبى . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلَسَان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وليس كلَّهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى

منه جاءوا . ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفرُّ والإله الطالبْ والأشرم المغلوبُ ليس الغالبْ

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك. على كل منهل . وأصيب أبرهة في جسده . وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة . كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة تَمُثُّ ـ أى تسيل ـ قيحاً ودماً . حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن إسحق: حدثني يعقوب بن عتبة . أنه حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدرىّ بأرض العرب ، ذلك العام .

قال ابن إسحق : فلما بعث الله محمداً ﷺ ، كان مما يَعُدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ . . .) السورة .

ثم قال ابن إسحق : فلما ردّ الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله؛ قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم. فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ماصنع الله بالحبشة، وماردّ عن قريش من كيدهم. ثم ساق القصائد في ذلك .

وإنما آثرت في سياقها ما رواه ابن هشام عن ابن إسحق. لأنه أحسن اقتصاصاً وأبلغ سبكا ، لإثارته عن صميم العربية روايات نبغاء رجالها ، فرحمه الله ورضى عنه .

التنبيه الثاني: إنما أضيف أمر القصة إلى الفيل، واشتهرت به، لاصطحابهم الفيل معهم للبطش والتخريب . فإنه لو تم لقائديه كيدهم ، لكان الفيل يَدَهُم العاملة وسهمهم النافذ . وذلك أن جبابرة البلاد التي يوجد فيها الفيل يتخذونه آلة بطش وانتقام . فإذا غضبوا على محارب وأسروه، أو وزير وأوثقوه، أو بلد ونازلوا حصنه ـ أرسلوا على دار المغضوب عليه أو حصنه الفيل ، فنطح برأسه ونابه الصرح فيدكه. وقواعد البنيان فيهدمها . فيكون أمضى من معاول وفؤوس . وأعظم رعبا ورهبة في النفوس . وربما ألقوا المسخوط عليه بين يديه، فأعمل فيه

نابه ، ولف عليه خرطومه وشاله ، ومثل به تمثيلًا ، كان أشد بطشاً وتنكيلًا . وقد حدثني بغرائب هذه الفظائع الجاهلية بعض آل ملوك الأفغان لما أقام مدة بالشام .

الثالث : قال القاشانيّ : قصة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ . وهي إحدى آيات قدرة الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه . وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان لكون نفوسهم ساذجة . وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ، ليس بمستنكر . ومن اطلع على عالم القدرة ، وكشف له حجاب الحكمة ، عرف لمية أمثال هذه .

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركوبها عليها وعبورها بها من النهر .

الرابع : قال الإمام الماورديّ في (أعلام النبوة) : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوات قاهرة . تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق . ولا منتحل بحق . وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها . ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تقاطرت آيات نبوته وظهرت آيات بركته . فكان من أعظمها شأنا . وأظهرها برهانا . وأشهرها عيانا وبيانا . أصحاب الفيل . أنفذهم النجاشيّ من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها وسبي ذراريها وهدم الكعبة . وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملا في بطن أمه بمكة . لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل . فكانت آيته في ذلك من وجهين : أحدهما أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا . فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملا ووليدا . والثاني أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم . وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرجعة . ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيسا للنبوة وتعظيما للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكا للحج .

فإن قيل . فكيف منع عن الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكا ، ولم يمنع الحجاج من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكا حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها ؟

قيل : فعلُ الحجاج كان بعد استقرار الدين ، فاستغنى عن آيات تأسيسه ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتاسيس النبوة ومجىء الرسالة . على أن الرسول قد أنذر بهدمها فصار الهدم آية بعد أن كان المنع آية فلذلك اختلف حكمهما فى الحالين والله تعالى أعلم .

ولما انتشر فى العرب ماصنع الله تعالى بجيش الفيل ، تهيبوا الحرم وأعظموه وزادت حرمته فى النفوس ودانت لقريش بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيما ، فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين . وصار أصحاب الفيل مثلا فى الغابرين . وكان شأن الفيل رادعاً لكل باغ ودافعاً لكل طاغ . وقد عاصر رسول الله ﷺ فى زمن نبوته وبعد هجرته ، جماعة شاهدوا الفيل وطير الأبابيل . منهم حكيم بن حزام وحاطب ابن عبد العزى ونوفل بن معاوية . لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة . منها ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام . انتهى .

الخامس : ورد فى كثير من الأحاديث الصحيحة الإشارة إلى نبأ الفيل . روى البخارى(١) أن النبىّ ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء ـ أى حرنت ـ فقال رسول الله ﷺ : ماخلأت القصواء وما ذاك لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل ؛ قال ابن الأثير فى (النهاية) : هو فيل أبرهة الحبشىّ الذى جاء يقصد خراب الكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم ، ورد رأسه راجعاً من حيث جاء . يعنى أن الله حبس ناقة النبىّ ﷺ لما وصل إلى الحديبية . فلم تتقدم ولم تدخل الحرم . لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين . وفى الصحيحين(٢) أيضا أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين . وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب .

---

(١) أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، حديث ٨٨١ ، ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب كتابة العلم ، حديث رقم ٩٦ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٧ و٤٤٨ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٦ – سورة قريش

مكية ، وآيها أربع .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ)

[٢] (إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ)

[٣] (فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ)

[٤] (ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ)

« لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ » قال ابن هشام: إيلاف قريش إلفهم الخروج إلى الشام فى تجارتهم. وكانت لهم خرجتان: خرجة فى الشتاء وخرجة فى الصيف. قال : أخبرنى أبو زيد الأنصاريّ أن العرب تقول : ألفت الشيء إلفا، وآلفته إيلافا، فى معنى واحد وأنشدنى لذى الرمة(١) :

من المُؤْلِفاتِ الرمْلَ إدماء حرةٌ   شُعاعُ الضُّحَى فى لونها يَتَوَضَّحُ

والإيلاف أيضا أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك، ويقال آلف فلان إيلافا ، قال الكميت بن زيد(٢) :

بِعَامٍ يقـــول له المُؤْلِفُو   ن هذا المُعيمُ لنا المُرْجِلُ

(١) استشهد به فى اللسان (ج ٩ ص ١٠) طبعة بيروت .

شعاع الضحى : بريق لونه . يتوضّح : يتبيّن .

(٢) العيم من العيمة ، وهى الشوق إلى اللبن . والمرجل : الذى تذهب إبله فيمشى على أرجله . يريد أن تلك السنة تجعل صاحب الألف من اللبن ، يعام إلى اللبن ويسعى ماشياً .

والمعيم العام الذى قل فيه اللبن . والإيلاف أيضا أن يصير القوم ألفا ؛ يقال آلف القوم إيلافا . قال الكميت :

وآل مُزَيْقِيَاءَ غداةَ لاقَوْا بنى سعد بن ضَبَّةَ مُؤْلِفِينَا

والإيلاف أيضا أن يُؤْلفَ الشيء إلى الشيء ، فيألفه ويلزمه . يقال : آلفته إياه إيلافا . والإيلاف أيضا أن تصيّر ما دون الألف ألفا . يقال : آلفته إيلافا . انتهى . ولورود الإيلاف بهذه المعانى ، ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه . مع ما فى الإبهام ، ثم التفسير من التفخيم والتقرير . روى ابن جرير[١] عن عكرمة قال : كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن ، يختلفون إلى هذه فى الشتاء وإلى تلك فى الصيف . وعن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان : الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن فى التجارة . إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد . وكانت رحلتهم فى الشتاء إلى اليمن . وعن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكة ويصيّفون بالطائف . والأكثرون على الأول . واللام فى قوله (لإيلاف) متعلق بقوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ » أى فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين . ودخلت الفاء ، لما فى الكلام من معنى الشرط . إذ المعنى ، أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة . فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . والبيت هو الكعبة المشرفة « ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ » أى جوع شديد كانوا فيه قبل الرحلتين فـ (من) تعليلية . أى أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم أو بدلية « وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ » أى مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأمور التى كانت العرب يخاف بعضها من بعض . قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضا . فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ[٢] (أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ) ونظيره أيضا قوله تعالى[٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .
(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . (٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

تنبيه :

زعم بعض الناس أن اللام فى (لِإِيلَـٰفِ) متعلق بما قبله أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هـذا لابد من تأويله . والمعنى : أهلكهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه . أو أهلك من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترئ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن فى الإقامة والسفر ، أو هى لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف . ولذا قال ابن جرير[1] فى رده : وأما القول الذى قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون (لِإِيلَـٰفِ) بعض (أَلَمْ تَرَ) وأن لا تكون سورة منفصلة من (أَلَمْ تَرَ) وفى إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذى قاله من قال ذلك . ولو كان قوله (لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ) من صلة قوله (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) لم تكن (أَلَمْ تَرَ) تامة حتى توصل بقوله (لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ) لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذى ذكر . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٧ – سُورَة الماعُون

مدنية ، وآيها سبع .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ)

[٢] (فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ)

[٣] (وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)

[٤] (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ)

[٥] (ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

[٦] (ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ)

[٧] (وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ)

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ » أى بثواب الله وعقابه ، فلا يطيعه فى أمره ونهيه.

قال أبو السعود : استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه. والخطاب للنبيّ ﷺ . أو لكل عاقل . والرؤية بمعنى العلم . والفاء فى قوله تعالى « فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ » جواب شرط محذوف ، على أن (ذلك) مبتدأ والموصول خبره . والمعنى : هل عرفت الذى يكذِّب بالجزاء أو بالإسلام ، إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذى يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً ويزجره زجراً قبيحاً . يقال : دفعت فلاناً عن حقه : دفعت عنه وظلمته « وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » أى لا يحثّ غيره من ذوى اليسار على إطعام المحتاج وسدّ خلته . بل يبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة البؤساء .

قال الشهاب : إن كان الطعام بمعنى الإطعام ، كما قاله الراغب ، فهو ظاهر . وإلا ففيه مضاف مقدر . أى بذل طعام المسكين. واختياره على الإطعام للإشعار بأنه كأنه مالك لما يعطى له

كما في قوله[1] (فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) فهو بيان لشدة الاستحقاق. وفيه إشارة للنهي عن الامتنان : قال أبو السعود : وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما ذكر ، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة ؟

قال الزمخشريّ : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لخشي الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك . فحين أقدم عليه علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه في التحذير من المعصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ، وقوله تعالى «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» قال ابن جرير[2] : أي لاهون يتغافلون عنها وذلك باللهو عنها والتشاغل بغيرها . وتضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى . وقال القاشانيّ : أي فويل لهم ، أي للموصوفين بهذه الصفات ، من دعّ اليتيم وعدم الحث على طعام المسكين. الذين إن صلَّوْا غفلوا عن صلاتهم لاحتجابهم عن حقيقتها بجهلهم وعدم حضورهم . و(المصلين) من باب وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وصور حسناتهم سيئات وذنوب ، لعدم ماهي به معتبرة من الحضور والإخلاص ، وأورد على صيغة الجمع لأن المراد بالذي يكذب هو الجنس «الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ» أي يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا لأنهم لا يصلّون رغبة في ثواب ، ولا رهبة من عقاب . وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنوهم منهم فيكفوا عنهم. وأصل المراءاة أن ترى غيرك ويراك . أريد به العمل عند الناس ليثنوا عليهم. أوضحه الشهاب .

«وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» أي مايعان به الخلق ويصرف في معونتهم من الأموال والأمتعة وكل ماينتفع به ، لكون الجهل حاكما عليهم بالاستئثار بالمنافع وحرمانهم عن النظر التوحيديّ

---

(١) [٧٠ / المعارج / ٢٤و٢٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وعدم اعتقادهم بالجزاء . فلا محبة لهم للحق للركون إلى العالم الفانى ، ولا عدالة فى أنفسهم للاتصاف بالرذائل والبعد عن الفضائل ، فلا يعاونون أحدا فلن يفلحوا أبداً . قاله القاشانىّ .

تنبيه :

المعنىّ بهذه الآيات أولا وبالذات المنافقون فى عهد النبوة . ويدخل فيها ثانياً وبالعرض، كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتباراً بالعموم . فالسورة مدنية . ونظيرها فى المنافقين قوله تعالى[١] (وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) ولذا قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير[٢] : هم المنافقون ، كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم ، وهو الماعون .

---

(١) [٤ / النساء / ١٤٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٨ – سُورَةُ الكَوْثَر

مكية ، ويقال مدنية ، وآيها ثلاث .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ)

[٢] (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ)

[٣] (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ)

« إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ » أى الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحق والهدى ومافيه سعادة الدارين . روى ابن جرير[١] عن أبى بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن الكوثر ، فقال : هو الخير الكثير الذى آتاه الله إياه . فقلت لسعيد : إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة . فقال : هو من الخير الذى أعطاه الله إياه « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ » قال الإمام: أى فاجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده، فإنه هو مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه ، كما قال تعالى[٢] (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ) « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ » قال ابن جرير[٣] : أى إن مبغضك يا محمد، وعدوك، هو الأبتر. يعنى الأقل الأذل المنقطع دابره الذى لاعقب له .

روى ابن إسحق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : (دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له . فإذا هلك انقطع ذكره) فأنزل الله هذه السورة .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٢١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) [٦/ الأنعام / ١٦٢و١٦٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

وعن عطاء قال : نزلت فى أبى لهب . وذلك حين مات ابن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله ، فى ذلك ، السورة . وقال شمر بن عطية : نزلت فى عقبة بن أبى معيط . قال ابن كثير : والآية تعم جميع من اتصف بذلك ، ممن ذكر وغيرهم .

وقال الإمام : كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبى معيط وأبى لهب وأمثالهم ، إذا رأوا أبناء النبى ﷺ يموتون ، يقولون : بتر محمد . أى لم يبق له ذكر فى أولاده من بعده ، ويعدون ذلك عيبا يلمزونه به وينفرون به الناس من أتباعه وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ، ويعدون ذلك مغمزاً فى الدين . ويأخذون القلة والضعف دليلا على أن الدين ليس بحق ، ولو كان حقًّا لنشأ مع الغنى والقوة ، شأن السفهاء مع الحق فى كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل . وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنون أنفسهم بغلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين . وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلوّ أيديهم من المال . وكان الضعفاء من حديثى العهد بالإسلام من المؤمنين ، تَمُرُّ بنفوسهم خواطر السوء عند ما تشتد عليهم حلقات الضيق . فأراد الله سبحانه أن يمحص من نفوس هؤلاء ، ويبكّت الآخرين ، فأكد الخبر لنبيه ، أن ما يخيله النظر القصير قليلا ، هو الكثير البالغ الغاية فى الكثرة . ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز ، وأن متبعه هو الظافر ، وأن عدوه هو الخائب ، الأبتر الذى يمحى ذكره ويعفى أثره .

تنبيه :

لما روى من سبب نزول هذه السورة مما رويناه ، ذهب إمام اللغة ابن جنّى إلى تأويل الكوثر بالذرية الكثيرة . وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول .

قال ابن جنّى فى (شرح ديوان المتنبى) فى قوله يمدح طاهر بن الحسين العلوّى :

وأبهـرُ آياتِ التهامىّ أنه ... أبوك وأجْدَى مالكم من مَنَاقبِ

فى جملة ما أملاه عليّ أبو الفضل العروضيّ : أن قريشا وأعداء النبيّ ﷺ كانوا يقولون : إن محمداً أبتر لاعقب له . فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى : (إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ) أى العدد الكثير، ولست بالأبتر الذى قالوه . ومراده بالعدد الكثير الذرية وهم أولاد فاطمة. قال العروضيّ : فإن قيل: الإنسان بالأبناء والآباء والأمهات . قلنا : هذا خلاف حكم الله تعالى فإنه قد قال[1] : (وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ) إلى قوله (وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ) فجعل عيسى من أولاد إبراهيم ومن ذريته . ولاخلاف فى أنه لم يكن لعيسى أب . انتهى .

وقد بسطنا أدلة صحة انتساب الأسباط إلى أجدادهم فى كتاب (شرف الأسباط) بما لامزيد عليه . فراجعه .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٨٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠٩ – سورة الكافرون

مكية ، وآيها ست . قال ابن كثير : ثبت فى صحيح مسلم[١] عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فى ركعتى الطواف . وفى صحيح مسلم[٢] من حديث أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعتى الفجر . وروى الإمام أحمد[٣] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) . وروى الإمام أحمد عن الحارث ابن جبلة قال : قلت : يارسول الله ! علمنى شيئاً أقوله عند منامى . قال : إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ : قل يا أيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك . وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن . قال فى (اللباب) : ووجه ذلك أن القرآن مشتمل على الأمر والنهى ، وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بعمل القلوب وإلى مايتعلق بعمل الجوارح ، فحصل من ذلك أربعة أقسام . وهذه السورة مشتملة على النهى عن عبادة غير الله تعالى ، وهى من الاعتقاد ، وذلك من أفعال القلوب . فكانت هذه السورة ربع القرآن على هذا التقسيم . وسيأتى فى تفسير الإخلاص سر آخر .

(١ و٢) هذان الحديثان أملّنى التنقيب عنهما ولم أعثر عليهما .

(٣) أخرجه بالصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٢١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) ليس من الصحابة من اسمه الحارث بن جبلة ، كماهنا ، ولكن هذا الحديث أخرجه عن فروة بن نوفل الأشجعىّ عن أبيه ، بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الخامس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

[٢] (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[٣] (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

[٤] (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ)

[٥] (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

[٦] (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» أى المشركون الجاحدون للحق، الذى وضحت حجته واتضحت محجته «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» أى من الآلهة والأوثان الآن «وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» أى الآن «وَلَا أَنَا عَابِدٌ» أى فيما أستقبل «مَّا عَبَدتُّمْ» أى فيما مضى «وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ» أى فيما تستقبلون أبداً « مَا أَعْبُدُ » أى الآن وفيما أستقبل ـ هكذا فسره الإمام ابن جرير[1] رحمه الله. ثم قال: وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ فى أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك فى السابق من علمه. فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدثوا به أنفسهم . وإن ذلك غير كائن منه ولا منهم فى وقت من الأوقات. وآيس نبيّ الله ﷺ من الطمع فى إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً. فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا. إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضٌ قبل ذلك كافراً . ثم روى رحمه الله عن ابن إسحق عن سعيد بن مينا قال : لقى الوليد بن المغيرة

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف ، رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد! هلم، فلنعبد ماتعبد وتعبد مانعبد ، ونشركك فى أمرنا كله. فإن كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه . وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يديك، كنت قد شركتنا فى أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ..) السورة. وفى رواية: وأنزل الله فى ذلك هذه السورة، وقوله(١) (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ) (بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ) انتهى .

وقيل: الجملتان الأخيرتان لنفى العبادة حالا . كما أن الأوليين لنفيها استقبالا . قال أبو السعود: وإنما لم يقل (ما عبدت) ليوافق (مَا عَبَدتُّمْ) لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى . وإيثار (ما) فى (مَآ أَعْبُدُ) على (مَن) لأن المراد هو الوصف . كأنه قيل (ما أعبد) من المعبود العظيم الشأن الذى لا يقادر قدر عظمته . وقيل: إن (ما) مصدرية . أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى. وقيل: الأوليان بمعنى (الذى) والأخريان مصدريتان. وقيل: قوله تعالى (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) تأكيد لقوله تعالى (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) ثانياً تأكيد لمثله المذكور أولا . انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية؛ أن المراد بقوله (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) نفى الفعل، لأنها جملة فعلية (وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) نفى قبوله لذلك بالكلية، لأن النفى بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلا لذلك. ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعىّ أيضا. وهو قول حسن .

واختار الإمام كون (ما) فى الأوليين موصولة وفيما بعدها مصدرية ، قال: فمفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام فى المعبود . ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف فى العبادة. فلا

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٤و٦٦] .

معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن النـد والشفيع، المتعالى عن الظهور فى شخص معين، الباسط فضله لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه . والذى تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتى مخلصة لله وحده، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى، فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هى من عبادتى ؟ وقوله تعالى « لَكُمْ دِينُكُمْ » تقرير لقوله تعالى (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) وقوله تعالى (وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) كما أن قوله تعالى « وَلِىَ دِينِ » تقرير لقوله تعالى (وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) والمعنى أن دينكم، الذى هو الإشراك ، مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوزه إلى الحصول لى أيضا ، كما تطمعون فيه . فإن ذلك من المحالات . وأن دينى الذى هو التوحيد ، مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدل الإمام الشافعىّ وغيره بهذه الآية الكريمة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) على أن الكفر كله ملة واحدة فورّث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به . لأن الأديان ، ماعدا الإسلام ، كلها كالشىء الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود ، وبالعكس . لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] (لَا يَتَوارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتّى) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٦٦٦٤ (طبعة المعارف) .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٠ — سورة النصر

مدنية ، وآيها ثلاث .

وهى آخر سورة نزلت فى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما . وروى البيهقىّ عن ابن عباس ، أن النبىّ ﷺ قال ، لما نزلت هذه السورة : إنه قد نعيت إلىّ نفسى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ)

[٢] (وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا)

[٣] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا)

« إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ » أى لدينه الحق على الباطل « وَٱلْفَتْحُ » أى فتح مكة الذى فتح الله به بينه وبين قومه صلوات الله عليه، فجعل له الغلبة عليهم وضعف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة « وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا » أى ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون فى دين الله ، وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذى كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحادا ، كما كان فى بدء الأمر أيام الشدة . إذا حصل ذلك كله وهو لاريب حاصل « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله . وعن أن يخلف وعده فى تأييده . وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يغلبه غالب، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين « وَٱسْتَغْفِرْهُ » أى اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبةُ من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال .

فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الـكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم « إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ») أى إنه سبحانه لايزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربٌّ يربى النفوس بالمحن . فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشددهما بحسن الوعد . ولايزال بها حتى تبلغ الـكمال . وهى فى كل منزلة تتوب عن التى قبلها . وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره ، والنزوع إليــه عما كان من خواطر النفس . فلن تعود الشــدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الـكثرة فى ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبىّ ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نعيت إليه نفسه . هذا ملخص ما أورده الإمام فى تفسيره .

تنبيهات :

الأول ــ قال ابن كثير : المراد بالفتح هٰهنا فتح مكة قولا واحداً . فإن أحياء العرب كانت تتلوّم بإسلامها فتح مكة . يقولون إن ظهر على قومه ، فهو نبىّ . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً . ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة . وقد روى البخارىّ فى صحيحه[1] عن عمرو ابن سلمة : كنا بماء ممرّ الناس . وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم : ماللناس ؟ ماللناس ؟ ماهذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله أوحى إليه (أوأوحى الله بكذا) فـكنت أحفظ ذلك الـكلام وكأنما يُغْرَى فى صدرى . وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه . فإنه إن ظهر عليهم فهو نبىّ صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبى قومى بإسلامهم . . الحديث .

(١) أخرجه فى : ٦٤ ــ كتاب المغازى ، ٥٣ ــ باب وقال الليث ، حديث رقم ١٩٢٥

الثاني ـ قال الرازيّ : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس فى وقت نزول هذه السورة قولان :

أحدهما ـ أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر . وروى أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً . ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما ـ أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه . ونظيره[1]: (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) . وقوله : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ) يقتضى الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع (إذا جاء) و (إذا وقع) وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات . من حيث أنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقا له . والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى): ولأبى يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه السورة فى أوسط أيام التشريق ، فى حجة الوداع . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الوداع .

ثم قال : وسئلت عن قول الكشاف : إن سورة النصر نزلت فى حجة الوداع أيام التشريق ، فكيف صدرت بـ (إذا) الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف مانقله . وعلى تقدير صحته ، فالشرط لم يتكمل بالفتح . لأن مجىء الناس أفواجا لم يكن كمل ، فبقية الشرط مستقبل .

وقد أورد الطيبيّ السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدهما ـ أن (إذا) قد ترد بمعنى (إذ) كما فى قوله تعالى[2]: (وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً ..) الآية.

ثانيهما ـ أن كلام الله قديم . وفى كل من الجوابين نظر لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث ـ قال الشهاب: المراد بـ (الناس) العرب . فـ (أل)عهدية . أو المراد الاستغراق

(١) [٢٨ / القصص / ٨٥] . (٢) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

العرفى . والمراد عبدة الأصنام منهم . لأن نصارى تغلب لم يسلموا فى حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع ـ روى البخارى [١] عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماصلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ) إلا يقول فيها : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفيه عنها أيضاً [٢] : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى (يتأول القرآن) يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، فى أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيم فى (الهدى) كأنه أخذه من قوله تعالى : (وَٱسْتَغْفِرْهُ) لأنه كان يجعل الإستغفار فى خواتم الأمور . فيقول إذا سلم من الصلاة : أستغفر الله ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : غفرانك . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك [٣] : (ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ . . .) الآية .

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ سورة النصر ، ١ ـ حدثنا الحسن بن الربيع ، حديث رقم ٤٨١ .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١٠ ـ سورة النصر ، ٢ ـ حدثنا عثمان ابن أبى شيبة ، حديث رقم ٤٨١ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٩] .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١١ - سورة المسد

ويقال سورة أبي لهب ، مكية وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ)

[٢] (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ)

[٣] (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ)

[٤] (وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ)

[٥] (فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)

« تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ » أى خسرت يداه ، وخسر هو . واليدان كناية عن الذات والنفس ، لما بينهما من اللزوم فى الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل . وجملة (وتب) مؤكدة لما قبلها ، أو المراد بالأولى خسرانه فيما كسبه وعمله بيديه، حيث لم يفده ولم ينفعه . وما بعده عبارة عن خسرانه فى نفسه وذاته؛ لأن سعى المرء لإصلاح نفسه وعمله. فأخبر بأن محروم منهما ، كما تشير له الآيتان بعد : أعنى هلاك عمله وهلاك نفسه . وقال ابن جرير[1]: كان بعض أهل العربية يقول قوله : (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ) دعاء عليه من الله . وأما قوله : (وَتَبَّ) فإنه خبر . أى عما سيحقق له فى الدنيا والآخرة . وعبر عنه بالماضى لتحققه .

وأبولهب أحد عمومة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزّى . وقد اشتهر بكنيته وعرف بها لولدٍ له يقال له لهب . أو لتلهب وجنتيه وإشراقهما . مع الإشارة إلى أنه من أهل النار ، وأن مآله إلى نار ذات لهب . فوافقت حاله كنيته ، فحسن ذكره بها .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٣٦ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قال الرواة : كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبيّ ﷺ . وأذية له وبغضة له وازدراء به وتنقصا له ولدعوته . ومات على كفره بعد وقعة بدر ولم يحضرها . بل أرسل عنه بديلا . فلما بلغه ما جرى لقريش مات غما ـ وقد روى الشيخان [١] عن ابن عباس قال : لما نزلت [٢] (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) صعد النبيّ ﷺ على الصفا ونادى : يا بنى فهر ! يابنى عدىّ ! (لبطون من قريش) حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولا ، لينظر ما هو . فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فإنى لكم نذير بين يدىْ عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت هذه السورة.

وروى الإمام أحمد [٣] عن ربيعة بن عباد الديلىّ قال : رأيت النبىّ ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : يا أيها الناس ! قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا . والناس مجتمعون عليه . ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ، ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب . وفى رواية له : يتبعه من خلفه يقول : يا بنى فلان ! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن ، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة . فلاتسمعوا له ولاتتبعوه . « مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ » أى أىّ شىء أغنى عنه ماله وما كسبه من سخط الله عليه وخسرانه . فكسبه هو عمله الذى يظن أنه منه على شىء . وقيل : ولده . لقرن الأولاد بالأموال فى كثير من الآيات . وكانت العرب تعد أولادها للنائبات كالأموال ، فنفى إغناءها عنه حين حل به التباب .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١١١ ـ سورة المسد ، ـ حدثنا يوسف بن موسى ، حديث رقم ٧٣٩ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٥ (طبعتنا) .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] . (٣) أخرجه بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الرابع .

قال الشهاب : والذى صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : معتب وعتبة وهما أسلما . وعتيبة (مصغراً) وهذا هو الذى دعا النبيّ ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ، ورد ابنته وطلقها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك . فأكله السبع فى خرجة خرجها إلى الشام . وفيه يقول حسان[1] رضى الله عنه :

من يرجعُ العامَ إلى أهلِهِ ... فما أكيلُ السَّبْعِ بالراجعِ

ثم قال . ولهب هو أحد هؤلاء فيما قيل ، قال الثعالبيّ : ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب . ولما أضيف إلى الله ، كان أعظم أفراده « سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ » أى توقد واشتعال ، وهى نار الآخرة ، جزاء ما كان يأتيه من مقاومة الحق ومجاحدته « وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ » أى وسيصلاها معه امرأته أيضا : فـ (امرأته) مرفوع عطفا على الضمير فى (سيصلى) أوعلى الابتداء ، و (فى جيدها) الخبر . وقرئ (حمالة) بالنصب على الشتم والذم ، وبالرفع نعتاً أو بدلًا أو عطف بيان . إنما قيل لها ذلك لأنها كانت تحطب الكلام وتمشى بالنميمة . كما قاله مجاهد وعكرمة وقتادة .

قال الزمخشريّ : ويقال للمشَّاء بالنمائم المفسد بين الناس ، يحمل الحطب بينهم ، أى يوقد بينهم ويورث الشر ، قال[2] :

من البيضِ لم تُصْطَدْ على ظهرِ لَأْمةٍ ... ولَمْ تَمْشِ بين الحىّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ

يمدحها بأنها من البيض الوجوه وأنها بريئة من أن تُصْطَادَ على سوء ولؤم فيها . ومن أن تمشى بالسعاية والنميمة بين الناس . وإنما جعل رطباً ليدل على التدخين الذى هو زيادة الشر . ويقال : فلان يحطب على فلان ، إذا أغرى به .

---

(١) لم أعثر عليه فى ديوان حسان ، فى طبعتيه .

(٢) استشهد به فى الكشاف فى تفسير السورة .

واستشهد به فى اللسان بالمجلد الأول بالصفحة رقم ٣٢٢ (طبعة بيروت) .

وقال : يعنى بالحطب الرطب ، النميمة .

قال الشهاب : وهى استعارة مشهورة لطيفة ، كاستعارة حطب جهنم للأوزار .

قال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها (أروى) بنت حرب بن أمية . وهى أخت أبى سفيان وعمة معاوية . وكانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » قال الإمام رحمه الله : أى فى عنقها حبل من الليف . أى أنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حامل الحطب الذى فى عنقه حبل خشن ، يشدّ به ما حمله إلى عنقه ، حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفى عنقها حبل من الليف ، تشد به الحطب إلى كاهلها ، حتى تكاد تختنق به .

وقال أيضا : قد أنزل الله فى أبى لهب وفى زوجته هذه السورة ، ليكون مثلا يعتبر به من يعادى ما أنزل الله على نبيه ، مطاوعة لهواه وإيثارا لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال ، واغترارا بما عنده من الأموال ، وبما له من الصولة أومن المنزلة فى قلوب الرجال ، وأنه لاتغنى عنه أمواله ولا أعماله شيئا . وسيصلى ما يصلى . نسأل الله العافية .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٢ — سورة الإخلاص

مكية ، وآيها أربع . روى البخاري[١] عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية . وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ (قل هو الله أحد) . فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك . فسألوه . فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبه .

وروى الإمام أحمد[٢] عن أبي مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن . وأخرجه البخاري في قصة . وروى الإمام أحمد[٣] عن أبي ابن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ! انسب لنا ربك . فأنزل الله تعالى هذه السورة .

---

(١) أخرجه في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٥٩٦ .

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء الرابع .

(٣) أخرجه عن أبي سعيد الخدري في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، حديث رقم ٢٠٨١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ)

[٢] (ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ)

[٣] (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

[٤] (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ)

« قُلْ هُوَ » أى الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذى لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره ، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير « ٱللَّهُ أَحَدٌ » أى واحد فى الألوهية والربوبيــة . قال الزمخشرىّ : (أَحَدٌ) بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : (الأحد) فى أسمائه تعالى ، الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والهمزة فيه بدل من الواو . وأصله (وحد) لأنه من الوحدة . وفى (المصباح) : يكون (أحد) مرادفاً (لواحد) فى موضعين سماعاً :

أحدها ـ وصف اسم البارئ تعالى فيقال هو الواحد وهو الأحد ، لاختصاصه بالأحدية . فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى . فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك .

والموضع الثانى ـ أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال . فيقال أحد وعشرون ، وواحد وعشرون . وفى غير هذين يقع الفرق بينهما فى الاستعمال ، بأن (الأحد) لنفى مايذكر معه ، فلا يستعمل إلا فى الجحد ، لما فيه من العموم ، نحو ما قام أحد . أو مضافاً نحو (ما قام أحد الثلاثة) . و (الواحد) اسم لمفتتح العدد . ويستعمل فى الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال (جاءنى واحد من القوم) . انتهى .

وقال الأزهريّ : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثانى له . ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما (أحد) فلا ينعت به غير الله تعالى ، لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

قال الإمام : ونكّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواه . فإن الوحدة تكون لكل واحد . تقول (لا أحد فى الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذى كان يزعمه المخاطبون هو التعدد فى ذاته . فأراد نفى ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف مايعتقد به أهل الأصلين من المجوس ، ومايعتقده القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتى لابن تيمية كلام آخر فى سر إيثاره بالتنكير « ٱللَّـهُ ٱلصَّمَدُ » أى الذى يصمد إليه فى الحوائج ، ويقصد إليه فى الرغائب . إذ ينتهى إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) . وهكذا قال ابن جرير[1] : الصمد عند العرب هو السيد الذى يصمد إليه ، الذى لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها . ومنه قول الشاعر[2] :

أَلا بَكَّرَ النَّاعِى بِخَيْرَىْ بَنِى أَسَدْ بِعَمْرِو بْنِ مَسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

قال الشهاب : فهو (فَعَل) بمعنى مفعول . وصمد بمعنى قصد . فيتعدى بنفسه وباللام وإلى . وقال ابن تيمية رحمه الله : وفى الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما ـ أن الصمد هو الذى لا جوف له .

والثانى ـ أنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

---

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٤٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٢٥٨ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

ثم توسع رحمه الله فى مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :

وإنما أدخل اللام فى (الصمد) ولم يدخلها فى (أحد) لأنه ليس فى الموجودات مايسمى أحداً فى الإثبات مفرداً غير مضاف . ولم يوصف به شىء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما يستعمل فى غير الله فى النفى وفى الإضافة وفى العدد المطلق . وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل صمد بل قال (ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه . فإنه المستوجب لغايته على الكمال . والمخلوق ، وإن كان صمدا من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه . فإنه يقبل التفرق والتجزئة . وهو أيضاً محتاج إلى غيره . فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شىء ولايصمد هو إلى شىء ، إلا الله . وليس فى المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض . والله سبحانه هو الصمد الذى لا يجوز عليه شىء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه .

وقال أبو السعود . وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الألوهية . وتعرية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى . بيّن أولًا ألوهيته عزوجل المستتبعة لكافة نعوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة فى الحقيقة وخواصها . ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتى عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فى وجودها وبقائها وسائر أحوالها ، تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح . ثم صرح ببعض مايندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه «لَمْ يَلِدْ» تنصيصاً على إبطال زعم المفترين فى حق الملائكة والمسيح . ولذلك ورد النفى على صيغة الماضى . أى لم يصدر عنه ولد ، لأنه لايجانسه شىء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . كما نطق به قوله تعالى [1] (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ) ولا يفتقر إلى

(١) [٦/ الأنعام/ ١٠١] .

ما يمينه أو يخلفه ، لا ستحالة الحاجة والفناء عليه ، سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية . وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة ، كل أفرادها . سواء سموها حسية أو عقلية ، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التى هم مضطربون فيها ، هل هى جواهر أو أعراض؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة . وذلك شبيه بقول مشركى العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى[١] (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ) وقال تعالى[٢] (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما زعم هؤلاء أن النفوس هى الملائكة ، وهى متولدة عن الله ، فقال تعالى[٣] (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ) والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله « وَلَمْ يُولَدْ » نفى لإحاطة النسب من جميع الجهات . فهو الأول الذى لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذى لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله (وَلَمْ يُولَدْ) يصرح ببطلان ما زعمه بعض أرباب الأديان من أن ابنا لله يكون إلها ، ويعبد عبادة الإله ، ويقصد فيما يقصد فيه الإله . بل لا يستحى الغالون منهم أن يعبروا عن والدته بأم الإله القادرة ، فإن المولود حادث ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزلىّ مع أبيه ، مما لا يمكن تعقله . فهو سبحانه منزه عن ذلك « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ » أى ولم يكن أحد يكافئه أى يماثله من صاحبة أو غيرها . وقال الإمام : الكفؤ معناه المكافئ والمماثل فى العمل والقدرة . وهو نفى لما يعتقده بعض الوثنيين فى الشيطان مثلا . فقد نفى بهذه السورة

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] .

(٢) [٣٧ / الصافات ١٥١ ، ١٥٢] .

(٣) [١٦ / النحل / ٥٧] .

جميع أنواع الإشراك . وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير[1]: الكفؤ والكفء والكفاء ، في كلام العرب ، واحد . وهو المثل والشِّبْه .

وقرئ (كُفُوًا) بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واواً . وقرئ بتسكين الفاء وهمزها ، وهما قراءتان معروفتان ، ولغتان مشهورتان . و (له) صلة ا (كفوا) قدمت عليه ، مع أن حقها التأخر عنه ، للاهتمام بها ، لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل .

(فوائد من هذه السورة)

الأولى ـ قال الشهاب : فإن قلت المأمور بـ (قل) من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالمقول وحده ، فلم كانت (قُلْ) من المتلوّ فيه وفي نظائره في القراءة ؟ قلت : المأمور به سواء كان معينا أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول . فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على مرّ الدهور .

الثانية ـ قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى (اللَّهُ الصَّمَدُ) من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم ، كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما . قالوا : هو صمد ، والصمد الذي لا جوف له . وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة . ولهذا قيل في تفسيره إنه الذي لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب . ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو جسم . وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع . ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع . وأما النفاة فقالوا : الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام . وقالوا أيضا : الأحد الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً

(١) انظر الصفحة رقم ٣٤٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد . والصمد الغنيّ عما سواه ، فالمركب لايكون صمداً . انتهى .

وقال الرازيّ : قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحدا ينافي كونه جسما . فقدمة هذه الآية دالة على أنه لايمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة . وتعالى الله عن ذلك . فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه . وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير . وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجبا لذاته ، ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول: الصحيح في تأويل الصمد ما ذكرناه أولا . وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب في معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثاني ولا لوازمه .

الثالثة ـ قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات . في شيء من صفات الكمال الثابتة له . وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله . وهذه السورة دلت على النوعين . فقوله (أحد) من قوله (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ينفي المماثلة والمشاركة . وقوله (صمد) يتضمن جميع صفات الكمال . فالنقائص جنسها منفيّ عن الله تعالى . وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها . بخلاف ما يوصف به الرب . ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك . فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني ، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلا عن أن يماثله فيه . بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم ، وكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمى الله نفسه عليما حليما رؤوفاً رحيما سميعاً بصيراً عزيزاً ملكا جباراً متكبراً ، وسمى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الأسماء . مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلا للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء .

الرابعة ـ قدمنا ما ورد فى الحديث من أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .

وقد ذكروا فى ذلك وجوهاً ـ منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام . ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصافات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقال الغزالىّ فى (جواهر القرآن) : مهمات القرآن هى معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم . فهذه المعارف الثلاثة هى المهمة . والباقى توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهى معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك فى الجنس والنوع . وهو المراد بنفى الأصل والفرع والكفؤ .

قال : والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذى لا يقصد فى الوجود للحوائج سواه . نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم . فلذلك تعدل ثلث القرآن أى ثلث الأصول من القرآن كما قال (الحج عرفة) أى هو الأصل والباقى تبع .

وقال ابن القيّم فى (زاد المعاد) : كان النبىّ ﷺ يقرأ فى سنة الفجر والوتر بسورتى الإخلاص والكافرون . وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد . فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشركة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه . ونفى الولد والوالد الذى هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته . ونفيُ الكفؤ المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والتنظير : فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ، ونفى كل نقص عنه ، ونفى إثبات شبيه أو مثل له فى كماله ونفى مطلق الشريك عنه . وهذه الأصول هى مجامع التوحيد العلمىّ الاعتقادىّ الذى يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك . ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن . فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء . والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهى ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه ـ فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه

وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن. وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العلمى. كما خلصت سورة قل يا أيها الكافرون من الشرك العملى الإرادى القصدى . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازله، كانت سورة (قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر. و(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) تعدل ربع القرآن ، وفى الترمذى[1] : من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يرفعه : (إِذَا زُلْزِلَتِ) تعدل نصف القرآن و (قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن و (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) تعدل ربع القرآن . رواه الحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العملى الإرادى أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لما لها فيه من نيل الأغراض. وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمى وإزالته . لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشىء على غير ماهو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب مايدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه . فجاء من التأكيد والتكرار فى سورة (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) المتضمنة لإزالة الشرك العملى مالم يجئ مثله فى سورة (قُلْ هُوَ ٱللَّـهُ أَحَدٌ) .

ولما كان القرآن شطرين: شطراً فى الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها . وشطراً فى الآخرة ومايقع فيها . وكانت سورة (إِذَا زُلْزِلَتِ) قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر فيها إلا الآخرة ، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن . فأحْرِ بهذا الحديث أن يكون صحيحاً. والله أعلم .

---

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٠ ـ باب ما جاء فى إذا زلزلت .

الخامسة ـ قال ابن تيمية : سورة (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر فى أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة . ولا منافاة . فإن الله أنزلها بمكة أولًا . ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى. وهذا مما ذكر طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك . فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقًّا . والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب . وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم فى مقدمة هذا التفسير ، ومواضع أخر منه ، تحقيق البحث فى معنى سبب النزول ، بما يدفع المنافاة فى أمثال هذا . فراجعه . ولهذه السورة الشريفة تفاسير على حدة . من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما فى تفسيرها ، والثانى فى سر كونها تعدل ثلث القرآن . فاحتفظ بهما . والله الهادى .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٣ - سُورَة الفَلَق

مكية ، وآيها خمس : روى الإمام مسلم[١] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : ألم تر آياتٍ أُنزلت هذه الليلة ، لم ير مثلهن قط : قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب النّاس. وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود والترمذيّ والنسائيّ عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ صلى بهما فى سفر .

(١) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾

[٢] ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

[٣] ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

[٤] ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾

[٥] ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ » أى ألوذ به وألتجئ إليه . والفلق فَعَل بمعنى المفعول . كقَصَص بمعنى مقصوص . قال ابن تيمية : كل ما فلقه الرب فهو فلق . قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحب والنوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بانَ لك أن أكثره عن انفلاق . كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح . فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله . وأما من قال إنه واد فى جهنم أو شجرة فى جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته . لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقلٍ عن النبيّ ﷺ ، ولا فى تخصيص ربوبيته بذلك حكمة . بخلاف ما إذا قال : رب الخلق أو رب كل ما انفلق أو رب النور الذى يظهره على العباد بالنهار . فإن فى تخصيصه هذا بالذكر ، ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . انتهى .

وقوله تعالى « مِن شَرِّ مَا خَلَقَ » أى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم ، كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار . وقوله سبحانه «وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ» قال أبو السعود :

تخصيص لبعض الشرور بالذكر ، مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه ، لكثرة وقوعه . ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة ، وأدعى إلى الإعاذة .
وقال الإمام ابن تيمية : وإذا قيل الفلق يعم ويخص ، فبعمومه استعيذ من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النهاريّ استعيذ من شر غاسق إذا وقب. فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله[1] ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة . قالوا : ومعنى (وَقَبَ) دخل في كل شيء . قال الزجاج : الغاسق البارد . وقيل لليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار . وقد روى الترمذيّ[2] والنسائيّ عن عائشة أن النبيّ ﷺ نظر إلى القمر فقال : ياعائشة ! تعوّذي بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب. وروى من حديث أبي هريرة مرفوعاً : الغاسق النجم . وقال ابن زيد : هو الثريا . وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه. قال ابن قتيبة: ويقال الغاسق القمر إذا كسف واسودّ . ومعنى وقب دخل في الكسوف . وهذا ضعيف . فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره ، وهو لايقول إلا الحق . وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره . وقد قال الله تعالى[3] ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ فالقمر آية الليل . وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل . فأمرُه بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته . والدليلُ مستلزم للمدلول. فإذا كان شر القمر موجوداً ، فشر الليل موجود. وللقمر من التأثير ما ليس لغيره. فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى. ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى[4] (هو

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٨] .
(٢) أخرجه في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ١١٣ و ١١٤ سورة المعوّذتين .
(٣) [١٧ / الإسراء / ١٢] . (٤) أخرجه الترمذيّ في : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٩ ـ سورة التوبة ، ١٤ ـ حدثنا قتيبة ، عن أبي سعيد الخدريّ .

مسجدى) هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً . وكذلك قوله عن أهل الكساء[١] (هؤلاء أهل بيتى) مع أن القرآن يتناول نساءه . فالتخصيصُ لكون المخصوص أولى بالوصف . فالقمر أحق ما يكون بالاستعاذة ، والليل مظلم منتشر فيه شياطين الإنس والجن ، مالاتنتشر بالنهار . ويجرى فيه من أنواع الشر مالا يجرى بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك . فالشر دائما مقرون بالظلمة . ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم. لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار . ويتوسلون بالقمر وبدعوته وعبادته . وأبو معشر البلخىّ له (مصحف القمر) يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

ثم خص تعالى مخلوقات أخر بالاستعاذة من شرها ، لظهور ضررها وعسر الاحتياط منها. فلا بد من الفزع إلى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال سبحانه « وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ » قال ابن جرير[٢]: أى ومن شر السواحر اللاتى ينفثن فى عقد الخيط حين يرقين عليها ، وبه قال أهل التأويل . فعن مجاهد : الرقى فى عقد الخيط . وعن طاووس : ما من شىء أقرب إلى الشرك من رقية المجانين . ومثله عن قتادة والحسن . وقال الزمخشرىّ : النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ويرقين . والنفث النفخ مع ريق . ولا تأثير لذلك ، اللهم إلا إذا كان ثَمَّ إطعام شىء ضار أو سقيه أو إشمامه ، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله عزّ وجلّ قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبؤون به .

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المناقب ، ٦٠ ـ باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ حدثنا محمود بن غيلان .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه .

أحدها ـ أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ، ومن إثمهن فى ذلك .

والثانى ـ أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن .

الثالث ـ أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . انتهى .

وفى الآية تأويل آخر . وهو اختيار أبى مسلم رحمه الله . قال : النفاثات النساء . والعقد عزائم الرجال وآراؤهم ، مستعار من عقد الحبال . والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حبله سهلًا . فمعنى الآية : إن النساء لأجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة . فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن . كقوله[1] : (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) فكذلك عظم الله كيدهن فقال[2] (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) .

تنبيه :

قال الشهاب : نقل فى (التأويلات) عن أبى بكر الأصم أنه قال : إن حديث سحره صلوات الله عليه ، المروىّ هنا ، متروك لما يلزمه من صدق قول الكفرة أنه مسحور . وهو مخالف لنص القرآن حيث أكذبهم الله فيه . ونقل الرازىّ عن القاضى أنه قال : هذه الرواية باطلة . وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول[3] (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ). وقال[4] (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ) ولأن تجويزه يفضى إلى القدح فى النبوّة . ولأنه ، لو صح ذلك ، لكان من الواجب أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل . ولكان الكفار يعيرونه بأنه مسحور . فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين فى تلك الدعوة ، ولحصل فيه ، عليه السلام ، ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز . انتهى .

(١) [٦٤ / التغابن / ١٤] .
(٢) [١٢ / يوسف / ٢٨] .
(٣) [٥ / المائدة / ٦٧] .
(٤) [٢٠ / طه / ٦٩] .

ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه ، وإن كان مخرّجا في الصحاح . وذلك لأنه ليس كل مخرّج فيها سالماً من النقد، سنداً أو معنى. كما يعرفه الراسخون. على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة .

قال الإمام الغزاليّ في (المستصفى) : مامن أحد من الصحابة إلا وقد ردّ خبر الواحد. كردّ عليّ رضي الله عنه خبر أبي سنان الأشجعيّ في قصة (بروع بنت واشق) وقد ظهر منه أنه كان يحلف على الحديث . وكردّ عائشة خبر ابن عمر في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه . وظهر من عمر نهيه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث عن الرسول ﷺ . وأمثال ذلك مما ذكر. أوردَ ذلك الغزاليّ في مباحث (خبر الآحاد في شبه المخالفين فيه) . وذكر رحمه الله في (مباحث الإجماع) إجماع الصحابة على تجويز الخلاف للآحاد ، لأدلة ظاهرة قامت عندهم .

وقال الإمام ابن تيمية في (المسوّدة) : الصواب أن من رد الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا. فإن هذا لا يكفر ولا يفسق. وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً، فقد ردّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وقال العلامة الفناري في (فصول البدائع) : ولا يضلل جاحد الآحاد . والمسألة معروفة في الأصول . وإنما توسعتُ في نقولها لأني رأيت من متعصبة أهل الرأي مَن أكبر رد خبرٍ رواه مثل البخاريّ، وضلل منكره. فعلمت أن هذا من الجهل بفن الأصول، لا بل بأصول مذهبه. كما رأيت عن الفناري . ثم قلت : العهد بأهل الرأي أن لا يقيموا للبخاريّ وزناً . وقد ردوا المئين من مروياته بالتأويل والنسخ. فمتى صادقوه حتى يضللوا مَنْ ردّ خبراً فيه؟؟ وقد برهن على مدعاه ، وقام يدافع عن رسول الله ومصطفاه .

وبعد ، فالبحث في هذا الحديث شهير قديماً وحديثاً. وقد أوسع المقال فيه شراح (الصحيح) وابن قتيبة في شرح (تأويل مختلف الحديث) والرازيّ . والحق لا يخفى على طالبه، والله أعلم.

«وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» قال الزمخشريّ : أي إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود . لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره ، فلا ضرر يعود منه على من حسده . بل هو الضارّ لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره .

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٤ - سُورَةُ النَّاس

مكية ، وهى ست آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

[٢] (مَلِكِ النَّاسِ)

[٣] (إِلَٰهِ النَّاسِ)

[٤] (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ)

[٥] (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)

[٦] (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » أى ألجأ إليه وأستعين به ، و (رب الناس) الذى يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره . وهو رب العالمين كلهم والخالق للجميع « مَلِكِ النَّاسِ » أى الذى ينفذ فيهم أمره وحكمه وقضاؤه ومشيئته دون غيره « إِلَٰهِ النَّاسِ » أى معبودهم الحق وملاذهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذى هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها « مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ » أى الشيطان ذى الوسوسة . وقد زعم الزمخشريّ ومن تبعه ؛ أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير (ذى) . وحقق غير واحد أنه صفة كالثرثار ، وأن فِعلالا (مصدر فعلل) بالكسر والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام فى ذلك الإمام ابن القيّم فى (بدائع الفوائد) « الْخَنَّاسِ » أى الذى عادته أن يخنس ــ أى يتأخر ــ إذا ذكر الإنسان ربه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة . وكلما تنبه العبد فذكر الله ، خنس « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » أى بالإلقاء الخفيّ فى النفس . إما بصوت خفيّ لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت .

قال ابن تيمية : و (الوسوسة) من جنس (الوشوشة) بالشين المعجمة . يقال (فلان يوسوس فلانا) و (قد وشوشه) إذا حدثه سرًّا فى أذنه . وكذلك الوسوسة. ومنه وسوسة الحلىّ . لكن هو بالسين المهملة ، أخص .

وقال الإمام: إنما جعل الوسوسة فى الصدور، على ما عهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيرا ما يقال (إن الشك يحوك فى صدره) وما الشك إلا فى نفسه وعقله. وأفاعيل العقل فى المخ ، وإن كان يظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

وقوله تعالى « مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ » بيان للذى يوسوس ، على أنه ضربان : ضرب من الجِنّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم . وضرب من الإنس كالمضللين من أفراد الإنسان ، كما قال تعالى(١) (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا). وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن . قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فالشر من الجهتين جميعا. والإنس لهم شياطين كالجن شياطين.

وقال أيضا : الذى يوسوس فى صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس . فليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يُشاهَد .

لطائف :

الأولى ـ قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ، لأنهم المستعيذون . فيستعيذون

(١) [٦ / الأنعام / ١١٢] . (٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

بربهم الذى يصونهم ، وبملكهم الذى أمرهم ونهاهم وبإلههم الذى يعبدونه من شر الذى يحول بينهم وبين عبادته . ويستعيذون أيضا من شر الوسواس الذى يحصل فى نفوس منهم ومن الجنّة . فإنه أصل الشر الذى يصدر منهم والذى يرد عليهم .

وقال الناصر : فى التخصيص جرى على عادة الاستعطاف ، فإنه معه أتمّ .

الثانية ـ تكرير المضاف إليه وهو (الناس) باللفظ الظاهر ، لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة . فإن الإظهار أنسب بالإيضاح المسوق له عطف البيان . وأدل على شرف الإنسان . وقيل : لا تكرار . لجواز أن يراد بالعام بعض أفراده . فـ (الناس) الأوّل بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية . والثانى الكهول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم . والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمّل .

الثالثة ـ فى تعداد الصفات العليا هنا ، إشارة إلى عظم المستعاذ منه . وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك المستعاذ به فى السورة قبل ، وكرره هنا إظهاراً للاهتمام فى هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة ـ قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام . ولهذا قال المفسرون فى قوله (مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) قالوا : ما تحدّث به نفسه . وقد قال ﷺ(1) : إن الله تجاوز لأمتى ما تحدّث به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به . وهو نوعان : خبر وإنشاء . فالخبر إما عن ماض وإما عن مستقبل . فالماضى يذكره والمستقبل يحدثه ، بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره . فهذه الأمانىّ والمواعيد الكاذبة . والإنشاء أمر ونهى وإباحة .

(1) أخرجه البخارىّ فى : ٤٩ ـ كتاب العتق ، ٦ ـ باب الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ ، عن أبى هريرة .

الخامسة ـ قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة . فإن كان مما ألقى فى النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود . وإن كان مما دلّ على أنه فجور ، فهو من الوسواس المذموم . وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم فى الفرق بين وسوسة النفس والشيطان ، فقال : ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه . وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه .

السادسة ـ قال الإمام الغزالىّ فى (الإحياء) فى بيان تفصيل ماينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة ، ما مثاله : وإذا قلت (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل ، حسداً لك على مناجاتك مع الله عزوجل ، وسجودك له. مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها . وإن استعاذتك بالله سبحانه منه ، بترك ما يحبه ، وتبديله بما يحب الله عز وجل ، لا بمجرد قولك . فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقتله فقال (أعوذ منك بهذا الحصن الحصين) وهو ثابت على مكانه ذلك لا ينفعه ، بل لا يفيده إلا بتبديل المكان . فكذلك من يتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان . وحصنُه (لا إله إلا الله) إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا ﷺ ـ . لا إله إلا الله حصنى . فمن دخل حصنى أمِنَ من عذابى . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه . فأما من اتخذ إلـهه هواه ، فهو فى ميدان الشيطان لا فى حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التعوّذ ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعوذ من ابتعاده بالفعل عما يتعوذ منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لى من قبل أن أراه فى كلام حجة الإسلام ، حتى رأيته ، فحمدت الله على الموافقة .

السابعة ـ قال الإمام الغزالىّ فى (الإحياء) أيضا ، فى بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ، ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب فى مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصبّ إليه الأحوال من كل باب . ومثاله أيضا مثال هدف تنصبّ إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة ، فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تنصبّ فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس . وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان . فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر فى القلب . وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وسبب قوة من المزاج ، حصل منها فى القلب أثر . وإن كف عن الإحساس ، فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شىء إلى شىء . وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة فى هذه الخواطر ـ وأعنى بالخواطر مايحصل فيه من الأفكار والأذكار ـ وأعنى به إدراكاته علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر . فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها .

والخواطر هى المحركات للإرادات . فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوىّ بالبال لامحالة . فمبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى مايدعو للشر ، أعنى إلى مايضر فى العاقبة . وإلى مايدعو إلى الخير ، أعنى إلى ماينفع فى الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعنى الداعى إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة . ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب . هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم

سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان. فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملَكاً . وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً . والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواءً وخذلاناً . فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف . وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك . وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف ، عند الهم بالخير ، بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام . والشيطان في القابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .

ثم قال الغزاليّ: ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به. لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى، وسوى مايتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالًا للشيطان. وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وذلك لايقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى . وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى[1](إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ).

ثم قال: فالوسوسة هي هذه الخواطر. والخواطر معلومة. فإذن، الوسواس معلوم بالمشاهدة. وكل خاطر فله سبب . ويفتقر إلى اسم يعرّفه. فاسم سببه الشيطان. ولا يتصور أن ينفك عنه آدميّ . وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته. فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .

وإلى هنا وقف القلم بالمؤلف رضي الله تعالى عنه . وبه تم كتاب (محاسن التأويل) والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

(١) [٧ / الأعراف / ٢٠١] .

فهارس التفسير

١ ــ فهرس محتويات أجزاء التفسير

٢ — فهرس سور القرآن الكريم

وموضع تفسير كل سورة

(تابع) ٢ ـ فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة

(تابع) ٢ ـ فهرس سور القرآن الكريم وموضع تفسير كل سورة

٣ — فهرس موضوعات القرآن ، حسب صحيح البخارى

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١ — كتاب الوحى	
	١ ـ باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ	
٥ /١٧٢٢	إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده	٤ /١٦٣
	٣ ـ حدثنا يحي بن بكير	
١٧/٦٢٠٦	اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم	٩٦/١ـ٣
١٦/٥٩٦٠	يا أيها المدثر * قم فأنذر	٧٤/١
	٤ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل	
١٦/٥٩٩١	لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه	٧٥/١٦
	٦ ـ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع	
٤ /٨٦١	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .	٣ /٦٤
	٢ — كتاب الإيمان	
	١ ـ باب الإيمان	
١٥/٥٣٩٩	ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم	٤٨/٤
١١/٤٠٢٧	وزدناهم هدى	١٨/١٣
١١/٤١٦٠	ويزيد الله الذين اهتدوا هدى	١٩/٧٦

٧ ـ كتاب التيمم

٨ ـ كتاب الصلاة

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	٣٨ ـ باب إذا نفر الناس عن الإمام فى صلاة الجمعة	
١٦/٥٨٠٢	وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما	٦٢/١١

١٢ ـ كتاب صلاة الخوف

	١ ـ باب صلاة الخوف	
٥/١٥٠١	وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا	٤/١٠١

١٣ ـ كتاب العيدين

	١١ ـ باب فضل العمل فى أيام التشريق	
١٢/٤٣٣٤	ويذكروا الله فى أيام معلومات	٢٢/٢٨
	١٩ ـ باب موعظة النساء يوم العيد	
١٦/٥٧٧٤	يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك	٦٠/١٢

١٥ ـ كتاب الاستسقاء

	٢ ـ باب دعاء النبيّ صلى ﷺ اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف	
١٤/٥٢٩٥	فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين	٤٤/١٠

١٦ ـ كتاب الكسوف

	٢٩ ـ باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا الله	
١٣/٤٨٠٨	وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت	٣١/٣٤

١٧ ـ كتاب سجود القرآن

	١١ ـ باب من قرأ السجدة فى الصلاة فسجد لها	
١٧/٦٢٠٦	إذا السماء انشقت	٨٤/١

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية

١٩ — كتاب التهجد

١ ـ باب التهجد بالليل

١٠/٣٩٦٨	ومن الليل فتهجد به نافلة لك	١٧/٧٩

١١ ـ باب قيام النبيّ ﷺ بالليل ونومه وما نسخ من قيام الليل

١٦/٥٩٥٨	يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا	٧٣/١

٢٣ — كتاب الجنائز

٥٧ ـ باب سنة الصلاة على الجنائز

٨ /٣٢٢٣	ولا تصلّ على أحد منهم	٩ /٨٤

٨٤ ـ باب ما يكره من الصلاة على المنافقين ، والاستغفار للمشركين

٨ /٣٢٢٣	ولا تصل على أحد منهم مات أبداً	٩ /٨٤

٨٧ ـ باب ما جاء في عذاب القبر

٦ /٢٤١٥	إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم	٦ /٩٣
٨ /٣٢٤٤	سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم	٩ /١٠١
١٤/٥١٧٠	وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا	٤٠/٤٥
١٠/٣٧٢٨	يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت	١٤/٢٧

٢٤ — كتاب الزكاة

٦ ـ باب الرياء في الصدقة

٣ / ٦٧٩	يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى	٢ /٢٦٤

٧ ـ باب لا يقبل الله صدقة من غلول

٣ / ٧١٠	ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم	٢ /٢٧٦

١٠ ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة

٣ / ٦٨٠	ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله	٢ /٢٦٥

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١١ ـ باب أى الصدقة أفضل	
٥٨١٥/١٦	وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت	١٠/٦٣
٣ /٦٥٦	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا ممارزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه	٢ /٢٥٤
	١٢ ـ باب صدقة العلانية	
٣ /٦٩٣	الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية	٢ /٢٧٤
	٢٧ ـ باب قول الله تعالى : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى	
٦١٧٥/١٧	فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى	٦/٩٢
	٢٩ ـ باب صدقة الكسب والتجارة	
٣ /٦٨٣	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم	٢ /٢٦٧
	٤٤ ـ باب الزكاة على الأقارب	
٤ /٨٨٩	لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون	٣ /٩٢

٢٥ ـ كتاب الحج

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١ ـ باب وجوب الحج وفضله	
٤ /٨٩٥	ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا	٣ /٩٧
	٤٢ ـ باب فضل مكة وبنيانها	
٢ /٢٤٦	وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا	٢ /١٢٥
	٤٣ ـ باب فضل الحرم	
٤٦٩٢/١٣	إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها	٩١/٢٧
٤٧١٥/١٣	أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء	٥٧/٢٨
	٤٤ ـ باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها	
٤٣٣٣/١٢	إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام	٢٥/٢٢
٨ /٣٠٤٤	إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم	٨ /٧٢

٢٦ ـ كتاب العمرة

٢٧ ـ كتاب المحصر وجزاء الصيد

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	٩ ـ باب قول الله تعالى: فلا رفث	
٣ / ٤٩٢	فلارفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج	٢ / ١٩٧

٢٨ ـ كتاب جزاء الصيد

	١ ـ باب جزاء الصيد ونحوه	
٦ / ٢١٥٥	لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم	٥ / ٩٥

٣٠ ـ كتاب الصوم

	١ ـ باب وجوب صوم رمضان	
٣ / ٤١٤	ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم	٢ / ١٨٣
	١٥ ـ باب قول الله جل ذكره : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم	
٣ / ٤٥٠	أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم	٢ / ١٨٧
	١٦ ـ باب قول الله تعالى : وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض	
٣ / ٤٥٠	وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود	٢ / ١٨٧
	٤٨ ـ باب الوصال ومن قال ليس فى الليل صيام	
٣ / ٤٥٠	ثم أتموا الصيام إلى الليل	٢ / ١٨٧

٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر

	١ ـ باب فضل ليلة القدر	
١٧ / ٦٢١٩	إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر	٩٧ / ١ و٢

٣٣ ـ كتاب الاعتكاف

	١ ـ باب الاعتكاف فى العشر الأواخر	
٣ / ٤٥٠	ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد	٢ / ١٨٧

رقم الجزء والصفحة   رقم السورة والآية

٣٤ ـ كتاب البيوع

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية

٤٦ ــ كتاب المظالم

١٠/٣٧٣٦	ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار	١٤/٤٢
١٠/٣٧٣٧	وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب	١٤/٤٤

٢ ـ باب

٩ /٣٤٢٤	ألا لعنة الله على الظالمين	١١/١٨

٦ ـ باب الانتصار من الظالم

٥ /١٦٢٦	لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم	٤ /١٤٨
١٤/٥٢٤٩	والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون	٤٢/٣٩

٧ ـ باب عفو المظلوم

٥ /١٦٣٠	إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوّا قديرا	٤ /١٤٩
١٤/٥٢٥٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين	٤٢/٤٠
١٤/٥٢٥٢	وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل	٤٢/٤٤

١٥ ـ باب

٣ /٥٠٨	وهو ألدّ الخصام	٢ /٢٠٤

٤٨ ــ كتاب الرهن

٣ /٧٢٣	وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة	٢ /٢٨٣

٤٩ ــ كتاب العتق

١٧/٦١٦٢	فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيما ذا مقربة	٩٠/١٣ ـ ١٥

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١٣ ـ باب من ملك من العرب رقيقا	
١٠/٣٨٣٤	ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء	١٦/٧٥
	١٥ ـ باب قول النبي ﷺ : العبيد إخوانكم	
٥/١٢٢٦	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا . . وما ملكت أيمانكم	٤/٣٦
	١٧ ـ باب كراهة التطاول على الرقيق	
١٢/٤٥١٦	والصالحين من عبادكم وإمائكم	٢٤/٣٢
١٠/٣٨٣٤	عبدا مملوكا	١٦/٧٥
٩/٣٥٣١	وألفيا سيدها لدى الباب	١٢/٢٥
٥/١١٩٤	من فتياتكم المؤمنات	٤/٢٥

٥٠ — كتاب المكاتب

	١ ـ باب المكاتب ونجومه فى كل سنة	
١٢/٤٥١٩	والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم	٢٤/٣٣

٥١ — كتاب الهبة

	١٥ ـ باب هبة المرأة لغير زوجها	
٥/١١٢٤	ولا تؤتوا السفهاء أموالكم	٤/٥
	٢٩ ـ باب الهدية للمشركين	
١٦/٥٧٦٨	لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم	٦٠/٨
	٣٢ ـ باب ما قيل فى العمرى	
٩/٣٤٦١	استعمركم فيها	١١/٦١

رقم الجزء والصفحة | رقم السورة والآية

٤٥ - باب من احتبس فرسا

٨ /٣٠٣٢ ومن رباط الخيل ٨ /٦٠

٤٨ - باب الخيل لثلاثة

١٠/٣٧٨٠ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ١٦/٨

٧٣ - باب فضل رباط يوم فى سبيل الله

٣ /١٠٨٠ يا أيها الذين آمنوا اصبروا ٣ /٢٠٠

٧٨ - باب التحريض على الرمى

٨ /٣٠٢٤ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ٨ /٦٠

١٠٢ - باب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام

٤ /٨٧٣ ما كان لبشر أن يؤتيه الله ٣ /٧٩

١١٠ - باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا

١٥/٥٤١٦ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ٤٨/١٨

١١٢ - باب استئذان الرجل الإمام

١٢/٤٥٥٦ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع ٢٤/٦٢

١٢٣ - باب حمل الزاد فى الغزو

٣ /٤٩٢ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ٢ /١٩٧

١٤١ - باب الجاسوس

١٦/٥٧٥٨ لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء ٦٠/١

١٨٩ - باب الغلول

٤ /١٠٢٤ ومن يغلل يأت بما غلّ ٣ /١٦١

٥٧ - كتاب فرض الخمس

٤ - باب ما جاء فى بيوت أزواج النبى ﷺ

١٢/٤٨٤٨ وقرن فى بيوتكنّ ٣٣/٣٣

٥٨ ــ كتاب الجزية والموادعة

٥٩ ــ كتاب بدء الخلق

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	٢ ـ باب ماجاء فى سبع أرضين	
١٦/٥٨٤٧	الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن	٦٥/١٢
	٣ ـ باب فى النجوم	
١٦/٥٨٨٠	ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح	٦٧/٥
	٥ ـ باب	
٧/٢٧٥٧	وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته	٧/٥٧
١٠/٣٩٥٠	فيرسل عليكم قاصفا من الريح	١٧/٦٩
١٠/٣٧٥٣	وأرسلنا الرياح لواقح	١٥/٢٢
٣/٦٨٢	فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت	٢/٢٦٦
٤/٩٤٥	كمثل ريح فيها صِرٌّ	٣/١١٧
	٦ ـ باب ذكر الملائكة	
١٤/٥٠٦٩	لنحن الصافّون	٣٧/١٦٥
	٨ ـ ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة	
٢/٨١	أزواج مطهرة	٢/٢٥
٣/٨٠٦	»	٣/١٥
٤/١٣٢٩	»	٤/٥٧
٢/٨١	كلما رزقوا منها	٢/٢٥
١٦/٥٩١٥	قطوفها دانية	٦٩/٢٣
١٧/٦٠١٣	وذللت قطوفها تذليلا	٧٦/١٤
١١/٤٠٥٦	متكئين فيها على الأرائك	١٨/٣١
١٤/٥٠١٢	على الأرائك متكئون	٣٦/٥٦
١٧/٦١٠٠	على الأرائك ينظرون	٨٣/٢٣
١٧/٦١٠٣	»	٨٣/٣٥

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١١ ـ باب صفة إبليس وجنوده	
١٤/٥٠٢٧	ويُقذفون من كل جانب	٣٧/٨
١٤/٥٠٢٨	دحورا ولهم عذاب واصب	٣٧/٩
٥/١٥٦٤	وإن يدعون إلا شيطانا مريدا	٤/١١٧
٥/١٥٦٧	فليبتـكنّ آذان الأنعام	٤/١١٩
١٠/٣٩٤٧	واستفزز من استطعت منهم بصوتك	١٧/٦٤
١٠/٣٩٤٦	لأحتنكنّ ذريته إلا قليلا	١٧/٦٢
١٤/٥٠٣٨	إنى كان لى قرين	٣٧/٥١
١٤/٥٢٧٢	فهو له قرين	٤٣/٣٦
	١٢ ـ باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم	
٦/٢٥٠٦	يا معشر الجن والإنس ألم يأتـكم رسل منكم	٦/١٣٠
١٤/٥٠٦٦	وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا	٣٧/١٥٨
	ولقد علمت الجن إنهم لمحضرون	٣٧/١٥٨
	١٣ ـ باب	
١٥/٥٣٥٧	وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن	٤٦/٢٩
	١٤ ـ باب	
٣/٣٥٥	وبث فيها من كل دابة	٢/١٦٤
١٣/٤٧٩٤	« « «	٣١/١٠

٦٠ ــ كتاب الأنبياء

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته	
١٠/٣٧٥٤	ولقد خلقنا الإنسان من صلصال	١٥/٢٦
١٠/٣٧٥٥	إنى خالق بشراً من صلصال	١٥/٢٨
١٠/٣٧٥٥	لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال	١٥/٣٣
١٥/٥٦١٧	خلق الإنسان من صلصال	٥٥/١٤

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	٢٣ ـ باب	
١٤/٥١٦٣	وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه	٤٠/٢٨
	٢٤ ـ باب	
١١/٤١٧١	وهل أتاك حديث موسى	٢٠/٩
٥ /١٧٢٣	وكلم الله موسى تكليما	٤ /١٦٤
	٢٥ ـ باب	
٧ /٢٨٤٩	وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر	٧ /١٤٢
	٢٩ ـ باب	
٧ /٢٨٤٦	يعكفون على أصنام لهم	٧ /١٣٨
٧ /٢٨٤٦	إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه	٧ /١٣٩
١٠/٣٩٠٣	وليتبّروا ما علوا تتبيرا	١٧/٧
	٣٠ ـ باب	
٢ /١٥٢	وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة	٢ /٦٧
	٣٢ ـ باب	
١٦/٥٨٦٩	وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون	٦٦/١١
	٣٣ ـ باب	
١٣/٤٧٢٥	إن قارون كان من قوم موسى	٢٨/٧٦
	٣٤ ـ باب	
٧ /٢٨١٠	وإلى مدين أخاهم شعيبا	٧ /٨٥
	٣٥ ـ باب	
١٤/٥٠٦١	وإن يونس لمن المرسلين	٣٧/١٣٩
	٣٦ ـ باب	
٧ /٢٨٨٧	واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر	٧/١٦٣

٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١٩ ـ باب من لم يتغن بالقرآن ، وقوله تعالى :	
٤٧٥٨/١٣	أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم	٥١/٢٩
	٢٦ ـ باب نسيان القرآن ، وقول الله تعالى :	
٦١٣٠/١٧	سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله	٦/٨٧
	٢٨ ـ باب الترتيل فى القراءة ، وقوله تعالى :	
٥٩٥٨/١٦	ورتل القرآن ترتيلا	٤/٧٣
	٣٤ ـ باب فى كم يقرأ القرآن ، وقول الله تعالى .	
٥٩٦٣/١٦	فاقرءوا ما تيسر منه	٢٠/٧٣

٦٧ ـ كتاب النكاح

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	١ ـ باب الترغيب فى النكاح ، لقوله تعالى :	
٥ /١١٠٤	فانكحوا ما طاب لكم من النساء	٤ /٣
	١٤ ـ باب تزويج المعسر ، لقوله تعالى :	
٤٥١٦/١٢	إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله	٣٢/٢٤
	١٥ ـ باب الأكفاء فى الدين . وقوله :	
٤٥٨٤/١٢	وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباوصهرا	٥٤/٢٥
	باب ما يتقى من شؤم المرأة ، وقوله تعالى :	
٥٨٢٤/١٦	إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم	١٤/٦٤
	١٩ ـ باب لا يتزوج أكثر من أربع ، لقوله تعالى :	
٥ /١١٠٤	مثنى وثلاث ورباع	٤ /٣
	٢٠ ـ باب	
٥ /١١٧٣	وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم	٤ /٢٣
	٢١ ـ باب من قال لارضاع بعد حولين ، لقوله تعالى :	
٣ /٦٠٩	حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة	٢ /٢٣٣

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	٢٤ ـ باب ما يحل من النساء وما يحرم ، وقوله تعالى :	
٥ /١١٧٣	حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم	٤ /٢٣
	٢٥ ـ باب	
٥ /١١٧٣	وربائبكم اللاتى فى حجوركم	٤ /٢٣
	٢٦ ـ باب	
٥ /١١٧٣	وأن تجمعوا بين الأختين إلى ما قد سلف	٤ /٢٣
	٣٤ ـ باب	
٣ /٦١٥	ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء	٢ /٢٣٥
	٣٥ ـ باب من قال لا نكاح إلا بولىّ ، لقول الله تعالى :	
٣ /٦٠٨	فلا تعضلوهنّ	٢/٢٣٢
٥ /١١٥٦	ولا تعضلوهن	٤ /١٩
	٣٨ ـ باب إنكاح الرجل أولاده الصغار ، لقوله تعالى:	
١٦/٥٨٣٩	واللائى لم يحضن	٦٥/٤
	٤٣ ـ باب تزويج اليتيمة لقوله تعالى:	
٥ /١١٠٤	وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا	٤ /٣
	٤٩ ـ باب	
٥ /١١٢٢	وآتوا النساء صدقاتهن نحلة	٤ /٤
	٨١ ـ باب	
١٦/٥٨٦٦	قوا أنفسكم وأهليكم نارا	٦٦/٦
	٩١ ـ باب	
٥ /١٢١٢	الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض	٤ /٣٤
	٩٥ ـ باب	
٥ /١٥٩٣	وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً	٤ /١٢٨

٦٨ ـ كتاب الطلاق

رقم الجزء والصفحة — رقم السورة والآية

٧٣ – كتاب الذبائح والصيد

٧٤ – كتاب الأشربة

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية

٧٥ — كتاب المرضى

باب ما جاء فى كفارة المرض

٥ /١٥٧٣	من يعمل سوءًا يجز به	٤ /١٢٣

باب

١١/٤٢٩٧	أنى مسنى الضرّ وأنت أرحم الراحمين	٢١/٨٣

٧٦ — كتاب الطب

باب الدواء بالعسل

١٠/٣٨٢٦	فيه شفاء للناس	١٦/٦٩

باب السحر

٢ /٢٠٧	ولـكن الشياطين كفروا	٢ /١٠٢

٧٧ — كتاب اللباس

٧ /٢٦٧٠	قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده	٧ /٣٢

باب لبس القميص

٩ /٣٥٩٠	اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى	١٢/٩٣

٧٨ — كتاب الأدب

١٣/٤٧٣٨	ووصينا الإنسان بوالديه	٢٩/٨
١٣/٤٧٩٧	» » »	٣١/٤
١٥/٥٣٤٧	» » »	٤٦/١٥

باب الوصاة بالجار

٥ /١٢٢٦	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا	٤ /٣٩

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	باب	
١٤١٩/ ٥	من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها	٨٥/ ٤
	باب	
٥٤٥٧/١٥	يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم	١١/٤٩
	باب	
٥٤٦٢/١٥	ولا يغتب بعضكم بعضا	١٢/٤٩
	باب ما يكره من النميمة	
٥٨٩٤/١٦	هماز مشاء بنميم	١١/ ٦٨
٦٢٥٤/١٧	ويل لكل همزة لمزة	١/١٠٤
	باب	
٤٣٣٧/١٢	واجتنبوا قول الزور	٣٠/ ٢٢
	باب	
٣٨٥٠/١٠	إن الله يأمر بالعدل والإحسان	٩٠/ ١٦
	باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر	
٦٣٠٥/١٧	ومن شر حاسد إذا حسد	٥/١١٣
	باب	
٥٤٦٢/١٥	يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن	١٢/ ٤٩
	باب	
٣٢٨٨/ ٨	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين	١١٩/ ٩
	باب الصبر على الأذى	
٥١٣٢/١٤	إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب	١٠/ ٣٩
	باب الحذر من الغضب	
٥٢٤٨/١٤	وإذا ما غضبوا هم يغفرون	٣٧/ ٤٢

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	باب إكرام الضيف	
٥٥٣٠/١٥	ضيف إبراهيم المكرمين	٥١ /٢٤
	باب ما يجوز من الشعر والرجز	
٤٦٤٩/١٣	والشعراء يتبعهم الغاوون	٢٦ /٢٢٤
	باب علامة حب الله عز وجل	
٤ /٨٢٨	إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله	٣ /٣١
	باب رفع البصر إلى السماء	
٦١٣٩/١٧	أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت	٨٨ /١٧
	٧٩ ــ كتاب الاستئذان	
٤٨٩١/١٣	يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم	٣٣ /٥٣
	باب السلام اسم من أسماء الله تعالى	
٥ /١٤٢٣	وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها	٤ /٨٦
	باب آية الحجاب	
٤٨٩١/١٣	يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ	٣٣ /٥٣
	باب	
٥٧١٨/١٦	إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس	٥٨ /١١
	باب لا يتناجى اثنان	
٥٧١٦/١٦	يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم	٥٨ /٩
	باب طول النجوى	
٣٩٣٧/١٠	وإذ هم نجوى	١٧ /٤٧
	باب كل لهو باطل	
٤٧٩٣/١٣	ومن الناس من يشترى لهو الحديث	٣١ /٦

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	٨٢ ـ كتاب القدر	
	باب جف القلم على علم الله	
١٤/٥٣٢٤	وأضله الله على علم	٤٥/٢٣
	باب	
١٣/٤٨٦٤	وكان أمر الله قدرا مقدورا	٣٣/٣٨
	باب	
١١/٤٣٠٩	وحرام على قرية أهلكناها	٢١/٩٥
	باب	
١٠/٣٩٤٣	وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس	١٧/٦٠
	باب	
١٧/٦٣٠٥	قل أعوذ برب الفلق	١١٣/١
	باب	
٨ /٣١٧٣	قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا	٩ /٥١
	باب	
٧ /٢٦٨٩	وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله	٧ /٤٣
	٨٣ ـ كتاب الأيمان والنذور	
	باب	
٣ /٥٧٧	لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم	٢ /٢٢٥
٦ /٢١٣٤	» »	٥ /٨٩
	باب	
٦ /٢٤٦٥	وأقسموا بالله جهد أيمانهم	٦ /١٠٩
١٠/٣٨٠٩	» » » »	١٦/٣٨
١٢/٤٥٤٣	» » » »	٢٤/٥٣
١٤/٤٩٨٨	» » » »	٣٥/٤٢

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	باب	
٣/٥٧٧	لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم	٢/٢٥٥
٦/٢١٣٤	» » » »	٥/٨٩
	باب	
١٣/٤٨٢٢	وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به	٣٣/٥
	باب اليمين الغموس	
١٠/٣٨٥٤	ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم	١٦/٩٤
	باب	
٤/٨٦٩	إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم	٣/٧٧
٣/٥٧٤	ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	٢/٢٢٤
١٠/٣٨٥٥	ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا	١٦/٩٥
	باب إذا حرّم طعامه	
١٦/٥٨٥٢	يا أيها النبىّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك	٦٦/١
	باب الوفاء بالنذر	
١٧/٦٠١١	يوفون بالنذر	٧٦/٧
	باب النذر فى الطاعة	
٣/٦٨٥	وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر	٢/٢٧٠

٨٤ ـ كتاب كفارات الأيمان

٦/٢١٣٤	فكفارته إطعام عشرة مساكين	٥/٨٩
	باب	
١٦/٥٨٥٦	قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم	٦٦/٢
	باب	
٦/٢١٣٤	أو تحرير رقبة	٥/٨٩

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	باب	
٣ /٣٩٥	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص	٢ /١٧٨
	باب	
٦ /٢٠٠٢	أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف	٥ /٤٥
	باب	
٥ /١٤٤٢	وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا	٤ /٩٢

٨٨ — كتاب استتابة المرتدين

١٣/٤٧٩٧	إن الشرك لظلم عظيم	٣١/١٣
١٤/٥١٤٨	لئن أشركت ليحبطن عملك	٣٩/٦٥
	باب حكم المرتد	
٤ /٨٨٠	كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم	٣/٨٦
	باب قتل الخوارج	
٨ /٣٢٨٣	وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم	٩ /١١٥

٨٩ — كتاب الإكراه

١٠/٣٨٦٢	إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان	١٦/١٠٦
١٠/٣٨٦٢	ولكن من شرح بالكفر صدرا	١٦/١٠٦
٤ /٨٢٢	إلا أن تتقوا منهم تقاة	٣ /٢٨
٥ /١٤٨٦	إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم	٤ /٩٧

٩١ — كتاب التعبير

	باب رؤيا الصالحين	
١٥/٥٤٢٦	لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق	٤٨/٢٧

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	باب رؤيا يوسف	
٣٥٠٣/ ٩	إذ قال يوسف لأبيه ياأبت	٤/١٢
	باب رؤيا أهل السجون	
٣٥٣٨/ ٩	ودخل معهالسجنَ فتيان	٣٦/١٢
	٩٢ ــ كتاب الفتن	
٢٩٧٦/ ٨	واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	٢٥/ ٨
	٩٣ ـ كتاب الأحكام	
٢١٤٥/ ٦	أطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٩٢/ ٥
	باب أجر من قضى بالحكمة	
٢٠١٤/ ٦	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون	٤٧/ ٥
	باب من نكث بيعه	
٥٤٠١/١٥	إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله	١٠/٤٨
	٩٤ ــ كتاب التمنى	
	باب مايكره من التمنى	
١٢٠٩/ ٥	ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض	٣٢/ ٤
	باب مايجوز من اللَّوْ	
٣٤٧٢/ ٩	لو أن لى بكم قوة	٨٠/١١
	٩٥ ــ كتاب أخبار الآحاد	
٣٢٩٨/ ٨	فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة	١٢٢/ ٩
	باب	
٤٨٩١/١٣	لا تدخلوا بيوت النبى إلّا أن يؤذن لكم	٥٣/٣٣

٩٦ ـ كتاب الاعتصام بالسنة

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
١٣/٤٧٥٢	ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن	٢٩/٤٦
	باب	
٢ /٢٨١	وكذلك جعلناكم أمة وسطا	٢ /١٤٣
	باب الأحكام التى تعرف بالدلائل	
١٧/٦٢٣٣	فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره	٩٩/١١٧
	باب	
١٤/٥٢٤٨	وأمرهم شورى بينهم	٤٢/٣٨
٤ /١٠٢٠	وشاورهم فى الأمر	٣ /١٥٩
٤ /١٠٢٠	فإذا عزمت فتوكل على الله	٣ /١٥٩

٩٧ — كتاب التوحيد

	باب	
١٠/٤٠١١	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن	١٧/١١٠
	باب	
١٥/٥٥٣٨	إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين	٥١/٥٨
	باب	
١٦/٥٩٥٣	عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا	٧٢/٢٦
١٣/٤٨٠٨	إن الله عنده علم الساعة	٣١/٣٤
٥ /١٧٦٠	أنزله بعلمه	٤ /١٦٦
١٤/٥٢١٤	وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه	٤١/٤٧
١٤/٥٢١٤	إليه يرد علم الساعة	٤١/٤٧
	باب	
١٦/٥٧٥٣	السلام المؤمن	٥٩/٢٣

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
١٥/٥٥٩٨	تجرى بأعيننا	٥٤/١٤
	باب	
١٦/٥٧٥٣	هو الله الخالق البارئ المصور	٥٩/٢٤
	باب	
١٤/٥١٢٢	لما خلقت بيدىّ	٣٨/٧٥
	باب	
٦ /٢٢٦٣	قل أى شىء أكبر شهادة	٦ /١٩
	باب	
٩ /٣٤١١	وكان عرشه على الماء	١١/٧
	باب	
١٦/٥٩٢٥	تعرج الملائكة والروح إليه	٧٠/٤
١٤/٤٩٧٥	إليه يصعد الكلم الطيب	٣٥/١٠
	باب	
١٦/٥٩٩٥	وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة	٧٥/٢٢
	باب	
٧ /٢٧٥٥	إن رحمة الله قريب من المحسنين	٧ /٥٦
	باب	
١٤/٤٩٨٨	إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا	٣٥/٤١
	باب	
١٤/٥٠٧٠	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين	٣٧/١٧١
	باب	
١٠/٣٨٤٠	إنما قولنا لشىء	١٦/٤٠
	باب	
١١/٤١٣٠	لو كان البحر مدادا	١٨/١٠٩

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
	باب	
١٣/٤٧١٥	إنك لاتهدى من أحببت	٢٨/٥٦
	باب	
١٤/٤٩٥١	ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له	٣٤/٢٣
٣/٦٥٨	من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه	٢/٢٥٥
	باب	
١٣/٤٦٥٧	وإنك لتلقى القرآن	٢٧/٦
	باب	
٥/١٧٦٠	أنزله بعلمه والملائكة يشهدون	٤/١٦٦
	باب	
١٥/٥٤١٢	يريدون أن يبدلوا كلام الله	٤٨/١٥
١٦/٦١٢٥	إنه لقول فصل * وما هو بالهزل	٨٦/١٣و١٤
	باب	
٥/١٧٢٣	وكلم الله موسى تكليما	٤/١٦٤
	باب	
٢/٣١٠	فاذكرونى أذكركم	٢/١٥٢
٩/٣٣٨٠	واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه	١٠/٧١
	باب	
٢/٦٨	فلا تجعلوا لله أندادا	٢/٢٢
١٤/٥١٨٨	وتجعلون له أندادا	٤١/٩
١٢/٤٥٩٠	والذين لا يدعون مع الله إلها آخر	٢٥/٦٨
١٤/٥١٤٨	ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك	٣٩/٦٥
٩/٣٦٠٤	وما يؤمن أكثر بالله إلا وهم مشركون	١٢/١٠٦

رقم الجزء والصفحة		رقم السورة والآية
١٦/٥٩٥٦	ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم	٧٢/٢٨
٧ /٢٧٦٣	أبلغكم رسالات ربى	٧ /٦٢
	باب	
٤ /٨٩١	قل فأتوا بالتوراة فاتلوها	٣ /٩٣
	باب	
١٦/٥٩٢٨	إن الإنسان خلق هلوعا	٧٠/١٩
	باب	
١٦/٥٩٦٣	فاقرءوا ما تيسر من القرآن	٥٤/١٧
	باب	
١٥/٥٥٩٩	ولقد يسرنا القرآن للذكر	٥٤/١٧
١٥/٥٦٠٠	» » » »	٥٤/٢٢
١٥/٥٦٠١	» » » »	٥٤/٣٢
١٥/٥٦٠٢	» » » »	٥٤/٤٠
	باب	
١٧/٦١١٨	بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ	٨٥/٢٢و٢٣
١٥/٥٥٤١	والطور * وكتاب مسطور	٥٢/١و٢
	باب	
١٤/٥٠٤٨	والله خلقكم وما تعملون	٣٧/٩٦
١٥/٥٦٠٦	إنا كل شىء خلقناه بقدر	٥٤/٤٩
٧ /٢٦٩٩	إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض	٧ /٥٤
	باب	
١١/٤٢٧٧	ونضع الموازين بالقسط	٢١/٤٧

تم فهرس الموضوعات

فهرس هذا الفهرس

٤ — فهرس أسماء المؤلفين

باب الهمزة

باب الباء

باب السين

باب الشين

باب الصاد

باب الطاء

باب العين

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

٥ — فهرس أسماء الكتب التي تناولها التفسير